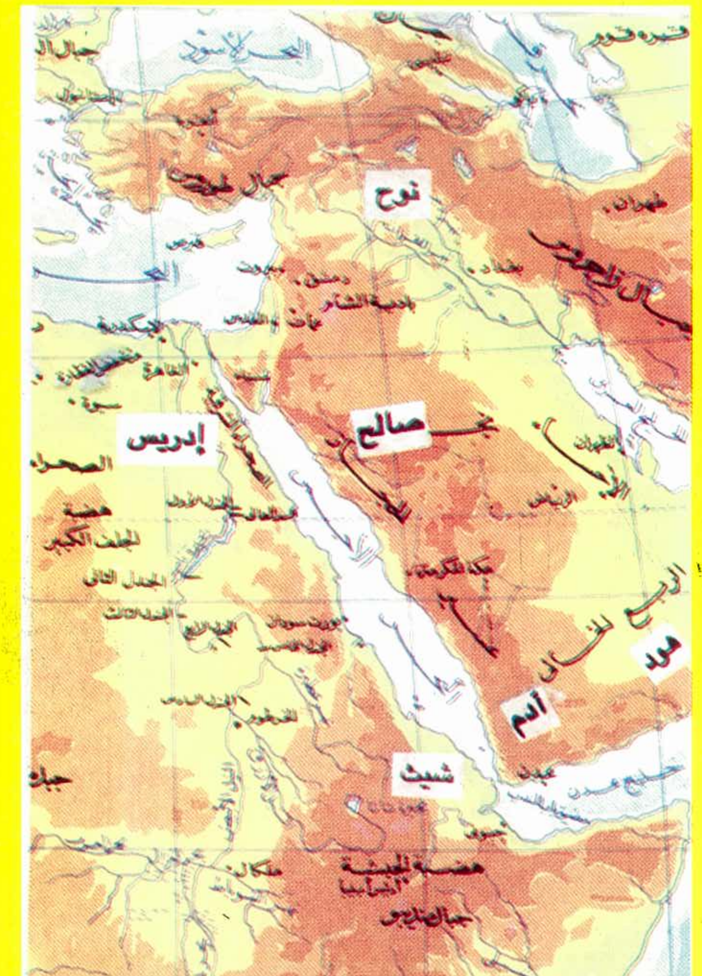
آدم . شيث . إدريس
نوح . هود . صالح عليهم السلام





الجزء الأول

تأليف دكتور
رشدى البدراوى
الاستاذ بجامعة القاهرة

قدمه فضيلة الشيخ / محمد الغزالى

قصص الأنبياء والتاريخ
الجزء الأول

آدم . شيث . إدريس

نوح . هود . صالح عليهم السلام

قصص الأنبياء والتاريخ

الجزء الأول

تأليف دكتور

رشدي البدراوي

الأستاذ بجامعة القاهرة

قصص الأنبياء والتاريخ - الجزء الأول .

د. رشدى البداروى

الطبعة الأولى : يوليو ١٩٩٦
الطبعة الثانية : أبريل ٢٠٠٤
الطبعة الثالثة : أكتوبر ٢٠٠٩

رقم الإيداع : ١٩٩٦/٨٤٦١
الترقيم الدولى : .I.S.B.N
977 - 17 - 0376 - 5

قدمه فضيلة الشيخ / محمد الغزالى

طبع بمطابع المجلد العربى
ت : ٢٥٩١٢٥٢٤ فاكس : ٢٥٨٩٢٢٣١

محتويات الكتــاب

رقم الصفحة

فهرس الأشكال والخرائط

رقم الصفحة

مقدمة الطبعة الثانية

صدر الجزء الأول من هذه السلسلة «قصص الأنبياء والتاريخ» فى يوليو ١٩٩٦. وكان الترحيب الذى قوبل به خير حافز على استكمال باقى الأجزاء وكان آخرها الجزء السابع وهو يختص بخاتم الأنبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام والذى صدر فى يناير ٢٠٠٤. وكان الجزء الأول قد نفد . وهذه هى الطبعة الثانية منه وسيعاد – بإذن الله – طبع ما ينفد من أجزاء هذه السلسلة. والله الموفق،،

أبريل ٢٠٠٤ المؤلف

تقديم للكتاب
بقلم فضيلة الشيخ محمد الغزالى
رحمه الله

قصص الأنبياء من الدراسات المهمة فى علوم القرآن، ولعله أوسعها رقعة وأكثرها أهدافا، إذ أنه يخدم العقيدة والشريعة ويدعم الأخلاق والمثل الرفيعة.

تدبر قوله تعالى على لسان الصديق «ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار».

إن الكلام برهان على الإيمان بالله الواحد، فهو يدخل فى باب العقيدة قبل أن يكون جزءاً من قصة مرويّة.

وتدبر رد يوسف على إخوته عندما جاءوا يستنجدون به على ما أصابهم من قحط «قال أنا يوسف وهذا أخى، قد منّ الله علينا، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين».

فى هذا الرد قانون عام عن نتائج الصراع بين الخير والشر، وعن سنن الله الكونية فى المجتمع الإنسانى، وما أفقرنا إلى دراسة هذه السُّنن، فإن الأمم كالأجسام الطافية تعلو بميزان وترسب بميزان، وليس النصر والهزيمة فوضى..!

ومجال البحث فى قصص الأنبياء من القرآن رحب، ولكنه - فى نظرى - محرَّم على الخرافيين والخياليين، وقد قرأت لبعض المؤرخين وبعض المفسرين مَرْويات ونتائج - وهم يتحدثون فى قصص القرآن - فكرهت صنيعهم كما عافه أيضا الراسخون فى العلم، وتعقبوه بالتمحيص والتصويب، من هؤلاء «ابن إياس» فى كتابه بدائع الزهور، والخازن فى تفسيره المشهور، وآخرون يحتاجون إلى المنطق العلمى حين يكتبون.

من أجل ذلك سرنى أن يؤلف فى قصص الأنبياء طبيب حاذق واع هو الدكتور رشدى البدراوى الذى تفرغ لموضوعه وأحاط بأطرافه، وكتب متقيدا بأصول البحث العلمى والسرد التاريخى الدقيق. فجاء كتابه هذا كما يهوى العلماء المحققون صادق السرد سهل العبارة محكوما بالدليل القوى والاستنباط الواضح، وامتاز بمصورات جغرافية تحدد مسار الأجيال المختلفة، ورسوم لشجرات الأنساب التى تحدد الأسلاف والأخلاف .

ولا أذكر أنى رأيت هذا فى مؤلف سابق مع الحاجة إليه.. وأقترح أن يصدر أطلس يحدد الأمكنة والبلاد التى تحدث عنها القرآن الكريم، مع معلومات تعتمد على اليقين أو الراجح فى

ذكر الأحداث والأشخاص، وأنا مع جمهور المفسرين فى أن القرآن لا يفسر بالنظريات العلمية وإنما يُشرح بالحقائق المستقرة.

ويؤسفنى أن رسالة صدرت فى الآونة الماضية تزعم أن القرآن يهتم بتقرير العبرة واستخلاص العظات وحسب! وأنه قد يستخدم فى سبيل ذلك عبارات قائمة على الخيال والمجاز مقطوعة عن الواقع التاريخى والصدق العقلى!!

وهذا الكلام كذب على الإسلام وكتابه، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد حكم القرآن على قيمته عندما قال فى آخر سورة يوسف «لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون».

والدكتور رشدى جدير بالثقة فيما يذكر من آراء، وأسوق هذا المثل لأوضح ما أعنى.

فى سورة «المؤمنون» سرد لقصة نوح وكيف أهلك الله قومه لما طال كفرهم وعنادهم، ثم قال الله تعالى بعد أن قضى على المكذبين بالطوفان **«ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن أعبدوا الله مالكم من إله غيره..».**

مَنْ القرن الناشئ ؟ ومَنْ رسولهم؟

كنت أفهم من السياق أن المقصود «عاد» ونبيهم هود! لأن الله سبحانه يقول فى سورة الأعراف – والكلام مُوجَّه لعاد قوم هود – «اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح، وزادكم فى الخلق بسطة».

ولكنى رأيت الدكتور المؤلف يقول: إن القرن الناشئ هم ثمود!

فعدت إلى التفاسير فوجدت الرأيين مذكورين معا مع ترجيح أن الجيل الناشئ هو عاد!

فعدت إلى المؤلف أتعرف دليله على ما قال فوجدته يثبت أن ثمود أُهلكت بالصيحة فى سور القرآن الأخرى وأنه جل شأنه يذكر عاقبة هذا القرن المتمرد فى سورة المؤمنين فيقول «فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين»!!

فقلت رأى الدكتور أرجح!!. جزاه الله خيرا عما بذل وحقق، وأعانه على إتمام كتابه هذا بروح من عنده.

محمد الغزالى

محمـــــد الغزالي

قصص الانبياء — مقدمة

القصص القرآني من الدراسات المهمة في علوم القرآن، ولعله أوسعها رقعة وأكثرها أهدافا، إذ أنه يخدم العقيدة والشريعة ويدعم الأخلاق والمثل الرفيعة...

تدبر قوله تعالى على لسان يوسف الصديق «يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار» إن الكلام برهان على الإيمان بالله الواحد، فهو يدخل في باب العقيدة قبل أن يكون جزءا من قصة مرويّة. وتدبر ردّ يوسف على إخوته عندما جاءوا يستجدونه بعد ما أصابهم من قحط قال «أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» في هذا الرد قانون عام عن نتائج الصراع بين الخير والشر، وعن سنن الله الكونية في المجتمع الإنساني، وما أفقرنا إلى دراسة هذه السنن، فإن الأمم كالأجسام الطافية تعلو بميزان وترسب بميزان، وليس النصر والهزيمة فوضى...!

ومجال البحث في القصص القرآني رحب، ولكنه — في نظري — يحرّم على الخرافيين والخياليين، وقد قرأت لبعض المؤرخين وبعض المفسرين مرويات ونتائج وهم يتحدثون في قصص القرآن فكرهت صنيعهم لما عرفه أيضا الراسخون في العلم، وتعقبوه بالتمحيص والتصويب، من هؤلاء ابن إياس في كتابه بدائع الزهور والخازن في تفسيره المشهور، وآخرون يحتاجون إلى المنطق العلمي حين يكتبون.

من أجل ذلك سرّني أن يؤلف في قصص القرآن طبيب حاذق وواع هو الدكتور رشدي البدراوي الذي تفرغ لموضوعه وأحاط بأطرافه وكتب متقيدا بأصول البحث العلمي والسرد التاريخي الدقيق. فجاء كتابه هذا كما يهوى العلماء المحققون صادق السرد سهل العبارة محكوما بالدليل القوي والاستنباط الواضح، وامتاز بمصورات جغرافية تحدد مسار الأجيال المختلفة، ورسوم لشجرات الأنساب التي تحدد الأسلاف والأخلاف.. ولا أذكر أني رأيت هذا في مؤلف سابق مع الحاجة إليه

محمـــــد الغزالي

وأقترح أن يصدر أطلس يحدد الأمكنة والبلاد التي تحدث عنها القرآن الكريم مع معلومات تعتمد على اليقين أو الراجح في ذكر الأحداث والأشخاص، وأنا مع جمهور المفسرين في أن القرآن لا يفسر بالنظريات العلمية وإنما يفسر بالحقائق المستقرة.. ويؤسفني أن رسالة صدرت في الآونة الماضية تزعم أن القرآن يهتم بتقرير العبرة واستخلاص العظات وحسب، وأنه قد يستخدم في سبيل ذلك عبارات قائمة على الخيال والمجاز مقطوعة عن الواقع التاريخي والصدق العقلي!!

وهذا الكلام كذب على الإسلام وكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد حكم القرآن على قيمته عندما قال في آخر سورة يوسف «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون». والدكتور شوقي جدير بالثقة فيما يذكر من آراء، وأسوق هذا المثل لأوضح ما أعني: في سورة «المؤمنون» سرد لقصة نوح وكيف أهلك الله قومه لما طال كفرهم وعنادهم، ثم قال الله تعالى بعد أن قضى على المكذبين بالطوفان «ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...» من القرن الناشئ ومن رسولهم؟ لست أشك من السياق أن المقصود عاد ونبيهم هود؛ لأن الله سبحانه يقول في سورة الأعراف — والكلام موجه لعاد قوم هود — «اذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة» ولكنني رأيت الدكتور المؤلف يقول: إن القرن الناشئ هم ثمود! فعدت إلى التفاسير فوجدت الرأيين مذكورين معا مع ترجيح أن الجيل الناشئ هو عاد، فعدت إلى المؤلف أتعرف دليله على ما قال فوجدته يثبت أن ثمود أهلكت بالصيحة في سور القرآن الأخرى وأنه جل شأنه يذكر عاقبة هذا القرن المتمرد في سورة المؤمنون فيقول «فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين»!! فقلت: رأي الدكتور أرجح!!

جزاه الله خيرا عما بذل وحقق، وأعانه على إتمام كتابه هذا بروح من عنده.

محمد الغزالي

إهــداء

إلى روح الداعية الإسلامى الكبير فضيلة

الشيخ محمد الغزالى

فلولا تشجيع فضيلته لما تيسر لى أن أمضى
قدماً فى تأليف هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمـــة المؤلـــف

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله. والصلاة والسلام على رسول الله محمد (ﷺ) .

خطرت لى فكرة هذا الكتاب حينما كنت أتلو القرآن الكريم وأقرأ ما فيه من قصص الأنبياء والمرسلين. وأجد أن القصة تتكرر فى أكثر من سورة. وقد لا يوجد بينها اختلاف كبير فى اللفظ، ولكن أسلوب العرض يختلف فى كل مرة. فلا تشعر أنه «تكرار» بل «إعادة تذكرة» بالحدث ولكن من زاوية أخرى غير سابقتها. فكأن الحدث أمامنا. ننظر إليه مرة من هذا الاتجاه، ومرة ثانية من هذه الناحية، وثالثة من بُعد آخر. فيتجسم الحدث أمامنا وكأننا نعاصره. ونعيشه بكل وقائعه. ونتفاعل مع عناصره. نستجيب للعبرة المقصودة. وتترسب فى عقولنا ووجداننا القيمة المستهدفة من سرد القصة. فمرة يكون التركيز على مبدأ التوحيد ومرة ثانية تُذكر عاقبةُ المكذبين. وفى ثالثة توضيحٌ لثواب المؤمنين وهكذا. ولكن مهما اختلفت القصة. ندرك أن دعوة الأنبياء والرسل دعوةٌ واحدة لا تختلف : دعوة للايمان بالله وحده لا شريك له وتنزيه له عما سواه. ودعوة للعمل الصالح فى الحياة الدنيا ليكون النعيم فى الدار الآخرة.

والدنيا – صراع مستمر بين الخير والشر. بدأ بوسوسة إبليس لآدم حتى أخرجه من الجنة. ولم يَكُفّ عن الوسوسة ليُضل بنى آدم ويُبعدهم عن الصراط المستقيم. ولكن الله سبحانه وتعالى – لم يضن على بنى آدم بالهداية فأرسل لهم أنبياءَ ورسلاً يهدونهم سواء السبيل. ولكن وسيلة الحفظ والتدوين لم تكن قد ظهرت بعد فى هذه المراحل الأولى من الحضارة الإنسانية. فكانت تعاليم الرسل تنسى أو تندثر أو يصيبها التحريف. فتكون الحاجة إلى رسول آخر. كما أن جماعات بنى البشر كانت متباعدة. منفصلة ومنعزلة عما سواها. لذلك كان كل نبى أو رسول يبعث إلى قومه خاصة. حتى إذا ما وصلت الحضارة الإنسانية إلى مرحلة تمكنها من تدوين التعاليم السماوية بطريقة صادقة فلا يصيبها التحريف ولا يأتى عليها الاندثار، لم يعد هناك مجال لإرسال رسل جُدُدْ. وكان ذلك هو الحال مع الرسالة الخاتمة وهى الإسلام. فقد دُوِّن القرآن تدوينا دقيقاً كما أنزل على رسولنا الكريم. كذلك كانت سيرة الرسول نفسه، بكل وقائعها. وكل أحاديثه – قولاً أو فِعلاً أو إقراراً لفعل – كل ذلك كان محفوظاً فى صدور الصحابة. ثم دُون فى صحاح كتب الحَديث. وبلَّغ الرسول دعوته إلى ملوك الأرض فى جميع أنحائها: شرقا إلى فارس، وغربا إلى مصر، وشمالاً إلى الروم، وجنوباً إلى الحبشة. ولم يعد هناك مجال لرسالات أخرى بعد رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (ﷺ) .

والنبى – من نبأ – والنبأ هو الخبر العظيم الشأن. ويصحُّ معنى الفاعل فهو نبى أى مُنبِئ عن الله تعالى. وبمعنى المفعول لأن الله أنبأه ما يقول فهو نبى. وجمعها نبيون وأنبياء.

وبعض الأنبياء وصفوا أيضاً بأنهم رسل مرسلون. لقوله تعالى:

«واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا». (٥٤ – مريم).

وقيل إن الرسول هو الذى أنزلت عليه رسالة أى كتاب، مثل إبراهيم وموسى وداوود وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ولكن بعض الرسل لم ينزل عليهم كتاب، مثل إسماعيل ولوط، ويونس. وكانوا من المرسلين: ولم يأتوا بشريعة جديدة أو كتاب جديد. ومن ثَمَّ قالوا إن الرسل هم من كان ينزل عليهم الرسول الأمين جبريل عليه السلام. أما الأنبياء فكان يوحى إليهم بالرؤيا الصادقة. كذلك قيل إن الرسول هو المبتدِئ بوضع الشرائع والأحكام. والنبى هو الذى يحفظ شريعة غيره ومن هنا قالوا إن كلَّ رسول نبى، وليس كل نبى رسولاً.

ولم يذكر القرآن الكريم كل الأنبياء، بل قال تعالى :

«منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك». (٧٨ – غافر).

وقد قَصَّ علينا القرآن الكريم قصص عدد كبير من الأنبياء.

«نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن» (٣ – يوسف).

وكان قصص القرآن الكريم مجالاً لكثير من الكتاب والأدباء . هذا ذكرها باختصار لتلائم المبتدئين وذاك ذكرها بتفصيل قليل أو كثير لتشبع من يريد زيادة المعرفة.

وهنا كان لابد أن أسأل نفسى: هل هناك إضافة أستطيعُها؟ وكان الجواب: نعم. هناك مجال للإضافة، وهو التوثيق التاريخى للقصص القرآنى. فلم أجد فيما كتب عن قصص القرآن – على كثرته – خريطة واحدة توضح أماكن الأحداث التاريخية. وهذا ما هدفت إليه. وهو استكمال هذا النقص بأن تضمن الكتاب عدداً من الخرائط، توضح أين عاش الرسل. وكيف قُدِّر لهم أن يوجدوا فى هذا المكان أو ذاك. وكيف كانت هجرة الأباء والأجداد. وفى هذا السبيل اتبعت افتراضاً يقبله العقل والمنطق. بل وليس هناك من سبيل لافتراض غيره. ذلك أن القوم إذا تكاثروا فى مكان إقامتهم. ضاق بهم المكان، وقَصُرت الموارد عن كفايتهم من المعيشة والسكنى. يصبح لزاماً أن يرتحل البعض إلى مكان تتوافر فيه المراعى والأرض الزراعية. ومن الطبيعى أن يبقى الأب فى مكانه ويرتحل الابن، وتتكرر بعد عشرات السنين نفس القصة ويرتحل الحفيد إلى مكان آخر وهكذا. فإذا وجد أن أحد الجدود كان يسكن مثلاً فى شمال العراق، وأحد الذرية كان يعيش فى مكان ما حول خليج العقبة. فإنه من المحتم أن الأجيال الموجودة بينهما تكون موزعة على الخط الممتد من شمال العراق إلى خليج العقبة.

كذلك كان التوثيق التاريخى بذكر الدول والممالك التى كانت موجودة فى العصر الذى ظهر فيه هذا النبى أو ذاك.

ولقد كانت هناك صعوبة كبيرة فى تحديد موضع بعض البلدان على الخريطة، إذ أن أسماء المدن كثيرا ما تتغير على مر الأزمنة، أو قد تندثر مدينة وتنشأ على أنقاضها مدينة أخرى، ولزم البحث عن أطالس لأسماء المدن فى هذه الأزمنة القديمة.

ونفس الصعوبة وجدت عند تحديد العصر التاريخى لظهور بعض الأنبياء ومعاصريهم من رؤساء الدول. وعلى سبيل المثال فإن جميع كتب التفسير الإسلامية تذكر اسم النمرود على أنه الملك الذى أمر بالقاء إبراهيم عليه السلام فى النار. وبالرجوع إلى كتب التاريخ لا نعثر على ملك بهذا الإسم إطلاقاً، وسيأتى تفصيل ذلك عند ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ومثال آخر: فلا يزال الخلاف محتدماً حول من هو فرعون موسى.

ولا مندوحة لمن يتصدى للكتابة عن قصص الأنبياء من أن تكون التوراة أحد مراجعه. والتوراة الأصلية ضاعت عند السبى وأعاد أحبار اليهود كتابتها فى المنفى. ولكن هذه الكتابة لم تكن مطابقة للتوراة الأصلية لعدة أسباب منها:

– **التحريف : «يُحرِّفون الكلم عن مواضعه»** .

– **النسيان : «ونسوا حظا ما ذُكرُوا به»** . (١٣ – المائدة).

– **إغفال ذكر بعض الحوادث** : مثل إغفال ذكر قصتى هود وصالح عليهما السلام، أو رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز.

– **زيادات** : أى إضافة أشياء لم تحدث ولكنها تخدم هدفاً ارتأوه فوضعوها ضمن ما كتبوه ليوهموا أنها من عند الله.

«فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون» (٧٩ – البقرة).

وحينما ترجمت التوراة التى كتبها أحبار اليهود فى المنفى – إلى العربية، اقتبس المؤرخون الإسلاميون وكُتَّاب التفاسير منها دون حذر. فغُصَّت كتب التفاسير وكتب التاريخ الإسلامى بالإسرائيليات والأساطير التى دسها أدباء اليهود على التوراة الأصلية.

ولقد قسا بعض العلماء المعاصرين فى نقد كتب التفسير القديمة لما تضمنته من المبالغات فى بعض الأحيان. ويمكننا أن نلتمس لهم العذر فى ذلك، فلعلهم حين قرأوا الآية الكريمة:

«وأنزل إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه» (٤٨ – المائدة).

فهموها على أنها تصديق لكل ما جاء فى الكتب السابقة، فصدقوا كل ما حدثهم به مسلمة أهل الكتاب. وكان منهم من حسن إسلامهم. ورأوا بحسن نية أن يُفصلّوا ما أوجزه القرآن الكريم فى قصصه. وبالطبع جاءوا بالتفاصيل مما علموه سابقاً من كتبهم. ولم يتنبه كتاب التفاسير إلى أن بعض مسلمة أهل الكتاب كان من سوء الطوية بحيث دس أقوالا فيها كثير من المبالغات التى تصل إلى حد الخرافات – ليكيد للإسلام.

«وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون» (٢٦ – فصلت).

واللغو هو مالا أصل له ولا معنى له من القول وهذا ما فعلوه.

وساعد على ذلك أن العلوم والمعارف لم تكن قد توصلت إلى تفسير لبعض الظواهر الطبيعية مثل الرعد والبرق. فقالوا إن هناك ملَكا موكل بالسحاب ومعه مقراع من حديد يسوق به السحاب. والرعد هو زجره للسحاب. والبرق نار تخرج من فيه!!

كذلك كان تفسير الآيات على غير قصدها

«وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب» (٧٨ – آل عمران).

ويقول ابن كثير إن أخبار أهل الكتاب على **ثلاثة أقسام** :

– منها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله.

– ومنها ما علمنا كذبه بما دلَّ على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً.

– ومنها ما هو مسكوت عنه. وهو المأذون فى روايته بقوله عليه الصلاة والسلام «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» وهو الذى لا يُصدَّق ولا يُكذَّب.

وفى رأينا أن أخبار أهل الكتاب تكون كالآتى :

– ما علمنا بصحته لما عليه دليل من الكتاب أو السنة ، ينطبق عليه الحديث.. «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج»

– ما علمنا بكذبه لمخالفته الكتاب أو السنة .

– ومنها ما هو مسكوت عنه، فهذا هو الذى ينطبق عليه الحديث الشريف «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» فلا نصدقهم فقد يكونوا يروون كذبا. ولا نكذبهم فقد يكون ما يقولون هو صدقّ.

ولقد تميز سرد القصص فى القرآن الكريم بإيجاز. بل وبإيجاز شديد أحيانا حتى ليكاد يكون مجرد إشارة عابرة ولكنها مع ذلك تفى بالغرض المقصود.

روى أحمد عن عمر حديثا أن رسول الله (ﷺ) خطب الناس فقال: أيها الناس، إنى قد أوتيتُ جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لى اختصاراً... الخ الحديث.

فالاختصار مطلوب لأن سرد القصص فى القرآن الكريم لم يكن بهدف التسلية. بل كان هدفه العبرة:

«لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب». (١١١ - يوسف).

وما لا يخدم هذا الهدف من تفاصيل، تجاوز عنه القرآن الكريم. فمثلا فى قصة نوح عليه السلام، لم تكن أبعاد السفينة ذات أهمية، إذ العبرة هى أن الكافرين كانوا هم المغرقين.

«مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً». (٢٥ - نوح).

ولكننا نجد التوراة تحدد أبعاد السفينة بالذراع طولاً وارتفاعاً، ثم يأتى آخرون ويظنون أنه كلما عظمت أبعاد السفينة كان ذلك أدعى إلى الإيمان بقدرة الله تعالى. فقالوا طولها ٦٠٠ ذراعاً وقال آخرون ٨٠٠ وقالوا بل ألف ذراع وقال غيرهم ألف ومئتان وزاد غيرهم فقال ألفا ذراع. وفى الماضى كان هذا الكلام يؤخذ على علاَّته. أما فى عصرنا الحالى، فقد اشتدت الحملة على الإسلام، ويحاول المبشرون والمستشرقون النيل منه. فبدأوا فى إظهار هذه المبالغات وتضخيمها ونسبتها إلى الفكر الإسلامى لأنها موجودة فى كتب التفسير. ولو أنصفوا - ورجعوا إلى أصولها - لعرفوا بل تيقنوا أنها دخيلة على كتب التفسير. ولكن أنىً لهم أن يفعلوا ذلك!!

وزاد الطين بلة أن بعضاً من هؤلاء المبالغين - ليقنعوا الناس بأقوالهم المبالغ فيها - نسبوها إلى بعض الصحابة - والبعض كان أكثر اجتراءً فوضع أحاديث عن رسول الله (ﷺ) تؤيد أقوالهم. ولم يكن عند بعض السامعين القدرة على تمييز هذه الأحاديث الموضوعة. وعلم الحديث علم واسع - فهناك الحديث الصحيح والحسن والضعيف والغريب والمنكر. وهناك أحاديث الآحاد والحديث المتواتر. كذلك توجد أحاديث متصلة فى سندها وأخرى فيها انقطاع فى السند - ومن الرواة من هو ثقة، ومنهم من لا يعتد بقوله لعدم تمحيصه لما يسمع، وعدم تمييزه للصحيح من المشكوك فيه أو الموضوع.

ولقد راودنى خاطر أن أتجاهل تماماً هذه المرويات عن أهل الكتاب ولا أذكرها، ولكنى رجعت فحدست أن القارئ ربما وجدها فى كتاب آخر فيظن قصوراً منى بعدم الإطلاع على بعض ما كتب الأقدمون. لذلك فقد رأيت أن أذكر ما جاء فى كتب التفسير القديمة من أقوال

غريبة – والتنبيه على أنها قد تكون من مدسوسات بعض أهل الكتاب من إسرائيليات أو موضوعات، ونقدها نقداً يتمشى مع روح العصر الحالى.

كذلك قد يرى البعض أنى أكثرت من ذكر ما جاء فى التوراة، ونقلت فقرات عديدة بنصها الذى جاء فى التوراة. وقد قصدت من وراء ذلك أن أوضح للقارئ العنصر البشرى للسرد التوراتى للأحداث. ففى بعض الأحيان ينسبون للأنبياء أشياء لا يُتَصَوَّر صدورها من أشخاص عاديين. فما بالنا بأنبياء معصومين!! ذلك أنهم لم يكونوا يوقِّرون الأنبياء التوقير اللازم، ولا كانوا ينظرون إليهم نظرة الإجلال والإكبار التى نحملها – نحن المسلمين – للأنبياء جميعاً.

كذلك قصدت أن يلمس القارئ بوضوح أن التوراة الحالية شئ مغاير للتوراة الأصلية التى ضاعت عند السبى فكتبوها من جديد. ولم يكونوا أمناء عند إعادة كتابتها. فليس فيها العبرة والعظة المرجوة من سرد قصص الأنبياء. بل مكتوبة على غرارٌ عامة الكتب التاريخية من التسلسل المألوف للأحداث. كذلك سيلمس القارئ مدى انحراف فكرتهم عن الإله. فهم – وإن كانوا يؤمنون بإله واحد – إلاّ أنهم تصوروه على هيئة إنسان، يأكل ويشرب، ويتعب ويستريح. فيقولون فى الإصحاح الثانى تكوين: فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل. وبارك الله اليوم السابع لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل خالقا.

وينفى القرآن الكريم هذه الفِرية فيقول:

«ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لُغوب» (٣٨ – ق).

كما أنهم ينسبون إلى الله أعمال الانسان، فذكروا أنه كان ماشياً فى الجنة، وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب، وأنه دفن موسى حين مات فى مؤاب (عباس العقاد).

كما أن كتاباتهم يتَّضح منها إيمانهم بمبدأ تجسد الإله فيقولون فى الإصحاح الثانى عشر تكوين:

فظهر له (لإبراهيم) الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار، فرفع عينيه ونظر، فإذا ثلاثة رجال واقفون لديه، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال: يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك فلا تتجاوز عبدك. وتستمر التوراة: وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم وأما إبراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب. وبعد مراجعة مع الرب – استغرقت صفحة كاملة – قالوا: وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه.

وتتجلى نظرة التجسيد للإله فى أنهم يخاطبونه كما يخاطب البشر بعضهم بعضاً مثل:

حدث أن قابين قام على هابيل أخيه وقتله فقال الرب لقابين: أين أخوك هابيل فقال لا أعلم، أحارس أنا لأخي؟ وهو سؤال استنكار لا يجب أن يصدُر من عبد يخاطب الله سبحانه وتعالى!!

أما الإسلام فهو يقول عن الله: ليس كمثله شيئ – وله الصفات والأسماء الحسنى وينزهه عن التجسد. بل حتى عن التصور. وكل ما خطر ببالك فهو غير ذلك.

والقرآن الكريم – كلام الله – لم يصبه تحريف ولا تبديل. جاء مُعجزًا في لفظه ونسقه ومعناه. فهو فريد في كل ذلك، فنرى فيه المسائل العقائدية والأحكام الشرعية والتعاليم الخلقية والدعوة والنصيحة والعبرة والعظة والزجر والتخويف والترغيب والحجج والبراهين والشواهد والقصص التاريخية والإشارات إلى آيات الله في الكون. كل ذلك يتكرر بيانه بين حين وحين بوجوه متباينة وأساليب متعددة. وإذا ذكرت حادثة تاريخية لم تذكر على الأسلوب السائد لكتابة التاريخ. وإذا أتى بتشريع جاء به بصياغة لم يعتدها أصحاب التشريع وعلماء التقنين في هذا المجال. وعند عرض تعاليمه في الأخلاق واستقامة السلوك يختار نمطاً يغاير سائر ما كتب في هذا المجال. وهو بهذا فريد في نظمه. فمثلا عند سرد إحدى قصص الأنبياء تجد يتخلل السرد أحيانا حديث عن السماء كيف خُلقت وعن الإنسان نفسه كيف خُلق وعن الأمم الخالية وما حدث لها. لا ليدرس الإنسان التاريخ من خلاله ولا لتُدرس علوم الطبيعة مما جاء به. بل ليقر في الأذهان مبدأ وحدانية الله وأنه خالق كل شئ وهو رب كل شئ وهو الوحيد الجدير بالعبادة ويركز على مبدأ مسئولية الإنسان عن عمله. وهكذا.. ويتكرر ذلك عدة مرات. في كل مرة بلفظ جديد ولترسيخ قيمة جديدة. وهكذا جاءت قصص الأنبياء – في القرآن الكريم – في عدة سور. ولكنها – كما سبق أن قلنا – نظرات متعددة من زوايا مختلفة.

ولكننا – نحن البشر – نرغب أحيانا في أخذ فكرة متصلة متواصلة عن هذا النبي أو ذاك وربط ظهوره بالأحداث على مسيرة التاريخ. وهذا ما حاولته في هذا الكتاب.

وكنت قد عرضت فكرة هذا الكتاب على الداعية الإسلامي الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالي في مقابلة مع فضيلته في ديسمبر العام الماضي. فأشفق عليَّ لما علم بمقصدي. ولكن فضيلته اقتطع جزءاً من وقته الثمين ليقرأ بعض ما كتبت. ثم شجعني على المضيِّ في هذا الاتجاه وكان أكبر تشجيع لي هو تفضله بكتابة تقديم للكتاب. وقد أرسله لي ساعات قليلة قبل ركوبه الطائرة يوم الثلاثاء ٥ مارس ١٩٩٦ مسافراً للاشتراك في مؤتمر عن الإسلام والحضارة الغربية بالرياض. وكان سروري عظيماً بهذا الفضل الذي أسبغه عليَّ. ولم يكن وقت فضيلته يتسع للمرور عليه بالمنزل لأشكره فاتصلت تليفونيا وشكرته وتمنيت له العودة سالماً إن

شاء الله. وفجعت – كما فجعت الأمة الإسلامية – بالأزمة القلبية التى فاجأته أثناء ندوة مساء الجمعة ٩ مارس. فبينا هو يدون ملاحظاته استعداداً لتوضيح وجهة النظر الإسلامية. إذا بالقلم يسقط من يده. ونقل إلى المستشفى على عجل إلاَّ أن روحه الكريمة فاضت إلى بارئها فور وصوله المستشفى. وهكذا سقط الفارس شهيداً فى ساحة القتال التى طالما ناضل فيها – ساحة الفكر، وسلاحه – قلمهُ – فى يده. وكأنما كان القدر يدخر له أن يدفن بالبقيع فى المدينة المنورة. مدينة رسول الله (ﷺ) .

وعزاؤنا أنه – بمشيئة الله – فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، مع النبيين والصديقين والشهداء ، وحسن أولئك رفيقاً.

ولا أعتقد أنى بهذه الكلمات بمستطيع أن أوفيه حقه من الشكر. لذلك أدعو الله أن يجزيه عنى – وعن الأمة الإسلامية – خير الجزاء.

وفى الختام – أقدم الشكر لكل من عاون بالرأى والمشورة أو بإعارة بعض المراجع.

وأرجو ألاّ يبخل علىّ القراء بملاحظاتهم. حتى تكون الطبعات التالية – إن شاء الله – أقرب إلى الكمال .

والله ولى التوفيق ،،،

المؤلف

آدم عليه السلام

لما شاءت إرادة الله أن يوجد آدم على الأرض، أخبر الملائكة فقال سبحانه وتعالى:

«وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون». (٣٠ - البقرة)

لم يكن تساؤل الملائكة اعتراضا منهم على مشيئة الله عز وجل فهم منزهون عن ذلك. بل كان سؤال تعجب واستغراب.

ولعل الملائكة قد رأوا الحيوانات على الأرض وهى تتصارع ويقتل بعضها بعضاً. وافترضوا أن الإنسان سيفعل مثلها.

أو لعل الله أطلعهم على الغيب وعمّا سيفعل الإنسان فى المستقبل أثناء حياته على الأرض.

وعن مجاهد بن عبد الله بن عمرو قال: كان الجن بنو الجان فى الأرض قبل أن يُخلق آدم بألفى سنة، فأفسدوا فى الأرض وسفكوا الدماء فبعث الله جنداً من الملائكة فضربوهم. فلما قال للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن؟ أو أنهم عرفوا أن هذه الخلافة فى الأرض إنما هى تكريم، فطمعوا أن يكون هذا التكريم من نصيبهم، هم الذين يعبدون الله ويسبحونه ولا يفتُرون عن عبادته، فأرادوا أن يكون لهم شرف عبادته فى الأرض أيضاً.

وفسر بعضهم قول الملائكة على أنه استغراب وتعجب من فِعْل بنى آدم فى المستقبل، كأنهم يقولون وكيف يعصونك يارب وأنت خالقهم، أو كأنه سؤال على وجه الاسترشاد لا على وجه الإنكار.

المهم أن الملائكة عجزوا عن فهم حكمة الله تعالى فى جعل هذا الخليفة من جنس آخر يختلف عنهم.

وكان جوابه سبحانه وتعالى أن قال لهم: **إنى أعلم مالا تعلمون**. فهو يعلم أن عمارة الأرض تحتاج إلى خَلْق آخر غير خلقة الملائكة أو الجان. خلقاً يرتبط بالأرض ودنياها، يحبها ويعمل على عمارتها. ويتحمل فى سبيل ذلك الجهد والمشقة. وذلك يختلف عن طبيعة الملائكة النورانية، أو طبيعة الجان النارية. بل يكون مخلوقاً من طين الأرض.

«إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين» (٧١ - ص) .

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين» (١٢ - المؤمنون) .

وإذ تمت مشيئة الله وتحول الطين بسبب التخمير إلى طين لزج، يلتصق بعضه ببعض.

«إنَّا خلقناهم من طين لازب» . (١١ – الصافات)

ثم تغيرت رائحة الطين فصار صلصالاً مسنونا أى أملس مصقولا.

«ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون» (٢٦ – الحجر) .

«ثم سواه ونفخ فيه من روحه» (٩ – السجدة) .

وليس لنا أن نسأل عن ماهية الروح بعد أن قال الله فى شأنها:

«ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً». (٨٥ – الاسراء)

وقال بعض العلماء إنها ذاتٌ لطيفة كالهواء، سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر، وقالوا إن اتصالها بالجسد ينتج عنه النفس، وعلى كل فإنه إعلاءً لشأنها وقدرها. نسبها الله إلى نفسه فقال ونفخ فيه من روحه. كنسبتنا البيت الحرام بمكة إلى الله فنقول: هو بيت الله. وقول إبراهيم عليه السلام: عند بيتك المحرم.

«فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين». (٧٢ – ص ، ٢٩ – الحجر)

فكان أول ما شهده آدم بعد خَلْقِهِ هو سجود الملائكة له. سجود تكريم، لا سجود عبادة. أو هو سجود لنفخة الروح فيه. فهم لم يؤمروا بالسجود إلاَّ بعد نفخ الروح فيه وهى دليل على قدرة الله سبحانه وتعالى فى بعث الحياة فيما لا حياة فيه.

«وعلَّم آدم الأسماء كلها». (٣٣ – البقرة)

وهنا جاء ذكر اسم ذلك المخلوق الذى سيجعله الله خليفة فى الأرض وهو «آدم» .

وقيل أن الاسم مشتق من أدمة الأرض وأديمها. وهو وجهها فسُمِّى بما خُلِقَ منه. والأرض يميل لونها إلى السمرة. ومن معانى آدم السمرة. ونقول آدمته الشمس يعنى لوحت لونه أى صيرته إلى السمرة.

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يُوضِّح للملائكة شرف آدم، ولماذا فضَّله الله بأن اختصه بالخلافة فى الأرض ومعنى قوله تعالى لهم **«إنى أعلم مالا تعلمون»** – فعلم آدم أسماء كل شئ.

جاء فى كتب التفسير: قال السدى فيما حدثه عن ابن عباس قال: علمه أسماء ولده إنسانا إنسانا والدواب فقيل هذا جمل وهذا فرس وهذا حمار.

وقال الضحاك عن ابن عباس قال هى الأسماء التى يتعارف بها الناس. إنسان ودواب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وغيرها.

وقال مجاهد علَّمه اسم كل دابة واسم كل طير.

وقال الربيع: أسماء الملائكة وأسماء الذرية لأنه قال ثم عرضهم عبارة عما يعقل. ولكن ابن كثير يقول إن هذا الذى رجح به ليس بلازم فإنه لا ينفى أن يدخل معهم غيرهم ويعبر عن

الجميع بصيغة من يعقل التغليب كما قال تعالى: **«والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين»**. وقال بعضهم أسماء ماكان وما يكون إلى يوم القيامة.

وهذه التفسيرات كلها مردود عليها أنه من المستحيل أن يَعْلَم آدم أسماء جميع الأشياء ماكان وما يكون إلى يوم القيامة. ولا حتى أسماء الحيوانات كلها. فنحن نعلم فى عصرنا الحالى أن الحيوانات والدواب تبلغ أنواعها مئات الآلاف. وعليه فكلها اجتهادات من المفسرين ولا بأس بها فى العصر الذى كتبت فيه هذه التفاسير.

وأحسن ما قيل هو ما جاء فى تفسير روح المعانى للألوسى (جـ١ ص٢٢٣) إذ قال: الاسم علامة للشيئ ودليل يرفعه إلى الذهن. وقالوا بأنه خلق فى آدم بموجب استعداده علماً ضروريا باشتقاق تلك الأسماء ومدلولاتها، ووجهة دلالتها واستعداداً لإدراك أنواع المدركات فألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها ومعارفها.

وهذا يتفق مع مفهوم عصرنا من أن الله أودع فى الإنسان المقدرة على اشتقاق الأسماء للأشياء التى يراها والأفعال التى تقع أمامه. وبواسطة هذه الأسماء يمكنه التعبير عما يريده ويمكنه نقل خبرة جيله إلى الأجيال التالية.

ولرب قائل . كيف يعجز الملائكة – ومالهم من قدرات هائلة فى الانتقال عبر المكان والزمان – عن معرفة أسماء أشياء عرضت عليهم. وللإجابة نضرب مثلاً بجهاز كمبيوتر عملاق يجرى ملايين العمليات الحسابية فى الثانية الواحدة أو فى جزء من الثانية. ولكن لو وُضِعت أمامه قطة وطُلِب منه أن يسميها لم يستطع. فهو لا يعلم إلا ما أدخل فيه من معلومات ولا يستطيع أن يشتق اسما لشيئ لم يعرض عليه من قبل. أما عقل الإنسان فقد زوده الله بالمقدرة على وضع الأسماء للأشياء. وها نحن نرى آلاف المخترعات. وكل جهاز يتكون من آلاف القطع وكل قطعة لها اسم. ولا أكون مُغاليا إذا قلت إنه لولا وضع مسميات للأشياء لما كان هناك تبادل للمعرفة ولما كان هناك تقدم للبشرية على مر العصور. وعبَّر القرآن الكريم عن هذه القدرة على وضع أسماء للأشياء بأنه علَّم بالأسماء كلها. كما نقول لمن تعلم الأبجديه إنه يقرأ كل شيئ. أى أنه قادر على قراءة كل ما يعرض عليه.

ولما رأى الملائكة ما أعطى الله آدم من العلم. أقروا له بالفضل إلا إبليس.

«وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين». (٣٤ – البقرة)

«إلاَّ إبليس أبى أن يكون مع الساجدين». (٣١ – الحجر)

«إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين». (٧٤ – ص)

«فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه». (٧٦ - ص)

«قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين». (٣٢ - الحجر)

«قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين». (١٢ - الأعراف)

«فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين». (١٣ - الأعراف)

«قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً». (١٨ - الأعراف)

«قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين». (٢٤ - الحجر)

«قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين». (٧٧ - ٧٨ - ص)

وسجود الملائكة لآدم كرامة عظيمة من الله تعالى وهو سجود سلام وإكرام. كما قال تعالى فى قصة سيدنا يوسف. ورفع أبويه على العرش وخروا له سُجَّداً.

وهنا مسألة: إذ أن الذين أُمروا بالسجود هم الملائكة، وإبليس كان من الجن. فهل شمله أمر السجود؟ قال بعضهم إن إبليس كان من الملائكة وكان اسمه عزازيل. وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علما فدعاه ذلك إلى الكِبْر. وبعضهم قال إن الجن فرع من الملائكة وبعضهم قال إن إبليس كان من الجن ولكنه كان حاضراً. فلما أمر الله الملائكة بالسجود دخل إبليس فى خطابهم فإنه وإن لم يكن عن عنصرهم إلاَّ أنَّه كان قد تشبه بهم وتوسَّم أفعالهم. وعلى كل فقد كان مأموراً بالسجود بدليل قوله تعالى:

«قال ما منعك ألاَّ تسجد إذ أمرتك». (١٢ - الأعراف)

«قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدىَّ». (٥٧ - ص)

ولما خالف الأمر واستكبر أصبح من الكافرين.

وقد يخالف المخلوق أمر الخالق إما تكاسلاً أو نسيانا أو لا يجد عزماً على تنفيذ الأمر مع علمه بأنه أمر من الله تعالى وأنه واجب التنفيذ ولكنه لا يجد قوة على تنفيذه، أو يجد هوى فى نفسه لمخالفة الأمر. هذه معصية. أما أن يناقش الأمر ويرد الأمر على الله. فهذا هو الكفر. وإبليس ناقش الأمر ذاته وردَّ ردًا فيه جرأة بالغة.

«قال أأسجد لمن خلقتَ طيناً». (٦١ - الاسراء)

«قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين». (٧٦ - ص)

«قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون». (٣٣ - الحجر)

وكان جزاء كفره أن طُرِدَ من الجنة، ومن رحمة الله تعالى :

«قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين». (٣٤ - ٣٥ - الحجر)

«قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين». (١٣ - الأعراف)

وفى اسم إبليس قال بعض المفسرين بأن إبليس كان من الجن ثم أُبلس.

«إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه». (٥٠ - الكهف)

وأُبلس فى العربية يعنى سكت لحيرةٍ أو انقطاع حُجَّة. ويكون معنى إبليس المقطوع الحجة فى الامتناع عن السجود لآدم وقال آخرون (الأستاذ رؤوف أبو سعدة . من إعجاز القرآن . جـ ١ ص ١٦٣). إن تسمية إبليس بهذا الاسم جاءت مقترنة بعصيانه أى بامتناعه عن السجود لآدم. وفور هذا كان لَعْنه وطرده من رحمة الله لإنه عاصٍ ورافض لأمر الله فإبليس معناها العاصى والرافض والمتأبى لأمر الله.

«إلا إبليس أبى». (٣٤ - البقرة)

حـــــواء

يقال إن آدم كان يتحدث أحيانا مع الملائكة. ولكن الملائكة كانوا مشغولين عنه بعبادة الله تعالى. ولهذا كان آدم يحس بالوحدة. وجاء فى تفسير الألوسى (روح المعانى) إن الله ألقى على آدم النوم. ثم أخذ ضلعاً من جانبة الأيسر وخلق منه حواء. فلما استيقظ آدم وجدها عند رأسه. فسألها من أنت؟ قالت امرأة. قال ولم خلقت؟ قالت لتسكن إلى. فقالت الملائكة تجربه لعلمه من هذه؟ قال امرأة. قالوا لم سميت امرأة؟ قال لأنها من إمرئ أخذت. (أو لأنها خلقت من المراء وهو الجدال) قالوا ما اسمها. قال حواء قالوا لم سميت حواء قال لأنها خلقت من شئ حى.

وقال الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن الكريم. جـ ١ ص ٢٢٠) إنَّ حواء مشتق من الفعل حوى ومعناها التجمع والاستدارة ومنه الحية لأنها تتحوى أى تستدير على نفسها. ومنه حواه بمعنى استولى عليه وملكه. والحواء هو المكان الذى يحوى الشيئ. وبهذا تكون حواء تعنى السكينة والسكنى، وهذا يتفق مع الهدف الذى من أجله خلقت حواء لقوله تعالى:

«هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها» (١٨٩ - الأعراف)

«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها» (٢١ - الروم)

وقيل إنها خلقت قبل دخول الجنة ودخلا معاً وظاهر الآية الكريمة يُشير إلى ذلك فى قوله تعالى:

«وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة» (٣٥ - البقرة)

وإلا توجه الخطاب إلى معدوم - وقيل إن حواء كانت موجودة فى علم الله لذلك جاء ذكرها فى الخطاب.

وذهب خيال البعض بعيداً فقال إن الله بعث جنداً من الملائكة فحملوا آدم وحواء على سرير من ذهب كما تحمل الملوك. ولباسهما النور حتى أدخلوهما الجنة.

وجاء فى التوراة إصحاح - ٢ - تكوين: فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً. وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم. فقال آدم، هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى، هذه تدعى امرأة لأنها من امرءٍ أخذت. لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً.

فـى الجنـــة :

«وقلنا يا ادم اسكن أنت وزوجك الجنة» (٣٥ - البقرة) .

«ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة» (١٩ - الأعراف) .

صدر أمر الله بأن يسكن آدم وزوجه الجنة. وما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أنها الجنة، دار الثواب للمؤمنين يوم القيامة. وذهب أناس آخرون إلى أنها جنة أخرى خلقها الله تعالى امتحانًا لآدم وحواء . وقال غيرهم إنها جنة من جنات الأرض تقع فى مكان مرتفع قيل بأرض عدن، والمكان كثير وكثيف الظلال يسمى جنة ، كما فى قوله تعالى:

«أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب» (٢٦٦ - البقرة) .

«كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين» (٢٦٥ - البقرة) .

«لقد كان لسبأٍ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال» (١٥ - سبأ) .

«ونزلنا من السماء ماءً مباركا فأنبتنا به جنات» (٩ - ق) .

ويكون الهبوط فى قوله تعالى **«اهبطوا منها جميعاً»** على أنه انتقال من بقعة إلى بقعة أقل ارتفاعاً أو إلى بقعة منخفضة - كما فى قوله تعالى: اهبطوا مصراً.

ومن قالوا بخلق آدم فى الأرض رجحوا أن الجنة كانت فى الأرض أيضاً. إذ لم يُذكر أنه نقله إلى السماء. وقيل ولو كان نقله إليها لكان أولى بالذكر، لأن العروج إلى السماء فيه تكريم كذلك فإن جنة السماء قال الله سبحانه وتعالى فى شأنها **«لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلاَّ قليلاً سلاماً سلاما»**. و **«لا لغوٌ فيها ولا تأثيم»** و **«وما هم منها بمخرجين»**. وقد لغا إبليس فيها، وكذَّب، وأُخرج آدم وحواء منها.

كما أن جنة الخلد دار نعيم وليست بدار تكليف وقد كُلِّف آدم بألا يأكل من الشجرة.

ولا يدخلها الكافرون. وإبليس كان من الكافرين وقد دخلها للوسوسة، ولو كانت دار الخلد ما دخلها ولو مستترا فى داخل الحيَّة كما قالوا. ولا يجوز أن يقع فيها عصيان ومخالفة.

ويروى البعض أنها جنة فى السماء خلقت خصيصاً لاختبار آدم. ثم اضمحلت.

والرأى الشائع أنها جنة فى الأرض.

وآخرون يرون أن الأحوط والأسلم الكف عن تعيين مكانها. فذلك ليس له أهمية كبيرة - والمهم أنها كانت مكاناً لاختبار آدم.

فالإنسان فى طبيعته غير الملائكة. فالملائكة مجبولون على الطاعة.

«لا يعصون الله ما أمرهم. ويفعلون ما يؤمرون» . (٦ - التحريم).

أما الإنسان فقد شاءت إرادة الله أن يكون مُخيراً فى أفعاله وهذه هى الأمانة التى حملها الإنسان.

«إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً» (٧٢ - الأحزاب).

وقيل إن السموات والأرض والجبال أشفقن منها من غير معصية، ولكن تعظيماً لله ألاّ يقوموا بها. وعن ابن عباس أن الله سبحانه وتعالى قال لآدم: إنى قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال يارب وما فيها؟ قال إن أحسنت جزُيت وإن أسأت عوقبت. فأخذها آدم فتحملها.

فالسموات والأرض مجبولة على الطاعة لقوله تعالى:

«ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً. قالتا أتينا طائعين» (١١ - فصلت).

والملائكة أيضا مجبولون على الطاعة.

«لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» (٦ - التحريم).

أما الانسان فهو مخير فى أفعاله. إن شاء أطاع فأثيب وإن شاء عصى وعوقب.

وجاء وقت الامتحان. ولكن قبل الامتحان حذر الله سبحانه وتعالى آدم من إبليس :

«فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى» (١١٧ - طه).

كان التجول فى الجنة فى أى مكان مباحاً. وكذلك الأكل من كل ثمار الجنة إلاّ شجرةً واحدة نُهى عنها. وكان هذا النهى هو الاختبار.

«وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» (٣٥ - البقرة).

«فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» (١٩ - الأعراف).

ووقع خلاف فى هذه الشجرة فقيل هى الحنطة وقيل النخلة. وعن ابن مسعود وابن عباس وغيرهم أنها شجرة الكرم أى العنب. وقال ابن جرير عن مجاهد إنها التينة. وبعضهم قال شجرة المحبة. وقيل شجرة الطبيعة والهوى. وقيل شجرة الخلد. وقيل إن من أكل منها خلد. وقال العلامة أبو جعفر بن جرير، جائز أن تكون أى منها.

وعلى العموم فإن تعيين نوع الشجرة لا يفيد بشيئ فيما نحن بصدده من أن هذا كان أول اختبار لآدم فى حمل الأمانة وفى حرية الاختيار. وللأسف فإن آدم لم ينجح فى هذا الامتحان.

«فوسوس إليه الشيطان» (١٢٠ – طه).

«فوسوس لهما الشيطان» (٢٠ – الأعراف).

والوسوسة تكون فى النفس لقوله تعالى:

«ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه» (١٦ – ق).

وللنفس والقلب مدخلان:

الأول من الخارج وهو الحواس. فالحواس قد تحمل ما يثير الشهوة.

والثانى من الباطن وهو الخيال. وينتقل الخيال من شيئ إلى شيئ.

والخواطر أى ما يحصل من أفكار تكون إما على سبيل التذكر أو على سبيل التجدد.

والخواطر أيضاً أقسام:

- خاطر محمود. يدعو إلى الخير ويسمى إلهاماً.
- وخاطر يدعر إلى الشر ويسمى وسواساً.
- وخاطر يلتبس فيه الأمر على الانسان فلا يدرى أهو من لَمَّة الملك أو من لمة الشيطان.

ومن مكايد الشيطان أنه يعرض الشر فى معرض الخير. فالشيطان لا يدعو الناس إلى الشر الصريح. بل يصوره على أنه خير فيقوم الانسان بعمله.

وكانت وسوسة الشيطان لآدم وحواء مُغلَّفة بما هو محبب إلى نفسيهما وهو الخلود.

«وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاَّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين» (٢٠ – الأعراف).

«فوسوس إليه الشيطان. قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» (١٢٠ – طه).

ولم يكتف بهذا. بل أقسم لهما حتى يزدادا اقتناعاً بصحة قوله:

«وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين» (٢١ – الأعراف).

وقاسمهما جاءت بصيغة المفاعلة لاشتراك الطرفين فى القسم. قيل هو أقسم لهما على النصح وهما أقسما له على القبول. وقيل إن قبول النصيحة يعتبر مشاركة. وقيل: قالا له أتقسم بالله تعالى إنك لمن الناصحين، فأقسم لهما فكان التزامهما بقبول ما نصح به.

ونسى آدم أمر ربه ألا يقرب الشجرة. ونسى أن الله حذره من أن الشيطان عدو له وأنه سيعمل على إخراجه من الجنة.. نسى كل ذلك وانصاع لوسوسة الشيطان.

«ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً» (١١٥ - طه).

«وعصى آدم ربه فغوى» (١٢١ - طه).

والقائلون بأن الجنة كانت فى السماء يتكلفون تفسيرات لدخول إبليس إلى الجنة فمن قائل إنه قام عند الباب وناداهما وأفسد حالهما. وقيل تمثل بصورة دابة فدخل ولم يعرفه الخزنة.

وقيل أرسل أحد أتباعه على هيئة طاووس تجلى لهما على سور الجنَّة فدنت منه حواء وتبعها آدم. فوسوس لهما الشيطان من وراء الجدار. وقيل توسل بحية تسورت الجنة. وحكاية الحيَّة هى أشهرها. وهى التى جاءت فى التوراة فى الاصحاح الثالث تكوين. كما يلى:

وكانت الحيَّة أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله. فقالت للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة. لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل. وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان. فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر. والقصة طويلة ولكنها تنتهى بالقول: فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها. فطُرد من الجنة وأقام شرقى جنة عدن.

ويفهم من القصة أن الشيطان كان داخل الحية وهو الذى وسوس لهما. والبعض يحمل حواء تبعة المعصية كلها. والحقيقة أنهما - آدم وحواء مشتركان فى الفعل فإن كانت حواء هى التى قطعت الثمرة فقد اشترك آدم بالقبول والأكل منها كما أكلت حواء، وكان قطف حواء للثمرة موافقا لهواه ورغبته فى الخلود. وكان ما أكلاه يسيرا جدا يصل إلى حد التذوق:

«فدلاهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة» (٢٢ - الأعراف).

«فأكلا منها، فبدت لهما سوءاتهما. وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. وعصى آدم ربه فغوى» (١٢١ - طه).

وكان أكلهما من الشجرة ومعصية ربهما حطا لأنفسهما من رتبة الطاعة إلى المعصية فكأن الشيطان قد دلَّى من درجتهما. أو من الدالة وهى الجرأة أى فجرأهما على المعصية بما غررهما به من القسم وبما منَّاهما به من الخلود (تفسير الألوسى. جـ ٨ ص ١٠٠).

وفى حديث عن على بن عاصم عن سعيد بن أبى عردبة عن قتادة عن الحسن عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله (ﷺ) إن الله خلق آدم رجلاً طوالا كثير الشعر كأنه نخله سحوق. فلما ذاق الشجرة سقط عنه شعره وأول ما بدا منه عورته.

وإذا كان ذلك بالنسبة لآدم فلابد أن شعر حواء أيضاً كان طويلا ومسترسلا يغطى كل جسمها. وقد يكون فى الشجرة التى أكلا منها مادة جعلت شعرهما يسقط. أو أن شعورهما بهول ما اقترفاه من معصية الله، قد أسقط الشعر عنهما وبدت لهما عوراتهما.

وقال وهب بن منبه كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا. فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما. ولعله يقصد أن المعصية قد جعلت هذا النور ينطفئ.

رأى آخر فى تفسير ما حدث هو أن أكل ثمار الجنة التى كانت مباحة لهما كان لا يتبقى منه فضلات فى أمعائهما فكانا لا يُحدثان أى لا بول ولا براز. فلما أكلا الشجرة بدأت حاجتهما إلى التبول وإلى الغائط ورأيا النجاسة تخرج من سواءتهما فحاولا إخفاءها.

ويذكر هذا الرأى الألوسى فى تفسيره فيقول: ونقل الأجهورى عن حجة الاسلام الغزالى أنه عليه السلام لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الفضلة. ولم يكن ذلك مجعولاً فى شئ من أطعمتها إلاَّ فى تلك الشجرة فلذلك نُهى عن أكلها. فجعل يدور فى الجنة. فأمر الله تعالى ملَكًا يخاطبة فقال له أى شئ تريد يا آدم؟ قال أريد أن أضع ما فى بطنى من الأذى. فقال له فى أى مكان تضعه؟ أعلى الفرش أم على السرر أم فى الأنهار أم تحت ظلال الأشجار؟ هل ترى ههنا مكانا يصلح لذلك؟ ثم أمره الله تعالى بالهبوط ويقول الألوسى وأنا لا أرى لهذا الخبر صحة.

فواضح أن واضعى هذا القول كانوا متأثرين بأن هذه الجنة هى جنة الخلد لذلك جاء قولهم الفرش (المرفوعة) والسرر كما جاء فى سورة الواقعة والأنهار والظل الظليل. وجعلوا من أسباب خروجهما من الجنة هو حتى لا يحدثا فيها. وقد سبق ترجيح أن جنة اختبار آدم لم تكن جنة الخلد، بل كانت جنة فى الأرض.

وبعضهم قال: إن الأكل من الشجرة المحرمة أثار فى نفسيهما شهوة الجنس وكانا لا يشعران بالشهوة من قبل. وكانا ينظران إلى أعضائهما كما ينظران إلى باقى أجزاء الجسم.

فلما ثارت شهوتهما تغيرت نظرتهما إلى هذه الأعضاء وشعرا بالحياء وأرادا تغطيتها. ويمكن تشبيه الأمر بالأطفال الصغار الذين لم يبلغوا الحُلُم قد يلعبون ذكوراً وإناثًا عرايا بدون حرج حتى إذا كبروا بدأوا يشعرون بالخجل من تعرية أنفسهما.

وهذا الشعور بالخجل من العُرى نوع من الحياء أودعه الله فى آدم وبنيه. فالحيوانات لا تستشعر العرى ولا ترى حرجاً فى ظهور عوراتها. ولعله من الخطأ أن نقول «عورة» عند الحيوانات. فهى ليست بعورة ولا سوأة بل هى أعضاء مثل الأيدى والأرجل والفم. بل إن الحيوانات لا تستشعر أى حرج من ممارسة الجنس أمام أقرانها. أما الإنسان فالحياء طبيعة فيه. وستر العورة واجب لذلك فإن المذاهب التى تقول بالعودة إلى الطبيعة ومستعمرات العراة التى توجد فى بعض البلاد الأوربية ماهى إلاّ مخالفة للطبيعة البشرية السوية وعودة للحيوانية الفجة بل إن «الطبيعة» نفسها قد سترت عورة الإنسان بشعر العانة سواء فى الرجل أو المرأة.

ولعل إبليس كان يعرف ما سيحدث لهما من شعور بالخزى عندما تبدو لهما عوراتهما. وكان هذا جزءاً من انتقامه من آدم.

«فوسوس لهما الشيطان، ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما» (٢٠ – الأعراف).

«يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان، كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما» (٢٧ – الأعراف).

ولعل الرأى الأول هو أقرب الآراء إلى الحقيقة – وهو أن شعرهما كان من الطول بحيث يغطى جميع أجزاء جسمهما. فلما أكلا من الشجرة سقط الشعر وبدت لهما سوءاتهما.

«وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة» (٢٢ – الأعراف، ١٢١ – طه).

وعن ابن عباس قال ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوءاتهما. وخصف النعل إلصاق بعضه ببعض. فكانا يخيطان ورق التين ليغطيا أنفسهما.

ولتوضيح ما سبق أن ذكرناه عن اعتناق اليهود لفكرة تجسد الإله نذكر ما كتبوه فى التوراة عن هذا الموضوع، إصحاح ثالث تكوين: وسمعا صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت؟ فقال سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت. فقال من أعلمك أنك عريان. هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فقال آدم، المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله للمرأة ما هذا الذى فعلت؟ فقالت المرأة: الحيَّة غرتنى فأكلت. فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وتُرابًا تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق

رأسك وأنت تستحقين عقبه. وقال للمرأة تكثيرا أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك. وقال لآدم. لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. شوكا وحسكا تنبت لك. وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود. وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما... وتتجلى النظرة التجسدية للاله عندهم فى الفقرة التالية:

وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منَّا عارفا الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها. فطرد الإنسان وأقام شرقى جنة عدن.

فى الأرض :

أيًا ما كان مكان الجنة، فقد كانت نهاية المطاف فى الأرض، واستقر آدم وحواء فى الأرض.

وجاء قوله تعالى :

«فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه. وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو. ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين» (٣٦ - البقرة).

ويذكر القرآن الكريم ندمهما على معصيتهما لأمر الله.

«وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» (٢٢ - ٢٣ - الأعراف).

ونرى هنا بلاغة السرد القرآنى. فإن الكلام ولو أنه على لسان آدم وحواء إلاَّ أنه يصح أن يقال فى كل موقف ينسى الإنسان فيه تعاليم الله ويخالفها. ثم يتذكر فيقول: رب إنى ظلمت نفسى، وإن لم تغفر لى وترحمنى لأكوننَّ من الخاسرين. فليس الهدف مجرد سرد تاريخى لما حدث. بل ليستخلص القارئ العظة والعبرة وهى كيف استغفر آدم لذنبه فتاب الله عليه ليكون أيضا استغفارنا لما قد نرتكبه - وتكون التوبة من نصيبنا إن شاء الله كما كانت لآدم.

«فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (٣٧ - ٣٨ - البقرة).

والمشهور عن ابن عباس أن هذه الكلمات التى تلقاها آدم ليقولها ليتوب الله عليه هى قوله: ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. كما فى الآية.

وعن ابن مسعود أنها. سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا إله إلاَّ أنت. ظلمت نفسى فاغفرلى. فإنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت.

والتوبة هى الرجوع - وإذا أسندت إلى العبد تضمنت أموراً ثلاثة: معرفة الذنب - والندم - والعزم على عدم العود . وكثيراً ما تطلق على الندم وحده. كما فى الحديث الشريف: الندم توبة.

وإذا أسندت إلى الله سبحانه وتعالى كانت عبارة عن قبول التوبة والعفو عن الذنب.

«وعصى آدمُ ربَّه فغوى. ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى» (١٢٢ - طه).

وفى تفسير قوله تعالى «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه» روايات لا تثبت ولا تخرج عن كونها من الإسرائيليات أو الموضوعات. من ذلك ما ذكره السيوطى (الدر المنثور جـ ١ ص ٥٨ - ٦١) قال: عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله (ﷺ): لما أذنب آدم الذنب الذى أذنبه رفع رأسه إلى السماء فقال أسألك بحق محمد إلاَّ غفرت لى. فأوحى الله إليه ومن محمد؟ فقال: تبارك اسمك، لما خلقتنى رفعت رأسى إلى عرشك فإذا فيه مكتوب: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فعلمت أنه ليس أحد أعظم عندك قدراً ممن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله إليه: يا آدم إنه آخر النبيين من ذريتك، ولولا هو ما خلقتك.

ومن الموضوعات أيضا، ما أخرج الديلمى عن على، قال: سألت النبى (ﷺ)» عن قول الله: **«فتلقى آدم من ربه كلمات، فتاب عليه»** فقال: إن الله أهبط آدم بالهند، ومكث آدم بالهند مائة سنة باكيا على خطيئته، حتى بعث الله إليه جبريل وقال: يا آدم ألم أخلقك بيدى؟ ألم أنفخ فيك من روحى؟ ألم أسجد لك ملائكتى؟ ألم أزوجك حواء أمتى؟ قال: بلى قال: فما هذا البكاء؟ قال: وما يمنعنى من البكاء وقد أخرجت من جوار الرحمن، قال فعليك بهذه الكلمات، فإن الله قابل توبتك وغافر ذنبك، قل: اللهم إنى أسألك بحق محمد، وآل محمد. سبحانك لا إله إلاَّ أنت، عملت سوءاً وظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم.

ويذكر السيوطى أيضاً عن ابن عباس عن النبى (ﷺ) قال: سأل بحق محمد، وعلى، وفاطمة، والحسن والحسين، إلاَّ تبت علىَّ. فتاب عليه. ومثل هذا الحديث لا يُشك فى اختلاقه وأنه من وضع الشيعة (محمد بن أبو شهبة. الإسرائيليات والموضوعات صـ ٢٥٣ - ٢٤٥).

وكان أمر الهبوط إلى الأرض. وهذا ما كان فى علم الله وقدره من قبل خلق آدم. منذ أن قال الله **«إنى جاعل فى الأرض خليفة»**. وما كان وجوده فى الجنة. سواء جنة فى السماء أو

جنة فى الأرض – إلا لإشهاده تكريم الله له بسجود الملائكة. وإطلاعه على إحدى القدرات التى أودعها الله فيه وهى المقدرة على تسمية الأشياء بأسمائها. وكذلك لمس آدم عدواة إبليس له وحقده عليه منذ أن رفض السجود. ولمس غوايته له ليعصى أمر ربه. وكان أيضا تشريع التوبة.

كل هذه الدروس كان مطلوباً من آدم أن يعيها جيداً قبل أن يخطو أول خطواته على الأرض.

وتختلف كتب التفسير فى مكان هبوط أدم إلى الأرض. فالقائلون بأن الجنة كانت فى السماء يقولون إن آدم نزل بالهند وحواء بجدة وإبليس بالبصرة والحية بأصبهان. ولكن هذه الفُرقة ليس لها من داعٍ إذ يثور السؤال كيف التقى آدم بحواء بعد ذلك وبينهما آلاف الأميال، وليس له علم بالاتجاهات ولا خبرة لعبور الأنهار ولم يكن قد استأنس من الحيوانات ما يُمكِّنه من عبور الصحارى والقفار. والقائلون بهذا الرأى يقولون إن الله كان يطوى الأرض لآدم فى كل خطوة كذا ميل!! وقرب ابن عمر المسافة فقال أهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة. وكما سبق أن قلنا إن المرجح هو أن جنة الاختبار كانت فى عدن فى مكان مرتفع وحين أخرج آدم منها هبط إلى السهول المنخفضة. والأقرب إلى العقل أن آدم وحواء خرجا معاً وهبطا إلى الأرض فى مكان واحد.

ويرجح هـ . ج ويلز فى كتاب معالم تاريخ الإنسانية (ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد جـ ١ ص ١٠١) أن مكان ظهور أول إنسان العصر الحجرى الحديث هو مكان ما من آسيا الجنوبية الغربية – وهذا المكان هو اليمن ويتفق مع القائلين بأن الجنة كانت فى عدن.

كان آدم فى الجنة لا يشقى. فقد كانت المعيشة رغداً. والرغد سعة الرزق وكثرته. وثمار الجنة كانت فى متناول يده وموجودة فى كل مكان، وحيث شاء. ولم يشعر بعطش فالأنهار موجودة والماء متوافر ولا يحس برداً ولا زمهريراً.

«إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى. وأنك لا تظمؤا فيها ولا تضحى» (١١٨ – ١١٩ طه).

«وكلا منها رغداً حيث شئتما» (٣٥ – البقرة).

ونبهه الله تعالى إلى عداوة إبليس وأنه سيعمل على إخراجهما من الجنة

«فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك. فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى» (١١٧ – طه).

ومع كل هذا ، نسى آدم التحذير وأكل من الشجرة، وأخرج من الجنة، وبدأ الشقاء.

وهنا نلاحظ أن التحذير كان بصيغة المثنى. لكونه لآدم وحواء. فى حين أن الشقاء كان فى صيغة المفرد المخاطب وهو آدم. مما يحمل ضمناً أن جزءاً أكبر من الشقاء سيكون من نصيب آدم لقوامته على المرأة ومسئوليته فى البحث عن معايش الحياة. وقد يكون فتشقى فى صيغة المفرد والخطاب لآدم ولكنه يتضمن حواء أيضاً لكونه هو الأقوى. وإذا شقى القوى فمن باب أولى أن يشقى الأضعف أيضاً.

وبدأ يحسان بالجوع – ولم تكن الثمار فى متناول يده كثمار الجنة فكان عليه أن يتسلق الأشجار ليصل إلى الثمار. وظمأ – فبحث عن الماء حتى اهتدى إلى نهر أو بئر – وشعر بلفحة الشمس وحرِّها فاحتمى بظل الأشجار. الشئ الرابع الذى كان له فى الجنة هو « ولا تعرى» – وحينما اقترفا المعصية وبدت لهما سوءاتهما غطيا أنفسهما بورق الجنة. وما كانت هذه الأوراق لتدوم بل جفت وتهرَّأت ولعله اهتدى إلى جلود الحيوانات كبديل أكثر دواماً وأكثر مناسبة وكذلك لعلهما بحثا عن كهف يلجأن إليه حماية من البرد. ومن الحيوانات الكاسرة. وحياءً. ليشعرا بالخصوصية وهما يمارسان حياتهما الزوجية.

وقال تعالى : **«هو الذى خلقكم من نفس واحدة. وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به. فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا، لنكونن من الشاكرين. فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما. فتعالى الله عما يشركون».**

(١٨٩ – ١٩٠ الأعراف)

ويقول الألوسى : وهذه الآية عندى من المشكلات .

وقال الإمام أحمد فى مسنده حدثنا عبد الصمد حديثا عن عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبى (ﷺ) قال : لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال لها سمِّيه عبد الحارث فإنه يعيش فسمَّته عبد الحارث فعاش فكان هذا نوعاً من الشرك بالله.

ورواه الترمذى فى تفسير الآية عن مجاهد عن المثنى بن عبد الصمد وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلاَّ من حديث عمر بن إبراهيم. ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعا. ثم قال هذا حديث صحيح الإسناد. ولو أن الإمام أبا محمد بن أبى حاتم فى تفسيره ضعَّفه وأرجَحَ بأن الصحابى عمر بن إبراهيم هو الذى ذكره وقال لعله تلقاه من بعض أهل الكتاب مثل كعب أو وهب.

وقال محمد بن إسحق بن سيار عن داود بن الحصنى عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيُعبِّدهم لله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت. فأتاهما إبليس فقال لو أنكما سميتماه بغير الذى تسميانه لعاش. فولدت ولداً فسماه عبد الحارث.

وقال عبد الله بن المبارك عن شريك بن حصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أتاهما إبليس لعنه الله فقال إنى صاحبكما الذى أخرجكما من الجنة – لتطيعنى أو لأجعلن له قرنى إبل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن. يخوفهما. فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ثم حملت الثانية فخرج ميتاً، أيضا. ثم حملت الثالثة فأتاهما فذكر لهما: فأدركهما حُب الولد فسمياه عبد الحارث.

وقد اعترض عدد من العلماء على تفسير الآية بهذا الشكل السابق ذكره، إذ أن فيه نسبة الشرك إلى آدم وحواء، وآدم عليه السلام نبى معصوم عن الشرك، فمثلا الإمام القرطبى ذكر هذا التفسير وبين عدم ارتضائه له وقال: ونحو هذا مذكور فى الإسرائيليات وليس لها إثبات، فلا يُعول عليها من له قلب. ويقول ابن كثير فى تفسيره : وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب.

وقد وصف ابن كثير الحديث الذى ذكر فى هذا الموضوع أنه حديث شاذ وأن عمر بن إبراهيم الذى رواه قال عنه أبو حاتم الرازى: لا يُحتجُّ به. كما قال إن الحسن – المذكور فى سلسلة رواة الحديث – فسر الآية بغير هذا، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله (ﷺ) لما عدل عنه إلى تفسير آخر. فهذا يدل على أن الحديث موقوف على الصحابى ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب مثل كعب أو وهب ابن منبه.

وأما التفسير للأية الذى قال به الحسن، فقد ذكر أن محمد بن ثور عن معمر قال الحسن: عُنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعنى اليهود والنصارى. رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا. وهو بهذا يشير إلى قوله (ﷺ) «ما من مولود إلاَّ ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه» ويقول ابن كثير: ونحن على مذهب الحسن البصرى أنه ليس المراد فى الآية آدم وحواء. وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله تعالى:

«فتعالى الله عما يشركون»

ولعل مما يؤيد ما ذهب إليه ابن كثير هو الآية التالية لذلك:

«أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون. ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون»
(١٩١ – ١٩٢ الأعراف)

فهذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان وهى مخلوقة لله ولا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تنفع.

وعن الحسن وقتادة أن ضمير جعلاً وآتاهما يعود على النفس وزوجها من ولد آدم لا إلى آدم وحواء عليهما السلام، وهو قول الأصم (تفسير الألوسى جـ ٩ ص ١٤٠) ويكون المعنى

قوله تعالى: خلقكم من نفس واحدة، خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وخلق لكل نفس زوجاً من جنسها فلما تغشاها وحملت جعلا له شركاء – فسميا عبد اللات وعبد العزى وغير ذلك. ولذك كان القول «فتعالى الله عما يشركون» بصيغة الجمع يدل على عدم تعلق الآية بآدم وحواء.

وعن أبى مسلم أن صدر الآية لآدم وحواء كما هو الظاهر، بقوله «هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها» وانقطع الحديث. ثم خص المشركين من أولاد آدم بالذكر.

وفى رأينا أن أول الآية: هو الذى خلقكم. خطاب لجمع فهو ليس موجها لآدم وحواء والجمع المخاطب هم ولد هذه النفس وزوجها ويبين الله لهم أنهم خلقوا من نفس واحدة وجعل منها زوجها، ثم تكاثرت الذرية. وأن كل زوجين، حينما تحمل الأنثى يدعوان الله إذا آتاهما صالحاً سيكونان من الشاكرين. فما إن يأتيهما الله صالحاً حتى يجعلا له شركاء سواء فى التسميةأو فى غيرها، وفى نهاية الآية يكون الخطاب ثانية إلى الجمع – من ذرية آدم – فى قول: فتعالى الله عما يشركون ولم يقل عما يشركان – حتى لا يختلط الأمر على القارئ فيظن أن المقصود بالشرك هى النفس الأولى وزوجها أى آدم وحواء.

وعلى كل حال فإنها تبين أن الشيطان لم يكن ليكف عن ملاحقة آدم وحواء حتى بعد إخراجهما من الجنة إذ أنه توعد بنيه أيضا. لقوله مخاطبا الله عز وجل.

«قال أرأيتك هذا الذى كرمت على، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا»
(٦٢ – الأسراء)

ولاشك أن وسوسة الشيطان كانت المحرض لقابيل حتى يقتل أخاه هابيل.

قصة هابيل وقابيل :

وتذكر جل الكتب قصة هابيل وقابيل على النحو التالى:

غَشى آدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض فولدت له قابيل وتوأمته إقليما. ثم هابيل وتوأمته لبودا فى بطن واحد وكان بينهما سنتان فى قول الكلبى، ولما بلغوا مبلغ الرجال أدركوا أمر الله تعالى: أن يتزوج قابيل من لبودا توأمة هابيل ويتزوج هابيل من إقليما توأمة قابيل. وكانت توأمة قابيل – إقليما – هى الأجمل فأراد أن يستأثر بها لنفسه. فقال له آدم إنها لا تحل له. فرفض قابيل. فقال آدم. قربا قربانا. فأيكما تُقُبل قربانه فهو أحق بها.

وكان قابيل صاحب زرع. فقدم صبرة من الطعام من أردإ زرعه. وكان هابيل راعيا صاحب

ماشية، فقدم كبشا سمينا من خيار ماشيته. ووضعا قربانهما على الجبل، فنزلت نار من السماء فأكلت الكبش، ولم تأكل قربان قابيل. فنزلوا عن الجبل وتفرقا. وقد أضمر قابيل فى نفسه قتل أخيه.

«واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا. فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، قال لأقتلنك. قال إنما يتقبل الله من المتقين. لئن بسطت إلىَّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك. إنى أخاف الله رب العالمين. إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين. فطوَّعت له نفسه قتل أخيه فقتله. فأصبح من الخاسرين». (٢٧ – ٣٠ المائدة)

وقد اختلف فى كيفية قتله. فقال بعضهم ضربه بحديدة. ولكن يرد هذا الرأى أن الحديد لم يكن معروفاً فى هذا الوقت. ويقال إن إبليس تمثل له وأخذ طيراً فوضع رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر. وقصد قابيل أخاه وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات.فلما قتله لم يدر ما يصنع به.

«فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه، قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى، فأصبح من النادمين» (٢٢ – المائدة) .

فبعث الله غرابين. قتل أحدهما الآخر. فحفر له، ودفنه برجليه ومنقاره. فعلم كيف يصنع بأخيه. فحفر فى الأرض قبراً لأخيه، ووضعه فيه، ووارى عليه التراب.

وتقول التوراة تكوين – إصحاح ٤ – ٨ (وقد سبق ذكر ذلك فى المقدمة)

فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك. فقال لا أعلم. أحارس أنا لأخى؟ فقال ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخٌ إلىَّ من الأرض. فالأن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائها وهارباً تكون فى الأرض. فقال قايين للرب: ذنبى أعظم من أن يحتمل إنك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض. ومن وجهك أختفى وأكون تائها وهارباً فى الأرض. فيكون كل من وجدنى يقتلنى. فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده. فخرج قايين من لدن الرب وسكن فى أرض نود شرقى عدن.

ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى أراد ألاّ يُقتل قابيل انتقاما لمقتل هابيل. حتى يظل حيا يتعذب بذنبه، ويشقى فى فلاحة الأرض فلا تعود تعطيه غلتها وثمارها. ويظل بقية حياته هارباً وتائها فى الأرض.

ومن الأقوال التى لا يعتد بها، وما قاله أيضا الضحاك عن ابن عباس، أنه مكث يحمل أخاه

فى جراب على عاتقه سنة حتى أنتن - فإن تغير الرائحة يظهر بعد أيام قليلة فلا يعقل أن يتحملها أحد، كما أن لفظ القرآن الكريم فبعث الله، فالفاء تدل على الترتيب والتعقيب من غير تراخ.

ومن الإسرائيليات أيضاً المروية عن دهب: أن الأرض نشفت دم ابن آدم المقتول. فلعن ابن آدم الأرض. فمن أجل ذلك لا تنشف الأرض دماً بعد دم هابيل إلى يوم القيامة. ولعل هذا القول وضعه الأقدمون لتعليل ظاهرة أن الماء والسوائل الأخرى تتشرب فى الأرض بينما يظل الدم لا يتشرب. ولكن حاليا يقدِّم لنا العلم تفسير هذه الظاهرة. ليس بسبب لعن ابن آدم للأرض. بل بسبب أن الدم فيه مواد تجعله يتجلط بمجرد ملامسته للتراب ومتى تجلط الدم لا يمكنه التسرب فى مسام الأرض.

ونعيد هنا ما سبق أن قلناه فى المقدمة، من أن نظرة بنى إسرائيل للإله، فيها نزعة إلى التجسيد. يتضح ذلك فى قول قايين للرب: من وجهك أختفى!! فى حين يؤكد القرآن الكريم على إحاطة علم الله بكل شئ فى قوله تعالى:

«عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار» (٩ - ١٠ الرعد) .

فمهما هرب قابيل فهو لن يغيب عن علم الله.

ومن نظرتهم التجسيدية للإله أنهم يخاطبونه كما يخاطبون البشر. من ذلك ما سبق ذكره فى المقدمة (ص٧) من رد قابيل على الرب لما سأله عن هابيل. فقال لا أعلم. أحارس أنا لأخى؟ وهو سؤال استنكارى لا يليق من عبد فى حضرة ربِّه.

وهكذا كان دم هابيل أول دم أريق على الأرض من دم ولد آدم - وقال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية عن آخرين عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (ﷺ) «لا تُقتل نفس ظلماً إلاَّ كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها. لأنه أول من سن القتل».

وحديث آخر روى عن عبد الرازق عن معمر عن الحسن قال قال رسول الله (ﷺ) : «إن الله ضرب لكم ابنى آدم مثلاً، فخذوا من خيرهم ودعوا شرهم».

ويقال إن عمر هابيل وقت أن قُتل كان عشرين سنة. ويكون عمر قابيل آنذاك اثنتين وعشرين سنة لأنه أكبر من أخيه بعامين.

وقال سالم بن أبى الجعد لما قتل ابن آدم أخاه، مكث آدم مائة سنة حزينا لا يضحك، ثم أُتِي فقيل له، حياك الله وبياك أى أضحكك. وبُشِّر بغلام. فعند ذلك ضحك.

وطاف آدم على امرأته فولدت غلاماً بدون أخت. وقالت إنه قد وهُب لها خلفاً من هابيل الذى قُتل وسُمِّى شيث ومعناها «هبة الله». وكان عمر آدم يوم أن ولد شيث مائة وثلاثين سنة.

أمَّا ما نسب إلى آدم عليه السلام من قول الشعر يرثى به هابيل فهو أيضا من الموضوعات إذ الشعر ممنوع على الأنبياء قياساً على ما قيل فى حق رسول الله (ﷺ) .

«وما علمناه الشعر وما ينبغى له» (٦٩ - يس) .

وإن قيل إن ذلك كان خصوصية للمصطفى حيث كانت معجزته هى القرآن وحتى لا يختلط الأمر على الناس. إلا أن الآيات التالية تجعله أيضا ممتنعا على باقى الأنبياء لما فيه من مبالغات وغزل ومدح وهجاء وهو مالا يليق بالأنبياء وعصمتهم.

«والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون. وأنهم يقولون مالا يفعلون» (٢٢٤ - ٢٢٦ الشعراء) .

هل كان آدم نبيا أم رسولاً

روى ابن حيان فى صحيحه عن أبى ذر قال قلت يارسول الله كم الأنبياء قال مائة وعشرون ألفا. قلت يارسول الله من كان أولهم قال آدم. قلت يارسول الله نبى مرسل. قال نعم.

وفى حديث آخر بنفس الإسناد أنه أُنزِل عليه خمسون صحيفة.

وقال الطبرانى حدثنا نافع بن هرمز عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال: قال رسول (ﷺ) . ألا أخبركم بأفضل الملائكة جبريل. وأفضل النبيين. آدم.. الخ وهذا إسناد ضعيف فإن نافعاً أبا هرمز كذبه ابن معين وضعفه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم وغيرهم.

وتقول بعض الروايات إن عدة صحف أنزلت على آدم وأن بعضاً منها أنزل أيضا على ابنه شيث وكان آدم قد استخلفه من بعده وعهد إليه وعلمه عبادات ساعات النهار والليل. وبالطبع فإن آدم كان يعظ بنيه وأحفاده وذريته. ويحثهم على طاعة الله وعبادته.

وبلغ آدم عمره الذى قدره الله له. وفى حديث عن ابن عباس وأبى هريرة مرفوعا أن عمر آدم اكتتب فى اللوح المحفوظ ألف سنة. وهذا يمكن ألا يتعارض مع ما ورد فى التوراة من أنه عاش ٩٣٠ سنة إذ يمكن التوفيق بين الرقمين من أن ٩٣٠ سنة شمسية تساوى ٩٥٧ سنة قمرية ويضاف إلى ذلك ٤٣ سنة فترة مقامه فى الجنة قبل خروجه منها على حسب ما ذكره ابن جرير فيكون الجميع ألف سنة.

وتوفى آدم عليه السلام يوم جمعة. وماتت حواء بعده بسنة واحدة. وقال ابن إسحق وغيره إن الله بعث الملائكة غسلته وكفنوه فى ثلاثة ثياب، ثم لحدوا له ودفنوه، ثم قالوا لمن حضروا: هذه سنة ولد آدم من بعده. ويقال إن قبره كان فى كهف وكان بنوه وأحفاده يزورون قبره ويذكرون الله عنده وظلوا على تعاليمه وشريعته زمناً. ولكن هذا لم يكن ليستمر طويلاً فقد كان الشيطان يتربص بهم.

أبنـــاء آدم

«يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء». (١ - النساء)

وقال أهل العلم بأخبار السلف بأن حواء كانت تلد لآدم توأمين فى كل بطن غلاماً وجارية إلاّ ابنه شيث فقد ولدته منفرداً. وكان جميع من ولدتهم حواء أربعين ذكرا وأنثى فى واحد وعشين بطناً أولهم قابيل وتوأمته إقليما وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أمة المغيث.

وقد عاش آدم على الأرض ٩٣٠ سنة (٩٥٧ سنة قمرية) وماتت حواء بعده بسنة واحدة، كما سبق أن ذكرنا . وعدد ٢١ ولادة فى ٩٣٠ سنة تعتبر قليلة جداً. فإن فى الريف، فى عصرنا الحالى من تصل ولاداتها إلى ١٥ ولادة فى عمر لا يزيد عن الستين أو السبعين عاماً.

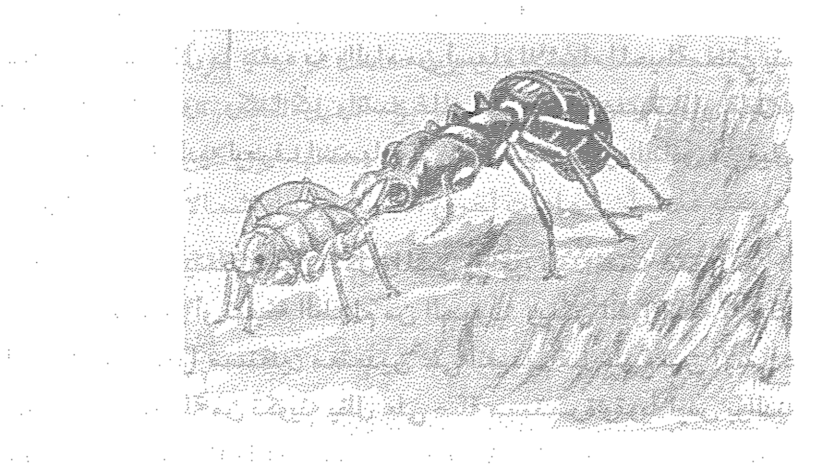
ولهواة المسائل الحسابية أسوق الأرقام التالية: لو فرضنا أن عدد الولادات استمر بمعدل ٢٠ ولادة لمدة ٣ أجيال ثم نقص إلى معدل ١٥ ولادة لمدة ٣ أجيال التالية، ثم نقص إلى ١٠ ولادات لمدة ٣ أجيال أخرى ثم إلى ٥ ولادات فقط لثلاثة أجيال أيضا. لو فرضنا ذلك وهو فرض معقول جداً لوصلنا إلى نتيجة غريبة.

آدم وحواء	= ٢
الجيل الأول : ٢٠ ولادة × ٢ توأم = ٤٠	
وهابيل قتل وعوضا عنه شيث	= ٤٠
الجيل الثانى ٤٠ فرد ÷ ٢ = ٢٠ أسرة نبدأ بها الجيل الثانى	
ونفترض أن كل أسرة أنجبت ٢٠ طفل	= ٤٠٠
الجيل الثالث ٤٠٠ فرد ÷ ٢ = ٢٠٠ أسرة × ٢٠ ولد	= ٤٠٠٠
الجيل الرابع ٤٠٠٠ ÷ ٢ = ٢٠٠٠ أسرة × ١٥ طفل	= ٣٠ ٠٠٠
الجيل الخامس ٣٠,٠٠٠ ÷ ٢ = ١٥,٠٠٠ أسرة × ١٥ طفل	= ٢٢٥ ٠٠٠
الجيل السادس ١١٢,٥٠٠ أسرة × ١٥ طفل	= ١ ٦٨٧ ٥٠٠
الجيل السابع ٨٤٠,٠٠٠ أسرة × ١٠ طفل	= ٨ ٤٠٠ ٠٠٠
الجيل الثامن ٤,٢٠٠,٠٠٠ أسرة × ١٠ طفل	= ٤٢ ٠٠٠ ٠٠٠
الجيل التاسع ٢١ مليون أسرة × ١٠ طفل	= ٢١٠ ٠٠٠ ٠٠٠
الجيل العاشر ١٠٥ مليون أسرة × ٥ طفل	= ٥٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠
الجيل الحادى عشر ٢١٢,٥ مليون أسرة × ٥ طفل	= ١ ٣١٢ ٥٠٠ ٠٠٠
الجيل الثانى عشر ٦٥٦,٢٥ مليون أسرة × ٥ طفل	= ٣ ٢٨١ ٢٥٠ ٠٠٠
	= ٥ ٣٨١ ٠٩٦ ٩٤٢

أى أنه فى مدى اثنى عشر جيلاً وصل عدد ذرية آدم أكثر من ٥ مليارات وهو يقارب عدد السكان الإجمالى لجميع شعوب الكرة الأرضية فى وقتنا الحالى. بعد ١٦ أو ٢٠ ألف سنة من عهد آدم. فلابد أن نسبة الوفيات كانت مرتفعة جداً جداً.

لقد أدرجت هذه المسألة الحسابية لأن البعض قد يستبعد أن يكون كل شعوب الأرض هم من نسل آدم وحواء. ولكن الحساب يؤيد أن ذلك ممكن جداً.

نعود إلى آدم وحواء أول نزولهما على الأرض وبالطبع كان أكلهما كله فاكهة الأشجار الناضجة – وظلا على ذلك عدداً من السنين. ولابد أن الله ألهم آدم استئناس الغنم وزراعة الحبوب. فنحن نرى أن بعض أنواع النمل تزرع فى جحورها أنواعاً من الفطريات (عيش الغراب) لتتغذَّى عليها. ونعلم أيضاً أن أنواعاً من النمل تقوم بتربية حشرة المن وتغذيتها وتعمل على تكاثرها وحلب لبنها لتتغذى عليها – (شكل ١).



شكل ١ – يحلب بعض النمل حشرة المن .

ولاشك أن آدم اهتدى أيضا إلى زراعة الحبوب وكذلك إلى رعى الأغنام وأكل لحومها. وقد رأينا فى قصة ابنى آدم أن قابيل كان يزرع الحبوب وأن هابيل كان يرعى الأغنام.

وبمولد الأبناء الأول لآدم. بدأت نواة «القبيلة» و «المجتمع».

ويختلف البشر عن الحيوانات فى هذا المجال. فالوليد من قطيع الغنم أو البقر – بعد بضع ساعات من الولادة – يهب منتصباً على قوائمة الأربع ويمشى مع القطيع. صحيح أنه يلازم أمه التى ترضعه لعدة أشهر ولكنه سرعان ما يتعلم الأكل ويمكنه الاعتماد على نفسه ويستقل

عن أمه كُليَّة، وقد تنقطع صلته بها. أمَّا عن الأب، فلا شعور بالأبوة إلاَّ فى الحيوانات التى يتلازم فيها الذكر والأنثى طول حياتهما. المهم أن الحيوانات يمكنها الاستقلال بنفسها فى فترة مبكرة من العمر. وإن كانت غالبية الرئيسيات تعيش فى «قطعان» أو «مجموعات» تسهل لها محاصرة فريسة واقتناصها لمأكلها.

ولكن البشر يكونون «مجتمعات». وأحد العوامل التى تحتم «الحياة الاجتماعية» للبشر يتمثل فى الوقت اللازم لتربية الأطفال الآدميين. ففترة الرضاعة تمتد إلى عامين، وإن كانت تقل فى بعض الأحيان عن ذلك ببضعة أشهر. كذلك فإن تعلم المشى يحتاج إلى الاعتماد على الوالدين. ثم يتعلم الطفل الكلام عن طريق محاكاة الأصوات التى تصدر عن الوالدين. ثم يتعلم اللغة بالربط بين شئ ما وكلمة ما، أى يتعلم أسماء الأشياء. وهذه هى المَلَكة التى أودعها الله فى آدم وبنيه حينما قال **«وعلم آدم الأسماء كلها»** فلم يكن العلم مقصوراً على آدم فقط أو آدم وحواء معاً. بل كانت مَلَكة مودعة فيه لإطلاق الأسماء على الأشياء التى يراها. وتتملكنا الفرحة أول ما ينطق أولادنا «بابا» و «ماما» ونبدأ فى تعليمهم هذه يد وهذه رجل وهكذا. ويختزن الطفل فى عقله، كل ما يتفوه به والداه من أسماء للأشياء المحيطة. حتى يتعلم الأسماء كلها!! أسماء عالمه المحدود. وكلما كبر واتسع عالمه تعلم أسماء جديدة. وإن قابل أشياء لم تعرض له من قبل أشار لوالديه ليعرف اسمها. وإن كان شيئا لم يره الناس من قبل. وضعوا له اسماً يعرفونه به.

وحتى بعد أن يتعلم الطفل الأكل والمشى واللغة، يجد نفسه عاجزاً عن الوصول إلى الغذاء فى قمم الأشجار أو تهيئة الطعام من الحبوب. ويمكن القول بأنه لا يمكن للأطفال من بنى البشر أن يصبحوا مستقلين معتمدين على أنفسهم قبل بلوغ سن الإثنى عشر عاماً. وخلال هذه الفترة الطويلة من تكوينه يظل على صلة مستمرة وقوية ليس بوالديه فقط، بل بإخوته وأخواته، سواء من كانوا أكبر منه سنا أو أصغر منه. ومن خلال هذه المعاشرة الطويلة تنتقل إليه خبراتهم. ويلمس فائدة ذلك ويميل إلى البقاء داخل المجموعة. ومن الطبيعى أن تكون هناك اختلافات فى الطباع والميول وبالتالى تحدث اختلافات فى الآراء. وصدامات وصراعات نتيجة رغبة أحد الأطراف الاستئثار بميزة دون فرد آخر.

وهذا حدث فى المجتمع الأول، مجتمع آدم وحواء، وقد بلغ قابيل وأخته سن الثانية والعشرين وهابيل وأخته سن العشرين وأراد قابيل الاستئثار بأخته توأمته مع أن ذلك كان ممنوعاً. وقد سبق تقديم القصة. وقتل قابيل أخاه هابيل وكان هذا من عمل الشيطان ووسوسته تمشيا مع قول إبليس:

«لأزينن لهم فى الأرض. ولأغوينهم أجمعين». (٢٩ – الحجر)

ومن الطبيعى أن قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل، شعر ببشاعة جريمته، ولم يكن ليتحمل نظرات أبويه، ولا نظرات إخوته المستنكرة لفعلته، وخرج هارباً فى الأرض خوفاً من أن يقتله أحد إخوته انتقاما لمقتل هابيل.

وتقول التوراة: فخرج قايين من لدن الرب وسكن فى أرض نود شرقى عدن.

وحتى بدون هذه الجريمة، فما كان لبنى آدم وأحفادهم ليبقوا فى مكان واحد. فلقد رأينا فى المسألة الحسابية السابقة أنهم – بعد ثلاثة أجيال فقط – ولو افترضنا الجيل عشرين سنة – أى بعد ستين سنة وصل عددهم إلى ٤٤٤٢ فرداً. ولم تكن البقعة التى نزل بها آدم وحواء لِتَسَعَ كل هذا العدد ولا لعُشْرِه. فكان لابد أن ينقسموا جماعات وترتحل كل جماعة سعيا وراء مكان جديد تتوافر فيه مقومات المعيشة من أكل وشرب وأماكن للسكنى. فإن كان آدم وحواء قد وجدا كهفاً يأويان إليه ، يحتميان به من البرد وحماية لهما ولأبنائهما من الحيوانات المفترسة، فما كانت الكهوف لتتوافر لهذا العدد الكبير من الأحفاد فى مكان واحد. وهكذا كانت العوامل التى تحدد عدد الجماعة هى الإمكانات الغذائية وتوافر المأوى، وليس من المحتمل أن أى وحدة من وحدات المجتمعات الأولى كان يزيد عددها عن ٢٠٠ فرداً بل المرجح أنها كانت أقل من ذلك بكثير. وهكذا كان لابد أن ينقسم أبناء الجيل الثالث (٤٤٤٢) إلى حوالى اثنين وعشرين وحدة يرتحل أغلبها وتبقى الوحدة «الأم» فى مكانها. وإن كان قابيل قد ارتحل شرقاً بعد ارتكاب جريمته فلابد أن جماعات أخرى اتجهت غرباً أو شمالاً. ووجب علينا أن نذكر شيئًا عن جغرافية المكان حتى نعرف أى الطرق سلكت هذه المجموعات فى ارتحالها وهجرتها. ونبدأ بنبذة عن الأرض ونشأتها.

الأرض :

لا يهمنا هنا كيف نشأت الأرض. هل نتجت من تكثف سحابة من الغبار الموجود بين الكواكب وتقاربت ذراته فارتفعت درجة حرارته. أو أن نجما كبيرا مر قرب الشمس فجذب جزءًا من مادتها، انتثر وتكونت منه الكواكب السيارة التى تدور حول الشمس ومن بينها الأرض. فكل النظريات تؤكد أن الأرض بعد تكوينها كانت كتله من الحجارة والمعادن المنصهرة. وبمرور الزمن برد سطحها وظهرت به تجاعيد، فظهرت الجبال وقيعان المحيطات التى امتلأت بالماء عند تكثف بخاره المحيط بالأرض.

ومرت على الأرض أزمنة لا يعلم مداها إلى الله سبحانه وتعالى ولا يعلم طول اليوم إلاَّ هو. ولكنه – كما أخبرنا جل وعلا.

«خلق الأرض فى يومين». (٩ – فصلت)

ولا يعلم أحد ما طول اليوم من هذه الأيام.

«وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون». (٤٧ - الحج)

«تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنه». (٤ - المعارج)

ولاشك أن هناك - فى علم الله - أيامًا أخرى أطول من ذلك بكثير يصل طول اليوم إلى ملايين السنين بل إلى آلاف الملايين من السنين وما ضرب الله المثلين السابقين إلاّ تقريبا لأذهاننا.

وتمكن العلماء من دراسة صخور الأرض ومعرفة الأحقاب التى مرت بها الأرض وقسموها إلى حقبة ما قبل الحياة. وهى ما قبل ٣٥٠٠ مليون سنة. وكانت الأرض لاتزال ملتهبة. فلم يكن من الممكن أن تنمو عليها أى حياة.

ثم بدأت الأرض تبرد. وبدأت أنواع الحياة تظهر عليها تباعاً حسب ملاءمة درجة الحرارة، وتركيب الجو المحيط بالأرض. كل ذلك ليضع الله الأقوات فى الأرض.

«قل أئنّكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادًا ذلك رب العالمين، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها. وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين».
(٩ - ١٠ فصلت)

وكانت المعادن فى باطن الأرض من ذهب وفضة وفحم. وردمت بعض البحار بما فيها من أحياء مائية تحولت بمرور الزمن إلى بترول ، وظلت بحارٌ أخرى زاخرة بالأسماك.

«وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا». (١٤ - النحل)

وظهرت النباتات على اليابسة .

«وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه». (٩٩ - الأنعام)

ثم ظهرت الثدييات.

«والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون». (٨ - النحل)

كل ذلك تمهيد لظهور خليفة الله فى الأرض وهو الإنسان .

وكانت الأرض تتعرض فى بعض الأوقات إلى انخفاض شديد فى درجة الحرارة وتتكون طبقات من الجليد تغطى أجزاءًا كبيرة من الكرة الأرضية. ثم تدفأ الأرض وينصهر الجليد ويتحول إلى ماء وتفيض الأنهار وتمتلئ البحار والمحيطات. ويقدر العلماء أن أربعة عصور جليدية قد مرت على الأرض وكان آخر هذه العصور الجليدية فى قمته منذ ٣٠ ألف سنة

تقريبا. وكان نزول آدم إلى الأرض فى بداية فترة الدفء بعد العصر الجليدى الرابع - منذ حوالى ٢٠ - ١٥ ألف سنه.

وكما نرى من شكل ٢و٣ فإنه أثناء العصر الجليدى. يتبخر ماء البحار والمحيطات وبدلاً من سقوط المطر. يسقط بَرَد، وتتراكم الثلوج. فتقل مياه البحار والمحيطات وتتكشف الأجزاء الضحلة من قيعانها. وبعض المضايق الحالية تكون وقتئذ أرضا جافة يسهل إجتيازها.

وكما يتضح من شكل ٤ - أن مضيق باب المندب لم يكن موجوداً. بل كان أرضا يابسة يسهل اجتيازها، وكذلك مضيق هرمز.

سبق أن قلنا إن قابيل لما قتل هابيل فرَّ هارباً فى اتجاه الشرق، فى طريق الهجرة رقم١ وسكن أرض نود شرقى عدن. ولكن مع تكاثر بنى آدم وأحفاده تبعه آخرون وكلما تكاثر العدد اندفعت الهجرات كما فى الشكل حتى وصلت إلى مكان مضيق هرمز وعبرته إلى جنوب آسيا ثم إلى جنوب شرق آسيا ثم أستراليا كما فى شكل ٥.

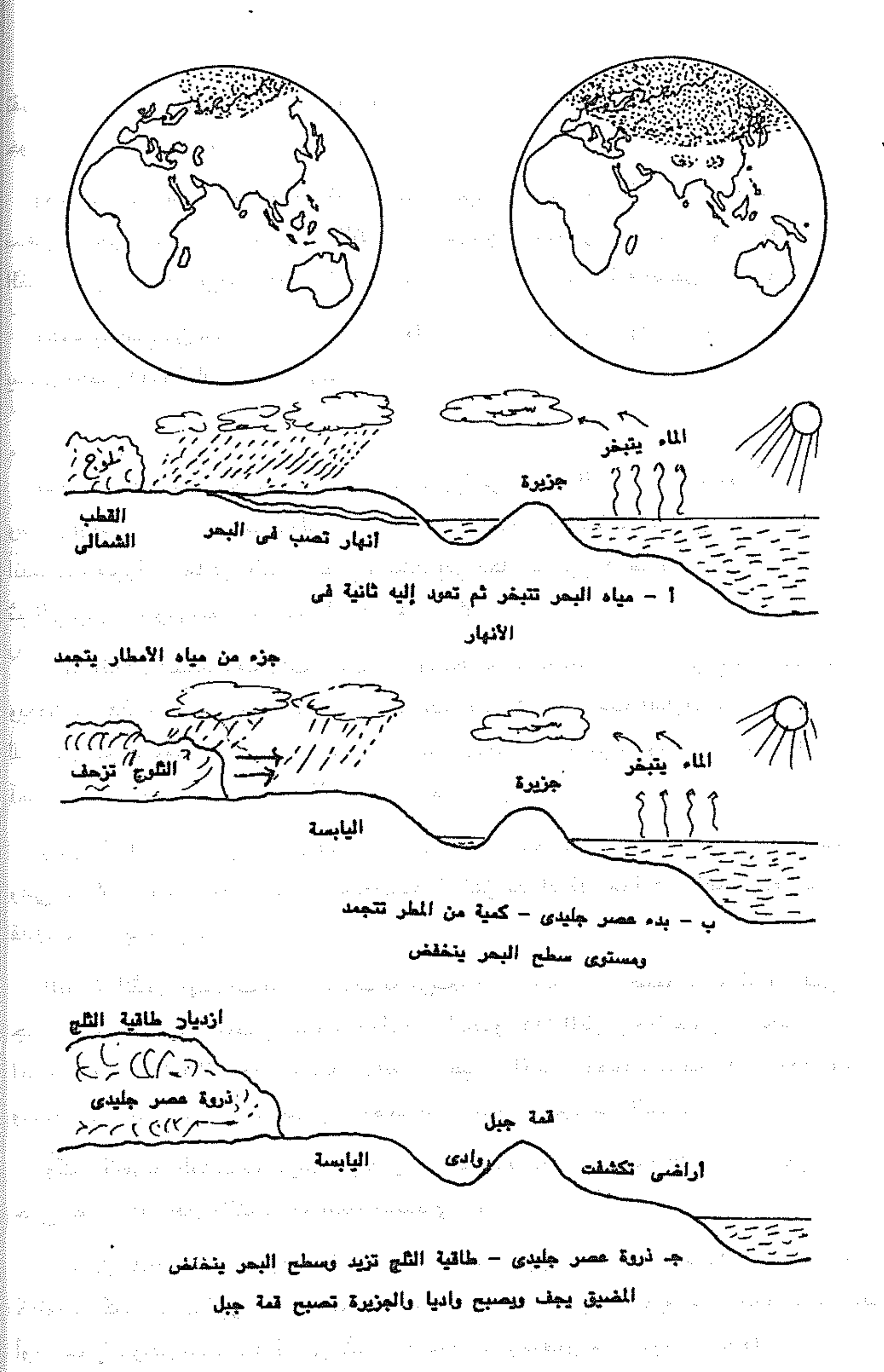
ولابد أنه قد اندفعت هجرات أخرى إلى وسط آسيا ثم عبر مضيق برنج إلى الأمريكتين. ويكون فى هذا تفسير لوجود بعض من بنى آدم عند اكتشاف هذه القارات فيما بعد - وهذا للرد على من يدَّعون أن سكان أستراليا الأصليين والهنود الحمر بأمريكا قد انحدروا من آدم آخر غير سيدنا آدم. وزعموا أن ذلك يؤيد نظرية التطور.

ومن هذا الشكل نرى أن من عمروا جنوب شرق آسيا واستراليا كانوا من نسل قابيل. وهى أماكن لم يظهر فيها نبى أو رسول. وهذا يتفق مع العقل. فما كان الله ليجعل من نسل قاتل أخيه نبيا أو رسولاً.

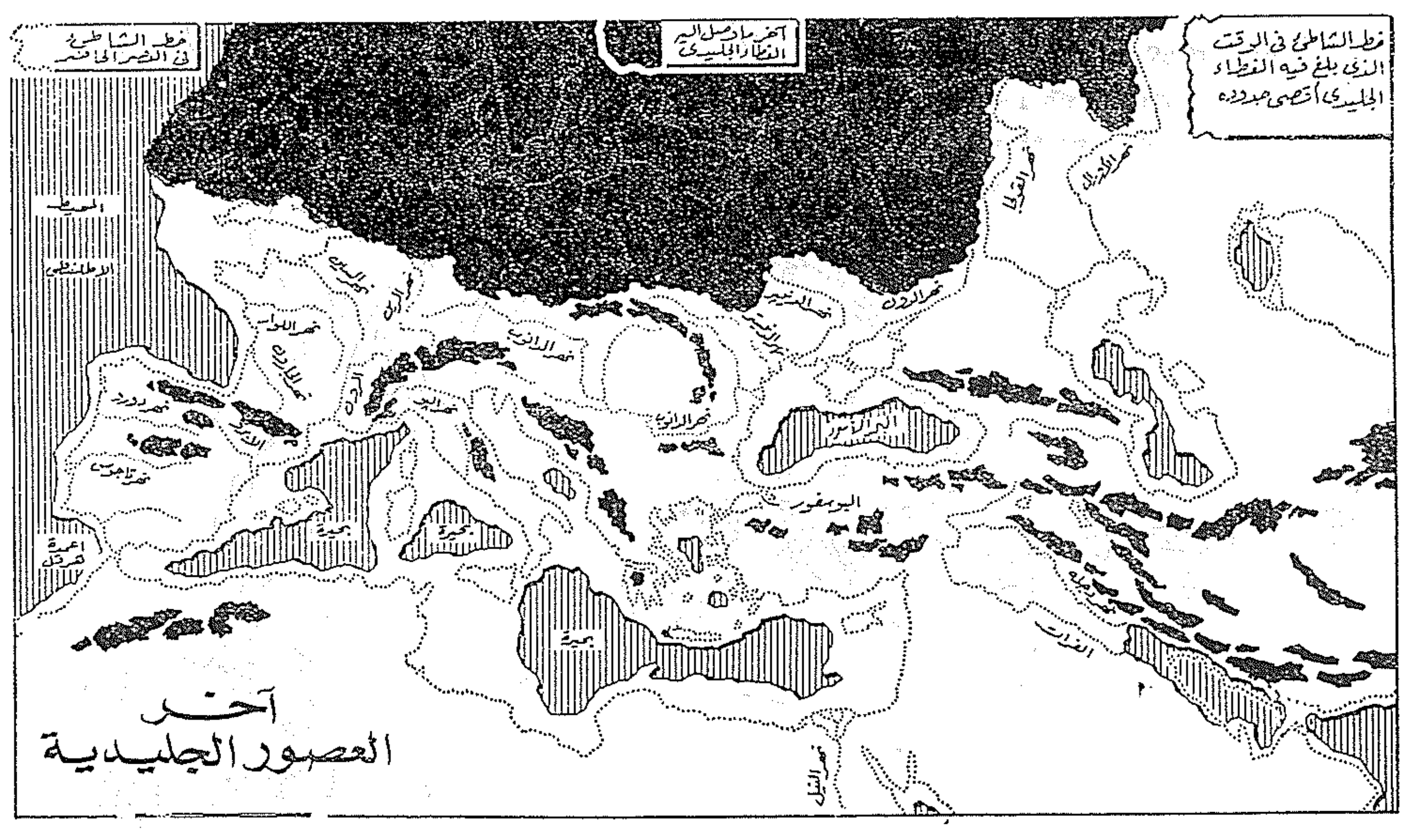
الطريق الثانى لهجرات بنى آدم بعد تكاثرهم، كان غربا: عبر مضيق باب المندب الذى كان جافا. ولابد أن أبناء شيث بن آدم وأحفاده قد اتخذوا هذا الطريق ولما جابهتهم جبال إثيوبيا المرتفعة ساروا شمالاً بجوار الساحل الغربى للبحر الأحمر وكما سنفصل فيما بعد. فإنهم وصلوا إلى وادى النيل الخصيب وعمروه ثم ظهر فيهم إدريس عليه السلام.

وكان الطريق الثالث للهجرات من عدن، هو شمالاً بحذاء الساحل الشرقى للبحر الأحمر حتى وصلوا فلسطين والشام. ثم آسيا الصغرى فأوربا.

قلنا إن قابيل وبنيه ساروا شرقاً. وأصبحوا بعيدين وغير مختلطين بأبناء عمومتهم الذين كانوا يسكنون قرب قبر آدم. ولم يكونوا ليستطيعوا أن يذهبوا ليزوروا قبر جدهم. وتضايق أولاد قابيل. ولعل أحدهم قال: إن لأبناء أعمامنا ما يطوفون حوله ويعظمونه وأنتم مالكم من

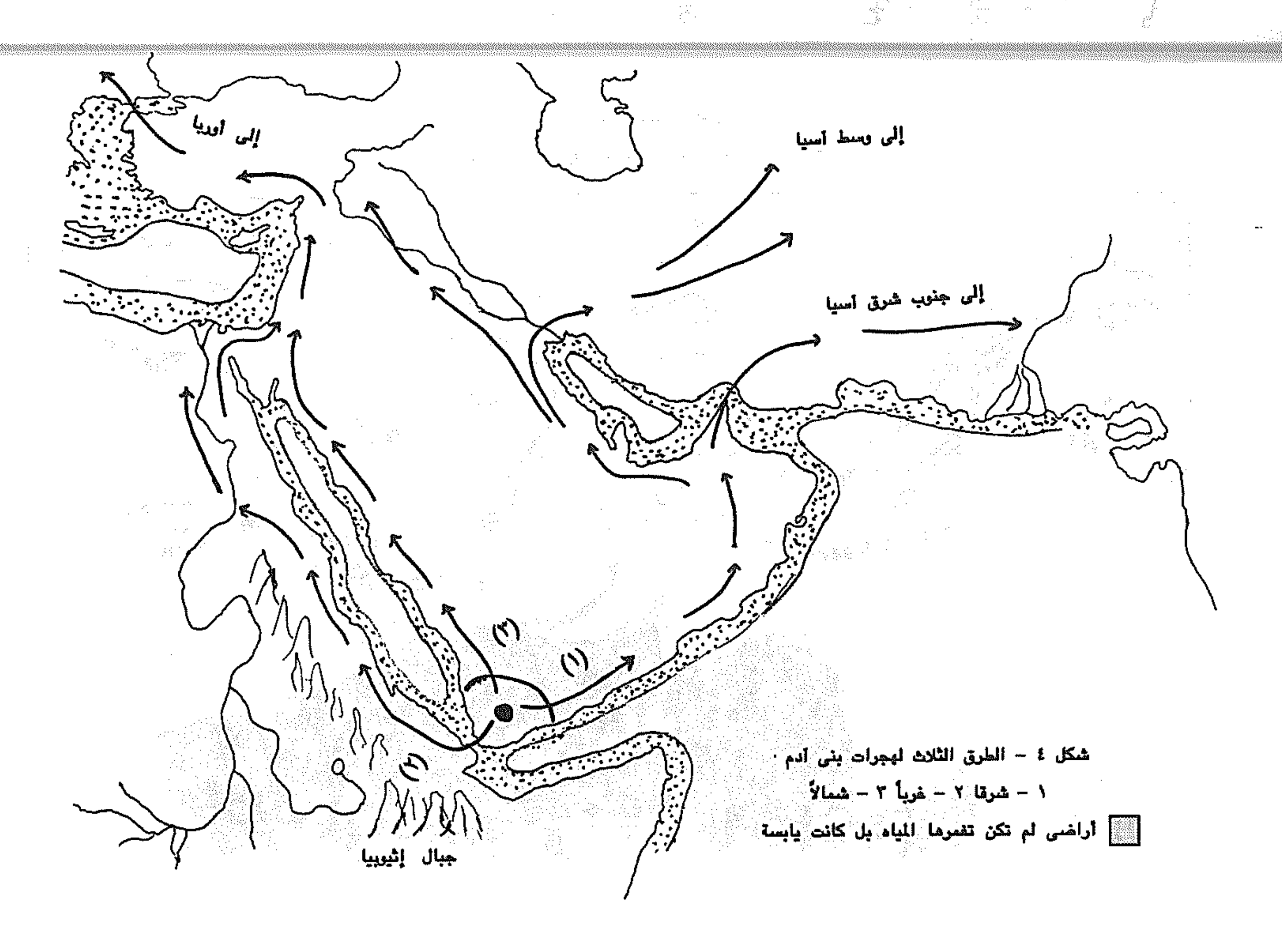


شكل ٢ – انخفاض سطح البحر فى العصور الجليدية

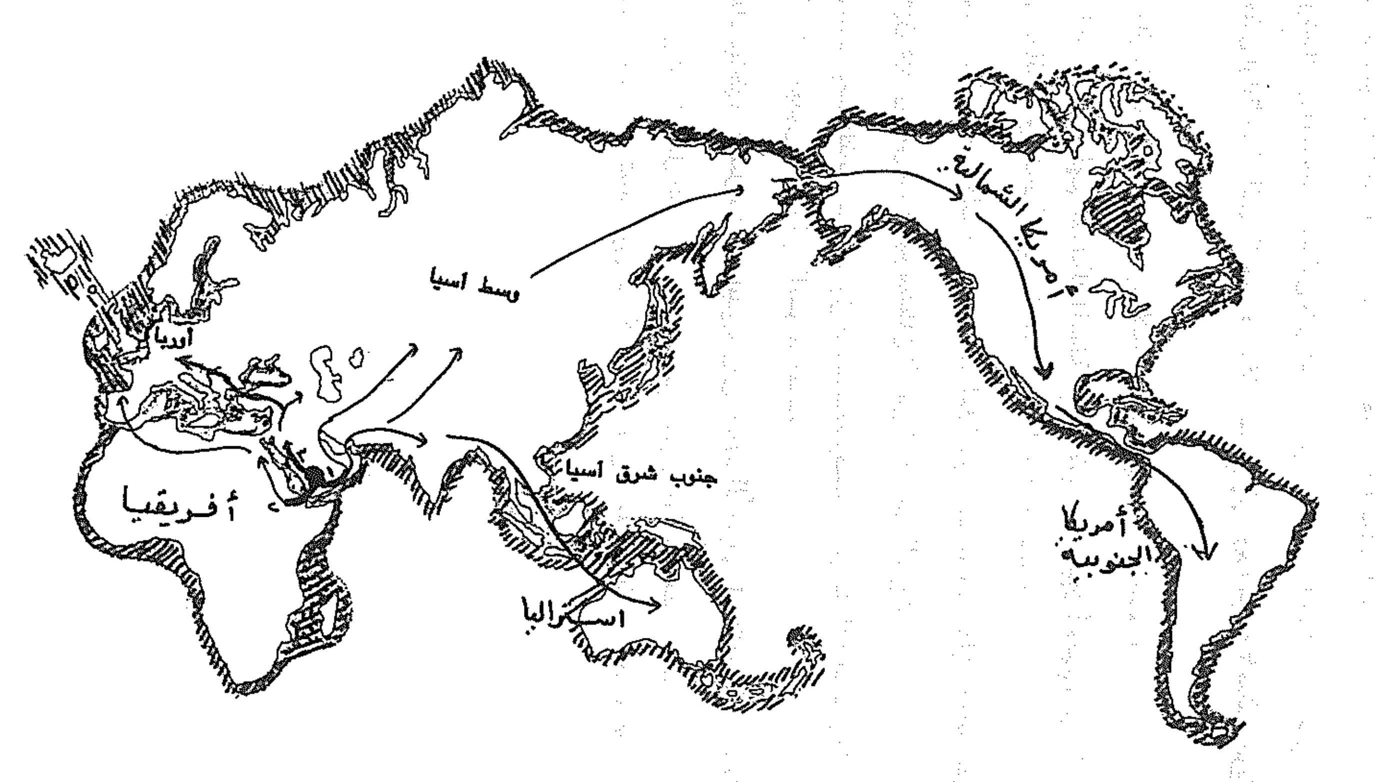


شكل - ٢ - منطقة البحر المتوسط والشرق الأوسط

فى آخر العصور الجليدية



شكل ٤ - الطرق الثلاث لهجرات بنى آدم ·
١ - شرقا ٢ - غرباً ٣ - شمالاً



شكل ٥ – الهجرات الكبرى للمجموعات البشرية
الأجزاء المظلله كانت أراضى يابسة فى العصور الجليدية

شيئ، وإنّي لصانعه لكم. وصنع لهم صنما. وراح أبناء قابيل يطوفون حوله يبكون آدم ويمضى الوقت تناسوا ذكرا الله وذكر آدم. وكانت هذه بداية عبادة الأصنام.

ولاشك أن وسوسة الشيطان كان لها دور كبير فى هذا الضلال فهو الذى توعد بنى آدم.

«قال أرأيتك هذا الذى كرمت على. لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنَّ ذريته إلا قليلا».
(٦٢ – الإسراء)

وقال **«لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين».** (٢٩ – الحجر)

وقال **«لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين».** (١٦ – ١٧ – الأعراف)

وفى المقابل كان الإلتجاء إلى الله هو الملاذ من وسوسة الشيطان وغوايته لقوله تعالى :

«إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلاَّ من اتبعك من الغاوين». (٤٢ – الحجر)

وكلما بعد الناس عن الطريق المستقيم وضلوا – أرسل الله الرسل والنبيين مبشرين ومنذرين – يهدون الناس إلى الصراط المستقيم.

«إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألاَّ تعبدوا إلا الله» (١٤ – فصلت)

وكان أول الرسل الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم بعد آدم هو إدريس عليه السلام إلاَّ أنه من المحتمل أن شيثا . بن آدم كان نبيا . وإن لم يقص القرآن الكريم عنه شيئاً.

شيث عليه السلام

لا تذكر الكتب التى كتبت قصص الأنبياء شيئاً عن شيث - ابن آدم - فهى لا تضعه فى عداد الأنبياء - ولكن ورد حديث لأبى ذر عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف، على شيث خمسين صحيفة (البداية والنهاية. ابن كثير. جـ ١ ص ٩١).

ونزول صحف على شيث تجعل منه نبياً. ورسولاً أيضاً حسب ما هو معلوم من تعريف الأنبياء والرسل (ص٢ - المقدمة).

وعلى ذلك يكون شيث ممن قال عنهم القرآن الكريم:

«ورسلاً لم نقصصهم عليك» (١٦٤ - النساء)

إذ لم يرد شئ عنه فى القرآن الكريم.

أما لماذا لم يرد شئ عنه فى القرآن الكريم فلعل سيرته مع القوم لم يكن فيها ما يمكن استخلاصه ليكون عبرة لغيرها من الأمم - وذلك هو الهدف من القصص القرآنى لقوله تعالى:

«لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب» (١١١ - يوسف)

وكان فى ميلاد شيث خصوصية تميز بها على باقى إخوته - إذ وُلِدَ منفرداً. وكان كل إخوته يولدون ومع كل واحد منهم أخت له فى البطن الواحد إلاَّ شيثا . ولد منفرداً.

ومعنى شيث هبة الله، وسمَّياه بذلك لأنهم رزقا به بعد أن قُتِلَ هابيل.

وفى هذا تقول التوراة - (تكوين ٤ : ٢٥) :

وعرف آدم امرأته. فولدت ابناً ودعت اسمه شيثاً، قائلة لأن الله قد وضع لى نسلاً عوضاً عن هابيل لأن قايين كان قد قتله.

وتقول أيضا (تكوين ٥ : ٤):

وعاش آدم مائة وثلاثين سنة وولد ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثاً. وكانت أيام آدم بعد ما ولد شيثا ثمانى مائة سنة. وعلى هذا فيحتمل أن شيثا كان أقرب الأبناء شبهاً بآدم عليه السلام.

وما كانت الصحف لتنزل على شيث لو بقى فى نفس الأرض التى بها أبوه - آدم - إذ الأولى أن تنزل الصحف - كما كانت تنزل - على آدم نفسه. وهذا يدل على أن شيثاً لابد كان قد ارتحل إلى أرض جديدة. ويؤكد ما افترضناه من أنه مع تكاثر الذرية من أبناء آدم وبنيهم

وأحفادهم – ضاقت بهم الأرض فى عدن – فارتحل شيث – ومعه بعض من إخوته وبنيهم – فى طريق مغاير للطريق الشرقى الذى اتخذه قايين، فارتحل هو غرباً وعبر مضيق باب المندب الذى كان فى ذلك الوقت أرضاً يابسة (شكل ٧ صفحة ٤٨).

كانت الجماعة التى معه على ديانة التوحيد التى علمهم إياها آدم عليه السلام. ولكن البشرية كانت لاتزال فى أولى خطواتها وكان أمامها الكثير الذى يجب أن تعلمه. يُيَسِّرُ لها حياتها على الأرض. ولعل الله اختار شيثا ليكون هو الراعى لشئون القوم وأنزلت عليه الصحف التى جاء ذكرها فى الحديث الشريف. وبالقطع لم تزد على أنها استكمال لتعاليم آدم عليه السلام، وتفصيل أو توضيح لما أمرهم به من عبادات. وقد يكون جاء بها شئ يصلح لهم أيضاً من أمور دنياهم – المهم أنه لم يكن فى قصته أو سلوك الجماعة معه ما هو عبرة لغيرهم من الأمم، فلم يكن هناك من داع لذكر شئ عن قصته فى القرآن الكريم. بل كان ضمن الرسل الذين لم يقصصهم الله سبحانه وتعالى.

وتقول التوراة أيضاً:

كان عمر شيث ١٠٥ سنة لما وُلِدَ له أنوش.

وأنوش كان عمره ٩٠ سنة لما ولد قينان.

وقينان كان عمره ٧٠ سنة لما ولد مهللئيل.

ومهللئيل كان عمره ٦٥ سنة لما ولد له يارد.

ويارد عمره ١٦٢ سنة لما ولد له أخنوخ.

وأخنوخ هو إدريس عليه السلام وكان أول نبى جاء ذكره فى القرآن الكريم بعد آدم عليه السلام.

إدريس عليه السلام

جاء ذكر إدريس عليه السلام فى القرآن الكريم فى سورتين :

«واذكر فى الكتاب إدريس، إنه كان صدِّيقا نبيًا. ورفعناه مكاناً عليًا». (٥٦ - ٥٧ - مريم)

«وإسماعيل وإدريس وذا الكفل، كُل من الصابرين، وأدخلناهم فى رحمتنا، إنهم من الصالحين». (٨٥ - ٨٦ - الأنبياء)

ولم يذكر فى القرآن الكريم أكثر من ذلك عن إدريس عليه السلام ولعل ذلك سببه أن المصريين لم يؤثر عنهم أنهم عارضوه بل إنهم آمنوا به واتبعوه - بل إن مبادئ الديانة التى أُرسِلَ بها أثرت فيهم تأثيراً عميقاً وبقى الدين محوراً رئيسياً فى حياة المصريين - ولم يكن فى قصتهم عبرة أو عظة لغيرهم من الأمم اللاحقة.

كذلك كان ذكره فى كتب قصص الأنبياء مختصراً، فى بعضها لم يزد عن نصف صفحة والبعض الآخر توسع بإضافة ما كتب فى التفاسير من أساطير عن تفسير قوله تعالى:

«ورفعناه مكاناً عليا». وفى كيفية رفعه إلى السماء. وسنذكرها فيما بعد.

وقد جاء ذكر إدريس فى صحيح مسلم من حديث الإسراء قوله (ﷺ) : «لما عُرِج بى أتيت على إدريس فى السماء الرابعة».

كذلك لم تذكر التوراة عن إدريس إلاَّ «وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه» وهو تعبير عن «رفعه» الذى جاء فى القرآن الكريم.

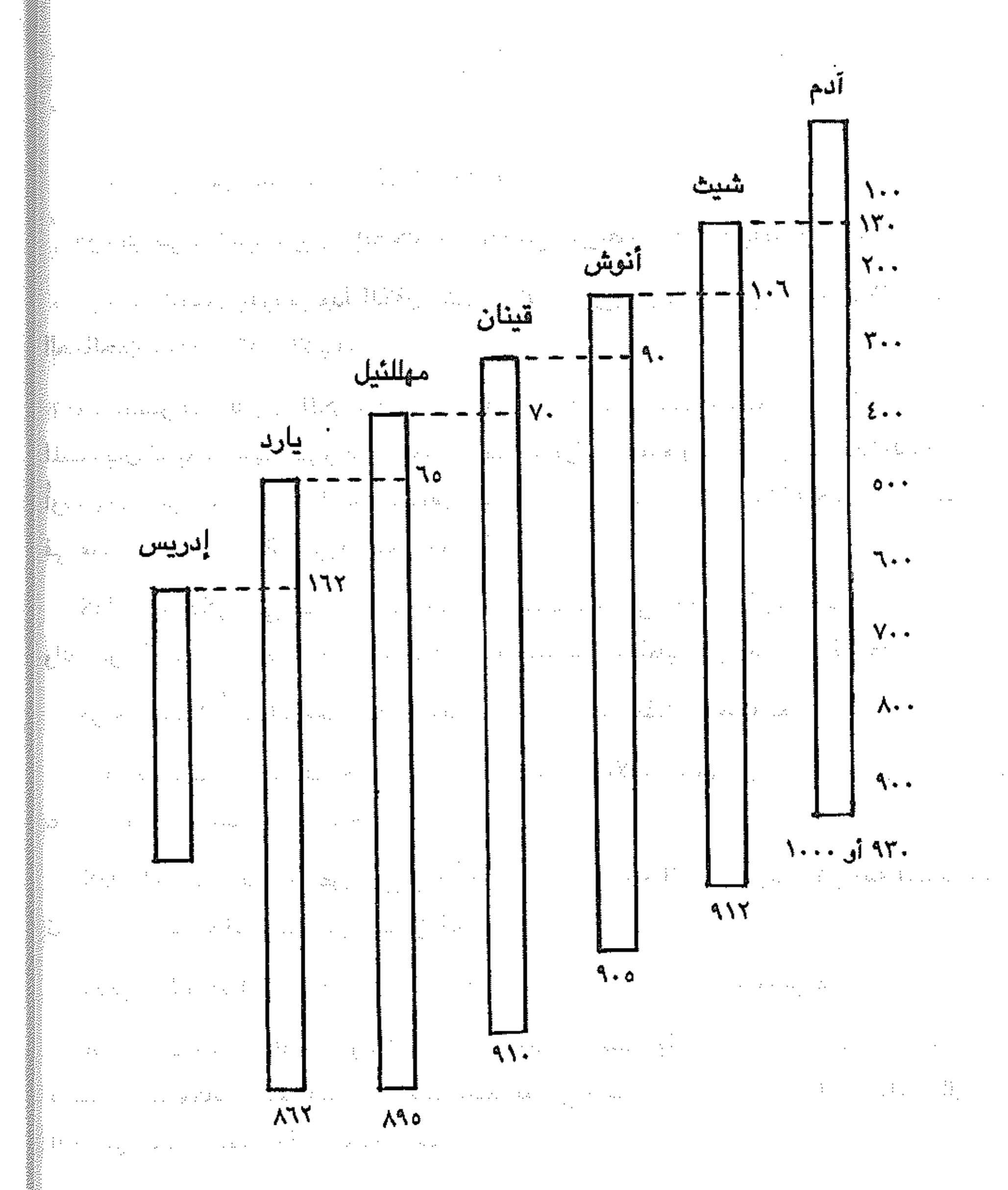
وذكرت التوراة (تكوين ٥:٦ - ٢٤) سلسلة النسب من آدم حتى إدريس هكذا :

هذا كتاب مواليد آدم:... وعاش آدم مائة وثلاثين سنة وولَدَ ولداً على شبهه كصورته ودعا اسمه شيثا وكانت أيام آدم بعدما ولد شيثا ثمانى مائة سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام آدم التى عاشها تسع مائة وثلاثين سنة ومات.

وعاش شيث مائة وخمسة سنين وولد أنوش. وعاش شيث بعد ما ولد أنوش ثمانى مائة وسبع سنين، وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام شيث تسع مائة واثنتى عشرة سنة ومات.

وعاش أنوش تسعين سنة وولد قينان. وعاش أنوش بعد ما ولد قينان ثمانى مائة وخمس عشرة سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام أنوش تسع مائة وخمس سنين ومات.

وعاش قينان سبعين سنة وولد مهللئيل. وعاش قينان بعد ما ولد مهللئيل ثمانى مائة وأربعين سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام قينان تسع مائة وعشر سنين ومات.



شكل ٦ – نسب إدريس عليه السلام.
الرقم أسفل العامود هو العمر كله
والرقم العلوى هو السن عند ولادة الإبن.

وعاش مهللئيل خمساً وستين سنة وولد يَارَدَ. وعاش مهللئيل بعد ما ولد يارد ثمانى مائة وثلاثين سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام مهللئيل ثمانى مائة وخمساً وتسعين سنة ومات.

وعاش يَارَدَ مائة واثنتين وستين سنة وولد أخنوخ. وعاش يارد بعد ما ولد أخنوخ ثمانى مائة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام يارد تسع مئة واثنين وستين سنة ومات.

وعاش أخنوخ خمسا وستين سنة وولد متوشالح. وسار أخنوخ مع الله بعد ما ولد متوشالح ثلاث مئة سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمسا وستين سنة. وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه.

هذا ما جاء فى التوراة عن أخنوخ أى باختصار هو أخنوخ بن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش ابن شيث بن آدم. كان عمر آدم لما ولد شيث ١٣٠ سنة وعمر شيث لما ولد أنوش ١٠٥ سنة وعمر أنوش لما ولد له قينان ٩٠ سنة، وعمر قينان لما ولد مهللئيل ٧٠ سنة وعمر مهللئيل لما ولد له يارد ٦٥ سنة. وعمر يارد لما ولد له أخنوخ ١٦٢ سنة (شكل ٦).

فإذا جمعنا هذه الأعمار لاتضح لنا أن أخنوخ ولد لما كان عمر آدم ٦٢٢ سنة - وبالطبع كانت ذرية شيث قد ارتحلت ارتحالاً متواصلاً حتى وصلت أرض مصر - حيث ولد أخنوخ - عبر فترة زمنية تقدَّر بخمسمائة سنة.

ومنشأ القول بأن إدريس الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم هو «أخنوخ» فى التوراة - هو تطابق المعنى فى قوله تعالى **«ورفعناه مكاناً عليًا»** - وما جاء فى التوراة: ولم يوجد لأن الله أخذه.

كما أن رفعناه الواردة فى القرآن كان رفعاً حقيقياً وليس معنويا - إذ أن جميع الأنبياء لاشك فى ارتفاع مكانتهم المعنوية وارتفاع قدرهم عند الله - إلاَّ أنه لم يوصف أحد منهم بذلك إلاَّ إدريس عليه السلام - وكذلك عيسى عليه السلام فى قوله تعالى :

«يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىَّ». (٥٥ - آل عمران)

لم ينتبه المستشرقون إلى اختلاف اسم النبى كما ورد فى القرآن الكريم - إدريس - عن الاسم الوارد فى التوراة - أخنوخ إذ هم لم يعتقدوا أن الاسمين هما لشخص واحد. وإلاَّ لكانوا طنطنوا وأفاضوا كما فعلوا فى اسم أبى إبراهيم عليه السلام - أزر - كما جاء فى القرآن الكريم و - تارح - كما جاء فى التوراة. وسيجئ ذلك بالتفصيل فى الجزء الثانى إن شاء الله فى سيرة إبراهيم عليه السلام.

إلاَّ أن الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن. جـ ١ ص ٢٢٤) فسر اختلاف الأسماء هذا على أن الاسم العربى هو ترجمة لمعنى الجذر المشتق عنه الاسم الوارد فى التوراة.

ولأقربّ المسألة إلى ذهن القارئ أضرب مثلاً من الطب. فإننا نقول إن شخصاً عنده Anemia وهو لفظ إنجليزى – ويمكن عند تعريبه أن نلجأ إلى إبقاء النطق كما هو عند الكتابة ونكتبه بحروف عربية هكذا – أنيميا – أى كتابة النطق الأجنبى بحروف عربية. ولكن الغيورين على اللغة العربية لا يرتضون هذا الحل. فيُرجعون اللفظ الأجنبى إلى مَقَاطعه فنجد أن An تعنى قلة و emia – تعنى دم أى تعنى قلة أو فقر دم. وعلى ذلك فإن فقر دم هى الترجمة العربية لكلمة أنيميا الإنجليزية.

فإذا انتقلنا إلى أسماء الأشخاص ونفترض شخصاً اسمه بالإنجليزية Mr. Carpenter فمن الممكن أن نبقى النطق كما هو ونكتبه بحروف عربية هكذا مستر كاربنتر – ومن الممكن إرجاع الاسم الإنجليزى إلى معناه نجد أنه هو الشخص الذى يعمل الأدوات الخشبية أى النجار فتكون الترجمة العربية لاسم Carpenter كاربنتر – هو النجار.

وعلى هذا المنوال يمكن ترجمة مستر بلاك سميث Mr. Blacksmith إلى الاسم بالعربية – السيد الحداد.

ومستر Shepard شبرد إلى الراعى.

وهذه الطريقة مستعملة حالياً فى بعض الأسماء مثل :

مدرسة الراعى الصالح Bon Pasteur بدلاً من بونباستير.

مدرسة القلب المقدس Sacre Coeur بدلاً من ساكركير.

وهى طريقة تعطى معنى للإسم العربى لا تعطيه له طريقة كتابة النطق الأجنبى بحروف عربية.

هذا ملخص الطريقة التى افترض الأستاذ رؤوف أبو سعدة أن القرآن الكريم قد اتبعها: الرجوع بالإسم الأجنبى إلى جذره اللغوى، ثم ترجمة الجذر أو أخذ مرادفه فى اللغة العربية واشتقاق الاسم منه فيكون للإسم العربى نفس معنى الاسم الأجنبى.

بتطبيق هذه الطريقة على اسم أخنوخ – الوارد فى التوراة. يرى الأستاذ رؤوف أن أصلها العبرى هو «حنوك»، وفى العبرية إذا جاءت الكاف بعد حرف متحرك أو معتل تنطق خاء، أى أن حنوك تصبح حنوخ. وكلمة حنوك العبرية مشتقة من حَنَّك وهى تقابل الحنكة فى العربية بمعنى الثقافة وحسن التدبير، وحنَّك العبرية فقهه وثقفه وعلَّمه فهو حنوك أى حنوخ أو أخنوخ.

والجذر العربى المرادف هو درس. والإسم إدريس مشتق من دَرَسَ بمعنى الدارس الحاذق الذى درَّس لغيره وعلَّمه وهو يساوى فى المعنى اسم أخنوخ الوارد فى التوراة. والمشهور أن إدريس هو الذى علَّم المصريين العلوم والحساب والنجوم والسياسة فضلاً عن التعاليم الدينية وعقيدة البعث للحياة الآخرة . وعلى كلٍّ فهو اجتهاد لا بأس به.

كيف وصل إدريس والمصريون إلى مصر ؟

كما ذُكِرَ فى المقدمة فإن نهج الكتاب هو ربط قصص الأنبياء بالتاريخ لذلك كان لزاماً أن نذكر كيف وصل أبناء آدم من نسل شيث إلى وادى النيل ، وأدَّى تكاثرهم إلى وجود قدماء المصريين – وكيف كانت دياناتهم التى استدعت إرسال إدريس عليه السلام نبياً.

سبق أن افترضنا أن أبناء شيث وأحفاده وبعضاً من إخوته – عندما ضاقت بهم الأرض فى عدن – قد اتخذوا طريق الهجرة رقم ٢ – عبر مضيق باب المندب الذى كان فى ذلك الوقت – قرب آخر العصر الجليدى الرابع – جافاً يسهل اجتيازه، وواصلوا سيرهم شمالاً حتى وصلوا أرض مصر (شكل ٧).

لم تذكر أى من الكتب السابقة مثل هذا الافتراض ولكنه هو الإحتمال الأكبر حدوثاً. إذ أن أول الحضارات التى ظهرت فى العالم كانت فى مصر، وأول نبى بعد آدم وشيث كان إدريس، وكان ظهوره فى مصر أيضاً. ولعل القبائل من نسل شيث ظلت ترتحل تدريجياً شمالاً بمحاذاة الساحل الغربى للبحر الأحمر، فى السهل الساحلى حتى وصلوا الهضبة الشرقية لوادى النيل وسكنوها.

ولم يكن مناخ تلك الأماكن صحراوياً أو جبلياً قاحلاً كما قد يتبادر إلى الذهن إذ نراها الآن، بل كانت الأمطار تسقط عليها. فتوفرت المراعى التى ساعدت على العيش، واستمرت القبائل تتكاثر ويزداد تعدادها. فترتحل جماعات منها طلباً للرزق ويكون الاتجاه شمالاً حيث الأمطار أكثر وفرة والمراعى أغزر.

وسكن بنو شيث وبنو أنوش وقينان ومهللئيل الهضبة الشرقية لوادى نهر النيل، ولكن لما بدأت حرارة الأرض فى الإرتفاع، بدأ العشب يقل فى الهضبة، وأخذ الناس يهاجرون طلباً للماء، ولابد أنهم تعقبوا بعض مجارى السيول ورأوا أن أغلبها يتجه غرباً فتبعُوه إلى أن وصلوا إلى نهر النيل العظيم، حيث وجدوا الماء العذب متوافراً بكثرة فاستقروا حوله، وأغرى توافر الرزق القبائل الأخرى بالقدوم إلى وادى النيل،فالمراعى تسع الكثيرين، وبسرعة انتشر الناس فى الوادى وعمروه، وقُدِّر لمصر أن تكون مهداً لأول حضارة فى العالم.

ومع دفء الجو ذابت الثلوج وامتلأت المحيطات والبحار بالمياه، وأصبح ممر باب المندب مضيقاً تغمره المياه وانفصلت قارة آسيا عن أفريقيا فى هذا المكان وأصبح على من يريد العبور من عدن إلى أفريقيا أن يتخذ طوفاً أو مركباً.

ويجدر هنا أن نذكر نبذة عن مصر وعن ديانتها وكيف تطورت من أبناء شيث الذين كانوا

شكل ٧ – كيفية عبور شيث وقبيلته باب المندب
ثم وصول القبائل من نسله إلى مصر
أماكن كانت يابسة فى ذلك الوقت

يعبدون الله كما علمهم جدهم آدم عليه السلام. وكذلك بما وصلهم من صحف أنزلت على شيث. ولكن بمرور الزمن ضلوا ولزم أن يُرسَلَ نبى لهدايتهم وكان هو إدريس عليه السلام.

مصر قبل إدريس عليه السلام :

بعد أن عبرت جماعات البشر مضيق باب المندب اتجهوا شمالاً بحذاء الساحل فى الهضبة الشرقية لوادى النيل التى كانت زاخرة بالمراعى. وكان كل عمل الإنسان فى ذلك الوقت هو رعى الأغنام. وشرب لبنها. وأكل لحومها. ولحوم ما قد يصيده من حيوانات أخرى مثل الغزال والأرانب. ولعله تعلَّم أن يسلخ جلدها بعد ذبحها، ويكشط الدهون منها بقطع من الحجارة شحذها لتكون حادة، ثم يضع الجلود فى الشمس بعد أن يشد أطرافها بأوتاد ويتركها حتى تجف. ثم يلفها حول وسطه لإخفاء العورة وللحماية من البرد. ومن المؤكد أنه بعد ذلك تعلم كيف يخيط بعضها إلى البعض بإبر من العظم وخيوط من الكتان. فتوفرت له ثياب مهندمة بعض الشيئ، ولعله صنع أيضا خياماً ليبيت فيها.

وعندما كانت الجماعات تنتقل من أرض إلى أرض، كانت النساء يحملن الأطفال والمتا ع، بينما الرجال يحملون العصى أو الحراب حماية من أى طارئ.

ولما وصل الإنسان إلى وادى نهر النيل، بدأ الاستقرار، فالماء متوافر - والصيد أيضاً متوافر، من الأسماك فى المستنقعات، والظباء فى الأحراش، وتوافر العشب للأغنام، ولم تعد هناك حاجة للارتحال الدائم. وبدأ يفكر فى مبيت أكثر أماناً من الخيام. وأوجدت طبيعة العقل البشرى الخلاقة الحل. فقد رأى الطين يجف وصبح جامداً. فكان أن جعل منه قوالب وبنى بها بيتاً. ثم تفنن فى تشكيل الطين وصنع أوانى لحفظ الحبوب.

ومن شروط استقرار الحياة استقراراً صحيحاً، هو وجود منطقة يتوافر فيها الطعام. ومورد ماء يمكن أن يعتمد عليه على مدار السنة. وتوافر الحشائش كعلف للماشية. ووجود مواد تصلح لبناء المسكن.

ولم تكن هذه الاشتراطات لتتوافر - فى ذلك العصر السحيق - فى الشرق الأوسط إلا فى مكانين: وادى النيل، وفى المنطقة المحصورة بين نهرى دجلة والفرات. لذلك ظهرت أولى الحضارات فى العالم فى مصر، وحين وصل البشر إلى منطقة ما بين النهرين ظهرت ثانى الحضارات. لذلك كان أول الأنبياء بعد آدم، هو إدريس عليه السلام فى مصر، يليه نوح عليه السلام فى العراق.

كان هذان الإقليمان يتمتعان بمورد دائم من المياه لا ينضب وشمس ساطعة فى أغلب

العام، وتربة طينية خصبة، وهكذا كانت الزراعة تجود على المزارعين بمحصول وافر. بالإضافة إلى مراعى الأغنام وأشجار النخيل والعنب والتين. أما مواد البناء فكان الطين متوافراً فى الإقليمين وزاد فى مصر فيما بعد، الحجر الجيرى، وهو سهل النحت وسهل التهذيب. فظهرت المبانى من الحجارة فى مصر.

وفى هذه الظروف كان الناس يكفون عن التجوال ويستقرون ويتكاثرون وينتجون عدداً من السكان أكثف مما تطيقه الأرض، فكان لابد أن تهاجر جماعات - تلو الجماعات إلى أماكن جديدة. وتم طرد عدد كبير من الحيوانات أو صيدها - ولم تعد هناك جلود تكفى احتياجاتهم وتوصل الذهن البشرى إلى غزل صوف الغنم وألياف شجر الكتان والتيل فى خيوط ثم نسجها فى أقمشة.

وبرع سكان مصر فى صنع الأوانى من الفخار - وظهرت مهارتهم أكثر فى قَطْعِ الصخور الصلبة وتشكيلها وصقل سطحها. فصنعوا الفئوس والمناجل ثم صنعوا آنية جميلة الشكل من البازلت الأسود والمرمر.

ولا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن السكان وقد استقروا فى وادى النيل كانوا وحدة واحدة كما فى عصرنا الحالى. بل كانوا عبارة عن جماعات صغيرة متناثرة. كل جماعة بَنَت لها عدة بيوت، وحولها مساحة لزراعتها تكفيهم من الحبوب ومرعى لأغنامهم. أى أنها كانت قرى صغيرة تفصلها المستنقعات عن غيرها من القرى.

وتعلم الإنسان أن يعمل طوفاً من نبات السمار. ثم من نبات البردى، يركبه ليعبر به هذه المستنقعات. ثم استعمل سيقان الأشجار بعد تجويفها وفى مرحلة تالية صنع المراكب الصغيرة من ألواح الخشب.

العقيـــدة

كان السكان الأوائل قريبى العهد بآدم وشيث. وظلوا فى الشدائد والملمَّات يلجأون إلى الله ويذكرونه. ولعل الشيطان فيما بعد قد وسوس لهم - كما وسوس لبنى قابيل الذين ارتحلوا شرقاً - وأغراهم بصنع تمثال على هيئة آدم - حتى يظل فى ذاكرتهم. ولعلهم كانوا يطوفون حوله ويذكرون الله. ولكنهم بعد فترة نسوا ذكر الله ونسوا آدم. وبدأوا يقدسون التمثال نفسه.

كذلك فإن كل جماعة كان يرأسها أكبرهم سناً. ينظم أمورهم ويحكم بينهم. والكل يطيعونه ويهابونه. وينغرس فى نفس الصغار توقير الرجل المسن والخوف منه. وكان عليهم ألاَّ يجلسوا مكانه ولا يلمسوا درعه أو رمحه.

وعند موت أحد هؤلاء الرؤساء والمسنين كان البعض يراهم فى أحلامهم، فيظن أن أرواحهم هائمة. فكانوا يصنعون تماثيل على هيئتهم لتسكن إليها هذه الأرواح فلا تؤذيهم - وهكذا ظهرت فكرة **تقديس الأسلاف**. وأحيانا كانت الجماعة تتخذ **طوطماً** - حجراً بدون تشكيل أو بتشكيل بسيط - تزعم أن روح هذا السلف قد حلَّ فيه فيقدسونه. وأحياناً تتخذ الجماعة حيواناً تجعله طوطماً، وبالطبع فإنها تحرِّم ذبح هذا الحيوان أو صيده. وقد يكون للجماعة عدة طواطم فى آن واحد.

ثم نشأت فكرة أخرى، ولعلها كانت بسبب الأمراض التى كانت تسبب الوفاة فى سن مبكرة، وأصبحت تُعزَى إلى الإصابة باللعنات. ومن ثم ظهرت **فكرة التطهير وإزالة اللعنات** بإرشاد المسنين أو العجائز المحنكات. وكان هذا بدء ظهور **الكهانة والسحر**. ولاسترضاء الأرواح الشريرة كانت تُقَدَّم الضحايا والقرابين. وهذا جعل لطبقة الكهنة سلطاناً عظيماً على الناس. وبدأوا يبنون المعابد التى يقدسون فيها الأصنام والطواطم، وتُقدَّمُ إليها الهبات والقرابين لتكون من نصيبهم. فازدادوا ثراء بغير تعب. وكان لابد من قوة أعلى ينتسبون إليها. فجعلوا الملوك من نسل الآلهة. أو تحل روح الإله فيهم. والتف حول الملوك والكهنة، السحرة والدجالون. كل ذلك جثم على صدور الشعب وزاد من متاعبهم إذ كان عليهم أن يعملوا ليوفِّروا لكل هؤلاء معيشة رغدة بدون عمل حقيقى يؤدونه.

وظل الحال كذلك ما يقرب من خمسمائة عام. وازداد طغيان الكهنة وازداد الظلم. ولعل الشعب المغلوب على أمره، وجد أن خير ما ينسيه همومه، هو عصير العنب بعد أن يترك مدة ليتخمَّر، فانتشرت صناعة النبيذ.

وكان لكل جماعة معبودها - تمثالاً أو طوطماً - على هيئة إنسان أو حيوان أو حتى نبات. وكانت الصراعات تقوم بين الجماعات لاستلاب الحبوب أو الماشية وكثر الفساد وعم البلاد كلَّها. وكان لابد أن تتدخل العناية الإلهية!

جماعة واحدة لم تصبها هذه الشرور. هى جماعة يارد بن مهلئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم. وَوُلِدَ ليارد ولد سماه أخنوخ أو خنوخ أو إدريس واختاره الله لهذا الأمر وبعثه نبياً.

إدريس عليه السلام :

«واذكر فى الكتاب إدريس، إنه كان صدِّيقاً نبيًا، ورفعناه مكاناً عليًا». (٥٦ - ٥٧ مريم)

وكان إدريس أول بنى آدم أُعْطِيَ النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام.

وقال سفيان عن منصور، عن مجاهد، إن إدريس لم يمت، ورُفع كما رُفع عيسى، وقال رفع

إلى السماء الرابعة. وقال العوفى عن ابن عباس، رفع إلى السماء السادسة فمات بها. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم. وعن الحسن البصرى قال رفع إلى الجنة.

وفى تفسير الألوسى (روح المعانى جـ ١٦ ص ١٠٦) حديث عن ابن المنذر عن عمر مولى عفرة يرفع الحديث إلى النبى (ﷺ) قال: إن إدريس كان نبياً تقياً زكيًا. وكان يقسم دهره على نصفين : ثلاثة أيام يعلِّم الناس الخير. وأربعة يسيح فى الأرض ويعبد الله مجتهداً. وكان يصدر من عمله وحده إلى السماء من الخير، مثل ما يصعد من جميع أعمال بنى آدم. وأن ملك الموت أحَبَّه فى الله وصَحِبَهُ (وإدريس لا يدرى أنه مَلَك). واختصار الحديث أن إدريس لما رأى أنه لا يأكل شك فيه. فاعترف بأنه مَلَك الموت. وسأله إدريس قال: أُحب أن تذيقنى الموت ثم ترد علىَّ روحى. فقال ما أقدر إلاَّ أن استأذن. فاستأذن ربه فأذن له. فقبض روحه ثم ردها الله تعالى إليه. فقال له مَلَك الموت: يا نبىَّ الله كيف وجدت الموت. قال أعظم مما كنت أحَدِّث وأسمع. ثم سأله رؤية الجنة وأن يدخلها ليأكل من ثمارها ويشرب من شرابها ليكون بعد ذلك أشد طلباً فى عبادته. ففعل – ولما طلب منه ملك الموت الخروج من الجنة رفض إدريس وقال إن شئت خاصمتك. فقال إدريس إن الله تعالى قال: كل نفس ذائقة الموت وقد ذقته. وقال وما هم منها بمخرجين. لذلك فهو حى فى الجنة.

وروى ابن جرير الطبرى عن عدة رواة. أن الله أوحى إلى إدريس أنه يرفع إليه كل يوم مثل جميع عمل بنى آدم. فأحب أن يزداد عمله فأتاه مَلَك من الملائكة فقال له إدريس كَلِّم ملك الموت حتى ازداد عملاً. فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء. فلما كان فى السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً. فكلَّم ملك الموت فى الذى كلمه به إدريس. فقال. وأين إدريس؟ فقال هو على ظهرى. فقال ملك الموت فالعجب! بُعِثتُ وقيل لى اقبض روح إدريس فى السماء الرابعة فجعلت أقول كيف أقبض روحه فى السماء الرابعة وهو على الأرض، فقبض روحه هناك.

ورواه ابن حاتم بنهاية أخرى. إذ قال إدريس سَلْ لى ملك الموت كم بقى من عمرى؟ فسأله وهو معه. فقال لا أدرى حتى أنظر. فنظر فقال إنك لتسألنى عن رجل ما بقى من عمره إلاَّ طرفة عين. فنظر الملك إلى تحت جناحه إلى إدريس. فاذا هو قد قبض وهو لا يشعر.

وقال الحافظ ابن كثير. وهذا من الإسرائيليات وفى بعضه نكارة والأسلم تفويض علم ذلك إلى الله.

أين ولد إدريس ؟

أغلب الأقوال أنه ولد بمصر فى مدينة منف، وسموه هرمس الهرامسة وسماه الله عز وجل فى القرآن الكريم إدريس.

فرقة ثانية قالت إن إدريس ولد ببابل فلما وجد أن من أطاعوه نفر قليل نوى الرحلة عنهم وسار ومن معه حتى أشرفوا على وادى النيل.

وفى رأينا أن هذا الافتراض غير صحيح. إذ كيف وُجِد ببابل؟ وما هو الطريق الذى سلكه أجداده حتى وصل إلى العراق. وهل سلك أبناء شيث نفس الطريق الذى سلكه قابيل - شرقاً. حتى وصل إلى جنوب العراق. ثم وسطها. ثم غرباً إلى فلسطين ثم جنوباً فغرباً إلى مصر. فمادام المقر الأخير إلى مصر. فالأقرب إلى العقل أن يكون طريق باب المندب هو أقصر الطرق إلى مصر وكان المضيق، كما سبق أن قلنا، جافاً يسهل اجتيازه، كما أن الإتجاه غرباً يرجحه رغبتهم فى مغايرة الطريق الذى سلكه قابيل.

ماذا كانت دعوته ؟

لقد كانت البشرية لا تزال فى أولى خطواتها وكانت تحتاج إلى كثير من علوم الدنيا لتمضى فى رحلتها فى الأرض. كما كانت تحتاج لتعميق وتأصيل الإدراك بالحياة الآخرة والبعث والحساب. وكانت هذه دعوة إدريس عليه السلام.

وآتاه الله العلم. فعلَّمه للناس ويقول الألوسى (تفسيره، جـ ١٦ ص ١٠٥): فهو أول من خط بالقلم، وأدخل الكتابة، وكان خياطاً فصنع القماش من الكتان ولبس المخيط. وكان الناس قبله يلبسون الجلود. واتخذ المكاييل والموازين. وهو أول من درس علوم النجوم. فقد ألهمه الله عز وجل أسرار الفلك وترتيبه وتركيبه. ونقط اجتماع الكواكب. وأفهمه عدد السنين والحساب ولولا ذلك لم تصل الخواطر باستقرائها إلى ذلك.

ولو تمعنا فى قول القائلين بأن المصرى القديم اكتشف ذلك بنفسه لوجدنا صعوبة كبيرة فى تصديق ذلك. فقد كان ذلك يقتضى أن يظل فرد أو عدة أفراد يرقبون النجوم كل ليلة على مدار العام يسجِّلون مواقعها بكل دقة. ثم يراقبون تعاقب الفصول ويرصدون دورة القمر ليكتشفوا السنة القمرية - ووجب عليهم أن يراقبوا ارتفاع الشمس فى الأفق وميلها ويكتشفوا السنة الشمسية. ثم يلاحظوا كوكبى المشترى والزهرة على مدى قرون ليتمكنوا من رصد انتظام دورتهما. لهذا نميل إلى الرأى القائل بأن إدريس عليه السلام قد أُلهم هذا العلم. فوضع بذلك أساس علم الفلك. وكان سهلاً بعد ذلك على الكهنة أن يستمروا فى دراسة حركة النجوم والكواكب.

كذلك قالوا إنه أول من علَّم بالطب. وإن قال البعض إن بعض الحيوانات تعرف أنواعاً من النبات تفيدها عندما تمرض وذلك بالغريزة. قلنا إن الغريزة ما هى إلاَّ مقدرة أودعها الله فى الحيوان ليحفظ بها نفسه. وتعرف الحيوانات ذلك النوع من الحشائش دون أن يدلها عليه أحد

أما البشر فغير ذلك. فقد يدرك أحدهم بالتجربة - أن نباتاً معيناً له فائدة فى ذلك المرض فيعلِّمه لغيره. فإذا كان الاكتشاف مثيراً وكبيراً. وحدث بطريق المصادفة بدون تجارب كثيرة قلنا إنه إلهام. فإذا كان إدريس قد علِمَ من أسرار الطب وعلاج كثير من الأمراض. فقد كان ذلك إلهاماً ألقاه الله إليه.

كذلك قالوا إنه أول من استعمل المكاييل والموازين.

كذلك قالوا إنه وضع فكرة بناء البيوت فى تجمعات على هيئة قرى أو مدن. ويقال إن عدد المدن التى أنشئت فى زمانه بلغ ١٨٨ مدينة. ولا يجب أن يتبادر إلى الذهن أنها مدن كمدننا الحالية إذ الأغلب أن أيًا من هذه المدن ما كانت لتزيد عن عشرة بيوت أو عشرين أو نحو ذلك. كذلك يقال إنه قَسَّم البلاد إلى أربعة أقسام وجعل على كل منها حاكماً يسوس الناس.

أى باختصار أن الله ألهمه من أمور الدنيا أسس قيام الحضارة الإنسانية من كتابة وقراءة وثياب ومكاييل وموازين للمعاملات وعلم الطب والهندسة والفلك والسياسة.

هذا من علوم الدنيا - كذلك فقد آتاه الله النبوَّة. ويقول الألوسى: إن الله أنزل عليه ثلاثين صحيفة. ويقول الأستاذ عبد الوهاب النجار كان فيها الدعوة إلى دين الله، والتوحيد، وعبادة الخالق، وتخليص النفوس من العذاب فى الآخرة بالعمل الصالح فى الدنيا. وبيَّن أن عمل المرء محسوب عليه. وأن الموت ليس هو نهاية المطاف. بل إن هناك حياة أخرى توزن فيها الأعمال ويُحاسب عليها. وحضَّ الناس على الزهد فى الدنيا والعمل بالعدل. وأمرهم بصلوات وصيام بضع أيام من كل شهر. وأمرهم بإعطاء بعض أموالهم إلى الفقراء. وغلَّظ عليهم فى الطهارة من الجنابة. وحرَّم المُسْكِرَ من كل شئ من المشروبات. وجعل لهم أعياداً كثيرة كان جلُّها مرتبطاً بالكواكب مثل رؤية الهلال ودخول الشمس رؤوس البروج.

ومن أقوال هرمس الذى يرى كثير من العلماء أنه هو إدريس ما ذكره الأستاذ عبد الوهاب النجار (قصص الأنبياء. ص ٤٥):

- إذا دعوتم الله فأخلصوا النية.
- لا تحلفوا كاذبين .
- تجنبوا المكاسب الدنيئة.
- حياة النفس الحكمة.
- من تجاوز الكفاف لم يغنه شئ.
- حُب الدنيا وُحبُّ الآخرة لا يجتمعان فى قلب أبداً.

وقد كان لسلاسة الطبيعة فى وادى النيل من حيث مناخه، وانبساط أرضه، وانتظام النيل

فى فيضانه، وجلبه الخير والنماء بوفرة للإنسان والحيوان، أثر فى استقرار الحياة وسلاسة أخلاق سكانه فلم يؤثر عن المصريين معارضتهم لإدريس عليه السلام حين أمرهم بنبذ أصنامهم. ولا كذبوه فى أنَّه مُبَلِّغٌ من ربه. بل إن المصريين آمنوا به واتبعوه وتعمقت العقيدة الدينية فيهم وتأصلت تأصلاً كبيراً حتى لنلاحظ - أنهم وإن ضلوا طريق الإله الحق فيما بعد - إلاَّ أن الدين ظل هو المحرك الأكبر لحركة الحياة لدى المصريين القدماء. كذلك إن قلنا إن المصريين قد آمنوا بإدريس عليه السلام. فلا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن المصريين كلهم، فرداً فرداً. قد فعلوا ذلك. فإن المجتمعات الأولى كانت عبارة عن قرى صغيرة وكل مدينة منفصلة عن المدن الأخرى بمستنقعات كثيرة. وكل مدينة لها حاكم. وكان هذا الوضع يسمى إمارات المدن City States أى كل مدينة هى إمارة مستقلة. وإذا وقع حدث ما فى مدينة. فلا يستدعى ذلك أن تُلِمَّ به كل المدن الأخرى، صحيح أن المدن المجاورة يمكن أن تُلِمَّ به، فقد كان اتصال المدن ببعضها البعض أمراً ضرورياً، ولكن المدن البعيدة كان يصعب الاتصال بها. وهكذا فقد ظلت على عبادة أصنامها وطواطمها. إلاَّ أن التعاليم السماوية التى جاء بها إدريس عليه السلام. لابد - بمرور الزمن - قد وصلتها، وتطعَّمت بها العقيدة الوثنية التى كانت سائدة فى هذه المدن.

وحتى المدن التى كانت بلغتها دعوة النبى إدريس، وآمنت به، واتبعته، لعلَّ الكثير منها - بعد رفعه - لم تبق متمسكة بالديانة الإلهية التوحيدية. إذ لم تستطع عقولها هضم فكرة إله واحد لا تراه الأعين. وكان الفكر البشرى فى هذا الطور البدائى من الحضارة لا يؤمن إلاَّ بما هو محسوس وواقع تحت بصره. لذلك فقد ارتدَّت بعض الجماعات، وتلمَّست إلهاً فيما يقع عليه بصرها. واتخذت كل قبيلة لها ربَّاً وكان طور تعدد الآلهة هو ما يسمى Polytheism وتعددت الأرباب والآلهة، لتصل إلى العشرات بل المئات.

إلاَّ قبيلةً واحدة. هم نسل إدريس عليه السلام. فقد ظلوا على إيمانهم بالله الواحد الأحد. ولعلهم لم يطيقوا العيش وسط الضلال الذى بدأ يحيط بهم فارتحلوا شمالاً حتى وصلوا إلى الدلتا ثم إلى سيناء شرقاً. ثم شمالاً إلى فلسطين ثم شرقاً عبر الشام إلى شمال العراق. وكان إدريس قد ولد له متوشالح وعمره ٦٥ سنة. وفى أثناء ارتحالهم وُلِدَ لمتوشالح لامك عند عمر ١٨٧ سنة أى كانت قد مرت ٢٥٢ سنة لتجوالهم. وصل لامك فى نهايتها إلى شمال العراق. وبعد ١٨٢ سنة من عمره ولد له نوح - الذى أصبح نبياً - مرسلاً إلى أهل العراق.

هل هرمس الهرامسة هو إدريس عليه السلام ؟

ذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار أنه جاء فى صفحة ٣٤٨ من كتاب تاريخ الحكماء بخصوص هرمس الهرامسة ما يأتى: وزعم جماعة من العلماء أن جميع العلوم التى ظهرت

قبل الطوفان إنما صدرت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى وهو الذى يسميه العبرانيون خنوخ النبى ابن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم وهو إدريس النبى عليه السلام. وقالوا إنه أول من تكلم فى الجواهر العلوية والحركات النجومية وأول من بنى الهياكل ومجَّد الله فيها. وأول من نظر فى علم الطب، وألَّف لأهل زمانه قصائد موزونة فى الأشياء الأرضية والسماوية. وقالوا إنه أول من أنذر بالطوفان. ورأى أن آفة سماوية تلتحف الأرض من الماء.

وقيل أيضاً أن هرمس هذا كان رجلاً آدم تام القامة. حسن الوجه كث اللحية مليح الشمائل. عريض المنكبين. ضخم العظام، قليل اللحم، متأنياً فى كلامه. كثير الصمت إذا مشى أكثر نظره إلى الأرض، كثير الفكرة، وإذا اغتاظ احتد.

وكان مدة مقامه فى الأرض اثنتين وثمانين سنة وكانت له مواعظ وآداب مثل:

– الصبر مع الإيمان بالله يورث الظفر .

– الأعياد فى حفظ الفروض. والشريعة من تمام الدين. وتمام الدين كمال المروءة .

– السعيد من نظر لنفسه، وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة.

– لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نِعَمِه بمثل الإنعام على خلقه.

– من أراد بلوغ العلم وصالح العمل. فليترك من يده أداة الجهل وسيئ العمل. كما ترى الصانع الذى يعرف الصنائع كلها إذا أراد الخياطة أخذ آلتها وترك آلة النجارة. فحب الدنيا وحب الآخرة لا يجتمعان فى قلب أبداً.

– خير الدنيا حسرة، وشرها ندم.

– إذا دعوتم الله سبحانه وتعالى فأخلصوا النية. وكذا الصيام والصلوات فافعلوا.

– لا تحلفوا كاذبين. ولا تهجموا على الله سبحانه وتعالى باليمين. ولا تُحَلِّفوا الكاذبين فتشاركوهم فى الإثم.

– تجنبوا المكاسب الدنيئة.

– أطيعوا لملوككم، واخضعوا لأكابركم، واملأوا أفواهكم بحمد الله.

– حياة النفس الحكمة.

– لا تحسدوا الناس على مواتاة الحظ فإن استمتاعهم به قليل.

– من تجاوز الكفاف لم يغنه شيئ.

فإن كانت هذه الأقوال حقيقة من أقوال هرمس فالاحتمال الأكبر أنه هو إدريس عليه السلام – لأن هذه الأقوال تعبِّر عن إيمان حقيقي بالله وتدعوا إلى مكارم الأخلاق.

إلاَّ أن هذه الأقوال. وما جاء عنه فى كتاب تاريخ الحكماء لم يؤيد بنقل صحيح ولم يعضدها نص قاطع.

كذلك يُضعفها ما قالوه عنه من إخباره بالطوفان. وقولهم إنه بنى الأهرام والبرابى فى صعيد مصر الأعلى. وصوَّر فيها جميع الصناعات والآلات. ورسم فيها صفات العلوم حرصاً منه على تخلبدها لمن بعده خشية أن يذهب رسمها من العالم.

وهذا الكلام يجافى الحقيقة. فبعد أن أميط اللثام عن أسرار اللغة الهيروغليفية وجد أن هذه الرسوم كانت لتمجيد الملوك. ولم تكن لتسجيل العلوم خشية ضياعها. ولو كان ذلك كما ذكروا لكانت طريقة التحنيط جديرة بالتسجيل أيضاً وهو مالم يحدث. كما أن الذين بنوا الأهرام والمعابد عُرِفَتْ أسماؤهم. ولم يكن من بينهم من تسمى باسم هرمس الهرامسة كما أن الإخبار عن الطوفان كان من الممكن أن يؤيد قولهم لو كان الطوفان قد عمَّ مصر. أما وأن الطوفان لم يوجد له أثر فى مصر فإنه من غير المعقول أن يتنبأ بالطوفان الذى سيحدث فى العراق. فأى فائدة تُرجى من ذلك لأهل مصر!! فإذا كان هرمس هو إدريس عليه السلام فإن بعض الأخبار عنه قد أضيفت ظناً أنها تؤيد نبوته – أو أن هرمس كان رجلاً صالحاً يتبع ملة إدريس. وأضيفت أيضاً هذه الأخبار على سيرته.

مصر بعد إدريس عليه السلام

ليس الهدف سرد لتاريخ مصر فى هذه الفترة – بل سيكون الكلام من جزءين: الجزء الأول يتحدث عن الديانة المصرية القديمة. والجزء الثانى يختص بأثر دعوة إدريس السماوية على هذه الديانة.

(أ) الديانة المصرية القديمة :

سبق أن قلنا (ص ٥٠) إن تقديس الأسلاف كان هو بداية الإنحراف فى العقيدة الدينية. ولم تكن هذه الظاهرة قاصرة على مصر وحدها فقد كانت منتشرة بين جموع بنى البشر وكان لها أثر أيضاً فى العراق فى ظهور الآلهة: ود وسواع ويعوق ويغوث ونسراً، كما سيجئ عند الكلام عن نوح عليه السلام.

كذلك كانت محاولة استرضاء الأرواح بعمل تماثيل أو طواطم تسكن إليها – عاملاً آخر فى ظهور الوثنية.

وكان الرجل البدائى ينزع إلى أن يعزو لكل شئ روحاً. حتى الجماد وهو ما سماه الأستاذ عباس العقاد « استحياء» Animism. ولكن لأن لفظ استحياء قد يحمل معنى من الحياء وليس الحياة – لذلك فالأفضل منه لفظ «إضفاء الحياة».

كذلك لم يكن الفكر الإنسانى فى ذلك العصر قد تطور تطوراً كبيراً. وكان من السهل أن يتخيل أشياء تخرج عن المنطق، ولا يمكن أن نتصورها فى عصرنا الحالى. كما كانت مخاوفه كبيرة. كذلك كان الناس يدركون أنهم فى حاجة إلى قوة تفوق ما لديهم من قوة، يلجأون إليها عند الشدائد. وكان عندهم «وعى» بوجود هذه القوة أو ميل غريزى يؤكد لهم وجودها. ولكن لم يكونوا يعرفون كنهها. لذلك لجأوا فى تجسيد هذه القوة مذاهب شتى.

والمصريون القدماء – مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من بنى البشر فى ذلك الوقت – التمسوا الإتصال بهذه القوة وارتأوا أن أفضل السبل لذلك هو اختيار إطار أو محور محدد مرئى، يمكن أن تتجمع فيه الصفات التى تعبر عن هذه القوى، وكلما أرادوا الإستعانة بصفة ما لهذه القوة، جعلوا لها روحاً، ثم جعلوا لها رمزاً لتحل فيه، ليمكنهم طلب العون من خلاله، وسنرى فيما يأتى الآن أن تعدد الآلهة كان بسبب تعدد صفات هذه القوة، وتعدد إمكانياتها وتعدد المطلوب منها. فلم تعبد البقرة أو القطة فى مصر القديمة لذاتها، بل لأنها ترمز إلى تجسيد صفة من صفات القوة العليا.

فإذا نظرنا إلى ديانة مصر القديمة، وجدنا تطبيقاً لنظرية إضفاء الحياة ووجود روح لكل شيئ. وتبعاً لتعدد المطلوبات من صفات القوة العليا، فإن الأرباب كانت أيضاً متعددة مثل:

١ – **أرباب الطبيعة** : أو الأرباب التى تتمثل فيها مشاهد الطبيعة وقواها، كالرعد والبرق والمطر والرياح والشمس والقمر.

٢ – **أرباب النسل والخصب** : وهى على الأغلب الأعم فى صورة الإناث، ويسمونها بالأمهات الخالدات. وقد ترقت مع الزمن إلى واهبات الخلود بعد هبة الحياة.

٣ – **أرباب المعانى** : كرب العشق ورب الحرية ورب السلام ورب العدل ورب الحرب ورب الصيد.

٤ – **أرباب الإنسانية والأسرة** : وهم الأبطال والقادة المحبوبون والموهوبون أو الأسلاف، ترقُّوا بعد وفاتهم إلى أرباب.

٥ – **آلهة الخلق** : التى ينسب إليها خلق السماء والأرض والإنسان والحيوان.

٦ – **الآلهة العليا** : وهى الآلهة التى تحاسب الناس بشرائع الخير ومحاسن الأخلاق وتضمن السعادة الأبدية للأرواح فى عالم البقاء.

في هذه المرحلة تعددت الأرباب بصورة كبيرة ووصلت إلى العشرات بل المئات، بل توشك كل أسرة كبيرة أن تتخذ لها رباً تعبده، أو تعويذة تنوب عن الرب فى الحضور وتقبُّل الصلوات.

بعد ذلك بدأت مرحلة أخرى، وهو دور التمييز والترجيح بين الأرباب Henotheism، إذ يأخذ ربٌّ من هذه الأرباب المتعددة فى البروز والرجحان على سائرها – لأنه رَبُّ قبيلة كبيرة دانت لها القبائل الصغرى، ثم ظهرت آلهة المدن، والمعبود المحلى هو إله المدينة وحاميها، وكما سبق أن قلنا إن هذه المدن، كانت «إمارات مدن» أى كل مدينة إمارة مستقلة تضم حولها عدداً من القرى، ثم بدأت بعض المدن تتعاظم وتضم إليها مدناً أخرى، بالتالى يسود إله المدينة الأقوى وتختفى الآلهة المحلية، أو تتوارى إلى الظل، أو يتم امتصاصها فى أقانيم الآلهة الأعظم أهمية، وبدأت الآلهة تقل فى عددها إلى عدد المقاطعات أو الأقاليم التى تتكون منها مصر وهى ٢٢ فى الوجه القبلى و ٢٠ فى الوجه البحرى.

تجسيد الآلهة :

كان المصرى القديم فى ذلك الزمن المبكر – ينظر إلى الحيوانات البرية – رغم كونها هدفاً للصيد – نظرة ملؤها الرهبة بسبب ضراوتهاوقوتها. أما الحيوانات المستأنسة، فقد عبد بعضها تعظيماً منه لصفة فيها، واعتقاداً منه أنه بعبادتها ستضفى عليه من صفتها هذه.

ومن الحيوانات والطيور التى عبدها قدماء المصريين:

١ – اللبؤة . وليس الأسد.

٢ – الثور، بسبب قوته الإخصابية.

٣ – الكبش، أيضا لقوته الإخصابية.

٤ – البقرة، اختيرت رمزاً للأمومة لعنايتها وحُنوِّها على وليدها.

٥ – العجل حابى أو العجل أبيس، وكان يُنتقى إما أسود اللون تماماً أو أبيض تماماً.

٦ – فرس النهر والتمساح.

٧ – القطة، وهى المعبودة الحامية من لدغات الثعابين، إذ أن القطة كانت دائماً قاتلة لهذه الكائنات السامة.

٨ – الصقر حورس.

٩ – الطائر المقدس إيبس وهو بالعربية أبو منجل من فصيلة أبى قردان، والنوع الذى قدسه المصريون يمتاز بريشه الأبيض ورأسه ورقبته سوداء اللون.

١٠ - الكوبرا: وقد أصبحت رمزاً لمملكة الدلتا، وبعد التوحيد السياسى ظلت توضع على التيجان والرموز الملكية.

كذلك قُدست شجرة الجميز فقد كان المعتقد أن أرواح الموتى القادمة من المدافن المجاورة على شكل طيور، تجد فى ظل الجميزة الوارف، حاجتها من الطعام والشراب تقدمها لها الإلهة الخيِّرة التى تقطن الشجرة. فقدست نزولاً على ذلك الإعتبار (انظر شكل ١٩ ص ٧٤) .

ومع التقدم الفكرى، تغيرت النظرة لهذه الحيوانات. فقد انجلى الكثير من الغموض الذى كان يحيط بها ومن ثَم الرهبة منها. إذ كان فى الماضى يخشاها أو يطلبها بجانبه. ولكن مع اتساع المعرفة تراجع تقدير المزايا التى عبدها من أجلها مثل، جبروت قوة الوحوش أو غرائز الأمومة فى إناث الحيوانات، أو القدرات الفائقة لتحليق الطيور الجارحة. واضمحلت فى نظر الإنسان هذه القوى الجسدية، وأضحت القيمة المعنوية الموجودة لدى الأنسان، مساوية فى الأهمية. وهكذا مزجوا الفكرتين. معاً فأصبحنا نرى آلهة ذات جسد بشرى ورأس حيوانى. ولطرافتها رأينا وضع صور بعضها (شكل ٨، ٩، ١٠، ١١).

فالإله حورس يُصوَّر بجسد إنسان ورأس صقر.

والإله أنوبيس يحمل رأس ابن آوى أو رأس كلب.

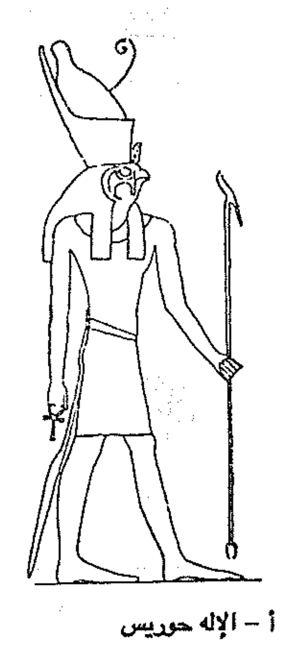
والإله خنوم يحمل رأس كبش على جسد إنسان.

والإلهة حتحور رغم أنها تحمل رأساً بشرية ذات وجه أنثوى إلا أنها زودت بقرنى بقرة بينهما قرص الشمس.

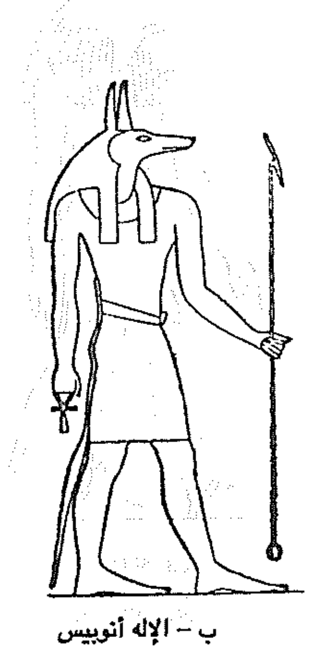
وكانت آخر مرحلة فى تصوير المعبودات هى تصويرها فى هيئة بشرية كاملة بجسد إنسانى ورأس إنسانى أيضاً (شكل ١٢).

أثر الحياة السياسية على العقيدة :

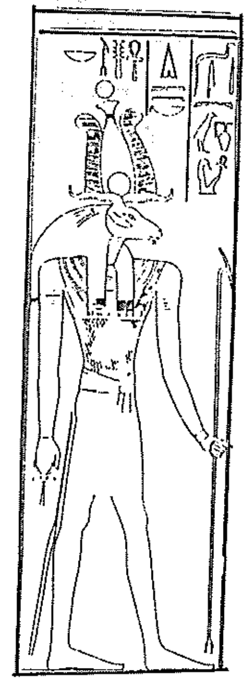
وكان للحياة السياسة أثر كبير على الحياة الدينية. فقد أدت مراحل الإندماج السياسى بين المقاطعات والأقاليم إلى تغيرات فى مراكز الآلهة. فقد كانت تسود آلهة المقاطعات الأقوى وتختفى الأخرى أو تقل أهميتها. وقد يعمد كهنة واتباع الآلهة المهددة بالنسيان - من أجل الحفاظ على مراكزهم وبالتالى على ما يقدم لهم ولآلهتهم من قرابين وهدايا - إلى تزويجهم من الإله الرئيس أو إدخالهم فى ثالوث إلهى مقدس معهم. وباشرت أقاليم الوجه البحرى نضجها السياسى وتجمعت فى مملكتين.



أ – الإله حوريس

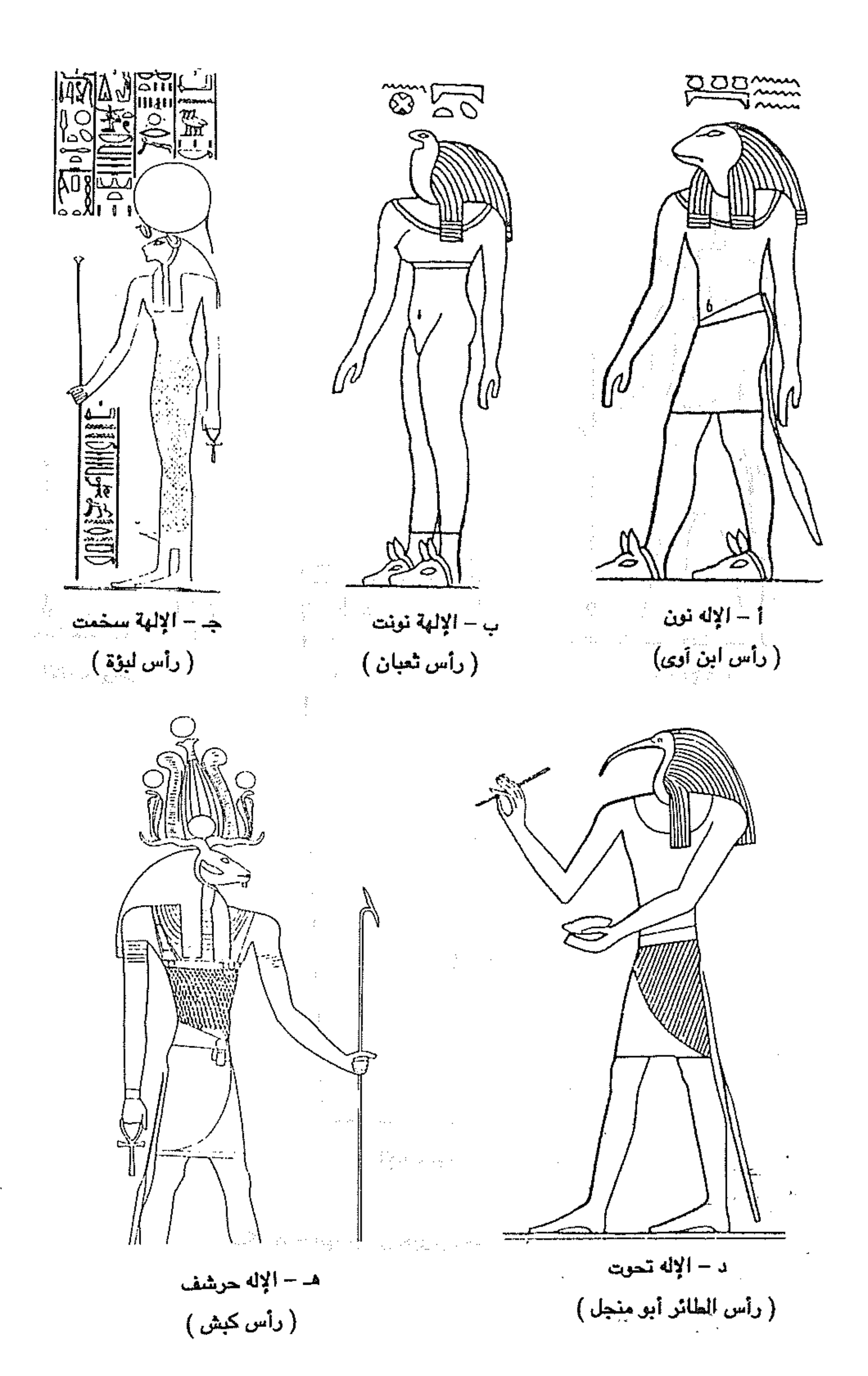


ب – الإله أنوبيس



جـ – الإله خنوم

شكل ٨ – آلهة برأس حيوان وجسد إنسان



شكل ٩ – آلهة برأس حيوان وجسد إنسان



شكل ١٠ – الإله « آمون رع »

شكل ١١ – أ-الإله « آش » بجسم رجل ورأس لبؤة وثعبان .

ب – الإله « سوبك » برأس تمساح



أ – الإله « حا » فى يده حربة
يحمى بها المتوفى

ب – « سشات » إلهة الكتابة
تسجل أعمال البشر

جـ – الإله « خونسو »

شكل ١٢ – آلهة فى صورة بشرية كاملة

- **مملكة شرق الدلتا** : وقدست معبودها عنچتى، وصوَّرته فى صورة بشرية مميزاً بريشتين فوق رأسه، وكانت عاصمتها بلدة عنچة.

- **مملكة غرب الدلتا** : وقدست ربها الأكبر حور، ورمزت إليه بهيئة الصقر.

ثم اتحدت المملكتان فى مملكة واحدة عاصمتها سايس (صا الحجر حالياً قرب فرع رشيد) واتخذوا المعبودة «نيت» حامية لهم ورمزوا لها بسهمين متقاطعين وقوسين متشابكين باعتبارها من رعاة الحرب.

وأعقب ذلك اجتماع **أقاليم الصعيد** تحت زعامة مدينة نوبت (قرب قنا) واتخذت «**ست**» ربا لها واعتبروه من أرباب السماء والأمطار.

ثم انتقلت عاصمة **الوجه البحرى** إلى عنچة وتزعمها «**أوزير**» أو «**أوزيريس**». ثم خلعوا عليه من أوصاف الآلهة وقدسوه وسميت العاصمة باسمه برأوزير (أبو صير حالياً). وحارب أوزيريس الصعيد وانتصر عليه وضمه إليه. وكان أوزيريس أول من تولَّى عرش مصر من البشر المؤلهين أو الآلهة الأرضيين.

ولكن الصعيد ثار وتعصبً لمعبوده ست. ولكن تمت الوحدة مرة ثانية واتخذوا مدينة أون (عين شمس والمطرية حالياً) كعاصمة وظلوا يمجدون الرب أوزيريس بجانب رع رب الشمس.

ومنذ الأسرة الرابعة أصبح الملك ابنا للإله «رع» وظهرت أسماء الملوك الذين بنوا الأهرام: خفرع، منكاورع، ثم ملوك الأسرة الخامسة: تى رع ، سر رع، وجد رع.

هل أوزريس هو إدريس عليه السلام ؟

رجح البعض أن إدريس هو أوزريس. ولعل تقارب الاسمين هو الذى أوحى بهذه الفكرة ولكن قبل الخوض فى هذا الجدل نذكر أسطورة أوزريس نفسها:

وأسطورة أوزريس واحدة من أشهر الأساطير فى مصر القديمة. وقد سُجِّلت فى بعض متون الأهرام الدينية، منذ نهاية عصر الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ – ٢٤٢٥ ق.م) مما يدل على أنها منقولة عن عصور أسبق منها، وأن لها صبغة القداسة، وتدخل فى نسجها ذكريات قومية بعيدة ومسحة دينية وعبرة خلقية.

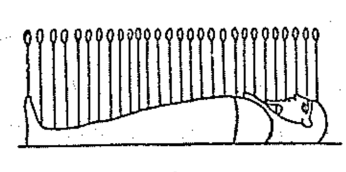
وكان أوزريس وإيزيس (أوزير وإيسة) أخوين وزوجين، يكملهما أخوان آخران هما ست (سوتخ) وزوجته وأخته نفتيس (نيت حت). (ولعل هذه الرباعية تحكى هابيل وقابيل وأختيهما). وكان الأربعة يجمعون بين الألوهية والبشر. واعتبرت الأسطورة أوزريس ملكاً على البشر، يُعَلِّم الناس السلام والعدل، ويعلمهم الزراعة والكتابة (ولعل هذا مأخوذ عن قصة إدريس عليه

السلام لأنه أول من خطّ بالقلم). فأحبه الناس، وحقد عليه أخوه ست، وأخذ يدبّر له مكيدة يتخلص بها منه. فصنع تابوتاً يسعه تماماً، وزخرفه بالجواهر والأحجار الكريمة. ودعاه إلى وليمة كبيرة حضرها كثيرون. وأعلن أنه سيمنح هذا التابوت لمن يكون على قدّه. فقام كل من المدعوين يجرب حظه ولكن على غير جدوى، ثم قام أوزريس ودخل الصندوق، ولم يكد يمد جسده فيه حتى أسرع المتآمرون وأغلقوا عليه، ثم ألقوا به فى النيل، فحمله التيار إلى البحر المتوسط. ومازالت الأمواج تتلقّفه حتى ألقت به عند مدينة بيبلوس (جُبيل) بفينيقيا (لبنان). فلما علمت زوجته إيزيس بما حدث له، حزنت عليه وبكته بكاءً مراً. وجدّت فى البحث عنه، حتى وجدت التابوت وعادت به إلى الدلتا. ولكن قبل أن تتمكن من فتحه، فاجأها ست وقطع جسم أخيه إلى اثنتين وأربعين قطعة (عدد مقاطعات مصر) وألقى بقطعة فى كل مقاطعة. لم يفُتّ ذلك فى عَضُد إيزيس، وركبت قارباً لتجمع تلك الأشلاء، وعاونها فى جمعها «تحوت»، إله العلم والحكمة، وأختها نفتيس زوجة ست، و«أنوبيس» إله التحنيط. ولما جمعت الأشلاء كلها قرأت عليها بعض التعاويذ السحرية. فدبت الحياة فيها من جديد وحملت منه حملاً ربانياً، ووضعت منه طفلها حور (حورس) وربّت طفلها خفية فى أحراش الدلتا. وعاونتها كائنات عديدة على كفالته. فأرضعته بقرة، ورعته معها سبع عقارب. ثم عادت إيزيس وشهّرت بست الغاصب القاتل. وكان أوزريس قد عهد بالملك لولده حورس، وتعاونت إيزيس مع ولدها للأخذ بثأر أبيه، وطالت المواقع بينهما. وقد تمكن ست فى الموقعة الأولى من نزع عين حورس. ثم استمر القتال بينهم، وانتهى بنصر حورس، واسترجاع عينه التى نزعت منه. وقد قدم حورس هذه العين لوالده أوزريس فارتد إليه بصره. ومنذ تلك اللحظة أصبحت العين رمزاً على كل قربان جميل وكل هدية حسنة ثمينة تقدم للمتوفى.

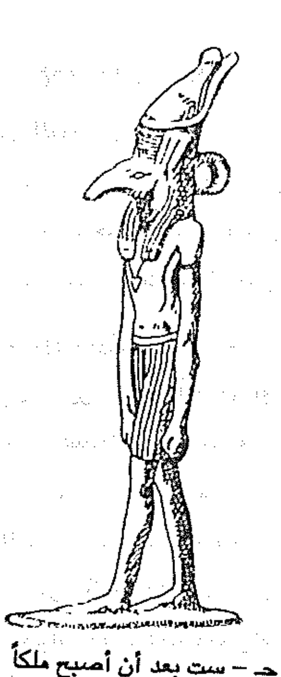
وعاد النزاع من جديد بين «ست» و«حورس» على العرش وكان حورس يعتمد على إرثه الشرعى للملك. ومساعدة إيزيس له. وكان ست يعتد بقوته وجبروته، ومعاضدة «رع» له. فعرضوا النزاع على محكمة الآلهة والحكماء أصحاب القضاء فى عين شمس. وجاءوا ببدن أوزريس ليكون شاهدا على ما حل به من غدر. فأدان القضاة ست بالاعتداء على أخيه، وتولى حورس الملك. ولم يكن لأوزريس فى الدنيا غاية فانتقل إلى العالم السفلى – مملكة الأموات – واختارته الآلهة ليكون قاضى الموتى. فأصبحت مهمته محاسبة أهل الدنيا ووزن أعمالهم وإصدار الحكم عليهم بالنعيم أو الجحيم.

وهكذا انتهى جوهر الأسطورة بتغليب الحق على الباطل. والإيمان بعدالة الأرباب. وتبرير أسباب تقديس أوزريس. وجَعَل قدماء المصريين مقبرة أوزريس فى أبيدوس مزاراً (حالياً – العرابة المدفونة – مركز البلينا محافظة جرجا). وكان لزاماً على كل مصرى أن يحج إلى هذه المقبرة مرة فى حياته على الأقل.

أ – أوزوريس



ب – جثة أوزوريس بين نباتات البردى



جـ – ست بعد أن أصبح ملكاً



د – إيزيس ترضع حورس وهما مختبئان بين الأحراش



هـ – إيزيس تحمى أوزريس بجناحيها

شكل ١٣ – صور من أسطورة أوزريس وإيزيس

كذلك كان «رع» يتمتع بشعبية كبيرة فى «هليوبوليس».

وللتوفيق بين العبادتين أصبح كل ملك موحداً مع «حورس» وابن الإله «رع». كذلك يعتبر كل ملك أنه يُوَحَّد مع «أوزريس» بعد وفاته، وكما بُعث أوزريس، فإن الملك سيُبعث مرة أخرى وبذلك استمر أوزريس. بل وأضحى كل مصرى ميت، ذكراً أو أنثى، كأنه يتوحَّد مع أوزريس، وهكذا استمرت مكانة أوزريس حيث أنه لم يكن ينافس الآلهة الأخرى، فهو يُعنَى فقط بعالم الموتى.

هذه هى أسطورة أوزريس. ولا نرى من تشابه بينها وبين قصة إدريس عليه السلام، إلاَّ فى ما ينسبونه إلى أوزريس من أنه هو أول من علم الناس الكتابة والطب وعلم النجوم. مثل ما فعل إدريس عليه السلام. أما ما عدا ذلك فليس هناك من تشابه إطلاقاً فإن الصراع بين الأخوين، أوزريس وست – وإن كان يشبه صراع ابنى آدم – هابيل وقابيل – إلا أن سبب الصراع فى الحالتين يختلف اختلافاً كبيراً. فى أحدها صراع على الأخت، وفى الأخرى صراع على العرش. كذلك فإن إدريس عليه السلام بشر رفع إلى السماء. أما أوزريس فكان بشراً إلهاً فى حياته وبعد قتله وإحيائه مرة ثانية صار إلهاً. ولكنه لم يرتفع إلى السماء. بل كان يعنى بالعالم السفلى، عالم الأموات.

لذلك فإنه من غير المحتمل أن يكون أوزريس هو نفسه النبى إدريس عليه السلام.

(ب) أثر إدريس على الديانة المصرية القديمة :

سبق أن ذكرنا أنَّ الظروف البيئية والجغرافية لكل من وادى نهر النيل وأرض ما بين النهرين (العراق) كانت متشابهة من حيث وفرة الماء والغذاء والمسكن للإنسان ومواشيه. مما هيأ لمن يصلون إلى هاتين المنطقتين الاستقرار اللازم لنشوء ونمو وترقِّى الحضارة. وإن كانت هذه الظروف أكثر ملاءمة فى مصر عنها فى العراق. فقد كان فيضان نهر النيل منتظماً وهادئاً فى أغلب الأوقات. اللهم إلاَّ مرات قليلة يكون فيه الفيضان عالياً فيغرق مساحات كبيرة من الأراضى بعكس أنهر العراق التي كان فيضانها العنيف يكتسح كل شيئ أمامه. وإذا جف فإنها تصبح مثل ترعة صغيرة. ولهذا كانت الحضارة المصرية أسبق فى نشوئها وأسرع خطىً فى تطورها.

ولكن حضارة مصر أيضاً، اختلفت كثيراً جداً فى، بعض النقاط، عن حضارة ما بين النهرين، بما لا يمكن تفسيره على أسس جغرافية أو بيئية أو أسس مرحلية، أى تأخر حضارة العراق مثلاً بمرحلة أو مرحلتين عن حضارة مصر. كذلك فإن هذه النقاط من الصعب أن نتصور أنها قد نبعث ذاتياً فى تفكير الكهنة، إذ يصعب تصور أن يصل إليها العقل البشرى

من تلقاء ذاته – ولو كان الأمر كذلك لوصل إليها أو إلى ما يشابهها كهنة العراق ولو فى وقت متأخر وهو ما لم يحدث. وهذا يُرجِّح أن هذه النقاط هى بقايا تعاليم سماوية أنزلت على نبىًّ أُوحِىَ إليه من السماء ولم يكن هذا النبى سوى إدريس عليه السلام.

وبالرغم من تفشى الوثنية وعبادة الأصنام كما أسلفنا – إلاّ أن دراسة أسس العقيدة ذاتها تكاد تشى بما افترضناه من بقايا تعاليم سماوية جاءت فى زمن مبكر واندثر أغلبها. كما أنه لا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن إدريس وقد بعث فى إحدى المدن أن دعوته انتشرت لكل ما حولها من المدن. إذ أن صعوبة الاتصال بين المدن لم تُتِح لباقى المدن الإلمام بها، لذلك ظلت على عبادتها لآلهتها المحلية. ولعله بين الحين والآخر كانت واحدة من هذه الأسس السماوية تصل إلى الكهنة فيجدون فيها ما يُطَعِّمون به أفكارهم ومن ثم تفسيراتهم الدينية.

وسأحاول هنا أن أذكر أهم ما أعتقد أنه مشتق من تعاليم سماوية – هى تعاليم إدريس عليه السلام.

(١) نظرية الخلْق :

طبقاً **لفلسفة الأشمونيين اللاهوتية** لم يكن فى البداية سوى اللا وجود أو الفوضى ذاتها، والتى تخيلها المصريون إما كعنصر عبارة عن المياه الأزلية. أو قوى تتجسد فى الإله «نون» الذى أطلق عليه إسم «الواحد القديم». فهو المبدأ الأول أو الأصل الأول. ونلمح هنا تَصَوُّر إله واحد قديم أزلى ومياه أزلية. فكأنهم يقولون هو الأول ولا شئ قبله. وكان عرشه على الماء!!

ولكن العقل البشرى فى ذلك الوقت لا يتحمل تصور غيبى أكثر من هذا – فيعود إلى تجسيد الأزل فيقول: إن قوام هذا الأزل أربعة عناصر: ماء كثيف، وظلام محيط، وقوة دافعة، وعنصر لطيف لا يرى. وتخيلوا أن كلاً من هذه العناصر الأربعة يهيمن عليها ويُجسِّدها توأمان لكل عنصر فيها، الأصل مذكر، والفرع مؤنث.

فعنصر الماء الكثيف أو العمق العظيم يجسده «نون» و «نونت».

والظلام المحيط يجسده «كوك» و «كوكت».

والقوة الدافعة أو اللانهاية يجسدها «حوح» و «حوحت».

أما العنصر الرابع فهو روح لطيف لا يرى ويجسدها «آمون» و«أمونت». وعندما استقر آمون فى طيبة أصبح ربًّا للهواء وحفيظاً على مقومات الحياة ونسماتها.

أما **لاهوت هليوبوليس** فيقول بأن الإله «آتوم» قد بدأ وجوده الذاتى من فوق قمة تل أزلى انبثق بدوره من الماء الأزلى. ثم نفخ الإله فى يده وبزق من فمه الإله «شو» وقرينته «نفتوت»

والذين نسلا خلال ولادة طبيعية بقية المعبودات. ويعزى إلى «آتوم» الذى يعنى اسمه فى اللغة المصرية القديمة «الكامل» أو المطلق» ثلاث صفات رئيسية.

١ - فهو الموجود بذاته - الذى أتى إلى الوجود بنفسه.

٢ - وهو الأقدم أو الأزلى .

٣ - كما أنه «الأوحد» - المتفرد بذاته و «سيد الجميع».

وكان «شو» يُجَسِّد الهواء، وأعطى الحياة أو القوة الخالقة والريح والأنسام التى تتنفسها الأحياء. وهو «لا نهائى» و «غير مرئى».

هذه النظريات عن الخلق وما فيها من لمحات صوفية كأنها ومضات نور، تشير إلى بقايا تعاليم سماوية لم يستطع أن يستوعبها فكر بدائى، فجسدها بمحسوس، حتى يستطيع عقله أن يقبلها.

٢ - القَــدَرْ :

قدر الإنسان ومصيره يقع بين يدى الإله «شو» أو «شوى» أو «شاى» فهو الذى يحدد مصيره عند مولده، إما رديئاً أو طيباً. ويبدو فى مفهوم المصرى القديم أن مصائر البشر أو أقدارهم ليست حتماً يستحيل تجنبها. فالإنسان قادر على تغيير قَدَره من خلال أفعاله إذا أراد الإله له ذلك. وطالما أن الغد دائماً يقع بين أيدى الإله، فالطفل يولد مصحوباً بالعناية الإلهية. والوالدان يوطدان صلتهما بالآلهة، فتأمر بأن يولد الطفل لهما. ومنذئذ فإن الإنسان يمارس أعماله فقط من خلال مشيئة الآلهة وموافقتها، فالبشر يقترحون الأفعال أما الآلهة فيفرضونها. أو كما عَبَّر عن ذلك أحد حكماء قدماء المصريين بقوله: الإنسان ينطق بالكلمة أمَّا الأمر فللرب.

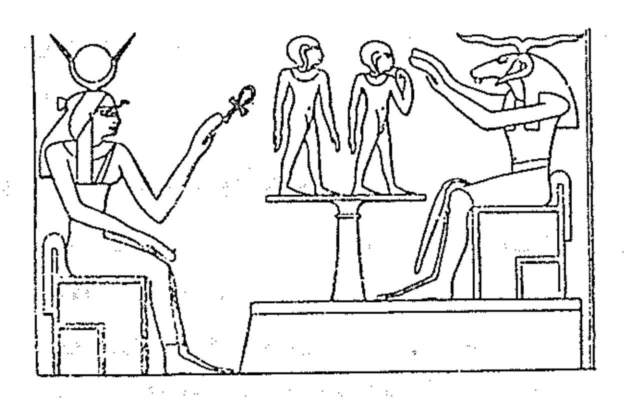
ألا يحاكى ذلك قولنا «العبد فى تفكير. والرب فى تدبير».

٣ - خلق الإنسان من طين :

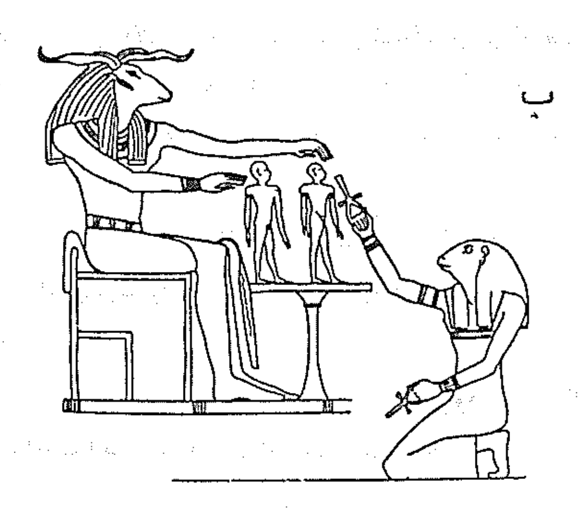
فالإله خنوم هو الإله الذى يخلق البشر حيث يقوم بعمل الفخارى فيجلس إلى دولابه. ويشكل الطفل وقرينه (شكل ١٤) ومن ألقابه «الفخَّارى الذى يشكل الإنسان».

وجاء فى القرآن الكريم **«خَلَق الإنسان من صلصال كالفخار»** (١٤ - الرحمن)

ولعل مثل هذه الآية وردت على لسان إدريس عليه السلام. ولكن العقل المصرى القديم جسدها فى صورة الإله خنوم يجلس إلى دولاب يُشكِّل البشر من الطين والفخار كما فى



أ – الإله « خنوم » يشكل على دولابه الفخارى إنسان وقرينه
والإلهة « حاتحور » تقدم رمز الحياة



ب – الإله « خنوم » يشكل طفلاً وقرينه
بينما تقوم الإلهة « حكات » بإعطائه الحياة

شكل ١٤ – تصوّر المصريين القدماء لخلق الإنسان وقرينه من طين وإعطائه الحياة

الصورة، ويشكل قرينه الذى يشبهه تماماً. ثم تقوم الإلهة «حكات» بإعطائه الحياة أى تهب له الروح (شكل ١٤ ب).

٤ - الروح والقرين والوفاة والبعث :

قلنا إن الإله «خنوم» يجلس إلى دولابه، ويعمل الإنسان من الفخار. ويستقبل كل إنسان، عند مولده، بأمر من الإله «رع» الـ «كا» - والكا هى القرين وتشبه الإنسان تماماً إلاَّ أنها لا تُرَى (شكل ١٥، ١٦) وقد ورد أن إله الشمس «آتوم» عندما خلق أول إلهين - وذلك بأن تفلهما - وضع ذراعيه من ورائهما. ففاضت عليهما الكا التى كانت له، ودبت فيهما الحياة. ولابد أن وضع الذراعين على هذا النحو كان ذا صلة بمنح الكا. ولذلك كانت الذراعان الممتدتان هى رمز «الكا». وإلى جانب الكا، توجد الـ «با». وتخيلوها عادة كأنها طائر له وجه إنسان (شكل ١٧) وهى الروح.

فإذا مات الإنسان هجرته الكا، إلاَّ أنها تظل تعنى بالجسد الذى سكنته أمداً طويلاً وتكون بجانب الميت. من وقت لآخر على الأقل، فالموت إذن ليس نهاية، بل هو انتقال إلى حالة أخرى. والموتى يقيمون فى مقابرهم أو فى عالم خاص بهم، وتكون الكا بجوارهم، لذلك فإن القبر يسمى «دار الكا». وجاء فى كتبهم: إنك تعيش سعيداً أبداً (فى القبر) وبجانبك الكا التى لك، إنها لن تهجرك أبداً.

لذلك كانت تُقَدَّم الأطعمه وفقاً لصيغة القربان الشائعة إلى «كا» الميت، وكان ينظر إلى الكا وكأنها «آلملاك الحارس» الذى يهتم بالإنسان ويعنى بأمره لذلك كان يوضع بجوار الميت أوانى تحتوى على طعام وشراب.

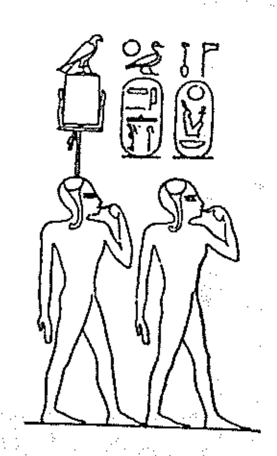
أما الروح فكانت تترك الجسد وتنفلت منه عند الموت. وتخيلوها عادة كأنها طائر (شكل ١٨). وربما تمثلوا روح الميت الذى يبكونه بين الطيور التى تستقر على الأشجار (شكل ١٩). أو تتمثل الروح فى هيئة زهرة. وعلى العموم فهى قد تتشكل فى أى صورة. ولا تستقر فى مكان، فهى اليوم هنا وغداً هناك، وبين الحين والآخر تهبط إلى القبر لتزور الجسد (شكل ٢٠).

والملك المتوفى يطير فى شكل طائر إلى السماء على سلم فإذا كان قد فعل صالحاً فى الدنيا فإنه يطير فى السماء إلى جانب إخوته الملائكة. وقد يأخذه إله الشمس «رع» معه فى سفينته ويجوب السماء معه.

أما الصالحون من عامة الشعب. فينتهون إلى «مقر الأبرار» وتصوَّروه مجموعة من الجزر تحيط بها المياه، والطعام فيها وفير، بل إن فيها حقل يُسمَّى «حقل الأطعمة»، وأزكى منه حقل يارد «مقر الآلهة والممجَّدين». على أنه لم يكن من اليسير أن يوفَّق كل إنسان فى بلوغ حقل



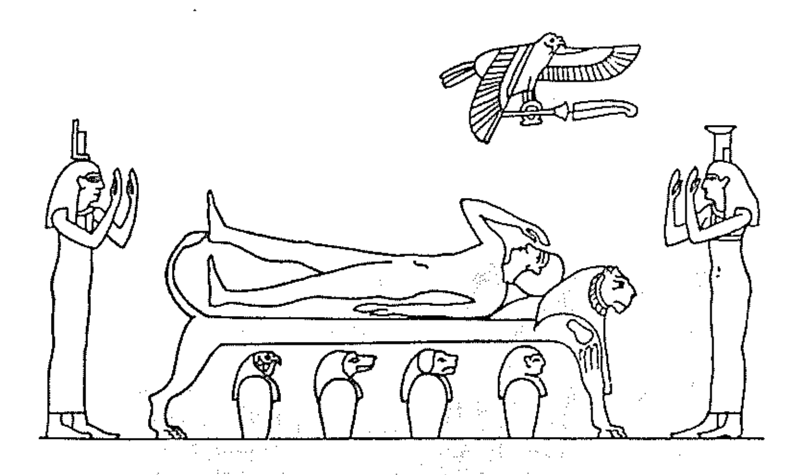
شكل ١٥ – خلق الملك وقرينه عند ولادته بواسطة الإله « حكاو »
وخلفه الإله « حابى » يمسك رموز الحياة . بعد ذلك يقدمهما الإله
« حورس » إلى الإله « آمون رع »



شكل ١٦ – الملك طفلاً ومن ورائه الكا



شكل ١٧ – الروح (على هيئة طائر)



شكل ١٨ – عند الوفاة تنطلق الروح على هيئة طائر وتترك الجسد
يلاحظ الإلهة « نفتيس » عند رأس المتوفى و« إيزيس » عند قدمي

شكل ١٩ – أرواح الموتى طيور تأوى إلى شجرة
الجميز وتقوم الآلهة بإطعامها

شكل ٢٠ – هبوط الروح
على السلم إلى القبر

الأبرار لصعوبة اجتياز المياه التى تحيط به، لهذا كان من الناس مَن يأمل فى عطف الطيور المقدسة، راجياً أن تنقله إلى هذه الحقول، ومنهم من كان يرجو أن تأتى له الآلهة بقارب يعبر به، وإن كان صالحاً جداً يأخذه معه إله الشمس نفسه ليعبر به فى سفينته.

ألا يشبه ذلك – الصراط – الذى يمر عليه الناس يوم القيامة ؟

كذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

«إنَّ الأبرار لفى نعيم». (١٣ – الإنفطار)

وسبق أن قلنا إن المؤمن بديانة أوزيريس، يعتقد أنه كما أن أوزيريس لم يمت حقًا، فإنه كذلك لن يموت، وأنه سيبعث فى حياة جديدة سعيدة، وسيصحو ثانية على نحو ما بُعث أوزيريس للحياة. لا على شكل خيالى، وإنما فى مبعث جسد، لأن الآلهة جمعت معاً عظام أوزيريس. وأن أم أوزيريس – الإلهة «توت» – كما جاء فى كتاباتهم: إنها تعطيك رأسك، وتجلب لك عظامك، وتجمع لك أعضاءك وتضع قلبك فى جسدك، وروحك تأتى إليك، وستصاحبك من جديد الكا التى لك، وتأتى لك حياتك، ويأتى الإله «چث» ليفتح فمك لتستطيع الكلام من جديد. و«تحوت» و «حورس» يوقفانك. ثم يدعو «حورس» «تحوت» بأن يسوق إليك عدوك ثم يضعك فوق ظهره. ويقول خذ مكانك فوقه فتنتصر على مضطهديك.

ألا يتفق ذلك مع قوله تعالى:

«ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين». (٢٩ – فصلت).

وعن القرين جاء فى القرآن الكريم :

«قال قائل منهم إنى كان لى قرين» (٥١ – الصافات).

«ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين» (٣٦ – الزخرف).

«قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين. فبئس القرين» (٣٨ – الزخرف).

«ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا» (٣٨ – النساء).

«وقال قرينه هذا ما لدى عتيد» (٢٣ – ق).

«قال قرينه ربنا ما أطغيته، ولكن كان فى ضلال بعيد» (٢٧ – ق).

وفى الحديث الشريف: ما من أحد إلاَّ وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن.. قالوا ولا أنت يا رسول الله. قال ولا أنا، إلاَّ أن الله أعاننى عليه فأسلم. فلا يأمرنى إلاَّ بخير.

أما الروح فقد قال الله تعالى:

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً» (٨٥ - الإسراء).

أما عن الحال فى القبر فقد جاء فيها قوله تعالى:

«ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» (١٠٠ - المؤمنون).

وقال محمد بن كعب: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا هم مع أهل الآخرة - يجازون بأعمالهم. وقال أبو صخر: البرزخ المقابر. لا هم فى الدنيا ولا هم فى الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون. وجاء فى الحديث الشريف: القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

٥ - يوم الحساب :

آمن المصريون القدماء أنه بعد القبر يوجد بعث. وحينئذ يحاسب المرء على أفعاله أمام محكمة الموتى.

وجاء مكتوباً عن أحد الحكماء: لا تظن أن هناك أمداً طويلاً إلى أن تحين المحاكمة، وأنه حتى ذلك الوقت سيُنسى كل شئ. فإنهم - القضاة - ينظرون إلى أن الحياة كأنها ساعة.

ألا يشبه هذا قوله تعالى:

«كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاَّ ساعة من نهار» (٣٥ - الأحقاف) .

وقوله تعالى :

«ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة» (٥٥ - الروم).

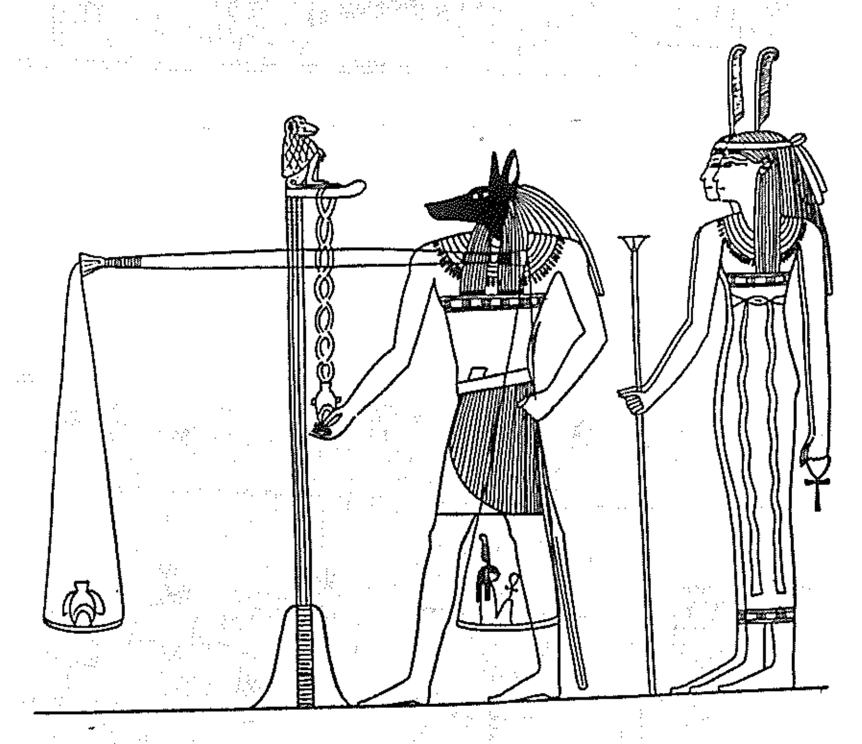
ويمضى الحكيم قائلاً: وإن الإنسان ليبقى بعد الموت وستكوَّم أعمال إلى جانبه.

ألا يشبه ذلك قوله تعالى:

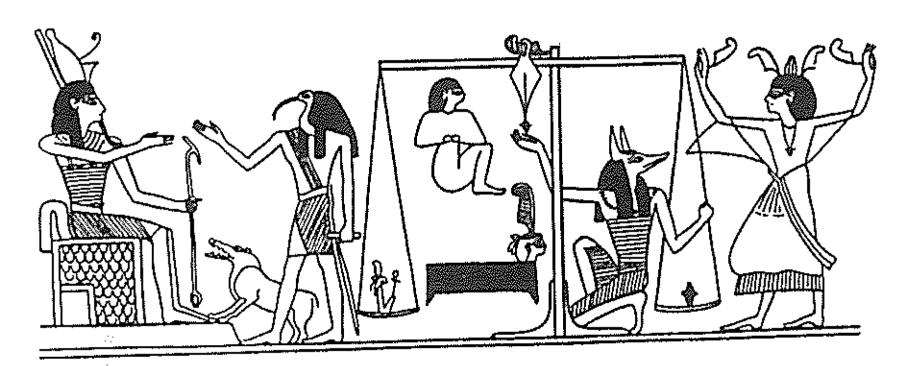
«ووجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً» (٤٩ - الكهف)

ويمضى تصوُّر المصريين ليوم الحساب هكذا: يجلس قضاة أوزيريس وعددهم ٤٢ قاضياً - بعدد أقاليم مصر فى ذلك الوقت - ويُنصب الميزان العظيم. يوزن فيه قلب الميت مقابل علامة الحق. **ويتحقق حورس** و«أنوبيس» إن كان أخف منها أو أثقل (شكل ٢١ ، ٢٢).

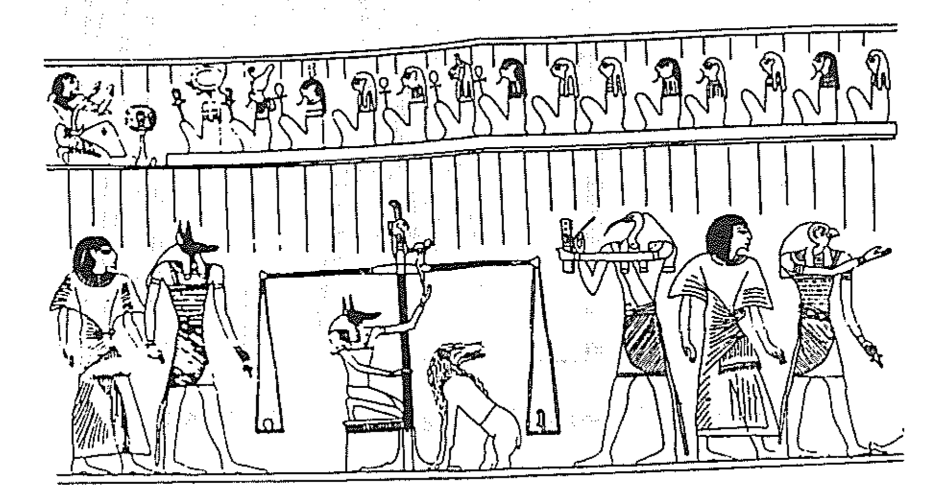
وهذا **الأمر - الميزان** - لم يأت فى ديانة أخرى غير ديانة قدماء المصريين فلابد أنهم أخذوه من تعاليم **نبى مرسل** - وهو إدريس عليه السلام. وما حدَّث به يتفق مع ما جاء فى القرآن الكريم:



شكل ٢١ – الإله « أنوبيس » يزن قلب المتوفى وخلفه تقف « ماعتى »



شكل ٢٢ – وزن قلب المتوفى أمام الإله « أوزيريس »



شكل ٢٣ – محاكمة المتوفى أمام القضاة (فى أعلا الصورة) بعد وزن أعماله

«ونضع الموازين القسط ليوم القيامة» (٤٧ - الأنبياء)

«والوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم» (٨ - ٩ الأعراف)

«فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشه راضية. وأما من خفت موازينه فأمه هاوية. وما أدراك ماهيه. نار حامية» (٦ - ١١ - القارعة)

كما أن الحديث الشريف يقول : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه ، وعن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه. حديث صحيح.

وتقترب من هذا المعنى - الفلسفة الدينية عند قدماء المصريين إذ تطلب من الميت أن يقدم - ما يمكن أن نسميه بلغة عصرنا الحالى - كشف حساب عن أعماله أمام المحكمة (شكل ٢٣). وكمثال لما يقوله الميت. وكأنهم يلقنونه ما يقول حتى تبرأ ساحته:

لك الحمد أيها الإله العظيم، يارب الحقيقتين. هأنذا أجى إليك أجلب الحقيقة وأطرد الإثم. إنى لم أقترف إثماً ضد البشر. ولم أفعل شيئاً تمقته الآلهة. ولم أسْعَ بأحد عند رئيسه ولم أُجَوع أحداً. ولم أَدَعْ أحداً يبكى. ولم أقتل ولم أَدْعُ إلى القتل. ولم أُسبِّب لأحد ألماً. ولم أقلل فى المعابد الطعام. ولم أسلب طعام المجدين. ولم أفسق فى المكان الطاهر لإله مدينتى ولم أطفف مكيال الحب. ولم أنقص مقياس الذراع ولم أسرق الماشية من مرعاها. ولم أمنع ماء الفيضان فى وقته ولم أسُدّ على الماء الجارى.

ثم يلى هذا اعتراف أمام كل إله على حدة : يا صاحب الحظوة العديدة فى هليوبوليس. إنى لم أقترب ذنباً. يا حاضن اللهب فى خراحاو . إنى لم أنهب. يا إله هرموبوليس. إنى لم أغش. ويظل يذكر كل إله بمنطقته. ويبرئ نفسه من إثم. مثل: إنى لم أقتل البشر. إنى لم أطفف مكيال الحب. إنى لم أسترق السمع. إنى لم أزنِ وهكذا يبرئ نفسه مرتين. والميت المبرر له مقره أمام الإله العظيم.

وهذا يشبه قوله تعالى: **«فى مقعد صدق عند مليك مقتدر».** (٥٥ - القمر)

وهو يخرج إلى حقل يارو (مقابل الجنة) وهو يُعطَى الفطائر والخبز. وحقلاً طول الشعير والقمح فيه سبعة أذرع.

إن الأتقياء (الذى يعبدون أوزريس) لا يذهبون أمواتاً. بل يذهبون أحياء وهم لا يحيون بعد الموت حياة الأطياف والأشباح فحسب. وإنما يبعثون لحياة حقيقة جديدة يحرزون فيها

أجسادهم وأرواحهم، فلهم قلوبهم، ولهم أزواجهم، ولهم أفواههم، ولهم أرجلهم، ولهم أذرعهم، ولهم سائر أعضائهم.

كل هذه العقائد وردت فى كتاب الموتى، وعلى ذلك فإنها ترجع إلى زمن قديم جداً. ولما كانت الاهرام قد بنيت فى عصر الأسرة الثالثة فإن نشأة هذه العقائد، ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات وهو ما يدل على أنها مستقاة مما حَدَّث به إدريس عليه السلام. والمؤكد أنه كان فى زمن ما فى عصر ما قبل الأسرات أيضاً.

لعل هذه الصفحات القليلة تكون رداً على من قالوا إن هذه العقائد كانت من «ابتكار» قدماء المصريين. وهدفهم القول بأن الدين من «اختراع» العقل البشرى وهو ما كانت تروِّج له الشيوعية العالمية الملحدة. وها قد رأينا أن ذلك كله كان مشتقا من تعاليم إدريس عليه السلام.

ويمضى الزمن. وتمر القرون. ويتكاثر الخلق فى مكان آخر من الأرض. هذه المرة فى أرض ما بين النهرين (العراق حالياً) ويضل الناس وتبرز الحاجة إلى نبى يهديهم سواء السبيل. وكان هذا النبى هو نوح عليه السلام.

نــوح عليـه السـلام

العراق قبل نوح:

لقد افترضنا فيما سبق أن قابيل بعد أن قتل أخاه ترك إخوته وأباه وهاجر شرقاً (فى الطريق رقم ١ شكل ٢٤) وكما تقول التوراة: سكن أرض نود. شرقى عدن.

وتكاثر أبناء قابيل وزاد عددهم فلم تعد أرض نود تكفيهم - فارتحلوا شرقاً أيضاً. بحذاء ساحل البحر. ثم تبعوا الشريط الساحلى شمالاً، حتى وصوا إلى مكان مضيق هرمز، وفى ذلك الوقت من أواخر العصر الجليدى الرابع.، كان المضيق جافاً، فعبرته جماعات منهم اتجهوا إلى جنوب شرق آسيا، وواصل آخرون السير شمالاً حتى وصلوا أرض العراق الخصبة، أرض ما بين النهرين.

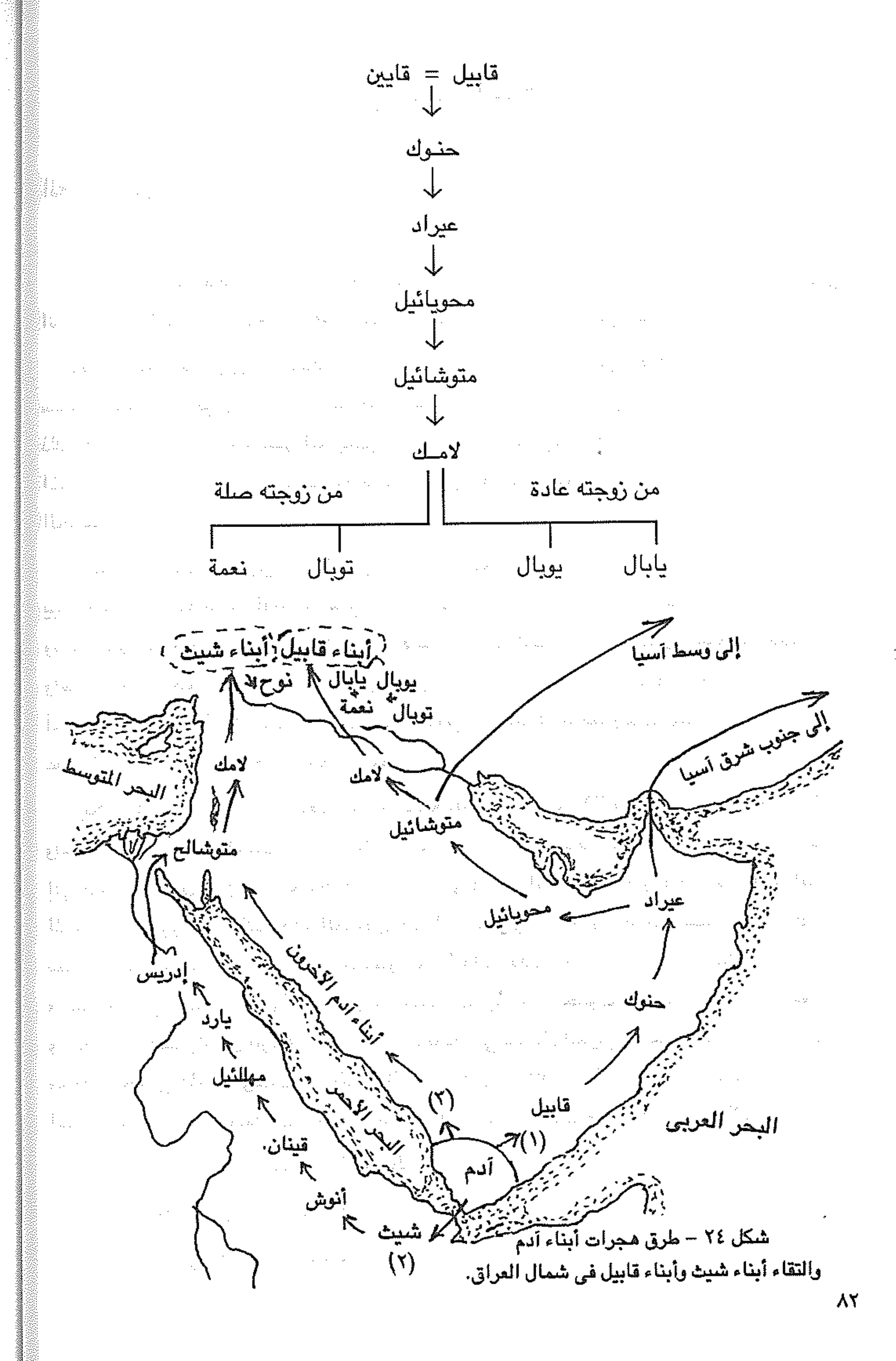
وجاء فى التوراة تكوين ٤ : ١٧. وعرف قايين (قابيل) امرأته، فحبلت وولدت حنوك. وكان يبنى مدينة فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك. وولد لحنوك عيراد. وعيراد ولد محويائيل. ومحويائيل ولد متوشائيل. ومتوشائيل ولد لامك. واتخذ لامك لنفسه امرأتين، اسم الواحدة عادة واسم الأخرى صلة فولدت عادة يابال الذى كان أبا لساكنى الخيام ورعاة المواشى. واسم أخيه يوبال الذى كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار. وصلة أيضاً ولدت توبال قايين. الضارب على كل آلة من نحاس وحديد.وأخت تسمى نعمة.

وتكاثر أبناء قابيل. ولو رجعنا إلى المسألة الحسابية ص ٣٢ لوجدنا أن عدد أبناء قابيل وأحفاده، فى الجيل السادس قد يصل إلى حوالى المليون نسمة. وحين وصلت جماعات منهم إلى أرض ما بين النهرين وجدت الماء الوفير والأرض الصالحة للزراعة - فتوافر الغذاء للإنسان والحيوان، ومكّنت هذه العوامل على الاستقرار. وهذا أول طريق الحضارة. لذلك فقد شهدت أرض ما بين النهرين ثانى حضارة فى العالم. فقد سبقتها مصر إذ وصلها أبناء شيث واستقروا فى وادى النيل وكونوا أول الحضارات، ولما كان جنوب العراق تغطيه المستنقعات والأحراش. فقد واصل الزحف السكانى مسيرته إلى شمال العراق واستقر الناس فى الوديان وحول المجارى المائية. وبدأت فى الألف الخامس قبل الميلاد - أولى مظاهر الاستقرار وكشفت البحوث الأثرية عن حضارات الحقبة الحجرية الحديثة فى ثلاث مناطق: (شكل ٢٥).

فى جارمو : شرق منطقة كركوك الحالية.

فى حسونة : جنوب الموصل الحالية.

فى حلف : فى أعالى نهر الخابور.



شكل ٢٤ – طرق هجرات أبناء آدم
والتقاء أبناء شيث وأبناء قابيل فى شمال العراق.

وقد اعتبرت **جارمو** أقدم قرية زراعية فى العراق، ووجد بها تماثيل طينية بدائية متواضعة لحيوانات ورجال ومايشبه نساء جالسات.

ووجد فى مخلفات **حسونة** آثار أكثر تقدماً - إذ وُجد فخار خشن بدائى، وفخار ذو زخارف مرسومة، وفخار ذو رسوم محفورة حفراً بسيطاً.

أما حضارة **خلف** فكانت أرقى، فقد وجد بها فخار يدوى مصقول، مزخرف برسوم حيوانية ونباتية وتخطيطية.

وتتابُع التطور فى صناعة الأوانى فى اتجاه الشمال يؤيد ما ذُكِرَ من أن ارتحال القبائل كان من الجنوب إلى الشمال.

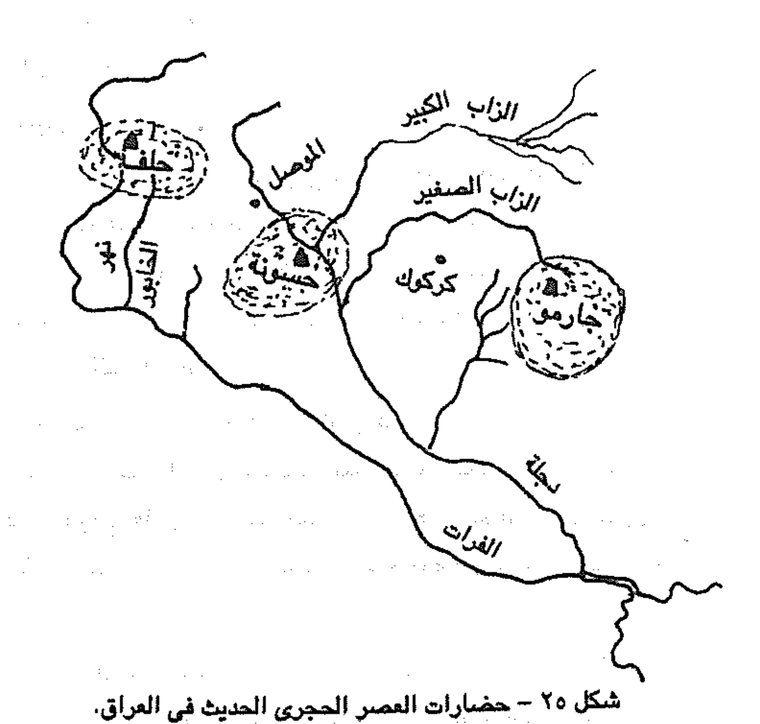
وتكاثَرَ أبناء قابيل. وكانوا - كما تقول الكتب - مثل جدهم قابيل. غلاظ القلوب قساة.

وفى المراحل الأولى من هجرتهم - شرقى عدن - لعلهم اشتاقوا لرؤية جدهم الأكبر آدم. ولم يكونوا ليستطيعوا العودة لرؤيته فى حياته. أو لزيارة قبره بعد مماته. ولعل الشيطان أغواهم ووسوس لبعضهم أن يصنع تمثالاً على هيئة رجل، ليرمز لأبيهم آدم - وكانوا يطوفون حوله ويذكرون الله. وعلى مر الأيام نسى الأحفاد وأبناء الأحفاد - ذكر الله، وعبدوا الصنم ذاته. وكانت هذه بداية الشرك بالله.

ولما ملأت الذرية شمال العراق. يقال إنه ظهر فيهم خمسة رجال صالحين هم: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر. وأحبهم الناس لعدلهم وصلاحهم. وتصادف أن ماتوا جميعاً فى شهر واحد. فجزع القوم عليهم. فقال رجل من نسل قابيل: هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم حتى تذكروهم؟ فنحت لهم خمسة أصنام ونصبها لهم. ومرت السنون وقدسوها وعبدوها.

كذلك سبق أن قلنا إن شيث عبر مضيق باب المندب وسار بنوه شمالاً وعمروا أرض وادى النيل وظهرت فيهم عبادة التماثيل والأصنام فأرسل الله إليهم إدريس عليه السلام - فآمنوا به - وترسخت فكرة البعث والحساب فى الآخرة فى الوجدان المصرى منذ القدم - إلاَّ أن القوم - بعد أن رُفِعَ إدريس عليه السلام - لم يلبثوا إلاَّ قليلاً حتى عاودهم الضلال. وضاقت أرض مصر بسكانها. فارتحلت قبائل منهم فى اتجاه الشمال الشرقى، ووصلت أرض فلسطين، ثم الشام، ثم شمال العراق - حيث التقوا بأبناء عمومتهم أبناء قابيل.

وقال ابن عباس: كان آدم قد أوصى ألاَّ يناكح بنو شيث بنى قابيل. وكان بنو قابيل يعيشون فى السهول، بينما بنو شيث يعيشون فى الجبال، وظلوا يتجنبون الاختلاط بهم فترة من الزمن. ويستطرد ابن عباس قائلاً: وقال مائة من بنى شيث لو نظرنا ما فعل بنو عمنا - يعنون بنى قابيل - فهبطت مائة من الجبال إلى السهل. ورأوا النساء من بنى قابيل، وكُنَّ



شكل ٢٥ - حضارات العصر الحجرى الحديث فى العراق.

صباح الوجوه، واحتبس النساء الرجال فلم يعودوا . فنزل مائة أخرى احتبستهم النساء أيضاً. ثم هبط بنو شيث كلهم واختلطوا ببنى قابيل وظهرت المعاصى فيهم أيضاً.

قد تكون هذه القصة صحيحة وقد تكون مجرد تعبير عن إرجاع الفساد والضلال إلى أبناء قابيل.

وتكاثر الناس، وظهرت حضارات ذكرها جورجي زيدان فى كتابه «العرب قبل الإسلام» ص ٥٧، أخذاً عن الترجمة اليونانية لكتاب الكاهن بروسوس. وقال إن عدة دول وجدت فى بلاد ما بين النهرين قبل الطوفان. وأن عدد ملوكها ١٠ وأن سنى حكمهم بلغت ٤٣٢٠٠٠ سنة. ومن المؤكد أن هناك خطأ فى عدد الأصفار والأقرب للعقل أن تكون سنو حكمهم ٤٣٢٠ سنة فيكون حكم كل ملك ٤٣٢ سنة. وهى فترة معقولة بالنسبة للأعمار فى ذلك الوقت.

وخلال هذه الحقب الطويلة نسيت الأجيال أى ذكر عن الله. ونشدوا تجسيد القوة الخالقة فى تماثيل صنعوها وعبدوها . وسبق أن ذكرنا أنهم عبدوا الأسلاف. ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً. وبنو المعابد لهذه الأصنام وقدموا القرابين وتسلط الكهنة والملوك على الرعية، وساد الظلم وفشت الفاحشة، وخاصة بين أبناء قابيل، والذى تقول التوراة عن أن يوبال - وهو من ذرية قابيل - كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار. ونحن نعلم ما لتأثير الموسيقى على النفوس. ولعله وضع من الألحان والترانيم ما يضفى على الجو الرهبة. مما يزيد من تسلط الكهنة ونفوذهم. ولم يقتصر الضلال على أبناء قابيل وحدهم فقد ضلَّ أيضاً كثير من نسل شيث. إلاَّ بطناً واحداً من نسل إدريس عليه السلام.

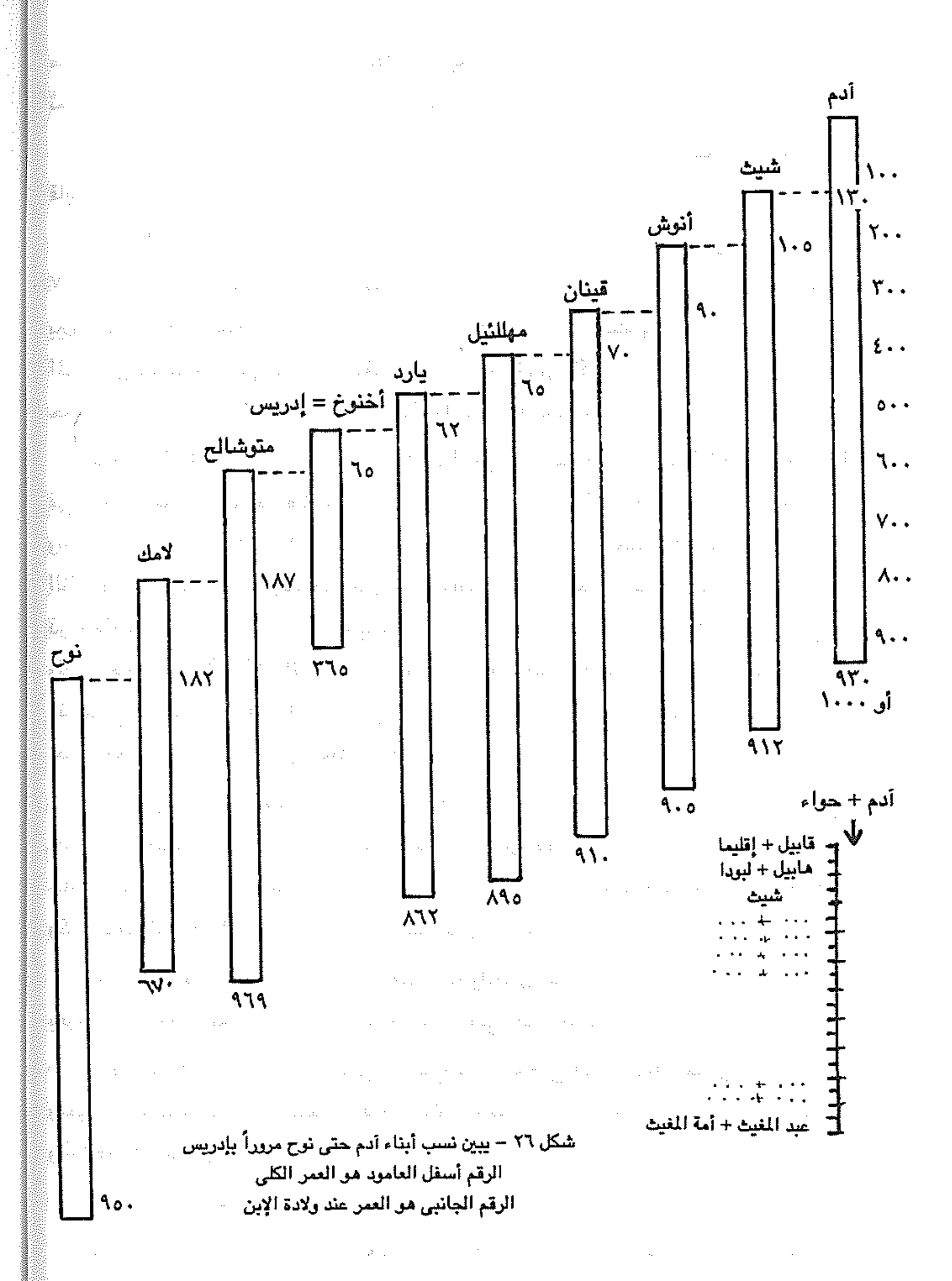
وكان إدريس عليه السلام فى مصر وقد وُلِدَ له عند عمر ٥٦ سنة ابنه متوشالح ثم وُلِدَ لمتوشالح عند عمر ١٨٧ سنة ولد سماه لامك. وعاش لامك ٧٧٧ سنة. ولابد أن متوشالح ولامك كانا ضمن من هاجروا من مصر إلى فلسطين ثم عبروا سوريا واستقروا فى شمال العراق وكان لامك ابن ١٨٢ سنة لما وُلِدَ له ولدٌ سماه نوحاً (شكل ٢٦).

تقول التوراة إصحاح ٥: وعاش لامك مائة واثنتين وثمانين سنة. ودعا اسمه نوحاً قائلاً هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التى لعنها الرب.

ونفهم من هذا أن الاسم مشتق من ناح ينوح بمعنى العزاء والراحة والإسترواح والتنعم. ومنها جاء استخدام المسيحيين لفظ «المتنيح» بمعنى المرحوم. وصفاً ودعاءً للميت بالرحمة والراحة والتنعم فى الآخرة.

إلا أن بعض المفسرين يرونه مشتقاً من النواح.

كما أن الأستاذ رؤوف أبو سعدة يرى أنه مشتق من ناح ينوح العبرى، بمعنى البقيا والتلبث لطول مكثه فى قومه (ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً).



شكل ٢٦ – يبين نسب أبناء آدم حتى نوح مروراً بإدريس
الرقم أسفل العامود هو العمر الكلى
الرقم الجانبى هو العمر عند ولادة الإبن

وقد يكون هذا صحيحاً لو كان الذى اختار له الإسم هو الله سبحانه وتعالى، كما كان الحال مع إسماعيل وإسحاق، إذ أن الملائكة التى بشرت بهذين النبيين أعطتهما اسميهما عند البشرى بهما – أما نوح فليس هناك من دليل على أن الله هو الذى اختار له هذا الإسم. ولم يكن لامك يعرف أن ابنه نوحاً سيعيش هذا العمر ليسميه نوحاً من البقيا والتلبث.

كذلك لا نرى معنى للإشتقاق من النواح لأن كل الأطفال تبكى فى الصغر. وإن كانوا يقصدون النواح على قومه لعدم إيمانهم به. فما كان لامك يعرف أن ابنه سيكون نبياً وأن قومه سيكذبونه، وسيكون النواح عليهم.

ولذلك لابأس من الأخذ بما قيل من أن والده سمَّاه نوحاً – بمعنى الراحة والاستروا ح والتنعم بعد تعبه فى فلاحة الأرض.

نــوح فى قومه

وشب نوح كما يشب غيره من الشباب ولا شك فى أنه رعى الغنم فى شبابه، للحديث الشريف «ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم». كذلك فلعل والده كان نجاراً، فأخذ نوح عنه النجارة كصنعة أو أن صناعته للسفينة فيما بعد كانت إلهاماً من الله بدون سابق معرفة أو خبرة، وتكون هذه معجزة أخرى لقوله تعالى: **«واصنع الفلك بأعيننا ووحينا»** (من ٣٧ – هود).

ومن المرجح أيضاً أن والده – لامك – لم يكن من المتدينين أو لم يكن من المتعصبين لديانة قومه. فلم يُجبر نوحاً على الركوع أو السجود للأصنام التى كان يعبدها قومه. لعصمة الأنبياء من ذلك حتى فى طفولتهم أو المراحل الأولى من شبابهم.

وشب نوح، ورأى الضلال الذى عليه القوم ولم يقتنع أن هذه الأصنام التى يعبدها قومه آلهة حقة، أو أنها قادرة على نفع الناس أو ضرهم. فالناس هم الذين يصنعونها بأيديهم.

وراح يقلب بصره فى السماء يطلب الهداية. وانجابت عن قلبه الغشاوة، وغمره نور، وجاءته البينة، وحياً من الله، يصب فى قلبه العقيدة الحقة، وهى أن خالق هذا الكون هو إله واحد لا إله إلاَّ هو. واحد أحد لا شريك له.

«إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم على العالمين» (٣٢ – آل عمران).

واختلفوا فى سن نوح يوم بعثه. عن ابن جرير قال ابن خمسين سنة، وقيل أيضاً ابن ثلاثمائة وخمسين سنة. وعن ابن عباس قيل ابن أربعمائة وثمانين سنة.

ودعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده. وحذَّرهم من مغبة العصيان.

«لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٥٩ – الأعراف).

«ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين. أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم» (٢٥ ، ٢٦ - هود).

«ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله. ما لكم من إله غيره، أفلا تتقون» (٢٣ - المؤمنون).

بهذه الآيات من ثلاث سور مختلفة كانت بداية ذكر قصة نوح ويمكن استخلاص الكيفية التى دعا بها قومه إلى دين الله كالآتى:

- دعوة إلي عبادة الله.
- ليس هناك إله إلاَّ الله وحده .
- أنذرهم إن خالفوا وعصوا. وتوعدهم بعذاب. وصف مرة بأنه عذاب عظيم، ومرة أخرى بأنه عذاب أليم.

وآمن به نفر قليل - من الضعفاء والفقراء ورقيقى الحال. وكذَّب به كبراء القوم ووجهاؤهم. بالطبع حرصاً على مكانتهم وثرائهم. ولكنهم راحوا يتلمسون أعذاراً يبدونها - يُغلفُّون بها أهواءهم فقالوا:

«ما نراك إلا بشراً مثلنا» (٢٦ - هود).

أى أنهم رأوه واحداً منهم - لا يمتاز عليهم بشىء - لا بالغنى ولا بالثراء فاستبعدوا أن يكون الله قد اختاره لذلك الأمر. كما قالوا إنه إنما يريد بهذه الدعوة، أن يتخذ مجلس الصدارة فيهم. وأن يكون له الفضل عليهم أو يرأسهم بهذه الدعوة.

«فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلاَّ بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين» (٢٤ - المؤمنون).

وكان الرد على هذا الاعتراض هو:

«أوَ عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون؟» (٦٣ - الأعراف).

ونفى أنه يريد بهذه الدعوة أجراً، من جاه أو مال أو سلطان عليهم:

«ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً. إن أجرىَ إلاَّ على الله» (٢٩ - هود).

وقال: **«إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر. إن أجرىَ إلاَّ على رب العالمين»** (١٠٧ - ١٠٩ الشعراء).

وأكد لهم أنه رجل منهم، وبشر مثلهم، ولكن الله منَّ عليه وهداه.

«ولا أقول لكم عندى خزائن الله. ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملَكٌ» (٣١ - هود).

ولعلهم طلبوا منه بعض الخوارق، مثل أن يرزقهم مالاً كثيراً وذهبا، أو يخبرهم بما يحدث في الغد أو كذا وكذا... وهذا دَأْبُ المكذبين في كل العصور. فقد قال الكافرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

«وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفجُر لنا من الأرض ينبوعاً. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتُفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيِّك حتى تُنزِّل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربى هل كنت إلاَّ بشراً رسولاً. وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلاَّ أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً» (٩٠ - ٩٤ الإسراء).

سبب آخر أبدوه لعدم اتباعهم لنوح عليه السلام، وهو أن الذين اتبعوه هم من الضعفاء، كالبائعة والحاكة وأشباههم، ولم يتبعه الأشراف ولا أثرياء القوم. ثم قالوا له إن هؤلاء الذين اتبعوه لم يتبعوه عن تروٍّ منهم أو تفكر، بل بمجرد أن دعاهم أجابوه ولبُّوا دعوته من أول الأمر ومن مبدئه وأن هؤلاء لا يفضُلونهم بمال أو جاه.

«وما نراك اتبعك إلاَّ الذين هم أراذلنا بادِىَ الرأى وما نرى لكم علينا من فضل، بل نظنكم كاذبين» (٢٧ - هود).

«قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون» (١١١ - الشعراء).

ثم قالوا. إن هؤلاء الضعفاء الذين آمنوا به، منهم من كان خطَّاءً من قبل. فكان الرد عليهم أنه لا يلزمه شىء بما كانوا يعملون في الماضى وأن حسابهم في ذلك على ربهم.

وطلبوا منه إن كان يريدهم أن يؤمنوا به أن يطرد هؤلاء الضعفاء أنَفةً منهم أن يجلسوا معهم واستكباراً عليهم. وكان الرد بالرفض.

«قال وما علمى بما كانوا يعملون. إن حسابهم إلاَّ على ربى لو تشعرون. وما أنا بطارد المؤمنين. إن أنا إلاَّ نذير مبين» (١١٢ - ١١٥ الشعراء).

«وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربِّهم. ولكنى أراكم قوماً تجهلون» (٢٩ - هود).

وكان هذا نفس ما طلبه أشراف قريش من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم - إذ طلبوا أن يجعل لهم مجلساً خاصاً لا يشاركهم فيه الفقراء ولا الضعفاء ولا العبيد. فنزل قوله تعالى:

«ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىِّ يريدون وجهه» (٥٢ - الأنعام).

ثم راح قوم نوح يلتمسون الأعذار لعدم إيمانهم به. وألهمه الله الرد على هذه الأعذار.

قالوا إنه افترى هذا الأمر:

«أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلىَّ إجرامى وأنا برىء مما تجرمون» (٣٥ - هود).

وقالوا إنه حاد عما كانوا يعبدون، وضلَّ عن شريعتهم:

«قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين، قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين» (٦٠ – ٦١ الأعراف).

قالوا إنه مجنون:

«كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجر» (٩ – القمر).

«إن هو إلاَّ رجل به جِنَّةٌ فتربصوا به حتى حين» (٢٥ – المؤمنون).

كذلك كانت امرأة نوح تقول لقومها عنه إنه مجنون لأنها كانت كافرة مثلهم. وكانت هذه خيانة منها لزوجها – إذ المفروض أن الزوجة ألصق الناس بزوجها وأعلمهم بصدقه. وكانت تعلم جيداً أن ما يدعو إليه هو وحى من الله تعالى. ولكنها مجاراة لكفرها ولقومها كانت تشيع عنه أنه مجنون. وعبر عن ذلك القرآن الكريم بالخيانة فى قوله تعالى:

«ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين».(١٠ – التحريم).

وليس المراد فى قوله تعالى فخانتاهما، إتيان فاحشة، إذ أن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة لحرمة الأنبياء. قال سفيان الثورى عن موسى بن أبى عائشة عن سليمان بن قوم. سمعت ابن عباس يقول فى هذه الآية: مازنتا – أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر عنه أنه مجنون وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه. وقال العوفى عن ابن عباس. كانت امرأة نوح تُطلعُ على سر نوح فإذا آمن مع نوح أحدٌ أخبرت الجبابرة من قوم نوح به. فيعذبونه أو يصدونه عن دين الله.

وسيأتى ذكر هذه النقطة ثانية عند الكلام عن ابن نوح الذى كان من المغرقين.

ذكَّر نوح قومه بآيات الله فى الكون. واستحالة أن تكون أصنامهم التى يعبدونها هى التى خلقت السماوات والشمس والقمر. ويستحيل أن تكون هى التى خلقتهم. وكان فى اللفظ القرآنى إشارة إلى أن الإنسان يتغذى وينمو على ما تنبت الأرض من خيرات، سواء له أو لمواشيه فكأن الإنسان ينبت من الأرض – وإذ يموت يعود تراباً لأنه مخلوق من تراب الأرض. وهذا شيئ ملموس لهم. ومن الواجب أن يؤمنوا كذلك بأن الله سيخرجهم ثانية من الأرض ليحاسبهم على أفعالهم. كما أن الله هو الذى جعل لهم الأرض ذلولاً منبسطة يمشون فى مناكبها ومسالكها.

«ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا. وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً. والله أنبتكم من الأرض نباتاً. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا. والله جعل لكم الأرض بساطاً. لتسلكوا منها سُبُلاً فِجاجاً» (١٥ - ٢٠ نوح).

ويجدر بنا أن نشير إلى إعجاز اللفظ القرآنى الذى احتوته هذه الآية فى قوله تعالى «وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً». إذ أن السراج يشتعل ويُشع ضوءاً وحرارة. وهذا ما يحدث داخل الشمس. إذ أثبت العلماء أن تفاعلات نووية تحدث بها وترفع حرارتها إلى ملايين الدرجات وتشع الضوء والحرارة. أما القمر فهو يعكس هذا الضوء فيبدو منيراً، ولكنه ليس بسراج يضىء بذاته وليس به احتراق.

كذلك اعتماد الإنسان فى معيشته وبناء جسده ونموه على ما تنبت الأرض فكأنه ينبت من الأرض. ثم إشارة سريعة إلى البعث فى الآخرة «ويخرجكم إخراجاً».

وهذا ما سبق أن أشرنا إليه فى مقدمة هذا الكتاب بأن الهدف من القصص القرآنى ليس فقط السرد التاريخى للأحداث. بل تمتزج به العبرة والعظة والترغيب والترهيب. فى إيجاز وإعجاز لا يتعارض مع أى تقدم علمى يظهر فى المستقبل.

ورغَّبهم فى الإيمان بأن لهم الثواب فى الدنيا: مطرٌ غزير تكثر به الغلة وتزداد المواشى فتزداد ثروتهم وأموالهم، ويكثر أبناؤهم وتخضر الأرض، وتصبح كأنها جنة تجرى من خلالها أنهار كثيرة. وكيف أنهم بعد كل ذلك لا يطمعون فى ثواب الله فيعظمونه ويوقرونه. وأن الله سيغفر لهم ما سبق من تكذيبهم ومن خطاياهم:

«فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً. ما لكم لا ترجون لله وقاراً». (١٠ - ١٣ نوح).

ولكنهم أصروا على تكذيبه بل وهددوه بالرجم. **«قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونَنَّ من المرجومين»** (١١٦ - الشعراء).

وبدأوا فى إيذائه.

روى المفسرون أن نوحاً عليه السلام كان يأتى قومه فيدعوهم إلى الله، فيجتمعون عليه ويضربونه الضرب المبرح، ويخنقونه حتى يغشى عليه، ثم يلقونه فى حصير ويرمون به فى الطريق، ويقولون إنه سيموت بعد هذا اليوم. فيعيده الله سبحانه وتعالى إلى قُوَّته، فيرجع إليهم ويدعوهم إلى الله، فيفعلون به مثل ذلك.

وقال مجاهد وعبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون. وقال ابن عباس: جاء رجل يتوكأ على عصا ومعه ابنه إلى نوح. فدعاه نوح إلى عبادة الله. فقال الولد. يا أبت أمكنِّى من العصا. فأخذ العصا وضرب نوحاً فشجَّه

فى رأسه وسالت الدماء منه. فقال نوح: رب قد ترى ما يفعل بى عبادك فإن يك لك فى عبادك خير فاهدهم. وإن يك غير ذلك فصبرنى إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين. وقيل إن رجلاً من قوم نوح حمل ابنه على كتفه، فلما رأى الصبى نوحاً قال لأبيه، أعطنى حجراً، ورمى به نوحاً عليه السلام فأدماه.

وهكذا بقى النبى الكريم يؤذَى ويُعَذَّب، وهو مع ذلك صابر، لا يدعو على قومه بالعذاب، وإنما كان يؤمل فيهم أو فى أبنائهم الخير والصلاح ويقول، لعل الله يخرج من أبنائهم من يؤمن بالله. ومع هذه المدة الطويلة التى ظل نوح يدعوهم فيها - لم يؤمن به إلاَّ القليل منهم. وكان كلما انقرض جيل جاء من بعده جيل أخبث وألعن. فلقد كان القوم يوصون أولادهم بعدم الإيمان به. وكان الوالد يقول لولده إذا بلغ وعقل: يا بنى احذر هذا. لا يغرنَّك عن دينك وآلهتك (تفسير القرطبى).

وأقام فيهم ست مائة سنة داعياً ومذكِّرا وناصحاً، وسلك جميع الطرق لإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان. ومع ذلك لم تلن قلوبهم وقابلوا الإحسان بالشدة. ومالوا عليه بالضرب ونفذوا تهديدهم بأن يكون من المرجومين ورجموه.

قال لهم لقد لبثتُ فيكم مدة طويلة وطال مُقامى بينكم وكثر تذكيرى بآيات الله عليكم ودعوتى لكم لتعبدوه. وقد توكلت على الله فلا أبالى بشىء بعد ذلك. وطلب إليهم أن يجتمعوا هم وشركاؤهم الذين يدعونهم من دون الله وكذلك المشركون أمثالهم. وألا يكون الأمر ملتبساً عليهم. بل عليهم أن يدرسوا الأمر جَيِّداً ويفصلوا فيه، ويتخذوا قراراً بصدده: وطلب منهم أن يخبروه بعد ذلك بما استقر عليه رأيهم، إن كانوا سيؤمنون به أم يظلون على كفرهم. وطلب منهم ألا يتأخروا فى إخباره بما استقر عليه رأيهم. وذكَّرهم ثانية بأنَّهم إن كذَّبوه ولم يطيعوه فإن ذلك لن يكون سببه أنه طلب منهم أجراً لا يطيقونه فهو لم يسألهم أجراً وإنما أجره على الله وأن كل ما يهدف إليه هو أن يؤمنوا به ويكونوا لله مسلمين:

«واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله. فعلى الله توكلتُ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمَّة ثم اقضوا إلىَّ ولا تُنظِرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرىَ إلاَّ على الله وأمرت أن أكون من المسلمين». (٧١ - ٧٢ يونس).

ثم بدأ ينذرهم بعذاب الله إن أصروا على كفرهم:

«إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيَهم عذاب أليم. قال يا قوم إنى لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مُسَمًّى. إن أجل الله إذا جاء لا يُؤَخر لو كنتم تعلمون». (١ - ٤ نوح).

وأصرُّوا على الكفر وعبادة الأصنام. فبدأ نوح يضيق بهم ويكفرهم:

«قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلاَّ خساراً، ومكروا مكراً كُباراً. وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تذرُنَّ وَدًّا ولا سُواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً. وقد أضلوا كثيراً. ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً». (٢١ - ٢٤ نوح).

وكرر عليهم الدعوة للإيمان أكثر من مرة بالليل والنهار. ولكنهم كانوا لا يستجيبون لدعوته - بل إنهم كانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا ما يدعوهم إليه وكانوا يُغطُّون رؤوسهم بثيابهم حتى لا يسمعوا قوله، واستكبروا أن يطيعوه، واستنكفوا عن اتباع الحق والإنقياد له، ودعاهم جهرة بصوت يسمعه كل الناس. ثم كرر عليهم الدعوة كل على حدة. فيما بينه وبينهم. وطلب منهم أن يرجعوا عما هم فيه من الضلالة. وأنهم لو استغفروا لذنوبهم وما سبق من تكذيبهم، فإن الله سيغفر لهم ذلك. بل وسيرسل عليهم المطر الغزير وتزدهر الأرض وتصبح كأنها جنات - وتكثر الأنهار. وسألهم سؤال توبيخ وتقريع: لماذا لا توقرون الله وتعظمونه حق عظمته وفى هذا استفهام ضمنى: ألا تخافون بأسه وغضبه ونقمته؟!

«قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً. فلم يزدهم دعائى إلاّ فراراً. وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً. ثم إنى دعوتهم جهاراً ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً. فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفَّاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا. ما لكم لا ترجون لله وقارا». (٥ - ١٣ نوح).

ولبث فيهم مئات السنين يدعوهم فلم يؤمن به إلاّ نفر قليل. وضاقوا به وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب الذى توعَّدهم به إن كان صادقاً فى أمره:

«قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين».

(٣٢ - هود).

وضاق هو بهم أيضاً كما ضاقوا به. واشتكى إلى الله وطلب منه أن يفصل فى الأمر. وأن ينجِّيه هو ومن معه من المؤمنين:

«قال رب إن قومى كذَّبون. فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجنى ومن معى من المؤمنين».

(١١٧ - ١١٨ الشعراء).

كانوا قد تحدوه أن ينزل بهم ما يتوعدهم به من العذاب إن كان صادقاً فى دعواه. إذ قالوا **«فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين».** وكان رده أن العذاب الذى توعدهم به ليس من عنده هو، بل من عند الله عز وجل، وراجع إلى مشيئته، وهو وحده الذى يحدد متى ينزل بهم

العذاب. وقال إن كل شىء مردُّه إلى الله. وحتى نُصحه لهم لن يكون ذا نفع لهم إن كان الله قد كتب عليهم الضلالة بما علم من فساد طويتهم وخبث سريرتهم. وأنهم فى الآخرة راجعون إلى الله. وفى هذا إشارة وتذكير لهم بأن هناك حسابا فى الآخرة على أفعالهم وتكذيبهم:

«قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين. ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون». (٣٣ - ٣٤ هود).

وأخبر الله نوحاً أنه لن يؤمن به من قومه إلاَّ النفر القليل الذين آمنوا به. وأمره ألا يحزن بسبب ذلك، وبما كانوا يجيبونه وما كانوا يفعلون به عندما كان يدعوهم إلى الله:

«وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلاَّ من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون». (٣٦ - هود).

فلما كان الأمر كذلك، وعلم أن الغالبية الكافرة لن تؤمن مهما كرر عليهم الدعوة للإيمان فهم سادرون فى غيهم. ضلوا ويُضِلُّون غيرهم.

«وقد أضلوا كثيراً. ولا تزد الظالمين إلاَّ ضلالاً». (٢٤ - نوح).

وأيقن نوح أن لا فائدة من دعوتهم إلى الهدى. ولا فائدة حتى من بقائهم على الأرض أحياءً. لأنهم حتى إن بقوا فإن نسلهم سيكون كافراً مثلهم. بل إنهم سيعملون على نشر الكفر فى الأرض. فتوجه بالدعاء إلى الله أن يبيدهم.

«وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً. إنك إن تذرهم يضلُّوا عبادك ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفَّاراً». (٢٦ - ٢٧ نوح).

واستجاب الله لدعوة نوح:

«ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجيناه وأهله من الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على نوح فى العالمين. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. ثم أغرقنا الآخرين». (٧٥ - ٨٢ الصافات).

وصدر أمر الله:

«ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مُغرقون». (٣٧ - هود).

ولكن كيف يكون غرقهم؟

«واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مُغرقون».(٣٧ - هود).

بأعيننا كناية عن عناية الله به أثناء صنعه للسفينة، من تَعَدِّى الكفار عليه، وكذلك لتكون السفينة جيدة الصنع. وقيل المراد من «أعيننا» أى ملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً لحفظك

ولمعونتك والمراد بـ «وحينا» أن نوحاً عليه السلام لم يكن يدرى كيف يصنع السفينة فأوحى الله إليه طريقة صنعها. وقيل إن الله بعث جبريل عليه السلام فعلّمه طريقة صنعها.

وأمره الله تعالى ألاّ يراجعه فى أمر الذين ظلموا وكذبوه، بأن يطلب لهم التأجيل أو دفع العذاب عنهم، لأنهم قد حُكِمَ عليهم بالإغراق، وجرى بذلك أمر الله وقضاؤه. ولا راد لقضائه فهم مغرقون.

وبدأ نوح عليه السلام فى صناعة الفلك.

ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون. فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم». (٣٨ - ٣٩ هود).

كانوا يسخرون لأنه لا توجد بحار فى هذه المنطقة. والسفن التى كانت تصلح السير فى الأنهار وفروعها - لابد أن تكون أصغر من ذلك بكثير. من هنا كانت سخريتهم. وقيل: كانوا يتضاحكون ويقولون: يا نوح صرت نجّاراً بعد ما كنت نبيّاً. وكان رده عليهم أنهم بقولهم هذا يستوجبون السخرية منهم. وقيل لم يسخر منهم فعلاً لأن السخرية لا تليق بالأنبياء. فكأن السخرية مجازاً بسبب جهلهم. ومكافئة لسخريتهم به. وسيحلُّ عليهم العذاب الذى يخزيهم ويذلهم ويهلكهم. ولهم فى الآخرة عذاب مقيم ودائم فى النار.

صُنْعُ السفينة :

لم يتعرض القرآن الكريم لطريقة صنع السفينة ولا أبعادها لأنه - كما سبق أن قلنا - إن الهدف من القصص القرآنى هو العبرة والعظة وليس فى طريقة صنع السفينة أو كم ذراعاً طولها وعرضها، أو كيف طليت بالقار أو من أين جاء القار كل هذه تفاصيل قد تشتت ذهن القارىء عن العبرة المستهدفة. وهو أن تكذيبهم لنبيهم كان هو السبب فى عذابهم وإغراقهم.

وتجاوُز القرآن الكريم عن هذه التفاصيل. فتح مجالاً عند البعض للأخذ عن مرويات أهل الكتاب. نحن نعلم مقدار ما فيها من عدم دقة ومبالغات لا يصدقها العقل. ولئن ذُكِرَت هنا - نقلاً عن بعض كتب التفاسير - فلبيان أنها إضافات مسلمة أهل الكتاب. وحتى لو ادعى بعضهم أحاديث شريفة متعلقة بها. فهى من الأحاديث التى لا يُشكُّ فى أنها موضوعة.

قال بعض السلف: أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه وييبسّه. فكان ذلك فى مائة عام. ونَجَرها فى مائة أخرى وقيل فى ٤٠ سنة، وأنه كان خشب الساج.

واختلف المؤرخون فى أبعاد السفينة:

فذكر محمد بن إسحق أن طولها كان ٨٠ ذراعاً وعرضها ٥٠ ذراعاً.

وعن الحسن كان طولها ٦٠٠ ذراعاً وعرضها ١٠٠ ذراعاً.

وعن ابن عباس طولها ١٢٠٠ ذراعاً وعرضها ٦٠٠ ذراعاً وقيل طولها ٢٠٠٠ ذراعاً وعرضها ١٠٠ ذراعاً.

أما التوراة فتذكر طولها ٣٠٠ ذراعاً. وعرضها ٥٠ وارتفاعها ٣٠ ذراعاً.

ولا شك أن القول الأول وهو ٨٠ × ٥٠ ذراعاً أى ٣٦ × ٢٣ متراً مقياس معقول بالنسبة لسفينة من الخشب. وبسؤال مختصِّين فى بناء السفن أفادوا بأنه فى عصرنا الحالى لا تزيد المراكب الخشبية عن ٧٠ متراً طولاً أى حوالى ١٥٠ ذراعًا. وتصل حمولة سفينة كهذه إلى ٣٠٠ طن.

وعلى ذلك فإن طول ٦٠٠ ذراعاً (٢٧٠ متراً) أو ١٢٠٠ ذراعاً (٥٤٠ متراً) أو ٢٠٠٠ ذراعاً أى ٩٠٠ متراً أى ما يقرب من كليو متر) هى مقاييس فيها كثير من المبالغة. فإن وصْل أخشاب ليصل طولها إلى كيلو متر، أمر بالغ الصعوبة. كما أنه يُضعِفُها ويجعلها تتفسَّخ عند ارتطامها بالأمواج. وخاصة أن القرآن الكريم قال «وهى تجرى بهم فى موج كالجبال».

قد يقول البعض إن هذه السفينة كانت معجزة. والرد إنها تكون كذلك لو نزلت من السماء سفينة تامة الصنع. ولكن مادام نوح عليه السلام هو الذى صنعها – فإنه يصنعها وفقاً للقوانين الأرضية صحيح أنه يعملها بإرشاد من الله وتوجيهه ولكن طبقاً لسنن الله فى الأرض.

وقالوا كان ارتفاعها فى السماء ثلاثين ذرعاً أى ١٤ متراً، وأنها كانت مكونة من ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع. السفلى للدواب والوحوش. والوسطى للإنس، والعليا للطيور. وكان بابها فى عرضها. ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر أثراً غريباً من حديث على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبدالله بن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم. لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها، قال فانطلق بهم، حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ حفنة من ذلك التراب بكفِّه، وقال أتدرون ما هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال هذا كعب حام بن نوح. قال فضرب الكثيب بعصاه وقال قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب. قال له عيسى عليه السلام. أهكذا هلكت؟ قال لا ولكنى مت وأنا شاب. ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثَمَّ شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ٦٠٠ ذراع وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير. فلما كثر روث الدواب، أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن أغمز ذنب الفيل، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث. فلما وقع الفأر بجوف السفينة يقرضها وحبالها، أوحى الله إليه أن أضرب بين عينى الأسد فضرب، فخرج من منخره سنور وسنورة،

فأقبلا على الفأر. قال: فقلنا يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا يجلس معنا ويحدثنا، قال كيف يتبعكم من لا رزق له. ثم قال له عد بإذن الله فعاد تراباً. والاختلاق واضح فى هذه القصة. ففيها أشياء لا يصدقها العقل، مثل خروج الخنزير والخنزيرة من ذنب الفيل، وخروج السنور والسنورة من منخر الأسد. كما أن تلاميذ المسيح لم يكونوا ينادونه يا رسول الله، بل كانوا يقولون: يا مُعَلِّم.

الطوفـــان:

كانت العلامة على بدء الطوفان، أن يفور التنور أى يخرج الماء من الفرن الكائن فى بيت نوح عليه السلام:

«حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كُلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل». (٤٠- هود).

«فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون». (٢٧ - المؤمنون).

وكلنا يعرف اندفاع الماء بقوة من قاع قدر على النار إلى السطح عند غليان الماء وفورانه ولذلك كان لفظ وفار التنور تعبيراً عن اندفاع الماء بقوة كأنه يغلى.

أعقب ذلك هطول الأمطار الغزيرة من السماء. واندفاع الماء بقوة من عيون تفجرَّت عنها الأرض:

«ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيوناً. فالتقى الماء على أمر قد قُدِر».

(١١ - ١٢ اقمر).

وقد شُبِّهت السماء فى هذه الآية كأنها بحر عظيم. وقاعه له أبواب، ثم فتحت هذه الأبواب ولنا أن نتصور شدة اندفاع الماء النازل منها، ليس على شكل قطرات، بل كأنه السيل المنهمر المتواصل المندفع بعضه وراء بعض. كذلك تفجرت العيون فى الأرض فى كل مكان. ويكتمل المشهد الرهيب بأن يلتقى الماء النازل من السماء والماء المتفجر من الأرض فيصبح الماء فى كل مكان. مغرقاً كلَّ شىء كما قدَّر الله سبحانه وتعالى.

«فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدِرَ».

من دخل السفينة ؟

أُمِرَ نوح عليه السلام أن يحمل فى السفينة ثلاثة أصناف:

١ - من كلٍّ زوجين اثنين.

٢ – وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول.

٣ – ومن آمن، وما آمن معه إلاَّ قليل.

الصنف الأول:

من كُلٍّ زوجين اثنين. أى ذكرٌ وأنثى من كل صنوف الحيوانات. وقيل هبط جبريل عليه السلام إلى الأرض وحمل إلى السفينة من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين. وكان نوح قد صنع أقفاصاً للوحوش وهو يصنع السفينة.

بعضهم قال وأيضاً من النباتات. وهذا قول فيه نظر فالنباتات لا يخشى عليها من الغرق، ولو غرقت فإنها – بعد أن يجف الماء – لا تلبث أن تنبت من جديد ولذلك فلا داعى لحملها – إلاَّ أن تكون علفاً للحيوانات.

ويعمل الخيال عمله عند البعض، فيختلقون أقوالاً غريبة. فقد قيل إن آخر من أدخل من الحيوانات الحمار. فتعلق إبليس بذنبه، وجعل الحمار يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه. فجعل نوح عليه السلام يقول له ادخل وإن كان إبليس معك. فلما قالها نوح خلَّى الشيطان سبيل الحمار فدخل ودخل معه. فقال له نوح ما أدخلك يا عدو الله. فقال ألم تقل ادخل ولو كان الشيطان معك؟ قال اخرج يا عدو الله. قال ما أخرج وما كان بُد لك أن تحملنى معك. وكان – فيما يزعمون – على ظهر الفلك. وواضح غرابة هذا القول وعدم معقوليته. ولعلهم بهذه القصة يبررون كيف أن إبليس لم يغرق واستمر فى وسوسته لبنى آدم بعد الطوفان، ونسوا أن طبيعة إبليس مختلفة عن طبيعة بنى آدم. إذ يتمكن من الارتفاع فى الجو لأى مكان مثله مثل الجن الذين كانوا يرتفعون إلى السماء. **«وأنَّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع**(٩ – الجن). كما أن إبليس ليس له جسد يتنفس الهواء فيغرق كما يغرق بنو البشر.

كذلك يقال إنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه حمى. وقال ابن حاتم حدثنا أبى حدثنا عبدالله بن صالح حدثنى الليث حدثنى هشام بن سعد عن زيد عن أسامة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين اثنين، قال أصحابه، وكيف تطمئن المواشى ومعها الأسد؟ فسلَّط الله عليه الحمى. فكانت أول حمى نزلت فى الأض؛ ثم شكوا الفأرة، فقالوا تفسد علينا طعامنا ومتاعنا. فأوحى الله إلى الأسد فعطس، فخرجت الهرَّة منه فتخبَّأت الفأرة منها. وواضح أن هذا الحديث موضوع. إذ هو مشابه للحكاية المروية عن أصحاب عيسى عليه السلام. مع اختلاف بسيط هو خروج الهرة من منخر الأسد بدلاً من السنور والسنورة فى حكاية أصحاب عيسى.

وعن وهب بن منبه قال: لما أمر الله تعالى نوحاً أن يحمل من كل زوجين اثنين. قال كيف أصنع بالأسد والبقر؟ قال الله تعالى له، من ألقى بينهم العداوة؟ قال أنت يارب. قال فأنا أؤلف بينهم حتى لا يتضاروا. فحمل السباع والدواب فى الطبقة الأولى. فألقى الله على الأسد الحمى وشغله بنفسه عن الدواب والبقر.

الصنف الثانى:

أمر الله نوحاً أن يحمل معه فى السفينة أهله، واستثنى بعضهم لقوله تعالى: **«وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول»** (٤٠ - هود).

«وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول منهم». (٢٧ - المؤمنون).

وهم أهل بيت نوح عليه السلام وأهل قرابته. إلاَّ من سبق عليه القول وسبق أن دعاه نوح إلى الإيمان ولم يؤمن. وكان ممن دعاهم نوح ولم يؤمنوا ابنه يام (وقيل اسمه كنعان) الذى انعزل وحده، ولجأ إلى قمة جبل مرتفع ظناً منه أن الماء لن يصل إليه. كذلك لم يركب معه امرأة نوح وكانت كافرة. لم تؤمن به وكانت تتهمه بالجنون.

وهنا خلاف. إذ قال قتادة: لم يكن فى السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة من بنيه: سام وحام ويافث ونساؤهم. فجميعهم ثمانية: وهذا لا يتعارض مع الرأى القائل بأن امرأة نوح كانت كافرة وكانت من المغرقين، فلابد أن كانت له زوجتان إحداهما كافرة غرقت، والأخرى مؤمنة ركبت معه السفينة.

وقال الأعمش: كانوا سبعة، نوح وثلاثة بنين وثلاث كنائن له.

الصنف الثالث:

آخر مَن أُمِرَ نوح بحملهم فى السفينة **«مَن آمن وما آمن معه إلاَّ قليل»** حسب نص القرآن الكريم.

قال إسحق كانوا عشرة. وقال مقاتل كانوا سبعين، بالإضافة إلى نوح وامرأته وبنيه الثلاثة ونسائهم فكان الجميع ثمانية وسبعين نفساً. وقال ابن عباس كانوا ثمانين إنساناً.

وقال على بن أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال: فلما ركب نوح فى الفلك وأدخل معه كل من آمن، تفجرت ينابيع الأرض، وأمطرت السماء كأفواه القِرب أربعين يوماً وليلة. ثم احتمل الماء الفلك.

«وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال». (٤١ - ٤٢ هود).

وكما سبق أن ذكرنا كان لنوح ابن لم يؤمن لجأ إلى جبل، ظناً منه أن الماء لن يصل إليه، ولكن الماء ارتفع، ووصل إلى مكانه، فارتقى إلى قمة الجبل. ولكن الماء ارتفع حتى طاله فكان من المغرقين:

«ونادى نوح ابنه وكان فى معزِلٍ يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء. قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم. وحال بينهما الموج فكان من المغرقين» (٤٢ – ٤٣ هود).

وغرق كل من كان فى أرض العراق وكان ممن وصلتهم دعوة نوح عليه السلام ولم يؤمن وبالتالى لم يكن ممن ركبوا فى السفينة.

وروت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم المرأة أم الصبى. وذلك أنها خشيت عليه من الماء فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل وحملت الصبى. فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب بها الماء فلو رحم أحداً لرحم هذه.

بعض المفسرين والعلماء يقولون إن الله أعقم أرحام نساء قوم نوح قبل الطوفان بأربعين سنة. فلم يولد لهم فى تلك الفترة مولود. وبذلك كان جميع قومه بالغى التكليف وحق على المكذِّبين العذاب وحاق بهم الهلاك.

لم يتعرض القرآن الكريم لمدة هطول المطر. فهذه ليست بذات أهمية، المهم أن يستمر الماء فى الزيادة والارتفاع حتى يبلغ قمم الجبال وهى التى يأمل الكافرون أن يلجأوا إليها إنقاذاً لأنفسهم من الغرق. وبالطبع لجأوا إليها ولكن الماء ارتفع فوقها فكانوا من المغرقين. وظلت السفينة طافية على الماء وبها نوح والقلة المؤمنة التى معه.

«فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجَّانا من القوم الظالمين. وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين». (٢٨ – ٢٩ المؤمنون).

«فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين» (١٥ – العنكبوت).

«وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية» (٣٧ – الفرقان).

«ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجيناه وأهله من الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على نوح فى العالمين. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين، ثم أغرقنا الآخرين». (٧٥ – ٨٢ الصافات).

«وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقُضِىَ الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين». (٤٤ – هود).

أمر الله الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها. وأمر السماء أن تكف عن المطر. وشرع الماء فى النقصان. وتَمَّ أمر الله وقضاؤه من إغراق القوم الكافرين. وقضى الأمر كما توعدَّهم نوح بقوله:

«فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه، ويحل عليه عذاب مقيم». (٣٩ - هود).

وتم تحقيق دعوة نوح عليهم **«وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً. إنك إن تذرهم يُضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً»** (٢٦ - ٢٧ - نوح).

وكان جزاء كفرهم وصدهم عن سبيل الله أنهم أغرقوا فى الدنيا ولهم فى الآخرة النار. ولم ولن ينصرهم أحد من عذاب الله:

«مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً». (٢٥ - نوح).

واستقرت السفينة على جبل الجودى. وهو أحد قمم سلسلة جبال أراراط في شمال العراق أو جنوب شرق تركيا. فبعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه. فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ملطَّخة رجليها بالطين. فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نضب. فهبط ومن معه من السفينة. وكان خروجهم من السفينة فى عاشوراء من المحرم.

وقال الإمام أحمد، حدثنا ابن جعفر. حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدى، عن ابن حبيب بن عبدالله، عن شبل، عن أبى هريرة قال: مَرَّ النبى صلى الله عليه وسلم بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء. فقال ما هذا الصوم؟ قالوا: هذا اليوم الذى نجى الله فيه موسى وبنى إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون. وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم. فصام. وقال لأصحابه: من كان أصبح منكم صائماً فليتم صومه. ومن كان أصاب من غذاء أهله فليتم بقية يومه. يقول ابن كثير وهذا حيث غريب من هذا الوجه ولبعضه شاهد فى الصحيح.

وتذكر التوراة قصة سيدنا نوح فى الإصحاح ٦ إلى ٩ تكوين. وهى تتفق فى كثير مما سبق ذكره هنا - إلاَّ أنها تختلف فى بعض الأمور:

١ - تذكر التوراة أن **سبب الطوفان** هو كثـرة شرور الإنسان. وهنا تتجلى نظرتهم فى تجسيد الإله، ونسبة مشاعر الإنسان إليه فتقول التوراة: (تكوين ٦ : ٥) «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض. فحزن الرب لأنه عمل الإنسان فى الأرض، وتأسَّف قلبه. فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأنى حزنت أنى عملتهم.

مع أن السبب الحقيقى للطوفان هو إهلاك الكافرين الذين لم يؤمنوا بنوح وكذبوه.

«ونصرناه من القوم الذين كذَّبوا بآياتنا. إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فأغرقناهم أجمعين».

(٧٧ – الأنبياء).

«ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون». (من ٢٧ – المؤمنون).

«قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلاّ خساراً. ومكروا مكراً كُبَّاراً. وقالوا لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تَذرنَّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً. وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً. مما خطيئاتهم أغرقوا». (٢١ – ٢٥ نوح).

فهذه هى الأسباب فى إهلاكهم بالطوفان: تكذيبهم نوح عليه السلام وعصيانهم له، وإصرارهم على عبادة الأوثان والأصنام. وإضلالهم لكثير من الناس ونهيهم عن الإيمان بنوح، هذه هى الخطايا التى استحقُّوا بسببها الهلاك.

٢ – حكاية الميثاق :

تقول التوراة: وقال الرب فى قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصوُّر قلب الإنسان شرير منذ حداثته.

وتقول (تكوين ٩ : ٨): وكلَّم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً: وها أنا مقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم من بعدكم، ومع كل ذوات الأنفس الحية التى معكم. الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التي معكم، من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض. أقيم ميثاقى معكم فلا ينقرض كل ذى جسد أيضاً بمياه الطوفان، ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض. وقال الله هذه علامة الميثاق الذى أنا واضعه بينى وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التى معكم إلى أجيال الدهر. وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامة ميثاق بينى وبين الأرض، فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس فى السحاب. أنى أذكر ميثاقى الذى بينى وبين كل نفس حية فى كل جسد. فلا تكون أيضا المياه طوفاناً لتهلك كل دى جسد فمتى كان القوس فى السحاب أبصرها لأذكر ميثاقا أبدياً بين الله وبين كل نفس حية فى كل جسد على الأرض وقال الله لنوح هذه علامة الميثاق الذى أنا أقمته بينى وبين كل ذى جسد على الأرض.

وهنا أيضاً تتضح نظرتهم التجسيدية للإله. فإذا كانت إرادة الله هى عدم إهلاك البشر فذلك منه فضلٌ ومِنَّة. وليس تقيداً بميثاق مع البشر والبهائم ووحوش الأرض! ويبلغ فساد الرأى مداه. إذ جعلوا من قوس قزح ما يُذَكر الله سبحانه وتعالى بهذا الميثاق المزعوم.

«وما كان ربك نسيًّا». (٦٤ – مريم).

٣ – من كلٍّ زوجين اثنين :

تذكر التوراة فى نص منها (تكوين ٧ : ٢): من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة، ذكراً وأنثى، ومن البهائهم التى ليست بطاهرة، اثنين ذكرا وأنثى، ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى، لاستيفاء نسل على وجه كل الأرض. لأنى بعد سبعة أيام أيضاً أمطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة، وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته.

وفى نص آخر للتوراة (تكوين ٧ : ٩) ذُكرِ أن ما أُخِذَ من الحيوانات هو اثنان اثنان. وواضح أن النص الأول الذى يفرق بين حيوانات طاهرة وأخرى نجسة قد أضيف إلى التوراة عند كتابتها فى السبى. لأن هذه التفرقة بين الحيوانات لم تكن على أيام سيدنا نوح بل أتت فى تعاليم موسى عليه السلام.

والقول الصحيح هو ما جاء فى القرآن الكريم: من كلٍّ زوجين اثنين ذكر وأنثى. وهذا يكفى لتكاثر النوع بعد الطوفان. ولا داعى لزيادة حمولة السفينة بأخذ ستة أزواج إضافية من بعض الأنواع.

٤ – مدة الطوفان :

لم يتعرض القرآن الكريم لمدة الطوفان. مع أنه فى قصة عاد قوم هود حدد المدة التى هبت فيها الريح فقال:

«وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخَّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام». (٥ – الحاقة).

ولعل ذكر مدة الريح بالدقة كان لبيان أثرها المدمر إذ عهدنا بالريح أن تشتد عدة ساعات ثم تهدأ، وقد تثور ثانية وهكذا. ولكن أن تستمر الريح عاتية سبع ليال وثمانية أيام فهى ريح غير معتادة ومهلكة. فالمعجزة تتضمن أيضاً استمراريتها طوال هذه المدة. ومن هنا كان ذكر مدتها. ولعل القرآن الكريم لم يذكر مدة الفيضان لأن المدة نفسها ليست بمؤثرة فى القضية الإيمانية – ويكفى بقاء المياه عدة ساعات أو عدة دقائق لتموت الفئة الكافرة – إلاّ أنه بعد توقف سقوط المطر وتفجر العيون – يختلف الوقت الذى تجف فيه الأرض من بقعة لأخرى. فقمم الجبال تجف أولاً. ثم سفوحها وبعد عدة أسابيع تجف السهول وبعد عدة أسابيع أخرى تجف الوديان. وبهذا تختلف مدة الطوفان من مكان لآخر حسب ارتفاعه وحسب كمية المياه الموجودة به ولهذا لم يتعرض القرآن الكريم لهذه المدة – وإن قيل إن مدة الطوفان تقدر بمدة سقوط الأمطار – قلنا إن القرآن الكريم أشار إلى أن المياه ظلت تتساقط وتتفجر من الأرض حتى بلغت قمم الجبال التى لجأ إليها الكافرون.

وتختلف الكتابات اليهودية للتوراة فيما بينها على مدة الطوفان. ففى إحدى الكتابات تقول إن الأمطار ظلت تهطل أربعين يومـاً وأربعين ليلة ثم ظل نوح فى فلكه بعـد ذلك مـدة ثلاثة أسابيع قبل أن ينحسر الماء بمقدار يمكنه من رسو السفينة وبهذا يكون الطوفان قد دام ٦١ يومـاً. ورواية أخرى تقول إن الطوفان استغرق اثنى عشر شهراً وعشرة أيام. ولما كانت الشهور العبرية شهوراً قمرية. فالمدة تساوى سنة شمسية كاملة.

وفى رواية ثالثة قيل إن المياه نقصت بعد مائة وخمسين يوماً.

٥ – تطيل التوراة فى كيفية تأكُّد نوح عليه السلام من **انتهاء الطوفان** وتذكر كيف أرسل الحمامة ثم الغراب ثم الحمامة مرة ثانية. وهى تفاصيل (استغرقت صفحة تقريباً – وسنذكرها فيما بعد) لا تخدم القضية الإيمانية، ولذلك أوجز القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى:

«قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك». (٤٨ – هـود).

٦ – لا يفوت اليهود فى قصة مثل هذه أن يدسوا شيئاً يمجدهم، فيقولون إن مدينة أورشليم وجبل صهيون بالذات هما اللذان أفلتا من الغمر العظيم. أو القول بأن أرض فلسطين كلها مرتفعة فلم تغمرها مياه الطوفان. وهذا مثل ادعائهم بأن – العالم خلق إلى وجود ابتداء من صهيون – وأن آدم إنما سُوِّى فى أورشليم!!

٧ – كذلك لم تذكر التوراة شيئاً البتة عن **ابن نوح الذى غرق.**

ونستكمل هنا ما جاء فى القرآن الكريم بهذا الصدد.

«ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء. قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاَّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين». (٤٢ – ٤٣ هـود).

وبعد أن توقف الطوفان. وجفت الأرض. تحركت عاطفة الأبوة لدى نوح عليه السلام، وتذكر ابنه الذى غرق – وتذكر وعد الله له بنجاة أهله. وابنه من أهله:

«ونادى نوح ربه فقال: رب إن ابنى من أهلى، وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين. قال يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فلا تسألن ما ليس لك به علم، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين. قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم، وإلاَّ تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين». (٤٥ – ٤٧ هـود).

كان سؤال نوح عليه السلام، سؤال استفهام عن ولده الذى غرق، وهو من أهله. وكان الجواب أن النجاة وُعِدَتْ لمن آمن من أهله. أما من سبق عليه القول ولم يؤمن، فقد استُثْنى من الوعد بالنجاة.

فسرَّ البعض قول الله عزَّ وجل – إنه ليس من أهلك – على أن هذا الابن كان ربيباً عنده. ولو كان الأمر كذلك لكان نوح عالماً به، ولما قال فى سؤاله، إن ابنى من أهلى.وقال البعض أيضاً: إنه كان ثمرة خطيئة لزوجته. ودلُّوا على ذلك بقول الله عزَّ وجل عن امرأة نوح وامرأة لوط «فخانتاهما» وقد سبق شرح هذه الخيانة بأن امرأة نوح كانت تشيع عنه أنه مجنون، وهذه خيانة من الزوجة لزوجها. وقالوا كذلك: إن ابن نوح هذا كان منافقاً يُظْهِرُ الإيمان مع أنه كان كافراً. وإن نداء نوح لربه كان حسب ما هو ظاهر له. أن ابنه من أهله. وظاهر الأمر أنه مؤمن. ولكن الله بقوله «إنه ليس من أهلك» أوضح أنه كان كافراً.

«قيل: يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك، وعلى أمم ممن معك..» (من الآية ٤٨ – هود).

ونزل نوح وبنوه ومن آمن من السفينة وكذلك نزلت الحيوانات والبهائم والطيور. وانتشروا فى الأرض ليعمروها. بعد أن كانت مظاهر الحياة فيها قد بادت بفعل الطوفان. وكان أول ما فعله نوح أن صام ذلك اليوم – وقد سبق ذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك وانتشر الأبناء وزوجاتهم وتكاثروا.

هل كان الطوفان عاماً أم خاصاً؟

بمعنى هل عم الطوفان الكرة الأرضية كلها، أم عم المنطقة التى كان بها قوم نوح، ولم يغمر غيرها من المناطق؟

بعض العلماء يميل إلى أن الطوفان كان عاماً وأنه أهلك كلَّ من وما على وجه الأرض. ولم يبق على وجه الأرض إلاَّ نوح ومن كانوا معه. ويحتجون على ذلك بالآية الكريمة:

«وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً». (٢٦ – نوح).

أى لا تترك على وجه الأرض منهم دياراً، أى ولا ديَّاراً. والديَّار هو الذى يسكن الدار. وقال السدى: فاستجاب الله له، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين. واستدلوا على ذلك بالحديث الشريف (السابق ذكره فى ص ١٠٤ والمرويِّ عن عائشة رضى الله عنها) عن ابن عباس حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلام: لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها... الخ الحديث. وقال ابن كثير، هذا حديث غريب، ورجاله ثقاة. وقالوا إن معنى هذا الحديث أنه لم ينج من الغرق ممن كانوا على وجه الأرض إلاَّ من ركبوا السفينة مع نوح.

واستدلوا أيضاً بقوله تعالى: **«فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون، ثم أغرقنا بعدُ الباقين»** (١١٩ – ١٢٠ الشعراء).

وقوله تعالى: **«وجعلنا ذريته هم الباقين».** (٧٧ – الصافات).

ولكن هاتين الآيتين لا تدلاَّن على أن جميع البشر على سطح الكرة الأرضية كلها قد بادوا إلاَّ من حمله نوح معه فى السفينة – بل تدل على أن الله أنجاه ومن معه فى السفينة. وغرق الآخرون. وأن من غرقوا، هو الذين لم يؤمنوا به، ولم يركبوا معه فى السفينة من قومه. وبذلك كانت ذريته هم الباقون بعد هلاك المكذبين.

كما أن آية – رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً – لا تعنى بالضرورة عموم الكرة الأرضية كلها وإنما تستعمل لتدل على جزء من سطح الأرض ففى سورة يوسف: **«قال اجعلنى على خزائن الأرض»**. و **«كذلك مكنا ليوسف فى الأرض»**. والمراد هما أرض مصر. لا كل الأرض. ولا كل الكرة الأرضية وكذلك قوله تعالى: **«وإن فرعون لعالٍ فى الأرض»**. وكذلك قول فرعون لموسى وهارون: **«وتكون لكما الكبرياء فى الأرض»**. والمراد هنا أيضاً أرض مصر. وقوله تعالى: **«وإن كادوا ليستفزونك من الأرض، ليخرجوك منها»**. (٧٦ – الإسراء). والمراد بالأرض هنا أرض مكة.

وكذلك يكون معنى رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً – أى على أرض القوم الذين أُرسِلْتُ إليهم وكفروا – وهى أرض العراق. قال الإمام محمد عبده إن القرآن الكريم لم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ويقول السيد محمد رشيد رضا إن ظاهر القرآن أن الطوفان كان شاملاً لقوم نوح الذين لم يكن فى الأرض غيرهم ولكنه لا يقتضى أن يكون عاماً للأرض إذ لا دليل على أنهم كانوا يملأون الأرض.

والقول بأن قوم نوح لم يكن فى الأرض غيرهم ليس عليه دليل. فقد كانت مصر عامرة بالسكان من أبناء شيث. كذلك وسط وجنوب شرق آسيا.

ويتبنى آخرون الرأى القائل بأن الطوفان عمَّ المنطقة التى كان يعيش فيها نوح وقومه. وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها الطوفان وهذا الرأى هو الصحيح وأورد الأستاذ الدكتور محمد بيومى مهران (دراسات تاريخية – جـ ٤ فى العراق. ص ٩٥ – ١٠٠) أدلة كثيرة على صحة هذا الرأى. أولها أن كل آيات القرآن الكريم تنص دائماً ودون لبس أو غموض – على أن نوحاً إنما أرسل إلى قومه خاصة. ومن ذلك قوله تعالى:

«لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين، قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين». (٥٩ – ٦١ الأعراف).

وقوله تعالى: **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً. فأخذهم الطوفان وهم ظالمون»**. (١٤ – العنكبوت).

وقوله تعالى: **«إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه. أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم. قال يا قوم إنى لكم نذير مبين»**. (١ – ٢ نوح).

وغير ذلك من الآيات، التى تؤكد كل التأكيد، أن دعوة نوح إنما كانت لقومه خاصة – شأنه فى ذلك شأن غيره من الأنبياء والرسل – إلاَّ دعوة محمد صلى الله عليه وسلم. فهو الوحيد الذى أرسل إلى الناس كافة:

«وأرسلناك للناس كافة. وكفى بالله شهيداً». (٧٩ – النساء).

«وما أرسلناك إلاَّ كافة للناس بشيراً ونذيراً». (٢٨ – سبأ).

«قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً». (١٥٨ – الأعراف).

وهناك أكثر من أربعين آية فى القرآن الكريم، يذكر فيها الله سبحانه وتعالى عالمية الرسالة المحمدية.

ولما كان الأمر كذلك وكانت القاعدة الشرعية التى جاء بها القرآن الكريم. هى ألاَّ يعذب الله قوماً إلا إذا أرسل إليهم رسولاً يهديهم سواء السبيل. تصديقاً لقوله تعالى:

«وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً». (١٥ – الإسراء).

ولما كان نوح عليه السلام فى العراق فكيف يعذب الله ويغرق أهل مصر، أو سكان الجزيرة العربية، بسبب كفر العراقيين بنوح؟

كذلك يقول القرآن الكريم: **«مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً».** (٢٥ – نوح).

وهذا يعنى أن الذين غرقوا. إنما بسبب خطيئاتهم فى حق نوح وكفرهم بدعوته.

وقال نوح عنهم: **«قال رب إنهم عصونى».**

وكذلك الآية: **«وأوحى إلى نوحٍ أنه لن يؤمن من قومك إلاَّ من قد آمن».** (٣٦ – هود).

كل هذا يدل على أن الكافرين الذين أغرقوا كانوا من قوم نوح.

«فكذبوه. فنجيناه ومن معه فى الفلك، وجعلناهم خلائف، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا». (٧٣ – يونس). أما باقى سكان الكرة الأرضية فى مصر وآسيا مثلاً، فلم تشملهم دعوته، وبالتالى لم يكونوا ضمن المكذبين، وبالتالى لم يكونوا ضمن المغرقين.

أما قول البعض بأن الطوفان كان عاماً، ويستدلون بوجود بقايا حيوانية من الأحياء التى لا تعيش إلاَّ فى الماء فوق الجبال وهذا يستدعى وجود طوفان غمر هذه الجبال. وهى فى أماكن متفرقة من العالم، فإن هذا فى الحقيقة دليل ضد عمومية الطوفان. فإن طوفان نوح عليه السلام – بفرض أنه عمَّ الأرض كلها – فقد دام مدة قصيرة قيل أربعين يوماً، وقيل ١٥٠ يوماً، وأكثر ما قيل سنة شمسية كاملة. وإن صعود الماء إلى الجبال هذه الفترة المحدودة، لا تكفى لتكوين أحياء مائية، إذ أن ذلك يستغرق آلاف وملايين السنين.

كما أن الماء الذى كوَّن الفيضان كان ماء عذباً. من مطر السماء وعيون الأرض. والأحياء التى وجدت بقاياها على قمم الجبال كانت بقايا لحياة بحرية لا تعيش إلاً فى المياه المالحة. ويؤكد الچيولوچيون أن تلك الرواسب إنما حدثت فى عصور قديمة ارتفع فيها سطح الماء فى البحار والمحيطات فغطى أجزاء كبيرة من اليابسة. ثم انخفض سطح البحر فى العصور الجليدية، فتكشفت الأرض وما بها من رواسب. وعلماء الچيولوچيا يقولون بتكرار ذلك عدة مرات. وهذا يفسر وجود تلك الرواسب فى عدة طبقات تمثل فترات ما بين العصور الجليدية.

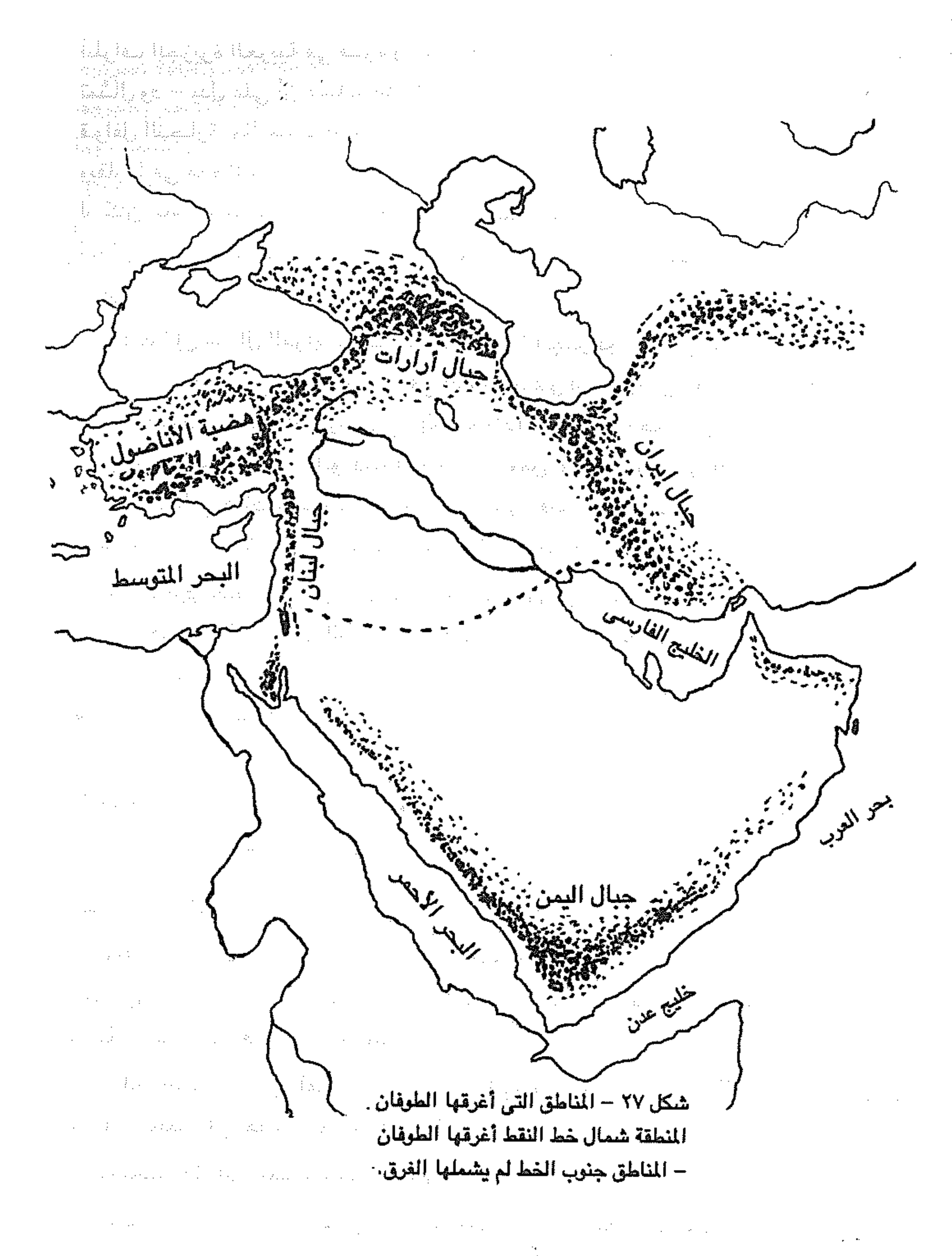
ولو قيل إن الطوفان كان عاماً، شمل اليابسة والبحار، فاختلطت مياه المحيطات بالمياه العذبة وانتقلت إليها الأحياء البحرية. ولو حدث ذلك لأصبحت الأراضى الزراعية مالحة لا تصلح للزراعة بعد الطوفان وهذا ما لم يحدث إذ تم إعمار الأرض وزراعتها بطريقة عادية بعد الطوفان.

لعل القائلين بعمومية الطوفان يظنون أن عموميته معجزة أكبر من كونه خاصاً.

ونقول إن الصيحة التى أُهلك بها قوم صالح كان من الممكن أن تبلغ كل أنحاء الأرض وتهلك الناس جميعاً. إلاً أن الله جعلها قاصرة على المكذبين من قوم صالح. أما المؤمنون، ولم يكونوا قد ابتعدوا كثيراً فقد نجوا من الأثر المهلك لهذه الصيحة. وهذا فى حد ذاته معجزة أخرى.

كذلك فإن خصوصية الطوفان لا تقل إعجازاً عن عموميته. فإن الطوفان - وقد ارتفع فوق قمم الجبال بخمسة عشر ذراعاً وفى قول آخر بثمانين ذراعاً - فى المنطقة التى كان بها قوم نوح - وهى شمال العراق - وهى أصلاً مرتفعة كثيراً عن جنوبه بدليل جريان ماء دجلة والفرات من الشمال إلى الجنوب باندفاع شديد - ولو نظرنا إلى الخريطة شكل ٢٧ لتبين لنا أن الماء كان حرياً أن يغطى صحراء الجزيرة العربية كلها، ولو أخذنا بخصوصية الطوفان فلابد أن حافة المياه ناحية صحراء الشام وصحراء الجزيرة العربية كانت كالطود العظيم. بحيث أنها لم تغرق هذه الأمكنة - بدلاً من ذهاب المفسرين إلى أن البيت المعمور بمكة رفع على جبل أبى قبيس - كما جاء فى الطبرى - أو كما فى قول آخر - أن الله أمر جبريل فرفع الكعبة إلى السماء الرابعة، وخبأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس. ويرى آخرون أن البيت لم يكن مبنياً قبل أيام إبراهيم عليه السلام. وأن الروايات التى قالت بأن آدم قد نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا لآدم قد طفنا قبلك بهذا البيت. أو أن السفينة قد طافت به ودارت بالحرم أسبوعاً أو **أربعين يوماً**. فهى كلها مبالغات وخيالات، ولعلها مأخوذة عن بنى إسرائيل. ومع هذا فَيُحتمل **أن يكون** الطوفان قد شمل الجزيرة العربية، مع كل المناطق المحصورة بين الجبال الموضحة **على الخريطة** السابق الإشارة إليها.

وأضيف **أيضاً، أن** وجود عبادة ود وسواع ويغوث ويعوق ونسراً، فى بعض القبائل فى



شكل ٢٧ – المناطق التى أغرقها الطوفان.
المنطقة شمال خط النقط أغرقها الطوفان
– المناطق جنوب الخط لم يشملها الغرق.

أطراف الجزيرة العربية فى فترة وجيزة بعد الطوفان - فقد وجد فى دولة معين فى اليمن تمثال ود - يدل على أن عبادة هذه الأصنام قد انتقلت من قوم نوح إلى البلدان عن طريق قوافل التجارة. ولما حدث الطوفان فى العراق اندثرت عبادة هذه الأصنام (ود وسواع...). وبقاؤها فى هذه القبائل العربية بعد الطوفان بفترة وجيزة تدل على أن الطوفان لم يشملها. إذ لو كان عاماً شمل كل الكرة الأرضية لزالت عبادة هذه الأصنام أيضا من اليمن، ومن غير المعقول أن تنشأ عبادة أصنام بنفس الأسماء القديمة من جديد بهذه الأماكن فى فترة زمنية وجيزة.

كذلك فإن شمال العراق لم يكن به الأفيال ولا الجمل ذو السنامين ولا الزرافة ولا الكنغر. وبالطبع لم يحمل نوح معه أياً منها فى السفينة. فلو أن الطوفان قد عم جميع أنحاء الكرة الأرضية وبادت جميع الحيوانات إلاً التى حملها نوح معه - فمن أين وجد الفيل الحالى أو غيره من الحيوانات السابق ذكرها وغيرها. ومن غير المعقول أن العراق كان به جميع الحيوانات التى كانت موجودة على سطح الأرض. فنحن نعلم أنها أنواع تقدر بمئات الآلاف وحتى لو فرض جدلاً وأنها وجدت فى العراق لما اتسعت السفينة لها جميعاً.

كذلك يرى جماعة من أهل فارس والهند. أن تاريخ المُلك عندهم يمتد فى الماضى إلى تواريخ بعيدة - إلى ما قبل التاريخ المحدد لطوفان نوح. وأن عُمرانهم متصل من أعمق أجيال إلى اليوم. كذلك فإن الأدب المصرى القديم وهو دون شك من أدق الآداب فى تدوينه - لم يذكر شيئا عن طوفان غمر أرض مصر ولا وُجدت حفريات تدل عليه.

لهذا كله. فمن المؤكد أن الطوفان لم يشمل الكرة الأرضية كلها. بل كان قاصرا على المنطقة التى عاش فيها قوم نوح، وبعض المناطق المجاورة، أما باقى بقاع الأرض فلم يشملها الطوفان. وهذا لا يقلّل من قدر المعجزة، بل لعله يزيد من إعجازها.

طوفان أم فيضان ؟

هناك اتجاه عند بعض المثقفين لإرجاع المعجزات لأسباب طبيعية تماماً. فمثلاً يقولون إن إنشقاق البحر لموسى عليه السلام كان بسبب موجة جزر شديدة كشفت قاع البحر. أعقبها موجة مد كبيرة أغرقت فرعون وجيشه.

وقالوا أيضاً إن ثمود أهلكوا بصاعقة كهربائية مثل مانسمع عنه فى الإذاعات من صواعق حارقة وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد (ص ١٥٧).

وسأذكر هنا الرد فيما يتعلق بالطوفان.

صحيح أن العراق كان يتعرض لفيضانات عالية، من نهرى دجلة والفرات، تُغرق ضفتى النهر وتبيد مظاهر الحياة فيها. وليس ذلك «ضد» المعجزة كما قد يتوهم البعض، بل بالعكس

هو ما يؤيد الطوفان كمعجزة. فالمعروف أن المعجزات تكون مما برع فيه القوم وعرفوا أسراره. فإن معجزة موسى عليه السلام لم تكن نوعاً من السحر، لأن القوم عرفوا السحر وخبروه. وبرعوا فيه، حتى إنهم ليلقون حبالهم وعصيهم فيخيل للمشاهد أنها ثعابين تتلوى وتسعى، وما هى فى الحقيقة بذلك. لذلك لما ألقى موسى عليه السلام عصاه فإذا هى تلقف وتبتلع حبالهم أدركوا أن هذه هى المعجزة الحقيقية - وآمنوا برب موسى. ولو أجرى أحد هؤلاء السحرة لعبته هذه أمام أناس ليس عندهم خبرة بالسحر، لظنوا أنه يأتى بمعجزة مؤيدة من الله عزَّ وجلَّ. ولآمنوا بما يدعو إليه من تأليه فرعون. وعلى ذلك فإن حدوث المعجزة من صنف ما خبره الناس دليل على خرق النواميس المعهودة وذلك لا يتم إلا بقدرة الله تعالى. ولن أطيل فى شرح أن معجزة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم - وهى القرآن الكريم - كانت لقوم برعوا فى اللغة واتقنوا شعرها ونثرها. فلما جاءهم القرآن الكريم قالوا عنه ما هو بالشعر وما هو بالنثر. وأيقنوا أنه معجزة من الله رب العالمين.

ولو جئنا لأهل مصر - وقد تعودوا على نهر النيل الذى يجرى فى أرضهم هادئاً - إلاَّ من بعض فيضانات عالية بعض الشىء - أقول لو جئنا لأهل مصر بفيضان كبير مثل فيضانات نهرى دجلة والفرات أو المسيسيبى لاعتقدوا أنها معجزة. أما أهل العراق فهم قد خبروا الفيضانات العالية المدمرة لنهرى دجلة والفرات. وما كان ليفوت عليهم الاختلاف الواضح بين هذه الفيضانات ومعجزة الطوفان.

والفيضانات العالية تحدث عند هطول أمطار غزيرة على جبال منبع النهر، أو عند ذوبان الثلوج على قمم هذه الجبال، فيضيق مجرى النهر عن كمية المياه المتدفقة، فتندفع المياه بشدة. وتفيض على الجانبين وتمضى هادرة تكتسح فى طريقها كل ما تصادفه. ففى فيضان نهر يانجتسى فى الصين عام ١٩١١. دمر مدناً وقرى، وغطت مياهه آلاف الكيلو مترات المربعة من الأراضى الزراعية وفقد خمسة عشر ألفاً من الناس أرواحهم.

وفى عام ١٩٢٧ حدث أكبر فيضان فى وادى نهر المسيسيبى واكتسحت المياه الهادرة القرى والمدن، واقتلعت الخطوط الحديدية، وأطاحت بالكبارى المشيدة من الصلب. وها نحن نرى فى التليفزيون الفيضانات تدفع أمامها السيارات وتقلبها وترطمها بالصخور والأشجار.

فالفيضانات كلها عبارة عن مياة ضاقت عنها جوانب النهر، فطغت على جوانبه وتمضى مندفعة متسارعة تكتسح أمامها كل مظاهر الحياة. وقد لا ترتفع مياه الفيضان إلاَّ أمتاراً قليلة. إذ أن الصور التى أخذت لفيضان المسيسيبى - وهو من أشد الفيضانات - تُرينا قمم الأشجار ومداخن المنازل التى لم تتهدم. إذ أن أثر الفيضانات المدمرة ينتج عن شدة اندفاع المياه.

أما الطوفان فقد كان شيئاً مختلفاً تماماً. أمطار غزيرة سقطت فى كل مكان كأنها أفواه

القرب. ولم يقتصر سقوطها على جبال منبع النهر، بل على كل أرض العراق شماله ووسطه وجنوبه وكذلك المناطق المجاورة. وتفجرت الأرض عن ينابيع وعيون يندفع منها الماء بقوة. وترتفع المياه أمتاراً كثيرة حتى لتغمر الأماكن المرتفعة ثم تزيد المياه فتغطى سفوح الجبال. ثم قممها وتعلو فوق قممها عدة أمتار. وليس هناك اندفاع المياه من الشمال إلى الجنوب كما فى مياه الفيضان شديدة الجريان – بل الماء فى كل مكان. صحيح أن الرياح قد تحدث أمواجاً عالية – وكما أخبر عنها القرآن الكريم «فى موج كالجبال» كما يحدث فى البحر أحياناً من أمواج عالية – ولكن ليس لها اندفاع مياه الفيضان. وما كانت سفينة نوح عليه السلام – أو أى سفينة أخرى – لتصمد أمام اندفاع المياه لو كان ما حدث فيضاناً. فقد رأينا فى فيضان المسيسيبى وغيره من الأنهار، كيف كانت المياه المندفعة تجرف السيارات وتقتلع الكبارى وتقذفها بعيداً محطمة. وكان حرياً أن تدفع المياه السفينة أمامها لترتطم بأى عائق وتتكسر أو تطيح بها فى الخليج أسفل النهر. ولكن مياه الطوفان، كانت ترتفع تدريجاً، فاحتملت السفينة وكلما ارتفعت المياه ارتفعت معها السفينة.

وتكتمل المعجزة بأن ترسو السفينة على الجودى، وهو أحد جبال أراراط فى أقصى شمال العراق. ويستحيل على فيضان أن يدفع سفينة فى عكس اتجاه مياهه، وكأن مكان رُسُوِّ السفينة فى أقصى الشمال كان مقدراً ليدحض أى تفكير فى أن ما حدث هو فيضان من فيضانات نهرى دجلة والفرات. وأنه فقط فاقها فى الشدة.

وقد تبنى بعض المستشرقين ما ترويه الأسطورة السومرية عن الطوفان، من أن السفينة قد رست فى أرض دلمون. وقالوا إن أرض دلمون هذه تقع فى الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس – أى الجزء الشرقى من ساحل الخليج، ومنهم من قال إنها فى منطقة وادى السند، ومنهم من رأى أنها تقع فى جنوب غرب بابل – ومنهم من قال إنها تقع فى القسم الشرقى من جزيرة العرب، أو قرب جزيرة البحرين الحالية. ولعلهم تبنوا هذه المواقع لاعتناقهم فكرة فيضان دفع السفينة جنوباً، فى حين أنهم لو قالوا برسو السفينة على جبال أراراط لوجب إيمانهم بطوفان معجزة وهو مالا يريدون الاعتراف به.

أما عن الخلاف فى الاسم فى مرسى السفينة – حيث جاء فى القرآن الكريم **«واستوت على الجودى»**. (٤٤ – هود)

وجاء فى التوراة (تكوين ٨ : ٤): واستقر الفلك فى الشهر السابع فى اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أرارط.

وحاول البعض إظهار تعارض بين النصين السابقين. وأراراط هى سلسلة جبال فى أرمينيا أو هى أرمينيا ذاتها كما جاءت فى المعجم العبرى. ومن هذا يفهم أن التوراة لم تسم مكاناً بعينه لرسو السفينة. بل حددت أنها رست فى أرمينية. وسلسلة الجبال تحتوى على عدد من

القمم، وقيل إن إحدى هذه القمم اسمه الجودى وهو الذى ورد بالقرآن الكريم فلا تعارض إذن بين النصَّين..

ويقول الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن. جـ ١ ص ٢٣٤) إن الجودى مشتق من الجُدُّ – وهو يعنى شاطىء النهر أو ساحل البحر ومنه الميناء المشهور جُدَّة بالمملكة السعودية أى أن الجودى يعنى المرسى وليس اسم مكان بعينه وقوله تعالى: «**باسم الله مجراها ومرساها**». أى باسم الله حملها على الماء وباسم الله رسوها على الأرض أى على الشاطىء أى رسوها على الجودى.

وبالرجوع إلى القاموس المحيط نجد أن الجُدُّ مشتقه من «جَدُّ وجُدُدُ» – أما الجودى فهى مشتقه من «جُودُ» وهو العطاء. وعلى ذلك فالأرجح هو أن الجودى هو اسم قمة جبل فى سلسلة جبال أراراط فى أرمينيا شرق تركيا وشمال العراق.

الحفريات الأثرية والطوفان :

لسنا فى حاجة – بعد ما ورد فى القرآن الكريم عن الطوفان – لأدلة أثرية تثبت حدوثه والحفريات التى قامت بها – ولا تزال تقوم بها – بعثات الآثار فى جنوب العراق ووسطه، كشفت عن شواهد تدل على حدوث طوفان عظيم شمل هذه المناطق، كذلك عُثِرَ على ألواح بها كتابات تحكى قصة الطوفان – العظيم – فى أكثر من مكان أثرى. وتختلف الروايات عن بعضها . فقد أدخلت عليها الخرافات. ونسبها كل شعب إلى نفسه وزعم أن بطلها كان فرداً من أبنائه.

وكان الاعتقاد السائد أواخر القرن الماضى أن التوراة هى أقدم مصدر لقصة الطوفان. ولكن اكتشاف هذه الألواح والكتابات غيَّر هذه الفكرة. فقد عثر فى عام ١٨٥٣ ميلادية على نسخة من رواية الطوفان البابلية، وفى الفترة ما بين عامى ١٨٨٩ و ١٩٠٠م اكتشفت بعثة أمريكية اللوح الذى يحتوى على القصة السومرية للطوفان، والتى يعتقد أنها كتبت فى عهد الملك الشهير حمورابى عام ١٨٠٠ ق.م. ومن المؤكد أن القصة نفسها ترجع إلى عصر أقدم من ذلك بكثير، وبهذا اتضح أن هذه القصص أقدم من العصور التى دُوِّنت فيها التوراة. وأن كُتَّاب التوراة فى ذلك الوقت قد تأثروا بما جاء فى قصص الطوفان القديمة. فأضافوا – كثيراً من التفاصيل والمبالغات التى تصل إلى حدود خيالية – أضافوها إلى القصة الحقيقية كما أنزلت على موسى عليه السلام، فخلطوا بينها وبين ما جاء فى التوراة – وخاصة أن التوراة كما يقول هـ . ج ويلز، قد جُمعت لأول مرة فى بابل، أثناء السبى، ويُقَدِّم، كثير من العلماء أدلة على تأثير الأدب البابلى فى التوراة. كما أن آخرين يرون أن التأثر بالأدب البابلى قد حدث قبل ذلك بكثير أثناء فترات اتصال الإسرائيليين بالأشوريين.

ثم جاء القرآن الكريم - ليقول قولة الحق فى هذا الصدد - وليرد القصة إلى أصلها الإيمانى ويتجاوز عن التفاصيل التى لا تخدم القضية الإيمانية ويركز الضوء على تكرار دعوة نوح عليه السلام لقومه ورفضهم دعوته وإيذائه ثم تحديه. فكان لابد من طوفان يبيد هذه الطغمة الكافرة.

وسأحاول فى الصفحات القليلة التالية ذكر ما وجد من آثار على حدوث الطوفان العظيم وتلخيص ما كتب عنه من قصص وما بينها من اختلافات.

١ - سبق أن ذكرنا أن قابيل وبعضاً من أبناء آدم هاجروا شرقاً، حتى وصلوا جنوب العراق، حيث وجدوا الأرض الخصبة والصالحة للزراعة لوفرة المياه، فاستقروا بها. وكان ذلك **فى بلدة عبيد** أو تل العبيد وسميت الحضارة التى أنشأوها حضارة العبيد. وقد وُجدت من آثارهم أوانى فخارية، وكانوا من المهارة بحيث صنعوا بعضها رقيقاً للغاية، وزُوِّد بعضها بمقابض، وزينوا سطحها الخارجي بنقوش ملونة بألوان حمراء وسمراء تمثل طيوراً وحيوانات وأسماكاً.

وفى بلدة مجاورة - هى **بلدة إريدو** أنشئ معبد للمعبود «إنكى» وكانوا يبنون المعابد فوق مسطحات مرتفعة تسمى «زقورات». وكانت هذه المنطقة من أرض العراق تتعرض لفيضان نهرى دجلة والفرات ولعل ذلك هو السبب فى أنهم تخيلوا رباً للمياه العذبة هو المعبود إنكى كان يُعبد فى إريدو وأور.

وقد عثر أحد الأثريين - سير ليونارد دولى - فى حفائره فى أور عام ١٩٢٩. على طبقة سميكة من الغرين السميك الذى يقدر بحوالى ثمانية أقدام - وستة عشر قدماً فى بعض المناطق - واعتبر ذلك دليلاً على حدوث الطوفان العظيم نظراً لكثافة تلك الطبقة. وتقع فوق آثار تنتمى إلى عصر حضارة العبيد.

٢ - كذلك سبق أن قلنا إن الهجرات واصلت سيرها شمالاً، إلى **بلدة أورك** وهى بلدة الوركاء الحالية وأنشأت حضارة الوركاء. وكان الأهالى أيضاً وثنيين، وكانوا يقدسون «إنانا» أو «إن إن» ربة الزهرة إبنة المعبود «آنو» وزوجته. وكانت الأراضى الزراعية من الوفرة بحيث نشأت عدة قرى أخرى، واتسع العمران اتساعاً نسبياً. وبنوا المعابد. وصوَّر النحاتون والرسامون كهنة معابدهم قصار الشعور وحليقى الشوارب واللحى.

وفى الشمال نشأت بلدة **كيش وشورباك**. وفى هاتين البلدتين وجدت طبقة غرينية سميكة تدل على طوفان كبير.

٣ – كذلك وجدت **وثيقة** تقول بأن الملكية نزلت من السماء فى بلدة **إريدو** وتذكر القائمة ثمانية ملوك حكموا. ثم جاء من بعدهم الطوفان الذى أغرق الأرض، وبعد زوال الطوفان هبطت الملكية ثانية من السماء إلى كيش ثم فى أوروك.

٤ – قصة الطوفان السومرية:

بعد الطوفان انتشر أبناء نوح عليه السلام فى أرض العراق. ومن ولد كنعان بن حام ابن يسمى الصمارى Summrai ومن المحتمل أن السومريين Sumerians ينتسبون إليه ومن ذريته – وارتحلوا جنوباً حتى وصلوا إلى الجزء الأسفل من أراضى ما بين النهرين وكانت بالطبع خالية من السكان بفعل الطوفان فسكنوها، وبمرور الزمن نسوا التوحيد الذى أتى به نوح عليه السلام. وتخيل السومريون أرباباً وصوروهم على هيئات بشرية بلحى كثة وشعور طويلة معقوفة من الخلف. وشيَّدوا لها المعابد وكانت بداية الأسرات السومرية حوالى ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد. وتقدمت حضارتهم. وفى أول الأمر استخدموا الصور فى كتاباتهم (شأنهم فى ذلك شأن الكتابة المصرية القديمة فى بداية ظهورها) فكان رسم الذراع يعبر عن القوة ورسم القدم يعبر عن المشى. وتطورت الكتابة وتم تبسيطها وكانوا يكتبونها فى أنهر رأسية يفصل كل نهر منها وآخر خط رأسى. وكانت الحروف على هيئة خطوط طولية لها رأس أعلاها يختلف باختلاف الحرف وكانت فى شكلها العام تشبه المسمار لذلك سميت بالكتابة المسمارية كما أنها كانت تكتب على ألواح من الطين بقلم مثل المسمار. وكانت اللوحات الهامة منها تحرق فى الأفران، لزيادة صلابتها وحفظها. ثم بدأت تظهر الكتابة على الحجر فى بعض الجهات.

وقد وجد لوح به كتابة تشير إلى حدوث طوفان عظيم، ولكنها ممزوجة بأسطورة عن الآلهة التى كانت تعبد آنذاك. وحتى هذا اللوح قد فقدت منه المقدمة ولم يبق منه إلاَّ ثلثه الأخير مكتوباً فى مائة سطر تتخللها أجزاء كثيرة ممسوحة – إلاَّ أن ما تبقى يقدم لنا الخطوط الرئيسية للقصة السومرية عن الطوفان كما يلى:

تبدأ أسطورة الطوفان السومرية بقرار الآلهة إهلاك البشر فتقول على لسان كبير الآلهة: إن البشر عبادى، وعن الهلاك المحيق بهم سأعمل، سأعيد مخلوقاتى. أما المدن فحقاً سوف يبنون فيها لأنفسهم أماكن للشرائع الإلهية. وسأجعل ظلالها فى سلام، وأما عن بيوتنا (أى دور العبادة) فسوف يضعون آجرها فى أماكن طاهرة. ثم تذكر القصة بدء الخليقة، بأن الآلهة «آنو» و «إنليل» و «نينورساج» قد خلقوا البشر. ثم ازدهر الزرع فى الأرض وأخرجت الآلهة الحيوانات ومخلوقات السهول ذوات الأربع إلى الوجود. ثم أنزلت الملكية من السماء وأنزل الإله تيارا المعظم عرش الملك من السماء وأكمل الشعائر والشرائع الإلهية. وأسس المدن الخمس

وهى إريدو – بادتيبيرا – سيبار – لاراك – شوروباك. وهذه المدن الخمس تقع فى النصف الجنوبى من أراضى ما بين النهرين (شكل ٢٨).

ثم كان قرار الآلهة بإغراق البشر بالطوفان. فبكت «نينتو» وناحت «إنانا» الطاهرة من أجل أناسها ثم قام الملك زيوسودرا وبنى معبداً ضخماً للآلهة – وظل واقفاً فيه متواضعاً فى احترام حاضراً كل يوم ناطقاً اسم الإله الأكبر، فسمع من يقول له: قف عند الحائط، إلى جانبى الأيسر وعند الحائط سوف ألقى إليك كلمتى. اسمع إلى تعليماتى بقضائنا. طوفاناً سوف يكتسح المدن ويقضى على بذرة الشر. ذلك قرار. إنها كلمة مجلس الآلهة بناء على الكلمة التى أمر بها «آنو» و«إنليل». ثم عدة أسطر مهشمة لابد كان فيها أمر الآلهة لـ زيوسودرا ببناء سفينة هائلة ليأخذ فيها البشر الذين قررت الآلهة نجاتهم، وكذلك الحيوانات وطريقة بناء السفينة وأبعادها. فقد كان عدد السطور المهشمة يبلغ ٤٠ سطراً. ثم تقول بعد ذلك: وهبت جميع الزوابع بعنف وضراوة كقوة واحدة. بعد ذلك لمدة سبعة أيام وسبع ليال واكتسح الطوفان الأرض وتقاذفت الأعاصير السفينة الضخمة فوق المياه المتلاطمة. واكتسح الطوفان كل شىء حتى مراكز العبادة.

وعن انتهاء الطوفان تقول: وظهر «أوتو» الذى يضيئ السماء والأرض. وفتح زيوسودرا نافذة الفلك العظيم فأنفذ أوتو أشعته فى الفلك العظيم. ونادى «آنو» و«إنليل» نسمة السماء ونسمة الأرض فبسطت نفسها. ورست السفينة فى أرض دلمون وضحى الملك بفحل وشاة وسجد زيوسودرا أمام «آنو» و«إنليل» ورضى «آنو» و«إنليل» عن زيوسودرا الملك الذى حافظ على الزرع وبذرة البشر. وبنى معبداً ضخماً للرب. ثم تذكر الأسطورة كيف نفثت الآلهة روح الخلود فى زيوسودرا.

٥ – كذلك كان من أبناء كنعان بن حام بن نوح ولد اسمه الأمورى. ومن المرجح أن الأموريين ينتسبون إليه ومن ذريته. وقد استوطنوا الجزء الأوسط من أرض العراق واتخذوا عاصمتهم فى بابل. ثم انتقلت العاصمة فى العصر الأشورى إلى نينوى. وقد عثر فى مكتبة آشوربانيبال الشهيرة فى نينوى على نسخة من ملحمة **جلجاميش**.

وكذلك وجد أحد العلماء (سيدنى سميث) على الملحمة مكتوبة على ١٢ لوحاً، ويحتوى اللوح الحادى عشر على قصة الطوفان.

وجلجاميش هو خامس ملوك مدينة الوركاء فى العصر السومرى، وكان يحكم فى تاريخ يقرب من ٢٧٠٠ ق . م. وقد اشتهر جلجاميش فى آداب العراق القديم. وصار موضوعاً لعدة ملاحم سومرية وبابلية أشهرها قصة الطوفان. وإن كان الطوفان لم يحدث لجلجاميش نفسه. بل إن جده أوتنابيشتم أخبره عنه. والقصة هكذا :

نينوى
(ملحمة جلجاميش)
أشور
(لوح مهشم)
سيبار
(طبقة غرين)
كيش
نيبور
بابل (قصة الطوفان البابلية)
سومر
(قصة الطوفان السومرية)
أوروك (شوروباك)
عبيد
أور
طبقات غرينية سميكة
إريدو
(وثيقة الملكية)

شكل ٢٨ – بعض المدن التى وجدت بها حفريات أو قصص عن الطوفان.

كان جلجاميش ملكاً حكيماً واسع المعرفة شجاعاً جريئا ولكنه كان ظالماً مستبداً. ومن ثَم فإن الآلهة خلقت له «إنكيدو» ليدافع عن الناس ضد ظلمه. وظل الصراع محتدماً ثم تم الصلح بينهما. ثم مات إنكيدو فجأة فحزن جلجاميش لفقده. وظل خائفاً يترقب الموت أيضاً. ثم بدأ يفكر فى وسيلة يتقى بها غائلة الموت وبدأ يبحث عن جده أوتنابيشتم – الذى كانت الآلهة قد رفعته إلى مصافها وجعلته يسكن بعيداً – متمتعاً بنعمة الخلود. ويتحمل جلجاميش الصعاب والمخاطر والأهوال. ثم يعبر بحراً مترامى الأطراف، حتى يصل إلى جده أوتنابيشتم الذى أطلعه على السر الذى استحق من أجله الخلود فقال :

انتوت الآلهة إحداث الطوفان – وكان من بينهم «آنو» و «إنليل» و «نينورتا» و «إيتوجى» و «نينجيكو – أيا» ثم نادت الآلهة على أوتنابيشتم وامرأته: اهدم هذا البيت (بيته) وابن فلكاً. دع الأملاك وانقذ حياتك. اهجر المتاع، ودع الروح حية. واحمل على ظهر الفلك بذرة كل شيىء حى. والفلك التى ستبنيها ستكون أبعادها حسب هذا المقياس عرضها مثل طولها. واجعل لها سقفاً. ففهمت. وقلت: نعم يا مولاى. إن ما تأمر به يشرفنى أن أنفذه.

وفى اليوم الخامس أقمت السفينة. وكانت أرضيتها فداناً كاملاً. وكان ارتفاع كل حائط من حوائطها ١٢٠ ذراعاً وطول كل ضلع من السطح ١٢٠ ذراعاً وبنيت هيكل جوانبها وربطتها إلى بعضها، وجعلت فيها ستة أسطح، قسمتها إلى سبعة طوابق، وقسمت أرضيتها تسعة أجزاء، ودققت سدادات المياه بها. وجهزتها بما تحتاج إليه من مؤن، وصببت فى الفرن ٦ سار (السار ٨٠٠ جالون) من القار و ٣ سار من الأسفلت و٣ سار من الزيت. وذبحت ثيراناً للناس ونحرت ماشية كل يوم، وأعطيت العمال عصير فواكه ونبيذاً أحمر وآخر أبيض.

واكتمل الفلك فى اليوم السابع، وكان إنزاله إلى الماء بالغ المشقة، وحمَّلته بكل ما عندى من فضة وذهب، وكل ما أملك من الكائنات الحية، وكل عائلتى وذوى قرباى أركبتهم الفلك، وكذلك حيوان الحقل ووحوش الحقل، وقد حدد لى الإله وقتاً معيناً.

وجاء اليوم الموعود وأنزل الموكل بالزوابع ليلاً مطراً مهلكاً وأخذت أرقب وجه السماء. وكان منظر العاصفة مخيفاً يثير الرعب، فصعدت إلى الفلك، وأوصدت بابه، ومع انبثاق الفجر ظهرت فى السماء غمامة سوداء، وأرعد «أداد» فى داخلها، ونزع «إيرجال» (إله العالم السفلى) الأعمدة الخاصة بسد العالم، وجاءت «نينورتا» (إلهة مياه الأعماق) وجعلت السدود تفيض. وهبت عاصفة الجنوب. وأحال «إداد» النور ظلمة، فلا يرى الأخ أخاه. وخشى الآلهة من الطوفان أجفلوا، وصعدوا إلى سماء «آنو» (وهى أعلى سماء) حيث ربضوا على الأسوار الخارجية. وصرخت «عشتار» وكأنها امرأة جاءها المخاض، وناحت سيدة الآلهة بصوت عال: واحسرتاه لأنى لعنت الناس فى مجمع الآلهة، ولكن كيف ألعن الناس فى مجلس الآلهة وأعلن حرباً لفناء الناس بينما أنا التى وهبتهم الحياة! وبكى «أنوناكى» معها. وجلس الآلهة جميعاً يبكون فى ذلة وقد التصقت شفاههم بعضها ببعض.

واستمرت ريح الفيضان تهب ستة أيام وست ليالى. وفى اليوم السابع سكنت عاصفة الجنوب عن الحرب التى شنتها. وهدأ البحر. وسكنت العاصفة، وتوقف الطوفان. وتطلعتُ إلى الجو، فإذا السكون شامل. ففتحت كوة وسقط الضوء على وجهى. واستوت الفلك على جبل نيصير. وأمسك جبل نيصير بالفلك ولم يدعها تتحرك ستة أيام. وفى اليوم السابع أطلقتُ حمامة فذهبت وعادت، وعز عليها أن تجد مكاناً ظاهراً تحط عليه، ثم أطلقت غراباً فذهب ورأى الماء، يتناقص فأكل وعبَّ ودار ولم يعد، فأطلقت الجميع.

وضحيت، ونصبت أربعة قدور، وعليها كوِّمت القصب وخشب الأرز والأس. فشمت الآلهة الرائحة الزكية وتكأكأت حول الأضاحى. وعندما وصلت سيدة الآلهة «عشتار» قالت: أيتها الآلهة. سوف أذكر هذه الأيام ولن أنساها. ليتقدم الآلهة إلى القربان إلاَّ «إنليل» فإنه لا يتقدم لأنه أحدث الطوفان دون روية، وقاد شعبى إلى التهلكة. وقال نينورتا لإنليل أنت يا أحكم الآلهة. كيف تُحدِث الطوفان دون رويَّة. ليت أسداً هب وقلل من بنى الإنسان بدلاً من إحداث الطوفان. ليت مجاعة هبت وقللت من بنى الإنسان بدلاً من إحداث الطوفان. ليت طاعوناً هبَّ وقلل من بنى الإنسان، بدلاً من إحداث الطوفان!

وعندئذ صعد «إنليل» إلى ظهر السفين وأمسك بيدى، وأخذ زوجتى وجعلها تركع بجانبى ووقف بيننا ليباركنا وقال: لم يعد أوتنابيشتم بشراً. سيكون هو وزوجته أشبه بنا معشر الأرباب. وعلى ذلك أخذونى بعيداً وأسكنونى بعيداً عند مصب الأنهار.

٥ - قصة الطوفان البابلية :

كتب بيروسوس، أحد كهنة الإله مردوخ، تاريخ بلاده (العراق)، باللغة اليونانية فى ثلاثة أجزاء منذ بدء الخليقة حتى أيامه - وكان ذلك فى عهد الملك البابلى أنتوخوس الأول (٢٨٠ - ٢٦١ ق . م) وقد ضاع ذلك الكتاب، وإنما عرفه الناس من نصوص نقلها عنه كُتَّاب عاشوا فى القرن الأول قبل الميلاد.

وقد قَسَّم تاريخ العراق إلى: دول قبل الطوفان وعدد ملوكها ١٠ وكانت سنو حكمهم ٤٣٢٠٠٠ سنة. ودول بعد الطوفان وعدد ملوكها ٨٦ حكمت لمدة ٣٤٠٨٠٠ سنة. ثم ذكر دولة مادى ودولة الكلدان. ثم حمورابى. ثم دولة الأشوريين.

وقد انتقد المؤرخون القسم الأول من هذا الجدول لما فيه من مبالغات خرافية فى طول سنى الحكم وفى رأينا أن تصحيحه يكون على النحو التالى :

دول قبل الطوفان عدد الملوك ١٦ وسنو الحكم ٤٣٢٠ المتوسط ٢٧٠.

دول بعد الطوفان عدد الملوك ١٦ وسنو الحكم ٣٤٠٨ المتوسط ٢١٣.

فيكون متوسط سنى الحكم فى حدود المعقول بالنسبة لما قيل عن أعمار الناس فى ذلك

الوقت. وما يهمنا هنا هو إقراره بوجود طوفان. ولابد أنه كان طوفاناً عظيماً بحيث قسم تاريخ بلاده إلى دول قبله ودول بعده.

وتقول قصة الطوفان البابلية إن الملك إكسيسوثروس رأى أن الإله «كروتوس» يحذره من طوفان سوف يغمر الأرض ويهلك الحرث والنسل. ومن ثم فإن عليه أن يكتب تاريخ البشرية منذ بدايتها وأن يدفن ما يكتبه فى مدينة سيبار بلد الشمس حتى لا يضيع فى الطوفان الذى سيدمر كل شئ.

كما أمره أن يبنى فُلكا. ويصدع الملك بأمر إلهه ويبنى فلكاً طوله ١٢٠٠ ياردة وعرضه ٤٤٠ ياردة. يجمع فيه كل أقربائه وأصحابه. ويختزن فيه زاداً من اللحم والشراب. فضلاً عن الكائنات الحية من الطيور وذوات الأربع.

ويغْرق الطوفان الأرض. ثم تبدأ المياه فى الانحسار ويطلق الملك سراح بعض الطيور التى تعود إليه ثانية. ثم يُطلقها بعد أيام، فإذا بها تعود وأرجلها ملطخة بالطين. وحين يكرر الأمر مرة ثالثة لا تعود الطيور إلى الفلك. ويعلم أن الماء قد انحسر عن الأرض. وتستقر السفينة عند جبل تخبره الآلهة أنها أرض أرمينيا. وينزل الملك وزوجته، ويسجد للآلهة ويقدم لها القرابين. وتختاره الآلهة لكى يسكن إلى جوارها.

٦ – **اكتُشِف فى مدينة نيبور** أثناء عمليات حفر – رواية مكتوبة على كسرة من الفخار يرجع تاريخها إلى عام ٢١٠٠ ق. م. وجاء فيها، أن الإله ظهر ليذيع نبأ حدوث طوفان سيكتسح الجنس البشرى. وطلب من شخص بعينه أن يبنى فلكاً ذا سقف قوى لينجو بحياته وأن يأخذ معه صنوف الحيوانات الأليفة وطيور السماء.

٧ – **وجدت قصة الطوفان أيضاً مكتوبة على لوح مهشم فى مدينة سيبار.** ويرجع تاريخ الكتابة إلى العام ١٩٦٦ ق. م. تقريباً. وفيها إشارة إلى المطر الغزير وإلى السفينة التى أُمِر الملك فى شورباك ببنائها وإلى الأفراد الذين أُنقذوا من الطوفان بواسطة الفلك.

واضح مما سبق أن جميع هذه القصص مستقاة مما حدث لنوح عليه السلام: طوفان عظيم أغرق الكافرين والمكذبين. وسفينة عظيمة نجا بها نوح والمؤمنون، وأخذ فيها الحيوانات والطيور التى كانت فى هذه المنطقة.

وعندما انتشر أبناء نوح فى الأرض بعد الطوفان أسسوا قبائل ومدناً وممالك. وراحت كل دولة تنسج قصة طوفان خاص بها، وتنسب الأحداث إلى آلهتها وإلى بطل من أبنائها. وهكذا ظهرت هذه الروايات المختلفة عن الطوفان وملأت أدب هذه المنطقة فى ذلك الوقت.

وجاء موسى عليه السلام فيما بعد – وأنزلت عليه التوارة، ولابد أن نزل بها ما يُنقِّى قصة

الطوفان مما شابها من خرافات وزيادات، وحينما دُمِّر الهيكل، ضاعت التوراة الأصلية، وأعاد اليهود كتابتها فى أثناء السبى البابلى متأثرين بما قرأوه فى الأدب السومرى والبابلى عن الطوفان، فجاءت قصة الطوفان فى التوراة مزيجاً من الحقيقة والأساطير التى تضمنتها الرواية السومرية والبابلية عن الطوفان.

٨ – قصة الطوفان كما جاءت فى التوراة:

سنذكر هنا قصة الطوفان كما وردت فى العهد القديم وهو التوراة – الإصحاح ٦، ٧، ٨ – تكوين:

ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض وأن تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض. وتأسف فى قلبه فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأنى حزنت أنى عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب. فقال الله لنوح: نهاية كل بشر قد أتت أمامى. لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم، فها أنا مهلكهم مع الأرض، اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر. تجعل الفلك مساكن، وتطليه من داخل ومن خارج بالقار. وهكذا تصنعه ثلاث مائة ذراع يكون طول الفلك، وخمسين ذراعاً عرضه، وثلاثين ذراعاً ارتفاعه، وتصنع كوا (نافذة) للفلك، وتكمله إلى حد ذراع من فوق، وتضع باب الفلك فى جانبه. مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله. فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء كل ما فى الأرض يموت. ولكن أقيم عهدى معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك ومن كل حى من كل ذى جسد اثنين من كلٍّ تُدخِل إلى الفلك لاستبقائها معك. تكون ذكراً وأنثى. من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن دبابات الأرض كأجناسها. اثنين من كلٍّ تُدخل إليك لاستبقائها. وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك، فيكون لك ولها طعاماً. ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله. هكذا فعل.

الإصحاح السابع (مع بعض الإختصار): وقال الرب لنوح: ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك. لأنى إياك رأيت باراً لدى. من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى. ومن البهائم التى ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى ومن طيور السماء أيضاً سبعة ذكرا وأنثى. ومن كل ما يدب على الأرض دخل اثنان اثنان إلى الفلك ذكراً وأنثى كما أمر الله نوحاً.

وحدث بعد السبعة أيام الأولى أن مياه الطوفان صارت على الأرض. وانفجرت كل ينابيع الغمر الغظيم. وانفتحت طاقات السماء. وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. فى ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم إلى

الفلك. هم وكل الوحوش كأجناسها، وكل البهائم كأجناسها. وكل الدبابات التى تدب على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها، كل عصفور كل ذى جناح. ودخلت إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة. والداخلات دخلت ذكراً وأنثى من ذى جسد. كما امره الله. وأغلق الرب عليه.

نلاحظ هنا الاستطراد والتكرار فى بيان أصناف الحيوانات فى حين أن القرآن الكريم أجمل ذلك كله فى قوله تعالى: «وقلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين».

وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض. وتكاثرت المياه ورفعت الفلك. فارتفع عن الأرض وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض. فكان الفلك يسير على وجه المياه. وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض. فتغطت جميع الجبال الشامخة التى تحت كل السماء. خمسة عشر ذراعاً فى الارتفاع تعاظمت المياه. فتغطت الجبال. فمات كل ذى جسد كان يدب على الأرض، من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التى كانت تزحف على الأرض وجميع الناس. كل ما فى أنفه نسمة روح حياة من كل ما فى اليابسة مات. فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض: الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء. فانمحت من الأرض. وتبقَّى نوح والذين معه فى الفلك فقط وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً.

الإصحاح الثامن: ثم ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التى معه فى الفلك. وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء. فامتنع المطر من السماء ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً. وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه. واستقر الفلك فى الشهر السابع فى اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط. وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر. وفى العاشر فى أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال.

وتطيل التوراة فى كيفية التأكد من انتهاء الطوفان وأن اليابسة قد جفت وأصبح من الممكن النزول من السفينة فتقول: وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التى كان عملها. وأرسل الغراب فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض. ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلَّت المياه عن وجه الأرض. فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها. فرجعت إلى الفلك لأن مياها كانت على وجه الأرض. فمد يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفلك لأن مياهاً كانت على وجه الأرض. فلبث أيضاً سبعة أيام أُخَر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء فى فمها. فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض. فلبث سبعة أيام أُخَر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً. وكان فى السنة الواحدة والست مائة فى الشهر الأول فى أول الشهر أن المياه نشفت من الأرض. فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف. وفى الشهر الثانى فى اليوم السابع والعشرين من الشهر

جفت الأرض. وكلم الله نوحاً قائلاً. اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بيتك معك. وكل الحيوانات التى معك من كل ذى جسد، الطيور والبهائم وكل الدبابات التى تدب على الأرض أخرجها معك. ولتتوالد فى الأرض وتثمر وتكثر على الأرض. فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بيته معه. وكل الحيوانات كل الدبابات وكل الطيور كل ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك.

وسبق أن أشرنا إلى أنَّ القرآن الكريم قد اختصر ذلك كله فى قوله تعالى:

«قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك». (١٨ – هود).

وتستمر التوراة فتقول :

وبنى نوح مذبحاً للرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح. فتنسم الرب رائحة الرضا. وقال الرب فى قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضاً أميت كل حى كما فعلت. مدة كل أيام الأرض، زرع وحصاد، وبرد وحر، وصيف وشتاء، ونهار وليل لا تزال.

وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض. ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء. مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر قد دفعت إلى أيديكم. كل دابة حية تكون لكم طعاماً كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع. غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه... فأثمروا أنتم وأكثروا وتوالدوا فى الأرض وتكاثروا فيها.

وتختتم التوراة قصة الطوفان بحكاية الميثاق الذى أخذه الرب على نفسه بعدم تكرار الطوفان. وهو ما سبق ذكره فى ص ١٠٢.

ونلاحظ فى سرد التوراة لقصة الطوفان تفاصيل كثيرة تتشابه مع ماورد بقصة الطوفان فى ملحمة جلجاميش. نذكر منها:

– سبب الطوفان رغبة الآلهة وليس تكذيب قوم لنبيهم.

– أبعاد السفينة وتحديدها بالأذرع.

– طلى السفينة بالقار.

– إرسال الحمامة والغراب عدة مرات للتأكد من صلاح اليابسة للنزول.

– إقامة مذبح للرب.

– ارتياح الآلهة ورضا الرب عند تنسُّم رائحة القرابين والدخان المتصاعد من المحرقات ونحن نُنزِّه الله سبحانه وتعالى عن ذلك. ويرد القرآن الكريم زعمهم هذا: **«لن ينال الله لحومها ولا دماؤها».** (من الآية ٣٧ – الحج).

أخبار عن نوح عليه السلام :

ونختم قصة الطوفان ونوح عليه السلام بأخبار عن نوح نفسه.

قال الله عنه: **«إنه كان عبداً شكوراً»**. (من الآية ٣ - الإسراء).

قيل إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله. والشكر شيمة عباد الله الصالحين. وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبى زائدة، عن سعيد بن أبى بردة، عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها».

وقال ابن ماجة عن **صيام نوح** عليه السلام: حدثنا بن أبى سهل، حدثنا سعيد بن أبى مريم، عن أبى لهيعة، عن جعفر بن ربيعة، عن أبى فراس، أنه سمع عبدالله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: صام نوح الدهر إلاّ يوم عيد الفطر ويوم الأضحى.

وقال الطبراني عن آخرين أنه سمع عبدالله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى. وصام داوود نصف الدهر وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان بن وكيع، وحدثنا أبى عن زمعة وهو ابن أبى صالح عن مسلمة بن دهران، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: حج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أتى وادى عسفان قال: يا أبا بكر، أى واد هذا؟ قال هذا وادئ عسفان. قال لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكران (النوق الفتية) لهم حمر خطمهم الليف أزرهم العباء، وأرديتهم الدثار (برود من صوف) يحجون البيت العتيق. قال ابن كثير فيه غرابة.

ولعل غرابته هى فى أن البيت الحرام بمكة لم يكن قد بنى بعد فى عهد نوح عليه السلام.

وقال الإمام أحمد عن آخرين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن نبى الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إنى قاص عليك وصية، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلاّ الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كفة، ووضعت لا إله إلاّ الله فى كفه رجحت بهن لا إله إلا الله. ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة، ضمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده فإن بها صلات كل شئ وبها يرزق الخلق. وأنهاك عن الشرك والكبر. يقول ابن كثير، وإسناده صحيح ورواه أبو القاسم الطبرانى عن طريق آخر. وكذلك رواه أبو بكر البزار عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

ويقول أهل الكتاب إن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة كان عمره ٦٠٠ سنة وعاش نوح بعد الطوفان ٣٥٠ سنة فكانت كل أيام نوح ٩٥٠ سنة.

بعضهم يرى أن قول القرآن الكريم **«فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً»**. (١٤ - العنكبوت). تعنى أن هذه المدة كلها كانت قبل الطوفان

وبعضهم قال عن ابن عباس أن نوحاً بُعث وعمره ٤٨٠ سنة ولبث يدعو قومه ٩٥٠ سنة وعاش بعد الطوفان ٣٥٠ سنة فيكون كل عمره ١٧٨٠ سنة.

ولعل فى هذا مبالغة والأرجح أن قوله تعالى فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً. تشمل الفترة قبل البعثة وبعدها وقبل الطوفان وبعده أى كل عمره هو ٩٥٠ سنة.

وأما قبره عليه السلام فبعضهم قال ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك. وادعى ابن جرير عن عبد الرحمن ابن سابط أو غيره من التابعين مرسلاً، أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام. ويضعف هذا القول أن المسجد الحرام لم يكن قد بنى فى أيام نوح عليه السلام.

أبنـاء نـوح عليه السلام

بنهاية قصة نوح عليه السلام. تقفز كل كتب قصص الأنبياء إلى قصة هود عليه السلام. كقصة منفصلة، ولا تذكر شيئاً عن الرابطة بينهما. لا جغرافيا ولا تاريخيا ولا كيف وصل الناس من مكان إقامتهم بعد الطوفان إلى المكان الذى وُجد به قوم هود. مع أن تاريخ البشرية حلقات متصلة، تتبع بعضها بعضاً. لهذا كان من الواجب إضافة هذا الباب عن أبناء نوح، يربط بين نوح وهود وصالح عليهم السلام. كما سبق أن أدرجنا بابا عن أبناء آدم، ربط بين آدم وإدريس عليهما السلام.

«قيل يا نوح اهبط بسلام منها وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم. ثم يمسهم منَّا عذاب أليم». (٤٨ - هود)

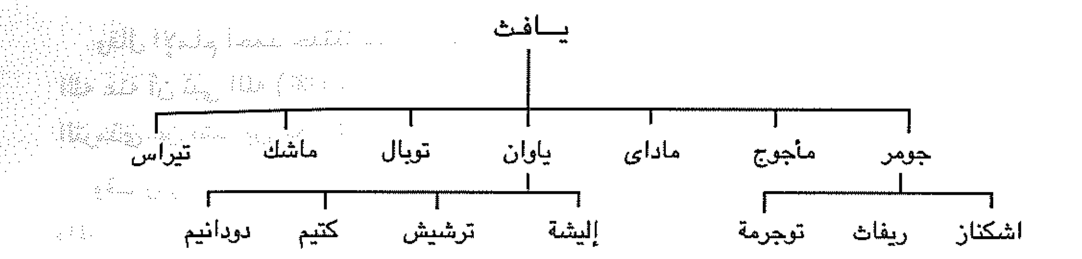
«وجعلنا ذريته هم الباقين». (٧٧ - الصافات)

وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة قال: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام. وأن كل من بالسفينة مات ولم يعقبوا عقبا باقيا غير أبنائه الثلاثة سام وحام ويافث وأزواجهم، فإنهم بقوا متناسلين حتى ملأوا الأرض. ويوافقه فى ذلك كثيرون ويرون أن الناس كلهم فى مشارق الأرض ومغاربها من ذرية نوح عليه السلام ولذا قيل عنه «آدم الثانى».

والرأى عندى أنه - وقد قَبِلنَا أن الطوفان كان خاصا، وقد عَّم العراق والشام وساحل البحر المتوسط أى مكان فلسطين ولبنان حاليا. وشمل أيضاً جزءاً من الجزيرة العربية - فإن باقى بقاع الأرض لم يغمرها الطوفان وظلت عامرة بسكانها. ومن هذه الأماكن المؤكَّدة مصر وفارس والهند وقد سبق الإشارة إلى أن تسجيل هاتين الدولتين لتاريخهما لم يتبين منه طوفان غمرهما. وكذلك فإن وسط وجنوب شرق آسيا ظل بها سكانها الأصليون المنحدرون أصلاً من نسل قابيل.

إلا أنه بعد الطوفان انتشر أبناء سام وحام ويافث فى كل جهات الأرض. وحتى الأماكن التى وجدوا أقواما فإنهم امتزجوا بهم وأصبح الكل ينسب إلى أسماء أبناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافث.

وتقول التوراة (إصحاح تاسع - تكوين) وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض... وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك هم سام وحام ويافث. ومن هؤلاء تشعبت قبائل فى أنحاء الأرض. (وتُبيِّن أشكال ٢٩، ٣٠ أسماء أبنائهم حسب ما جاء فى التوراة).



شكل ٢٩ – أبناء يافث (حسب ما جاء فى التوراة).

حـــام

كوش
أولاد كوش

١ – نمرود
٢ – سبا
٣ – حويلة
٤ – سبتة
٥ – رعمة { شبا ددان
٦ – سبتكا

مصرايم
أولاد مصرايم

١ – لوديم
٢ – عناميم
٣ – لهابيم
٤ – نفتوحيم
٥ – فتروسيم
٦ – كسلوحيم { فلشـتيم كفتوريم

فوط

كنعان
أولاد كنعان

١ – صيدون
٢ – حثـا
٣ – اليبوسى
٤ – الأمورى
٥ – الجرجاشى
٦ – الحوى
٧ – العرقى
٨ – السينى
٩ – الأروادى
١٠ – الصمارى
١١ – الحماتى

شكل ٣٠ – أبناء حام (حسب ما جاء فى التوراة).

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة رضى الله عنه أن نبى الله (ﷺ) قال: سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم. ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العقدى، عن يزيد بن زريع، عن سعيد وهو ابن عربة، عن قتادة.

وقد روى عن عمران ابن حصين رضى الله عنه عن النبى (ﷺ) مثله. ويقول ابن كثير، والمراد بالروم هنا الروم الأُول اليونان المنتسبون إلى رومى ابن ليطى ابن يونان ابن يافث بن نوح عليه السلام.

ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى ابن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح عليه السلام ثلاثة: سام وحام يافث، وولد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاثة: فولد سام العرب وفارس والروم، وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج، وولد حام القبط والسودان والبربر.

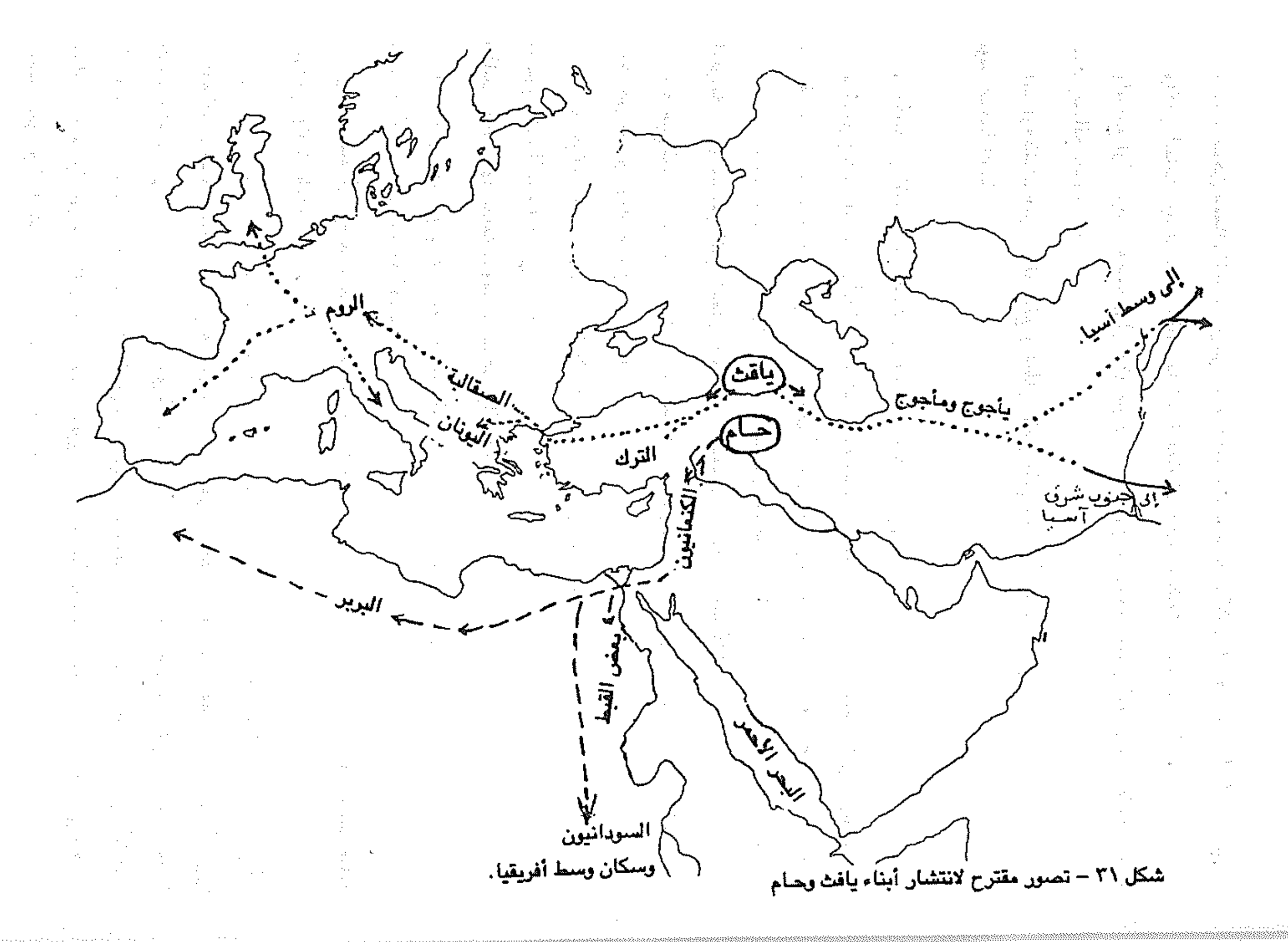
وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا نحوه. وأخرج البزار وابن أبى حاتم والخطيب قال. قال رسول الله (ﷺ): ولد نوح ثلاثة، سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم. وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج ولاخير فيهم. وولد حام القبط والسودان.

والاختلاف الوحيد فى هذه الأحاديث الثلاثة هو فى وضع الروم. هل هم من نسل سام أم من نسل يافث. والأرجح هو الحديث المروى عن سمرة فى أن الروم من نسل يافث. ويزيده ابن كثير توضيحاً بأنهم من نسل رومى ابن ليطى ابن يونان ابن يافث - إلاّ أن التوراة - ولا أى مرجع آخر - لم يرد فيها أن أحد أبناء يافث كان اسمه يونان. ولكن يزيد رجحان الاحتمال المفترض وجود بلدة فى وسط هضبة الأناضول اسمها تابال. وهو اسم قريب الشبه جدا من اسم توبال وهو أحد أبناء يافث. ومن المعروف أن المناطق أو المدن تسمى أحيانا باسم القبيلة أو اسم كبيرها. وشكل ٣١ يبين تصوّر لانتشار أبناء يافث وأبناء حام.

أما نسل حام، فإنه من المتفق عليه أن وسط أفريقيا (السودان والحبش)، وشمال أفريقيا (البربر) وجزءا من قبط مصر، هم حاميون. وكذلك فإن الجزء الجنوبى من الساحل الشرقى للبحر المتوسط (فلسطين) من ميناء صيدا حتى غزة سكنه الكنعانيون. وكنعان هو ابن حام. وميناء صيدا أو صيدون سميت على اسم أحد أولاد كنعان وهو صيدون.

أما **أبناء سام**، حسب ما جاء فى التوراة فيوضحهم شكل ٣٢. وشكل ٣٣ يُوَضِّح كيفية انتشارهم. ومن نسل سام العرب والفرس.

فالمنطقة شرقى نهر دجلة وهى الجزء الغربى من بلاد فارس سكنها قوم سُموّاً العيلاميون نسبة إلى عيلام بن سام.



شكل ٣١ – تصور مقترح لانتشار أبناء يافث وحام

وأشور سكن شمال العراق، وبنى المدينة المسمّاة باسمه، وتكاثر أبناؤه وكونوا الأشوريين.

والابن الثالث لود أو لواد، يقال إنه أبو العماليق، الذى سكنوا وسط جزيرة العرب.

والرابع آرام. ومن المحتمل أن الآراميين ينسبون إليه. ومنهم ظهر اثنان من الأنبياء هما هود وصالح عليهما السلام.

أما أرفكشاد فمن نسله فالج ويقطان، ومن فالج سلسلة نسب تنتهى إلى إبراهيم وابن أخيه لوط عليهما السلام.

ويمكننا أن نتصوّر ما حدث فى هذه الأزمنة كما يلى:

نزل نوح عليه السلام وأبناؤه، سام وحام ويافث، بعد أن رست السفينة على الجودى فى سلسلة جبال أراراط فى شرق تركيا بين البحر الأسود وبحر قزوين. وبالطبع فإنه - بعد الطوفان - كانت كل أرض العراق قد أُفرغت من سكانها - كذلك الجزء الشمالى من الجزيرة العربية. فكل المناطق التى شملها الطوفان أصبحت خالية من السكان.

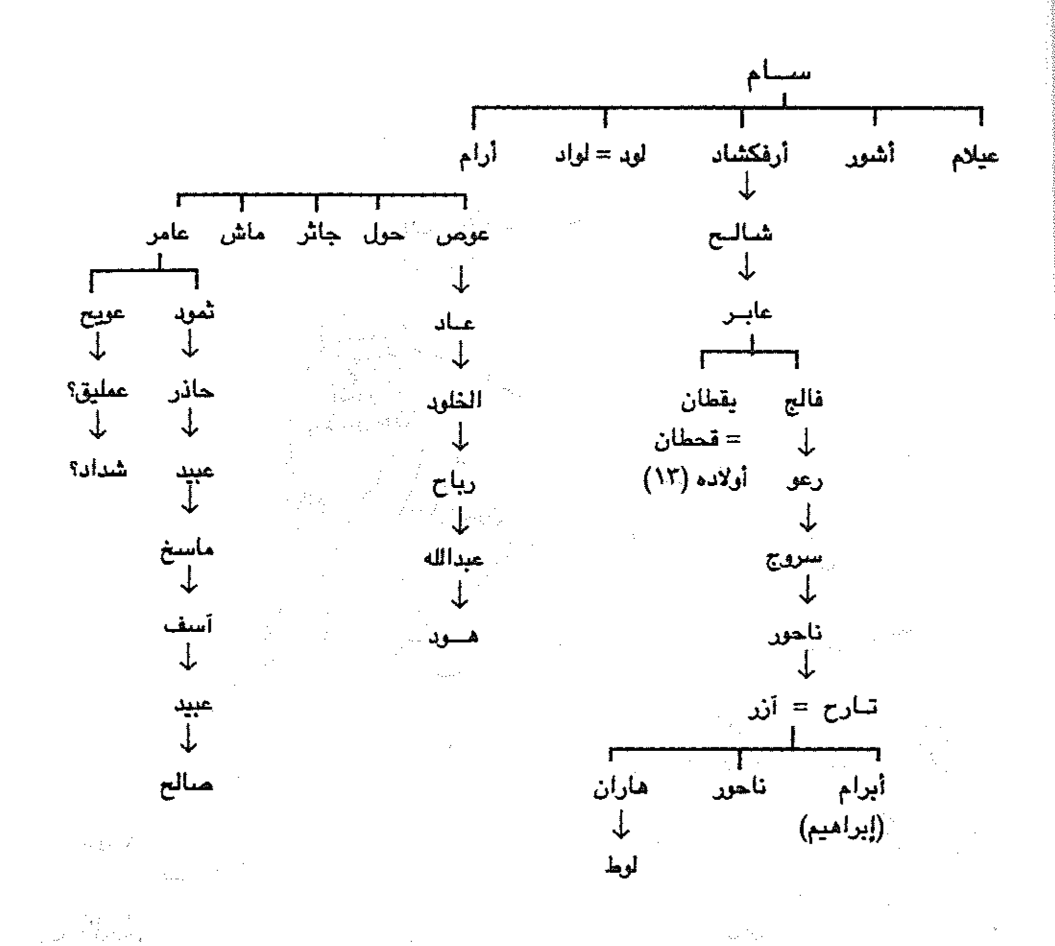
وبالطبع تكاثر أبناء نوح. وكلما زاد عددهم اضطُرت جموع منهم أن ترتحل طلبا لمكان فيه سعة من الرزق. وولد لسام خمسة أبناء.

أولهم **عيلام**. وكما نرى من شكل ٢٣ فقد ارتحل جنوبا فى المنطقة شرقى أراضى ما بين النهرين أى الجزء الغربى من بلاد فارس. وأسس أبناء عيلام وأحفادهم وذريتهم مملكة عيلام وكانت عاصمتها مدينة سوسة. وعرفوا بالعيلاميين.

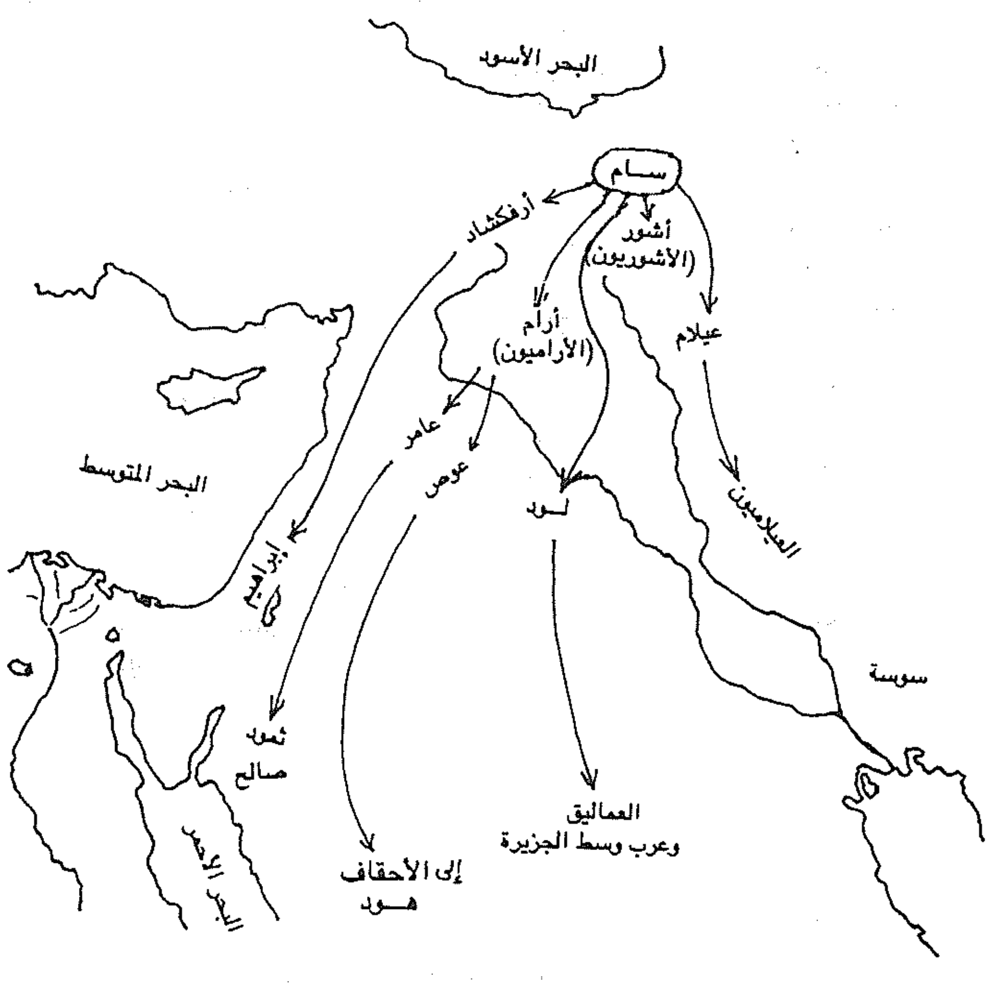
أما **أشور** فقد بقى فى الجزء الشمالى من المنطقة المحيطة بنهر دجلة وبنى مدينة سميت باسمه، أشور. ومن ذريته الأشوريون.

وأرفكشاد أو أرفخشد وَلَدَ شالح. وشالح ولد عابر، وعابر ولد فالج. ومن نسل فالج إبراهيم ولوط عليهما السلام.

ولود أو لواد من ولد سام. ويقال إن عمليق - أبو العمالقة - من نسله. وعلى كل فالعمالقة سكنوا شمال الجزيرة العربية. وهم العرب القدماء. وكانوا يقطنون شمال الجزيرة العربية فيما يلى شبه جزيرة سيناء ويقال أيضا إن الاسم مشتق من اسم قبيلة كانت تسكن شمال خليج العقبة وكان اسمها ماليق أو مالوق. وأضاف إليها اليهود لفظ «عم» أى الشعب، فقالوا عم ماليق أو عم مالوق ثُمَّ قيلت عماليق وعمالقة. كذلك فإن العمالقة زحفوا على العراق واستوطنوا جزءاً كبيراً منه. وأسسوا دولة الكلدان.



شكل ٣٢ – شجرة النسب لأبناء سام.



شكل ٣٣ – تصور مقترح لانتشار أبناء سام

وابن سام الخامس هو **آرام** أو أرم. وهود وصالح عليهما السلام من نسله. وهناك من يرى أن العمالقة من نسله أيضا.

وبالطبع فإن سام وأبناءه كانوا على دين أبيهم نوح. موحدين ويعبدون الله. ولكن الأحفاد سرعان ما تناسوا عبادة الله وداخلهم الشرك واتخذوا أصناما وعبدوها.

ومن نسل آرام كانت قبيلة عاد التى ارتحلت حتى وصلت إلى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية حيث تقع حضرموت، واستقرت هناك.

وكانوا يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم هوداً ليهديهم سواء السبيل.

هود عليه السلام

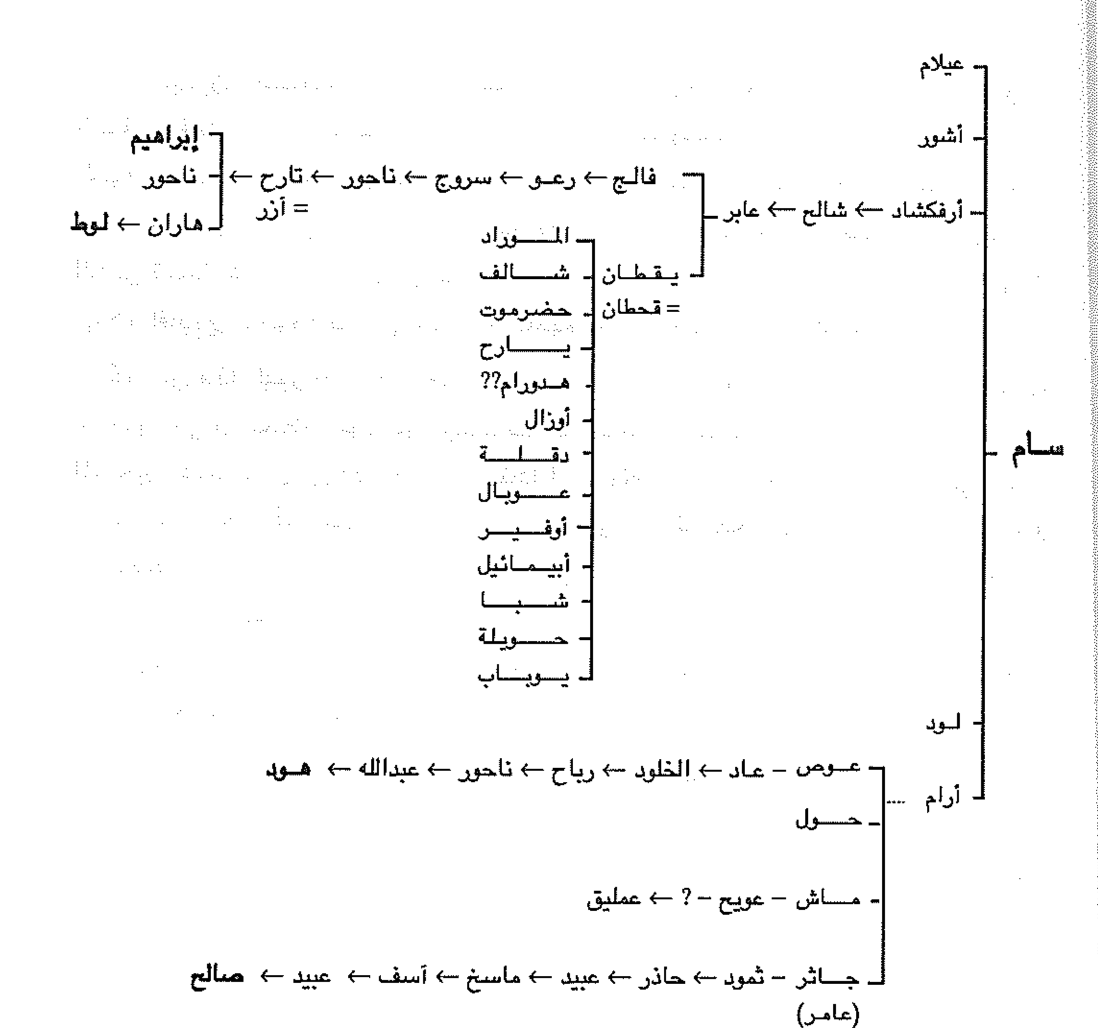
ذُكِرَ هود عليه السلام، فى القرآن الكريم سبع مرات: فى سورة الأعراف فى الآية ٦٥ - وفى سورة هود فى الآيات ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٨٩ وفى سورة الشعراء الآية ١٢٤. ولم تذكر عاد ولا ثمود فى التوراة وليس هناك من مصدر لاستيفاد معلومات عنهم سوى القرآن الكريم، الذى ذكر رغد معيشتهم وقوة أجسامهم - أما ما عدا ذلك فهى أقوال أُخذَت عن بعض أهل العلم ورواة التاريخ. ولا تزال البعثات تنقب لتحصل على آثار هذه الحقبة القديمة.

وقيل أن هود تسمية عربية مشتقة من الجذر العربى هاد. فهو هائد أى تائب وراجع إلى الله. أو من هدى فهو المهدى والهادى.

ولو نظرنا إلى شجرة النسب (شكل ٣٤)، وقد ذكر فيها نسب الأنبياء الثلاثة: هود وصالح وإبراهيم عليهم السلام، وهم من نسل سام بن نوح يمكننا أن نقول إنها أقرب إلى الصحة لأنها تتفق مع سياق الحوادث التاريخية. فبين سام وهود على شجرة النسب سبعة أجيال، ولو افترضنا أن الجيل فى ذلك الوقت كان حوالى ١٠٠ سنة. كان بين سام وهود ٧٠٠ سنة. وهى مدة تكفى لارتحال القبائل من شمال العراق إلى المكان الذى عاش به قوم هود. كذلك هى مدة تكفى لأن يضل الناس وتتسرب إليهم عبادة الأصنام.

أما القول بأن هوداً هو ابن عوص بن آرام بن سام أى ابن حفيد سام. فهذه مدة لا تكفى لتكاثر الأحفاد وأبنائهم للدرجة التى تجعلهم يرتحلون بعيدا هكذا إلى جنوب شبه الجزيرة العربية.

كذلك فإن هناك قولا ثالثا يجعل هوداً هو نفسه عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام، أى يجعله ابن حفيد سام أيضاً، (وحسب الأعمار التى وردت فى التوراة عند ولادة الأبناء، سنذكر ذلك تفصيلا عند ذكر قصة ابراهيم عليه السلام)، كان عمر سام ١٦٥ سنة عند ولادة عابر، وكان الطوفان قد حدث وعمر سام مائة سنة، أى أن عابر يكون وُلِد بعد الطوفان بخمس وستين سنة ولو فرض أنه بعث إلى قومه وعمره ١٠٠ سنة فذلك يؤدى بنا إلى ١٦٥ سنة بعد الطوفان، وهى مدة قصيرة، لا تكفى لأن تتم هجرة القبائل بالإزاحة إلى تلك الأماكن البعيدة. وقد لا تكفى نسبيا إلى نسيان تعاليم الله، ولا لنشوء عبادة الأصنام، إذا كانت ستنشأ إبتداء من تقديس الأسلاف، فقد كان نوح نفسه وسام أيضا لا زالا على قيد الحياة.إذ أن نوحاً عاش بعد الطوفان ٣٥٠ سنة وسام عاش بعد الطوفان ٥٠٠ سنة.



شكل ٣٤ - شجرة النسب لأبناء سام وبها الأنبياء
الأربعة: هود وصالح وإبراهيم ولوط عليهم السلام.

ولو قيل إن الضلال جاء إليهم «مستورداً» من قبائل مجاورة تعبد الأصنام ولم يغرقهم الطوفان، قلنا أيضا إن قصر المدة لا تبيح إنشاء روابط وثيقة عن طريق التجارة. بحيث تحل الآلهة المستوردة – محل شريعة الله التى تناقلوها عن الأب والجد وأبى الجد سام، وهو الذى عاصر الطوفان ولمس رحمة الله به وبإخوته ووالده نوح عليه السلام، وما يعبد الآباء يتأصل فى النفس تأصلاً شديداً، فليس من السهل إزاحته بأصنام جاءت عن طريق التجارة ولم يكن لهؤلاء القادمين سطوة الملك التى تمكن أصنامهم من السيادة وإزاحة ديانة التوحيد.

كما أن هذا القول – أن هود هو نفسه عابر بن شالح يراه البعض أنه من وضع اليهود لرغبتهم فى أى يجعلوا هوداً من أجداد سيدنا إبراهيم الذى ينتسبون إليه ويوافقهم بعض المؤرخين الإسلاميين فى هذا القول إستناداً إلى قوله تعالى فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم: **«وإلى عاد أخاهم هوداً»**. وقوله تعالى **«وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى»**. (١١١ – البقرة) فتطابق لفظ «هودا» فى الآيتين – يجعلهم يوافقون على الرأى القائل بأن هوداً عليه السلام هو عابر بن شالح ليكون أيضا هو من أجداد إبراهيم وإسحق ويعقوب – الذى هو إسرائيل – الذى ينتسب إليه اليهود. ولكن ينقض هذا القول أنه لو كان الأمر كذلك لما كان يجوز للتوراة أن تهمل كلية أى ذكر عن عاد أو هود فى سياقها، فإن قصة هود وصالح لم تذكرا إطلاقاً فى التوراة، ولعل بعض كتاب اليهود، فى وقت متأخر، هو الذى قال بهذا الرأى رغبة منهم فى الاستئثار بكل الأنبياء وجعلهم فى شجرة نسبهم.

وزاد بعضهم فقال إن «يهود» جاءت من «هود»، فهم إذن بنو هود – النبى العربى وربما شجعت الجالية اليهودية فى شبه الجزيرة هذه المقولة رغبة فى إيجاد نسب موغل فى القدم بينهم وبين مُضيفيهم تأليفا لقلوب العرب عليهم. ولكن من المعروف أن اسم اليهود هو نسبة إلى يهوذا بن يعقوب عليه السلام.

لذلك فإن أرجح الأقوال أن هوداً هو ابن عبدالله ابن ناحور بن رباح بن الخلود بن عاد (الذى سمى القوم باسمه) بن عوص بن آرام بن سام بن نوح. ويزيد من ضعف الأقوال الأخرى أن عاداً قد بادوا بعد بناء البيت الحرام بمكة المكرمة، ولو كان هود على سلسلة نسب قصيرة جداً من سام (ابن الحفيد) لكان ذلك مستحيلاً. أمَّا على شجرة النسب المذكورة فى شكل ٣٤ فإن ذلك يصبح ممكنا، ولو أن بين هود وسام على شجرة النسب سبعة أشخاص، وبين إبراهيم وسام ثمانية أشخاص. فلو تساوت أعمار الأجيال لكان هود يسبق إبراهيم، ولما كان ممكنا أن يحدث – كما هو المشهور – أن قوم عاد لما امتنع عنهم المطر قصدوا مكة لإستسقاء السماء بجوار المسجد الحرام، ولكن يمكن تفسير ذلك بأن قوم عاد وقد كانوا أضخم أجساماً لقوله تعالى: **«وزادكم فى الخلق بسطة»** (٦٩ – الأعراف) أنهم كانوا أيضا أطول أعماراً، لذلك فإن السبعة أجيال على عمود نسب هود يمكن أن تكون أطول وقتا من الثمانية

أجيال على عمود نسب إبراهيم، وبهذا تكون إبادة قوم هود فى وقت لاحق لبناء إبراهيم عليه السلام للبيت الحرام.

أحد الأقوال الضعيفة أيضا هو ما ذكره البعض من أن هود هو هدورام أحد أبناء يقطان (ابن عابر شالح بن أرفكشاد بن سام) يعتمدون فى ذلك على تشابه النطق بين عاد إرم وهدورام.

إن عدم ورود ذكر هود وصالح عليهما السلام – فى التوراة – جعل بعض المستشرقين ينكرون وجودهما أو وجود أقوامهما أصلاً!! وينقض هذه الفرية اكتشاف أن عاد Oditae وثمود Thamudida مذكورتان فى تاريخ بطليموس، وكذلك فإن اسم عاد مقرون باسم إرم فى كتب اليونان فهم يكتبونها Adramitae – أدراميت ولو حذفنا التاء الملصق فى الآخر لكان لفظ Adram هو أدارام أو عاد إرم، وهو يتفق مع تسمية القرآن الكريم لهم **«ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد»** (٦ – ٧ الفجر) والبعض يقرأها **«بعاد إرم. ذات العماد»** بإعتبار أن عاد اسم الحى وإرم اسم القبيلة، إلا أنه من الممكن أيضا إبقاء القراءة كما وردت فى ترقيم آيات المصحف الكريم بوقوف بعد عاد. **«ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد»** وتكون إرم اسم القبيلة مرادفا لاسم عاد.

«وإرم ذات العماد» ذات العماد صفة لإرم، والمراد ذات القدود الطوال على تشبيه قامتهم بالأعمدة وسنأتى إلى الأقوال التى قيلت فى هذا المجال حينما نأتى إلى قوله تعالى: «وزادكم فى الخلق بسطة».

وبعضهم قال إرم اسم مدينة وذات العماد صفة أى ذات الأعمدة وسنأتى إلى ذلك أيضا فيما بعد. وبعضهم قال إرم من يأرم أى يهلك فيكون المعنى ألم تر كيف أهلك ربك عاداً كما أهلك أرم ذات العماد. وبعضهم قرأ أَرَمَ، فعلاً ماضيا أى جعل الله ذات العماد رميماً أى أهلكها وكذلك أهلك عاداً.

أين كانت عاد؟

استناداً إلى الآية الكريمة: **«واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف»**. (٢١ – الأحقاف) تكون المنطقة التى عاشت فيها قبيلة عاد هى الأحقاف. وتوجد منطقة تسمى الأحقاف إلى الشمال الشرقى من حضرموت، شرقى عدن، جنوب الربع الخالى من الجزيرة العربية (مكان رقم ١ شكل ٣٥) وهناك خلاف حول ما إذا كانت الأحقاف تطل على البحر أم أن حضرموت تفصلها عن البحر.

والحقف فى اللغة هو المعوج من الرمل، وليس بالضرورة أن يقتصر إطلاق الاسم على المنطقة السابق ذكرها، بل ممكن أن يطلق اسم الأحقاف على أى مكان به رمل عظيم.

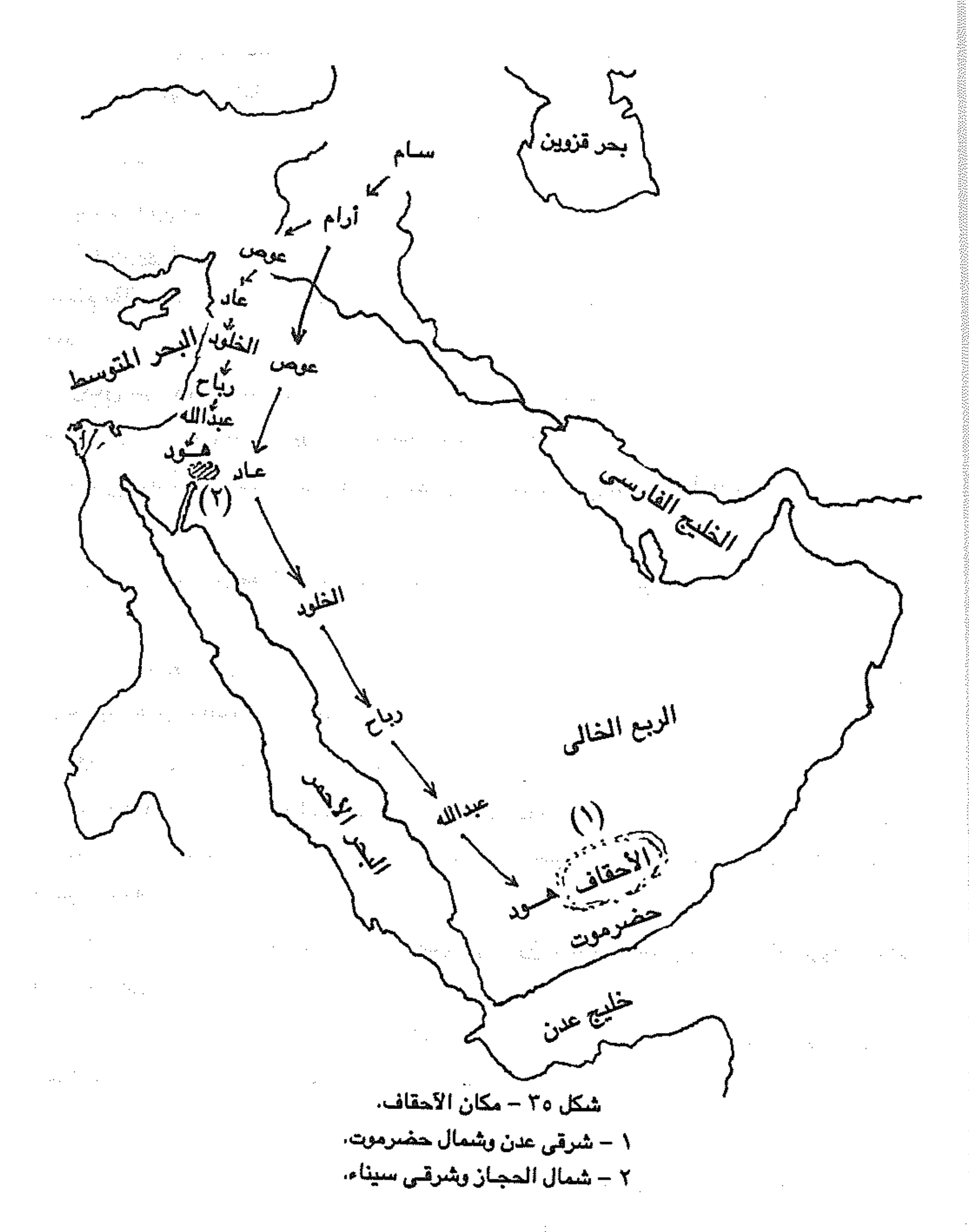
ويرى البعض أن عاداً كانت تسكن فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية فى الجزء المجاور شرقى سيناء (الاحتمال ٢ شكل ٣٥). ويوجد هناك بئر تسمى إرم، وأحد وديان شمال الحجاز يسمى وادى إرم، كما يوجد فى جنوب الأردن منطقة تسمى إرم. كما يوجد جبل يسمى إرم فى هذه المنطقة على بعد ٢٥ ميلاً شرقى العقبة (د. محمد بيومى مهران. دراسات تاريخية - جـ ١ ص ٢٤٧).

ولكن التسيمة فى حد ذاتها لا تعتبر دليلاً مؤكداً على أن عاداً سكنوا هذه المنطقة، فكلمة إرم فى حد ذاتها تفيد الإنتساب إلى أرام بن سام، ولو نظرنا إلى شكل ٣٥ بتمعن أكثر، والمسافة بين شمال العراق حيث عاش سام وأرام وبين شرقى سيناء تبلغ حوالى ١٠٠٠ كيلو متر ولو افترضنا هجرة متواصلة من الأبناء والأحفاد فى الطريق (٢) ليكون مبعث هود عليه السلام لقوم فى الشرق من سيناء لكان ارتحال القبائل بطيئا نسبياً، ولكانت عاد نفسها قد عاشت فى شمال سوريا، ولمَّا كان الهدف من التسمية هو تخليد اسم الجد الأكبر للقبيلة وهو عاد إرم أى عاد بن عوص بن أرام، لكان الأولى إطلاق أسماء وديان وجبال وآبار فى شمال سوريا وليس فى الأردن أو قربها. أما إذا أخذنا المكان (١) فى شكل ٣٥. والمسافة من شمال العراق إلى حضرموت تصل إلى ٣٥٠٠ كيلو متر لوجدنا أن ارتحال القبائل يجعل عادا تعيش فى شمال الحجاز شرقى خليج العقبة وتطلق اسم جدها أرام بن سام على هذه الأماكن. ومرت أربعة أجيال أخرى ولد فيها الخلود ثم رباح ثم ناحور ثم عبدالله ثم هود، وبالطبع لم تكن الجموع المتكاثرة لتبقى فى مكانها الأول، بل الطبيعى أنها ارتحلت إلى الجنوب بحذاء الساحل حتى وصلت إلى اليمن السعيد، ومن المؤكد أن عدن كانت مكتظة بأهلها لخصبها، فآثر هؤلاء الجدد، السكنى شرقى عدن فى الأحقاف شمال حضرموت وإن ظلوا يسمون أنفسهم «عاد» على اسم جدهم الأول.

وفى شمال حضرموت عُثر على آثار عليها كتابة بالخط المسمارى، مما يدل على قوم قدموا من الشمال، من العراق، التى كانت موطن هذا النوع من الخط. كما أن البعض يقول بوجود قبر هود عليه السلام بحضرموت، وبجواره نبع يدُعَى «برا هوت» اشتهُرِ منذ القدم بأدخنته الكبريتية.

قال محمد بن اسحق، عن حمد بن عبدالله، عن أبى سعد الخزاعى، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة، سمعت عليا - رضى الله عنه - يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مدرة حمراء، ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت؟ هل رأيته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، وإنك لتنعته نعت رجل قد رآه، قال لا ولكنى حُدِّثت عنه، فقال الحضرمى، وما شأنه يا أمير المؤمنين، قال: فيه قبر هود عليه السلام، رواه ابن جرير.

وعلى ذلك فأرجح الأقوال هو أن عاداً سكنوا الأحقاف شمالى حضرموت أما تفسير القول



شكل ٣٥ - مكان الأحقاف.
١ - شرقى عدن وشمال حضرموت.
٢ - شمال الحجاز وشرقى سيناء.

الآخر فيحتمل أن من سكنوا هذه المنطقة أرادوا أن يكون لهم الشرف إذ يظهر فيهم نبى الله هود – كما ظهر فى المنطقة المجاورة، والتى تبعد قليلاً إلى الجنوب، نبى الله صالح فى الحجر.

عاد، قوم هود :

يُنسب قوم هود إلى الجد الأكبر عاد. وتكاثر القوم على مدى ثلاثة أجيال أخرى بعد عاد، وضلوا طريق العبادة واتخذوا أصناماً يعبدونها من دون الله تعالى. منها صنم يقال له صدى، وصنم يقال له هرد وصنم اسمه هبا، وفى أثر مروى عن ابن عباس أنهم اتخذوا صنما يقال له الهتار.

وكان هود من أوسطهم نسبا، فهو من نسل عاد، شيخ القبيلة وجدها الأكبر. فهو ابن عبدالله بن رباح بن الخلود بن عاد. واصطفاه الله وبعثه لهداية عاد:

«وإلى عاد أخاهم هوداً. قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون».

(٦٥ – الأعراف)

«وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون».

(٥٠ – هود)

وكان قوم عاد ذوى أجسام قوية، وطوالا، كانوا عمالقة أقوياء، واغتروا بقوتهم، وعز عليهم أن يراجعهم فى رأيهم وفى عبادتهم أحد.

«وقالوا. من أشد منا قوة». (من الآية ١٥ – فصلت)

وقد ذكَّرهم هود أن هذه القوة هى مِنَّة من الله ونعمة، وعليهم أن يشكروا الله عليها بعبادته وعدم الإشراك به، كما أن من نعم الله عليهم أنه أسكنهم الأرض بعد أن هلك الخلق بفعل الطوفان، فقال لهم:

«واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح. وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون». (٦٩ – الأعراف).

ويقول بعضهم إن الواحد منهم قد بلغ اثنى عشر ذراعا (٥ر٤٠ مترا) وهنا يلعب الخيال عند البعض، فيقول كانوا فى هيئة النخل.

وقال أبو حمزة اليمانى كان طول الرجل منهم سبعين ذراعا (٥ر٣١ مترا).

وقال ابن عباس ثمانين ذراعا وقال الكلبى كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعاً.

وقال آخرون كان طول الواحد منهم أربعمائة ذراع (١٨٠ مترا).

وقالوا : كان الواحد منهم يأخذ الصخرة العظيمة فيقلبها على الحى فيهلكهم، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يغلبوه.

ويقول الدكتور محمد بيومى مهران - إن ذلك كله يتعارض مع حديث رسول الله ﷺ «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً فى الهواء، فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن». ويقول، وهذه المبالغات تشبه ما كانت توصف به فراعنة مصر من الضخامة والطول مما كذبه الواقع بعد كشف مومياتهم، ويقول، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن قوم هود كانوا يتميزون بضخامة لا تزيد على ما يتميز به بعض الأفراد والعشائر بيننا من بسطة فى الجسم.

والحقيقة أيضا أن الحديث الشريف وضع قاعدة عامة وهى أن الناس ظلت بالتدريج تقصر فى الطول من عهد آدم. ولكن هذا لا ينفى إستثناء البعض وخاصة أن القرآن الكريم هو الذى ذكر هذا الإستثناء فى قوله **«وزادكم فى الخلق بسطة»** وقال: **«التى لم يخلق مثلها فى البلاد»** هذا إذا كان القول يَنصبُّ على القوم أنفسهم، لا على مدينتهم. وعليه فيمكننا القول إنهم كانوا فعلا طوالاً ضخاماً، ولنقل مثلا ستة أو عشرة أذرع وليس أكثر من ذلك (أى ٢٫٧٠ أو ٤٫٥ مترا).

وكانوا يبنون فى كل مكان بناء كبيرا أو قصرا فخما، ليكون آية وشاهدا على قوتهم، ولم يكن ذلك لاحتياجهم، بل لإظهار مالديهم من ثراء وقوة، وهذا عبث ومضيعة للمال والجهد ولهذا قال الله عنهم «تعبثون». وقال مجاهد كذلك اتخذوا مصانع وهى البروج المشيدة. وقال قتادة هى مآخذ الماء، وكانوا يزيدون فى ضخامة كل ما يعملون من مبانى كأنهم مخلدون.

«أتبنون بكل ريع آية تعبثون. وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون». (١٢٨ ، ١٢٩ - الشعراء)

ومن كثرة ما بنوا من مبان ضخمة وفخمة كانت مدينتهم أفخم مدينة لقوله تعالى:

«ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التى لم يخلق مثلها فى البلاد». (٦ - ٨ الفجر)

وقالوا إن إرم ذات العماد مدينة بناها شداد بن عاد - أحد زعمائهم وشطح خيال البعض، وزعموا أنه بناها فى صحارى عدن، فى ثلاثمائة عام، وفى رواية آخرى فى خمسمائة عام، وأن عمره كان تسعمائة عام، وأنه كتب إلى عماله أن يجمعوا له ما فى أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران، وأنه أمر بالذهب والفضة فضربا أمثال اللبن وبنى بها المدينة، ثم زين حيطانها بالدر والياقوت والزبرجد، ثم أجرى تحت المدينة نهرا طليت حافته بالذهب وأما مصير المدينة فقد زعم بعضهم أنها طارت بعد بنائها إلى السماء وأن بعض الناس لمحوها وهى طائرة، ومنهم من يدعى أنه لا يراها إلا من كتب الله له ذلك، ويروى بعضهم أن رجلا رآها على أيام معاوية بن أبى سفيان وأنه حمل إلى الخليفة منها بعض الأحجار الكريمة فضلاً عن المسلك والكافور، غير أن هذه الأشياء سرعان ما تحولت إلى تراب عندما تعرضت إلى الهواء (ألم تكن وهى فى المدينة قبل أن يأخذها معرضه إلى الهواء أيضا!)، ومن ثم فقد استدعى معاوية كعب الأحبار، وسأله عن خبر هذه المدينة، فأجاب كعب إنها إرم ذات العماد. ويقول الدكتور محمد بيومى مهران (دراسات تاريخية. جـ ١ ص ٢٥١ -

٢٥٢) ولعل هؤلاء الرواة قد رأوا ضَخَامة آثار الفراعنة فى مصر ومبانى الاشوريين والبابليين، ومن ثم رَغبُوا أن تكون مدينة عاد أكثر فخامة من هذه الآثار، فكان الخيال الذى ينزل بكتاباتهم إلى مبالغات الأساطير.

وكان فى قوم هود غلظة وقسوة وجبروت قال الله عنها:

«وإذا بطشتم بطشتم جبارين». (١٣٠ - الشعراء)

وذكَّرهم هود عليه السلام بأنه لا يطلب منهم أجراً من مال أو جاه أو سلطان عليهم بهذه الدعوة، إنما أجره على الله:

«يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون». (٥١ - هود)

«وما أسألكم عليه من أجر إن أجرىَ إلا على رب العالمين». (١٢٧ - الشعراء)

ولكنهم - مثل الكفار فى كل مكان وزمان - كذبوه واتهموه بالسفه:

«قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين. قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين. أبلِّغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين».
(٦٦ - ٦٨ الأعراف)

وطلب منهم أن يستغفروا الله لما أقدموا عليه من الشرك به وعبادة الأصنام، وأن يتوبوا إلى الله، ويرجعوا عما هم عليه من الضلال. والتوبة تَجُبُّ ما قبلها. وبالتالى سيغفر الله لهم ذنوبهم وسيثيبهم الله خيرا كثيرا بزيادة المطر فتخضَرُّ الأرض ويكثر الزرع والنسل ويزدادوا قوة وعزا. ونهاهم عن الإعراض عن دعوته وطلب منهم أن يرجعوا عمَّا هم عليه من الشرك والإجرام.

«ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين». (٥٢ - هود)

ثم ذكَّرهم ثانية بنعم الله عليهم وطلب منهم أن يطيعوه ويؤمنوا بما جاء به:

«فاتقوا الله وأطيعون. واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون. أمدكم بأنعام وبنين. وجنات وعيون. إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم». (١٣١ - ١٣٥ الشعراء)

وقال لهم: وإن خالفتم، ولم تتقوا ولم تؤمنوا ولم تقوموا بشكر الله على هذه النعم التى تعرفونها، وعدَّد عليهم بعض هذه النعم، أنعام وإبل وغنم وكثرة فى الولد، وجنات مزروعة تنبت من كل الخيرات، ولا يجف ماؤها لما فيها من عيون ماء كثيرة، وإن خالفتم فإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة، وهذا لا يمنع أيضا من وجود عذاب فى الدنيا.

وقالوا له إنك يا هود لم تأتنا بحجة واضحة تدل على صحة دعواك أو لم تأتنا بمعجزة تؤيدك، وقالوا ذلك لفرط عنادهم، وفى الخبر «ما من نبى إلا وقد أوتى من الآيات ما مثله آمن

عليه البشر». ولعله أتاهم ببينة وإن لم يعين لنا القرآن الكريم نوعها، ولعله أيضا لفت نظرهم إلى آيات الله فى الكون. وإلى آية خلقهم وخلق غيرهم من الأحياء. ولكنهم استمروا فى كفرهم وعبادتهم للأصنام، وأعربوا عن أنهم لن يؤمنوا بما يدعوهم إليه. بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ قالوا له إن ما يقوله ما هو إلا هذيان بسبب أنه حقر آلهتهم فأصابته بسوء، وكان رده عليهم أنه أشهد الله عليهم وأشهدهم أيضا بأنه برئ مما يعبدون من دون الله، وهذا الرد فيه استخفاف بآلهتهم، وبأنها لا تستطيع فعل أى شئ، وتحداهم أنه لو صح أن آلهتهم قادرة على إيقاع الضرر به فلتفعل ويساندونها هم أيضا، وليدبِّروا له جميعا هم وآلهتهم ما يقدرون عليه من كيد وضرر، بل وطلب منهم أن يفعلوا ذلك فى سرعة فلا ينتظرون وقتا كبيرا أو قصيرا وهذا زيادة فى التحدى.، وأعلن لهم أنه مؤمن بأنهم لن يستطيعوا ضره بشئ لأنه توكل على الله، فهو ربه وربهم، فكل شيء فى هذا الكون بمشيئته وكل حركة لأى شيء حى إنما هى بأمره وقدره. وعبر عن ذلك بالأخذ بالناصية كناية عن القدرة والسلطان. وكانت العرب قديما إذا أمسكوا بأسير ومنُّوا عليه بالحياة جُزوا ناصيته، وهو الشعر فى مقدمة الرأس، دلالة على أنه قد قُدِرَ عليه وقُبِضَ على ناصيته، وأن عليهم التسليم لله وحده لأن هذا هو الصراط القويم المستقيم الذى يرتَضيه الله لعباده.

وعبر القرآن الكريم - بإيجاز - عن ذلك بقوله تعالى :

«قالوا يا هود ما جئتنا ببيِّنه وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين. إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتُنْظرون. إنى توكلت على الله ربى وربُكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم». (٥٣ - ٥٦ هود)

كان قوم هود يعبدون الأصنام، وقد ذكر محمد بن اسحق أنهم كانوا يعبدون صنما يقال له صدا، وآخر يقال له صمودا، وآخر يقال له الهنا: واستنكروا أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده ويتركوا عبادة الأصنام وقالوا إن هذه الأصنام كان يعبدها آباؤهم. فاستنكروا أن يدعوهم إلى ترك ما كان يعبده آباؤهم، وكان غاية تكذيبهم أنهم طلبوا منه أن ينزل بهم العذاب الذى توعَّدَهم به، أى أنهم تحدوه. فإن كان صادقا فى إخباره عن الله عز وجل، فلينزل بهم العذاب الذى هددَّهم به:

«قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين». (٧٠ - الأعراف)

واستنكروا أن يحاول أن يثنيهمم عن عبادة الأصنام، وقالوا له أن كنت صادقا فأنزل بنا العذاب الذى تقول به، ظانين أن العذاب من عنده هو، ومادام هو بشر مثلهم فلن يستطع إنزال

عذاب بهم. فقال لهم إن علم ذلك عند الله هو الذى يحدد نوع العذاب ووقته وقال لهم: كل مهمتى أن أبلغكم رسالة ربى وأنصحكم. ولكنكم قوم لا تعقلون ولا تفهمون.

قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون ». (٢٢ - ٢٣ الأحقاف)

وقال لهم، فإن أعرضتم عما جئتكم به، فقد قامت عليكم الحجة، لأنى بلغتكم ما أرسلنى الله به إليكم، وسينزل بكم العذاب، وسيأتى الله بقوم أخرين بعدكم يؤمنون به، وأنتم لا تضرون الله بشىء بكفركم هذا، بل تضرون أنفسكم، والله حافظ لأقوالكم وأفعالكم وتكذيبكم وإصراركم على الشرك به:

«فإن تولّوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شيئ حفيظ». (٥٧ - هود)

ويقول الله تعالى: مُخبراً عن جواب قوم هود له، بعد ما حذَّرهم وأنذرهم، ورغبَّهم ورهبَّهم، وبين لهم الحق ووضَّحه، أنَهم قالوا: سيَّانُ عندنا وعظتنا أم لم تعظنا فلن نؤمن لك، ونحن متمسكون بعبادة أصنامنا، هذه أيضا كانت أخلاق آبائنا وأجدادنا الذين تمسكوا بهذه الآلهة وكان هذا دينهم، ونحن نتبعهم، وعندما نموت ليس هناك بعث ولا حياة أخرى ولن يكن هناك عذاب كما تدَّعى:

قالوا سواء علينا أوَعَظت أم لم تكن من الواعظين. إن هذا إلا خُلُق الأولين. وما نحن بمعذبين». (١٢٦ - ١٣٨ الشعراء)

وبعضهم قال فى تفسير إن هذا إلا خُلُق الأولين أى أن هذا الذى تدعو به ما هو إلا إعادة لما قاله آخرون غيرك من قبل وادعوا أنهم مرسلون، وقرآ قلابة والأصمعى عن نافع: إن هذا إلا خَلْقُ الأولين كأنهم قالوا إن هذا إلا أساطير الأولين. وروى علقمة عن عبدالله أنه قرأ «إلا إختلاق الأولين».

وكان رده عليهم أنهم بمقالتهم هذه قد استحقوا غضب الله وسخطه. واستنكر عليهم مجادلتهم فى هذه الأصنام وادعاءهم أنها آلهة، مع أنهم هم الذين صنعوها ونحتوها بأيديهم، ثم إنهم وأباؤهم هم الذين أعطوا الأصنام أسماء ها، وهذه الأصنام لا حول لها ولا قوة، وليس لها من سلطان لتضرَّ أو تنفع، وإذا كانوا قد طلبوا منه أن يأتيهم العذاب الذى توعدهم به فقد قال لهم إن العذاب سينزل بهم - وما عليهم إلا أن ينتظروا وقوعه بين حين وآخر، وسينتظر هو أيضا ليرى ما يحيق بهم من عذاب:

«قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين». (٧١ - الأعراف)

ثم كان الإنذار الأخير، لعله يردعهم فيؤمنوا:

وكما قال الله فى آل فرعون: **«وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون»**. (٤٨ - الزخرف)

والإنسان الواعى إذا أصابه مكروه عليه أن يفكر، فيم كان خطؤه، وأى ذنب ارتكبه حتى استحق أن يصاب بهذا المكروه؟ أما الشخص الغافل فهو يعمى عن هذه الدلالات ويستمر فى غيه، بل ولا يمر على خاطره أن ما أصابه قد يكون بسبب سوء فعله.

وكانت نذر العذاب لقوم هود أن الله أمسك عنهم المطر، قيل ثلاث سنين حتى جف الزرع وهلكت الأنعام. وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد، ذهبوا إلى بيت الله الحرام بمكة يطلبون من الله تعالى الفرج، سواء كانوا مسلمين أو كفارا، فقد كان الكل يعظم مكة والبيت الحرام ويعرفون مكانتهما عند الله وأن الدعاء فى مكة عند البيت العتيق أدعى لأن يستجاب. كذلك سبق أن أوضحنا فى ص ١٣٦ الرد على من نفوا ذهاب وفد من عاد للدعاء عند البيت الحرام بمكة بحجة أن البيت الحرام لم يكن قد بنى بعد، وافترضنا أن السبعة أجيال على شجرة نسب هود يمكن أن تكون أطول زمانا من الثمانية أجيال على شجرة نسب إبراهيم، ويكون البيت الحرام بمكة قد بنى فعلا.

كان سيد العماليق إذ ذاك بمكة هو معاوية ابن بكر. ويَمُتُّ بصلة قرابة لقبيلة عاد، إذ أن أمة كانت متزوجة من رجل من قبيلة عاد. فلما قحط المطر عن عاد، جهزوا وفدا منهم ليذهب إلى مكة ليستسقوا لقومهم، وقيل بلغ الوفد سبعين رجلا. ولما قَدِمُوا مكة نزلوا على معاوية ابن بكر، وهو بظاهر مكة خارج الحرم، فأكرم وفادتهم ومكثوا طويلا، فلما ذكَّرهم بالمهمة التى جاءوا من أجلها ساروا ودخلوا الحرم واستسقوا، وكان بينهم واحد قد آمن بهود سرا (ويقال إسمه مرثد بن سعد). فقال لهم: والله إنكم لا تستقون بدعائكم. ولكنكم إن أطعتم نبيكم وأنبتهم إلى ربكم سقيتم. وعرفوا أنه قد أسلم مع هود، ولكنهم أصروا على كفرهم، واستسقوا. وتكونت فى السماء سحب سوداء. ورأوها تتجه ناحية الجنوب حيث قومهم، فظنوا أن الآلهة قد استجابت لهم.

ذلك ما كان من أمر الوفد فى مكة.

أما بقية عاد - فى الأحقاف - فقد ظلوا على كفرهم وتكذيبهم لهود عليه السلام الذى طلب من الله أن ينصره عليهم:

«قال رب انصرنى بما كذبون. قال عما قليل ليصبحن نادمين. فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءً فبعدا للقوم الظالمين». (٣٩ - ٤١ - المؤمنون)

وجاء أمر الله.

«ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ. وتلك

عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد. وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة، ألا إن عادا كفروا ربهم، ألا بُعداً لعاد قوم هود». (٥٨ - ٦٠ - هود)

أما تفاصيل إهلاكهم فكانت أن الله ساق السحب الداكنة السواد إلى حيث قوم هود فظنوا أنه الغيث قادم، لأن السحب الداكنة فيها المطر الغزير.

«فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم. تدمِّر كل شئ بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين». (٢٤ - ٢٥ الاحقاف)

«وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم».
(٤١ - ٤٢ - الذاريات)

والريح العقيم هى الريح الآتية من الجنوب وتسمى الدَّبُور، وقد ثبت فى الصحيح، من رواية شعبة، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «نُصرت بالصَّباَ وأهلكت عاد بالدبور».

«وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتيه. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية». (٦ - ٨ الحاقة)

«كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر. فكيف كان عذابى ونذر». (١٨ - ٢١ القمر)

أرسل الله عليهم ريحا سبع ليال وثمانية أيام. كانت الريح فيها متصلة الهبوب. كأنها يوم واحد أى كأنها يوم مستمر، قالوا وكانت الريح تأتى أحدهم فترفعه حتى تُغَيِّبه ثم تُنَكِّسه على أم رأسه. فيسقط على الأرض. فتكسر رأسه فيبقى جثة بلا رأس، كأنه أعجاز نخل منقعر، كأنهم جثث قد بليت وأصبحت رمة أو كالرميم.

وقال محمد بن اسحق والسدى: بعث الله على عاد الريح، فلما دنت منهم، نظروا إلى الإبل تطير بها الريح بين السماء والأرض فتبادروا البيوت، فلما دخلوها، دخلت عليهم الريح فاقتلعتها وأهلكتهم. قيل فأرسل الله عليهم طيورا سوداء لتلقى بهم فى البحر فألقتهم فيه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا ابن فضيل، عن مسلم، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «ما فتح الله على عاد من الريح التى أهلكوا بها إلا مثل الخاتم، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم بين السماء والأرض فألقتهم على أهل الحاضرة حتى هلكوا».

وروى مسلم فى صحيحه قال: حدثنا ابن وهب قال: سمعت ابن جريج، حدثنا عن عطاء بن أبى رباح، عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت

الريح قال: «اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أَرْسِلَتْ به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا غُيِّبت السماء تغير لونه وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرِّى عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد، فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا».

أما هود ومن معه فقد اعتزلوا فى حظيرة ما يُصيبهم من الريح إلا ما يلين جلودهم. كذلك نجا من قبيلة عاد بنو اللويذة المهدا. وهم رهط كانوا سكانا بمكة مع أخوالهم - لم يكونوا بأرضهم - وهم عادُ الآخرة، أما عاد الذين أهلكوا فهم «عاداً الأولى».

«وأنه أهلك عادا الأولى، وثمودا فما أبقى». (٥١ - النجم)

«ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ».
(٥٨ - هود)

«فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين».
(٧٢ - الأعراف)

«فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم».
(١٣٩ - ١٤٠ - الشعراء)

وكان وفد عاد الذين أرسلوا إلى مكة للإستسقاء قد أدوا مهمتهم وغادروا مكة، ومروا فى طريق عودتهم ببنى خؤلتهم معاوية بن بكر فنزلوا عليه، فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقة من أمصار عاد فأخبرهم بهلاك عاد، فقال الكافرون منهم: لا حاجة لنا فى البقاء بعد هلاك قومنا، فهلكوا كما هلك قومهم، أما مرثد بن سعد، وقد كان مؤمنا فقد قال: اللهم أعطنى بِراً وصدقا، فأعطى ذلك.

وبقى هود ما شاء الله له. ثم مات وعمره مائة وخمسون عاما، ودفن فى حضرموت وقد سبق (ص ١٣٨) ذكر قول على رضى الله عنه للحضرمى، يصف كثيبا أحمر هو قبر هود عليه السلام. ويقول آخرون: إن النبى من الأنبياء كان إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون معه يأتى إلى مكة هو ومن معه، يعبدون الله تعالى حتى يموتوا. وعن الفضل ابن يحيى الجندى أنبأنا يونس بن محمد، أنبأنا يزيد بن أبى حكيم، عن سفيان الثورى، عن عطاء عن السائب، عن عبد الرحمن بن سابط أنه قال: بين الركن والمقام وزمزم قبور تسعة وتسعين نبيا - وإن قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم السلام فى تلك البقعة.

ولكن الرواية القائلة بدفن هود عليه السلام فى حضرموت هى الأقرب إلى الصواب. ويقول الثعلبى بذلك أيضاً.

صالح عليه السلام
نبى ثمـود

ثمود – قبيلة مشهورة – سميت باسم جدهم ثمود بن عامر بن آرام بن سام بن نوح عليه السلام. وكانوا يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك فى الشمال الغربى للجزيرة العربية شرق خليج العقبة عند اتصاله بالبحر الأحمر.

وشكل ٣٦ يبين شجرة النسب وتسلسل الأبناء وبإفتراض أن كل جيل كان يرتحل إلى أرض مجاورة حتى وصل فى النهاية إلى الحجر حيث توجد مدائن صالح.

ومن ولد ثمود حاذر ثم عبيد ثم ماشخ ثم آسف ثم عبيد وهو أبو صالح عليه السلام.

ولا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن هذه المنطقة كانت كما هى الآن صحراء، فإن بادية الشام ومنطقة شرق الأردن كانت ممطرة وفيها من المراعى ما يجعلها منطقة جذب للقبائل النازحة، ولذلك فإن القبائل المتفرعة من ثمود واصلت سيرها جنوبا حتى وصلت إلى المكان المسى حاليا مدائن صالح.

وهناك خلاف فى شجرة النسب فإن البعض يضع اسم جابر بدلا من حاذر وبعضهم يجعل صالحا ابن عبيد الأول فى سلسلة النسب بدلا من عبيد الثانى الذى هو ولد آسف ابن ماشخ ولو كان كذلك لكانت سلسلة النسب قصيرة جدا بالنسبة لسلسلة نسب هود، ولوجب أن يسبق صالح هودا فى الزمن مع أن القرآن الكريم ينص على أن ثمود لاحقة لعاد قوم هود لقوله تعالى مخاطبا قوم صالح:

«واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض». (٧٤ – الأعراف)

كما أن البعض يفسر كلمة خلفاء أى خَلَفًا له أى بُنُوَّة وبذلك يجعلون ثمود أبناء لعاد. مع أن كلمة خلفاء لا تعنى بالضرورة البنوة. فإن عاد وثمود أولاد عم ولكن قبيلة ثمود عاشت إلى ما بعد هلاك عاد فهم من ناحية الزمان خلفوهم وخلفاء لهم.

كما أن بعضهم يتخذ من هذه الآية مبررا للقول بأن الأحقاف – مكان عاد – تقع فى الشمال الغربى للجزيرة العربية وبعد هلاك عاد كانت ثمود خلفا لهم فى المكان أيضا أو فى مكان مجاور. ويمكننا القول أيضا إن خلفاء لاتعنى بالضرورة شغل نفس المكان، فالتأخر فى الزمان تكفى لأن توصف ثمود بأنهم خلفاء من بعد عاد.

ويقول بعض المستشرقين إن أصل ثمود قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية ولم يدخلوا فلسطين. وهذا غير صحيح لأن ثمود هلكت قبل خروج موسى من مصر بزمن طويل. وبدليل أن

شكل ٣٦ – شجرة النسب وتسلسل أماكن الأبناء من سام إلى صالح عليه السلام.

رجلا مؤمنا من آل فرعون قام – حين كذبوا موسى – يخوف قومه بأس الله وأنه يخاف عليهم مثل يوم الأحزاب. مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم.

ويدّعى أهل حضرموت أن ديار ثمود كانت من ضواحى عاد. وبذلك تكون ثمود خلفا لعاد فى المكان أيضا. وتوجد فى أرض حضرموت مدينة تسمى ثمود، ولكن سبق أن قلنا إن خلفاء لا تستدعى بالضرورة أن يخلفوهم فى المكان أيضا بل يكفى تأخر زمانهم ليكونوا خلفاء لهم، ولو كانت خلافة مكانية أيضا لاستلزم أن يقال وبوأكم أرضهم. ولكن لأنها كانت خلافة زمانية فقد قيل خلفاء. كما أن المدة الزمانية بعد هلاك عاد ما كانت تكفى لقيام قوم آخرين فى نفس الأرض ويتكاثروا حتى ليملؤوها. ولابد أن كارثة عاد ستظل فى ذكراهم، فكان يستلزم أن ينقضى زمن طويل حتى ينحرفوا إلى الكفر ويستدعى الأمر إرسال نبى آخر. كل هذا ينفى أن ثمود كانت بحضرموت. والرأى المرجح هو أن عاد كانت بحضرموت، وثمود كانت فى المنطقة المعروفة حاليا فى الخرائط بمدائن صالح.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جويرة، عن نافع بن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس وهو ذاهب إلى تبوك (فى سنة تسعة من الهجرة) نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب بها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبى ﷺ فأهرقوا القدور. وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم. حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة. ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذّبوا وقال: «إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم». وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيحين من غير وجه.

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق. حدثنا معمر، عن عبدالله بن عثمان بن خيثم، عن أبى الزبير عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت – يعنى الناقة – ترد من هذا الفج وتصدر من هذا ألفج فَعَتَوْا عن أمر ربهم فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم.

فهذه الأحاديث تؤكد أن الرسول ﷺ مر بها فى طريقه إلى غزوة تبوك فهى فى المكان الموضح بمدائن صالح بالخرائط الجغرافية.

وكانت أراضى ثمود خصبة. ولذلك كانت ثمود فى رفاهة حال. وكانت لهم ماشية كثيرة، وجنات وعيون وافرة، يستقون منها هم وماشيتهم وزرعهم. ولعلهم ظلوا على ديانة التوحيد – التى كان عليها سام وأبناؤه. ولكنهم بعد فترة ضلوا الطريق، وعبدوا الأصنام، ومن الأصنام التى يقال إنهم عبدوها: ذو الشرى – عمند – منوت – قيس – هبل.

وكانوا يبنون بيوتهم من الحجر والمدر فتنهدم بعد فترة فاتخذوا من الجبال بيوتا، فنحتوا فيها وحذقوا صنعها وأتقنوها.

واصطفى الله منهم صالحا ليكون نبيًا ومبلِّغًا لرسالة ربه إليهم. وكان من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا فهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود بن عامر بن آرام بن سام بن نوح عليه السلام.

وكانت دعوته، مثل دعوة كل الأنبياء، هى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام:

«وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره».
(٧٣ - الأعراف، ٦١ - هود)

«ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله». (٤٥ - النمل)

وذكّرهم صالح بنعم الله عليهم قائلا:

«واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين». (٧٤ - الأعراف)

وقال لهم إنه لا يطلب منهم أجرا على هدايتهم إلى الله، لأن أجره على الله:

«وما أسألكم عليه من أجر إن أجرىَ إلا على رب العالمين. أتُتركون فى ماهاهنا آمنين. فى جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين. فاتقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون».
(١٤٥ - ١٥٢ - الشعراء)

ومثل الكافرين فى كل زمان اتهموه بالسحر:

«قالوا إنما أنت من المسحَّرين. ما أنت إلا بشر مثلنا». (١٥٣ - الشعراء)

واتهموه بالكذب. واستنكروا أن يُختار هو لهذا الأمر من دونهم. مع أنهم هم أشراف القوم ورؤساؤهم:

«كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسُعُر. أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشِر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر». (٢٣ - ٢٦ القمر)

كالعادة كان أول من آمن به الضعفاء ورقيقى الحال، وكذبه عِلْية القوم ووجهاؤهم واستنكروا أن يؤمن هؤلاء الضعفاء بأن صالحاً رسول مرسل من رب العالمين. ولعلهم استنكفوا أن يكونوا سواء مع هؤلاء الضعفاء ورقيقى الحال فى الإيمان برسالة صالح فأعلنوا أنهم لا يؤمنون بصالح ولا برسالته:

«قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استُضعفُوا لمنْ آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون. قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون». (٧٥ - ٧٦ الأعراف)

وألح فى دعوتهم فكانت إجابتهم:

«قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا...». (٦٢ - هـود)

وكان صالح من أوسطهم نسبا وحسبا، فقالوا إنه كان هناك أمل أن يُصبح من الكبراء والرؤساء لولا أنه أتى بهذا الذى يدعو إليه:

«... أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب. قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير». (٦٢ - ٦٣ هـود)

وأكثر ما يجعل الإنسان متكبرا جبارا فى الأرض هو أن يعتقد أنه ليس هناك حساب فى حياة أخرى، وأن الحياة هى الحياة الدنيا ولا شيئ غيرها، فذلك يجعله يريد أن يستزيد من نعيمها وترفها، فيروح يجمع الأموال من هنا وهناك، من حلال وحرام، فكل مال تصل إليه يده هو ماله. حتى لو كان اغتصابا من مال الآخرين. فالقوة هى الحق فى عرفه. ويريد أن يستزيد من ترف حياته، ولو على حساب إتعاس الآخرين. وهكذا يعيث فى الأرض فسادا، ولا يعتقد فى جبار عادل يحاسبه على أعماله، سواء فى الدنيا أو فى حياة آخرة. لو كان الناس كلهم كذلك لكان هذا صراع الغاب، القوى يأكل الضعيف ويسود البؤس ويكثر الصرعى. ولا فرق حينئذ بين بنى البشر والوحوش، وكان هذا حال ثمود قوم صالح. ويحكى القرآن عنهم: إذ جاء بعد سرد قصة نوح عليه السلام قوله تعالى:

«ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين. فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله أفلا تتقون. وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون. ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون. أيَعِدكُم أنكم إذا متُّم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون. هيهات هيهات لما توعدون. إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين. إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين. قال رب انصرنى بما كذبون. قال عما قليل ليصبحن نادمين».

(٣١ - ٤٠ المؤمنون)

إلى هنا والكلام ينطبق أيضا على عاد قوم هود فهم كانوا بعد قوم نوح ولكن ما يَجْعَلُ الكلام ينطبق على ثمود هو تكملة الآيات وقوله تعالى:

«فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين». (٤١ - المؤمنون)

فإن من أُهلكوا بالصيحة هم ثمود قوم صالح، وقول قرنا فى أول الآيات لا تعنى بالضرورة الخلفاء المباشرين، بل إن آخرين فى قوله تعالى «قرنا آخرين» بصيغة الجمع تدل على أن قرنا تعنى قرونا، وتدل على البعد بعض الشيئ عن عهد نوح عليه السلام.

فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ، وأكثر عليهم التخويف والتحذير سألوه أن يريهم آية وأن يأتى بمعجزة تكون مصداقا لما يقول فقال: اللهم أرهم آية ليعتبروا بها. ثم سألهم أى آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا، وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم فى يوم معلوم من السنة، فتدعو إلهك فإن استجيب لك اتبعناك، وقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافا سمُّوها وتعنَّتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا - فإن فَعَلْتَ ذلك صدقناك وآمنَّا بك. فأخذ عليهم صالح الميثاق أنه إن فعل ذلك صدقوه وآمنوا به. ثم إن صالحا عليه السلام، صلى ودعا الله بذلك، فتمخضت الصخرة ثم تحركت الهضبة فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما سألوه، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى عظَماً ثم نتجت سقبا (فصيلها أى ولد الناقة) مثلها فى العِظَم فآمن به عدد كبير من الناس، وكذب آخرون وجحدوا بها، وكان من بين من آمنوا به رجل يسمى جندع، وكان من أشرافهم، ودعا بقية الرؤساء ليؤمنوا فلم يلبوه.

وكان تحقيق هذه المعجزة اختبارا لصدقهم فى ما وعدوا به من الإيمان إن تحققت.

«إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر». (٢٧ - القمر)

فلما خرجت الناقة قال صالح:

«ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب». (٦٤ - هود)

وإضافة الناقة إلى الله هى إضافة تشريف وتعظيم، لأنها كانت معجزة من الله حققها لهم إذ سألوها دليلا على صدق دعوته.

فمكثت الناقة ومعها سقبها فى أرض ثمود، ترعى الشجر وتشرب الماء - وكانت تَرِدُ الماء يوما ولهم يوم.

«قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم». (١٥٥ - الشعراء)

قالوا فإذا كان يومها وضعت رأسها فى البئر فيرتفع الماء إليها. فما ترفع رأسها إلا وقد شربت جميع ما فيها، ولا تدع قطرة ماء فى البئر، ثم تروح عليهم فيحلبون من لبنها ما شاءوا فيشربون ويدخرون ويملأون أوانيهم فإذا كان الغد من يومهم، تكون البئر قد امتلأت فيشربون ماشاءوا ويدخرون قدر كفايتهم، وكانوا من ذلك فى سعة ودعة.

وكانت الناقة فى الصيف إذا هبط الحر تطلع ظهر الوادى، فتهرب منها أغنامهم وبقرهم وإبلهم، وتهبط إلى بطن الوادى فى حره. وإذا كان الشتاء سبقت الناقة فى بطن الوادى فتهرب

مواشيهم إلى ظهر الوادى فى البرد. فأضرَّ ذلك بمواشيهم، وكان ذلك من الله تعالى هو البلاء والاختبار. فكَبُرَ ذلك عليهم، فأجمعوا على عقر الناقة.

وذكر ابن جرير وغيره من المفسرين أن امرأتين من ثمود، اسم إحداهما صدوق، وكانت ذات حسب ومال، وكانت تحت رجل ممن أسلم ففارقته، فدعت ابن عم لها يقال له مصرع بن مهرج، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة. واسم الأخرى عنيزة، وكانت عجوزا كافرة، فعرضت بناتها الأربع على رجل يُدْعَى قدار بن سالف، إن هو عقر الناقة فله أى بناتها شاء. فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا فى قومهم بذلك فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون فى قوله تعالى:

«وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون». (٤٨ - النمل)

فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من وردها أى ارتوت كمن لها مصرع فرماها بسهم فانتظم عظمَ ساقها، وشد عليها قدار بن سالف السيف فى عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة عظيمة، تُحذِّر ولدها، ثم طعنوها فى لبتها فنحروها.

وانطلق فصيلها فصعد جبلا منيعا، ويقال إنه دخل فى صخرة فغاب فيها. ويقال إنهم اتبعوه فعقروه أيضا.

«فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر». (٢٩ - القمر)

«إذ انبعث أشقاها، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوَّاها». (١٢ - ١٤ الشمس)

وقال محمد ابن اسحق، حدثنى يزيد بن محمد بن خيثم، عن محمد بن كعب، عن يزيد بن عمار بن ياسر قال، قال رسول الله ﷺ لعَلى: ألا أحدثك بأشقى الناس، قال بلى، قال رجلان، أحدهما أحيمر ثمود الذى عقر الناقة، والذى يضربك يا عَلى على هذا - يعنى قرنه - حتى تبتل منه هذه - يعنى لحيته - رواه ابن أبى حاتم.

«فعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين». (٧٧ - الأعراف)

وبلغ الخبر صالحا عليه السلام بأنهم عقروا الناقة، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، وقيل كان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فقال لهم: تمتعوا ثلاثة أيام ثم يأتيكم العذاب، بما انتهكتم من حرمة الله. فراحوا يهزؤون منه ويستنجزونه ما أوعدهم به من العذاب. فأخبرهم أن آية هلاكهم أنهم يصبحون وجوههم مُصفرة، وفى اليوم التالى تكون وجوهم مُحمرة، وفى اليوم الثالث تكون وجوههم مُسودة. ثم يأتيهم العذاب:

«فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام، ذلك وعد غير مكذوب». (٦٥ - هـود)

وندم بعضهم على قتل الناقة، ولكن ماذا يجدى الندم وقتئذ!

«فعقروها فأصبحوا نادمين». (١٥٧ - الشعراء)

ولما أمسى أولئك الرهط التسعة، عزموا على قتل صالح، وقالوا إن كان صادقا عجَّلناه قبلنا، وإن كان كاذبا ألحقناه بناقته. فلما أرادوا تنفيذ عزمهم جاءوا إلى صالح يرصدون الفرصة للإيقاع به وأهله. فأهلكهم الله، قيل إن الملائكة دمغتهم بالحجارة فأهلكتهم. وأراد قومهم قتل صالح لأنهم اتهموه بقتلهم فمنعه قومه.

وقال البيضاوى: رُوِىَ أنه كان لصالح مسجد فى شِعْب (الشعب هو الطريق بالجبل) يصلى فيه، فقالوا: زعم أنه يفرغ منا فى ثلاث - أى بعد ثلاثة أيام - فلنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشعب، فوقعت عليهم صخرة فماتوا، واتَّهمَ قومهم صالحا بأنه هو الذى قتلهم، وأرادوا قتله فمنعه أهله:

«قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولنَّ لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون. ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم، أنا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون». (٤٩ - ٥٣ النمل)

وقالوا فى تفسير الرهط التسعة - الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون والذين أزمعوا قتل صالح - قصة أخرى.

قال الثعلبى - قال السدى وغيره: أوحى الله إلى صالح أن قومك سيعقرون الناقة، فقال لهم ذلك، فقالوا ماكنا لنفعل ذلك فقال لهم: إنه سيولد فى شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه. فقالوا لاجرم. لا يولد لنا ولد فى هذا الشهر إلا قتلناه. فوُلد لتسعة منهم في ذلك الشهر تسعة بنين فذبحوهم، ووُلد للعاشر ابن فأبى أن يذبح ابنه، وكان بكره، لم يولد له قبل ذلك شيئ. وكان ابن العاشر أزرق أحمر، ونما نموا سريعا، وكان إذا مر بالتسعة ورأوه ندموا على ذبح أولادهم، وقالوا لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا. وغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم، فأقسموا بالله لنبيتنه وأهله (وبَيَّت الشئ عمله ليلا أو دبَّره ليلا أو فكر فيه، وبيَّت القوم أوقع بهم ليلا بغتة) أى أقسموا بالله ليهاجمونه ليلا ويقتلونه. وحتى ينفوا عن أنفسهم هذه الفعلة، قالوا: نخرج فنُرى الناس أنا قد خرجنا لسفر فنأتى الغار فنكمن فيه. حتى إذا جاء الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فنقتله، ثم نرجع إلى الغار فنكمن فيه، ثم ننصرف بعد ذلك إلى رحالنا ونعود فنقول لوليه «ما شهدنا مهلك أهله» فيصدقوننا لأنهم يظنون، ورأونا، قد خرجنا فى سفر.

وكان صالح لا ينام الليل فى القرية معهم، بل كان يأوى إلى مسجد يقال له مسجد صالح يبيت فيه فى الليل. فإذا أصبح أتاهم ووعظهم. فإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه، قيل: فلما دخلوا الغار وأضمروا أنهم يخرجون إليه بالليل فيقتلونه، سقطت عليهم صخرة من الجبل فقتلتهم، وانطلق رجل ممن كان قد اطلع على ذلك إلى الغار فإذا هم قتلى، فرجع يصيح فى القرية: يا عباد الله، ما قنع صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم، فأراد القوم قتل صالح فمنعه أهله وشيعته.

وبعضهم يروى هذه القصة قبل قتل الناقة وأنه بسبب هلاك هؤلاء التسعة، أجمع الباقون على قتل الناقة.

قيل إن عقر الناقة كان يوم الأربعاء وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مُصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام، ثم أصبحوا فى اليوم التالى وهو يوم الجمعة ووجوههم مُحمرة، ثم أصبحوا فى اليوم الثالث - السبت - ووجوههم مسودة، فلما أمسوا نادوا، ألا قد مضى الأجل، فلما كان صبيحة يوم الأحد تأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب لايدرون كيف يُفْعَل بهم، ولا من أى جهة يأتيهم العذاب، فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات، وأصبحوا فى دارهم جاثمين، جثثا لا أرواح فيها ولا حراك:

«فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين. فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين». (٧٧ - ٧٩ الأعراف)

«فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب. فلمَّا جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز. وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها، ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود». (٦٥ - ٦٨ هود)

«فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابى ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر». (٢٩ - ٣١ القمر)

«فأخذتهم الصيحة مصبحين. فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون». (٨٣ - ٨٤ الحجر)

ولعلهم ظنوا أن بيوتهم - وهى منحوته فى الجبال - تحميهم إن كان عذاب الله ريحاً صرصرا كالريح التى أهلكت عادا، ولعلهم عمدوا إلى أبواب البيوت فسدوها بصخرة تحجب عنهم الريح، وفاتهم أنهم مهما ظنوا أنهم فى بيوتهم آمنين فإن عذاب الله واقع بهم لا محالة. وكانت الصيحة والصوت العظيم الذى تنتشر وتتسلل موجاته لأى مكان فتميتهم - وقد يرى

البعض أن الموجات الصوتية هى التى أماتتهم، وخاصة أننا نرى فى عصرنا أن الموجات الصوتية تستخدم فى الطب لتفتيت حصوات الكلى، ولكن الرأى السليم هو أن الصيحة ما كانت إلا تعبيراً عن أمر الله – وكان أمر الله هو هلاكهم، وعبر عنها القرآن الكريم فى مكان آخر بالرجفة فى قوله تعالى:

«فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين». (٧٨ – الأعراف)

وعبر عنها القرآن الكريم مرة ثالثة بالصاعقة فى قوله تعالى:

«وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين، فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين». (٤٣ – ٤٥ الذاريات)

وفى قوله تعالى:

«فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود». (١٣ – فصلت)

وفى قوله أيضا:

«وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون. ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون». (١٧ – ١٨ فصلت)

وعبر عنها القرآن الكريم مرة رابعة بالطاغية فى قوله تعالى:

«وأما ثمود فأهلكوا بالطاغية». (٥ الحاقة)

وقيل فى تفسير الطاغية، هى الصيحة وأن أثرها يطغى على المكان والأماكن المجاورة وقالوا الطاغية هى الذنوب – أى أهلكوا بذنوبهم – وقال الله تعالى:

«كذبت ثمود بطغواها». (١١ – الشمس)

أى كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغى، وأهلكوا بالطاغية أى بسبب هذا الطغيان، وقيل بسبب الطاغية الذى قتل الناقة ووافقوه على فعله.

وقال الأستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء (ص ٧٨ – ٨٠) ما ملخصه أن الصاعقة عبارة عن استفراغ كهربائى يحصل بين كهربائيتين مختلفتين بالإيجاب والسلب فى سحابتين أو بين سحابة موجبة والأرض وهى سالبة فتنتج شرارة كهربائية هى البرق، يصحبه تدافع الهواء فى موجات تسبب صوتا هو الرعد، وقال فى النهاية: فهلاك ثمود كان بظاهرة من هذه الظواهر المنتجة للصواعق. وقد أثار هذا القول لجنة أُلفت بأمر شيخ كلية أصول الدين. وقالوا إنه قد استبعد على قدرة الله إيجاد الصاعقة من غير تلك الأسباب المعتادة، إذ أنهم فسروا قوله هذا على أن هلاك ثمود لم يكن بمعجزة بل كان بصاعقة – قد تكون شديدة إلا أنه يحدث مثلها فى الطبيعة فى أحيان كثيرة.

ورد هو على رأى اللجنة ردا به إصرار على رأيه ثم راح يحاسبهم على ما جاء من أقوال المفسرين القدماء، فى وقت لم يكن فيه العلم قد تقدم ولم تكن ظاهرة البرق والرعد والصواعق قد فُهمت أسبابها ولا كيفية حدوثها، وكان اجتهاد المفسرين فى ذلك الوقت أن قالوا: الرعد مَلَك مُوكل بالسحاب، معه كَرٌّ من حديد يسوقه من بلد إلى بلد كما يسوق الراعى إبله، فكلما خالف سحاب صاح فزجره، فالذى يُسمع هو صوت المَلَك. وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: إذا اشتد غضب الرعد الذى هو الملك، طار النار من فيه وهى الصواعق. وقالوا إن البرق هو ضرب الملك الذى هو الرعد للسحاب بمخراق من حديد.

وكان الزمخشرى أقرب إلى الحقيقة فى تفسيره إذ قال: الرعد الذى يُسمع من السحاب هو أجرام (أى أجزاء) السحابة تضطرب وتنتفض إذا حَدَتْها أى ساقتها الريح. والصاعقة قصفة من رعد تنتفض منها شقة من نار لطيفة لاتمر بشئ إلا أتت عليه، إلا أنها مع حِدَّتها سريعة الخمول، على أنها متى سقطت على نخلة عالية أحرقت أعاليها.

من هذا نرى أن المفسِّرين كانوا يجتهدون حسب ما هو متاح لهم من العلم والمعارف، فقد تغير تفسيرهم من أن هناك مَلَكُ موكل بالسحاب إلى إصطكاك أجزاء السحابة بعضها ببعض وهو قريب جدا من التفسير الحالى الذى يقول إن بعض أجزاء السحابة يكون ذا شحنة كهربائية موجبة، وشحنة جزء آخر سالبة. ويحدث تفريغ كهربائى بينهما فتحدث ومضة كهربائية هى البرق، وذبذبات الهواء التى تصاحبها يصدر عنها صوت الرعد، وإن كان التفريغ الكهربائى بين سحابة موجبة والأرض التى هى سالبة انقضَّت الشرارة الكهربائية من السحابة إلى الأرض وكانت الصاعقة. ذلك هو التفسير العلمى.

تلك هى الظاهرة الطبيعية لحصول الصاعقة، ونحن نرى فى عصرنا صواعق تنقض على الأرض فتحرق بيتا أو تقتل إنسانا أو حيوانا، ولكن المعجزة أن تحدث صيحة أو رجفة يعقبها هلاك جميع الكافرين من ثمود وينجو المؤمنون وتبقى مساكنهم قائمة، ولا توجد صاعقة من الظواهر الطبيعية تقتل الأشخاص دون أن تحترق بيوتهم، والصاعقة العادية تقتل الشخص إذا أصابته وهو بالعراء، أما إذا كان داخل البيت فإن أعلا البيت هو الذى يتلقى الشرارة الكهربائية الحارقة. ويكفى أن يوضع عمود معدنى مدبب فوق المبنى ليتلقى هذه الشرارة وهو ما يسمى بمانع الصواعق – ليحمى البيت من الاحتراق.

ولكن صاعقة ثمود أهلكتهم ولم تحرق بيوتهم فأصبحوا فيها جاثمين وتلك بيوتهم خاوية، لم تحترق فهى إذن «صاعقة» غير عادية كما أنه لا توجد صاعقة عادية تُفَرِّق بين المؤمن والكافر، كما أن التعبير بالصاعقة مرة وبالرجفة مرة ثانية وبالصيحة فى مرة ثالثة، كلها تدل على حدوث شئ واحد، هو أمر الله لهم بالهلاك، وما دام قد أتى أمر الله فليس لنا أن نبحث فى تفسير كيفية حدوثه، فلا هو تفريغ كهربائى مثل صواعقنا ولا هو رجفة كما يحدث فى الزلازل

ولا هو تضاغط موجات صوتيه كما يحدث فى انفجار أو صيحة شديدة، بل هو أمر الله قد أتاهم.

وكما جاء فى القاموس المحيط والمعجم الوسيط - فإن الموت وكل عذاب مهلك يُعَبَّرَ عنه بالصاعقة:

«ونفخ فى الصور، فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله» (٦٨ - الزمر). فنفخة الصور التى تصعق كل من فى السموات والأرض شئ من أمر الله لا ندرى كنهه كذلك الصيحة التى أهلكت ثمود. كانت شيئا من أمر الله، ليُهلِكَ الكافرين، فكانت صيحة ورجفة. جاءت فجأة كالصاعقة أهلكتهم جزاءا لما ارتكبوا من طغيان وتكذيب لنبيهم.

قالوا، ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة، فلما رأت العذاب أُطْلِقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شيئ. فأتت حيا من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء وبعد ما شربت ماتت.

ويقال أيضا إن رجلا كافرا من قومهم كان فى الحرم. فمنعه حرم الله من العذاب، فلما خرج من حدود الحرم أصابه ما أصاب قومه فمات. ويقال إن اسمه أبو رغال، ويقال إنه أبو ثقيف.

وعن محمد بن إسحق فى السيرة، عن إسماعيل ابن أمية. عن بجير بن أبى بجير، سمعت عبدالله بن عمرو، سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال: إن هذا قبر أبى رغال وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بالحرم يدفع عنه العذاب، فلما خرج منه أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه. فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن. هكذا رواه أبو داوود من طريق محمد بن إسحق، قال الحافظ أبو الحجاج المزى رحمه الله هذا حديث حسن، وقال يحيى بن معين ولم أسمع أحدا روى عنه غير اسماعيل بن أمية، فيُخشى أن يكون وهم فى رفع هذا الحديث.

ولكن المشهور عن أبى رغال أنه هو الذى قاد جيش أبرهة من الطائف إلى مكة لهدم بيت الله الحرام كما سيجئ فى الجزء السابع إن شاء الله.

«فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين». (٧٩ - الأعراف).

كان هذا خطاب صالح عليه السلام لقومه بعد هلاكهم، وقد أخذ فى الذهاب عن مَحِلَّتهم إلى غيرها. وقال بعض المفسرين إن صالحا والذين آمنوا معه ذهبوا بعد هلاك قومهم - إلى ناحية الرملة من فلسطين. ويقول أهل حضرموت إنهم ذهبوا إلى حضرموت وأقاموا بها،

ويقولون إن أصلهم من تلك الناحية وأنهم فصيلة من أهل الأحقاف، وهناك قبر يزعمون أنه لصالح، وقرية يسمونها ثمود. وقال آخرون إنهم أقاموا فى ديارهم بعد هلاك قومهم. وقال آخرون إنهم ذهبوا إلى مكة وأقاموا بها إلى أن ماتوا وقبورهم غربى الكعبة. وأرجح الأقوال هو أنهم ذهبوا إلى الرملة ونواحى فلسطين لأنها أقرب بلاد الخصب إليهم، كذلك لو قبلنا ما سبق أن أوضحناه فى شكل ٣١ عن الطريق التى سلكته القبائل من نسل أرام فى ارتحالها حتى وصلت إلى الحِجْر لكانت قبيلة الأب والجد - عبيد وآسف - موجودتين فى هذه الناحية. ومن المنطقى أن يلجأوا إليها بعد هلاك قومهم.

وجاء فى تفسير الألوسى أن الذين نجوا مع صالح كانوا مائة وعشرين أما الهالكون فكانوا خمسة آلاف.

وتكاثر الثموديون الناجون من الهلاك فى هذه المنطقة من شمال غرب الجزيرة العربية - غير بعيد من الحِجْر - وظلوا يعرفون باسم الثموديين حوالى الألف عام بعد ذلك، والكتابات الأشورية منذ القرن الثامن قبل الميلاد يأتى فيها ذكر الثموديين. ويقول الدكتور محمد بيومى مهران فى كتابه (دراسات تاريخية. جـ ١ ص ٢٦٩) إن الملك سرجون الثانى (٧٢٢ - ٧٠٥ ق . م) يذكرهم بين من تحدث عنهم من قبائل خاض غمار الحرب ضدها، وقد دعاهم باسم تامودى Thamudi بل إنه يذكر كذلك أنه هجَّرهم إلى السامرة من بين مَن هجَّر من شعوب. ويقول الملك الأشورى فى كتاباته: طبقا لوحى صادق من أشور إلهى، قضيت على قبائل تامودى، والعرب الذين يعيشون بعيدا فى الصحراء والذين لم يكونوا قد جاءوا بجزاهم، سبيت الأحياء منهم ونقلتهم إلى السامرة.

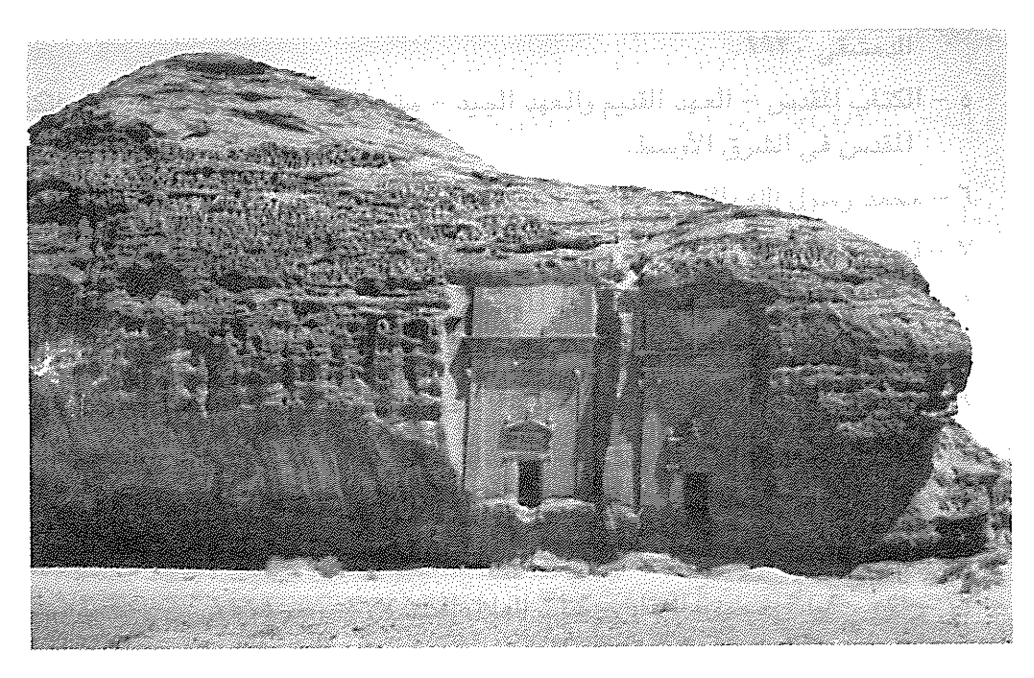
وقصة التهجير هذه بدأت بعد أن نجح الملك الأشورى فى القضاء على مملكة إسرائيل الشمالية واحتلال العاصمة السامرة فى أخريات عام ٧٢٢ ق . م. وهجَّر سكانها إلى أنحاء مختلفة من الإمبراطورية - وهو ما يعرف بالسبى الأشورى، وأتى بقوم أخرين من بلاد كان قد استولى عليها ليحلُّوا محلهم. ومن بين هؤلاء كان الثموديون، أتى بهم وأسكنهم السامرة كما جاء فى كتاباته.

أما مدائن صالح نفسها فقد سكنها بعد مدة. أقوام أراميون، ووُجدت كتابات أرامية على بعض القبور بتلك الأنحاء (شكل ٣٧). ويقول جرجى زيدان فى كتابه - العرب قبل الإسلام (ص ٩٢) إن مدائن صالح «الحجر» دخلت قبل الميلاد فى حوزة النبطيين Nabatians (اسمهم مشتق من نسبتهم إلى نابت - أحد أبناء إسماعيل عليه السلام كما سيجئ فيما بعد.) ووُجِدَتْ أيضا قبور عليها كتابات بالحرف النبطى وتاريخه حوالى الميلاد. أشهرها قبر الباشا ونقش على حجر عليه ما يلى: هذا القبر الذى بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكليبة ابنتها لأنفسهم

وذريتهم. فى أشهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين، محب ذو الشرى واللات وعمند ومنوت وقيس. تلعن من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضوا أو يدفن فيه أحدا غير كمكم وابنتها وذريتها..

ويتضح من هذه الكتابة أن الأقوام كانوا يعبدون الأصنام ومنهم ذو الشرى - اللات - عمند - منوت - قيس.

وهكذا عاد الضلال ليكتنف هذه المنطقة مرة أخرى، ولزم أن يبُعث نبى آخر ليرفع حجب الظلام ويعيد الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد.



شكل ٢٧ - بعض قبور النبطيين التى وجدت فى الحجر.
(يلاحظ أنها منحوتة فى الجبال).

المراجـــــع

١ – القرآن الكريم.

٢ – تبويب أى القرآن الكريم من الناحية الموضوعية – دكتور أحمد ابراهيم مهنا – أربعة أجزاء – ١٩٧٠ – مطابع دار الشعب – عن كتاب وضعه باللغة الفرنسية چول لابوم وترجمة محمد فؤاد عبد الباقى سنة ١٩٢٤.

٣ – تفسير القرآن العظيم – للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى – أربعة أجزاء – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان – ١٩٨٠.

٤ – روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للعلامة أبى الفضل شهاب الدين السيد محمد الألوسى البغدادى – ثلاثون جزءاً – إدارة الطباعة المنيرية – محمد منير الدمشقى ١٩٣٠.

٥ – الكتاب المقدس – العهد القديم والعهد الجيد – مترجم من اللغات الأصلية – دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط.

٦ – محمد رسول الله والذين معه. عبد الحميد جودة السحار – ٢٠ جزء – دار مصر للطباعة.

٧ – قصص الأنبياء – عبدالوهاب النجار – منشورات دار مكتبة الهلال – بيروت – ١٩٩١.

٨ – قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس لابن اسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى المعرف بالثعلبى – مطبعة الأنوار المحمدية – القاهرة.

٩ – البداية والنهاية – أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقى – دار الريان للتراث ١٩٨٨ – ثمانية أجزاء.

١٠ – أنبياء الله – أحمد بهجت – دار الشروق ١٩٩٣ – الطبعة العشرون.

١١ – الروح – ابن القيم – السلام العالمية للطباعة والنشر.

١٢ – الله – عباس محمود العقاد – كتاب الهلال العدد ٢٠٧ يونيو ١٩٦٨.

١٣ – الألوهية وفكر العصر: حامد عوض الله – المركز الثقافى الجامعى – سلسلة كتب الدراسات العلمية – القاهرة – ١٩٧٦.

١٤ – الديانة المصرية القديمة: تأليف ياروسلاف تشرنى – ترجمة دكتور أحمد قدرى – مشروع المائة كتاب – وزارة الثقافة – ١٩٨٧.

١٥ – ديانة مصر القديمة: تأليف أدولف إرمان – ترجمة الدكتورين عبدالمنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى – وزارة المعارف العمومية – إدارة الترجمة – مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده.

١٦ – تاريخ الحضارة المصرية – العصر الفرعونى – بقلم الاستاذ محمد شفيق غربال – مكتبة االنهضة العربية.

١٧ – مصر فى العصور القديمة: تأليف إبراهيم نمير سيف الدين – زكى على – أحمد نجيب هاشم – مكتبة مدبولى – ١٩٩١.

١٨ – الشرق الأدنى القديم – دكتور عبد العزيز صالح – الجزء الأول – مصر والعراق – الطبعة الرابعة – مكتبة الأنجلو المصرية – ١٩٩٠.

١٩ – حضارة مصر القديمة وآثارها – دكتور عبدالعزيز صالح – الجزء الأول – مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى – مكتبة الأنجلو المصرية – ١٩٩٢.

٢٠ – دراسات تاريخية من القرآن الكريم – الدكتور محمد بيومى مهران – أربعة أجزاء – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – ١٩٩٥.

٢١ – مؤلفات جرجى زيدان العامة – المجلد ١٠ – العرب قبل الإسلام – دار الجيل – بيروت – ١٩٨٢.

٢٢ – من إعجاز القرآن فى أعجمى القرآن – رؤوف أبو سعدة – الجزء الأول والثانى – دار الهلال – ١٩٩٣ – ١٩٩٤.

٢٣ – معالم تاريخ الإنسانية – هـ . ج. ويلز – ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد – أربعة أجزاء – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٤.

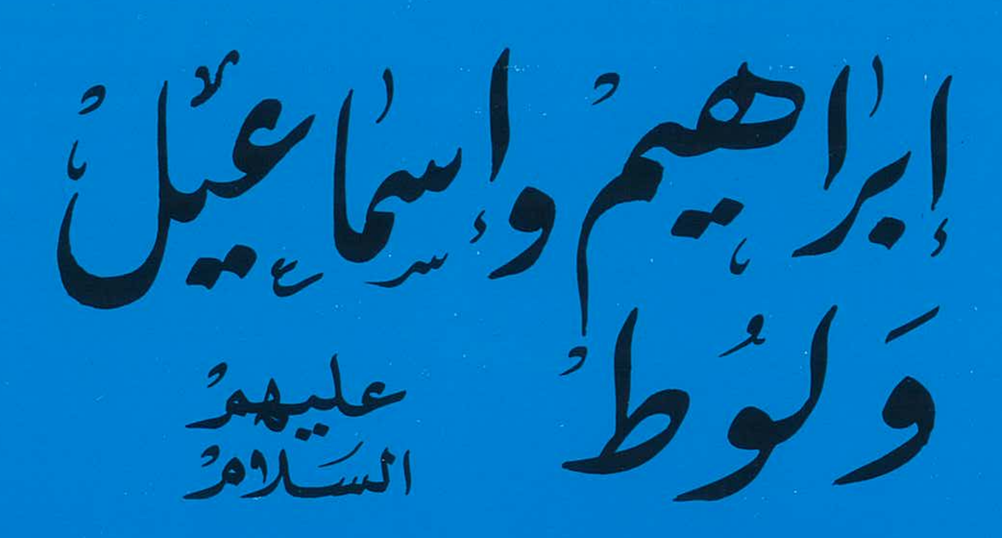
٢٤ – الأطلس العربى – وزارة التربية والتعليم – جمهورية مصر العربية – الإصدار الثامن – ١٩٨٩.

٢٥ – الأنهار العظيمة فى العالم: تأليف آن تيرى هوايت – ترجمة العميد محمد عبدالفتاح إبراهيم – سلسلة كل شيئ عن – العدد ١٧ دار المعارف بمصر – ١٩٩٦.

26 - Man Civilization & Conquest.
Margaret Sharman.
World span 1. Evans Brothers Ltd.
London, Third impression, 1973

27 - Atlas of World History. 3 parts
Colin & Sarah McEvedy.
Jarrold &Sons Ltd,. Norwich - London 1970.

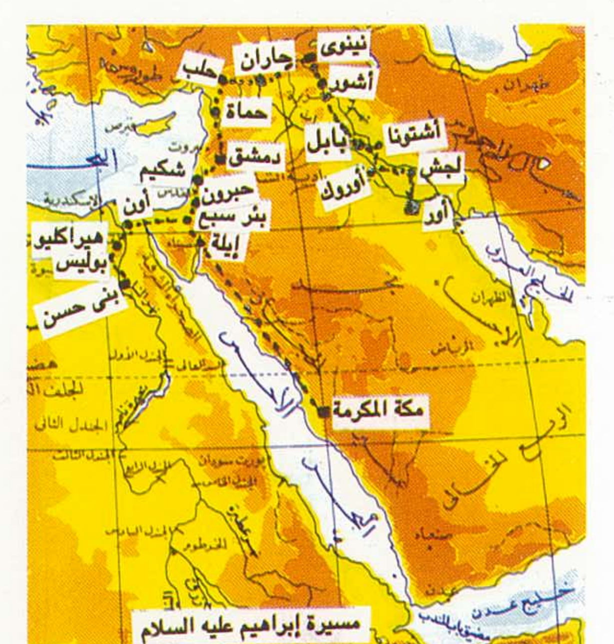
28 - Philips New School Atlas of Universal History.
Ramsay Muir & George Philip.
14th edition. George Philip & Sons Ltd.
London, 1939.

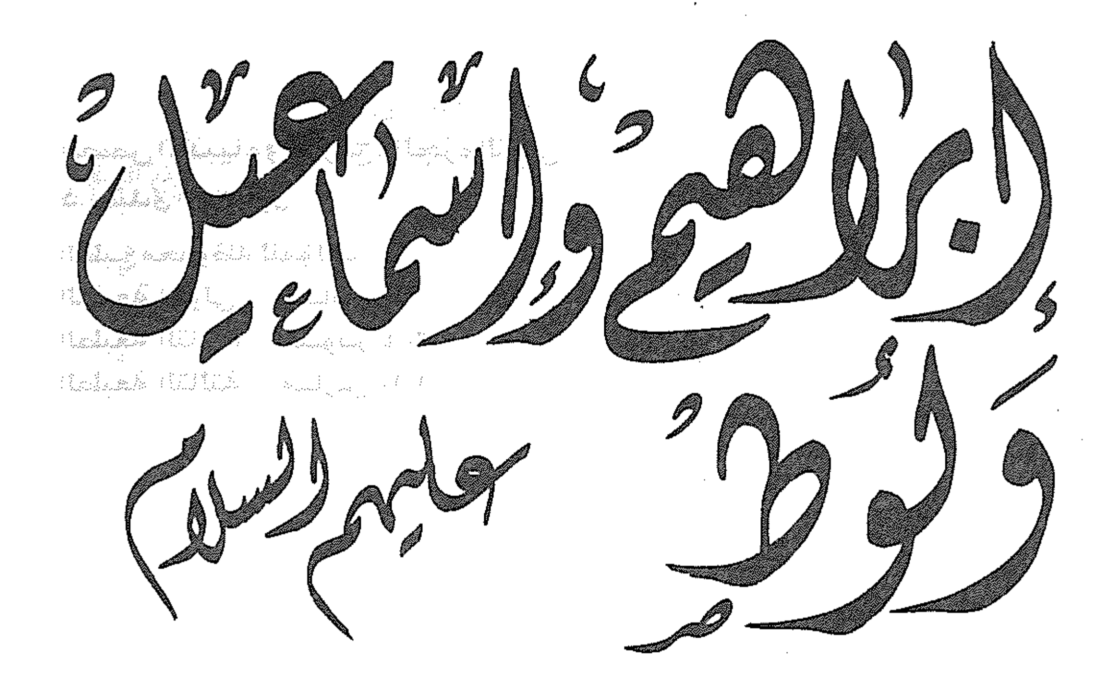


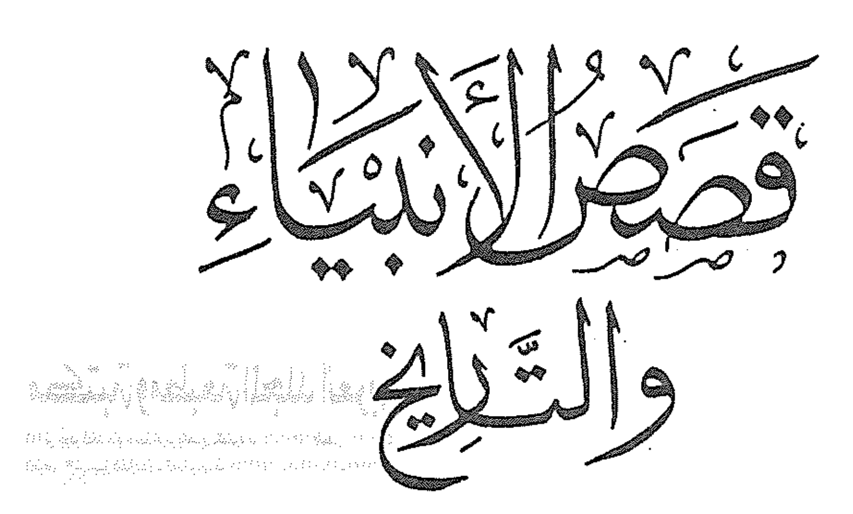
قصص الأنبياء والتاريخ

الجزء الثانى

تأليف دكتور
رشدى البدراوى
الاستاذ بجامعة القاهرة







الجزء الثاني

تأليف دكتور
رشدى البدراوى
الاستاذ بجامعة القاهره

قصص الأنبياء والتاريخ ـ الجزء الثانى .

د. رشدى البدراوى

الطبعة الأولى : يناير ١٩٩٧

الطبعة الثانية : اكتوبر ٢٠٠٤

الطبعة الثالثة : مارس ٢٠١٠

مكتبة ومطبعة المجلد العربى

١١٦ ش جوهر القائد أمام جامعة الأزهر بالحسين ـ القاهرة ت: ٢٥٩١١٥٢٤ فاكس: ٢٥٨٩٢٢٢١

المطبعة: ١٩ ش سبيل الخازندار ـ العباسية ـ ت: ٢٦٨٢٢٢٥٨ ـ ٢٦٨٢٢٢٥٩ ـ ٢٦٨٢٢٢٧٦

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٠٠٩

الترقيم الدولى : I . S . B . N .

977 - 19 - 2592 - x

محتويات الجزء الثانى

رقم الصفحة

فهرس الأشكال والخرائط

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هى الطبعة الثانية من سلسلة «قصص الأنبياء والتاريخ» وهى تختص بسير الأنبياء إبراهيم وإسماعيل ولوط عليهم السلام. وهى لا تختلف كثيرا عن الطبعة الأولى إلا فى نقطة واحدة هى عدد زيارات إبراهيم عليه السلام لولده إسماعيل وزوجه هاجر فى مكة وهى مذكورة فى صفحة ١٨٠.

أكتوبر ٢٠٠٤ — المؤلف

أبناء نوح عليه السلام
(إعمار العراق بعد الطوفان)

سبق أن ذكرنا فى الجزء الأول (شكل ٢٤) أنه فى شمال العراق التقى أبناء قابيل القادمين من جنوب العراق، مع أبناء شيث وذرية إدريس القادمين من مصر عبر فلسطين وسوريا. وضل الجميع وعبدوا الأصنام. فأرسل الله إليهم نوحا عليه السلام.

«لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما». (١٤ - العنكبوت)

وظل يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد. وتجول فى العراق من شماله إلى جنوبه، فلم يجد أذانا صاغية. ومن المؤكد أنه تجوّل أيضا فى سوريا وفلسطين ودعا أهلها إلى عبادة الله. فالقاعدة هى ألا يعذب الله قوما حتى يبعث فيهم رسولا:

«وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا». (١٥ - الإسراء)

وظل يدعوهم عشرات بل مئات السنين:

«وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون. واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا، إنهم مغرقون». (٣٦ - ٣٧ - هود)

وكان الطوفان الذى أغرق هذه المنطقة وأهلها، فبادوا كلهم ولم ينج أحد، ممن كانوا يسكنون هذه المناطق، إلا من ركب السفينة مع نوح وهم:

- أهله : هو وزوجته وأبناؤه الثلاثة سام وحام ويافث وزوجاتهم.
- ومن آمن . وما آمن معه إلا قليل.

وتزاوج الأبناء والأحفاد، وتكاثروا بسرعة، إذ كانت الأرض خصبة والأمطار غزيرة، والأنهار ممتلئة بالمياه. وكلما ازدحم مكان بساكنيه، وضاقت الموارد المتاحة عن تلبية احتياجاتهم، لزم أن ترحل جماعات إلى مكان جديد. وبالطبع كان الأبناء هم الذين يرتحلون، ومن بعدهم كان يرتحل الأحفاد.

كان شمال العراق أكثر وعورة لوجود الجبال به، وكذلك كان أكثر برودة، مما يجعل الحياة أكثر مشقة، لذلك كانت الهجرات تتجه إلى الجنوب الأكثر دفئا. ونشأت التجمعات السكانية

على هيئة قرى أو مدن صغيرة. كل مدينة تحتوى عددا من البيوت وحولها أرض زراعية تكفى أهلها من الغذاء، وأرض كمراعى للأغنام. ومن الطبيعى أن يحتكم السكان إلى كبير العائلة أو كبير القبيلة فى تسيير أمورهم وحل منازعاتهم. فنشأت دويلات المدن City States . كل مدينة تحتوى عددا أكبر من السكان وقد تضم حولها عدة قرى، والمدينة يرأسها حاكم يعنى بأمورها، ويدبر شئونها، مستقلا عن الدويلات الأخرى. وتوافر الطمى لبناء المساكن من اللبن. وفى حالة تالية بدأت بعض البيوت تبنى من الحجارة. مثل بيت الحاكم أو بيوت العبادة. وفى المدن ظهرت الحرف، فهذا نجار وذاك حداد وآخر برع فى بناء البيوت وهكذا والكل يتعاون فى الزراعة وعند جنى المحاصيل.

فى بعض الأحيان كانت دويلة تعتدى على دويلة مجاورة تضمها إليها. وقد يظهر رئيس دويلة ذو طموح كبير فيضم دويلات كثيرة ليؤسس دولة أو مملكة. وقد شهدت بلاد مابين النهرين Mesopotamia مشاحنات داخلية كثيرة، إذ قد يظهر فى الدويلات المغلوبة من يثير حماسها فتقاتل لاستعادة استقلالها، وظل هذا التناحر والتقاتل بين الدويلات زمنا طويلا. وحتى بعد أن اتحدت بعض منها فى دول أكبر، لم تكن دولة واحدة، بل عدة دول تتنازع وتتحارب فيما بينها، وكان هذا عاملا من عوامل تأخر حضارة مابين النهرين عن حضارة وادى النيل.

وبالمثل نشأ المصريون الأوائل على هيئة قبائل متفرقة، ولما توفرت لديهم أسباب استقرار الحياة اضطروا إلى التعاون للمصلحة المشتركة. وانضم بعضهم إلى بعض وألفوا إمارات صغيرة مستقلة. ولما زادت مطالب الحياة بمرور الأيام أصبح من الضرورى توسيع دائرة التعاون والاتحاد. فانضمت تلك الإمارات بعضها إلى بعض وكونت مملكتين منفصلتين: إحداهما فى الشمال ولها ملك يلبس تاجا أحمر والأخرى فى الجنوب وعلى رأسها ملك يلبس تاجا أبيض اللون. ثم تم الاندماج على يد «نارمر» أو «مينا» فى العام ٣٠٠٠ ق.م. أو قبل ذلك وأصبح وادى النيل كله مملكة واحدة يحكمها ملك واحد. وأتاح هذا الاندماج الاستقرار اللازم لنمو الحضارة. فنمت الحضارة المصرية نموا متصلا وتقدمت بخطى واسعة وحققت إنجازات هائلة فى البناء والعلوم والفنون والآداب - مايزال باقيا يبهر الأنظار والأفكار إلى يومنا هذا. بعكس العراق الذى ظلت دويلات المدن ودوله تتصارع فيما بينها للحفاظ على مانى يدها من أرض زراعية أو لانتزاع أراضٍ من دويلة أو دويلات مجاورة.

خارج المناطق الزراعية كان رعى الأغنام والإبل هو عمل البدو الرحل الذين كانوا يجوبون بادية الشام وشمال شبه الجزيرة العربية. ويتنقلون حسب مناطق المطر وتوافر المراعى لمواشيهم وأماكن الصيد. وبالطبع لم يكن لهم أن يبنوا بيوتا. بل كانت الخيام هى مأواهم، ينقلونها كلما ارتحلوا إلى أماكن جديدة. وظل الأفراد متناثرين فى أراضٍ شاسعة يتنقلون

فيها بحرية، ولا تعاون بينهم وبين قبائل البدو الرحل الآخرين إلا فى مقايضة بعض السلع البسيطة. وقد قدر البعض كثافة السكان فى مناطق البدو الرحل بحوالى ٤ أشخاص لكل ١٠ كيلو متر مربع، فى حين أنها ترتفع فى المناطق الزراعية إلى ١٠ أفراد لكل كيلو متر مربع - أى ٢٥ ضعفا (أطلس تاريخ العالم. كولين وسارة. جـ١ ص١٠).

يتضح لنا مما سبق أن منطقة الشرق الأدنى القديم قد انقسمت إلى قسمين:

١ - الزراع وساكنى القرى.

٢ - البدو الرحل والصيادين.

واختلفت طبيعة كل قسم عن الآخر تبعا لمكان إقامتهم وسهولة المعيشة أو صعوبتها.

كان على الزراع الانتظار فى نفس المكان حتى ينمو الزرع وتنضج البذور لذلك تعلموا الاستقرار. وكل زارع تعهد الأرض التى زرعها فأصبحت ملكا له، وبنى بيتا ليسكن فيه، وتعاونوا فيما بينهم. هكذا ساعدت الزراعة على قيام المدنية والحضارة وتطورها.

وقد تتوافر نفس الظروف حول بئر فى الصحراء. فتنشأ تجمعات سكانية حول البئر. ويختلف عدد السكان حسب غزارة مياه البئر. فتنشأ حضارة منعزلة وسط الصحراء. ولكن حينما يجف مورد المياه هذا، يرتحل القوم عن المنطقة. أما من كانوا يعيشون على الرعى، فهم كثيرو التنقل من مكان إلى مكان، سعيا وراء المعيشة والكلأ. ولتنقلهم الدائم لم يكن فى استطاعتهم بناء بيوت ثابته، بل كان مأواهم خياما يسهل نقلها كلما ارتحلوا إلى مكان جديد. وكانت ألبان الأغنام ولحومها بالكاد تكفيهم. لذلك كانوا فى الأغلب مهزولين جياعا.

ولما كانت المراعى تجف إذا شح المطر ويقل الصيد أيضا - فكان لابد - لكى يجدوا طعامهم. أن يغيروا على الشعوب المستقرة. وخاصة أن المجتمعات المستقرة يكون عندها وفرة من الطعام مخزونة، كما أن أهلها قد ركنوا إلى الدعة، فلم تعد عندهم كفاءة للقتال بالرغم من أنهم أكثر عددا. وغارات البدو الرحل على حدود الدول المستقرة قد تكون لنهب كميات من الحبوب ثم يعودون إلى الصحراء ثانية. وقد يفرضون على البلد أن يدفع لهم مقدارا من الحبوب كل عام، وإن لم تفعل هددوه بالغزو والنهب مرة أخرى. وأحيانا يظهر زعيم من إحدى قبائل البدو، يوحد أكثر من قبيلة تحت زعامته ثم يتوجة إلى البلدة المجاورة، وبدلا من النهب والعودة إلى الصحراء يحتل البلد نفسه، ويصبح الغزاة هم سكان البلد. وسرعان ما تستهويهم حياة الترف وتضعف كفاءتهم القتالية. وقد يظهر فى البد المحتل زعيم يعمل على إذكاء الشعور الوطنى ويطرد المحتل الغاصب. وخير مثال على ذلك ماحدث فى مصر من غزو الهكسوس - الملوك الرعاة - ودام حكمهم ما يقرب من مائة وثمانين سنة (١٧٨٠ - ١٦٠٠ ق.م) ثم قام أحمس بطردهم.

فى الجزء الأول لم نجد ضرورة لذكر تفاصيل تاريخية أو جغرافية جديدة إذ أن قصص الأنبياء الذين ذكرناهم كان يكفى لفهمها ماهو معروف من معلومات عامة عن مناطقهم. أما فى هذا الجزء – وسيكون الكلام فى معظمه عن إبراهيم عليه السلام – فسيجد القارئ أن أسماء بعض المناطق غريبة على أسماعه. مثل: فدان أرام أو أرض كنعان أو بابل وآشور كذلك قد يأتى ذكر مناوشات حدثت بينه وبين الأراميين فى دمشق. أو الحرب التى قيل إنه لاقى فيها ملوك دول عيلام وشنعار وغيرهم. ولكى يستطيع القارئ متابعة الأحداث التاريخية وجب أن نعطى فكرة عن تاريخ هذه المنطقة والدول التى حكمتها. ولما كان تاريخ هذه المنطقة فى غاية التعقيد لكثرة الدول التى تصارعت. فقد أصبح لزاما أن نجعل الأمر سهلا ومبسطا فليس المجال هنا هو دراسة التاريخ. بل الهدف هو توضيح الحقائق التاريخية التى تعين على فهم قصص الأنبياء. وستكون هذه المنطقة مسرحا للأحداث المتعلقة بعدد كبير من الأنبياء، منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب عليهم السلام. لهذا كله كان لابد من خلفية تاريخية مختصرة ومبسطة بقدر الإمكان. أما من يريد التوسع فهناك كتب كثيرة عن تاريخ الشرق الأدنى القديم تقع فى عدة مجلدات يمكن الرجوع إليها. وفى هذا الموجز التاريخى الذى سنذكره سنتخذ نهجا غير مادرجت عليه كتب التاريخ ليسهل الأمر على القارئ. إذ سيتم ربط المعلومة التاريخية باسم أبناء أو أحفاد نوح عليه السلام.

سبق أن ذكرنا أن من هبط من السفينة بعد الطوفان هم:

أ – نوح عليه السلام وزوجته وأبناؤه الثلاثة : سام وحام ويافث وزوجاتهم .

ب – من آمن . وما آمن معه إلا قليل . قال ابن اسحق إنهم كانوا عشرة .

– وأبناء سام يطلق عليهم اسم الساميين وفى الحديث المذكور فى الجزء الأول ص ١٢٨ أن من ذريته : العرب وفارس والروم.

– كذلك يسمّى أبناء حام حاميون .

– ومن ذرية يافث الترك والصقالبة وسكان وسط آسيا .

– ويهمل علماء التاريخ كلية فريق «من آمن» فلا يذكرون أى شئ عنهم. مع أنهم كانوا عشرة. ولعلهم كانوا خمسة رجال وخمس نساء. ولا نظن صحيحا ما قاله سعيد بن أبى عروبة عن قتادة من أن كل من بالسفينة مات ولم يعقبوا عقبا باقيا غير أبناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافث إذ ليس هناك من سبب لحدوث ذلك. فلابد أن هؤلاء العشرة تكاثروا وبدأوا ينزحون إلى

أماكن جديدة على شكل هجرات، وقد يكون منهم المجموعات البشرية التى يصفها المؤرخون بأنها «مجهولة الأصل» أو يقولون عنها «ولا يمكن بالتحديد معرفة أصلهم».

كذلك يجب التنبيه إلى أنه لا توجد هناك سلالة نقية خالصة فإن السلالات تتزاوج وتمتزج والثقافات تتأثر بما حولها من ثقافات. وقد اشتهر من السلالات ما يسمى بالعناصر السامية، وهى التى كانت تعيش فى منطقة الشرق الأدنى القديم، ومن اسمها يفهم أنها تنسب إلى سام بن نوح عليه السلام، ويختلف مفهوم السامية عند المؤرخين، فمثلا تنسب التوراة الكنعانيين إلى كنعان بن حام، والأموريون (أبناء الأمورى) واليبوسيون (أبناء اليبوسى) كلهم من أبناء كنعان أى حاميون، إلا أن علماء الأجناس وعلماء التاريخ يعتبرونهم ساميين، وهناك من يعتبر هذه التسمية – أى السامية – هى تسمية لغوية أى تعنى تشابها لغويا، ولا تدل على أصول عرقية، وعلى العموم فليس هنا مجال الدخول فى هذه التفاصيل أو الخلافات. ولتيسير الأمور نبدأ بذكر شعبين ينسبان إلى اثنين من أبناء سام: أحدهما «أرام» سكن بنوه فى أعلا الفرات إلى ساحل البحر المتوسط أى فى أقصى الغرب من منطقة الشرق الأدنى، والآخر «عيلام» سكن بنوه فى أقصى شرق المنطقة إذ سكنوا شرقى نهر دجلة على حدود الهضبة الإيرانية (شكل ١).

١ – أبناء أرام :

كان تركيزنا فى الجزء الأول على قبيلتين من أبناء أرام:

١ – **قبيلة عاد** بن عوص بن أرام (بن سام بن نوح) التى ارتحلت إلى الأحقاف فى جنوب غرب شبه الجزيرة العربية وظهر فيها نبى الله هود عليه السلام.

٢ – **قبيلة ثمود** بن أرام، وهذه ارتحلت إلى شمال غرب شبه الجزيرة العربية، وظهر فيها نبى الله صالح عليه السلام.

باقى أبناء أرام – وبالطبع كانوا يسمون بالأراميين – ظلوا عشائر متفرقة فى شمال العراق وبادية الشام وكونوا دويلات صغيرة (دكتور بيومى مهران، دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم جـ ٨ ص ٥٥٢). لم يتجمعوا ليكونوا وحدة سياسية كبيرة كما فعل أبناء عيلام وأشور، بل ظلوا دويلات متفرقة، وكانت الدول المجاورة كثيرا ما تتوغل فى أراضى هذه الدويلات بين الحين والآخر، ويمكن تقسيم **الدويلات الأرامية** جغرافيا إلى: (شكل ٢)

أ – دويلات على نهر الفرات الأعلى :

١ – دويلة بيت أدينى.

٢ – دويلة بيت بخيانى .

٣ – دويلة فدان أرام وعاصمتها حاران .

ب – دويلات سوريا :

١ – دويلة جرجوم وعاصمتها مرعش .

٢ – دويلة ياخان وعاصمتها أرباد .

٣ – دويلة يمخذ وعاصمتها حلب .

٤ – دويلة حماة وحمص .

٥ – دويلة أرام دمشق وعاصمتها دمشق .

٦ – دويلة صوبة وعاصمتها صوبة جنوب زحلة .

جـ – دويلات فى شرق الأردن :

١ – دويلة بيت رحوب .

٢ – دويلة جشور .

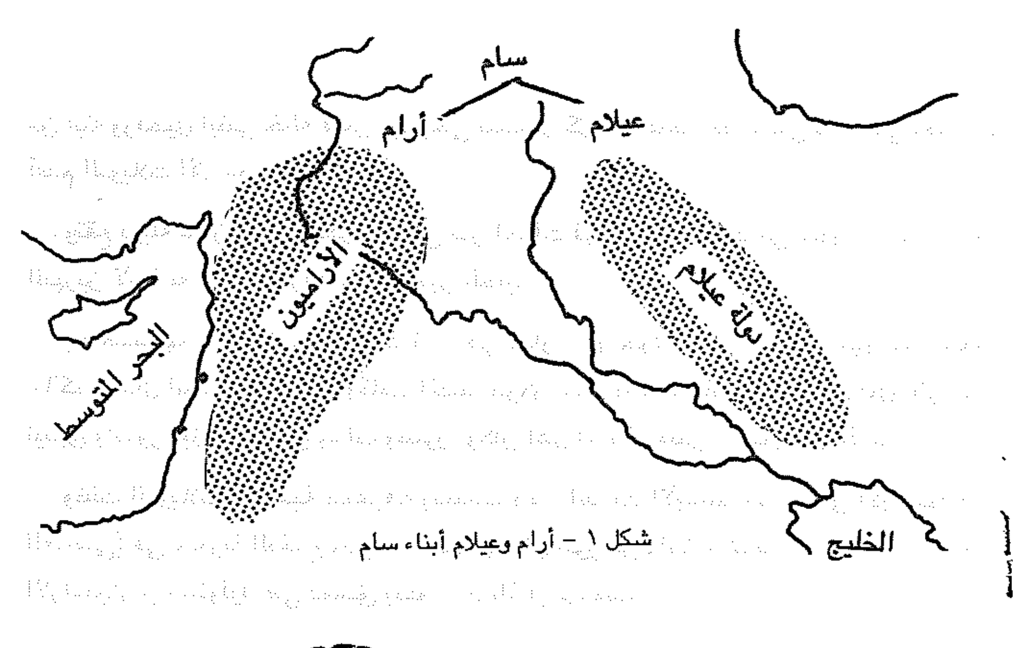
٣ – إمارة طوب .

ولا يجب أن يفهم أن هذه الدويلات كانت كلها موجودة فى وقت واحد بل إنها ظهرت على فترات. فكلما اجتاحت دولة مجاورة أراضى دويلة من دويلات الأراميين، نزح أهلها إلى منطقة خالية مجاورة وأسسوا دويلة أخرى. وكانت أرام دمشق هى أقواها من الناحية السياسية وكانت الدويلات الأخرى تحتمى بها. لذلك لما أفلح الأشوريون فى اجتياحها سقطت الدويلات الأخرى كلها تباعا فى قبضة الأشوريين.

وسنذكر دويلتين من هذه الدويلات بالتفصيل، هما فدان أرام وأرام دمشق .

فدان أرام أو أرام النهرين :

ولعلها هى أول دويلة أنشأها أبناء أرام إذ يرجع ذكرها إلى عام ٢٣٠٠ ق.م. وتكونت فى أقصى شمال الفرات فى إقليم أرام ولذلك سميت أرام النهرين. وعاصمتها حران أو حاران. عاش بها أجداد إبراهيم عليه السلام قبل نزوحهم منها إلى أور فى جنوب العراق. وبعد محنة إحراقه ونجاته من النار عاد إليها. ومات بها أبوه ودفنه هناك. كما أن إبراهيم عليه السلام أرسل إليها وكيله أليعازار ليختار زوجة لابنه إسحق إذ لم يشأ أن يزوجه من إحدى بنات الكنعانيين فأحضر أليعازار معه رفقة لتكون زوجة إسحق. كما أن يعقوب ذهب إليها ليتزوج



شكل ١ – أرام وعيلام أبناء سام

جرجوم
مرعش
بيت أديني
ياخان
أرباد
بيت بخياني
حلب
يمحد
حران
فدان أرام
نينوى
أشور
نهر دجلة
نهر الفرات
بابل
البحر المتوسط
اللاذقية
طرطوس
طرابلس
بيروت
صيدون
صور
عكا
حيفا
غزة
حماة
حمص
صوبة
أرام دمشق
دمشق
بيت رحوب
جشور
إمارة طوب

شكل ٢ – الدويلات الأرامية

من ليئة وراحيل ابنتى خاله لابان. وسيجئ تفصيل كل ذلك فيما بعد. وعلى ذلك فهى تعتبر من أقدم الدويلات الأرامية.

وتقع دويلة فدان أرام (شكل ٢) على نهر الفرات فى جزئه الموجود فى سوريا. وتسمى أرام النهرين لأنها تقع على الفرات ورافده نهر الخابور.

وعاصمتها - كما سبق أن ذكرنا - هى حاران أو حران وهى تقع على نهر بليخ حوالى ٦٠كم شمال اتصاله بالفرات. وكانت المدينة مركزا تجاريا هاما على طريق القوافل التى تصل نينوى وأشور وبابل بدمشق وحلب وصور. وكان أهل المدينة يعبدون «سين» إله القمر.

وظلت الدويلات الأرامية متفرقة ومنتشرة فى الفرات الأوسط. وفى وادى الأورونت (نهر العاصى) فى سوريا البقاع ودويلات حلب وجبال طوروس وإمارة شمال أنطاكية. واستطاع الأراميون أن يستولوا على دمشق وتكونت دويلة أرام دمشق.

أرام دمشق :

نشأت دولة أرام دمشق حينما استولى الأراميون على دمشق. وتطورت أرام دمشق حتى غدت دولة كبرى تمتد من الفرات حتى نهر اليرموك وكان ملوكها يسيطرون على ١٢ دويلة صغيرة من حولهم وكانت أرام دمشق معاصرة لدولة إسرائيل. وبدأ الصراع بين الأراميين والعبرانيين واستمر إلى أن استولى داوود عليه السلام على دمشق.

٢ - عيـــلام :

هو الابن الأكبر لسام بن نوح. وسكن أقصى الشرق من جبال أراراط جنوب بحر قزوين. ثم انحدرت ذريته جنوبا حتى استقروا فى المنطقة فى غرب إيران وشرقى نهر دجلة حتى الخليج وكونوا «دولة عيلام» (شكل ٣) وكانت عاصمتها تسمى سوسة. ولما وصلوا إلى الخليج اتجهوا غربا وأسسوا مدينتين فى جنوب العراق هما إريدو وتل العبيد.

قلنا إن العيلاميين جاءوا من المنطقة الجبلية جنوب بحر قزوين. وانحرفوا عن عبادة التوحيد وعبدوا آلهة الربوات التى تصوروها فوق قمم الجبال. ولما ارتحلوا جنوبا وخاصة قرب الخليج كانت الأرض منبسطة. وظل فى تصورهم أن الآلهة تحب الأماكن المرتفعة. وقد وُجد فى إريدو وتل العبيد معابد لآلهتهم مبنية فوق مسطحات مرتفعة تسمى «زقورات» (شكل ٤) يحاكون بها مرتفعات الجبال الشمالية حتى ترضى عنها الآلهة وبالتالى ترضى عنهم. فى مرحلة تالية اتجهت بعض القبائل غربا وعبرت نهر الفرات فوصلت إلى الأراضى الخصبة بين النهرين

وأقاموا دويلة مدينة أونوج أو أوروك وتعرف فى التوراة باسم إرك وحاليا تسمى الوركاء. كان ذلك فى حوالى العام ٣٠٠٠ – ٢٨٠٠ ق.م. وإلى الشرق من أوروك أسسوا دويلة لارسا.

وكانت دولة عيلام فى صراع دائم مع جيرانها: الأشوريين والبابليين فى الغرب – والجوتيين فى الشمال والإيرانيين فى الشرق.

الأموريون والأكاديون :

يقول بعض علماء التاريخ (د. عبد العزيز صالح) إن الأموريين ساميون جاءوا من المنطقة الجبلية فى شمال العراق. ويقول آخرون (د. بيومى مهران) إنهم قدموا من شبه الجزيرة العربية. وتنسبهم التوراة (إصحاح ١٠ تكوين) إلى الأمورى ابن كنعان . وقد انقسم الأموريون إلى شعبتين.

أ – الشعبة الأولى : سكنت فى المنطقة الوسطى من أراضى ما بين النهرين وتكونت منهم عدة دويلات. وكانت أهمها دويلة أكد وعاصمتها أكد. ولذلك سموا **بالأكاديين** . وكانت هناك دويلات أكدية أخرى (شكل ٥) .

١ – أكد وعاصمتها أكد .

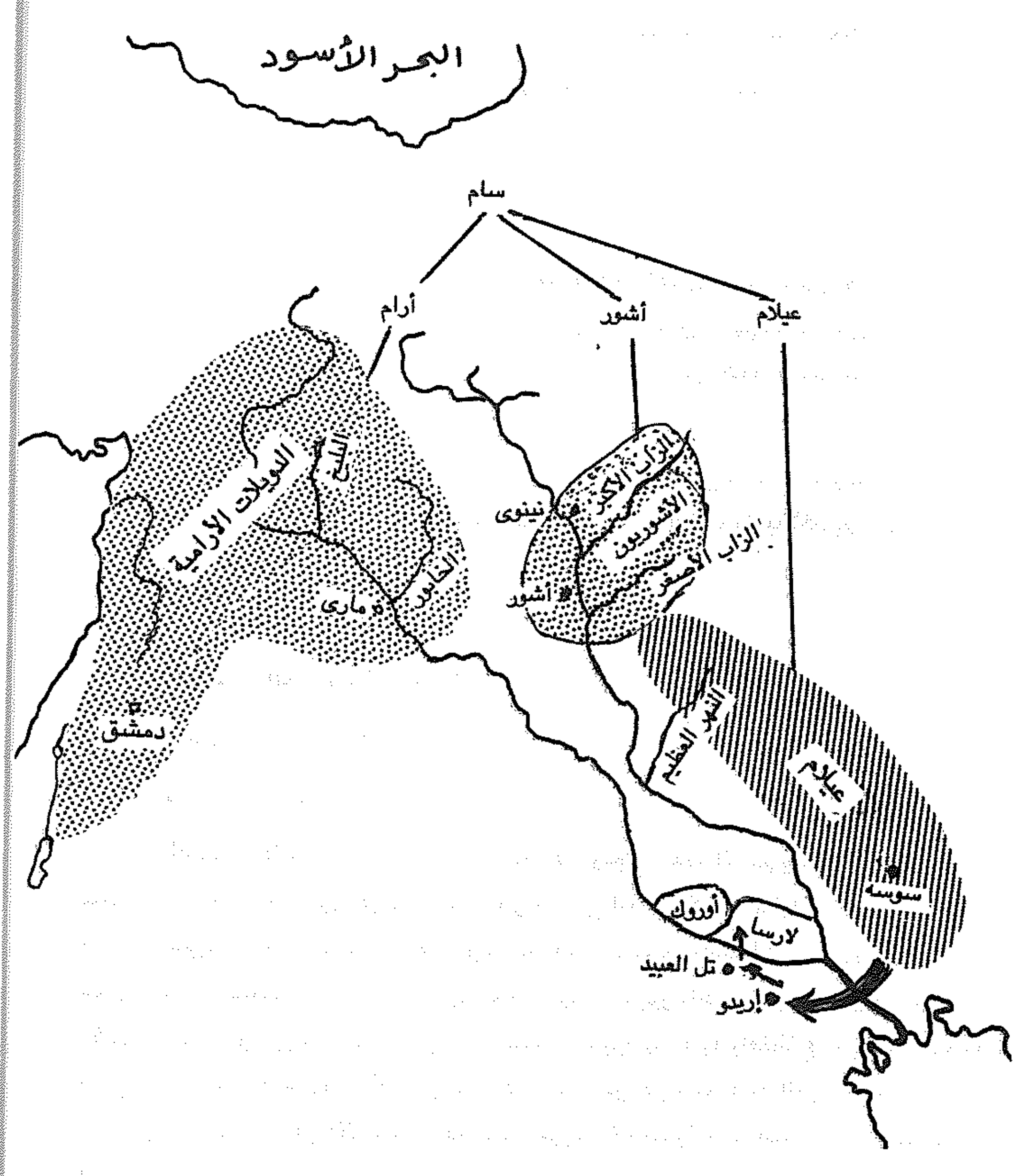
٢ – بابل قرب الحلة حاليا وعاصمتها بابل .

٣ – كيش (الأحيمر حاليا).

٤ – سيپار (أبو حبة) .

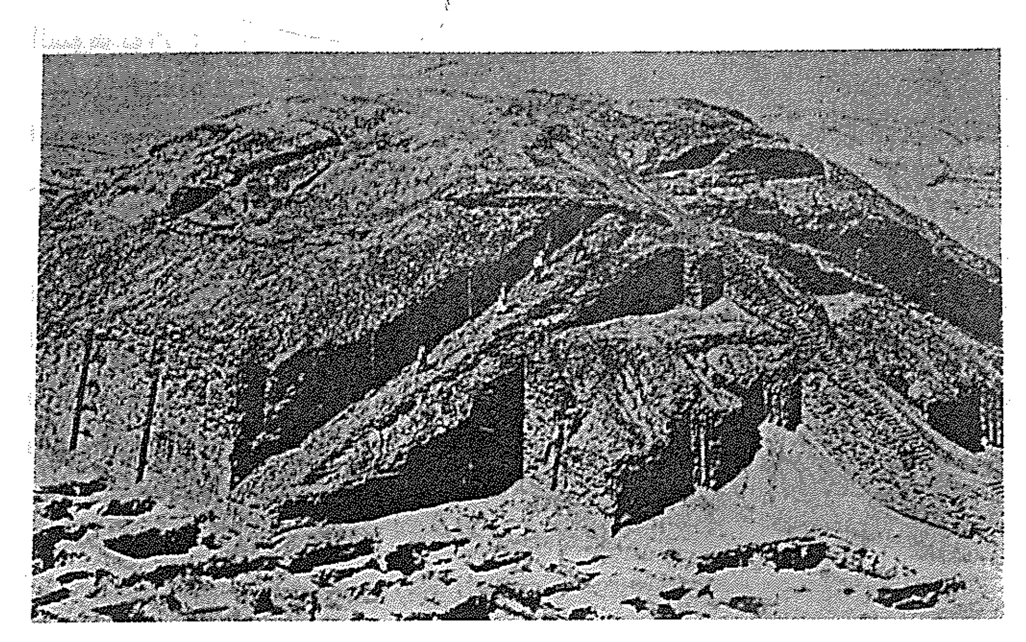
ب – الشعبة الثانية : ظلت تحتفظ باسم **الأموريين** . وهذا الاسم يعنى أهل الغرب لأنهم سكنوا المنطقة الغربية من الفرات. وكلمة أمورو تعنى الغرب. كذلك قالوا إن أحد آلهتهم كان اسمه «أمورو» بمعنى الواحد الأعلى. ونُسبوا إليه وتسموا بإسم الأموريين وأسسوا دويلة مارى، وكانت عاصمتها مارى جنوب التقاء نهر الخابور بالفرات، وهى الآن تل الحريرى. وكانت دويلة مارى فى فترات تتقلص كثيرا باعتداء جيرانها عليها واقتطاع أجزاء من أرضها. وعلى العموم فإن الأموريين ظلوا إلى حد كبير بعيدين عن صراعات العراق. أما الأكاديون فإنهم وقد نزلوا العراق الأوسط فإنهم كانوا فى بؤرة الصراع وخاصة بعد اندماجهم مع السومريين فى دولة بابل.

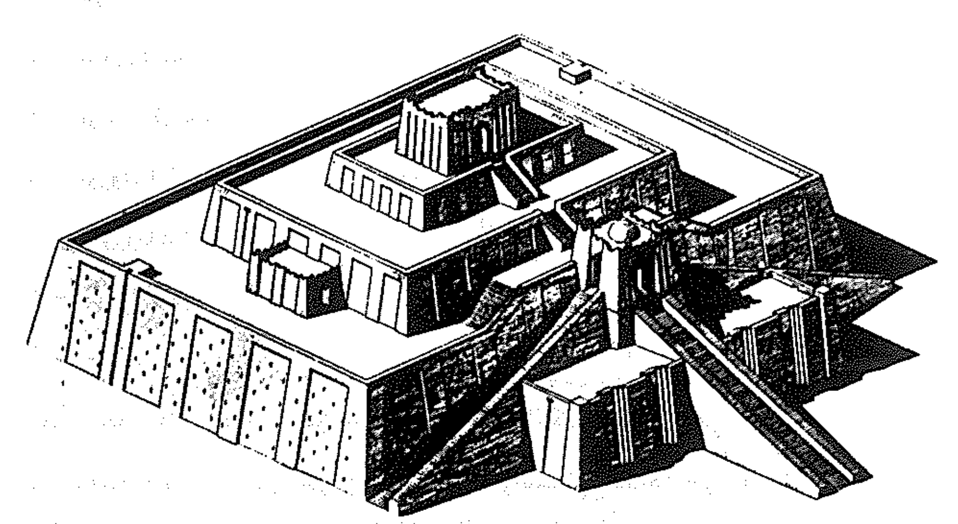
نترك أبناء سام مؤقتا لنذكر شعبا كان له دور بارز فى تاريخ هذه المنطقة هو الشعب السومرى أو السومريون.



شكل ٣ – دولتى عيلام وأشور والدويلات الأرامية .

بدء انتشار الدويلات فى جنوب العراق .





شكل ٤ – الزقورات وفوقها المعابد

السومريون :

يقول الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح : إن التاريخ لايزال على غير بينة أكيدة من جنس السومريين أو موطنهم الأصلى الذى وفدوا منه على العراق إذا كانوا قد أتوا اليه حقا من خارجه.

ومادمنا نقبل أن الأموريين ينسبون إلى الأمورى ابن كنعان واليبوسيون ينتسبون إلى اليبوسى والجرجاشيون إلى الجرجاشى، فلا مانع من قبول الرأى القائل بنسبة السومريين إلى الصمارى بن كنعان بعد تخفيف الصاد إلى سين. (وهذا يماثل تسمية الأمويين والعباسيين والفاطميين والأيوبيين وغيرهم). ولما كان شمال العراق قد شغله الأشوريون من الشرق والدويلات الأرامية فى الغرب فإن السومريين نزحوا إلى جنوب العراق وأسسوا إمارات المدن. لكل مدينة حاكمها وإلهها. وما عرف من هذه الإمارات مبين فى شكل ٦ والاسم بين القوسين هو اسم المدينة حاليا.

١ – أور (المقير حاليا) .

٢ – إريدو (أبو شهرين حاليا) .

٣ – لارسا (سنكرة) .

٤ – لجش (تللو) .

٥ – أوما (تل خوجا) .

٦ – أوروك (الوركاء) .

٧ – شوروباك (فارة) .

٨ – نيبور (نفر) .

٩ – خفاجى .

وكان يجاور هذه الدويلات من الشمال الدويلات الأكدية المذكورة فى شكل ٥ .

كانت المنازعات تدور بين الدويلات السومرية، وتسيطر إحداها على الدويلات الأخرى. فمرة تكون القيادة لدويلة أور، ثم بعد فترة كانت السيادة لدويلة لجش. إلى أن ظهر فى دويلة أوما حاكم قوى اسمه لوجال زاجيزى بدأ مشروع توحيد الدويلات السومرية كلها تحت زعامته. واستغل الدين لتأييد مشروعه السياسى هذا فادعى أنه ابن الربة «نيسابا». ورضيع اللبن المقدس من الربة «نين قرساج». ووحد الدويلات السومرية فى دولة موحدة هى سومر وجعل عاصمته فى أوروك. واعتبر نفسه كاهنا للإله «آن» إله أوروك. وجعل السيادة للإله «إنليل»

شكل ٥ – الأكديون والأموريون

شكل ٦ – دويلات المدن السومرية

معبود أوما. واستقرت الوحدة بين الدويلات السومرية. فانتشرت الفنون ونقشت الرسوم على الأوانى الخزفية. وظهرت العربات الصغيرة ذات العجلتين. ثم الكبيرة ذات العجلات الأربع. وتطور فن النحت. ونُحتت تماثيل الأرباب الرئيسية أكبر حجما مما سواها لتعبر بضخامتها النسبية عن جلال أربابها. وكانت تباشير الكتابة قد ظهرت فى دويلة أوروك من قبل. فبدأت فيها أولى علامات الكتابة. وبدأت بالطريقة التصويرية (شكل ٧) أى التعبير بالصورة عن المعنى المقصود وهى طريقة تصلح للتعبير عن الماديات مثل شجرة أو نهر أو سمكة. إلا أنهم طوروها فأصبحت تعبر أيضا عن الأفعال والمعنويات. فالقدم تعبر عن حركة المشى. والذراع يعبر عن القوة. وبالتدريج أدخلت المقاطع والحروف فالكلمات ثم الجمل.

وطور السومريون اللغة والأعداد الحسابية وطريقة الكتابة. ووجدوا أن الطين أسهل فى الكتابة عليه من قطع الحجر. فكانوا يتخيرون طميا نقيا ناعما ويصبونه على هيئة ألواح ثم يكتبون عليها بأقلام من الغاب الرفيع (مثل قلم البسط الذى كان يستخدم فى الثلاثينيات من هذا القرن فى حصص الخط) وكانوا أيضا يكتبون بأقلام من المعدن ذات سن مدبب. وكانت الحروف عريضة فى أعلاها ولها ساق رفيع فهى تشبه المسمار ولذلك سميت بالكتابة المسمارية (شكل ٨ ، ٩) وقد أخذ الأشوريون والأكديون والحيثيون عن السومريين هذا النوع من الكتابة. ولما كان الطين سهل التلف لذلك كانت اللوحات الهامة تحرق فى أفران لتصبح صلبة وأكثر مقاومة فيسهل حفظها.

بابل والدويلات الأكدية :

كما اتحدت الدويلات السومرية كذلك بدأت الدويلات الأكدية (شكل ٥) فى نوع من التجمع واتخذت من «أكد» عاصمة لها. إلا أن ميزان الثقل السياسى بدأ يميل ناحية بابل. وكانت بابل بلدة صغيرة اسمها كدنجيرا. ولما تولى الأكديون حكمها أحالوها إلى مدينة كبيرة وأحسنوا استغلال موقعها الإستراتيجي والاقتصادى المتميز لقيامها فى منطقة خصبة يتقارب فيها نهرا دجلة والفرات فى وسط العراق فيتوافر الرى وتجود الغلال وتكثر أيضا المراعى. كما أنها تقع على طريق القوافل من جنوب العراق إلى شماله.

ويرى البعض أنها سميت باب الإله أى باب إيل أى بابلا أو بابل. ولو أن التوراة تذكر سببا آخر لا بأس من ذكره لطرافته (إصحاح ١١ تكوين) فتقول:

وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة. وارتحلوا وقالوا هلم نبنى لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه إلى السماء. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال



شكل ٧ – كتابة بالخط المسمارى القديم
لاتزال على هيئة صور

شكل ٨ – كتابة مسمارية مطورة على لوح من الطين

الكتابة المسمارية	النطق	الترجمة الانجليزية	الترجمة العربية
	dingir nin-giz-zi-da	The god 'Lord Gizzida'	الإله الرب جزيدا
	dingir-ra-ni	the god of	إله
	gu-de-a	Gudea	جوديا
	en-si	governor	حاكم
	lagasa-ki	of Lagash	لجش
	lu e-ninnu	(the man who the 'Temple of 50'	الرجل الذى المعبد ٥٠
	dingir nin-gir-su-ka	of the god 'Lord of Lagash'	للإله رب لجش
	in-du-a	built)	بنى
	e gir-su-ki-ka-ni	his temple in Lagash	معبده فى لجش
	mu-na-du	he built for him.	بناه له

شكل ٩ – الترجمة الانجليزية والعربية لبعض الأسطر من الكتابة المسمارية

(نقلا عن أطلس كولن وسارة جـ ١ ص ١٦)

الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم. وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل وهناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة. لذلك دعى اسمها «بابل» لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض.

وواضح عدم معقولية هذا التفسير.

وانتشرت فى بابل الأسماء المركبة من «إيل» أو «إل» بمعنى الإله، واختار الحكام البابليون أسماء تدل على قربهم من الإله «إيل» مثل :

إيل ما أبى	بمعنى	إلهى أبى
جميل إيلى شو	بمعنى	هدية أو عطية الرب
إيل دورى	بمعنى	إلهى حصنى
إيل إمدى	بمعنى	إلهى سندى

هذا بالإضافة إلى الأسماء المركبة التى كان يدخل فى تركيبها اسم القمر «سين» فكان من ملوك بابل الأوائل: «أب إيل سين» و «سين مو بالليط».

وزادت سمعة بابل واعترفت بسلطانها الدويلات المجاورة. وانضمت إليها الدويلات التى من أصل سومرى. وفى النهاية اتحدت سومر وأكد تحت تاج واحد وكونتا «دولة بابل» (د. نجيب ميخائيل ابراهيم – مصر والشرق الأدنى القديم. جـ ٣ ص ١٣١).

نعود لنستكمل باقى أبناء سام. ذكرنا منهم أرام وعيلام. ويبقى ثلاثة هم: أشور ولود وأرفكشاد.

٣ – أشـــور :

وقيل إن أشور فى لغتهم تعنى «الرحمن» .

سكن أشور المنطقة الواقعة بين نهرى الزاب الأكبر والزاب الأصغر، رافدى نهر دجله فى شمال العراق. وبنى مدينة غرب دجلة سماها باسمه «أشور» (شكل ١٠). وتكاثر أبناء أشور وذريته وتكون منهم الأشوريون.

وصارت لهم دولة واحدة منذ القرن الحادى والعشرين ق.م. وكان من ملوكهم الأقوياء «بوزو أشور الأول» ثم جاء بعده «شيروكين الأول» وهو المشهور بـ **«سرجون الأول»**.

وسَّع سرجون مملكته فضم الجزء الشمالى كله من نهر دجلة واستولى على دويلة مارى فى الغرب. ونقل عاصمة مملكته إلى نينوى (شكل ١١) ويقال إن إسمها مشتق من اسم الإلهة «نون» إلهة الماء وكانوا يتخيلونها على هيئة سمكة. ثم توسع جنوبا واستولى على دويلة كيش وأكد من الأكديين ونقل عاصمته إلى أكد باعتبارها مركز عبادة الربة «عشتار» ثم بسط نفوذه على جميع الدويلات السومرية فى جنوب العراق حتى ساحل الخليج وغزا شمال العراق كله وأصبح لقبه «ملك سومر وأكد».

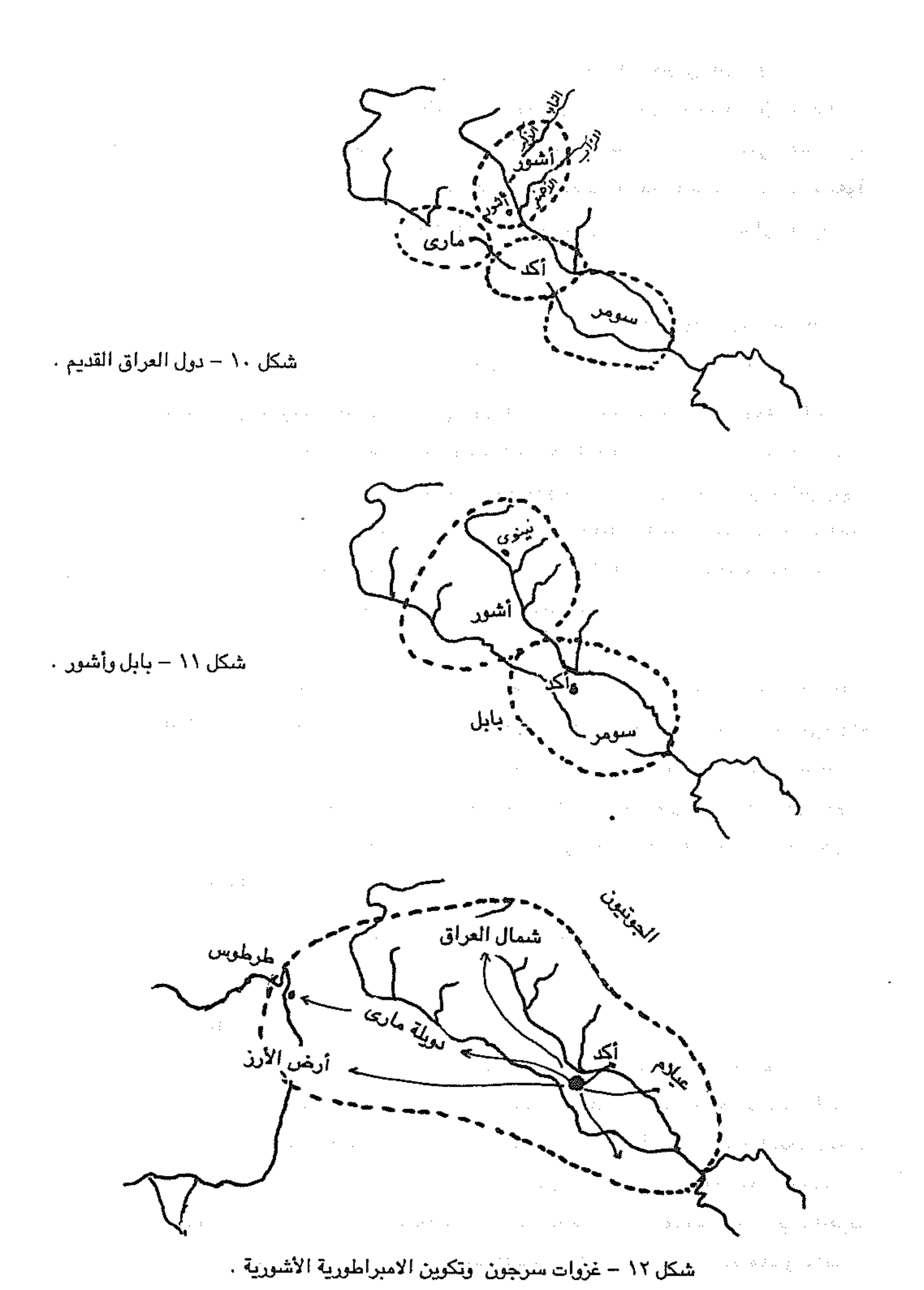
ثم غزا عيلام شرقا وضمَّ أجزاء كبيرة من أرضها. وسبق أن ضم دويلة مارى فى الغرب ثم واصل سيره غربا وتقول كتاباته إنه وصل إلى أرض الأرز وطرطوس (شكل ١٢).

تقول الأساطير إن المعبود «إنليل» كان فى أول الأمر راضيا عن سرجون ووهبه السيادة على البلاد. ولكن بعد أن زاد ثراء الأشوريين ازدادوا ظلما وفسادا وهاجم جنوده معبد «إكور» فنهبوه ودمروه ونهبوا الإلهة «نفر» نفسها. فهاج «إنليل» وقذفهم بأهالى الجبال وهم الجوتيون. ونزل الجوتيون من أعلى الجبال فى شمال العراق ومن جوار البحر الأسود (شكل ١٣) وتدفقوا على الأراضى الزراعية فى شمال العراق واحتلوها وفتكوا بالأهالى. وأضعف غزو الجوتيين دولة أشور فاستعادت دويلات الجنوب السومرية أستقلالها كما كانت فى العصر السومرى. ومن الدويلات التى استقلت دويلة أور ولجش وأوروك (شكل ١٤) يسمى ذلك بعصر الإحياء السومرى. وسنذكر شيئا عن دويلة أور. إذ تولى الحكم فيها ملك اسمه «أورنمو» فى بداية أسرة أور الثالثة التى نهضت بالدولة نهضة عظيمة. ثم تولى الحكم بعد ذلك «شولجى» وظل حاكما لمدة ٥٠ عاما. وفى هذه الفترة وُلد إبراهيم عليه السلام فى أور وبُعث وبدأ يدعو إلى عبادة الله. ثم كان أن كسر الأصنام. ومن المرجح أن شولجى هو الذى حدث ذلك فى عهده، وأنه هو الذى أمر بإحراق إبراهيم عليه السلام كما سيجئ فيما بعد. وكذلك عاد الأموريون إلى وسط العراق (شكل ١٥).

بقى من أبناء سام الخمسة اثنان هما «لود» و«أرفكشاد» .

٤ - لـود أو لـواد :

بالطبع تكاثر بنوه وأحفاده. وكانوا فى أول أمرهم فى جبال أراراط فى أرمينيا - حيث هبطت سفينة نوح عليه السلام. وظلوا لمدة طويلة فى مكانهم. فلما ضاقت بهم الأرض واتجهوا جنوبا. كانت المناطق الخصبة حول الأنهار وما بين النهرين فى العراق والشام وفلسطين قد تم شغلها (شكل ١٥) إذ سبقهم إليها أبناء أشور وأبناء عمهم كنعان فلم يستطيعوا مزاحمتهم. وواضطرتهم الظروف إلى الالتجاء إلى المناطق الصحراوية فى الشام وشمال الجزيرة العربية فأصبحوا بدوا رحلا. واتجهوا جنوبا وسكنوا وسط الجزيرة العربية وكان منهم مالوق وأضيف



شكل ١٠ – دول العراق القديم .

شكل ١١ – بابل وأشور .

شكل ١٢ – غزوات سرجون وتكوين الامبراطورية الأشورية .

شكل ١٣ – تقلص دولة الأشوريين واستقلال دويلات جنوب العراق

شكل ١٤ – عودة الأموريين لوسط العراق
وعهد الإحياء السومرى

شكل ١٥ – لود وأرفكشاد لا يجدون مكانا فى العراق

إليه مقطع عم بمعنى شعب فأصبح الاسم عم مالوق ثم عمالوق ثم عماليق. وظلوا يتجولون فى شمال الجزيرة العربية وراء الآبار والأمطار وأماكن الرعى. ولما تفجرت بئر زمزم بمشيئة الله لهاجر وابنها إسماعيل استأذنوا هاجر واستقروا بمكة وكذلك فعلت قبيلة جرهم من أبناء أرفكشاد فأصبحوا هم والعماليق أهل مكة (شكل ١٦).

٥ – أرفكشاد أو أرفخشذ :

لم يجد أرفكشاد أيضا له مكانا فى أراضى العراق الخصبة. قد يكون ذلك بسبب قلة أفراد عشيرته. أو لأنه كان يميل إلى السلام وعدم الرغبة فى المزاحمة والحروب. لذلك آثر أن يهاجر أيضا فوصل إلى مشارف صحراء الشام والعراق (شكل ١٦) وولد له شالح الذى ولد له عابر ولعابر وُلد ثلاثة أبناء:

١ – **يقطان أو قحطان** : وقد ولد له ١٣ ابنا. ولم يجدوا لهم مكانا إلا فى جنوب شبه الجزيرة العربية فكان منهم القحطانية – وأهل حضرموت الذين جاوروا قبيلة عاد قوم هود عليه السلام. أما ابنه «شبا» فقد اتجه غربا فوصل إلى ساحل البحر الأحمر وأنشأ أبناؤه – السبئيون – مملكة سبأ.

٢ – **فالج** : ظل هو وذريته سائرين فى محاذاة الشاطئ الغربى لنهر الفرات على الحافة بين الأراضى الزراعية الخصبة فى الشرق. والصحراء فى الغرب وظلوا يتنقلون شيئا فشيئا فى اتجاه الجنوب. وكان الأبناء والأحفاد: رعو ثم سروج ثم ناحور ثم تارح أو آرز الذى كان قد وصل إلى بلدة أور. وكان بارعا فى صناعة التماثيل فصنع للقوم تماثيل لآلهتهم واستقر بمدينة أور وهناك ولد له ولد سماه أبرام فى لغتهم (وهو بالعربية إبراهيم عليه السلام).

٣ – **جرهم** : وسبق الإشارة إلى أن أحفاده استقروا فى مكة بعد تفجر بئر زمزم.

المعتقدات الدينية فى العراق القديم

من الطبيعى أن أبناء نوح عليه السلام وأحفاده كانوا مؤمنين بالله تعالى يوحدونه ويعبدونه كما علمهم جدهم نوح عليه السلام. ولكن مع تكاثر الذرية وارتحال القبائل إلى مناطق بعيدة تقطعت الصلات بينهم وبدأوا فى نسيان عبادة التوحيد التى كانوا عليها.

وسبق أن ذكرنا فى الجزء الأول (ص ٥١ ، ص ٦٠) أن النفس البشرية فيها «وعى» داخلى بوجود قوة عليا أقوى من البشر كما أن الإنسان يميل إلى اللجوء إلى هذه القوة العليا عند الشدائد.

فى شمال العراق – وهى منطقة جبلية تكثر فيها الرعود والبروق. وهو شئ مخيف فعلا

شكل ١٦ – أماكن أبناء لود وأرفكشاد

وخاصة إذا تتابع. وهذا الخوف وعدم معرفتهم بحقيقة هذه الظواهر الطبيعية صور لهم **آلهة** الربوات فوق قمم الجبال وعبدوها استرضاء لها حتى لا تؤذيهم فى ثوراتها وغضبها. كذلك فإن **المياه العظيمة**، سواء كانت أمطارا أو فيضانات أنهار فقد عبدوها ليرجوا نفعها ويتقوا غضبها. وهكذا ظهرت المجموعة الأولى من الآلهة وهى آلهة الطبيعة.

فى جنوب العراق كانت السماء صافية. ليس فيها سحب أو غيوم ولا رعد أو برق. فتمكن الناس من رصد **الكواكب** وعرفوا علاقتها بمقدم الفصول - من صيف حار أو شتاء مطير وظنوا أن ظهور هذه النجوم هو الذى يحدث الفصول ومن ثم عبدوا الكواكب والنجوم. بهرهم القمر بنوره وخاصة عند اكتماله فعبدوه. وقد وجد معبد مكسو بالجص يسمى المعبد الأبيض ومخصص لعبادة القمر فى أوروك. وعرفوا الشمس ببعثها الدفء والحرارة فى الكون فجعلوا منها إلهًا وعبدوه. ثم رصدوا بقية الكواكب: الزهرة والمشترى وغيرها وعبدوها كآلهة.

وكانت فيضانات نهرى دجلة والفرات - فى كثير من الأحيان - عاتية مدمرة تكتسح أمامها كل شئ مهلكة الحرث والنسل. ولعلهم لم يكونوا على علم بأن سبب الفيضان هو الأمطار الغزيرة التى تسقط على منابع الأنهار وتخيلوا الفيضانات على أنها مياه تنبع من الأرض لذلك تصوروا ربا يتحكم فى مياه الأعماق أو المياه الحبيسة تحت الأرض وعبدوا هذه الآلهة لتحميهم من هذه الفيضانات المدمرة. وتقول إحدى الأساطير إن المياه العميقة الحبيسة طغت على سطح الأرض وغطت على مياه الأنهار وظلت كذلك حتى عمل «نينورتا» رب الرياح الجنوبية على تكديس الحجارة. وجعل منها سدا حجز به تلك المياه العظمى وصرف ما غمر البلاد وأزاح عنها ما أصابها من كرب.

وهكذا نرى أنهم افترضوا لكل ظاهرة طبيعية ربا أو ربة. وافترضوا لأربابهم صورا بشرية مضخمة وحياة تماثل حياة البشر. يتزاوجون ويتناسلون ويتحاربون ويتخاصمون. وبجانب هؤلاء توجد أرباب صغار لعلهم كانوا يشبهون الأولياء أو القديسين. اتخذهم الأفراد أربابا شخصيين أو حماة أو شفعاء لهم لدى الأرباب الكبار الذين تخيلوهم بعيدين عن مستوى دنياهم.

كما أنهم أحيانا تصوروا أربابهم بهيئة الحيوانات والطيور. ومن ذلك أنهم رمزوا إلى معبودهم «نين جرسو» بهيئة نسر مهيب بجناحين كبيرين ورأس أسد.

وجعلوا أيضا للقيم المعنوية أربابا. وللزرع والخصوبة أربابا وآلهة. وتعددت الآلهة والأرباب وانتقلت عبادتها إلى الدول المجاورة عن طريق قوافل التجارة - أو عن طريق الغزو السياسى ويفرض المنتصر عبادة آلهته على المهزومين. وقد يتغير اسم الإله حسب مكان عبادته. وكانت الآلهة من الكثرة وأسماؤها من التعدد بحيث يصعب ذكرها كلها ولكن يمكننا تصنيف آلهة

العراق القديم إلى الأقسام التالية:

أ – آلهة الكون :

١ – إله السماء «أن» أو «آنوم» أو «آنو» .

٢ – إله الأرض «إنليل» أو «إلليل» .

٣ – إله الماء «إنكى» أو «أبا» .

٤ – إله العالم السفلى «نرجال» .

ب – آلهة الفلك :

١ – إله القمر «سين» .

٢ – إله الشمس «شمش» .

٣ – إلهة الزهرة «عشتار» إلهة الحب والحرب .

جـ – آلهة الطبيعة :

١ – إله الصواعق «إشكور» أو «أدد» .

٢ – إله العواصف «نينورتا» أو «ننجرسو» .

٣ – إلهة النار «جيبل» أو «نوسكو» أو «إيشوم» .

٤ – آلهة الأنهار والمجارى المائية والقنوات : «نهرور» إله ذكر و «نانسى» إلهة أنثى لها علاقة بالماء والأسماك.

د – آلهة الخصب والتغذية والشراب :

١ – «دموزى» .

٢ – «جشزيدا» .

٣ – نيسابا» .

٤ – «إشنان» أو «إزينو» .

هـ – الآلهة الوطنية :

١ – «مردودك» إله بابل .

٢ – «نابو» .

٣ - «أشور» إله أشور والأشوريين .

وسنذكر نبذة عن أهم هذه الآلهة .

أ - الثالوث الأول :

ويتكون هذا الثالوث من إله السماء وإله الهواء والأرض العليا وإله المياه العذبة وسيد الأرض ويسمون الآلهة الكبار.

١ - **إله السماء** «آنو» أو «أنوم» وهو الإله الأعظم ودائما يتصدر قوائم الآلهة ويلقب باسم إله السموات. وعرشه فى قبة السماء، وله السلطة العليا ويخضع له جميع الآلهة الأخرى. وهو الذى يخوِّل لملوك الأرض السلطة التى يحكمون بها. وتشير الأساطير إلى أن «آنو» كان يسكن السماء وكان يحرس بوابته معبودان هما «تموز» و «جيزيدا». وكان يُعبد مع المعبودة «إينانا» فى الوركاء. كما كان فى خدمته من الآلهة الصغرى المعبود «آنوم».

٢ - **إله الريح أو رب العاصفة** «إنليل» وهو أيضا إله الهواء. ولما كانت الريح فى اعتقادهم تهب من الجبل فقد اعتبر أيضا إله الجبل وإله الأرض العليا. وبصفته الأخيرة هذه كان هو الذى يحدد مصائر الناس. وكانت زوجته هى ننليل» ويلاحظ هنا إضافة مقطع «نن» فى أول الكلمة للدلالة على التأنيث. وكان لإنليل معبد كبير فى بابل. ومن الآلهة الصغرى فى خدمة «إنليل» يوجد المعبود إجيجى. وبالاضافة إلى هذا الإله الكبير للرياح توجد ألهة أخرى مثل: «إينورتا» أحد أرباب الأعاصير والسحب الممطرة . و «نينورتا» رب الرياح الجنوبية . و «إشكور» رب الرياح.

٣ - **إله المياه العذبة** «إنكى» **وسيد الأرض**. فقد كان القوم يعتقدون أن هناك ثلاثة أراضى:

أ - الأرض العليا (الملاصقة للهواء) حيث يحكم «إنليل» .

ب - الأرض الوسطى (وبها المياه الجوفية السطحية التى تنبت الزرع وبهذا تكون سببا للحياة). وهذه الأرض الوسطى هى مملكة «إنكى».

جـ - الأرض السفلى : حيث يحكم «نرجل» .

وكانوا يعتقدون أنه تحت الأرض العليا التى نعيش عليها يوجد مسطح كبير من المياه العذبة تطفو عليه الأرض وهو الحوض الذى تتدفق منه منابع الجداول والأنهار.

وكان «إنكى» هو إله السحر أيضا. ولا غرو فالماء كان يستعمل فى التطهير والتنبؤ. والماء المقدس فى المعابد يستخدم كثيرا فى طقوس الشفاء من الأمراض. وكان «إنكى» إلها للحكمة

كذلك. وكان له معبد كبير فى إريدو (أبو شهرين حاليا). وكانت زوجته هى «ننكى» بمعنى سيدة الأرض – ويلاحظ أيضا إضافة «نن» فى أول الكلمة للتأنيث.

وابنهما هو «مردوك» أو «مردوخ» الذى صار إلها أكبر للإمبراطورية فى عهد حمورابى وبُنى له معبد كبير فى بابل.

وتوجد آلهة أخرى للمياه مثل «آبو» الرب الذى يتحكم فى مياه الأعماق.

ب – الثالوث الثانى :

وهو ثالوث الكواكب. ويتكون من القمر والشمس وكوكب الزهرة. ويعد إله القمر أقدم آلهة هذا الثالوث، ويعتبر أبا للشمس وكوكب الزهرة وعلى هذا كان إله الشمس أخا للزهرة. وإله الشمس ذكر كأبيه، أما كوكب الزهرة فكانت تارة نجمة الصباح وتارة أخرى نجمة المساء وكانت تعتبر أحيانا ذكرا وأحيانا أنثى ولكن غلب الجانب الأنثوى.

وسبق أن ذكرنا أن عبادة الكواكب بدأت فى جنوب العراق. إذ ساعدت السماء الصافية الخالية من السحب. على رؤية الكواكب بوضوح وتتبع مساراتها وأوقات ظهورها وغروبها فكان من أهم مراكز عبادة الثالوث هو مدينة «أور» حيث عاش إبراهيم عليه السلام.

١ – إله القمر «سين» :

هو ابن «إنليل» أحد الآلهة الكبار. وزوج «ننجال» أو «ننجل» بمعنى السيدة الكبيرة وهو أبو الشمس والزهرة. وكان أهم مركز لعبادته هو «أور».

وقد انتشرت عبادة القمر حتى وصلت إلى شمال العراق فكان يعبد فى حاران. وانتشرت عبادته كذلك إلى كل من سوريا وفينيقيا والبدو الأراميين. ويعتقد أن اسم سيناء مشتق من «سين» إله القمر. وسماه السومريون «ننا» بمعنى رجل السماء. وانتشرت عبادته حتى وصلت إلى جزيرة العرب فعبد تحت اسم «ود» عند المعينيين وباسم «المقة» أو «الموقاة» عند السبئيين. إلا أن الحضرميين احتفظوا باسم «سين» .

وتماثيل إله القمر «سين» فى أور تصوره على هيئة رجل جالس على عرش وقدماه عاريتان وله لحية مجعدة تسقط على صدره. أما تاجه فأربعة أزواج من القرون يعلوها هلال. وعصا الصولجان فى يمينه وفى يده اليسرى فأس. وقد يرسم على هيئة هلال فى السماء. وحين ينحدر الشهر يتحول الإله القمر إلى شيخ مسن له لحية ينفذ بحكمته وأقواله الرصينة قرارات الآلهة الذين فى السماء وعلى الأرض. والقمر هو الذى ينظم أيام الشهور والسنة. وكان لحركات القمر دور هام فى التنبؤ. وكان خسوف القمر أهول الظواهر.. وكان ينسب إلى هجوم

سبع أرواح شريرة على محل الإله «سين» وكانت ترسل الدعوات إلى الإله وتقدم القرابين حتى يعود ضوء القمر ثانية بانتصاره على القوى التى تعترض مجراه وتحاول حجب نوره.

وقد سبق أن ذكرنا (ص ٢٢) أنه وجد فى أوروك معبد مكسو بالجص (المصيص) يسمى بالمعبد الأبيض مخصص لعبادة القمر.

٢ – إله الشمس «أوتو» :

يأتى فى المرحلة التالية بعد أبيه إله القمر. و «أوتو» هو إله الشمس ورب العدالة أيضا. ومعبده فى سيپار شمال بابل (أبو حبة حاليا). وعبد أيضا فى لارسا إحدى دويلات جنوب مابين النهرين. وكان العبرانيون والأراميون يسمونه «شمش». رقد عبدت الشمس فى قتبان وحضرموت وسبأ. وإلى هذا يشير القرآن الكريم على لسان هدهد سليمان:

«وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله». (٣٤ – النمل)

وزوجة «أوتو» هى «إيا».

وقد جاء ذكر عبادة الشمس والقمر فى قوله تعالى:

«ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر. لا تسجدوا للشمس ولا للقمر. واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون». (٣٧ – فصلت)

٣ – الإلهة الزهرة «عشتار» :

وهى الثالثة فى ثالوث الكواكب بعد القمر أبيها والشمس أخيها، وهى ذكر فى الصباح يشرق على الحروب والمذابح. وأنثى فى المساء ترعى الحب والشهوة. فهى ربة تسعى وراء اللذة والإغواء. وهى لدى السومريين «أنينا» أو «أنينى» أو «نين» والاسم يعنى سيدة السماء. أما فى أكد فاسمها «عشتار» أو «استار» وتسمى «عشتارت» أو «عشتورة» عند الكنعانيين والفينيقيين و «عثتر» عند عرب الجنوب. وهى «إفروديت» لدى اليونان و«فينوس» عند الرومان.

ويمكن رؤية كوكب الزهرة بالعين المجردة لو نظرنا إلى جهة الغرب بعد غروب الشمس فهى أول ما يظهر من النجوم إذ هى أكثر الكواكب لمعانا فى السماء. كذلك يمكن رؤيتها إذا نظرنا فى اتجاه الشرق قبل شروق الشمس فهى آخر ما يختفى من النجوم. والزهرة هى ثانى كواكب المجموعة الشمسية قربا من الشمس إذ أن عطارد هو أقربها إلى الشمس. يليه الزهرة ثم الأرض. ثم المريخ فالمشترى.

وقد مجد الأشوريون **الزهرة** كإلهة حرب. ومحاربة سلاحها المفضل هو القوس وحيوانها

الأثير هو الأسد، وصوروها واقفة على ظهر أسد فى أغلب النقوش التى تمثلها.

وقد انتقلت عبادة عشتار إلى بنى اسرائيل متأثرين بطقوسها التى كانت تقام فى مدينة صيدون. وفى عهد يوشيا حرمت عبادتها تحريما قاطعا (الجزء الخامس ص ٣٦١).

ورمزها نجم يخرج منه ثمانية من الأشعة أو ستة عشر داخل دائرة. وتلقب بعشتار النجوم لأنها الأكثر اتساعا بينهم. وهى التى تقود النجوم.

وهى تلى «شمش» مباشرة فهى أخته. وتوأم له. وهى إبنه «سين» إله القمر و «ننجال» فالليل يلد النهار ونجوم النهار يلدها إله الليل، وكوكب الزهرة نجم الفجر هى المرحلة بين مملكة الظلام. عرش أرشكيجال أختها. ومملكة الضوء - عرش شمس أخيها.

وهى فى شجاعة أخيها وقوته وفتوته فهى الشجاعة بين الآلهة والإلهات. وهى سيدة المعارك. ويفخر الأشوريون بعشتار المحاربة كشعب تعد حياته ملحمة حربية دائمة. وهى تبدو بتاج يعلوه نجم ذو ثمان أشعة. والسيف ملتصق بيسراها وهى تقف على أسد وأحيانا تمسك بيسراها القوس بصفتها إلهة الحب واللذة - خاصة فى المساء - وقد أقيم لها معبد فى أوروك (الوركاء). تبدو فيه عشتار تجتذب عابديها. وتحولت أوروك إلى مدينة المحظيات وبنات الهوى والعاهرات. إذ كانت عبادتها تحتوى على كثير من معالم الخلاعة. وكانت كاهناتها يتولين الدعارة رسميا.

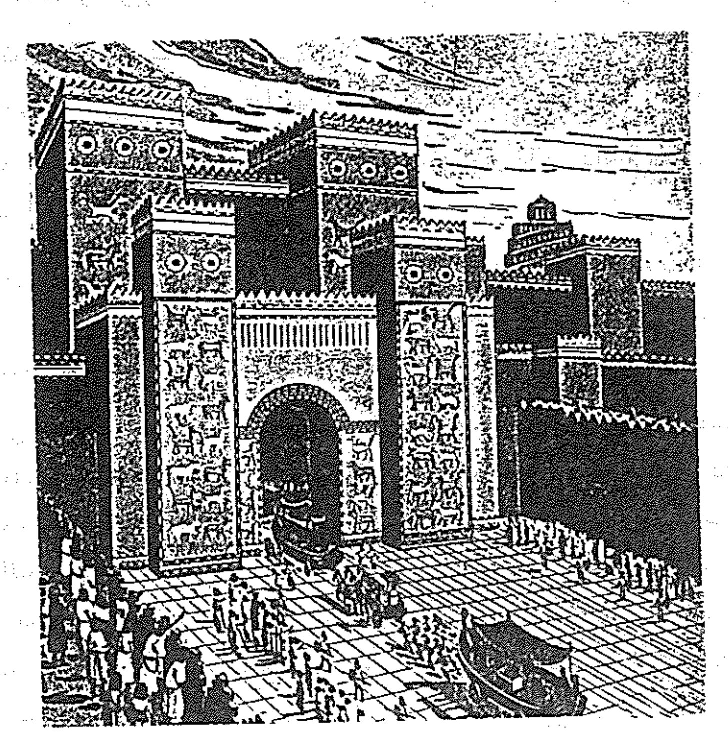
كما أنها ترفع إلى عرشها من تهواه من البشر. حتى أصبحوا الأزواج الأعزاء لها. فمثلا اجتذبت سرجون الأكدى من مركزه الوضيع لتجلسه على العرش. وهى التى سعت وراء أشور ناصر أبلا فى الجبال المجهولة لتنشئه ليرعى شعبه وتمنحه حكم أشور. ومن حَبَتهم بعطفها ومنحتهم حبها رفعتهم إلى السلطان. والحب الجسدى هبة من عشتار. هى ربة العشق وملكة اللذة. وهى زوجة وعشيقة لكبار الآلهة. وهى التى تحدد مصائر البشر.

وأقيمت لها معابد فى أوروك. وأكد وسيبار. ثم انتقلت عبادتها إلى نينوى.

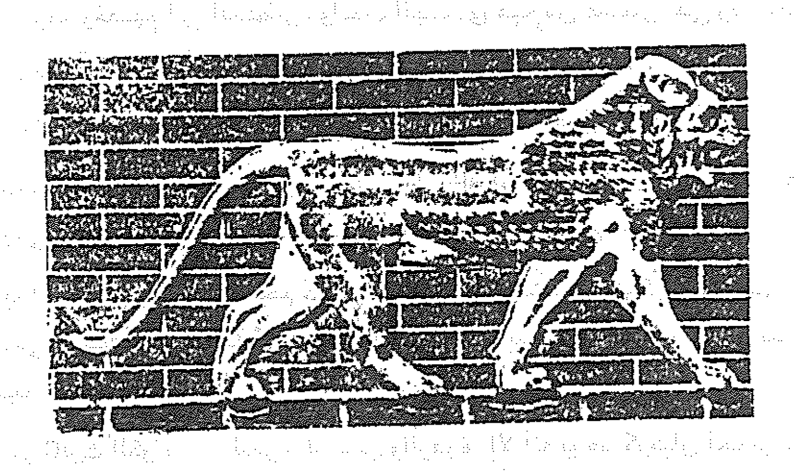
وعبدت فى أشور وكذلك فى كثير من المدن على الفرات حتى حاران بل وامتدت عبادتها فى الشرق. وفى «عيلام» كانت تعبد فى سوسة العاصمة وعرفت باسم «سيدة عيلام».

وفى بابل كان يوجد باب ضخم كبير يسمى بوابة عشتار (شكل ١٧) يؤدى إلى معبد عشتار. وفى الاحتفالات الدينية كان موكب الملك والكهنة يمر من هذه البوابة فى طريق مرسوم على جانبيه «أسود» (شكل ١٨).

هذا هو ثالوث الكواكب : القمر والشمس والزهرة. إلا أنه يوجد كوكبان آخران عبدا بجوار هذا الثالثوث، هما المشترى «مردوك» و «نابو» المريخ.



شكل ١٧ – رسم لبوابة عشتار ببابل



شكل ١٨ – أحد الأسود التى كانت تزين الأسوار المحيطة بطريق الموكب

٤ - مردوك :

هو رب المشترى، وكان مركز عبادته مدينة أور، وهى المدينة التى كان بها إبراهيم عليه السلام، ولما كسر الأصنام فى المعبد علق الفأس فى إحدى أذنى تمثال الإله مردوك، فهو كبير الآلهة.

«قال بل فعله كبيرهم هذا»، (٦٣ - الأنبياء)

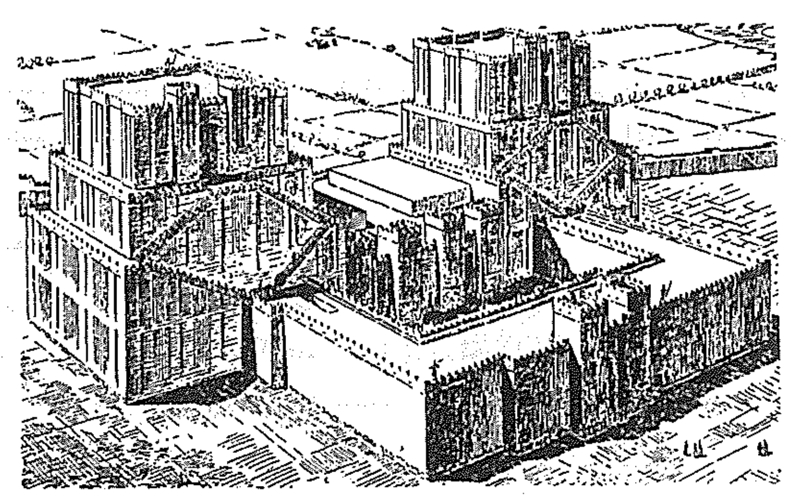
وبلغ «مردوك» أو «مردوخ» شهرة عظيمة فى المنطقة لأنه كان أيضا المعبود الرئيسى فى بابل، واستمرت عبادته حوالى ١٥٠٠ عام ٢٠٠٠ ق.م. تقريبا حتى سقوط بابل فى عام ٥٣٩ ق.م. إذ نقرأ قول إرميا النبى العبرانى عند سقوط بابل: قولوا أُخذت بابل، تضعضعَ مردوخ.

وكوكب مردوك هو المشترى Jupiter. ومردوك هو الإبن البكر لـ «إنكى» أو «إيا» إله الماء، وهو إله إريدو، المدينة المقدسة وهذا ما أعطاه مركزا مرموقا فى بابل وكل مدن الجنوب.

ولمردوك أربعة عيون وأربعة آذان، وهو «أعقل العقلاء» و «الواعى بين الآلهة». وقد أسس له الآلهة معبدا فى بابل (شكل ١٩) عرفانا لجميله بعد أن أنقذهم من خطر كان قد تهددهم، ولمردوك خمسون إسما . بل هو يتمثل فى جميع الآلهة الأخرى أو أن الآلهة الأخرى ماهى إلا صورة من صوره، و «نرجال» إله المعارك هو مردوك، و «إنليل» سيد الآلهة هو مردوك و «سن» المضئ بالليل هو مردوك وهكذا . وكما تتركز فى «عشتار» كل المعبودات الأنثى، تتركز فى «مردوك» أيضا كل المعبودات الذكر، ومن ألقابه «بل» أى سيد الآلهة قاطبة. ويصور فى المعابد بتمثال وعلى رأسه تاج مخروطى عالى وله لحية وشعره منسدل وراء رأسه ويرتدى ثوبا طويلا تزينه نجوم ينسدل إلى قدميه، ويمسك بيده اليسرى المضمومة إلى صدره، رمز القوة وهى دائرة وعصا . أما يده اليمنى فممتدلية إلى جانبه، ويحميه الثعبان الأحمر، وهو حيوان له رأس ثعبان وجسد مغطى بالفلوس وله ذنب عقرب والمخلبان الأماميان مخلبا أسد أما الخلفيان فمخلبا نسر (شكل ٢٠).

وهو فى السلم الإله الخيِّر الذى يرعى الأقوات والشراب ويشرف على الأعمال العمرانية وهو لا يستخدم أسلحة الحرب إلا للدفاع عن الوطن، وقد ورث عن أبيه «إنكى» العلم والسحر، وعند ممارسة السحر كان الكهنة يذكرون اسم «مردوك» ويتلون الرقى والتعاويذ، فهو الذى يشفى المرضى ويحيى الموتى، وفى الأمور المستعصية كان «مردوك» يلجأ إلى أبيه «إنكى» طلبا للمعونة.

وزوجة «مردوك» هى «ساربانيتوم» أو «صبرانيتم» بمعنى الوضاءة كالفضة، وهى «التى تخلق مع مردوك النطفة»، وهى تدعى مع زوجها للخروج فى عيد رأس السنة من قدس الأقداس، ليتقدما موكب الآلهة، وقد انتشرت عبادة «مردوك» من العاصمة إلى كل أنحاء



شكل ١٩ – رسم لزقورة بابل والمعبد
الرئيسي لعبادة « مردوك »



شكل ٢٠ – الإله «مردوك»
وبجانبه الثعبان الأحمر

الإمبراطورية، وكانت تماثيله توضع فى المدن الأخرى إلى جانب تماثيل المعبودات المحلية. ولما غزا الأشوريون بابل قدموا ولاءهم لـ «مردوخ». وتقول الأساطير إن آخر ملوك بابل قد أحضر إله منافسا لمردوك ووضع تمثاله فى بابل. فعاقبه مردوك وعاقب قومه باستعداء الأجانب عليهم، فكان دخول الفرس إلى بابل!!

٥ – « نابو » ابن مردوك :

وكوكبه هو المريخ. وهو يرتبط ارتباطا مباشرا بعبادة مردوك وفى الاحتفالات الدينية يستقر إلى جانب أبيه «مردوك» وهو يحدد أقوات البشر فى السنة القادمة. ودور «نابو» فى ذلك هو كاتب الآلهة. فهو «سيد القلم» وهو يسجل ما يحدده «مردوك» من أقدار وأعمار البشر. ونابو هو أيضا «إله السمع» كبير الأذنين (شكل ٢١).

٦ – « أشور » :

وأشور من الآلهة الوطنية وهو إله مدينة أشور مدينة الأشوريين وهو زوج «كيشار».

وحينما كانت السيادة للإمبراطورية الأشورية، انتزع «أشور» السيادة من «مردوك» وأصبح «أشور» هو كبير الآلهة أو «إنليل الآلهة» وهو الذى يفتتح المواكب الدينية. ويصور «أشور» واقفا فوق حيوانين خرافيين أحدهما تنين «مردوك» والآخر أسد. وأحيانا يصور على هيئة حيوان برأس بشرى وجسم أسد وله جناحان. (شكل ٢٢).

آلهة أخرى :

١ – «نينازد» إله الطب (وكان مقر عبادته إشنونا).

٢ – «إيرو» رب الحرب وله معبد فى كوتة شمال بابل.

٣ – «لهار» رب الماشية .

٤ – «أشنان» رب الغلال .

٥ – «نينتو» أو «ماما» ربة الأمومة. كانت تعبد فى دويلات وسط سومر – جرشو ولجش – وفى بعض البلاد كان اسمها «ماه».

٦ – «دموزى» رب خصوبة الأنعام وخصوبة الأرض. والذى يظل حبيسا خلال فصل الجفاف، ثم فى شهر يوليو من كل سنة يتخيلون أن «دموزى» بعث من جديد وتزوج «إشتار» العروس. كناية عن عودة خصوبة الأرض والأنعام وبداية موسم زراعى جديد ولذلك سمى شهر يوليو «تموز» إشتقاقا من «دموزى».



شكل ٢١ - تمثال الإله « نابو »
ابن « مردوك »

شكل ٢٢ - تمثال للإله « أشور » عثر عليه فى مدينة دور شاروكيم
حيوان مجنح له جسم أسد ورأس إنسان

وبنوا لآلهتهم المعابد. وكانوا يقدمون لها القرابين من غنم وماشية. وأحيانا كانوا يضحون بأبنائهم تقربا للآلهة.

واختارت بعض النسوة أن يضحين بأجسادهن تقربا للآلهة. وكانت التضحية بالجسد تعنى أن يقدمنه لكل راغب متعة. وهكذا انتشرت فى معابدهم الطبقة المعروفة باسم «البغايا المقدسات».

نظرية الخلق :

تخيل **السومريون** أن السماء والأرض فى بداية أمرهما كانتا ملتصقتين. ومن الصعب تصور أن السومريين أتوا بهذا من تلقاء أنفسهم فمن ينظر إلى السماء ومابها من شمس وقمر ونجوم يدرك أنها بعيدة جدا فلابد أن هذا المعنى تناقلته الأجيال عن آية قالها نوح عليه السلام ومعناها كالآية التى وردت فى القرآن الكريم:

«أو لم الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما» (٣٠ - الأنبياء)

وكما سبق أن قلنا فى الجزء الأول (ص ٦٩) - أنه فى بعض الأحيان كانت بقايا الديانات السماوية - تصل إلى الكهنة فيجدون فيها ما يطعمون به أفكارهم ومن ثم تفسيراتهم الدينية.

تخيل السومريون أن السماء والأرض فى بداية أمرهما كانتا ملتصقتين يحيط بهما محيط مائى عظيم. وكان فى السماء إله مذكر هو «آنو» الذى اعتبروه الجد الأكبر للمعبودات. وفى الأرض إلهة مؤنثة هى «كى»، ونتج عن اتصال هذين الزوجين عنصر ثالث هو «إنليل» أو «ليل» رب الهواء والأنفاس والفضاء الذى تدخل بينهما وفصل السماء عن الأرض، ورفع «أنو» بسمائه إلى أعلا. وحط أمه «كى» الأرض إلى أسفل حيث اختلط بها وترتب على وجوده معها أن بدأ ظهور بقية الأرباب. وكان أكبر أبناء «إنليل» هو القمر ويسمى «ننا أو ننار أو نانور».

وكان هناك أيضا منذ القدم «إنكى» روح الماء المحيط بالسماء والأرض ابن «نمو» عنصر الأمومة فى المحيط الأزلى زوج «ننماح» السيدة العظمى أو «نينتو» أى السيدة الوالدة.

وفى **أسباب خلق البشر** كان السومريون يعتقدون بأن الناس ما خلقوا إلا ليعبدوا الأرباب ويخدموهم ويوفروا القرابين لمعابدهم. وتصوروا أن الأرباب عاشوا فى بداية خلقهم هائمين لا يقدرون على شيئ من أمرهم، حتى خلق إلههم الأكبر الأنعام من أجلهم ووكل بها «لهار» وأنبت الغلال ووكل بها «أشنان» أخت «لهار» فطعموا ولكنهم لم يحسوا الشبع طعما. فاتجهوا بضراعتهم إلى المعبود الحكيم «إنكى» ووسطوا لديه أمه - روح الأمومة فى المحيط الأزلى - فقالت له: قم إذن يابنى. ولنصنع شيئا لائقا. لنصنع بشرا عبيدا للأرباب. فاستجاب لها. وقال

لها: إضربى لب الطين الموجود فوق مياه العمق. وشكلى أنت له أعضاءه وجوارحه. واربطى عليه صورة الآلهة. ذلك هو الإنسان. ثم قدرى له مصيره يا أماه وأرادت الأساطير أن تعلل خلق ناقصى التكوين أى التشوهات الخلقية من هذا المنطلق فقالوا إن إنكى أسرف ذات مرة فى الشراب فقبضت «ننماخ» زوجته قبضة من طين مياه العمق وأرادت أن تقلد أمه فى الخلق فخلقت خلقا مشوها. وشاء «إنكى» أن يلهو بدوره ويجرب حظه فى الخلق فقبض قبضه من الطين وشكلها. ولكنه فشل وصنع مخلوقا لا يعرف الكلام (المولود أصم أبكم) ولا أكْل الطعام (المولود بتخلف عقلى أو شلل)..!

أما نشأة الوجود عند **البابليين** فكانت كما يلى: إن أصول الأشياء كلها ترتد إلى ماء أزلى اختلط عذبه بمالحه. ومثل العذوبة فيه «أبسو» وهو مذكر. ومثلت الملوحة فيه «تيامة» وهى أنثى. ولم تكن هناك سماء ولا أرض بعد. بل كانت المياه العذبة والملحة فقط ثم نشأت أجيال الأرباب فى جوف ماء البحر جيلا بعد جيل. وتصارع الأرباب الصغار واشتد صخبهم فسلطت عليهم الزواحف والكواسر. واستعانت كذلك بإله قديم يدعى «كنجو». وعجز الأرباب عن مقاومة هذا الحلف فتخيروا من بينهم «مردوك» لقيادة الحرب ضدهما. واستعان بالسحر حتى تصيدها بشبكة وأطلق عليها ريح السموم فشل حركتها. ثم قيدها وذبحها. وفعل كذلك بحليفها «كنجو» واسترد منه ألواح القدر. ثم عاد إلى الماء الأزلى فشقه نصفين وجعل نصفه الأعلى سماء ونصفه الأسفل أرضا. وعين فى السماء حرسا ونظم ماءها وعين موضع الأرباب. وأرسى الأرض وجبالها وأنهارها وفجر العيون والينابيع. ووقع غرم العمل فى إصلاح الأرض على فريق من الآلهة. فتظاهرت وأعلنت احتجاجها أمام قصر الإله الأعظم «إنليل» واستفتى بطانته من مجمع الأرباب. واستقر رأيهم على خلق الانسان كى يحمل عبء العمل فى الأرض ويخدم المعبودات ويكد من أجل إقامة معابدها وتوفير قرابينها. وعهدوا إلى الربة الأم «ننتو» بأن تخلق الإنسان الأول. فأخذت الطين النقى الطاهر. وتفلت على الطين وعاونها «إيا» وشكلت من الطين سبعة ذكور وسبع إناث. وقدر تسعة شهور لحمل الإناث وبين دقات الطبول وقراءة التعاويذ خرج الإنسان الحى!!.

وتكاثر الناس واشتد صخبهم وضجيجهم وضاق «إنليل» فأمر «نمتار» بأن يبتليهم بالأوبئة والأوجاع ليقلل أعدادهم. وابتلاهم كذلك بالقحط وحبس المطر والمجاعة.

ولما زادت شرورهم ابتلاهم بالطوفان كما سبق أن ذكرنا فى ملحمة جلجاميش . (صفحة ١١٦ ، الجزء الأول).

وانعكست الصراعات السياسية على مراكز الأرباب والآلهة. فإله الدولة المنتصرة يسود على غيره من الآلهة وتتوارى آلهة الدول المهزومة. وقلنا سابقا إن «مردوك» أصبح كبيرا للآلهة

فى عصر السيادة البابلية. ولما استعادت لجش حريتها وقوتها عاد لإله لجش «نين جرسو» مكانته وكذلك «نين جيزيدا» إله الشمس و «نيسابا» إلهة العلم. واستقلت أيضا دولة أوروك واستعادت الآلهة «إنانا» و «آنو» و «أوتو» مكانتهم.

وظهرت أسطورة إنكيدو وبطلها المعبود «إنكى» الذى أراد أن ينتقم من الوحش «كور» لاختطافه الربة «إرشكيمال» وأخذها إلى عالمه السفلى. فتتبعه «إنكى» فى قاربه حتى انتصر عليه وأيد انتصاره بتحكمه فى مياه الأعماق وسمى بالإله «إيسو».

ورويت أسطورة أخرى (عبد الحميد جودة السحار. محمد رسول الله. جـ١ ص ١٨):

فى الوقت الذى لم يكن الإنسان قد خلق بعد. يوم كانت مدينة نيپور لا يسكنها إلا الآلهة كان «إنليل» إله الهواء هو رب الأرباب وكانت «ننليل» عذراء المدينة. وكانت أمنية أمها العجوز أن تزوج ابنتها من فتى مدينة الآلهة ورب الأرباب.

وذات يوم دعت الأم ابنتها وقالت لها: تمشى يا ابنتى على شاطئ النهر وفى المجرى الصافى اغتسلى. فإن ذا العينين المشرقتين - إنليل العظيم الذى بيده المصائر - سيراك وسيشغف بك حبا. فاتبعت ننليل نصيحة أمها. وبينما هى تمشى على الشاطئ بعد أن اغتسلت فى المجرى الصافى رآها إنليل وفتن بجمالها وراودها عن نفسها فأبت فحملها إلى قارب فى النهر واغتصبها فحملت فى «سين» إله القمر وفزعت الآلهة لما ارتكبه «إنليل» وطردته من المدينة وألقت به فى العالم السفلى - العالم الذى لا رجعة منه.

ولعل أهل بابل قد ابتدعوا هذه القصة ليحطوا من قدر «إنليل» وينصبوا «مردوخ» إلههم كبيرا للآلهة وربا للأرباب.

وأسطورة أخرى يرويها بستانى عن «أنانا» البغى المقدسة فيقول: ذات يوم بعد أن عبرت ميلكتى السماء وعبرت الأرض - بعد أن قطعت بلاد عيلام وبلاد أشور اقتربت البغى المقدسة «أنانا» من البستان. ومن أثر تعب السفر غطت فى النوم. فرأيتها عند حافة البستان. وقبلتها وجامعتها وعدت إلى مكانى. وطلع الفجر وأشرقت الشمس فاستيقظت «أنانا» وفطنت إلى ما وقع لها.. فأخذت تتلفت فزعة وجلة وهبت لتنتقم لما نالها. فملأت جميع آبار البلاد بالدم. فامتلأت جميع الأحراش والبساتين فى البلاد بالدم. لقد صار العبيد يذهبون للإحتطاب لا يشربون إلا الدم. والإماء إذا ماجئن للتزود بالماء لا يملأن قربهن إلا بالدم. لقد قالت لأجدن من جامعنى فى جميع أرجاء البلاد. ويختم بقوله ولكنها لم تجد الذى جامعها. وهى أيضا أسطورة تهدف إلى الحط من آلهة السومريين.

وفى قصة أخرى يسرق رب الطير «زو» ألواح القدر من أربابها فيجمعون أمرهم على الانتقام منه.

وقصة أخرى صورت «سين» رب القمر البابلى - يعشق إحدى بقراته فينقلب ثورا ليضاجعها.

و «آنو» إله السماء يطرد إبنته «لاماشتو» من السماء إلى الأرض لسوء سلوكها.

وكثرت القصص التى وضعها المهزومون للحط من قدر آلهة الدول التى انتصرت عليهم.

هذا جانب من الضلال الذى انتشر، وهو معنوى أصاب الناس فى تفكيرهم وأخلاقياتهم، إذ يرون الآلهة وهى ترتكب الخطيئة أو تنسب إليها كل النقائص، فكيف يطلب من البشر سلوك الأخلاق الحميدة؟!!

أما الجانب الآخر، فهو الجانب المادى، وما أصاب الطبقة العاملة من الشعب من إرهاق إذ تكد وتكدح لتوفر المأكل والمشرب والملبس بل وكل متع الحياة لمئات المشتغلين فى المعابد من كهنة وحراس وخدام المعابد ومقدمى القرابين والسحرة والمنجمين والعرافين ... و ... مئات بل آلاف، على الشعب الكادح أن يتولى معيشتهم المرفهة فى قصور أو بيوت فاخرة، وفضلا عن ذلك فعليه تقديم القرابين من ماشية وأغنام فى الأعياد وجميع المناسبات لتكون من نصيب الكهنة وخدام المعبد - وإلا كان التهديد بغضب الآلهة!!

فى مبدأ الأمر كان الملك هو الذى يقوم بتقديم فروض العبادة وتقديم القرابين على المذبح المعد لذلك فى دور العبادة، وكان دوره أن يكون وسيطا بين المعبود «الإله» والبشر، ولما لم يكن الملك يستطيع القيام بهذه المهام وحده فى جميع المعابد لذلك نشأت طبقة الكهنة لتسهر على القيام بالواجبات المفروضة نحو المعبود، وبعد ذلك تحولت هذه الطبقة إلى طبقات متعددة ومتباينة، واتخذوا لهم عبيدا وجنودا، وخُصصت لهم أراضى وممتلكات، وكان الملك دائما هو الكاهن الأكبر للإله الوطنى فى العاصمة، كما كان الأمير هو الكاهن الأكبر لمعبود المدينة وكان منصب الكاهن الأكبر منصبا يسيل له لعاب الأمراء، إذ هو من الشخصيات المهمة وله ميزات معنوية ومادية كبيرة، يليه فى الأهمية كاهن يسمى حارس المعبد وهو الذى يفتح المعبد صباحا بعد أن يباشر طقوسا ويتلو صلوات معينة ثم يفتح المعبد للمصلين وكان الكاهن هو الذى يتولى تتويج الملك من قبل الإله فى كل عام فى احتفال كبير يقام بهذه المناسبة.

ثم يأتى بعد ذلك طبقات من الكهنة، منهم المرتلون والبكاؤون والضاربون بالطبول، هذا بالإضافة إلى المغنين والعازفين، ولكل طبقة عملها واختصاصها فى الطقوس وممارساتها، ثم هناك غيرهم من طبقة الصناع والغسالين، ثم الكاهنات والمحظيات المقدسات، ثم المندورون والمنذورات، وكان هناك أكثرمن ٤٠ طبقة من سدنة المعبد يقومون على الخدمة فى المعابد ومباشرة الطقوس، فمنهم من يتولى شئون التطهير ومنهم من يختص بشئون الدهن والمسح المقدس ومنهم من يعنى بالسحر والعرافة والتنجيم.

ولكل فئة زى خاص. وكان لهم أيضا أنصبة ثابتة من إيرادات المعابد وما يقدم إليها من نذور أو قرابين على هيئة حبوب أو أوانى النبيذ أو ذبائح من ماشية وأغنام.

ومن الطريف أن نذكر كيف كان الكهنة يقومون باستطلاع الغيب. فقد كان ذلك يتم عن طريق دراسة الكبد أو دراسة الأوانى.

أما كبد الحيوان فلأنه كان ينظر إليه باعتباره مركز الحياة. وتبدو عليه كما تبدو على المرآة رغبات المعبود الذى تقبَّل الأضحية. وكان من الضرورى أن يكون الحيوان مبرءا من العيوب. وتقام طقوس خاصة عند تقديمه وذبحه على المذبح. ويتم ذلك فى ساعة محددة. وكان يُنظر إلى أن الأضحية كأنما أصبحت جزءا من المعبود مادام قد تقبلها. وهى فى الوقت نفسه جزء من مقدمها الذى يُسمح له بأن يأكل جزءا منها وهكذا تمتزج روح الإله بالذبيحة بروح الإنسان فيستطيع أن يعرف ما تشير به الآلهة. وعراف الكبد يسمى «بارو» وهو يتقدم نحو الإله حاملا معه موقده ومائدته ومعه خمر وخبز وبعض من الزبد والعسل والملح. ويأخذ بيد صاحب الأضحية ويستأذن المعبود فى تقديمها. ثم تنحر الذبيحة ويختص المعبود بأطيب أجزائها. ثم يفحص العراف الكبد ويلاحظ خطوطه وتشققه ويقدم نتيجة دراسته (كما يفعل قارئ الفنجان فى أيامنا هذه).

أما العرافة عن طريق الأوانى فتتم بواسطة وضع الماء على الزيت فى إناء ومشاهدة حلقات الزيت وتحركاتها فوق الماء. ويستطيع العراف عن طريقها أن يقدم رأيه فى ما قد يحدث للمريض من موت أو شفاء أو عما قد يحدث لمشروع ما من نجاح أو فشل وهكذا .

لا بعث ولا حساب !!

فى هذه المناطق من الشرق الأدنى القديم. لم يكن هناك اعتقاد ببعث أو حساب فى حياة آخرة! (د. نجيب ميخائيل إبراهيم – مصر والشرق الأدنى القديم جـ٦ ص ١٧٩). مقر الجسد القبر حتى يبلى. أما الروح فتنتقل إلى عالم سفلى هو عالم الأرواح تخلد فيه. وليس هناك إشارة واضحة إلى زيارة الروح للجسد بين حين وآخر أو حياة آخرة تعود فيها الروح إلى الجسد الذى كان لها فى الدنيا. فالجسد مصيره الأرض التى لا رجعة منها. والأرواح أيضا فى عالم لا رجعة منه. وهكذا لا ثواب ولا عقاب. فإذا كان الأمر كذلك فإن الحياة الدنيا فى رأيهم هى موطن الراحة والمتاعب. يلقى الإنسان فيها مايلقى، ولا ينتظره من بعدها شئ. لا أمل لمهضوم حق فى أن ينال تعويضا عن الظلم الذى حاق به، ولا لمعذَّب فى سبيل الحق أن ينال جزاء حسنا، ولا عقوبة لمجرم استطاع أن يضلل العدالة فى الدنيا فليس هناك حساب دقيق للحسنات أو السيئات، وليس هناك إله ترعى عينه كل شئ وتحصى كل شيئ. ولا تغفل

عن شيئ. فلا عقاب على مسيئ ولا ثواب لخيِّر لم ينل ثوابا فى حياته. إذن فكل الأعمال مردودها هنا على الأرض. فثمن الفضيلة وجزاء الرذيلة هنا على الأرض. والواقع أن عدم وجود حياة آخرة كان هو المعتقد السائد فى كل شعوب العالم القديم ماعدا مصر (انظر الجزء الأول ص ٧٦).

أما الشرائع فكانت تؤكد على ضرورة طاعة الملك. وتركز على تقديم القرابين للآلهة – وبالطبع كان الكهنة هم الذين يأخذونها.

هذا الاعتقاد الخاطئ – بعدم وجود حياة آخرة – هو الذى أشاع الظلم والفساد فى الأرض وأشاع التجبر والاستعباد. وليس للعدل ولا للرحمة مكان. والشعب المطحون لا يملك إلا نسيان بؤسه بشرب الجعة والنبيذ.

وكان لابد للسماء أن تتدخل

لتنقذ البشرية من هذه الضلالات

فكان إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم عليه السلام

هو إبراهيم بن تارح (أو آزر) بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد (أرفخشد) بن سام بن نوح عليه السلام.

وهذا جدول مواليد نوح إلى إبراهيم حسب ما جاء فى التوراة. وعمر كل منهم حينما وُلِدَ له ابنه وعمره الكلى.

نوح وُلِدَ له سام عند عمر ٥٠٠ سنة وعمر نوح كله ٩٥٠ سنة .

سام وُلِدَ له أرفكشاد عند عمر ١٠٠ سنة فى عام الطوفان وعمر سام ٦٠٠ سنة .

أرفكشاد وُلِدَ له شالح عند عمر ١٣٥ سنة وعمر أرفكشاد كله ٤٣٨ سنة .

شالح وُلِدَ له عابر عند عمر ٣٠ سنة وعمر شالح ٤٤٣ سنة .

عابر وُلِدَ له فالج عند عمر ٣٤ سنة وعمر عابر كله ٤٦٤ سنة .

فالج وُلِدَ له رعو عند عمر ٣٠ سنة وعمر فالج كله ٢٣٩ سنة .

رعو وُلِدَ له سروج عند عمر ٣٢ سنة وعمر رعو كله ٢٣٩ سنة .

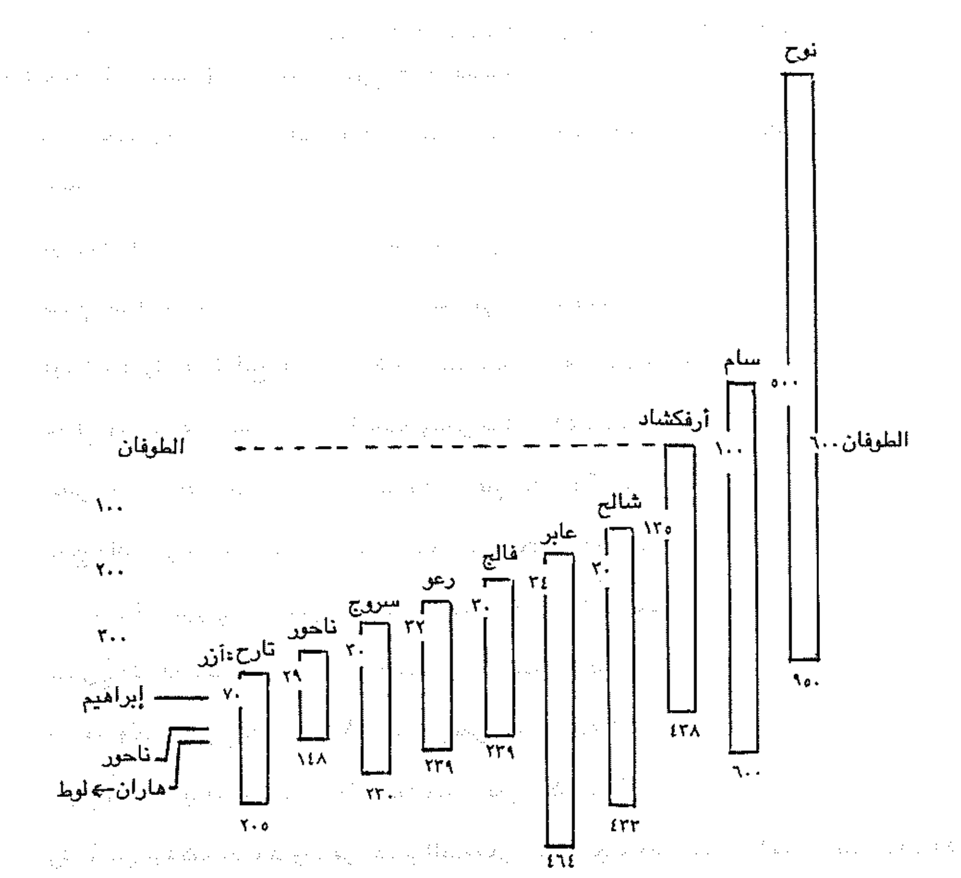
سروج وُلِدَ له ناحور عند عمر ٣٠ سنة وعمر سروج كله ٢٣٠ سنة .

ناحور وُلِدَ له تارح عند عمر ٢٩ سنة وعمر ناحور كله ١٤٨ سنة .

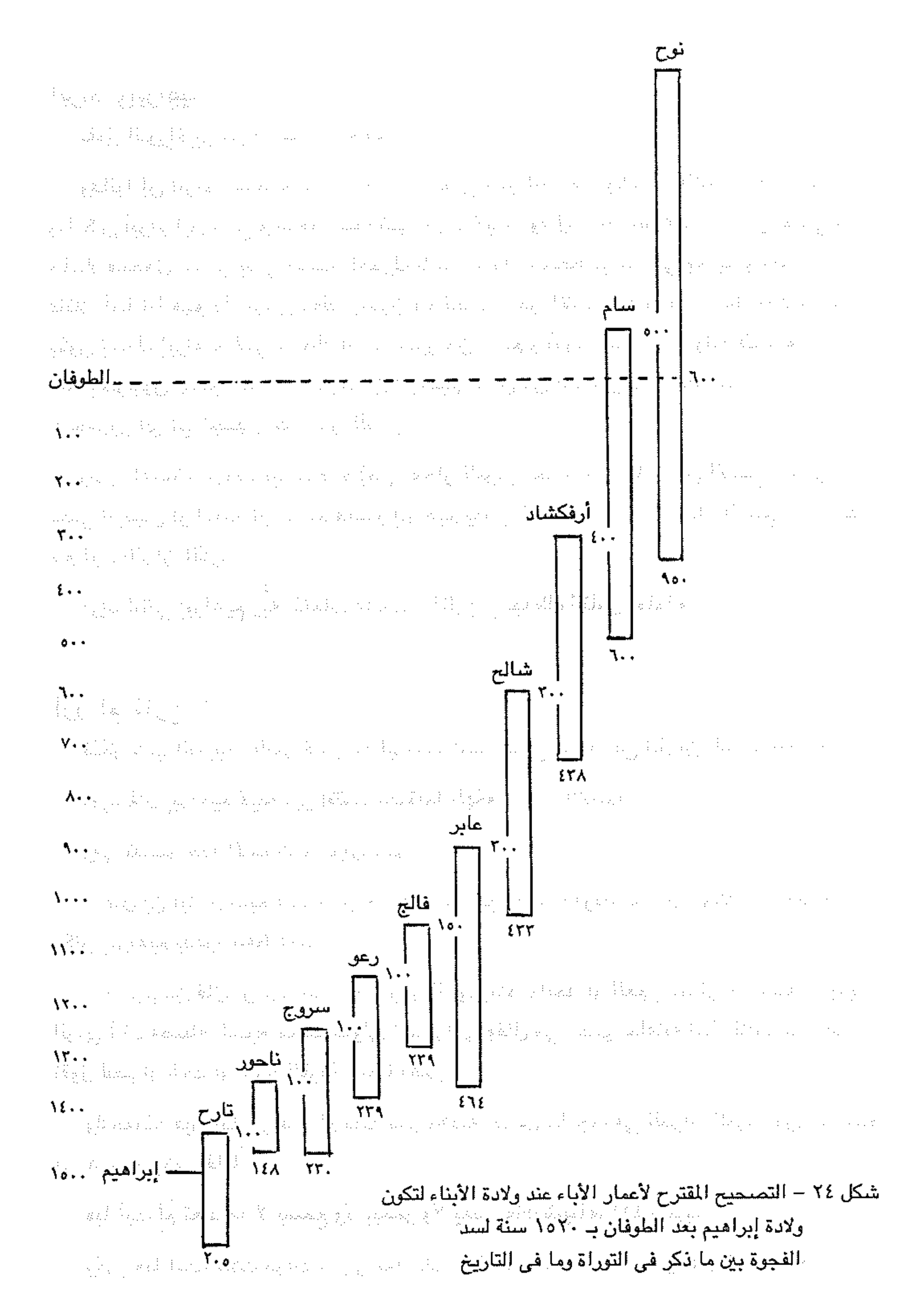
تارح وُلِدَ له أبرام عند عمر ٧٠ سنة وعمر تارح كله ٢٠٥ سنة .

ولما كان أرفكشاد قد ولد فى عام الطوفان. فإذا جمعنا أعمار الآباء عند ولادة الأبناء لوجدنا أن إبراهيم ولد بعد الطوفان بـ ٣٩٠ سنة ١٣٥ + ٣٠ + ٣٤ + ٣٠ + ٣٢ + ٣٠ + ٢٩ + ٧٠ = ٣٩٠ سنة ويظهر ذلك بوضوح من شكل ٢٣.

ولكن فيما سبق رأينا أن العصور والأمم التى مرت على العراق بعد الطوفان – وهى العصر الحجرى الحديث ثم الحضارة النحاسية الحجرية ثم حضارات العبيد ثم الوركاء – ثم عصر بداية الأسرات السومرى وغيرها كل ذلك استغرق حوالى ٢٠٠٠ أو ١٥٠٠ عام على أقل تقدير وهذا يدل على أن الأعمار المذكورة فى التوراة عند ولادة الأبناء ليست دقيقة. ويحق لنا أن نفترض تصحيحاً لها حتى تكون ولادة أبرام بعد الطوفان بحوالى ١٥٠٠ سنة وهو ما يتفق مع العصور التاريخية التى مرت على العراق وشكل ٢٣ يبين الأعمار كما جاءت فى التوراة وشكل ٢٤ يبين التصحيح المقترح.



شكل ٢٢ – رسم توضيحى لشجرة النسب من نوح إلى إبراهيم عليهما السلام – حسب ما جاء فى التوراة
الرقم بجوار العامود هو عمر الأب عند ولادة الإبن
الرقم أسفل العامود هو العمر الكلى للأب



شكل ٢٤ – التصحيح المقترح لأعمار الأباء عند ولادة الأبناء لتكون ولادة إبراهيم بعد الطوفان بـ ١٥٢٠ سنة لسد الفجوة بين ما ذكر فى التوراة وما فى التاريخ

أبرام وإبراهيم :

تقول التوراة إن تارح سمى ابنه أبرام

وقالوا إن أبرام مشتقة من أب + رام بمعنى «أبو العلا». وجاء فى الاصحاح ١٩ تكوين: ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له أنا الله القدير. سر أمامى وكن كاملاً فأجعل عهدى بينى وبينك وأكثِّرك كثيراً جداً. فسقط أبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلا: أما أنا فهو ذا عهدى معك. وتكون أباً لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمك بعدُ أبرام بل يكون إسمك إبراهيم لأنى أجعلك أباً لجمهور من الأمم وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً. وملوك منك يخرجون. ويقول علماء التوراة إن إبراهيم مكون من أب + راب + هام بمعنى أب + كثير + جمهور أى أب لجمهور كثير من الناس.

ويرى الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن. جـ ١ ص ٢٦٩) أن الأصح هو أن راب تعنى الرئيس أو المعلم أو الإمام فاسم إبراهيم يعنى الأب الإمام أو الأستاذ الإمام وهذا يتفق مع قول القرآن الكريم.

«وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمَّهن. قال إنى جاعلك للناس إماماً». (١٢٤ – البقرة)

آزر أم تارح ؟

تذكر كتب التاريخ والتوراة أن أبا إبراهيم اسمه تارح. وجاء فى القرآن الكريم قوله تعالى:

«وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة». (٧٤ – الأنعام)

وفى تفسير هذا الاختلاف أقوال كثيرة .

– قيل إن أبا إبراهيم اسمه تارح ولكنه مات قبل ولادته فرباه عمه آزر وكان له بمثابة الأب وكان إبراهيم يدعوه بلفظ الأبوة.

– ومنهم من قال إن آزر اسم جده وهو الذى رباه. والجد أو العم يسميان أبا مجازا. وبهذا الرأى أخذ فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى وقال فى إحدى حلقاته إننا. للآن، فى القرى، نقول للعم أو للجد أو شيخ القرية «أبويا» فلان.

وللحقيقة فإن أبا إبراهيم لم يمت قبل ولادته. بدليل ما جاء فى القرآن الكريم من مناشدة إبراهيم له ليؤمن قائلاً.

«يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً». (٤٢ – مريم)

وكرر «يا أبت» ثلاث مرات أخرى بعد ذلك. ويا أبت خطاب أقرب لأن يقال للأب الفعلى.

وعندنا في قصة نبينا عليه الصلاة والسلام خير مثال فقد كفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب وهناك أكثر من حديث شريف كلها تبدأ ياعم. أشهرها يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري... الخ الحديث. ولم يقل يا أبت مع أنه قد رباه وكان له بمثابة الأب.

كما أن المأثور أن إبراهيم عليه السلام عند خروجه من أور أخذ معه والده ولم يمت والده قبل ولادة إبراهيم كما يقولون. بل مات في حاران ودفن هناك.

وقيل إن أباه لم يمت.. وكان آزر هو والده حقاً وكان له اسمان يدعى تارح أحياناً. وأحياناً يدعى آزر. وقاسوا ذلك على أن نبينا عليه الصلاة والسلام اسمه محمّد. واسمه أيضاً المصطفى.. وبذلك يحتمل أن اسم والد إبراهيم هو تارح. ويُسمَّى أيضاً آزر أى القوى أو المعين من المؤازرة. وقال البيضاوى إن تارح اسمه العلم وإن آزر وصف له. فإن صح ذلك يكون معناه القوى أو الناصر.

ولنا أن نتساءل: ناصر من؟ هل ناصر إبراهيم وآزره في دعوته لقومه ليؤمنوا بالله؟ العكس هو الصحيح. إذ أنه ناصر آلهة القوم. بل وهدد ابنه بالرجم فقال.

«أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم. لئن لم تنته لأرجمنك» (٤٦ - مريم)

فأين هي المؤازرة التي تستحق أن تُسَجَّل في القرآن الكريم؟ إن القرآن الكريم لا يذكر وصفاً إلاّ حقاً وصدقاً. وحينما قال

«يوسف أيها الصِدّيق أفتنا...» (٤٦ - يوسف)

فقد كان يوسف عليه السلام صدِّيقاً - صادقاً في كل أقواله. وصادقاً في كل أفعاله وصادقاً في نبوءاته.

وتارح لم يؤازر ابنه في دعوته ليكون له الشرف بتسميته آزر من المؤازرة أو المناصرة!

وقال السهيلي إن لفظ آزر كلمة ذم في لغته ومعناه أعرج، وقال آخرون ومعناه المخطئ والمخرِّف فهي كلمة زجر عن باطل. وقيل معناه يا شيخ فكأنه يقول له يا شيخ أو يا أعرج أو يامُخرِّف أتتخذ أصناماً آلهة؟ ويرى الأستاذ عبد الوهاب النجار (قصص الأنبياء. ص٨٧) أن ذلك أمر بعيد الاحتمال أن يواجه إبراهيم عليه السلام أباه بكلمات فيها تحقير أو عيب أو زجر لأن والد إبراهيم لما هدده بقوله:

«أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم. لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً» (٤٦ - مريم)

لم يكن جواب إبراهيم عليه السلام، على هذه الجفوة القاسية وهذا التهديد العنيف إلاّ أن قال:

«قال سلام عليك، سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيًّا» (٤٧ - مريم)

ويقول الشيخ أمين الخولى إن الآية كتبت آزر ولكنها قرئت قراءات مختلفة اختلفت بها معانى كلمة آزر باختلاف إعرابها. فإن قرئت آزر بالضم للنداء. والمعنى قال إبراهيم لأبيه يا آزرُ وياء النداء تحذف أحياناً من الإعلام وبذلك يكون آزر هو إسم أبى إبراهيم

وإن قرئت آزر بالنصب - فهى نعت - فلا تكون آزر علماً بل صفة: وإسم أبى إبراهيم تارح وصفته آزر.

وقرئت مرة ثالثة أأزراً بالنصب مع التنوين وفى هذه القراءة تُفَسَّر كلمة أأزرًا على أنها بمعنى القوة. الهمزة الأولى للاستفهام الاستنكارى أى أأزرًا تتخذ أصناماً آلهة؟ والمعنى الأجل القوة تتخذ أصناماً آلهة.

كقوله تعالى : **«أئفكا آلهة دون الله تريدون»** . (٨٦ - الصافات)

كقوله تعالى : **«أإله مع الله . تعالى الله عما يشركون»** . (٦٣ - النمل)

وقال فريق من المفسِّرين إن آزر اسم صنم كان يعبده تارح والد إبراهيم وكان سادناً له. والجملة فيها تقديم وتأخير وكأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه: أتتخذ آزر إلهاً. أو أتتخذ آزر أصناماً آلهة؟ وتم تقديم كلمة آزر فصارت: قال لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة؟ (وبهذا الرأى قال مجاهد. قاله السيد المرتضى الزبيدى فى تاج العروس. وقاله أيضاً الصفائى).

وقد يقول قائل: ولماذا لم يسأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة اسم أبى إبراهيم هل هو تارح أم أزر؟ وفى رأيى أن ذلك لم يحدث إذ أن المسلمين فى العصور الأولى وفى حياة الرسول لم يكونوا قد اطلعوا على ما جاء فى كتب أهل الكتاب. وبذلك أخذوا كلمة آزر على أنها إسم أبى إبراهيم ولم يكن هناك داع لسؤال الرسول عن هذا الأمر. ولكن بعد وفاة الرسول آثار مسلمة أهل الكتاب هذا الأمر. ونشط العلماء لإيجاد تفسير لهذا الخلاف وكانت اجتهاداتهم كما ذكرنا.

وآخر اجتهاد فى هذا المجال هو ما قام به الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن الكريم . جزء أول ص ٢٦٠) وخلص منه إلى أن «آزر» هى الترجمة العربية الصحيحة لاسم «تارح» العبرى. وأحيل القارئ إلى ما هو مكتوب فى الجزء الأول من هذه السلسلة فى صفحة ٤٥ عند ذكر الاختلاف فى إسم إدريس عليه السلام كما جاء فى القرآن، فى حين أن اسمه فى التوراة «أخنوخ».

ومن هذا المنطلق يرى الأستاذ رؤوف أن إبراهيم عليه السلام ولد فى أور الكلدانيين وكانت

اللغة السائدة هى البابلية. وفى هذه اللغة يمكن وضع التاء مكان الطاء كتابة ونطقاً ويكون تارح أو طارح مترادفان بمعنى الحمول أو المحملُ بما يثقل ظهره.

وجاءت التوراة وكتبت الإسم كما ينطق فى لغته الأصلية البابلية. كتبته بأحرف عبرية. ثم لما ترجمت التوراة إلى العربية احتفظت بالنطق الأصلى أيضاً بأحرف عربية «تارح».

ولكن القرآن الكريم – وقد نزل بلسان عربى مبين – لا يرتضى هذه الطريقة – أى كتابة النطق الأجنبى بأحرف عربية. لذلك أرجع اللفظ لمعناه. والجذر الأصلى لـ تارح أو طارح هو طرح. ويقابله فى العربية الجذر وزَرَ بمعنى حَمَلَ ما يثقل ظهره. والوزر هو الحمل الثقيل الذى يثقل الظهر. وجاء فى القرآن الكريم.

«ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك» . (٢ – ٣ الشرح)

وفى بعض الكلمات تتبادل الهمزة والواو مثل أكَّد ووكَّد وعليه فإن وَزَرَ يمكن أن تقلب إلى أزر.

وجاء قوله تعالى على لسان موسى :

«واجعل لى وزيراً من أهلى. هارون أخى. اشدد به أزرى» . (٢٩ – ٣١ طه)

والمعنى أشدد به ظهرى. ومن الأزر جاء آزر والآية تقول:

«كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه» . (من الآية ٢٩ – الفتح)

بمعنى المؤازرة وزيادة التحمل وشد الظهير .

ويخلص الأستاذ رؤوف أبو سعدة من هذا إلى أن آزر هى ترجمة عربية لمعنى تارح التى جاءت فى التوراة والمأخوذة نطقاً عن البابلية بمعنى الحمول أو المتحمل لما يثقل ظهره.

وقد سبق عند الكلام عن اسم إدريس عليه السلام (الجزء الأول ص ٤٦) أن ذكرنا أنه يمكن كتابة اسم : مستر كاربنتر هكذا وممكن الرجوع بها إلى ترجمة المعنى فتكون السيد النجار ومدرسة البون پاستير وترجمة معناها إلى مدرسة الراعى الصالح، وكذلك تارح إذ بترجمة معنى جذرها تصبح آزر.

فلا خلاف ولا تعارض كما حاول المستشرقون تصوير الأمر – بل هو غيرة من القرآن الكريم على اللغة العربية. وبدلاً من كتابة النطق الأجنبى بحروف عربية يلجأ إلى الجذر العربى المرادف له فى المعنى ويصوغ منه اسماً عربياً خالصاً يحمل إلى الأذهان نفس المعنى الذى يعطيه الإسم الأجنبى للناطقين باللغة الأجنبية.

وهو اجتهاد جديد – فريد فى نوعه .

أساطير عن مولد إبراهيم

تقول بعض المصادر إن المنجمين أخبروا الملك الذى وُلد إبراهيم فى عصره – أن غلاماً سوف يولد فى شهر كذا من سنة كذا من عهده، وأنه سوف يفارق دين القوم ويحطم أصنامهم، ومن ثَم فإن الملك أمر بقتل كل غلام يولد فى عهده فى المدة التى حددها المنجمون. غير أن أم إبراهيم أخفت حملها ثم وضعته سراً فى مغارة قريبة من المدينة. ونجا الوليد من القتل. وأخبرت زوجها أن الوليد قد مات. ورأى آخر يقول إنها أخبرته بالحقيقة. وكانت تتردد على الطفل يوماً بعد آخر. ورأته يشب بسرعة، قالوا كان يشب فى اليوم ما ينموه غيره فى شهر.

والرواية تثير الريبة فى صحتها. إذ كيف أخفت أم إبراهيم حملها أو ولادته عن أبيه. كذلك فإن تحذير المنجمين للملك من غلام يكون ضياع ملكه وهلاكه على يديه جاءت فى قصة موسى عليه السلام وتحقق الأمر بغرق فرعون فى حين أنه لم يؤثر أن الملك الذى عاصر إبراهيم عليه السلام قد هلك. ولعل الرواة أرادوا أن ينسبوا لمولد إبراهيم حدثاً خارقاً فوضعوا هذه الرواية.

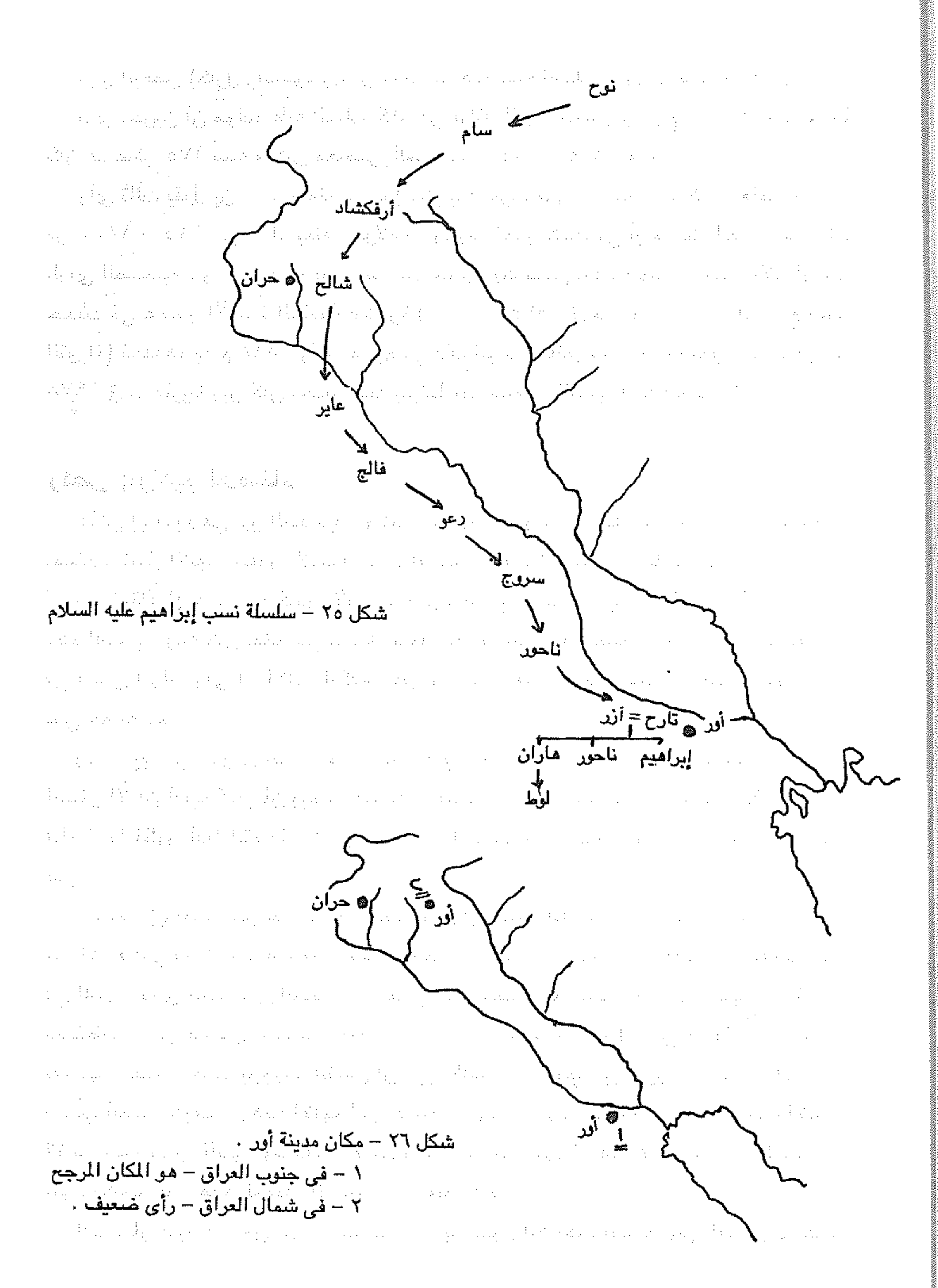
ليس من المستبعد أن يكون صحب مولد إبراهيم بعض الدلالات لما سيكون عليه شأن هذا الوليد فى المستقبل. ولكن ليس بهذه الطريقة التى ذكرت آنفاً. ويقال إن الطقوس التى كان يجريها الكهنة لإعادة تتويج الملك كل عام فى المعبد الكبير فى رعاية الآلهة. حدث بها بعض الخلل مما اعتبره الكهنة فألا سيئاً ونذيراً بحدوث شئ خطير فى المستقبل متعلقاً بآلهتهم وبالملك أيضاً!!

مكان ووقت ولادته :

أرجح الأقوال أن ولادته كانت فى مدينة «أور» ومكانها حالياً تل المقير – على الضفة الجنوبية لنهر الفرات، حوالى ١٥٠ كيلو متراً غربى البصرة (شكل ٢٥) وتسمى فى التوراة «أور الكلدانيين».

رأى آخر يضع أور فى شمال العراق إلى الشرق من مدينة حاران (شكل ٢٦). ويأخذ بهذا الرأى الدكتور محمد بيومى مهران.

والرأى الأول – القائل بأن أور فى جنوب العراق هو الأرجح إذ وجود عشرة أجيال بين نوح وإبراهيم عليهما السلام (شكل ٢٤) يجعل الإرتحال من شمال العراق إلى جنوبه. وهى مسافة تقدر بألف كيلو متر أمراً معقولاً. أما لو كانت أور فى شرق حاران بعشرة أو عشرين كيلو متر لكان معنى ذلك أن الذرية لم ترتحل وظلت فى مكان واحد وهو أمر غير مقبول.



شكل ٢٥ – سلسلة نسب إبراهيم عليه السلام

شكل ٢٦ – مكان مدينة أور .
١ – فى جنوب العراق – هو المكان المرجح
٢ – فى شمال العراق – رأى ضعيف .

يرى البعض (كارل راسموسن) أن مولد إبراهيم عليه السلام كان فى سنة ٢١٧٥ ق.م.
يرى آخرون أن مولده عليه السلام كان فى أوائل القرن العشرين ق.م. أى ٢٠٥٠ ق.م. ولما كان قد عاش ١٧٥ سنة فيكون معاصراً للفترة من ٢٠٥٠ - ١٨٧٥ ق.م.
رأى ثالث يقول إن عصره متأخر عما ذكر بما يقرب من ١٥٠ سنة. فيكون معاصراً للفترة من ١٨٠٠ - ١٦٢٥ ق.م. إذ يعتقد هؤلاء أن زيارته لمصر كانت فى أيام حكم الهكسوس. ولكن الرأى الصحيح هو أن زيارته لمصر سبقت حكم الهكسوس بمدة طويلة. وأرجح الأقوال أنها حدثت فى عصر الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٨٧٥ ق.م.). وكثير من المراجع (منها التوراة) تحددها بعام ١٨٩٨ وكان عمره فى ذلك الوقت ثمانين سنة. وعليه يكون مولده فى عام ١٩٧٨ ق.م. تقريباً وإن كان تحديد سنة بعينها أمر صعب بالنسبة لهذا الماضى البعيد.

رفض إبراهيم للأصنام :

عاش إبراهيم فى أور الكلدانيين، وكان أبوه (تارح أو آزر) نحاتاً ماهراً ذاع صيته، وكان يصنع تماثيل الآلهة. ويقول الأستاذ عبد الحميد جودة السحار إن ملك بابل أرسل فى طلبه ليصنع تمثالاً للإله مردوخ كبير الآلهة. ويقول أيضاً إن ناحور - جَدّ إبراهيم - كان أبرع من تعلَّم التنجيم. وأنه كان ينظر فى كبد شاه مذبوحة ليستطلع المستقبل (انظر ص ٣٧) ويقال أنه فى إحدى المرات رأى أن الآلهة انكفأت على وجوهها، ففزع، ولكن عاد إليه إيمانه بقدرة آلهته على حماية نفسها.

وكبر إبراهيم، ورأى أباه وهو يصنع تماثيل الآلهة فى براعة ويشكل الخشب على هيئة إنسان إلاَّ أن أذنيه كبيرتان ويحمل السلاح المقدس ويربض تحت قدميه وحش. ويقال إنه سأل أباه: لماذا تكون أذنا التمثال كبيرتين، وكان الجواب أن الأذنين الكبيرتين ترمزان إلى فهم عميق!!

وعايش إبراهيم مراحل صنع التماثيل ورأى كيف أنه أحياناً ينشق الخشب وينكسر التمثال فيلقى به والده جانباً وقد يستعمله كوقود للنار، ويصنع غيره. ولعله كان يقوم أحياناً فى الليل فيرى الجرذان والحشرات تمشى على وجوه التماثيل وتدخل أعينها وآذانها ولا تستطيع أن تردها عن نفسها. ولعله تعجب - من هذه التماثيل التى لا تملك أن تدفع عن نفسها شيئاً - كيف يرجوها الناس أن تلبىِّ طلباتهم - وكيف يركعون ويسجدون لها. ولعله تعجَّب أيضاً. كيف أن هذه الآلهة التى لا تتنفس ولا تتحرك، تَهَبُ الحياة والحركة والأنفاس للناس كما يدَّعى الكهنة ومادامت عاجزة عن الحركة وعن كل هذا فكيف يعتقد الناس أنها آلهة. وكيف تغيب هذه الحقيقة البسيطة عن عقول القوم!!

لقد كان قومه - من بين ما يعبدون - يعبدون الكواكب أيضاً. وفى الليل رأى كوكب

المشترى أو الزهرة، وساءل نفسه، هل هذا هو الإله كما يدَّعى قومه؟ ولكن بعد عدة ساعات غاب الكوكب ولعله تساءل - هل كان هذا الكوكب يستطيع أن يبقى فى السماء بدون أن يغرب؟ وكان الجواب لا. إذن فحركَتُه مُقَيَّدَة مرسومة. والإله يجب أن يكون حراً يفعل ما يشاء. وفى ليلة أخرى رأى القمر. وكان القمر فى أوج تمامه. بدراً ونوره أسطع ما يكون. وساءل نفسه أيضاً. أيكون هذا هو الإله كما يدَّعى قومه ويرمزون له ويعبدونه؟ ولكن بعد ساعات غاب القمر أيضاً، ورآه فى بعض الليالى يصير هلالاً رفيعاً جداً لا يكاد يُرى ثم يصير بدراً، ثم يصغر ويتضاءل حتى يختفى. ورأى أن هذه الدورة تتكرر بانتظام على مدى الشهور. فعلم أن حركته مرسومة له، وليس حراً إن شاء طلع وإن شاء لم يطلع. وأيقن أنه أيضاً لا يصح أن يكون إلهاً. ثم فى النهار رأى الشمس. أكبر من القمر وضوؤها أقوى ولها حرارة شديدة وفكرَّ فى أنه لو كان أحد الكواكب هو الإله لوجب أن تكون الشمس. ولكنه رأى الشمس مالت إلى المغيب. واصفر ضوؤها ثم غربت وغاب ضوؤها. وكذلك رأى أنها تشرق فى مواعيد محددة لا يمكن أن تحيد عنها. فهى إذن مسيَّرة ومجبورة على ذلك لا تملك حرية فى شروقها أو غروبها فأدرك أنها أيضاً لا يمكن أن تكون هى الإله كما يدَّعى بعض قومه.

لقد حبا الله سبحانه وتعالى إبراهيم منذ صغره بنعمة رجحان العقل والرشد وحسن تمحيص الأمور للوصول إلى حقيقتها. وكان الله عالماً لما به من كمالات. وفيه كناية عن حفظ الله له:

«ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل، وكنا به عالمين» . (٥١ - الأنبياء)

وأجال بصره فى السماء يتلمَّس الهداية والرشاد. وفى لحظة مشرقة تجلت له الحقيقة ونزل عليه وحى السماء يهديه إلى الله الواحد الأحد خالق الكون والسماء والأرض والكواكب والشمس والقمر.

لا ندرى كيف كان نزول الوحى على إبراهيم عليه السلام. هل تبدَّى له جبريل يملأ السماء ثم يضمه إليه كما فعل مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. أم كان صوتاً يقول له: إننى أنا الله لا إله إلاَّ أنا فاعبدنى كما حدث مع موسى عليه السلام. المهم أن الوحى أخبره أن الله قد اختاره نبياً لهداية قومه.

«إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين» . (٣٣ - آل عمران)

وهكذا اختاره الله نبيًا.

«واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صِدِّيقاً نبيًا» . (٤١ - مريم)

ثم أصبح رسولاً إلى قومه كما كان نوح رسولاً.

«ولقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم» . (من الآية ٢٦ – الحديد)

لا ندرى كم كان عمر إبراهيم عليه السلام عند اصطفائه. ولكن القاعدة العامة هى أن النبى لا يُبعث حتى يبلغ أشده ويبلغ أربعين سنة.

«حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة» . (من الآية ١٥ – الأحقاف)

وتبعاً لهذه القاعدة يكون الأرجح أن إبراهيم عليه السلام كان قد بلغ أربعين سنة حين كُلِّف بالرسالة. خلافاً لما قد يظنه البعض من أنه بعث فى سن صغيرة. ويستدلون على ذلك بقول القرآن الكريم على لسان القوم:

«قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم» . (٦٠ – الأنبياء)

ويروى ابن كثير حديث جرير بن عبد الحميد عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلاَّ شاباً والرأى هو أنهم ما قالوا ذلك لصغر سنه حقيقة. بل لتصغير شأنه بدليل أنهم قالوا بعد ذلك **«يقال له إبراهيم»** وهذا إمعان فى استصغار شأنه. مع أن المعروف أن أباه كان أشهر صانع لتماثيل الآلهة فى أور. بل لقد بلغ صيته كل أنحاء العراق وكلفه ملك بابل بصنع تمثال للإله مردوك. كما أن دعوة الرجل ذى الأربعين سنة تبلغ من القلب ما لا تبلغه دعوة الشاب أو الفتى.

وهكذا تم اصطفاء إبراهيم نبياً ورسولاً ليخرج قومه من الظلمات إلى النور. وكان أن بدأ بدعوة أهل البيت. ومن الطبيعى أيضاً أن يكون أول من يدعوه هو والده. وفى ظنه أنه سيكون أول من يلبى دعوته، إذ هو الذى يصنع الأصنام بيديه وينحتها من الحجارة أو من الخشب. ويحرقها إذا انكسرت أثناء الصنع. فلابد أنه يعرف فى قرارة نفسه أنها ليست بآلهة حقيقة ولكنه يجارى القوم فى معتقداتهم – إذ هى مصدر رزقه وثرائه. ذلك كان تصور إبراهيم حينما بدأ يدعو أباه إلى الإيمان بالله وحده وتلطَّف إبراهيم فى الدعوة فقال:

«إذ قال إبراهيم لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً».

(٤٢ – مريم)

ولكن لم يجد استجابه من أبيه .

وبدأ يدعو القوم كلهم. ويذكر لهم أن هذه الأصنام لا تسمعهم ولا تنفعهم ولا تضرهم. واتخذ أسلوب السؤال الاستنكارى حتى تكون الإجابة إقراراً منهم بأن هذه الأصنام لا تسمع ولا تنفع ولا تضر. ولكنهم لما رأوا أن الحجة ستقوم عليهم لو أجابوا. تهرَّبوا من الإجابة بأن قالوا إنهم وجدوا آباءهم يعبدونها وهم يتبعون آباءهم فى ذلك.

«واتل عليهم نبأ إبراهيم. إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون. قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون». (٦٩ – ٧٤ ، الشعراء)

وهنا جابههم بالحقيقة واضحة صريحة بأنه عدو لهذه الأصنام. وكان الناس يخافون أن يعصوا الأصنام ظنا منهم أنها تقدر على إيذائهم. ولكنه – على الملأ – أعلن عداوته لهذه الأصنام. يقصد بذلك أن يوضح لهم أنه لا يخافها فهى لن تستطيع أن توقع به أى ضرر لأنها لا حول لها ولا قوة. وأن القوة لله رب العالمين. فهو الذى خلقه. ومادام قد خلقه فقد خلقهم أيضاً وهو خالق الكون كله. وذكر لهم أن الله قد هداه إلى الطريق القويم. كما أن الله هو الذى يُطعِمُ ويسقى. وإذا مرض المرء فالله هو الذى يشفيه، يقصد أن يقول لهم إن آلهتهم لن تسبب له مرضاً. وأنها ليست هى التى تسبب الأمراض للناس وليست هى التى تُرجَى للشفاء. لأن الله هو الذى يشفى. ثم ذكر لهم حقيقة لا يختلف عليها أحد وهى الموت. فلا أحد من البشر يدَّعى أنه هو الذى يميت. ومادام الله هو الذى يميت. فهو قادر على الإحياء مرة أخرى بالبعث يوم الدين.

«قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لى إلاَّ رب العالمين. الذى خلقنى فهو يهدين. والذى هو يطعمنى ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين». (٧٥ – ٨١ ، الشعراء)

وفى تفسير هذه الآية قالوا إن ذكر «هو» قبل بعض الأفعال يدل على تأكيد نسبتها إلى الله سبحانه وتعالى. لأن فى ظاهرها مخالطة لبعض أعمال من البشر. أما الأفعال التى ليس ليد البشر دخل ولا شبهة تدخل فيها . فهى لا تحتاج لتأكيد. فالخلق والإماتة والإحياء. لا يُشَك فى أنها كلها تحدث بأمر الله وحده أما الهداية والإطعام والشرب والشفاء فقد يكون لبعض الأفراد دور فى الهداية أو تيسير الطعام أو الشراب أو تقديم الدواء لشفاء مرض من الأمراض. ولكن ما هى إلاَّ وسائل فقط لإيصال رزق الله للعبد. فالطبيب يكتب الدواء ولكن الشافى هو الله. لذلك لزم التأكيد على أن هذه الأفعال فى ظاهرها للبشر دور فيها . إلاّ أن الله من وراء ذلك هو الفاعل الحقيقى، لذلك كان التأكيد بذكر هو أى الله فى حدوث هذه الأفعال.

ولم يجد إبراهيم آذاناً صاغية. حتى من أبيه وهو الأولى أن ينصره فقال مخاطباً له:

«إنى أراك وقومك فى ضلال مبين». (٧٤ – الأنعام)

ولكنه بالرغم من ذلك تتملكه عاطفة الأبوة فيدعو له قائلاً :

واغفر لأبى إنه كان من الضالين». (٨٦ – الشعراء)

ومرة ثانية سأل قومه سؤال استنكار – عن هذه التماثيل التى يعكفون لها أى يعكفون على

عبادتها. وكان جوابهم أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها. فقال لهم أنهم وآباءهم على ضلال واضح إذ يعبدون تماثيل لا تضر ولا تنفع. فسألوه: هل ما تقوله حق أم هو لعب وهزل. فقرر لهم أن ربَّهم هو رب السموات والأرض وهو الذى خلقها وفطرها وأنه يشهد على ما يقول:

«إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن، وأنا على ذلكم من الشاهدين». (٥٢ - ٥٦ الأنبياء)

وأراد أن يقيم عليهم الحجة ويجعلهم يصلون بأنفسهم إلى الإقتناع بأن هذه التماثيل وما ترمز إليه من الكواكب أبعد من أن تكون آلهة ويبطل قولهم بربوبية الكواكب. ولعلمه برسوخ هذه العبادة فى نفوسهم فقد شبُّوا ورأوا آباءهم يعبدونها. فمال إلى طريق يستدرجهم إلى استماع الحجة وذلك بأن ذكر لهم كلاماً يوهم كونه مسانداً لهم على مذهبهم. مع أنه كان كُلِّيَّةً مطمئناً بالإيمان.

وعلى ذلك فإنه لما رأى كوكب المشترى أو الزهرة يلمع نورها فى السماء أثناء الليل، ومجاراة لهم، وعلى سبيل الفرض، قال هذا ربى أو تهكُّماً. كأنه قال هذا هو الذى تدَّعون أنه ربى. ولما غرب الكوكب قال لا أحب عبادة إله يأفل ويغيب. ولما رأى القمر. قال نفس القول. ثم لما غرب قال إن الإله لا يصح أن يظهر ويغيب هكذا ولما رأى الشمس تبزغ قال إنها أحق بالعبادة لأنها أكبر وضوؤها أقوى. ولكنها غربت أيضاً، فلا يصح أن تكون ربًّا. وهكذا وصل بهم إلى النتيجة التى أرادها - وهى أن أيًّا من هذه الكواكب لا المشترى أو الزهرة ولا القمر أو الشمس يصح أن تكون آلهة لأنها تشرق وتغيب فى مواعيد محدَّدَة. فهى مُسخَّرة وتسير فى فلك لا تحيد عنه وليس لها إرادة فى أن تبقى فى السماء كما يحلو لها. وبهذا أقام الدليل على أنها لا تملك من أمرها شيئاً. فكيف تملك أن تدبِّر شئون العباد!

«وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض، وليكون من الموقنين. فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً. قال هذا ربى. فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى. فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونَنَّ من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر. فلما أفلت قال يا قوم إنى برئ مما تشركون. إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين». (٧٥ - ٧٩ الأنعام)

وذكر بعضهم أن ذلك كان قبل البلوغ وقبل اصطفاء الله له ولا يلزمه اختلاج شك. وكأن حديثاً دار فى نفسه أن هذه التماثيل لا يصح أن تكون آلهة - كما سبق أن ذكرنا - وهكذا أجال إبراهيم بصره فى الكون يتلمَّس الإله الحقيقى.

«وكذلك نُرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين». ولما وصل إلى هذه النتيجة.

«قال يا قوم إنى برئ مما تشركون» .

وتجلّت له الحقيقة، ناصعة واضحة فى ذهنه فتوجه إلى الله بقلبه.

«إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين» .

وهكذا أقام عليهم الحجة فى بطلان ما يعبدون.

«وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون. إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين»

(٢٦ - ٢٧ الزخرف)

وأعاد إبراهيم الدعوة على أبيه وألح فى ذلك إشفاقاً عليه ورغبة فى أن يؤمن بالله.

«واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صدِّيقاً نبياً. إذ قال لأبيه: يا أبت لِمَ تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً. يا أبت أنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً. يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيًا. يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليًا». (٤١ - ٣٥ مريم)

ولنتأمل هنا جمال اللفظ القرآنى ورقته فى قوله «يا أبت» فلو قال «يا أبى» فهى تؤدى نفس المعنى ولكن يا أبت فيها استعطاف. وأكثر رقة وعذوبة وخاصة عند تكرارها .

ولكن أباه لم يستمع له ولم يؤمن. بل زجره وهدده بالرجم وطلب منه أن يبتعد عنه سالماً سوياً قبل أن يصيبه منه عقوبة.

«قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم. لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً». (٤٦ - مريم)

وكان رد إبراهيم على هذه الجفوة والتهديد بالرجم أن أبقى على صلة الرحم والبر بالآباء مهما فعلوا ومهما قالوا:

«قال سلام عليك. سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيًا». (٤٧ - مريم)

وكان ذلك من إبراهيم مطابقاً لقوله الله تعالى: «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً».

وقد أعاد إبراهيم الاستغفار لوالده مرة ثانية .

«واغفر لأبى إنه كان من الضالين». (٨٦ - الشعراء)

ومرة ثالثة طلب له الغفران - وذلك بعد بناء البيت الحرام فقال:

«ربنا اغفر لى ولوالدىَّ». (٤١ – إبراهيم)

وقال قتادة. ذُكِرَ لنا أن رجالاً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبى الله، إن من آبائنا من كان يُحْسِنُ الجوار ويَصِلُ الأرحام ويوفى بالذمم، أفلا نستغفر لهم. فقال النبى صلى الله عليه وسلم، بلى، وإنى لأستغفر لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه. وعلى هذا فقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين فى ابتداء الإسلام وذلك إقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك. إلى أن نزل قوله تعالى:

«ما كان للنبىِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى، من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاَّ عن موعدة وعدها إياه. فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. إن إبراهيم لأواه حليم». (١١٣ – ١١٤ التوبة)

فكفوا عن الاستغفار لهم .

وظل إبراهيم يدعو قومه للإيمان بالله. ويكرر عليهم الدعوة وهم متمسكون بأصنامهم. وراحوا يخوِّفونه بأن أصنامهم وآلهتهم قد تصب عليه غضبها وتعاقبه وتؤذيه بسبب تسفيهه وتحقيره لها. فكان رده عليهم أنه لا يخاف أصنامهم. فهى لن تضره بشئ إلاَّ أن يكون الله قد قدَّره عليه. والأولى أنهم هم الذين يجب أن يخافوا لأنهم قد أشركوا بالله واتبعوا ما لم يأمر به الله. ولم يكن لهذه الأصنام من قوة أو سلطان عليهم أجْبَرتْهم على عبادتها. فهم الأجدر بالخوف وليس هو لو كان عندهم ذرة من عقل أو علم.

«وحاجَّه قومه. قال أتحاجُّونى فى الله وقد هدان. ولا أخاف ما تشركون به إلاَّ أن يشاء ربى شيئاً. وسع ربى كل شئ علماً أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لَمْ ينزل به عليكم سلطاناً. فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون».

(٨٠ – ٨١ إبراهيم)

وأعاد إبراهيم عليهم الدعوة لعبادة الله. وذكرَّهم بأن ما يعبدونه ما هى إلا تماثيل يصنعونها وأكاذيب يخلقونها. ولعلمه أنهم قد يخافون أن تضرهم الأصنام وتضيِّق عليهم فى أرزاقهم إن كفروا بها، كما كان الكُهان يخوِّفونهم، أخبرهم أن هذه التماثيل لا تملك لهم رزقاً وأن الرزق عند الله وحده، وهو الوحيد الجدير بالشكر على نعمه ورزقه. وذكَّرهم مرة أخرى بالآخرة، حين يبعث الله الخلائق ويرجعون إليه فيحاسبهم على أفعالهم.

«وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه. ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً. إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً. فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون». (١٦ – ١٧ – العنكبوت)

ولكنهم لم يسمعوا لنصحه. فرأى أنه لا يقنعهم إلاَّ المثال العملى على أن هذه التماثيل لاتملك أن تنفعهم ولا تقدر أن تضرهم بل حتى لا تملك أن تدفع عن نفسها أذى يصيبها. وكان قد أضمر فى نفسه شيئاً.

وكان عيد من أعيادهم الدينية قد اقترب. وغُصَّت المدينة بالزائرين ليشهدوا هذا العيد ويقدموا القرابين للآلهة. وقال له أبوه: يا بنى لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا. ويقال إنه اضطر للخروج معهم. فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه على الأرض وقال إنى سقيم. فمروا عليه وتركوه. حتى لم يبق إلاَّ نفر قليل من ضعفائهم. فقال تالله لأكيدن أصنامكم فسمعه بعضهم.

ويقال إنه لم يخرج معهم. فمروا عليه وقالوا يا إبراهيم ألا تخرج معنا. فنظر إلى نجم فى السماء وقال إن هذا النجم لم يطلع قط إلاَّ طلع بسقم لى. وتظاهر بالمرض فتركوه وعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى:

«فنظر نظرة فى النجوم. فقال إنى سقيم. فتولوا عنه مدبرين». (٨٨ - ٩٠ الصافات)

وفى الحديث الذى رواه ابن جرير. حدثنا أبو كريب أبو أسامة حدثنى هشام عن محمد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم قال: لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلاَّ ثلاث كذبات: قوله إنى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله فى سارة هى أختى.

وهو حديث مخرج فى الصحاح والسنن من عدة طرق. ويقول ابن كثير. ولكن هذا ليس من باب الكذب الحقيقى الذى يُذَمُّ قائله. حاشا لله وكلاَّ. وإنما أطلق الكذب على هذا تجاوزاً وإنما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى ودينى. وكما جاء فى الحديث الشريف: إن من المعاريض لمندوحة عن الكذب. فهو (أى إبراهيم) لم يشأ أن يشهد ضلالهم. وركوعهم وسجودهم لأصنامهم. فادَّعى السقم.

وكان من تقاليد احتفالاتهم أن يخرجوا من المعبد ويركب الملك والكاهن السفينة المقدسة. وتنساب السفينة على ماء النهر ومعها سفن الرؤساء وكبراء القوم. وعامة الناس على البر يهتفون بالدعوات والابتهالات.

وانتهز إبراهيم فرصة خلو المدينة من الجميع. وخرج من داره حَذِراً يترقب، حتى وصل إلى المعبد فدخله وكان خاوياً من الناس، ورأى التماثيل وفى وسطهم كبير الآلهة مردوخ وحوله تماثيل إنانا وشمس وعشتار وأوتو وإنليل وغيرهم. وقد وُضِعَتْ أمامهم أوانى النبيذ والخمور وطعامٌ كثير من القرابين التى يقدمها الناس. فرماهم إبراهيم بنظرة ساخرة :

«فراغ إلى آلهتهم. فقال ألا تأكلون. ماللكم لا تنطقون. فراغ عليهم ضرباً باليمين».

(٩١ - ٩٢ الصافات)

وتناول فأساً وراح يضرب الأصنام ويحطمها حتى جعلها قطعاً صغيرة. وكان يضرب بكل قوته. وعبرّ عنها القرآن الكريم بالضرب باليمين لأن يمين المرء فيها قوة عن اليد اليسرى. وقال بعضهم إن معنى اليمين أن الضرب كان براً بقسمه وهو اليمين إذ قال: **«تالله لأكيدن أصنامكم»**. المهم أنه كسَّر جميع الأصنام إلاَّ تمثال الإله مردوخ لأنه كان ينوى أن ينسب تكسير الأصنام للصنم الأكبر. فإن صدَّقوا ذلك كان معناه أن الآلهة الأخرى لم تستطع أن تدفع عن نفسها الأذى، وهذا عجز منها. وإن نفوا عن الصنم الأكبر أنه قادر على فعل ذلك. كان هذا دليلاً على عجزه.

وهكذا أتم إبراهيم تكسير الأصنام وبرَّ بِقَسَمه.

«وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تُوَلُّوا مدبرين. فجعلهم جُذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون». (٥٧ - ٥٨ الأنبياء)

وعاد القوم إلى معبدهم. ودخل الكهنة. فهالهم ما رأوا وما حل بآلهتهم. وسألوا: من فعل هذا بآلهتنا. وأدلى النفر الذين سمعوا إبراهيم وهو يهدِّد بالكيد لأصنامهم بما سمعوه للكهنة. فأحضروا إبراهيم. وأرادوا أن يجعلوا المحاكمة علنية يشهدها كل الناس ظناً أنهم سينتصرون لآلهتهم. ويكون ذلك داعياً لمزيد من إيمان الناس بهم، وتأكيداً أيضاً لسلطانهم. ولكن فى مجادلتهم ألزمهم الحجة وأسكتهم بالبرهان وجعلهم يعترفون بأن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تنطق. وهنا استنكر منهم أن يعبدوا مالا ينطق ولا يسمع ولا يستطيع دفع الأذى عن نفسه وبالتالى فلا يقدر أن ينفع الناس أو يضرهم :

«قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين .

قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم .

قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون .

قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم .

قال بل فعله كبيرهم هذا . فاسألوهم إن كانوا ينطقون .

فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون .

ثم نكسوا على رؤوسهم. لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .

قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم. أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون». (٥٩ - ٦٧ الأنبياء)

وهكذا استدرجهم للإعتراف بعجز آلهتهم. وأنها لا تنفع ولا تضر. وأبدى تبرمه بقلة عقلهم لعبادتهم هذه الأصنام من دون الله.

وبدلاً من أن يؤمنوا له بعد أن وضح عجز آلهتهم وفساد العقيدة التى كانوا عليها. فإنهم تشبثوا بآلهتهم وعملوا على نصرتها. فألقى القبض على إبراهيم. وكان البعض يرى قتله والبعض يرى إحراقه. فالقتل عقاب صارم وفورى. والجزاء الفورى له وقع أليم ودوى رادع. أما من اقترحوا الإحراق فقد رأوا فيه تعذيباً بطيئاً. فهو أشد إيلاماً. وأكثر ردعاً لمن تسول له نفسه المساس بآلهتهم.

«فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا اقتلوه أو حرِّقوه». (٢٤ - العنكبوت)

ولكن استقر رأيهم فى آخر الأمر على إحراقه.

«قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين». (٦٨ - الأنبياء)

محنة الإحراق :

«قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم». (٩٧ - الصافات)

وبدأ إعداد المحرقة. فحفروا حفرة عظيمة ثم بنوا حولها بنياناً مرتفعاً وملأوها بالحطب الكثير.

ومن المبالغات التى قيلت فى جمع الحطب، ما قالوه من أن المرأة كانت تمرض فتقول لئن عافتنى الآلهة لأجمعنَّ حَطَباً لإبراهيم. وكانت المرأة تَنْذُرُ لئن تحقق ما تطلب لتحتطبنَّ حَطباً وتجعله فى النار التى يحرق فيها إبراهيم احتساباً فى دينها.

وقال ابن اسحق، ظلوا يجمعون الحطب شهراً، حتى إذا كثر الحطب وجمعوا منه ما أرادوا أشعلوا النار فى الحطب من كل ناحية، فاشتعلت النار حتى أن كان الطير يمر بها فيحترق من شدة وهجها. ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فرفعوه على رأس البنيان. وقيدوه ثم اتخذوا منجنيقاً، ووضعوه فيه مُقَيَّداً مغلولاً. فضجَّت السموات والأرض والجبال ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق وقالوا أى ربَّنا، ليس فى أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم يُحرَق فى النار فأذن لنا فى نصرته. فقال الله تعالى لهم: إن استعان بشئ منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت لكم فى ذلك. وإن لم يدع غيرى فأنا أعلم به. وأنا وليُّه، فخلوا بينى وبينه. فلما أرادوا إلقاءه فى النار أتاه ملك المياه فقال إن أردت أخمدت النار فإن خزائن المياه والأمطار بيدى. وأتاه خازن الريح فقال إن شئت طَيَّرتُ النار فى الهواء فقال إبراهيم عليه السلام لا حاجة لى إليكم. ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم أنت الواحد فى السماء والأرض. ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى. قال الله عز وجل يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم.

وروى المعتمر عن أبى كعب عن أرقم أن إبراهيم عليه السلام حين أوثقوه ليلقوه فى النار قال: لا إله إلاَّ أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك. ثم رموا به بالمنجنيق إلى النار فاستقبله جبريل عليه السلام فقال يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال أما إليك فلا. قال جبريل: فاسأل ربَّك. فقال إبراهيم عليه السلام: حسبى من سؤالى علمه بحالى. حسبى الله ونعم الوكيل. فقال الله عز وجل «يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم».

وقال السدى كان جبريل عليه السلام هو الذى ناداها بأمر الله تعالى. قال على بن أبى طالب رضى الله عنه وابن عباس: لو لم يقل سلاماً لمات إبراهيم من بردها ولم يبق حينئذ نار فى الأرض إلاَّ طَفِئَتْ. قال كعب الأحبار وروى قتادة والزهرى ولما انتفع أحد فى الأرض يومئذ بنار. ولم تحرق النار شيئاً إلاَّ وثاق إبراهيم.

وهنا يروى بعض المفسرين حكايات: يخالطها بعض أو كثير من الخيال ظنًّا منهم أنها تزيد قدرة الله توكيداً عند بعض السامعين.

قال السدى. أخذت الملائكة إبراهيم وأقعدته على الأرض، فإذا عين ماء وورد أحمر ونرجس. فأقام إبراهيم فى النار سبعة أيام وقال المنهال بن عمرو. قال إبراهيم خليل الله ما كنت قط أنعم منى عيشاً فى الأيام التى كنت فيها فى النار.

وقال ابن اسحق وغيره: وبعث الله ملك الظل فقعد فى النار إلى جنب إبراهيم وهو يؤنسه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير وقال لإبراهيم إن ربك يقول لك أما علمت أن النار لا تضر أحبائى، وألبسه القميص.

وأغرب ما قاله بعض المفسِّرين – وما لا يصدقه العقل – أن أمه نظرت إليه فى النار، فطلبت أن تجئ إليه على أن يدعو الله ألا يضرها شئ من حر النار. ففعل فذهبت إليه واعتنقته وقبلته. والأغرب من هذا أن بعضهم جعل هذه المرأة هى ابنة الملك. وأن إبراهيم فيما بعد زوجها من ولده مدين. وأنها أنجبت له عشرين بطناً من الأنبياء!!

ولعل من وضعوا هذه الروايات ظنوا أنها تزيد من اقتناع البسطاء بقدرة الله تعالى. ولكنها قد تؤدى إلى العكس. إذ تثير الشك فى النفوس وقد أوردناها هنا لطرافتها ولوضوح زيفها الذى لن يخفى على القارئ. فمن المعروف أن مدين هو أحد أبناء إبراهيم من قنطورة التى تزوجها بعد وفاة سارة وكان عمر إبراهيم حينئذ حوالى ١٤٧ سنة. أى بعد حادثة إحراقه بـ ١٣٠ سنة. ونضيف إليها ٢٠ سنة أخرى حتى يبلغ ابنه مبلغ الرجال ليتزوج من واحدة تكبره بـ ١٥٠ سنة! إن كانت لاتزال على قيد الحياة!!

وقال ابن اسحق: ثم أشرف الملك من صرح عال ونظر إلى إبراهيم عليه السلام وما يشك أنه قد هلك. فرآه جالساً فى روضة. ورأى المَلَك قاعداً إلى جنبه وحوله نار تحرق ما جمعوا من الحطب. ونادى إبراهيم وقال له: يا إبراهيم كبيرٌ إلهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار حتى لم تضرك. فهل تستطيع أن تخرج منها؟ قال نعم. قال فقم فاخرج منها. فقام إبراهيم عليه السلام يمشى فيها حتى خرج منها. فلما خرج إليه قال يا إبراهيم من الرجل الذى رأيت معك قاعداً إلى جنبك؟ قال مَلَكُ الظل أرسله إلىَّ ربى ليؤنسنى فيها. فقال يا إبراهيم. إنى مُقرِّبُ إلى إلهك قرباناً لما رأيتُ من قدرته. إنى ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال إبراهيم. لا يقبل الله منك شيئاً ما كنت على دينك هذا حتى تفارقه إلى دينى، فقال يا إبراهيم لا أستطيع ترك مُلكى. ولكن سوف أذبحها له. فذبحها وقرَّبها قرباناً. ومنع العذاب عن إبراهيم. ثم إنه قال لإبراهيم: نعم الرب ربك يا إبراهيم.

وقيل إن إبراهيم ظل فى النار أياماً حتى خمدت. لم يصبه منها شئ غير العرق على وجهه. ولما انطفأت النار فوجئوا به يخرج من الحفرة سالماً.

«فأنجاه الله من النار. إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون». (٢٤ – العنكبوت)

«وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين». (٧٠ – الأنبياء)

«فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين. وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين». (٩٨ – ٩٩ الصافات)

واستجاب لإبراهيم عليه السلام رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله عزَّ وجل من حمايته من النار. وكان لوط ابن أخيه هاران قد آمن به.

«فآمن له لوط. وقال إنى مهاجر إلى ربى. إنه هو العزيز الحكيم». (٢٦ – العنكبوت)

بعد هذه المحنة. وخروجه سالماً من النار بفضل الله تعالى تأكد إبراهيم من أنه لن يؤمن له غير النفر القليل الذى آمن. فقرر أن يعتزلهم.

«واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا».

(٤٨ – مريم)

واتخذ إبراهيم زوجة هى سارة واتخذ أخوه ناحور زوجة اسمها ملكة وخرج إبراهيم مهاجراً من هذه القرية الظالم أهلها. خرج هو وزوجته سارة. وأخوه ناحور وزوجته ملكة. وأخذ معه والده تارح أو آزر. وأخذ أيضاً لوطاً ابن أخيه هاران. وكان هاران قد توفى فى أور قبل أن يبرحوها. وخرج معه كذلك النفر القليل الذين آمنوا به ذلك أنهم لم يأمنوا أن يغدر بهم بعض رجال الملك أو الكهنة. وإن كان الملك نفسه قد أعطاه الأمان.

ينكر البعض أن أبا إبراهيم قد هاجر معه اعتماداً على أن والد إبراهيم لم يكن من المؤمنين وظلَّ على كفره حتى مات.

ولكن إذا تذكرنا وقع تكسير آلهة القوم. فهذا فى نظرهم كبيرة الكبائر وكان الجزاء عليها هو القتل أو الإحراق. فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد نجى إبراهيم من الحرق واقتنع الملك بأن رب إبراهيم يحميه ولن نقول إنه آمن سراً. بل نقول لعله خاف إن آذى إبراهيم أن يحيق به شرٌ مَا. لذلك تركه يبرح الأرض فى سلام. فأغلب الظن أن إبراهيم لم يكن ليأمن أن يترك أباه خلفه خوفاً من انتقام بعض المتعصبين الذين لابد ساءهم أن ينجو إبراهيم من العقاب فلعلهم يُنَفِّسُون عن غضبهم بقتل والده أو إيذائه. لذلك فقد أخذه معه. ولعله أيضاً لم ييأس من لحظة ينشرح فيها قلبه للإيمان فيؤمن. وكان إبراهيم عليه السلام لا يمل من تكرار دعوته للإيمان كما كان يدعو له بالهداية.

من الملك الذى أمر باحراق إبراهيم عليه السلام ؟

وردت محنة إحراق إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم. ولا ندرى السبب الذى جعل كُتَّاب التوراة لا يذكرون شيئاً عنها إطلاقاً. فكل ما جاء بها عن فترة بقائه فى أور (التوراة. إصحاح ١١ تكوين) هو:

إن تارح ولد أبرام وناحور وهاران. وولد هاران لوطاً. ومات هاران قبل تارح أبيه فى أرض ميلاده أور. واتخذ أبرام وناحور لأنفسهما امرأتين. اسم امرأة أبرام ساراى واسم امرأة ناحور ملكة. فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك. ومات تارح فى حاران. وكانت أيام تارح ٢٠٥ سنة.

لم تذكر كتب التفسير الإسلامية شيئاً عن الملك الذى كان معاصراً لهذا الحدث. وجاء فى تفسير الألوسى:اسم الشخص الذى أشار بحرق إبراهيم. فقد أخرج ابن جرير عن مجاهد قال. تلوت هذه الآية **«قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم»** على عبد الله بن عمر فقال: أتدرى يا مجاهد من الذى أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام بالنار؟ قلت: لا قال: رجل من فارس وذكر أن الله تعالى خسف به الأرض. فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. وقالوا اسمه هيون. وقيل هدير. وقيل هو شخص من الأكراد. وبذلك قال ابن كثير فى تفسيره وإن قال إن اسمه هيزن. والوحيد الذى تعرض لاسم الملك هو الثعلبى فقال إن اسمه نمرود وأنه هو الذى كان يحكم المدينة فى ذلك الوقت (عرائس المجالس الثعلبى ص ٨٦) وكما سبق أن قلنا فى الجزء الأول ص ٢ أن كتب التاريخ لا يوجد بها ملك حكم العراق إسمه نمرود.

وللتذكرة بتاريخ العراق فى هذه الفترة نعود القهقرى قرنين من الزمان فنجد أن جنوب العراق كان به عصر بداية الأسرات السومرى وظهرت دويلات المدن وكان دويلة لجش أقواها

فبسطت نفوذها على باقى الدويلات ثم جاء الأموريون وسيطروا على جنوب العراق فى ما سمى بالعصر الأكدى فى الفترة ٢٣٤٠ - ٢٢٣٠ ق.م. ثم جاء الأشوريون وكان أشهر ملوكهم هو سرجون الأول (صفحة ١٧) الذى بسط نفوذه على العراق كله تقريباً. ثم كانت غارات الجوتيين من الشمال فأضعفت دولة آشور وهو ما سمح لدويلات الجنوب بالاستقلال وسُمِّى ذلك بعصر الإحياء السومرى. واستقلت دويلات الجنوب السومرية مثل لجش وأوروك. ودويلة «أور» وهى ما تهمنا حيث كانت بها محنة إحراق إبراهيم عليه السلام. وكان استقلال دولة أور ونهضتها بداية لأسرة أور الثالثة. وقد أسسها ملك إسمه **«أورنمو»** ثم تولى الحكم بعده ولده «**شولجى**» وقد حكم شولجى Shoulgi فترة طويلة بلغت ٥٠ عاماً (انظر الجدول صفحة ٦٧) وتميزت الفترة الأولى من حكمه بقيامه ببناء كثير من المنشئات الدينية وبناء معابد للآلهة. وأعاد إلى المدن السومرية والأكدية المعبودات التى كانت رُفعت منها (د. نجيب ميخائيل. مصر والشرق الأدنى القديم جـ ٥ ص ١٦٤) وتميز النصف الثانى من حكمه بكثرة الحملات الحربية فاقتطع أجزاء كبيرة من دولة عيلام فى الشرق وتزوج من إحدى بنات ملكها. واستولى على دويلات الجنوب كلها.

وقد أطمعه هذا النجاح وطول مدة حكمه. وما وصل إليه من سلطان ونفوذ فكأنما اغتر بنفسه. وذكرت نقوش كتبت فى عهده أن الإله اختاره بنفسه كاهناً أكبر للمعبودة «إنانا» وكتب هو عن نفسه فقال: أنا الملك. كنت بطلاً فى بطن أمى. أنا شولجى صاحب البأس منذ مولدى أنا أسد ثاقب البصر. ابن مارد. أنا ملك أركان الدنيا الأربعة. أنا بطل. أنا رب البلاد كلها. أنا شولجى الملك القدير. أخضعت البلاد الثائرة. وكفلت الأمان لشعبى. شولجى الذى توافر له بأس السماء والأرض ولم يكن له مثيل. شولجى الذى رعاه رب السماء. ثم ازداد اغتراراً بنفسه. فعمل على أن يؤلَّه. فبنيت له المعابد وقدمت القرابين لتماثيله عند ظهور الهلال الجديد وعند اكتمال القمر. وأدخل اسمه فى أسماء الأفراد مثل:

شولجى إيلى بمعنى شولجى إلهى.

شولجى بانى بمعنى شولجى خالقى.

هذا الملك الذى ملأه الغرور وتلبسه جنون العظمة - هو الذى كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام. ويمكننا أن نفهم سبب رفضه لدعوة إبراهيم. ولما كسَّر إبراهيم عليه السلام الأصنام كان هو الذى أمر بإحراقه فى النار.

تقول الكتب إن شولجى فى أخريات أيامه استولى على ذخائر أحد المعابد فى مدينة إريدو المجاورة. وهذا التصرف إن دل على شئ فإنما يدل على أنه لم يعد يخشى من انتقام هذه الآلهة. ويؤيد ما ذهبنا إليه من أنه هو الذى كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام. ورأى أن إبراهيم كسَّر الأصنام ولم ينله أى أذى. ومن هنا كانت جرأته فأخذ الذخائر من معبد مدينة إريدو.

هجرة إبراهيم عليه السلام :

يصور بعض الكتاب (حبيب سعد. خليل الله فى اليهودية والمسيحية والإسلام ص ٨) هجرة إبراهيم عليه السلام على أنها كانت لأسباب اقتصادية، فيقولون إن شهرة بابل قد طغت على أور فبارت تجارة أور وباتت الحياة فيها غير مستقرة ومن هنا رحل إبراهيم من أور إلى حاران. وتقول تعليقات بعض المستشرقين (أبنجدون) (دراسات تاريخية من القرآن الكريم د. بيومى مهران ١٩٩٥. جزء أول ص ١٢٧ - ١٢٨) أنه ربما كان من أسباب هذه الهجرة اضطراب سياسى فى جنوب العراق أصابت جرائره معيشة أهل أور فلم تستقر عليه أحوال المعيشة والتجارة فى أور. وبهذا قال أيضاً الأستاذ عباس العقاد (إبراهيم أبو الأنبياء. عباس العقاد ص ٦٢) بينما يرى آخرون أن هجرة إبراهيم عليه السلام تتصل اتصالاً وثيقاً بالأحداث التاريخية التى كانت سائدة فى جنوب بلاد الرافدين وهى مرحلة شهدت عدة تحركات بشرية (د. رشيد الناضورى. المدخل فى التطور التاريخى للفكر الدينى ص ١٧٣).

وجميع هذه الآراء مردود عليها بأن هجرة إبراهيم عليه السلام كانت هجرة أسرة واحدة: هو وزوجته ووالده. ولوط ابن أخيه وزوجته. فهى ليست هجرة جماعية تدل على اضطراب سياسى أو سوء أحوال إقتصادية.

وهذه الأسباب التى أوردها - بالرغم من عدم موافقتنا عليها - فإنها تؤيد ما ذهبنا إليه من أن أور تقع فى جنوب العراق. إذ لو كانت فى شمال العراق قريباً من حاران. كما قالوا لشملت الظروف السياسية أو الاقتصادية المدينتين معاً ولأصبحت الهجرة من أور إلى حاران غير ذات معنى وغير مجدية.

وعلى كل حال. فإن هجرة إبراهيم عليه السلام من أور. بعد محنة إحراقه كانت لأسباب دينية. فهو نبى ورسول. ورأى أن أور لم تعد صالحة لتقبل دعوته. فرأى أن ينشر الدعوة فى غيرها وطبعاً لم يكن ذلك إلاّ بوحى من الله سبحانه وتعالى.

«وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم» (من آية ٢٦ - العنكبوت)

كان من الطبيعى بعد هذه المحنة. ونجاته من النار فى أور. أن يقصد مدينة أخرى لعل الناس هناك يتقبلون دعوته بصدر أكثر رحابة. فكان الارتحال شمالاً إذ يلى أور جنوباً صحراء الجزيرة العربية وهى جرداء قاحلة. وقال إنى مهاجر من قومى إلى ربى أى إلى الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة إليها - إلى أرض أدعو فيها إلى الله ولا يمنعنى أعدائى لأن الله هو مولاى وهو العزيز الحكيم.

وشكل ٢٧ يبين طرق القوافل فى المنطقة. وكان هناك طريقان يوصّلان من أور إلى حاران.

الطريق أ . يتجه من أور شمالاً ليعبر نهر الفرات ويصل إلى نهر دجلة بعد أن يمر بمدينة لجش ثم يتابع السير إلى أشور مروراً بأشتونا ثم إلى نينوى وهى ملتقى طرق هام فى شمال شرق العراق. ويتفرغ منها طرق إلى أرمنية وإلى تركيا - وغرباً إلى حاران. وطول هذا الطريق حوالى ٦٧٠ ميلاً أى ١١٠٠ كم تقريباً.

الطريق ب . يتجه من أور شمال غرب ليعبر نهر الفرات. ويصل إلى بابل مروراً بمدينة أوروك الهامة. ثم يتابع سيره على الضفة الغربية للفرات حتى يصل إلى مارى. وعند التقاء نهر البليخ بالفرات يتجه شمالاً حتى يصل إلى حاران. ويبلغ هذا الطريق ٦٣٠ ميلاً أى حوالى ١٠٠٠كم.

ولعل إبراهيم عليه السلام كان حريصاً على المرور على أكبر عدد من مدن هذه المنطقة يدعو الناس إلى عبادة الله. وشكل ٢٨ يبين مانراه طريقاً اتخذه إبراهيم عليه السلام فى مسيرته مهاجراً إلى ربه.

سبق أن ذكرنا أن إبراهيم عليه السلام بُعث لما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة. ولعله أمضى خمس عشرة سنة على الأقل يدعو قومه إلى عبادة الله. فرسولنا صلى الله عليه وسلم قد أمضى ثلاث عشرة سنة فى مكة قبل أن يقرر الهجرة إلى يثرب لذلك فإن خمسة عشر عاماً هى مدة معقولة يقضيها إبراهيم عليه السلام فى الدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة وبتقديم الأدلة والبراهين العقلية قبل أن يلجأ إلى إجراء عنيف يوقظهم من غفوتهم وهو تكسير الأصنام وكان هذا الإجراء كأنه إعلان للحرب. فكانت محنة إحراقه وخروجه سالماً من النار. وكان قد بلغ من العمر إذ ذاك ٥٥ عاماً.

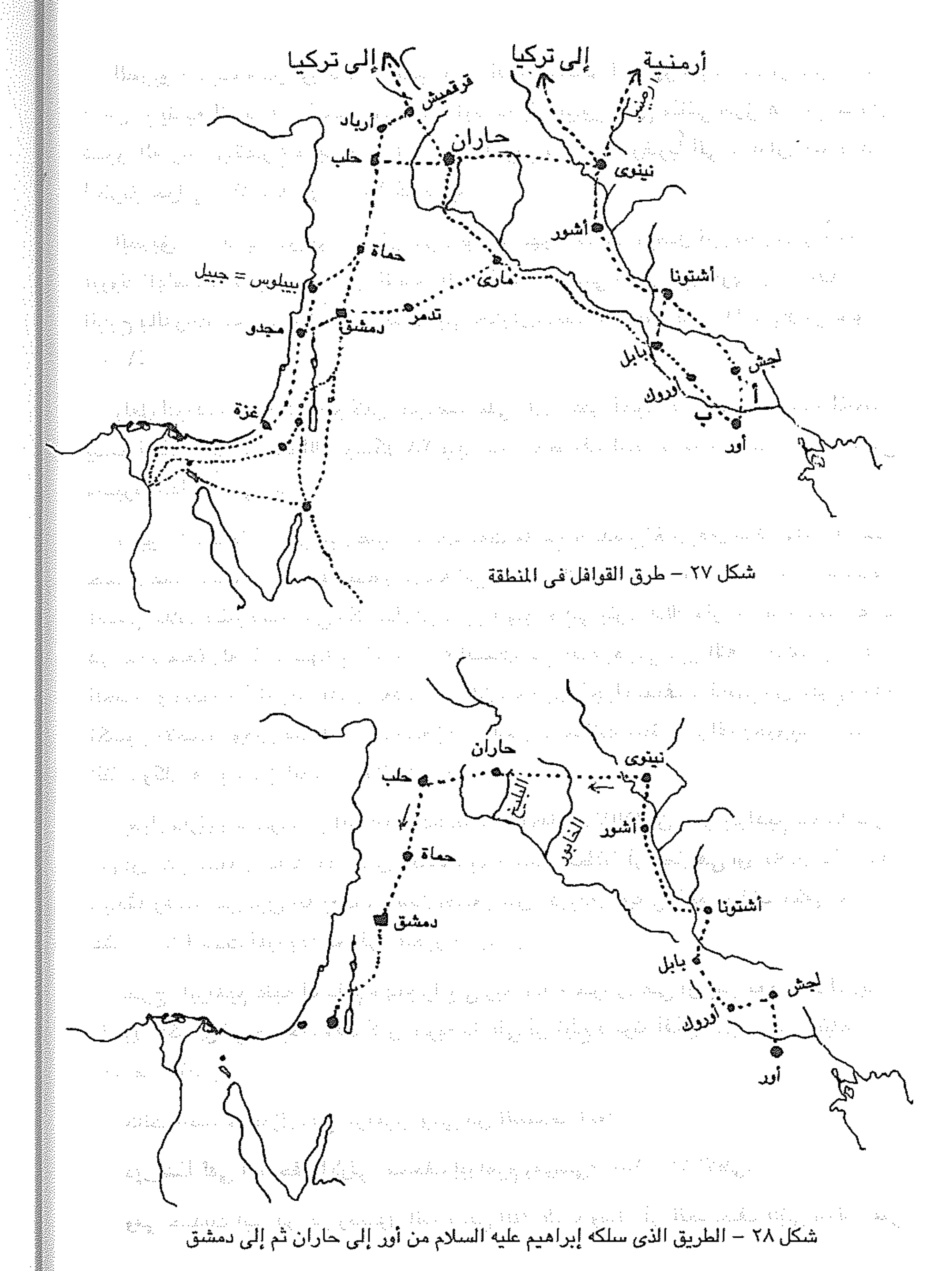
يقول كارل راسموسون (NIV . Atlas of the Bible, page 76) إن عمر إبراهيم حينما خرج من أور كان سبعين عاماً. وهو سن متأخر. إذ لا يبدو منطقياً أن يظل فى أور ثلاثين عاماً بعد مبعثه وهناك من يرى أنه بعث فى سن أصغر من الأربعين. وعلى العموم فإنه يكفى خمسة عشر عاماً لتحدث المواجهة ثم يقرر الخروج من أور.

خرج إبراهيم عليه السلام مهاجراً إلى ربه. ولعله حرص على أن يمر بعواصم الدويلات والدول الكبرى فى طريقه. فقد كان حريصًا على أن تبلغ دعوته آفاق الأرض. وأن تبلغ أكبر عدد من الناس.

كانت الصحف تنزل على إبراهيم. وهى من الصحف الأولى.

«إن هذا لفى الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى» (١٨ - ١٩ الأعلى)

وفى حديث أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الصحف التى أنزلت على



شكل ٢٧ – طرق القوافل فى المنطقة

شكل ٢٨ – الطريق الذى سلكه إبراهيم عليه السلام من أور إلى حاران ثم إلى دمشق

إبراهيم عليه السلام كانت عشراً. ولابد كان فى هذه الصحف بالإضافة إلى الدعوة إلى الله - كان فيها ما يُصلح أحوال الناس فى الدنيا وتنظيم معاملاتهم فيما بينهم. والحث على الفضيلة ومكارم الأخلاق. والطريق إلى تكوين أسرة صالحة بحسن معاملة الوالدين والعطف على الزوجة ورعاية الأبناء. وما من شريعة جاءت إلاَّ وفيها النهى عن السرقة وتحريم الربا والزنا والقتل وحددت عقوبة لكل جريمة كما أن الشرائع أيضاً توضح كيفية التصرف فى الميراث والتصدق على الفقراء والمساكين.

كل مكارم الأخلاق هذه كان يدعو إليها إبراهيم عليه السلام أينما حل بالإضافة إلى الدعوة لنبذ عبادة الأصنام والتوجه إلى الله وحده بالعبادة.

لا ندرى كم من القوم آمن به. ولكنهم على أى حال قد استفادوا مما جاء بتعاليمه فى إصلاح أحوالهم الدنيوية.

مر أولاً على لجش وكانت دويلة لجش كما قلنا من أكبر دويلات جنوب العراق. ثم مرّ على أوروك ثم وصل إلى بابل.

من المرجح أن بابل كان يحكمها فى ذلك الوقت الملك الشهير بقوانينه وهو «حمورابى»

وعلى كل حال فإن تحديد السنوات بالدقة فى هذه الأزمنة البعيدة يكاد يكون مستحيلاً. ويختلف المؤرخون فيما بينهم اختلافاً كبيراً. مثال ذلك فى تحديد فترة حكم الملك حمورابى فإن الدكتور عبد العزيز صالح (مصر والشرق الأدنى القديم. الجزء الأول ص ٥٢٧) يحدد لبدء حكمه عام ١٧٢٨ ق.م. وفى عرف أصحاب التاريخ المختصر بين عام ١٧٩٢ وعام ١٧٥٠ ق . م فى حين يرى الدكتور نجيب ميخائيل (مصر والشرق الأدنى القديم جزء ٦ الجدول الأخير) أنه حكم فى الفترة من ٢٠٠٣ - ١٩٦٠ أى بفارق زمنى حوالى المائتى عام!

وقس على ذلك فى تحديد تاريخ الأحداث كلها. إذ قد يبلغ الفرق بين مؤرخ وآخر من ١٠٠ - ٢٠٠ سنة. وعلى ذلك فلا بأس من أن نأخذ تاريخاً وسطاً بين ما يذكر فى كتب التاريخ المختلفة لنسترشد به فى تأريخ الأحداث التى نحن بصددها، ومن هذا المنطلق يمكننا أن نضع الجدول الآتى ليبين التواريخ التقريبية للنصف الأول من حياة إبراهيم عليه السلام والأحداث التى كانت معاصرة فى أور وبابل ومصر.

فى بابل :

سبق أن تكلمنا ص ١٤ عن بابل ونشأتها وسبب تسميتها وكيف زادت قوتها وانضمت إليها الدويلات التى من أصل سومرى وفى النهاية اتحدت سومر وأكد (الأموريون الأكديون)

تحت تاج واحد وكونتا دولة بابل (د. نجيب ميخائيل إبراهيم. مصر والشرق الأدنى القديم جـ ٣ ص ١٣١) وأصبحت دولة بابل مركز إشعاع ضخم للحضارة منذ الألف الثانى قبل الميلاد وخاصة فى عهد سادس ملوكها وهو حمورابى.

بدأ حمورابى حكمه بمجابهة خطر عيلام فى الشرق واسترد الدويلات التى كانت قد احتلتها واستولى على دويلات الجنوب كلها بما فيها لارسا الموالية لعيلام حيث أن أغلب سكانها من أصل عيلامى. وضم أشور ونينوى ودويلة مارى. وانتقل مردوك من إله مدينة إلى مركز الصدارة بين الآلهة إذ أصبح المعبود الرسمى لبابل وأضيفت إليه الصفات التى كانت للإله «إنليل» وأدخله الكهنة فى أسطورة الخلق زيادة فى تعظيمه. وكان السومريون فى ذلك الوقت شعباً يحتضر وبدأت لغتهم فى الاختفاء التدريجى. ولم يكن من الممكن أن يختفى «إنليل» مرة واحدة. فجعلوا مردوك ابناً له. وروّجوا أسطورة مفادها أن «مردوك» بفضل شجاعته يتقدم لينقذ قدامى الآلهة حينما يتهددهم الخطر بذلك أصبح فى مركز أقوى منهم.

أتاح الاستقرار السياسى الفرصة لحمورابى لكى يجمع التشريعات التى كانت موجودة فى بابل وما حولها من المدن فجمعها فى قانون واحد وهو المشهور بقانون حمورابى وسجلها على عدة لوحات ونصب. وكان فى معبد مردوك ببابل نصب حجرى كبير من الديوريت جمع بين شكل اللوحة وشكل المسلة وكان ارتفاعه ٢٢٥ سم وعرضه من أسفل ١٩٠سم وعرضه فى أعلاه ١٦٥سم. وظهر الملك فى جزئه العلوى يتلقى السلطة والإذن بإصدار تشريعاته من رب الشمس والعدل «شمس» بتاجه ذى القرون والأشعة التى تخرج من كتفيه. ونقشت الكتابة بخط مسمارى دقيق.

كان الظن أن تشريعات حمورابى هى الأولى من نوعها فى العراق القديم ولكن تأكد وجود تشريعات سبقتها فى «أور» و «إسين» و «أشتونا» وإصلاحات «لجش». والتشريعات التى وجدت فى إيسن، أو أسين تسمى قانون «لبت عشتار» وهو خامس ملوك أسرة إيسن ويبدؤها قائلاً:

أنا لبت عشتار الراعى المتواضع للإله «أنو» أب الآلهة العظيم و «إنليل» ملك الأراضى. ملك إيسن وسومر وأكد. أقررت العدالة فى سومر وأكد طبقاً لكلمة «إنليل». وجعلت الأب يسند بنيه والأبناء يسندون أباهم. ثم تستمر الشريعة فى سرد موادها (د. نجيب ميخائيل إبراهيم. مصر والشرق الأدنى القديم جـ ٦ ص ٤٩ ، ٥٨).

أما قانون حمورابى فيبدأ قائلاً :

أنا البذرة العتيدة للملكية. الملك القوى شمس بابل. الذى يجعل الضوء يندفع فوق أراضى سومر وأكد. الملك الذى أخضع أنحاء المعمورة الأربعة. أنا محبوب «إينانا». حين أرسلنى

جدول أحداث النصف الأول من حياة إبراهيم عليه السلام

مصر	بابل	أور	ق.م. تقريباً	العمر	الأحـــداث
امنمحيت الأول			١٩٧٨	٠	مولد إبراهيم عليه السلام فى أور
١٩٧٠ سنوسرت الأول (٣٤ سنة)			١٩٦٨	١٠	
		١٩٦٠ شولجى (حكم ٥٢ سنة)	١٩٥٨	٢٠	
			١٩٤٨	٣٠	
			١٩٣٨	٤٠	مبعثه
١٩٣٦ أمنمحيت الثانى (٣٢ سنة)					١٥ عاماً دعوة
			١٩٢٣	٥٥	
			١٩٢٢	٥٦	محنة إحراقه
			١٩٢١	٥٧	تركه لمدينة أور
			١٩٢٠	٥٨	فى لجش
			١٩١٩	٥٩	فى أوروك
			١٩١٧	٦١	فى بابل والمحاجة
			١٩١٣	٦٥؟	فى أشور
	١٩١٠ حمورابى (حكم ٤٣ سنة)		١٩١١	٦٧	فى نينوى
		١٩٠٨	١٩٠٨	٧٠	الوصول إلى حاران
١٩٠٤ سنوسرت الثانى (١٦ سنة)			١٩٠٣	٧٥	مغادرة حاران
			١٩٠٢	٧٦	فى حلب
			١٩٠١	٧٧	فى دمشق
			١٩٠٠	٧٨	فى حبرون
			١٨٩٨	٨٠	زيارة مصر – سارة عمرها ٧٠سنة
			١٨٩٦	٨٢	فى مدينة أون
			١٨٩٥	٨٣	فى هيراكليوپوليس
			١٨٩٤	٨٤	فى بنى حسن
			١٨٩٣	٨٥	العودة من مصر
			١٨٩٢	٨٦	الزواج من هاجر

ملحوظة : أمنمحيت = أمنحتب

تابع جدول أحداث النصف الأول من حياة إبراهيم عليه السلام

مصر	بابل	أور	ق.م. تقريباً	العمر	الأحـــــداث
سنوسرت الثاني			١٨٩١	٨٧	ولادة إسماعيل
			١٨٩٠	٨٨	أخذ هاجر وإسماعيل إلى مكة
			١٨٨٩	٨٩	العودة من الحجاز وافتراق لوط
١٨٨٨			١٨٨٨	٩٠	مع ملك جرار
			١٨٨٧	٩١	أسر لوط وفك أسره
			١٨٨٦	٩٢	إقامة فى حبرون
				٩٣	
				٩٤	
				٩٥	
				٩٦	
				٩٧	
سنوسرت الثالث (حكم ٣٧ سنة)	حمورابى (حكم ٤٣ سنة)		١٨٨٠	٩٨	البشرى بإسحق وهلاك قوم لوط
			١٨٧٩	٩٩	ولادة إسحق
			١٨٧٨	١٠٠	إحدى زياراته لمكة – عمر إسماعيل ١٣سنة
			١٨٧٧	١٠١	بناء البيت
				١٠٢	أمر الذبح والفداء
			١٨٧٥	١٠٣	مناسك الحج ثم العودة إلى حبرون
				١٠٤	
				١٠٥	
			١٨٧٢	١٠٦	حج وزيارة إسماعيل (زوجة إسماعيل الأولى)
			١٨٧١	١٠٧	
١٨٥١	١٨٦٧		١٨٧٠	١٠٨	حج وزيارة إسماعيل (زوجة إسماعيل الثانية)

«مردوك» لأقود الشعب فى طريق الحق ولأدير البلاد وضعت أسس القانون والعدالة فى لغة الأرض، مستهدفاً صالح الشعب. فى ذلك الوقت قررت: وتتوالى مواد القانون.

ويمكننا القول بأن فضل حمورابى هو فى جمع التشريعات التى كانت متناثرة فى أور ولجش وأوروك وبابل وأشتونا وعدَّل بعضها وزاد عليها. وكان ذا فطرة قانونية مرتبة. وتحت إشرافه قام الإداريون بتدوينها فى قانون واحد وأهملوا أسماء أصحاب التشريعات الأولى ونسبوها كلها إلى حمورابى.

ويجدر هنا أن نسجل ملحوظة وهى أن أولى التشريعات ظهر فى مدينة أور التى عاش فيها إبراهيم عليه السلام. كما تلتها تشريعات لجش وأسپن. وهاتان البلدتان تقعان على الطريق الذى سار به إبراهيم عليه السلام حتى وصل إلى بابل. ومن هنا يمكننا أن نصل إلى إفتراض – وإن لم يقم عليه دليل – إلاَّ أن الشواهد تدل عليه – إذ أن وجود إبراهيم عليه السلام فى هذه المدن بهذا الترتيب وتوالى ظهور التشريعات فى هذه المدن بنفس الترتيب يوحى بوجود رابطة ما أو صلة بين هذه التشريعات وإبراهيم عليه السلام.

فمن المعروف أن دعوة الأنبياء تتضمن صلاح الدين والدنيا فهى تتضمن إصلاح علاقة العبد بربه بالإيمان بالله إلهًا واحداً لا شريك له. كما تتضمن إصلاح علاقة الناس بعضهم ببعض وتنظيم أمورهم الدنيوية.

وكان إبراهيم عليه السلام يدعو إلى الله. سواء فى أور أو أثناء هجـــرته إلى ربه – بما أنزل عليه من صحف كما كانت الصحف تحتوى على تعاليم تنظِّم شئون العباد وتبث بينهم مبادئ العدل فى المعاملات الدنيوية.

ولعل الناس فى أور وإن لم يؤمنوا بدعوته إلى عبادة الله وحده. إلاَّ أنهم رأوا أن ما جاء به من قواعد تنظم الأمور الدنيوية فيها خير كثير فأخذوا بها وصاغوها فيما سمِّى بتشريعات أور.

وحينما وصل إلى لجش وأسپن أخذوا عنه بعض التشريعات ونسبوها إلى حكمائهم وإلى مدنهم.

وكانت إقامته ببابل لمدة أطول. ولعل معجزة نجاته من النار كانت قد سبقته مما جعلت القوم ينظرون إليه نظرة إجلال تجلَّت فى أنهم لم يحاولوا إيذاءه بل ورغبوا فى الإستفادة من حكمته مما كان له أثر فى أن تشريعات بابل كانت أشمل وأتمَّ.

وقد صاغ القانونيون هذه التشريعات والأحكام فى ٢٨٢ مادة تناولت أهم أمور القضاء وحقوق الناس ومسئوليات المجتمع وتضمنت الأحوال الشخصية من تقاليد الزواج والطلاق والمواريث والتبنى. وتضمنت كذلك جزاءات الإعتداء على النفس والمال والقصاص والتعويضات.

وفى يقينى أنه لو قَدَّر لنا أن نتوصل إلى «صحف إبراهيم» وما قد يكون قد دُون من أحاديثه لوجدنا أن جزءاً كبيراً من قانون حمورابى مأخوذٌ عن هذين المصدرين. ولكن لأن القوم لم يؤمنوا بدين إبراهيم فلابد أنهم تمسَّكوا ببعض الأحكام التى كانت سائدة فى مجتمعهم وكانت مخالفة لما جاء به إبراهيم عليه السلام لذلك جاء فى قانون حمورابى بعض المواد التى اعتبرت مثالب فى التشريع.

بعض مواد من قانون حمورابى :

سنذكر هنا بعض مواد هذا القانون الشهير (د. عبد العزيز صالح. الشرق الأدنى القديم . جـ ١ ص ٥٢٧).

– أيما مواطن اتهم موطناً آخر بجريمة يعاقب عليها بالتغريم ثم لم تثبت عليه دفع غرامتها وإذا اتهمه بجريمة يعاقب عليها بالإعدام، ثم لم تثبت عليه قُتِل عوضاً عنه. وهذا يقابل ما يُعَبَّر عنه الآن بمكافحة البلاغات الكاذبة وأحكام رد الشرف.

– أيما قاض أصدر حكمه فى قضية ودوَّنه ووقَّع عليه ثم زور فيه لغرض ما وثبت ذلك عليه، أقيل من منصبه وحُرِّمت عليه مناصب القضاء. ودفع ما يوازى ١٢ مرة من قيمة الشيئ الذى زور فيه – وفى ذلك ما فيه من مكافحة الرشوة فى القضاء.

– تكافل المجتمع: بحيث إذا سُرِق من مواطن شيئ، ولم يتم التوصل إلى السارق، عوضته المدينة والحاكم عما سرق بعد أن يؤكد دعواه أمام تمثال معبوده. وإذا قُتِل مواطن ولم يتم التوصل إلى معرفة القاتل تعاونت المدينة والحاكم فى دفع دية القتيل إلى أهله.

وفى مقابل ذلك إذا ادعى شخص سرقة متاعه، ثم تبين كذبه، غُرِّم بما يوازى ضعف قيمة إدّعائه.

وحظيت مسائل الأحوال الشخصية بنصيب كبير من مواد التشريع مثل إلزام والد الخطيبة برد ضعف هدايا الخطيب إليه إذا ما رفضه بعد قبوله. وفى المقابل احتفاظ والد الخطيبة بالهدايا إذا كان فسخ الخطبة من جانب الخطيب.

– إذا عاد محارب بعد أسرِه فى بلاد الأعداء ووجد زوجته قد تزوجت غيره حق له أن يستردها من الزوج الجديد حتى وإن أنجبت منه وإن كان المحارب الأسير قد ترك فى داره مايمكِّن زوجته من المعيشة وجب عليها ألا تتزوج. فإذا لم يكن لديها ما يقيم أودها فلا بأس عليها إن تزوجت.

– كذلك أباحت التشريعات للزوجة أن تسترد جاريتها التى وهبتها لزوجها لينجب منها (وكان هذا شائعاً) إذا رأت أنها تنافسها فى حب زوجها وأنها تعمل على أخذ المكانة الأولى

فى الدار. وأباحت لها أن تبيعها إن كانت غير ذى ولد. فإن كانت قد أنجبت ظلّت فى الدار كجارية تخدم الجميع.

– وفى أحكام الطلاق أعطت المطلقة – ما لم تكن ناشزاً – حق استرداد ما تزوجت به من مال أبيها. كذلك فرض للمطلقة العاقر تعويضاً أو نفقة. وإذا كان الطلاق بسبب فعل الزوجة، حُرمت من مخصصاتها وأُلقيت فى النهر!!

– كذلك يوجد نص على أن الزوج إذا إتهم زوجته بفاحشة ولم يقدم بينة واضحة على إثمها كفاها أن تقسم على طُهرها أمام معبودها وبذلك يبرأ شرفها وتعود إلى دار زوجها.

ومن المرجِّح أن هذا التشريع مأخوذ من تعاليم سماوية أتى بها إبراهيم عليه السلام. إذ هو مطابق لنص فى الشريعة الإسلامية لقوله تعالى :

«والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلاَّ أنفسهم. فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين. والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين». (٦ – ٩ النور)

وبالطبع لأن القوم لم يكونوا مؤمنين بدين إبراهيم فإنهم قد استبدلوا بالشهادات – القسم أمام معبوداتهم.

– كذلك ورد فى هذه التشريعات تفصيلات عن المواريث. وجعلت للأبناء الذكور حصصاً متساوية فى ميراث أبيهم أو أمهم إلاَّ إذا أوصى الأب لولده البكر بوصية.

وهذا يقابل نصاً فى الشريعة الإسلامية، **«من بعد وصية توصون بها أو دين»** وجاء هذا فى الآية ١٢ من سورة النساء.

– كذلك جعل للإبنة نصيباً يعادل ثلث نصيب أخيها – وإن كانت الشريعة الإسلامية قد زادته إلى النصف فى قوله تعالى:

يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين». (١١ – النساء)

إلاَّ أن تشريعات حمورابى لم تعط الميراث للإبنة مِلْكاً خالصاً. بل أبقت الرقبة لإخوتها ولايحق لها أن تتصرف فى نصيبها. وجعلت للأب أن يكتب لابنته فى حياته حق اختيار من يتولى مسئولية إدارة إرثها منه. فإن لم يفعل قام إخوتها بإدارته والإنفاق عليها من ريعه. فإن قَصَّروا فى ذلك جاز لها أن تؤجره لمن تشاء دون أن يكون لها حق بيعه. وعلى أن تؤول الرقبة بعد وفاتها إلى إخوتها. واستُثنِيت من ذلك من عملت بالكهانة العليا فى معبد مردوك رب بابل، فسمح لها بأن تستغل حصتها كما تشاء.

– كذلك تضمنت التشريعات مواد تنظِّم التبنِّى وحق المُتَبنَّى فى إنهاء تبنِّيه. وكذلك حق المُتَبنَّى فى اللحاق بوالديه إن عرفهما وعرف مكانهما. وحُرِّم على المتبنَّى الكلام بالسوء على من ربَّاه. فإن فعل قُطع لسانُه أو سلمت إحدى عينيه أو قطعت أذنه.

– كما نظمت هذه التشريعات أموراً كثيرة مثل أجور الأطباء ومراعاة حالة المريض الاقتصادية وحق المريض فى التعويض عن خطأ الطبيب ليس هذا مجال ذكرها ويمكن لمن يريد الاستزادة الرجوع إلى كتب التاريخ. وفقط أدرجنا بعض النماذج لبيان تشابهها مع بعض التشريعات السماوية.

وكما سبق أن قلنا إن القوم لم يؤمنوا بإبراهيم عليه السلام ولذلك فلعلَّهم لم يلتزموا بحرفية ما جاء به. وحرَّفوا بعضها تمسُّكا بأعراف لديهم وتقاليد كان لها هوى فى أنْفُسهم.

ويقول الدكتور عبد العزيز صالح إن بعض المستشرقين قد عاب ما ورد فى التشريعات البابلية من قصاص العين والسن بالسن. مع أن مبدأ القصاص جاء فى التوراة. وأشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى:

وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن». (من الآية ٤٥ – المائدة)

ولكن يعيب التشريعات البابلية ما ورد فيها من قسوة شديدة فى بعض الأحكام مثل قطع ثدى المرضعة إذا عُهِدَ إليها بإرضاع طفل فمات عندها. أو قطع يد الحلاق إذا قام بإزالة قُصَّة عبد بدون موافقة سيده. أو قطع يد الطبيب إذا أهمل ونتج عن إهماله فقدان بصر أحد المرضى.

ويرى البعض أن هذه الأحكام القاسية قد أدخلت للتخويف ومنع المخالفة قبل وقوعها أكثر مما هى للتطبيق الحرفى أو لعلها كانت رد فعل لشيوع أنواع من الفساد فى المجتمع وقتئذ.

وروى أبو إدريس الخزلانى عن أبى ذر الغفارى (عرائس المجالس للثعلبى . ص ١٢٠) قال: قلت يارسول الله كم كتاباً أنزل الله تعالى؟ قال مائة صحيفة وأربعة كتب. أنزل الله على آدم عشر صحائف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. قال فقلت يارسول الله فما كانت صحف إبراهيم؟ قال كانت أمثالاً كلها، منها :

- أيها الملك المبتلى المتسلط المغرور، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردها ولو كانت من كافر.

– على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه

وساعة يتفكر فيها فى صنع الله. وساعة يحاسب فيها نفسه على ما قدم وأخر. وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال فى المطعم والمشرب وغيرهما.

– على العاقل أن لا يكون ظاعناً إلاَّ فى ثلاث: تزود لمعاده – ومؤنة لمعاشه – ولذة فى غير محرم.

– على العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومن علم أن كلامه شر من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه. والله عن كل محظور يغنيه.

من الملك الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه :

«ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه، أن آتاه الله الملك». (٢٥٨ – البقرة)

تروى كتب التفسير الإسلامية أن هذا الملك هو «النمرود بن كنعان بن أنوش» ويزعمون أنه كان واحداً من أربعة ملوك ملكوا الأرض كلها. اثنان كافران: نمرود وبختنصر (نبوخذ نصر). واثنان مؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين، ويقولون إن وصف القرآن الكريم له **«أن آتاه الله المُلك»** ولفظ الملك هكذا يعنى مُلك الدنيا المعروفة فى ذلك الوقت. ويصفون النمرود بأنه أول جبار تجبَّر فى الأرض وأول ملك فى الأرض وأنه هو صاحب الصرح فى بابل وأول من صلب وأول من قطع الأيدى والأرجل إلى غير ذلك من صفات القسوة والظلم والجبروت.

وأكبر الظن أنهم استندوا فى ذلك إلى التوراة حيث جاء فيها (الإصحاح العاشر تكوين): وكوش ولد نمرود الذى ابتدأ يكون جباراً فى الأرض. الذى كان جبار صيد أمام الرب. لذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب. وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكد وكلنة فى أرض شنعار من تلك الأرض خرج أشور وبنى نينوى ورحوبوت عَيْرَ وكَالَحَ ورَسَنَ بين نينوى وكالح، هى المدينة الكبيرة.

ورحوبوت عير ورسن ضاحيتان من ضواحى نينوى. أما كالح فهى مدينة بناها نمرود وبقيت مسكن الملوك الأشوريين المفضل فترة من الزمن، وأطلالها اليوم موجودة على بعد ٢٠ ميلاً جنوبى نينوى ويطلق عليها اسم نمرود.

وتجمع كتب التاريخ (دراسات تاريخية من القرآن الكريم . د. بيومى مهران. جـ ٤ ص ١٥٢) على أن التاريخ البابلى لا يعرف ملكاً اسمه النمرود. فقد تولى الحكم فى العهد البابلى القديم ستة ملوك ليس من بينهم من اسمه النمرود. وكان سادسهم هو حمورابى الشهير وصحيح أنه توجد بلدة باسم نمرود على مجرى الزاب الأكبر. وأكبر الظن أن الرواة خلطوا بين الملك والمدينة، ثم جاء المؤرخون الإسلاميون فنقلوا عنهم. وإذا كان عدم وجود ملك بهذا الإسم

يقوِّض القضية من أساسها إلاَّ أنه يمكن إضافة أن ادعاء البعض بأن النمرود هذا كان أول ملك فى التاريخ. ليس صحيحاً. فقد سبقه الملك مينا (نارمر) فى مصر الذى وحد القطرين فى أول دولة عرفتها البشرية.

وأضيف دليلاً آخر. وهو أننا لو نظرنا إلى شجرة النسب المدونة فى شكل ٢٥ ص ٤٧، نجد أن جيل إبراهيم عليه السلام هو العاشر بعد نوح عليه السلام. فى حين أن النمرود إن كان ابن كوش فهو من الجيل الثالث وإن كان – ابن كنعان بن كوش فهو من الجيل الرابع. أى أن بينه وبين جيل إبراهيم عليه السلام ستة أو سبعة أجيال، فيستحيل أن يكون معاصراً له.

يبقى السؤال، من الذى حاج إبراهيم فى ربه ؟

ولعل الإجابة عن هذا السؤال تكمن فى قوله تعالى :

«أن آتاه الله الملك» .

ولو استعرضنا الملوك الذين كانوا يحكمون العراق فى هذه الفترة لوجدنا أن أكثرهم كانوا ملوك دويلات: مثل دويلات الوركاء أو لارسا أو أور أو أكد. وغيرها من دويلات المدن التى كان جنوب العراق يتكون منها. فهى إمارات وليست ممالك ولا ينطبق عليها لفظ «الملك» الذى جاء فى الآية الكريمة. فإطلاق لفظ «الملك» هكذا يعنى أنه كان مُلكاً عظيماً. وكان اتحاد سومر وأكد تحت تاج واحد فى «دولة بابل» بداية مملكة كبيرة نوعاً ما. تجاورها من الشمال أشور ومن الشرق عيلام. ومن الغرب مارى.

ولو استعرضنا الملوك الذى حكموا دولة بابل لوجدناهم كالآتى :

١ – سوموابوم (حكم ١١ سنة)   ٢ – سومولا إيلوم (حكم ٣٤ سنة).
٣ – صبوم (حكم ١٣ سنة)   ٤ – أپل سين (١٧ سنة)
٥ – سن مبلط (١٩ سنة)   ٦ – حمورابى (حكم ٤٣ سنة)
٧ – سمسو إيلونا (٣٧ سنة)   ٨ – أبى إيشو (٢٧ سنة)

ونرى أن حمورابى كان أطولهم مدة فى الحكم. كما أنه كان حكيماً فى تصرفاته واستهدف الرجل منذ بداية حكمه توحيد بلاد النهرين تحت زعامته سواء بالسياسة أو بالحرب فأخضع مدن أوروك وإيسن وأور ولجش وغيرها. وكانت أعنف مقاومة له من دويلة لارسا ذات الأصل العيلامى. وتحالف مع ملوك الدول المجاورة. وكان حريصاً على أن تكون له اليد العليا فى كل تحالف وعلى أن يأخذ أكثر مما يعطى. فيطلب المساعدات العسكرية من حلفائه ويضنُّ عليهم بعسكره. حتى إذا ضعف أحدهم تحت ضغط أعدائه تقدم هو بقواته وسيطر على بلده مثلما فعل مع دويلتى مارى وأشتونا.

كذلك كان من حسن سياسته العمل على رعاية تماثيل معبودات المدن التابعة والخاضعة بعد الاستيلاء عليها حتى تكون سبيلاً لولاء مشاعر أتباعها. فكان أن رفع مكانة الربة «إنانا» فى نينوى. وكانت رعاية هذه التماثيل تعنى أيضاً رعاية من يخدمونها من كهنتها وكاهناتها وإحياء أعيادها فى معابد بابل نفسها.

وأخيراً استولى على لارسا وتقدم واستولى على أجزاء كثيرة من عيلام نفسها. ووسَّع ملكه بحيث شمل العراق كله شماله وجنوبه. وجزءاً من بادية الشام وسوريا ولبنان حتى إنه وصل كما تقول كتاباته إلى أرض الأرز وطرطوس أيضاً فكانت مملكته من العِظَم بحيث ينطبق عليها قول الله تعالى: **«أن آتاه الله الملك»**. ووصف حمورابى نفسه بأنه «إله بين الملوك». وأنه «أول الملوك وزعيمهم والخالد بينهم» وادعى البنوَّة للمعبود سين إله القمر. وأنه سليل ساموﻻئيل والوريث الجبار للإله سين. والبذرة الأزلية للملكة شمس بابل. وعظَّمه شعبه ووضعوه بين الآلهة.

كما أنه كان يتمتع بقدر كبير من العقلانية والمنطق بدليل إشرافه على وضع مواد قانونه الشهير. ولم يلجأ إلى العنف فى مجابهة إبراهيم عليه السلام، بل لجأ إلى مابرع فيه وهو المنطق فكانت المحاجة.

أما كيف التقى الملك بإبراهيم فلعل الملك سمع بما حدث لإبراهيم فى أور ومعجزة خروجه من النار سالماً. وسمع أنه يدعو إلى دين جديد فأراد أن يستعلم بنفسه عن هذا الدين الذى يدعو إليه إبراهيم. فأرسل فى طلب إبراهيم وجرت بينهما هذه المحاجة.

ويروى المفسرون رواية أخرى. أنه كان عيد لهم، فدخل إبراهيم على أصنامهم فكسرها فلما رجعوا قال لهم أتعبدون ما تنحتون فقال الملك فمن تعبد؟ قال أعبد ربى الذى يحيى ويميت. وواضح عدم قبول هذه الرواية إذ أن تكسير الأصنام قد حدث فى أور – وحدوثه مرة أخرى فى مدينة بابل أمر مستبعد. كذلك فإن الملك وقد كُسِّرت أصنام الآلهة ماكان يكتفى بالمحاجة ولا يتخذ إجراءً عنيفاً ضد إبراهيم عليه السلام ليحفظ هيبة الآلهة ومن ثَمَّ هيبته هو نفسه.

رواية ثالثة قالوا إن الملك كان يحتكر الطعام. فكانوا إذا احتاجوا إلى الطعام يشترونه منه، فإذا دخلوا عليه سجدوا له. فدخل إبراهيم فلم يسجد له، فقال الملك مالك لا تسجد لى؟ قال: أنا لا أسجد إلاَّ لربى فقال الملك: فمن ربك قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت إلى آخر المحاجة.

وقيل إن الملك كان يقعد يأمر الناس بالميرة (الميرة هى طعام يمتاره الإنسان أى يجلبه من بلد إلى بلد) فكلما جاء قوم يقول: من ربكم وإلهكم؟ فيقولون أنت.. فيقول: ميروهم وجاء إبراهيم عليه السلام يمتار. فقال له من ربك وإلهك؟ فقال: ربى الذى يحيى ويميت. فلما سمعها الملك قال: أنا أحيى وأميت. فعارضه إبراهيم بأمر الشمس فبهت الذى كفر وقال: لا تميروه. فرجع إبراهيم إلى أهله دون شيئ.

وهذه الروايات يصعب تصديقها. فما كان الملك ليستطيع احتكار كل طعام فى المملكة كذلك لا يعقل أن يقعد الملك طوال اليوم، وكل يوم، ليسأل كل واحد نفس السؤال، ويرى الناس وهى تسجد له، وما كان اليوم ليتسع لبضع مئات يفعلون ذلك. وهناك آلاف ينتظرون الطعام وهناك ساعات نوم وساعات أكل وساعات راحة لا يوزَّع فيها الطعام مادام مرتبطاً بوجود الملك والسجود له وهو مالا يُعقَل.

بل إن الرواية الأخيرة تمضى فتقول إن إبراهيم بعد أن مُنِع من الميرة، مرَّ على كثيب رمل ناعم كالدقيق، فقال فى نفسه: لو ملأت غرارتى من هذا، فإذا دخلت به فرح الصبيان حتى أنظر لهم، فذهب بذلك فلما بلغ منزله فرح الصبيان وجعلوا يلعبون فوق الغرارتين. ونام هو من الإعياء. فقالت امرأته، لو صنعت له طعاماً يجده حاضراً إذا انتبه. ففتحت إحدى الغرارتين فوجدت أحسن ما يكون من الدقيق الأبيض فخبزته. فلما قام وضعته بين يديه فقال: من أين هذا؟ فقالت من الدقيق الذى أتيت به. فعلم إبراهيم أن الله تعالى يسر لهم ذلك (تفسير القرطبى).

وواضح اختلاق هذه القصة، فأى صبيان كانوا يلعبون فوق الغرارتين؟ وسارة كانت عاقراً. ولم يكن لإبراهيم ولد إلا بعد أن زار مصر وأهديت هاجر لسارة ثم اتخذها زوجة فولدت له إسماعيل. وبعد أن عاد إلى حبرون جاءته البشرى وولدت سارة إسحق.

بعضهم يقول إن المحاجة حدثت بعد أن كسَّر إبراهيم الأصنام فى أور (تفسير المنار) وأغلب الظن أن حالة القوم النفسية بعد تحطيم أصنامهم لا تسمح بقيام حوار أو مجادلة من أى نوع. فقد كان همهم هو القبض على الفاعل وعقابه. وكان جدال القوم فيما بينهم هو: هل يقتلونه أو يحرقونه.

رأى آخر يرى أنها كانت بعد خروج إبراهيم من النار ولم يكن إبراهيم قد اجتمع بالملك إلاَّ فى ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة (تفسير ابن كثير) وهذا أيضاً مستبعد. فالملك وقد رأى معجزة حيَّة أمامه فى أن النار لم تحرق إبراهيم ولم تمسَّه بأى أذى، تأكد من قدرة إله إبراهيم وما كان له أن يحاجَّه فى شيئ بعد ذلك. بل إن الملك كما يقول الأستاذ عبد الحميد جودة السحار ذبح خمسة آلاف من الغنم تقرباً من إله إبراهيم.

خلاصة القول يمكننا إن نقول إن الملك الذى حاج إبراهيم هو حمورابى ملك بابل الذى مدَّ ملكه ليشمل العراق كله وسوريا حتى وصل إلى البحر المتوسط. وأن هذه المحاجة حدثت فى بابل، عاصمة مُلك حمورابى. ولعله سمع بمعجزة نجاة إبراهيم من النار فى أور، فأراد أن يستوثق بنفسه عن هذا الإله الذى يروى عنه إبراهيم ويدعو إليه.

المحاجـة :

«ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه، أن آتاه الله الملك. إذ قال إبراهيم: ربى الذى يحيى ويميت. قال: أنا أحيى وأميت. قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهت الذى كفر، والله لا يهدى القوم الظالمين». (٢٥٨ - البقرة)

هذا الملك الذى ادعى الألوهية. طلب من إبراهيم أن يبرهن على وجود الله. فقال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت. أى أن الله هو الذى خلق الخلق. فلم يدَّع مخلوق أنه خلق نفسه بنفسه. بل لابد من خالق خلقه - والذى خلقه هو الذى يميته بعد الحياة التى قدرها له ولذلك فإن الله هو الذى يحيى ويميت.

فقال الملك. أنا أحيى وأميت. قال قتادة ومحمد بن اسحق والسدى وغيرهم. وذلك أن أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فيقتل. وأمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل ويظل حيا. فذلك إحياء وإماتة. ومع مافى هذا القول من مغالطة ومكابرة. قال إبراهيم. إن الله هو خالق هذا الوجود وسخر الكواكب وهذه الشمس يأتى بها الله من المشرق فأت بها من المغرب. فعلم الملك عجزه وبهت أى أخرس ولم يتكلم وقامت عليه الحجة.

وجواب الملك كان فيه مغالطة ومكابرة إذ أن الإحياء الذى ادعاه ليس فى الحقيقة إحياء من عدم. بل هو ترك لاستمرارية الحياة التى أوجدها الله سبحانه وتعالى. ويقول الأستاذ الإمام محمد عبده المراد بالذى يحيى ويميت الذى ينشئ الحياة بعد ممات ويزيل الحياة بالموت. ولما رأى إبراهيم عليه السلام أن الملك لم يجب الإجابة التى تدل على فهم السؤال على حقيقته أراد أن يوضح له المراد من السؤال وهو الله الذى يعطى الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته ، وهو الذى يطلع الشمس من المشرق أى هو المكون لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التى نشاهدها عليها، فإن كنت تفعل كما يفعل، فغير نظام طلوع الشمس بأن تأتى بها من الجهة المقابلة للجهة التى جرت سنة الله تعالى بظهورها منها.

ويقول الدكتور محمد بيومى مهران إن الإمام النسفى قال إن هذا ليس بانتقال من حجة إلى حجة. بل إن القوم - وكانوا أهل تنجيم - كانوا يعلمون أن حركة الكواكب قسرية ومنتظمة. فمادام قد ادعى الإحياء والإماتة. فليستكمل إظهار قدرته بالإتيان بالشمس من المغرب. فبهت الذى كفر لأنه أدرك عجزه.

وكما قال الإمام ابن كثير إن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثانى، انتقال من دليل إلى أوضح منه وأن المقام الأول كان كالمقدمة للثانى وعجز الملك عن الثانى ينسحب أيضا على الأول.

وذكر الدكتور محمد بيومى مهران (دراسات تاريخية من القرآن الكريم . جـ٤ ص ١٥٦) أنه انطلاقاً من كل هذا، فلا محل للشبهة التى يوردها بعض الناس، وهى أنه لو كان الملك قال: إذا كان ربك هو الذى يأتى بالشمس من المشرق، فليأت بها يوما من المغرب - وأن ابراهيم لم يكن ليسأل ربه ذلك لأن فيه خراب العالم. وقد رد الدكتور بيومى مهران على ذلك بقوله إن هؤلاء لم يفهموا مراد إبراهيم وهو أن هذا النظام فى سير الشمس لابد له من فاعل حكيم. وفهم أنه من غير المعقول أن يطلب من هذا الحكيم أن يرجع عن حكمته ويبطل سنته.

وأزيد فأقول: إن قدرة الله ليس لها حدود. ولو كان الملك قد طلب ذلك. وسأل ابراهيم ربه فى ذلك. وشاءت إرادة الله أن يجيب إبراهيم سؤله. لما كان أمام قدرة الله من حائل فى أن تأتى الشمس من المغرب لساعة أو بضع ساعة ولا يحدث خراب للعالم كما ادعوا. فالمعجزة هى خرق لنواميس الكون يأتى بها ليؤيد بها رسوله ويدلل بها على صدق رسالته. ولكن السؤال هل كان إبراهيم عليه السلام مرسلاً أساساً لهذا الملك حتى تجرى له معجزة كهذه. والجواب طبعا بالنفى لأن المحاجة إنما جاءت حدثا عارضاً حينما مر إبراهيم عليه السلام بمدينة بابل. ومن المؤكد أن الملك طلب من إبراهيم عليه السلام أن يقرأ عليه شيئا من الصحف التى كانت تنزل عليه من ربه. ومن المؤكد أن كان بها شئ عن مصير الأمم السابقة التى كذبت أنبياءها . قوم نوح فأغرقوا وقوم هود أهلكوا بريح صرصر عاتية. ولعل أكثر ما أثر فى نفسه كانت قصة قوم صالح. إذ تحدوا نبيهم بأن يخرج لهم من الصخرة ناقة. وهم كانوا ينحتون الجبال بيوتا ويعلمون تمام العلم أن لا حياة البتة داخل الصخر. وظنوا أن طلبا كهذا سيُعجز صالحا. فلما أجيب طلبهم كفر البعض بهذه المعجزة وزادوا بأن عقروا الناقة فكان هلاكهم.

واستوعب حمورابى هذه القصة جيدا. وأدرك من نجاة إبراهيم عليه السلام من النار عظم قدرة ربه. وعلم أنه لو طلب من إبراهيم أن يأتى ربه بالشمس من المغرب وأتى بها - لوجب عليه الإيمان وإلا نزل به عذاب عظيم. أدرك هذا كله وعلم فى نفسه أنه سيتمسك بما يدعيه من ألوهية أو بنوة للآلهة وأدرك أنه لن يؤمن لإبراهيم. فآثر ألا يطلب منه أن يأتى ربه بالشمس من المغرب. وذلك يحاكى ما قيل إن الحواريين فعلوه لما تحدوا عيسى عليه السلام بأن ينزل عليهم مائدة من السماء فوُعدوا بإجابة طلبهم بشرط العذاب إذا لم يؤمنوا.

«قال الله إنى منزلها عليكم، فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين». (١١٥ - المائدة)

فقد أخرج ابن جرير وغيره عن الحسن ومجاهد أن القوم لما قيل لهم ذلك قالوا: لا حاجة لنا بها. فلم تنزل.

وقال غيرهم إن المائدة نزلت وكان عذاب من كفروا أن مسخوا قردة وخنازير.

وفى رأينا أن الملك قد أدرك من نجاة إبراهيم من النار عظم قدرة ربه. وعلم أنه لو طلب هذا الطلب من إبراهيم ولم يؤمن لنزل به عذاب عظيم. لذلك آثر ألا يطلب ذلك.

وانتهت المحاجة. وعلم الملك أن إدعاءه الألوهية إدعاء كاذب. وأنه بشر كباقى الناس لذلك لم يتعرض لإبراهيم عليه السلام بأذى.

سر الحياة والموت :

لما انتهت المحاجة بين الملك وإبراهيم عليه السلام. ترك إبراهيم بابل وسار شمالا. وعبر دجلة ومر بأشتونا فى طريقه إلى أشور ونينوى. وطوال الطريق كان يفكر فى موقف هذا الملك. كيف يدعى أنه يحيى ويميت وهل ترك أحد الأسيرين حيا هو إحياء؟ بالطبع لا. الإحياء الحقيقى هو أن يموت شيئ ثم يعود إلى الحياة مرة ثانية. وهذا لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى. وهو مؤمن بهذا أشد الإيمان. ولكن إبراهيم عليه السلام أراد أن يرى ذلك مشاهدة ليكون له عين اليقين كما كان له علم اليقين :

«وإذ قال إبراهيم رب أنى كيف تحيى الموتى، قال أو لم تؤمن. قال بلى ولكن ليطمئن قلبى. قال فخذ أربعة من الطير فصُرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا. ثم ادعهن يأتينك سعيا. واعلم أن الله عزيز حكيم». (٢٦٠ – البقرة)

كان إبراهيم عليه السلام مؤمنا بقدرة الله تعالى. فهو خالق هذا الكون من العدم. هو الذى يقول للشيئ كن فيكون. فكان إبراهيم يريد أن يطلّع على بعض أسرار تلك القدرة الإلهية ويراها رأى العين – لهذا سأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى.

يقول الأستاذ الباقورى أنه أراد بسؤاله هذا أن يزيد إيمانه ويضاعف يقينه. فأعطاه الله تبارك وتعالى مثالا من المحسوسات تتضح به كيفية إحياء الموتى.

ويقول صاحب الظلال: إنه التشوق إلى ملامسة سر الصنعة الإلهية ليس طلبا للبرهان أو لتقوية الإيمان. إنما هو أمر الشوق الروحى إلى ملامسة السر الإلهى فى أثناء وقوعه العملى.

وقد اختلف المفسرون فى السبب المباشر لتوجيه إبراهيم عليه السلام هذا السؤال لربه سبحانه وتعالى فقالوا عدة أقوال:

بعضهم قال إن إبراهيم عليه السلام مر على دابة ميتة قد توزعتها دواب البر والبحر. فقال رب أرنى كيف تحيى الموتى.

وقال ابن زيد: مر إبراهيم بحوت ميت. نصفه فى البر ونصفه فى البحر. فما كان فى البحر فدواب البحر تأكله. وما كان فى البر فدواب البر تأكله. فقال له إبليس الخبيث: متى يجمع الله

هذه الأجزاء من بطون هؤلاء؟ فقال: رب أرنى كيف تحيى الموتى. لم يكتف بإيمان الغيب بل أراد رؤية العين. وقال الحسن البصرى وقتادة وسعيد بن جبير والربيع: سأل ليزداد يقينا على يقينه.

وقال محمد بن اسحق بن بسار: إن إبراهيم لما احتج على الملك وقال ربى الذى يحيى ويميت وقال الملك أنا أحيى وأميت. ثم قتل رجلا وأطلق رجلا وقال أمتُّ هذا وأحييتُ هذا، قال له إبراهيم فإن الله يحيى بأن يرد الروح إلى جسد ميت، فقال له الملك: هل عاينت هذا الذى تقوله؟ ولم يكن يقدر أن يقول نعم رأيته. وهكذا سأل ربه رب أرنى كيف تحيى الموتى حتى إذا كان احتجاج فإنه يكون مخبرا عن مشاهدة وعيان أيضا.

وفريق آخر ذهب إلى أن طلب إبراهيم هذا كان عند البشارة التى أتته بأن الله قد اتخذه خليلاً.

«واتخذ الله إبراهيم خليلاً». (١٢٥ - النساء)

فسأل ربه أن يريه علامة على ذلك. ليطمئن قلبه بأن الله قد اصطفاه خليلا.

قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى. لما اتخذ الله إبراهيم خليلا، استأذن ملك الموت ربه أن يأتى إبراهيم فبشرة بذلك فأتاه، فقال: جئتك أبشرك بأن الله اتخذك خليلا. فحمد الله عز وجل وقال ما علامة ذلك، قال: أن يجيب الله دعاءك، وتحيى الموتى بسؤالك، ثم انطلق وذهب. فقال إبراهيم: رب أرنى كيف تحيى الموتى. قال أو لم تؤمن. قال بلى ولكن ليطمئن قلبى بعلمى بأنك تجيبنى إذا دعوتك وتعطينى إذا سألتك أنك اتخذتنى خليلا.

ويقول أبو جعفر: وأولى الأقوال عندى أن تكون مسألته ربه ما سأله أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض فى قلبه. ذلك أن إبراهيم لما رأى الحوت الذى بعضه فى البر وبعضه فى البحر قد تعاوده دواب البحر وطير الهواء. ألقى الشيطان فى نفسه فقال متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء. فسأل إبراهيم ربه حينئذ أن يريه كيف يحيى الموتى ليعاين ذلك عيانا، فلا يقدر الشيطان بعد ذلك أن يلقى فى قلبه مثل الذى ألقى فيه عند رؤيته ما رأى من ذلك. فقال له ربه: أو لم تؤمن؟ يقول: أو لم تصدق يا إبراهيم بأنى على ذلك قادر، قال بلى يارب ولكن سألتك أن ترينى ذلك ليطمئن قلبى فلا يقدر الشيطان أن يلقى فى قلبى مثل الذى فعل عند رؤيتى هذا الحوت (تفسير الطبرى).

ذكر الطبرى فى تفسيره حديثاً شريفاً، ورد فى صحيح البخارى أيضاً بسنده عن ابن شهاب عن أبى سلمة وسعيد، عن أبى هريرة، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نحن أحق بالشك من إبراهيم. إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى، قال أو لم تؤمن، قال بلى، ولكن ليطمئن قلبى. وكذا رواه مسلم فى صحيحه.

ويقول الدكتور محمد بيومى مهران: إن تفسير الحديث بشك إبراهيم فى قدرة الله على إحياء الموتى تفسير خاطئ. وقال بعضهم ليس المراد هنا بالشك فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى وإنما شك فى أنه هل يجيبه الله تعالى إلى ما سأل. ولكن قوما - على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لم يفهموا الآية الفهم الصحيح. وقالوا شك إبراهيم ولم يشك نبينا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول تواضعا منه وتقديما لإبراهيم على نفسه. وهذا نفى للشك عن إبراهيم. إذ مادام أحد لا يتصور أن يشك النبى صلى الله عليه وسلم. فمن باب أولى أن لا يتصور أن إبراهيم عليه السلام قد شك. ويقول صاحب تفسير المنار. ومعنى الحديث: أننا نقطع بعدم شك إبراهيم. فإنه ما من أحد إلا وهو يؤمن بأمور كثيرة إيمانا يقينا. غيبا. وهو لا يعرف كيفيتها. ويود لو يعرفها.. وذلك لأن طلب المزيد من العلم والتشوق إلى الوقوف على أسرار الخليقة مما فطر الله عليه الإنسان وكان طلب ابراهيم عليه السلام رؤية كيفية إحياء الموتى بعينيه، من هذا القبيل، فهو طلب للطمأنينة فيما تنزع إليه النفس من معرفة خفايا أسرار الربوبية.

ويقول الألوسى فى تفسيره: إن السؤال لم يكن عن شك ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ليحيط بها علما. فاليقين بالإحياء موجود ولكن كيفية الإحياء هى ما أراد مشاهدته. ونظير ذلك أن يقول القائل كيف يحكم زيد فى الناس؟ فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ولكنه سأل عن كيفية حكمه المعلوم ثبوته. ولو كان سائلا عن ثبوت ذلك لقال أيحكم زيد فى الناس؟

ولقد استجاب. الله لهذا التشوق والتطلع فى قلب ابراهيم. ومنحه التجربة الذاتية المباشرة.

«قال فخذ أربعة من الطير، فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا، واعلم أن الله عزيز حكيم». (٢٦٠ - البقرة)

والمروى عن ابن عباس رضى الله عنه أن الطيور الأربعة هى الغرنوق والطاووس والديك والحمامة وعن مجاهد بدل الغرنوق الغراب وفى رواية بدل الحمامة بطة وفى رواية نسر.

وتخصيص الطير بذلك لأنه أقرب إلى الإنسان فى المعاش والسكن ولسهولة ما يفعل به من التجزئة والتفرقة.

وهكذا أمر الله ابراهيم أن يختار أربعة من الطير «فصرهن إليك». قرئت بضم الصاد بمعنى قطعهن قطعا. وقرئت بكسر الصاد بمعنى الإمالة والضم، أى يقربهن منه ويميلهن إليه حتى يتأكد من شكلها ومميزاتها التى لا يخطئ معها معرفتها فيما بعد. وذبحها وقطع أجسادها. وفرق أجسادها على الجبال المحيطة وقال بعضهم أربعة جبال وقال آخرون سبعة. ثم دعاها فتجمعت أجزاء كل طير بعضها مع بعض وارتدت إليها الحياة وعادت إليه سعيا.

ويقول الإمام الرازى فى تفسيره إن إبراهيم قطع أجزاءها وذبحها ونتف ريشها. وقطعها جزءا جزءا وخلط دماءها ولحومها وأمسك برؤوسها فى يديه ثم جعل على كل جبل جزءا. ثم صاح بها «تعالين بإذن الله» فأخذ كل جزء يطير إلى الآخر حتى تكاملت الجثث ثم أقبلت كل جثة إلى رأسها وانضم كل رأس إلى جثته وصار الكل أحياء بإذن الله تعالى.

قال أبو مسلم فى تفسير «فصُرهن إليك» بمعنى الإمالة والتمرين على الإجابة ثم اجعل على كل جبل طيرا واحدا حال حياته. ثم ادع الجميع يأتينك سعيا. وذلك مثال محسوس عن عود الأرواح إلى الأجساد. وهذا النوع من الجواب قريب من جواب موسى إذ طلب رؤية الله تعالى فرأى ما صار إليه الجبل لما تجلى ربه للجبل فجعله دكا.

ولكن جمهور المفسرين يذهبون إلى تفسير صُرهُنَّ بمعنى الذبح والتقطيع ثم يجعل على كل جبل منهن جزءا. وليس على كل جبل منهن طيرا واحدا حيا. بل جزءا من كل طير وهذا لا يتأتى إلا بعد ذبحهن وتقطيعهن.

وذكر الألوسى (روح المعانى الجزء الثالث ص ٣١) أنَّ للصوفية رأياً آخر فى هذا الأمر وأنها من باب الإشارة:

وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى. أى موتى القلوب بداء الجهل. قال أو لم تؤمن أى ألم تعلم ذلك علما يقينا. قال بلى أعلم ذلك. ليطمئن قلبى الذى هو عرشك.

قال فخذ أربعة من الطير إشارة إلى طيور الباطن التى فى قفص الجسم وهى **أربعة** من أطيار الغيب: **العقل والقلب والنفس والروح** فصرهن إليك أى ضمهن إليك أى ضمهن وأذبحهن. فاذبح طير **العقل** بسكين المحبة على باب الملكوت. واذبح طير **القلب** بسكين الشوق على باب الجبروت. واذبح طير **النفس** بسكين العشق فى ميادين الفردانية. واذبح طير **الروح** بسكين العجز فى تيه عزة أسرار الربانية.

ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا. فاجعل **العقل** على جبل العظمة حتى يتراكم عليه أنوار سلطنة الربوبية فيصير موصوفا بها ليدركنى بعد فنائه فىّ. واجعل **القلب** على جبل الكبرياء حتى ألبسه سناء قدسى فيتيه فى بيداء التفكر منعوتاً بصرف نور المحبة. واجعل **النفس** على جبل العزة حتى ألبسها نور العظمة لتصير مطمئنة عند جريان ربوبيتى عليها فلا تنازعنى فى العبودية ولا تطلب أوصاف الربوبية. واجعل **الروح** على جبل جمال الأزل حتى ألبسها نور النور وعز العز وقدس القدس لتكون منبسطة فى السكر مطمئنة فى الصحو عاشقة فى الانبساط راسخة فى التجليات.

ثم ادعهن: ونادهن بصوت سر العشق. يأتينك سعيا: إلى محض العبودية بجمال الأحدية.

واعلم أن الله عزيز، يعزك بعرفانك هذه المعانى وإطلاعك على صفاته القديمة. حكيم فى ظهوره بغرائب التجلى لأسرار باطنك.

ويقولون أيضا: أشار سبحانه بالأربعة من الطير إلى القوى الأربعة التى تمنع العبد عن مقام العيان وشهود الحياة الحقيقية. ووقع فى أثر أنها كانت طاووسا وديكا وغرابا وحمامة. والطاووس إشارة إلى العجب، والديك إلى الشهوة، والغراب إلى الحرص، والحمامة لحب الدنيا لإلفها الوكر والبرج. وفى أثر بدل الحمامة بطة إشارة إلى الشره الغالب. وفى أثر آخر بدل الحمامة نسر إشارة الى طول الأمل.

فصرهن إليك: أى ضمّهن وأملهنَّ إليك بضبطها ومنعها عن الخروج إلى طلب لذاتها والنزوع إلى مألوفاتها . أما ذبحها ونتف ريشها وخلط لحومها ودمائها وحفظ رؤوسها عنده أى يمنعها عن أفعالها ويزيل هيآتها عن النفس ويقمع دواعيها وطبائعها وعادتها بالرياضة ويُبقى أصولها فيها. وأن يجعل على كل جبل من الجبال التى بحضرته وهى العناصر الأربعة التى هى أركان البدن جزءا منهن. وكأنه أمر بقمعها وإماتتها حتى لا يبقى إلاَّ أصولها المركوزة فى الوجود والمواد المعَدَّة فى طبائع العناصر التى هى فيه.

وفى رواية أن الجبال كانت سبعة إشارة إلى الأعضاء السبعة التى هى أجزاء البدن. وفى رواية أخرى أنها كانت عشرة وعليها ربما تكون إشارة إلى الحواس الظاهرة والباطنة.

ثم ادعهن إشارة إلى أنه إذا كانت هاتيك الصفات حية بحياتها كانت غير منقادة وحشيه ممتنعة عن قبول الأمر. فإذا قتلت كانت حية بالحياة الحقيقية الموهوبة بعد الفناء والمحو. وهى حياة العبد وعند ذلك تكون مطيعة منقادة متى دُعِيَتْ أَتَت سعيا وامتثلت طوعاً وذلك هو الفوز العظيم.

تذكر التوراه (اصحاح ١٥ تكوين) شيئا مشابها لذلك ولكن بطريقة أخرى: وقال له (أى لإبراهيم) أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين. ليعطيك هذه الأرض لترثها. فقال: أيها السيد الرب، بماذا أعلم أنى أرثها؟ فقال له. فخذ لى عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة وحمامة فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه. وأما الطير فلم يشقه. فنزلت الجوارح على الجثث وكان أبرام يزجرها.

ولم توضّح ما مغزى هذه القصة ولا دلالتها!!

فى حاران :

بعد بابل مر إبراهيم عليه السلام بأشتونا وتركها فى إتجاه أشور. ولعل القوم بعد ما

تركها صاغوا ما كان قد أشار به من أحكام يصلح بها دنياهم. صاغوها فى «تشريعات أشتونا».

وظل إبراهيم سائرا فى طريقه مهاجرا إلى ربه يدعو من يلاقيه إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك أشور إلى نينوى ثم اتجه غربا حتى وصل إلى موطن أجداده «حاران».

كان معه فى مسيرته زوجته سارة، ووالده، ولوط ابن أخيه وزوجته، وكان معه عدد من العبيد يخدمونهم ويرعون الماشية. فقد كان له غنم وماشية كثيرة.

وكما سبق أن قلنا (صفحة ٦) إن حاران هى عاصمة دويلة فدان أرام، إحدى الدويلات الأرامية على جزء الفرات العلوى الموجود بسوريا وكان القوم يعبدون القمر باسم الإله «سين» وبنوا له معبدا كبيرا على ربوة عالية (زقورة) كما هى عادتهم.

وكان إبراهيم يدعو الناس إلى عبادة الله ونبذ عبادة الأصنام، وآمن به عدد كبير من الناس، وكان لايزال يطمع فى أن يؤمن أبوه وظل يلحَّ على أبيه كى يؤمن:

«يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويًّا. يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا. يا أبت إنى أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا». (٤٣ - ٤٥ مريم)

وكما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إنك لا تهدى من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين». (٥٦ - القصص)

فقد كان الله عالما أن أبا إبراهيم لن يكون من المهتدين، وبقى أبو إبراهيم على عبادة الأصنام، ومات على الكفر ودفن فى حاران. لطالما كا يتمنى إبراهيم أن يؤمن أبوه قبل موته!

وكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لوالده بعد أن مات ويطلب له الرحمة. فهذا كل ما يمكنه أن يفعل، فالأمر متروك كله لله.

«إلاَّ قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيئ». (من آية ٤ - الممتحنة)

ولعل الله بعد ذلك أوحى لإبراهيم أن لا يستغفر له لأنه مات على الكفر. وأشار القرآن الكريم لذلك فى قوله تعالى:

«وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاَّ عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، إن إبراهيم لأواه حليم». (١١٤ - التوبة)

وبقى إبراهيم عليه السلام فى حاران يدعو إلى الله، وكان قد بلغ من العمر سبعين سنه أو أكثر قليلا.

كان يشعر فى قرارة نفسه أن هناك أحداثا جساما تنتظره. ولكنه لا يدرى عنها شيئا. لقد أسلم وجهه لله. بل لقد أسلم أمره كله لله.

«إذ قال له ربه أسلم . قال أسلمت لرب العالمين». (١٣١ - البقرة)

لقد خرج مهاجرا إلى الله. فلينتظر ما تأمر به السماء.

وأوحى إليه أن اخرج من حاران. فخرج منها. وكان عمره يقترب من الخامسة والسبعين. وكان ذلك حوالى عام ١٩٠٣ ق.م.

واتجه إبراهيم عليه السلام غربا وعبر نهر الفرات ونزل فى منطقة بشمال الشام وضرب بها خيامه، وكثر غنمه. وكان البدو يجيئون من الصحراء وقد أصابهم القحط والجوع فيغمرهم بفضله. ويأمر بحلب البقر والغنم التى معه ليسقيهم. وكان يفعل ذلك كل يوم وكان البدو يفدون ويسألون: هل حلب إبراهيم غنمه؟ ليصيبوا بعضا من لبنها. فسمى المكان «حلب» (شكل ٢٧، ٢٨ ص ٦٤) ولكرمه سُمّى إبراهيم عليه السلام **أبا الضيفان.**

وتقول بعض الروايات أنه كانت له بقرة شهباء. وكان يقال حلب الشهباء. ومن هنا جاء وصف مدينة حلب بالشهباء.

ويذكر الأستاذ عبد الحميد جودة السحار قصة عن شيخ جاء يتوكأ على عصا. فهرع إبراهيم إليه وقاده إلى خيمته وسقاه وأطعمه. ودعاه بعد ذلك إلى عبادة الله وحده. ولكن الشيخ كان من عبدة الأصنام، فأخرج صنمه من متاعه وسجد له. فقال له إبراهيم: لا يُسْجَدُ فى خيمتى إلا لله وحده وطرده فى جوف الليل. وأطرق إبراهيم وأحس أنه يوحى إليه. وإذا بالوحى يسأله: ماذا فعلت بالضيف يا إبراهيم؟ فقال طردته لأنه أبى أن يذكر اسم الله على الطعام، وسجد لغير الله، وأبى أن يؤمن بالله. فقيل له: حمله ربك يا إبراهيم مائة سنه وهو يعبد غيره ويأبى أن يحمده، وأنت لم تحتمله ساعة. وما ضرك بشئ ولا أساء إليك. فراح إبراهيم يبحث عن الرجل فى ظلمة الليل حتى وجده يتوكأ على عصاه والرياح والبرد يعصفان به. فعاد به إلى خيمته وأكرمه.

فى دمشق :

ثم تابع إبراهيم عليه السلام سيره. وفى كل مكان نزل به كان يدعو الناس إلى عبادة الله وحده. حتى وصل إلى دمشق. وكان من بين من آمنوا به رجل إسمه أليعازر. ظل ملازماً لإبراهيم. ولمس إبراهيم عليه السلام صدق إيمانه وإخلاصه وأمانته. فجعله مشرفا على عبيده وغنمه وعرف باسم أليعازر الدمشقى (عبد الحميد جودة السحار. محمد رسول الله - الجزء الأول ص ٢٥٦)

وكان فى دمشق معبد للإله «بعل» وأخته «عنت» وكان المعبد مزيجا من معابد البابليين ومعابد المصريين وكانت به تماثيل «لشماس» و «عشتار» و «سين» وتماثيل لآلهة المصريين. فقد كانت الشام فى ذلك الوقت على علاقة طيبة ووطيدة بمصر.

كانت مصر فى ذلك الوقت فى أوائل حكم الأسرة الثانية عشرة التى أسسها أمنمحيت (= أمنحتب) الأول وأعاد النظام إلى البلاد بعد الفوضى التى سادتها فى أواخر حكم الأسرة الحادية عشرة. وأقام تحصينات على الحدود الشرقية والشمالية الشرقية لتأمين قوافل التجارة وبذلك ازداد التبادل التجارى مع الشام وفلسطين. وكانت المدن المصرية تستقبل وفودا منهم للتجارة. وكانت اللغة المصرية معروفة لأهل الشام. وكان التجار المصريون يترددون على نواحى لبنان والشام. وازدادت العلاقات بين مصر والشام فى عهد خلفه سنوسرت الأول وتلاه من بعده أمنمحيت الثانى ثم سنوسرت الثانى وتمتعت مصر طوال حكم هذين الملكين بالرخاء والرفاهية على أن رخاء مصر ورفاهيتها وخصوبة أرضها. كل ذلك جذب إليها المهاجرين الأسيويين. وزاد عددهم فى عهد سنوسرت الثانى - فكانوا يفدون على أقاليم مصر الشرقية والدلتا للتجارة فى الكحل والروائح العطرية التى كان المصريون يستعملونها بكثرة.

كذلك كان التجار المصريون يترددون على نواحى لبنان والشام وفلسطين. وقد عثر فى هذه النواحى على أوانى وجعارين نقشت بأسماء أفراد مصريين. كما عثر على تماثيل لمعبودات مصرية فى مدن الشام. وهكذا كان هناك نوع من العلاقات الحميمة بين البلدين.

ولاشك أن إبراهيم عليه السلام سمع وقتئذ عن مصر وما يقال عن رقى حضارتها. وعرف أيضا أنهم هناك يعبدون آلهة غير الله ويصنعون لها تماثيل ضخمة ومعابد كبيرة. ولعله أضمر فى نفسه أن يزور هذه البلاد علَّ الله يجعل هدايتهم على يديه. ولكنه ما كان ليفعل ذلك من تلقاء نفسه إلاَّ أن يتلقى وحيا من الله بذلك.

تُجمع الكتب على أن أتباع إبراهيم آنذاك كانوا كثيرين ويُعدُّون بالآلاف. كذلك كانت ثروته من الغنم والعبيد عظيمة. ولكنه مع ذلك آثر فى أثناء هجراته أن يتخذ طريق الجبال حتى لا يحدث اشتباك مع أهالى البلاد التى يمر بها. وإن كان المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» قد ذهب إلى أن إبراهيم قد استولى على دمشق وأصبح «ملك دمشق»!!

ويقول نقولا الدمشقى إن إبرامس (إبراهيم) حكم فى دمشق. ولكن الشك يكتنف هذه الأقوال فقد كان مثل هذا الأمر جديرا بأن يذكر فى القرآن الكريم أو أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إشارة تدل على حدوث ذلك.

كذلك فإن التوراة لم تذكر هذا الأمر. بل إنها لم تذكر أنه مر على دمشق بل تذكر أنه خرج من حاران إلى شكيم مباشرة. إلاَّ أن طريق القوافل القادمة من حاران إلى أرض كنعان كان

لابد أن يمر على حلب ومن بعدها دمشق. ولو كان إبراهيم عليه السلام قد مَلَكَ دمشق فعلا لكان حرياً أن يفرض عبادة الله الواحد الأحد بها. ثم يحاول مد نطاق هذه العبادة على ما حولها من مدن. ويصبح من غير المفهوم لماذا ترك القوم يعبدون الأصنام.

ومن الذين يقولون بأن إبراهيم عليه السلام قد استولى على دمشق، الأستاذ عبد الحميد جودة السحار (محمد رسول الله. جزء أول ص ٢٨٠) إذ يقول: إن الكهنة وقد أفزعتهم دعوته للتوحيد ونبذ عبادة الأصنام، ألَّبوا عليه الناس ليخرجوه من أرضهم، فاضطر إبراهيم وأعوانه إلى حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم. وكان أعوان إبراهيم وأتباعه كثيرين. فانتصروا ودانت لهم دمشق كلها بقصورها وكنوزها. ولكنه ككل نبي، زهد في ذلك وعاد إلى خيامه. ولكن الاستاذ السحار لم يذكر لماذا وهو الذي كسَّر الأصنام سرا في أور لماذا لم يعمد إبراهيم عليه السلام لمحو عبادة الأصنام من دمشق وقد أصبح سيدها والمتصرف في أمرها!!

لذلك فإنه من المرجح أنه كانت هناك مناوشات بينه وبينه رجال الدين والقوم المدافعين عن أصنامهم. وتمكن إبراهيم من صدِّها لوفرة عبيدة وأتباعه ولكن ليس لدرجة استيلائه على دمشق.

أقام إبراهيم عليه السلام ردحا من الزمان في خيامه في ضواحي دمشق يدعو الناس إلى عبادة الله واستجاب له عدد كبير من الناس. وكثر أتباعه. ولكن لاحاران ولا دمشق كانت له هدفا. لذلك تركهما وتابع سيره إلى أرض كنعان. وهي الأرض التي أمره الله بالتوجه إليها.

اتجه إبراهيم عليه السلام جنوبا واتخذ طريق القوافل المار في شرق الأردن إلى **راموث جلعاد** (كارل راسموسن. ن . أ . ف. أطلس الكتاب المقدس ص ٧٧) ثم إلى **وادي نهر حبوق** (أو نهر يبوق) ويسمى حاليا وادي الزرقا. إلى مدينة **سكُّوت** ثم عَبَر نهر الأردن وسار غربا حتى وصل إلى **وادي فاريا**. وهو وادي فسيح غير عميق. بين جبل إيبال وجبل جرزيم. وكان أول ما قابله هو **بلوطة مورة** – وهي من ضواحي شكيم. وفي بلوطة مورة بني إبراهيم مذبحا للرب ثم توجه إلى **شكيم** نفسها.

وتقع شكيم في منتصف المسافة تقريبا بين الطرف الشمالي للبحر الميت وبحيرة طبرية – وإلى الشرق قليلا من منتصف المسافة من نهر الأردن إلى البحر المتوسط. وهي مدينة هامة على طريق القوافل من أرض كنعان إلى دمشق فشمال سوريا والفرات. ومكانها حاليا تل البلاطة – إلى الشرق مباشرة لمدينة نابلس الحالية.

تقول التوراة (إصحاح ١٢ تكوين) :

وقال الرب لأبرام. اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك

فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأُعظِّم اسمك وتكون بركة وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض. فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران، فأخذ أبرام ساراى امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما التى اقتنيا والنفوس التى امتلكها فى حاران. وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. واجتاز أبرام فى الأرض وظهر الرب لأبرام وقال: لنسلك أعطى هذه الأرض. فبنى مذبحاً للرب الذى ظهر له. ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقى بيت إيل ونصب خيمته. وبين بيت إيل من المغرب وعاى من المشرق بنى هناك مذبحاً للرب. ودعا باسم الرب. ثم ارتحل أبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب.

وهكذا بنى إبراهيم عليه السلام مذبحاً فى شكيم ثم اتجه جنوباً حتى وصل إلى **بيت إيل** ومعناها بيت الله. والمدينة القديمة كانت تقع ١١ كم شمال القدس الحالية (ولعلها الآن إحدى ضواحيها).

وتقع عاى إلى الشرق من بيت إيل على بعد ١٥ كيلو متراً. ونزل إبراهيم ونصب خيامه بين عاى فى الشرق وبيت إيل فى الغرب.

ثم تابع إبراهيم عليه السلام سيره جنوباً حتى وصل إلى مدينة **حبرون** وهى مدينة الخليل الحالية وتقع على بعد ٣٠ كم جنوب غرب القدس. كانت حبرون على طريق القوافل المارة من العراق والشام إلى مصر والحجاز. والتقى إبراهيم عليه السلام بالصابئين. وصحح لهم عقيدتهم التى كانت انحرفت بعض الشيئ عن الدين القويم والملة الحنيفية التى جاء بها إدريس عليه السلام.

الصابئون :

جاء ذكر الصابئة فى القرآن الكريم ثلاث مرات :

«إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون». (٦٢- البقرة)

«إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى. من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليه ولا هم يحزنون». (٦٩ – المائدة)

«إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا، إنَّ الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شئ شهيد». (١٧ – الحج)

وعن أصلهم توجد عدة آراء :

جبل إيبال
جبل جرزيم
نابلس
الحالية
بلوطة
مورة
شكيم
تل البلاطة
وادى فاريا
صيدا
دمشق
صور
عكا
بحيرة
طبرية
البحر المتوسط
راموث جلعاد
سكوت
وادى الزرقا
نهر يبوق
بلوطة
مورة
شكيم
عاى
بيت إيل
أشدود
عسقلون
غزة
حبرون
البحر الميت
طريق القوافل شرق الأردن
رفح
بئر السبع
إلى مصر

شكل ٢٩ – من دمشق إلى حبرون

ففى شذرات الذهب لعبد الحى بن أحمد بن العماد الحنبلى فى ترجمة أبى اسحق الصابئى ما نصه: الصابئى نسبة إلى صابئ بن متوشلخ بن إدريس عليه السلام، وكان على الحنيفية الأولى، وقيل الصابئ ابن ماوى، وقيل إن ملة إدريس عليه السلام هى الصابئة وهى توحيد الله تعالى والطهارة والصوم، فقد كانوا يصومون ثلاثين يوماً متفرقة فى السنة، وكانوا يتشددون فى الطهارة، فكاوا يتحرجون من ملامسة غير الصابئين ويتطهرون إذا لمسوا غريباً فى أثناء عباداتهم، وكانوا يبنون مساكنهم بالقرب من الأنهار لحاجاتهم الدائمة إلى التطهر بالماء لذلك أطلق عليهم اسم الصابئين أى السابحين، فإن ملامسة الغريب فى أثناء العبادة توجب عليهم الاغتسال والسبح فى الماء.

ويقال إنهم آل بيت إدريس عليه السلام، ظلوا على الحنيفية، ولما طال الأمد بعد رفع إدريس ودخلت الوثنية فى الديانة المصرية القديمة كما سبق أن ذكرنا (الجزء الأول ص ٦٩) رحل الصابئون عن مصر، وانتشروا على قلتهم فى الشام والعراق، وبعضهم رحل إلى الحجاز وكانوا يكتمون كتابهم المقدس وسموه «كنزة» وكانوا يباشرون شعائرهم الدينية فى الخفاء.

ويقول الإمام أبو حنيفة (تفسير الألوسى – روح المعانى – الجزء الأول ص ٢٧٩): إنهم ليسوا بعبدة أوثان وإنما يعظمون النجوم ويُصلّون إلى الكعبة، واسم الصابئة من صبأ أى خرج أو من صبا بمعنى مال، لخروجهم عن الدين الحق وميلهم إلى الباطل.

وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى أنهم كانوا يقولون، إنا نحتاج فى معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأمره وأحكامه إلى متوسط روحانى لا جسمانى، ومدار مذهبهم التعصب للروحانيات، ولما لم يتيسر لهم التقرب إليها بذاتها فزعوا إلى هياكلها وهى السبع كواكب السيارة وبعض الثوابت، ويقولون إن الكواكب ملائكة نورانية، وأنه لابد من مخلوق وسط بين الروحانية والمادية يهدى الناس إلى الحق لأن الروحانيات مخلوقة من كلام الله عز وجل، دعاها بأسمائها فكانت، ولا يصل كلام الله إلى الناس إلاّ بوساطة مخلوق وسط بين النور والتراب، ترفعه الرياضة والهداية وتؤثره نعمة الله.

وملخص رأى العالم الفقيه سيف الدين الآمدى (الأديان فى القرآن، الدكتور محمود بن الشريف . ص ١٦٢– وهو الإمام أبو الحسن على بن محمد المكنّى بأبى على بن سالم التغلبى) عن ملة الصابئة، كما يلى:

– الكواكب الفلكية هى هياكل روحانية تعمل كرابطة وواسطة بين الإنسان والإله المعبود – وهذه الكواكب هى المدبِّرة لكل ما فى الكون.

– بما أن الكواكب تغيب عن الرؤية فى أوقات بسبب دورانها فى أفلاكها . فيلزم وجود نُصُب أو أصنام على صورتها لتكون حاضرة أمام الأعين فى كل الأوقات.

– ثم تأتى نظرية «الحلولية» لتربط الجميع. فالإله واحد فى ذاته. وهو الذى خلق الكواكب. وجعلها مدبِّرة لما فى العالم. والإله يَحُل فى الكواكب السبعة. ومن ثَمَّ يَحُل فى النُّصُب والشخوص التى ترمز لها من غير تعدد فى ذاته.

كما أنهم يعتقدون أن الكون كونان، وأن الخلق خلقان، فالكون الظاهر غير الكون الباطن. ولكل مخلوق فى عالم الشهادة صور محجوبة فى عالم الغيب. كما أنهم يؤمنون باليوم الآخر. ويؤمنون بالحساب والعقاب، وأن الأبرار يذهبون بعد الموت إلى عالم النور، وأن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلمة، فيلبثون فيه زمناً على حسب ذنوبهم ثم ينقلون منه إلى عالم النور.

وقد صحَّح إبراهيم عليه السلام عقيدتهم وردهم إلى الحنيفية الخالصة فنبذوا عبادة الكواكب أو أى رموز وعادوا إلى الطريق القويم. فاتبعوا تعاليم إبراهيم عليه السلام وإن ظلوا يُسمّون بالصابئة.

أقام إبراهيم عليه السلام فى حبرون عدة سنوات. وكثر عبيده وأتباعه. وكثر ماله وكثرت أغنامه. وبعد مدة قرر زيارة مصر.

فى مصر :

كانت مصر فى عام ٢١٠٠ ق.م. تمر بتغيرات كبيرة عقب سقوط الدولة القديمة فقد كانت مصر منقسمة إلى مملكتين : (شكل ٣٠)

١ – **الجزء الشمالى** يشمل الدلتا وجزءاً من الوجه القبلى حتى أبيدوس. ويحكم فيه ملوك الأسرة التاسعة والعاشرة. وعاصمتهم **هيراكليوبوليس** (إهناسية) بدلاً من منف.

٢ – **الجزء الجنوبى** ويشمل باقى الوجه القبلى حتى جزيرة فيلة قرب الشلال الأول. ويحكم فيه ملوك الإسرة الحادية عشرة وعاصمتهم **طيبة**.

وكانت فترة عدم استقرار اجتماعى. وكما قالوا عنها فى كتاباتهم: إن الأغنياء كانوا يعملون فى الحرف، والفقراء صاروا أسياداً، ومقابر الملوك نهبت، وحدثت مجاعات والخراب فى كل مكان.

ثم تولى الحكم **أمنحتب الأول** عام ٢٠٠٠ ق.م. تقريباً وبحكمه بدأت **الأسرة الثانية عشرة**. وحاول توحيد البلاد والحد من أطماع أمراء الأقاليم وحدد لكل أمير منطقة. فاختفت المنازعات بينهم وبدأ عصر من الاستقرار. ثم تمكن من هزيمة حكام هيراكليوبوليس وأعاد توحيد الشمال والجنوب وبدأ عصر الدولة الوسطى الذى شهدت فيه مصر كثيراً من الاستقرار. ورأى أن بلدة طيبة تقع فى جنوب مصر وتبعد عن شمالها. فتركها وبنى عاصمة جديدة سماها «أتت

غزة
منف
أتت تاوى
هيراكليوبوليس
هرموبوليس
المملكة الشمالية
القصير
قفط
أبيدوس
الكرنك
طيبة
المملكة الجنوبية
أسوان
الشلال الأول

شكل ٣٠ – انقسام مصر إلى مملكتين عقب سقوط الدولة القديمة

تاوى» أى القابضة على الوجهين البحرى والقبلى - ٣٠ كيلو متر جنوب منف ومكانها حالياً قرية اللشت مركز العياط .

تولى بعده **سنوسرت الأول** (عام ١٩٧٠ ق . م . تقريبا) . واستكمل ما بدأ فى عهد والده من حماية مصر من الليبيين فى الغرب. ووطد نفوذ مصر فى الجنوب فى بلاد كوش وراء الشلال الثانى. وجابت رسله فلسطين وسوريا بانتظام. وشيد لنفسه هرماً فى أتت تاوى وبنى معبداً للإله «رع» فى مدينة أون «عين شمس» لم يبق منه سوى مسلة بالقرب من المطرية لاتزال شاخصة فى مكانها .

جاء بعده **أمنمحيت الثانى ثم سنوسرت الثانى**، ودام حكمهما ٤٨ عاماً (١٩٣٦ - ١٨٨٨ ق.م.) وتميز بالرخاء والرفاهية - الأمر الذى جذب المهاجرين الأسويين فوفدوا إلى مصر فى أعداد كبيرة.

اتخذ ملوك الأسرة الثانية عشرة «آمون» إلهاً خاصاً لهم. ثم أصبح إلهاً رئيسياً مركز عبادته مدينة عين شمس وتسمَّى باسم «آمون رع».

فى هذه الفترة - كانت زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر.

زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر :

خرج إبراهيم عليه السلام من حبرون. ومر على آبار فى الطريق هى المساة بئر السبع. ثم اتبع طريق القوافل المتجه إلى مصر (شكل ٣١). وصل إلى «أتت تاوى» إذ كانت هى العاصمة فى ذلك الوقت وبها الفرعون، ولعله كان سنوسرت الثانى. وكما سيجئ فيما بعد فإن الملك أيقن أنه أمام رجل يحميه ربه لذلك آثر ألا يؤذيه بشئ وأعطاه هبات كثيرة وسمح له بالتجول أينما شاء. فوصل إلى وسط الوجه القبلى تقريباً عند مدينة بنى حسن.

زمن الزيارة :

اختلف المؤرخون فى الزمن الذى حدثت فيه هذه الزيارة. فيرى فريق منهم (الأستاذ عبد الحميد جودة السحار. محمد رسول الله . جزء ١ ص ٢٩٥). أن الزيارة تمت فى الوقت الذى كان ملوك الهكسوس يحكمون مصر . وأن ملكهم فى ذلك الوقت كان اسمه سنان بن الأشل بن عبيد.

ومن المؤكد أن يوسف عليه السلام جاء إلى مصر وبيع إلى أحد وزراء مصر فى عهد الهكسوس وتقول كتب التفسير الإسلامية (تفسير الألوسى . جزء ١٢ ص ٢٠٦) إن الملك يومئذ كان اسمه الريان بن الوليد العمليقى. وهو اسم أسيوى يدل على حكم الهكسوس. ولما

شكل ٣١ - إبراهيم عليه السلام فى مصر
.... خط السير

كان يوسف عليه السلام قد جاء إلى مصر فى السنة العشرين أو الثلاثين من حكم الهكسوس الذى دام ما يقرب من ١٥٠ سنة. فإنه يتعين أن يكون حكمهم بدأ بعد زيارة سيدنا إبراهيم لمصر بمدة طويلة. والوقت المرجح لهذه الزيارة هو عام ١٨٩٨ ق.م. فى حين أن حكم الهكسوس لمصر بدأ فى عام ١٧٨٠ ق.م، أى بعد زيارة إبراهيم لمصر بما يقرب من ١٢٠ عاماً.

وعلى ذلك فزمن الزيارة كان فى عصر الأسرة الثانية وخاصة وقت ازدهارها فى عهد أمنمحيت الثانى وسنوسرت الثانى وسنوسرت الثالث. ومن الصعب تحديد الوقت بالدقة ولكن المرجح هو فى عهد سنوسرت الثانى (انظر الجدول ص ٦٧).

وقد وجد نقش على جدران إحدى مقابر بنى حسن مركز قرقاص تمثل وفداً جاء فى السنة السادسة من حكم سنوسرت الثانى وكان الوفد يتألف من سبعة وثلاثين شخصاً من البدو بين رجال ونساء وأطفال ارتدوا ملابس صوفية مزركشة. وترك الرجال لحاهم وجلبوا معهم الحمير التى حملوها بالهدايا لحاكم منطقة بنى حسن (شكل ٣٢).

يتخذ علماء التاريخ من هذا النقش دليلاً على رخاء مصر ورفاهيتها. الأمر الذى جذب إليها المهاجرين الآسيويين الذين كانوا غالباً ما يقيمون فى الأقاليم الواقعة شرق الدلتا. ولو كان هذا النقش موجوداً فى مقبرة فى الدلتا أو فى الجزء الشمالى من الوجه القبلى لكان هذا التفسير معقولاً. ولكن وجوده فى بنى حسن. قرب ملوى يوحى بأن سبب الزيارة شيئ آخر غير التجارة. كما أن قدوم وفد للتجارة ليس له هذه الأهمية البالغة بحيث يستحق تسجيلها وإلا لوجدنا عشرات ومئات من هذه النقوش على عدد من المقابر فقد كانت وفود التجار الأسيويين تفد على مصر طوال حكم الأسرة الحادية عشرة (٦٥ سنة) والأسرة الثانية عشرة (٢١٥ سنة) واستمر بعد ذلك حتى كان استيلاء الهكسوس على مصر فى العصر المتوسط الثانى فى عام ١٧٨٠ ق.م تقريباً.

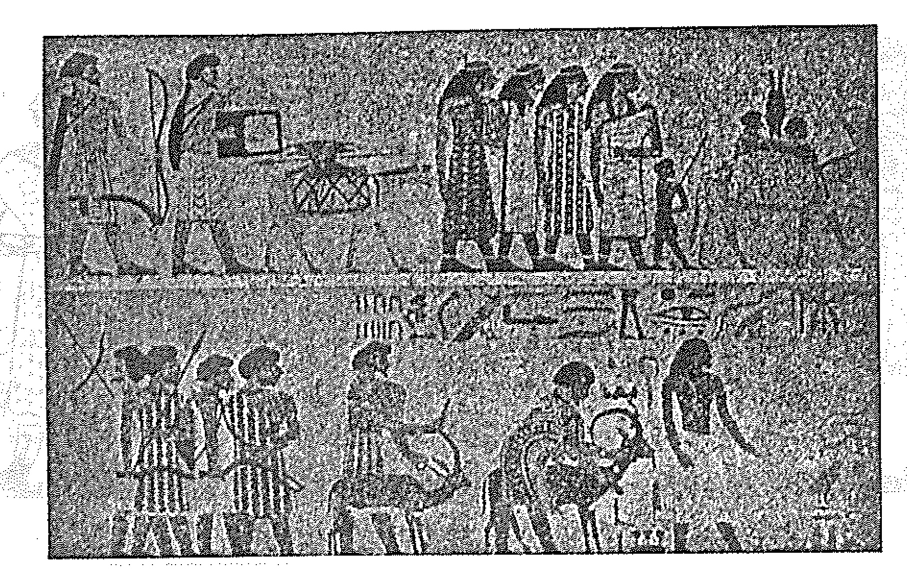
كذلك كان الأسيويون يقومون أحياناً ببعض الغارات للحصول على الحبوب للغذاء حينما يصيب القحط بلادهم. وكان المصريون يصدون هذه الغزوات. وقد يسجلونها لو كانت غزوة كبيرة لتخليد انتصارهم. وكانوا حينئذ يصورون الأسيويين مقيدين أو يسجدون للفرعون. بعكس النقش المشار إليه فى مقبرة بنى حسن الذى صوّر الأسيويين مرفوعى الرأس ومعهم رماحهم. وشكل ٣٣ يبين جزءاً من الرسم وبه أربعة رجال فى أيديهم رماح. بعدهم حمار يحمل طفلين ثم أربع نساء ثم حارسين بالقوس والنبال. وكان الوفد كله يتكون من ٣٧ شخصاً. كما أن توغل الوفد إلى وسط الصعيد يوحى بأنها لم تكن مجرد زيارة عابرة للتجارة. كذلك فإن الكتابة الموجودة بجوار النقش تقول: ويتقدم الجماعة رئيسها. حاكم البلاد الأجنبية «إبشاى» ويحمل لقب «حق» أى الأمير (د. نجيب ميخائيل إبراهيم. مصر والشرق الأدنى

القديم جـ ٣ ص ٧٢). ومن المسلم به أن إبراهيم عليه السلام كان رئيس الجماعة التى كانت معه عند زيارة مصر. كما أنه كان من القوة فى حبرون وبئر سبع حتى أن ملك جرار هادنه. والبعض كما سبق أن ذكرنا يقول بأنه قد ملك دمشق. لذلك فإن وصف «حاكم البلاد الأجنبية» ينطبق عليه.

و «حاكم البلاد الأجنبية» لا يمكن أن يأتى فى وفد للتجارة - كما أنه لو كان وفداً جاء لأسباب سياسية. لتوقيع معاهدة مثلاً لكان الواجب أن يُسجِّل ذلك - كما كان يسجِّل - على جدران أحد المعابد. وتُذكر اسم الدولة التى يمثلها. كما حدث عندما عقد رمسيس الثانى معاهدة عدم الاعتداء مع الحيثيين.

من هذا يمكننا أن نفترض - بغير مغالاة - أن هذا النقش قد يكون يمثل زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر. وشكل ٣٤ مأخوذ عن أحد المراجع الألمانية ومكتوب تحته أن زمن زيارة الوفد ترجع إلى عصر إبراهيم، ولو دققنا النظر إلى ملابس النسوة الأربع فى شكل ٣٣ - ٣٤ لوجدنا أن زى ثلاث منهن متشابه ويغطى الكتف اليسرى فى حين يترك الكتف اليمنى عارية. وكانت هذه عادة النساء الأسيويات. أما زى الرابعة فهو يغطى الكتفين كعادة المصريات (شكل ٣٥) وعليه يمكن افتراض أن النسوة الأربعة كن: سارة وزوجة لوط. وزوجة أليعازر. أما الرابعة ذات الزى المصرى فهى هاجر.

وفى النهاية يمكننا أن نضع التصور الآتى: إن فرعون مصر لما رأى من قدرة رب إبراهيم ورعايته لسارة زوجته (التى سنذكرها فيما بعد) فإنه أيقن أنه رجل له كرامات. فكان أن أعطى سارة هدية هى هاجر المصرية. وكذلك أعطى إبراهيم عطايا كثيرة من الغنم والهدايا. ويبدو أن إبراهيم عليه السلام قابل كهنة «أون» و «منف» و «هيراكليوبوليس» وناقشهم ودعاهم إلى الإيمان بالله وحده أو لعله أطلعهم على البديهية من أن الإله لابد أن يكون واحداً ولابد لجلاله وعظمته أن يكون غيباً لا يرى. بالطبع كانت هذه المبادئ تتعارض مع ديانة البلاد فاستحال أن تسجل الزيارة على جدران أحد المعابد. أما سبب تسجيل الزيارة على جدران مقبرة حاكم الإقليم فإنه يمكن افتراض أن صاحب المقبرة أراد أن يُسجل حسن معاملته لهذا الرجل المبارك - الذى يحميه إلهه من كل سوء - حتى يكون ذلك شفيعاً له فى الحياة الآخرة بحيث يوضع ذلك فى ميزان حسناته. وقد سبق أن ذكرنا فى الجزء الأول ص ٧٦. ما يقوله الميت يوم الحساب لتبرئة ساحته أمام قضاة الآخرة: يارب الحقيقتين هأنذا أجئ إليك أجلب الحقيقة. وأطرد الإثم. إنى لم أقترف إثماً ضد البشر. ولم أفعل شيئاً تمقته الآلهة. ولعله أراد أن يضيف. ليس قولاً فقط. بل تسجيلاً بالصورة: وقد أكرمت هذا الرجل المبارك من ربه. ولم أسبب له أى أذى. وإذا تركنا العنان للخيال قليلاً يمكننا القول بأن الرجل قد آمن سراً بإبراهيم عليه السلام وأراد بتسجيل هذه الزيارة فى مقبرته أن يكون معه فى الآخرة ليشفع له.



شكل ٣٢ - نقش موجود على جدار مقبرة أحد أمراء بنى حسن يمثل وفداً أسيوياً قدم لزيارة مصر



شكل ٣٣ - رسم توضيحى لجزء من النقش فى شكل ٦٨ ويلاحظ فى ملابس النسوة الأربع إختلاف زى إحداهن عن الثلاث الأخريات من حيث تغطية الأكتاف



Ägyptische Wandmalerei in dem Grab des Chnumhotep bei Beni-Hassan, einen Zug von Semiten darstellend. Die Malerei stammt aus der Zeit Abrahams.

شكل ٣٤ – جزء من النقش منقول عن مرجع ألمانى .
الكتابة أسفل الرسم تقول إن زيارة الوفد ترجع إلى عهد أبراهام



شكل ٣٥ – أجزاء من رسوم مختلفة تبين أن زى المصريات كان يغطى الكتفين .

سبب زيارة إبراهيم لمصر :

كما اختلف المؤرخون فى وقت الزيارة - كذلك اختلفوا فى سببها بعضهم قال (الدكتور ما يرف ف.ب. ماير - عن دكتور بيومى مهران . دراسات تاريخية من القرآن الكريم جزء ١ ص ١٣٥) إن قحطاً ومجاعة أصابت أرض كنعان فهاجر إبراهيم إلى مصر حيث الخصب والنماء. وبذلك أيضاً تقول التوراة (اصحاح ١٢ تكوين): «وحدث جوع فى الأرض فانحدر أبرام إلى مصر». ولكن القحط كان حريا أن يدفع بجموع كبيرة تصل إلى موجات أو هجرات استيطانية. ولم يكن الحال كذلك. فضلاً عن أن باقى أتباع إبراهيم عليه السلام من مواشى وعبيد وكانوا عدة آلاف بقوا فى حبرون - أى أن مقومات المعيشة كانت لاتزال متوافرة فى أرض كنعان وهذا ينفى أن يكون سبب الزيارة هو قحط أو جوع فى الأرض.

الرأى الثانى قد يكون أن وجود حبرون على طريق القوافل بين الشام ومصر وتوثق العلاقات بين مصر والشام جعل إبراهيم عليه السلام يسمع عن مصر وعظمتها، وضخامة مبانيها، ورقى حضارتها، ولمس ضلال عقيدتهم الدينية وعبادتهم للأصنام. ولعله أضمر فى نفسه زيارة مصر علَّه يستطيع هداية قومها. ويقول يوسف بن متى المؤرخ اليهودى: اعتزم إبراهيم زيارة مصر ليصيب من خيراتها ويسمع ما يقوله أحبارها فى أمر الله. وفى نفسه إذا علم من كلامهم ما هو خير مما عنده أن يتقبله - أو يرى أن عقيدته خير مما عندهم فيدعوهم إليها. والإفتراض الأول مرفوض رفضاً قاطعاً. فما من دين هو خير من دين الله.

«ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا».

(١٢٥ - النساء)

ويتبنى الأستاذ عبد الحميد جودة السحار رأياً ثالثاً (محمد رسول الله والذين معه. جزء أول - ص ٣٠٨). إذ يقول إن الكنعانيين رأوا رجال إبراهيم وعبيده الكثيرين يشاركونهم مراعيهم وأرضهم. ثم بدأ إبراهيم عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام. فحنق الكنعانيون على إبراهيم. وكانت العلاقات بين مصر والشام وفلسطين علاقات حميمة تصل إلى حد أن تكون هذه المناطق فى حماية ملك مصر. فأرسل الكنعانيون، وفداً إلى ملك مصر يستنصرونه ويرجونه أن يرسل حملة لتأديب هؤلاء الوافدين الذين شاركوهم أرضهم وسفهوا آلهتهم. وقال بأن ملك مصر أرسل حملة أغارت على خيام إبراهيم وأسرت بعض أتباعه. وأسروا فيمن أسروا - سارة زوجته وحملوها معهم إلى مصر. كان إبراهيم فى ذلك الوقت غائباً عن خيامه فلما عاد وعلم بما حدث امتطى هو ولوط وأليعازر الدمشقى وبعض المؤمنين رواحلهم وتوجهوا صوب مصر لتخليص سارة.

وهذا الرأى لم يقل به أحد غيره. ولعله رأى بهذا التصور لما حدث أن يتخلص من الجدل

الذى ثار حوله مقولة إبراهيم عن سارة إنها أخته وليست زوجته فجعلها تقع أسيرة فى يد ملك مصر. ولا نظن أن ذلك حدث حقيقة. فإن أتباع إبراهيم كانوا من الكثرة ومن القوة – بدليل ما قالوه من أنه قد استولى على دمشق – وما كانوا لينهزموا أمام حملة صغيرة أرسلها الفرعون لتأديب المغيرين.

والرأى الصحيح أن زيارة إبراهيم عليه السلام كانت بتدبير من الله سبحانه وتعالى لإعادة غرس فكر التوحيد فى أرض مصر. وكان إدريس عليه السلام قد أتى به ولكنه اندثر بمضى السنين. وأيضاً ليعود بهاجر المصرية ويتزوجها فيما بعد لتلد له إسماعيل ابنه البكر وأبو العرب.

قول إبراهيم عليه السلام عن سارة إنها أخته !

فى زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر نقطة شائكة، ثار حولها جدل كبير وكثير. ووصلت الخلافات فى الرأى إلى حد عنيف. هذه النقطة هى ما نسب إليه من قوله عن سارة زوجته إنها أخته.

ولنبدأ بما ذكرته التوراة فى هذا الشأن (إصحاح ١٢ – تكوين) :

وحدث جوع فى الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هُناك لأن الجوع فى الأرض كان شديداً. وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراى امرأته : إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر. فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلونى ويستبقونك. قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك. فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون. فصنع إلى أبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتُن وجمال. فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى إمرأة أبرام. فدعا فرعون أبرام وقال ما هذا الذى صنعت بى. لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك خذها واذهب فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له.

ويقول الدكتور محمد بيومى مهران (دراسات تاريخية من القرآن الكريم جزء ١ ص ١٣٦) ويعلم الله وتشهد ملائكته أن نفسى تتأفف من مجرد التعليق على هذه الفرية الدنيئة التى يلصقها كاتب سفر التكوين بأبى الأنبياء. فتلك فعلة لا يقبلها على نفسه ولا يرتضيها لعرضه أحط الناس، فضلاً عن أن يكون ذلك نبى الله وخليله العظيم. ومع ذلك فإذا رجعنا إلى نصوص التوراة نفسها لعلمنا أن إبراهيم قد جاء إلى كنعان وهو فى الخامسة والسبعين من عمره وأن سارة كانت فى الخامسة والستين (تكوين ١٢ ، ١٧) وأنهما أقاما فى أرض كنعان

ماشاء الله لهما أن يقيما . ثم هاجر إلى مصر فهل كانت سارة وقد جاوزت الخامسة والستين من عمرها بسنين عدداً تفتن الرجال. فضلاً عن أن يكون فيها لملوك مصر المترفين إرباً، ثم أليست هى نفسها قد وصفت فى إصحاح آخر - بعد أن بُشرت بإسحق. بأنها قد صكت وجهها وضحكت وقالت: أيحدث هذا مع عجوز عقيم انقطعت عنها عادة النساء وبعلها شيخ كبير. وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى:

« وأمرأته قائمة، فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب، قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز، وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشئ عجيب». (٧١ - ٧٢ هود)

أضف إلى ذلك أن التاريخ ما حدثنا أن الفراعين كانوا يأخذون النساء من أهليهم غصباً. ولكنه حدثنا أن عقوبة الزنا كانت عندهم من أقسى العقوبات.

ويستمر الدكتور بيومى مهران قائلاً: ومن عجب أن بعض المؤرخين الإسلاميين قد تابعوا التوراة فى مزاعمها . فيروون القصة - كما جاءت فى التوراة ويفسرون قول إبراهيم عن سارة إنها أخته بأنها كانت أخته فى الإسلام لأنه ليس على وجه الأرض غيرهما مؤمن.

ويوافق على القول عديد من كبار المفسّرين مع أن قوله تعالى :

«فأمن له لوط». (من الآية - ٢٦ - العنكبوت)

وقوله : **«قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إذا براء منكم ومما تعبدون من دون الله»** (من الآية ٤ . الممتحنة)

فهاتان الآيتان تشيران إلى أنه كان هناك مؤمنون آخرون. وهذا ما دعا الإمام ابن كثير إلى الاستدراك بقوله: إن إبراهيم إنما كان يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك. مع أن لوطاً كان معه زوجته. وأضيف أيضاً أن إبراهيم عليه السلام لم يكن ليجئ إلى مصر إلا ومعه عدد من أتباعه وعبيده. يرأسهم أليعازر الدمشقى ولابد أن بعضهم كانت معه زوجته - ولابد أن هؤلاء كلهم كانوا مؤمنين. إذ ما كان إبراهيم عليه السلام ليقبل أن يكون من أتباعه من يعبد غير الله.

بهذا كله ينتفى أى سند لما قالوه كتبرير لهذه المقولة من أنه كان يقصد إنها أخته فى الإسلام، أو أنهما كانا الزوجين الوحيدين المسلمين آنذاك.

وقد سبق أن ذكرنا أن الأستاذ عبد الحميد جودة السحار تخلص من هذا الموقف بأن ذكر أن الحملة التى أرسلها فرعون مصر لما استنجد به الكنعانيون أسرت سارة وعادت بها إلى مصر. ولما رأوا جمالها حملوها إلى قصر الملك وهو مأخوذ بجمالها ليبسط إليها يده فقُبضت يده قبضة شديدة وكرر المحاولة مرتين وفى كل مرة كانت يده تُقْبض. فنزلت به رهبة شديدة،

واستشار الكهنة. فقالوا إن هذا من غضب الآلهة إذ هممت بامرأة رجل غريب. وسأل عن زوجها. وكان إبراهيم ومرافقوه قد وصلوا مصر ودخلوا على الفرعون وعرَّفه إبراهيم بنفسه وأنه رسول يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له. وأكرم فرعون ضيوفه. وأخبر إبراهيم أن الله صان زوجته فلم يقربها وأعطاه أنعاماً كثيرة وعبيداً. ووهب لسارة هاجر المصرية لتكون جارية لها.

وكان أعنف جدل أثير حول هذه النقطة هو ما حدث عندما نشر الأستاذ عبد الوهاب النجار كتابة «قصص الأنبياء». والأستاذ عبد الوهاب النجار كان عضواً فى هيئة التدريس بالأزهر الشريف وكان مكلفا بالقاء دروس فى قصص الأنبياء على طلبة قسم الوعظ فى السنة الدراسية ١٩٣٠ – ١٩٣١. وكان رأية الذى دونه فى كتابه أنه استبعد ما قصته التوراة فى هذا الشأن. وقال «وأحذِّر كل مؤمن أن يُصدِّق ما جاء بها من ذلك فإنها توهم أن إبراهيم كان يستغل وضاءة وجه زوجته وجمالها ليكون له خير من ذلك – وخوفا من أن يقتلوه. وأنا أعيذ إبراهيم من هذا النقص الشائن وأقول إن سارة لما كانت فى مصر كانت بنت سبعين سنة أو أكثر».

وتألفت لجنة من بعض علماء الأزهر الشريف بأمر من فضيلة شيخ كلية أصول الدين للنظر فى ماجاء بالكتاب من آراء. ووجهوا نقدا عنيفا لاستبعاده حدوث القصة كلية بناء على ورودها فى التوراة وعلى سن سارة وقتها. وكان ملخص رد اللجنة كالآتى: بالنسبة لمسألة السن – وعلى تسليم أن سنها كانت آن ذاك سبعين: لا وجه للاستبعاد لأن مثل هذه السن بالنسبة للأعمار الطويلة التى كانت فى تلك الأيام تعتبر سن شباب لا سن شيخوخة.

كما عابوا عليه عدم ذكر الأحاديث النبوية الشريفة التى وردت فى هذا الموضوع. وذكروا هذه الأحاديث كالآتى :

حديث عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لم يكذب إبراهيم النبى عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات : ثنتين فى ذات الله: قوله إنى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة فى شأن سارة فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك إمرأتى يغلبنى عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختى فإنك أختى فى الإسلام. فإنى لا أعلم فى الأرض مسلما غيرك وغيرى. فلما دخل أرضه. رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له : لقد قدم أرضك إمرأة لا ينبغى لها أن تكون إلا لك. فأرسل إليها فأتى بها. فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة. فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده قبضه شديدة. فقال لها ادعى الله أن يطلق بيدى ولا أضرك ففعلت. فعاد فقبضت أشد وتكرر ذلك منه مرتين. فقال لها ادعى الله أن يطلق يدى فلك الله أن لا أضرك. ففعلت

فأطلقت يده، ودعا الذى جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتنى بشيطان ولم تأتنى بإنسان. فأخرجها من أرضى واعطها هاجر. قال. فأقبلت تمشى لما رآها إبراهيم عليه السلام قال لها مهيم. فقالت خيرا. كف الله يد الفاجر وأخدم خادما. قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بنى ماء السماء.

وقالت اللجنة إن هذا الحديث أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء من طريقين مرفوعا وموقوفا. وقال الحافظ ابن حجر: إن ابن سيرين كان غالبا لا يصرح برفع كثير فى حديثه. وأخرجه أيضا مرفوعا من طريقين فى كتاب النكاح وأخرجه أيضا من طريق فى كتاب البيع. وأخرجه مسلم فى الفضائل مرفوعا. وأخرجه أحمد بسياق مخصوص. وذكره الحافظ ابن كثير عن ابن حاتم عن سفيان عن على بن زيد بن جدعان عن أبى نضرة عن أبى سعيد.

وذكرت اللجنة حديثا ثانيا وهو حديث الشفاعة فى فصل القضاء يوم القيامة، وهو حديث طويل يتضمن أن أهل الموقف يأتون الأنبياء واحدا بعد واحد يطلبون منهم الشفاعة عند ربهم وأنه حينما يأتون إبراهيم عليه السلام يطلبون منه ذلك يقول: لست هناكم. أنى كذبت ثلاث كذبات: قوله إنى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لامرأته أخبريه أنى أخوك.

أخرج هذا الحديث البخارى من عدة طرق. فى تفسير سورة البقرة عن أنس وفى تفسير سورة الإسراء عن أبى هريرة. وأخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وحذيفة. ورواه أحمد عن أنس من طريقين وعن ابن عباس من طريقين وأخرجه ابن خزيمة عن أنس. وأخرجه الحاكم عن ابن مسعود. والطبرانى من حديث عبادة بن الصامت. وأخرجه الترمذى عن أبى هريرة. ثم إن الحديث روى مطولاومختصرا. فى بعضها نسب إلى إبراهيم قوله: كذبت ثلاث كذبات وفى بعضها يبين الكذبات الثلاث كما ذكر آنفا.

وردَّ الأستاذ عبد الوهاب النجار بأنه يعلم بهذه الأحاديث وأنها من الأحاديث التى صح إسنادها ولكنه يأخذ بقول العلماء (صاحب الفتح . جزء ٨ ص ٤٣١) «الأحاديث إذا كانت فى مسائل عملية يكفى فى الأخذ بها بعد صحتها إفادتها الظن . أما إذا كانت فى العقائد فلا يكفى فيها إلا ما يفيد القطع: متنا وسندا».

وقال: وقد نص العلماء على أن الحديث إذا كانت روايته أحاداً وفيه نسبة المعاصى أو الكذب إلى الأنبياء يُرَدُّ.

وقولهم: ما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية. فما كان معقولاً بطريق الآحاد فمردود. وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره إن أمكن وما كان منقولاً بطريق الآحاد – سواء بلغ حد الشهرة أم لا – فمردود. لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصى إلى الأنبياء.

وفى النهاية قال الأستاذ عبد الوهاب النجار: والأحاديث ترمى إبراهيم عليه السلام بالكذب وهى أحاديث آحاد فتركتها وصرفت النظر عنها إذ افترضت أنها منقولة نقل تواتر.

وكذلك قال سيادته فى كتابه: وعلى فرض صحة هذه القصة «أى قول إبراهيم إنها أختى.. فإنهما كانا أخوين حقيقة. وكان زواج الأخت جائزاً إذ ذاك، فلا داعى إلى التأويل بأنها أخته فى الإسلام.

وجاء فى رد اللجنة بأن المشهور بأنها ابنة عمه هاران. ورفضوا ما رواه السهيلى عن العدسى أنها كانت إبنة أخيه هاران أى أخت لوط – وقالوا: ومن ادعى أن ذلك كان مشروعاً فى وقت ما كما هو منقول عن بعض فرق اليهود. فإن الأنبياء لا تفعل ذلك.

وفى رده على هذا قال إن آدم كان يزوج أبناءه من بناته. فالأصل هو الإباحة إلى أن يأتى الشارع بالمنع.

وفى رأينا أنه لا يجوز الاستشهاد بأبناء آدم – إذ أن ذلك كان ضرورة حتمية. إذ لم يكن فى الأرض غيره وبنوه. وحتى فى هذا لم تكن إباحة كاملة، فقد كان لا يسمح بزواج الأخ من أخته التى ولدت معه فى بطن واحد.

ولا بأس – قبل أن نختم هذا الموضوع الشائك من أن نتعرض لسبب قول إبراهيم عن سارة إنها أخته. فقطعاً ليس السبب كما قالت التوراة: ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك.

بعض المفسرين قالوا إن السياسة وقتذاك كانت هى أن القوم لا يتعرضون لغير ذات البعل وإنما كانوا يتعرضون لذات البعل ويأخذونها قهراً. وأن إبراهيم عليه السلام لما علم ذلك من طبائع القوم وسلوكهم أراد أن يتجنب مضايقاتهم له ولسارة. ولعل المصريين وقتئذ كانوا يغلظون العقوبة على من يعتدى على العذراء أو غير المتزوجة فأراد أن يتجنب احتمال أى مضايقة له فقال ما قال. ولكن الملك لما وصف له جمالها لم يلتزم بهذه القاعدة. أو لعله أرادها زوجة له فكان ما كان. وينقض هذا الرأى سلوك الملك إذ هو قد لام إبراهيم لأنه لم يخبره أن سارة هى زوجته وليست أخته فذلك يعنى أنه لو علم أن لها زوجاً لما تعرض لها. وهو العكس تماماً لما يفترضون.

وفى النهاية لا بأس من تسجيل رأينا فى موضوع قول إبراهيم عن سارة إنها أخته. وهو يلقى الضوء على نقاط لم تطرح للبحث من قبل وتؤدى إلى نتيجة مقبولة بإذن الله.

لو نظرنا إلى الأمور نظرة متأنية لوجدنا عدة مثالب على هذه المقولة.

أولاً هذه المقولة ذكرت فى التوراة فى ثلاثة مواضع:

١ – فى الإصحاح ١٢ تكوين وملخصة أن أبرام (إبراهيم) قال لساراى امرأته. قولى إنك أختى. ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك.

٢ – فى الإصحاح ٢٠ تكوين: وانتقل إبراهيم وتغرب فى أرض جرار وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى. فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة.

٣ – فى الإصحاح ٢٦ تكوين: عند ذكر قصة إسحق إذ تقول: فأقام إسحق فى جرار وسأله أهل المكان عن امراته. فقال هى أختى، لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل المكان يقتلونى من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر.

فالمقولة نفسها تقال فى ثلاثة مواضع. مع اختلاف بسيط: فى المرة الأولى أخذت سارة إلى قصر فرعون ومد يده إليها فقبضت قبضة شديدة كما سبق أن ذكرنا. وفى المرة الثانية. أخذ ملك جرار سارة وتقول التوراة: فجاء الله إلى أبيمالك فى حلم الليل وقال له ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها فإنها متزوجة من بعل. ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها. فقال يا سيد ألم يقل هو لى أنها أختى وهى أيضاً قالت هو أخى. بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا فقال له الله فى الحلم: أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا. وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطىء إلىَّ. لذلك لم أدعك تمسها. فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبى فيصلِّى لأجلك فتحيا. وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتاً تموت أنت وكل من لك.

وفى المرة الثالثة لم تؤخذ رفقة زوجة إسحق إلى أبيمالك وتقول التوراة: وحدث إذ طالت له (لإسحق) الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر فإذا إسحق يلاعب رفقة امرأته. فدعا أبيمالك إسحق وقال له إنما هى امرأتك. فكيف قلت هى أختى. فقال له إسحق – لأنى قلت لعلى أموت بسببها. فقال أبيمالك ما هذا الذى صنعت بنا. لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً. فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلاً: الذى يمسُّ هذا الرجل أو امرأته موتاً يموت.

فتكرر القصة ثلاث مرات هكذا يلقى الشك على القصة برمتها.

ثانياً: لو تمعنا فى الكذبات الثلاث المنسوبة لإبراهيم عليه السلام فى الحديثين السابق ذكرهما. نجدها كالآتى.

١ – قوله إنى سقيم.

مأخوذ من سورة الصافات – الآيات ٨٨ – ٩٠.

«فنظر نظرة فى النجوم. فقال إنى سقيم. فتولوا عنه مدبرين».

٢ – قوله بل فعله كبيرهم هذا.

مأخود من سورة الأنبياء الآيتين ٦٢، ٦٣.

«قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم. قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون».

٣ – أما الثالثة – قوله عن سارة زوجته إنها أخته. فهى مأخودة عن التوراة الإصحاح ١٢ تكوين.

ويبدو نشازاً أن يكون فى حديث واحد ثلاث مقولات: اثنتان مأخوذتان عن القرآن الكريم والثالثة مأخوذة عن التوراة. ويمكننا حينئذ أن نثير السؤال التالى: متى قيل هذا الحديثان؟ فى مكة أم فى المدينة؟ وبما أن سورتى الصافات والأنبياء من السور المكية فيحتمل أن الحديثين قيلا بمكة أو بالمدينة.

ولعل أحد المسلمين سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عند تفسيره للآيتين السابقتين عند نزولهما بمكة عما إذا كان قول إبراهيم عليه السلام يعتبر كذباً فقال الرسول الحديثين المشار إليهما.

ومن المعروف أن مكة كان بها نفر قليل على الملة الحنيفية – دين إبراهيم عليه السلام – مثل ورقة بن نوفل. وكان بمكة أيضاً نفر قليل من العرب استهوتهم النصرانية فى بعض رحلاتهم إلى الشام فاعتنقوها. وأفراد من العبيد الروم أتوا بهم من الشام وظلوا على نصرانيتهم.

وكان المشركون يتقولون إن الآيات التى يتلوها النبى صلى عليه وسلم إنما يعلمها له رجل كان بين أظهرهم يعلم أخبار أهل الكتاب. قيل كان بياعاً يبيع عند الصفا – وقالوا ربما كان النبى يجلس إليه ويكلمه بعض الشىء. وقال محمد بن اسحق بن يسار. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يجلس عند المروة إلى سبيعة – غلام نصرانى يقال له جبر عبد لبعض بنى الحضرمى – فقال المشركون يتعلم منه. وقال عبدالله بن مسلم. كان لنا غلامان روميان يقرآن كتباً لهما. فكان النبى صلى الله وسلم يمر بهما ليسمع منهما فقال المشركون يتعلم منهما. وعبرً القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى:

«ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر» . (١٠٣ – النحل)

ونفى القرآن الكريم هذا الإتهام بقوله تعالى:

«لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين» . (تكملة الآية ١٠٣ – النحل)

وسورة النحل أيضاً من السور المكية.

ومن غير المعقول – بعد هذه الآية الكريمة النافية لتلقيه أى علم عن أهل الكتاب – أن

يتضمن حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم قولا لم يأت إلاَّ فى التوراة وإلاَّ كان ذلك مؤيداً لما يقوله المشركون ومتعارضاً مع نص القرآن الكريم. وسيقول المشركون حينئذاك: ألم نقل لكم إنه يتلقى عن أهل الكتاب؟ ها هو حديثه يتضمن كلاماً منسوباً إلى إبراهيم عليه السلام لم يأت إلاَّ فى التوراة!!

وإن كان الحديثان قد قيلا فى المدينة المنورة. فلعل أحد المسلمين بالمدينة قد أثار هذا التساؤل فكان الحديث الشريف.

وكانت المدينة تغص باليهود والأحبار. وعندهم التوراة. وبعضهم أسلم وحسن إسلامه وبعضهم دخل الإسلام وهو يضمر الشر وينوى الكيد له. وكانوا يقصدون فتنة المسلمين بما يقصونه عليهم من توراتهم. لذلك نهى الرسول المسلمين عن الإستماع إليهم. أو الأخذ بأقوالهم. فقال الحديث الشريف:

«إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

ولا يعقل بعد هذا أن يقول الرسول حديثاً يتضمن قولاً مأخوذاً عن التوراة. إذ قد يقول بعض المسلمين وقتئذ: كيف ينهانا رسول الله عن تصديق أو تكذيب ما جاء به أهل الكتاب وهو قد ضَمَّنَ حديثاً له شيئاً مما جاء فى توراتهم – أليس فى هذا تصديق لهم؟

قال الإمام أحمد. حدثنا شريح بن النعمان، حدثنا هشام، أنبأنا خالد عن الشعبى عن جابر أن عمر بن الخطاب أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى صلى الله عليه وسلم قال. فغضب وقال: أتتهوكون فيها يا بن الخطاب.والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية. لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه. أو بباطل فتصدقونه، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلاَّ أن يتبعنى. إسناد صحيح. ورواه أحمد من وجه آخر عن عمر وفيه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم. وخطب الناس فقال فى خطبته: أيها الناس. إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لى اختصاراً. ولقد جئتكم بها بيضاء نقية. فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون. ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفاً حرفاً.

من هذا ترى أن الحديثين لو كانا قد قيلا فى مكة فإنه يمتنع عليهما أن يتضمنا شيئا من أقوال أهل الكتاب تمشياً مع الآية ١٠٣ من سورة النحل وإن كانا قيلا فى المدينة المنورة فقد أوضحنا آنفاً أنه يتعين ألاَّ يتضمنا شيئاً من التوراة.

والذى أراه أن الحديثين الشريفين قد تضمنا قولين فقط لإبراهيم عليه السلام: قوله إنى سقيم. وقوله بل فعله كبيرهم هذا. وهما مأخوذان عن القرآن الكريم. ثم لما نشطت حركة وضع

الأحاديث كان من السهل إضافة القول الثالث إنها أختى – ولعل الرواة قد فاتت عليهم هذه الإضافة فنسبوا الحديثين بأكملهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم.

فالحديثان صحيحان، ولعلهما كانا «ما كذب إبراهيم النبى عليه السلام قط إلاَّ ثنتين: قوله إنى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا» ثم جاء واضعو الحديث ومن المؤكد أنهم كانوا من مسلمة أهل الكتاب. فزادوا الثالثة من توراتهم. فتوهم السامعون أن الحديثين صحيحان فى جملتهما مع أنهما صحيحان بالنسبة لثلثيهما، أما الثلث الأخير فهو موضوع.

بعد زيارة مصر:

وتنتهى زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر. بعد أن قضى بها عدة أعوام. عرف الفرعون فيها مكانة إبراهيم عند ربه فسمح له بالتجول فى مصر أينما شاء. فقابل الكهنة فى كل من منف وهيراكليوپوليس وشرح لهم عقيدة التوحيد. فاستمعوا إليها. ولعلهم أدركوا صدقها وإن لم يؤمنوا بدين إبراهيم الحنيف. وزار الصعيد حتى وصل إلى بنى حسن وقد سبق أن رجحنا أن الرسم الموجود فى مقبرة بنى حسن يمثل وفد إبراهيم عليه السلام.

وتبدأ رحلة العودة. فيعود بزوجته سارة ومعها هاجر التى أهديت لها. ومعه لوط وزوجته وأبناؤه. وأليعازر الدمشقى والرجال والعبيد الذين أتوا معه وزاد عليها هدايا فرعون من أغنام وعبيد. وتعبر القافلة صحراء مصر الشرقية ثم سيناء فى نفس الطريق الذى سلكته عند القدوم إلى مصر. وتقول التوراة (إصحاح ١٣ تكوين):

وصعد أبرام من مصر وامرأته وكل ما كان له ولوط معه. وكان أبرام غنياً جداً فى المواشى والفضة والذهب وسار رحلاته من الجنوب إلى بيت إيل إلى المكان الذى كانت خيمته فيه فى البداء – بين «بيت إيل» و «عاى» (انظر شكل ٢٩) إلى مكان المذبح الذى عمله هناك أولاً. ودعا هناك أبرام باسم الرب.

وكان إبراهيم دائم التنقل بين حبرون ومكان المذبح قرب بيت إيل ولعل هذا كان لعدم كفاية المراعى لمواشيه فكان دائم التنقل من مكان إلى مكان وكان يتجنب الاحتكاك بالكنعانيين الذين لم يكونوا يحملون له مشاعر ودية.

بعد زيارة مصر تقع أحداث كثيرة فى حياة إبراهيم عليه السلام:

زواجه بهاجر – ولادة إسماعيل – مسيرته للحجاز – بناء البيت الحرام – مسيرة لوط إلى سدوم – مجىء الملائكة لإبراهيم بالبشرى وبهلاك قوم لوط – ولادة إسحق – زواج إسماعيل – تشريع الختان – زواج إسحق وغير ذلك من الأحداث. وكل كتب قصص الأنبياء ذكرت هذه الأحداث منفصلة. كل حدث قائم بذاته واختلفت الكتب فى ترتيب ذكرها. إذ ما دامت أحداثاً

منفصلة فلا يهم مجى ذكر هذا قبل ذاك أو بعده. أما كتاب الثعلبى المسمى بعرائس المجالس فقد اتخذ طريقة الأبواب المستقلة. فذكر مثلاً: باب فى مولد إسماعيل وإسحق، وباب عن قصة زمزم، ثم باباً عن بناء الكعبة. ثم باباً عن الذبيح. ثم باباً عن الذى حاج إبراهيم فى ربه، ثم باباً عن وفاة سارة وهاجر وهكذا.

ولما كان الخط الذى يسير عليه هذا الكتاب هو التوثيق التاريخى للأحداث. فكان لابد من دراسة التسلسل التاريخى للأحداث وذكرها مرتبة حسب وقوعها. ولم يكن ذلك بالأمر الهين فى قصة إبراهيم عليه السلام نظراً لتشعب الأحداث ووقوع بعضها فى وقت واحد فى عدد من الأماكن ولذلك سيجد القارىء أننا ننتقل من مكة إلى حبرون عدة مرات فنذكر حدثاً عن إسماعيل فى مكة ثم نتبعه بحديث عن إسحق فى حبرون. ثم نعود إلى مكة ثانية وهكذا ليكتمل التصور الحقيقى لما حدث بدلاً من ذكرها كأحداث منفصلة لا رابط بينها.

زواج إبراهيم عليه السلام من هاجر:

مرت السنون الطوال منذ خروج إبراهيم عليه السلام من أور إلى حاران إلى حلب ودمشق ثم إلى أرض كنعان - ولم يرزق إبراهيم عليه السلام بولد وكانت سارة زوجته قد بلغت السبعين ولم تلد. كان يدعو ربه:

«رب هب لى من الصالحين». (١٠٠ - الصافات)

وأوحى إليه الله أنه سيكون له ابن وأن هذا الإبن سيكون حليماً

«فبشرناه بغلام حليم». (١٠١ - الصافات)

ولكن كيف يكون له ولد، وهذه امرأته قد جاوزت السبعين عاماً ولم تلد له الولد الذى يرجوه. وتقول التوراة:

صار كلام الرب إلى أبرام فى الرؤيا قائلاً: لا تخف يا أبرام. أنا ترس لك. أجرك كثير جداً. فقال أبرام أيها السيد. ماذا تعطينى وأنا ماض عقيماً ومالك بيتى هو أليعازر الدمشقى وارث لى. إنك لم تعطنى نسلاً. فإذا كلام الرب إليه قائلاً: لا يرثك هذا بل الذى يخرج من أحشائك هو يرثك. ثم أخرجه إلى خارج وقال: انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها. وقال له هكذا يكون نسلك. فآمن بالرب فحسبه له براً. (إصحاح ١٥ تكوين).

ورأت سارة مدى تشوق زوجها للولد. فأهدت إليه جاريتها هاجر ليتخذها زوجة لتنجب له الولد الذى يتمناه. وكان هذا التصرف شائعاً فى ذلك الوقت. وكانت السيدة تعتبر الولد كأنه ابنها هى. لأنه ابن جاريتها التى هى ملك لها. أو التى كانت ملكاً لها. لأنها منذ أن تهبها

لزوجها تصبح حرة. ولكنها تستطيع فى أى وقت أن تستردها لتعود جارية لها كما كانت. وكان ينظم ذلك قانون حمورابى – الشهير. الذى كانت أغلب دول المنطقة تطبقه فى معاملاتها المدنية وتقضى المواد ١٤٥ – ١٤٧ المنظمة لهذا التصرف بالآتى: «للزوجة أن تسترد جاريتها التى وهبتها لزوجها لينجب منها إذا رأت أنها تنافسها فى حب زوجها وأنها تعمل على أخذ المكانة الأولى فى الدار. ويمكنها أن تبيعها إذا كانت غير ذى ولد. فإن كانت قد أنجبت ظلت فى الدار كجارية تخدم الجميع. حتى ولو كانت أثيرة عند زوجها».

ويمكننا أن تشبه هذا الوضع بما يحدث فى الدول الغربية فى وقتنا الحالى ويسمى بـ «تأجير الأرحام» للتلقيح الصناعى. ذلك أنه إذا كان رجل يحب زوجته وهى عاقر فإنه يتفق مع امرأة شابة لينجب منها – برضاء من زوجته – بلقاء طبيعى أو تلقيح صناعى بوضع النطفة مباشرة فى رحم المرأة الشابة – وبعد الولادة يؤخذ الولد وينسب إلى الزوجين وهو ابن للأب فعلاً وابن للزوجة تبنيا. وتعطى المرأة الشابة أجرها وتمضى لحال سبيلها.

وهكذا وهبت سارة جاريتها هاجر لإبراهيم عليه السلام ليتخذها زوجة ولينجب منها الولد الذى يتمناه. وكانت سارة – فى ظل قانون حمورابى تستطيع أن تسترد هاجر فى أى وقت بعد الولادة. وكانت مواد قانون حمورابى فى هذا الشأن بها ظلم واضح – إذ أن من ذاقت طعم الحرية يكون ألمها أشد إذا أعيدت إلى الرق ثانية – كما أنها إذا أصبحت أثيرة لدى الرجل واستردتها زوجته وباعتها فإن ذلك يكون ظلماً للرجل نفسه إذ يباعد بينه وبين من أصبحت أثيرة عنده. لا لشىء إلاَّ لغيرة الزوجة منها. وإن كانت قد أنجبت. واستردتها سيدتها السابقة بقيت فى المنزل تخدم الجميع كجارية. إن المرأة المحبة لزوجها تخدمه بكل جوارحها وتبذل كل ما فى وسعها لراحته. وفرق بين هذا وخدمة مفروضة على جارية لسيدها. كذلك تتفانى المرأة فى خدمة ابنها بعاطفة الأمومة وحنانها. وشتان بين خدمة يغلفها حنان الأمومة وخدمة يحكمها قانون العبودية. وكم هو قاس على مشاعر الإبن وهو يرى أمه تخدم الجميع كجارية!! لذلك لا نشك فى أنه قد نزل تشريع من السماء على إبراهيم عليه السلام يرفع هذه المظالم جميعها. ويحد من سطوة السيدة على جاريتها السابقة ويحثها على حسن معاملتها ويمنع استرقاقها مرة ثانية.

وتقول التوارة – الإصحاح ١٦ تكوين

وأما ساراى امرأة إبراهيم فلم تلد له وكان لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراى لأبرام هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة ادخل على جاريتى لعلى أرزق منها بنين. فسمع أبرام لقول ساراى. فأخذت ساراى امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها. من بعد عشر سنين لإقامة أبرام فى أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له. فدخل على هاجر فحبلت. ولما

رأت أنها حبلت صَغُرت مولاتها فى عينيها. فقالت ساراى لأبرام ظلمى عليك أنا دفعت جاريتى إلى حضنك، يقضى الرب بينى وبينك. فقال أبرام لساراى هو ذا جاريتك فى يدك. افعلى ما يحسن فى عينيك. فأذلتها ساراى. فهربت من وجهها. فوجدت ملاك الرب على عين ماء فى البرية. على العين التى فى طريق شور. وقال يا هاجر جارية ساراى. من أين أتيت وإلى أين تذهبين. قالت أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى. فقال لها ملاك الرب ارجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يدها، وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثر نسلك فلا يُعَدُّ من الكثرة. وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع مذلتك وإنه يكون إنساناً وحشياً، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن. فدعت اسم الرب الذى تكلم معها أنت إيل ربى. فولدت لأبرام هاجر ابناً. ودعا أبرام ابنه الذى ولدته هاجر إسماعيل. وكان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام.

من الطبائع البشرية التى جُبِلت النساء عليها أنهن يحببن أن تكون الواحدة منهن مستأثرة بحب زوجها كله لا تشاركها فيه أخرى. والغيرة تفعل فى النفس الأعاجيب. فما إن حملت هاجر حتى استبدت الغيرة بسارة فبدأت تسىء معاملة هاجر واتهمتها بأنها تتكبر عليها. والمؤكد أن هذه كلها أوهام ضخَّمتها الغيرة. فأنى لجارية مثل هاجر – فى أرض غربة – بعيدة عن أهلها أو أى أحد من عشيرتها – أن تتكبر على سيدتها؟! ولعل إبراهيم عليه السلام قد تفهَّم دوافع سارة الحقيقة وأراد أن يُهَدِّئ من ثوراتها فقال لها تجاوزا هذه جاريتك. افعلى بها ما يحسن فى عينيك. ولكن سارة استمرت فى مضايقة هاجر وإساءة معاملتها حتى اضطرتها إلى الفرار. لولا أن الله أوحى إليها أن تعود وتصبر على أذى سارة لما فى علم الله من أمر آخر يعلى من شأنها أكثر كثيراً عن مجرد إبعادها عن سارة.

رحلة الحجاز:

كان إبراهيم عليه السلام – خلال رحلته الطويلة منذ خروجه من أور إلى بابل ثم حاران فدمشق ثم زيارته لمصر والعودة منها – كان يدعو إلى عبادة الله وحده. وكان يقيم مذبحاً صغيراً للرب ليتعبد فيه من آمنوا به. وكانت هذه المذبح دائماً فى مكان بعيد فوق قمم الجبال.. فما كان الكهنة فى هذه البلاد ليسمحوا به بغير ذلك. وكان يشاهد ضخامة معابد الأقوام. فهو يتذكر معبد مردوك فى أور. ناهيك عن المعبد الكبير فى بابل. وبوابة عشتار الضخمة. ثم معابد بعل فى دمشق. ومعابد مصر ومسلاتها. فى أون ومنف. والأهرام ومعابدها. وما بنى فى فلسطين من معابد لتحاكى معابد مصر. وكانت توضع بها تماثيل لآلهة المصريين بجانب الآلهة المحلية تعبيراً عن امتداد نفوذ مصر إلى هذه المناطق. ورأى كيف يفتن الناس بضخامة هذه المعابد وتؤثر فى نفوسهم.

وهفت نفسه لإقامة بيت كبير لله. وأدرك استحالة أن يقيم مثل هذا البيت فى أى من البلاد التى مر بها. ولعل هذه الخاطر ظل يؤرقه. فهو يريد بيتاً كبيراً لله - يطوف به الناس وليس به تماثيل ولا أصنام. بل توحيد خالص لله.

ولعل أحد أسباب اصطفاء الرسل أن يتفق هوى نفوسهم مع ما يدبره الله من أمر فى قابل الأيام.

وهذا ما كان من أمر نبينا عليه الصلاة والسلام.

«قد نرى تقلب وجهك فى السماء. فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام. وحيثما كنتم فولوا وجوكم شطره». (١٤٤ - البقرة)

وكان هذا أيضاً أمر إبراهيم عليه السلام. فقد كان دائم التفكير فى بناء بيت الله. وكانت الأحداث التالية هى تدبير الله تعالى لبناء بيته الحرام فى مكة المكرمة. فكانت رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز. فليست المسألة كما صورتها التوراة مجرد إبعاد هاجر وابنها عن سارة إذ لو كان الأمر كذلك لكان قد أرسلها إلى أرض آبائه وأجداده فى حاران فى شمال العراق. أو كما اقترح البعض - كان يرسلها إلى أرض آبائها فى مصر. ولكن ما كان هذان الحلان ليرضيا نبى الله. ففى مصر كانت عبادة الأصنام قائمة وراسخة. وما كان ليرضى أن تعود هاجر إلى هذا الضلال بعد أن ذاقت حلاوة الإيمان بالله. ولو كان معها إسماعيل فما كان ليرضى إبراهيم عليه السلام أن يشب ابنه وسط هذه الضلالات. أما فى شمال العراق فى حاران فقد كانت الفئة المؤمنة قليلة العدد وما كان ليأمن على ولده. ولا على هاجر من فتنة تودى بإيمانها.

كذلك فإن كاتبى التوراة يقولون بأن الهدف كان إبعاد هاجر عن سارة. وهم فى هذا يناقضون أنفسهم - إذ لما هربت هاجر كان يكفى أن يقودها ملاك الرب إلى مكان يؤويها وجوار قوم يحمونها هى وابنها بعد أن تلده. ولكن ملاك الرب قال لها: ارجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يدها. إشارة إلى أن هناك تدبيراً آخر للرب. وقال لها تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة. وبشرها بأن وليدها سيكون إنساناً وحشياً ولعل فى ذلك إشارة إلى أنه سيشب فى بيئة موحشة. بلد غير ذى زرع ولا سكان - أو أنه فى قابل الأيام سيكون أول من يستأنس الخيل الوحشية. وهذا ما فعله إسماعيل.

فالأمر كله تدبير من الله. وهو اللطيف فى تدبيره. يمهِّد له بسنن طبيعية حتى ليبدو للناظر أن الأحداث هى التى أدت إلى هذا. والحقيقة أن الله هو المدبر. الفعال لما يريد.

وهكذا كانت رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز بأمر من الله سبحانه وتعالى. ويأخذ

معه هاجر وابنه إسماعيل. ويكون ذلك مصادفا لهوى فى نفس سارة التى ترغب فى إبعاد ضرتها - ويصادف هوى فى نفس هاجر إذ تستريح من مضايقات سارة لها. ثم لتتم مشيئته الله ويكون الأمر ببناء البيت الحرام فى مكة المكرمة وهو ما كان إبراهيم عليه السلام يتمناه. ويكون لإسماعيل شرف المشاركة فى بنائه.

ولادة إسماعيل:

عادت هاجر من فرارها. وتحملت من سارة ما تحملت - حتى تم حملها ووضعت ولداً. وسمته وسماه إبراهيم أيضاً - إسماعيل. وإسماعيل تعريب لكلمة يشمعيل العبرية. وهى مكونة من يشمع أى يسمع + إيل أى الله والعبرية كثيراً ما تستعمل المضارع وتقصد اسم الفاعل فيكون يسمع الله بمعنى سميع هو الله. أو الله سميع. وجاء فى التوراة وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك.

كذلك لما دعا إبراهيم عليه السلام ربه قائلا:

«رب هب لى من الصالحين». (١٠٠ - الصافات)

فسمع الله دعاءه. والله سميع الدعاء

«فبشرناه بغلام حليم». (١٠١ - الصفات)

وكنتيجة لأن الله سمع دعاءه كانت البشرى بالغلام الحليم الذى هو إسماعيل.

كان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل (التوراة: إصحاح ١٦ تكوين). ومر عام تحملت فيه هاجر من مضايقات سارة الكثير. ولمس إبراهيم عليه السلام مدى صبرها وتحملها. وتكتمها الأمر حتى لا تنقص من فرحته بالولد. وكان إبراهيم عليه السلام دائم التفكير فى كيفية التصرف فى هذا الأمر. ووصل إلى نتيجة وهى استحالة المعايشة بينهما. ولعله فكر فى إسكان هاجر ووليدها فى بلدة أخرى بعيداً عن سارة. ولكن أى بلدة؟ وبلغت به الحيرة مبلغاً عظيماً - وفوض الأمر إلى الله. وانتظر ما تأمر به السماء. وما هى إلا أيام قليلة وجاءه الإذن بأن يأخذ هاجر ووليدها إسماعيل إلى مكة - فى الحجاز.

وبدأ إبراهيم عليه السلام يعد العدة والزاد لهذا السفر من مطعم ومشرب. وراحلتين أو أكثر.

وصادف هذا القرار هوى فى نفس سارة. لأن هاجر وابنها سيكونان فى مكان بعيد. بل بعيد جداً.

وسارت القافلة الصغيرة من حبرون - وانحدرت إلى جنوب شرق حتى وصلت إلى طريق القوافل فى شرق الأردن. وسارت فيه جنوباً حتى إيلة على الطرف الشمالى لخليج العقبة ثم اتخذ طريق القوافل الموصل إلى اليمن - وبموازاة الساحل الشرقى للبحر الأحمر. وعلى مبعدة ١٠٠٠ كيلو متر تقريباً من إيلة تقع منطقة جرداء (شكل ٣٦). تسمى «برية فاران». ولاشك أن الله هيأ لهذه القافلة الصغيرة غمامة تحميهم من حر الشمس - كما كان الغمام يظلل رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم. ومن المرجح أن الغمامة كانت أيضاً تقودهم إلى المكان الذى أراده الله. أو أن المكان المقصود تبدى له فى رؤيا. فرآه مكاناً منخفضاً بين جبلين. أو بكة بين مرتفعات تحوطها. فى الأرض المسماة برية فاران. فى وادى غير ذى ذرع. يطل عليه جبل قبيس. حيث لا ماء ولا شجر. هنا توقفت الغمامة. فعلم إبراهيم عليه السلام أن هذا هو المكان المقصود. أو لعله رأى المكان مطابقاً للصورة التى تبدت له فى الرؤيا.

أنزل خليل الله هاجر وإسماعيل من على الراحة. وراح يصنع لهما عريشاً فوق ربوة قريبة ثم وضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاة فيها ماء. وذهب منطلقاً فتبعته هاجر وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى. فلم يرد. فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. فاطمأن قلب هاجر وقالت: فإذا لا يضيعنا. وعادت إلى العريش.

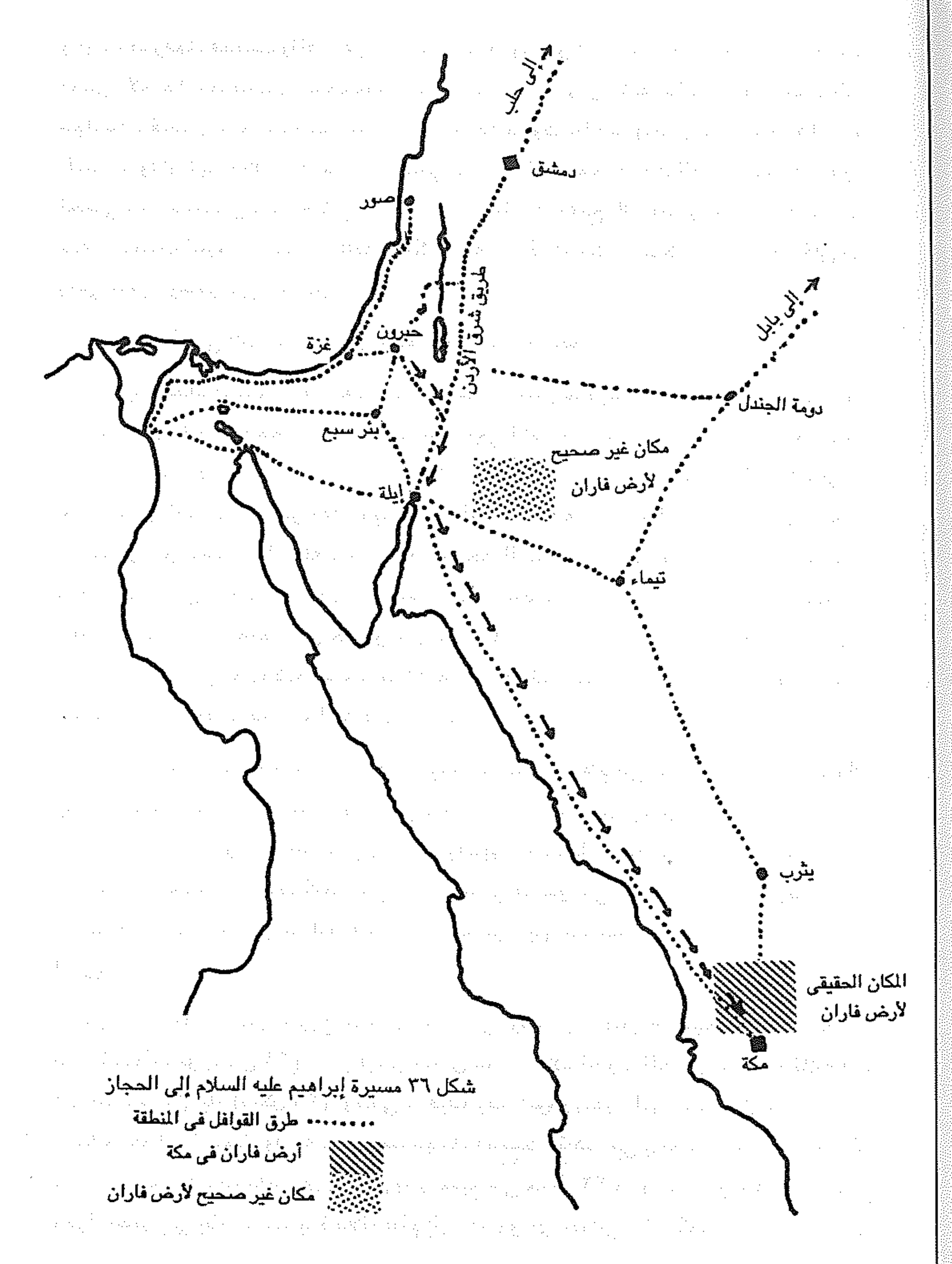
وانطلق إبراهيم عليه السلام عائداً إلى حبرون وتوقف هنيهة على الجبل المطل على الوادى. وألقى نظرة أخيرة على هاجر وفلذة كبده إسماعيل وتوجه إلى الله بالدعاء.

«ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيوا الصلاة. فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون». (٣٧ - إبراهيم)

تصور التوراة الموقف على أنه مجرد إبعاد أو طرد هاجر وابنها - وعلى أن إبراهيم عليه السلام أعطاهما الزاد وصرفهما أى طردهما ولم يذهب معهما - فتاها فى البرية حول بئر سبع. وينكرون على إبراهيم عليه السلام ذهابه إلى الحجاز. وفى هذا التصور نجد تخبطاً فى التواريخ وتعارضا واضحاً مما يشى بأن هذه الفقرات من التوراة قد نالها تحريف لتطابق هوى فى نفوس كاتبيها - ولنر أولاً ما قالوه فى هذا (إصحاح ٢١ تكوين):

وصنع إبراهيم وليمة كبيرة يوم فطام إسحق. ورأت سارة ابن هاجر المصرية التى ولدته لإبراهيم يمزح. فقالت لإبراهيم. اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحق، فقبح الكلام جداً فى عينى إبراهيم لسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم: لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها. لأنه إسحق يدعى لك نسل. وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك.

فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعاً إياهما على كتفها



شكل ٣٦ مسيرة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز

والولد وصرفها. فمضت وتاهت فى برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس. لأنها قالت لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت. فسمع الله صوت الغلام. ونادى ملاك الرب هاجر من السماء. وقال لها مالك يا هاجر. لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومى احملى الغلام وشدى يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء. فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر. وسكن فى البرية. وكان ينمو رامى قوس. وسكن فى برية فاران.

هذا ما جاء فى التوراة. ولنا على هذه الرواية عدة ملاحظات:

١ - يوم فطام إسحق - أى بعد ولادته بعامين - وقبل سطرين من هذه الفقرة نجد.. وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحق ابناً. وفى الإصحاح ١٦: كان أبرام ابن ٨٦ سنة لما ولد إسماعيل. أى أنه عند ولادة إسحق كان إسماعيل عمره ١٤ عاماً. ويوم فطامه كان ١٦ عاماً. بعض الكتاب اعترض وقال كيف يمزح ابن الـ ١٦ عاماً مع فطيم عمره عامين. ويمكننا أن نتجاوز عن ذلك ونقول لعله كان يمزح مع أحد الفتيان من سنه. ولكن مالا يمكن التجاوز عنه هو قولهم: إن ملاك الرب قال لها قومى احملى الغلام!! فهل ابن ١٦ عاماً مما تحمله أمه؟ والحقيقة أن خروج هاجر من حبرون كان وإسماعيل لا يزال رضيعاً حتى يقال لها: قومى احملى الغلام، أى قبل ولادة إسحق بـ ١٤ عاماً. فلم تكن سارة حتى قد بشرت بأنها ستلد إسحق. فمقولة. اطرد هذه الجارية لأن ابنها لا يرث مع ابنى - محض اختلاق.

٢ - لا تذكر التوراة شيئاً عن ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز. وتنكر عليه ذلك. رغبة منهم فى عدم إيجاد صلة بين العرب وإبراهيم عليه السلام. ويدّعى المستشرق الإنجليزى «سير وليم موير» أن هذه القرابة بين العرب واليهود ابتدعها اليهود قبل الإسلام بأجيال. ذلك أن اليهود كانت لهم جاليات كبيرة فى جزيرة العرب فرغبوا فى إيجاد قرابة بينهم وبين العرب توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود وتيسر لتجارة اليهود فى شبه الجزيرة العربية.

من هذا المنطلق يدّعى المؤرخ چيروم واللاهوتى يوسبيوس (تاريخ اليهود فى بلاد العرب. إسرائيل ولفنسون. ص ٣٦) - أن أرض فاران بلد من بلاد العرب تقع على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من إيلة (شكل ٣٦). وحتى لو قبلنا بهذ الموقع ونعود إلى قولهم إن إبراهيم عليه السلام أعطاهما خبزاً وقربة ماء. وصرفهما. فمضت وتاهت فى برية بئر سبع!! لبرزت لنا مشكلة جديدة. إن المسافة بين حبرون وبئر سبع هى حوال ٣٢ كيلو متر. ثم هناك ١٤٠ كيلو متراً لنصل إلى إيلة ثم مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق أى حوالى ١٢٠ كيلو متر أخرى - أى

المسافة كلها من حبرون إلى برية فاران شرق خليج العقبة هى حوالى ٣٠٠ كيلو متر. فهل تستطيع هاجر ومعها وليدها على كتفها قطع هذه المسافة - فى هذه الصحراء الموحشة - وحدهما؟ ولو كان إبراهيم عليه السلام - كما يقولون - قد صرفهما. فإنه بعد مسيرة بضعة كيلو مترات لابد سيصيبها التعب وتعود أدراجها إلى حبرون وهو مالم تكن سارة لتسمح به. فلابد أن إبراهيم عليه السلام قد رافقهما بنفسه وعلى راحلته إلى برية فاران فى الحجاز لتكون أبعد ما يمكن عن سارة.

وقد جاء فى الترجمة السامرية للتوراة التى صدرت فى عام ١٨٥١ ميلادية أن «إسماعيل قد سكن برية فاران فى الحجاز» (محمد بيومى مهران. إسرائيل. ص ٢٠) وذلك أيضاً مذكور فى الترجمة اليونانية للتوراة (محمد بيومى مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم. جزء ١ بلاد العرب ص ١٤٧).

وفى الإصحاح ٢٥ جاء أن أبناء إسماعيل كانوا يسكنون: من حويلة إلى شور حينما تجىء نحو أشور (أى العراق). وحويلة هى خولان. وهى قبيلة يمنية تسكن اليمن. والجزيرة العربية تقع بين اليمن والعراق. وتقع مكة فى منتصف المسافة تقريباً.

من هذا نرى أنهم يحاولون قطع الصلة بين العرب وإسماعيل. فيدَّعُون أن إسماعيل وهاهر قد تاها فى برية بئر سبع وانتهت قصتهم. بل وفى نظرهم انتهت حياتهم عند هذا الحد!!

٣ - يحاول كاتبو التوراة التقليل من قدر هاجر وذلك بتكرار وصفهم لها بالجارية!!

وهى - وإن كانت قد أهديت لسارة كجارية لها - إلاَّ أنها فى حقيقتها أميرة من أميرات إحدى مقاطعات مصر هزم الفرعون قومها وسباها. وقال الطبرى إن عمرو بن العاص لما فتح مصر أخبرهم بوصية النبى صلى الله عليه وسلم بهم. فقالوا: هذا نسب لا يحفظ حقه إلاّ نبى لأنه نسب بعيد. وقالوا له: إن هاجر كانت امرأة لملك من ملوكنا. ووقعت بيننا وبين أهل عين شمس حروب انتصروا فيها فقتلوا الملك وسبوها. ومن هنا تسيرت إلى أبيكم إبراهيم.

ولعل مما يؤيد هذا القول أن الفرعون أهداها هى بالذات - لسارة لأن وجودها فى بلاطه كان يشكل حافزاً لقومها للثورة على الفرعون لتخليص مليكتهم منه. لذلك رأى إبعادها كلية عن البلاد بإهدائها إلى هؤلاء الأسيويين ليرحلوا بها بعيداً عن مصر. فهى ليست جارية بالمعنى الصحيح بل أميرة تم أسرها ولها من شرف المحتد وعراقة الأصل. ما جعلها تعامل الفرعون بعد أسرها - بأنفة وكبرياء. وحماها هذا مما كان يطمع فيه الملوك من الجوارى. ولعل الملك كان راغباً فى الخلاص منها لهذا السبب أيضاً فأهداها لسارة. ثم كان لها الشرف أن تصبح زوجة لنبى الله إبراهيم عليه السلام وأُمّاً لإسماعيل عليه السلام وأُمّاً للعرب أجمعين.

ومما يزيد هاجر شرفاً إلى ذلك ماجاء فى التوراة من أن ملاك الرب قد ظهر لما على عين الماء فى البرية وأمرها بالرجوع وبشرها بإسماعيل وقال لها تكثيراً نسلك فلا يعد من الكثرة. وكما جاء فى التوراة، ظهر لها مرة ثانية لما تركها إبراهيم عليه السلام فى مكة وفرغ الماء من القربة وقال لها قومى احملى الغلام وشدى بيدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة. وفجرٌ لها بئر الماء (زمزم). فى حين أن الرسل الذين بشروا بإسحق كانوا مرسلين أساساً إلى إبراهيم عليه السلام وإنما وجهوا حديثهم عرضاً إلى سارة لما استنكرت أن تلد وهى عجوز عقيم!

نحن لا نعقد مناظرة بين هاجر وسارة فكلتاهما كانت زوجة لنبى الله إبراهيم عليه السلام ويكفى ذلك كلاً منهما فخراً وشرفاً.

٤ – شطح الخيال بالبعض فرووا أن سارة فى قرارها الغاضب بطرد هاجر ووليدها – أقسمت لتقطعن من هاجر ثلاثة أعضاء ومن ثم فقد أمر الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها (أى تجرى لها عملية الختان) فتبر بقسمها. وقالوا: وبهذا تكون هاجر أول من اختتن من النساء وأول من ثقبت أذنيها. وهذا القول ليس من الحقيقة فى كثير أو قليل. فالمصريات كن يلبسن «الحلقان» فى آذانهن قبل ذلك بمئات السنين وحلى الملكات منذ قرون كثيرة بها الأقراط. كما أن عادة الختان عادة مصرية قديمة من عصر ما قبل الأسرات. ولعلها من تعاليم إدريس عليه السلام.

نعود ثانية إلى هاجر وقد جلست فى العريش تتقى حر الشمس ولترضع وليدها، كانت الجبال تطل عليها من كل مكان. جبل قبيس. والصفا. والمروة. ونفذ التمر والماء. وعطشت هى وابنها. وجعلت تتلفت. لعل أحداً قادم ومعه ماء. ولكن لا أحد يأتى أو يمر فى هذا الوادى القفر. ارتقت جبل الصفا ونظرت على مدى بصرها علّها ترى ماء. فلم تر شيئاً. ونزلت من علِّها مهرولة نحو جبل المروة واعتلته ومدّت بصرها. فما رأت ماء. وهرولت مرة أخرى إلى الصفا. وكررت هذا السعى سبع مرات. ولما لم تجد الماء وأيقنت بالهلاك. اتجهت إلى الله بقلبها وعاد إليها إيمانها بما قالته لإبراهيم عندما تركها: فإذا لا يضيعنا. وعادت إلى وليدها وبينما هى تقترب منه. رأت الماء يتفجر من موضع كعبه على الأرض ثم تفجر الماء غزيراً فارتوت وسقت وليدها. وزاد تفجر الماء فقالت لها زُمّى زُمّى يا مباركة. فسميت منذ ذلك الحين بئر زمزم.

وإذا بملَك عند زمزم يقول لها: لا تخافى الضيعة. فإن هذا بيت الله الحرام. يبنيه هذا الغلام وأبوه. وإن الله لا يضيع أهله.

وقيل إن الملك هو الذى ضرب الأرض بجناحه فتفجر الماء فجعلت تحوِّضه بيدها وتغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف. وقال ابن عباس. قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: يرحم الله أم إسماعيل! لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً.

المهم أنها شربت وارتوت - وارتوى وليدها.

وجاءت جماعة من جرهم فى طريق أسفل مكة. ورأوا طائراً يحوم فى الجو. وعجبوا فالطائر لا يدور إلاَّ على ماء، وعهدهم بهذا الوادى ولا ماء فيه. فعرجوا على الوادى ووجدوا هاجر وابنها وبئر الماء. فاستأذنوا منها للإقامة معها بجوار البئر فأذنت لهم. وجاءت جرهم برجالها ونسائها وأطفالها وإبلها.

كذلك كات غلامان من العماليق يرعيان إبلاً للقبيلة هناك. وعطشا ورأوا الطير يحوم حول الوادى فتتبعاه حتى رأوا عين الماء وهاجر ووليدها وسألوها عمن حفر البئر. فقالت سقيا لله. فاستأذنوا منها فى الإقامة بجوار البئر. فأذنت لهم. فأخبروا القبيلة. وجاء العماليق أيضاً برجالهم ونسائهم وأطفالهم وغنمهم وإبلهم.

وإذا بالوادى الذى كان غير ذى زرع وليس به حياة ولا أحد. إذا به يعمر وينبض بالحياة. وفتح الله عليه بركات السماء والأرض.

وهكذا تحققت دعوة إبراهيم عليه السلام. التى جاءت فى الآية ٣٧ من سورة إبراهيم:

«فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم».

فقد مالت قلوب قبيلة جرهم والعماليق إلى هاجر ووليدها. وجعلوا من أنفسهم أهلاً وحماة لهما.

«وارزقهم من الثمرات».

فبفضل الماء الذى تفجر من زمزم اخضرت الأرض ونبت النخيل والأشجار وارتوت الإبل والأغنام وتكاثرت وكثرت الثمرات.

«لعلهم يشكرون».

فشكروا الله على هذه النعم.

وسبق أن ذكرنا ص ٢١ وشكل ١٦ - أن جرهم هو أخو فالج بن شالح بن عابر بن أرفكشاد. الجد الثالث لإبراهيم عليه السلام. والعماليق من نسل لود بن سام. فهم من نسل نوح عليه السلام. ولاختلاطهم أثناء تجوالهم فى الجزيرة العربية شابت عقيدتهم بعض مظاهر الوثنية ولكنها لم تكن وثنية صارخة متأصلة كما هى وثنية بابل أو دمشق. كانوا يؤمنون بالله

ويقسمون به ولكن كانوا ينسبون إليه من تماثيلهم وأصنامهم بنين وبنات، يتخذونهم زلفى وقربى إلى الله.

ولعلهم إذ نزلوا بجوار بالماء الذى تفجرّ ببركة الوليد وأمه. وعلموا أن هاجر زوجة لنبى من أنبياء الله. وأنها على ديانة الحنيفية التى جاء بها إبراهيم. لعلهم تشوقوا لمعرفة المزيد عن هذا النبى وهذه الديانة. مما جعلهم تربة خصبة. عند قدوم إبراهيم عليه السلام وبناء البيت الحرام لأن يتحولوا جميعاً إلى الدين الحنيف.

إفتراق لوط عليه السلام:

عاد إبراهيم عليه السلام من الحجاز.

وكما سبق أن ذكرنا أن لوطا هو ابن هاران، وأن هاران مات فى سن مبكرة فكفل إبراهيم لوطا. وتبناه. فكان لوط ملازما له فى مسيرته من أور إلى حاران إلى دمشق. ورافقه فى زيارته لمصر. وكان له عبيد وأغنام منفصلة عن ثروة إبراهيم.

بالطبع لم يذهب لوط مع إبراهيم عندما أخذ هاجر وإسماعيل إلى مكة. بل بقى فى حبرون وبعد عودة الخليل من مكة ظلا معا فى حبرون لمدة عام أو أقل قليلا.

وفى صبيحة أحد الأيام انطلق لوط إلى إبراهيم وقال له: لقد أُرسلت إلى أهل سدوم. فأمره إبراهيم بأن يمتثل لأمر ربه.

«وإن لوطا لمن المرسلين». (١٣٣ – الصافات)

وراح لوط يجمع أهل بيته ورجاله وعبيده وإماءه وأغنامه وأنعامه وكل ماله. وخرج إلى سدوم. وتقع سدوم عند الطرف الجنوبى للبحر الميت (شكل ٣٧).

الغريب أن كاتبى التوراة يصورون ذهاب لوط إلى سدوم على أنه كان مخاصمة منه مع إبراهيم عليه السلام. فتقول فى الإصحاح ١٣: ولوط السائر مع أبرام كان له أيضا غنم وبقر وخيام. ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا معا. إذ كانت أملاكهما كثيرة. فلم يقدرا أن يسكنا معا. فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشى أبرام ورعاة مواشى لوط. فقال أبرام للوط لاتكن مخاصمة بينى وبينك، وبين رعاتى ورعاتك. لأننا نحن أخوان. أليست كل الأرض أمامك اعتزل عنى. إن ذهبتَ شمالا. فأنا يمينا. وإن يمينا فأنا شمالا. فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقى قبلما أخرب الرب سدوم وعمورة. كجنة الرب كأرض مصر. فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن وارتحل لوط شرقا. فاعتزل الواحد عن الآخر. أبرام سكن فى أرض كنعان. ولوط سكن فى مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم. وكان أهل سدوم أشرار وخطاة لدى الرب جدا.

شكل ٣٧ – ذهاب لوط إلى سدوم
وإبراهيم إلى جرار

وهذا التصور لافتراق لوط عن إبراهيم عليهما السلام غير صحيح، فلم تكن هناك مخاصمة ما. بل كانا ارتحال لوط بناء عن أمر من الله تعالى واختياره رسولا إلى أهل سدوم.

إبراهيم وملك جرار:

لما ارتحل لوط، بقى إبراهيم عليه السلام فى حبرون بعض الوقت، ولكنه بعد مدة انتقل إلى الجنوب يدعو إلى دين الله، وتنقل فى الصحراء جنوبى فلسطين وإلى الشمال من سيناء، وتسمى أجزاء منها برية قادش والجزء شرقى مصر يسمى برية شور (شكل ٣٧). وكان أتباعه مشغولين بتربية الغنم والماشية، وكان هذا يعنى تنقله من مكان إلى مكان حسب توافر المراعى التى كانت تنمو عند سقوط المطر، وكانوا يحفرون الآبار للحصول على المياه فى فصل توقف الأمطار. وحفر الآبار عملية شاقة، فكان العرف أن من يحفر بئرا يكون مالكا لهذا البئر ولا تقربه القبائل الأخرى، ولما كان أتباع إبراهيم يتركون المكان الذى به البئر الذى حفروه إلى مكان آخر كان أقوام آخرون ينزلون على هذه الآبار ويدَّعون ملكيتهم لها. لذلك كانت هناك مشاحنات دائمة حول الآبار.

ووصل إبراهيم عليه السلام فى تجواله إلى مدينة جرار، وهى مدينة حصينة تقع حوالى ثلاثة عشر كيلو مترا شرقى غزة، وكان ملوكها يُسمون أنفسهم «أبيمالك» وسكن إبراهيم فى الصحراء خارج أسوار المدينة وتقول التوراة (إصحاح ٢٠ تكوين):

ووصل إبراهيم وتغرَّب فى جرار، وقال إبراهيم عن سارة إمرأته هى أختى، فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة، فجاء الله إلى أبيمالك فى حلم الليل وقال له: ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها فإنها متزوجة ببعل، ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها. فقال يا سيد أأمة بارة تقتل؟ ألم يقل هو لى أنها أختى وهى أيضا نفسها قالت هو أخى، بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا. فقال الله له فى الحلم، أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا. وأنا أيضا أمسكتك عن أن تخطىء إلى، لذلك لم أدعك تمسها. فالآن رُدَّ امرأة الرجل فإنه نبى فيصلى لأجلك فتحيا. وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتا تموت أنت وكل من لك.

فبكر أبيمالك فى الغد ودعا إبراهيم وقال له. ماذا فعلت بنا؟ وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت على وعلى مملكتى خطية عظيمة؟ أعمالا لا تعمل عملت بى. فقال إبراهيم إنى قلت ليس فى هذا الموضع خوف الله البته. فيقتلوننى لأجل امرأتى وبالحقيقة أيضا هى أختى ابنة أبى، غير أنها ليست ابنة أمى، فصارت لى زوجة، وقلت لها هذا معروفك الذى تصنعين إلى. فى كل مكان نأتى إليه قولى عنى هو أخى. فأخذ أبيمالك غنما وبقرا وعبيدا وإماء وأعطاها لإبراهيم، ورد إليه سارة إمرأته وقال أبيمالك: هو ذا أرضى. اسكن فى ما حسن فى عينيك. وقال لسارة: إنى قد أعطيت أخاك ألفا من الفضة.

فصلى إبراهيم إلى الله. فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فولدن لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت أبيمالك بسبب سارة إمرأة إبراهيم.

وهذه القصة. بتكررها من قبل فى مصر (ص ١٠٤). تثير الشك فى صحتها، كما أن سارة فى ذلك الوقت كانت قد بلغت ٧٩ عاما. وعلى العموم فإن كل الكتاب يرفضون هذه القصة برمتها ويرون أنها محض إختلاق.

بئر السبع: وحدث فى ذلك الزمان أن أبيمالك وفيكول رئيس جيشه كَلَّما إبراهيم قائلين: الله معك فى كل ما أنت صانع. فالآن احلف لى بالله ههنا أنك لا تغدر بى ولا بنسلى وذريتى. كالمعروف الذى صنعت إليك تصنع إلى. فقال إبراهيم أنا أحلف.

وعاتب إبراهيم أبيمالك بسبب بئر ماء اغتصبها عبيده. فقال أبيمالك. لم أعلم من فعل هذا الأمر ولا أنا سمعت سوى اليوم. فأخذ إبراهيم غنما وبقرا وأعطى أبيمالك فقطعا كلاهما ميثاقا. وأقام إبراهيم سبع نعاج من الغنم وحدها. فقال أبيمالك لإبراهيم : ما هى هذه السبع نعاج التى أقمتها وحدها؟ فقال إنك سبع نعاج تأخذ من يدى لكى تكون لى شهادة بأنى حفرت هذه البئر. لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع. فقطعا ميثاقا فى بئر سبع ورجع أبيمالك وفيكول رئيس جيشه إلى جرار. وغرس إبراهيم أثلا فى بئر سبع. ودعا هناك باسم الرب الإله السرمدى.

وقد أورد الثعلبى (عرائس المجالس. ص ٩٦) رواية أخرى فى تسمية مدينة بئر السبع – ذلك أن إبراهيم كان قد حفر هذه البئر بعد خروجه من مصر. وكان ماء تلك البئر معينا ظاهرا. وكانت غنمه تردها. فأقام إبراهيم بهذه البلدة مدة. ثم إن أهلها آذوه فيها ببعض الأذى فخرج منها. واتجه شمالا حتى نزل بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيليا ببلد يقال لها قطة. فلما خرج من بين أظهرهم نضب ماء تلك العين. فندم أهل البلدة جميعا على ما صنعوا. وقالوا: أخرجنا من بين أظهرنا رجلا صالحا. فاتبعوا أثره حتى أدركوه وسألوه أن يرجع فقال: ما أنا براجع إلى بلد أخرجت منه. قالوا إن الماء الذى كنت تشرب ونشرب معك منه قد نضب وذهب. فأعطاهم سبع عنزات من غنمه وقال اذهبوا بها معكم، فإنكم إن أوردتموها البئر ظهر الماء حتى يكون معينا ظاهرا كما كان فاشربوا منه ولاتقربنها امرأة حائض. فخرجوا بالأعنز. فلما وقفت على البئر ظهر الماء. فكانوا يشربون منها وهى على تلك الحال. حتى أتتها امرأة طامث فاغترفت منها فركد ماؤها إلى الذى هو عليه اليوم!!

لوط عليه السلام

لايمكن ذكر قصة لوط منفصلة عن قصة إبراهيم عليهما السلام لأن أحداث القصتين، متداخل بعض مع بعضها، وقد سبق ذكر بعض منها، ولوط عليه السلام هو ابن أخى إبراهيم كفله إبراهيم وتبناه. ولما بعث إبراهيم عليه السلام كان لوط أول المؤمنين:

«فآمن له لوط». (٢٦ - العنكبوت)

ولما خرج إبراهيم عليه السلام من أور بعد محنة إحراقه كان معه لوط.

«ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين». (٧١ - الأنبياء)

ورافق لوط إبراهيم - عليه السلام - فى رحلته من أور إلى حاران، ثم إلى حبرون - فى أرض كنعان، أى فلسطين، وهى أرض بارك الله فيها، بعث فيها عدد كبير من الأنبياء، وإليها أسرى برسولنا صلى الله عليه وسلم ومنها عرج به إلى السماء وفيها المسجد الأقصى ثالث المساجد التى يشد إليها الرحال.

ثم إن لوطا رافق إبراهيم فى رحلته إلى مصر وعاد منها معه، وكان له عبيد وأغنام منفصلة عن ثروة إبراهيم.

وسبق أن ذكرنا أن الله اختاره رسولا إلى أهل سدوم.

«وإن لوطا لمن المرسلين». (١٢٣ - الصافات)

ولما أخبر إبراهيم بذلك حثه على الامتثال لما أمر الله به، فسار لوط بأهله وجميع ماله من غنم وإبل وبقر وعبيد - إلى سدوم، عند الطرف الجنوبى للبحر الميت. وقد سبق أن نفينا ما قاله كاتبو التوراة من أن ذهاب لوط إلى سدوم كان نتيجة مخاصمة بينه وبين إبراهيم (ص ١٢٠).

أقام لوط فى مدينة سدوم يدعو أهلها إلى عبادة الله وأن ينتهوا عما كانوا يقترفونه من فحش فى مجالسهم واعتدائهم على الغرباء.

وسبق أن ذكرنا ص ٦٦ أن العراق كان يحكمه فى ذلك الوقت حمورابى ورجحنا أنه هو الذى حاج إبراهيم فى ربه، ولعله هو الذى تسميه التوراة أمرافل لأن حمورابى تكتب أحيانا أمورابى وأمورافى أو إمرافيل. وسبق أن ذكرنا (ص ٧٥) أن حمورابى مد ملكه حتى شمل سوريا ووصل نفوذه إلى ساحل البحر المتوسط غربا وفرض على ملوك الدويلات وأمراء المدن دفع الجزية له، ومن هذه المدن التى كانت تدفع الجزية خمس مدن تسمى مدن السهل الخمسة إذ أنها تقع فى السهل الذى يشكل نصف دائرة حول الطرف الجنوبى للبحر الميت (شكل ٣٨). إذ فى غرب البحر الميت توجد جبال الخليل وفى شرق السهل يوجد جبل الضباب، وهذه المدن

الخمس هى:

١ – سدوم Sodom وكان ملكها يسمى بارع.

٢ – عمورة Gomorrah وملكها اسمه برشاع.

٣ – أدمة Adamah وملكها يسمى شآن.

٤ – صبوئيم Zeboiim وملكها شمئيير.

٥ – صوغر أو بالع Bela.

واستمر الحال كذلك عدة سنوات. يدفعون الجزية كل عام لمدة اثنى عشر عاما ثم تحالف هؤلاء الخمسة على العصيان وعدم دفع الجزية.

فقرر حمورابى محاربتهم لإخضاعهم وأيده فى ذلك ثلاث دول مجاورة هم عيلام وجوييم وألاسار. ونظموا جيشا تحت قيادة حمورابى هاجم به البلاد المتمردة فكانوا أربعة وهم:

١ – أمرافيل (حمورابى) ملك شنعار (بابل).

٢ – كدر لعومر ملك عيلام.

٣ – تدعال ملك جوييم.

٤ – أريوك ملك آلاسار.

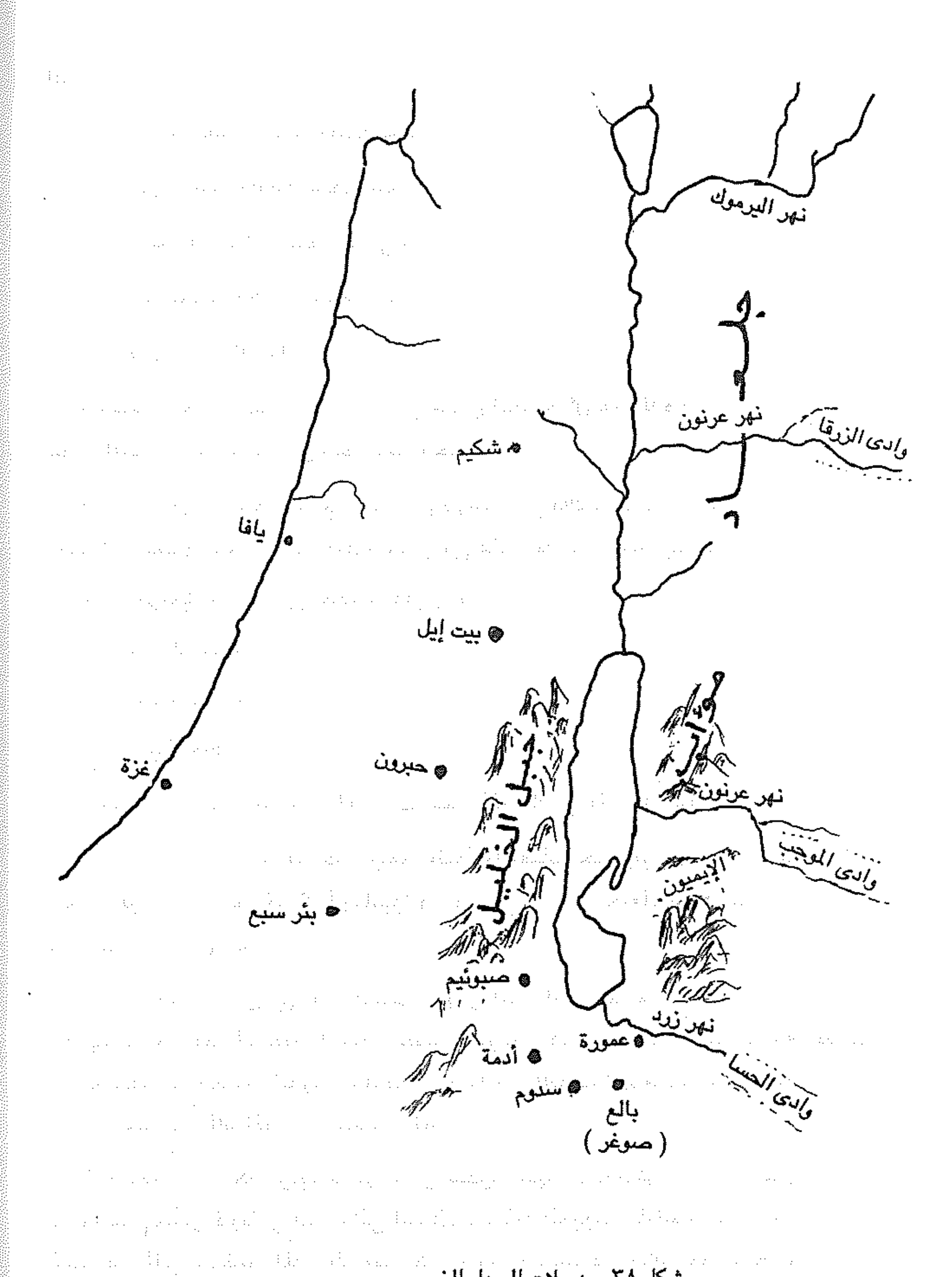
ويمكننا أن نصف تطورات الأحداث وسير المعركة فى المراحل التالية (شكل ٣٩):

١ – انسابت جيوش الملوك الأربعة المتحالفة بقيادة حمورابى عبر طريق شرق الأردن فى اتجاه الجنوب وهزموا قبائل الرفائيين والزوزيت فى أرض جلعاد ثم هزموا الإيميين فى مؤاب والحويين فى جبل سعير.

٢ – لم يشأ حمورابى أن يهاجم جيوش المدن الخمسة من الشرق. إذ كانوا يتوقعون مهاجمتهم من هذه الناحية وأقاموا تحصيناتهم على هذا الأساس. فقام بحركة التفاف واسعة ليهاجمهم من الجنوب الغربى فانحرف غربا إلى النقب. إلى قادش برنيع وهزم أبيمالك. ثم ضرب الأموريين الساكنين فى حَصُون تامار.

٣ – وقعت المعركة الرئيسية فى وادى سدوم وانهزمت جيوش المدن الخمس المتمردة وهرب ملك سدوم وعمورة وباقى الملوك إلى الجبال. وأخذت الجيوش المتالحفة جميع أهل سدوم أسرى لأنها هى التى حرضت المدن الخمس على التمرد وتزعمتهم. وكان لوط عليه السلام من ضمن الأسرى لأنه كان يسكن فى سدوم.

٤ – مضوا بأسراهم عائدين متخذين طريقا بحذاء الشاطىء الشرقى للبحر الميت ونهر



شكل ٣٨ – دويلات السهل الخمس

الأردن، ثم فى اتجاه دمشق.

٥ - أتى بعض الفارين من سدوم وأخبروا إبراهيم عليه السلام بما حدث من أسر لوط.

تقول التوراة (إصحاح ١٤ تكوين): فلما سمع إبراهيم بأسر لوط ابن أخيه جر غلمانه المتمرنين وعددهم ثلاثمائه وثمانية عشر وتبعهم إلى دان، وهجم علهم ليلا هو وعبيده وتبعهم إلى حوبة التى قبل دمشق واسترجع كل الأملاك، واسترجع لوطا وأملاكه.

ويصعب تصديق أن ٣١٨ من المحاربين مهما كان مرانهم أن يغلبوا الجيوش المتحالفة الأربعة والأرجح أن من هربوا من جيوش المدن المهزومة قد انضموا إلى إبراهيم ورجاله فبلغلوا عدة آلاف.

٦ - وسار إبراهيم عليه السلام يقودهم حتى وصل إلى دان وحوبة، والأرجح أيضا أن حمورابى وهو على سابق معرفة بإبراهيم - منذ محاجته له فى بابل - ويقينه بأنه رجل مبارك من الرب بدليل نجاته من النار فى أور - لم يشأ أن يحاربه أو تهيب محاربته، فأجاب مطلب إبراهيم وهو الإفراج عن لوط وخاصة بعد أن علم أنه أيضا نبى، ورد عليه جميع أملاكه، وإكراما لإبراهيم ولوط أطلق سراح كل أهل سدوم ورد أملاكهم.

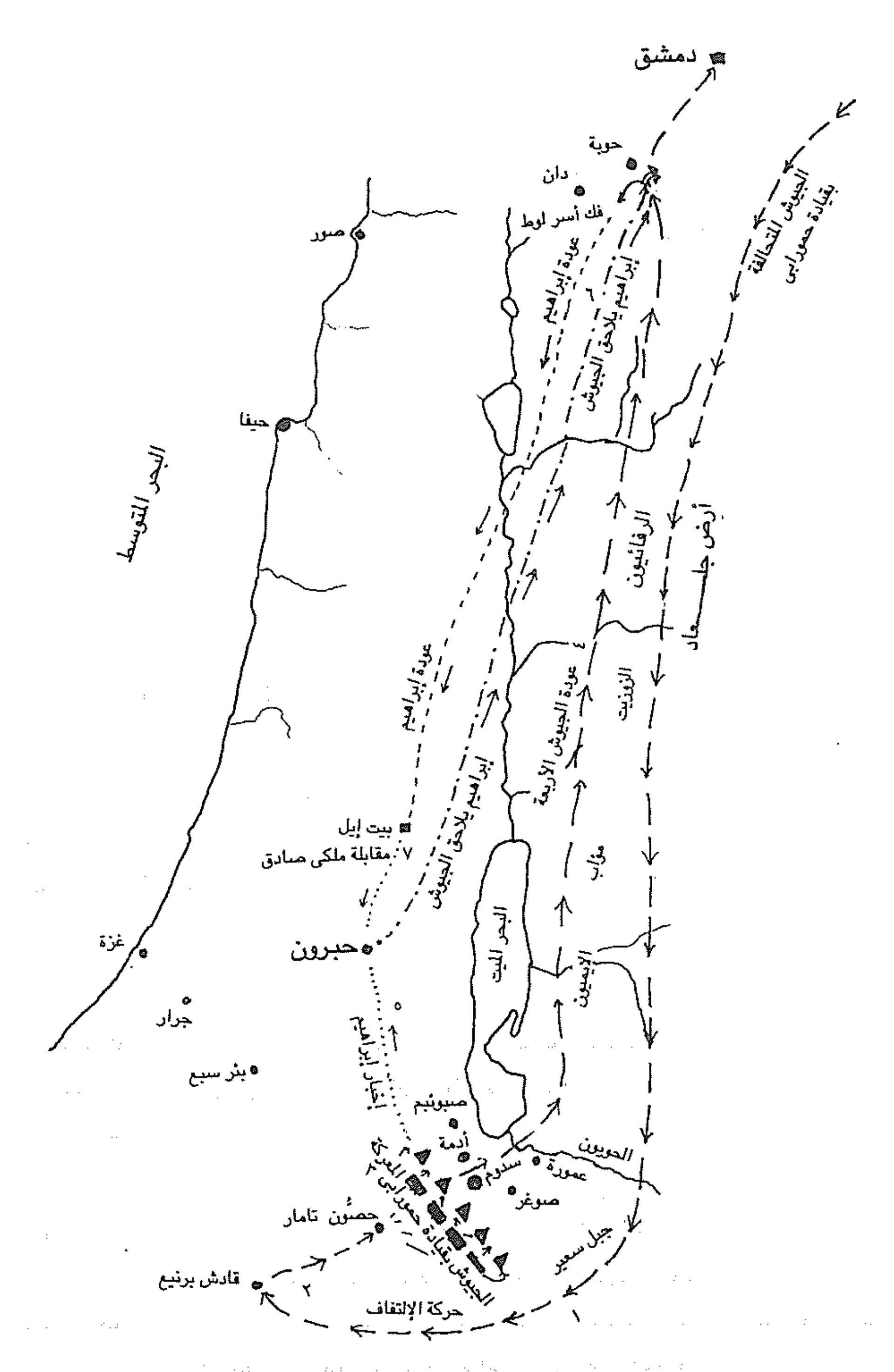
٧ - وفى طريق عودته مر على بلدة شاليم (مكان أورشليم) وكان ملكها هو الكاهن ملكى صادق، الذى بارك إبراهيم، وقال: مبارك أبرام من الله العلى ملك السموات والأرض، ومبارك الله العلى الذى أسلم أعداءك فى يدك، فأعطاه إبراهيم عشراً من كل شيىء، ويعتقد بعض أهل الكتاب أن ملكى صادق هذا ما هو إلا ملاك الرب.

قوم لوط:

كان لوط علية السلام مرسلا إلى أهل مدن السهل الخمس - السابق ذكرها وهى سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم وصوغر - وكان يتنقل بينها يدعو الناس فيها إلى عبادة الله والإقلاع عن الفواحش التى كانوا يأتونها.

لم تردع هذه الهزيمة أهل سدوم وأهل القرى الأخرى، وكان الواجب على أهل سدوم بالذات أن يفطنوا إلى حقيقة أن الله قد أنقذهم من ذل الأسر والسبى ببركة لوط عليه السلام، إذ لولاه ولولا إسراع إبراهيم لنجدته لأخذوا عبيدا إلى بابل ونساؤهم وأطفالهم إماء وسبايا. ولكنهم ظلوا فى فساد أخلاقهم لا يستحون من منكر، ولايتعففون عن معصية، وكان لوط عليه السلام يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالعلم الذى علمه الله إياه:

«ولوطا أتيناه حكما وعلما»، (٧٤ - الأنبياء)



شكل ٣٩ – محاربة الجيوش الأربعة للمدن الخمس المتمردة
وأسر لوط ثم فك أسره

فأمرهم لوط أن يتقوا الله، وأخبرهم أنه رسول مرسل من رب العالمين، وأنه أمين فيما ينصحهم به، وطلب منهم أن يطيعوه - كما قال لهم إنه لايسألهم أجرا على هذا النصح، لأن أجره على الله رب العالمين.

«إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون، إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر، إن أجرى إلا على رب العالمين». (١٦٠ - ١٦٤ الشعراء)

ثم بدأ يذكرهم بالموبقات التى يرتكبونها وهى:

١ - الشذوذ الجنسى.

٢ - قطع السبيل.

٣ - إتيان المنكر فى النوادى.

«ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين، أئنكم لتأتون الرجال، وتقطعون السبيل، وتأتون فى ناديكم المنكر». (٢٨ - ٢٩ العنكبوت)

١ - الشذوذ الجنسى.

وكان الشذوذ الجنسى متفشيا، يأتون الرجال والغلمان وهى فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من ولد آدم، وكان ذكرهم فى القرآن فى السور الآخرى بصيغة الاستفهام للإستنكار.

«ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء، بل أنتم قوم مسرفون». (٨٠ - ٨١ الأعراف)

«ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون، أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون». (٥٤ - ٥٥ النمل)

«أتأتون الذكران من العالمين، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون».

(١٦٥ - ١٦٦ الشعراء)

وفى هذه الآيات بيَّن الله لهم قبح هذا الفعل لأنه فى غير محله إذ أن الشهوة محلها الطبيعى هو النساء، لما يترتب عليه من الإنجاب، ولنا أن نتصور مجتمعا فشا فيه الشذوذ الجنسى وعزف الرجال عن النساء، فسيتناقص المواليد وينقرض هذا المجتمع، فكأنه ينتحر، ولعل هذا هو السبب فى أن الله - لما لم يرتدعوا - أبادهم، لأن هذا ما كانت ستؤدى إليه استمراريتهم فى هذا الفعل.

وفى الآيات من سورة النمل «وأنتم تبصرون» أى ترون ما صار إليه العصاة من قبلكم - أو وأنتم ينظر بعضكم بعضا، لا يستتر ولا يتحاشى من إظهار ذلك لعدم إكتراثكم به.

ووصفوا مرة بأنهم قوم مسرفون. والإسراف وضع للشيء فى غير موضعه والخروج عن الحدود. ووصفوا مرة ثانية بأنهم قوم يجهلون، أى يفعلون فعل الجاهلين أو يجهلون عاقبة ما يفعلون. أو الجهل بمعنى السفاهة والمجون أى بل أنتم قوم سفهاء ماجنون، ومرة ثالثة وصفوا بأنهم قوم عادون. والعادى المتعدى فى ظلمه المتجاوز فيه الحد. أى أنتم قوم متعدون متجاوزون الحد فى جميع المعاصى أو متجاوزون عن حد الشهوة حيث أتيتم مالم يخلق لذلك وتركتم ما هو مخلوق لذلك.

٢ - قطع السبيل:

قيل قطع الطريق بسبب الاعتداء على الغرباء والمارة بتلك الفعلة القبيحة كرها. وقيل يقطعون النسل بالإعراض عن الطريق الطبيعى وهو الزواج الذى يتم به تكاثر الخلق. وقيل يقطعون الطريق بالقتل وقيل إنهم كانوا يتربصون لكل داخل مدينتهم من التجار ويجتمعون عليه من كل جهة، ويمدون أيديهم إلى بضاعته يأخذ كل واحد منها شيئا حتى لا يبقى فى يده شىء كما كانوا يقفون فى طريق الناس ويقتلونهم ويأخذون أموالهم.

٣ - وتأتون فى ناديكم المنكر:

عن أم هانىء بنت أبى طالب قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى: «وتأتون فى ناديكم المنكر» فقال: كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم. وذلك المنكر الذى كانوا يأتونه. ورواه الترمذى وقال حديث حسن.

وعن مجاهد ومنصور والقاسم بن محمد وقتادة وابن زيد: هو إتيان الرجال فى مجالسهم يرى بعضهم بعضا.

وعن مجاهد أيضا هو تطريف الأصابع بانحناء والصفير والحذف ونبذ الحياء فى جميع أمورهم.

وعن ابن عباس هو تضارطهم وتصافعهم. وحل الإزار والسباب والفحش فى المزاح.

هذه كانت أمراض ذلك المجتمع وأعراض فساده.

بدأ لوط عليه السلام دعوته بأن قصد نواديهم ومجتمعاتهم يبين لهم ضرر ما يفعلون. ويدعوهم للإيمان بالله. ولكنه رأى الناس فى مجالسهم ونواديهم يستهزئون بكل من يمر بهم. ويضحكون. ويشيرون إليهم إشارات ماجنة. كما رآهم يأتون المنكر على أعين الناس. وامتلأت نفسه بالحزن والأسى. وأدرك جسامة مهمته. وبدأ يتساءل: هل يستطيع تغيير طبائع القوم؟ إنها مهمته وعليه أن يؤديها مهما كلفه الأمر من مشقة. ورأى فى الأسواق أنواعا من الظلم والاستعباد. السادة يضربون العبيد بقسوة لأتفه الأسباب أو بدون سبب. ويتقاطرون على

التجار الوافدين يتخاطفون البضاعة التى معهم بدون دفع ثمنها.

وانطلق لوط إلى القوم فى كل مجلس يحذرهم من مغبة ما يعملون، ويبين لهم الأضرار التى ستحيق بهم من جراء أفعالهم هذه. وقال لهم إنه يمقت هذه الأفعال ويبغضها بشدة:

«قال إنى لعملكم من القالين». (١٦٨ - الشعراء)

لم يسمعوا لقوله وظلوا فى غيهم سادرين.

وظل لوط عليه السلام حوالى تسع سنوات لا يمل من دعوتهم للإقلاع عن الشر ويحثهم على الأخلاق الحميدة. وهم لا يرتدعون، وناله منهم أذى كثير.

كانوا يهزءون منه ومن دعوته إلى التطهر.

«فما كان جواب قومه إلا أن قالوا، أخرجوا آل لوط من قريتكم. إنهم أناس يتطهرون».

(٥٦ - النمل)

«وما كان جواب قومه إلا أن قالوا، أخرجوهم من قريتكم. إنهم أناس يتطهرون».
(٨٢ - الأعراف)

ومقصودهم السخرية بلوط ومن معه. كما يقول المفسدون لبعض المصلحين إذا وعظهم: أخرجوا هذا المتقشف أو أريحونا من هذا الزاهد المتزهد!!

ولما استمر استنكاره لما يفعلون وبيانه لقبح أفعالهم. ضاقوا به وانتقلوا إلى موقف التهديد. فهددوه بأن يخرجوه من بلدتهم إذا لم يكف عن تذكيرهم بشناعة تصرفاتهم:

«قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين». (١٦٧ - الشعراء)

ويقول الأستاذ عبد الحميد جودة السحار (محمد رسول الله والذين معه. جزء ٢ ص ٧٩): ومرت السنون، ولوط يدعوهم إلى الهداية وتأبى قلوبهم. وتاقت نفس إبراهيم إلى تنسم أخبار لوط، فدعا إبراهيمُ وكيلَ بيته أليعازر الدمشقى وأمره أن ينطلق ليأتيه بخبر لوط وقومه. فخرج أليعازر قاصدا سدوم. فبلغها. ونزل عن حماره وربطه. ليقضى بعض شأنه وعاد فلم يجد الحمار. فأخذ يبحث عنه دون جدوى. وسأل عنه أصحاب الحوانيت التى كان الحمار مربوطا بجوراها. فلم يرشدوه. بل وأنكروا أنه ربط حماره بجوراهم. وبات ليلته، وفى الصباح مر بالأسواق والنوادى ورأى أفعال القوم المنكرة فلم يستبشر خيرا. وحانت منه إلتفاتة فإذا به يرى حماره المسروق مع أحد القوم فأخذ بتلابيبه. فاحتكما إلى القاضى وأرشد أليعازر إلى علامات فى جسم الحمار تؤكد ملكيته له. وادعى السارق أنه وجد الحمار فى الطريق فأخذه وآواه وأطعمه. وطلب أجر ذلك. ولدهشة أليعازر حكم القاضى بأن يسترد حماره على أن يدفع مبلغا من المال للسارق أجرة إيواء الحمار وطعامه!

والمثل يقول: أجور من سدوم.

ورواية أخرى يرويها الأستاذ عبد الوهاب النجار (قصص الأنبياء، ص ١٢٨). قرأها فى كتاب من كتب الأدب العبرى، تدل على مدى ظلمهم. ذلك أن أليعازر لما دخل مدينة سدوم لقيه رجل من أهلها فضرب أليعازر، بحجر فى رأسه فسال منه دم كثير ثم تعلق به قائلا: إن هذا الدم لو بقى لأضر به وطلب أجرا على ذلك. فلما احتكما إلى قاضى سدوم حكم القاضى على أليعازر بأن يعطى السدومى أجرا على ما فعل. فلما رأى أليعازر الجور من القاضى عمد إلى حجر ضرب به رأس القاضى فأسال دمه وقال له: الأجر الذى وجب لى عليك بإسالة دمك، عليك أن تعطيه للسدومى جزاء ضربه إياى وإسالة دمى!

وفى هذا يقول الشاعر المعرى:

وأى امرىء فى الناس ألفى قاضيا ولم يمضى أحكاما كحكم سدوم

قد تكون هذه الحكايات موضوعة، إلا أنها تبين الجو الفاسد والظلم البيِّن الذى كان سائدا. ولم يتورع حتى القضاة عن الانغماس فى هذا الظلم والفساد وتشجيع القوم بالوقوف بجانبهم والحكم لصالحهم حتى وإن كانت جريمتهم واضحة للعيان.

ولاشك أن أليعازر قابل لوطا عليه السلام وسمع منه أكثر مما رآه من أفعال القوم، ولمس ما يلاقيه من عنت فى مهمته، وعاد أليعازر لينقل إلى إبراهيم عليه السلام صورة واضحة عن قوم سدوم وأفعالهم.... واستمر لوط فى دعوته لهم بالهداية والاستقامة.

وفى آخر الأمر هددهم بأن الله قد ينزل بهم عذابا قصاصا لسوء أفعالهم إن لم ينتهوا منها ويقلعوا عنها:

«فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين». (٢٩ - العنكبوت)

وكان لهذا التحدى منهم معنى واحد، هو أنهم لن يستجيبوا له مهما كرر عليهم الدعوة، فهم لم يأبهوا بتهديده إذ لا يؤمنون بأنه نبى مرسل من الله، بل ويحمل ضمنا أنهم لايؤمنون بوجود إله سيحاسبهم على أفعالهم ولا يصدقون أن عذابا ما سينزل بهم، وصل الأمر بينه وبينهم إلى طريق مسدود، فلجأ إلى الله:

«قال رب انصرنى على القوم المفسدين». (٣٠ - العنكبوت)

«رب نجنى وأهلى مما يعملون. (١٦٩ - الشعراء)

ولعل لوطا تساءل فى نفسه إن كان قد أدى مهمته على وجهها . لقد بذل كل مافى وسعه

لنصحهم وهدايتهم ولكن لم تبدر منهم أى بادرة ولو صغيرة على رغبتهم فى الاستجابة لنصحه ولم يبدأوا بخطوة واحد نحو إصلاح أنفسهم. وهم لو فعلوا لكان الله قد أعانهم على الخطوات التالية. ولكنهم تشبثوا بأفعالهم المنكرة ولم يتزحزحوا عنها قيد أنملة. بل كانوا يغوون القادمين إليهم حتى يشابهوهم فى أفعالهم. فحق عليهم العذاب.

نترك لوطا فى سدوم. ونعود إلى إبراهيم عليه السلام فى حبرون وكان أليعازر الدمشقى قد نقل له صورة قوم سدوم. وأدرك إبراهيم كم هى شاقة المهمة التى كلف بها لوط. وتمنى له النجاح فى مهمته ويهتدى القوم على يديه.

ولكن كان فى علم الله أن هؤلاء قوم فاسدون ولن يرجى صلاحهم وحقت عليهم كلمة العذاب.

وكلف الله ثلاثة من الملائكة بإنزال أمر الله عليهم بالدمار.

وكُلفوا بالمرور على إبراهيم عليه السلام وإخباره بذلك.

وكُلف الملائكة أيضا بنقل البشارة لإبراهيم بأن زوجته سارة ستلد له إسحق.

كان إبراهيم عليه السلام قد بلغ من العمر ٩٨ عاما. ولما كانت سارة تصغره بعشرة أعوام فقد بلغت من العمر ٨٨ سنة.

قدوم الملائكة على إبراهيم:

«ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما. قال سلام». (٦٩ – هود)

كان إبراهيم عليه السلام مضيافا. ولا يرضى لأضيافه بما يقيم أودهم بل كان يكثر لهم من الطعام. وقيل كان لبيته أربعة أبواب. من كل جهة باب لئلا يفوته أحد. ولذلك كانت كنيته «أبا الضيفان».

وجاء رسل الله – وهم الملائكة – إلى إبراهيم.

وروى ابن عباس: أنهم كانوا اثنى عشر ملكا.

وقال السدى: أحد عشر على صورة الغلمان فى غاية الحسن والبهجة.

وحكى صاحب القينان أنهم عشرة منهم جبريل.

وقال الضحاك تسعة.

وقال محمد بن كعب ثمانية.

وحكى الماوردى أنهم أربعة

وجاء فى رواية عن عثمان بن محيصن أنهم جبريل وإسرافيل وميكائيل وروفائيل عليهم السلام.

وفى رواية عن ابن عباس وابن جبير: أنهم ثلاثة. الأولون فقط. وقال مقاتل جبرائيل وميكائيل وملك الموت.

واختار بعضهم الاقتصار على القول بأنهم ثلاثة لأن ذلك أقل ما يدل عليه الجمع فى قوله تعالى «رسلنا» وليس هناك ما يعول عليه فى الزائد. ولقد أسند إليهم المجىء فى قوله تعالى «ولقد جاءت» لأنهم كانوا مرسلين أساسا إلى قوم لوط فى قوله «إنا أرسلنا إلى قوم لوط» - وإنما كان مجيئهم إلى إبراهيم لإبلاغه بالبشرى.

البشارة لسارة **«فبشرناها بإسحق»** . (٧١ - هود)

والبشارة له **«وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين»**. (١١٢ - الصافات)

وقيل أيضا بشرى بهلاك قوم لوط. فإن هلاك المفسدين مما يبشر به ويفرح له المؤمنون.

ولنذكر أولا الآيات التى تصور هذه الحادثة. وقد جاءت فى ثلاث سور مختلفة:

ففى سورة هود جاء قوله تعالى:

«ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى. قالوا سلاما. قال سلام. فما لبث أن جاء بعجل حنيذ. فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة. قالوا لاتخف. إنا أرسلنا إلى قوم لوط. وامرأته قائمة فضحكت. فبشرناها بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب. قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب. قالوا أتعجبين من أمر الله. رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت أنه حميد مجيد». (٦٩ - ٧٣ هود)

وفى سورة الحجر:

«ونبئهم عن ضيف إبراهيم. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون. قالوا لا توجل إنا نبشرنك بغلام عليم. قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبير. فبم تبشرون. قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين. قال ومن يقنطُ من رحمة ربه إلا الضالون. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أُرسلنا إلى قوم مجرمين، إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين. إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين». (٥١ - ٦٠ الحجر)

وفى سورة الذاريات:

«هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما. قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون؟ فأوجس منهم خيفة

قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم. فأقبلت امرأته فى صَرَّة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم، قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم. قال فما خطبكم أيها المرسلون. قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ». (٢٤ - ٣٢ الذاريات)

وهكذا ذكرت القصة فى القرآن الكريم فى ثلاث سور لتعطى ثلاث نظرات من زوايا مختلفة، ليتكون عند القارىء والسامع إدراك حقيقى لما وقع. ويكاد يتمثل الأحداث بحذافيرها وما وقع فى النفوس من مشاعر وأحاسيس: بشاشة بالضيف ثم خوف منهم. فرح بالبشرى ثم تعجب. مجادلة خوفا أن يصيب لوطا بعض الأذى مما سيحل بقومه. ثم اطمئنان لتأكيدهم له بأنهم منجوه وأهل بيته إلا إمراته.

جاء الرسل - وهم من الملائكة - على هيئة بشرية - رجال قادمون من البادية. وأقبلوا عليه وألقوا إليه بالتحية: سلاما. فرد عليهم السلام ولم يتعرف على أحد منهم. فهم أغراب قوم منكرون. وواجب عليه إكرام الضيف. فراغ إلى أهله أى ذهب على خفية إلى أهله لتدارك الطعام. وقد ذكر أن من أدب الضيافة أن يبادر المضيف بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذرا من أن يمنعه الضيف - أو يصير منتظرا له. وبالكرم الذى جبل عليه رأى أن مثل هؤلاء الأضياف لايجب أن يقدم لهم إلا عجل حنيذ أى سمين مشوى على الحجارة الساخنة فى أخدود - ويسيل السمن عليه كأنه العرق.

وقدم لهم الطعام. وجلس ليأكل معهم. وامرأته قائمة. واقفة عن قرب لما قد يحتاجونه.

ومن أدب الضيافة أن ينظر المضيف إلى الضيف هل يأكل أم لا، على أن يكون ذلك من طرف خفى لا بتحديد النظر.

ورأى إبراهيم أنهم لم يمدوا أيديهم إلى الطعام. وكانت العادة أن الضيف إذا لم يأكل طعام المضيف كان موجبا لظن الشر وأنه لم يجئ بخير. وظهرت على إبراهيم مخايل الخوف. واسترجع فى ذهنه بعض الملاحظات التى زادت من خوفه.

فإن غلمانه ينتشرون فى المنطقة يرعون أغنامه ومواشيه. وإذا رأوا غريبا سارعوا لإخبار إبراهيم - أو رافقوه حتى خيمته وهؤلاء الأغراب ظهروا فجأة لم يشعر بهم أحد إلا وهم أمامه. وكانوا مسافرين ولا يظهر على وجوههم ولا ثيابهم أثر من تراب السفر أو وعثائه. كما لم تكن معهم دواب ولا أحمال مما يكون مع المسافر.

صرح بشعوره نحوهم فقال: **«إنا منكم وجلون»** فبادروه بقولهم لاتخف ولا توجل ولإزالة الخوف نهائيا من نفسه بشروه بأن سيكون له ولد من صلبه - وهو الأمر الذى طالما تمناه طوال عشرته مع سارة. بشروه بغلام عليم فلما اطمأن تعجب واستبعد أن يكون له ولد بعد كل هذه السنين. وقال: أبشرتمونى على أن مسنى الكبر. فبم تبشرون؟ فأى بشرى هذه؟ ولعله ظن

أنهم يقولون ذلك لمجرد إذهاب الخوف عنه. ولكنهم أكدوا له أنها بشرى حقيقة. **«بشرناك بالحق»**. وذكروه أنه لا يجب أن ييأس أو يقنط من رحمة الله. فأمّن على كلامهم بقوله إن من يقنط من رحمة ربه يكون من الضالين.

كانت سارة على مقربة. فسمعت هذا الحديث. والبشرى بالولد وهو أمر يمسها. بل الأمر يتعلق بها كلية لأنها هى التى تحمل وتلد. ولعل زوجها كان يقصدها هى من طرف خفى حينما قال: أبشرتمونى على أن مسنى الكبر - فالرجل قادر على الإنجاب مهما تقدمت به السن. أما المرأة فلها فترة خصوبة إذا تعدتها أصبحت عقيما. لذلك نسب الكبر إلى نفسه حتى لا يجرح شعورها لهذا ضحكت تعجبا أن تلد فى هذه السن المتقدمة. وهى قد قاربت التسعين. فوجهوا الخطاب إليها وبشروها بالولد وذكروا اسم الوليد **«فبشرناها بإسحق»** ولزيادة التأكيد أخبروها أنها ستعيش حتى ترى ولد ولدها وهو يعقوب **«ومن وراء إسحق يعقوب»**.

فندت عنها صرة وصيحة. وكما تفعل النساء فى مثل هذا الموقف لطمت وجهها من الحياء أو تعجبا **«وصكت وجهها»**. ولم تتحرج من أن تصرح بما تعرفه عن نفسها من تقدم فى السن وطول هذه السنين لم تنجب. وقالت: عجوز عقيم. ثم استشعرت الحرج والحياء لو حدث فعلا فقالت: **«ياويلتى أألد وأنا عجوز. وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب»**! وكان رد الملائكة: **«أتعجبين من أمر الله؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد»**. إن هذه هى إرادة الله. وهو الذى يدبر الأمور بحكمته ويعلمه سبحانه وتعالى: **«قالوا كذلك قال ربك. إنه هو الحكيم العليم»**.

وهكذا انتهى هذا الجزء من مهمة الرسل. وهو البشارة لإبراهيم عليه السلام وزوجته سارة.

ولكن إبراهيم عليه السلام أدرك بحسه أن لابد هناك شيئ آخر وراء هؤلاء الرسل. لأن البشارة قد كان يكفى فيها وحيا يوحى إليه أو رؤيا صادقة كما هى رؤى الأنبياء. فلابد إذن أن هناك مهمة أخرى لهؤلاء الرسل. ولابد أيضا أن إبراهيم عليه السلام قد تعرف على هؤلاء الملائكة وعرف عظم قدرهم فكان سؤاله" **«قال فما خطبكم أيها المرسلون»**؟ وصدق حدسه فقد كان الجواب: **«إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين»**.

هكذا وصف القوم بأنهم قوم مجرمون. وتكرر ذلك مرتين. مرة فى سورة الحجر (الآية ٥٨) ومرة أخرى فى سورة الذاريات (الآية ٣٢). كانوا مجرمين فيما بينهم. ومجرمين لاعتدائهم على الغرباء ومجرمين فى حق الله لتكذيبهم رسوله، أى أن الإجرام متأصل فى طبعهم. ولم يكن لهذا الوصف من معنى إلا أنه قد وجب هلاكهم. وصرّحوا بذلك.

«قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية. إن أهلها كانوا ظالمين». (٣١ - العنكبوت)

وأشفق إبراهيم أن ينال لوطاً أذى مما سيحيق بقومه. **«قال إن فيها لوطاً قالوا: نحن أعلم بمن فيها. لننجِّيَنَّه وأهله إلاَّ امرأته كانت من الغابرين»**. (٣٢ - العنكبوت)

«فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى، يجادلنا فى قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب». (٧٤ - ٧٥ - هـود)

فالبرغم من علم إبراهيم بفساد خلق أهل هذه القرية إلاَّ أنه أشفق عليهم من عذاب الله إذا نزل بهم. وأخذته الرأفة بهم. وهو حليم يأمل فى تأجيل الانتقام من المسيئ عسى أن يهتدى فى يوم ما. كما أنه كثير التأوه من الذنوب والأسف على الناس.

فراح يجادل رسل الله.

وكان أول مجادلة أن قال إن فيها لوطاً أى كيف تهلكون قرية فيها نبى الله لوط. فلما قالوا إنهم منجُّوه.

راح يحاول ثانية عسى الله يقبل شفاعته.

وعن حذيفة أنه قال لهم: أرأيتهم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونها، قالوا لا. قال فثلاثون؟ قالوا لا. قال فعشرون؟ قالوا لا. قال فإن كان فيهم عشرة؟ قالوا لا.

قال إبراهيم: ما من قوم لا يكون فيهم عشرة مؤمنين فيهم خير. وأكد الرسل لإبراهيم أن قوم لوط ليس فيهم عشرة مؤمنون وقالوا:

«يا إبراهيم أعرض عن هذا، إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود».

(٧٦ - هـود)

وهكذا قضى الأمر. ومتى جاء الله فلا مردَّ له. ولا محلَّ لجِدَالٍ أو شفاعة . والعذاب لا محالة واقع بالقوم المجرمين.

يحسن بنا - هنا - أن نذكر ما تقول التوراة لندرك ما سبق أن نوهنا إليه - من أنهم يجنحون إلى تجسيد الإله. ففى الإصحاح الثامن عشر تكوين جاء: وظهر له (أى لإبراهيم) الرب عند بلُّوطات مَمْرَا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار. فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض. وقال يا سيد إن كنتُ قد وجدت نعمة فى عينيك فلا تتجاوز عبدك. ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون لأنكم قد مررتم على عبدكم. فقالوا هكذا تفعل كما تكلمت.فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال أسرعى بثلاث كيلات دقيقاً سميذاً. اعجنى واصنعى خبزاً ملَّة. ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله. ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذى عمله ووضعها

قدامهم. وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا!

لنقارن هذا ببلاغة اللفظ القرآنى وإيجازه فى قوله تعالى: «فما لبث أن جاء بعجل حنيذ» - ثم إن الملائكة وإن تشكلوا على هيئة رجال إلاَّ أنهم ليسوا فى حاجة إلى طعام مثل البشر لذلك «رأى أيديهم لا تصل إليه» أى لا يمدون أيديهم إلى الطعام ولم يأكلوا.

ونعود ثانية إلى ما جاء فى التوراة: وقالوا له أين سارة امرأتك. فقال ها هى فى الخيمة. فقال إنى أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت سارة سامعة فى باب الخيمة وهو وراءه. وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين فى الأيام. وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء. فضحكت سارة فى باطنها قائلة: بعد فنائى يكون لى تنعُّم وسيدى قد شاخ! فقال الرب لإبراهيم لماذا ضحكت سارة قائلة أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت. هل يستحيل على الرب شيئ؟ فى الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن. فأنكرت سارة قائلة لم أضحك لأنها خافت: فقال بل ضحكت.

ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم. وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشيعهم فقال الرب هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله وإبراهيم يكون أمَّة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض لأنى عرفته لكى يوصى بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا براً وعدلاً لكى يأتى الرب لإبراهيم بما تكلم به. وقال الرب إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جداً. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتى إلىَّ. وإلاَّ فأعلم. وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم. وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب.

وهنا يتضح لنا أنهم يقصدون أن الملائكة جاءوا على هيئة رجال ومعهم الرب. بل ويجعلون الرب لا يعلم ما يفعل أهل سدوم وعمورة. إلاَّ إذا نزل بنفسه ليرى ما يفعلون!!

ويختصر اللفظ القرآنى مجادلة إبراهيم بقوله **«يجادلنا فى قوم لوط»** فى حين تستطرد التوراة فتقول:

فتقدم إبراهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم. عسى أن يكون خمسون باراً فى المدينة أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه. حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار كالأثيم. حاشا لك. أديَّان كل الأرض لا يصنع عدلاً. فقال الرب إن وجدت فى سدوم خمسين باراً فى المدينة فإنى أصفح عن المكان كله من أجلهم. فأجاب إبراهيم وقال إنى قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد. ربما نقص الخمسون باراً. أتهلك كل المدينة بالخمسة فقال لا أهلك أن وجدت هناك خمسة وأربعون. فعاد يكلِّمه أيضا وقال عسى أن يوجد هناك أربعون فقال لا أفعل من أجل الأربعين، فقال لا يسخط المولى فأتكلم عسى أن يوجد هناك ثلاثون. فقال لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين. فقال إنى شرعت أكلم المولى. عسى أن يوجد

هناك عشرون، فقال لا أهلك من أجل العشرين. فقال لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط، عسى أن يوجد هناك عشرة. فقال لا أهلك من أجل العشرة وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه.

فى سدوم:

لما فصلت (أى ذهبت) الملائكة من عند إبراهيم أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم فى صورة شبان حسان - اختباراً من الله تعالى لقوم لوط ولإقامة الحجة عليهم.

فقابلوا لوطاً وطلبوا منه أن يضيفهم. وحسبهم بشراً من الناس. وخشى إن لم يضيفهم هو ضيفهم غيره وأساء إليهم - كما كانوا يصنعون مع غيرهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً.

وذكر قتادة أنهم وردوا عليه وهو فى أرض له يعمل فيها فتضيفوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم. وجعل يعرض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون فى غيرها - هذا معنى «وسيىء بهم».

«ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيىء بهم. وضاق بهم ذرعاً». (٣٣ - العنكبوت)

وأخيراً أفصح لهم قائلاً: والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلدة أخبث من أهل هذه القرية. ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات. قال: وكانوا قد أُمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك. ولما رأى أنهم مصرون على النزول فى هذه البلدة وأنه مضطر لاستضافتهم وأن قومه لابد سيعلمون بوجودهم وسيضطر للدفاع عنه: «قال هذا يوم عصيب».

«ولما جاءت رسلنا لوطاً سيىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب». (٧٧ - هود)

وقال السدى. خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوها نصف النهار. فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقى من الماء لأهلها. وكان له ابنتان اسم الكبرى ريثا والصغرى زغرتا. فقالوا لها يا جارية، هل من منزل؟ فقالت لهم نعم، مكانكم، لا تدخلوا حتى آتيكم. شفقة عليهم من قومها. فأتت أباها فقالت يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة. ما رأيت وجوه قوم قط هى أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم. فلما خرج إليهم قالوا له إنا نريد أن تضيفنا الليلة. فقال أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا وما عملهم؟ فقال أشهد بالله تعالى أنهم شر قوم فى الأرض، وقد كان الله تعالى قال للملائكة لا تنزلوا بهم العذاب حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات. فلما قال ذلك قال جبريل عليه السلام هذه واحدة. وتكرر

القول منهم حتى كرر لوط الشهادة فتمت الأربع. وجاء بهم. فلم يعلم أحد إلاّ أهل البيت. فخرجت أمرأته فأخبرت قومها. فقالت إن فى بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط.

«ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين». (١٠ – التحريم)

وكانت خيانة امرأة لوط أن أخبرت قومها بضيوفه. وكانت كافرة غير مؤمنة برسالته.

ولما علم القوم بهم جاءه قومه يُهرعون إليه. جاءوا محمومين مسرعين. ولعل لوطاً تساءل بينه وبين نفسه عمن أخبر القوم بضيوفه وأدرك أنها لابد زوجته إذ هى قد غابت عن البيت قليلاً بعد حضورهم وحزن من غدرها به وإفشائها سر ضيوفه وهو الأمر الذى حرص على كتمانه.

جاءوا مسرعين ومن قبل كانوا يعملون السيئات. واعتادوا على المنكر فأسرعوا لطلب الفاحشة من ضيوفه مظهرين، غير مكترثين، لضياع الحياء من وجوههم وسلوكهم.

وأحاطوا بالبيت. فخرج إليهم وأغلق الباب خلفه حفظاً لضيوفة متعلقاً بأمل أن يقنعهم بالمنطق.

ولكنهم لم يرتدعوا وقالوا له أو لم ننهك عن إجارة أحد؟ والحيلولة بيننا وبينه وأن لا تستضيف أحداً؟

«قالوا أو لم ننهك عن العالمين

قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين». (٧٠ – ٧١ الحجر)

«قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم. فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى، أليس منكم رجل رشيد، قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق، وإنك لتعلم ما نريد. قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد». (٧٨ – ٨٠ هود)

وتثور هنا مسألة: كيف سمحت نفس لوط بابنتيه أو بناته يقدمهن لهؤلاء الفسقة وهو نبى معصوم.

وخير ما قيل للرد على ذلك هو أن الملائكة الذين طمع فيهم هؤلاء الفجرة كانوا ثلاثة ولا يعقل أن يكون كل واحد من القرية – الذى جاءوا إليه يأمل أن ينال حاجته منهم وأهل القرية يبلغون ألفاً أو يزيدون. ولكن المعقول أن هناك رئيسان مطاعان أو ثلاثة فى القوم وهم الذين يطلبون الملائكة وجاء معهم أهل القرية كلهم لمظاهرتهم حتى يتم مرادهم – فعرض لوط عليهم ابنتيه ليأخذوهم بطريق التزوج وهذا هو الطهر الذى أشار إليه **«هؤلاء بناتى هن أطهر لكم»** ويقال إنهم كانوا يطلبونهن من قبل للزواج وكان لا يجيبهم لخبثهم وعدم كفايتهم. وإن قال

البعض بعدم مشروعية تزويج المؤمنات من الكفار رُدَّ عليه بأن ذلك كان جائزاً - وكان جائزاً أيضاً فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم. فزوج ابنته زينب لأبى العاصى بن الربيع، وابنته رقية لعتبة وابنته أم كلثوم لعتيبه ابنى أبى لهب - وكانوا كفارًا - وكان عدد من الصحابه لهم زوجات كافرات ولم يفارقوهن حتى نزل قوله تعالى: **«لاهن حل لهم، ولا هم يحلون لهن»** فى الآية ١٠ من سورة الممتحنة بالمدينة.

وأيًّا ما كان، فقد أراد لوط عليه السلام بذلك وقاية ضيفه وهذا غاية الكرم.

وقيل أيضاً كيف يليق به عليه السلام أن يعرض بناته على أعدائه ليزوجهن إياهم، وقيل أيضاً كيف يعرض بناته وهن اثنتان أو ثلاثة على القوم وهم أكثر منهن عدداً. ورد بعض المفسرين أن ذلك القول منه عليه السلام لم يكن مجرياً على الحقيقة من إرادة الزواج بل كان مبالغة فى التواضع لهم وإظهاراً لشدة امتعاضه مما هم يطمعون فيه. ويمكن اعتباره تنازلاً منه عن رفضه السابق لهم مبالغة فى حماية ضيوفة. طمعاً أن يَرِقُّوا أو يستحوا منه إذا سمعوا تنازله هذا. فكأنه عليه السلام اختار أهون الشرين - أن يزوجهم بناته مع كرهه لذلك بدلاً من الإعتداء على ضيفه والفحش فيهم.

وعن ابن عباس وابن أبى حاتم ومجاهد والسدى أن المراد ببناته عليه السلام نساء أمته باعتبار كل نبى أب لأمته. وجاء فى تفسير الألوسى (جـ ٢١ ص ١٥٢) - وأخرج الفريابى والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه كان يقرأ الآية ٦ من سورة الأحزاب **«النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم»**. كان يقرؤها **«النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم، وأزواجه أمهاتهم»**.

وقد روى عن أبىّ بن كعب وابن عباس (تفسير ابن كثير. جـ ٣ ص ٤٦٨) أنهما قرأ الاية هكذا:

«النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم. وأزواجه أمهاتهم. وهو أب لهم».

وهكذا ناشدهم بالمنطق. ثم قدم لهم تنازلاً عما كان رفضه قبلاً. ثم أوضح لهم طهارة الفطرة السليمة - كل ذلك حماية لضيوفه. ثم ناشدهم باسم المروءة والشهامة. وإكرام الضيف من الطباع العربية الأصلية. وفضح الضيف خزى. لذلك قال:

«ولا تخزون فى ضيفى».

ثم تلمَّس أن يكون من بينهم رجل منصف. رشيد العقل يقف إلى جواره. فتساءل.

«أليس منكم رجل رشيد»؟ (٧٨ - هـود)

وناشدهم مرة أخرى بتقوى الله والخوف منه.

«قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون. قالوا أو لم ننهك عن العالمين».
(٦٨ – ٧٠ الحجر)

وهكذا ذهبت مناشداته لهم أدراج الرياح. وكان ردهم هو أنهم كانوا قد طلبوا منه سابقاً عدم إجارة الوافدين على القرية، كأنهم يحملونه تبعة ما قد فعله من إستضافة هؤلاء النفر. وإن كان هناك خزى أو فضيحة فكأنه هو المتسبب فيها بهذه الاستضافة وليس بسبب قبح ما يريدون!! ثم أفصحوا فى تبجح وفجور عن رغبتهم فى الفاحشة وليس فى الزواج الحلال من بناته أو نسائهم.

«قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق. وإنك لتعلم ما نريد». (٧٩ – هـود)

وقيل كانوا يعنون مالنا فى بناتك من نكاح حق لأنك لا ترى جواز نكاح المسلمات منا وما هو إلاَّ عرض غير حقيقى. وقيل عنوا قضاء الشهوة أى ما لنا حاجة فى بناتك. وإنك لتعلم ما نريد من إتيان الذكور.

ونلمس هنا بلاغة اللفظ القرآنى وسُمُوّ معناه. إذ أنه بالإبهام كان أكثر وضوحاً من التصريح – فلم يوضح ما يريدونه وترك للقارىء استنتاج ما يريدون – أو أنهم من قبح ما كانوا يريدون لم يستطيعوا – وهم على ما هم من فسق وفجور – أن يذكروه صراحة.

ولما يئس من رجوعهم عما هم عليه من الغى ولمس تصميمهم على تحقيق مرادهم بالقوة ولعله رأى تزايد جموعهم. وتصايحهم واقترابهم منه ومن بيته.

«قال لو أن لى بكم قوة. أو آوى إلى ركن شديد». (٨٠ – هـود)

وهكذا تمنى أن لو كان قوياً يستطيع ردهم. أو يأوى إلى ركن من البيت شديد فى منعته لا يستطيعون اقتحامه أو ركن من نفر معه حتى يستطيعوا ردهم. ولعله رأى أن الله يمتحنه بهذا الموقف ليرى مدى استبساله فى الدفاع عن ضيفه ودفع الأذى عنهم. ومن هنا كان تمنيه أن لو كان معه نفر كالركن الشديد لا يستطيع القوم التغلب عليهم.

وقد أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: «رحم الله أخى لوطاً. كان يأوى إلى ركن شديد» يعنى عليه الصلاة والسلام – الله تعالى فإنه لا ركن أشد منه عز وجل.

ورُوِىَ أن لوطاً عليه السلام دخل بيته وأغلق بابه. فحاولوا اقتحام البيت. فلما رأت الملائكة ما عليه لوط من كرب أفصحوا له عن حقيقتهم.

«قالوا يا لوط إنا رسل ربك. لن يصلوا إليك». (٨١ - هـود)

وهنا أيقن أن نجدة الله قريبة منه. ولكن كيف. وها هو يرى القوم وقد كسروا الباب وبعضهم تسوَّر الجدار. ودخلوا البيت. ولكنه عجب - لقد رآهم بدلاً من أن يتجهوا نحوه ونحو ضيفه. بعضهم يتجه لخارج البيت والبعض يتحسس الحيطان ويتخبط بعضهم فى بعض.

«فطمسنا أعينهم».

ويقال إن جبريل عليه السلام استأذن رب العزة - ثم ضرب أعينهم بجناحه فانطمست أعينهم ولم يعودوا يرون شيئاً. فرجعوا على أدبارهم يتحسَّسُون الحيطان ويتوعدون لوطاً إلى الصباح، ظناً منهم أن الظلام الذى عمهم كان من غمامة حجبت ضوء النجوم أو ريحاً أطفأت مشاعلهم.

«ولقد راودوه عن ضيفه. فطمسنا أعينهم. فذوقوا عذابى ونذر». (٣٧ - القمر)

وقال الملائكة للوط عليه السلام.

«وقالوا لا تخف ولا تحزن. إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين. إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون». (٣٣ - ٣٤ العنكبوت)

ولما كان القوم قد توعدوه بالعودة فى الصباح. فقد أمره الملائكة بالخروج ليلاً فى السحر وهو ما قبل الفجر والإسراء هو السير بأول الليل أو آخره.

«إلاَّ آل لوط نجيناهم بسَحَر». (٣٤ - القمر)

«فأسرِ بأهلك بقِطع من الليل ولا يلتفت منكم أحدٌ إلاَّ امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم. إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب». (٨١ - هـود)

«فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم، ولا يلتفت منكم أحد وأمضوا حيث تؤمرون. وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين». (٦٥ - ٦٦ الحجر)

«فنجنياه وأهله أجمعين. إلاَّ عجوزاً فى الغابرين. ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً. فساء مطر المنذرين. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم».
(١٧٠ - ١٧٤ الشعراء)

«فأنجيناه وأهله إلاَّ امرأته قدرناها من الغابرين، وأمطرنا عليهم مطراً. فساء مطر المنذرين». (٥٧ - ٥٨ النمل)

«وإن لوطاً لمن المرسلين. إذا نجيناه وأهله أجمعين. إلا عجوزاً فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين». (١٣٣ - ١٣٦ الصافات)

وقيل فى تفسير «فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحداً إلاَّ امرأتك»:

قال الزمخشرى إنه سبحانه استثناها من الإسراء كأنه قال فأسر بأهلك إلاَّ امرأتك بالنصب. وقرأها آخرون بالرفع استثناء من الإلتفات - والمعنى فإن خرجت معكم وتبعتكم من غير أن تكون أنت سريت بها . فإن الأمر بعدم الإلتفات ولا يلتفت منكم أحدٌ إلا إمرأتك. فإنها ستلتفت وسيصيبها ما أصاب قومها وتهلك. ويقال إنها لما تبعتهم ورأت نُذُر العذاب قالت يا قوماه تريد أن تحذرهم فأصابها حجر فقتلها .

وجاء الصبح - وكان لوط قد ابتعد بأهله. وفى الصبح المبكر نزل بهم العذاب.

«ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر. فذوقوا عذابى ونذر». (٣٨ - ٣٩ القمر)

وجاءهم العذاب على هيئة حجارة تساقطت عليهم من السماء. وقُلبت عليهم الأرض.

«فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها. وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك. وما هى من الظالمين ببعيد». (٨٢ - ٨٣ هود)

«إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون». (٣٤ - العنكبوت)

«وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين». (١٧٣ - الشعراء - ٥٨ - النمل)

وكان القوم لما عادوا أدراجهم جعلوا يمنون أنفسهم بأنهم فى الصباح لابد سينالون ما يرجون. فإن كان ظلام الليل قد حجبه عنهم. فللصبح أعين كما يقال. وأسكرتهم نشوة الفرح بما سينالون فى الصباح وهم فى عمى عما سيكون عليه الصباح بالنسبة لهم!

«لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون. فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها. وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل. إن فى ذلك لآيات للمتوسمين». (٧٢ - ٧٥ الحجر)

ويقال إن جبريل عليه السلام اقتلع المدائن بيده. وفى رواية أخرى أدخل جناحه تحتها فرفعها ثم قلبها. ولا ينبغى أن يؤخذ الكلام على أنه كناية عن إنزال أمر عظيم فيها. فلقد قلبت بهم الأرض فعلا. وليس ذلك فقط. فقد أرسل الله عليهم حجارة من طين متحجر - حجارة من سجيل - وقيل إن سجيل معربة عن الفارسية «سكيل» بمعنى الطين المتحجر - سك: جاف، كيل: طين. «حجارة من سجيل منضود» أى نضد ووضع بعضه على بعض معدا لعذابهم ونزلت عليهم بكثرة كأنها المطر. «مسـومة عند ربك» قيل معلمة يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض. وقيل معلمة ببياض وحمرة. وفى رواية عن ابن عباس أن بعضها كان أسود فيها نقطة بيضاء وبعضها كان أبيض فيه نقطة سوداء. وعن الربيع أنها كانت معلمة بأسماء من يرمى بها. وفى حجمها قيل: بعضها مثل قبضة الرجل وقيل مثل رؤوس الإبل.

وقد وصف ذلك أيضاً بمطر السوء فى قوله تعالى:

«ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء. أفلم يكونوا يرونها». (٤٠ - الفرقان)

وكانت مدن السهل الخمس هى سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم وصوغر كما سبق أن ذكرنا (شكل ٣٨ ص ١٢٦). أشهرها وأكبرها سدوم. وهى القرية التى كان فيها لوط عليه السلام. وكان فيها على ما روى عن قتادة أربعة آلاف ألف إنسان - أى أربعة ملايين!. وهى مبالغة كبيرة إذ أن مدن هذه الأيام حتى الكبير منها ما كانت لتزيد عن ثلاثين أو خمسين ألفا أو نحو ذلك. وهذه المدن الخمس كانت عبارة عن قرى. بل إن تفسير الألوسى يجعلها قُريَّات - جمع قُريَّة، تصغير قرية - وقد لا يزيد سكان القرية عن أربعة آلاف والقُريَّة أقل من ذلك، فتكون ألفين أو ثلاثة. فيكون من هلكوا فى حدود ١٢ - ١٦ ألف نسمة. وكانت قرية صوغر (واسمها أيضا بالع) أصغرها. وتقول التوراة: ولم تخرب هذه المدينة عند سقوط سدوم وأخواتها. لأن لوطا صلى من أجلها ولجأ إليها.

وتسمى قرى لوط بالمؤتفكات وهو جمع مؤتفكة. وهو الانقلاب بجعل أعلا الشىء أسفله. وفى هذا جاء قوله تعالى:

«والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشى». (٥٣ - ٥٤ النجم)

«وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة». (٩ - الحاقة)

«وقوم إبراهيم. وأصحاب مدين. والمؤتفكات». (من الآية ٧٠ - التوبة)

والمراد هنا أهل قرى قوم لوط مجازا باطلاق اسم المحل على ساكنيه مثل قولنا: كذب العراق نوحا والمقصود أهل العراق.

وفى تفسير «فأخذتهم الصيحة» قيل يعنى صيحة هائلة وقيل صيحة جبريل عليه السلام. وقال ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال الصيحة مثل الصاعقة فكل شىء جاء فجأة وأهلك قوما فهو صاعقة وصيحة. وقيل فى تفسير مشرقين، أى داخلين فى وقت شروق الشمس. وقيل والجمع بين مصبحين ومشرقين باعتبار الابتداء والانتهاء بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح وانتهاؤه عند الشروق.

وهكذا تم أمر الله، وأهلك القوم المجرمون. ونجى الله لوطا ومن معه وهم أهله - ابنتيه - إلا امرأته التى خانته وأخبرت القوم عن ضيوفه كما سبق أن ذكرنا - كانت من الغابرين.

وغبر بقى. أى كانت من الباقين فهلكت كما هلكوا. والزمن الغابر أو عز غابر، أى ذاهب وانقضى. وتفيد انقضاء الأجل بمعنى الهلاك أيضا.

«إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم». (من الآية ٨١ - هود)

«وإن لوطا لمن المرسلين. إذ نجيناه وأهله أجمعين. إلا عجوزا فى الغابرين. ثم دمرنا الآخرين». (١٣٣ - ١٣٦ - الصافات)

«فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين. وأمطرنا عليهم مطرا. فساء مطر المنذرين». (٥٧ – ٥٨ – النمل)

«فنجيناه وأهله أجمعين. إلا عجوزا فى الغابرين. ثم دمرنا الآخرين. وأمطرنا عليهم مطرا. فساء مطر المنذرين». (١٧٠ – ١٧٣ – الشعراء)

«فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين. وأمطرنا عليهم مطرا. فانظر كيف كان عاقبة المجرمين». (٨٣ – ٨٤ – الأعراف)

«فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين. وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم. (٣٥ – ٣٧ – الذاريات)

وفى هذا تصديق لما قيل من قبل فى مجادلة إبراهيم عليه السلام للرسل فى شأن إنزال العذاب. وقول الملائكة: لا نهلكهم لو كان فيهم عشرة مؤمنون. وهكذا لم يكن فيهم غير بيت واحد من المسلمين. وكانوا أقل من العشرة.

«وامضوا حيث تؤمرون». (من الآية ٦٥ – الحجر)

وقيل إن لوطا أُمر بالذهاب الى مدينة صوغر التى لم ينلها العذاب وعاش بها وقيل أقام فى حبرون مع عمه إبراهيم عليه السلام.

وقرى قوم لوط – وخاصة سدوم وعمورة – تقع على طريق القوافل. ويرى الناس الدمار الذى حل بها. عبرة وعظة حتى لا يرتكب الناس الفواحش والمعاصى. وفى هذا حث على التقوى.

«وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون». (٣٧ – ١٣٨ الصافات)

«ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون. (٣٥ – العنكبوت)

«إن فى ذلك لآيات للمتوسمين. وإنها لبسبيل مقيم. إن فى ذلك لآية للمؤمنين».

(٧٥ – ٧٧ الحجر)

ففى هذه القصة آية للمؤمنين ولكل من نظر بعين الفراسة والتوسم والفهم. وكيف كان الفساد والفاحشة سببا فى هلاك هذه القرى ودمارها بعد أن كانت آهله عامرة.

ويقال إن المنخفض الشديد الذى يقع فيه البحر الميت فى فلسطين هو مكان مدن قوم لوط وكثافة الماء بالبحر الميت أعظم من كثافة مياه البحار. وبمائه صخور معدنية مذابة توحى بأن شهبا مشتعلة قد سقطت فى هذه الناحية (أنبياء الله – الأستاذ أحمد بهجت – ص ١٠٧).

الفرية على ابنتي لوط:

«كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذبا». (٥ - الكهف)

جاء فى التوراة، الإصحاح ١٩ تكوين:

وصعد لوط من صوغر وسكن فى الجبل وابنتاه معه. لأنه خاف أن يسكن فى صوغر. فسكن فى المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة، أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقى أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيى من أبينا نسلا. فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة إنى قد اضطجعت البارحة مع أبى. نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلى اضطجعى معه فنحيى من أبينا نسلا. فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة أيضا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنا دعت اسمه مؤاب وهو أبو المؤابيين إلى اليوم. والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمى وهو أبو بنى عمون إلى اليوم.

ولا يسعنا إلا التعجب كيف استساغ كاتبو التوراة نسبة هذه الفرية إلى نبى معصوم. يحفظه الله وملائكته من الصغائر والكبائر، ويصرف عنه السوء.

ويدحض هذه الفرية ما نعلمه من طبائع البشر من أن أى امرىء ما إن يرى مظاهر الحمل على ابنته - وهى غير متزوجة - إلا وتثور الدماء فى عروقه ويعمد إلى التخلص منها تخلصا من عارها، ولن يكون لوط عليه السلام أقل غيرة على عرضه ولا يتصرف مثل هذا التصرف مع ابنتيه.

ثم ما هو السبب الذى يدعو لوطا إلى هذه العزلة عن الناس؟

تقول التوراة: لأنه خاف أن يسكن فى صوغر! والسؤال: خاف ممن؟ والأولى - وقد رأى الناس ما حاق بمن كذبوه - أن يعرفوا قدره ويهابوه وينزلوه بينهم منزلة كريمة. لا أن يخاف هو منهم ويأوى إلى مغارة فى الجبل!

كما أن إقامته فى صوغر أو وجودها على مقربة ينفى القول: ليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الأرض. فلو كانت رغبتهما عارمة إلى هذا الحد فما كانت تشبعهما هذه المرة الواحدة من الإتصال المفترى ولكانتا نزلتا إلى صوغر لتجدا بغيتهما من الرجال.

والأرجح أن إقامة لوط عليه السلام كانت فى صوغر نفسها، وظل يدعو الناس إلى عبادة الله. وزوج ابنتيه ممن ارتضاهم خلقا ودينا، وكان عمره لايزيد عن خمس وأربعين أو خمسين

سنة. فلابد أن الله قد أبدله زوجة مؤمنة شابة بدلا من تلك العجوز الخائنة. فولدت له ابنه البكر مؤاب ومن بعده بن عمي.

فالمؤابيون هم ذرية مؤاب بن لوط. وسميت أرضهم باسم مؤاب. وهي تقع (شكل ٤٠) شمال وادى الحسا الذى يفصل مؤاب عن أدوم واسمه فى التوراة وادى زرد. ويمر فى وسطها نهر عرنون أو أرنون.. ثم استولى الأموريون على الجزء الشمالى حتى النهر. ثم جاء بنو إسرائيل فاستولوا على هذا الجزء من الأموريين. أما مؤاب جنوب النهر فكانت حصينة ولم يستطع بنو إسرائيل دخولها لما واجهوه من مقاومة ومن هنا كان حقد بنى إسرائيل على مؤاب.

والعمونيون هم أبناء بنى عمي – الابن الأصغر للوط. وقد ارتحل هو وأبناؤه وأحفادهم – شمالا. وسكن العمونيون المنطقة شمال البحر الميت وشرقى نهر الأردن حوالى أعالى نهر حبوق إلى الشمال الشرقى من مؤاب وكانت عاصمتهم «ربة» أو «ربة عمون» ومكانها الآن مدينة عمان عاصمة الأردن. وكون العمونيون دولة مستقلة فى وقت مبكر. وكانت أرضهم لا تدخل ضمن الأرض التى وعدها الله لبنى اسرائيل. وكلم الرب موسى قائلا (تثنية ١ : ١٨) متى قربت اتجاه عمون لاتعاديهم ولاتهجموا عليهم لأنى لا أعطيك من أرض بنى عمون ميراثا لأنى لبنى لوط قد أعطيتها ميراثا. كل ناحية وادى يبوق (حبوق) ومن الجبال. وكل ما أوصى الرب إلهنا. ولكن بعد وفاة موسى عليه السلام. لم يلتزم بنو اسرائيل بالعلاقات الحسنة مع بنى عمون وساءت بينهم العلاقات ودارت بينهم حروب.

من هذا ندرك مدى العداوة التى كان يكنها بنو إسرائيل للمؤابيين والعمونيين ونفّسوا عن الأحقاد التى ملأت قلوبهم. فحرّفوا التوراة عند إعادة كتابتها بعد السبى فضمنوها هذه الفرية: بأن مؤاب وبنى عمون هما ابنا سفاح من ابنتى لوط!! ويظهر ذلك الحقد واضحاً فى سفر نحميا (إصحاح ١٣) إذ نجد فيه قولهم: أن عمونيا ومؤابيا لا يدخل فى جماعة الله إلى الأبد. لأنهم لم يلاقوا بنى إسرائيل بالخبز والماء. بل استأجروا عليهم بلعام لكى يلعنهم وحوّل إلهنا اللعنة إلى بركة (وسيأتى تفصيل ذلك فى الجزء الرابع إن شاء الله).

شكل ٤٠ – أماكن المؤابيين وبنى عمون.

عـود إلي إبراهيم عليه السلام

سبق أن قلنا إن رسل الله جاءت إلى إبراهيم حاملة له البشرى بإبنه إسحق. كما أخبروه بمهمتهم الأصلية التى هى إهلاك قوم لوط. فراح يجادل عن قوم لوط. علَّ الله يرفع عنهم العذاب أو يخففه.

«فلما ذهب عن إبراهيم الروع. وجاءته البشرى. يجادلنا فى قوم لوط. إن إبراهيم لحليم أواه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك. وإنهم آتيهم عذاب غير مردود». (٧٤ - ٧٦ هـود)

وهكذا قضى الأمر. وانصرف الرسل إلى مهمتهم.

وفى صبيحة اليوم التالى خرج إبراهيم عليه السلام من خيمته. ومدَّ بصره فى اتجاه قرى السهل الخمس. فرأى عن بعد. دخاناً هائلاً يرتفع إلى السماء. فعلم أن أمر الله قد وقع بالقوم الظالمين.

يقول الأستاذ عبد الحميد جودة السحار: وبعد ساعات رأى لوطاً قادماً ومعه ابنتاه وقلة من المؤمنين. أقل من عشرة!

وما نرجحه هو ما سبق أن ذكرناه من أن لوطاً بعد الكارثة التى لحقت بقومه - أقام فى صوغر. لأنها أقرب إلى الأماكن التى انتشر إليها ابناه مؤاب وبنو عمون. ولابد أن إبراهيم عليه السلام قد أرسل وكيله أليعازر الدمشقى ليأتيه بخبر لوط. فراح ولمس مدى الدمار الذى حاق بأربع من مدن دائرة الأردن. ولكنه وجد صوغر سالمة لم يلحقها الدمار. ووجد فيها لوطاً. فاطمأن عليه وعاد إلى حبرون ليطلع إبراهيم على أحوال لوط.

كان إبراهيم عليه السلام قد بلغ من العمر ٩٨ عاماً وسارة بلغت ٨٨ عاماً. وتذكر يوم أن خرج من أور وعمره ٥٥ عاماً ودعا الله قائلاً.

«رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم». (١٠٠ - ١٠١ - الصافات)

وبعد واحد وثلاثين عاماً - رزق بإسماعيل من هاجر. ولكن بعد ولادته بعام أو أكثر قليلاً أمره الله بأن يأخذه وأمه إلى واد غير ذى زرع بمكة وتركه هناك. وها قد مرت اثنتا عشرة عاماً وكان يتوق إلى ولد له من زوجته سارة. ولكنه يؤمن بأن كل شيئ مرهون بإرادة الله عز وجل. كان مسلما قياده لله فى كل أموره.

«إذ قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العالمين». (١٣١ - البقرة)

وشغلته الأحداث: ذهاب لوط إلى سدوم. ثم أسره وعمل إبراهيم لإطلاق سراحه. ثم مجيء رسل الله يبشرونه بما يتوق إليه:

«إنا نبشرك بغلام عليم». (٥٣ – الحجر)

وهكذا جاءته البشرى بالغلام العليم – الذى هو إسحق– دون أن يطلبها من الله. جاءته على غير توقع منه ولا من سارة زوجته.

كذلك كانت إرادة الله أن يجعل إبراهيم إماما للناس:

وإذا ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمهن. قال إنى جاعلك للناس إماماً». (من ١٢٤ – البقرة)

والمراد بالإبتلاء هنا التكليف والاختبار بما كلفه الله به من الأوامر والنواهى. فأتمهن أى قام بهن كلهن كما قال الله تعالى:

«وإبراهيم الذى وفَّى». (٣٧ – النجم)

وكان هذا التكليف تربية له وترشيحاً لأمر خطير. وقد اختلف فى تعيين الكلمات – أى الأوامر والنواهى – التى اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام.

قال عكرمة عن ابن عباس: (تفسير الألوسى. جـ ١ ص ٣٧٤): لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا إبراهيم. ابتلاه الله تعالى بثلاثين خصلة من خصال الإسلام: عشر منها فى سورة «براءة» وعشر فى «الأحزاب» وعشر فى «المؤمنون». **فالذى فى براءة:** التوبة، والعبادة، والحمد، والسياحة، والركوع، والسجود. والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والحفظ لحدود الله، والإيمان. لقوله تعالى فى الآية ١١٢:

«التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين».

وفى سورة الأحزاب: الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصيام، والحفظ للفروج، والذكر لقوله تعالى فى الآية ٣٥:

إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً.

وفى سورة «المؤمنون»: الإيمان، والخشوع، والإعراض عن اللغو، والزكاة ، والحفظ للفروج إلاَّ على الأزواج أو الإماء، والرعاية للعهد، والأمانة، والمحافظة على الصلاة. لقوله تعالى فى الآيات ١ – ١١:

«قد أفلح المؤمنون، الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون».

وقيل ابتلاه الله بسبعة أشياء: بالكوكب، والقمرين، والختان على كبر، والنار، وذبح الولد، والهجرة.

وروى عن الحسن هى: الأمانة، وتطهير البيت، ورفع قواعده، والإسلام، وقيل غير ذلك حتى بلغت الأقوال ثلاثة عشر قولاً.

وعلى كلٍّ فهى اجتهادات لا بأس بها ولا يمكن الجزم بصحة أحدها إذ لم يرد حديث شريف يؤيد أحدها. والله أعلم بمراده. وأيا كان الأمر فالمعنى أن الله كلف إبراهيم عليه السلام بأوامر ونواهى امتثل لها. وأتمهن. ووفَّى. وكان جزاؤه. قوله تعالى:

«إنى جاعلك للناس إماماً». (من الآية ١٢٤ - البقرة)

وهكذا كان إبراهيم عليه السلام نبياً ورسولاً وإماماً يقتدى به. وسأل إبراهيم ربه أن يكون ذلك أيضاً لبعض ذريته فقال **«ومن ذريتى»**. وأجابه الله إلى طلبه فجعل من ذريته أنبياء ولكن الله قال له: **«قال لا ينال عهدى الظالمين»**. أى أن الظالمين من أمته لن ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة.

ومن دلائل إجابة إبراهيم عليه السلام سؤله. قوله تعالى:

«وجعلنا فى ذريته النبوّة والكتاب». (من الآية ٢٧ - العنكبوت)

وبالإضافة إلى النبوة أوتى بعضهم ملكاً عظيماً. إشارة إلى ما أعطى الله بعضاً من ذرية إبراهيم عليه السلام من بنى إسرائيل ملكاً. مثل داوود وسليمان عليهما السلام.

«فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة، وآتيناهم ملكاً عظيماً». (من الآية ٥٤ - النساء)

وفى هذا الشأن تقول التوراة (إصحاح ١٧ تكوين)

ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له: أنا الله القدير. سر أمامى وكن كاملاً فأجعل عهدى بينى وبينك: أما أنا فهو ذا عهدى معك. وتكون أبا لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيراً جداً. وأجعلك أمماً وملوك منك يخرجون. ولا يدعى اسمك بعدُ أبرام بل يكون اسمك إبراهيم. وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم.

وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدى. أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم. هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك: يختن منكم كل ذكر. فتُختنون فى لحم غرلتكم. فيكون علامة عهد بينى وبينكم. ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى أجيالكم، وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك – يختن ختاناً. وليد بيتك والمبتاع بفضتك. فيكون عهدى فى لحمكم عهداً أبدياً. وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلته فتقُطع تلك النفس من شعبها، إنه قد نكث عهدى.

وقال الله لإبراهيم: ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى، بل اسمها سارة. وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً. أباركها فتكون أمماً وملوك وشعوب منها يكونون. فسقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال فى قلبه هل يولد لابن مائة سنة وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة.

وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعوه إسحق. وأقيم عهدى معه أبداً لنسله من بعده وأما إسماعيل فقد سمعت له فيه. هأنذا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة ولكن عهدى أقيمة مع إسحق الذى تلده لك سارة فى هذا الوقت من السنة الآتية.

فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم.

فاختتن إبراهيم وكانت سنه إذ ذاك تسعاً وتسعين سنة فاختتن إبراهيم وكل من كان لإبراهيم من العبيد.

وفى حديث رواه البخارى عن أبى هريرة قال. قال النبى صلى الله عليه وسلم: اختتن إبراهيم النبى عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم. وفى بعض الروايات: اختتن إبراهيم بعدما ما أتت عليه ثمانون سنة . واختتن بالقدوم (الآلة).

وفى حديث آخر رواه ابن حيان فى صحيحه مروى عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: اختتن إبراهيم وهو ابن مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة. ولا جدال فى أن أحد الرواة فى هذين الحديثين قد أخطأ فى ذكر الرقم وعلى كل فمتوسط الحديثين هو مائة سنة وهو يقارب الـ ٩٩ سنة السابق ذكرها.

وهكذا أحيا الله على يد نبيه إبراهيم سنة الختان التى كان إدريس عليه السلام قد جاء بها واتبعها المصريون القدماء.

يقول بعض أهل الكتاب أن سبب الختان أن آدم لما عصى ربه نذر أن يقطع من نفسه عضواً إذا تاب الله عليه. فلما قبلت توبته وأراد الوفاء احتار ماذا يصنع. فدلَّه جبريل على هذا الموضع فقطعه!

وختن إبراهيم عليه السلام الذكور من عشيرته وأتباعه وعبيده كما أمر الله.

ولادة إسحق :

وكانت قد مرت عدة شهور على زيارة الرسل وبدأت أعراض الحمل تظهر على سارة زوجته – وهى بنت تسعين سنه – ومرت الشهور واكتمل الحمل تسعة أشهر ووضعت سارة ابناً أسماه إسحق كما أمره الله.

وتقول التوراة. اصحاح ٢١: وافتقد الرب سارة كما قال. وفعل الرب لسارة كما تكلم. فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابناً فى شيخوخته. فى الوقت الذى تكلم الله عنه. ودعا إبراهيم اسم ابنه المولود الذى ولدته له سارة إسحق. وختن إبراهيم إسحق ابنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله. وكان إبراهيم ابن مائة حين ولد له إسحق ابنه. وقالت سارة: قد صنع الله إلىَّ ضحكاً. كل من يسمع يضحك لى. وقالت من قال لإبراهيم سارة ترضع بنين، حتى ولدت ابناً فى شيخوخته. فكبر الولد وفطم وصنع إبراهيم وليمة عظيمة يوم فطام إسحق.

وقد سبق أن ذكرنا (ص ١٣٦) أن سارة سمعت الرسل وهم يبشرون إبراهيم عليه السلام بالولد. فضحكت.

«وامرأته قائمة فضحكت. فبشرناها بإسحق». (من الآية ٧١ – هـود)

وكأن ضحكها كان مناسبة يصاغ منها اسم المولود يقول الأستاذ رؤوف أبو سعدة. (من إعجاز. القرآن. جـ ١ ص ٢٩١) فقيل لها ضحكت؟ إذن ستلدين الذى يضحك والفعل بالعبرية يصحق. والتسمية بالفعل المضارع كثير الشيوع فى اللغة العبرية ويراد منه اسم الفاعل. مثل: يشمع إيل أى يسمع الرب أو سمع الرب وهو إسم إسماعيل (انظر ص ١١٣). ويصحق أى يضحك والمقصود به الذى يضحك. ويوجد فى اللغة العربية شىء مشابه لهذه الطريقة فى اشتقاق الأسماء. مثل اسم يزيد فهو مضارع. واسم علم فى نفس الوقت (وأشهر من تسمى به يزيد بن معاوية) كما أن السين والصاد قد تتبادلان موضعهما. كما فى الصراط والسراط فى قوله تعالى فى سورة الفاتحة: «اهدنا الصراط المستقيم» فقرأها بالسين ابن كثير عن يعقوب. وقرأ الجمهور بالصاد وهى لغة قريش. وكذلك تحورت يصحق إلى يسحق ومنها اسم إسحق.

قلنا إن إبراهيم عليه السلام – ختن إسحق وهو ابن ثمانية أيام كما أمر الله. وتذكَّر ابنه إسماعيل فى مكة. فأمر الختان يشمله ولذلك نوى الذهاب إلى مكة لتنفيذ هذا الواجب.

يقول بعض المفسرين إن إبراهيم عليه السلام كان كثير التردد على مكة للاطمئنان على ولده إسماعيل. وقيل إن الأرض كانت تطوى له وأنه كان يركب البراق إذا سار إليهم. ولا نوافق على ذلك لأن البراق كانت خصوصية للمصطفى صلى الله عليه وسلم للإسراء به إلى

بيت المقدس وليعود فى نفس الليلة لتتم المعجزة. وليس هناك مثل هذا الاستعجال فى زيارة إبراهيم عليه السلام لولده فى مكة. كما أن الناس لابد قد رأوا هذه الدابة وكان حَرِىٌ أن يرد وصف لها فى مأثورات العرب إذ أنها لم تكن من الدواب التى اعتاد البشر رؤيتها. وعليه، فمما لاشك فيه أن إبراهيم عليه السلام كان يركب راحلته - سواء كانت ناقة أو أتان - ويصحبه بعض عبيده لخدمته فى الطريق، ينصبون الخيام للمبيت ويجهزون الطعام. ويفيد قوله تعالى: «ولما بلغ معه السعى» أن إبراهيم عليه السلام كان كثير التردد على مكة للاطمئنان على زوجته هاجر وولده إسماعيل لتتحقق هذه «المعية». ولتكن الزيارات - مثلا - مرة كل سنة أو سنتين. ولا ضير فى تغيبه عن حبرون شهرين فى كل مرة هى مدة ذهابه إلى مكة والعودة منها.

إسماعيل فى شبابه:

القاعدة فى البادية أن من حفر بئرا أصبح مالكا لها. وإذ تفجّر ماء زمزم ببركة إسماعيل. فقد أصبحت البئر ملكا لهاجر. وسبق أن ذكرنا أنها سمحت لقبيلتى جرهم والعماليق بالسكنى بجوار البئر والانتفاع بمائها. وتعبيراً عن امتنانهم لهذا الصنيع فإنهم جعلوا من أنفسهم حماة لها ولابنها. ولاشك أنهم تكفلوا أيضا بمعيشتهما. فما كانت هاجر لتستطيع الزراعة أو رعى الغنم. وكانوا يسارعون فى خدمتها هى وابنها وخاصة بعد أن علموا أن إبراهيم عليه السلام - زوجها ووالد الصبى - نبى.

وشب إسماعيل وأصبح شابا يافعا جلدا ويقال إن إسماعيل تعلم العربية القديمة من جرهم والعماليق ولكنه طورها نحو الأسهل بما تعلّمه عن والدته من لغة إبراهيم - وبما تعلمه هى من قواعد اللغة المصرية القديمة. كانت الكلمات فى اللغة العربية القديمة متصلة بعضها ببعض. ويقال إن إسماعيل فرّق بين الألفاظ. وفى حديث عن محمد بن على بن الحسين عن آبائه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة.

كذلك يقال إنه أول من ركب الخيل. وكانت قبل ذلك وحشية فعمل على ترويضها وركبها.

وتقول التوراة (اصحاح ١٦ تكوين): وتدعين اسمه إسماعيل. وإنه يكون إنساناً وحشياً. يده على كل واحد ويد كل واحد عليه. وأمام جميع إخوته يسكن. والوصف «إنساناً وحشياً» قد تعنى أنه سيولد فى بيئة موحشة - وقد تعنى أيضاً أنه سيعمل على ترويض الخيول الوحشية ويركبها.

قال سعيد بن يحيى الأموى فى مغازية: حدثنا شيخ من قريش حدثنا عن عبدالله بن عمر

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اتخذوا الخيل واعتقبوها. فإنها ميراث أبيكم إسماعيل.

كذلك يقال إن إسماعيل كان بارعاً فى رمى السهام.

ويذكر الرواة أن النبى صلى الله عليه وسلم مرَّ بفريقين يتباريان فسره منظرهم. وكانوا يرمون بالسهام. فقال: ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بنى الأدرع. فأمسك القوم وقالوا: من كنت معه فأنى يُغلب؟ فقال: ارموا وأنا معكم كلكم. فرموا عامة يومهم فلم يسبق أحدهم الآخر. أى كما نقول الآن: انتهت المباراة بالتعادل.

وصل إبراهيم عليه السلام إلى مكة. واستدل على بيت هاجر وإسماعيل ولنا أن نتصور فرحة هاجر وإسماعيل بلقاء إبراهيم عليه السلام. وكان سرور إبراهيم مضاعفاً إذ رأى إسماعيل وقد أصبح غلاماً يافعاً. شاباً قوياً يمتطي الخيل ويرمى بالقوس. ولكن أكثر ما سره هو أنه وجد هاجر قد أنشأته على دين الحنيفية – مُوحِّداً بالله. بل وجده يحفظ كثيرا من كلام الله. من الصحف التى كانت تنزل عليه وكانت هاجر تحفظها. كان يخشى أن بعده عن هاجر طوال هذه السنين قد أضعف إيمانها بالله أو أنها عادت تتذكر عبادات مصر القديمة – أو أن أيا من عبادات الأقوام التى سكنت حول مكة أو كانت تمر بها قد أثرت عليها. وحمد الله أن إيمانها كان من القوة بحيث ظل كما هو. بل ونقلت هذا الإيمان القوى إلى إسماعيل فور أن بدأ يعقل فشب على دين إبراهيم. شكراً لله. أكانت هاجر تعنى بعضاً من هذا المعنى حينما قالت: إذا لا يضيعنا!! فالضياع يشمل أيضاً ضياع العقيدة. وحمد الله كثيراً إذ حفظ الله حياة ابنه. وحفظ له دينه.

وقام إبراهيم عليه السلام بختان إسماعيل وكان ابن ثلاث عشرة سنة وانتظر أياماً فى مكة يلتمس أمر السماء، أيعود إلى حبرون؟ أم تكلفه السماء بأمر آخر وهل كان ختان إسماعيل طهوراً ومقدمة لأمر قادم؟

وفعلاً جاءه الأمر ببناء بيت الله الحرام بمكة يساعده فيه إسماعيل.

بنـــاء الكعبـــة:

جاء ذكر بناء الكعبة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى:

«إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة. مباركاً وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم. ومن دخله كان آمناً». (٩٦ – ٩٧ آل عمران)

«وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت. أن لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود». (٢٦ – الحج)

«وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طَهِّرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود.». (١٢٥ – البقرة)

«وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل. ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم».
(١٢٧ – البقرة)

وبوَّأ الله لإبراهيم مكان البيت أى دله عليه، وأذن فى بنائه. ولا ريب فى أن الكعبة إنما قام ببنائها إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل، إلاَّ أن بعض المفسرين يذكرون روايات ترجع ببناء الكعبة إلى ما قبل عهد إبراهيم بآلاف السنين بل إن بعضها ترجع ببنائها إلى آدم أو حتى إلى ما قبل آدم!

هناك من يقول (عبد الحميد جودة السحار، محمد رسول الله والذين معه، جزء ٢ ص ٢٦٠) بأن الصابئين يعتقدون أن إدريس عليه السلام هو أول من بنى الكعبة. وكان المصريون القدماء يطلقون اسم «الأرض المقدسة» على الشرق الذى يظهر منه الإله رع كل يوم وهذا يشمل صحراء مصر الشرقية وسيناء والجزء الشمالى والأوسط من غرب الجزيرة العربية. وهناك من يرى أنه فى هذا المكان كان يوجد معبد قديم للعماليق اندثر واختفى قبل قدوم إبراهيم إلى الحجاز.

أما من يرجعون ببنائها إلى عهد آدم عليه السلام أو ما قبله فيروون فى ذلك حكايات لا بأس من ذكرها لطرافتها:

قال عبد الرزاق (تفسير ابن كثير، جـ ١ ص ١٧٩)، أخبرنا هشام بن حسان عن عطاء بن أبى رباح قال: لما هبط آدم من الجنة كانت رجلاه فى الأرض ورأسه في السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم. يأنس إليهم. فهابت الملائكة حتى شكت إلى الله فى دعائها وصلاتها فخفضه الله تعالى إلى الأرض. فلما فقد ما كان يسمع استوحش حتى شكا ذلك إلى الله فى دعائه وصلاته. فوُجِّه إلى مكة. فكان موضع قدمه قرية، وخطوه مفازة (أرض قفراء) حتى انتهى إلى مكة. وأنزل الله ياقوته من ياقوت الجنة فكانت موضع البيت الآن. فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان، فرفعت تلك الياقوته حتى بعث الله إبراهيم عليه السلام فبناه.

قال عبد الرازق، أخبرنا ابن جريج عن عطاء: قال آدم، أنى لا أسمع أصوات الملائكة. قيل بخطيئتك. ولكن اهبط إلى الأرض فابن لى بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتى الذى فى السماء. فيزعم الناس أنه بناه من خمسة جبال: حراء وقبيس وطور زينا وطور سيناء والجودى. فكان هذا بناء آدم. حتى بناه إبراهيم عليه السلام بعد ذلك.

وفى حديث – سنده ضعيف – عن ابن عباس. قال اليمانى (عرائس المجالس – التعلبى ص

١٠٢): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كان البيت قبل هبوط آدم عليه السلام ياقوتة من يواقيت الجنة. والبيت المعمور الذى فى السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك. ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة - حذاء الكعبة البيت الحرام. وإن الله تعالى أهبط آدم عليه السلام إلى موضع الكعبة. وأنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلألأ كأنه لؤلؤة بيضاء. فأخذه آدم فضمه إليه استئناسا به. وإذ أخذ الله تعالى من بنى آدم ميثاقهم فجعله فى الحجر. ثم أنزل الله تعالى على آدم العصا. ثم قال له يا آدم تخط. فتخطى. فإذا هو بأرض الهند. فمكث هناك ما شاء الله أن يمكث. ثم استوحش إلى البيت. فقيل له حج يا آدم. فأقبل يتخطى. فصار موضع كل قدم قرية وما بين ذلك مفاوز. حتى قدم مكة. فلقيته الملائكة فقالت: بَرَّحجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام. ثم قال. فما كنتم تقولون حوله؟ قالوا كنا نقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. فكان آدم إذا طاف بالبيت قال هذه الكلمات. وكان آدم يطوف بالبيت سبعة أسابيع. خمسة أسابيع بالليل وأسبوعين بالنهار. فقال آدم: يارب اجعل لهذا البيت عمارا يعمرونه من ذريتى. فأوحى الله تعالى إليه: إنى معمره بنبى من ذريتك اسمه إبراهيم. أتخذه خليلا. أقضى على يديه عمارته وأنيط به سقايته، أورثه حله وحرمه، ومواقفه وأعلمه مشاعره ومناسكه. فلما فرغ من بنائه نادى: يا أيها الناس إن الله تعالى بنى بيتا فحجوه فأسمع ما بين الخافقين. فأقبل من يحج هذا البيت من الناس يقولون لبيك لبيك. وقال النبى صلى الله عليه وسلم: إن آدم عليه السلام سأل ربه عز وجل فقال يارب أسألك لمن مات فى هذا البيت من ذريتى لا يشرك بك شيئا أن تلحقه بى فى الجنة. فقال الله تعالى: يا آدم من مات فى الحرم لا يشرك بى شيئا بعثته آمنا يوم القيامة.

وروى أبو صالح عن ابن عباس: قال: أوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام: إن لى حرمًا بحيال عرشى فانطلق فابن لى بيتا ثم حف به كما رأيت الملائكة يحفون بعرشى فهناك استجيب لك ولولدك من كان منهم فى طاعتى. فقال آدم: رب كيف لى بذلك ولا أقوى عليه ولا أهتدى إليه. فقيض الله له ملكا فانطلق حتى قدم مكة وأراه المكان فبناه.

وقال وهب بن منبه: إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض ورأى سعتها، ولم ير فيها أحدا غيره، قال: يارب أما لهذه الأرض عامر يسبح بحمدك ويقدسك غيرى؟ قيل له: إنى سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدى ويقدسنى وسأجعل فيها بيوتا ترفع بذكرى ويسبح فيها خلقى ويذكر فيها اسمى. وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتى. وأوثره باسمى.. وأسميه بيتى. أنطقه بعظمتى. وعليه وضعت جلالى. ثم أجعل ذلك البيت حرما آمنا. يحرم بحرمته من حوله. فمن حرمه بحرمته استوجب بذلك كرامتى. ومن أخاف أهله فقد ضيع دينى وخفر ذمتى وأباح حرمتى. أجعله أول بيت وضع للناس. يأتونه شعثا غبرا يضجون بالتلبية. ويعجون بالتكبير عجيجا. فمن آثره لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارنى. وحق على الكريم أن

يكرم وفده وأضيافه. وأن ينعم ويتفضل ويسعف كلاً بحاجته. تعمره يا آدم ما كنت حيا ثم يعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة. وقرنا بعد قرن - فكذا كان بدء أمر الكعبة. حرسها الله تعالى ثم كانت على ذلك إلى أيام الطوفان. فلما كان أيام الطوفان رفعه الله تعالى. إلى السماء الرابعة وبعث جبريل عليه السلام فخبَّأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس صيانة له من الغرق. فكان موضع البيت خاليا إلى زمان إبراهيم عليه السلام.

ويرى الإمام ابن كثير (البداية والنهاية. الجزء ص ١٦٣) وغيره من العلماء أنه لم يرد فى خبر صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام. أما قولهم إن كلمة «مكان البيت» تعنى أنه مكان كان فيه بيت من قبل، فليس ضرورة، لأن المراد مكانه المقدر فى علم الله.

أما فى كيفية استدلال إبراهيم عليه السلام على مكان البيت حينما أمر ببنائه، فقد جاء فى ذلك عدة أقوال أيضا:

قال ابن جرير عن على بن أبى طالب رضى الله عنه: إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لى بيتا فى الأرض. فلم يعرف المكان وضاق إبراهيم بذلك ذرعا. فأرسل الله السكينة وهى ريح خجوج ولها رأسان، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة، فتطوت على موضع البيت كطى الجحفة. وأُمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة.

وقال سعيد عن على بن أبى طالب أيضا أن السكينة دلت على مكان البيت فكشفت عن أحجار، لا يطيق الحجر إلا ثلاثون رجلاً. وهو أساس البيت الأول. وبدأ إبراهيم وإسماعيل بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس. فذلك قوله تعالى: وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت. وقوله وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت.

وقال آخرون (عرائس المجالس الثعلبى ص ١٠٥) أرسل الله تعالى إليه سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير معه ثم وقفت فى موضع البيت، ونودى: يا إبراهيم ابن على ظلها، لا تزد ولا تنقص.

ولعل هذا الرأى الأخير هو الأقرب للصواب. فالغمام يتشكل بأى شكل وتسوقه الريح بأمر الله حيث يشاء. وقد رأينا فى سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم كيف ظلله الغمام فى يوم قائظ. كذلك بأمر الله ظلل الغمام بنى إسرائيل:

«وظللنا عليهم الغمام». (من الآية ١٦٠ - الأعراف)

أما الريح الخجوج - وخجَّ تعنى التوى (المعجم الوسيط جـ ١ ص ٢١٨). والريح الخجوج هى الريح الشديدة والملتوية فى هبوبها. وبلغة عصرنا هى الريح التى تعمل دوامات هوائية ولو

تطوت على موضع البيت كما قيل لكان البيت مستديراً. ولو كان دور الريح هو كشف الرمال عن أساس قديم مطمور تعلوه عدة أقدام من الرمال لكان معنى ذلك أن تستمر هذه الريح عدة ساعات أو عدة أيام. وذلك لا يتأتى إلا لريح من الشدة بحيث تطيح بالبيوت والخيام التى أقيمت فى الوادى. ونحن نرى مثل هذه الريح تقتلع الأشجار أحياناً. وبدلاً من هذه الريح المدمرة كان يكفى أن يوحى إلى إبراهيم عليه السلام وحياً - أو رؤيا - أن أحفر فى مكان كذا ليجد الأساس. كما كان الإيحاء بالرؤيا لأبى طالب ليحفر بئر زمزم بعد أن طمرت. وعليه يمكننا أن نقول إن إبراهيم عليه السلام لما أُمر ببناء البيت وتساءل عن مكانه. دلته غمامة فبنى على ظلها.

وقيل فى قوله تعالى:

«وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا..». إسماعيل معطوف على إبراهيم وفيها تأخير - لأن الدور الأكبر فى البناء كان لإبراهيم إذ كان إسماعيل صغيراً وكان دوره هو مناولة الحجارة لإبراهيم - إذ لوقيل: وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت لكان فيه تساوٍ فى الفعل. وهو ما لم يحدث. كذلك قرئت:

وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت

وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»

قيل: إسماعيل مبتدأ والخبر محذوف أى وإسماعيل يقول ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم أى أن إبراهيم كان يبنى وإسماعيل يدعو بذلك الدعاء.

وجعل إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ويدعو. وارتفع البناء فبلغا مكان الركن فقال إبراهيم لإسماعيل: (تفسير ابن كثير. جـ ١ ص ١٧٨) يا بنى، اطلب لى حجراً حسناً أضعه هـهنا، فلما أبطأ عليه جاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند - وكان أبيض. ياقوتة بيضاء - كان آدم قد هبط به من الجنة فاسودَّ من خطايا الناس - فجاءه إسماعيل بحجر. فوجد عنده الحجر الأسود. فقال: يا أبت، من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك.

وقد ذكر أهل الأخبار أشياء لم يتضمنها القرآن الكريم ولا الحديث الصحيح. ومن مشهور ذلك أن الكعبة أنزلت من السماء فى زمان آدم ولها بابان، إلى المشروق والمغرب. فحج آدم من أرض الهند واستقبلته الملائكة فطاف بالبيت ودخله. ثم رفعت فى زمن الطوفان إلى السماء. ثم أنزلت مرة أخرى فى زمن إبراهيم فزادها ورفع قواعدها وجعل بابيها بابا واحداً ثم تمخض أبو قبيس فانشق عن الحجر الأسورد فوضعه إبراهيم مكانه.

ولهذا الكلام عند الصوفية إشارات ورموز (تفسير الألوسى. جـ ١ ص ٣٨٤):

فنزول الكعبة فى زمن آدم عليه السلام، إشارة إلى ظهور عالم المبدأ والمعاد ومعرفة عالم النور وعالم الظلمة فى زمانه. وقصده زيارتها فى أرض الهند، إشارة إلى توجهه بالتكوين والاعتدال من عالم الطبيعة الجسمانية المظلمة إلى مقام القلب. واستقبال الملائكة له إشارة تلقى القوى النفسية والبدنية إياه بقبول الآداب والأخلاق الجميلة، والملكات الفاضلة، والتمرن والتنقل فى المقامات قبل وصوله إلى مقام القلب. ودخوله، إشارة إلى تمكينه واستقامته فيه. ورفعه فى زمن الطوفان إلى السماء. إشارة إلى احتجاب الناس بغلبة الهوى وطوفان الجهل على مقام القلب. وبقاؤه فى السماء إشارة إلى البيت المعمور الذى هو قلب العالم. ونزوله مرة أخرى فى زمان إبراهيم إشارة إلى إهتداء الناس فى زمانه إلى مقام القلب بهدايته. ورفع إبراهيم قواعده وجعله ذا باب واحد، إشارة إلى ترقى القلب إلى مقام التوحيد. والحجر الأسود، إشارة إلى الروح التى هى أمر الله عز شأنه. وتمخض أبى قبيس وانشقاقه عنه، إشارة إلى تكدره بغلبه القوى النفسانية على القلب واستيلائها عليه وتسويدها الوجه النورانى الذى يلى الروح منه.

مقام إبراهيم :

ولما ارتفع الجدار كان إبراهيم عليه السلام يقف على حجر يقوم عليه لبناء الكعبة. وكلما كملت ناحية انتقل إلى الناحية التى تليها، وهكذا أتمَّ جدران الكعبة الأربعة. وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه. وهذا مقام إبراهيم. والذى قال فيه أبو طالب فى قصيدته:

وموطئ إبراهيم فى الصخر رطبة ∴ على قدميه حافياً غير ناعل

وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً. وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من البناء تركه إلى جدار الكعبة، وإنما أخره عن جدار الكعبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة.

وقال عبدالرزاق عن ابن جريج حدثنى عطاء وغيره من أصحابنا، قال: أول من نقله عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وقال الحافظ أبو بكر أحمد عن كثيرين عن عائشة رضى الله عنها أن المقام كان زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان أبى بكر رضى الله عنه متلصقاً بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب (تفسير ابن كثير. جـ ١ ص ١٧١).

وفى حديث عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عمر رضى الله عنه وقال: يا عمر هذا مقام إبراهيم. فقال عمر: أفلا نتخذه مصلًى؟ فقال: لم أومر بذلك. فلم تغب

الشمس حتى نزلت الآية: **«واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»** والأمر فيها للاستحباب. وكان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن، والمراد ركعتى الطواف. لما أخرجه مسلم عن جابر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، وقرأ الآية فالأمر للوجوب على بعض الأقوال. ولا يخفى ضعفه لأن فيه التقيد بصلاة مخصوصة من غير دليل. (تفسير الألوسى. جـ ١ ص ٣٨٠). ومن الأقوال الضعيفة أيضاً ما ذهب إليه النخعى ومجاهد إلى أن المراد من مقام إبراهيم الحرم كله. وما قاله ابن عباس وعطاء من أنه مواقف الحج كلها وما قاله الشعبى من أنه عرفة ومزدلفة والجمار. ومعنى اتخاذها مصلى – أن يدعى فيها ويتقرب إلى الله تعالى عندها.

والذى عليه الجمهور – وهو الموافق لظاهر اللفظ ولعرف الناس اليوم أن مقام إبراهيم هو ذلك الحجر الذى كان يقف عليه وهو يبنى الكعبة وأثر قدميه ظاهر فيه. وبعد الطواف تُصلى عنده ركعتان.

ولما اكتمل بناء الكعبة – أدرك إبراهيم عليه السلام لماذا كانت مشيئة الله فى تأخير بناء البيت. ليكون إسماعيل قد كبر بحيث يكون له شرف المساعدة فى بناء بيت الله الحرام.

وكان بناء البيت هو الحلم الذى طالما راود إبراهيم عليه السلام كلما شاهد معابد مردوخ وسين وبعل ومعابد قدماء المصريين. لقد تحقق الحلم أخيراً. وها قد بُنى لله بيت له من الجلال ما يحض النفس على الخشوع. وله من البساطة مالا يشغل النفس بالزخارف عن ذكر الله.

يتجاهل كاتبو التوراة رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز وينكرونها كلية، وسبق أن ذكرنا أنهم يقولون بأن برية فاران ليست فى الحجاز بل شرقى خليج العقبة (شكل ٣٦). بل يذهبون أكثر من ذلك فيقولون إن إبراهيم عليه السلام لم يأخذ هاجر واسماعيل إليها. بل وضع الماء والولد على كتفها وصرفها. فمضت وتاهت فى برية بئر سبع!! كل هذا لينفوا عن إبراهيم عليه السلام بناء الكعبة! ولينفوا عن العرب انتسابهم إلى إبراهيم عليه السلام. وتابعهم فى ذلك كثير من المستشرقين.

والسؤال الذى يطرح نفسه: **فمن بنى الكعبة؟ إذا لم يكن إبراهيم هو الذى بناها؟** ولم يظهر أحد آخر يدعى أنه هو الذى بنى الكعبة.

وأما عن انتساب العرب إلى إبراهيم السلام. فما كان الكفار من أهل مكة ليسكتوا عند نزول الآية:

«وما جعل عليكم فى الدين من حرج. ملة أبيكم إبراهيم». (من الاية ٧٨ – الحج)

فالعرب هم أحرص الشعوب على حفظ سلسلة نسبهم. وسكوتهم عندما نزلت هذه الآية دليل على أن العرب فعلاً من نسل إسماعيل وهو ابن إبراهيم عليهما السلام.

وأثر عن زيد بن عمرو بن نفيل قوله: يا معشر قريش والذى نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم على دين إبراهيم غيرى (تفسير ابن كثير. جـ ٢ ص ٢٣٧)، وزيد هذا من الحنفاء الذين كانوا على ملة إبراهيم. ومنهم ورقة بن نوفل الذى ذهبت السيدة خديجة تستشيره عند أول نزول الوحى على المصطفى صلى الله عليه وسلم.

كذلك يؤثر عن عبد المطلب قول بيت من الشعر فى عام الفيل:

نحن أهل الله فى بلدته ∴ لم يزل ذاك عهد إبراهيم

فمن أين يتأتى لعرب مكة أن يكونوا على ملة أبيهم إبراهيم دون أن يكون إبراهيم قد ذهب إلى أرض الحجاز؟

كذلك وجدت صورة إبراهيم الخليل منقوشة على جدران الكعبة - حيث صوَّره القوم فى يده الأزلام. ويقابلها صورة إسماعيل على فرس. وكذلك صور لبعض الأنبياء. ويوم فتح مكة - وبعد أن كسر الأصنام - أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان أن يَقدما إلى البيت ليمحوا كل صورة فيه. ومحيت الصور وبقيت صورة إبراهيم. فقال عليه الصلاة والسلام لعمر: ألم آمرك أن لا تترك فيها صورة؟ قاتلهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم الأزلام.

«ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً. ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين».

(٦٧ - آل عمران)

وها هو أبو طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم يقول في خطبة له يوم زواج المصطفى صلى الله عليه وسلم من خديجة: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل وجعل لنا بلداً حراماً وبنياناً محجوجا، وجعلنا الحكام على الناس.

كما أن عبد المطلب يقول لرسول أبرهة حين جاء يعلمه أن القائد الحبشى لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم البيت. يقول له: هذا بيت الله الحرام. وبيت إبراهيم خليله (تفسير الطبرى ص ١٨٨ - تاريخ الطبرى جزء ٢ ص ١٣٣).

كما أن المسعودى (التنبه والإشراف. ص ١٧٢) أشار إلى أن العرب قبل الإسلام كانوا يؤرخون بتواريخ كثيرة، منها التأريخ بوفاة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

فرحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز حقيقة لا مراء فيها، تؤيدها كل الشواهد. وبناءه للكعبة أمر لا جدال فيه.

من المرجَّح أن إبراهيم عليه السلام قد ظن أن مهمته فى مكة قد انتهت ببناء بيت الله الحرام. وظل ينتظر الإذن بالرحيل.وهذا هو حال الأنبياء. يلتمسون مشيئة الله فى كل ما يفعلون.

مثالنا فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان يحث أصحابه على الهجرة إلى يثرب. وظل هو ينتظر الإذن من الله. حتى إذا ائتمر به المشركون وأجمعوا أمرهم أن يقتلوه. أمر عليا أن يبيت فى فراشة وخرج وهو يحثو التراب على رؤوس من التفوا حول داره. ولما وصل إلى دار أبى بكر قال له: أذن لى فى الهجرة. وكان رد أبى بكر المشهور: الصحبة يا رسول الله.

بالمثل. ظل إبراهيم عليه السلام فى مكة. يطوف بالبيت. ويتعبد عنده. منتظراً الإذن بالرحيل. وإذا بالمهمة الثانية تأتيه وحياً من الله سبحانه وتعالى. رؤيا فى المنام. ورؤى الأنبياء حق وأمر واجب التنفيذ.

الأمر بالذبح ومن الذبيح؟

«وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين. رب هب لى من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعى، قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك، فانظر ماذا ترى، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، إنا كذلك نجزى المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين». (٩٩ - ١١٣ - الصافات)

سياق الآيات السابقة. وإن لم يرد فيها اسم الذبيح إلاّ أنها تدل على أن الذبيح هو إسماعيل. فإن إبراهيم عليه السلام بعد أن خرج مهاجراً إلى الله طلب الولد من الله. فبشره الله بغلام وصف بأنه حليم. وقد كان إسماعيل هو ولده البكر. من هاجر. وتمضى الآيات فى وصف الذبح والفداء. وكيف أن هذا كان بلاء عظيماً لإبراهيم. وأن إبراهيم عليه السلام قد اجتاز هذا البلاء وكان من المحسنين. ومن عباد الله المؤمنين هنا انتهت قصة الذبح ثم جاء قوله تعالى: وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين. فالأمر بالذبح يَنصَبُّ على البشارة الأولى، وهى بإسماعيل. ولا يعقل أن يكون الأمر بالذبح ثم يأتى التبشير بالولد الثانى ويكون الذبح مقصوداً به هذا الولد الثانى. ذلك هو المنطق السليم.

يتبنى أهل الكتاب الرأى بأن الذبيح هو إسحق. معتمدين على ما جاء فى التوراة فى الإصحاح ٢٢ تكوين.

وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم . فقال له يا إبراهيم. فقال هأنذا. فقال خذ ابنك **وحيدك** الذى تحبه إسحق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك، فلما أتيا إلى الموضع الذى قال له الله بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب. ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء. وقال: إبراهيم. إبراهيم، فقال هأنذا. فقال لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً، لأنى علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى. فرفع إبراهيم عينيه ونظرا وإذا كبش وراءه ممسكاً فى الغاية بقرنيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه. ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء. وقال بذاتى أقسمت يقول الرب: إنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك **وحيدك** أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطىء البحر.

ووصف الذبيح بأنه الإبن الوحيد لإبراهيم لا ينطبق على إسحق لأن إسماعيل وُلد أولاً. ووُلد إسحق بعده بأربعة عشر عاماً. وعاش إسماعيل حتى وفاة أبيه إبراهيم. فلم تأت لحظة كان إسحق فيها وحيداً. ولكن إسماعيل بقى أربعة عشر عاما وهو وحيد إبراهيم إلى أن رزق إبراهيم بإسحق. والقارىء للفقرة التى جاءت فى التوراة: خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق، يشعر أن كلمة إسحق قد أقحمت فى سياق الكلام. ولعل كاتبى التوراة تحرجوا من أن يقحموا الإسم مرة أخرى فجاءت الفقرة الثانية هكذا: ولم تمسك ابنك وحيدك.

كذلك جاء فى إنجيل برنابا (د. بيومى مهران. دراسات تاريخية فى القرآن الكريم جـ ١ ص ١٧٣) على لسان المسيح عليه السلام: الحق أقول لكم. أنكم إذا أمعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبتنا وفقهائنا، لأن الملاك قال يا إبراهيم: سيعلم العالم كيف يحبك الله. ولكن يعلم العالم محبتك لله؟ حقاً يجب عليك أن تفعل كل ما يريد الله. فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلاً: خذ ابنك **بكرك** واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة.

فوصف الذبيح بأنه البكر يؤكد أنه إسماعيل لأن إسماعيل هو البكر ولما ولد إسحق كان إسماعيل قد بلغ ثلاثة عشر عاماً.

وكانت التقاليد تقضى بتقديم الابن البكر قرباناً لله. وجاء فى سفر الخروج إصحاح ٢٢ : وأبكار بنيك تعطينى. ثم حرِّم ذلك فيما بعد. والابن البكر هو إسماعيل وليس إسحق.

نقطة أخرى. وهى أن البشارة التى أتت إبراهيم بالولد من سارة - فى القرآن الكريم فى قوله:

«فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب». (٧١ - هود)

وفى التوراة اصحاح ٢١ تكوين فقرة ١٢ - لأنه بإسحق يدعى لك نسل - أى أن الله قد أخبر إبراهيم بأن إسحق سيكون له نسل أى أبناء.

هنا تثور المشكلة التى أرقت اليهود وهى: كيف يؤمر إبراهيم بذبح إسحق وهو ابنه الموعود الذى سيكون له نسل؟ أم أن إبراهيم كان متأكداً أن الله لابد سيفتديه فى آخر لحظة؟ وإذا كان الأمر كذلك فهو ليس ابتلاء حقيقيا وليس فيه أى تضحية لأنه متأكد أن الله سيفتديه لينجو من الذبح ويكون له ذرية.

وجاء الحل فيما بعد على يد فقهاء المسيحية فقالوا: إن الفكر الوحيد الذى ملأ قلب إبراهيم هو: أن الله قادر على الإقامة من الأموات أيضاً. أى أن إبراهيم كان ينوى فعلاً ذبح ابنه. ولكن حتى إذا تم ذلك فإن الله سيقيمه من الأموات ليكون له ذرية! وحتى هذا الحل يذهب بقيمة التضحية تماماً أو على الأقل يقلل من قيمتها مادام أنه كان على يقين من أن الله سوف يعيد الحياة إلى ولده بعد أن يقوم هو بذبحه. فى حين أن الأمر بذبح ابن لم يوعد بنسل - تكون تضحية حقيقية، ودليل فعلى على حب شديد لله إذ هو يذبح ابنه أو يهم بذبحه ولا يرجو فداءه أو إعادة الحياة له بعد ذبحه، وذلك هو الحال مع الأمر بذبح إسماعيل.

كذلك - إذا كان الذبيح هو إسحق. فأين احتفال أهل الكتاب بنجاته من الذبح وافتدائه بالأضحية؟ أما كان حدثاً مثل هذا يستدعى الاحتفال به؟ قال الإمام أحمد حدثنا جعفر بن عوف عن آخرين عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين. إنكم تقرأون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال وأى آية؟ قال، قوله: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً. فقال عمر: والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعة التى نزلت فيها والمكان الذى أنزلت فيه. نزلت فى يوم الجمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيد. فإذا كان هذا شعورهم نحو آية من كتاب الله. فلماذا لم يتخذوا من آيته بإنقاذ إسحق - كما يدّعون - من الذبح عيداً؟ والجواب هو لأن الذبيح لم يكن إسحق. بل كان إسماعيل. واتخذ المسلمون من فدائه عيداً - هو عيد الأضحى. بل إن رمى الجمار - وهو من مناسك الحج - يحكى وسوسة إبليس لإبراهيم عليه السلام ليثنيه عن تنفيذ أمر ربه بذبح ابنه - ورجم إبراهيم له بسبع حصيات فى ثلاثة أماكن سيجىء فيما بعد.

ولما نزلت التوراة وشرع الله فيها لبنى إسرائيل أعيادهم في سفر الخروج اصحاح ٢٣:

ثلاث مرات تعيد لى فى السنة. تحفظ عيد الفطير. تأكل فطيراً سبعة أيام كما أمرتك فى وقت شهر أبيب لأنه فيه خرجت من مصر. وعيد الحصاد أبقار غلاتك التى تزرع فى الحقل

وعيد الجمع – فى نهاية السنة – ولم يكن من بينها عيد أضحى احتفالاً بفداء إسحق من الذبح، لأنه لم يكن هو الذبيح.

وللأسف فإن بعض المسلمين جاروا أهل الكتاب فى مزاعمهم وقالوا بأن الذبيح هو إسحق. واختلقوا أقوالاً تؤيد زعمهم (عرائس المجالس. الثعلبى. ص ١٠٩).

روى سفيان عن زيد بن أسلم عبيد الله بن عمير عن أبيه عن جده قال: قال موسى عليه السلام: يارب يقولون يا إله إبراهيم وإسحق ويعقوب. فلم قالوا ذلك؟ فقال: إن إبراهيم لم يعدل بى شيئاً قط إلاً اختارنى عليه – وإن إسحق جاد لى بالذبح فهو بغير ذلك أجود. وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادنى حسن ظن.

وروى حمزة بن الزيات عن أبى إسحق عن أبى ميسرة قال: قال يوسف عليه السلام لملك مصر: أترغب أن تأكل معى وأنا والله يوسف بن يعقوب بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله. وبعضهم ادعى بأن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما يقولان بأن الذبيح إسحق!

وتمادى البعض فوضعوا أحاديث تفيد مثل هذا القول:

قالوا إن عبدالله بن الحسين بن محمد عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الذى أراد إبراهيم أن يذبح إسحق وحديثاً آخر يقول: الذى فداه الله بذبح عظيم إسحق. وأحاديث أخرى وصفها العلماء بأنها ضعيفة ولا يصح الاحتجاج بها. فمن الرواة من وصف بأنه متروك. فمثلاً أخرج الديلمى فى مسند الفردوس بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن داوود سأل ربه مسألة فقال اجعلنى مثل إبراهيم وإسحق ويعقوب. فأوحى الله إليه: إنى ابتليت إبراهيم بالنار فصبر. وابتليت إسحق بالذبح فصبر. وابتليت يعقوب فصبر. وقالوا إن أحاديث الديملى فيها الكثير الموضوع. وغير ذلك من الأحاديث التى وصفوا رواتها بأنهم يروون المنكرات والغرائب ولا يحتج بمروياتهم.

من هنا نرى أن وصف الإبن الوحيد لإبراهيم عليه السلام ينطبق على إسماعيل وليس على إسحق. وكذلك وصف الإبن البكر. والإبن البكر الوحيد له معزة خاصة. وخاصة إذا كان قد رزق على الكبر فالابتلاء بذبح هذا الإبن الوحيد هو ابتلاء حقيقى والتسليم لأمر الله فى ذلك أبلغ دليل على حب الله وامتثال كامل لمشيئته. أما الإبتلاء بذبح الإبن الثانى – فهو ابتلاء ولكن أقل درجة من الآبتلاء بذبح الابن البكر. ويزول معنى الابتلاء كلية إذا كان هناك وعد بأن هذا الذبيح سيكون له نسل إذ معناه التأكد أن الله سيفتديه فى آخر لحظة قبل ذبحه.

ولو عدنا إلى سورة الصافات نجد أنه ورد فيها قصص عدد من الأنبياء تختتم كلها بخاتمة متشابهة. ففى ختام قصة نوح جاء:

«وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على نوح فى العالمين. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين.». (٧٨ - ٨١ الصافات)

وفى ختام قصة موسى وهارون:

«وتركنا عليهما فى الآخرين. سلام على موسى وهارون. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنهما من عبادنا المؤمنين». (١١٩ - ١٢٢ الصافات)

وفى ختام قصة إلياس:

«وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إل ياسين. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين». (١٢٩ - ١٣٢ الصافات)

وفى ختام قصة إبراهيم:

«وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إبراهيم كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين». (١٠٧ - ١١ الصافات)

إلى هنا ينتهى الحديث عن إسماعيل ثم يبدأ الحديث عن إسحق:

«وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين. وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين». (١١٢ - ١١٣ الصافات)

قال محمد بن كعب القرطى: إن عمر بن عبد العزيز وهو خليفة أرسل إلى رجل كان عنده بالشام وكان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علماء اليهود. فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده فقال له: أى ابنى إبراهيم الذى أمر بذبحه؟ فقال إسماعيل. ثم قال: والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذى ذكر أنه كان منه بصبره على ما أمر به. فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق لأن إسحق أبوهم.

كما روى عمر بن عبد الرحمن الخطابى بإسناده عن الصباحى. قال كنا عند معاوية بن أبى سفيان فذكروا أن الذبيح إسماعيل أو إسحق، فقال. على الخبير سقطتم. كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال: يا رسول الله أعد علىَّ ما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقيل يا أمير المؤمنين ومن الذبيحان؟ فقال إن عبد المطلب لما حفر زمزم نذر لربه إن سهَّل الله عليه أمرها ليذبحن أحد ولده. فخرج السهم على عبدالله فمنعه أخواله ففداه بمائة من الإبل. والثانى إسماعيل.

ومما يؤيد أن الذبيح هو إسماعيل وأن الذبح إنما كان فى مكة أن الشعبى يقول: رأيت قرنى الكبش منوطين بالكعبة. وكذلك يروى عثمان بن طلحة أنه رأى قرنى الكبش. وأنهما بقيا

حتى احتراق البيت أثناء حصار الحجاج لابن الزبير. وابن عباس يروى أنه رأى رأس الكبش ما يزال معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس. ويبدو أن قريش قد توارثت قرني الكبش خلفاً عن سلف وأن ذلك إنما كان من دواعى الفخر عندهم. وبدهى أنهم لا يتفاخرون بهما إلاَّ إذا كان الذبيح هو إسماعيل. كما أن ذلك يدل على أن الذبح والفداء كان بمكة وليس بأرض فلسطين. ولم يؤثر أن إسحق قد جاء إلى مكة.

قصة الذبح :

«فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك. فانظر ماذا ترى. قال يا أبت افعل ما تؤمر. ستجدنى إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . إنا كذلك نجزى المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم». (١٠٢ - ١٠٧ - الصافات)

قيل إنه رأى فى المنام أنه يعالج ذبح ابنه.

وقال بعضهم أنه - عليه السلام - أُتى فى المنام فقيل له: اذبح ابنك. ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة.

وفى رواية أخرى أنه رأى كأن قائلاً يقول له: إن الله تعالى يأمرك بذبح ابنك.

فلما أصبح تروَّى فى ذلك وفكر من الصباح إلى الرواح، أَمِنَ الله تعالى هذا الحلم أم من الشيطان. ومن ثم سُمى ذلك يوم التروية. فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى. ومن ثم سُمى يوم عرفة. ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره. فسمُى يوم النحر.

قيل إنه فى صبيحة ذلك اليوم قال لابنه: يابنى خذ الحبل والمدية ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب. وروى أبو هريرة عن كعب الأخبار وابن اسحق عن رجال قالوا: لما رأى إبراهيم فى المنام أنه يذبح ابنه، قال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم وإلا لن أفتن أحداً منهم أبداً. فتمثل الشيطان رجلاً. فأتى أم الغلام فقال لها: أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت ذهب به ليحتطب من هذا الشِعب. فقال لا والله ما ذهب به إلاَّ ليذبحه. قالت كلا. هو أرحم به منى وأشد حباً له من ذلك. فقال لها: إنه يزعم أن الله أمره بذلك. فقالت له. إن كان أمره بذلك فقد أحسن فى امتثال طاعة ربه وفى استسلامه لأمر الله تعالى، فخرج الشيطان من عندها هارباً حتى أدرك الإبن وهو يمشى على أثر أبيه. فقال له: يا غلام، هل تدرى أين يذهب بك أبوك؟ فقال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب. قال لا، والله ما يريد إلا ذبحك. قال ولم؟ قال يزعم أن الله أمره بذلك. قال فليفعل ما أمره الله به، فسمعاً وطاعة لأمر الله تعالى. فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم فقال له: أين تريد أيها الشيخ؟ قال أريد

هذا الشعب لحاجة لى. فقال والله إنى لأرى الشيطان قد جاءك فى منامك يأمرك بذبح ابنك هذا. فعرفه إبراهيم فقال له: إليك عنى يا ملعون، فوالله لأمضين لأمر ربى. فرجع إبليس لعنه الله بغيظه لم يصب من إبراهيم وأهله شيئاً مما أراد، وقد امتنعوا منه بعون الله وتأييده.

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس رضى الله عنه أن إبليس عرض لإبراهيم عند المشعر الحرام فسابقه فسبقه إبراهيم عليه السلام ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان. فرماه بسبع حصيات حتى ذهب. ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب. ثم أدركه عند الجمرة الصغرى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب. ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى.

ولكن إبراهيم عليه السلام قبل أن ينفذ ما أمره الله به، رأى أن يخبر ابنه بحقيقة ما ينوى فعله، وأن هذا من أمر الله ليثبِّت قدمه إن جزع وليكتسب المثوبة بالإنقياد لأمر الله تعالى. وقُرئت «فانظر ماذا تُرِى» أى ما الذى ترينى إياه من الصبر. وقرئت أيضاً «ماذا تُرَى» أى ماذا تريك نفسك من الرأى.

أدرك إسماعيل أن رؤيا الأنبياء حق. وأمر من الله تعالى. فقال يا أبت افعل ما تؤمر.

ولنتأمل فى جمال اللفظ القرآنى. إبراهيم يقول: يا بُنَىَّ. على سبيل الترحم. وإسماعيل يرد بقوله: يا أبت على سبيل التوقير والتعظيم. ثم كأنه يقول له: ليس هناك مجال للاستشارة فى أمرٍ أمر به الله تعالى. وإنما الواجب إمضاء الأمر. فقال:

«ستجدنى إن شاء الله من الصابرين». (من الآية ١٠٢ – الصافات)

ووصفه القرآن الكريم فى آية أخرى

«وإسماعيل وإدريس وذا الكفل، كل من الصابرين». (٨٥ – الأنبياء)

ولنقارن دقة التعبير القرآنى فى القول على لسان إسماعيل.

«ستجدنى إن شاء الله من الصابرين».

وفى القول على لسان موسى للخضر.

«ستجدنى إن شاء الله صابراً».

والفرق بينهما أن الصبر فى الحالة الثانية كان من جانب موسى فقط. أما فى حالة الذبح. فإن الصبر يشمل الطرفين فلم يقل اسماعيل ستجدنى إن شاء الله صابراً. بل قال ستجدنى إن شاء الله من الصابرين وهذا يحمل حثاً غير ظاهر لأبيه على الصبر لما يعلم من عظم البلاء عليه. ولذلك جاء اللفظ بعد ذلك فى صيغة المثنى: «فلما أسلما» أى انقادا لأمر الله تعالى. وقرأها على كرم الله وجهه وابن عباس ومجاهد وغيرهم (تفسير الألوسى جزء ٢٣ ص ١٣٠):

«فلما سلَّما»، أى سلما أمرهما إلى الله. وقرئت أيضاً «فلما استسلما». وكلها تعنى القبول لأمر الله تعالى والشروع فى تنفيذه.

لقد وعد إسماعيل أباه أنه سيكون صابراً، وصدق فى وعده.

«واذكر فى الكتاب إسماعيل، إنه كان صادق الوعد». (من الآية ٥٤ - مريم)

وأخرج غير واحد عن مجاهد أن إسماعيل قال لأبيه: لا تذبحنى وأنت تنظر إلى وجهى عسى أن ترحمنى فلا تجهز علىَّ. اربط يدى إلى رقبتى ثم ضع وجهى للأرض. فوضعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحة ليكون أهون عليه. فذلك قوله تعالى: «وتله للجبين» أى أكبَّه على وجهه.

وهناك رواية أخرى للسدى أنه قال لأبيه: يا أبت اشدد رباطى حتى لا أضطرب. واكفف عنى ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمى شىء فتراه فتحزن. وأسرع مر السكين على حلقى فيكون أهون للموت علىَّ فإذا أتيت أمى فاقرأ عليها السلام منى. فأقبل إبراهيم يقبله.

وقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أنه عليه السلام لما أخذ الشفرة وأراد أن يذبحه نودى من خلفه: أن يا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا. وأخرج الحاكم عن طريق مجاهد أنه لما أدخل يده ليحمل المدية نودى يا إبراهيم قد صدَّقت الرويا، فأمسك يده.

وأخرج ابن جرير عن السدى أنه عليه السلام جرَّ السكين على حلقه فلم ينحر. وقيل ضرب الله تعالى على حلقه صفيحة من نحاس فلم تقطع. وقيل أيضاً أن الله أمرها فلم تقطع. ونودى أن يا إبراهيم قد صدقت الرويا، فرفع رأسه فرأى الكبش ينحط عليه. وكان كبشاً عظيماً. فذلك قوله تعالى:

«وفديناه بذبح عظيم».

وروى عن ابن عباس إنه الكبش الذى قرَّبه هابيل فتُقبل منه وبقى يرعى فى الجنة إلى يوم هذا الفداء. وفى رواية ثانية عن ابن عباس أيضاً أنه كبش من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفاً.

وعن عطاء السائب أنه قال: كنت قاعداً بالمنحر فحدثنى قرشى عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: إن الكبش نزل على إبراهيم فى هذا المكان.

ونحر إبراهيم عليه السلام الكبش عوضاً عن ابنه. وسمى ذلك اليوم يوم النحر. وفيه تنحر الذبائح تقربا لله.

حكمة الأمر بالذبح ثم الفداء:

القربان هو ما يُتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة وغيرها. وكان أول قربان فى تاريخ

البشرية هو ما أشار به آدم عليه السلام للفصل فى النزاع بين هابيل وقابيل. وقد سبق ذكر ذلك فى الجزء الأول ص ١٧ . حيث أمرهما أن يقُربا قرباناً. وأيهما تقبل قربانه فهو الأحق بالزواج من إقليما - توأمة قابيل. وكان هابيل راعياً صاحب ماشية فقدم كبشاً سميناً من خيار ماشيته. فى حين قدَّم قابيل حزمة من ردىء زرعه. فلم تقبل منه. ومن الطبيعى أن المحب يقدم أحسن ما عنده دليلاً على حبه.

ثم - فى وقت من الأوقات - رأت بعض الجماعات البشرية لإزالة ما يحل بها من أمراض أو نكبات - ظناً منهم أنها لعنات من الآلهة - رأت لابد من عمل شىء ذى قوة وبأس. وليس فى الوجود شىء أقوى من إراقة الدماء البشرية. بمعنى أن تضحى القبيلة بأحد الأفراد لهذا الغرض. ومن هنا ظهرت فكرة القرابين البشرية. ثم كان التطور الأخير هو أن الولد هو أكثر ما يحبه الوالد. فتكون التضحية أكبر إذا ضحى به. ظناً أن هذا أدعى للاستجابة لما يريد. ومن هنا نشأت فكرة التضحية بالولد وخاصة بالابن البكر قرباناً للآلهة. وانتشرت هذه العادة وخاصة فى بلاد العراق والشام قديماً. وكثيراً ما كان الأب يأخذ ابنه إلى معابد الآلهة ويذبحه على المذبح أمام الإله تقرباً ولقضاء حوائجه.

ولقد علم الله أن ذبح المرء لولده هو أقسى شيئ على النفس البشرية. وما خلق الله الخلق ليعذبهم.. وإن كانوا هم قساة على أنفسهم. فالله أرحم بهم منهم على أنفسهم. فأراد الله إبطال هذا النوع من التضحية. فاختار خليله إبراهيم عليه السلام ليكون هو المثال العملى لإبطال هذه العادة. فأمره بذبح ولده ثم افتداه بكبش عظيم. وحتى لا يندثر هذا الأمر على مر الأزمنة. ربطه سبحانه وتعالى بشعيرة من شعائر الدين الحنيف وهى شعيرة الحج.

ولقد امتثل العرب. منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام - لهذا الأمر وبطلت تماماً عادة التضحية بالأبناء للآلهة. وحتى لما نذر عبد المطلب أن يضحى بأحد أبنائه إن سهل له الله أمر حفر زمزم. وحاول الوفاء بنذره - منعته قريش. وكان فداء عبدالله بمائة من الإبل.

أما ذرية إسحق. فقد بقيت فيهم عادة التضحية البشرية لما بعد ذلك بكثير. ونزل تحريمها فى التوراة. إذ نص على عقوبة الرجم لمن يعطى ابنه قرباناً. ومع ذلك ظل أمراء بنى إسرائيل يقدمون أبناءهم قرباناً. كما فعل يفتاح الجلعادى حين نذر للرب قائلاً (التوراة. قضاة ١١ - ١): إن دفعت بنى عمون ليدى. فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعى بالسلامة من عند بنى عمون يكون للرب وأصعده محرقة. وتشاء الأقدار أن تكون ابنته الوحيدة هى التى تهب للقائه عندما عاد من معركته. ومن ثم اضطر أن يفى بنذره وإن كان قد أخَّره شهرين كطلبها.

وبقيت هذه العادة فى بنى إسرائيل حتى عصر النبى أرميا (٢٦٧ - ٥٧٧ ق. م) الذى نعى

عليهم أنهم «بنوا المرتفعات ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار (محمد بيومى مهران. دراسات تاريخية فى القرآن الكريم. جـ ١ ص ١٧٩). وها هو أشعياء النبى يصفهم بقوله: القاتلون الأولاد فى الأودية تحت شقوق المعاقل.

وبقاء عادة تقديم الأولاد قرابين على محرقة للإله - فى بنى إسرائيل لفترة بلغت حوالى ٩٠٠ عام بعد إسحق تدل على أن الذبيح لم يكن إسحق. إذ لو كان هو لظلت هذه الحادثة فى ذاكرتهم وامتنعوا عن هذه العادة. وفى المقابل ولأن الذبيح كان إسماعيل فقد بطلت هذه العادة تماماً - ومن وقتها - فى العرب.

حرماً آمناً:

لا شك أن إبراهيم عليه السلام راح يستعرض فى ذاكرته الأحداث الجسام التى مرت به منذ قدومه مكة. فها هو قد بنى لله بيتاً كبيراً - طالما تمناه وهو يرى معابد الوثنيين فى العراق والشام ومصر وكل ما كان يستطيعه فى هذه البلاد هو إقامة رمز فوق قمة جبل يتعبد هو وأتباعه لله عنده. ولكن تحقق الحلم أخيراً. وتم إقامة بيت الله فى مكة. وجعل الله هذا البيت مرجعاً يثوب إليه الزوار ويلجأون إليه أو موضع ثواب يثابون بزيارته أى مثوبة. وأمناً، أى موضع أمن لسكانه.

«وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً». (من الآية ١٢٥ - البقرة)

وحتى القاتل الملتجىء إليه. لا يستوفى القصاص منه فى الحرم. ولكن يُضيق عليه ولا يُكلم ولا يطعم ولا يعامل حتى يخرج. فيقام عليه الحد. وهو أمن لكل شىء كائناً ما كان حتى الطير والحيوان إلا العقرب والثعبان والهوام وماشابهها:

«فيه آيات بينات. مقام إبراهيم. ومن دخله كان آمناً». (من الآية ٩٧ - آل عمران)

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن أنه قال: كان الرجل فى الجاهلية يقتل الرجل ثم يدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول أو أبوه فلا يحركه. وأخرج ابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه قال: لو وجدت قاتل الخطاب فى الحرم ما مسسته حتى يخرج منه. وعن ابن عباس قال: لو وجدت قاتل أبى فى الحرم لم أتعرض له.

ومذهبهم فى ذلك أنه من قتل أو سرق ثم دخل الحرم فإنه لا يُجالس ولا يُكلَّم ولكن يُضيق عليه حتى يخرج فيؤخذ فيقام عليه الحد. أما من قتل أو سرق فى الحرم، فيُقام عليه الحد فى الحرم. بعضهم قال إن المعنى من دخله كان آمناً من النار. وأخرج البيهقى عن ابن عباس قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من دخل البيت دخل فى حسنة وخرج من سيئة مغفوراً له. وفى رواية عن ابن عمر قال: من قبر بمكة مسلماً بعث آمناً يوم القيامة. ولكن التفسير

بالأمن فى الدنيا أرجح. ويجوز إرادة العموم بالأمن فى الدنيا والآخرة لإطلاق اللفظ على الحالين.

لم يكتف إبراهيم عليه السلام بأن الله قد جعل البيت الحرام أمناً للناس. فدعا ربه أن يجعل البلدة كلها – بلدة مكة – بلداً أمناً فتكون مكة كلها حرماً آمناً. ودعا الله كذلك أن يرزق أهله من الثمرات والرزق أى أن يبارك لهم فى زرعهم وثمره وتجارتهم وثمرة أعمالهم كلها.

«وإذ قال إبراهيم. رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر». (من الآية ١٢٦ – البقرة)

قال ابن جرير وغيره سمعنا أشعت عن نافع عن أبى هريرة قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن إبراهيم كان عبدالله وخليله وإنى عبدالله ورسوله. وإن إبراهيم حرم مكة وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها، عضاها وصيدها. لا يحمل فيها سلاح لقتال. ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بعير.

وعن ابن جرير أيضاً عن كثيرين عن رافع بن خديج قال. قال رسول الله صلى الله على وسلم: إن إبراهيم حرَّم مكة وإنى أحرم ما بين لابتيها (المقصود يثرب).

وفى البخارى عن عبدالله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها. وحرمتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها فى مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة. وجاء الحديث فى صحيح مسلم أيضاً.

ورويت أحاديث أخرى فى هذا المعنى بأسانيد أخرى.

والصاع والمد مكيال تكال به الحبوب. والصاع أربعة أمداد. والمد قدَّره الشافعية بنصف قدح. والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم دعا الله أن يبارك فى زرعها وثمرها.

وقد ورد فى الصحيحين عن عبدالله ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى. ولم يحل لى إلا ساعة من نهار. فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. لا يعضد شوكة ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرَّفها. ولا يختلى خلاها. فقال العباس: يارسول الله إلا الإذخر (حشيش أخضر طيب الرائحة) فإنه للبيوت والقبور. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلا الإذخر.

وروى مثل هذا الحديث، بتغيير طفيف، عن أبى هريرة وعن آخرين. ولا تعارض بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها لأن إبراهيم بلَّغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام للبيت.

«وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً. واجنبنى وبنىَّ أن نعبد الأصنام. رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى. ومن عصانى فإنك غفور رحيم». (٣٥ - إبراهيم)

فى هاتين الايتين. أضاف إبراهيم عليه السلام إلى دعاء البلد الآمن شيئاً آخر. فهو قد علم ما يفعل الشيطان بابن آدم. وتوعده لهم بقوله: لأقعدن لهم صراطك المستقيم. وأنه يفتن الناس بعبادة الأصنام. خاف إبراهيم عليه السلام على بنيه وذريته. فهم وإن كانوا يعبدون الله الآن، فما يدريه ما يفعلون بعد أن يفارقهم ويبعد بهم العهد، فطلب من الله أن يجنب بنيه وذريته أن يعبدوا الأصنام. ومعلوم أن الأنبياء عليهم السلام معصومون عن عبادة غير الله تعالى. وقالوا إن إبراهيم عليه السلام جعل الدعاء لنفسه أيضاً لإظهار فضل الله تعالى فى هذه العصمة وإظهار الحاجة إلى فضل الله تعالى فى الثبات عليها. وفى رأينا أنه إنما أراد أيضا - بعطف بنيه على نفسه - أن يجعل الله لهم مثل ثباته على عبادة الله وبدلاً من أن يقول واجنب بنى أن يعبدوا الأصنام فقد لا يستجاب هذا الدعاء. لذلك أراد أن يشرك نفسه فى الدعاء أيضاً لعلمه أن ذلك سيكون أقرب إلى الاستجابة فقال: «واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام».

لقد رأى الأصنام تعبد فى أور وبابل والشام ومصر. ورأى كيف يُفتتن الناس بها. ويعمل الكهنة - الذين يقومون على هذه الأصنام - على إضلال الناس. فخاف على ذريته من مثل هذا. وعلم أن من سيظل على اتباع سنته فهو منه. أى متصل به ومتبع لدين الله الحنيف. وأما من عصى وضل. فقد دعا الله أن يهديه برحمته ويغفر له فترة ضلاله. فالله غفور رحيم. وهكذا أراد إبراهيم عليه السلام أن تكون ذريته مؤمنة مسلمة. وذلك ما كان يدعو به أيضاً وهو يرفع القواعد من البيت بقوله:

«ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك». (من الآية ١٢٨ - البقرة)

مناسك الحج:

بنى إبراهيم عليه السلام بيت الله الحرام ليطوف حوله. يذكرون اسم الله أثناء طوافهم. ويصلون عنده الصلوات التى فرضها الله عليهم. ليتوب الله عليهم ويغفر لهم ذنوبهم ويزيديهم من فضله حسنات وثواباً. ولعل إبراهيم عليه السلام رأى أن من يأتى حاجاً لبيت الله عليه أن يزور أيضاً المكان الذى كان به فداء إسماعيل من الذبح لتظل هذه الحادثة باقية فى الأذهان فلا يعود الناس ثانية إلى التضحيات البشرية. ولعله أيضاً رأى أن رمى الشيطان بالجمرات - عند وسوسته له ليثنيه عن تنفيذ أمر ربه - أمر يستحق التذكر أيضاً وطلب من الله العلى الحكيم أن يريه ترتيب إتيان هذه العبادات حت تكون توبة العباد مقبولة فدعا ربه:

«وأرنا مناسكنا. وتب علينا». (من الآية ١٢٨ - البقرة)

فلما أراه الله ترتيب مناسك الحج، أمره الله أن يؤذِّن فى الناس بالحج.

«وأذن فى الناس بالحج، يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق». (٢٧ - الحج)

عن ابن عباس قال: لما قال الله تعالى: «وأذن فى الناس بالحج» قال إبراهيم: وما يبلغ صوتى؟ قال: أذِّن وعلى البلاغ. قال: رب كيف أقول؟ قال: قل، يا أيها الناس. كُتب عليكم الحج إلى بيت الله العتيق. فسمعه أهل الأرض والسماء.

وجاء فى رواية أخرى أنه عليه السلام صعد أبا قبيس ثم نادى: يا أيها الناس، إن الله كتب عليكم الحج فأجيبوا ربكم. من هنا كان أول ما يتلفظ به الحاج بعد التطهر والإحرام هو: لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. وهو تلبية للأذان بالحج الذى رفعه إبراهيم عليه السلام.

وهكذا اكتملت شريعة الحج بأن بين الله لإبراهيم عليه السلام ترتيب المناسك حتى يتبعها ويعلمها للناس وتتبعها ذريته من بعده. ولهذا قرأ ابن مسعود الآية «وأرهم مناسكهم» بإعادة الضمير إلى الذرية. وكان آخر الدعاء هو: «وتب علينا» أى وفقنا للتوبة أو اقبلها منا. والضمير يشمل الذرية أيضاً. بل لعله ينصب أساساً على الذرية لأنها هى التى سيصدر عنها الذنب الذى يتطلب التوبة. وقد أدخل إبراهيم عليه السلام نفسه وإسماعيل عند طلب التوبة لتكون أقرب للاستجابة. إلاّ أن عبدالله قرأها: «وتب عليهم» جمع الغائب.

وأتبع إبراهيم ذلك بدعاء أخير. وهو أن يبعث الله - فى ذريته من إسماعيل - رسولاً منهم.

«ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم. يتلو عليهم آياتك. ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم». (١٢٩ - البقرة)

وفى الأثر أنه لما دعا ربراهيم بذلك قيل له: قد استجيب لك. وهو يكون فى آخر الزمان..

وروى الإمام أحمد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: سأخبركم بأول أمرى: أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمى التى رأت حين وضعتنى.

كان موعد الحج قد اقترب. وأذَّن إبراهيم بالحج. وأمَّ الناس فى الحج وعلمهم مناسك الحج وترتيبها.

وبانتهاء الحجة علم إبراهيم عليه السلام أن مهمته فى مكة قد انتهت وطاف بالبيت طواف الوادع. وعاد إلى حبرون.

احداث النصف الثانى من حياة إبراهيم عليه السلام

مصــــر	ق.م.	العمر	إبراهيم	العمر	إسماعيل	إسحق ويعقوب
		٩٩				ولادة إسحق
	١٨٧٨	١٠٠	زيارة لمكة	١٣	ختان إسماعيل	
		١٠١	بناء الكعبة			
سنوسرت الثالث	١٨٧٦	١٠٢	أمر الذبح والحج	١٥	أمر الذبح	
		١٠٣				
		١٠٤				
	١٨٧٢	١٠٦	زيارة مكة وحج	١٩	أول زواج	
	١٨٧٠	١٠٨	زيارة مكة وحج	٢١	ثانى زواج	
		١١٧		٣٠		
	١٨٥٨	١٢٠		٣٣		
١٨٥١	١٨٥١	١٢٧		٤٠	مبعثه رسولاً	
		١٣٠				
		١٣٥				
		١٣٧		٥٠	رحلته إلى اليمن	
		١٣٩		٥٢	وفاة هاجر	إسحق ٤٠ سنة تزوج رفقة
أمنمحيت الثالث (حكم ٤٨ سنة)	١٨٣٨	١٤٠		٥٣		
		١٤٥				رفقة عاقر ١٠ سنوات
	١٨٢٩	١٤٩	وفاة سارة بعد ولادة يعقوب وعمرها ١٣٩سنة	٦٢		٥٠ عمر إسحق عند ولادة يعقوب
	١٨٢٨	١٥٠				
		١٥٥				
	١٨١٨	١٦٠				
		١٦٥				
	١٨٠٨	١٧٠				
١٨٠٢	١٨٠٣	١٧٥	وفاة إبراهيم	٨٨	عمر إسماعيل	٧٤ عمر إسحق

إسماعيل عليه السلام

سبق أن ذكرنا زواج إبراهيم عليه السلام من هاجر وولادة اسماعيل. ثم أخذهما إلى واد غير زرع بمكة وتركهما هناك تنفيذا لأمر الله. وتفجرت زمزم ببركة هذا الوليد الذى هو إسماعيل. وجاءت جماعة من جرهم واستأذنوا هاجر فى السكنى بجوار البئر فأذنت لهم. وتبعتهم جماعة من العماليق. وإذا بالوادى يعمر وينبض بالحياة. تعرج عليه القوافل القادمة من اليمن إلى الشام أو العائدة من الشام إلى اليمن. وكانت القوافل كلها تحط رحالها عند مكة. تستريح من السفر الطويل. فإن مكة تقريبا فى منتصف المسافة من اليمن إلى شمال الجزيرة العربية والشام. يتزودون بالماء والطعام ويتاجرون فيما معهم من بضاعة. وكان أهل مكة يصيبون من هذه القوافل خيرا كثيراً.

ثم ذكرنا شيئا عن إسماعيل فى شبابه. وكيف استأنس الخيل الوحشية فكان أول من ركبها. وبرع فى رمى السهام. وسهَّل اللغة فكان أول من نطق بالعربية الفصحى.

وجاء إبراهيم عليه السلام فى زيارة له لمكة وكان عمر إسماعيل ثلاثة عشر عاماً. وقام والده بختانه.

وساعد إسماعيل والده فى بناء البيت الحرام.

«وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت. وإسماعيل ربنا تقبل منا».

ثم كانت محنة الذبح والفداء.

ورافق إسماعيل أباه فى أول حج وأدى المناسك كلها. ورأى أن الله شاءت حكمته أن تتضمن هذه المناسك لهفة هاجر – والدته – عليه وهى تهرول بين الصفا والمروة سبعة أشواط بحثا عن الماء له. كان صغيرا لا يعى – ولكنها أخبرته بذلك وكيف أن ماء زمزم تفجر عند كعبه فكان خيرا وبركة للجميع. تفكر أيضا فى كيف أن الله جعل من رجم إبليس عند محاولته ليثنى والده عن تنفيذ أمر ربه بذبحه – جعل الله هذا الرجم جزءا من مناسك الحج. كما جعل الأضحية فى يوم النحر تخليدا لفدائه.

بعد انتهاء شعائر الحج أدرك إبراهيم عليه السلام أن مهمته فى مكة قد انتهت. وأخبر ابنه إسماعيل بأن له أخا فى حبرون من سارة زوجته. وفهم من إسماعيل أن والدته هاجر كانت قد أخبرته عن زوجته سارة. وأنها كانت تتكلم دائما عنها بالخير. وتذكر دائما فضلها فى تزويجها من إبراهيم النبى – والده – عليه السلام.

وسُرَّ إسماعيل لما علم أن له أخا شقيقا يكاد يبلغ من العمر عاما واحدا فى حين أن

إسماعيل كان قد بلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره.

عاد إبراهيم عليه السلام إلى حبرون.

ومرت ثلاث سنوات بلغ فيها إسماعيل الثامنة عشرة وأعجب بإحدى فتيات قبيلة جرهم – يقال اسمها صدا بنت سعد – فتزوجها بالرغم من أن هاجر لم تكن تستريح إليها – إذ كانت كثيرة التبرم بضيق العيش وشظف المعيشة، ولكن هاجر احتملتها لكونها تروق فى عين ولدها.

كان موسم الحج يقترب، وتاقت نفس إبراهيم عليه السلام للحج، فشد الرحال إلى مكة بصحبة عدد من غلمانه وعبيده وقدم إبراهيم إلى مكة، وقصد بيت هاجر وعلم أن إسماعيل قد تزوج فقصد بيته فلم يجده فسأل عنه فقالت خرج ليبتغى لنا، وسألها عن معيشتهم وهيئتهم، فقالت نحن بشَرٍّ، نحن فى ضيق وشدة وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يُغَيِّر عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل، كأنه أنس شيئا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألنا كيف عيشنا، فأخبرته أننا فى جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشىء؟ قالت: نعم، أن أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك. قال: ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك، فالحقى بأهلك، وطلقها.

ذلك أن إبراهيم عليه السلام – أدرك أن هذه الزوجة فظة غليظة القلب، لا تحمد الله ولا تصلح أن تكون أُمًّا للذرية التى وعده الله بها لتحمل رسالته إلى مشارق الأرض ومغاربها.

كان إبراهيم عليه السلام قد توجه إلى بيت هاجر، وهناك لحق به ابنه إسماعيل، وأديا مناسك الحج معا، وبعد انتهائها عاد إبراهيم عليه السلام إلى حبرون.

ومرت الأيام وتزوج إسماعيل للمرة الثانية، قال ابن هشام: من عاتكة بنت عمرو الجرهمى وقال الواقدى إنها شاملة بنت مهلهل، وتقول التوراة وأخذت له أمه زوجة من مصر، وأخذ بهذا الرأى الأستاذ عبدالحميد جودة السحار وقال إن هاجر أرسلت رسلا إلى صديقة من صديقاتها بمنف ليعودوا بإحدى قريباتها المصريات لتكون زوجة لإسماعيل.

ولا نرى هذا الرأى – إذ أنه يجعل أبناء إسماعيل من زوجة مصرية، وكان هذا الأمر جديرا بالذكر فى الكتب، والأرجح ما قاله ابن هشام من أنها عاتكة بنت عمرو الجرهمى، بدليل أن هذا أعطى شرفا لجرهم على العماليق، وجعلهم يطمعون فى السيادة بمكة، وهذا ما تم فعلاً، إذ نازعوا نابت ابن إسماعيل الأمر، واستولوا على ولاية البيت وسقاية الحجيج.

بعد عامين تاقت نفس إبراهيم عليه السلام للحج وزيارة ولده إسماعيل، فشد الرحال إلى مكة فى قافلة صغيرة من بعض غلمانه ورواحل تحمل الخيام والزاد، وسار حتى وصل مكة، وضرب خيامه ثم توجه إلى حيث دار إسماعيل فلم يجده، فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغى

لنا طعاما. قال كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم. قالت نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل. قال ما طعامكم؟ قالت اللحم قال فما شرابكم؟ قالت الماء. قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء. قال فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم. أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه: فسألنى عنك فأخبرته. فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير. قال أفأوصاك بشيئ؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال ذلك أبى. وأنت العتبة أمرنى أن أمسكك.

وبحث إسماعيل عن والده فوجده يطوف حول الكعبة.

وأتما مناسك الحج معا. كما فى المرة السابقة.

تروى بعض الكتب روايات عن أن إبراهيم عليه السلام كان يستأذن سارة أن يزور إسماعيل (عرائس المجالس. الثعلبى. ص ٩٩). فكانت تأذن له. وأنها أحيانا كانت تشترط عليه ألا ينزل عن راحلته (تفسير الألوسى جـ ١ ص ٣٧٩).

وروى عن الحسن أنه فى زيارة إبراهيم لزوجة إسماعيل الثانية - أن زوجة إسماعيل وضعت حجرا تحت إحدى رجليه وهو راكب فغسلت إحدى شقى رأسه. ثم رفعت الحجر من تحت رجله وقد غاصت فيه. ووضعته تحت رجله الأخرى. فغسلت شقه الأخرى وغاصت رجله الأخرى فيه أيضا. فذلك أثر رجلى إبراهيم!

ومن المؤكد أن هذا الشرط - أن لا ينزل عن راحلته - من موضوعات أهل الكتاب. فمما لا يقبله العقل والمنطق أن يقطع مسافه حوالى ١٣٠٠ كيلو متر من حبرون إلى مكة. ليقضى بمكة بضع ساعات يظل فيها على راحلته ثم يقفل راجعا نفس المسافة. دون أن يستريح حتى من مشقة السفر.

ومن شبه المؤكد أن إبراهيم عليه السلام كان يجعل زياراته فى موعد الحج لينال ثواب الحج أيضا. رمن المؤكد أيضا أنه كان ينتهز فرصة هذه الزيارات لنشر دين الله - دين الحنيفية - بين جرهم والعماليق الساكنين بمكة وبين القبائل المارة بها فى تجارتها. أو الوافدة إليها فى موسم الحج. وإلاً فمن أين جاء دين الحنيفية الذى كان عليه بعض العرب؟

لقد سبق أن ذكرنا أن هاجر قد أخبرت القوم بأن الله قد فجَّر ماء زمزم، سقيا من الله، ببركة وليدها إسماعيل، ابن نبى الله إبراهيم، وتشوق القوم لرؤية هذا النبى ومعرفة المزيد عن دينه، وإذ جاء إبراهيم عليه السلام فى زيارته الأولى، فلابد أنهم التفوا حوله يستطلعونه أمر هذا الدين. وحين اكتمل بناء البيت كان القوم كلهم قد تحولوا إلي دين الحنيفية. ومما لا شك فيه أن إبراهيم عليه السلام - فى زياراته التالية - كان يقعد بينهم، يفقههم فى أمور دينهم ويتلو عليهم ما كان ينزل عليه من ربه من صحف. وصفها الله بقوله «صحف إبراهيم». فلا محل للقول بأنه كان لا ينزل عن راحلته!

اطمأن إبراهيم عليه السلام فى هذه الزيارة أن زوجة إسماعيل هى التى تصلح أن تكون أما للذرية التى وعد الله بها إسماعيل. وعاد إبراهيم - بعد الحج - إلى حبرون.

وتمضى السنون - وبلغ إسماعيل أشده وبلغ أربعين سنة. وكان القوم فى حاجة إلى نبى يبلغهم تعاليم ربهم وينظم شئونهم. واختاره الله لإتمام الرسالة التى بدأها أبوه - إبراهيم عليه السلام. ببناء البيت وتشريع الحج ومناسكه. فكان إسماعيل رسولا نبيا.

«واذكر فى الكتاب إسماعيل. إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا. وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند ربه مرضيا». (٥٤ - ٥٥ مريم)

هذا ثناء من الله على إسماعيل بأنه كان صادق الوعد. وقال بعضهم: قيل صادق الوعد لأنه قال لأبيه «ستجدنى إن شاء الله من الصابرين» فصدق فى ذلك. وصدق الوعد من الصفات الحميدة. وقال ابن جريج: لم يعد ربه عِدَة إلا أنجزها. يعنى ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفاها حقها.

وكان رسولا نبيا - وفى هذا الوصف تقدمة له على أخيه إسحق الذى وصفه الله بالنبوة فقط فى قوله:

«وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين». (١١٢ - الصافات)

ومن المبالغات التى قالوها فى أنه كان صادق الوعد ما ذكره ابن كثير (تفسير جـ ٣ ص ١٢٤). قال ابن جرير، حدثنى يونس، أنبأنا ابن وهب أن سهيل بن عقيل حدثه أن إسماعيل النبى عليه السلام وعد رجلا مكانا أن يأتيه فيه، فجاء، ونسى الرجل. فظل إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد. فقال الرجل: ما برحت من ههنا؟ قال لا. قال: إنى نسيت. قال إسماعيل: لم أكن لأبرح حتى تأتينى.

وعن سهل بن سعد (تفسير الألوسى. جـ ١٦ ص ١٠٤) قال غاب عنه يوماً وليلة. وعن مقاتل ثلاثة أيام وقال آخرون غاب عنه اثنى عشر يوما. وقال سفيان الثورى: بلغنى أنه أقام فى ذلك المكان ينتظره حولا حتى جاءه ويبلغ الخيال أقصاه فيقول ابن شوذب: بلغنى أنه اتخذ ذلك الموضع مسكنا!!

وما أظن أن صدق الوعد يكون بهذه الطريقة المبالغ فيها والتى فيها مضيعة لوقت بنى كريم. فيكفى أنه كان صادق الوعد مع أبيه حينما قال «ستجدنى إن شاء الله من الصابرين». وقس على ذلك صدقه فى كل معاملاته.

«وكان رسولا نبيا».

وقد سبق ذكر تعريف الرسول فى الجزء الأول (ص ٢) بأنه هو الذى أنزلت عليه رسالة أى

كتاب مثل إبراهيم وموسى وداوود وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، ووصف إسماعيل بأنه كان رسولا فيه دلالة على أن الرسول لا يُشترط أن يكون صاحب شريعة جديدة. بل يكفى أن يكون صاحب شريعة بالنسبة لمن بعث إليهم وإسماعيل بُعث إلى جرهم والعماليق وأهل اليمن بشريعة إبراهيم عليه السلام.

«وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة».

وهو أن يبدأ المرء بعد تكميل نفسه بتكميل أقرب الناس إليه وهم أهله لأنهم قدوة يقتدى بهم. وقال الحسن (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٠٥) المراد بأهله أمته لكون النبى بمنزلة الأب من أمته ويستدل على ذلك أن فى مصحف عبدالله: **«وكان يأمر قومه».**

وهذا يتفق مع ما أُمر به نبينا الكريم ﴿ ﷺ﴾

«وأنذر عشيرتك الأقربين». (٢١٤ - الشعراء)

«وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها». (من الآية ١٣٢ - طه)

وجاء فى الحديث عن أبى هريرة قال، قال رسول الله ﴿ ﷺ ﴾: رحم الله رجلا قام الليل فصلى وأيقظ امرأته. فإن أبت نضح فى وجهها الماء. ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء. أخرجه أبو داوود وابن ماجه.

وعن أبى سعيد وأبى هريره رضى الله عنهما عن النبى ﴿ ﷺ ﴾ قال: إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كُتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات. رواء أبو داود والنسائى وابن ماجه.

وأما الزكاة فهى الصدقة. وكان يأمر قومه بالصلاة والزكاة. قيل الصلاة ليلا والصدقة نهارا. وقيل المراد بها الصلاة والصدقة فى كل وقت.

وكان عند ربه مرضيا. لاستقامة أقواله وأفعاله.

وكذلك وصف إسماعيل عليه السلام بأوصاف عدة فى القرآن الكريم وَصف بأنه من الصالحين، بالإضافة إلى كونه من الصابرين، فى قوله تعالى:

«وإسماعيل وإدريس وذا الكفل. كل من الصابرين. وأدخلناهم فى رحمتنا. إنهم من الصالحين». (٨٥ - ٨٦ - الأنبياء)

وذكر كذلك أنه من الأخيار:

«واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل. وكل من الأخيار». (٤٨ - ص)

وذكر أيضا بأنه كان ممن فضلهم الله على العالمين، قيل أى عالمى عصرهم.

«وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا . وكلا فضلنا على العالمين». (٨٦ - الأنعام)

فإسماعيل عليه السلام من الصابرين، والصالحين، والأخيار وفضله الله على عالمى عصره بالإضافة إلى أنه كان صادق الوعد، وكان رسولا نبيا .

إسماعيل - وكان رسولا نبيا :

جاء قوله تعالى:

«قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط. وما أوتى موسى وعيسى....». (من الآية ١٣٦ - البقرة)

وقوله:

«قل آمنا بالله وما أنزل علينا، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى......». (من الآية ٨٤ - آل عمران)

فنرى أن إسماعيل وإسحق والأسباط ذكُروا فى مقام المعطوف على إبراهيم لأنهم كانوا يطبقون شريعته كلٌّ فى قومه. فالشريعة وإن نزلت على إبراهيم عليه السلام. إلاَّ أنهم كُلفوا بتطبيقها فى أقوامهم.

كان إسماعيل رسولا إلى جرهم والعماليق واليمن.

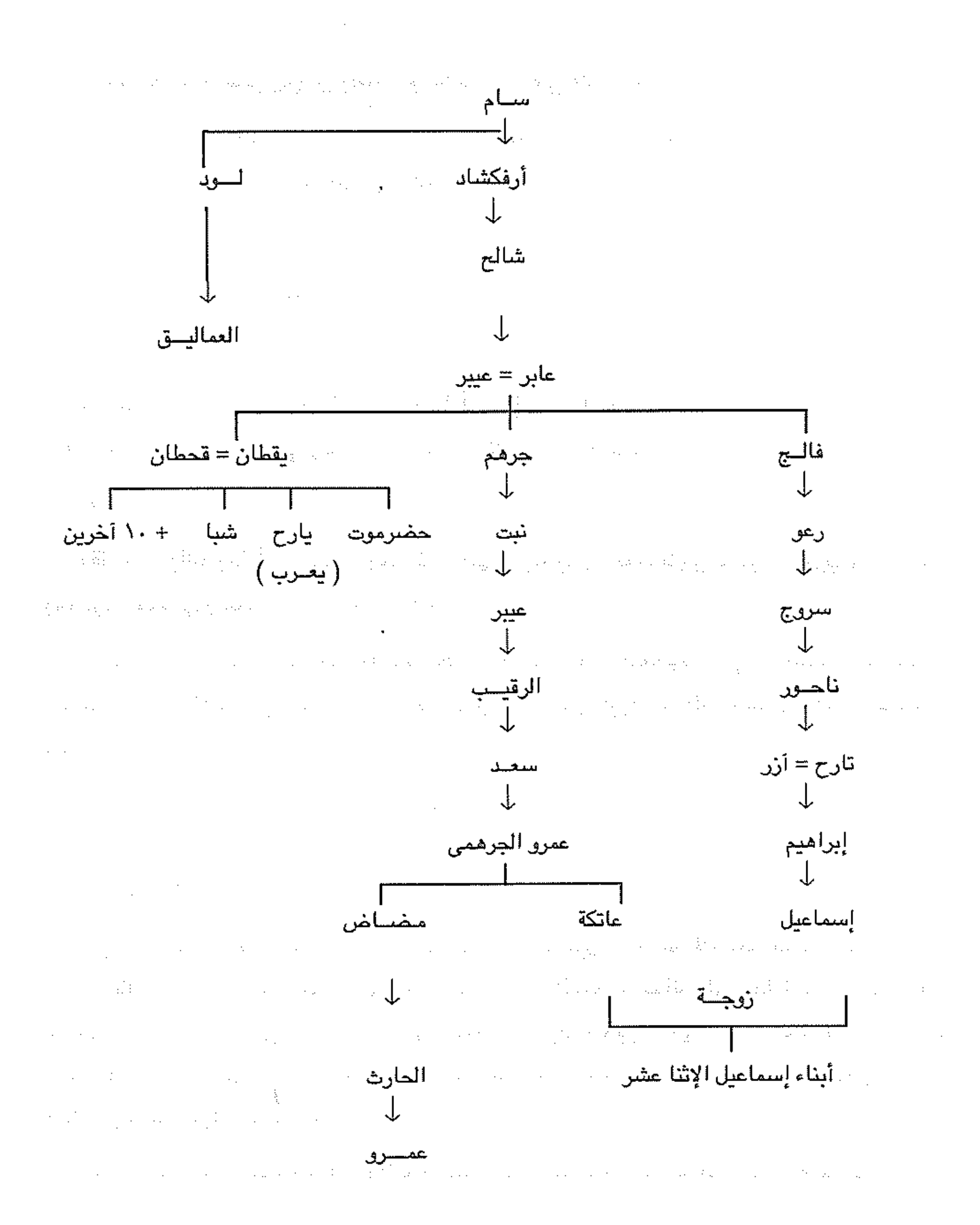
١ - جــرهم :

سبق أن ذكرنا أنه لما تفجر ماء زمزم ببركة إسماعيل عليه السلام تصادف أن جماعة من جرهم كانوا يمرون قرب مكة. ورأوا الطير يحوم فى السماء. فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء، وعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء. وأرسلوا من يرى الخبر فرأى الماء. فجاء وفد من جرهم واستأذنوا هاجر فى النزول عند الماء. فأذنت لهم. فجاءت جرهم برجالها ونسائها وأطفالها وإبلها وغنمها ونزلوا بوادى مكة.

وجرهم هو أخو فالج ويقطان والثلاثة أبناء عابر أو عبير ابن شالح ابن أرفكشاد بن سام (شكل ٤١).

٢ - العماليق :

هم من نسل لود ابن سام. كانت القبيلة فى الأصل تسمى ماليق أو مالوق وأضيف إليها



شكل ٤١ – شجرة نسب جرهم وقرابتهم لإسماعيل

لفظ «عم» بمعنى شعب فقيل عم ماليق أى شعب الماليق ثم عماليق أو عمالقة.

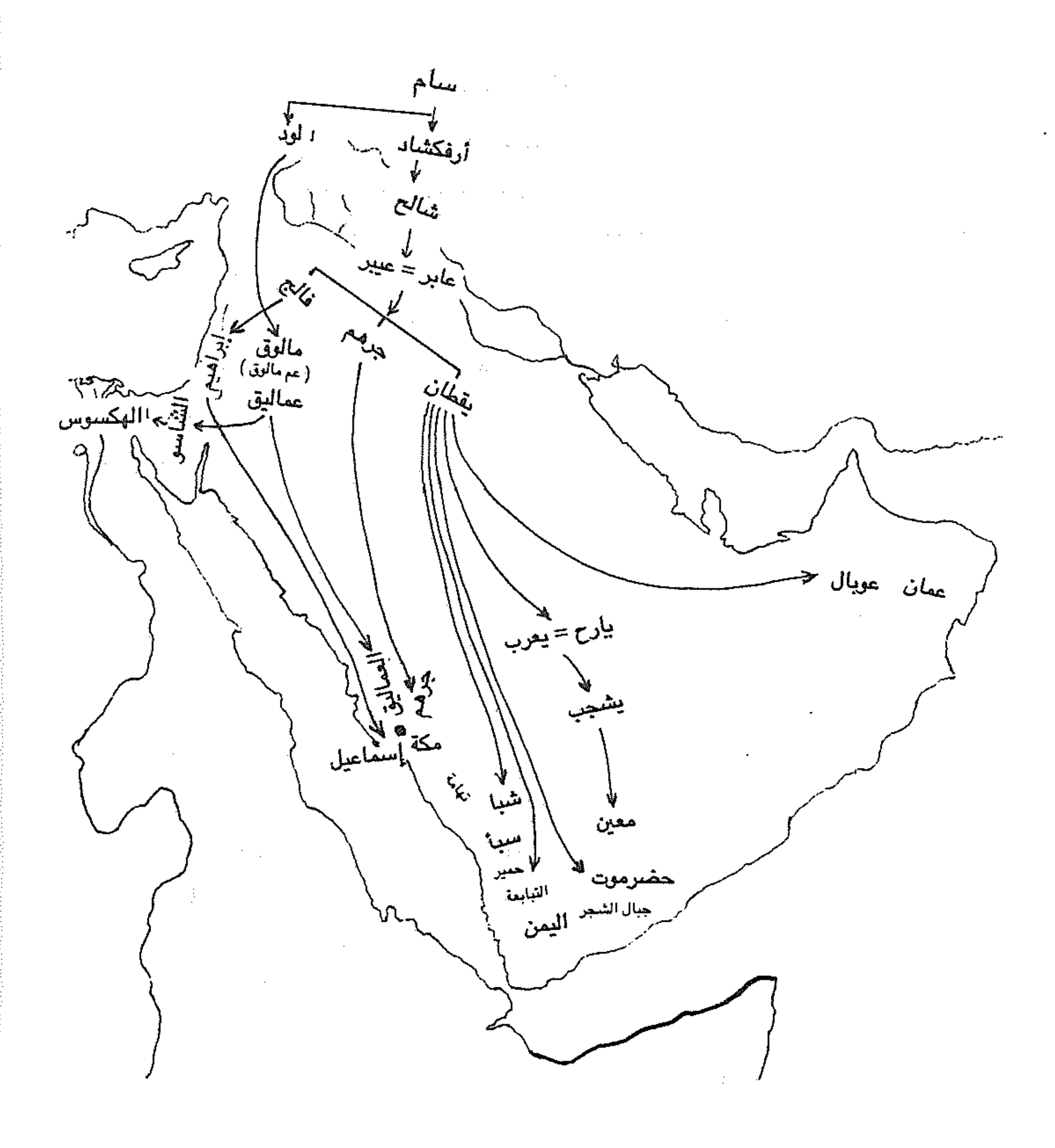
ومعظم المؤرخين يقولون بأنهم كانوا يسكنون فى شمال صحراء الجزيرة العربية شرقى خليج العقبة. وهم عرب، بدو رحل. ويرى كثيرون أن جماعة منهم اتجهت غربا ودخلوا مصر وحكموها باسم الهكسوس كما سيأتى فيما بعد وسماهم المصريون «خابيرو» أو «عابيرو» ويقال إن جماعة منهم عند طرد الهكسوس – بقوا فى مصر واندمجوا فى بعض الأسباط من بنى يعقوب وأطلق على الجميع «عابيرو» ومنها جاءت «عبرى» (د. حسين الشيخ – العرب قبل الاسلام. ص ٦٧). وجماعة أخرى من العماليق كانوا فى طريقهم جنوبا. ولما قربوا من وادى مكة ضل لهم بعيران فتبعهما غلامان حتى جبل أبى قبيس فنظرا الماء ثم أخبرا باقى القوم فأستأذنوا هاجر وأقاموا بوادى مكة.

سكنت هاتان القبيلتان فى مكة بعد أن أذنت لهما هاجر. وشب إسماعيل بينهم. ولما بعث إسماعيل رسولا استكمل ما كان قد بدأه أبوه – إبراهيم عليه السلام – من دعوتهم للإيمان والتمسك بالعقيدة الحنيفية.

٣ – اليمـن:

يراد باليمن فى التاريخ القديم الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية. وهو ما يسميه اليونان Arabia Felix أى العربية السعيدة. ولعل اسم اليمن مشتق من اليمن أى البركة لكثرة خيراتها بالنظر إلى البادية فى باقى الجزيرة العربية. ويدخل فى عداد اليمن قديما المناطق المسماة الآن: اليمن وحضرموت وتهامة: والجوف. وعُمان. ثم لما زاد الجفاف غطت الرمال أجزاء كبيرة من الأراضى الزراعية وأصبح اليمن يطلق على الجزء الجنوبى الغربى ويشمل اليمن وحضرموت وسبأ (شكل ٤٢).

وتاريخ هذه المنطقة غامض أشد الغموض. لم يصلنا منه إلا القليل. وينتسب عرب اليمن إلى يعرب بن قحطان (يقطان) – ولكن التوراة لا تذكر بين أبناء قحطان الثلاثة عشر واحدا باسم يعرب. إلا أن يكون هو المذكور باسم يارح. وبالطبع فإن حضرموت سكنها حضرموت ابن قحطان وسبأ تنسب إلى شبا أخيه وكان فى هذه المنطقة أناس ممن عاصروا عادا قوم هود عليه السلام. كانوا يسكنون فى كل البقاع المجاورة. وتكاثروا وملأوا كل بلاد اليمن القديمة – ولكن لما جاء أبناء قحطان زاحموا السكان الأوائل الذين سُمّوا بالعرب البائدة. وأخذوا لغتهم وسُمِّى القادمون الجدد بالعرب العاربة أو المتعربة أو المستعربة.



شكل – ٤٢ أصل بعض القبائل والدول العربية القديمة

العقيدة الدينية فى اليمن:

كان القحطانيون يسكنون فى الصحراء العربية الملاصقة للعراق. ولما تمت إزاحتهم أو هجرتهم إلى الجنوب، أخذوا معهم ديانتهم ولذلك نجد معبوادتهم أقرب إلى معبودات البابليين، فعندهم «عشتار» و «إيل» و «بعل». كذلك وجدت نقوش عليها إسم الإله «ود» وهو أحد آلهة العراق أيام نوح عليه السلام. ولعل المعينيين النازخين إلى اليمن قد أخذوا عبادتهم معهم لما خرجوا من العراق.

وظهرت فى حضرموت عبادة الإله «سين» إله القمر. كما كانت الشمس أيضا من المعبودات. وانتشرت عبادة الشمس إلى سبأ – وسيجىء ذكر ذلك فى قصة سليمان عليه السلام وملكة سبأ.

ودولة معين فى اليمن كان لها ثلاث معبودات رئيسية.

«ود» وهو رب القمر مذكر واسمه أيضا «الموقاة».

«نكرح» وهى ربة الشمس – مؤنثة.

«عشتر» وهى ربة الزهرة ومؤنثة – وابنة لهما.

وكان أهل معين يعتبرون أنفسهم أبناء «ود» ويعتبرونه إلههم وحاميهم. وكان أهل حضرموت يسمون أنفسهم «أبناء سين» إله القمر.

وقد ورد فى نقوش وجدت باليمن اسم إلهين آخرين هما «ذات حشو» و «ذات صميم أو ذات حميم» إله الشمس. وكان لكل قبيلة إله لجلب المطر وآخر لمباركة المحاصيل وغير ذلك من الشئون مثل: «رئام» و «عميانس» و «يغوث» و «نسر» (شكل ٤٣).

قليلة جدا هى الكتب التى تذكر أن اسماعيل عليه السلام دعا أهل اليمن إلى دين الحنيفية – دين إبراهيم عليه السلام. وكان دين الحنيفية قد استقر بمكة وتوطدت دعائمه بعد تشريع الحج إلى بيت الله الحرام. ولكن الحجاج من أقاصى الجزيرة العربية كانوا يفدون مكة للتجارة وحج البيت. وكثير منهم كانوا يحملون تماثيل آلهتهم معهم. فلم يكن الحج خالصا لوجه الله، بل كانوا يشركون معه آلهتهم. لذلك لما بعث إسماعيل عليه السلام كانت إحدى مهامه نشر دين الله فى اليمن وما حولها من البقاع. وقيل (البداية والنهاية لابن كثير. جـ ٢ ص ١٨٠) إن إسماعيل زار تهامة ثم الجوف ثم اليمن وصنعاء. ودعا أقوام هذه الأمكنة إلى عبادة الله وشرح الله قلوب كثير من العباد فآمنوا به.



شكل ٤٣ – بعض الأصنام وأماكن عبادتها فى الجزيرة العربية القديمة.

وفـاة هاجـر:

عاد إسماعيل من رحلته إلى اليمن وكان عمره إذ ذاك يناهز الخمسين سنة ووجد أن والدته هاجر قد ماتت فى مكة ودفنت بالحجر. بجوار الكعبة.

وفى موسم الحج التالى حضر إبراهيم عليه السلام. وعلم بوفاة هاجر زوجته – وأم ولده البكر. وعزى إسماعيل. وعاد إلى حبرون وكانت هذه آخر رحلاته إلى الحجاز. وكان عمره وقتها مائة وسبعة وثلاثين عاما.

انتقل إبراهيم عليه السلام بعد ذلك للإقامة فى بئر سبع فقضى بها ثلاث سنوات.

إختيار زوجة لإسحق:

كان إبراهيم عليه السلام قد بلغ مائة وأربعين سنة. وبلغ إسحق من العمر أربعين سنة. وخاف إبراهيم أن يداهمه الأجل قبل أن يتزوج إسحق.

لم يشأ إبراهيم عليه السلام أن يتزوج إسحق من بنات الكنعانيين إذ أن الوثنية كانت متفشية ومتأصلة فى الكنعانيين. ولعله خشى على عقيدة إسحق إن هو صاهرهم. لذلك رأى أن يختار له زوجة من أقاربه فى حاران. كذلك لم يشأ أن يرسل إسحق بنفسه إلى حاران لاختيار الزوجة. فقد تستهويه الإقامة بين أصهاره ولا يعود إلى أرض كنعان التى وعد الله إبراهيم عليه السلام بها ولإسحق من بعده. لذلك فقد أرسل وكيل بيته أليعازر الدمشقى. لاختيار زوجة من حاران – فى شمال العراق حيث أجداد إبراهيم.

تقول التوراة (إصحاح ٢١ تكوين) وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المسئول عن كل ماله – ضع يدك تحت فخذى. فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانين الذين أنا ساكن بينهم. بل إلى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى إسحق. فقال له العبد. ربما لا تشاء المرأة أن تتبعنى إلى هذه الأرض. هل أرجع بإبنك إلى الأرض التى خرجت منها؟ فقال له إبراهيم: احترز من أن ترجع بإبنى إلى هناك. الرب إله السماء الذى أخذنى من بيت أبى ومن أرض ميلادى والذى كلمنى والذى أقسم لى قائلا: لنسلك أعطى هذه الأرض هو يرسل ملاكه أمامك فتأخذ زوجة لإبنى من هناك. وإن لم تشأ المرأة أن تتبعك تبرأْتَ من حلفى هذا، أما ابنى فلا ترجع به إلى هناك. فوضع العبد يده تحت فخذ إبراهيم مولاه وحلف له على هذا الأمر.

سبق أن قلنا إن تارح أى آزر – والد إبراهيم – وُلِدَ له ثلاثة أبناء هم: إبراهيم وناحور وهاران. وقلنا إن هاران مات صغيرا بعد ما وُلِد له لوط فكفله عمه إبراهيم وكان يعتبره كأنه ابنه. أما ناحور فقد تزوج ملكة وولد له ثمانية أبناء (شكل ٤٤). وما يهمنا هو بتوئيل – فقد أنجب ولدا اسمه لابان وبنتا اسمها رفقة Rebeca.

وتصف التوراة (إصحاح ٢٤ تكوين) كيفية إختيار زوجة إسحق هكذا: ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وجمع خيرات مولاه فى يده. فقام وذهب إلى أرام النهرين إلى مدينة ناحور (أى إلى حاران المدينة التى يعيش فيها ناحور) وأناخ خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء، وقت خروج المستقيات. وقال: أيها الرب إله سيدى إبراهيم، يَسِّر لى اليوم واصنع لطفا إلى سيدى إبراهيم. ها أنا واقف على عين الماء وبنات أهل المدينة خارجات ليستقين ماء. فليكن أن الفتاة التى أقول لها أميلى جرتك لأشرب فتقول إشرب وأنا أسقى جمالك أيضا، هى التى عينتها لعبدك إسحق، وبها أعلم أنك صنعت لُطفا إلى سيدى.

وإذ كان لم يفرغ بعد من الكلام، إذا رفقة التى وُلدت لبتوئيل ابن ملكة امرأة ناحور أخى إبراهيم، خارجة وجرتها على كتفها. وكانت الفتاة حسنة المنظر جدا وعذراء لم يعرفها رجل. فنزلت إلى العين وملأت جرتها وطلعت. فركض العبد للقائها وقال: اسقينى قليل ماء من جرتك. فقالت: اشرب يا سيدى. وأسرعت وأنزلت جرتها على يدها وسقته. ولما فرغت من سقيه قالت: أستقى لجمالك أيضا حتى تفرغ من الشرب. فأسرعت وأفرغت جرتها فى المسقاة وركضت أيضا إلى البئر لتستقى فاستقت لكل جماله. والرجل يتفرس فيها صامتا ليعلم أأنجح الرب طريقه أم لا. وحدث عندما فرغت الجمال من الشرب أن الرجل أخذ خزامة ذهب وزنها نصف شاقل فوضعها فى أنفها. ووضع سوارين على يديها وزنهما عشرة شواقل ذهب. وقال: بنت من أنت؟ أخبرينى، هل فى بيت أبيك مكان لنا لنبيت؟ فقالت له أنا بنت بتوئيل ابن ملكة زوجة ناحور. وقالت له عندنا تبن وعلف كثير ومكان لتبيتوا أيضا. فخرَّ الرجل وسجد للرب. وقال: مبارك الرب إله سيدى إبراهيم الذى لم يمنع لطفه وحقه عن سيدى. إذ كنت أنا فى الطريق هدانى الرب إلى بيت إخوة سيدى فركضت الفتاة وأخبرت بيت أمها بحسب هذه الأمور.

وكان لرفقه أخ اسمه لابان. فركض لابان إلى الرجل خارجا إلى العين وحدث أنه إذ رأى الخزامة والسوارين على يدى أخته وإذ سمع كلام رفقه أخته قائلة هكذا كلمنى الرجل. جاء إلى الرجل وإذا هو واقف عند الجمال على العين. فقال: ادخل يا مبارك الرب. لماذا تقف خارجا وأنا قد هيأت البيت ومكانا للجمال. فدخل الرجل إلى البيت وحلَّ عن الجمال. فأعطى تبنا وعلفا للجمال. وماء لغسل رجليه وأرجل الرجال الذين معه. ووضع الأكل قدامه ليأكل. فقال لا آكل حتى أتكلم كلامى. فقال تكلم.

فقال أنا عبد إبراهيم. والرب قد بارك مولاى جدا فصار عظيما. وأعطاه غنما وبقرا وفضة وذهبا وعبيدا وإماء وجمالا وحميرا. وولدت سارة امرأة سيدى ابنا بعدما شاخت فقد أعطاه كل ماله. واستحلفنى سيدى قائلا: لا تأخذ لابنى زوجة من بنات الكنعانيين بل إلى بيت أبى تذهب وإلى عشيرتى وتأخذ زوجة لابنى. ويكرر كاتبو التوراة إعادة ما حدث بين أليعازر ورفقة حتى يقول: وسجدت للرب وباركت الرب إله سيدى إبراهيم الذى هدانى فى طريق أمين لآخذ إبنة أخى سيدى لإبنه. والآن إن كنتم تصنعون معروفا وأمانة إلى سيدى فأخبرونى. وإلاَّ فأخبرونى لأنصرف يمينا أو شمالا.

الجد | الأب | الأبناء | الأحفاد

- تارح = آزر
  - إبراهيم
    - إسماعيل
    - إسحق
      - يعقوب
      - عيسو
    - ٦ أبناء (من قطورة)
  - ناحور (تزوج ملكة)
    - عوص
    - يوزا
    - قموئيل
    - كاسد
    - حزوا
    - فلداش
    - يدلاف
    - بتوئيل
      - رفقة
      - لابان
        - ليئة
        - راحيل
  - هاران (مات فى أور)
    - لوط

شكل ٤٤ – إسحق تزوج رفقة بنت بتوئيل ابن عمه
ويعقوب فيما بعد تزوج ابنتى خاله لابان.

فأجاب لابان وبتوئيل وقالا: من عند الرب خرج الأمر. لا نقدر أن نكلمك بشر أو بخير. هو ذى رفقه قدامك. خذها واذهب. فلتكن زوجة لابن سيدك كما تكلم الرب. وكان عندما سمع عبد إبراهيم كلامهم أنه سجد للرب إلى الأرض. وأخرج العبد آنية فضة وآنية ذهب وثيابا وأعطاها لرفقة. وأعطى تحفا لأخيها ولأمها. فأكل وشرب هو والرجال الذين معه وباتوا. ثم قاموا صباحا فقال: اصرفونى إلى سيدى. فقال أخوها وأمها: لتمكث الفتاة عندنا أياما أو عشرة. بعد ذلك تمضى. فقال لهم: لا تعوقونى والرب قد أنجح طريقى. اصرفرنى لأذهب إلى سيدى. فقالوا لها هل تذهبين مع هذا الرجل؟ فقالت أذهب. فصرفوا رفقة أختهم ومرضعتها وعبيد إبراهيم ورجاله. وباركوا رفقة وقالوا لها أنت أختنا صيرى ألوف ربوات. وليرث نسلك باب مبغضيه - (ولعله دعاء يقابل قولنا حاليا: بالرفاء والبنين - وربنا ينصرك على من يعاديك!!).

فقامت رفقة وفتياتها وركبن الجمال وتبعن الرجل. فأخذ رفقة ومضى.

لا ندرى كم استغرقت رحلة العودة. وكان إسحق يخرج كل يوم يستطلع قدوم الوفد. وفى أحد الأيام لمح الجمال مقبلة. وتقول التوراة: ورفعت رفقة عينيها فرأت إسحق فنزلت عن الجمل. وقالت للعبد: من هذا الرجل الماشى فى الحقل للقائنا؟ فقال العبد: هو سيدى. فأخذت البرقع وتغطت. ثم حدَّث العبد إسحق بكل الأمور التى صنع. فأدخلها إسحق إلى خباء سارة أمه. وأخذ رفقة. فصارت زوجة له وأحبها. فتعزى إسحق بعد موت أمه.

ملوحظة: يفهم من هذه الفقرة أن سارة كانت قد توفيت. عند زواج إسحق من رفقة.

وفـاة سارة:

كانت حبرون وكل أرضها يملكها بنو حث. إلاَّ أن إبراهيم عليه السلام كان يقيم على حدودها. وترعى غنمه وإبله حولها. ثم ارتأى إبراهيم أن ينتقل إلى بئر سبع فأقام هناك إلا أن سارة ظلت - فى حبرون، ومعها إسحق. وتمضى السنون. ويتقدم العمر بسارة إلى أن وافاها الأجل. فأرسلوا إلى إبراهيم عليه السلام رسولا يخبره بوفاة رفيقة عمره. فجاء على عجل.

طلب إبراهيم عليه السلام من بنى حث أن يعطوه قبرا ليدفن سارة فيه. فعرضوا عليه أن يدفنها فى أى قبر من قبورهم. ولكنه رفض هذا العرض. وأصرَّ على أن يكون القبر ملكا خالصا له. وطلب شراء حقل يملكه عفرون الحثى هو حقل المكفيلة. واشتراه بأربعمائه شاقل فضة، الحقل وجميع الشجر الذى به. وكان به مغارة دُفنت فيها سارة. وأصبحت المغارة - مغارة المكفيلة - بعد ذلك قبراً لأسرة إبراهيم عليه السلام. إذ هو نفسه قد دفن فيها. ومن بعده دفن فيها إسحق ورفقه وليئة ويعقوب. وهذه المغارة الآن ضمن الحرم الإبراهيمى فى مدينة الخليل. وطول هذا البناء ٦٥ مترا وعرضه ٣٦ مترا وعلوه من ١٦ - ١٩ مترا ومبنى من

حجارة ضخمة - يبلغ طول أحدها ١٢ مترا (قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة ص ٩١١).

عمر سارة: تقول التوراة: وكانت حياة سارة مائة وسبعة وعشرين سنة. وفى رأينا أنها عاشت أطول من ذلك، للأسباب التالية. وهى مأخوذة من التوراة نفسها.

١ - فى الإصحاح ١٧ تكوين: وقال الله لإبراهيم: ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى بل اسمها سارة، وأباركها وأعطيك منها أيضا ابنا. فسقط إبراهيم على وجهه وضحك، وقال فى قلبه: هل يولد لابن مائة سنة؟ وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة؟

أى أن سارة كانت تصغر إبراهيم عليه السلام بعشر سنوات.

٢ - فى الإصحاح ٢١: وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحق ابنه. أى كانت سارة بنت تسعين سنة.

٣ - فى الإصحاح ٢٥: وكان إسحق ابن أربعين لما اتخذ لنفسه زوجة، رفقة بنت بتوئيل.

معنى هذا أن إبراهيم عليه السلام كان عمره ١٤٠ سنة عند زواج إسحق ولو كانت سارة على قيد الحياة لبلغ عمرها ١٣٠ سنة.

٤ - تقول التوراة فى إصحاح ٢٣ - أن عمر سارة عند وفاتها كان ١٢٧ سنة أى أنها توفيت قبل زواج إسحق. وفى رأينا أن هذا غير صحيح.

٥ - الحقيقة التى ذكرها القرآن الكريم.

«وامرأته قائمة فضحكت، فبشرناها بإسحق، ومن وراء إسحق يعقوب». (٧١ - هود)

وهنا اختلف المفسرون، هل جملة «ومن وراء إسحق يعقوب» تدخل ضمن البشارة أم لا. فإن كانت داخله ضمن البشارة، كان معناها كأنه قيل لها، سيكون لها ولد هو إسحق وستعيش لترى ولد ولدها الذى هو يعقوب.

وإن كانت جملة «ومن وراء إسحق يعقوب» جملة منفصلة لا تدخل ضمن البشارة، وتكون يعقوبُ بالضم، ولكونه فاعلا أى ومن وراء إسحق يأتى يعقوب.

ولكن حتى فى هذه الحالة يكون الأولى أن تعيش لترى يعقوب إذ لا معنى لإخبارها بمولد يعقوب إذا لم تكن تعيش لتراه.

٦ - جاء فى الإصحاح ٢٥: وكان إسحق ابن ستين سنة لما ولدت رفقة عيسو ثم يعقوب.

ومعنى هذا أن إبراهيم عليه السلام كان عمره ١٦٠ سنة وسارة عمرها ١٥٠.

فى هذا افترضت التوراة أن رفقة ظلت عشرين سنة عاقرا لا تلد. «ثم صلى إسحق إلى الرب، فاستجاب الله له وحملت رفقة».

ويمكننا أن نخفض فترة العقم إلى عشر سنوات. فيكون عمر إسحق لما ولد له يعقوب خمسين سنة وعاشت سارة إلى عمر ١٤٠ سنة (وليس ١٢٧ سنة) لترى ولد ولدها يعقوب ثم تموت.

بعد وفاة سارة تزوج إبراهيم عليه السلاتم من قنطورة أو قنطورا بنت يقطن واسمها فى التوراة قطورة (شكل ٤٥). وذكر خبراء الأنساب أن القطوريين هم أبناء عم جرهم (تاريخ العرب قبل الإسلام. جواد على. جـ ١ ص ٢٨٣) وكانوا قد استقروا بمكة وما حولها. ويحتمل أن إبراهيم عليه السلام - بعد وفاة سارة حضر لزيارة إسماعيل - الذى لم يشأ أن يعيش والده وحيدا فى هذه السن فزوّجة من قطورة. وعادت معه إلى حبرون. وولدت له ستة أبناء:

زمران - يقشان - مدان - مديان - يشباق - شوحا

ومن أبناء مديان - عيفة - التى ولدت ضيفور - أبو شعيب عليه السلام وبهذا يكون شعيب سابقا بجبلين لموسى عليه السلام. البعض يزيد فى سلسلة النسب فيجعلها - مديان - مدين - نابت - عيفة - ضيفور - شعيب وبذلك يكون النبيان قد عاشا فى وقت واحد ليكون شعيب هو حمو موسى - عليها السلام - وسنعود إلى ذلك فى قصة موسى عليه السلام.

يقول ابن كثير (البداية والنهاية. جـ ١ص ١٦٤) إن إبراهيم عليه السلام تزوج بعد قطورة من زوجة اسمها حجون. ولدت له خمسة أبناء:

كيسان - سورح - أميم - لوطان - نافس

ولو أن التوراة لم تذكر هذه الزوجة الأخيرة وكذلك لم تُذكر فى كتاب آخر. ويبدو أنها كانت إحدى السرارى أو ما ملكت يمينه. فهى لا تعتبر زوجة بمعنى الكلمة.

فى أخريات أيامه أعطى إبراهيم عليه السلام كل ما كان له من أملاك لإسحق. أما أبناؤه من قطورة وبنو السرارى اللواتى كانت لإبراهيم فقد أعطاهم عطايا وصرفهم إلى أرض المشرق (التوراة. تكوين ٢٥ : ٥) حتى لا ينازعوا إسحق فى شىء. ومن المرجح أن قطورة عادت - ومعها أبناؤها - إلى أرض قبيلتها بالحجاز. ويقال إن «عفار» وهو اسم مكان بين مكة والطائف و «الحنوكية» قرب المدينة. سميا على اسم عفر وحنوك من أبناء مديان (شكل ٤٥).

وفاة إبراهيم عليه السلام:

بعد وفاة سارة عاش إبراهيم عليه السلام فى حبرون. ولعله جلس يستعرض حياته. بدءا بدعوته إلى الله فى أور ثم تكسيره للأصنام ومحنة إحراقة وخروجه من النار سالما. ثم خروجه

إبراهيم عليه السلام

الزوجة	الأبناء	الأحفاد
هاجر	إسماعيل	نبايوت
		قيدار
		أدبئيل
		مبسام
		مشماع
		دومة
		مسا
		حدار
		تيما
		يطور
		نافيش
		قدمة
سارة	إسحق	عيسو
		يعقوب
قطورة	زمران	
	يقشان	شبا
		ددان
	مدان	
	مديان	عيفه
		عفر
		حنوك
		أبيداع
		ألدعة
	يشباق	
	شوحا	

شكل ٤٥ – إبراهيم عليه السلام وأبناؤه وأحفاده

من أور، ومروره ببابل، ومقابلته مع حمورابى الذى حاجَّه فى ربه وكيف أفحمه إبراهيم بالحجة فبهت، ثم عودته إلى حاران حيث مات والده هناك، ثم ذهابه إلى حلب، ثم إلى دمشق ثم حبرون، فزيارته لمصر، وإهداء هاجر لسارة، ثم اتخاذه هاجر زوجة، ثم استجابة الله لدعائه فكان ولده الحليم من هاجر وهو إسماعيل، وتفكر فيما تلا ذلك من أحداث، إذ أمره الله أن يأخذ هاجر وولده الذى طالما تمناه - ليتركهما - بواد غير ذى زرع بمكة - وأدرك الآن أنهما كانا فى رعاية الله - ونالهما الخير الكثير - أكثر مما لو كانا بقيا فى حبرون - فقد شب إسماعيل فى البادية - على خير ما يكون الشباب رامى قوس - وراكب خيل - وفصيح لغة - والتفت حوله هو وأمه - قلوب جرهم والعماليق فأصبحوا أهله وعشيرته، ثم كان بناؤه بيت الله الحرام بمكة يساعده إسماعيل، ثم أمر الذبح والفداء، ثم تشريع الحج، يالها من أحداث جسام!!

ثم عودته إلى حبرون، وزواج إسحق، ثم ولادة يعقوب، فوفاة رفيقة عمره سارة.

حياة كلها ارتحال وكفاح.

والآن اطمأن قلبه إلى أن دين الله قد توطدت دعائمه فى الأرض، فإسماعيل - فى مكة - نبى ورسول - قائم على شئون المسلمين فى الجزيرة العربية، وها هو إسحق نبى أيضا ، يعمل على نشر دين الله فى أرض الكنعانيين.

أدرك أن مهمته قد قاربت على الانتهاء بعد أن أتمها على خير وجه، وبقى فى حبرون يتعبد - انتظارا للقاء ربه حتى يحين الأجل، وفى النهاية صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها وقد بلغ من العمر مائة وخمسة وسبعين عاما .

«سلام على ابراهيم، كذلك نجزى المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين». (١٠٩ - ١١١ الصافات)

ودفنه ابنه إسحق فى مغارة المكفيلة، مع سارة.

أخلاق إبراهيم عليه السلام ومناقبه :

يمكننا أن نذكر بعضا منها فيما يلى:

١ - **الوفاء بالعهد**، قال الله عنه:

«وإبراهيم الذى وفَّى». (٢٧ - النجم)

٢ - **التسليم الكامل لله** فى كل أموره:

«إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين». (١٣١ - البقرة)

«ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا».

(من الآية ١٢٥ – النساء)

٣ – **«واتخذ الله إبراهيم خليلا».** (١٢٥ – النساء)

والخليل من الخُلَّة وهى المودة التى تتخلل النفس. وأطلق على إبراهيم لفظ «الخليل» لأن محبة الله تعالى قد تخللت نفسه وخالطتها مخالطة تامة.

وأخرج البهيقى فى الشعب عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا جبريل لم اتخذ الله تعالى إبراهيم خليلا؟ قال لإطعامه الطعام يا محمد.

وقال البلخى والفراء: لإظهاره الفقر والحاجة إلى الله تعالى وانقطاعه إليه. وقيل لتوكله على الله فى كل أموره.

٤ – ومن أخلاقه المحمودة **إكرامه للضيف** وإحسانه إليه ومن هنا سُمِّى أبا الضيفان.

وقد ذكرنا سابقا قصته مع الضيف الشيخ. وقد تكون القصة غير صحيحة إلاَّ أنها تعبر عن كرمه الزائد. ومثلها ما روى فى الأثر أنه فى إحدى المرات نزل عليه ضيف من غير أهل ملته. فقال له إبراهيم وحِّد الله تعالى، أضيفك وأحسن إليك. فقال يا إبراهيم: من أجل لقمة أترك دينى ودين آبائى. وانصرف عنه فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم: سبعون سنة أرزقه وهو يشرك بى، وتريد أنت منه أن يترك دينه ودين آبائه لأجل لقمة؟ فلحقه إبراهيم عليه السلام واعتذر إليه وسأله الرجوع إليه ليضيِّفه. فقال له المشرك: يا إبراهيم ما بدا لك؟ قال: إن ربى عاتبنى فيك وقال أنا أرزقه منذ سبعين سنة على كفره وأنت تريد أن يترك دينه ودين آبائه لأجل لقمة! فقال المشرك: أوقد وقع هذا؟ مثل هذا ينبغى أن يعبد. وأسلم.

وقيل إنه سُئل عن إكرامه للضيف: فقال تعلمت الكرم من ربى. رأيته لا يضيع أعداءه. فلا أضيعهم. فأوحى الله تعالى إليه: أنت خليلى حقا.

وروى فى الحديث أنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم: يا سيد البشر. قال ذاك إبراهيم. وهو أبو الضيفان. وكان لا يتغذى ولا يتعشى إلا مع ضيف. وربما مشى ميلين أو أكثر حتى يجد ضيفا. وضيافته قائمة إلى يوم القيامة (عرائس المجالس للثعلبى. ص ١١٧).

٥ – وهو المجعول له لسان صدق فى الآخرين. فليس من نبى تجرى ألسنه الخلق كلهم بتصديقه. وتبجله الأديان الثلاثة غيره. وذالك بدعائه عليه السلام:

«واجعل لى لسان صدق فى الآخرين». (من ٨٤ – الشعراء)

٦ – وكان رشيدا فى أفعاله حتى من قبل بعثته:

«ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل. وكنا به عالمين». (٥١ – الأنبياء)

٧ -٠ جعل الله له لسان الحجة. فدعا إلى الله بالحجة والموعظه الحسنه:

«وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء - إن ربك حكيم عليم».

(٨٣ - الأنعام)

وقد أفحم إبراهيم عليه السلام الملك حمورابى إذ حاجَّهُ فى ربه فبهت ولم يستطع ردا على حُجة إبراهيم. وأفحم قومه بقوله بل فعله كبيرهم هذا! وألزم قومه الحجة وتمشى معهم فى زعمهم أن الكوكب أو القمر أو الشمس هى آلهة فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون.

٨ - إتمامه الإبتلاءات وجعله للناس إماما: وقد سبق ذكر ذلك.

وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن. قال إنى جاعلك للناس إماما». (من ١٢٤ - البقرة)

٩ - كان إبراهيم عليه السلام أطول الأنبياء والرسل مسيرة:

«وقال إنى مهاجر إلى ربى. إنه هو العزيز الحكيم». (من٢٦ - العنكبوت)

من أور إلى بابل إلى حاران إلى حلب إلى دمشق إلى حبرون إلى بئر سبع إلى مصر ثم رحلته إلى الحجاز. ثم عدة مرات بعد ذلك إلى مكة. مسيرة طويلة تبلغ خمسة عشر ألف كيلو متراً أو تزيد!

١٠ - وهو أبو الأنبياء.

إذ كل الأنبياء الذين أتوا بعده من ذريته.

إسماعيل. ومن ذريته نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

إسحق. يعقوب. يوسف. شعيب. موسى. هارون. إلياس. داوود. سليمان. زكريا. يحيى. عيسى. عليهم السلام أجمعين.

١١ - **«إن إبراهيم كان أمة. قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين. شاكراً لأنعمه. اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه فى الدنيا حسنة. وإنه فى الآخرة لمن الصالحين».**

(١٢٠ - ١٢٢ - النحل)

١٢ - **«ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا. ولكن كان حنيفا مسلما. وما كان من المشركين».** (٥٦٧ - آل عمران)

تلك بعض صفاته عليه السلام.

تقول الكتب إن إسماعيل لما علم بوفاة والده - شد الرحال إلى حبرون ليعزى أخاه إسحق

فى وفاة والدهما. ولعلها كانت المرة الأولى أو بالأحرى المرة الوحيدة التى يرى فيها أخاه إسحق. ولو أن التوراة تقول إنه كان موجودا فى حبرون عند فطام إسحق. وزار إسماعيل قبر أبيه فى مغارة المكفيلة ثم عاد إلى مكة.

أبناء إسماعيل:

ولد لإسماعيل اثنا عشر ولدا (انظر شكل ٤٥) اختلفت الكتب فى ذكر أسمائهم:

التـــوراة	محمد بن إسحق	ابـن كثـير	الثعلبـــى
١ – نبايوت	نابت	نابت	نبت
٢ – قيدار	قيذر	قيدار	قيذار
٣ – أدبئيل	أزبل	أدبئيل	أدبيل
٤ – مبسام	ميشى	منشا	بسام
٥ – مشماع	مسمع	مسمع	مسمع
٦ – دومــة	دوما	دمــا	ذوما
٧ – مســاً	مـاش	ماشى	مسا
٨ – حــدار	آزر	أذر	حــرا
٩ – تيمــا	طيما	طيما	فيما
١٠ – يـطور	يطـور	يطور	بطور
١١ – نافيش	نيـش	نيشى	نافس
١٢ – قدمــة	قيـذما	قيذمــا	قيدما

وكان له ابنة إسمها مَحْله زوجَّها من العيص (عيسو) ابن أخيه إسحق وعادت معه إلى فلسطين. ويقال إنها ولدت له الروم. ويقال لهم بنو الأصغر – لصفرة كانت فى العيص.

ذلك أن عيسو أو العيص ابن إسحق. تزوج من يهوديت بنت بيرى الحثى (من الحيثيين) الذين نزلوا بأرض كنعان (عبد الحميد جودة السحار. محمد رسول الله والذين معه. جزء ٢ ص ٢٢٩). ولم يوفق فى هذه الزيجة. ثم تزوج بسمة بنت إيلون – من الكنعانيين. وسمع عيسو أن أباه إسحق يوصى يعقوب بأن لا يتزوج من بنات الكنعانيين. وفهم من هذا أن أباه لم يكن راضيا عن زيجته الثانية فطلقها. وأخبر أباه أنه سيذهب إلى مكة ليخطب محلة بنت عمه إسماعيل. وانشرح صدر إسحق لذلك. وشد عيسو الرحال إلى مكة ولما وصلها طاف بالبيت

الحرام، ثم اهتدى إلى بيت عمه إسماعيل الذى رحب به وعرَّفه بأبنائه، ولم يرفض طلبه وزوجه ابنته محلة.

يقول ابن كثير (البداية والنهاية. جـ ـ ص ١٨٠) إن ابنة إسماعيل كان اسمها نسمة. ولعل الأمر قد التبس عليه فخلط بينها وبين بسمة بنت إيلون الكنعانى.

تكاثر أبناء إسماعيل، كما كان ملاك الرب قد وعد هاجر حين وجدها على عين الماء فى البرية هاربة من معاملة سارة. فقال لها (التوراة، إصحاح ١٦ تكوين ١٠) ارجعى إلى مولاتك. تكثيرا أكثر نسلك، فلا يعد من الكثرة. وكما قيل لإبراهيم بعد ذلك (تكوين ١٧ : ٢٠) وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا . اثنى عشر رئيسا يلد، وأجعله أمة كبيرة.

وكثر أبناء إسماعيل وبدأوا فى الهجرة من مكة، واتخذت قبائلهم الأماكن الموضحة فى شكل ٤٦.

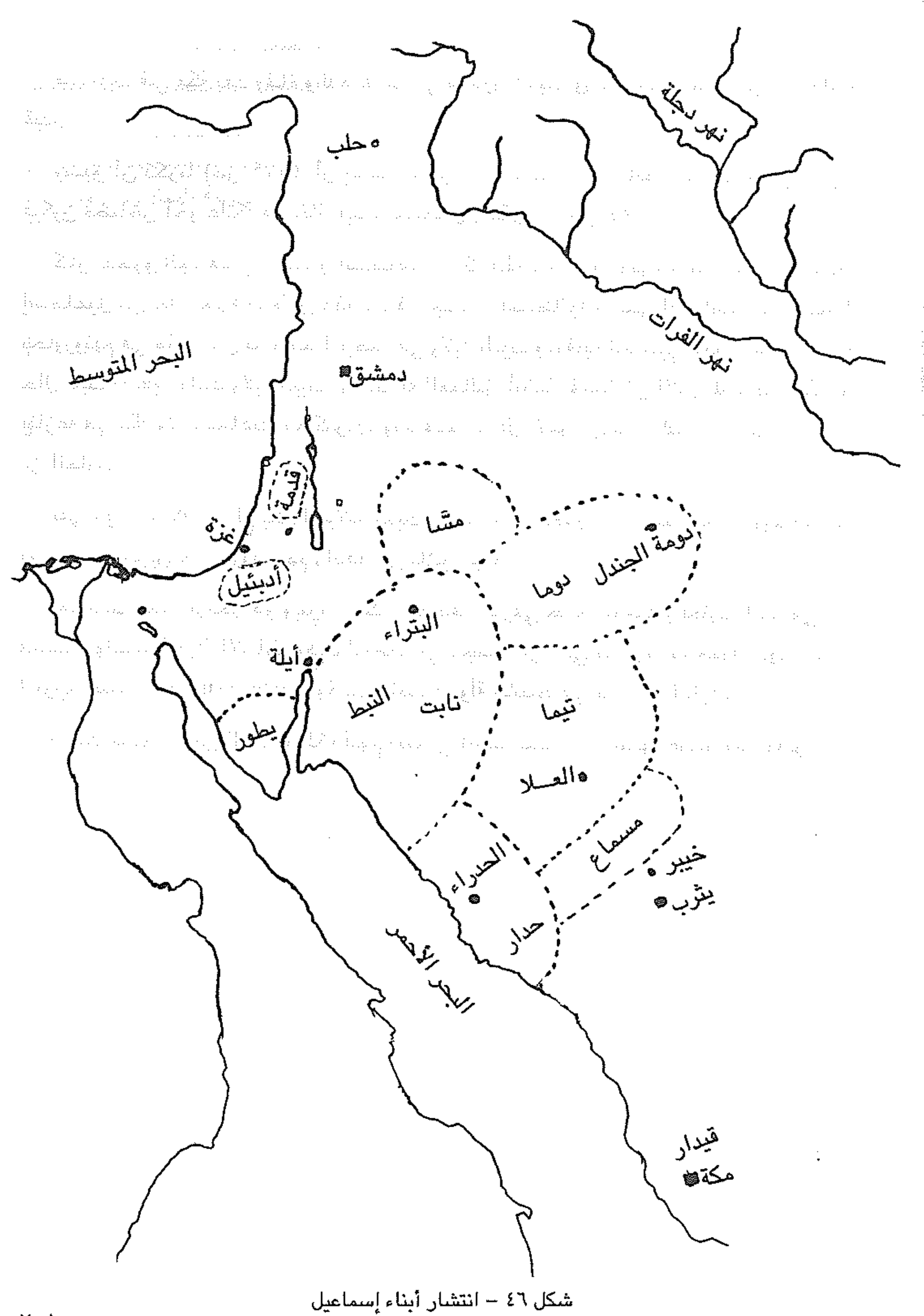
أدبئيل	سكن المنطقة التى تقع جنوب غرب البحر الميت حتى غزة.
مسـاً	سكن المنطقة على طريق القوافل شرقى مؤاب
تيمـا	سكن المنطقة حول العلا وتيماء
دومـا	سكن حول دومة الجندل
قدمـة	سكن حول مدينة قطنا بشمال فلسطين
يطـور	سكن الطرف الجنوبى لشبه جزيرة سينا وهى منطقة الطور. وهناك من يرى

أن بعض اليطوريين سكنوا الجزء الجنوبى من جبال لبنان، وأن دمشق كانت تعانى كثيرا من غزواتهم. وحدار أو حدر سكن شرقى الجزء الشمالى للبحر الأحمر.

ولعل الخيل التى كان أبوهم إسماعيل قد استأنسها وتعلم ركوبها قد أعطتهم خفة فى الحركة وسرعة مكنتهم من هذا الانتشار الواسع وبقى نابت وقيدار بمكة مع والدهم إسماعيل. وجميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون فى أصلهم إلى نابت وقيدار ابنى إسماعيل.

وفاة إسماعيل عليه السلام:

وعاش إسماعيل ١٣٧ عاما وأسلم روحه ومات ودفن فى الحجر مع أمه هاجر. وسمى الحجر منذ ذلك الوقت بـ «حجر إسماعيل».



شكل ٤٦ – انتشار أبناء إسماعيل

ظل نابت فى مكة بعد وفاة والده يقوم على شئون البيت وزمزم وسقاية الحجيج يعاونه قيدار.

وسبق أن ذكرنا (ص ١٧٩)، أن إسماعيل تزوج – أم أولاده – عاتكة بنت عمرو الجرهمى. فيكون مضاض أخو عاتكة هو خال أبناء إسماعيل (شكل ٤١ ص ١٨٤).

كان عمرو الجرهمى – حمو إسماعيل – ذا أطماع. وزاد منها تزاوج عدد من أبناء إسماعيل من بنات جرهم. فكان هذا شرفا لجرهم. استطالوا به على العماليق الذين كانوا يجاورونهم فى مكة. ومن ثم طمعوا أيضا فى ولاية البيت وسقاية الحجيج، وتغلب مضاض – خال نابت – عليه وأخذ ولاية البيت. ودانت له العماليق أيضا. فاستوثق الأمر لمضاض بمكة لا ينازعه فى ذلك ولد إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم. ثم آل الأمر من بعده للحارث، ثم إلى عمرو بن الحارث.

بقى قيدار بمكة وإن لم يكن له ولاية البيت أو سقاية الحجيج. ومن نسله عدنان وبينهما ما يقرب من عشرين جيلا، وبعضهم زادها إلى ثلاثين جيلا.

أما نابت فقد ارتحل هو وبنوه وسكنوا المنطقة شرقى خليج العقبة والجنوب الشرقى من فلسطين وأسسوا دولة الأنباط. وهذه المنطقة فى مجملها أراضى صخرية يسميها اليونان بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea. وكانت عاصمة دولة الأنباط هى بطرا أو البتراء.

وكانت تجاورها من الغرب مملكة أدوم وتسمى أيضا سعير – أسسها عيسو أخو يعقوب.

جدول احداث النصف الأول من حياة إبراهيم عليه السلام

مصر	بابل	أور	ق.م. تقريباً	العمر	الأحـــداث
امنمحيت الأول			١٩٧٨	٠	مولد إبراهيم عليه السلام فى أور
١٩٧٠ سنوسرت الأول (٣٤ سنة)			١٩٦٨	١٠	
		١٩٦٠	١٩٥٨	٢٠	
			١٩٤٨	٣٠	
			١٩٣٨	٤٠	مبعثه
١٩٣٦					١٥ عاماً دعوة
		شولجى (حكم ٥٢ سنة)	١٩٢٣	٥٥	
أمنمحيت الثانى (٣٢ سنة)			١٩٢٢	٥٦	محنة إحراقه
			١٩٢١	٥٧	تركه لمدينة أور
			١٩٢٠	٥٨	فى لجش
			١٩١٩	٥٩	فى أوروك
			١٩١٧	٦١	فى بابل والمحاجة
			١٩١٣	٦٥	فى أشور
	١٩١٠		١٩١١	٦٧	فى نينوى
١٩٠٤		١٩٠٨	١٩٠٨	٧٠	الوصول إلى حاران
			١٩٠٣	٧٥	مغادرة حاران
			١٩٠٢	٧٦	فى حلب
			١٩٠١	٧٧	فى دمشق
			١٩٠٠	٧٨	فى حبرون
			١٨٩٨	٨٠	زيارة مصر – سارة عمرها ٧٠سنة
سنوسرت الثانى (١٦ سنة)	حمورابى (حكم ٤٣ سنة)		١٨٩٦	٨٢	فى مدينة أون
			١٨٩٥	٨٣	فى هيراكليوبوليس
			١٨٩٤	٨٤	فى بنى حسن
			١٨٩٣	٨٥	العودة من مصر
			١٨٩٢	٨٦	الزواج من هاجر

تابع جدول أحداث النصف الأول من حياة إبراهيم عليه السلام

مصر	بابل	أور	ق.م. تقريباً	العمر	الأحداث
سنوسرت الثاني			١٨٩١	٨٧	ولادة إسماعيل
			١٨٩٠	٨٨	أخذ هاجر وإسماعيل إلى مكة
			١٨٨٩	٨٩	العودة من الحجاز وافتراق لوط
١٨٨٨			١٨٨٨	٩٠	مع ملك جرار
			١٨٨٧	٩١	أسر لوط وفك أسره
			١٨٨٦	٩٢	إقامة فى حبرون
				٩٣	
				٩٤	
				٩٥	
				٩٦	
				٩٧	
سنوسرت الثالث (حكم ٣٧ سنة)	حمورابى (حكم ٤٣ سنة)		١٨٨٠	٩٨	البشرى بإسحق وهلاك قوم لوط
			١٨٧٩	٩٩	ولادة إسحق
			١٨٧٨	١٠٠	أول زيارة لمكة – عمر إسماعيل ١٣ سنة
			١٨٧٧	١٠١	بناء البيت
				١٠٢	أمر الذبح والفداء
			١٨٧٥	١٠٣	مناسك الحج ثم العودة إلى حبرون
				١٠٤	
				١٠٥	
			١٨٧٢	١٠٦	حج وزيارة إسماعيل (زوجة إسماعيل الأولى)
			١٨٧١	١٠٧	
١٨٥١	١٨٦٧		١٨٧٠	١٠٨	حج وزيارة إسماعيل (زوجة إسماعيل الثانية)

احداث النصف الثانى من حياة إبراهيم عليه السلام

مصر	ق.م.	العمر	إبراهيم	العمر	إسماعيل	إسحق ويعقوب
		٩٩				ولادة إسحق
	١٨٧٨	١٠٠	أول زيارة لمكة	١٣	ختان إسماعيل	
		١٠١	بناء الكعبة			
سنوسرت الثالث	١٨٧٦	١٠٢	أمر الذبح والحج	١٥	أمر الذبح	
		١٠٣				
		١٠٤				
	١٨٧٢	١٠٦	زيارة مكة وحج	١٩	أول زواج	
	١٨٧٠	١٠٨	زيارة مكة وحج	٢١	ثانى زواج	
		١١٧		٣٠		
	١٨٥٨	١٢٠		٣٣		
١٨٥١	١٨٥١	١٢٧		٤٠	مبعثه رسولاً	
		١٣٠				
		١٣٥				
		١٣٧		٥٠	رحلته إلى اليمن	
		١٣٩		٥٢	وفاة هاجر	إسحق ٤٠ سنة تزوج رفقة
	١٨٣٨	١٤٠		٥٣		
		١٤٥				رفقة عاقر ١٠ سنوات
أمنمحيت الثالث (حكم ٤٨ سنة)	١٨٢٩	١٤٩	وفاة سارة بعد ولادة يعقوب وعمرها ١٣٩ سنة	٦٢		٥٠ عمر إسحق عند ولادة يعقوب
	١٨٢٨	١٥٠				
		١٥٥				
	١٨١٨	١٦٠				
		١٦٥				
	١٨٠٨	١٧٠				
١٨٠٢	١٨٠٣	١٧٥	وفاة إبراهيم	٨٨	عمر إسماعيل	٧٤ عمر إسحق

إسحق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب عليهم السلام

هل كان إخناتون نبيا؟



الجزء الثالث

(إعادة طبع)

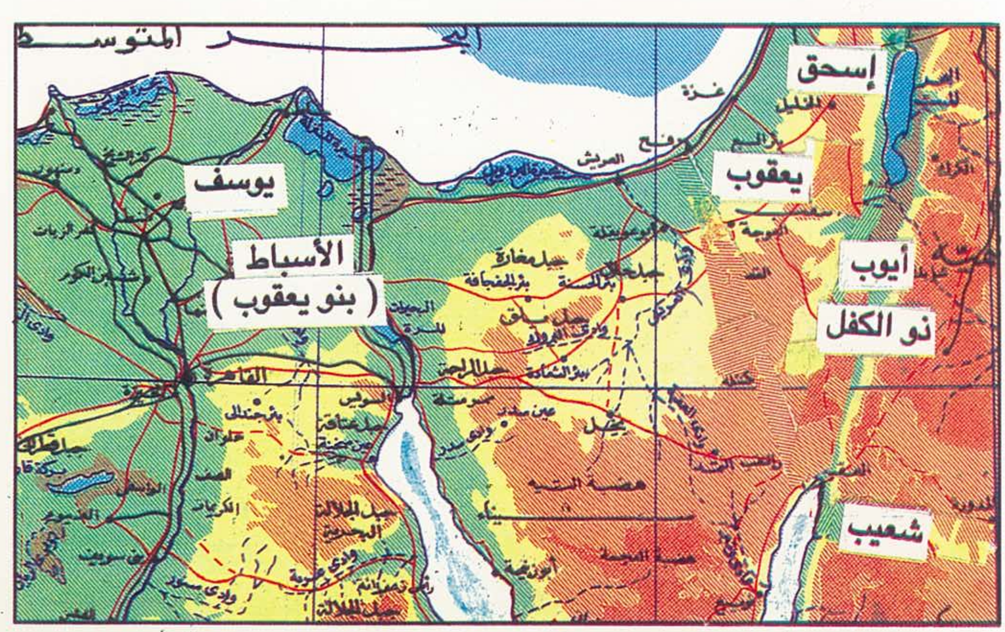
مقدمه فضيلة

الشيخ محمد الغزالى

تأليف دكتور

رشدى البدراوى

الاستاذ بجامعة القاهرة



قصص الأنبياء والتاريخ



والتاريخ

تأليف دكتور

رشدى البدراوى

الاستاذ بجامعة القاهرة

الجـزء الثـالـث :

إسحــق . يعقــوب . يــوســف

أيــوب . ذو الكفــل . شعيــب

عليهـم السـلام

قصص الأنبياء والتاريخ – الجزء الثالث

د . رشـدى البـدراوى

الطبعة الثانية : ديسمبر ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٩٧/٩٠٤٧

الترقيم الدولى I.S.B.N.

977-19-4905-X

قدمه فضيلة الشيخ / محمد الغزالى

مكتبة ومطبعة المجلد العربى

١١٦ ش جوهر القائد أمام جامعة الأزهر بالحسين - القاهرة ت: ٢٥٩١١٥١٤ فاكس: ٢٥٨٩٢١٢١

المطبعة: ٧٨ ش سبيل الخازندار - العباسية - ت: ٢٦٨٢٢٢٥٨ - ٢٦٨٢٢٢٥٩ - ٢٦٨٢٢٢٢٦

تنويـــــه

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الجزء – أيضا – تكملة لما سبق من أجزاء – ولذلك جعل ترقيم الصفحات تاليا لآخر صفحة فى الجزء الثانى.

وأرجـو من الله العـون والتوفيق

حتـى تستكمـل الأجـزاء الباقيـة.

أغسطس ١٩٩٧ | المؤلـف

محتويات الجزء الثالث

إسحق ويعقوب عليهما السلام

البشارة بمولد إسحق :

سبق أن ذكرنا فى الجزء الثانى ص ٣١٨ أن الملائكة – رسل الله – جاءت إلى إبراهيم عليه السلام بالبشرى

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » . (٦٩ – هود)

« وامرأته قائمة فضحكت . فبشرناها بإسحق . ومن وراء إسحق يعقوب . قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا . إن هذا لشيئ عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله . رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت . إنه حميد مجيد » . (٧١ – ٧٣ هود)

ولما جاءت الملائكة – إلى إبراهيم – ورآهم لا يأكلون خاف منهم ووجل .

« قالوا لا تخف . وبشروه بغلام عليم » . (٢٨ – الذاريات)

« قالوا لا توجل . إنا نبشرك بغلام عليم » . (٥٣ – الحجر)

« وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين » . (١١٢ – الصافات)

ولادة إسحق وتسميته :

وسبق أن ذكرنا أيضا فى الجزء الثانى ص ٣٤٢ ولادة إسحق وذكرنا الأقوال التى قيلت فى سبب تسميته إسحق .

زواجــه :

وذكرنا كذلك فى ص ٣٨١ كيف أرسل إبراهيم عليه السلام وكيل أعماله أليعازر الدمشقى ليختار زوجة لإبنه إسحق من حاران . فاختار له رفقة ابنة بتوئيل ابن أخيه ناحور وأحضرها معه من حاران إلى حبرون حيث قابلها إسحق واتخذها زوجة لـه .

وتمر السنون ورفقة لا تلد . خمس سنوات . عشر سنوات !

ولادة يعقوب :

تقول التوراة – إصحاح ٢٥ تكوين :

وكان إسحق ابن أربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجة هى رفقة بنت بتوئيل – من فدان أرام .

وصلى إسحق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقرا . فاستجاب له الرب . فحبلت رفقة امرأته . وتزاحم الولدان فى بطنها فقالت إن كان هكذا فلماذا أنا . فمضت لتسأل الرب ، فقال لها الرب : فى بطنك أمتان . ومن أحشائك يفترق شعبان . شعب يقوى على شعب . وكبير يُستعبد لصغير.

فلما كملت أيامها لتلد . إذا فى بطنها توأمان . فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر . فدعوا إسمه عيسو . وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو . فدعى اسمه يعقوب. وكان إسحق ابن ستين سنة لما ولدتهما .

وهذا يعنى أن رفقة ظلت عاقرا لمدة عشرين سنة . وقد ذكرنا فى الجزء الثانى ص ٣٨٦ رأينا أن فترة العقم كانت عشر سنوات فقط ليبلغ عمر سارة ١٤٠ سنة عند ولادة يعقوب ولتتحقق لها البشارة برؤيته قبل وفاتها .

« فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب » . (٧١-هود)

ولم يشر القرآن الكريم إلى عيسو - مع أنه هو الذى ولد أولا - أى أنه هو البكر - دلالة على أن يعقوب هو الذى سيكون له شأن فى المستقبل . كذلك نرى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى اختار ليعقوب اسمه - كما اختار لإسحق اسمه أيضا - وكان الله عالما بما سيكون عليه يعقوب عند ولادته . إذ ترى التوراة أنه سمى يعقوب لأنه وجد قابضا على عقب أخيه . فهو « العاقب » أو « يعقوب » .

البكوريـــة :

الإبن البكر هو أول ما يولد من الأولاد للرجل . وبالطبع فإن له معزَّة خاصة عند والده .

وكان للبكورية فى ذلك الوقت امتيازات خاصة . منها نيابة البكر عن أبيه فى البيت عند غيابه . كذلك كان العرف فى ذلك الزمان أن الرجل - فى أخريات أيامه وعند شعوره باقتراب الأجل - يقسم ماله على أبنائه . وكان الشرع وقتذاك أن يُعطى الابن البكر نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده . ولا يترك ذلك لهوى النفس . كان قانون حمورابى يعطى الإبن البكر نصيبا مفضلا (مادة ١٧٠) *. ثم جاءت التوراة ** فجعلت للبكر نصيب اثنين .

---

* مصر والشرق الأدنى القديم . د . نجيب ميخائيل ابراهيم . جزء ٦ ص ٧٢

** التوراه . إصحاح ٢١ تثنية .

كذلك كان الإبن البكر هو الذى يختص بالبركة على شرط أن يكون مستحقا لها وإلاَّ فتعطى لغيره . ولعله كان إتباعا لما كان فى شريعة وصحف إبراهيم عليه السلام .

فى انجلترا يسمى ذلك Birth-right . والإبن البكر هو الذى يرث جميع أملاك أبيه وألقابه مثل لقب لورد أو كونت أو غيرها .

وجاء الإسلام فساوى بين الأبناء الذكور فى الميراث . وبذلك أنهى الضغائن التى كانت تحدث عند تقسيم الميراث – وإن ظل للذكر مثل حظ الأنثيين .

نعود إلى عيسو ويعقوب ابنى إسحق عليه السلام . فإن عيسو هو الذى ولد أولا فهو البكر ولكن رفقة كما تقول التوارة * قال لها الرب وهى حامل : كبير يستعبد لصغير !! فكيف يحدث هذا ؟!

كما أن البشارة بإسحق التى جاءت في القرآن الكريم . بشرت بيعقوب ولم تشر إلى أخيه عيسو .

« فبشرناها بإسحق . ومن وراء إسحق يعقوب » . (٧١ – هود)

وفى هذا دلالة على أن يعقوب هو الذى سيكون له شأن يذكر . أما عيسو فسيكون أقل شأنا من أخيه مع أنه هو البكر .

ولاشك أن رفقة أفضت إلى إسحق عليه السلام بما أوحى إليها وهى حامل . ولعله أخذ يفكر في هذا الأمر – هو لايريد أن يظلم عيسو إذ لم يفعل ما يستحق بسببه أن يحرمه من البكورية والبركة . وأخيرا ترك الأمور لله يصرفها كيف يشاء .

وتقول التوراة : فكبر الغلامان . وكان عيسو إنسانا يعرف الصيد . إنسان البرية . ويعقوب إنسانا كاملا يسكن الخيام . فأحب إسحق عيسو لأنه فى فمه صيداً . وأما رفقة فكانت تحب يعقوب . وطبخ يعقوب طبيخا فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا . فقال عيسو ليعقوب : أطعمنى من هذا الأحمر (قيل عدس أحمر) لأنى قد أعييت . لذلك دعى اسمه أدوم (نسبة إلى العدس الأحمر الذى اشتهاه – وقيل أيضا نسبة إلى حمرة كانت فى جلده) . فقال يعقوب : بعنى اليوم بكوريتك . فقال عيسو : ها أنا ماض إلى الموت . فلماذا لى بكورية . فقال يعقوب : إحلف لى اليوم . فحلف له . فباع بكوريته ليعقوب . فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخ عدس . فأكل وشرب وقام ومضى . فاحتقر عيسو البكورية .

---

* إصحاح ٢٥ تكوين – ٣٤ .

ينتقد بعض كتاب المسيحية * هذا المسلك من يعقوب تجاه أخيه عيسو . قائلين إن العبرة المستمدة من هذه القصة تشجع الوصولية والإنتهازية حتى بين أقرب الأقربين واستغلال حاجة الغير إلى القليل لاغتصاب حقهم . ولكن يمكن النظر إلى الأمور من زاوية أخرى . وهى أن يعقوب – وهو إلى هذه اللحظة لم يكن نبيا بعد – وفى نفس عمر عيسو – إذ أن عيسو لا يسبقه فى الميلاد إلا ببضع دقائق – فهى ليست بكورية بالمعنى الحقيقى المتعارف عليه – رأى يعقوب أن عيسو يكثر من الخروج للصيد . ولا يكون موجودا عند غياب الأب ليكون نائبا عنه كما تقضى البكورية . وأن يعقوب هو القائم فعلاً بالنيابة عن الأب عند غيابه . فرأى أن يجعل هذا الأمر رسميا . حتى إذا أمضى أمرا أو اتفاقا فى غياب والده يكون لهذا الاتفاق حُجِّيَّة قانونية مستندة إلى حق البكورية . لذلك . فإنه لما رأى لهفة أخية على أكلة العدس عرض عليه أن يتنازل له عن البكورية . ويرى أهل الكتاب ** أن عيسو كان من صفاته عدم ضبط شهوته الطعام . وخاصة لذلك « الأحمر » وهو العدس . ولو كان عيسو قوى الإرادة لكان يكفيه كسرة خبز يقيم بها أوده ولا يتنازل عن حق البكورية بأكلة عدس .

وهناك أحاديث كثيرة عن رسولﷺ تحبذ كسر شهوة البطن والصبر على الجوع . منها:

قال رسول ﷺ : جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش . فإن الأجر فى ذلك أجر المجاهدين فى سبيل الله . وأنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش . وقال ابن عباس : قال النبى ﷺ : لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه .

كذلك قيل*** إن شهوة البطن من أعظم المهلكات . فيها أخرج آدم وحواء من الجنة إلى الدنيا إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها .

وهكذا كان عيسو لايملك نفسه أمام شهوة الطعام لدرجة أنه تنازل عن البكورية لقاء أكله عدس . وقالت عنه التوراه : فاحتقر عيسو البكورية – أى لم يحفظ للبكورية قدرها . ولم يتمسك بها . بل فَرَّط فيها . فكأنه لم يكن جديرا بها .

نقارن هذا بما كان عليه يعقوب من قوة الإرادة . فقد كان يحرِّم على نفسه أنواعا من الطعام محببة إلى نفسه – تقربًا إلى الله (وهو ماسيجىء ثيما بعد ص ٤٢٩)

---

* صبرى جرجس – التراث اليهودى الصهيونى – القاهرة ١٩٧٠ ص ٦٧

** تفسير الكتاب المقدس . دار منشورات النفير جزء ١ ص ١٨٧

*** الامام أبو حامد الغزالى . إحياء علوم الدين . جزء ٣ ص ٧٦.

« كل الطعام كان حِلاًّ لبنى اسرائيل . إلاَّ ما حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنزَّل التوراة » . (٩٣ – آل عمران)

وقال سهيل بن عبدالله التسترى : ما عُبِدَ الله بشىء أفضل من مخالفة الهوى فى ترك الحلال .

كذلك نفهم أنه كان هناك تباين فى طباع الأخوين . فعيسو كان إنسان صيد – يهوى العيش فى البرية . كثير التنقل – يحب الوحدة – فى حين كان يعقوب إنسانا إجتماعيا . يسكن وسط الناس . وهذه صفات تؤهله لأن يكون مرشدا أو قائدا . ومن هنا كانت بشارة الرب بأنه هو الذى يسود على أخيه .

إسحق فى جرار :

ثم كان قحط فى الأرض . ومن الطبيعى حينئذ أن تتجه قوافل الأسيويين إلى وادى النيل الخصيب حيث تتوافر المياه وتكثر الحبوب . فخرج إسحق من منطقة حبرون التى كان يعيش فيها يطلب الخصب . وتقول التوراة (إصحاح ٢٦ تكوين) * : ظهر له الرب وقال : لا تنزل إلى مصر (وإذا قارنَّا ذلك بمباركة الله لنزول يعقوب إلى مصر (ص ٥١٠) ندرك أن كل شيىء يتم بمشيئة الله وفى الوقت الذى يحدد) . اسكن فى الأرض التى أقول لك . تغرَّب فى هذه الأرض . فأكون معك وأباركك . لأنى لك ولنسلك أعطى هذه الأرض . التى أقسمت لأبيك إبراهيم أن تكون لنسله . فاتجه إسحق إلى جرار ونزل بها .

وسأله أهل المكان عن امرأته . فقال هى أختى لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل المكان يقتلوننى من أجل رفقة لأنها كانت حسنة المنظر . وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين فى جرار أشرف من الكوة ونظر وإذا إسحق يلاعب رفقة امرأته . فدعا أبيمالك إسحق وقال له إنما هى امرأتك . فكيف قلت هى أختى ؟ فقال إسحق : لأنى قلت لعلى أموت بسببها . فقال أبيمالك : ما هذا الذى صنعت بنا ؟ لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنبا . فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلا : الذى يمسّ هذا الرجل أو امرأته موتا يموت . وقد سبق الإشارة إلى ذلك فى الجزء الثانى ص ٢٨٧ عند مناقشتنا لما نسب لإبراهيم عليه السلام من قوله عن سارة إنها أخته .

وتستمر التوراة قائلة : وزرع إسحق فى تلك الأرض . وباركه الرب . فأصاب فى تلك السنة محصولا وافرا . قيل مائة ضعف . فقوى . وزادت ثروته وأملاكه من المواشى والغنم والعبيد . فحسده الفلسطينيون . وبدأوا فى مضايقته . فردموا الآبار التى كان يستقى منها . وهى

الآبار التى كان قد حفرها أبوه إبراهيم عليه السلام . وقال أبيمالك لإسحق . اذهب من عندنا لأنك صرت أقوى منا جدا . فمضى إسحق من مدينة جرار نفسها ونزل فى وادى جرار بعيداً عن المدينة . وأقام هناك .

وبدأ إسحق يبحث عن آبار الماء التى كانوا حفروها فى أيام أبيه إبراهيم عليه السلام وكانت قد ردمت بعد موت إبراهيم . فأعاد حفرها . وحفر بئرين نازعه فيها رعاة جرار وادعوا ملكيتها هما بئرى « عِسق » و « سطنة » .

فانتقل إلى مكان ثالث وحفر بئرا لم ينازعه فيها أحد . فقال : الآن قد أرحب لنا الرب وأثمرنا فى الأرض وسماها « رحوبوت » (شكل ٨٣) . ثم ذهب من هناك إلى بئر سبع ونصب خيمته هناك وحفر هناك بئرا . وظهر له الرب فى تلك الليلة وقال * : أنا إله إبراهيم أبيك . لا تخف لأنى معك وأباركك . فبنى مذبحا ودعا باسم الرب .

وذهب إليه من جرار أبيمالك وبعض من علية القوم . وفيكول رئيس جنده . فسألهم إسحق عن سبب قدومهم مع أنهم قد أبغضوه وطردوه من جرار . فقالوا له إنهم رأوا أن الرب كان معه . وقالوا : ليكن بيننا حلف ونقطع عهدا معك أن لا تصنع بنا شرا كما لم نمسّك وكما لم نصنع بك إلا خيرا وصرفناك بسلام . فصنع لهم ضيافة فأكلوا وشربوا . وفى اليوم التالى حلفوا لبعضهم . وانصرفوا من عند إسحق بسلام .

وحدث فى ذلك اليوم أن عبيد إسحق حفروا بئرا ووجدوا ماء . وشبعوا . فسماها «شبعة » ولكنها بالنسبة لإسحق هى « بئر الحلف » وبالعبرية «بئر سبع» فكان اسمها مطابقا للتسمية التى أطلقها عليها إبراهيم عليه السلام . وإن كان تسمية إبراهيم لها كانت بسبب النعاج السبع التى أعطاها لأبيمالك عند تحالفهما (انظر ص ٣٠٧) .

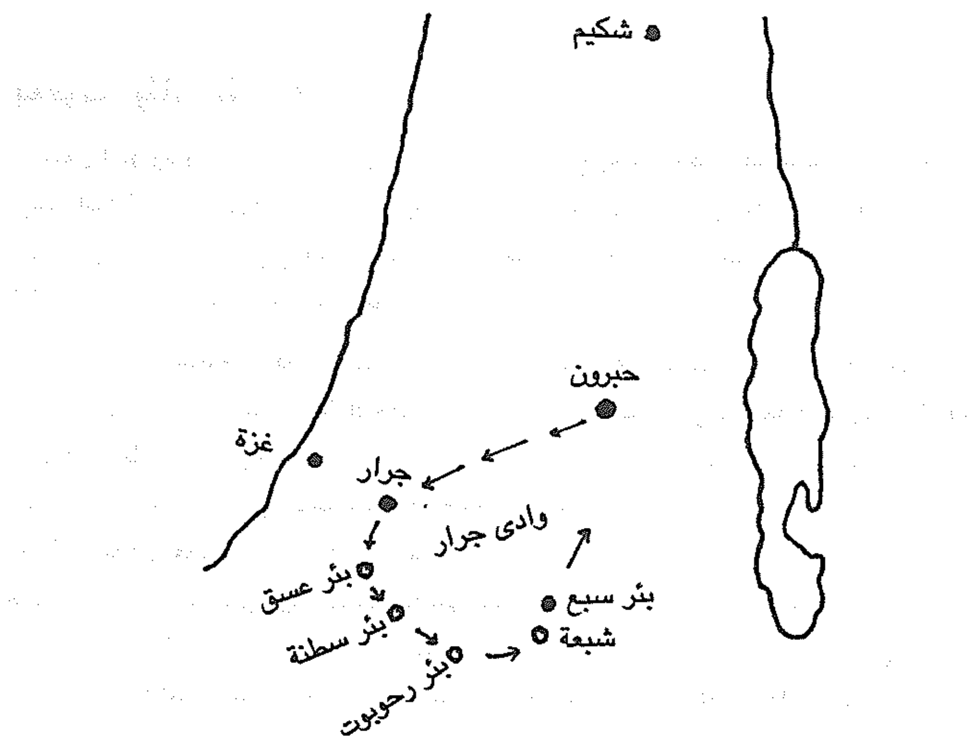
زيجات عيسو :

سبق أن ذكرنا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يرحب بمصاهرة الكنعانيين أو أى من القبائل الساكنة إلى جواره . إذ أن الوثنة كانت متأصلة فيهم . ولعله خشى على عقيدة ابنه إسحق إن هو صاهرهم . فأرسل وكيل بيته أليعازار ليختار زوجة لإسحق من عشيرته فى حاران . فعاد ومعه رفقة بنت بتوئيل لتكون زوجة لإسحق (الجزء الثانى ص ٣٨١) .

وكذلك لم يكن إسحق يرحب بمصاهرة الكنعانيين أو غيرهم - لنفس السبب ولأن الزواج من خارج العشيرة يعتبر نكثا لطهارة النسب التى كانوا يسيرون عليها .

---

* توراة . إصحاح ٢٦ تكوين . ٢٥



شكل ٨٣ – إسحق فى وادى جرار .

لم يتبع عيسو هذه القواعد . وتقول التوارة * : ولما كان عيسو ابن أربعين سنة اتخذ زوجة: يهوديت ابنة بيرى الحثى . وبسمة بنت إيلون الحثى فكانتا مرارة نفس لإسحق ورفقة .

كانت الظروف تخدم يعقوب . فها هو عيسو بزيجتيه هاتين قد فقد عطف والديه : إسحق ورفقة .

يعقوب ينال البركة :

تقول التوارة (إصحاح ٢٧ تكوين) : وحدث لما شاخ إسحق وكلّت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له : يا ابنى ، إنى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى . والآن خذ عدتك وجعبتك وقوسك واخرج إلى البرية . وتصيد لى صيدا . واصنع لى أطعمة كما أحب واتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت .

وكانت رفقة سامعة . فذهب عيسو إلى البرية . وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة : إنى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلا : إئتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتى . فالآن يا ابنى اسمع لقولى فى ما أنا آمرك به . إذهب إلى الغنم وخذ لى من هناك جديين من المعزى . فأصنعها أطعمة لأبيك كما يحب فتحضرها لأبيك ليأكل حتى يباركك. فقال يعقوب لرفقة . هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا أملس . ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا بركة . فقالت له أمه : لعنتك علىَّ يا ابنى . اسمع لقولى . فذهب وأحضر لأمه فصنعت له أطعمة كما كان أبوه يحب . وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها . وألبست ابنها يعقوب . وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديى المعزى وأعطته الأطعمة والخبز التى صنعت .

فدخل إلى أبيه وقال : يا أبى . فقال هأنذا . من أنت يا ابنى . فقال يعقوب لأبيه . أنا عيسو بكرك . قد فعلت كما كلمتنى . قم واجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك . فقال إسحق لابنه : ما هذا الذى أسرعت لتجد يا ابنى ؟ فقال : إن الرب إلهك قد يسر لى . فقال إسحق : تقدم لأجسّك يا ابنى . أأنت هو عيسو ابنى أم لا . فتقدم يعقوب إلى إسحق فجسّه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . ولم يعرفه لأنه يديه كانتا مشعرتين كيدى أخيه عيسو . فباركه . وقال هل أنت هو عيسو ابنى . فقال أنا هو فقال له : قدّم لى لآكل من صيد ابنى حتى تباركك نفسى . فقدم له فأكل . واحضر له خمراً فشرب . وقال له إسحق تقدم يا ابنى . وشم إسحق رائحة ثيابه وباركه وقال : أنظر رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه

---

* توراة : إصحاح ٢٦ تكوين ٣٣ .

الرب . فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض . وكثرة حنطة وخمر . ليستعبد لك شعوب . وتسجد لك قبائل . كن سيدا لإخوتك . وليسجد لك بنو أمك . ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين . وفرغ إسحق من مباركة يعقوب . وانصرف يعقوب .

وحدث أن عيسو أتى بصيده وصنع طعاما كما أمره أبوه . ودخل به إليه . فقال له إسحق من أنت ؟ فقال : أنا ابنك بكرك عيسو . فارتعد إسحق وقال : فمن هو الذى اصطاد صيداً وأتى به إليَّ فأكلت وباركته ؟. فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومُرَّة جدا وقال لأبيه : باركني أنا أيضا يا أبى . فقال : قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك . فقال : ألا إن اسمه دُعى يعقوب . فقد تعقبنى الآن مرتين . أخذ بكوريتى . وهو ذا الآن قد أخذ بركتى . ثم قال : أما أبقيت لى بركة ؟ فقال إسحق لعيسو : إنى قد جعلته سيدا لك . ودفعت إليه جميع إخوته عبيدا . ورفع عيسو صوته وبكى . وقال له إسحق : هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك . وبلا ندى السماء من فوق . وبسيفك تعيش . ولأخيك تُستعبد . ولكن حين تجمح أنك تكسر نيره عن عنقك .

فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة التى باركه أبوه . وتوعَّد يعقوب بالقتل . وكان يتكلم بصوت خفيض . ولكن رفقة سمعته . فأرسلت ودعت يعقوب وأخبرته أن عيسو ينوى قتله. وقالت له : قم . واهرب إلى أخى لابان فى حاران . وأقم عنده حتى يهدأ غضب أخيك عنك وينسى ما صنعت به . ودعا إسحق يعقوب وباركه . وأوصاه وقال له : لا تأخذ زوجة من بنات كنعان . وأمره أن يذهب إلى حاران ويتخذ زوجة من بنات خاله لابان . وانصرف يعقوب ذاهبا إلى فدان أرام .

وقد اعترض كثير من الكتَّاب على الكيفية التى أخذ بها يعقوب البركة من والده إسحق كما روتها التوارة . فيقول الدكتور محمد بيومى مهران * : إنها تبين أنانية يعقوب : إزاء أخيه عيسو . ومدى انخداع إسحق . وإصراره على حرمان عيسو وتضليل يعقوب عليه . حتى بعد ان عرف بخديعة يعقوب له . فضلا عن استخدام يعقوب لإسم الله زورا فى قوله إن الله إلهك يسَّر لى . كما اعترض على هذه القصة العلاَّمة ابن حزم وقال إن هذا الاصحاح فيه أكذوبات كثيرة . منها إطلاقهم على نبى الله يعقوب أنه خدع أباه وغشه .

كما يرى الأستاذ رؤوف أبو سعدة ** أن هذه القصة فيها نسبة الخطيئة والغش لنبى الله يعقوب ونسبة الغفلة لنبى الله إسحق . وأنه بدلا من مواساة عيسو فإن إسحق عليه السلام

---

* دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم – ١٩٧٩ –إسرائيل ص ١٩٠

** من إعجاز القرآن . جزء أول . ص ٢٩٦ .

يجيبه بكلمات – تقارب أن تكون لعنات – قائلا : هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك . وبلا ندى السماء من فوق . وبسيفك تعيش . ولأخيك تستعبد .

بل إن بعض الكتب المسحية * يضعون عنوانا : يعقوب يحصل على بركة أبيه بالخداع . ويقولون إن خداع يعقوب كان ينقصه الذكاء لأنه قال : إن الرب إلهك قد يسر لى . وقالوا إن عيسو لم يكن ينطق هكذا بعبارات التقوى . وكُتَّاب آخرون وصفوا ما قالته التوارة عن كيفية أخذ يعقوب للبركة من والده : أنها تمت بطريق المكر والخداع .

والواجب أن لا نخطىء فى حق نبى الله يعقوب – ولو اعتماداً على ما جاء فى توراتهم . فنحن أعلم الناس بتحريفهم لها كما أوضحنا فى الجزء الأول (ص ٣) . وأنهم حينما أعادوا كتابة التوارة أثناء السبى ضمنوها أشياء لم تكن فى التوراة الأصلية . ووضعوا تفسيرات لأشياء حدثت . فكانت التفسيرات مخالفة لحقيقة الأمور . والأليق بمقام النبوة الذى كان عليه إسحق ألا ننسب إليه الانخداع . والأليق أيضا بمقام النبوة الذى سيصير إليه يعقوب أن لا ننسب إليه مكراً . وعلى ذلك يمكننا أن نضع تصوُّرا لما حدث كالتالى :

إن أسحق عليه السلام قد علم بما حدث من أن عيسو باع بكوريته ليعقوب نظير أكلة عدس. فأدرك أن عيسو ليس هو الشخص الجدير بالنبوة من بعده . إذ هو لا يستطيع كبح جماح نفسه ولا التحكم فى شهواته . إذ أن شهوته للطعام غلبته فجعلته يتنازل عن البكورية . فهو ليس بقادر على تحمل مسئوليات النبوة وتبعاتها . فضلا عن أن عيسو كان إنسان البرية – يحب الصيد ولا يميل إلى السكنى فى المدن . فرأى إسحق عليه السلام بثاقب بصره أن يعقوب هو الشخص الطموح . المحب للريادة المؤهل للقيادة . يألف المجتمعات والناس . فهو الأنسب لتولى الأمر من بعده . فأراد أن يباركه أيضا – ولكنه رأى أن لا يزيد حزن عيسو فيما لو تم ذلك فى حضوره وعلى مرأى منه . فرأى أن يصرفه إلى البرية فطلب منه أن يأتى له بصيد . ولكن كاتبى التوراة صوَّروا الأمر على أنه مكر وتحايل من يعقوب . وما كان إسحق عليه السلام من الغفلة بحيث يخفى عليه الفرق بين كثافة شعر عيسو وجلد الجدى – وخاصة أنه أدرك أن الصوت هو صوت يعقوب . فالقصة كما أوردتها التوراة ، غير مقبولة وأغلب الظن أن إسحق عليه السلام قد أُوحى إليه أن يجعل البركة من نصيب يعقوب بعد أن تنازل عيسو عن البكورية . بل إن ذلك الأمر كان مقضيا فيه من قِبل الله عز وجل حتى قبل أن يولد عيسو ويعقوب بل ومن قبل أن يولد إسحق نفسه . إذ كانت البشارة به متضمنة اسم يعقوب .

** تفسير الكتاب المقدس جزء ١ ص ١٨٩ .

« فبشرناها بإسحق . ومن وراء إسحق يعقوب » . (٧١ - هود)

فتفضيل يعقوب واختصاصه بالبركة ومن ثَمَّ بالنبوَّة . كل ذلك كان بإيحاء من الله تعالى :

« الله أعلم حيث يجعل رسالته » . (من الآية ١٢٤ - الأنعام)

عيسو يتزوج بنت إسماعيل عليه السلام :

سمع عيسو أباه وهو يوصي يعقوب أن لا يتزوج من بنات الكنعانيين . فعلم أن أباه وأمه لم يكونا راضيين عن زيجتيه . ورأى أن أخاه يعقوب قد ذهب إلى حاران ليتزوج إحدى بنات خاله لابان . فقرر عيسو أن يذهب إلى مكة ويخطب ابنة عمه إسماعيل . وأخبر أباه بذلك فانشرح صدر إسحق لما سمع ذلك . وخرج عيسو وانطلق إلى مكة . وقابل عمه إسماعيل الذى رحب به وزوَّجه ابنته . وعادت معه إلى حبرون .

وتجدر الإشارة إلى اضطراب كاتبى التوراة فى تحديد أسماء زوجات عيسو . ففى إصحاح ٢٦ تكوين فقرة ٣٤ ذكروا إسم زوجتى عيسو

- يهوديت ابنة بيرى الحثى .
- وبسمة بنت إيلون الحثى .

وفى الإصحاح ٢٨ تكوين فقرة ٩ - ذكروا اسم ابنة إسماعيل هكذا : فذهب عيسو وأخذ محلة بنت إسماعيل بن إبراهيم أخت نبايوت زوجة له على نسائه .

وفى الإصحاح ٣٦ تكوين جاء قولهم : أخذ عيسو نساءه .

١ - عدا بنت إيلون الحثى .

٢ - أهو ليبامة بنت عنى بن سعير الحورى .

٣ - بسمة بنت إساعيل أخت نبايوت .

وعن إبنة إسماعيل كان علينا ان نختار بين اسم محلة الوارد فى الاصحاح ٢٨ وبين اسم بسمة الوارد فى الاصحاح ٣٦ .

وبالرجوع الى قاموس الكتاب المقدس (صفحة ٨٤٣) نجده يقول : محلة . اسم عبرى معناه « مرض » وهو اسم إحدى بنات صلفحاد من عشائر منسَّى بن يوسف . ولم يذكر أنها إحدى زوجات عيسو . فى حين أنه فى ص ١٧٣ ذكر : بسمة : اسم عبرى معناه « عطرة » وهى إحدى نساء عيسو .

وإسم محلة فى العربية يطلق على الأرض الجدباء لانقطاع المطر (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٨٦٣ - والقاموس المحيط جـ ٤ ص ٤٩) . ومن المستبعد أن يطلق إسماعيل عليه السلام اسما معناه الجدباء على ابنته الوحيدة التى رزق بها بعد أن أنجب اثنى عشر ولداً من الذكور. فلابد أنه إذ رزق بالبنت على كبر - كانت بسمة له وسماها بسمة أى عطرة .

ذهاب يعقوب إلى حاران :

خرج يعقوب من بئر سبع خوفا من أن يقتله عيسو . وكذلك تنفيذا لرغبة أبيه إسحق بالذهاب إلى حاران ليتزوج من إحدى بنات خاله لابان . فخرج يعقوب وسار قاصدا حاران . مرً ببلدة حبرون وتجاوزها . ثم أتى إلى مكان اسمه « **لوز** » وأدركه المساء . فأخذ حجراً ووضعه تحت رأسه ونام . فرأى فى نومه معراجا منصوبا من السماء إلى الأرض . وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون . كأنه سلم منصوبة على الأرض ورأسها فى السماء .

وتقول التوراة * ما ملخصة أن يعقوب استيقظ من نومه وقال : ما أرهب هذا المكان . ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء . وبكرً يعقوب فى الصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقامه عاموداً . وصب زيتا على رأسه حتى يتعرف عليه فيما بعد . ونذر لئن رجع إلى أهله سالما ليبنينً فى هذا الموضوع معبدا لله . وأن جميع ما يرزقه من شىء يكون لله عشره . ودعا ذلك الموضع **بيت إيل** أى بيت الله . وكان اسمه من قبل لوز .

واستمر يعقوب فى سيره وعبر نهر الأردن . ثم واصل سيره إلى دمشق ثم إلى حلب - ثم حاران (شكل ٨٤) . وفى حاران ** وجد رعاة مجتمعين حول البئر التى يستقون منها وينتظرون حتى يتكاثر عددهم ليستطيعوا رفع الحجر عن فم البئر ليستقوا ويسقوا مواشيهم . فدحرج لهم يعقوب الحجر فاستقوا . وسألهم إن كانوا يعرفون لابان . فأجابوا بأنهم يعرفونه . وأشاروا إلى إبنته - راحيل - وكانت بين الفتيات اللائى جئن يستقين من البئر . فتقدم وسقى لها وسقى غنم خاله لابان . وعرًفها بنفسه . فاصطحبته لوالدها . ورحب لابان بيعقوب لما عرف أنه ابن اخته رفقة . وأنزله فى بيته.

وكان لـ « لابان » ابنتان : « ليئة » هى الكبرى ولم تكن حسنة المنظر . و«راحيل »

---

* التوراة - إصحاح ٢٨ تكوين .

** البداية والنهاية - ابن كثير - جزء ١ ص ١٨٢ .

شكل ٨٤ – رحلة يعقوب من بئر سبع إلى حاران.

الصغرى وهى الأجمل . وكلمّ يعقوب خاله لابان برغبته فى الزواج من راحيل . فوافق لابان نظير أن يخدمه يعقوب - مقابل مهرها - سبع سنوات وتم الاتفاق على ذلك .

وبعد مرور سبع سنوات جمع لابان جميع أهل المكان وصنع وليمة . ثم فى المساء أخذ ليئة إلى خيمة يعقوب فدخل بها وهو يظنها راحيل . وفى الصباح اكتشف أنها ليست راحيل بل ليئة وراح يعاتب خاله . فاعتذر له لابان بأن التقاليد تمنع زواج الصغرى قبل الكبرى . وطلب منه أن يكمل أسبوع ليئة وبعده يعطيه راحيل زوجة له أيضا - وكان شرعهم وقتذاك لا يمنع الجمع بين الأختين . وطلب منه لابان أن يخدمه سبع سنوات أخرى بمهر راحيل . ولما مر أسبوع تزوج يعقوب راحيل أيضا . وكان خاله لابان قد أهدى ليئة جارية اسمها زلفة وأعطى راحيل جارية اسمها بلهة . وخدم يعقوب خاله سبع سنين أخرى .

وجبر الله ضعف ليئة (ليا) وقلة جمالها . فوهب لها أولادا . فكانت أن ولدت أربعة أولاد هم : رأوبين و شمعون و لاوى و يهوذا . فغارت راحيل ووهبت ليعقوب جاريتها بلهة فولدت له دانا ونفتالى . وقد سبق أن ذكرنا (ص٢٩٢) أن السيدة إذا لم تنجب وهبت جاريتها لزوجها لينجب منها وكانت تعتبر أولاد الجارية كأنهم أولادها هى . ولما رأت ليئة أنها توقفت عن الولادة وهبت ليعقوب جاريتها زلفة فولدت له جاد وأشير .

ثم حملت ليئة وولدت له ثلاثة أخرين هم : يساكر وزبولون وابنة اسمها دينا.

ثم إن راحيل دعت الله أن يهبها من يعقوب الولد . فسمع الله دعاءها وحملت وولدت له غلاما جميلا فى غاية الجمال سمته يوسف .

كل هذا وهم مقيمون فى أرض حاران .

كان يعقوب قد أمضى ٧ سنوات قبل زواجه فإذا فرضنا أنه كان يرزق كل عام بولد . فهذه ١٢ سنة . أى أنه مضت على يعقوب منذ قدومه إلى حاران عشرون سنة تقريبا .

طلب يعقوب من خاله لابان أن يُسَرِّحه ليعود إلى أهله وبلده. فقال له خاله : إنى قد بورك لى بسببك فسلنى ما شئت. فقال يعقوب : تعطينى كل ما يولد فى هذه السنة ويكون أرقط ورقطاء من الغنم (ما فيه بقع من لون آخر وغالبا ما يكون مؤلفا من بياض وسواد أو من حمرة وصفرة) . ومن المعزى كل أبلق وبلقاء (أبيض به بقع سوداء أو العكس) فوافق لابان .

وعمد لابان إلى حيلة حتى لا يأخذ يعقوب كثيرا من الغنم - فقد فرز الغنم وعزل منها ما كان على هذه الصفات من التيوس حتى لا يولد شيىء من الحملان على هذه الصفات فى ذلك العام . وسلم لابان التيوس التى فرزها إلى بنيه وجعل مسيرة ثلاثة أيام بينه وبين يعقوب . ثم سلموا بقية القطعان ليدى يعقوب .

جدول بأسماء أولاد يعقوب

اسم الزوجة	الاسم فى التوارة	الاسم العربى (ابن كثير)
من ليئة	رأوبين شمعون لاوى يهوذا	روبيل شمعون لاوى يهوذا
من بلهة (جارية راحيل)	دانا نفتالى	دنا نيفتالى
من زلفة (جارية ليئة)	جادا أشير	جاد أشير
من ليئة	دينة يساكر زبولون	دنا إيساخر رابلون
من راحيل	يوسف بنيامين (فى طريق العودة)	يوسف بنيامين

وفطن يعقوب إلى ما فعل خاله . فقابل حيلته بحيلة تلغى أثرها . إذ عمد إلى قضبان رطبة خضراء من شجر اللوز ودلب (نوع من الشجر ينمو فى الجبال ويشبه شجر الجميز) وقشر فيها خطوطا فظهر بياض القضبان من تحت القشرة. ونصبها فى مساقى الغنم من المياه حيث كانت الغنم تجىء لتشرب . لتتوحم عليها . ونجحت الحيلة وولدت الغنم حملانا مخططة ومرقطة وبلقاء . يرى أهل الكتاب * أن تصرف يعقوب يدل على خبرة فى تربية الماشية والأغنام -

* تفسير الكتاب المقدس . جـ ١ ص ١٩٣ .

كما يرون أن هذه الحيلة كانت وحيا ليعقوب فى حلم ، تعويضا له عن استغلال لابان له كل هذه السنوات الطوال .

كما أن يعقوب وضع أيضا هذه القضبان أمام عيون الغنم القوية فى الأجران لتتوحم عليها. فكانت الحملان المخططة قوية ، وتكاثرت بسرعة . وفى نهاية العام كانت الغنم المخططة والمنقطة هى الأغلبية – وهى من نصيب يعقوب.

غضب بنو لابان وتغير وجه لابان من ناحية يعقوب . ولكنهم كظموا غيظهم . وأوحى الله إلى يعقوب أن يعود إلى أرض آبائه وعشيرته . فعرض ذلك على أهله. فأجابوه إلى ما طلب . ولم يشأ أن يخبر خاله عن رحيله خوفا من أن يأخذ أولاد خاله الغنم منه لكثرتها خلافا لاتفاقهم . وشرح ما حدث لزوجتيه فأيدتاه فى موقفه من والدهما . وبيَّنتا له أن لهما نصيباً فى ثروة والدهما وكان الواجب عليه أن يعطيهما نصيبهما هذا أيضاً . وأرادت راحيل أن تغيظ والدها جزاء على ما فعل فسرقت الصنم الذى يتعبد له .

وسار يعقوب وزوجتاه وأولاده والعبيد والجوارى وغنمه وكل ماله . وبعد ثلاثة أيام أدرك لابان أن يعقوب قد تركه . فسار وراءه حتى أدركه بعد سبعة أيام فى جبل جلعاد Gilead . وقابل لابان يعقوب وعاتبه على خروجه بغير علمه قائلا له : لماذا هربت خفية ولم تخبرنى حتى أشيعك بالفرح والأغانى بالدف والعود ولم تدعنى أقبل بناتى . وسأله لماذ سرقت ألهتى ؟

ولم يكن يعقوب يدرى شيئا عن الأصنام . فأنكر أن يكونوا أخذوها . وسمح له بأن يفتش عنها فى الخباء كله . فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئا . وكانت راحيل قد خبأت الأصنام فى بردعة الجمل وهى تحتها. ولم تقم واعتذرت بأنها حائض . ولم يجد لابان الأصنام. وعاتب يعقوب لابان على أنه خدمه عشرين عاما . ولولا لطف الله به لكان قد أخرجه فارغاً وهو الذى تعب بالليل والنهار وفى الحر والبرد حتى صار للابان هذه الثروة العظيمة . وكان لابد أن يكون له فيها نصيب لأنه هو الذى جعلها تنمو . وبورك فيها بسببه .

وأخذ يعقوب حجرا وأقامة عاموداً وسموا المكان من ناحية لابان **«يجر سهدوثا »** ومن ناحية يعقوب **« جلعيد »** وهما كلمتان عبريتان معناهما **«رجمة الشهادة »** أى صخرة الشهادة . وأكلوا وتعاهدوا وشهدوا على أن يكون العامود حدا فاصلا بينهم فلا يتجاوزه يعقوب ولا لابان أو أتباعهما كل إلى ناحية الآخر(شكل ٨٥) . وتعهد يعقوب كذلك أن يحسن معاملة بنات لابان ولا يذلهم . وشهدوا على ذلك. ورجع لابان إلى حاران .

سار يعقوب جنوبا . ولما اقترب من نهر يبوق لاقته الملائكة يحيونه ودعا اسم ذلك المكان

« مَحَنَايمْ » Mehanaim . ويحتمل أن مكانها حاليا بلدة « خربة مَحنة » شمالى عجلون بأربعة كيلو مترات * .

وأرسل يعقوب رسله أمامه إلى أخيه عيسو ** ليستطلعوا أخباره ويقولوا له إن يعقوب قد تغرَّب كل هذه المدة عند لابان ويرجو أن يرضى عنه أخوه. فرجع الرسل وأخبروه أن عيسو قد ركب إليه فى أربعمائة من رجاله . فخاف يعقوب . ودعا الله وصلى وتضرع إليه وناشده وعده الذى وعده بأن يكون معه . وسأله أن يكف عنه شر أخيه عيسو . وأعد لأخيه هدية عظيمة . هى : ٢٠٠ عنزا ، ٢٠ تيسا ، ٢٠ كبشا ، ٣٠ ناقة مرضعة وأولادها ، ٤٠ بقرة ، ١٠ ثيران ، ١٠ حمير .

وأمر عبيده بأن يسوقوا كلا من هذه الأصناف على حدة . وأن يكون بين كل قطيع وقطيع مسافة . فإذا لقيهم عيسو وقال للأول : لمن أنت ؟ ولمن هذه معك ؟ يقول لعبدك يعقوب أهداها لسيدى عيسو . وليقل الذى بعده كذلك ، وكذا الذى بعده . ويقول كل منهم : وهو يجيء بعدنا . وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر (لم يكن بنيامين قد ولد بعد) بعد الكل بليلتين. وجعل يسير فيهما ليلا ويكمن نهارا .

فلما كان وقت الفجر من الليلة التالية تبدا له ملك من الملائكة فى صورة رجل . فظنه يعقوب رجلا من الناس . فقام إليه يعقوب ليصارعه. ولما رأى الرجل أنه لا يقدر على يعقوب ضربه على فخذه . فانخلع حُق فخذ يعقوب فى مصارعته معه . ولكن يعقوب ظل ظاهرا ومتفوقا عليه . وقال الرجل : أطلقنى لأنه قد طلع الفجر . وأدرك يعقوب أن من يصارعه ليس بشرا . فقال : لا أطلقك إن لم تباركنى . فقال له : ما اسمك؟ فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك فى ما بعد يعقوب . بل إسرائيل. لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأله يعقوب وقال : أخبرنى ما اسمك ؟ فقال : لماذا تسأل عن اسمى . وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان **فنيئيل** (**أو فنوئيل**) قائلاً لأنى نظرت الله وجها لوجه . ونجيت نفسى . وفنيئيل كلمة عبرية معناها «وجه الله » .

وأشرقت الشمس ويعقوب يعرج على فخذه . لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء الذى على حق الفخذ إلى هذا اليوم لأنه ضرب حق فخد يعقوب على عرق النسا .

يفهم من هذا أن كاتبى التواره يقصدون أن الذى كان يصارعه يعقوب كان «الرب نفسه» . تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا .

---

* قاموس الكتاب المقدس . ص ٨٤٣ .

** التوراة . إصحاح ٣٢ تكوين .

صور
عكا
حيفا
يعقوب قادما من حاران
لابان يلاحق يعقوب
يجر سهدوثا
جلعيد
محنايم
فنئيل
سكوت
نهر يبوق
شكيم
(اغتصاب دينة)
عيسو يقابل يعقوب
أسدود
بيت إيل
أفراته (بيت لحم)
(وفاة راحيل)
عسقلون
غزه
حبرون
خروج عيسو للقاء يعقوب
البحر الميت
نهر عرنون
جرار
بئر سبع
سعير

شكل ٨٥ – عودة يعقوب من حاران إلى حبرون

مسيرة يعقوب - - - - - -
مسيرة لابان ....
خط سير عيسو ← ← ←

بعض أهل الكتاب * – فى محاولة للتخفيف من عدم قبول العقل لهذه القصة – يقولون عن هذا الموقف : إن يعقوب طالب بامتيازات المنتصر . لكنه يدرك الطبيعة الإلهية لذلك « الرجل » الذى تصارع معه وأنه اكتشف ذلك عن طريق القوة المعجزة التى كسرت حُق فخذه . فتيقن له أن الملاك هو الذى سمح له بأن ينتصر . ليكون درسا له ويتعلم أنه كما انتصر جسديا . ففى إمكانه أن ينتصر فى الأمور الروحية متى تعلق بالإله !!!

والقصة – ليست فى حاجة إلى تعليق ليدرك القارىء مدى عدم معقوليتها . ولم يزدها تفسير أهل الكتاب إلا غموضا. إذ هناك فرق بين التعلق بالإله والانتصار عليه !!

ورفع يعقوب عينيه ورأى عيسو مقبلا ومعه ٤٠٠ رجل . وقسم يعقوب الأولاد على ليئة وراحيل والجاريتين . ووضع الجاريتين وأولادهما أولا . وليئة وأولادها وراءها وراحيل ويوسفْ أخيرا . أما هو فسار أمامهم وسجد إلى الأرض سبع مرات حين اقترب من أخيه ، وكانت هذه تحيتهم. فركض عيسو للقاء يعقوب وعانقه وقبله . ثم أبصر النساء والأولاد فسأله عنهم . فأخبره أنهم مما أنعم الله عليه . واقترب النساء والأولاد وسجدوا لعيسو . ثم إن يعقوب طلب من أخيه أن يقبل هديته ليرضى عنه . وقال عيسو : يا أخى . ليكن لك الذى لك . ولكن يعقوب ألحَّ . فقبل عيسو الهدية .

واقترح عيسو أن يسيروا معا حتى يرجعوا إلى حبرون – حيث يقيم والدهما إسحق . فقال يعقوب : إن معى النساء والأولاد . والغنم والبقر فيها العشراء والمرضعة وإن أسرعت بالمشى أضَرَّ بها وبهم . فعاد عيسو إلى حبرون على أن يلحق به يعقوب على مهل .

وسار يعقوب غربا إلى مكان على نهر يبوق ٦ كيلو مترات شرقى نهر الأردن وأقام مظلات له ولبنيه وللمواشى . فسمى ذلك المكان « سكُّوث » Succoth . وهو اسم عبرى معناه «مظلات» .

ثم عبر نهر الأردن وسار إلى مدينة « شكيم » Shechem . وهو اسم عبرى معناه كتف أو منكب . وهى تقع على بعد حوالى ٤٥ كيلو مترا غربى نهر الأردن مقابل مصب نهر يبوق من الشرق . قرب بلدة نابلس الحالية . ونزل أمام المدينة وكان « الحويون » يقيمون فيها . وابتاع قطعة حقل من يد بنى حمور أبى شكيم وكبيرها . ونصب يعقوب فيها خيمته وأقام مذبحا للرب ودعاه « إيل إله إسرائيل ».

وشراء حقل فى شكيم يدل على أن يعقوب كان ينوى الإقامة بها بعض الوقت . ولعله لم يكن متعجلا العودة إلى حبرون . رغبة منه أن يكون عيسو – قد رضى عنه تماما .

---

* تفسير الكتاب المقدس . جزء ١ ص ١٩٥ .

اغتصاب دينه :

خرجت دينة فى لفيف من بنات بلدة شكيم يلعبن . ورآها شكيم ابن حمور الحوى . رئيس الأرض وأعجبته . فاستدرجها بعيداً عن البنات الأخريات وأخذها إلى خباء وقام باغتصابها . وتعلق قلبه بها وطلب من أبيه أن يخطبها من أبيها ليتزوجها .

كانت مواد قانون حمورابى لا تتضمن مثل هذه الحاله . ولكن شريعة « أشنونا » كان بالمادة ٢٦ عقوبة الموت لاغتصاب ابنة رجل . والمادة ٢٨ تقول : فإن عمل عقد زواج مع أبيها أو أمها وعايشها فإنها تصبح زوجة بيت .

وسمع يعقوب بما حدث . وانتظر حتى جاء بنوه من الحقل وأخبرهم . وغضب بنو يعقوب جدا لما حدث لأختهم . وجاء حمور طالبا يد دينة لإبنه شكيم . وطلب منهم الصفح عما حدث. وأن يصاهروهم ويسكنوا الأرض معهم ويتملكوا منها ما يشاءون.

تظاهر أولاد يعقوب بالموافقة واشترطوا أن يختتن كل ذكر من أهل شكيم حتى يكونوا على شريعتهم فتحل مصاهرتهم وتحل دينة لإبنهم . فوافقوا . وفى اليوم الثالث بعد الاختتان . وآلامهم على أشدها . قام شمعون ولاوى ابنا يعقوب بالسيوف وقتلا كل ذكر من أهل شكيم انتقاما لما حدث لأختهم . ونهبوا المدينة وأخذوا غنم القوم وبقرهم وحميرهم . ونهبوا كل ثروتهم وكل ما فى البيوت .

بالطبع لم يكن ليعقوب وبنيه بقاء فى المدينة بعد ما حدث . وقال يعقوب لشمعون ولاوى : كدرتمانى بتكريهكما إياى عند سكان الأرض ونحن نفر قليل . فيجتمعون علينا ويضربوننا فنهلك جميعا . وخرجوا من شكيم متجهين جنوبا . وألقى الله الخوف على مدن الكنعانيين التى حولهم فلم يسعوا وراء يعقوب وبنيه (إصحاح ٣٤ تكوين) .

واستمر يعقوب فى مسيره جنوبا – بوحى من الله – حتى وصل إلى لوز (انظر ص ٤١٢ . وشكل ٨٤) . وهى المدينة التى بات فيها حينما خرج فاراً من وجه أخيه عيسو قبل حوالى ٢٧ سنة . ورأى فى نومه الملائكة يصعدون وينزلون من السماء إلى الأرض. وبحث عن الحجر الذى كان قد علمَّه بوضع الدهن عليه .

اكتمال النبوة ليعقوب عليه السلام :

أُوحى إلى يعقوب فى هذا المكان أن يأمر كل أهل بيته وعبيده بنبذ الأصنام التى معهم وتحطيمها . وأن يتطهروا ويبدلوا ثيابهم . كذلك أمر أن يبنى مذبحا للرب . ويسميه «بيت إيل».

كان هذا استجابة لدعوة جده إبراهيم عليه السلام إذ قال :

« واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » . (٣٥ - ابراهيم)

واكتملت النبوة ليعقوب

« ووهبنا له إسحق ويعقوب . وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب » . (٢٧ - العنكبوت)

« واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب ، أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » . (٤٥ - ٤٧ - ص)

« ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين » .

(٧٢ - ٧٣ - الأنبياء)

وفى هذا تقول التوارة (إصحاح ٣٥ تكوين)

ثم قال الله ليعقوب . قم اصعد إلى بيت إيل وأقم هناك . واصنع هناك مذبحا لله الذى ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك . فقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه : اعزلوا الآلهة الغريبة التى بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم . ولنقم ولنصعد إلى بيت إيل . فأصنع هناك مذبحا لله الذى استجاب لى فى يوم ضيقتى . وأعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التى فى أيديهم والأقراط التى فى آذانهم . فطمرها يعقوب فى حفرة فى الأرض .

وقال له الله لا يدعى إسمك فيما بعد يعقوب . بل يكون إسمك إسرائيل . وأعاد الله عليه وعده بأن يكون نسله كثيرا جدا ويخرج من صلبه أمم وملوك وهذا يتفق مع ما جاء فى القرآن الكريم :

«اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا » . (٢٠ - المائدة)

كما كرر عليه أن الأرض التى وعدها الله لإبراهيم وإسحق - هى له ولنسله من بعده .

وبيت إيل هى التى بنى فيها سليمان عليه السلام - فيما بعد - الهيكل . مكان المذبح وسميت **أورشليم** ثم أصبحت بعد ذلك **بيت المقدس.**

ارتحل يعقوب من بيت إيل جنوبا . وبعد مسيرة ١٠ كيلو مترات تقريبا . كانت بلدة مثمرة ومعنى مثمرة بالعبرية « **إفراته** » أو « **إفرات** ». وعندها جاء راحيل المخاض وتعسرت ولادتها وتألمت جداً وحزنت وهى تلد بسبب هذا الألم ولذلك سمت المولود « بن أونى « أى «ابن حزنى » ولم تمر أيام قليلة بعد الولادة حتى ماتت راحيل ودفنت فى إفراته وهى حاليا بيت لحم وغيَّر يعقوب اسم المولود إلى « بن يامين » ومعناه ابن اليمن أو ابن الرجاء والانشراح . وهو آخر أولاد يعقوب . وكان عمر يعقوب إذ ذاك حوالى ٦١ سنة . وكان بنيامين ويوسف أحب بنيه إلى قلبه .

ثم ارتحل يعقوب جنوبا إلى « مَجدَل عِدر » أى مدينة عدر أو مدينة القطيع . وأقام فيها هو وأهله وقطعان ماشيته . وبينما هو فى هذه الأرض ارتكب رأوبين – بكره وأول أبنائه – خطيئة كبيرة فى حق والده – إذ تقول التوارة * إن رأوبين اضطجع مع بلهة جارية راحيل وسرية يعقوب . وبهذا فقد رأوبين شرف البكورية بتدنيسه فراش أبيه . وغضب عليه يعقوب ولم يعطه بركة . وسيجىء رأينا فى هذه المسألة فى صفحة ٥٢٨ عند سرد وصية يعقوب لبنيه قبل وفاته . كذلك فإن يعقوب لم يعط بركة لشمعون ، ربما لأنه كان المحرض والمدبر لمذبحة شكيم . وكان التالى فى الترتيب لهما هو لاوى فآلت إليه البركة . وكان من نسله أنبياء هم موسى وهارون وإلياس واليسع عليهم السلام . وسبط يهوذا أخيه التالى له . كان منهم داود وسليمان ثم من بعدهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام . أما سبط رأوبين وشمعون فلم يكن منهم أنبياء .

وفاة إسحق عليه السلام :

عاد يعقوب إلى حبرون . بلد أبيه إسحق وبلد جده إبراهيم – بعد ٦ سنوات منذ أن قابل أخاه عيسو بعد بلدة فنيئيل بقليل كما سبق أن ذكرنا (ص ٤١٩) . وكان يعقوب . غير متعجلٍ للعودة . وحاول البقاء فى شكيم أطول مدة فاشترى بها أرضا . ولكن اغتصاب دينة وتدبير أولاده مذبحة لأهل شكيم أجبره على الخروج منها . ثم أعقب ذلك ولادة بنيامين ووفاة راحيل فى أفراته . ثم بنائه المذبح الكبير فى بيت إيل وأخيرا وصل إلى حبرون . وكان عمره يقارب ٦٣ عاما . وعمر والده إسحق ١١٣ عاما .

فى رأينا أن إسحق عليه السلام قد أدرك أن مهمته فى الدنيا قد قاربت الانتهاء . فها هو يعقوب قد اكتملت له النبوَّة . وقام ببناء مذبح كبير للرب فى بيت إيل . وعاد إلى حبرون هو وأبناؤه وثروته الكبيرة من الغنم والماشية – وعاد الوئام بين الأخوين . ولعله توفى فى نفس العام الذى عاد فيه يعقوب إلى حبرون أو فى العام الذى يليه عن عمر يناهز ١١٣ أو ١١٤ عاما .

تقول التوارة (إصحاح ٣٥ تكوين) وكانت أيام إسحق مائة وثمانين عاما فأسلم إسحق روحه ومات . وانضم إلى قومه شيخا وشبعان أياما ودفنه عيسو ويعقوب إبناه .

ولو كان إسحق قد عاش حتى بلغ ١٨٠ عاماً – كما تقول التوارة – لكان لزاما أن يكون على قيد الحياه حينما انتقل يعقوب وبنيه للعيش فى مصر بدعوة من يوسف عليه السلام . وهذا لم يحدث – كما نرى من جدول حياة إسحق .

---

* التوارة – إصحاح ٣٥ تكوين ٢١ .

وبالطبع فإن يعقوب وعيسو دفناه فى مغارة المكفيلة بجوار والده إبراهيم عليه السلام . ووالدته سارة .

جـدول حياة إسحق عليه السلام

ق . م. تقريبا	عمر إسحق	حياة إسحق	الأحداث المتزامنة
١٨٧٩	٠	ولادة إسحق	عمر ابراهيم ٩٩ عاما وسارة ٨٩
١٨٤١	٣٨		وفاة سارة حسب التوارة (١٢٧ سنة)
١٨٣٩	٤٠	تزوج رفقة	
	٤١	إسحق فى جرار	
١٨٢٩	٥٠	ولادة يعقوب وعيسو	وفاة سارة فى رأينا (١٣٩ سنه)
	٦٠		١٠ سنوات عمر يعقوب
١٨٠٣	٧٦	عمر إسحق عند وفاة ابراهيم	٢٦ سنة عمر يعقوب
١٧٩٩	٨٠	إسحق يمنح البركة ليعقوب	٣٠ – عمر يعقوب عند أخذ البركة
			٣١ – يعقوب يهرب إلى حاران
			٣٢ – وصول يعقوب إلى حاران
			٣٩ – بعد ٧ سنوات مهر
			٤٦ – ٧ سنوات أخرى مهر ثان
			٦ سنوات لتكوين ثروة لنفسه
			٥٢ عمر يعقوب عند تركه حاران
			٥٣ر٥ يعقوب فى سكوث
١٧٦٩	١١٠	عمر إسحق	٦٠ بناء المذبح فى بيت إيل
١٧٦٦	١١٣	عند عودة يعقوب إلى حبرون	٦٣ عودة إلى حبرون
١٧٦٥	١١٤	وفاة إسحق فى رأينا	٦٤ عمر يعقوب وعيسو
١٧٥٩	١٢٠		٧٠
١٧٣٩	١٤٠		٩٠
١٧٢٧	١٥٢	لو كان إسحق حيا	١٠٢ مجيء يعقوب لمصر
١٧٢٩	١٥٠		١٠٠
١٧١٩	١٦٠		١١٠
١٧٠٩	١٧٠		١٢٠
١٦٩٩	١٨٠	وفاة إسحق كما فى التوارة	١٣٠

عيسو :

بعد موت والدهما افترق عيسو عن يعقوب . وتقول التوارة (إصحاح ٣٦ تكوين) ثم أخذ عيسو نساءه وبنيه وجميع نفوس بيته ومواشيه وكل بهائمه وكل مقتناه الذى اقتنى فى أرض كنعان . ومضى إلى أرض أخرى من وجه يعقوب أخيه . لأن أملاكهما كانت كثيرة على السكنى معا . ولم تستطع أرض غربتهما أن تحملهما من أجل مواشيهما . فسكن عيسو فى جبل سعير . وعيسو هو أدوم .

ولعل عيسو كان لا يزال يشعر بالغصة من تصرف أخيه معه . من أخذه البكورية . ثم البركة . وها هو صار نبيا . فلم يطق البقاء فى حبرون فارتحل إلى أرض سعير . وهى أرض حميه . فسعير الحورى هو جد زوجته أهو ليبامة (ص ٤١١) . وكانت منطقة سكناه هى الأرض التى تقع جنوب البحر الميت والممتدة إلى خليج العقبة وسميت أرض سعير نسبة إليه .

وأرض سعير (شكل ٨٦) أرض جبلية وعرة تمتد مسافة ١٦٠ كيلو مترا على جانبى وادى العربة . وفى حدها الغربى – فى المنتصف تقريبا يوجد جبل هور . الذى يرتفع عن سطح البحر بحوالى ١٥٦٠ مترا . وأرض سعير ليست خصبة كأرض فلسطين . إذ هى فى رمتها إما جبلية أو أراضى صحراوية . ولكن كانت توجد بها آبار كثيرة فقامت حولها حقول كروم . كذلك فإن الأجزاء الجبلية وخاصة الجزء الشمالى منها – كثير المطر نسبيا فنشأت به بعض المدن .

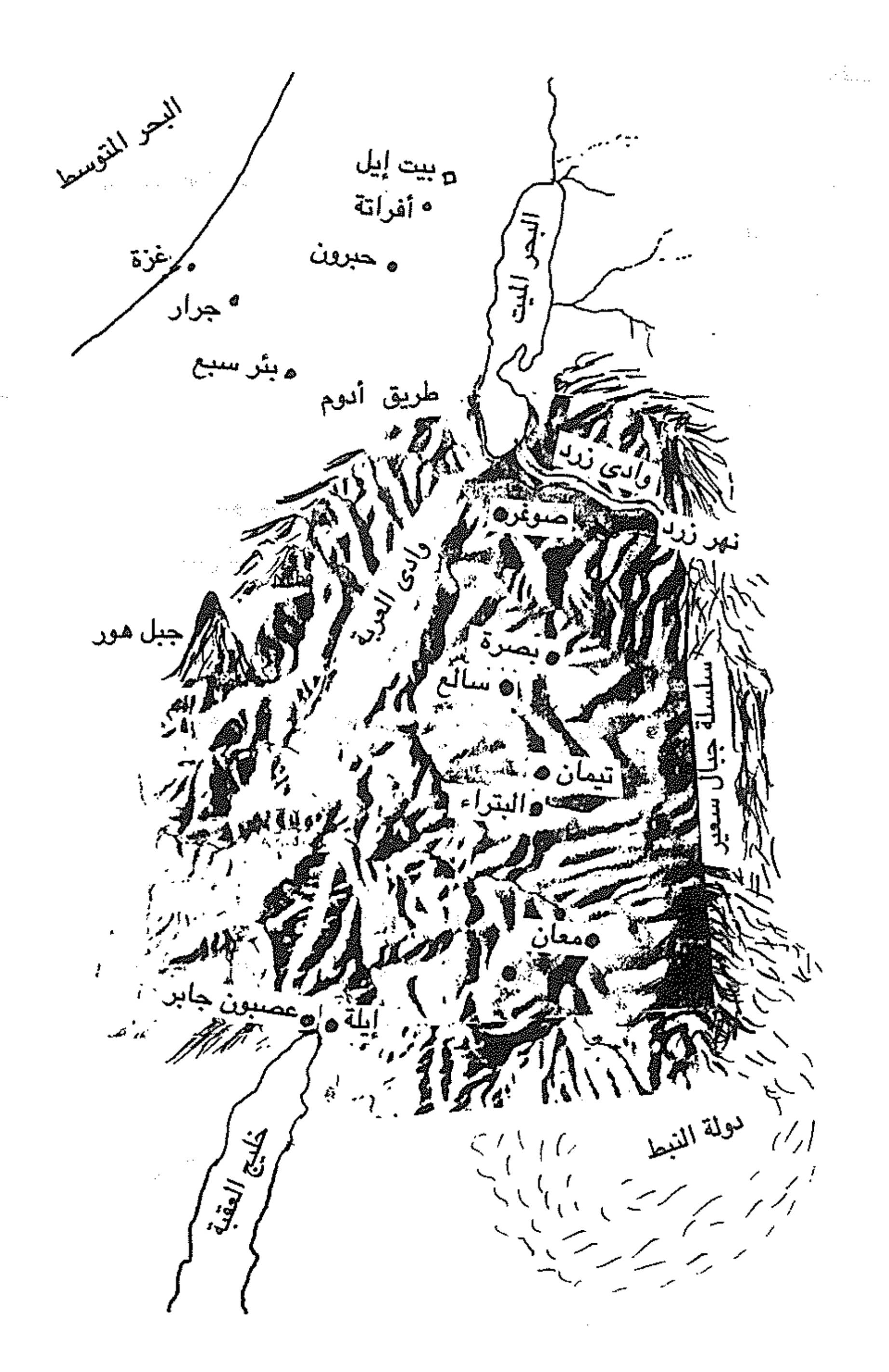
سبق أن قلنا (ص ٤١١) إن عيسو كان له ثلاث زوجات . وكان قد أنجب منهن خمسة أبناء أثناء إقامته فى حبرون – أما الأحفاد فقد ولدوا فى أرض سعير . ولما انتقل عيسو وأبناؤه إلى أرض سعير تكاثروا وأصبحوا هم سادة الأرض . وصار كل حفيد أميرا فى الأرض التى يقطنها . ولأن عيسو كان به حمرة فى لونه ويسمى أدوم . فسميت المنطقة باسمه « أرض أدوم » واختصارا « أدوم » وذريته هم « الأدوميون » .

كان عيسو وأبناؤه يدينون بالحنيفية التى جاء بها جدهم إبراهيم عليه السلام ويدين بها إسحق والده . ولكن مع مر الأزمنة . بدأ الأحفاد والذرية يبتعدون عن الدين الحنيف . وشيئا فشيئا انتقلت إليهم عبادة الأصنام متأثرين بما كانت عليه شعوب الدول المجاورة فى الشام وأرض كنعان . وكان من بين الآلهة التى عبدوها « قوس » و «هدد » * .

وتفشت عبادة الأصنام فى أرض سعير التى هى أدوم . إلا أن نسل عيسو من بسمة بنت إسماعيل عليه السلام ظلوا على تمسكهم بالدين الحنيف . وظهر فيهم نبيان كريمان . هما أيوب و ذو الكفل .

---

* قاموس الكتاب المقدس . ص ٤٠.



شكل ٨٦ – أرض سعير

الزوجة	الأبناء	الأحفاد
عدا بنت إيلون الحثى	أليفاز	تيمان، أومار، صفوا، جعثام، قناز
أهو ليبامة بنت عنى بن سعير الحورى	يعوش، يعلام، قورح	
بسمة بنت إسماعيل	رعوئيل	نحث، زارح، شمة، مزة

عيسو

زوجات وأبناء عيسو وأحفاده .

(التوراة . إصحاح ٣٦ تكوين)

إسحق ← يعقوب، عيسو

عيسو + بسمة ← رعوئيل ← زارح ← عوص (موص) ← أيوب ← ذو الكفل

كوّن أبناء عيسو وأحفاده إمارات متفرقة . كُلّ فى منطقته . ولكنهم فيما بعد اتحدوا وكونوا دولة واحدة . كانت تحمل العداء لبنى إسرائيل (بنى يعقوب) . واستمر هذا العداء بين الشعبين الشقيقين . ولم يتبع الأدوميون موسى عليه السلام . بل رفضوا أن يمر فى أرضهم كما سيجىء فيما بعد – وكما جاء فى الإصحاح ٢٠ عدد :

وأرسل موسى رسلا من قادش إلى ملك أدوم . دعنا نمر فى أرضك . لا نمر فى حقل ولا فى كرم ولا نشرب ماء بئر . فى طريق الملك نمشى . لا نميل يمينا ولا يساراً حتى نتجاوز تخومك . فقال له أدوم : لا تمر بى لئلا أخرج للقائك بالسيف . فقال له بنو اسرائيل : فى السكة نصعد . وإذا شربنا أنا ومواشى من مائك أدفع ثمنه . لاشىء . أمر برجلى فقط . فقال لاتمر . وخرج أدوم للقائه بشعب غفير وبيد شديدة . وأبى أدوم أن يسمح لإسرائيل بالمرور فى تخومه . فتحول إسرائيل عنه .

ولعل الأدوميون خشوا أن يكون طلب المرور ما هو إلاّ خدعة وتحايلا حتى يحتلوا أرضهم . ولعل حادثة أخذ يعقوب للبكورية والبركة من أخيه عيسو (أدوم) الذى هو جدهم كانت لاتزال عالقة فى ذاكرتهم ! واضطر بنو إسرائيل للإلتفاف حول أرض سعير فى مسيرة طويلة بأرض وعرة وقاسية ليصلوا إلى أرض كنعان من الشمال الشرقى . وظلت العداوة قائمة والحرب سجالاً بين الشعبين . وفيما بعد – استولى داود عليه السلام على مملكة أدوم . وفى أثناء السبى البابلى لملكة يهوذا استعاد الأدوميون كيانهم واستولوا على أجزاء من مملكة يهوذا حتى مدينة حبرون . ثم لما تولى أمصيا عرش يهوذا أخضع أدوم ثانية (٨٠٠ – ٧٨٢ ق.م.) .

وفى عام ٥٠٠ ق . م . استولى النبط (نسبة إلى نابت بن إسماعيل) على جبل سعير وانتهت دولة أدوم إلى الأبد . ونقل النبط العاصمة من « سالع » إلى « البتراء » * وهى كلمة يونانية تعنى « الصخر » أو « الشق فى الصخر » لأن مدخل مدينة البتراء يتميز بوجود أخدود عميق بين جبلين يعرف اليوم باسم « السيق » . ولعله لفظ نبطى متوارث محرف عن كلمة « الشق » فى اللغة القديمة . وكان الإغريق يسمون البتراء . Arke وفى العربية القديمة حرِّف لفظ إركِ إلى الرقيم . وأما اسمها الحديث فهو وادى موسى ** .

وظلت البتراء مدينة هامة إلى أن سقطت فى أيدى الرومان عام ١٠٥ ميلادية . ثم أهملت حتى اندثرت تماماً . إلى أن كشفت عنها الحفريات الأثرية التى أجريت حديثا.

يعقوب – نبيا :

بقى يعقوب عليه السلام فى حبرون – نبيا – يدعو ما حوله من قبائل الكنعانيين إلى عبادة

---

* دكتور بيومى مهران . دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم جزء ٨ ص ٥٥٠

** ياقوت . معجم البلدان . جزء ص ٢٥٦ .

الله . ولا بأس من ذكر نبذة قصيرة هنا عن **ديانة الكنعانيين** – لأننا سنعود إلى ذكرها بالتفصيل عند بدء بنى إسرائيل غزو أرض كنعان بقيادة يشوع (فى الجزء الخامس إن شاء الله) .

ولما كانت أرض فلسطين تقع فى مكان متوسط بين العراق وسوريا فى الشرق . ومصر فى الجنوب . فقد تأثرت ديانتها بهذه الدول . بل يمكن أن نقول إن ديانتها كانت مزيجا من ديانات هذه الدول . وإن اتخذت لها طابعا محليا تحدد بطبيعة جغرافيتها . فهى قد أخذت عن العراق عبادة القوى الطبيعية (الجزء الثانى ص ٢٠٠) إلاَّ أنها – كما هو يميز المجتمعات الزراعية عامة – ركزت على قوى النمو والتكاثر والإخصاب . وظهرت عبادة تشير إلى إله الخصب وموته والنواح عليه وهو « بعل » أو « تموز » ثم تشير إلى غلبته على الموت وإقترانه بإلهة الخصب التى عرفت باسم « بعلة » و « عنات » .

واقتبست ديانة الكنعانيين فكرة البعث من ديانة مصر القديمة – ذلك أن أسطورة « أوزير » و « إيزيس » المصرية الشهيرة جعلت التابوت الذى وضع به أوزير تتقاذفه أمواج البحر حتى أرسته على شاطىء ببلوس « جويلة » فى فينيقيا – وهو الجزء الشمالى من أرض كنعان – ونمت من حوله شجرة أرز اقتطعها الملك ليجعل منها دعامة لسقف قصرة . وكما عاد أوزيريس إلى الحياة مرة أخرى . كذلك تعيش الطبيعة وتموت وتبعث . وإن كانوا فى أرض كنعان قد ربطوا الأمر بمظهر فلكى باندماجه مع القمر وصيرورته ملكا للعالم الليلى . فالقمر . يحيا ويموت ثم يبعث حيا مرة أخرى .

وكان لكل مدينة فى كنعان سيدها وإلهها وبعلها – وهو جد ملوكها ومخصب أرضها . فكل الحبوب والخمور والكتان والتين من عمله . وكان أشهر آلهة الكنعانيين هو « إيل » إله السماء وإلهة الأرض وهى « عشتار » أو « أشيرة » .

بدأ يعقوب عليه السلام يدعو الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد . ولكن عقول القوم لم تستطع أن تستوعب هذا التجريد المعنوى فى إله غيب لا يرى ولا تدركه الأبصار . وكان يدعو إلى نبذ عبادة الأصنام . وقد سبق أن ذكرنا أنه جمع جميع الأصنام التى كانت مع عشيرته وعبيده وطمرها فى حفرة فى الأرض حين اصطفاه الله نبيا (صفحة ٤٢٠) .

لم يأت يعقوب بشريعة جديدة . بل كانت شريعته هى نفس شريعة جده ابراهيم وشريعة أبيه إسحق – عليهما السلام .

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا . وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط » .

(١٣٦ – البقرة)

« قولوا آمنا بالله وما أنزل علينا . وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط » .

(٨٤ – آل عمران)

« وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط » . (١٦٣ - النساء)

« واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل . وكلٌ من الأخيار » . (٤٥ - ٤٨ - ص)

وصف الله الأنبياء فى هذه الاية بأنهم أولى الأيدى أى أولى القوة وقال مجاهد يعنى القوة فى طاعة الله تعالى ، والأبصار يعنى البصر فى الحق والفقة فى الدين . **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** أى جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم همٌ فى غيرها . وقال مالك بن دينار نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها . وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها . وقال سعيد بن جبير : الدار أى الجنة . أى أخلصناها لهم بذكرهم لها . وقال قتادة كانوا يذكِّرون بالدار الآخرة والعمل لها . وترغيبهم فيها . وتزهيدهم فى الدنيا . وإطلاق إسم الدار بدون وصف الآخرة . فيه إشعار بأنها هى الدار الحقيقية وإنما الدنيا مجاز لها . ثم ختمت الآية بقوله تعالى إنهم من المختارين المجتبين الأخيار . ثم أضاف الله إليهم إسماعيل واليسع وذا الكفل بأنهم أيضا من الأخيار .

سار يعقوب على شريعة إبراهيم – وكان كل الطعام حلالا فى شريعة ابراهيم عليه السلام. إلاً أن يعقوب حرَّم بعض المأكولات على نفسه (ص ٤٠٤) . قال ابن جريج والعوفى عن ابن عباس : كان إسرائيل عليه السلام – وهو يعقوب – يعتريه عرق النسا بالليل وكان يقلقه ويزعجه عن النوم . ويقلع الوجع عنه بالنهار . فنذر لئن عافاه الله لا يأكل عرقا ولا يأكل وَلَد ماله عرق . وكان هذا الأكل من أحب الأشياء إليه . وتركها تقربا إلى الله . وقالوا * إن هذا يتمشى مع قوله تعالى : **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** . وهو الإنفاق فى طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه . كما قال تعالى : **« وآتى المال على حبه »** وقوله **« ويطعمون الطعام على حبه »** . وهكذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها . فاتبعه بنوه فى تحريم ذلك إقتداء به واتباعا لسنته .

« كل الطعام حلا لبنى إسرائيل . إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوارة. قل فاتوا بالتوارة فاتلوها إن كنتم صادقين » . (٩٣ - آل عمران)

روى الواحدى عن الكلبى أنه حين قال النبى ﷺ : أنا على ملة إبراهيم . قالت اليهود : كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها ؟

---

* تفسير ابن كثير جزء أول ص ٣٨٢ .

فقال النبى ﷺ : كان ذلك حلالا لإبراهيم عليه السلام . فنحن نُحِلُّه . فقالت اليهود : كل شيء أصبحنا اليوم نحرمه فإنه كان محرمًا على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا . فأنزل الله تعالى هذه الاية تكذيبا لهم .

وكان الله سبحانه وتعالى قد أباح أكل جميع الحيوانات لنوح عليه السلام واستمر ذلك حتى عهد إبراهيم ثم من بعده حتى عهد يعقوب . وجاء فى التوراة (إصحاح ٩ تكوين) .

ويارك الله نوحا وبنيه وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض . ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء . مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر قد دفعت إلى أيديكم . كل دابة حية تكون لكم طعاما . كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع .

وهكذا كان فى التوراة التى بين أيديهم تكذيب قولهم إن لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة على نوح وإبراهيم . وإنما حرم هذه الأشياء إسرائيل أى يعقوب – لما شفاه الله من ألمه . فحرّم أحب الطعام إلى نفسه تعبدا . كما يحرِّم المستظهر فى دينه من الزهاد اللذائذ على نفسه وإن لم يحرمها الدين .

وقال الإمام أحمد * : حدثنا هاشم بن القاسم . عن عبدالحميد عن ابن عباس قال : حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله ﷺ . فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى . قال سلونى ما شئتم ولكن اجعلوا لى ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئا فعرفتموه لتتابعُنى على الإسلام . قالوا فذلك لك . قالوا : أخبرنا عن أربع خلال . أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه ... الخ الحديث . فقال أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى . هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضا شديدا ، وطال سقمه ، فنذر لله نذرا لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه . وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها . فقالوا : اللهم نعم . فقال اللهم اشهد عليهم... الخ الحديث .

وروى مثل هذا القول عن أحمد أيضا عن حسين بن محمد عن عبد الحى – عن طريق آخر. عن ابن عباس . قال : أقبلت يهود إلى النبى ﷺ . فقالوا : يا أبا القاسم . إنا نسألك عن خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبى واتبعناك . فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه ثم قال : والله على ما نقول وكيل . قال : هاتوا . فكان مما سألوه . قالوا أخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه ؟ قال كان يشتكى عرق النساء . فلم يجد فى الإبل شيئا يلائمه فحرم لحومها وألبانها . قالوا صدقت .

---

* تفسير ابن كثير . جزء أول ص ٣٨١ .

كان هذا التحريم على عهد يعقوب عليه . ولكن الله بعد ذلك حرَّم على بنى إسرائيل أشياء أخرى عقابا لهم على كفرهم وظلمهم . فقد كان بنو اسرائيل إذا اقترفوا ذنبا عظيما حرَّم الله عليهم طعاما طيبا .

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم . وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » .

(١٦٠ – النساء)

وهكذا . بسبب ظلمهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم – ولأنهم صدُّوا الناس وصدُّوا أنفسهم عن اتباع الحق . فكان جزاؤهم أن حرم الله عليهم أنواعا طيبة من الطعام .

« وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر . ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلاَّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » .

(١٤٦ – الأنعام)

وعلى ذلك كان هذا التضييق عليهم صدقا وعدلا جزاء بغيهم . وسيأتى تفصيل ذلك فيما بعد فى قصة موسى عليه السلام فى الجزء الرابع بإذن الله .

قلنا إن يعقوب عليه السلام كان قد بلغ من العمر ٦١ عاما . واستقر فى حبرون بينما رحل أخوه عيسو إلى أرض سعير التى هى أدوم . ولاشك أن دينة ابنة يعقوب قد تزوجت . واستقرت فى بيت زوجها . وبقى مع يعقوب أبناؤه الإثنا عشر . بنيامين أصغرهم قد أتم عامه الأول ويوسف بلغ العاشرة أو الحادية عشرة . كانا أحب بنيه إلى قلبه . ليس فقط لأنهما « أبناء شيبة » أو « آخر العنقود » كما يقولون . بل لأنهما ولدا راحيل . الزوجة الأثيرة لديه والتى تحمّل ليتزوجها سبع سنوات خدمة لخاله لابان . ولما زوَّجه من ليئة . خدم سبع سنوات أخرى مهرا لراحيل . وكان تفضيله لابنه يوسف سببا لغيرة إخوته منه . وعملوا على إبعاده عن أبيهم ولكن عناية الله كانت ترعاه . فوصل إلى مصر ليصبح رئيس وزرائها واختاره الله نبيا .

جدول حياة يعقوب (١)

مصر	ق . م .	عمر يعقوب	الحـــدث
أمنمحيت الثالث	١٨٢٩	٠	ولادة يعقوب – وعمر إسحق ٥٠ سنة
	١٨١٩	١٠	
	١٨٠٩	٢٠	
١٨٠٣ ———	١٨٠٣	٢٦	وفاة جده إبراهيم عليه السلام
أمنمحيت الرابع	١٨٠٠	٢٩	أخذ البكورية من عيسو
	١٧٩٩	٣٠	أخذ البركة من إسحق والده واسحق عمره ٨٠ سنه
	١٧٩٨	٣١	الفرار إلى حاران
	١٧٩٧	٣٢	يصل الى حاران
	١٧٩٥		
أخت – ٣ سنة	١٧٩٢		} ٧ سنوات خدمة لابان
	١٧٩٠	٣٩	تزوج ليئة ثم راحيل
تفكك مصر	١٧٨٩	٤٠	ولادة رأوبين
الأسرة الثالثة عشرة		٤١	ولادة شمعون } من ليئة
		٤٢	ولادة لاوى
		٤٣	ولادة يهوذا
		٤٤	ولادة دانـا } من بلهة جارية راحيل
		٤٥	ولادة نفتالى
		٤٦	ولادة جـاد } من زلفة جارية ليئة
		٤٧	ولادة أشير
		٤٧	ولادة دينة
دخول الهكسوس	١٧٨٠	٤٩	ولادة يساكر } مـن ليئـة نفسها
	١٧٧٩	٥٠	ولادة زبولون
الأسرة الرابعة عشرة المصريون الجزء الغربى من الدلتا / الأسرة الخامسة عشرة الهكسوس	١٧٧٨	٥١	ولادة يوسف من راحيل
		٥٢	تـرك حاران
		٥٣	لابان يلاحق يعقوب عند سهدوثا وجلعاد
		٥٤	عيسو يقابل يعقوب عند محنايم
		٥٤ر٥	يعقوب ومصارعة الملاك
		٥٥	يعقوب فـى شكيم
		٥٨	دينـه عمرها ١١ سنة
		٥٩	اغتصاب دينه وتـرك شكيم
	١٧٦٩	٦٠	فـى بيت إيل وبنـاء المذبح

تكملة جدول حياة يعقوب (٢)

مصر	ق . م .	عمر يعقوب	الحـــدث
	١٧٦٩	٦٠	فى بيت إيل وبناء المذبح عمر والده اسحق ١١٠ سنه وإكتمال النبوة ليعقوب
		٦١	فـى بيت لحم وإفراته ولادة بنيامين و وفاة راحيل
		٦٢	السير الى حبرون
	١٧٦٦	٦٣	عيسو ويعقوب فـى حبرون
١٧٦٥ ← خيان ملك الهكسوس (حكم ٥٠ سنة)	١٧٦٥	٦٤	وفــاة إسـحق
	١٧٦٥	٦٤	افتراق عيسو عـن يعقوب
	١٧٦٤	٦٥	• حلم يوسف وعمره ١٤ سنه تقريبا
			• إلقاء يوسف فـى الجب
	١٧٦٣	٦٦	• وصول يوسف الـى مصر
	١٧٤٠	٨٩	بدء السنوات السبع السمان
	١٧٣٣	٩٦	بـدء السنوات السبع العجاف
	١٧٣١	٩٨	مجىء إخـوه يوسف لجلب القمـح أول مرة
	١٧٣٠	٩٩	مجىء إخوة يوسف ثانى مرة ومعهم بنيامين
	١٧٢٩	١٠٠	مجىء إخوة يوسف ثالث مرة
	١٧٢٨	١٠١	يعقوب وبنيه يأتون إلى مصر
	١٧٢٧	١٠٢	
١٧١٥	١٧١٩	١١٠	
أبو فيس الأول (حكم ٤٠ سنة)	١٧١٤	١١٥	
	١٧٠٩	١٢٠	
		١٢٥	
	١٦٩٩	١٣٠	
		١٣٥	
	١٦٨٩	١٤٠	
	١٦٨٢	١٤٧	وفاة يعقوب ويوسف يحمله لدفنه فى حبرون وكان عمر يوسف ٨٩ سنة
	١٦٨٠		
	١٦٧٥		

يوسف عليه السلام

هو يوسف بن يعقوب من زوجته راحيل ابنة خاله لابان . آخر من ولد فى حاران قبل أن يتركها فى طريق العودة إلى أرض كنعان .

وجاء اسمه فى القرآن الكريم يوسُف . بضم السين . وفى التوراة تنطق بكسر السين . وضم السين أجمل – حتى لا يختلط الأمر على القارىء فيظن أن الإسم مشتق من الأسف والمؤاسفة كما هو الحال لو نُطقت بكسر السين . *

وقال بعضهم إنها مشتقة من فعل ياساب العبرى بمعنى يُضَيِّف ويكون يوسف بمعنى يضيف أو ضيف الله . وبعضهم قال مشتقة من جذر عبرى بمعنى يخاف أو خائف . فمعنى يوسف هو خائف الله ** .

وقد ورد اسم يوسف فى القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرة .

مرة فى سورة الأنعام فى الحديث عن إبراهيم عليه السلام :

« ووهبنا له إسحق ويعقوب كُلاً هدينا ، ونوحاً هدينا من قبل . ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون . وكذلك نجزى المحسنين » .

(٨٤ – الأنعام)

ومرة فى سورة غافر

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ... » (٣٤ – غافر)

أما الـ ٢٥ مرة الباقية فقد جاءت كلها فى سورة يوسف . وهى سورة كاملة لا تتحدث إلاَّ عن يوسف . وتبدأ بقوله عز وجل :

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين . إذ قال يوسف لأبيه ... » .

وسنرى بوضوح – فى سورة يوسف – نوعين من **الإعجاز اللفظى للقرآن الكريم :**

---

* من إعجاز القرآن . رؤوف أبو سعدة جزء أول ص ٣٠٨ .

** قاموس الكتاب المقدس . ص ١١١٥ .

١ – **الاختصار أو الإيجاز** : وهذا النوع من الإعجاز ينطبق على القرآن كله وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا فى خطبة له إذ قال : أيها الناس . إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه . واختصر لى اختصاراً . ويبدو ذلك بوضوح فى سورة يوسف . فما ورد فى أسطر قليلة نجده يعبِّر عن حدث يلزم لوصفه صفحة كاملة أو أكثر .

٢ – **تعدد المعانى** : بمعنى تضمين اللفظ الواحد عدة معانى وعدة احتمالات . فمثلاً . فقد يذكر كلاماً ولا يُذكر قائله . ويترك الذهن حراً فى استخلاص من قاله . وقد تتساوى احتمالات نسبة هذا الكلام إلى شخصين ممن تعنيهم القصة . أو يأتى فى الآيات التالية ما يشير إلى أحدهما .

وهذان النوعان من الإعجاز اللفظى للقرآن – يدفعان المرء إلى إعمال الفكر والتدبر فى الآيات امتثالاً لقوله تعالى :

« كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبَّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » .
(٢٩ – ص)

أى ليتدبروا آياته – وبهذا قرأ علىٌّ كرم الله وجهه .

وستتم الإشارة إلى هذين النوعين من البلاغة اللفظية فى أثناء سرد قصة يوسف عليه السلام .

كذلك وردت قصة يوسف فى التوراة فى الإصحاحات ٣٧ – ٤٥ تكوين . وفيها بعض الإختلافات سنشير إليها فى حينها .

وقد امتدح نبينا صلى الله عليه وسلم يوسف فى حديثين : قال الإمام أحمد عن آخرين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (عن يوسف) الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم . يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . انفرد بإخراجه البخارى . وروى البخارى أيضاً حديثاً عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا ليس عن هذا نسألك . قال : فأكرم الناس يوسف نبى الله بن نبى الله بن نبى الله بن خليل الله . قالوا ليس عن هذا نسألك . قال فعن معادن العرب تسألونى؟ قالوا نعم : قال فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا.*

كان يوسف وأخوه بنيامين أحب أبناء يعقوب إلى قلبه . ولد يوسف فى حاران قبل أن يغادرها يعقوب بفترة قليلة وكان عمر يعقوب عند ولادته ٥٢ عاماً تقريباً . وحينما وصل شكيم

* تفسير ابن كثير . الجزء الثانى ص ٤٦٨ .

كان يعقوب قد قارب الخامسة والخمسين ويوسف بلغ بالكاد ثلاث سنوات وعند الوصول إلى أفراته وضعت راحيل ابن يعقوب الأخير – بنيامين – وماتت . كان يعقوب عمره حوالى ٦١ عاماً ويوسف بلغ التاسعة من عمره .

وزاد يعقوب من حنانه على يوسف وبنيامين . وخاصة بعد وفاة والدتهما – راحيل – وزاد هذا من حفيظة إخوتهما عليهما . وإن كان غضبهما على يوسف أشد . فخصوه هو بالذكر بالإسم وألحقوا به أخاه . واتهموا أباهم بالضلال والزيغ عن الحق لتقديمه يوسف عليهم ومحبته له أكثر منهم .

« لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة . إن أبانا لفى ضلال مبين » .

(٧ – ٨ – يوسف) .

وتقول التوراة (إصحاح ٣٧ تكوين) كان يوسف ابن سبع عشرة سنة يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام . وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم . وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته .فصنع له قميصاً ملوناً . فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته . أبغضوه . ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام .

وبنظرة إلى جدول أحداث حياة يعقوب (ص ٥٢٦) ندرك أن يوسف عند بدء قصته هذه لابد كان أصغر من السابعة عشرة – والمرجح أنه كان لا يزال فى الثانية عشرة من عمره .

قيل* كان القميص طويلاً يصل إلى القدمين . وكانت له أكمام طويلة تغطى اليدين . وكانت القمصان وقتهم بغير أكمام وتصل إلى الركب فقط . وقد أعطى هذا القميص تمييزاً له على إخوته .

ولعل إخوة يوسف قد توجسوا خيفة من ذلك الحب الشديد وخشوا أن يكون ذلك مقدمة لإعطائه البكورية والبركة وهم لابد قد علموا أن أباهم قد كسر قاعدة البكورية بأن أجبر عمهم عيسو على التنازل عنها عند مرضه – كما أنه قد أخذ البركة أيضاً . لذلك كان خوفهم من أن يكون فى نية أبيهم كسر القاعدة مرة أخرى لصالح يوسف . لشدة حبه له ولكون يوسف هو الابن البكر لراحيل – التى كانت أثيرة لديه . لذلك كان بغضهم ليوسف أشد . فرغبوا فى التخلص منه .

---

* تفسير الكتاب المقدس . جزء أول ص ١٩٩ .

وحلم يوسف حلماً . يذكره القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً . والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث . ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق . إن ربك عليم حكيم » .

(٤ - ٦ يوسف)

قال علماء اللغة إن يا أبتِ أصلها يا أبى . ثم أبدلت الياء تاء للتعظيم والمبالغة كما نقول فى وصف رجل بزيادة العلم أنه علاَّمة . وقيل فيها كلام آخر لا محل هنا لذكره .

وقال بعض المستشرقين إن هناك تكرار : رأيت ثم رأيتهم . ورد فضيلة الشيخ محمد الشعراوى بأنه لو قال رأيت أحد عشر كوكباً ساجدين . أفادت بأنه رآهم حالة كونهم ساجدين . ولكن قد يكونوا قد سجدوا لأمر آخر أو أنهم جُبِلوا على السجود . أما التعبير كما جاء فى القرآن الكريم فيفيد أنه رآهم أولاً فى حالتهم العادية . ثم رآهم ساجدين فيفيد أن السجود كان له . أو - كما جاء فى تفسير الألوسى (جزء ١٢ ص ١٧٩) - أنه جواب سؤال مقدر . كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله : رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر . كيف رأيتها ؟ سائلاً عن حال رؤيتها فقال : رأيتهم لى ساجدين .

ولم تدخل دينة ضمن الإخوة . إذ هم إثنا عشر ذكراً . وكون أحدهم هو المتكلم فيكون الباقى أحد عشر . عبارة عن إخوته . والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه . وبهذا قال ابن عباس وغيره . وهذه الرؤيا معناها خضوع إخوته له وتعظيمهم له تعظيماً زائداً بحيث يسجدون له إجلالاً واحتراماً وإكباراً . فخشى يعقوب عليه السلام أن يُحدِّث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك . ويدبِّرون له كيداً يتخلصون به منه . (وبعد حوالى ثلاثة وثلاثين عاماً تحقق الحلم حين دخل عليه إخوته فخروا له سُجَّداً) .

وجاء قوله صلى الله عليه وسلم : الرؤيا من الله تعالى . والحلم من الشيطان . وفى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله تعالى . فليحمد الله تعالى وليحدث بها . وإذا رأى غير ذلك مما يكره . فإنما هى من الشيطان . فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لن تضره .

ثم إن يعقوب قال ليوسف : وكما أن الله قد فضلك على جميع إخوتك بحيث يسجدون لك . فإن الله يفضلك أيضاً ويختارك ويعطيك من العلم بحيث يمكنك تفسير الرؤى والأحلام بإيحاء من

الله تعالى وبتعريفه لك دلالاتها ومعناها . وهى نعمة وفضل من الله . وقد سبق أن أتم الله نعمته على أبويه – وهما جده إسحق وأبو جده إبراهيم عليهما السلام .

وقيل إن يعقوب إستشف من هذه الرؤيا بأن الله قد يصطفيه للنبوة أيضاً . فقد كان يعلم أن الرؤيا الصادقة هى مقدمة للوحى . لذلك قال يجتبيك ربك أى يخصك ويتم نعمته فيما بعد بالوحى والنبوة كما أتمها على إسحق وإبراهيم عليهما السلام .

وقال بعض العارفين والصوفية إن الرؤيا الصادقة تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من تناسب . والإطلاع على بعض المعانى الحاصلة . فيظهر فيها صور مناسبة لتلك المعانى . ثم إن المخيلة تحاكيها بصورة مناسبة فترسلها إلى الحسِّ فتصير مشاهدة . وقد صح عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أول ما بُدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة . فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فلق الصبح .

وقالوا إن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . وقالوا فى هذا إن عائشة رضى الله عنها أشارت إلى أنه صلى الله عليه وسلم بقى ستة أشهر يرى الوحى مناماً , ثم جاءه الملك يقظة . وستة أشهر بالنسبة إلى ثلاث وعشرين سنة فترة الوحى . هى جزء من ستة وأربعين جزءاً .

أما قول يعقوب ليوسف « يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً » . أى فيحتالوا لإهلاكك حسداً من أنفسهم مع أنه كان واثقاً من أنهم لا يقدرون على تحويل ما دلت عليه الرؤيا . وأنه سبحانه وتعالى سيحقق ذلك لا محالة . فإنما قال ذلك طمعاً فى حصوله بلا مشقة ليوسف نفسه .

تختلف رواية التوراة عن القرآن الكريم فى شيئين :

١ – أن التوراة جعلت يوسف يقص الحلم على إخوته .

٢ – أن التوراة أوردت بدل الحلم حلمين .

فقد جاء فى الإصحاح السابع والثلاثين تكوين :

وحلم يوسف حلماً . وأخبر إخوته . فازدادوا له بغضاً . فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذى حلمت . فها نحن حازمون حزماً فى الحقل . فإذا حزمتى قامت فانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتى . فقال له إخوته ألعلَّك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا تسلُّطاً . وازدادوا أيضاً بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه . ثم حلم أيضاً حلماً آخر وقصه على إخوته فقال : إنى قد حلمت حلماً أيضاً . وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لى . وقصه على أبيه وعلى إخوته . فانتهره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذى حلمت . هل نأتى أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض . فحسده إخوته . وأما أبوه فحفظ الأمر .

وقد يكون الأمر أن يوسف لما أخبر إخوته بالحلم الأول . ورأى استنكارهم له وردهم عليه أدرك أن ذلك سيزيد من حقدهم عليه وعداوتهم له . ولعله وهو ابن عشر سنوات ظن أن هذه أضغاث أحلام . ولعلهم هم أيضاً ظنوا أن الحلم ما هو إلا رد فعل لمضايقاتهم له . وتنفيس عما فى نفسه تجاههم – وإن كان لصغر سنه لا يستطيع التغلب عليهم ففى الأحلام يستطيع أن يتخيل ما يشاء من أن حزمهم سجدت لحزمته . وظنهم أن هذا الحلم يشبه المثل القائل : الجائع يحلم بسوق الخبز ! .

ولكن لما كان الحلم الثانى وهو أوضح فى دلالته . فرأى أن يقص الحلم على أبيه أولاً . وأدرك يعقوب عليه السلام المغزى الحقيقى للحلم وأن ابنه يوسف سيكون له شأن عظيم . فأمره أن يكتم الخبر عن إخوته كما حدَّث بذلك القرآن الكريم – حتى لا يتخذ الشيطان من هذا الحلم مجالاً لوسوسة لهم بأن يكيدوا له ليتخلصوا منه .

ويمكننا أن نقول إن الحلم الأول كان مجرد تمهيد للحلم الأساسى وهو الحلم الخاص بسجود الكواكب . ولذلك فقد اقتصر القرآن الكريم على ذكره وهو الذى تحقق فى قابل الأيام من سجود إخوته وأبيه وأمه لما دخلوا عليه فى مصر .

لا ندرى هل التزم يوسف وهو فى هذه السن الصغيرة بأمر والده بكتمان هذا الحلم عن إخوته أم لا . ومن المرجح أنه بعد معرفة دلالة هذا الحلم شعر ببعض الثقة فى نفسه . ولعل إخوته أيضاً شعروا بتغير ما فى سلوكه . فلعله لم يعد يعبأ بمضايقاتهم له . أو لعله فى إحدى المرات رد عليهم قائلاً : غداً ستندمون على هذه الأقوال أو على هذه الأفعال . ولعلهم سخروا منه فقالوا له : ألعلّك حلمت حلماً آخر؟ فلم يتمالك نفسه إلا وقد أخبرهم بالحلم الثانى ليوقفهم عن سخريتهم به . ولابد أنهم قد أدركوا حقيقة المعنى الذى يشير إليه هذا الحلم . فالمعنى واضح . وهو أنه سيكون فى موقف القوة ويكونون هم منه فى موقف الضعف بحيث يسجدون له سجود تعظيم وإكبار . أيكون أن أباهم سيختصه بالبركة دونهم . وهم يعلمون أن أباهم يعقوب نبى . فهل سيتلقى يوسف النبوة عنه !

وحدثتهم أنفسهم – والنفس أمارة بالسوء – لئن حدث هذا حقاً لتكونن كارثة عليهم . وبدأ الشيطان وسوسته . وهم . وإن كانوا ناشئين فى بيت نبوَّة إلاَّ أنهم ليسوا معصومين عن وسوسة الشيطان . وعبَّر عن هذا يوسف عليه السلام فيما بعد بقوله :

« من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى » . (١٠٠ – يوسف)

واتفقوا على التخلص منه . وكان تشاورهم فى الكيفية التى يتم بها هذا الأمر . وجعلوا يفاضلون بين الطرق المختلفة للتخلص منه . وليقنعوا أنفسهم بصواب ما ينتوون ذكروا فيما

بينهم أنهم يريدون أن يكونوا بررة بأبيهم – لا يشعرون نحوه إلاَّ بكل حب وتقدير وإحترام . وأن وجود يوسف وحب أبيه له هو الذى يثير حفيظتهم على أبيهم . ولكن بعد أن يختفى يوسف سيصفو لهم وجه أبيهم . وفى المقابل تصفى وجوههم أيضاً لأبيهم . ومن ثَمَّ لن يشعروا نحوه إلا بشعور الأبناء الصالحين البارين بأبيهم . وهكذا استقر رأيهم على التخلص من يوسف .

كانت المناقشة تدور للمفاضلة بين هل يقتلونه أم يرمونه فى بئر ويتركونه لمصيره . سواء مات من الجوع أو العطش أو التقطته بعض القوافل المارة . فتأخذه معها بعيداً عنهم .

« اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين . قال قائل منهم . لا تقتلوا يوسف . وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » . (٩ – ١٠ – يوسف)

وهناك خلاف حول من قال : **« لا تقتلوا يوسف »**

قال مجاهد هو شمعون .

وقال السدى هو يهوذا .

وقال قتادة ومحمد بن اسحق : هو أكبرهم رأوبين .

وصرفهم الله عن قتله بمقالة أخيهم هذه وجعلهم يتجهون لإلقائه فى البئر .

بدأ التفكير بعد ذلك فى كيفية تنفيذ هذاالأمر . فإن يعقوب لا يطيق فراق يوسف . فكان لا يرسله معهم ليرعى الغنم . ولعل يعقوب عليه السلام كان يدرك حقيقة شعور أبنائه تجاه يوسف. وكان هذا من أحد الأسباب لعدم إرساله ليرعى الغنم معهم . فقد كان يخشى أن يصيبوه بأذى . لذلك كان أول تدبيرهم هو أن يجعلوا أباهم يطمئن إليهم حتى يرسله معهم . لذلك فإنهم خاطبوه مذكرين له بأنه أبوهم **« قالوا يا أبانا »** وهذا يتضمن أنه أبوهم كما أنه أبو يوسف أى أنهم إخوة . ليكون ذلك مدعاة لعدم الريب فيهم . وسألوه سؤال استفهام أو لعله سؤال استنكار عن سبب عدم إئتمانه لهم على يوسف مع أنهم يريدون له الخير وينصحون له بما ينفعه . فطلبوا منه أن يرسله معهم فى اليوم التالى يرتع أى يأكل ويشرب ما شاء . ومعناها أيضاً يلعب . وهذا ما يلائم حاله من صغر السن . وقرأ جعفر بن محمد : نرتع ويلعب . بمعنى نحن نرعى الغنم وهو يلعب . وقرأ مجاهد وقتادة وابن محيص الإثنتين بالنون : نرتع ونلعب* ولكن الجمهور قرأها « يرتع ويلعب » .

وقالوا إنهم سيحفظونه من أن يناله مكروه . قالوا ذلك بصيغة التأكيد – إنَّ ولام التوكيد – **« إنا له لحافظون »** . وكان الجواب بنفس صيغة التوكيد – إن ولام التوكيد فقال لهم

---

* تفسير الألوسى . جزء ١٢ ص ١٩٢ .

« **إنه ليحزننى أن تذهبوا به** » لقلة صبره على مفارقة يوسف . وأخبرهم أنه يخاف عليه من أن يغفلوا عنه – فى رعى الغنم أو بلعبهم – فيأكله الذئب . فنفوا إمكانية وقوع هذا الأمر لأنهم جماعة قوية وعصبة . بمعنى أن لو ذهب بعضهم يرعى الغنم فسيتولى بعضهم حمايته . ولو سمحوا بحدوث هذا الأمر – وهو أن يأكله الذئب – فإن ذلك يعتبر سبة فى حقهم . وخسارة لهم لأنه أخوهم . وكأنهم يقولون باستحالة وقوع هذا الأمر . وأكدوه أيضاً بـ « إن ولام التوكيد » بقولهم « **إنا إذاً لخاسرون** » .

عبر القرآن الكريم عن هذا المشهد هكذا :

« **قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إنه ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون . فلما ذهبوا به ...** » . (١١ – ١٤ يوسف)

تذكر التوراة هذا الحدث على وجه آخر (إصحاح ٣٧ تكوين) :

ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم . فقال إسرائيل ليوسف . أليس إخوتك يرعون عند شكيم . تعالى فأرسلك إليهم . فقال له هأنذا . فقال له : اذهب انظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم وردّ لى خبراً . فأرسله من حبرون فأتى إلى شكيم . فوجده رجل وإذا هو ضال فى الحقل . فسأله الرجل قائلاً ماذا تطلب ؟ فقال : أنا طالب إخوتى . أخبرنى أين يرعون ؟ فقال الرجل : قد ارتحلوا من هنا لأنى سمعتهم يقولون لنذهب إلى دوثان . فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم فى دوثان .

والرواية بهذا الشكل لا تتفق مع المنطق . إذ تجعل يعقوب هو الذى يرسل بنفسه يوسف إلى إخوته . الأمر الذى لا يتمشى مع شدة حبه له . وعلمه بحسد إخوته له وخوفه عليه منهم . كما أن المسافة بين حبرون وشكيم تبلغ ٨٨ كيلو متراً ثم من شكيم إلى دوثان ٢٤ كيلوا متراً أخرى . أى أن المسافة كلها من حبرون إلى دوثان تبلغ ١١٢ كيلو متراً (شكل ٨٨ ص ٤٤٩) . ومن غير المعقول أن يطلب يعقوب من إبنه ذى السبع أو حتى العشر سنوات أن يمشى هذه المسافة وحده. ولا يخاف عليه من أخطار الطريق . ولماذا؟ لكى يطمئنه على باقى أبنائه – وهم عشرة أشداء قادرون على حماية أنفسهم ! كما أنه من غير المنطقى أن يذهب إخوة يوسف لرعى غنمهم فى هذه المنطقة البعيدة . إلاّ إذا جفت المراعى حولهم فيكون إرتحالاً إلى منطقة أخرى بخيامهم وأهلهم .

والأقرب للعقل أن إخوة يوسف كانوا يرعون الغنم على مقربة من حبرون ثم يعودون آخر النهار للمبيت فى حبرون .. وهذا ما سهَّل مهمتهم فى إقناع أبيهم بالسماح لهم بأخذ يوسف معهم . إذ هو لن يغيب عنه إلاَّ طيلة يوم أو بعض يوم . ولو كان الغياب لعدة أيام لما وافق يعقوب .

ولقد كان القرآن الكريم دقيقاً فى هذه المسألة فى قوله تعالى :

« أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ......

.... وجاءوا أباهم عشاء يبكون » .

فهم لم يغيبوا إلاَّ ساعات النهار فقط .

بهذا التحايل من إخوة يوسف أمكنهم إقناع أبيهم بالسماح ليوسف بالذهب معهم .

– أثاروا فيه عاطفة الأبوة بقولهم : **يا أبت** .

– ثم تظاهروا بحرصهم على مصلحة يوسف نفسه – حيث يتمكن من الجرى واللعب كما يشاء : **يرتع ويلعب** .

– ثم أكدوا حرصهم ومحافظتهم عليه : **وإنا له لناصحون** .

– ولما أبدى تخوفه من أن يأكله الذئب بقوله :

« وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » .

نفوا إمكانية حدوث ذلك نفياً قاطعاً لكثرة عددهم **« ونحن عصبة »** .

فواجب المرء أن يدرس كافة الاحتمالات المتوقعة والمخاطر التى قد تحدث وينبه إليها حتى تؤخذ الحيطة اللازمة لتوقيها . ولكن الواجب أيضاً أن لا يغيب عن المرء أنه مهما أخذ من أسباب الحيطة فإن الأمر كله بيد الله وخاضع لمشيئته . فيرجو الحفظ من الله ذاته . فالأسباب بيده . إن شاء أنفذها وإن شاء عطلها . فلا يتم إلاَّ ما يشاء . قيل إن الله تعالى أوحى إلى يعقوب : أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت : أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. لِمَ خفتَ الذئب ولَمْ ترجُنى ؟ ولِمَ نظرت إلى غفلة إخوته ولَمْ تنظر إلى حفظى له ؟

وهذا ما تلافاه يعقوب عليه السلام فيما بعد – حين طلب بنوه – فى المستقبل – أن يأخذوا أخاهم بنيامين . وقالوا نفس الكلام : **« وإنا له لحافظون »** . لم يقل مثلاً إنى أخاف أن يأخذه منكم قطاع الطرق . والمسافة طويلة من حبرون إلى مصر . وخاصة أنه صغير ولا يستطيع الدفاع عن نفسه – بل أوكل أمر الحفظ كلية إلى الله سبحانه وتعالى فقال :

« قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل . فالله خير حافظاً . وهو أرحم الراحمين » (٦٤ – يوسف)

يقال إن يعقوب عليه السلام ضم يوسف إليه قبل أن يذهب مع إخوته . كما أنه من المؤكد أن إخوة يوسف – فى أول مسيرتهم – كانوا يرحبون به ويضاحكونه ويتلطفون معه حتى يطمئن إليهم فلا يقفل راجعاً . ولعلهم ساروا ساعة من الزمان أو أكثر قطعوا فيها عشرة كيلومترات – فى الطريق الموصل إلى بئر سبع – حتى وصلوا إلى المكان الذى يرعون فيه . حول بئر يشربون منه إذا عطشوا ويستقون لأغنامهم أيضاً . وكانت البئر التى وقع عليها اختيارهم لإلقاء يوسف فيها على طريق القوافل . فلم يتخيروا بئراً مهجورة لعلمهم أنه سيموت جوعاً أو عطشاً فيها . وهم لم يقصدوا موته . بل كان هدفهم هو إبعاده بإلقائه فى بئر . حتى تلتقطه قافلة مارة فيأخذونه معهم ويبيعونه فى البلد المتجهين إليه .

« قال قائل منهم . لا تقتلوا يوسف . وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » . (١٠ – يوسف)

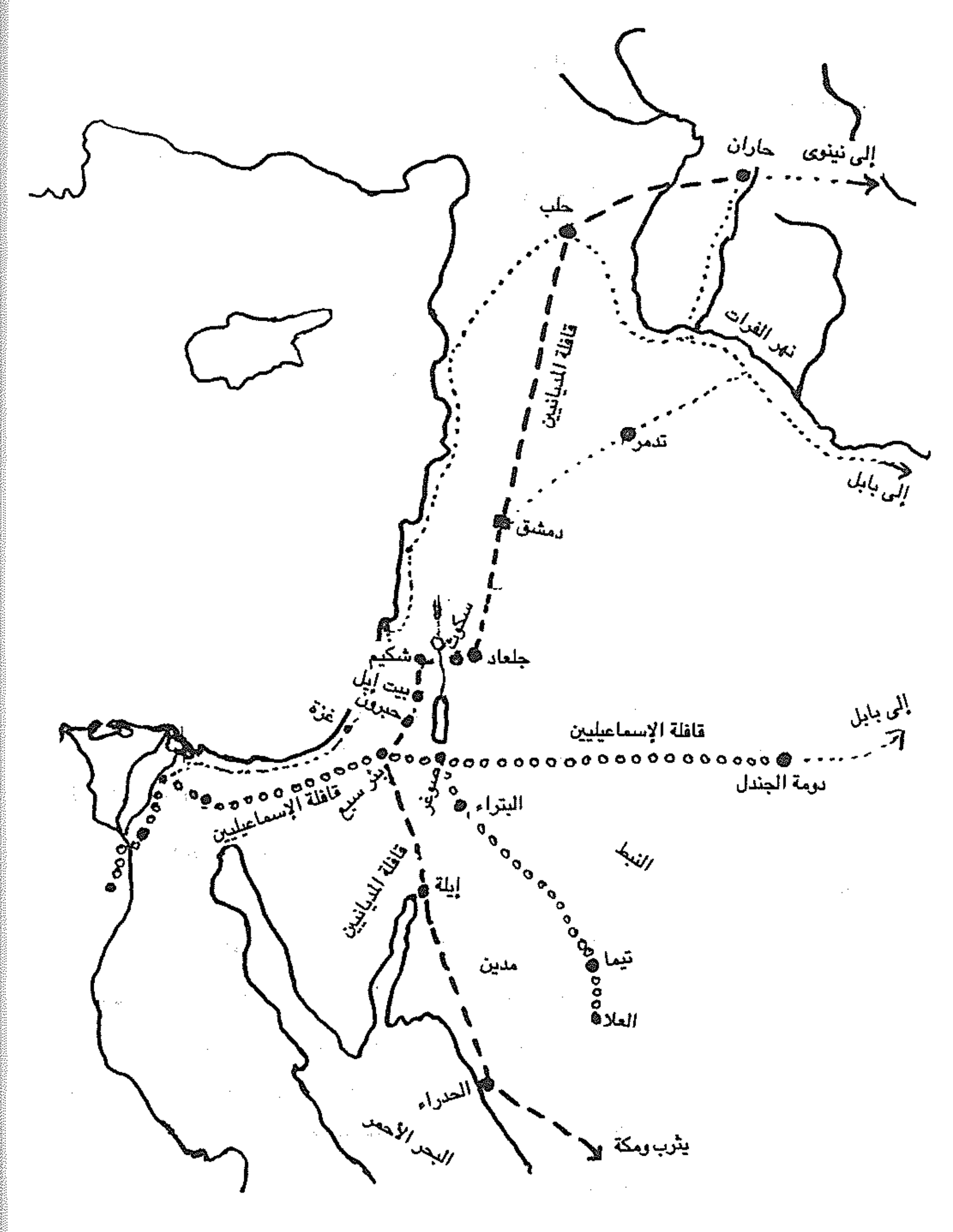
كانت طرق القوافل فى هذه المنطقة كثيرة كما هو مبين فى شكل ٨٧ – ولكن على ما يبدو كان فى ذلك الوقت شعبان يحتكران التجارة فى هذه المنطقة :

١ – **قوافل المديانيين** : تسير فى رحلاتها من أرض مدين . شرقى خليج العقبة إلى شمال سوريا . فتمر من بلدة الحدراء إلى إيلة . إلى بئر سبع . حبرون . بيت إيل . شكيم . ثم تعبر نهر الأردن عند مصب نهر يبوق إلى مدينة سكوث . ثم إلى راموث جلعاد . فدمشق . وحماة ثم حلب . ثم تقفل راجعة فى نفس الطريق . أى أنها تسير فى مجملها من الجنوب إلى الشمال وبالعكس .

٢ – **قوافل الإسماعيليين** : وطريقها من الشرق إلى الغرب تقريباً . منها ما يبدأ من دومة الجندل ومنها ما يبدأ من تيماء . ولعلها كانت تلتقى عند صوغر عند الطرف الجنوبى للبحر الميت . ثم تسير إلى بئر سبع . ثم تعبر شمال سيناء إلى مصر .

ولعل التنسيق كان يتم بين قوافل المديانيين والإسماعيليين بحيث يكون مرورهما ببلدة بئر سبع فى وقت واحد . فيتم التبادل التجارى بين القافلتين فيتيح لكل منهما الحصول على بضائع من بلاد لم يمروا عليها . فيتاح للإسماعيليين الحصول على بضائع دمشق . ويتاح للمديانيين الحصول على بضائع من مصر . وفى هذا توفير للجهد والمال .

نعود إلى قصة يوسف وقد ربطه إخوته بحبل وأدلوه فى البئر ثم ألقوا بالحبل كله فى البئر. وقيل قطعوا الحبل من نصف المسافة فسقط فى الماء فتشبث براعونة البئر حتى صعد فوقها . وراعونة البئر هى صخرة توجد فى وسط قاع البئر . فإذا قل الماء فى البئر أنزلوا شخصاً يقف فوقها ليملأ الدلاء . وبعد أن يستقى الجميع يرفعونه ثانية .



شكل ٨٧ – طرق القوافل فى المنطقة ....

قوافل الإسماعيليين ooooooooo

قافلة المديانيين — — — — —

وهكذا جاهد يوسف حتى قام على راعونة البئر .

وكأنما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخفف عن يوسف الذى هو فيه فأوحى إليه أن الله سيخرجه من هذا الضيق وسينصره عليهم . ويعلى درجته فوقهم . وسيأتى وقت يخبرهم بما فعلوا معه . وسيكون فى حال مختلف ومركز عظيم بحيث لا يعرفونه ولا يشعرون أنه هو يوسف أخوهم .

« فلما ذهبوا به . وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب . وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » . (١٥ - يوسف)

وقد تحقق هذا فى المستقبل . إذ قال لهم :

« قال هل علمتهم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أإنك لأنت يوسف . قال أنا يوسف وهذا أخى . قد من الله علينا . إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أمر المحسنين » . (٨٩ - ٩٠ يوسف)

وذكر الألوسى فى تفسيره* - عن حال يوسف لما ألقى فى البئر - حكايات لا شك أنها مختلقة وموضوعة . فقد قيل : وكان عند يعقوب قميص إبراهيم عليه السلام . الذى كساه الله تعالى إياه من الجنة حين ألقى فى النار . وكان قد جعله فى قصبة من فضة وعلقه فى عنق يوسف لما خرج مع إخوته . فلما صار فى البئر أخرجه ملَك وألبسه إياه . فأضاء له الجب !

وعن الحسن أنه لما ألقى فى البئر عذب ماؤها وكان يغنيه عن الطعام والشراب . وقيل نزل عليه جبريل عليه السلام يؤنسه . فلما أمسى مضى ليذهب . فقال له : إنى أستوحش إذا ذهبت . فقال : إذا رُمْتَ شيئاً فقل : يا صريخ المستصرخين . وياغوث المستغيثين ويا مفرج كرب المكروبين . قد ترى مكانى ، وتعلم حالى ، ولا يخفى عليك شىء من أمرى . فلما قالها يوسف عليه السلام حفته الملائكة عليهم السلام واستأنس بهم .

وقال محمد بن مسلم الطائفى : إنه عليه السلام لما ألقى فى الجب قال : يا شاهداً غير غائب ، ويا قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب . اجعل لى فرجاً مما أنا فيه . وقيل كان يقول : يا إله إبراهيم وإسحق ويعقوب . ارحم ضعفى وقلة حيلتى وصغر سنى .

واخرج ابن مردوية عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما ألقى يوسف فى الجب أتاه جبريل عليه السلام فقال له : يا غلام . من ألقاك فى هذا الجب ؟ قال : إخوتى قال : ولم ؟ قال : لمودة أبى إياى حسدونى . قال : تريد الخروج من ههنا ؟ قال : ذاك إلى إله

---

* روح المعانى جزء ١٢ ص ١٩٧

يعقوب . قال : قل اللهم إنى أسألك باسمك المكنون المخزون . يا بديع السموات والأرض . يا ذا الجلال والإكرام . أن تغفر لى وترحمنى . وأن تجعل من أمرى فرجاً ومخرجاً . وأن ترزقنى من حيث احتسب ومن حيث لا يحتسب . فقالها . فجعل الله تعالى له من أمره فرجاً ومخرجاً ورزقه مُلك مصر من حيث لا يحتسب . ثم قال عليه الصلاة والسلام. ألظوا بهذه الكلمات فإنهن دعاء المصطفين الأخيار . وختم الألوسى بقوله : وقيل روايات كثيرة لكن ليس فيها ما له سند يعول عليه .

وواضح أن كل هذه الروايات موضوعة وهى مجرد تَصَوُّر لما كان عليه من ضيق . أو كأن لسان حاله يقول . بما قالوا . وعلى العموم فهى أدعية يمكن أن يتمثل بها المرء فى كل حال يكون به ضيق ويرجو المخرج باللجوء إلى الله .

أما إخوة يوسف فقد عادوا إلى أبيهم فى العشاء بين المغرب وعتمة الليل . جاءوه وهم يبكون وقالوا له إن الذئب أكل يوسف . إذ تركوه عند متاعهم وذهبوا هم الكبار ليتسابقوا . فأكله الذئب فى غيبتهم وقالوا له : ولن تصدقنا فى الذى أخبرناك من أكل الذئب له . ولو كنا غير متهمين عندك فيكف وأنت تتهمنا فى هذا فإنك خشيت أن يأكله الذئب وأكدنا لك أن ذلك لن يحدث لكثرتنا ومقدرتنا للتصدى له . فصرنا غير مصدَّقين عندك . ولو كنا صادقين . وكانوا قد عمدوا إلى شاة صغيرة فذبحوها وأخذوا من دمها ووضعوه على قميصه ليوهموا بأن ما رووه عن أكل الذئب له هو قصة حقيقية .

« وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا . فأكله الذئب . وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب . قال : بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » . (١٦ - ١٨ يوسف)

ولعل يعقوب عليه السلام قد ارتاب فى روايتهم لعلمه بعداوتهم ليوسف وحسدهم إياه . وقيل : جعل يقلب فى القميص ويقول : ما أرى به أثر ناب ولا ظفر . إن هذا السبع رحيم . وفى رواية أخرى أخذ القميص وألقاه على وجهه وبكى حتى خضَّب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا . أكل ابنى ولم يمزق قميصه !!

لم يكن أمام يعقوب عليه السلام إلا الصبر على مصيبته هذه فى فقد ولده الأثير لديه . والصبر الجميل – على ما روى الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم – ما لا شكوى فيه إلى الخلق . واستعان يعقوب بالله على هذا الحدث . الذى علم أن لا سبيل له فى دفعه . ويقال إنه كان عالماً بأن يوسف حى سليم . حيث سبق أن قال له : وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل

الأحاديث . ولابد لقضاء الله من أن يتم . فلابد أن يبقى يوسف حياً . ولرب قائل يتساءل : لماذا إذن لم يَجِدّ يعقوب فى البحث عن ابنه؟ قد يكون أنه أدرك أنه لو فعل هذا فقد يسبقوه إليه وقد يقتلونه فعلاً حتى لا يظهر كذبهم . لذلك رضى بأهون الأمرين وهو غيابه مع بقائه حياً . وفوض أمره لله . وترك الأمور لله يسيِّرها كيف يشاء .

فى صبيحة اليوم التالى لا شك أن أخوة يوسف لم يخرجوا للرعى تظاهرا منهم بالحزن على يوسف . وما حدث ليوسف بعد ذلك هو أنه بقى فى الجب طيلة ليلته هذه . وقيل ثلاثة أيام . ثم مرت قافلة . وسبق أن قلنا إن القوافل المارة على طريق حبرون بئر سبع هى قوافل المديانيين . وكانت عائدة من دمشق متجهة إلى بئر سبع . وأرسلوا واردهم . وهو الذى يرد الماء ويستقى لهم . فأدلى دلوه فى الجب ليستقى . فتشبث به يوسف .فأخرجه من البئر واستبشر وقال يا بشرى . وبعضهم قرأها يا بشراى . أى بإضافة البشرى إلى نفسه . وأسره الواردون من بقية القافلة السيارة وقالوا : اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء . مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره وأنه لُقْيًا . فيكون من أسرَّوه بضاعة هم الوارد الذى ورد البئر ليستقى للقافلة .

ولعلهم سألوه عن كيفية وجوده فى البئر . فلم يشأ أن يخبرهم بالحقيقة إذ لن يصدقوا أن يفعل إخوة هكذا بأخيهم ! ولعله أخبرهم أنه كان قد ضل الطريق وعطش وأراد أن يشرب فسقط فى البئر . كما لم يشأ أن يخبرهم أنه من حبرون فقد كان زاهداً فى العودة لبيت أبيه وفيه إخوته - إذ لمس مدى تصميمهم على التخلص منه . وإن كانوا قد اكتفوا هذه المرة بإلقائه فى البئر . ولو عاد . فقد تكون محاولتهم الثانية للتخلص منه هى بالقتل . لذلك آثر أن يقول إنه ضل الطريق وسقط فى البئر . وصادف عدم إفصاحه عن بلده ولا عن أسرتِه هوى فى نفس من وجدوه . أو أنهم ظنوا أنه عبد هرب من سيده ولا يريد العودة ثانية له فأسرُّوه . بضاعة .

وفى كلمة « **و أسرُّوه بضاعة** » نلمس ما ذكرناه فى ص ٤٣٥ - من « تعدد المعانى » وهو نوع من الإعجاز اللفظى للقرآن الكريم .

فقد ذكرنا آنفاً أنها تحتمل أن من أسرُّوه بضاعة هم وارد القافلة الذين جاءوا يستقون من البئر . احتمال آخر أورده البعض فقالوا إن إخوة يوسف جاءوا فى اليوم التالى* ليروا ما حل بيوسف . إذ خشوا أن يستطيع يوسف الخروج من البئر بأى وسيلة . أو يخرجه أحد ويتركه ليعود إلى بيته . فقرروا هم إخراجه من البئر . وأسرُّوا أمره وكتموا أن يكون أخاهم وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة إلى قافلة المديانيين . احتمال ثالث وهو أنهم عند وصولهم إلى البئر فى اليوم التالى كان وارد قافلة المديانيين قد أخرجه فعلاً من البئر . فأنكروا معرفتهم به .

---

* تفسير ابن كثير . الجزء الثانى ص ٤٧٢ .

وفى رواية أخرى أنه قالوا للقافلة هذا غلام أبق لنا فاشتروه منا . فاشتروه . وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه . **وشروه** . إذا كان الفعل يعود إلى الإخوة فهو بمعنى باع . وإن كان عائداً إلى السيارة . فهو بمعنى اشترى . وكان الثمن دراهم معدودة كناية عن القلة . لأن الكثير كان يوزن عندهم وقيل فى عددها أرقام كثيرة . قالوا عشرة . وقالوا عشرين . وقالوا ثلاثين وقالوا أربعين درهماً .

« **وكانوا فيه من الزاهدين** » إن كان الضمير راجعاً إلى إخوة يوسف فلأنهم كانوا يريدون التخلص منه بأى وسيلة وبأى ثمن . وإن كان الزهد راجعاً إلى وارد السيارة فلأنهم التقطوه والملتقط للشىء متهاون فيه لا يبالى بكم باعه لأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه منه فهو يعجل ببيعه لأول مشتر وبأى سعر .

وأغلب الظن أن قافلة المديانيين حين التقطوه من البئر خافوا أن يجيء أحد من أهله للبحث عنه . ومن السهل تتبع قافلتهم ومحاوله استرداده منهم . فما إن قابلوا قافلة الإسماعيليين فى بئر سبع (شكل ٨٨) حتى باعوه لهم – محاولة لتضليل من يريد تتبعهم لإسترداده . وكان المديانيون فيه من الزاهدين لرغبتهم فى التخلص منه .

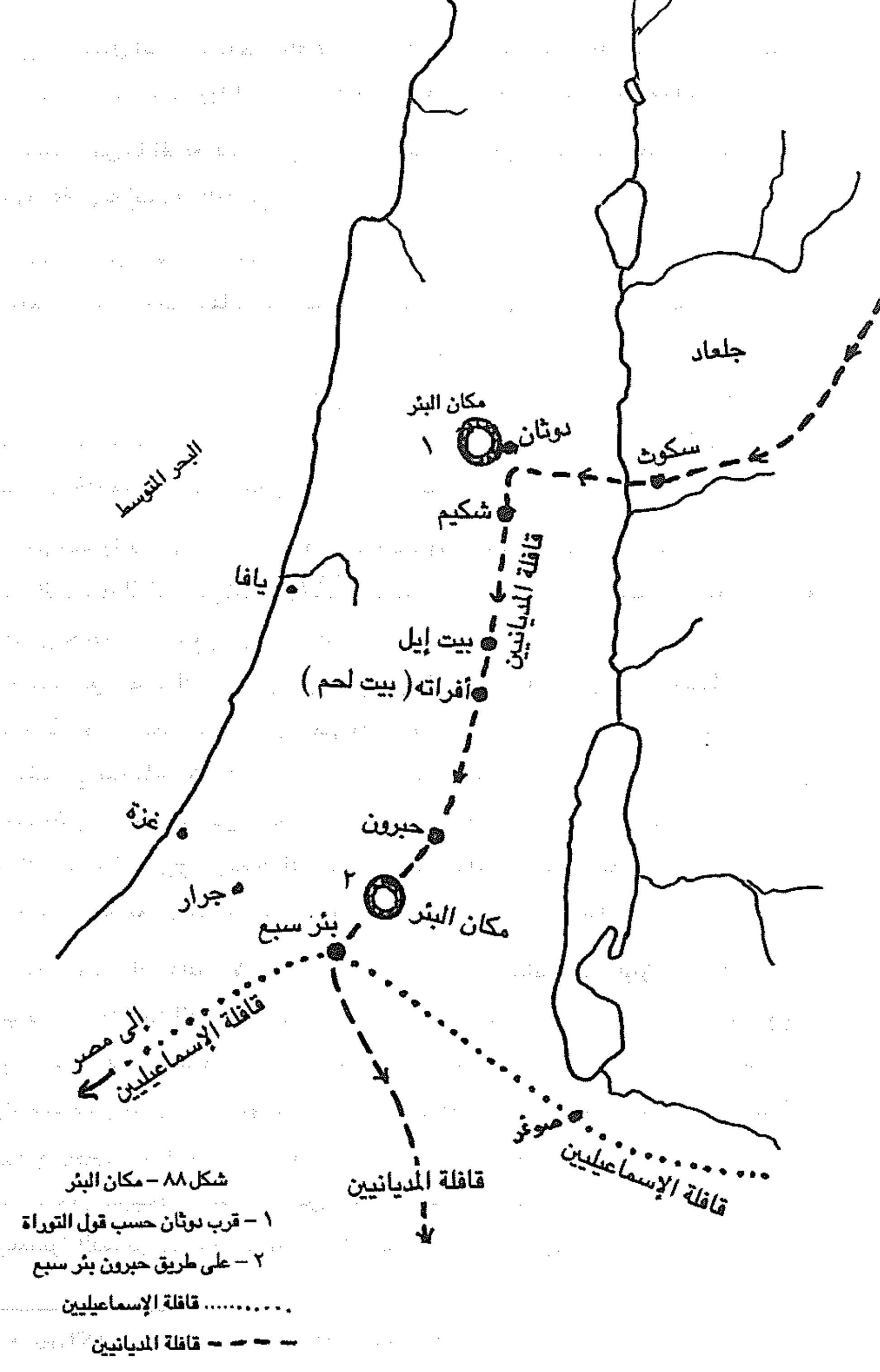
وقالوا إن الزاهدين فيه كانوا الإسماعيليين حين باعوه فى مصر .

« **وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم . فأدلى دلوه . قال يا بشرى هذا غلام . وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة . وكانوا فيه من الزاهدين** » . (١٩ – ٢٠ – يوسف)

سبق أن ذكرنا أن السرد التوراتى للقصة يتبنى القول بأن يعقوب عليه السلام هو الذى أرسل يوسف ليأتيه بخبر إخوته الذى كانوا يرعون أغنامهم عند شكيم . ولم نأخذ بهذا الرأى وعارضناه . أما الذين اعتنقوا هذا الرأى فيروون حكاية خيالية . من أن القافلة وهى متجهة جنوباً من دوثان تمر على شكيم ثم بيت إيل ثم أفراته التى دفنت فيها راحيل والدة يوسف . فيقولون إنه لما مرت القافلة بقبر أمه لم يتمالك أن رمى بنفسه على القبر واعتنقه وجعل يبكى ويقول* : يا أماه ارفعى رأسك من التراب حتى ترى ولدك مقيداً . يا أماه إخوتى فى الجب طرحونى . ومن أبى فرقونى . وبأبخس الأثمان باعونى . ولم يرقوا لصغر سنى ولم يرحمونى . فأنا أسأل الله تعالى أن يجمع بينى وبين والدى فى مستقر رحمته . إنه أرحم الراحمين . وتستمر الرواية قائلة إن عبداً ممن كانوا يخدمون القافلة لطمه لطمة شديدة على وجهه . فبكى . فأدركه جبريل عليه السلام . فضرب الأرض بجناحه فهبَّت ريح حمراء كسفت الشمس وأظلمت

---

* تفسير الألوسى : جزء ١٢ ص ٢٠٦ .



شكل ٨٨ – مكان البئر

١ – قرب دوثان حسب قول التوراة

٢ – على طريق حبرون بئر سبع

.... قافلة الإسماعيليين

— — — — قافلة المديانيين

الغبراء . فقال التاجر صاحب القافلة : هذا الذى أصابنا بذنب اقترفه أحدكم . فاعترف العبد بضرب يوسف . فاعتذروا له وطيبوا خاطره . فعفا عنهم . فسكتت الريح وأسفرت الشمس .

ونستكمل ما تقوله التوراة (إصحاح ٣٧ تكوين) من أن يوسف وصل إلى شكيم وسأل عن إخوته فقيل له إنهم انتقلوا إلى دوثان . فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم فى دوثان .

فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه . فقال بعضهم لبعض : هو ذا صاحب الأحلام قادم . فالآن هلم نقتله ونطرحه فى إحدى الآبار ونقول وحش ردىء أكله . فنرى ماذا تكون أحلامه . فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال لا نقتله . وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دماً . اطرحوه فى هذه البئر التى فى البرية ولا تمدوا إليه يداً لكى ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه . فكان لما جاء يوسف إلى إخوته أنهم خلعوا عن يوسف قميصه . القميص الملون الذى عليه . وأخذوه وطرحوه فى البئر . وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء .

ثم جلسوا ليأكلوا طعاماً . فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد. وجمالهم حاملة كُثَيْرَاء وبَلَسَاناً ولاذَناً (الكثيراء نوع من الصمغ يسيل من نبات إسمه شوكة المعزى حاملة الصمغ ينمو فى أعالى جبال تركيا وسوريا ولبنان وفلسطين . والبلسان هو العصارة أو البلسم الذى يسيل عن جرح شجرة البلسان بفأس . وشجر البلسان موطنه الأصلى الحبشة . ويبلغ علو الشجرة ٤ر٥ متر تقريباً وكان فى أرض جلعاد نوع من هذا الشجر . وكان يستخرج منه بلسان جلعاد المشهور برائحته العطرة . وكانت له منافع عظيمة فى شفاء الأمراض والجروح . وكان التجار يحملونه إلى مصر إذ كان يستعمل فى عملية التحنيط . واللاذن صمغ يخرج من نبات القاستوس . ترعاه الماعز . فكان يعلق بشعرها ولحاها . فكان القدماء يجمعونه لفوائده الطبية فهو ملين ومفتح لأفواه العرق ونافع للسعال)* .

نعود ثانية إلى قافلة الإسماعيليين حاملة كثيراء وبلساناً ولاذناً لينزلوا بها إلى مصر . فقال يهوذا لإخوته . ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفى دمه . تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا . فسمع له إخوته . واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة . فأتوا بيوسف إلى مصر . ورجع رأوبين إلى البئر . وإذا يوسف ليس فى البئر . فمزق ثيابه . ثم رجع إلى إخوته وقال الولد ليس موجوداً . وأنا إلى أين أذهب . فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعزى وغمسوا القميص فى الدم . وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم . وقالوا وجدنا هذا .

---

* قاموس الكتاب المقدس . دار الثقافة ص ١٨٨ – ٧٧٤ – ٨١٤

حقق . أقميص ابنك هو أم لا ؟ فتحققه وقال : قميص ابنى . وحش ردىء أكله . افترس يوسف افتراساً . فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه . وناح على ابنه أياماً كثيرة . فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه . فأبى أن يتعزى . وقال إنى أنزل إلى ابنى نائحاً إلى الهاوية . وبكى عليه أبوه . وأما المديانيون فباعوه فى مصر .

ونلمس إعجاز اللفظ القرآنى فى اختصاره للقصة فى كلمات قليلة مضيفاً إليها المشاعر التى كانت تعتمل فى النفوس . فإخوة يوسف حينما قدموا على أبيهم بهذه القصة المزيفة كانوا يشعرون فى قرارة نفوسهم أنه لن يصدقهم . ويعقوب عليه السلام – بعكس ما أوردته التوراة – علم بزيف القصة وكذبها . ولكن لم يكن أمامه إلا التسليم بالأمر الواقع والاستعانة بالله على هذا المصاب الذى ألم به . ولا نصدق ما أوردته التوراة من أنه مزق ثيابه . وناح على ابنه أياماً كثيرة . فهو نبى كريم . والنواح أو إظهار الحزن الشديد أو تمزيق الثياب ليس من شيمة الأنبياء ويخبرنا الله سبحانه وتعالى قول يعقوب .

« **فصبر جميل** » والصبر الجميل هو ما لا جزع فيه . كذلك فإنه استعان بالله على هذا البلاء « **والله المستعان على ما تصفون** » كذلك يخبرنا الله تعالى أن يعقوب عليه السلام قد فطن إلى كذب روايتهم فقال لهم : « **بل سولت لكم أنفسكم أمراً** » .

كذلك نلمس مدى اضطراب كاتبى التوراة فى سرد القصة (إصحاح ٣٧) .

– فمرة إخوته هم الذين سحبوه من البئر وباعوه للإسماعيليين (فقرة ٢٧) .

– ومرة أن التجار المديانيون هم الذين سحبوا يوسف من البئر (فقرة ٢٨) .

– وأن المديانيون باعوه للإسماعيليين . فأتوا بيوسف إلى مصر (فقرة ٢٩) .

– ومرة أن المديانيون هم الذين باعوه فى مصر إلى فوطيفار (فقرة ٣٦) .

مصر وقت مجيء يوسف إليها

جاء يوسف إلى مصر مع قافلة الإسماعيليين . كان عمره وقتها حوالى خمسة عشر عاماً . وكان مصر يحكمها الهكسوس مكونين الأسرة السادسة عشرة وفى وقت أحد ملوكها المدعو «أبابى الأول » . وقد وجدت لوحة أثرية عبارة عن شاهد مقبرة ذكر فيها إسم « فوتى فارع » وهى تعنى « عطية الإله رع » وهو المذكور فى التوراة « فوطيفار » عزيز مصر (رئيس وزرائها أو قائد الشرط أى وزير الداخلية) فى ذلك الوقت . ويجمل هنا أن نذكر نبذة عن الهكسوس وكيف استولوا على حكم مصر .

الأسرة الثانية عشرة :

لا بأس من إعادة تذكرة القارىء بما سبق أن ذكرناه فى الجزء الثانى ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ من أن الأسرة الـ ١٢ بدأت حكمها فى سنة ٢٠٠٠ ق . م . بالملك أمنمحيت الأول . ثم سنوسرت الأول . ثم أمنمحيت الثانى ثم سنوسرت الثانى الذى حكم فى الفترة من ١٩٠٤ – ١٨٨٨ ق . م. وفى عام ١٨٩٨ ق . م . كانت زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر كما سبق أن ذكرنا . وقد كانت هذه الفترة فترة ازدهار وكان أوج الرخاء فى عهد سنوسرت الثانى . ثم تولى بعده سنوسرت الثالث وأمنمحيت الثالث ثم أمنمحيت الرابع . وكانت بوادر اضطراب الأمن الداخلى بدأت تظهر . ثم بعد أمنمحيت الرابع تولت أخته الحكم وحاولت أن تهتدى بسياسة من سبقوها فى التعمير واستتباب الأمن ولكنها لم تفلح ولم يدم حكمها إلاَّ ثلاثة أعوام . وانتهت بنهايته حكم الأسرة الثانية عشرة . وفى هذه الفترة بدأت جماعات كثيرة من البدو تعبر الحدود الشمالية الشرقية . للرعى فى شمال سيناء وفى المراعى الصحراوية شرقى الدلتا .

أعقب ذلك حكم الأسرة الثالثة عشرة بملوك من غير البيت الملكى . وظهرت بوادر انقسام البلاد . إذ كان يحدث أن يوجد ملكين فى آن واحد . أحدهما يحكم من طيبة والآخر يتخذ عاصمة أخرى . وكان يثب على العرش ملوك كثيرون وزاد تفتت البلاد . وكان آخر ملوك الأسرة الثالثة عشرة يسمى ددوموس (توتيمايوس) . وفى عهده – على ما يقال – تغلب الهكسوس على مصر . كان ذلك فى العام ١٧٨٠ ق.م. تقريباً . وإن كان البعض يؤخر هذا التاريخ إلى العام ١٧٣٠ ق.م. (انظر صفحة ٤٥٧) .

الهكسوس :

لم يكن دخول الهكسوس مصر حدثاً محلياً بل كان مرتبطاً أو نتيجة لما كان يحدث فى منطقة الشرق الأدنى القديم .

كان **الحيثيون** قد كونوا مملكتهم فى جنوب شرق آسيا الصغرى فى حوالى العام ٢٠٠٠ ق . م . بواسطة ملكهم « خيتاس » ثم جاء بعده « خاتى » ومد نفوذه إلى حلب والإسكندرونة وشمال الشام . ثم هاجم بابل وبسط نفوذه عليها واستولى كذلك على الدويلات الأرامية فى شمال الشام . واضطر الأراميون للهجرة فى اتجاه الجنوب (شكل ٨٩) .

ثم تقدم **الكاشيون** من إيران واستولوا على بابل وطردوا الأموريين . (شكل ٩٠) ولما ضعف الحيثيون قامت دولة ميتانى فطردت الحيثيين من حلب والشام وبسطت نفوذها على أرض كنعان (شكل ٩١) .

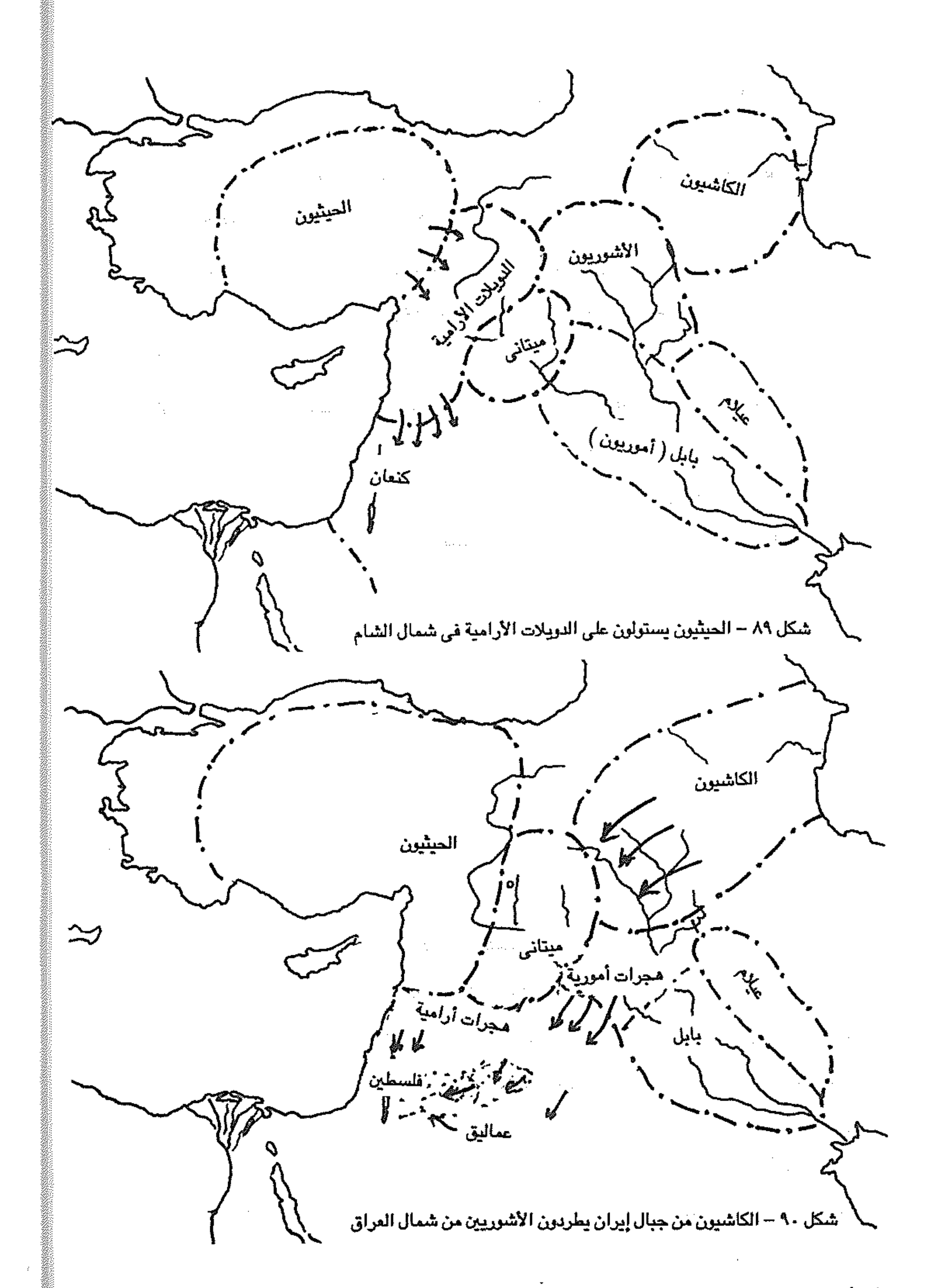
فى كل هذه الحروب كانت تحدث هجرات للشعوب المغلوبة إذ يستولى الجدد على أرضهم فيهيمون فى البادية حتى يغيروا هم بدورهم على شعب أضعف منهم ويستولوا على أرضه .

وهكذا اندفع البدو الرعاة – وهم من أصل سامى – من الشام – وكان أغلبهم من الأموريين . وانتظم فى صفوفهم بعض من سكان فلسطين وهم الكنعانيون . وبتأثير الضغط الواقع عليهم من الشمال اندفع الجميع إلى حدود مصر الشمالية الشرقية . وكانت أحوال مصر الداخلية غير مستقرة كما ذكرنا . وتفتت وحدة البلاد زاد الأمر سوءاً . فلم يكن هناك من يصد هؤلاء البدو المغيرين . فتقدموا واحتلوا شمال سيناء . ثم تقدموا إلى الدلتا وحكموا أجزاء كثيرة منها باسم « الهكسوس » .

يرى سير آلن جاردنر – العالم الحجة فى اللغة المصرية القديمة – أن كلمة **هكسوس** مشتقة من إصطلاح « حقاخست » أى رئيس البلد الأجنبية الجبلية أو بمعنى آخر «مشايخ البدو » أو « حكام البلاد الأجانب » .

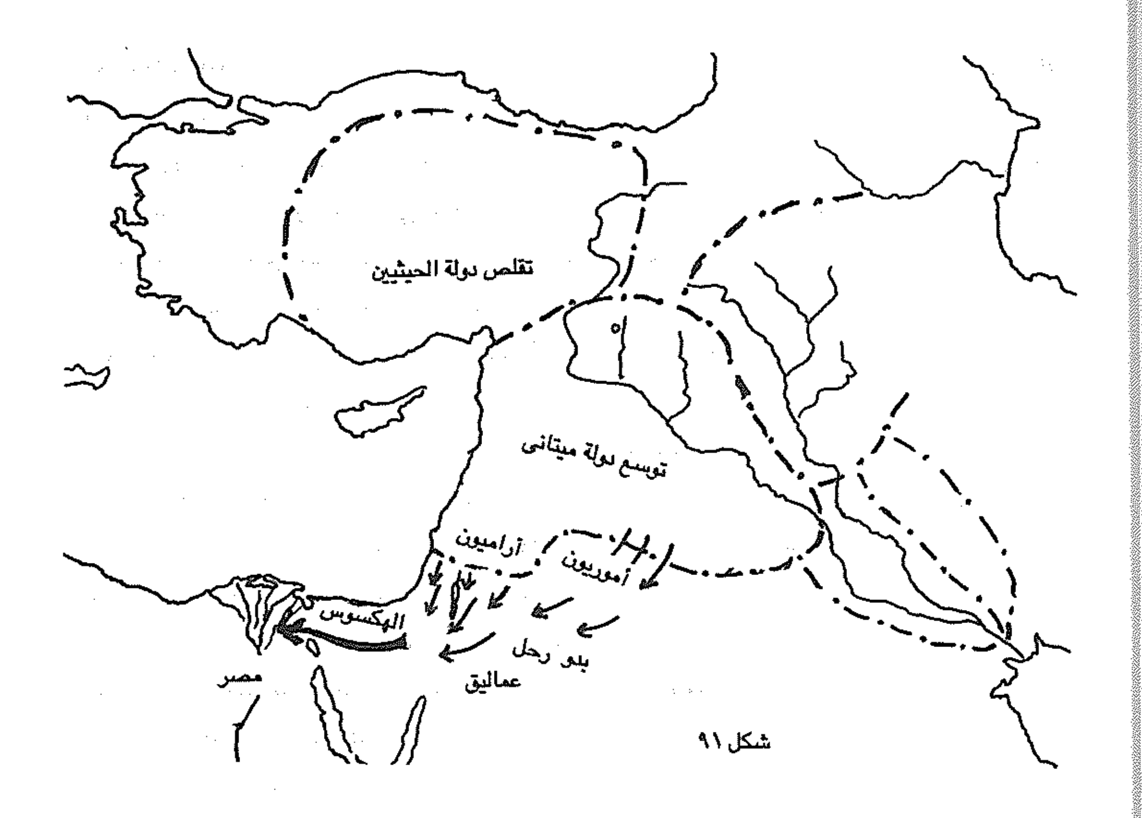
وقيل أيضاً أن « هك » تعنى فى اللغة المقدسة : ملك . وأن « سوس » تعنى فى اللغة الدارجة: راعى فكلمة « هكسوس » تعنى « الملوك الرعاة » .

وكان من عوامل انتصارهم على المصريين ما بأيديهم من أدوات حربية مثل العربات التى تجرها الخيول . وهى عامل مهم حيث أنها تمزق صفوف المشاة . كذلك استعمالهم الأسلحة البرونزية الصلبة التى لم يعرفها المصريون . ولقد دلت اكتشافات حديثة على أن المصريين عرفوا صناعة البرونز منذ الدولة الوسطى . ولكنهم لم يستخدموه فى صنع الأسلحة وكذلك عرفوا فكرة العجلات أو الطارات المستديرة منذ النصف الثانى للدولة القديمة واستخدموها فى



شكل ٨٩ - الحيثيون يستولون على الدويلات الآرامية فى شمال الشام

شكل ٩٠ - الكاشيون من جبال إيران يطردون الأشوريين من شمال العراق



شكل ٨٩ – الحيثيون يستولون على الدويلات الأرامية فى شمال الشام فتحدث هجرات أرامية فى إتجاه الجنوب

شكل ٩٠ – الكاشيون من جبال إيران يطردون الأشوريين من شمال العراق ويدفعونهم إلى بادية الشام وتحدث هجرات أمورية من وسط العراق

شكل ٩١ – توسع دولة ميتانى فتعيد الحيثين إلى آسيا الصغرى وتستولى على وسط العراق وتحدث هجرات الأموريين وهذه تدفع العماليق فى إتجاه الغرب ويتجمع الكل فى جنوب فلسطين ويتكون منهم الهكسوس الذين يغزون مصر

دفع سلالم الحصار الكبيرة . ولكنهم لم يستعملوها فى صنع عربات حربية تجرها الخيول . إذ لم تعرف الخيول بمصر إلاَّ فى أوائل الدولة الحديثة . ويتفق ذلك مع ما ذكرناه فى الجزء الثانى (ص ٣٤٤) من أن إسماعيل عليه السلام فى شبابه كان أول من استأنس الخيل الوحشية وركبها ورجحنا فى صفحة ٣٩٣ أن ذلك كان سبباً فى الانتشار الواسع لأبناء إسماعيل إذ شغلوا كل الأراضى التى كانت متاحة أمامهم فى البادية : بادية العراق وبادية الشام والأردن وكل النصف الشمالى للجزيرة العربية . وأجزاء من فلسطين وسيناء . كذلك قلنا (ص ٣٩١) إن إسماعيل لما علم بوفاة والده – إبراهيم عليه السلام – فى حبرون . ذهب لتقديم واجب العزاء لأخيه إسحق . وليزور قبر والده . ولا شك أنه كان يمتطى الخيل فى هذه الزيارة – ومن المحتمل أن الكنعانيين الساكنين فى فلسطين . أخذوا الخيل عنه أو عن أبنائه . ومن ثم توافر للهكسوس العجلات والخيل فجمعوا بينهما فى العربات الحربية . وقيل أيضاً إن أوائل الهكسوس لم يدخلوا مصر بالخيل والعربات الحربية منذ بداية أمرهم . وإنما وفدت بها جماعات قوية أتت بعد تسرب أوائلهم إلى مصر بفترة . وأن أهم عدد الحرب الجديدة التى أعانت الغزاة هى الدروع المصنوعة من البرونز وهى التى أكسبتهم مناعة وثقة – والأقواس المركَّبة المصنوعة من طبقات الخشب ومن الأوتار الشديدة فكانت ترمى بقوة وإلى مدى أبعد من مرمى الأقواس المصرية القديمة . وعلى ذلك فقد كانت هذه الأدوات الحربية الجديدة . من دروع وأقواس وعربات حربية بالإضافة إلى عوامل التفكك الداخلى فى مصر . هى التى يسرت للهكسوس سبيل الغلبة والانتصار* .

أما وقع الغزو على المصريين فكان مؤلماً ويمكن أن نستشفه مما كتبه أحدهم على بردية جاء فيها :

فى عهد توتيمايوس أصابتنا جائحة على حين غفلة لسبب لا أعرفه من إقليم الشرق . فقد انقضَّ غزاة من أصل غامض على أرضنا واستولوا عليها بالقوة الغاشمة . دون أن يضربوا ضربة واحدة . وبعد أن أخضعوا حكام البلاد . أحرقوا بعد ذلك مدننا دون رحمة . وهدموا المعابد . وعاملوا الناس بغلظة . قتلوا البعض . وسبوا النساء والأولاد وأخيراً نصبوا ملكا منهم يدعى ساليتس . وكان مقر حكمه منف . وفرض الضرائب على أهل البلاد

وتقول بردية كتبت فى عهد الأسرة التاسعة عشرة عن عهد الهكسوس** :

وقعت مصر فريسة لعدو ماكر . ولم يكن يحكم البلاد فيها ملك . وكان « سقنن رع » يحكم قطاعات الجنوب بينما يربض العدو فى الشمال . ومكث ملكهم فى أواريس حيث كانت تجبى له

* دكتور عبد العزيز صالح . الشرق الأدنى القديم – الجزء الأول ص ٢٠٧ .

** مصر والشرق الأدنى القديم . د . نجيب ميخائيل إبراهيم . جزء ١ ص ٣٢٣ .

الضرائب ويؤتى بها من أنحاء البلاد شمالاً وجنوباً .

أما نصوص « أسطبل عنتر » التى كتبت فى عهد « حتشبسوت » فتقول :

إن شعب «العامو» دخل من الشرق ومكث فى الشمال وجعل ملكهم من « حت وعرت » عاصمة له وهدم كل ما كان قد شيدته أيدى المصريين .

وكتب المؤرخ المصرى القديم مانيتون يقول :

كيف . لا أدرى . عصف بنا غضب الرب . ووفد غزاة من الشرق مجهولو الأصل إلى أرضنا دون توقع . وكلهم أمل فى النصر . فهاجموها عنوة واستولوا عليها بسهولة . وتغلبوا على حكامها . وحرقوا مدننا فى وحشية وسوُّوا معابد الأرباب بالأرض وعاملوا المواطنين بخشونة وفظاظة . وذبحوا بعضهم . واسترقوا نساء بعض آخر وأطفالهم .

يختلف المؤرخون فى السنة التى دخل فيها الهكسوس مصر .

يرى دكتور عبد العزيز صالح أنها سنة ١٧٣٥ ق . م .

بينما يرى دكتور محمد شفيق غربال أنها سنة ١٧٣٠ ق . م .

ويرى الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم أنها سنة ١٧٨٠ ق . م .

والرأى الأخير أى سنة ١٧٨٠ ق . م . يتمشى مع تسلسل الأحداث والتواريخ . ويتفق مع وقت زيارة إبراهيم عليه السلام لمصر التى كانت فى عام ١٨٩٨ ق . م .

استولى الهكسوس على أجزاء كبيرة من الدلتا وجزء كبير من الوجه القبلى . إلاَّ أن بعض الأمراء المصريين ظلوا متمسكين بحكم ولاياتهم فى غرب الدلتا وأعالى الصعيد . وإن كانوا خاضعين للغزاة ويؤدون لهم الجزية . واتخذ الهكسوس عاصمة لهم على الفرع التانيسى للنيل أسموها تانيس (أفاريس باليونانية) صان الحجر حالياً . مركز فاقوس . شرقية .

فى أول الأمر كان الهكسوس يعاملون المصريين بغلظة . ودمروا كثيراً من مبانيهم ومعابدهم . ولكنهم ما لبثوا أن حاولوا التقرب إلى المصريين فقلدوا الفراعنة فى أسمائهم وأزيائهم وعاداتهم ولغتهم بل وديانتهم وسموا أنفسهم أبناء رع . وشيدوا المعابد ودونوا أسماءهم عليها مثل « سرسر رع » و« عاد سر رع » وإن ظلوا يحتفظون بأسمائهم الأصلية مثل «خيان» و « أبو فيس » .

كان الهكسوس قبليين فى مجموعهم . اعتادوا على أسلوب الإمارات المنفصلة لذلك كان اثنان أو ثلاثة من حكامهم يحكمون فى وقت واحد . كُلٌّ فى مقاطعة . لذلك تعددت أسماء الحكام

فى العهود الأولى تعدداً كبيراً . إلاَّ أنهم بعد مدة بدأوا ينضوون جميعاً تحت حكم واحد منهم . كذلك ظلت أجزاء فى غرب الدلتا وأعالى الصعيد تحت حكام مصريين . وجرى العرف بتسمية عصرهم باسم الأسرة ١٣ ، ١٤ على الرغم من أنهم كانوا معاصرين للهكسوس والذين جرى العرف على تسمية عصرهم بالأسرة ١٥ ، ١٦ . وبسبب كثرة الملوك الذين كانوا يحكمون فى وقت واحد يصعب وضع جدول زمنى لتتابعهم . كذلك بسبب تعرض معابد المصريين للتخريب بأيدى الهكسوس وكذلك بسبب تعرض ما بناه الهكسوس للهدم بعد طردهم من البلاد . فقد ضاع ما كان مدوناً عن هذه الفترة . إلا أن علماء التاريخ أمكنهم وضع تصور لما حدث كالتالى :

ظل أمراء مصريون يحكمون فى **طيبة** مكونين **الأسرة الثالثة عشرة** وصلنا من أسمائهم ٧ أو ٨ ملوك . وإن كان العدد أكبر من ذلك لأن الضباط فى عهد هذه الأسرة كانوا كثيرو المشاحنات فيما بينهم . وكل منهم يطمع فى العرش . وقد يعتليه لفترة ثم يتغلب عليه آخر. وهكذا . وكان آخر ملوك هذه الأسرة هو دودمس أو توتيمايوس السابق الإشارة إليه .

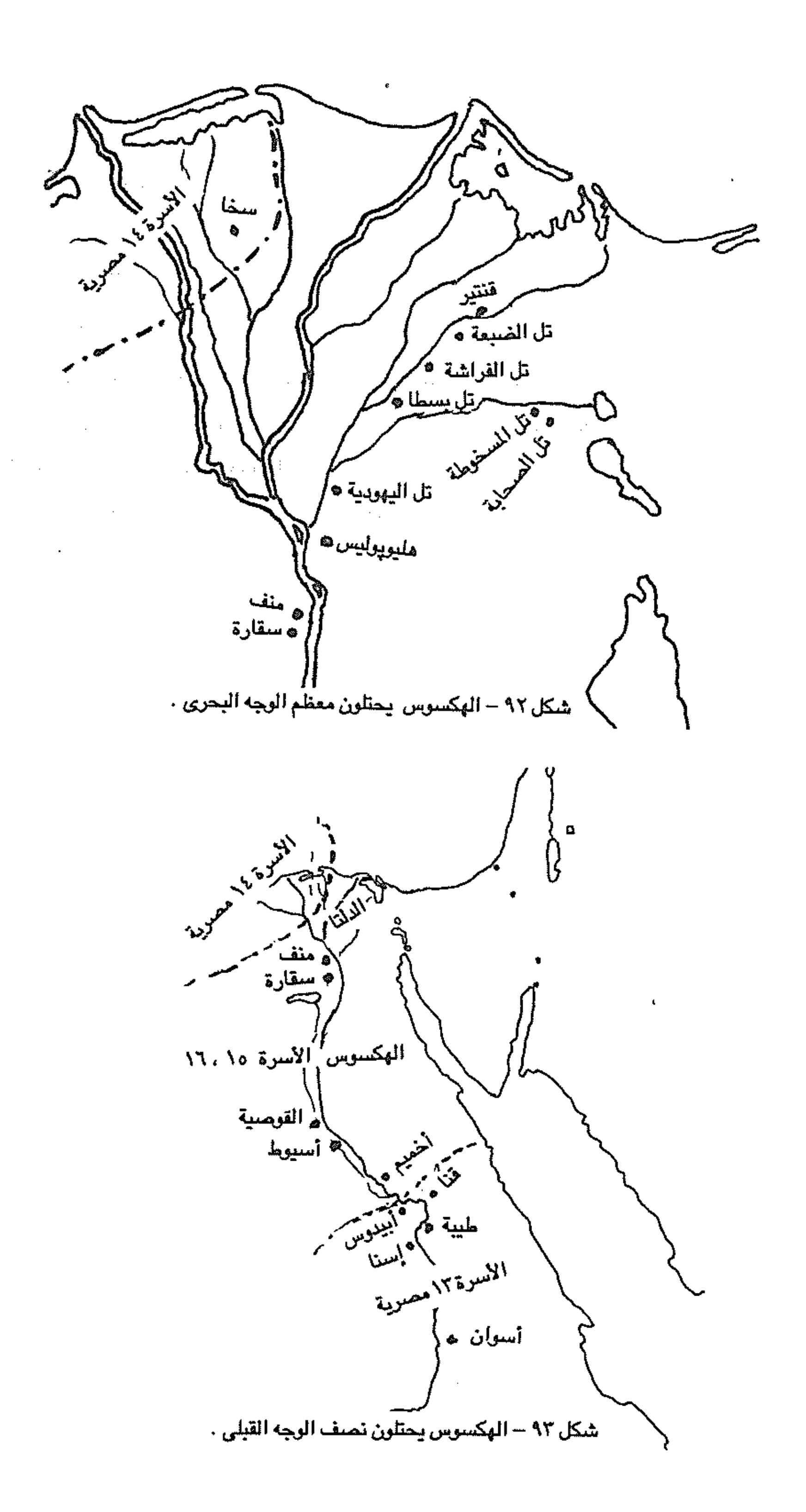
أما **الأسرة الرابعة عشرة** فكان ملوكها يحكمون **الجزء الغربى من الدلتا** واتخذوا من **سخا** (بجوار كفر الشيخ الحالية) عاصمة لهم (شكل ٩٢) . وكان من ملوكهم الملك نحسى . وقد وجد له تمثال مكتوباً عليه «محبوب الإله ست » صاحب « أواريس » . وأواريس هى عاصمة الهكسوس . وهذا يدل على أنه كان خاضعاً لنفوذ الهكسوس الذين كانوا يحكمون شرق الدلتا .

قلنا إن **الهكسوس** حكموا شرق الدلتا مكونين **الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة** ، واتخذوا عاصمتهم على الفرع التانيسى . كانت البلدة فى الدولة الوسطى اسمها « حوت وعرت » وكانت تعرف أيضاً باسم «أواريس » وسماها الهكسوس **« تانيس »** . وبعد طرد الهكسوس هدم المصريون المدينة . ثم أعاد رمسيس الثانى بناء مدينة له على أنقاضها سماها «بر رعمسيس » وجعلها عاصمة له .

إن تعدد الملوك وعدم دقة التدوين التى وصلتنا عن هذه الفترة ، جعلت علماء التاريخ لا يتفقون على قائمة واحدة بأسماء الملوك سواء من الهكسوس أو المصريين ولكننا سنأخذ بما قاله الدكتور سليم حسن* . وهو حجة عالمية فى علم المصريات . والقائمة التى وصفها لملوك الهكسوس هى كالتالى :

---

* مصر القديمة . دكتور سليم حسن . جزء ٤ ص ٨٣ .



شكل ٩٢ – الهكسوس يحتلون معظم الوجه البحرى .

شكل ٩٣ – الهكسوس يحتلون نصف الوجه القبلى .

١ – سمقن رع	٥ – أبا خناس
٢ – عانت هر	٦ – أبو فيس
٣ – خيان	٧ – يناس
٤ – بنون	٨ – أسيس

وأشهرهم هو «خيان» وفى عصره جاء يوسف إلى مصر .

قلنا إن الهكسوس إتخذوا عاصمتهم وسموها تانيس . وكانت تقع على الفرع التانيسى للنيل . وقد اختاروا هذا الموقع للعاصمة على أساس وقوعها وسط المهاجرين الأسيويين الذين كانوا يسكنون شمال سيناء وشرق الدلتا منذ أمد طويل . ولوجود كثبان رملية تحميها . ثم على أساس قربها من المواطن التى قدموا منها وهى الشام وفلسطين .

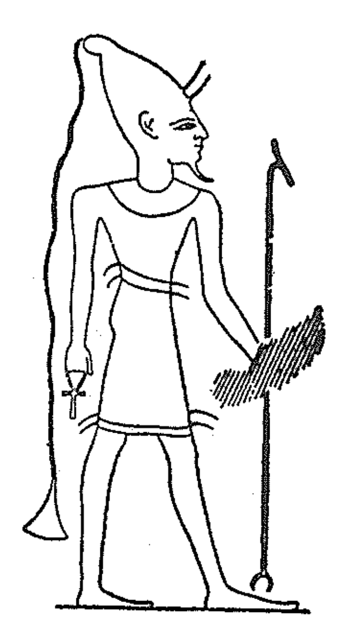
بدأ الهكسوس يمدون نفوذهم بالتدريج فى مصر العليا حتى وصلوا إلى القوصية ١٥ كم شمال أسيوط (شكل ٩٣) . ولم يمتد نفوذهم إلى أبعد من ذلك جنوباً اللهم إلا فى إحتلال مؤقت لإقليم « بى حتحور » – بلدة «الجبلين» ١٨ كم شمال إسنا .

ويعتبر « **خيان** » أهم ملوك الهكسوس . وأكثر من ترك آثاراً لا فى مصر وحدها . بل فى البلاد المجاورة مثل فلسطين وسوريا . وهذا يدل على وجود صلات قوية بين الهكسوس وبين أجدادهم فى موطنهم الأصلى . وقد وجد فى بلاد ما بين النهرين – تمثال من الحجر الأسود لأسد رابض حفر عليه إسم « خيان » . وقد اشتراه المتحف البريطانى من تاجر تحف يجهل مصدره . وليس ببعيد أن أحد التجار نقله من مصر حيث بقى هناك إلى أن وجد . كذلك وجد إسم « خيان » مكتوباً على عدد من الجعول . ووصف بأنه « رئيس البلاد الأجنبية . خيان » كما وصف على بعضها بأنه « ابن رع » وسُمِّى : أيضاً « ساوسر إن رع » . كذلك وجدت كتلة من الحجر عليها اسمه فى الجبلين فى أقصى الجنوب . لذلك فالأغلب أنه هو الذى مد نفوذ الهكسوس إلى الجنوب . ويقال إن مدة حكمه بلغت ٥٠ عاماً . وكان حكم الهكسوس فى عهده قد استقر – ورضى أمراء الأسرة الثالثة عشر فى طيبة – وأمراء الأسرة الرابعة عشرة فى غرب الدلتا – بالولاء للهكسوس ودفع الجزية لهم .

وكان وصول يوسف إلى مصر فى عهده . وكان رئيس وزرائه هو «فوتى فارع» والذى تسميه التوراه «فوطيفار» .

المعتقدات الدينية عند الهكسوس :

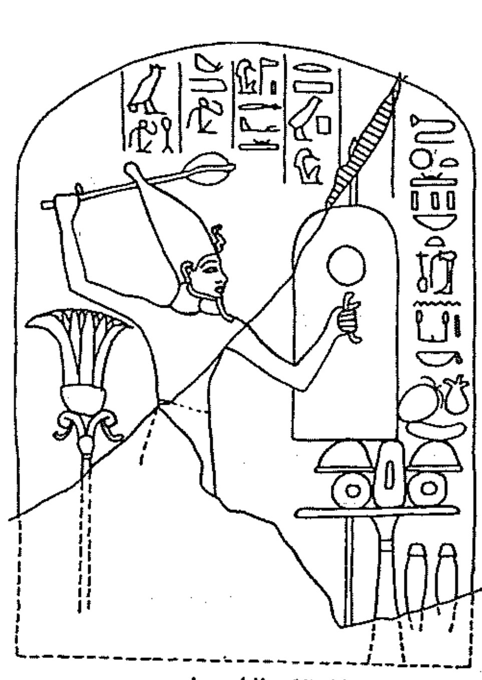
جاء الهكسوس بآلهتم « **سوتخ** » (شكل ٩٤) و « **بعل** » (شكل ٩٥) والإله « **رشب** » (شكل ٩٦) وكلها آلهة حرب . وتجاهلوا « رع » إله المصريين .



شكل ٩٤ – « سوتخ » إله الهكسوس
ويميزه القرنان الصغيران فى مقدمة التاج
ومايتدلى من قمة التاج على هيئة ضفيرة



شكل ٩٥ – الإله « بعل »



شكل ٩٦ – الإله « رشبو »

ولكن بعد مضى وقت من الحكم . ولمحاولة التقرب إلى المصريين بحثوا عن الإله المصرى الذى يشبه إلههم « سوتخ » وكان ذلك هو « ست » . فاتخذ الهكسوس الإله « **ست** » معبوداً رئيساً لهم فى تانيس .

والحقيقة أن « ست » كان موجوداً فى شرق الدلتا منذ الدولة القديمة قبل الهكسوس بزمن طويل . ولكن أوزوريس وحورس تغلبا عليه . ولما جاء الهكسوس رفعوا شأنه باعتباره إله حرب يشبه «بعل » و« رشب » المسلح بحربة ودرع .. وكانت « عشتار » تعد زوجة الإله « سوتخ » . و« عنات » زوجة الإله « بعل » . وكلتاهما أيضاً إلهة حرب . وصُورت «عشترت » وهى تمتطى حصاناً وتمسك بيدها بلطة الحرب ودرعاً . وبعد مدة تمصرت « عنات » بحيث أصبحت إلهة مصرية بحتة . واضطرت لنبذ تلك الطبيعة الوحشية واكتسبت طبيعة مسالمة . وأخيراً اندمجت مع إيزيس المصرية (انظر ص ٥٥٦) .

على أن تقديس الهكسوس للإله « ست » لم يكن موضوعاً ذا بال عند المصريين لما لهذا الإله من سمعة سيئة نظراً لما فعله فى أسطورة أوزريس وإيزيس (الجزء الأول ص ٦٨) ، ولعل ذلك مما آثار حفيظة المصريين الذين كانوا يعبدون « آمون » فى طيبة و« بتاح » فى منف و« رع » فى هليوبوليس . وكانوا يقبلون « ست » إلهاً محلياً فى جزء من الدلتا . ولكن ما لم يكن يمكنهم احتماله هو أن يصبح « ست » صاحب السيادة الدينية والمعبود الرسمى فى البلاد . ولم يعترف الهكسوس بمكانة « رع » بل لعلهم أرادوا القضاء عليه . ولو أنهم فى بعض الفترات كانوا يضمنون أسماءهم لفظ « رع » تقرباً للمصريين مثل خيان الذى سمى نفسه « ساوسر إن رع » و أبو فيس الذى حكم بعده وتسمى باسم « عاو سر رع » .

يوسف الصِّديق في مصر

قلنا إن قافلة الإسماعيليين أحضرت يوسف معها إلى مصر . وكان عمره حوالى خمسة عشر عاماً . وباعوه إلى رئيس جند مصر أو رئيس وزرائها وهو «فوتى فارع» وتسميه التوراة فوطيفار . وقال ابن عباس اسمه قطفير وبهذا تسميه أيضاً أغلب المراجع الإسلامية وقال محمد بن اسحق اسمه أطفير . وكان ملك الهكسوس هو «خيان» وتسميه المراجع الإسلامية – الريان كان ذلك فى العام ١٧٦٢ ق . م . تقريباً

تصف التوراة فوطيفار بأنه « خصىٌ فرعون رئيس الشرط » واعترض كثيرون على وصفه بأنه خصى . فلم تعرف مصر لا فى عهد الفراعنة ولا فى عهد الهكسوس الخصيان . كما أن

الخصى لا يتزوج وكان فوطيفار زوج أجمل امرأة فى الهكسوس . وليس معنى أنه لم ينجب أنه كان خصياً . كذلك اعترضوا على تسمية حكام الهكسوس باسم فرعون* لأنهم كانوا يُسمون ملوكاً . وكان القرآن الكريم هو الذى ميز بين الحكام فى عهد يوسف الصديق فسماهم ملوكاً فى حين أطلق على الحكام الذين كانوا معاصرين لموسى عليه السلام - إسم فرعون وهذا يدل على اختلاف نوع الحكم فى العهدين . ففى عهد موسى كان الحكم بأيدى المصريين ويسمى الحاكم فرعوناً . أما فى عهد يوسف فكان الحكام من الهكسوس ويُسمى الحاكم ملكاً . ويرى البعض أنه لا بأس من إطلاق وصف فرعون على بعض ملوك الهكسوس الذين حاولوا التقرب للمصريين فأعلنوا الولاء للآلهة المصرية وبعضهم أضاف إلى اسمه لقب « فرعون » زيادة فى التظاهر بمصريته .

أما عن امرأة فوطيفار الذى اشتراه - قال مجاهد : اسمها راعيل بنت رعابيل . وقال السدى : زليخا بنت تمليخا . وقالوا اسمها راعيل ولقبها زليخا ! وعلى كُلٍّ فإن الإسم فى حد ذاته لا أهمية له .

وقالوا إن فوطيفار تفرَّس فى يوسف فوجد فيه مخايل الرشد والنجابة فكان يرجو نفعه أو يكون عوناً له أو بمثابة الإبن إذ أنه لم ينجب . وعن ذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرَّس فى يوسف فقال لامرأته : أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا والمرأة التى أتت موسى فقالت لأبيها : يا أبت استأجره . وأبو بكر حين استخلف عمر .

« وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته . أكرمى مثواه . عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً . وكذلك مكَّناً ليوسف فى الأرض . ولنعلمه من تأويل الأحاديث . والله غالب على أمره . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً . وكذلك نجزى المحسنين» . (٢١ - ٢٢ - يوسف)

قلنا إن فوطيفار - الذى اشتراه من مصر - أمر امرأته أن تكرم مثواه وتحسن معاملته . كان عمر يوسف حوالى ١٥ عاماً . فعاملته كما تعامل المرأة ولدها تحنو عليه وتحبه . وخاصة أنه كان بهى الطلعة - ولم يكن لها ولد .

وبدخول يوسف بيت العزيز بدأت مرحلة جديدة من حياته . هى بداية لما كان الله يدبره له من مكانة ومنزلة . وهذا هو التمكين فى الأرض الذى أشار إليه القرآن الكريم وكذلك علَّمه الله من تأويل الأحاديث أى الأحلام . وهو ما يجعل اسمه يشيع شيوعاً محببًا إلى النفوس ويُعلى

---

* التوراة . إصحاح ٣٩ تكوين .

مكانته . إذ يتيقن الجميع من بُعد نظره وصحة تأويله فيطمئنون لما يشير به . وهذا مع جعل اسمه يصل إلى حاكم البلاد ويطلبه بالذات . ثم يجعله - نائباً للملك أو رئيساً للوزراء - كما سيجيء فيما بعد . فكان تأويل الأحلام هو الباب الذى دخل منه يوسف ليكون هو المتصرِّف فى أمور مصر كلها . وهذا هو لطف الله فى تدبيره . وغلبة أمره . ولكن كثيراً من الناس قد لا ينتبهون لهذه الأمور ولا يعلمونها .

ولما بلغ أشده . أى أوج اشتداد قوته وجسمه . وقالوا إنها المرحلة بين الثلاثين والأربعين وفى المتوسط خمس وثلاثون سنة . عند هذه السن آتاه الله حكمة وتفقهاً فى الأمور . وكذلك آتاه الله علماً بوجوه مصالح الناس ليكون حكمه بينهم متفقاً مع العدل ومحققاً للخير ويرتضيه جميع الأطراف .

وعن ابن عباس : الحكم النبوة . والعلم الشريعة .

وما جزاء المحسن إلاَّ أن يغدق الله عليه من فضله . ومن الإحسان الصبر على البلاء . وقد صبر يوسف على البلاء الذى مر به فكان من المحسنين . وكان جزاؤه هذه المكانة الرفيعة التى وصل إليها فى مصر .

ومن هنا قال الحسن : من أحسن عبادة الله سبحانه وتعالى فى شبيبته آتاه الله تعالى الحكمة فى إكتهاله .

وقال بعضهم أيضاً : من عمل بما علم يسَّر الله تعالى له علم ما لم يعلم .

وتقول التوراه (إصحاح ٣٩ تكوين) :

كان الرب مع يوسف . فكان رجلاً ناجحاً وكان فى بيت سيده المصرى . ورأى سيده أن الرب معه . وأن كل ما يصنع الرب ينجحه بيده . فوجد يوسف نعمة فى عينيه وخدمه . فوكلَّه على بيته . ودفع إلى يده كل ما كان له . وكان من حين وكلَّه على بيته وعلى كل ما كان له أن الرب بارك بيت المصرى بسبب يوسف . وكانت بركة الرب على كل ما كان له فى البيت والحقل . فترك كل ما كان له فى يد يوسف . ولم يكن معه يعرف شيئاً إلا الخبز الذى يأكل . وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر .

وهنا نلاحظ العنصر البشرى فى السرد . من تكرار المعنى عدة مرات فى حين اختصر اللفظ القرآنى ذلك كله فى قوله تعالى : « **وكذلك مكنَّا ليوسف فى الأرض** » فالتمكين يشمل حب سيده له وثقته فيه وجعله المتصرف فى بيته . وحسن تصرفه بحيث يعود بالنفع على

سيده فيزداد ثقة فيه كل ذلك بالإضافة إلى نسبة كل هذه الأشياء إلى تدبير الله سبحانه وتعالى وتوفيقه .

وتمر السنون ويوسف يتفانى فى خدمة سيده . فيزداد تقديره له . وفى خدمة زوجته أيضاً فتزداد إعجاباً به . وكبر يوسف . واكتمل شبابه . لم يعد ذلك الطفل الذى تحبه حب الأم لولدها . ولم تعد نظرتها إليه فيها البراءة السابقة . بل أصبحت تنظر إليه نظرة جديدة . هى كأنثى وهو كرجل . وتسلل هذا الشعور الجديد إلى نفسها . وازداد شيئاً فشيئاً حتى ملك عليها كل حواسها . وكانت هى البادئة بدعوته إلى نفسها . والمرأة لا تكون البادئة إلاَّ أن يفيض بها الشعور وترى أن الطرف الآخر لا يبالى بما تبديه من تلميحات مستترة . ظنت أن تعففه عنها هو لشعوره بأنه عبد وهى سيدته أو زوجة سيده . فبدأت بالمبالغة فى الرقة حتى تزيل هذا الشعور إن كان هو السبب فى تمنعه عليها . ثم بدأت تظن أنه قد يكون يخاف أن يفاجئها أحد فيكون فيه سوء العاقبة بالنسبة له . لم يدر بخلدها أنه لا يمتنع عليها إلا لخوفه من الله - فصرفت الخدم من جناح قصرها . وطلبت إليهم أن لا يدخل عليها أحد سوى يوسف فهيأت له كل وسائل الطمأنينة . وزيادة فى الحيطة غلقت الأبواب ظنت أنها بهذا قد حققت له كل الإطمئنان بأن أحداً آخر لن يطلَّع على ما بينهما . وأن أحداً لن يشى إلى زوجها . ولكن يوسف الصديق كان يعلم أن عين الله ساهرة . لا تخفى عليه خافية . وعبَّر القرآن الكريم عن هذا الموقف بقوله تعالى :

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه . وغلقت الأبواب . وقالت هَيْتَ لك. قال معاذ الله إنه ربى . أحسن مثواى . إنه لا يفلح الظالمون » . (٢٣ - يوسف)

وقالت **هَيْتَ لك** . أى أسرع وتعال أى هلم لك . وقال بعضهم إنها ليست عربية بل كلمة حورانية . وقالوا عبرانية . معناها حث وإقبال أيضاً . وقرأها آخرون هِئْتُ لك - وهِيتُ لك - بمعنى تهيَّأت لك . وممن روى عنهم هذه القراءة ابن عباس وعكرمة وقتادة .

وكان رد يوسف على هذه الدعوة السافرة . والتى تهيأت لها كل الظروف لإتمامها لو لم يكن هو الصديق يوسف عليه السلام . إذ استعاذ بالله . فقال معاذ الله . هذا هو السبب الأول للرفض . خوف الله سبحانه وتعالى . ومن هنا قال بعضهم إن إسم يوسف مشتق من فعل ياساب . العبرى بمعنى يخاف أو خائف فمعنى يوسف هو خائف الله (ص ٤٣٤) .

السبب الثانى هو الأمانة . فهو أمين على مال سيده وكل ما يخصه . استأمنه عليه . فكيف لا يكون أميناً على عرضه وشرفه ! ثم وضح أسباب حفظه لهذا الرجل . إنه سيده ومالكه . كما

أنه أحسن مثواه وأكرمه، إقامة ومعاملة . وكان القوم فى ذلك الوقت يطلقون على المالك كلمة رب. كما نقول فى أيامنا هذه رب العمل .

بعضهم قال إن الضمير فى « **إنه ربى** » راجع إلى الله سبحانه وتعالى . حيث أن الله هو الذى هيأ له هذا المثوى الحسن عند سيده .

ثم إن يوسف ذكَّرها بأنه لو فعل ما تطلب منه لكان ظالماً لسيده . قابل إحسانه بالإساءة إليه وقابل إئتمانه له بخيانته فى عرضه وهل بعد ذلك خيانة !! وأنى للظالم أن يفلح؟ « **إنه لا يفلح الظالمون** » !

موقف كله شرف وأمانة وخشية من الله تعالى

« **ولقد همت به . وهم بها . لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين** » . (٢٤ - يوسف)

ولقد قيل فى « **همت به . وهم بها** » أقوال كثيرة .

وفى رأينا أن هذه الجملة من جوامع الكلم . أوردها الله سبحانه وتعالى هكذا . مبهمة - ليذهب الناس فى تأويلها كلّ حسب مراده ومبتغاه ويكون هذا التأويل حجة له أو عليه . فذهب الناس فى تأويل معناها مذاهب شتى :

فمن متشدد مغالى فى التشدد . لا يُجَوِّز أن تخطر الخاطرة على ذهن يوسف الصدِّيق . ولو لم تتعداها إلى ما هو أبعد من ذلك .

فيقول إنها همت بما أرادت . وهو هم بضربها . ويقول صاحب المنار إنها همت بضربه نتيجة إهانته لها بالإعراض عن رغبتها وهى السيدة الآمرة . وهم هو برد الإعتداء . وهذا تفسير لا دليل عليه وفيه تكلف وبُعْدٌ عن مدلول النص . فأنَّى لمملوك أن يضرب زوجة سيده . ولا يتفق مع القول « لولا أن رأى برهان ربه » فلو كان هم بضربها كما يقولون فما هى بالخطيئة التى تستدعى برهاناً من ربه لمنعها !

وفى المقابل من هذا التشدد نجد العكس تماماً .

مريض بالخيالات - تحت وهم «لولا أن رأى برهان ربه » يترك العنان لخيالاته تشطح كيفما تشاء أو كيفما يشاء هو لها ! واندفع البعض وراء الإسرائيليات والموضوعات يصورون فيها يوسف الصدِّيق . وكأن الغريزة قد تملكته . وانساق وراءها فقالوا أقوالاً . بل ونسبوا بعضها إلى الصحابة ليقنعوا السامع بصحتها . قالوا أقوالاً ونسبوا أفعالاً نعف القلم عن ذكرها . ثم

قالوا إنه رأى برهان ربه فامتنع عن الوقوع فى الخطأ . وذهب بعضهم فى بيان هذا البرهان مذاهب بعيدة . فعن ابن عباس أنه عليه السلام مثل له يعقوب عليه السلام فضرب بيده على صدره . وعن قتادة قال : مثل له يعقوب عاضاً على إصبعيه وهو يقول : يا يوسف . أتهم بعمل السفهاء وأنت مكتوب من الأنبياء ؟ وأخرج أبو نعيم عن على كرم الله وجهه أنها قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى ناحية البيت فسترته بثوب أبيض . فقال عليه السلام : أى شىء تصنعين ؟ قالت : أستحى من إلهى أن يرانى على هذه السوأة . فقال تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب ولا أستحى أنا من إلهى الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت . ثم قال : لا تناليها منى أبداً*

وقال ابن جرير عن آخرين عن محمد بن كعب القرظى قال : رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت فإذا مكتوب : **لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلاً .**

وقال عبدالله بن وهب : سمعت القرظى يقول فى البرهان الذى رآه يوسف ثلاث آيات من كتاب الله :

« وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن . ولا تعملون من عمل إلاَّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه » . (٦١ - يونس)

و **« وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين » .** (١٠ - الإنفطار)

و **« أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » .** (٣٢ - الرعد)

وقالوا : وحتى هذه البراهين لم تُجْدِ . فأرسل الله جبريل قائلاً له : أدرك عبدى . فجاء فضربه على صدره .

وهذه الروايات وغيرها واضحة التلفيق والإختراع . على أن أغلب المفسرين قالوا : إنها همَّت هما بالفعل . وهمَّ هو همًا بالنفس ثم تجلى له البرهان فتركه .

وحتى الهم بالنفس أنكره البعض إجلالاً لقدر يوسف عليه السلام . ويقول الإمام الفخر الرازى : الهَمُّ خطور الشىء بالبال أو ميل الطبع . كالصائم يرى فى الصيف الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه . ولكن يمنعه دينه عنه .

وقال أبو السعود : إن همه إليها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ميلاً جلياً . ولكن استعصامه أنبأ عن كمال كراهيته له . وقوله بعدم إفلاح الظالمين يسجِّل استحالة صدور

---

* تفسير الآلوسى : جزء ١٢ ص ٢١٤ .

الهم منه تسجيلاً محكماً . وقال البغوى عن بعض أهل التحقيق إن المراد بهمه بها خطرات حديث النفس . ثم أورد البغوى حديث عبد الرزاق عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : إذا هم عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة . فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها . وإن همَّ بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة . فإنما تركها من جرائى . فإن عملها فاكتبوها بمثلها .

ونرى أن الاستشهاد بهذا الحديث لا يتفق مع هذا الموقف فالفاحشة ليست سيئة عادية .

من هذا يرون أن الهمَّ بمعنى ورود الفعل بالخاطر منفى عن يوسف عليه السلام لعصمة الأنبياء .

ومن خير ما قيل هو أن الكلام فيه تقديم وتأخير . بمعنى أنه : ولقد همت به . ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها . فامتنع عنه الهم بها حتى ولو فى أبسط صوره قياساً على قوله سبحانه وتعالى فى قصة موسى عليه السلام :

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها » . (١٠ - القصص)

« لولا » حرف امتناع لوجود. والمعنى لولا أن ربطنا على قلبها لأبدت ما بها فلم تبد ما بها . وبالمثل امتنع الهمُّ عن يوسف لوجود البرهان من ربه .

وهكذا صرف الله عنه السوء والفحشاء . ولم يخطر حتى على باله أو نفسه لأنه من عباد الله المخلصين . الذين أخلصوا دينهم لله تعالى .

وأخيراً فإنه يمكننا أن نفسر الهم بأنه هو ما يعتور النفس فى مثل هذا الموقف . النفس التى تأبى الفعل وهى قادرة عليه . فلو لم تكن هناك مقدرة على الفعل لما كانت هناك مجاهدة للنفس . فلو وضح شيخ هرم - ليس للنساء فيه مأرب - فى مثل هذا الموقف - لما كان هناك همٌّ ولا كانت هناك مجاهدة للنفس - ولما اعتبر امتناعه عن الفعل محمدة . ولهذا جاء فى الحديث عن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة : شاب دعته امرأة ذات منصب وجمال . فقال إنى أخاف الله .

وهَمُّ يوسف عليه السلام - قد يكون - هو ما اعتور النفس من انفعالات وليس هما بمعنى الرغبة فى الفعل أو الشروع فى بعض مقدماته كما ادعى بعض ذوى الخيالات المريضة - بل هى انفعالات تتولد فى النفس تلقائياً لوجود الشخص - على غير إرادته - فى موقف هو له رافض وكاره . وقد لا يتعدى الأمر ازدياد ضربات القلب أو تصبب العرق أو التوقف هنيهة

للتفكير فى المأزق الذى هو فيه وفى كيفية التخلص منه . إذ الرفض معناه إغضاب سيدته وهذا قد يجر أفعالاً انتقامية قد يكون منها السجن أو التعذيب . وهنا جاء البرهان من ربه ليشد أزره فى هذه المعركة النفسية . ولتأكيد أن أى أذى جسمانى يهون من أجل مخافة الله وعدم خيانة سيده فى ما ائتمنه عليه .

ولينهى يوسف هذا الموقف استدار مسرعاً فى إتجاه الباب ليخرج . وهى أسرعت أيضاً فى إتجاه الباب لتمنعه من الخروج . وهذا هو معنى : **فاستبقا الباب** .

وكان هو الأسبق فى الوصول إلى الباب . وظهره إليها . ولتمنعه من الخروج جذبته من قميصه فتمزق من الخلف . أو أنها لحقته قبل أن يصل إلى الباب فأمسكت بقميصه من الخلف ولكنه استمر مسرعاً وجذبته فتمزق القميص .

« واستبقا الباب . وقَدَّت قميصه من دبر . وألفيا سيدها لدى الباب. قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً إلاَّ أن يسجن أو عذاب أليم . قال هى راودتنى عن نفسى . وشهد شاهد من أهلها . إن كان قميصه قُدَّ من قُبُلٍ فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دُبُر . قال إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا . واستغفرى لذنبك إنك كنتِ من الخاطئين » .

(٢٥ - ٢٩ - يوسف)

تمزق القميص . وفتح يوسف الباب . وإذا بزوجها لدى الباب . قيل ومعه ابن عم لها . وكانت المرأة آنذاك تقول لزوجها سيدى . لذلك وصف بأنه سيدها . وكانت هي البادئة بالكلام . وهناك احتمالان :

- أن تكون « ما » **حرف استفهام** . فكأنها تسأل : ما هو جزاء من أراد السوء بأهلك. وتجيب هى على السؤال بأنه ليس له جزاء إلاَّ أن يسجن أو عذاب أليم . من ضرب بالسياط أو غيره . أو كأنها تقترح هذا الجزاء .

- أو تكون « ما » **حرف نفى** . وكأنها تقرر حقيقة معلومة وهى أنه ليس من جزاء لمن أراد السوء إلاَّ أن يسجن أو عذاب أليم .

دفع يوسف عن نفسه هذه التهمة بقوله إنها هى التى دعته إلى نفسها . ولم يستجب لطلبها **« قال هى راودتنى عن نفسى »** .

« **وشهد شاهد من أهلها** » . وذهب جمع إلى أنه كان ابن خالها . وقيل إنه كان طفلاً فى المهد عمره ثلاثة أشهر . قيل أنطقه الله تعالى ببراءة يوسف . ورووا حديثاً* عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : تكلَّم فى المهد أربعة وهم صغار : ابن ماشطة ابنة فرعون . وشاهد يوسف عليه السلام وصاحب جريج** وعيس ابن مريم عليهما السلام . قال الألوسى والحديث صحيح أخرجه أحمد فى مسنده وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من حديث ابن عباس . ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبى هريرة وقال صحيح علي شرط الشيخين .

إلاَّ أنه ورد حديث فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لم يتكلم فى المهد إلاَّ ثلاثة : عيسى ابن مريم . وصاحب جريج . وصبى كان يرضع من أمه . فمر راكب حسن الهيئة فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا . فترك الصبى الثدى وقال : اللهم لا تجعلنى مثله . وفى صحيح مسلم تكلم طفل فى قصة أصحاب الأخدود أيضاً . فإذا جمعناهم لوجدنا أنهم أصبحوا ستة .

ليس هنا مجال مناقشة ترجيح أحد الأحاديث على غيره . ولكن المؤكد أن بعضها به زيادات موضوعة . وما يهمنا فى هذا المقام هو مناقشة ما قالوه عن الطفل الذى تكلم ووصفوه بأنه « شاهد يوسف » !

من المؤكد أن تكلم طفل فى المهد هو معجزة كبرى . ولنا أن نتساءل من هو هذا الطفل ؟ قطعا هو ليس ابن العزيز صاحب القصر . ثانياً من كانت تحمله ؟ أمه أم مرضعة أم جارية؟ ثالثاً : ما سبب تواجده فى هذا الوقت بالذات مع العزيز وهو يزور جناح زوجته بالقصر وهو يعلم أن رؤية طفل صغير قد تؤذى مشاعرها لعدم إنجابها . وأخيراً فإن براءة يوسف عليه السلام لم تكن تستدعى مثل هذه المعجزة . لأن القوم استندوا إلى المنطق والدليل المادى لإثبات البراءة وهذا ما قرره القرآن الكريم . وليس بعد ما قرره القرآن الكريم فى هذا الشأن من حاجة لدليل آخر . وخاصة أن الأحاديث الواردة فى تكلم هذا الطفل غير متفق بعضها مع بعض .

« **وشهد شاهد من أهلها** » قيل رجل حكيم من أهلها . وقيل هو ابن عمها وكان مع زوجها لدى الباب . وقال البعض يجوز أن يكون بعض أهلها وكان معهما فى الدار بحيث لم يشعرا به فبصر بما جرى بينهما فأغضبه الله تعالى ليوسف فقال الحق . وهذا الافتراض

---

* تفسير الألوسى . جزء ١٢ ص ٢٢٠ .

** زاهد كان يتعبد فى صومعة . واتفق جماعة يكرهونه مع امرأة . أن تدعى أنه اعتدى عليها وأنجب منها طفلاً كان لها . فلما رموه بذلك أنطق الله الطفل ببراءته أمام الجميع .

الأخير ليس بصحيح – لأنها «غلّقت الأبواب » . كما أن دليل البراءة لم يكن عن مشاهدة عيان بل عن دليل منطقى . والأغلب أن سيد القصر رأى أن يستشير من كان يرافقه فكان أن وضع القاعدة القانونية التى يُستند إليها فى تحقيق الحادث . وهى قاعدة تستند إلى العقل والمنطق ، وهى : إن كان القميص قد من الأمام فمعناه أنه هو المتهجم وهى التى تدفعه عنها . أما إن كان القميص قد تمزق من الخلف فمعناه أنه كان مولّياً وجهه عنها وهى جذبته من الخلف . وتم فحص دليل الإتهام . فإذا القميص قد « **قُدَّ من دُبُر** » أى قطع من الخلف فظهرت براءة يوسف عليه السلام .

وفور ظهور الحقيقة . وكذب الإدعاء توجه العزيز إلى زوجته قائلاً لها إن الأمر كله من كيدها وتدبيرها . ولعله لم يشأ أن يوجه الإتهام إليها مباشرة . وخاصة أمام من شهدوا الموقف . فعمم الإتهام على النساء عموماً فقال .. إنه من كيدكن .. كما يعتذر رجل عن خطأ طفله وقد آذى طفلاً آخر فيقول : هذا لعب عيال . فيعمم الفعل كأنه يقول هذه طبيعة الأطفال فى اللعب . وكان تعميم العزيز للكيد على النساء يحمل معنى أن الكيد من طبيعة النساء عموماً . ثم وصف كيدهن بأنه عظيم .

ومن طريف ما قيل فى هذا* هو أن كيدهن أشد تأثيراً فى النفس . وقد ينتج عنه ما يورث العار . وأن ربات القصور أكثر تفرغاً لاختلاق الكيادات . وقيل : ولعظم كيد النساء اتخذهن إبليس وسائل لإغواء من صعب عليه إغواؤه . ففى الخبر : ما أيس الشيطان من أحد إلا أتاه من جهة النساء . وحكى عن بعض العلماء أنه قال : أنا أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطـــان . فإنه تعالى يقول : «إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » وقال للنساء : « إن كيدكن عظيم » . ولا يخفى أن الإستدلال بالآيتين مبنى على ظاهر إطلاقهما . فإن ضعف كيد الشيطان إنما هو فى مقابلة كيد الله تعالى . وعظم كيدهن إنما هو بالنسبة إلى كيد الرجال !

ثم وجه سيد القصر الحديث إلى يوسف قائلاً «**أعرض عن هذا**» أى اكتم هذا الأمر ولا تتحدث به . لأنه الأليق والأحسن بنا . ولأنه قد ظهر صدقك وبراءتك .

ثم وجه الحديث مرة أخرى إلى زوجته وطلب إليها أن تستغفر لذنبها – الذى هو محاولة إغواء يوسف ثم اتهامه بأنه هو المعتدى – لأنه ظهرت براءته وكانت هى« من الخاطئين » وهنا أيضاً نلاحظ دقة العبير بكلمة « خاطىء » وليس « مخطىء » . فالمخطىء هو الذى يخطىء عن جهل بالأمر . من الفعل أخطأ . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : من اجتهد فأخطأ فله أجر . أما

---

* تفسير الألوسى . جزء ١٢ ص ٢٢٤ .

خاطىء فهو الذى يرتكب الفعل وهو عالم بخطئه . فهو متعمد الخطأ من فعل خَطِىءَ . والمعنى أنها كانت تعرف خطأ ما تطلب من يوسف فكانت من الخاطئين .

وقيل إن طلب كتمان الأمر كان من الرجل الحكيم شاهد التحقيق . وقيل إن طلب المغفرة أن تطلب الغفران من زوجها لما دلَّت عليه الشواهد من همِّها بخيانته . وقيل أيضاً كان طلبا للمغفرة من الله . إذ أن القوم . ولو أنهم كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم كانوا يعتقدون فى إله من ورائها هو الذى يغفر الذنوب أو يؤاخذ بها .

غير أن أنباء هذا الحادث سرعان ما تنتشر إلى الباقين من أهل القصر . ثم إلى عامة الناس . وخاصة النساء . فهن مولعات بمثل هذه الأخبار والأحاديث ويكثرن من ترديدها وإذاعتها .

قالوا « **امرأة العزيز تراود فتاها** » وتطلب مواقعته . وتتحايل فى ذلك لتبلغ مرادها . وجاء الفعل بصيغة المضارع لإظهار كثرة مراودتها فلم تكن مرة واحدة وانتهت بل مرات متكررة .

وقالوا « **فتاها** » لأن يوسف كان مملوكاً لزوجها . وقيل إن زوجها قد وهبه لها . وكان قصد النسوة من وصفه بأنه فتاها هو لإظهار مدى الفرق الذى بينهما . فهى سيدة البيت وهو خادم بالبيت . ليظهرن مدى الهوة التى تردَّت فيها لما بينهما من فروق كبيرة .

كذلك أكثروا من ترديد أنها قد شغفت حباً به وأنها تنازلت عن كبريائها . وهى التى بدأته بالمغازلة وأنه رفض مسايرتها . وفى هذا جرح لكبريائها وإهانة لها . وأكثرن من تناقل الحادثة إمعاناً فى التشفى فيها إذ قيل إنها كانت تتيه عليهن بجمالها وسطوة زوجها .

والشغاف حجاب القلب أو هو الغشاء الذى يحيط بالقلب ومعنى « **شغفها حباً** » أى أن حبه قد تغلغل فى قلبها وملأه حتى وصل إلى شغافه . وقال الضحاك عن ابن عباس . الشغف هو الحب القاتل . ويقال شق حبه شغاف قلبها .

وأكثرت نسوة المدينة من القيل والقال واتهمنها بالضلال والنزق . إذ هى تتمتع بثراء زوجها ومركزه الإجتماعى . فماذا تريد بعد ذلك !

عبَّر القرآن الكريم عن هذا كله بإيجاز :

« **وقال نسوة فى المدينة . امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . قد شغفها حباً . إنا لنراها فى ضلال مبين** » . (٣٠ - يوسف)

وتناهى الكلام إلى امرأة العزيز . وما تلوكه الألسن فى سلوكها وما يقال فى الخفاء عنها . وأرادت أن توقفهن عند حد . وذلك يكون بأحد أمرين : إما إنكار من جانبها . وهذا مستحيل بعد أن شهد شاهد من أهلها على الواقعة . فلا سبيل إلى الإنكار . والحل الثانى هو أن تجعلهن يشتركن معها فى الشغف بيوسف . حتى يكون – كما نقول فى عصرنا – الكل فى الهم سواء . فيشعرن أن هذا الأمر خارج عن إرادتها . فيلتمسن لها العذر . وهذا ما أنتوته . وكان التدبير أن دعتهن إلى منزلها لتضيفهن . وأعتدت لهن مقاعد لها مساند ووسائد يتكئن عليها . وقيل المتكأ هو مجلس الطعام . وقد أخرج ابن أبى شيبة عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن أن يأكل الرجل بشماله . وأن يأكل مُتَّكِئاً لأن الأكل متكئاً كان عادة المترفين المتكبرين .

وقيل المتكأ هو من باب الكناية عن الطعام نفسه كأن يكون لحماً . وكان المصريون لا ينهشون اللحم . وإنما يأكلونه حزًّا بالسكاكين . فسمى متكئاً لأن عادة من يقطع اللحم بالسكين أن يتكىء عليه وهو يقطعه فسمى متكئاً . وقرئت « مُتْكاً » من مَتَكَ الشىء أى قطعة . والمتك كل طعام يقطع بالسكين .

فكان تدبير امرأة العزيز أن أعتدت لهن المقاعد المريحة ذات المساند والوسائد . وقدمت لهن طعاماً يقطع بالسكين **« وآتت كل واحدة منهن سكيناً »** .

كانت نساء المدينة لم ترين يوسف من قبل . فقد كان يعمل فى القصر وحديقته الواسعة . أما طلبات القصر من السوق فكان يكلَّف بها العبيد أو الجوارى . كانت النسوة قد سمعن عن يوسف وبهاء طلعته . كن يتخيلنه فتى . مثل كل الفتيان . ولكنه أكثر وسامة وشباباً .

وأثناء الأكل طلبت من يوسف أن يخرج عليهن . فلما رأينه . أعظمن شأنه . وأجللن قدره . وبهرهن جماله . وفقدن التحكم فى أنفسهن وحركات أيديهن فقطعت السكاكين أيديهن .

فى حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ بيوسف عليه السلام فى السماء الثالثة . قال : فإذا هو قد أعطى شطر الحسن . وقال حمادة بن سلمة عن ثابت عن أنس . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعطى يوسف وأمه شطر الحسن . ورواه الحسن البصرى مرسلاً : أعطى يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا وأعطى الناس الثلثين . أو قال : أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث .

قلنا إن النسوة لما رأين يوسف هالهن جمال صورته وألهاهن عما يقطعنه من الطعام فقطعن أيديهن . وقلن حاشا لله . أى معاذ الله . ليس هذا بشر . فلم يعهدن مثل هذا الجمال فى بشر .

بل ويستحيل أن يكون مثل هذا الجمال فى بشر ، فهو بلا جدال ملك لأن الملائكة هم الذين يبلغون أقصى مراتب الحسن والكمال طبعاً . وصورةً . أى خَلْقاً وخُلُقاً . هذا إذا أمكننا أن نتصورَّ الملائكة فى صورة بشرية . ولم يكتفين بوصفه أنه ملك . بل زدن أيضاً بقولهن « ملك كريم » زيادة ومبالغة فى حسنه .

وكان تعبير القرآن الكريم عن هذا المشهد هو :

« فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن مُتَّكئاً . وآتت كل واحدة منهن سكيناً . وقالت أخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه . وقطعن أيديهن . وقلنا حاشا لله ما هذا بشرا . إن هذا إلا ملك كريم » . (٣١ – يوسف)

كان هذا ما تريده امرأة العزيز . إذ كان تصرفهن هذا اعترافاً منهن بقوة جاذبيته . وكأنهن قلن لها : ما نرى عليك من لوم بعد هذا الذى رأينا من حسنه . وهذا أعطاها الجرأة على الاعتراف الصريح لهن . وكأنها تقول وعلى الملأ . بأنه يستحق أن يُحَبَّ لجماله . وأنها فعلاً قد شغفت به حباً . وقد عيرتننى فى الافتتان به . ولمتتنى أن أحببته . وها أنتن قد أصابكن منه من مجرد رؤيته ما جعلكن تقطعن أيديكن . فما بالكُنَّ وهو أمام ناظرى ليل نهار . ومن طبائع المرأة أنها قد تعترف لإحدى صديقاتها – سراً – بحبها لشخص ما . أما الإعتراف هكذا علانية فهو خروج عن المألوف ويدل على أن الإخفاء لم يعد يجدى . وخاصة أنها اعترفت بأنها هى التى بدأت وراودته عن نفسه . واعترفت كذلك بأنه قد رفض مبادرتها « فاستعصم» أى زاد فى طلب العصمة وتمسك بها .

من المرجح أن يوسف عليه السلام وقت إدلائها بهذا التصريح لم يكن موجوداً فى قاعة الطعام – إذ لا يَسُر المرأة أن تعترف بانهزامها أمام من تحب . ثم أعربت عن تصميمها على نوال ما تريد منه . وأخبرتهن أنه إذا لم يرضخ لمطالبها ويستجيب لما أرادت سيكون مصيره السجن . ويكون من الصاغرين الأذلاء المهانين . ولعلها بهذا التصريح فى حضور النسوة . أرادت أن تعبر عن مزيد غيظها من امتناعه . ولتعلن أنها بعد الآن ستكون أكثر جرأة وأكثر تصميماً فى طلب مرادها .

ولعل النسوة . من جانبهن طمعن أيضاً فى ما كانت تطمع فيه امرأة العزيز . كان يوسف . بحكم موقعه . يدور على النسوة لتقديم ما يطلبن من طعام وشراب . وبعضهن كن ذات جمال يضاهي جمال امرأة العزيز . ولكنهن كن أكثر حصافة ، فأدركن أن مثل هذا الأمر لا ينال بتهديد أو بوعيد . ولعله أثناء تقديمه الطعام والشراب لهن كانت إحداهن تهمس فى أذنه بدعوة

لبيتها . وتطمئنه من عدم وجود زوج غيور أو لغياب الزوج لكونه قائد فرقة تحمى حدود البلاد . وغير ذلك من الإغراءات التى كانت كفيلة بإدارة رأس أى شاب فى مثل موقعه - إلاَّ أنه هو - يوسف الصديق!! وعن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما أن كل واحدة منهن أرسلت إليه سراً تسأله الزيارة .

وشعر أن الضغوط تزداد عليه من كل جانب .

وكان الملجأ إلى الله . فالتجأ إليه .

وقال إن السِّجنَ - كمكان - أو السَّجنُ - على أنه مصدر - أحب إليه مما كن يدعونه إليه. وطلب من الله تثبيته على العصمة . وإلا فإنه قد يضعف عن مقاومة إغراءاتهن ويميل إلى تنفيذ مطالبهن ويعمل عمل الجاهلين السفهاء . بمقتضى قوة الطبيعة البشرية التى قد تغلب طاقته على المدافعة . وهذا فزع منه عليه السلام إلى جانب الله تعالى جرياً على سنن الأنبياء والصالحين فى اللجوء إلى الله تعالى فى الملمات . وكان قوله « **وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن** » كقول المستغيث : أدركنى وإلا هلكت . فكما يكره المرء الهلاك كذلك كان يوسف عليه السلام يكره ما يدعونه إليه ولا يريده . ويريد معونة الله تعالى ومؤازرته فى صرف مكايدهن عنه . وكان أن أستجاب الله دعاءه . وثبته على العصمة والعفة .

« قالت فذلكن الذى لمتننى فيه . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليُسجنن وليكوناً من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن . أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه . فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم » .

(٣٢ - ٣٤ - يوسف)

وقد ذكر القرطبى أنه عليه السلام لما قال : « رب السجن أحب إلىَّ .. الخ » أوحى الله تعالى إليه : يا يوسف أنت جنيت على نفسك . ولو قلت : العافية أحب إلى ، عوفيت . ولهذا يرى البعض أنه ينبغى على المرء أن يتخيَّر الدعاء . وقد روى الترمذى عن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلاً وهو يقول : اللهم إنى أسألك الصبر . فقال صلي الله عليه وسلم : سألت الله تعالى البلاء . فاسأله العافية .

وانتشر خبر الوليمة التى أقامتها امرأة العزيز لنسوة المدينة . لقد أرادت أن يلتمسن لها العذر فيما فعلت فيكففن عن أقاويلهن - ولكن ما حدث كان العكس . إذ إزداد الهمس . بل لم يعد همساً . وأصبح أقوالاً صريحة علنية . ووصلت الأقاويل إلى سمع العزيز وأصحابه . مما

فيه إساءة لهم . كان العزيز قد طلب من يوسف ألاَّ يخوص فى هذا الحديث حينما ظهرت براءته، وامتثل يوسف للأمر . ولكن ها هى امرأته بوليمتها قد زادت الأمر سوءاً . وساعدت على انتشار القصة وذيوعها . وكان لابد من أن يتخذ قراراً يُخرِس الألسنة . وكان القرار هو وضع يوسف فى السجن . كأنه قد تم التحقيق وأنه ثبت أنه هو المذنب . وبذلك تبرأ ساحة زوجته ويبرأ شرفه . مع أنهم رأوا جميع البراهين والآيات التى تدل على براءة يوسف .

« ثم بدا لهم من بعد ما رأووا الآيات ليسجننه حتى حين » . (٣٥ - يوسف)

بعضهم قال الحين هنا خمس سنوات . وقيل بل سبع . وقال مقاتل إنه عليه السلام حُبِسَ اثنتى عشرة سنة . كان هدف العزيز أن يبدو الأمر كأن يوسف هو المعتدى وبذلك استحق السجن فتموت هذه الإشاعات . ومن جانب امرأة العزيز لعلها كانت تأمل أن السجن سيذلله لها فيكون بعد ذلك أقرب إلى الإستجابة لمطلبها .

وتروى التوراة القصة (إصحاح ٣٩ تكوين) دون أن تبين براءة يوسف من التهمة التى وجهت إليه إذ تقول : فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذى كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بى عبدك . أن غضبه حمى . فأخذ يوسف سيده ووضعه فى بيت السجن . المكان الذى كان أسرى الملك محبوسين فيه .... وكل ما ركزت عليه هو أن رئيس السجن وثق فى يوسف وأوكل إليه كل شىء فى السجن .

وبعد فترة وجيزة من دخول يوسف السجن . دخل فتيان . غلامان كانا للملك الريان بن الوليد - واسمه فى كتب التاريخ « خيان » - أحدهما كان خبَّازه وصاحب طعامه . والآخر ساقيه وصاحب شربه . وكان الملك قد غضب عليهما لتورطهما فى مؤامرة لوضع السم له . قيل إن جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله . وقد سبق أن ذكرنا أن الهكسوس كانوا يحكمون مصر . وكان بعض أمراء مصر يديرون الأمور فى مقاطعاتهم إلا أنهم يأتمرون بأمر ملك الهكسوس ومن المحتمل أن بعضهم كان يطمع فى اغتيال الملك ليتخلصوا من حكم الغزاة .

قالوا إن جماعة من هؤلاء الأمراء استمالوا الخباز والساقى وقدموا لهما المال على أن يضعا السم فى طعام الملك وشرابه . فأجابا إلى ذلك . ثم إن الساقى ندم . فرجع عن ذلك دون أن يخبر صاحبه . وقبل الخباز الرشوة ووضع السم فى طعام الملك .

فلما حضرا بين يدى الملك ليقدما الطعام والشراب . صاح الساقى : لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم . فقال الخباز : لا تشرب أيها الملك فإن الشراب مسموم . فأمر الملك الساقى

بالشرب مما قدم . فشرب فلم يضره وقال الملك للخباز . كل من طعامك . فأبى . فأطعم منه دابة فهلكت . فأمر الملك بحبسهما هما الاثنين لحين التحقيق فى المؤامرة والوصول إلى حكم بشأنهما . ودخلا السجن وهناك لقيا يوسف الصديق .

تقول التوراة (إصحاح ٤٠ تكوين) : وحلما كلاهما حلماً فى ليلة واحدة . كل واحد حلمه كل واحد بحسب تعبير حلمه . ساقى ملك مصر وخبازه المحبوسان في بيت السجن . فدخل يوسف إليهما فى الصباح ونظرهما فإذا هما مغتمان . فسألهما لماذا وجهاكما مكمدان اليوم ؟ فقالا له حلمنا حلماً وليس من يعبره . فقال لهما يوسف أليست لله التعابير؟ قُصَّا على . فقص رئيس السقاة حلمه على يوسف وقال له : كنت فى حلمى وإذا كرمة أمامى . وفى الكرمة ثلاثة قضبان. وهى إذ أفرخت طلع زهرها وأنضجت عناقيدها عنباً . وكانت كأس فرعون فى يدى . فأخذت العنب وعصرته فى كأس فرعون فأعطيت الكأس فى يد فرعون . فقال له يوسف هذا تعبيره . الثلاثة قضبان هى ثلاثة أيام . فى ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك ويردك إلى مقامك فتعطى كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنت ساقيه .وإنما إذا ذكرتنى عندك حينما يصير لك خير تصنع إلىَّ إحساناً . وتذكرنى لفرعون وتخرجنى من هذا البيت . فلما رأى رئيس الخبازين أنه عبر جيداً. قال ليوسف : كنت أنا أيضاً فى حلمى وإذا ثلاثة سلال على رأسى . وفى السل الأعلى من جميع طعام فرعون من صنعة الخباز والطيور تأكله من السل عن رأسى . فأجاب يوسف وقال هذا عبيره الثلاثة سلال هى ثلاثة أيام . فى ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك عنك ويُعلِّقك على خشبة وتأكل الطيور لحمك عنك .

فحدث فى اليوم الثالث . يوم ميلاد فرعون . أنه صنع وليمة لجميع عبيده ورفع رأس رئيس السقاة . ورأس رئيس الخبازين بين عبيده وردَّ رئيس السقاة إلى سقيه فأعطى الكأس فى يد فرعون . وأما رئيس الخبازين فعلقَّه كما عبر لهما يوسف . ولكن لم يذكر رئيس السقاة يوسف بل نسيه .

يذكر القرآن الكريم هذا الموقف فى إيجاز وبلاغة . ويضيف للقصة شيئاً لم يذكره كاتبو التوراة . ذلك أن يوسف عليه السلام قد انتهز فرصة وجوده في السجن فدعا صاحبيه إلى دين الله . لعلمه أن الإنسان فى وقت الشدة يتلمس قوة عليا يلجأ إليها لتعينه في محنته . والسجن هو ضيق وشدة . ويكون المرء فى شدته أقرب إلى الإستجابة لما يلقى إليه من أقوال . وقد أغفل كاتبو التوراة هذا الجانب الروحى والإيمانى فى القصة . ولنر قول القرآن الكريم فى ذلك :

« ودخل معه السجن فَتَيان . قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً . وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله إنا

نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما . ذلكما مما علمنى ربى . إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب . ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . ولكن أكثر الناس لايشكرون . يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلاَّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمراً . وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه . قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه . فلبث فى السجن بضع سنين » .

(٣٦ - ٤٢ - يوسف)

من الآيات السابقة وعددها ٧ آيات نجد قصة الحلم فى الآية ٣٦ وتفسيره فى الآية ٤١ . أما باقى الآيات فهى دعوة إلى التوحيد وتسفيه لعبادة الأصنام . وهذا شأن الأنبياء والمرسلين . لا يجدون فرصة للدعوة إلى الله إلا اقتنصوها .

وكان حلم الفتيان اللذين دخلا السجن معه فرصة لذلك . فهما - مع باقى المساجين - قد رأوا آيات الصلاح وحسن الخلق على يوسف فلجآ إليه . حيث أن من صفات الرجال الصالحين أنهم قادرون على تفسير الأحلام والرؤى .

أراد يوسف أن يضرب لهم مثالاً عملياً على قدراته وصدق تنبؤاته ليكونا أكثر اقتناعاً وأكثر تصديقاً لما سيقوله لهما . فأخبرهما أنه قبل أن يأتيهما الطعام الذى يوزع عليهم فى السجن سيخبرهم بماهيته ونوعه . ليبين لهم أن عنده نوعاً من المكاشفة والإخبار بالغيب . وكونه من المرضىّ عنهم من الإله .

ولما تأكد لهم صدق ما يقول . لعلهما سألاه كيف تأتى له ذلك وهو ليس من الكهنة ولا من المنجمين . وهنا أدرك يوسف أن قلوبهم قد أصبحت متشوقة لما سيقوله . وستكون عقولهم أوعى لما يلقيه إليهم . فقال لهم إن هذا العلم مما علمَّه الله « **ذلك مما علمنى ربى** » . ولا شك أن كلمة « **ربى** » كان لها وقع غريب على أسماعهم . ولعلهم تساءلوا : وهل لك رباً غير ربنا أى الملك ؟ أو لعله لم يترك لهم وقتاً ليتساءلوا بهذا السؤال . فعاجلهم بالإجابة : وقال لهم إنه ترك ملة قومهم لأنهم لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالحياة الآخرة :

« إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون » . ولعلهم أيضاً تساءلوا : إذا كنت تركت ملة القوم ودينهم فأى دين تعبد؟ أو لعله لم يترك لهم أيضاً الفرصة ليسألوا هذا السؤال فعاجلهم بالإجابة : وقال إنه اتبع الدين الحنيف ملة آبائه وأجداده إبراهيم وإسحق ويعقوب . الأنبياء الكرام . المؤمنين بالله ولا نشرك به فى عبادته أحداً – من صنم أو ملك . أو نقول هو ابن الإله أو غيره كما كان ملوك ذلك العصر يدّعون . وأخبرهم أن هذا الإيمان بالله وعدم الإشراك – هو من فضل الله عليه وعلى آبائه وأجداده . فضل علينا بالذات . لأن الله اصطفانا للنبوة . وفضل على الناس إذ كلفنا أن نبلغ عنه فكر التوحيد والدعوة إلى عبادته وحده . مما فيه خير الناس . وكان الواجب على الناس أن يشكروا الله على ذلك . ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

ثم أراد أن يبين لهم أن حاله مثل حالهم – هو مسجون مثلهم – فقال **« يا صاحبى السجن »** ومراده أن السجن ضيق وشدة . وفى وقت الضيق والشدة لا يقول المرء إلا بما هو حق . ثم سألهم سؤال إقرار – سؤالاً بحيث تكون الإجابة نابعة من أنفسهم وإقراراً لما يقول . فسألهم **« أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ »** وبالطبع ستكون الإجابة : أن إلهاً واحداً خير – فالآلهة المتعددون المتفرقون سيكون لكل واحد منهم إرادة ومشيئة . وكلٌّ منهم يريد من الناس أن يعبدوه هو لا غيره . وستتعارض الإرادات وفى هذا خراب للعالم . وبالطبع يكون الجواب أن الإله الواحد أقدر على تنفيذ مراده وكل المخلوقات خاضعة ومقهورة لإرادته . ثم فتح أعينهم على الحقيقة التى غابت عنهم . وهى أن هذه الآلهة ما هى إلاَّ تماثيل صنعوها بأيديهم وأعطوها هم وآباؤهم أسماءها . وليس لها من قوة ولا سلطان . أما الحكم كله فهو لله . وقد أمر الله أن لا نعبد أحداً سواه . وذلك هو الدين القويم والصراط المستقيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة وهذه البديهية .

« ما تعبدون من دونه إلاَّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلاَّ إياه . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . (٤٠ – يوسف)

وهنا نتوقف قليلاً لنتساءل : هل كان يوسف عليه السلام مُكلَّفاً بدعوة المصريين كلهم لنبذ عبادة الأصنام ودعوتهم إلى عبادة الله وحده؟ وهل كان عليه – فى المستقبل حينما آل إليه أمر مصر – أن يدخل إلى معابدهم ويكسِّر الأصنام كما فعل جده إبراهيم عليه السلام ؟ بالطبع لا .

فيوسف النبى – عليه السلام – يدعو إلى الله فى عشيرته ومحيطه وينتهز الفرصة الملائمة لذلك . ويكون أحد وسائله فى الدعوة إلى الله أن يكون قدوة حسنة فى خلقه ومعاملاته . فكان

يوسف الصديق مثالاً للعفة والطهارة والصلاح . مثالاً محبباً إلى النفوس يُقتدى به . كما كانت له مهمة أخرى خطيرة . وهى أن يعين مصر وأهلها على اجتياز محنة السنوات السبع العجاف.

نعود إلى يوسف عليه السلام فى السجن . وقد انتهى من إعلانه عن فكر التوحيد الذى يدين به . أقبل على صاحبيه بما يودان سماعه من تفسير حلميهما . قال إن الأول سيفرج عنه ويعود لوظيفته التى كان عليها قبل سجنه ساقيا للملك . ويسقى سيده خمراً . أما الآخر فسيأمر الملك بقتله وصلبه وستأكل الطير رأسه ولحمه .

ويقال إنهما قالا له : إنما كنا نلعب ولم نر شيئاً . فقال لهما : « **قضى الأمر الذى فيه تستفيان** » لقد قضى الأمر سواء كان حلماً رأيتماه أم لم تريا شيئاً ولكن تستفهمان عن معنى هذه الحالة فإن ما أخبرتكما به هو أمر لابد حاصل .

وقد ورد فى الحديث الشريف – رواه أحمد عن معاوية بن حيدة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبَّر . فإذا عُبِّرت وقعت .

وقال مجاهد وغيره : من تحلَّم بباطل وفسَّره . فإنه يلزم بتأويله .

بعد أن أتمَّ تفسير الحلم لهما . قال للساقى وهو الذى أوَّل حلمه بأنه سينجو ويعود إلى وظيفته أى ساقيا للملك . قال له اذكرنى عند سيدك وربِّك أى الملك .

« **وقال للذى ظن أنه ناج منهما . اذكرنى عند ربك . فأنساه الشيطان ذكر ربه . فلبث فى السجن بضع سنين** » . (٤٢ – يوسف)

وقال وهب بن منبه : مكث أيوب فى البلاء سبعاً . ويوسف فى السجن سبعاً وقال الضحاك : أربعة عشرة سنة . وعن ابن عباس : اثنتا عشرة . سنة ويمكن استبعاد القولين الأخيرين لأن البضع هو ما بين الثلاث إلى التسع . والأرجح هو أنه مكث فى السجن سبع سنين .

وقال مجاهد ومحمد بن اسحق وغير واحد إن الضمير فى قوله : « **فأنساه الشيطان ذكر ربه** » عائد على يوسف عليه السلام . وأسند ابن جرير حديثاً عن آخرين عن ابن عباس مرفوعاً قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : لو لم يقل – يعنى يوسف – الكلمة التى قال ، ما لبث فى السجن طول ما لبث حيث يبتغى الفرج من عند غير الله . ويقول ابن كثير وهذا الحديث ضعيف جداً لأن من رواته سفيان بن وكيع ضعيف . وإبراهيم بن يزيد هو الجوزى أضعف منه . وقد روى هذا الحديث عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كل منهما . وهذه المرسلات ههنا لا تقبل .

وروى عن أنس خبر يقول : أوحى الله تعالى إلى يوسف عليه السلام : من استنقذك من القتل حين هم إخوتك أن يقتلوك ؟ قال : أنت يارب . قال فمن استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه؟ قال : أنت يارب . قال فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك؟ قال : أنت يارب . قال : فما بالك نسيتنى وذكرت آدمياً ! قال : يارب كلمة تكلم بها لسانى . قال : وعزتى لأدخلنك فى السجن بضع سنين .

وجاء فى تفسير القرطبى مثل هذا الخبر : أن جبريل عليه السلام جاء إلى يوسف وهو بالسجن معاتباً . فقال له : من خلَّصك من القتل من أيدى إخوتك؟ قال : الله تعالى . ثم سأله عمَّن أخرجه من الجب ومن عصمه من الفاحشة . وفى كل منهما كان يجيب : الله تعالى . قال جبريل : فكيف تركت ربك فلم تسأله ووثقت بمخلوق. قال : يارب كلمة زلت منى . أسألك يا إله إبراهيم وإله يعقوب عليهما السلام أن ترحمنى . قال جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث فى السجن بضع سنين .

والاستعانة بالعباد فى الخلاص من البلاء وتفريج الكرب – مما لا بأس به لعامة الناس . ولكن الأليق بالأنبياء ترك ذلك . والتوجه إلى الله فى كل شأنهم .

والأرجح أن الذى نسى هو ساقى الملك . ذلك أنه نسي يوسف تماماً . وبسبب ذلك النسيان بقى يوسف فى السجن بضع سنين . والدليل على ذلك أن القرآن بعد ذلك قال : **« وقال الذى نجا منهما . وادكر بعد أُمَّة »** . (من الآية ٤٥ – يوسف)

ولو تصورنا أن الساقى لم ينَس . وذكر أمر يوسف للملك . وأن الملك أمر بالأفراج عنه ضمن من كان يشملهم العفو الملكى فى الأعياد . لو حدث هذا . لعاد يوسف إلى بيت العزيز كما كان . ولما تغير شيىء فى حياته بعد ذلك . فتأخير خروجه من السجن كان بتدبير من الله ولحكمة إلهية .

فقد حلم الملك حلماً حار فى تفسيره . رأى أنه على شاطىء النهر . وخرجت من النهر سبع بقرات سمان . ثم خرجت وراءهن سبع بقرات هزيلة عجاف . والتهمت البقرات الهزيلة البقرات السمان . ثم رأى سبع سنبلات خضر تنمو على شاطىء النهر ثم تغيب ويبقى مكانها سبع سنبلات جافة يابسة .

استيقظ الملك من نومه فزعاً . شاعراً بانقباض . واستدعى العرافين والكهنة وكبير وزرائه وقص عليهم رؤياه . وطلب منهم تفسيرها إن كان ذلك فى مقدورهم . ولكنهم عجزوا عن تفسيرها . وقالوا أضغاث أحلام أى تخاليط وأباطيل . والضغث هو ما جمع من أخلاط النبات . أى أنها لا تعبر عن شىء حقيقى . ثم اعترفوا بعدم علمهم بتأويل الأحلام .

والحلم والرؤيا شيء واحد . إلاّ أنه جرى العرف على أن الرؤيا تطلق على ما يكون خير . أما الحلم فما هو غير ذلك .

« وقال الملك . إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف . وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .

(٤٣ – ٤٤ يوسف)

تصف التوراة الحلم بشيء من التطويل (إصحاح ٤١ تكوين) :

وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلماً . وإذا هو واقف عند النهر . وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم . فارتعت فى روضة . ثم هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها من النهر قبيحة المنظر ورقيقة اللحم . فوقفت بجانب البقرات الأولى على شاطىء النهر فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات السبع الحسنة المنظر والسمينة . واستيقظ فرعون .

ثم نام فحلم ثانية . وهو ذا سبع سنابل طالعة فى ساق واحدة سمينة وحسنة . ثم هو ذا سبع سنابل رقيقة وملفوحة بالريح الشرقية نامية وراءها . فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع السمينة الممتلئة واستيقظ فرعون . وإذا هو حلم .

وكان فى الصباح أن نفسه انزعجت . فأرسل ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها وقص عليهم حلمه فلم يكن من يعبِّر لفرعون .

جاء فى التوراة أن يوسف بقى فى السجن سنتان فقط . فى حين أن بضع سنين التى وردت فى القرآن الكريم تطلق على ما بين الثلاث إلى تسع سنوات ولو نظرنا فى جدول حياة يوسف (ص ٥٣٥) نجد أنه أمضى سبع سنوات فى السجن . إذ دخله وعمره ٣١ عاماً . وكان خروجه منه وعمره ٣٨ عاماً .

وتستمر التوراة : ثم كلَّم رئيس السقاة فرعون قائلاً : أنا أتذكر اليوم خطاياى . فرعون سخط على عبديه فجعلنى فى حبس بيت رئيس الشرط أنا ورئيس الخبازين . فحلمنا حلماً فى ليلة واحدة أنا وهو . حلمنا كل واحد بحسب تعبير حلمه . وكان هناك معنا غلام عبرانى عبد لرئيس الشرطة فقصصنا عليه . فعبَّر لنا حلمينا . عبر لكل واحد بحسب حلمه . وكما عبر لنا هكذا حدث . ردنى أنا إلى مقامى وأما هو فعلَّقه .

فأرسل فرعون . ودعا يوسف . فأسرعوا به من السجن . فحلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون . فقال ليوسف . إنى كنت فى حلمى واقفاً على شاطىء النهر . وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر سمينة اللحم وحسنة الصورة . فارتَعَت فى روضة . ثم هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها . مهزولة وقبيحة الصورة جداً ورقيقة اللحم . لم أنظر فى كل أرض مصر مثلها فى القباحة . فأكلت البقرات الرقيقة والقبيحة البقرات السبع الأولى السمينة . فدخلت أحوامها ولم يعلم أنها دخلت فى أجوافها . فكان منظرها قبيحاً كما فى الأول . واستيقظت . ثم رأيت فى حلمى وهو ذا سبع سنابل طالعة فى ساق واحدة ممتلئة وحسنة . ثم هو ذا سبع سنابل يابسة رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها . فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع الحسنة . فقلت للسحرة . ولم يكن من يخبرنى .

فقال يوسف لفرعون . حلم فرعون واحد . قد أخبر الله فرعون بما هو صانع . البقرات السبع الحسنة هى سبع سنين . والسنابل السبع الحسنة هى سبع سنين . هو حلم واحد والبقرات السبع الرقيقة القبيحة التى طلعت وراءها هى سبع سنين . والسنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية تكون سبع سنين جوعاً . هو الأمر الذى كلمت به فرعون . قد أظهر لفرعون ما هو صانع . هو ذا سبع سنين قادمة شبعاً عظيماً فى كل أرض مصر . ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً . فينسى كل الشبع فى أرض . ويتلف الجوع الأرض . ولا يُعرف الشبع فى الأرض من أجل ذلك الجوع بعده . لأنه يكون شديداً جداً . وأما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر مقرر من قِبَل الله . والله مسرع ليصنعه . فالآن لينظر فرعون رجلاً بصيراً وحكيماً ويجعله على أرض مصر . يفعل فرعون فيوكِّل نُظاراً على الأرض . ويأخذ خمس غلة أرض مصر فى سبع سنى الشبع فيجمعون جميع طعام هذه السنين الجيدة القادمة ويخزنون قمحاً تحت يد فرعون طعاماً فى المدن ويحفظونه . فيكون الطعام ذخيرة للأرض لسبع سنى الجوع التى تكون فى أرض مصر . فلا تنقرض الأرض بالجوع .

وعبَّر القرآن الكريم عن هذا كله فى قوله تعالى :

« وقال الذى نجا منهما وادَّكر بعد أمة . أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصدِّيق . أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى لناس لعلهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا . فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلاَّ قليلاً مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » .

(٤٥ – ٤٩ – يوسف)

من أمثلة الإيجار فى هذه الآيات كلمة « **فأرسلون** » ففيها معنى طلب الإذن بالإرسال ولا داعى لذكر أن الإرسال سيكون إلى السجن لأن المعروف سلفاً أن يوسف فى السجن . ويُفهم أنه قد سُمح له بدخول السجن ومقابلة يوسف . لأن الكلمة التالية موجهة إلى يوسف .

فسَّر يوسف عليه السلام الحلم للساقى فقال له : عليكم أن تزرعوا سبع سنين دأباً – أى بكد ومداومة على العمل والاجتهاد فيه . وستعطيكم الأرض غلة طيبة إذ هى سنين سمان . وما تحصدونه فدعوه فى سنابله . واختزنوا أغلبه . وبقاؤه فى سنبله يحميه من السوس . إلاقليلاً تطحنونه وتأكلون منه . وسيأتى بعد ذلك سبع سنين جفاف وقحط . ولا تجود الأرض بغلة . وستأكلون أثناءها ما اختزنتموه وتركتموه فى سنبله . وهذا هو ما قدمتم لهن – ولكن لا يجب أن تأكلوا كل ما اختزنتموه . بل يجب أن تحتجزوا جزءاً صغيرا « **تحصنون** » أى تحترزونه وتحافظون عليه ليكون بذوراً وتقاوى للزراعة فيما بعد سنوات الجدب . ثم يأتى بعد ذلك عام يكون فيه الغوث والمطر الغزير ويأتى الفرج . وتنبت الحبوب والأشجار التى تعصرون ثمارها مثل العنب والزيتون والسمسم وغيرها . وبعضهم قرأها تُعصرون أو تعصِرون والعصر هنا من أعصرت السحابة أى حان وقت عصر الرياح لها لتمطر فيغاث الناس ويُعصِرون . وقيل إن هذاالعام الأخير . لم يكن فى الحلم ما يشير إليه . بل هو علم آتاه الله يوسف . ووحياً أوحاه إليه .

وكانت مصر تمر بها فترات جفاف وجدب حينما يقل ماء النيل ولا يأتى الفيضان . وبعض هذه المجاعات حدثت فى أيام الأسرة الثالثة فى عصر الملك زوسر . وقد وجدت كتابات على الآثار تدل على ذلك . وفى عصر الأسرة الثالثة عشرة التى سبقت قليلاً جداً عصر يوسف . حدثت أيضاً مجاعة فى مصر . ولكن المجاعة التى حدثت فى عصر يوسف كانت أشدها وأطولها وقتاً . وعم الجدب – ليس مصر فقط بسبب قلة الفيضان – بل عم الجفاف منطقة الشرق الأدنى كله بما فيه فلسطين والشام . وكان بدو هذه المناطق يأتون مصر ليأخذوا من الحبوب التى اختزنها يوسف لمثل هذه الأيام الصعبة .

وكما نرى فقد جاء السرد القرآنى للقصة مختصراً . وفى نفس الوقت يصحح ما أغفله كاتبو التوراة :

١ – يوضح القرآن أن الذى قص الحلم على يوسف هو الساقى . وحدث ذلك فى السجن . وعبَّر يوسف الحلم للساقى وأوضح له ما يجب عمله . وعاد الساقى إلى الملك وأخبره بما قال يوسف فى تفسير الحلم . وبالاحتياطيات التى تتخذ لتلافى آثار الجدب . فأعجب الملك بهذا التفسير الذى يدل على بعد نظر وحكمة . فأمر بإحضار يوسف من السجن لمقابلته .

كاتبو التوراة جعلوا الساقى يستدعى يوسف من السجن فيخرج يوسف ويقص الملك بنفسه الحلم على يوسف ويسمع التفسير من يوسف .

٢ – يوضِّح القرآن بجلاء أن يوسف لم يرض أن يخرج من السجن دون أن تظهر براءته كاملة من التهمة التى ألصقوها به وزجوه فى السجن ظلماً . فى حين لم يركز كاتبو التوراة على تبرئته . بل جعلوه بمجرد أن يستدعيه الملك يسرع بالخروج من السجن .

ونستكمل القصة . ذلك أن الملك لما سمع تفسير الحلم الذى أدلى به يوسف إلى الساقى . أعجب بالتفسير . إذ هو ينبىء بما سيحدث فى المستقبل من مجاعة فى أرض مصر . ويوصى بما يجب اتخاذه لتخفيف وطأة المجاعة . كذلك أعجب الملك بأن يوسف لم يشترط مثلاً إخراجه من السجن أولاً . مقابل تفسيره للحلم . ولو فعل فلا شك أن الملك كان سيجيبه إلى طلبه . ولكنه رآه قد أدلى طواعية بتفسير الحلم للساقى . مما يدل على كرم أخلاق وحرص على المصلحة العامة . وليس عن رغبة فى الحصول على منفعة مقابلة .

« وقال الملك ائتونى به . فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن . إن ربى بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه . قلن حاش لله. ما علمنا عليه من سوء. قالت امرأة العزيز . الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب . وأن الله لا يهدى كيد الخائنين. وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء . إلا ما رحم ربى . إن ربى غفور رحيم . وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى . فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » . (٥٠ – ٥٤ – يوسف)

أمر الملك بأن يأتوا بيوسف من السجن وهذه المرة لم يكن الساقى هو الذى ذهب ليوسف فى السجن . بل كان رسولاً خاصاً موفداً من قبل الملك وأخبر يوسف أنه سيخرج من السجن لأن الملك يطلبه . كل هذا تضمنه لفظ « فلما جاءه الرسول » .

لم يرض يوسف أن يخرج من السجن خروجاً مبتوراً . بل أراد أن يكون خروجه مع تبرئته تبرئة كاملة . لذلك فقد طلب من الرسول أن يرجع إلى الملك ويبلغه – كما نقول بلغة عصرنا – أن يعيد التحقيق فى التهمة التى أدخل السجن بسببها . وسماع شهادة الشهود . وهن النسوة اللائى حضرن وليمة امرأة العزيز وقطعن أيديهن وفى قوله تعالى : **«إن ربى بكيدهن عليم»** قال الألوسى : جاء فى الكشاف أنه عليه السلام أراد بهذا أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله

تعالى . أو استشهد بعلم الله على أنهن كدن له وأنه برىء مما اتهم به – أو أراد الوعيد لهن* . أى أن الله عليم بكيدهن ومجازيهن عليه . ويحتمل أيضاً أنه كان يقصد سيده أى العزيز وقال عنه قبل ذلك : إنه ربى أحسن مثواى . وخاصة أن العزيز بنفسه قال من قبل : « **إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم** » . وكأن يوسف بهذا القول يطلب أيضاً سماع شهادة سيده وهو العزيز لأنه عالم بمقدار الكيد الذى صنعته امرأته . وعالم بحقيقة الأمر .

وفى المسند والصحيحين من حديث الزهرى عن سعيد وأبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال – رب أرنى كيف تحيى الموتى – ويرحم الله لوطاً . لقد كان يأوى إلى ركن شديد – ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى** .

وفى لفظ لأحمد عن آخرين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر** .

وقد أخرج غير واحد عن ابن عباس وابن مسعود عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره . والله تعالى يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان . ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترطت أن يخرجونى . ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك . ولو كنت مكانه ولبثت فى لسجن ما لبث لأسرعت الإجابة . وبادرتهم الباب . ولما ابتغيت العذر . أن كان حليماً ذا أناة*** .

وهكذا أعاد الملك التحقيق – بنفسه – فى الأمر واستدعى الشهود وهن النسوة اللاتى كن فى الوليمة وبالطبع كان لابد من استدعاء امرأة العزيز صاحبة الوليمة وما كانت لتحضر وحدها بل معها زوجها إذ أن يوسف قد استشهد بأنه يعلم الكيد من أوَّله . وأوجز القرآن الكريم وتجاوز عن ذكر هذا كله إذ أنه سيعلم من ثنايا الكلام التالى . فنجد أن الملك يسأل النسوة . ثم تتكلم امرأة العزيز . ثم توجه الكلام إلى زوجها . وهذا الإيجاز وجه من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم .

وبدأ التحقيق بأن سأل الملك النسوة عن شأنهن مع يوسف فقد نمى إليه أن كل واحدة منهن – يوم الوليمة – كانت تدعوه إلى بيتها – فأراد أن يستوثق هل لبى دعوة إحداهن « **ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه** » . وكان جوابهن حاش لله : تنزيهاً له وتعجباً من

---

* تفسير الألوسى جـ ١٢ ص ٢٥٧ .

** تفسير ابن كثير . جزء ٢ ص ٤٨١ .

*** تفسير الألوسى جزء ١٢ ص ٢٥٨ .

عفته عليه السلام وفى هذا نفى لأى ميل منه نحوهن أو إجابة دعواتهن . ثم بالغن فى نفى أى سوء من جانبه . ولا حتى أية مقالة سوء عنه « **ما علمنا عليه من سوء** » . كان فى هذه الإجابة تبرئة ليوسف عليه السلام من الإستجابة لمراودة النسوة . ولكن بقى الطرف الأهم وهو امرأة العزيز . ولابد أن الملك قد توجه إليها بنفس السؤال . ولعلها خشيت إن قالت غير الحقيقة أن تقوم النسوة بتكذيبها . فهى قد اعترفت أمامهن – يوم الوليمة – بأنها قد راودت يوسف عن نفسه فاستعصم . بل وهددت أنه إذا لم يرضخ لمطلبها سيكون مصيره السجن . وأسقط فى يدها . فلم تملك إلا الإعتراف بالحقيقة . فبادرت قائلة : الآن ظهر الحق واضحاً . وظهرت حصة الحق من حصة الباطل « **الآن حصحص الحق** » . أو من حصحص البعير إذا ألقى ما على ظهره ليُنَاخ ويستقر . فيكون معناها الآن استقر الحق أى وضح الحق تماماً . واعترفت بأنها هى التى راودته عن نفسه وأنه كان صادقاً حينما قال : هى راودتنى عن نفسى . فقالت « **وإنه لمن الصادقين** » .

وأكملت امرأة العزيز كلامها فى المجلس ولعلها توجه الكلام إلى زوجها . لتخبره أنها لم تخنه بالغيب من وراء ظهره . وقد ظهر الحق واضحاً لأن الله لا يخفى كيد الخائنين . وبهذا أبرأت ساحة زوجها مما شابها . وكان بعض القوم قد طعنوه فى شرفه بهذه الأراجيف وشككوا فى صلاحيته لمنصبه بهذا الإتهام الذى يحوم حول بيته وشرفه .

بعضهم نسب قول : « **ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب** » إلى يوسف عليه السلام موجها الكلام إلى العزيز ليطمئنه أنه لم يخنه خفية . ومن الموضوعات فى هذا المقام . أن جبريل عليه السلام . قال له وقتئذ : ولا يوم هممت بما هممت به ؟ فقال : « **وما أبرىء نفسى . إن النفس لأمَّارة بالسوء إلاَّ ما رحم ربى** » . نسبوا هذه الأقوال إلى مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم . ونفى ابن كثير* هذا الزعم وقال إن سياق الكلام يدل على أن الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك . ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم بل بعد ذلك أحضره الملك .

وتلك هى الحقيقة . فقد كان يوسف فى السجن متمسكاً بألا يخرج منه إلاَّ بعد أن ينتهى التحقيق وتظهر براءته واضحة ناصعة .

وهكذا كان كلامها لتطمئن زوجها أنها لم تخنه بالغيب . وأن الأمر لا يعدو كونه وسوسة فى النفس انقادت لها . والنفس أمارة بالسوء وهى لا تبرىء نفسها مما زينته لها « **وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء . إلاَّ ما رحم ربى . إن ربى غفور رحيم** » .

---

* تفسير ابن كثير. جزء ص٢ ص ٣٨١ .

لم يبد ابن كثير رأيه فى القول : « **إلاَّ ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم** » هل هى تطلب الرحمة والمغفرة من الله سبحانه وتعالى؟ وهل كان القوم – وهم يعبدون الأصنام يطلبون منها الرحمة والمغفرة بمثل هذه الألفاظ ؟ أم كانوا يؤمنون بأن هناك إلها – من ورائها – وهو الذى تطلب منه الرحمة والمغفرة – أم أنها تطلب الرحمة والمغفرة من زوجها . وكانت المرأة تقول عن زوجها إنه سيدها – « **وألفيا سيدها لدى الباب** » ومن المحتمل أن المرأة كانت أيضاً تقول عنه إنه ربها زيادة فى تعظيمه وإكباره . وموقف طلب الرحمة والغفران يوجد على طالب المغفرة أن يستصغر شأن نفسه . فشبهت نفسها بجارية وهو ربها .

يقول الألوسى* إن هذا القول : « **وما أبرىء نفسى ...** » كان من يوسف عليه السلام تواضعاً لله تعالى وتحاشياً عن تزكية نفسه . إذ أن النفس البشرية بطبيعتها كثيرة الميل إلى الشهوات وأمَّارة بالسوء . وأن رحمة الله هى التى تصرف السوء وتعصم من الزلل . وينفى هذا ما سبق أن ذكرناه من أن يوسف عليه السلام كان لا يزال فى السجن .

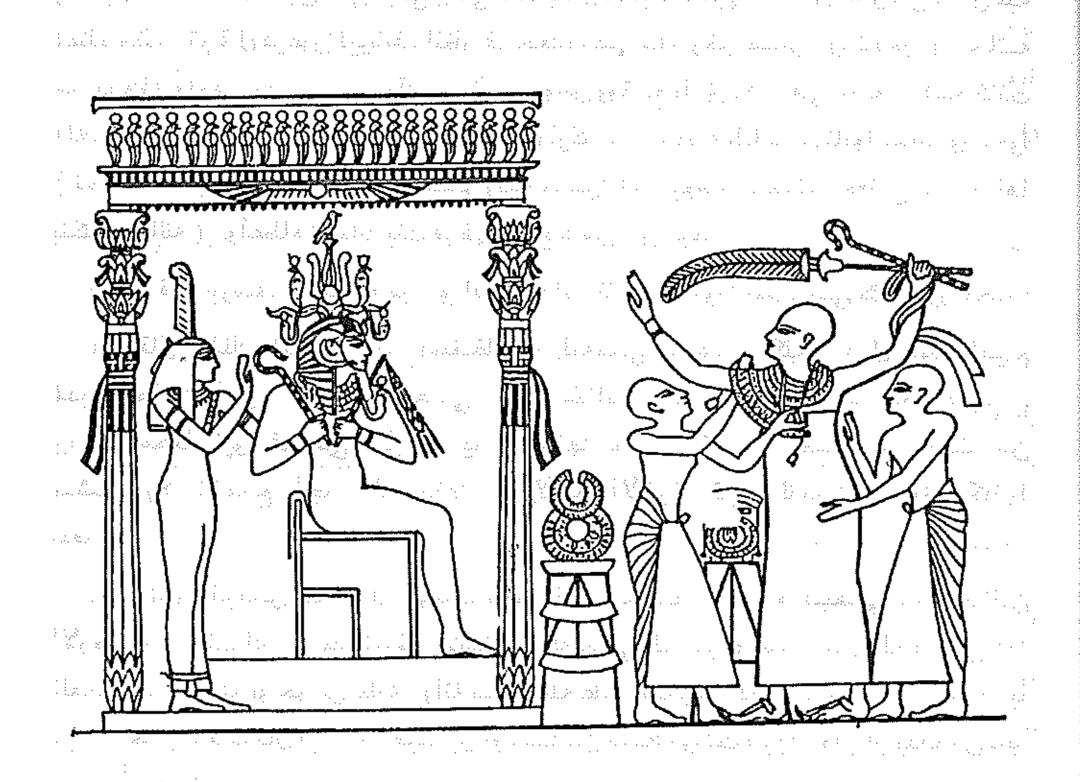
وانتهى التحقيق وتأكد للملك أن يوسف برىء من أى تهمة . وتأكد له أن وضعه فى السجن كان ظلماً . إذ لمس الملك مدى أمانته . والحفاظ على شرف سيده مع توافر كل الظروف التى كانت تغريه بغير ذلك . تأكد الملك من حسن خلقه . ونقاء سريرته . وأمانته . وأكبر فيه عدم ارتضائه أن يكون خروجه من السجن قبل أن تظهر براءته كاملة . لهذا رأى الملك أن الأجدر أن يكون مثل هذا الشخص من خاصته هو . ومن أهل مشورته .

« **قال الملك . أئتونى به أستخلصه لنفسى** » . والمعنى أن الملك أرسل رسولاً إلى يوسف . ومعه الإجابة على سؤال يوسف عندما قال «ارجع إلى ربك فاسأله ... » وأخبر الرسول يوسف أن الملك حقق فى الأمر بنفسه وظهرت براءته وأن الملك يريده أن يكون من خاصته . حينئذ – وليس قبله – خرج يوسف من السجن . وقابل الملك . ولما كلمه الملك ازداد اقتناعاً برجاحة عقله . وحسن خلقه . فقال له : إنك منذ اليوم تعمل لدينا . ولك مكانة عالية وسلطة . وموضع مكين أمين . آمن من كل مكروه . أو مؤتمن على كل شىء .

« **فلما كلَّمه . قال إنك اليوم لدينا مكين أمين** » . ويقال إن الملك قال له : إنى أحب أن أسمع رؤياى منك . فحكاها له طبق ما رواها سابقاً . فأجلسه الملك على السرير إلى جواره وفوض إليه أمر كل شىء فى مصر . وشكل ٩٧ عبارة عن لوحة وجدت فى مقبرة والكتابة بجوارها تقول : خلع فرعون خاتمة . وألبسه ثياب بيضاء ووضع طوق ذهب فى عنقه . ولعلها مقبرة رسول الملك أو مقبرة ساقى الملك الذى كان أحد صاحبى السجن مع يوسف (انظر أيضاً ص ٥٦٣) .

---

* تفسير الألوسى . جزء ١٣ ص ٢ .



شكل ٩٧ – لوحة وجدت فى مقبرة ومكتوب بجوارها

« خلع فرعون خاتمه وألبسه ثياب بيضاء ووضع طوق ذهب فى عنقه » .

تقول التوراة (إصحاح ٤١ تكوين) إن يوسف لما فسر الحلم للملك وأوضح له ما يجب إتخاذه من إجراءات لمعالجة آثار المجاعة التى ستحدث :

فحسن الكلام فى عينى فرعون وفى عيون جميع عبيده . فقال فرعون لعبيده وهل نجد مثل هذا . رجلاً فيه روح الله . ثم قال فرعون ليوسف : بعد ما أعلمك الله كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك . أنت تكون على بيتى وعلى فمك يقبل جميع شعبى . إلاَّ أن الكرسى أكون فيه أعظم منك . ثم قال فرعون ليوسف انظر قد جعلتك على كل أرض مصر . وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله فى يد يوسف . وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب فى عنقه (وهذه كانت الملابس الرسمية التى يلبسها عظماء البلاد) وأركبه فى مركبته الثانية . ونادوا أمامه واركعوا (تحية له) . وجعله على كل أرض مصر ودعا فرعون إسم يوسف صفنات فعنيح (ومعناها يتكلم من الله) . وأعطاه أسنات بنت فوطى فارع كاهن أون زوجة .

وهكذا قُدر ليوسف أن يرتفع من رق العبودية إلى نائب الملك والمتصرف فى كل شئون مصر

« وقال الملك أئتونى به أستخلصه لنفسى . فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض . إنى حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء . نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .
(٥٤ – ٥٧ – يوسف)

وهنا آثار البعض مسألة أن يوسف طلب الولاية لنفسه بقوله : **« اجعلنى على خزائن الأرض »** . وطلب التولية محظورفى الإسلام لقوله صلى الله عليه وسلم : إنا والله لا نولىٍّ هذا العمل أحدا سأله أو حرص عليه . وأنه صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة : يا عبد الرحمن . لا تسأل الإمارة . فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها . وإن أوتيتها من غير مسأله أُعنت عليها .

كذلك أثاروا مسألة قوله : **« إنى حفيظ عليم »** وهى تزكية منه لنفسه . وذلك منهى عنه لقوله تعالى : **« فلا تزكوا أنفسكم »** .
(٣٢ – النجم)

وقال بعض المفسرين إن يوسف إنماطلب الولاية رغبة فى العدل وإقامة الحق والإحسان . وليس هو من باب التزكية للنفس وإنما هو للإشعار بحنكته ودرايته لاستلام « وزارة المالية » وقال أبو السعود فى تفسيره* لقوله تعالى : **« اجعلنى لى خزائن الأرض »** أى أرض مصر . وولنى أمرها . إنى حفيظ لها ممن لا يستحقها . عليم بوجوه التصرف فيها . وفيه دليل على جواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل .

---

* نقلاً عن : دراسات تاريخية من القرآن الكريم د . بيومى مهران . جزء ٢ ص ٦٦ .

وقال الخازن فى تفسيره* : يكره طلب الإمارة إذا لم يتعين عليه طلبها . فإذا تعين وجب عليه ولا كراهية عليه . وأما يوسف فكان عليه طلب الإمارة . لأنه مرسل من الله تعالى وكان مكلفاً برعاية المصالح بسبب ما سيحدث من قحط .

وذهب الإمام النسفى** فى تفسيره إلى أن يوسف عليه السلام وصف نفسه « **إنى حفيظ عليم** » أى بالأمانة والكفاية – ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله وإقامة الحق وبسط العدل . ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه فى ذلك . فطلبه ابتغاء لوجه الله . لا لحب الملك والدنيا .

أما ابن كثير*** فيقول إنه يجوز للرجل أن يمدح نفسه . إذا جُهِلَ أمره . وقال إنه حفيظ أى حافظ لما سيستودعه الملك من أمر مصر . وعليم بسنى الجدب ولعلمه بقدرته على العمل لما فيه مصالح الناس .

ويقول صاحب الظلال**** إن هذه القواعد – عدم طلب الولاية وعدم تزكية النفس – إنماتقررت فى النظام الإسلامى ولم تكن مقررة على أيام يوسف عليه السلام . وقد يُرَدُّ أن هذه مسائل تنظيمية تنصلح بها أحوال العباد فهى تصلح لكل زمان . ومطلوبة فى كل وقت . وليست من المسائل التعبُّدية التى تختلف باختلاف الشرائع .

وجاء فى رواية أن الملك لما علم تعبير الحلم قال ليوسف : ما ترى ؟ قال تزرع فى سنى الخصب . فإنك لو زرعت على حجر نبت . وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام بقصبه وسنبله فإنه أبقى . ويكون القصب علفاً للدواب . فإذا جاءت السنوات العجاف . وجد الناس ما يأكلون. فقال الملك . ومن لى بهذا ومن يجمعه ويكفينى العمل فيه ؟ قال . اجعلنى على خزائن الأرض .

ومع كل ما تقدم . فقد ورد حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : رحم الله أخى يوسف . لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة . وهذا معناه أن الأليق بالأنبياء عليهم السلام ، ترك الأمر كله لله ، يدبره كما يشاء . وما دام الأمر فيه مصلحة العباد ولن يقوم به على خير وجه سوى يوسف عليه السلام . فإنه بمشيئة الله سيصير إليه دون طلب منه .

---

* تفسير الخازن . جـ ٣ ص ٢٩٢ .
** تفسير النسفى جـ ٢ ص ٢٢٧ .
*** تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٨٢ .
**** فى ظلال القرآن . جـ ٤ ص ٢٠٠٦ .

وهكذا توطدت مكانة يوسف عليه السلام في مصر . إذ أصبح نائب الملك يتصرف في جميع الأمور كما يشاء وينزل في أي مكان من أرض مصر و « **يتبوأ منها حيث يشاء** » . وكان هذا عطاء ورحمة من الله تعالى . لأنه كان تقياً ورعاً محسناً . والله لا يضيع أجر المحسنين . هذا جزاؤهم في الدنيا . ولهم جزاء آخر في الآخرة أكبر وأكثر خيراً . جزاء لهم بإيمانهم وتقواهم .

« **نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون** » .

(٥٦ - ٥٧ - يوسف)

سبق أن ذكرنا (ص ٤٩٠) أن فرعون غير إسم يوسف إلى صفنات فعنيح وأعطاه أسنات بنت فوطي فارع كاهن أوف زوجة . وتستمر التوراة قائلة : وَوُلِدَ ليوسف ابنان قبل أن تأتي سني الجوع ودعا يوسف إسم البكر **مَنَسَّى** قائلاً : لأن الله أنساني كل تعبي وكل بيت أبي . ودعا الثاني **أفرايم** لأن الله جعلني مثمراً في أرض مذلتي . وكتب التفسير الإسلامية تذكر أسماءهم ميشا وأفرايثم .

تقول التوراة : وكان يوسف ابن ثلاثين سنة لما وقف قدام فرعون ملك مصر . فخرج يوسف من لدن فرعون واجتاز في كل أرض مصر . ولكن لو نظرنا إلى جدول حياة يوسف (ص ٥٣٥) نجد أنه لابد كان قد بلغ من العمر ٣٩ سنة وليس ثلاثين .

مجيء إخوة يوسف :

بدأت السنوات السبع السمان . وكانت الأرض تعطي غلة كثيرة ومياه النيل متوافرة والفيضان يأتي غزيراً . وكل عود من نبات القمح وغيره يأتي بسبع سنابل ممتلئة بالحبوب . وأمر يوسف عليه السلام ببناء المخازن في كل أنحاء مصر وعين لها حراساً وأمناء وأمر بوضع أغلب المحصول في سنبله في المخازن . إلاّ القليل اللازم للأكل .

ومضت سنوات الرخاء السبع . وبدأت السنون العجاف . وقلت الأمطار أو امتنعت كلية - وجاء الفيضان منخفضاً جداً . وبالكاد تكفي مياهه للشرب . واجتاح الجفاف أرض مصر . وشمل أيضاً أرض كنعان (فلسطين) والشام وعمّت المجاعة جميع بلاد الشرق الأدنى . وسمع الناس في كل المنطقة أن بمصر وزيراً تنبأ بالمجاعة واحتاط للأمر فاختزن الحبوب . وتوافد الناس من البلاد المجاورة على مصر ليحصلوا على الغذاء .

وجاء إخوة يوسف . ودخلوا عليه فعرفهم . فإن أحوالهم وهيئتهم لم تتغير كثيراً عما كانت عليه منذ أنزلوه في البئر .

أما هم فلم يعرفوه . لأنه لم يدر بخلدهم أنه لا يزال حيًّا . فإن كان قد بقى فى البئر فلابد أنه قد هلك . وإن كانوا قد أخرجوه وباعوه إلى قافلة المديانيين أو أن المديانيين هم الذين أخرجوه من البئر . فلابد أنهم أخذوه معهم إلى أرض مدين واستقر هناك كعبد فى بيت أحد سادتها . ولم يخطر ببالهم أن المديانيين قد باعوه لقافلة الإسماعيليين المتوجهة إلى مصر وأن عزيز مصر اشتراه – ثم مكن الله له على النحو الذى رأيناه – حتى أصبح أهم رجل فى مصر ! فمن الطبيعى أنهم لم يتعرفوا عليه .

وأكرم يوسف وفادتهم . وسألهم عن حالهم وعددهم متظاهراً بأنه يريد معرفة ما يكفيهم من الحبوب . وعلم منهم أن والدهم (يعقوب) بخير وأن لهم أخاً صغيراً لم يحضر معهم لحب والده له ولخوفه عليه . وأعطاهم يوسف ما يلزم من الحبوب وطلب منهم أن يحضروا معهم فى المرة القادمة أخاهم الصغير ليتأكد من صدقهم . وإلا لو حضروا بدونه فلن يكون لهم كيل ولن يأخذوا حبوباً . فوعدوه أن يحاولوا إقناع أبيهم حتى يرسل أخاهم معهم فى المرة القادمة . ثم إنه أمر عُمَّاله بأن يضعوا فى رحال إخوته – الأوانى الفضية وقطع الفضة التى دفعوها ثمناً للقمح الذى أخذوه . فوضعوها دون أن يشعروهم بذلك .

ولعل يوسف الصديق تحرَّج من أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام . وقيل أراد أن يردَّهم إذا وجدوا بضاعتهم فى متاعهم . ظناً منهم أنها قد وُضعت خطأ . فيعودوا لردِّها . أو أن يوسف عليه السلام خشى أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى فلا يرجعون لأخذ الحبوب مرة ثانية .

وفى طلبه أن يحضروا أخاهم الصغير فى المرة القادمة قالوا : إنهم سألوه حملاً زائداً عن عددهم لبنيامين . فأعطاهم ذلك وشرط عليهم أن يأتوه به مظهراً لهم أنه يريد أن يعلم صدقهم .

« وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم . وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم . ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا سنراود عنه أباه . وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » .

(٥٨ – ٦٢ – يوسف)

كان هذا مسلك يوسف الصدِّيق مع إخوته . فقد أحسن إليهم . ورد ثمن ما اشتروه من الحبوب دون أن يشعرهم بذلك . وبلطف طلب منهم أن يحضروا أخاه فى المرة القادمة .

تذكر التوراة سلوك يوسف عليه السلام مع إخوته بطريقة مغايرة . فتروى أنه اتهم إخوته بالتجسس على أرض مصر . ثم حبسهم ثلاثة أيام ثم استبقى شمعون محبوساً عنده وقيده أمام عيونهم !! هذه الصورة فيها من القسوة والعنف ما لا يليق صدوره من نبى كريم . في حين أن القرآن الكريم يقرر أنه كان فى غاية الإحسان فى إنزالهم وضيافتهم بقوله : « **وأنا خير المنزلين** » .

ولننظر كيف وصف كاتبو التوراة هذا الموقف .

وكان الجوع على وجه الأرض . وجاءت كل الأرض إلى مصر . إلى يوسف لتشترى قمحاً لأن الجوع كان شديداً فى الأرض .

فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح فى مصر . قال يعقوب لبنيه : لماذا تنظرون بعضكم إلى بعض . وقال إنى قد سمعت أنه يوجد قمح فى مصر . انزلوا إلى هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت . فنزل عشرة من إخوة يوسف ليشتروا قمحاً من مصر . وأما بنيامين أخو يوسف فلم يرسله يعقوب مع إخوته لأنه قال لعله تصيبه أذيَّة . فأتى بنو إسرائيل ليشتروا بين الذين أتوا لأن الجوع كان فى أرض كنعان . فأتى إخوة يوسف وسجدوا له بوجوهم إلى الأرض . ولما نظر يوسف إخوته عرفهم . فتنكر لهم وتكلم معهم بجفاء . وقال لهم : من أين جئتم ؟ قالوا : من أرض كنعان لنشترى طعاماً . وهم لم يعرفوه .

فقال لهم جواسيس أنتم . لتروا عورة الأرض جئتم . فقالوا له : لا يا سيدى . بل عبيدك جاءوا ليشتروا طعاماً . نحن جميعاً بنو رجل واحد نحن أمناء . ليس عبيدك جواسيس . فقال لهم : كلاَّ بل لتروا عورة الأرض جئتم . فقالوا : عبيدك اثنا عشر أخاً . نحن بنو رجل واحد فى أرض كنعان . وهو ذا الصغير عند أبينا اليوم . والواحد مفقود . فقال لهم يوسف : ذلك ما كلمتكم به قائلاً جواسيس أنتم بهذا تمتحنون وحياة فرعون (وما كان لنبى الله يوسف أن يحلف بغير الله!!) لا تخرجون من هنا إلاَّ بمجىء أخيكم الصغير إلى هنا . أرسلوا واحداً منكم ليجىء بأخيكم . وأنتم تُحبَسُون فَيُمتحن كلامكم هل عندكم صدق . وإلاَّ فوا حياة فرعون إنكم لجواسيس . فجمعهم إلى حبس ثلاثة أيام ! ثم قال لهم يوسف فى اليوم الثالث . افعلوا هذا وأحيوا أنا خائف الله . إن كنتم أمناء فليحبس أخ واحد منكم فى بيت حبسكم وانطلقوا أنتم . وخذوا قمحاً لمجاعة بيوتكم . وأحضروا أخاكم الصغير إلىَّ فيتحقق كلامكم ولا تموتوا . ففعلوا هكذا .

وقال بعضهم لبعض . حقاً إننا مذنبون إلى أخينا الذى رأينا ضيقة نَفْسه لما استرحمنا ولم نسمع . لذلك جاءت علينا هذه الضيقة . فأجابهم رأوبين قائلاً : ألم أكلمكم قائلاً : لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا . فهو ذا دمه يُطْلَب . وهم لم يعلموا أن يوسف فاهم لأن الترجمان كان بينهم . فتحول عنهم وبكى ثم رجع إليهم وكلمهم . وأخذ منهم شمعون وقيده أمام عيونهم .

ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحاً . وتُرد فضة كل واحد إلى عدله . وأن يعطوا زاداً للطريق . ففعل لهم هكذا . فحملوا قمحهم على حميرهم . ومضوا من هناك فلما فتح أحدهم عدله ليعطى عليقاً لحماره فى المنزل رأى فضته وإذا هى فى فم عدله . فقال لإخوته . رُدَّت فضتى وها هى فى عدلى . فطارت قلوبهم وارتعدوا بعضهم فى بعض قائلين : ما هذا الذى صنعه الله بنا .

فجاءوا إلى يعقوب أبيهم إلى أرض كنعان . وأخبروه بكل ما أصابهم قائلين : تكلم معنا الرجل سيد الأرض بجفاء وحسبنا جواسيس الأرض . فقلنا له نحن أمناء ولسنا جواسيس . نحن اثنا عشر أخاً بنو أبينا . الواحد مفقود . والصغير اليوم عند أبينا فى أرض كنعان . فقال لنا الرجل سيد الأرض . بهذا أعرف أنكم أمناء . دعوا أخاً واحداً منكم عندى وخذوا لمجاعة بيوتكم وانطلقوا . وأحضروا أخاكم الصغير إلىَّ فأعرف أنكم لستم جواسيس بل إنكم أمناء فأعطيكم أخاكم وتتجرون فى الأرض . وإذا كانوا يفرغون عدالهم إذا صُرَّة فضة كل واحد فى عدله . فلما رأوا صرر فضتهم هم وأبوهم خافوا .

فقال لهم يعقوب . أعدمتمونى الأولاد . يوسف مفقود وشمعون مفقود وبنيامين تأخذونه . صار كل هذا علىَّ . وكلَّم رأوبين أباه قائلاً . اقتل ابنىَّ إن لم أجئ به إليك . سلِّمه بيدى وأنا أرده إليك . فقال لا ينزل ابنى معكم . لأن أخاه قد مات وهو باقٍ وحده . فإن أصابته أذية فى الطريق التى تذهبون فيها تُنْزِلون شيبتى بحزن إلى الهاوية .

ملحوظة : نرى أن كاتبى التوراة ينسبون إلى يعقوب اعتقاده بوفاة يوسف فى حين أن يعقوب عليه السلام كان يشعر شعوراً داخلياً بأن يوسف لم يمت . وأنه حى يرزق فى مكان ما . ولذلك قال فيما بعد : **« عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً »** .

كذلك ينسبون إليه إعرابه عن خوفه على بنيامين من أخطار الطريق . وهذا ما نفيناه فى صفحة ٤٤٢ – إذ أن يعقوب عليه السلام أوكل أمر الحفظ كُلِّيَّة إلى الله تعالى قائلاً : **« فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين »** .

ويستمر كاتبو التوراة قائلين (إصحاح ٤٣ تكوين) : وكان الجوع شديداً فى الأرض وحدث لما فرغوا من أكل القمح الذى جاءوا به من مصر أن أباهم قال لهم : ارجعوا اشتروا لنا قليلاً من الطعام . فكلمه يهوذا قائلاً : إن الرجل قد أشهد علينا قائلاً لا ترون وجهى بدون أن يكون أخوكم معكم . إن كنت ترسل أخانا ننزل ونشترى لك طعاماً . ولكن إن كنت لا ترسله لا ننزل . لأن الرجل قال لنا لا ترون وجهى بدون أن يكون أخوكم معكم .

فقال إسرائيل : لماذا أسألتم إليَّ حتى أخبرتم الرجيل أن لكم أخاً أيضاً . فقالوا إن الرجل قد سأل عنا وعن عشيرتنا قائلاً : هل أبوكم حَيٌّ بعد . هل لكم أخ . فأخبرناه بحسب هذا الكلام . هل كنا نعلم أنه يقول انزلوا بأخيكم . وقال يهوذا لإسرائيل أبيه . أرسل الغلام معنا لنقوم ونذهب ونحيا ولا نموت . نحن وأنت وأولادنا جميعاً . أنا أضمنه . من يدى تطلبه . إن لم أجىء به إليك وأوقفه قدامك أصر مذنباً إليك كل الأيام . فقال لهم إسرائيل أبوهم . إن كان هكذا فافعلوا . خذوا من أفخر جَنْى الأرض فى أوعيتكم وأنزلوا للرجل هدية . قليلاً من البلسان وقليلاً من العسل وفستقا ولوزا وخذوا فضة أخرى فى أياديكم . والفضة المردودة فى أفواه عدالكم رُدُّوها . لعله كان سهواً . وخذوا أخاكم وقوموا ارجعوا إلى الرجل . والله القدير يعطيكم رحمة أمام الرجل حتى يُطلق لكم أخاكم الآخر وبنيامين . وأنا إذا عدمت الأولاد عدمتهم .

ويتجلى إعجاز القرآن الكريم فى اختصاره لهذا كله فى أسطر قليلة تحمل نفس المعنى . وتزيد عنها نصائح يعقوب لبنيه فى كيفية دخول المدينة والحرص حتى لا يصيبهم مكروه :

« فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا منع منا الكيل . فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلاَّ كما أمنتكم على أخيه من قبل . فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم . قالوا : يا أبانا . ما نبغى . هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا . ونمير أهلنا . ونحفظ أخانا . ونزداد كيل بعير . ذلك كيل يسير . قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله . لتأتُنَّنى به إلا أن يحاط بكم . فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل » .

(٦٣ - ٦٦ - يوسف)

ونلاحظ أنهم قالوا لأبيهم عن بنيامين :

« فأرسل معنا أخانا نكتل . وإنا له لحافظون »

وهو نفس ما قالوه من قبل عند أخذهم ليوسف :

« أرسله معنا غداً يرتع ويلعب . وإنا له لحافظون » .

ولعل هذا ما جعل يعقوب عليه السلام يتوجَّس خيفة من أن يفقد بنيامين كما فقد يوسف من قبل . فقال :

هل آمنكم عليه إلاَّ كما أمنتكم على أخيه من قبل » .

وكما سبق أن ذكرنا (ص ٤٤٢) - أنه هذه المرة أوكل الحفظ كلية إلى الله سبحانه وتعالى . وشعر أنه فى ضيق وشدة فأحبُّ أبنائه « يوسف » قد فقد من قبل . وها هو يرسل أحبَّ الباقين - ولا يدرى ما يُفعَل به . وهو يطلب من الله ألاَّ يجمع عليه مصيبتين . لأنه لن يتحملهما معاً . فهـو يرجو رحمة الله لأنه أرحم الراحمين . وطلب من الله أن يحفظ ابنه الثانى هذا . فقال :

« **فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين** » .

وهو قول يَجْمُلُ بالمرء أن يقوله إذا وُجِدَ فى مثل هذا الضيق فيرجو من الله الحفظ والرحمة .

ولما رأوا أن فضتهم قد رُدَّت إليهم قالوا لأبيهم : **ما نبغى** ؟ سؤال استفهام . كأنهم يقولون ماذا نريد وراء ما نراه من إحسان العزيز إلينا وكرمه . هذه فضتنا قد رُدَّت إلينا . وجلبنا الطعام والميرة لأهلنا . وسيكون حاله كذلك فى المرة القادمة فيعطينا الطعام . وسيكون من إحسانه أيضاً أن نتمكن من حفظ أخانا ونرجع به . ولما سيرى أخانا معنا سيزيد لنا كيل بعير . إذ سيعطينا أحد عشر حمل بعير بدلاً من عشرة .

وقرأ ابن مسعود : ما تبغى ؟ والخطاب حينئذ موجه إلى يعقوب عليه السلام . وقالوا روت عائشة رضى الله تعالى عنها ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم . والمعنى أى شىء تريد أكثر من هذه المطالب المشتملة على سلامة أخينا وإعطائنا كيل زائد . أو أى شىء أكثر مما وصفنا لك من إحسان هذا الرجل إلينا ليكون ذلك داعياً إلى التوجه إليه مرة أخرى ؟ وقد تكون ما . للنفى بمعنى أننا بهذا المطلب لا نبغى ولا نتجاوز الحد فى القول ولا نكذب فيما وصفنا لك من إحسان العزيز إلينا وكرمه مما يوجب إجابة مطلبه . وغير ذلك من الأقوال التى تؤيد ما سبق ذكره (ص ٤٣٥) من أن تعدد المعانى للفظ الواحد هو وجه من وجوه الإعجاز فى اللفظ القرآنى .

كذلك فى قوله تعالى : « **ذلك كيل يسير** » قالوا : كأن أباهم قال لهم لعل الملك لا يعطيكم فوق العشرة شيئاً فكان ردهم أن ذلك الحمل الزائد شىء يسير لا يتعاظمه العزيز ولن يبخل به لما لمسنا من إحسانه فى المرة السابقة . وجَوَّز بعضهم أن يكون ذلك من كلام يعقوب عليه السلام إشارة إلى أن كيل بعير واحد شىء قليل لا يُخاطر لمثله بالولد . ودليلهم على ذلك القول اللاحق : لن أرسله معكم .

لما رأى يعقوب عليه السلام ضرورة إرسال ابنه بنيامين معهم - وإلا فلن يحصلوا على الطعام - أخذ عليهم الموثق والعهد ليعودون به - ولكنه وضع فى الحسبان أن كل شىء بأمر الله

سبحانه وتعالى ومشيئته . ولا أحد يعلم الغيب إلا الله . فاستدرك قائلاً : إلاَّ أن يحاط بكم . أى إلاَّ أن تُغلبوا أو يحدث شىء لا تقدرون على دفعه ولا تطيقون ردّه . فلما آتوه موثقهم وعهدهم قال لهم إن الله مطلع على هذا الموثق ورقيب عليه . والمراد أنه سبحانه مجازيهم إن أخلُّوا بهذا الميثاق .

وقد أصبح قوله تعالى : « **والله على ما نقول وكيل** » جملة يختم بها كل عقد أو اتفاق بين طرفين للتأكيد على وجوب تنفيذه .

بعد أن أخذ يعقوب على بنيه ميثاقاً بأن يعودوا ببنيامين أعطاهم نصيحة يعملون بها عند دخولهم مصر :

« **وقال يا بَنى لا تدخلوا من باب واحد . وادخلوا من أبواب متفرقة . وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله . عليه توكلت . وعليه فليتوكل المتوكلون** » . (٦٧ - يوسف)

قال بعضهم خوفاً عليهم من الحسد . وخاصة لما كان بنيامين معهم .

وقال بعضهم : حتى لا يستراب فيهم أنهم جواسيس إذا دخلوا معاً وهم أغراب فى لبسهم ولسانهم .

وقيل طمعاً فى أن يتسمعوا خبراً عن يوسف . فقد كان يشعر شعوراً داخلياً أنه لم يمت . ولكن أين هو ؟ لا يدرى !

أدلى بهذه النصيحة لهم . ثم قال لهم إنه لا راد لقضاء الله - ولا يغنى حذر من قدر - فالحكم لله وحده . دون غيره . وأخبرهم أنه يتوكل على الله . ويجب على المؤمنين أن يتوكلوا على الله .

« **ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم . ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها . وإنه لذو علم لما علمناه . ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » . (٦٨ - يوسف)

ودخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم . ولكن ذلك لم يكن يمنع قضاء الله عنهم . وذلك ما كان يعقوب يعرفه وهو يدلى لهم بهذه النصيحة . حتى يكون قد أدى الواجب نحوهم ولكنه

يعلم تمام العلم أن ذلك لا يغنى شيئاً . فالله قد أعطاه علماً جليلاً . ومتأكد أن مشيئة الله هى التى تنفذ وتكون . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك . وقد يظنون أن اتخاذ الحيطة قد منع عنهم ضرراً ما . صحيح أن الأخذ بالأسباب واتخاذ الحيطة واجب على المؤمن . ولكن ليكن متيقناً فى قرارة نفسه أن الأمر مرده إلى الله . إن شاء أنفذ الأسباب . وإن شاء عطلها . وفى كلتى الحالتين لا ينفذ إلاَّ ما شاء الله وقدَّره .

وسار إخوة يوسف حتى وصلوا مصر . ودخلوا من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم . ثم التقوا عند بيت عزيز مصر . يوسف .

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه . قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون » . (٦٩ - يوسف)

هكذا - فى إيجاز - يصف القرآن الكريم هذا المشهد .

ويقول تفسير الألوسى* : إنهم لما دخلوا على يوسف قالوا : أيها العزيز . هذا أخونا الذى أمرتنا أن نأتيك به . وقد جئناك به . فقال لهم : أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندى . وقال البعض إن يعقوب عليه السلام كان قد كلفهم برسالة تقول : بلِّغوا عزيز مصر سلامي وقولوا له إن أبانا يصلى من أجلك ويدعو لك ويشكر صنيعك معنا . وقال آخرون . كان ذلك مبلغاً فى كتاب . فلما قرأه يوسف عليه السلام بكى . ثم إنه أكرمهم وأنزلهم وأضافهم . وأجلس كل اثنين منهم على مائدة . فبقى بنيامين وحيداً فبكى وقال لو كان أخى يوسف حياً لأجلسنى معه . فقال يوسف . بقى أخوكم وحده . فقالوا له كان له أخ فهلك . قال . فأنا أجلسه معى . فأخذه معه وأجلسه على مائدته وجعل يؤاكله . وأَنِسَ بنيامين إلى يوسف . فقال له يوسف : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : من يجد أخاً مثلك أيها العزيز . فقال يوسف : إنى أنا أخوك وعرَّفه بنفسه وطلب منه كتمان هذا الأمر عن إخوته . وطلب منه ألا يبتئس ولا يحزن على ما كان إخوته يفعلون به ويؤذونه .

وتقول التوراة (إصحاح ٤٣ تكوين) إن يوسف أمر بإدخال إخوته إلى بيته ليضيفهم . فتوجسوا خيفة ظناً منهم أنه يريد الانتقام منهم بسبب الفضة التى وجدوها فى عدالهم . ولكن كبير خدم البيت طمأنهم . وفك أسر شمعون وأدخله إليهم . وعند الظهر جاء يوسف للغذاء . وأجلس بنيامين إلى مائدته فبهت الرجال بعضهم إلى بعض لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين . وبالغ يوسف فى إكرام بنيامين فكان الطعام أمامه خمسة أضعاف ما أمامهم .

---

* تفسير الألوسى جـ ١٣ ص ٢٣ .

وفى الصباح أمر يوسف بتجهيز الكيل وأحمال الطعام لهم . ثم جعل السقاية – وهى إناء كان يشرب به الملك – وكان من الذهب . وقيل من الفضة . وقيل كان يكال به الحبوب . وضعها فى متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد . وقالوا* لم يضعها بنفسه . بل أمر كبير عماله بوضع طاس الفضة فى فم عدل الصغير وثمن قمحه . ففعل بحسب كلام يوسف الذى تكلم به .

وانصرف إخوة يوسف ومعهم حميرهم . وخرجوا من المدينة . ولكنهم لم يبتعدوا إلاّ قليلاً حتى وجدوا فرساناً من قبل يوسف يدركونهم ويستوقفونهم واتهموهم بأنهم سرقوا الكأس التى يشرب الملك بها . وأن الملك قد جعل جائزة لمن يرجعه له – حمل بعير من الحبوب – وقال كبير الفرسان أنه ضامن المكافأة لمن يرد الكأس .

وأنكر إخوة يوسف أنهم سرقوا شيئاً . وأخبروا الفرسان أنهم قد خبروهم من قبل وشاهدوا حسن سيرتهم . وأنهم لم يجيئوا ليفسدوا فى الأرض .

« فلما جهّزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه . ثم أذّن مؤذّنٌ أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون . قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم . قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين » . (٧٠ – ٧٣ – يوسف)

قالوا . وكان يوسف عليه السلام قد وصل بنفسه وكانت عقوبة السرقة فى مصر الضرب أو السجن . ولكن الله ألهمه الاحتكام إلى شريعتهم . فسألهم عن الجزاء الذى يوقعونه على السارق فقالوا إننا على شريعة إبراهيم عليه السلام وهى تقضى بأن السارق يُدفع إلى المسروق منه ليسترقه ويصير عبداً له .

وبدأ الحرس يفتشون أمتعتهم . وبدأ بتفتيش رحالهم قبل رحل بنيامين كى لا يثير شبهة فى الأمر . قال قتادة : إنه كان لا يفتح متاعاً ولا يجد به الكأس إلا استغفر الله مما قذفهم به . حتى بقى أخوه الصغير . فقال : ما أظن هذا أخذ شيئاً . فقالوا : والله لا نتركك حتى تنظر فى رحله . فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا . فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه . فلما استخرجها نكس الإخوة رؤوسهم من الحياء . وأقبلوا على بنيامين يلومونه . ويقولون له : فضحتنا وسودّت وجوهنا يا ابن راحيل !

« قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه . كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه . ثم استخرجها من وعاء أخيه . كذلك كدنا ليوسف . ما كان ليأخذ أخاه فى دين

---

* التوراة . إصحاح ٤٤ تكوين .

الملك إلاَّ أن يشاء الله . نرفع درجات من نشاء . وفوق كل ذى علم عليم »
(٧٤ - ٧٦ - يوسف)

وهذا يدل على أن تدبير يوسف فى وضع السقاية فى رحل بنيامين كان بإيحاء من الله تعالى . ولذلك كان القول «كدنا» نسبة إلى الله سبحانه وتعالى وكذلك كان أخذه لبنيامين فى سلطان الملك بمشيئة الله تعالى . فكان فى الظاهر أنه أخذه استرقاقاً . وهو فى الحقيقة يريد ضمهُ إليه . وهذا رفع لدرجته وإبعاد له عن إخوته الذين يؤذونه . وتدبير الله فوق كل تدبير وعلم الله فوق كل عالم وكل ذى علم . وقالوا إن هذا من الكيد المحبوب لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة .

« قالوا* راح إخوة بنيامين يلومونه لوجود الصواع فى رحله وقالوا له : فضحتنا وسودت وجوهنا . يا ابن راحيل لا يزال لنا منكم بلاء إذ أخذت هذا الصاع . فقال بنيامين : بل بنو راحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء . ذهبتم بأخى إلى البرية فأهلكتموه . إن الذى وضع الصاع فى رحلى هو الذى وضع الدراهم فى رحالكم . وواضح من هذا أن بنيامين لم يكن يعرف كيف جاء الصواع إلى رحله . وتذكر أنهم لما عادوا بالميرة إلى أرض كنعان ووجد الفضة معهم اعتقد أنهم سرقوها من العزيز بعد ما أخذوا القمح . ولعله ظن أنهم دسُّوا الصواع فى رحله ليكيدوا له فقد كانوا يكرهونه كما كانوا يكرهون أخاه يوسف من قبل . ولعلهم - من جانبهم - ظنوا أن بنيامين قد سرق الصواع فعلاً ولحقدهم عليه - ولينفوا عن أنفسهم أى نقيصة - رأوا أن يُثبتوا عليه السرقة . بل وجعلوا السرقة طبعاً فى أبناء راحيل .

« قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . فأسرَّها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم . قال أنتم شرٌّ مكاناً . والله أعلم بما تصفون » (٧٧ - يوسف).

فقالوا إن أخاه - أى يوسف - قد سرق من قبل . وليس بمستبعد أن يسرق هذا أيضاً . فهو أخوه من ناحية الأم أيضاً .

واختلف العلماء* فى السرقة التى وصفوا بها يوسف : قال سعيد بن جبير وقتادة أنه سرق صنماً لجده فكسره وألقاه فى الطريق .وقال ابن جريج أمرته أمه أن يسرق صنماً لخاله . وواضح أن هذه الأقوال تشير إلى الصنم الذى أخذته راحيل من أبيها لابان عند مفارقة يعقوب له وتركه «حاران» (ص ٤١٦) . ولكن نظرة إلى جدول حياة يعقوب (ص ٥٢٥) تبين أن يوسف كان عمره وقتئذ سنة واحدة ممانيفى هذا الزعم . وهذا الصنم تم طمره فى الأرض فى بيت إيل (ص ٤٢١) .

---

* عرائس المجالس للثعلبى . ص ١٥٩ .

وقال مجاهد : جاء سائل يوماً فسرق يوسف بيضة من البيت وأعطاها السائل . وقال غيره: دجاجة . وقال وهب : كان يخبّىء الطعام من المائدة للفقراء . وهذا ليس بسرقة .

وقال الضحاك وغيره : كان ليوسف عمة . وكانت تحبه حباً جمًّا . إذ كانت هى التى تولت تربيته هو وبنيامين بعد وفاة راحيل . فلما كبر وأراد يعقوب أخذه احتالت بأن دسَّت فى ثيابه بعض متاعها - قيل إنها منطقة أبيها إسحق . وكانت هى أكبر من يعقوب فورثتها - واتهمت يوسف بسرقتها . ووجدوها عنده وحسب شريعتهم - سلَّموا يوسف لها فبقى عندها حتى ماتت!! وواضح زيف هذه الرواية . فإنه لم يُعرفْ أن ليعقوب أختاً أكبر منه - وكان جديراً بالذكر فى التوراة - كما أن يوسف عند وصوله إلى حبرون - حيث تعيش عمته المزعومة - كان عمره ١٠ أو ١١ سنة فلم يكن فى حاجة إلى رعاية النساء .

فمما لا شك فيه أن هذا الإتهام كان محض اختلاق من إخوته ليثبتوا براءتهم هم ويثبتوا السرقة على بنيامين بزعم أن ذلك طبع فى أبناء راحيل . وهى ليست والدتهم .

وبالطبع فإن يوسف غضب لهذا الافتراء عليه ولكنه أخفى ذلك فى نفسه . ولم يبدها لهم . لا قولاً ولا فعلاً . حِلماً منه . **قال أنتم شر مكاناً** . بعضهم* فسَّرها بأنه قالها فى نفسه ومعناه أنهم أليق بالوصف بالشر لما فعلوه به من قبل بإلقائه فى الجب . ويحتمل أنه أسرَّ الغضب لدى سماعه هذا الإتهام ولكنه قال لهم أنتم فى منزلة أكثر شراً من السرقة . ولعله يقصد الإتهام الزور الذى يرمونه به . والله أعلم بأنه لم تكن هناك سرقة كما يزعمون . والله أعلم كذلك أن بنيامين لم يسرق هو الآخر .

لما نفَّسوا عن مكنون حقدهم على يوسف وأخيه بهذا الإتهام . وبدأ الشرطة فى أخذ بنيامين لإلحاقه بيوسف . أفاقوا . وتذكروا موثقهم مع أبيهم يعقوب بأن يكون بنيامين معهم عند عودتهم . فراحوا يستعطفون يوسف قائلين : إن له أباً شيخاً كبيراً يحبه كل الحب ولا يستطيع فراقه . وقد حل فى قلبه محل أخيه الذى فُقِدَ (يقصدون يوسف) وعرضوا على يوسف أن يأخذ واحداً منهم بدلاً من بنيامين لأن أباهم قد يهلك إذا علم بفقدان بنيامين أيضاً . وكان المتكلم هو يهوذا لأنه هو الذى تعهد ليعقوب بالعودة ببنيامين . والباقون أمَّنوا على هذا التعهد .

أطال كاتبو التوراة فى وصف هذا الموقف (إصحاح ٤٤ تكوين) . إذ قالوا : ثم تقدم إليه (أى إلى يوسف) يهوذا وقال استمع يا سيدى ليتكلم عبدك كلمة فى أذنى سيدى . ولا يحم غضبك على عبدك . لأنك مثل فرعون . سيدى سأل عبيده قائلاً هل لكم أب أو أخ . فقلنا لسيدى لنا أب شيخ وابن شيخوخة صغير . مات أخوه وبقى هو وحده وأبوه يحبه . فقلت لعبيدك

---

* تفسير الألوسى . جـ ١٣ ص ٣٣

انزلوا به إلىَّ فاجعل نظرى عليه . فقلنا لسيدى لا يقدر الغلام أن يترك أباه . وإن ترك أباه يموت فقلت لعبيدك إن لم ينزل أخوكم الصغير معكم لا تعودوا تنظرون وجهى . فكان لما صعدنا إلى عبدك أبى أننا أخبرناه بكلام سيدى . ثم قال أبونا ارجعوا اشتروا لنا قليلاً من الطعام . فقلنا لا نقدر أن ننزل . وإنما إذا كان أخونا الصغير معنا ننزل . لأننا لا نقدر أن ننظر وجه الرجل وأخونا الصغير ليس معنا . فقال لنا عبدك أبى أنتم تعلمون أن امرأتى ولدت لى اثنين . فخرج الواحد من عندى وقلت إنما هو قد افترس افتراساً . ولم أنظره إلى الآن . فإذا أخذتم هذا أيضاً من أمام وجهى وأصابته أذية تنزلون شيبتى بشرٍّ إلى الهاوية . والآن متى جئت إلى عبدك أبى والغلام ليس معنا. ونفسه مرتبطة بنفسه. يكون متى رأى أن الغلام مفقود أنه يموت . فينزل عبيدك شيبة عبدك أبينا بحزن إلى الهاوية . لأن عبدك ضمن الغلام لأبى قائلاً : إن لم أجىء به إليك أصر مذنباً إلى أبى كل الأيام . فالآن ليمكث عبدك عوضاً عن الغلام عبداً لسيدى ويصعد الغلام مع إخوته . لأنى كيف أصعد إلى أبى والغلام ليس معى . لئلاً أنظر الشر الذى يصيب أبى .

ونلمس هنا العنصر البشرى واضحاً فى سرد القصة بما فيها من تطويل وتكرار فى حين أوجز اللفظ القرآنى المشهد كله فى سطرين اثنين .

« قالوا يأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً . فخذ أحدنا مكانه . إنا نراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلاَّ من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون » . (٧٨ - ٧٩ - يوسف)

كذلك فقد أغفل كاتبو التوراة جزءاً مهماً من القصة . وهو عودتهم إلى أبيهم بدون بنيامين قبل أن يعرفوا أن العزيز هو نفسه أخوهم يوسف .

ونعود إلى سياق القصة كما وردت فى القرآن الكريم :

تأكد لهم أن يوسف - عزيز مصر - لن يقبل أن يأخذ أحداً منهم بدلاً من بنيامين . ويئسوا من مناشدته العطف بأبيهم الشيخ الكبير الذى ما إن يعرف بفقدان بنيامين فقد يودى به الحزن إلى الهلاك . عندئذ انتحوا جانباً . وخلصوا من الناس . وتشاوروا وتناجوا فيما بينهم . **« خلصوا نجيًّا »** . وذكرهم أخوهم الكبير - رأوبين - أنهم قد أعطوا أباهم عهداً وميثاقاً أن يعودوا بأخيهم بنيامين . وتعهد يهوذا بذلك أمام والده . وقد سبق أن فرطتم فى يوسف . ولأنه لا يستطيع مواجهة أبيه . فسيبقى فى مصر . ويعودون هم . فإن أذن له أبوه فى العودة

* تفسير الألوسى . جـ ١٣ ص ٣٣

يعود . وإلاً فلن يعود . أو يكون فى علم الله وحكمه تدبير آخر . فقد يقرر العزيز . مثلاً – أن يعفو عن بنيامين أو يستطيع هو بوسلية أو بأخرى تدبير إخراجه . المهم أنه فوض الأمر إلى الله . والله خير الحاكمين .

وقال لهم ارجعوا إلى أبيكم . وقولوا له إن بنيامين سرق . وأخذه العزيز عبداً له جزاء ذلك . وكنا شهوداً . إذ استخرجوا كأس الملك من متاعه . وهذا مبلغ علمنا . ولا ندرى أسرق حقيقة أم وُضع الصواع فى رحله دون أن يشعر . وعلى العموم هذا هو علمنا . وحين أعطيناك الميثاق لم نكن نعلم الغيب ولا كنا نعلم أن هذا سيحدث . وإن لم تصدقنا فاسأل أهل القرية الذين كانوا معنا . وأصحاب القافلة التى قدمنا معها لتعلم صدق ما أخبرناك به .

« فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً . قال كبيرهم . ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله . ومن قبل ما فرطتم فى يوسف . فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى . أو يحكم الله لى . وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق . وما شهدنا إلا بما علمنا . وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها . والعير التى أقبلنا فيها، وإنا لصادقون » . (٨٠ – ٨٢ – يوسف)

وفعلوا كما قال أخوهم الكبير . وعادوا إلى يعقوب . وأخبروه بما حدث وطلبوا منه التأكد من صدقهم بسؤال الرجال الآخرين الذين معهم فى القافلة .

هنا قفز إلى ذهن يعقوب ما فعلوه بيوسف من قبل . لقد قالوا إن الذئب أكله . وأروه قميصه وعليه الدم ولكنه غير ممزق . فتأكد من كذبهم . وأنهم فعلوا به أمراً آخر فقال :

« قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً . فصبر جميل » . (من الآية ١٨ – يوسف)

وظن يعقوب أنهم فعلوا ببنيامين أمراً ليبعدوه عنه . ماذا فعلوا به ؟ لا يدرى . أكان كل ما أخبروه به من أن عزيز مصر رفض إعطاءهم قمحاً إلا إذا أحضروا أخاهم الصغير معهم – أكان ذلك مجرد خدعة ليأخذوه منه؟ فقال نفس ما قاله عند فقدان يوسف :

« قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً . فصبر جميل » . (من الآية ٨٣ – يوسف)

وهكذا فقد بنيامين – ويوسف من قبل فزاد حزنه واعتزل بنيه وأعرض عنهم فإن غياب بنيامين – كما نقول بلغة عصرنا – قلب عليه المواجع . وكما قال الشاعر :

ولم تنسنى أوفى المصيبات بعده   ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

وهكذا . ولو أن الموقف هو غياب بنيامين إلا أنه تذكر يوسف . وقال « **يا أسفا على يوسف** » . بمعنى يا أسفى على يوسف وأُبدلت ياء المتكلم ألفاً للتخفيف . أو أنها يا أسفاه وتسمى ألف الندبة . وحُذفت الهاء . وبكى كثيراً من شدة الحزن . وابيضت مقلة العين من كثرة البكاء – كناية عن العمى . وزاد غضبة على أبنائه . ولكنه كظم غيظه لا يظهره فهو كظيم .

وقال له أبناؤه . أنت لا تزال ولا تفتؤ تذكر يوسف وتبكى عليه وحذفت لا القسم – وستظل تفعل ذلك حتى تصبح ضعيفاً وتكون حرضاً . والحرض هو المهزول من المرض والمشرف على الهلاك . وإن استمر الحال بك هكذا فقد تهلك أى تموت .

« **قال بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً . فصبر جميل . عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً . إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله . وأعلم من الله ما لا تعلمون** » . (٨٣ – ٨٦ – يوسف)

فى حديث قدسى* أخرجه ابن راهوية فى تفسيره . والحاكم والبيهقى عن أنس : كان ليعقوب عليه السلام أخ مؤاخ فى الله . فقال له ذات يوم : ما الذى أذهب بصرك؟ وما الذى قوَّس ظهرك؟ فقال : أما الذى أذهب بصرى فالبكاء على يوسف . وأما الذى قوس ظهرى فالحزن على ابنى بنيامين . فأتاه جبريل فقال يا يعقوب . إن الله تعالى يقرئك السلام . ويقول: أما تستحى تشكونى إلى غيرى؟ فقال : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله . فقال جبريل أعلم ما تشكو يا يعقوب . ثم قال يعقوب . فاردد علىَّ ريحانتى أشمه شماً قبل الموت . ثم اصنع بى ما أردت . فأتاه جبريل فقال : إن الله يقرئك السلام ويقول لك ابشر وليفرح قلبك . فوعزتى وجلالى لو كانا ميتين لنشرتهما . فاصنع طعاماً للمساكين فإن أحب عبادى إلىَّ الأنبياء والمساكين . وتدرى لم أذهبت بصرك وقوست ظهرك وصنع إخوة يوسف به ما صنعوا؟ أنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين يتيم وهو صائم . فلم تطعموه منها شيئاً . فكان يعقوب بعدُ إذا أراد الغذاء أمر منادياً فنادى : ألا من أراد الغذاء من المساكين فليفطر مع يعقوب .

قال يعقوب عليه السلام : « **إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله** » والبث هو إثارة الشىء وتفريقه كبث الريح للتراب . واستعمل فى الغم الذى لا يطيق صاحبه الصبر عليه كأنه ثقل عليه فلا يطيق حمله وحده فيفرقه على عدد من الناس . وقد يكون بمعنى الغم الشديد الذى يبث الفكر ويفرقه . وقالوا قال ذلك لأن أبناءه عابوا عليه شدة حزنه فكان جوابه أنه إنما يشكو

---

* الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى . ص ٢٤٤ .

إلى الله لا إليهم . وأنه يعلم من لطف الله ورحمته ما لا يعلمون . يعلم بيقينه أو وحياً من الله . وسبق أن قلنا إنه كان يشعر شعوراً داخلياً بأن يوسف حي يرزق . وأن الله سيجمعهم جميعاً فى النهاية . ولعل ذلك من إيمانه بأن حلم يوسف الذى حكاه له هى رؤيا من الله تعالى ولابد أن تتحقق فى يوم ما . وقيل* إن يعقوب عليه السلام رأى ملك الموت فى المنام . فأخبره أن يوسف حي . ذكره غير واحد ولم يذكروا له سنداً .

وروى عن ابن أبى حاتم عن النضر أنه قال : بلغنى أن يعقوب عليه السلام مكث أربعة وعشرين عاماً (من جدول حياة يعقوب ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ هى ٣٦ عاماً) لا يدرى أيوسف عليه السلام حي أم ميت . حتى تمثل له ملك الموت فقال له : من أنت؟ قال ملك الموت . قال : أنشدك بإله يعقوب : هل قبضت روح يوسف ؟ قال لا . فعند ذلك قال :

« يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . (٨٧ - يوسف)

فطلب من أبنائه أن يذهبوا إلى مصر . ويتسمعوا أو يتلمسوا من أخبار يوسف وبنيامين بلطف وفى خفاء . كأن المرء يتحسس شيئاً ليدرك ما هيته باللمس . بدون إثارة ضوضاء . وبعضهم قرأها فتجسسوا . وهو أيضاً بمعنى معرفة الأخبار . وقيل التحسس يكون فى الخير. والتجسس يكون فى الشر .

وحثهم على البحث بجد . وأن لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله وأن لا ييأسوا من رحمة الله وفضله . لأن رحمة الله واسعة . والعارف لا يقنط فى حال من الأحوال . قال ابن عباس : إن المؤمن من الله تعالى على خير يرجوه فى البلاء ويحمده فى الرخاء . لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . إذ أن اليائس يظن أن الإله غير قادر على إجابة ما يطلب . أو غير كريم فيتفضل به وكلاهما موجب للكفر . ومثله القنوط وسنعود إلى ذلك بتفصيل أكثر فى قصة أيوب عليه السلام (ص ٦٢٤) .

عاد إخوة يوسف إلى مصر . كما أمرهم أبوهم . وكانت هذه هى المرة الثالثة . وكانت حالهم قد ساءت من حزن أبيهم وفقدانه للبصر . فلم يكن يقوى على العمل . كان قدومهم إلى مصر ليتسقطوا أخباراً عن يوسف مسايرة لما أمرهم به أبوهم مع علمهم بهلاك يوسف منذ ألقوه فى الجب قبل خمس وثلاثين سنة ظانين أن طلب أبيهم هذا هو من قبيل الأوهام . لشدة حبه ليوسف

---

* تفسير الألوسى : جـ ٣ ص ٤٤ .

. ولعدم تصديقه أنه قد هلك . كذلك ليتسمعوا أخباراً عن بنيامين . أين هو الآن . هل سجنوه؟ أم ضموه إلى العبيد الذين يعملون فى قصر العزيز . أم جعلوه يعمل فى أحد مخازن الحبوب المنتشرة فى طول البلاد وعرضها . وهل يستطيعون لقاءه والتكلم معه . وحينئذ هل يمكنهم - بوسيلة ما - تدبير هربه والعودة به إلى أبيهم؟ كل هذه الأسئلة والأفكار كانت تدور فى ذهنهم . كذلك كان قدومهم لمصر لطلب الطعام . ولكن ما كان معهم هذه المرة كان ثمناً قليلاً - دراهم قليلة - أو سمناً قليلاً - أو صوفاً غير جيد الصنع . فقد كانت المجاعة فى شدتها - إذ الجفاف مستمر منذ ثلاث سنوات . ولذلك وصفوا بضاعتهم التى سيقايضون عليها - بأنها مزجاة . اشتقاقاً من فعل أزجى - وأزجيته إذا دفعته وطردته - والريح تزجى السحاب أى تدفعه بعيداً . والمعنى أن هذه البضاعة لو قدمناها لتاجر آخر لما قبلها لرداءتها وقلتها . وأقرب لفظ لذلك من حياتنا المعاصرة هو قولنا بضاعة مضروبة أى كاسدة لرداءتها أو لعدم احتياج السوق لها وبوارها ، وما جئنا بها إلاَّ لأننا لا نملك غيرها فقد مسنا وأهلنا الفقر والضر . وكذلك ما جئناك أنت بها إلاَّ طالبين أن تتصدق علينا وتعطينا الميرة (الطعام) وهى أزيد من ثمن ما قدمنا . ونرجو أن تتم لنا الكيل ولا تنقصه لقلة بضاعتنا ولا تجعلها مقايضة بضاعة ببضاعة بل اجعلها صدقة منك علينا والله سيجزيك خير الجزاء لأنه هو الذى يجزى المتصدقين .

« فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسَّنا وأهلنا الضر . وجئنا ببضاعة مزجاة . فأوف لنا الكيل . وتصدق علينا . إن الله يجزى المتصدقين » . (٥٨ - يوسف)

بهذا الاستعطاف تقدموا إلى أخيهم يوسف وهم لا يعرفونه . وعلم ما فيه أبوه من حزن وغم . وكيف ساءت حاله وحال إخوته حتى إنهم لا يجدون الثمن الذى يشترون به طعامهم . ولعله قارن ذلك بما هو فيه من السعة والملك . فرقَّ قلبه . وأخذته رحمة وشفقة . ولابد أن عيناه أغرورقتا بالدموع أو ذرفتا دمعاً . ولعل إخوته استبشروا خيراً . من أن ضراعتهم قد رققت قلبه وأنه سيتصدق عليهم ويعطيهم الكيل مستوفياً . كما أعطاهم من قبل . ولكنه فاجأهم بالسؤال الذى لم يخطر لهم على بال .

قال لهم : هل تذكرون ما كنتم تعملون فى يوسف وأخيه من سوء معاملة وأذى ؟ وما كان هذا منكم إلاَّ جهلاً وحمقاً وسوء تصرف !

وبهتوا !!

فهم لم يذكروا قبلاً أمامه إسم أخيهم الغائب . بل كانوا يقولون دائماً : أخ لنا هلك أو فُقِد . فكيف عرف أن اسم ذلك الأخ هو يوسف ؟

وقفزت الظنون إلى أذهانهم .

أيكون هذا العزيز هو يوسف ؟

ولكن . كيف ؟ كيف يكون هو فى هذا المركز العظيم . وله كل هذا الجاه والسلطان . وفى أى بلد – فى مصر – أم الدنيا – بل هى الدنيا كلها فى ذلك الوقت !!

لا . مستحيل . ولكن كيف عرف أن أخينا اسمه يوسف ؟

هل سأل بنيامين عنه فأخبره ؟ ولماذا سأله ؟

وأى فائدة تعود عليه من معرفة إسمه ؟

ولماذا كان دائماً يسأل : هل أبوكم حى ؟ ألأنه هو أبوه أيضاً ؟

لا شك أنه هو يوسف !

لكن . لماذا تركنا فى المرتين السابقتين بدون أن يجازينا بما كنا نفعله به فى صغره وبإلقائنا له فى الجب ؟

لكم يكون كريماً إن كان هو يوسف !

ففى المرة الأولى ردَّ لنا الفضة التى دفعناها ثمناً للميرة .

وفى المرة الثانية أكرمنا وأولم لنا وليمة فى بيته . وأكل معنا . بل وأجلس بنيامين إلى مائدته !

أكان دس الصواع فى رحل بنيامين من تدبيره ليتمكن من أخذه وضمه إليه إنقاذاً له من أيدينا ومن أذيتنا له ؟

لئن كان يوسف فوا خجلاه ! لقد اتهمناه بالسرقة مواجهة ودون موارية وقلنا « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » . ولم يرد علينا هذه الإساءة ...

ما أحلمك يا يوسف وما أكرمك!! إذ لم تجازنا بكل ما آذيناك به !

« قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه . إذ أنتم جاهلون . قالوا أإنك لأنت يوسف . قال أنا يوسف وهذا أخى . قد من الله علينا . إنه من يتق ويصبر. فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم . يغفر الله لكم . وهو أرحم الراحمين » . (٨٩ – ٩٢ – يوسف)

يقال إنهم لما سألوه أإنك لأنت يوسف . رفع الغطاء عن رأسه وكانت جبهته فيها شامة . وقال لهم أنا يوسف وهذا أخى بنيامين وقد منَّ الله علينا بأن جمعنا بعد تفرقة . إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

قالوا والله لقد فضلك الله علينا . وأوصلك بفضله إلى ما أنت فيه من عز وسلطان . واعترفوا بأنهم قد أساءوا إليه . بل وتعمدوا الخطأ فى حقه . ومتعمد الخطأ خاطىء (أما من قصد الصواب فلم يوفق فهو مخطىء) . واعترافهم بخطئهم يحمل ضمناً طلب العفو .

ولعلهم ظنوا أنه يؤجل انتقامه منهم لوقت لاحق . ولكنه – عفا عنهم . وقال لا تثريب عليكم اليوم . والثرب هو الشحم الرقيق . ولو أزيل الثرب بدا الهزال وتقطع اللحم . وهذا هو التثريب ولا تثريب تحمل معنى عدم قطع حبال المودة . والإبقاء على أواصر الرحم بعدم اللوم أو التقريع. ودعا الله أن يغفر لهم وهو أرحم الراحمين .

تختلف رواية التوراة فى تحديد الوقت الذى كشف العزيز عن حقيقة أنه هو يوسف . فقد ذكرنا أنفاً أن ذلك حدث فى ثالث زيارة لأبناء يعقوب لمصر . أما التوراة فتقول إن ذلك حدث فى الزيارة الثانية . بعد أن احتجز يوسف أخاه بنيامين فتقدم يهوذا قائلاً : فالآن ليمكث عبدك عوضاً عن الغلام عبداً لسيدى ويصعد الغلام مع إخوته لأنى كيف أصعد إلى أبى والغلام ليس معى . لئلاً أنظر الشر الذى يصيب أبى (ص ٥٠٣) .

فلم يستطع يوسف* أن يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده . فصرخ : أخرجوا كل إنسان عنى . فلم يقف أحد عنده حين عرَّف يوسف إخوته بنفسه . فأطلق صوته بالبكاء . فسمع المصريون وسمع بيت فرعون . وقال يوسف لإخوته أنا يوسف . أحىٌّ أبى بعد . فلم يستطع إخوته أن يجيبوه لأنهم ارتاعوا منه فقال يوسف لإخوته . تقدموا إلى . فتقدموا إليه . فقال : أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه إلى مصر . والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتمونى إلى هنا . لأنه لاستبقاء حياة أرسلنى الله قدامكم لأن للجوع فى الأرض سنتين . وخمس سنين أيضاً لا تكون فيها فلاحة ولا حصاد . فقد أرسلنى الله قدامكم ليجعل لكم بقية فى الأرض . وليستبقى لكم نجاة عظيمة . والآن لستم أنتم أرسلتمونى إلى هنا بل الله . وهو قد جعلنى متسلطاً على كل أرض مصر . أسرعوا واصعدوا إلى أبى وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف . قد جعلنى الله سيداً لكل مصر . انزل إلىَّ . لا تقف . فتسكن فى أرض جاسان . وتكون قريباً منى أنت وبنوك وبنو بنيك وغنمك وبقرك وكل ما لك . وأعولك هناك لأنه يكون أيضاً خمس سنين جوعاً لئلا تفتقر أنت وبيتك وهو ذا عيونكم ترى وعينا أخى بنيامين أن فمى هو الذى يكلمكم . وتخبرون أبى بكل مجدى فى مصر . وبكل ما رأيتم وتستعجلون وتنزلون بأبى إلى هنا .

---

* التوراة . إصحاح ٤٥ تكوين .

ثم وقع على عنق بنيامين أخيه وبكى . وبكى بنيامين على عنقه . وقبَّل جميع إخوته وبكى عليهم . وبعد ذلك تكلم إخوته معه . ونختصر ما جاء في التوراة :

وسُمِع الخبر في بيت فرعون وقيل جاء إخوة يوسف . فحسن في عيني فرعون وقال فرعون ليوسف : قل لإخوتك اذهبوا إلى أرض كنعان وخذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إليَّ فأعطيكم خيرات أرض مصر . وتأكلوا دسم الأرض . خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالوا . ولا تحزن عيونكم على أثاثكم . لأن خيرات جميع أرض مصر لكم .

ففعل بنو إسرائيل هكذا وأعطاهم يوسف عجلات بحسب أمر فرعون وأعطاهم زاداً للطريق . وأعطى كل واحد منهم حلل ثياب . وأرسل لأبيه هكذا : عشرة حمير حاملة من خيرات مصر . وعشر أتن حاملة حنطة وخبزاً وطعاماً لأبيه لأجل الطريق . ثم صرف إخوته فانطلقوا . وقال لهم : لا تتغاضبوا في الطريق .

فصعدوا من مصر . وجاءوا إلى أرض كنعان إلى يعقوب أبيهم . وأخبروه قائلين يوسف حيٌّ بعدُ . وهو متسلط على كل أرض مصر . فجمد قلبه لأنه لم يصدقهم . ثم كلموه بكلام يوسف الذي كلمهم به . وأبصر العجلات التي أرسلها يوسف لتحملها (مع أن بصر يعقوب لم يكن قد ارتد بعد ! ولم يذكروا كيف ارتد بصره) فعاشت روح يعقوب أبيهم . فقال إسرائيل كفى . يوسف ابني حي بعدُ . اذهب وأراه قبل أن أموت .

فارتحل إسرائيل وكل ما كان له وأتى إلى بئر سبع . وذبح ذبائح لإله أبيه إسحق . فكلم الله إسرائيل في رؤى الليل وقال : يعقوب . يعقوب . فقال هأنذا . فقال : أنا الله إله أبيك . لا تخف من النزول إلى مصر . لأني أجعلك أمة عظيمة هناك . أنا أنزل معك إلى مصر . وأنا أصعدك أيضاً ويضع يوسف يده على عينيك (يقصدون . فيرتد بصره) .

فقام يعقوب من بئر سبع وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهم ونساءهم في العجلات التي أرسل فرعون لحمله . وأخذوا مواشيهم ومقتناهم الذي اقتنوا في أرض كنعان وجاءوا إلى مصر . يعقوب وكل نسله معه بنوه وبنو بنيه معه وبناته وبنات بنيه . وكل نسله جاء بهم معه إلى مصر .

هذه رواية التوراة وبالرغم من إطالتها في الوصف إلاَّ أنها أغفلت كثيراً من الحقائق . وجاء القرآن الكريم – في إيجاز – ذاكراً هذه الحقائق وهي :

١ – شعور يعقوب بيوسف عن بعد .
٢ – كيفية ارتداد بصر يعقوب .
٣ – طلب إخوة يوسف من يعقوب أن يستغفر لهم .
٤ – كيفية تحقق حلم يوسف الذي رآه في بداية القصة .

ذلك أن يوسف بعد أن جهز العجلات والزاد لإحضار والده وأهله إلى مصر قال لإخوته .

« اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين . ولما فصلت العير قال أبوهم . إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تُفَنِّدُونِ . قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً . قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون . قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا . إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم » . (٩٤ - ٩٨ - يوسف)

قال لهم يوسف اذهبوا بقميص هذا . وأعطاهم القميص الذى كان عليه حينئذ . وعن ابن عباس* أنه القميص الذى كان معه إذ ألقى فى الجب . وقد سبق أن ذكرنا ذلك ص ٤٤٥ وهو قول ضعيف . وقيل هو القميص الذى قُدَّ من دبر وأرسله ليعلم يعقوب أنه عُصِمَ من الفاحشة ولا يخفى ضعف هذا القول أيضاً . والأولى من ظاهر اللفظ أنه القميص الذى كان يلبسه وقتئذ .

وكانت قافلة خارجة من مصر . فخرج معها إخوة يوسف والعجلات التى أرسلها يوسف - بإذن من فرعون - لإحضار أبيه وأهله . والعير التى كانوا قد أتوا بها من أرض كنعان لحمل الحبوب . ولما فصلت العير أى خرجت من أرض مصر . واقتربت من أرض كنعان . قال يعقوب عليه السلام لمن حوله **« إنى لأجد ريح يوسف »** . ويحتمل أن الله سبحانه وتعالى جعله يشم ما عبق بالقميص من ريح يوسف بالرغم من بعد المسافة بينهما . أو أن ذلك كان نوعاً من مما يسمى بالحاسة السادسة . أو الإدراك بغير الحواس الخمس المعروفة . وهى قدرة يعطيها الله للبعض من عباده المخلصين . وهى تشبه الجلاء البصرى الذى حدث لعمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يخطب يوم الجمعة . وأراه الله موقف جيوش المسلمين التى كانت تحارب بقيادة أسامة . ورأى عمر أن جيش المسلمين لو لجأ إلى الجبل لتحسَّن موقفه فقال : يا أسامة الجبل . وردها مرتين أو ثلاثاً . وسمع أسامة ما قاله عمر وعمل به .

ولا شك أن يعقوب عليه السلام - وهو نبى - قد آتاه الله المقدرة على أن يشعر بما لا يدركه غيره . فقال : إنى لأجد ريح يوسف . لولا أن تتهمونى بالفساد أو ضعف الرأى والتخريف بسبب كبر السن والهرم (كان عمر يعقوب وقتئذ ١٠٢ سنة) .

ومما يروى فى ذلك أن ريح الصبا استأذنت ربها أن تأتى يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص . فأذن لها فأتته بها . قال ابن عباس : وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثمان ليال ! فقال :

* تفسير الألوسى . جـ ١٣ ص ٥٢ .

« إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » . (٩٤ - يوسف)

والفند ضعف الرأى من الهرم . والتفنيد اللوم وتضعيف الرأى* . فقال لمن حوله من ولد ولده وأمهاتهم - إنى أشم رائحة يوسف . فقالوا له إن شدة حبك ليوسف - وهو شىء قديم - هو الذى جعلك تتخيل هذا الأمر . ولظنهم أن يوسف قد مات من زمن بعيد (منذ ٣٦ عاماً) . فإن قوله بالشعور بريح يوسف هو باطل وضلال . وقالوا له ستظل فى أوهامك - وضلالك القديم من التوقع للقائه - حتى تهلك .

ومما يروى أيضاً** . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان يعقوب عليه السلام أكرم أهل الأرض على ملك الموت . وإن ملك الموت استأذن ربه فى أن يأتى يعقوب فأذن له . فجاءه فقال له يعقوب : يا ملك الموت . أسألك بالذى خلقك هل قبضت نفس يوسف فيمن قبضت من النفوس؟ قال لا . ثم قال له ملك الموت . يا يعقوب . ألا أعلمك كلمات؟ قال بلى . قال : قل يا ذا المعروف الذى لا ينقطع أبداً ولا يحصيه أحد غيرك . فدعا يعقوب بها فى تلك الليلة . فلم يطلع الفجر حتى طرح القميص على وجهه فارتد بصيراً .

وقالوا : قال يهوذا ليوسف : أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب . فأخبرته أن يوسف أكله الذئب . فأعطنى اليوم قميصك لأخبره أنك حى . فأفرحه كما أحزنته .

وقال مجاهد . قال يهوذا لإخوته . قد علمتم أنى قد ذهبت فيما مضى بقميص يوسف الذى لطخناه بالدم . فدعونى أذهب إليه بقميص الفرحة .

وألقى القميص على وجه أبيه فارتد إليه بصره ، فى حين أن التوراة تفيد أن يعقوب عليه السلام لم يرتد إليه بصره إلاَّ فى مصر بعد أن قابل يوسف الذى وضع يديه على عينه فارتد بصيراً . وكان هذا إيحاءً من الرب إلى يعقوب قائلاً : ويضع يوسف يده على عينيك . ولو أن الكلام ليس به نص على ارتداد البصر ولكن وضع يوسف يديه على عينى يعقوب ليس له معنى إلا أن يكون ارتداد البصر . ولكن جاء القرآن الكريم ليصحح هذه المعلومة بذكره أن ارتداد بصر يعقوب حدث فى أرض كنعان بعد أن ألقى البشير قميص يوسف على وجهه **« فلما أن جاء البشير . ألقاه على وجهه فارتد بصيراً »** .

وجاء فى الأخبار*** أن يعقوب قال للبشير : كيف يوسف ؟ قال إنه ملك مصر . فقال يعقوب . ما أصنع بالملك . على أى دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام . فقال يعقوب : الآن تمت النعمة .

---

* مختار الصحاح . ص ٢١٤ .

** عرائس المجالس للثعلبى ص ١٦٦ .

*** عرائس المجالس للثعلبى . ص ١٦٧ .

قال يعقوب لبنيه ومن كان حاضراً : « **ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون** » . وأعلم من الله أن يوسف حيٌ وأننا سنلتقى فى يوم من الأيام .

الأمر الثالث الذى أغفل كاتبو التوراة ذكره هو أن بنى يعقوب طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم . واعترفوا أنهم أذنبوا فى حق أبيهم وفى حق يوسف وأنهم كانوا خاطئين .

ووعدهم أبوهم بأنه سيستغفر لهم الله :

« **قال سوف أستغفر لكم ربى** » .

وسوف تعنى تأجيل الاستغفار بعض الوقت .

وقيل* أخَّر الإستغفار إلى وقت السحر من يوم الجمعة . وأوردوا حديثاً عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «سوف أستغفر لكم ربى » ويقول : حتى تأتى ليلة الجمعة . وقال ابن كثير . وهذا غريب من هذا الوجه وفى رفعه نظر . ولعل غرابته فى أن السبت هو يوم بنى إسرائيل وفيه صلاتهم . أما الجمعة فهو يوم المسلمين . وقال الشعبى : أخره (الإستغفار لبنيه) حتى يسأل يوسف عليه السلام . فإن عفا عنهم استغفر لهم . وقيل أخر ليعلم حالهم فى صدق التوبة .

ادخلوا مصر :

وسار الركب – يعقوب عليه السلام وبنيه وأهله وأحفاده . وكل ممتلكاتهم . من أرض كنعان . حتى دخلوا سيناء . ثم عبروها إلى الصحراء فى شرق الدلتا . ولما أُخبر يوسف عيه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم . قيل** خرج يوسف فى أربعة آلاف من الجند وكذلك خرج أكابر القوم وكثير من الناس . وكان يعقوب يمشى متوكئاً على يهوذا ! (والأقرب للعقل أنه كان يركب إحدى العجلات التى أرسلها يوسف لتحملهم) ونظر يعقوب إلى الجند والناس . فقال : يا يهوذا هذا فرعون مصر الأكبر؟ فقال : لا هذا ابنك . فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف – يبدؤه بالسلام فمنعه الله من ذلك وكان يعقوب أفضل وأحق بذلك منه . فابتدأه يعقوب بالسلام . فقال : السلام عليك يا مذهب الأحزان .

وساروا معاً . ثم ادخلهم القصر الذى ينزل به . وبه قاعة كبيرة . فيها عرش كبير كان يجلس عليه وهو يصدر الأوامر التى تسير أمور الدولة .

---

* تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٩٠ .
** عرائس المجالس للثعلبى . ص ١٦٧ .

وكان أبواه يسيران على بعد خطوات منه . فوصل إلى العرش قبلهما . كانت أمه قد ماتت بعد ولادة بنيامين . فكانت خالته ليا أو ليئة له بمثابة الأم ولذلك قيل أبواه . ولعلهم وقفوا برهة يتأملون روعة العرش وفخامته . وكان يوسف قد وصل إلى الكرسي وجلس عليه فخروا له سُجَّدا . أبوه وخالته وإخوته الأحد عشر . لما رأى يوسف ذلك قال : « **يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل . قد جعلها ربى حقاً** » مذكِّرا أباه بحلمه الذى حكاه له فى طفولته من أنه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رآهم له ساجدين .

وهذا هو الأمر الرابع الذى أغفله كاتبو التوراة . فمع أن التوراة قد زادت على حلم الكواكب حلماً آخر هو حزم الحقل . وأن حزم إخوته قد سجدت لحزمته – إلاَّ أنها لم تشر إلى سجودهم له فعلاً تحقيقاً لهذه الأحلام . وإن قيل تكفى رفعة المكانة وعظم المنزلة لتكون تحقيقاً لما أشار إليه الحلم . إلاَّ أن السجود الفعلى يكون أوقع فى المطابقة بين الحلم وتحقيقه . ولهذا قال يوسف « **قد جعلها ربى حقاً** » .

أغلب الظن أنه لم يكن سجوداً بمعنى ملامسة الجباه للأرض . بل كان انحناء بالجسد وكان هذا سائغاً فى شريعتهم . ولكن الإسلام أبطله .

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه . وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش . وخروا له سُجَّداً . وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل . قد جعلها ربى حقاً . وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن . وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى . إن ربى لطيف لما يشاء . إنه هو العليم الحكيم » . (٩٩ – ١٠٠ – يوسف)

ونلمس هنا تعدد المعانى فى قوله تعالى : « **ورفع أبويه على العرش . وخروا له سُجَّداً** » فقيل : رفع أبويه على العرش . أجلسهم معه على سرير الحكم فلم يسجدوا له . وقيل صعدوا ثم سجدوا وكان السجود لله تعالى . واستبعدوا أن يكون السجود ليوسف وبهذا يقول الألوسى* : إذ يقول وهو متعين عندى لأنه يبعد عن عقل يوسف عليه السلام ودينه أن يرضى بأن يسجد له أبوه مع سابقته فى حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة . ويستدرك قائلاً : ويحتمل أن يكون الله تعالى قد أمر يعقوب . بذلك لحكمة لا يعلمها إلا هو . وكان يوسف عليه السلام عالماً بالأمر فلم يسعه إلا السكوت والتسليم . وكأن فى قوله « يا أبت » إشارة إلى ذلك كأنه يقول : يا أبت لا يليق بمثلك على جلالتك فى العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك إلا أن هذا أمر أُمرت به .

---

* تفسير الألوسى جـ ١٣ ص ٥٨ .

ولا شك أن من استعظموا السجود ليوسف فهموا أنه كان سجوداً كاملاً بوضع الجباه على الأرض . والرأى أنه كان انحناء بالجسم كتحية اليابانيين وشارك فيه يعقوب عليه السلام ليتبعه الأبناء ولأن الرؤيا كانت « **أحد عشر كوكباً والشمس والقمر** » أى شارك فيها الأبوان . وكان السجود ليوسف « **رأيتهم لى ساجدين** » وإذا كانت التحية وقتئذ هى الإنحناء بالجسد فلابد أنهم بالغوا فى ذلك حتى ينطبق عليه وصف « **وخرُّوا له سُجَّداً** » .

وجاء عن ابن عباس* أن يوسف عليه السلام لما رأى سجود أبويه وإخوته له هاله ذلك واقشعر جلده منه . واجلس أبويه على العرش بجانبه وراح يُعدِّد نعم الله عليه . ذكر منها مسألة خروجه من السجن – واجتماعهم ثانية بمجيئهم من البادية بعد أن أفسد الشيطان ما بينه وبين إخوته وهو ما جعلهم يدبِّرون إبعاده ولكن الله بلطف تدبيره جمعهم ثانية وهو العليم بمصالح العباد . فقيَّض حضور يوسف لمصر ليتدبر أمر الناس فى سنى المجاعة . وهو الحكيم فى أفعاله وفى قضائه وقدره .

وفى فترة غياب يوسف عن أبيه قال محمد بن اسحق : ثمانى عشرة سنة وبعضهم قال أربعين سنة وقال قتادة خمس وثلاثون سنة . وهذا أقرب الأقوال : إذ أن الجدول فى صفحة ٥٣٥ يبين أنها ست وثلاثون سنة .

ويختم القرآن الكريم قصة يوسف عليه السلام بقوله تعالى :

« **رب قد آتيتنى من الملك . وعلمتنى من تأويل الأحاديث . فاطر السموات والأرض . أنت وليى فى الدنيا والآخرة . توفنى مسلماً . وألحقنى بالصالحين . ذلك من أنباء الغيب . نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** » . (١٠١ – ١٠٢ – يوسف)

فقد ذكر يوسف – من بين النعم التى أنعم الله بها عليه – نعمة الملك العظيم والسلطان الذى كان له فى مصر . وكذلك نعمة تأويل الأحاديث وهو تفسير الأحلام كما فى ظاهر اللفظ . وقالوا أيضاً فَهْم غوامض وأسرار الكتب الإلهية . ثم ذكر قدرة الله التى تفوق كل قدرة . وملكوته الذى يعلو كل ملك ، فهو خالق السموات والأرض . ونسب إلى الله تعالى تولِّيه كل أموره فى الدنيا والآخرة وطلب من الله أن يتوفاه – حين يحين الأجل – على ملة الإسلام وأن يلحقه بالصالحين . وقيل هم آباؤه يعقوب وإسحق وإبراهيم عليهم السلام . وليس ذلك تمنياً للموت كما قد يتوهم البعض بل هو طلب الموافاة على الإسلام . وإن قيل إنه من المعلوم أن الأنبياء لا يموتون إلاَّ مسلمين . فالجواب أن ذلك لم يكن إلاَّ بإرادة الله وبمشيئته .

---

* تفسير الألوسى جـ ١٣ ص ٥٩

وكان ختام القصة خطاباً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ذلك** » إشارة إلى ما ذكر من أنباء يوسف عليه السلام – من الغيب – الذى لا يعلمه أحد إلا الله – ونرى فيه إشارة إلى أن فيه تصحيح للتحريف الذى أدخل على القصة فى الكتب السابقة . فجاء القرآن الكريم ليرد القصة إلى أصلها وحقيقتها التى لا يعلمها إلا الله . أوحاه إلى رسوله الكريم .

من دخلوا مصر ؟

قال أبو أسحق السبيعى عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود . قال دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة وستون إنساناً . وخرجو منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً .

وقال أبو إسحق عن مسروق : دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون بين رجل وامرأة . وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب عن عبدالله بن شداد : اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنساناً . صغيرهم وكبيرهم وخرجوا منها وهم ستمائة ألف .

وتقول التوراة (إصحاح ٤٦ تكوين)
وهذه أسماء بنى إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر :
أبناء يعقوب الأحد عشر (بدون يوسف) .
بنو رأوبين بكر يعقوب : حنوك – فلُّو – حصرون – كرمى.
بنو شمعون : يموئيل – يامين – أوهد – ياكين – صوحر – شأول .
بنو لاوى : جرشون – قهات – مرارى
بنو يهوذا : عير وأونان وقد ماتا فى أرض كنعان – شبيلة – فارص – زارح . وكذلك ابنا فارص : حصرون وحامول .
بنو يسَّاكر : تولاع – فوَّة – يوب – شِمرون .
بنو زبولون : سارد – إيلون – ياحلئيل .
بنو جاد : صِفيون – حجِّى – شونى – أصبون – عيرى – أرودى – أرئيلى .
بنو أشير : يمنة – يشوه – يشوى – بريعة وأختهم سارح وابنا بريعة : جابر وملكيئيل .
وبنو دان : حوشيم
وبنو نفتالى : يا حصئيل – جونى – يصر – شلِّيم .
بنو بنيامين : بالغ – باكر – أشبيل – جيرا – نعمان – إيحى – روش – مُفِّيم – حُفِّيم – أرد . فهؤلاء عددهم ٦٥ .

بالإضافة إلى يوسف وابنيه اللذين ولدا بمصر : مَنَسَّى وأفرايم . بالإضافة إلى يعقوب نفسه وليئة زوجته .

فيكون مجموع بنى إسرائيل فى أول مجيئهم مصر ٧٠ نفساً .

ثم قال يوسف لإخوته ولبيت أبيه – أصعدُ وأُخبر فرعون . وأقول له إخوتى وبيت أبى الذين فى أرض كنعان جاءوا إلىَّ والرجال رعاة غنم . فإنهم كانوا أهل مواشى وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل ما لهم . فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم أن تقولوا : عبيدك أهل مواشى منذ صبانا إلى الآن . نحن وآباؤنا جميعاً . لكى تسكنوا فى أرض جاسان .

فكلَّم فرعون يوسف قائلاً : أبوك وإخوتك جاءوا إليك . أرض مصر قدامك . فى أفضل الأراضى أسكن أباك وإخوتك . ليسكنوا أرض جاسان .

أرض جاسان أو جوشن :

أرض جاسان أو أرض جوشن – فى أغلب الأقوال وأصحِّها – تقع فى وادى طميلات . وتمتد من بحيرة التمساح حتى فرع النيل الشرقى (شكل ٩٨) وتقع على الحد الشرقى لدلتا نهر النيل . مجاورة لصحراء سيناء التى تبدأ من شرق بحيرة التمساح . ولم تكن إقليماً زراعياً . بل كان مكاناً ملائماً لرعى الماشية . وتذكر فى الآثار المصرية باسم أرض « جسم » أو «جاسم» بعضهم قال إنها تقع فى شمال سيناء بين تانيس والعريش .

وفريق آخر قال بوجودها فى جنوب فلسطين .

ولكن هذين القولين الأخيرين يتعارضان مع الحقائق التاريخية من أن بنى إسرائيل عاشوا فى مصر واستعبدوا فى بناء مدن بمصر – وكان « الخروج » من مصر فى عهد موسى عليه السلام .

أما وجود منطقة فى جنوب فلسطين اسمها جوشن . فربما كان إحياء لذكرى مصر التى امتد نفوذها حتى شمل هذه المنطقة .

ولعل يوسف عليه السلام اختار أرض جاسان بالذات لإسكان أبيه وإخوته . لملاءمتها لرعى مواشيهم – ولأنها بعيدة نسبياً عن المصريين إذ كان المصريون لا يرحبون برعاة الغنم والمواشى – وتقول التوراة : « لأن كل راعى غنم رجس للمصريين » . فأراد باختيار هذا المكان أن لا يكون هناك احتكاك كثير بين قومه وبين المصريين مما قد يولِّد خلافات ومصادمات .

سبب ثالث لاخيار أرض جاسان – ذلك أن الهكسوس بعد احتلالهم مصر . اتخذوا عاصمة لهم تسمى أفاريس – وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن أفاريس هى تانيس أو صان الحجر .

مركز فاقوس . محافظة الشرقية (ص ٤٥٨) ووقوع أرض جاسان فى وادى طميلات فإنها تكون قريبة من العاصمة حيث يحكم ملك الهكسوس ومعه يوسف . وكما سبق أن قلنا بعيدة عن المصريين الذين لم يكونوا ليقبلوا العبرانيين - رعاة المواشى - بينهم .

قد يكون للمكان رقم ٢ (شكل ٩٨) فى شمال سيناء نفس هذه الميزات ولكنه مكان أقل خصباً وأقل ملاءمة للمراعى والأغنام . وهو أكثر بعداً عن المصريين . وإن كان هذا أدعى لعدم حدوث احتكاك بين بنى يعقوب والمصريين . إلاَّ أنه قد يكون - من وجهة نظر الهكسوس - أقل ملاءمة لأغراضهم . فهم قد لمسوا رفض المصريين لحكمهم . والذى لم يتعدى الدلتا والجزء الشمالى من الوجه القبلى . ولعلهم رأوا فى العبرانيين - بني يعقوب - وهم أهل بداوة مثلهم - رأوا فيهم مدداً يعينهم وينجدهم عند الضرورة - عند ثورة المصريين عليهم مثلاً . وتكون جموعهم فى جاسان بالشرقية أقرب لنجدتهم عما إذا كانت جاسان بعيداً فى شمال سيناء .

لكل هذه الأسباب فإن وضع أرض جاسان أو أرض جوشن فى وادى طميلات . فى المنطقة بين بحيرة التمساح إلى فرع النيل الشرقى . أنسب الأماكن من جميع النواحى .

سكن بنو إسرائيل أرض جاسان . وعاشوا فى دعة من العيش - إذ تقول التوراة (إصحاح ٤٧ تكوين) : وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه بطعام على حسب الأولاد . وهذا معناه أنه كان يجرى عليهم الأرزاق والطعام من مخازن الدولة . ولم يكن لهم - وهم أهل نائب الملك - أن يدفعوا ثمناً للميرة . وهكذا فإن كل نتاج المراعى والأغنام كانت تبقى لهم بأكملها . فكثرت أموالهم . وعاشوا فى بحبوحة من العيش .

إخوة يوسف يطلبون المغفرة :

روى* عن صالح المِرِّى ويزيد الرقاشى عن أنس بن مالك : قال إن الله تعالى جمع ليعقوب شمله بولده . فقال بعضهم لبعض : ألستم قد علمتم ما صنعتم وما لقى منكم الشيخ وما لقى منكم يوسف ؟ قالوا : بلى . قال : فيغركم عفوهما عنكم . فكيف لكم بربكم ؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب أبيه قاعد . قالوا يا أبانا إنا أتيناك لأمر . فقال ما لكم يا بنى ؟ قالوا ألست قد علمت ما كان منا إليك وما كان منا إلى أخينا يوسف ؟ قال بلى . قالوا : أو لستما قد غفرتما لنا ؟ قالا بلى . قالوا فإن عفوكما لا يغنى عنا شيئاً إن كان الله لم يعف عنا . قال : فما تريدون يا بنى ؟ قالوا نريد أن تدعو الله لنا . فإذا

* تفسير ابن كثير . جـ ٢ ص ٤٩٣ .

البحر المتوسط

غزة

رفح

بئر سبع

العريش

تانيس

٢

٣

بحيرة التمساح

وادى طميلات

١

خليج العقبة

شكل ٩٨ – أرض جاسان

جاءك الوحى من الله بأنه قد عفا عنا قرَّت أعيننا واطمأنت قلوبنا . وإلا فلا قرة عين فى الدنيا لنا أبداً . قال فقام الشيخ فاستقبل القبلة وقام يوسف خلف أبيه وقاموا خلفهما أذلة خاشعين قال : فدعا وأمَّن يوسف، فلم يجب فيهم عشرين سنة . حتى إذا كان على رأس العشرين . نزل جبريل عليه السلام على يعقوب عليه السلام . فقال إن الله تعالى قد بعثنى إليك أُبَشِّرك بأنه قد أجاب دعوتك فى ولدك . وأن الله تعالى قد عفا عما صنعوا وأنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة .

ويقول ابن كثير . هذا الأثر موقوف عن أنس . ويزيد الرقاشى وصالح المرى ضعيفان جداً .

الأسباط :

جاء ذكر الأسباط فى القرآن الكريم فى عدة سور . كما يلى :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط . وما أوتى موسى وعيسى . وما أوتى النبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم . ونحن له مسلمون » . (١٣٦ - البقرة)

« قل آمنا بالله وما أنزل علينا . وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط . وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . (٨٤ - آل عمران)

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده . وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان . وآتينا داود زبوراً » . (١٦٣ - النساء)

« وقطَّعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ، وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن أضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً . قد علم كل أناس مشربهم » . (١٦٠ - الأعراف)

قال الربيع وقتادة : الأسباط بنو يعقوب . اثنا عشر رجلاً . وَلَدَ كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط .

وقال الزمخشرى فى الكشاف : الأسباط حفدة يعقوب . ذرارى أبنائه الإثنى عشر .

وقال الخليل ابن أحمد والبخارى : الأسباط قبائل فى بنى إسرائيل .

وجاء قوله تعالى :

« أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى . قل أأنتم أعلم أم الله » . (١٤٠ - البقرة)

فى هذه الآية توبيخ لإدعاء اليهود أن الأسباط كانوا هودا - أى فى عهد موسى - أو نصارى أى فى عهد عيسى . ورد الله بأنه أعلم منهم . أى أنهم لم يكونوا هودا أو نصارى أى كانوا قبل عهد عيسى وقبل عهد موسى ولكنهم بعد يعقوب .

والترتيب الذى ورد فى الآيات السابقة كان دائماً : إبراهيم - إسماعيل - إسحق - يعقوب - الأسباط وهو ما يفيد بأنهم هم أبناء يعقوب .

وتفيد الآية ١٦٣ من سورة النساء أن الأسباط أنبياء . إذ ذُكر أنهم أوحى إليهم كما أوحى إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب . وذكر أنبياء قبلهم وأنبياء بعدهم . فالنبوة ثابتة إلى الأسباط بغير شك .

أخذ البعض من كيد إخوة يوسف له دليلاً على أنهم ليسوا المقصودين بكلمة الأسباط التى وردت فى القرآن الكريم . لأن التفكير فى قتل أخيهم - أو ماعملوه من إلقائه فى الجب - والكذب على أبيهم كلها أفعال لا تتفق مع مقام النبوة* . ويقول الألوسى : وكونه وقع قبل البلوغ غير مؤكد لأن فيه أفعالا لا يقدر عليها إلا البالغون . ولكن هذا لا ينفى أن بعضاً منهم لم يكن موافقاً بقلبه لما يفعله الآخرون . ولذلك فلا مانع من أن ينتفى عنهم الفعل ويكونوا أهلاً للنبوة .

ويقول الدكتور محمد وصفى** : لا يطعن فى أولاد يعقوب أن حدثتهم أنفسهم أن يقتلوا يوسف بسبب عارض من الغيرة لم يلبث أن انتهى ولو أنهم كانوا أشراراً لقتلوه فعلاً . ولا يدين المرء أن تحدثه نفسه باقتراف ذنب . وتغلَّب على نفسه فلم يقترفه . بل إن من صفات المؤمن أن يقاوم ما تحدثه به نفسه من شر . كما أنهم لم يكونوا أنبياء فى ذلك الوقت . فكل خطأ وقعوا فيه كان قبل النبوة . ولعله بذلك يشير إلى إلقاء يوسف فى الجب والكذب على أبيهم يعقوب .

---

* تفسير الألوسى جـ ١ ص ٣٩٥ .

** الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل . ص ١٢٨ .

يمكننا أن نخلص من هذا إلى أن الأسباط هم أبناء يعقوب الإثنا عشر . وأن ما فعلوه بيوسف كان عرضاً من الغيرة وكان قبل النبوة وغفر يعقوب ويوسف عليهما السلام ما كان من إساءة إليهما . وطلب أبناء يعقوب من أبيهم أن يستغفر لهم الله واعترفوا بخطئهم وندموا عليه . وقال لهم يعقوب إنه سوف يستغفر لهم الله .

« قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا . إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربى . إنه هو الغفور الرحيم » . (٩٨ - يوسف)

ولا شك فى أن استغفار يعقوب عليه السلام لبنيه قد قبل . وعفا الله عنهم فهو الغفور . وكان من رحمته أن جعلهم من عداد الأنبياء . وأوحى إليهم ليقوم كل واحد منهم بتنفيذ شريعة الله فى أبنائه وأحفاده أى فى سبطه .

« وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط » .

وعندما حضر يعقوب الموت أوصى بنيه جميعاً . بما فيهم يوسف . وساوى بينهم جميعاً فى التوصية .

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى. قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون » . (١٣٣ - البقرة)

فالأسباط هم أبناء يعقوب الإثنا عشر . وكانوا أنبياء يوحى إليهم .

كانت نبوَّة الأسباط قاصرة على الجيل الأول وهم أبناء يعقوب . أما الجيل الثانى . أى جيل الأحفاد فلم يكونوا أنبياء . ولكن يحتمل أن يكون ولدا يوسف عليه السلام - أفرايم ومَنَسَّى - أنبياء . إذ أن يعقوب عليه السلام قد باركهما بوضع يديه على رأسيهما . أو على الأقل أفرايم لأن جده وضع يده اليمن على رأسه . وقد رأينا كيف أن مباركة إسحق ليعقوب - قد انتهت به إلى أن صار نبياً .

وتكاثر بنو يعقوب أى بنو إسرائيل . حتى بلغ عددهم عند الخروج كما تقول التوراة - ستمائة ألف . ولكنهم لم يندمجوا فى كيان واحد بل ظلوا أسباطاً متميزة . فيما يشبه القبائل . كل قبيلة تكاد تكون مستقلة بنفسها .

وجاء موسى عليه السلام . وكان الخروج من مصر .

وفى سيناء لما عطشوا استسقى لهم موسى :

« وإذ استسقى موسى لقومه . فقلنا اضرب بعصاك الحجر . فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا . قد علم كل أناس مشربهم » . (٦٠ - البقرة)

وكان هذا العدد : اثنتا عشرة عينا – لكونهم كانوا اثنى عشر سبطا . وقال الألوسى* : وكان بينهم تضاغن وتنافس . فأجرى الله تعالى لكل سبط عينا يشرب منها . لا يشترك فيها أحد من الأسباط الأخرى دفعاً لإثارة الشحناء .

وسنرى فى الجزء الرابع إن شاء الله كيف تكرَّس هذا الانفصال الذى يكاد يكون تاماً – بين الأسباط . فعند صنع « خيمة الإجتماع » : « إحدى عشر شقة تصنعها »** . بعدد الأسباط . لأن سبط لاوى كانوا هم الكهنة الموكل إليهم إقامة الطقوس الدينية كلها فلم تكن لهم شقة .

وكان من المكونات الكهنوتية (إصحاح ٢٨ خروج) : وتأخذ حجرى جزع وتنقش عليها أسماء بنى إسرائيل . ستة من أسمائهم على الحجر الواحد . وأسماء الستة الباقين على الحجر الثانى . وكذلك كانت هناك « صديرية » تسمى صدرة قضاء*** يلبسها الكاهن الأكبر . والصدرة مرصَّعة بأربعة صفوف من الحجارة الكريمة . كل صف به ثلاث أحجار : وتكون الحجارة على أسماء بنى إسرائيل . اثنى عشر على أسمائهم . كنقش الخاتم كل واحد على اسمه تكون للإثنى عشر سبطا .

وسنرى كذلك فى التمهيد لدخول أرض كنعان أن موسى عليه السلام أرسل رسلاً ليستطلعوا وليأتوا بأخبار القوم فأخذ رجلاً واحداً من كل سبط .

« ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل . وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً وقال الله إنى معكم » . (من الآية ١٢ – المائدة)

وتقول التوراة . (إصحاح ١٣ عدد) :

ثم كلَّم الرب موسى قائلاً أرسل رجالاً ليتجسَّسوا أرض كنعان التى أنا معطيها لبنى إسرائيل . رجلاً واحداً لكل سبط من آبائه ترسلون .

وفى أثناء الأربعين يوماً التى استغرقتها بعثه الاستطلاع كان موسى عليه السلام يجهز الأفراد الذين أعمارهم فوق عشرين سنة . وكوَّن من أفراد كل سبط كتيبة ورتبهم حول خيمة الإجتماع . ثلاث كتائب فى كل من الجهات الأربع حول الخيمة فيكون المجموع اثنى عشر كتيبة من اثنى عشر سبطاً .

وحينما دخل بنو إسرائيل أرض كنعان . استقل كل سبط بجزء من الأرض وكوَّن ما يشبه ولاية مستقلة ولم تتكون منهم دولة واحدة . وهكذا انطبق عليهم قوله تعالى :

---

* تفسير الألوسى جـ ١ ص ٢٧٠ .
** التوراة . إصحاح ٢٦ خروج – ٧ .
*** التوراة . إصحاح ٢٨ خروج – ١٥ .

« وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمما » . (١٦٠ - الأعراف)

وهكذا بدأ الأسباط . أنبياء . هم أبناء يعقوب الإثنا عشر . ولما ماتوا وفى جيل الأحفاد يحتمل أن أحد ولدى يوسف أو كليهما كان نبياً . ثم بعد ذلك فيما تلى من أجيال كان الأسباط هم الذرية وعلى هيئة قبائل أو كانوا أسباطاً أمماً وليسوا أنبياء حتى جاء موسى عليه السلام .

ثم حدث تغيير آخر . ذلك أن سبط لاوى أوكلت إليه مهمة الكهانة وخدمة خيمة الاجتماع - كما سيجىء فى الجزء الرابع إن شاء الله - واعتمد ابنا يوسف أفرايم ومنسيّ سبطين منفصلين وبذلك ظل عدد الأسباط اثنتى عشرة أسباطاً أمماً .

أمّا عن ولدى يوسف فتقول التوراة (إصحاح تكوين ٤٨)

ورأى إسرائيل (أى يعقوب) ابنى يوسف فقال من هذان ؟ فقال يوسف لأبيه هما ابناى اللذان أعطانى الله ههنا . فقال قدِّمهما إلىَّ لأباركهما . وأما عينا إسرائيل فكانتا قد ثقلتا من الشيخوخة . فقربهما إليه فقبلهما واحتضنهما . وقال إسرائيل ليوسف . لم أكن أظن أنى أرى وجهك . وهو ذا الله قد أرانى نسلك أيضاً . وأخذ يوسف الاثنين أفرايم عن يسار إسرائيل ومنسى عن يمين إسرائيل وقربهما إليه . فمد إسرائيل يمينه ووضعها على رأس أفرايم (مع إن أفرايم كان واقفاً على يساره) ووضع يساره على رأس منسى .. فلمارأى يوسف أن أباه وضع يده اليمنى على رأس أفرايم ساء ذلك فى عينيه . فأمسك بيد أبيه لينقلها عن رأس أفرايم إلى رأس منسى . وقال يوسف لأبيه . ليس هكذا يا أبى لأن منسى هو البكر . ضع يمينك على رأسه . فأبى أبوه وقال : علمت يا بنى علمت . هو أيضاً يكون شعبا وهو أيضاً يصير كبيراً . ولكن أخاه الصغير يكون أكبر منه . ونسله يكون جمهوراً من الأمم . وباركهما فى ذلك اليوم . وقدَّم أفرايم على منسي .

وفاة يعقوب عليه السلام :

تقول التوراة (إصحاح ٤٧ تكوين) وعاش يعقوب فى أرض مصر سبع عشرة سنة فكانت أيام يعقوب سنو حياته مائة وسبعاً وأربعين سنة .

ولكن لو نظرنا إلى جدول حياة يعقوب فى الصفحة التالية نجد أن يعقوب جاء إلى مصر وعمره ١٠١ سنة وعاش إلى أن بلغ ١٤٧ سنة - أى عاش فى مصر ٤٦ سنة وليس ١٧ سنة كما تقول التوراة إلاَّ إذا كان قد مات عن عمر ١١٨ سنة فقط وليس ١٤٧ .

ولما قربت أيام إسرائيل أن يموت دعا ابنه يوسف وقال له : إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك فضع يدك تحت فخذى واصنع معى معروفاً وأمانة (وكانت هذه طريقتهم فى أخذ تعهد وموثق من شخص - وهذا نفس ما فعله إبراهيم عليه السلام وهو يأخذ عهداً على أليعازر حتى

جدول أحداث حياة يعقوب (١)

مصر	ق.م تقريباً	حياة يعقوب: العمر	حياة يعقوب: الحدث	الأحداث المتزامنة
أمنمحتب الثالث	١٨٢٩	٠	ولادة يعقوب – وعيسو	٥٠ سنة عمر إسحق . وفاة سارة
	١٨١٩	١٠		
	١٨٠٩	٢٠		
	١٨٠٣	٢٦		٧٦ عمر إسحق . وفاة إبراهيم
← أمنحتب الرابع	١٨٠٠	٢٩	أخذ البكورية من عيسو	
	١٧٩٩	٣٠	أخذ البركة من إسحق ثم الفرار إلى حاران	٨٠ عمر إسحق
		٣١	الوصول إلى حاران	
		٣٢	٧ سنوات مهر	
أخت	١٧٩٥	٣٩	الزواج من ليئة – ثم راحيل	
بداية الأسرة ١٣	١٧٨٩	٤٠	ولادة رأوبين (من ليئة)	٩٠ سنة عمر إسحق
التفكك الداخلي		٤١	ولادة شمعون (من ليئة)	
		٤٢	ولادة لاوى (من ليئة)	
		٤٣	ولادة يهوذا (من ليئة)	
		٤٤	ولادة دانا (من بلهة جارية راحيل)	
		٤٥	ولادة نفتالى (من بلهة جارية راحيل)	
		٤٦	ولادة جاد (من زلفة جارية ليئة)	
		٤٧	ولادة أشير (من زلفة جارية ليئة)	
		٤٨	ولادة دينة	
← دخول الهكسوس	١٧٨٠	٤٩	ولادة يساكر (من ليئة)	
	١٧٧٩	٥٠	ولادة زبولون (من ليئة)	إسحق عمره ١٠٠ سنة
		٥١	ولادة يوسف (من راحيل)	
		٥٢	ترك حاران بعد ٢١ سنة	
		٥٢٫٥	لابان يلاحق يعقوب عند سهدوثا وجلعاد	
		٥٣	عيسو يقابل يعقوب عند محنايم	
		٥٤	يعقوب ومصارعة الملاك	

جدول أحداث حياة يعقوب (٢)

مصر	ق.م تقريباً	حياة يعقوب: العمر	حياة يعقوب: الحدث	الأحداث المتزامنة
		٥٥	يعقوب فى شكيم	
		٥٨	دينة عمرها ١١ سنة	
		٥٩	اغتصاب دينة ونزل شكيم	
	١٧٦٩	٦٠	بيت إيل وبناء المذبح	١١٠ عمر إسحق ٩ عمر يوسف
	١٧٦٨	٦١	ولادة بنيامين – ووفاة راحيل	
		٦٢	السير إلى حبرون	
	١٧٦٦	٦٣	وفاة إسحق والده عن عمر ١٣ سنة	١١٣ سنة عمر إسحق
الملك خيان – ملك الهكسوس (حكم ٥٠ سنة)	١٧٦٥	٦٤	افتراق عيسو عن يعقوب	يوسف عمره ١٣ سنة
		٦٥	عمر يوسف	١٤ حلم يوسف . وإلقاؤه بالجب
		٦٦		١٥ وصول يوسف إلى مصر
		٨١		٣٠ بلغ أشده وامرأة العزيز تراوده
				٣١ دخول يوسف السجن
				٣٨ خروج من السجن بعد حلم الملك
				٣٩ يوسف يصبح عزيز مصر
				٤٠ بدء سبع سنوات سمان
				٤٧ بدء سبع سنوات عجاف
				٤٨ مجيء إخوة يوسف أول مرة
				٤٩ مجيء إخوة يوسف ثانى مرة
				٤٩ر٥ مجيء إخوة يوسف ثالث مرة
	١٧٢٨	١٠١	مجيء يعقوب إلى مصر	٥٠
				٥٤ انتهاء سنوات المجاعة
				٥٥ عام الغوث
		١١٠		
أبو فيس الأول	١٧١٥	١١٤		
		١٢٠		
		١٣٠	لو عاش إسحق إلى عمر ١٨٠ سنة كما تقول التوراة	
	١٦٨٩	١٤٠		
	١٨٦٢	١٤٧	وفاة يعقوب فى مصر ودفنه فى حبرون	٩٦ عمر يوسف عند وفاة والده يعقوب

لا يزوج ابنه إسحق من بنات الكنعانيين – انظر الجزء الثانى ص ٣٨١) . لا تدفنِّى فى مصر . بل أضطجع مع آبائى . فتحملنى من مصر وتدفننى فى مقبرتهم . فقال أنا أفعل بحسب قولك. فقال احلف لى . فحلف له .

قبل وفاته جمع يعقوب بنيه وأوصاهم وصيتين . واحدة تتعلق بالدين والثانية تتعلق بالدنيا . وقد ذكر القرآن الكريم الوصية المتعلقة بالدين أما التوراة فقد ذكرت تلك التى تختص بالدنيا .

وصية يعقوب لبنيه في القرآن الكريم :

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً . ونحن له مسلمون » . (١٣٣ – البقرة)

وفى الآيات الثلاث التى تسبق هذه الآية . أوضح القرآن الكريم أن الملة التى يعبدون الله عليها هى ملة إبراهيم عليه السلام . دين الله الحنيف – الإسلام .

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه . ولقد اصطفيناه فى الدنيا . وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم . قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب . يابنىَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . (١٣٠ – ١٣٢ – البقرة)

كان بنو يعقوب فى فلسطين بعيدين عن مراكز عبادة الأصنام التى كانت متمركزة فى بابل ونينوى ودمشق . صحيح أن عبادة الأصنام كانت فى كل مكان . إلاَّ أن معابدها العظيمة كانت فى المدن الكبرى . وكان بنو يعقوب فى البادية بعيدين عنها . أما فى مصر . فكانوا قريبين جداً من معابد المصريين الضخمة وخاف عليهم يعقوب أن يُفتنوا بها وبما يقام بها من طقوس وصلوات . لذلك أراد أن يؤكد عليهم التمسك بعبادة التوحيد وأخذ عليهم العهد بذلك . لم يكن يخشى عليهم هذا الافتتان وهو حى بينهم . ولكن ما كان يخشاه هو بعد وفاته . لذلك قال : ما تعبدون من بعدى ؟ فأعطوه عهدهم بأن يلتزموا بعبادة التوحيد التى كان عليها آباؤه – أى أبوه وجده .

ولكن بنى إسرائيل من طول معايشتهم للمصريين استهوتهم عبادة الأصنام وكان أكثر ما مالوا إليه هو عبادة عجل أبيس . وكان بين الحين والآخر يظهر بين أبقارهم ومواشيهم عجل فيه المميزات التى كان المصريون يتطلبونها فى العجل المقدس . فكان بنو إسرائيل يحيطون هذه

العجول بالرعاية وينظرون إليها نظرة تقديس . وبمضى السنين تشربت عبادة العجل فى نفسوهم :

« **وأشربوا فى قلوبهم العجل** » . (من الآية ٩٣ - البقرة)

وصية يعقوب لبنيه في التوراة :

جاءت وصية يعقوب لبنيه فى الإصحاح ٤٩ تكوين . وهى تتعلق بأمور الدنيا وما سيحدث لهم فى قابل الأيام فتقول :

ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام . اجتمعوا واسمعوا يابنى يعقوب . واصغوا إلى إسرائيل أبيكم :

رأوبين : أنت بكرى وقوتى وأول قدرتى . فضل الرفعة وفضل العز . فائراً كالماء لا تتفضَّل. لأنك صعدت على مضجع أبيك . حينئذ دنسته . على فراشى صعد . (وكان هذا معناه حرمانه من البكورية ولا تكون له الرئاسة) .

وهى إشارة إلى ما ذكرته التوراة (إصحاح ٣٥ تكوين - ٢١) : بعد وفاة راحيل رحل إسرائيل ونصب خيمته وراء مَجْدَلْ عدر .. وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً فى تلك الأرض أن رأوبين ذهب واضجع مع بلهة . سُرِّية أبيه . وسمع إسرائيل (وقد ذكرنا ذلك فى ص ٤٢٢) .

ولا نظن ذلك حدث حقيقة . فإن الزنا بسرية أبيه التى هى فى مقام والدته أو خالته فاحشة كبيرة - ثم هى أم أخويه : دانا ونفتالى . ومن المؤكد أن الغيرة على والدتهما . قد تجعلهما يقتلان رأوبين لهذا العمل المشين لو كان حدث فعلاً . وما نعتقده هو أن كاتبى التوراة رأوا أن يعقوب عليه السلام قد حرم رأوبين من البكورية فأرادوا أن يبرروا ذلك بالإدعاء بأنه اضطجع مع سرية أبيه .

ولو كان هذا الأمر هو سبب حرمان رأوبين من البكورية . لكان حريًا بيعقوب عليه السلام أن يحرم يهوذا أيضاً من البكورية . لأن كاتبى التوراة قد نسبوا إليه (إصحاح ٣٨ تكوين) أنه قد زنى بثامار - زوجة ابنه .

وعليه فإننا نتفق مع رأى كثيرين علقوا على هاتين الحادثتين بأنهما محض اختلاق .

فضلاً عن أن رأوبين ويهوذا هما من الأسباط (ص ٥٤٤) ويجب تنزيههما عن الفاحشة . حتى ولو كانتا قد حدثتا قبل نبوَّتهما .

شمعون ولاوى أخوان . آلات ظلم سيوفهما . فى مجلسهما لا تدخل نفسى . بمجمعهما لا تتحد كرامتى . لأنهما فى غضبهما قتلا إنساناً (ربما إشارة إلى المذبحة الفظيعة فى شكيم . ص ٤٢٠) . وفى رضاهما عرقبا ثوراً . (تعبير مجازى عن قتل إنسان كان أميرا) . ملعون غضبهما فإنه شديد وسخطهما فإنه قاس . أقسِّمهما فى يعقوب وأفرقهما فى إسرائيل . (وهى دعوة عليهما بالتشتت والتوزع فى كل بنى إسرائيل) . وقد تحقق هذا فى المستقبل . عند تقسيم الأرض . إذ اقتطع ميراث شمعون من ملكية يهوذا . ثم ابتُلع شمعون فى يهوذا تحقيقاً للعنة والدهما . كما لم تكن لسبط لاوى أرض خاصة بهم - بل تولوا أعمال الكهانة وخدمة المذبح فى كل أنحاء الأراضى التى استولى عليها بنو إسرائيل . .

يهوذا : إياك يحمد إخوتك . يدك على قفا أعدائك . يسجد لك بنو أبيك (وهذه بركة الابن البكر . فبعد حرمان رأوبين من البكورية ثم شمعون ولاوى أيضاً . صار يهوذا هو الابن البكر) . يهوذا جرو أسد . (وهى إشارة إلى قوة يهوذا الحربية) من فريسة صعدت يا ابنى . جثا وربض كأسد وكلبؤة - من ينهضه . (لعلها إشارة إلى مملكة يهوذا وسقوطها بالسبى البابلى) . لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب (فى هذه الفقرة إشارة إلى عصا الحاكم التى كانت توضع عادة بين الرجلين* ولعل فى هذا إشارة إلى رجوع شعب يهوذا إلى بلادهم وإن كانوا تحت حكم الفرس ثم الرومان) وعن معنى « حتى يأتى شيلون » قالوا إنها إشارة إلى مجىء المسيا* . رابطاً بالكرمة جحشه . وبالجفنة ابن أتانه . غسل بالخمر لباسه . وبدم العنب ثوبه . مُسْوَدٌّ العينين من الخمر . ومُبْيَضٌّ الأسنان من اللبن (كل هذا يعنى النجاح المستمر*) .

زبولون : عند ساحل البحر يسكن وجانبه عند صيدون . وقد قصَّر سبط زبولون فى طرد سكان الأرض الأصليين بل وخالطوهم وصاهروهم . فكانوا أسرع الأسباط إلى عبادة الأوثان .

يَسَّاكر : حمار جسيم . رابض بين الحظائر . فرأى المحل أنه حسن . والأرض أنها نَزِهة. فأحنى كتفه للحمل . وصار للجزية عبدا . وقد تمت النبوءة فإن سبط يساكر سكنوا سهل يزرعيل الخصب . غربى نهر الأردن . حول رافده المسمى نهر جالود . واشتغلوا فى الفلاحة وكانوا مكدودين فيها . وكانت أرضهم تغزوها القبائل الرحَّل وتفرض عليهم الجزية .

دان : يدين شعبه كأحد أسباط إسرائيل . يكون حية على الطريق . أفعواناً على السبيل . يلسع عقبى الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء . لخلاصك انتظرت يارب . والنبوءة تشير إلى دهاء ذريته ومكرهم . وشمشون من سبط دان . وله مواقف تدل على كثير من الدهاء .

---

* تفسير الكتاب المقدس جـ ١ ص ٢١٠ .

جاد : يزحمه جيش . ولكنه يزحم مؤخره .

ولعل فى هذا إشارة إلى كبر عدد سبطه . فقد كان له سبعة بنين كل منهم أسس عشيرة من قبائل الجاديين . كما أن جبابرة سبط جاد كانوا مرافقين لداود فى حروبه .

أشير : خبزه سمين . وهو يعطى لذات ملوك .

وهذا تنبؤ بالنجاح . لأن أرضهم كانت غنية بأشجار الزيتون . وكانت نبوءة موسى : بأن أشير يغمس فى الزيت قدمه .

نفتالى : آيلة مسيبة . يعطى أقوالاً حسنة .

والأيلة حيوان شديد السرعة خفيف الحركة والقفز على الصخور وإذا جاع هزل وضعفت قوته . ولعل فى هذا إشارة إلى أنهم سيضعفون . وهم فعلاً لم ينجحوا فى طرد الكنعانيين من الأرض المخصصة لهم . أما قول « يعطى أقوالاً حسنة » فقد اشترك ممثل نفتالى فى لعن الخارجين على الشريعة (إصحاح ٢٧ تثنية) .

يوسف : غصن شجرة مثمرة على عين . أغصان قد ارتفعت فوق حائط فمررته ورمته واضطهدته أرباب السهام . ولكن ثبتت بمتانة قوسه وتشددت سواعد يديه . من يدى عزيز يعقوب من هناك من الراعى صخر إسرائيل . من إله أبيك الذى يعينك . ومن القادر على كل شىء الذى يباركك . تأتى بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت بركات الثديين والرحم . بركات أبيك فاقت كل بركات أبوىَّ . إلى منية الآكام الدهرية تكون على رأس يوسف وعلى قمة نذير إخوته .

ولعل فى هذا إشارة إلى أنه كان خيراً على مصر عند جفاف نيلها . وأنه ارتفع فوصل إلى مركز مرموق . وأنه قد اضطهد وأصابته سهام الغيرة من إخوته . وقد يكون السجن بسبب كيد امرأة العزيز . ولكنه ثبت فى كلتيهما . وقد يكون فى باقى النبوة إشارة إلى أنه سيسود إخوته فى المملكة الشمالية .

بنيامين : ذئب يفترس . فى الصباح يأكل غنيمة . وعند المساء يقسم نهباً .

جميع هؤلاء هم أسباط إسرائيل الإثنا عشر . وهذا ما كلمهم به أبوهم وباركهم كل واحد بحسب بركته باركهم . وأوصاهم وقال لهم أنا أنضم إلى قومى . ادفنونى عند آبائى فى المغارة التى فى حقل المكفيلة التى اشتراها إبراهيم فى الحقل من عفرون الحثى . هناك دفنوا إبراهيم وسارة امرأته . وإسحق ورفقة امرأته وهناك دفنت ليئة .

ولما فرغ يعقوب من توصية بنيه . أسلم الروح وانضم إلى قومه وتستمر التوراة (إصحاح ٥٠ تكوين) :

فوقع يوسف على وجه أبيه وبكى عليه وقبّله . وأمر يوسف الأطباء أن يُحَنِّطوا أباه . فحنط الأطباء إسرائيل . وكمل له أربعون يوماً . ثم كلم يوسف بيت فرعون قائلاً أبى استحلفنى قائلاً ها أنا أموت . فى قبرى الذى حفرت لنفسى فى أرض كنعان هناك تدفننى . فالآن أصعد لأدفن أبى وأرجع . فقال فرعون : اصعد وادفن أباك كما استحلفك .

فصعد يوسف ليدفن آباه . وصعد معه بعض من شيوخ أرض مصر . وكل بيت يوسف وإخوته وبيت أبيه . غير أنهم تركوا أولادهم وغنمهم وبقرهم فى أرض جاسان . وصعد معه مركبات وفرسان . وحمله بنوه إلى أرض كنعان ودفنوه فى مغارة حقل المكفيلة . ثم رجع يوسف إلى مصر . هو وإخوته وجميع الذين صعدوا معه لدفن أبيه .

ولما رأى إخوة يوسف أن أباهم قد مات . قالوا لعل يوسف يضطهدنا ويرد علينا جميع الشر الذى صنعنا به . فأوصوا إلى يوسف قائلين : أبوك أوصى قبل موته قائلاً : هكذا تقولون ليوسف : اصفح عن ذنب إخوتك وخطيتهم . فبكى يوسف حين كلموه . وأتى إخوته أيضاً ووقعوا أمامه وقالوا ها نحن عبيدك . فقال لهم يوسف : لا تخافوا . أنتم قصدتم لى شراً . أما الله فقصد بى خيراً لكى يفعل كما اليوم . ليحيى شعباً كثيراً . (يقصد شعب مصر لما عبر به السنوات السبع العجاف) . فالآن لا تخافوا . أنا أعولكم وأولادكم فعزّاهم وطيب قلوبهم .

وهكذا عاش إخوة يوسف وبنيهم . فى مصر . فى سعة من العيش بما كان يجريه يوسف عليهم من الجراية من الحبوب مجاناً . وما كانت تدره عليهم أغنامهم ومواشيهم .

يقابل هذا ما كان فيه المصريون من ضيق وضنك بسبب السنين الجدباء التى مرت بها البلاد وترويه التوراة هكذا (إصحاح ٤٧ تكوين) :

ولم يكن خبزٌ فى الأرض لأن الجوع كان شديداً جداً . فجمع يوسف كل الفضة الموجودة فى أرض مصر بالقمح الذى اشتروا . وجاء يوسف بالفضة إلى بيت فرعون . فلما فرغت الفضة من أرض مصر أتى جميع المصريين إلى يوسف قائلين . اعطنا خبزاً فلماذا نموت قدامك لأن ليس لنا فضة ؟ فقال يوسف هاتوا مواشيكم فأعطيكم بمواشيكم . فجاءوا بمواشيهم إلى يوسف . فأعطاهم يوسف خبزاً بالخيل وبمواشى الغنم والبقر والحمير فقاتهم بالخير تلك السنة بمواشيهم .

ملحوظة : من المؤكد أن يوسف لما أخذ المواشى . لم يجد من المصريين من يرعاها . فضمها إلى مواشى إخوته فى أرض جاسان .

ولما تمت تلك السنة أتوا إليه فى السنة التالية . وقالوا له : لا نخفى عن سيدى أنه إذ قد فرغت الفضة . ومواشى البهائم عند سيدى . لم يبق قدام سيدى إلاَّ أجسادنا وأرضنا . لماذا نموت أمام عينيك ؟ اشترنا وأرضنا بالخبز فنصير نحن وأرضنا عبيداً لفرعون . فاشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون . إذ باع المصريون كل واحد حقله لأن الجوع اشتد عليهم . إلا أن أرض الكهنة لم يشترها . إذ كانت للكهنة فريضة من الحبوب من قبل فرعون يأكلون منها لذلك لم يبيعوا أرضهم .

يقول الألوسى* إن يوسف عليه السلام قال للملك : كيف ترى فى هؤلاء ؟ فقال الملك : الرأى رأيك . فقال يوسف : إنى أشهد الله تعالى أنى قد اعتقتهم ورددت إليهم أملاكهم .

وتقول التوراة** : إن يوسف أعطاهم بذوراً ليزرعوا . ويكون عند الغلة أن يعطوا خمس المحصول لفرعون والأربعة أخماس الباقية ليأكلوا منها ويحفظوا جزءاً كبذور للعام التالى . وجعلها يوسف فرضاً علي أرض مصر . لفرعون الخمس ما عدا أرض الكهنة .

وتستمر التوراة فتقول : وسكن بنو إسرائيل في مصر فى أرض جاسان وتملكوا فيها وأثمروا وكثروا جداً .

مما لا شك فيه أن المصريين تضايقوا لما باعوا مواشيهم . ثم أرضهم لملك الهكسوس الذى كان يوسف عليه السلام يمثله . وهو وإن كان قد أعتقهم إلاَّ أنه فرض عليهم « الخُمس » يعطوه لفرعون . كانوا فى قرارة أنفسهم يحمدون ليوسف حسن تدبيره للأمور فى سنوات المجاعة – فقد كانت الأخبار ترد إليهم عن موت الآلاف فى فلسطين والشام بسبب القحط والجفاف الذى عم منطقة الشرق الأدنى . لقد سلَّموا بأن الفاتح المنتصر – وهم الهكسوس – تكون لهم امتيازات بحق الفتح . ولكنهم قارنوا بين حالهم وحال بنى إسرائيل . الذين وفدوا على البلاد . وسندهم قرابتهم لنائب الملك . فأقطعهم أرضاً مراعى لمواشيهم . وأجرى عليهم العطايا والأرزاق . فعاشوا فى بحبوحة من العيش . وتكاثروا بسرعة وكان هذا هو مبدأ الشعور غير الودى الذى بدأ المصريون يحسونه تجاه بنى إسرائيل .

وفاة يوسف عليه السلام :

ومرت السنون . وتوفى الملك خيان . ملك الهكسوس حوالى عام ١٧١٥ ق.م وكان عمر يوسف حينئذ ٦٣ عاماً . وتولى أبو فيس الأول حكم الهكسوس وحكم لمدة ٤٠ سنة . حفظ

---

* تفسير الألوسى . جـ ١٣ ص ٦ .
** التوراة . إصحاح ٤٧ تكوين .

خلالها ليوسف مكانته في البلاد . ومات أبو فيس الأول . وتولى بعده أبو فيس الثاني . وكان يوسف قد بلغ من العمر ١٠٣ عاماً . وبعد سبع سنوات من حكم أبو فيس الثاني توفي يوسف إلى رحمة الله تعالى . وكان قد بلغ من العمر مائة وعشر سنين .

ويقال إنه أوصى إلى أخيه يهوذا .

وتقول التوراة (إصحاح ٥٠ تكوين) : ورأى يوسف لأفرايم أولاد الجيل الثالث . وأولاد ماكير بن منسى أيضاً ولدوا على ركبتي يوسف وقال يوسف لإخوته . أنا أموت . ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب . واستحلف يوسف بني إسرائيل : الله سيفتقدكم . فتصعدون عظامي من هنا .

ثم مات يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين . فحنطوه في تابوت في مصر .

قيل* لما مات . تعارك الناس عليه . كلٌّ يحب أن يدفن في محلتهم لما يرجون من بركته حتى هموا بالقتال . فرأوا أن يدفن في النيل حيث تتفرق المياه بمصر فيمر الماء عليه ثم يصل إلى جميع مصر فيصيب الخير الجميع ففعلوا ذلك . وكان قبره في النيل إلى أن حمله موسى عليه السلام معه حين خرج من مصر ببني إسرائيل .

وروى يونس بن عمران عن أبي موسى قال : نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعرابي فأكرمه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أكرمتنا فأحسنت . سل حاجتك . فقال : ناقة نرحلها وعنزة تحلبها أهلي . فقال صلى الله عليه وسلم : أعجز هذا أن يكون مثل عجوز بني إسرائيل ؟ فقالوا يا رسول الله . وما عجوز بني إسرائيل ؟ فقال : إن بني إسرائيل لما خرجوا ضلوا الطريق وأظلم عليهم الليل . فقالوا : ما هذا ؟ فقال علماؤهم : إن يوسف لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا . قال موسى : فمن يعلم موضع قبره؟ قالوا : عجوز لبني إسرائيل . فبعث إليها موسى . فأتته . فقال : دليني على قبر يوسف . فقالت له : وتعطيني حكمي ؟ قال : وماحكمك ؟ قالت : أن أكون معك في الجنة . فكره أن يعطيها حكمها . فأوحى الله إليه أن اعطها حكمها ففعل .

ويروى من طريق آخر – أن هذه العجوز كانت مقعدة عمياء . فقالت لموسى : ألا أخبرك بموضع قبر يوسف ؟ قال : نعم . فقالت له : لا أخبرك حتى تعطيني أربع خصال : تطلق رجلي

---

* عرائس المجالس للثعلبي ص ١٧٠ .

وتعيد إلى بصرى . وشبابى . وتجعلنى معك فى الجنة . قال . فكبر ذلك على موسى . فأوحى الله تعالى إليه . أن اعطها ما سألت . فإنك إنما تعطى علىَّ . ففعل . فانطلقت بهم إلى موضع عين فى مستنقع ماء فاستخرجوه من شاطىء النيل فى صندوق من مرمر . فلما حملوا تابوته طلع القمر وأضاء الطريق مثل النهار فاهتدوا به وحملوه وساروا .

ولا ندرى مدى صحة هذا الحديث . وقد يرى البعض أن القصة من الإسرائيليات أو الموضوعات . ولكن لو تمعنّا فى الأمر لوجدنا فيها بعضاً من المعقولية . ولعلها كانت إرادة الله أن يُجهل مكان قبر يوسف على مر الأزمنة . ففى غمار التعذيب والتسخير والتنكيل الذى تعرض له بنو إسرائيل . ما كان الأمر ليخلو من متعصب ينقب قبره – لو كان ظاهرا للعيان – أو لو كان معروفاً مكانه . انتقاماً ممن كان سبباً فى مجيئتهم إلى مصر !!

كما أننا ندرك مدى سطوة لصوص المقابر التى جعلت الفراعين – عند بناء الأهرامات – يعمدون إلى إخفاء مكان توابيتهم والتمويه بسراديب وحجر دفن كاذبة . وما كان هؤلاء اللصوص ليتورعوا عن ممارسة نشاطهم لما قد يعتقدون من ثروة فى قبر نائب الملك . وما نظن أن الفراعين – فى فترة تعذيب بنى إسرائيل – كانوا يهتمون بوضع حراسة على قبره لمنع ذلك . بل لعلهم كانوا يغضون الطرف عمداً لتشجيع مثل هذا الفعل – لكل هذه الاعتبارات لعلها كانت إرادة الله سبحانه وتعالى – حفظاً لقبر نبيه يوسف عليه السلام – من أى مساس به – أن يُجهل مكانه . حتى يحين موعد الخروج من مصر فيحملونه معهم ليدفن بعد ذلك بجوار أبيه وأجداده .

جدول أحداث حياة يوسف عليه السلام

ملوك مصريون	ملوك الهكسوس	ق.م تقريباً	حيـــاة يوسف		الأحداث المتزامنة
			العمر	الحـــدث	
الأسرة الثالثة عشرة في غرب الدلتا . الأسرة الرابعة عشرة في طيبة .	سمقن رع		٠	مولد يوسف فى حاران	٥١ سنة عمر يعقوب
		١٧٦٨	١٠	ولادة بنيامين .	٦١ عمر يعقوب – وفاة راحيل
	عانت هر	١٧٦٦	١٢		٦٣ عمر يعقوب – وفاة إسحق
		١٧٦٥	١٣		افتراق يعقوب وعيسو
	الأسرة الخامسة عشرة . خيان ملك الهكسوس (حكم ٥٠ سنة)		١٤	حلم يوسف وإلقاؤه فى الجب	
			١٥	وصول يوسف إلى مصر	
			٣٠	بلغ أشده	محنة امرأة العزيز
			٣١	دخول يوسف السجن	
			٣٨	خروج يوسف من السجن	
			٣٩	يوسف عزيز مصر	حلم الملك
			٤٠	بدء سبع سنوات سمان	
			٤٧	بدء سنوات المجاعة ٧ سنوات	
			٤٨	مجىء الإخوة أول مرة	
			٤٩	مجىء الإخوة ثانى مرة	
			٥٠	مجىء الإخوة ثالث مرة	مجىء يعقوب لمصر
			٥١		
			٥٤	انتهاء سنوات المجاعة	
			٥٥	عام الغوث	
			٥٩		
			٦٠		
	الأسرة السادسة عشرة . أبو فيس الأول (٤٠ سنة)	١٧١٥	٦٣		
		١٧٠٨	٧٠		
		١٦٩٨	٨٠		
		١٦٨٨	٩٠		
		١٦٨٢	٩٦	عمر يوسف عند وفاة والده	وفاة يعقوب عن ١٤٧ سنة
الأسرة السابعة عشرة في طيبة		١٦٧٨	١٠٠		
		١٦٧٥	١٠٣		
	أبو فيس الثاني	١٦٦٨	١١٠	وفاة يوسف	

مصر بعد يوسف عليه السلام

قلنا سابقاً إن الهكسوس كانوا يسيطرون على الوجه البحرى وجزء من الوجه القبلى . كان يزداد أو ينقص حسب قوة الهكسوس وضعفهم . ولكنه فى معظم الأوقات كان يصل إلى القوصية شمال أسيوط . اللهم إلاَّ فى فترة قصيرة جداً امتد إلى الجبلين (الأقصر) ولكنه تقلص ثانية إلى القوصية (ص ٤٦٠) .

توفى يوسف عليه السلام فى عام ١٦٦٨ ق.م. تقريباً أثناء حكم ملك الهكسوس الملقب أبو فيس الثانى . ثم تعاقب من ملوك الهكسوس عدة ملوك سموا أنفسهم بلقب ابن الشمس . تقرباً للمصريين . فأضافوا « رع » فى نهاية أسمائهم . عُرف منهم : عنت رع وسمقن رع وعار رع وسمع رع . واستغرق حكمهم مدة ٦٨ عاماً تقريباً . ثم جاءت المجموعة الأخيرة من ملوك الهكسوس وهم ثلاثة : عاقن ثم شارك ثم أبيبى وانتهت مدة حكمهم بطرد الهكسوس من البلاد حوالى عام ١٥٧٥ ق . م .

كانت الأسرة ١٧ – تحكم فى طيبة ابتداء من عام ١٦٥٥ ق . م . وكان حكامها يلمسون مدى الظلم الواقع على إخوانهم فى شمال الوجه القبلى وفى الدلتا وفى كل المناطق التى كان يحكمها الهكسوس .

وطيبة هى عاصمة الإقليم الرابع من أقاليم الصعيد – وكانت من أهم مدن مصر . إذ كانت مقر معظم الفراعين . ومركز عبادة آمون رع . الإله الرئيسى للبلاد . وعرفت طيبة باسم « مدينة المائة باب » ووصفت بأن كل باب كان يتسع لمائتى رجل . وتخرج منه جيوش فرعون . وعرفها اليونانيون باسم « ديوس پوليس ماجنا » أى « مدينة زيوس العظمى » أو « مدينة الله الكبرى » أما العرب فقد تخيلوا معابدها قصوراً ومن ثم سموها مدينة الأقصر . وشبهوا المعبد الكبير بها بقصر النعمان بن المنذر المسمى « الخورنق » فسموا المعبد باسم الخورنق والذى حرف فيمابعد لاسم الكرنك* .

طرد الهكسوس :

لعل فكرة التحرير قد بدأت فى عهد « **تاعا** » أول ملوك الأسرة السابعة عشرة وزوجته « تتى شرى » التى كانت متحمسة لفكرة التحرير . وكان لها أثر كبير فى إذكاء روح الحماسة فى الشعب .

---

* مصر والشرق الأدنى القديم . د . نجيب ميخائيل إبراهيم . جـ ٢ ص ٤ .

ثم تولي الحكم « **تاعا الشجاع** » أو « **تاعا قن الشجاع** » أو « **سقنن رع** » وفى عهده بدأ الكفاح الفعلى . كان ملك الهكسوس المعاصر له هو « أبيبى » أو « أپوپى » . وقد وصلت معلومات إلى أبيبى ببدء تجميع الصفوف وتجنيد الجنود فى الجنوب . فأراد أن يستوثق من هذه المعلومات . وأشار عليه مستشاروه بأن يرسل رسالة لجس نبض ملك طيبة ، فيها بعض الاستفزاز ليعرف من ردِّه مدى قوته . « ولسوف نرى إذن قدرة ربه الذى يحتمى به . وهو الذى لا يعتمد على إله غير آمون رع ملك الأرباب ! » . فأرسل أبيبى رسالة إلى « تاعا » يقول فيها :

« اعمل على أن تطرد أفراس البحر الذى فى حوش مدينتك (طيبة) لأنها تقضّ مضجعى نهاراً وليلاً . والضوضاء تؤذى أذنى ! »

ومن المعلوم أن « أفاريس » التى يحكم منها أبيبى تبعد عن طيبة حوالى ٨٠٠ كيلو متراً . وأدرك تاعا قن مغزى الرسالة . ولم يوجه رفضاً صريحاً لها . بل عمد إلى اللين حتى يكمل استعداده للحرب . فعامل الرسل معاملة كريمة وحمَّلهم هدايا للملك أبيبى .

بعد أن تأكد تاعاقن من مقدرته الحربية . بدأ يشن الحرب على حاميات الهكسوس . وحرَّر الوجه القبلى حتى مصر الوسطى . ووُجدت على لسانه كتابات تقول : أيها الأسيوى الوضيع . يا حائر القلب . يا من كنت تردد . أنا المولى وليس من يداينني .. كذلك فإن « تاعا الشجاع » دمَّر مدن الخونة من المصريين الذين مدوا يد العون للمحتل . ولابد أن الحرب كانت شرسة . وقد قتل « تاعا الشجاع » أو « سقنن رع » فى إحدى المعارك . وقد وجدت مومياؤه وبها خمسة جراح عميقة من ضربات سيف وآثار سهام ،. ومات وهو فى أوائل الثلاثينات من عمره . وعلى ما يبدو فإن « إياح حتب » زوجة « سقنن رع » أخفت خبر وفاته حتى لا يفت إعلان وفاته – فى عضد الجنود . واستمرت تقود المعركة . إذ وجدت كتابة تصفها بأنها : ربة الأرض . رفيعة السمعة التى دبَّرت سياسة القوم . القديرة الجليلة التى أحكمت شئون مصر . أميرة الفيالق . التى تقود الشعب . زوج ملك . وأم ملك . العظيمة التى تسهر على شئون المصريين . التى جمعت صفوف جيشها . ورعت أهلها . وأعادت الفارين . ولمَّت شتات المهاجرين . وهدَّأت قلق الصعيد . وأرهبت عصاته . الملكة إياح حوتب . لها الحياة* .

واستكملت المعركة . وتولى ابنها « **كامس** » الحكم تحت رعايتها .

كان لمقتل « سقنن رع » أثر سيء على معنويات المستشارين . وبدأوا يخشون الحرب . وجاء فى وثيقة كتبت فى السنة الثالثة من حكم كامس جدال طويل بين كامس ورجال حاشيته وفيها يقول :

---

* الشرق الأدنى القديم . د .عبد العزيز صالح . جـ ١ ص ٢١٤ .

أريد أن أعرف ما هى قوتى . ولم اشتُهرت بالشجاعة مادام هناك أمير فى حت وعرت (أواريس – يقصد ملك الهكسوس) وأنا هنا فى طيبة . وكل واحد تحت نصيبه جزء من أرض مصر . يشاركنى فى الأرض . وليست لدى فرصة للوصول إلى منف . انظروا . تجدوا الأسيويين يحكمون مصر حتى الأشمونين . وقد هدموا كل الأبنية وخربوها . ولكنى سأهاجم ملكهم . وسوف أبقر بطنه بيدى . إن كل أملى أن أخلص مصر من تعسف الأسيويين وأطردهم شر طردة .

فأجاب رجال الحاشية قائلين . إذا كان الأسيويون قد توغلوا فى مصر حتى القوصية . وإذا كانوا يلفقون التهم ضدنا . ويسحبون لسانهم علينا (إشارة لرسالة أبيبى إلى سقنن رع) إلاّ أننا نعيش فى سلام فى منطقتنا . وجزيرة فيلة محصنة تحصيناً قوياً . ونحن نحكم مصر الحقيقية !

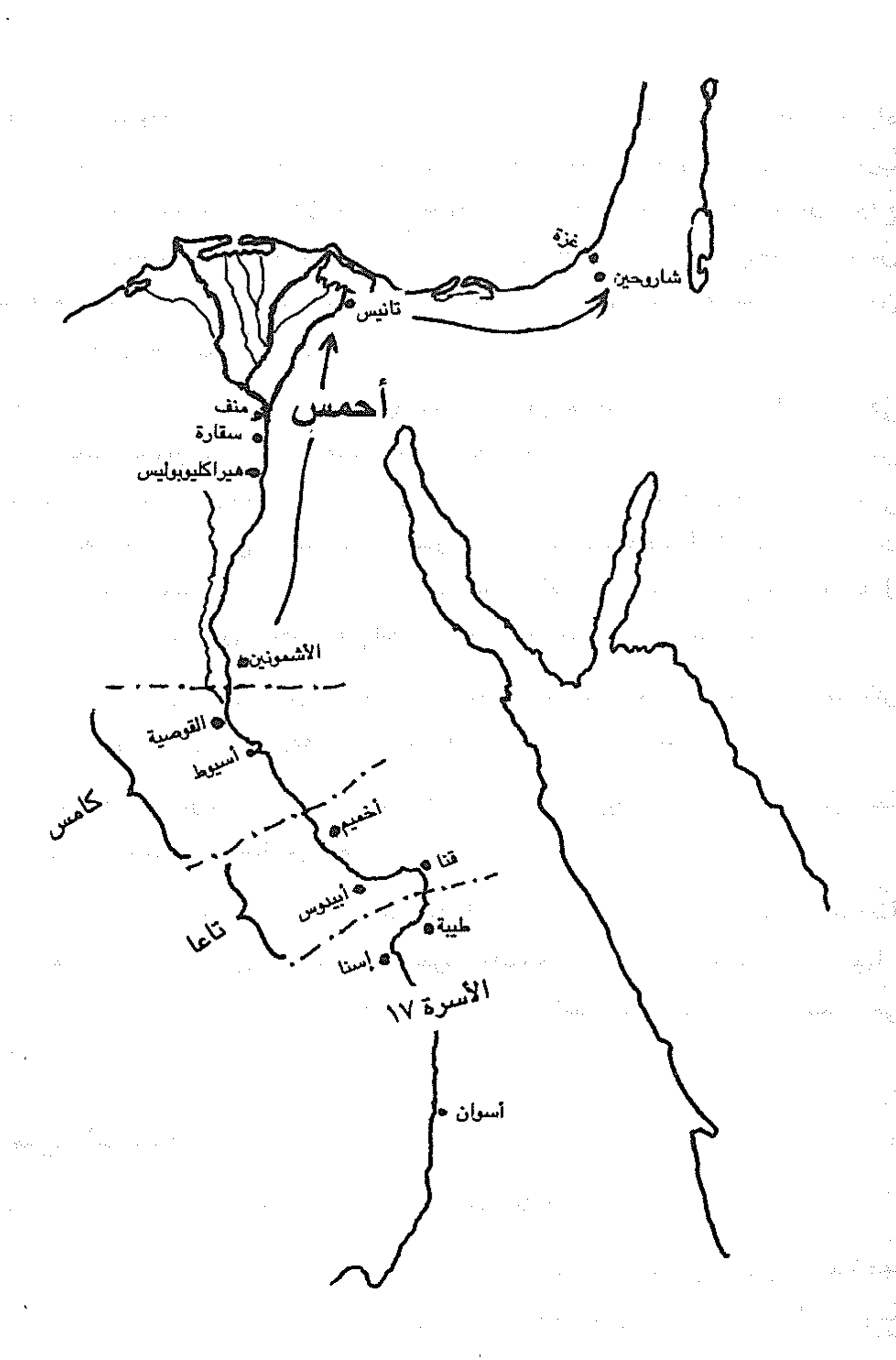
وهنا غضب الملك كامس وقال : يجب أن يلهج المصريون باسمى ويتحدث الكل عنى قائلين : هو ذا مخلص مصر .

ثم جمع كامس جيشاً من رجاله البواسل . والفرقة النوبية . مطيعاً بذلك أمر الإله « آمون » وسار بهذا الجيش شمالاً . وهاجم « تيتى » . أحد الأمراء الموالين للهكسوس وهزمه . وواصل زحفه شمالاً .

وقُتِل « كامس » هو الأخر فى أثناء معركة . وتماسك الجند بفضل حزم والدته « إياح حوتب » إلي أن تولى أخوه « أحمس » الحكم . وليتم رسالة التحرير التى بدأها أبوه وجده .

أحمس : عاحموزة :

لا تزال تفاصيل المرحلة النهائية لطرد الهكسوس فى عهد أحمس شحيحة للغاية إلاّ أن النزر اليسير الذى وصلنا يفيد أن أحمس واصل تقدمه شمالاً . فحرر الأشمونين . ثم هيراكليوپوليس. ثم منف . ثم استمر فى تحرير الدلتا حتى وصل إلى عاصمة الهكسوس «حت وعرت » أو « أواريس » . وقد وجدت مذكرات كتبها أحد القادة فى جيش أحمس ذكر أنه اشترك فى محاصرة عاصمة الهكسوس . وأن المعارك دارت حولها وإلى الجنوب منها فى البر وعلى الماء عدة مرات . وأن الجنود المصريين دخلوها عنوة ودمروها وأسروا حاميتها وأجبروا الأسيويين على الخروج منها . إلا أن المؤرخ يوسيفيوس اليهودى يدَّعى أن الهكسوس أعلنوا التسليم لأحمس بشرط أن يدعهم يغادرون مصر آمنين . فرضى وخرجوا بأمتعتهم . وأن عدد



شكل ٩٩ – مراحل تحرير مصر من الهكسوس

الجنود وعائلاتهم والأهالى من الهكسوس بلغ حوالى ٢٤٠ ألفاً . وليس لنا أن نصدق ما رواه يوسف اليهودى* فهو غير منصف بلا شك حين يروى أن المصريين وعدتهم ٢٤٠٫٠٠٠ محارب حاصروا أواريس ولكنهم عجزوا عن اقتحام حصونها . لأن ظواهر الأمور تشير إلى أن إخراج الهكسوس كان طرداً ثم تبعته مطاردة خارج حدود مصر أيضاً . وكان قد خرج مع الهكسوس بعض الأفراد من بنى إسرائيل لارتباط مصالحهم بالهكسوس . وتكاثروا وأصبحوا يسمون « العابيرو» تمييزاً لهم عن الهكسوس .

بعد أن خرج الهكسوس من مصر . عبروا سيناء وجمعوا فلولهم فى مدينة « شاروحين » فى جنوب فلسطين بجوار غزة . (تل العجول أو تل قرعة الحالية) وتحصنوا بها . فأدرك أحمس أنه لن يأمنهم . ولن يأمن حدوده ماداموا قريبين منها . فلحقهم بجيشه وفرض الحصار على شاروحين ثلاث سنوات حتى اضطرهم إلى الخروج منها . ويعتبر علماء التاريخ حصار « حت وعرت » وحصار « شاروحين » أول حصارين طويلين فى التاريخ . واستمر فى مطاردة فلول الهكسوس حتى حدود لبنان . وحاصرهم أيضاً فى مدينة « زاهى » إحدى مدن سوريا .

بعد أن أتم أحمس تأمين الحدود الشمالية الشرقية للبلاد . كر راجعاً إلى الجنوب . حيث كان النوبيون قد انتهزوا الفرصة وتمردوا فأخضعهم فاستتب له الأمر فى البلاد .

كان خروج الهكسوس من مصر فى سنة ١٥٧٥ ق . م . تقريباً . وكانوا دخلوهم فى سنة ١٧٨٠ أى أنهم مكثوا ٢٠٥ سنة فى مصر .

ويقول علماء التاريخ إن أحد أسباب انتصار المصريين أنهم أخذوا بآلات الحرب الحديثة التى تعلموها من الهكسوس وهى العجلات الحربية فقد وجدوا كتابة لأحد الضباط يقول فيها : كنت أتبع الملك فى سيره حيثما أقلته عجلته . وهذه أول مرة تظهر فيها هذه الكلمة « عجلته » فى الكتابات المصرية .

الأسرة الثامنة عشرة :

لئن كنا سنتناول تاريخ هذه الأسرة بشىء من التفصيل فذلك لعدة أسباب :

١ – هذه الأسرة هى التى وضعت أسس الدكتاتورية العسكرية المصرية وكان من نتائجها تكوين الامبراطورية المصرية . وكان أيضاً من نتائجها إعطاء الفراعين سلطات مطلقة وهو ما انعكس فيما بعد على إدعاء بعضهم الألوهية . بدلاً من الاكتفاء بأنه ابن الإله .

---

* مصر والشرق الأدنى القديم . د . نجيب ميخائيل إبراهيم جـ ٢ ص ٦ .

٢ – أخناتون هو أحد ملوك هذه الأسرة واختلفت الآراء حوله اختلافاً كبيراً . فريق يرى أنه « نبى » استناداً إلى دعوة التوحيد التى نادى بها . وأنه أحد الأنبياء أو الرسل الذين أشار إليهم القرآن الكريم بقوله : « **ورسلاً لم نقصصهم عليك** » . وفى المقابل نظرة إلحادية تقول إنه هو الذى « اخترع » التوحيد . فكان بذلك « أول الموحدين » وأن ديانة موسى ما هى إلا تطوير للأخناتونية .

٣ – أنه فى زمن هذه الأسرة بدأ الشعود المعادى لبنى إسرائيل يظهر ويتعاظم حتى بلغ أقصاه فى عهد الأسرة التاسعة عشرة .

بتولى أحمس العرش بعد طرد الهكسوس عام ١٥٧٥ ق . م . تقريباً تبدأ الأسرة الثامنة عشرة . ويبدأ عصر « **الدولة الحديثة** » فى مصر القديمة . واستعادت مصر هيبتها التقليدية وهيبة ملوكها . واستمرت الأسرة الثامنة عشرة تحكم البلاد أكثر من قرنين ونصف قرن . تعاقب على الحكم أثناءها اثنا عشر ملكاً . كما هو مبين فى الصفحة التالية وتبلغ الدولة الحديثة أوجها فى عهد الأسرة التاسعة عشرة . ثم تبدأ مرحلة الأفول والاضمحلال بعد الأسرة العشرين لتنتهى تماماً بنهاية الأسرة الحادية والعشرين فى العام ٩٥٠ أو ٩٤٥ ق . م .

أحمس :

قام أحمس – بعد طرد الهكسوس – بتأليف حكومة عسكرية بحتة واصطبغ حكمه بالصبغة العسكرية . وكان الأمراء وحكام الأقاليم ضعافاً قانعين . فقد فقدوا أثناء حكم الهكسوس كل ما كانوا يتمتعون به من نفوذ . وبذلك كان أحمس حاكماً مطاعاً . واستمر هذا الحكم الدكتاتورى المطلق وبلغ ذروته فى الأسرة التاسعة عشرة فى عهد الرعامسة .

قلنا إن أحمس طارد الهكسوس خارج مصر – فى فلسطين وسوريا – وعاد محملاً بالغنائم. فرأى أن الغزو الخارجى يعود على البلاد بثروة ومكاسب . كانت مصر قبل هذه الفترة منغلقة على نفسها . مكتفية بخيراتها وثرواتها وكل همها الحفاظ عليها من هجمات الأسيويين من الشرق – أو الليبيين من الغرب – أو النوبيين من الجنوب . ولكن بعد احتلال الهكسوس وطردهم تفتحت عقول الحكام المصريين على العالم الخارجى . وأدركوا أهميته بالنسبة لأمن البلاد وأمنهم هم كذلك . وأدركوا الفوائد التى تعود على البلاد من إخضاع بعض البلاد الأسيوية لحكمهم . وكانت هذه هى النواة الأولى فى التفكير لبناء امبراطورية مصرية . لذلك أولى أحمس الجيش عناية عظيمة . وأجزل الرواتب للجنود والضباط . ورأى المصريون أن الإندماج فى الجيش يحقق لهم ميزات من حيث المرتب والمكانة الاجتماعية .

إسم الملك	من عام ق٠م	إلى عام ق٠م	مدة الحكم
أحمس	١٥٧٥	١٥٥٠	٢٥
أمنحتب الأول	١٥٥٠	١٥٢٨	٢٢
تحوتمس الأول	١٥٢٨	١٥١٠	١٨
تحوتمس الثانى	١٥١٠	١٤٩٠	٢٠
حتشبسوت	١٤٩٠	١٤٦٨	٢٢
تحوتمس الثالث	١٤٦٨	١٤٣٦	٣٢
أمنحتب الثانى	١٤٣٦	١٤١٣	٢٣
تحوتمس الرابع	١٤١٣	١٤٠٥	٨
أمنحتب الثالث	١٤٠٥	١٣٦٧	٣٨
أمنحتب الرابع	١٣٦٧	١٣٥٠	١٧
= أخناتون			
سمنخ كارع	١٣٥٠	١٣٤٧	٣
توت عنخ أمون	١٣٤٧	١٣٣٩	٨
الكاهن آى	١٣٣٩	١٣٣٥	٤
حور محب	١٣٣٥	١٣٠٨	٢٧
			٢٦٧

واستعمل المصريون أدوات الحرب الحديثة من عجلات تجرها الخيول والأقواس البعيدة المرمى . والنبال . وتمرنوا على تسديدها . ولكن الخيل كانت لجر العربات . ولم تظهر فرقة « فرسان » أى جنود يركبون الخيل . ومن ذلك التاريخ أيضاً تأسست وتأصلت دكتاتورية الفراعين . وصارت لهم الكلمة العليا . ولم يكن هناك من يسألهم عما يأتون به من أعمال . وأصبحوا مطلقى السلطة . يحكمون حكماً دكتاتورياً مطلقاً . استمر فى كل ملوك الأسرة بعد ذلك . وبلغ ذروته فى عهد الأسرة التاسعة عشرة وخاصة فى عهد رمسيس الثانى .

بنو يعقوب بعد طرد الهكسوس :

مما لا شك فيه أن المصريين كانوا ينظرون إلى بنى يعقوب – أى بنى إسرائيل نظرة غير ودية للأسباب التالية :

١ – أنهم أسيويون . مثل الهكسوس الذين احتلوامصر .

٢ – أنهم قدموا إلى مصر فى عهد الهكسوس . وتربوا فى أحضانهم وتضاعفت أعدادهم كثيراً .

٣ – كان يوسف عليه السلام قد أقطعهم أرض جاسان . وأجرى عليهم الأرزاق والحبوب والعطايا . فكانوا فى بحبوحة من العيش فى حين أن المصريين – كما سبق أن قلنا فى صفحة ٥٣١ و ٥٣٢ – انتهى بهم الأمر إلى أن باعوا ماشيتهم وأرضهم إلى ملك الهكسوس . وأصبحوا يدفعون الخمس . بدلاً من الجزية المفروضة وهى العشر .

٤ – لا ندرى إن كان بعض من بنى إسرائيل قد ساعدوا الهكسوس فى حربهم ضد المصريين أو أثناء حصار عاصمتهم ولكن الأغلب أنهم وقفوا على الحياد . ولعل هذا قد أحفظ المصريين عليهم . إذ أنهم كانوا يتوقعون أن بنى إسرائيل – وقد استوطنوا مصر – وأكلوا من خيراتها – كان عليهم ، أن يساعدوهم لطرد المحتل الغاصب .

٥ – مما لا شك فيه أن « **الأرض الموعودة** » كانت إحدى العقائد الثابتة لدى بنى إسرائيل . وقال لهم يوسف قبل موته (إصحاح ٥٠ تكوين) : ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التى حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب . واستحلف يوسف بنى إسرائيل قائلاً : الله سيفتقدكم فتصعدون عظامى من هنا .

من هنا كان بنو إسرائيل يعلمون أن وجودهم بمصر هو وجود مؤقت . ولو أنهم قد استناموا عن هذا الأمر لرغد العيش فى مصر . ولرهبة المجهول الذى ما كانوا يعرفون عنه شيئاً . وإن كانوا يعرفون من سابق خبرتهم فى أرض كنعان أنها أقل خيراً من أرض مصر . وأن قومها أقسى طباعاً من طباع المصريين السلسة .

ولا ريب أن أقوال بنى إسرائيل عن « الأرض الوعودة » ما كانت لتخفى على المصريين . ولعل المصريين كانوا يرحبون برحيل بنى إسرائيل عن مصر قبل طرد الهكسوس إذ أن ذلك يضعف من قوة الهكسوس ويفقدهم سنداً لهم . إلاَّ أنه بعد طرد الهكسوس من مصر تغير الوضع . إذ أن تجمع فلول الهكسوس فى فلسطين أثار مخاوف أحمس من احتمال عقد صفقة بين الهكسوس وبنى إسرائيل يكون من نتيجتها عودة الهكسوس إلى مصر بمساعدة بنى إسرائيل . فى مقابل إعطاء الهكسوس أرض فلسطين لبنى إسرائيل . من هنا فقد فرض أحمس عيوناً على أرض جاسان وعلى بنى إسرائيل ليعلم من يقدم إليهم . وليرصد أى إتصالات بينهم وبين الهكسوس .

كان أفرايم بن يوسف قد زوَّج ابنته رحمة من أيوب بن موص بن رعوئيل بن عيسو . وسافرت معه إلى أرض سعير

يعقوب ← يوسف ← أفرايم ← رحمة

عيسو ← رعوئيل ← موص ← أيوب

فى أثناء حكم أحمس قدم أيوب لزيارة أهل زوجته فى مصر . وكانت عيون الفرعون ترصد أى قادم . فاستدعاه أحمس . وتأكد له أنه لا يمت بصلة إلى الهكسوس . لا ندرى حقيقة المحادثة التى جرت بينهما .لكن سيجيء الإشارة إليها فيما بعد (ص ٦٠٦) وعلى مايبدو – فإن أيوب – وهو على دين جده الأكبر إبراهيم وإسحق عليهما السلام – لم يشأ أن يسفه عبادة الأصنام التى كان عليها المصريون . خوفاً من أن ينعكس أثر ذلك على استقرار بنى إسرائيل فى مصر لذلك آثر المداهنة والملاينة وعاد إلى بلاده .

أمنحتب الأول :

تولى العرش بعد أبيه أحمس . وأخضع بلاد النوبة إلى ما وراء وادى حلفا . كما أخضع القبائل الليبية التى كانت تهدد سكان وادى النيل . ووسع أملاكه فى الشام حتى وصل إلى قرب نهر الفرات .

تحوتمس الأول :

بدأ بتوسيع أملاكه فى الجنوب ومد ملكه إلى ما بعد الشلال الرابع . ثم اتجه ناحية الشمال وعبر الشام . واقتطع جزءاً من مملكة ميتانى حتى وصل إلى « **نهرالمياه المعكوسة** » وهو

نهر الفرات وسماه المصريون كذلك لأن مياهه تجرى من الشمال إلى الجنوب فى حين أن مياه نهرالنيل تجرى من الجنوب إلى الشمال فاعتبر المصريون أن مياه نهر الفرات تجرى بعكس الإتجاه الطبيعى ! وحكم تحوتمس الأول ثمانية عشر عاماً وشكل ١٠٠ يبين اتساع الامبراطورية فى عهده .

تحوتمس الثانى :

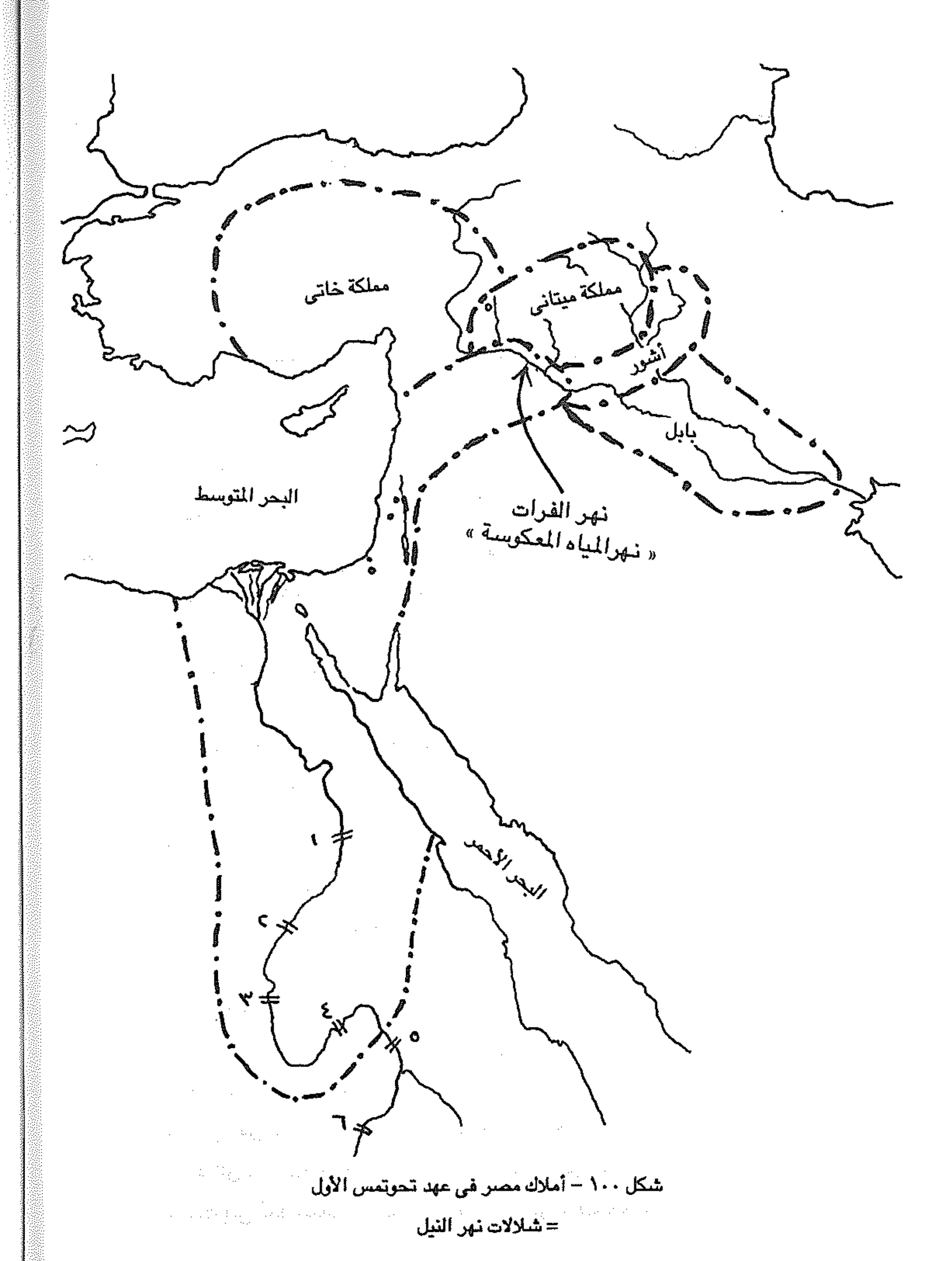
حافظ على حدود المملكة التى ورثها عن أبيه تحوتمس الأول . وتزوج من أخته حاتشبسوت . وكانت مدة حكمه عشرين عاما . وورثه ابن صغير هو تحوتمس الثالث بوصاية والدته حاتشبسوت.

الملكة حتشبسوت :

فى أول الأمر كانت تحكم كوصية على تحوتمس الثالث . ولكنها أهملته وصارت تحكم بنفسها نظرا لما كانت عليه من قدرة عظيمة وعزيمة قوية . وتزيت بزى الرجال وتشبهت بهم . فكانت ترتدى ملابس الملوك فى الحفلات الرسمية وتضع لحية مستعارة مثلهم . واتجهت حاتشبسوت وجهة إفريقية أكثر منها آسيوية . فوطدت نفوذ مصر فى البحر الأحمر ومنه إلى السودان والصومال (بلاد بنت) . وأرسلت البعثات لجلب البخور والعطور والتوابل من هذه المناطق . واستمر حكمها ٢٢ عاما تميز بالرخاء والسلم . ومن أهم الآثار التى تركتها معبد الدير البحرى . وهو معبد هائل فى سفح تلال طيبة نقشت على جدرانه أخبار رحلتها التى أرسلتها فى أفريقيا . وفى أواخر حكمها تمرد عليها بعض أمراء سوريا .

تحوتمس الثالث :

شارك والدته حاتشبسوت فى الحكم . وبعد وفاتها انفرد بالحكم . وعزم على القضاء على تمرد أمراء الشام واستعادة نفوذ مصر فى الشمال . وخاصة أن دولة ميتانى بدأت تلم شملها وتعترف بملك واحد بعد أن كانوا أمراء متفرقين . وبدأوا يثيرون القلاقل لمصر . واستمالوا إليهم عددا من رؤساء القبائل والمدن فى الشام . وكان منهم أمير قادش الذى استولى على مجدو وجعلها مركزاً لأطماعه ومد نفوذه حتى مدينة شاروهين أو شاروحين . التى كان قد اعتصم بها الهكسوس بعد طردهم من مصر وقام أحمس بحصارها وطردهم منها (ص ٥٤٠) . وتجددت مخاوف المصريين من غزو على غرار غزو الهكسوس . واحتمال قيام بنى إسرائيل بتمرد داخلى يسهل ذلك . فكان أن شدد الرقابة على أرض جاسان التى يقيم بها بنو إسرائيل . كذلك لجأ تحوتمس الثالث إلى أخذ المبادرة العسكرية واتباع أسلوب الهجوم الخاطف .



شكل ١٠٠ – أملاك مصر فى عهد تحوتمس الأول

= شلالات نهر النيل

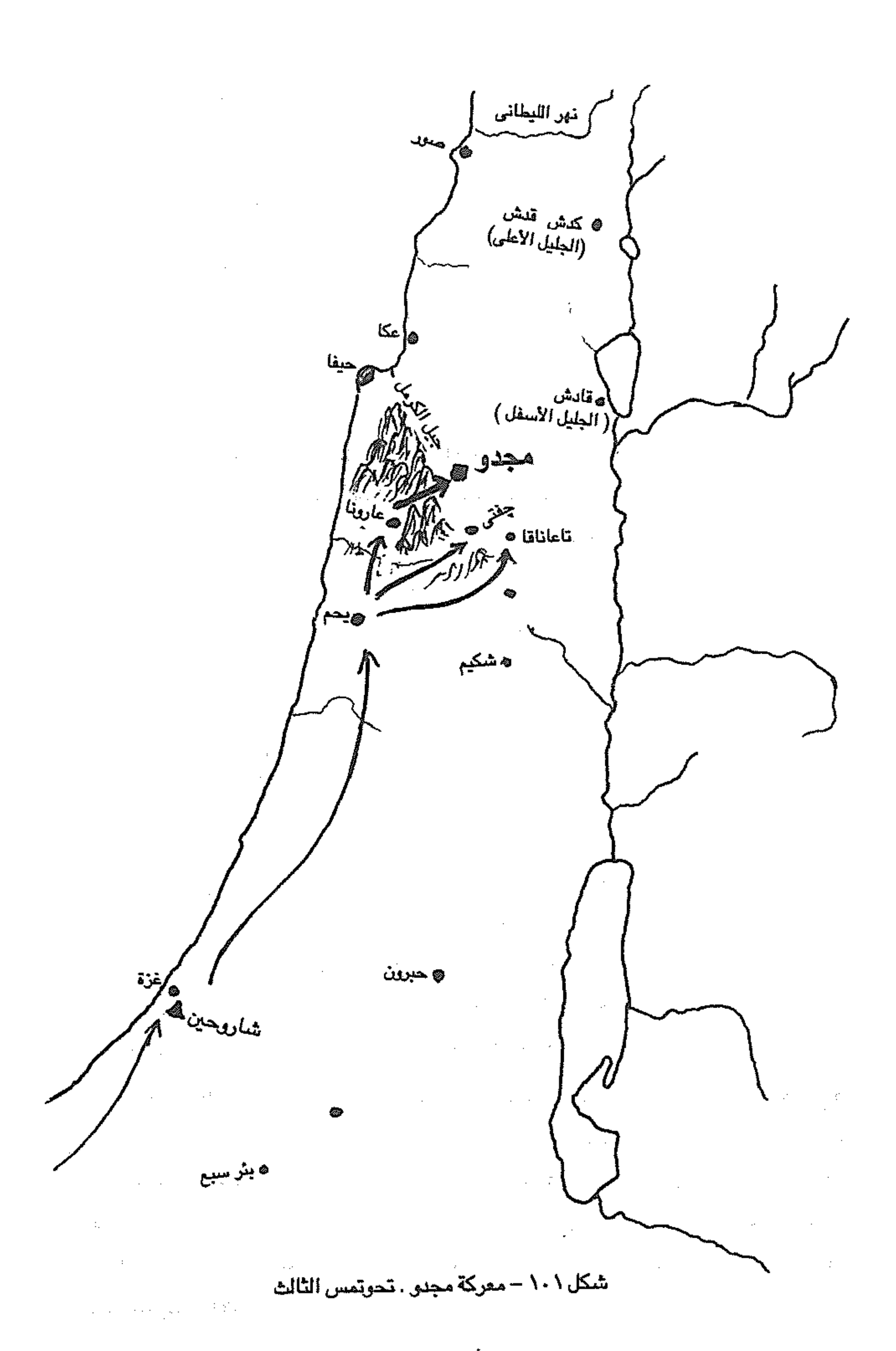
معركة مجدو Megiddo :

سنذكر هذه المعركة وكيف انتصر فيها تحوتمس الثالث . بشيء من التفصيل إذ أن هناك معركة مماثلة . قام بها رمسيس الثانى - فيما بعد - هى معركة قادش . ولكنها كادت أن تكون كارثة . إذ هلك أحد فيالق جيشه بسبب خدعة قام بها اثنان من البدو . من المرجح أنهما كانا من العابيرو . وهم ذلك النفر من بنى اسرائيل الذين خرجوا مع الهكسوس . وسيأتى تفصيل ذلك فى الجزء الرابع إن شاء الله .

كان لـمَّا يمضى إلا شهور قليلة على إنفراد تحوتمس الثالث بالحكم حين جوبه بتمرد أمير قادش بتحريض من دولة الميتان . فأسرع بإعداد جيش قوامه ١٠ - ١٥ ألف جندى - أغلبهم من المشاة . وسار بجيشه من منطقة ثارو (تل أبو صيفة شرق القنطرة الحالية) . حتى وصل إلى غزة فى ٩ أيام واستولى على شاروحين . ثم واصل الزحف شمالا حتى بلغ جبل الكرمل ونزل فى بلدة يحم Yahem . وكان هناك ٣ طرق تؤدى إلى مجدو : (شكل ١٠١) .

طريق يمر ببلدة عارونا Aruna ثم يخترق جبل الكرمل فى ممر ضيق فيصل إلى مجدو مباشرة . أما الطريقان الآخران فيدوران بعيدا عن جبل الكرمل من ناحية الشرق . أحدهما يمر ببلدة تاعاناقا والآخر يمر ببلدة جيفتى . ولذلك فهما أطول ولكنهما أوسع ويسمحان للجيش بالمرور بأمان . وتخوف ضباط تحوتمس من سلوك طريق عارونا الذى يمر فى مضيق فى جبل الكرمل لاحتمال تصيُّد العدو للجنود أثناء مرورهم فى المضيق بالجبل . ولكن تحوتمس آثر المغامرة متحملا المسئولية كاملة . ولم يكن العدو يتوقع منه سلوك هذا الطريق . ففاجأهم فى الخلاء خارج مجدو . كانت جيوشهم تتقدم نحو تاعاناقا لملاقاته . فهاجمهم من الخلف . فتشتت العدو ثم ولى الأدبار وأسرع تاركا عتاده واحتمى بالحصن . ولم يواصل الجيش المصرى الهجوم ليقضى على العدو . بل انهمك الجنود فى الاستيلاء على الغنائم . فترك للعدو فرصة يلم فيها شمله ويتحصن وراء الأسوار . وأنب تحوتمس جنده قائلا : لو تابعتم الهجوم واستوليتم على المدينة لقدمتم للإله « رع » قربانا هائلا . فرؤساء البلاد العاصية جميعا فى داخل المدينة والاستيلاء عليها يعدل الاستيلاء على ألف مدينة !

أمر تحوتمس الثالث بمحاصرة المدينة حتى استسلمت بعد سبعة أشهر وكانت الغنائم هائلة : ٩٢٤ عجلة حربية - ٨٩٢ مركبة - ٢٠٤١ حصانا - ٢٠٠٠ فرسا - ١٩١ مهرا - ٢٠٠ درعا - ٢٠٠٠ رأس من العجول - ١٩٢٩ بقرة - ٢٠٥٠٠ ماشية . وبلغ الأسرى من المحتمين بالمدينة : ٤٧٤ فرد - ٣٨ من السادة - ٨٧ من أبناء الأمراء - ٥ من الأمراء - ١٧٩٦ عبيد وجوارى - هذا بخلاف القطع النفيسة والأوانى والتماثيل الدقيقة الصنع من الذهب والفضة والعاج والأحجار الكريمة والأبنوس .



شكل ١٠١ – معركة مجدو . تحوتمس الثالث

وبانتصاره في هذه المعركة أعاد تحوتمس الثالث النفوذ المصرى إلي فلسطين وفينيقيا (لبنان) . وبعد أربعة أعوام قاد جيشه إلي قادش على نهر العاصى . وهى مدينة حصينة (وسيجيء ذكر معركتها أيام رمسيس الثانى فى الجزء الرابع بإذن الله) ونجح تحوتمس الثالث فى هزيمة أميرها وخضعت له سوريا كلها .

كان تحوتمس الثالث سياسيا بعيد النظر . فسمح للشعوب الشمالية – بعد الانتصار عليهم – بالاحتفاظ بحكامهم . على أن يكونوا تابعين لامبراطوريته . وجاء بأبنائهم إلى مصر ضمانا لولاء آبائهم له . وليربيهم فى كلية الأمراء التى أنشأها فى مدينة طيبة . ويغرس فى قلوبهم حب مصر . حتى إذا آل إليهم حكم بلادهم – بعد موت آبائهم – عادوا إليها وظلوا على ولائهم لفرعون . من أتباعه المخلصين . يدفعون الضرائب له . ويتطلعون إليه ليحميهم من الأعداء . وكان يخرج فى كل عام فى جيشه يجوب به سوريا وفلسطين توطيدا لنفوذه . وإرهابا لمن تخول نفسه التمرد عليه . وكان ملوك بابل يرسلون إليه الهدايا الثمينة تعبيرا عن ولائهم وصداقتهم . وكذلك فعل الحيثيون . سكان مملكة خاتى أو خيتا . فى آسيا الصغرى وأصبحت الامبراطورية المصرية فى أوج اتساعها كما فى (شكل ١٠٢) .

أمنحتب الثانى :

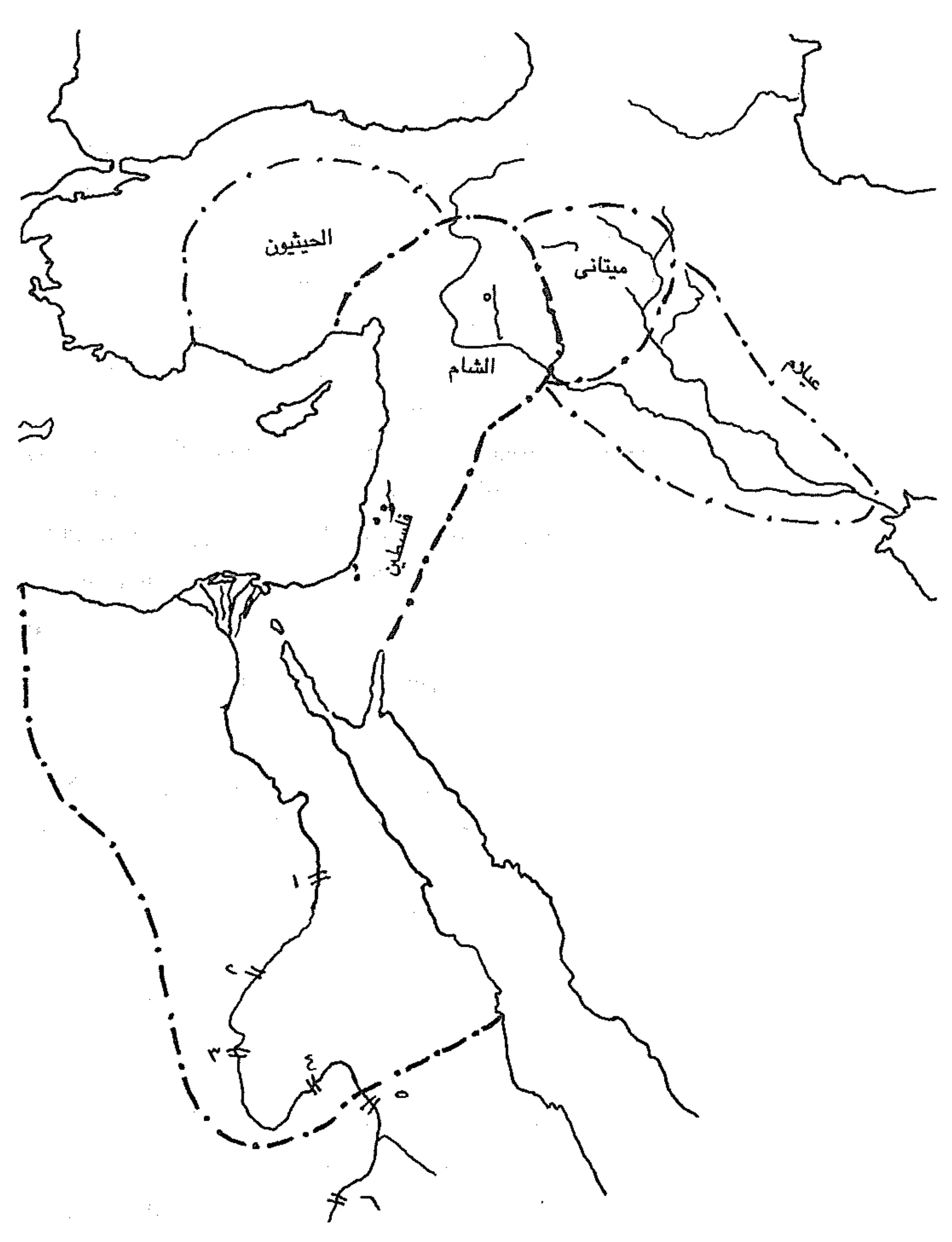
تولى الحكم وحافظ على الامبراطورية التى آلت إليه .

تحوتمس الرابع :

كانت مصر ودولة ميتانى هما المسيطرتان على الشرق الأدنى القديم . ثم ظهرت أطماع الحيثيين – دولة خاتى – التى قامت فى آسيا الصغرى . وبدأت تستولى على أجزاء من ميتانى حتى أطلت على الفرات الأعلى من شمال سوريا . ورأت مصر وميتانى أن توثيق الروابط بينهما هو خير وسيلة لدرء هذا العدو . وكانت المصاهرة السياسية هى الوسيلة لذلك . وخطب تحوتمس الرابع لنفسه ابنة ملك ميتانى . ولم يكن ذلك شيئا جديدا على البيت المالك المصرى . فقد سبق أن تزوج تحوتمس الثالث ثلاث زوجات آسيويات . إلا أنهن كن دائما فى منزلة الزوجات الثانويات . إلا أن الجديد أن تحوتمس الرابع جعل من زوجته الميتانية زوجة رئيسية فى قصره. ولما أنجب ابنه أمنحتب الثالث . خشى هذا الأخير أن يعيبه أن أمه ميتانية . فادعى هو وأنصاره أن « آمون » أنجبه منها بنفسه – أو من روحه بعد أن اختارها وارتضاها لذاته . وصوروا هذا الإدعاء فى لوحات فنية كبيرة بمعبد الأقصر .

أمنحتب الثالث :

ورث أمنحتب الثالث إمبراطورية واسعة . شملها السلم . وتماسكت أطرافها بفضل السياسة الحكيمة التى وضع أسسها تحوتمس الثالث . وكان المال يتدفق إلى خزائن فرعون من أنحاء



شكل ١٠٢ – اتساع الامبراطورية المصرية
في عهد تحوتمس الثالث

الإمبراطورية فينفق منه الكثير على الإصلاح وبناء القصور والمعابد . مما أحدث رواجا فى كل طبقات الشعب . وبانت مظاهر الترف فى كل نواحى الحياة . كما حدث بعض التراخى فى إرسال الحملات الحربية . وكان أمنحتب الثالث مولعا بالصيد . ويروى أنه قتل فى أثناء حكمه ما لا يقل عن مائة أسد . وتزوج من سيدة شهيرة هى الملكة « تى » ابنة الكاهن « يويا » كبير كهنة الإله « مين » إله أخميم . وأنشأ لها بركة جميلة للنزهة . وعاش معها فى ترف ونعيم . وعم الرخاء فى عصره . يشهد بذلك جدران مساكن الأشراف التى كانت محلاة بالنقوش الجميلة والأثاث المطعم بالعاج والمرصع بالأحجار الكريمة . والأوانى الذهبية والفضية التى كانوا يستعملونها فى الطعام والشراب . وبالطبع فإن مظاهر الترف فى القصور الملكية كانت أوضح وأعظم . وكان لهذا الترف الشديد أثر فى تكوين شخصية ابنه أمنحتب الرابع وهو أخناتون .

وزاد أمنحتب الثالث كثيرا من معابد طيبة . فبنى على الشاطىء الشرقى للنيل إلى الجنوب من معبد آمون بالكرنك معبدا خاصا للإلهة « موت » زوج الإله « آمون » وحفر إلى جواره بحيرة مقدسة . وبنى معبدا آخر للإله آمون فى الأقصر . ثم وصل هذا المعبد ومعبد الكرنك بطريق على جانبيه تماثيل حجرية لكباش جاثية . بين أرجلها تماثيل صغيرة للملك وهو المسمى طريق الكباش . وعلى الضفة الغربية للنيل شيد معبدا هائلا . لم يبق منه إلا تمثالين أقامهما تجاه مدخله أحدهما يمثله ملكا للشمال والآخر يمثله ملكا للجنوب . يعرفان بتمثالى ممنون .

وكانت تقام احتفالات مبالغ فيها بالمعابد الضخمة . ويجىء الفرعون فى المراكب الذهبية وحشد من الكهنة والأثرياء . وكانت تغلق عليهم بوابة المعبد الضخمة فكان الأهالى العاديون لايستطيعون شهود هذه الاحتفالات . وكان الملك يُنظر إليه نظرة تقديس . فلم يكن يسمح لعامة الشعب بالتقدم نحو الفرعون أو الاقتراب منه . وهذا أوجد نوعا من الانفصام بين الشعب فى ناحية والملك وآلهته فى ناحية أخرى . وبحث عامة الشعب عن آلهة تكون أقرب منالا . فعادوا لعبادة الحيوان وخاصة عجل أبيس . كما كان هذا التباعد مساعدا على تقبل الناس لدين جديد فيما بعد .

وفى عهد أمنحتب الثالث زادت الروابط بين مصر والشام وبلاد الميتان – أصهاره – واستضافت مصر بعض معبودات الميتان فى معابدها . فكانت تماثيلها توضع بجانب تماثيل الآلهة المصرية . وزادت المصاهرة بين البيتين المالكين . وكتب ملك ميتان إلى صهره – أمنحتب الثالث – يطلب منه زوجة مصرية . ولكن أمنحتب الثالث ظل ضنينا بأميرات بيته . وأعطاه واحدة من سيدات القصر .

ولما استنام أمنحتب الثالث إلى حياة الرفاهية وجنح إلى السلام بدأ الحيثيون يثيرون القلاقل على الحدود الشمالية . واستمالوا الحكام الأموريين الذين كانوا موالين لمصر فى بيروت وصور

وصيدا وعكا وحول نهر العاصى (شكل ١٠٣) وحرضوهم على التمرد على مصر وفى نفس الوقت كان هؤلاء الولاة يرسلون رسائل كاذبة إلى فرعون يعربون فيها عن ولائهم لمصر .

وبدأت إمارات سوريا وفلسطين فى التمرد . وساعدهم فلول الهكسوس والعابيرو الذين خرجوا معهم عند طردهم من مصر . ولما رأى أمنحتب الثالث ذلك بدأ يتخوف من بنى إسرائيل المقيمين بمصر . فالعابيرو أحد فصائلهم . وزاد من احتياطاته حتى لايفاجأ بتمردهم عليه.

وتمرد من من حكام الأموريين . حاكم يسمى « ريب آدى » استولى على المنطقة من الساحل حول ميناء جبيل (بيبلوس) وإن ظل على إظهار ولائه لمصر . وتمرد حاكم آخر على حوض نهر العاصى هو « عبدو عشرتا » أو « أشرتا » احتل قطينا وحماة . وخلفه ابنه عزيرو الذى انتهج نفس السياسة وبدأ يستهين بالجنود المصريين وهاجم ريب آدى حاكم منطقة جبيل وحاصره بتحريض من الحيثيين . وكان يبعث رسائل إلى فرعون مصر – أمنحتب الثالث – يدعى فيها خضوعه له ويقول : أنا خادم الملك وجرو بيته . وأحرس أرض أمورو كلها من أجل مولاى وسيدى ! فى حين كتب – ريب آدى – إلي الفرعون قائلا : كان حكام كنعان إذا رأوا جنديا مصريا ولوا الأدبار . أما الآن فإن أبناء « عبدو عشرتا » يستخفون بالمصريين ويهددوننى بأسلحة فتاكة .

وفى منطقة فلسطين حدث نفس الشيء . فقد تمرد حاكم مدينة شكيم Shechem وهاجم مدينة جزر Gezer وتعاون مع قبائل العابيرو وسمح لهم بدخول المدينة . وأرسل إلى أمنحوتب الثالث رسالة يقول فيها : إلى الملك مولاى وشمسى . أنا خادمك والتراب الذى تطأ عليه . أجثو لدى قدميك سبعا وسبعا . وهل إذا طلب الملك أن أضرب قلبى بخنجر فهل أخالف أمر مولاى* .

واستمرت خطابات النفاق هذه تصل إلى أمنحتب الثالث ومن بعده أمنحتب الرابع (أخناتون). ويصدقانها لعدم رغبتهما فى الحرب . مما أدى فى النهاية لضياع هذه الأقاليم من حوزة مصر.

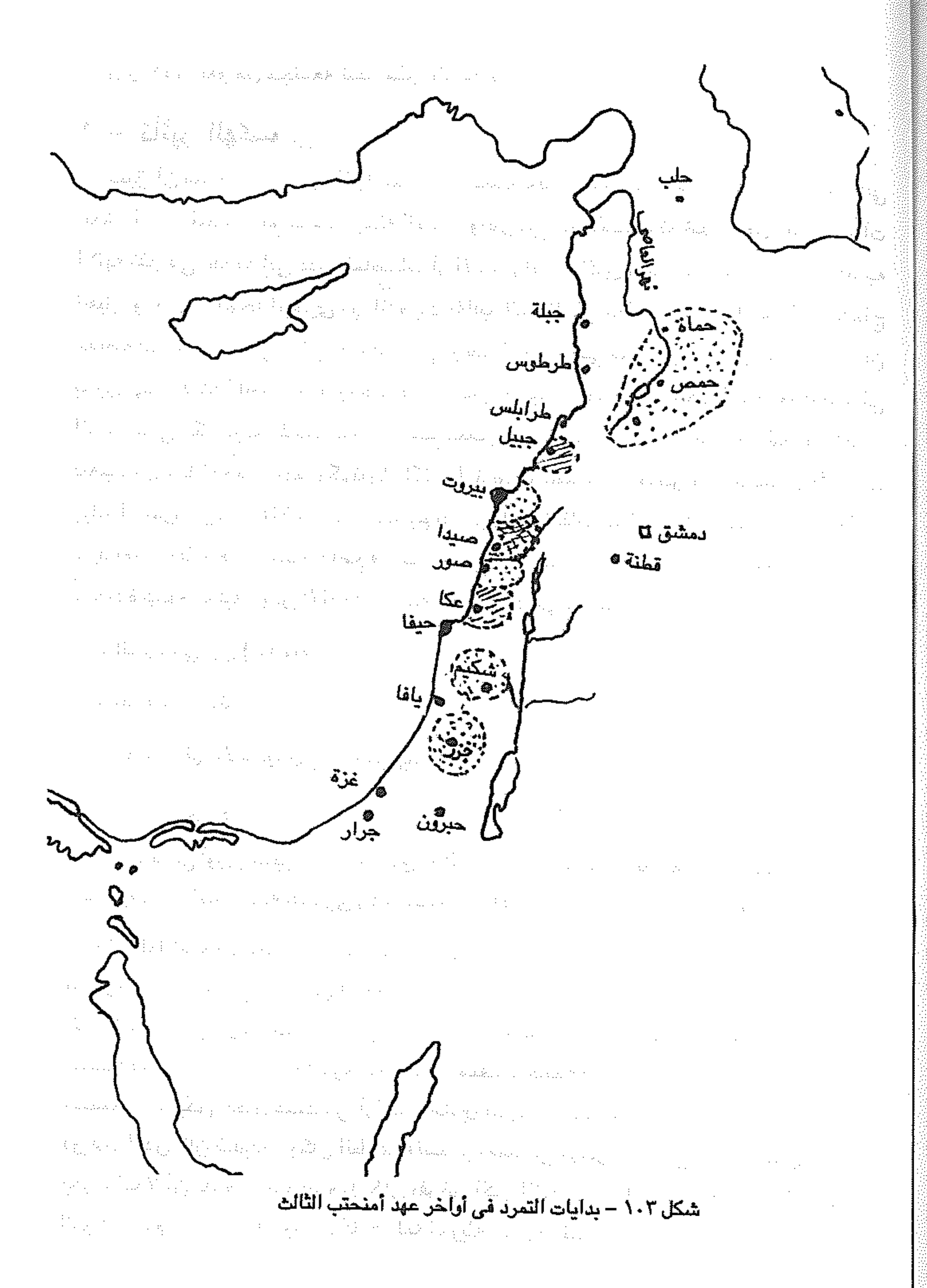
تأثير الأوضاع السياسية في الديانة المصرية :

يمكننا أن نذكر عدة عوامل كان لها أثر فى عقيدة المصريين الدينية فى ذلك الوقت :

١ – الهكسوس .
٢ – الإنفتاح السياسى فى عصر الامبراطورية .
٣ – التباعد بين الفراعنة والشعب .
٤ – وجود بنى إسرائيل فى مصر .

---

* الشرق الأدنى القديم . د . عبد العزيز صالح . جـ ١ ص ٢٤٠ .



شكل ١٠٣ – بدايات التمرد فى أواخر عهد أمنحتب الثالث

ومن هذه العوامل مجتمعة ظهر **فكر التوحيد** .

١ - تأثير الهكسوس :

سبق أن شرحنا فى الجزء الأول ص ٦١ - كيف تعددت الآلهة فى مصر القديمة ووصلت إلى العشرات بل المئات . ثم جاءت مرحلة التمييز والترجيح بين الآلهة . ثم ظهرت آلهة المدن وبدأت الآلهة تقل فى عددها إلي عدد المقاطعات أو الأقاليم التى تتكون منها مصر وهى ٢٢ فى الوجه القبلى و ٢٠ فى الوجه البحرى ثم اندمجت أقاليم الشمال فى مملكة الدلتا . وأعقب ذلك اندماج مقاطعات الصعيد فى مملكة واحدة . ثم توحد القطران فى مملكة واحدة . وكان المتوقع أن يكون لهذه المملكة الواحدة إله واحد ولكن - على مايبدو - كان نفوذ الكهنة قويا ورغبتهم فى الإبقاء على مكاسبهم المادية شديدة . فلم يعملوا على دمج الآلهة فى إله واحد للبلاد كلها - فبقيت كل مقاطعة لها إلهها وكهنتها ولكنها ارتبطت بعضها مع بعض برباط عائلى على نمط رباط الأسرة . وبقيت المقاطعات كتقسيم إدارى ولكنها كانت أيضا مناطق نفوذ دينى . ولكن نفوذ بعض المقاطعات ساد وتعاظم فى فترات مختلفة وظهرت آلهة كبيرة وإن ظلت الآلهة الأخرى موجودة كآلهة محلية . ومن الآلهة الرئيسية التى ظهرت فى مراحل زمنية مختلفة كان :

« آتوم » فى أون (هليوبوليس)

« بتاح » فى منف .

« تحوت » فى الأشمونين (هيرموبوليس)

« آمون » فى طيبة .

ثم ساد فى أون (هليوبوليس) « حور » إله السماء . صاحب العينين العظيمتين : الشمس عينه اليمنى . والقمر عينه اليسرى وكان تحوت هو الإله القمرى . و« نوت » هى إلهة السماء .

وتخيلوا النجوم أبناء لإلهة السماء « نوت » تلدهم فى المساء وتبتلعهم فى الصباح . أما النجوم التى لاتختفى فهى من أتباع « أوزريس » و« إيزيس » وقد ذكرنا قصتهما فى الجزء الأول (ص ٦٨) . ولاهوت الأشمونين (ص ٧٢) و« آمون » . روح الهواء فى طيبة . الذى ذاع صيته فأصبح إلها رئيسيا . وحينما كانت منف عاصمة الدولة جعل كهنتها « بتاح » إلها رئيسيا . لم يكن الحال كذلك فى أراضى مابين النهرين . فقد قلنا إن الصراع والحروب بين دويلات المدن كان شديدا . وكان الطرف المنتصر يعمد إلى فرض إلهه على الدويلة المهزومة . ولم يكن مقبولا أن يفرض عدة آلهة بل كان يفرض أكبر الآلهة على الخصم . وكان الاندماج بين الدويلات يتم عن طريق الحرب . وكانت آلهة الدويلة المهزومة تتوارى وتختفى .

وقد ذكرنا في الجزء الثاني (ص ٢٠٠) الآلهة المتعددة في العراق القديم . وكان أهم الآلهة يجمعها ثالوث الكواكب : « سين » إله القمر و« أوتو » إله الشمس و« عشتار » إلهة الزهرة . ومعهما « مردوك » رب المشترى . وعلى العموم كانت الآلهة في دول منطقة الشرق الأدنى القديم أقل عددا من آلهة المصريين .

وسبق أن ذكرنا (ص ٤٦٠) أن الهكسوس في أول قدومهم مصر جلبوا معهم آلهتهم « سوتخ » و« بعل » والإله « رشب » وكلها آلهة حرب وتجاهلوا « رع » إله المصريين . ولكن بعد مضى وقت في الحكم . ولمحاولة التقرب إلى المصريين . اتخذوا من معبود شرق الدلتا « ست » إلها رسميا لهم باعتباره إله حرب يشبه « بعل » و« رشب » . وهكذا اطلع المصريون على عقائد الدول الأخرى وكيف أنها تجعل من معبود واحد إلها رئيسيا للبلاد .

ولكن اتخاذ الهكسوس للمعبود « ست » إلها رئيسيا لم يفلح في كسب ود المصريين لما لهذا الإله من سمعة سيئة نظرا لما فعله في أخيه أوزريس (الجزء الأول ص ٦٨) فعاد المصريون لعبادة الآلهة المتمثلة في هيئة الحيوانات مثل عجل أبيس والبقرة وغيرها . وفي الواقع أن هذه المعبودات لم تكن قد اختفت تماما . بل إن الناس – كما كان الحال قديما – كانوا مايزالون يقومون بتربية الثيران المقدسة – العجل أبيس في ممفيس وهليوبوليس و« الكبش » في منديس. المهم أن عدد الآلهة في مصر تقلص كثيراً عما كان قبل الهكسوس .

٢ – دخول المعبودات الآسيوية في الديانة المصرية :

منذ زمن طويل كان لمصر صلات مستمرة بالبلاد الواقعة إلى شمالها وشرقها . وكان التجار الآسيويون يفدون إلى مصر للتجارة في التوابل والعطور والأقمشة الصوفية . وكانوا يجلبون معهم آلهتهم لتحميهم . ولكن كانت الحضارة المصرية تنظر إلى هؤلاء القادمين على أنهم بدو أو رعاة . أقل حضارة – لذلك لم يقتبس المصريون شيئا من ديانتهم .

ولكن بعد طرد الهكسوس وتكوين الامبراطورية المصرية في آسيا زادت الصلات مع هذه البلدان . وكان للمصاهرات السياسية أثر كبير في إيجاد نظرة ندية عند التعامل مع هذه الدول . فمما لا شك فيه أن الزوجات الآسيويات كن يعبدن آلهتهن الأسيوية . ويتأثر بها الأبناء . كذلك كان التجار الآسيويون يفدون ومعهم آلهتهم ويقيمون لفترة طويلة في مصر وقد تحدث مصاهرات بينهم وبين المصريين .

كل ذلك جعل الآلهة الآسيوية معروفة لدى المصريين . ووضع لبعضها تماثيل في المعابد بجوار تماثيل الآلهة المصرية . وبمضى الوقت اندمجت بعض هذه الآلهة الآسيوية في الآلهة المصرية التي تشبهها في طبيعتها* .

١ - الإلهة « عشتار »

وقد سبق ذكرها (الجزء الثانى ص ٢٠٣) بصفتها إلهة الزهرة . أخت الشمس وابنة « سين » إله القمر . وهى ذكر فى الصباح يشرق على الحروب والمذابح وأنثى فى المساء . ترعى الحب والشهوة . ومن أسمائها « عشتارت » و« عشتر » أو« عشتورة » وصوروها واقفة على ظهر أسد أو برأس لبؤة وواقفة على عربتها (شكل ١٠٤) وقد تم الربط أو المؤاخاة بينها وبين الإلهة المصرية « سخمت » فى منف . باعتبار أن كلا من الإلهتين تجمع بين الحب والحرب . وحين مرض أمنحتب الثالث سأل صهره « توشراتا » ملك « ميتانى » أن يعيره تمثال « عشتار » لأنه سبق لها أن مارست قوتها فى مصر فى مناسبة مماثلة . وقد أجابه توشراتا إلى سؤاله وبعث الإلهة . وطلب من أمنحتب الثالث تمجيد الإلهة حتى تمنحهما معا الحماية والعمر الطويل كما طلب إليه أن يردها بعد ذلك بقلب سمح !

٢ - الإلهة « عنات »

وقد اكتسبت شهرة عامة فى مصر أثناء الدولة الحديثة لأنها إلهة حرب وتمثلها الرسوم (شكل ١٠٥) وهى تمسك بيدها درعا وفى الأخرى بلطة حرب . وبعد مدة تمصرت « عنات » بحيث أصبحت إلهة مصرية بحتة واضطرت لنبذ تلك الطبيعة الوحشية . فنراها فى معبد فيلة تكتسب طبيعة مسالمة وتتحول إلى « إيزيس » . وكانت ابنة الملك تسمى « بنت عنات » . وأصبح لبعض هذه الآلهة عُبَّادها . فنراها فى شكل ١٠٦ تتقبل القرابين من عائلة صاحب المقبرة . كما صورت « عنات » و« عشتار » بمثابة درعين للملك وعشتار تقود حصان العربة مع الملك .

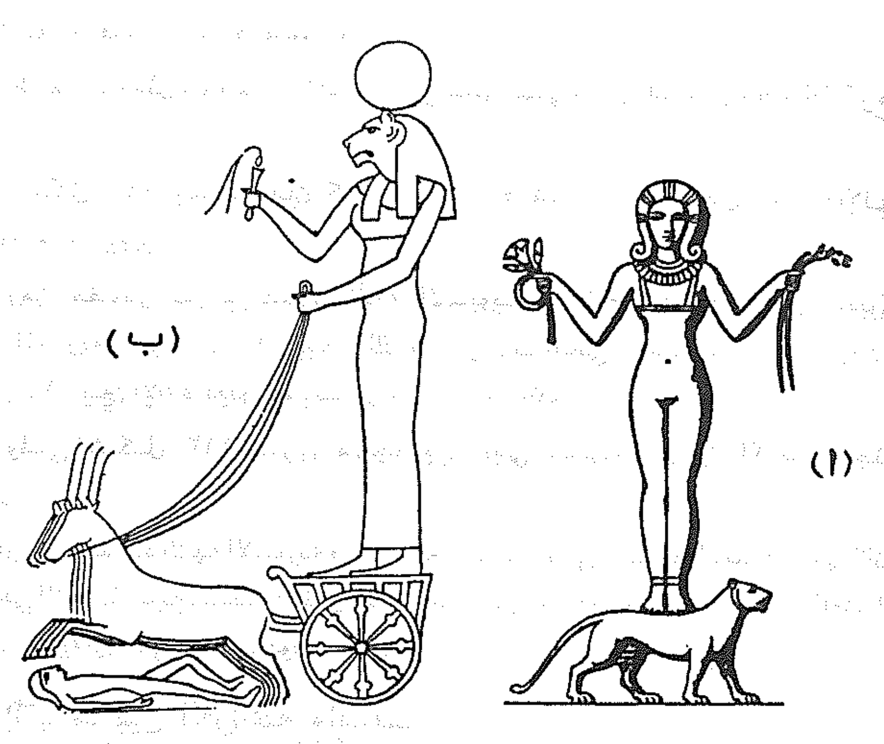
٣ - الإله السورى « رشبو » أو « رشف »

دخل أيضا إلى مصر وارتبط بـ« ست » فى الدلتا الشرقية . وصُوِّر « رشبو » كمحارب مسلح بحربة ودرع . وهو يلبس تاجا لمصر العليا . والتاج يزينه قرنان من الأمام (شكل ١٠٧) . وامتزج أيضا بـ« سوتخ » إله الهكسوس - ونرى ذلك فى شكل ٩٤ ص ٤٦١ إذ يبدو تشابه التاج والقرنين اللذين يزينانه.

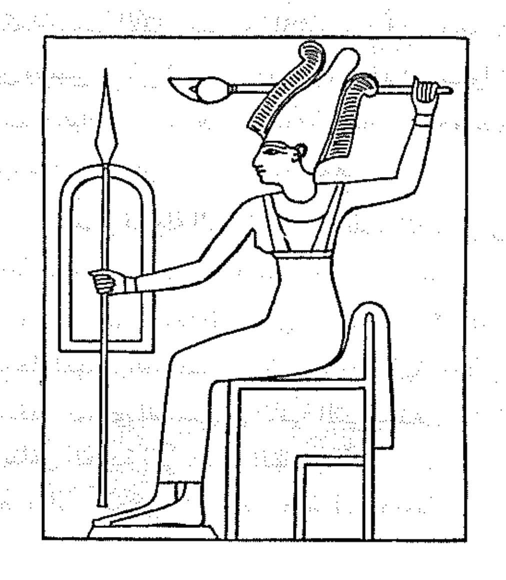
٤ - « بعل » (شكل ١٠٨)

ومعناه « السيد » فى اللغة السامية . ويقرن بـ« ست » أيضا . وهو إله العواصف والزوابع . وهو يقف على الجبال ويزأر فى السماء . و« بعلت » معناها السيدة - وهى زوجة « بعل » .

* مصر والشرق الأدنى القديم . د . نجيب ميخائيل إبراهيم . جـ ٦ ص ١٣٢ .



شكل ١٠٤ – الإلهة « عشتار » واقفة على ظهر أسد (أ) وهى نفسها « عشتارت » برأس لبؤة واقفة على عربتها (ب)



شكل ١٠٥ – الإلهة « عنات » تمسك بيدها درعاً . وفى اليد الأخرى بلطة حرب

٥ – الإلهة « قدش » أو « كدش »

لها طابع سمح مثل « حاتحور » المصرية وهى مثلها تدعى « عين الشمس » أو « ابنة رع » (شكل ١٠٩) .

٦ – شكل ١١٠ يجمع بين كل من الإله « شد » و « حورس » والإلهة الأجنبية « متريوى » .

٧ – ومن مظاهر تكريم بعض الآلهة الآسيوية أن نرى بعضها يعطى البركة للملوك المصريين . وشكل ١١١ يبين الملك « سنوسرت الثانى » أمام **الإله « سوبد »** . وشكل ١١٢ يبين الإله **« ديدون »** يحتضن « تحوتمس الثالث » .

٨ – وفى شكل ١١٣ نرى مزجا بين أبى الهول . وبين الأسد المجنح العراقى .

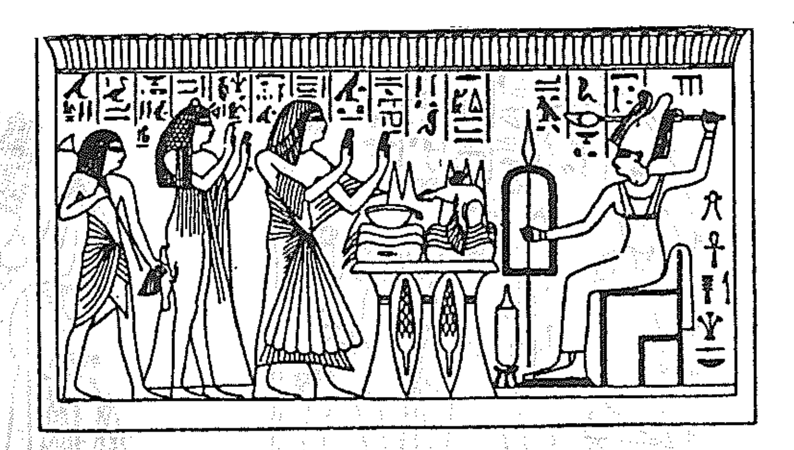
وكان مركز عبادة الآلهة الأسيوية هو منطقة منف . وأعطى بعضها الأوصاف التى كانت تطلق على الآلهة المصرية وسلطت الأضواء على عدد محدود من الآلهة المصرية بدلاً من العشرات أو المئات من الآلهة التى كانت موجودة من قبل .

٣ – التباعد بين الفراعنة والشعب :

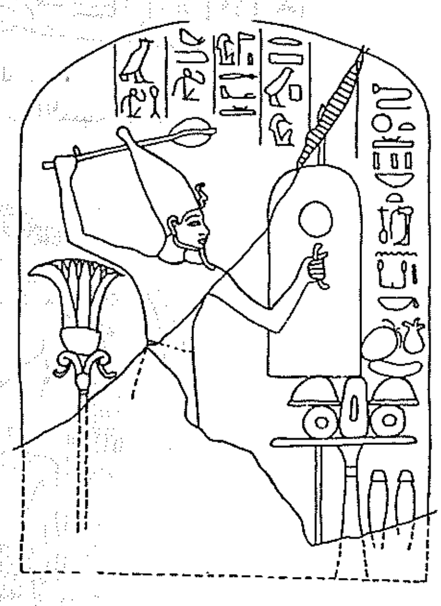
كان المصرى فى عهد الدولة القديمة والوسطى حريصا على المساهمة فى الأعياد الدينية والاحتفالات بتتويج الملوك . فكان يخرج مع أسرته لمشاهدة المواكب ويصلى صلوات الحمد والشكر وينشد الأناشيد مع المنشدين . فى بعض هذه الاحتفالات كان الملك يركب القارب المقدس ويسير به فى النيل وحوله مراكب الأشراف والأمراء . والشعب على الجانبين يهلل فرحا . وكانت الأعياد الدينية عديدة . منها أعياد الآلهة « حور » و « مين » و « شوكر » و « أنوبيس » و « سيشات » و « عيد أوزريس » وغيرهم *.

أما فى عصر الدولة الحديثة – بعد طرد الهكسوس – وقيام حكم دكتاتورى مطلق مصبوغ بالصبغة العسكرية فقد تباعد الفراعنة عن الشعب . وبدلا من أن يكون الملك ابنا للإله – أصبح بعض فراعنة الدولة الحديثة يدّعون الألوهية . كما أن أعياد التتويج والأعياد الدينية أصبحت تقام داخل المعابد الضخمة لايحضرها إلا الكهنة والأمراء والأشراف . ولم يكن الشعب يستطيع مشاهدتها . ورأى الشعب أن الآلهة التى يحتفل بها الفراعنة والكهنة قد أصبحت بعيدة عنه . فبدأ الناس العودة إلى عبادة آلهتهم المحلية سواء كانت فى هيئة حيوانية أو نصف بشرية . وأصبح هناك مايمكن أن نسميه **« فراغا دينيا »** .

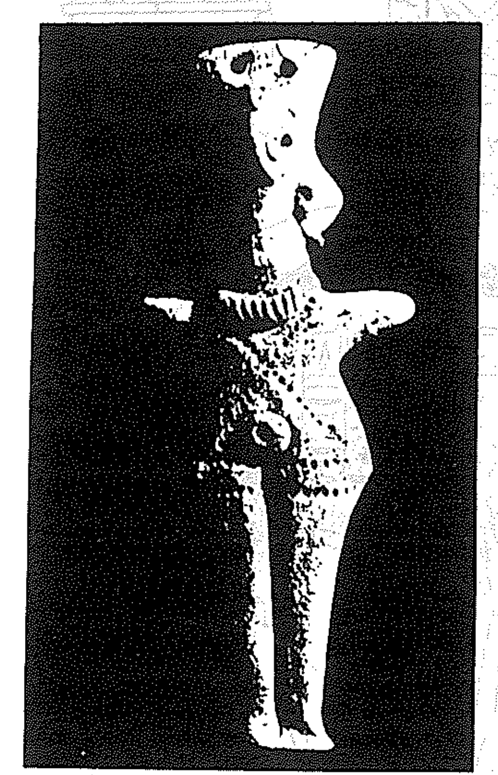
* تاريخ الحضارة المصرية . محمد شفيق غربال . ص ٢٥٦ .



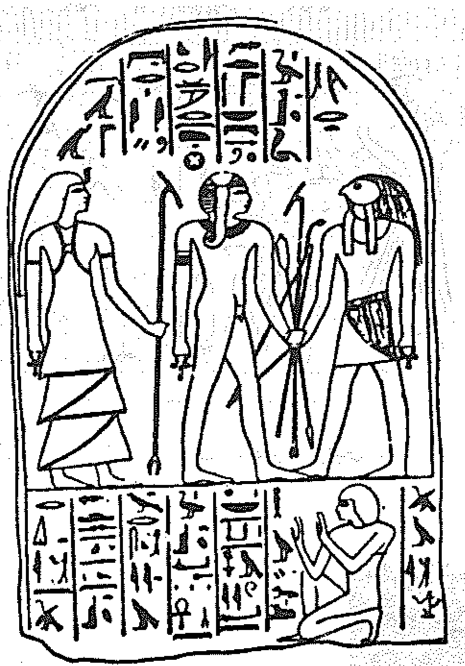
شكل ١٠٦ – الإلهة « عنات » تتقبل القرابين من صاحب المقبرة وزوجته .



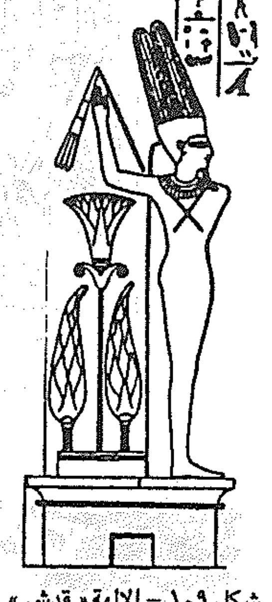
شكل ١٠٧ – الإله « رشبو » .



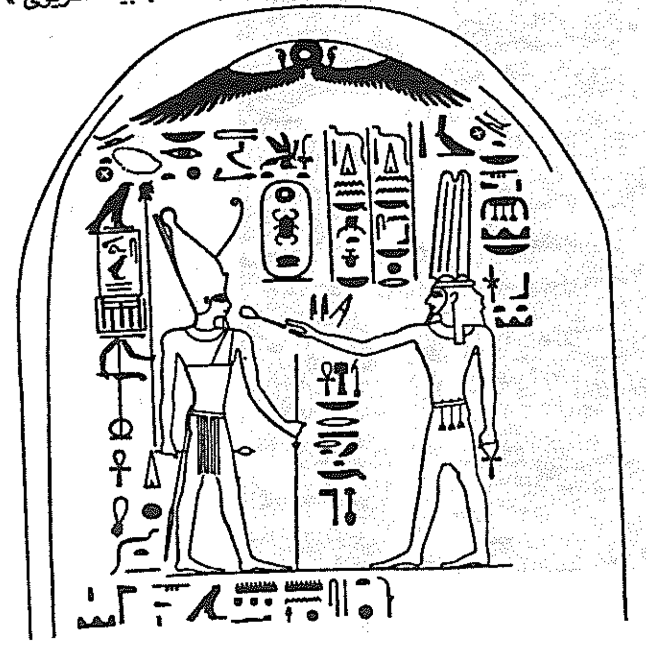
شكل ١٠٨ – الإله « بعل » .



شكل ١١٠ – الإله « شد » بين كل من الإله « حورس » والإلهة الأجنبية « متريوى » .



شكل ١٠٩ – الإلهة « قدش » .



شكل ١١١ – الملك سنوسرت الثانى أمام الإله « سوبد » .

شكل ١١٢ – الإله « ديدون » يحتضن الملك تحوتمس الثالث .

شكل ١١٣ – المزج بين أبى الهول والأسد المجنح العراقى .

٤ - بنو يعقوب (الأسباط) :

هذا هو العامل الرابع الذى نعتقد أن كان له أثر على العقيدة الدينية فى مصر فى هذا الوقت . ولو أن علماء التاريخ لايذكرونه إطلاقا ولايشيرون إليه مجرد إشارة عابرة . ومن الغريب أنهم يقبلون بتأثر الديانة المصرية بآلهة الدول الآسيوية التى تبعد آلاف الكيلومترات . ويتجاهلون تأثرها بعقيدة بنى يعقوب وهم يعيشون مع المصريين على نفس الأرض وبين ظهرانيهم . وبينهم معاملات يومية . ولايستبعد أن تكون حدثت مصاهرات بين الجانبين . إذ أن نشأة علاقات عاطفية بين الجانبين . أمر يتمشى مع الطبيعة البشرية ولا بد قد حدث . ومع المصاهرات يحدث تبادل للأفكار والثقافات. ومن الغريب أيضا أنهم يقبلون بالتأثر من جانب واحد . أى تأثر بنى يعقوب بأفكار المصريين - مع أن المعلوم أن تبادل التأثير هو الشىء الطبيعى - وهو مانسمية فى عصرنا « تبادل الثقافات » فما دامت حضارتان تتجاوران . فلابد أن تتأثر كل واحدة بالأخرى .

وقد تأثر بنو يعقوب بالحضارة المصرية فى عدة نواحى :

١ - أخذوا من الفكر المصرى فكرة تجسيد الإله .

٢ - أخذوا عن المصريين عبادة العجل .

٣ - أخذوا عن الكهنوتيه الفرعونية كثيرا من الطقوس والمراسم الدينية وملابس الكهنة .

وكانت النقطتان الأوليان نكوصا خطيرا عن مبدأ التوحيد الحقيقى الذى جاءت به الملة الحنيفية التى جاء بها جدهم الأكبر إبراهيم وسار عليها أبوهم يعقوب - عليهما السلام . فجاءت التوراة فيما بعد بنصوص صريحة تنهى عن عبادة الأصنام وتدعو لإعادة التوحيد إلى أصله الصحيح . أما النقطة الثالثة . فكانت نقطة شكلية . ولعل التوراة قد أقرتها بل وزادت عليها أشياء أخرى سيجىء تفصيلها فى الجزء الرابع إن شاء الله .

لهذا يكون لزاما علينا أن نقبل **بتأثر المصريين بالأفكار التى كان يدين بها بنو يعقوب** . وكان يوسف عليه السلام أول من أفصح عن عقيدته هذه . حدث ذلك وهو فى السجن إذ قال لصاحبيه :

« إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب . ماكان لنا أن نشرك بالله من شىء . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . ولكن أكثر الناس لايشكرون . ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ماتعبدون من دونه إلا

أسـماء سميتموها أنتم وآباؤكم . ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله . أمـر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لايعلمون » . (٣٧ - ٤٠ يوسف)

هذا ما أوجزه القرآن الكريم . ولابد أن يوسف عليه السلام قد أوضح لصاحبى السجن ماهو هذا الإله الذى يعبده . وبين لهم فساد عبادة الأصنام .

ولا شك أن الذى نجا منهما - وهو ساقى الملك قد تأثر بهذا الكلام . فقد صدق يوسف فى تفسير حلمه ونجا . و مادام قد صدق فى هذه الجزئية فهو صادق فى باقى ماحدث به . ولعله بدأ يسائل نفسه عن هذا الإله الواحد الذى يدين به يوسف . وتفتحت عيناه على الحقيقة التى كانت غائبة عنه - وعن غيره أيضا - وهى أن الناس هم الذين أعطوا هذه الأصنام أسماءها إذ هى أعجز عن أن تسمى نفسها بنفسها . فكيف يعتقد الناس أنها هى التى ترزقهم ويعبدونها ! ولعله آمن بدين يوسف . ولا شك أن الساقى - قد أفضى بما فى نفسه لآخرين واقتنعوا بأقواله.

كذلك مما لاشك فيه - أن يوسف عليه السلام . وقد تولى أمر مصر - ما كان يترك مناسبة يعبر فيها عن فكر التوحيد الذى يدين به إلا اغتنمها . ولاشك أن تأثر به عدد من الناس .

وقد سبق أن ذكرنا (ص ٤٩٠) ما تقوله التوراة : واختار له الملك (ليوسف) اسم صفنات فعنيح . وأعطاه أسنات بنت فوطى فارع كاهن أون زوجة . ولا شك أن يوسف عليه السلام جعلها تؤمن بدينه . وشب ولديه منسى وأفرايم على ديانة التوحيد . ولا شك أن إخوة وأخوات زوجته كانوا يسألونها عن هذا الدين الجديد الذى آمنت به . كذلك لايخلو الأمر أن مقابلات يوسف مع حميه - كاهن أون . كان يتخللها تطرق إلى المسائل العقائديه ومناقشات حولها . ولكن من المؤكد أن يوسف عليه السلام كان يتمسك بمبدأ « **لكم دينكم ولى دين** » فهو لم يكن مكلفا بدعوة المصريين إلى دين إبراهيم الحنيف . ولكن التأثير كان لابد أن يحدث .

ومن المؤكد أن الكهنة لم يكونوا سعداء بما يحدث . ولكن لم يكن بوسعهم أن يفعلوا شيئا . فالهكسوس يسيطرون على البلاد . ويوسف هو كبير وزرائهم أو نائب الملك . وهو قد ترك لهم أرضهم فلم يضمها إلى ملكية الملك كما فعل مع أرض باقى المصريين . وكما جاء فى التوراة (إصحاح ٤٧ تكوين) : فاشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون . إذ باع المصريون كل واحد حقله لأن الجوع اشتد عليهم . فصارت الأرض لفرعون . إلا أن أرض الكهنة لم يشترها . إذ كانت للكهنة فريضة من قبل فرعون . فأكلوا فريضتهم التى أعطاهم فرعون . لذلك لم يبيعوا أرضهم (انظر صفحة ٥٣٢) .

لم تكن ديانة الهكسوس هى التى تقلق الكهنة . فإن كانوا قد قللوا من قدر « آمون » ورفعوا شأن « ست » وجعلوه إلها رسميا للدولة فهو إله مصرى . كما أنهم لم يعمدوا إلى إلغاء باقى الآلهة . وحتى لو كانوا قد جعلوا أحد الآلهة الآسيوية هو الإله الرسمى فإن ذلك لايقلقهم . إذ أن مراكز الآلهة كانت كثيرا ماتتغير تبعاً لقوة أو ضعف المقاطعة التى تتمركز فيها عبادتها . وإن كان « سوتخ » أو « ست » هو كبير الآلهة الآن فسيأتى وقت تعود لـ « آمون » أو « بتاح » أو غيره مكانتهم . ولكن ماكان يقلقهم حقا هو هذه الدعوة التى جاء بها هؤلاء الذين وفدوا على الهكسوس : يوسف وإخوته . والتوحيد الخالص الذى ينادون به ونبذ عبادة الأصنام جميعا . وعبادة الله مباشرة بدون واسطة . وهنا مكمن الخطر – إذ يهدد بزوال سلطانهم ونفوذهم ويهدد بضياع كل مايتمتعون به من خيرات !

لاشك أن الكهنة قد ارتاحوا بعض الشىء عند وفاة يوسف . وظنوا أن دعوة التوحيد سيخفت صوتها . ولكن الأسباط . وهم إخوة يوسف ظلوا على تمسكهم بالتوحيد . بل وظل الوحى ينزل عليهم بتعاليم الله . وقد سبق ذكر ذلك فى ص ٥٢٠ :

« وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط » .

(من الآية ١٦٣ النساء)

وبعد طرد الهكسوس . وضع أحمس العيون حول بنى يعقوب ليرصد أى اتصالات بينهم وبين الهكسوس (ص ٥٤٤) . ولا شك أن ذلك قد أسعد الكهنة . فهذا الحصار الأمنى – سيحد من تسرب فكرهم الدينى.

وفى عهد تحوتمس الثالث كانت الإمبراطورية المصرية فى أوجها وزادت المصاهرات السياسية فى عهد تحوتمس الرابع من تسرب الآلهة الأسيوية إلى مصر . ولكن ذلك لم يكن ليقلق الكهنة كثيرا . فإن تماثيل الآلهة الآسيوية كانت توضع بجانب الآلهة المصرية فى المعابد . ولا يهم أن تقدم القرابين لهذا أو ذاك . ولكن الكهنة شعروا بوجود « فراغ دينى » عند المصريين بعد أن باعدت الدكتاتورية العسكرية بين الفراعين والشعب وبالتالى انصرف المصريون عن الآلهة التى يعبدها الفراعين . صحيح أن البعض عاد إلى عبادة الحيوانات . ولكن بعضا آخر قد افتتن بالفكرة القائلة بأن الإله لابد أن يكون إلها واحدا . وخشى الكهنة أن يبدأ المصريون فى الإيمان بإله بنى يعقوب . ولعل الكهنة قد أفضوا بمخاوفهم هذه إلى الفراعين . وكان لابد من عمل شىء !

نحو التوحيد :

كان من نتيجة **العوامل** السابقة أن عمد ملوك الأسرة الثامنة عشرة إلى توحيد الآلهة بحيث يكون هناك إله **واحد للمملكة** كما كان للهكسوس إله واحد رئيسى فأصبح **« آمون رع »** إله

المملكة وأكبر إله فى البلاد . ومجدوه وسموه ملك الآلهة . كان « آمون » يرمز إلى الهواء . أما « آمون رع » فهو إله الشمس . خالق كل شىء . هو الوحيد . هو « آب الآلهة الذى صنع الناس وخلق الحيوانات . وفرق الناس حسب ألوانهم . خرج الناس من عينيه . والآلهة من فمه . وآمون رع هو عائل كل الحيوانات الحية . هو يسهر فى الليل حتى ينام الناس أجمعون . رئيس كل الآلهة التى تقعى الآلهة عند قدميه كالكلاب . له قلب محب . يستجيب حينما يدعى . ويسمع دعاء ذلك الذى فى كرب وضيق » .

وجاء فى **أنشودة** لتمجيد آمون رع :

المجد لك أى شمس النهار . الذى خلقت الكائنات الحية . وتكفلت بما يحتاجون إليه . أنت أيها الصقر الكبير ذو الريش المختلف الألوان . الذى ولدت لتنشىء نفسك . الذى جئت من نفسك بنفسك دون أن تولد . أيها الراعى القوى الذى يقود قطعانه . أنت ملجؤهم الذى تحفظ عليهم حياتهم .

ونشيد آخر يرجع عهده إلى أمنحتب الثانى يقول :

الحمد لك يا آمون رع . أبو الآلهة . المسيطر فى طيبة . ثور أمه . وأهم من فى حقله . واسع الخطى . سيد كل من فى الصعيد .

أعظم من فى السماء . وأكبر من فى الأرض . رب كل ماهو كائن . الذى يستقر فى كل شىء . لاشبيه له فى الطبيعة . ثور تاسوع الآلهة . ورئيس كل المعبودات .

رب الحق . أب الآلهة ... ويستمر النشيد يعدد ماخلقه آمون رع . ثم يختمه قائلا : ذو الإرادة القوية . وصاحب الطلعة العظيمة . من كثرت لديه الأقوات . ويخلق مايعيش عليه الناس .

الابتهال لك يامن خلقت الآلهة . ورفعت السماء . وبسطت الأرض .

وهكذا تم اختصار الآلهة التى كانت تصل إلى العشرات إلى عدة آلهة رئيسية . وفوقها إله واحد هو أبو الآلهة .

إلا أن هذا – فى نظر أمنحتب الثالث لم يكن كافيا . ولعله أراد أن يركز على إله واحد – يضاهى به الإله الواحد عند بنى يعقوب – فراح يفتش فى المعتقدات القديمة وفى برديات الكهنة . فوجد أن لاهوت هليوبوليس (الجزء الأول ص ٧٣) يقول بأن الإله « أتوم » بدأ وجوده الذاتى من فوق قمة تل أزلى انبثق بدوره من الماء الأزلى . ثم نفخ الإله فى يده وبزق من فمه الإله « شو » وقرينته « نفتوت » واللذين نسلا من خلال ولادة طبيعية بقية المعبودات . ويعزى إلى « آتوم » الذى يعنى اسمه فى اللغة المصرية القديمة « الكامل » أو « المطلق » ثلاث صفات رئيسية :

١ – هو الموجود بذاته . الذى أتى إلى الوجود بنفسه .
٢ – وهو الأقدم أو الأزلى .
٣ – كما أنه « الأوحد » . المتفرد بذاته وسيد الجميع .

أدرك أمنحتب الثالث أنه عثر على ضالته . فإن « آتوم » هو الإله الأزلى القديم وسيد الجميع . ولكنه مرتبط بخلق الألهة والمعبودات الأخرى . فليوجد إله قريب من « آتوم » . ليكون له صفة الأوحد . ولا يكون له ارتباط بآلهة أخرى . وهكذا وجد « آتون » . وبحث عن رمز لإلهه الجديد . كان « رع » يصور على هيئة إنسان له رأس صقر فوقه قرص الشمس . فرمز لـ « آتون » بقرص الشمس فقط .

وفى هذا يقول فرويد* : وفى عهد أمنحتب الثالث كانت عبادة إله الشمس فى إرتفاع . ربما كحركة مضادة ومعارضة لنفوذ آمون فى طيبة الذى طبقت شهرته الآفاق . وتم إكتشاف اسم قديم لإله الشمس هو آتون أو آتوم .

ولكن مايقوله فرويد ليس مقنعا . فقد كانت الآلهة تتعايش بعضها مع بعض منذ أقدم العصور ويتعايش كهنتها بعضهم مع بعض كذلك وكلٌّ راض بمنطقة نفوذه .

« آتوم » فى هليوبوليس . ثم انضم إليه « حور » إله السماء .
و« بتاح » فى منف .
و« تحوت » فى الأشمونين .
و« آمون » فى طيبة .

وظل هذا التعايش بين الآلهة حوالى اثنا عشر قرنا من الزمان . فلا بد أن شيئا ما قد جدَّ . وأفسد هذا التعايش . وأوجد الرغبة فى تسييد إله واحد . وسيقودنا الفكر إلى أن هذا الشىء الذى جد هو التوحيد الخالص الذى كان يدين به بنو يعقوب . فظهور « آتوم » لم يكن – كما يقول فرويد – كحركة مضادة ومعارضة لنفوذ آمون فى طيبة . بل الأرجح أن يكون **« كحركة مضادة ومعارضة لما كان يدين به بنو يعقوب »** .

وفى عيد الماء سمى أمنحتب الثالث قاربه الملكى « آتون يشع » . كما أضاف إلى أوصافه الملكية لقبا جديدا هو : الكاهن الأكبر للإله السعيد فى أفقه . فى اسمه حرارة آتون .

ومن الأناشيد التى وضعها أمنحتب الثالث ليتعبد بها – نشيد تندمج فيه الآلهة كلها فى إله واحد : « رع » و« بتاح » و« آتون » و« حورس » . يقول النشيد :

* سيجوند فرويد . موسى مصرياً . مترجم . ص ٣٤ .

- التسبيح لك . إنك « رع » الجميل كل يوم .

الذى يطلع فى الصباح دون توقف .

- أنت « بتاح » وقد كونت أعضاءك .

أنت معطى الحياة الذى لم يولد .

- المجد لك أى شمس النهار « آتون » .

الذى خلقت كل الكائنات الحية وتكفلت بما يحتاجون إليه .

- أنت « حورس » المسن فى وسط آلهة السماء .

ذلك الذى تصعد نحوه أصوات البهجة فى شروقه وغروبه معا .

وهكذا كانت بداية الاتجاه نحو توحيد الآلهة فى إله واحد .

لم يرزق أمنحتب الثالث من زوجته المصرية إلا بالبنات . وبعد أن تقدم فى السن رزق بولد . هو أمنحتب الرابع (اخناتون) ثم بأخت هى باكت آتون .

وفى أواخر أيام أمنحتب الثالث بدأ الحيثيون يثيرون المتاعب . فقد أغاروا على دولة الميتان . وأرسل توشراتا ملكها - ووالد زوجة أمنحتب الثالث رسالة إلى فرعون يطلب مساعدته فى صد المغيرين . ولكن أمنحتب الثالث لم يرسل نجدة . وبدأ نفوذ مصر يتقلص . وقد سبق أن ذكرنا تمرد عبدو عشرتا وابنه عزيرو حتى دانت لهما تقريبا كل أراضى نهر العاصى بما فيها قطنة وحماة .

ومات أمنحتب الثالث عن عمر يناهز الخمسين عاما (عام ١٣٦٧ ق.م تقريبا) .

أمنحتب الرابع = أخناتون

عندما تقدم العمر بأمنحتب الثالث كانت زوجته هى التى تدير الحكم تقريبا بمفردها . وشب أخناتون فرأى أمه هى المسيطرة على أمور البلاد . وكانت الوصيفات والجوارى يملآن القصر . فنشأ في بيئة نسائية لا تشجع على الخشونة أو الحياة الصعبة التى تتطلبها الحروب .

عامل ثان كان له تأثير فى تكوين شخصية أخناتون . ذلك أن القصر الملكى فى طيبة كان على حافة الصحراء عند سفح التلال الغربية . وكانت تحلى سقوفه وأرض قاعاته مناظر تمثل حياة الحيوان والطيور والأسماك . وتحيط بالقصر حدائق نبتت بها زهور جبلية . وإلى جانبه بحيرة للنزهة تحيط بها الأشجار الآسيوية . كان يستطيع هناك أن يجلس الساعات الطوال يتأمل محاسن الطبيعة . ويزيد ضوء الشمس من إيقاظ اللذة والشعور بجمال الطبيعة . وهكذا كان الأمر وكأنَّ الطبيعة تتآمر على خلق إنسان تشربت نفسه بحبها .

جعل هذان العاملان من أخناتون . شخصا رقيق العاطفة . ضعيف البنية . محبا للسلام . تملأ ذهنه أفكار عن علاقة المرء بالألوهية والطبيعة. زد على ذلك أنه أصيب فى طفولته بأمراض أثرت على تكوينه الجسمانى فكانت رأسه ضخمة . ووسطه رفيع وأكتافه ضيقة . وبطنه متدلية وساقاه رفيعتان .

وتولى أخناتون الحكم وهو صغير السن ، فى سن ١١ سنه . وتزوج من الأميرة نفرتيتى . وفى مراسم التنصيب وصف نفسه بأنه : المحبوب من « آمون رع » . سيد السماء . الكاهن الأكبر للإله السعيد فى سمائه . **فى اسمه حرارة « آتون »** .

وتوجس كهنة آمون بعض الشيء لإضافته هذه الفقرة عن « آتون » وإن هدأ من مخاوفهم وصفه لنفسه بأنه المحبوب من « آمون رع » .

وبدأ أخناتون فى الدعوة إلى مذهبه على مهل لإدراكه مدى الصدمة التى سيشعر بها الناس لو فاجأهم بدين جديد كل الجدة . لذلك فإنه فى البداية أوحى إلي الناس أنه لايطلب منهم غير العودة إلى معبود أجدادهم الأولين « رع حار آختى » وهو نفسه « آتوم » أو « آتون » . وكان الناس يسمونه « الوالد » . ولم يهتم كهنة « آمون » بذلك الأمر . على أساس أن الإله الأكبر « آمون رع » راسخ فى قلوب الناس وأنه لا غزو ولا نصر إلا بمساعدته ومؤازرته للجيوش .

وبعد سنوات قليلة من بدء حكمه أقام معبدا جديدا لعبادة « آتون » في طيبة . قلعة آمون . وكان هذا أمرا صدم شعور الكهنة والمهيمنين على عبادة « آمون » إله العاصمة الرسمى . وظن الكهنة أن « آتون » سيكون واحدا من الآلهة الأخرى التى كانت تجاور « آمون » فى طيبة . مثل « بتاح » و « مين » وعشرات الآلهة الصغار . وكانت تقاليد عبادة آمون تستلزم أن يقوم الملك – فى مواكب أعياده – حين يخرج من معبد آمون – بزيارة بتاح وغيره من الآلهة الصغار .

ثم أعلن أمنحتب الرابع (أخناتون) أن « رع » ماهو إلا النور الذى فى الإله « آتون » . وبذلك وضع « آتون » فى مرتبة أعلى من « رع » . ولفظ « آتون » من معانيه « الكوكب » وهو يعنى كوكب الشمس . وله دلالة لاهوتية تعنى الإله المتحكم فى هذا الكوكب .

وفى السنة السادسة من حكمه . بدأ أمنحتب الرابع يتعصب للإله الجديد « آتون » فغير اسمه إلى « أخناتون » . ثم صدر أمر بتسمية العاصمة طيبة باسم « مدينة إلتماع آتون » . ثم مالبث أن أمر بإغلاق معبد « آمون » ثم بتحريم عبادته . ثم بمحو اسمه من الآثار جميعا . من تماثيل البلاد ومن قمة مسلة حتشبسوت ومن تماثيل آبائه وأجداده . بل إنه رأى أن كلمة « آلهة » أصبحت لاتتمشى مع أهدافه . فأمر بمحو هذه الكلمة . لأن الإله الواحد لا يجمع .

ثم لم يكتف بأن حذف إسم « آمون » فقط . بل أمر بحذف أسماء الآلهة الأخرى . ففى معبد « بتاح » فى الكرنك شوهت أسماء « بتاح » و« حاتحور » . وفى بهو أعمدة تحتمس الثالث فى الكرنك شوهت أسماء جميع الآلهة : أوزريس – إيزيس – حورس – أتوم – منتو .. وغيرهم وحتى العقاب « نخبيت » المحلق فوق الملك لحمايته . شوهت صورته ومحى كذلك اسم التيس المقدس .

ثم فى بردية يدَّعى أخناتون أنه أخذ مبادىء الأتونية عن طريق الوحى الإلهى عن أبيه : كلمات أبى العظيم الذى لقننى روحها . لقد وعيتها فى قلبى وأصبحت مكشوفة أمام وجهى وفهمتها .

وجاء فى خطاب موجه إليه من رئيس وزرائه : إن آثارك ستبقى خالدة كالسماء . لأن خلودك كخلود « آتون » فيها . إن آثارك ستبقى بقاء السماء . أنت الواحد الأحد لآتون فى معرفة خططه . أنت قدت الجبال وممراتها الخفية . رعبك يسرى فى وسطها كما يسرى فى قلوب البشر . هى تستمع إليك كما يستمع البشر .

وهذا معناه أن أخناتون كان ينظر إليه على أنه نبى هذا الدين الجديد .

ثم أدرك أخناتون أن طيبة لم تعد حقلا صالحا لبذر تعاليمه . كما أن جوها الملبد بالمؤامرات والمسمم بالأفكار التى ينشرها كهنة آمون – لا يساعد على انتشار دعوته لإلهه الجديد . ففكر فى بناء مدينة جديدة يكرسها لإلهه . وتكون فى نقطة تتوسط مصر جميعـا . فبناها وسماها « أخيتاتون » وهى تل العمارنة . وعند اختيار مكان المدنية أعلن أن هذا المكان هو المكان الذى اختاره الإله لإقامة العاصمة الجديدة . فهذا المكان لم يكن – من قبل – لأى إله أو إلهة . أو ملك أو ملكة . ورفع يديه إلى السماء وقال : سأبنى أخيتاتون لـ « آتون » أبى فى هذا المكان . ولن أبنى أخيتاتون أقرب إلى الجنوب أو إلى الشمال أو إلى الشرق أو إلى الغرب . ولن أتجاوز علامات الحدود لا فى الشمال ولا فى الجنوب . ولن أبنى كذلك فى الغرب . ولكنى سأبنى فى الشرق حيث تظهر الشمس . أى فى المكان الذى أحاط نفسه بالجبال فيه . وإذا قالت لى الملكة : إنه توجد فى مكان آخر موقع أجمل من هذا . فلن ألتفت إلى كلامها . وإذا قال لى المستشارون أو أى شخص آخر مثل ذلك . فلن أستمع إلى كلامهم. ويعدد الملك المبانى الكبرى التى يريد إقامتها فى المدينة – للإله . ولنفسه . وللملكة . ولايفوته أن يعلن أنه حين يموت هو أو الملكة فإنه يجب أن يدفنا فى أخيتاتون .

وكانت المساحة التى اختارها للعاصمة الجديدة هى ٢٠ كم طولا و ١٣ كم عرضا . وبدأ بأن أقام حول المدينة عددا من اللوحات ليحدد حدودها . ولايزال باقيا منها ١٤ لوحة تكاد تتفق نصوصها جميعا . وفيها يقول : فى السنة السادسة فى الشهر الرابع من الفصل الثانى .

اليوم الثالث عشر . فى هذا اليوم جاء جلالته إلى « أخيتاتون » التى أسماها « أفق آتون » . جاء فى عربة ليؤسسها كأثر لآتون كأمر أبيه « آتون » ....

ثم أمر الحاشية والعظماء وقواد الجند بالانتقال معه إلى العاصمة الجديدة . وفى العام الثامن تم الانتقال الرسمى إلى « آخيتاتون » حيث كان قد تم بناء القصر الملكى والمعابد والهياكل . وكذلك « مارو آتون » الجنة الزهراء . وبها الحدائق والبحيرة والحديقة المائية (شكل ١١٤) *.

وهكذا كانت العاصمة الجديدة وسط دائرة مقدسة . وحبس نفسه داخل هذه الدائرة ليبشر بدينه الجديد . وكتب يقول إنه سيعيش فيها إلى الأبد . فكتب : « حتى يَسْوِد البجع . ويبيضً الغراب . وحين تروح الجبال وتجيء . وحين يسرى الماء نحو المنبع » . أى بمعنى حتى يحدث المستحيل أو « حتى يدخل الجمل فى سَمٍّ الخياط » .

إعتقد أخناتون أن الدعوة لإله واحد يعبده الجميع ويتساوى الكل عنده يمكن أن تربط بين مصر وأتباعها وجيرانها برباط أوثق من التبعية السياسية بالحرب أو بالمصاهرة . ولكن القادة العسكريين خافوا من ضياع سمعة البلاد وتفسخ أملاكها .

واقترح البعض أن أخناتون قد استهدف أساسا تسييد ديانة عالمية تحظى بالقبول من كل شعوب الامبراطورية وذلك بتجريدها من الملامح المصرية البحتة . خاصة فى مصاف الأساطير . ولكن ليس هناك من دليل على محاولته التبشير بديانته لشعوب خارج حدود مصر . فيما عدا بنائه لمدينة فى النوبة سماها « أخت آتون » وبنى بها معبدا لآتون . وبناء مدينة أخرى فى سوريا . اندثرت ولم يعرف مكانها . ولعل أخناتون ظن أن دعوة الحب والسلام ستنتشر وحدها لرغبة الناس كلهم فى الحب والسلام .

وكان أخناتون يمثل « آتون « على هيئة قرص الشمس . تمتد منه أشعة تنتهى بأيد بشرية تمسك بعلامة الحياة . وكأنها تهب الحياة للمتعبدين (شكل ١١٥ ص ٥٨٦) وفى العام الخامس من حكمه . سمى أخناتون نفسه :

« ذلك الذى يحيا من الحق » .

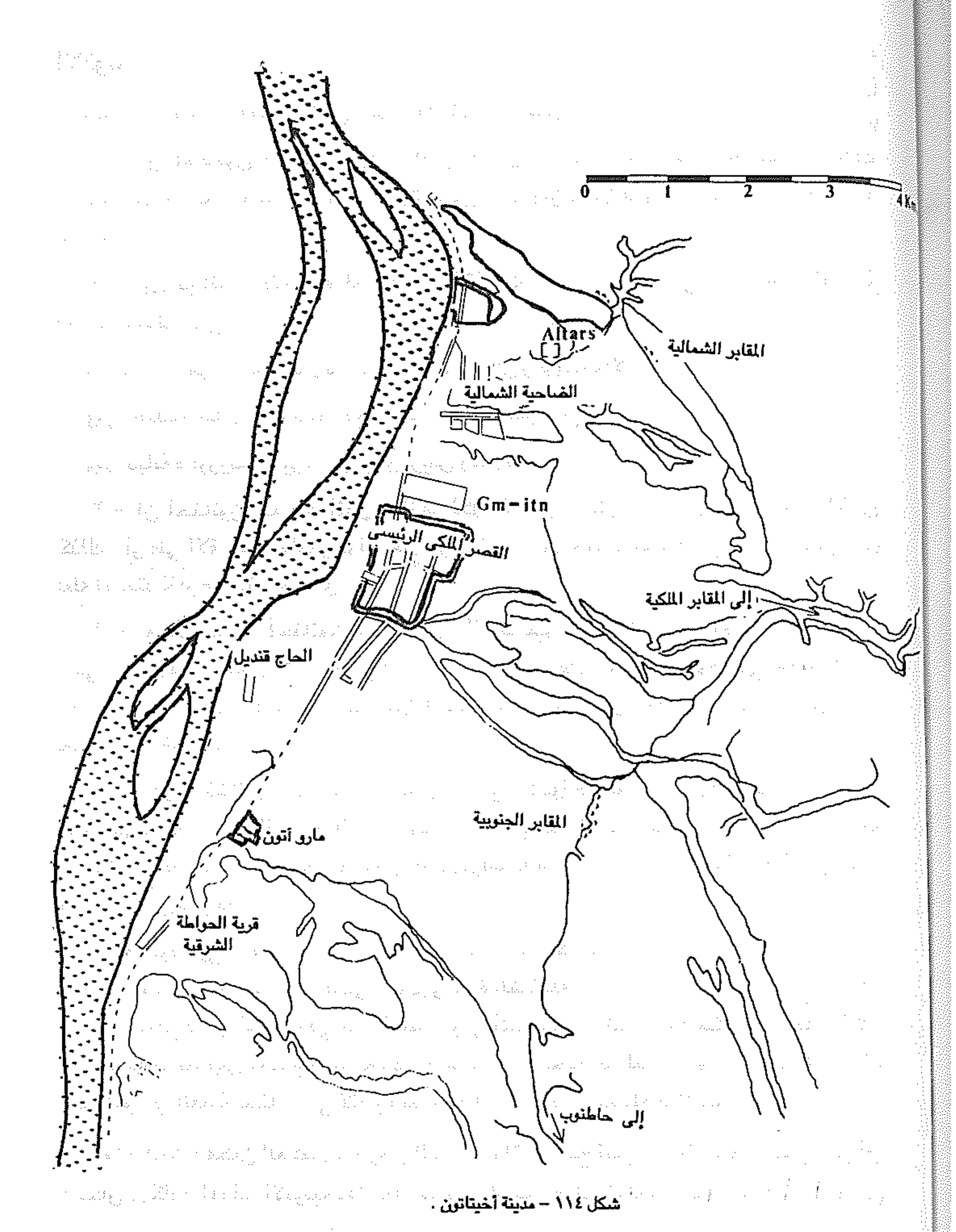
وبعد ذلك بعام أطلق على نفسه :

« ذلك الذى يعرف اسم آتون » .

فجعل من نفسه نبى هذا الدين الجديد . نبى الإله آتون « وهو الذى من واجبه أن يُبصِّر بجمال آتون . ويمجِّد اسمه . وينشر في البلاد المعرفة بخالقه . ويجعل اسمه واضحا للناس لأن أباه الإله تجلى له وأعطاه وحده حق فهم أفكاره وقوته » .

---

* كتاب أخناتون . تأليف دونالد بدفورد . ص ١٤٣ .



شكل ١١٤ – مدينة أخيتاتون .

نقلا عن كتاب « أخناتون » تأليف دونالد بدفورد .

الآتونية :

يمكننا أن نلخص الأسس التى قام عليها المذهب الأتونى فى الآتى :

١ - **إن أخناتون قد نَزَّه إلهه « آتون » عن أن يكون له شبيه** أو نظير . ولذلك لم توجد أى تماثيل أو أصنام فى شكل إنسان أو حيوان ترمز له وهذا بعكس جميع الآلهة السابقة .

٢ - **إن ديانة « آتون » لم تعرف التثليث** الذى اعتدناه فى الديانات المصرية القديمة . فمثلا نرى :

فى ديانة « آمون » نجد أسرة إلهية مكونه من آمون والزوجة والإبن خونسو .

وفى عقيدة « بتاح » يوجد بتاح وسمخت الزوجة ونفرتم الإبن .

وفى ديانة « أوزريس » يوجد أوزير وإيزيس وحورس الإبن.

٣ - إن أخناتون جعل **« آتون » إلها لكل الناس** . لكل المصريين وللشعوب الأخرى كذلك . أو على الأقل هذا ماكان يراود فكره ويتمناه . وإن لم يمتد مذهبه إلى خارج مصر . بل لعله لم يمتد خارج مدينة أخيتاتون !!

٤ - **محت دعوة أخناتون كثيرا من الأساطير** التى كانت مسيطرة على العقول حتى ذلك الوقت . والتى كانت تعطى أوزريس مكانة غير عادية فهو المتصرف فى أقدار الناس بعد وفاتهم . كذلك فقد قوض القول بأن النيل إنما هو أوزريس . وأرجع الفيضان إلى قوى طبيعية يسيطر عليها « آتون » .

٥ - **إن أخناتون قد قضى على جميع أنواع الشعوذة والدجل** التى كان يمارسهما الكهان فى الديانة القديمة . وقام بحملة لإبطال ما كان يتم من ممارسات سحرية لضمان براءة الميت أمام محكمة الموتى التى يرأسها أوزريس . إذ أن كل ذلك قد ألغى . كما ألغى دور أوزريس تماما .

٦ - **الوضوح** . وهنا يظهر الاختلاف الكبير بين كل من « آمون » و « آتون » .* فإن معنى « آمون » هو المختبىء الذى لايرى والقوة الشاملة لكل شىء . وكان يرسم على شكل إنسان . ويقع قدس أقداسه فى آخر المعبد . وفى أشد أجزائه ظلمة . ولايمكن بلوغ هذا المكان إلا بعد تأدية طقوس معقدة لايسمح بها إلا لأشخاص محدودين للغاية . وكان هيكل الإله يُلَفّ أثناء المواكب العامة بغطاء حتى لاتقع أعين بقية الناس عليه . ويحمله كهنة مختارون .

أما « آتون » فكان العكس . فقرص الشمس ذاته واضح للعيان . ولا يمكن حجبه عن أى إنسان . وكانت المعابد الآتونيه مفتوحة للسماء . لتيسر عبادة الإله فى صراحة واضحة بمنأى

---

* دور مصر فى تكوين الحضارة . فؤاد محمد شبل. المكتبة الثقافية . عدد ٢٧٠ . ص ٥٧ .

عن الغموض . وليس لآتون شكل إنسانى البتة . وانحصرت صلة « آتون » بالهيئة الإنسانية فى أن الأشعة التى تتدلى من قرص الشمس تنتهى بأيد تقدم رمز الحياة إلى العابدين . وليس لآتون صنم . بل هو أثيرى الهيئة . تبدو عظمته للناظرين فى قرص الشمس .

٧ – **التوحيد** : نلاحظ فى « الآتونية » اتجاه إلى فكرة التوحيد . إذ يوجد إله واحد . وكل ماكانت تقوم به جمهرة الآلهة الأخرى ينفرد هذا الإله بعمله . لقد خلق نفسه بنفسه . وهو يعاود كل صباح خلق نفسه . وفى خلال النهار يجوب السماء . ولكنه لايذكر كيف يحدث ذلك. وظل التعبير القديم مستعملا . وهو يقول إن الشمس « تسبح » فى السماء . ولكن لم يعد يُذكر شىء عن السفينة أو التمثيلات الأخرى التى كانت الديانة القديمة تقول بها . ولا يذكر أيضا فى أى مكان تستقر الشمس ليلا . هى ربما تكون فى العالم السفلى . ولكن ليست هناك إشارة صريحة إلى العالم الأخر .

ولم تعد للإله صفات مشتركة مع الصور القديمة لإله الشمس « آتوم » أو « حوراختى » أو « خبرى » وحتى الإسم فقد تحور إلى « آتون » . الذى يمثل كوكب الشمس نفسه . وهو الموزع الأكبر للنعم على كل من يحيا . والحقيقة – هى أن العقيدة الآتونية كانت عقيدة سهلة . واضحة ومفهومة. فهى تفوق بكثير تعدد الآلهة الذى كان موجودا من قبل وكان يدعو إلى الارتباك والحيرة . ولم يكن الكهنة يستطيعون إعطاء إجابة واضحة عن سبب تعدد الآلهة. وإذا كان الإله يستطيع عمل كل شىء فلماذا يشرك معه آلهة أخرى ؟

٨ – **مملكة الموتى:** لما كانت الديانة الآتونية قد ألغت الآلهة الأخرى . ومن بينها إيزيس . وأوزريس إله العالم السفلى . فلم يعد هناك محكمة الموتى المكونة من ٤٢ قاضيا . وليس هناك محاكمة أموات. وإن كانوا يضعون على المومياء الجعل الكبير الذى كان يساعد الميت فى القبر . كما كان ينقش على القبر دعاء لآتون . كما استمر التقليد بوضع التماثيل الصغيرة التى كان عملها هو خدمة الميت فى العالم السفلى . وما زاد هو أن كتبوا عليها دعاء لآتون . واحتفظوا بالتابوت الحجرى الكبير بزواياه الأربع . ولكن بدلا من الإلهتين « إيزيس » و « نفتيس » الممتدتى الأذرع علامة على حمايتهما للميت . حل محلهما إلهة جديدة : هى الملكة !

ولم يذكر شىء عن مملكة الموتى فى مجموعة نقوش تل العمارنة. ولم تعد القبور من السعة كما كانت فى الماضى . وحتى قبر العائلة المالكة لانراه متسعا اتساعا كبيرا. وكان الملك حينما يتحدث عن تأثيث مقبرته فهو لايتحدث عن « الطيران إلى السماء » . بل يتكل دون مواربة عن « الدفن » . ولا يذكر – كما فى الديانة القديمة – أن الميت يتحول إلى روح حية تمثل على هيئة طائر تستطيع الخروج من المقبرة والعودة إليها (الجزء الأول ص ٧٤ وشكل ٢٠) . بل نجد فى الآتونية الاعتقاد بأنه حينما تطلع الشمس . فإنها توقظ الميت فيقوم ممتلئا سرورا ثم يغتسل ويرتدى ملابسه . وعند باب المقبرة يصلى للإله. ثم يذهب إلى صالة المعبد الكبرى ليخدم الشمس . ثم يتنزه فى الحديقة التى زرعها بنفسه ويشرب الماء على شاطىء بحيرته .

٩ – تعددية من نوع جديد : ولو أن الآتونية فى جوهرها كانت تختصر الألوهية فى إله واحد . إلا أن التعددية تمثلت فيها بشكل آخر. فأصبح هذا الإله الواحد يتجلى على أشكال ثلاثة : *

١ – فهو إله الشمس العام المشترك للعالم كله . الإله الطيب الذى يحب الحق . سيد السماء والأرض . آتون الكبير الحى الذى ينير القطرين .

٢ – بجانبه شكل آخر لإله الشمس كما يعبد فى تل العمارنة « آتون الحى . فى بيت آتون . « أخيتاتون » .

٣ – وأما الشكل الثالث الذى يتجلى فيه الإله فهو الملك نفسه .

لقد كان العرف شائعا – منذ العصور السابقة – أن يُعترف بالملك كإله . ولكن هذه الصفة لم تخرج أبدا عن مجال الألقاب والعبارات التقليدية . ولكن فى الأتونية التى طردت أو ألغت جميع الآلهة الأخرى . فقد أصبح فى استطاعة الملك أن يعبد كإله . وكما أن الشمس تخلق نفسها كل صباح . فإنها كذلك تلد يوميا ابنها الملك « وهى تلد بغير انقطاع ابنها العظيم » والشمس تجدد باستمرار طبيعته الإلهية .

هل كان أخناتون نبيا ؟

يقول هيرودوت إن المصريين كانوا أول الموحدين فى العالم . وأن العالم أخذ فكرة التوحيد عنهم . وكثيرون يتبنون مثل هذا الرأى ويقولون إن أول خطوة نحو توحيد حقيقى لإله الكون هى الخطوة التى حققها الملك الفرعونى أخناتون . الذى ثار على عبادة الشمس « رع » مقررا أن الجدير بالعبادة هو القوة المستترة وراءها وجعل قرص الشمس مجرد رمز لتلك القوة .

ويتمادى البعض فى هذا الاتجاه فيقول إن أخناتون كان « نبيا » من الأنبياء الذين أشار إليهم القرآن الكريم بقوله :

« ورسلا لم نقصصهم عليك » . (١٦٤ – النساء)

ولسنا فى حاجة إلى جهد كبير لدحض هذه المقولة الأخيرة . فصحيح أن فكرة التوحيد هى أساس المذهب الآتونى إلا أنها تصطبغ بصبغة التجسد باتخاذ قرص الشمس أو القوة الممثلة فى قرص الشمس رمزا للإله « آتون » . وهذا يهدم كونها إحدى الرسالات السماوية .

---

* ديانة مصر القديمة . أدولف إرمان . ص ١٤١ .

وراح المتشبثون بهذا الرأى يقولون إنه كان يتخذ من الشمس مجرد « قِبلة » له فى تعبده . ولكن من يراجع نصوص الأناشيد التى كتبها يدرك أنه كان يعنى أن الشمس ذاتها هى مصدر القوة . وهى التى تهب الحياة فهو مثلاً يقول فى الأنشودة الصغرى « وتمتد أذرعك » .. وهذا ينفى أن الأتونية كانت وحيا سماويا وينفى كذلك أن أخناتون كان نبيا .

وهذه فقرات من بعض الأناشيد التى دبجها أخناتون يناجى فيها الإله الجديد بالود والحب والتبجيل .

تجليك فى أفقك بديع . « آتون الحى » أصل الحياة .
أنت إلهى . أنت الجليل . أنت المنير . أنت العلى فوق الأرض .

وكانت الأناشيد تعلن أنه – آتون – عظيم المحبة . وأنه أم وأب لكل من خلق . وله يسبح البشر والحيوان والطير والنبات فيقول :

الزهر ونبت الأرض يتفتح لمرآك . وتتملكه النشوة لمحياك .
والأنعام تتراقص على أقدامها .
والطيور فى أوكارها تطوى أجنحتها وتنشرها .
تسبيحا لآتون الحى خالقها .
الأرض بأسرها عامرة بحبك .
والعشب والشجر يتمايل لمطلع وجهك .
رب أحد دون شريك . برأت الدنيا وكنت فردا .
خلقت البشر والأنعام وكل مايسعى على الأرض بقدم . ويحلق بجناح في الفضاء .
وأقطار سوريا والنوبة وأرض مصر .
وجهت كل فرد فيها إلى موطنه . ودبرت للجميع شئونهم .
فأصبح لكل فرد رزقه . وتعين لكل فرد أجله .
وظلت الألسنة بينهم فى النطق متباينة . والهيئات والألوان متمايزة .

ونشيد أخر يقول :

آتون ياضوء النهار . ياعظيم المجد .
بلدانا نائية تهبها الحياة . وترسل الغيث من أجلها .
يموج الغيث فوق الجبال كالبحر الخضم . ويسقى الحقول بين القرى .
ما أجمل تدبيرك رب الخلود .
فيضان فى السماء لأهل القفار . وحيوان الفلا . ومايدب على قدم .
وفيضان سواه لأرض مصر يأتى إليها من دنيا العدم .

والنشيد التالى يسمى « **الأنشودة الصغرى** » منقولة عن ديفيز * :

شروقلك جميل . أى آتون الحى سيد الأبدية .
أنت مشع وجميل وقوى . حبك عظيم وكبير .
أشعتك تظهر على كل ما خلقت .
أنت تملأ الأرض بحبك . أيها الإله المعبود الذى صنع نفسه بنفسه .
الذى صنع كل أرض وخلق ما عليها . البشر والقطعان والماشية .
والأشجار التى تنمو على الأرض . إنها تعيش حين تشرق عليها .
أنت أم وأب لأولئك الذين خلقت عيونهم .
حين تشرق يرون بك لأن أشعتك تضىء الأرض كلها .
كل القلوب تتهلل حين تراك . حين تشرق كسيد لهم .
أنت تغرب فى الأفق الغربى للسماء .
يرقدون كما يفعل الذين يموتون . ورؤوسهم مغطاة . وأنفاسهم تتوقف .
وحين تشرق فى الصباح **وتمتد أذرعك** . أنت تعطى الضوء . فهناك الحياة .
حين ترسل أشعتك تصبح كل أرض فى عيد .
المغنون والموسيقيون وجمهرة الناس فرحون ببناء معبد فى أخيتاتون .
ذلك المكان الكامل الذى أنت به والذى تقدم به كل الأطعمة الدسمة .
ابنك طاهر يعمل كل مايرضيك أى «أتون الحى » فى مراكبه المعروفة .
كل ماصنعته ظاهر أمامك . ابنك المجتهد يتهلل قلبه فرحا .
أى « أتون الحى » . هناك فرح فى السماء كل يوم . ابنك الذى يرضيك .
ابنك الذى يدعم اسمك . قوتك وجهدك ثابتان فى قلبه .
أنت « آتون الحى » . الأبدية نصيبك .
أنت خلقت السماء البعيدة حتى تشرق فيها وحدك وحتى ترى كل ماصنعته .
أنت هو نفسك وحدك . وكل الحيوانات كائنة بك . تعطى لمخلوقاتك الحياة .
كل الأزهار تزدهر . نباتات الأرض تترعرع عند شروقك .
وكل الماشية تقفز على أقدامها .
وكل الطيور تخرج من أعشاشها . وترفرف فى سرور .
وتدور فى ثناء « آتون الحى » .

---

* مصر والشرق الأدنى القديم . د . نجيب ميخائيل إبراهيم ، جـ ٢ ص ٢٠٨ .

وعلى العكس تماما من هذه النظرة الإيمانية التى ترى فى إختاتون « نبيا » نجد نظرة إلحادية ترى أن الأديان السماوية ماهى إلا محاكاة لنظرية التوحيد التى اخترعها أختاتون . وكما سبق أن ذكرنا أن **فرويد*** يدعى أن الديانة الموسوية ما هى إلا تطوير للأختاتونية . ثم يجىء العالم « **برستد** » فيدعى أن مزامير داود مقتبسة من « **الأنشودة الكبرى** » التى وضعها أختاتون للتعبد فى الإله آتون . وقد وجدت الأنشودة كاملة على جدران مقبرة الكاهن « آى » وهو حامل المروحة الملكية (وقد وصل إلى العرش بعد توت عنخ آمون) وننقلها هنا من كتاب الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم** الذى أخذها عن النص العربى للدكتور حسن كمال مترجمة عن « برستد » فى كتابه « تاريخ مصر » . ويقارنها بالمزمور ١٠٤ من مزامير النبى داود . وسنورد فيما يلى فقرات هذه الأنشودة . ومعها فقرات المزمور ١٠٤ من مزامير داود التى يدّعون مشابهتها لها (بالبنط الأسود) حتى تسهل مقارنتها . يليها تعليقنا على كل فقرة :

بزوغك جميل فى أفق السماء يا « آتون » ياحى يامبدىء الحياة .
إذا صعدت فى أفق السماء الشرقى أفضت على الأرض جمالك .
ماذلك إلا لأنك جميل عظيم . نير فى السموات العليا .
تسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك .
أنت « رع » أنت أسرتهم وقيدتهم بحبك .
أنت بعيد عن الأرض لكنك على اتصال معها بأشعتك .
أنت عالٍ . لكن آثارك واضحة فى ضوء النهار .
ليس لهذه الفقرة مثيل من المزمور ١٠٤ .

الليل :

إذا ما غربت فى أفق السماء الغربى أظلمت الأرض . فأصبحت كالميتة .
فيقصد السكان النوم فى حجراتهم مغطى الرؤوس . هادئى الأنوف .
فتسرق أمتعتهم من تحت رؤوسهم دون أن يشعروا .
أما الأسود فتخرج من جحورها . وكذا الثعابين اللداغة .
ويسود الظلام الكون . وتسكن الأرض .
وماذلك إلا لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستريح فى أفقه .

---

* موسى مصرياً . سيجموند فرويد . مترجم . المكتبة الثقافية . العدد ٢٢٧ .
** مصر والشروق الأدنى القديم . جـ ٢ ص ٢١٠ .

والفقرة ٢٠ - ٢١ من المزمور ١٠٤ تقول :

تجعله ظلمة فيصير ليلا . فيه يدب كل حيوان الوعر . الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها .

التعليق : الشبه بسيط جدا .

النهار والانسان :

إذا ما ظهرت فى الأفق . وأشرقت فى النهار كآتون . أضاءت الأرض .

إذا مابزغت أشعتك خفى الظلام . وشمل الفرح قطرى مصر .

كيف لا . وقد أيقظتهم فيغتسلون ويكتسبون . ويبتهلون بأذرعهم إليك وقت شروقك . ثم يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم .

الفقرة ٢٢ - ٢٣ من المزمور :

تشرق الشمس . الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء .

التعليق : التشابه هنا واه جدا . إذ أن المعنى هو حقيقة معروفة للجميع من أن النهار هو للعمل . وتوارد هذا المعنى فى كتابات مختلفة لا يعنى أن إحداها مقتبسة عن الأخرى .

النهار والحيوان والنبات :

البهائم كلها مستريحة فى مراعيها .

الأشجار والنباتات جميلة يانعة .

العصافير تخفق فوق المياة ناشرة أجنحتها إبتهالا إليك .

الأغنام ترقص على أرجلها .

الطيور تحلق فى الجو تتنسم الحياة إذا ما أشرقت عليها .

الفقرة ١٦ ، ١٧ من المزمور :

تشبع أشجار الرب حيث تعشش هناك العصافير .

التعليق : لايوجد تشابه إطلاقا إلا فى كلمة العصافير . فى نشيد أخناتون فهى تخفق فوق المياه ناشرة أجنحتها . وفى المزمور تعشش العصافير . فالمعنى مختلف .

الأنهار والمياه :

تسير السفن مع التيار وعكسه .

وكل طريق عمومى يصبح مسلوكا لأنك ظهرت فى الأفق .

أما السمك فيقفز فى النهر أمامك . هكذا تخترق أشعتك البحر الخضم .

أما الفقرة ٢٥ - ٢٦ من المزمور فتقول :

هذا البحر الكبير الواسع الأطراف . هناك دبابات بلا عدد . صغار حيوان مع كبار . هناك تجرى السفن . لوياثان (التمساح) هذا خلقته ليلعب فيه .

التعليق : ليس هناك من تشابه إطلاقا فى هذه الفقرة .

ففى المزمور : هناك تجرى السفن أما فى النشيد : تسير السفن مع التيار وعلى عكسه . كما أن بالنشيد السمك يقفز فى النهر وفى المزمور التمساح يلعب .

خلق الإنسان والحيوان :

أنت خالق الجنين فى بطن أمه .

أنت خالق نطفة الإنسان .

أنت واهب الحياة للجنين فى رحم أمه ومُلطفه حتى لا يتكدر ويبكى .

كيف لا وأنت المربى فى الرحم .

أنت معطى نفس الحياة لكل مخلوقاتك .

أنت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده أمه .

أنت تهب الحياة للفرخ فى البيضة فيصيح .

فإذا أتممت خلقه ثقب بيضه وخرج منها صائحا جهده واثبا بقدميه .

التعليق : لم يجدوا فى هذه الفقرة تشابها مع أى فقرة في المزامير فتجاوزوها .

الخلق عموما :

ما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها .

أنت الإله الأحد لاشريك لك فى الملك .

خلقت الأرض بإرادتك .

ولما كنت وحيدا فى هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان الكبير والصغير .

والمخلوقات التى تدب فى الأرض أو تطير بأجنحتها .

أنت الذى أحللت كل إنسان فى سوريا والنوبة ومصر فى موضعه .

وأنعمت عليه بحاجاته . فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المحدودة .

لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم وجلودهم .

فسبحانك من مميز لخلقك .

الفقرة ٢٤ من المزمور ١٠٤ تقول :

ما أعظم أعمالك يارب . كلها بحكمة صنعت . ملآنة الأرض من غناك.

التعليق : لايعقل أن تتشابه فقرة من عشرة أسطر مع فقرة أخرى عبارة عن سطر واحد وليس بينها من تشابه فى المعنى أو اللفظ . بل إن هذه الفقرة خير مثال على عدم التشابه !.

رى الأراضى :

أنت خالق النيل فى الدار الآخرة .

أنت أوجدته لتحافظ على حياة الأهالى .

أنت سيد الجميع لأنهم ضعاف .

أنت سيد كل أسرة لأنك تشرق لأجلها .

أنت شمس النهار المهيب فى الأراضى السحيقة كلها والواهب لها الحياة .

خلقت لهم نيلا فى السماء ليسقط عليهم ماؤه .

فيسيل على الجبال كالبحر الزاخر يروى غيطانهم بين مدنهم .

ما أبدع مشروعاتك أيها السيد الأزلى .

فنيل السماء للغرباء والدواب من كل البلاد .

والنيل الذى يأتى لمصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة .

أشعتك تغذى الجنان . فإذا ما أشرقت أينعت وأنبتت بتأثيرك .

فقرة ٦ : فوق الجبال تقف المياه .

فقرة ١٣ : الساقى الجبال من علاليه .

فقرة ١٤ – من ثمرة أعمالك تشبع الأرض . المنبت عشبا للبهائم. وخضرة لخدمة الإنسان . لإخراج خبز من الأرض .

التعليق : إن نشيد إخناتون يشبه المطر . وهو وسيلة الرى فى الأقطار الأخرى كأن هناك نيلا فى السماء يسقط المطر على الجبال . ويقابل بينه وبين نيل مصر الذى يرى أنه ينبع من الدار الآخرة أى من الجنة . وهذا هو لب هذه الفقرات من النشيد . والنظرة المحايدة لاترى أى تشابه مع فقرات المزمور التى أوردها صاحب هذا الرأى . صحيح أن لفظ الإنبات قد تكرر إلا أنه فى الأولى إنبات للجنات وفى الثانية إنبات عشب للبهائم !!

الفصول :

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك .

فالشتاء يعطيهم البرودة . والصيف يهب لهم الحرارة .

أنت الذى رفعت السماء عاليا لتنظر ما خلقت فى وحدتك .
شارقا حيا كآتون . ساطعا متلألئا . ثم راجعا ثانيا حيث ابتدأت .

فقرة ١٩ : صنع للقمر مواقيت . الشمس تعرف مغربها .

التعليق : والاختلاف – وليس التشابه – واضح بين الفقرتين . فنشيد أخناتون لم يذكر القمر إطلاقا وكان يقابل بين الصيف والشتاء . وتعاقب الفصول شتاء . ثم صيف حين تسطع الشمس حارة ثم ترجع ثانية إلى شتاء . وفى حين يقابل المزمور بين القمر والشمس أى تعاقب الليل والنهار وليس تعاقب الفصول .

جمال الضوء :

أنت مبدع الجمال من نفسك .
فالمدن والبلاد والقرى والطرق والأنهار عيون تبصرك أمامها .
كيف لا ؟ وأنت « آتون » النهار فوق الأرض !

التعليق : لم يجدوا تشابها . فتجاوزوها .

تضرعات الملك :

أنت فى قلبى . لايعرفك سوى ابنك أخناتون .
الذى جعلته عاقلا بآرائك وقوتك .
العالم كله فى قبضتك كما خلقته .
إذا أشرقت عليه يحيا . وإذا أفلت مات .
أنت الوجود . ومسبب الحياة للإنسان .
أعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تغرب .
والشكل كله يبطل إذا ما أفلت فى الغروب .
إذا ما أشرقْت جعلت ذلك كله ينمو .. للملك .
لقد وهبت العالم منذ خلقته لإبنك وسليلك .
الملك الذى يعيش فى الحق سيد الأرضين .
نفرو خبرو رع (هو اسم أخناتون) ابن الشمس العائش فى الحق .
سيد التيجان . أخناتون طال أجله .
وأيضا للزوجة الملكية العظيمة . خليلة سيد القطرين .
نوفر نوفرو آتون – نوفرتيتى . العائشة واليانعة إلى أبد الآبدين .

الفقرات من ٢٧ - ٣٠ من المزمور ١٠٤ تقول :

كلها إياك تترجى لترزقها قوتها فى حينه . تعطيها فتلتقط . تفتح يدك فتشبع خبزا . تحجب وجهك فترتاع . تنزع أرواحها فتموت . ترسل روحك فتخلق وتجدد وجه الأرض .

التعليق : والحقيقة الواضحة أنه ليس هناك تشابه من من قريب أو بعيد فى هذه الفقرات. فجوهر هذه الفقرة من نشيد أخناتون هو تمجيد نفسه وأنه هو الذى يعرف آتون . وإنه ابن الشمس . وزوجته كذلك . ثم يذكر أن الشمس هى أصل الحياة . وهى حقيقة لا يعتبر ذكرها فى كتابات مختلفة اقتباسا . فاللفظ مختلف . الشكل كله يبطل إذا ما أفلت - واللفظ الآخر : تنزع أرواحها فتموت . ولم يأت فى هذه الفقرة من نشيد أخناتون إشارة إلى أنه واهب الرزق والقوت - كما قال المزمور : ترزقها قوتها . تعطيها فتلتقط . تفتح يدك فتشبع خبزا . ولكن النشيد يركز على أن آتون وهب العالم كله لأخناتون !!

من استعراض « الأنشودة الكبرى » والفقرات من المزمور ١٠٤ - نجد أنه لا تشابه إطلاقا . وعلى العكس نجد اختلافا كبيرا بين النصين . وإن كان هناك تشابه فهو فى بعض معانى عامة لا تعتبر اقتباسا . وسنعود إلى هذه النقطة مرة أخرى عند الكلام عن داود عليه السلام (الجزء الخامس إن شاء الله) .

ليس هناك مغالاة إن قلنا إن برستد كان متجنيا أشد التجنى حينما أعلن عن هذا الاقتباس المزعوم . وجاء آخرون ونقلوه عنه دون مراجعة لما بنى عليه . ويمكننا أن ندرك غرضه من هذا الادعاء . فإثبات هذا الاقتباس ينفى نبوة داود عليه السلام . وبالتالى ينسحب نفى النبوة على من تلاه من الأنبياء . فليست اليهودية ولا المسيحية ولا الإسلام بأديان سماوية . بل هى تطوير للأتونية التى توصل إليها أخناتون « بعقله » وهو « أول الموحدين » . فالأديان هى « نتاج العقل البشرى » .

هى النظرية اللادينية التى كانت تنادى بها الشيوعية العالمية .

فمما لاشك فيه أن أول الموحِّدين هو آدم عليه السلام . فهو قد شهد بعد خلقه سجود الملائكة له بأمر من الله سبحانه وتعالى . ثم إسكانه الجنة . والأمر بعدم الأكل من الشجرة المحرمة . كل ذلك فصلناه فى الجزء الأول (ص ١٥ ومابعدها) .

ولقد علم الله سبحانه وتعالى أن العقل البشرى سيقصر عن إدراك هذه النقطة - أي التوحيد - لو اعتمد على قدراته الذاتية . دون أن يؤخذ بيده . فيخبرنا الله سبحانه وتعالى - أنه استخرج من آدم - ذريته وأشهدهم على أنفسهم أنه هو الله - خالقهم وربهم .

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا بلى شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » .
(١٧٢ - الاعراف)

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة .

وفى صحيح مسلم : قال رسول الله ﷺ : يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم . وحرمت عليهم ما أحللت لهم .

وأخرج أحمد* . والنسائى . وابن جرير . وابن مردوية . والحاكم وصححه ، عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة . فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرها بين يديه كالذر ثم كلمهم قائلا : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا .

وأخرج مالك فى الموطأ* . وأحمد . والبخارى والترمذى وغيره أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال : إن الله تعالى خلق آدم . ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ... الخ الحديث .

وعن ابن عباس** قال : أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو أذى من الماء . ونقلوا أيضا عن ابن عباس قوله : إن الله مسح صلب آدم . فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة . فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا . وتكفل لهم بالأرزاق . ثم أعادهم فى صلبه .

وروى عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ . واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم – قال أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس . فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى .

والبيضاوى* حمل الآية فى تفسيره على التمثيل . وذكر فيه أن ظاهر حديث عمر لا يدل على استخراج الذرية من صلب آدم دفعة واحدة . إذ لو كان الأمر كذلك لقال : وإذ أخذ ربك من ظهر آدم ذريته . فالمراد بالإخراج هو توليد بعضهم من بعض على مر الزمان . واقتصر على ذكر آدم اكتفاء بذكر الأصل عن ذكر الفرع . فالمعنى أخرج من ظهر آدم أبناءه . ومن ظهورهم أبناءهم . وهكذا إلى آخر السلسلة .

---

* تفسير الألوسى . جـ ٩ ص ١٠٣ .
** تفسير ابن كثير . جـ ٢ ص ٢٦٢ .

ويمكننا – فى عصرنا الحالي . وقد تكشفت لنا بعض المعارف عن الجينات التى تورث الصفات فى الأبناء وقد توصل علماء الهندسة الوراثية إلى أن البعض من هذه الجينات يتحكم فى القوى العقلية والتفكير بحيث أننا نجد بعض العائلات تتوارث المواهب الموسيقية أو الرسم – وغيرها يتوارث الشعر . ولا يزال هناك عشرات الآلاف من الجينات لم تكتشف مهامها أو مواقعها على الكروموسومات . ولعل التجلى الإلهى على آدم عند أول خلقه . وعند إيحائه له بأوامره فى الجنة – كان له أثر روحى هائل على آدم . ويمكننا أن نفترض أن جينا ما على أحد الكروموسومات . قد تأثر بطريقة ما فأوجد فى النفس البشرية وعيا داخليا بوجود « قوة عليا » هى قوة الخالق سبحانه وتعالى . وأن هذا الجين ينتقل من الآباء إلى الأبناء . ومن هؤلاء إلى الأحفاد . وهكذا دواليك فى تسلسل لكل ذرية آدم عليه السلام . وأن آدم عليه السلام قد علم أن هذه « القوة العليا » الخالقة هى الله سبحانه وتعالى . أما الأجيال التالية فكانت فقط تدرك أن هناك « قوة عليا » تلجأ إليها عند الشدائد . ويجىء الرسل فيبينون أن هذه القوة العليا هى « الله » سبحانه وتعالى . أما إذا تركت النفس البشرية لذاتها فى استخلاص كنه هذه القوة العليا – فإنها – بحكم تكوينها – وإدراكها – المحكوم بحواسها – ستلجأ إلي تجسيد هذه القوة العليا بمحسوس . وقد ذكرنا فى الجزء الأول (ص ٦٠) كيف نشأت عبادة الطواطم والأصنام . وتعددت الآلهة تبعا لتعدد المطلوبات من صفات القوة العليا فكانت عبادة قوى الطبيعة . وعبادة الحيوانات .

ويتضح مثال ذلك فى « أخناتون » فهو بصفاء ذهنه . وبحكم نشأته فى أحضان الطبيعة توصل إلى وجود هذه القوة العليا . ولكن لأنه لم يوح إليه . لم يكن فى مقدوره التوصل الى الغيب المطلق الذى يتطلبه التوحيد الحقيقى . فكان أن مثل هذه القوة العليا فى « قرص الشمس . آتون » . أو القوة الكامنة فيها .

ولو شئنا أن نتتبع مسيرة التوحيد الحقيقى لوجدناه فى إدريس عليه السلام . كان نبيا ورسولا . ثم بعد أن رفع إدريس عادت الوثنية من جديد وعاد تعدد الآلهة . وظلت الديانة المصرية القديمة تدور – على مدى مايقرب من ثلاثة آلاف سنة – فى دائرة مغلقة من تعدد الآلهة . إلى أن جاء انفتاح فكرى مع قدوم يوسف عليه السلام وإخوته – الأسباط – وإن كانت نبوتهم قاصرة على حفظ دعوة التوحيد فى ذريتهم ولم يكلفوا بدعوة المصريين دعوة صريحة إليها . إلا أن الإشعاع الفكرى ينتشر تلقائيا . وانعكس هذا – مع أفكار الإله الواحد الوارد مع الإنفتاح السياسى على الشعوب الآسيوية . فبدأ توحيد الآلهة على استحياء فى عصر أمنحتب الثالث . ثم ظهر بوضوح فى فكر أمنحتب الرابع – أى أخناتون – ولكنه تمشيا مع قدرات العقل البشرى – لجأ إلى تجسيد الإله فى قرص الشمس .

ويمكننا أن نقارن هنا . بين أخناتون وتوقفه عند قرص الشمس . واستراح إلى هذه الفكرة . ثم آمن أنه ابن للإله . وبين موقف إبراهيم عليه السلام . (الجزء الثانى ص ٢٣٠) .

« فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر . فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون » .

فقد أيقن أن الإله حى دائما . لا يأفل . فأعمل فكره بدرجة أكبر مما فعل أخناتون . ورفض الشمس كإله . وكان قد تلمس الحقيقة قائلا :

« قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » . (٧٧ - الأنعام)

فهداه الله وأرسل له وحيا من لدنه . واصطفاه برسالته . فكانت الملة الحنيقية . والتوحيد الحقيقى .

« إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » . (٧٩ - الأنعام)

وهذا مالم يفعله أخناتون . إذ استراح لكون قرص الشمس هى الإله واكتفى بأن نسب نفسه لها ابنا ونبيا . ولعل هذا كان مقدرا ليكون شاهدا على أن العقل البشرى به الشعور الداخلى بوجود « قوة عليا » ويجىء الأنبياء والرسل ليوضحوا للناس أن هذه القوة العليا هى الله سبحانه وتعالى .

عود إلى أخناتون :

قلنا إن أخناتون قد استراح إلى فكرة أن القوة العليا فى هذا الوجود هى « آتون الحى » ومثلها فى قرص الشمس .

وتزعم أخناتون مجالس الدعوة . وأعلن نفسه نبيًّا والمتولى نشرها . واختار لنفسه حواريين يعلمهم . كما علمه إلهه . ورأى أن تشييد دور العبادة هو خير سبيل لنشر الدعوة . فعمد إلى الإكثار من معابد آتون فى أمهات المدن المصرية . وجعل مدينة أخيتاتون - العاصمة - مدينة فاضلة تعمل للدين والدنيا معا . تبشر بالإيمان السمح . وتتردد تسابيح الشكر والصلوات لآتون فى معابدها . كما تتردد فى مجالسها الأغانى والأنغام وأهازيج حب الطبيعة والجمال .

وبدأ أخناتون دعوة لتحرير الفنون من عاداتها القديمة . وبدأ بنفسه ففتح مغاليق قصره للمثالين والرسامين . فمثلوه هو وأسرته فى حياتهم العادية . فى فرحهم ولهوهم (شكل ١١٥) وحتى فى حزنهم . واهتموا اهتماما بالغا بدراسة الوجوه* . فصوروا وجهه ووجه زوجته نفرتيتى فى روحانية ووداعة . وصوروه يمرح في عربته . ونفرتيتى تهم بتقبيله فى بساطة (شكل ١١٦) وهو مالم يكن أحد يجرؤ على رسمه من قبل . كذلك صوروه وهو يتعبد فى إخلاص لـ « آتون » (شكل ١١٧) . وكذلك وهو يجود بالعطايا على أتباع الدين الجديد (شكل ١١٨) .

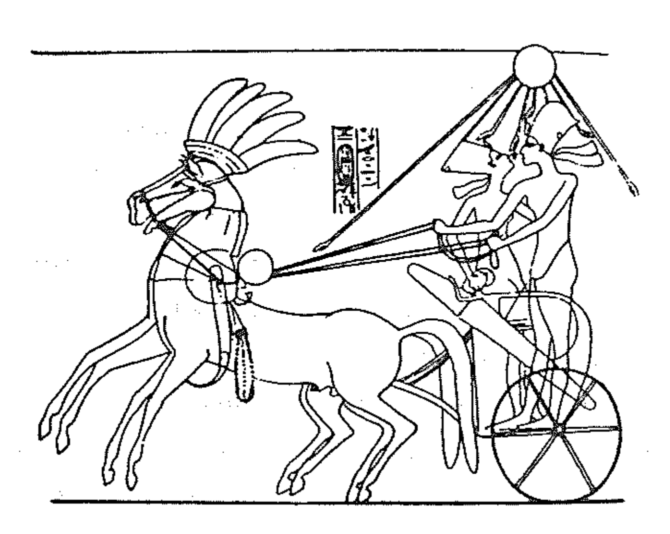
---

* تاريخ الحضارة المصرية . العصر الفرعونى . محمد شفيق غربال . ص ٣٥٢ .



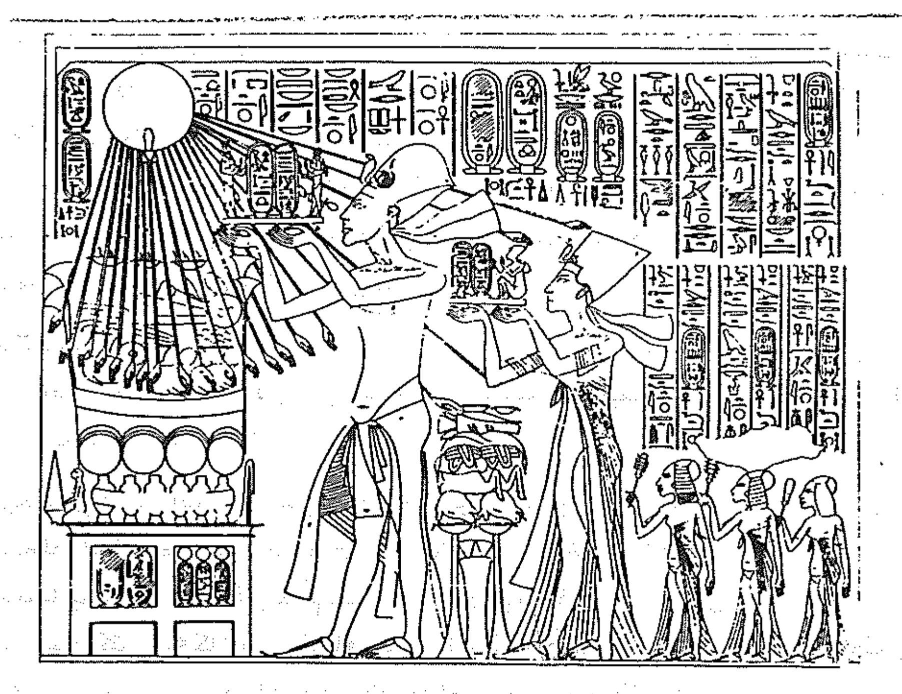
شكل ١١٥ - اخناتون مع زوجته وأولاده

(برلين ١٤١٤٥)



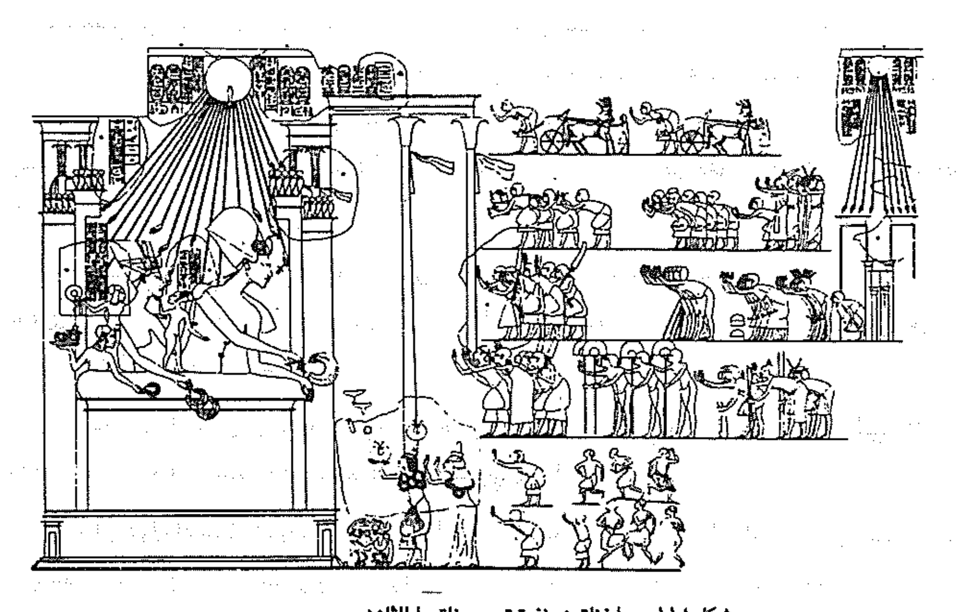
شكل ١١٦ - نفرتيتى تهم بتقبيل زوجها اخناتون فى بساطة مستحبة .

لم يجرؤ المصور على تصويرها قبل عصر العمارنه .



شكل ١١٧ – الملك « إخناتون » والملكة « نفرتيتى »

وخلفهما بناتهما الثلاثة يقدمون القرابين للإله « آتون » .



شكل ١١٨ – « أخناتون ونفرتيتى » وبناتهما الثلاث

ينعمون بالعطايا من شرفة القصر على أتباع الدين الجديد

واعتقد أخناتون أن دعوة الحب والسلام التى يدعو اليها ستنفذ فى أعماق النفوس وأن دينه الجديد له قوة دفع ذاتية تجعله ينتشر من تلقاء نفسه . ولعل ماجعله يتخيل ذلك أن كثيرا ممن حوله أسرعوا بالدخول في الدين الجديد . ولم يضع فى حسابه أن كثيرا منهم قد اعتنقوا الدين الجديد نفاقا . ورغبة فى الانتفاع بالقرب منه . وبسبب المزايا التى كانوا يصيبونها بوصفهم من المقربين من الملك . وأعضاء فى البلاط وجهاز الإدارة الأخناتونى . وكذلك لم يتردد الملك من غمرهم بعطاياه الثمينة لضمان دعمهم له .

والتف حول الملك جوقة جديدة تصف نفسها بأنهم .. أولئك الذين خلقهم الملك الجديد . فهو الذى بناهم . ويصفونه بأنه هو الذى يصنع الكبار والصغار . ويمدحونه لأنه أغناهم . وهو الذى يشبعهم بأطعمته . وليس هناك فقر لمن يحبه الملك ! .

وجاء فى إحدى البرديات التى كتبها أحد هؤلاء المقربين القول بأن « الملك جعل منه رجلا . وسمح له بالاختلاط بالفصحاء والمستشارين ولم يكن يظن أبدا أنه سيأتى يوم يتصل فيه بالمستشارين ولكنه صار الآن كاتم سر الملك . الذى جعله غنيا بعد أن كان فقيرا ». ويحكى آخر فى سذاجة أكثر : أنه كان فى حالة فقيرة من ناحية أبيه وأمه . ولم يكن يملك شيئا . وكان من حثالة الشعب يلتمس خبزه. ولكن الملك خلقه وأطعمه . وسمح له بالاختلاط بمستشاريه وحاشيته . وصار أخيرا سيد المقاطعة .

وبالطبع فإن من لم ينالوا هذه الحظوة . قد حقدوا على الملك ودينه الجديد . كذلك فإن النبلاء قد ابتعدوا عنه . وكان الملك يبعد عنه كل من يقاوم أو يجهل مذهبه . ويكافىء كل من يعرفه ويظهر الميل له . ولو نفاقا ! . ولذلك نقرأ فى كتابات بعضهم : إنهم سمعوا بمذهبه وعملوا بمقتضى قوانينه . وأحدهم يقولم : إن الملك قد علمه بنفسه . وآخر يقول : إن الملك اهتم بتعليمه كل صباح .

وأسرف أخناتون فى تمجيد نفسه . وكما رأينا (ص ٥٧٤) أن من إحدى أسس الآتونية هو حلول الإله فى شخص الملك كشكل من أشكال تجلى الإله . وأسرف أنصار أخناتون فى ذلك الأمر وبدأوا يؤلهونه هو نفسه .

وهكذا رأى الناس أن دعوته لم تأت بجديد يجذب العامة إليها . لذلك فإن غالبية الشعب رفضت العقيدة الجديدة وظلت تعبد آلهتها القديمة سرا كما فعلوا أيام الهكسوس .

كما أن دول الشرق الأوسط والأدنى والبلاد الآسيوية التى قيل إن الدعوة إلى هذا المذهب الجديد ستجمعهم حول مصر بالحب والوفاء . لأن نِعَمه تنتشر بانتشار أشعته فى أقطار الدنيا بأسرها . دون تفرقة بين أبيض وأسود . هذه الدول كانت فى شغل شاغل عنه بمشاكلها الخاصة وبمشاكل النزاعات بين الأموريين والحيثيين والآراميين والكنعانيين وغيرهم .

بل إن مشاكل الأسرة المالكة الداخلية لم تكفل له الهدوء كاملا . فلم يكن له ولد ذكر يرثه . وإنما أنجب ٦ بنات . وكان له أخوان . اتجه أكبرهم وهو « سمنخ كارع » إلى مهادنة كهنة « آمون » فى حياة أخيه . أما الأصغر . وهو « توت عنخ آمون » فكان قد أيقن ببأس « آمون » وكهنته . وكان يرى هو أيضا عقم المحاولة فى الوقوف ضدهم .

وكانت الملكة « تى » والدة أخناتون تملك قصرا فى تل العمارنة وقصرا آخر فى طيبة كانت تقضى فيه بعض الوقت . ويرى البعض أنها أثناء إقامتها فى طيبة أدركت بذور الثورة فى نفوس القوم فى طيبة . وقامت بزيارة لإبنها أخناتون . ولعلها أطلعته على مايجرى فى الخفاء ضده .

كذلك يقال إن « نفرتيتى » زوجته هجرته فى أواخر أيامها . لأنها بدأت تمل حياة التأمل التى كان يعيشها . أو أنها أدركت أن صراع زوجها مع كهنة « آمون » سوف يؤدى بالأسرة إلى الهلاك . ومن المستبعد مايقوله البعض من أن أنصار « آتون » فى طيبة أغروها على هجره والإقامة فى القصر الشمالى (شكل ١١٤ ص ٥٧١) . إذ وجدوا فيها بديلاً شعبيا لزوجها يمكن أن يحل محله . وهناك من يقول إن أخناتون هو الذى طردها . فقد بدأ اسمها لايظهر بعد ذلك . وهناك من يقول إنها ماتت فى تلك الفترة ومن ثم فقد كان اختفاء اسمها أمرا طبيعيا . وهناك من يرى أن أخناتون – فى أخريات أيامه – أصبح معتل الصحة مشتت الفكر . وأنه حاول – عن طريق أخيه سمنخ كارع – الذى كان يشاركه الحكم – أن يتفق مع كهنة آمون . فساء ذلك الفعل فى نظر الملكة نفرتيتى وانسحبت إلى القصر الموجود فى شمال آخيتاتون وبقيت هناك حتى وفاة زوجها .

أما بالنسبة للعامة والطبقات البسيطة من الشعب . فإن السمو الفكرى لمبادىء الآتونية كان فوق طاقتهم فى استيعابه . ولذلك زادت الهوة بين فكرهم والدين الجديد . وزادت هذه العزلة من التصاقهم بمعتقداتهم القديمة . وقد وجدت فى حى العمال فى العاصمة الجديدة – أختياتون – أدلة أثرية على عدم ترك العمال لآلهتهم القديمة : مثل « بس » و « شد » و « حاتحور » و « إيزيس » وغيرها .

تفكك الإمبراطورية المصرية :

لم يكن أخناتون رجل حرب . يخرج فى حملات يجوب بها أنحاء الإمبراطورية تخويفا لمن تسوغ له نفسه الثورة عليه .

ولم يكن ذلك السياسى المحنك الذى يتخذ الوسائل للحافظ على الإمبراطورية التى آلت إليه . فلم يكن فى خطته أن يتخذ المصاهرات السياسية لتدعيم ملكه كما كان يفعل غيره من الفراعين. كذلك لم يكن يحتفظ فى بلاطه بأولاد الأمراء الذين ولاهم فى الولايات الآسيوية التابعة له . كذلك لم يغدق الأموال على هؤلاء الأمراء حتى يظلوا على ولائهم له . وقالوا إن بناء مدينة أخيتاتون ومعابدها كبده أموالا هائلة بحيث لم يبق الكثير ليعطيه لهولاء الأمراء .

ولكن – ولعله العامل الأهم – لما أدرك سكان آسيا الصغرى والشام أن فرعون مصر قد أصبح معلما دينيا . لا رجل حرب . قاموا بالثورات فى بلادهم . فبعث الأوفياء من الولاة إلى أخناتون يطلبون النجدة . ولكنه اكتفى بالرد على رسائلهم برسائل واعدة دون أن يسعفهم بالمدد الحربى .

يدل على ذلك الرسائل التى كان يرسلها أمراء الشام الموالين لمصر يقولون فيها : كان حكام كنعان إذا رأوا جنديا مصريا ولوا الادبار . أما الآن . فإنهم يستخفون بالمصريين ويهددونهم بأسلحة فتاكة .

وبعض الأمراء كان يظهر ولاءه لملك مصر . ولكنه فى الحقيقة يعمل لحساب أعدائها مثل عبدو أشرتا وولده عزيرو اللذين كان الواحد منهما بعد الآخر يحاول القضاء على نفوذ مصر فى غربى آسيا .

ومن رسائل أخناتون إلى ولاته الذين كانوا يستنجدون به . فى إحداها يقول : أنت تعرف أن الملك لايرغب فى أن يضرب أرض كنعان بكل قوة !

وفى رسالة أخرى يقول : تأكد أن الملك يعدل مثل الشمس فى السماء وأن جميع قواته وعجلاته من أقصى شمال الأرض إلى جنوبها . ومن شروق الشمس إلى غروبها . فى حالة جيدة . وفى رسالة ثالثة : نقرأ مامعناه أن الفرعون رغم أنه لايحب الحرب ولايريد أن يذهب إلى غرب آسيا ليقتل الناس هناك . إلا أنه سوف يضطر إلى إراقة الدماء إن لم يكفوا عن سياستهم ضد الملك .

ولكن ردوده لم تتعد رسائل التهديد . وتأكد للحكام أن الملك لن يرسل جيشا لنجدة حلفائه . وكانت النتيجة أن خسرت مصر فى عهد أخناتون – معظم أملاكها فى الشام وساحل البحر المتوسط فى فينيقيا وفلسطين . واستولى الأموريون على سوريا . واستولى الحيثيون على ساحل المتوسط واستولت قبائل الخابيرى (العابيرو) على أجزاء من فلسطين . وانهارت الامبراطورية . بينما ظل أخناتون رجلا متسامحا . قابعا فى قصره فى أخيتاتون يتعبد لآتون . وسقطت الموانى الموالية لمصر مثل بيروت وصور وصيدا وعكا فى أيدى موالية للحيثيين .

وتوفى أخناتون بعد أن حكم ١٧ سنة . وخلفه **سمنخ كارع** . واختلف المؤرخون . هل هو ابنه أو أخوه أو زوج ابنته الكبرى . وعلى العموم فهو لم يمكث إلا سنوات قليلة (٣ سنوات تقريبا) ومات وخلفه توت عنخ أمون .

الردة فى عهد توت عنخ آمون :

قيل إن توت عنخ آمون هو ابن أمنحتب الثالث أى أخو أخناتون . وقيل هو زوج ابنة أخناتون الثانية . وتولى العرش صغيرا فى السن . وظل ٣ سنوات يسكن فى أخيتاتون . مخلصا لعبادة آتون . ثم بعد سنة أو ثلاث سنوات ترك آخيتاتون وعاد إلى طيبة . وقيل إن ذلك كان استجابة لضغوط كهنة آمون . وتم تتويجه فى طيبة . وأصدر مرسوما قال فيه : إن البؤس الذي انحطت إليه البلاد . وتهدم المعابد فى مصر كلها وسقوط واجهاتها . فاستدبرت الآلهة . وصار الجيش عاجزا . وعندما كان المرء يتضرع إلى آلهة أو إله لايستجيبون . ولكن الآلهة أجلسوا على العرش ملكا جديدا . طرد الإثم من القطر . الحق يبقى . والباطل يزهق . أصبحت البلاد من جديد كما كانت قديما .

وأعاد الملك معابد آمون لسابق عهدها . وصنع تماثيل لآمون وبتاح من الذهب الخالص . ثم بدأ يمحو عبادة آتون . وخربت أخيتاتون ومعابدها وقبورها وأصبح إسم أخناتون منبوذا . ولايذكر إلا على أنه « مجرم أخيتاتون » وكان أنصار آمون ينشدون فى فرح :

الويل لمن يمسك . ذلك الذى حاول المساس بك قضى عليه .

الخزى لمن يسىء إليك فى أى بلد كان .

إن شمس من لايعرفك قد غربت . أما من يعرفك فيضىء.

إن معبد من مسك فى ظلام . وأما الأرض كلها ففى النور .

وأرسل توت عنخ آمون جيشا إلى فلسطين ليحارب أعداءه ويدرأ عن بلاده الغزو الأجنبى . ولكن لم يتمكن من إعادة نفوذ مصر إلى هذه البلاد . وغاية ما أمكنه هو درء خطر الغزو الأجنبى.

وعاش توت عنخ آمون ٦ أعوام فى طيبة ومات بعد حكم لم يزد عن تسع سنوات ولم يتجاوز عمره الثامنة عشرة . وقام د . هاريسون . أستاذ التشريح بجامعة ليفربول عام ١٩٦٨* بفحص مومياء توت عنخ آمون بالأشعة ووجد كسوراً فى الرأس والرقبة مما يدل على أنه مات

---

* روز اليوسف العدد ٣٥٩٧ . ص ٥٥ .

مقتولاً . ويقال إن سير هوارد كارتر الذى اكتشف المقبرة عام ١٩٢٢ عثر على بردية داخل صندوق فاستولى عليها وأخفى ما بها . وقيل إن بها معلومات عن جريمة القتل . وماتسرب من معلومات تقول إن قاتل الملك هو الكاهن « بانحس » وأن صلة ما كانت بينه وبين بنى إسرائيل المقيمين فى مصر . فإذا كان ذلك صحيحاً فهو يؤيد ما ذكرناه (ص ٥٦٢) من أن عقيدة بنى يعقوب كانت ذات أثر فى نشوء التوحيد الذى نادى به أخناتون . ومن ثم كانت النظرة إلى توت عنخ أمون بوصفه « مرتداً » فوجب قتله ! .

وبعثت أرملته إلى ملك الحيثيين تطلب منه أن يرسل إليها أميرا من أفراد عائلته ليتزوج منها ويصبح ملكا للبلاد . ولكنه لم يلب طلبها وتزوجت من الكاهن « آى » فكان هذا سنده الشرعى لتولى الحكم . ولم يدم آى فى الحكم إلا ثلاث سنوات ومات . فخلفه حور محب .

حور محب أو حار محب :

ينتسب حور محب إلى عائلة قديمة من أشراف الصعيد . وكان قائدا من قواد أخناتون . أرسله فى أواخر عهده إلى آسيا . فاستطاع بمهارته أن يحافظ على فلسطين لمصر . ولا شك أن شهرته الحربية أكسبته سلطة كبيرة فى البلاد . وأغدق عليه أخناتون وخلفاؤه الألقاب والمنح . فبدأ يجمع فى يده السلطة والنفوذ . فكان من ألقابه : « القائد العظيم » و« كبير كهنة حور » و « رئيس أسرار القصر » و« خازن الحرس الملكى » .

وكان حور محب ذا طموح كبير . ولأنه أدرك خطر ديانة آتون على البلاد . فقد تودد إلى كهنة آمون بطيبة . وعمل على إرضائهم . ففاز بمحبتهم . ولما مات « آى » اعتلى عرش مصر بسهولة . وتزوج من سيدة تنتمى إلى الأسرة المالكة كى يكسب توليه العرش صبغة شرعية .

وأهم أعماله هى إعادة عبادة آمون وتطهير الإدارة الحكومية.

(أ) عودة آمون :

وجه حور محب عنايته أولا إلى محو كل آثار ديانة « آتون » . فهدم هياكلها وأعاد اسم « آمون » إلى كل مكان . وليس من شك فى أن اضطهاده للآتونية كان سياسيا أكثر منه دينيا . فلم تكن الدعوة إلى ديانة « آمون » سوى وسيلة يستعان بها على كسب ود كهنة آمون ليقوموا بمساعدته . ولكن الآتونية كان لها أثر على « آمون » نفسه . فلم يعد إلها قاسيا جبارا كما كان من قبل . بل أضفوا عليه من صفات الطيبة ماكان يوصف به آتون . فيقول نشيد عيد آمون :

حين ينام الناس تكون عيناه متيقظتان .

وعندما يستيقظ النوام يبدو لهم مضيئا فى مظهر جديد .

إنهم يولون وجوههم ناحيته .

ويقول له الناس والآلهة نعم المجيء .
والطبيعة كلها تبتهج كما يبتهج الآلهة والناس .

وأصبح « آمون » يمثل فى صورة ثالوث إلهى : لأن « رع » و« بتاح » متحدين معه . « رع » متحد مع الوجه . و« بتاح » متحد مع الجسد . وهؤلاء الثلاثة « آمون » و« رع » و« بتاح » المتحدة فى إله واحد كانوا هم الآلهة الرسميون للبلاد . أما المعبودات الأخرى فقد انزوت فى النسيان .

(ب) تطهير وإصلاح الإدارة :

فى عهد أخناتون – انتهز حكام الأقاليم – انشغاله بأبحاثه الدينية فراحوا يبتزون الأموال من الشعب . وانتشرت الرشوة وفشا الاختلاس . فقام حور محب بمكافحة التسيب الخلقى الذى ساد الإدارة فى مصر وأصدر قوانين بها مواد رادعة لجرائم استغلال النفوذ .

١ – منع اضطهاد الموظفين للأهالى والفقراء . ووضع عقوبات منها جدع الأنف . والنفى إلى مدينة « ثارو » على الحدود الشمالية الشرقية لمصر .

٢ – حفظ الأمن ونص على أن كل من دخل مسكنا من أجل السرقة . يحكم عليه بمائة جلدة . وبأن يجرح فى خمس مواضع فى جسده . ثم تسترجع منه الجلود المسروقة .

٣ – عين موظفين ذوى سيرة حميدة ليقوموا بجمع الضرائب .

٤ – لكى يبطل الرشوة بين القضاة أعفاهم من دفع الضرائب . حتى لايكون لهم عذر فى اتباع الوسائل غير الشريفة .

٥ – زاد مرتبات الموظفين الإداريين حتى لا يلجأوا إلى الرشوة .

وبموت حور محب انهار صرح الأسرة الثامنة عشرة . التى امتازت فى العالم بعظمتها ومجدها وحكمت مصر قرنين ونصف قرن . ويكفيها فخرا أنها بدأت عصرها بطرد الهكسوس . وأسست أقدم امبراطورية شرقية عرفها التاريخ . وأنتجت أفكارا دينية سامية .

نترك مصر إلى أرض سعير – جنوب البحر الميت . حيث كان يعيش عيسو (انظر ص ٤٢٤) – أخو يعقوب – بعد أن افترقا . بقى يعقوب فى حبرون فى حين انتقل عيسو إلى أرض حمية – سعير الحورى – واستوطنها . وبعد أن تكاثر أبناؤه . سميت الأرض باسمهم . أرض أدوم .

كذلك سبق أن ذكرنا (ص ٥٤٤) أن أفرايم بن يوسف عليه السلام زوج ابنته رحمة من أيوب بن موص بن رعوئيل بن عيسو .

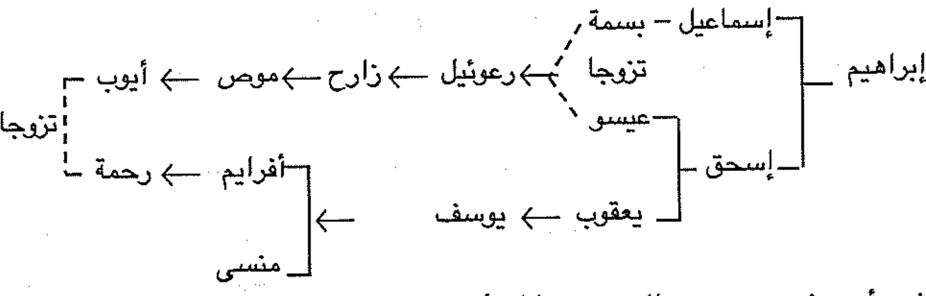
أيوب عليه السلام

سبق أن ذكرنا (ص ٤١١) أن عيسو - أخا يعقوب - ذهب إلى مكة يخطب إبنة عمه إسماعيل الذى رحب به وزوجه بسمة ابنته. وعاد عيسو إلى حبرون وعاش بها مع والده إسحق.

كذلك ذكرنا (ص ٤١٧) أن يعقوب عاد من حاران : هو وزوجته ليئة وراحيل وبنيه . وقلنا إن عيسو خرج لملاقاته . فالتقيا فى محنايم. وتصالحا . كان عمرهما يناهز ٥٣ عاما . عاد بعدها عيسو إلى حبرون . وتأخر يعقوب إذ مر على شكيم وبيت إيل وأفراته (بيت لحم) حيث وضعت راحيل أصغر أبنائه — بنيامين - وماتت بعد ولادته . وأخيرا وصل إلى حبرون حيث كان يعيش أبوه إسحق وأخوه عيسو . وفى العام التالي توفى إسحق أبوهما وكان عمر عيسو ويعقوب ٦٣ عاما تقريبا .

وبعد ذلك افترق عيسو عن يعقوب فارتحل عيسو الى أرض حمية سعير الحورى . وبعد أن كثرت ذرية عيسو - الذى هو أدوم سميت الأرض باسمه - أدوم.

كذلك ذكرنا (ص ٤٢٦) أبناء عيسو. ومن زوجته بسمة بنت إسماعيل أنجب رعوئيل وولد لرعوئيل زارح . وزارح ولد موص . وموص ولد له ابن سماه أيوب .



شب أيوب فى ميسرة من العيش فقد كان أبوه وجده سادة فى قومهم وعلى ثراء كبير . ولما بلغ أيوب حوالى الخامسة والعشرين من عمره أراد أبوه أن يزوجه من بيت يناسب ثراءه . وكان قد سمع عن أقربائه فى مصر بنى يعقوب وأن يوسف بن يعقوب كان عزيز مصر ورئيس وزرائها . فشد الرحال إلى مصر وقابل أفرايم بن يوسف وطلب منه ابنته رحمة زوجة لإبنه أيوب . فوافق أفرايم وسافرت رحمة مع أيوب إلى أرض أدوم .

وكان أيوب ماهرا فى التجارة . أمينا فى معاملاته . فنمت ثروته وأصبح يشار إليه بالبنان فى الثروة والتقى .. كان يطعم المسكين ويعطف على الفقير ويكسو العريان . ويكثر من الصدقات .

إســم أيــوب :

ذهب بعض المفسرين الى أن أيوب مشتقة من الأوب والتوب . فهو التائب . الآيب إلى الله . آب يؤوب . فعل . وصيغة المبالغة أيوب وقد أرجع المفسرون هذا لقوله تعالى عن أيوب :

«إنا وجدناه صابرا . نعم العبد إنه أواب » . (٤٤ – ص)

إلا أن أواب جاءت وصفا لداود عليه السلام :

« واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب » . (١٧ – ص)

« ووهبنا لداود سليمان . نعم العبد إنه أواب » . (٣٠ – ص)

بل إن الجبال والطير وصفت بذلك أيضا :

« إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة . كل له أواب » . (١٨ – ١٩ ص)

والمعنى أن الجبال تسبح له مع داود . واجتمعت إليه الطير وحشرت تسبح أيضا . والكل يرجع التسبيح فمعنى أواب هنا ترجيع التسبيح .

وعلى ذلك فمن المستبعد أن يكون اسم « أيوب » مشتق من الأوب بهذا المعنى . لاشتراك آخرين فى هذه الصفة . سواء بالمعنى الأول أو بالمعنى الثانى .

ويرى الاستاذ رؤوف أبو سعده * أن اسم أيوب مشتق من الجذر ويب . ويقال ويب له أى ويل له . وان كان ويب فى اللغة العربية قد بطل استعماله . أما فى العبرية فهو لايزال يستعمل . ومعناه كان له ضدا أى « ضادَّه » . فأيوب فى العبرية معناها المنادىء أو الذى كان له ضد أو الذى أصابه مكروه أو المتأذى . ويكون الإسم فى العربية من الويب بمعنى المضرور أو الذى شدد الويب عليه أو شدد الضر عليه . والآية تقول :

« وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر . وأنت أرحم الراحمين » (٨٣ – الانبياء)

وشاءت إرادة الله تعالى أن يضرب للناس مثالا على الصبر فى شخص أيوب . ليتأسى به الناس فى صبره . ويحتذوا به فى تحمل ماقد يصيبهم من مصائب وآلام . فتهون عليهم مصائبهم وآلامهم إذ يرون أنه قد ابتلى بأكثر منهم ولفترة طويلة . فصبر .

« إنا وجدناه صابرا . نعم العبد إنه أواب » . (٤٤ – ص)

---

* من إعجاز القرآن . جزء ٢ ص ٢٠٠

قال رسول الله ﷺ : الصبر نصف الإيمان . أخرجه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود .

قلنا إن أيوب تزوج رحمة بنت أفرايم بن يوسف . ومن المؤكد - أنه بعد عدة سنوات فكر أن يزور أهل زوجته فى مصر . كان يوسف عليه السلام قد مات وكان أحمس قد طرد الهكسوس . وكما سبق أن قلنا (ص ٥٤٤) إن أحمس كان قد وضع عيونا على بنى يعقوب . فلما قدم أيوب مصر لعل فرعون استدعاه . وتأكد للفرعون أنها مجرد زيارة عائلية لأهل زوجته . لاندرى شيئا عن المحادثة التى جرت بينهما . ولكن لاشك أنها تطرقت إلى التوحيد الذى يدين به بنو يعقوب وأيوب كذلك . وإل ما يدعيه الفراعين من بنوة للآلهة أو ألوهية . ويبدو أن أيوب لم يشأ تسفيه المعتقدات المصرية بهذا الخصوص . ولعله رأى أن أحمس وهو فى أوج فخره بنفسه لنجاحه فى طرد الهكسوس وضم فلسطين وسوريا لمصر إذا جوبه بمثل هذا القول فقد يكون رد الفعل هو تصرفات إنتقامية تنال من بنى يعقوب - أصهاره - فكان أن كلمه كلمات فيها لين ومجاملة .

وعاد أيوب إلى بلاده ونسى هذا الأمر .

أفردت التوارة لأيوب سفرا كاملا به ٤٢ إصحاحا :

كان رجل فى أرض عوص . اسمه أيوب ....

وقيل عن أرض عوص * : فيها أقام أيوب . وكان الأدوميون يقيمون فيها . وهذا يؤيد شجرة النسب التى ذكرناها وأنه من نسل عيسو الذى هو أدوم .

كان أيوب - رجلا كاملا ومستقيما - يتقى الله ويبعد عن الشر . وولد له سبعة بنين وثلاث بنات . وقيل كانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف جمل وخمسمائة فدان مراعى وأبقار كثيرة . وخمسمائة آتان (حمارة) . وخدم وعبيد كثيرون . وكان من أعظم رجال عصره. وكان يقدم لله قرابين . تزكية عن أولاده وعما قد يكونوا ارتكبوه من ذنوب . كان تقيا لم يغره الغنى . وكان يكثر من ذكر الله تعالى .

جاء فى حديث قدسى . أخرجه الطبرانى عن ابن عباس :

قال الله تعالى : إذا ذكرنى عبدى خاليا . ذكرته خاليا . وإذا ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير من الملإ الذى ذكرنى فيه .**

وفى حديث آخر أخرجه الطبرانى عن معاذ بن قيس :

قال الله تعالى : **لايذكرنى** عبد فى نفسه إلا ذكرته فى ملإ من ملائكتى . ولا يذكرنى فى ملإ إلا ذكرته فى **الرفيق الأعلى** .

---

* قاموس الكتاب المقدس . دار الثقافة ص ٦٤٧

** الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى . ص ٣٧ ، ٣٩ .

وقال وهب . فإذا ذكر الله تعالى عبدا بخير تلقاه جبريل ثم من حوله من الملائكة فتصير الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات . فإذا صلت عليه ملائكة السموات هبطت عليه بالصلوات إلى ملائكة الأرض .

قيل . فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب . فأدركه الحسد وقال * : يا إلهى ، نظرت فى أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك . ثم لم تختبره بشدة ولا ببلاء . وأنا زعيم بأنك لو ضربته ببلاء ليكفرن بك ولينسينك . فقال الله تعالى : إنطلق إليه فقد سلطتك على ماله وولده .

ومختصر ماجاء فى التوراة ** :

وكان ذات يوم أن رسولا جاء إلى أيوب وأخبره أنه بينما البقر كانت تحرث الأرض والأتن والجمال ترعى بجوارها . سقط عليها العدو وأخذها . وجاءت صاعقة فأحرقت الغنم والغلمان . ثم جاء رسول آخر وأخبره أنه بينما أبناؤه وبناته يأكلون فى بيت أخيهم الأكبر ، إذ سقط البيت عليهم فهلكوا جميعا . فلما سمع أيوب بهذه المصائب كلها خر وسجد وقال : عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا ثم أعود . الرب أعطى والرب أخذ . فليكن اسم الرب مباركا . فى كل هذا لم يخطىء أيوب ولم ينسب جهالة لله .

جاء فى حديث قدسى *** : إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته : قبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون نعم . فيقول قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون نعم . فيقول ماذا قال عبدى ؟ فيقولون حمدك واسترجع . فيقول الله : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد .

رواه ابن حيان والبيهقى عن أبى موسى . وأخرجه أحمد والترمذى . وقال حسن غريب .

يقال **** : فعاد إبليس يكلم الله قائلا : لقد هان أمر المال والولد على أيوب ، ولكن إن ابتليته فى جسده لينسينك وليكفرن بك . فقال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على جسده . ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه ولا على عقله . وكان تسليطه عليه ابتلاء من الله ليعظم له الثواب وليجعله مثالا للصبر . يتأسى به الناس فى الصبر ورجاء الثواب .

فأصاب المرض جلد أيوب وانتشرت الدمامل فى كل جسمه ، قالوا فعافه كل الناس وكل من حوله ولم يعودوا يطيقون النظر اليه . فخرج وجلس على كومة رماد خارج البلدة بعيدا عن الناس . حتى لايزداد ألما . بإعراضهم وابتعادهم عنه . وبالغ البعض فى بيان ما أصابه

* عرائس المجالس الثعلبى ص ١٨٦ ، ١٨٧ .
** إصحاح ١ . أيوب .
*** الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى ص ١١٦ .
**** البداية والنهاية . ابن كثير جـ ١ ص ٢٠٧ .

مبالغات غير مقبولة . وأفاضوا فى وصف كيف أصبح منظره بشعا ومنفرا . وأنه لجأ إلى كومة « الزبالة » حيث يحرق الروث والنفايات . وقال ابن كثير * إنه أصيب بالجذام فى سائر بدنه . ولم يبق منه سليما سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل . وقال الحسن البصرى وقتادة : ابتلى أيوب عليه السلام سبع سنين وأشهرا يرعى فى جسده الدود وتعبث به الدواب . وقال السدى : تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظم .

ويرى آخرون ** أن أيوب كان أكرم على الله من أن يلقى على « مزبلة » وأن يصاب بمرض ينفر الناس ويقززهم . ويرى أن ما أصيب به أيوب من مرض إنما كان من النوع غير المنفر . وأنه من الأمراض التى لايظهر أثرها على البشرة كالروماتزم وأمراض المفاصل .

ولا نرى هذا الرأى إذ أن قوله تعالى : « هذا مغتسل بارد » يدل على أن المرض كان جلديا . لأن الأمراض الجلدية هى التى تعالج بالغسول وما شابهه . ولاينفى أنه كانت هناك أيضا آلام فى المفاصل أو العضلات لقوله تعالى : « وشراب » . ويرى أخصائيو الأمراض الجلدية *** أن مرض أيوب كان هو « الالتهاب الجلدى عقبولى الشكل Dermatitis Herpetiformis . وهو مرض مزمن . وقد عرف حاليا أن سببه هو نوع من الحساسية لمركب الجلوتين الموجود فى القمح والشعير والذرة والأرز . والحساسية – كما هو معروف – استعداد فى الجسم . ورد فعل عنيف – لبعض الأجسام التى تدخل أو يتعرض لها الجسم . وللآن لا يعرف بالتحديد لماذا يصاب شخص ما بالحساسية ولايصاب شخص آخر . وارتباط المرض بحالة المريض النفسية معروف . فالتبرم والضجر . والغضب واليأس . تزيد الحالة سوءا . وفى فترات الراحة النفسية . تخف حدة المرض . وقد يشفى المريض مؤقتا إذا امتنع عن تناول أغذية بها مركب الجلوتين وهذا مالم يكن معروفا فى ذلك الوقت . كما لم يكن ممكنا – إذ لايمكن العيش بدون أكل قمح أو شعير أو أرز أو ذرة – أما أن يشفى المريض كلية من المرض فهذا لايكون إلا بمعجزة حينما يريد الله للمريض الشفاء .

قلنا إن أيوب فقد ثروته من الغنم والبقر وفقد أولاده . ثم لما ابتلى فى جسده تجنبه الناس ولم يعودا يشترون منه أو يبيعونه شيئا فبارت تجارته . ثم بدأ يستقدم الأطباء من كل ناحية لمداواته ولم يُجد دواؤهم شيئا . ونفذ المال الذى كان يدخره . وخرجت امرأته تعمل لدى الناس بأجر . والناس يرأفون بحالها وحاله ويجزلون لها الأجر . وطال مرضه .

قال أنس : ابتلى سبع سنين وأشهرا .

وقال وهب : ابتلى ثلاث سنين لاتزيد ولا تنقص .

---

* البداية والنهاية . ابن كثير جـ ١ ص ٢٠٧ .

** محمد بن أبو شهبة . الاسرائيليات والموضوعات . ص ٣٩٢

*** جلدك . دكتور محمد الظواهرى . ص ٦٤

وقال ابن أبى حاتم وابن جرير عن آخرين عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة .

وقال السدى ، فلما طال عليه قالت له إمرأته : يا أيوب ، لو دعوت ربك لفرج عنك . فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحا فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة . فجزعت من هذا الكلام.

جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى :

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة . وإلينا ترجعون » . (٣٥ — الانبياء)

وقوله تعالى :

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم » . (من الآية ١٨٦ – آل عمران)

والله يختبر العبد بالمصائب تارة . وبالنعم تارة أخرى .

ولقد اختبر الله تعالى أيوب بالنعمة : الثراء والجاه والصحة والمال والولد . فشكر . وكانت إرادة الله تعالى أن يختبره أيضا بالشر : بفقدان المال والولد . فصبر . ثم كان ابتلاؤه فى جسده وصحته لينظر هل يصبر أم لا .

فى حديث قدسى أخرجه الديلمى عن أنس :

يقول البلاء كل يوم : إلى أين أتوجه ؟ فيقول الله عز وجل : إلى أحبابى وأولى طاعتى . أبلو بك أخبارهم . وأختبر صبرهم . وأمحص بك ذنوبهم وأرفع بك درجتهم . ويقول الرخاء كل يوم : إلى أين أتوجه ؟ فيقول الله عز وجل : إلى أعدائى وأهل معصيتى . أزيد بذلك طغيانهم . وأضاعف بك ذنوبهم وأعجل بك لهم . وأكثر بك غفلتهم .

فليس البلاء أو الإبتلاء تعبيرا عن سخط الله على العبد أو غضبه عليه . بل قد يكون اختبارا من الله للعبد ليعلى من درجته يوم القيامة . ولكن فى نفس الوقت قد يكون الابتلاء أيضا تكفيرا لبعض الذنوب التى ارتكبها المرء فى غفلة أو دون أن يدرى – أو هى من الصغائر أو اللمم ، ولكن الله تعالى يريد أن يسقطها عنه ليعظم له أجرا .

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم . ويعفوا عن كثير » .

(٣٠ – الشورى)

فما يصيب الناس من مصائب فإنما عن سيئات عملوها . ويعفو الله عن كثير من السيئات فلا يجازى بها .

وفى الحديث الشريف : والذى نفسى بيده . مايصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولاهم ولا

حزن ، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه . حتى الشوكة يشاكها . حديث صحيح .

ولكن الإنسان قد يكون نسى هذه الذنوب الصغيرة ، أو ارتكبها دون أن يظن أنها ذنوب . وبذلك يتوهم أن البلاء الذى نزل به لم يكن بسيئة ارتكبها .

وقال الامام أحمد عن آخرين عن معاوية بن أبى سفيان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: مامن شيء يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كفر الله تعالى عنه به من سيئاته .

وعن الحسن البصرى أنه قال : لما نزل قوله تعالى : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير . قال رسول الله ﷺ : والذى نفس محمد بيده ، ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر .

وأخرج الترمذى عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو مادونها إلا بذنب . وما يعفو الله تعالى عنه أكثر .

كذلك جاء قوله تعالى :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

(٧ - ٨ الزلزلة)

أخرج الطبرانى والبيهقى وابن أبى هاشم وجماعة عن أنس قال * : بينما أبو بكر الصديق يأكل مع النبى ﷺ . إذ نزلت عليه « فمن يعمل مثقال ذرة .. الآية » فرفع أبو بكر يده . وقال : يارسول الله إنى لراء ما عملت من مثقال ذر من شر ؟ . فقال عليه الصلاة والسلام : يا أبا بكر . أرأيت ما ترى فى الدنيا مما تكره . فبمثاقيل ذر الشر . ويدخر لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة . وفى رواية ابن مردويه على أبى أيوب . أنه ﷺ قال إذ رفع أبو بكر يده : من عمل منكم خيرا فجزاؤه فى الآخرة . ومن عمل منكم شرا . يره مصيبات وأمراضا . ومن يكن فيه مثقال ذرة من خير دخل الجنة .

فى ضوء هذه الآيات الكريمة والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية الشريفة قد يثور تساؤل: **هل كان ابتلاء أيوب بسبب ذنب ارتكبه ؟** وهو نبى والأنبياء معصومون عن الذنوب . حتى قبل اصطفائهم للنبوة .

وهنا تثور مسألتان :

١ - الاختلاف فى تقدير الذنب .

٢ - متى أصبح أيوب نبيا . قبل البلاء أم بعده ؟

---

* تفسير الألوسى . جـ ٣٠ ص ٢١٢.

١ - الاختلاف فى تقدير الذنب :

فما يعتبر حسنة عند العوام قد يكون ذنبا عند المقربيين . وإلى هذا يشير معنى المثل القائل: نوم الظالم عبادة . لأن النوم يمنعه من ارتكاب ظلم جديد يضاف إلى ذنوبه . أما نوم العابد فهو ذنب لأنه يمنعه عن ذكر الله . ومثال آخر أن عبدا يكتفى بصلاة العشاء . هذا سقط عنه الفرض . وآخر يصلى السنة والشفع والوتر . أما المقربون . فقيام الليل واجب وإلا عدوا مقصرين فى حق الله .

ويقول الإمام الغزالى * . يعظم من العالم . مالا يعظم من الجاهل . ويتجاوز عن العامى فى أمور لايتجاوز فى أمثالها عن العارف . لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف وعلمه.

٢ - متى أصبح أيوب نبيا ؟ قبل البلاء أم بعده ؟

معظم الكتب التى كتبت عن قصص الأنبياء - أو كلها - ترى أن النبوة كانت قبل الابتلاء . ويستشهدون بحديث رسول الله ﷺ : أشد الناس بلاء الأنبياء . ثم الصالحون . ثم الأمثل فالأمثل . فالرجل يبتلى على حسب دينه . فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه.

فيقول ابن كثير ** : ولم يزد هذا كله (أى البلاء) أيوب عليه السلام إلا صبرا واحتسابا وحمدا وشكرا حتى أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام . ويضرب المثل أيضا بما حصل له من أنواع البلايا (من القرح والدمامل . وأن الدود كان يرعى فى جسده وغير ذلك) ومن طول البلاء (قيل ثلاث سنوات إلى ثمانى عشرة سنة) .

ويقول الاستاذ عبد الوهاب النجار *** : إن الناس يروون فى بلاء أيوب أقوالا تدل على أنه مرض مرضا مشوها ومنفرا للناس من قربه أو الدنو منه . وهذا يتنافى مع منصب النبوة . ويقول : وقد قرر علماء التوحيد أن الأنبياء منزهون عن الأمراض المنفرة . ويرى أن المبالغين فى وصف ما أصاب أيوب إنما اعتمدوا على ماجاء فى سفر أيوب بالتوارة - وأن هذا السفر قد تم تأويل عباراته حتى أنه ليشبه قصائد شعريه قيلت فى وصف ضره وصبره . والشعر فى كل لغة ميدان المبالغة . ويُنهى رأيه بقوله إن البلاء لم يكن منفرا بحيث يتعارض مع منصب النبوة الذى كان له قبل البلاء .

ويعتنق هذا الرأى أيضا الاستاذ أحمد بهجت **** بل إنه يستشهد بنفس فقرات التوارة ونفس أبيات شعر عمر بن الفارض لإثبات مبالغات وصف المرض وآلام أيوب .

---

* إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالى . جـ ٤ ص ٣١ .

** البداية والنهاية جزء ١ ص ٢٠٧ .

*** قصص الأنبياء ص ٣٦٦ .

**** أنبياء الله ص ١٦٩ .

ويمثل هذا قال الثعلبى * : إذ ذكر فى قصة أيوب : وكان الله قد اصطفاه ونبأه وبسط عليه الدنيا . ثم يقول وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدقوه وعرفوا فضله . وذكر أسماءهم : أليفن ومالك وظافر – وهو تعريبه لأسمائهم التى ردت فى التوراة : أليفاز – بلدد – صوفر .

وجاء فى تفسير الألوسى ** : أن أهل التحقيق قالوا إنه لايجوز أن يكون المرض بصفة يستقذره الناس عليها لأن فى ذلك تنفيرا . فأما الفقر والمرض وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحنه الله تعالى بذلك .

وفى هداية المريد للقانى أنه يجوز على الأنبياء عليهم السلام كل عرض بشرى ليس محرما ولا مكروها ولا مزريا . ولا مما تعافه النفس . ولا مما يؤدى إلى النفرة مثل البرص والجذام وأمراض أخرى مثل الإقعاد والعمى والجنون . وأما الإغماء فقال الثورى : فلا شك فى جوازه عليهم لأنه مرض . بخلاف الجنون فإنه نقص . وقيد أبو حامد الغزالى الإغماء بغير الطويل . وقال السبكى : وإغماؤهم ليس كإغماء غيرهم لأنه إنما يستر حواسهم الظاهرة دون قلوبهم لأنها معصومة . قال : ويمتنع عليهم الجنون وإن قل . لأنه نقص . وكذلك يمتنع عليهم العمى . ولم يعم نبى قط . وما ذكر عن شعيب من كونه كان ضريرا لم يثبت . وأما يعقوب فحصلت له غشاوة وزالت .

هذه آراء من رأوا أن البلاء كان بعد النبوة .

ولا نرى هذا الرأى . **ورأينا أن البلاء كان قبل النبوة .**

فالأنبياء – لكمال طبعهم . وعظم أخلاقهم — يتحلون بالصبر .

أما الإنسان العادى فهو ميال بطبعه إلى الجزع والهلع عند وقوع بلاء أو مصيبة به . مما ينتج عنه شلل أو إصابة بذبحة قلبية فى بعض الأحيان . وأقل شىء الحزن الشديد والمبالغ فيه فالإنسان العادى . كما أخبر الله تعالى :

« إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين » . (١٩ – ٢٢ المعارج)

فإذا كان المصلون يستثنون من الهلع والجزع – أى أن المصلى يكون صبورا . فما بالنا بالأنبياء ! فالمفروض أن يكونوا أكثر صبرا . لأنهم على منزلة من ربهم تفوق منازل غيرهم من الناس . فإذا مس الشر نبيا وصبر . فقد أتى بما هو مفروض عليه لكونه نبيا .

---

* عرائس المجالس للثعلبى ص ١٨٤ .

** تفسير الألوسى جـ ٢٣ ص ٢٦٦ .

وجاء قوله تعالى مخاطبا الرسول ﷺ :

« **واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل** » . **(من الآية ٣٥ – الأحقاف)**

واختلفوا فى تعداد أولى العزم * . أشهرها : أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام بالاضافة إلى خاتم الأنبياء ﷺ . وقد يكون المراد بأولى العزم من الرسل أن « من » هى لبيان الجنس أى أن أولى العزم كلهم من الرسل . فيكون أولوا العزم صفة الرسل جميعهم ويكون المعنى : فاصبر على مكابدة الشدائد مطلقا كما صبر إخوانك الرسل قبلك . ومن هذا يكون الصبر من الأنبياء لازم لكمال خلقهم ** .

أما الإنسان العادى . فقد خلق هلوعا بطبعه . إذا مسه الشر جزوعا . فإذا تمسك إنسان عادى بالصبر . فهذه له محمدة . وإذا كان الشر الذى مسه شديدا . ناله فى ماله وولده ثم فى جسده . وطال مكثه . ليس سنة أو سنتين أو خمسا . بل ثمانى عشرة سنة . وظل صابرا . فقد بلغ درجة الصبر التى يكون عليها الأنبياء والرسل . ويكون البلاء وما صاحبه من ألم وشدة قد أزالا من النفس أى هلع . وأى جزع . فلم يعد يشعر بأى منهما . لأن رضاه بقضاء الله وقدره قد شغل قلبه . فلا محل لشعور آخر . كما أن حبه لله قد ملك عليه حواسه . بحيث أصبح صابرا . بل ومستعذبا لما به . وكما قيل :

وما لجرح إذا أرضاكم ألم

ومرحلة الرضا هذه تجعل المرء فى درجة تقرب من « المقربين » وهى الدرجة التى عليها الأنبياء والرسل .

وهذا ما فعله أيوب – إذ صبر على كل البلاء الذى نزل به فنال هذه الدرجة . فاختاره الله نبيا .

وعليه . **ففى رأينا – أن بلاء أيوب كان قبل النبوة .**

وقد روى أن النبى ﷺ سأل طائفة من أصحابه : ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون . فقال : ما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء . فقال : مؤمنون ورب الكعبة . وفى رواية أخرى أنه قال : حكماء علماء . كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء .

وحديث آخر . قال ﷺ : إذا أحب الله عبدا . ابتلاه . فإن صبر . اجتباه . فإن رضى اصطفاه .

---

* تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٧٢

** تفسيير الألوسى جـ ٢٦ ص ٣٤ .

فهذه ثلاث مراحل : الابتلاء ثم الاجتباء ثم الاصطفاء .

فالبلاء أولا . فإذا صبر العبد . اجتباه الله . والاجتباء من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك . والمعنى اختاره الله لفضائل فيه . والصبر من هذه الفضائل . وجاء في قصة يوسف عليه السلام قوله تعالى :

« وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث . ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب . كما أتمها على أبويك من قبل . إبراهيم وإسحق . إن ربك عليم حكيم ».
(٦ - يوسف)

كان البلاء بالقائه في الجب . فصبر . فكان الاجتباء . وعلمه الله تأويل الأحلام والرؤى . فتوصل بذلك إلى المكانة الرفيعة في الدنيا . ثم كان تمام النعمة بالنبوة .

والاصطفاء من الصفوة . وهم خيار القوم . وجاء قوله تعالى :

« قال ياموسى . إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي » .
(من الاية ١٤٤ - الأعراف)

فالاصطفاء على الناس هو انتقاؤه من بينهم ليكون محلا للرسالة ولكلام الله .

« الله يصطفى من الملائكة رسلا . ومن الناس ». **(٧٥ - الحج)**

فالمراحل كما وردت في الحديث الشريف هي بالترتيب التالي :

البلاء - الصبر - الاجتباء - الرضا - الاصطفاء .

وعلى هذا نرى أن أيوب كان رجلا صالحا . اختبره الله بالصحة والغنى فشكر . فأحبه الله. ثم ابتلاه بفقد المال والأهل وبالمرض فصبر فاجتباه . وزيد البلاء . فرضي . فاصطفاه الله نبيا . وكان البلاء قبل النبوة . وكان الصبر على البلاء . والرضا بالقضاء هو الطريق إلى النبوة .

الاختبار بالخير والشر :

جاء في حديث أخرجه الديلمي من رواية يزيد الرقاشي عن أنس * : الإيمان نصفان . نصف صبر ونصف شكر .

---

* إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالي . جـ ٤ ص ٥٨ .

والشكر على النعمة يكون بحمد الله . والتيقن أن النعمة هى منة من الله . ثم استعمالها فى طاعة الله .

قال رسول الله ﷺ لرجل : كيف أصبحت ؟ قال بخير . فأعاد رسول الله السؤال ثلاث مرات حتى قال . بخير . أحمد الله وأشكره . فقال ﷺ . هذا الذى أردت منك . أخرجه الطبرانى ومالك .

وقد كان أيوب رجلا صالحا . من نسل عيسو . يعبد الله على الملة الحنيفية دين إبراهيم جده . وإسحق أبيه .

وكان غنيا يكثر من الصدقات وأعمال البر . وإقبال الدنيا على المرء هو اختبار له :

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها . لنبلوهم أيهم أحسن عملا ».

(٧ - الكهف)

واجتاز أيوب هذا الاختبار . وشكر الله تعالى على نعمائه .

بقى الاختبار بالشر أى بالبلاء .

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة . وإلينا ترجعون » . (٣٥ - الانبياء)

والبلاء **قد يكون بذنب** . وقد يكون بدون ذنب .

وقد ذكرنا سابقا (ص ٥٩٩) أن البلاء يكفر الذنوب .

أما **البلاء بدون ذنب** فيكون اختبارا لإظهار خبايا النفوس . والله عليم بها . ولكن ليعلم المرء ماقد كان خافيا عليه من دخيلة نفسه .

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » . (٣١ - محمد)

ومعناه حتى يظهر علمنا بوقوعه . وتعلمونه أنتم كذلك لصدوره منكم وقال الله تعالى:

« يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك » . (من الاية ١٥٤ - آل عمران)

« وليبتلى الله مافى صدوركم . وليمحص مافى قلوبكم » .

(من الاية ١٥٤ - آل عمران)

والآيتان - وإن كانتا قد قيلتا فى غزوة أحد - إلا أنهما توضحان أن الابتلاء يكون لإظهار ماتخفى الأنفس - ولبيان مافى الصدور .

---

* الاتحافات السنية فى الاحاديث القدسية - محمد المدنى ص ٣٣ .

هنا يثور السؤال : **هل كان ابتلاء أيوب بذنب أم بدون ذنب ؟**

من الطبيعى أن من يعتقدون بنبوة أيوب قبل الابتلاء . يرون أن ابتلاء أيوب كان بدون ذنب لعصمة الانبياء . ويكون ابتلاؤه محض اختبار من الله تعالي لقوة صبره وعمق إيمانه .

أما من يرون أن النبوة كانت بعد الابتلاء والصبر عليه . فلا بأس عندهم من أن البلاء كان بذنب . إذ عند وقوع الذنب كان رجلا صالحا ولم يكن بعد نبيا .

فى حديث قدسى * : أخرجه الديلمى وابن النجار عن عقبة بن عامر .

قال الله عز وجل لأيوب : تدوى ماجرمك إلى حتى ابتليتك ؟ قال : لايارب . قال : لأنك دخلت على فرعون فأدهنت بكلمتين .

والإدهان كلمة لينة فيها مجاملة .

وقد سبق أن ذكرنا (ص ٥٩٦) زيارة أيوب لمصر ومقابلته لأحمس . وقد يبدو أن هذا الذنب بسيط . ولكن سبق أن أوضحنا (ص ٦٠١) أن الذنب يكبر إذا كان من ارتكبه مقربا إلى الله . وكان أيوب يكثر من شكر الله على نعمائه حتى أصبح أو كاد أن يكون من المقربين إلى الله .

وهكذا كانت إرادة الله أن يبتلى أيوب - كما سبق أن أوضحنا - بضياع المال والولد. فصبر .

وأراد الله أن يزيد بلاءه حتى يعلى من درجته أكثر فأكثر تبعا لمقدرته في الصبر على البلاء. فكان الابتلاء فى الجسد بالمرض .

والتصرف عند البلاء يكون بطريقتين :

١ - **الجزع** والمبالغة فى الشكوى وإظهار الكآبة وهو يتنافى مع الإيمان الحق .

٢ - **الصبر** : قال رسول الله ﷺ : الصبر نصف الإيمان . وقال كذلك : من إجلال الله ومعرفة حقه . أن لاتشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك .

فى حديث قدسى : قال الله عز وجل : إذا اشتكى عبدى فأظهر المرض قبل ثلاث فقد شكانى . أخرجه الطبرانى عن أبى هريرة . *

وإظهار المرض يكون بالحديث عنه أو بالشكوى منه أو بالبرم والضجر . ولم يحدد الحديث القدسى ماهية الثلاث . والمفهوم أنها ثلاث ليال أو ثلاث أيام . ولعل هذا فى مايسمى بالحالات الحادة . أما الحالات المزمنة مثل الشلل أو مرض أيوب فلا شك أن المقصود ثلاث سنوات . ولعل تحديد المدة فى الحديث بثلاث . لأن الله عز وجل عالم أن بعض الناس إذا طال بهم البلاء

---

* الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى ص ٣٣ ، ٥١ .

أكثر من هذا . سيتحدثون عما بهم لزوارهم رغما عن محاولتهم كتمانه فكانت مشيئته ألا يحملهم فوق طاقتهم . فقد يكون في البوح – أو الفضفضة – عما بهم راحة نفسية لهم لشعورهم بتعاطف الآخرين معهم . فيواسونهم بكلمة تعينهم على تحمل آلامهم .

أفردت التوارة لأيوب سفرا كاملا من أربعين صفحة – هو سفر أيوب به تفصيل مناقشات دارت بينه وبين أصحاب له كانوا يترددون عليه بين الحين والآخر . وقد أشار حديث شريف إلى هؤلاء الأصدقاء .

فى حديث * رواه ابن أبى حاتم بسنده عن الزهرى عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة . فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له . كانا يغدوان إليه ويروحان . فقال أحدهما لصاحبه : يعلم الله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين . قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : من ثمانى عشر سنه لم يرحمه ربه فيكشف مابه . فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له . فقال أيوب : لا أدرى ماتقول . غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكـــران الله . فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق .

وتقول التوارة (اصحاح ٢ أيوب) ما مختصره :

فلما سمع أصحاب أيوب بكل البلاء الذى أتى عليه جاءوا ليرثوا له ويعزوه وقعدوا معه على الأرض سبعة أيام وسبع ليال .. ولم يكلمه أحد بكلمة لأنهم رأوا أن كآبته كانت عظيمة جدا .

بعد هذا تكلم أيوب وسب يومه .

ولا نوافق على أن أيوب سب يومه .

فى حديث قدسى ** أخرجه الشيخان . وأحمد وأبو داود عن أبى هريرة قال الله عز وجل : يؤذينى ابن آدم . يسب الدهر . وأنا الدهر . بيدى الأمر . أقلب الليل والنهار .

وفى حديث آخر رواه مسلم عن أبى هريرة . قال الله تعالى : يؤذينى ابن آدم . يقول ياخيبة الدهر . فلا يقولن ياخيبة الدهر . فإنى أنا الدهر . أقلب ليله ونهاره . فإذا شئت قبضتهما .

وهكذا نرى أن أيوب . ظل صابرا عدة سنوات . أكثر من ثلاث . لم يتكلم عن مرضه أو عما يشعر به لأحد . وطال مرضه .

والمرض إذا طال واستطال . يؤثر على حالة المريض النفسية . ويضعف من إرادته . ومن

---

* البداية والنهاية . ابن كثير . جـ ١ ص ٢٠٨ .

** الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى . ص ٢٧ .

هنا يكون المنفذ لوسوسة الشيطان محاولا أن يزعزع إيمان المرء بالله . ويجاهد الشخص لدفع هذه الوساوس بعيدا . ويكابد كثيرا فى ذلك .

وهذا ماكان من أمر أيوب .

« واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه . أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » .
(٤١ – ص)

والشيطان ليس له من سلطان على ابن آدم إلا الوسوسة فيحاول أن يقنطه من رحمة الله ويوسوس إليه بظلم القضاء . وكان أيوب يجاهد فى دفع هذه الوساوس عن نفسه حتى ناله تعب وعذاب . ولما طال مرضه وجاءه أصحابه يزورونه راح ينفس عما بداخله . فقال مامعناه : ليتنى لم أولد . ولعل الشيطان راح يوسوس له أن يتمنى الموت .

قال الإمام أحمد بن حنبل . عن آخرين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به . فإن كان ولابد متمنيا الموت فليقل : اللهم أحينى ماكانت الحياة خيرا لى . وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى . مخرج فى الصحيحين هكذا : لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به . إن كان محسنا فيزداد إحسانا وإن كان مسيئا فلعله يستعتب . ولكن ليقل اللهم أحينى ماكانت الحياة خيرا لى . وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى .

وقال الإمام أحمد عن آخرين عن أبى إمامة : قال : جلسنا إلى رسول الله ﷺ . فذكرنا (والمعنى ذكرنا الآخرة) فبكى سعد بن أبى وقاص . فأكثر البكاء وقال : ياليتنى مت . فقال النبى ﷺ : ياسعد أعندى تتمنى الموت ؟ فردد ذلك ثلاث مرات . ثم قال : ياسعد . إن كنت خلقت للجنة . فما طال من عمرك وحسن من عملك فهو خير لك .

قالوا . هذا إذا كان الضر خاصا بالمرء . فى ماله أو ولده أو جسده . أما إذا كان فتنة فى الدين فيجوز سؤال الموت* . كما قال الله تعالى : إخبارا عن السحرة لما أراد فرعون أن يصدهم عن الإيمان برب موسى وتهددهم بالقتل . قالوا :

« ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » . (١٢٦ – الأعراف)

كما أن مريم لما جاءها المخاض . وخشيت أن يرميها الناس بالفاحشة قالت :

« قالت ياليتنى مت قبل هذا . وكنت نسيا منسيا » . (٢٣ – مريم)

وفيما عدا ذلك فلايجوز للمرء أن يتمنى الموت . بلفظ صريح أو لفظ يضمر هذا المعنى .

---

* تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٩٢ .

وقد أفاضت التوارات في نسبة ذلك الأمر لأيوب . ولعله راح يحدث أصحابه بالصراع الذي كان يدور فى داخله . جاء بالاصحاح ٣ أيوب كلام يحمل معنى مستترا لتمنى الموت . فقد ورد أنه قال :

أ – ليت اليوم الذى ولدت فيه لم يكن .

ليته هلك اليوم الذى ولدت فيه ليكن ذلك اليوم ظلاما . ولايشرق عليه نهار ليحل عليه سحاب . وليحدث له كسوف يرعبه ويظلمه .

أما ذلك الليل – الذى قد قيل قد حُبِلَ فيه برجل – فليمسكه الدجى . ولايدخلن فى عدد الشهور . لتظلم نجومه . ولا يكن نور ولا ير هدب الصبح .

ب – ثم تمنى أنه لم يولد فقال :

لِمَ لَم أمت في الرحم ؟ عندما خرجت من البطن لِمَ لَم أسلم الروح ؟ لو حدث هذا لكنت الآن مضطجعا ساكنا (أى ميتا) كأجنة لم يروا النور . أو كسقط مطمور (إجهاض) . فى الموت يستريح المتعبون .

ثم يتساءل عن معنى الحياة إذا كانت بهذا الشقاء فيقول :

لِمَ يُعطى لشقى نور ؟ ولِمَ تعط الحياة لتكون مرارة للنفس ؟ إنه لحرى بهؤلاء أن يبتهجوا عندما يجدون قبرا !

وفى رأينا أن تمنى عدم الوجود يماثل تمنى الموت ويحمل معنى عدم الرضا بالحياة . وعدم الرضا بنصيبه منها وبالقضاء والقدر . وفيها ضجر وتبرم بحاله . وكل هذه المعانى تستوجب التكفير عنها . وكانت سببا فى بقاء البلاء عدة سنوات .

كانت **كلمة الصديق الأول** كلمة تشجيع فقال له :

١ – فى الماضى أرشدتَ كثيرين . وساندتَ آخرين فى محنتهم . وأقلتَ العاثر وكنت سندا للخائفين . والآن إذا جاء عليك ضجرت ؟

٢ – وإذا كنت تنظر إلى تقواك واتباعك الطريق القويم وأنك مع هذا قد نزل بك بلاء . فتذكر أنك لست وحدك فى ذلك . بل هناك كثيرون وتذكر من هلك وهو برىء .

٣ – ثم هو يحذر أيوب من أن ينسب إلى القدر الظلم . فالقدر تجرى به الملائكة بأمر من الله تعالى فكأنه يحذره من أن ينسب الظلم إلى الله .

٤ – ثم يعزيه قائلا : إن الشقاء مكتوب على الإنسان ولا فائدة من الغضب .

٥ – ثم يوضح له قدرة الله وأنه يفعل مايشاء : فهو الفاعل لعظائم أمور لا تفحص . وعجائب لا تعد . المنزل مطرا على وجه الأرض . الجاعل المتواضعين فى العلا . المبطل أفكار المحتالين .

يجعل نهار الماكرين ظلاما .

وكأنه يقول : هو المعز المذل . الرافع . الخافض .

وكأنه يقول أيضا : لايسأل عما يفعل .

٦ – ثم يطلب منه أن يتحمل البلاء فيقول : هو ذا طوبى لرجل يؤدبه الله فلا ترفض تأديب القدير . لأنه هو يجرح ويعصب . يسحق ويداه تشفيان . بمعنى أنه يجرى القدر بالبلاء ولكنه يخفف منه . ويعين على تحمله . وهذا نفس معنى الدعاء :

اللهم لا نسألك رد القضاء . ولكن نسألك اللطف فيه .

اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير .

٧ – ثم يقول له إن الله معك فى الشدة . وإذا كان الله معك فلا تخش شيئا . فلاتخاف من الخراب . ووحوش البرية تسالمك . وخيمتك آمنة وزرعك كثير .

أصدقاء أيوب يتهمونه بارتكاب الشر :

لما طال المرض بأيوب ، زاره أصدقاؤه ثانية واعتقدوا أنه لابد قد ارتكب شرا استحق بسببه هذا البلاء . ولعلهم استشعروا المعنى الذى تقوله الآية الكريمة :

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . (٣٠ – الشورى)

طاف هذا المعنى بأذهانهم . وعبر عنه أولهم تلميحاً بأن راح يذكر لأيوب مايستحقه الأشرار فقال :

– تقصر خطواته ويساق إلى الأهوال .

– من تحت تيبس أصوله ومن فوق يقطع فرعه .

وكأنه يقول له :

« كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » . (٢٦ – ابراهيم)

– ذكره يبيد من الأرض . ولا اسم له على الأرض .

– يدفع من النور إلى الظلمة . ومن المسكونة يطرد .

– نور الاشرار ينطفىء ولا يضىء لهيب ناره . النور يظلم فى خيمته وسراجه فوقه ينطفىء.

وهذا مثل قوله تعالى :

« والذين كسبوا السيئات . جزاء سيئة بمثلها . وترهقهم ذلة . مالهم من الله

من عاصم . كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما » . (٢٧ - يونس)

- صوت الشرير لايرتفع . والشرير ينال جزاؤه .

- خبزه يتحول مرارة فى بطنه والمال الحرام الذى أكله سيتقيؤه والله سيطرد هذا المال الحرام من بطنه كقوس من نحاس . والسهم يخرج من بطنه .

- تأكله نار ترعى فى خيمته .

أما الصديق الثانى فكان صريحا وقال لأيوب إنه يستحق مانزل به من بلاء :

١ - إن أبناء أيوب - قد ارتكبوا ذنوبا فى حق الله . فكان أن جازاهم الله بالموت بسبب معصيتهم .

٢ - يتهم أيوب فيقول له لعلك ارتكبت أيًّا من الشرور الآتية :

ارتهنت أخاك بلا سبب وسلبت ثياب العراة .

ماء لم تسق العطشان وعن الجوعان منعت خبزا .

الأرامل أرسلت خاليات (من العطاء) وذراع اليتامى انسحقت . لأجل ذلك حواليك فخاخ . ويريعك رعب والظلام حولك .

ويقول له : إن الله لاتخفى عليه خافية :

هو ذا الله في عليائه فى السموات . فلعلك قلت كيف يعلم الله ؟

هل الضباب والسحاب يغطى فلا يعلم أعمالك ؟

هل على الطريق الذى سار عليه الآثمون قديما تمشى . وقد علمت أن الله جازاهم بأفعالهم . وأتى بنيانهم من القواعد .

فكأنه يقول له بأننا لانعرف ما ارتكبت من إثم ولكن الله يعلمه ويحاسبك عليه :

« إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » . (٥ - ال عمران)

« وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » . (٢٨٤ - البقرة)

واضح أن أصدقاء أيوب لم ينتبهوا إلى أن هناك نوع من البلاء يختبر الله به العباد . ليميز الله ضعيفى الإيمان من قويه . ليعظم لمن قوى إيمانه أجرا .

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم » .

(٣١ - محمد)

فهناك قوم يعبدون الله على حرف أى على طرف من الدين . فإن أَصابه خير دنيوى

كالرخاء والعافية والولد وكل مايشتهى ، ثبت على الدين . لا لأنه إطمأن به ، بل للخير الذى أصابه . وإن أصابه مكروه فى أهله أو ماله أو نفسه . سخط وضاق وتبرم وسب الدهر . وقد يرتد عن الإيمان وينقلب على وجهه .

« ومن الناس من يعبد الله على حرف . فإن أصابه خير إطمأن به . وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه . خسر الدنيا والآخرة . ذلك هو الخسران المبين ».
(١١ - الحج)

وفى حديث قدسى أخرجه الطبرانى والبيهقى .

إن الله تعالى يقول للملائكة : انطلقوا إلى عبدى فصبوا عليه البلاء صبا . فيأتونه فيصبون عليه البلاء . فيحمد الله . فيرجعون فيقولون : ياربنا . صببنا عليه البلاء صبا كما أمرتنا . فيقول : ارجعوا . فإنى أحب أن أسمع صوته .

وفى رأينا أن « أحب أن اسمع صوته » تعنى أن يسمعه الله يحمده على الضراء . كما كان يحمده فى السراء . إيمانا من العبد بأن قضاء الله وقدره لابد أن يتقبل بنفس راضية وبالشكر.

« وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » . (من الآية ٢١٦ - البقرة)

« فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » . (١٩ - النساء)

البلاء يكفر الذنوب .

أخرج الحاكم الحديث القدسى التالى :

إن العبد إذا مرض أوحى الله الى ملائكته : أنا قيدت عبدى بقيد من قيودى . فإن أقبضه أغفر له . وإن أعافه فحينئذ يقعد لا ذنب له.

وحديث آخر أخرجه ابن صخر عن أبى هريرة : *

إذا مرض العبد بعث الله تعالى إليه ملكين فيقول انظروا مايقول لعواده . فإن هو إذا دخلوا عليه حمد الله رفعوا ذلك إلى الله . وهو أعلم . فيقول : لعبدى إن أنا توفيته الجنة . وإن أنا شفيته أن أبدله لحما خيرا من لحمه . ودما خيرا من دمه . وأن أكفر عنه سيئاته .

وحديث آخر أخرجه أحمد والطبرانى وابن عساكر : **

قال الله عز وجل : إذا ابتليت عبدا من عبادى مؤمنا . فحمدنى وصبر على ما ابتليته . فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمه من الخطايا . ويقول الرب للحفظة . إنى قيدت عبدى هذا وابتليته ، فأجروا له ماكنتم تجرون له قبل ذلك من الأجر وهو صحيح .

---

* إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالى جـ ٤ ص ٦٩ .

** الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى . ص ٢٢ .

أيوب ينفي ارتكاب الشر :

قال أيوب لأصدقائه إنه لم يفعل شرا وأنه كان تقيا :

١ – لم يزن حتى ولو بالنظرة .

٢ – لم يغش .

٣ – كان يعطف على اليتيم والمسكين والفقير .

٤ – لم يجعل جمع المال كل همه .

٥ – لم يتلوث ولو فى السر بعبادة الكواكب .

٦ – لم يتلوث بمرارة لأعدائه أو شماتة فيهم .

٧ – لم يأكل أجر الأجير .

ويؤكد أيوب أنه بار ولم يذنب فيقول :

– بخطواته استمسكَت رجلى . حفظت طريقه ولم أحد عنه . والمعنى سرت على الطريق المستقيم – طريق الله – ولم أنحرف عنه .

– من وصية شفتيه لم أبرح . بمعنى نفَّذت جميع أقواله وأوامره .

– أكثر من فريضتى عملت .

هذه الأقوال التى ذكرها لأصحابه كان يقصد بها بيان براءته من إتهامهم له بارتكاب خطيئة ما استوجب بها هذا البلاء . فراح يعدد أنواع البر التى عملها . ولكن فى ثنايا هذه الأقوال . وخاصة أنه كان يكررها كلما زاروه . نلمح شيئا من **العجب** . والجملة الأخيرة « **أكثر من فريضتى عملت** » تعتبر نوعا من **الإدلال** .

إن اعتقادنا بأن البلاء كان قبل النبوة يرفع الحرج عند نسبة العجب والإدلال إلى أيوب .

قال رسول الله ﷺ « ثلاث مهلكات . شح مطاع . وهوى متبع . وإعجاب المرء بنفسه . أخرجه البزار والطبرانى والبيهقى. *

وقال رسول الله ﷺ : لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك ، العجب ، العجب . أخرجه البزار وابن حيان والبيهقى .

وقيل لعائشة رضى الله عنها : متى يكون الرجل مسيئا ؟ قالت : إذا ظن أنه محسن .

وقال ابن جريج فى تفسير معنى الحديث الشريف السابق ، إذا عملت فلا تقل إنى عملت .

وقال زيد بن أسلم : أى لا تعتقدوا أن أفعالكم بارة فيدخلكم العجب .

فمن عنده نعمة من مال أو علم ، ومن أدى فرائض الله ، يكون عالما بما عنده وما أدى من فرائض . فإن أيقن فى نفسه أن ذلك نعمة من الله تعالى . فهذا ليس من العجب . إذ هو عارف

* إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالى جـ ٣ ص ٣٤٤ .

أن ذلك كله فضل من الله . لو شاء نزعه منه . فيكون خائفا من زواله .

أما **العجب** فهو أن يكون فرحا به مطمئنا إليه ، ينسبه إلى نفسه . وإجتهاده فى العبادة يرجعه إلى قوة إرادته . فإذا زاد على ذلك أن ظن فى نفسه أنه – باجتهاده فى العبادة وكثرة فعل البر – قد أصبح له عند الله حقا . وأنه منه بمكان . حتى يتوقع بعمله كرامة فى الدنيا ، واستبعد أن يجرى عليه مكروه كما يجرى على سائر الخلق – سمى هذا **إدلالا** بالعمل . فكأنه يرى لنفسه على الله دالة * . ويظهر ذلك واضحا فى قول أيوب وتكراره « أكثر من فريضتى عملت » .

وفى الخبر : إن صلاة المدل لاترفع فوق رأسه . ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك . خير من أن تبكى وأنت مدل بعملك . وقيل حديث غير مسند .

والإدلال يكون فيه توقع مكافأة .

فمن أكثر العبادة وتوقع إجابة دعوته واستنكر بباطنه ردها ، كان مدلا بعمله .

ومن أكثر بذل المال فى الصدقات ونحوه وتوقع زيادة الرزق ، كان مدلا بعمله .

وقد ذكرت التوراة . فى أكثر من موضع فى سفر أيوب قوله : إنه يدعو فلا يستجاب له أو لا يلتفت إليه . وهذا إدلال .

وينعكس عجب المرء بعبادته وإدلاله – على موقفه من الله تعالى .

فالعجب يؤدى إلى نسيان الذنوب وإهمالها . فبعض الذنوب لا يذكرها . وما يذكره يستصغره بجانب كثرة عبادته . فلا يجتهد فى تداركه والاستغفار منه ولايتوب منه . ويظن أنه يغفر له لكثرة حسناته .

أما الإدلال فى العبادات والأعمال فمعناه أن المرء يمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها .

كما أن المعجب . إذا ظن أنه عند الله بمكان . وظن أن له عند الله منة وحقا بأعماله . فيكون مدلا أيضا .

ويبتلى بهذا الداء العباد والعلماء وأصحاب المال المشمِّرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة . ** فالعابد يجتهد فى العبادة . والعالم يبالغ فى نهى نفسه وفى نصح الآخرين . وصاحب المال يكثر من الصدقات والتصدق . فيشتهرون بين الناس بالعبادة والعلم والكرم . وتستريح نفوسهم إلى مانالوه من شهرة بين الخلق . ويجدون لذة فى قبول الناس لهم ونظرهم

---

* إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالى – جزء ٣ ص ٣٤٦ .

** إحياء علوم الدين – جزء ٣ ص ٢٥٧ .

إليهم بعين الوقار والتعظيم .

فتسرع النفس إلى إظهار الطاعات . وتفرح بحمد الناس وتستريح النفس إلى نظر الناس إليهم بعين الاحترام والتوقير . وأنهم يتبركون بمشاهدته ولقائه ويرغبون فى بركة دعائه ويحرصون على اتباع رأيه . يكرمونه في المحافل غاية الإكرام . ويسامحونه فى البيع والشراء . ويقدمونه فى مجالسهم ويتواضعون له وينقادون . فتصيب النفس من ذلك لذة هى من أعظم اللذات . فتقبل على العبادات وبذل المال . متحملة فى سبيل ذلك المشاق . وهو يظن أن عبادته خالصة لله وبذله للمال هو خالص لوجه الله . ولا ينتبه لهذه الشهوة الخفية للجاه والشهرة . التى تعجز عن إدراكها العقول . ويرى أو يعتقد أنه مخلص فى طاعة الله ومجتنب لمحارم الله . والنفس قد أبطنت هذه الشهوة الخفية . فرحا بما نالت من المنزلة والتعظيم عند الناس . فأحبطت ثواب الطاعات وقللت من أجور الصدقات والأعمال .

قال رسول الله ﷺ : إن أخوف ما أخاف على أمتى : الرياء والشهوة الخفية . التى هى أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء . قال الحاكم صحيح الإسناد . *

وقال رسول الله ﷺ * : بحسب المرء من الشر – إلا من عصمه الله من السوء – أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه . إن الله لاينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم . رواه مسلم ورواه الطبرانى والبيهقى بلفظ « كفى بالمرء إثما ... الخ الحديث » .

والعجب والإدلال مسألة داخلية ترجع إلى النية . وهذه منطقة لا يطلع عليها أحد إلا الله سبحانه وتعالى . حتى إن المرء نفسه قد يخفى عليه أنه قد اجتاز الحد الفاصل بين منطقة الرضا ودخل منطقة العجب .

فالورع والتقوى وإخلاص العبادة وكثرة الصدقات أمور مطلوبة . ويُسر المرء لإتيانها . ولكن لايجب أن تغيب عنه الحقيقة : وهى أن الله هو الذى يسر له أمرها . وسخر له أعضاءه وإرادته للقيام بها . فإن كان هناك إعجاب . فهو الإعجاب . بجود الله وكرمه وفضله فى تيسير ذلك . وليس إعجاب المرء بنفسه فى إتيانه هذه العبادات.

قال رسول الله ﷺ : حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل .

فالمال يُتوصل به إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس . وبالمال يتم تسخير الآخرين لقضاء حوائجه .

---

* إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالى . جـ ٣ ص ٢٥٧ .

وذو الجاه يملك قلوب الناس ويقدر أن يستعملهم فى أغراضه ومآربه . والجاه يكتسب بأنواع من المعاملات . وتصير القلوب مسخرة باعتقاد الكمال فى ذلك الشخص فتنقاد له ويدخل فى نفس صاحب المال ذى الجاه . شىء من الكبر والخيلاء . وخاصة إذا بدأ الناس فى مدحه وتعظيمه وإيثاره بالصدارة فى المحافل والتقديم فى جميع المقاصد .

قد يقول المرء : هى أعمالى . وأنا الذى قمت بها . وأفرح إذا أديتها وأرضى عن نفسى – وأعجب بها – وأنتظر عليه ثوابا !

ولكن لو تمعنا فى الأمر لوجدنا أن الفعل اشترك فيه :

– جسد . خلقه الله . وجعل له القوة على فعل ماتريد . وسلامة الأعضاء لم تكن بقدرة المرء وإنما هى منحة من الله . ولو شاء سلبها هذه القدرة فما استطاع تحريكها .

– ثم القلب وهو محل الإيمان . وفريق قدر الله لهم أن يكونوا مؤمنين – وكنت أنت منهم – وفريق غير ذلك .

– ثم كان الفعل والإرادة للقيام بالعمل .

فالعناصر الثلاثة خاضعة لمشيئة الله تعالى . إن شاء يسَّرها فيتم الفعل وإن شاء غير ذلك لم يتم الفعل .

وكما قال الله تعالى :

« وما رميت إذ رميت . ولكن الله رمى » . (١٧ – الأنفال)

ويقول الامام أبو حامد الغزالى * : كذلك ماصلى المرء إذ صلى . ولكن الله شاء له أن يصلى.

فالأمر كله راجع إلى مشيئة الله . فلا محل للعجب . ولكن يجب الشكر على أن كان هو محل هذا الفعل الذى قام به . ويجب عليه أن يقول :

« الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » .

(٤٣ – الأعراف)

فالعبادات خزائن ومفاتيحها بيد الله سبحانه وتعالى .

ويضرب الإمام أبو حامد الغزالى * المثل بخزانه ذهب ومفتاحها بيد خازن . ولو أجهدت نفسك بنفسك لن تستطيع فتح هذه الخزانة . وهب أن الخازن أعطاك المفاتيح . ومددت يدك فأخذتها وفتحت الخزانة ونلت مافيها من جواهر . فهل عجبك أنك مددت يدك وأخذت المفاتيح ؟ أم العجب بمن أعطى المفاتيح ؟

وكذلك فمهما كانت فيك القدرة وجمعت الإرادة للعبادة . فقد كان ذلك كله بتوفيق من الله . كما أنه صرف عنك الموانع ودفع عنك مايثبط همتك . فلا محل للعجب من نفسك . ولكن تشكر

---

* إحياء علوم الدين – جزء ٣ ص ٣٤٧ – ٣٤٨ .

من آثرك بهذه المنة .

قال داود عليه السلام * : يارب ما تأتى ليلة إلا وإنسان من آل داود صائم . وفى رواية أخرى : ماتمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك . إما يصلى . وإما يصوم . وإما يذكرك . فأوحى الله تعالى إليه . ياداود . ومن أين لهم ذلك ؟ إن كل ذلك لم يكن إلا بى ولولا عونى إياك ماقويت . وسأكلك إلى نفسك . قال ابن عباس : إنما أصاب داود من الذنب بعجبه بعمله إذ أضافه إلى آل داود مدلا به حتى وكل إلى نفسه . فأذنب ذنبا أورثه الحزن والندم .

التحسر على الماضى :

تذكر التوراة ** أن أيوب أخذ **يتحدث لأصحابه عن الماضى بحسرة :**

فيذكر النعيم الذى كان فيه فيقول :

ياليتنى كنت كما فى الشهور السالفة وكالأيام التى حفظنى الله فيها حين أضاء سراجه على رأسى . وبنوره سلكت الظلمة . ورضا الله على خيمتى . والقدير بعد معى . وحولى غلمانى . إذ غسلت خطواتى باللبن (كما نقول : يتمرغ فى الخير) والصخر سكب لى جداول زيت (أى يأتيه الرزق من أى شىء يفعله) .

كما يتذكر الجاه الذى كان فيه فقال :

حين كنت أخرج إلى الباب فى القرية وأهيىء فى الساحة مجلسى . رآنى الغلمان فاختبأوا . والأشياخ قاموا ووقفوا . والعظماء أمسكوا عن الكلام ووضعوا أيديهم على أفواههم . صوتهم إختفى ولصقت ألسنتهم بأحناكهم . لأن الأذن سمعت لى فطربت . والعين رأت فشهدت لى .

وراح يعدد الأشياء التى فعلها فاستحق هذه المكانة قائلا :

– لأنى أنقذت المسكين المستغيث واليتيم والذى لا معين له .

– بركة الهالك حلَّت علىَّ وجعلتُ قلب الأرملة يُسر .

ولفهم هذه الجملة الأخيرة . نشير إلى أن كلمة الهلاك تعنى الموت . وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى :

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات . فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا » . (٣٤ – غافر)

وجاء قوله تعالى أيضا :

---

* إحياء علوم الدين . جـ ٣ ص ٣٤٨ .

** إصحاح ٢٩ أيوب

« يستفتونك . قل الله يفتيكم فى الكلالة . إن امرؤ هلك . ليس له ولد وله أخت.... » . (١٧٦ - النساء)

فمعنى قول أيوب : بركة الهالك حلت على وجعلت قلب الأرملة يُسر . يكون : أحسنت إلى الأرملة وجعلت قلبها يسر وبذلك حلت على بركة المتوفى أى زوجها لإحسانى إلى زوجته بعده .

وتستمر التوراة في إيراد ماقاله :

– لبست البر فكسانى . وكجبة وعمامة كان عدلى . بمعنى كنت أفعل البر والعدل كثيرا . بحيث يغطينى من رأسى إلى رجلى .

– كنت عيونا للعمى . وأرجلا للعرج . وأب أنا للفقراء .

– هشمت أضراس الظالم . ومن بين أسنانه خطفت الفريسة بمعنى خلصت المظلوم من بين أيديه أو من بين أسنانه .

– لى سمعوا . وأنصتوا عند مشورتى .

– بعد كلامى لم يثنوا (أى بعد كلامى لم يقولوا قولا ثان) .

وقولى قطر عليهم (أى نزل عليهم كالندى والقطر) . وانتظروا مثل المطر وفغروا أفواههم كما للمطر المتأخر . وينقل لنا هذا التعبير صورة إناس تأخر عنهم المطر حتى جفت حلوقهم واشتاقوا إلى الماء بشدة . فلما نزل المطر لم ينتظروا أن يملأوا الكوب ويشربوا بل فتحوا أفواههم لتنزل قطرات المطر مباشرة فى حلوقهم .

– كنت أختار طريقهم . وأجلس منهم مجلس الرأس وأسكن كملك .

– إن ضحكت (أى عليهم) لم يصدقوا . ونور وجهى لم يعبسوا . بمعنى حتى لو سخرت منهم لم يغضبوا .

لا شك أن فى هذه الأقوال شىء من العجب وحب الجاه . مما كان يوجب التوبة . ولعل ذلك كان من أسباب استمرار البلاء لعدة سنوات أخرى .

كما أن تذكر الماضى واستحضاره فى الذهن بهذه الصورة المبهجة والمحببة إلى النفس . والتحسر عليه بهذا الشكل يولد فى النفس حزنا ومرارة ويورث نوعا من عدم الرضا بما قسم الله .

وينهى الله عن ذلك بقوله :

« لكيلا تأسوا على مافاتكم . ولا تفرحوا بما آتاكم » . (٢٣ - الحديد)

« لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم » . (١٥٣ آل عمران)

والحزن على مافات ذنب يوجب التكفير عنه يوضحه صدر الآية :

---

* إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٣١٧ .

« فأثابكم غما بغم . لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم » .

وصحيح أن الآية نزلت فى وصف حال المسلمين فى معركة أحد . إلا أنها تصح قاعدة عامة يمكن الاستشهاد بها فى أى موقف مشابه .

كما أن الموقف الذى نحن بصدده – من زوال نعمة الدنيا – ينطبق عليه قوله تعالى :

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد . كمثل غيث أعجب الكفار نباته . ثم يهيج فتراه مصفرا . ثم يكون حطاما . وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم . ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » . (٢٠ – ٢٣ – الحديد)

فهذه الآيات توضح أن كل ماكان أيوب يتحسر عليه هو من متاع الدنيا . وهو لعب ولهو : ماتذكَّره من المال . والولد الملتفين حوله . والجاه . ومجلس الصدارة . والاحترام بالوقوف له والصمت عندما يتكلم . كل هذا تفاخر . وعرض زائل من أعراض الدنيا التى تغر من إطمأن إليها ولم يجعلها ذريعة لبلوغ النعيم الدائم فى الآخرة . وفى الحث على طلب المغفرة مايفيد من أن تمنِّى هذه الأشياء فى الدنيا يوجب طلب المغفرة من الله – كما هو حث على الزهد فى الدنيا .

ثم يقرر الله سبحانه وتعالى أن كل مايحدث فى الأرض من أحداث ونائبات ومصائب مكتوب ومثبت فى اللوح المحفوظ أو فى علم الله عز وجل من قبل أن يخلق الله الأرض أو من قبل وقوع هذه الحوادث ولذا قيل .

« جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة »*.

ولو وعى الإنسان هذا المعنى تماما لوجب عليه ألا يحزن على مافاته من نعم الدنيا . ولا يحزن على ما أصابه من بلائها .

تذكر التوراة (إصحاح ٧ أيوب) أن أيوب قال : لأصحابه مامعناه **أنه كان بارا ولم يفعل مايستوجب هذا البلاء بل كان يتوقع أجرا حسنا :**

– كما يتشوق العبد إلى الظل وكما يترجى الأجير أجرته . ويقول :

---

* إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ١٢٣ .

– ولكن تعين لى أشهر سوء . وليالى شقاء قسمت لى .
– إذا اضطجعت أقول متى أقوم . الليل يطول . وأشبع قلقا حتى الصبح .
– لبس جسمى الدود مع مدر التراب .
– أيامى تمر بغير رجاء . وعينى لا تعود ترى خيرا .
– إن قلت فراشى يعزينى وينزع كربتى ، تريعنى الأحلام وترهبنى بروى فاختارت نفسى الموت .

نلمح هنا نبرة عدم رضاء عما أصابه وسخط على القدر .
بل واتهام للقدر بالظلم بأن أعطاه على برِّه هذا البلاء .
وعدم الرضا بالقضاء والقدر ذنب يستدعى التكفير عنه .
روى حديث قدسى * . أن الله تعالى قال : أنا الله لا إله إلا أنا . من لم يصبر على بلائى . ومن لم يشكر نعمائى . ولم يرضى بقضائى . فليتخذ ربا سواى . أخرجه الطبرانى وابن حيان.
وعن رسول الله ﷺ أنه قال : قال الله تعالى : قدرت المقادير . ودبرت التدبير وأحكمت الصنع . فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقانى . ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى .
ويروى ** أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : ياداود إنك تريد . وأريد . إنما يكون ما أريد . فإن سلمت لما أريد . كفيتك ما تريد . وإن لم تسلم لما أريد . أتعبتك فيما تريد . ثم لا يكون إلا ما أريد .
ومن دلائل الحب الحقيقى من العبد لربه أن يرضى بقضائه حتى يكاد لايشعر بألم البلاء . وإن أحس به فى جسده إلا أنه لا يحس به فى قلبه وعقله .
ولعل عدم الرضا الذى شعر به أيوب كان سببا فى بقاء البلاء به عدة سنوات أخرى .

وسوسة الشيطان بأن الشرير ينعم في الدنيا !

قد يرى المرء – فى الدنيا – أن بعض الأشرار ينعمون ويتنعمون . ويرتكبون الآثام . ولا يُقتص منهم . فى حين يرى بعض الصالحين مضيقا عليهم فى دنياهم . يفعلون الخيرات ومع ذلك نرى شدة فى حياتهم ورزقهم قليل . وتكون هذه المفارقة فرصة لوساوس الشيطان يوهم أن ذلك ليس عدلا . وظلم من القدر . ويلقى فى الروع أن الشر لايضر وليس من جزاء على فاعله . وأن البر لايفيد . ولا يثاب فاعله . فإذا انساق المرء وراء الشيطان فى وساوسه هذه نجده يتراخى فى إتيان العبادات كما لا يستعظم فعل الشر . وقد تتحقق غواية الشيطان له ويضل . أو ينتابه الشك فى عدل القضاء .

* الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى . ص ٢٠ .
** إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٣١٧ .

عن أنس وابن عباس رضى الله عنهما * : شكا نبى من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال: يارب العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرض له البلاء . ويكون الكافر لايطيعك ويجترىء عليك وعلى معاصيك . تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا ! فأوحى الله تعالى إليه : إن العباد لى والبلاء لى . وكل يسبح بحمدى . فيكون المؤمن عليه من الذنوب . فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه . حتى يلقانى فأجزيه بحسناته . ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له فى الرزق وأزوى عنه البلاء . فأجزيه بحسناته فى الدنيا . حتى يلقانى فأجزيه بسيئاته .

ولا شك أن ماذكرته التوراة (إصحاح ٢١ أيوب) على لسان أيوب فى هذا المعني – كان من وساوس الشيطان إذ جاء فيه قوله :

– لماذا يحيا الأشرار ويشيخون . نعم . ويتجبرون قوة . نسلهم قائم أمامهم معهم وذريتهم فى أعينهم . بيوتهم آمنة من الخوف . وليس عليهم عصا الله . بقرتهم تنتج ولا تسقط (أى ثروتهم تزيد) . أطفالهم ترقص . يحملون الدف والعود . ويطربون بصوت المزمار . يقضون أيامهم بالخير . يقولون من هو القدير حتى نعبده !

ويرد على هذه الوساوس أحد أصحابه فيقول : إن ماتراه من حال الأشرار ماهو إلا أمن مشحون بالألم الدائم . ويعتريه خوف من المصائب القادمة – وهو مرتقب للسيف (للقصاص) وصوت رعوب فى أذنيه . لأنه على القدير تجرأ وصلب عنقه . وبشائر ماينتظره من مصائب تطن فى آذانهم باستمرار . وفى لحظة سلام يأتيه الموت وبيوته تصبح خربة . والظلمة النهائية يوم الدينونة تتجمع فتمحو رفاهيتهم . ومصيرهم مصير نبتة تذبل قبل أوانها . وقبل يومه يتوفى.

وهذا المعنى يتفق مع قوله تعالى :

« فذرهم فى غمرتهم حتى حين . أيحسبون أن مانمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات . بل لايشعرون » . (٥٤ – ٥٦ – المؤمنون)

وقوله تعالى :

« ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل . فسوف يعلمون » . (٣ – الحجر)

وقد فطن أيوب إلى هذه الحقيقة بعد أن صهر البلاء معدنه فهو يقول فى أواخر أيام بلائه ما معناه : لا تغتروا بأن الاشرار لا تحدث لهم مصائب لأن جزاؤهم فى الآخرة وليس فى الدنيا . ويقول لأصحابه : إنه ليوم البوار يمسك الشرير . ليوم السخط يقادون . إلى من يجازيه على ما

* إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ١٢٣ .

عمل . فى الظاهر يبدو أن الشر أعطى كسبا . ونجاحه يغرى الكثيرين على تقليده .ولكن الله يخزن إثمه ليجازيه به . ويسقيه القدر حميما .

أيوب يكرر تعداد حسناته :

كرر أيوب فى أكثر من إصحاح تعداد الحسنات التى قام بها ليؤكد لأصحابه أنه بار ولم يذنب . فقال :

– ألم أبك لمن عسر يومه ؟ ألم تكتئب نفسى على المسكين ؟

– عهدا قطعت لعينى فكيف أتطلع لعذراء . وما هو الجزاء . أليس البوار لعامل الشر وفاعل الإثم .

– إن كنت قد سلكت مع الكذب أو أسرعت رجلى إلى الغش فلأوضع فى ميزان الحق . فيعرف الله كمالى .

– إن كنت رفضت حق عبدى وأمتى فى أجرهما . فماذا كنت أصنع حين يقوم الله . وبماذا أجيبه إذا سألنى ؟ أليس هو خالقى وخالقهم أيضا .

– إنى لم آكل لقمتى وحدى . بل أطعمت معى اليتيم والمسكين .

– إنى لم أترك فقيرا بلا كسوة أو شخصا يهلك لعدم اللبس . بل سيشهد لى بأنى أدفأته بالصوف من جزة غنمى .

إن كنت جعلت الذهب عمدتى أو قلت للإبريز أنت متكلى إن كنت قد فرحت إذ كثرت ثروتى ولأن يدى قد وجدت كثيرا .

– لم أدَع غريبا يبيت فى الخارج . وفتحت للمسافر أبوابى .

– كنت آمر أهل خيمتى بدعوة الجوعى ليشبعوا من طعامى .

– لم أفعل سوءا لأحد أو إهانة لعشائر فأخشى الناس وأختبىء وراء بابى .

– هل كتب أحد شكوى منى ؟ كنت أحملها على كتفى . وكنت أجعلها تاجا على رأسى لأنها ستكون شهادة لى بأنى لم أسىء لأحد .

– لن تشهد أرضى على وتقول إننى أكلت غلتها ولم أعط العمال أجرهم . إن كنت فعلت ذلك فلتنبت لى الأرض بدل الحنطة شوكا . وبدل الشعير زوان .

(الزوان عشب سام . ينبت بين الحنطة يحدث أكله دوارا وارتعاشا وربما يسبب موتا *)

.عدد أيوب هذه الأشياء ليثبت لأصحابه أنه بار ولم يذنب ولم يفعل مايستحق بسببه هذا البلاء الذى نزل به . وفى هذا التعداد للحسنات نوع من العجب والإدلال .

---

* قاموس الكتاب المقدس . ص ٤٣٨ .

تزكيــــة النفــس :

تقول التوراة * إن أحد أصدقاء أيوب قال له : لماذا تأخذك العزة وترد على قضاء الله وتخرج من فمك أقوال تنم عن السخط والضجر ؟ وتدعى أنك بارٌّ ؟ من أنت حتى تزكى نفسك وتدعى البر وأنك لم ترتكب إثما ؟

جاء النهى عن تزكية النفس فى الآية الكريمة .

« الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم . إن ربك واسع المغفرة . هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض . وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم . فلا تزكوا أنفسكم . هو أعلم بمن اتقى » . (٣٢ - النجم)

قيل إن اللمم هى الذنوب الصغيرة مثل النظرة أو اللمسة وماشابهها . وأن هذه الصغائر لا يؤاخذ الله بها . وهذا محض مغفرة من الله تعالى . كما أن تكرارها أو الإصرار عليها قد ينقلها إلى صف الكبائر . والله عليم بما فى النفوس . إذ هو الذى خلق الإنسان وهو جنين فى بطن أمه وهو أعلم بمن يتقى الله ويستحق التزكية . فلا تزكوا أنتم أنفسكم .

« ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم . بل الله يزكى من يشاء . ولا يظلمون فتيلا » . (٤٩ - النساء)

وإن كان اللمم مما قد يتجاوز عنه بالنسبة للعامة . فقد لا يكون الأمر كذلك بالنسبة للخاصة والمقربين . إذ تكون مشيئة الله أن يسقط عنهم اللمم ببعض البلاء لتكون لهم فى الآخرة الدرجات العالية .

الأبــرار رزقــهــم قليـــل :

تورد التوراة كلمات لأيوب يفهم منها تعجبه من تصاريف القدر . وأنه يشاهد الأبرار (مثله) لايعطيهم القدر مايستحقون .

وخير رد على هذه النقطة هو المثال الذى ذكره الإمام أبى حامد الغزالى ** . شخص رزقه الله عقلا ولم يعطه مالا . يرى أشخاصا أفاض الله عليهم المال من غير علم فيقول : كيف أفقرنى الله وأنا العاقل الفاضل . وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو جاهل ؟ حتى يكاد يرى هذا ظلما . ولايدرى أنه لو جمع له بين العقل والمال لكان هذا بالظلم أقرب . إذ يقول الجاهل الفقير:

---

* إصحاح ١٥ أيوب .

** إحياء علوم الدين . جـ ٣ ص ٣٤٧ .

يارب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتنى منهما . هلا جمعتهما لى . أو رزقتنى أحدهما ؟!

وإلى هذا أشار على كرم الله وجهة إذ قيل له : ما بال العقلاء فقراء ؟ فقال : إن عقل المرء محسوب عليه من رزقه .

ومن المؤكد أن العالم الفقير لو خُيِّر أن يعطى مالا ويذهب بعلمه لما رضى بذلك .

وقال الإمام أحمد عن آخرين عن عبد الله بن مسعود : قال رسول الله ﷺ : إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم . وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب . ولايعطى الدين إلا لمن أحب .

اليـــــأس :

تقول التوراة إنه بعد أن طال البلاء بأيوب – بدأ يشعر بنوع من اليأس . وبالغت فى وصف حالة اليأس التى أصابته .

واليأس والقنوط يتنافيان مع الإيمان الصحيح .

قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام :

« قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » . (٥٦ – الحجر)

وقال على لسان يعقوب لبنيه :

« إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . (٨٧ – يوسف)

وقال على كرم الله وجهه لرجل : ياهذا . يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك .

وفى حديث موقوف على ابن مسعود : من الكبائر . الإشراك بالله تعالى واليأس من روح الله . والأمن من مكر الله .

اليأس مذموم لأنه يصرف عن التوبة . فاليائس لايرى فائدة من الاستغفار والتوبة لاعتقاده بعدم قبولهما . بل ولا يجتهد فى عبادة ما لظنه أنه مهما اجتهد فلن تمحو ذنبه .

واليائس يعتقد أن ذنبه أكبر من أن يغفر أو أنه غير أهل لرحمة الله تعالى . وهناك يأس يصل إلى حد الكفر بأن يظن داخل نفسه أن الله جبار ومنتقم ولذلك لن يغفر له ناسيا أن الله غفور رحيم .

وقد أعجبتنى هذه الأبيات التى قالها الأستاذ عباس العقاد . معبراً عن حالة شخص يائس .

---

* إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ٢٤٧ .

وفى نهايتها يتمنى لنفسه الموت :

ظمآن ظمآن لاصوب الغمام ولا ∴ عذب المدام ولا الأنواء ترويني
حيران حيران لانجم السماء ولا ∴ معالم الأرض فى الغمّاء تهديني
يقظان يقظان . لاطيب الرقاد يدا ∴ نيني ولا سمر السمار يلهيني
غصّان غصان . فالأوجاع تبليني ∴ مُر الكوارث والأشجان تبكيني
أسوان أسوان . لا طب الأساة ولا ∴ سحر الرقاة من اللأواء يشفيني
سأمان سأمان . لا صفو الحياة ولا ∴ عجائب القدر المكنون تغنيني
يديك فامح أسى ياموت فى كبدى ∴ فلست تمحوه إلا حين تمحوني

وكان من أشد مكايد الشيطان – بعد أن طال البلاء بأيوب هو وسوسته له بأن يستسلم لقضاء الله . ليس رضا به – بل يأسا من رحمة الله .

وهناك فرق كبير بين الأمرين . وإن كانا فى الظاهر متساويان . فمن مظاهرهما عدم الشكوى من البلاء . والاستسلام للأمر الواقع . ولكن فى الأولى . يكون ذلك رضاء بقدر الله ومشيئته . وفي الثانية يكون يأسا من رحمة الله فى المن بالشفاء . وهذا المعنى الأخير قد يتسلل إلى النفس تسللا خفيا .

ولا شك أن أيوب فى أخريات سنى مرضه كان راضيا بقضاء الله . مستسلما لمشيئته . ولم يعد يتحدث مع أصحابه عن آلامه . ففسروه على أنه وصل إلى درجة اليأس . فى حين أنه ما كان به هو رضا بقضاء الله وقدره . وهذه مرتبة عليا من الإيمان . ونعود إلى ماذكرناه سابقا (ص ٦٠٣) من أن النبى ﷺ سأل طائفة من أصحابه : ما أنتم ؟ فقالوا : مؤمنون . فقال : ما علامة إيمانكم ؟ فقالوا : نصبر على البلاء . ونشكر عند الرخاء . ونرضى بمواقع القضاء . فقال : مؤمنون ورب الكعبة .

والرضا يدل على حب حقيقى لله تعالى . فذلك يجعله لا يحس بألم البلاء الذى نزل به . بل وراغبا فيه بقلبه لما يعلمه من عظم ثوابه .

فى حديث قدسى تقول الملائكة * : يارب عبدك المؤمن تزوى عنه الدنيا وتعرضه للبلاء وهو مؤمن ؟ فيقول اكشفوا عن ثوابه . فإذا رأوا ثوابه تقول الملائكة : يارب . مايضره ما أصابه فى الدنيا . وتقول الملائكة : يارب عبدك الكافر تبسط له فى الدنيا وتزوى عنه البلاء ؟ فيقول اكشفوا عن ثوابه . فإذا رأوا ثوابه قالوا : يارب . ماينفعه ما أصابه فى الدنيا .

يتيقن أيوب فى النهايه أن **البلاء** يمحص **البشر** فيقول ** :

---

* الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية . محمد المدنى . ص ٢١٣ .

** التوراة . إصحاح ٢٨ أيوب .

لأنه يوجد للفضة معدن وموضع للذهب حيث يمحصونه .
الحديد يستخرج من التراب . والحجر يسكب نحاسا .
وكأنه يقول :
إن الآلام تنقى النفس كما تنقى النار خبث الحديد .
ويدرك أيضا أن هناك جوانب خافية من نفس الإنسان لا تعرف :

– أرض يخرج منها الخبز حجارتها هى موضع الياقوت الأزرق وفيها تراب الذهب – أي قد يكون مايبدو لنا أرضا زراعية يخفى تحتها الذهب والحجارة الكريمة .

– وكما المرء يذهب إلى أراضى جديدة . لم تمسها قدم . وفى الصخر يمد يده ينقب فى الجبال وينقر الصخر فيجد كل ثمين . ويظهر إلى النور ماكان خافيا . ليصل إلى **مكان الحكمة ومكان الفهم** .

فهذه الأشياء لاتوجد بسهولة فى الحياة العادية السهلة . ولايمكن الحصول على الحكمة والفهم بالمال . وتحصيل الحكمة خير من اللآلىء . فكيف يعرف الناس الحكمة والفهم . فهى ليست على سطح الأرض تنال بسهولة . والله وحده هو يفهم طريقها ويعلم مكانها لأنه هو العالم بكل شيئ وهو الذى أوجدها . وهو يرشد الإنسان إلى مكانها . ووصل أيوب إلى الحقيقة التى كانت غائبة عنه وهى : **مخافة الرب هى الحكمة . واجتناب الشر هو الفهم** – وهو يقصد أن الألم الذى مر به والبلاء الذى أصابه قد أوضحا له جوانب من نفسه كانت خافية عليه . كما جعلاه أكثر حكمة وفهما .

إبليس يعرض الشفاء :

قلنا إن البلاء طال بأيوب ثمانيةِ عشر عاماً . وقلنا إن امرأته كانت تخدم فى البيوت لتشترى مايتقوتان به . ثم أحجم الناس عن استخدامها خوفا من أن تنقل إليهم عدوى من مرض أيوب. وضاق بهم الحال .

ويقال * جاءها إبليس وهى تطلب الصدقة فتمثل لها فى صورة رجل فقال : أين بعلك يا أمة ؟ فقالت هو ذاك يحك قروحه وتتردد الدواب فى جسده . فوسوس لها وذكرها ماكانت فيه من النعيم والمال فأتاها بسخلة (ولد الضأن والماعز ساعة يولد) وقال لها ليذبح أيوب هذه لى وسيبرأ . فجاءت إلى أيوب وقالت له : إلى متى يعذّبك ربك ولا يرحمك . أين المال ؟ أين الولد ؟ أين الحاشية ؟ أين الصديق ؟ أين جسمك الحسن ؟ قد بلى . اذبح هذه السخلة واسترح !

---

* عرائس المجالس . الثعلبى . ص ١٩٣ .

فقال لها أيوب . أرى أن إبليس – عدو الله – قد أتاك فنفخ فيك فأجبتيه . والله لئن شفانى الله لأجلدنك مائة جلدة كما أمرتينى أن أذبح لغير الله تعالى .

هنا نلاحظ أن الشفاء كان معروضا على أيوب . ولكنه كان من طريق غير طريق الله فرفضه .

الرضا بالقضاء :

كان أيوب قد دخل إلى مقام الرضا وهو أعلا المقامات . وهو يعبر عن حب حقيقى لله . وحب الله يورث فى النفس الرضا بجميع أفعاله . لم يعد أيوب يحس بأي ألم . لأن القلب صار مستغرقا بحب الله والرضا بقضائه بحيث لايدرك ماعداه . ولايطلب الشفاء إلا من الله . إن شاء . رفع البلاء . وإن كانت مشيئته فى بقائه فهو راض .

ثم قال أيوب لامرأته : طعامك وشرابك الذى تأتينى به علّى حرام لا أذوق ما تأتينى به شيئا بعد أن قلت هذا . فاغربى عنى .

فلما ذهبت وليس عنده طعام وشراب . ولا صديق . وتقطع كل ما كان بينه وبين الدنيا من أسباب .

ورضى بقضاء الله . ولم يشأ أن يأتى الشفاء إلا عن طريقه .

توجه إلى الله بقلبه وكل جوارحه . يدعو . ويطلب الرحمة من الله .

قال رسول الله ﷺ : الدعاء مخ العبادة . أخرجه الترمذى من حديث أنس .

وروى النعمان بن بشير عن النبى ﷺ أنه قال : إن الدعاء هو العبادة . ثم قرأ « **ادعونى استجب لكم** » . أخرجه الحاكم . وقال صحيح الإسناد . وقال الترمذى حسن صحيح .

وقال رسول الله ﷺ : سلوا الله من فضله . فإن الله تعالى يحب أن يسأل . وأفضل العبادة انتظار الفرج . أخرجه الترمذى من حديث ابن مسعود .

وتوجه أيوب إلى الله بالدعاء .

« **وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين** » . (٨٣ – الانبياء)

« **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب** » .

(٤١ – ص)

وقيل إن البلاء ولو أنه مقدر من الله سبحانه وتعالى – إلا أن أيوب نسبه إلى الشيطان تأدبا . والشيطان لايستطيع أن يصيب ابن آدم إلا بما كتبه الله له . ويقول الألوسى * إن

* تفسير الألوسى جزء ٢٣ ص ٢٠٦ .

النصب والعذاب ليسا هما كما قالوا من ذهاب الأهل والمال . بل كانا وهو به مرضه فكانت وسوسة الشيطان إليه فى مرضه من عظم البلاء إذ كان يوسوس إليه بالقنوط من الرحمة والإغراء على الجزع . وكان يجاهد فى دفع ذلك حتى ناله نصب وعذاب وألم . زيادة على ماهو فيه من البلاء . فنادى ربه ليصرفه عنه ويكشف عنه البلاء .

إلا أن الأقرب للمنطق هو أن النصب والعذاب كانا فقدان المال والولد وتعنى كذلك المرض فى الجسد . بدليل ماتم بعد ذلك - من كشف الضر برد الصحة والمال والأهل بل ومثلهم معهم .

وكانت إرادة الله .

« فاستجبنا له . فكشفنا مابه من ضر » . (من الآية ٨٤ - الانبياء)

رد الصحة :

وأوحى الله تعالى لأيوب مايفعل ليبرأ .

كان فى قدرة الله أن يشفيه من لحظته . بقوله كن فيكون .

ولكن . هى حكمة الله جل شأنه . قد جعل لكل شىء سببا . ولكل داء دواء . ودله الله على الدواء ليبرأ .

« اركض برجلك . هذا مغتسل بارد وشراب » . (٤٢ - ص)

ففعل أيوب كما أمره الله . وقيل * فأنبع الله عينا وأمره أن يغتسل فيها فأذهب جميع مافى بدنه من الأذى . ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر فأنبع له عينا أخرى . وأمره أن يشرب منها فأذهب جميع مافى بطنه من السوء . وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا . أى ذهبت القروح التى كانت فى الجلد . والآلام التى كانت فى الجسم .

قول آخر ** : إنه عليه السلام ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها . وبرجله اليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها .

وقال الحسن ركض برجله فنبعت عين فاغتسل منها ثم مشى نحوا من أربعين ذراعا . ثم ركض برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها .

ولكن ظاهر المعنى عدم التعدد . عين واحدة « مغتسل بارد وشراب » تغتسل به وتشرب منه . فيبرأ ظاهرك وباطنك .

---

* تفسير ابن كثير جزء ٤ ص ٢٩ .

** تفسير الألوسى جزء ٢٣ ص ٢٠٧ .

وقالوا أيضا : لما دعا جاء جبريل عليه السلام فأخذ بيده ثم قال : قم فقام من مكانه . وقال: اركض برجلك . فنبعت العين فاغتسل وشرب وبرأ .

قالوا : إنه بعد أن اكتملت له العافية وذهب مابه من بلاء . عادت زوجته لتخدمه كعادتها فلم تجده فى مكانه . فالتفتت تنظر . فاذا هو قد أقبل عليها فلم تعرفه . وسألته : أى بارك الله فيك. هل رأيت هذا المبتلى ؟ فوالله مارأيت رجلا أشبه به منك . فقال : فإنى أنا هو .

النبـــوة :

كانت الجائزة الكبرى لأيوب هو الاصطفاء بالنبوة .

وهذا يتمشى مع الحديث الشريف الذى ذكرناه فى ص ٦٠٣ : إذا أحب الله عبدا ابتلاه . فان صبر اجتباه . فان رضى اصطفاه .

وهكذا تمت النبوة لأيوب جزاء لصبره على البلاء ورضائه بالقضاء . ووصفه الله تعالى بقوله **« واذكر عبدنا أيوب »** . ويرى أهل الكتاب * أن الإصحاح ٤٢ من سفر أيوب يوضح الاستحسان الإلهى إذ أن الله يشير لأيوب بالوصف « عبدى » أربع مرات .

ويقول الألوسى ** إن العبودية لله أشرف الأوصاف وأعلى المراتب . عن أبى القاسم سليمان الأنصارى أنه قال : لما وصل النبى ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة أوحى الله تعالى إليه : يامحمد . بم نشرفك ؟ قال : بنسبتى إليك بالعبودية . فأنزل الله تعالى قوله :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » .
(١ - الاسراء)

وتكرر الوصف بـ « عبده » أو « عبدنا » ٦ مرات فى القرآن الكريم .

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا » . (١ - الكهف)

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » . (١ - الفرقان)

« فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى » . (٩ - ١٠ النجم)

« هو الذى ينزل على عبده آيات بينات » . (٩ - الحديد)

« وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا . فاتوا بسورة من مثله » .
(٢٣ - البقرة)

---

* تفسير الكتاب المقدس . جـ ٣ ص ٦٦ .
** تفسر الألوسى . جـ ١٥ ص ٤ .

« إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان » . (٤١ – الانفال)

ووصف أيوب بلفظ عبدنا مرة واحدة فى قوله تعالى :

« واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه » . (٤١ – ص)

رد المـــــال :

قالوا : وكان له أندران (لم أجد للكلمة أصلا فى المعجم الوسيط ولا فى القاموس المحيط ولعلها بمعنى وعاءان) وعاء للقمح ووعاء للشعير . فبعث الله سحابتين . فلما كانت إحداهما على وعاء القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى الورِق (الفضة) فى وعاء الشعير حتى فاض .

وقال الإمام أحمد ، حدثنا عبد الرازق عن آخرين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : بينما أيوب يغتسل عريانا ، خر عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثو فى ثوبه ، فناداه ربه عز وجل : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال بلى يارب ، ولكن لا غنى لى عن بركتك ، وفي رواية أخرى ناداه ربه عز وجل وقال له يا أيوب ألم يكفك ما أعطيناك ؟ قال أى ورب ، ومن يستغنى عن فضلك !

وهكذا رد الله عليه صحته وماله .

جزاء زوجة أيوب :

وكان أيوب قد غضب على امرأته – كما سبق أن ذكرنا لاستماعها إلى وسوسة الشيطان وطلبها منه أن يذبح لغير الله ، وقيل لأنها – لما أحجم الناس عن استخدامها باعت ضفيرتيها وجاءت لأيوب بخبز وفاكهة . فظن فيها الظنون . وسبق أن قلنا إنه أقسم ليضربنها مائة جلدة .

فلما شفاه الله عز وجل . رأى أن مايكون جزاؤها على ماقامت به من خدمته والإحسان إليه طوال مرضه – وكذلك لما اتضح له أنها لم ترتكب ماحرم الله . فرأى أن مايكون جزاؤها أن يقابل ذلك بالضرب . فأوجد له الله المخرج .

« وخذ بيدك ضغثا . فاضرب به . ولا تحنث . إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » . (٤٤ – ص)

---

* تفسير الألوسى . جـ ٢٣ ص ٢٠٩ .

والضغث هو شمراخ النخل أو عثكال النخل فيه مائة قضيب . وكذلك معناه قبضة من حشيش مختلطة الرطب واليابس * . وقال الضحاك حزمة من الحشيش بها مائة عود . فيضرب بالضغث ضربة واحدة . فكأنه ضربها مائة ضربة وبهذا يكون قد بر بيمينه . ووفى بنذره . ولم يحنث .

ويثور السؤال : **هل يجوز مثل هذا عند تنفيذ حد الجلد ؟**

أخرج عبد الرازق وابن جرير وآخرين عن أبى إمامة : قال : حملت وليدة فى بنى ساعدة من زنا . فقيل لها ممن ؟ قالت من فلان . المقعد . واعترف المقعد . فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : خذوا عثكولا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة واحدة . ففعلوا . وأخرج عبد الرازق أيضا عن ثوبان أن رجلا أصاب فاحشة على عهد رسول الله ﷺ . ومرض الرجل حتى أصبح على شفا الموت فأخبر أهله بما صنع . فأمر النبى ﷺ بقنو فيه مائة شمراخ فضرب به ضربة واحدة .

وأخرج الطبرانى عن سهل بن سعد مثل ذلك فى شيخ قد ظهرت عروقه . ويقول الألوسى** : ولا دلالة فى هذه الأخبار على عموم الحكم (أى على شموله) من يطيق الجلد المتعارف . وهو مائة جلدة .

بعضهم قال بعموم حكم الضرب بالضغث بشرط أن يصيب المضروب كل واحدة من المائة . بأعراضها مبسوطة على هيئة المضرب . وقال الخفاجى : لو ضرب خمسين مرة بسوط واحد له شعبتان . كان كأنه ضرب مائة ضربة .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس : لايجوز ذلك لأحد بعد أيوب إلا الأنبياء عليهم السلام .

وفى أحكام القرآن العظيم للسيوطى عن مجاهد : كان ذلك لأيوب خاصة . وقال الكيا : ذهب الشافعى وأبو حنيفة إلى أن من فعل ذلك فقد برٌ فى يمينه . وخالف مالك ورآه خاصا بأيوب عليه السلام .

رد الأهــل :

وكان مما كوفىء به أيوب هو أن الله رد عليه أهله ومثلهم معهم مكافأة على صبره . قال الله تعالى :

« وآتيناه أهله ومثلهم معهم . رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » .

(٨٤ – الانبياء)

---

* القاموس المحيط . جـ ١ ص ١٦٩ .

** تفسير الالوسى . جـ ٢٣ ص ٢٠٩ .

« ووهبنا له أهله . ومثلهم معهم . رحمة منا . وذكرى لأولى الألباب » .

(٤٣ - ص)

أخرج ابن مردويه عن آخرين عن ابن عباس . قال : سألت النبى ﷺ عن قوله : «وآتيناه...» قال : رد الله تعالى امرأته إليه وزاد فى شبابها حتى ولدت له ستة وعشرين ذكرا . فالمعنى على هذا . آتيناه فى الدنيا مثل أهله عددا مع زيادة مثل آخر . وكانت هذه رحمة من الله تعالى . وتذكرة لذوى العقول والألباب .

وروى عن الحسن : ووهبنا له أهله بإحيائهم بعد هلاكهم . وروى الطبرسى عن أبى عبد الله أن الله أحيا له أهله الذين كانوا ماتوا قبل البلية . وأهله الذين ماتوا وهو فى البلية . وفى البحر: الجمهور على أنه أحيا له من مات من أهله وعافى المرضى وجمع عليه من تشتت منهم .

ولا نميل إلى هذا الرأى . فإحياء من ماتوا - ليس واحدا أو اثنين بل عشرة (سبعة بنين وثلاث بنات) معجزة كبرى . جديرة بالذكر - والموقف لايستدعيها . وإذا كان مثلهم معهم قد أتوا بالولادة فالأولى أن « أهله » أيضا أتوا بالولادة . وليس بالإحياء .

ويقول الألوسى إن الله وهب من كان حيا منهم وعافاه من الأسقام وأرغد لهم العيش وتناسلوا حتى بلغ عددهم ضعف ماكان . وذلك قوله تعالى : ومثلهم معهم .

وزعم البعض أن هذا وعد . وتكون تلك الهبة فى الآخرة . ولكن هذا ينافى مجىء الفعل فى الماضى « وآتيناه » و« ووهبنا له » . إذ يدل على أن ذلك تحقق فعلا .

وتقول التوراة (إصحاح ٤٢ - أيوب) :

ورد الله كل ماكان لأيوب . وزاد الرب على ماكان ضعفا . فجاء إليه كل إخوته وكل أخواته وكل معارفه من قبل . وأكلوا معه خبزا فى بيته وعزوه عن كل الشر الذى أصابه . وأعطاه كل واحد منهم قسيطة واحدة (وهو مكيال يسع نصف صاع * - ولعل المقصود أعطوه حبوبا لخبز طعام) . وكل واحد قرطا من ذهب . (ولعل المقصود بعض المال ليبدأ به تجارته من جديد) . وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه . وكان له أربعة عشر ألفا من الغنم . وستة آلاف من الإبل . وألف فدان من البقر وألف آتان .

ولو قارنا هذه الأرقام بما ذكرته التوارة عن ثروته التى كانت له قبل البلاء (ص ٥٩٦) لوجدناها الضعف . وهو ماينطبق علها قوله تعالى « ومثلهم معهم » أيضا .

وتقول التوراة : وعاش أيوب بعد هذا ١٤٠ سنة . ورأى من أبنائه وأحفاده أربعة أجيال . ولعل فى هذا بعض المبالغة . إذ لو افترضنا أن البلاء أصابه وعمره أربعون سنه . وأضفنا اليها مدة البلاء ١٨ سنة ثم ١٤٠ سنة لكان عمره كله ١٩٨ سنة . وهذا عمر طويل . ولعل المقصود أن عمره كله بلغ ١٤٠ سنة . ذكر ابن جرير أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ٩٠ سنة.

---

* القاموس المحيط جـ ٢ ص ٣٧٨ .

نقطـــة أخيـــرة :

فى نهاية قصة أيوب عليه السلام . لعل البعض يقول : مادام البلاء خير . وتُغفر بسببه الذنوب . فهل لنا أن نسأل الله البلاء ؟

ويقول الإمام أبو حامد الغزالى * : لا وجه لذلك . لما روى عن الرسول ﷺ : أنه كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة بقوله : وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة . رواه أحمد بإسناد جيد .

وقال على كرم الله وجهه : اللهم إنى أسألك الصبر . فقال رسول الله ﷺ : لقد سألت البلاء . فاسأل العافية . رواه الترمذى وقال حسن .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : سلوا الله العافية فما أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين . أخرجه ابن ماجه والنسائى باسناد جيد .

فإن كان ثواب للصبر على البلاء . فهناك ثواب للشكر على النعماء وقد يعطى المرء على الشكر مالا يعطاه على الصبر .

وكما قال الله تعالى :

« إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . (١٠ – الزمر)

كذلك قال :

« وإن تشكروا يرضه لكم » . (٧ – الزمر)

وقال :

« وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم » . (٧ – ابراهيم)

العبر المستفادة من قصة أيوب عليه السلام :

١ – وجوب الشكر على النعمة .

٢ – الحذر من العجب بكثرة العبادات أو الإدلال بها .

٣ – الصبر على البلاء .

٤ – الحذر من اليأس والقنوط من رحمة الله .

٥ – الإيمان بعدل القضاء والرضا بالقدر .

٦ – رفع البلاء هو منة من الله . وهو الذى يحدد وقتها .

* إحياء علوم الدين . جـ ٤ ص ١٢٥ .

ذو الكفل عليه السلام

جاء ذكر ذى الكفل فى القرآن الكريم مرتين :

« وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين » . (٨٥ - ٨٦ - الأنبياء)

« واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل . وكل من الأخيار » .

(٤٥ - ٤٨ - ص)

ومن ذكره فى القرآن الكريم بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء الأنبياء يتبين لنا أنه كان نبيا ، بعض الكتب تذكره على أنه رجل صالح ولم يكن نبيا . روى ابن جرير وابن نجيح عن مجاهد أنه لم يكن نبيا وإنما كان رجلاً صالحاً . وكان قد تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمرهم ويقضى بينهم بالعدل ولا يغضب فسمى ذا الكفل .

وفى نسبه روايات كثيرة .

١ - قيل هو ابن أيوب عليه السلام . وقالوا اسمه بشر ولكن القرآن وصفه بذى الكفل لأنه تكفل بالعدل فى قومه . وأوفى بما تكفل به . وصار نبيا بعد أيوب ، وبهذا يكون من نسل عيسو . أخى يعقوب .

٢ - آخرون يجعلونه من نسل يعقوب فقالوا :

(أ) هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن هارون أخى موسى .

(ب) وقالوا هو يوشع بن نون .

(جـ) وقالوا هو حزقيال . نبى من أنبياء بنى إسرائيل . جاءته النبوة أثناء سبى بختنصر لبنى إسرائيل .

(د) ويرى آخرون* أنه هو النبى حلقيا . وسنأتى إلى ذكر ذلك عند ذكرنا لأنبياء بنى إسرائيل (فى الجزء الخامس إن شاء الله) .

وكل هذه الأقوال مردود عليها بأنه لو كان من بنى إسرائيل . فما كان ليفوت ذكره فى

---

* الأستاذ رؤوف أبو سعده . من إعجاز القرآن . جـ ٢ ص ١٨٣

التوراة . ولو بإشارة قصيرة . وعليه فإن الرأى الأول هو الأرجح . فيكون هو ابن أيوب عليه السلام . أو هو رجل صالح من قوم أيوب استخلفه فى قومه وأوفى بما تكفل به فسمى ذو الكفل . وصار نبيا .

روى الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث* . أن نبيا من الأنبياء قال : من يكفل لى أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب . فقام شاب . فقال أنا . فقال له اجلس . ثم إنه أعاد مثل قوله الأول . فقام ذلك الشاب فقال أنا . فقال له اجلس . ثم أعاد قوله ثالثا . فقال الشاب : أنا . فقال له : تقوم الليل . وتصوم النهار . ولا تغضب ؟ قال نعم . ثم مات ذلك النبى . فجلس ذلك الشاب مكانه يقضى بين الناس فكان لا يغضب . فجاء الشيطان فى صورة إنسان ليغضبه وهو صائم يريد أن يفطر . فضرب الباب ضربا شديدا . فقال من هذا ؟ فقال رجل له حاجة . فأرسل إليه رجلا فقال. لا أرضى بهذا الرجل . فأرسل معه آخر . فقال لا أرضى . فخرج إليه فأخذه بيده وانطلق معه حتى إذا كان فى السوق خلاه وذهب . فسمى « ذا الكفل » لأنه تكفل أن لا يغضب ووفى بما تكفل به فلم يغضب .

وتروى قصة أخرى** تبين كيف التزم ووفى بما تكفل به .

تقول القصة إن إبليس جاء إلى ذى الكفل فى صورة شيخ كبير فقير وأتاه حين أخذ مضجعه فى قيلولة الظهر . وكان لقيامه ليلا . لا ينام إلا هذه النومة . فدق الباب . فقال من هذا ؟ . قال شيخ كبير مظلوم . فقام وفتح الباب . فجعل الشيخ يقص عليه . وقال : إن بينى وبين قومى خصومة وأنهم ظلمونى . وفعلوا بى كذا وكذا حتى ذهبت القائلة (وأطار النوم من عينى ذى الكفل) . فقال للشيخ فاتنى الغد آخذ لك بحقك . فانطلق وراح . وظل ذو الكفل ينتظر الشيخ فى مجلسه الذى يقضى فيه بين الناس فلم يحضر . فلما رجع إلى القائلة وأخذ مضجعه . دق الباب . فقال من هذا ؟ قال الشيخ الكبير المظلوم . ففتح له وقال : ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى ؟ قال : إنهم أخبث قوم . إذا عرفوا أنك قاعد . قالوا نحن نعطيك حقك . وإذا قمت جحدونى . قال فانطلق واتنى غدا . وكانت القائلة قد فاتت أيضا . وفى الغد انتظره فى مجلسه فلم يحضر . فذهب للقيلولة وقد شق عليه النوم . ولما كانت تلك الساعة . جاء الشيخ وطلب الدخول فمنعه أهله . فقال إنى أتيت أمس وذكرت له أمرى . فقالوا : لقد أمرنا أن لا ندع أحدا يقربه . فلما أعياه نظر فرأى كُوة (أى طاقة) فى البيت . فتسوَّر منها . فإذا هو فى البيت . وأيقظ ذا الكفل . ونظر ذو الكفل ورأى الباب مغلقا والشيخ داخل البيت . فعرف أنه إبليس فقال : أعدو الله ؟ قال : نعم أعييتنى فى كل شىء . ففعلت ما ترى لأغضبك .

---

* عرائس المجالس للثعلبى ص ١٩٧

** البداية والنهاية . ابن كثير جـ ١ ص ٢١٠

روى القصة ابن جرير عن وهب عن داود عن مجاهد . ورواها آخرون باختلاف طفيف .

ورويت قصص أخرى فيها كثير من الخيال ولا شك أن هناك مواقف أخرى في حياة ذي الكفل عليه السلام . لم تصل إلينا توضح سيطرته على نفسه عند الغضب . حتى ليمكن أن يكون مثالا للسيطرة على النفس عند الغضب . كما كان أيوب عليه السلام مثالا للصبر كما أوضحنا .

والغضب مذموم . روى أبو هريرة أن رجلا قال : يارسول الله مرني بعمل وأقلل . قال : لا تغضب . ثم أعاد عليه فقال : لا تغضب . رواه البخاري .

وقال ابن عمر . قلت لرسول الله ﷺ . قل لي قولا وأقلله لعلي أعقله فقال : لا تغضب . فأعدت عليه مرتين . كل ذلك يرجع إلي . لا تغضب .

وقال أبو هريرة : قال النبي ﷺ . ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب . متفق عليه .

وفي الأثر عن ذي القرنين أنه لقي ملكا من الملائكة . فقال : علمني علما أزداد به إيمانا ويقينا . قال : لا تغضب . فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب .

وليس معنى ذلك أن يصل الأمر بالمرء إلى عدم الغضب نهائيا . فهذا تفريط إذ لابد أن يغضب المرء حينما ترتكب المعاصي أمامه . إذ عليه في هذه الحالة أن يغضب لله وينهى عن المنكر .

إلا أن الإفراط في الغضب مذموم* لأنه يخرج المرء عن سياسة التعقل ولا يبقى للمرء معه بصيرة أو فكر . وتسيطر عليه غريزة الانتقام والتشفي . والغضب قد يظهر أثره في اللسان فينطلق بالشتم والفحش في الكلام . وقد يظهر أثره على الأعضاء فيجنح إلى التهجم والضرب أو الجرح والقتل . وقد يظهر أثره على القلب فينتج الحقد والحسد والشماته وإضمار السوء والاستهزاء .

عن ابن عمر : قال النبي ﷺ : من كف غضبه ستر الله عورته .

وقال رسول الله ﷺ : الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل . أخرجه الطبراني والبيهقي . بسند ضعيف .

وقال رسول الله ﷺ . ما غضب أحد إلا أشفى على جهنم . أخرجه البزار وابن عدي من حديث ابن عباس .

---

* إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالي . جـ ٣ ص ١٥٩

وحديث آخر . قال رسوا الله ﷺ . من كف غضبة . كف الله عنه عذابه . وفى رواية أخرى . من مَلَكَ غضبه . وقاه الله عذابه . أخرجة الطبرانى والبيهقى .

وفى حديث آخر . قال رسول الله ﷺ : من كظم غيظا . ولو شاء أن يمضيه لأمضاه . ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا .

وقد مدح الله الكاظمين الغيظ فى قوله تعالى :

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين » .

(١٣٤ – آل عمران)

وهكذا كان ذو الكفل مثالا للسيطرة على النفس عند الغضب .

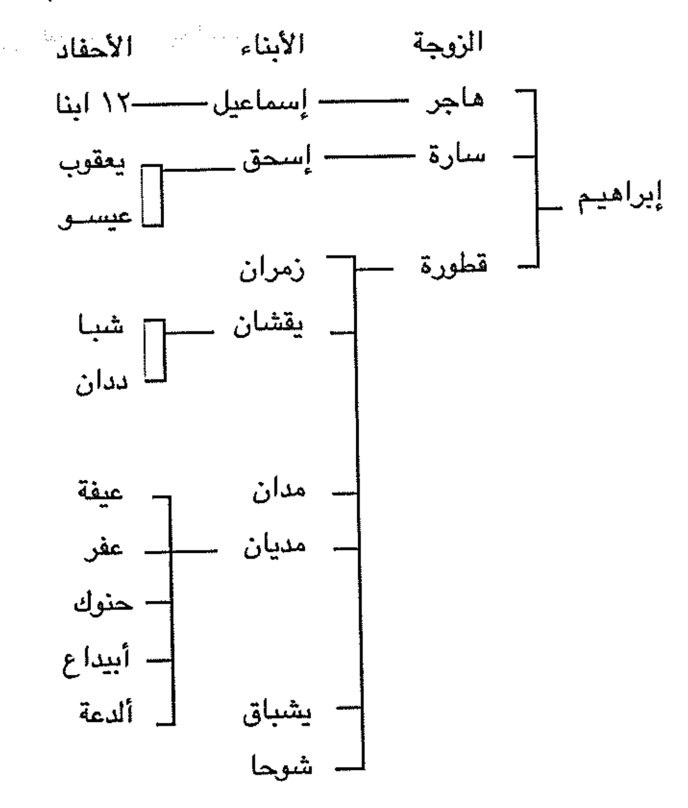
نترك أرض آدوم . وننتقل جنوبا بعض الشىء إلى المنطقة الواقعة شرقى خليج العقبة إلى أرض مدين . حيث بعث نبى الله شعيب عليه السلام .

شعيب عليه السلام

أبناء إبراهيم عليه السلام من قطورة :

سبق أن ذكرنا فى الجزء الثانى (ص ٣٨٦ وشكل ٨١) أن إبراهيم عليه السلام بعد وفاة سارة تزوج من قنطورة أو قنطورا بنت يقطن . واسمها فى التوراة قطورة (إصحاح ٢٥ تكوين) . ويرى خبراء الأنساب أن القطوريين هم أبناء عم جرهم* .

عاشت قطورة مع إبراهيم عليه السلام فى حبرون . وولدت له ستة أبناء : زمران – يقشان – مدان – مديان (مدين) – يشباق – يشوحا . ومن المرجح أنه بعد وفاة إبراهيم عليه السلام – ولم يكن لقطورة أقرباء فى حبرون . فعادت ومعها أبناؤها الستة إلى أرض عشيرتها . فى شمال الحجاز . وشرقى خليج العقبة . وبعد فترة من الزمن . تفرق الأبناء . كل فى جهة – بحثا عن معايش لهم ولأولادهم . ويمكننا أن نستدل على أماكن تفرقهم من شكل ١١٩ .



* تاريخ العرب قبل الاسلام . جواد على جـ ١ ص ٣٢٣

زمران : سكن حول مكة . إذ توجد قبيلة اسمها قبيلة زمرانى جنوبى مكة . كما يوجد مكان اسمه زبرام غربى مكة على ساحل البحر الأحمر .

يقشان : من المرجح أنه اتجه جنوبا – إذ يوجد موضع اسمه « وقشة » فى عسير . وتوجد قبيلة اسمها « بنى وقشة » فى الجنوب . كما يوجد مكان فى اليمن اسمه « وقش » .

مدان : يوجد بطن قبيلة اسمهم « بنو المدان » قرب جذام فى الحجاز .

يشباق : اتجه شمالا . إذ يوجد موضع اسمه « الشبك » على طريق السكة الرومانية الموصلة إلى العقبة .

يشوحا : اتجه أيضا شمالا . وسكن قرب البحر الميت بجوار أدوم . وكان أحد أصدقاء أيوب الذين ترددوا عليه أثناء مرضه يسمى : بلدد الشوحى .

مدين أو مديان : بقى فى المنطقة من شمال الحجاز وشرق خليج العقبة وسمى المكان باسمه « أرض مدين » . وأنجب مدين خمسة أبناء هم :

عيفة – عفر – حنوك – أبيداع – ألدعة .

بقيت **عيفة** فى أرض مدين نفسها . وكانت قبيلة عيفة معروفة بالتجارة . فكانت تحمل الذهب واللبان من أرض شبا (سبأ) وتبيعها فى فلسطين .

أما **عفر** فقد ارتحل جنوبا . ويوجد مكان اسمه « عفار » بين مكة والطائف .

وحنوك ارتحل أيضا باتجاه الجنوب . وتوجد بلدة اسمها « الحنوكية » أو « الحناكية » شرقى يثرب بحوالى ١١٠ كيلو مترا .

وأبيداع : سكن الحجاز .

ألدعة : لا يعرف بالتحديد مكان إقامته* .

نسب شعيب .

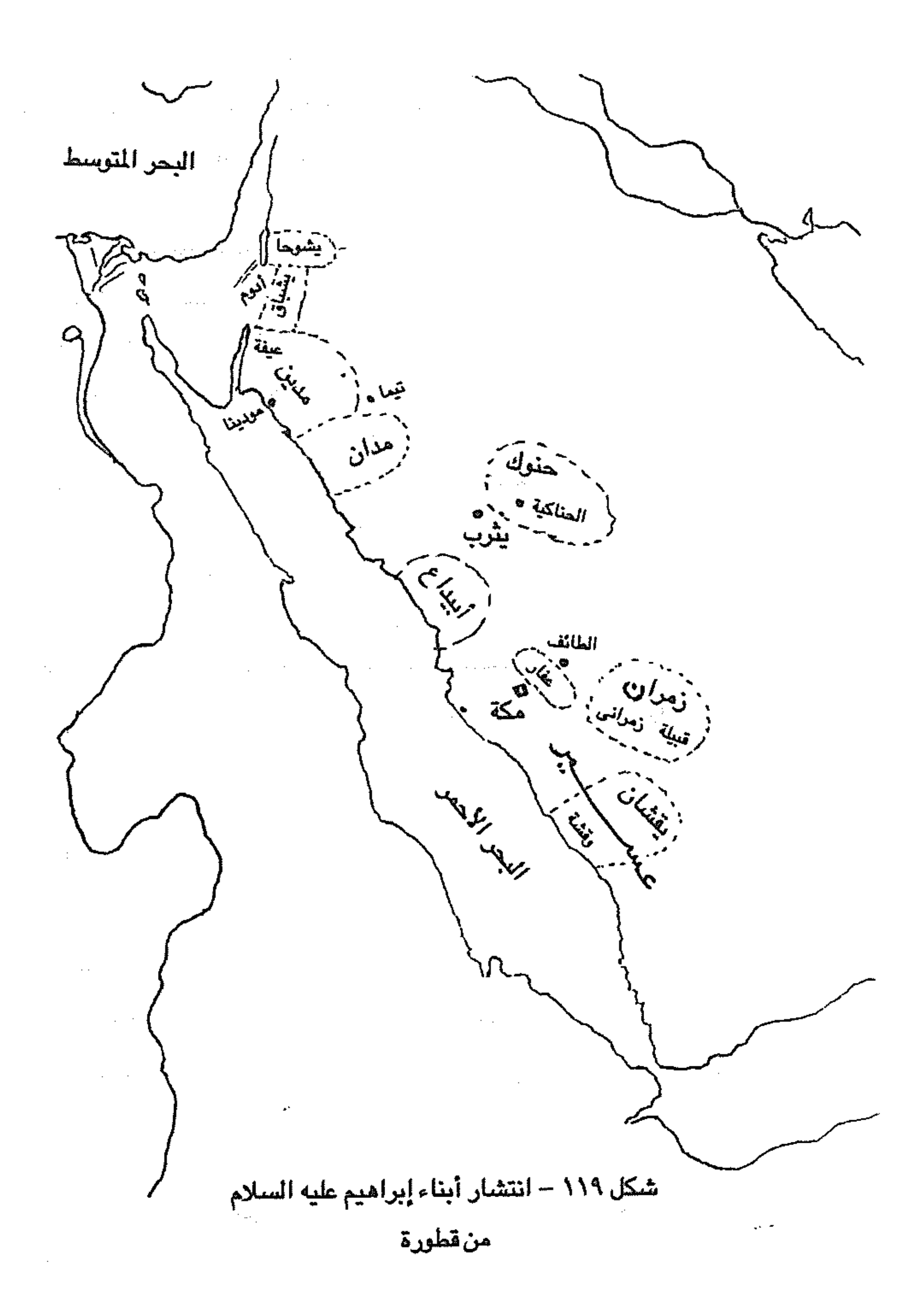
هناك خلاف حول نسب شعيب عليه السلام (انظر شجرة النسب ص ٦٤١) .

١ – الرأى الأول يقول إن عيفة أنجبت ضيفور الذى أنجب شعيبا . على سلسلة النسب هذه يكون شعيب سابقا لموسى بثلاثة أجيال ويستحيل أن يكون شعيب النبى هو حمو موسى .

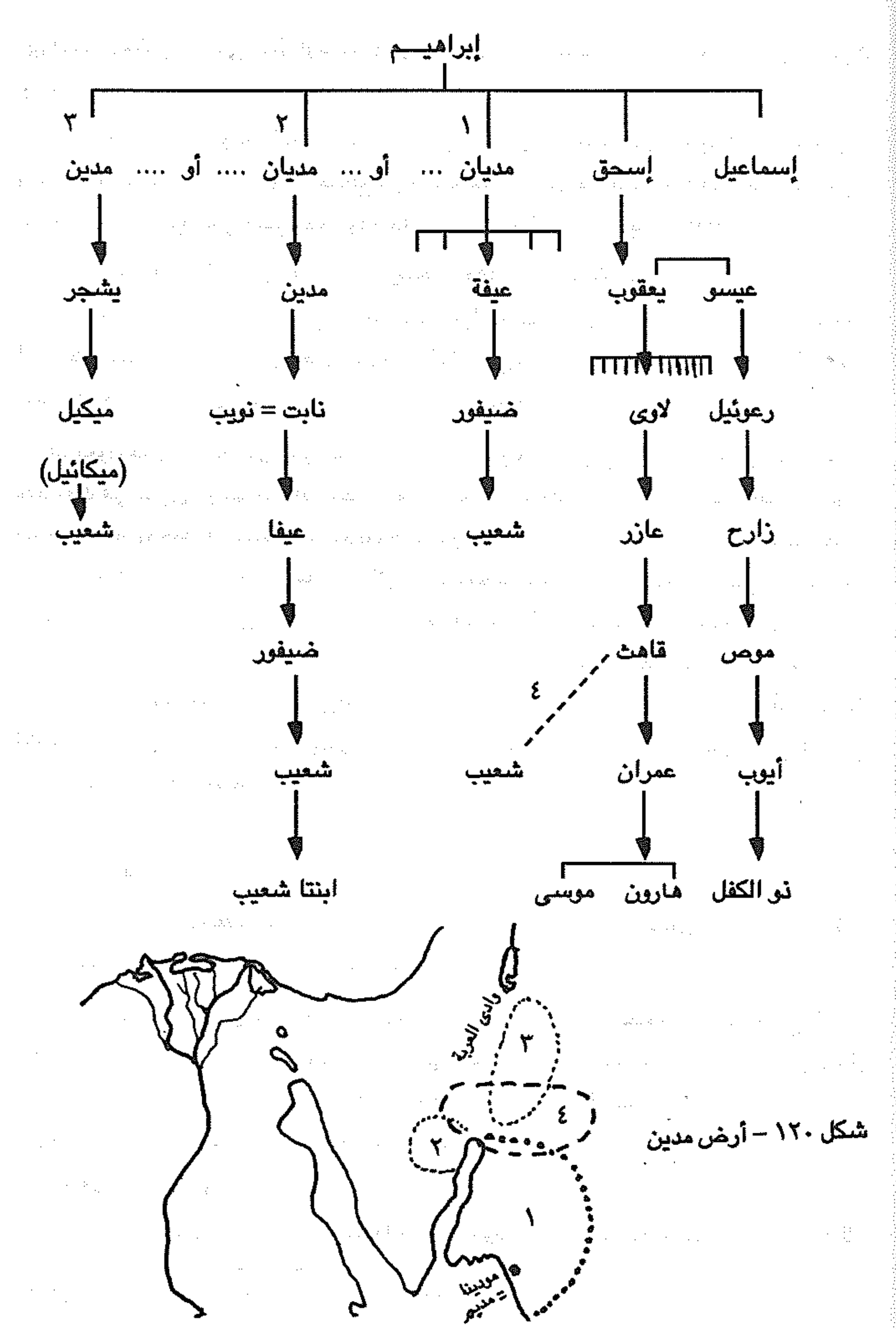
٢ ـ بعض النسابين يرى أن مديان أنجب مدين ثم نابت ثم ضيفور ثم عيفة ثم شعيبا . فتكون ابنة شعيب من نفس جيل موسى . ويكون شعيب النبى هو حمو موسى .

ولكن لو كان ذلك صحيحا لكان جديرا بالذكر فى حديث رسول الله ﷺ : فقد سئل عن

* تاريخ العرب قبل الاسلام . جواد على جـ ١ ص ٣٢٧



شكل ١١٩ - انتشار أبناء إبراهيم عليه السلام من قطورة



شكل ١٢٠ - أرض مدين

أى الأجلين قضى موسى فقال أوفاهما وأبرهما . أى عشر سنوات . ولكان قد زيد فى الحديث جملة تشير إلى أن حما موسى هو شعيب النبى .

وعليه فإن الرأى هو أن شعيب النبى قد سبق موسى بثلاثة أجيال ولم يكن حما موسى . والأرجح أن حما موسى هو رجل صالح من قوم شعيب أو ولى من أولياء الله الصالحين من ذرية شعيب وسُمِّى شعيبا على اسم جده . وهو ما أشارت إليه التوراه بأنه يثرون الكاهن .

٣ – بعض الكتب تذكر أن مدين أنجب يشجر . وهذا أنجب ميكيل والد شعيب .

٤ – أما القول إن شعيب النبى هو ابن عم عمران والد موسى فهو قول ضعيف . إذ لو كان الأمر كذلك لما جاز للتوراة أن تغفل ذكره كلية وتكتفى بالقول بأنه كاهن مدين . كما لا يوجد تفسير لتركه عشيرته فى مصر وذهابه إلى مدين ليصبح كاهنها !

قد يقول قائل إن تجاهل التوراة لشعيب النبى سببه أن بنى إسرائيل لم يدروا به أصلا . فقد بُعث فى مدين . وبنو إسرائيل كانوا فى مصر فى موقف عصيب بعد طرد الهكسوس . وعيون أحمس وخلفائه تحاصرهم فلم يدروا به . ولكن إقامة موسى عليه السلام فى مدين عشر سنوات وزواجه من ابنة كاهن مدين – لابد كانت تجعله يعلم شيئا عن هذا النبى – الذى هو أقرب الأنبياء إلى موسى . فلا بد أن التوراة الأصلية كان بها خبر عن شعيب وعن قومه وتكذيبهم له وما حل بهم من عذاب . فإن أرض مدين لا تبعد كثيرا عن الأرض التى كان بها أيوب عليه السلام. وقد أفردت التوراة لأيوب سفرا كاملا من ٤٢ إصحاحاً . فلا بد أن التوراة الأصلية كان بها شيىء عن شعيب وما حل بقومه . ولكن عند إعادة كتابة التوراة فى السبى سقط هذا الجزء أو أسقط !

أرض مدين :

مدين قوم شعيب عليه السلام . وهناك خلاف – ولو أنه بسيط – حول المكان الذى كانوا يقيمون فيه (شكل ١٢٠ – فى الصفحة السابقة) .

١ – أرجح الأقوال أن أرض مدين تقع فى الجزء الشمالى من الحجاز شرقى خليج العقبة وبالتحديد شرق وجنوب شرق الطرف الشمالى لخليج العقبة . وكان يمر بها أهم طرق النقل التجارى من الشام وفلسطين إلى غرب الجزيرة العربية واليمن . وقد سبق أن ذكرنا (ص ٤٥٠) أن قافلة المديانيين هم الذين التقطوا يوسف من الجب وباعوه بعد ذلك لقافلة الإسماعيليين الذين بدورهم باعوه فى مصر .

وقد ذكر بطليموس الجغرافى* موضعا إسمه « مودينا » على ساحل البحر الأحمر . وكذلك

* تاريخ العرب قبل الاسلام . جواد على . جـ ١ ص ٤٥٥ .

يذكر يوسيبيوس** مدينة اسمها « مديم » شرقى البحر الأحمر .

٢ – يرى البعض أن مدين تمتد لتشمل أجزاء من شمال شرق سيناء .

٣ – يرى آخرون أن مدين تقع قريبا من البحر الميت . وتمتد من خليج العقبة إلى مؤاب . شرقى وادى العربة .

٤ – بينما يرى آخرون أن مدين تشمل المنطقة شمال طرف خليج العقبة وتمتد شرقا وشمال شرق وتمتد أيضا غربا .

شعيب عليه السلام :

جاء ذكرشعيب عليه السلام فى القرآن الكريم فى ثلاث سور : ولكن بنفس اللفظ . بقوله تعالى :

« وإلى مدين أخاهم شعيبا » . (٨٥ – الأعراف . ٨٤ – هود . ٣٦ – العنكبوت)

ويضع القرآن الكريم شعيبا فى الترتيب الزمنى بعد لوط . إذ أن شعيبا يحذر قومه مصير قوم لوط فيقول :

« ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح . وما قوم لوط منكم ببعيد » . (٨٩ – هود)

وهكذا ذكر لهم شعيب الأقوام السابقة بترتيبهم : نوح – هود – صالح ثم لوط . وذكر لوط منفردا . ونُصَّ على أنه لم يكن منهم ببعيد ويقول ابن كثير : أى بعيداً فى المكان ويحتمل فى الزمان أيضا . وبهذا يقول الألوسى . أى وما قوم لوط فى زمان بعيد أو مكان بعيد ولو نظرنا إلى شكل ١٢٠ – لوجدنا أن أرض مدين قريبة من الطرف الجنوبى للبحر الميت . حيث توجد مدن السهل الخمس . مدن قوم لوط (انظر الجزء الثانى ص ٣٠٩ – ٣١٠) . فهى مسافة لا تزيد عن ٢٠٠ كيلو مترا – كذلك فإن الفارق الزمنى يبلغ حوالى ٢٥٠ عاما أو أقل قليلا .

وفى سورة الأعراف . جاء ذكر مدين وشعيب فى الآية ٨٥ . ثم جاء قوله تعالى فى الآية ١٠٣ – « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا » . وثم . تعنى الترتيب مع التراخى . وقد كان الزمن بين شعيب وموسى عليهما السلام يبلغ حوالى ٣٩٠ عاما .

مدين وأصحاب الأيكة :

ذكرنا قوله تعالى فى سور الأعراف وهود والعنكبوت :

** دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم . د . محمد بيومي مهران . جـ ٨ ص ٥٦٠ .

« وإلى مدين أخاهم شعيبا » .

وجاء قوله تعالى فى سورة الشعراء :

« كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون » .

(١٧٦ - الشعراء)

وفى سورة الحجر .

« وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم » .

(٧٨ - الحجر)

وقد ظن بعض المفسرين أن مدين قوم غير أصحاب الأيكة . وقالوا بعث شعيب إلى الثانية بعد ما فرغ من الأولى . والأرجح أن أصحاب الأيكة اسم آخر لمدين . ذلك أن شعيبا يأخذ على أولئك ما يأخذ على هؤلاء . يأخذ عليهم خسرانهم الكيل والميزان وبخسهم الناس أشياءهم . وعثوهم فى الأرض مفسدين .

فقد جاء قوله تعالى فى سورة الأعراف :

وإلى مدين أخاهم شعيبا . قال يا قوم اعبدوا الله . مالكم من إله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم . فأوفوا الكيل والميزان . ولا تبخسوا الناس أشياءهم . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها . ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا . واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم . وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » . (٨٥ - ٨٦ - الأعراف)

كما جاء قوله تعالى عن أهل مدين فى سورة هود :

« وإلى مدين أخاهم شعيبا . قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . ولا تنقصوا المكيال والميزان . إنى أراكم بخير . وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » . (٨٤ - ٨٥ - هود)

وجاء قوله تعالى فى سورة الشعراء :

« كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أوفو الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس

المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم . ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » .

(١٧٦ - ١٨٣ - الشعراء)

فنرى وحدة المرسل إلى مدين وأصحاب الأيكة . وما نهى عنه هنا . هو نفس ما نهى عنه هناك . مما يدل على أن مدين هم نفسهم أصحاب الأيكة . ولعل الذين قالوا إن مدين غير أصحاب الأيكة استندوا إلى أن القرآن الكريم قد فرَّق فى اللفظ بين عذاب أصحاب مدين وعذاب أصحاب الأيكة . فقال فى شرح عذاب مدين :

« ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا . وأخذت الذين ظلموا الصيحة . فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » .

(٩٤ - هود)

وقال كذلك :

« وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون . فأخذتهم الرجفة . فأصبحوا فى دارهم جاثمين » . (٩٠ - ٩١ الأعراف)

أما أصحاب الأيكة فقال الله فيهم :

« فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة . إنه كان عذاب يوم عظيم » .

(١٨٩ - الشعراء)

وفى سورة الحجر ذكروا دون تحديد نوع العذاب :

« وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم » . (٧٩ - الحجر)

ولكن ذلك مجرد اختلاف فى التعبير عن العذاب . إلا أنه فى حقيقته عذاب واحد . ولقد سبق أن ذكرنا فى قصة صالح . وقومه ثمود (الجزء الأول ص ١٦٩) ما وصف به العذاب الذى وقع بهم . عبر عنه مرة بالصيحة ومرة بالرجفة وثالثة بالصاعقة ومرة رابعة بالطاغية . وبيَّنا أنها كلها تعنى شيئا واحداً . وهو أمر الله بإنزال العذاب بهم .

وكذلك فإن العذاب الذى وقع بأهل مدين ووصف مرة بالصيحة . ومرة بالرجفة . هو نفسه عذاب يوم الظلة الذى وقع بأصحاب الأيكة . وصف أولا على حسب أثره على السمع . فهو صيحة . ووصف بما أحدثه فى الجسم من اهتزازات . أى رجفة . ثم بما تراه العين من إظلام المكان بالنهار . فهو يوم الظلة .

ويأخذ الألوسى فى تفسيره* بأن مدين غير أصحاب الأيكة . إذ يقول : الأيكة هى الغيضة

---

* تفسير الألوسى جـ ١٩ - ص ١١٧ .

التى تنبت ناعم الشجر أى الأجمة . (والأيك هو الشجر الكثير الملتف – مختار الصحاح طبعة ١٩٩٥ ص ١٤) . وهى غيضة من ساحل البحر إلى مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث إليهم شعيب . وكان أجنبيا عنهم . ولذلك قيل « إذ قال لهم شعيب ألا تتقون » . ولم يقل أخوهم فى حين كان يقال دائما « وإلى مدين أخاهم شعيبا » . ويختم الألوسى بقوله : ومن غريب القول عن ابن عباس أن أصحاب الأيكة هم أصحاب مدين .

إلا أن ابن كثير* يقول بأن أصحاب الأيكة هم أهل مدين . ولم يقل فى سورة الشعراء « أخوهم شعيب » لأنهم نسبوا فى هذه الآية إلى عبادة الأيكة . ولهذا نفى صفة الأخوة بينهم . وإن كان هناك صلة بالنسب . ويقول ابن كثير : ومن الناس من لم يفطن لهذا فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين فزعم أن شعيبا عليه السلام بعثه الله إلى أمتين . وقد روى إسحق عن آخرين (وصف ابن كثير أحدهم بأنه ضعيف) عن عكرمة قوله . ما بعث الله نبيا مرتين إلا شعيبا . مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة . ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة . وروى الحافظ ابن عساكر عن آخرين عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا النبى عليه السلام . ويقول ابن كثير . وهذا غريب . وفى رفعه نظر . والأشبه أن يكون موقوفا . والصحيح أنهم أمة واحدة . وصفوا فى كل مقام بشىء . ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما فى قصة مدين سواء بسواء فدل ذلك على أنهما أمة واحدة .

شعيب في قومه :

كان أهل مدين أهل تجارة . وقد سبق ذكر قوافل المديانيين التى كانت تقوم بالتجارة بين الشام وفينيقيا – وبين الحجاز واليمن عبر فلسطين (ص . ٤٤٣) . ومن الآيات التى ذكرت فى ص ٦٤٤ يمكننا أن نستخلص الآفات التى كانت متفشية فيهم كالآتى :

١ – أنهم كانوا يعبدون غير الله تعالى .

٢ – كانوا يطففون المكيال والميزان . وينقصونه وبذلك كانوا يبخسون الناس أشياءهم .

٣ – كانوا يقطعون الطريق ويأخذون أموال الناس ظلما .

٤ – كانوا يصدون من كان يريد الإيمان ويتوعدونهم .

دعاهم شعيب إلى ما دعاهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة . وكان النبى ﷺ – كما أخرج ابن عساكر عن ابن عباس – إذا ذكر شعيب يقول : ذلك خطيب الأنبياء . لحسن مراجعته قومه . أى محاورته لهم .

---

* تفسير ابن كثير جـ ٣ ٣٤٥ .

١ - كانوا يعبدون غير الله تعالى :

والحقيقة أن المنطقة كلها كانت تعبد الأوثان . بابل وآشور فى العراق وسوريا والفينيقيون وأرض كنعان كلها كانت تعبد الأصنام . « مردوك » و« بعل » و« سين » و« عشتار » . وكانت أرض مدين بين هؤلاء الأقوام . وتدين بدياناتهم . فدعاهم شعيب إلى عبادة الله وحدة ونبذ عبادة الأصنام .

« **قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** » . (٨٥ - الأعراف - ٨٤ - هود)

وقال لهم إنه رسول الله إليهم

« **إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . أنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون** » (١٧٧ - ١٧٩ - الشعراء)

وسبق أن قلنا (الجزء الثانى ص ٢١٤) إن هذه المناطق لم تكن تعتقد فى بعث أو فى حياة آخرة . فالجسد مقره القبر حتى يبلى . والروح تنتقل إلى عالم سفلى . هو عالم الأرواح تخلد فيه ولا عودة منه . وهنا بين لهم شعيب أن هناك حياة آخرة . ويوم آخر تعود فيه الأرواح إلى الجسد ويبعث الناس ليحاسبوا على أفعالهم . وعليهم أن يرجوا الثواب فى اليوم الآخر . أو يكون الرجاء بمعنى تخوف العقاب وانتقام الله تعالى :

« **فقال يا قوم اعبدوا الله . وارجوا اليوم الآخر** » .

(٣٦ - العنكبوت)

وليدلل على صدق كلامه وأنه نبى مرسل من الله سبحانه وتعالى . جاء هم بمعجزة وإن لم تُذكر ماهية هذه المعجزة . وإنما أشار الله إليها فى قوله :

« **قد جاء تكم بينة من ربكم** » . (من الآية ٨٥ - الأعراف)

والمعجزة كانت شاهدة بصحة نبوتة وتوجب عليهم الإيمان . ومن الناس من قال بأن المراد بالبينة الموعظة وقوة الحجة . ولكن ذلك غير مقبول إذ أن الموعظة تكون من شعيب نفسه . أما المعجزة فقد قيل عنها « **بينة من ربكم** » مما يجزم بأنها كانت معجزة من الله . بعضهم زعم أنها كانت عصا آدم عليه السلام وقد آلت إلى شعيب . وأنها دافعت عن غنمه إذ هاجمها تنين* !! وأن هذه العصا كانت تأتى بالمعجزات وهى التى آلت فيما بعد إلى موسى عليه السلام . ولا يخفى ما فى هذه الأقوال من تهافت . والأولى ترك ماهية المعجزة مادام القرآن الكريم لم يوضحها .

---

* تفسير الألوسى . جـ ٨ ص ١٧٦ .

وهكذا دلل بمعجزة – وبآية بينة على صدق ما يقول عن إخباره عن الله سبحانه وتعالى وعن اليوم الآخر . والمعنى أن يتأكدوا من وقوع ذلك اليوم . وما فيه من حساب ليكون هذا حافزا لهم ليؤمنوا وليعملوا ما ينجيهم من العذاب . كما أخبرهم أنه لا يطلب منهم أجرا . فقد يقولوا إن هذا الأجر أعجزهم ولذلك لم يستطيعوا تلبية ما طلب منهم . فهو يقرر لهم أنه لا يطلب أجرا على هدايتهم . بل إن أجره على الله . فهو ربه ورب العالمين .

« وما أسألكم عليه من أجر . إن أجرى إلا على رب العالمين » .

(١٨٠ – الشعراء)

كان هذا هو الأمر الأول الذى دعاهم إليه : عبادة الله وحده .

٢ – ثانى آفاتهم أنهم **كانوا يبخسون الناس أشياءهم** . ولا يعطونهم حقهم . فقد كانوا ينقصون المكيال والميزان . كانوا ينقصون من حجم المكيال الذين يكيلون به الحبوب وينقصون من صنجات الميزان فنهاهم عن ذلك وأمرهم بألا ينقصوا المكيال والميزان . بل يوفوا الكيل . ويزنوا بالعدل والقسطاس .

« فأوفوا الكيل والميزان . ولا تبخسوا الناس أشياءهم » .

(من الآية ٨٥ – الأعراف)

« ولا تنقصوا المكيال والميزان . إنى أراكم بخير . وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم . ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ » . (٨٤ – ٨٦ – هود)

« أوفوا الكيل . ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم » . (١٨١ – ١٨٣ – الشعراء)

وقال لهم إن ما أبقاه الله لهم من الحلال هو خير لهم مما يجمعون بالبخس « **بقية الله خير لكم** » فالجمع بالبخس حرام لا خير فيه وإن كثر . والكسب الحلال . وإن كان فى نظرهم قليل . إلا أنه خير لهم لأن الله يبارك فيه . وأخبرهم أنه ليس حفيظا عليهم يحصى عليهم أعمالهم . بل الله هو الذى يحصى أعمالهم عليهم وسيجازيهم بها .

٣ – ثالث آفاتهم أنهم **كانوا يفسدون فى الأرض** ويعيثون فيها فسادا . كانوا يقطعون الطريق . قال السدى وغيره . كانوا عشارين . يأخذون العشر من أموال الناس . ويتوعدون الناس بالقتل إذا لم يعطوهم جزءا من أموالهم .

٤ – كذلك **كانوا يصدون عن سبيل الله** . قال مجاهد وابن عباس وغيرهما . كانوا يتوعدون الذين يقصدون شعيبا ليؤمنوا به . فيصدونهم عن سبيل الله فكأنهم مثل الشيطان إذ قال : لأقعدن لهم صراطك المستقيم . فالطريق أو الصراط هنا معنوى . أى طريق الإيمان . فيصدون عن سبيل الله من يريد الإيمان . فكانوا يتهمون شعيبا بشتى التهم . يقولون عنه إنه كذاب أو مجنون أو غير ذلك . ويتوعدون الذين آمنوا حتى يفتنوهم عن دينهم ويردوهم إلى الكفر وإلى الطريق المعوج . فهم يريدون الطريق المعوج أى « يبغونها عوجا » .

وكانوا يقولون لمن يريد اتباعه

« وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون».
(٩٠ – الأعراف)

ثم طلب منهم أن يتذكروا كيف كانوا قلة . ولكن الله بارك لهم فكثر عددهم . وقيل كانوا فقراء فبارك لهم فكثرت أموالهم وصاروا أغنياء . ثم ذكرهم بما آل إليه الذين كذبوا أنبيائهم من قبل مثل أقوام : نوح وعاد وثمود ولوط عليهم السلام .

« ولا تقعدوا بكل صراط توعدون . وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » .
(٨٦ – الأعراف)

وقال لهم اتقوا الله الذى خلقكم . وخلق الأقوام الذين كانوا قبلكم . والجبلّة الأولين . وعن ابن عباس أن الجبلّة هم الجماعة إذا كانت عشرة آلاف . وشبهت بالقطعة العظيمة من الجبل – الجبلة – وقيل الجماعة العظيمة مطلقا .

« واتقوا الذى خلقكم والجبلّة الأولين» .
(١٨٤ – الشعراء)

عز عليهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم من أوثان وأصنام . وسألوه سؤال استنكار .

« قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا . أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء . إنك لأنت الحليم الرشيد » .
(٨٧ – هود)

وغرضهم هنا إنكار أنه موحى إليه من الله تعالى . بل وبالغوا بإنكار أن يكون هذا الأمر متفقا مع العقل . ولم يقولوا مثلا هل الصلاة تأمرنا بكذا . بل نسبوا الصلاة إليه وقالوا أصلاتك . كأنها صلاة من عنده هو وليست وحيا من الله – وأنها صلاة له . ملزمة له وحده وتأمره هو وحده لاهم . فلا تلزمهم بأن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم . ولا أن يطيعوه فى ما يأمرهم به من ناحية مالهم سواء من ناحية اكتسابه أو أوجه صرفه . ثم يطلبون منه أن يحتكم إلى العقل

والمنطق . فقالوا إذا كنت حليما رشيدا – فهل صلاتك أنت ملزمة لنا نحن ؟ وغرضهم أن هذا ليس من الحلم ولا من الرشد .

وقيل وكان تخصيصهم الصلاة بالذات لأنه عليه السلام كان كثير الصلاة وكان معروفا بذلك . وأخرج ابن عساكر عن الأحنف أن شعيبا عليه السلام كان أكثر الأنبياء صلاة . وكانوا إذا رأوه يصلى يتغامزون ويتضاحكون . البعض قال إن الصلاة كانت مفروضة عليه هو . ولم تكن من الأمور المكلف بها أحد من أمته . كما لم تكن فى شريعته زكاة . ولا نرى هذا الرأى . فما من نبى إلا وهو قدوة لقومه . إلا أن الأنبياء . لقربهم من الله . يأتون من الصلاة والعبادات – مالا يأتيه غيرهم . كذلك لا يشترط أن تكون هناك زكاة مثل ما علينا من زكاة . بل لابد أن صرف المال فى أوجه الخير هو من القواعد العامة مثل إطعام المسكين والفقير واليتيم وإعانة المحتاج وغير ذلك . وهى من الأمور التى كان يدعو إليها . ولكنهم لجأوا إلى السخرية والاستنكار . أى مادام بهذا الحلم والرشد فكيف يتدخل فى الطريقة التى يتصرفون فيها بأموالهم .

ثم اتهموه بأنه من المسحَّرين أى الذين بلغ السحر فيهم مبلغه حتى غلب علي عقله . وأنهم يرونه بشرا مثلهم . وقصدهم أنه مادام بشرا مثلهم . فما يقوله مخالفا لأقوالهم . وما يفعله مخالفا لأفعالهم . ما هو إلا نوع من السحر تلبَّسه . وليس نبوة . وقالوا بل إننا نظن أنك تكذب علينا فى هذا الإدعاء .

« قالوا إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين » . (١٨٥ – ١٨٦ – الشعراء)

ورد عليهم بقوله: ما ظنكم ورأيكم إن كنت حقيقة نبى . وعلى بينة وحجة ظاهرة من ربى . ورزقنى من لدنه رزقا حسنا وهو النبوة والحكمة . وأنتم وصفتمونى بالحلم والرشد . فهل يجوز لى – أن آمركم بشىء وأفعل غيره . سواء فيما آمركم به من ترك عبادة الأصنام أو فى طرق اكتساب المال . كأن أنهاكم عن التطفيف فى الكيل والميزان وأفعله أنا من ورائكم . وكل ما أريده هو أن أصلح أموركم بقدر استطاعتى . والتوفيق فى هذه المهمة من الله . فأنا أتوكل عليه وأرجع إليه . وفى هذا تخويف لهم أيضا لأن رجوعه إلى الله يعنى استعانته به عليهم وعلى موقفهم الرافض له . والله سبحانه وتعالى سيكفيه أمرهم .

« قال يا قوم . أرأيتم إن كنت على بينة من ربى . ورزقنى منه رزقا حسنا . وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه . إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت . وما توفيقى إلا بالله . عليه توكلت . وإليه أنيب » .

(٨٨ – هود)

كما طلب منهم ألا يجعلوا عداوتهم له . وشقاقهم معه . وأصلها أن المتعادين يكون أحدهم

فى شق والآخر فى شق ثان . فهم فى شقاق . فلا تجعلوا عداوتكم لى تنسيكم ما حاق بالأقوام السابقة الذين كذبوا أنبياءهم مثل قوم نوح وقوم هود وقوم صالح . وإن أقرب هؤلاء الأقوام منكم هم قوم لوط . زمانا ومكانا .

« ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود . أو قوم صالح . وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه . إن ربى رحيم ودود » . (٨٩ - ٩٠ - هود)

ثم طلب منهم أن يستغفروا ربهم . ثم يتوبوا إليه مما كانوا يعملون من ذنوب . والمعنى أنهم لو فعلوا ذلك فلن يصيبهم مثل ما أصاب الأقوام الذين ذكرهم . لأن الله رحيم . عظيم الرحمة . ودود . كثير الود . يحب من يتوب إليه ويرجع إليه .

كان ردهم عليه هو أن قالوا إننا لا نفهم ما تقول . استهانة به - كما يقول الرجل لمن لا يعبأ به : لا أدرى ما تقول . وقالوا له : ثم إنك فينا ضعيف ولولا جماعتك وأهلك ومعزّتهم علينا لقتلناك رميا بالحجارة . أو ضربناك بالحجارة حتى تخرج من أرضنا . وما أنت بأقوى أو أعز من أن ننفذ فيك ما نقول .

« قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول . وإنا لنراك فينا ضعيفا . ولولا رهطك لرجمناك . وما أنت علينا بعزيز » . (٩١ - هود)

فقال لهم : هل تعملون حسابا لرهطى وجماعتى . ولا تعملون حسابا لله سبحانه وتعالى . وتقولون أنكم لا ترجمونى تقديرا لأهلى والله هو الأحق أن تجعلوا له حسابا ولكنكم نسيتم الله تعالى . وجعلتموه وراء ظهوركم . مع أن الله هو المطلع على أعمالكم وهو المحيط بكل أفعالكم السيئة .

« قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله . واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط » . (٩٢ - هود)

بدأت الأمور بين شعيب وقومه تتأزم . فبدلا من الجدال بالحجة . كانوا هم البادئين بالتهديد . هددوا بالرجم . وأنهم فقط - مراعاة لأهله - لم ينفذوا تهديدهم . ومعناه أنهم قد ينفذونه فى المستقبل . وردًا على هذا التهديد . كان لابد من تهديد مثله يردعهم : فقال لهم : فلتبقوا إذن على ما أنتم عليه . ولتظلوا على أفعالكم . وحالكم المعوج فى معاملاتكم . وأنا سأظل على حالى من الإيمان بالله والطريق المستقيم الذى أنا عليه . وكأنهم سألوا : وماذا سيحدث حينئذ ؟ فكان جوابه : فسوف تعلمون وحذفت الفاء . أو كأنه قال : حينئذ سوف تعلمون من يأتية عذاب شديد يجعله فى خزى . وسوف تعلمون من هو كاذب أنا أم أنتم - وطلب منهم أن ينتظروا ويترقبوا . أى ينتظروا نزول العذاب بهم ليعرفوا أنه هو الصادق . ويترقبوا حدوث ما يقوله لهم . وهو أيضا منتظر معهم .

« ويا قوم اعملوا على مكانتكم . إنى عامل . سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزية ومن هو كاذب . وارتقبوا إنى معكم رقيب » . (٩٣ - هود)

وكان بعض القوم قد آمنوا بشعيب . وبعض آخر - وهم الغالبية - لم يؤمنوا . فطلب منهم أن ينتظروا حتى يحكم الله بين الطائفتين . وهو تهديد ووعيد . لأن الله هو الحق . وهو خير حكم. وسينصر الفئة التى على الحق وهى التى آمنت به - ولا حيف فى حكم الله . فهو خير الحاكمين .

« وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به . وطائفة لم يؤمنوا . فاصبروا حتى يحكم الله بيننا . وهو خير الحاكمين » . (٨٧ - الأعراف)

وبدلا من أن يخافوا أو تخشع قلوبهم لما سمعوه يحتكم إلى الله . وهو خير الحاكمين . إذا بالفئة المستكبرة الكافرة تأخذهم العزة بالإثم ويتطاولون على شعيب والذين آمنوا معه فيهددونهم بالإخراج من بينهم ومن القرية كلها . أو إن كانوا يريدون البقاء فليعودوا إلى ملة الفئة الكافرة . وكان جوابه أنه قال لهم : وكيف نعود لملتكم ونحن كارهون لها . ولو عدنا إليها بعد أن علمنا بطلانها وبعد أن نجانا الله منها فإننا نرتكب إثما عظيما فى حق الله . وهو مالا نقدر على فعله. ولا يليق بنا أن نعود فى ملتكم بأى حال من الأحوال . وعلى كل فهذا متعلق بمشيئة الله هو الذى بيده كل شىء وعلمه يشمل كل شىء . وهذا القول يتضمن استحالة العودة إلى ملتهم الكافرة لأن الله هو الذى نجاهم منها إلى الإيمان . وهم قد أوكلوا أمرهم إلى الله . ثم توجه شعيب إلى الله تعالى وطلب منه أن يحكم بينه . وبين قومه الذين لم يؤمنوا به - ويحكم بينهم بالحق . لأن الله هو خير الحاكمين .

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنَّ فى ملتنا . قال : أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها . وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا . وسع ربنا كل شىء علما . على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين » .

(٨٨ - ٨٩ - الأعراف)

وقال البعض* إن الضمير فى قوله : « وما يكون لنا أن نعود فيها » راجع إلى القرية . بمعنى أننا سنخرج من قريتكم ولا نعود فيها إلاَّ أن يشاء الله بما ينجزه لنا من الوعد فى أن نظهر عليكم . أو يردكم الله إلى الحق فتؤمنوا . وهذا التفسير ليس بصحيح لأن كلمة العودة

* تفسير الألوسى جـ ٩ - ص ٤ .

تكررت مرتين قبل ذلك وفيها النص على أن العودة هى إلى الملة : « **أو لتعودن فى ملتنا** » و « **إن عدنا فى ملتكم** » . فلا شك أن الثالثة « **وما يكون لنا أن نعود فيها** » هى بمعنى العودة إلى الملة أيضا لا إلى القرية .

وقال فريق آخر من الكافرين ، ليسوا هم كبار القوم الذين استكبروا ، قالوا لعامة الشعب . تنفيرا لهم وتثبيطا لهم عن الإيمان بشعيب بعد أن لمسوا صلابة موقفه . وخافوا أن يتأثر به باقى الناس ويتابعونه . فقالوا يخوفونهم . إنهم إن اتبعوا شعيبا وفارقوا ملة أبائهم سيكونون خاسرين . يخسرون ما يحصلون عليه من ربح من التطفيف فى الكيل والوزن . أو يخسرون بإخراجهم من القرية كما سبق التهديد بذلك .

« **وقال الملأ الذين كفروا من قومه . لئن اتبعتم شعيبا . إنكم إذا لخاسرون** » . (٩٠ – الأعراف)

بلغ التحدى ذروته . فتحدوه أن يوقع بهم عذابا كما هددهم . فبعد أن قالوا له إنه من المسحرين . وأنه بشر مثلهم . كما يظنون أنه من الكاذبين . من هنا كانت جرأتهم فى أن يطلبوا منه أن يسقط عليهم كسفا من السماء أى قطعا من السماء . إذ كانوا يظنون أنه لن يستطيع تنفيذ تهديده لهم بوقوع عذاب بهم .

« **فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين** » . (١٨٧ – الشعراء)

وهذا يشبه ماقالته قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

« **أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا** » . (٩٢ – الإسراء)

هكذا طلب قوم شعيب منه أن ينزل عليهم عذابا من السماء . وهنا . مثل كل الرسل السابقين . لم يجزم شعيب عليه السلام بوقوع العذاب . بل أرجع ذلك إلى مشيئة الله تعالى . فهو أعلم بهم . وأعلم بما يفعلون . وإن كانوا مستحقين العذاب فسينزله بهم حسبما تقتضى إرادة الله . وفى الوقت الذى يقدره وبالكيفية التى يراها . ولعلهم ظنوا أنه بهذه الإجابة يتهرب من تهديده لهم بنزول العذاب بهم .

ونرى ذلك يتكرر مع غيره من الرسل .ففى قصة نوح عليه السلام تحدوه بإنزال العذاب بهم إن كان من الصادقين فأرجع ذلك الأمر إلى الله :

« **قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا . فأتنا بما تعدنا . إن كنت من الصادقين . قال . إنما يأتيكم به الله إن شاء** » . (٣٢ – ٣٣ هود)

وفى قصة هود عليه السلام كان نفس الشيئ

« قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا. فأتنا بما تعدنا . إن كنت من الصادقين . قال إنماالعلم عند الله » . (٢٢ - ٢٣ - الأحقاف)

وتكرر نفس الشيء مع شعيب عليه السلام

« وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين . قال ربى أعلم بما تعملون » .

(١٨٦ - ١٨٨ - الشعراء)

وهكذا الرسل مع أقوامهم . فبالرغم من أنهم قد يهددونهم بأن الله قد ينزل بهم عذابا إن استمروا فى كفرهم . وبالرغم من أن الكافرين يستمرون فى تكذيبهم فيصبحون مستحقين لإنزال العذاب بهم . إلاَّ أن الرسل . يرجعون أمر إنزال العذاب إلى مشيئة الله سبحانه وتعالى . فإن شاء قدر لهم الهداية فى آخر لحظة . وعفا عن سابق تكذيبهم . وإن شاء أنزل بهم ما يراه من عذاب وفى الوقت الذى يختاره .

واستمر قوم شعيب فى تكذيبهم . وكانت إرادة الله أن ينزل بهم العذاب

« فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » . (٩١ - الأعراف)

« فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » .

(٣٧ - العنكبوت)

« ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا . وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوافى ديارهم جاثمين » . (٩٤ - هود)

«فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة . إنه كان عذاب يوم عظيم . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

(١٨٩ - ١٩١ - الشعراء)

وقد وصف العذاب الذى نزل بهم بالرجفة والصيحة . وعذاب يوم الظلة وقد اجتمع عليهم كل ذلك . فقد أظلتهم سحابة فيها شررمن نار ولهب ووهج عظيم . ثم جاءتهم صيحة من السماء . ورجفة شديدة من الأرض من أسفل منهم فزهقت الأرواح . وخمدت الأجسام فأصبحوا فى دارهم جاثمين . كأن لم يقيموا بديارهم .

روى عن ابن عباس* أن الله أرسل عليهم حراً شديدا فأخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا

---

* تفسير الألوسى . جـ ١٩ ص ١١٩ .

ماء فكانوا يدخلون الأسراب والكهوف فيجدونها أشد حرا . فخرجوا إلى البرية . فبعث الله تعالى سحابة فيها ريح طيبة فأظلتهم ووجدوا لها برداً . فنادى بعضهم بعضاً حتى اجتمعوا تحتها . رجالهم ونساؤهم وصبيانهم . فصاح بهم جبريل عليه السلام صيحة عظيمة . ورجفت بهم الأرض والتهبت السحابة نارا فاحترقوا وصاروا رمادا .

وقال ابن كثير* كلها صفات للعذاب الذى نزل بهم ولكن الله تعالى أخبر عنه فى كل سورة بما يناسب سياقها . فى سورة الأعراف **أرجفوا** نبى الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودوا فى ملتهم . فقال الله تعالى : فأخذتهم **الرجفة** . فقابل الإرجاف بالرجفة .وأمافى سورة هود فقد **تصايحوا** على نبيهم . فناسب أن تذكر **الصيحة** . وأما فى «سورة الشعراء فقد قالوا « **فأسقط علينا كسفا من السماء** » . فناسب أن يكون العذاب من فوقهم فكان « **عذاب يوم الظلة** » وقال آخرون** ويجوز أنهم اجتمعوا بأيكتهم ليستظلوا من الحر الشديد . فأضرمها الله عليهم ناراً . أوتكون الظلة هى غاشية العذاب الذى حل بهم فأظلَّهم .

فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ميتين . من جثم الطير إذا ألصق بطنه بالأرض . ثم استعير الجاثم للميت لأنه لا يبرح مكانه .

وللتعبير عن عظم الدمار الذى حل بهم . وأهلكهم تماماً هم وجميع ذريتهم . أن الناظر يظن أنه لم يكن بهذا المكان قوم . لأنهم استؤصلوا تماماً . فلم يبق منهم شئ . كأن لم يكونوا بها .

« **كأن لم يغنوا فيها . ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود** » . (٩٥ - هود)

« **الذين كذبوا شعيباً . كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيبا . كانوا هم الخاسرين** » . (٩٢ - الأعراف)

ونجى الله شعيبا عليه السلام . والذين آمنوا معه . وكان ذلك برحمة من الله سبحانه وتعالى . فلم يصبهم من العذاب شئ .

« **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا** » .

(٩٤ - هود)

وتولى شعيب عنهم . وانصرف عن هذا المكان وهو يقول . لقد أبلغتكم ما كلفنى الله به من رسالات . وبلغتكم أوامره . ونصحت لكم بما فيه الكفاية . وحرصت على هدايتكم . فلم تنتصحوا وحذرتكم مما سيحيق بكم إن ظللتم فى غيكم سادرين . فلا تنتظروا أن آسف أو آسى على ما حاق بكم . لأنكم كنتم قوما كافرين . لا تقبلون النصح ولاترجعون إلى الحق .

---

* البداية والنهاية جـ ١ ص ١٧٧ .

** الأستاذ رؤوف أبو سعدة . من إعجاز القرآن جـ ١ ص ٢٥١ .

« فتولى عنهم . وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى . ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » . (٩٣ – الأعراف)

وقيل إن شعيبا بعد هلاك القوم رحل إلى مكة . وظل يتعبد بها حتى مات . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس أنه قال : فى المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما . قبر إسماعيل وقبر شعيب عليهما السلام . أما قبر إسماعيل ففى الحجر . وأما قبر شعيب فمقابل الحجر الأسود . وقيل* إن قبر شعيب عليه السلام يوجد فى بلدة « خيارة » بالقرب من حطين .

وبقى المؤمنون من قوم شعيب . فى المنطقة . وإن كانوا يتجنبون المكان الذى نزل به العذاب . وتكاثروا . وعمرت أرض مدين مرة ثانية . و قيل كان أخو شعيب عليه السلام ممن بقوا . وتسمى أحد أحفاده بإسم جدهم الأكبر شعيب . وقالوا كان فى منطقتهم بئر هى التى استقى منها موسى عليه السلام .

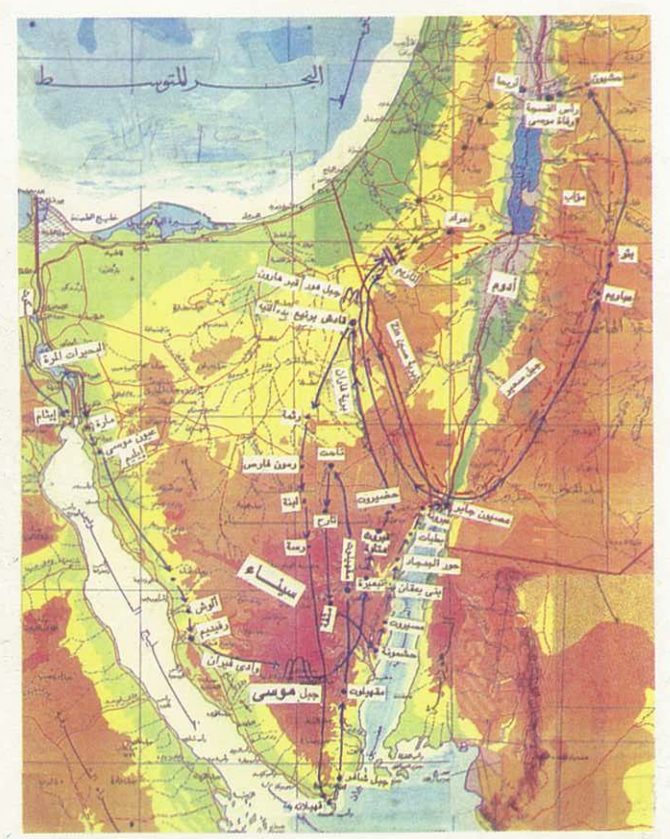
يتبع الجزء الرابع إن شاء الله وبه قصة موسى وهارون عليهما السلام .

---

* البلدان – ياقوت . جـ ٣ – ص ٢٩٩ .

مُوسَىٰ وهارون عليهما السلام

من هو فرعون موسى ؟





قصص الأنبياء والتاريخ

الجزء الرابع

تأليف دكتور

رشدي البدراوي

الاستاذ بجامعة القاهرة



قصص الأنبياء والتاريخ

الجزء الرابع

موسى وهارون

عليهما السلام

تأليف دكتور

رشدي البدراوي

الاستاذ بجامعة القاهرة

١٩٩٨

تنويــه

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الجزء أيضا تكمله لما سبق من أجزاء سلسلة **«قصص الأنبياء والتاريخ»** ولذلك جعل ترقيم الصفحات تاليا لآخر صفحة من الجزء الثالث.

ويرجع كبر حجم هذا الجزء لأن قصة «موسى وهارون» عليهما السلام من أطول القصص. كما أن التصدى لمشكلة **«من هو فرعون موسى»** استتبعه إدراج فصل عن الرعامسة. وكان لابد من إدراج فصل آخر عن آثار رمسيس الثانى - إذ المرجح أنه هو فرعون موسى - لإيجاد إثبات على ادعائه الألوهية وكذلك لبيان الدمار الذى أصاب آثاره تحقيقا لقوله تعالى «ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون». ولشرح معنى «فرعون ذى الأوتاد». ولعلنا بذلك نكون قد وضعنا حداً للجدل الكثير الذى أثير حول هذا الموضوع.

كذلك يجيب هذا الجزء على أسئلة أخرى مثل: من هو هامان؟ من هو مؤمن آل فرعون؟ من هى زوجة فرعون التى آمنت؟ من هو قارون؟ أين كان عبور بنى إسرائيل وغرق الفرعون؟ ماهى الآية فى مومياء رمسيس الثانى؟ أين كان اللقاء مع الخضر؟ أين سار بنو إسرائيل فى سيناء سواء قبل التيه وأثناءه وبعده؟ كل ذلك موضح على الخرائط الجغرافية خطوة بخطوة بالإضافة إلى عشرات الصور الفوتوغرافية مما يجعل القارىء يشعر وكأنه قد عايش بنفسه هذه الأحداث التاريخية.

وسيتبع - إن شاء الله - الجزء الخامس وبه قصة داود وسليمان عليهما السلام وباقى أنبياء بنى إسرائيل.

وأرجو من الله العون والتوفيق

حتى تستكمل الأجزاء الباقية،،

المؤلـــف

أكتـوبــر ١٩٩٨

شكــر

يشكر المؤلف أصحاب المراجع التالية لإتاحة الفرصة لاقتباس بعض الأشكال الواردة فى مؤلفاتهم – ومعظمها صور فوتوغرافية للآثار – على الوجة التالى :

– كتاب رمسيس ووقته – إيمانويل ڤيلكوڤسكى : شكل ١٢١ .

– كتاب رمسيس العظيم – Rita Freed – الأشــكـال : ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦ ب ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٤٢ ، ١٤٦، ١٤٩ ، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٠، ١٨١، ١٨٦، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩ ، ٢٣٠، ٢٤٤، ٢٤٥ .

– أطلس مصر القديمة. ج. بينز و ج. مالك: ١٦٦، ١٧٤، ٢٨٩، ٢٩٠ .

– فرعون المنتصر . كتشن : ١٧٠ .

– القاموس الجديد للكتاب المقدس . م. أونجر : ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٧٥، ٢٩٠ .

– أطلس تاريخ الإسلام . د. حسين مؤنس : ٢٨٧ ، ٢٨٨.

محتويات الجزء الرابع

الفصل الأول

من هو فرعون موسى ؟

من الطبيعي – وقد خصصنا هذا الجزء لقصة موسى عليه السلام – أن يتطرق البحث إلى هذا الموضوع الشائك: من هو فرعون موسى؟ . وقد اختلفت الآراء فى تحديد اسم هذا الفرعون اختلافا كبيرا. وسنذكر فى هذا الفصل مختلف الآراء التى قيلت فى هذا الشأن . مذكرين بأن بعض هذه الآراء لم يوضع بقصد بيان الحقيقة أو بحثا عنها بل وضع لهدف سياسى وإن كان قد غُلِّف بما قد يبدو للقارىء بأنه حقائق تاريخية. كذلك فإن بعض النظريات التى وضعت اعتمد أصحابها على حادثة معينة وبنوا عليها نظريتهم. وراحوا يحاولون تفسير الأحداث كلها حسب نظريتهم هذه ويلوون الحقائق أو يختلقون أحداثا ليؤيدوا بها وجهة نظرهم. ولا يخفى قصور هذه النظريات التى يجوز تسميتها بالنظريات «أحادية النظرة» إذ هى تنظر إلى الأحداث من زاوية واحدة وتتجاهل الجوانب الأخرى. ومن هنا تعددت الآراء ولم تصل إلى نتيجة مرضية.

ولما كان المنهج فى هذه السلسلة **«قصص الأنبياء والتاريخ»** هو النظرة الشاملة وربط القصص الدينى بالأحداث التاريخية. ومن هذا المنطلق رأينا أن الطريق السليم للوصول إلى الحقيقة فى هذا الشأن هو تحديد بعض النقاط الأساسية من قصة موسى عليه السلام يجب أن تستوفيها النظرية المقترحة وكذلك تحديد صفات هذا الفرعون مما جاء عنه فى الكتب المقدسة وعلى رأسها بالطبع القرآن الكريم. صحيح أن القرآن الكريم هو كتاب هداية وإيمان. ركَّز عند سرد القصص على الجانب الإيمانى والعبرة التى تستقى منها. ولكنه فى نفس الوقت إذا أشار إلى حدث معين أو واقعة معينة فقوله هو القول الحق الذى لا يمكن التغاضى عنه أو إيراد ما يتعارض معه. وما سكت عنه القرآن الكريم لا بأس من أن نبحث عما ورد فى التوراة بشأنه. مدركين ما قد أصاب بعض نصوصها من تحريف وتبديل وهو ما ذكرناه فى الجزء الأول ص٣ – إذ التوراة التى بين أيدينا هى فى حقيقتها سيرة موسى عليه السلام وقد مزج كاتبو التوراة بين ما أوحى إليه من الله وبين أحاديثه الشخصية. مضافا إليها تفسيراتهم لبعض الأحداث. واعتمادا على هذه الإضافات الأخيرة فإننا لانرى بأسا من التجاوز عن معلومة تاريخية وردت فى التوراة إذا ارتأينا أنها تتعارض مع حقائق أخرى أو أنها تقف حجر عثرة فى سبيل نظرية متكاملة.

وأخيرا فإن هناك ملحوظة جديرة بالذكر. وهى صمت الآثار المصرية التام عن هذا الموضوع الخطير – موضوع بنى إسرائيل وموسى – مع ماهو معروف عن الكتابات المصرية

– على جدران المعابد والآثار – من دقتها فى تسجيل الأحداث. ويعلل «سميث» سكوت الآثار المصرية عن قصة الخروج – أى خروج بنى إسرائيل من مصر – بأنها من وجهة النظر المصرية الفرعونية لا تزيد عن كونها فرار مجموعة من العبيد من سادتهم المصريين. وما كانت هذه بالحادثة التى تسجل على جدران المعابد أو التى تقام لها الآثار لتسجيلها. (J.W. Smith (God & man in Early Israel. p38. كما أنه من المؤكد أن هذه التسجيلات لم تكن – كما نقول بلغة عصرنا – صحافة حرة تسجل الأحداث كما وقعت – بل لابد كانت تحت رقابة صارمة من الفراعين. فلا تسجِّل إلا مايسمح به الفراعين أنفسهم ويكون فيه تمجيد لهم. ولما كان الفراعنة يدَّعون أنهم من نسل الآلهة فليس من المتصوَّر أن تُسجل على المعابد دعوة موسى لإله أكبر هو رب العالمين. كما أنه من غير المعقول تسجيل فشل الفرعون فى منع خروج بنى إسرائيل فضلا عن غرقه أثناء مطاردتهم. إذ أنها أحداث يجب فرض تعتيم إعلامى كامل عليها وعلى كل ما يتعلق بها والعمل على محوها من ذاكرة الأمة. وهو أمر غير مستغرب. بل ويحدث فى أيامنا هذه. وكم من حقائق عملت الرقابة والمخابرات على إخفائها عن الشعوب !

وإزاء تعدد الآراء فى تحديد شخصية من هو فرعون موسى. فقد وجدنا أن الأسلوب الأمثل الواجب اتباعه هو وضع النقاط الأساسية الثابتة ثبوتا لا يرقى إليه الشك ثم عرض النظريات المختلفة – واحدة تلو الأخرى – على هذه النقاط الأساسية. وإذا لم تكن تستوفيها تم استبعادها حتى نصل إلى النظرية التى تستوفى هذه النقاط الأساسية – كلها – أو أكبر عدد منها فتكون هى النظرية الصحيحة.

وفى رأينا أن هذه **النقاط الأساسية هى:**

١ – **تسخير بنى إسرائيل** هو أول هذه النقاط – وهو أمر ثابت بالقرآن الكريم

«إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم. يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم. إنه كان من المفسدين». (٤ – القصص)

كما ورد أيضا فى التوراة. إذ ذُكر كنبوءة لإبراهيم عليه السلام: فقال لأبرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويُستعبدون لهم فيُذلونهم أربع مائة سنة (تكوين ١٥ : ١٣). كما ذكر عدة مرات فى سفر الخروج: فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف. ومرَّروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبِن وفى كل عمل فى الحقل. كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفا (خروج ١ : ١٤).

ولابد للنظرية التى توضع أن توضِّح لم كان هذا التسخير والتعذيب. فلا يكفى القول بأن بنى إسرائيل كانوا مقربين من الهكسوس ليكون ذلك سببا فى هذا التعذيب. فكم من جالية بقيت فى دولة بعد إجلاء المحتل عنها ولم ينزل بها مثل هذا التنكيل أو بعضه.

٢ - **تمسك الفرعون بعدم خروج بنى إسرائيل من مصر.** وليس الأمر رغبة فى تسخيرهم فى المبانى والإنشاءات. فالمصريون بسواعدهم بنوا الأهرامات - أكثر من مائة- وبنوا المعابد الضخمة ومئات المدن وأقربها عهدا مدينة أخيتاتون. ومابناء مدينتى بى رعمسيس وفيثوم إلا قطرة من بحر !! ولا بد من تقديم تفسير كاف لإصرار الفرعون على عدم خروج بنى إسرائيل من مصر بالرغم مما نزل به من ضربات من جراء ذلك.

٣ - **الالتقاط من النهر** : إن موسى هو من بنى إسرائيل. وبنو إسرائيل كانوا يقيمون فى أرض جاسان شرق الدلتا (الجزء الثالث ص ٥١٧). وألقى فى النهر ليلتقطه آل فرعون. فيجب أن يكون موقع الإلتقاط شمالى موقع الإلقاء لأن التيار يمشى من الجنوب إلى الشمال. سواء كان الالتقاط من مجرى النهر ذاته أو من إحدى الترع المتفرعة منه.

٤ - **عند فرار موسى من مصر** بعد قتل المصرى لماذا لم يذهب إلى أرض فلسطين وكان بها فلول من بقايا الهكسوس. كما كان بها «العابيرو» وهم يمتون بصلة ما إلى بنى إسرائيل وكان من الطبيعى أن يلجأ إليهم. فلماذ فضل الذهاب إلى أرض مدين !

٥ - كثير من النظريات التى قُدمت أهملت إظهار **معجزتى العصا واليد** فى اللقاء الأول بين موسى وفرعون ثم تحدِّى السحرة بعد ذلك. وكذلك أهملت إظهار باقى الآيات التسع مع أنها أمور ثابتة فى كل الكتب المقدسة.

٦ - فرعون موسى وُصف فى القرآن الكريم بأنه **«فرعون ذو الأوتاد»** ويجب تقديم تفسير مقنع لهذا الوصف.

٧ - **فرعون موسى ادعى الألوهية:** «فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى». (٢٣ - ٢٤ - النازعات) وهو ادعاء فعلى للألوهية. ويجب على النظرية أن تقدِّم إثباتا لهذا ولا يكفى أن يقال إنه نسب نفسه للآلهة. فجميع الفراعين بدءا من الأسرة الخامسة كانوا يدَّعون أنهم من نسل الآلهة.

٨ - **فرعون موسى غرق أثناء مطاردته لبنى إسرائيل.** والعبرة تكون أبلغ لو أن الفرعون الذى غرق يكون هو نفسه فرعون التسخير. عما إذا مات فرعون التسخير ميتة طبيعية وكان الغرق من نصيب خَلَفِه. فإذا اتسعت حياة أحد الفراعين بحيث تشمل الأمرين معا كان فى ذلك غنى عن افتراض فرعونين.

٩ - حبذا لو أوضحت النظرية أن دماراً ما قد حاق بالآثار التى أقامها هذا الفرعون أكثر مما أصاب آثار غيره من الفراعين. لينطبق عليه قوله تعالى: **«ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون».** (١٣٧ - الأعراف)

١٠ - وأخيرا يجب أن تتضمن النظرية تفسيرا لقوله تعالى: **«فاليوم ننجيك ببدنك لتكون**

لمن خلفك آية». (٩٢ - يونس). إذ أن لدينا مومياوات كثير من الفراعين. والآية لتمامها واكتمال الهدف منها - لابد أن تكون واضحة محددة. فأى المومياوات هى الخاصة بفرعون موسى؟ وهل فيها شيئ يمكن اعتباره آية؟

لاشك أن القارىء يوافق على أن هذه هى النقاط اللازم توافرها فى أى نظرية توضع لبيان من هو فرعون موسى. والآن نستعرض مختلف النظريات التى قُدِّمت ونرى مدى تحقيقها لهذه النقاط.

١ - أحمس الأول هو فرعون موسى:

يزعم المؤرخ اليهودى يوسيفيوس (يوسف) بن متى، الذى عاش فى القرن الأول الميلادى أن مانيتو - المؤرخ المصرى الذى كتب تاريخ مصر القديم حوالى عام ٢٨٠ ق.م - قد ذكر أن العابيرو (أو الخابيرو) هم أنفسهم العبرانيون أى بنو إسرائيل وهم أيضا الهكسوس الذين حكموا مصر! وأن طرد الهكسوس من مصر بواسطة أحمس هو نفسه خروج بنى إسرائيل من مصر. وبالتالى فإن أحمس هو فرعون موسى! وما دمنا لا نستطيع الرجوع إلى كتاب مانيتو الذى فقد فى حريق مكتبة الاسكندرية عام ٤٨ق.م فلا نستطيع التأكد من صدق هذا القول. بل ويساورنا الشك فى صحته إذ الهدف السياسى من وراء هذا الزعم واضح إذ هو يرمى إلى القول بأن الهكسوس - الذين هم بنو إسرائيل - قد حكموا مصر فترة طويلة من الزمن (من ١٧٨٠ق.م حتى ١٥٧٥ ق.م أى ٢٠٥ عاما - انظر الجزء الثالث ص ٥٤٠) ومن ثم يحق لليهود الادعاء بأن لهم حقوقا تاريخية فى أجزاء من أرض مصر. وقد تبنى هذا الرأى عدد من المؤرخين جلهم من اليهود أو المشايعين لهم.

والثابت تاريخيا هو أن أول قدوم لبنى إسرائيل - كفئة متميزة ومستقلة فى معيشتها عن المصريين - كان عند مجىء يعقوب وبنيه بدعوة من يوسف الصدِّيق الذى كان نائبا للملك خيان ملك الهكسوس (الجزء الثالث . ص ٥١٣) وأسكنهم أرض جاسان (ص ٥١٧). وهذا ينفى نفيا قاطعا أن بنى إسرائيل هم أنفسهم الهكسوس. إذ هم قد وفدوا عليهم. واحتفى به الهكسوس إكراما لنائب الملك «يوسف» ولأنهم أهل بداوة مثلهم ورأوا فيهم سندا يعينهم فيما لو ثار المصريون ضدهم. وعند خروج الهكسوس من مصر خرجت معهم طائفة قليلة من بنى إسرائيل ارتبطت مصالحهم معهم وسموا «العابيرو» (ص ٥٤٠) ولكن الغالبية العظمى من بنى إسرائيل بقوا فى مصر بعد طرد الهكسوس. وسنعود إلى شرح علاقة العابيرو ببنى إسرائيل فى مصر فيما بعد (ص ٧٩٧). كذلك فإن هذه النظرية تتعارض مع ماهو ثابت من تسخير بنى إسرائيل بواسط المصريين. إذ لو كانوا هم الهكسوس - حكام البلاد - فأنَّى يقع عليهم مثل ذلك؟ والثابت أنهم - أيام المجاعة كانوا يتنعَّمون بينما المصريون يعانون قسوتها واضطروا لبيع أراضيهم لملك الهكسوس (ص ٥٣٢). كذلك فإن هذه النظرية تتعارض مع ماهو معروف من

أن فرعون موسى كان يتمسك ببقاء بنى إسرائيل فى مصر بالرغم مما أتى به موسى من آيات. فهل كان أحمس يتمسك ببقاء الهكسوس المحتلين بلاده؟. سبب آخر ذلك أن أحمس كان يحكم من طيبة فى أقصى جنوب مصر فى حين أن بنى إسرائيل كانوا يعيشون فى أرض جوشن شرقى الدلتا فكيف يتأتى لأم موسى أن تلقيه فى النهر فيلتقطه آل فرعون القاطنين على بعد ألف كيلو متر إلى الجنوب!

لهذه الأسباب يمكننا باطمئنان استبعاد الرأى القائل بأن أحمس هو فرعون موسى.

٢ - أحمس هو فرعون التسخير وتحتمس الأول هو فرعون الخروج :

قائل هذا الرأى هو الدكتور محمد وصفى فى كتابه: (الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل. ص ١٥٦). ويرى أن أحمس هو الذى عذب بنى إسرائيل واضطهدهم وله مبرراته السياسية والاجتماعية والحربية والوطنية. فيقول إن أحمس هو محرر مصر من المحتلين الهكسوس الذين كانوا غزاة من الشرق فكان من الطبيعى أن يعمل على القضاء على العناصر الموالية لهم أو على الأقل أن يسلبهم سلطانهم الذى كانوا قد وصلوا إليه بواسطة «يوسف» وبرضاء ملوك الهكسوس. فكان يذبح أبناءهم حتى لا يكبروا فيصبحوا قوة تعمل على هدم مابناه من تحرير بلاده من الأجانب وكان يستعمل بنى إسرائيل فى بناء المدن فلم يكن من السياسة أن يبيدهم كلهم. ويقول إن بنى إسرائيل ظلوا فى التعذيب منذ أن تولى أحمس الحكم فى عام ١٥٨٠ ق.م. وأن موسى ولد سنة ١٥٧١. ويقول إن موسى عاصر ثلاثة فراعين هم بالترتيب:

أحمس مدة ١٤ عاما .

أمنحتب الأول مدة ١٦ عاما .

ثم تحتمس الأول مدة ٣٩ عاما .

وأن موسى لما قتل المصرى كان عمره ٦١ عاما وتغرب فى أرض مدين ٨ سنوات ثم عاد وعمره ٦٩ عاما ودعا الفرعون سنة واحدة ثم كان الخروج. وهذا الرأى يتعارض مع عدة حقائق تاريخية.

١ - كيف التقط أحمس موسى من النهر وأحمس كان يحكم من طيبة فى الجنوب.

٢ - إن سنة واحدة بين عودة موسى من أرض مدين والخروج لا تتسع لإظهار الآيات التسع الثابتة فى الكتب المقدسة.

٣ - إن تحتمس الأول ابن امرأة من دم غير ملكى (هى الملكة سنى سونب) وكان سنده فى الوصول إلى العرش هو زواجه من أخت له تجرى فى عروقها الدماء الملكية من ناحية الأب

والأم. ولعله كان يشعر بنقص من هذه الناحية فحاول أن يزجى لنفسه ألقابا ملكية فأطلق على نفسه « ملك من ابن ملك » محاولا بذلك الانتساب إلى سلسلة الفراعين ذوى الحق الشرعى (د. نجيب ميخائيل إبراهيم. مصر والشرق الأدنى القديم. جـ٢ ص٢٣). ولما كان الأمر كذلك، وبالكاد وصل إلى العرش فإنه لم يكن ليتجاوز ذلك ويدَّعى الألوهية كما هو ثابت فى حق فرعون موسى.

٤ – لم يَرِد أن تحتمس الأول مات ميتة فجائية أو غير طبيعية. بل مات ميتة عادية وخلفه ابنه تحتمس الثانى مستندا إلى زواجه من الوريثة الشرعية «حتشبسوت».

كل هذه النقاط توجب رفض هذه النظرية أيضا.

٣ – تحتمس الثانى هو فرعون موسى :

وهذا الرأى قال به ج دى ميسلى (J.de Micelli, 1960) الذى يدعى أنه توصل إلى تحديد زمن الخروج بهامش تقريبى يصل إلى يوم واحد وهو ٩ أبريل عام ١٤٩٥ ق.م! وهذا من خلال حساب التقويمات. وعلى ذلك يكون تحتمس الثانى – وكان ملكا فى هذا التاريخ – هو فرعون الخروج. ومما أورده تأييدا لنظريته أن مومياء تحتمس الثانى مكتوب عليها وصف لأورام جلدية. وبما أن واحدا من ضربات مصر التى تذكرها التوراة هى طفح جلدى فهذا فى رأيه دليل مادى على أن تحتمس الثانى هو فرعون الخروج! وفى رأينا أن هذا مثال للنظريات «أحادية النظرة» إذ تأخذ من حدث واحد أساسا لنظرية مع تجاهل باقى الأحداث ومدى توافقها مع هذا الافتراض حتى أن موريس بوكاى الذى ذكر هذا الرأى (دراسة الكتب المقدسة. ص٢٥٩) وصفه بأنه من أغرب الفروض وقال إنه لا يأخذ فى اعتباره مطلقا الأمور الأخرى فى رواية التوراة وخاصة بناء مدينة بى رعمسيس. تلك الإشارة التى تبطل كل فرض عن تحديد الخروج قبل أن يكون أحد الرعامسة قد ملك مصر.

أما فيما يتعلق بأورام تحتمس الثانى الجلدية فإن ابنه – تحتمس الثالث وحفيده أمنحتب الثانى كانا أيضا مصابين بأورام جلدية يمكن مشاهدتها على مومياواتهم بمتحف القاهرة. ويحدث هذا فى الأورام العصبية الليفية المتعددة التى تصيب الجلد (Multiple neuro fibromatosis) والمعروفة بظهورها فى أكثر من جيل فى العائلة.

٤ – تحتمس الثالث هو فرعون الخروج :

ومعتنقو هذه الفرضية يعتمدون على فقرة فى التوراة تقول: وكان فى السنة الـ ٤٨٠ لخروج بنى إسرائيل من مصر فى السنة الرابعة لملك سليمان على بنى إسرائيل فى شهر زيو هو الشهر الثانى أنه بنى البيت للرب (ملوك أول ٦:١). ولما كان حُكم سليمان قد بدأ عام ٩٧٠ ق.م. فالعام الرابع هو ٩٦٦ ق.م فإذا أضفنا إليها الـ ٤٨٠ سنة لعاد ذلك بنا إلى عام ١٤٤٦ ق.م أى فى أواخر حكم تحتمس الثالث (١٤٦٨ – ١٤٣٦ ق.م.).

والحقيقة أن فترة الـ ٤٨٠ عاما هذه قد أثارت جدلا كثيرا وسببت بلبلة فى حساب الأزمنة. وهى تختلف فى بعض ترجمات التوراة عما جاء فى ترجمات أخرى. فمنها ما يجعلها ٤٤٠ سنة فقط. ومنهم من يزيدها إلى ٥٨٠ عاما! وعلى هذا يرى كثيرون أن هذا الرقم كان تخمينا من أحد كتبة التوراة لأن هناك ١٢ جيلا تقع بين الخروج وبين بناء هيكل سليمان وافترض واضع هذا الرقم لكل جيل ٤٠ عاما فيكون ١٢×٤٠= ٤٨٠. ولو افترضنا لكل جيل ٢٥ عاما بافتراض أن الأبناء سيتزوجون فى سن الخامسة والعشرين وهو افتراض معقول لكان ١٢×٢٥= ٣٠٠ وهذا يقودنا إلى تاريخ للخروج فى عام ١٢٧٠ ق.م. أثناء حكم رمسيس الثانى.

ومعتنقو الفرضية أن تحتمس الثالث هو فرعون موسى يقولون إن موسى انتشلته من الماء الملكة حتشبسوت عام ١٥٢٧ ق.م. وأنه تربى فى حاشيتها وبلاطها. ولما تولى تحتمس الثالث العرش - ولما هو معروف عنه من عداوة لحتشبسوت فإن موسى خشى غضبته وفر من مصر. ثم عاد وكان الخروج فى عام ١٤٤٧ ق.م. وهذا الرأى يتعارض مع كثير من الحقائق مثل أن فرار موسى من مصر كان بسبب قتله للمصرى. كما أنه فى عهد تحتمس الثالث كان النفوذ المصرى قويا فى فلسطين إذ أن تحتمس الثالث أسس إمبراطورية واسعة وطيدة الأركان واستمر النفوذ المصرى قويا فى منطقة الشرق الأدنى وفى فلسطين بالذات أثناء حكم من خلفه من الفراعين: أمنحتب الثانى ٢٣ عاما - تحتمس الرابع ٨ أعوام - أمنحتب الثالث ٣٧ عاما أى لمدة ٦٨ عاما. فلم يكن باستطاعة بنى إسرائيل بعد فترة التيه أن يضعوا قدما واحدة فى أرض فلسطين. وحتى إن كان النفوذ المصرى قد ضعف قليلا أيام حكم أخناتون فإنه عاد ثانية بعد انتهاء ثورته الدينية وبلغ أوجه ثانية أيام سيتى ورمسيس الثانى.

زد على ذلك أن تحتمس الثالث لم يدَّع الألوهية بعكس فرعون موسى الذى قال **«أنا ربكم الأعلى»**. كان تحتمس الثالث على درجة عالية من الأخلاق والتواضع. يقول عن نفسه: إنى لم أنطق بكلمة مبالغ فيها ابتغاء الفخر بما عملته فأقول إنى فعلت شيئا دون أن يفعله جلالتى. ولم آت بعمل فيه مظنَّة. وقد فعلت ذلك لوالدى الإله آمون لأنه يعرف مافى السماء ويعلم مافى الأرض ويرى كل العالم فى طرفة عين (سليم حسن. مصر القديمة. جـ٤ ص ٥١١). وكان تحتمس الثالث رجل حرب قضى كثيرا من سنوات عمره فى ميادين القتال وليس أدل على تواضعه من أنه لم يُرجع الفضل فى انتصاراته إلى مهارته وبسالته بل أرجعها كلها إلى تأييد إلهه آمون كما تشهد بذلك اللوحة التى أمر بإقامتها فى معبد الكرنك وكتب عليها قصيدة على لسان الإله آمون مخاطبا ابنه تحتمس الثالث فيقول له (مع اختصارها):

إن قلبى ينشرح لمجيئك الميمون إلى معبدى. ويداى تمنحان أعضاءك الحماية والحياة. إنى أمنحك القوة والنصر على كل البلاد الجميلة. وإنى أُمكِّن مجدك والخوف منك فى كل البلاد. والرعب منك يمتد إلى عمد السماء الأربعة. إنى أجعل احترامك عظيما فى كل الأجسام.

وعظماء جميع البلاد الأجنبية جميعهم فى قبضتك. وإنى بنفسى أمدّ يدى وأصطادهم لك وأربط الأسرى بعشرات الألوف. إنى أجعل الأعداء يسقطون تحت نعليك فتطأ الثائرين. كما أمنحك الأرض طولا وعرضا فأهالى المغرب وأهالى المشرق تحت سلطتك. إنك تخترق كل البلاد الأجنبية بقلب منشرح. وأينما حللتَ فليس هناك من مهاجم. وإنى مرشدك ولذلك تصل إليهم. وعندما يسمعون نداء إعلان الحرب يلجأون إلى الجحور. لقد أرسلت رعب جلالتك سارياً فى قلوبهم. والصل الذى على جبهتك يحرقهم بلهيبه ويقطع رؤوس الأسيويين ولا يفلت منه أحد بل يسقطون. إنى أجعل انتصاراتك تنتشر فى الخارج فى كل البلاد. لقد عملت على كبت من يقوم بغارات ومن يقترب منك. لقد حضرتُ لأجعلك تتمكن من أن تدوس بالقدم عظماء فينيقيا ولأجعلك تشتت شملهم تحت قدميك. لقد حضرت لأمكنك من أن تطأ أولئك الذين فى آسيا. وتضرب رؤساء عامو. لقد حضرت لأجعلك تطأ بالقدم الأرض الشرقية ولأجعلهم يشاهدون جلالتك مثل النجم الذى ينشر لهيبه كالنار. لقد حضرت لأجعلك تتمكن من أن تطأ الأرض الغربية. وهؤلاء الذين فى وسط المحيط فى الجزر وأن تطأ اللوبيين. لقد حضرتُ لأجعلك تطأ أقصى حدود الأرض.

يا أيها الثور القوى الذى يسطع فى طيبة. «تحتمس» المخلد الذى عمل لى كل ماتتوق إليه نفسى. لقد أقمتَ لى مسكنا وهو عمل سيبقى إلى الأبد. وجعلته أطول وأعرض مما كان عليه من قبل. إنى لأثبتك على العرش مدة آلاف آلاف السنين حتى ترعى الأحياء إلى الأبد.

وهذه القصيدة تبين تواضع تحتمس الثالث واعترافه بفضل الإله «آمون» عليه فى انتصاراته. فهو ليس ذلك المتكبِّر. المتجبر. مُدَّعى الألوهية. كما هو الحال مع فرعون موسى.

٥ - أمنحتب الثانى هو فرعون الخروج :

وهو تحوير بسيط فى الفرضية السابقة إذ يزيد من فترة غياب موسى ويجعله يعود أثناء حكم أمنحتب الثانى. وهذا الرأى قال به دانييل روبس Daniel Rops فى كتابه شعب التوراة Le peuple de la Bible . ولسنا فى حاجة للإطالة فى نقض هذه الفرضية إذ هى واهية كسابقتها.

٦ - أخناتون هو نفسه موسى ! :

وهذه إحدى الفرضيات «أحادية النظرة» إذ مادام أخناتون دعا إلى التوحيد وموسى كان أيضا يدعو إلى التوحيد فهما شخص واحد!! وقائل هذا الرأى الغريب هو الأستاذ أحمد عثمان وهو مصرى سافر إلى إنجلترا عام ١٩٦٤ ودرس المصريات وأقام هناك. وألف كتابين: مضمون الأول أن يويا المصرى هو نفسه «يوسف» عليه السلام. والثانى نشره عام ١٩٨٩ شرح فيه نظريته من أن أخناتون هو نفسه موسى عليه السلام واختار له عنوانا جذابا هو:

Moses, Pharaoh of Egypt. The mystery of Akhenaten resolved. وبالرغم من وضوح

فساد هذا الزعم فلا بأس من إيراد التصور الذى أورده كاتبه لبيان كيف يجنح الخيال بالبعض فيجعلهم يضعون تصورات غاية فى الغرابة ويجعلنا نتساءل عن الدافع وراء كل هذا الافتعال.

يقول صاحب هذه الفرضية إن موسى قد أمضى طفولته فى شرق الدلتا حيث تأثر بمعتقدات بنى إسرائيل عن الإله وتشبع بها. ثم عاد إلى طيبة عاصمة مصر ومركز عبادة آمون وكان والده أمنحتب الثالث قد تدهورت صحته. وكان موسى هو الابن الثانى لأمنحتب الثالث من الملكة «تى» التى يقول إنها نصف مصرية ونصف إسرائيلية! وأن الابن الأول لأمنحتب الثالث قد اختفى بطريقة غامضة. ومن هنا تخوَّفت الأم أن يصيب ابنها الثانى الذى هو موسى – مكروه من كهنة آمون. ويرى أن كهنة آمون خافوا مغبة اعتلاء العرش شخص غير نقى الدماء المصرية تماما أما وأبا. ورأى أمنحتب الثالث مايتهدد العرش من غضب كهنة آمون فشايعهم فى عدم تولى هؤلاء الأبناء العرش بل وأوحى إلى القابلات بقتل ابن الملكة إن كان ذكرا. ولما وُلد الابن الثانى – الذى هو موسى – ألقته أمه فى النهر حيث سار به التيار من طيبة إلى أرض جوشن حتى التقطته أسرة من بنى إسرائيل وتربى معها وتأثر بأفكار الإسرائيليين التوحيدية ولما ضعفت صحة أمنحتب الثالث استدعت الملكة «تى» ابنها من الأسرة الإسرائيلية التى التقطته. ولكى تكسبه صفة لولاية العرش زوجته من أخته غير الشقيقة «نفرتيتى» فهى ابنة أمنحتب الثالث من زوجة مصرية وتولى موسى عرش مصر باسم أمنحتب الرابع ثم قام بثورته الدينية. وأعلن عن فكر التوحيد وحرَّم عبادة آمون وجميع الآلهة الأخرى. وتآمر عليه كهنة آمون. وأخبره الكاهن «آى» بالمؤامرة ونصحه بالهرب إلى سيناء وتولى توت عنخ آمون العرش ثم الكاهن «آى» ثم «حورمحب» ثم بدأت الأسرة التاسعة عشرة وتولى رمسيس الأول العرش. وهنا عاد موسى ليطالب بحقه فى العرش. ولما لم يفلح فى ذلك طلب من رمسيس الأول أن يسمح له بخروج بنى إسرائيل من مصر تحت إمرته.

وهذه الفرضية المغرقة فى الخيال مبنية على لخبطة الأوراق وقلب الأوضاع. فالأب المصرى هو الذى يوحى بقتل ابنه أو يوافق الكهنة على فعلهم. والأم المصرية ألقت ابنها فى النهر. والتيار يسير به حوالى ١٠٠٠ كم من طيبة حتى أرض جوشن. وأسرة إسرائيلية هى التى تلتقطه وتتبناه. والفرعون – الذى هو أخناتون – يهرب من مصر ثم يعود ليطالب بالعرش!

والهدف السياسى وراء كل هذا الافتعال غير خاف. فمادام موسى هو أخناتون. وأخناتون حكم مصر ١٧ سنة فإن لبنى إسرائيل حقوقا فى مصر. ليس لأن موسى عاش بها. بل لأنه حكمها!!

٧ – توت عنخ آمون هو فرعون موسى :

القائل بهذا الرأى هو العالم اليهودى سيجموند فرويد الذى ادعى أيضا أن موسى مصرى وليس من بنى إسرائيل وأن الديانة الموسوية مستقاة من عقيدة أخناتون (سيجموند فرويد –

موسى مصريا – ترجمة محمد العزب موسى). يقول: إن موسى كان أحد الأمراء المصريين المقربين من أخناتون ولكن لما حدثت الرِدَّة بعد أخناتون تم استبعاد موسى. ولما انهار أمله فى حكم بلاده أراد أن يوجد لنفسه دورا ما كزعيم. فتزعم بنى إسرائيل وأعطاهم دينا جديدا استقاه من عقيدة أخناتون التوحيدية. ثم قاد بنى إسرائيل للخروج من مصر خروجا سلميا – ليس فيه مطاردة – إلى أرض فلسطين التى كان النفوذ المصرى قد انحسر عنها أيام أخناتون لانشغاله بأفكاره الدينية. وكان الخروج فى عهد توت عنخ آمون. ويقول چون ويلسون المؤيد لهذه النظرية إن موسى انتهز فرصة الضعف الذى ساد أخريات أيام أخناتون وعهد خليفتيه الضعيفين: «سمنخ كارع» و «توت عنخ آمون» ونجح فى الخروج ببنى إسرائيل من مصر وذلك بأن خادعوا الفرعون وهربوا إلى صحراء سيناء. ويوافق على هذه الفرضية آرثر ويجال (تاريخ مصر القديمة. باريس. ص ١٤٦. A. Weigal, 1986) ويحدد تاريخ الخروج بالعام ١٣٤٦ ق.م ويرى أنه تم فى آخر عهد توت عنخ آمون. كذلك يرى المؤرخ ويتش (حضارة الشرق الأدنى. ص٨٨. E.H. Weech) أن موسى وقد أمضى طفولته وصباه وشبابه فى قصر أخناتون. فقد عرف هذه العقيدة وآمن بها. فاستقى منها الديانة التى أعطاها لبنى إسرائيل.

وهذه النظرية أيضا تتجاهل حقائق تاريخية كثيرة مثل سابقتها:

١ – أن موسى من بنى إسرائيل وليس مصريا – وإن كان قد تربى فى قصر الفرعون.

٢ – تتجاهل التعذيب الذى نزل ببنى إسرائيل. إذ أن طبيعة أخناتون المسالمة لا تتفق مع ذلك. فضلا عن بُعد مكان إقامتهم فى شرق الدلتا عن العاصمة التى عاش فيها أخناتون. طيبة فى أول أيامه ثم بعد ذلك فى عاصمته الجديدة فى تل العمارنة.

٣ – مما لا يعقل أن يقبل شعب أن ينصِّب على نفسه زعيما وقائدا من جنس آخر. إلا أن يكون مفروضا عليهم بالقوة – أو ارتضوه حتى يخرج بهم من مصر وما إن يتم لهم الخروج حتى يكون من الطبيعى أن ينتقضوا عليه برئيس من بنى جنسهم.

٤ – إن التوحيد كان عقيدة بنى إسرائيل أخذاً عن يعقوب أبيهم وإبراهيم جدهم والأخناتونية وإن كانت فى نظر المصريين توحيداً إلا أنها فى نظر بنى إسرائيل رِدَّة عن التوحيد لتجسيدها الإله فى قرص الشمس (الجزء الثالث ص٥٨٥).

٥ – تدعى هذه النظرية أن الخروج تم بسلام وبدون مطاردة فى حين أن الثابت فى الكتب المقدسة هو أن الفرعون الذى طارد موسى قد مات غرقا. وقد أثبت الفحص الطبى لجثة توت عنخ آمون أنه مات مقتولا بضربة على الرأس (جـ٣. ص ٥٩٢).

٦ – لو كان بنو إسرائيل قد خرجوا من مصر فى عهد توت عنخ آمون واستقروا فى فلسطين لكان حريًا بحور محب وسيتى الأول أو رمسيس الثانى القضاء عليهم فى حملاتهم

لاسترداد النفوذ المصرى فى منطقة الشرق الأدنى أو على الأقل كانوا قد أخضعوا الولايات اليهودية فى فلسطين للنفوذ المصرى، الأمر الذى لم يتحدث به أحد. ولم يحدث أصلا إذ أن بنى إسرائيل لم يكونوا قد خرجوا بعد من مصر. ولما رأى فرويد المعارضة الشديدة لنظريته هذه تراجع عنها وقال إنه من المحتمل أن موسى قد عاش فى عصر لاحق لأخناتون وتوت عنخ آمون!!

ويحق لنا أن نتساءل: كيف يتأتى لعالم مثل فرويد أن يقول بهذا الرأى، وتزول الغرابة إذا علمنا هويته اليهودية. إذ مادام موسى مصريا فإن لبنى إسرائيل حقوقا تاريخية فى مصر! وهذا هو الهدف السياسى الذى يرمى إليه كما فعل سلفه يوسف ابن متى عندما زعم أن الهكسوس الذين حكموا مصر هم أنفسهم بنو إسرائيل.

٨ – حور محب وأربعة فراعين آخرين. أي خمسة !!

يقول نيكولاس جريمال (Nicolos Grimal, A History of Ancient Egypt 1997, Blackwell, P 259) إن موسى تلقى تعليمه فى سنواته الأولى فى قصر الفرعون حورمحب ورمسيس الأول، ثم عرف أنه من بنى إسرائيل وانضم إليهم فى عهد «سيتى الأول». ثم فر من مصر إلى مدين بعد مقتل المصرى. ثم كان تلقيه الوحى والرسالة والأمر بالعودة إلى مصر فى السنوات الأولى من حكم رمسيس الثانى. ثم هو يوافق على ما يقوله كثير من المؤرخين من أن فرعون الخروج هو مرنبتاح.

ولو فرضنا أن حور محب قد تبنى موسى فى منتصف مدة حكمه ورباه ١٣ عاما يضاف إليها سنتان مدة حكم رمسيس الأول + ٢٠ عاما سيتى الأول + ٦٧ عاما مدة حكم رمسيس الثانى + ١٠ سنوات حكم مرنبتاح فيكون عمر موسى عند الخروج ببنى إسرائيل هو ١١٢ عاما فإذا أضفنا إليها سنوات سيناء ثم التيه ٤٠ عاما ثم المسيرة حول أرض أدوم لبلغ عمر موسى عند وفاته حوالى ١٧٠ عاما فى حين أن عمر موسى لم يزد عن ١٢٠ عاما.

٩ – رمسيس الثانى هو فرعون موسى :

وأصحاب هذا الرأى كثيرون، منهم: أولبرايت – إيسفلت – روكسى – أونجر – الأب ديفو R.P. de Vaux . ويتفق هذا الرأى مع حقيقة مكان معيشة بنى إسرائيل فى أرض جاسان وعاصمة رمسيس الثانى الجديدة فى الشمال التى تتيح إلتقاط موسى من النهر. كما تحقق تسخير بنى إسرائيل فى بناء مدينتى بى رعمسيس وفيثوم المذكورتين فى التوراة. وأكثر ما يثير الدهشة هو أن الأب ديفو – وهو مدير مدرسة الكتاب المقدس ويؤمن بأن الفرعون قد مات غرقا وهو يطارد الهاربين. ثم يعود فيقول إن الخروج قد حدث فى النصف الأول من حكم رمسيس الثانى. مع أن غرق الفرعون يعنى نهاية حكمه لا منتصفه. والحقيقة أن هذه النظرية –

أن فرعون موسى هو رمسيس الثانى – تتفق مع كثير من النقاط التى يجب توافرها فى ذلك الفرعون. إلا أن عدة عقبات حالت دون القبول التام لهذه النظرية:

١ – العقبة الأولى من التوراة: وهو ما جاء بسفر الخروج ٢٣:٢ «وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات» إذ معناها أن الفرعون (رمسيس الثانى) قد مات وتولى ابنه «مرنبتاح» العرش. وفى رأينا أنهم اضطروا لهذا القول لسببين.

أ – أن يتمشى ذلك مع عمر موسى الذى قرروه فى إصحاح ٧ خروج: ٧: وكان موسى ابن ثمانين سنة وهارون ابن ثلاث وثمانين سنة حينما كلَّما فرعون. ولما كان موسى قد فر من مصر وعمره ٤٥ سنة كان معنى ذلك أنه أمضى فى مدين ٣٥ سنه. وهى مدة طويلة جداً لا يستقيم معها أن يفكر موسى بعد ذلك فى العودة إلى مصر. ويكون بنو إسرائيل فى هذه الفترة قد نسوا بطلهم ولا يعود لهم الحماس لقيادته لهم بعد أن غاب عنهم هذه الفترة الطويلة.

ب – أنهم أيضا قالوا بموت الملك حتى يتمشى مع ماجاء بالإصحاح خروج ١٩:٤ «وقال الرب لموسى فى مديان. اذهب ارجع إلى مصر لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك» والواقع أن كلمة «جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك» لا تعنى فرعون بقدر ما تعنى أهل المصرى القتيل. فهم الذين كانوا يطلبون نفس موسى وكان الفرعون ينفذ طلبهم بالثأر لهم والأخذ بدمهم. فلما ماتوا لم يعد لدى الفرعون دافع قوى. وفى رأينا أن الفقرة ٢٣ من الاصحاح ٢ خروج كانت «وحدث فى تلك الأيام أن القوم الذين كانوا يطلبون نفس موسى ماتوا» وليس «ملك مصر مات».

٢ – العقبة الثانية من الآثار المصرية وهى اللوحة المعروفه باسم «لوح إسرائيل» أو «لوح مرنبتاح» والذى كتب على الأرجح فى العام ١٢٢٠ ق.م وفيه يقول مرنبتاح إنه قد أباد بذرة إسرائيل من فلسطين. ولما كان الخروج قد حدث فى العام ١٢٢٥ ق.م. فهذا لا يترك فترة بين الخروج من مصر ودخول أرض فلسطين سوى ٥ سنوات. وهذا ما جعل كثيراً من المؤرخين – وخاصة الإسلاميين يرفضون الرأى القائل بأن رمسيس الثانى هو فرعون الخروج لأن القرآن الكريم ينص صراحة وبوضوح على أن فترة التيه هى أربعون سنة. ولم يتصد أحد لتفسير ماجاء بلوح مرنبتاح تفسيرا يسمح بفترة التيه وهى أربعون سنة. كما لم يفطنوا إلى ماقد يكون فى هذا اللوح من مبالغة. وهو أمر مألوف لدى الفراعين عند تسجيلهم لما قاموا به من أعمال وخاصة نتائج حروبهم. بل تشبثوا بحرفية ماجاء فى هذا اللوح وسنناقش ذلك بتفصيل أكثر فيما بعد.

٣ – كذلك كان من الاعتراضات التى أثيرت ضد نظرية أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى قولهم إن فرعون موسى ادعى الألوهية فى حين أن رمسيس الثانى كان يؤمن بأربعة آلهة هم «آمون ورع وبتاح وسوتخ». وسمى فرق جيشه الأربع فى معركة قادش بأسماء هذه

الآلهة (الدكتور محمد وصفى. الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل. ص ١٥٤).
ويمكن الرد على هذه النقطة بأن معركة قادش كانت فى السنة الخامسة من حكم رمسيس الثانى. فى حين أن عودة موسى لمصر كانت فى السنة ٦٢ من الحكم أى بعد معركة قادش بـ ٥٧ عاما وهى فترة طويلة من الحكم المطلق والمديح المستمر من وزرائه ورجال البلاط ومن الشعب. وتمجيد لأفعاله ولابد أن كل ذلك قد أحدث أثره. وخاصة أنه كان عنده نزعة تعاظمية منذ صغره فكان أن نتج عن ذلك شعور بالكمال وظن نفسه مخلداً كالآلهة وانتهى به الأمر أن ادعى الألوهية.

٤ – وكان آخر الاعتراضات التى أثيرت ضد هذه النظرية ما هو معروف من أن رمسيس الثانى كان له مالا يقل عن مائة ولد مابين ذكر وأنثى. إذ لم يستطيعوا التوفيق بين ذلك وما ورد فى القرآن الكريم من أن فرعون موسى لم يكن له ولد فاضطر إلى تبنى موسى **«عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً»**.. وفهموا من هذه الآية أن فرعون موسى كان عقيما. وسنشرح فيما بعد (ص ٧٠٢) أن التبنى لم يكن بسبب عقم الفرعون أو عقم نسائه. بل كان حرمانا مؤقتا من الولد بوفاة الأبناء وهم صغار حتى تنفذ إرادة الله فى تبنى الفرعون لموسى. ثم بعد ذلك زالت هذه «اللعنة» وعاش أبناؤه حتى بلغوا أكثر من مائة. وقد ثبت أن رمسيس الثانى – فى العشر سنوات الأولى بعد زواجه – كان أبناؤه يموتون وهم رُضَّع. وهذا هو سبب قبوله لتبنى موسى.

المهم أن أصحاب نظرية أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى لم يستطيعوا الدفاع عن رأيهم فكان أن رضخوا لافتراض آخر هو :

١٠ – رمسيس الثانى فرعون التسخير ومرنبتاح فرعون الخروج :

وأصحاب هذا الرأى يعتقدون أن خروج بنى إسرائيل من مصر كان خروجا سلميا ليس فيه مطاردة. وأن مرنبتاح تعقبهم بعد أن وصلوا فعلا إلى فلسطين. ويعبر عن هذا الرأى ما يراه «چان يويوت» (مصر الفرعونية. مترجم. القاهرة ١٩٦٦ ص ٤٠) من أن بنى إسرائيل انتهزوا فرصة انشغال جيش مصر فى صد غزوة الليبيين لحدود مصر الغربية فى السنة الخامسة من حكم مرنبتاح فهربوا من مصر. ثم بعد أن فرغ مرنبتاح من حربه مع الليبيين جرد حملة إلى فلسطين وأباد بنى إسرائيل هناك.

ويعتمد أصحاب هذه النظرية على عدة نقاط:

١ – ما ورد فى التوراة (خروج ٢٣:٢) من أن ملك مصر قد مات. أى أن رمسيس الثانى مات وتولى الحكم بعده ابنه مرنبتاح. وقد ذكرنا فى الصفحة السابقة أن المفهوم الآخر الوارد فى الإصحاح ٩:٤ هو الأقرب للصحة وأن من مات حقيقة هم أقارب المصرى الذى قتله موسى لا الفرعون.

٢ – كذلك قالوا إن مرنبتاح هو القائل: **«ألم نربك فينا وليدا»** مشيرا بذلك إلى والده رمسيس الثانى الذى ربى موسى. وإن كان يُرَدُّ على ذلك بالسؤال: ولم لا يكون رمسيس الثانى نفسه هو قائلها؟ ويكون هو الذى يمن على موسى بحق الرباية. كما أن الأكثر إيلاما للنفس والأدعى إلى الحزن هو أن يرى من كان يربيه ويرجو المنفعة من ورائه «عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً» هو نفسه الذى كان سببا فى هلاكه فكأنه التقطه ليكون له عدوا وحزنا. كما قرر القرآن الكريم: **«فالتقطة آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا. إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين»** (٨ – القصص) وبالرغم من كل أسباب الحيطة والحذر الذى اتخذها رمسيس الثانى دفعا للنبوءة فقد تحققت النبوءة وكان هلاك الفرعون وجنوده. **«ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون»**. وهذا أبلغ فى العبرة من أن يكون الذى سخر وتكبر وتجبّر قد مات فى سريره ميتة طبيعية فى حين يكون الغرق من نصيب ابنه. وخاصة أن مدة حكم رمسيس الثانى الطويلة تسمح بوقوع كل الأحداث فى عهده. وتكون الآية بلفظ البحر لجثته تمثيلا به لأفعاله **«فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية»** (٩٢ – يونس).

٣ – إلا أن السند الأساسى لهذه النظرية هو اللوح المسمى **«لوح مرنبتاح»** أو **«لوح إسرائيل»**. وقد ذكرناه باختصار فى سياق الاعتراضات التى أثيرت ضد نظرية رمسيس الثانى فرعونا للتسخير والخروج معا. ومن المناسب أن نتوسع قليلا فى ذكر شيىء عن هذا اللوح مادام هو السند الأساسى لنظرية «مرنبتاح فرعون الخروج».

هذا اللوح عبارة عن لوحة تذكارية منقوشة على الجرانيت الأسود (شكل ١٢١) مكتوب عليها قصيدة تسجل انتصار مرنبتاح على الليبيين. واللوح محفوظ بالمتحف المصرى. ومن يريد القصيدة كاملة يمكنه الرجوع إلى كتاب مصر القديمة (سليم حسن) جـ٧ ص٩٦. والقصيدة فى مجموعها فخار بالنصر العظيم الذى أحرزه الملك على الليبيين فى السنة الخامسة من حكمه وبه نجت مصر من خطر عظيم. والقصيدة تزخر بالاستعارات والتشبيهات المختارة مما أسبغ عليها صورة أدبية أكثر من أن تكون وثيقة تاريخية خالصة. وقد وصف فيها الشاعر هزيمة الأعداء بمهارة والأعمال الجسام التى قام بها «مرنبتاح». للذود عن حياض بلاده وتخليصها من غارات الليبيين وكسر شوكتهم. ولم يفته أن يصف الفرعون بالعدل والاستقامة فيقول: فهو يعطى كل ذى حق حقه. فالثروة تتدفق على الرجل الصالح. أما المجرم فلن يتمتع بغنيمة ما. ثم ينتقل الشاعر إلى وصف السلام والطمأنينة والرخاء التى سادت البلاد بعد هذا الانتصار فيقول: فحتى الحيوان قد ترك جائلا بدون راع فى حين أن أصحابها يروحون ويغدون مغنيين. وليس هناك صياح قوم متوجعين. وفى ختام القصيدة يُعدِّد الشاعر القبائل والأقاليم التى أخضعها مرنبتاح وهذا نصها – لأن هذا الجزء هو بيت القصيد:

شكل ١٢١ – لوح مرنبتاح أو « لوح إسرائيل » .

ويقول الرؤساء المطروحين أرضا: السلام! ولم يعد يَرفع واحد من بين قبائل البدو تسعة الأقواس رأسه (وهذا اسم قديم لجيران مصر المعادين لها).

«التحنو» قد خربت (إحدى القبائل التى كانت تسكن ليبيا).

وبلاد «خاتى» قد أصبحت مسالمة.

وأزيلت«عسقلان».

و«جازر» قبض عليها.

و«بنوم» أصبحت لا شيىء.

وإسرائيل خربت وليس لها بذر.

و«خارو» أصبحت أرملة لمصر.

وكل الأراضى قد وجدت السلم.

وكل من ذهب جائلا أخضعه ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ابن «رع» محبوب «آمون» ابن الشمس «مرنبتاح» منشرح بالصدق.
معطى الحياة مثل «رع» كل يوم.

وأهمية هذه القصيدة فى نظر المؤرخين هى ذكر قوم بنى إسرائيل وبخاصة لأنها المرة الأولى والوحيدة التى يأتى فيها ذكرهم بالاسم فى الآثار المصرية. ولما كان بنو إسرائيل قد بدأوا إقامتهم بمصر أيام يوسف ولم يذكر عن ذلك شيىء فى الآثار المصرية. فإن ذكر اسمهم هنا لابد له علاقة بخروجهم من مصر. وقد اختلف العلماء حول مايفهم من هذه العبارة.

فبعضهم مثل پترى (Petrie, Israel in Egypt, p.35) يرى أن إسرائيل كانوا فى الوقت الذى كتبت فيه هذه اللوحة فى فلسطين.

أما الأستاذ ناڤيل (Naville, Archeology of the Old Testament) فيرى أن اللوحة تدل على أن بنى إسرائيل قد خرجوا من مصر قبل «مرنبتاح» أو فى أوائل حكمه. ولكن هذا الافتراض الأخير يتنافى مع الحقيقة المؤكدة وهى أن فرعون الخروج غرق أثناء مطاردته لبنى إسرائيل. فلا يمكن أن يكون الخروج حدث فى أوائل حكم مرنبتاح بل يكون قد حدث فى أواخر حكم رمسيس الثانى الذى غرق أثناء مطاردتهم. وهكذا نرى أن لوح مرنبتاح الذى اتخذوه دليلا لمعارضة نظرية - رمسيس الثانى هو فرعون الخروج - فى الحقيقة هو دليل على صحتها. نقطة ثانية يقولها ناڤيل ذلك أنه لا يعتقد أن الإشارة إلى سوريا فى اللوحة تشير إلى حرب حقيقية وقعت فى سوريا. والحقيقة أنه لا يوجد مايدل على أن مرنبتاح قد قاد أو سيَّر حملة إلى سوريا. كما أن ما ذُكر من أن «بلاد» خاتى» أصبحت مسالمة - هو - كما يقال - من قبيل

تحصيل الحاصل لأنها كانت مسالمة منذ المعاهدة التى وقعها والده رمسيس الثانى مع ملكها ويكون ذكر ذلك على أنه من أعمال مرنبتاح هو مبالغة من مبالغات الفراعين التى اشتهروا بها عند تدوين سجل أعمالهم. ولعله أراد الإشارة إلى أنه لم يهمل الجبهة الشرقية وكانت له فيها انتصارات كما أحرز الانتصارات فى الغرب على الليبيين.

ويذكر سليم حسن عالم المصريات (مصر القديمة. جـ٧ ص١١١) أن علماء الآثار واللغة قد ترجموا الجملة التى وردت عن إسرائيل **«وليس لها بذر»** على وجهين بعضهم قال إن محاصيلهم قد ذهبت أو ليس لهم غلة. والأصح الوجه الآخر كما قال پرستد: وإسرائيل قد أقفروا وبذرتهم قد انقطعت أو كما قال ناڤيل: وإسرائيل قد مُحى وبذرته لا وجود لها. والواقع أن كلمة «بذرة» تدل على «الخَلَف». وفى الدول العربية للآن نجد أنهم يستعملون كلمة «بذرة» بمعنى «النسل» أو «الأولاد». وسؤال شائع لديهم: كيف حال البذور؟ ويقال لمن لا نسل له «لقد انقطعت بذرته».

كذلك ذكر العالم سليم حسن أن جميع البلاد التى ذكرت: خاتى – جازر – عسقلان وغيرها أُلحق بكل منها رسم مخصص يدل على أنها بلاد أجنبية أما اسم إسرائيل فقد كان الاسم الوحيد الذى استثنى من هذا الرسم وهو ما يعنى أنه لم يكن لبنى إسرائيل فى ذلك الوقت «أرض محددة» وكان الرسم الذى ألحق باسم إسرائيل هو صورة رجل وإمرأة دلالة على أنهم مجرد جمع من الناس وليسوا «دولة» مما يدل على أن الشاعر الذى تغنى بانتصار «مرنبتاح» وصاغ هذا النشيد كان يعنى أن بنى إسرائيل يومئذ لم يكن لهم مكان محدد فى أرض فلسطين. ولا سبيل إلى التشكيك فى طريقة كتابة القصيدة بما يقال من احتمال خطأ الكاتب المصرى القديم وسهوه. فقد كان واعيا لما يكتب وأورد أسماء الشعوب والبلاد الأجنبية فى ذلك النص ١٩ (تسعة عشر) مرة لم يغفلْ رسم رمز الأرض الأجنبية فى واحدة منها سواء ماسبق اسم إسرائيل أو ما ورد بعده. ويخلص من ذلك إلى أن أنشودة النصر هذه تشير إلى طائفة من «بنى إسرائيل» كانت فى بعض بقاع فلسطين أو تخومها حين خرج مرنبتاح لقمع ثورة هناك. وهذا يعنى أنهم قد خرجوا من مصر قبل عهده. كما يرى الدكتور عبد العزيز صالح (الشرق الأدنى القديم جـ١ ص٢٥٥) أن لوح مرنبتاح قد اعتبر «إسرائيل» من «نزلاء» فلسطين ولم يذكر تتبعه لهم من مصر وذلك يعنى أنهم دخلوا فلسطين قبل عهده أى أنهم خرجوا من مصر قبل عهده أى فى أواخر عصر رمسيس الثانى.

وهنا تبرز **مشكلة سنوات التيه**. إذ الثابت دينيا أن بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر لم يتوجهوا مباشرة إلى فلسطين بل أمضوا أربعين سنة فى التيه فى سيناء ثم بعد ذلك توجهوا إلى أرض فلسطين. فإذا افترضنا سنة قبل التيه وسنة بعده للإعداد لدخول الأرض لكان المجموع ٤٢ سنة وفى أثنائها كان قد توفى ستة من الفراعنة :

مرنبتاح	....	حكم	١٠	سنة
سيتى الثانى	..	..	٦	سنة
آمنموس	..	..	١	سنة بوصاية باى
سابتاح مرنبتاح	..	..	٦	سنة
الملكة تاوسرة	..	حكمت	٨	سنة
ست نخت	..	حكم	١	سنة
			٤٢	سنة

أى أن بنى إسرائيل لما بدأوا دخول أرض فلسطين كان رمسيس الثالث هو فرعون مصر. أما قبل ذلك فلم يكن لهم وجود فى فلسطين. فكيف يحق لمرنبتاح أن يذكر فى أنشودة النصر: «وإسرائيل خربت وليس لها بذر» أو كما ترجمت: وقد أبدت بذرة إسرائيل؟

بعض العلماء الذين يتمسكون بنظرية «مرنبتاح فرعون الخروج» يُسقطون سنوات التيه من حسابهم وينكرونها ويقولون إن بنى إسرائيل توجهوا لفسلطين بعد خروجهم من مصر فى آخر حكم رمسيس الثانى وأن مرنبتاح قد طاردهم هناك و«أباد بذرتهم فعلا». ويستدلون على قوة النفوذ المصرى فى فلسطين أيام حكم مرنبتاح بعثور الأثريين على إناء مكسور عليه كتابة مصرية لأحد جباة الضرائب المصريين فى بلدة «لخيش» فى فلسطين وقد سجَّل فيها تسلمه لشحنة من القمح فى السنة الرابعة من حكم مرنبتاح. كما يرى البعض (د. محمد بيومى مهران. مصر والشرق الأدنى القديم. جـ٣ ص٥٠٠) أن السيادة المصرية على فلسطين فى ذلك الوقت كانت من القوة بحيث لا تتيح لجموع بنى إسرائيل – غير المسلحين بأى أسلحة – دخول أرض فلسطين أصلا فلا محل للقول بأن بنى إسرائيل كانوا قد استقروا فى فلسطين لبعض الوقت ثم ذهب مرنبتاح وأباد بذرتهم وأعاد النفوذ المصرى إلى فلسطين ثانية.

ويَجُبّ هذا كله أن سنوات التيه ثابتة لورودها فى القرآن الكريم وفى التوراة أيضا فلا محل لإسقاطها أو إنكارها، ومادام الأمر كذلك كيف تسنى لمرنبتاح أن يذكر فى اللوح أنه أباد بذرة إسرائيل فى حين أنهم كانوا لايزالون فى التيه فى سيناء؟ والجواب هو فى أحد **الاحتمالات التالية:**

١ – أنه ذهب إلى فلسطين ووجد بعضا من «العابيرو» – وهم كما ذكرنا أقرباء لبنى إسرائيل وفرع منهم – فأبادهم. وظن أو ادعى أنه أباد بنى إسرائيل.

٢ – أنه ذهب إلى فلسطين ولم يجد بنى إسرائيل وبحث عنهم فى أنحاء فلسطين فلم يجدهم فاعتقد أنهم هلكوا فى الصحراء ونسب هلاكهم إلى نفسه.

٣ – الاحتمال الثالث هو أن مرنبتاح لم يقد أو يرسل حملة إلى فلسطين إطلاقا. وأنه كما نسب السلام مع «خاتى» لنفسه فقد أراد أن يؤكد أنه لم يقل عن سلفه فى اهتمامه بأملاك مصر فى آسيا. فكان أن ضمَّن نصره على الليبيين نصرا فى الشرق أيضا، فأضاف خاتى وجازر وعسقلان وبالمثل كانت إضافته لاسم إسرائيل وكان ذلك أسهل إذ أنهم لم يكونوا دولة بل قوما بدون أرض كما هو واضح من طريقة ذكرهم فى «لوح إسرائيل».

٤ – ويقول الدكتور محمد بيومى مهران (مصر والشرق الأدنى القديم جـ٣ ص٥٠٦): إن لوح مرنبتاح قد حدد البعض تاريخ كتابته بالعام الخامس من حكم مرنبتاح. وحملة مرنبتاح على سوريا كانت فى العام الثالث لحكمه وبما أن الثابت أن الفرعون قد غرق أثناء مطاردته لبنى إسرائيل كان معنى ذلك أن هذا اللوح قد كتب بعد غرق الفرعون وكتبه خَلَفه تخليدا لذكرى انتصاره على الليبيين. وأضاف إليهم «بذرة إسرائيل قد أبيدت» كنوع من الافتخار الكاذب إذ كيف يتأتى للفرعون وقد غرق أثناء مطاردتهم أن يدعى أنه أبادهم؟

ومادام الافتخار الكاذب قد وُضع فى الاحتمالات فلماذا لا يكون كاتب اللوح هو مرنبتاح نفسه لا خلفه. وأنه هو صاحب الافتخار الكاذب ويكون فرعون الخروج هو رمسيس الثانى وهو الذى غرق أثناء مطاردته لبنى إسرائيل.

مما سبق نرى أن لوح إسرائيل أو لوح مرنبتاح – وهو السند الأكبر لنظرية أن مرنبتاح هو فرعون الخروج تأكد عدم صدق الفقرة الواردة به والمتعلقة ببنى إسرائيل **ويصبح هذا اللوح فى حقيقته دليلا على أن الخروج تم قبل عصر مرنبتاح**. وقد أشار چيمس بيكى – عالم الآثار الشهير – إلى ذلك إشارة مقتضية بقوله – وإن مركز مرنبتاح كفرعون الخروج قد اهتز بسبب كشف لوحة النصر أى لوح إسرائيل – (الآثار المصرية فى وادى النيل جـ٣ ص١٧١).

وبالرغم من كل ذلك فإن هذه النَّظرية – مرنبتاح هو فرعون الخروج – تلقى قبولاً واسعا لدى علماء الآثار المصريين والأجانب على السواء. وبلغ التعصب ببعض مؤيدى هذه النظرية إلى حد أن ينكروا غرق الفرعون الذى خرج بنو إسرائيل فى عهده. فنرى الدكتور سليم حسن (مصر القديمة جـ٧ ص١٣٥) يقول: والواقع أنه لا يمكن للإنسان أن يتصور غرق الفرعون وعربته فى ماء ضحضاح لايزيد عمقه عن قدمين أو ثلاثة. بل المعقول أن خيل الفرعون وعرباته قد ساخت فى الأوحال وسقط بعض ركابها وهذا يفسر ماجاء فى سفر الخروج ١٤:٢٥. وخلع بكر مركباتهم حتى ساقوها بثقلة. ويستمر قائلا: هذا فضلا عن أن ماجاء فى القرآن الكريم لا يُشعر بأن الفرعون الذى عاصر موسى وطارده قد غرق ومات. بل على العكس نجَّاه الله ببدنه ليكون آية للناس على قدرة الخالق. والتعبير «فاليوم ننجيك ببدنك» تعادل التعبير العامى «خُلُص بجلده»!! وهذا منتهى التعسف فى تفسير آى القرآن الكريم. إذ أن آيات القرآن الكريم تؤكد

بصراحة ووضوح غرق الفرعون هو وجنوده. كما أن مكان الغرق لم يكن قدمين أو ثلاثة كما يدّعون بل كان «كل فرق كالطود العظيم».

هناك دليل «أخير يستند إليه أصحاب نظرية «مرنبتاح فرعون الخروج» هو ما يشير إليه عالم الآثار «سايس» إذ يقول إن الآثار المصرية تحصر حادثة الخروج فى حكم الفرعون مرنبتاح ولدينا بين الأوراق البردية المحفوظة فى المتحف البريطانى وثيقة تعرف **بورقة «أنسطاسى السادسة»** وتشمل خطابا من كاتب الملك مرنبتاح كتبه لرئيسه يقول فيه إن بعض بدو «شاسو» – أدوم – قد سُمح لهم حسب التعليمات التى لديه أن يجتازوا الحصن الذى فى إقليم سكوث (تل المسخوطة) فى وادى طميلات ليُتاح لهم رعى ماشيتهم بالقرب من بتوم. ونص الخطاب كالآتى: أمر آخر ياسيدى. لقد انتهينا من ملاحظة مرور قبائل «شاسو».. التابعين «لأدوم» من حصن «مرنبتاح حتب حرماعت» له الحياة والفلاح والصحة فى «سكوث» نحو برك «بتوم» لأجل أن يطعموهم ويطعموا قطعانهم فى ضياع الفرعون له الحياة والفلاح والصحة وهو الشمس الطيبة لكل أرض مصر.. (مصر القديمة. سليم حسن. جـ٦ ص٥٨٨).

وتدل وثائق أخرى على أن الحراسة فى هذا الوادى كانت شديدة إلى حد بعيد. وكذلك كانت المراقبة عظيمة على الطريق الرئيسية إلى آسيا فى قلعة «سيلة» (تل أبو صيفة الحالى) إذ وصل إلينا أجزاء من يوميات موظف فى إحدى المدن الواقعة على حدود فلسطين فى عهد مرنبتاح دوّن فيها أسماء المبعوثين والأعمال التى كُلِّفوا أداءها ممن يجتازون هذا الحصن فى طريقهم إلى فلسطين. وكان المرور منه محرمًا فى عهد رمسيس الثانى إلا لمن كان لديه تصريح بالخروج. ويقول الأستاذ «سايس». وهذا الخطاب «ورقة أنسطاسى السادسة» كتب فى السنة الثامنة من حكم مرنبتاح. ومن البدهى أن هذا لا يمكن أن يحدث إذا كان بنو إسرائيل لايزالون يقيمون فى أرض «جوشن». وعلى ذلك فلابد أن واقعة الخروج قد حدثت فى وقت ما قبل هذا التاريخ. وهذا يجعل تاريخ الخروج على أية حال قريبا من تاريخ نقش اللوحة. أى أنه يستنتج أن هذا الخطاب يؤيد أن الخروج حدث فى عهد مرنبتاح فى السنة الخامسة من حكمه. ولكنه يختم استنتاجه قائلا عن زمن الخروج: بل يجوز أن يتقدم عن هذا التاريخ.

ومن المؤكد أن الخروج – استنتاجا من هذا الخطاب يتقدم عن هذا التاريخ إذ أن وسائل الاتصالات فى ذلك الزمن كانت بطيئة. فإذا فرضنا أن الخروج حدث فى زمن ما. فقد يمر عام قبل أن تدرى الدول المجاورة التى تقع خارج النفوذ المصرى – بخروج بنى إسرائيل من مصر. وقد يمر عام آخر حتى يتأكد أنهم قد خرجوا من مصر إلى غير رجعة. وقد يمر عام ثالث إلى أن يقرر رؤساء «آدوم» إرسال بعثة إلى فرعون مصر ليسمح لرعاتهم بالرعى فى الأرض التى كان يقطنها بنو إسرائيل ويمر وقت آخر قبل أن يدرس الفرعون الموضوع مع مستشاريه والتحقق من أن هؤلاء الرعاة ليسوا جواسيس أو أعوان لدولة أجنبية تخطط لغزو مصر. فإذا

وضعنا مجموع هذه الأوقات فى الاعتبار لعاد بنا زمن الخروج إلى أول عصر مرنبتاح أى آخر عصر رمسيس الثانى.

وهكذا يتضح لنا أن هذا الدليل الأخير «ورقة أنسطاسى السادسة» تشير أيضا إلى أن مرنبتاح ليس هو فرعون الخروج.

من هذا نخلص إلى أن كل الاعتراضات التى أثيرت ضد نظرية أن رمسيس الثانى هو فرعون الخروج وعلى أساسها افترضوا أن مرنبتاح هو فرعون الخروج - هذه الاعتراضات بعد تفنيدها انقلبت إلى اعتراضات على نظرية مرنبتاح نفسها وأصبحت دلائل على صحة الرأى القائل بأن رمسيس الثانى هو فرعون التسخير وفرعون الخروج معاً. وهذا يؤيد ماذهبنا إليه فى ص٦٦٩- من أن أصحاب هذه النظرية لم يستطيعوا أو بالأحرى لم يجتهدوا فى الدفاع عنها.

لقد حاولت هذه الدراسة الإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه. وتمحيص الأدلة المقدمة على أوجهها المختلفة وأصبح الميزان الآن يميل لصالح النظرية التى تقول إن **رمسيس الثانى هو فرعون التسخير وفرعون الخروج أيضا**. وإن كان البعض قد يرى فيما ذكر بعض الإطالة فما ذلك إلا لاقتناعنا بأن تحديد شخصية هذا الفرعون سيساعد على إبراز جوانب جديدة فى قصة موسى عليه السلام كما أنه أثناء سرد القصة - ستتضح للقارىء أدلة أخرى - مستمدة من القرآن الكريم - تؤكد أن رمسيس الثانى هو - بلا شك - فرعون موسى ويكون فى ذلك نهاية للجدل الطويل الذى دار حول هذا الموضوع.

مثال ذلك ملخص قصة هذا الفرعُوْن التى وردت فى سورة النازعات:

«هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالوادِ المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديكَ إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى». (١٥ - ٢٦ - النازعات)

فالفرعون طغى بأن سخر وعذب واستعبد بنى إسرائيل وذبح أبناءهم. فذهب إليه موسى وأراه معجزات كثيرة عبَّر عنها جميعا بلفظ الآية الكبرى. فكذب الفرعونُ وراح يدعى لنفسه الألوهيه فنكَّل به الله فى الدنيا بالإغراق فى البحر وفى الآخرة له عذاب النار. والضمير فى **«فأخذه»** عائد إلى **«فرعون»** الذى طغى. فهو فرعون واحد من أول الأمر إلى آخره. ونفس هذا المعنى يفهم من هذه الآيات من سورة الدخان:

«ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم. أن أدُّوا إلىَّ عباد الله إنى لكم رسول أمين. وأن لا تعلو على الله إنى آتيكم بسلطان مبين. وإنى عُذت بربى وربكم أن ترجمون. وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون. فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون. فأسرِ بعبادى ليلا إنكم متَّبعون. واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون. كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونَعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين. فما بكت عليهم السماء وما كانوا مُنظرين. ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين. من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين».

(١٧ - ٣١ - الدخان)

والآن لنبدأ فصلا عن الرعامسة وبنى إسرائيل.

الفصل الثانى

الرعامسة وبنو إسرائيل

كنا – قبل قصة شعيب عليه السلام – فى الجزء الثالث ص٥٩٢. قد وقفنا عند موت حورمحب وانتهاء حكم الأسرة الثامنة عشرة. والتى بدأت عهدها بتحرير مصر من الهكسوس (ص٥٣٦) ومطاردتهم فى فلسطين. ثم تطلع ملوك مصر إلى أرض فلسطين والشام وأدركوا الغنم الذى يأتى من الاستيلاء عليها . ومن ثَمَّ وُضِعت نواة الإمبراطورية المصرية فى الشام وأرض كنعان. ولما تقلصت هذه الأملاك فى عهد أخناتون (ص٥٨٩) أعاد حورمحب الإستيلاء عليها وأعاد نفوذ مصر إلى ماكان عليه من قبل.

ثم جاء ملوك الأسرة التاسعة عشرة وبدأ سيتى الأول توسيع رقعة الإمبراطورية. وواصل رمسيس الثانى التوسع فى شمال سوريا واصطدم – مثل والده – بالحيثيين. وحكم ٤ ملوك من الأسرة التاسعة عشرة: أولهم رمسيس الأول ثم ابنه سيتى الأول ثم رمسيس الثانى ثم مرنبتاح. ورمسيس تكتب أحيانا رعمسيس وجمعها رعامسة.

رمسيس الأول :

تولى رمسيس الأول الحكم بعد حورمحب. وهو الذى أسس الأسرة التاسعة عشرة. وكان رجلا طاعنا فى السن ولم يدم حكمه سوى عامين (١٣٠٨ – ١٣٠٦ ق.م.).

كان رمسيس الأول قائدا حربيا ناجحا فى عهد حورمحب. وهو ينتسب إلى أسرة قوية من بلدة تانيس (صان الحجر) واسمه «بارع مسسو». اطمأن إليه حورمحب وجعله الرجل الثانى فى الدولة. ثم عهد إليه بالحكم من بعده. لذلك انتقل إليه الحكم بسهولة بعد وفاة حورمحب. فاعتلى العرش فى عام ١٣٠٨ ق.م باسم «بارع مسسو من بحثى رع» بمعنى رع أنجبه ودامت قوة رع (د. عبد العزيز صالح. الشرق الأدنى القديم. جـ١ ص٢٤٣) ثم اكتفى بالشطر الأول من الاسم «رعمسيس» أو «رمسيس». ولما كان كبيرا فى السن فقد استعان بولده «سيتى» على تصريف شئون البلاد. وقد تولى الحكم من بعده. ولعل مأثرة رمسيس الأول هى بدؤه تشييد بهو الأعمدة العظيم فى الكرنك.

سيتى الأول :

تولى سيتى الأول الحكم بعد أن تعدى سن الأربعين. فجمع بين نضج السن بالإضافة إلى مرانه فى عهد أبيه. واطمأن المصريون إلى تولى ملك حازم أمر البلاد وجرى على سُنة

حورمحب فى القضاء على الفساد ومنع الرشوة والنهب. وشدَّد العقوبة على الاعتداء على أملاك المعابد والأفراد. وكان ينظر إليه على أنه هو الذى سيعيد مجد البلاد ثانية. ولذلك كان من ألقابه «مجدد الولادة» .

وحكم سيتى الأول أكثر من عشرين عاما. حارب فى أثنائها فى فلسطين والشام وزحف شمالا على الحيثيين. وكان هذا أول التحام بينهم وبين مصر. فهزم فرعون جيوشهم وعقد مع ملكهم معاهدة ودية. ولكن ما يهمنا من حروب سيتى الأول هى حربه فى فلسطين مع قبائل «الشاسو» أى البدو إذ كان لهم صلة ببنى إسرائيل. وأنقل هنا ما ذكره عالم المصريات الشهير سليم حسن: من أهم الوثائق التى بقيت لنا منقوشة على جدران معبد الكرنك المتن الذى يحدثنا عن السبب المباشر الذى حدا بالفرعون «سيتى الأول» لمهاجمة قبائل «شاسو» (البدو) الأسيويين بفلسطين. والظاهر أن الموقف الذى كان يواجهه هذا الفرعون فى فلسطين كان موقف خداع ومناجزات. وقد كان للعابيرو ضلع فى الحركة التى قام بها هؤلاء البدو. إذ كانوا يسعون لتوطيد أقدامهم فى فلسطين (سليم حسن مصر القديمة. جـ٦ ص٣٣). وكان هؤلاء البدو قد انتهزوا الفرصة للتخلص من البقية الباقية من النفوذ المصرى فى فلسطين. وقد وصلت التقارير إلى «سيتى» بأن الثورات قد اندلع لهيبها. تقول الوثيقة:

السنة الأولى من عهد مُجدد الولادة. ملك الوجه القبلى والبحرى. رب الأرضين «من ماعت رع» (سيتى الأول) معطى الحياة: لقد أتى إنسان ليخبر جلالته أن الشاسو الخاسئين قد دبروا العصيان. فقد تجمع رؤساء قبائل فلسطين معلنين العصيان. وقد أخذوا فى السلب والنهب والشجار إذ يقتل الواحد منهم جاره. وعصوا قوانين القصر. وقد قام جلالته – له الحياة والفلاح والصحة – بحربهم. وبدأ الواقعة ودخل غمارها. وكان لبه مرتاحا لرؤية الدماء تسيل وقطع رؤوس العصاة. وقد قضى عليهم جلالته دفعة واحدة. فلم يترك ساقا واحدة (منتصبة) بينهم. ومن فر منهم حيا كانت تُحمل يده (كان الأسرى تقطع أيديهم). وسار سيتى الأول بالجيش من ثارو – وهى آخر مدن مصر على الحدود الشمالية الشرقية وتقابل القنطرة فى العصر الحاضر – فى اتجاه فلسطين حتى وصل إلى «رفح» – وهى مسافة تبلغ ١٩٠ كيلو مترا – وقد وقعت الواقعة بين المصريين والشاسو على طول هذا الطريق. وتقول وثيقة أخرى:

السنة الأولى من حكم ملك الوجه القبلى والوجه البحرى «من ماعت رع» – التخريب الذى ألحقه سيف الفرعون البتار – له الحياة والفلاح والصحة – بالشاسو الخاسئين. من قلعة «ثارو» حتى «باكنعان» عندما سار جلالته نحوهم مثل الأسد المفترس وصيَّرهم أشلاء فى الوديان مخضبين بدمائهم كأن لم يغنوا بالأمس. وكل من أفلت من بين أصابعه يقول إن قوته (الفرعون) على الممالك النائية هى قوة والده «آمون» الذى كتب له الشجاعة المظفرة فى الممالك الأجنبية.

وقد سبق الإشارة (الجزء الثالث، ص ٥٤٠) أن نفرا من بنى إسرائيل قد خرجوا مع الهكسوس وكانوا يسمون «العابيرو». ولاشك أن بعضا من هؤلاء العابيرو قد اندسوا بين «الشاسو» وجعلوهم يثورون على مصر أملا فى إقصاء النفوذ المصرى عن فلسطين فيتمكن بنو إسرائيل المقيمين بمصر من الخروج إليها وتكوين دولتهم.

شيىء آخر يذكره الدكتور سليم حسن (جـ٦ ص٤٤/٤٥) وهو أن ذبح الأسرى كان عادة قديمة. إذ وُجدت لوحة من العاج مرسوم عليها الملك «دن» (من الأسرة الأولى) وهو يقتل عدوا شرقيا راكعا أمامه وفى يد الفرعون مقمعة من الحجر يضرب بها العدو. وظلَّ الأسرى يذبحون بعد ذلك فى عصر الأسرات القديمة. ثم أصبح منذ عهد الدولة الحديثة مجرد احتفال رمزى ولا يُنفَّذ القتل فعلا – إذ نجد على البوابة السابعة فى الكرنك «تحتمس الثالث» مُصورًا فى الوضع التقليدى على وشك ذبح طائفة من الأسرى يبلغ عددهم نحو ٣٠ وهو قابض على نواصيهم بينما نجد فى ركن آخر من الصورة الأسرى يعاملون معاملة كريمة. دلالة على أن أمر الذبح كان لا ينفذ فعلا. ويتساءل الدكتور سليم حسن قائلا: هل عاد سيتى الأول لارتكاب هذه الفعلة الشنعاء ثانية فقتل أسراه على الرغم من أنها عادة قديمة قد لفظها الزمن؟ ولماذا؟

ونجد نقشا على جدران معبد مدينة هابو على هيئة خطاب على لسان «آمون رع» رب طيبة: يابنى الذى من صلبى، يامحبوبى، ويارب الأرضين «من ماعت رع» (سيتى الأول) رب القوة فى كل مملكة، إنى والدك، وإنى أنا الذى أجعل الرعب منك فى أرض «رتنو العليا والسفلى» وقبائل النوبة، كلهم قد **ذبحوا** تحت قدميك، وإنى آتى إليك برؤساء الممالك الجنوبية لتتسلم الجزية من كل منتجات ممالكهم الجيدة، وإنى أولىِّ وجهى قبل الممالك الشمالية وآتى بأعجوبة لك متصديا للعصاة فى أوكارهم ببأس شديد.

ويمكننا الإجابة على التساؤل الذى أثاره الدكتور سليم حسن بأن سيتى الأول لما أدرك الصلة بين «الشاسو» الثائرين عليه و«العابيرو» أقرباء بنى إسرائيل أراد بإحياء الإحتفال بذبح الأسرى إرهاب بنى إسرائيل المقيمين بمصر، وإشعارهم أن الأمر جد ولا هوادة فيه، وأن الذبح قد ينالهم هم أنفسهم إذا جاءت الخيانة من جانبهم. وهذا ما حدث فعلاً فيما بعد مع ابنه «رمسيس الثانى» وما تعرض له من خديعة من اثنين من البدو – كلفته فيلقا كاملا من جيشه وكادت تودى به هو نفسه – فى معركة قادش (ص ٧٨٩) فلما عاد من المعركة بعد توقيع الصلح مع الحيثيين نفذ تهديد والده وبدأ التنكيل الحقيقى ببنى إسرائيل بزيادة جرعة التعذيب والتسخير ثم أصدر أمر ذبح الأطفال الذكور.

فإذا عدنا إلى سيتى الأول ثانية نجد أنه كذلك قد حمى مصر من غارات الليبيين كما أظهر اهتماما ببناء المعابد وتجديدها، وبلغت فنون النقش والتصوير فى عهده ذروة عالية وخاصة فى معبد شعائره فى أبيدوس (العرابة المدفونة مركز البلينا). كذلك فى نقوش مقبرته فى غرب طيبة.

وبنى أيضا جزءا كبيرا من بهو الأعمدة العظيم الذى بدأه أبوه - فى الكرنك وتوسع فى استغلال مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية ورَسَم الخرائط للطرق والحصون المنتشرة على الحدود الشمالية الشرقية. ولكن معظم هذه الإنشاءات المدنية كان القائم عليها والمنفذ لها هو ابنه رمسيس الثانى الذى كان مشاركا له فى العشر سنوات الأخيرة من حكمه.

كان أكبر أبناء سيتى الأول هو رعمسسو وهو المشهور باسم «رمسيس الثانى» وكان يحمل الألقاب التالية: ابن الملك - الأمير الوراثى والوزير - عمدة المدينة والمشرف على جياد رب الأرضين ورئيس القضاة وغير ذلك من الألقاب. كانت «طيبة» هى العاصمة أيام سيتى الأول. إلاَّ أن «منف». كانت العاصمة الثانية لقربها من أملاكه فى آسيا التى كانت شغله الشاغل مدة حياته. ولأن سيتى كان من أسرة تنسب إلى شرق الدلتا. فقد بنى لنفسه قصرا فى «قنتير». كشفت عنه أعمال البحث التى أجريت مؤخرا فى هذه المنطقة. وكان هذا القصر نواة للمدينة الجديدة التى بناها رمسيس الثانى وسماها باسمه «بر رعمسسو» واتخذها عاصمة له.

بنـو إسرائيل :

نعود الآن إلى بنى إسرائيل وقد ذكرنا فى الجزء الثالث (ص ٥١٨) أن يوسف عليه السلام قد أسكنهم أرض جاسان وكان عدد من جاء إلى مصر من أبناء يعقوب ٧٠ نفسا. وإذا افترضنا أن نصفهم ذكور والنصف الثانى إناث لكوَّنوا ٣٥ أسرة يبدأ بهم الجيل الأول فى مصر . وإذا افترضنا أن عدد المواليد لكل أسرة هو ٣ أبناء وهو عدد متواضع جدا . فلنجعله ٣ و ٤ بالتبادل للأجيال المتتالية. نجد أنه بعد ١٦ جيلا:

الجيـــــل الأول = ٣٥ أسرة × ٤ أبناء = ١٤٠

الجيـــــل الثانـــى = ٧٠ أسرة × ٣ أبناء = ٢١٠

الجيـــــل الثالـــث = ١٠٥ أسرة × ٤ أبناء = ٤٢٠

الجيـــــل الرابـــع = ٢١٠ أسرة × ٣ أبناء = ٦٣٠

الجيـــــل الخامس = ٣١٥ أسرة × ٤ أبناء = ١٢٦٠

الجيـــــل السادس = ٦٣٠ أسرة × ٣ أبناء = ١٨٩٠

الجيـــــل السابع = ٩٤٥ أسرة × ٤ أبناء = ٣٧٨٠

الجيـــــل الثامـن = ١٨٩٠ أسرة × ٣ أبناء = ٥٦٧٠

الجيـــــل التاســع = ٢٨٣٥ أسرة × ٤ أبناء = ١١٣٤٠

الجيـــــل العاشــــر = ٥٦٧٠ أسرة × ٣ أبناء = ١٧٠١٠

الجيل الحادى عشر = ٨٥٠٥ أسرة × ٤ أبناء = ٣٤٠٢٠

الجيل الثانـى عشر = ١٧٠١٠ أسرة × ٣ أبناء = ٥١٠٣٠
الجيل الثالـث عشر = ٢٥٥١٥ أسرة × ٤ أبناء = ١٠٢٠٦٠
الجيل الرابـع عشر = ٥١٠٣٠ أسرة × ٣ أبناء = ١٥٣٠٩٠
الجيل الخامس عشر = ٧٦٥٤٥ أسرة × ٤ أبناء = ٣٠٦١٨٠
الجيل السادس عشر = ١٥٣٠٩٠ أسرة × ٣ أبناء = ٤٥٩٧٢٠

وإذا افترضنا لكل جيل ٣٠ عاما فإن الـ ١٦ جيلا تستغرق من الزمن ٤٨٠ عاما أو ٥٠٠ عاما وهى المدة التى أمضاها بنو اسرائيل فى مصر منذ أول قدومهم فى عام ١٧٢٨ ق.م. حتى الخروج فى عام ١٢٢٥. وإذا افترضنا أن الأجيال الإثنى عشر الأولى قد توفوا جميعا،

وتوفى من الجيل الـ ١٣	٣/٤	وبقى الربع وهو	= ٢٥٥١٥
وتوفى من الجيل الـ ١٤	٢/٣	وبقى ١/٣	= ٥١٠٣٠
وتوفى من الجيل الـ ١٥	١/٢	وبقى ١/٢	= ١٠٥٠٩٠
والجيل الـ ١٦ موجود بأكمله			= ٤٥٩٧٢٠

نجد أنه فى نهاية الخمسمائة عام يكون بنو إسرائيل كلهم = ٦٥١٣٦٠ فردا

فإذا افترضنا الثلث نساء وثلثا آخر أطفالا كان الرجال لا يزيدون عن ٢١٧,٠٠٠ وليس ٦٠٠,٠٠٠ كما جاء فى التوراة (إصحاح ١٢ خروج: ٣٧): فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سُكُّوتْ نحو ست مائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد.

وقد ذكرنا فى الجزء الثالث (ص ٥٤٣) بعض العوامل التى جعلت المصريين يأخذون جانب الحذر من بنى إسرائيل فى الفترة التى تلت طرد الهكسوس. ولكن بمضى الوقت وبزيادة التعاملات بين الجانبين بدأ المصريون ينظرون إلى بنى إسرائيل كأنهم أصبحوا جزءا من الشعب.

وبدأ الفراعنة فى بناء الإمراطورية المصرية فى الشام وفلسطين مما استدعى تجنيد عدد كبير من الجنود. وكان من غير المستحب تجنيد غير المصريين إذ أن ولاءهم مشكوك فيه. وهذا ما سجلته التوراة (إصحاح أول خروج: ١٠) «فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض». ولما كان إشراكهم فى الحرب غير مقبول فقد كان من الطبيعى أن يقوموا ببعض الأعمال المدنية مثل صنع الطوب وقطع الحجارة وبناء المعابد. ولما كان بنو إسرائيل أهل بداوة لم يتعودوا على هذه الأعمال. فقد رفضوها. وكان من الضرورى إجبارهم عليها. وهو ما اعتبره بنو إسرائيل سخرة. وبدأوا يتمردون على هذا الوضع

ويتطلعون إلى الخروج من مصر إلى «**الأرض الموعودة**». ولما كان خروجهم إلى أرض فلسطين يضيف قوة إلى فلول الهكسوس الذين انتشروا فى المنطقة بعد طردهم من مصر. ويعرض البلاد لاحتمال غزو جديد. فقد تمسك الفراعنة بعدم خروج بنى إسرائيل من مصر. وزاد هذا من تذمر بنى إسرائيل.. وزادت الجفوة بين الجانبين. وبدأت الهوة تتسع شيئا فشيئا حتى بلغت أقصاها فى عهد الأسرة التاسعة عشرة وخاصة فى عهد رمسيس الثانى.

رمسيس الثانى :

كانت حسابات الفلكيين فى مصر القديمة تقول إن اقتران ظهور النجم الذى يحدد قدوم فيضان نهر النيل. مع الكواكب التى تحدد بدء السنة الدينية وبداية السنة الزراعية أمر لا يحدث إلا مرة واحدة كل ١٤٦١ سنة وأن هذا الاقتران الثلاثى ينبىء عن حدث مهم سوف يحدث على الأرض، وكان رمسيس الثانى كثيرا ما يفتخر بأن هذا الاقتران حدث فى عام ١٣١٧ ق.م. وأن الحدث المهم هو مولده فى عام ١٣١٥ ق.م. (كتاب رمسيس العظيم. تأليف ريتافرد. ص ٢٤) وأن فيضان العام الذى سبق مولده كان وافيا وغزيرا غمر البلاد بالرخاء وملأ البيوت بالحبوب وعمت البهجة القلوب. كذلك سجَّل رمسيس الثانى افتخاره بأنه وُلِدَ من الإله «آمون» نفسه الذى تقمص جسد «سيتى الأول» فأنجبه من الملكة «تويا» والدته.

خَلَفَ رمسيس الثانى والده سيتى الأول فى الحكم فى عام ١٢٩٠ ق.م. وساعدت عدة عوامل على أن تفرض شهرته على التاريخ:

١ – مشاركته والده فى الحكم فاكتسب خبرة سياسية وحربية.

٢ – ولى الحكم شابا يملؤه الحماس وتحدوه آمال واسعة.

٣ – طول مدة حكمه التى بلغت ٦٧ عاما.

٤ – ورث عن أبيه دولة قوية ذات ثراء عريض.

٥ – وجد من رجاله المدنيين والعسكرين تأييدا لكل أعماله.

٦ – تصديه للحيثيين وهم أضخم قوة عسكرية فى عصره.

٧ – كان شغوفا بتخليد ذكراه وتمجيد نفسه. ولذلك بنى عدداً كبيراً من المعابد والقصور والمسلات والتماثيل أكثر من أى حاكم آخر سبقه.

٨ – فى عهده تكونت لمصر عاصمة جديدة سميت باسمه «بررعمسسو» أى دار رمسيس وأصبحت واحدة من أهم العواصم فى الشرق الأدنى القديم.

طفولته :

كان المعتاد – إذا عمل تمثال لأحد الفراعين. ورؤى أن يصور أبناؤه معه – أن يكونوا بحجم

صغير ومكانهم واقفين بجوار أرجل والدهم. وهذا ما نراه في كثير من التماثيل وما نراه في تماثيل رمسيس الثاني على واجهة معبد أبى سمبل (شكل ١٢٢). إلا أننا لا نجد تمثالا لرمسيس الثاني يمثله طفلا يقف بجوار رجلي والده «سيتي الأول». ولعله كان يستشعر منذ طفولته أنه « أكبر » أو « أعظم » من أن يُصوَّر هكذا . والتمثال الفريد الذي وصل إلينا (شكل ١٢٣) يمثله طفلا جالسا القرفصاء وخلفه الإله «حورون» بهيئة رأس الصقر الخاصة بالإله حورس بينما رمسيس الثاني عار من الملابس ولكنه يضع قرص الشمس على رأسه والصل الملكى على جبهته. ويضع إصبع يده اليمنى على فمه ذى الابتسامة الخفيفة التي تميز معظم تماثيله بينما يمسك في يده اليسرى حزمة نبات رمزا لمصر والنيل . بينما في تمثال آخر يمثله شابا صور نفسه وخلفه الإله «سوتخ» يحميه (شكل ١٢٤). وقد مثل الإله سوتخ على هيئة حيوان هجين برأس تمساح. وفي مرحلة أخرى من شبابه صور نفسه واقفا ويحميه من خلفه الكبش - رمز الإله آمون (شكل ١٢٥).

ويمكننا أن نستشف من هذه التماثيل أنه كان يشعر أيضا بأن الآلهة تؤيده وتحميه منذ الصغر.

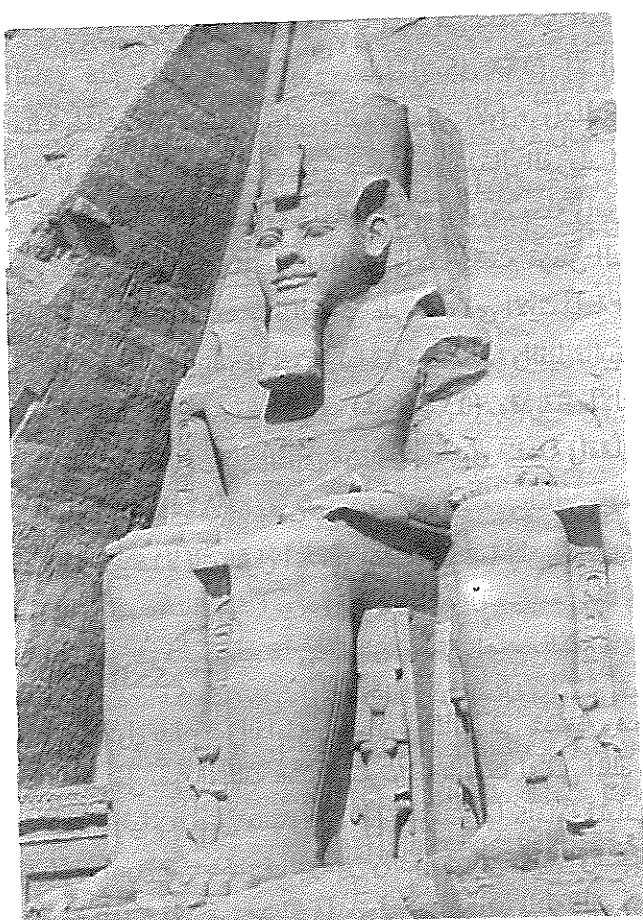
مشاركته والده فى الحكم :

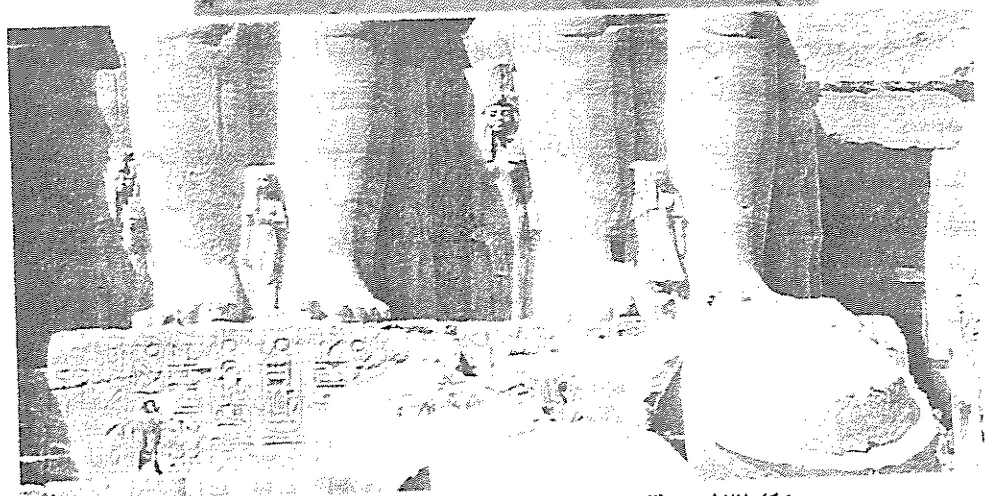
في الواقع أن سيتي الأول بدأ يشرك ابنه رمسيس الثاني في شئونه وهو لم يزل في سن العاشرة وأعلنه وليا للعهد في سن الثالثة عشرة. ثم توَّجه شريكا له في الملك بعد ذلك بسنوات قليلة. وعلى أثر ذلك كُلِّف بالقيام ببعض مسئوليات الدولة وشئونها كإقامة المباني وغيرها . وقد تم هذا التتويج على يد الإله آمون في حضرة الفرعون والده «سيتي الأول» وسُجِّل في معبد سيتي الأول بالقرنة. وسُجِّل له تتويج ثان في مدينة هليوبوليس على يد الإله «أتوم». والنص الموجود على أحد جدران معبد سيتي الأول أمر رمسيس الثاني بنقشه ليفاخر بنفسه فيقول:

«رفع من شأني رب الكون نفسه - يقصد الإله رع - منذ كنت طفلا حتى أصبحتُ حاكما. منحنى الأرض وأنا في البيضة. وقبَّل العظماء التراب أمام وجهي. ثم عُينتُ بوصفي الابن الأكبر أميرا ووارثا على العرش. وكنت أقدم التقارير عن حالة الأرضين بوصفي قائدا للمشاة والعجلات. ولما بدا أبى في مجده أمام شعبه. وكنت طفلا قال للقوم: توجوه ملكا حتى أشهد بهاءه وأنا على قيد الحياة»!!.

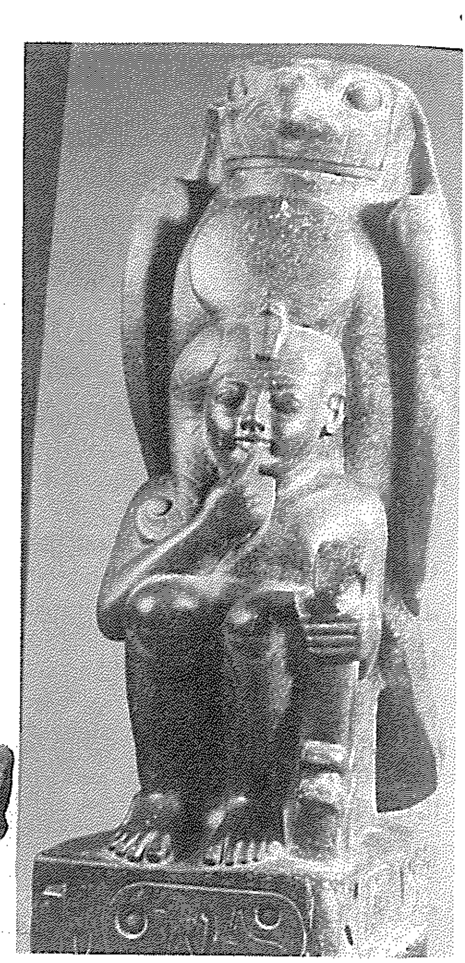
وكان رمسيس الثاني يضيف إلى لقبه نعوتا خاصة مثل :

« مرى رع » أى محبوب رع .
« تيت رع » أى صورة رع .
« أعو رع » أى وارث رع .
« ستبن رع » أى مختار رع .





شكل ١٢٢ – تمثال رمسيس الثاني وزوجته وأبنائه وبناته بجوار ساقيه.
(واجهة معبد أبي سمبل)



شكل ١٢٣ - تمثال رمسيس الثانى
وخلفه الإله «حورون».



شكل ١٢٤ - تمثال رمسيس الثانى
وخلفه الإله «سوتخ»
على هيئة حيوان هجين برأس تمساح



شكل ١٢٥ – رمسيس الثانى شاباً وخلفه الكبش رمز الإله «آمون».

وبعد انفراده بالحكم بعد وفاة والده اختار لقب «وسر ماعت رع ستبن رع» أى «رع قوى العدالة ومختار رع» ونبذ كل النعوت الأخرى.

وكان النقش على المعابد فى عهد سيتى الأول وما قبله يتم بطريقة «النقش البارز» وظل رمسيس الثانى يتبع ذلك فى أوائل سنى حكمه إلاَّ أنه بعد فترة وجد أن النقش الغائر يمكن إنجازه بسرعة كما أنه أبقى على الزمن من النقش البارز فاتبع هذه الطريقة. ثم بعد انفراده بالحكم محا كل نقوشه وقليلا من نقوش والده البارزة وأعادها بالنقش الغائر وهو ما يمكن الاهتداء إليه بسهولة على جدران المعابد التى أقامها.

وتوجد ثلاثة مناظر فى معبد سيتى بالعرابة المدفونة رُسم فيها رمسيس بوصفه وليا للعهد بصورة أصغر من صورة والده سيتى الأول. إلاَّ أن منظر التتويج الذى رسمه رمسيس الثانى بعد مضى سنتين على حادث التتويج نفسه. والذى أراد تخليد هذا الحدث بنفسه. نجده قد رسم نفسه بنفس الحجم الذى رسم به والده سيتى. وبحجم الآلهة الثلاثة الذين أقيم هذا الحفل فى حضرتهم وذلك بالرغم من أن هذا الحفل قد تم وهو صغير السن (١٥ سنة) ويمثل اشتراكه فى الحكم مع والده لا انفراده بالحكم. مما يدل على نزعة فيها تكبر وتطلع. إذ لم يسمح أن تُنحت صورته فى هذا المنظر بالذات – كما هو المفروض – بحجم أصغر من حجم والده أو الآلهة الذين كانوا معه!

وتوجد لوحة مؤرخة بالسنة الثالثة من حكمه – كُتبت بإشرافة أو على الأقل بإيحاء منه – وفيها يخاطبه رجال البلاط قائلين: لقد وضعتَ خططا حينما كنتَ لم تزل فى البيضة فى وظيفة طفل أمير. وكانت تلقى عليك شئون البلاد حينما كنت صبيا تتحلى بالضفيرة. ولم ينفذ أثر إذا لم يكن تحت سلطانك. ولم يُقطع بأمر إلاَّ كنتَ تعلمه. وكنت رئيس الجيش منذ أن كنت طفلا فى العاشرة.

ويوجد رسمان على الجانب الجنوبى لقاعة العمد العظيمة بالكرنك يمثلان الاحتفال بعيد الوادى السنوى. وفيه يُصوَّر رمسيس الثانى وهو يقوم بوظيفة فرعون وفى نفس الوقت كاهنا أكبر. فى حين أن والده يسير فى موكب السفينة المقدسة. وهذا يدل على اشتراكه فى الحكم مع والده ويوحى كذلك بأن والده ترك له كثيرا من السلطات.

وأراد رمسيس الثانى أن يؤكد أنه تسلط على كل المنشئات. فهو يقول عن نفسه: «لا يوجد أثر أنجز لم يكن تحت سلطانى» فهو يؤكد تسلُّطه على عمليات البناء وأنه كان له الدور الأساسى فى تصميم المبانى التى أقامها.

التحليل النفسى لشخصية رمسيس الثانى :

لئن كنا سنتناول هذه النقطة بشيىء من التفصيل فذلك لأنها تقدم دليلا إضافيا على أنه هو

فرعون موسى. والوثائق التى كتبت على جدران المعابد تثبت أن الفراعين جميعهم كانوا شديدى الفخر بأنفسهم وموليعن بأن ينسبوا لأنفسهم أعمالا عظيمة وبطولات قد تكون غير حقيقية. وعند دراسة ماكتبه رمسيس الثانى على جدران الجزء الذى أضافه لمعبد «سيتى» بالعرابة المدفونة على شكل خطابات أُرِّخت بالسنة الأولى من انفراده بالحكم - وقد كتبت هذه الخطابات تحت إشرافه أو بإيحاء أو إملاء منه - تبين لنا أنه كان أكثر الفراعين فخرا بنفسه وبأعماله محبا لذاته لدرجة تقرب من جنون العظمة. وفيما يلى ننقل بعضا من هذه الكتابات وهى على شكل خطابات متبادلة: (مصر القديمة. سليم حسن. جـ ٦).

١ - **خطاب أوزير للملك** يسجل فيه شكر الآلهة على إقامة المعابد لها نصه مايلى: خطاب أوزير رب الأبدية لابنه ملك الوجه القبلى والوجه البحرى «وسرماعت رع ستبن رع» (أى «رمسيس الثانى»): إن قلبى فى راحة بفضل مافعلت لى وإنى لمبتهج بما قد أمرتَ به لى. وإنى لفرح لأنى أعيش بأعمال الخير التى أهديتَها لى. وإن أعمالك الصالحة تشبه أعمال قرص الشمس. وستبقى أنت مابقى «أتوم» لأنك تسطع على عرشه. وكذلك مادام «رع» مزدهرا عندما يخترق السموات العلا حينما تكون أنت ملكا بفضل أعمالك الصالحة. وخططك محببة إلى قلبى. وما فعلته فى الأفق كان مقبولاً. والمحراب يكون فى حبور عندما يسمعك تلقى قصة أعمالك الصالحة. والإله «تاتنن» (إله الآخرة) قد منحك مئات وآلاف السنين.

نراه فى هذا الخطاب يسجل شكر الآلهة على إقامة المعابد لها. كما أنه يتمنى لنفسه طول العمر.

٢ - **خطاب «إيزيس»** :

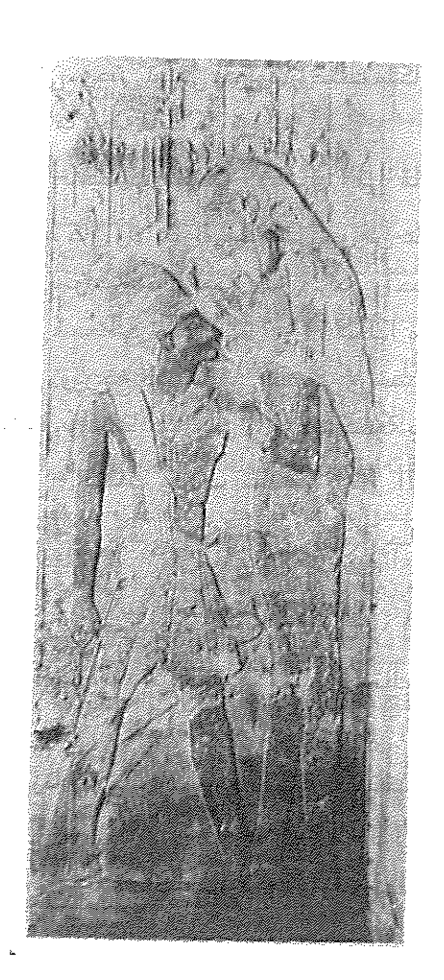
من إيزيس العظيمة والدة الإله: يابنى العزيز «رعمسيس» محبوب آمون. إن طول حياتك مثل طول حياة ابنى «حور» فهكذا أنت. وهكذا سيكون من خرج من بطنى. وإنك بار بنا مثله. وإن مدة أجل السماء وممالك السيد المهيمن «أوزير» جميعها وسنى «حور» و «ست» ستمنح لك بوصفك ملكا على الأرض.

وهنا نلاحظ أنه قد سجل بُنوَّته «الحقيقية» للإلهة إيزيس فصور نفسه يرضع ثديها. وحتى فى هذا الموقف لم يتنازل عن نظرته التعاظمية لنفسه فلم يشأ أن يصور نفسه طفلا مثل حورس (شكل ١٢٦ أ). بل صور نفسه يافعا واقفا وقد لبس التاج على رأسه وفى يده اليمنى علامة الملك. وجعل إيزيس من الطول بحيث لا يحنى رأسه (شكل ١٢٦ ب).

٣ - **خطاب سيتى الأول** : وهو يكتب الخطاب على لسان والده. وكان سيتى الأول قد توفى. وحسب ماكان مُتَّبعا فى أيامهم كان يعطى لقب «صادق القول» كما نقول فى أيامنا «المرحوم». ونص الخطاب مايلى: خطاب من الملك «من ماعت رع» صادق القول: فليفرح قلبك



شكل ١٢٦ أ - إيزيس ترضع ابنها حورس
(مكرر من شكل ١٣ فى الجزء الأول) .



شكل ١٢٦ ب إيزيس ترضع رمسيس الثانى
بوصفه ابنها .

يامك الوجه القبلى والوجه البحرى «وسرماعت رع ستبن رع» (أى رمسيس الثانى) لأن رع إله الشمس يهبك الخلود. وآتون يبتهج باسمك. إنى لفى سرور لما فعلته لى منذ أن دعيتُ صادق القول (أى منذ أن توفيت) ولقد عظَّمنى «أوزير» لما فعلتَه لى.

٤ – **خطاب من رمسيس الثانى إلى «أوزير»:**

إنى أتضرع لوجهك كما كان يفعل ابنك «حورس». وإنى أفعل لك آثارا فى المكان المقدس (الجبانة). وأضاعف الأوقاف لروحك. وإنى تحت تصرفك وتحت سلطانك. حتى تجعل الأرض ملكا لى. وحتى تهبنى الخلود بوصفك ملكا والأبدية بوصفك راعيا للأرضين. وإنى على استعداد لتنفيذ ما يحبه قلبك كل يوم بلا انقطاع.

٥ – **خطاب يصف الأعمال التى قام بها تكريما لوالده.** ويفخر بها:

لقد كان ولدا بارا بأبيه مثل حورس عندما انتقم لوالده أوزير. فهو (رمسيس الثانى) الذى صوَّر سواه. ونحت تمثال من أنجبه. وأحيا اسم من وضع بذرته. هو ابن الشمس والذى يحبه «آمون» معطى الحياة مثل «رع» مخلدا مثل «أوزير». حافظ على ذكرى والده. ونحت تمثالين لوالده. ويرجع الفضل فى ذلك إلى «رمسيس». معطى الحياة لوالده صادق القول وقد أسس له أملاكا. وأمدها بالأرزاق لما له من سمعة بين الملوك.

٦ – **خطاب يصف تجديده لآثار العرابة** (مع الاختصار):

وذات يوم فى السنة الأولى. دخل جلالته ليرى والده. وليقرب القرابين. وقد وجد مبانى الجبانة التى من عهد الملوك الأقدمين وكذلك مقابرهم آيلة للخراب ساقطة على الأرض. وجدرانها منبوذة على الطريق. ولم تكن لبناتها متماسكة. ولم يكن هناك إنسان ليبنى منذ أن طار أصحابها إلى السماء. ولم يكن هناك ابن يقوم بإصلاح ماتركه والده.

ومعنى منذ أن طار أصحابها إلى السماء. أى بعد أن توفى أصحابها – كما نقول فى عصرنا «لحق بالرفيق الأعلى». وقد اتخذها الأستاذ أنيس منصور سندا لمقالاته «الذين عادوا إلى السماء» وقال بأن أناسا هبطوا من السماء ثم عادوا ثانية فى سفن فضاء.

٧ – **وثيقة يصف فيها تولِّيه على العرش فى صيغة خطاب لمستشاريه:** (مع الاختصار) تأملوا. لقد أمرت بدعوتكم عندما شاهدت مبانى الجبانة ومقابر العرابة لم تنجز أعمالها منذ زمن أصحابها حتى اليوم. وإنه لجميل أن يهتم الابن بوالده. وإنى سأعمل حتى يقول الناس إلى الأبد السرمدى: إنه ابنه الذى جعل اسمه يحيا. ومن أجل هذا سيخصنى والدى «أوزير» بحياة ابنه «حورس» الطويلة جزاء ما سأقوم به من الأعمال الطيبة لوالدى. قولوا أنتم إن «رع» و «أوزير» نفسه قد نشَّأنى وجعلنى أنمو حينما كنت لاأزال طفلا حتى أصبحت ملكا وأعطانى الملك. ومنذ أن كنتُ لا أزال فى البيضة. وكان العظماء يقبلون الأرض أمامى وأنا

لم أزل أميرا وراثيا على العرش. وكنت قائد المشاة والخيالة. وعندما كان يظهر والدى أمام الشعب كنت طفلا صغيراً. وكان يقول عنى: توجوه ملكا حتى أرى حاله وأنا لا أزال حيا. ضعوا التاج على رأسه حتى ينظم هذه البلاد ويدير شئون مصر. وعلى ذلك وضعوا التيجان على جبينى. تأملوا. لقد كنت «رع» فوق الناس. فأهل الجنوب وأهل الشمال كانوا تحت نعلىّ.. لقد وضع معبده تحت ملاحظتى. وكل أشغاله تحت مراقبتى منذ كنت طفلا. وإنه أنا الذى صنعتُ تمثال والدى من الذهب وحبست القربان على روحه. من خمر وزيت خروع وكل أنواع الفاكهة وكل باكورات المحاصيل. ويستمر فى وصف ماعمله من آثار تكريما لوالده.

٨ - **جواب المستشارين** (يمدحونه ويضعونه فى مصاف الآلهة) :

إنك «رع» الشمس. وجسمك جسمه. ولا يوجد قط ملك يشابهك. فأنت وحدك مثل ابن أوزير حورس ابن إيزيس. ولم يفعل أى ملك هكذا منذ عهد «رع» إلا أنت. وإن مافعلته أعظم مما فعله أحد قبلك. لقد عملتَ ما لم يُعمل من قبل. فأى مثال فضيلة يوجد فى استطاعتنا أن نأتى به لنذكره أمامك. ومن ذا الذى يأتى لينصحك عندما تفكر بمحض عبقريتك!

لم يُرَ مثلك وجه. ولم يُسمع مثل قولك. ولا أحد اعتلى العرش مثلك قد حافظ بصلاح على ذكرى والده إذ كان كل واحد يعمل لما فيه فائدة اسمه إلا أنت وحورس. لذلك فأنت وابن أوزير سيان. إنك وارث ممتاز مثله إذ تدير ملكه بنفس طريقته وتفعل ما فعله الآلهة ولك نفس طول عمر الآلهة. إن قلب «رع» فى السماء لفرح والآلهة مبتهجون منذ تتويجك ملكا على الأرضين.. ويستمرون قائلين: إنك ستكون على الأرض مثل «آتون». لقد جددت آثاراً فى الجبانة والمشروعات التى كانت مهملة قد أنجزتها على الوجة الأكمل. الأجيال تمر ويحل غيرها وجلالتك ملك الوجه القبلى والوجه البحرى لأنك أنت الذى تعمل الخير وقلبك مرتاح لإقامة العدل.. وعندما تُرفع إلى السماء ستصعد أعمالك الصالحة حتى الأفق. والأعين ترى أعمالك العظيمة التى أنجزت أمام الآلهة والناس.. ويبلغ النفاق مداه إذ يقولون: اسمك فى كل بلد من أول بلاد النوبة جنوبا وشمالاً من أول شواطيء البحر وكل الأماكن تعرف أنك إله لكل الموجودات والناس يسهرون ليقوموا بتقديم البخور لك على حسب أمر والدك «آتون»!!

وتستمر الوثائق المسجلة على جدرات المعابد على هذا النحو. ولا يتبادر إلى الذهن أن بعض هذه الرسائل كان يسجل دون علمه. أو أنه لم يكن راضيا تمام الرضا عن كل المديح الذى جاء بها لأن كل ماكان يسجل على جدران المعابد كان لابد أن يعرض على الفرعون وينال موافقته وقد سبق أن ذكرنا (ص ٦٨٩) ما قاله رجال البلاط فى خطاب موجه إليه: ولم ينفذ أثر إذا لم يكن تحت سلطانك. ولم يقطع بأمر إلا كنت تعلمه!! فجميع هذه الخطابات قد حظيت بموافقته قبل تسجيلها. وعرف كاتبوها سواء كانوا من رجال البلاط أو غيرهم - كيف ينفذون إلى قلبه وينالون رضاه بترديد عبارات النفاق الواضح أو المقنع. وكلها تدور فى معنيين اثنين: - أنه الابن

البار بوالده فأقام المعابد تكريما له. ثم كيف اختاره أبوه ليشركه معه فى الحكم. وفى هذا معنى مستتر أنه استحق ذلك لأنه كان «عبقريا» منذ صغره. بل ويمنّ على والده بما بناه له من آثار. كذلك فإنه يسجل ما معناه أنه الابن البار للآلهة يقيم لها المعابد. وأنها ترسل له الرسائل تشكره على صنعه هذا وتنظر إليه على أنه ابن لها. بل وتعتبره نِدا لها ومساويا لها فى المكانة وطول العمر.

ويتضح ذلك أكثر ما يتضح فى الخطاب التالى:

٩ - **خطاب «رمسيس الثانى» لوالده «سيتى»** يقول فيه:

كلام ملك الوجه القبلى والوجه البحرى «وسر ماعت رع. ستبن رع» ابن الشمس. سيد التيجان. محبوب «آمون» رعمسيس معطى الحياة. عندما أعلن مافعله لوالده الملك «من ماعت رع» صادق القول: تنبَّه وولِّ وجهك قِبَل السماء لترى «رع» ياوالدى. أنت يامن أصبحت إلها. انظر لقد جعلت اسمك يحيا وإنى أرعى صلاح ذكراك إذ أعتنى بمعبدك. وقربانك ثابت دائم. وإنك تثوى فى العالم السفلى مثل «أوزير» فى حين أنى أشرق مثل «رع» على الإنسانية. وأجلس على عرش «أتوم» مثل «حورس» ابن «أوزير». ما أجمل ما فعلته لك! فإنه مضاعف الحسن. لأنك عدت به إلى الحياة من جديد!! فقد صنعت لك تمثالاً. وبنيتُ مثواك الذى كنت ترغب فيه والذى فيه صورتك فى إقليم الأبدية (جبانة العرابة). وإنى أضع قرابين لتماثيلك. وأعين لك خدما للمائدة ليحملوا الطعام لروحك. وليصبوا الماء على الأرض من خبز وماء. ولقد أتيت بنفسى !! مرتين لأزور معبدك الذى بجوار «وننفر» ملك الأبدية. ولقد عكفتُ على أعمال هذا المعبد فبنيتُ رقعته. وغطيتها بالبلاط. وأقمت كل مساكنك التى نبت فيها اسمك سرمديا. ويستمر فى سرد ما فعله لوالده - والمن عليه - فيقول: وقد جعلتُ خزانتك فاخرة إذ ملأتها بالخيرات. وإنى أهديك سفينة نقل بحمولتها على البحر المتوسط مشحونة بالذخائر العظيمة من ذهب وفضة ونحاس. ودونت من أجلك قوائم حقول. وإنى أمدّها بملاحظين ومزارعين لحصد الحبوب للقرابين المقدسة. وقد جمعتُ لك قطعانا من كل نوع من الحيوان الصغير لإمداد قرابينك بطريقة منظمة وخصصت لك أوزا مجلوبا من حظائر التسمين و... و... ثم يصل فى النهاية إلى هدفه من كل هذا فيكتب: ليتك تقول «لرع» امنح الحياة بقلب محب **وأعطِ حياة طويلة فوق حياة طويلة موحدة فى أعياد ثلاثينية للملك** «وسرماعت رع ستبن رع» (أى رمسيس الثانى) معطى الحياة. وكل شيء سيصير على مايرام لك مادمتُ أحيا عمرا طويلا بوصفى محبوب «آمون» معطى الحياة. مثل «رع» ابن «رع»!

١٠ - ونختم هذه الخطابات **بخطاب كتبه على لسان والده. خطاب شكر من «سيتى الأول» لابنه «رمسيس الثانى»** يقول فيه: إن الملك «من ماعت رع» صادق القول

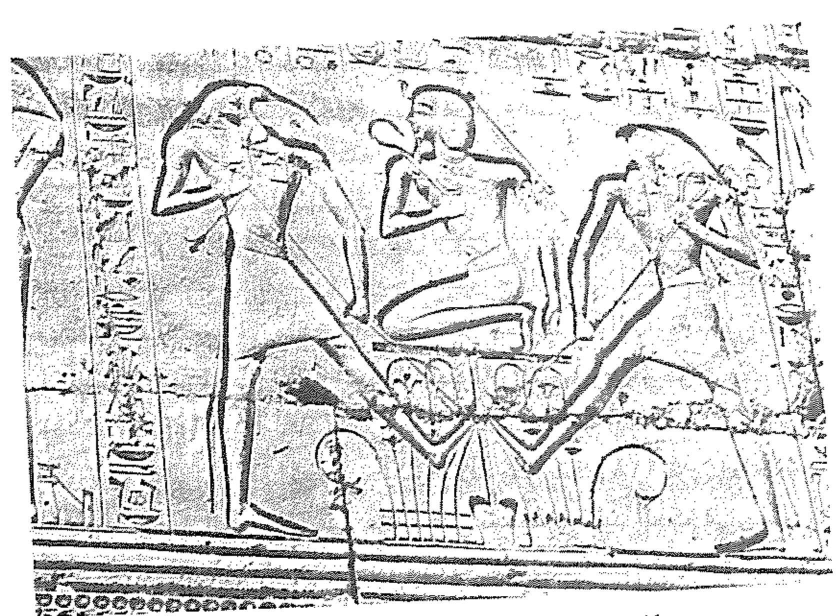
(أى المرحوم سيتى الأول) ذو روح سامية كأوزير مبتهج بالسرور من أجل كل مافعله ابنه منفذا الأشياء الممتازة ملك الوجه القبلى والوجه البحرى. ورئيس الأقواس التسعة. سيد الأرضين «وسرماعت رع ستبن رع» ابن الشمس رب التيجان محبوب «آمون» رعمسيس. مخلداً وسرمديا. وقد أعلن كل أعماله الصالحة أمام «رع حوارختى» وأمام الآلهة الذين فى العالم السفلى. إنه تكلم بقوة كما يتكلم والد على الأرض لابنه قائلا: فليبتهج قلبك كثيرا يابنى العزيز، إن «رع» **يمنحك ملاين السنين** والأبدية على عرش «حور» الأحياء. وإن أوزير» يرجو لك بقاء السماء التى تشرق فيها مثل «رع» كل صباح. وإن الحياة والصحة معك. والصدق والقوة وابتهاج القلب هى من عمل غنى بالسنين. وإن القوة والنصر مِلكك أنت ياعظيم الانتصار. والصحة ملك أعضائك مثل ماهى ملك أعضاء «رع» فى السماء. والفرح والسرور فى كل الأماكن التى توجد فيها يا أيها الملك. ياحامى مصر وهازم الأقوام الأجنبية. وإن الأبدية قد عملت لتكون عمرك. ما قلتُه لرع بقلب محب. امنحه الخلود على الأرض. وقد كررت على «أوزير» عندما دخلت أمامه ضاعف له عمر ابنك «حور» وعلى ذلك فقد أجاب «رع» فى أفق السماء. ليت الخلود والسرمدية وملايين السنين تكون لك فى صورة أعياد ثلاثينية وقد وهبك «آتوم» مدى عمره بوصفك ملكا. وقد تجمعت القوة والانتصارات فى ركابك. إن «رع» فى سفينته. وعيناه تريان ما فعلتهُ من الأشياء الممتازة. عندما يخترق السماء فى ريح رخاء كل يوم وهو فى بهجة عظيمة عندما يستذكر أعمالك الصالحات. وحبك فى صدره كل يوم.. ويستمر الخطاب... إن «رع» يذكر أفعالك الطيبة وسيكون لك بقاء طويل فى الحياة. **وإن «رع» قد منحك ملكا أبديا**. وإنك تأتى بوصفك «رع» منبع الحياة للناس. فالجنوب والشمال تحت قدميك. والآلهة ترجو أعياداً ثلاثينية لأجل «وسرماعت رع ستبن رع» **فى خلود سرمدى**.

تتويج رمسيس الثانى :

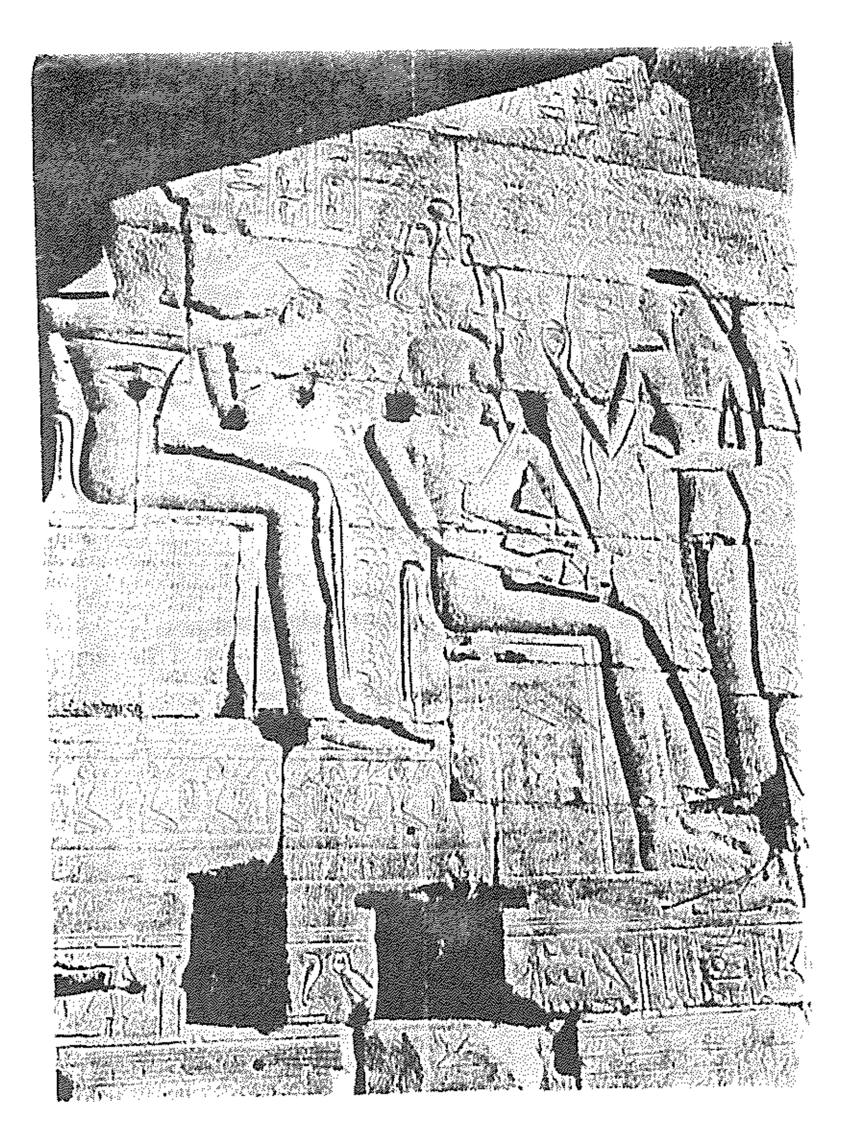
فى عام ١٢٩٠ ق.م. تولى رمسيس الثانى الحكم منفردا. وقد حدد البعض يوم ٢٧ من الشهر الثالث المسمى «شمو» (يونيو) تاريخا للتتويج الرسمى (كتاب رمسيس العظيم - ريتافرد. ص٢٩). وتم التتويج فى منف. عاصمة مصر السياسية والإدارية والتى تقع عند التقاء مصر العليا والسفلى. وتسلم من الآلهة العصا المعقوفة والسوط وهما رمزا الحكم ووضع التاج على رأسه (شكل ١٢٧) والكوبرا الملكية على جبهته تحميه وتدمر أعداءه وبذلك أصبح رمسيس الثانى هو «حورس» الجديد والإله المجسَّد حاكم البلاد. وفى شكل ١٢٨ يرى الإله حورس والإله تحوت يربطان نبات مصر العليا والسفلى علامة على تسليمه مقاليد الحكم فى مصر كلها. كما قامت الآلهة بكتابة اسمه على «شجرة الخلود» دلالة على منحة حياة خالدة (شكل ١٢٩) وفى شكل ١٣٠ يقدم رمسيس الثانى «ماعت» علامة الحق إلى «حوراختى» وفى المقابل يتلقى حياة أبدية وسلطانا دائما. وبعد ذلك أعلنت أسماء رمسيس الثانى الشرفية فى كل أنحاء البلاد:



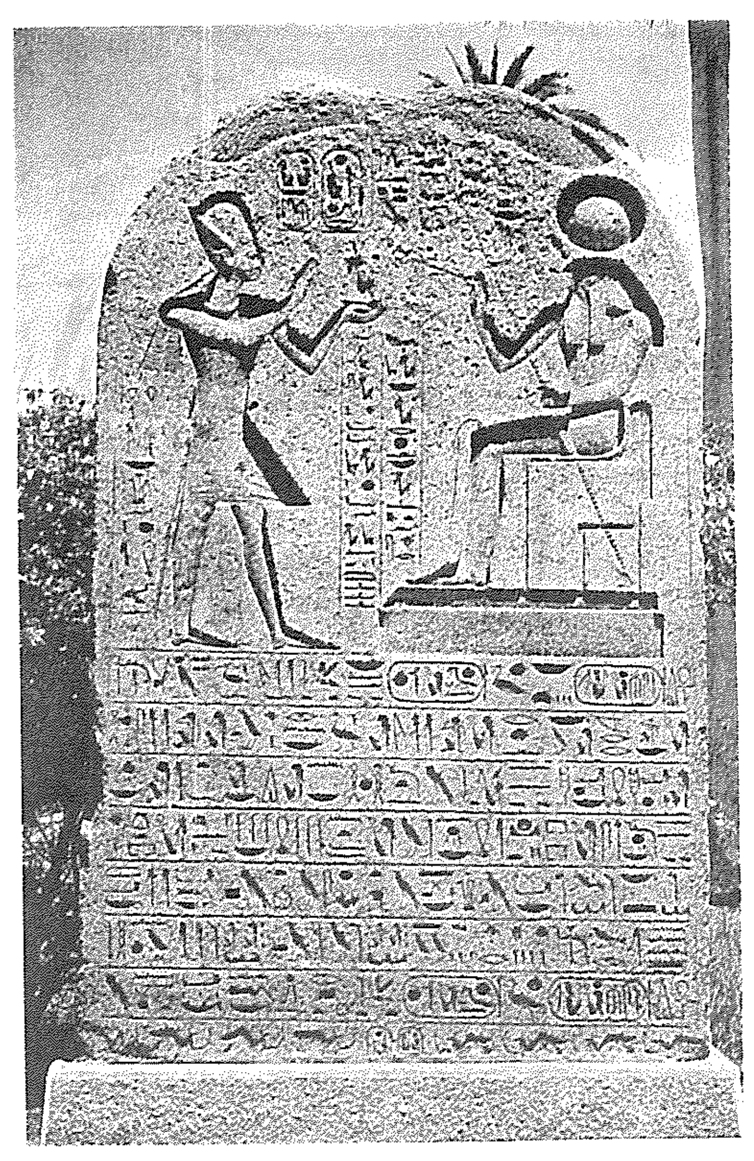
شكل ١٢٧ – الإلهان «حورس» و «ست» يتوجان رمسيس الثانى .



شكل ١٢٨ – الإله «حورس» والإله «تحتوت» يربطان نبات
مصر العليا والسفلى تحت صورة رمسيس الثانى .



شكل ١٢٩ - الآلهة تكتب اسم رمسيس الثانى
على شجرة الخلد بما يعنى حياة أبدية .



شكل ١٣٠ – رمسيس الثاني يقدم «ماعت»
إلى «حوراختي» وفي المقابل يتلقى حياة أبدية
وسلطانا دائما.

- حورس، الثور القوى . محبوب «ماعت» .
- سليل الآلهة . حامى مصر . قاهر البلاد الأجنبية .
- حورس الذهبى . ذو السنوات العديدة . عظيم الإنتصارات .
- ملك مصر العليا والسفلى . القوى فى الحق «أوسر . ماعت . رع».
- ابن «رع» رمسيس . محبوب «آمون».

وفى السنة الثانية من حكمه أضيف لفظ ستبن رع أى «المختار من رع» فصار اسمه الكامل «أوسر ماعت رع - ستبن رع». وبعد ذلك أضيفت ألقاب أخرى تمجيدية تفصح عن نزعته التعاظمية (رمسيس العظيم - ريتا فرد. ص ٣١).

ولما تميز به من طموح ونشاط ودهاء سياسى فقد بدأ منذ توليه العرش - وحتى قبل ذلك - فى أن يضع بصمته على كل مكان كما سنرى فيما بعد من إنشاءاته التى انتشرت فى كل مدن مصر والنوبة.

رمسيس الثانى كاهنا أكبر للإله آمون :

لم يكن قد مضى على تولِّيه الحكم إلاَّ شهران حتى حل موعد الاحتفال بعيد «أوبت» وفيه يقام احتفال كبير إذ يقوم أتباع «آمون» بزيارة معبد الأقصر المجاور. وكانت مدينة الأقصر. تعتبر من الوجهة الدينية المصرية القديمة هى المكان الذى بدأ منه خلق الكون. ويُعبِّر احتفال «أوبت» عن إحياء ذكرى لحظة الخلق هذه إذ أن الإله يجدد نفسه فى هذا اليوم وكذلك فإن روح الملك الجديد تجدد نفسها. وكانت الاحتفالات تقام لمدة ٣ أسابيع وفيها يقوم المغنون والراقصون والراقصات بتقديم عروض مبهجة وتزدحم الشوارع بباعة الطعام والشراب والهدايا التذكارية وعندما يعود «آمون» إلى الكرنك يترك الفرعون طيبة وغالبا مايكون الفرعون قد أضاف إلى المعبد بوابة ببرجين ضخمين Pylon وتمثالا أو تماثيل ضخمة لنفسه وعدة مسلات تخليدا لهذا الاحتفال.

كان الفرعون - بصفته حاكما للبلاد - يعتبر الكاهن الأكبر للإله «آمون» وباقى الآلهة. ولكن لم يكن ذلك يعدو أن يكون صفة شرَفية بينما يتولى أحد الكهنة القيام بالشعائر التى تتطلبها وظيفة كاهن أول للإله «آمون» فى الاحتفال. إلا أن رمسيس الثانى قام فى هذا الاحتفال بدور الكاهن الأكبر بنفسه. وهو شيىء لم يفعله أحد من الفراعين من قبل. فقد حدث أن كان منصب الكاهن الأكبر للإله «آمون» خاليا. ولم يقم بتعيين أحد فى الكرسى الخالى. وأدى المراسم الدينية التى يتطلبها هذا الاحتفال ولبس رداء الكهنة والفراء الخاص فوق الملابس الملكية. وعمل على تسجيل ذلك فى نقش كتب فوقه: الكاهن الأول للإله «آمون» ملك الجنوب والشمال.

رعمسيس الثانى معطى الحياة» (سليم حسن مصر القديمة جـ٢ ص٤٧٧) وبعد أن أتم مراسم الاحتفال اختار الكاهن «نب وننف» ليشغل منصب الكاهن الأول للإله آمون بالرغم من أنه لم يكن من طائفة آمون فى طيبة. بل كان كبير كهنة مصر الوسطى. وأرجع رمسيس هذا الاختيار لرغبات الإله «آمون» نفسه. ثم عاد من طيبة فى قاربه الملكى وتوقف ليزف الخبر بنفسه إلى الكاهن «نب وننف» ثم تابع سيره فى النيل حتى وصل العاصمة بررعمسيس وسجل نب وننف - امتنانه فى متن يقول فيه موجها الكلام إلى الفرعون:

لقد امتدح رجال البلاط ومجلس الثلاثين معا تعطف جلالته وسجدوا مرات عدة أمام هذا الإله الطيب مصلين له ومتعبدين أمام وجهه. وقد مجّدوا أرواحه حتى عنان السماء قائلين: أنت يامن سيبقى حتى السرمدية. ليتك تحتفل بأعياد ثلاثينية بالملايين. وليت سنيك تكون عديدة مثل رمال شاطىء البحر. وإنك تولد كل صباح وتجدد لنا مثل الشمس. وتصير صبيا كالقمر. وإنك تحكم بوصفك ملكا على الأرضين. والأقواس التسعة تحت أوامرك ونهاية حدودك تمتد حتى حدود السماء ودائرتها تحت سلطانك. وما تحيط به الشمس تحت نظرك. وما يغمره المحيط خاضع لك. وإنك على الأرض فوق عرش «حور» حيث تظهر بوصفك رئيسا للأحياء. وإنك كقرص الشمس فى السماء ووجودك مثل وجوده.

وفى رأينا أن رمسيس الثانى. أراد بهذا التصرف - ومنذ الأيام الأولى من حكمه - إشعار كهنة آمون بطيبة أنه عازم على أن يكون له النفوذ الدينى الأول فى البلاد وسيمارس سلطاته إلى أقصى حدودها. فيكون الكاهن الأكبر لمن يشاء من الآلهة. ويعين كبار الكهنة كما يشاء حتى من خارج أقاليمهم. ولعل الكهنة - فى طول البلاد وعرضها - قد فهموا الرسالة وآثروا السلامة. وأصبحوا يمتثلون لرغباته وأوامره. ولم يعودوا يطمعون فى زيادة نفوذهم عن طريق أى مؤامرات بل أصبح كل همهم إرضاؤه ليُبقى عليهم فى مناصبهم.

زواج رمسيس الثانى :

كان رمسيس الثانى فى السادسة عشرة من عمره حين تزوج من **«نفرتارى مرنموت»** وكانت من أجمل جميلات مدينة طيبة (شكل ١٣١) يجرى فى عروقها الدم الملكى أو من أسرة لا تقل عراقة عن أسرة رمسيس الثانى. وظلت هى الزوجة الرئيسية حتى بعد أن تزوج بغيرها. وكانت تلقب بـ «الأميرة الوراثية» و «سيدة» مصر العليا والسفلى» و «سيدة الأرضين» أى على قدر المساواة بالملك الذى كان يطلق عليه لقب «سيد الأرضين».

وكانت زوجته تحمل وتلد ويعطى للمولود اسم ولكنه لا يلبث أن يموت. تكرر هذا عدة مرات. ففى التاسعة عشرة رزق بولد سمّاه «خعمواست الأول. ولم يعش إلا أشهرا قليلة ثم توفى. ثم ولد له بعد عام «آمون خرخبشف الأول» لم يلبث إلا أن توفى أيضا. وتكرر هذا عدة مرات. كل



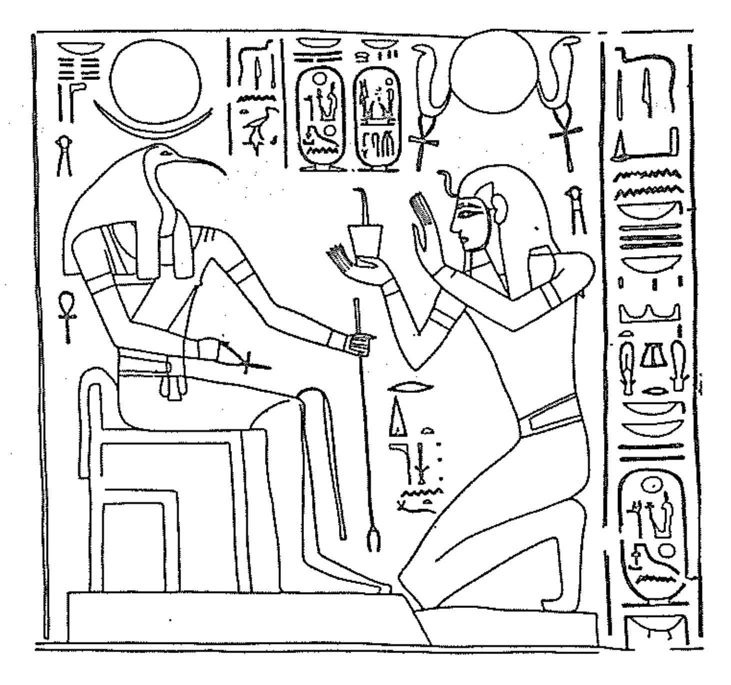
شكل ١٣١ – الملكة نفرتارى زوجة رمسيس الثانى.

(ملحوظة ليست هى التى تبنت موسى).

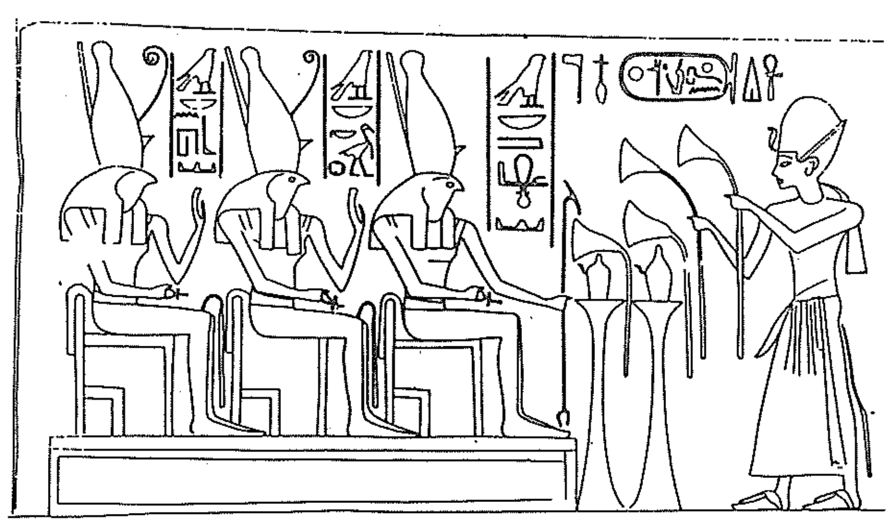
ذلك وهو لايزال وليا للعهد. ثم تولى الحكم رسميا وعمره ٢٣ عاما. وتكررت الولادات ووفاة المواليد. ويحدث ذلك طبيا إذا كانت الأم حاملة للفيروس Cytomegalo virus CMV . إذ يولد الأطفال وقد انتقل إليهم الفيروس من الأم ويتسبب فى وفاة الأطفال فى سن مبكرة. ومن المحتمل أنه فسَّر ذلك بأن «هواء طيبة» لا يلائم زوجته ولعل ذلك كان أحد أسباب تفكيره فى نقل العاصمة إلى الوجه البحرى. أو أنه تصور أن «لعنة شريرة» قد أصابته فى أولاده. وكأى أب فى مثل هذه الحالة فقد لجأ إلى الآلهة يستعطفها ويركع أمامها ويقدم القرابين ويرجوها أن يعيش أبناؤه. فنراه فى (شكل ١٣٢) يركع أمام الإله «تحوت» يقدم له البخور. ونقارن هذا «التواضع» بصورته أثناء تتويجه (شكل ١٢٧) بواسطة الإلهين «حورس» و«ست» وقد رسم نفسه بنفس حجم الآلهة. وعمد إلى أن يجعل الآلهة تقف على قطعة حجر حتى لا يضطر لأن يحنى رأسه أثناء وضع التاج عليه! وفى شكل (١٣٣) نراه يقدم الزهور للآلهة «حورس ميعام وحورس باكى وحورس بوهن» (الإله حورس منتسبا إلى ثلاثة أقاليم مختلفة). وفى شكل (١٣٤) نراه راكعا يقدم الخبز والطيور والنبيذ قرابين للإله «آمون» على هيئة رجل برأس صقر. وفى شكل (١٣٥) نراه يقدم تمثال «ماعت» إلى الإله «تحوت» رب الأشمونين. وهكذا لم يترك إلها فى الشمال أو الجنوب إلاَّ وطلب منه أن يحفظ عليه أبناءه.

ثم بدأت زوجته نفرتارى تتردد على المعابد تترجى الآلهة هى الأخرى كى يعيش أبناؤها. فنراها فى شكل (١٣٦) تقدم الزهور والفواكه للآلهة «خنوم وساتت وعنقت»، وفى شكل (١٣٧) أمام الإله «تحوت». وفى شكل (١٣٨) نراها تقدم الزهور للإلهة «حتحور» على هيئة البقرة. وفى شكل (١٣٩) رُسمت وهى تقوم برقصة طقسية ويقدم أحد الكهنة حزمة من سنابل القمح للثور «كاحج» (أحد مظاهر الإله «مين») ثم تماثيل الملوك الأسلاف فى أسفل الصورة. والثور كاحج يمثل القوة والفتوة والشباب. وليس من تفسير لوضع هذه الرسوم فى لوحة واحدة إلا أنها تترجى الآلهة أن يكون أبناؤها فى مثل قوة وفتوة الثور كاحج ليعيشوا ويصبح لها من أبنائها ملوكا مثل ما كان للأسلاف.

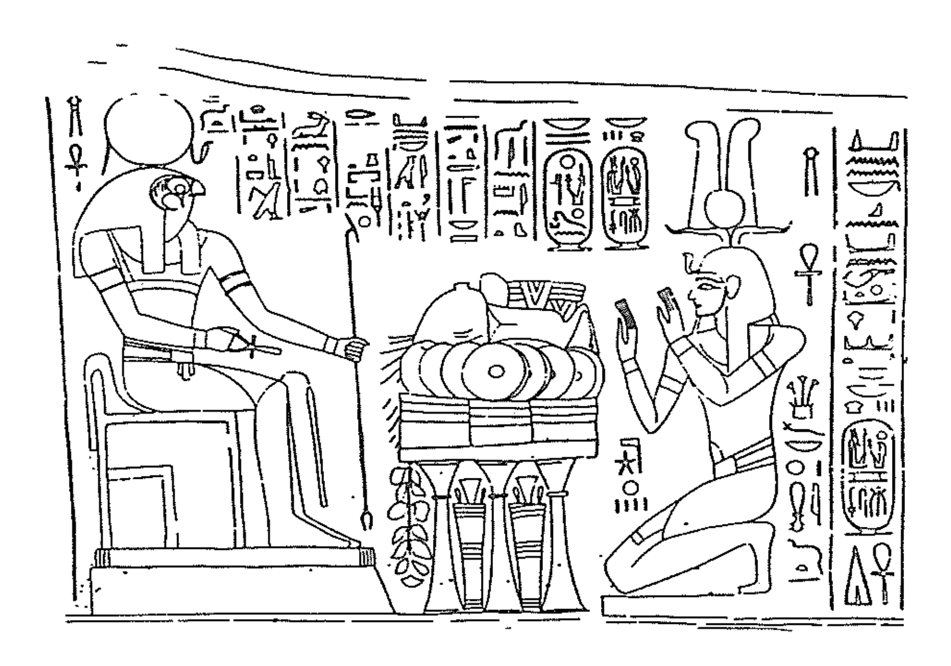
ونلاحظ فى كل هذه الصور أن رمسيس الثانى كان يتخير هو وزوجته الآلهة التى لها علاقة بالخصوبة والأمومة والشباب والقوة. وهى التى يمكن أن تحقق لهما مطلبهما. فالإله «**مين**». هو الإله الأكبر الذى كان يعبد فى منطقة أخميم وطيبة وأرمنت. وكان يمثَّل وعلى رأسه ريشتان عاليتان. رافعا ذراعه الأيمن وقابضا على السوط المثلث الفروع ويمثل واقفا منتصبا إذ كان يعتبر إله الإخصاب الذى يسرق النساء وسيد العذارى. كما أن الأساطير تروى أنه قد أخصب أمه!! وكان يعتبر أيضا إلها لخصوبة الأرض ويُعبد ليكون المحصول وافرا. كذلك كان اختيار نفرتارى للإلهة «**حاتحور**» لتتعبد لها. فهى سيدة الإلهات. وهى إلهة الحب وهى الإلهة الطروب المحببة عند النساء وكانوا يسمونها «الذهبية» ودعاها اليونانيون «إفروديت». وكانت النسوة



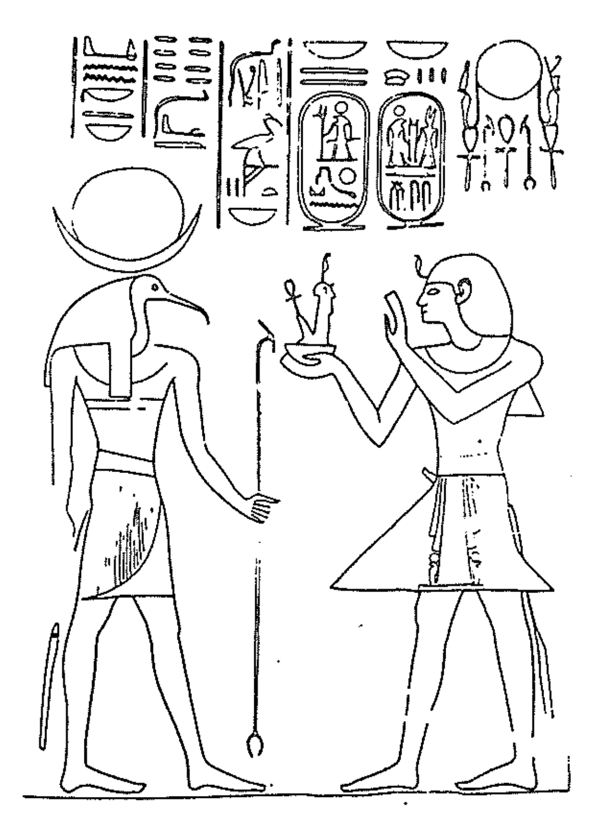
شكل ١٣٢ – رمسيس الثانى راكعا يقدم البخور للإله «تحوت».



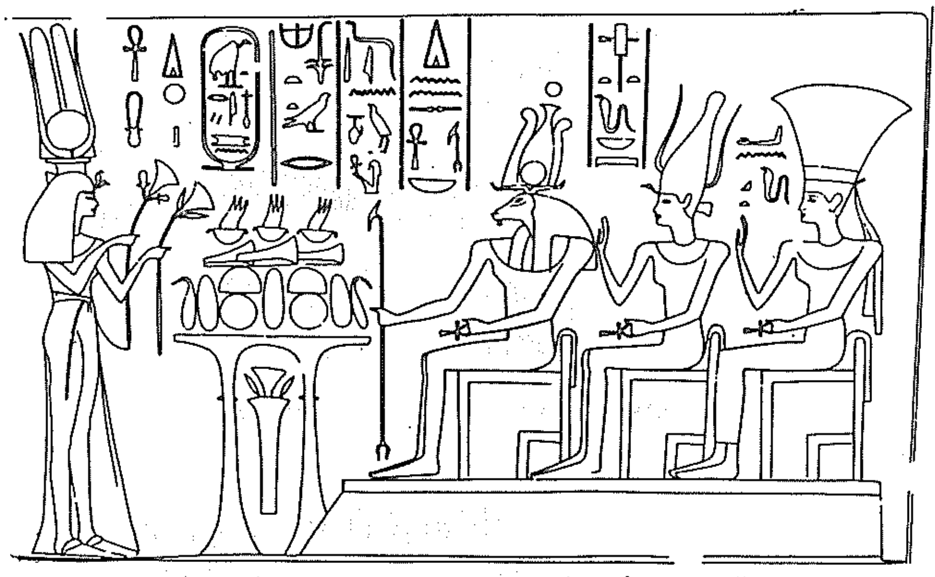
شكل ١٣٣ – رمسيس الثانى يقدم الزهور للآلهة «حورس ميعام وحورس باكى وحورس بوهن».



شكل ١٣٤ – رمسيس الثانى راكعا أمام الإله «آمون» ويقدم له القرابين.

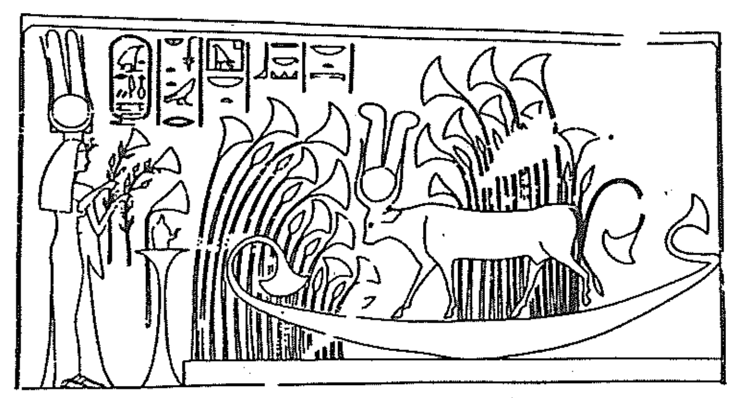


شكل ١٣٥ – رمسيس الثانى يقدم تمثال «ماعت» إلى الإله «تحوت» رب الأشمونين.

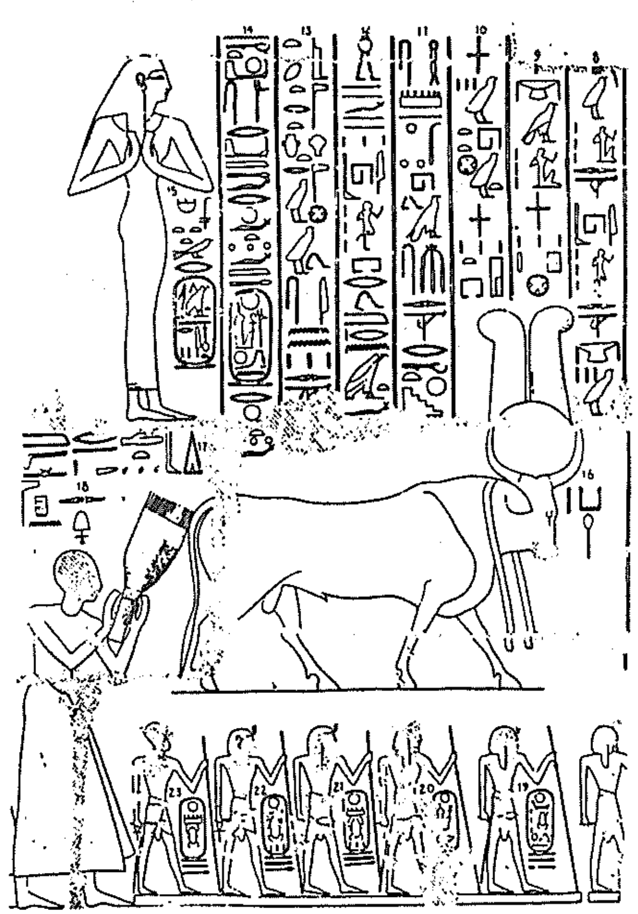


شكل ١٣٦ – الملكة نفرتارى أمام الآلهة «خنوم وساتت وعنقت» (معبد أبى سمبل الصغير بالنوبة).

شكل ١٣٧ – الملكة نفرتارى أمام الإله «تحوت».



شكل ١٣٨ – الملكة نفرتارى تقدم الزهور للإلهة «حتحور» (بهيئة بقرة).



شكل ١٣٩ – الملكة نفرتارى تقوم برقصة طقسية ويقدم أحد الكهنة حزمة من سنابل القمح للثور «كاحج» (أحد مظاهر الإله «مين» ثم تماثيل الملوك الأسلاف فى أسفل الصورة. (صورة من معبد الرمسيوم بالبر الغربى).

يحتفلن بها بإقامة حفلات الرقص والغناء واللعب بالصاجات والشخشخة بقلائدهن وبالعزف على الدفوف. وهى أم لإبن إلهى هو «إيجى». بل وهى أيضا رمز للأمومة وكثرة الأبناء. وقد أطلق الشعب على بناتها «الحاتحورات السبع» واللاتى كن يحمين الأطفال ويتنبأن بمستقبل كل مولود جديد.

كذلك كان تعبُّد رمسيس الثانى للإلهين «تحوت» و «آمون». ولعله باختياره هذين الإلهين كان يتمثل فى ذهنه قصة ولادة الملكة حتشبسوت والقصة تقول (أدولف إرمان. ديانة مصر القديمة ص ٦٤) إن الإله آمون أراد أن ينجب ملكا وطلب من الآلهة أجمعين حماية الملك المرتقب. وتخيَّر آمون المرأة التى يريد الإنجاب منها. وهى زوجة تحتمس الثالث فتقمص شكل زوجها الملك تحتمس. وقاده تحوت إلى الملكة فحبلت منه وأعلن «آمون» أن ابنته حتشبسوت ستشغل أعلى منصب فى البلاد وتستمد من روحه وقوته وسوف تحكم القطرين.

وقصة أخرى مكتوبة تقول بأن **«بتاح تاتنن»** قد أكد لرمسيس الثانى « لقد تقمصت صورة تيس منديس. واضطجعت بجانب أمك الجميلة لكى تلدك وأصبحت أعضاؤك كلها إلهية». وهذه القصة مدونة فوق جدران معبد أبى سمبل الذى بناه رمسيس الثانى. و «التيس» هنا رمز الخصوبة. ولعل رمسيس الثانى كان يطلب من الآلهة أن يتقمص أحدها جسده. حتى ينجب من زوجته نفرتارى إبنا إلهيا لا يموت ويعيش حتى يصبح الوريث للعرش ويعتليه!

مقبرة نفرتارى :

ولعل رمسيس الثانى شعر بما تعانيه زوجته المحبوبة «نفرتارى» من آلام نفسية نتيجة وفاة أولادها المتكرر. الواحد وراء الآخر. فأراد أن يخفف عنها ويعوضها عن ذلك. فزاد من حنانه بها. وأراد أن يشعرها أن هذا الأمر لا دخل لها به ولم ينتقص من قدرها عنده فبنى لها ما يمكن اعتباره أجمل مقبرة بنيت لملكة من الملكات. فهى تمثل إبداعات الفنان المصرى القديم. فليس هناك مقبرة فى مصر كلها على درجة من التفوق الفنى تقارن بمقبرة الملكة نفرتارى. فالرسوم الرائعة تزين حوائطها. وقام الرسامون بالإبداع فى استخدام الظلال وإبراز الأضواء. ورسموا الملكة فى وقفة أنيقة بقوامها الرشيق. ترتدى رداء شفافا فضفاضا. من اللون الأبيض يكشف عن ساعديها. وقد ربطت الرداء بشريط معقود يتدلى طرفه أسفل صدرها. وتضع الملكة على رأسها تاجا من الذهب على هيئة طائر. وقد تزينت بالعديد من الحلى مثل الأقراط والأساور والعقود. ووضعت مساحيق الزينة على وجهها.

وقد تم الكشف عن مقبرتها عام ١٩٠٤ بواسطة الإيطالى «إسكيا باريللى» الذى حالفه الحظ بالعثور عليها بعد أن طمرت تحت الرمال بفعل الزمن. وكان لصوص المقابر قد سبقوه إليها وسرقوا كنوزها ولم يتركوا وراءهم سوى غطاء التابوت الذى يحمل اسم «نفرتارى» – وقلادة

الملكة وشبشبها وبعض التماثيل الصغيرة. وجزء من جثمانها عبارة عن الساقين – ولعل الكهنة قد أهملوا فى عملية التحنيط فتحللت الجثة ولم يبق منها غير الساقين إذ ليس من المعقول سرقة أجزاء من الجثة. وقد شحن هذا كله فى باخرة إلى تورينو. حيث بُنى هناك ما يعتبر أول متحف للآثار المصرية فى العالم «متحف تورينو». وإذا عدنا إلى المقبرة ذاتها نجد أن سقف المقبرة يمثل القبة الزرقاء ومافيها من نجوم لامعة. وقبل الوصول إلى حجرة الدفن توجد قاعة فيها منضدة ليوضع عليها القربان. وعلى الجدران نقوش دينية من كتاب الموتى. ثم صورة الملكة راكعة تتعبد للشمس. كما يُشاهد الإله «تحوت» فى صورة الطائر مالك الحزين. وعلى جدران أخرى نشاهد صوراً للملكة أمام عدد من الآلهة: الإله «أوزير» إله الآخرة. و «حوراختى» إلهة الغرب. وتُرَى الإلهة «إيزيس» تأخذ بيدها وتقودها أمام الإله «خبر» إله الشمس. وصورت الملكة تتعبد للعجل المقدس وللبقرات السبع الإلهية.

وفى متحف بروكسل توجد قطعة من تمثال لهذه الملكة مكتوب عليها بعض ألقاب نادرة مثل: الأميرة الممدوحة كثيرا . سيدة الرشاقة. راحة الحب ماهرة اليدين فى الضرب بالصاجات. الحلوة الحديث والغناء. زوجة الملك العظيمة ومحبوبته «نفرتارى مرنموت» العائشة مثل الشمس أبديا (مصر القديمة – سليم حسن. جـ٦ ص٤٣٣).

ثانى الزوجات :

تزوج رمسيس الثانى – بعد حوالى ٨ سنوات من زواجه بنفرتارى وكان قد بلغ ٢٤ عاما تقريبا – تزوج من ثانى زوجاته وهى **«إست نفرت»** ولعله كان يرجو منها الولد. ولكن تكررت المأساة معها هى الأخرى. يولد الأبناء ويموتون فى سن مبكرة. وليس أدل على ذلك من أن مرنبتاح كان ترتيبه الـ ١٣ فى الأمراء وتوفى الـ ١٢ الذين كانوا قبله وأصبح هو ولىّ العهد.

وحدث بعد ٦ سنوات من زواجه الثانى – أى كان عمره حوالى ٣٠ عاما – وكان قد بنى عاصمته الجديدة بررعمسيس وكانت تقع غير بعيد من بعض مساكن لبنى إسرائيل. وكان قصر الفرعون يقع على بحيرة متصلة بفرع النيل. وتصادف أن كانت «إست نفرت» تلهو على شاطىء البحيرة فرأت تابوتا طافيا على صفحة الماء لم يلبث إلا أن توقف عند حزمة من نبات البردى على شاطىء البحيرة فأمرت جواريها بالتقاطه وفتحته فوجدت فيه طفلا جميلاً مال قلبها إليه بشدة فتعلقت به ورجت زوجها رمسيس الثانى إعفاءه من أمر الذبح الذى كان قد أصدره. **«لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا»**. وإكراما لخاطر زوجته ولشعوره بأنه قد حُرم الولد من زوجاته لم يمانع فى تبنى هذا الطفل – وإن كان على كره منه إذ كان يرجو الولد من صلبه – وكان الطفل الملتقط من الماء هو «موسى» كما سيجىء فيما بعد.

وتمر السنون حتى إذا بلغ موسى من العمر ٥ سنوات زالت «اللعنة» التى لازمت الفرعون

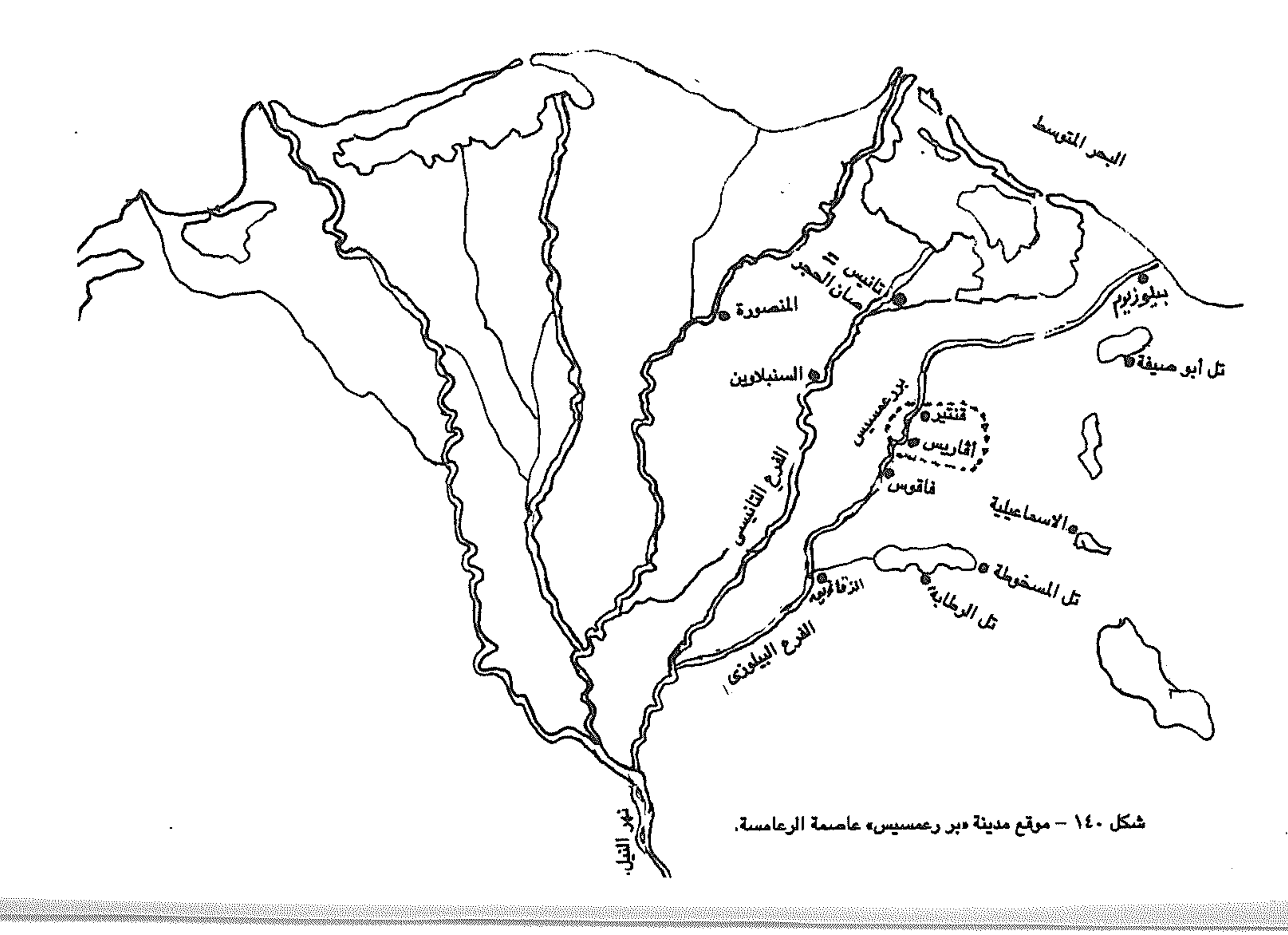
فى السنوات الأولى بعد زواجه. ويحدث ذلك طبيا إذا زادت الأجسام المضادة فى الجسم فيموت الفيروس الذى كان يسبب وفاة الأطفال الرضع. وبدأ أبناء رمسيس الثانى يعيشون. وبارك الله فى أرحام نسائه: زوجتيه - نفرتارى وإست نفرت - ومحظياته وسراريه فولدن له العشرات بنينا وبنات حتى بلغ عدد أبنائه على ماورد فى التسجيلات ١١١ ولدا و٧٦ بنتا!

لقد اتخذ البعض من هذا العدد الهائل لأبناء رمسيس الثانى سندا للقول بأنه ليس هو فرعون موسى. لأن فرعون موسى كان «عقيما» وقد اضطر إلى تبنى موسى عند التقاطه من النهر. وقد أوضحنا خطأ ما ذهبوا إليه إذ لم يكن رمسيس الثانى عقيما بل كان أبناؤه يموتون فور ولادتهم ثم - بعد أن تمت إرادة الله فى إعفاء موسى من الذبح وتبنِّيه. رُزق الكثير من الأبناء. ولعلها من سخرية القدر أن من قُدِّر أن يكون له هذا العدد الضخم من الأبناء يُضطر فى أوائل عمره أن يتبنى طفلا - وأى طفل؟ موسى! الذى حذرت النبوءة من أن هلاكه سيكون على يديه. وتتم مشيئة الله ويَنفُذ قدره **«ونُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون»** (٦ - القصص).

العاصمة الجديدة ، بررعمسسو :

فى أول حكمه كانت العاصمة فى «طيبة». ولكنه بعد سنوات قليلة بدأ فى إنشاء عاصمة جديدة سماها «بررعمسيس مرى آمون» أى «بيت رمسيس محبوب آمون».

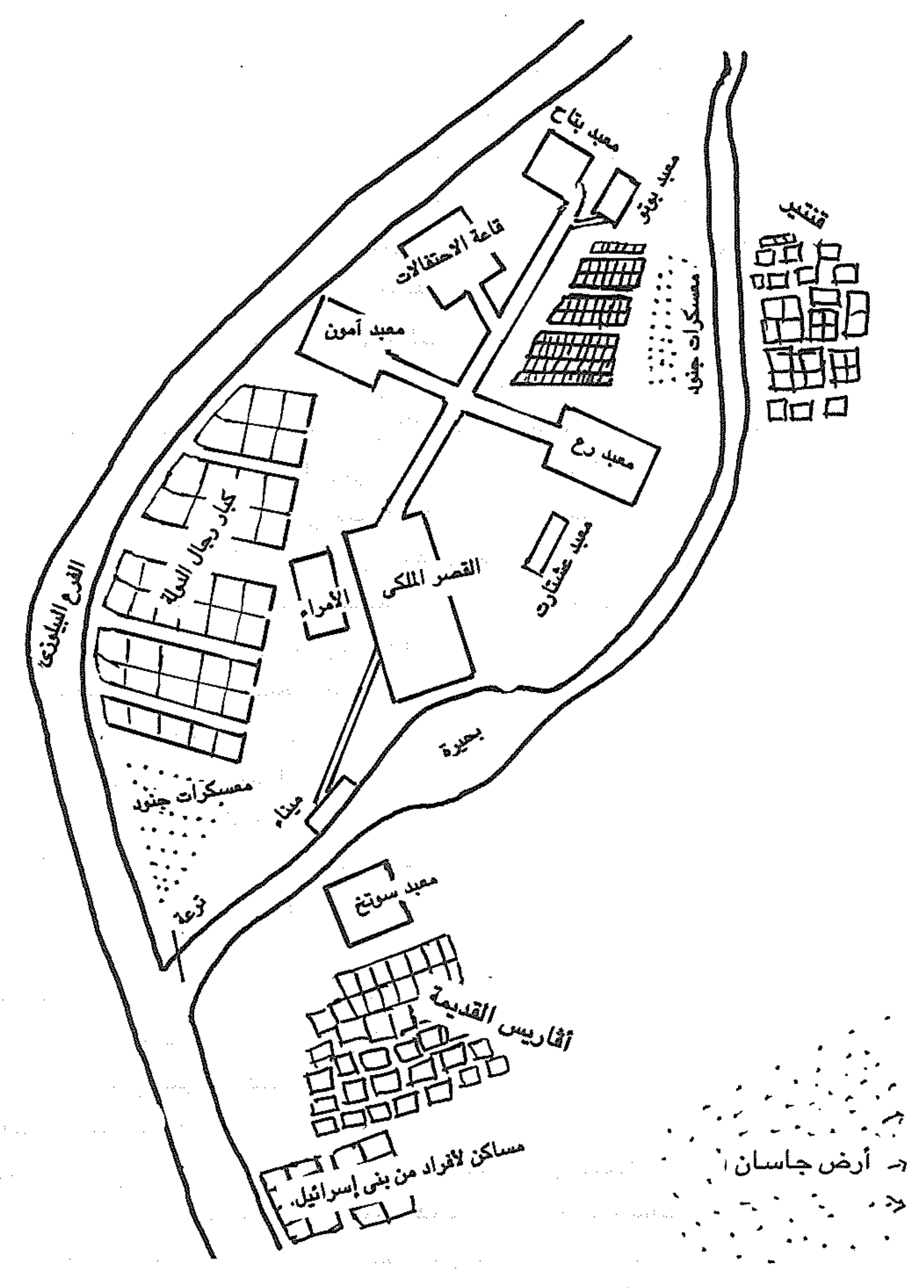
وقد اختلف علماء المصريات حول موقع المدينة رأى يقول إنها هى تانيس «صان الحجر» على الفرع التانيسى للنيل ٢٠ كيلو مترا جنوب بحيرة المنزلة. وقد وجد العالم «مونتييه» عددا من التماثيل واللوحات تحمل خراطيش رمسيس الثانى وخلفائه. ومنها وجود نقش على قطعة حجر من معبد تانيس الكبير جاء فيه «صاحب بررعمسيس. مرى آمون. صاحب الانتصارات العظيمة». ولكن استقرت آراء غالبية علماء الآثار على الرأى الثانى وهو أن بى أو بررعمسيس تشمل قنتير الحالية وأقاريس القديمة (شكل ١٤٠) على مبعدة ٩ كيلو مترات شمال شرق فاقوس على مصرف بحر فاقوس الحالى والذى كان مكانه الفرع البيلوزى للنيل وهو آخر الفروع من ناحية الشرق. وقد وجدت أدلة كثيرة تساند هذا الرأى (محمد بيومى مهران. مصر والشرق الأدنى القديم جـ٣ ص٢٨٦) مثل وجود بقايا كثيرة فى الحقول والمنازل عليها اسم رمسيس الثانى. كما توجد أجزاء لقصر جميل عليها اسمه أيضا. كما يوجد بقايا معبد للآلهة آمون وبتاح وسوتخ. كما توجد آثار تحمل بعض أسماء كبار موظفى رمسيس الثانى مما يدل على أن الإدارة الحكومية كانت هناك. كما أن المدينتين «بررعمسيس» و«تانيس» قد ذكرتا فى بعض البرديات منفصلتين مما يدل على أن المصرى القديم نفسه قد فرَّق بينهما. أما ما وجد من آثار فى تانيس فقد سبق أن قلنا إن رمسيس الثانى لاتخلو مدينة من آثار له.



شكل ١٤٠ – موقع مدينة «بر رعمسيس» عاصمة الرعامسة.

وفى وصف هذه العاصمة الجديدة وجد خطاب كتبه أحد الأشخاص يقول فيه: إننى وصلت «بررعمسيس»، وقد ألفيتها غاية فى الإزدهار. حقا إن موقعها جميل منقطع النظير. وقد أقامها «رع» نفسه. ومقر الملك. تحب الإقامة فيه. فحقوله مملوءة بكل شيىء طريف. ومجهز بالأغذية الوفيرة يوميا. ومياهه الخلفية تزخر بالسمك. وبركه مزدحمة بالطيور ومراعيه نضرة أعشابها. وطعم فاكهته المغروسة فى حقوله كالشهد بعينه. ومخازن غلاله مكدسة بالقمح والشعير وتناهض عنان السماء فى ارتفاعها. والبصل والكرات فى الحقول. وفيها الرمان والتفاح والزيتون والتين فى البستان.. ويستمر فى الوصف ثم يقول حقا إن الإنسان ليبتهج بالسكنى فيها.

ويوجد وصف ثان على بردية أخرى: لقد شيد جلالته لنفسه قلعة اسمها «عظيمة الانتصارات» بررعمسيس وتقع بين زاهى (صحراء شرق الدلتا) وأرض الدميرة (مصر) وهى تزخر بالطعام والمؤن. والشمس تشرق فى الأفق منها ثم تغرب ثانية فيها. وقد هجر كل إنسان بلدته وسكن فى أرجائها. وحيها الغربى هو «بيت آمون» وحيها الجنوبى هو «بيت سوتخ» والإله «رع» فى شرقها والإلهة «بوتو» فى حيها الشمالى. أى أن المدينة كان بها أربعة أحياء وفى كل حى معبد لكل من الآلهة الأربعة السابق ذكرها (شكل ١٤١). وفى منتصف المدينة يوجد قصر الملك ويجواره بحيرة تتصل بقناة تأخذ مياهها من الفرع البيلوزى للنيل وكانت البحيرة خاصة بعائلة الفرعون. وكان القصر الملكى يرتفع فوق ما حوله من أرض. وله أعمدة حجرية وحوائطه مبنية بالطوب اللبن ولكنها مغطاة ببلاط من خزف عليه زخارف ورسومات. وكانت الرسومات فى قاعة العرش تصور الأسرى من الأعداء والوفود الأجنبية وهى تقدم الجزية وأسود تأكل المساجين كل ذلك مما يبعث الرهبة فى نفوس الزائرين. أما الجزء المخصص للحريم فكانت زخارفه مناظر مبهجة مثل الأزهار والأسماك الملونة وعذارى مسترخيات كل ذلك بألوان جميلة مثل التركواز واللازورد والقرمزى. وحول القصر وإلى الشمال الغربى يوجد حى لعظماء القوم من الأفراد والكهنة والوزراء. وكان بالمدينة حديقة حيوان وقد وجدت عظام أسود وغزلان وزراف وفيلة. ثم خارج ذلك كله توجد ساحات لمران الجند وثكنات لإقامتهم ومبانى الإداريين ومبانى للمخطوطات والسجلات ومساحات للأسواق وميناء ومخازن للقمح ومستودعات للأغذية والنبيذ. كل ذلك يعكس النشاط والأزدهار التى كانت عليه المدينة وقد بقيت فترة الأزدهار مدة طويلة بعد رمسيس الثانى ولكن بعد ذلك بدأ فرع النيل البيلوزى يغيِّر مجراه فى اتجاه الشمال وبَعُد عن المدينة ففقدت بررعمسيس رونقها وأهميتها. واتخذ ملوك الأسرة ٢١ من تانيس عاصمة لهم وبدلاً من قطع أحجار جديدة من المحاجر البعيدة نسبيا فإنهم أخذوا أحجارا لمبانيهم من المبانى التى كانت مقامة فى بررعمسيس واستعملوها فى بناء معابد عاصمتهم الجديدة ولعل ذلك هو سبب الخلط بين المدينتين وأيهما بررعمسيس التى كانت عاصمة رمسيس الثانى. إذ أن الأحجار التى أخذت لبناء تانيس كان على كثير منها اسم رمسيس الثانى. بل إن فراعين



شكل ١٤١ – تخطيط لمدينة بر رعمسيس .

(نقلا عن كتاب فرعون المنتصر . تأليف كتشن . مع بعض التعديلات) .

الأسرة ٢١ نقلوا عددا كبيرا من المسلات التى كان رمسيس الثانى قد أقامها فى بررعمسيس وكانت تبلغ ٢٤ مسلة أو تزيد وكذلك نقلوا عددا كبيرا من تماثيله. وتكسر بعضها أثناء نقله فتُرك مكانه. ولذلك فإن مابقى من آثار فى قنتير هو عبارة عن حطام معابد ومسلات وقصور ولكنه يشير إلى العز الذى رأته هذه المدينة فى عهد رمسيس الثانى.

وإلى الجنوب الشرقى من المدينة كانت تقع أفاريس القديمة وهى تقع على حافة أرض جوشن (جاسان) التى كان يقطنها بنو إسرائيل. وكان فى أفاريس بعض بيوت للعمال من بنى إسرائيل الذين كانوا يعملون فى المبانى والإنشاءات فى بر رعمسيس.

وأفاريس القديمة هى المعروفة فى التوراة باسم صوعن Zoan والمذكور (عدد ٢٢:١٣) أن مدينة حبرون بنيت قبلها بسبع سنين. وكانت من مراكز عبادة الإله ست (سوتخ). وقد أقام سيتى الأول فيها معبدا للإله ست وسَّعه فيما بعد رمسيس الثانى ولما بنيت بررعمسيس لتشمل المنطقة من شمال قنتير إلى أفاريس أصبح معبد سوتخ فى جنوب القصر الملكى.

وفى أسباب اختياره لهذا المكان للعاصمة الجديدة قالوا إنها تقع فى موطن أسرته الأصلى. وفى موضع قريب من بقية أملاك الإمبراطورية فى آسيا. ومنها البعد عن نفوذ كهنة آمون فى طيبة بعد أن زاد سلطانهم. وأخذوا يتدخلون فى شئون الدولة السياسية والاقتصادية. وقد أصاب ذلك طيبة بهزة عنيفة فى مركزها السياسى وإن ظلت تحتفظ بمكانتها الدينية.

ولما كانت العاصمة الجديدة قريبة من أرض جوشن - مكان إقامة بنى إسرائيل فقد كان من الطبيعى أن يستخدمهم فى بناء المدينة. وهذا ما أشارت إليه التوراة (إصحاح أول خروج :١١) إذ تقول: فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس. وجاء فى تفسير الكتاب المقدس (ص ٤٠٦) عن بررعمسيس: هى مدينة فى أخصب منطقة فى البلاد. وهذه المنطقة اسمها أرض جاسان سكنها بنو إسرائيل بأمر من فرعون (أيام يوسف عليه السلام) وبنى رمسيس الثانى هذه المدينة فى حدود مصر الشرقية وسماها باسمه.

الفصل الثالث

آثار رمسيس الثانى

كان رمسيس الثانى أعظم الملوك إقامة للمبانى من حيث الضخامة والروعة فى طول البلاد وعرضها (مصر القديمة . سليم حسن جـ٦ ص٣٣٣) ولن نكون مبالغين ولا مسرفين فى القول إذا قررنا أنه لايكاد يوجد مبنى أثرى فى البلاد من الشلال الثانى جنوبا حتى مصب النيل إلا عليه اسم «رمسيس الثانى». يضاف إلى ذلك المبانى التى خلفها فى فلسطين وغيرها من البلاد التى فتحها فى آسيا مما يستحيل معه وصف هذه الآثار كلها بالتفصيل. كما أن رمسيس الثانى قد جار على أسلافه كثيراً باغتصاب كثير من آثارهم ونسبتها لنفسه. ولكن حتى لو استبعدنا هذه الآثار التى اغتصبها لوجدناه بالرغم من ذلك أعظم الفراعنة المشيّدين للآثار. وقد سبق أن ذكرنا أن والده أشركه فى شئون البلاد وهو لايزال فى سن العاشرة وأسند إليه إقامة المنشئات والمبانى. ولما كانت العاصمة فى عهد والده سيتى الأول هى طيبة فى الجنوب لذلك كان الوجه القبلى والنوبة هما أول ما بدأ به فى إنشاءاته. ثم لما آل إليه الأمر بعد وفاة والده ونقل العاصمة إلى المدينة الجديدة التى بناها «بررعمسيس» نال الوجه البحرى قسطا كبيرا من اهتمامه وانتشرت منشآته فى الدلتا كذلك. وسنوجز هنا وصفا لهذه الآثار التى شملت مصر والنوبة. وإذا كان البعض قد يرى فى هذا السرد بعض الإطالة. فما ذلك إلا لبيان كم كان هذا الفرعون محبا لذاته فخورا بنفسه. راغباً فى تخليد ذكراه. إلا أن كل هذه الآثار لم يبق منها أثر إلا وقد ناله الدمار. ليس فقط بسبب تقادم الأزمنة بل إن معبده الجنازى « الرمسيوم » قد لحقه دمار فور الانتهاء من بنائه . وحتى التماثيل قد دُمِّرت ولم يبق منها إلا بعض قطع من الحجارة عليها اسمه ونسبة قليلة من التماثيل هى التى بقيت فى حالة جيدة . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا فى قوله تعالى : « **ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** » (١٣٧ – الأعراف).

كذلك لزم وصف الآثار لنشرح معنى صفة فرعون التى وردت فى القرآن الكريم «**فرعون ذو الأوتاد**» إذ قال البعض إن الأوتاد هى الأعمدة. فلزم أن نضع صورا لتخطيط المعابد التى أقامها رمسيس الثانى ومابها من أعمدة لنرى هل ينطبق عليه هذا الوصف أم لا وإن كان لنا رأى آخر فى معنى الأوتاد سنشرحه فى حينه (ص ٧٨١) . وأخيراً فإن هذه الآثار جزء من تاريخنا ومعلومات عامة يحسن للمرء الإلمام بها وخاصة أنه يكثر الكلام فى هذه الأيام عن السياحة.

أما الذين لا تستهويهم قراءة هذا الموجز المصور للآثار (الصور تشغل ٣٦ صفحة أى الثلثين تقريبا) فيمكنهم الانتقال مباشرة إلى الفصل الرابع صفحة ٧٧٠.

وفيما يلى سرد لآثار هذا الفرعون العظيم «رمسيس الثانى» مبتدئين بغرب الدلتا ثم وسطها وشرقها وبعد ذلك القاهرة ثم الوجه القبلى والنوبة بأرقام مسلسلة واضعين نفس الرقم على الخرائط المرفقة ليسهل الاستدلال على المكان.

أ - آثار الوجه البحرى :

١ - **الإسكندرية** : - تمثال لرمسيس الثانى من الجرانيت على الميناء الشرقى .

- تمثال من الجرانيت الأسود (شكل ١٤٢).
- تمثال من الجرانيت الأحمر بدون رأس.
- كتب اسمه على مسلتى تحتمس الرابع المعروفتين باسم مسلتى كليوباترا.

٢ - **أبو قير** : تمثال ضخم من الجرانيت الأحمر .

- تمثال له على هيئة «أبى الهول».
- تمثال له أهداه للإله «آمون».

٣ - **دمنهور** : وهى المدينة المصرية القديمة «دمى آن حور» أى مدينة حورس وحرّف الاسم إلى دمنهور وبجوارها البلدة الرومانية هرموپوليس پارڤا. وفى بلدة البرنوجى المجاورة وجدت قطع حجارة عليها اسم رمسيس الثانى.

٤ - **كوم الأبقعين** مركز أبو المطامير محافظة البحيرة: وجدت قطعة حجر عليها اسمه كانت جزءا من باب.

٥ - **كوم فرين** قريبة من الدلنجات محافظة البحيرة: وجدت قاعدتى عمودين عليهما اسمه.

٦ - **كوم الحصن** : قرب كوم حمادة. يوجد تل قطره ٥٠٠ متر تقريبا يغطى المدينة القديمة «إيمو» عاصمة المقاطعة الثالثة من مقاطعات الوجه البحرى. وأهم المعالم التى كُشف عنها هناك هو حائط معبد ٦٤×١١٥ مترا. وقد وجد لرمسيس الثانى تمثالان من الجرانيت الأحمر مدون عليها اسمه وأن المعبد خاص بالإلهة «سخمت - حاتحور».

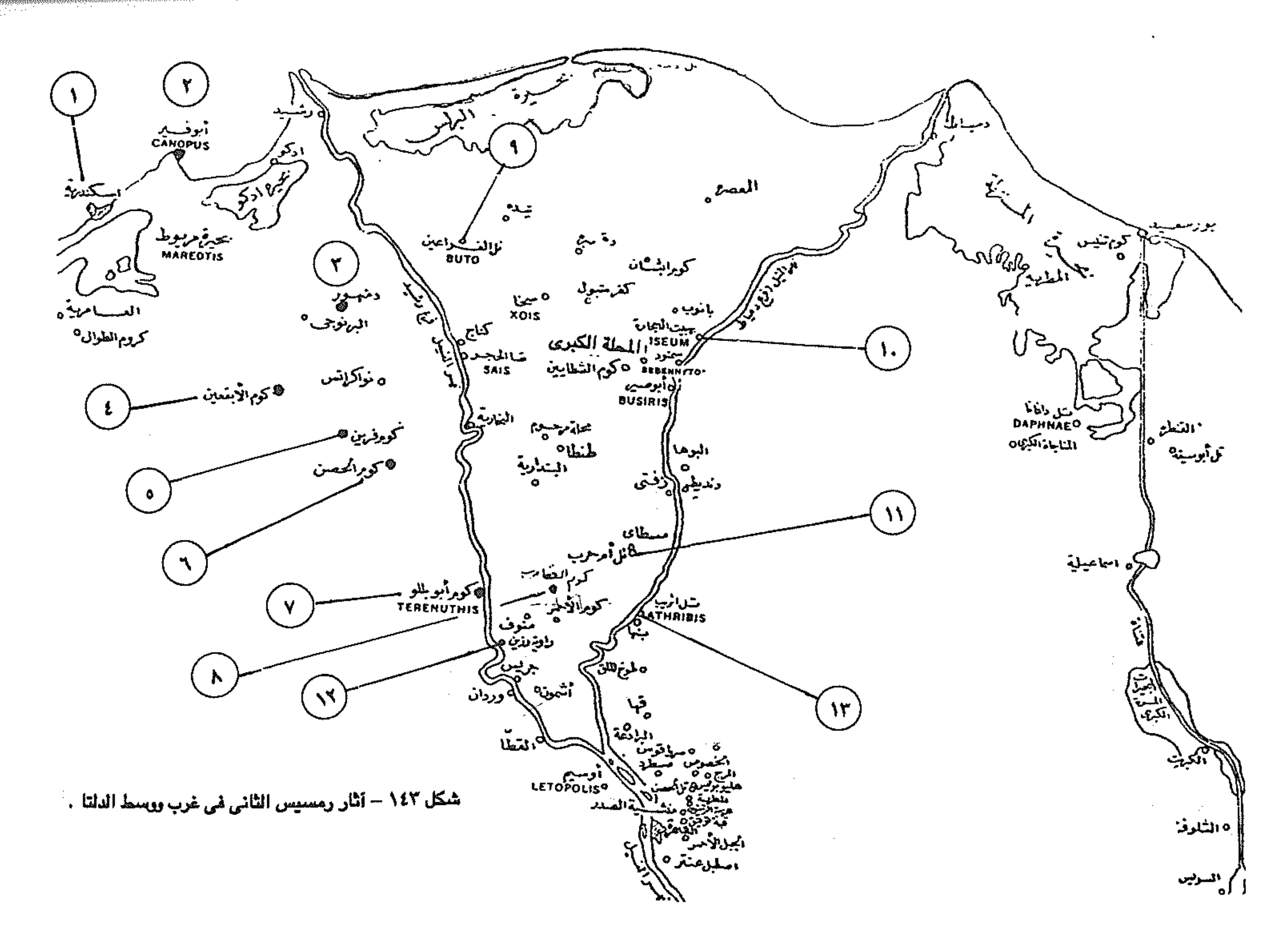
٧ - **كوم أبوبللو**: كانت تقع على الطريق الموصل من وادى النطرون إلى فرع رشيد وهى قرب قرية الخطاطبة الحالية. وكان معبد أبوبللو مخصصا للإلهة حاتحور. وقد حدد مكانه الباحث جريفث عام ١٨٨٨م. وقد وجدت قطعة حجر عليها اسم رمسيس الثانى.

٨ - **كوم العقارب**: وجد بها تمثالان لرمسيس الثانى.

٩ - **تل الفراعين** :: شرق دسوق. وهى مدينة «بوتو» التى كانت عاصمة المقاطعة السادسة لمصر السفلى. وكانت مركز عبادة الإلهة الكوبرا «وادچت» الإلهة الحامية للدلتا. ويوجد بالمنطقة بقايا المدينة القديمة وبقايا معبد. وجد به جزء من تمثال من الجرانيت لرمسيس الثانى.



شكل ١٤٢ – تمثال من الجرانيت الأسود لرمسيس الثاني.



شكل ١٤٣ – آثار رمسيس الثاني في غرب ووسط الدلتا .

١٠ - **بهبيت الحجارة** : شمال سمنود على فرع دمياط وشمال المحلة الكبرى. وكان بها واحد من أهم المعابد المخصصة للإلهة «إيزيس». وقد وجدت فى بقاياه قطع حجارة عليها اسم رمسيس الثانى.

١١ - **تل أم حرب** : تل مسطاى مركز زفتى: وجدت قطع حجارة عليها اسم رمسيس الثانى.

١٢- **زاوية رزين** : جنوب غرب منوف. وجدت قطعة حجر من واجهة مبنى عليها اسمه.

١٣ - **تل أتريب** : تقع **شمال بنها** على الضفة اليمنى لفرع دمياط. وقد وجدت لرمسيس الثانى عدة آثار فى هذه المنطقة منها تمثالان مع إلهين وقطع من الجرانيت الأحمر عليها اسمه موجودة الآن بالمتحف البريطانى.

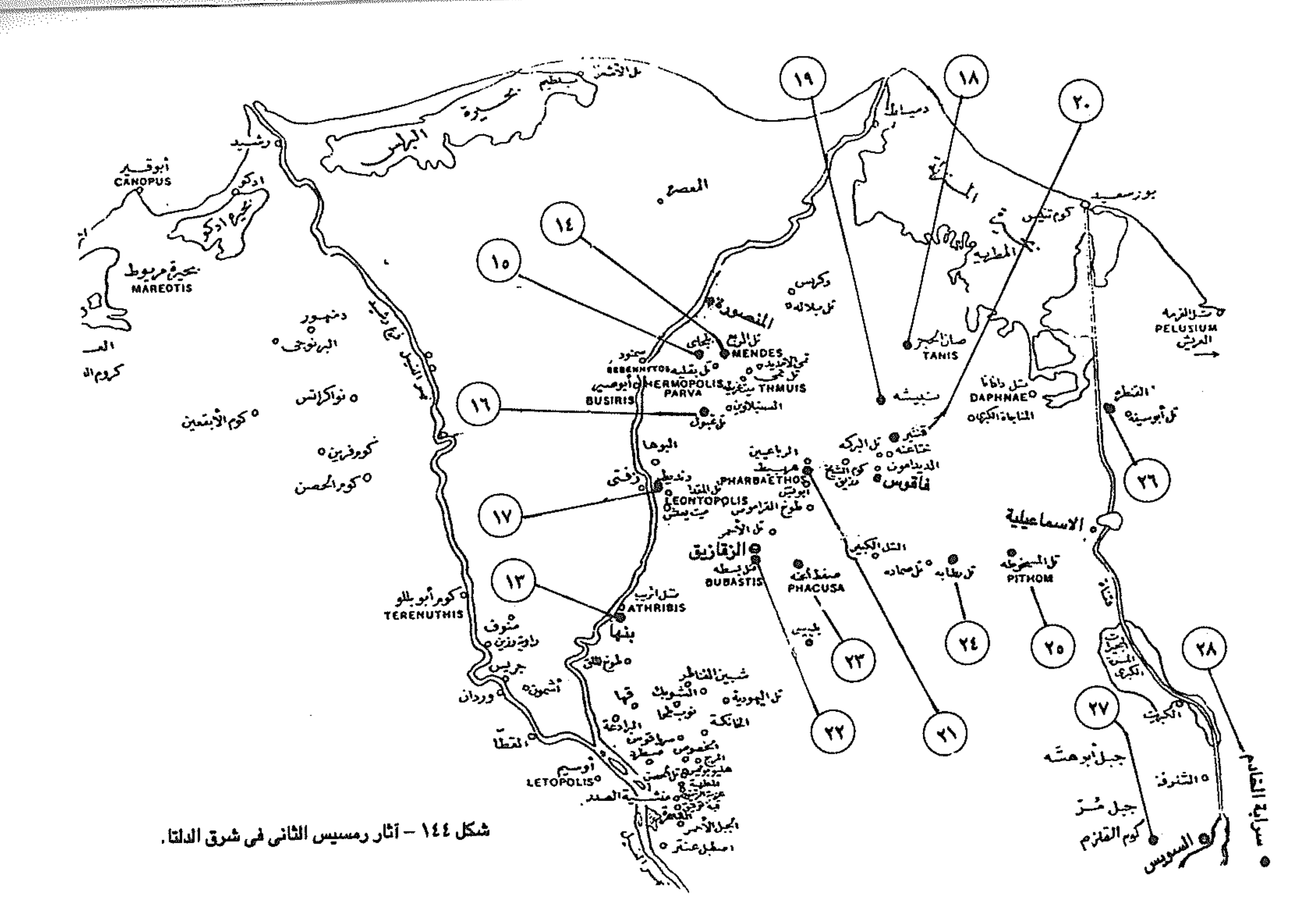
١٤ - **منديس أو تل الربع:** وكانت عاصمة المقاطعة ١٦ من مقاطعات الوجه البحرى. وكانت مركز عبادة الإله الكبش «دچدت» (منديس باليونانية) وقد وجد بها جبانة للكباش. وقد وجد بها بقايا معبد يرجع عهده إلى الرعامسة وعلى قطع حجارة من أساس المعبد وجد عليها اسم رمسيس الثانى.

١٥ - **بلجاى** . غرب منديس: وجدت لوحة عليها اسمه وأعماله موجودة بالمتحف المصرى.

١٦ - **تل تمبول** : غرب السنبلاوين (تل طنبول): وجدت قطع حجارة عليها اسمه.

١٧ - **دنديت = دنديط** . مركز ميت غمر : وجدت قطع من تماثيل ضخمة من الجرانيت عليها اسمه.

١٨ - **صان الحجر** = تانيس: كانت تانيس هى العاصمة فى عصر الهكسوس (شكل ١٤٠ ص ٧٠٩) وكانت محل عبادة الإله «ست». وقد اتخذها ملوك الأسرة ٢١ عاصمة لهم بعد أن فقدت بررعمسيس ازدهارها عندما غير الفرع البيلوزى - بفعل النحر - مجراه بعيدا عنها. وبدلاً من قطع حجارة جديدة من المحاجر البعيدة نسبيا فإنهم استسهلوا الأمر وأخذوا أحجارا لمبانيهم من المبانى التى كانت مقامة فى بررعمسيس واستعملوها فى بناء عاصمتهم الجديدة وقد سبق أن ذكرنا ذلك (ص ٧١١). وأهم ما يميز صان الحجر (تانيس) هو معبد آمون (شكل ١٤٥) وكان يحيط بالمعبد سور مبنى بالطوب سمكه على غير العادة ١٥ مترا وارتفاعه حوالى ١٠ أمتار أو أكثر وإن كان ارتفاع البقايا الموجودة حاليا هو ٧,٥ مترا ويقدر عدد قوالب الطوب اللبن التى استخدمت فى بنائه حوالى ٢٠ مليون طوبة (چيمس بيكى الآثار المصرية - جـ١ ص٧٨). وقد جدد رمسيس الثانى المعبد الذى كان مقاما من قبل. ولكن أهم أثر لرمسيس الثانى فى تانيس هو التمثال الضخم الذى أقامه لنفسه فى ساحة المعبد إذ يبلغ ارتفاعه ٩٢ قدما (٣٠ مترا) فهو يعد أعظم تمثال وكان يمكن رؤيته من مسافة عدة أميال. وقد تهدم ولم



شكل ١٤٤ – آثار رمسيس الثاني في شرق الدلتا.

يبق إلا أصابع القدم وبعض أجزاء أخرى (شكل ١٤٦). وكذلك أقام لنفسه ٤ تماثيل ضخمة من الكوارتسيت وثماني لوحات من الجرانيت يبلغ ارتفاع الواحدة حوالى ٣,٢ مترا. ولم يكتف بهذا بل إنه اغتصب كثيرا من الآثار التى أقامها الهكسوس ونسبها لنفسه. مثال ذلك تمثالان هائلان من الجرانيت (موجودان بالمتحف المصرى برقم ٦١٣، ٦١٧) لأحد ملوك الأسرة ١٣ وقد نُقش عليها خراطيش «أبوبى» أحد ملوك الهكسوس ثم اسم رمسيس الثانى.

وقد أثار تمثال رمسيس الثانى الضخم الذى وجد هناك اهتماماً عالميا. إذ يبلغ ارتفاعه من الرأس إلى القدم ٣٠ مترا فهو يعتبر أطول تمثال. ويبلغ وزنه ٩٠٠ طن - ولا يفوقه فى الوزن إلا التمثال الجالس لرمسيس الثانى بمعبد الرمسيوم بطيبة والذى يقدر وزنه بحوالى ١٠٠٠ طن.

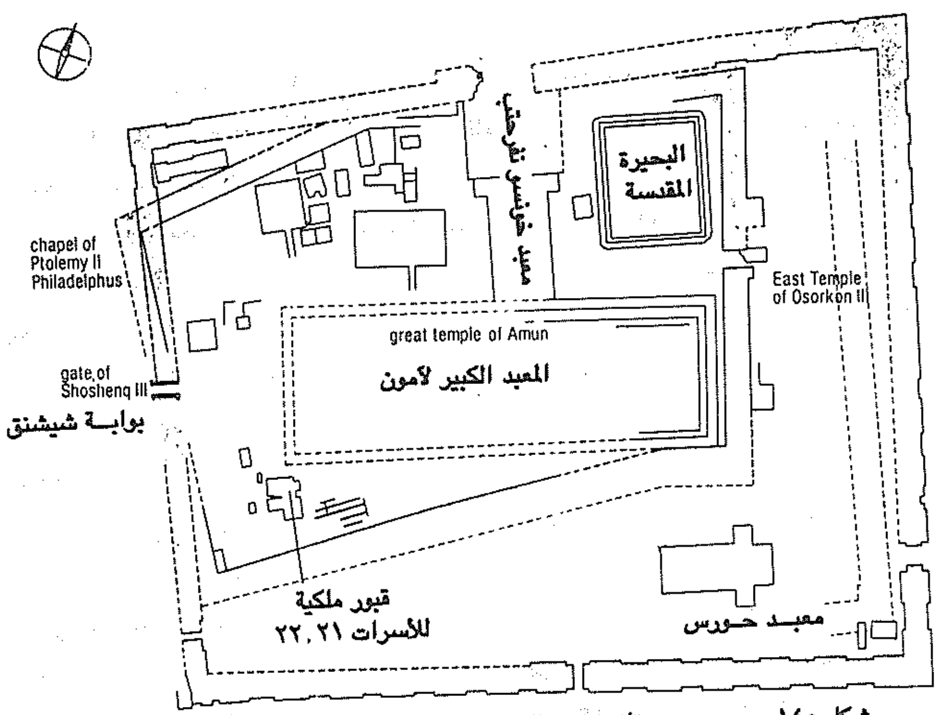
وبالنسبة للتمثال الذى وجد فى تانيس فإن حجم الإصبع الكبير للقدم يبلغ حجم رأس الإنسان ويقول علماء الآثار إن ذلك ولاشك يثير الإعجاب بالعبقرية الهندسية التى قدَّت كتلة ضخمة مثل هذه من محاجر أسوان وعامت بها فى النيل وفروعه حوالى الألف كيلو متر إلى تانيس وأقامتها مكانها بنجاح. ويقولون أيضا إن إقامة مثل هذا التمثال الضخم فى معبد للآلهة يدل على غرور بالغ.

ولقد دعت كثرة الآثار التى وجد عليها اسم رمسيس الثانى فى تانيس إلى اعتقاد بعض علماء الآثار (مثل مونتيه) أن تانيس هى نفسها بررعمسيس العاصمة الجديدة التى بناها رمسيس الثانى. ولكن ذلك غير صحيح إذ المؤكد أن بررعمسيس هى قنتير الحالية. كما أن المعبد كان صغيرا فى عهد رمسيس الثانى وأضيفت إليه إضافات فى عهود متأخرة.

وأول من بدأ الحفر فى هذه المنطقة هو مارييت. ثم تبعه پترى عام ١٨٨٣م ومن أهم ماكشف عنه فى هذه المنطقة هو «**لوح الأربعمائة عام**» وهو لوح لرمسيس الثانى. وهو معروض بالمتحف المصرى وتنحصر أهميته فى أنه الأثر الفرعونى الوحيد الذى ذكر تقويما معينا (چيمس بيكى. آثار مصر. جـ١ ص٧٧).

١٩ - **نبيشة (تل فرعون)** : وكانت عاصمة إقليم إدارى فى شرق الدلتا قسِّم فيما بعد إلى مقاطعتين: المقاطعة ١٨ وعاصمتها بوبسطة والمقاطعة ١٩ وعاصمتها تانيس. وقد وجد بها سور مبنى بالطوب يحيط بالحرم المقدس للإلهة وداچت مساحته ٢١٥×٢٠٥ مترا. وقد بنى فيه رمسيس الثانى معبدا أبعاده ٦٥×٣٠ مترا. وقد وجد له فيه تمثال ارتفاعه ٢,٠٢ مترا (شكل ١٤٧) موجود حاليا بمتحف الفنون بمدينة بوسطن الأمريكية.

٢٠ - **قنتير وأڤاريس وبررعميسس** : وقد سبق الكلام عن الأخيرة فى ص ٧٠٩. وإلى الشمال من فاقوس ٦ كم نجد قرية الختاعنة - وهى مكان أفاريس القديمة - وإلى الشمال أيضا ٣كم أخرى - أى ٩كم من فاقوس توجد قنتير. وإلى الشرق من الختاعنه توجد قرية تل



شكل ١٤٥ – حدود معبد تانيس فى عهد رمسيس الثانى والإضافات التى أدخلت عليه فى عصور متأخرة .



شكل ١٤٦ – أصابع قدم التمثال الضخم الذى أقامه رمسيس الثانى فى ساحة معبد تانيس والرجل الجالس بجوارها يبين مدى ضخامة التمثال .

الضبعة وبالمنطقة كما سبق أن ذكرنا معبد سوتخ (شكل ١٤١ ص٧١١) وهو معبد كبير كما تدل بقاياه إذ كانت أبعاده ١٨٠×١٤٠ مترا ولعل بناءه بدأ فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ولكن رمسيس الثانى زاد عليه. وقد أقام رمسيس الثانى عاصمته الجديدة بررعمسيس بحيث شملت المنطقة المحيطة بقنتير. وأقام بالمدينة عددا كبيرا من المسلات قدرت بـ ٢٤ مسلة ولكن كل ذلك تحطم ولاتزال قطعها متناثرة فى المنطقة (انظر شكل ١٩١، ١٩٢ص ٧٧١). وقد عثر فى عام ١٩٢٠ على قطع خزف عليها رسوم لأزهار وسمك وبط ونباتات كما وجدت أوانى مملوءة بالنبيذ وعليها اسم رمسيس الثانى وهى طبعا من بقايا القصر الملكى. ووجد فى قرية تل أبو الشافعى فى شمال قنتير على قاعدة تمثال ضخم لرمسيس الثانى وهو جالس ويرجح أنه كان قد وضع فى ساحة معبد. ولعله معبد الإله «مين» لأنه هو الذى كان فى أقصى الشمال من مدينة بررعمسيس.

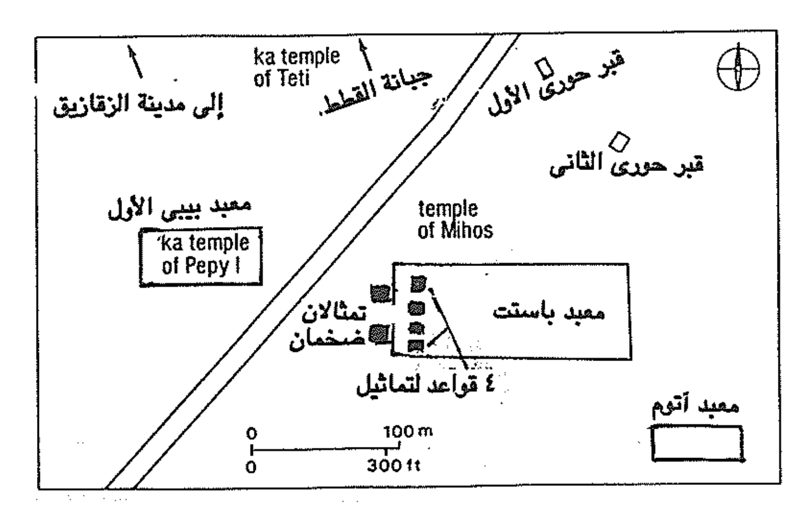
٢١ – **هربيط** : حوالى ٦ كيلو مترات غربى فاقوس. وقد وجد لرمسيس الثانى آثار كثيرة بها نقلت إلى متحف هلدسهايم فى وسط ألمانيا . أهمها ٣ لوحات مُثل فى إحداها رمسيس الثانى وهو يقدم القرابين لتمثاله (شكل ٢٢٧ ص ٨٨٩) ولوحة لضابط يدعى «موس» ومعه رجال الجيش يتقبلون الإنعامات من رمسيس الثانى عبارة عن حلقات من ذهب. ولا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن الضابط «موس» هو نفسه موسى عليه السلام حينما كان لايزال فى قصر الفرعون. لأن اسم موس كان قد بدأ يشيع بين الناس منذ أن تبنى الفرعون الطفل الذى التقطه من الماء وسماه «موس» وكانت أسماء تحوت + موس أى تحتمس وآمون + موس (آمنموس) معروفة من قبل. ولكن اسم موس منفردا لم يكن معروفا قبل حادثة التبنى هذه وهو أحد الأدلة على أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى.

٢٢ – **تل بسطة = بوبسطة** : ١ كم جنوب الزقازيق. وكانت مدينة الإلهة باستت برأس اللبؤة. وقد كانت لهذه المدينة أهمية استراتيجية حيث أنها تتحكم فى الطريق المؤدى من منف عبر وادى طميلات إلى سيناء وآسيا. وبلغت أوج نفوذها فى عهد الأسرة ٢٢ إذ كانت مسقط رأس ملوكها. وقد وجد فى المعبد الكبير لهذه البلدة جزء من مجموعة تماثيل من الجرانيت الأسود عليها اسم رمسيس الثانى. وفى القاعة الأولى من المعبد وجد له ٤ تماثيل ضخمة من الجرانيت الأحمر مقامة أمام قاعة الأعياد الثلاثينية لاتزال قواعدها فى أماكنها الأصلية (شكل ١٤٨). أما التماثيل فقد نقلت إلى المتحف البريطانى ومتحف برلين ومتحف كوبنهاجن. وكان أمام المعبد تمثالان ضخمان. أحدهما الآن فى المتحف المصرى. والثانى فى متحف لندن.

٢٣ – **صفط الحنة** : وتقع حوالى ٥ كيلو مترات شرق الزقازيق وكانت عاصمة المقاطعة ٢٠ من مقاطعات الوجه البحرى ومركز عبادة «سوبد». وقد كشف الأثرى ناقيل عام ١٨٨٥ جدرانا مبنية بالطوب لحائط يحيط بمعبد مساحته ٤٠×٧٥ مترا. ومن المرجح أن رمسيس



شكل ١٤٧ - تمثال من الجرانيت لرمسيس الثانى وجد فى تل نبيشة.
(موجود حاليا بمتحف مدينة بوسطن).



شكل ١٤٨ - تل بسطة ومعبد باستت .

الثانى هو الذى بناه إذ وجدت قطعتان من تمثال ضخم له من الجرانيت الأسود. وكذلك قطعتان أخريان من البازلت عليها اسم رمسيس الثانى.

٢٤ - **تل رطابة** . حوالى ٧ كيلو مترات شرق التل الكبير: عثر فيها على بقايا معبد للإله «آتوم» أقامه رمسيس الثانى. وفيه رسوم تمثل رمسيس الثانى يضرب الأسرى البدو أمام الإله «آتوم» وفى رسم آخر أمام الإله «ست». وكذلك عثر فيه على تمثال مزدوج يمثل رمسيس الثانى مع الإله «آتوم».

٢٥ - **تل المسخوطة** : وهى مدينة **فيثوم** المذكورة فى التوراة: «فبنوا لفرعون مدينتى فيثوم ورعمسيس (خروج إصحاح ١١:١). وتقع حوالى ٨ كيلو مترات غرب الإسماعيلية. أى تقريبا جنوب أبو صوير. وقد وجدت بها آثار كثيرة لرمسيس الثانى:

أ - معبد مخرّب وقد وجد فيه ثالوث من الجرانيت الوردى يتألف من «رمسيس الثانى» جالسا بين الإلهين «آتون» و «خبرى».

ب - ثالوث من الجرانيت الأحمر يجلس فيه رمسيس الثانى بين «حوراختى» و «خبرى».

جـ - لوحة من الجرانيت الأحمر تمثل رمسيس الثانى يقدم تمثال العدالة لـ «حوراختى».

د - لوحة لاحتفال رمسيس الثانى بأحد الأعياد الثلاثينية.

هـ - تمثال لأبى الهول من الجرانيت الأسود عليه اسم رمسيس الثانى.

و - صقر من الجرانيت الأسود عليه اسمه - موجود الآن بالمتحف البريطانى.

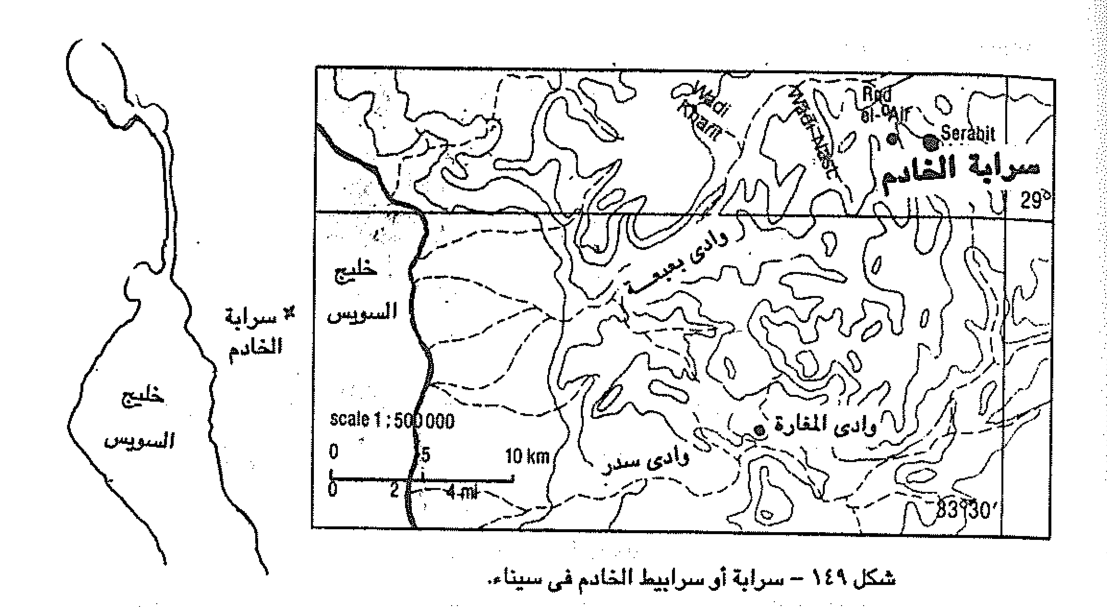
ز - لوحتان وجدتا بالقرب من «كبريت» موجودتان بمتحف الاسماعيلية عليهما رسوم للإله «ست» وزوجته «عنت» وصورة لرمسيس الثانى وهو يقدم البخور للإله «سوبد».

ح - أقام معبدا صغيرا أهداه للإلهين «ست» و «حتحور» لا توجد إلا بقاياه.

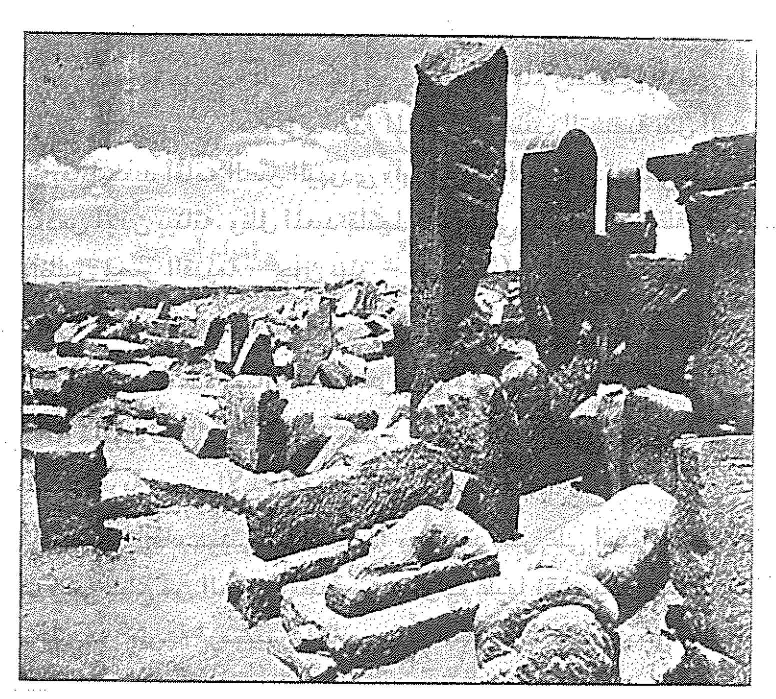
٢٦ - **القنطرة** : وقد عثر فيها على قاعدة تمثال ضخم لصقر نقش عليه صورة سيتى الأول يقدم آنية للإله حور وكان سيتى الأول قد أقامه «من أجل تمكين اسم والده الملك رمسيس الأول أمام هذا الإله». ولم يكن قد اكتمل عند موت سيتى الأول فأكمله رمسيس الثانى وأضاف على ظهر التمثال «إن رمسيس الثانى نحت هذا حاملا اسم جده رمسيس الأول ليعيش فى معبد حور» ولعل هذا من الأعمال القليلة التى أتمها رمسيس الثانى ولم ينسبها لنفسه كما هو معروف عنه بل تركها تحمل اسم أسلافه.

٢٧ - **كوم القلزم** - غربى السويس: وجدت قطع حجارة عليها اسم رمسيس الثانى.

٢٨ - **سرابة الخادم** (سرابيط) فى سيناء (شكل ١٤٩) توجد فيها نقوش كثيرة كتبها رؤساء بعثات التعدين تخليدا لوفودهم فى سيناء لاستخراج الأحجار الكريمة وقطع الأحجار



شكل ١٤٩ – سرابة أو سرابيط الخادم فى سيناء.



شكل ١٥٠ – بقايا معبد «حتحور» فى سرابة الخادم ولاتزال بعض اللوحات قائمة عليها رسوم لرمسيس الثانى.

للمبانى الكثيرة التى أقامها رمسيس الثانى. وقد بنى معبداً فى هذه المنطقة وفى أحد رسومه يُشاهد رمسيس الثانى يقدم الخمر للإله «حور» وفى رسم آخر نشاهد اثنين من الموظفين يتعبدان لخرطوشة اسم رمسيس الثانى. وفى رسم ثالث نرى رمسيس الثانى يتعبد للإلهة «حتحور». كما وجدت قطعة حجر عليها رسم لموظف يتعبد للملك «رمسيس الثانى». كذلك وجد اسم رمسيس الثانى على عدد من أعمدة المعبد وعلى عتبة بابه. ووجدت لوحة مهشمة رسم عليها رمسيس الثانى يتبعه ابنه «مرى آمون». وشكل ١٥٠ يبين بقايا معبد «حتحور» وبعض اللوحات المقامة.

ب - آثار رمسيس الثانى فى القليوبية والقاهرة :

٢٩ - **تل اليهودية** : وتقع ٢ كم شرق شبين القناطر. ومن أكثر الأشياء المحيرة التى وجدت بها هو بقايا سور يحيط بمساحة مربعة تقريبا ٥١٥×٤٩٠ مترا وهو سور عريض مغطى بالمصيص وهو عمودى تقريبا من الناحية الداخلية. وله ميل كبير من الناحية الخارجية. وهو ماليس له مثيل فى المبانى المصرية لذلك أرجع علماء الآثار تصميمه وبناءه إلى عمال أسيويين فى فترة حكم الهكسوس ولذلك سمى «معسكر الهكسوس». وينفى آخرون بناءه على أسس عسكرية ويرجعون تصميمه إلى اعتبارات دينية. إذ أقام رمسيس الثانى داخله معبدا. وعثر على تمثال ضخم له بالقرب من بوابة هذا المعبد. أما سبب التسمية بتل اليهودية فيرجع إلى ما وجد من بقايا معبد أقامه الحبر اليهودى «أونياس» والذى كان قد نُفى إلى مصر وأعطاه بطليموس السادس الإذن ببنائه. وظل المعبد قائما لمدة مائتى عام إلى أن أغلقه ڤسباسيان عام ٧١ ميلادية. (أطلس مصر القديمة - چون بينز - ص ١٧٤).

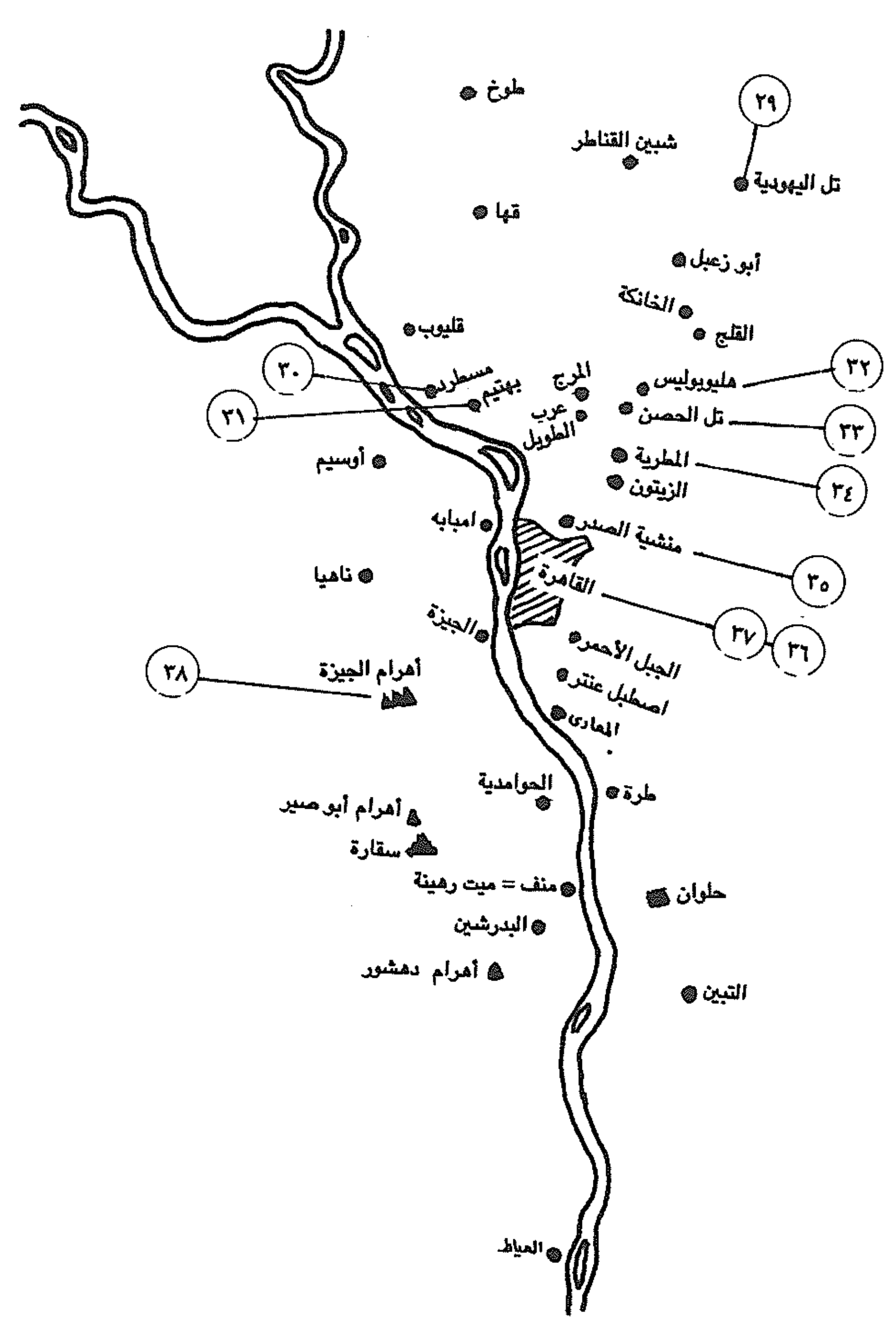
٣٠ - **مسطرد** : وجد فيها أثران من حجر الكوارتزت عليهما اسم رمسيس الثانى.

٣١ - **بهتيم** : وجدت قاعدة تمثال للملكة نفرتارى.

٣٢ - **جبانة هليوپوليس** : كُشِف عن مقبرة للعجل منفيس من عهد رمسيس الثانى على مسافة كيلو متر من قرية «عرب الأطاولة».

٣٣ - **تل الحصن** : أقام سيتى الأول معبدا بها. وقد عثر على اسم رمسيس الثانى على عوارض أبواب وعلى قطع من الحجر وقطعة من محراب عليها نقش يمثل رمسيس الثانى يقدم «ماعت» للآلهة. ووجدت لوحة لرمسيس الثانى يقدِّم مسلة للإله «حوارختى» نقلت إلى متحف جلاسجوبانجلترا.

٣٤ - **المطرية** : توجه مسلة أقامها سيتى الأول ولكنه تركها بدون نقش. وقد قام رمسيس الثانى بنقشها. وفى تواضع غير معهود منه سجل أعمال والده كما سجل أعماله أيضا. وفى هذه الكتابة سجل أن سيتى قد ملأ هليوپوليس بالمسلات التى تتألق بما ترسله من شعاع. ثم



شكل ١٥١ – آثار رمسيس الثانى فى القليوبية والقاهرة والجيزة .

يعود إلى الفخر بنفسه فيذكر أنه قد أقام آثارا مثل نجوم السماء!

٣٥ – **منشية الصدر** : توجه لوحة مؤرخة بالسنة الثامنة من حكم رمسيس الثانى.

٣٦ – **المتحف المصرى** بالقاهرة :

– أثر رقم ٦١٧،٦١٣ : تمثالان هائلان من الجرانيت لأحد ملوك الأسرة ١٣ وقد نقش عليهما خرطوش باسم أبوبى أحد ملوك الهكسوس ثم اسم رمسيس الثانى من بعده.

– رقم ٦٣٣٤ : تمثال رائع لرمسيس الثانى راكعا على ركبتيه ويقدم القربان.

– رقم ٤٢١٢ – ٤٢١٣ : سواران لرمسيس الثانى يتميزان بالغلظة وعدم الإتقان.

٣٧ – **القاهرة** : وجد جزء من تمثال له (موجود الآن فى متحف فلورنسا بإيطاليا).

وجدت قطعة حجر عليها اسمه – بجوار باب زويلة.

وجدت مسلة من الجرانيت الأسود عليها اسم رمسيس الثانى.

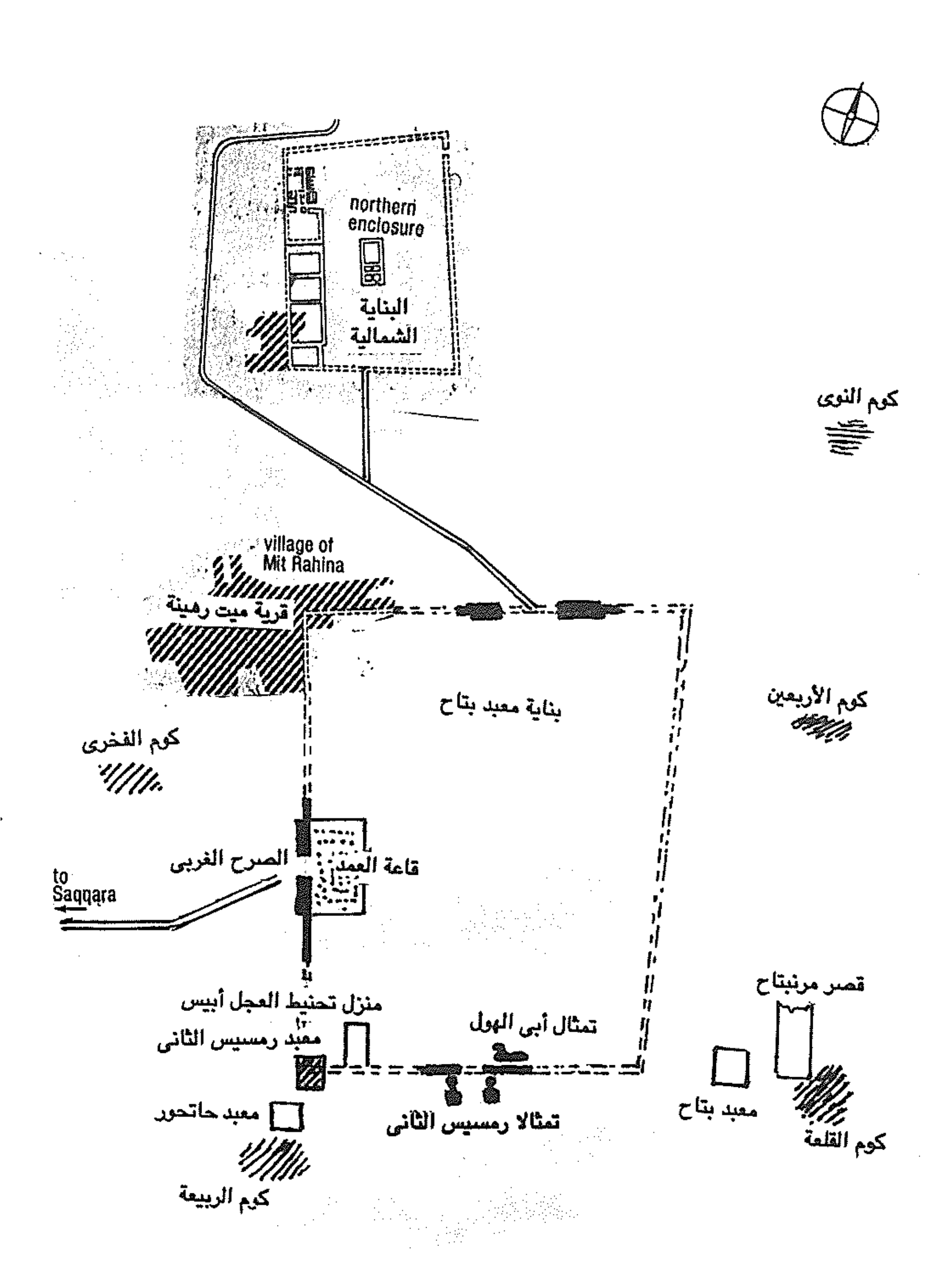
– قطعة من تمثال الملكة نفرتارى زوجة رمسيس الثانى (موجودة بمتحف بروكسل فى بلجيكا).

– قطعة من مسلة من الجرانيت عليها اسم رمسيس الثانى عثر عليها فى مصر القديمة وهى موجودة بالمتحف المصرى.

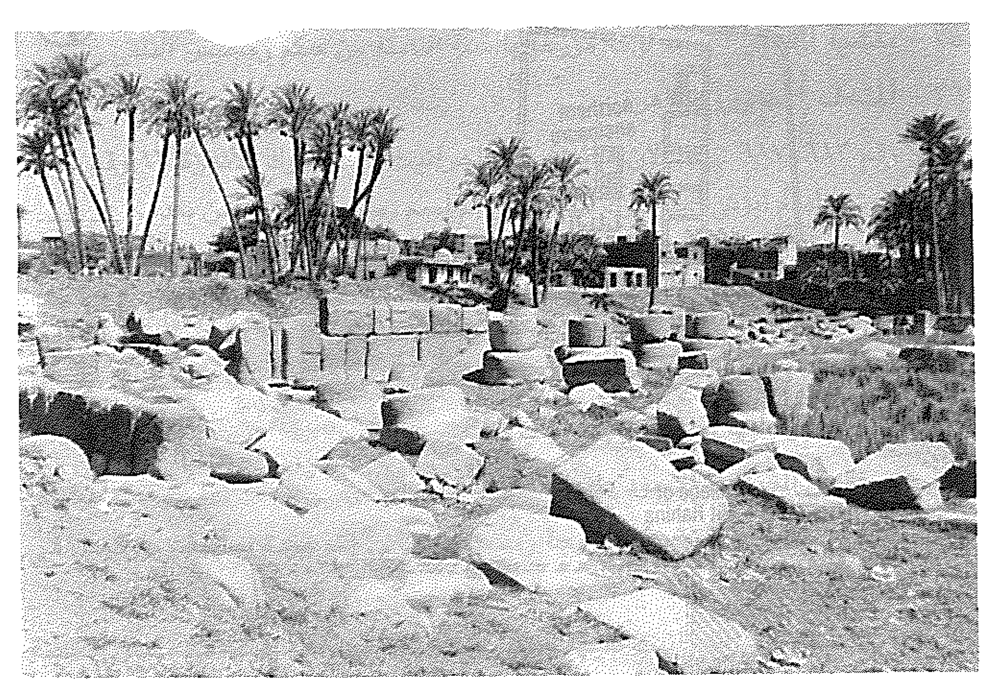
جـ – آثار الوجة القبلى :

٣٨ – **منف وميت رهينة** : منف أو ممفيس Memphis كانت عاصمة المقاطعة الأولى لمصر السفلى. وكانت العاصمة فى عصر الأسرات الأولى والمملكة القديمة. وكانت تمتد لمسافة ٣٠كم طولا. ومن أهم المنشئات التى كانت بها هو معبد «بتاح» الذى يقع بجوار قرية ميت رهينة الحالية (شكل ١٥٢) وقد قام باكتشاف المنطقة العالم فلندرز پترى عام ١٩٠٨ – ١٩١٣ ثم توقفت الحفريات لقربها من المنطقة الآهلة بالسكان. وقد قام رمسيس الثانى بإضافة أجزاء كبيرة إلى المعبد تشمل الصرح والبوابة الغربية وقاعة العمد. ويرى فى الرسم باقى الأجزاء التى كان قد بناها أمنحتب الثالث وتحتمس الثالث. كما أن رمسيس الثانى أضاف البوابات الشمالية والجنوبية ووضع لنفسه تمثالين ضخمين من الجرانيت خارج البوابة الجنوبية. وتمثالا لنفسه على هيئة أبى الهول داخل البوابة.

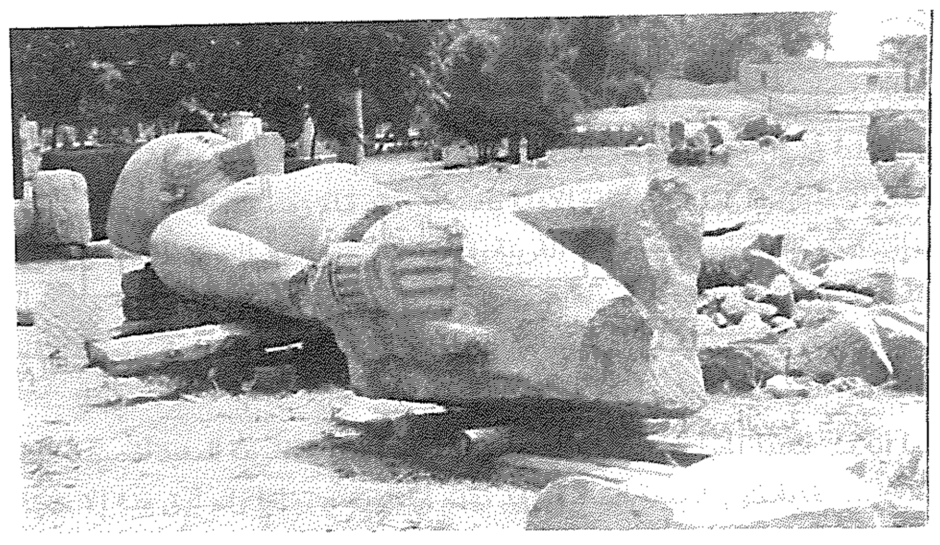
كما أنه بنى معبداً آخرا صغيرا غير بعيد من الزاوية الجنوبية الغربية للمعبد خصصه للإلهة «حتحور» عند قرية كوم الربيعة الحالية. وقد تهدم معبد بتاح تماما ولم يبق منه إلا حجارة مبعثرة وبعض قواعد الأعمدة التى كان رمسيس الثانى قد أقامها (شكل ١٥٣). وقد نقل تمثال أبى الهول – وهو مصنوع من المرمر – إلى المتحف المصرى.



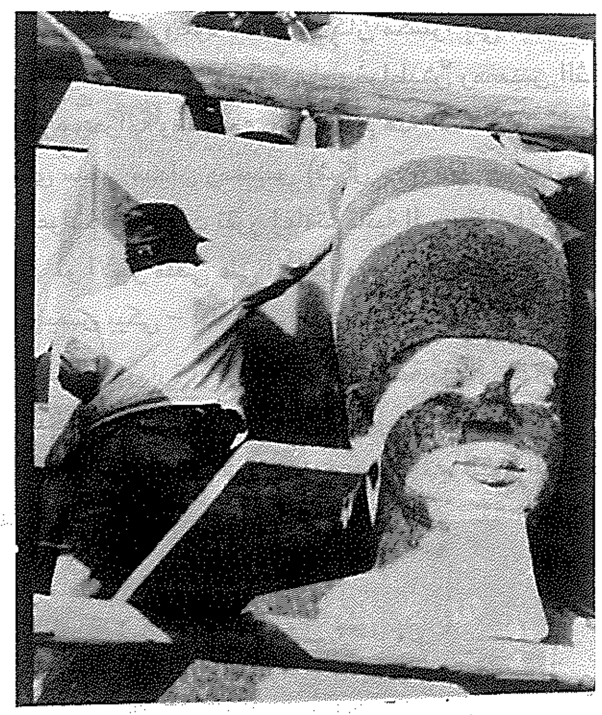
شكل ١٥٢ – رسم للحرم المقدس لمعبد «بتاح» فى منف .



شكل ١٥٣ – بقايا معبد «بتاح» فى منف .



شكل ١٥٤ – التمثال الضخم الذى وجد مكسرا فى ميت رهينة وهو من الجرانيت .



شكل ١٥٥ أ – تمثال رمسيس الثانى بميت رهينة أثناء ترميمه .



شكل ١٥٥ ب – تمثال رمسيس الثانى وقد أقيم فى ميدان محطة مصر بالقاهرة وقد سمى ميدان رمسيس .

وأحد التمثالين الضخمين ويبلغ وطوله ٢٦ قدما كان مكسرا إلى عدة قطع والتاج مفصول عنه (شكل ١٥٤). ويبلغ ارتفاع الرأس ٦,٥ قدما. وخراطيش رمسيس الثانى محفورة على كتفى التمثال وعلى صدره وحزامه ومعصمه. وتم ترميم هذا التمثال (شكل ١٥٥ أ) وأقيم فى ميدان محطة مصر الذى سمى ميدان رمسيس (شكل ١٥٥ ب). وبعد ازدياد المرور فى هذا الميدان وخوفا عليه من عوادم السيارات تقرر إعادته ثانية إلى مكانه الأصلى فى ميت رهينة. أما التمثال الثانى فكان هو الآخر ملقى على الأرض ويغرق كل عام فى مياه الفيضان إلى أن رفع وأقيم على قاعدة (جيمس بيكى - آثار مصر القديمة جـ١ ص٣٠٦).

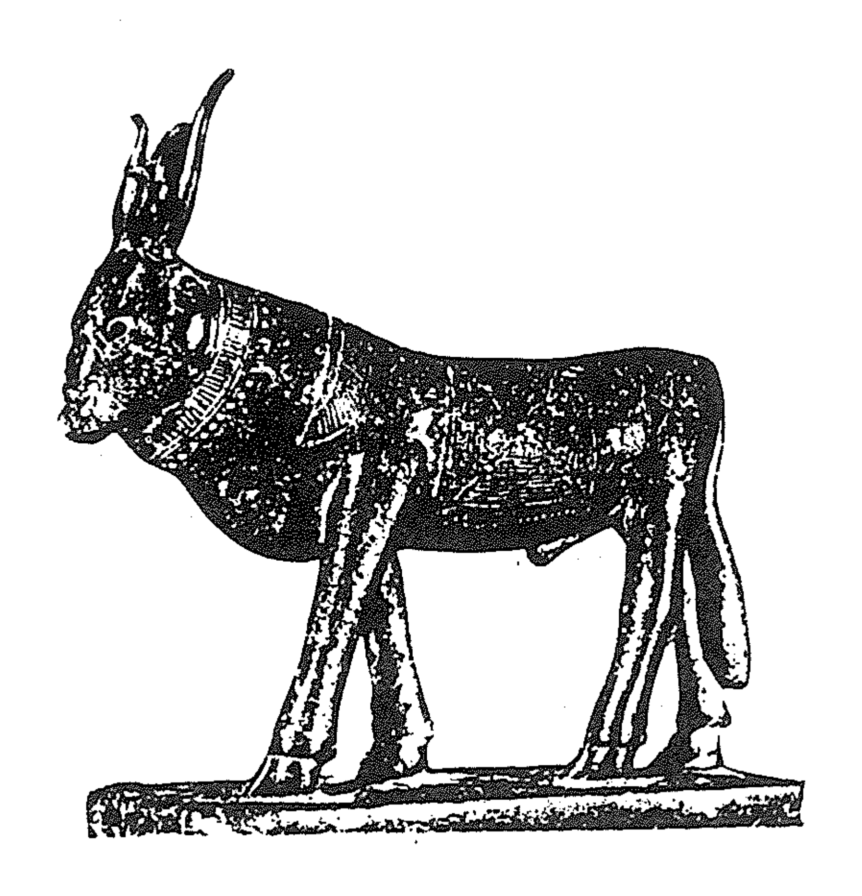
كذلك قام رمسيس الثانى بزيارة أبى الهول وترك لوحة تذكارا لهذه الزيارة يظهر فيها رمسيس الثانى يحرق البخور ويقدم قربانا لأبى الهول. ولوحة أخرى موجودة بالمتحف البريطانى كتب عليها أن الزيارة تمت فى السنة الأولى من عهد جلالته، الثور القوى محبوب «ماعت» حامى مصر والمسيطر على الممالك الأجنبية الكثير السنوات ..... وتستمر ٦ أسطر أخرى فى مدح رمسيس الثانى.

السرابيوم أو مقبرة العجول المقدسة . Serapeum :

لا بأس قبل الحديث عن السرابيوم من ذكر نبذة عن عبادة العجل وكيف نشأت لأنها أصبحت من أكثر العبادات انتشارا بين المصريين. وتأثر بها بنو إسرائيل فما إن غاب موسى عليه السلام عنهم فترة تلقيه ألواح الشريعة من ربه حتى صنعوا عجلا وعبدوه وهو ما سيجىء ذكره بالتفصيل فيما بعد (ص ٩٩٤).

كان الثور منذ أقدم العصور يُنظر إليه بإجلال وتقديس. فالثور يمثل الخصب من ناحيتين:

أولا: هو رمز القوة - القوة الإخصابية وحارثا للأرض. ثانيا: هو سيد الماشية التى تنتج اللحم واللبن والزبد والجلد. وبهذا أصبح رمزا للرياسة والملكية حتى إن الملوك والفراعين كانوا يصفون أنفسهم «الثور القوى». وقد بدأ تقديس الثور منذ عصر ما قبل الأسرات وقد مُثِّل الملك نارمر (مينا) موحد القطرين على هيئة ثور على اللوحة المصنوعة من الإردواز والمعروفة باسمه. وعند ظهور العلامات المميزة للقداسة فى أحد العجول يحظُر بيعه ويُعتبر بيعه أحد الذنوب الكبيرة. والعلامات التى يمكن للكهنة بواسطتها التعرف على عجل «أبيس» هى أن يكون أسود اللون وعلى جبهته علامة بيضاء مربعة الشكل وعلامة بيضاء فى صورة هلال على جانبيه وصورة نسر على رقبته (شكل ١٥٦) . وفى عهد العمارنة ظهر عجل «منفيس» فى هليوبوليس وكانت مميزاته أن يكون لونه أسود وعلى جبهته علامة بيضاء مثلثة الشكل وفى ذيلة شعر مزدوج على شكل سنابل (جيمس بيكى - آثار مصر القديمة جـ١ ص ٣١٠). وعند ظهور عجل مقدس يقام احتفال وفيه كان الملك يعدو بجانب العجل. ثم يخصص للعجل عدد من الكهنة مهمتهم القيام على خدمته والعناية به وتقبل القرابين. ثم يقاد العجل إلى المعبد الخاص به والذى



شكل ١٥٦ – تمثال من البرونز للإله «العجل أبيس» .

(المتحف البريطانى)

يبقى فيه ولا يخرج إلا ليشترك فى الاحتفال الذى كان يتكرر كل عام. وتقدم للعجل القرابين والهدايا تعبدا وعند طلب قضاء حاجات من الإله الثور. وبالطبع كان الكهنة هم الذين يتمتعون بهذه القرابين من فواكه ونبيذ ولحوم.

وعند موت أحد العجول المقدسة كان الاعتقاد أنه ذهب إلى السماء بروحه أما جسمه فكان يحنط ويدفن على حسب الشعائر الأوزيرية ويوضع فى تابوت من الخشب (ثم بدءا من الأسرة ٢٦ كان يصنع من الجرانيت) وتؤدى الشعائر الجنازية وكانت تستغرق سبعين يوما ثم ينزل التابوت فى المقبرة التى عملت له.

وتحالف كهنة العجل أبيس فى هليوبوليس مع كهنة الإله بتاح فى منف لما رأوا أن هذا التحالف سيعود بالخير عليهما معا إذ أن دائرة النفوذ واحدة فأوجدوا علاقة وثيقة بين «أبيس» وإله الشمس «أتوم». وقرص الشمس الذى كان يحمله أبيس بين قرنيه شاهد على صبغته الشمسية. وفى عصر الدولة الحديثة أخذ عجل أبيس مركزا متقدما فى العبادة. وخاصة فى عهد الأسرة التاسعة عشرة أى الرعامسة وأصبحت منف أهم مركز لعبادته إذ هو ينتسب إلى الإله «بتاح» إله منف .

وكان رمسيس الثانى قد رزق من زوجته الثانية «إست نفرت» بابنه «خعمواست» ولاحظ عزوفه عن الجندية والحروب. وبراعته فى القراءة والكتابة وميله إلى الشئون الدينية. ومن ثَم فقد عينه مساعدا لكبير كهنة «بتاح» فى منف. وحدث بعد مدة قصيرة أن توفى العجل أبيس – الحيوان المقدس عند بتاح – وكان المعتاد أن يُحنط العجل ويدفن فى احتفال عظيم فى الجبانة. وكانت حجرة الدفن تشمل حجرة نحتت فى الصخر تحت الأرض يوصل إليها طريق منحدر. وفوق هذا المدفن كانت تقام مقصورة أو محراب وأطلق عليها اليونانيون اسم «السرابيوم». وكان لا يدفن فى المدفن الواحد إلا عجل واحد. فلما جاء خعمواست – قام بعمل مدفن جماعى لعجول أبيس. ولاشك أن ذلك كان بعد استشارة والده رمسيس الثانى وموافقته. فقام بنحت جبانة شاسعة تتألف من حجرة تحت الأرض يبلغ طولها نحو ٣٠ مترا فى عمق الصخر. وعلى الجانبين أعد حجرات عديدة – لكل عجل حجرة. وبعد الدفن كان البناءون يسدّون مدخل الحجرة بالمبانى بعد وضع جسد العجل المحنط وكمية من المجوهرات. معه وقد كان عالم الآثار الفرنسى مريت باشا هو الذى عثر على السرابيوم. فى القرن الماضى وقام بنقل كل الآثار والحلى إلى فرنسا . وهى تعد من أنفس الآثار وتعد بآلاف القطع. كذلك فإن خعمواست بدلا من المقصورة التى كانت تبنى لكل عجل بنى معبدا واحدا تقام فيه الشعائر الجنازية للعجول قبل دفنها وكذلك لتلقى القرابين والصلوات من عُبَّاد العجل. وقام بكتابة لوحة تذكارية يقول فيها: أنا الكاهن الأمير خعمواست. أيها الكهنة وأصحاب المقام الرفيع وزوار معبد بتاح. وكل كاتب ذو معرفة . وكل من يدخل هذا المعبد الذى بنيته لأبيس الحى والذى سيشاهد الأعمال التى عملتها

ونحتُّها فى الصخر وسيرى أعمالى الحسنة وتبرعاتى العظيمة. والتى لم يعمل مثلها من قبل. وإن الآلهة فى معبد أبيس وصورها التى عملتها بالذهب والحجارة الكريمة. وخصصت لها القرابين اليومية. وقرابين فى الأعياد القمرية والأعياد السنوية والأيام الأخرى على مدار السنة. وخصصت للمعبد الكهنة الذين يقيمون صلوات التبجيل.. ويستمر فى تعداد ماعمله. ثم يختم بقوله: تذكروا اسمى عندما تعملون مثل هذه الأعمال فى المستقبل. أيها الإله العظيم: أبيس – سوكر – أوزريس. أنا الكاهن الأمير خعمواست.

ونلاحظ فى هذا نزعة الفخر والزهو بأعماله. وبالطبع ورثها عن والده رمسيس الثانى.

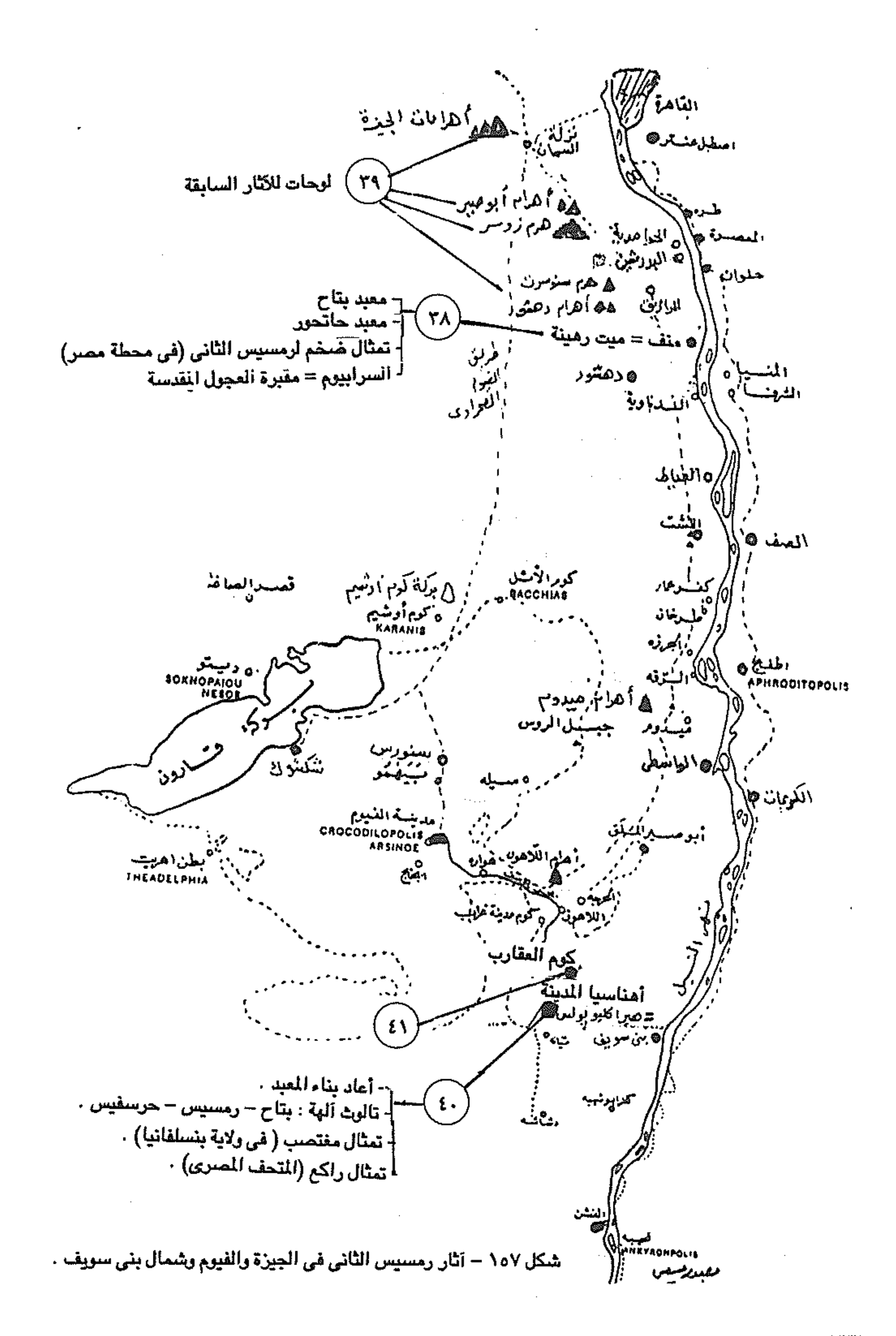
ولما مات خعمواست دفن فى السرابيوم.

٣٩ – **لوحات للآثار السابقة** : محاكاةً لما عمله والده رمسيس الثانى – أو لعله بتوجيه منه وأوامره – قام خعمواست بترميم آثار الأقدمين فى الجيزة وسقارة ليُحمد لهما هذا العمل فى المستقبل على أنهما حماة لذكرى الملوك الأسلاف وأنهما حُماة ومجددون لهذه الأثار الخالدة فى مصر. فقام بترميم جميع الأهرامات التى فى منطقة الجيزة وسقارة ومعبد الشمس. وفى كل أثر من هذه الأثار وضع لوحة بها اسم الملك الذى أقامها واسم رمسيس الثانى على أنه المتبرع بهذا التجديد واسم خعمواست على أنه هو المنفذ. كل ذلك بحروف كبيرة. ويشبهها الأثريون بأنها مثل البطاقات التى توضع بجوار كل أثر فى المتاحف الحديثة. وضع هذه اللوحات بجوار : هرم زوسر المدّرج. القبر المربع للملك شبس كاف . الهرم الصغير لأوناس. الأهرامات الثلاثة خوفو وخفرع ومنقرع. هرم سمورع ومعبد الشمس. وعلى لوحة هرم زوسر المدرج سُجِّل أن هذا الترميم قد بدىء فيه فى السنة ٣٦ من حكم رمسيس الثانى فى الشهر الثالث من شهور الصيف فى اليوم العاشر.

٤٠ – **أهناسيا المدينة** : وتقع ١٥كم غرب بنى سويف واسمها الفرعونى هو «هنن – نسوت». وكان الإله راعى المدينة هو حرسفيس ذو رأس الكبش وهو يقارَن بهرقل اليونانى ولذلك سميت المدينة هيراكليوپوليس.

وقد أعاد رمسيس الثانى بناء معبد هذه المدينة. وقد وجد له مجموعة آلهة تمثله بين الإلهين «بتاح» و «حرسفيس» وقد وجد ملقى أمام ردهة المعبد ومحفوظ الآن بالمتحف المصرى. كذلك وجد عمود نخلى الشكل عليه اسم رمسيس الثانى موجود بالمتحف البريطانى. وكذلك وجد تمثال مغتصب عليه اسم رمسيس الثانى وهو الآن بمتحف جامعة بنسلڤانيا بالولايات المتحدة. ووجدت أيضا قطعة من تمثال راكع موجودة بالمتحف المصرى.

٤١ – **كوم العقارب** : بالقرب من أهناسيا المدينة. غرب بنى سويف. أقام رمسيس الثانى فى هذه البقعة معبدا ولكنه مخرب تماما الآن وقد عثر فيه على تمثالين جالسين لرمسيس الثانى (مغتصبين من سنوسرت الثالث) وقد اغتصبهما مرنبتاح فنسبهما بدوره لنفسه .



شكل ١٥٧ – آثار رمسيس الثانى فى الجيزة والفيوم وشمال بنى سويف .

٤٢ – **طهنا الجبل** : وهى مدينة أخوريس Akoris القديمة – ١٣ كيلو مترا شمال المنيا على البر الشرقى للنيل. أقام فيها رمسيس الثانى مبانى تهدمت ولم يبق منها إلا قطع حجارة عليها اسمه واستعملها خلفاؤه فى مبانى لهم. والمدينة بها بقايا ٣ معابد صغيرة وجبانة من عصور مختلفة.

٤٣ – **الأشمونين** (هرموپوليس) وهى تقع حوالى ١٢ كيلو مترا شمال غرب ملوى. وماهو قائم بها حاليا هو صفان من الأعمدة الرومانية الطراز وهى بقايا معبد. ولكن إلى الجنوب من هذه بحوالى ٢٠٠ متر توجد بوابة معبد كان قد بناه رمسيس الثانى للإله «بتاح» واستعمل فيه أكثر من ١٥٠٠ قطعة حجر أخذها من معبد أخناتون بالعمارنة التى تقع إلى الجنوب قليلا. كما وُجد لرمسيس الثانى تمثال ضخم من الجرانيت وقد اغتصبه ابنه مرنبتاح وهو موجود بالمتحف المصرى. كذلك وجدت لرمسيس الثانى تماثيل ضخمة على جانبى مدخل المعبد.

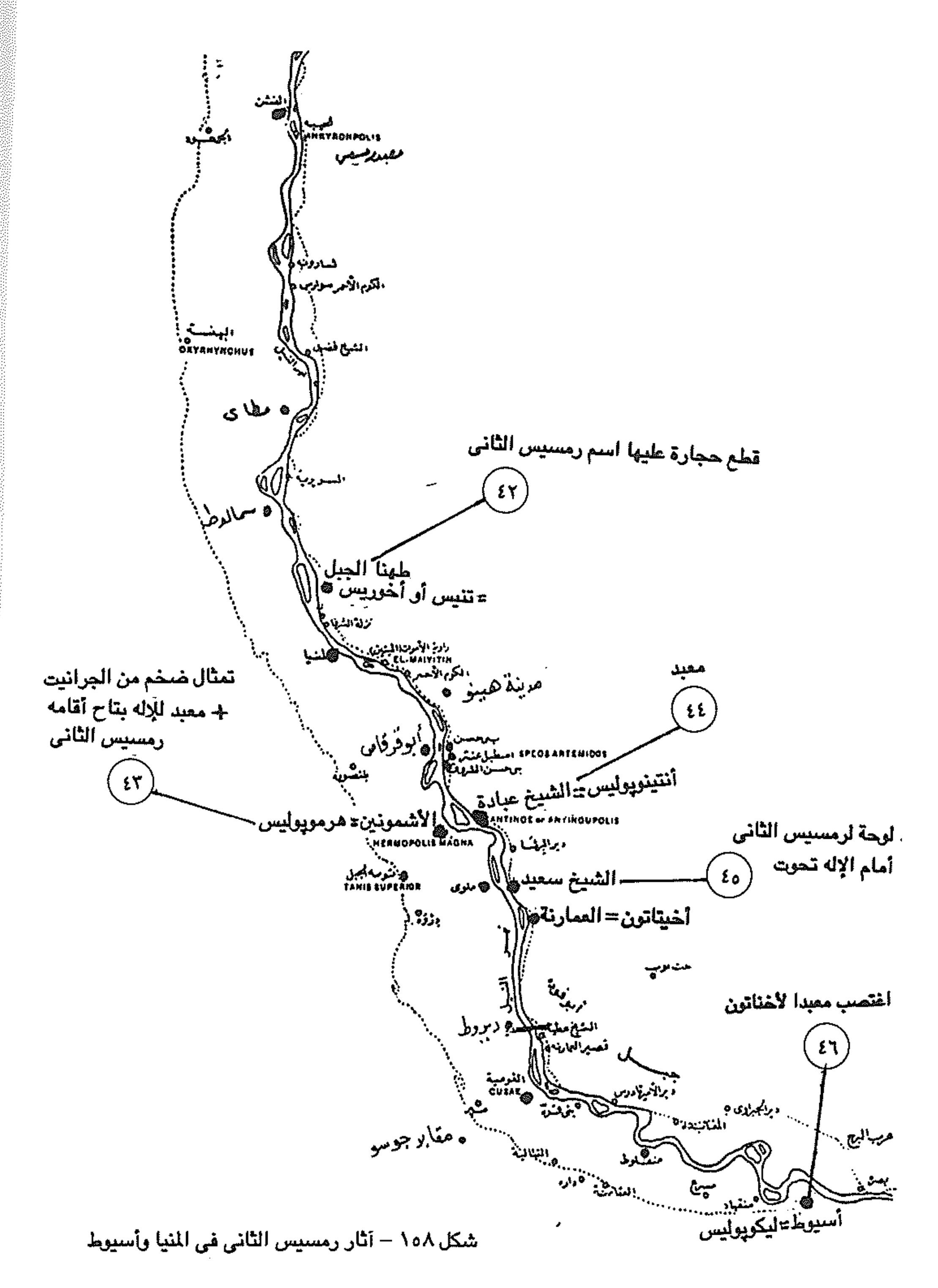
٤٤ – **الشيخ عبادة** : وهى أنتينوپوليس القديمة وتقع على البر الشرقى للنيل مقابل الأشمونين. أقام رمسيس الثانى بها معبدا لايزال عدد من أعمدة البهو قائما مكانه عليها رسم لرمسيس الثانى يقدم القربان لعديد من الآلهة.

٤٥ – **الشيخ سعيد** : على البر الشرقى للنيل مقابل ملوى: وجدت أجزاء من لوحة ظهر فيها رمسيس الثانى أمام الإله «تحوت».

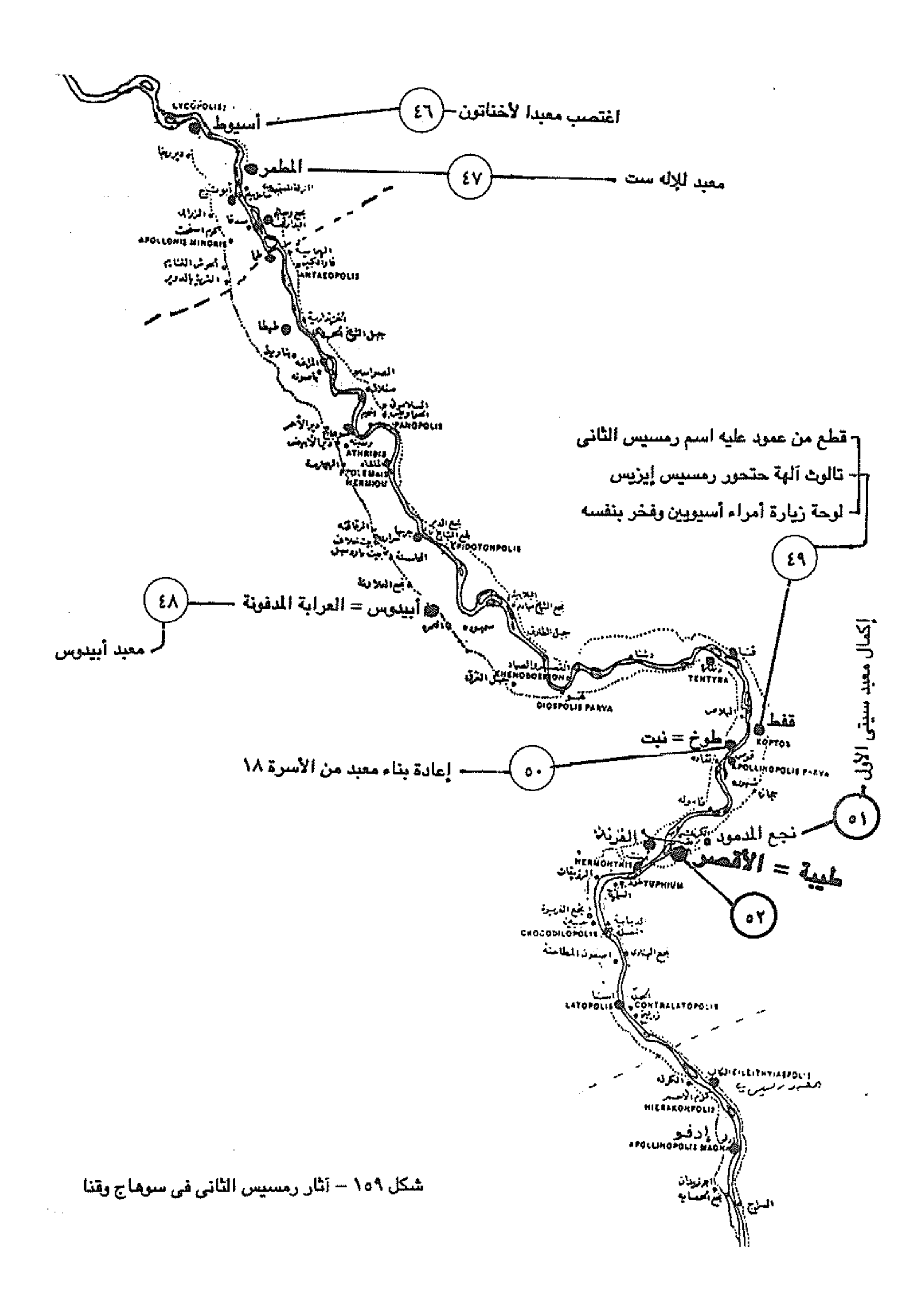
٤٦ – **أسيوط** : وكانت عاصمة المقاطعة ١٣ من مقاطعات الصعيد. وقد اغتصب رمسيس الثانى معبدا أقامه أخناتون فى هذه البلدة.

٤٧ – **المطمر** : على الضفة الشرقية للنيل حوالى ٢كم جنوب أسيوط ومسافة مثلها شمال البدارى. أقام بها رمسيس الثانى معبدا للإله «ست» واستعمل فى بنائه أحجارا مغتصبة من معبد كان قد أقامه أخناتون .

٤٨ – **العرابة المدفونة = أبيدوس** : تقع جنوبى مدينة جرجا. وهى المدينة المصرية القديمة «أبيدچو» وكانت أهم أماكن الدفن فى عصر ما قبل الأسرات وعصر الأسرات الأولى. وابتداء من الأسرة الخامسة والسادسة كانت ديانة أوزريس هى الديانة الرئيسية فى مصر الوسطى. وكانت تقام احتفالات فى المعابد لإحياء ذكرى عودة أوزريس إلى الحياة. وكان كثير من الناس يحبون المشاركة فى احتفالات بعث أوزريس هذه بوضع لوحات باسمهم فى معبد أوزريس وكانت المدافن تمتد لمسافة كبيرة. ويعتبر المرتفع الموجود عند قرية كوم السلطان هو بداية مدينة أبيدوس القديمة (شكل ١٦٠) وإلى الشرق منه يوجد معبد أوزريس وهو مبنى باللبن فى معظمه وأجزاء قليلة هى التى من الحجارة مثل عوارض الأبواب وهذا يفسر تدميره بالكامل.



شكل ١٥٨ – آثار رمسيس الثانى فى المنيا وأسيوط



شكل ١٥٩ – آثار رمسيس الثانى فى سوهاج وقنا

وفى أبيدوس أقام سيتى الأول معبدا يسمى معبد العرابة الكبير. وكانت تقام فيه شعائر آلهة مصر الستة العظام: «بتاح» و «آمون» و «حوراختى» و «أوزير وإيزيس وحورس» ولكل منهم محراب فى المعبد. وهذا المعبد الفخم بما فيه من نقوش بارزة أنيقة الصنع حفظت ألوانها حتى الآن يعد من أثمن الذخائر الفنية القديمة. ومات سيتى الأول قبل أن يكمله فأتمه ابنه رمسيس الثانى غير أنه لم يحافظ على نفس المستوى الفنى ولذلك يمكن للشخص العادى إدراك الفرق بين جمال ما أقامه سيتى وقبح ما أنجزه رمسيس الثانى فى هذا المعبد (سليم حسن. مصر القديمة جـ٦ ص٦٣). وكان به (شكل ١٦١) صرح بوابة أول مهدم تماما ثم ردهة أولى ثم صرح البوابة الثانية موجود جزء منه ثم ردهة ثانية تليها قاعة العمد الأولى بها ٢٤ عمودا ثم قاعة العمد الثانية وبها ٣٦ عمودا. وكانت هناك ممرات تؤدى إلى محاريب الآلهة. وتعتبر النقوش التى قام بها رمسيس الثانى فى قاعة العمد الأولى من النوع الرخيص الذى أصبح طرازا عاما لرمسيس الثانى فى جميع نقوش مبانيه الدينية. وقد تهدم المعبد ولم يبق منه إلا أجزاء قليلة بارتفاع مترين من سطح الأرض.

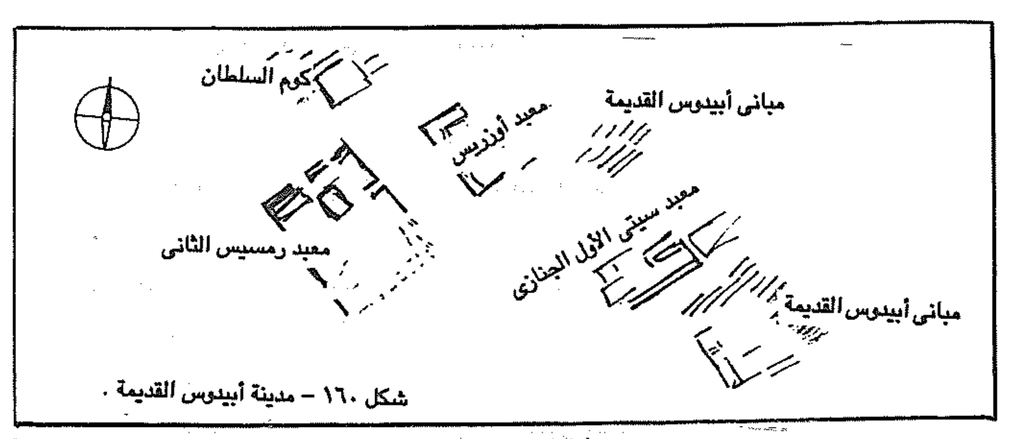
٤٩ – **قفط** : وهى المدينة المصرية القديمة جبتو Gebto والتى اشتق منها اسم Egypt فيما بعد – وكانت عاصمة المقاطعة الخامسة لمصر العليا. وأهميتها ترجع لارتباطها بالطريق الذى يوصل من وادى النيل إلى البحر الأحمر واعتُبر إلهها «مين» هو الإله الحامى للصحراء الشرقية. وفى مرحلة تالية أدخل معه الإله «حورس» وأصبح الصقران «حورس» و «مين» هما شعار المنطقة. وقد كشف فلندز بترى عام ١٨٩٣ عن ثلاثة معابد يحيطها سور واحد. كلها قد بنيت فى عصور متأخرة (رومانية) على أنقاض معابد سابقة. وقد وجد بالمنطقة قطع من عمود باسم رمسيس الثانى وثالوث آلهة مكون من رمسيس الثانى بين الإلهتين «حتحور» و «إيزيس» موجود بالمتحف المصرى. كما وجدت لوحة عليها تسجيل لزيارة أمراء أسيويين لمصر. وعدة أسطر لرمسيس الثانى يفخر بنفسه ويثبت انتصاره على أعدائه ومجيئهم لتقديم الجزية والهدايا.

٥٠ – **طوخ (نبت)**: أعاد رمسيس الثانى بناء معبد كان قد أقيم فى عهد الأسرة ١٨.

٥١ – **نجع المدمود** (١كم شمال شرق الأقصر): أقام سيتى الأول معبداً فى تلك الجهة أتمه ابنه رمسيس الثانى ولكنه تهدم ولم يبق منه إلا قطع من الحجارة عليها اسم سيتى ورمسيس الثانى.

٥٢ – **طيبة = الأقصر** :

تقع مدينة الأقصر على الضفة الشرقية لنهر النيل (شكل ١٦٢) ويقابلها فى البر الغربى مدينة القرنة. وكانت عاصمة مصر لعديد من الأسرات وزاد ثقلها السياسى فى الأسرة الثامنة عشرة إذ كان أحمس – محرر مصر من الهكسوس – منها. وقد أطلق عليها اسم «طيبة ذات المائة باب». فقبل الحرب كان الفرعون يأتى إليها ليباركه الإله «آمون» وليبارك الجيوش. ثم تخرج الجيوش من أبوابها العديدة. وكلها ثقة فى النصر.



شكل ١٦٠ – مدينة أبيدوس القديمة .

بوابة بصرح مهدم

0 م. 50

آبار مياه

البهو الأول

رواق معمد

البهو الثانى

رواق معمد

قاعة العمد الأولى (٢٤ عمودا)

قاعة العمد الثانية (٣٦ عمود)

محاريب

مجمع أوزريس

صالة على هيئة تابوت

الصالة الرئيسية

قاعة المدخل

طرقة المدخل

بوابة خارجية

حجرات خدمات

خدمات

magazines

المحاريب :

١ – الملك
٢ – بتاح
٣ – رع – حوارختى
٤ – آمون رع
٥ – أوزريس
٦ – إيزيس
٧ – حورس
٨ – نفرتم
٩ – بتاح سوخر
١٠ – قاعة نفرتم سوخر
١١ – قائمة الملوك
١٢ – قاعة المراكب
١٣ – قصر ملكى

شكل ١٦١ – معبد رمسيس الثانى فى أبيدوس .

ويمكن أن نلخص آثار طيبة فى الآتى : (شكل ١٦٣) .

أ – آثار البر الشرقى :

١ – معبد الأقصر على شاطىء النيل .

٢ – معبد الكرنك حوالى ٣ كم شمال معبد الأقصر ويربطهما طريق الكباش (شكل ١٦٤).

ب – آثار البر الغربى وفيها القرنة ووادى الملوك ووادى الملكات ومدينة هابو. وما يهمنا .

١ – مقبرة رمسيس الثانى .

٢ – معبد القرنة .

٣ – الرمسيوم وهو المعبد الجنازى لرمسيس الثانى .

هذا بخلاف الآثار الأخرى الموضحة على شكل ١٦٣.

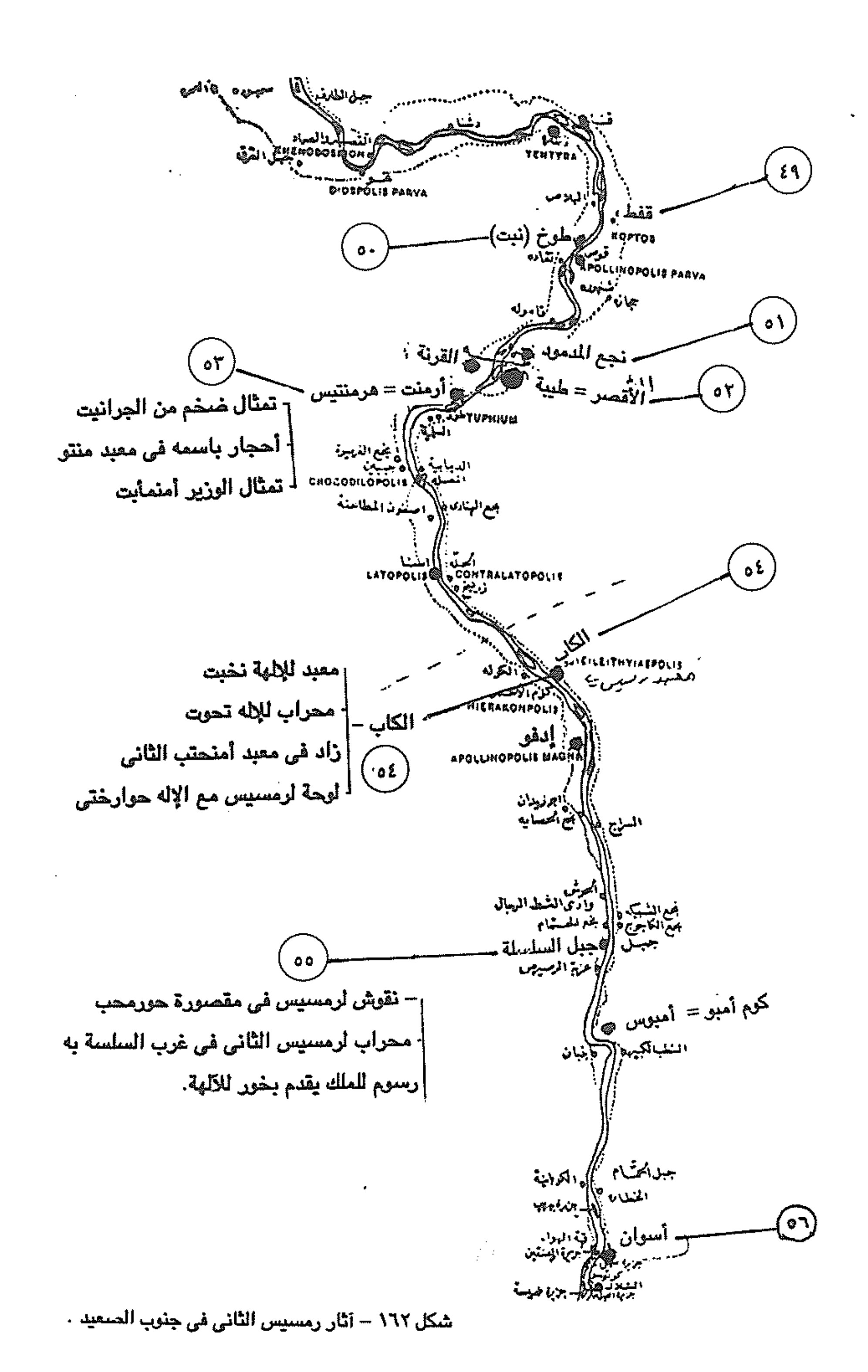
أ – آثار البر الشرقى :

١ – معبد الأقصر :

قام ببناء هذا المعبد فرعونان : أمنحتب الثالث الذى قام ببناء الجزء الداخلى ورمسيس الثانى الذى بنى الجزء الخارجى. وكان يوجد فى المكان ضريح مقدس لثالوث طيبة الإلهى ولكن رمسيس الثانى أدخله فى الساحة التى أقامها. ويبلغ طول المعبد من البوابة الخارجية إلى الحائط الخلفى ٢٦٠ مترا.

وكان المعبد مخصصا لعبادة الإله «آمون» وكان يرتبط بمعبد آمون فى الكرنك. ومرة فى السنة فى الشهر الثانى والثالث من فصل الفيضان كان يقام احتفال دينى طويل تقوم فيه صورة آمون بالكرنك بزيارة توأمه الجنوبى فى الأقصر والذى يوصل بينهما طريق طوله ٣ كيلو مترات على جانبيه تماثيل لأبى الهول برؤوس بشرية. وكان المعبد يتكون عند إنشائه بواسطة أمنحتب الثالث من صالة مستطيلة بها ١٤ عمودا يليها ساحة مفتوحة بها ٦٤ عمودا ثم قاعة بها ٣٢ عمودا فى نهايتها قدس الأقداس. وسنكتفى بالصورة (شكل ١٦٥) والكلام الموجود بها لتغنى عن شرح بقية أجزاء المعبد.

وجاء رمسيس الثانى وزاد عليه من جهة الشمال شرق ساحة بها ٧٤ عمودا أدخل ضمنها الضريح القديم لثالوث طيبة المقدس والمكون من «آمون» فى الوسط و «موت» على اليسار و«خونسو» على اليمين. وبالطبع لم يكن رمسيس الثانى ليتركه دون أن يضيف إليه شيئا فزاد فى تزيينه. ولعل هذا الضريح كان السبب فى انحراف محور مبانى رمسيس الثانى حتى لايكون الضريح فى وسط صرح البوابة. وتنتهى المساحة التى أضافها رمسيس الثانى بصرح بوابة ضخمة لاتزال قائمة إلى الآن (شكل ١٦٦و١٦٧) وكان أمام البوابة مسلتان من الجرانيت الأحمر ارتفاع الواحدة ٢٥ مترا. ولكن واحدة فقط هى التى لاتزال قائمة فى مكانها

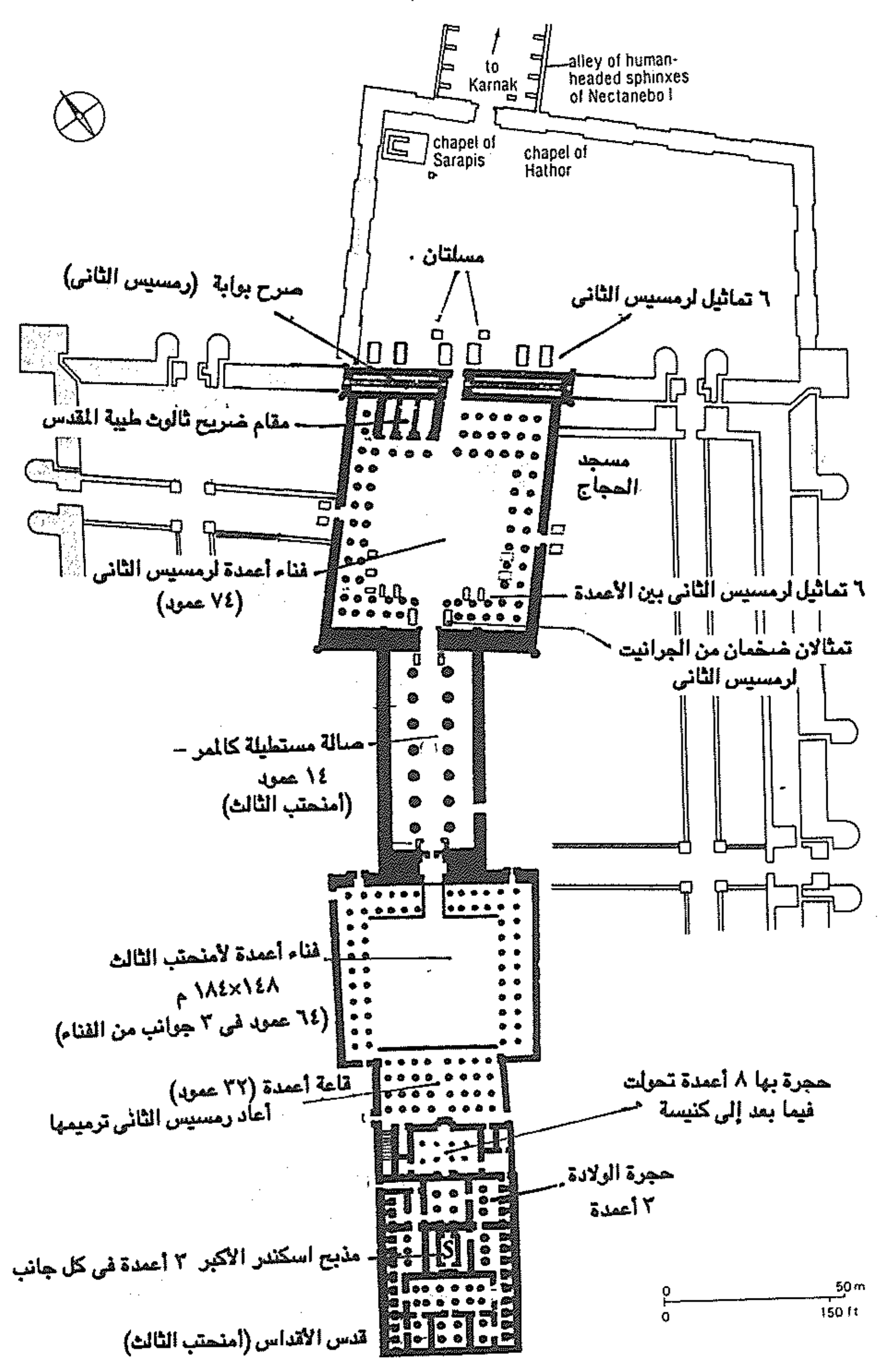


شكل ١٦٢ – آثار رمسيس الثانى فى جنوب الصعيد .

شكل ١٦٣ – رسم تخطيطى عام لمدينة الأقصر والقرنة فى البر الغربى والآثار الموجودة بهما .

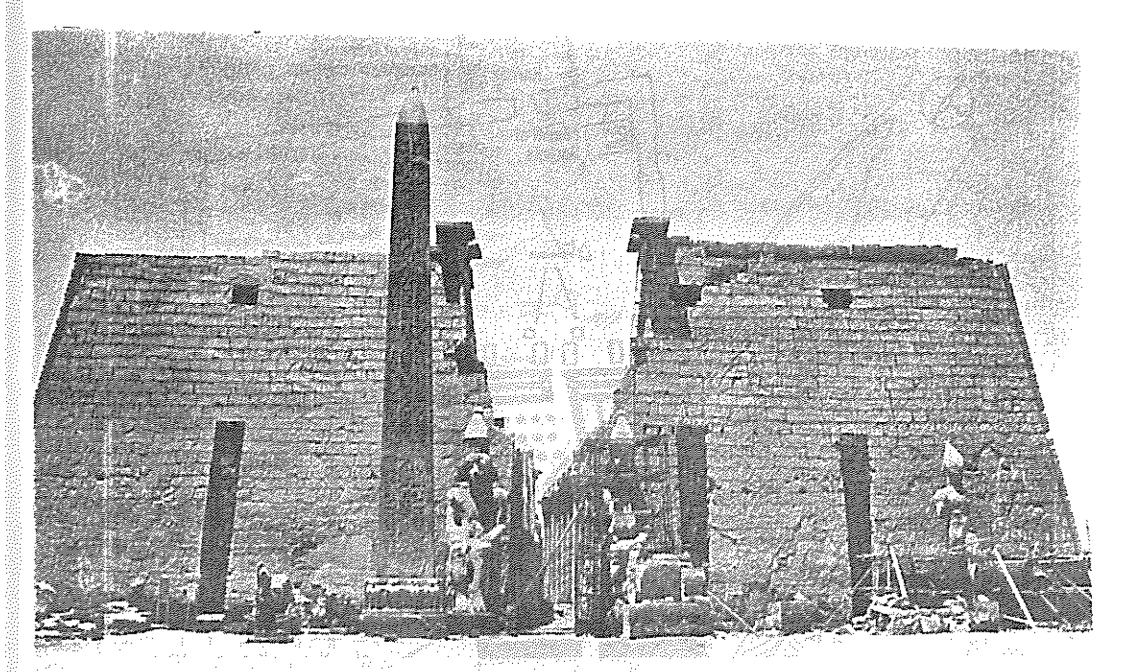


شكل ١٦٤ – طريق الكباش الموصل بين معبد الأقصر ومعابد الكرنك

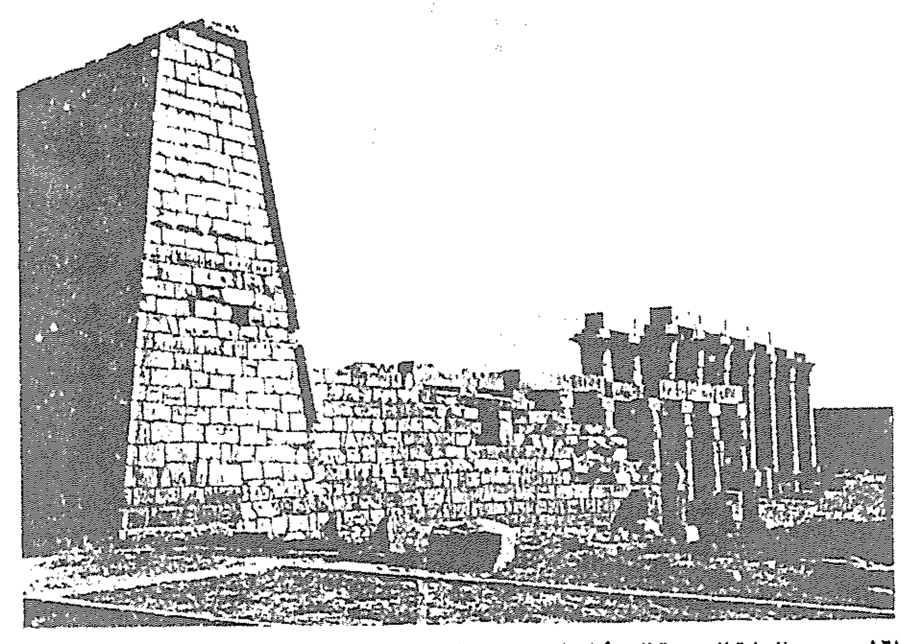


شكل ١٦٥ – رسم تخطيطى لمعبد الأقصر .

نقلا عن كتاب رمسيس المنتصر . كتشن . ص ١٨٠



شكل ١٦٦ – تمثالا رمسيس الثانى الموجودان أمام بوابة معبد الأقصر. وإحدى المسلتين فى مكانها أما الثانية فقد نقلت إلى ميدان الكونكورد فى باريس .



شكل ١٦٧ – صرح البوابة الضخمة التى أقامها رمسيس الثانى فى معبد الأقصر. يليها بعض الأعمدة من قاعة المعمد. أما الأعمدة المرتفعة فهى الـ ١٤ عمودا التى أقامها أمنحتب الثالث.

(شكل ١٦٦) بينما نقلت الثانية إلى ميدان الكونكورد فى باريس. وعلى الواجهة كان يوجد ٦ تماثيل ضخمة لرمسيس الثانى. التمثالان المجاوران للباب يمثلانه جالسا (شكل ١٦٦). كما أقام لنفسه تمثالين ضخمين أيضا داخل الساحة بجوار الأعمدة من الناحية القبلية. ثم يُفضى بنا باب إلى الصالة المستطيلة التى بها ١٤ عمودا والتى بناها أمنحتب الثالث وأقام رمسيس الثانى فيها تمثالين ضخمين له يمثلانه جالسا. وترى الملكة نفرتارى بجوار الرجل اليمنى من الناحية الشمالية – وفى الناحية الجنوبية تمثال مزدوج للإلهين «آمون» و «موت» جالسين.

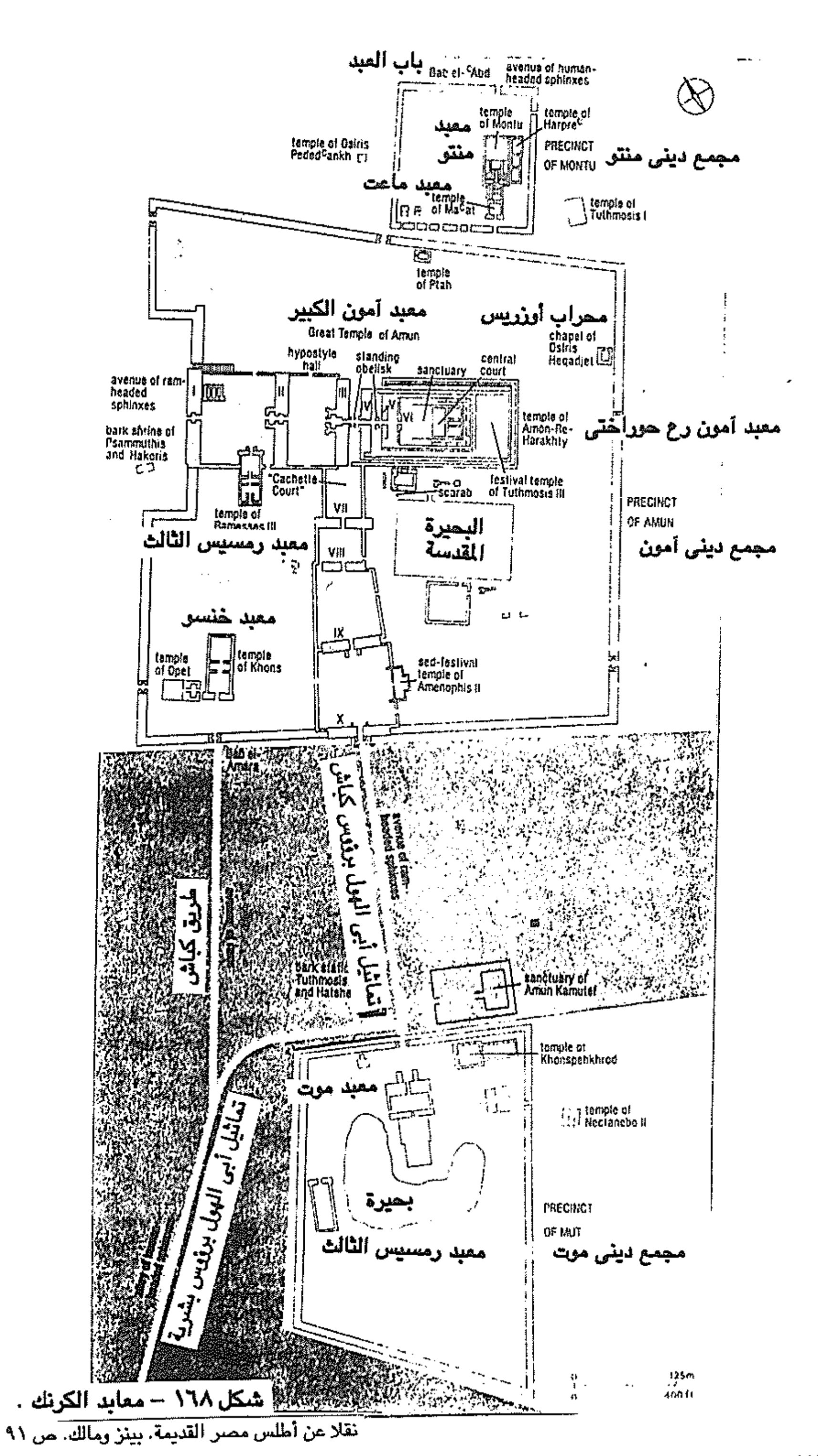
٢ – معبد الكرنك :

يطلق اسم الكرنك حاليا على مساحة من الأرض تبلغ ١,٥ × ٠,٨ كم تقريبا بها بقايا معابد وأضرحة. كانت هذه المساحة فيما مضى مركز عبادة ثالوث طيبة الإلهى وعلى رأسهم «آمون» الذى بزغ نجمه بين الآلهة ابتداء من الدولة الوسطى وتوطد سلطانه فى الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. وظل له المكانة الأولى فى الديانة المصرية القديمة لمدة تقرب من ألفى سنة. ويشمل الكرنك ثلاثة معابد يمكن تحديد كل منها ببقايا السور الذى كان يحيط بكل معبد (شكل ١٦٨). أكبرها وأهمها هو معبد آمون أو ما يمكن تسميته الحرم الآمونى لأنه يحتوى فى داخله معبد آمون وبعض المعابد الأخرى. وإلى الشمال من الحرم الآمونى يوجد معبد «منتو» وإلى الجنوب يوجد معبد «موت». وهذا الأخير يتصل بمعبد آمون بطريق الكباش وهو طريق على جانبيه تماثيل تشبه أبى الهول إلا أنها برؤوس كباش (شكل ١٦٤) ويتصل الجميع بمعبد الأقصر بطريق على جانبية تماثيل أبى الهول برؤوس بشرية.

معبد آمون : وسنكتفى بالرسم التخطيطى للمعبد (شكل ١٦٩) والكتابة المدرجة عليه مع نبذة قصيرة. لبيان كيف انتهى الأمر إلى أن يكون للمعبد محوران واحد من الشرق للغرب والثانى من الشمال إلى الجنوب. وإن كان قد تم ترقيم البوابات الصرحية بأرقام من ١ إلى ١٠. فهذا لا يدل على ترتيب تواريخ إقامتها. ذلك أن المعبد عند أول إنشائه بواسطة تحتمس الأول كان يتكون فى البداية من بوابة ذات صرح وهى المرقمة بالرقم ٤ ثم صالة بها ١٤ عمودا كانت مطلية بالذهب. ثم تليها البوابة رقم ٥ ثم مساحة خالية. وكان تحتمس الأول قد أقام له مسلتين أمام البوابة ٤. لاتزال إحداهما قائمة إلى الآن.

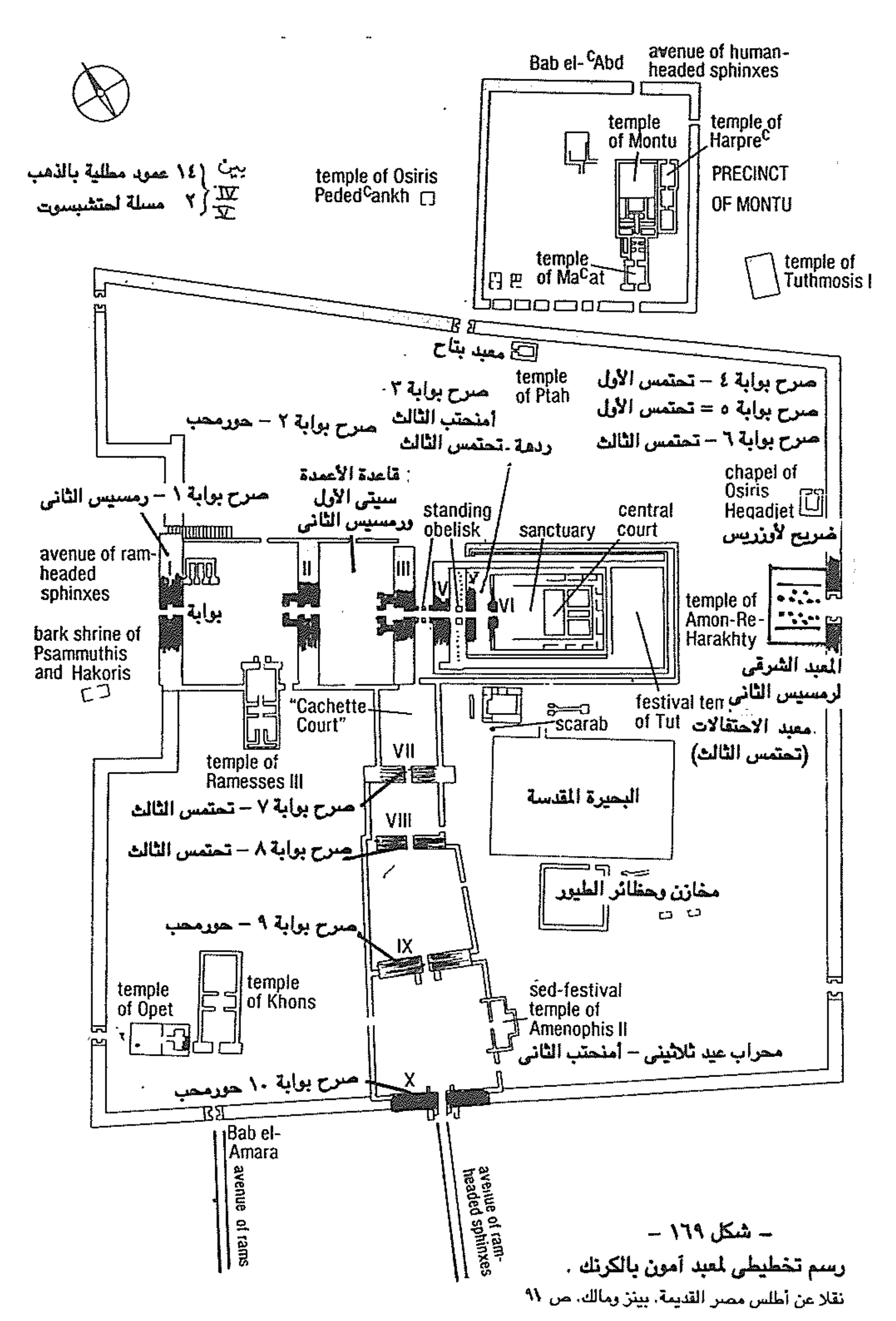
ثم جاء تحتمس الثالث فزاد فيه من ناحية الشرق ردهة ثم البوابة رقم ٦ ثم دهليز يؤدى إلى قدس الأقداس. ووضع لنفسه مسلتين أمام البوابة. ثم جاء أمنحتب الثالث فزاد فيه من ناحية الغرب وبنى البوابة رقم ٣. وكانت حتشبسوت قد وضعت لنفسها مسلتين بين الأربعة عشر عمودا الموجودة بين البوابتين ٤ ,٥ .

ثم جاء سيتى الأول وعمل إضافات فى الجهتين الشرقية والغربية ولم يتمها إلى أن مات



شكل ١٦٨ – معابد الكرنك .

نقلا عن أطلس مصر القديمة، بينز ومالك. ص ٩١



- شكل ١٦٩ -

رسم تخطيطى لمعبد آمون بالكرنك .

نقلا عن أطلس مصر القديمة، بينز ومالك، ص ٩١

فأكملها رمسيس الثانى ومحا اسم والده ونسبها كلها لنفسه بل ونسب المعبد بأكمله لنفسه وسماه «معبد روح رمسيس محبوب آمون فى بيت آمون».

ب - آثار البر الغربى :

١ - **مقبرة رمسيس الثانى فى وادى الملوك**: وهى محفورة إلى عمق ٤٠٠ قدم فى الصخر منها ممر يبلغ طوله ١٥٠ قدما. إلاَّ أن مومياء رمسيس الثانى نقلت منها بعد إعادة تحنيطها إلى خبيئة الدير البحرى مع غيرها من مومياوات الفراعنة حفظا لها من عبث اللصوص. وهو ما سنشرحه فيما بعد (ص ٩٦٢).

٢ - **معبد القرنة:**

وقد أقامه سيتى الأول عند مدخل وادى الملوك تكريما للإله «آمون» وليكون معبدا جنازيا لوالده رمسيس الأول. ولم يكن قد تم حين توفى سيتى الأول فأكمله رمسيس الثانى وجعله معبدا جنازيا لجده ووالده معا. وقد تهدم ولم يبق منه إلا أجزاء متناثرة.

٣ - **الرمسيوم Ramesseum** (شكل ١٧٠) :

بدأ سيتى بناء الرمسيوم ليكون معبده الجنازى ولكنه توفى والبناء فى بدايته فقط فأتمه رمسيس الثانى وحوَّله ليكون معبدا جنازيا لنفسه ويمكن تمييز فن سيتى الأول ذى النقوش البارزة بينما استعمل رمسيس الثانى النقش الغائر. وشكل ١٧٠ يبين تخطيط الرمسيوم. وكان يشغل مساحة ٥٥٠×٩٠٠ قدما ولكن أغلب هذه المساحة الكبيرة تشغله المبانى الثانوية - إذ يحيط بالمعبد حجرات كثيرة مبنية بالطوب اللبن مخصصة مساكن للكهنة وعائلاتهم. وبعضها مخازن وصوامع للغلال وكانت من الكثرة والسعة بحيث تحوى المؤن اللازمة لإعاشة ٦٠ عائلة (كهنة وخدام المعبد) لمدة سنتين فكانت بها كميات هائلة من القمح والزيت والنبيذ والعسل.

وقبل البدء بوصف مكونات معبد الرمسيوم نشير إلى أنه إلى الجنوب مباشرة من السور الخارجى (شكل ١٧١) يقع معبد للأمير «وازموسى» ابن تحتمس الأول - وإلى الجنوب أكثر كان يوجد معبد للملكة «تاوسرت» ابنة مرنبتاح. وجنوبه توجد بقايا قليلة من معبد مرنبتاح الجنازى وكان كبيرا يصل إلى ٢/٣ من مساحة الرمسيوم. وفى عام ١٨٩٦ عثر پترى عالم الآثار الشهير على لوحة عليها نشيد النصر الذى كتبه مرنبتاح أو لوح إسرائيل وترجع أهميته إلى أنها هى المرة الأولى - والوحيدة - التى جاء فيها ذكر إسرائيل بالإسم فى الآثار المصرية. وقد تكلمنا عنه بالتفصيل من قبل (ص ٦٧٠ - ٦٧٥).

فإذا عدنا إلى الرمسيوم نجد فى الركن الجنوبى الشرقى من مساحة المعبد (جنوب المدخل) بقايا قصر لرمسيس الثانى لعله كان يُستخدم لإقامته فى الأيام التى كانت تقام فيها احتفالات فى المعبد.

مخازن القمح والنبيذ والزيت والعسل

مساكن الكهنة وخدام المعبد (٦٠ عائلة)

قدس الأقداس

مقصورة القارب الملكى

٣ قاعات صغيرة

قاعة العمد العظمى (٤٨ عمود)

١٨ عمود فى كل جانب بارتفاع ٢٥ قدم

١٢ عمود فى صفين بارتفاع ٣٦ قدم

٣ أبواب

شرفة مرتفعة صف أعمدة أوزرية (٤ بكل ناحية)

ثلاث سلالم

صفان من الأعمدة فى كل جانب

صف أعمدة أمامها ٤ تماثيل أوزيرية فى كل ناحية

تمثال ضخم لرمسيس الثانى وقع نصفه الأعلى على الأرض

قصر رمسيس الثانى

صفان من الأعمدة فى الجهة الجنوبية

معبد تويا ونفرتارى

الفناء الثانى

سلم

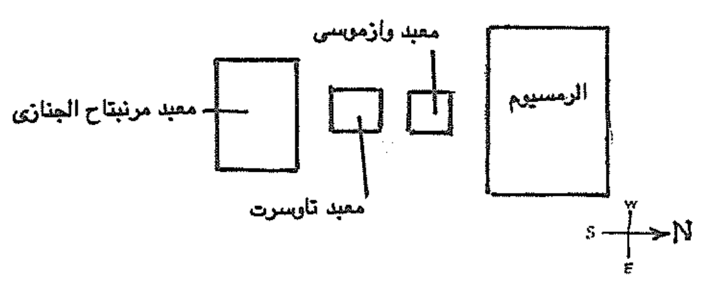
الفناء الأول

الصرح الثانى

الصرح الأول

W S N E

شكل ١٧٠ – رسم تخطيطى للرمسيوم وهو المعبد الجنازى لرمسيس الثانى .



شكل ١٧١ – الرمسيوم والمعابد التى فى جنوبه .

نقلا عن كتاب رمسيس المنتصر . كتشن . ص ١٧٦

أما مدخل المعبد نفسه فواجهته تبلغ ٢٢٠ قدما وهى عبارة عن صرح كبير ببرجين. وقد تهدم جزء كبير منه ومعركة قادش مسجلة على الجانب الداخلى لما بقى منه. ويؤدى المدخل إلى فناء أول (مكشوف). وفى الجانب الجنوبى (على شمال الداخل) صفان من الأعمدة كل صف به ١٠ أعمدة وعلى اليمين ١١ عمودا وفى المقابل يوجد أضخم تمثال لرمسيس الثانى على الإطلاق يمثله جالساً وارتفاعه ٣٢ مترا ويزن حوالى ١٠٠٠ طن. وبالصعود على درج ننفذ من باب إلى الفناء الثانى. وبجوار الجانب الشرقى يوجد أعمدة أمامها ٨ تماثيل (٤ فى كل جانب من الباب) لرمسيس الثانى على هيئة أوزير ويقابلها فى الجانب الغربى شرفة مرتفعة بعض الشيىء يُصعد إليها بثلاث سلالم (كل سلم بعدة درجات) يوجد بها ٨ تماثيل أوزيرية لرمسيس الثانى مقابلة للثمانية السابق ذكرها أما باقى الجدران فأمامها أعمدة (١٧ عمودا فى كل جانب). وتؤدى الشرفة من خلال ٣ أبواب إلى قاعة العمد العظمى وبها ٤٨ عمودا ثم بعد ذلك ٣ صالات صغيرة مربعة تلى الواحدة الأخرى. بكل واحدة ٨ أعمدة ثم تليها مقصورة القارب الملكى وبها ٤ أعمدة ثم فى النهاية قدس الأقداس. وعلى يمين قاعة العمد العظمى (الجانب الشمالى) يوجد معبد الملكة «تويا» والدة رمسيس الثانى وقد أضيفت إليها «نفرتارى» زوجته.

وسنذكر فيما بعد (ص ٧٧٧) ما أصاب المعبد من دمار إثر زلزال ضرب المنطقة بعد عدة أشهر من الاحتفال بالعيد الثلاثينى الأول لرمسيس الثانى.

٥٣ - أرمنت :

تقع على الضفة الغربية لنهر النيل جنوب القرنة ووادى الملوك والملكات (شكل ١٦٢ ص ٧٤٣) وقد عثر بها على تمثال ضخم من الجرانيت الأحمر لرمسيس الثانى موجود الآن بالمتحف المصرى. كما أقيم فى أرمنت معبد للإله «منتو» فى عهد البطالمة استعملت فيه أحجار وجد عليها اسم رمسيس الثانى وكتابات ذكرت فيها أعياده الثلاثينية كما وجد تمثال لأحد وزرائه اسمه «أمنمأبت» عليه خرطوشة اسم رمسيس الثانى. ومن الطريف أن مرنبتاح محا اسم والده الذى كان على نقوش بوابة معبد أرمنت ووضع مكانه اسمه. غير أن طريقة المحو التى اتبعها كانت غير متقنة إذ وضع طبقة من الجبس فوق اسم والده ثم كتب عليها اسمه. ولكن الجبس سقط وظهر اسم رمسيس الثانى ثانية.

٥٤ - الكاب : (شكل ١٦٢)

أقام رمسيس الثانى معبداً للإلهة «نخبت» كما أقام محرابا للإله «تحوت» كما زاد فى المعبد الذى كان قد أقامه أمنحتب الثانى فى هذه البلدة. ونقش رمسيس الثانى اسمه فى كل مكان وشوه الأعمدة بكتابة اسمه عليها. كذلك وجدت لوحة لرمسيس الثانى مع الإله «رع حوارختى» لأثر تهدم واستخدمت حجارته فى بناء معبد للبطالمة.

٥٥ – جبل السلسلة : (شكل ١٦٢)

يقع هذا المكان على الضفة الغربية للنيل ٢٠كم شمال كوم امبو. وفيه تبرز الصخور بحيث تضيِّق مجرى النهر وتشكل عائقا للملاحة ولابد من استعمال المجاديف ويقال إن الاسم المصرى القديم لها هو خِنو أو خينى تعنى مكان التجديف (أطلس مصر القديمة – چون بينز، ص٧٥). وكان «حورمحب» قد نحت لنفسه مقصورة فى جبل السلسلة. وقد نقش رمسيس الثانى لنفسه نقوشا كثيرة فى هذه المقصورة. فنشاهد على يسار الباب الشمالى لوحة عليها رمسيس الثانى ومعه كاهن وتتبعه الملكة «إست نفرت» والأميرة «بنت عنتا» يقدمون صورة العدالة للإله «بتاح» والإله «نفرتم». وفى الردهة صورة لرمسيس الثانى يتعبد إليه الكاتب الملكى. وفى غرب السلسلة نجد له محرابا مقطوعا فى الصخر وبه رسم لرمسيس الثانى أمام الإله «آمون رع» والإله «تحوت» ورسم آخر للملك وهو يقدم البخور للآلهة «أوزير» و«إيزيس» و«مين» وكذلك يقدم البخور للآلهة «سبك» والإلهة «تننت» والإلهة «رعت توى» والإلهة «حتحور».

٥٦ – أسوان وإليفانتين (شكل ١٧٢) :

كانت إليفانتين هى عاصمة المقاطعة الأولى لمقاطعات الصعيد واكتسبت أهميتها من الحماية الطبيعية التى هيأتها لها الجزر الصخرية التى تكون الشلال الأول. وفى جزيرة إليفانتين وجد اسم رمسيس الثانى مكتوبا على قاعدة تمثال أسد. كذلك عثر على قطعة من لوحة تسجل زواج رمسيس الثانى من ابنة ملك الحيثيين. وفى أسوان عثر على الجزء الأعلى من تمثال لرمسيس الثانى موجود الآن بالمتحف البريطانى. كما وجد له متن على قطعة حجر. وعلى الطريق القديم الذى بين فيلة وأسوان وجدت لرمسيس الثانى لوحة منحوتة يشاهد فى الجزء العلوى منها. رمسيس الثانى والملكة «إست نفرت» والأمير خعمواست أمام الإله خنوم وفى الجزء السفلى يُشاهد أبناؤه: الأمير رمسيس والأميرة بنت عنتا والأمير مرنبتاح يتعبدون.

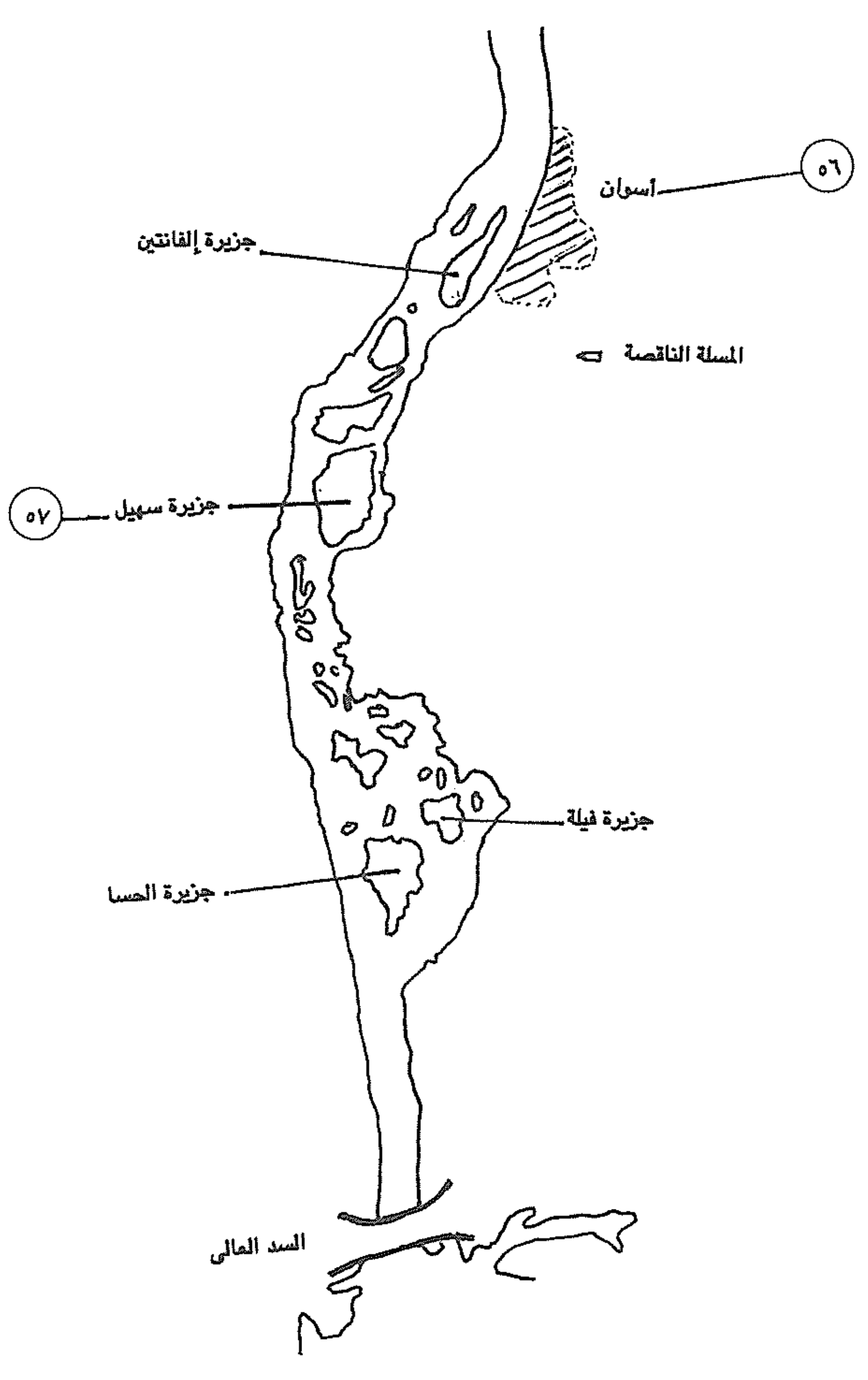
ولعل النقش الذى فى أسوان وذلك الذى فى جبل السلسلة المذكور آنفا هما النقشان الوحيدان اللذين تظهر فيهما الملكة «إست نفرت». أما باقى النقوش التى كانت تظهر فيها ملكة مع رمسيس الثانى فكانت دائما نفرتارى.

٥٧ – جزيرة سهيل :

وجدت نقوش كثيرة من عهد رمسيس الثانى. يشاهد فى أحدها وهو يقدم خمرا للإله «خنوم» والإلهتين «ساتت» و«عنقت» وفى الجزء السفلى من اللوحة موظف يتعبد لطغراء (خرطوشة اسم) رمسيس الثانى.

د – إنشاءات رمسيس الثانى فى النوبة :

٥٨ – معبد بيت الوالى :



شكل ١٧٢ – آثار رمسيس الثانى من أسوان حتى السد العالى .

تقع بيت الوالى على الضفة الغربية للنيل وقد أقام رمسيس الثانى بها معبدا عرف باسم «معبد بيت الوالى» وكان مدخله بوابة مبنية بالطوب ثم نحتت حجرات المعبد فى الصخر وقد تم تخصيصه للإله «آمون رع» وآلهة أخرى. والمعبد بسيط فى تكوينه إذ يلى المدخل قاعة عمد فى نهايتها قدس الأقداس. والجدران مزينة بلوحات تمثل الفترة من حياة رمسيس الثانى أيام مشاركته لوالده فى الحكم ونائبا على النوبة. ولوحات أخرى تبين انتصاره على النوبيين إذ نراه جالسا على عرشه وعظماء النوبة يقدمون له الجزية. وفى لوحة ثالثة صور انتصاره على الليبيين والسوريين. وقد تم نقل معبد بيت الوالى إلى قرية كلابشة الجديدة حيث أن كلابشة القديمة كانت تغرق معظم الوقت فى مياه خزان أسوان. وبين عامى ١٩٦٢ - ١٩٦٤ تم نقل المعبد إلى مكان يرتفع عن مياه بحيرة السد إلا أن البوابة قد أهديت إلى متحف برلين الغربية.

٥٩ - **معبد جرف حسين** : أقامه رمسيس الثانى فى السنوات ٣٥-٥٠ من حكمه على الضفة الغربية للنيل. وجزء من المعبد كان مبنيا وجزء منحوت فى الصخر. وفى قدس الأقداس كانت توجد تماثيل للآلهة الأربعة التى أقيم المعبد لها وهم: بتاح - رمسيس الثانى - بتاح تانن والصقر فوق رأسه - وحاتحور.

كما توجد نقوش على الجدران تمثل رمسيس الثانى بين عدد من الآلهة.

١ - بين «آمون رع» و «موت» - ٢ - بين «حور» و «كوبان».

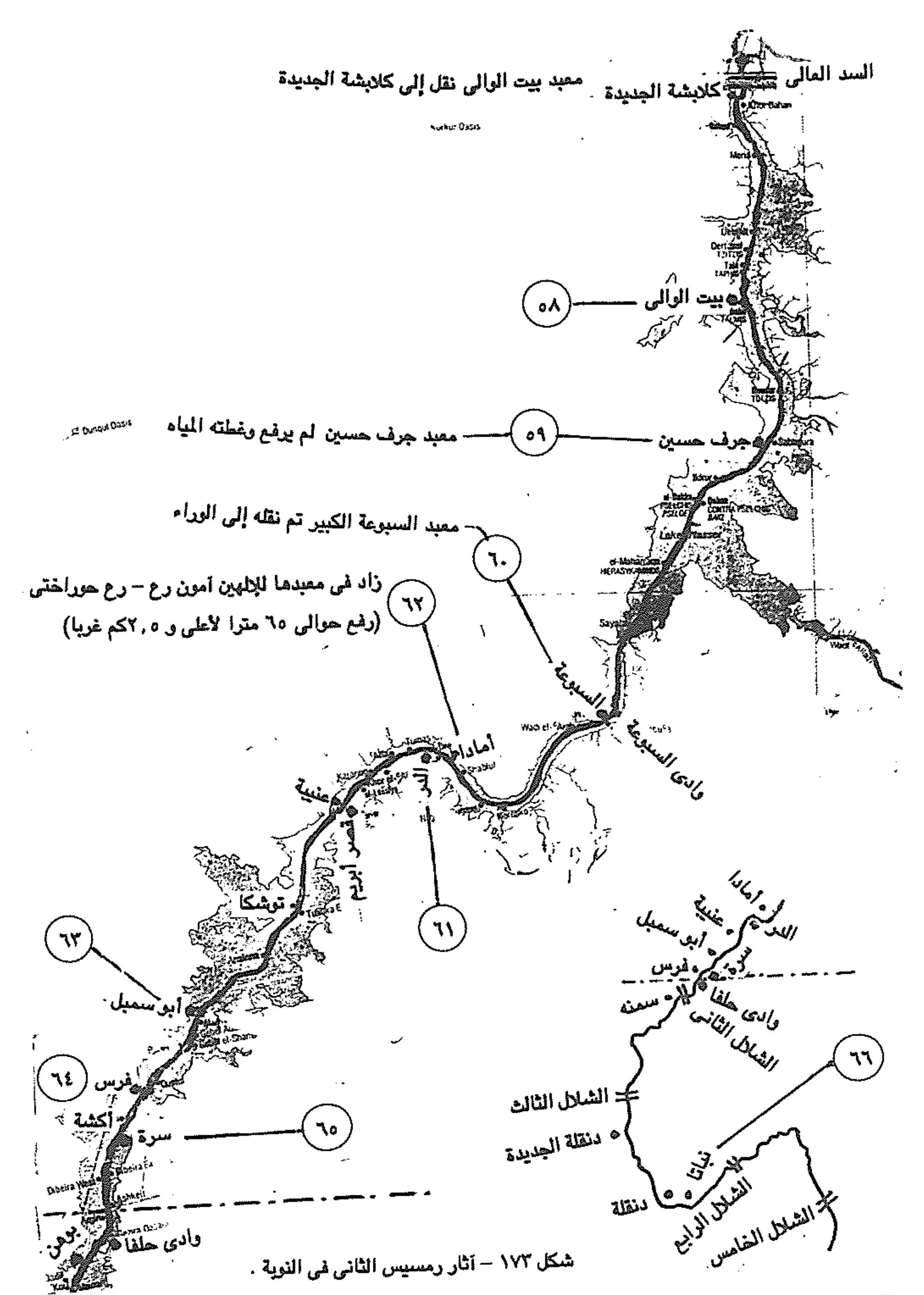
٣ - بين «بتاح تانن» و «حاتحور» - ٤ - بين «بتاح» و «سخمت».

٥ - بين «خنوم» و «عنقت» - ٦ - بين «نفرتم» و «ساتت».

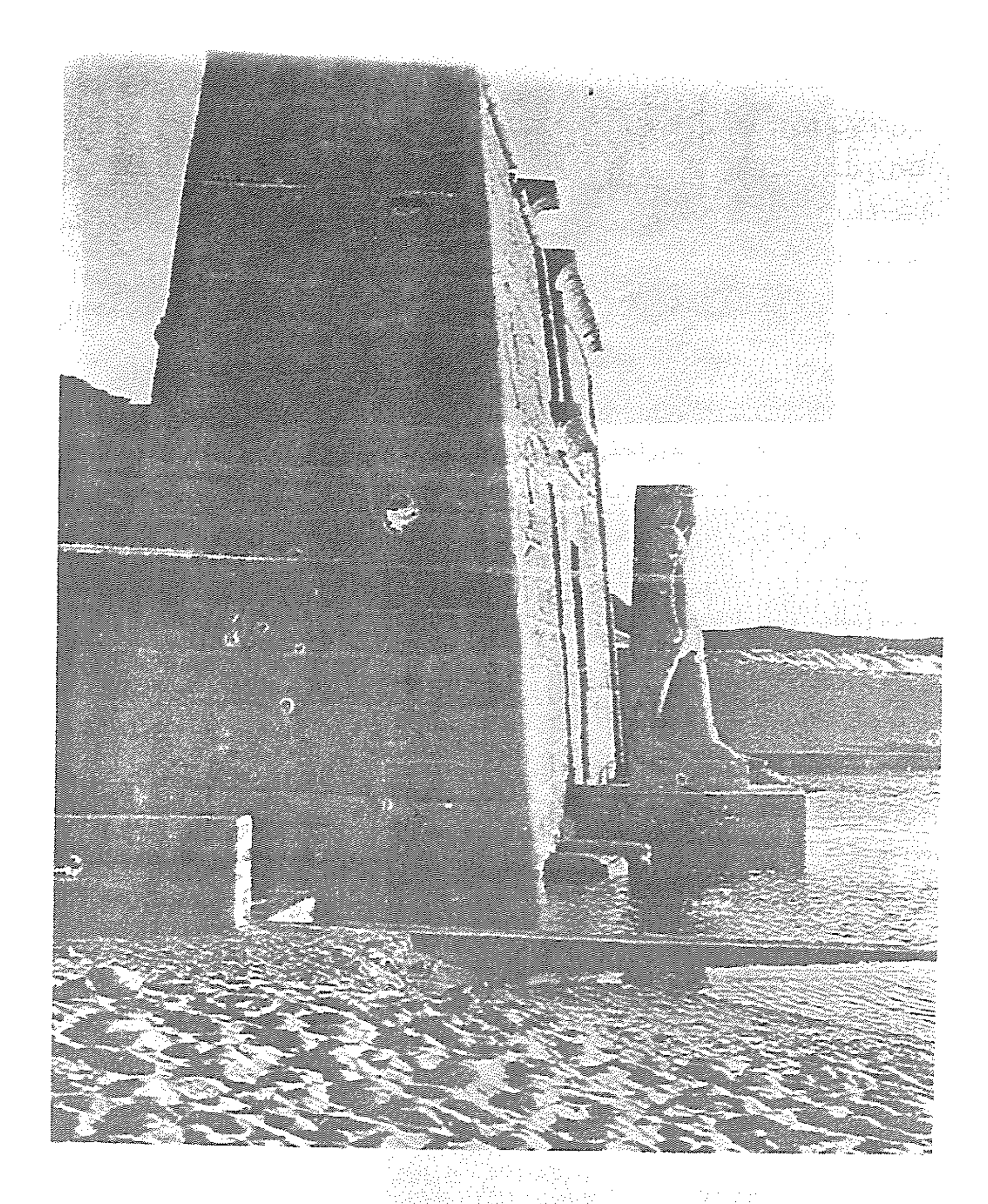
ومنها ندرك ولع رمسيس الثانى بوضع نفسه بين الآلهة كأنه واحد منهم. وهذا المعبد لم يرفع من مكانه وقد غطته الآن مياه بحيرة السد العالى.

٦٠ - **السبوعة** : تقع هذه البلدة على الضفة الغربية للنيل وبها معبدان: المعبد الصغير بناه أمنحتب الثالث للإله حورس ثم بعد ذلك تم تحويله للإله آمون - أما المعبد الكبير (شكل ١٧٤ - ١٧٥) فقد بناه رمسيس الثانى وكان يسمى «برآمون» أى «بيت آمون». وقد أهداه رمسيس الثانى إلى «آمون» و «رع حوراختى» إله الشمس. وكان رمسيس الثانى ضمن الآلهة الذين كانوا يعبدون فيه. وكان به تمثال لرمسيس الثانى أمام البوابة. وعدة تماثيل له على هيئة أبى الهول (شكل ١٧٦). وفى قدس الأقداس صورة لرمسيس الثانى يقدم قربانا لصورته أى يتعبد لنفسه.

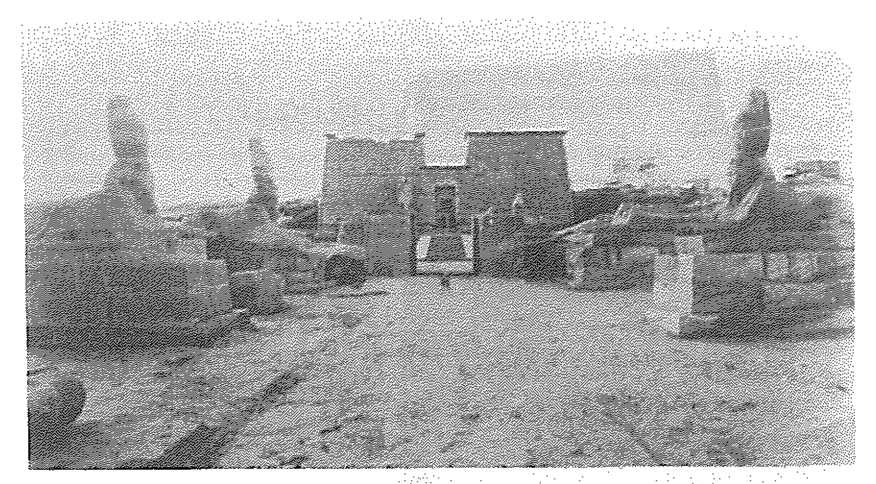
ويتكون المعبد من ثلاث بوابات كبيرة وثلاث ردهات ثم قاعة الأعمدة. هذه كلها مبانى ثم نأتى إلى الجزء المنحوت فى الصخر ويتكون من دهليز مستعرض يؤدى إلى قدس الأقداس بالإضافة إلى حجرتى تعبد جانبيتين. وقد تم نقل المعبد بواسطة منظمة اليونسكو ٤كم إلى الوراء حتى لا تغرقه مياه بحيرة السد.



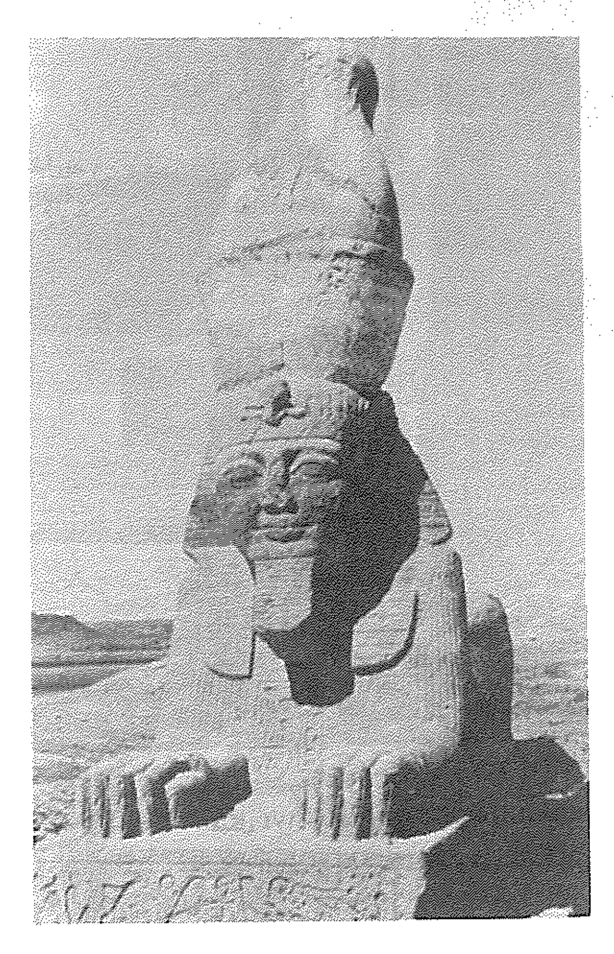
شكل ١٧٣ – آثار رمسيس الثانى فى النوبة .



شكل ١٧٤ – معبد وادى السبوعة وأمامه تمثال رمسيس الثانى
وكان الفيضان يغرقهما كل عام قبل نقلهما إلى كلابشة الجديدة.



شكل ١٧٥ – معبد وادى السبوعة



شكل ١٧٦ – أحد التماثيل المقامة أمام معبد وادى السبوعة وهى على هيئة أبو الهول برأس رمسيس الثانى.

٦١ - معبد الدر Derr :

وهو المعبد الوحيد فى النوبة الموجود على الضفة اليمنى لنهر النيل وفى هذا المكان يتجه النيل جنوب شرق. فهو فى الواقع يقع على الضفة الغربية لذلك الجزء من النيل. ويقع عند سفح التلال ومنحوت فى الصخر ويسمى معبد «رمسيس فى بيت رع». وفى المعبد صور للآلهة التى كانت تعبد فيه وهم: «بتاح» و«آمون رع» و«رمسيس الثانى» و«حوراختى». وهكذا اعتبر رمسيس الثانى نفسه أحد الآلهة.

ومعبد الدر من المعابد التى أنقذتها منظمة اليونسكو إذ تم فكه فى عام ١٩٦٤ ونقل إلى مكان قرب «أمادا».

٦٢ - **أمادا** : وتقع على الضفة اليسرى لنهر النيل وكان بها معبد بدأه تحتمس الثالث للإلهين «آمون رع» و«رع حوراختى». وزاد عليه تحتمس الرابع قاعة. وكذلك زاد فيه سيتى الأول. وزاد رمسيس الثانى فيه زيادات بسيطة وقد قامت منظمة اليونسكو عام ١٩٦٤ برفع المعبد حوالى ٦٥ مترا إلى أعلى وإلى مكان يبعد ٢,٥ كيلو مترا عن مكانه الأصلى حتى لا تغرقه بحيرة السد العالى ومما يُذكر أنه عند رفعه تم رفع جزء من المعبد يزن ٩٠٠ طن كتلة واحدة (أطلس مصر القديمة - چون بينز - ص ١٨٢).

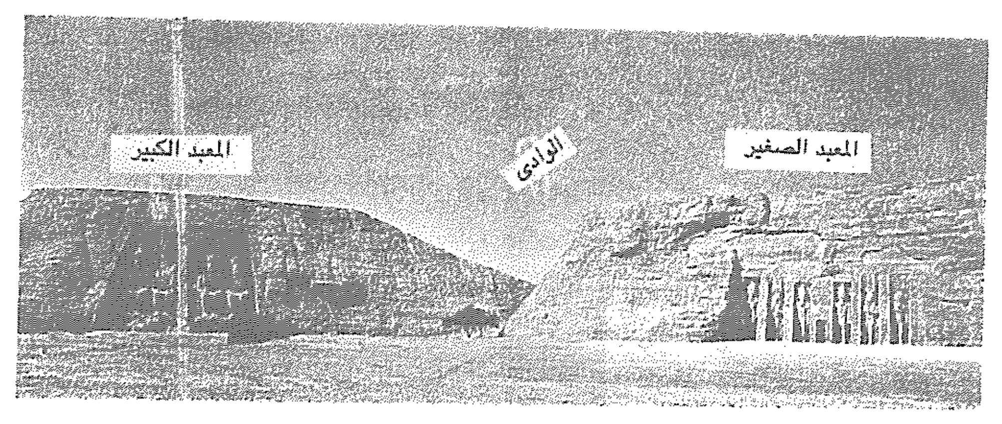
٦٣ - أبو سمبل :

تقع مدينة أبى سمبل على الضفة الغربية للنيل ٢٨٠كم جنوب أسوان و٧٠كم شمال الحدود بين مصر والسودان (شكل ١٧٣) ولا يعرف سبب تسميتها بهذا الإسم ويقال إن راهبا اسمه «سمبل» كان يتعبد فى صومعة له هناك فى القرن الأول الميلادى وكان يُنادَى «أبونا سمبل» ومن ثم عرف المكان بهذا الاسم. وقد أقام رمسيس الثانى بهذه المنطقة معبدين لا يفصلهما إلا وادٍ ضيق: المعبد الصغير إلى الشمال شرق من المعبد الكبير (شكل ١٧٧ و ١٧٨). وقد أصبحت لهما شهرة عالمية منذ اهتمت بهما منظمة اليونسكو واعتبرتهما أثرين فريدين يجب المحافظة عليهما من الغرق فى بحيرة السد العالى وعملت على نقلهما - مع خمس معابد أخرى - إلى مكان لا تطولها فيه بحيرة السد.

أ - **معبد أبى سمبل الكبير** : لا بأس من إحاطة القارىء ببعض التفاصيل العامة عن هذا المعبد الذى وصفه عالم الآثار المصرى سليم حسن (مصر القديمة جـ٦ ص٣٤١) بقوله: قد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن «معبد أبى سمبل» يعد أعظم بناء صنعه الإنسان على وجه البسيطة فى زمانه. والواقع أن رمسيس الثانى كان يقصد أن ينحت مبنى منقطع النظير يفوق به كل من سبقه فاختار موقعا تبرز فيه صخور الشاطىء تجاه النيل فى نتوء مخروطى الشكل ونحت فيه معبده وعلى واجهته نقش لوحات مجد بحيث يقرأها الملاحون أو الجنود الذين ينحدرون فى

أسوان
أبو سمبل
وادى حلفا
معبد أبى سمبل الصغير
قدس الأقداس
دهليز
قاعة أعمدة
٦ تماثيل ضخمة
الوادى
معبد أبى سمبل الكبير
٤ تماثيل ضخمة
بوابة
نهر النيل
قدس الأقداس
دهليز
قاعة الأعمدة الثانية
قاعة الأعمدة الأولى

شكل ١٧٧ – موقع معبدى أبى سمبل .



شكل ١٧٨ – معبدا أبى سمبل ويفصلهما وادى صغير .

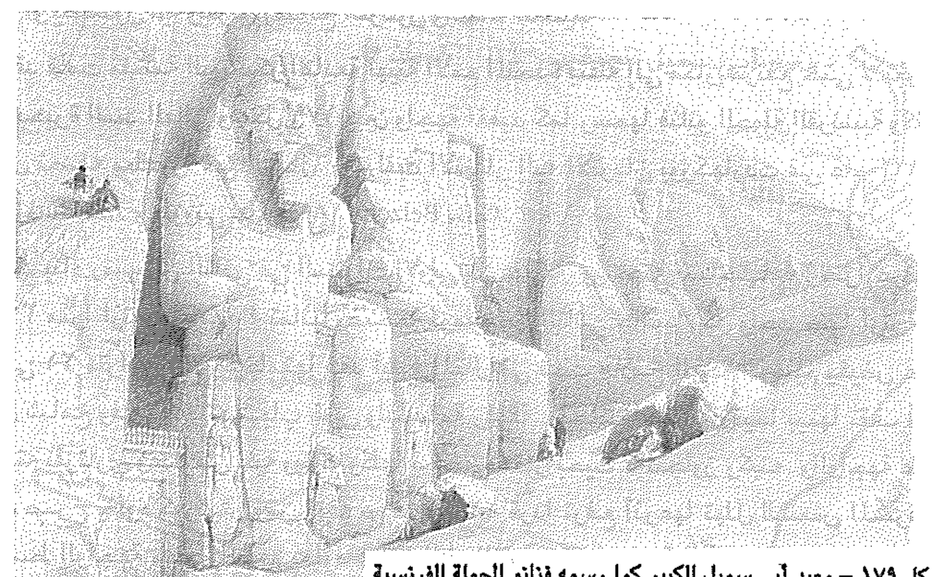
النهر أو يصعدون فيه ويقرأون مدائح الفرعون وأعماله العظيمة.

وقد قامت منظمة اليونسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة بنقله إلى مكان مرتفع حتى لا تغرقه مياه بحيرة السد العالى وشكل ١٧٩ يبين واجهة المعبد كما رسمها فنانو الحملة الفرنسية وكان لايزال نصفه مطموراً فى الرمال، وقد لفت الأنظار إليه الأثريان بوركهاردت فى عام ١٨١٣ J.L. Burkhardt و بلزونى عام ١٨١٧ G.B. Belzoni.

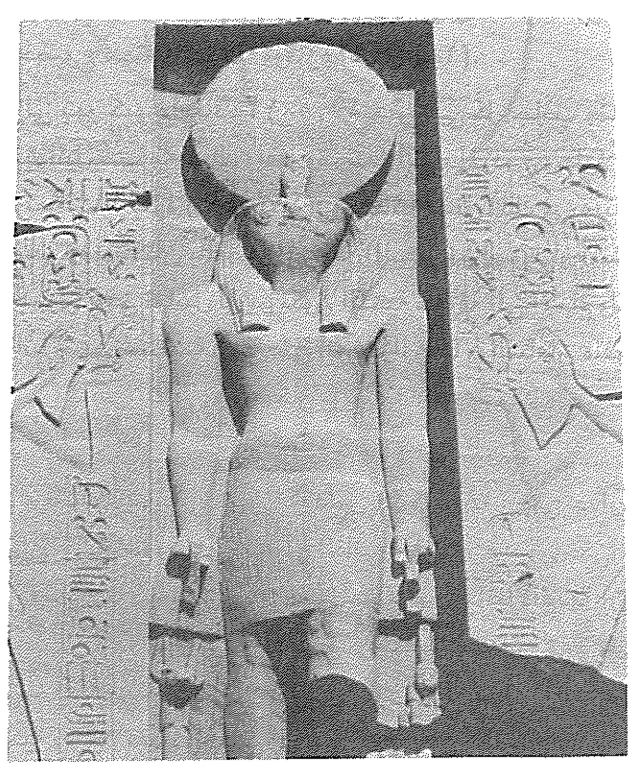
وقد بناه رمسيس الثانى فى السنوات الأولى من حكمه. وواجهته مساحتها ٣٥ مترا عرضا فى ٣٠ مترا ارتفاعا وبها ٤ تماثيل ضخمة لرمسيس الثانى جالسا. كل واحد منها ارتفاعه حوالى ٢١ مترا. ورغم ضخامتها فقد أبدع المثَّال فى نحت ملامح الوجه الوسيم يفيض عنه جلال شامخ وفى قسماته شباب غض وابتسامة رقيقة. وبجانب سيقانه وفيما بينها تقف أمه وزوجته نفرتارى وعدد من بنيه وبناته وكلها بحجم صغير بحيث لا تتجاوز ركبته. والواجهة على شكل صرح يعلوه كورنيش ومن فوقه صف من ٢٢ قردا ترفع أذرعها تهلل للشمس المشرقة. ويتوسط الواجهة مدخل عظيم يعلوه تمثال الإله الشمس «رع حوراختى» بجسم رجل ورأس صقر يعلوه قرص الشمس (شكل ١٨٠) وعن يمين وشمال نقش يمثل رمسيس الثانى وهو يقدم للإله الشمس تمثال صغير للإلهة «ماعت» إلهة الحق والعدالة وتمثله الصورتان وهو يميل قليلا إلى الأمام فى غير خضوع محتفظا بجلاله ووقاره (شكل ١٨١).

ويؤدى المدخل إلى بهو كبير أبعاده ١٦×١٧,٥ متر. فى كل جانب منه صف من أربعة أعمدة تتكىء عليها تماثيل ضخمة للملك واقفا ومرتديا التاج المزدوج وحاملاً العصا والمذبة أو المنشة. وارتفاع كل تمثال ١١ مترا (شكل ١٨٢). والتماثيل تمثل الملك فى هيئة أوزير – فاليدان متقاطعتان على الصدر وممسكتان بالعصا المعقوفة (اليمنى) والسوط أو المنشة (فى اليسرى) واليد اليمنى فوق اليسرى. وفى تماثيل أوزير تكون اللحية ملفوفة إلى الأمام ولكن لحية رمسيس الثانى فى هذه التماثيل تبدو مستقيمة دلالة على أنه لايزال حيا. والساقان ملفوفتان فى الكتان. كل هذا يرمز إلى أن رمسيس الثانى هو – كأوزير – ملك الموتى ولكنه حى فكأنه يملك الحياة والموت معا.

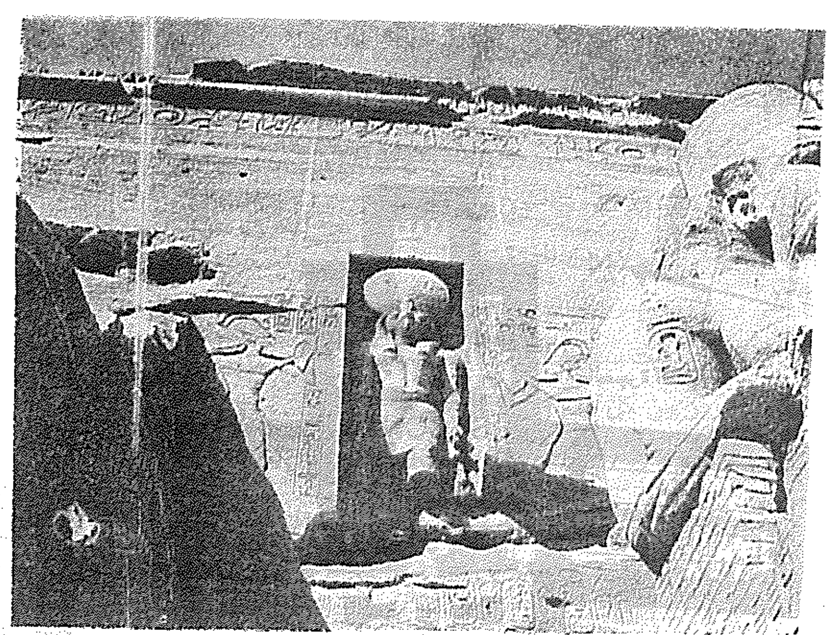
يلى هذا صالة عرضية تؤدى إلى قدس الأقداس (شكل ١٨٣) وفى جداره الخلفى تماثيل لآلهة أربعة: الإله بتاح – الإله آمون – رمسيس الثانى – الإله رع حوراختى. كلها منحوتة فى الصخر الطبيعى. وقد قصد رمسيس من وضع تمثاله مع تماثيل الآلهة أن يكون على قدم المساواة مع آلهة مصر العظام. وأن يؤدى له مايؤدى لها من شعائر. وهى قرينة تدل على أن رمسيس الثانى قد ألَّه نفسه أثناء حياته. وقد تم حساب زاوية اتجاه المعبد عند إنشائه بمهارة بالغة وحسابات فلكية دقيقة. فقد نُحت فى الصخر بحيث أن الشمس عندما تشرق من خلف الجبال التى تقع على الجانب الشرقى للنيل تدخل أشعتها من المدخل وتنفذ من الحجرة الأمامية



شكل ١٧٩ – معبد أبى سمبل الكبير كما رسمه فنانو الحملة الفرنسية وكانت الرمال لاتزال تغطى الواجهة.



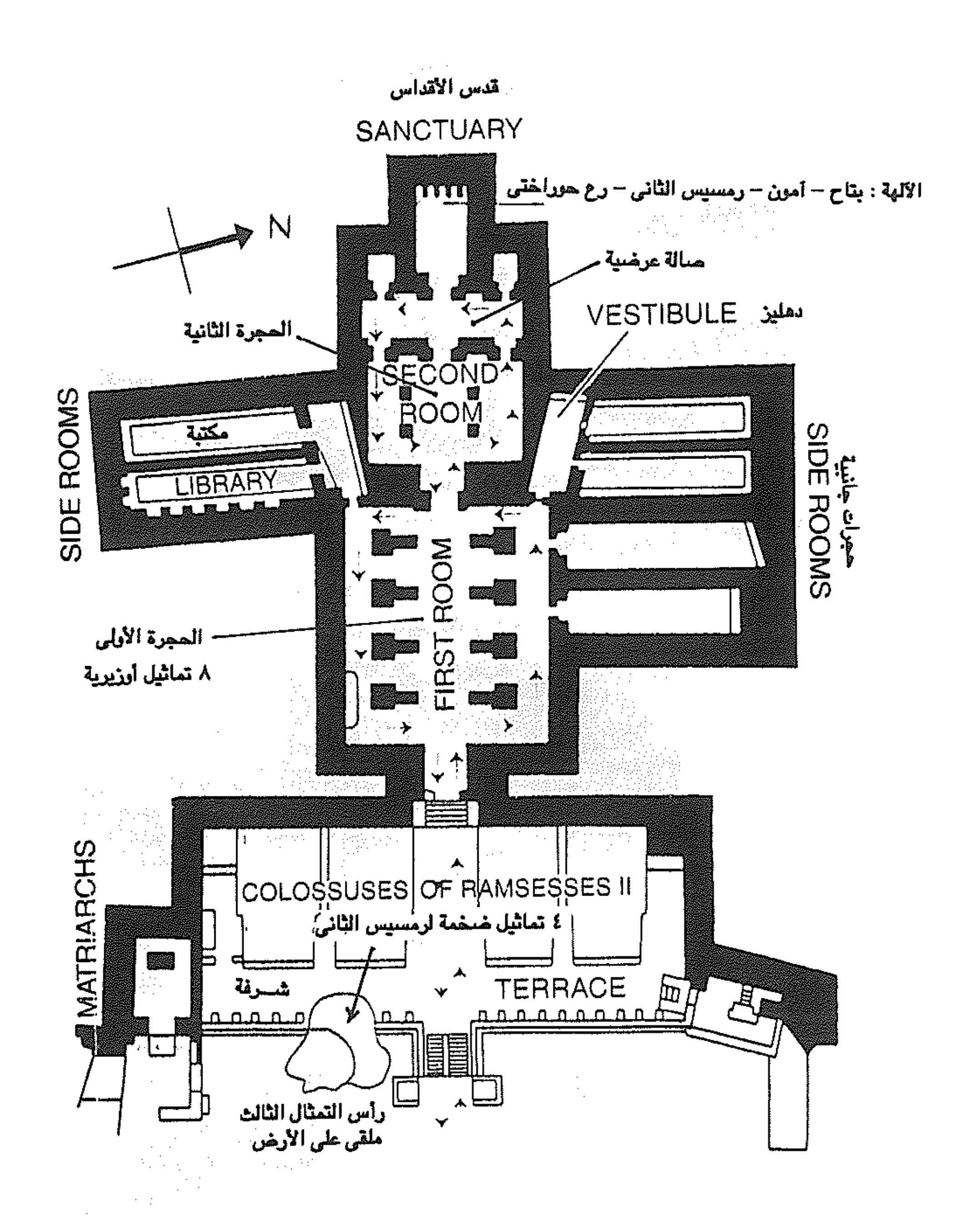
شكل ١٨٠ – تمثال «رع حوراختى» الذى يعلو بوابة المعبد الكبير .



شكل ١٨١ - «رع حوراختى فوق البوابة الرئيسية للمعبد ويرى على جانبيه نقش لرمسيس الثانى يقدم له «ماعت» .



شكل ١٨٢ - التماثيل الأوزيرية على جانبى المدخل والضوء ينفذ من الحجرة الأولى ثم الحجرة الثانية ليضىء قدس الأقداس وبه تماثيل آلهة المعبد ومن بينها رمسيس الثانى.



شكل ١٨٣ – رسم تخطيطى لمعبد أبى سمبل الكبير .

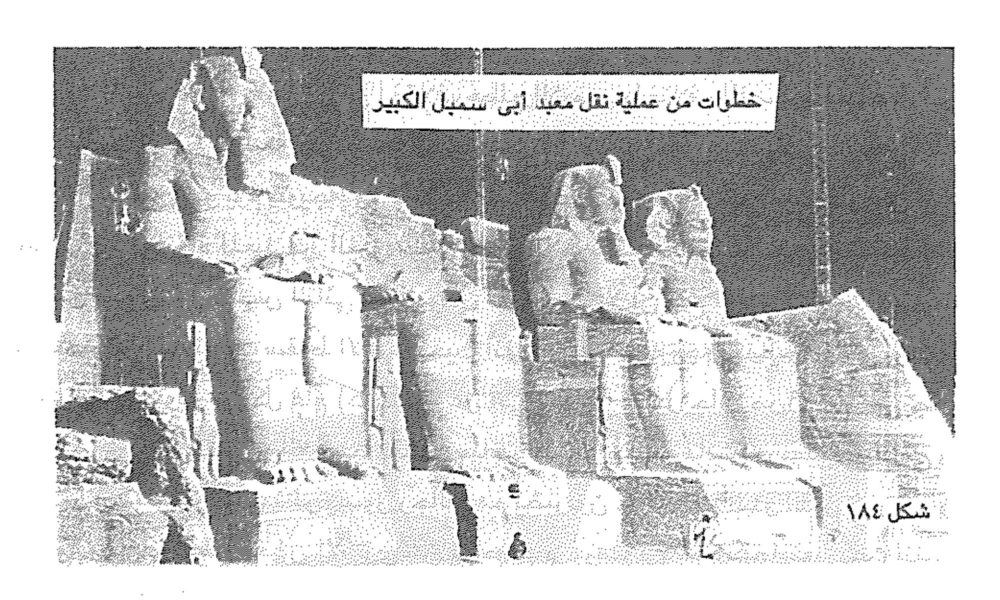
وتضيء الصالة الداخلية وتلقى بضوئها على وجه التماثيل الأربعة بعد نفاذها لمسافة تقرب من ٥٤ مترا (شكل ١٨٢ و ١٨٧). ومع اختلاف مطلع الشمس باختلاف الفصول. فقد عمل اتجاه المعبد بحيث تسقط الأشعة على وجه الملك فى يوم ٢١ فبراير وهو يوم ميلاد رمسيس الثانى ويوم ٢١ أكتوبر وهو يوم تتويجه! ولا تسقط الشمس على وجه «الإله بتاح» إذ المفروض أنه إله الظلام. وأثناء إنقاذ المعبد من الغرق حاول خبراء الأمم المتحدة الحفاظ على أن تسقط أشعة الشمس على وجه رمسيس الثانى فى اليومين المحددين. إلا أن رفع المعبد لأعلى ٦٤ مترا نتج عنه تأخير يوم فى توقيت سقوط الأشعة بحيث أنها حاليا تضيء وجه رمسيس الثانى يومى ٢٢ فبراير و٢٢ أكتوبر من كل عام (كل شيء عن أبى سمبل - نبيل جاد. ص١٩). وعلى جدران الحجرة الأمامية والصالة العرضية نقشت مناظر تصور معركة قادش ورمسيس الثانى وهو يحارب الأعداء بمفرده. ومنظر يصور رجاله وهم يضربون جواسيس البدو الذين غرروا به. ثم الملك وهو قابض على بعض الأسرى من نواصيهم. ورسوم كثيرة كلها تعبر عن انتصار الفرعون على الحيثيين.

والأشكال ١٨٤ - ١٨٦ تبين بعض خطوات عملية رفع المعبد التى قامت بها هيئة اليونسكو.

وشكل ١٨٨ يبين المعبد بعد نقله إلى مكانه الجديد بحيث لا تطوله مياه بحيرة السد العالى.

ب - معبد أبى سمبل الصغير أو معبد حاتحور : وقد أقام رمسيس الثانى هذا المعبد غير بعيد من المعبد الكبير. وخُصِّص للإلهة «حاتحور» و«نفرتارى» زوجته التى ألَّهت مثله. وواجهة المعبد (شكل ١٨٩) تبلغ ٢٨,٥ مترا عرضا × ١٢ مترا ارتفاعا. ومزينة بستة تماثيل كبيرة يبلغ ارتفاع الواحد منها حوالى ١٠ أمتار. ثلاثة فى كل ناحية من الباب عبارة عن تمثالين لرمسيس الثانى يتوسطهما تمثال زوجته نفرتارى وبجانبها تماثيل صغيرة لبعض أبنائهما. ويلاحظ أن الملك يضع على رأسه فى كل تمثال تاجا مختلفا: فهى من الشمال إلى اليمين هكذا: تاج مصر السفلى. ثم تاج مصر العليا. ثم التاج المزدوج على التمثالين الآخرين رمزا لاتحاد الشمال والجنوب. أما الملكة فتضع فوق رأسها رمزاً للألوهية مأخوذ عن الإلهة «حاتحور» عبارة عن قرنين بينهما قرص الشمس والريشتان الكبيرتان. وهذا المعبد فريد فى نوعه إذ لا يوجد معبد آخر قد خصص لعبادة ملكة. وقد أراد رمسيس الثانى أن يؤكد على هذا التخصيص للملكة فى النقوش المزينة للجدران. والتى يقول فى بعضها:« .. إنه بيت ملايين السنين. ولم يُبن مثله أبدا من قبل...».

وشكل ١٩٠ به تخطيط للمعبد: يلى المدخل صالة مربعة تقريبا إذ تبلغ أبعادها ١١×١٠,٨ مترا ونحتت ٦ أعمدة ارتفاع كل منها ٣,٢ مترا وكأنما السقف يرتكز عليها - وعلى كل عمود رأس بارزة لوجه امرأة وأذنى البقرة المقدسة حاتحور وقد كتب على الأعمدة تاريخ حياة



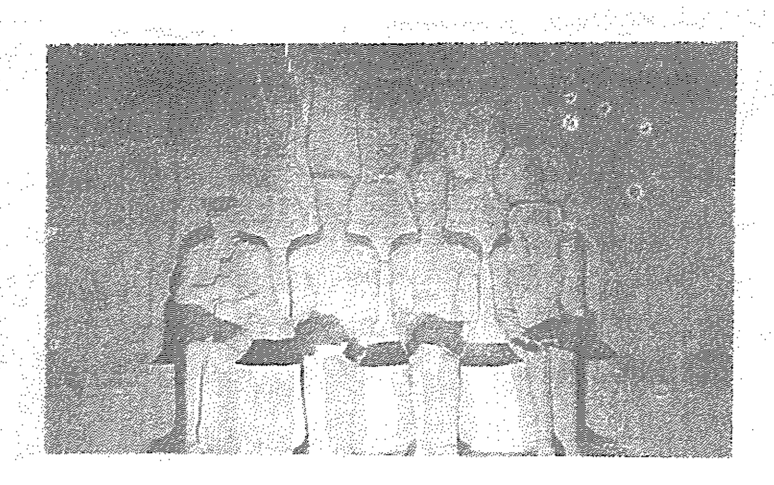
شكل ١٨٤



شكل ١٨٥

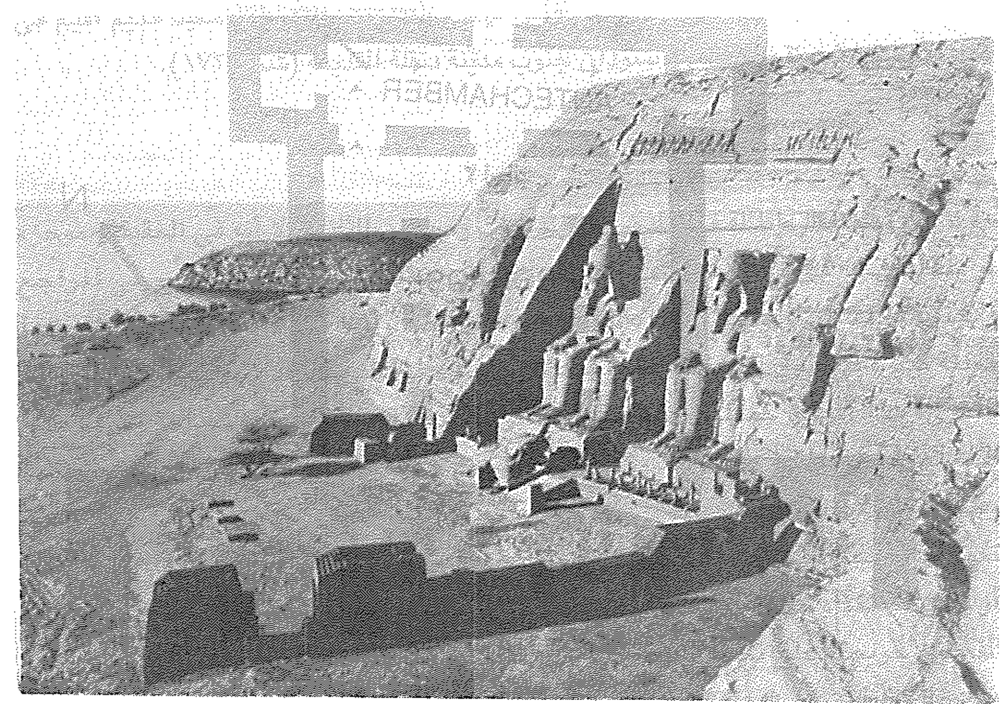


شكل ١٨٦ — الأوناش الضخمة ترفع رأس أحد التماثيل.

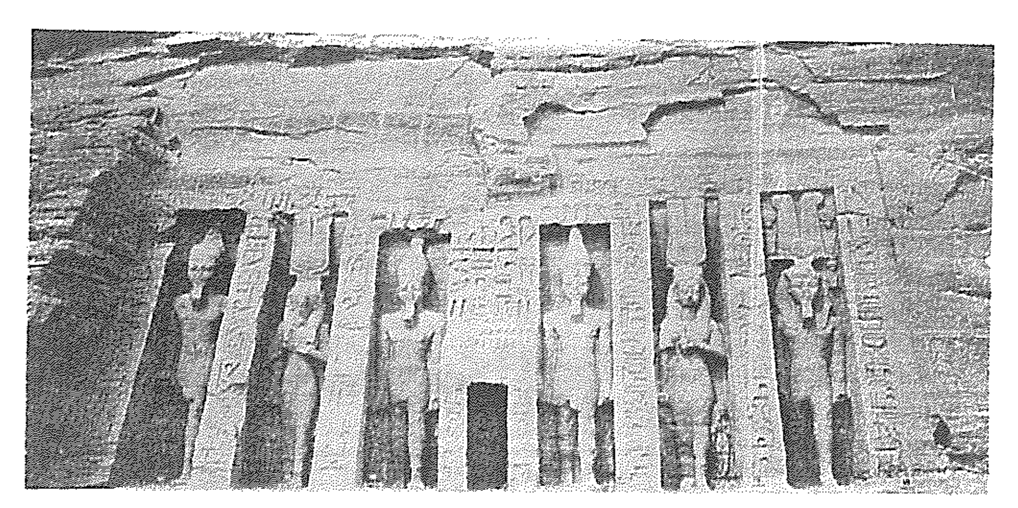


شكل ١٨٧ – تماثيل الآلهة الأربعة فى قدس الأقداس فى معبد أبى سمبل الكبير وقد سقط عليها ضوء الشمس من خلال حجرات المعبد الآلهة هم : بتاح – آمون – رمسيس الثانى – رع حوراختى.

لاحظ : بتاح ليس فى الضوء لأنه إله الظلام



شكل ١٨٨ – معبد أبى سمبل الكبير بعد نقله إلى مكانه الجديد.



شكل ١٨٩ – واجهة معبد أبى سمبل الصغير

قدس الأقداس

صالة عرضية أو حجرة انتظار

ANTECHAMBER

٣ أبواب

صالة الأعمدة

(١١ × ١٠,٨ مترا)

٦ أعمدة حتحورية

بارتفاع ٣,٢ مترا

PRONAOS

N

المدخل

R N R R N R

الواجهة ٢٨,٥ × ١٢ مترا

R = تمثال رمسيس الثانى

N = تمثال نفرتارى

شكل ١٩٠ – رسم تخطيطى لمعبد أبى سمبل الصغير .

رمسيس الثانى،والملكة نفرتارى، وعلى الجدران رسومات تبين انتصار الملك فى حروبه وبعضها يمثله وهو ممسك بالإسرى الأسيويين. ويلاحظ فى هذا الرسم صورة نفرتارى خلف زوجها وهو أمر غير معتاد أن تصور الملكة فى الرسومات الحربية! ويلى الصالة حجرة مستعرضة تؤدى إلى قدس الأقداس وجدرانه مزينة برسوم تبين رمسيس الثانى أو نفرتارى يتعبدان لعديد من الآلهة. ورسم بديع للإلهتين إيزيس وحاتحور وهما تتوجان الملكة نفرتارى. ويجب التنويه بما عليه النقوش من ذوق رفيع فى اختيار الألوان التى لاتزال محتفظة ببهائها حتى الوقت الحاضر.

وقد تم رفع هذا المعبد أيضا بواسطة منظمة اليونسكو - كما رفع المعبد الكبير - حتى لا تطوله مياه بحيرة السد العالى.

٦٤ - **محراب فرس** : على الضفة اليمنى للنيل. نحته رمسيس الثانى للإلهة «حتحور».

٦٥ - **معبد سرة** Serra : تقع بلدة سرة ١٠ أميال شمالى مدينة حلفا (شكل ١٧٣ ص ٧٥٦). وقد بنى رمسيس الثانى جنوب البلدة بقليل معبداً أهداه لنفسه بصفته إله المعبد وجاء فى الإهداء على أحد الأبواب: الفرعون «وسرماعت رع ستين رع» (وهو اسم رمسيس الثانى) قد عمله بمثابة أثر لصورته الحية فى بلاد النوبة. وقد تم نقل المعبد إلى الخرطوم.

٦٦ - **معبد نباتا** : بناه رمسيس الثانى للإله «آمون» داخل ساحة معبد قديم أقيم فى عهد الأسرة ١٨. وتقع نباتا فى السودان جنوب مدينة دنقلة القديمة (شكل ١٧٣).

لئن رأى البعض إطالة فى ماذكر عن إنشاءات رمسيس الثانى إلا أنه فى الحقيقة «موجز» أو تلخيص لما هو مدون فى كتب التاريخ عن آثار هذا الفرعون الذى يُسمَّى فى المراجع الأجنبية «رمسيس العظيم Ramesses the Great» وها قد رأينا آثاره التى لاتكاد تخلو منها مدينة كبيرة فى طول البلاد وعرضها شمالا وجنوبا حتى النوبة. وقد وجدتها فرصة أن أقدم للقارىء هذا الموجز كمعلومات عامة. إذ يكثر الكلام هذه الأيام عن السياحة وكيف يأتى السياح من آخر العالم لرؤية آثارنا. وكيف اهتمت منظمة اليونسكو وعملت نداءات عالمية وخصصت الأموال لإنقاذ بعض المعابد. فلا أقل من أن نعرف - ولو نظريا - شيئا عنها. وقد تعمَّدت أن أضع كثيرا من الصور حتى تُعوِّض من لم يرها عن رؤيتها أو إلى أن تتاح له رؤيتها أو يكون ماقدمناه حافزا له ليراها. فإذا عدنا لآثار رمسيس الثانى الكثيرة. أدركنا كم كان هذا الفرعون حريصا على تخليد اسمه بكثرة الآثار التى شيدها. إلا أن هذه الآثار الكثيرة نالها دمار بالغ كما سنرى فى الفصل التالى .

الفصل الرابع

وصفان لفرعون موسى من القرآن الكريم

لقد تم تخصيص هذا الفصل لوصفين لفرعون موسى وردا فى القرآن الكريم إذ أن شرح هذين الوصفين – وهما مرتبطان بالآثار – سيساعد على تحديد شخصية فرعون موسى أو بمعنى آخر سيكون دليلا إضافيا على أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى. هذان الوصفان هما :

١ – قوله تعالى :

«ودمَّرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون». (١٣٧ – الأعراف)

٢ – قوله تعالى :

« وفرعون ذو الأوتاد » . (١٢ – ص)

والآن لننظر هل ينطبق هذا الوصفان على رمسيس الثانى أم لا ؟

١ – الدمار الذى حاق بآثار رمسيس الثانى :

مما لاشك فيه أن الزمن يترك بصمته على المبانى وتتهدم بعض أجزائها أو كلها. وقد أدرك قدماء المصريين ذلك فعملوا على أن تبقى آثارهم خالدة على مر الأزمنة والدهور. فهاهى الأهرامات – وعددها يبلغ المائة – باقية. وإن كان الطلاء الخارجى قد تساقط فى معظمها وسقطت حجارة من بنيانها إلا أنها لاتزال قائمة رغم مرور مايزيد عن أربعة آلاف سنة على بنائها. وكما سبق أن ذكرنا كان رمسيس الثانى أكثر الفراعين رغبة فى تخليد اسمه وذكراه. فأقام هذا العدد الهائل من الآثار: من معابد بها مئات الأعمدة. وأقام من المسلات عددا يفوق ما أقامه الفراعين الآخرين مجتمعين (ص ٧٨٧) وصنع لنفسه عددا كبيرا (حوالى ١٠٠) من التماثيل . منها حوالى ٣٠ بالغة الضخامة . ووضع نفسه بين الآلهة فى مالايقل عن ١٥ تمثالا . هذا بخلاف ما تحطم ومالم يستدل عليه. بخلاف مئات بل آلاف الصور والنقوش التى تمثله فى عربته وحروبه أو يستعرض الأسرى أو يعاقبهم أو تمثله فى مواقف يتعبد فيها للآلهة أو يتعبد الموظفون له.

ولكننا لو فحصنا هذه الآثار لوجدنا معظمها قد تهدم ولم يبق منه إلا بعض قطع من الحجارة عليها اسم رمسيس الثانى لتدل على أن أثرا ما كان له فى هذا المكان. ولعلها كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يبقى عدد قليل من هذه الآثار سليما بعض الشيىء لندرك عِظَم ماشيدٍّ وضخامة التماثيل التى صنعها. إذ لو دُمِّرت بالكامل لاندثر ذكره ولم يستدل عليه. ومن

هنا كان الإبقاء على معابد النوبة سليمة. بل وقيض الله لها من يعمل على إنقاذها من الغرق فى بحيرة السد العالى لتظل شاهدا على أعمال هذا الفرعون. والآن نستعرض فى نظرة سريعة بالصور مدى الدمار الذى حل بالمعابد والتماثيل التى قام رمسيس الثانى بإنشائها:

شكل ١٩١: هذا كل مابقى من عاصمة رمسيس الثانى الجديدة «بررعمسيس». معابد تهدمت. وأعمدة محطمة. ومسلات مكسَّرة وكانت ٢٤ مسلة ليس منها واحدة سليمة.

شكل ١٩٢ – المسلة الوحيدة التى تعتبر بحالة «جيدة» من ٢٤ مسلة أقامها رمسيس الثانى فى مدينة بررعمسيس.

شكل ١٩٣ – بقايا معبد «حاتحور» فى منف. وترى رؤوس الأُعمدة الحاتحورية أى التى تحليها رأس حاتحور.

شكل ١٩٤ – بقايا حيطان أعمدة المعبد الصغير للإله «بتاح» الذى أقامه رمسيس الثانى فى منف جنوب المعبد الكبير.

شكل ١٩٥ – حطام المعبد الكبير الذى بناه رمسيس الثانى فى منف للإله «بتاح».

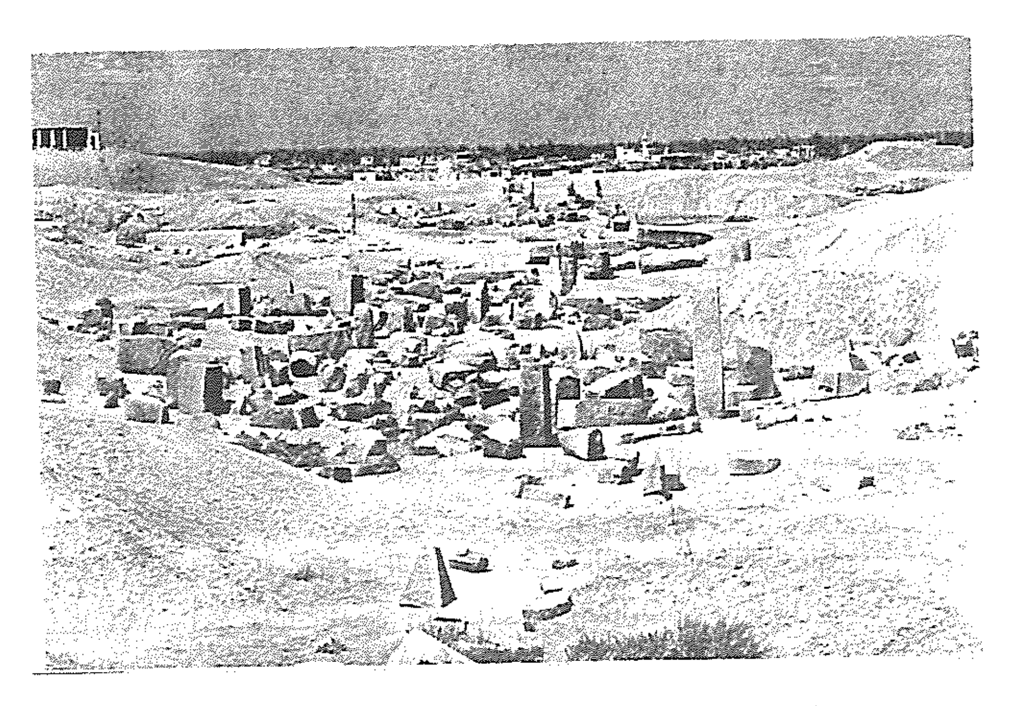
شكل ١٩٦ – أحد تماثيل رمسيس الثانى المحطمة (تمثال ميت رهينة) قبل ترميمه.

شكل ١٩٧ – تمثال «مريت آمون» ابنة رمسيس الثانى وزوجته فى نفس الوقت وكان مقاما بجوار تمثال له فى المعبد فى أخميم. وقد سقط تمثال «مريت آمون» على وجهه أما تمثاله هو فقد تحطم تماما.

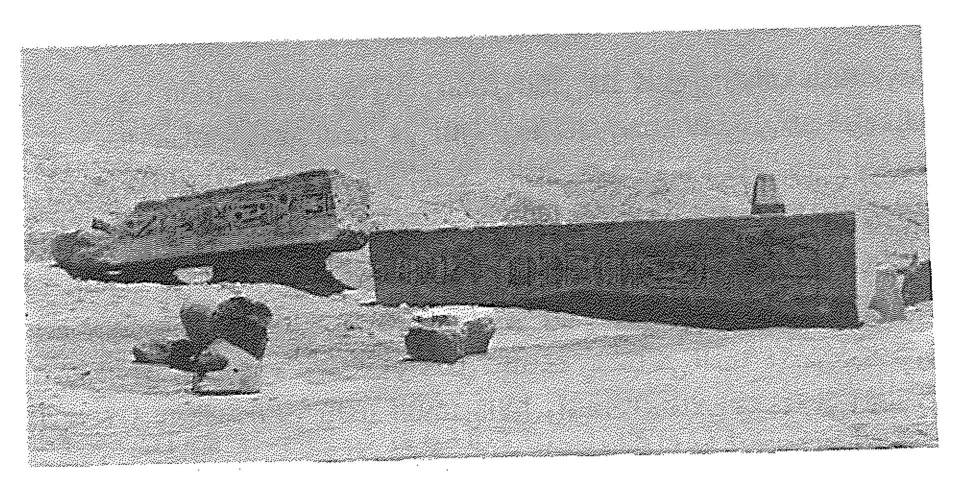
شكل ١٩٨ – لم يبق من قاعة العرش فى قصر رمسيس الثانى بمعبد الرمسيوم إلا قواعد الأُعمدة فقط وقد ذكرنا سابقا (ص ٧٢١ شكل ١٤٦) التمثال البالغ الضخامة الذى أقامه لنفسه فى تانيس ولم يبق منه إلا بضع أصابع من القدمين.

ولئن كان هذا الدمار قد حدث بعد وفاة رمسيس الثانى فقد كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يريه – حال حياته – بعض الدمار فى آثاره. وهو مالم يحدث لأحد من الفراعين قبله أو بعده. وحدث هذا الدمار فى أثرين كان رمسيس الثانى يعتز بهما أيما اعتزاز : معبد أبى سمبل الكبير ومعبد الرمسيوم.

أ – الدمار فى معبد أبى سمبل الكبير : وقد سبق أن قلنا (ص ٧٥٩) إن عالم الآثار سليم حسن قد وصفه بأنه أعظم بناء أقامه إنسان فى ذلك العصر. وكان رمسيس الثانى قد بدأ فى إقامته فى السنة العاشرة من حكمه واحتفل بافتتاحه رسميا فى السنة ٢٤ من حكمه. وتمر الأعوام ويحتفل رمسيس الثانى بالعيد الثلاثينى الأول وأقيمت احتفالات ضخمة فى المعبد بهذه المناسبة. ولم تمر بعد ذلك بضعة أشهر حتى حدث زلزال شديد ضرب منطقة النوبة واهتزت المنطقة. وما حدث بمعبد أبى سمبل الكبير كان مأساة مفجعة كما يقول العالم كتشن Kitchen (فرعون المنتصر ص ١٣٥) إذ تشققت الأعمدة الضخمة وتكسر بعضها وانهار. وكذلك انهار



شكل ١٩١ – معابد وتماثيل ومسلات محطمة هو كل ما بقى من عاصمة
رمسيس الثانى «بررعمسيس».



شكل ١٩٢ – المسلة الوحيدة التى تعتبر « سليمة نوعا ما »
من ٢٤ مسلة أقامها رمسيس الثانى فى مدينة بررعمسيس.

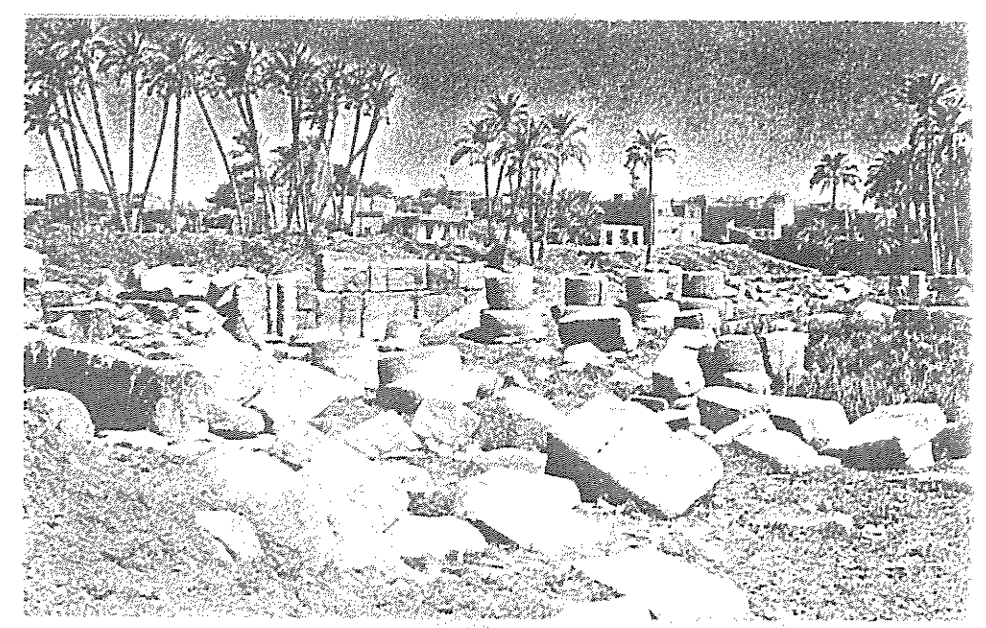




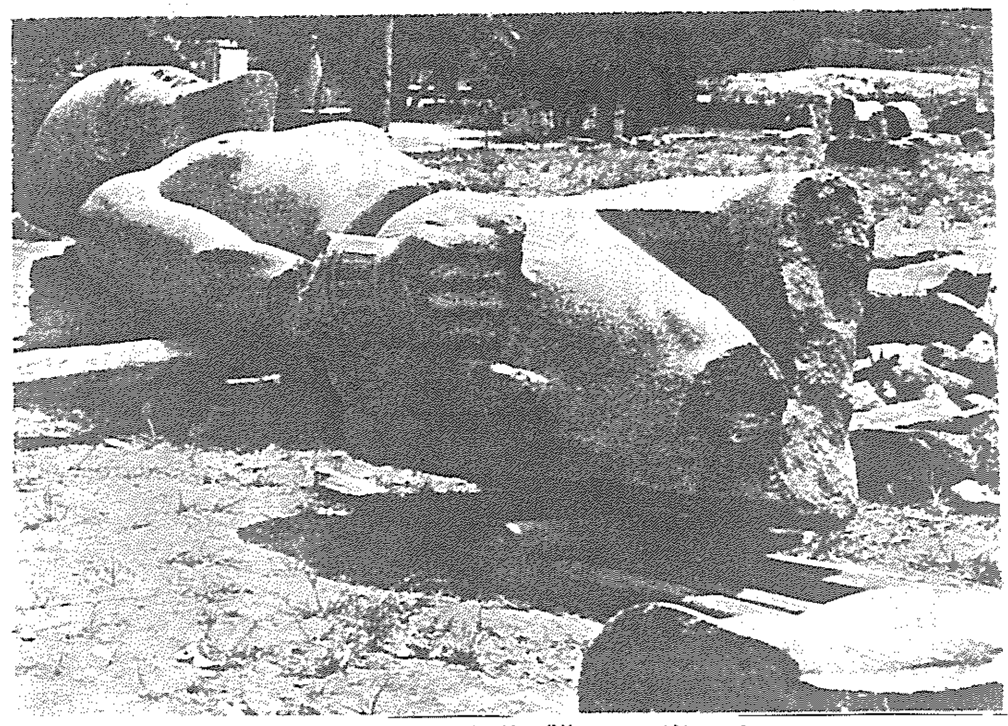
شكل ١٩٣ – بقايا معبد حتحور في ممفيس وترى رؤوس الأعمدة الحتحورية أي التي تحليها رأس حتحور.

شكل ١٩٤ – أسفله. بقايا حيطان وقواعد أعمدة المعبد الصغير للإله «بتاح» في ممفيس (جنوب المعبد الكبير).





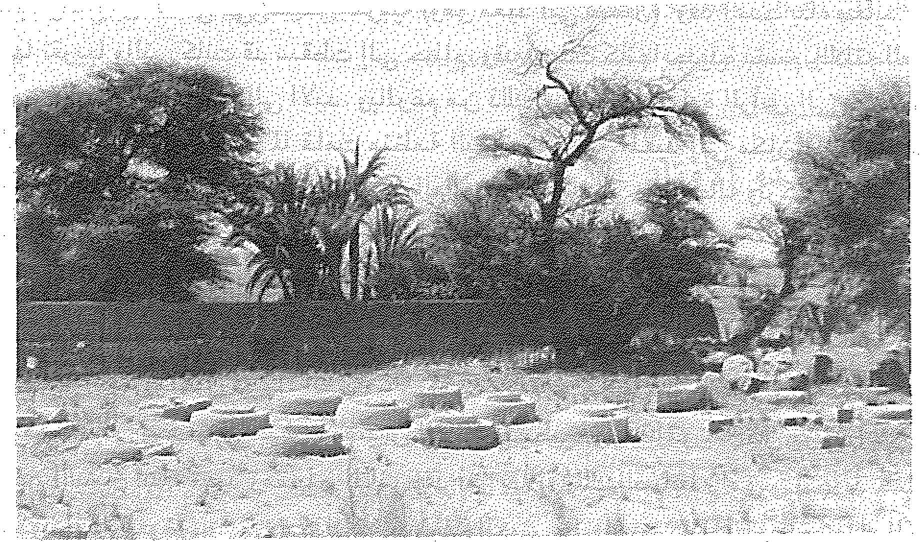
شكل ١٩٥ – حطام المعبد الكبير الذى أقامه رمسيس الثانى للإله «بتاح» فى ممفيس .



شكل ١٩٦ – أحد تماثيل رمسيس الثانى المحطمة قبل ترميمه (ميت رهينة) .



شكل ١٩٧ - تمثال مريت آمون - ابنة وزوجة رمسيس الثانى كان مقاما بجوار أحد تماثيله فى المعبد فى أخميم . وقد سقط التمثالان على وجهيهما وتحطم تمثال رمسيس الثانى تماما.



شكل ١٩٨ - هذا كل ما تبقى من قاعة العرش فى قصر رمسيس الثانى فى الرمسيوم . مجرد قواعد الأعمدة .

العمود الثانى والتمثال الملكى فى الجانب الشمالى من الحجرة الأولى وتحول إلى حطام. وكذلك أصاب الدمار الواجهة ذاتها - إذ انهارت الدعامة الشمالية لباب المدخل الرئيسى وسقطت ذراع التمثال الأول من الناحية الشمالية والمجاور للباب. ولكن الخسارة الكبيرة كانت فى سقوط النصف العلوى بأكمله للتمثال الجنوبى: الرأس والذراعين والأكتاف. وتكسرت اللوحات على الحوائط. وكان المنظر فظيعا والموقف حرجا بالنسبة لنائب الملك على منطقة النوبة «باسر» ولم يكن فى وسعه أن يقف مكتوف اليدين أمام هذا الدمار. وبدأ على الفور خطوات الإصلاح التى كللت بالنجاح إلى حد كبير. وأعيد بناء الأعمدة التى سقطت أو تصدعت. وتم تدعيم أعمدة القاعة الكبرى بمبانى. وهذه أتاحت مساحة إضافية لنقش مباركة من الإله «بتاح» مؤرخة بالعام ٣٣ من حكم رمسيس الثانى. وأعيدت ذراع التمثال التى سقطت وتم سندها بقطعة من الحجر كتب عليها اسم رمسيس الثانى. وأعيد بناء دعامة الباب ولكنها تركت خالية من النقوش. وكان هذا أقصى ما أمكن للوزير «باسر» عمله. ولعل ذلك الترميم لم يحظ قبولا تاما لدى رمسيس الثانى فعين بدله نائبا آخر للنوبة. وكان هذا النائب الجديد هو المبعوث الحيثى هوى Huy الذى كان مرافقا للأميرة الحيثية عند حضورها إلى مصر لتتزوج من رمسيس الثانى. وقد عينه نائبا له على النوبة لمدة ٤ سنوات (٣٤ - ٣٨) ولكنه لم يفعل الكثير فى ترميم معبد أبى سمبل. ثم تولى بعده فى هذا المنصب «سيتاو» Setau وظل فيه لمدة ربع قرن تقريبا (من ٣٨ إلى ٦٣). كان سيتاو نشطا ومثابرا وكتب على لوحة: لقد عينت نائبا للملك على النوبة. وقد وجهت الفلاحين بالآلاف وعشرات الألاف ومن النوبيين مئات الآلاف وقد أُوكلت إلى مهمة بناء معبد رمسيس الثانى فى الضفة الغربية (وهو معبد أبى سمبل). وقد أعدت بناء معابد النوبة كلها تقريبا والتى كانت قد سقطت إلى حطام. وقد أعيدت كأنها جديدة باسم جلالته العظيم. ودوِّن ذلك تذكارا ليبقى إلى الأبد. وبالرغم من ذلك لم يستطع إعادة الرأس إلى مكانه فبقى ملقى على الأرض. وحتى لما قامت منظمة اليونسكو برفع المعبد إلى مكان أعلى من مكانه الأصلى حتى لا تغرقه مياه بحيرة السد العالى فإنها حافظت على حاله وتركت أجزاء التمثال المهشمة كما كانت.

وفى العام ٤٤ قام النائب «ستاو» ببناء باقى المعابد التى فى الضفة الغربية وهى معبد السبوعة ومعبد جرف حسين. وسخَّر فى بنائها أسرى ليبيين. إذ وجدت لوحة كتبها ضابط اسمه «راموس» يقول فيها: السنة ٤٤: أمر جلالته - نائبه فى النوبة ، المخلص «ستاو» بالإضافة إلى وحدة من جيش رمسيس الثانى - يحميه والده آمون - بأن يؤخذ أسرى من أرض الليبيين لبناء معبد رمسيس الثانى وقد أمر جلالة الملك الضابط راموس بتجريد حملة من الجنود لهذا الغرض ...... وهكذا أغارت فرقة الجيش على جنوب ليبيا فى الصحراء الغربية وقامت بتسخير هؤلاء الأسرى فى ترميم ما تهدم وفى بناء معبد السبوعة وجرف حسين (كتشن - فرعون المنتصر ص ١٣٨).

ب - تصدع الرمسيوم :

كان معبد الرمسيوم أسوأ حظا. إذ لما أصابه الزلزال لم يمكن إعادته إلى حالته الأصلية كما حدث فى أبى سمبل.

قلنا إن الرمسيوم وهو المعبد الجنازى - بناه رمسيس الثانى ليكون مكانا فاخراً لحياة آخرة له حيث تقام الشعائر لتبجيله وتعظيمه إلى الأبد وكان يسمى فى المصرية القديمة «بيت ملايين السنين المتحدة مع طيبة». ولكن الأمور لم تسر كما كان يهوى الفرعون فقد أصاب الزلزال معبد الرمسيوم هو الآخر بضرر بالغ. فقد سقط النصف العلوى من التمثال البالغ الضخامة الذى كان مقاماً فى الردهة الأولى. سقط الرأس والأذرع والكتفين والصدر كتلة واحدة. وتهدمت البوابة تماما. ولايزال نصف التمثال هذا ملقى على الأرض منذ سقوطه (شكل ١٩٩). إذ يبدو أنه كانت هناك صعوبات فنية تحول دون إعادته إلى مكانه فوق الرجلين. وسقطت كذلك رؤوس التماثيل الأصغر حجما التى كانت مقامة فى الردهة الثانية. ولاشك أنها قد رممت وأعيدت إلى مكانها إذ هى الرؤوس والتيجان فقط. ولكنها بمضى الوقت سقطت ثانية (شكل ٢٠٠). وقد رأى الرحالة الانجليزى « شيلى » التمثال المحطم فقال فيه الشعر التالى:

ساقان ضخمان من الحجارة بلا جسد ... تقفان فى الصحراء .

وعلى مقربة منهما جسم مهشم يرقد ... نصف مطمور فى الرمال .

اسمى أوزيمندياس (رمسيس الثانى باليونانية) ... ملـك الملـــوك .

انظر إلى أعمالى العظيمة وتحسَّر ... لا شيىء يبقى أو يصمد للبلى .

حطام تمثال ضخم وأمامه الصحراء اللا محدودة ...

برمالها المستوية تمتد إلى البعد البعيد .

٢ - فرعون ذو الأوتاد :

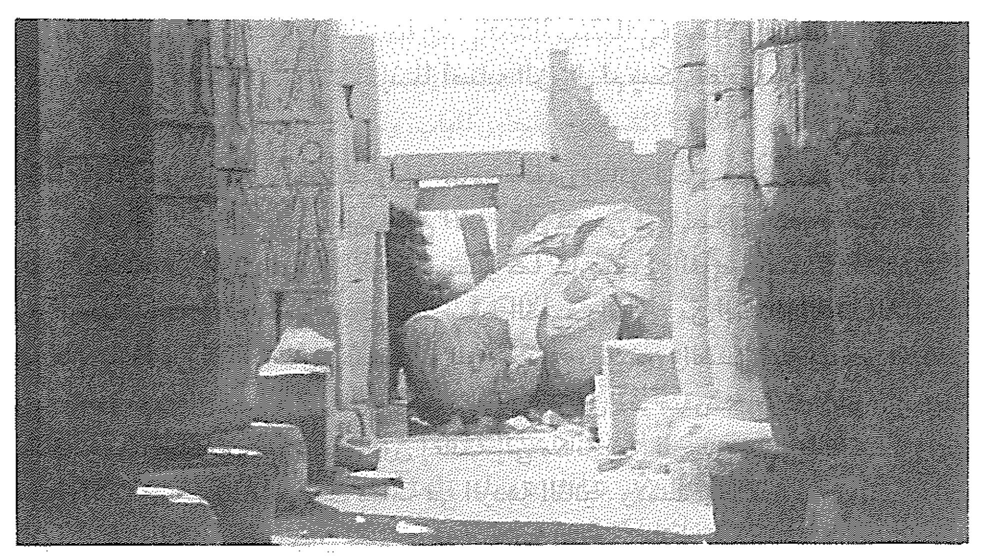
«ذو الأوتاد» صفة وردت فى القرآن الكريم عن فرعون موسى. ويهمنا أن نعرف ماهو المقصود بالأوتاد لنعرف على مَن مِنَ الفراعين ينطبق هذا الوصف.

ولقد جاء وصف فرعون موسى بذى الأوتاد فى آيتين:

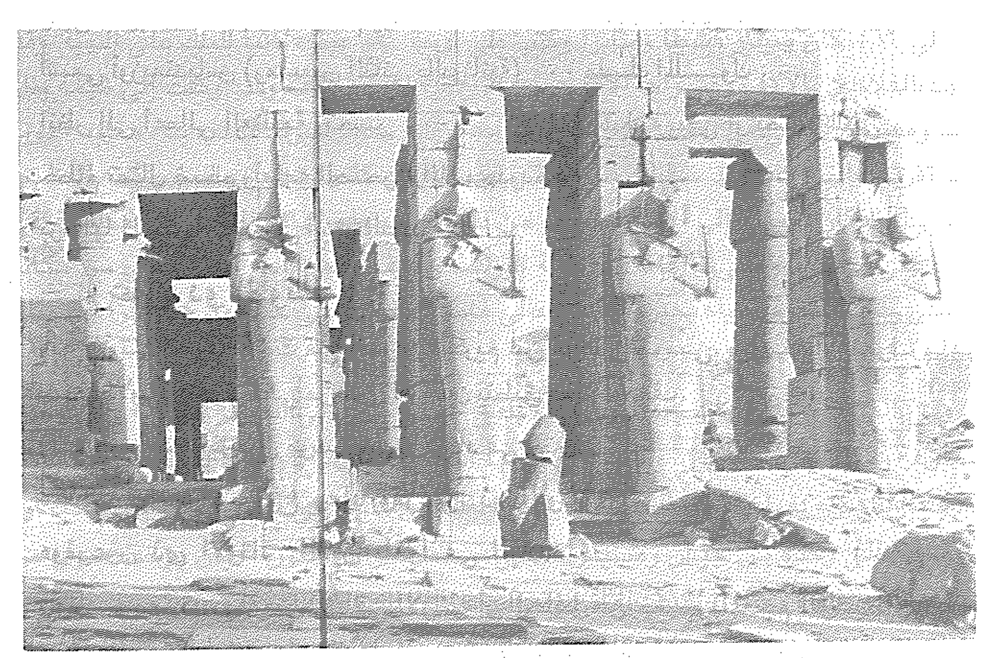
«كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد». (١٢ - ص)

«وفرعون ذى الأوتاد. الذين طغوا فى البلاد» . (١٠ - الفجر)

وأوتاد جمع وتد. وهو ما رُزَّ فى الأرض أو الحائط من خشب (المعجم الوسيط جـ٢ ص ١٠٢٠). فالوتد كما هو معروف (شكل ٢٠١) قطعة من الخشب يبلغ طولها ٥٠ سنتيمترا تقريبا. ويبلغ عرضها عند القاعدة ٥-٧سم ويقل هذا العرض تدريجيا حتى يبلغ ٣-٤سم ثم ينتهى بطرف مدبب ليُسهِّل اختراقه للتربة عند دقة فى الأرض بالمِرزبَّة وقد يكون له فى أعلاه



شكل ١٩٩ - رأس التمثال الضخم الذى كان مقاما فى نهاية الردهة الأولى
فى معبد الرمسيوم وقد سقط بفعل الزلزال.



شكل ٢٠٠ - أربعة من التماثيل الأوزيرية لرمسيس الثانى التى كانت مقامه فى الردهة
الثانية لمعبد الرمسيوم وقد سقطت الرؤوس والتيجان . أما الإربعة المقابلة لها
فقد تحطمت تماما

جزء أكثر عرضا حتى يمنع الحبل المربوط عليه من الإنزلاق (ب). ويستعمل الوتد عند الفلاحين لربط البهائم أما البدو فيستعملونه لتثبيت الخيام. وكما قال الأعشى:

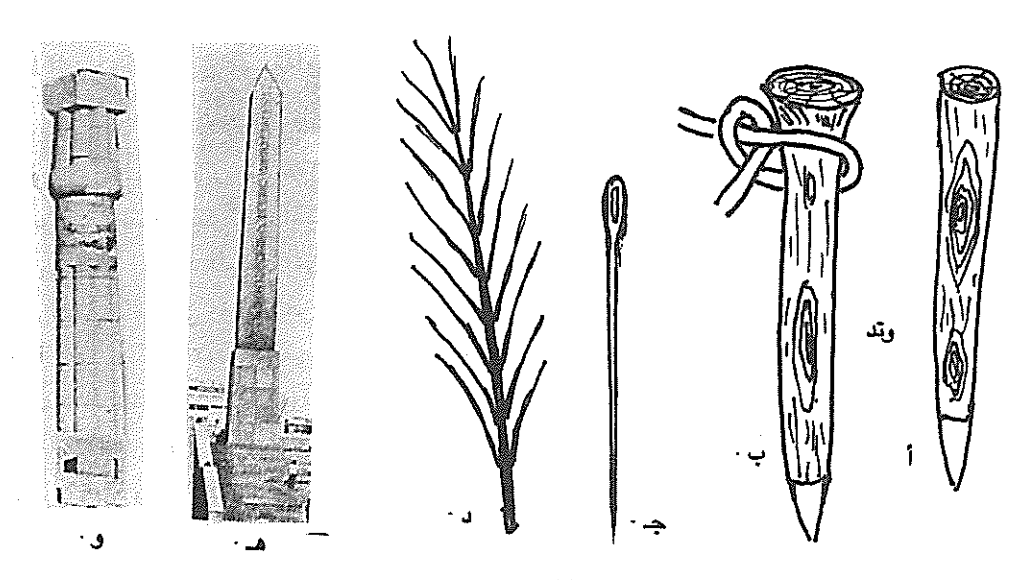
والبيت لا يبنى إلا على عمد ∴ ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

وقيل (تفسير الألوسى جـ٢٣ ص ١٧٠) إن القرآن الكريم شبه هنا فرعون فى ثبات ملكه ورسوخ سلطنته ببيت ثابت أقيم عماده وثبتت أوتاده. على سبيل الاستعارة. وقال ابن مسعود وابن عباس: الأوتاد الجنود يقوون مُلكه أى فرعون ذو الجنود. مجاز للزوم الأوتاد لخيام الجند. وعن ابن عباس فى رواية أخرى وقتادة: كان لفرعون أوتاد وخشب يُلعب له بها وعليها. وفى رأينا أنها لو كانت بهذا المعنى الأخير فهى ليست بالأهمية التى تسجَّل فى القرآن الكريم. كما أن لعبة الشطرنج كانت معروفة لدى قدماء المصريين وهى أكثر فنا فى صنعها وأكثر حرفة فى لعبها. وقالوا أيضا كان يشد المعذَّب بضرب وتد فى كل من أطرافه الأربعة فى الأرض ويتركه حتى يموت. وعن الحسن ومجاهد يدقُّها فى الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات. وقيل ترفع صخرة فتلقى عليه فيموت (تفسير ابن كثير جـ٤ ص٥٠٨). ولم يؤثر عن المصريين القدماء – فى أى عصر من عصورهم – أن كانت هذه إحدى وسائل التعذيب لديهم. وكان الضرب بالعصى هو وسيلة التعذيب البسيط (شكل ٢١٢ ص ٧٩٤) أما القتل فكان يتم ببلطة الحرب. وفى شكل ٢٠٢ يرى رمسيس الثانى ممسكا بنواصى ثلاث من الأسرى الأعداء تمهيدا لقتلهم بالبلطة الممسوكة فى يده اليسرى.

أما القول بأن ذى الأوتاد وصف لكثرة الجند. ولا يستتبع كثرة الجند إلا كثرة الحروب واتساع المملكة. وذلك غير ثابت فى حق رمسيس الثانى الذى كانت آخر حروبه الكبيرة هى معركة قادش فى السنة الخامسة من حكمه (ص ٧٨٩) ولم يكن النصر حليفه فيها بالرغم مما طنطن به من كتابات عن هذه المعركة على جدران المعابد – كما أن اتساع مملكته يقل كثيرا عن الإمبراطورية التى بناها تحتمس الثالث (جزء ٣ ص ٥٥٠) كما أنه بعد معركة قادش وعلى مدى ٦٢ عاما من حكمه لم يقم رمسيس الثانى بضم أى أراضى جديدة. بل كانت حروبه كلها مجرد حملات لصد هجمات الليبيين فى الغرب والنوبيين فى الجنوب. وأرجو ألاَّ يسارع أحد فيستنتج من هذا أن رمسيس الثانى ليس هو فرعون موسى لعدم انطباق هذا الوصف «ذى الأوتاد» عليه. فنحن لم نصل بعد إلى حقيقة معنى هذا الوصف.

فى رأى بعض أساتذة كلية الآثار (اتصال شخصى) أن الأوتاد معناها الأعمدة. إلا أننا نرى أن هناك اختلاف كبير بين شكل العمود وشكل الوتد. فالعمود يتساوى قطره العلوى مع قطره من أسفل إلا من حلقة عريضة على شكل زهرة اللوتس أو البردى تُحلِّى الطرف العلوى (شكل ٢٠١ و) أما الوتد فهو عريض فى أعلاه ويقل عرضه كلما اتجهنا إلى أسفل (شكل ٢٠١ – أ،ب). ولعلهم استندوا فى رأيهم هذا إلى قوله تعالى:

«ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون». (١٣٧ – الأعراف)



شكل ٢٠١ – أ ب – وتد جـ – إبرة عظيمة أى مِسَلّة د – جريدة نخل رطبة أو مَسَلّة .
هـ – المسلات الصخرية و – عمود حجرى .



شكل ٢٠٢ – رمسيس الثانى يمسك بيده اليمنى نواصى عدد من الأعداد تمهيدا لقتلهم بالبلطة الممسوكة فى يدة اليسرى (صورة من معبد منف) .

فكلمة يعرشون تعنى أعمدة عليها عريشة. والعريش ما يُستظل به. ولو أن العريشة تطلق غالبا على ماهو مصنوع من خشب. وعريش الكرم مايدعم به الكرم من خشب ليقوم عليه ويرتفع وتسترسل أغصانه (المعجم الوسيط جـ٢ ص٥٩٩). إلا أنه بشيء من التجاوز - يمكن قبول هذا التفسير وهو أن الأوتاد تعنى الأعمدة.

فى هذه الحالة نجد أن رمسيس الثانى كان أكثر الفراعين إقامة للأعمدة ونضرب هنا بعض الأمثلة:

١ - **معبد سيتى الأول فى أبيدوس** والذى أشرف رمسيس الثانى على بنائه. وقد وصفه علماء الآثار بأنه لا يتفق مع أى طراز موجود. بل أقرب مايكون إلى مجموعة من أبنية مقدسة جمعت دون وحدة فى التخطيط أو التناسق المعمارى وهو أقرب إلى معمار يقيمه طفل (چيمس بيكى. الآثار المصرية مترجم - جـ٢ ص ١٦٤). وفعلا كان رمسيس الثانى قد بدأ بناءه فى صباه عندما أوكل إليه والده إقامة المنشآت والمبانى وهو فى سن العاشرة. ثم أكمل بناءه بعد أن تولى الحكم منفردا. ونظرة إلى شكل ٢٠٣ نرى أن المعبد به مالايقل عن ١١٢ عمودا.

٢ - **معبد رمسيس الثانى فى أبيدوس** (شكل ٢٠٤) وبه ٥٠ عمودا.

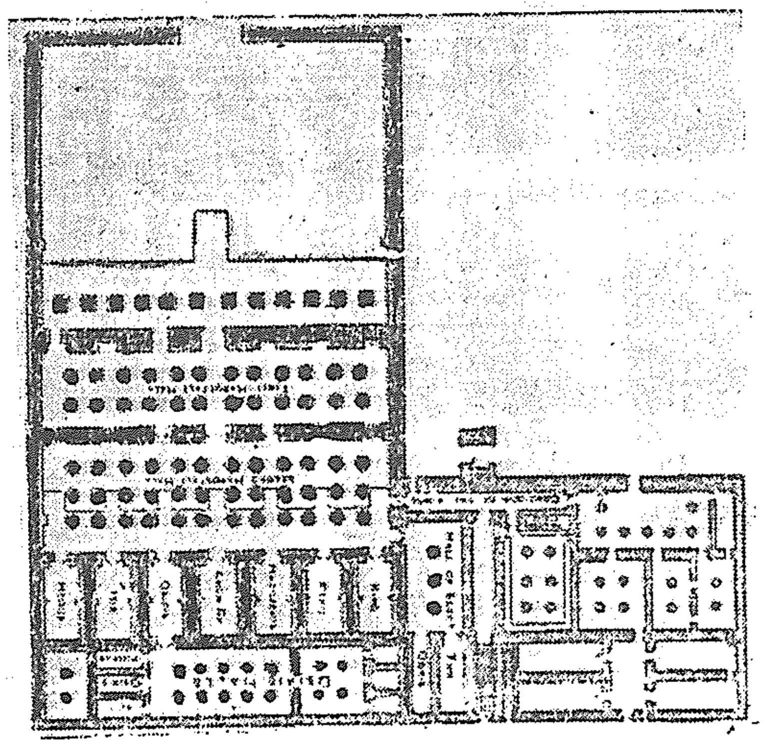
٣ - **معبد الأقصر** الذى بدأه أمنحتب الثالث وأضاف إليه رمسيس الثانى فناءين بهما عدد كبير من الأعمدة يصل إلى ٩٠ عمودا (شكل ٢٠٥).

٤ - **قاعة الأعمدة بالكرنك** (شكل ٢٠٦) : قام رمسيس الثانى بإقامة معظمها. وبها ١٣٤ عمودا مرتبة فى ١٦ صفا وتشغل مساحة ٥٠٠ مترا مربعا.

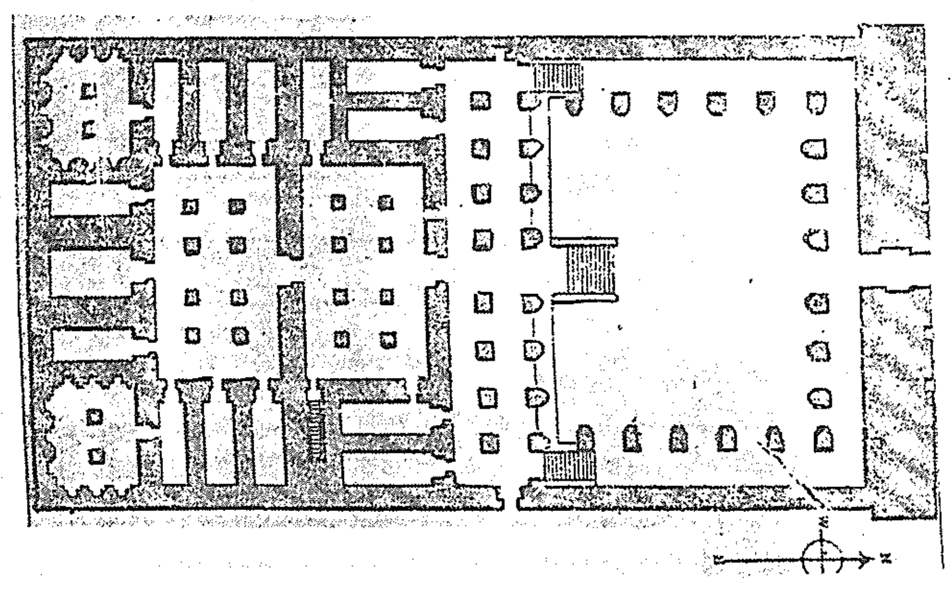
فإذا أخذنا بهذا التفسير - وهو أن الأوتاد تعنى الأعمدة - لكان رمسيس الثانى هو صاحب أكبر عدد من الأعمدة فى المبانى التى أقامها.

إلا أننا نرى أنه لو كان المقصود بالأوتاد أنها الأعمدة لذكرها القرآن بذلك. فقد سبق ذكر وصف المدينة التى أقيمت فى أرض عاد قوم هود بذات العماد أى ذات الأعمدة: **«ألم تركيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد»** (٦- ٨ الفجر). فلو كان المقصود هو الأعمدة لقيل: وفرعون ذى العماد أو صاحب العماد تمشيا مع وحدة الاسم إذا توحد المعنى.

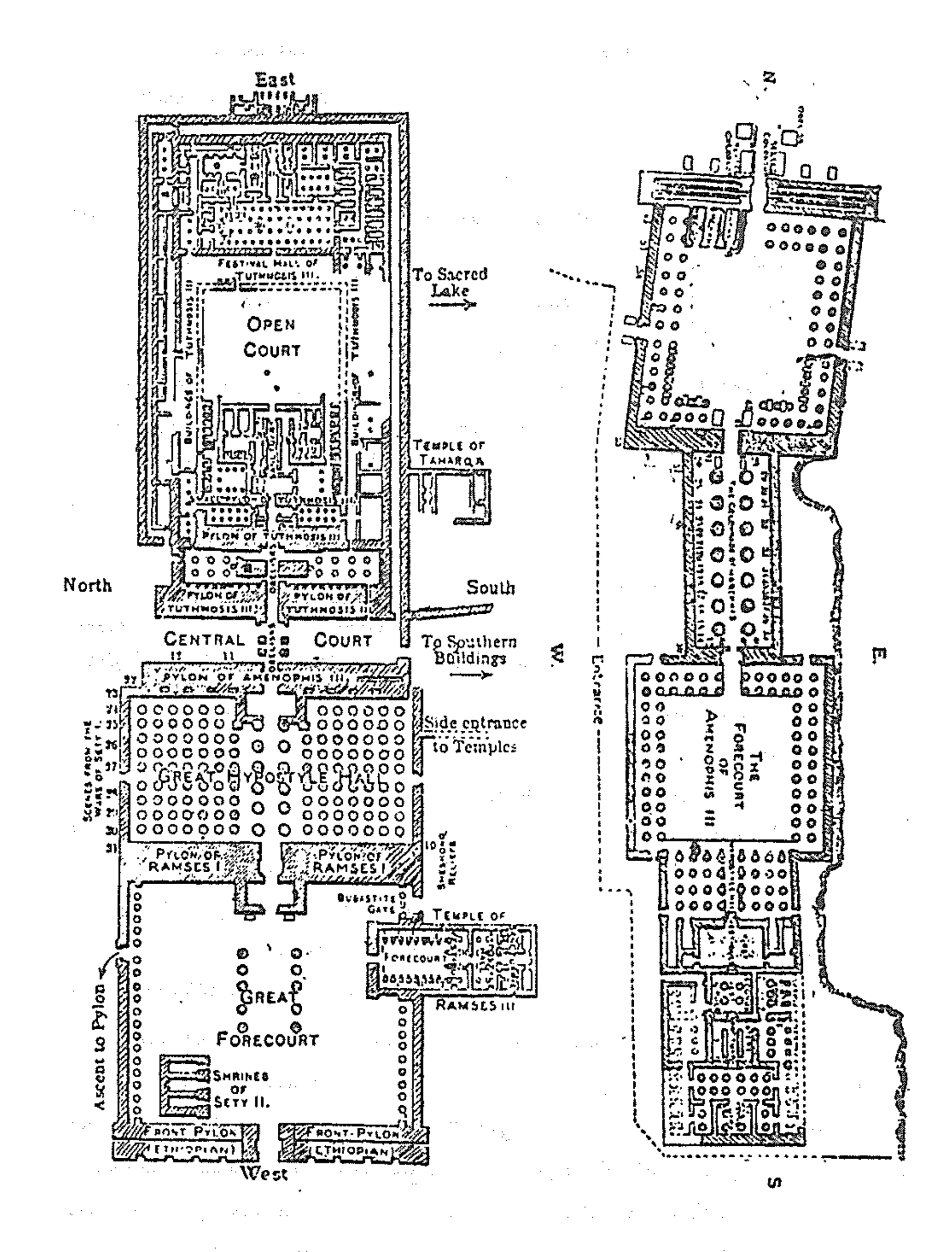
وفى رأينا أن «فرعون ذو الأوتاد» تعنى فرعون ذو المسلات. فالمسَلّة هى الإبرة العظيمة ومَخيط ضخم (لسان العرب جـ٣ - ٢٠٧٦ والقاموس المحيط جـ٣ ص٣٩٧) وإن كان جمعها فى هذين المعجمين هو مَسَالّ. إلاّ أن جمعها مسلاّت لا بأس به وأسهل فى النطق. ولعل العرب عندما فتحوا مصر ورأوا هذه القطع الصخرية الرفيعة البالغة الارتفاع فى أون (عين شمس) أو طيبة وأرادوا تسميتها اشتقوا لها إسما مما ألفوه فى حياتهم فشبهوها بالإبر الكبيرة التى تخاط بها زكائب الغلال وسموها مِسَلّة (شكل ٢٠١ جـ) أو اشتقاقا من المَسَلّة وهى



شكل ٢٠٣ – معبد سيتى الأول فى أبيدوس (أقامه رمسيس الثانى).



شكل ٢٠٤ – معبد رمسيس الثانى فى أبيدوس .



شكل ٢٠٦ – معبد آمون رع الكبير بالكرنك .

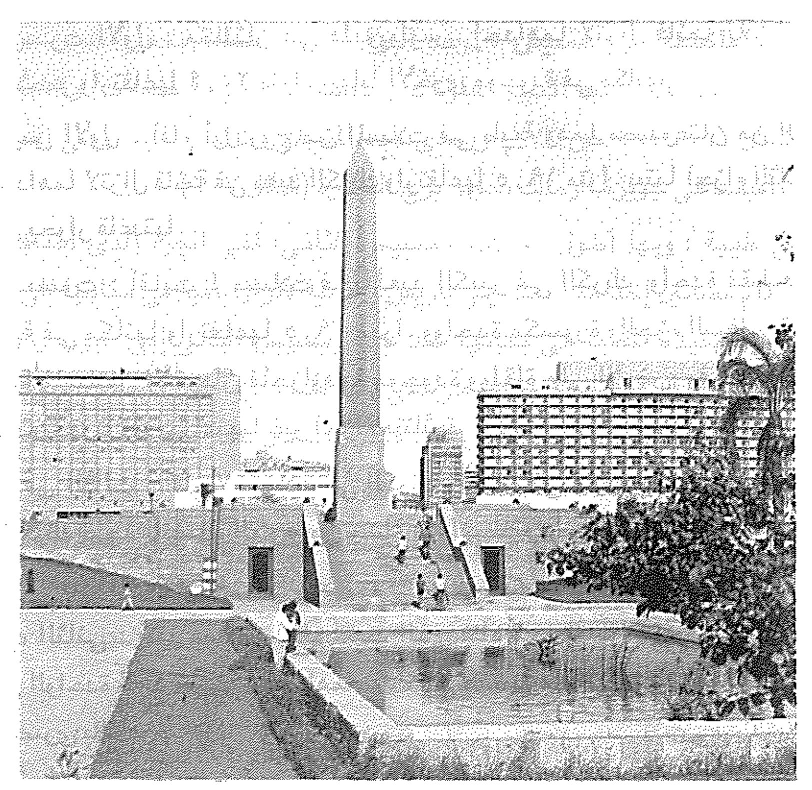
شكل ٢٠٥ – معبد الأقصر .

جريدة النخل الرطبة (شكل ٢٠١ - د) وكلاهما - الإبرة العظيمة أو جريدة النخل - تكون أرفع بالقرب من طرفها. ويجدر بنا أن نذكر أنهم لما رأوا معابد طيبة ظنوها قصورا وسموا مدينة طيبة «الأقصر» وكانت تسمية خاطئة. ولو علموا وقتها أنها معابد لسموها «المعابد» بدلاً من «الأقصر». وتبعا لهذا التصور الخاطىء فإنهم لما رأوا المعبد الكبير شبهوه بقصر النعمان المسمى «الخورنق» وتطور الإسم على مر الأزمنة إلى «الكرنك».

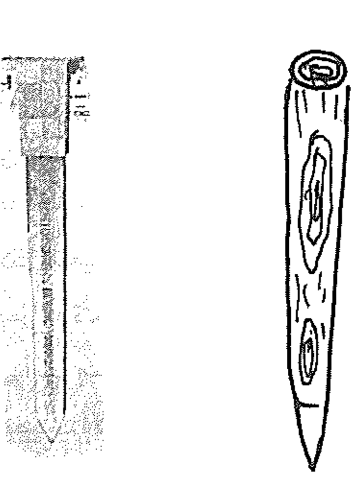
وفى رأينا أن تسمية هذه الأعمدة الحجرية الرفيعة والمدببة بالمسلاَّت لم تكن كذلك تسمية دقيقة. فالمسلة الحقيقية أى الإبرة العظيمة التى شبَّهوها بها قد يبلغ طولها ١٥-٢٠ سم فى حين أن قطرها قد لا يزيد عن ٣مم أى أن نسبة الطول إلى القطر تكون من ٥٠-٧٠ مرة فى حين تقل هذه النسبة فى مسلات قدماء المصريين عن ذلك كثيرا (شكل ٢٠١ هـ). فالمسلة المقامة فى باريس يبلغ ارتفاعها ٢٢,٥٥ مترا بينما يبلغ طول ضلع قاعدتها ٢,٥ مترا أى أن نسبة القاعدة إلى الارتفاع هى ٩ مرات وفى مسلة لندن تبلغ النسبة ٧ مرات فقط وهى نسبة تقرب من نسبة أبعاد الوتد الذى غالبا مايكون طوله ٥٠سم وعرضه ٧سم عند القاعدة أى أن النسبة ٧ مرات. زد على ذلك أن المسلة أى الإبرة مستديرة ولا تكون أبداً مربعة الشكل فى حين أن الوتد يمكن صنعه من قطعة من الخشب مربعة الشكل بتهذيب طرفها. وإذا نظرنا إلى صورة إحدى هذه المسلات مقلوبة لوجدناها أقرب ماتكون إلى شكل الوتد (شكل ٢٠٨). وبالمثل لو نظرنا إلى الوتد مقلوبا لوجدناه يشبه المسلة تماما.

ولو كان هناك أحد يعرف الهيروغليفية عند دخول العرب مصر لأخبرهم أن هذه الأعمدة الضخمة ذات الطرف الهرمى - والذى كان يغطى بالذهب أو النحاس فيعكس أشعة الشمس لمسافات بعيدة - كانت رمزا لعبادة الشمس. ولقرأوا هذه الجملة على قاعدة إحداها مخاطبة إله الشمس: أنت تلمع فى هذه الأوتاد (أى الأعمدة) الصخرية. إذ أن وتد باللغة الهيروغليفية اسمه يون. ومدينة هليوبوليس - وهى مركز عبادة إله الشمس - تسمى أون اشتقاقا من يون فهى مدينة الأوتاد وهى أول مكان أقيمت فيه المسلات فى مصر القديمة. كما أن مدينة طيبة (حاليا الأقصر) كانت تعرف بـ U.ast أو Iunu Shemayit أى العمود أو الوتد الجنوبى أو هليوبوليس الجنوب (مسلات مصر. لبيب حبشى. ص ٥ - ٦).

ولو كان العرب عند دخولهم مصر قد سألوا اليونانيين بماذا سمُّوا هذه الإبر الصخرية العظيمة لعلموا أنهم سموها Obeliskos بمعنى وتد وبمعنى عمود مدبب أيضا. وعن اليونانية أخذت اللاتينية اسم Obltkos ثم Obelisque وفى الإنجليزية Obelisk . وكان القرآن الكريم من الدقة بحيث استعمل اللفظ الصحيح وهو **«فرعون ذو الأوتاد»** بمعنى فرعون ذو المسلات وبقى علينا أن نحدد من هو الفرعون المقصود بهذه الصفة. ويمكننا ذلك إذا استعرضنا الفراعين وعدد المسلات التى أقامها كل منهم. وخير من كتب فى هذا الموضوع هو الدكتور لبيب حبشى. ومايلى مشتق من كتابه (The Obelisks of Egypt - مسلات مصر):



شكل ٢٠٧ – مسلة رمسيس الثانى المقامة فى جزيرة الزمالك



شكل ٢٠٨ – الوتد إلى اليمين يشبه تماما المسلة إلى اليسار وقد وضعت مقلوبة .
ولو قلبنا الصورة لوجدنا الوتد يشبه المسلة.

– **سنوسرت الأول** : مسلتان فى هليوبوليس. إحداهما لاتزال قائمة للآن وهى من الجرانيت الأحمر وارتفاعها ٢٠,٤ مترا. وبقايا الأخرى موجودة فى مكانها.

– **تحتمس الأول** : أقام أول زوج من المسلات فى طيبة وهما مصنوعتان من الجرانيت الأحمر. إحداهما لاتزال قائمة فى معبد الكرنك وارتفاعها ١٩,٥ مترا. بينما آجزاء الثانية ملقاة على الأرض بجوار قاعدتها.

– **حتشبسوت** : أقامت ٤ مسلات فى المعبد الكبير فى الكرنك. واحدة فقط هى التى لاتزال قائمة فى مكانها وارتفاعها ٢٩,٥ مترا. وواحدة مكسورة والجزء السفلى قائم على القاعدة. أما المسلتان الأخريان فأجزاؤهما موجودة وملقاة على الأرض. وفى أسوان أمرت بإقامة مسلتين دُمرتا ولم يبق منهما غير أجزاء متناثرة.

– **تحتمس الثالث** : أقام ٧ مسلات فى الكرنك واثنتان فى هليوبوليس ومن المسلات التى كانت فى الكرنك يوجد النصف العلوى من مسلة فى اسطنبول وواحدة فى نيويورك وأخرى فى لندن وواحدة بدون قاعدة موجودة فى روما.

أمنحتب الثانى : أقام مسلتين أمام المعبد الذى بناه فى هليوبوليس ومسلتين فى جزيرة فيلة ارتفاع الواحدة ٢,٢ متر فقط إحداهما نقلت إلى بلدة درهام فى انجلترا والأخرى موجودة بالمتحف المصرى بالقاهرة.

تحتمس الرابع : أقام مسلتين فى جزيرة فيلة نقلت أجزاء من إحداها إلى المتحف المصرى بالقاهرة.

أمنحتب الثالث : بالرغم من أن رئيس العمال سجل أنه أشرف على عمل ٦ مسلات إلاً أنه لم يوجد إلا قاعدة مسلتين وقُدّر ارتفاع كل مسلة بـ ١٩ مترا.

أمنحتب الرابع : أخناتون : وكان قد بدأ عقيدته الجديدة وأمر بإزالة أسماء الآلهة من على مسلات أسلافه. ويحتمل أنه أقام مسلة واحدة فقط لنفسه.

حورمحب : أقام عدة مسلات صغيرة لم يبق إلا أجزاء منها.

رمسيس الأول : نظرا لقصر مدة حكمه فلم يتح له إقامة أى مسلات.

سيتى الأول : أقام مسلتين أمام معبده.

رمسيس الثانى : حظى بنصيب الأسد فى عدد المسلات التى أقامها :

– **فى هليوبوليس** : أقام ٤ مسلات على الأقل ثلاث نقلت إلى روما والرابعة إلى فلورنسا.

– **فى حطام أتريب** (بنها) وجد حطام مسلتين وقاعدتيهما وكانت أجزاء بعض المسلات قد استعملت فى بعض المبانى. ونقلت قاعدة إحدى المسلات إلى متحف برلين والثانية موجودة بالمتحف المصرى.

- **فى العاصمة بررعمسيس** : توجد أجزاء من ٢٣ مسلة محفور عليها اسم رمسيس الثانى كانت كلها فى المعبد الكبير عبارة عن خمسة أزواج (١٠ مسلات) و١٣ مسلة فرادى (انظر شكل ١٩١، ١٩٢ ص ٧٧٢) وإحدى هذه المسلات كانت سليمة وهى التى نقلت إلى القاهرة وأقيمت فى جزيرة الزمالك بجوار برج القاهرة (شكل ٢٠٧).

- **فى طيبة** : وبها أطول مسلات لرمسيس الثانى. ففى الجزء الذى أضافه إلى معبد الأقصر أقام مسلتين إحداهما نقلت إلى باريس والثانية لاتزال باقية فى مكانها إلى اليوم ولعلها هى المسلة الوحيدة المقامة فى مكانها منذ عهد رمسيس الثانى إلى اليوم. وكل من هاتين المسلتين كان يبلغ ارتفاعها ٢٥ مترا وهى على ذلك تعتبر من أطول المسلات. وتوجد بقايا عدد من المسلات فى الكرنك كلها محطمة. وتوجد قاعدة مسلتين عند البوابة الشرقية. بالإضافة إلى أجزاء من مسلات أخرى.

- **فى أبى سمبل** : أقام فى المعبد مسلتين. الشرقية عليها نقوش تُمثِّل رمسيس الثانى يتعبد إلى «حوارختى» والغربية تصف الملك بأنه «محبوب آمون».

ويمكن تلخيص ما سبق بالآتى:

سنوسرت الأول	: ٢ مسلة .	تحتمس الأول : ٢ مسلة .	
حتشبسوت :	: ٦ مسلات .	تحتمس الثالث : ٩ مسلات .	
أمنحتب الثالث	: ٢ أو ٦	أخناتون	: واحدة أو لا شىء .
حور محب	: مسلات صغير .	رمسيس الأول : لا شىء .	
سيتى الأول	: ٢ مسلة .		
رمسيس الثانى	: ٣٥ مسلة على الأقل .		

وهكذا نجد أن عدد المسلات التى أقيمت قبل عصر رمسيس الثانى تبلغ حوالى ٣٠ مسلة بواقع ٣ مسلات فى المتوسط لكل فرعون فى حين أن رمسيس الثانى وحده أقام مالا يقل عن ٣٥ مسلة. وكما سبق أن أوضحنا أن الإسم الصحيح الذى كان من الواجب إطلاقه على هذه الأعمدة الصخرية هو لفظ «**وتد**» بدلاً من «**مسلَّة**». ويتضح لنا أن رمسيس الثانى هو صاحب أكبر عدد من الأوتاد وبذلك ينطبق عليه الوصف الذى أطلقه القرآن الكريم على فرعون موسى: «**فرعون ذو الأوتاد**». وهذا يضيف برهانا آخر على أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى.

الفصل الخامس

حروب رمسيس الثانى

لقد تم تخصيص هذا الفصل لوصف حروب رمسيس الثانى، وبالذات معركة قادش لما كان لها من انعكاسات على وضع بنى إسرائيل فى مصر. إذ فور أن عاد رمسيس الثانى من هذه المعركة حتى بدأت حملة ضارية من التعذيب والتنكيل ببنى إسرائيل بلغت مداها بإصدار أوامر بذبح المواليد الذكور وترك البنات، والذى أشار إليه القرآن الكريم:

«وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم». (٤٩ - البقرة)

«وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم». (٦ - إبراهيم)

وقد سبق أن ذكرنا (ص ٦٥٨) أن ذلك التسخير هو أحد الأشياء التى يجب أن تتوافر فى فرعون موسى واستبعدنا عددا من النظريات لعدم توافر هذا الشرط. وسنرى الآن أن رمسيس الثانى كان تقريبا الفرعون الوحيد الذى توافر لديه دافع قوى لإنزال هذا التعذيب الشديد ببنى إسرائيل.

ذكرنا فى الجزء الثالث ص ٥٨٩ أن سياسة أخناتون أفقدت مصر إمبراطوريتها التى أسسها تحتمس الأول وتحتمس الثالث، ولما تولى حورمحب الحكم أعاد الانضباط إلى الإدارة الحكومية. وبدأت الأسرة التاسعة عشرة برمسيس الأول ثم خلفه سيتى الأول واعتبر الشعب توليه الحكم بداية عهد جديد ومن ثم أطلق عليه لقب «مجدد الميلاد». وقاد حملات مظفرة فى فلسطين والشام. ومن ثم بدأ الاحتكاك بين مصر والحيثيين فى آسيا الصغرى الذين كانوا قد استولوا على شمال سوريا. ودارت معارك كان النصر فيها حليف سيتى الأول وعقد مع ملكهم معاهدة ودية. كما حمى مصر من غارات الليبيين فى الغرب. وعندما تولى رمسيس الثانى الحكم قام ملك خيتا بزيارة لمصر. ولا يُعرف السبب الحقيقى الذى كان وراء هذه الزيارة. هل هو تأكيد المعاهدة الودية التى أبرمها سيتى الأول معهم. أم هى لسبر غور الفرعون الجديد ومعرفة نواياه تجاههم. المهم أن الأموريين (فى شمال العراق) قاموا بثورة ونقضوا ولاءهم لملكة خيتا (الحيثيين) وولوا وجوههم شطر مصر لمعاونتهم. وتوترت العلاقات بين مصر وخيتا. وكان رمسيس الثانى يطمع فى إعادة الإمبراطورية المصرية كما كانت فى عهد تحتمس الثالث

(جـ٣ ص٥٥٠) ومن ثم فقد قاد فى السنة الرابعة من حكمه حملة لإخضاع الساحل الفينيقى ليتخذه قاعدة لتوسعاته المقبلة ووصل إلى نهر الكلب على مقربة من بيروت (شكل ٢٠٩). ونقش على صخرة هناك مايدل على وصوله إلى هذا المكان. وكان فى هذا نقض للمعاهدة التى كانت معقودة بين سيتى الأول والده وملك خيتا. وأضمر رمسيس الثانى متابعة التوسع شمالا. وفى العام التالى - أى العام الخامس من حكمه قاد حملة ثانية وهى الحملة التى وقعت فيها معركة قادش الشهيرة. وكان ملك خيتا من جانبه قد توجس خيفة من رمسيس الثانى ولعله علم نواياه فاستعد لذلك وأعد جيشا قويا انخرط فى سلكه كثير من المرتزقة. كما استمال إليه أمراء الشام حتى لا يقوموا بطعنه من الخلف أثناء حربه مع المصريين.

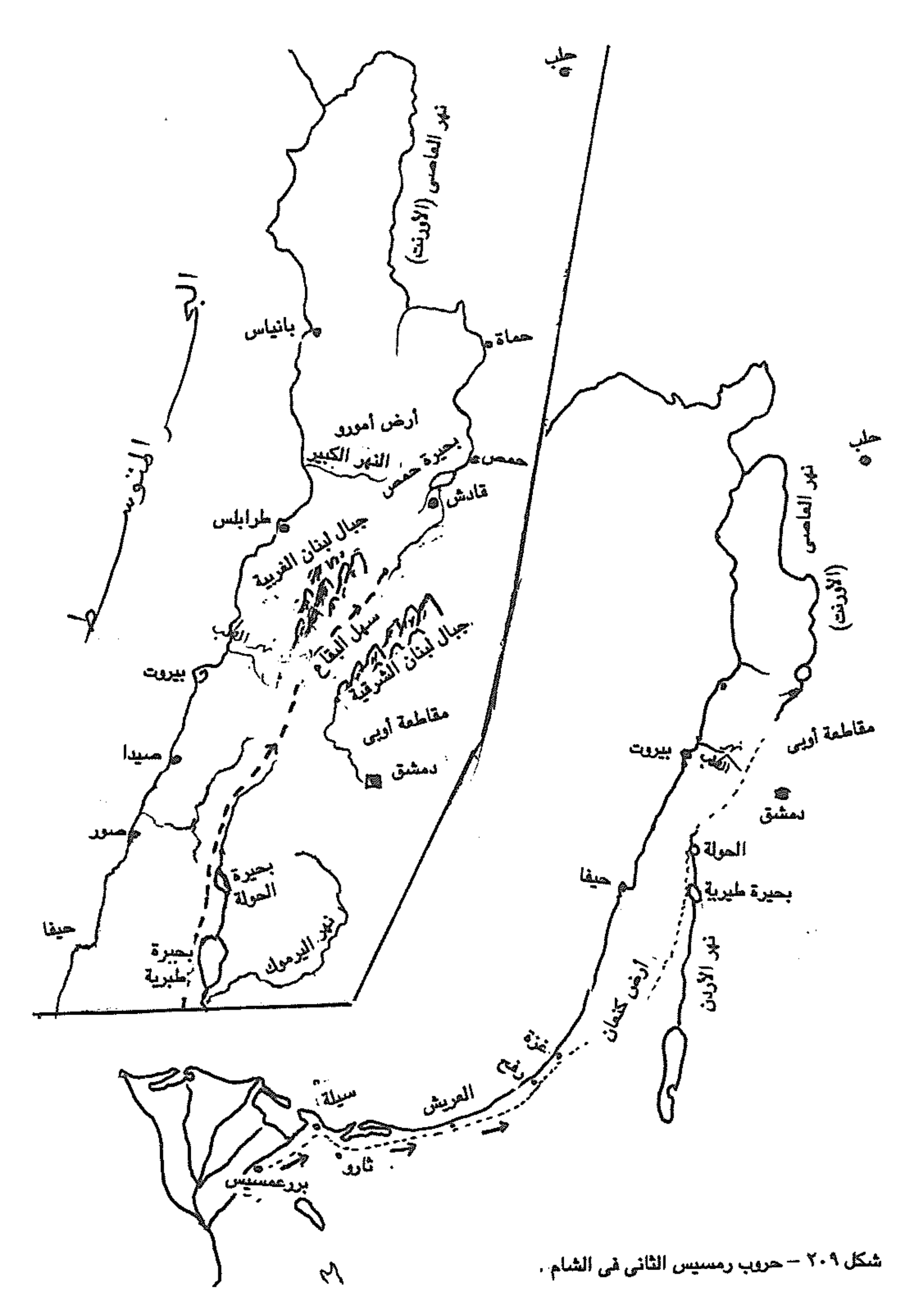
معركة قادش

وصف المعركة (نقلا بتصرُّف عن كتاب فرعون المنتصر . كتشن. ص٥٣):

فى يوم ربيع دافىء فى أواخر شهر أبريل من عام ١٢٨٧ ق.م. كان هناك هرج ومرح فى مدينة بررعمسيس. فكتائب المشاة تتجمع. وفرق العربات الحربية كانت تثير الغبار فيما قائدوها يختبرون حماس خيولها المتحفزة. وفتحت مخازن المهمات الحربية لتأخذ كل سرية حاجتها من الدروع والسيوف والخناجر. وتجمع فى الأرض الواسعة حول المدينة جيش كبير قوامه عشرون ألف مقاتل مقسمين إلى أربعة فيالق. كل منها باسم أحد الأرباب المصريين الكبار. وقد اختير أفراد كل فيلق من مكان عبادة هذه الآلهة. فمن طيبة جاء فيلق آمون. ومن منف ومصر الوسطى جاء فيلق «بتاح» ومن عين شمس جنَّد فيلق «رع» ومن بررعمسيس اختير فيلق «ست». كذلك تخير رمسيس الثانى مجموعة من صفوة الشبان الشجعان وسماهم «فريق الفتوة» وأمرهم بالتزام خط الساحل واللحاق به عند قادش وحماية ظهر قواته عند الحاجة ويمكن تشبيههم بفرقة صاعقة.

وسار الجيش يقوده رمسيس الثانى بنفسه على رأس فيلق آمون تتبعه الفيالق الثلاث الأخرى. وكما هو مكتوب من وصف المعركة على المعابد:

بدأ جلالته السير فى السنة الخامسة من حكمه. الشهر الثانى من الصيف. اليوم التاسع. وعبر جلالته الحدود عند Sile سيلة. وبدا قويا مثل «منتو». وكانت البلاد الأجنبية ترتجف أمامه. يأتى رؤساؤها بجزاهم. والعصاة خمدوا فى أماكنهم خوفا من قوة جلالته. ومر الجيش بغزة. وبسرعة عبر أرض كنعان ثم الجليل الأعلى فبحيرة الحولة حيث ينبع نهر الأردن. ثم تابع السير شمالا فى سهل البقاع بين جبال لبنان الشرقية والجبال الغربية. وكما كتب عنها: وكانت الجيوش تسير بسهولة كأنها تسير فى شوارع مصر! ومر على إحدى الحاميات المصرية فى وادى الأرز ببلدة كوميدى - المركز الإدارى لمقاطعة أوبى (Upi) فى جنوب سوريا - وكان قد



شكل ٢٠٩ – حروب رمسيس الثانى فى الشام.

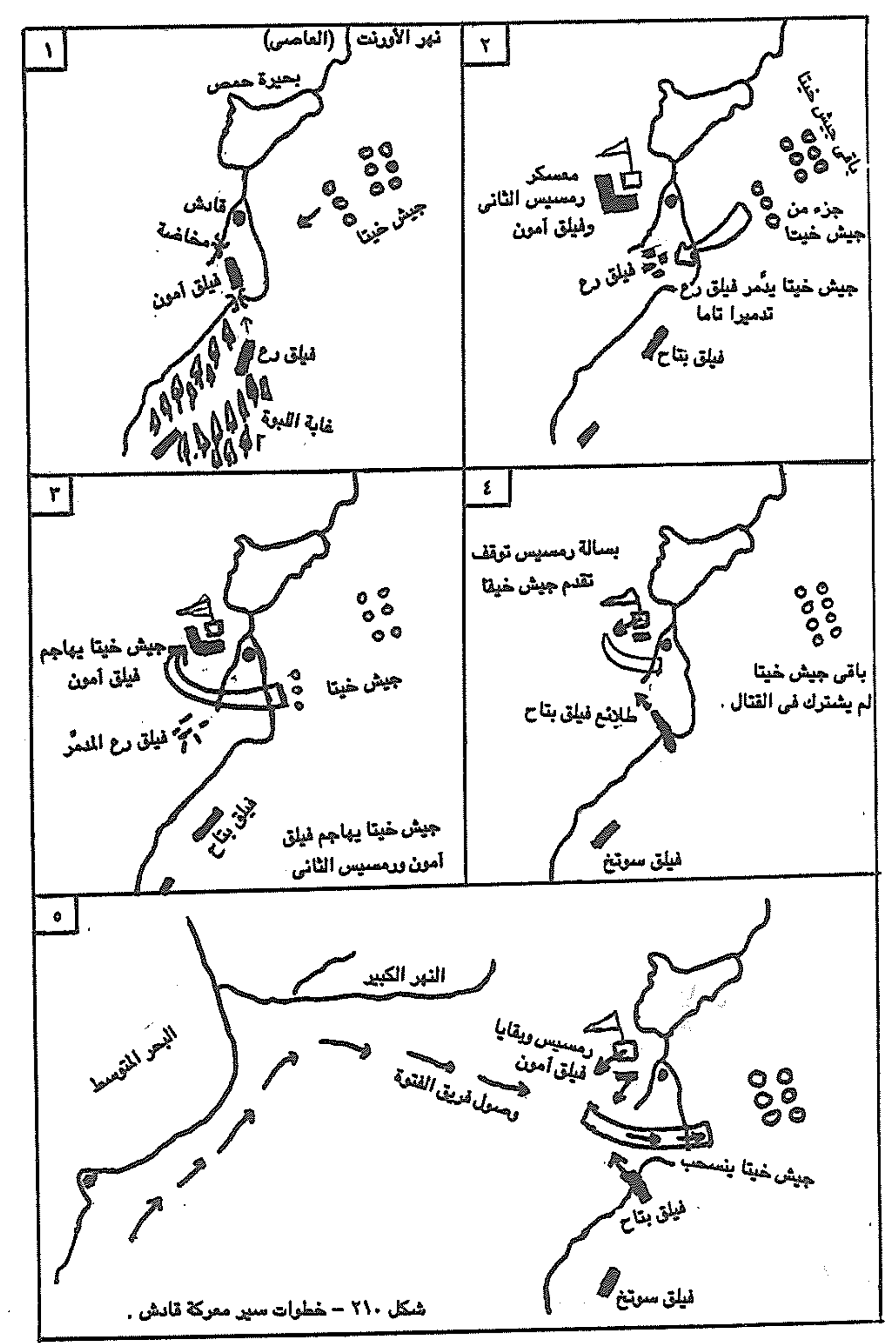
مضى على خروجه من مصر شهر بالتمام. وسار مخترقا غابة اللبوة حتى بلغ بلدة شابتونا (ربلة الحالية) على نهر الأورنت (نهر العاصى) وعسكر على ربوة تشرف على الوادى الفسيح التى تقع مدينة قادش فى شماله على مسيرة يوم واحد (شكل ٢١٠).

وبعد وصوله هناك دخل معسكره اثنان من الشاسو (البدو) وادّعيا أنهما يتكلمان باسم إخوانهم رؤساء قبائل البدو وأنهم يعرضون الولاء والتحالف مع مصر بدلاً من الاستعباد الحيثى. وأسلمهما لرجاله فاستجوبوهما عن مكان جيوش الحيثيين فأخبراهم أن حاكم خاتى ما إن سمع بمقدم فرعون حتى ارتعد وتقهقر بجيوشه إلى ماحول حلب فى الشمال.

وكان هذا النبأ مفرحا للفرعون ولاعتقاده الشديد فى قوة جيشه فقد صدَّقه على الفور. ومع أن هذه الأخبار كانت مبهجة أكثر من اللازم بحيث تدعو إلى الإرتياب فى صحتها وكان الواجب التحقق منها بإرسال العيون وفرق الكشافة . إلاَّ أن رمسيس الثانى وقد ملأه الزهو بنفسه فإنه صدقها. وأسرع على رأس فيلق آمون يعبر مخاضة نهر العاصى إلى السهل الذى تقع فى شماله مدينة قادش.

قادش: تقع قادش على الضفة الغربية لنهر العاصى جنوب بحيرة حمص بعدة كيلو مترات وهناك رافد لنهر العاصى يجرى فى الشمال الغربى منها. وكان هذا من أسباب منعتها. إذ بشق قناة تصل بين النهرين تصبح قادش وكأنها جزيرة يصعب اقتحامها ومن ثم فإن من يستولى عليها يمكنه التحكم فى كل شمال سوريا.

قلنا إن رمسيس الثانى عبر نهر العاصى ثم سار إلى مرتفع شمال غربى قادش وأقام معسكره هناك (شكل ٢١٠) فى انتظار وصول باقى فيالق الجيش ليتابع السير فى أثر جيش خيتا الذى كان يظن أنه فى الشمال حسب ما أخبره الجاسوسان. وهنا نزلت عليه صاعقة من السماء الصافية التى كان يحلق فيها. فقد وقع فى أيدى فرق استطلاعه جنديان من جيش العدو كانا فى مهمة لاستكشاف موقع جيش المصريين وعدده. وبالضرب استخلصوا منهما الحقيقة وهو أن جيش الحيثيين فى مكانٍ شرقى قادش وهو فى طريقه ليعبر نهر العاصى. وأن الجاسوسين الأولين كانا خدعة من ملك خيتا. وأدرك رمسيس الثانى هول الكارثة المتوقعة. وراح يوبخ ضباطه على إهمال فرق الاستطلاع. وبسرعة أعاد ترتيب الفيلق الذى يرأسه استعداداً لهجوم العدو. كما أرسل الرسل على عجل إلى فيلق بتاح وسوتخ ليسرعا السير. وفى هذه الأثناء كان نصف الجيش الحيثى قد عبر مخاضة نهر العاصى وهاجم فيلق رع بينما الجنود يسيرون فى استرخاء غير متوقعين القتال. وتشتت الفيلق ودُمِّر تماماً. ثم تابع جيش خيتا تقدمه حتى أصبح فى مواجهة فيلق آمون. وبدأ فى مهاجمته. ورأى جنود فيلق آمون بقايا الجنود من فيلق رع يجرون مذعورين تتبعهم عاصفة التراب التى تثيرها عربات العدو وهى تلاحقهم فدب الذعر فى قلوبهم ولم يدروا ماذا يفعلون حتى أحاط جنود العدو بهم. ثم اندفعت



شكل ٢١٠ – خطوات سير معركة قادش .

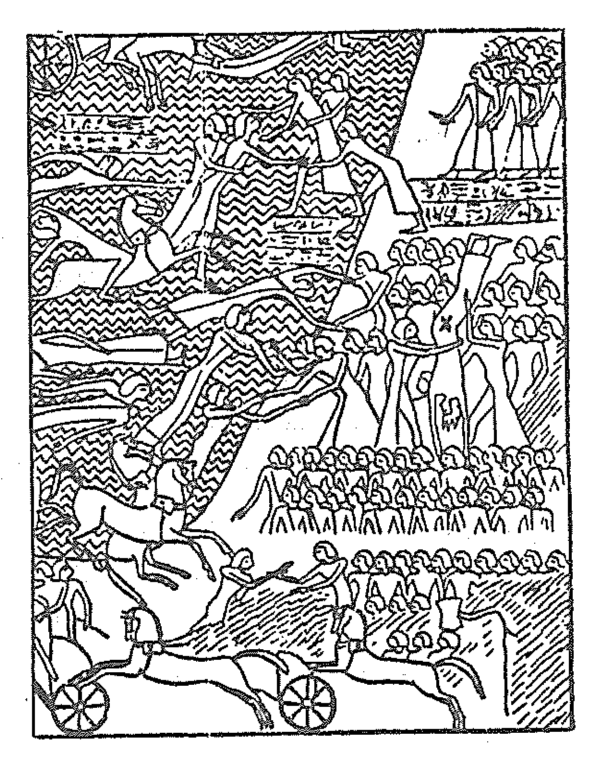
فرقة من جنود العدو تهاجم الجناح الغربى من الفيلق. وهنا أظهر رمسيس الثانى شجاعة فائقة إذ اندفع على عربته وقاتل الفرقة المهاجمة بشراسة اليائس والغاضب من تخاذل قواته ويطوف بذهنه شبح الهزيمة فيعطيه قوة مضاعفة على القتال. وبهت ضباط الفرقة المهاجمة من هذه الشجاعة وقدروا أن كل جنوده سيحاربون مثله فضعفت عزيمتهم وارتبكوا . وفى نفس هذه اللحظة كان فريق الفتوة قد وصل من الغرب وبدأ فى مهاجمة العدو من الخلف (شكل ٢١٠ جـ). وظن الحيثيون أن فريق الفتوة هذا مقدمة جيش كبير فتخاذلوا فى القتال. كما أن الغبار الذى كان يثيره فيلق «بتاح» بدأ يظهر فى الأفق من ناحية الجنوب. وشدد رمسيس الثانى عليهم القتال ففروا هاربين عبر النهر يلقون أنفسهم فيه طلبا للنجاة وكان من بين من ألقوا بأنفسهم فيه أمير حلب الذى لم يكن يحسن السباحة فابتلع كمية كبيرة من المياه وتم إنقاذه. وهناك رسم يصور جنوده وقد أمسكوه من رجليه مقلوبا لإفراغ مافى جوفه من مياه (شكل ٢١١).

ووصل فيلق «بتاح» أرض المعركة وبدأ يشترك فى المطاردة وفى جمع الأسرى. وذهل ملك خيتا لما آلت إليه نتيجة المعركة مع أن جزءا كبيرا من جيشه كان لايزال فى الشرق ولم يشترك فى المعركة ولو تقدم واشترك فيها لكان النصر حليفه. ولكن ملك خيتا ارتد بباقى جيشه لما رأى فرار جنوده وأرسل يطلب وقف القتال والصلح. وكان التعب قد حل بجيش رمسيس أيضا فقبل الصلح.

المهم أن رمسيس الثانى فى هذه المعركة خدع خدعة كبيرة كلفته فيلق رع بأكمله. كما فقد فيلق آمون عددا كبيرا من الجنود ولم يتمكن رمسيس الثانى من النصر الذى كان يرجوه. وكل ماحصل عليه هو وقف القتال وبقاء الحال كما هو. إذ لم يتمكن من الاستيلاء على قادش ولا على أرض أمورو. ولعله فى قرارة نفسه أضمر أن يحقق ذلك فى معركة أخرى فى المستقبل. وبدأت مسيرة العودة إلى أرض الوطن .... وأخيرا وصل فى عربته اللامعة يتبعه طابور طويل من الأسرى ليدخل السرور على شعبه !

بعد عودة رمسيس الثانى أحكم مواتاليس ملك خيتا القبضة على قادش. واتجه غربا نحو أرض أمورو وعزل أميرها ونصب مكانه أميرا مواليا له. واتجه جنوبا نحو دمشق وجعل من هذه المنطقة أرضا محايدة بينه وبين مصر وكانت من قبل فى حوزة مصر. أى أن النتيجة النهائية كانت فى صالح خيتا. ولكن فرحة ملك خيتا لم تدم. إذ انتهز ملك آشور الظروف واستولى على مملكة ميتانى فى الفرات الأعلى والتى كانت موالية لملك خيتا وأمدته بجنود فى معركته مع رمسيس الثانى.

قلنا إن رمسيس الثانى قَبِل الصلح مع ملك خيتا وعاد إلى مصر يسوق بعض الأسرى. وقد أكثر رمسيس الثانى من تسجيل وصف هذه المعركة فى عدة أماكن على الآثار. وإن كنا سنطيل بعض الشيىء فى ذكر ماجاء بالآثار عن هذه المعركة فذلك لنوضح ماسبق أن ذكرناه



شكل ٢١١ – رمسيس الثانى يهزم الحيثيين، ويرى ملك حلب مقلوبا (مشار إليه بعلامة ×) ويحاول رجاله تفريغ ما ابتلعه من ماء .



شكل ٢١٢ – رجال رمسيس الثانى ينزلون باليدويين من العابيرو العقاب .

سابقا من أنه فور عودة رمسيس الثانى من هذه المعركة حتى بدأ حملة ضارية من التعذيب والتنكيل ببنى إسرائيل. كذلك لنلحظ أنه فى كل الكتابات التى أمر بها عن المعركة أرجع الفضل فى الانتصار فى المعركة لشجاعته ورباطة جأشه. وجاء فى بعضها مبالغات تبعد كثيرا عن الحقيقة ولا يقبلها العقل. ولعل هذه البطولة التى نسبها لنفسه جعلته يشعر أنه فعلا فوق مستوى البشر وأنه يقرب من مستوى الآلهة. الأمر الذى أدى به فيما بعد إلى أن يدعى الألوهية.

وفيما يلى بعض الأماكن التى سجل عليها وصف هذه المعركة: (مصر القديمة. سليم حسن. جـ٦ ص٢٤٦).

١ - على الجدار الغربى الخارجى من ردهة أمنحتب الثالث فى معبد الأقصر.

٢ - على الجدار الجنوبى الشرقى لردهة رمسيس الثانى فى معبد الأقصر.

٣ - على بوابة معبد الأقصر .

٤ - على الجدار الغربى لمعبد العرابة المدفونة.

٥ - على البوابة الأولى لمعبد الرمسيوم.

٦ - على الجدار الشمالى للردهة الثانية فى معبد الرمسيوم

٧ - على الجدار الشمالى لمعبد أبو سمبل سَجَّل مايسمى بأنشودة معركة قادش.

٨ - برديتى «ريفا» و«ساليه».

وسنكتفى بذكر ماجاء فى اثنتين من هذه الكتابات:

١ - كان وصف المعركة والخدعة فى أحد هذه الكتابات كما يلى :

فى السنة الخامسة الشهر الثالث من فصل الصيف كان ابن الشمس محبوب آمون «رعمسيس» فى حملته الثانية المظفرة فى أرض زاهى فى سرادق جلالته على الهضبة الجنوبية من قادش. وعندما طلع الفجر أشرق جلالته كما يشرق «رع».. وهنا أتى إليه اثنان من الشاسو (البدو) وقالا لجلالته قائلين إننا سنكون خَدَمًا لفرعون. وقد فررنا من أمير خيتا الخاسىء. وهو يقيم فى أرض حلب فى الشمال. وهكذا جاء هذان البدويان ليقولا هذا الكلام لجلالته. وليروا المكان الذى فيه جلالته وليروا أنسب الأوقات حتى لا يكون جيش جلالته مستعدا. وصدق جلالته ماقاله البدويان. وسار شمالا حتى وصل إلى الشمال الغربى من قادش وضرب هناك جلالته سرادقه على الشاطىء الغربى من نهر الأورنت. وأمكن القبض على جاسوسين آخرين أخبرا جلالته بأن جنود خيتا عبروا المخاض جنوبى قادش ثم اقتحموا قلب جيش جلالته. وتخاذل مشاة جلالته أمامهم. فسار جنود خيتا شمالاً نحو المكان الذى فيه جلالته. وأحاط الأعداء بحرس جلالته. وحينئذ انقض عليهم جلالته. وهو شجا ع القلب ووجهه جذوة نار تحرق

كل بلد أجنبى باللهب. وصار كالأسد الهصور. وقوته ترسل عليهم شواظاً من نار. وكان جلالته مثل الإله «سوتخ» عظيم القوة. ومثل الإلهة «سخمت» فى وقت غضبها. فأخذ فى تذبيحهم وتقتيلهم. فسقطوا على وجوههم الواحد فوق الآخر. وقتلهم جلالته مجندلين تحت سنابك خيله ولم يكن معه آخر. وأطاح جلالته بأعدائه خيتا الخاسئين. وكان وراءهم كالمارد الطائر وحيدا وقد فرَّ عنه مشاته وخيالته. وإنى أقسم بحب «رع» وبحظوة «آتوم» لى أن كل شيىء قلتهُ قد فعله جلالته حقا.

٢ – ووصف آخر للمعركة جاء به :

كان الحيثيون يقفون كامنين خلف مدينة قادش ثم خرجوا من الجهة الجنوبية فى قادش واخترقوا قلب فيلق رع الذى كان يتابع السير ولم يكونوا مستعدين للحرب عندئذ تخاذل مشاة جلالته وفرسانه أمامهم. وكان جلالته قد عسكر شمالى قادش وفى هذه اللحظة جاء رجل وأخبر جلالته بذلك. وظهر جلالته آنئذ مثل «منتو» (إله الحرب) فأخذ عدة الحرب. ولبس درعه. فكان مثل «بعل» وركب جلالته مسرعا. واندس فى أعماق الأعداء. وكان وحده ولم يكن معه إنسان آخر. ولما نظر خلفه وجد أن طريق مخرجه قد أحيطت بألفين وخمسمائة عربة من كل نوع من محاربى خيتا. ثم يستمر الكلام على لسان رمسيس الثانى فيقول: ولم يكن معى رئيس ولا قائد عربة ولا ضابط مشاة ولا حامل درع. ومشاتى وخيالتى قد تركونى فريسة أمامهم. وعندئذ قال جلالته: ماذا جرى ياوالدى «آمون»؟ هل من عمل الوالد أن يهمل الإبن؟ أم هل عملت شيئا بغير علم منك؟ هل مشيت أو وقفت إلا على حسب قولك؟ هل تعديت الخطط التى أمرت بها من فمك؟ ألم أُقِمْ لك آثارا عدة لأملأ معبدك بأسلابى؟ ووهبت لك كل أملاكى بوصية. وعملتُ على أن تعطى عشرات الآلاف من الثيران مع كل أنواع النبات الزكية .. (من المرجح أن هذا كان شبه نذرٍ نذره إن خرج سالما من هذه المعركة). ويستمر الكلام (ونختصره) وإذ ذاك وجدت «آمون» قد أتى على أثر ندائى له. ومدَّ إلىَّ يده. وحينما كنت فى ابتهاج كان يصيح خلفى: إلى الأمام يارمسيس. إنى معك. ويدى معك. إنى أكثر نفعاً من مائة ألف رجل مجتمعين معاً فى مكان واحد. وإنى سيد الانتصار الذى يحب الشجاعة. لقد كنتُ مثل «منتو» عندما أشد قوسى بيمينى. ومثل «بعل» حينما كنتُ أحارب بيدى اليسرى. وقد وجدتُ الألف وخمسمائة عربة التى كنت فى وسطها قد تحولت إلى كومةٍ أمام خيلى. وقلوبهم سقطت فى جوفهم خوفا منى. وأذرعهم قد شلَّت. وقد جعلتهم يتساقطون فى الماء. وقد خرجوا على وجوههم الواحد فوق الآخر. وذبحت منهم من أردت. ولم يلتفت منهم أحد وراءه. وقد انقضضت عليهم مثل «منتو» وجعلتهم يذوقون يدى فى لحظة. وقد قتلتهم فى مكانهم حينما كان الواحد يصيح على صاحبه قائلا: إن الذى بيننا ليس بشرا. إنه «سوتخ» صاحب القوة العظيمة. و «بعل» فى أعضائه إذ أن البشر لا يمكنهم أن يأتوا بما يأتيه من الأعمال. هلموا نسرع ونولى الأدبار أمامه ونبحث لأنفسنا عن الحياة.

كان فريق الفتوة (الصاعقة) قد وصل، ولكنه يستمر يعزو النجاح لنفسه فيقول:

وقد أعملتُ السيف فيهم دون هوادة ورفعت السوط، وصِحْتُ على مشاتى وخيالتى قائلا: قفوا وثبِّتوا قلوبكم يامشاتى وياخيالتى، شاهدوا انتصاراتى عندما كنت وحيدا و«آمون» كان حامِيً ويده معى، سيتحدث الناس بترككم إياى وحيدا لا رفيق معى ولا عظيم معى ولا ضابط صف يمد يده، وكنت أحارب منفردا. وظهرتُ أمام الأعداء مثل «منتو» عندما يكون مدجَّجاً بآلات الشجاعة، وكنت مثل «رع» عند إشراقى يحرق شعاعى أعضاء العدو، وكان الواحد منهم ينادى صاحبه قائلا: لا تقتربوا لأن «سخمت العظيمة» معه على فرسه ويدها معه، ومن يقترب منه يقابل لهيبا من نار يحرق أعضاءه، ووقف رجال خيتا بعيداً، ولكن «جلالتى» هجم عليهم وأعملت السيف فيهم دون أن يفلتوا منى، وقد صاروا كومة من الجثث أمام جيادى مضرجين بدمائهم، فأرسل أمير خيتا الخاسىء متضرعا لاسم جلالتى العظيم كما يتضرع الإنسان لإسم «رع»، ثم أرسل بعد ذلك رسوله بخطاب سارٌ للقلب فى يده باسم جلالتى العظيم يقول: هل من الخير أن تقتل عبيدك؟ وأن يكون وجهك عابسا لهم ولا تأخذك الشفقة بهم؟ إنك قد قمت بمذبحتك أمس وأعملت السيف فى رقاب المئات، أيها الملك القوى، إن السلام أكثر خيراً من الحرب، امنحنا النفس . وبعد ذلك عاد جلالتى فى حياة ورضا . وجمعت عظمائى لأجعلهم يسمعون السبب الذى من أجله بعث ملك خيتا رسالته.

ثم تذكر الكتابة عقد الصلح، وعاد رمسيس إلى مصر، وكان الآلهة يحيونه قائلين: تعالَ تعال يابننا الذى نُعزُّه، سيد الأرضين، يارمسيس، ابن الشمس ومحبوب «آمون».

ونعود ثانية إلى شعور رمسيس الثانى بعد المعركة، فهو قد تعرض لخدعة كبرى كادت أن تكلفه حياته، وقد كلفته فيلقا كاملا من جيشه، كما أن كتب التاريخ تذكر أن التنكيل ببنى إسرائيل قد اشتد عقب عودة رمسيس الثانى من معركة قادش، ويطرح بعضهم السؤال (د. محمد بيومى مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، جـ٢ ص١٥٤): لِمَ تغير الحال إلى هذا المصير المؤلم؟ ويجيب، ليس أمامنا سوى أن نفترض أن أمرا ما قد حدث من بنى إسرائيل، ربما كان خيانة! ربما كان بداية تمرد!

ويمكننا القول بأن الخدعة التى سلبت الفرعون انتصاره فى معركة قادش كان لها صلة ببنى إسرائيل، وأن جنود رمسيس الثانى – بعد المعركة – أخذوا الأسيرين اللذين خدعا الفرعون وضربوهما كما هو مسجل بالصورة على الآثار (شكل ٢١٢ ص٧٩٤). ولعل الأسيرين اعترفا بأنهما من «العابيرو» أو أنهما فعلا ذلك بتدبير من العابيرو.

والعابيرو أو الخابيرو كانوا على اتصال وثيق بالهكسوس وكما يقول عالم الآثار سليم حسن (مصر القديمة جـ٤ ص١٩٦) وهم طائفة وليست جنسا وقد تطورت وأصبحت طائفة من طوائف اليهود. وهذا يؤيد ما ذُكِرَ من أنهم ذلك النفر من بنى إسرائيل الذين خرجوا من مصر

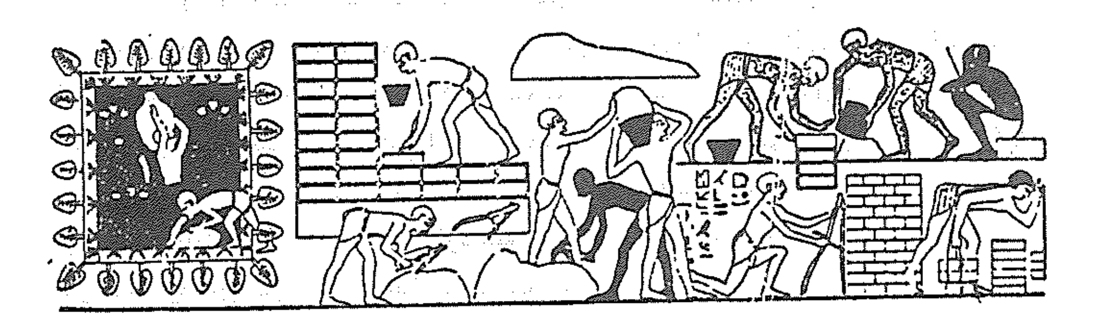
مع الهكسوس وأقاموا بفلسطين. ولكنهم انتشروا فى الشام يثيرون القلاقل ضد مصر. وذكر د. عبد العزيز صالح (الشرق الأدنى القديم جـ١ ص٢٤٠) أنهم قاموا بدور المخربين فى فلسطين. وكانت الكتابات المصرية تشير إليهم بوصفهم هم «العابيرو فى أرض كنعان». ثم أصبح بعد ذلك لفظ «العابيرو» يطلق على بنى إسرائيل المقيمين بمصر أيضا. وقد عثر على خطاب من رئيس عمال يقول فيه: لقد أرسلت الطعام «للعابيرو» الذين يسحبون الأحجار للصرح العظيم لمعبد رمسيس محبوب آمون (جاردنر تاريخ مصر القديمة جـ١ ص١٣٤).

كذلك فإن الحرص على تسجيل ضرب الأسيرين بالصورة على جدران معبد أبى سمبل يمكن أن يكون له دلالة غير مجرد تسجيل الواقعة. ففى كل الحروب يوجد جواسيس. كما كان الأليق أن تُخفى واقعة خداع الفرعون. لا أن تعلن على الملأ هكذا. إلا أن تكون رسالة موجهة إلى المصريين لأخذ جانب الحذر من «العابيرو» المقيمين بمصر وهم بنو إسرائيل.

ولو نظرنا إلى الأمور من جانب بنى إسرائيل وتطلّعهم إلى الخروج من مصر إلى «الأرض الموعودة» ونبحث كيف يمكنهم تحقيق ذلك. فليس عندهم الأسلحة ولا الجند المدَّرب الذى يمكنهم من اقتحام الأرض وإخراجها من دائرة النفوذ المصرى. فليس أمامهم إلا صفقة يعقدونها مع ملك «خيتا» بأن يساعدوه على هزيمة الجيش المصرى. فينحسر نفوذ مصر عن فلسطين وتعطى لهم - وتخلُص الشام والساحل الفينيقى وأرض أمورو لملك «خيتا».

ولعل رمسيس الثانى قد توصل إلى هذا الاستنتاج وشعر أنه قد طعن فى ظهره ممن آوتهم مصر وأطعمتهم وأكرمتهم على مدى عدة قرون ومن هنا كان العذاب الأليم صبه الفرعون دونما رحمة أو شفقة على بنى إسرائيل. لم يكتف بإنزال العذاب بهم. بل وضع خطة لاستئصال شأفتهم فأعطى الأوامر إلى قتلهم عاما وتركهم عاما فيقل عددهم فلا يخشى بأسهم وفى نفس الوقت تبقى المنفعة من تسخيرهم فى أعمال البناء.

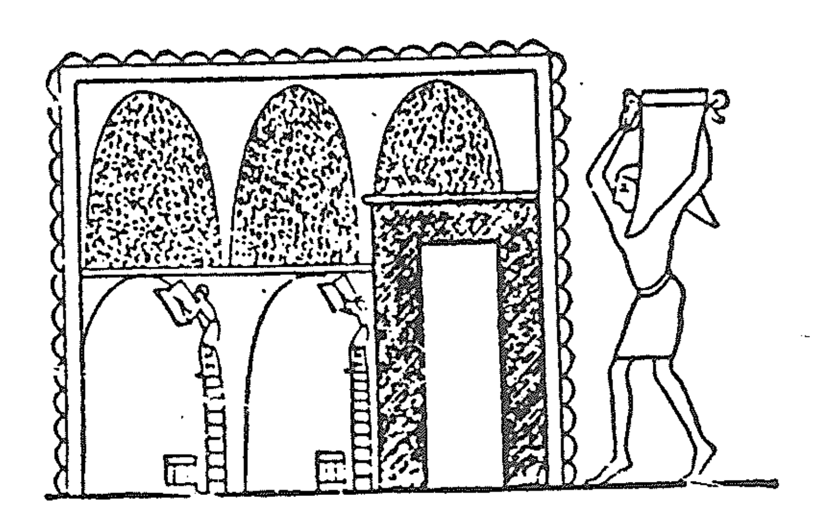
وقد وجد فى الآثار المصرية دليل على هذا التسخير عبارة عن عدة رسوم فى مقبرة وزير اسمه «رخ مى رع» سجل فيها ما قام به من أعمال كُلِّف بها لصالح بلاده. وأحد هذه الرسوم يبين تفاصيل صنع الطوب اللبن ثم عملية البناء. وقد اكتشف هذه الرسوم عالم الآثار پرسى نيوبرى Percy Newberry. وأهم مافى اللوحة (شكل ٢١٣) هو لون البشرة الأبيض للعمال المسخَّرين بينما الملاحظون والمشرفون تبدو بشرتهم سمراء وهذا يشير إلى أن العمال هم من الساميين. والكتابة بجوار العمال يقولون فيها: لقد أمدَّنا بالخبز والنبيذ وكل شيىء حسن. أما الكتابة الموجودة بجوار أحد الملاحظين فتقول: السوط فى يدى فلا تكونوا كسالى! وفى هذا دليل على أن العمل يتم بالسخرة. ويرى وارنركيللر (تاريخ الكتاب المقدس ص ١١٠) أن هذا الرسم دليل مؤكد على صدق ماجاء فى التوراة (خروج ١:١٣): فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم و رعمسيس. ولكن بحسبما أذلوهم



شكل ٢١٣ – تسخير بنى إسرائيل فى عمل الطوب وأعمال البناء – يلاحظ اللون الأبيض لبشرة العمال مقارنا باللون الأسمر للملاحظين والعصا فى يد الملاحظ الجالس فى أقصى اليمين من الرسم العلوى.

(لوحة فى مقبرة الوزير «رخ مى رع»).

نقلا عن الكتاب المقدس كتاريخ – وارنر كيللر . ص ١١٠



شكل ٢١٤ – تسخير بنى إسرائيل فى مدينة المخازن «فيثوم» ويرى أحد العمال أبيض البشرة يحمل غرارة حبوب على كتفه بينما الرسم الداخلى يبين سلّم لملأ الصومعة من فتحة فى أعلاه

نقلا عن الكتاب المقدس كتاريخ – وارنر كيللر . ص ١١٢

هكذا نموا وامتدوا فاختشوا من بنى إسرائيل (أى خافوا منهم) فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف ومرَّروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن وفى كل عمل فى الحقل. كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عُنفًا. وفى رسم آخر فى نفس المقبرة (شكل ٢١٤) تظهر مخازن الغلال فى مدينة فيثوم – وصوامع القمح الحالية تشبهها شكلا ولكنها تفوقها فى الحجم كثيرا – ويبين الرسم طريقة ملئها بالحبوب من خلال فتحة فى أعلاها يُصعد إليها بسلم أو منحدر. وقد رسم عامل يحمل على كتفه غرارة حبوب ويلاحظ أيضا بشرته البيضاء للإشارة إلى أنه من الساميين أى من بنى إسرائيل. ومما يذكر أن هذه المخازن كانت تشبه المخازن التى أمر يوسف الصدِّيق بإقامتها فى مصر لتموين البلاد فى سنوات المجاعة.

كذلك جاءت إشارات فى الكتابات المصرية عن بناء مدينة بررعمسيس وتسخير العمال من العابيرو (بنى إسرائيل) فى قطع الحجارة ونقلها وبناء منشئات المدينة.

وفضلا عن التسخير فى أعمال البناء كانت أوامر ذبح المواليد الذكور فبلغ التعذيب ذروته.

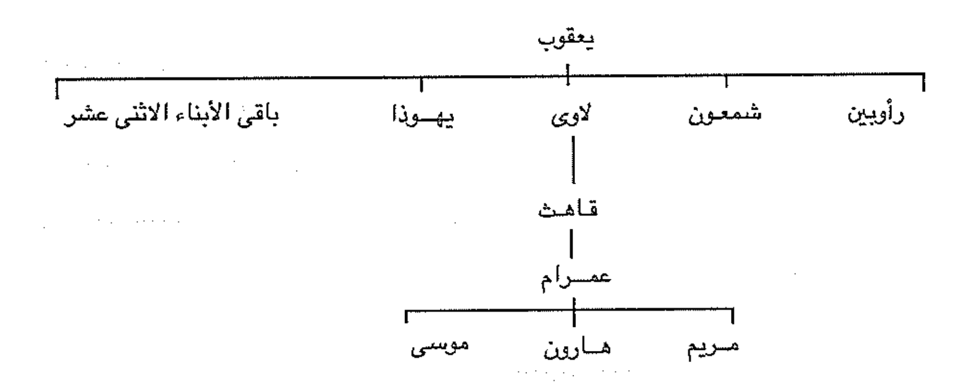
وكان لابد أن تتدخل السماء لإيقاف هذا العذاب الذى نزل ببنى إسرائيل. واختير موسى ليكون هو مُخلِّصهم من هذا العذاب المهين ويقودهم إلى الخروج من مصر.

الفصل السادس

موسى عليه السلام فى مصر

«واذكر فى الكتاب موسى . إنه كان مُخْلَصاً وكان رسولا نبيا». (٥١-مريم)

هو موسى بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام.



ولد على الأرجح فى عام ١٢٨٥ ق . م . فى السنة السابعة من حكم رمسيس الثانى. وكما سبق أن ذكرنا كان ذلك بعد عامين من معركة قادش وكان التنكيل ببنى إسرائيل على أشده.

ثم بدأت نبوءة تنتشر بين بنى إسرائيل وتسامَعَ بها المصريون. مُفادها أن هلاك الفرعون سيكون على يد ابن يولد فى بنى إسرائيل وينتهى تسخيرهم وتعذيبهم. ولايمكننا أن نحدد كيف نشأت هذه النبوءة. هل كانت محض اختراع من بنى إسرائيل؟ يقول سيجموند فرويد (موسى مصريا. ترجمة محمد العزب ص ٢١) إن ذلك الأمر كان صورة من «أسطورة البطل» التى نجدها فى التراث الشعبى لكثير من الشعوب. وفى رأينا أنه من المحتمل أن أحد شيوخ بنى إسرائيل أو أحد كهنتهم قد رأى رؤيا أو أوحى إليه بهذا المعنى فأذاعه ليشد من عزم بنى جلدته المتحملين العذاب. وليرهب المصريين والفراعنة حتى يكفوا عن تسخير بنى إسرائيل دفعا لوقوع هذه النبوءة. أو ظنًا أن الفرعون سيأمر بإخراج بنى إسرائيل من مصر حتى لا تتحقق النبوءة.

ذكر السدى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس (البداية والنهاية. ابن كثير. جـ١ ص ٢٢٢) أن فرعون رأى فى منامه كأن نارا قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع المصريين ولم تضر بنى إسرائيل. فلما استقيظ هاله ذلك فجمع الكهنة والسحرة وسألهم عن ذلك. فقالوا هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه.

ولكن ما حدث كان غير ما توقع بنو إسرائيل. إذ أمر الفرعون بزيادة جرعة التعذيب وشدَّد الأوامر بقتل كل ابن يولد إن كان ذكرا. وتركه يحيا إن كانت بنتا.

وذكر القرآن الكريم هذا الأمر فى عدة سور:

«إن فرعون علا فى الأرض. وجعل أهلها شيعا. يستضعف طائفة منهم. يُذبِّح أبناءهم ويستحيى نساءهم. إنه كان من المفسدين». (٤ - القصص)

«وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم». (٤٩-البقرة)

وإذا أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتِّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم». (١٤١- الأعراف)

«وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم». (٦-إبراهيم)

وتقول التوراة (إصحاح ١ خروج : ١٥): وكلم ملك مصر قابلتى العبرانيات اللتين اسم إحداهما شفرة واسم الأخرى فوعة. وقال حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسى إن كان ابنا فاقتلاه وإن كان بنتا فتحيا. ولكن القابلتين خافتا الله ولم تفعلا كما كلمهما ملك مصر بل استحيتا الأولاد فدعا ملك مصر القابلتين وقال لهما لماذا فعلتما هذا الأمر واستحييتما الأولاد، فقالت القابلتان لفرعون إن النساء العبرانيات لسن كالمصريات. فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة. فأحسن الله إلى القابلتين. ونما الشعب وكثر جدا. وكان إذ خافت القابلتان الله أنه صنع لهما بيوتا. ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلا كل ابن يولد تطرحونه فى النهر، لكن كل بنت تستحيونها.

ولادة موسي :

فى هذا الجو الملبد بالغيوم وبالغ القساوة على بنى إسرائيل ولد لعمران بن قاهث بن لاوى ولد هو موسى. وتذكر التوراة أن أبا موسى كان قد تزوج عمته إذ تقول (اصحاح ٦ خروج): وأخذ عمرام بن قهات يوكابد عمته زوجة له. فولدت له هارون وموسى. ويقول الأستاذ عبد

الوهاب النجار (قصص الأنبياء ص ١٧٦) إن ذلك كان مسموحا به فى شريعتهم إلى أن جاء موسى فحرمه.

وخافت أم موسى عليه من القتل طبقا لأوامر الفرعون. فخبأته، قيل ثلاثة أشهر. ثم خافت أن يفتضح أمره فيؤخذ ويقتل. ولكن عناية الله كانت ترعى هذا المولود. فأوحى الله إلى أمه أن تضعه فى صندوق وتلقيه فى النيل. وكأى أم كان لابد أن تحزن أم موسى لفراق وليدها. وتخاف عليه من الغرق فى النيل أو الوقوع فى يد الجند فيذبحونه ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليها ألاّ تخف ولا تحزن لأن الله سيرده إليها وبشرها بأنه سيكون رسولا.

«وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه. فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم. ولا تخافى ولاتحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين». (٧-القصص)

«إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى. أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم. فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له». (٣٨-٣٩-طه)

يقول ابن كثير: ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل قيل له إن استمر هذا الحال يموت شيوخهم وغلمانهم يقتلون فمن يقوم بما يقومون به من أعمال. فأمر بقتل الولدان عاما وتركهم عاما. فولد هارون فى السنة التى يتركون فيها الولدان. وولد موسى فى السنة التى يقتلون فيها الولدان. ولما حملت به لم يظهر عليها مخايل الحمل. ووضعته سرا بدون مساعدة القابلات. ولكن خافت أن يُدرى به ففعلت كما أوحى الله سبحانه وتعالى إليها. ووضعت الصندوق فى اليم أى فى فرع نهر النيل الذى كان بيتها مجاورا له. ولم تذكر التوراة أن ذلك كان بايحاء من الله سبحانه وتعالى إذ جاء فيها (إصحاح ٢ خروج): ولما لم يمكنها أن تخبئه بعدُ أخذت له سفطا من البردى وطلته بالحمر والزفت. والكلمة المصرية القديمة هى «طِبَة» بمعنى صندوق. وهى أقرب إلى كلمة «**التابوت**» التى وردت بالقرآن الكريم.

كذلك يمكننا أن نستخلص حقيقة هامة تحل لنا كثيراً من الإشكالات التى ثارت حول من هو فرعون موسى. ذلك أن التيار فى نهر النيل أو فى فروعه يسرى من الجنوب إلى الشمال. فمن المؤكد أن بيت أم موسى كان فى موقع جنوبى قصر الفرعون. ولما كان بنو إسرائيل يسكنون أرض جوشن أو أرض جاسان (انظر الجزء الثالث ص ٥١٧) فمن المؤكد أن قصر الفرعون كان شمالى هذه المنطقة. ولم يحدث أن كانت العاصمة شمال أرض جاسان إلا بعد أن بنى رمسيس الثانى عاصمته الجديدة «بررعمسيس» (ص ٧٠٩). وبالنظر إلى تخطيط المدينة (شكل ١٤١ ص ٧١٢) نجد أن مساكن بنى إسرائيل فى أقاريس القديمة تقع جنوبى «بررعمسيس» العاصمة الجديدة. وأن قصر فرعون يقع على بحيرة تأخذ مياهها من الفرع البيلوزى الذى كانت بيوت لبعض بنى إسرائيل تقع عليه. وبعد إلقاء التابوت فى اليم. وامتثالا

لأمر الله سبحانه وتعالى: **«فليلقه اليم بالساحل»**. سارت به المياه حتى ألقته على شاطىء البحيرة التى يقع عليها القصر الملكى.

قد يرى البعض أنه من المحتمل أن أحد الفراعين الذين كان مقر حكمهم فى طيبة. كان له أيضا قصر ثان فى شمال الدلتا يمضى فيه أشهر الصيف الحارة. وهو احتمال قائم. ولكن الوحيد الذى أثبت التاريخ له هذا الأمر هو سيتى الأول والد رمسيس الثانى (جوتييه Gauthier, Dictionnaire Geographique, 1922) بل إنه بقصره الذى بناه على شاطىء النيل بالقرب من قنتير وضع النواة لتكون العاصمة الجديدة فى هذا المكان حينما قرر ابنه رمسيس الثانى أن ينقل العاصمة كلية إلى شمال الدلتا. ولما كان الأمر كذلك فإن احتمالات من هو فرعون موسى تصبح محصورة فى فراعين الأسرة التاسعة عشرة أى الرعامسة. وحتى لو كان سيتى الأول هو فرعون التسخير إلا أن قصر مدة حكمه لا تتيح له أن يكون هو فرعون الغرق أيضا وثابت أن رمسيس الثانى قد سخر بنى إسرائيل فى بناء مدينتى بررعمسيس وفيثوم.

نعود ثانية إلى أم موسى. وقد أوحى الله إليها أن تضع وليدها فى التابوت وتلقيه فى اليم.

وهنا أثار البعض مسألة. هل تعتبر أم موسى نبية مادام الله سبحانه وتعالى قد أوحى إليها؟ وقال أبو حيان (تفسير الألوسى. جـ ١٦ ص ١٨٧) إنه كان يُبعث إليها ملك لا على جهة النبوة كما بعث إلى مريم أم عيسى عليه السلام ولكن بطريق المكاشفة مثل قوله تعالى **«وإذ أوحيت إلى الحواريين»**. وكما أوحى لعبد المطلب أن يسمى حفيده «محمدا». وقال الجبائى: كان بالإراءة مناما. وعند الجمهور كان الإيحاء إلى أم موسى بالإلهام. فوضعته فى التابوت وألقته فى الماء. وهنا تتبدى روعة التعبير القرآنى إذ لم يُغفل جانب المشاعر الإنسانية. وقلب الأم كما يقولون هو قلب الأم! فما إن ألقته فى الماء حتى تملكها الخوف والجزع على وليدها.

«وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين» .
(١٠ - القصص)

قالوا فارغا من وعد الله لها بأنه سيرده إليها ويجعله من المرسلين. إذ نسيت ذلك من شدة الهم. وعن قتادة وغيره أنها كادت تصيح وا ابناه عند رؤيتها تلاطم الأمواج بالتابوت شفقة عليه من الغرق. وقالوا صار فارغا من الصبر. لولا أن الله أنزل السكينة عليها وثبت قلبها لتكون راسخة فى التصديق بوعد الله بأنه راده إليها وتكون من المؤمنين بصدق وعد الله فى حفظه سالما. وأنه فى المستقبل سيكون من المرسلين.

زوجة فرعون تلتقط موسى :

وتيار الماء فى هذا المكان لا يكون شديدا. إذ النيل قد تَفرَّع إلى فروعه الخمسة الرئيسية بالإضافة إلى عشرات الأفرع الصغيرة. فتهادى الصندوق على صفحة الماء برفق. تحدوه عناية

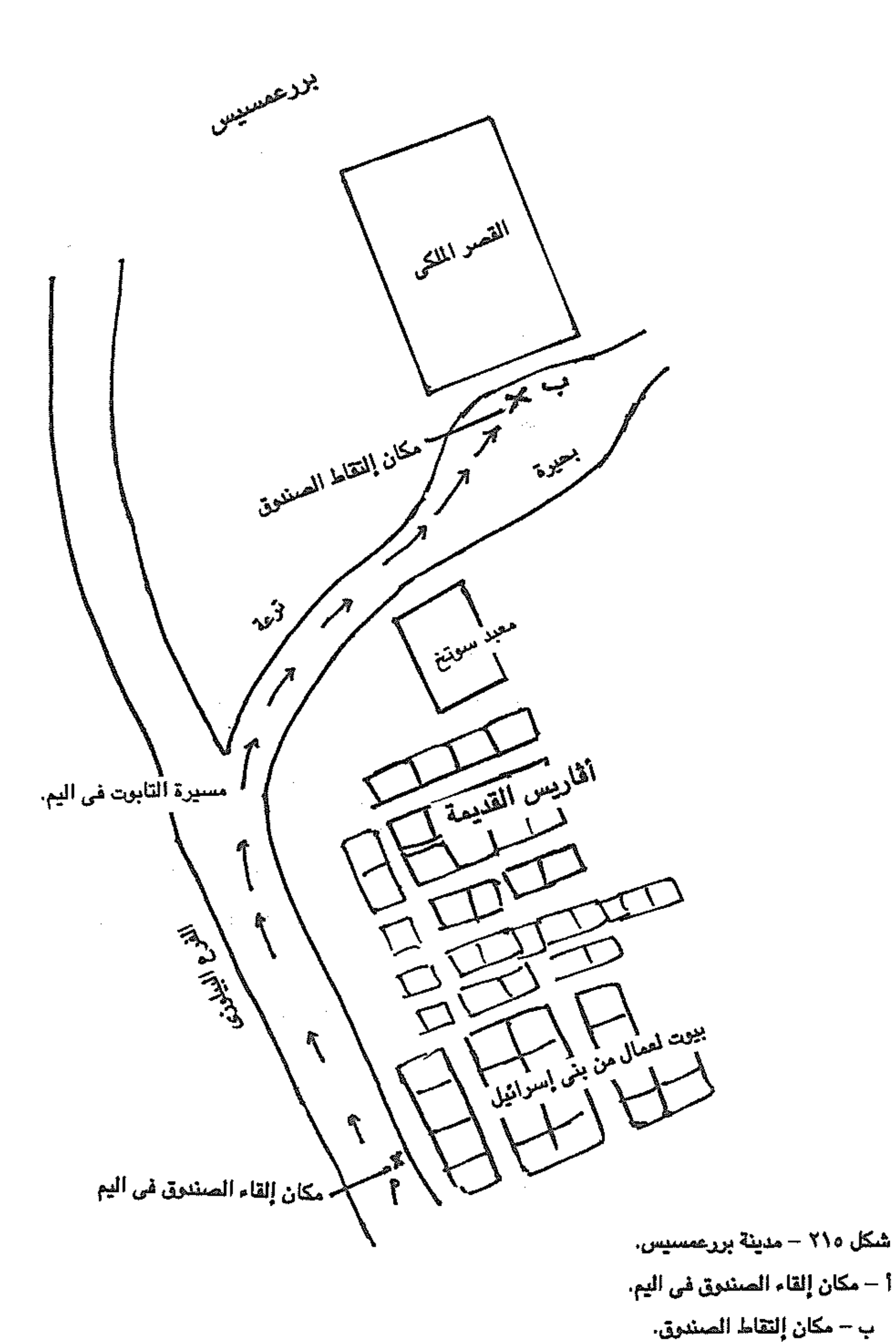
الله سبحانه وتعالى. وتدفعه ريح خفيفة حتى دخل المجرى الذى يغذى البحيرة التى يقع على شاطئها قصر الفرعون «رمسيس الثانى» فى عاصمته الجديدة «بررعمسيس» (شكل ٢١٥) واحتجزت سيقان نبات البردى الصندوق فى الوقت الذى كانت امرأة رمسيس الثانى «إست نفرت» جالسة قرب البحيرة ورأت الصندوق. فأمرت جواريها بإحضاره ولما فتحته وجدت فيه طفلا جميل الطلعة. وألقى الله فى قلبها حب هذا الطفل. ورجت أن يكون لها بمثابة الإبن. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٧٠٨) أن أولادها كانوا يموتون بعد ولادتهم مباشرة أو بعد أن يشبوا عن الطوق قليلا. وها قد مضى على زواجها سبع سنوات وليس لها ولد. وهذا زوجها قد بلغ الثلاثين من عمره ولم يعش له ولد منها ولا من زوجته الأولى نفرتارى التى مضى على زواجه منها سبعة عشر عاما. فأرجحت أنه سيرحب بتبنىٍّ هذا الطفل أو على الأقل لن يمانع فى تبنيه. وأسرع الحراس لقتل الطفل تنفيذا لأمر الفرعون فقالت لهم «**لا تقتلوه**» ثم أردفت قائلة لهم أيضا أو لزوجها «**عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا**».

وقد يكون قولها لا تقتلوه موجه إلى زوجها بصيغة الجمع دلالة على الاحترام أو الاحترام الشديد للاستعطاف أو للجند ولكن لأن أمر القتل صادر منه فكأنه مشترك معهم فى الفعل.

وقيل إن فرعون أراد قتل الوليد فشرعت زوجته تخاصم عنه وتحبِّبه إليه فقالت «**قرة عين لى ولك**».. فقال فرعون: أما لك فنعم وأما لى فلا. فكان كذلك وهداها الله بسببه. وروى النسائى وابن عباس حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: والذى يُحلف به. لو أقر فرعون بأن يكون قرة عين له كما قالت امرأته لهداه الله تعالى به كما هدى امرأته ولكن الله عز وجل حرمه ذلك (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٨٩). وقالوا: وهذا أمر فرضى لا ينافى ما هو سابق فى علم الله أنه سيظل على كفره حتى آخر لحظة من حياته. وهكذا رضخ الفرعون لطلب زوجته فى الإبقاء على حياة الطفل.

تختلف رواية التوراة عن القصة كما جاءت فى القرآن الكريم فى عدة نقاط فقد جاء فى الإصحاح الثانى خروج ما يلى :

ولما لم يمكنها أن تخبئه بعدُ أخذت له سفطا من البردى وطلته بالحمر والرفت ووضعت الولد فيه. ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر. ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يُفعل به. فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل. وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته. ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبى يبكى. فرقَّت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين فقالت أخته لابنة فرعون. هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد. فقالت لها ابنة فرعون اذهبى. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها ابنة فرعون. اذهبى بهذا الولد وأرضعيه لى وأنا أعطى أجرتك. فأخذت المرأة الولد وأرضعته. ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنا ودعت اسمه موسى وقالت إنى انتشلته من الماء.



شكل ٢١٥ – مدينة بررعمسيس.

أ – مكان إلقاء الصندوق فى اليم.

ب – مكان إلتقاط الصندوق.

ونقاط الاختلاف تتمثل فى التالى:

١ - أنها جعلت أم موسى تخبىء الطفل بين الحلفاء وتجىء ابنة الفرعون لتغتسل فى نفس المكان، أى أن المكان كان مباحا للجميع، وهذا لا يتفق مع ما هو معروف من أن منطقة القصر الملكى تكون منطقة محرمة على عامة الشعب من المصريين، فما بالك بالعبرانيين! وكانت القصور الملكية تقام لها بحيرة صناعية يتمتع بها أهل القصر بعيدا عن الغرباء، وفى مدينة بررعمسيس تخير رمسيس الثانى للقصر مكانا يشرف على بحيرة متصلة بفرع النيل البيلوزى، وقد نصَّ السرد القرآنى على أن أم موسى وضعته فى نقطة بعيدة عن القصر، وحمله التيار إلى البحيرة وألقاه على شاطئها .**«فاقذفيه فى اليم، فليلقه اليم بالساحل»**.

٢ - جعلت التوراة من يلتقط موسى هى ابنة فرعون لا زوجته، وقد سبق أن ذكرنا (ص ٧٠٠) أن رمسيس الثانى تزوج فى عمر السادسة عشرة ولو فرض أن ابنته هذه هى أول ما ولد له أى رزق بها وعمره ١٧ سنة ولما كان عمره الآن ثلاثون سنة كان معنى ذلك أنها مازالت طفلة فى الثالثة عشرة ومثلها فى حاجة إلى «دمية» تلهو بها لا طفل تتبناه، كما أن تبنى بكر لطفل يضعها فى موضع الشبهات عند من لايعرفون أنه طفل متبنى إذ يظنون أنه ابنها حملت به بدون زواج، قد يقال إن سن النضج كان مبكرا فى ذلك الوقت وأنها تزوجت وتعيش فى قصر والدها، وحتى لو فرض هذا فهى فى أولى سنى زواجها ولم تيأس بعد من ولد من لحمها ودمها كما يقولون - كما أن فرعون ما كان ليخالف أوامر أصدرها إرضاء لرغبة طائشة من ابنة صغيرة السن، أما المرأة المتزوجة العاقر فهى تتوق إلى الولد، أما التى حملت وولدت ويموت أبناؤها فى سن مبكرة فهى التى تتلهف تلهفا شديدا إلى الولد وتظن أن لعنة ما قد أصابت أبناءها ولا سبيل لإشباع غريزة الأمومة إلا بالتبنى وهذا ما أدركه الفرعون فاستجاب لرغبات زوجته وفى سبيل ذلك تغاضى عن سابق أوامره بقتل الأولاد، فلا شك أن الذى التقط موسى هو زوجة فرعون لا ابنته، وكان القرآن الكريم واضحا فى هذه النطقة فقال:

«وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لايشعرون». (٩ - القصص)

٣ - جعلت التوراة آل فرعون يدركون من أول الأمر أنه ابن لاحدى العبرانيات، ولكن الأكثر تمشيا مع المنطق أن تحرص أم موسى على أن تخفى هويته الإسرائيلية، ولعلها ألبسته ملابس مصرية، إحدى الروايات تقول إنها وهى تضعه فى التابوت ومن شدة اضطرابها نسيت حذرها ووضعت تحته نسيجا من صنعها ليحميه من خشونة نبات البردى الذى صنع منه التابوت، وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد (ص ٨١٤).

إسم موسي :

كما ذكرنا آنفا تقول التوراة: ودعت اسمه موسى وقالت إنى انتشلته من الماء. ولما كانت اللغة العبرية تقلب السين شينا مع إمالة المد، فإن اسمه فى العبرية هو موشيه. قالوا مشتقا من الفعل العبرى مشا أى انتشل فهو موشيه أى منتشل لأنه انتشل من الماء. وقالوا أيضا أن الفعل مشا يفيد معنى المخلِّص فهو المخلِّص الذى انتشل بنى إسرائيل من مصر وهو مخرجهم أى مخلصهم أى موشيه وبالعربية موسى.

ولو كان الفرعون يعرف أن هذا الطفل هو «مخلِّص» بنى إسرائيل لما تركه يعيش. فضلا عن أن يتبناه. وخطأ الآراء التى ترجع الإسم إلى جذر عبرى واضح. لأن زوجة الفرعون. ما كان لها أن تطلق عليه اسما عبريا. حتى لو تأكدت أنه ابن لإحدى العبرانيات. فلابد أنها أطلقت عليه اسما مصريا. ويقول برستد فى كتابه «فجر الضمير» إن موسى اسم مصرى. فهو ببساطة الكلمة المصرية موس Mose ومعناه طفل. ومن الأسماء المصرية الشهيرة تحوتمس أى تحوت + موس أى تحوت طفل أى الإله تحوت منح طفلا. وكذلك أمنموس من آمون + موس أى آمون منح طفلا. وقال بعضهم إن الإسم الذى أطلقوه عليه لابد كان يتضمن أيضا اسما لأحد الآلهة ثم المقطع الثانى موس. وبالتدريج أهمل المقطع الأول واكتفى بالمقطع الثانى فقط – ويكون السؤال: ولماذا أهمل المقطع الأول؟ والأقرب للمنطق أنه لم يكن هناك مقطع أول إطلاقا. فيكون أن امرأة الفرعون بعدما انتشلت الطفل من الماء لم تطلق عليه اسما. بل أعطت الطفل – أى موس – إلى الجوارى ليعنين به. وظل يشار إليه بلفظ الطفل أى موس. وبالتدريج أصبح «موس» هو الإسم الذى ينادى به. ثم مدَّ آخره فأصبح «موسى». ولا شك أن ذلك صادف هوى فى نفس فرعون أيضا فلم يشأ أن يعطيه إسما حقيقيا. انتظارا وأملا فى ولد من صلبه يعطيه اسما وينسب إليه ليرث العرش من بعده.

«فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا. إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين» . (٨–القصص)

فى هذه الآية أورد القرآن الكريم السبب الذى جعلهم يلتقطونه – **ليكون لهم عدوا وحزنا** – وهى استعارة تهكمية. إذ الذى دعاهم لالتقاطه وتبنيه هو رجاء المنفعة واتخاذه ولدا. وهل هناك أدعى إلى الحزن والأسف من أن يستعرض الفرعون فى أخريات أيامه ما مر به فيرى أن مَن التقطه. يرجو منه المنفعة. كان هو السبب فى ضربات نزلت به وبشعبه. ثم يرى فى اللحظات الأخيرة من عمره كيف أنه كان السبب فى هلاكه!! لقد أسرف فى قتل عشرات أو مئات الأطفال تحوُّطا من أن يعيش الطفل الذى تحدثت عنه النبوءة. فإذا من بين هؤلاء جميعا يكون هذا الطفل بالذات هو الذى ينجو من القتل! ومَن الذى يطلب عدم قتله؟ زوجته وهو يوافق! ويتربى الطفل ويكبر – أين؟ فى قصره وفى كنفه! أى شيىء أكثر مدعاة للحزن من هذا؟ وأى

شيء أشد إيلاما؟ ولكنه تدبير الله العليم القدير ويتحقق ما كان فرعون يحذر - وما كان لحذرٍ أن يمنع قدراً قدَّره الله سبحانه وتعالى:

«ونُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون». (٦٥ القصص)

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى إشارة أخرى فى قوله تعالى:

«وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أونتخذه ولدا، وهم لا يشعرون». (٨-القصص)

أى وهم لا يشعرون أن هذا الطفل بالذات هو الذى سيكون هلاك الفرعون على يديه كما قالت النبوءة.

وتمر الأيام ويكبر موسى وتأتيه النبوة والرسالة. ويعود إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان بالله وألا يعذب بنى إسرائيل وأن يطلق سراحهم: ويتذكر فرعون لحظة التقاط موسى من النهر. وتذكره وهو يحبو فى القصر ويكبر قليلا فيجرى فى أرجائه الفسيحة ثم يصبح شابا قويا. ثم يبلغ أشده. ثم يختفى عشر سنوات وها هو يعود اليوم يطلب من الفرعون. لا. بل يأمره أن يطلق بنى إسرائيل ولا يعذبهم. فقال فرعون له. يستصغر شأنه ويمن عليه بربايته له :

«ألم نربك فينا وليداً . ولبثت فينا من عمرك سنين». (١٨-الشعراء)

وهذا يدل على أن الفرعون الذى التقط موسى. وتولى تربيته هو نفسه الذى جاءه موسى بالآيات فكذب بها وهلك وهو يطارد بنى إسرائيل.

كانت أم موسى قد أمرت أخته مريم أن تتبع الصندوق لتعرف أين تلقى به الأمواج.

«وقالت لأخته قصِّيه. فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون». (١١-القصص)

فكانت تتابعه ببصرها عن بعد حتى لا يشعر أحد أنها أخته فيفطنوا إلى حقيقة أنه من بنى إسرائيل. ورأت أن الصندوق قد رسا على الساحل أمام قصر فرعون وأن الجوارى انتشلنه من الماء وأخذنه إلى امرأة الفرعون. ومن المرجح أن مريم قد رجعت بسرعة وأخبرت أمها بذلك. ولا شك أن الأم هلعت وشعرت بهول الكارثة. لقد وضعت طفلها فى الماء لتخفيه عن الفرعون فإذا به يقع بين يدى فرعون نفسه. وأصبح فؤادها فارغا من كل شيء إلا الخوف على وليدها حتى أنها أوشكت أن تتخلى عن حذرها وكتمان أمر الصبى وأنه ابنها. ولعل فكرة راودتها أن تذهب إلى فرعون وتستعطفه كى لا يقتل الصبى وهذا ما كانت أى أم مكانها تفعل. ولعلها قد ظنت أن الفرعون قد يَرِقّ لدموعها واستعطافها ويبقيه لها. وهذا معنى «**إن كادت لتبدى به**». إلاَّ أن الله سبحانه وتعالى أنزل السكينة على قلبها لتكون مؤمنة بصدق سابق وعده لها بأنه سيرده إليها سالما.

«ولولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين». (١٠-القصص)

«إنا رادوه إليك». (٧-القصص)

وبعد هذه اللحظة الخاطفة من الجزع المؤقت - وهو شيء طبيعى فى النفس البشرية - حل مكانه الإيمان والثقة فى الله فطلبت من ابنتها أن تسرع لتتابع ما يحدث له.

وعادت مريم مسرعة. فرأت عجبا. رأت امرأة الفرعون قد أخذت الوليد وضمته إلى صدرها فى حب وحنان. ورأتها تكلم زوجها. لم تسمع ما دار بينهما من حديث لبعد المسافة. ولكنها رأته يشيح بوجهه عن الطفل ويشير بيده إشاره معناها أنه هو لك أما أنا فلا حاجة لى إليه. وأمر الحراس الذين كانوا قد أسرعوا محاولين أخذه لذبحه. أمرهم بالعودة وتركه لامرأته التى كانت لا تزال تحتضنه.

ورأت أخاها يبكى. فأحضروا له مرضعة. ولكنه لم يقبل على ثديها واقتربت أكثر حتى أنها أصبحت تسمع بكاءه. لقد مر عليه عدة ساعات منذ أن أرضعته أمه قبل أن تضعه فى التابوت. فلابد أنه قد بدأ يشعر بالجوع. وأحضروا له مرضعة ثانية وثالثة. فرفضهن جميعا.

واقتربت أكثر. ورأتهم فى حيرة من أمرهم. الطفل يصرخ من الجوع. ولكنه يأبى المراضع اللاتى أحضروهن. فقالت لهم إنها تعرف امرأة طيبة وصالحة لعله يقبل ثديها. فإن قبله فهى خير من يكفله ويتولاه حتى فطامه فقبلوا هذا الاقتراح. فأسرعت وعادت بأمها. وأقبل الطفل على ثديها حتى شبع ونام.

«وحرمنا عليه المراضع من قبل. فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون». (١٢-القصص)

وهنا تذهب المراجع الإسلامية إلى أن فرعون عندما رأى ذلك سألها من أنت فقد أبى كل ثدى إلا ثديك؟ فقالت: إنى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبى إلا قبلنى. فدفعه إليها وجعل لها أجرا نظير رضاعته ورعايته. وتقول الآثار إن امرأة الفرعون طلبت من أم موسى أن تبقى فى القصر لترضعه فردت أم موسها أنها لا تستطيع ترك بيتها فيضيع. وعرضت أن تأخذه إلى بيتها لترضعه وتربيه على أن تحضره بين الحين والآخر إلى القصر لتراه امرأة الفرعون. ولعلها قبل أن تنصرف به إلى بيتها سألتهم: بماذا سميتموه. قالوا لم نسمِّه وسنناديه «الطفل» فى لغتنا أى «موس» أو «موسى». فقالت هو فى لغتكم «موسى» وفى لغتنا «موشيه».

وهكذا تحقق الجزء الأول من وعد الله «**إنا رادوه إليك**» فقد عاد إليها. واستقر فى يقينها أن الجزء الثانى من الوعد لابد سيتحقق «**وجاعلوه من المرسلين**». وأيقنت تمام اليقين أن ابنهاهذا سيكون نبيا ورسولاً إلى بنى إسرائيل. ولكن كيف؟ ومتى؟ ذلك ما كان فى علم الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله.

وجاء ذكر هذه المواقف كلها بصيغة أخرى فى سورة طـه:

«ولقد مننا عليك مرة أخرى، إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى، أن اقذفيه فى التابوت، فاقذفيه فى اليم . فليلقه اليم بالساحل، يأخذه عدو لى وعدو له . وألقيت عليك محبة منى . ولتصنع على عينى، إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله، فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن». (٣٧ - ٤٠ - طـه)

ولا شك أن أم موسى قد حرصت على إخفاء حقيقة أنها أمه وأكدت على مريم ألا يزل لسانها بكلمة يفهم منها أنها أخته. كما أن جيرانها لم يعرفوا كذلك أنها أمه لأنها كانت قد أخفت حملها وولادتها. فظن الجميع أنها مجرد «مرضعة» خدمتها الظروف بأن أقبل الطفل «موس» على ثديها. ونالها خير من وراء ذلك، إذ أجزل الفرعون لها العطاء.

ولو نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر آل فرعون لوجدنا أن النفس ترتاح لتبنى طفل مجهول الأبوين ولا ترتاح لتبنى طفل معلوم الأهل. فالمتبنى فى الحالة الأخيرة يدرك أنه مهما أغدق على الطفل من عاطفة، ومهما تفانى فى تربيته فهو لاشك تاركه عند معرفته لأبويه الحقيقين وكما يقول المثل العامى: يا بانى فى غير ملكك، يا مربى فى غير ولدك.

وكانت قوانين الشرق الأدنى القديم مشتقة فى أغلبها من قانون حمورابى وكانت المواد التى تحكم التبنى هى:

مادة ١٨٥ : إذا تبنى رجل ولدا مجهولا بإسمه ورباه، فإن الطفل لايُسترجع إطلاقا.

مادة ١٨٦ : إذا تبنى رجل ولدا عرف أباه وأمه عند تبنيه، فللطفل أن يعود إلى بيت أبيه.

ولعل فرعون وامرأته تساءلا: هل هو مصرى أم من بنى إسرائيل؟ ولم يجدا إجابة لهذا السؤال، فالأطفال فى صغرهم متشابهون، ولعلهما رجحا أنه مصرى، إذ لو كان من بنى إسرائيل لجهدت أمه فى إخفائه ولا يعقل أن تضعه فى النهر فيكون الهلاك مصيره المؤكد إما غرقا أو بيد جند فرعون الذين لاشك واجدوه، إذن هو مصرى، ولكن لماذا وضعته أمه فى النهر؟ هل هو نتيجة حمل غير مرغوب فيه؟ بالطبع لا . إذ لو كان الأمر كذلك لتم التخلص منه فور ولادته وهذا الطفل عمره على الأقل ثلاثة أشهر أو أربعة، هل ضاق به والداه لكثرة الأولاد وقلة الرزق فأرادا التخفف من إعالته؟ هذا هو الأرجح، واستراحا إلى هذه النتيجة، ولعل امرأة الفرعون قالت فى قرارة نفسها: على كل حال هو طفل ساقه الله إليها ليعوضها عن فقد أولادها.

بعض الروايات تقول إن كبير الكهان قد فطن إلى حقيقة أن قطعة النسيج التى كانت تحت الطفل فى الصندوق هى من صنع بنى إسرائيل، ولما جاءت أم موسى لترضعه زادت شكوكه فى أن يكون الطفل من بنى إسرائيل أيضا ولكنه كتم شكوكه لأن بعض المصريين كانوا كثيرا

ما يشترون مثل هذه الأقمشة الصوفية من بنى إسرائيل، ووجودها فى الصندوق ليس دليلا مؤكدا على أن الطفل هو لعائلة من بنى إسرائيل، وخاصة لما رأى من اندفاع امرأة الفرعون فى حبها للطفل، كذلك لم يفدهم أن وجدوا الطفل مختونا . فالختان عادة يشترك فيها المصريون وبنو إسرائيل.

موسى فى صباه وشبابه :

أعيد موسى إلى القصربعد فطامه فى عمر عامين، وانقطعت صلته ببيت أمه وإخوته. ونما كما ينمو الأطفال فى مثل سنه. يلهو ويلعب. تحيطه امرأة الفرعون بحبها وحنانها . كان الفرعون لا يحمله إلا نادرا ولكنه كان راضيا بما أدخله من بهجة على قلب زوجته.

ومن المرويات فى تفسير قوله تعالى :

«واحلل عقدة من لسانى، يفقهوا قولى». (٢٧ - ٢٨ - طه)

ما جاء بتفسير الألوسى (جـ ١٦ ص ١٨٢) من أن موسى عليه السلام كان عنده رتة من جمرة أدخلها فى فمه فى صغره، ذلك أن فرعون حمله ذات يوم فأخذ خصلة من لحيته قيل لما فيها من جواهر! وقيل أخذ اللحية إلى الأرض وقيل لطمه، وقيل ضربه بقضيب فى يده على رأسه فتطيرٌ فرعون ودعا بالسياف. فقالت امرأته: إنما هو صبى لا يفرق بين الياقوت والجمر. فأحضروا جمرة وياقوته فأراد أن يمد يده إلى الياقوت فحوَّل جبريل عليه السلام يده إلى الجمرة ووضعها فى فمه فاحترق لسانه. وقيلت رواية أخرى من أن البعض سمع موسى يقول كلمات فنقلها إلى الفرعون وقال له يزعم أنه يرثك ويعلوك ويصرعك. فأرسل إلى السياف فجاءت امرأته وقالت ما بدا لك من هذا الغلام الذى وهبته لى؟ فقال ألا ترينه يزعم أنه يعلونى ويصرعنى. فكان ما كان من اللجوء إلى التفرقة بين الجمر والياقوت كما فى الرواية السابقة. وقيل كانت العقدة فى لسانه خلقة . وهو الأقرب للعقل.

ومما يروى أنه كان فى لسان الحسين رضى الله عنه رتة وحبسة وقال النبى صلى الله عليه وسلم فيه: إنه ورثها من عمه موسى عليه السلام.

أما عن فترة صباه فقد أثار الأستاذ عبدالوهاب النجار (قصص الأنبياء، ص ١٧٨) جدلا بقوله إن البلاط الفرعونى تولى تربيته كما كانوا يربون أبناء الملوك فى ذلك العهد بواسطة الكهنة ورجال الدين بحسب التقاليد التى كانت لذلك البيت فى تلك الأيام، وأن موسى قد تعلم تعليما راقيا . وانتقد بعض علماء الأزهر الشريف هذا القول لما يفهم منه من أن تعليم الكهنة لابد كان يتضمن شيئا عن العقيدة المصرية وهى وثنية فى مجملها . الأمر الذى يمتنع على الأنبياء حتى فى صغرهم. ورد هو بأن ما قصده هو تعلمه أصول القراءة والكتابة والحساب والهندسة.

وفى رأينا أن تعلم القراءة والكتابة باللغة المصرية القديمة كان أمرا حتميا ولاشك أنه تعلم أيضا لغة بنى إسرائيل نظرا لما اختُزن فى عقله لما كان رضيعا فى بيت أمه وبعد ذلك من بعض الأفراد من بنى إسرائيل الذين كانوا يخدمون فى القصر الملكى. أما أكثر من ذلك فمشكوك فيه لأن الفرعون استبقاه مجاملة لامرأته. ولم يكن لديه دافع «أبوى» للاهتمام بتثقيفه فترك موسى يجرى ويلعب فى حدائق القصر. وتفرح به امرأته فهو قرة عينها. وهى بدورها لاتريد أن تقسو عليه فى دراسة كهنوتية. ولعل هذا كان حماية من الله له كى لا تترسخ فى ذهنه منذ الصغر أفكار فاسدة حول معنى الألوهية. وكان تركه هكذا على الفطرة نوعا من صنع الله له تحقيقا لقوله تعالى:

«ولتصنع على عينى» . (٣٩ - طه)

أى بمرأى منى. ومن معانى الصنع الإحسان. أى كان هذا إحسانا من الله له. وقال بعضهم أى جعله الله فى بيت الملك ينعم ويترف وغذاؤه من غذاء الملك فتلك الصنعة. وفى رأينا أن الصنعة المشار إليها ليست أكلا أو شربا. بل هى التكوين النفسى والعقلى وهما الأهم.

كما أنه من المؤكد أن الفرعون لم يكن يحرص على اصطحابه معه فى الأعياد الدينية. إذ لو ناداه صراحة أمام الناس «ابنى موسى» لاعتبر بمثابة ابن حقيقى ويصبح له حق وراثة العرش وهو ما كان الفرعون يرفضه. فكان يترك موسى يلهو فى القصر وحدائقه. فكان هذا أيضا حماية له.

أمر آخر نتج عن تربية موسى فى قصر فرعون. فقد رأى أن الفرعون ما هو إلا بشر. يأكل ويشرب وينام ويستيقظ ويتألم ويتوجع إذا أصابه مرض كما يفعل عامة الناس. فأدرك أنه شخص عادى وليس إلها كما يدعى وكما يدَّعى وزراؤه وكهنته. فكان هذا نوعا من «الصنعة» كذلك.

وتمر الأيام والسنون. ولما بلغ موسى الخامسة من عمره ولدت الملكة «إست نفرت» ابنا سموه «خعمواست الثانى». ولم يهتموا به فى أول الأمر لظنهم أنه سيموت كما مات إخوته من قبل. وبعد سنة ولدت الملكة «نفرتارى» الابن «بارع حرامنف الثانى» ثم ولدت إيست نفرت الابن «رعمسسو». وتوالى الأبناء أفرادا وتوائما. وولد مرنبتاح وكان موسى قد بلغ ١٠ سنوات - وتمر الأعوام. ولم يمت أحد من الأبناء بل عاشوا جميعا. ومن الطبيعى أن يحب الفرعون أبناءه الذين من صلبه عن ذاك الذى تبنته زوجته. إلاَّ أن موسى ظل محتفظا بمكان أثير فى قلب «إيست نفرت».

تقول الروايات إن موسى - بعد أن أصبح شابا - لم يكن راضيا عن العذاب الشديد الذى كان ينزل ببنى اسرائيل. ولكنه لم يكن يملك رفعه عنهم إذ هى أوامر «والده» الفرعون. ولكنه

فى قرارة نفسه لم يكن يسعد بتعذيبهم كما كان يشعر غيره من المصريين. بعض المصادر تقول إنه زاد لهم من فترات الراحة وزاد من كمية الأكل وهذا ماجعل بنى إسرائيل يتهامسون فيما بينهم أن هذا «الأمير» يختلف عن باقى المصريين ولم يفهموا سببا لذلك. أحد الأفلام التى عملت عن الخروج صورت كيف أن أم موسى كانت من بين المسخَرين فى أعمال البناء وكادت تدوسها كتلة خشبية من التى كانت قطع الحجارة الضخمة تدحرج عليها. وبحركة لاشعورية أسرع موسى لنجدتها وهو لا يعرفها. ولكنها عرفته وقالت له: شكرا يا ابنى. ورأى نظرات الحب والحنان فى عينيها!

متى علم موسى أنه ليس مصريا؟

قلنا إن موسى كان عمره ٥ سنوات لما رزق فرعون بولده «خعمواست» ثم ولد الأبناء الآخرون تباعا وعاشوا جميعا. ولاحظ موسى أن «إخوته» قد أصبحوا بؤرة الاهتمام ومحل الرعاية من كل من فى القصر. وتركز الاهتمام على الأمير خعمواست. وتعجب لهذا الأمر فالمفروض أنه هو «الابن البكر» وبحكم ذلك فهو «ولى العهد» ولعله سأل بعض من فى القصر عن سبب هذا التغير فى المعاملة. ولعل إجاباتهم كانت غامضة. ورأى رمسيس الثانى يأخذ خعمواست معه فى الاحتفالات التى تقام فى المعابد ويشركه فى تقديم القرابين لتماثيل الآلهة. ولم يهتم بذلك لأنه لم يكن يحس ميلا لهذه الأعمال بل كان عنده شعور خفى بكره هذه التماثيل. ولعل مرجع ذلك إلى أن «والده» رمسيس الثانى لم يكن يأخذه أبدا فى صغره – لا هو ولا «والدته» إيست نفرت – فى أى احتفالات دينية بل كان دائما يأخذ زوجته الأخرى «نفرتارى».

وتزايد الاهتمام بأخيه خعمواست وأصبح مفهوما لكل من فى القصر – وإن لم يكن بصفة رسمية – أن خعمواست هو ولى العهد. وهنا أصرَّ موسى على أن يعرف الحقيقة. ولعله سأل «أبويه» عن سبب تخطيهم له فأحالاه إلى كاهن القصر الذى أخبره بأنه ابن بالتبنى ومن المحتمل أنه ابن لإحدى أسر بنى إسرائيل وأراه قطعة النسيج التى كانت تحته فى التابوت عند التقاطه من النهر وكان الكاهن لا يزال محتفظا بها.

لاشك أن موسى رغب حينئذ فى معرفة أبوية الحقيقيين فخرج من القصر ليبحث عنهما. كانت سنه حوالى ١٥ سنة. وأول ما فعل أن بحث عن المرضعة التى أرضعته فى صغره ليسألها عن أبويه. واستدل عليها ووجد أنها نفس المرأة التى أنقذها من قبل. ولمحت هى فى تعابير وجهه أنه قد علم أنه ليس ابن الفرعون حقيقة. ولما سألها عن أبوية احتضنته وأخبرته أنها هى أمه الحقيقية وأن مريم أخته وهارون أخوه.

مما لاشك فيه أن عمران – أباه – أكب على تعليم ولده «موسى» ما ورثه بنو إسرائيل من

صحف إبراهيم وكلمات إسحق ووصايا يعقوب عليهم السلام. ودهش إذ وجد أن موسى بفطرته كان رافضا وكارها للوثنية المصرية. وانضم موسى إلى قومه بنى اسرائيل. قيل إنه كان يشارك قومه مختارا فيما كانوا يُكلَّفون به من عجن الطين وصنع اللبن وقطع الأحجار فيساعد من يجده مُجهداً إذ كان موسى قوى الجسد كثير التحمل - مع أن أوامر التسخير لم تكن لتشمل من كان يوما «ابنا» للفرعون. وهكذا اندمج موسى فى بنى إسرائيل وأصبح الجميع ينظرون إليه نظرة إجلال وإكبار. فهم كانوا يحبونه لما كان «أميرا» وابنا للفرعون حين خفف عنهم ساعات العمل وزاد لهم من كمية الطعام. وزاد حبهم له لما علموا حقيقة أمره وأنه من بنى إسرائيل مثلهم وابن لأحد شيوخهم.

وتمر السنون ويبلغ موسى مبلغ الرجال

«ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين»..

(١٤ - القصص)

وقالوا الأشُد اكتمال القوة. وقالوا الثلاث والثلاثون سنة. والاستواء كمال الإدراك والفهم وهو أربعون سنة. آتاه الله **حكما**. قال السدى أى النبوة. **وعلما** بالدين والشريعة. والثابت أن النبوة والرسالة كانتا بعد ذلك - عندما نودى عند الشجرة المباركة أثناء عودته من مدين - فالحكم والعلم المشار إليها فى هذه الآية. قيل أوتى سيرة الحكماء والعلماء. فكان لا يفعل فعلا يُستجهل فيه. وقيل حكما أى رئاسة فى قومه يحتكمون إليه فى أمورهم ويرجعون إليه فى مهامهم. وعلما إما بالإلهام أو الاستنباط. فكانوا يأتمرون بما يأمرهم به.

رد فعل فرعون لانضمام موسي لبنى إسرائيل:

لاشك أن «إيست نفرت» كانت تتتبَّع أخبار «ولدها» موسى. ولعلها سُرَّت إذ رأت أنه أصبح سيدا فى قومه. ولكن شعور رمسيس الثانى لم يكن مثل ذلك. ويحسن بنا أن نتوقف قليلا لنرى ماذا كان رد فعله إزاء انضمام موسى إلى بنى إسرائيل. فقد أدرك أن «البطل» قد وجد. والتفوا حوله. ولعله راح يسائل نفسه. أتكون هذه هى المقدمة لتحقُّق النبوءة؟ ولكن كيف تتحقق النبوءة وتكون نهايته على أيديهم؟ نحن نعلم الآن كيف كانت نهايته غرقا. ولكن فى ذلك الوقت لم تكن هذه النهاية تخطر على بال أحد. فراح يفكر فى الكيفية التى يمكن أن يتبعوها فى القضاء عليه. أيعمد موسى إلى تسليح بنى إسرائيل وتكوين جيش منهم ينقض به عليه وعلى ملكه؟ مستحيل! فما أسهل التصدى لهذا الأمر بعمل حصار حول أرض جاسان وبث العيون لمعرفة إن كانوا يصنعون الأسلحة سرا ثم إن صنع الأسلحة من سيوف ودروع ونبال يحتاج إلى مهارة خاصة لا تتوافر فى بنى إسرائيل. وحتى لو أفلحوا فى صنع هذه الأسلحة سرا فهى لن تقف أمام المركبات الحربية المصرية ولا الجند المدربين. وتوصل إلى نتيجة مؤكدة وهى

أن الانقضاض عليه اعتمادا على قوتهم الذاتية أمر مستحيل. ولايبقى إلا الاحتمال الثانى وهو الاعتماد على عدو خارجي والتواطؤ معه بشكل من الأشكال.

وتذكر رمسيس الثانى الخدعة التى قام بها البدويان من العابيرو - فى معركة قادش - (ص ٧٩١) والتى كبدته خسارة فيلق رع بأكمله وجزءا كبيرا من فيلق آمون وكادت تكلفه هو نفسه حياته. وراح يتساءل: أليس من المحتمل أن يتصل بنو إسرائيل فى مصر بجماعات الهكسوس والشاسو المتفرقة فى الشام وفلسطين. وقد كانت فلولهم دائما هى المحرك لثورات التمرد فى هذه المناطق؟ صحيح أن تحتمس الثالث قد طاردهم. وقضى على تماسكهم بحملاته المتتالية التى بلغت ١٦ حملة حتى لم يعد لهم كيان متماسك إلا أنهم بقوا أفرادا وجماعات صغيرة متناثرة. بل وظلت ثقافتهم موجودة فى فلسطين وهو ما يسمى «عهد الهكسوس المتأخر فى فلسطين» وإن كانوا يتكلمون اللغة الحوارنية وقد وجد أن كثيرا من رؤساء الثوار فى هذه المناطق يحمل أسماء حورانية. فإذا اتصل بنو إسرائيل فى مصر عن طريق «العابيرو» بفلول الهكسوس الحوارنيين هؤلاء ولو نجح هؤلاء فى ضم دولة أجنبية لتحالفهم لأصبح الأمر خطيرا إذ يعود الهكسوس لمصر وتعطى فلسطين لبنى إسرائيل ويستولى الحليف الثالث على باقى المنطقة.

احتمال آخر وهو أن يخرج بنو إسرائيل من مصر أفرادا وجماعات - فارين إلى ملك خيتا ويعقدون معه اتفاقا بحيث ينضمون إلى جيشه وتقوم جموعهم فى مصر بإحداث قلاقل تشغل الفرعون وجيشه وتكون الفرصة مواتية لملك خيتا فيستولى على منطقة الشام والساحل الفينيقى وأرض أمورو وتعطى فلسطين وطنا لبنى إسرائيل مكافأة لهم على دورهم فى هذه الصفقة. إنه أمر محتمل جداً بل يكاد يكون الوسيلة الوحيدة المتاحة لبنى إسرائيل للخروج من مصر وتحقيق حلمهم فى العودة إلى «الأرض الموعودة». ولكن أليس بين مصر وملك خيتا صلح تم عقده بعد معركة قادش. ولكن الصلح ليس له دوام ولا قوة المعاهدة. فليعمل على تحويل الصلح إلى معاهدة. وهكذا أوحى إلى مستشاريه بجس نبض ملك خيتا فى هذا الشأن.

كان الملك مواتيلا قد مات وتولى بعده خاتوسيل الثالث. وكان خطر من الشرق قد بدأ يتهدده. ذلك أن الأشوريين كانوا قد بدأوا ما يسمى «بالعصر الأشورى الوسيط» بمهادنة ظاهرية لبابل فى الجنوب. وكانت دولة الميتان قد تعرضت لهجمات عنيفة من الحيثيين (دولة خيتا) وبدأت تضعف فقامت آشور بالاستيلاء على ما تبقى منها فى الفرات الأعلى وانتهت دولة الميتان. وانفسح السبيل أمام أشور فى اتجاه الغرب. وخشى خاتوسيل ملك خيتا من تطلعاتهم. وبدأ يرغب فى وضع مع مصر أكثر استقرارا من مجرد عقد الصلح الذى تم عقده بعد معركة قادش منذ ١٧ عاما. صحيح أن الوضع قد استقر فى فلسطين لمصر بعد أن قاد

رمسيس الثانى حملة إلى فلسطين بعد ٣ سنوات من معركة قادش أى فى السنة الثامنة من حكمه إلا أن سوريا كانت محل مناوشات بينهما وخشى من تجدد الحرب بينه وبين مصر مما قد يضعف قوته الحربية فيصبح فريسه سهلة لآشور. وخاصة أن شعوب البحر بدأت تهدده من الجنوب والغرب.

وهكذا تلاقى الطرفان على الرغبة فى سلام دائم بينهما. وإن اختلفت دوافع كل منهما. رمسيس الثانى خوفا من مؤامرات بنى إسرائيل، وملك خيتا خوفا من الخطر الأشورى الصاعد. وبدأت خطوات التحالف من قِبَل الحيثيين على حد قول المصادر المصرية. إذ تقول أن ملكهم خاتوسيل أوفد مندوبَين أو رسولين إلى قصر رمسيس الثانى فى عاصمته واصطحبهما اثنان من البلاط الفرعونى. وعرض الرسولان على الفرعون مشروع معاهدة تحالف بين مصر وخيتا وكان المشروع مسجلا بالخط المسمارى على لوحة من الفضة. فقبله رمسيس من حيث المبدأ وكتب رجاله نصا آخر باللغة المصرية على لوح من الفضة أيضا به بعض التعديل. وبعد اتصالات أخرى وقع الملكان المعاهدة عام ١٢٦٩ ق.م فى العام ٢٣ من حكم رمسيس الثانى وكان عمره وقتئذ ٤٦ سنة. وأشهدت المعاهدة فى خاتمتها ألفا من الأرباب والربات المصريين وألفا من الأرباب والربات الحيثيين.

وتعهدت كل من الدولتين بعدم الاعتداء على حدود الأخرى واحترمت كل منهما كيان الأخرى على قدم المساواة دون أن تدعى إحداهماالسيادة أو الأفضلية على الأخرى. وتعهد كل من الطرفين بنجدة الآخر بعسكره إذا وقع اعتداء مسلح على دولته ولعل هذا البند كان أهم بند من وجهة نظر الحيثيين. كما تعهد كل من الطرفين بألا يأوى الخوارج الفارِّين من بلد الطرف الآخر وأن يعيدهم إليه أيا كانت مراتبهم الاجتماعية سواء كانوا من العظماء أو من العوام. ويمكننا أن نفهم الدافع لدى ملك خيتا على إدراج بندين فى نسخته عن الخوارج الفارين إذا علمنا أنه عندما توفى موتاليس تنازع على العرش ابنه وأخيه. وتغلب العم خاتوسيل وتولى العرش ولكنه خشى أن يلجأ ابن أخيه إلى فرعون مصر ويطلب منه النجدة فكان إدراجه لهذه النصوص. ولا يكون من سبب لأن يدرج رمسيس الثانى مثل هذه البنود إلا خوفا من مؤامرات بنى إسرائيل كما أوضحنا سابقا. بل إن رمسيس الثانى وضع فى النص المصرى أربعة بنود خاصة بالفارين :

بند ٧ – إذا غضب رمسيس الثانى ملك مصر العظيم على خدم له، وارتكبوا جريمة أخرى ضده بالفرار وذهبوا لينضموا لعدوه. فإن رئيس خيتا العظيم يجب أن يعمل معه للقضاء على كل فرد سيغضبان عليه.

بند ١١ – تسليم الفارين من المذنبين العظماء : إذا فرَّ رجل عظيم من أرض مصر وجاء إلى أراضى رئيس خيتا العظيم أو من بلد أو من مركز تابع لأراضى «رعمسيس مرى آمون» حاكم مصر العظيم وأتى إلى رئيس «خيتا» العظيم فعلى رئيس «خيتا» العظيم ألا يستقبله بل يجعله يعاد إلى «وسر ماعت رع ستبن رع» حاكم مصر العظيم سيده.

بند ١٢ – تسليم الفارين من صغار المذنبين : إذا فر رجال غير معروفين وأتوا إلى أرض «خيتا» ليكونوا عبيدا لفرد آخر فيجب ألا يقيموا فى أرض «خيتا» بل يجب أن يُرسَلوا إلى «رعمسيس مرى آمون» حاكم مصر العظيم.

بند ١٧ – إذا فر من أرض مصر **رجل أو رجلان أو ثلاثة** وأتوا إلى رئيس «خيتا» العظيم. فإن رئيس «خيتا» العظيم ينبغى عليه أن يقبض عليهم ويأمر بإعادتهم إلى «رعمسيس مرى آمون» حاكم مصر العظيم.

وهذه البنود الأربعة فى النص المصرى للمعاهدة كان يقابلها فى النص الحيثى مادتان فقط بنفس المعنى. ومن المفهوم أن بند ١١ الخاص بالفارين من المذنبين العظماء يقصد به موسى نفسه أو شيوخ الأسباط ورؤساء عشائر بنى إسرائيل.

وهكذا اعتقد رمسيس الثانى أنه قد حقق السيطرة الكاملة على بنى إسرائيل. فهو يسخرهم وينزل بهم العذاب فى الداخل. وموظفو الحدود يراقبون المارين ويسجلونهم بكل دقة. وقد سبق أن ذكرنا فى ص ٦٧٦ يوميات موظف الحدود فى عهد مرنبتاح. وأن المرور كان محرَّما فى عهد رمسيس الثانى إلاَّ لمن لديه مأمورية رسمية من الدولة. وها هو رمسيس قد شدد الخناق. فأى فرد ينجح فى الهرب عبر دروب الصحراء فإن بنود المعاهده تلزم ملك خيتا بإعادته لمصر.

وحققت المعاهدة أغراضها فى السياسة الخارجية وساد السلام بين الدولتين. ودُعم هذا التحالف بعد عدة سنوات بمصاهرة سياسية إذ تزوج رمسيس الثانى من ابنة ملك خيتا وقَدِمَ الملك خاتوسيل بنفسه مع ابنته إلى مصر لتتزوج من رمسيس الثانى. كان ذلك فى العام ٣٤ من حكم رمسيس وكان عمره آنذاك ٥٧ سنة. وأعطاها اسما مصريا هو «مات نفرو رع» فكانت ثالث زوجاته الرئيسيات. وقد مثلها رمسيس الثانى بصحبة والدها على اللوحة التذكارية التى أمر بها تخليدا لهذا الزواج (شكل ٢١٦) ووضعها فى معبده بأبى سمبل. كما مثلها على أحد التماثيل الضخمة فى العاصمة. وجعلها تقيم فى ضيعة خصصت لها فى بلدة «مى ور» عند مدخل الفيوم حيث عثر العالم «بترى» على بردية تحوى قائمة ببعض ملابسها وأثوابها.



شكل ٢١٦ – حضور الأميرة الحيثية مع أبيها إلى مصر لتتزوج من رمسيس الثانى.
(صورة من معبد أبى سمبل)

لاشك أن بنى إسرائيل علموا بأمر المعاهدة وشعروا باشتداد الخناق عليهم. فها هو باب الأمل فى الخروج من مصر قد سُدَّ فى وجههم. ولجأوا إلى «موسى» يستشيرونه. ولابد أنه قد أخذ يشد من عزيمتهم ويقوى إيمانهم بصدق وعد الله لهم فى الأرض المقدسة أما متى أو كيف فهذا متروك لأمر الله. واستمر الحال ببنى إسرائيل من تسخيرهم فى الأعمال التى يأمر بها رمسيس الثانى. وكان موسى قد بلغ ٤٥ سنة.

مقتل المصرى :

فى وقت حصاد القمح فى أوائل الصيف. كان يوم الاحتفال بعيد «تجلِّى مين» إله الخصوبة. ومراسم الاحتفال بهذا العيد نراها منقوشه على جدران معبد الرمسيوم (شكل ٢١٧) ومدينة هابو بالبر الغربى بالأقصر. وكان تمثال «مين» يحمله الكهنة على أعمدة وكل منهم يلبس جلبابا طويلا مزدانا بأسماء الملك. وتتبعهم مجموعة أخرى صغيرة من الكهنة حاملة معها لفائف الخس وهو النبات المقدس للإله «مين». وكان يُقاد ثور أبيض فى الموكب بينما تماثيل الملك ورموز أو علامات الآلهة ترفع على الساريات. وعندما يعتلى الملك عرشه فإن سنبلة قمح كانت تقطع للإله. وتنطلق أربعة طيور – ترمز إلى أولاد حورس الأربعة – تنطلق إلى الأركان الأربعة للمعمورة حاملة معها الخصب والنماء. وكان يحتفل بهذا العيد مع بداية موسم الحصاد. وكان رمسيس الثانى يحرص على إقامته بعاصمته الجديدة «بررعمسيس». ويتم الاحتفال بمعبد الإله «مين» وساحة الاحتفالات الكبرى المجاورة (شكل ١٤١ ص ٧١٢) حيث يتجمع رجال الدولة والشعب كله يتفرج وتكاد المدينة تخلو من سكانها. وبالطبع لم يكن موسى يشهد هذا الاحتفال.

دخل موسى المدينة – وكانت كما قلنا شبه خالية – فوجد فيها رجلين يقتتلان. أحدهما من بنى إسرائيل. والآخر من المصريين الذين أصبحوا أعداء. واستغاثه الإسرائيلى لينصره على المصرى الذى يقاتله. فوكزه موسى. والوكز الضرب باليد أصابعها مضمومة. وقيل الدفع بأطراف الأصابع. وكان موسى قد أوتى قوة فى الجسم فمات المصرى لساعته.

وقد يتساءل المرء: كيف مات المصرى من وكزة بسيطه كهذه؟ والجواب أنه فى الرقبة يتفرع الشريان الرئيسى الذى يوصل الدم إلى الرأس إلى فرعين (شكل ٢١٨) فرع للرأس من الخارج وفرع للمخ. وعند هذا التفرع يوجد انتفاخ بسيط يسمى الجيب الكاروتى Carotid sinus ويغذيه العصب الحائر Vagus nerve وعند الضغط على هذه المنطقة يتم تنبيه العصب الحائر ويحدث تباطؤ فى ضربات القلب وانخفاض فجائى فى ضغط الدم ويغمى على الشخص من جراء ذلك. وكان قطاع الطرق فى أوربا على دراية بهذه المعلومة ويضغطون على رقبة ضحاياهم عند هذا الموضع فيغمى على الضحية فيسلبونه نقوده وجواهره. وإذا كان الضغط قويا فقد يتوقف القلب كلية ويموت الشخص.



شكل ٢١٧ – رمسيس الثانى يعلن احتفاله بأحد أعياد الإله «مين».
(معبد الرمسيوم بالبر الغربى بالأقصر)



شكل ٢١٨ – موضع الجيب الكاروتى Carotid Sinua فى الرقبة.

وعلى ما يبدو – أو من المؤكد – أن وكزة موسى للمصرى كانت فى الرقبة وجاءت تماما فوق موضع الجيب الكاروتى فمات المصرى لساعته دون أن يقصد موسى قتله. وبهت موسى نفسه لما حدث. فقد كان هدفه تخليص الإسرائيلى من قبضة المصرى. وقال موسى فى نفسه إن هذا من عمل الشيطان الذى يريد أن يوقعه فى الإثم. صحيح أنه قتل خطأ بدون قصد إلا أنه قتل لنفس حرم الله قتلها إلا بالحق. واعترف موسى أمام الله فى دخيلة نفسه بما فعل وطلب المغفرة من الله. وغفر الله له هذا الذنب فالله غفور رحيم. وأقسم موسى أنه بما أن الله قد أنعم عليه وغفر له فلن يرتكب مستقبلا مثل هذا الجرم ولن يكون مساندا لشخص معتد على آخر وتؤدى مساندته لمثل هذا. ولعل نفرا من بنى إسرائيل وقد رأوا فى موسى نصيراً لهم بدأوا يتعمدون الاحتكاك بالمصريين اعتمادا على نصرته لهم فوصف فعلهم هذا بالإجرام وتعهد ألا ينساق فى نصرة هؤلاء المجرمين إلى الحد الذى يوقعه هو نفسه فى الإثم.

وأصبح موسى بعد هذه الحادثة خائفا يترصد الأخبار. هل اكتُشفت الحادثة؟ وهل عرفوا أنه هو مرتكبها؟ ويصور القرآن الكريم الحالة النفسية التى كان عليها موسى. فقد كان «**خائفا**» هل شاهد الحادثة أحد من المصريين فاعترف عليه إذ من الطبيعى أن الإسرائيلى لن يعترف على موسى و«**يترقب**» أى يتوقع فى أى لحظة أن يأتى الجند للقبض عليه. وعاد القوم من احتفالهم واكتشفوا جثة القتيل ولكن لم يعرفوا من الفاعل. وذهبوا إلى فرعون وأخبروه أن إسرائيليا لابد هو قاتل المصرى وطالبوا بالقصاص ولكن القصاص ممَّن؟ فالفاعل مجهول. قالوا إن جرائم القتل كانت نادرا ما تحدث بين المصريين مهما كان بينهم من خلاف لذلك كان أول ما تبادر إلى أذهانهم أن القاتل هو من بنى إسرائيل. وطلب الفرعون من الشرطة أن يبحثوا عن الجانى.

عبَّر القرآن الكريم عن حادثة قتل المصرى هكذا :

«ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها. فوجد فيها رجلين يقتتلان. هذا من شيعته وهذا من عدوه. فاستغاثة الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه. قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين. قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم. قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين. فأصبح فى المدينة خائفا يترقب». (١٥-١٧-القصص)

فى اليوم التالى كان موسى مارا فى المدينة. فرأى الإسرائيلى نفسه الذى كان يتعارك بالأمس يتعارك مع أحد المصريين ثانية. واستغاثة الإسرائيلى. وبغريزة مناصرة من هم من شيعته أراد أن يبطش بالمصرى الذى هو عدو لهما. وتذكر قسمه الذى أقسم بالأمس وهو ألا يكون ظهيرا للمجرمين وتمهل قليلا يفكر فما أدراه ألا يكون هذا الإسرائيلى هو المعتدى فقال له إنك كثير الشر ظاهر الغواية ونظر له نظرة لوم لكثرة مشاكساته. ولما رفع يده ليبطش

بالمصرى ظن الإسرائيلى أنه يقصد البطش به فقال مدافعا عن نفسه ومستنكرا: يا موسى، هل تريد أن تقتلنى كما قتلت المصرى بالأمس؟ وسمع المصرى هذا القول فانفلت من يدى الإسرائيلى وأسرع إلى فرعون وأخبره بما قال الإسرائيلى وهو إعتراف صريح على موسى من واحد من بنى جنسه بأنه هو قاتل المصرى. ذكر ذلك فى قوله تعالى:

« فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين. فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس. إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين». (١٨-١٩-القصص)

تقول التوراة بأن الشخصين اللذين كانا يتعاركان فى اليوم التالى كانا من بنى إسرائيل إذ جاء فى الإصحاح ٢ خروج ١٣: ثم خرج فى اليوم التالى وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان. قال للمذنب لماذا تضرب صاحبك؟ فقال من جعلك رئيسا وقاضيا علينا؟ أمفتكر أنت بقتلى كما قتلت المصرى؟ فخاف موسى وقال حقا قد عرف الأمر. فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى. والصحيح هو ما قرره القرآن الكريم من أن الشجار فى المرة الثانية أيضا كان بين نفس الإسرائيلى ومصرى آخر لقوله تعالى: **«فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما »**.

وعلم فرعون بأن موسى هو قاتل المصرى وأصدرأمرا باعتقاله للقصاص منه. وسمع رجل: قيل هو إسرائيلى. وقيل مصرى ولكنه كان يكره ظلم قومه ويؤيد موسى فى نصرتهم. وقيل اسمه شمعان وقيل شمعان بن إسحق وقيل حزقيل وقيل غير ذلك. وكون هذا الرجل هو مؤمن آل فرعون هو المشهور (تفسير الألوس جـ ٢٠ ص ٥٨) وقال الثعلبى هذا الرجل حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون (تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٢٦٦). وما نراه هو أنه هو مؤمن آل فرعون ولكنه أخو امرأة فرعون كما سيجىء فيما بعد (ص ٨٩٦).

«وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين. فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين». (٢٠-٢١-القصص)

سعى فى مشيه أى عدا (المعجم الوسيط جـ ١ ص ٤٣٤) والمعنى أن ذلك الرجل جاء مسرعا ليحذر موسى قبل أن يأتى الجند للقبض عليه. ولكن لماذا قيل **«من أقصى المدينة»** وقد كان يكفى. من المدينة؟ فى رأينا أن كلمة أقصى لها دلالة معينة. فلو نظرنا إلى شكل ١٤١ ص ٧١٢٠ وهو يبين رسما لمدينة بررعمسيس العاصمة ونرى فيها مساكن كبار رجال الدولة فى أقصى الشمال بينما أقاريس القديمة حيث يسكن المصريون فى الجنوب وفى أقصى الجنوب مساكن لبنى إسرائيل حيث كان يقطن موسى. فكلمة أقصى المدينة تعنى أقصى طرفها الشمالى حيث يسكن عظماء القوم. فهو رجل من خاصة فرعون وحضر المداولات والمناقشات

التى دارت فى بلاط فرعون وإصداره الحكم بإحضار موسى للقصاص منه. فأسرع يُحذِّر موسى قبل أن يصل إليه جنود فرعون ونصحه بالخروج من المدينة قبل أن يظفروا به. فخرج موسى من المدينة وهو خائف يتلفت ويترقب أن يمسكوا به. خرج حتى قبل أن يأخذ زادا للطريق وطلب من الله أن ينجيه من هؤلاء القوم الظالمين. إذ هم لن يتيحوا له الفرصة للدفاع عن نفسه وإبداء أنه لم يقصد قتل المصرى. ورأى فرعون أنها فرصة لا تعوض ساقتها الأقدار إليه حتى يتخلص من «البطل» الذى بدأت قلوب بنى إسرائيل تلتف حوله ويمنيهم بالخلاص والذهاب إلى «الأرض الموعودة». كان موسى يعلم أن الطريق إلى فلسطين عليه حراسة مشددة فلا سبيل إلى سلوكه. وحتى لو أفلح فى اجتيازه فإن يد فرعون ستطوله فى فلسطين ولو ذهب أبعد من ذلك إلى سوريا أو أرض أمورو فإن حليفه ملك خيتا سيعمل على إعادته إلى مصر طبقا لبنود المعاهدة. وفكر موسى فى أرض لا تطوله الأيدى فيها فكان أن توجه تلقاء مدين.

فى مدين :

لاشك أن المصريين قد ساءهم هرب موسى إذ لم يتمكنوا من الثأر لقتيلهم. ولكن من المرجح أن فرعون قد استراح لهذا الأمر. فلعله خشى عاقبة أن يقتص من موسى بالقتل لما قد يحدثه ذلك من غضب جموع بنى إسرائيل وهو ما قد يدفعهم إلى العصيان والتمرد. وحقق له هرب موسى ما كان يرجوه من إبعاد «البطل» عن بنى إسرائيل دون إثارة ثائرتهم.

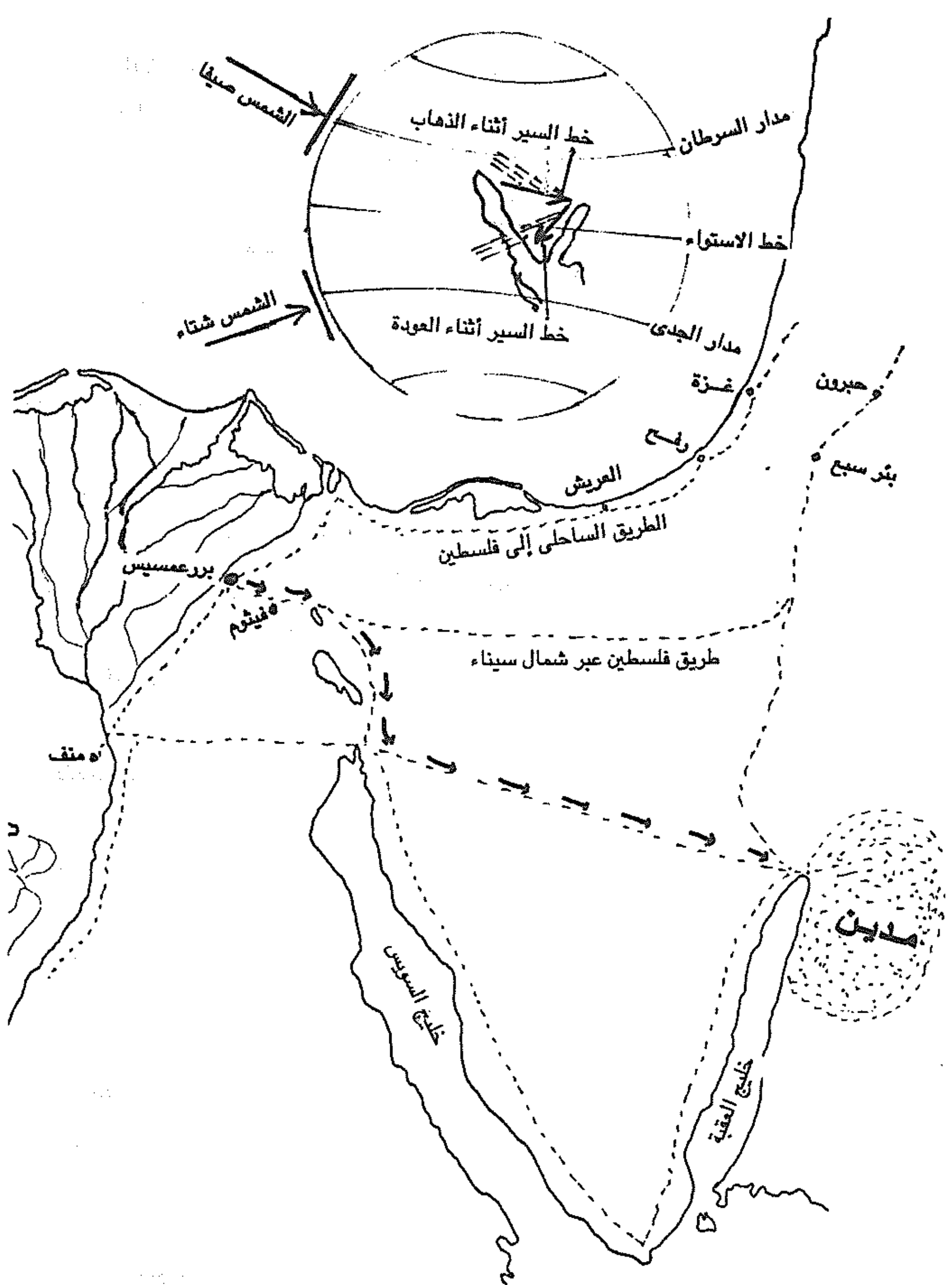
«ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل». (٢٢-القصص)

سار فى اتجاه أرض مدين وبالطبع كان يسلك دروبا فى الصحراء غير مطروقة تحوُّطا من عثور أهل القتيل أو الجند عليه إن فكروا فى مطاردته. وطلب من الله أن يهديه إلى الطريق الصحيح.

سار موسى فى اتجاه الشرق متخذا الشمس دليله (شكل ٢١٩). كان خروجه فى موسم حصاد القمح أى فى شهر يونيو. وفى هذا الوقت تتعامد الشمس على مدار السرطان ويكون شروق الشمس بزاوية قدرها ٥ , ٢٣ درجة شمال الشرق فكانت الشمس إلى يساره قليلا. وسيكون لهذا أثره عند العودة وكانت العودة شتاء إذ لم يضع موسى فى حسابه اختلاف مطلع الشمس مما جعله ينحرف بزاويه قدرها ٤٥ درجة فوصل إلى وسط سيناء إلى الجبل الذى قدَّر الله أن يكلمه عنده.

كان بين مصر ومدين عبر سيناء ثمانية أيام. قيل لم يكن له طعام إلا ورق الشجر وما وصل مدين إلا وقد تقرحت قدماه وأصابه هزال شديد.

ولما وصل موسى أرض مدين استراح فى ظل شجرة بجوار بئر يستقى الناس منه. ولعله كان يأمل أن يراه القوم ويدركوا أنه غريب فيُضيِّفونه ولكن أحدا لم يفعل. ورأى على البئر جماعة من الناس يسقون ماشيتهم وإبلهم ووجد بينهم امرأتين تحبسان أغنامهما بعيدا عن



شكل – ٢١٩ الطريق الذى سلكه موسى إلى مدين – الجزء العلوى يوضح اختلاف مطلع الشمس صيفا وشتاء وكان ذلك هو سبب انحرافه فى العودة فوصل إلى وسط سيناء.

الحوض انتظاراً لأن يفرغ الرعاة من سقى أغنامهم أولا. ومن الطبيعى أن يتزاحم الناس على السقى من البئر. ويكون الأول فى السقى أقواهم حتى إذا سقى وانصرف تلاه الأقل قوة ثم الضعيف ثم الأضعف. فالقوى يزاحم بعضلاته ويرد البئر أولا ويشرب هو ويسقى غنمه ومن الطبيعى أن المرأتين كانتا أضعف الموجودين وتعلمان أن مكانهما فى المؤخرة بعد أن يسقى الرعاة وينصرفوا فيخلو لهما البئر. ولعل الماء الصافى يكون قد نضب ولم يبق إلا الماء الكدر. وفى هذا يقول عمرو بن كلثوم التغلبى:

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ∴ ويشرب غيرنا كدرا وطينا.

وسأل موسى المرأتين عن سبب تأخرهما عن القوم فأجابتاه أن هذه عادتهما إذ لاتستطيعان مزاحمة الرجال. وأن أباهما شيخ كبير لا يقدر على المجىء بنفسه. فتقدم موسى وكان - كما سبق أن قلنا - قوى البنية فزاحم وسقى لهما ثم رجع إلى ظل الشجرة. وكان الجوع قد بلغ به حدا كبيرا فتوجه إلى الله قائلا إنه محتاج لأى شىء يرزقه به الله. أو أنه كان فى حاجة إلى الخير الذى أنزله الله به من الأمن والأمان ومن النجاة من فرعون.

«ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان. قال ماخطبكما. قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير. فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير».

(٢٣ - ٢٤ - القصص)

البعض يروى أن البئر كان عليها صخرة عظيمة يرفعها كل من أراد السقى ثم يردها ثانية. وقيل كان لايقدر عليها إلاّ جماعة من الأقوياء. فقام موسى وحده - وكان قويا - فرفع الصخرة وسقى لهما. وهذا لايتفق مع واقع الأمر من أن البئر كان يستقى منها الرعاة فعلا فلم يكن عليها صخرة. وقالوا أيضا (الثعلبى. عرائس المجالس ص ٢١٠) إن تلك البئر غير التى تسقى منها الرعاة. فرفع موسى الصخرة عنها وسقى لهما. ولعل هذه الأقوال وضعت بهدف إبراز معانى القوة والشهامة فى تصرف موسى عليه السلام.

وعادت المرأتان مبكرتين على غير ما اعتاد أبوهما منهما. فسألهما عن السبب فأجابتا أنهما وجدتا رجلا صالحا سقى لهما أغنامهما.

سبق أن ذكرنا فى الجزء الثالث ص ٦٣٩ أن بعض المصادر تقول إن هذا الشيخ الكبير هو النبى شعيب عليه السلام. والاعتراضات على هذا القول كثيرة. منها أن جيل شعيب النبى يسبق موسى بثلاثة أجيال. كما أن الرعاة ماكانوا ليسقوا قبل ابنتى نبيهم. بل ولسارعوا لسقى أغنام نبيهم قبل غنمهم. وروى عن الحسن البصرى قوله إن صاحب موسى عليه السلام اسمه شعيب ولكنه ليس بالنبى صاحب مدين. وقيل هو رجل مؤمن من قوم شعيب. أما القول بأنه ابن عمه أو ابن أخيه فينفيه أن بين شعيب وموسى ما يزيد عن مائة عام. وأخيرا فقد جاء

ذكر مدين وشعيب فى الآية ٨٥ من سورة الأعراف. ثم جاء قوله تعالى فى الآية ١٠٣: **«ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا»**. وثم تفيد الترتيب مع التراخى وهذا يدل على وجود زمن يفصل شعيبا عن موسى عليهما السلام.

تختلف التوراة فى تسمية حمى موسى الذى ورد ذكره فى الإصحاح الثانى خروج إذ جاء فى الفقرة ١٧: فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن. فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن... وفى أول الإصحاح الثالث خروج: وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان.

وجاء فى قاموس الكتاب المقدس (ص ١٠٥٤): يثرون اسم مديانى معناه «فضل» كاهن مديان وحمو موسى ويدعى أيضا رعوئيل أى «صديق الله» أو «خليل الله» ويظهر أن هذا اسمه الشخصى ويثرون لقب شرف أطلق عليه. وبينما كانت بناته السبع يرعين أغنامه أسدى إليهن موسى خدمة أدت إلى تعرفه بأسرة يثرون وزواجه بصفورة إحدى بناته. وهنا تختلف التوارة أيضا فى أن البنات كن سبعا مع أن القرآن الكريم قرر أن من كن يسقين هما اثنتان ومن المحتمل أن خمسا أخريات كن فى البيت يخدمن والدهن ويجهزن الطعام ولو أن الأحاديث النبوية الشريفة المذكورة فى الصفحة التالية ترجح بنتين فقط.

قلنا إن موسى بعد أن سقى لهما آوى إلى الظل، كان يفكر: كيف ستكون معيشته فى هذه الأرض وهو لا يعرف أحدا فيها. كيف يقتات وأين يبيت؟ هل يعرض نفسه على الرعاة علَّ أحدهم يكون فى حاجة لمن يساعده؟ ولكن هاهم الرعاة كانوا مجتمعين حول البئر. ورأوا من هيئته وثيابه أنه غريب عن هذه المنطقة. ولم يتقدم أحد لسؤاله عن حاله ومن أين أتى؟ من باب أن يكون أحدهم فى حاجة إلى عامل يساعده. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث. فترك الأمر لله وقال أنه محتاج إلى ما يأتى به الله. واللجوء إلى الله منجاة من كل كرب. وهذا ما حدث. فما هى إلا فترة وجيزة حتى جاءته إحدى البنتين.

«فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت: إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا. فلما جاءه وقصَّ عليه القصص قال لا تخف. نجوت من القوم الظالمين»
(٢٥ - القصص)

قالوا إن وصف الاستحياء ينسحب على المشى. وقالوا إنه ينسحب على الكلام الذى تكلمت به إذ الاستحياء ألزم عندما تتحدث امرأة مع رجل غريب عنها وخاصة عندما تدعوه لزيارة والدها. فيكون الوقوف عند تمشى أى: «فجاءته إحداهما تمشى - على استحياء قالت...» (عبد الرازق نوفل. معجزة الأرقام فى القرآن الكريم ص ٢٦). وأيًا ما كان الأمر فإنها أبلغته رسالة أبيها بدعوته ليثيبه ويكافئه على سقياه لغنمهما. فسار معها. قيل إنه مشى وراءها فعبثت الريح بثوبها. وكره ذلك. فقال لها امشى ورائى وصفى لى الطريق. فلما جاءا الدار ألقى التحية على أبيها. وقص عليه قصته. فطمأنه الشيخ بأنه قد نجا من فرعون وقومه. إذ لاسلطان لهم على أرض مدين فلن يستطيعوا له طلبا.

وطلبت الفتاة التى استدعته وهى الصغرى واسمها «صفورة» – وهى التى ستصبح زوجة موسى – وصفورة اسم مديانى معناه عصفورة – طلبت من أبيها أن يستأجره لأنه قوى أمين. ويروى أنها لما قالت ذلك سألها أبوها: ما أعلمك بقوته وأمانته؟ فذكرت أنه رفع الصخرة عن البئر لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال. وعن أمانته ذكرت أنه أمرها بالمشى وراءه. ولعل أبوها لمس فى حديثها ما ينم عن إعجابها به فرغب فى شىء أكثر دواما من الإجارة. كما أن وجود رجل غريب فى بيته أمر غير مستحب. لذلك قال له إنه يريد أن يزوجه إحدى ابنتيه فى نظير أن يخدمه فى رعى أغنامه ثمانى سنوات. وإذا أتم عشرا فذلك فضل من عنده فقبل موسى هذا الاتفاق. وقال إنه إذا أتم ثمانى سنوات فقد أوفى بما اتفقا عليه. وإذا أتم عشرا فليس فى هذا ظلم له أو جور عليه.

«قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين. قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج. فإن أتممت عشرا فمن عندك. وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين. قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىَّ والله على ما نقول وكيل».

(٢٦ – ٢٨ – القصص)

روى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال. أصدق النساء فراسة امرأتان كلتاهما تفرستا فى موسى فأصابتا. إحداهما امرأة فرعون حيث قالت **«قرة عين لى ولك لاتقتلوه»** والأخرى بنت شعيب حيث قالت **«يا أبت استأجره . إن خير من استأجرت القوى الأمين».**

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم سئل أى الأجلين قضى موسى قال أكملهما وأفضلهما. وفى رواية أخرى أوفاهما وأبرَّهما.

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال لى جبريل. يا محمد إن سألك اليهود أى الأجلين قضى موسى فقل أوفاهما. وإن سألوك أيهما تزوج فقل الصغرى.

من هذا يتضح أن موسى قد أمضى عشر سنوات فى مدين. ولما كان قد جاءها وعمره خمس وأربعون سنه فتكون سنه حين تركها هو خمس وخمسون سنة وهى سنه حين كلم فرعون.

تقول التوراة (إصحاح ٧ خروج : ٧) وكان موسى ابن ثمانين سنة. وهارون ابن ثلاث وثمانين سنة حين كلما فرعون. وهذا معناه أن موسى قضى فى أرض مدين خمسا وثلاثين سنة!! وهى مدة طويلة جداً لايستقيم أن يفكر موسى بعدها أن يعود إلى مصر. كما أنه لامعنى للبقاء فى مدين ٢٥ سنة زيادة عن المدة التى قرر القرآن الكريم أنهما قد اتفقا عليها. وترتب على ذلك أنهم قالوا بوفاة الفرعون وتولى آخر مكانه. إذ تقول التوراة (إصحاح ٢ خروج: ٢٣): «وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات. وتنهد بنو إسرائيل من العبودية

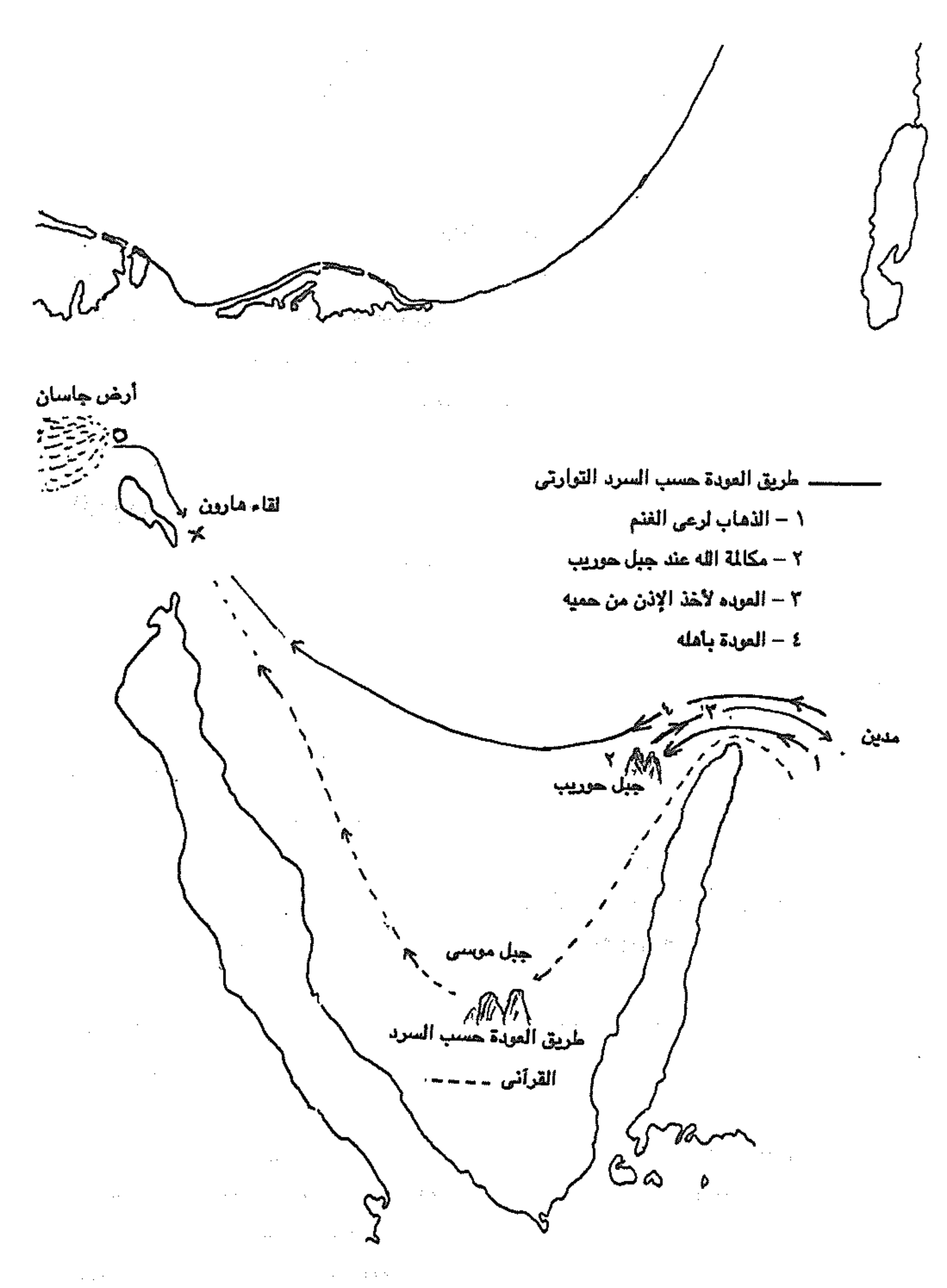
وصرخوا. فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية. فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب. ونظر الله بنى إسرائيل. وعلم الله». ولعل هذا ما جعل بعض الكتاب يقولون بفرعونين عاصرا موسى. وقد سبق أن أفضنا فى هذه النقطة من قبل (ص ٦٦٩).

نعود إلى موسى فى أرض مدين يرعى غنم حميه وتمضى عشر سنوات ولد له فيها ولدان سمى أحدهما جرشوم. لأنه قال كنت نزيلا فى أرض غريبة (خروج ١٨ : ٣) وجرشوم اسم عبرى معناه غريب وهو ابنه البكر. وسمى الثانى أليعازر لأنه قال إله أبى كان عونى وأنقذنى من سيف فرعون (بسبب قتله للمصرى) وأكمل موسى أوفى الأجلين – أى عشر سنوات – ثم استأذن حماه فى العودة إلى أهله وعشيرته فى مصر. بالطبع كان ذلك بإيحاء من الله سبحانه وتعالى – ليكون فى الطريق مبعثه وتكتمل له النبوة وتوكل إليه مهمة إخراج بنى إسرائيل من مصر.

الخروج من مدين :

تذكر التوراة ما يفهم منه أن هناك جبلين كلم الله موسى عليهما أحدهما جبل حوريب بجوار خليج العقبة والآخر جبل موسى المعروف فى جنوب سيناء (شكل ٢٢٠) فتقول (إصحاح ٣ خروج): وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان. فساق الغنم إلى وراء البرية إلى جبل الله حوريب. وظهر له ملاك الرب بلهيب من نار من وسط عليقة... وناداه الله من وسط العليقة موسى. موسى. فقال هأنذا. فقال لاتقترب إلى ههنا. اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة.. ثم تستمر التوراة فى ذكر أن الله طلب من موسى أن يذهب إلى فرعون ويطلب منه إطلاق سراح بنى إسرائيل. وأراه الله آية العصا وآية اليد ليدلل بها أمام فرعون على صدق رسالته. ثم تقول: فمضى موسى ورجع إلى يثرون حميه وقال أنا أذهب وأرجع إلى إخوتى الذين فى مصر لأرى هل هم بعد أحياء. فقال يثرون لموسى اذهب بسلام. وقال الرب لموسى فى مديان. اذهب ارجع إلى مصر. من هذا نفهم أن جبل حوريب كان على مسافة قصيرة من الطرف الشمالى لخليج العقبة. إذ ساق موسى إليه الغنم. ثم رجع فى المساء إلى أرض مدين وطلب من حميه السماح له بالعودة إلى مصر.

وتجمع كل الكتب على أن جبل حوريب هو نفسه جبل سيناء الذى هو جبل موسى فى وسط سيناء. فيقول قاموس الكتاب المقدس (ص ٤٩٨): جبل سيناء يطلق عيه أيضا جبل حوريب. ويذكر الكتاب المقدس برية سيناء وجبل سيناء ٣٥ مرة وفى ١٧ مرة تسمى حوريب. ويقول تفسير الكتاب المقدس (جاميسون وفاوست. ص ٧٥)، وكلمة حوريب تشير إلى الصحراء الواسعة قرب جبل سيناء. وجبل الله حوريب هو نفسه جبل سيناء. وهكذا يتبين لنا عدم صحة ماذكر من أن موسى – بعد أن كلّمه ربه – عاد مرة ثانية إلى أرض مدين ليستأذن حماه ويأخذ أهله ويعود إلى مصر.



شكل ٢٢٠ – جبل موسى وجبل حوريب

والحق هو ما قرره القرآن الكريم من أنه بعد أن أمضى عشر سنوات استأذن حماه فى العودة لمصر وأخذ أهله معه وسار. وفى طريق العودة انحرف جنوبا فوصل إلى جبل سيناء.

«فلبثت سنين فى أهل مدين. ثم جئت على قدر يا موسى. واصطنعتك لنفسى».

(٤٠ - ٤١ - طه)

«فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا». (٢٩-القصص)

وقد ذكرنا (ص ٨٢٤) السبب الذى جعل موسى يحيد عن الطريق أثناء العودة. فعند قدومه من مصر متجها إلى أرض مدين كانت الشمس أمامه وإلى يساره قليلا وكان ذلك فى فصل الصيف. أما عودته فقد كانت فى الشتاء ولم يضع موسى فى الحسبان أن الشمس تتعامد على مدار الجدى ومدارها يميل بزاوية ٤٧° عن مدار الصيف. ولذلك انحرف فى اتجاه جنوب غرب. فوصل إلى جبل سينا فى الجنوب. والدليل أن عودته كانت شتاء هو قوله لأهله - إذ رأى النار - إنه سيحضر لهم جذوة من النار يستدفئون بها:

«إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا. سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون». (٧ - النمل)

«إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى». (١٠ - طه)

«فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا. فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر. أو جذوة من النار لعلكم تصطلون».

(٢٩ - القصص)

وقال لأهله إنى رأيت نارا. والمرء إذا كان فى صحراء موحشة ويرى نارا عن بعد فهو يأنس إليها ولذلك قيل اختصارا «**إنى آنست نارا**» والنار لابد قد أوقدها أناس يستدفئون بها ويلتفون حولها وبقربها لذلك قيل «**على النار**». كذلك قد تكون النار فى منخفض من الأرض ويجلس من يريد الاستدفاء بحيث يكون مشرفا عليها ليشعر أكثر بدفئها فيكون «**على النار**». وقد أثار بعض المستشرقين مسألة اختلاف التعبير. مرة بصيغة التأكيد: «**سآتيكم**» ومرة بصيغة التشكيك «**لعلى آتيكم**»... وفى رأينا أن ذلك تعبير عما كان يعتمل فى نفس موسى من مشاعر وأحاسيس. فهو يترك أهله وحدهم فى ظلمة الليل ويبعد عنهم. وعلى الأرجح أنهم لم يروا النار التى رآها. لأنها معجزة له وليست لهم فلا يراها إلا هو. وبالطبع ظنوا أنه أحدٌ منهم بصرا فرأى مالم يروا. نارا عن بعد. وأراد أن يبرِّر سبب تركه لهم وليزيدهم طمأنينة تحدث بصيغة التأكيد «**سآتيكم**» ليكون ذلك أدعى لاقتناعهم. ولكنه قدَّر أن القوم حول النار قد لا يكونون على دراية بمسالك الصحراء فعدل إلى صيغة الترجى: **لعلى آتيكم منها بخبر**.. وعلى كلٍّ فإن فاته الإرشاد إلى الطريق الصحيح فهو قد يأتى بشعلة يوقد بها نارا لأهله يستدفئون بها.

لقد ساقه الله إلى هذا المكان فى وسط سيناء بعيدا عن الطريق الذى تسلكه القوافل جيئة وذهابا بإبلها وروثها . فوصل إلى المنطقة المسماة «الطور» وفيها الجبل الذى سمى فيما بعد «جبل موسى». فلما رأى النار طلب من أهله أن يبقوا مكانهم «**امكثوا**» أما هو فسار حتى اقترب من النار فرأى عجبا. قال ابن عباس: إنه رأى شجرة أطافت بها من أسفلها إلى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون. فوقف متعجبا من شدة ضوئها وشدة خضرة الشجرة. فلا النار تغير خضرتها. ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوءها. وقيل إن الشجرة كانت عوسجة. وقيل كانت عليقة. وفى تلك الليلة المباركة كان التكليم وكان الاصطفاء.

وقد ذكر وارنركيللر (The Bible as History P. 133) أن بعض علماء الغرب حاول إيجاد تفسير علمى للنار التى رآها موسى عليه السلام كعادة بعض العلماء فى إرجاع المعجزات لظواهر «طبيعية». ويقول الدكتور هارولد مدير حديقة النباتات فى نيويورك كتفسير علمى لهذه الشجيرة التى كانت تتقد نارا ومع ذلك لاتحترق. إن هذه خاصية من خواص «نبات الغاز» واسمه العلمى Fraxinella وهو نبات يبلغ ارتفاع شجيراته ثلاثة أقدام وزهره له لون أرجوانى والنبات كله مغطى بغدد تفرز زيتا سريع التطاير بحيث يخرج من النبات كتيار مستمر. وإذا قُرب منه لهب اشتعل ولا يحترق النبات نفسه. عالم آخر فى عالم النبات (Smith) يرى أنها لم تكن نارا حقيقية وأن نبات لورانتس أكاسيا Loranthus Acaciae الذى ينمو فى سيناء وحينما يكون فى أوج فترة الإزهار فإن أزهاره الضاربة للحمرة تبدو للناظر كأنها نار! وهذا التفسير الأخير يمكن اعتباره من نوع اللامعقول. فشتان بين نار متأجِّجة وأزهار متألقة. وكيف تتألق الأزهار فى ظلمة الليل! أما التفسير الأول «نبات الغاز» فهو يؤدى إلى التساؤل عمَّن أشعله فى ليل الشتاء البارد إذ المؤكد أنه لم يكن اشتعالاً ذاتيا. وليس من إجابة سوى أنها إرادة الله هى التى أشعلته. ومادام الأمر مردُه إلى الله. فالنار يمكن أن تشتعل ولا نجهد أنفسنا فى إيجاد تفسير لها بغاز أو زيوت طيارة وخلافه. فهى معجزة من الله والمعجزة خرق لنواميس الطبيعة.

وكلَّم الله موسى تكليما :

«فلما جاءها. نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم». (٨ - ٩ النمل)

«فلما أتاها نودى من شاطىء الوادِ الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين». (٣٠ - القصص)

«وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا». (٥٢ - مريم)

«فلما أتاها نودى يا موسى. إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادِ المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى. إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنَّك عنها

من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى». (١١ - ١٦ - طه)

وروى عن ابن عباس أنها لم تكن نارا بل هى نور من نور الرب تبارك وتعالى وذكر ذلك بلفظ النار بناء على حسبان موسى عليه السلام. وإليه ذهب الماوردى (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٦٧). وقال سعيد بن جبير هى النار بعينها وهى إحدى حجب الله عز وجل واستدل بما روى عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: حجابه النار لوكشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه. ذكر الخازن أن الحديث أخرجه مسلم. قلنا إن موسى تعجَّب لِماَ رأى من حال هذه الشجرة واشتاق إلى أن يعرف ما وراءها فاقترب من النار. فسمع صوتاً يناديه. جاءه الصوت من الجانب الأيمن من الوادى.

«وناديناه من جانب الطور الأيمن». (٥٢ - مريم)

«نودى من شاطىء الوادِ الأيمن». (٣٠ - القصص)

قيل الجانب الأيمن بالنسبة لموسى أى من ناحية يمينه. أو يكون الأيمن بمعنى المُتَّصف باليمن والبركة فيكون صفة للشاطىء أو الوادى فى البقعة المباركة لما خصَّها الله تعالى من آيات وهى مباركة من أجل الشجرة.

سمع الصوت يخبره عما تساءلت به نفسه:

«يا موسى إنى أنا ربك». (١٢ - طه)

لاشك أن موسى لم يصدق أذنيه. ولعله قال فى نفسه أحقا أن الله يكلمه هو ويناديه؟ وجاءه الصوت مؤكداً:

«يا موس إنه أنا الله العزيز الحكيم». (٩ - النمل)

ثم مرة ثالثة قائلا

«أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين». (٣٠ - القصص)

هنا تأكد موسى أن الأمر حقيقة وأن من يخاطبه هو الله العزيز الحكيم رب العالمين. ثم جاءه الصوت - هذه المرة يأمره بأن يخلع نعليه **«فاخلع نعليك»**. ثم أُخبر بأن المكان الذى هو واقف فيه هو وادى طوى وهو أرض مقدَّسة **«إنك بالوادى المقدَّس طوى»**. واختُلف فى السبب الذى من أجله أُمر موس بخلع نعليه. قالوا هى متعلقة بما بعدها فقالوا إن النعلين كانا من جلد غير مُذكًّى فكانت نجسة. وقيل أُمر بذلك لتمس قدماه تربة الوادى فينال بركة الوادى المقدس. والأرجح أنها متعلقة بما قبلها أى «**أنى أنا ربك فاخلع نعليك**». للخشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى. بهذا قال على بن أبى طالب رضى الله عنه وغيره - قال سعيد بن جبير والعرف عند الملوك أن تُخلع النعال تعبيرا عن التواضع فكأن موسى أمر بذلك على هذا الوجه. ولايهم إن كانت نعلاه من ميتة أو غيرها (تفسير القرطبى جـ ١١. ص ١٧٣). ثم قيل له:

«أن بوُرك من فى النار ومن حولها». قالوا: بارك الله موسى وبارك البقعة كلها. بورك

موسى وكان قريبا من النار وكأنه لشدة قربه منها وصف بأنه فيها أى بورك من هو فى نور هذه النار. وبوركت البقعة التى حولها وهو وادى طوى المقدس. وقيل من فى النار موسى ومن حولها الملائكة.

وروى عن قتادة والزجاج أن المراد بـ «**من فى النار**» نور الله تعالى. وبـ «**من حولها**» الملائكة عليهم السلام. وعن ابن جرير عن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى «**أن بورك من النار**» يعنى تبارك وتعالى نفسه كان نور رب العالمين فى الشجرة ومن حولها يعنى الملائكة عليهم السلام. ويقول الألوسى إن الإمام وصف هذه الرواية عن ابن عباس أنها مختلقة. وقال أبو حيان: إذا ثبت ذلك عن ابن عباس فالكلام فيه حذف. أى بورك من قدرته وسلطانه فى النار. والصوفية تنزه الله سبحانه وتعالى عن التجسيم والعينية والاتحاد والحلول بمعنى التجلّى فى النار. ويقولون كون الشىء مجلًّى لشىء ليس كونه مَحلاً له. فإن الظاهر فى المرآة مثلا خارج عن المرآة. ومعنى الآية أن بورك أى قُدِّس من تجلَى فى صورة النار حتى يراها موسى. وقوله تعالى بعد ذلك «**وسبحان الله رب العالمين**» دفع لما قد يُتَوهَّم من التجلى فى مظهر النار من التشبيه. أى وسبحان الله وتنزه عن التقيد بالصورة والمكان والجهة.

هذه النظرة التنزيهية تختلف عما تَصوَّره كاتبو التوراة (إصحاح ٣ خروج : ٥): ناداه الله من وسط العليقة – وفى الفقرة ١٧: إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ظهر لى قائلا... إلا أن بعض مفسرى الكتاب المقدس (جاميسون وفاوست ص ٧٥) يخففون من هذه النظرة التجسيدية بقولهم إن النار ما هى إلا إشعار بالحضور الإلهى.

لاشك أن موسى أخذته الرهبة لَماَّ تأكد أن الله هو الذى يكلمه وإن سُرَّ فى قرارة نفسه لأن الله اختاره هو بالذات ليكلمه. وشعر بأن مهمة جليلة ستوكل إليه وفعلا جاءه الصوت قائلا:

«وأنا اخترتك. فاستمع لما يوحى». (١٣ – طـه)

كان موسى قد سمع بالنبوءة التى كانت تُتداول بين بنى إسرائيل من أن الله سيرسل لهم من يخلِّصهم من الذل الذى يسامونه فى مصر على يد فرعون. ولطالما تساءل – وهو يرى السياط تهوى على أجساد بنى إسرائيل – متى يرسل الله هذا المخلِّص؟ ولقد وطد فى نفسه العزم على أنه عند ظهور هذا المخلص. أن يكون أوَّل من يؤيده لرفع نير الظلم عن بنى إسرائيل. ولكن أن يكون هو نفسه هذا المخلِّص فهذا مالم يكن يتوقعه ولا دار بخلده. إنه تكريم ما بعده تكريم. وشرف لا يدانيه شرف!! ولم يدر موسى من أين يبدأ.

وجاءه الصوت ثانية موضحا له أن تكون البداية من نفسه أولا حتى يكون أهلا للمهمة التى سيكلف بها.

«إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى». (١٤ – طه)

كان قد مضى على عهد إبراهيم عليه السلام ستة أو سبعة قرون وعلى عهد يعقوب خمسة قرون تقريبا. وكانت تعاليم هذين النبيين الكريمين قد اندثرت أو كادت تندثر بين جموع بنى

إسرائيل إلا من فئة قليلة من سبط لاوى التى منها موسى عليه السلام. ظلت تتناقل مابقى من ديانة إبراهيم شفاهة – فكان أول أوامر الله لموسى هو أن يعبد الله «**اعبدنى**». وقد خُصَّت الصلاة بالذكر وأفردت بالأمر مع أنها تندرج تحت الأمر بالعبادة – لفضلها على سائر العبادات بما يتلى فيها من ذكر الله وعدم شغل القلب واللسان بغيره فيها. وفى غمار الحياة الدنيا وأحداثها ينسى الناس الحياة الآخرة ويوم الحساب. فكان تذكير بهما.

«إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى، وأقم الصلاة لذكرى، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى». (١٤-١٦-طه)

وعُبر عن الساعة بأنها آتية لأنها كائنة لا محالة. مع إخفاء وقتها عن الناس واستئثاره وحده سبحانه وتعالى بها لقوله «**إن الله عنده علم الساعة**». ثم جاء بيان لما سيكون فى يوم الساعة من حساب عن الأعمال. وتجزى كل نفس بما سعت فى دنياها إن خيرا فخير وإن شرا فشر. وفى هذا حث على الامتثال بالأمر بالعبادة وإقام الصلاة والإكثار من الطاعات وتجنب المعاصى. ثم جاء خطاب لموسى عليه السلام بعدم الإنصياع لمن يقوم بالصد عنها – عن الساعة – والتشكيك فى وقوعها لأن هؤلاء المشككين لا يؤمنون بها. ويتبعون ما تهواه أنفسهم من اللذات الحسية. وتحذير له من أنه لو اتبع هؤلاء المشككين كان فيه هلاكه «**فتردى**».

توقف موسى هنيهة يفكر. لقد كان الرسل قبله يوحى إليهم بمراد الله يقظة أو مناما فقد علم أن جده إبراهيم عليه السلام أوحى إليه فى المنام رؤيا صادقة أن يذبح ابنه. كذلك كان الله يرسل ملائكة لتبليغ مراده. فقد جاءت الرسل إبراهيم – جده – بالبشرى بالولد. ولم يؤثر أن الله قد كلم أحداً من البشر. فكيف يتأتى له أن يكون كليم الله!! وتتابعت الأفكار فى ذهنه. كيف سيصدقه بنو إسرائيل إن أخبرهم أن الله قد كلمه. بل وكيف سيصدقه فرعون إن أخبره بذلك؟

وعلم الله ما يعتمل فى صدر موسى من أن القوم سيكذبونه وسيطالبون ببرهان على قوله إنه مبلِّغ عن رب العالمين. فلم يشأ الله أن يذهب رسوله – موسى – دون أن يكون مؤيَّدا بمعجزة تكون برهانا مؤكدا ودليلاً قاطعا على أن ما يقول به هو من عند الله.

سأل الله سبحانه وتعالى موسى عمّا فى يمينه. سؤال تقرير لا سؤال استفهام فالله أعلم بها. وأجاب موسى بأنها عصاه وراح يعدد منافعها. من أنه يتحامل عليها فى المشى والوقوف. ويهشُ بها أى يخبط بها ورق الشجر ويضربه ليسقط على غنمه فتأكله ثم أجملَ باقى المنافع فى «مآرب أخرى».

«وما تلك بيمينك يا موس قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى». (١٧ – ١٨ – طه)

قالوا كان عليه السلام يلقيها على عاتقه يعلق بها مخلاته وثوبه وزاده. وإذا كان فى البرية

ركزها وألقى فوقها كساء واستظل بها كما كان يتقى بها الهوام والوحوش. ومن الموضوعات فى هذا الشأن – ولاشك أنه من زيادات أهل الكتاب – قولهم إنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر. وإذا ظهر عدو حاربت عنه. وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت كما كانت تحدثه وتؤنسه. وغير ذلك مما نسبوه – زورا – إلى ابن عباس (تفسير الألوسى. جـ ١٦ ص ١٧٦) ولو كان قد لمس فيها هذه الأعاجيب. لما خاف حين انقلبت حية بإذن الله. ذلك أن الله أمره أن يلقيها.

«قال ألقها يا موسى. فألقاها فإذا هى حية تسعى. قال خذها ولاتخف سنعيدها سيرتها الأولى». (١٩ – ٢١ – طه)

«وألق عصاك. فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يُعقِّب. يا موسى لاتخف إنى لايخاف لدى المرسلون». (١٠ – النمل)

«وأن ألق عصاك. فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولاتخف. إنك من الآمنين». (٣١ – القصص)

وهكذا تجلت قدرة الله أمام موسى. إذ انقلبت العصا – وهى جماد لا حياة فيها – انقلبت إلى حية. شُبِّهت فى خفة حركتها بالجان. كما أن من معانى الجان الحية الصغيرة. وشبهت العصا – بعد أن انقلبت حية كبيرة – بصغار الحيات السريعة الحركة. لم يكن موسى عليه السلام حين ألقى العصا يتوقع هذا التحول فيها. فبُهت. وخاف. وجرى مبتعدا عنها مدبرا ولم يرجع على عقبه ليتمعن فيها. فناداه ربه عز وجل. أن أقبل وارجع يا موسى. ولاتخف. إنك من الآمنين. والمرسلون لايخافون إلاّ من الله سبحانه وتعالى. ثم أمره الله أن يمسك بالحية فعادت عصا كما كانت. وفى رواية الإمام أحمد عن وهب أنه لما أمره الله تعالى بأخذها أدنى طرف مدرعة من صوف على يده. فقال له ملَك: أرأيت يا موسى لو أذن الله تعالى بما تحاذر أكانت المدرعة تغنى عنك شيئاً؟ قال لا ولكنى ضعيف ومن ضعف خلقت. فكشف عن يده ثم أمسك بالحية من فمها فعادت عصا كما كانت (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٧٨). وكانت هذه تجربة عملية ليكون على طمأنينة من أمره ولا يعتريه خوف عند محاجة فرعون وإظهار هذه الآية أمامه.

وشاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يُزوِّد موسى بآية أخرى.

«واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى. لنريك من آياتنا الكبرى». (٢٢ – ٢٣ – طه)

«وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء». (١٢ – النمل)

«اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء. واضمم إليك جناحك من الرهب». (٣٢ – القصص)

وكانت الآية الثانية أن الله أمره أن يدخل يده فى جيبه أى فتحة الجبة العليا حيث تخرج

الرأس – لا ما يوضع فيه الدراهم ونحوها كما هو معروف الآن إذ لم يكن ذلك معروفا على أيامهم – وخرجت يد موسى عليه السلام بيضاء، وكان بياض الجلد يعنى البَرصْ. وخاف موسى وأخذته رهبة. فطمأنه سبحانه وتعالى بقوله «**من غير سوء**» ثم أمره أن يضم عضده وذراعه – وهو الجناح – إلى جنبه فذلك كفيل بإزالة الرهبة والخوف اللذان تملكانه أو أن المراد بضم الجناح هو التجلد وضبط النفس لأن الطائر إذا خاف نشر جناحيه وعند الاطمئنان فجناحاه مضمومتان. «**لنريك من آياتنا الكبرى**». وهكذا أراه الله سبحانه وتعالى هاتين الآيتين، وكانتا بعضا من آيات الله الكثيرة والكبيرة. واطمأن موسى عليه السلام إلى أنه يستطيع التدليل على أنه مبلِّغ عن ربه.

«**فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين**». (٣٢–القصص)

وعلم موسى أن هاتين الآيتين هما البرهان على أنه مرسل من ربه. وإذا حاجَّه فرعون فإن عليه أن يجريهما أمامه. بعد ذلك كان الأمر بالذهاب إلى فرعون

«**اذهب إلى فرعون إنه طغى**». (٢٤–طه)

«**وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين. قوم فرعون ألا يتقون**».

(١٠ – ١١ – الشعراء)

ثم أوضح الله سبحانه وتعالى لموسى ما يقوله لفرعون.

«**اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى**». (١٧–١٩–النازعات)

فكان أول ما يبدأ به موسى حديثه إلى فرعون هو دعوته إلى الإيمان بالله ليتزكى ويتطهر من رجس الكفر وذنب الطغيان. والسبيل إلى ذلك هو أن يعرف الله حق معرفته فتكون الخشية منه. ووضع ذلك فى صيغة الاستفهام تلطفا فى الدعوة.

أدرك موسى جسامة المهمة التى وكلت إليه وعظم المسئولية التى ألقيت على عاتقه. وأشفق أن لايستطيع القيام بها. ورغبة منه فى إنجاز ما كلف به على الوجه الأكمل بدأ يبحث عن نقاط الضعف فى موقفه ليعمل على علاجها بمعونة من الله سبحانه وتعالى. وأدرك أن هناك نقطتا ضعف:

١ – أول هذه النقاط :

«**قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون**». (٣٣–القصص)

«**ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون**». (١٤ – الشعراء)

أكان موسى يخاف الموت؟ كلا. فهو نبى ورسول ويعرف أن الموت حق على كل بنى البشر. ويعلم أنه إن قتل وهو يؤدى مهمته هذه فقد وقع أجره على الله. ولكنه كان حريصا على ألا يقتل ليكمل مهمته ولتكون له الدرجات العلا جزاء على إتمام ما أُمِرَ به. من هنا كان حرصه.

ومن هنا كان الخوف من أن يجهل عليه قوم فرعون فيقتلوه.

٢ - ثانى نقاط الضعف التى لمسها موسى عليه السلام فى موقفه هو ما كان أصابه من اللثغ - قيل حين عرض عليه التمرة والجمرة فأخذ الجمرة ووضعها على لسانه كما سبق أن ذكرنا (ص ٨١٢) وأدرك أن هذا الأمر قد يعوقه عن أداء مهمته إذ أن إقناع الفرعون مهمة شاقة تحتاج إلى قوة بيان وفصاحة لسان وسعة صدر لدحض ما يتقوّل به من ألوهية وما يفعله من طغيان.

«قال رب إنى أخاف أن يكذبون. ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى».

(١٢ - ١٣ الشعراء)

وهنا طلب موسى عليه السلام من الله. علاجا لهذا الأمر:

«قال رب اشرح لى صدرى. ويسر لى أمرى. واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى». (٢٥-٢٨-طه)

طلب من الله أن يشرح صدره. ويهبه الصدر الفسيح ويجعله حليما حمولا يتحمل ماقد يتفوه به فرعون من أقوال. إذ كان رمسيس الثانى أكثر الفراعين تجبرا. وأشدهم طغيانا وفى ذكر كلمة **«لى»** مع انتظام الكلام بدونها تأكيد لطلب الشرح والتيسيركما أن فيها دلالة على أن منفعة شرح الصدر وتيسير الأمر راجعة إلى موسى عليه السلام (تفسير الألوسى . جـ ١٦. ص ١٨٢). كذلك طلب موسى أن يحلل الله بعضا من عقدة لسانه - لأن «من» للتبعيض. ولم يطلب زوالها كلية بل طلب شفاء جزء منها حتى يستطيع القوم أن يقتنعوا بما يريد قوله. وإلا فإن موسى قد تربى فى القصر وكان الجميع يفهمون كلامه مع وجود هذه اللثغة. ولكن مقارعة الحجة بالحجة والرد على الاعتراضات يستدعى طلاقة لسان وفصح بيان. بعضهم قال إنه لم يكن هناك عيب فى النطق عند موسى. وكل ما فى الأمر أنه إذ تربى فى قصر فرعون فكان يعرف اللغة المصرية ولا يعرف لغة بنى إسرائيل (المستشار محمد سعيد عشماوى ٦ أكتوبر عدد ١٠٩٧ ص ٣٠) وهذا مردود عليه بأنه أمضى فترة الرضاع وهى سنتان. فى حجر أمه فتعلم أساسيات لغتهم. ثم كان فى قصر فرعون حتى سن الخامسة عشرة فأجاد لغة المصريين. ثم لما علم أنه من بنى إسرائيل عاد إليهم وبقى فيهم إلى أن قتل المصرى فى سن الخامسة والأربعين وعليه فإن موسى عليه السلام كان يجيد اللغتين المصرية ولغة بنى إسرائيل وحتى لو سلمنا بأنه لايعرف لغة بنى إسرائيل فإنه عند مقابلته لفرعون لن يخاطبه إلا باللغة المصرية التى يجيدها بحكم تربيته فى قصر فرعون. أما هارون فإنه حتى لو عرف شيئا من اللغة المصرية بحكم معاملاته مع المصريين فإنه لن يجيدها مثل من تربى فى وسطها. وعليه نرى أن موسى عليه السلام كان به لثغة فى لسانه كما كان صدره يضيق فيتلجلج فى الكلام. ولذلك قال فرعون - فيما بعد - يستهزىء به:

«أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين». (٥٢ - الزخرف)

ولهذا السبب طلب موسى من الله سبحانه وتعالى – علاجا لهذا الأمر – أن يجعل له من هارون أخيه معاونا فى تحمل أعباء ما كلف به أى يكون وزيرا له. ويحمل عنه جزءاً من الحمل الثقيل الذى ألقى على عاتقه. ويُسَمَّى مستشار الملك وزيراً لأنه يحمل عن الملك بعض أعباء الحكم والملك يلتجىء إليه لمشورة الرأى فقال:

«واجعل لى وزيرا من أهلى. هارون أخى. أشدد به أزرى. وأشركه فى أمرى. كى نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا. إنك كنت بنا بصيرا». (٢٩ – ٣٥ – طه)

«قال رب إنى أخاف أن يكذبون. ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون». (١٢ – ١٣ – الشعراء)

«وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون». (٣٤ – القصص)

عن هذا المعنى تقول التوراة (إصحاح ٤ خروج : ١٠) : فقال موسى للرب. استمع أيها السيد. لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا منذ أول أمس ولا من حين كلمت عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان. فقال له الرب من صنع للإنسان فماً أو من يصنع أخرس أو أصم أو بصير أو أعمى. أما هو أنا الرب؟ فالآن اذهب وأنا أكون فى فمك وأُعلِّمك ما تتكلم به. فقال استمع أيها السيد: أرسل بيد من ترسل! فحمى غضب الرب على موسى وقال أليس هارون اللاوى أخاك. أنا أعلم أنه هو يتكلم. وأيضا هو خارج لاستقبالك. فحينما يراك يفرح قلبه. فتكلمه وتضع الكلمات فى فمه. وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأعلمكما ماذا تصنعان. وهو يكلم الشعب عنك وهو يكون لك فما.

واستجاب الله لطلب موسى:

«قال قد أوتيت سؤلك يا موسى». (٣٦ – طه)

«ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا». (٥٣ – مريم)

«قال سنشد عضدك بأخيك. ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما. بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون». (٣٥ – القصص)

«اذهب أنت وأخوك بآياتى. ولا تنيا فى ذكرى. إذهبا إلى فرعون إنه طغى».

(٤٢ – ٤٣ – طه)

وهكذا أصبح هرون نبيا وأشركه الله فيما أُمِرَ به موسى من الذهاب إلى فرعون ودعوته إلى عبادة الله وتخليص بنى إسرائيل من استعباده لهم. كان هارون بمصر. ولا ندرى إن كان قد أوحى إليه بنبوَّته أم سيكون ذلك بإخبار موسى له – عند لقائهما – أنه قد أشرك معه فى النبوة. كما أُشرك معه فى مهمة إبلاغ الفرعون أوامر الله له.

«ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا. فقلنا اذهبا إلى القوم

الذين كذبوا بآياتنا». (٣٥ – ٣٦ –الفرقان)

«ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا». (٧٥–يونس)

«ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه».

٤٥ – ٤٦ – المؤمنون)

ثم قال الله عز وجل لزيادة طمأنينة موسى وإزاله الخوف من قلبه من أن فرعون قد يطغى عليه فيقتله – أن الله سيكون معهما فى كل لحظة ومستمع لكل ما يقولانه – هو وأخوه – لفرعون وكذلك كل ما يقوله الفرعون لهما

«قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون. فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين». (١٥–١٦ –الشعراء)

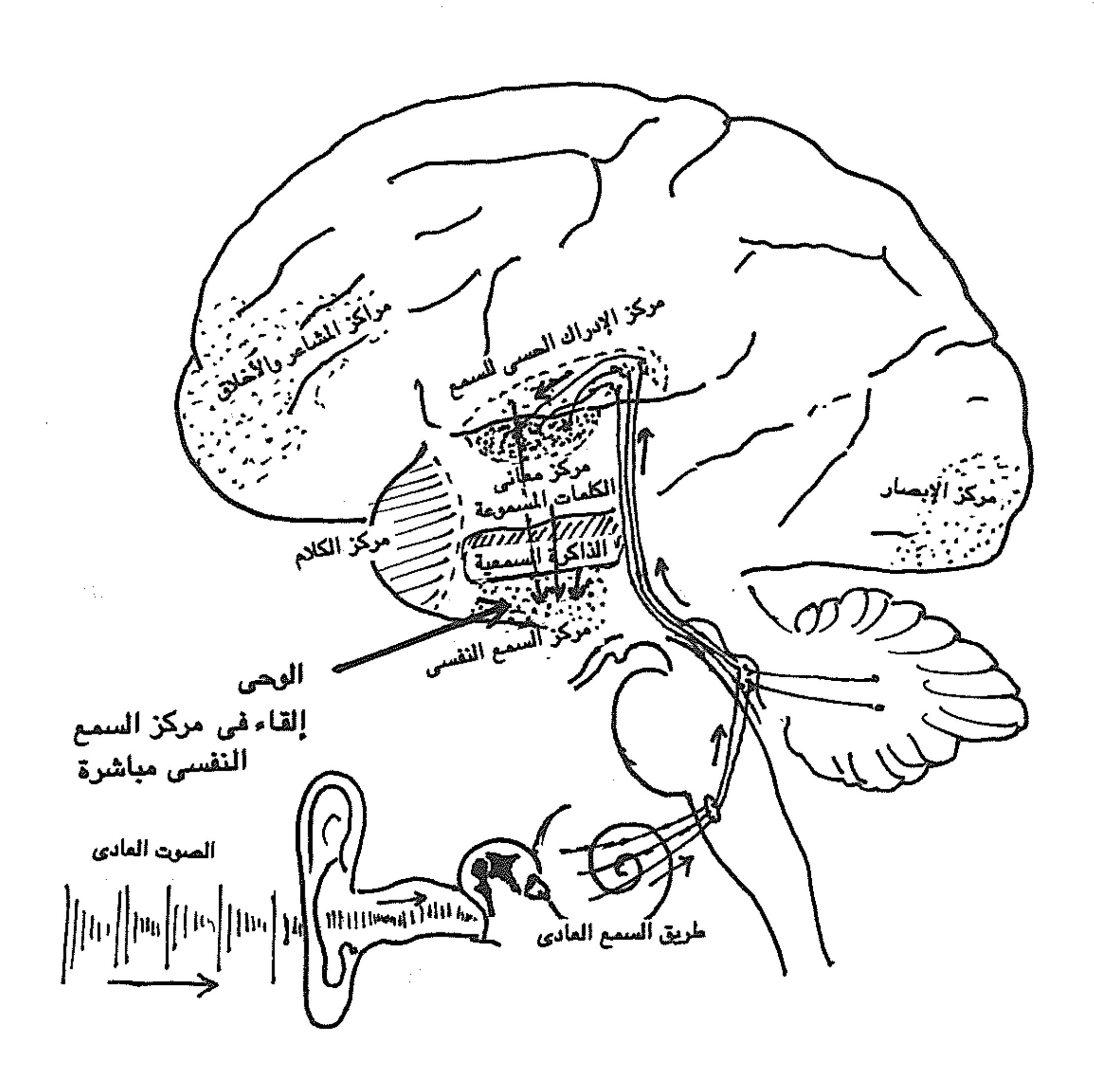
قيل إنا معكم بالجمع مع أنه قد قيل قبلها فاذهبا – إما تعظيما لشأنهما فخوطبا مخاطبة الجمع – أو جمع معهما فرعون. فى حين أفرد لفظ رسول «إنا رسول» إما لاتحادهما للأخوة كأنهما فرد واحد أو لوحدة المرسل به أو أن «رسول» مصدر كما يقال رجل عدل ورجال عدل. وقيل أيضا إن فيه إشارة إلى أن كلا منهما مأمور بتبليغ ذلك ولو كان منفردا. ولذلك جاء فى سورة الأعراف أنهما لما ذهبا لمقابلة الفرعون. وكان موسى هو المتكلم قال:

«وقال موسى: يا فرعون إنى رسول من رب العالمين. حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق». (١٠٤ – ١٠٥ – الأعراف)

كليم الله :

يحسن بنا أن نتوقف هنا قليلا ونفكر. أكان كلام الله لموسى عليه السلام صوتا وذبذبات فى الهواء كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة. بالطبع لا. فقد نودى موسى بغير صوت. أى كلام بغير صوت. وقد يعجب البعض كيف يكون الكلام بغير صوت؟

ولشرح هذا نوضح كيف يسمع الإنسان (شكل ٢٢١). فى الأحوال العادية يكون هناك مصدر صوت إما شخص آخر يتكلم أو أى مصدر صوت ينتج عنه ذبذبات فى ذرات الهواء عبارة عن موجات تضاغط وتخلخل متتابعة تنتقل فى الهواء حتى تصل إلى طبلة الأذن فتحركها وتتحرك عظيمات السمع ويتولد فى القوقعة السمعية تيار كهربى على هيئة نبضات. ويسرى التيار فى العصب السمعى وفى المسارات السمعية حتى يصل إلى مراكز السمع فى المخ. أولها مركز الإدراك الحسِّى للصوت. وهذا يربط بين ما سُمع من قبل ومعناه ويخزنه فى الذاكرة السمعية التى تَختزن الأصوات ومعانيها وتسجلها على ألياف عصبية هى أشبه بشرائط الكاسيت. ويعى المخ معنى الصوت ويفهم معناه. ويسجله فى مركز السمع النفسى Psycho - auditory ويمكننا أن نجيب عندئذ عن السؤال. كيف يكون كلام بغير صوت؟ ذلك أننا لو عملنا تنبيها بتيار كهربى أو بأى وسيلة أخرى لخلايا المخ فى المنطقة المعروفة بمركز السمع



شكل ٢٢١ – الأذن ومراكز السمع فى المخ.

النفسى. يحسُّ الشخص بسمع تماما كما لو كان التنبيه قد حدث من صوت فِعلى بجوار الأذن ونفس الشىء لو نبهنا مركز الإبصار بتيار كهربائى لأحس الشخص بومضة ضوء بالرغم من عدم وجود ضوء فعلى.

والمرجح أن الوحى يكون بطبع الكلام مباشرة فى مراكز السمع العليا. وهذا يفسر كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه وهو بين أصحابه دون أن يسمعوا شيئا مما يوحى به إليه. فعن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحى؟ قال: أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس - وهو الصوت القوى - وهو أشَدُّه علىَّ - فيفصم عنى وقد وعيت ما قال. وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا يكلمنى فأعى ما يقول. (البداية والنهاية لابن كثير. جـ ٣ ص ٢٠). وهذه الحالة الأخيرة - تمثل الملك فى هيئة بشرية لاتسمى وحيا - إذ تسرى على الملك وقتئذ قوانين البشر فيكون كلامه بذبذبات فى الهواء يسمعه كل الموجودين - مثلما تمثل جبريل عليه السلام فى صورة شيخ مهيب وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه وسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان وكلما أجاب يقول الشيخ صدقت. ولما تعجب الصحابة من هذا الشيخ الذى يسأل ثم يقول صدقت. قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: ذاك جبريل جاء يعلمكم من أمر دينكم. لكن ذلك ليس هو ما نحن بصدده - إذ الوحى إلقاء فى مراكز الإدراك مباشرة دون المرور بطريق الحواس فإن كان إلقاء فى المركز السمعى. سمع النبى أو الرسول ما يوحى إليه دون أن يسمع غيره وإن كان الإلقاء فى المركز البصرى رأى دون أن يرى المحيطين به ما يراه. وهكذا كان حال جبريل عليه السلم إذا نزل بالوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم. قال ابن عباس: نزل جبريل عليه السلام على كل نبى فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وزكريا عليهم السلام. فأما غيرهم فكان إلقاء فى القلب أو الإدراك سواء كان فى اليقظة أو فى المنام. ثم نأتى إلى درجة أقل من هذه كلها وهى الإلهام. فإن إيحاء أم موسى كان إلهاما وإن عبر عنه القرآن الكريم بالايحاء بقوله تعالى: «وأوحينا إلى أم موسى». وقيل كان فى المنام وقال آخرون كان بملَك تمثل لها.

وقد جاء اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: إن موسى لم ينظر إليه ونزل قوله تعالى:

«وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىٌّ حكيم». (٥١ - الشورى)

فتكليم الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام كان من وراء حجاب وقال الألوسى (تفسيره. جـ ٢٥ ص ٥٤) هو إسماع الكلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه. وليس لنا

أن نبحث فى ماهية الحجاب. فهو غيب. وعلينا أن نؤمن به دون أن نبحث فى ماهيته.

«وكلّم الله موسى تكليما». (١٦٤ - النساء)

على أن ما ألقى إلى موسى عليه السلام لم يكن كله بطريق التكليم. بل كان جبريل عليه السلام ينزل عليه أيضا بمراد الله. ومما لاشك فيه أيضا أنه كان يوحى إليه فى المنام. فكان أن أوحى إليه بالطرق الثلاث التى بينتها الآية من سورة الشورى السابق ذكرها.

التكليف :

كانت المهام التى كُلِّف بها موسى وهارون عليهما السلام تتلخص فى ثلاثة أمور :

١ - دعوة فرعون إلى الإيمان بالله

«اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى». (١٧-١٩-النازعات)

٢ - تجديد إيمان بنى إسرائيل :

«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله. إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور». (٥ - ابراهيم)

إذ أن بنى إسرائيل لطول معايشتهم ومخالطتهم للمصريين وما كانوا يرونه من طقوس فى المعابد وما فيها من تماثيل كانوا قد تأثروا بذلك فلم تعد عقيدتهم خالصة كالحنيفية التى جاء بها الجد الأكبر إبراهيم عليه السلام. ولا ما أوصاهم به جدهم يعقوب قبل وفاته:

«أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق. إلها واحدا ونحن له مسلمون». (١٣٣ - البقرة)

ولكن بعد فترة من الزمن بدأ بنو إسرائيل ينحرفون عن الدين القويم. وبدأوا يقدسون بعض آلهة المصريين وخاصة العجل أبيس.

٣ - دعوة فرعون لإطلاق سراح بنى إسرائيل والكف عن تعذيبهم.

«فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بنى إسرائيل».

(١٦ - ١٧ - الشعراء)

«فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم». (٤٧-طه)

وكما سبق أن أوضحنا أن الفراعين كانوا لا يسمحون لبنى إسرائيل بالخروج من مصر فكان تكليف موسى **أن يخرج ببنى إسرائيل من مصر إلى أرض كنعان** ووعدهم الله بأن يثبت الله أقدامهم فى هذه الأرض ويمكنهم منها بحيث يصبحون هم الوارثين للنفوذ المصرى فيها

ويرى فرعون وجنوده وشعبه أن ما كانوا يحذرونه من نبوءة قد تحقق.

«ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون». (٥ - ٦ القصص)

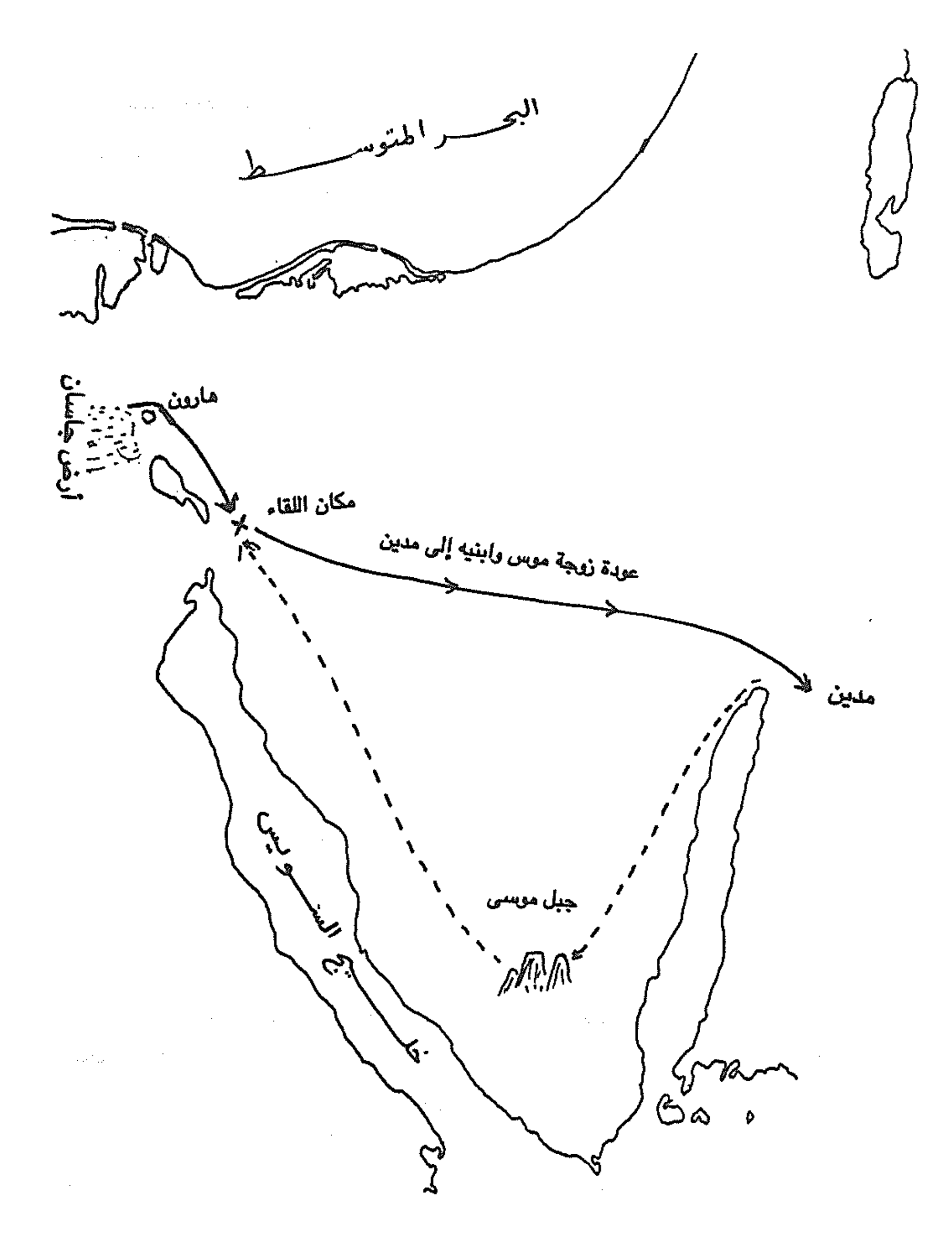
العودة إلى مصر :

عاد موسى إلى أهله - زوجته وولديه بعد أن كلمه ربه. ومن الضرورى أنه أخبرهم بأن الله قد اختاره نبيا ورسولا إلى فرعون. ولاشك أن زوجته أشفقت عليه من عظم المهمة. وكان اعتقادها أنهم يرجعون إلى مصر ويدخلونها فى هدوء وخفية حتى لا يدرى به فرعون فيطلبه للقصاص منه لما حدث من قتل المصرى قبل عشر سنوات. ولكن أن يعود ويطلب من فرعون علانية أن يؤمن بالله وأن يطلق سراح بنى إسرائيل. فذلك - كما نقول فى عصرنا - كمن يضع رأسه بين فكى الأسد!!

تقول التوراة (إصحاح ٤ خروج: ٢٤) إن موسى كان قد نسى أن يختن ابنه فأمرضه الله مرضا شديدا جزاء له على إهمال أمر من أوامر الله. يقول أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس. فرنس دافدس. جـ ١ ص ٢٢٢) إن الله أراد أن يُعلم موسى الطاعة المطلقة بهذه الحادثة. وأخذت زوجته صفورة قطعة حادة من حجر الصوان وقطعت غرلة ابنها أى اختتنته.

ويقول أهل الكتاب إن موسى بعد هذه الحادثة أعاد زوجته وولديه إلى حميه فى مدين. ولكننا نستعبد إرسالهم فى ذلك الوقت لأنه لم يكن ليرسلهم وحدهم وليس هناك من أحد يرافقهم. ونرى أنهم بقوا معه وسار موسى فى اتجاه شمال غرب حتى وصل إلى الطرف الشمالى لخليج السويس. وكان هارون قد خرج للقائه - إذ لاشك أن الله قد أَوْحىَ إليه بذلك - وكان مع هارون مرافق أو أكثر فكلف موسى أحدهم بتوصيل زوجته وابنيه إلى حميه فى مدين حتى لايشغلوه عما هو مقدم عليه. كذلك فإن جَهَل عليه فرعون وزجٍ به فى السجن أو قتله كانوا فى أمان. وبعد أن ودعهم عاد هو مع هارون إلى أرض جاسان (شكل ٢٢٢).

وتقول التوراة (خروج ٤ : ٢٧) وقال الرب لهارون اذهب إلى البرية لاستقبال موسى. فذهب والتقاه فى جبل الله وهم يقصدون جبل حوريب وسواء كانوا يقصدون أن جبل حوريب مكانه أحد الموضعين الموضحين فى شكل ٢٢٠ ص ٨٣٠. فما نراه هو أن مكان اللقاء كان عند الطرف الشمالى لخليج السويس. وتستمر التوراة قائلة. فأخبر موسى هارون بجميع كلام الرب الذى أرسله وبكل الآيات التى أوصاه بها. ثم مضى موسى وهارون وجمعا جميع شيوخ بنى إسرائيل فتكلم هارون بجميع الكلام الذى كلم الرب موسى به وصنع الآيات أمام عيون الشعب فآمن الشعب. ولا نظن أن موسى عليه السلام قد أجرى معجزتى العصا واليد أمام جموع بنى إسرائيل إذ أن بنى إسرائيل لم يكونوا فى حاجة إلى معجزة ليؤمنوا بموسى فقد كانوا فى تشوق إلى من يتزعمهم ويخلصهم من تسخير فرعون لهم. وكانوا قد التفوا حوله قبل



شكل ٢٢٢ – عودة موسى من مدين إلى مصر.

فراره إلى أرض مدين. وكان يكفى عودته وإخبارهم بأنه مرسل من ربه ليخلصهم من فرعون حتى يلتفوا حوله ثانية دون أن يطالبوه بمعجزة كدليل على صدق قوله.

ولا بأس أن نتوقف هنا قليلا لنذكر لماذا كانت معجزات موسى عليه السلام من نوع العصا واليد السابق ذكرهما. والجواب أن المعجزات تكون دائما من نوع ما برع فيه القوم. فقوم صالح عليه السلام كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ويعرفون أن الصخر ليس بداخله حياة فكانت المعجزة أن أخرج لهم صالح من الصخرة ناقة. وكان العرب أهل فصاحة فكان القرآن الكريم معجزة فى لفظه ومعناه لايستطيع أحد أن يجاريه أو يباريه. وكان المصريون القدماء بارعين فى السحر وخوارق الأعمال فكانت معجزة موسى عليه السلام تحول العصا إلى حية. ولم يكن ذلك نوعا من السحر بل كان تحولا حقيقيا. والجماد تدب فيه الحياة بإذن من الله سبحانه وتعالى.

اللقاء الأول مع فرعون :

كان هذا اللقاء بين موسى وهارون عليهما السلام من ناحية وفرعون فى الناحية الأخرى - على جانب كبير من الأهمية لكل من الطرفين. وقد تم هذا اللقاء بعد احتفال رمسيس بالعيد الثلاثينى الحادى عشر احتفالا بمرور ٦١ عاماً فى الحكم. وكان عمره آنذاك قد بلغ ٨٤ عاما. ولعل مجىء اللقاء الأول بعد هذا الاحتفال الذى لم يحدث لأحد من الفراعين من قبل كان له أثر على ردود فعله تجاه دعوة موسى وهارون. وتقول التوراة (خروج ٧ : ٧) وكان موسى ابن ٨٠ سنة وهارون ابن ٨٣ سنة حين كلما فرعون. ذلك أنهم جعلوا المدة التى قضاها موسى فى مدين ٣٥ سنة وقد ناقشنا ذلك (ص ٨٢٨) وبالرجوع إلى جدول حياة موسى (ص ١١١٩) وفيها سنوات مدين ١٠ فقط حسب ما قرر القرآن الكريم يكون عمر موسى عليه السلام فى هذا اللقاء هو ٥٥ سنة وليس ثمانين سنة.

ويحسن بنا أن نتوقف قليلا لنشرح ماهية هذه **الأعياد الثلاثينية**.

فمنذ عصر الأسرات الأولى كانت تقام طقوس سحرية لتجديد قوة الملك الحاكم تسمى Heb-sed أو **احتفال سد** أو **اليوبيل**. وكان اليوبيل الأول يقام فى يوم الاحتفال الثلاثينى لتتويج الملك واعتلائه العرش. ثم يتكرر الاحتفال باليوبيل بعد ذلك كل ٣ سنوات. فاليوبيل الثانى يكون فى السنة ٣٣ من الحكم وفى الواقع يكون احتفالا بإتمام ٣٣ سنة فى الحكم. فيكون الاحتفال فى آخر السنة ومشتملا على أيام النسىء ويمتد إلى أول السنة التالية فاليوبيل الثانى الاحتفال به فى السنة ٣٤/٣٣ واليوبيل الثالث بمرور ٣٦ سنة والاحتفال به فى العام ٣٧/٣٦ وهكذا. ويقام الاحتفال فى منف حسب التقاليد. وكان الطابع الحقيقى لهذا العيد هو الإعادة الدورية لتمثيل توحيد مملكتى الشمال والجنوب فى مملكة واحدة على يد الملك مينا (نارمر). وكان الاحتفال يتم فى فناء يحتوى على عرشين كبيرين للملك تحت مظلة مقامة على سطح مرتفع

لكى يراه جميع الشعب. ويبدأ الاحتفال بأن يقدم الملك التقدمة للآلهة. ثم يسير إلى العرش المزدوج ويجلس على عرش مصر العليا (الصعيد) ويتم تتويجه عليه ويحمل الصولجان رمز السلطة الملكية ويتقدم الرعايا بالبركات والقرابين للآلهة. ثم ينتقل إلى عرش مصر السفلى (الوجه البحرى) وتعاد نفس الطقوس. وفى الختام توضع محفة أمام العرش يعتليها الملك ثم يُحمل فى موكب ضخم لزيارة هيكلى الإلهين حورس وست. ثم يطلق الملك أسهم النصر الأربعة فى الجهات الأصلية الأربعة لمحق أعدائه (الديانة المصرية القديمة. ياروسلاف تشرنى. ص ١٧٨).

وقد احتفل رمسيس الثانى بالعيد الثلاثينى أو اليوبيل الأول فى عام ١٢٦٢ ق.م. وكان عمره ٥٣ سنة وأقيم إحتفال فى منف حسب التقاليد وأناب عنه فى الاحتفال ابنه خعمواست وأعلنه وليا للعهد. إلا أن الاحتفال الفعلى تم فى مدينة بررعمسيس حيث كان يقيم رمسيس الثانى. وكان قد بنى صالة احتفالات فاخرة ذات أعمدة ضخمة ارتفاع الواحد ٣٥ قدما (حوالى ٥ر١١ مترا) وتم تزيينها بتماثيل الآلهة «بتاح – تاتنن» وإله الشمس «رع – آتوم» وأضاف رمسيس الثانى التماثيل التوأمية (أى تمثال يضمه هو وأحد الآلهة بصفته توأما للإله) وفى نفس الوقت الذى كانت الطقوس الرئيسية تقام فى بررعمسيس طبقا لرغبة الملك كانت تقام احتفالات أخرى فى المعابد الكبرى فى كل المدن وخاصة فى ممفيس لتأكيد ارتباط كهنة بتاح بهذه الاحتفالات. وكان الملوك يكتبون تمنيات ودعوات للآلهة أن تمنحهم ملايين اليوبيلات. إلا أنه فى الواقع فإن قلة من الملوك هى التى كانت تحكم أكثر من ٣٠ سنة. ومن ثم يتاح لها الاحتفال باليوبيل الأول ولكن رمسيس الثانى احتفل باليوبيلات التالية (الفرعون المنتصر. رمسيس الثانى – تأليف كتشن ص ١٧٨).

اليوبيل الأول : فى سنة ٣٠ من الحكم وعمره ٥٣ سنة. ١٢٦٢ ق . م
اليوبيل الثانى : فى سنة ٣٣ من الحكم وعمره ٥٦ سنة.
اليوبيل الثالث : فى سنة ٣٦ من الحكم وعمره ٥٩ سنة.
اليوبيل الرابع : فى سنة ٣٩ من الحكم وعمره ٦٢ سنة.
اليوبيل العاشر : فى سنة ٥٧ من الحكم وعمره ٨٠ سنة. ١٢٣٥ ق . م
اليوبيل الحادى عشر : فى سنة ٦٠ من الحكم وعمره ٨٣ سنة. ١٢٣٢ ق . م

وهو مالم يحدث لأى فرعون من قبله (ولا من بعده). ولعله ظن أن الآلهة قد استجابت لدعواته وأنه أصبح مخلداً مثل الآلهة نفسها.

وبالنسبة لموسى كان هذا اللقاء مُهِمًّا أيضا. ولعله كان يفكر. هل لا يزال فرعون يذكره. لقد تربى فى القصر حتى بلغ الخامسة عَشرة ولكن فرعون كان قليلا ما يكلمه أو يجالسه. ولما

وُجد له إخوه رآه يدللهم كثيرا ولا يلقى إليه أى انتباه، ثم عرف أنه من بنى إسرائيل وليس ابنا للفرعون وراح يبحث عن أبويه الحقيقيين وعرفهما وانضم إليهما وإلى عشيرته. وكان ما كان من قتله المصرى بدون قصد ثم هروبه إلى أرض مدين وها هو يعود بعد ١٠ سنوات وعمره يقرب من الخامسة والخمسين وشكله تغير كثيراً ولكن اللكنة فى لسانه لا تزال كما هى وتنم عليه. لاشك أن الفرعون سيعرفه. هل - كما نقول فى عصرنا - سقطت العقوبة بمضى المدة؟ أم لا يزال فرعون يحملها فى نفسه وبمجرد رؤيته سيأمر بالقبض عليه والقصاص منه.

«قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى. قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى». (٤٥-٤٦-طه)

أى أن يُعجِّل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى إتمام الكلام وإظهار المعجزة - من فَرَطَ إذا تقدم. والفارط المتقدم. وفرس فارط يسبق الخيل - وقال الله سبحان وتعالى أن لا يخافا شيئا مما ذكراه لأن الله معهما يسمع كلامه وكلامهما ويرى ما يفعله معهما. وسيكون الله معهما بحفظه ونصره وتأييده.

وقال القفال (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٩٦). يحتمل أن يكون ذلك مقابلة مع قولهم. **«إننا نخاف أن يفرط علينا»** ولا يسمع منا. فكان الرد أن الله معهما «يسمع» ويُسَخِّره للاستماع إليها. وقولهما «**أو أن يطغى**» بأن يقتلنا وفى مُقابِلِه «**وأرى**» أى أن الله يرى أفعاله فلا يتركه يفعل بهما ما يكرهانه.

«قال كلا فاذهبا بآياتنا. إنا معكم مستمعون». (١٥-الشعراء)

ويقول ابن كثير (تفسيره جـ ٣ ص ١٥٤) إن هذا معناه أن الله سيسمع ما يقولانه له وما يقوله لهما. وفى هذا دلالة على أنه لن يفعل شيئاً قبل أن يستمع إليهما.

من المؤكد أن فرعون كان يفكر. كيف يجرؤ موسى - بعد مافعله من قتل المصرى - أن يجئ ويطلب لقاءه. صحيح أن القتل حدث منذ عشر سنوات. ولكن ألا يخشى أن ينفذ عليه القصاص؟ لقد كان يمكنه أن يعود لزيارة أهله سرا ولكن أن يطلب مقابلتنا فهذه جرأة غير عادية. ولابد أن وراء هذه الجرأة سراً ما. وتشوق فرعون لمعرفة هذا السر. وهذا ما جعله لا يعجل بالعقوبة. ولعله كان يظن أن موسى جاء يعترف بذنبه ويطلب العفو من الفرعون فيكون فرعون فى موقف القوة وبدلاً من القصاص بالقتل يأمر مثلا بالسجن فينال رضا المصريين ورضا بنى إسرائيل أيضا وفى نفس الوقت قد باعد بينهم وبين «الزعيم» الذى بدأ يوحد صفوفهم ويشد أزرهم. كان اللقاء الأول هذا فى غاية الأهمية بالنسبة لفرعون إذ هو يريد سبر غور موسى ليعرف نواياه المستقبلية. كان فرعون واثقا كل الثقة من موقفه لذلك جعل اللقاء فى قاعة القصر الكبرى على مشهد من كل البلاط الملكى. الكهنة والوزراء والمستشارين وبطانته من المصريين ومن بعض مواليه من بنى إسرائيل الذين استمالهم بعطاياه وما خلع عليهم من

منح وما أقطعهم من أراضى وأملاك.

لاشك أن موسى وهارون عليهما السلام - عند دخولهم على الفرعون ألقيا عليه التحية اللائقة بمركزه امتثالا لقوله تعالى :

«فقولا له قولا لينا. لعله يتذكر أو يخشى». (٤٤ - طه)

إذ أن لين القول مما يكسر سورة العناد. ويلين قسوة الطغاة.

«اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى». (١٧ - ١٩ - النازعات)

وتظهر رقة الدعوة فى وضعها فى صيغة العرض والمشورة. وعن الحسن قالا له: إن لك ربا وإن لك معادا وإن بين يديك جنة ونارا فآمن بالله يدخلك الجنة ويقك عذاب النار (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٩٥). لانعرف بالتحديد إجابة فرعون على هذه الدعوة ولكن فى الغالب كانت إجابة دبلوماسية ليس فيها رفض صريح فتابعا قولهما بأنهما يملكان الدليل على صدق قولهما - معجزة من الله ربهم وربه. وأن السلامة من عذاب الدنيا والآخرة لمن يؤمن ويتبع الهدى. كما أن العذاب - الدنيوى والأخروى - من نصيب من يُكذِّب ويُعرض عن قبول دعوتهم هذه:

«قد جئناك بآية من ربك. والسلام على من اتبع الهدى. إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذَّب وتولَّى». (٤٧ - ٤٨ - طه)

كان من الواضح أن موسى هو صاحب الكلمة الأولى بالرغم من أنه قد تكلم بصيغة المثنى **«إنَّا رسولا ربك»** وقد أدرك فرعون أن هارون هو بمنزلة الوزير لموسى. لذلك فقد وجه الخطاب إلى موسى وحده قائلا:

«قال فمن ربكما يا موسى». (٤٩ - طه)

وأجاب موسى قائلا إن ربهما هو الذى خلق كل شيئ وأعطى كل شىء صورته وإمكانياته ومقَّومات حياته **ثم هدى** كل مخلوق للانتفاع بهذه الإمكانيات التى وهبت له لتستمر حياته وليستمر نوعه فلا ينقرض.

«قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى». (٥٠-طه)

بعضهم قال «**هدى**» أى أرشد أى دلل سبحانه وتعالى بذلك على وجوده وكرم عطائه. وأن من يتفكر فى دقائق الخلق يعلم أن لها صانعا (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ٢٠٢) وأنه هو الجدير بأن نعبده. ولم يشأ فرعون أن يسترسل موسى فى بيان آيات أخرى فى الكون واضح أنه لن يستطيع الإدعاء بأنه هو الذى صنعها أو أنه يمكنه الإتيان بمثلها. فعمل على أن يدير دفة الحديث إلى اتجاه آخر عله يستطيع أن يأخذ على موسى مأخذا. فسأله:

«قال فما بال القرون الأولى». (٥١ - طه)

معتقدا أنه من مقتضيات النبوة أن يكون عالما بكل شيء. ما يحدث حاليا وما حدث في الماضي أيضا. وظانا أن عجز موسى عن الجواب يقدح في ما يقوله من أنه رسول من رب العالمين. ولكن موسى عليه السلام فوّت عليه هذا المقصد وقال إن علم ذلك عند الله - علام الغيوب - وأنه رسول لا يعلم إلا ما يطلعه عليه ربه من الأمور المتعلقة بالرسالة. أما القرون الأولى وما حدث لهم فكل ذلك في كتاب عند الله. وهو اللوح المحفوظ. كل شيء مثبت بتفاصيله. وليس الإثبات في الكتاب لاحتمال خطأ أو نسيان من الله سبحانه وتعالى. بل لبيان مبلغ سابق علمه بالغيب وبكل ما يقع في هذا الكون.

ولعل فرعون كان يقصد أيضا بقوله «**فما بال القرون الأولى**» الاحتجاج بالأقوام الذين سبقوا ولم يعبدوا الله تعالى. ولعله يقصد أنهم لم يصبهم سوء أو عذاب - ردا على قول موسى «**وأن العذاب على من كذب وتولى**». فردَّ موسى أمرَ ذلك وحسابهم إلى الله سبحانه وتعالى. وأدرك موسى هدف فرعون الحقيقي من تغيير دقة الحديث بهذا الاعتراض بسؤاله عن القرون الأولى. فعاد موسى إلى سرد بعض الآيات الكونية التي تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى. فقال إن الله هو الذي جعل الأرض مبسوطة وهي حقيقة يلمسونها كل يوم ولذلك قال «**الذي جعل لكم الأرض مهداً**» وبعضهم قرأها «**مهادا**» أي مكانا تستقرون عليه وجعل لكم فيها طرقا وسبلا بين الجبال والوديان لتسيروا فيها. وكذلك هو الذي أنزل من السماء مطرا فأخرج به من النبات أزواجا ليتكاثر. وأخرج كذلك زرعا وثمارا مختلفة في الطعم واللون. وتختلف المنفعة بعضها يصلح للعباد وبعضها للبهائم وحتى ما تأكله الأنعام فإن فيها منفعة للإنسان ولذلك قيل «**أنعامكم**». وهذه الأمور فيها دلالات وبراهين لذوي العقول. ويسمى العقل نُهية لأنه ينهى عن اتباع الباطل وجمعه نهى. أي أن ذوي العقول السليمة يستدلون بهذه الآيات على قدرة الله ثم ذكرهم بأنهم خُلقوا من الأرض لأن آدم مخلوق منها. وسيعود البشر إليها بعد الموت وبلى الأجساد. ومنها يخرجون يوم القيامة للعرض والحساب.

«قال فما بال القرون الأولى. قال علمها عند ربي في كتاب. لا يضل ربي ولاينسى. الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا بها أزواجا من نبات شتى - كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى. منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى». (٥١-٥٥-طه)

لم يستطع فرعون الرد على ما قاله موسى. فهو لن يستطيع الادعاء بأنه هو الذي خلق الأرض أو أنه هو الذي ينزل المطر من السماء ولن يستطيع القول بأنه لا توجد حياة بعد الموت. فسكت. ولعله فكر. أهذا هو سبب مجيئهما إليه. لئن كان هذا هو السبب فما أسهل أن يتظاهر بمجاراتهما فيما يقولان. ولكن لابد من سبب آخر لمجيئهما! وفعلاً فإن موسى وهارون أفصحا عن المطلب الثاني كما أمرهما الله عز وجل:

«فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم». (٤٧-طه)

«فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بنى إسرائيل».

(١٦ - ١٧ - الشعراء)

وفكَّر فرعون فى نفسه: إذن فهذا هو مطلبهم. أن أسمح لهما بخروج بنى إسرائيل من مصر ليذهبوا إلى أرض فلسطين ويستوطنوها وتصبح لهم دولة هناك. فتخرج عن دائرة النفوذ المصرى. بل وتقف حائلاً دون امتداد النفوذ المصرى إلى باقى مناطق الشرق الأدنى!

واستعرض فرعون فى ذهنه لحظة التقاط موسى من النهر. واستحيائه كطلب زوجته فى وقت لم يكن لهما أبناء فتبنياه وتربى فى القصر. ولما بلغ الخامسة بدأت زوجاته ومحظياته يلدن البنين والبنات وزالت عنهم اللعنة فلا يموتون. وكبر ابنه من صلبه وعينه وليا للعهد. وعندئذ عرف موسى أنه ابن بالتبنى فراح يبحث عن أبويه الحقيقيين وعرف أنه من بنى إسرائيل فانضم إليهم. ثم كان ما كان من قتله المصرى وهربه من مصر لأرض مدين لفترة طالت إلى عشر سنوات. أفاق فرعون من تأملات الماضى. وتكلم يَمُنُّ على موسى:

«قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين». (١٨ - ١٩ - الشعراء)

قالوا: يقصد فرعون الكافرين بنعمتى حيث تربيت فى بيتى ثم قتلت رجلا من خاصتى. أو لعلَّه يقصد الكافرين بألوهية فرعون وهم بنو إسرائيل حيث كان موسى قد انضم إليهم. وهذا يتضمن تلميحا بأن القتل كان متعمدا. ورد موسى عليه السلام معترفا بما فعل من قتل المصرى. ولكنه صحَّح وصف الكافرين وقال بدله الضالين. وروى عن قتاده أنه قصد بهذا أن القتل كان غير متعمد واعترف موسى بأنه فر خوفا على حياته. وهذا يتضمن تلميحا بأن مثل هذا القتل الخطأ لو صدر من مصرى لما كان جزاؤه القتل. ولكنهم حكموا عليه بالقتل لأنه من الفئة المستعبدة. فالمن عليه بأنه لم ينفذ فيه القصاص هو فى حقيقية كأنه يمن عليه بأنه استعبد بنى إسرائيل ومن هنا كان الفرار خوفا من ظلم فرعون. ولذلك لما فرَّ منهم عوَّضه الله بأن أعطاه علما وحكما. وهما من خواص النبوة وفضلا عن ذلك جعله من المرسلين.

«قال فعلتها إذا وأنا من الضالين. ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين. وتلك نعمة تمنُّها على أن عبَّدت بنى إسرائيل».

(٢٠ - ٢٢ - الشعراء)

كان هدف فرعون أن يمن على موسى بأفضاله عليه فيجعله فى الموقف الأضعف فى المناقشة. وإذا بموسى يُذكِّر فرعون - بلطف - أنه حكم عليه بالقتل ظلما واستعبد بنى إسرائيل تعسُّفاً. فأراد فرعون أن يغير مجرى الحديث فعاد إلى الموضوع الأول وهو قول **«إنا رسول رب العالمين»**. فراح يجادل فى هذه المعلومة ظانا أن موسى قد يعجز عن التدليل عليها.

«قال فرعون : وما رب العالمين ؟ ». (٢٣ - الشعراء)

وكان جواب موسى أن قال لهم: هو رب السماوات والأرض وما بينهما . وإن كنتم موقنين بهذه الأشياء ومحققين لها فلابد أن تعرفوا أن لها خالقاً أو جدها . رأى فرعون أن الجواب مقنع، وسيعلق منه فى قلوب سامعيه تساؤل عمن خلق السماء والأرض وبالطبع لن يكون الجواب فى صالحه. فحاول الإقلال من شأن موسى ومن إجابته فقال لمن حوله «**ألا تستمعون**» يريد التعجب والإزدراء، وأن موسى لم يجب على السؤال، فلجأ موسى إلى مثال ألصق بهم فقال «**ربكم ورب آبائكم الأولين**». وهذا القول يتضمن نفيا لما يدعيه الفرعون من ألوهية إذ هو لم يخلقهم، ولم يخلق آباءهم وأجدادهم. فقد وُجدوا قبل أن يوجد فرعون.

«قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حوله ألا تستمعون. قال ربكم ورب آبائكم الأولين».

(٢٣ - ٢٦ - الشعراء)

وقال فرعون إن موسى «مجنون» حيث يُسأل عن شىء فيجيب بشىء آخر. وقيل: حيث اتخذ له ربا غير فرعون، ولم يشأ أن يقول إن الرسول الذى أرسل إلى بل قام «إليكم» فكأنه لا يعترف أصلا أنه مرسل إليه فعاد موسى يؤكد أن الله هو رب المشرق والمغرب وهو يشير بذلك إلى مافى حركة الشمس والأرض من قدرة وإعجاز لايمكن لأحد غير الله الإتيان بهما . هذا إذا حكموا عقولهم فى هذا الأمر.

«قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون. قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون». (٢٧ - ٢٨ - الشعراء)

أدرك فرعون أن مالفت موسى إليه الأنظار من آيات الكون، من شروق الشمس وغروبها وما سبق أن أشار إليه من نزول المطر وإنبات الزرع والثمار كل هذه آيات يستحيل أن يدّعى فرعون أنه هو الذى أتى بها أو أوجدها، إذن لابد أن إلها آخر هو الذى خلق هذا الكون وهو الجدير بالعبادة. وخاف فرعون أن يتنبه إلى هذه المعانى بعض السامعين فيكفرون بألوهيته. فلجأ إلى التهديد.

«قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين». (٢٩ - الشعراء)

قابل موسى هذا التهديد الفظ من فرعون بلين - كما أمره الله تعالى - فقال له بتلطف هل تفعل ذلك بى لو جئتك بشىء يدل على صدق ما أقول ويبين صدق دعواى؟ وهذا منتهى اللين فى القول إذ هو يحمل ضمنا عدم معارضته فى دخول السجن فى حالة عدم مجىء الشيئ المبين.

«قال أو لوجئتك بشىء مبين». (٣٠ - الشعراء)

ولكنه فى نفس الوقت يحمل شرطا أو يطلب عهدا من فرعون بعدم تنفيذ تهديده لو جاءه بشيء مبين. ووافق فرعون على هذا الشرط وطلب من موسى الإتيان بهذا البرهان.

«قال فأت به إن كنت من الصادقين». (٣١ – الشعراء)

وعاد موسى يكرر على فرعون أنه رسول من رب العالمين. وما دام الأمر كذلك فإنه واجب على موسى وجدير به أن لا يقول إلا الحق. وبالإضافة إلى ذلك فقد جاءهم بآية بينة من الله الذى خلقهم وهو ربهم وهو يحمل معنى التحذير من تكذيبه سبحانه وتعالى. وطلب منه أن يخلى سبيل بنى إسرائيل ليذهبوا إلى الأرض التى وعدها الله لهم. وعاد فرعون يطالبه بإظهار هذه الآية إن كان صادقا:

«وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق. قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل. قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين». (١٠٤ – ١٠٦ – الأعراف)

كانت قاعة القصر ممتلئة بكبراء القوم ووجهائهم ورئيس الكهنة والوزراء. وسمعوا هذا التحدى. ولعلهم أشفقوا على موسى من السجن الذى ينتظره. وسرّ فرعون بالنتيجة التى وصل إليها الحوار. فأى آية سيأتى بها موسى ليقنع الفرعون ويقنع الموجودين بصدق دعواه!

«فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين».

(١٠٧ – ١٠٨ – الأعراف ، ٣٢ – ٣٣ – الشعراء)

ويلعب الخيال بالبعض فيبالغ فى عظم هذه الحية فقالوا كان طولها ثمانين ذراعا – أى سبعة وعشرين مترا – وأنها توجهت إلى ناحية فرعون فوثب عن سريره وجرى وصاح: أنشدك بالله وحرمة الرضاع إلا أمسكتها عنى. فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت!!

ثم أراه الآية الثانية. إذ وضع موسى يده فى جيبه ثم أخرجها ولها نور ساطع تكل عنه الأبصار. أضاء كل جنبات القصر. ودخل ضوءها البيوت ورُؤىَ من الكوى. ولم يستطع فرعون النظر إليها ثم ردها موسى إلى جيبه ثم أخرجها فإذا هى على لونها الأول.

يجدر هنا أن نشير إلى أن التوراة تكاد تلغى دور موسى وتجعل من يأتى بالمعجزات هو هارون. فقد جاء فى الإصحاح ٧ خروج : ٨ ما يلى: وكلم الرب موسى وهارون قائلا. إذا كلمكما فرعون قائلا هاتيا عجيبة تقول لهارون خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعبانا . فدخل موسى وهارون وفعلا كما أمر الرب. طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعبانا . فدعا فرعون أيضا الحكماء والسحرة. ففعل عرافو مصر أيضا بسحرهم كذلك. طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصى ثعابين. ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم.

ولنا على هذه الرواية عدة ملاحظات:

١ – أنهم جعلوا العصا هنا هى عصا هارون في حين أنه فى الإصحاح ٤ خروج حينما كلمه ربه في البرية كانت العصا هى عصا موسى. كما أن التجربة العملية على تحول العصا إلى ثعبان تمت مع موسى ومن هنا تأكد من عدم حدوث إيذاء له فيكون هو الأقدر على تكرارها. أما هارون فهو لم يمر بمثل هذه التجربة من قبل وقد يقال إن موسى وصف له ما سيحدث وأمره ألا يخاف. ولكن الوصف غير التجربة العملية. ولاشك – لو كان هارون هو الذى ألقى العصا – لكان قد خاف كما خاف موسى أول مرة ولاهتزت صورته أمام الفرعون.

والحق هو ما قرره القرآن الكريم من أنها عصا موسى وأن الذى أجرى المعجزة أمام فرعون هو موسى لا هارون.

٢ – معجزة اليد تذكرها التوراة (إصحاح ٤ خروج ٦) ثم قال له الرب (لموسى) أدخل يدك فى عبك. فأدخل يده فى عبه ثم أخرجها وإذا يده برصاء ثم قال له رد يدك إلى عبك فرد يده إلى عبه ثم أخرجها من عبه وإذا هى قد عادت مثل جسده، فيكون إذا لم يصدقوك ولم يسمعوا لصوت الآية الأولى أنهم يصدقون صوت الآية الأخيرة. ولكن عند مقابلة الفرعون أجريت معجزة العصا كما سبق أن ذكرنا فى الصفحة السابقة ونسبوا إجراءها إلى هارون تمشيا مع اتجاهم لنسبة المعجزات إلى هارون. ولكنهم احتاروا فى معجزة اليد هل يدخل هارون يده فى جيب موسى أم فى جيبه هو. ولما أعيتهم الحيلة ألغوا هذه المعجزة كلية.

٣ – أدمجت التوراة المقابلة الأولى مع فرعون مع تحدى السحرة يوم الزينة: إذ ما إن أجريت معجزة العصا أمامه حتى أمر فرعون بإحضار السحرة فألقوا حبالهم وعصيّهم فصارت ثعابين ولكن عصا هارون – وهى فى الحقيقة عصا موسى – ابتعلت عصيهم. وهذا السرد يجعل تحدى السحرة يحدث فى المقابلة الأولى وهو أمر غير معقول إذ أن الإرسال فى طلب السحرة والمهرة منهم بالذات – يستغرق عدة أيام.

٤ – لم تركز رواية التوراة على أن أفعال السحرة ليست تحولا حقيقا بل هى مجرد إيحاء قوى من الساحر بحيث يجعل المشاهد يتخيل أن العصا صارت ثعبانا وهذا ما قرره القرآن الكريم وما سنذكره بالتفصيل فى تحدى يوم الزينة.

والحق هو ما جاء به القرآن الكريم من أن العصا هى عصا موسى وأنه هو الذى يلقيها ثم يأخذها ثانية. كذلك كانت المقابلة الأولى فى القصر لم يشهدها عامة الشعب أما مقابلة يوم الزينة فكانت فى مساحة واسعة شهدها الشعب ولم يكن هناك من داع لإظهار معجزة اليد إذ أن السحرة آمنوا بعد معجزة العصا.

نعود ثانية إلى المقابلة الأولى التى كانت فى القصر. وألقى موسى عصاه فتحولت إلى ثعبان كبير كما أظهر موسى المعجزة الثانية وهى معجزة اليد. وأدرك فرعون أن ما شاهده يختلف

عن أفعال السحرة الذين كثيرا ما كانوا يأتون إليه فى القصر لتسليته. ولكنه مكابرة منه التفت لمن حوله وقال لهم إن هذا ساحر متمكن من علوم السحر.

«قال للملإ حوله إن هذا لساحر عليم». (٣٤ – الشعراء)

ووافقه الحاضرون على قوله بل ورددوا نفس كلماته :

«قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم». (١٠٩ – الأعراف)

كان فرعون يدرك أنه لو أقر أن هذه معجزة لوجب عليه أن يؤمن بأن موسى مرسل من إله هو رب العالمين ويَثْبُت زيف ما كان يدعيه من أنه إله أو ابن الإله. وعليه حنيئذ أن يتبع موسى فى تعاليمه كما عليه أن يرسل معه بنى إسرائيل. فكان أن رفض الإيمان به وبأن ما جاء به هو معجزة من ربه.

« فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنَّ هذا لسحر مبين. قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون. قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض. وما نحن لكما بمؤمنين».

(٧٦ – ٧٨ – يونس)

كان بين الحاضرين فى قاعة القصر بعض من شيوخ بنى إسرائيل كان الفرعون قد استمالهم بعطاياه وقربهم إليه ليستعين بهم فى تهدئه مشاعر بنى إسرائيل إذا اشتد بهم السخط. وهناك دائما – في كل الأزمنة – نفر من الأقليات يجيدون التقرب إلى الحكام. بل ويكونون عونا له على بنى جلدتهم. ومن الطبيعى أن يؤيدوا الحاكم فى كل ما يقول ويفعل. بل إنهم يتلمسون رغباته ويشيرون بها زلفة ونفاقا. وتوجه فرعون بالكلام إلى هؤلاء النفر من بنى إسرائيل قائلا لهم إن موسى ساحر عليم يريد أن يخرجكم – لم يقل من أرض مصر حتى لا يشعرهم بأنهم أغراب بل قال لهم «**من أرضكم**».. تبسطا معهم وأن الأرض صارت أرضهم وأنهم أصبحوا من المواطنين لطول إقامتهم. ولم يقل لهم فرعون فبماذا تشيرون. حتى لايشعرهم أنها مجرد استشاره بل قال «**ماذا تأمرون**». أى زهو ملأ قلوبهم إذ سمعوا هذا القول إذ الفرعون ينتظر أوامرهم!!

«قال للملأ حوله: إن هذا لساحر عليم. يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون؟». (٣٤–٣٥–الشعراء)

وتوجه أيضا المصريون – حاضرو المجلس – من وزراء وكهنة ومستشارين ورجال البلاط إلى هؤلاء النفر من بنى إسرائيل وقالوا لهم:

«قال الملأ من قوم فرعون. إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون؟». (١١٠ – الأعراف)

واستعملوا نفس أسلوب فرعون لاستمالة قلوب بنى إسرائيل فقالوا لهم «**من أرضكم**» لإشعارهم أنهم أصحاب أرض وليسوا غرباء. وقالوا لهم أيضا «**فماذا تأمرون**» تملقا. فهاهم المصريون ينتظرون أوامرهم! أبعد هذا يوافقون موسى على الخروج من مصر؟

تجىء بعد ذلك آية فى سورة طه تثير بعض الحيرة فى تفسيرها وهى:

«ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى. قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى». (٥٦-٥٧ طه)

وفى تفسير «**آياتنا كلها**» مع أن ما جاء على يد موسى حتى هذه اللحظة كان آيتين اثنتين فقط. نسب بعض المفسرين (تفسير الألوس جـ ١٦ ص ٢١٥) إلى ابن عباس قوله إنها آيات موسى التسع. ويردُ ذلك أن الآيات التسع كانت بعد يوم الزينة ووقت الآية ٥٦ - طه كان قبل يوم الزينة. كما قال بعضهم إنها تشتمل نتق الجبل وتفجر العيون من الحجر. وهذا مردود عليه بأن ذلك كان فى سيناء بعد غرق فرعون فلا ينطبق عليها قوله تعالى «**ولقد أريناه**». والأرجح هو أن ذكر الآيات بالجمع مع أن ما جرى على يد موسى كانتا آيتين فقط هما العصا واليد. ذلك أن الآيات هى من عند الله سبحانه وتعالى ولذلك نسبت فى إظهارها إلى الله تعالى «**أريناه**» منها الرؤية العينية للآيتين اللتين أجريتا على يد موسى. والرؤية القلبية للآيات الأخرى الأخرى التى ذكرها موسى مثل خلق السموات والأرض ونزول المطر لينبت الزرع والثمار ليحيا البشر والأنعام وغيرها.

وكذلك اختُلِفَ فى تفسير «**قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى**» إذ أن الكلام على لسان فرعون. فهل كل موسى يهدف إلى إخراج المصريين من أرضهم حتى يقول له فرعون مثل هذا القول؟ قال ابن كثير (تفسيره. جـ ٣ ص ١٥٦): فقال هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولى به على الناس فيتبعونك وتُكاثرنا بهم. ويقول الألوسى (تفسيره جـ ١٦ ص ٢١٦) يقول فرعون لموسى لقد جئت لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر. وهذا من باب المحال. وإنما قال ذلك ليحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه السلام بإبرازه أن مرادَ موسى ليس مجرد إنجاء بنى إسرائيل من أيديهم بل إخراج المصريين من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية. وهذا التفسير يتعارض مع تكرار موسى القول «**فأرسل معنا بنى إسرائيل**» كما أن إخراج المصريين من أرضهم أمر مستحيل ولا يُعقل أن يقوله فرعون ولو من باب التخويف لقومه.

ولكى نفهم لماذا قال فرعون هذا القول علينا أن ننظر إلى الموقف نظرة شاملة. فقد ذكرنا فى ص ٨٥٢ أن فرعون هدد بوضع موسى فى السجن وأن موسى لم يمانع فى ذلك إلا إذا جاء بآية معجزة وارتضى فرعون هذا الشرط وجاء موسى بآيتى العصا واليد. هنا أراد فرعون أن يتنصل من الاتفاق ليضع موسى فى السجن فادَّعى أن ما جاء به موسى هو نوع من

السحر وليس بمعجزة، وهو يريد أن ينتزع موافقة النفر الموجودين فى بلاطه من بنى إسرائيل على هذا حتى يكون وضع موسى فى السجن بموافقتهم فلا تثور جموع شعب بنى إسرائيل. وقلنا إن فرعون تملق بنى إسرائيل الحاضرين بقوله «**من أرضكم**» وأيضا بقوله «**فماذا تأمرون**» ونفس الشىء فعله «**الملأ من قوم فرعون**». ومن المؤكد أن شيوخ بنى إسرائيل الموالين لفرعون احتاروا فصمتوا. وأدرك فرعون حيرتهم. وفى محاولة أخيرة منه لتملقهم قال على الملأ «**أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى**»؟ وبهذا وضع فرعون نفسه فى الخندق الذى فيه بنو إسرائيل مظهرا أنه منهم وأنه يتكلم باسمهم وكأنه سيخرج معهم لو خرجوا من الأرض. وكان يتوقع أنهم بعد هذا القول منه لن يترددوا فى إبداء الرأى الذى يوافق هواه. فكما يقال: وضع الكرة بين أرجلهم. وكان عليهم أن يقرروا. هل هذه الآيات مقنعة بحيث يؤمنوا بموسى ويخرجوا من «**أرضهم**» أم أنها غير مقنعة. ويستحق موسى السجن ويكونوا هم الذين حكموا عليه بذلك؟ وشعر شيوخ بنى إسرائيل بحرج بالغ.

وللتخلص من حرج الموقف ودقته أشاروا بتأخير البت فى الموضوع وإرجاء اتخاذ القرار حتى يمكن ضم ما يمكن أن نسميه «الرأى العام» – إلى جانبه – حتى لايثور شعب بنى إسرائيل الذى رأى فى موسى مخلصا لهم من الذل والعبودية. وإذا اتُّخِذ قرار ضد موسى بعد عرض مغلق كهذا فقد يقال إن القرار كان متحيزا وظالما ويثور شعب بنى إسرائيل. فأشاروا بأن تعاد التجربة فى ساحة واسعة ويشهدها أكبر عدد من الناس حتى يقبلوا القرار الذى سيُتخذ بناء على نتيجتها. وأشاروا بألا تكون التجربة من طرف واحد وألا يُكتفى بأن يُظهر موسى آياته. بل تكون تحديا من السحرة لموسى لإظهار أن ما جاء به هو نوع من السحر يمكنهم الإتيان بمثله وحتى إن فاق ثعبانه فى الحجم ثعابين السحرة. فما هو إلا نوع متقدم من السحر. وينتفى عنه ادعاؤه بأنه مرسل من ربه ويلاقى ما يتخذه فرعون ضده من إجراء قبولا لدى الجميع.

«قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين. يأتوك بكل ساحر عليم»

(١١١ -١١٢ الأعراف)

«قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحَّار عليم»

(٣٦ – ٣٧ الشعراء)

ولمس فرعون فوائد هذا الحل وارتضاه وقال لموسى:

«فلنأتينك بسحر مثله. فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نُخلِفُه نحن ولا أنت مكانا سُوى». (٥٨-طه)

وافق فرعون على إعادة التجربة واثقا من فوزه. وطلب من موسى أن يحدد موعد المباراة.

وأخبره أنه لن يتخلف وعلى موسى هو الآخر أن لا يتخلف. وأن المباراة ستكون فى مكان مستو من الأرض لا وعر ولا أكمة بحيث يتبين الواقفون فيه ما يدور أمامهم. «**مكانا سوى**» ووافق موسى وحدد الموعد باليوم والساعة:

« قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى». (٥٩-طه)

وجاء فى تفسير الألوسى (جـ ١٦ ص ٢١٨) يوم الزينة هو يوم عيد كان لهم فى كل عام يتزينون فيه ويزُينون أسواقهم. كما روى عن مجاهد وعن ابن عباس أنه يوم عاشوراء وبذلك فسَّر قوله صلى الله عليه وسلم: من صام يوم الزينة أدرك ما فاته من صيام تلك السنة. ومن تصدق يومئذ أدرك ما فاته من صدقة تلك السنة. وقيل يوم السبت وكان يوم راحتهم. وكان اختيار وقت الضحى بحيث لايكون فى الصباح الباكر فيتخلف من يتأخر استيقاظهم ولا فى الأصيل حين يكون الضوء ضعيفا فلا يتبين الناس ما يجرى ولا وقت الظهيرة إذ يكون الحر فى شدته فلا يطيقه الخلق فينصرفوا.

«فتولى فرعون فجمع كيده. ثم أتى». (٦٠-طه)

أرسل فرعون الرسل فى المدن ليجمعوا أمهر السحرة. وُصفوا مرة «**بكل ساحر عليم**» ومرة ثانية «**بكل سحَّار عليم**» مبالغة فى مهارته فى السحر. كقولنا كاذب وكذَّاب.

واختلفوا فى عدد السحرة الذين جمعهم فرعون. ويأتى دور المبالغات. إذ قال كعب: كان عدد السحرة اثنى عشر ألفا وقال السدى بضعة وثلاثين ألفا وقال محمد بن المنكدر ثمانين ألفا. وقال آخرون سبعين ألفا. ثم اختار منهم سبعة آلاف ثم اختار منهم سبعمائة ثم اختار منهم سبعين من كبارهم وعلمائهم (تفسير الألوسى جـ ٩ ص ٢٣).

وفى رأينا أن عدد السحرة كان أقل من ذلك بكثير. ولعلهم اختاروا من كل إقليم ساحرا واحدا. فيكون السحرة ٤١ ساحرا بعدد أقاليم مصر. ثم اختاروا منهم سبعة مثلا أو عشرة على الأكثر.

يـوم الزينـة :

فى عشية يوم الزينة استدعى الفرعون موسى وهارون إلى القصر ليخبرهم بأن الاستعدادات من جانبه قد تمت والسحرة قد جاءوا والناس قد أُعلنوا وسيحضرون فى أعداد كبيرة. واستأذن كبير السحرة فرعون أن يجتمع هو وعدد من السحرة بموسى فقد يمكنهم التأثير على روحه المعنوية مما يسهل مهمتهم فى الغد أمام الجماهير فأذن لهم فرعون. وذكر الألوسى (تفسيره – جـ ٩ ص ٢٧) عن ابن جرير وغيره قوله: التقى موسى عليه السلام وأمير السحرة فقال له موسى: أرأيتَ إن غلبتُك أتؤمن بى وتشهدَأن ماجئتُ به حق؟ فقال كبير السحرة: لآتين غدا بسحر لا يغلبه سحر.

قد يرى البعض أن هذا اللقاء عشية يوم الزينة ليس عليه دليل من القرآن الكريم والرد على ذلك أن قوله تعالى فيما بعد على لسان فرعون «**إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة**».. لايمكن تفسيره إلا فى ضوء حدوث لقاء مثل هذا. وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد (ص ٨٦٤) وجاء اليوم الموعود. وتولى فرعون بنفسه الأمر وجمع السحرة وصفَّهم. كل واحد معه أدواته. وكان هذا هو الكيد الذى جمعه فرعون ليكيد موسى. وأتى إلى المكان المحدد. وكان مكانا فسيحا.

«فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى». (٥٧-٦٠طه)

وتقاطر الناس من كل صوب. فاليوم يوم عيد. ولا عمل لهم فيه. فليستمتعوا إذن برؤية هذه المباراة بين سحرة فرعون وبين موسى وهارون.

وجلس فرعون فى ظل عريشة تحميه من الشمس معه وزراؤه وكبار الكهنة ورجال البلاط وشيوخ بنى إسرائيل الموالين له . وفى ناحية وقف السحرة وخلفهم حشد كبير من المصريين يصل إلى عدة آلاف. وفى الجانب المقابل وقف موسى وهارون وخلفهما عدد كبير من بنى إسرائيل.

وجَّه موسى عليه السلام – الكلام إلى السحرة وإلى كل من كان فى جانب فرعون وحضروا اللقاء الأول. وقال لهم: تعلمون أن ما أظهرته سابقا ليس بسحر. فلا تفتروا على الله كذبا وتقولوا هذا سحر. إذ الويل لكم حينئذ ويوشك الله أن يسحتكم أى يستأصلكم بعذاب هائل لا تقدرون على رده. وكل من افترى على الله كذبا قد خاب. وسمع السحرة هذا الكلام من موسى وتشاوروا فيما بينهم سرا أى تناجوا فيما بينهم حتى لا يسمعهم موسى وهارون ثم وجهوا الكلام إلى بنى إسرائيل محاولين استمالتهم لجانبهم. فقالوا لهم: إن موسى وهارون ما هما إلا ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم. ونلاحظ هنا أنهم قالوا لبنى إسرائيل «**أرضكم**» كما قال فرعون من قبل لإشعارهم أن مصر هى أرضهم فلا يفارقوها ثم كان باقى الكلام موجها إلى المصريين أيضا فقالوا إن موسى وهارون يريدان أن يهدموا عقيدتكم وهى من أفضل العقائد وأحسنها. بل إنها الطريقة المثلى للعبادة ثم حثوا الجميع على التكاتف والوقوف صفا واحداً وراءهم ليكون الفلاح من نصيبهم ويكون الفوز فى جانبهم والعلو لهم. كان هدف السحرة من هذه المقاله هو التأثير على الروح المعنوية لموسى وهارون والفتّ فى عضدهما إذ يرون الجميع ضدهم وحتى بعض بنى جلدتهم قد وقفوا صفا وراء فرعون. والمعروف أن الساحر إذا فقد الثقة بنفسه لن يستطيع أن يوهم الناس بسحره وهو ما سنشرحه فيما بعد.

«قال لهم موسى ويلكم ،لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب. وقد خاب من افترى. فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى. قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى. فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا

صفا. وقد أفلح اليوم من استعلى». (٦١ - ٦٤ - طه)

وقبل أن تبدأ المباراة توجه السحرة إلى فرعون يسألونه هل لهم أجر إن كانوا هم الفائزين؟ فطمأنهم فرعون على ذلك.

«فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين. قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين». (٤١ - ٤٢ - الشعراء)

وأرادوا الاطمئنان أكثر فأعادوا الطلب ولكن بصيغة تقرير فقالوا:

«وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين، قال نعم وإنكم لمن المقربين». (١١٣-١١٤-الأعراف)

وأعاد فرعون طمأنتهم على الأجر وأيضا لن تقتصر مكافأتهم على المال فقط بل سيصبحون من المقربين له. يجلسون في مجلسه وفي هذا كرامة ورفعة لهم. ونفوذ. وبالطبع سيكون لذلك مردود مادي. وقول فرعون وإنكم لمن المقربين يؤيد ما ذهبنا إليه من أن عدد السحرة لم يكن ليزيد عن السبعة أو العشرة وليس سبعمائة أو سبعة آلاف كما قال البعض.

لما اطمأنَّ السحرة على أجرهم توجهوا لموسى قائلين: إما أن تلقى أنت أو نلقى نحن أولا. وكانت رغبتهم أن يلقوا هم أولا لذلك قالوا **«نكون أول من ألقى»**. وفي ظنهم أن من يُلقي أوّلا سينال إهتمام المشاهدين ويحظى بإعجابهم إذ يرى الناس من فنون السحر ما يدهشهم أما تكرار الفعل فلن يحظى بنفس الإعجاب.

«قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى». (٦٥-طه)

وأمرهم موسى أن يلقوا هم أولا :

«قال بل ألقوا». (٦٦ - طه)

«قال لهم موسى . ألقو ما أنتم ملقون». (٤٣-الشعراء)

ولايخفى ما في هذا القول من استصغار لشأنهم. بالسماح لهم بأن يلقوا هم أولا:

«فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون». (٨٠ - يونس)

وألقى السحرة حبالهم وعصيهم. واستفتحوا باسم فرعون لتكون لهم الغلبة :

«فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون». (٤٤-الشعراء)

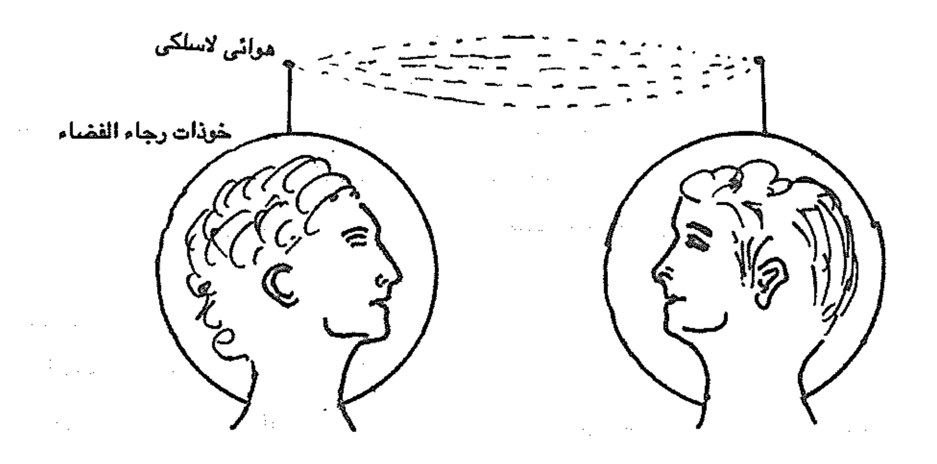
وهنا يوضح القرآن الكريم حقيقة السحر فهو ليس تحولاً في مادة الحبال والعصي إلى ثعابين فعلا. وإنما هو قدرة من الساحر يسيطر بها على أفكار المشاهدين والإيحاء لهم بأن ما يشاهدونه هي حيات وثعابين فيخيل إليهم أنها كذلك وأنها تمشي على الأرض وتتلوى. ويستعين الساحر بما يسمى بالطلاسم وهي بعض كلمات أو أحرف غامضة المعنى يزعم أنها تشتمل على قوة سحرية ويزداد تأثيره على المشاهدين بتلاوتها.

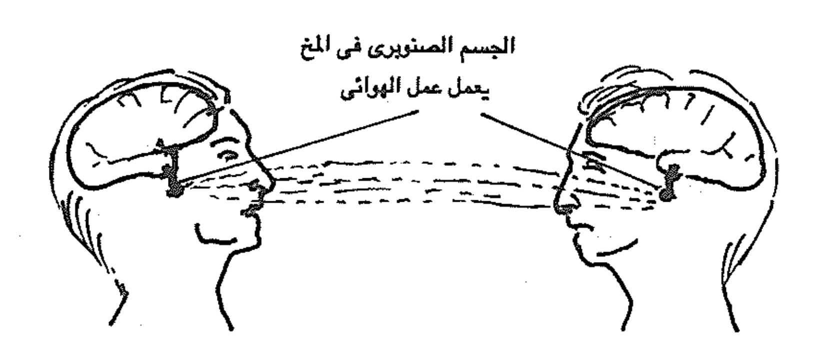
«فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم». (١١٦-الأعراف)

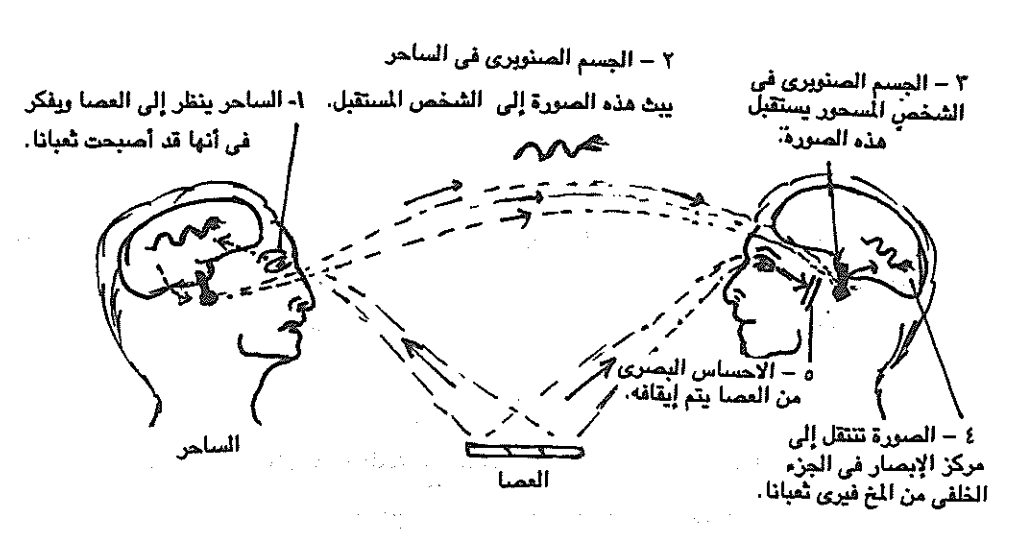
وكان سحرهم من القوة والإتقان حتى إن موسى عليه السلام وقع تحت تأثيره ورأى هو أيضا الحبال والعصى كأنها تحولت إلى حيَّات وثعابين. وجال فى نفسه بعض الخوف من المفاجأة ذاتها. وهذا من طبائع النفسى البشرية التى لاسيطرة للمرء عليها. هو يعلم أن ما يراه الناس وهم وأن الحبال والعصى فى حقيقتها باقية على حالها ولم تتغير مادتها. أما عصاه فإنها بقدرة الله تتحول فعلا إلى حية تسعى. وكان خوفه أن الناس لن يستطيعوا التفرقة بين الحالين. أو هكذا كان ظنه حتى هذه اللحظة. ولكن الله تعالى طمأنه وأمره أن لا يخاف وأنه سيكون هو المنتصر والأعلى:

«قال بل ألقوا. فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس فى نفسه خيفة موسى. قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى». (٦٦-٦٨-طه)

وشكل (٢٢٣) به شرح لما يمكن أن تكون عليه ظاهرة السحر فى ظل المعارف المتاحة حاليا. ولتقريب المسألة نشير إلى هوائى البث التليفزيونى الذى يبث موجات لاسلكية تحمل الصورة والصوت. ثم إننا نشاهد كم هو صغير هوائى اللاسلكى الذى يحمله رجال الشرطة وأصغر منه هوائى التليفون المحمول. ولعلنا شاهدنا أحد أفلام الخيال العلمى وكيف يتخاطب رواد الفضاء عن طريق هوائى صغير مركب فى خوذاتهم يذيع ويستقبل الموجات اللاسلكية إذ لا يوجد هواء لنقل ذبذبات الصوت كما يحدث فى جو الأرض. وتشير دلائل كثيرة إلى أن الجسم الصنوبرى فى الإنسان Pineal Body يؤدى نفس الوظيفة ببث موجات لاسلكية. وكلنا أحيانا لمس ذلك من إحساسه بأن هناك شخصا يحدِّق فيه حتى لو كان ذلك الشخص واقفا وراءه. وبعض الأشخاص عندهم من قوة البث ما يمكنهم من التأثير على الآخرين فإذا وقع الجسم الصنوبرى للشخص الآخر تحت تأثيرهم – فإنه يستقبل الصورة الموجودة فى ذهن الشخص المرسل ويستقبل الفكرة المراد بثها تماماً كما يحدث بين محطه الإرسال وجهاز الاستقبال التليفزيونى. وفى حالة السحر فإن الساحر بقوة الشخصية التى يملكها وبالألفاظ التى يتمتم بها وببعض التمارين التى يتدرب عليها فإنه يزيد من قوة البث الخاص به فيستطيع السيطرة على المشاهدين وعلى أفكارهم فيجعلهم يرون الحبال والعصى وقد انقلبت إلى ثعابين وحيات تسعى على الأرض وتتلوى وفى الحقيقة هى لاتزال حبالا وعصيا كما هى ملقاة على الأرض لاحراك لها. وهنا قد يتساءل البعض: وماذا عن الإحساس البصرى الواصل للعين من الحبال والعصى وهى لم تتغير. والجواب هو أن الجهاز العصبى به خلايا تسمى بالخلايا البوابية Gate Cells تسمح بمرور تيار واحد من الإحساس ولا تسمح بمرور تيارين فى آن واحد. والساحر يسيطر على هذه الخلايا البوابية الموجودة فى العصب البصرى بحيث تسمح بمرور الصورة التى بثها وهى أن الحبال أصبحت ثعابين تتلوى فيتوقف مرور الإحساس القادم من العين التى ترى الأشياء على حقيقتها.







شكل ٢٢٣ – محاولة لتفسير ظاهرة السحر.

وهذه الحقيقة قررها القرآن الكريم فى قوله تعالى:

«فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم». (١١٦-الأعراف)

وسبق أن قلنا إن موسى عليه السلام نفسه وقع تحت تأثير السحر ورأى الحبال والعصى وقد تحولت إلى ثعابين وحيات وكانت هذه مفاجأة له. عبَّر عنها بالفاء فى كلمة «**فإذا حبالهم**» وفى «**فأوجس فى نفسه خيفة موسى**».. وأصلها خوفا أو خَوْفَةً ثم قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها فصارت خيفة. وقالوا فيها تعبير عن عظم الخوف كما فى قوله تعالى: «**ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته**». المهم أن الله سبحانه وتعالى طمأنه قائلا:

«قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى». (٦٨ - طه)

وقال لهم موسى إن ما قمتم به ما هو إلا نوع من السحر ولكن الله سيبطله وسيمحقه. لأن فيه مفسدة والله لا يصلح عمل المفسدين.

«فلما ألقوا قال موسى: ما جئتم به السحر إن الله سيبطله. إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويُحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون». (٨١ - ٨٢ - يونس)

وهنا يتبدَّى لنا معنى قوله تعالى: «**إننى معكما أسمع وأرى**». ذلك أن الله كان يشد أزر نبيه ويلهمه ما يفعل خطوة بخطوة وهذا هو معنى المعيَّة «**معكما**».

«وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون. فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين». (١١٧ - ١١٩ - الأعراف)

«وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا. إنما صنعوا كيد ساحر. ولا يفلح الساحر حيث أتى». (٦٩ - طه)

أُمِرَ فى الآية الأولى بإلقاء العصا وأُمِرَ فى الآية الثانية بإلقاء ما فى يمينه وهى العصا، قيل للتذكير بما حدث يوم التكليم إذ قيل له «**وما تلك بيمينك**». فإن استحضار ذلك فى الذهن أدعى إلى الطمأنينة وإزالة الخوف. وأخبره الله أن ما صنعه السحرة هو سحر ولايستطيع السحر أن يقف أمام المعجزة الإلهية. ولايفلح الساحر إذا أتى فعله وكيده مناجزة لرسول مؤيد بمعجزة من ربه.

وامتثل موسى لأمر ربه وألقى عصاه. وما حدث كان أمرا لم يكن أحد ليتوقعه. فالكل كان ينتظر تنافسا فى حجم الحيات مثلا. أو فى سرعة أدائها لحركاتها الثعبانية أو ألوانها. هذا كل ما كان يدور بخلد الناس جميعا. بل إن بعض هذا دار بخلد موسى نفسه فأوجس فى نفسه خيفة لما رأى عصى السحرة وحبالهم تبدو كأنها ثعابين وحيات ولكنه كان يعرف أن عصاه تتحول إلى حيَّة حقيقية بقدرة الله عز وجل وكان فى شوق إلى معرفة كيف سيجعل الله المشاهدين يدركون الفرق بين الاثنتين. وكانت المفاجأة للناس ولعلها كانت له أيضا. إذ رأى

ثعبانه يلتقط ويبتلع ثعابين السحرة.

وظهر الحق، وزهق الباطل، وبطل ما عملوا، وغُلبوا، وانقلبوا أذلاء صاغرين، وخيم الوجوم على الحاضرين. لقد انهزم الفرعون وسحرته أمام موسى وهارون!!

كان أكثر الناس إحساسا بالمعجزة هم السحرة أنفسهم فطوال عملهم بالسحر لم يروا شيئا مثل هذا، وليس في كتبهم أن شيئا كهذا يمكن أن يحدث، لذلك تأكدوا أن ما حدث هو معجزة من رب موسى وهارون، وبهرهم الحق فلم يملكوا أنفسهم إلا وقد ارتموا على الأرض ساجدين لرب موسى وهارون، قيل إن موسى وهارون سجدا لله شكرا على ظهور الحق وسجد السحرة اقتداء بهم وإعلانا عن إيمانهم برب موسى وهارون.

«فإذا هى تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون». (١١٨-١٢٢-الأعراف)

«فألقى السحرة سُجَّداً، قالوا، آمنا برب هارون وموسى». (٧٠-طه)

«فألقى السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون».

(٤٦ - ٤٨ - الشعراء)

واستشاط فرعون غضبا، فالسحرة الذين أحضرهم ليدعموا موقفه إذا بهم يكونون أول المؤمنين بموسى وهارون، وكيف؟، لقد أعلنوا إيمانهم على مشهد من الناس جميعا، وبطريقة لا تحتمل الشك، إذ هم سجدوا، وقالوها بملء أفواههم وعلى مسمع من الملأ كلهم **«آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون».**

وتهامس بعض المصريين فيما بينهم، لقد وضح الحق، قال بعضهم: هيا نتبع موسى وهارون ونؤمن بربهما، وسرت الهمسات حتى وصلت إلى أسماع فرعون، لقد أوشك الأمر أن يفلت من يده، فالتفت إلى وزرائه ومستشاريه علهم يشيرون بمخرج من هذا المأزق غير المتوقع، وكان عند مدير الشرطة الحل، فما أسهل قلب الأوضاع وإلصاق تهمة التآمر على نظام الحكم والزعم باكتشاف مؤامرة، هذه أمور يجيدها رجال الشرطة - وفى عصرنا الحالى رجال المخابرات - وكانت خطتهم التى أسروا لفرعون بها هى أن يقلبوا حقيقة مادار فى اللقاء بين موسى وكبار السحرة عشية يوم الزينة، فيصوروا الأمر على أن موسى قد استمال السحرة ومنَّاهم بالخير الكثير إذا عملوا على أن يتخاذلوا عامدين ليظهر موسى بمظهر المنتصر.. وفرح فرعون بهذا التدبير ووقف ونادى بأعلى صوته: كيف تؤمنون بموسى قبل أن آذن لكم، لقد اتفقتم معه وتآمرتم وتعمدتم أن تخسروا حتى يستطيع موسى أن يخرج ببنى إسرائيل من مصر، ومرة ثانية وصف بنى إسرائيل بأنهم أهل مصر.

«قال فرعون: آمنتم به قبل أن آذن لكم. إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون». (١٢٣ - الأعراف)

وراح أعوانه يوهمون الناس بمؤامرة مزعومة وصفقة تمت بين موسى وكبير السحرة. وأن كبير السحرة الذى عملهم السحر كان هو السبب الذى جعلهم يتخاذلون فلم يظهروا أقصى ماعندهم من السحر ولذلك ظهر كأن موسى هو الذى فاز.

«قال آمنتم له قبل أن آذن لكم. إنه لكبيركم الذى علمكم السحر». (٧١-طه)

يرى الألوسى (تفسيره. جـ ١٦ ص ٢٣١) أن الضمير فى **«إنه لكبيركم»** عائد الى موسى ومعناه أن موسى عليه السلام هو عظيمكم فى فنكم وأعلمكم به وأستاذكم. بهذا أيضا يقول ابن كثير (تفسيره . جـ ٣ ص ١٥٨) فيقول: أى أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى واتفقتم أنتم وإياه عليَّ وعلى رعيتى لتظهروه الفائز. وهذا التفسير غير مقنع. إذ أن موسى كان غائبا عن مصر عشرة أعوام فى أرض مدين فمتى قام بتعليم السحر للسحرة؟ وهل كان فرعون يتركه يجوب البلاد من أقصاها لأقصاها يعلم المصريين السحر دون القبض عليه لتسببه فى وفاة المصرى؟ كذلك فمن المعروف أن السحر نشأ فى مصر القديمة منذ عصر الأسرات الأولى أو قبلها. ولم يكن القيام به من شأن الأفراد العاديين بل كان حكرا على الكهنة فأنى يكون موسى هو كبيرهم الذى علمهم السحر؟ وهل كان يعلمهم السحر ليتحدوه فيما بعد؟ فضلا عن أن موسى لم يكن يعرف السحر وما جاء به كان معجزة من ربه. لذلك فإن الضمير فى «**إنه لكبيركم الذى علمكم السحر**» راجع إلى كبير السحرة. والمعنى مرتبط بالإتهام بوجود مؤامرة فمعناه: إنه لمكر مكرتموه فى المدينة. وإن كبيركم الذى علمكم السحر هو المدبِّر لهذا المكر وهذه المؤامرة حين التقى موسى عشية يوم الزينة. وصدَّق المصريون هذا الزعم. فأهل مصر، كما قال فيهم أمير الشعراء شوقى : ياله من شعب عقله فى أذنيه!

وخرج فرعون من المأزق. وتحلَّل من وعده لموسى بأن يرسل معه بنى إسرائيل. ولكنه لم يجرؤ أن يسجن موسى كما كان يهدد من قبل. إذ هو فى قرارة نفسه علم أن موسى ليس بساحر. وأن له ربا قادرا على إتيان معجزات. ولعله خشى إن أوقع به أذى أن ينتقم منه رب موسى بطريقة ما. لذلك فإنه اتجه بانتقامه إلى السحرة. فراح يهددهم ويتوعدهم بالعذاب:

«فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى». (٧١ - طه)

لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين». (١٢٤ - الأعراف)

«لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين». (٤٩ - الشعراء)

كان فى نية فرعون أول الأمر أن يعذبهم بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ظنا أن بقاءهم

أحياء مع تشويههم يكون رادعا لغيرهم. ولكنه خشى أنهم بصبرهم على ما ينزله بهم من عذاب – يصبحون مثالا لقوة الإيمان وتنتقل عدوى الإيمان منهم إلى غيرهم فآثر اللجوء إلى التهديد بالقتل صلبا فى جذوع النخل.

ولكنهم لم يأبهوا بهذا التهديد وقالوا لن نختارك ونفضلك على ما جاءنا من آيات ومعجزات بينة واضحة ولن نفضلك على الله الذى خلقنا وأوجدنا وفطرنا . وفى هذا القول تعريض بالألوهية التى كان الفرعون يدّعيها . وقالوا له إذا كنت جعلت نفسك قاضيا علينا وتحكم بما تريد فاقض بما تراه واحكم بما تهواه فى هذه الدنيا . وفى هذا تهوين من أمر هذه الدنيا الفانية وتذكير بأن هناك حياة آخرة سيأخذ العدل فيها مجراه. وقالوا إنهم آمنوا بالله ليغفر لهم ذنوبهم وليغفر لهم خطيئتهم التى أكرههم عليها فرعون وهى اتهام موسى بالسحر وتحديهم له. فهم يطلبون المغفرة من الله لأنه خير وأبقى. خير ثوابا وخير عقبى. ثم أرادوا توضيح الأمر أكثر فقالوا أو أن هذا كان تعبيرا عن القاعدة الشرعية التى تحكم مثل هذا الموقف: إن من يأت ربه مخطئا ومجرما ومات على الكفر والعصيان فإن جزاءه جهنم خالدا فيها أبداً. لايموت فيستريح من العذاب. وما حياته فى العذاب بحياة. وأما من يموت مؤمنا ويقابل ربه وقد عمل صالحا فى دنياه فله ولمثله درجات عالية عند ربهم إذ سيكون ثوابهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها فى نعيم مقيم وذلك جزاء من تطهّر من الكفر والمعاصى وتزكى بالأعمال الصالحة.

«قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى. ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى». (٧٢-٧٦-طه)

ولعلهم بمقالتهم هذه كانوا يقصدون إشعاره بوجود إله عادل سيحاسبه على فعله بهم. كما أنهم أرادوا التهوين من قدرته عليهم فى هذه الدنيا بما له فيها من مُلك وسطوة وسيكون لهم فى الآخرة جنات خير من قصوره وجناته.

وبدأ زبانية فرعون فى تنفيذ وعيده بصلبهم فى جذوع النخل فقال السحرة لفرعون نحن نعلم أن الموت ينتظرنا ولكننا سندخل فى رحمة الله وثوابه وأنت تكره منا أن آمنا بآيات ربنا لما أدركنا أنها ليست سحرا بل هى معجزات من الله. ثم توجهوا إلى الله سبحانه وتعالى فى دعاء أخير قبل صلبهم سائلين الله أن يغمرهم بالصبر على ما يتوعدهم به فرعون من عذاب وأن يجعلهم يثبتون على الإسلام – كمؤمنين برب موسى وهارون – حتى يتوفاهم عليه:

«قالوا إنا إلى ربنا منقلبون. وماتنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا. ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين». (١٢٥-١٢٦-الأعراف)

وقالوا لفرعون إنه لايضرنا ولا نبالى بما تفعله بنا من صلب وأننا مقتولون فسنرجع إلى الله ويجزينا خير الجزاء ونطمع أن يغفر لنا جميع خطايانا بسبب أننا بادرنا إلى الإيمان وكنا أول من آمن.

«قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين». (٥٠ - ٥١ - الشعراء)

وظل فرعون وقومه على تكذيبهم لموسى وظلوا يقولون على الآيات الواضحة التى جاءهم بها ويصفونها بأنها سحر. ليس سحرا عاديا. بل سحر مفترى، مختلق. فهو نوع من السحر لم يفعله أحد قبله وكذلك ما يدَّعيه من نبوة. فنحن لم نسمع بشىء من هذا ولم يحدِّثنا به آباؤنا ولا أجدادنا. ورد عليهم موسى قائلا بأن الله يعلم من جاء بالهدى من عند الله - وهو يقصد نفسه - ومن ستكون له العاقبة المحمودة فى هذه الدنيا. أما الظالمون فلن يفلحوا ولن يفوزوا.

«فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين. وقال موسى: ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار. إنه لايفلح الظالمون». (٣٦-٣٧-القصص)

وخافت حاشية فرعون أن يزداد عدد المؤمنين فراحوا يحرضونه على موسى وقالوا له: هل تترك موسى وبنى إسرائيل يدَّعون أن إلههم هو رب الكون وينتقصون من قدرتك وقدرة آلهتك فيتجرأ الناس عليك ويستهينوا بك. فقال لهم فرعون سنظل على ما نحن عليه من تقتيل أبنائهم الذكور واستحياء البنات. وسنزيد تعذيبهم وتسخيرهم فى أعمالنا وسنظل فوقهم. غالبين عليهم فلا يضروننا بشىء.

«وقال الملأ من قوم فرعون. أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك. قال سنُقتِّل أبناءهم ونستحيى نساءهم. وإنا فوقهم قاهرون»

(١٢٧ - الأعراف)

بنو إسرائيل بعد يوم الزينة:

وأمر فرعون بزيادة جرعة التعذيب الذى كان قواده ومساعدوه ينزلونه ببنى إسرائيل. وزاد جنوده فى قتل المواليد من بنى إسرائيل للعمل على استئصال شأفتهم. وزادوا من ضربهم بالسياط وقال فرعون لشعبه: إننا فوقهم قاهرون وغالبون كما كنا. ولن يفُت ما حدث يوم الزينة فى عضدنا.

علم موسى عليه السلام بما أمر به فرعون من زيادة التعذيب فقال لقومه يحثهم على الصبر:

«وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا. إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». (١٢٨ – الأعراف)

وراح يزرع فى قلوبهم الأمل فى الخلاص من فرعون وأنهم سيرثون الأرض الموعودة «أرض كنعان». بشرط أن يكونوا من المتقين لأن العاقبة هى للمتقين. وفى هذا حث على الصبر وعدم التذمر وحث على التقوى.

وكان رد بنى إسرائيل على موسى أن قالوا له أنهم قد أوذوا واستُعبِدوا من قبل ولادته وكان الذبح فى أبنائهم تحرزا من مجيئه لأن النبوءة كانت تقول إن مولودا هو أنت – سيكون هلاك فرعون وخلاصنا على يديه. وها أنت قد جئتنا. فلم يهلك فرعون ولم يتم خلاصنا من العذاب والتسخير بل لعله قد زاد. وهو استبطاء منهم لما وعدتهم النبوءة ووعدهم هو عليه السلام بالنجاة والظفر والخروج إلى أرض كنعان. فقال لهم موسى لعل الله أن يهلك عدوكم فرعون ويورثكم الأرض. ومع أن موسى عليه السلام كان يعلم أن ذلك سيحدث ومجزوم به بوحى وإعلام من الله سبحانه وتعالى له إلا أنه وضع الأمر فى صيغة الرجاء فقال «**عسى**» تأدبا مع الله تعالى ولعدم تأكده من وقت وقوعه. أيكون فى جيل هؤلاء أم الأجيال التى تأتى بعدهم. وأخبرهم أنه عندما يتحقق وعد الله سيكون هذا اختبارا لهم ليرى الله كيف يعملون: هل يعملون حسنا فيثيبهم أم قبيحا فيجازيهم. ولعل فى هذا أيضا معنى بعدم استعجال الأمر وترك الأمر كله لمشيئة الله سبحانه وتعالى:

«قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا. قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون». (١٢٩ –الأعراف)

عند وقوع معجزة يوم الزينة وآمن السحرة بموسى ونالهم من عذاب فرعون ما نالهم – لم يؤمن كل بنى إسرائيل بموسى. ولكن بعضاً فقط من قومه هم الذين آمنوا به سرا وخوفا من أن يعلم فرعون بأمرهم. أو يشى بهم الوشاة. فيزيد من تعذيبهم ليرجعوا عن إيمانهم ويفتنهم. وكان الشبان والصغار هم الذين آمنوا. ولذلك وصفوا بأنهم «**ذرية من قومه**» أما الكبار والمسنون فقد خافوا من فرعون. إذ كانوا يعرفون مقدار قسوته وجبروته. وأنه حاكم أوحد فى أرض مصر لا أحد يرد له أمرا. ومن يعصاه أو يخالفه يسرف فى تعذيبه.

«فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم. وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين». (٨٣ – يونس)

ولما رأى موسى تخوف بنى إسرائيل قال يشد من أزرهم ويقوى عزيمتهم: إن كنتم صدقتم بى وآمنتم بالله فاعتمدوا على الله وتوكلوا عليه إن كنتم آمنتم به حقا وأسلمتم أمركم إليه.

فأجابوا موسى قائلين بأنهم متوكلون على الله، ودعوا الله ألاَّ يجعل قوم فرعون – الظالمين – يفتنونهم بالعذاب عن دينهم ودعوا الله أن ينجيهم من هؤلاء القوم الكافرين.

«وقال موسى: ياقوم، إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين. فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين». (٨٤–٨٦–يونس)

وكان لابد من تقوية إيمان هؤلاء النفر من بنى إسرائيل الذين آمنوا بموسى إذ أن طول إقامتهم فى مصر ومخالطتهم للمصريين قد أضعفت من عقيدتهم وقد سبق أن ذكرنا (ص ٨٤٣) أن ثانى المهام التى كلف بها موسى عليه السلام هو تجديد إيمان بنى إسرائيل:

«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله. إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور». (٥ – إبراهيم)

يخرجهم من ظلمات الجهالة والوثنية إلى نور الوحدانية، ومن ظلمات الاستبعاد إلى نور الحرية. لذلك أوحى الله إلى موسى وهارون أن يختارا بعض البيوت من بيوت بنى إسرائيل فى مصر ويخصصانها للعبادة فتكون فيها الصلاة، ويجعلوا لها قبلة. قال بعض المفسرين أى يتوجهوا نحو الكعبة. وذلك مردود عليه فى الحديث الصحيح من أن اليهود تستقبل الصخرة (تفسير الألوسى، جـ ١١ ص ١٧١). قيل إنهم أمروا أولا أن تكون هذه البيوت دورا للعبادة، يجتمعون فيها للصلاة ويعلمهم موسى أمور دينهم فلمَّا خافوا افتضاح أمرهم بواسطة أعوان فرعون أمروا أن يصلوا فى بيوتهم (تفسير ابن كثير، جـ ٢ ص ٤٢٨).

وأمروا بالصلاة للاستعانة بها على كيد فرعون وقومه، وكلما ضيق عليهم فرعون أكثروا من الصلاة، تمشيا مع قوله تعالى: **واستعينوا بالصبر والصلاة** وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى، ومن هنا كان الأمر «**وأقيموا الصلاة**». ثم أمر موسى بأن يزجى لهم البشرى ويبشرهم، ولم يوضح مضمون البشرى، ليكون أعم فى الدلالة، إذ يشمل كل ما يدور بخلدهم! فى الدنيا: النصر على فرعون وهلاكه والخروج من مصر وانتهاء العبودية وفى الآخرة الجنة.

«وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوَّءا لقومكما بمصر بيوتا، واجعلوا بيوتكم قبلة، وأقيموا الصلاة، وبشر المؤمنين». (٨٧ – يونس)

كانت مهمة موسى عليه السلام مهمة شاقة، فهو مطالب بأن يبنى شعبا من جديد، من قوم شربوا كؤوس الذل حتى استمرأوا مذاقه، واستكانوا دهرا طويلا للعبودية، والذل يفسد الطبيعة البشرية ويقتل فيها روح المقاومة والنضال ويجعلها تستسلم للأمر الواقع، فكان عليه أن يبدأ من الصفر، بل بما دون الصفر، فإن عقيدة القوم قد انحرفت وتشوهت صورتها فى قلوبهم فكان عليه أن ينزع الصورة القديمة وما علق بالنفوس من وثنية المصريين ليحل محلها

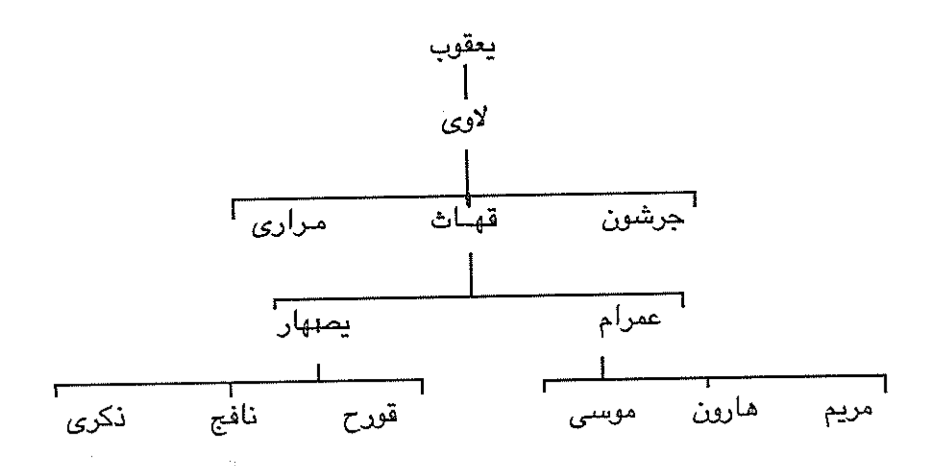
إيمان خالص بالله الواحد الأحد. فيخلق من بنى إسرائيل شعبا يقوده إلى «الأرض الموعودة» ليقيم دولة له هناك. وهكذا بدأ موسى وهارون فى تربية النفوس - وبدأت دعوة الإيمان الحق تنتشر ببطء فى جموع بنى إسرائيل.

وكانت عيون فرعون ترصد ذلك. ليس هناك من شيء يؤخذ على موسى بحيث يمكن أن يضعه فى السجن بسببه. فقد انكفأ على بنى إسرائيل يقوى إيمانهم ويحثهم على الصبر على ما ينزله بهم فرعون من تعذيب وتسخير ويزرع فى نفوسهم الأمل بأن فرج الله آت لامحالة.

وأدرك فرعون مخاطر التفاف جموع بنى إسرائيل خلف موسى وهارون. وكان فى جعبته خطة لتفتيت وحدة بنى إسرائيل. وكان «**قارون**» «هو وسيلته لهذا الهدف وأراد فرعون أن يجعل منه «**زعيما**» لبنى إسرائيل ليصرفهم عن الالتفاف حول موسى.

قــارون :

«إن قارون كان من قوم موسى» . (٧٦ - القصص)



على قول ابن إسحق هو عم موسى وقال الأعمش وغيره: ابن عمه. ولم تشر التوراة إلى قارون إطلاقا مع أنها ذكرت قورح الذى ثار على قيادة موسى لبنى إسرائيل فى سيناء وانضم إليه ٢٥٠ شخصا من بنى إسرائيل واتهموا موسى وهارون بأنهما يترأسان بنى إسرائيل جورا وبدون وجه حق فكان مصيرهم: (إصحاح ١٦ عدد: ٢١) انشقت الأرض التى تحتهم وفتحت الأرض فاها وابتعلتهم وبيوتهم وكل ما كان لقورح مع كل الأموال. وخرجت نار من عند الرب وأكلت الـ ٢٥٠ رجلا وهو ما سنشرحه فيما بعد بالتفصيل (ص ١٠٥٤). المهم أن هذا

المصير – وهو نفس المصير الذى لاقاه قارون كما جاء فى القرآن الكريم: «**فخسفنا به وبداره الأرض**» – جعل أهل الكتاب يقولون إن قارون هو قورح وللأسف فإن بعض المفسرين الإسلاميين نقلوا عنهم هذا القول فقد جاء فى تفسير القرطبى (تفسير الآية ٧٦ سورة القصص): قال النخعى وقتادة وغيرهما: كان ابن عم موسى، وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وموسى بن عمران بن قاهث. وتلقف المستشرقون المنكرون لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم. هذا القول وراحوا يقولون إن محمدا سمع قورح فعرّبها إلى قارون ثم نسج حوله قصة ثرائه وكنوزه ولكنه استبقى المصير الذى لقيه قورح وهو خسف الأرض به وبداره. وهذا افتراء على الله وعلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم. وجاء القرآن الكريم ليظهر الحقيقة التى طمسها كتاب التوراة عند إعادة كتابتها فى المنفى فحذفوا منها كل ما يتعلق بقارون. ذلك أنهم اعتبروا أن قارون كان نقطة سوداء فى تاريخ بنى إسرائيل. إذ هو من شيوخ بنى إسرائيل وهو عم موسى عليه السلام. ولكنه كان ممالئا لفرعون. بل كان سوط عذاب لفرعون على بنى إسرائيل وجمع ثروته من عرقهم. ومن هنا كان عدم إيمانه بموسى. وكفر بأنعم الله عليه وقال عن ثروته «**إنما أوتيته على علم عندى**». فكان أن خسف الله الأرض به وبداره – وما كان فيها من كنوز وكانت داره فى مصر فى منطقة الفيوم – وارتأى كتاب التوراة أن شخصيه مثل هذه لايجب أن تذكرها الأجيال القادمة فحذفوها. أما قورح – الذى كانت ثورته على موسى فى سيناء. وجمع حوله ٢٥٠ من بنى إسرائيل واعترضوا على ترأس موسى للشعب. فإنهم حرصوا على إثبات قصته تغليظا لمصير أولئك الذين تجرّأوا على نبيهم وكان مصيره خسف الأرض به وناراً أحرقت المتضامنين معه.

اسم قارون ؟

يقرر القرآن الكريم «**إن قارون كان من قوم موسى**». ولو استعرضنا أسماء أولاد وأحفاد لاوى (موسى من سبط لاوى) لانجد بينهم من تسمى باسم قارون. **وفى رأينا** أن «**قارون**» هو نفسه «**يصهار**» عم موسى. وقد يقول القارىء شتان بين اسم يصهار وبين اسم قارون. ولكن أحيل القارىء إلى ما سبق كتابته فى الجزء الأول ص ٤٨ عن اسم إدريس عليه السلام كما ذكر فى القرآن الكريم واسمه فى التوارة أخنوخ. وضربنا مثالا بمدرسة البونپاستير التى تعرب إلى الراعى الصالح. والسكركير تعرب إلى القلب المقدس.

والدليل على أن يصهار عم موسى هو نفسه قارون الآتى:

١ – جاء فى قاموس الكتاب المقدس (ص ١٠٧٢): يصهار اسم عبرى معناه يضىء أو يشرق.

٢ – جاء فى تفسير القرطبى إن قارون كانت كنيته فى قومه «المنوِّر» لوضاءته وجماله.

٣ – الجذر العبرى «قَرَنْ» معناه أنار وأضاء وأشع. واشتقاقا منه: قارون.. بمعنى الأنور المنوّر (الأستاذ رؤوف أبو سعدة. من إعجاز القرآن. جـ٢ ص ٧١).

من هذا يتضح أن «قارون» الذى أخبر عنه القرآن الكريم هو يصهار عم موسى الذى ورد اسمه فى التوارة. زيادة على ذلك فإن اسم «قارون» يحمل معنى آخر. ذلك أن الفعل «يَقَرَ» العبرى هو الفعل «وقر» العربى وكلاهما يفيد معانى الثقل والعظمة والمال. فالوِقر يعنى الحمل الثقيل والوقار من معانيه العظمة. وحينما اشتق القرآن الكريم من يقرون اسم قارون لم يبعد كثيرا عن قواعد اللغة العبرية حيث يُشتق من يشرون اسم شارون. من هذا نرى أن اختيار اسم قارون كان إعجازا لفظيا من القرآن الكريم. إذ يتمشى مع قواعد اللغة العبرية – وفى نفس الوقت يعنى المنير وهو نفس معنى اسم يصهار – كما أنه يتضمن معنى الحمل الثقيل وفيه إشارة إلى كنوزه التى كانت مفاتيحها من الثقل بحيث يعجز عن حملها الرجال الأشداء.

«وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة». (٧٦–القصص)

كما أن يصهار – الذى هو قارون – هو والد قورح الذى ثار على موسى فى سيناء ولعل ما حدث من خسف أموال قارون كان له أثر عميق فى نفس قورح إذ فقد المال الذى كان يمنى نفسه بالتمتع به بعد أن يؤول إليه. ولكن هاهى آماله قد ضاعت. وحملها فى نفسه. وخرج من مصر مع موسى إذ لم يعد هناك من شىء يربطه بمصر إلا الأسف على هذه الثروة الضائعة. ونفَّس عما فى دخيلته فيما بعد بالثورة على موسى وهارون. وكان مصيره أن خسف الله به الأرض هو الآخر فى سيناء كما خُسفت الأرض بأبيه من قبل فى مصر.

قصة قارون :

كان «يصهار» أى قارون، أحد شيوخ بنى إسرائيل وكان مواليا لفرعون فجعله رئيس سخرتهم. ولعله كان يقتطع لنفسه جزءا من أجورهم كما كان يفعل «الخولى» من اقتطاع جزء من أجر الفلاحين الذين يعملون فى عزبة الباشا. وزادت ثروة قارون وأراد أن يبنى لنفسه قصرا. ولم يشأ الفرعون أن يكون قصره بجوار القصر الملكى. كما أن قارون لم يشأ أن يكون قصره بجوار أرض جاسان – حيث يسكن بنو إسرائيل – إذ يرون مدى تعاونه مع المصريين. ويقارنون بين ثرائه الذى يزداد يوما بعد يوم – وفقرهم الذى يزيد هو الآخر يوما بعد يوم «والبؤس الذى يرزحون تحت وطأته والتسخير والتعذيب الذى ينزل بهم كل يوم لذلك فإن فرعون أقطعه أرضا فى الفيوم فبنى على شاطىء البحيرة قصرا فخما.

قلنا إن فرعون كان يريد استغلال قارون لتفتيت وحدة بنى إسرائيل وصرفهم عن موسى. وبدأ قارون يستقطب نفرا من بنى إسرائيل يتركون أرض جاسان ويأتون إلى منطقة الفيوم

يعملون فى أرضه. وكان قارون حسن الطلعة وقد سبق أن قلنا إن كنيته كانت «المنير». تطبع بطباع المصريين وعاداتهم وكانت له العربات والجياد، ولم يعد يتمسك بعبادة التوحيد التى كان عليها جده يعقوب عليه السلام بل لعله أصبح ينظر إليها على أنها عبادة المستذلين الضعفاء. واستهوته معابد المصريين وفخامتها وأثرت فى نفسه الطقوس التى كان الكهنة يقومون بها ويحضرها مع فرعون.

وعلم موسى بما صار إليه حال قارون فأرسل بعضا من شيوخ بنى إسرائيل. وقال له العقلاء من قومه: لا تفرح بما أنت فيه ولا تتكبر على الناس فإن الله لايحب الذين يفرحون بالدنيا وينسون الآخرة. وإذا كان الله قد أعطاك مالا وجاها فاجعلهما وسيلة لتحقيق ثواب الله فى الدار الآخرة. وخذ من الدنيا بنصيب يحقق لك الحياة والسعادة ولكن لا تكن الدنيا هى كل همك وتنسى الآخرة. وكما أحسن الله إليك بأن هيأ لك أسباب الثروة والوجاهة فأحسن إلى عباد الله ولا تطغَ ولا تمشِ فى الأرض فسادا وإفسادا فإن الله لا يحب المفسدين وذكروه بأن ذلك كله من فضل الله عليه.

«إذ قال له قومه لاتفرح إن الله لايحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة. ولا تنس نصيبك من الدنيا. وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض. إن الله لايحب المفسدين». (٧٦ - ٧٧ - القصص)

ولكنه قال لهم إنه قد حقق هذه الثروة بمجهوده وعلمه وعمله.

«قال أنما أوتيته على علم عندى». (٧٨ - القصص)

ومن الموضوعات والخرافات فى هذا الشأن ما قالوه من أنه حقق ثروته من علم الكيمياء. وينفى ابن كثير الزعم بتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة فيقول إن قلب الأعيان لا يقدر عليها أحد إلا الله عزَّ وجل ولا يتم إلاَّ بمشيئته كمعجزة يجريها على يد بعض أوليائه. (تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٩٩). وجاء فى تفسير الألوسى (جـ٢٠ ص ١١٣) قيل إنه كون ثروته عن طريق علم الكيمياء. وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبا!

ولا يخفى أثر الخيال فى وضع مثل هذه الأقوال.

وقال له الناصحون - ممن هم على علم بأحوال الأمم السالفة - إن الله أهلك مِنْ أهل القرون السابقة مَنْ كان أشد منه قوة وجمع من الأموال أكثر مما جمعه. وفى الآخرة لن يُسأل المجرمون عن ذنوبهم وهل ارتكبوا ذنوبا أم لا. بل ستكون ذنوبهم واضحة أمامهم فى كتابهم.

«أوَ لم يعلم أن الله قد أهلك مِن قبله من القرون مَن هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولايُسئل عن ذنوبهم المجرمون». (٧٨ - القصص)

قالوا (تفسير الألوسى جـ ٢٠ ص ١٢٢) إن موسى عليه السلام بعد أن فرض الصلاة على بنى إسرائيل فرض أيضا عليهم الزكاة وأرسل إلى قارون ليخرج زكاة ماله فأبى وقال لبنى إسرائيل الملتفين حوله: إن موسى يريد أن يأكل أموالكم. قالوا: فماذا ترى؟ فقال قارون: أن أرسل بغيا من البغايا إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها. فأرسلوا إليها وأعطوها مالاً على أن تقول ذلك ثم إن قارون جاء إلى موسى وقال له اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك قال نعم فجمعهم وقال لهم: أمرنى ربى أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا. وقد أمرنى فى الزانى إذا زنى وقد أحصن أن يرجم. قالوا: وإن كنت أنت. قال: نعم قالوا فإنك قد زنيت. وأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى عليه السلام: أنشدك بالله تعالى إلاّ ما صدقت. فقالت أما إذ أنشدتنى بالله تعالى فإنهم دعونى وجعلوا لى جعلا على أن أقذفك بنفسى وأنا أشهد الله أنك برىء وأنك رسول الله. فخر موسى عليه السلام ساجداً شكرا لله تعالى.

وقد يكون ذلك هو مقصود الآية الكريمة:

«يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها». (٦٩-الأحزاب)

ولو أن المشهور فى كتب التفسير (الألوسى وابن كثير) أن المقصود بهذه الآية شىء آخر. أخرج الإمام أحمد عن طريق أبى هريرة (مختصر صحيح مسلم ص ٤٢٦) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن موسى عليه السلام كان رجلا حيياً ستيرا. لايرى من جلده شىء استحياء منه. فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل وقالوا: ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة (انتفاخ الخصية بسائل فيها) وإما آفة. وأن الله تعالى أراد أن يبرئه مما قالوا وأن موسى عليه السلام خلا يوما وحده. فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وأن الحجر غدا بثوبه فأخذ موسى عليه السلام عصاه وطلب الحجر. فجعل يقول ثوبى حجر، ثوبى حجر! حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله تعالى. وبرّأه الله مما يقولون. ثم أخذ ثوبه فلبسه. وقالوا أيضا فى تفسير هذا الإيذاء قولا آخر يتعلق بوفاة هارون أخيه سنذكره فيما بعد (ص ١٠٨٧).

نعود إلى قارون الذى ظن أنه كلما أظهر ثراءه وكثرة ماله سيكون ذلك رافعا لقدره فى بنى إسرائيل فيلتفوا حوله ويتركوا موسى. وخرج قارون على قومه فى أبهى زينته. وهنا مجال للمبالغات والخيال. فقالوا خرج هو وحشمه على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر. منها ألف بغلة بيضاء. وقالوا خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف خادم عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعلى يمينه ثلاثمائة غلام وعلى يساره ثلاثمائة جارية بيض عليهن الحلى. وقيل غير ذلك من أقوال لا يخفى زيفها.

قال بعض من رأوه وكانت تستهويهم الحياة الدنيا – قالوا ياليت لنا مالاً مثل ما أوتى قارون. إنه على درجة كبيرة من الدنيا والحظ السعيد. أما المؤمنون الذين آتاهم الله العلم ويؤمنون بالآخرة فقد قالوا: ويلكم! ثواب الله فى الآخرة خير للمؤمنين ولمن يعملون الصالحات فلا يليق بكم أن تتمنوا الدنيا وزينتها. ولن ينال الآخرة إلا الذين صبروا على الطاعات وكفوا أنفسهم عن الشهوات.

«فخرج على قومه فى زينته. قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذوحظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون». (٧٩ – القصص)

وكان جزاء قارون على كفره وإنكار أن النعمة هى من فضل الله وراح ينسبها لعلمه ومجهوده. وكذلك بسبب استكباره وإفساده فى الأرض بما راح يزهو به من زينة الدنيا فتملؤ الحسرة قلوب الذين لايجدون إلا رزقهم ويسخطون على دنياهم. لكل هذه الأسباب كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يخسف الأرض به وبداره وما بها من كنوز.

«فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين». (٧٩ – القصص)

وقالوا في سبب الخسف روايات كثيرة. منها (تفسير ابن كثير. جـ ٣ ص ٤٠١) من أن قارون لما خرج فى زينته مر على مجلس موسى عليه السلام وهو يعظ بنى إسرائيل فانصرف الناس عنه إلى قارون ينظرون ما هو فيه. فقال له موسى ما حملك على ما صنعت؟ فقال يا موسى لئن كنت فُضِّلت عليَّ بالنبوة فلقد فُضلت عليك بالدنيا ولئن شئت لتخرجن فلتدعُونَّ عليَّ وأدعو عليك. فخرج موسى وخرج قارون وبعض رجاله فدعا قارون فلم يُستجب له. فقال موسى اللهم مر الأرض أن تطيعنى اليوم. فأوحى الله إليه أنى قد فعلت. فقال موسى: يا أرض خذيهم. فابتلعتهم. فقال بعض نفر من بنى إسرائيل فيما بينهم إن موسى إنما دعا على قارون ليستبد بداره وأمواله وكنوزه فدعا موسى حتى خسف الله بداره وأمواله الأرض. وذكرت روايات كثيرة أخرى لاشك أنها من الإسرائيليات فتجاوزنا عنها.

ولم يغن عنه ماله ولا خدمه ولا حشمه ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه. ولم تكن له فئة تنصره وما كان من المنتصرين.

وقال النفر من بنى إسرائيل الذين تمنوا أن يكون لهم مثل مال قارون وقالوا «**ياليت لنا مثل ما أوتى قارون**». هؤلاء لما شاهدوا كيف خسف الله به وبداره الأرض علموا أن كثرة المال ليست دليلا على رضا الله عن صاحبه. فإن الله يعطى ويمنع ويوسع ويضيق وله الحكمة التامة فى فعله. وفى حديث مرفوع عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب. واستكمل هؤلاء النفر من

بنى إسرائيل قائلين: لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا الأرض كما خسف بقارون. وأيقنوا أن الكافرين لا يفلحون.

«وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر. لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون». (٨٢-القصص)

«وى» حرف لإظهار التعجب من حمكة الله تعالى. أو للندم على ما سلف من تمنيهم أن يكون لهم مثل ما أوتى قارون (تفسير الألوسى جـ ٢٠ ص ١٢٤). وعن ابن عباس «ويكأن» حرف واحد بجملته بمعنى ألم تر. وقد تكون تعبيرا عن الندم ولعلها اختصار لكلمة «ويلى» أو «ويحى». وأدمجت فى كأن فصارت ويكأن. ويختم القرآن قصة قارون باستخلاص العبرة المرجوة من سرد القصة فليس الأمر مجرد سرد أحداث تاريخية ولكن العظة هى الهدف ويضع القرآن الكريم قاعدة عامة تربط بين العمل والجزاء:

«تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين. من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون». (٨٣ – ٨٤ – القصص)

الجنة والدار الآخرة يجعلها الله من نصيب الذين لا يريدون غلبة ولا تسلطا ولا تجبرا فى الأرض ولا فسادا. ويندرج تحت هذا كل ما من شأنه تضييع العدل وإشاعة الخوف بين الناس. ومن وسائل هذا التقرب بالزلفى للحكام لتكون لهم سطوة يبطشون بها على غيرهم ويسلبونهم أموالهم وحقوقهم. كذلك يندرج تحته الزهو والافتخار والتكبر على من دونه وتركز الآية فى نهايتها على أن المهم فى كل هذه الأمور هو التقوى وأن العاقبة الحسنة هى للمتقين.

والمبدأ الثانى هو أن من فعل حسنة فله خير منها فضلاً من الله وإحسانا. أما من جاءوا بالسيئات فسيكون جزاؤهم من نفس فعلهم.

بحيرة قارون :

هذه البحيرة الموجودة فى منطقة الفيوم طولها من الشرق للغرب ٣٠ كيلو مترا تقريبا. وعرضها حوالى ١٠ كيلومترات (شكل ٢٢٤) وقد يتبادر إلى الذهن أن البحيرة قد وجدت بعد أن خسف الله بقارون وكنوزه الأرض ولما انخفضت الأرض تجمعت فيها المياه وأصبحت بحيرة سميت على اسمه «بحيرة قارون» والحقيقة أن البحيرة كانت موجودة من قديم الأزمنة. كانت فى مبدئها منخفضا يسمى «منخفض اللاهون» وكانت مياه الفيضان تغمره فتحوله إلى بحيرة عظيمة يضيع ماؤها هباء. فعنى فراعنة الأسرة الثانية عشرة بهذا الإقليم وأقاموا جسراً على الفتحة التى تصل وادى النيل بمنخفض اللاهون وبذلك تحولت البحيرة إلى شبه خزان ترد إليه المياه عند ارتفاع النيل بواسطة ترعة (بحر يوسف الآن) وتصرف منه وقت التحاريق لرى الأراضى الزراعية. وانخفض سطح المياة فى المنخفض فتكشفت أراضى من الطمى صالحة

للزراعة وتمت زراعتها. وبالتدريج قل ما يرد إلى البحيرة من الماء فانخفض سطح المياه وأصبحت البحيرة أصغر كثيرا عن ذى قبل. وزادت الأرض الزراعية حولها.

ولعل قارون كان قد تملك مساحة كبيرة من هذه الأراضى الخصبة بجوار البحيرة وبنى قصره هناك ولما خسف الله به وبداره الأرض فإن مكان الخسف امتلا بالمياه وأصبح جزءا من البحيرة وسميت البحيرة كلها على اسمه «بحيرة قارون».

وقد أثبتت الأبحاث الجيولوجية وجود كسور فى طبقات التربة فى هذه المنطقة مما يدل على وجود خسف حدث بها فى قديم الزمن. وخاصة فى الشاطىء الجنوبى للبحيرة إذ يمر بحذائها فالق عظيم يدور حول الطرف الغربى للبحيرة ثم يتجه شمالا - (شكل ٢٢٥).

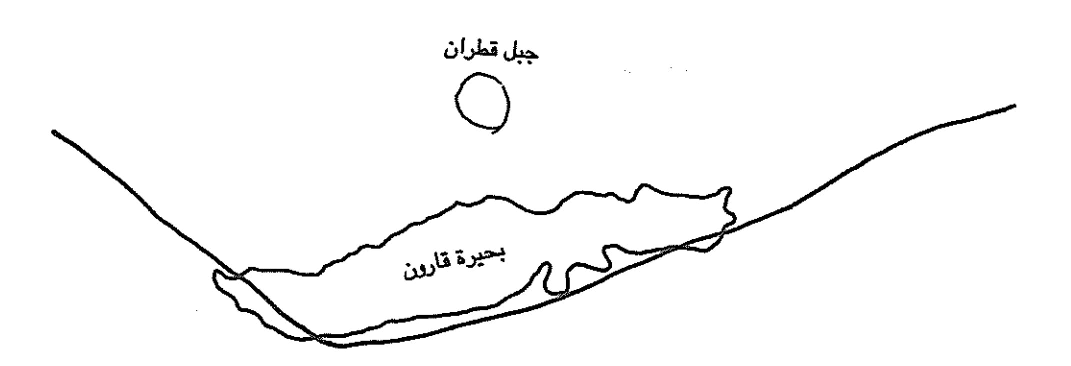
زيادة التسخير والعذاب :

انتهت الفتنة التى تزعمها قارون للنيل من قدر موسى عليه السلام. وتفتيت بنى إسرائيل. ولما خسف الله بقارون وبداره الأرض آمن بموسى من كان قد انضم إلى قارون من بنى إسرائيل. وهجروا أرض الفيوم. وفى أرض جوشن بالشرقية تابع موسى منهجه فى تعليم بنى إسرائيل أصول التوحيد الذى كان عليه الأجداد ويحث بنى إسرائيل على التمسك بأهداب الدين الحنيف. كذلك طلب موسى من فرعون أن يسمح له بأخذ بنى إسرائيل ليذهب بهم مسيرة ثلاثة أيام فى البرية يعبدون الله ويتقربون إليه بالذبائح. ولعل موسى عليه السلام. بطلبه الخروج ببنى إسرائيل ثلاثة أيام فى الصحراء لعبادة الله أراد أن يبعدهم عن مشاغل الدنيا - إذ أن العبادة فى الخلاء - حيث لا شىء غير الرمال الممتدة إلى ما لانهاية والسماء من فوقها - أدعى لأنه تكون خالصة لوجه الله ولعله أيضا أراد أن يهيئهم للمسيرة الطويلة فى الصحراء إلى أرض كنعان. وتدريبهم على مشاقها بعد أن استناموا لرغد العيش فى أرض مصر السهلة وهذا أشبه بما تفعله فرق الكشافة والجوالة فى الشباب من تعويدهم على العيشة الجافة وخشونة الحياة. ورفض فرعون طلب موسى. وعد ذلك تحريضا لبنى إسرائيل للتكاسل عن عملهم الذى سُخِّروا له.

جاء فى التوراة (إصحاح ٥ خروج): وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون: هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبى ليعبدوا لى فى البرية. فقال فرعون: من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل؟ لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه. فقالا: إله العبرانيين قد التقانا. فنذهب سفر ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب إلهنا لئلا يصيبنا بالوباء. فقال لهما ملك مصر.. لماذا ياموسى وهارون تبطلان الشعب من أعماله اذهبا إلى أثقالكما. وقال فرعون: هوذا الآن شعب الأرض كثير وأنتما تريحانهم من أثقالهم. فأمر فرعون فى ذلك اليوم مُسخِّرى الشعب ومدبِّريه قائلا: لا تعودوا تعطون الشعب تبنا لصنع اللبن كأمس وأول من أمس ليذهبوا ويجمعوا تبنا لأنفسهم. ومقدار اللبن الذى كانوا يصنعونه أمس وأول من أمس تجعلون عليهم



شكل ٢٢٤ – بحيرة قارون.



شكل ٢٢٥ – الفالق الجيولوجى الكبير الذى يمر بحذاء الساحل الجنوبى لبحيرة قارون.

لاتنقصوا منه فإنهم متكاسلون لذلك يصرخون قائلين نذهب ونذبح لإلهنا. ليثقل العمل على القوم حتى يشتغلوا ولا يلتفتوا إلى كلام الكذب (يقصد كلام موسى وهارون) فخرج مسخرو الشعب ومدبروه وكلموا الشعب قائلين: هكذا يقول فرعون لست أعطيكم تبنا. اذهبوا أنتم وخذوا لأنفسكم تبنا من حيث تجدون. إنه لا ينقص من عملكم شيء. فتفرّق الشعب فى كل أرض مصر ليجمعوا قشا عوضا عن التبن. وكان المسخّرون يعجلونهم قائلين. كملوا أعمالكم أمر كل يوم بيومه كما كان حينما كان التبن. فضُرب مدبرو بنى إسرائيل الذين أقامهم عليهم مسخرو فرعون وقيل لهم لماذا لم تكمّلوا فريضتكم من صنع اللبن أمس واليوم كالأمس وأول من أمس. فأتى مدبرو بنى إسرائيل وصرخوا إلى فرعون قائلين: لماذا تفعل هكذا بعبيدك. التبن ليس يعطى لعبيدك. واللبن يقولون لنا اصنعوه وهو ذا عبيدك مضروبون. فقال لهم: متكاسلون أنتم متكاسلون. لذلك تقولون نذهب ونذبح للرب. فالآن اذهبوا اعملوا وتبن لا يعطى لكم ومقدار اللبن تقدمونه.

وكدليل مادى على صحة ما ورد فى هذه الفقرة من التوراة هو ما كشفت عنه حفائر الدكتور إدوارد ناڤيل عام ١٨٨٣ فى بلدة «تل المسخوطة» وأثبت أنها هى مدينة «فيثوم» أو «بيثوم» مدينة المخازن التى بناها بنو إسرائيل لرمسيس الثانى. إذ وجد حجرات مستطيلة خالية من الأبواب ويفصل كل منها عن الأخرى جدران سميكة من اللبن الخشن الصناعة وكانت الحبوب – طبقا لطريقة المصريين القدماء تلقى من خلال فتحات فى السقوف. ولوحظ أن اللبن التى بنيت به مدينة بيثوم من ثلاثة أصناف: ففى المداميك السفلى لجدران هذه المخازن نجد اللبن مختلطا بالقش الهشيم (التبن). وفى أعلاها عندما نقص القش (ولم يعد يعطى للعمال) نجد الطين مخلوطا بالبوص. وأخيرا عندما عندما نفذ البوص نجد لبن المداميك العليا قاصرا على الطين النيلى دون استخدام أية مادة أخرى (الآثار المصرية فى وادى النيل. چيمس بيكى. مترجم. الجزء الأول ص ٥٣).

وظل فرعون فى تكبره وتجبُّره وجاءته الآيات فلم يؤمن وكان المفروض فى مستشاريه. وحكماء عصره أن ينصحوه بالاستجابة لمطلب موسى وهارون. ولو كانت الديمقراطية معروفة فى ذلك الوقت لقامت أحزاب المعارضة بنصح فرعون بإطلاق سراح بنى إسرائيل. ولكن الحكم كان دكتاتوريا إلى أبعد الحدود ويستمد الفرعون سلطاته وتسلطه من ادعائه بأنه أحد الآلهة فكان رأى فرعون هو الرأى الأوحد مع أنه لم يكن فيه حكمة أو بعد نظر أو رشد. ولكن القوم كلهم تابعوه على رأيه:

«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه. فاتبعوا أمر فرعون. وما أمر فرعون برشيد». (٩٦ – ٩٧ – هود)

«فاستخف قومه فأطاعوه. إنهم كانوا قوما فاسقين». (٥٤ – الزخرف)

الإئتمار بموس لقتله :

رأى فرعون فى آخر الأمر أن الحل الأمثل هو قتل موسى. ولعله أبدى هذا الرأى أمام خاصته ووزرائه عدة مرات. ولعلهم أثنوه عن ذلك مهوِّنين من أمر موسى وقائلين إن قتله قد يجعل بنى إسرائيل يقومون بثورة عنيفة لا تحمد عواقبها. ولعل فرعون نفسه – بعد أن رأى معجزات موسى. وبعد أن وصل إليه نبأ الخسف بقارون وداره – أيقن أن رب موسى قادر على إهلاكه هو الأخر. فكان يخشى أن يمس موسى بأذى. ولم يشأ أن يظهر هذا الخوف وأراد أن يبدو الأمر كأنه لايخشى موسى ولكنهم هم الذين يثنونه عن قتله **«ذرونى أقتل موسى»** وإمعانا فى التظاهر بأنه لا يخاف موسى قال **وليدع ربه**. إى لينقذه منى. وقال لهم إنه إن لم يقتله فسيبدِّل دينكم ويغير حالكم وسينشر الفساد فى الأرض. قال ذلك حتى يوافقوه على رأيه. ولعله كان يرمى إلى أن يتحمس أحد الحاضرين فيقتل موسى فيتحقق له ما يريد دون أن يكون له صلة مباشرة بالقتل.

سمع موسى بما قاله فرعون عن رغبته فى قتله. وسمعه أيضا بنو إسرائيل. وانتظروا ليروا ما يفعل موسى. هل يهرب كما هرب فى الماضى منذ خمس عشرة سنة؟ كلاً. هو الآن نبى مرسل من ربه لإخراج بنى إسرائيل من مصر. ومستحيل أن يتركهم مهما تعرضت حياته للخطر.. وما حياته بأغلى عنده من تنفيذ أمر ربه. وأعلنهم بعزمه على البقاء وأنه توكل على الله ربه وربهم ولجأ إليه واستعاذ به ليحميه، ليس من شر فرعون فقط. بل من شر كل طاغية متكبر وما جرأته على القتل إلا لأنه لا يؤمن بأن هناك آخرة ويوم يحاسب فيه المرء على أفعاله. إذ لو آمن بيوم فيه حساب لما جرأ على التفكير فى القتل.

«وقال فرعون . ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد. وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب». (٢٦ – ٢٧ – غافر)

رجل مؤمن يكتم إيمانه :

قال رجل من آل فرعون. قيل إنه ابن عم فرعون وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد (ص ٨٩٦) كان قد آمن بموسى سرا ولم يظهر إيمانه للناس. قال لهم أتقتلون رجلا كل ما فعله هو أنه قال إن له ربا غير الرب الذى تعتقدون فيه. وقد جاءكم بالمعجزات والآيات التى تدل على صدقه وقال إنها من عند ربكم أنتم أيضا. فإن كان كاذبا فإن كذبه واقع عليه لايتخطاه إلى غيره. أما إن كان صادقا وكدتم له فسيصيبكم على الأقل بعض ما يتوعدكم به من عذاب لأن الله لا يؤيد بالمعجزات شخصا يكذب ويسرف فى الكذب. وناشدهم ثانية أنهم اليوم غالبون وظاهرون على بنى إسرائيل ولهم الملك فى أرض مصر وسألهم من ينصركم من عذاب الله إن جاء.

«وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه. أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم. وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم. إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب. يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا». (٢٨ - ٢٩ - غافر)

سمع فرعون مقالة هذا الرجل المؤمن وكان رده أن قال إن ما يشير به من قتل موسى هو الرأى الصواب والذى يجب أن يروه هم أيضا كذلك ولا يخالفوا رأيه لأنه يقول بالرأى الرشيد.

«قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد». (٢٩ - غافر)

وعاد الرجل المؤمن يناشد قومه ويقول لهم إنى أخاف عليكم - من جراء تكذيبكم بموسى - أن يحل عليكم ما حل بالذين تحزَّبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية وكذبوا رسلهم مثل قوم نوح وعاد وثمود وآخرين جاءوا بعدهم (مثل قوم لوط وأهل مدين). وما حل بهؤلاء لم يكن ظلما بل عدلا من الله جزاء تكذيبهم.

«وقال الذى آمن يا قوم أنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب. مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم. وما الله يريد ظلما للعباد». (٣٠ - ٣١ - غافر)

واستمر يناشدهم ويذكِّرهم بأنه يخاف عليهم ما يحل بهم من عذاب فى الآخرة - فى يوم القيامة. حين ينادى الناس بعضهم بعضا. وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء. وينادى أصحاب النار على الخزنة أن يخففوا عنهم العذاب. وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار قائلين لهم إنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقا فهل وجدوا هم أيضا أن وعد الله ووعيده حق. هكذا ينادى الكل. فهو «يوم التناد».

«ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد». (٣٢ - غافر)

ونذكر فيما يلى بعضا من الآيات التى توضح لماذا سُمِّىَ.. يوم التناد:

«ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا. فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا». (٤٤ - الأعراف)

«ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم». (٤٦ - الأعراف)

«ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم». (٤٨ - الأعراف)

«ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء..». (٥٠ - الأعراف)

«ونادوا يا مالك ليقضى علينا ربك قال إنكم ماكثون». (٧٧ - الزخرف)

«ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى..». (١٤ - الحديد)

«يوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون». (٦٢ - ٧٤ - القصص)

«ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين». (٦٥ – القصص)

«ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون». (٤٣–الأعراف)

«ينادَوْن لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم». (١٠ – غافر)

«واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب». (٤١ – ق)

فهو بحق يوم التناد. وقال لهم إنهم فى هذا اليوم سيحاولون التراجع عن النار ويجرون هاربين منها، ولكن ليس هناك من يعصمهم من عذاب الله. ومن يكتب الله عليه الضلال فليس هناك من أحد يهديه وكأنه يقول لهم ولا أريد لكم أن تكونوا من الذين كتب عليهم الضلال.

«ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد. يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم. ومن يضلل الله فما له من هاد». (٣٢ – ٣٣ – غافر)

ثم قال لهم: لقد جاءكم يوسف من قبل بالآيات الواضحة الدالة على أن الله هو العلى القدير وأنه نبى مرسل. وكانت آيته أن حفظ مصر من المجاعة بهدى من الله تعالى ولكنكم لم تؤمنوا بدينه إلى أن مات. فقلتم إن الله لم يبعثه ولم يبعث من بعده رسولا. فلا تكونوا من الذين يسرفون فى العصيان ويرتابون ويشكون فى الدين فهؤلاء لم يقيض لهم الله الهدى. وهؤلاء يجادلون فى آيات الله ويُشككون فيها ويكذبونها بغير حجة. وهذا الجدال ممقوت عند الله وعند المؤمنين. وحذرهم من أن أمثال هؤلاء – الذين يضلون ويسرفون فى الضلال والذين يجادلون فى آيات الله – يطبع الله على قلوبهم بكبرهم وتجبرهم. فلا يؤمنون أبدا ويكونوا من أصحاب النار.

«ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا. كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب. الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم. كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا. كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار». (٣٤–٣٦ – غافر)

ردا على مقالة هذا الرجل الذى آمن وليزيل ما يكون قد علق بنفوس بعض سامعيها من أثر لجأ فرعون إلى:

– الإقلال من شأن موسى.

– بناء صرح للتدليل على عدم وجود إله.

– ادعاء الألوهية.

الإقلال من شأن موسى :

رأى فرعون أن خير ما يقنع به الناس من أن ما يقوله لهم هو الحق. هو أن يقارن بين ما هو فيه من ملك وجاه وبين ما فيه موسى من فقر وضعف واستعباد قومه. فنادى فرعون فى

الناس مفتخرا وسألهم سؤال تقرير: أليس هو ملك مصر وله القصور التى تجرى الأنهار من أمامها وعلى درجة من القرب بحيث أن الجالس فى شرفات القصر تكون المياه تحت قدميه، وسألهم أليس هذا هو الواقع الذى يلمسونه. وراح يقارن بين حاله وبين ما فيه موسى من رقة الحال كأنما يبكت الذين آمنوا والذى آمن بالذات. ويكاد يتهمه بالجهل إذ أنه لا يرى الفرق الواضح فيطلب منه أن يتبع موسى. وكأنه يسأل هل يتبع العظيم رجلا ضعيفا؟ واتهم موسى بأنه ذليل ومهين إذ أن قومه أذلاء من السخرة. ثم راح يسخر من موسى نفسه ويتهكم على اللثغة التى فى لسانه ويدعى أنها تكاد تعوقه عن بيان ما يريد قوله وكأنه يوجد لنفسه العذر فى عدم اتباعه.

«ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين».

(٥١ ، ٥٢ – الزخرف)

كذلك كان من عادة المصريين أن الفرعون إذا اختار وزيرا أو نائبا له – وضع طوقا من ذهب فى عنقه وخلع عليه خاتمه أو أسورة من أساوره. ولقد رأينا ذلك من قبل حينما قُلِّدَ يوسف عليه السلام ليكون نائبا للفرعون (جـ ٣ ص ٤٨٩– ولو أن الفرعون كان وقتئذ من الهكسوس إلا أنهم كانوا يتبعون تقاليد المصريين) وتساءل فرعون: إذا كان الله قد اختار موسى رسولا فلماذا لم يلق إليه بأسورة من ذهب لتدل على صدق مكانته عند ربه. أو كان يرسل معه الملائكة يلازمونه ويعينونه! وراح يردد هذا المنطق المعوج والمستخف بالعقول إذ يريد أن يطبق سلوك البشر على الإله عز وجل. ومع هذا فقد أطاعه قومه فيما ذهب إليه. وانقادوا له وتابعوا منطقه. فدلُّوا بذلك على أنهم قوم فاسقون إذ لولا أنهم كذلك لما انقادوا له بهذه الخفة.

«فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين. فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين». (٥٣ – ٥٤ – الزخرف)

الصـرح :

الصرح هو كل بناء عال وجمعه صروح (مختار الصحاح طبعة ١٩٩٥ – ص ١٥١). قلنا إن فرعون ادعى أنه إله. وإمعانا فى تكذيب موسى والاستهزاء به طلب من وزيره أن يبنى له برجا عاليا من الطوب المحروق أى الآجر. ليصعد عليه فى السماء ويرى إله موسى!

«وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى. فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى. وإنى لأظنه من الكاذبين. واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون». (٣٨ – ٣٩ – القصص)

«وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زُيِّن لفرعون سوء عمله وصُدَّ عن السبيل وماكيد فرعون إلا فى تباب». (٣٦ - ٣٧ - غافر)

كانت المبانى - حتى ذلك الوقت - تقام من الطوب اللبن أو الحجارة وقد سبق أن ذكرنا (ص ٨٧٩) أن مدينة المخازن ڤيثوم، وكل المدن الأخرى تقريبا كانت مبنية بالطوب اللبن ماعدا المعابد والقصور فكانت من الحجارة، وفى أواخر عهد رمسيس الثانى تم اكتشاف أن حرق اللبن يجعله أكثر صلابة وأطول عمرا . ولا توجد آثار بنيت بالطوب الأحمر قبل عصر رمسيس الثانى، وقد عثر «بترى» - عالم الآثار - على عدد من الطوب المحروق بنيت به قبور وأقيمت به بعض المنشئات ترجع إلى عصور الفراعين رمسيس الثانى ومرنبتاح وسيتى الثانى، عثر عليها فى نبيشة ودفنة غير بعيدين عن مدينه قنتير أى برعمسيس». (دراسات تاريخية فى القرآن الكريم . د. محمد بيومى مهران جـ ٢ - ص ٣٢٥) ولعل السرد القرآنى لبناء الصرح فى سورة القصص والنص على طريقة صنع الآجر بحرق الطين فيه إشارة إلى أن الفرعون الذى عاصر موسى عليه السلام هو أول من اكتشف هذه الطريقة ويكون ذلك دليلا آخر على أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى.

وهكذا قال رمسيس الثانى لوزيره هامان أن يبنى له برجا عاليا حتى يرى الإله الذى يقول موسى إنه إلهه وإله العالمين، وقال له إنه يعتقد أنه لو فعل ذلك فلن يجد شيئا لأنه يظن موسى كاذبا فى قوله، وقالوا إنه وقد وصل إلى هذه النتيجة فإن الصرح لم يبن، وهذا ما نعتقده، إذ أن أى بناء فى عصرنا الحالى يبنى بالطوب والأسمنت - حوائط حاملة - أى بدون أعمدة خرسانية لايجب أن يزيد عن ٦ أو ٧ طوابق على الأكثر أى ٢١ مترا فهو لن يكون مرتفعا بالنسبة لبعض المسلات التى كانت تبلغ ٢٩ مترا أو تمثاله الذى وجدت بقاياه فى صان الحجر «تانيس» والذى كان يبلغ ارتفاعه ٢٨ مترا . ولم يكن الأسمنت قد عرف فى عصرهم وكان الطين هو المادة اللاصقة فى المبانى، فلا يزيد ارتفاع بالطوب الأحمر والطين عن ٥ طوابق أى ١٥ مترا فلا يعتبر بناء هائلا يقنع الناس بعدم وجود إله إذا صعد عليه.

وقيل إنه بنى فعلا بناء عاليا وصعد عليه ثم نزل فقال للناس: لم أجد الإله الذى يقول به موسى وعليه فهو من الكاذبين، وقال لهم ما علمت لكم من إله غيرى، وروى عن السدى: لما بنى الصرح ارتقى فوقه وأمر بنشابة فرمى بسهم نحو السماء، فرد إليه وهو مُضرَّج دما فقال قتلت إله موسى (تفسير الألوسى جـ ٢٠ ص ٨٠)، على أن ما نميل إليه هو أن كلامه كان مجرد استهانة واستهزاء بموسى، فلم يبن الصرح.

وظل فرعون فى كبره وغروره هو وجنوده مع أنهم على باطل وليسوا على حق «**واستكبر هو وجنوده بغير الحق**»، وفى ظنهم أنهم لن يرجعوا إلى الله فيحاسبهم على أقوالهم وأفعالهم هذه

«**وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون**». وزين له غروره أن أفعاله هذه – من تكذيب موسى وإنكار وجود الله – هو الرأى الصحيح وصدته أوهام العظمة التى تملكته – عن تصديق موسى واتباع السبيل الصحيح والطريق السليم. «**وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصُد عن السبيل**». وتَبَّ انقطع ومنه «**تبت يدا أبي لهب وتب**» وكذلك تب بمعنى خسر وهلك. وتباً له أى أهلكه الله. ثم يقرر القرآن الكريم أن كل تدابير فرعون وأفعاله وما يكيد ليصد عن دعوة الحق كل ذلك مآله الخسران والهلاك «**وما كيد فرعون إلا فى تباب**».

وتصرف فرعون من بناء صرح للصعود عليه للتدليل على عدم وجود إله يذكرنا بما قاله جاجارين – أول رائد فضاء – وهو سوفيتى ملحد. إذ قال بعد نزوله من دورانه حول الأرض: لم أر الإله الذى يقول بوجوده المؤمنون!

ادِّعاء الألوهية :

يبدو أن فرعون وقد أقنع نفسه بهذه الطريقة الساذجة – بناء الصرح والصعود فوقه – بعدم وجود إله فأرسل رسله فى البلاد ينادون أن فرعون هو الرب الأعلى.

«**فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى**». (٢٣ – ٢٤ النازعات)

«**وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى**». (٣٨–القصص)

وقد سبق أن ذكرنا فى التحليل النفسى لشخصية رمسيس الثانى (ص ٦٨٥ و ٦٨٩). إشراك والده له فى الحكم فى سن العاشرة والمديح الذى كان المحيطون به يكيلونه له بلا حساب وفى كل وقت. كل هذا خلق فى نفسه شعورا بالتعاظم. فإذا أضفنا إلى ذلك طول مدة حكمه التى بلغت حتى ذلك الوقت ٦٣ سنة لأدركنا لماذا ظن نفسه إلها. فالآلهة هم المخلدون.

ولا بأس من أن نتطرق قليلا لموضوع العلاقة بين الملوك والآلهة فى مصر القديمة.

لقد سبق أن ذكرنا فى الجزء الأول (ص ٦٣) اندماج المقاطعات التى كانت تتكون منها مصر إلى مملكتين: مملكة الدلتا أو مملكة الشمال ولها ملك يلبس تاجا أحمر وعاصمتها بوطو (حاليا إبطو. إحدى قرى مركز دسوق) والأخرى فى الصعيد أو مملكة الجنوب وعلى رأسها ملك يلبس تاجا أبيض وعاصمتها نخب (حاليا عزبة الكاب مركز إدفو). وكان لكل مملكة إلهها الخاص بها إلاّ أن المعبود «حوريس» (ورمز له بالصقر) كان يُعبد فى كل من المملكتين. وكان ملوك هاتين المملكتين يلقبون بـ «خدام حوريس» وقد صبغهم المصريون بصبغة دينية إذ اعتقدوا أن أرواحهم بعد الموت تكون واسطة بين الناس والآلهة. وبمرور الزمن اعتبر هؤلاء الملوك أشباه آلهة. ومن هذا يمكن أن نتصور مدى ما كان لملوك هاتين المملكتين من نفوذ وسلطان (مصر فى العصور القديمة. راجعه محمد شفيق غربال. ص ١٩) ثم جرت محاولات أولية لتوحيد المملكتين إلى أن تحقق التوحيد على يد الملك «نارمر» أو «مينا» وأقام الأسرة الأولى وتلتها الأسرة الثانية.

كان الملك يعيش فى قصر على ربوة يشرف منه على رعاياه. ولذلك عَرف المصريون القدماء قصره باسم «پرعو» أى البيت العالى. ويرجح أن لفظ «فرعون» - ومعناه صاحب البيت العالى. اشتق من ذلك الإسم كما كان يطلق على سلاطين آل عثمان «الباب العالى». وكان لقصر الفرعون بابان عظيمان يمثلان الملكية المزدوجة - الصعيد والدلتا. وكانت الملكية - كما ذكرنا - مطلقة أساسها قدسية الملك. ويلقب بأنه «حوريس الحى». هو ليس إلها مثل حوريس ولكنه صورة له. وهذا يعنى وجوب الخضوع التام له. فالملك هو «صورة حية للإله تعيش على الأرض» و«الإله هو الذى يتحدث من فمه».

ثم جاءت الأسرة الثالثة وقام الملك «زوسر» وكان وزيره «أمحوتب» مضرب الأمثال فى الحكمة وبارعا فى الهندسة فوضع تصميم الهرم المدرج وبناه فى سقارة. وهو يعد أول بناء حجرى كبير عرفه التاريخ. وذاع صيت أمحوتب فى الطب كذلك وأصبح أعظم أطباء عصره وعُين فى وظيفة رئيس الكهنة ومهمته خدمة الآلهة فى المعبد وتلاوة الصلوات نيابة عن الملك. ثم جاءت الأسرة الرابعة ومن ملوكهما سنفرو وخوفو وخفرع ومنقرع وكل منهم بنى لنفسه مقبرة على شكل هرم. أعظمها جميعا هرم خوفو أو الهرم الأكبر وكان ارتفاعه عند بنائه ١٤٦ مترا. وجاء بعده ابنه خفرع وبنى الهرم الأوسط وارتفاعه ١٤٣ مترا. إلا أنه يبدو أكثر ارتفاعاً من الهرم الأكبر لأنه بنى على جزء من الهضبة أكثر ارتفاعاً. كما نحت تمثال «أبى الهول» المشهور. وجاء بعده منقرع (منكاورع) وبنى الهرم الأصغر وارتفاعه ٦٦ مترا. ثم توالى ملوك آخرون وبنى كل منهم لنفسه هرما أصغر من سابقه. وكان بجوار كل هرم معبد تقام فيه الطقوس الجنازية للملك المتوفى.

من المرجَّح أن الكهنة بدأوا يشعرون بعدم الرضا إذ أن فراعنة هاتين الأسرتين سخَّروا الشعب كله في بناء الأهرامات وهى عبارة عن مقابر للملوك. ولم يهتموا ببناء معابد تقام فيها تماثيل الآلهة وتقدم لها القرابين الكثيرة والتى تؤول فى النهاية إلى الكهنة فينعمون بها. ورأى الكهنة الخطر يتهدد أرزاقهم من استمرار هذا الإتجاه لدى فراعين الأسرة الرابعة. فأزمعوا تغيير الأسرة الحاكمة. وتزعم هذه الحركة كهنة «رع» بمدينة عين شمس. فأشاعوا: «أن «رع» كان غير راض عن الملك خوفو الذى بنى الهرم الأكبر. وكذلك سمح لابنه وحفيده ببناء الهرمين الثانى والثالث وأن «رع» أراد أن يحكم مصر من بعدهم ملوك يفوق تقديسهم للإله تفكيرهم فى تشييد مقابرهم الضخمة. ملوك يشيدون المعابد ويقدمون القرابين على المذابح ويكدسونها ويجعلونها كثيرة وافية» . ورأى كهنة رع أن يقوموا هم أنفسهم بتأسيس الأسرة التى تحكم البلاد. ولكنهم اصطدموا بالشرعية التى تقضى بأن يكون الملك من سلالة ملك. وهنا تفتق ذهنهم عن حيلة ذكية تكسب الملك الجديد - منهم- شرعية أقوى. وهو أن يكون الملك من سلالة الآلهة! وقد أصبحت هذه الأسطورة ذات أثر كبير فى علاقة الملوك بالآلهة فى كل الأسرات

التالية، وأشاع كهنة هليوبوليس: «أن الإله «رع» قد اختار زوجة كبير الكهنة وجعلها تحمل منه وتلد بمساعدة الآلهة ثلاثة أبناء هم باكورة جيل جديد من الملوك. أعطاهم خنوم أعضاء قوية وأعطتهم إيزيس أسماءهم. وجعلهم الآلهة ملوكا حقيقيين سيتقلدون الملك فى هذه البلاد بأجمعها». وهكذا تولى هؤلاء الملوك الثلاثة الواحد تلو الآخر الملك باسم «أوسركاف» و«سحورع» و «كاكاى» وهم أول ملوك الأسرة الخامسة.

هذا الانقلاب الدينى زاد نفوذ الكهنة كثيرا وخاصة كهنة «رع» فى هليوبوليس. وعلى الرغم من أن ملوك هذه الأسرة استمروا فى بناء الأهرامات كأسلافهم - ربما حتى لا يكونوا أقل شأنا - إلا أن عنايتهم بها قلت كثيرا فكانت أهراماتهم صغيرة الحجم (هرم أوسركاف ٤٩ مترا وهرم سحورع ٤٨ مترا). ولكنهم زادوا من اهتمامهم بالمعابد. وبعد أن كانت المعابد جنازية ومقامة بجوار الأهرامات محجوبة عن الشعب - أصبحت مشكوفة للناظرين. وأقيمت مسلة ضخمة على هرم ناقص. وكانت المسلة هى رمز إله الشمس «رع». وارتفع نجم «رع» كثيرا وأصبح اسمه يضاف إلى أسماء الآلهة الأخرى: سوبك رع - مونت رع - خنوم رع وهكذا... وبلغ إله الشمس فى شخصيته الجديدة «ملك الآلهة» أسمى درجات التقدير حتى إن آمون نفسه إله طيبة أصبح اسمه «آمون رع» وبالطبع كثرت المعابد وكثرت القرابين وزاد الكهنة ثراء وقوة وخاصة كهنة «رع».

وتكررت الأسطورة مرة ثانية ولكن فى طيبة هذه المرة إذ جاء فى النقوش على المعابد ماملخصه أن الإله «آمون» أراد أن ينجب ملكا يقوم بتشييد «منازل» للآلهة وتكثر على يديه القرابين التى تقدم لها فكان أن اختار زوجة الملك تحوتمس. وعندئذ تقمَّص آمون شكل زوجها الملك تحوتمس واضطجع مع الملكة التى قالت له «لقد أسبغت على جلالتى من عظمتك وتسرب نداك فى كل أعضائى» ثم حملت وولدت وسميت الابنة «حتشبسوت» كما أمر بذلك آمون رع.

وتتكرر القصة مرة أخرى مع رمسيس الثانى وكتبت بطريقة سافرة إذ تقول إن الإله «بتاح» قد أكد لرمسيس الثانى أنه قد تنبأ بالأعمال العظيمة التى سيصنعها له هذا الملك فقال: تقمصت صورة «تيس منديس» واضطجعت بجانب أمك الجميلة لكى تلدك وأصبحت أعضاؤك كلها إلهية! وقد دُوِّنت هذه القصة فوق جدران معبد أبى سمبل الذى بناه رمسيس الثانى. وما دام الملك قد ولد كابن للإله فلا بد أنه لا يموت ميتة الآدمى. فإذا ما انتهت حياته السعيدة فهو يصعد إلى السماء ويندمج فى قرص الشمس التى خرج منها. وهناك أشياء أخرى اكتسبها الملوك من تلك الحقيقة التى اعتبروها من خصائصهم كأولاد للإله وكائنات إلهية. فهو يحمل فوق رأسه «الصل» مثله فى ذلك مثل إله الشمس. والصل هو ذلك الثعبان الذى يحرق الأعداء بزفيره النارى. وأصبح الصل هو الرمز الملكى يضعه الملك فوق جبينه أو فوق تاجه. وأهم من ذلك أن الملك أصبح ينظر له بأن له اتصال خاص بالآلهة. فهو منهم وابنهم

وهم آباؤه. وكان تأليه الفرعون بعد وفاته أمراً عاديا. إذ أن الفرعون بعد وفاته أصبح روحا وانضم إلى «آبائه» ويجوز عندئذ عبادته والتضرع له والتوسل به لقضاء الحاجات. على أن صورة الملك نفسه فى هذه الحالات لا تظهر فى الرسم. بل يستدل عليها من النقوش التى كانت تدون خلف الآلهة وتدل على روح الملك (كا). وجاء ذلك فى رسوم عديدة على جدران المعابد. إلاَ أن رمسيس الثانى مضى فى هذا الاتجاه لدرجة أبعد من سابقيه. فقد ذكرنا سابقا أنه كان شديد الفخر بنفسه لدرجة تقرب من جنون العظمة فلم يكتف بأن يكون ابنا للآلهة. فزعم أنه هو نفسه إله. فأقام لنفسه معابد جعل إهداءها لنفسه. والقرابين تقدم فيها لشخصه باعتباره أحد الآلهة وليس بشرا من نسل الآلهة. بل زعم أنه من كبار الآلهة!

«فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى». (٢٣ – ٢٤ – النازعات)

وفيما يلى أمثلة على تأليه رمسيس الثانى لنفسه (سليم حسن – مصر القديمة. جـ ٦ ص ٤٦٨)

١ – سبق أن ذكرنا (ص ٦٩٠) كيف تصور نفسه «ابنا حقيقيا» للإلهة إيزيس ورضع منها فعلا (شكل ١٢٦ ب) وتخيل أنها أرسلت له خطابا تمنحه طول حياة مثل ابنها «حورس».

٢ – فى شكل ٢٢٦ نرى قارع الطبل يتعبد لرمسيس الثانى.

٣ – فى شكل ٢٢٧ نرى رمسيس الثانى يتعبد لنفسه إذ وضع نفسه بين آلهة وادى السبوعة.

٤ – فى شكل ٢٢٨ نراه صور نفسه واضعا على رأسه الرمز الإلهى ويجلس بين الإله «مون» والإلهة «موت» ويداه متشابكتان معهما.

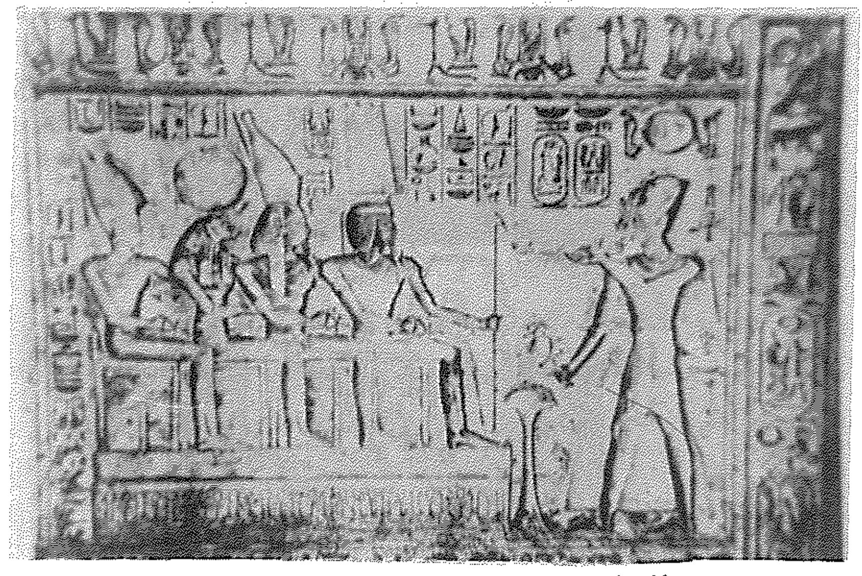
٥ – فى شكل ٢٢٩ تم إزاحة صورة الإلهة «موت» إلى اليمين وحشر صورته بين الألهة ويظهر كتف أحدهم فى شمال الصورة. ولم يستطع النحاتون محو المكان الأصلى للإلهة. موت. فظهر واضحا فى الصورة.

٦ – والعائلة المقدسة فى ممفيس تتكون من الإله «بتاح» بصورة رجل والإلهة «سخمت» بهيئة لبؤة وبينهما الابن «نفرتم». ونرى فى شكل ٢٣٠ أن رمسيس الثانى وضع نفسه مكان الابن «نفرتم» بين بتاح وسخمت بوصفه الإبن الإله.

٧ – لوحة للوزير «رع حتب» محفوظة الآن فى متحف ميونخ تمثل الوزير يتجه نحو تمثال رمسيس الثانى ويقول: الصلاة للإله الأكبر الذى يسمع الرجال. ليته يعطى الحياة والصحة والفطنة إلى الأمير الوراثى (أحد ألقاب الوزير) وحامل المروحة على يمين الفرعون. الوزير رع حتب .كما يوجد منقوشا على التمثال «رمسيس حاكم الحكام. والإله الأكبر وسيد السماء مخلدا». وفى الجزء الأعلى من نفس الوحة نشاهد رمسيس الثانى يقدم البخور ويصب الماء لتمثاله.



شكل ٢٢٦ – قارع الطبل يتعبد لرمسيس الثانى.



شكل ٢٢٧ – رمسيس الثانى يتعبد لنفسه وقد وضع نفسه بين
آلهة وادى السبوعة (الثانى من اليمين بين الآلهة الجالسين).



شكل ٢٢٨ – رمسيس الثانى وقد وضع نفسه بين الإله «آمون» والإلهة «موت» فى ثالوث آلهة.



شكل ٢٢٩ – رمسيس الثانى يفسح لنفسه مكانا بين الآلهة بعد أن أزاح صورة الإلهة «موت» إلى اليمين ولم يتمكن النحاتون من محو المكان السابق تماماً فبدا واضحا فى الصورة (من معبد أبى سمبل).



شكل ٢٣٠ – الإله «بتاح» بصورة رجل فى (يسار الصورة)
والإلهة «سخمت» برأس لبؤة (إلى اليمين) ورمسيس الثانى بينهما بوصفه الإله الابن بدلاً من «نفرتم».
(صورة من هيرا كليوپوليس)

٨ – فى معبد «أبى سمبل» تظهر صورة رمسيس الثانى مؤلها. برأس صقر. أى أنه فى هذه الحالة يمثل إله الشمس، ومكتوب بجوارها: «رمسيس الإله الأكبر» ويظهر فى رسم آخر فى صورة إنسان ولكن على رأسه قرص الشمس ومكتوب تحتها «رمسيس الإله الأكبر رب السماء».

٩ – فى معبد أكشة فى النوبة مثل فى صورة إنسان ولكن الكتابة بجواره تقول «وسر ما عت رع ستبن رع. الإله الأعظم. رب النوبة».

١٠ – فى نقوش جبل السلسلة رسم لوزير يصلى لروح الإله «بتاح» ويرى الملك رمسيس الثانى واقفا بين الوزير المتضرع والإله بتاح. بما يفهم منه أن الملك كإله حى ينقل التضرع إلى الإله بتاح . وقد كتب تحت رسم الملك : الإله الطيب «رمسيس الثانى» ابن الإله «بتاح».

هذه الأمثلة تدل على أن رمسيس الثانى قد ألَّه نفسه أثناء حياته وبذلك يكون هو القائل: **«أنا ربكم الأعلى»** والقائل **«ما علمت لكم من إله غيرى»** وهو دليل مؤكد على أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى.

هامان :

قلنا آنفا إن فرعون طلب من هامان أن يبنى له صرحا. وجاء ذكر هامان فى القرآن الكريم ٦ مرات.

«ونمكن لهم فى الأرض. ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون».

(٦ – القصص)

«فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا. إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين». (٨–القصص)

«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب». (٢٣ – ٢٤ – غافر)

«وقارون وفرعون وهامان. ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين». (٣٩ – العنكبوت)

«وقال فرعون يا هامان ابن صرحا لعلى أبلغ الأسباب». (٣٦ – غافر)

«فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا». (٣٨ – القصص)

وهكذا ورد اسم هامان دائما مجموعا إلى فرعون على التبعية والإلحاق ويُفهم من هذا أن هامان رجل ذو شأن فى بلاط فرعون يعمل بين يديه ويأتمر بأمره.

ويقول علماء التاريخ المصرى القديم لا يوجد شخص باسم «هامان» كان وزيرا أو قائد جند أو كبير كهنة لأى من فراعين مصر. كذلك لا تذكر التوراة – على كثرة ما ذكرت من أسماء – اسم «هامان» على أنه كان مع فرعون فى مواجهة موسى. ولكن جاء فى التوراة أنه فى القرن الخامس قبل الميلاد أى بعد عصر موسى بسبعة قرون ذُكر الإسم العبرى «هِيمان» (مدا بالكسر بعد الهاء – وفى الترجمة العربية يكتب «هامان») وهو اسم لرجل فى بلاط فارس أيام الملك Xerxes (٤٨٦ – ٤٦٥ ق . م .) كان يريد هلاك اليهود ولكن «أستير» العبرانية استنقذتهم لما كان لها من حظوة لدى الملك (التوراة . سفر أستير) ويقول بعض المستشرقين المنكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم (مثل J. Horovitz) إن «هامان» من أفانين القرآن الكريم اخترعه اختراعا. إذ التقط اسم هيمان الذى كان فى بلاط فارس فى عصر السبى وحوَّله إلى هامان ورده إلى عصر موسى فى مصر وجعله أحد رجال فرعون. على بعد ما بينهما فى الزمان والمكان!! وهى تخرصات درجنا على سماعها من بعض المستشرقين الحاقدين.

ويقول الأستاذ رؤوف أبوسعدة (من إعجاز القرآن. جـ ٢ ص ٥٩) إن الخط الهيروغليفى لايعبأ بإثبات حركات المد. واسم الإله «آمون» يكتب بالهيروغليفية: همزة + ميم + نون. وجاء اليونان فأضافوا واوًا مد بعد الميم فصارت آمون. مع أنه فى النص الحيثى للمعاهدة مع ملك خيتا هى مد بالألف «رعمشيشا مى أمانا . أى رمسيس الذى هو كآمون. فلفظ آمون هو فى حقيقته آمان. ولفظ «ها» الهيروغليفى معناه حجرة أو مدخل فيكون ها + آمان أو هامان هو الترجمة لمنصب مدخل آمون أو كبير كهنة آمون. فكلمة «هامان» ليست اسم علم – أى ليست إسما لشخص. وهذا يفسر عدم وجود شخص باسم «هامان». معاصر لأحد الفراعين. والحقيقة أن القرآن الكريم – وقد تجاوز عن اسم الفرعون نفسه ولم يذكره لم يكن ليعبأ ويذكر اسم وزيره. فضلا عن أن «هامان» هى وصف لوظيفة هذا الشخص الذى كان مرافقا للفرعون.

كذلك فإن هامان عربية. أى من جذر عربى مشتقة من فعل «هيمن». وجاء فى المعجم الوسيط (جـ ٢ ص ١٠١٥) هيمن فلان أى قال آمين. وقد كان قرين فرعون هذا يهيمن له أى كلما قال الفرعون شيئاً قال له آمين. أى وافقة ونفَّذ أوامره. وكذلك من معانى هيمن. سيطر. ويقال هيمن على فلان أى سيطر عليه أو غلب عليه. والمهيمن من أسماء الله الحسنى بمعنى الرقيب مسيطرا وله القهر والغلبة. وقد كان قرين فرعون هذا مسيطرا على شئون مصر ويده على رقاب الشعب يمسكهم بيد من حديد ويخضعهم لفرعون. وهكذا فقد كان يهيمن لفرعون أى يُؤَمِّن على كل أقواله وأفعاله. ويهيمن على الشعب لحساب فرعون. وأراد القرآن الكريم أن يشتق له اسما من هذه الهيمنة بمعنييها السابقين – ولما كان اسم «المهيمن» من أسماء الله

الحسنى. وما كان لأحد أن يتسمى به إلا أن يقال «عبد المهيمن» لذلك اشتق القرآن الكريم لفظا هو «هامان» وصفا لوظيفته ومركزه. كما يقال «خاقان» لعظماء التتار.

من هو هامان :

بعد أن عرفنا أن هامان هى صفة وليست اسم علم وأن هذا الشخص كان الساعد الأيمن لفرعون. بقى أن نحاول أن نحدد من هو هذا الشخص. وتزخر كتب التاريخ بمعلومات وفيرة عن وزراء الفراعين فى عصورهم المختلفة ليس هنا مجال ذكرها. ولكننا نستطيع أن نضع صفتين أساسيتين لهذا الـ «هامان» وهى أن يكون قد أمسك بالأمور فى مصر بيد من حديد وسيطر على الشعب وفى نفس الوقت كان خاضعا للفرعون خضوعا تاما لا يعصى له أمراً ويقول «آمين» لكل ما يقول. وبتطبيق ذلك على ما جاء بكتب التاريخ نجد أن هاتين الصفتين لا تكادان تنطبقان على أحد إلا الوزير «رع حتب» فى عهد رمسيس الثانى. ولكى لا يُتَّهم هذا الرأى بالتحيز فإننا سنستعرض – بإيجاز – فيما يلى كبار الموظفين فى عهد رمسيس الثانى.

كان عهد رمسيس الثانى حافلا بجلائل الأعمال واستخدم عددا كبيرا من رجال الدولة وكان أغلبهم من أسر معروفة فى مصر. أشهرهم ثلاثة:

١ – **الوزير «باسر» Paser** : بدأ فى عصر سيتى الأول واستمر فترة من الزمن فى عهد رمسيس الثانى. وكان من أسرة عريقة فى خدمة الفراعنة. وكان يحمل ألقاب: القاضى – الكاهن الأكبر للإله آمون – الكاهن الأكبر للإله بتاح – المشرف على كهنة الوجهين القبلى والبحرى.. وغير ذلك من عشرات الألقاب. إلاَّ أنه لم يعش حتى يعاصر رمسيس الثانى فى الفترة الأخيرة من حكمه وهى التى حدثت فيها المواجهة مع موسى عليه السلام.

٢ – **رئيس الشرطة «أمنمأنت»** : وقد أحكم قبضته على البلاد إذ شغل أبناؤه وأفراد أسرته كل الوظائف الحكومية تقريبا فى عهد رمسيس الثانى :

– والده «وننفر» هو الكاهن الأول للإله «آمون».

– أخوه الأكبر «حورا» مدير الأعمال والكاهن الأول للإله «أنحور».

– أخ ثان «أمنمأبت» هو أعظم الرائين فى بيت «رع».

– أخ غير شقيق «خعمواست» كاتب الكتاب الإلهى فى بيت «آمون».

– عمه «بن نسوت توى» هو رئيس رماة بلاد كوش.

– عم ثان «منموس» الكاهن الأول للإله «مين» والإلهة «إيزيس».

– خاله «ماعت رومع» كاهن «مين» و «إيزيس».

– أمه واسمها إيزيس كانت كبيرة مغنيات «آمون».

– أخته كانت زوجة مدير بيت «آمون».

– أخت ثانية «حنت محيت» زوجة مدير بيت «بتاح».

– أخت ثالثة كانت زوجة رئيس الرماة الخيالة.

– عيِّن شقيق زوجته سائقا لعربة جلالة الفرعون.

– وشقيق ثان لزوجته كان الكاهن الأول للإلة «منتو»..

– والشقيق الثالث كان رئيس رماة الخيالة.

– شقيق رابع لزوجته عُيِّن مشرفا على الكهنة.

– أخو حماته كان رئيس رماة الجيش.

وغير ذلك من عشرات الأقارب كانوا فى مناصب حكومية. غير أننا يمكن أن نستعبد أن يكون أمنمأنت هو «هامان» لأن كل هذه الوظائف كانت تعتبر وظائف غير مؤثرة فى الحكم. والأهم من ذلك أن أمنمأنت قد توفى قبل زمن من وفاة رمسيس لثانى. وجاء فى أثر له محفوظ الآن بمتحف «نابولى» قوله: رئيس الشرطة أمنمأنت – المرحوم – يقول. أنتم يا نواب رؤساء الشرطة العظام. وكل شرطى فى هذه البلدة. قدموا ماء وطعاما لإسمى لأنى كنت أفعل الخير عندما كنت فى الأرض وكأنه يطلب منهم أن يترحموا عليه ويقدموا القرابين والصدقات لروحه.

٣ – **الوزير «رع حتب»** : وهو ما نرجح أنه هو «هامان» :

وكان هذا الوزير من وزراء رمسيس الثانى الذين لهم شهرة واسعة وله لوحة محفوظة فى متحف ميونخ ولوحة أخرى عثر عليها فى العرابة (أبيدوس) تدل على أن مقر وظيفته كان فى عاصمة رمسيس الثانى الجديدة «بررعمسيس» وفى جزء من اللوحة يُرى الوزير وهو يتعبد لرمسيس الثانى ويقول: الصلاة لك (أى لرمسيس الثانى) الإله الأكبر الذى يسمع. يعطى الحياة والصحة والفطنة والمديح.

ورع حتب من أسرة عريقة. فوالده هو الكاهن الأكبر للإله «بتاح» ووالدته رئيسة نساء الإله «أنحور» وأخته رئيسة نساء الإله «حرشفى». وأخوه الكاهن الأول للإله «آمون». كما أن «رع حتب» كان وزير الفرعون لبلاد خيتا في السنة ٢١ من حكم رمسيس الثانى.

وفى لوحة موجودة بالمتحف المصرى عَدَّد «رع حتب» الألقاب والنعوت التى كان يتحلى بها كما يلى: (سليم حسن. مصر القديمة جـ ٦ ص ٤٧٢): رئيس الأرضين – صندوق العدالة – أعظم رجال المجلس الثلاثينى – رئيس أسرار بيت الفرعون – رئيس الأرض كلها – وزير الشعب (أهل الوجه البحرى) – وزير أهل الشمس (الإنسانية) – رئيس النحت لبيت «بتاح» – من يسر قلب «حور» فى الأفق أبديا – الكاهن الأول للإله «رع» – رئيس الفرعون لبلاد «خيتا»

– **كاهن «آمون» ملك الآلهة** – عينا ملك الوجه القبلى وأذنا ملك الوجه البحرى ومن يحمل ميزان الأرضين – فم الفرعون فى كل أرض أجنبية – مدير أعمال الفرعون للوجهين القبلى والبحرى والمدير لكفتى الأرضين – مدير الأقاليم والمدن – وزير القطرين – باب قصر الفرعون – الكاهن الأول والمشرف على الكهنة – أعظم الرائين – الرئيس الأعظم للصناع – رئيس التشريفات الأعظم لرب الأرضين – مدير الأعمال ومدير الحرف والمشرف على قوانين الإله الطيب (الملك رمسيس الثانى) فى ساحة العدالة – فم الملك (أى المتكلم باسمه) حاجب ملك الوجه القبلى والبحرى – من يسر جلالته فى قصره الفاخر – من يرفع سبيل العدالة لجلالته – المقَّدم أمام كل الرجال – حاسب كل جزية فى الأرض قاطبة (أى المشرف على خزائن مصر) عمدة المدينة....

هذه بعض ألقاب الوزير «رع حتب». ونراه قد جمع فى يده جميع السلطات الدينية والقضائية والمدنية وسيطر على جميع المهن ووزيرا للمالية ووزيرا للخارجية (ولعل الجيش كان وقتئذ يتبع وزارة الخارجية لتعلقه بالحرب والسلام). والمتحدث الرسمى باسم الفرعون والمشرف على شئون قصره. فهو الجامع لكل السطات وجاعلها فى خدمة الفرعون. سيده وإلهه الذى يتعبد له. فهو المهيمن على كل شئون مصر. وكلما قال الفرعون قولا أو أمر أمرا هيمن له وقال آمين. وزاد بأن سجل بالصورة تعبده للفرعون. وكان أصدق تعبير عن هذين المعنيين هو التعبير الذى جاء فى القرآن الكريم: «هامان». وصدق الله العظيم.

مؤمن آل فرعون يجهر بإيمانه:

بالرغم من كل ما فعله فرعون ليصرف الناس عن دعوة موسى عليه السلام – من الائتمار بموسى لقتله (ص ٨٨٠) ثم كان أن ادعى فرعون الألوهية (ص ٨٨٥) واستعان بـ «هامان» وماله من سطوة ونفوذ ليصرف الشعب عن الإيمان بالله – إلا أن بعض الأفراد شرح الله صدرهم للإيمان فآمنوا بموسى سرا خوفا من فرعون وهامان وجنودهما. شخص واحد أعلن عن إيمانه بموسى صراحة وبكل جرأة. كان هو نفس الشخص السابق الإشارة إليه (ص ٨٨٠) وكان يكتم إيمانه فى ذلك الوقت ونهاهم عن قتل موسى. ولما كان الإيمان قد رسخ فى قلبه وتيقن من أنه لن يصاب بشىء إلا ما قد كتبه الله عليه أعلن عن إيمانه بموسى وبرب موسى صراحة وبكل جرأة. ولم يكتف بهذا بل راح يدعو الناس للإيمان بالله. وتتملكنا الدهشة!! كيف لم يخش غضب فرعون وبطشه؟ ومن أين واتته هذه الجرأة؟ أكان من عائلة كبيرة يحسب لها الفرعون ألف حساب؟ ولكن أى عائلة هذه التى تستطيع الوقوف أمام فرعون وهامان وجنودهما؟ أكان يمت بصلة قرابة للفرعون؟ ولكن حتى لو كان أخاه؟ إذن فهو أقرب من الأخ. وليس هناك أقرب من الأخ إلا الزوجة. فهل كان شقيقا لزوجته؟ افتراض! بل احتمال

شبه مؤكد. إذ لايمنع فرعون من البطش به إلاً أن يكون الأمر كذلك. ويكون الذى آمن أخا للتى آمنت، زوجة فرعون المؤمنة! وخال ولى العهد!

المهم أن **«الذى آمن»** هذا أعلن إيمانه بكل صراحة. ولم يكتف بهذا بل راح يدعو الناس أن يتبعوه فى إيمانه. وبلغ من تحديه لفرعون أن استعمل نفس ألفاظه:

«قال فرعون ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد». (٢٩ - غافر)

«وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد». (٣٨ - غافر)

ولعل هذه المساواة فى اللفظ قُصد بها الإشارة إلى نِدِّيَّة الطرفين وهى إضافة تزيد من ترجيح ما ذهبنا إليه من أنه كان أخا زوجته.

وراح الذى آمن يُهون من أمر الدنيا ومتاعها وزخرفها ولعله يقصد التهوين من شأن ما فيه فرعون من أبهة الملك وجاهه. مذكرا بأن الدار الآخرة هى الدار الحقيقية التى يستقر فيها الإنسان. وأن من يعمل عملا سيئا فسيكون جزاؤه مثل عمله. أما من يعمل عملا صالحا. سواء كان ذكراً أم أنثى فهؤلاء يدخلون الجنة ثوابا لهم على صالح عملهم وفى الجنة سيعطون من رزقها بغير حساب عوضا لهم عما فاتهم فى هذه الدنيا.

«ياقوم إنما هذه الدنيا متاع. وإن الدار الآخرة هى دار القرار. من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها. ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب». (٣٩ - ٤٠ - غافر)

ثم راح يقارن بين سبيله وسبيل فرعون ويُظهر تعجبه من أنه يدعوهم إلى السبيل الذى ينجيهم من العذاب وهم فى المقابل يدعونه إلى الطريق الذى يوصل إلى النار. وهو بهذا التساؤل يوبخهم ويقصد إيقاظهم من غفلتهم ويظهر اهتمامه بهم والحرص على مصلحتهم فى النجاة من النار. ثم راح يوضح لهم كيف أن سبيلهم يؤدى إلى النار أو لعله رد على تساؤل لهم: كيف تقول إننا ندعوك إلى النار؟ فكان الجواب: إنكم تدعونني لأكفر بالله. وأن أشرك به وأعبد معه آلهة أخرى ومنهم الفرعون وليس هناك من علم يؤيد دعواكم وراح يفسر لهم سابق قوله بأنه يدعوهم إلى النجاة إذ أنه يدعوهم إلى الله العزيز المستجمع لصفات الألوهية. والغفار. واسع المغفرة وفى هذا تلميح بأن يُغفر لهم سابق كفرهم. وقال لهم إنه مما لاشك فيه أن ما يدعونه إليه من عبادة الأصنام ليس هو سبيل الرشاد لأن هذه الأصنام لا تلبى دعاء من يدعوها فليس لها دعوة. ولن تجيب دعوة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ولا جدال فى أننا جميعا سنرد إلى الله بالموت فيجازى كل واحد بحسب عمله. وفى هذه الحالة فإن المسرفين الذين أسرفوا فى الكفر وأسرفوا فى التكذيب بالله - سيكون مصيرهم إلى النار.

«ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار. تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار. لاجرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار». (٤١ - ٤٣ - غافر)

على مايبدو لم يستجب للذى آمن أحد. ولعله شعر أن الفرعون يكيد له. صحيح أنه لم يأمر بسجنه مراعاة لأواصر القرابة. ولكنه لا يأمن أن يحرض عليه أحدا ليقتله. ولعله عزم على مغادرة البلاد. وقال لهم كلمة أخيرة أنهم سيذكرون دعوته لهم للإيمان. والمعنى أنهم سيذكرونها ويندمون على أنهم لم يستجيبوا لها. وقال إنه يفوض أمره إلى الله إن كانوا يريدون به سوءا أو شرا. ويخبرنا القرآن لكريم أن الله استجاب لدعائه وحفظه مما كانوا يدبرون له من سوء.

«فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله. فوقاه الله سيئات ما مكروا». (٤٤ - غافر)

يقول الألوسى (جـ ٢٤ ص ٧٢): عن ابن عباس أن فرعون قصد قتله فهرب إلى جبل فبعث فى طلبه فأدركوه وهو يصلى والسباع حوله. فلما هموا ليأخذوه هاجمتهم الذئاب وأكلتهم!

زوجة فرعون المؤمنة :

«وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون. إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين». (١١ - التحريم)

فى هذه الآية قرر القرآن الكريم أن إحدى زوجات الفرعون قد آمنت. ولما كانت القرائن التى سبق ذكرها فى هذا الجزء تشير إلى أن رمسيس الثانى هو ذلك الفرعون. كان من الواجب أن نستعرض زوجاته حتى يمكن تحديد من منهن المشار إليها فى الآية السابقة. وقد كان لرمسيس الثانى ثلاث زوجات رئيسيات:

١ - نفرتارى :

قلنا سابقا (ص ٧٠٠) إن رمسيس الثانى لما بلغ السادسة عشرة من عمره تزوج من **«نفرتارى مرنموت»** وكانت من أجمل جميلات مدينة طيبة. وكان أبناؤها يموتون بعد الولادة بقليل، وراح يتضرع هو وزوجته للآلهة كى تمنحهما الذرية التى تعيش. ورأيناها فى عدة صور تتعبد للآلهة «حتحور وخنوم وساتت وعنقت». وقلنا إنه فى محاولة لتعزية نفرتارى عن حرمانها من الولد بنى لها مقبرة تعد من إبداعات الفن المصرى القديم (ص ٧٠٧). كما عمل لها عدة تماثيل. وفى متحف «بروكسل» توجد قطعة من تمثال للملكة نفرتارى نقش عليها بعض ألقابها:

الأميرة الممدوحة كثيرا – سيدة الرشاقة وواحة الحب – وارثة الوجه القبلى والبحرى – ماهرة اليدين فى الضرب بالصاجات والحلوة الحديث والغناء – زوجة الملك العظيمة ومحبوبته – زوجة الثور القوى – العائشة مثل الشمس أبديا «نفرتارى مرنموت». وكانت تشارك فى الاحتفالات الدينية بوصفها «زوج الإله». وألهت مثله وقد سبق أن ذكرنا (ص ٧٦٥) أن معبد أبى سمبل الصغير قد خُصِّص للإلهة حاتحور ولنفرتارى بوصفهما إلهتى المعبد. وعلى ذلك فليست هى «الزوجة المؤمنة».

٢ – مات نفرو رع :

وهذه هى الزوجة الثالثة وهى بالقطع ليست التى آمنت. فهى ابنة ملك «خيتا». وقد ذكرنا (ص ٨١٨) خبر قدوم والدها معها إلى مصر وزواجها من رمسيس الثانى وعمره ٥٧ سنه. زواجا سياسيا يدعم المعاهدة التى وقعت بين الدولتين.

٣ – إست نفرت :

قلنا سابقا (ص ٧٠٨) إن رمسيس الثانى لما بلغ سن ٢٣ أو ٢٤ سنة ولم يعش له ولد من زوجته الأولى نفرتارى تزوج من ثانى زوجاته وهى «إست نفرت». ومرت ٦ سنوات لم تنجب هى الأخرى أو كان أبناؤها يموتون بعد الولادة مباشرة. ولعل رمسيس الثانى فكر فى أن جو «طيبة» لا يلائم زوجاته فكان يكثر من الإقامة فى القصر الذى بناه فى قنتير ثم عمل على بناء مدينته الجديدة «برعمسيس» فى نفس المكان.

وكان ما كان من التقاط الطفل «موسى» من النهر (ص ٨٠٥) وألقى الله محبة هذا الطفل فى قلب إيست نفرت «**وألقيت عليك محبة منى**» وقالت عنه «**قرة عين لى ولك**». كل ذلك ذكرناه من قبل. وبعد أن كبر موسى بعض الشيء ولدت لرمسيس الثانى «رعمسيس الابن» و«خعمواست ثم «مرنبتاح». إلاّ أن «موسى» كان هو الأثير لديها.

ويوجد فى متحف «بروكسل» جزء من تمثال صغير لهذه الملكة عليه بعض نعوت تكاد تكون فريدة فى بابها إذ تقول: عندما تدخل فى المقر المزدوج فإن قاعة الاستقبال فى القصر تمتلىء بشذى عبيرها. وإنها الحلوة الرائحة بجانب والدها الذى يبتهج عند رؤيتها (لعل المقصود بجانب زوجها). هى الزوجة الملكية لسيد القصر. التى تملأ قاعة الجلسة بعبيرها. وهى المنقطعة النظير بعطورها إذ تعادل بلاد «بونت» بشذى أعضائها. الزوجة الملكية – والواقع أن هذه النعوت النسوية الدالة على طيب العبير وما يضوع منها من شذى العطور لم توصف به ملكة من قبل (سليم حسن. مصر القديمة. جـ ٦ ص ٤٣٧).

كانت الملكة نفرتارى هى الزوجة الرئيسية الأولى. وهى التى كانت تحضر الاحتفالات الدينية. وكانت هى التى تراسل ملكة «خيتا» وكتبت إليها كتابا تسألها فيه عن أحوالها مما

يعنى أنها كانت تعاون زوجها فى علاقاته السياسية. أما إست نفرت فكانت غير ذلك قانعة من الدنيا بحب زوجها. وحبها لموسى طفلها. ومن بعده بأولادها. ومن المؤكد أن المحبة التى ألقاها الله فى قلبها لموسى وهو طفل – كانت سببا فى إيمانها به حينما كبر وعاد رسولا نبيا. ولم تظهر – إيست نفرت» مع رمسيس الثانى فى أى رسم من آلاف الرسوم على آثاره العديدة إلا مرتين: واحدة فى رسم موجود على لوحة فى الطريق بين أسوان وجزيرة فيلة إذ وجدت لوحة فى الجزء العلوى منها رمسيس الثانى والملكة إيست نفرت والأمير خعمواست أمام الإله «خنوم» وفى الجزء السفلى ٣ من أبنائهما هم: الأمير رمسيس والأميرة بنت عنتا والأمير مرنبتاح. وقد سبق ذكر هذه اللوحة فى ص ٧٥٣ ومن المرجح أن هذه اللوحة كانت بمناسبة تعيين خعمواست وليا للعهد ولعلها ترمز إلى طلب مباركة الآلهة لولى العهد. فإذا كان الأمر كذلك فإن تاريخ اللوحة يكون السنة ٣٠ من حكم رمسيس الثانى وكان موسى عمره ٢٣ سنة وكان قد ترك القصر قبل ذلك بثمان سنوات ولكنه لم يكن قد ذهب إلى مدين أو آتته النبوة. فهذا الرسم لا يتعارض مع كونها قد آمنت بعد ذلك بموسى حينما أوتى النبوة ونفس الشىء ينطبق على الرسم الثانى الذى وجد فى جبل السلسلة.

تقول كتب التفسير (ابن كثير جـ ٤ ص ٣٩٤ – وتفسير الألوسى جـ ٢ ص ١٦٣) إن فرعون لما علم بإيمانها بموسى بدأ فى تعذيبها. قال ابن جرير إنها كانت تعذب فى الشمس. فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها فى الجنة. وأخرج البيهقى بسند صحيح عن أبى هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد فى يديها ورجليها فكانت إذا تفرقوا عنها أظلتها الملائكة.

وقد سبق أن نفينا (ص ٧٧٩) أن الفراعين كانوا يعذبون أحدا بهذه الطريقة. كذلك لا نوافق على ما قالته الكتب من أنه كان يضع الرحى على صدرها فى الشمس إذ هو تشبيه بما كانت تفعله قريش ببلال عندما علمت بإسلامه. كذلك فإن إيست نفرت كانت والدة خعمواست ولى العهد. وبعد أن توفى أصبح مرنبتاح هو ولى العهد وهى والدته أيضا. كما أن تعذيب الملكة هكذا على مرأى من الشعب– فضلا عن أنه إهانة للعرش وللفرعون نفسه – فإنه يدعو الناس للتساؤل عن سبب هذا التعذيب ويكون الجواب لأنها آمنت بموسى. فيكون التساؤل إذا كانت إحدى زوجاته – وهى ألصق الناس به – قد آمنت بموسى فهى تعرف أن فرعون ليس حقا إله وأن رب موسى هو الإله الحقيقى الذى يجب التعبد له. ويبدأ الناس فى الإيمان بموسى اقتداء بها. لذلك لانشك فى أن هذه الروايات عن تعذيبها هى محض اختلاق وضعوها لتفسير قولها «**نجنى من فرعون وعمله**».

وعلى العموم فإن قولها «**نجنى من فرعون وعمله**» لا تعنى بالضرورة علمه بإيمانها وشروعه فى تعذيبها – إذ يكفى أن تكون قد آمنت وتكتمت إيمانها وتطلب من الله أن يثبتها على هذا

الإيمان كما تطلب من الله أن لا يشركها فى عذاب يحل بفرعون بسبب سوء عمله من تكذيبه لموسى وتأليهه لنفسه وطلبت النجاة أيضا مما قد يحيق بقومها ووصفتهم بـ «القوم الظالمين» إذ ظلموا أنفسهم باتباعهم فرعون فى الكفر والضلال.

وقد سبق أن قلنا (ص ٨٠٥) إن امرأة فرعون لما قالت «**قرة عين لى ولك**» قال: يكون لك. وأما أنا فلا حاجة لى فيه. وجاء فى تاريخ الطبرى (جـ ١ ص ٣٩٣) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: والذى يحلف به. لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين. كما أقرّت به. لهداه الله به كما هدى به امرأته. ولكن الله حرمه ذلك.

وفى صحيح البخارى (جـ ٤ ص ١٩٣) عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران. وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خير نساء العالمين أربع: مريم ابنة عمران. وآسيه امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رسول الله (صحيح مسلم جـ ٢ ص ٢٤٣ – مسند الإمام أحمد جـ ٣ ص ١٣٦).

ولا يخفى أن اسم «آسية» قريب جدا أو هو تعريب لاسم «إيست» أو «إيسة» كما يكتب أحيانا. و«إيست نفرت» هى والدة أهم ثلاثة من أبناء رمسيس الثانى:

١ – الأمير «رعمسسو» ونشاهده مصورا مع والدته وأخيه خعمواست فى مجموعة صغيرة بمتحف اللوفر.

٢ – الأمير «خمعواست» وتدل الآثار أنه كان أهم أولاد رمسيس الثانى ولما بلغ ١٥ سنة من عمره أعلنه رمسيس الثانى كاهنا أكبر للإله بتاح. وفى الاحتفال بالعيد الثلاثينى الأول أعلنه والده وليا للعهد. ولما بلغ خعمواست ٤٣ سنة من العمر توفى وأصبح أخوه «مرنبتاح» وليا للعهد إذ كان الأمير رعمسسو قد توفى هو الآخر.

٣ – مرنبتاح: وقد اختاره والده فى السنة ٥٥ من الحكم وليا للعهد. وكان عمر مرنبتاح حينئذ ٣٨ سنة.

نعود إلى «إست نفرت» زوجة فرعون التى آمنت ولعلها تكتمت إيمانها إلا أنه لاشك لاحظ من بعض تصرفاتها ما يوحى بإيمانها. فلعلها قد أبعدت عن حجرتها تماثيل الآلهة أو أنها لم تعد تتمتم بما كانوا يتعبدون به للآلهة. وفى رأينا أنه حتى لو كان لاحظ على تصرفاتها ما ينم عن إيمانها. فلاشك أنه تغاضى عن هذا الأمر وتكتمه هو الآخر. إذ هى زوجته وهى أم ولى العهد.. إلا أنها لم تكن لتطمئن إلى تصرفاته. فخشيت انتقامه بنفسه أو بالتحريض على إيذائها. لذلك فقد دعت الله سبحانه وتعالى أن ينجيها من فرعون وعمله وأن ينجيها أيضا من

قوم فرعون وقومها الظالمين. ودعت الله أن يجعل ثوابها فى الآخرة بيتا فى الجنة.

«وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون، إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله. ونجنى من القوم الظالمين». (١١ - التحريم)

ولعل فرعون لغضبه عليها وانتقاما منها أوحى إلى الكهنة أن يتهاونوا فى تحنيطها حتى يبلى جسدها وتحرم من البعث فى الآخرة كما فى تصوره. ولم يبن لها مقبرة مثل ما فعل لنفرتارى. بل ولم يدفنها فى مقابر الملكات فلم يعثر بين مومياوات الملكات على واحدة عليها اسمها. ولعل هذا من إكرام الله لها بسبب إيمانها وحتى لا يوضع جثمانها فى صندوق زجاجى يعرض للرائحين والغادين.

الأخـذ بالشـدة :

نعود الآن إلى رمسيس الثانى وقد اتضح أن القول اللين لم يعد يجدى معه. فلم يؤمن بالآيات التى أظهرها موسى ولم يستجب لدعوته لإطلاق بنى إسرائيل. ولم يستجب لنصح الرجل الذى آمن من قومه. ولم تقم فى مصر جبهة معارضة ترده عن غيِّه. بل إن فرعون كان يستخف بأى رأى آخر وكان الكل يطيعه :

«فاستخف قومه فأطاعوه. إنهم كانوا قوما فاسقين». (٤٥ - الأعراف)

وكان لابد من أخذ فرعون وقومه بالشدة.

«ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات». (١٣٠ - الأعراف)

فالإنسان فى الشدة يلتمس قوة عليا يلجأ إليها لتعينه فى شدته. وإذا كان فرعون قد ادعى الألوهية ففى حالات الشدة لن يكذب على نفسه ويستمر فى ادعاء الألوهية.

وهكذا أنزل الله بهم قحطا وجفافا ونقصا فى مياه النيل .والسنون جمع سنة والمراد بها القحط. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: اللهم اجعلها عليهم سنينا كسنى يوسف عليه السلام. وفى رواية أخرى: اللهم أعنى عليهم بسنين كسنى يوسف عليه السلام. ونقصت الثمار. قالوا. فاجتمعوا إلى فرعون وقالوا له: إن كنت كما تزعم فائتنا فى نيل مصر بماء. فقال غدوة يصبحكم الماء. فلما خرجوا من عنده فكر فيما قال وندم عليه إذ سيتضح كذبه فى الغد. قالوا فلما كان جوف الليل خرج حتى أتى النيل وقال: اللهم إنك تعلم أنى أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء. فاملأه ماء. فما علم إلا بخرير الماء يقبل وامتلأ النيل ماء (تفسير الألوسى جـ ٢ ص ٣١). وعلى الأرجح فإنه لما اشتد الجفاف أخذ الناس يتضرعون ويتلمسون رحمة الله. فرفع الله عنهم القحط. ومن رحمة الله وكرمه أن الله يرزق الكافر أيضا. وهو ما يسمى عطاء الربوبية. كما أن هناك الطفل والمغلوب على أمره والبهائم وهؤلاء لا ذنب لهم فى تكذيب فرعون وقومه ولكن الله بما ينزله من شدة يريد أن يتذكر هؤلاء الطغاة أنهم ضعاف ولا

يملكون من أمرهم شيئا فكيف يتجبرون فى الإرض ويستذلون قوما آخرين. وكان من رحمة الله بالناس أن رفعها عنهم. فلما رفعت عنهم وجاءهم الخصب والنماء والسنوات الحسنة قالوا لقد كنا نستحقها أما إذا جاءتهم الشدة والجدب لا يرُجعوا ذلك إلى سوء عملهم. بل يطيروا. والتطيُّر هو التشاؤم. ذلك أن العرب كانت تزجر الطير فتتشاءم إذا طار جهة اليسار وتتفاءل إذا طار جهة اليمين ثم عُمم التشاؤم على التطير ذاته.

وكانوا يُرجعون تشاؤمهم إلى وجود موسى ومن معه. فرد الله مقالتهم الباطلة هذه وكانت كلمة «ألا» للتنبيه بما بعدها. من أن الرخاء والشدة والحسنة والسيئة. كله من عند الله وأن الشدة التى تنزل بهم فى هذه الدنيا ما هى إلا مجرد تذكرة لهم ولكن جزاءهم الحقيقى عند الله. ولكنهم لا يعلمون ذلك ولا يعلمون ما أخفى لهم.

«ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين. ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون. فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه. وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه. ألا إنما طائرهم عند الله. ولكن أكثرهم لا يعلمون». (١٣٠ - ١٣١ - الأعراف)

والعجب أنهم عندما كانت تأتيهم هذه الآيات كانوا لا يأخذونها مأخذ الجد. بل يسخرون منها ويستهزئون بها ويضحكون. مع أنها كلها آيات كبيرة. دالة على النبوة.

«فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون. وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها». (٤٨-الزخرف)

واستمروا على تكذيبهم لموسى واتهامهم له بالسحر وإنكار أنه مرسل من رب العالمين. وأنه مهما أتى من أفعال. ومجاراة له واستهزاء به قالوا وما دمت تسميها آيات فسنقول – مهما تأتنا من آيات لتسحرنا بها فلن نؤمن لك. وكأنهم يشيرون إلى معجزة يوم الزينة ويصفونها هى أيضا بأنها كانت نوعا من السحر. مع أن السحرة أنفسهم اعترفوا بعجزهم أمامها ومن ثم كان إيمانهم.

«وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين».

(١٣٢ – الأعراف)

بهذا القول القاطع المعبر عن إصرارهم على الكفر. وصل الأمر – كما يقال – إلى طريق مسدود. وكان لابد من وسيلة أخرى لعل الغشاوة تنزاح عن أعينهم وعقولهم فيؤمنوا. فأنزل الله بهم عدة أنواع من العذاب.بلغت تسعا أشد وأقسى. عسى أن يكون ذلك رادعا لهم

«وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون». (٤٨ -الزخرف)

كان الهدف أن يفيقوا من غفوتهم ويتوبوا إلى الله ويرجعوا إليه.

التسع آيـــات :

فى سورة النمل. ذكرت معجزة العصا فى الآيـه ١٠ – وفى الآية ١٢ جاء قوله تعالى :

«وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه. إنهم كانوا قوما فاسقين». (١٢ – النمل)

فاذا اعتبرنا معجزتى العصا واليد من التسع آيات. لكان الباقى سبعا. ذكر منها خمس فى سورة الأعراف (الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم) وتبقى اثنتان مبهمتان.

وإذا أخذنا الآيات بمعنى آيات من العذاب. لقوله تعالى:

«ومانريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون».

(٤٨ – الزخرف)

فإن معجزتى العصا واليد لا تدخل فى عداد التسع آيات إذ أنها معجزات ليس فيها عذاب. وذلك يزيد الآيات المبهمة إلى أربع. وهنا يثور السؤال: من أين نأتى بتفصيل هذه الآيات سواء كن اثنتين أو أربعا؟

ونأتى إلى الآية من سورة الإسراء وهناك خلاف كبير فى تفسيرها:

«ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم. فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا». (١٠١ – الإسراء)

والخلاف فى تفسير الآية وقع على جملة «**فاسأل بنى إسرائيل**» فما يفهم هو أن الخطاب موجه إلى نبينا عليه الصلاة والسلام. وقال القرطبى: أى سلهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات (تفسير القرطبى. جـ ١٠ ص ٣٣٦) وجاء فى تفسير الألوسى (جـ ١٥ ص ١٨٤) وقرأ بعضهم فَسَلْ. والظاهر أنه خطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم والسؤال بمعناه المشهور والمعنى فاسأل يا محمد مؤمنى أهل الكتاب. للدلالة على أنه أمر محقق عندهم ثابت فى كتابهم وليس المقصود حقيقة السؤال بل كون المسئولين من أهل العلم ولهذا يؤمر مثلك بسؤالهم والسؤال ليس على حقيقته. إلا أن كثيرين يرون أنه خطاب موجّه إلى موسى عليه السلام ويكون السؤال بمعنى الطلب أى ياموسى اطلب بنى إسرائيل من فرعون وقل له أرسلهم معى أو اطلب من بنى إسرائيل أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك أو سلهم عن إيمانهم وعن حال دينهم واستفهم منهم هل هم ثابتون عليه أو اتبعوا فرعون (تفسير الألوسى جـ ١٥ ص ١٨٤) وبعضهم مثل ابن جرير وابن عباس قرأها «فسال بنى إسرائيل» بغير همزة مثل قال.

ولعل من قالوا إن المأمور بالسؤال هو موسى عليه السلام رأوا حرجا فى أن يسأل نبينا صلى الله عليه وسلم بنى إسرائيل عن أمرما. على أننا لا نرى فى هذا الأمر حرجا. فالقرآن

الكريم والتوارة. كلاهما من عند الله عز وجل. وفى أكثر من موضع فى القرآن الكريم يطلب الله من النبى صلى الله عليه وسلم أن يسأل بنى إسرائيل:

«سل بنى إسرائيل كما آتيناهم من آية بينة». (٢١١ - البقرة)

وإن كان السؤال هنا عن الآيات التى أفاضها الله على بنى إسرائيل لا آيات العذاب التى أنزلها الله بفرعون وقومه. كذلك جاء قوله تعالى :

«ولقد بوأنا بنى إسرائيل مُبَوَّأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين». (٩٣ - ٩٤ - يونس)

ولقد ذكرنا فى الجزء الأول ص ٤ أن ما سكت عنه القرآن الكريم ينطبق عليه الحديث الشريف: حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج أو ينطبق عليه الحديث الثانى : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم.

وعلى كل فنحن أمام تسع آيات. ذكر القرآن الكريم منها خمسا: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. والمفهوم أنها آيات عذاب لقوله تعالى:

«وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون».
(٤٨ - الزخرف)

وأضاف ابن عباس وعكرمة السنين ونقص الثمرات على أنهما آيتان وإن كانتا فى الحقيقة آية واحدة لأن نقص الثمرات ناتج عن السنين وجدبها. فيكون ما ذكر فى القرن الكريم ستا. وأضف البعض آيتى العصا واليد وإن كانتا معجزتين وآيات قدرة وليس فيهما عذاب. والأولى عدم إدراجهم ضمن الآيات التسع.

حتى الآيات الخمس التى جاء ذكرها فى سورة الأعراف ذكرت بالإسم فقط: **«الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم»** أما التفاصيل عما دار بين موسى وفرعون وعناد فرعون الذى استحق بسببه أن تنزل هذه الآيات به وبقومه فلا سبيل إليه إلا ترك العنان للخيال ليتصور كل واحد ما يشاء فى هذا المجال أو أن نلجأ إلى التوراة لنستقى منها تفاصيل هذه المواقف. على أننا لم نأخذ كل ما جاء فى التوراة بحذافيره لما وجدناه من ملاحظات.

١ - تجعل التوراة الآيات عشرا. وما قرره القرآن الكريم من أنها تسع آيات هو الحق. وقد وجدنا أن آيتى البعوض والدمامل المذكورتين فى التوراة مرتبطتان الواحدة بالأخرى فأدمجناهما معا فى آية واحدة وسنشرح ذلك فى حينه.

٢ - جاء ترتيب الآيات فى التوراة هكذا: الدم - الضفادع - البعوض - الذبان - وباء

المواشى - الدمامل - البرد وهو مقابل الطوفان - الجراد - الظلام - ثم الآية الأخيرة وهى موت الأبكار. وسنلتزم بالترتيب الذى جاء فى القرآن الكريم إذ هو الأحق بالاتباع فضلا أنه يتمشى مع المنطق: الطوفان (البرد) - الجراد - القمل (الذبان) - الضفادع - الدم - ثم أخذنا من التوراة: البعوض والدمامل باعتبارهما آية واحدة - ثم وباء المواشى - ثم الظلام - ثم الآية التاسعة وهى موت الأبكار والتى من خلالها حدث الخروج.

٣ - التوراة تسميها «ضربات» لأنه كان يُضرب بالعصا فتحدث الآية أو يحدث الوباء.

٤ - تذكر التوراة فى بعض المرات أن هارون هو الذى مَدَّ عصاه وفى مرات أخرى تذكر أن موسى هو الذى مد يده بالعصا - فقد جاء فى الإصحاح ٨ خروج: ٥ - فقال الرب لموسى قل لهارون مد يدك بعصاك على الأنهار... فمد هارون يده على مياه مصر. وفى الفقرة ١٦: ثم قال الرب لموسى قل لهارون مد عصاك واضرب تراب الأرض ففعلا كذلك. مد هارون يده بعصاه وضرب تراب الأرض. وما نظن أن هارون كانت له عصا تأتى بالمعجزات مثل عصا موسى كما لا نعتقد أن موسى كان يعطى عصاه لهارون ليضرب بها. فهى فى الحقيقة عصا واحدة. هى عصا موسى وهو الذى كان يضرب بها. وكان الخطاب فى القرآن الكريم لموسى عليه السلام : فألق عصاك - واضرب بعصاك الحجر - واضرب بعصاك البحر.

وهكذا شاءت إرادة الله أن يأتى موسى بهذه الآيات وينزل بفرعون هذه الضربات من العذاب. ومن رحمة الله أنها لم تكن «**عذاب إبادة**» كما حدث لقوم عاد وثمود مثلا. بل كانت ما يمكن أن نسميه «**آيات ردع**» لعلهم يفيقون من غفوتهم ويرجعون إلى الله «**وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون**».ومن رحمة الله أيضا أن الآيات لم تكن تأتى فجأة أو بغتة. بل كان موسى عليه السلام ينبههم قبل وقوعها ليحتاطوا فتكون الخسائر أقل ما يمكن فالمقصود أن يروا قدرة الله ويتأكد لهم أن الله يؤيد رسوله. وما يقوله يحدث وليس معنى ذلك ألا ينالهم أى ضرر من الآيات عند وقوعها. بل لابد من أن تطولهم الآية بشىء من العذاب فى معيشتهم أو أموالهم. أما آيتى العصا واليد فقد كانتا آيتين تعبران عن قدرة الله سبحانه وتعالى كما سبق أن ذكرنا ولم يكن فيها شدة أو عذاب ومن هذه الناحية لم تدرجا فى عداد التسع آيات المشار إليها والتى حدثت كما يلى:

١ - الطوفان :

الطوفان من أى شىء ما كان كثيرا أو عظيما بحيث يطغى على غيره (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٥٧٧) ومن ذلك قولنا مثلا طوفان من المعلومات. وقال الألوسى (تفسيره جـ ٩ ص ٣٣) أى ما طاف بهم وغشى أماكنهم وحرثهم من مطر أو سيل. وهو اسم لكل شىء حادث يحيط بالجهات ويعم كالماء الكثير والقتل الذريع والموت الجارف. وفسره مجاهد بالموت. وعن وهب أنه

الطاعون. وعن أبى قلابة أنه الجدرى. ولكن هذه التفسيرات الثلاث الأخيرة ليست صحيحة فيما يتعلق بما نحن بصدده. وعن ابن عباس الطوفان هو كثرة الأمطار المغرقة والمتلفة للزروع والثمار. وقد سميت هذه الآية فى التوراة بالبرَد وأنه كان بردا عظيما جدا. والبرد فى النهاية يتحول إلى ماء وإذا كان عظيما جدا كما وصفته التوراة فهو ماء جارف كالطوفان يغرق الرزع ولكن ليس من العظم كطوفان نوح بحيث يغرق الخلق أيضا. وهذا من رحمة الله إذ هو يريد من الخلق أن يتعظوا فيؤمنوا.

جاء فى التوراة (إصحاح ٩ خروج: ١٣) مع الاختصار: ثم قال الرب لموسى . بكر فى الصباح وقف أمام فرعون وقل له هكذا يقول الرب إله العبرانيين. أطلق شعبى ليعبدونى لأنى أرسل جميع ضرباتى إلى قلبك وعلى عبيدك وشعبك لكى تعرف أنه ليس مثلى فى كل الأرض. فإنه الآن لو كنت أمد يدى وأضربك وشعبك بالوباء لكنت تباد من الأرض ولكن لكى أريك قوتى. ها أنا غدا مثل الآن أمطر بَرَداً عظيما جدا لم يكن مثله فى مصر منذ تأسيسها إلى الآن. فالآن أرسل احم مواشيك وكل ما لك فى الحقل. جميع الناس والبهائم الذين يُوجدون فى الحقل ولا يُجمعون إلى البيوت ينزل عليهم البَرد فيموتون. فالذى خاف كلمة الرب من عبيد فرعون هرب بعبيده ومواشيه إلى البيوت. وأما الذى لم يوجه قلبه إلى كلمة الرب (أى لم يصدقها) فترك عبيده ومواشيه فى الحقل. وفى اليوم الثانى مدّ موسى عصاه نحو السماء فأعطى الرب رعودا وَبَردا وأمطر الرب بردا على أرض مصر بشىء عظيم جداً لم يكن مثله فى كل أرض مصر منذ صارت أمة. وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل وكل ما كان فى الحقل من الناس والبهائم. إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل فلم يكن فيها برد.

فأرسل فرعون ودعا موسى وهارون وقال لهما: أخطأت. الرب هو البار وأنا وشعبى الأشرار. صليا للرب وكفى حدوث رعود والبرد فأطلقكم. وجدير بالذكر أن العواصف الرعدية والبرد كانت نادرة جدا. حتى إن عاصفة رعدية حدثت أيام أمنحتب الأول ووصفت بأنها «معجزة» وأنها ظاهرة تجلى للإله «مين» (تفسير الكتاب المقدس. جاميسون وفاوست. ص ٨٥) وتستمر التوراة: فقال موسى: عند خروجى من المدينة أبسط يدى إلى الرب فتنقطع الرعود ولا يكون البرد أيضا لكى تعرف أن الأرض للرب. وأما أنت وعبيدك فأنا أعلم أنكم لم تخشوا بعد من الرب الإله. فالكتان والشعير ضربا لأن الشعير كان مسبلا والكتان كان مبرزا وأما الحنطة فلم تُضرب لأنها كانت متأخرة.

ويمكننا من هذه الجملة الأخيرة أن نستنتج أن الطوفان أو البرد حدث فى أوائل شهر ديسمبر. حيث أن الكتان والشعير يزرعان فى منتصف أكتوبر. وفى أول ديسمبر يكون النمو الخضرى فيهما قد بلغ حوالى ١٥ – ٢٠ سم فإذا نزل عليه البرد أو أغرقه الطوفان ذبل ومات.

أما الحنظة (القمح) فإنها تكون قد بذرت فى الأرض ولم تنبت بعد فلا يصيبها ضرر. وهكذا كان اختيار وقت هذه الآية رحمة من الله بالعباد إذ تصيب بعض المزروعات مما يمكن الاستغناء عنه مثل الكتان. أما الحنطة التى يصنع منها الخبز وهو عماد الغذاء فلا تضار.

وتستمر التوراة (خروج ٩ : ٣٣) : فخرج موسى من المدينة من لدن فرعون وبسط يديه إلى الرب فانقطعت الرعود والبرد ولم ينصبّ المطر على الأرض. ولكن فرعون لما رأى أن المطر والبرد والرعود انقطعت عاد يخطىء وأغْلَظَ قلبه هو وعبيده. فاشتد قلب فرعون فلم يطلق بنى إسرائيل.

ونلاحظ هنا أن موسى عليه السلام لم يبسط يده إلى السماء لرفع الطوفان إلا بعد أن خرج من المدينة. ولعله كان يخشى أن لو ارتفع البلاء قبل خروجه من المدينة أن يجهل فرعون عليه بأى شكل من الأشكال. وهو أدرى بطبع فرعون وتصرفاته.

ظن فرعون أن ماحدث كان «ظاهرة طبيعية» وأن موسى كان خبيرا بأحوال الطقس فعلم بالبرد والمطر قبل حدوثه. ولعله ظن أيضا أن انقطاعهما حدث مصادفة مع رفع موسى يده نحو السماء. فتوقف سقوط البرد. فنكص فرعون عن سابق وعده. ولما ذاب البَرَدَ أصبح طوفانا من الماء أغرق الأرض ومات الكتان والشعير. وبعد قليل أنبتت الحنطة ونمت. وظهرت سنابلها ممتلئة بالحبوب تبشر بمحصول وافر. وكان الربيع قد حلَّ. ومقدمة الصيف هلت. وأوشك القمح على النضج. ولعل فرعون قال فى نفسه: لقد كان المطر والبرد والطوفان خيرا وبركة وليس عذابا كما ادعى موسى! وكان لابد من آية ثانية تردع هذا الفرعون المتكبر.

٢ – الجـراد :

تقول التوراة (إصحاح ١٠ خروج : ٣) فدخل موسى وهارون إلى فرعون وقالا له: هكذا يقول الرب إله العبرانيين إلى متى تأبى أن تخضع لى. أطلق شعبى ليعبدونى. فإنه إن كنت تأبى أن تطلق شعبى. ها أنا أجىء غدا بجراد على تخومك فيغطى وجه الأرض حتى لا يستطاع نظر الأرض. ويأكل الفضلة السالمة الباقية لكم من البرد. ويأكل جميع الشجر النابت لكم من الحقل ويملأ بيوتك وبيوت جميع عبيدك وبيوت جميع المصريين. الأمر الذى لم يره آباؤك ولا آباء آبائك منذ وُجدوا على الأرض إلى هذا اليوم. ثم تحول وخرج من لدن فرعون.

وهنا أيضا نلاحظ أن الله لم ينزل بهم آية الجراد فى التو واللحظة بل إن موسى أعطاهم مهلة إلى الغد حتى يفكروا فى الأمر. وانتهز فرعون هذه المهلة فأمر بحصد ما نضج من القمح فى الحقول تحوطا من أن يقع فعلا ما هدد به موسى وهو فى قرارة نفسه لم يكن ليصدق وقوعه. إذ لم يُعهد الجراد من قبل بالكثرة التى تهدد المحاصيل. ولعل نفسه راحت تحدِّثه:

الحقيقة أن موسى ساحر قدير فلعله قد اطلع بسحره على وجود جماعات الجراد فى الصحراء فراح يوهمنا بأنه هو الذى سيجلبها علينا. وعلى كلٍّ فقد أخذنا حذرنا وجمعنا أقصى ما يمكن من المحصول. أما المصريون فقد أخذوا تهديد موسى مأخذ الجد إذ تقول التوراة (خروج ١٠ : ٧): فقال عبيد فرعون له إلى متى يكون هذا لنا فخًا. اطلق الرجال ليعبدوا الرب إلههم. ألم تعلم بعدُ أن مصر قد خربت. فرُدَّ موسى وهارون إلى فرعون (أى راجع فرعون نفسه وأرسل فى طلب موسى وهارون) فقال لهما: اذهبوا اعبدوا الرب إلهكم. ولكن من ومن هم الذين يذهبون؟ فقال موسى نذهب بفتياننا وشيوخنا. ونذهب ببنينا وبناتنا. بغنمنا وبقرنا. لأن لنا عيدا للرب. فقال لهما: يكون هكذا. اذهبوا أنتم الرجال اعبدوا الرب. ورفض موسى وهارون ذلك فطردا من لدن فرعون.

واضح أن فرعون لم يكن فى نيته إطلاق سراح بنى إسرائيل ولذلك رفض خروجهم بأكملهم. وإن كان قد سمح بخروج الرجال لعبادة الرب فإنه أبقى الأبناء والنساء والمواشى كرهينة حتى يعود الرجال ويظلوا فى مصر فى السخرة التى سخرهم فيها.

وتستمر التوراة قائلة: ثم قال الرب لموسى مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد ليصعد على أرض مصر ويأكل كل عشب الأرض كل ما تركه البرد. فمَدَّ موسى عصاه على أرض مصر فجلب الرب على الأرض ريحا شرقية كل ذلك النهار وكل الليل. ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد. فصعد الجراد على كل أرض مصر وحل فى جميع تخوم مصر. شىء ثقيل جدا لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك. وغطى وجه كل الأرض حتى أظلمت الدنيا. وأكل الجراد جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر الذى تركه البَردَ حتى لم يبق شىء أخضر فى الشجر ولا فى عشب الحقل فى كل أرض مصر. فدعا فرعون موسى وهارون مسرعا وقال أخطأت إلى الرب إلهكما ليرفع عنى هذا الموت. فخرج موسى من لدن فرعون وصلى إلى الرب فردَّ الرب ريحا غربية شديدة جدا فحملت الجراد وطرحته إلى بحر سوف (أى فى اتجاه البحر الأحمر). لم تبق جرادة واحدة فى كل تخوم مصر. ولكن فرعون أخلف وعده ولم يطلق بنى إسرائيل.

ولعل فرعون ظن فى نفسه أيضا أن ما حدث من إغارة الجراد كانت ظاهرة «طبيعية» ولكن بأعداد غير معتادة. وأن تهديد موسى أو دعاءه لم يكن لهما ارتباط بقدوم الجراد أو انحساره. فالريح الشرقية هى التى جاءت به والريح الغربية هى التى أبعدته. وأنى له أن يدرك أن الريح هى من جند الله يرسلها مرة بالخير ومرة بالعذاب.

«الله الذى يرسل الرياح». (٤٨ – الروم)

«وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون». (٥ – الجاثية)

وهكذا لم يدرك فرعون أن الريح جند من جنود الله. جاءت بالجراد بأمر الله، وأزاحته بأمر الله. وظن أن هذه كانت ظواهر طبيعية. وما أغلظ قلبَه كذلك أن محصول القمح - كما سبق أن قلنا - كان وافرا وأنه أسرع بحصاد جزء كبير من المحصول وتم تخزينه فى مخازن المدن وفى مدينته «بررعمسيس» ومدينة المخازن «فيثوم» اللتين سخر بنى إسرائيل فى بنائهما. وبالطبع سيكون هذا كله تحت أمره يكفيه هو وبلاطه والخاصة من رجاله. ولا بأس إن قاسى فقراء الشعب بعضا من الجوع فهذا ليس فى اعتباره. وظن فرعون أنه بتدبيره وبمكره قد تلافى أضرار هذه الآية فكان لابد من آية أخرى تشعره أن تدبير الله فوق تدبيره.

٣ - القُمَّل :

ويجب التفرقة بين القَمْل بفتح القَاف وسكون الميم - وهو الحشرة المعروفة التى توجد فى الرأس لعدم نظافة الشعر وخاصة إذا كان طويلا - والقُمَّل بضم القاف وتشديد الميم وهو صغار الذر والدبا الذى لا أجنحه له. أو شيئ صغير بجناح أحمر يشبه الحَلَمْ (القرادة) خبيث الرائحة (القاموس المحيط - جـ ٤ ص ٤١). وقال سعيد بن جبير هو السوس.

لم تذكر التوراة آية القُمل هذه والتى ذكرها القرآن الكريم بعد الجراد. وهى بهذا الترتيب تأتى متسقة مع المنطق. إذ أن فرعون لما أيقن أنه قد أمِنَ من أن يصيبه أذى من الجراد لِمَا اختزنه من القمح تشدَّد قلبهُ ونكث وعده ولم يطلق بنى إسرائيل. وعاد موسى يطلب من فرعون بنى إسرائيل وهدده بآية أخرى أى آفة ثانية. ورفض فرعون فأرسل الله السوس على القمح الذى اختزنوه. وقال سعيد بن جبير كان الرجل يُخرج عشرة مكاييل إلى الرحا فلا ترد منها إلا ثلاثة. لأن السوس أكل الحب.

وعاد فرعون يطلب من موسى أن يدعو ربه أن يرفع عنهم هذا البلاء وأنه إن تم ذلك فسيطلق بنى إسرائيل. فدعا موسى ربه فرفع عنهم البلاء وبقى لهم بعض الحب يتقوتون به رحمة من الله بهم. ولكن سرعان ما نسى فرعون وعده ولم يطلق بنى إسرائيل.

البعض يرى فى آية القمل وجها آخر. فالقُمَّل هو دويبة من جنس القراد إلا أنها أصغر منها. يقع فى الزرع ويأكل السنبلة وهى غضة قبل أن تخرج. وربما تكون هى التى تسمى الآن النطاط (المعجم الوسيط. جـ ٢ ص ٧٦٦). وهو الدبى وهو الصغار من الجراد ولايسمى جراداً إلا بعد أن تنبت أجنحته. وروى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى هو القراد (تفسير الألوسى جـ ٨ ص ٣٤).

فإذا كان الأمر كذلك. فالأرجح أنها صغار الجراد أى النطاط وهو المسمى أيضا الدبى وتكون هى الوباء المذكور فى التوراة باسم الذِّبَّان بتَشديد الذال بضمة أو بكسرة وتقول فى ذلك (إصحاح ٨ خروج : ٢٠): ثم قال الرب لموسى: بَكِّرْ فى الصباح وقف أمام فرعون. إنه

يخرج إلى الماء وقل له هكذا يقول الرب. أطلق شعبى ليعبدونى. فإنه إن كنت لا تطلق شعبى ها أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبان فتمتلىء بيوت المصريين ذبانا وأيضا الأرض التى هم عليها. أما أرض جاسان فلا يكون هناك ذبان. غدا تكون هذه الآية. ففعل الرب هكذا. فدخلت ذبان كثيرة فى كل أرض مصر. وخربت الأرض من الذبان.

ويكون الواقع أنه بعد أن أتى الجراد على كل نبات أخضر وطلب فرعون من موسى أن يرفع عنه وباء الجراد. وحنث بوعده. كانت النباتات قد بدأت الحياة تدب فيها من جديد ونبتت لها بعض البراعم الصغيرة. فسلط الله عليها النطاط. فكاد أن يأتى عليها وشعر فرعون ببعض الخوف فالقمح المخزون أكله السوس. والجراد أكل الأخضر وها هو النطاط قد يأتى على الباقى. وها هو مُعرَّض هو وأهل بيته للهلاك جوعا. وكان لابد من المداهنة. فدعا فرعون موسى ووعده إذا رفع عنه البلاء أن يترك بنى إسرائيل ليعبدوا إلههم كما يشاءون.

وتستكمل التوراة قائلة: فدعا فرعون موسى وهارون وقال اذهبوا اذبحوا لإلهكم فى هذه الأرض (أى فى أرض مصر حتى لا يخرجوا من مصر). فقال موسى: لايصلح أن نفعل هكذا. واحتج موسى بأن بعض شعائر عبادتهم قد تغضب المصريين فيرجمونهم وطلب أن يذهبوا بعيدا فى الصحراء **سفر ثلاثة أيام** حتى يكونوا بعيدين عن أعين المصريين. لم توضح التوراة ماهية هذه الشعائر التى قد تغضب المصريين. ولكن ذكر فى تفسير الكتاب المقدس (جـ ١ ص ٢٢٧) أن بنى إسرائيل لو قدموا قرابين ذبيحة من الغنم أو المعزى أو العجول أو البقر - وهى حيوانات كانت مقدسة عند المصريين القدماء. لغضب المصريون وثاروا عليهم لذلك طلب موسى أن يذهبوا سفر ثلاثة أيام فى البرية. وأظهر فرعون موافقته على هذا الشرط. وقال ولكن لا تذهبوا بعيدا. وطلب من موسى وهارون أن يرفعا البلاء: صليا لأجلى. فقال موسى ها أنا أخرج من لدنك وأصلى إلى الرب. فيرتفع الذبان عن فرعون وعبيده وشعبه غدا. ولكن لا يعُد فرعون يخاتل حتى لا يطلق الشعب ليذبح للرب.

وكأنما كان موسى يشعر بأن فرعون لن يلبث أن ينكث وعده. إذ ما إن ارتفع الذبان عن أرض مصر حتى رفض فرعون مسيرة بنى إسرائيل الذى سبق ووافق عليها.

كان لابد من آية تنال فرعون نفسه. فالآيات السابقة كلها كانت تصيب الزرع ولكن من رحمة الله أنها لم تكن تصل بهم إلى حد المجاعة الكاملة وحتى لو حدث نقص شديد فى الغذاء فإن فرعون لابد واجد مأكله هو وحاشيته وليمت من الشعب من يمت!! ولعل فرعون استمرأ هذا الوضع فراح يعد المرة تلو المرة بإطلاق سراح بنى إسرائيل ثم ينكث وعده فى كل مرة. فكان لابد من آيات تنال الفرعون فى شخصه كما تصيب باقى المصريين. وتقلق راحته فى بيته ومأكله ومشربه. وهنا نلاحظ تغيرا فى نوعية الآيات. فجاءت آية الضفادع تليها آية الدم وكانت تلك آخر الآيات التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم واستكملنا بعدها آيتين من التوراة تتبع

الآيات السابقة بتسلسل منطقى هما البعوض والدمامل كآية واحدة ثم وباء المواشى ثم الآية الثامنة وهى آية الظلام ثم الآية التاسعة والأخيرة والتى تم الخروج من خلالها وهى آية موت الأبكار.

٤ - الضفادع :

قال الرب لموسى (توراة - خروج ٨ : ١) ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب أطلق شعبى ليعبدونى. وإن تأبى أن تطلقهم فها أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع. فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتدخل إلى بيتك وإلى مخدع فراشك وعلى سريرك وإلى بيوت عبيدك وعلى شعبك وإلى تنانيرك وإلى معاجنك. عليك وعلى شعبك وعبيدك تصعد الضفادع. وأبى فرعون أن يطلق بنى إسرائيل وهنا تقول التوراة إن الذى أجريت المعجزة على يديه هو هارون: فقال الرب لموسى. قل لهارون مد يدك بعصاك على الأنهار والسواقى والآجام وأصعد الضفادع على أرض مصر. فمد هارون يده على مياه مصر فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر. ودعا فرعون العرافين علهم يستطيعون صرف الضفادع فلم يقدروا.

فدعا فرعون موسى وهارون وقال صليا إلى الرب ليرفع الضفادع عنى وعن شعبى فأطلق الشعب (بنى إسرائيل) ليذبحوا للرب. فقال موسى عين لى متى أصلى لأجلك ولأجل عبيدك وشعبك لقطع الضفادع عنك وعن بيوتك ولكنها تبقى فى النهر فقال غدا. فقال كقولك. ثم خرج موسى وهارون من لدن فرعون وصرخ موسى إلى الرب فماتت الضفادع من البيوت والدور والحقول وجمعوها أكواما كثيرة حتى أنتنت الأرض. فلما رأى فرعون أنه قد حصل الفرج أغلظ قلبه ولم يسمع لهما - أى ولم يطلق بنى إسرائيل. وكان لابد من آية أخرى. وقبل أن ننتقل إلى الآية التالية نشير الى ما قاله عالم الآثار «جيمس بيكى» (آثار مصر القديمة جـ ١ ص ٥٥): ومن أعجب مكتشفات عالم الآثار «بترى» - فى أثناء تنقيبه فى عام ١٩٠٥ - ١٩٠٦ فى تل الرطابة - سلطانية رائعة الشكل مصنوعة من الخزف الأزرق إذ تحيط بها ١٩ ضفدعة فى حين تتسلق ضفادع أخرى عديدة الجوانب الداخلية للآنية مكوّنة حشدا ضخما عند فوهتها. وتتوسط السلطانية كذلك ضفدعة كبيرة هى بلا شك ملكة تلك الضفادع إذ تجلس متوجة على قاعدة. وهذه السلطانية فريدة فى صناعة الخزف المصرى. ثم يستطرد ويقول: ونرجوا ألا يكون وجودها فى مكان كهذا - يتصل بالخروج - داعيا لأن يعلن أحد المتحمسين أنها دليل صدق على واقعة الطاعون الواردة فى التوراة إصحاح ٨ خروج - إذ يرجع تاريخ هذه الآنية إلى الأسرة الثانية والعشرين. وردا على قول چيمس بيكى هذا نقول: ولم لا تكون كذلك؟ إذ أن فنانى الأسرة التاسعة عشرة وقت وقوع وباء الضفادع - مثلهم مثل باقى الشعب - لم يكن همهم هو تسجيل الحدث بقدر ما كان يعنيهم فى المقام الأول خلاصهم منه. وما إن تخلصوا منه حتى جاءتهم آية الدم ثم البعوض فالدمامل. كل هذا لم يترك فرصة ولا أوجد

المناخ للفنانين الذين عاينوا هذه الأوبئة أن يسجلوها. ولكى بعد أن تمر الأزمة. وتصبح تاريخا يروى. وحكاية تتسلى برواياتها الأجيال المتتالية تنبت الفكرة فى ذهن أحد الفنانين ليتخيلها ويصورها فى إناء كهذا. من هنا يمكننا أن نقول إن وجود مثل هذا الأثر الفريد يعتبر دليلا ماديا ملموسا على صحة واقعة الضفادع. وإن لم نكن فى حاجة له إذ يكفى ورودها فى القرآن الكريم.

وعلى كل فهذا الأثر يصور لنا مدى ضخامة الأثر التى أحدثته هذه الآية على بساطتها. ولنا أن نتصور الضفادع تخرج من فرع النيل ومن الترع وتملأ كل المنطقة المحيطة بالعاصمة بررعمسيس. وجحافل الضفادع بالآلاف بل بالملايين تملأ الشوارع والطرقات. وما إن يفتح أحد باب بيته إلا وتغزوه الضفادع. وإن أغلق على نفسه الباب دخلت عليه من الشباك وتتقافز على الأرض وعلى الأسرة وعلى الكراسى وعلى مائدة الطعام بل وما إن توضع أطباق الأكل حتى تقفز إليها الضفادع. ويدخل أحدهم لينام فيجد الضفادع قد شاركته السرير. حتى الفرعون نفسه لم ينج من هذا وأصبحت حياته عذابا لا يطاق. فطلب من موسى أن يرفع عنه وعن شعبه هذا البلاء ووعد بإطلاق بنى إسرائيل ولكن ما إن اختفت الضفادع من البيوت حتى نكث فرعون وعده ولم يسمح لبنى إسرائيل بالخروج. فكانت الآية التالية.

٥ - الدم :

تقول التوراة (إصحاح خروج ٧ : ١٤) ثم قال الرب لموسى. قلب فرعون غليظ قد أبى أن يطلق شعبى. اذهب إلى فرعون فى الصباح. إنه يخرج إلى الماء (لعله كان يخرج فى الصباح يتريض أو للاستحمام). قف للقائه على حافة النهر. والعصا التى تحولت حية تأخذها فى يدك وتقول له الرب إله العبرانيين أرسلنى إليك قائلا. أطلق شعبى ليعبدونى فى البرية وهو ذا حتى الآن لم تسمع. هكذا يقول الرب بهذا تعرف أنى أنا الرب. ها أنا أضرب بالعصا التى فى يدى على الماء الذى فى النهر فيتحول دما ويموت السمك الذى فى النهر وينتن النهر فيعاف المصريون أن يشربوا ماء من النهر.

ورفض فرعون إطلاق بنى إسرائيل. ورفع موسى العصا وضرب الماء الذى فى النهر أمام عينى الفرعون فتحول كل الماء الذى فى النهر دما ومات السمك وأنتن. ولم يقدر أحد أن يشرب ماء من النهر. وحفر جميع المصريين حوالى النهر لأجل ماء ليشربوا لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر. أى قام المصريون بحفر آبار للحصول على المياه الجوفية. وكما حدث فى كل مرة وعد فرعون بإطلاق بنى إسرائيل لو رفع البلاء. فدعا موسى فعاد الماء نقيا كما كان ولكن فرعون لم يف بوعده ولم يطلق بنى إسرائيل.

يحاول البعض أن يفسر آية الدم على أنها كانت مجرد احمرار ماء النيل بفعل الفيضان. فيقول وارنركيللر (تاريخ الكتاب المقدس. بالإنجليزية. ص ١١٦) إن الطمى الآتى من بحيرات

الحبشة يصبغ ماء الفيضان بلون أحمر قاتم وخاصة فى مصر العليا. وهذا ما يشبه الدم! وفى وقت الفيضان تكثر الضفادع والذباب وتتكاثر أعدادها حتى لتصبح وباء. أما الدمامل فمعروف أنها تكثر فى فصل الصيف وخاصة وقت ازدياد الرطوبة عند مجيء الفيضان وهو ما يعرف عند العامة بـ «حمو النيل».

وردا على ذلك نقول إن الفيضان يأتى لمصر منذ آلاف السنين ويرى المصريون مياهه وهى تصطبغ باللون الأحمر نتيجة الطمى. وما كان يفوت على فرعون ولا على المصريين ذلك وما كان أسهل أن يقول فرعون إنه الفيضان ليس إلا وتسقط حجة موسى إذا كان كذلك. وما كانت الأوبئة التى ذكرت أيضا شيئا مما يصاحب الفيضان من كثرة الضفادع والذباب والدمامل. فهذه كلها معروفة لدى المصريين ولكن شدة الإصابة بها. وظهورها فجأة واختفاءها فجأة مصاحبا لتلويح موسى بعصاه كل ذلك يدل على أنها ليست ظاهرة طبيعية وإنما هى معجزة إلهية يؤيد الله بها رسوله موسى.

٦ - البعوض والدمامل :

تذكر التوراة هاتين على أنهما آيتان منفصلتان وقد جمعناهما فى آية واحدة لتصبح الآيات تسعا كما قرر القرآن الكريم. والواقع أن البعوض فى حد ذاته - مهما كثر وكثرت لسعاته - ليس بالمعضلة المستعصية الحل إذ يمكن اتقاء لسعاته بالملابس التى تغطى الجلد. صحيح أن بعض اللسعات لا مفر منها ومن الممكن تحملها. أما لو كانت اللسعة ينتج عنها دمل لكانت المشكلة جد خطيرة إذ لابد للمرء فى بعض الأوقات من كشف يده أو رجله أو وجهه - فتصيبها لسعات البعوض وينتج عنها دمامل.

وقد ذكرت التوراة الآيتين هكذا: (خروج ٨ : ١٦) ثم قال الرب لموسى. قل لهارون مُد عصاك واضرب تراب الأرض ليصير بعوضا فى جميع أرض مصر. ففعلا كذلك. مد هارون عصاه وضرب تراب الأرض فصار البعوض على الناس وعلى البهائم. كل تراب الأرض صار بعوضا. وحاول العرّافون بسحرهم ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا. فقال العرافون لفرعون هذا أصبع الله ولكن اشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب. (خروج ٩ : ٨) ثم قال الرب لموسى وهارون خذا ملء أيديكما من رماد الأتون وليذره موسى نحو السماء أمام عينى فرعون ليصير غبارا على كل أرض مصر فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور. ففعلا كذلك ولم يستطع العرافون أن يقفوا أمام موسى. ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يسمع لهما كما كلم الرب موسى.

٧ - وبــاء المواشــي :

(خروج ٩ : ١) ثم قال الرب لموسى ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب إله العبرانيين. أطلق شعبى ليعبدونى فإنه إن كنت تأبى أن تطلقهم فها يد الرب تكون على

مواشيك التى فى الحقل: على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم وباء ثقيلا جدا وتموت. ويميز الرب بين مواشى إسرائيل فلا يموت منها شىء. وعيَّن الرب وقتا قائلا غدا يفعل الرب هذا الأمر. ففعل الرب هذا الأمر فى الغد فماتت جميع مواشى المصريين وأما مواشى بنى إسرائيل فلم يمت منها واحد. ولكن غلظ قلب فرعون فلم يطلق الشعب.

ويقول تفسير الكتاب المقدس (جاميسون وفاوست ص ٨٤) إن المفهوم أيضا أن المواشى التى هلكت هى فقط التى كانت فى الحقول أما التى أبقوها فى البيوت فلم يصبها شىء وهذا هو المفهوم من تعيين «الغد» لهذا الأمر حتى يحتاط المصريون ويحموا بعض مواشيهم كما حدث فى آية الطوفان (البَرَد) إذ لو كان المطلوب إبادة المواشى كلها لتم ذلك من فوره ولا داعى للانتظار إلى الغد.

لقد رأينا أن فرعون والمصريين قد نزلت بهم حتى الآن سبعة أوبئة وفى كل مرة كان فرعون يعد بإطلاق بنى إسرائيل لو رفع عنه الوباء، وكانت كل آية من هذه الآيات هى أكبر من أختها أى أن أى آية كانت كبيرة بحيث أن آية واحدة كانت تكفى لأن يؤمن فرعون ويصدق فى وعده ولكنه كان يسخر من موسى ولاينفذ وعده. ويضحك من الآية ويوهم الناس أنها سحر وأنه قادر على مثلها ومع هذا فقد أمهله الله وجاءه ليس بآية واحدة بل عدة آيات:

«فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون. وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون. وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون. فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون».

(٤٧ - ٥٠ - الزخرف)

وأجمع المفسرون (الألوسى جـ ٢٥ ص ٨٨ - ابن كثير جـ ٤ ص ١٢٩ - القرطبى حـ ١٦ ص ٩٧) على أن وصف فرعون لموسى بالساحر فيه تعظيم فقد كانوا يقولون العالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر. وكان علماء زمانهم هم السحرة ولم يكن السحر فى زمانهم مذموما. فليس هذا القول منهم على سبيل الانتقاص منهم لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك وإنما هو تعظيم. ولكننا نرى غير ذلك إذ لو أرادوا التعظيم لقالوا يا أيها النبى أو على الأقل نادوه باسمه وقالوا يا موسى. وقولهم يا أيها الساحرليس تعظيما بل هو تصغير لشأنه إذ فيه إصرار على إنكار نبوته. وإمعانا فى عدم الاعتراف بنبوته قالوا «**ادع لنا ربك**» فكأنه ربه هو فقط وليس ربهم. و «**بما عهد عندك**» أى بما أخبرتنا من عهده إليك واستجابته لكل ما تطلب منه. فإنه إن كشف عنا سنؤمن بك «**إننا لمهتدون**». وهنا نكتشف المغالطة من جانبهم إذ المفروض أن يؤمنوا فيكشف عنهم العذاب ولكنهم اشترطوا أن يكشف عنهم العذاب أولا وبعد ذلك يؤمنوا. فلما كشف الله عنهم العذاب نكثوا وعدهم. وهذا ما عُبِّر عنه فى سورة الأعراف:

«ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون».
(١٣٤ - ١٣٥ - الأعراف)

وتكرر هذا منهم. وفى كل مرة يرفع عنهم العذاب لا ينفذون ما وعدوا به فكان لابد من آية أخرى وسنرى فى هذه الآية الثامنة أنها تعدت أشخاصهم إلى ما كانوا يعتقدون من آلهة وبالذات إلههم الأكبر إله الشمس «رع».

٨ - الظلام :

ثم قال الرب لموسى (خروج ١٠ : ٢١) مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر حتى يلمس الظلام. فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس ثلاثة أيام. لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام ولكن جميع بنى إسرائيل كان لهم نور فى مساكنهم.

ويمكننا أن نتصور وقع هذا الإظلام المستمر لمدة ثلاثة أيام على المصريين. إذ هم يعتقدون اعتقادا قويا فى «رع» إله الشمس. وصحيح أنه كان يحدث كسوف كلي للشمس فى بعض السنوات ولكن الإظلام لا يستمر إلا ساعات قليلة ثم تعود الشمس كما كانت. أما أن يستمر الإظلام ثلاثة أيام متواصلة فهذا قد أشعر المصريين أن «رع» لا يملك من أمر نفسه شيئا. وشعر فرعون نفسه أيضا أن ذلك أمر غير عادى. ولعل الناس قد لجأوا إليه ليعيد إليهم الشمس والنور والدفء - أليس هو ابن «رع» ؟ أو لم يدع أنه إله بين الآلهة؟ ولعله وعد الشعب بأنه سيرفع عنهم هذا الإظلام بقدرته هو. وفى نفس الوقت كان قد عزم على التظاهر بقبول شروط موسى هذه المرة - على الأقل حتى يرفع عنهم هذه الآية. كان فرعون فى المرات السابقة لا يمانع فى ذهاب الرجال وحدهم للعبادة مع بقاء النساء والأطفال. ضمانا لعودتهم - ولكنه هذه المرة وافق على ذهاب النساء والأطفال مع الرجال للعبادة. «فدعا فرعون موسى وقال اذهبوا اعبدوا الرب. أولادكم أيضا تذهب معكم. غير أن غنمكم وبقركم تبقى. وواضح أن فرعون كان يهدف إلى ضمان عودتهم ثانية إلى أرضهم بعد العبادة إذ لو خرجوا بدون الغنم والبقر فلن يستطيعوا أن يأخذوا من الطعام إلا القليل الذى ما إن ينفذ حتى يعودوا إلى أرض جاسان. فإبقاء البقر والغنم «رهينة» لديه فيه ضمان لعودتهم. وإلا لو فكروا فى التوجه إلى أرض فلسطين بدونها فمعناه هلاكهم فى الصحراء الجرداء أما لو أخذوا معهم الماشية والأغنام فهم يشربون ألبانهما ويأكلون لحومها كما أنها تحمل الحب والطحين اللازم لخبزهم طوال مسيرتهم فى الصحراء. ولهذا أصر موسى على أخذ الغنم والماشية. وإن لم يفصح عن رغبته فى الخروج من مصر بغير رجعة. «فقال موسى أنت تعطى أيضا فى أيدينا ذبائح ومحرقات لنصنعها للرب إلهنا. فتذهب مواشينا أيضا معنا. **لا يبقى ظلف**. لأننا منها نأخذ لعبادة الرب إلهنا. ونحن لا نعرف بماذا نعبد الرب حتى نأتى إلى هناك» لم تكن هذه الآية -

كالآيات السابقة مشروطة بوعد الفرعون بالسماح لبنى إسرائيل بالخروج حين ترفع ولكنها كانت إظلاما لمدة ٣ أيام تعبيرا عن قدرة الله على محق ما يظنون أنه إله وهو «رع» إله الشمس. وحتى النجوم لم تعد تعطى نورها الضعيف الذى كانوا يلمسونه عند محاق القمر.

يحاول البعض تفسير هذه الآية على أسس علمية (وارنر كيللر. تاريخ الكتاب المقدس ص ١١٧ – وجاميسون وفاوست. تفسير الكتاب المقدس. ص ٨٦) فيقولون إن رياح الخماسين معروفة بما تثيره من غبار فى الجو بكميات هائلة تحجب الشمس ويصفر الجو أو يحمر وإذا زادت كثافة الغبار تحوَّل النهار ظلاما. والرد على ذلك أن رياح الخماسين لو بلغت كثافة الغبار إلى الحد الذى يحيل النهار ظلاما تاما لاختنق الناس من شدته وخاصة لاستمراره ثلاثة أيام متواصلة. ونحن نرى فى عصرنا أن رياح الخماسين حينما تفعل ذلك لا يستمر الإظلام إلا عدة ساعات ولا يكون إظلاما تاما – وتكتمل المعجزة بأن يعم الظلام المنطقة التى فيها فرعون وقومه أما المنطقة التى كان يسكنها بنو إسرائيل فإن الإظلام لم يشملها.

نعود إلى فرعون. وهو إذ عرف أن هذه الآية موقوتة بثلاثة أيام ولا يشترط الرضوخ لطلبات موسى لرفعها فإنه تشدد فى رفضه بل وأغلظ القول لموسى وقال له (خروج ١٠ : ٢٧): «اذهب عنى. احترز . لا تر وجهى أيضا. إنك يوم ترى وجهى تموت. فقال موسى نِعِمًّا قلت. أنا لا أعود أرى وجهك أيضا».

كان فرعون قد ضاق بهذه الأوبئة التى ينزلها موسى به وبشعبه ولعله ظن أنه بتهديد موسى بالقتل «يوم ترى وجهى تموت» يجعله يهرب إلى مكان آخر فلا ينزل به آيات أخرى. إذ كان موسى دائما يأتى أولا إلى فرعون يحذره من وقوع الآية. فإذا كان سيهرب إلى مكان آخر أو سيكف عن المجىء خوفا من هذا التهديد – فإنه لن يأتى بآية أخرى.

وكان موسى عليه السلام أيضا قد فاض به من كثرة وعود فرعون بإطلاق سراح بنى إسرائيل وتكرار إخلافه وعده. وعلم أن فرعون لن يؤمن أبداً. من هنا كان دعاء موسى على فرعون بأن يطمس الله على أموالهم ويشدد على قلوبهم حتى يكونوا مستحقين العذاب الأليم الذى ينزل بهم وأمَّن هارون على دعاء موسى. فأخبرهما الله سبحانه وتعالى أنه قد استجاب لدعائهما وأن عذابا أليما سينزل بفرعون وقومه. وأمرهما بالثبات على الطريق المستقيم «فاستقيما» وينسحب هذا الأمر أيضا بالطبع على كل بنى إسرائيل بانتهاج الطريق القويم وإتيان العبادات التى أُمروا بها وترك الأمر بعد ذلك لله يدبره كيفما يشاء لأن الذين لا يعلمون عن حكمة الله سبحانه وتعالى يتوقعون تطبيقا سريعا لاستجابة الدعاء بنزول العذاب فورا. ونهى الله موسى وهارون عن اتباع سبيل هؤلاء الذين لا يعلمون أو التفكير كما يفكرون لأن حكمة الله لا تُدْرَك بسهولة وإمهاله للمجرم بعض الوقت إنما ليكون أخذه له بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر.

«وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك. ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون». (٨٨ – ٨٩ – يونس)

وطمس الشيء غير صورته (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٥٧١). والمعنى أى عاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم. وهنا يلعب الخيال دوره لدى البعض فقد نسبوا إلى ابن عباس قوله: صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأثلاثا وأنصافا ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد. وقال قتادة بلغنا أن أموالهم وزرعهم صارت حجارة. كما قيل إن عمر بن عبدالعزيز سئل عن ذلك فدعا بكيس وجد فى مصر وأخرج منه فواكه ودراهم ودنانير وأنها لحجارة (تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٧٤). والحقيقة أن النقود المعدنية – فضة أو ذهبا – بهيئتها التى نعرفها لم توجد إلا ابتداء من عصر الرومان أما قبل ذلك فكان البيع والشراء يتم بطريق المقايضة وإن كانت القيمة تنسب إلى الفضة فمثلا يقال هذا الكبش يساوى كذا مثقال فضة وهذا القمح يساوى كذا مثقال ويتم التبادل ويدفع الفرق قطعا من الفضة أو أى سلعة أخرى. فلا وجه لما قالوه من تحول الدراهم إلى حجارة. ومن ثَم ويكون الطمس على الأموال بمعنى نزع البركة منها فلا يتم الحصول عليها إلا بمشقة وإن كان ثمارا أسرع اليها التلف وإن كانت أنعاما عقمت ولم تلد وهكذا.

وأثار البعض مسألة أن دعاء موسى عليه السلام: **«فلا يؤمنوا»** هو دعاء بالكفر وهذا غير جائز. وقال الألوسى (تفسيره – جـ١١ ص ١٧٤) إن صاحب الذخيرة ذكر عن أبى حنيفة قوله إن الرضا بكفر الغير كفر. وردَّ البعض بأن الرضا بالكفر أو الدعاء به – من حيث كونه سببا للعذاب الأليم – ليس بكفر. وفى رأينا أنهم قد قرأوا **«فلا يؤمنوا»** بتوقف بعدها ثم **«حتى يروا العذاب الأليم»** أى ليكون العذاب الأليم من نصيبهم. والأولى أن تقرأ متصلة: **«فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم»** والمعنى حينئذ ليس دعاء بعدم الإيمان بل أن يؤخر إيمانهم إلى حين يرون العذاب الأليم. وفى هذه الحالة ينطبق عليهم معنى الآية.

«فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا. سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك المبطلون». (٨٤ – ٨٥ – غافر)

من هذا يكون موسى عليه السلام لم يدع على فرعون بالكفر بل دعا بتأخير الإيمان إلى حين لا ينفعه. وقد استجاب الله سبحانه وتعالى هذا الدعاء **«قدأجيبت دعوتكما»**. وفعلا تأخر إيمان فرعون كما سنرى فيما بعد (ص ٩٥٣).

«حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين». (٩٠ – ٩١ – يونس)

ففرعون قد آمن وهو فى النزع الأخير وهو ما لاينفعه ولايُقبل منه. وهذا يتمشى مع قوله تعالى:

«وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن.....». (١٨-النساء)

من هذا نرى أن دعاء موسى عليه السلام على فرعون «فلايؤمنوا» لم يكن دعاء بعدم الإيمان مطلقا أو رضا بكفره. فلا محل لما أثير حول ذلك.

ونعود لنستكمل الآيات التسع بذكر الآية الأخيرة والتى تمكن بنو إسرائيل من الخروج من مصر أثناءها رغما عن فرعون بل إنه فى البداية رحَّب بخروجهم ثم عاوده العناد فطاردهم وكان فى هذا هلاكه.

٩ - الآية الأخيرة - موت الأبكار :

لم يكن من المعقول أن يستمر الأمر هكذا إلى مالا نهاية. يعد الفرعون بإطلاق بنى إسرائيل ثم ينكث وعده بعد رفع البلاء. تكرر هذا ثمان مرات سابقة وكان لابد من نهاية لعناده وأن يخرج بنو إسرائيل من مصر فكانت الآية الآخيرة «**موت الأبكار**».

تقول التوراة (إصحاح ١١: خروج): ثم قال الرب لموسى: ضربة واحدة أيضا أجلب على فرعون وعلى مصر. بعد ذلك يطلقكم من هنا وعندما يطلقكم يطردكم طردا من هنا بالتمام. تكلم فى مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين (أى جعل المصريين يوافقون على إعارتهم ما طلبوا من حلى).

ونرجع أيضا إلى الإصحاح ٣ خروج (فقرة ١٨) لتضمنها نفس المعنى إذ تقول : والكلام على لسان الرب لموسى: ولكنى أعلم أن ملك مصر لا يدعكم تمضون ولا بيد قوية فأمد يدى وأضرب مصر بكل عجائبى التى أصنع فيها وبعد ذلك يطلقكم. وأعطى نعمة لهذا الشعب فى عيون المصريين فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين.

وفى تفسير هذه الجملة الأخيرة يقول أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس جـ ١. ص ٢٢٠) كان السلب فى الحرب غنيمة سائغة وكل ما أخذوه لم يكن إلا أجرة عادلة لما قاموا به من أعمال السخرة. والرد على هذا أن الموقف الحالى ليس موقف حرب حتى يعتبر السلب هنا غنيمة سائغة كما قالوا. ولعل قولهم هذا كان المسوِّغ الذى استند إليه بعض من كتبوا فى الصحف مؤخرا مطالبين باسترداد مقابل للذهب والفضة التى «سلبها» بنو إسرائيل من المصريين ساعة الخروج.

وفى رأينا أن الله لم يكن ليبيح لبنى إسرائيل سلب ذهب المصريين وفضتهم فضلا عن الأمر به كما ادعوا! ونرى أن كتبة التوراة لم يفهموا المغزى الحقيقى لطلب بنى إسرائيل الذهب والفضة والثياب من المصريين فى هذا الوقت بالذات فقالوا عنه «فتسلبون المصريين» وراح أهل الكتاب يحاولون تقديم تبرير لهذا التصرف. وما نراه هو أن أخذ الذهب والفضة كان جزءا من عملية تمويه لإيهام المصريين أن خروجهم هو حقا للاحتفال بعيد دينى وللعبادة وسيعقبه عودة لرد ما أخذوه من حلى ذهب وفضة للتزين بها. ولعل بنى إسرائيل فعلوا ذلك من قبل فى أعياد مماثلة - استعاروا بعض حلى المصريين وأعادوها إليهم بعد انتهاء أعيادهم - وإن كان المصريون - بعد نزول الضربات بهم - سيترددون بعض الشيء فى إعارة بنى إسرائيل الحلى فى هذه المرة فقد وعد الله موسى بأنه سيعطى نعمة للشعب فى عيون المصريين فيعطونهم ما يطلبون.

وذهب موسى للقاء فرعون - وتقول التوراة (إصحاح ١١ خروج ٤ - ٨): وأيضا الرجل موسى كان عظيما جدا فى أرض مصر فى عيون عبيد فرعون ولعلهم يقصدون أن الله ألقى رهبة موسى فى قلوبهم حتى لا يُنَفِّذ فرعون تهديده فى اللقاء الأخير حينما قال «إنك يوم ترى وجهى تموت» وقال موسى لفرعون هكذا يقول الرب: إنى نحو نصف الليل أخرج فى وسط مصر فيموت كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التى خلف الرحى وكل بكر بهيمة. ويكون صراخ فى كل أرض مصر لم يكن مثله أيضا ولكن جميع بنى إسرائيل لا يصيبهم شيء لا الناس ولا البهائم. لكى تعلم أن الرب يميز بين المصريين وإسرائيل. فينزل إلىَّ جميع عبيدك هؤلاء ويسجدون لى قائلين اخرج أنت وجميع الشعب الذين فى أثرك. وبعد ذلك أخرج. ثم خرج من لدن فرعون فى حمو الغضب.

ما يفهم من هذا هو أن موسى قابل فرعون وأخبره عن الآية الأخيرة هذه من موت الأبكار وأن المصريين وقتئذ هم الذين سيطلبون خروج بنى إسرائيل من وسطهم ظنا منهم أن وباء ما قد انتقل من بنى إسرائيل إليهم فتسبب فى موت الأبكار. وكأنما يقول لفرعون فالأولى أن توافق على خروج بنى إسرائيل بالحسنى بدلا من أن يخرجوا بطلب من المصريين رغما عنك. وتقول التوراة: ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يطلق بنى إسرائيل - إذ لم يصدق فرعون ما قاله موسى وخاصة أن موسى لم يحدد وقت حدوث هذه الضربة الأخيرة.

الفصل السابع

الخـــروج Exodus

الخروج وعيد الفصح :

إن خروج بنى إسرائيل من مصر هو بلاشك حدث مهم فى تاريخهم. إذ هو نقطة تحول خطيرة في حياتهم. فيه انتقلوا من العبودية إلى نور الحرية. لذلك كانت مشيئة الله أن يجعل من هذه المناسبة عيدا لهم يحتفلون به فى كل عام هو عيد الفصح. و«فصح» كلمة عبرية معناها عبور (قاموس الكتاب المقدس. ص ٦٧٨). وطقوس هذا العيد وشعائرة مشتقة مما أوحى الله إلى موسى من ترتيبات لتأمين عملية الخروج من مصر. ولتقريب المسألة إلى الأذهان أضرب المثل بما فعلته هاجر من السعى بين الصفا والمروة سبع مرات بحثا عن الماء لوليدها إسماعيل. وأُدرِج السعى فى مناسك الحج سبعة أشواط بين الصفا والمروة. مثال آخر من الوضوء قبل الصلاة فهو طهارة معنوية وفى نفس الوقت نظافة للبدن. والصوم طاعة لله فى الامتناع عن الأكل والشرب لبعض الوقت ويثبت الأطباء بين حين وآخر فوائده الصحية. وقياسا على هذا نرى أن شعائر عيد الفصح وترتيباته فضلا عن أنها تعاليم من الرب يجب تنفيذها إلاّ أنها فى نفس الوقت كانت تحمل فى طياتها ما يُؤمِّن عملية خروج بنى إسرائيل من مصر بسلام. وكان ذلك يتطلب عدة أمور: أن يتم الخروج من المناطق المأهولة بالمصريين فى أقصر وقت ممكن وذلك يتطلب التزوُّد بأكله غنية بالبروتين. والبعد عما يسبب الاسترخاء (الخبز المختمر) والاستعانة بالأعشاب التي تزيد النشاط.كما كان ضروريا ألا يتركوا فى البيوت شيئا ينتج عنه روائح كريهة يتأذى منها المصريون عند دخولهم المنطقة بعد أن يكون بنو إسرائيل قد غادروها. تلك هى فى نظرنا الفوائد المادية والفلسفة التى تكمن خلف الترتيبات لعملية الخروج وإن لم يقل بهذا أهل الكتاب أنفسهم. ولكنهم فسروا شعائر عيد الفصح التى تحتفل به الأجيال التالية بأن الأعشاب المرة ترمز إلى مرارة العبودية فى مصر والفطير إلى الطهارة ونبذ كل خبث وشر. والدم المسفوك إلى التكفير (قاموس الكتاب المقدس. ص ٦٧٩). ولكن لو نظرنا إلى هذا الحشد الهائل الذى سيقوده موسى عليه السلام: نحو ستمائه ألف ماش من الرجال عدا الأولاد – كما تقول التوراة – وصعد معهم لفيف كثير أيضا من غنم وبقر مواش وافرة جدا (خروج ١٢ : ٣٧) وقد أثبتنا بالعملية الحسابية التى ذكرناها فى ص ٦٨٣ أن هذا العدد ٦٠٠ر٠٠٠ هو العدد الكلى للنفوس (خلافا لما يراه بعض الباحثين الذين ينزلون بالعدد الى ٦٠ر٠٠٠ فقط). ولنا أن نتصور المساحة التى سيشغلها هذا العدد (٦٠٠ر٠٠٠). فلو

افترضنا لكل فرد نصف متر مربع فقط لشغلت هذه الكتلة البشرية ٣٠٠ مترا عرضا فى ٥٠٠ مترا طولا. تزاد إلى الضعف فى حالة الحركة والمشى. أضف إلى ذلك مثل حجمه أو أكثر للبقر والأغنام والبهائم التى تحمل الزاد والمتاع. فنجد أن هذه الكتلة المتحركة تشغل ١ كم عرضا × ٢ كم طولا تقريبا وذلك يحتاج إلى تنظيم دقيق وتعاليم مشددة يلتزم بها الجميع.

كان الوقت المحدد للخروج هو يوم ١٤ من شهر أبيب (وبعد السبى أصبح العيد مرتبطا بشهر نيسان – وقد اعتمد هذا الشهر بداية للسنة اليهودية). وقد بدأت الاستعدادات قبل ذلك بأربعة أيام. جاء فى الإصحاح ١٢ خروج: وكلَّم الرب موسى وهارون فى أرض مصر قائلا: هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور وهو لكم أول شهور السنة. كلِّما كل جماعة إسرائيل قائلين فى العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة بحسب بيوت الآباء. شاة للبيت. وإن كان البيت صغيرا عن أن يكون كفؤا لشاة يأخذ هو وجاره القريب من بيته بحسب النفوس. شاة صحيحة ذكرا ابن سنة. تأخذونه من الخرفان أو الماعز (والأغلب أن يكون حملا من الخرفان) ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر. ثم تذبحونه فى العشية (العشىّ هو الوقت من زوال الشمس إلى المغرب أو من المغرب إلى العتمة – المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٦٠٨). وهذا معناه أن يكون الذبح بين العصر وغروب الشمس أو بين الغروب ونهاية الشفق ويجمع دم الذبيحة فى طست ويعمل نوع من الحشائش شبه فرشاة وتدهن قائمتى باب البيت والعارضة العليا من الخارج بالدم. جاء فى التوراة (خروج ١٢ : ٧) ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا فى البيوت التى يأكلونه فيها وفى الفقرة ١٢: فإنى أجتاز فى أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم ويكون الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر. وفى الفقرة ٢٢: وخذوا باقة زوفا واغمسوها فى الدم الذى فى الطست ومُسُّوا العتبة العليا والقائمتين بالدم الذى فى الطست. والزوفا كما جاء فى قاموس الكتاب المقدس (ص ٤٣٨) نبات أوراقه عليها شعيرات كبيرة وإذا استخدم فى شكل حزم صغيرة فهى أشبه بالفرشاة ويمكن أن تحمل السوائل فى داخلها للرش. والنبات عطرى الرائحة والبعض يقول إنه نبات الزعتر.

وهنا تثور مسألة: وهل يحتاج الرب لمثل هذه العلامة ليميز بيوت بنى إسرائيل من بيوت المصريين حتى لا يصيبها بالوباء؟ ونرى أن ملائكة مرسلون من الله هم الذين سيقومون بالمهمة وحينئذ لا بأس من علامة على البيوت – كما أنه تكمن وراء هذا الفعل فلسفة أخرى ذلك أن ترك الدم المهراق داخل البيوت ينتن وتصدر عنه روائح كريهة وينتج عنه أوبئة. ومن ثم كان الحرص على إراقة الدماء فى طست ثم استهلاك الدم فى دهان البيوت من الخارج فيكون مكشوفا للشمس والهواء فيجف ولاينتن.

بعد أن شرحت التوراة طريقة الذبح انتقلت إلى طريقة إعداد الذبيحة للأكل (خروج ١٢ : ٨) إذ تستمر فى سرد إبلاغ موسى عليه السلام لبنى إسرائيل ما قال الرب: ويأكلون اللحم تلك الليلة مشويا بالنار مع فطير على أعشاب مرة يأكلونه. لا تأكلوا منه نيئا أو طبيخا مطبوخا بالماء بل مشويا بالنار رأسه مع أكارعه وجوفه. ولا تبقوا منه إلى الصباح والباقى منه إلى الصباح تحرقونه بالنار.

ونلمس هنا نفس الفلسفة السابقة متمثلة فى شوى الذبيحة صحيحة دون فتح جوفها – حتى لا يقع من أمعائها شيىء على الأرض ينتن فيما بعد. وبعد أكل اللحم يحرق ما تبقى. ذلك أن بيوت بنى إسرائيل لن يدخلها المصريون إلا بعد أن يتأكدوا أن بنى إسرائيل قد خرجوا بلا عودة ولو كان فى الدور بقايا من الذبيحة لأنتنت أو سببت أوبئة للمصريين وهذا غير مطلوب إذ الهدف هو خروج بنى إسرائيل بسلام وليَبْقَ المصريون يعيشون كما يهوون بسلام كذلك. ولعل الحكمة وراء شوى اللحم مع أعشاب مرة هو أن يكون فى هذه الأعشاب مادة منشطة مثل الكافايين الموجود فى البن أو أوراق الشاى مما يجعل بنى إسرائيل أقدر وأنشط على السير يوما أو يومين دون توقف حتى يبعدوا عن أيدى فرعون وأعوانه. وكان العدد المخصص لأكل حمل واحد هو عشرة رجال. فإذا كان صافى لحم الحمل الواحد ابن سنة هو ٢٥ كيلو جراما كان معنى ذلك أن يأكل الفرد ٥ر٢ كيلو جرام من اللحوم وهى كمية يستطيع الفرد بعدها ألا يأكل يوما أو يومين وهذا مطلوب فى مثل حالهم لعدم إضاعة وقت فى التوقف لإعداد طعام لهذا الحشد الهائل من البشر. ونقارن بين ما تفرضه ذبيحة عيد الأضحى من وجوب شاة عن كل شخص ذلك لأن معظم الشاة مقصود به الصدقة على الفقراء وجزء صغير لأكل أهل البيت.

بالنسبة للخبز كان ممنوعا أكل الخبز المصنوع من عجين اختمر. وكان التشديد على منع الخميرة نهائيا وعزلها من البيوت. بل يكون فطيرا. «فإن كل من أكل مختمرا تقطع تلك النفس من جماعة إسرائيل» (خروج ١٢ : ١٩).

وكان آخر التعليمات: وهكذا تأكلونه (الفطير واللحم المشوى) أحقاؤكم مشدودة وأخذيتكم فى أرجلكم وعصيكم فى أيديكم وتأكلونه بعجلة (خروج ١٢ : ٨). والَحقْو هو الخصر أو الإزار وجمعها أحقاء (المعجم الوسيط جـ ١ ص ١٨٨). والمعنى أن يكونوا كاملى الملابس والاستعداد للتحرك فور علمهم بصدور أمر الرب ووقوع الآية الأخيرة وهى موت الأبكار فى المصريين. وكان موسى عليه السلام قد دعا جميع شيوخ إسرائيل وأبلغهم هذه التعليمات ليقوم كل منهم بإبلاغها وتنفيذها فى عشيرته. وانتظر الجميع إشارة البدء فى الرحيل متمثلة فى سماع صراخ المصريين عند موت الأبكار.

وتقول التوراة (خروج ١٢ : ٢٩):

فحدث فى نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن وكل بكر بهيمة. فقام فرعون ليلا هو وكل عبيده وجميع المصريين. وكان صراخ عظيم فى مصر لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت. فدعا موسى وهارون ليلا وقال فرعون قوموا اخرجوا من بين شعبى أنتما وبنو إسرائيل جميعا واذهبوا اعبدوا الرب كما تكلمتم. خذوا غنمكم أيضا وبقركم كما تكلمتم واذهبوا. وباركونى أيضا. فحمل الشعب (بنى إسرائيل) عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم. من هذه الفقرة ندرك أنه حتى هذه اللحظة لم يكن المصريون يعلمون نيَّة بنى إسرائيل فى الخروج بلا عودة بل كان ظنهم أنهم سيخرجون لعبادة ربهم فى البرية كما طلب موسى وهارون. فأجابهم فرعون لطلبهم حتى ترفع الآية عنه فلا يموت أكثر من الأبكار الذين ماتوا. ويدل على ذلك قول فرعون لهم «وباركونى أيضا» كما أن المصريين لم يطالبوا برد ما كان استعاره منهم بنو اسرائيل من حلى ذهب وفضة لاعتقادهم أنهم بعد أن يعبدوا ربهم ثلاثة أيام سيعودون إلى دورهم فى مصر ثانية ويعيدون إليهم حليهم.

وقد يتساءل أحد قائلا وهل مات لرمسيس الثانى بكر فى هذه الليلة؟ لأن وفاة خعمواست كانت قبل ذلك بحوالى ١٠ سنوات. والرد هو لعل قد مات له ابن بكر من إحدى محظياته أو سراريه وليس ضروريا أن يكون من إحدى نسائه الرئيسيات.

قلنا إن الخروج حدث فى شهر أبيب وهو الشهر قبل الأخير من شهور السنة المصرية القديمة والتى تُسمَّى خطأ بالشهور القبطية ولاشك أن شهر أبيب كان فى تلك السنة فى أواخر فصل الربيع مقابلاً لشهر أبريل. وكان الخروج فى اليوم الرابع عشر مساء أى ليلة الخامس عشر. وأصبح هذا اليوم هو عيد الفصح عند اليهود: ويكون لكم هذا اليوم تذكارا وتعيدونه عيدا للرب. فى أجيالكم تعيِّدونه فريضة أَبديَّة (خروج ١٢ : ١٤). هى ليلة تُحفظ للرب لإخراجه إياهم من أرض مصر. هذه الليلة هى للرب تحفظ من جميع بنى إسرائيل فى أجيالهم (١٢ : ٤٣) وكان فى ذلك اليوم عينه أن الرب أخرج بنى إسرائيل من أرض مصر (١٢ : ٥١).

روى البخارى ومسلم والنسائى عن ابن عباس قال: قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تصوم عاشوراء (العاشر من شهر محرم) فقال ما هذا اليوم الذى تصومونه فقالوا هذا يوم نجَّى الله عز وجل فيه بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى عليه السلام. فقال رسول صلى الله عليه وسلم: أنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصومه (صحيح البخارى. جـ ٣ ص ٥٦).

ويستمر عيد الفصح عند اليهود سبعة أيام من اليوم الرابع عشر إلى الحادى والعشرين ومحرم فيه أكل عيش من عجين مختمر. بل يصنع فطير ويؤكل طوال سبعة أيام العيد ولذلك يسمى عيد الفطير. وعشاء الفصح هو أول وأهم شعائر العيد. وكانوا فى أول عهده يقفون أثناء أكل العشاء ليلة الفصح اقتداء بما فعله أجدادهم عند الخروج الفعلى من مصر ولكن فى الأزمنة الأخيرة صاروا يتكئون (قاموس الكتاب المقدس ص ٦٧٩).

طريق الخروج :

يختلف العلماء اختلافا كبيرا حول موضوع خروج بنى إسرائيل من مصر والطريق الذى سلكوه ومكان انشقاق البحر لموسى عليه السلام وخاصة أن الآثار المصرية تصمت عن موضوع بنى اسرائيل كما سبق أن ذكرنا (ص ٦٥٧) إلا من الإشارة العابرة إليهم فى لوح مرنبتاح المسمى بلوح إسرائيل. ومن الطبيعى – وقد اعتقد المصريون أن بنى إسرائيل خارجون إلى البرية ثلاثة أيام للعبادة – أنهم لم يهتموا بمعرفة أى برية اختاروا ولا فى أى الطرق ساروا. فضلا عن أن ضربة موت الأبكار جعلتهم يعكفون على موتاهم يندبونهم ويحنطونهم قبل دفنهم. ومادام الأمر كذلك فليس أمامنا من مصدر نستقى منه معلومات عن هذا الموضوع سوى التوراة. وقد اختلف العلماء فى تحديد مكان البلدان التى جاء ذكرها فى التوراة وخاصة أن طبوغرافية المناطق تتغير على مر الأمنة. وتجمع الأراء على أن البحر الأحمر ممثلا فى خليج السويس كان يمتد شمالا ليتصل بالبحيرات المرة ومن ثم فيمكن اعتبار الكل «بحرا أحمر» خلافا لمفهومنا الحالى عن البحر الأحمر فضلا عن أن أدلاء الطرق (الجغرافيين) كانوا فى ذلك الوقت لا يدركون أن البحر الأحمر يتفرع فى طرفه الشمالى إلى خليجى العقبة والسويس بل كانوا يظنونه كما فى شكل ٢٨٩ ص ١٠٧٣ الذى يبين خريطة رسمها الجغرافى هـ. ڤايسل H. Weisel عام ١٥٥٠م. فما بالنا بمفهومهم عن طبوغرافية المكان فى ذلك الوقت الذى يسبق هذه الخريطة بـ ٢٨٠٠ عاماً (١٢٥٠ ق.م. + ١٥٥٠م). ونذكر أولا ما جاء فى التوراة (خروج ١٣، ١٤):

وارتحل بنو إسرائيل من **رعمسيس** إلى **سكوث** (١٢: ٣٧). ثم جاء فى الإصحاح ١٣: ١٧ إلى ٢٢. وكان أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربا ويرجعوا إلى مصر فأدار الله الشعب فى طريق **برية بحر سوف** وصعد بنو إسرائيل متجهِّزين من أرض مصر. وأخذ موسى عظام يوسف معه لأنه كان قد استحلف بنى إسرائيل بحلف قائلا إن الله سيفتقدكم فتُصعِدون عظامى من هنا معكم. (وقد سبق أن ذكرنا ذلك فى الجزء الثالث ص ٥٣٢). وارتحلوا من سكوث ونزلوا فى **إيثام** فى طرف البرية. وكان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق وليلا فى عمود نار ليضىء لهم لكى يمشوا نهارا وليلا. لم يبرح عمود السحاب نهارا وعمود النار ليلا أمام الشعب. وفى الإصحاح ١٤: وكلم الرب موسى قائلا. كلِّم بنى إسرائيل أن **يرجعوا** وينزلوا **أمام فم الحيروث** بين **مجدل والبحر أمام بعل صفون** مقابله تنزلون عند البحر. فيقول فرعون عن بنى إسرائيل هم مرتبكون فى الأرض. قد استغلق عليهم القفر. وأُشدِّد قلب فرعون حتى يسعى وراءهم. فأتمجدً بفرعون وبجميع جيشه ويعرف المصريون أنى أنا الرب. ففعلوا هكذا. فلما أخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب تغير قلب فرعون وعبيده فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا

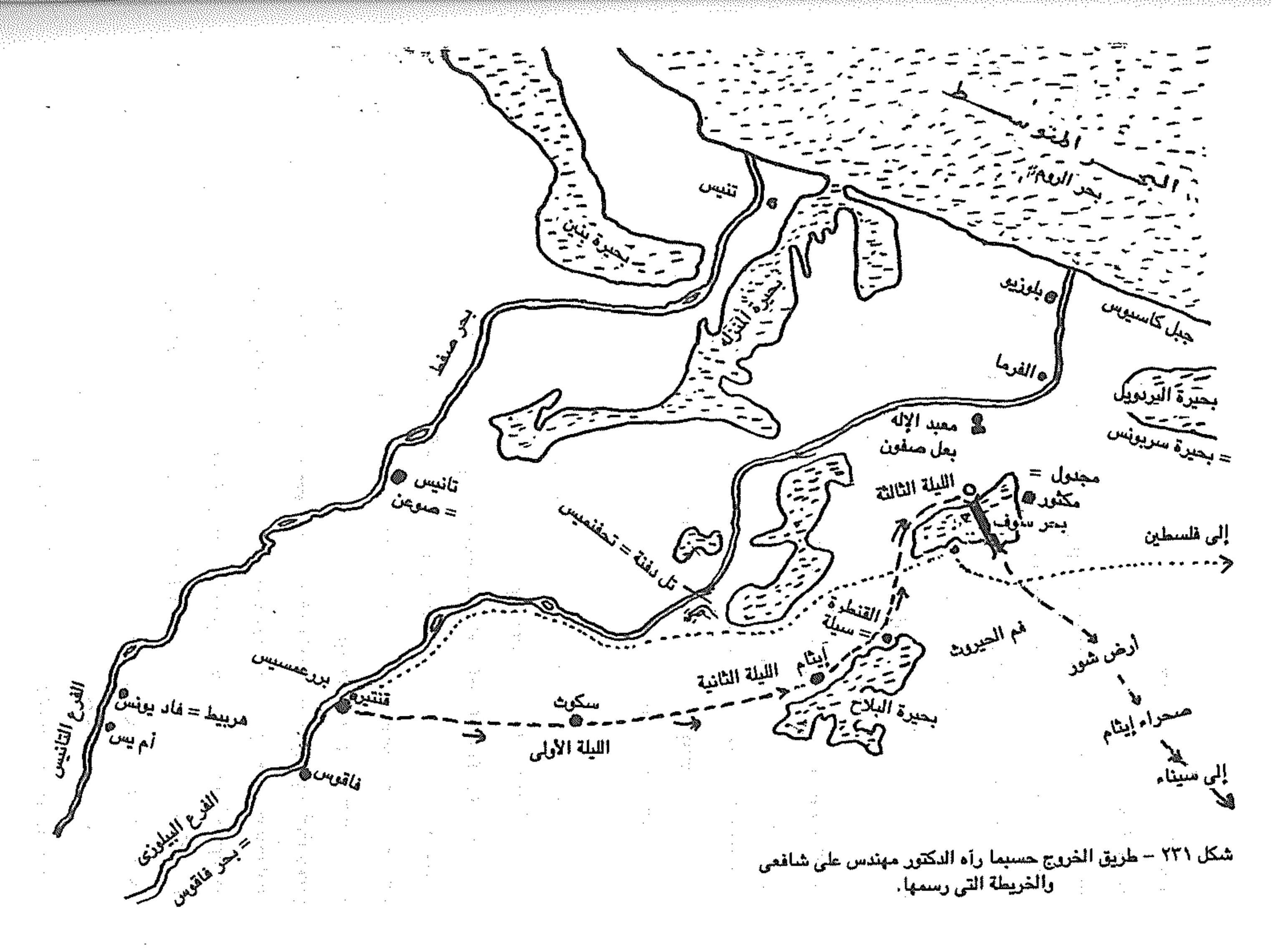
إسرائيل من خدمتنا. فشد مركبته وأخذ قومه معه وأخذ ستمائة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر وجنودا مركبية على جميعها. وشدد الرب قلب فرعون ملك مصر حتى سعى وراء بنى إسرائيل وسعى المصريون وراءهم وأدركوهم وهم نازلون **عند البحر عند فم الحيروث أمام بعل صفون.**

وقد اختلف الجغرافيون فى تحديد مكان هذه المواقع لأن هذه الأماكن لم تكن مدنا ثابتة بل كانت أماكن إقامة مؤقتة ينزل بها بدو الصحراء بخيامهم ليبقوا فيها بضعة أيام أو عدة أشهر ثم يرحلون عنها. فلا يتركون آثارا لمبانى يمكن من خلالها الاستدلال على الموقع. وقد تمكن «هار إل» (Har - El, the Exodus Route International Geog. Union, 1976: 374) من حصر احتمالات مكان العبور فوجدها تسعا: ٣ بحيرات بجوار البحر المتوسط - ٤ بحيرات على خط قناة السويس الحالى بالإضافة إلى مكانين فى خليج السويس نفسه أو بالأحرى البحر الأحمر إذ لم يكن خليج السويس معروفا كما قلنا آنفا (أطلس الكتاب المقدسNIV زوندرمان ، ص ٨٨). وسنذكر بعض هذه الآراء مع بيان ما قد يكون عليها من اعتراضات:

١ - نبدأ **بنظرية المهندس على بك شافعى**. وقد ذكرهاعالم المصريات سليم حسن (مصر القديمة جـ ٧ ص ١١٨) وصوَّر الخريطة.التى رسمها ذلك المهندس وقد وضع عليها ما ارتآه من أماكن البلدان التى ورد ذكرها فى التوراة وكان تصوره للخروج كما فى شكل ٢٣١: خرج بنو إسرائيل من «بررعمسيس» وساروا شرقا طوال النهار ثم امضوا الليلة الأولى فى بلدة «سكوث» ثم ساروا يوماً ثانيا وعسكروا الليلة الثانية فى «إيثام» على حافة الصحراء. وبعد ذلك حولوا طريقهم وساروا شمالا وضربوا خيامهم فى الليلة الثالثة أمام المكان المسمى «فم الحيروث» بين «مجدل» والبحر الذى هو «بحر سوف» وفى هذا المكان لحقهم فرعون وجيشه فى عرباته واستولى الفزع على بنى إسرائيل فانشق البحر وعبر بنو إسرائيل كما هو معروف وغرق فرعون وجنوده. وكلمة «سوف» تعنى البوص وبحر سوف هو جزء من بحيرة المنزلة الحالية وكان ينمو بها البوص بكثرة فهى فى الحقيقة بحر الغاب أى Reed Sea أو بحر البوص وقرأها البعض Red Sea وترجمت خطأ إلى البحر الأحمر. ويستكمل قائلا: ثم اتجهوا جنوبا عبر صحراء إيثام وساروا لمدة ٣ أيام دون أن يجدوا ماء وهذا يدل على أنهم لم يسيرا فى المنطقة الساحلية ذات العيون المائية المتعددة. وأن موسى كان موليا وجهة شطر «مدين» حيث كان حموه.

وهناك عدة اعتراضات على هذه النظرية سنشرحها بتفصيل إذ أن عديداً من النظريات الأخرى يحدد مكان البلدان التى وردت فى التوراة فى طريق الخروج بنفس الأماكن التى حددتها هذه النظرية وتنسحب اعتراضاتنا عليها هى الأخرى.

أ - لم يكن الهدف من الخروج الذهاب إلى «أى» مكان مثل أرض مدين كما تدعى هذه



شكل ٢٣١ – طريق الخروج حسبما رآه الدكتور مهندس على شافعى والخريطة التى رسمها.

النظرية بل الهدف الخروج إلى سيناء ثم إلى أرض الميعاد أى فلسطين.

ب – هذه النظرية تفترض أن فرعون قد لحق بهم فى الليلة الثالثة وصبيحة اليوم الرابع ومعروف أن فرعون كان قد سمح لبنى إسرائيل بالذهاب لعبادة ربهم على بعد مسيرة ثلاثة أيام فى البرية كما جاء فى التوراة (خروج ٨ : ٢٧): نذهب سفر ثلاثة أيام فى البرية (سبق ذكر ذلك فى ص ٩١١). وعلى ذلك فإن فرعون لن يفتقد بنى إسرائيل إلا بعد ثمانية أو تسعة أيام باعتبار سفر ثلاثة أيام ذهابا ثم عبادة يومين أو ثلاثة ثم ثلاثة أيام للعودة. فهذه حوالى تسعة أيام ولما كانوا قد سبقوه بهذه المسافة فهو لن يلحقهم قبل يوم آخر باعتبار أن عجلاته الحربية ستقطع كل هذه المسافة فى يوم واحد أى يلحقهم فى اليوم العاشر. فإذا كانوا حسب هذه النظرية قد وصلوا إلى طرف بحيرة المنزلة فى ثلاثة أيام فلابد أنهم فى السبعة أيام التالية يكونوا قد تركوا منطقة البحيرات وراءهم وساروا فى اتجاه الجنوب كما تقول النظرية. وهى منطقة صحراء وتلال وصاروا فريسة سهلة يمكن إبادتهم وليس بها ماء لإغراق فرعون.

جـ – يصبح من غير المفهوم لماذا سار بنو اسرائيل بعد «إيثام» و «سيلا» شمالا ولم يتجهوا شرقا فى الأرض اليابسة بين بحر سوف وبحيرة البلاح ليصلوا إلى برية شور ومنها إلى سيناء.

د – هذه النظرية تجعل من الضربة الأخيرة «موت الأبكار» غير ذات معنى إذا المفروض أن المصريين سينشغلون فى تحنيط موتاهم ودفنهم وهذا يستغرق فى المعتاد ٤٠ يوما وإن تم باستعجال فلن تقل عن عشرة أيام. ومن غير المعقول أن يأمر فرعون الجند بترك موتاهم والذهاب لمطاردة بنى اسرائيل. كما يسرى هذا نفسه على الفرعون إذ لابد قد مات له بكر إحدى نسائه غير الرئيسيات أو بكر إحدى محظياته.

هـ – لا تفسر هذه النظرية معنى ما جاء فى التوراة من ارتباك بنى إسرائيل «هم مرتبكون فى الأرض قد استغلق عليهم القفر». والارتباك يعنى السير فى طريق ثم العودة منه لاتخاذ طريق آخر. والطريق المرسوم فى هذه النظرية ليس فيه ارتباك.

و – هذه الطريقة تجعل موسى عليه السلام يتعمد أن يدركه فرعون وأمامه بحر أو بحيرة كأنما كان يعرف أن البحر سينشق له ليمر هو ويغرق فرعون. فقد كان بوسعه بعد أن ترك إيثام وسيلا أن يتجه شرقا ليسير فى الطريق إلى فلسطين وإن قيل إن هذا الطريق عليه نقط حدود وحصون فقد كان يمكنه الالتفاف حول الطرف الشمالى لبحيرة البلاح فى اتجاه فم الحيروث ثم جنوبا إلى سيناء.

النظريات الأخرى:

٢ – **إحدى النظريات** ترسم طريق الخروج كما فى شكل ٢٣٢ : بدأ الخروج من «بررعمسيس» ويرى صاحب النظرية أنها هى «عين شمس» ثم اتجهوا شرقا إلى «سكوث» ثم «إيثام» ثم كان العبور عند «فم الحيروث» قرب السويس.

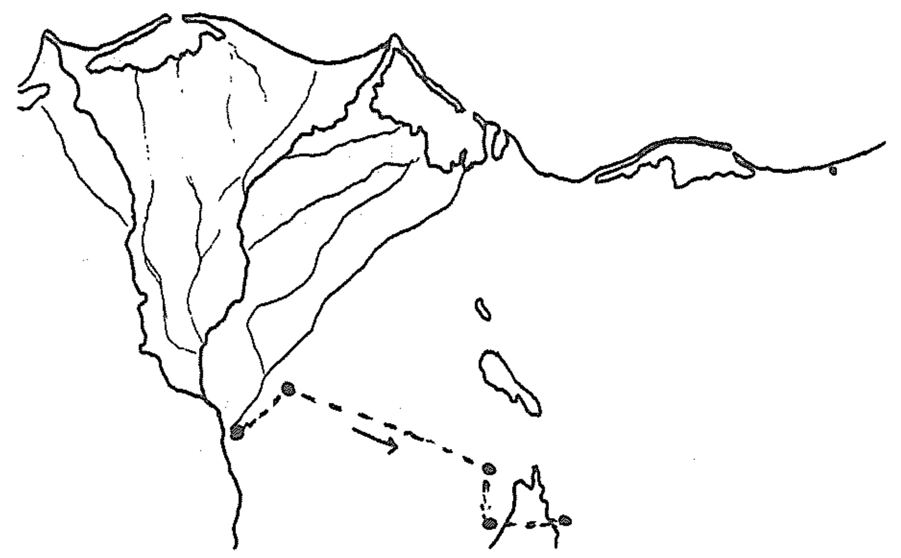
٣ – يصحح **الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم** هذا الطريق (كتابه – مصر والشرق الأدنى القديم – جـ ٥ ص ١٦٤) بوضع «بررعمسيس» فى مكانها الصحيح عند قنتير وبذلك يكون طريق الخروج كما هو موضح فى شكل ٢٣٣. ويكون انشقاق البحر طبقا لهاتين النظريتين فى الطرف الشمالى لخليج السويس الحالى. وإن كانت المنطقة الموضحة فى الخريطة يبلغ عمق الخليج فيها أكثر من ٥٠ مترا وهو ما يجعل اختراقه بعد شق البحر أمرا يكاد يكون مستحيلا على هذا الحشد الهائل من البشر والبقر والغنم هبوطا إلى قاع البحر ثم صعودا. وعلى ذلك فلو قبلنا خليج السويس كمكان للعبور لوجب أن يكون ذلك فى أقصى الطرف الشمالى فى منطقة لا يزيد العمق فيها عن خمسة أمتار.

٤ – يرى **نلسون بيشر** (Story of the Bible World, 1959, p. 29) طريق الخروج كما هو موضح فى الخريطة شكل ٢٣٤ أ. وحتى لا نزيد الخريطة تعقيدا بكتابة الأسماء عليها بالعربية فقد أعدناها فى شكل ٢٣٤ ب ومن خط السير المرسوم نرى أنه فعلا قد أوضح ارتباك بنى إسرائيل الذى أشارت إليه التوراة. إذ ساروا جنوبا إلى إيثام ثم شمالا إلى بعل صفون. إلا أن هناك بعض المآخذ عليها:

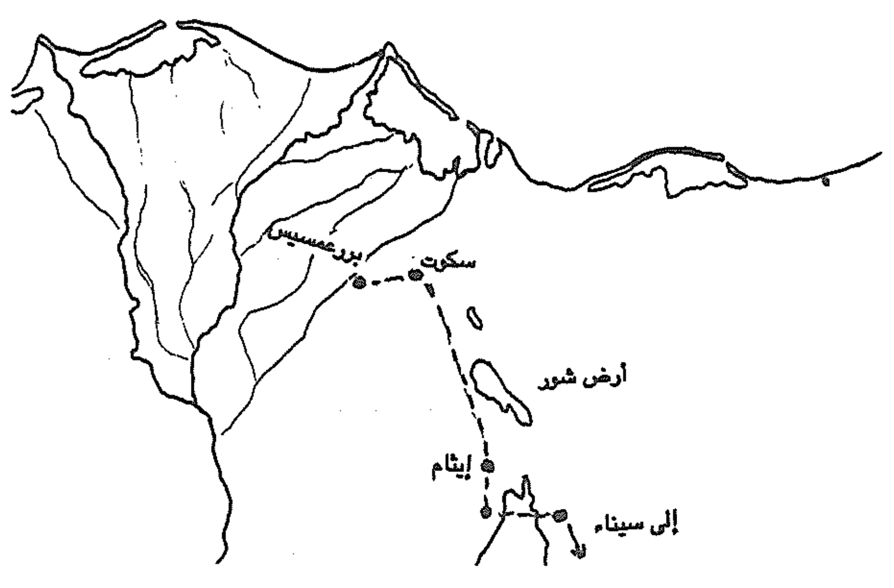
أ – جعل مدينة «بررعمسيس» هى «تانيس» عاصمة الهكسوس القديمة. وقد ذكرنا (ص ٧٠٩) الخلاف حول مكان عاصمة رمسيس الثانى. واستقرار الرأى أخيرا على أنها قرب قنتير على الفرع البيلوزى وليست تانيس على الفرع لتانيسى.

ب – جعل إيثام تقع على البحيرة المرة الكبرى فى حين أن غالبية الآراء ترى أنها تقع شمال مدينة السويس.

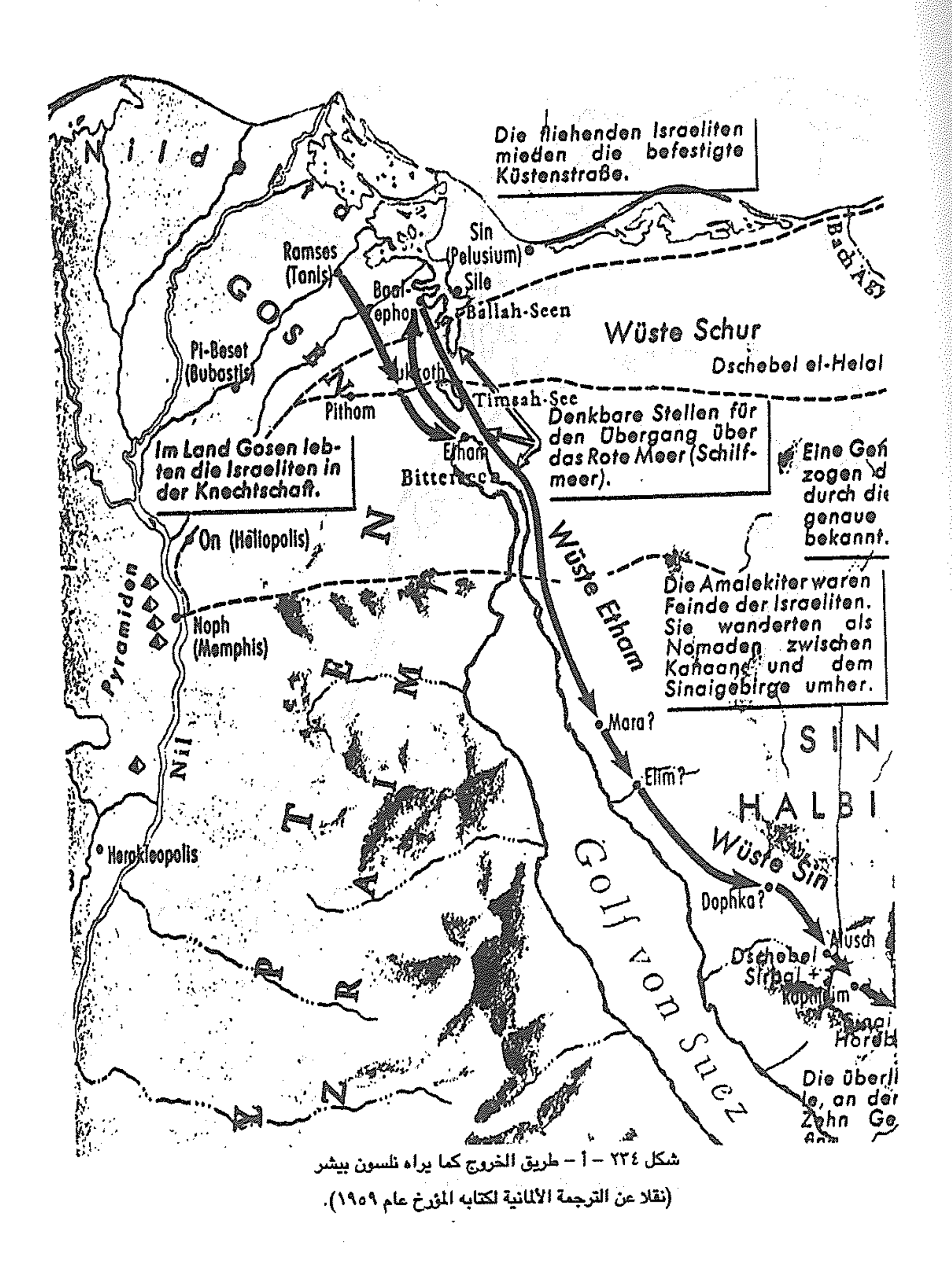
جـ – لا يصبح مفهوما لماذا استمر موسى عليه السلام فى السير من إيثام شمالا بعد أن أصبح بجوار بحيرة التمساح ولماذا لم يلتف حول طرفها الشمالى ويتجه شرقا إلى برية شور. ولكنه استمر فى السير شمالا غربى بحيرة البلاح وبذلك وضع نفسه متعمدا فى زنقة أو كما يقال «فى مزنق» (زنق كلمة عربية فصيحة – جاء فى المعجم الوسيط جـ ١ ص ٤٠٥ زنق على عياله ضيَّق عليهم بُخلاً أو فقرا. والزنقة مسلك ضيق. وتكون كلمة مزنق فصيحة إذ هى إشتقاق على وزن مَفْعَل). وقد رجَّح نلسون أن العبور كان عند الجزء الجنوبى من بحيرة المنزلة وهو المسمىً «بحر سوف» أى «بحر الغاب».



شكل ٢٣٢ - إحدى النظريات عن طريق الخروج وقد وضع صاحبها بررعمسيس عند عين شمس!

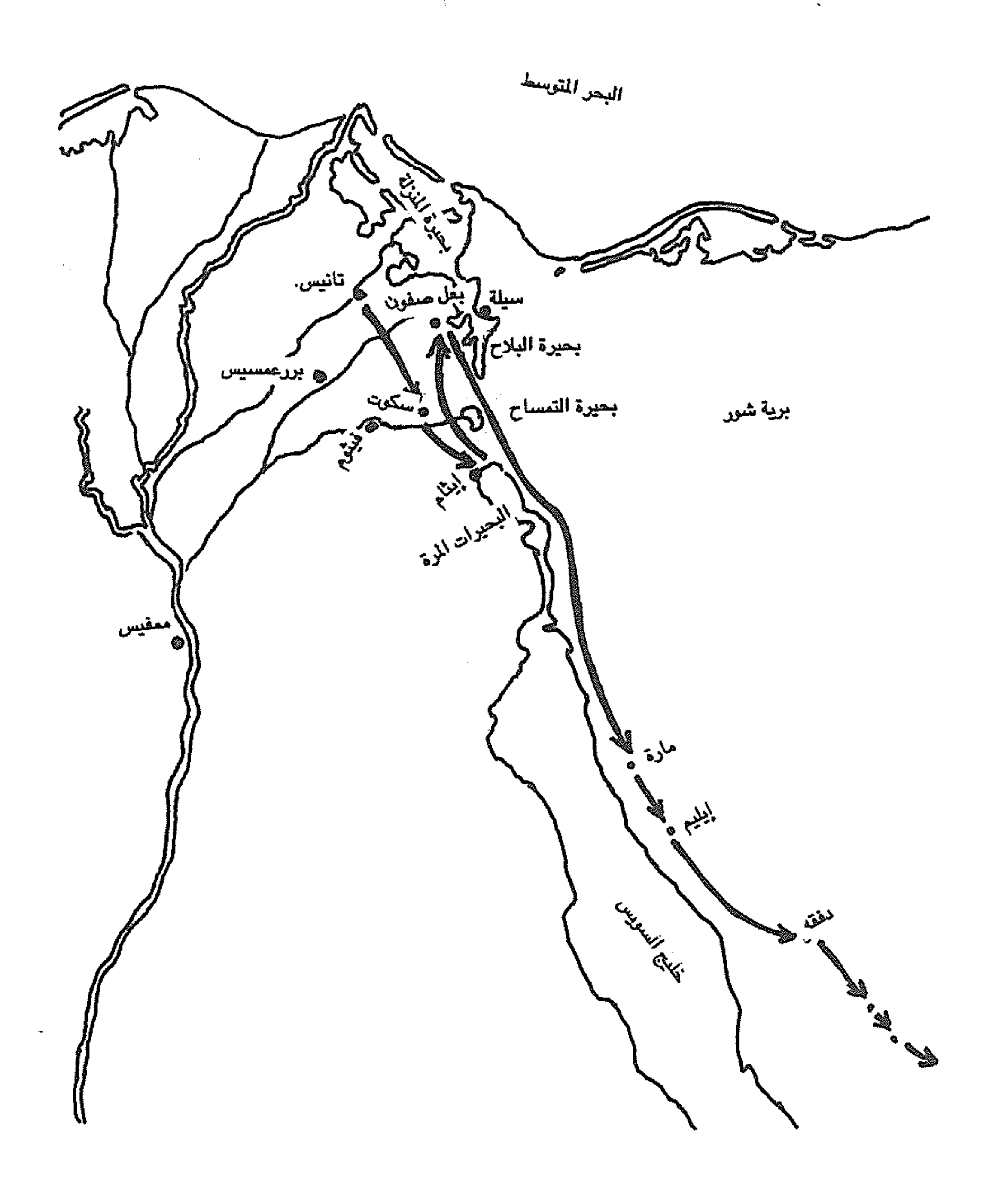


شكل ٢٣٣ - طريق الخروج وانشقاق البحر كما يراه الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم.



شكل ٢٣٤ – أ – طريق الخروج كما يراه نلسون بيشر

(نقلا عن الترجمة الألمانية لكتابه المؤرخ عام ١٩٥٩).



شكل ٢٣٤ ب – طريق الخروج كما يراه نيلسون بيشر.

د – أشار إلى موضع على البحيرة المرة الكبرى وموضع آخر على البحيرة المرة الصغرى على أنهما من الأمكنة التى يرى غيره أن العبور كان عندها.

٥ – يرى **وارنر كيللر** (Warner Keller, The Bible as History P. 120) طريق الخروج كما فى شكل ٢٣٥. يبدأ من بررعمسيس فى مكانها على الفرع البيلوزى إلى سكوث ثم جنوبا إلى إيثام فى مكانها المتفق عليه قرب الطرف الشمالى لخليج السويس. ويرى أنها هى مكتول Miktol التى تظهر فى الكتابات المصرية وكلمة مكتول تعنى قلعة وكان بها حامية مصرية وأثبتت الحفريات أنها هى قرية أبو حسن ٢٠ كم شمال مدينة السويس الحالية. ثم اتجهت المسيرة شمالا ثانية. ويرى أن خليج السويس كان متصلا بالبحيرات المرة وكذلك بحيرة التمساح. واستمر السير شمالاً حتى بعل صفون على الساحل الجنوبى لبحيرة المنزلة وفى شرق بعل صفون جزء من البحيرة يسمى بحيرة البلاح ويرى أنها هى نفسها «بحر سوف» وكان انشقاق الماء فى هذا الموضع. والاعتراض «جـ» فى النظرية السابقة ينسحب على هذه النظرية أيضا ويجعلها تبدو غير معقولة.

٦ – طريق الخروج كما يراه المؤلف :

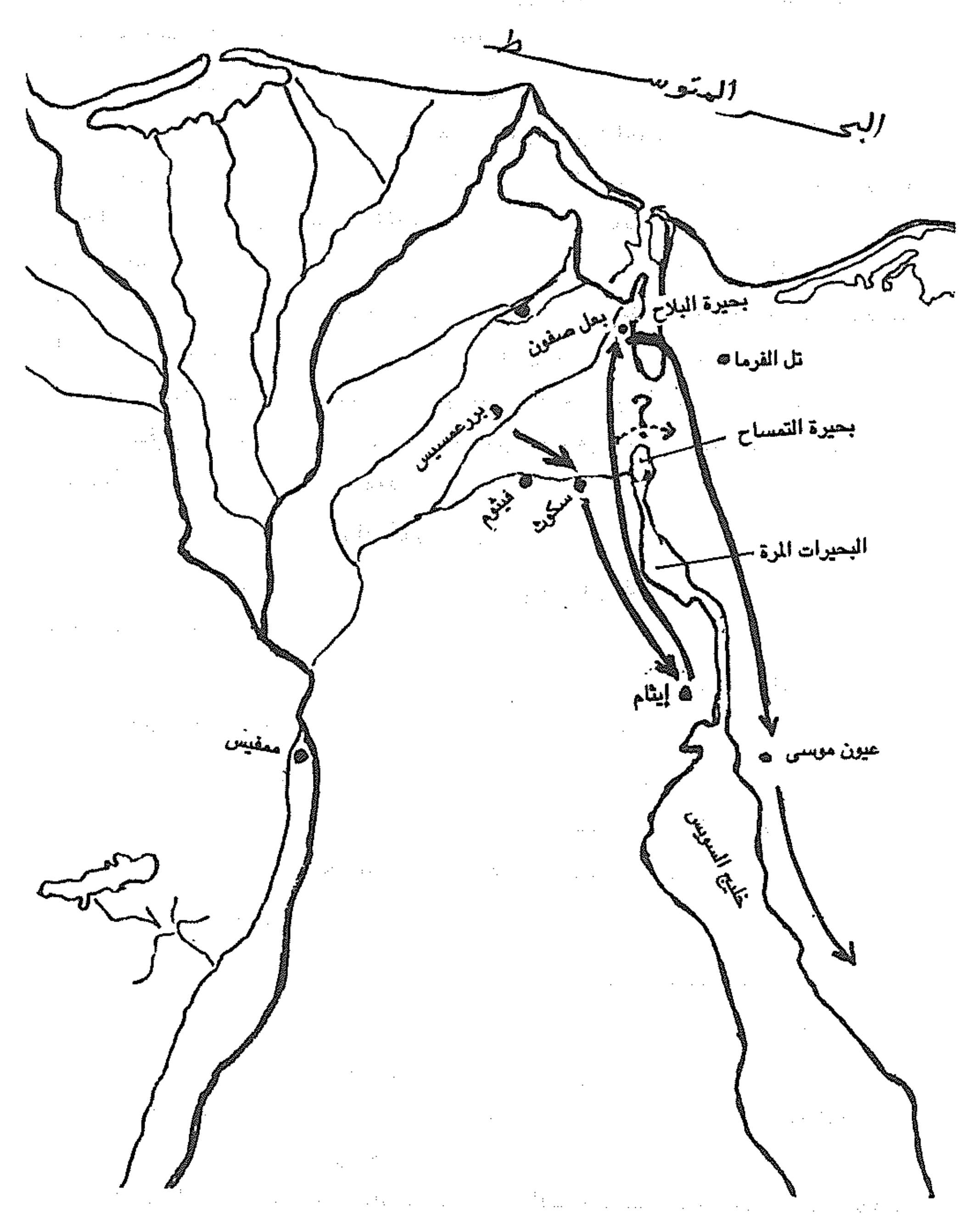
قبل أن نشرح وجهة نظرنا فى طريق الخروج نود أن نلفت النظر إلى خطأين جوهريين وقعت فيهما النظريات السابق ذكرها:

١ – أهملت هذه النظريات الطرف الآخر فى المطاردة وهو فرعون ولم توضح متى وكيف علم بأن بنى اسرائيل لاينتوون العودة وفى أى طريق سار ليلحقهم.

٢ – افترضت هذه النظريات أن موسى عليه السلام كان عالما بأن البحر سينشق له ولذلك رأوا أنه لا بأس من أن يضع نفسه فى موقف حرج – البحر أمامه والعدو خلفه – اعتماداً على انشقاق البحر مع أنه حتى آخر لحظة لم يكن هذا الحل يدور بخلده إطلاقا.

ونعود ثانية إلى قصة الخروج من بدايتها.

كانت الآية الأخيرة هى «ضربة موت الأبكار». ولعل فرعون لكثرة أبنائه الذين زادوا عن المائة لم يتأثر بموت بكر إحدى محظياته. ولكن الضربة أصابت المصريين فى الصميم وجعلتهم يطلبون من فرعون أن يسمح بخروج بنى إسرائيل حتى تُرفع عنهم الضربة ولا تحدث وفيات أخرى. ولهذا السبب فإن فرعون رضى بأن يستجيب لطلب موسى بالخروج للعبادة ثلاثة أيام فى البرية وإن كان الشرط الذى وضعه موسى من ضرورة خروج الرجال والنساء والأطفال – والغنم والبقر والمواشى **«ولا يبقى ظلف»**. جعل ذلك الشرط فرعون يُرجِّح أنهم ينوون الذهاب بلا رجعة وهو الأمر الذى لم يكن ليسمح به. ولكنه رأى أن يوافق حتى يرفع عنه البلاء وفى نيته أن يطاردهم فيما بعد ويعيدهم ثانية. لذلك فما إن خرج موسى من عنده حتى أرسل إلى الحامية



شكل ٢٣٥ – طريق الخروج كما يراه وارنر كيللر.

فى سيلا (القنطرة) يأمرهم بمنع مرور بنى إسرائيل والتصدى لهم بالقوة لو حاولوا المرور إلى فلسطين كما عزز الحراسة على المنافذ الأخرى وأمرهم بإخطاره بسرعة لو مر بنو إسرائيل بهم.

أما عن موسى عليه السلام فهو يعرف عن فرعون أنه مخاتل. فقد وعد من قبل ثمان مرات وأخلف وعده. وأنه وإن وافق مضطرا هذه المرة على أن يأخذ بنو إسرائيل كل مالهم فى مصر فإنه متأكد أن فرعون سرعان ما سيلاحقهم ليعيدهم. لذلك كان عليه أن يحاول تضليله بالسير فى طريق غير مطروق وعلم أنه لو سار فى طريق فلسطين المباشر فسرعان ما سيلحقه فرعون وجنده ويعيدونهم إلى مصر ثانية أو يبيدهم فى الصحراء.

كان هذا الحشد الهائل من البشر ٦٠٠ر٠٠٠ الذين سيقودهم موسى يحتاج إلى تنظيم دقيق فلا شك أنه لجأ إلى الطريقة التى تنظم بها الجيوش من جعلهم فى مجموعات من ٥٠ وعليهم رؤساء يُسَمَّون رؤساء الخمسين ثم هناك رؤساء المئات ورؤساء الآلاف. وهذا هو معنى ما ذكر فى إصحاح خروج ١٣: ١٨ «وصعد بنو إسرائيل من أرض مصر متجهزين» وإن كان البعض فسرَّها بمعنى مسلحين غير أنه من غير المحتمل أن يكون المصريون قد سمحوا لبنى إسرائيل بصنع أسلحة ليحملوها. كما أن تصرف بنى إسرائيل لو لحقهم فرعون بجنوده لن يكون بالوقوف ومجابهته سلاحا بسلاح بل يكون بالفرار منه بأسلم الطرق.

كانت جموع بنى إسرائيل منتشرة فى منطقة واسعة هى كل أرض جاسان ولابد أن موسى عليه السلام جمع رؤساء المئات والآلاف وأخبرهم بعزمه على الخروج من مصر وكان على هؤلاء الرؤساء أن يقودوا الأفراد والجماعات ويلتقى الجميع عند «سكوث». وبدأ موسى ومن معه مسيرتهم من بررعمسيس. وفى اليوم التالى عند سكوث اجتمع كل بنى إسرائيل. وكان على موسى أن يقرر أى طريق يسلك.

كان الخروج فى أحد شهور الصيف. والحر على أشده. ولو تعرضت هذه الجموع لأشعة الشمس المباشرة لاشتد بها العطش ولاحتاجوا إلى كميات كبيرة من المياه لإرواء عطشهم لذلك كان من رحمة الله بهم أن ظلل عليهم بالسحاب:

«وظللنا عليهم الغمام...» (١٦٠ - الأعراف)

وكان هذا من النعم التى مَنَّ الله بها على بنى إسرائيل:

«وظللنا عليكم الغمام....» (٥٧ - البقرة)

كان السحاب يسير معهم أينما ساروا يحميهم من أشعة الشمس فظنوا أن الرب فى السحاب يهديهم الطريق. كذلك فإن السائر بالليل إذا نظر إلى القمر خُيِّل إليه أن القمر يمشى

معه أينما سار وإذا غطت سحابة رقيقة وجه القمر كان هناك وهج وضياء. لذلك لا نعتقد بصحة ما ذُكر (خروج ١٣ : ٢١) من أن: وكان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق وليلا فى عمود نار ليضيء لهم لكي يمشوا نهارا وليلا. إذ أن ذلك يلغى دور موسى تماما وكان يكفى حينئذ أن يتبع بنو إسرائيل عمود السحاب وعمود النار. صحيح أن الله سبحانه وتعالى يهدى الأنبياء ولكن الهداية تكون بالخاطرة يلقيها الله فى قلب نبيه وليس فى كل وقت. ويكون على النبى وقتئذ التصرف معتمدا على قدراته الذاتية. ولا بأس بعد ذلك من أن يصحح الله له الطريق. ولا يكون هناك حرج من اتخاذ النبى فى أول الأمر طريقا مغايرا للطريق الصحيح. أما إذا كان عمود السحاب وعمود النار هما الدليل للمسيرة معبِّران عن إرادة الرب فالمفروض أن يُتبع الطريق الصحيح من أول الأمر. لذلك فإن ما ذكر من ارتباك بنى إسرائيل: «هم مرتبكون فى الأرض قد استغلق عليهم القفر» (خروج ١٤: ٤) ينفى ما قيل من: «وكان الرب يسير أمامهم» (خروج ١٣ : ٢٠). والحقيقة أن الأنبياء عليهم السلام فى أغلب المواقف يتصرفون ذاتيا معتمدين على ما آتاهم الله من حكمة وفهم وعلم. وعن موسى قال الله تعالى:

«ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما». (١٤ – القصص). وهكذا كان على موسى – بمقضى الحكمة والعلم – أن يقرر أى طريق يسلك بعد أن اجتمعت حشود بنى إسرائيل عند سكوت.

وعلم موسى بحكمته أن الطريق المباشر إلى فلسطين لاشك مراقب ومسدود وكما يقول المثل «من دونه خرط القتاد» والقتاد شجر صلب له شوك كالإبر. ويضرب المثل للشيء المحال تنفيذه أو لاينال إلا بمشقة عظيمة. وأدرك موسى عظَم المسئولية فقد أوكل الله إليه الخروج ببنى إسرائيل من مصر وعليه أن يقودهم سالمين إلى حيث يريد الله وعليه ألا يعرضهم للمخاطر وإلا كان مُفرطا فى الأمانة التى ألقيت على عاتقه. فعليه أن يحتال حتى يخرج بهم من مصر سالمين.وهنا قرر موسى أن يتجه جنوبا . فهو يعرف أن الشمال تحده بحيرة المنزلة ولا مهرب منها إذا حوصر هناك كما أنها منطقة قريبة من الطريق الساحلى إلى فلسطين ولاشك أن عليها رقابة شديدة أيضا . وهنا قد يثور تساؤل فما بالنا عن الجنوب وهو مسدود لأن البحر الأحمر ممثلا فى خليج السويس كان متصلا بالبحيرات المرة ولا مخرج منه إلى سيناء. ولا يكون من جواب إلا بافتراض أن موسى عليه السلام كان «يعتقد» بوجود منفذ ما إلى سيناء قبل خليج السويس. ولعل هذا الاعتقاد قد تولد لديه من قبل. فبعد أن كلمه ربه وهو عائد من أرض مدين وعلم بالمهمة التى أوكلت إليه كان يدرس الطريق. ولعله وهو سائر بحذاء خليج السويس على شاطئه الشرقى رأى قرب طرفه الشمالى الإنحناءة الكبيرة المشار إليها بعلامة × شكل ٢٣٦ . فظنها أرضا يابسة متصلة غربا بصحراء مصر الشرقية. وبناء على هذا

الافتراض كان سيره جنوبا لينفذ من هذا الممر - البعيد عن العيون - إلى سيناء.

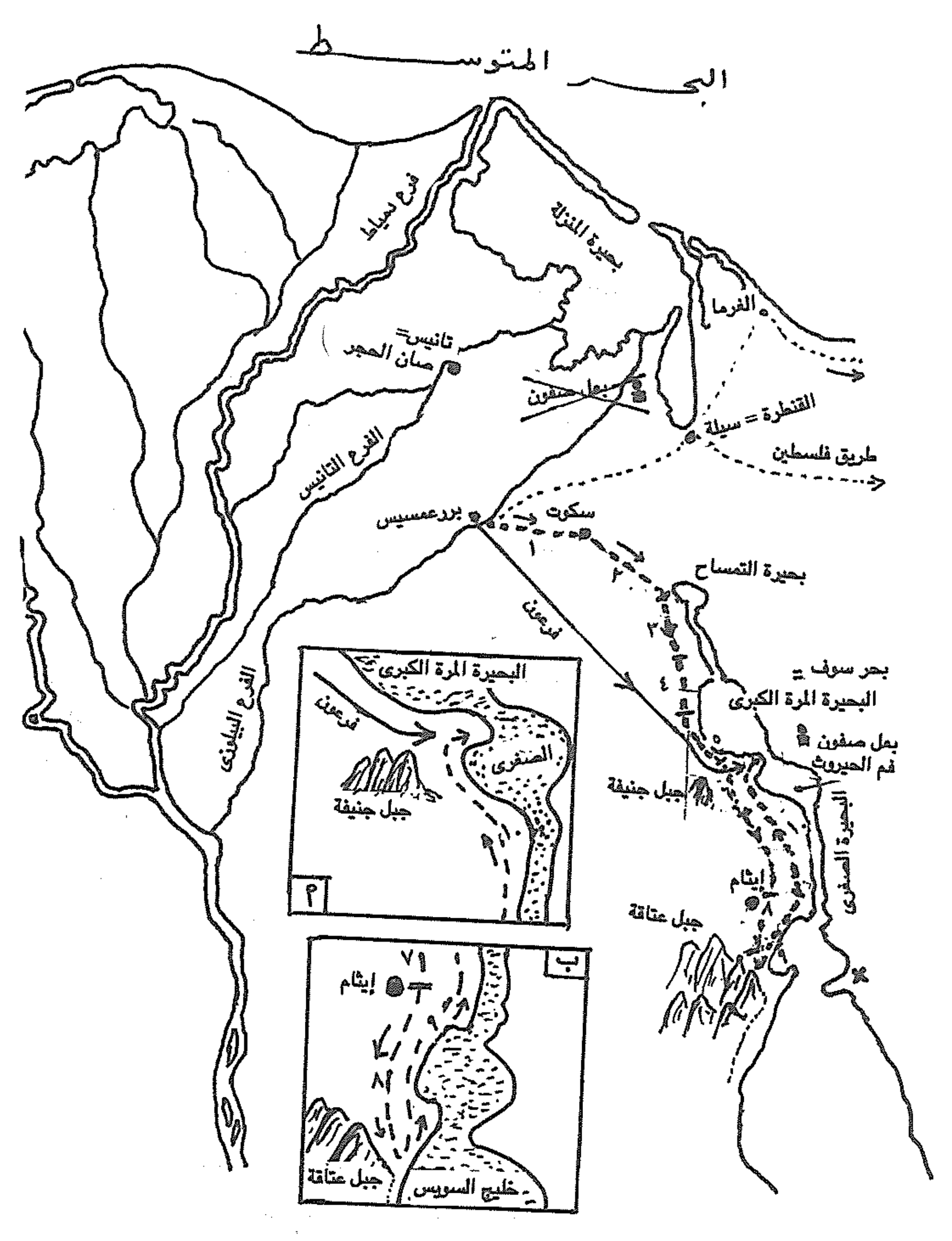
قرر أغلب الباحثين أن المسافة التى كان فى استطاعة بنى إسرائيل قطعها فى اليوم الواحد - ومعهم مواشيهم وبقرهم - كانت لا تزيد عن ١٢ ميلا أى ٢٠ كيلو مترا (وارنركيللر - تاريخ الكتاب المقدس، ص ١٢٠). وعليه فإن السير من سكوث إلى بحيرة التمساح استغرق يوما، ثم خمسة أيام أخرى حتى وصلوا إلى إيثام. فى هذه الأيام السبعة كان رمسيس الثانى فى قصره ينتظر وصول الأخبار عن تحركات بنى إسرائيل. ولعل رسلا جاءوا من «سيلا» (القنطرة) وأخبروه أن بنى إسرائيل لم يمروا عن طريقهم. وفى اليوم الثامن وصله فارس من «إيثام» بأن بنى إسرائيل مروا أمامهم متجهين جنوبا فقرر اللحاق بهم لإرجاعهم إلى أرض جاسان.

كان بنو إسرائيل فى اليوم الثامن قد تجاوزوا إيثام جنوبا وبحث موسى عن المعبر إلى سيناء فلم يجده بل وجد جبل عتاقة إلى يمينه مرتفعا وراَه يقرب من شاطىء البحر حتى ليكاد يسده ولا يترك إلا ممرا عرضه عدة أمتار يستحيل على هذا الحشد الهائل المرور منه (شكل ٢٣٦ ب) فعاد أدراجه ثانية وضاع يوم ثانٍ فى العودة إلى إيثام. وأرسلت حاميتها رسولاً إلى فرعون يخبرونه بمرور بنى إسرائيل بهم ولكن فى هذه المرة متجهين إلى الشمال. وكما قالت التوراة (خروج ١٤ : ٤) قال فرعون «هم مرتبكون فى الأرض قد استغلق عليهم القفر».

ويثور التساؤل: أليس فى هذا تأخير لخروجهم من مصر وازدياد الفرصة أمام فرعون للحاق بهم وإعادتهم إلى العبودية ثانية؟ وهنا تتبدّى حكمة الله التى لا تدرك لأول وهله. فلقد علم الله أن خروجهم من مصر ووصولهم إلى فلسطين لن يكون نجاة كاملة لهم لأن فرعون سيلاحقهم بجيشه ويقاتلهم هناك وليس عندهم من السلاح ما يدافعون به عن أنفسهم ولن تكون النجاة كاملة إلا بهلاك فرعون وآلته الحربية حتى لا يلاحقهم فى فلسطين. ولكن كيف يكون هلاك فرعون وجيشه؟ ما كان أسهل من أن يصيبهم الله بوباء يقضى عليهم. ولكن مثل هذه الوفاة ليس فيها العبرة الكافية. كذلك ما كان أسهل من أن تقوم عاصفة على جيش فرعون وهو سائر فى الصحراء فتهلكهم كالعاصفة التى أهلكت جيش الفرس الذى أرسله قمبيز ليحتل الواحات الخارجة! ولكن هذا الحل أيضا ليس فيه العظة المطلوبة وسيقال لقد أهلكته عاصفة من فعل الطبيعة - ويريد الله أن تكون وفاة الفرعون وهلاك جنده أثناء مطاردتهم لموسى وبنى إسرائيل لتتحقق النبوءة بحذافيرها. والنبوءة كانت تقول: إن طفلا يولد لهم يكون هلاك الفرعون على يديه. وكان فرعون يريد أن يحذر هذه النبوءة. ولكن مشيئة الله هى:

«ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون». (٦ - القصص)

وهكذا سار موسى عليه السلام عائدا أدراجه فى اتجاه الشمال وقد خاب أمله فى وجود معبر إلى سيناء فى الجنوب ولا ندرى ماذا كان شعوره وقتئذ ولا ما كان يعتمل فى صدره. هل



شكل ٢٣٦ – طريق الخروج كما يراه المؤلف.

كان يلوم نفسه لهذا الوقت الذى «أضاعه» والذى سيمكن فرعون من اللحاق بهم - إن الأنبياء يعلمون علم اليقين أن كل خطوة يخطونها هى بتقدير من الله العزيز الحكيم. وقد اجتهد بأقصى جهده على قدر علمه ولم يقصر. وترك الأمر لله يدبِّره كيف يشاء. وراح يهدىء من ثائرة بنى إسرائيل الذين لاشك بدأوا فى التذمر. كان كل تفكير بنى إسرائيل هو أن يخرجوا من أرض مصر بأسرع ما يمكن ليبعدوا عن يد فرعون - هكذا كان ظنهم. ولعلهم اتهموا موسى عليه السلام بعدم الدراية بمسالك الصحراء وأنه «بتردده» هذا قد زاد من احتمالات تعرضهم للخطر .

حنق فرعون واغتاظ لما علم بأن بنى إسرائيل قد ابتعدوا هكذا فى مسيرتهم إلى الجنوب وأدرك كم كان مصيبا عندما شك فى أنهم ينوون الخروج بلا رجعة أما وقد تأكدت ظنونه فإنه قرر إعادتهم ثانية بالقوة إلى أرض جاسان أو القضاء عليهم نهائيا.

«فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون». (٥٣ - ٥٥ - الشعراء)

وقرأها البعض حذرون بغير ألف والمعنى إنا لجمع من عادتنا الحذر والاحتراز. وقالوا الحَذِر من كان الحَذَر طبعة وحاذر للمبالغة. وعن ابن عباس وغيره الحاذر التام السلاح لقوله تعالى «**خذوا حذركم**» أى سلاحكم (تفسيرالألوسى جـ ٩ ص ٨٢) ولكن قوله تعالى «**وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم**» (١٠٢ - النساء) يبين أن الحذر خلاف الأسلحة ولهذا كان النص على كل منهما. فالحذر هو الاحتراز وأخذ الحيطة. وكان من حذر فرعون أنه كان قد أخذ حيطته وأمر قواد الجيش بأن يكونوا شبه مستعدين. فلما وصله الخبر من نقطة المراقبة فى إيثام لم يستغرق الأمر إلا يوما واحدا ليرسل إلى المدن لاستدعاء الجند والفرسان والمركبات والتزود بالمؤن.

خرج فرعون بجنوده فى صبيحة اليوم العاشر. على عجلاته الحربية. تقول التوراة: فشد مركبته وأخذ قومه معه وأخذ ستمائة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر وجنودا مركبية على جميعها.. (خروج ١٤ : ٦). ولما كان الأمر كذلك فقد قطعوا المسافة كلها فى يوم واحد.

كان موسى وبنو إسرائيل بعد مرورهم بإيثام متجهين شمالا قد قطعوا اليوم العاشر كله سيرا حتى وصلوا آخر النهار إلى منطقة **إلتقاء البحيرة المرَّة الصغرى بالبحيرة المرة الكبرى (شكل ٢٣٦ أ)** ورأى موسى وبنو إسرائيل غبارا هائلا فى الجو - مما أثارته العربات الحربية فأيقنوا أنه فرعون. وكان جبل جنيفة إلى الغرب فلم يكن أمامهم إلا الاتجاه شرقا. وتبعهم فرعون.

«فأتبعوهم مشرقين». (٦٠ - الشعراء)

شرَّق وأشرق توجه نحو الشرق (المعجم الوسيط جـ ١ ص ٤٨٢) وقيل أيضا داخلين فى وقت شروق الشمس أى وقت طلوعها مثل أصبح أى فى وقت الصباح – ويكون ذلك باعتبار بدء فرعون فى اتباعهم إذ بدأ كما قلنا فى صبيحة اليوم العاشر.

وهكذا فإن لفظ «مشرقين» يحمل معنيين. بدء الاتباع والمطاردة عند شروق الشمس ثم عند رؤيتهم كان الاتباع والمطاردة فى اتجاه الشرق وهذا من الإعجاز اللفظى للقرآن الكريم.

واقترب جند فرعون حتى بدأ بنو إسرائيل يرون عرباتهم. وبالمثل بدأ فرعون وجنده يرون بنى إسرائيل وأصبح كل فريق يرى الآخر أى «تراءى» الفريقان:

«فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون». (٦١-الشعراء)

فزع بنو إسرائيل وقالوا لموسى «إنا لمدركون» أى لملحقون. وقرأها البعض «لمدَّرِكون» بمعنى الهلاك والفناء (تفسير الألوسى جـ ١٩ ص ٨٤) حيث أن العدو خلفهم والبحر أمامهم وليس من مخرج. فرد عليهم موسى يطمئنهم:

«قال كلا . إن معى ربى سيهدين». (٦٢ الشعراء)

حتى هذه اللحظة لم يكن موسى عليه السلام يعرف ماذا سيحدث. كان متأكدا أن الله سينقذه هو وبنى إسرائيل من فرعون وجنده. ولكن كيف؟ ذلك مالم يكن يعرفه. واستمر فرعون وجنوده فى الاقتراب. وموسى وبنو إسرائيل يسيرون شرقا حتى قرب الغروب – ولم يبق أمامهم إلا البحر. وهنا حدثت المعجزة.

انفلاق البحر :

«فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. وأزلفنا ثم الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم».

(٦٣ – ٦٨ – الشعراء)

وهنا محذوف إذ المعنى: أن اضرب بعصاك البحر فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق وفى الحذف إشارة إلى سرعة امتثاله لأمر ربه لحرج الموقف. فانفلق البحر وكان الماء على كل جانب كأنه جبل مرتفع أى كالطود العظيم.

قال البعض (تفسير القرطبى جـ ١ ص ٣٩٠): فكان فيه اثنا عشر فرقا لاثنى عشر سبطا لكل سبط طريق يتراءون وذلك أن أطواد الماء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا. ولا نرى هذا الرأى لأن فيه تزيُّد لا يقتضيه الموقف. وينفيه قوله تعالى:

«فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى». (٧٧ – طه)

ولم يقل طرقا للتعدد ولم يقل قد علم كل أناس طريقهم كقوله تعالى «قد علم كل أناس مشربهم» كما أن بنى إسرائيل أثناء مطاردة فرعون لهم لم يكونوا ليلتزموا فى سيرهم بتنظيم بحيث يكون كل سبط وحده فى طريق خاص به لا يمر منه غيره.

مكان انشقاق البحر :

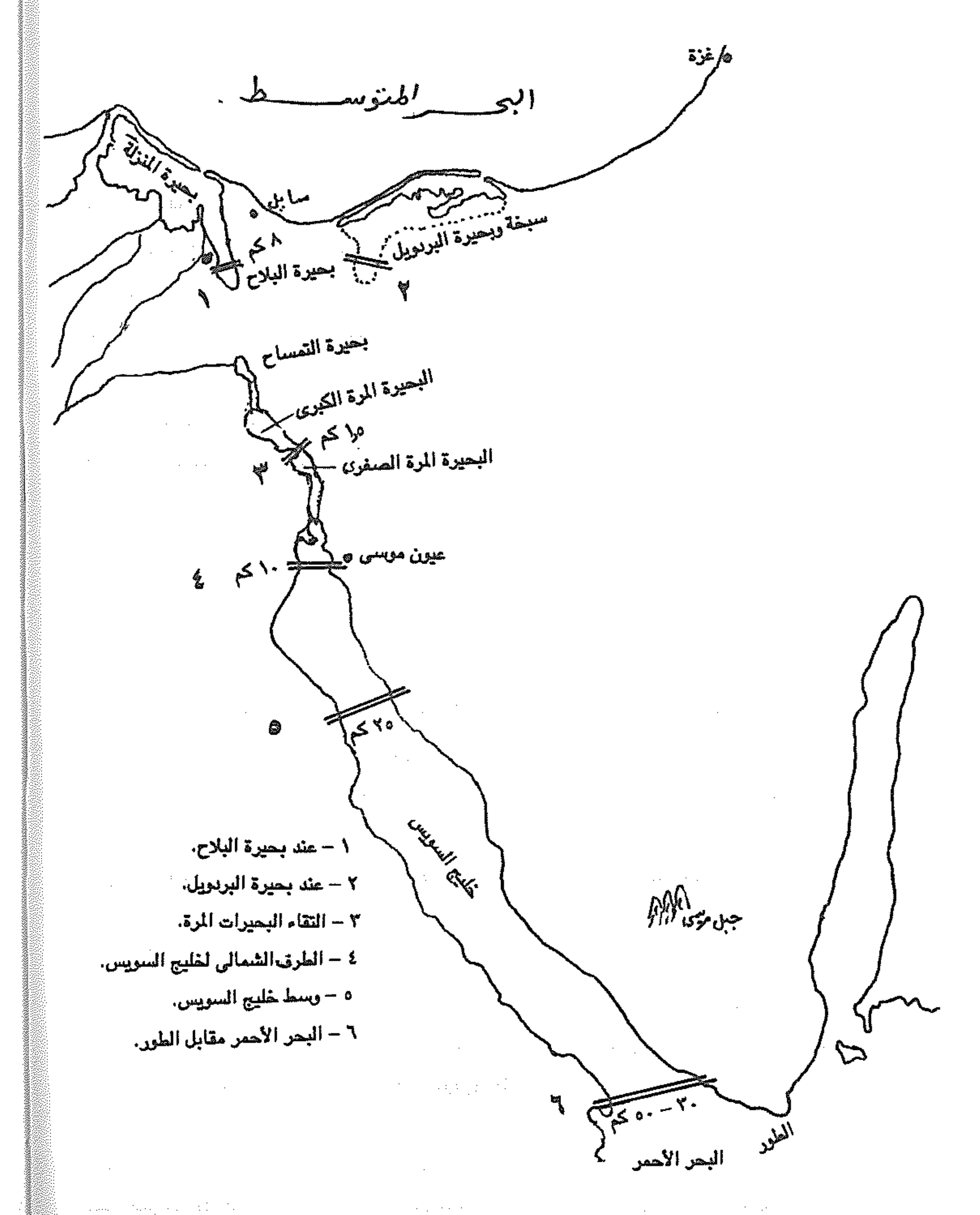
تقول التوراة (خروج ١٤): وكلم الرب موسى قائلا: كلم بنى إسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون. مقابله تنزلون عند البحر... وأشدد قلب فرعون حتى يسعى وراءهم. وسعى المصريون وراءهم وأدركوهم عند فم الحيروث أمام بعل صفون.

وقد اختلف العلماء فى تحديد مكان فم الحيروث وبعل صفون على الخرائط تبعا لاختلاف وجهات نظرهم فى خط سير الخروج. وشكل ٢٣٧ يبين الأماكن المختلفة التى قيلت فى مكان انشقاق البحر.

ويمكن استبعاد أن يكون مكان العبور عند الطرف الجنوبى لبحيرة المنزلة فى الجزء المسمى بحيرة البلاح إذ لا يمكن تصور أنه عند اتجاه موسى شمالا وبعد أن يترك بحيرة التمساح ويجد أرضا يابسة على يمينه تقود إلى سيناء ومع ذلك يستمر سائرا شمالاً ليضع نفسه وبنى إسرائيل فى مكان ليس له مخرج علما بأنه لم يكن يعلم بأن البحر سينشق ليعبر منه. كما أن البوص فى بحيرة المنزلة من الكثافة بحيث أنه يتيح لمن يتشبث به ألا يغرق.

كذلك يمكن استبعاد أن يكون خليج السويس نفسه مكانا للعبور سواء فى طرفه الشمالى أو وسطه أو طرفه الجنوبى مقابل الطور إذ أن اتساع المجرى المائى فى هذه الأماكن هو ١٥، ٢٥، ٤٠ كيلو مترا على التوالى وهى مسافات يلزم لعبورها يوما كاملا أو يومين فى حين أن بنى إسرائيل عبروا فى حوالى ٨ ساعات. بالإضافة إلى أن عمق خليج السويس يتراوح بين ٣٠ – ٥٠ مترا الأمر الذى يشكل صعوبة بالغة للعبور فضلا عن أن الساحل الغربى للخليج شديد الانحدار مما يجعل الأمر شبه مستحيل.

تبقى منطقة البحيرات المرة. وينمو فيها بعض البوص – ولو أنه قليل – ولذلك يمكن اعتبارها Reed Sea كما أنها كانت متصلة بالبحر الأحمر فهى Red Sea وقد ذكرنا فى خط السير الذى رجحناه (شكل ٢٣٦) **أن العبور كان عند** التقاء البحيرة المرة الصغرى بالبحيرة المرة الكبرى فى مكان عرض المجرى المائى يبلغ ١.٥ – ٢ كيلو مترا وعمقه ٥ – ٧ أمتار والمياه تقع فى شرق اليابسة فتكون المطاردة من الغرب إلى الشرق فيتحقق وصف **«فأتبعوهم مشرقين»**. وبذلك تكون المنطقة على الضفة الشرقية هى فم الحيروث ومن المحتمل أن كان بها تمثال «بعل صفون» وكان بدو شمال سيناء يتعبدون عنده.



١ - عند بحيرة البلاح.

٢ - عند بحيرة البردويل.

٣ - التقاء البحيرات المرة.

٤ - الطرف الشمالي لخليج السويس.

٥ - وسط خليج السويس.

٦ - البحر الأحمر مقابل الطور.

شكل ٢٣٧ - أماكن انشقاق البحر.

كيفية انشقاق البحر:

يذكر القرآن الكريم كيفية انشقاق البحر ببساطة هكذا:

«فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر. فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم». (٦٣-الشعراء)

فبمجرد أن أشار موسى عليه السلام بعصاه إلى البحر حدث انشقاق البحر فى الحال. حدث ذلك معجزة من الله سبحانه وتعالى لإنجاء موسى وبنى إسرائيل. ولوشاء الله لفلقه بدون ضربه بالعصا وإنما أُمر موسى - إعظاما لشأنه - أن يضرب بالعصا حتى ينفلق البحر. ويحتمل أن جبريل عليه السلام هو الذى تولى عملية شق البحر وسيأتى ذكر ذلك فيما بعد فى فتنة السامرى (ص ١٠٠٠).

تقول التوراة عن هذا الموقف (إصحاح ١٤ خروج : ١٠) : فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم ففزعوا وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور فى مصر أخذتنا لنموت فى البرية. ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر. أليس هذ هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين كُفَّ عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية. فقال موسى للشعب لا تخافوا. قفوا وانظروا خلاص الرب الذى يصنعه لكم اليوم. فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضا إلى الأبد (أى أن هذه آخر مرة ترونهم) الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون.

فقال الرب لموسى مالك تصرخ إلى قل لبنى إسرائيل أن يرحلوا وارفع أنت عصاك ومد يدك على البحر وشُقَّه. فيدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة وها أنا أشدِّد قلوب المصريين حتى يدخلوا وراءهم فأتمجَّد بفرعون وكل جيشه بمركباته وفرسانه فيعرف المصريون أنى أنا الرب. وجاء فى الفقرة ٢١ : ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب بريح شرقية شديدة طول الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم.

وقال الأستاذ عبدالوهاب النجار (قصص الأنبياء. ص ٢٢٢): وعلى كُلٍّ. فالآية ظاهرة واضحة سواء أكان انفلاق البحر بسبب ضرب موسى البحر أو بهبوب الريح بالكيفية التى شرحتها التوراة فإن الناس لم يعهدوا أن الريح عملت هذا العمل فى الخليج مرة أخرى فلم يكن ذلك إلا بعناية خاصة من الله تعالى لإنفاذ ما فى علمه. وقد أخذت لجنة من علماء الأزهر الشريف عليه هذا القول وقالوا إن هذه الفقرة تفيد معنى أنه من المحتمل أن تكون التوراة هى الصادقة ورد هو قائلا إن الضرب بالعصا أعقبه هبوب الريح التى أزاحت المياه وانكشف قاع البحر يبسا.

وفى رأينا أن الريح تحدث تموجات فى سطح البحر وإذا كانت الريح شديدة كانت

التموجات كبيرة بحيث تكشف القاع إن كان الماء ضحلا لا يزيد عن متر كما أن هذا الكشف لا يكون إلا لبضع دقائق ويعود الماء إلى الإلتئام ثانية. ولكن الريح التى تكشف قاع مياه عمقها خمسة أو عشرة أمتار ويستمر هذا الكشف عدة ساعات لا يمكن إلا أن تكون ريحا شديدة جدا بحيث أنها لابد ستطيح بكل ما أمامها بما فيها الأشخاص أنفسهم. فإرجاع شق البحر للريح أمر مستحيل علميا. وكان لفظ القرآن الكريم معبرا عن معجزة حدثت فى الحال دون انتظار هبوب ريح لإحداثها. وقد أشرنا سابقا إلى الحذف وفاء الترتيب والتعقيب فى قوله تعالى: «**أن اضرب بعصاك البحر فانفلق..**» ولاشك أن إزاحة هذه الكمية الهائلة من المياة وارتفاعها على كل جانب بحيث تصبح كالجبل العظيم قد أحدث موجات تضاغط وتيارات هوائية شعر بها بنو إسرائيل وظنوا أن الريح هى التى سبَّبت انفلاق البحر فى حين أنها كانت نتيجة له. ومن الذين يُرجعون انفلاق البحر إلى أسباب طبيعية أى بفعل الريح عالم الآثار سليم حسن إذ يقول (مصر القديمة جـ ٧ ص ١٣٥) ولا يزال منسوب الماء حتى الآن متأثرا بدرجة عظيمة بالريح فى بحيرة المنزلة والبرلس ويلاحظ أن الطريق من بلطيم حتى برج البرلس يُغطَّى بالماء عندما يهب الهواء غربيا ثم يصبح جافا عندما يهب الهواء من الشرق ويمكن للانسان أن يسير عليه بالعربة. وفى رأينا أن ذلك لايحدث إلا إذا كان انحسار المياة لمسافة نصف متر فقط أما أن يحدث هذا الانفلاق لعمق ٥ أو ١٠ أمتار حتى يغرق فيه جيش بأكمله وبمركباته المرتفعة فإن هذا لا يكون إلا بمعجزة إلهية.

أما إرجاع انكشاف طريق البحر إلى المد والجزر والقول بأن المد والجزر قد يصل فى بعض الأماكن إلى عدة أمتار فهذا مردود عليه بأن المد والجزر فى البحار المغلقة لايكون كبيرا وفى بحيرات صغيرة مثل البحيرات المرة قد لا يزيد المد والجزر عن بضعة سنتيمترات . كما أن المد والجزر ظاهرة طبيعية تتكرر ولها مواعيدها المعروفة لدى أهل السواحل ويمكن توقِّيها ولاشك أن فرعون وقواده كانوا على علم بها فلا يعقل أن تكون هذه الظاهرة سببا فى غرقهم.

كما أنه لا محل لبحث مزاعم البعض من أن انفجارا بركانيا حدث فى سيناء وأن الزلزال الذى صحب هذا الانفجار وموجة الجزر التى صاحبته هى التى جعلت الماء ينحسر فيظهر الطريق الذى عبر منه بنو إسرائيل وموجة المد التى أعقبته هى التى أفضت إلى غرق فرعون وجنوده. وحتى هذا الزعم يحمل فى طياته معجزة إلهية من إحكام توقيت الانفجار البركانى المزعوم وإحكام توقيت موجة المد حتى تغرق من أغرقت. فهذا التوقيت الدقيق لا يمكن أن يحدث بطريق المصادفة – ولابد أن معجزة إلهية وراءه. وما دمنا قد اعترفنا بمعجزة إليهة فما الداعى لافتراض انفجار بركانى!

وبعضهم زعم انفجارا بركانيا فى قاع البحر المتوسط قرب جزيرة كريت. وحتى لو حدث هذا فإنه ما كان ليؤثر على البحيرات المرة إذ ليس لها اتصال بالبحر المتوسط.

وهناك أقصوصة أو أحجية تروى فى هذا الشأن (الدر المنثور ٦٩/١ – حلية الأولياء ٣٢٠/١) من أن هرقل كتب إلى معاوية بن أبى سفيان يسأله عن القوس والمجرة وعن البقعة التى لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة. فلما أتى معاوية الكتاب قال من لهذا (أى من يستطيع الإجابة عن هذا) فقالوا: ابن عباس. فطوى الكتاب وبعثه إلى ابن عباس فكتب إليه: إن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق، والمجرة باب السماء الذى تنشق منه. وأما البقعة التى لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار فالبحر الذى أفرج عن بنى إسرائيل. وواضح أن هذه القصة من وضع اليهود إذ هى مرتبطة بفكر بنى إسرائيل فالقوس هو قوس قزح الذى يظهر فى السماء بعد المطر الغزير والذى تقول عنه التوراة (تكوين ٩ : ١٤) إنه يرمز إلى ميثاق الله: فلا تكون المياه طوفانا لتهلك البشر وهو ما ذكرناه فى قصة نوح عليه السلام فى الجزء الأول (ص ١٠٧).

قبل أن نترك موضوع شق البحر لا بأس من مناقشة موضوع طريف هو:

سمك موسى :

هذا النوع من السمك معروف للجميع. وفى سبب تسميته بهذا الاسم قيل إن سمكة – أو عدة أسماك – تصادف أن وجدت فى النقطة التى ضرب فيها موسى عليه السلام البحر بعصاه. فانشق البحر وانشقت السمكة إلى نصفين. ثم استكمل كل نصف ما يلزمه للبقاء حيا. وتكاثر هذا النوع الجديد من السمك ونفذ من باب المندب فى الطرف الجنوبى للبحر الأحمر وانتشر إلى جميع البحار والمحيطات.

والآن لنترك العنان للخيال لنتصور كيف سيكون شكل هذا النوع الجديد من الأسماك. أول شيىء أن شق السمكة سينتج لنا نصفا أيمن ونصفا أيسر. ولكل نصف عين واحدة فى السطح المغطى بالجلد الأصلى أما السطح مكان الشق فسيكون عاريا من الجلد. والطريقة البدائية – والتى كانت متبعة فى الأرياف إلى وقت قريب – تتمثل فى وضع التراب على الجروح. وسمكتنا هذه ستتبع نفس الطريقة فتنزل إلى القاع وتُلصق السطح العارى بالرمل أى أن نصف السمكة الأيمن سيرقد على القاع على السطح الأيسر والعكس بالعكس ويستمر هكذا حتى يلتئم مكان الشق بجلد أبيض اللون لأنه لم يتعرض للضوء فى حين يكون السطح العلوى داكن اللون فهو جلد السمكة الأصلى.

نأتى بعد ذلك إلى مشكلة الرؤية ثلاثية الأبعاد والتى يلزم لها عينان فى حين أن كل نصف به عين واحدة. عندئذ يلزم أن تتكون لكل نصف عين جديدة. بالطبع ستكون فى السطح العلوى إذ أن السطح السفلى ملاصق للرمل. ولا تجد العين الجديدة مكانا لها إلا على الحافة إذ أن وسط الرأس تشغله العين الأصلية.

هكذا نرى أن السمكة العادية التى انشقت قد تحولت إلى سمكتين من النوع المفلطح سمكة

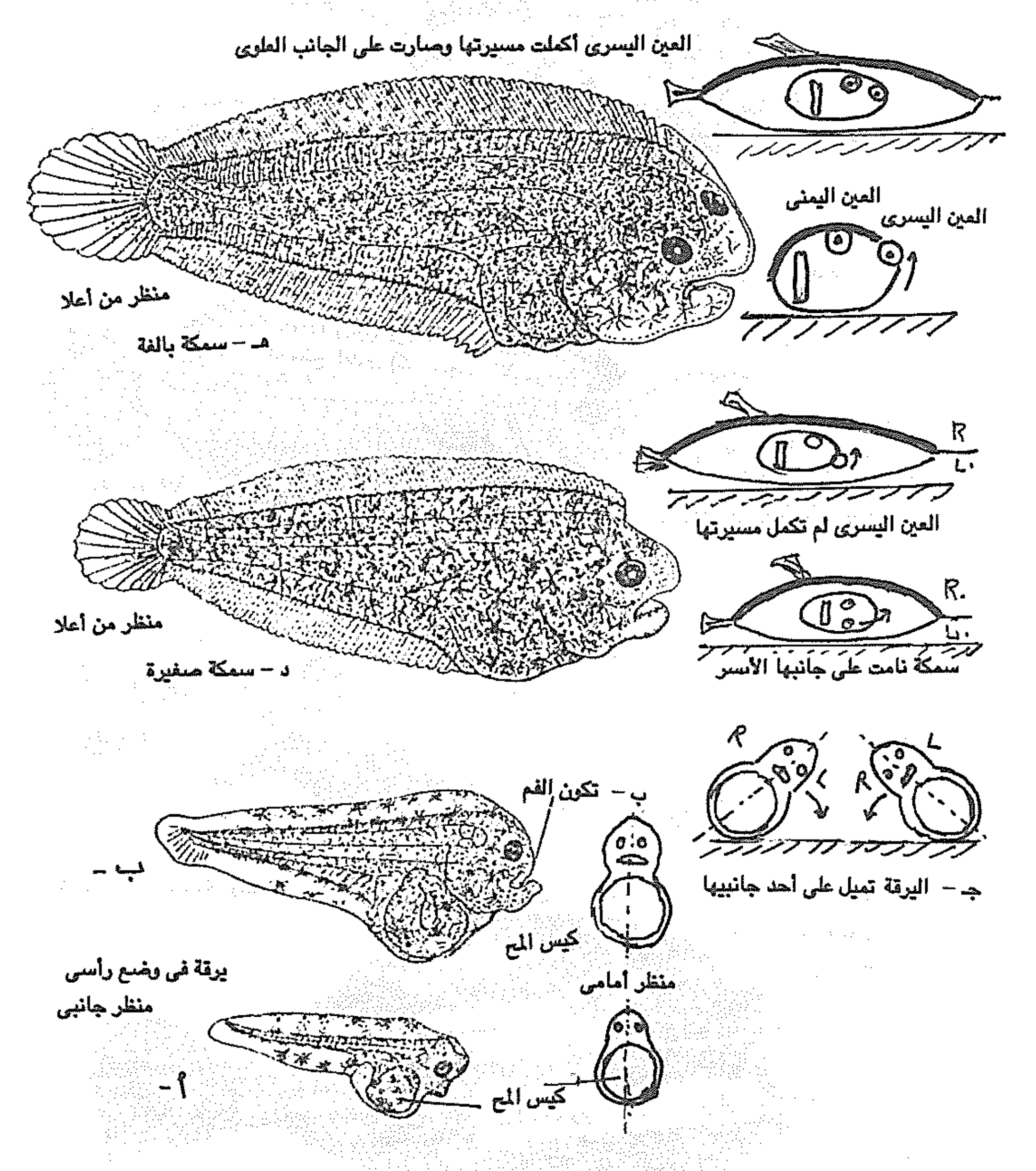
يمنى وسمكة يسرى وأصبح لكل سمكة سطح علوى داكن اللون وسطح سفلى أبيض. والعينان موجودتان فى الرأس: واحدة فى المنتصف والأخرى على الحافة. كما أن الفم يفتح فى اتجاه رأسى أى عمودى على قاع البحر وله فكّان جانبيان بدلاً من فك علوى وفك سفلى.

هذه هى مواصفات هذا النوع الجديد من السمك الذى سينتج عن السمكة التى انشقت مع شق البحر. بالطبع لا نتوقع أن نجد فى مراحل تطور هذا النوع من السمك أنها تنشق – فتلك كانت معجزة لموسى عليه السلام ولن تتكرر ثانية. وأقصى ما نأمله هو أن نجد فى أطوار نمو هذه السمكة شيئا ما يشابه ما حدث فى الماضى.

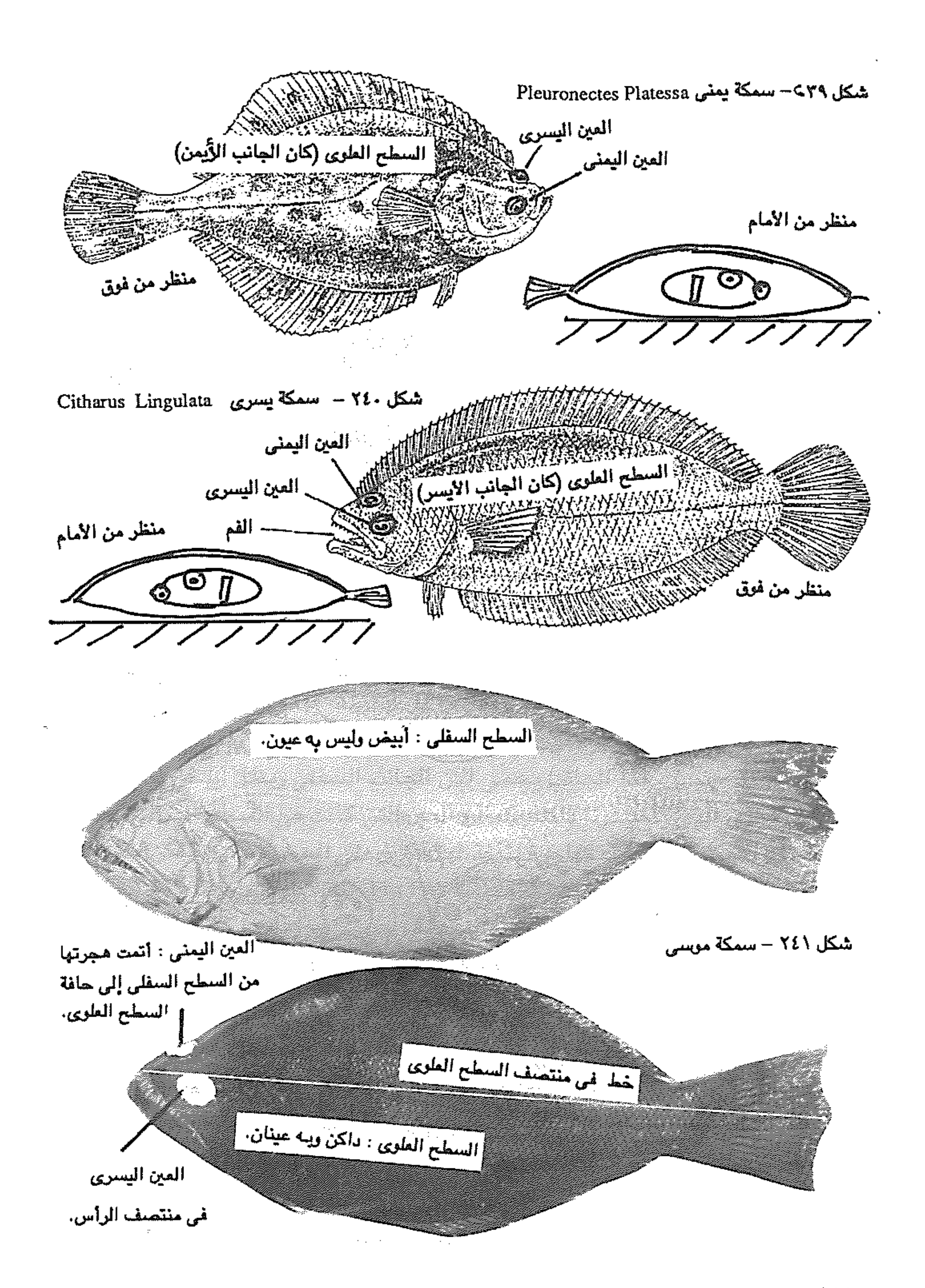
كان لابد أن ألجأ إلى مختصين فى علم الأسماك. فلجأت إلى الأستاذ الدكتور حلمى بشاى أستاذ بيولوچيا الأسماك والبيئة المائية بكلية العلوم جامعة القاهرة وخاصة أنه كان قد درس فى انجلترا بيولوجية بعض الأسماك ومن بينها سمكة موسى. وسمك موسى موجود فى كل بحار ومحيطات العالم سواء المياه الباردة أو الدافئة أو الحارة. والاسم العلمى له هو Solea ويوجد فى المياه المصرية حوالى ١٠ أنواع منها: *Solea vulgaris* و *Solea aegyptica* وغيرها. وقد أفادنى سيادته بالمعلومات التالية:

تمر سمكة موسى بالمراحل الجنينية الأولى – مثل غيرها من الأسماك – البيض يفقس ويخرج منه يرقة Larva لها كيس المح yolk sac الذى يغذى الجنين إلى أن يستكمل نموه – وتكون اليرقة فى وضع رأسى (شكل ٢٣٨ – أ) وبعد أن تكبر قليلا يتكون لها فم (٢٣٨ ب). ثم بعد أن يبلغ طولها ١,٥ – ٢ سم تبدأ المراحل الخاصة بهذه السمكة والتى لا تشاركها فيها أى سمكة من نوع آخر. إذ أن السمكة تنزل إلى القاع وترقد على أحد جانبيها الأيمن أو الأيسر (٢٣٨ – جـ) . هذا الجانب يسمى الآن الجانب السفلى ويظل أبيض ناصعا بعكس الجانب العلوى الذى يأخذ لونا داكنا. كماأن العين التى كانت فى السطح السفلى تحدث لها إزاحة وتترك مكانها وتتحرك مهاجرة لتأخذ لها مكانا على السطح العلوى ولكن على الحافة. لقد تحولت السمكة المنشقة إلى سمكة مفلطحة Flat Fish تبقى على رمل القاع وتسبح ملاصقة له بحثا عن الغذاء وتنمو لتبلغ أحجاما تختلف حسب نوع السمكة وكثيرا مالا يفطن الغراصون لوجودها إلا حينما تتحرك أو عندما يطأونها بأقدامهم إذ أن السطح العلوى يتلون بلون البيئة المحيطة.

لو نظرنا إلى صفحة ٩٤٨ لوجدنا أن سمك الـ Solea أو سمكة موسى يوجد منها سمكة يمنى (شكل ٢٣٩) وسمكة يسرى (شكل ٢٤٠). وفى شكل ٢٤١ لو رسمنا خطا فى منتصف السطح العلوى لاتضح لنا عدم تماثل الأعضاء على جانبيه خلافا لما هو موجود فى الأسماك المفلطحة الأخرى. مثل الأسماك الغضروفية المفلطحة المبينة فى شكل ٢٤٢ (قويع النسر أ ، ب – حدأة البحر جـ) كما أن فم الأسماك المفلطحة يكون أفقيا (شكل ٢٤٢ أ) فى حين أن سمكة موسى يكون فمها رأسيا وله فكّان جانبيان بدلا من فك علوى وسفلى.



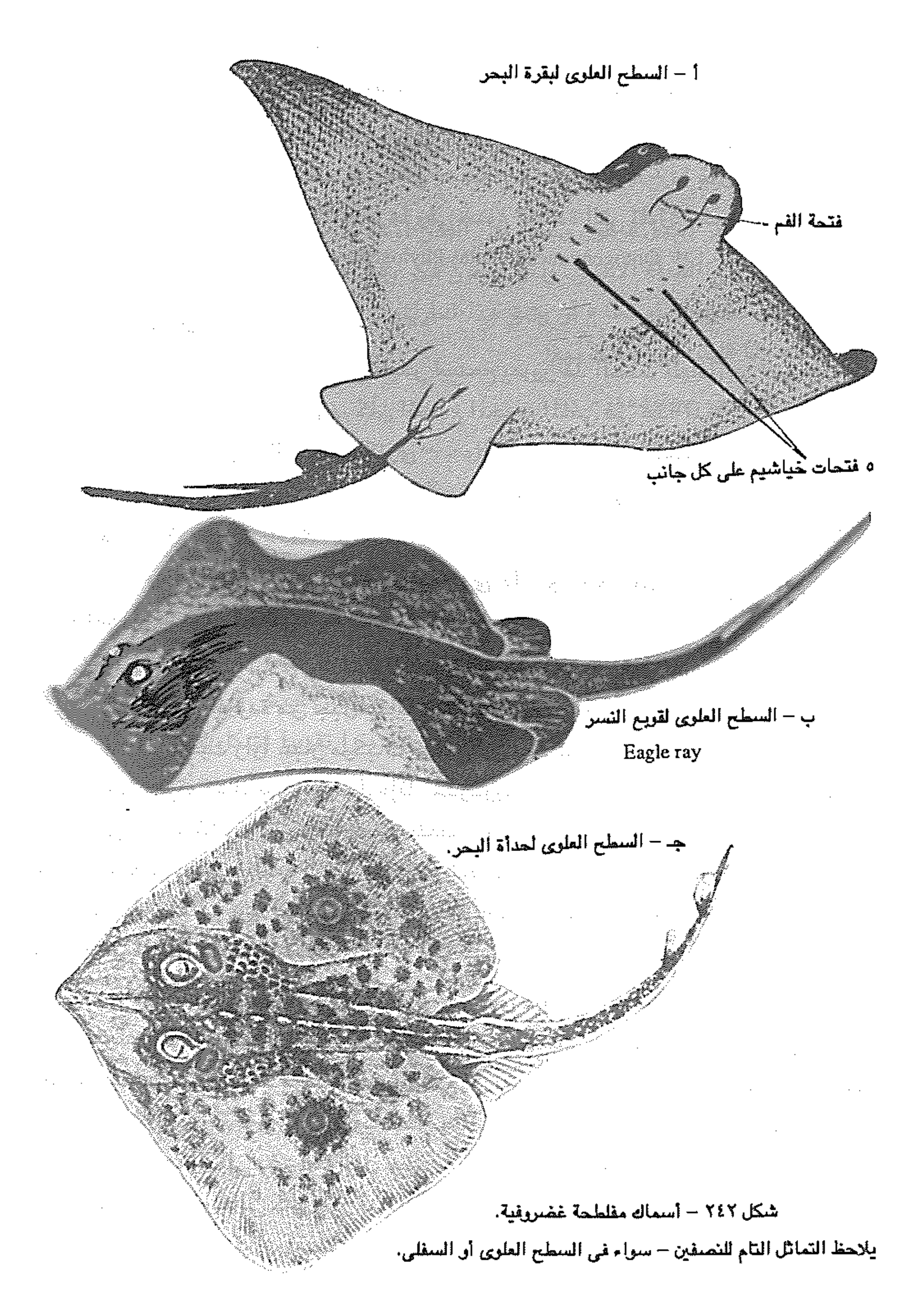
شكل ۲۳۸ – أطوار نمو سمكة موسى.
(Sole - *Solea*)



شكل ٢٣٩– سمكة يمنى Pleuronectes Platessa

شكل ٢٤٠ – سمكة يسرى Citharus Lingulata

شكل ٢٤١ – سمكة موسى



شكل ٢٤٢ – أسماك مفلطحة غضروفية.

يلاحظ التماثل التام للنصفين – سواء فى السطح العلوى أو السفلى.

إن النوع المسمى «سمك موسى» فى مراحل تطوره، وتحوله من سمكة رأسية إلى سمكة مفلطحة – وفى وجود سمكة يمنى وسمكة يسرى – وعدم تماثيل مكان العينين – والاتجاه الرأسى للفم – لهو حقا – نوع عجيب من السمك.

والآن أترك للقارىء أن يحكم على مدى صحة – أو عدم صحة – ما قيل عن نشأة سمك موسى فى ضوء المعلومات السابق ذكرها وفى ضوء القاعدة التى تقول: تطور الجنين يروى ما حدث فى الماضى من تطور عِرقىّ Ontogeny recapitulates Phylogeny !!

غرق الفرعون :

نعود إلى الطريق الذى انشق فى البحر ليسمح بمرور هذ الحشد الهائل من بنى إسرائيل (٦٠٠,٠٠٠) مع بقرهم وغنمهم. كان اتساع المجرى المائى فى هذا المكان – وهو اتصال البحيرة المرة الصغرى بالبحيرة الكبرى – حوالى ١,٥ كيلومترا (شكل ٢٣٦) فلاشك أن عرض الطريق الذى انشق كان ١٠٠ – ٢٠٠ مترا. واستغرق عبورهم من العشاء حتى نصف الليل أى ٦ – ٨ ساعات تقريبا.

«ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا. لا تخاف دركا ولا تخشى». (٧٧ – طه)

والإسراء هو السير ليلا – وهذا يؤيد ما قلناه سابقا (ص ٩٣٩) من أن بنى إسرائيل بدأوا فى اليوم العاشر العودة من جبل عتاقة متجهين شمالا فوصلوا عند الغروب إلى منطقة البحيرات المرة حيث رأوا غبار مركبات فرعون عن بعد فاتجهوا شرقا ووصلوا إلى ساحل البحر، وردا على ما قاله بنو إسرائيل **«إنا لمدركون»** كانت الطمأنينه بقوله تعالى **«لا تخاف دركا»** أى لن يلحقكم فرعون وجنده من خلفكم. وكان خطر آخر يتهدد بنى إسرائيل وهو أن يدفعهم فرعون بجنوده ناحية البحر ليغرقهم ويتخلص منهم وهذا خطر أكبر من الإدراك. وكان الرد عليه بقوله تعالى **«ولا تخشى»** أى ولا تخشى الغرق – فالطريق الذى شُق فى البحر كان جافا **«طريقا فى البحر يبسا»**.

وهكذا سار موسى عليه السلام فى الطريق الذى شُقَّ فى البحر وتبعه بنو إسرائيل. ولما وصل موسى إلى الضفة الشرقية وقف عندها يتابع مرور بنى إسرائيل حتى يتأكد من عبورهم جميعا سالمين. عندئذ أراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر ثانية بعصاه ليعود الماء كما كان حتى لا يعبر فرعون وجنوده ويلاحقونهم. كل ما كان فى ذهن موسى حينئذ هو منع فرعون من الوصول إلى بنى اسرائيل حتى لا يفتك بهم أو يعيدهم إلى مصر للعبودية ثانية. ولكن الله سبحانه وتعالى كان يدبر أمرا آخر بالإضافة إلى إنجاء بنى إسرائيل. فأمر موسى ألاَّ يُغلق البحر

«واترك البحر رهوا». (٢٤ – الدخان)

ورهواً من رها بمعنى سكن. ويقال رها البحر سكن ويقال أيضا رها الرجل أى فتح بين رجليه (المعجم الوسيط جـ ١ ص ٣٨٠) فيكون المعنى اترك البحر ساكنا على حاله مفتوحا كما هو.

ومع تباشير الفجر وصل فرعون وجنده إلى البحر فوجد طريقا مفتوحا فى البحر وقد عبر منه بنو إسرائيل إلى الضفة الأخرى. ولعل فرعون فكر وقال فى نفسه: حقا إن موسى ساحر ماهر وما أعظم سحره إذ استطاع أن يشق هذا الطريق فى البحر! ولكنه نسى أن يغلقه خلفه حتى لا نتبعه. إذا فلنتبعهم ونمسك بهم!

«فأتبعهم فرعون بجنوده». (٧٨ – طه)

«فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا». (٩٠ – يونس)

لاشك أن فرعون تردد بعض الشىء قبل الدخول فى طريق البحر هذا. وليختبر الأرض أمر صفا من المركبات الحربية أن تتقدمه. فلما رآها تسير على القاع بطريقة طبيعية اقتحم هو بعربته الملكية وتبعته باقى عربات الجيش. ولا بأس من أن نحسب المساحة التى كان يشغلها الجيش. فلو فرضنا أن الستمائه عربة تسير فى قافلة عرضها ١٠ عربات يكون طولها ٦٠ عربة. وبحساب خمسة عشر مترا لكل عربة يبلغ طول القافلة ٩٠٠ مترا أى تقريبا كيلومترا واحدا. ولما كان عرض المعبر المائى هو ١,٥ كم فإن جيش فرعون يمكن وجوده بأكمله فى القاع ويفصله عن الشاطىء من كل ناحية ٢٥٠ مترا تقريبا (شكل ٢٤٣).

لم يكن موسى عليه السلام مكلفا بأن يشير إلى البحر بعصاه حتى ينطبق على فرعون وجنوده كما تقول التوراة. إذ لم تكن المسافة ولا الوقت – بداية الليل – يسمحان بأن يتبين إن كان آخر مركبات فرعون قد دخل إلى الطريق أم لا. ولاشك أن عين الله الساهرة هى التى تولت هذا الأمر. وسارت المركبات حتى لم يبق على أول عربة لتبلغ الشاطىء الشرقى إلا قليلا والعربات كلها توسطت قاع البحر غاصت عجلات مركبات الصف الأول فتوقف الركب كله ريثما يتم رفع العجلات من الطين الذى غاصت فيه. وفى ذلك الوقت بدأ البحر ينطبق والتحم جانبا الماء فغرق الجميع.

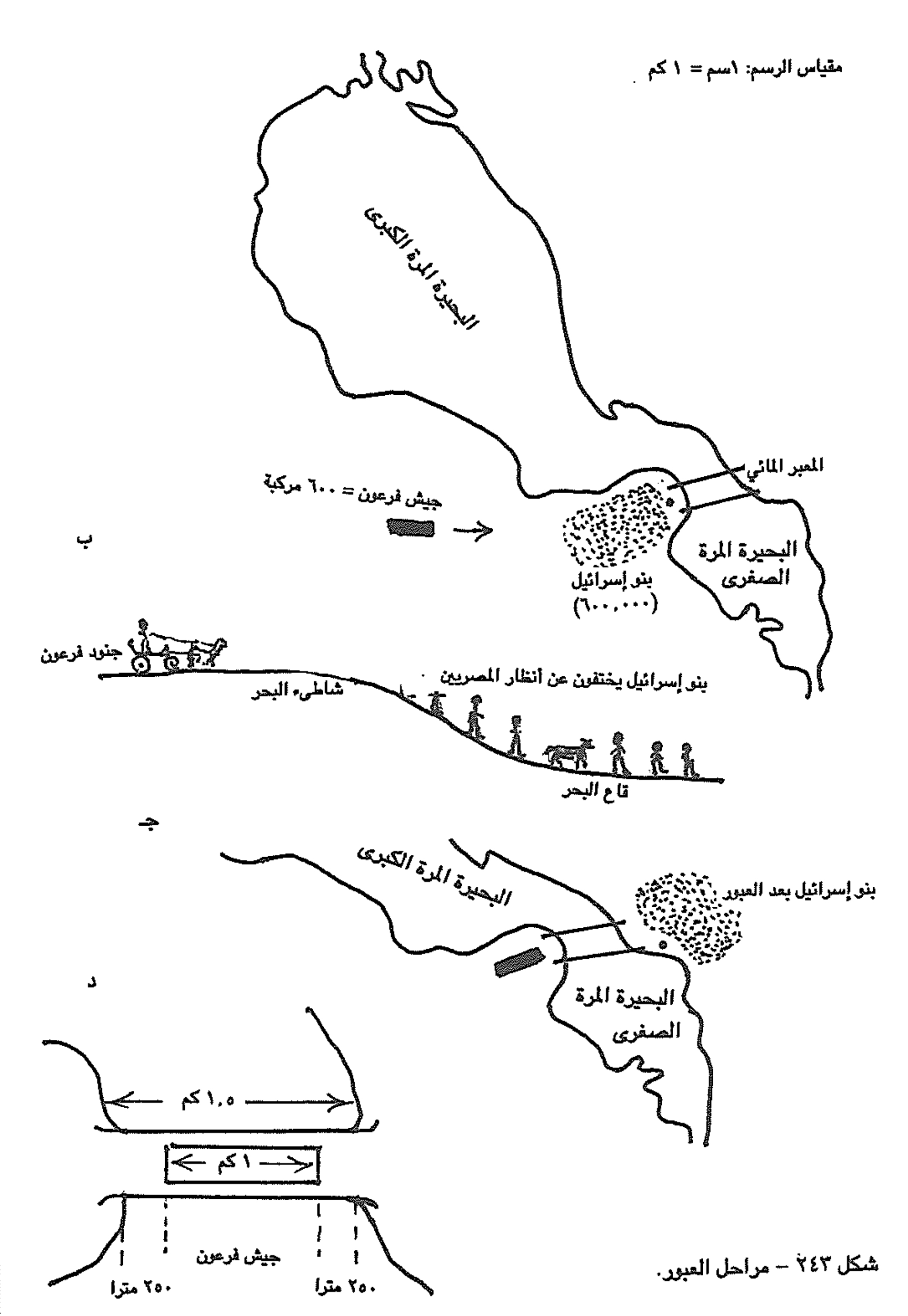
«فغشيهم من اليم ما غشيهم. وأضل فرعون قومه وما هدى». (٧٨ – ٧٩ – طه)

«وأزلفنا ثم الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين».

(٦٤ – ٦٦ الشعراء)

«فأخذناه وجنوده ونبذناهم فى اليم وهو مليم». (٤٠–الذاريات)

وتقول التوراة عن هذا الموقف (خروج ١٤ : ٢٣): وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم جميع



شكل ٢٤٣ – مراحل العبور.

خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر وكان فى هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين فى عمود النار والسحاب وأزعج عسكر المصريين وخلع بكر مركباتهم حتى ساقوها بثقلة فقال المصريون: نهرب من إسرائيل لأن الرب يقاتل المصريين عنهم. فقال الرب لموسى: مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم. فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة فدفع الرب المصريين فى وسط البحر فرجع البحر وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون. لم يبق منهم ولا واحد فخلَّص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين ونظر إسرائيل المصريين أمواتا على شاطىء البحر. ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذى صنعه الرب بالمصريين فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى.

إيمان فرعون :

قلنا إن الماء غطى الجميع بما فيهم فرعون وأدرك فرعون أنه غارق لا محالة. هنا فقط ولينجو بحياته أعلن إيمانه:

«حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت بـه بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية». (٩٠ – ٩٢ – يونس)

وهكذا أعلن فرعون إيمانه حين رأى العذاب وعاين الغرق. وكان فى هذا استجابه لدعاء موسى الذى سبق ذكره ص ٩١٨.

«ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم». (٧٨-يونس)

واستجاب الله لدعاء موسى وهارون **«قال قد أجيبت دعوتكما»** فلم يؤمن فرعون إلا – كما نقول – فى الوقت الضائع – حين لا ينفع الإيمان «**فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا**». وفعلاً نعى الله عليه إيمانه هذا. ورد عليه باستفهام للإنكار والتوبيخ. **«آلآن»** بمعنى هل كل الآيات السابقة لم تكن كافية لتجعلك تؤمن والآن وأنت فى سكرات الموت تؤمن؟

«وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن». (من الاية ١٨ – النساء)

أخرج ابن جرير والبيهقى عن أبى هريرة رضى اه عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال لى جبريل عليه السلام: لو رأيتنى يامحمد وأنا أغط فرعون بإحدى يدى وأدس من الحال فى فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له! (تفسير الألوسى جـ ١١ ص ١٨٢). وعن أبى أمامة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى جبريل عليه السلام: ما أبغضتُ شيئا

من خلق الله تعالى ما أبغضت إبليس يوم أمر بالسجود فأبى أن يسجد وما أبغضت شيئا أشد بغضا من فرعون. حين قال: أنا ربكم الأعلى ولقد جعلت أدس فى فيه من الطين حين قال ما قال (ابن كثير البداية والنهاية جـ ١ ص ٢٧٣) وروى فى تفسير الألوس برواية أخرى عن نهايته: فلما كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو فأخذت قبضة من حمأة فضربت بها فى فيه فوجدت الله تعالى عليه أشد غضبا منى.

روى الترمذى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر. أى مالم تبلغ روحه حلقومه فيكون بمنزلة الشىء الذى يتغرغر به. وفى النهاية يمكن القول إن صيغة إيمان فرعون – حتى فى وقت الغرغرة هذا – كانت صيغة ملتوية. فلم يقل: آمنت بأنه لا إله إلا الله. بل تلفظ بصيغة تدل على إيمان ظاهرى رغبة فى النجاة من الغرق. فقال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل. أى أنه إنما يقلدهم. وما دام أن إلههم قد أنجاهم فهو سينجيه أيضا. وما هكذا يكون الإيمان الحقيقى النابع من القلب.

وعلت الصيحات والاستغاثات مختلطة بصهيل الخيل وضجيج ارتطام المركبات بعضها ببعض حين دفعتها المياه المتلاطمة. فكان صوتا عاليا واستدار بنو إسرائيل ليروا المشهد الرهيب. جنود الفرعون وهم يغالبون الموج الهادر وحتى من كان منهم يحسن العوم فإنه لم يستطع أن يقاوم الموجات الغاضبة. ورأوا الرؤوس تغوص فى الماء. ولا تظهر إلا أيادى ممتدة إلى أعلى. لم تلبث هى الأخرى حتى غاصت. وبعد ساعة أو بعض ساعة هدأ البحر وبدأت بعض الجثث والأقواس والسهام الخشبية ومقاعد المركبات تطفو على سطح الماء.

«فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم». (٤٠ – الذاريات)

أى آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان .

«واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين».

(٣٩ – ٤٠ – القصص)

وسرت همسات بين بنى إسرائيل أن فرعون قد غرق ولكن بعضهم لم يصدق وقالوا : ما مات. لعظمته عندهم وجبروته فلم يصدقوا أن مثله ممكن أن يغرق. فأمر الله سبحانه وتعالى البحر فألقى جثته على الساحل . قالوا فرآه بنو اسرائيل وتأكدوا من أنه فرعون من درعه المذهب. فكان فى موته عبرة لمن يأتون بعده من الأمم لأن كثيرا من الناس يغفلون عن ملاحظة آيات الله فى الكون:

«فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية. وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون». (٩٢–يونس)

وسنعود (ص٩٦٩) لتوضيح معنى «لمن خلفك آية».

ترنيمة الخروج :

تقول التوراة (إصحاح ١٥ خروج): حينئذ رنم موسى وبنو إسرائيل هذه التسبيحة للرب وقالوا:

أُرنّـم للرب فإنه قد تعظم. الفرس وراكبه طرحهما فى البحر.

الرب قُوّتى ونشيدى. وقد صار خلاصى. هذا إلهى فأمجده.

إله أبى فأرفّعة. الرب رجل الحرب. الرب اسمه.

مركبات فرعون وجيشه ألقاهما فى البحر. فغرق أفضل جنوده المركبية فى بحر سوف تغطيهم اللجج. قد هبطوا فى الأعماق كحجر.

يمينك يارب تحطم العدو. وبكثرة عَظَمتك تهدم مقاوميك.

ترسل سخطك فيهدمهم كالقش.

تجمدت اللجج فى قلب البحر. قال العدو. أتبع. أُدرك. أقسم غنيمة.

تمتلىء منهم نفسى. أجرد سيفى. تفنيهم يدى

نفختَ بريحك فغطاهم البحر. غاصوا كالرصاص فى مياه غامرة.

من مثلك بين الآلهة يارب. من مثلك معتزا فى القداسة مخوفا بالتسابيح.

صانعا عجائب. تمد يدك فتبتلعهم الأرض.

ترشد برأفتك الشعب الذى فديته.

تهديه بقوتك إلى مسكن قدسك.

يسمع الشعب فيرتعدون. تأخذ الرعدة سكان فلسطين.

حينئذ يندهش أمراء أدوم. أقرباء مؤاب تأخذهم الرجفة.

يذوب جميع سكان كنعان تقع عليهم الهيبة والرعب.

بعظمة ذراعك يصمتون كالحجر حتى يعبر شعبك يارب.

حتى يعبر الشعب الذى اقتنيته.

تجىء بهم وتغرسهم فى جبل ميراثك. المكان الذى صنعته يارب لسكنك. المقِدس الذى هيأته يداك يارب. الرب يملك إلى الدهر والأبد.

فإن خيل فرعون دخلت بمركباته وفرسانه إلى البحر. وردّ الرب عليهم ماء البحر. وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر.

فأخذت مريم أخت هارون الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص. وأجابتهم مريم. رنموا للرب فإنه قد تعظم. الفرس وراكبه طرحهما فى البحر.

والآن لنتوقف هنيهة لنلقى نظرة سريعة على الأحداث التى مرت ونفكر فى تتابعها بهذا الترتيب الذى حدثت به لنرى كيف كان التدبير الإلهى لإخراج بنى إسرائيل - وهم عُزَّل من أى سلاح - من قبضة ملك جبار - ذى جند وسلاح وطغيان وغرور. كان حرياً - لولم يغرق - أن يلاحقهم أينما كانوا - ويقضى عليهم أو يعيدهم - فكان لابد من هلاكه!

وهنا تجىء المفارقة أو المعادلة الصعبة كما يقال - فهو لابد أن ينشغل عنهم بشىء ما حتى لا يمنعهم من بدء مسيرتهم. فكانت ضربة موت الأبكار - لتشغله بعض الوقت ثم يفيق ليلاحقهم . وكان من اللازم ألا يسير بنو إسرائيل فى هذه الفترة الى أرض منبسطة. فكان تدبير الله أن يتخبطوا فى مسيرتهم جنوبا إلى إيثام ثم شمالا إلى البحيرات المرة. المكان المقرَّر للقاء. ويظن فرعون أنه قد تمكن منهم. ويظن بنو إسرائيل أنهم قد أحيط بهم. وتأتى المعجزة فى الوقت المناسب فينشق البحر ويدلف منه بنو اسرائيل وكل همهم أن ينجوا من فرعون. ويتمنون أن ينطبق البحر ليمنع فرعون من اللحاق بهم. ولكن ها هو فرعون يدخل فى الطريق مسرعا ليلحقهم. وانخلعت قلوب بنى إسرائيل. إلا أن موسى كان واثقا من نصر الله حينما قالوا له إنا لمدركون قال كلا إن معى ربى سيهدين. وحينما ساورته نفسه أن يضرب البحر ليفصل بينهم وبين مطارديهم. أمره الله قائلا: اترك البحر رهوا . فامتثل لأمر ربه. مع أنه رأى العدو يدخل طريق البحر ويقترب. وما زاده ذلك إلا إيمانا وثقة بالله. واكتملت المعجزة فى الوقت المناسب. بعد أن كان فرعون وجميع جنوده فى وسط البحر. فانطبق الماء عليهم وغرقوا أجمعين. أى تدبير هذا! إنه تدبير الله العزيز الحكيم - **«والله عزيز ذو انتقام»**.

«فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين».

(١٣٦ - الاعراف)

«فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين».

(٥٥ - ٥٦ - الزخرف)

«فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا». (١٠٣-الأسراء)

ويمن الله على بنى إسرائيل بهذه النعمة

«وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون». (٥٠-البقرة)

وكان يوم نجاة موسى وبنى إسرائيل هو يوم عاشوراء. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٩٢٤) قول ابن عباس: قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء. فقال: ما هذا اليوم الذى تصومونه؟ فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبى صلى الله

عليه وسلم لأصحابه: أنتم أحق بموسى منهم فصوموه (تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٣١).
وروى عن الطبراني قوله: إن النبى صلى الله عليه وسلم قال: خلق الله يحيى بن زكريا فى بطن أمه مؤمنا. وخلق فرعون فى بطن أمه كافرا (تفسير الألوسى جـ ١٢ ص ١٨٤).

لا بأس من أن نعيد التأكيد على أن الفرعون الذى غرق هو رمسيس الثانى. خلافا لما يقول به كثير من الباحثين من أن رمسيس الثانى هو فرعون التسخير وأن مرنبتاح هو فرعون الغرق وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل فى أول هذا الجزء (ص ٦٦٧ وما بعدها). وتأتى الآيات فى سورة النازعات لتوضِّح أن الفرعون الذى طغى وسخَّر وعذَّب هو نفسه الذى كذَّب وتكبَّر وتجبَّر وادعى الألوهية. فكان جزاؤه أن نكَّل الله به:

«هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن فى ذلك عبرة لمن يخشى». (١٥ – ٢٦ – النازعات)

والنكال هو التنكيل وهو العذاب الذى يردع من يراه أو يسمعه ويمنعه من ارتكاب ما يفضى إليه. ونكال الآخرة هو الإحراق بالنار: **«ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب».** أما التنكيل فى الدنيا فكان بالإغراق. وذلك ما أجمع عليه كافة المفسرين (الألوسى جـ ٣٠ ص ٣٠ القرطبى جـ ١٩ ص ٢٠٢...).

كذلك الآيات التى لخَّصت قصة موسى وفرعون فى سورة الدخان تدل على أنه فرعون واحد من أول الأمر لآخره:

«ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم. أن أدُّوا إلىَّ عباد الله إنى لكم رسول أمين. وأن لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين. وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون. وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون. فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون. فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون. واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونَعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين. ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين. من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين».

(١٧ – ٣٠ – الدخان)

والإيجاز الشديد الذى ذكر فى سورتى المزمل والذاريات يشير إلى فرعون واحد:

«.. كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً».

(١٥ – ١٦ – المزمل)

«وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين. فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم». (٣-٤٠-الذاريات)

الآية فى جثة فرعون :

أمر الله البحر بأن يلفظ جثه فرعون. فقذفت الأمواج بجثته على الشاطىء.

«فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية. وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون». (٩٢-يونس)

وقد ذهبنا فى ص ٩٥٣ أن إيمان فرعون لم يكن إيمانا حقيقيا. بل كان هدفه هو النجاة من الغرق. وكأنما قال فى نفسه إذا كانت هذه الكلمة هى التى ستنجينى من الغرق فلا بأس من أن أقولها! ولذلك قيل - تهكما - مادمت كنت تريد النجاة فاليوم ننجيك ببدنك وسمى لفظ البحر للجثة نجاة مجازا. ويقول الألوسى (تفسيره جـ ١١ ص ١٨٣) المعنى نجعلك على مرتفع من الأرض كى يراك بنو إسرائيل فيعرفوا أنك قد مُتَّ. وروى عن محمد بن كعب: كانت له درع من ذهب فعرف بها. وقيل إنها كانت من اللؤلؤ! ولا يخفى مافى هذه الأقوال من مبالغات إذ الذهب من المعادن اللينة التى لا تصلح لصنع الدروع ولا اللؤلؤ أيضا يصلح لذلك. ولا بأس إن كان على درعه الشعار الملكى أو اسمه مكتوبا بالذهب ذلك أن بنى إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق وقالوا: هو أعظم شأنا من ذلك فألقاه الله على مرتفع من البحر حتى شاهدوه. وقيل إنهم ضرعوا إلى الله يسألونه مشاهدة فرعون غريقا فأبرزه لهم فرأوه جسدا لا روح فيه. فلما رأوه قالوا نعم يا موسى هو فرعون وقد غرق فخرج الشك من قلوبهم وابتلع البحر فرعون كما كان (تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٨٠). وهذه الأقوال أيضا فيها مبالغات.

نأتى إلى قوله تعالى **«لمن خلفك»** قالوا بأنها تعنى: أى تكون لبنى إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك (تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٣١ والألوسى جـ١١ ص ١٨٣) وقد سبق أن أرجحنا أن المجرى المائى الذى انشق كان حوالى ١,٥ كم. ومن المسلَّم به أن الجثة قد لفظها البحر على الضفة الغربية ولو كانت على الضفة الشرقية - لأغرى ذلك نفرا من بنى إسرائيل على التمثيل بجثة الفرعون الذى سخَّرهم وعذَّبهم سنين طويلة. أو على الأقل لبقيت الجثة عدة أيام قبل حملها وتحنيطها ولنهشت السباع والضباع بعض أجزائها ولظهر أثر ذلك فى الجثة. ولما كان بنو إسرائيل على الضفة الشرقية فمن المستحيل عليهم تبين ملامح جثة أو علامات فى درعه على مثل هذا البعد. قد يقال إنه جاء فى سورة البقرة.

«وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون». (٥٠-البقرة)

وقيل فى تفسيرها معناه بأبصاركم. وقيل أى ببصائركم للاعتبار لأنهم كانوا فى شغل عن الوقوف والنظر بالأبصار (تفسير القرطبى جـ ١ ص ٣٩٢). وقد قلنا آنفا إنه يستحيل تبين

ملامح الوجه أو قسماته على مثل هذا البعد. بل يكفى أن ينظروا الماء وهو ينطبق عليهم من الجانبين والعربات وهى تتخبط بعضها فى بعض بفعل الموج ثم الجثث وهى تطفو على سطح الماء ليتأكدوا من غرق الفرعون معهم. ثم إن بنى إسرائيل لا ينطبق عليهم وصف «خلفك» لأنهم معاصروه. وقد ورد لفظ «خلف» فى القرآن الكريم – مرتين أخريين:

«فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب». (١٦٩ – الأعراف)

أى جاء من بعد هذا الجيل من بنى إسرائيل جيل آخر (تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٦٠)

«فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة». (٥٩ – مريم)

وذكر فى هذه الآية الأنبياء نوح وإبراهيم وإسرائيل عليهم السلام. ثم جاء من بعدهم خلف أى قرون أو عقب (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٠٩).

من هذا يتضح أن بنى إسرائيل لا ينطبق عليهم وصف **«لمن خلفك»** لأنهم جيل معاصر لفرعون والمقصود جيل تالٍ. ولكن أى جيل؟ تلك هى القضية – ولنعرف من هو الجيل الذى سيكون إنجاء البدن آية له علينا أن نعرف ماتم بشأن الجثة بعد أن لفظها البحر. وعلينا أن ندرك أنه فى الوقت الذى كتبت فيه هذه التفاسير (الألوسى توفى ١٢٧٠ هجرية أى ١٨٦٢ ميلادية وابن كثير توفى ٧٧٤ هجرية أى ١٣٧٦ ميلادية) لم تكن جثث فراعين مصر قد اكتشفت فكان مفهوما أن جثة هذا الفرعون بعد أن لفظها البحر قد تحللت أو تم تحنيطها ودفنت – فليس من أحد آخر سيراها بعد بنى إسرائيل. وفى عام ١٨٨١ ميلادية تم اكتشاف خبيئة الدير البحرى وكان من بين الفراعين الذين وجدت مومياواتهم مومياء رمسيس الثانى إذ وجدت محنطة وبدأت أجيال أخرى غير جيل العبور من بنى إسرائيل يرونها لتكون آية لهم أيضا.

ننجيك ببدنك :

من المؤكد أن جنديا كان فى مؤخرة الجيش ولعله كان يحسن السباحة فنجا وأمسك بحصان قد نجا هو الآخر فامتطاه وأسرع بقدر ما يستطيع إلى العاصمة بررعمسيس وأخبر ولى العهد مرنبتاح وهامان اللذين كانا يتوليان الأمر فى غياب الفرعون أخبرهم بالمصيبة التى حدثت. وتم إخطار كبير كهنة القصر وعدد من رجال البلاط وسارع الجميع إلى مسرح الأحداث ورأوا بعض الجثث متناثره على الشاطىء وعرفوا جثة الفرعون. فوضعوه على عربة جنازية محاطا بما يليق بجلال الفرعون الإله! وسألوا الجندى عن حقيقة ما حدث فأخبرهم أنهم كانوا يطاردون بنى إسرائيل ولم يكن يفصلهم عن مؤخرتهم إلا مسافة قليلة. ثم بدأ بنو إسرائيل يختفون عن أنظارهم شيئا فشيئا (شكل ٢٣٨ ب – ص ٩٥٢) فظنوا أنهم يلقون بأنفسهم فى البحر هربا من فرعون واستمر هذا طوال الليل ولما بدأ ضوء الفجر يظهر اتضح

ملامح الوجه أو قسماته على مثل هذا البعد. بل يكفى أن ينظروا الماء وهو ينطبق عليهم من الجانبين والعربات وهى تتخبط بعضها فى بعض بفعل الموج ثم الجثث وهى تطفو على سطح الماء ليتأكدوا من غرق الفرعون معهم. ثم إن بنى إسرائيل لا ينطبق عليهم وصف «خلفك» لأنهم معاصروه. وقد ورد لفظ «خلف» فى القرآن الكريم - مرتين أخريين:

«فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب». (١٦٩-الأعراف)

أى جاء من بعد هذا الجيل من بنى إسرائيل جيل آخر (تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٦٠)

«فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة». (٥٩ - مريم)

وذكر فى هذه الآية الأنبياء نوح وإبراهيم وإسرائيل عليهم السلام. ثم جاء من بعدهم خلف أى قرون أو عقب (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٠٩).

من هذا يتضح أن بنى إسرائيل لا ينطبق عليهم وصف **«لمن خلفك»** لأنهم جيل معاصر لفرعون والمقصود جيل تالٍ. ولكن أى جيل؟ تلك هى القضية - ولنعرف من هو الجيل الذى سيكون إنجاء البدن آية له علينا أن نعرف ماتم بشأن الجثة بعد أن لفظها البحر. وعلينا أن ندرك أنه فى الوقت الذى كتبت فيه هذه التفاسير (الألوسى توفى ١٢٧٠ هجرية أى ١٨٦٢ ميلادية وابن كثير توفى ٧٧٤ هجرية أى ١٣٧٦ ميلادية) لم تكن جثث فراعين مصر قد اكتشفت فكان مفهوما أن جثة هذا الفرعون بعد أن لفظها البحر قد تحللت أو تم تحنيطها ودفنت - فليس من أحد آخر سيراها بعد بنى إسرائيل. وفى عام ١٨٨١ ميلادية تم اكتشاف خبيئة الدير البحرى وكان من بين الفراعين الذين وجدت مومياواتهم مومياء رمسيس الثانى إذ وجدت محنطة وبدأت أجيال أخرى غير جيل العبور من بنى إسرائيل يرونها لتكون آية لهم أيضا.

ننجيك ببدنك :

من المؤكد أن جنديا كان فى مؤخرة الجيش ولعله كان يحسن السباحة فنجا وأمسك بحصان قد نجا هو الآخر فامتطاه وأسرع بقدر ما يستطيع إلى العاصمة بررعمسيس وأخبر ولى العهد مرنبتاح وهامان اللذين كانا يتوليان الأمر فى غياب الفرعون أخبرهم بالمصيبة التى حدثت. وتم إخطار كبير كهنة القصر وعدد من رجال البلاط وسارع الجميع إلى مسرح الأحداث ورأوا بعض الجثث متناثره على الشاطىء وعرفوا جثة الفرعون. فوضعوه على عربة جنازية محاطا بما يليق بجلال الفرعون الإله! وسألوا الجندى عن حقيقة ما حدث فأخبرهم أنهم كانوا يطاردون بنى إسرائيل ولم يكن يفصلهم عن مؤخرتهم إلا مسافة قليلة. ثم بدأ بنو إسرائيل يختفون عن أنظارهم شيئا فشيئا (شكل ٢٣٨ ب - ص ٩٥٢) فظنوا أنهم يلقون بأنفسهم فى البحر هربا من فرعون واستمر هذا طوال الليل ولما بدأ ضوء الفجر يظهر اتضح

لهم أن بنى إسرائيل لم يكونوا يلقون بأنفسهم فى البحر كما ظنوا بل كانوا يسيرون فى طريق يابس مشقوق فى البحر والماء على كل جانب كالجبل العظيم. ساروا فيه دون أن تبتل لهم قدم وكان آخرهم قد أصبح فى الضفة الأخرى. وقال لهم الفرعون إن هذا الطريق من سحر موسى وحثّنا لنسرع بدخوله واللحاق ببنى إسرائيل واندفع بعربته وخلفه باقى العربات وكادوا يلحقونهم لولا أن العربات الأولى قبل النهاية بقليل انكسرت دواليبها وغاصت عجلات بعضها فى الطين وتوقف سير الركب كله ونزل الجنود ليدفعوا العربات المتوقفة جانبا حتى يمر باقى الجيش بعرباته. وفى هذه الأثناء كان آخر فرد من بنى إسرائيل قد عبر إلى الضفة الشرقية والجيش بأكمله فى قاع البحر. وبعد ذلك كانت الكارثة. إذ أن الماء على جانبى الطريق بدأ يعود لحالته الطبيعية وانطبق الجانبان على الفرعون والمركبات والجنود وغرق الجميع.

لم يصدقوا ما حدثهم به الجندى. ولكن هاهى الجثث تؤكد صدق روايته. واستقر الرأى على أنه يجب إخفاء الحقيقة عن الشعب إذ يحط من هيبة الملك أن يقال إنه فشل فى اللحاق بعبيده – بنى إسرائيل – بل ومات غرقا هو وجنوده أثناء مطاردتهم! وتشاوروا فيما يقولونه للناس. ولعلهم رأوا أن يقولوا إن عاصفة ترابية شديدة هبت عليهم فاختنقوا من شدة التراب أو أن وباء تفشّى فى الجنود فأهلكهم وكذلك مات الفرعون. وصدّق المصريون ما قيل لهم واستراب البعض فى صدق تلك المقولة.

وتم تحنيط جثة الفرعون العظيم حسب ما هو متبع من إفراغ الجثة من الأحشاء ووضع ملح النطرون ليمتص الماء من الأنسجة. ثم دهن الجثة بالعطور والراتنجات والمراهم لتحفظ للجلد حيويته ونضارته ثم يحشى البطن والصدر بنشارة الخشب والزهور. ثم تبدأ عملية لف الجثة بالكتان. ولعل الكهنة المشرفين على عملية التحنيط لاحظوا بقاء الذراع اليسرى مثنية ومرفوعة عن الصدر وهو وضع غير معتاد بالنسبة لجثة ليس فيها حياة فأحكموا ربطها إلى الصدر فى الوضع المفروض فى الجثث المحنطة وهو أن تكون الذراع اليسرى فوق اليمنى والإثنتان ملتصقتان بالصدر وتم ربط اليدين إلى الجثة بشرائط من الكتان الرقيق طبقة بعد طبقة – وفى النهاية وُضع الكفن الخارجى من قماش عرضه ١٫٥ مترا وطوله ٤٫٥ مترا. ثم وُضع القناع الذهبى على الوجه والأكتاف. ثم وضعت المومياء فى كفن ذهبى على شكل الجسم. وهذا بدوره وضع داخل تابوت خشبى. وكل هذا وُضع فى التابوت الأخير وهو من حجر الجرانيت.

كل ذلك تم فى العاصمة بررعمسيس. ثم نقل التابوت بواسطة مركب فى النيل إلى طيبة يصحبها مراكب أخرى فيها مرنبتاح والكهنة والوزراء والعظماء ورست السفن على الشاطىء الغربى للنيل. ثم سحب التابوت على بكرات خشبية إلى المقبرة التى كان قد أعدها رمسيس الثانى لنفسه فى وادى الملوك. وفى كل هذه المراحل كانت تتلى الصلوات وتؤدى الطقوس

الجنازية المناسبة.

وبهذا انتهت حياة فرعون من أعظم الفراعين. إن لم يكن أعظمهم إطلاقا. وإن كان الستار لم يسدل نهائيا على قصته. إذ قدر له أن يعود إلى مسرح الأحداث من جديد فى عصرنا الحالى.

مما لاشك فيه أن التعتيم الكامل على كارثة بهذا الحجم كان أمرا مستحيلا. إذ أعطيت جثث الجنود الغرقى - والتى لفظها الموج - لذويهم لدفنها. ولعل الأهالى لاحظوا زرقة فى الوجه والجسد دلالة على أنهم ماتوا غرقى. كذلك لابد أن من قاموا بعملية تحنيط جثث الجند وهم من الكهنة الصغار - قد لاحظوا وهم يستخرجون الرئة أنها مملوءة بالماء. وعُرفت الحقيقة. وذاعت سرا بين الشعب. واكتشف الناس أن الفراعين ماهم إلا بشر مثل سائر البشر. ولاشك أن ما تسبب فى وفاة الجند هو نفسه الذى سبب موت رمسيس الثانى أى مات غرقا. فأين ألوهيته التى ادعاها. بل وأين آباؤه الآلهة! وبدأ الشعب يفكر. إنهم يفرضون على الشعب تقديم القرابين للآلهة - ومنهم الفرعرن - فى كل مناسبة فيقتطعون من قوتهم وقوت أبنائهم ويقدمونها طائعين إذ أوهموهم أن هذه القرابين ضرورية حتى تستجيب الآلهة لدعواتهم. ولكن هاهم الجنود قد غرقوا ولم تنفع ابتهالاتهم إلى الآلهة. بل لقد غرق الفرعون نفسه. وكان يدعى أنه إله. ألم يستنجد بالآلهة؟ فلماذا لم ينجدوه؟ وإذا كانت الآلهة قد عجزت عن نجدة ابنها فهل تنجدهم هم فى أى شدة أو تستجيب لأى دعاء!

عشرات من هذه الأسئلة بدأت تدور فى عقول الناس. وأدى ذلك إلى الانتقاص من هيبة الفراعين. وكردّ فعل لهذا انتشرت جماعات اللصوص. وزادت جرأتها على سرقة المقابر الملكية وشجعهم على ذلك ما كانت تحويه من كنوز عظيمة من حلى وأثاث جنزى. ولعله كان فى قرارة أنفسهم أنهم يستردون ما سبق أن أخذه هؤلاء الملوك وهم أحياء منهم ومن آبائهم وأجدادهم. وضُبط اللصوص وعوقبوا أكثر من مرة ثم صارت هذه العملية مهنة الكثيرين حتى إن مقابر كل ملوك الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين فيما بعد قد نُهبت ولم يسلم منها سوى مقبرة أمنحتب الثانى ومقبرة توت عنخ آمون الشهيرة. ومن مظاهر استهزاء الناس بالفراعنة هو تمثيلهم فى رسوم مجونية بعيدة عن الأدب. مثال ذلك رسم يمثل رمسيس الثالث على شكل أسد يلعب الشطرنج.

واستمر نهب المعابد والمقابر وتزايد. ووجهت الاتهامات إلى عمدة طيبة الغربية ورئيس الشرطة والمسئول عن سلامة المقابر وتمت معاقبة بعض المسئولين كما هو مُدوَّن فى برديات موجودة بالمتحف البريطانى. ولكن السرقات استمرت. واستقر رأى كبير كهنة آمون على الحفاظ على جثث الفراعنة وبالذات جثة رمسيس الثانى فأعيد لفها فى كفن خارجى جديد ووُضعت فى تابوت خشبى عادى للتمويه وتم دفنه فى مقبرة والده سيتى الأول مع مجموعة

أخرى من جثث الفراعنة السابقين وسُجِّل على الكفن أن ذلك تم فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثالث فى السنة ٢٤ من حكم رمسيس الحادى عشر. ولما كان رمسيس الحادى عشر هو آخر فراعنة الأسرة العشرين وحكم ٢٧ سنة فإن العام التى أعيد فيه تكفين ودفن جثة رمسيس الثانى كان فى عام ١٠٩٨ ق. م أى بعد وفاته بـ ١٢٧ سنة. ولكن العبث بالمقابر الملكية لم يتوقف. وفى عصر الأسرة الحادية والعشرين حينما توفى كبير كهنة آمون «بينودجيم الثانى» قرر زملاؤه الكهنة إنهاء العبث بجثث الفراعنة فجمعوا جثثهم واتخذوا من دفن كبير الكهنة ستارا ودفنوا الجميع فى قبر الملكة «إنحابى» بالدير البحرى والذى تم توسعته ليتسع لجميع جثث الفراعنة منذ عصر الأسرة الثامنة عشرة. وأغلقوا القبر – وسجلوا أن ذلك قد تم فى السنة العاشرة من حكم الملك «سيامون» فى عام ٩٦٩ ق . م وردموا المدخل تماما وضيعوا المعالم حوله حتى لا يستدل عليه اللصوص. فبقى القبر الجديد سالما من عبث اللصوص لأكثر من ٢٨٠٠ سنة ونُسى تماما وسمى «خبيئة الدير البحرى» ويحتوى على جميع المومياوات ومن بينها مومياء رمسيس الثانى.

أين الآيـة ؟

يمكننا أن نقول إن من عرف بغرق فرعون عدد محدود هم رجال البلاط والكهنة وإن تسرب النبأ إلى بعض العامة. المهم أن الفرعون توفى كما توفى غيره من الفراعين الذين سبقوه. وعلى العموم فقد بلغ من العمر أرذله. بلغ ٩٠ عاما وحكم مصر ٦٧ عاما ولذلك لم يستغرب الناس وفاته. ومن عرف أنه غرق أثناء مطاردته لبنى إسرائيل وراجع سابق تعنته معهم ورفضه إطلاق سراحهم أيقن أن الله كان مع بنى إسرائيل ونصرهم عليه وكان فى غرقه أثناء مطاردته لهم آية ودليل بالغ على انتصار الحق فى النهاية مهما بلغت قوة الظلم فى البداية. وكان إغراق فرعون من النعم التى مَنَّ الله بها على بنى إسرائيل.

«وإذ فرقنا بكم البحر وأغرقنا آل فرعون». (٥٠ – البقرة)

إلى هنا والغرق فى حد ذاته هو الآية. وحتى لو لم توجد جثته فيكفى أن هذا الفرعون الذى تكبر وتجبر وعذب وسخر قد غرق – وهذا فى حد ذاته آية. بقى أن نعرف معنى قوله تعالى.

«فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون». (٩٢ – يونس)

ولنعرف الآية المقصودة علينا أن نستكمل ما حل بهذا البدن الذى أنجاه الله.

قلنا إن مومياوات الفراعنة قد أعيد دفنها فى خبيئة الدير البحرى فى عام ٩٦٩ ق . م وطمست الرمال مدخل القبر ونُسِىَ الأمر. ومرت قرون. وفى عام ١٨٧٢ عثر فلاح مصرى هو وإخوته مصادفة على مدخل خبيئة الدير البحرى وأخفوا اكتشافهم وظلوا يترددون على المقبرة

سرا يأخذون منها ماخف وزنه وغلا ثمنه مثل الجواهر والحلى والأوانى التى تحنط فيها الأحشاء وغيرها ويبيعونه ويقتسمون ثمنه. وكما يقال. إذا اختلف اللصوص ظهر المسروق. فقد اختلف الإخوة وراح أحدهم إلى قسم البوليس واعترف بالأمر بعد أن كانت قد مرت ١٠ سنوات على اكتشافهم له. وفى ٦ يوليو عام ١٨٨١ ذهب مسئولون من هيئة الآثار المصرية ونزلوا إلى المقبرة وبواسطة ٣٠٠ من العمال أمكنهم فى مدة يومين نقل كل محتويات خبيئة الدير البحرى من جميع مومياوات الفراعين وأثاث جنازى فى باخرة إلى القاهرة حيث أودعت فى المتحف المصرى فى بولاق. ويقول خبير الآثار إبراهيم النواوى إنه فى عام ١٩٠٢ بعد نقل مومياء رمسيس الثانى قام بفك اللفائف لإجراء الكشف الظاهرى على المومياء ولمعرفة ما يوجد تحت اللفائف وهل هناك مجوهرات أو تمائم أو غير ذلك والذى حدث هو أن اليد اليسرى للملك رمسيس الثانى ارتفعت إلى أعلى بمجرد فك اللفائف وهى فعلا تبدو لافتة للنظر بالنسبة لغيرها من المومياوات (الفرعون الذى يطارده اليهود - كتاب اليوم - سعيد أبو العينين - ص ٦٠). وشكل ٢٤٤، ٢٤٥ يبين اليد اليسرى هى مرفوعة وهو وضع غير مألوف بالنسبة للمومياوات الأخرى التى بقيت أيديهم - بعد فك اللفائف مطوية فى وضع متقاطع فوق صدورهم. كما هو واضح من مومياء مرنبتاح (شكل ٢٤٦). ومما قاله أحد علماء الاثار عند مشاهدته للمومياء : عجيب أمر هذا الفرعون الذى يرفع يده وكأنه يدرأ خطرا عن نفسه!! ولعل قائل هذه الكلمات وهو يلقيها - مجازا أو تهكما - لم يخطر بباله أنه قد أصاب - دون أن يدرى - كبد الحقيقة. وأنه قد قدم التفسير المحتمل لهذا الوضع الغريب لليد اليسرى لمومياء رمسيس الثانى. وتصورنا لما حدث منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام وبالتحديد قبل ٣٢٢٣ عاما (١٢٢٥ ق . م + ١٩٩٨ م) هو كما يلى:

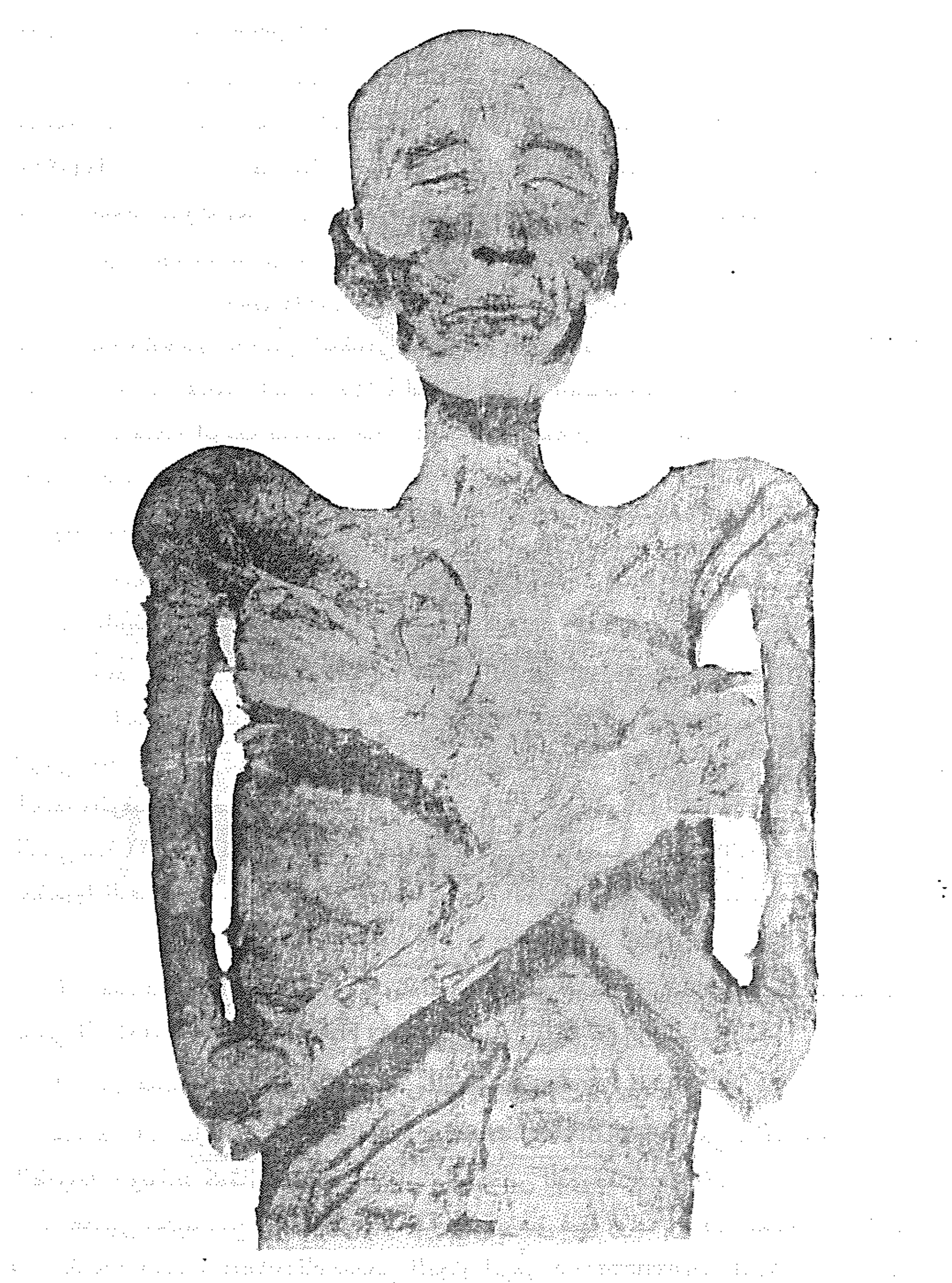
قلنا إن فرعون - وجيشه يتبعه - وصل إلى شاطىء البحر فوجد طريقا مشقوقا وسط الماء. فسار فيه وتبعه الجيش بجميع عرباته. وبدت على وجوه الجميع بسمة الانتصار فما هى إلا ساعة أو بضع ساعة ويتم اللحاق ببنى إسرائيل الهاربين وتتم إعادتهم إلى مصر ثانية. ولكن قبل النهاية بقليل بدأت قوائم الخيل وعجلات المركبات تغوص فى الوحل. ونزل الجنود ليدفعوا العربات المكسورة جانبا لتمر العربات الأخرى. وغاصت البسمة من وجه رمسيس الثانى وبدأ القلق يتملكه - لماذا فى هذه المنطقة بالذات بدأ الوحل؟ وقد مرت منه جموع بنى إسرائيل وبقرهم وماشيتهم وفيها من الثيران ما هو أثقل من المركبات ولم تغص أرجلهم فى القاع. ولم يجد بداً من الانتظار حتى ينتهى جنوده من تخليص مركبته من الوحل. ونظر. ولم يصدق عينيه. ما هذا؟ إنها موجة هائلة من المياه قادمة نحوه. ياللهول. لقد بدأ البحر ينطبق. والمياه قادمة تجاهه هادرة مزمجرة. وبحركة لا شعورية رفع يده اليسرى ممسكة بدرعه يتقى بها موجة المياه المندفعة نحوه وكانت لطمة المياه من الشدة وقبضة يده من القوة بحيث حدث تقلص فى عضلات ذراعه الأيسر وثبتت ذراعه ويده على هذا الوضع - ولما غشيته المياه



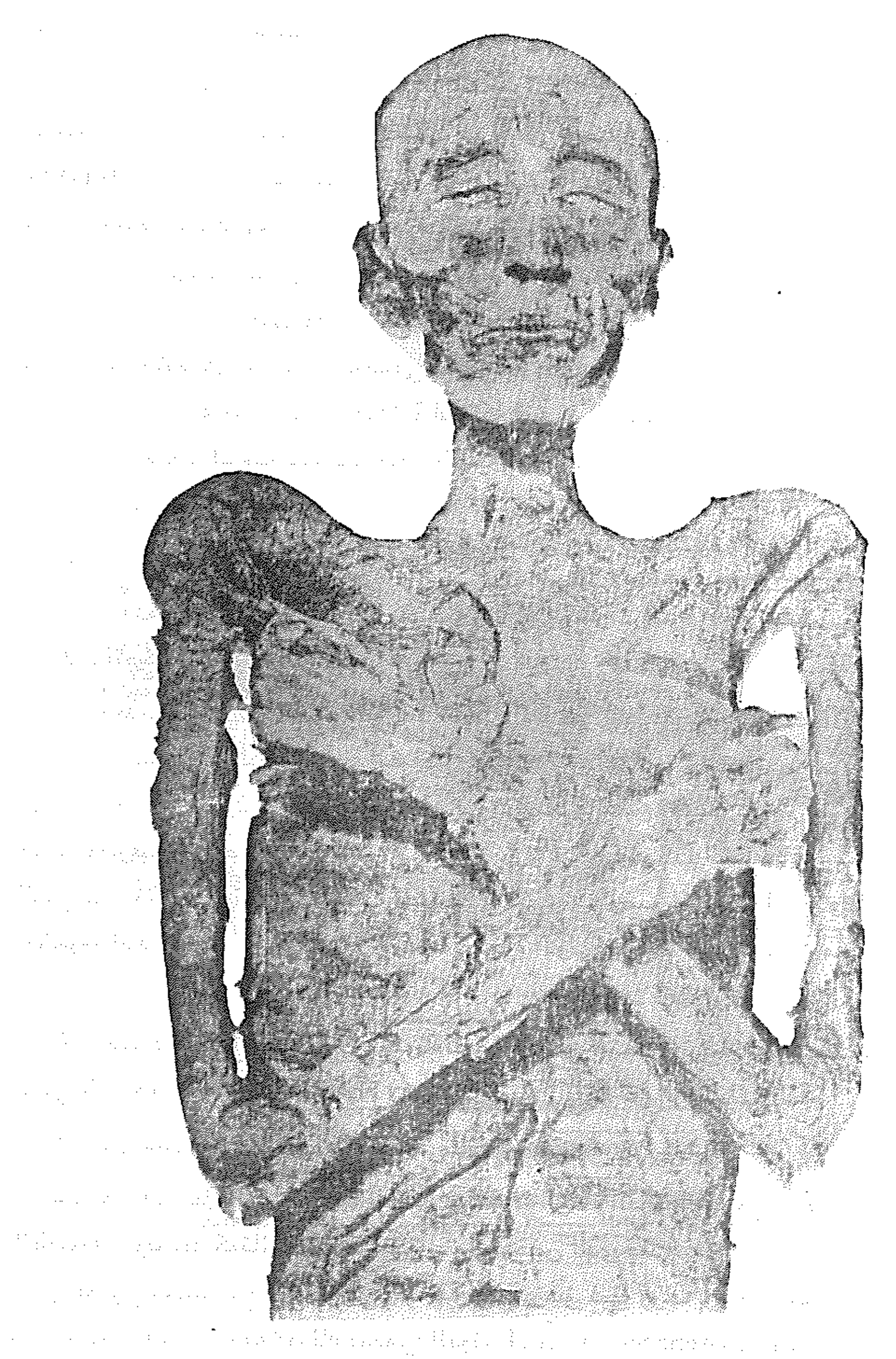
شكل ٢٤٤ –
مومياء رمسيس الثاني. منظر أمامي.



شكل ٢٤٥ – مومياء رمسيس الثاني. منظر جانبي يوضح اليد اليسرى مرفوعة
وهو وضع مغاير لجميع المومياوات الأخرى.



شكل ٢٤٦ – مومياء مرنبتاح واليدان متقاطعتان
ومستريحتان على الصدر.



شكل ٢٤٦ – مومياء مرنبتاح واليدان متقاطعتان
ومستريحتان على الصدر.

وفارقته الحياة ظلت يده على هذا الوضع!

ولا بأس من أن نتوقف قليلا لنذكر التغيرات التى تحدث فى الجثة - أى جثة - بعد الوفاة. ومن المعروف طبعا أن العضلات هى التى تسبب الحركة فى الكائن الحى. (شكل ٢٤٧أ) والعضلة تتكون من خلايا عضلية. والخلية العضلية تتكون من خيوط عضلية وهى نوعان خيوط سميكة وخيوط رفيعة مرتبة فى تبادل على طول العضلة (شكل ٢٤٧ ب). وعند الرغبة فى تحريك مفصل ما يصدر أمر من المخ يسرى فى العصب ويصل إلى العضلة المسئولة عن حركة المفصل. والتيار الكهربى الصادر من المخ ينتج عنه تفاعلات كيمائية متعددة فى موضع الاتصال العصبى العضلى تنتهى بأن تنشط خميرة خاصة تسبب تكسُّر بروتين معين هو A.T.P. فيعطى الطاقة اللازمة للحركة فتنزلق الخيوط العضلية السميكة متداخلة بين الخيوط العضلية الرفيع فيقصر طول الخلية العضلية أى يحدث انقباض العضلة وتحدث الحركة المطلوبة. (شكل ٢٤٨).

بعد الوفاة تحدث فى الجسد المراحل التالية :

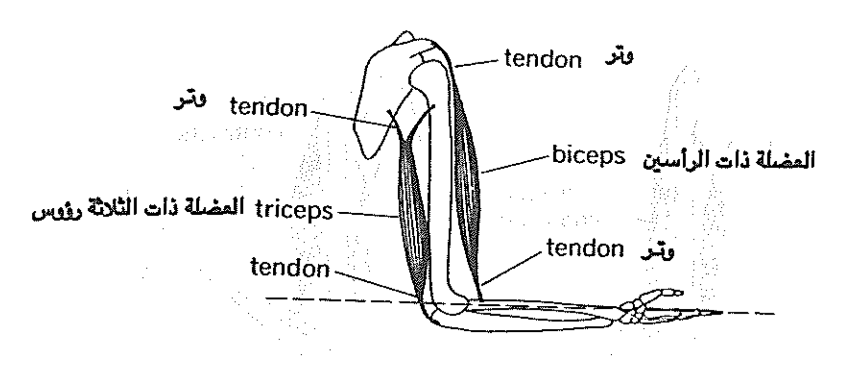
١ - بعدما تغادر الروح الجسد تقف كلية أى إشارات صادرة من المخ وترتخى جميع عضلات الجسم وهذا يسمى **الارتخاء الأولى** Primary Flaccidity .

٢ - بعد ساعتين تبدأ مادة الـ A.T.P فى التكسُّر (تماما مثلما يحدث عند صدور أمر بانقباض العضلة) وينتج عن ذلك انقباض عضلات الجسم كلها وهذه تسمَّى مرحلة **التيبُّس الرمِّى** Rigor Mortis . ويحدث التيبس فى ترتيب بدءا بالرأس وانتهاء بالقدم. فتتيبَّس عضلات الوجه والرقبة ثم الصدر فالذراعين ثم الفخدين وأخيرا عضلات الساقين. ويستمر التيبس الرمى لمدة ١٢ ساعة تقريبا ويصعب إحداث أى تغيير فى وضع الأعضاء أثناءه ولذلك يقوم من حضروا الوفاة بقفل جفون العينين أثناء الارتخاء الأولى حتى لا تظل العينان مفتوحتين فيما بعد.

٣ - بعد ذلك تبدأ البروتينات المكونة للعضلات فى التحلل وترتخى العضلات ثانية وهذا يسمى **الارتخاء الثانوى** Secondary Flaccidity ويبدأ أيضا من الرأس إلى القدم.

٤ - ثم يعقب ذلك المرحلة الأخيرة وهى التعفُّن Putrefaction .

هذه هى المراحل التى يمر بها الجسد فى حالة الوفاة العادية. أما فى حالات الوفيات غير الطبيعية - ولنأخذ كمثال حالات الانتحار. والشخص الذى يقدم على الانتحار يكون فى حالة توتر عصبى شديد يبلغ أقصاه فى اللحظة التى يزهق فيها روحه ويحدث انقباض فى الحال فى عضلات الجسم كلها وذلك يسمى التوتر الرمِّى Cadaveric Spasm (بدلا من الارتخاء الأولى) - ويعقبه التيبُّس الرمى وتظل العضلات منقبضة. وكثيرا ما يجد الأطباء الشرعيون يد



شكل ٢٤٧ أ – العضلات.

٣ خلايا عضلية تحت الميكرسكوب تبين التخطيط العرضى

خلية عضلية

خلية عضلية

خلية عضلية

Z line

H zone

I band

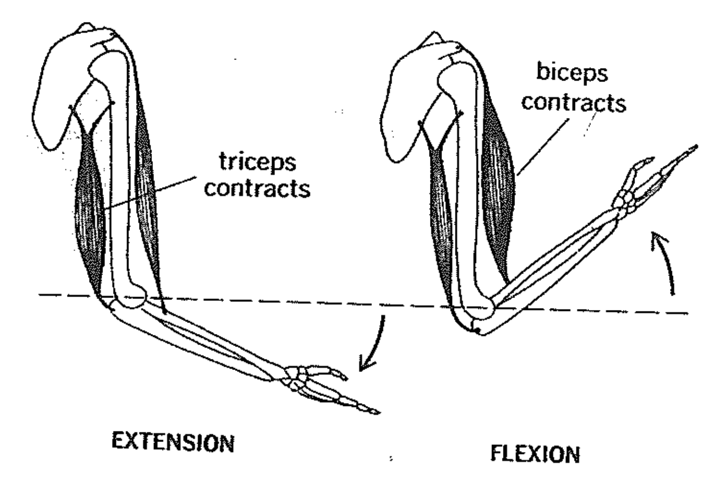
A band

Z line

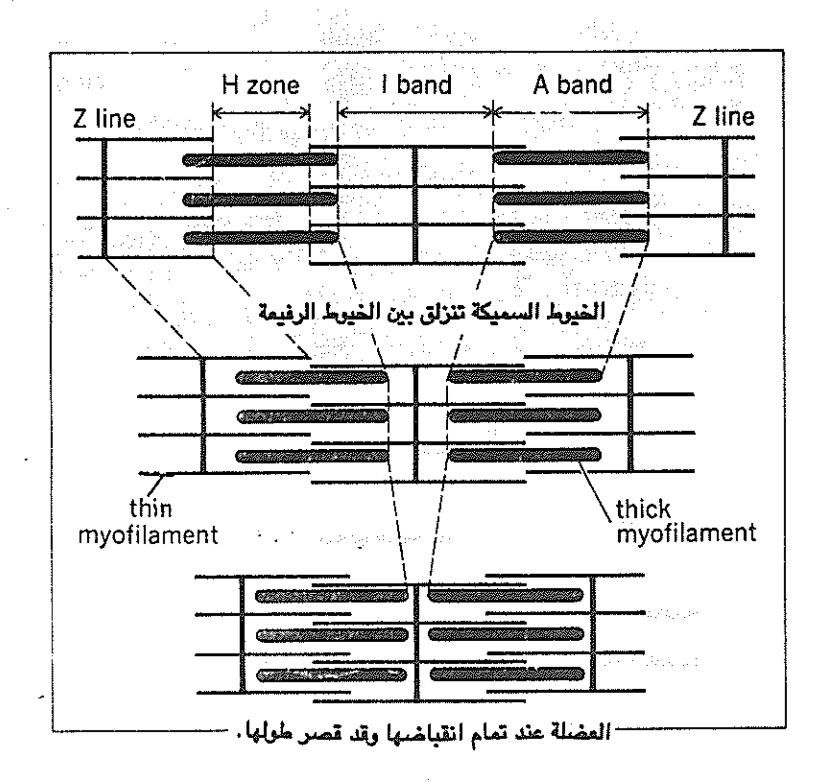
خيوط رفيعة

خيوط سميكة

شكل ٢٤٧ ب – التركيب الميكرسكوبى للعضلة.



العضلة ذات الراسين تنقبض فترفع الذراع.



شكل ٢٤٨ – ما يحدث عند انقباض العضلة.

المنتحر قابضة على المسدس المصوب إلى الرأس ولا يمكن تخليص المسدس إلا بعد أن يحدث الارتخاء الثانوى. كذلك قد يجدون يد القتيل وقد قبضت على قطعة من ملابس القاتل أو خصلة من شعره ويكون هذا أول الخيط الذى يتبعه المحققون لتحديد شخصية القاتل فيقبض عليه وينال جزاءه. كذلك فى حالات الغرق يحدث توتر رمى فى اللحظات الأخيرة وكثيرا ما توجد أيدى الغرقى قابضة على قطعة صغيرة من الخشب أو حفنة من طين القاع.

وذلك ما حصل لرمسيس الثانى فى لحظة الغرق. إذ بلغ به التوتر العصبى الشديد أقصاه فحدث التوتر الرمِّى وتيبَّست يده اليسرى على الوضع التى كانت فيه ممسكة بالدرع تتقى به المياه. ولعل لطمة المياة كانت من الشدة بحيث أفلتت الدرع من قبضة يده ولكن اليد ظلت فى هذا الوضع وحدث التوتر الرمى وأعقبه التيبُّس الرمى. وكان المفروض أن يحدث الارتخاء الثانوى بعد ١٢ أو ٢٠ ساعة. ولعله حدث فى كل أجزاء الجسم إلا فى اليد اليسرى فقد بقيت عضلاتها فى الانقباض الذى كانت عليه لحظة الغرق. ولاحظ المحنطون ذلك. وكلما وضعوا الذراع إلى جانبه أو ضمُّوها إلى صدره عادت لترتفع ثانية إلى هذا الوضع. وتم التحنيط ودهنت الجثة بالزيوت والرتنجات والمراهم وتسرب بعضها إلى العضلات والمفاصل. وأصبحت العضلات مثل المطاط واحتفظت المفاصل بنعومتها. وكلما أعادوا اليد إلى الصدر ارتفعت ثانية. فأحكموا ربطها إلى الصدر باللفائف التى كانت تلف بها الجثة. وظلت مربوطة إلى صدره. ومرت قرون وقرون وأكثر من ثلاثة آلاف عام. ولما عثر على الجثه فى خبيئة الدير البحرى ونقلت إلى متحف بولاق وقام خبير الآثار عام ١٩٠٢ بفك الأربطة قفزت اليد إلى الوضع الذى تيبست عليه لحظة الغرق وهى ممسكة بالدرع ليحمى الفرعون نفسه من لطمة موجة المياه القادمة نحوه!

نحن الآن أمام ظاهرة فريدة لايوجد مثلها فى مومياوات الفراعين الآخرين. ولم يتمكن أحد من علماء الآثار تفسيرها ولا يستطيع الطب الشرعى أن يفسِّر لماذا لم يحدث الارتخاء الثانوى فى هذه اليد بالذات. وكيف احتفظت العضلات بخاصية الانقباض أو اكتسبت خاصية مطاطية بحيث تعيد اليد إلى هذا الوضع بعد ما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة. إن قطعة من المطاط الحقيقى لو ظلت مشدودة لمائة عام فمن المؤكد أنها ستفقد خاصيتها المطاطية ولن تعود إلى الإنكماش ثانية. فما بالنا بعضلة مفروض ألا تنقبض إلا بأمر صادر من المخ. وحدث بها توتر رمى أعقبه تيبس رمى. ثم لا يحدث – كما هو مفروض – ارتخاء ثانوى. وتظل الخيوط السمكية والرفيعة محتفظة بترتيبها وخاصيتها لعدة آلاف من السنين. وما إن يتم فك لفائف الكتان عن اليد حتى تنزلق الخيوط السمكية بين الخيوط الرفيعة فيقصر طول العضلة وترتفع اليد. أليس هذا خرقا لكل ما هو معروف من نواميس الطبيعة؟ وتعريف المعجزة أنها خرق لنواميس الطبيعة. ولايكون أمامنا إلا التسليم بأن اليد اليسرى لرمسيس الثانى هى الآية. **و«من خلفك»** هم الأجيال منذ بداية هذا القرن وتحديدا منذ عام ١٩٠٢ عندما اتخذت يد

رمسيس الثانى هذا الوضع بعد فك اللفائف عنها. وإن كان كثير من الناس قد غفلوا عن مغزاها إلى أن تم لفت النظر إليها.

«فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية. وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون».

وصدق الله العظيم

بقيت كلمة هى قوله تعالى:

«النار يعرضون عليها غدوا وعشيا. ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب». (٤٦-غافر)

وجميع المفسرين يرون أن هذا العرض يكون فى البرزخ بالإضافة إلى أشد العذاب الذى سيدخله آل فرعون يوم القيامة. فيكون العرض على النار غدوا وعشيا نوعا من عذاب القبر. وفى حديث صخر بن جويرة عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الكافر إذا مات عرض على النار بالغداة والعشى ثم تلا: النار يعرضون عليها غدوا وعشيا. وإن المؤمن إذا مات عرض روحه على الجنة بالغداة والعشى. (تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٣١٩).

إن الشعور بالاختناق الذى يحسه من يغرق هو نوع من العذاب يقرب من العذاب بالنار وإذا كان العذاب بنار جهنم - وهو أشد العذاب - مؤجلا إلى يوم القيامة فهل النار التى يعرض عليها آل فرعون فى البرزخ يضاف إليها استمرار الشعور بالاختناق فى لحظة الغرق التى حدثت منذ آلاف السنين؟ إن فرعون وجنده هم الآن فى حياة البرزخ. وأغلب الظن أن أرواحهم - غداة وعشيا - تعاين لحظة الغرق الرهيبة التى مرت بها منذ ثلاثة آلاف عام وتشعر بالاختناق مضافا إلى العرض على النار - وها هى يد رمسيس الثانى لا تزال مرفوعة. كأنما تدفع عنه موجة المياه القادمة نحوه لتغرقه! كأنه حلم فظيع أو كابوس مخيف يتكرر باستمرار إلى أن تقوم الساعة!

نقطة أخيرة قبل أن نترك موضوع رمسيس الثانى فقد اقترح البعض تحليل مومياء رمسيس الثانى وتقدير نسبة الملح فى الأنسجة للحصول على دليل على غرقه فى ماء البحر المعروف بملوحته. ولكن ما سبق أن ذكرناه فى مراحل التحنيط أن الجثة - بعد إفراغها من الأحشاء - تملأ بملح النطرون المركز يجعل مثل هذا التحليل غير مجدى.

مرنبتاح

بعد أن انتهى مرنبتاح من دفن جثة والده - رمسيس الثانى - فى طيبة عاد إلى عاصمة البلاد فى الشمال - بررعمسيس - وباشر مهامه كملك لمصر. وقد قابل المصريون تولية

مرنبتاح بالفرح والسرور. كما جاء فى قصيدة أشرف بنفسه على كتابتها (بردية ساليه ١ – الأدب المصرى القديم – سليم حسن جـ ٢ ص ٢٢٣) تقول القصيدة:

افرحى أيتها الأرض قاطبة. قد جاء زمن الخير. فقد أقيم سيد على كل الممالك . وأتى الشهود إلى مكانه. وهو الذى يحكم ملايين السنين. عظيم فى ملكه مثل «حور نبن رع» محبوب «آمون» الذى يفيض على مصر بالأعياد «ابن رع. مرنبتاح» منشرح بالصدق. إيه أيها الأتقياء. تعالوا وشاهدوا. قد قضى الصدق على الكذب. وفر المذنبون على وجوههم. وولىَّ الطامعون أدبارهم. والماء ثابت لا ينقص. والنيل يحمل فيضانا عظيما . والأيام أصبحت طويلة والليالى لها ساعات محدودة. والشهور تأتى فى مواقيتها . والآلهة منشرحون سعداء القلب والحياة تمر فى ضحك وعجب.

ولو تعمقنا فى معانى القصيدة لوجدنا فيها تعريضا خفياً بعهد رمسيس الثانى وإشارة إلى النكبات أو الضربات التى حلت بمصر والمصريين فى أواخر عهده نتيجة رفضه المتوالى لطلب موسى عليه السلام بخروج بنى إسرائيل. فجملة **«والماء ثابت لاينقص والنيل يحمل فيضانا عظيما»** فيها إشارة إلى الشدة التى أخذ الله بها مصر من نقص المياه والجدب ونقص المحاصيل وهو ما ذكرناه فى ص ٩٠٢ . كذلك جملة **«والأيام أصبحت طويلة والليالى لها ساعات محدودة»** فيها إشارة إلى آية الظلام (ص ٩١٦) والتى استمر الظلام التام لمدة ثلاثة أيام متصلة وكأنه يقول إن الأيام أصبحت لها ساعات محدودة فلا يستمر الظلام كما حدث فى الماضى. وجملة **«والشهور تأتى فى مواقيتها»** فيها إشارة إلى آية الطوفان (ص ٩٠٦) إذ لم يحدث أن نزل على أرض مصر مثل هذا البَرَد الكثيف وفى مثل هذا الوقت من السنة فكأن الشهور قد اختل توقيتها فهو يتغنى بأنها أصبحت تأتى فى مواعيدها المعتادة.

وحتى القصيدة المسماة بلوح مرنبتاح أو لوح إسرائيل (ص ٦٧٠) والتى تشيد بانتصار مرنبتاح على الشعوب المحيطة. فيها بعض الفقرات التى تشير إلى سوء الأحوال بمصر فى السنوات الأخيرة من حكم رمسيس الثانى. فمما جاء بالقصيدة (الأدب المصرى القديم. سليم حسن – جـ ٢ ص ٢١٩): «الملك مرنبتاح – الثور القوى. إنه الشمس التى بددت **الغيوم** التى كانت تخيم على مصر وقد جعل مصر **تشاهد أشعة الشمس ثانيه** ويطلق سراح الجم الغفير الذين كانوا **معتقلين** فى كل إقليم وليتمكن **من تقديم قرابين للمعابد وليجعل البخور يدخل أمام الآلهة..»** وهو ما يشير إلى أن رمسيس الثانى كان قد قبض على بعض الأفراد ولعلهم ممن آمنوا بموسى! كما أن تأليه رمسيس الثانى لنفسه قد جعل الناس تتراخى فى تقديم القرابين للآلهة الأخرى.

تولى مرنبتاح الحكم وفى اعتقاده أن بنى اسرئيل بعد نجاحهم فى الخروج من مصر لابد قد توجهوا إلى فلسطين وبدأ يعد العدة لتكوين جيش جديد للانتقام لموت والده. إما بإعادة بنى

إسرائيل لمصر صاغرين أذلاء كما كانوا أو إبادتهم كلية فى فلسطين واستئصال شأفتهم من الأرض. وبدأ العمال يصنعون مركبات حربية جديدة وأدوات حرب من فئوس وسيوف ودروع. ثم بدأ فى إعداد الجند وتدريبهم. وكان يزمع أن يقود الجيش إلى فلسطين. إلاَّ أن خطرا خارجيا بدأ يتهدد البلاد وكان عليه أن يقضى على هذا الخطر أولا قبل التفكير فى الانتقام من بنى إسرائيل.

كان الخطر الخارجي يتمثل فى عدوين: الليبيين من الغرب وشعوب البحر من الشمال والشمال الغربى. وكان هذان العدوان موجودين أيام رمسيس الثانى ولكن ما كان له من هيبة وسلطان منعهما من التفكير فى الإغارة على الحدود المصرية. إلا أن السنين الأخيرة من عهد رمسيس الثانى كانت سنى تدهور مستمر وقد انتهزت القبائل القاطنة على حدود مصر الغربية – وهم عدة قبائل تزعمهم شيخ قبائل «ربو» أو «ليبيو» والتى حورت فيما بعد إلى «ليبيا» – الفرصة وأخذوا يزحفون على الأراضى الواقعة على حافة الدلتا ومكثوا هناك واحتلوا الواحات البحرية وواحة الفرافرة. وتحالف معهم شعوب البحر وكانوا عدة جماعات أهمهم الشرادنة القادمين من شردينيا أو سردينيا. كان يدفع الجميع قحط نزل ببلادهم كما تعرضوا لضغط هجرات آرية من جنوب أوروبا نزلت سواحل أفريقيا الشمالية. وفى عهد مرنبتاح استمر تقدم هذه القبائل من ناحية الغرب ووصل الليبيون حتى الفرع الكانوبى للنيل وهو آخر فرع من ناحية الغرب واحتلوا وادى النطرون إلى الشمال الغربى من منف. وكان غرضهم الاستيطان فى مصر كما فعل الهكسوس من قبل فأحضروا معهم زوجاتهم وأطفالهم وماشيتهم (مصر فى العصور القديمة. محمد شفيق غربال . ص ١١٦) وأدرك مرنبتاح خطورة الحال. فجمع جيشه وسار به لملاقاة العدو. ودارت بين الفريقين معركة حامية انتهت بانتصار المصريين. وطارد مرنبتاح فلول المنهزمين حتى معاقلهم المنيعة فى ليبيا. وكان عدد القتلى من العدو ٨٤٨١ والأسرى ٩٣٧٦ وكانت الأسلاب تعد بعشرات الألوف من الأسلحة والخيل وقطعان الماشية والدروع.

أما عن الأحداث فى منطقة الشرق الأدنى فإن الحيثيين تعرضوا لهجمات شديدة من شعوب البحر وأرسلوا يستنجدون بحلفائهم فى مصر وأرسل لهم مرنبتاح مددا من القمح فى السنة الرابعة من حكمه ولكنه لم يرسل إليهم جنودا لإنشغاله بتأمين حدوده من ناحية الغرب. واشتدت وطأة الهجمات على خاتى حتى فقدت استقلالها بل وانتهت كدولة من دول الشرق الأدنى القديم. وحدثت بعض الثورات ضد مصر فى سوريا وفلسطين ويقال إن مرنبتاح سيَّر حملة وأخضع الشعوب الثائرة وكان من بينهم قبائل بنى إسرائيل وقد ضمن ذلك فى لوح مرنبتاح والذى سبق ذكره بالتفصيل (ص ٦٧٤) وملخص ما ذكرناه أن مرنبتاح إما أنه ذهب إلى فلسطين ووجد بعض قبائل العابيرو وهم أقرباء بنى إسرائيل فقضى عليهم وظن أنه قضى

على بنى إسرائيل (لأن بنى إسرائيل كانوا فى سيناء فى ذلك الوقت) أو أنه عندما لم يجدهم فى فلسطين ظن أنهم قد ماتوا جوعا وعطشا فى الصحراء فادعى أنه أبادهم. أو أنه لم يقم أصلا بأى حملة فى سوريا وفلسطين وكان مجرد ذكر ذلك فى لوح مرنبتاح نوعاً من افتخار الفراعين المشهور عنهم وليقال عنه أن كانت له انتصارات فى الشرق كما حقق الانتصار على الليبيين فى الغرب.

ولم يدم حكم مرنبتاح إلا عشر سنوات وخلفه ابنه سيتى التالى.

ونترك الآن مصر ونعود إلى مسرح الأحداث فى سيناء حيث بنو إسرائيل قد عبروا وبدأوا مسيرتهم إلى «الأرض الموعودة» فلسطين.

الفصل الثامن

فــى سينـــاء

سبق أن ذكرنا (ص ٩٣٩) أن مكان العبور كان عند نقطة التقاء البحيرة المرة الصغرى بالبحيرة المرة الكبرى. وانشق البحر لموسى عليه السلام وعبر هو وبنو إسرائيل وغرق فرعون وجنده. وكان ذلك فى العام ١٢٢٥ ق. م. وكان عمر موسى وقتذاك٦٠ عاما. وذكرنا (ص ٩٥٥) أن بنى إسرائيل بعد نجاتهم أخذوا يتغنون بترنيمة للرب شكرا على خلاصهم من فرعون. وذكرنا قول التوراة (إصحاح ١٥ خروج ٢٠) فأخذت مريم النبية أخت هارون الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص. وأجابتهم مريم. رنموا للرب فإنه قد تعظم. الفرس وراكبه طرحهما فى البحر... ويعلق أهل الكتاب المسيحيين على هذه الفقرة إن هذه أول امرأة يطلق عليها لفظ نبية (تفسير الكتاب المقدس جاميسون وفاوست ص ١٥) كما يقولون إن الرقص كان رقصا موقرا للتعبير عن العبادة ومع أن ذلك كان ملائما لعصر موسى إلا أنه لم يجد مطلقا قبولا فى العبادة فى الكنيسة المسيحية (تفسير الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين جـ ١ ص ٢٣٧).

واضح أن بنى إسرائيل بهذه الترانيم التى كانوا يرددونها بين الحين والآخر – وفيها يقولون: تأخذ الرعدة سكان فلسطين حينئذ يندهش أمراء أدوم. أقرباء مؤاب تأخذهم الرجفة. يذوب جميع سكان كنعان. تقع عليهم الهيبة والرعب... كانوا يرغبون أن يسمعها بدو الصحراء الذين يقطنون المناطق التى يمرون بها وتشيع قصة غرق فرعون مصر – رمسيس الثانى – أثناء مطاردته لبنى إسرائيل فتسمعها شعوب الدول المجاورة وتأخذ الرهبة قلوبهم فيتأكدوا أن بنى إسرائيل فى حماية ربهم ويفت ذلك من عضدهم فلا يبدون مقاومة كبيرة عندما يبدأ بنو إسرائيل فى دخول الأرض.

وقلنا إن موسى عليه السلام رأى ألا يتجه إلى فلسطين مباشرة إذ هى واقعة تحت النفوذ المصرى وحتما سيلاحقهم مرنبتاح هناك لينتقم منهم لمصرع والده. ولعل موسى فكر أول ما فكر فى الذهاب إلى الجبل الذى كلمه عنده ربه – ليشكر الله على تأييده له أثناء مجابهته مع فرعون وليشكره على الآية الكبرى بإغراق فرعون وجنده إذ كان كل ما يطمع فيه هو الخروج ببنى إسرائيل من مصر والفرار من الفرعون. أما أن يهلك الفرعون أيضا فهذا مالم يكن يخطر ببال. فهى نعمة كبرى توجب الشكر. كذلك مما لاشك فيه أن اتجاهه للذهاب إلى الجبل كان وحيا من الله سبحانه وتعالى ليتلقى الرسالة والشريعة إذ أن ما نزل منهما لم يكن إلا تعليمات بسيطة أثناء وجودهم بمصر.

كانت سيناء منذ أقدم العصور من أوفر مصادر الثروة لمصر فيها مناجم الذهب والنحاس والأحجار الكريمة ولا تزال المناجم باقية حتى الآن وإن كانت قد أصبحت فقيرة فى إنتاجها لكثرة ما أخذ منها. ولكنها منذ عصر الأسرات الأولى (٣٢٠٠ ق. م.) كانت زاخرة بالحياة يقطنها عمال المناجم وأسرهم وبعض البدو وتتولى الحاميات المصرية حمايتهم وحماية القوافل المارة هناك.

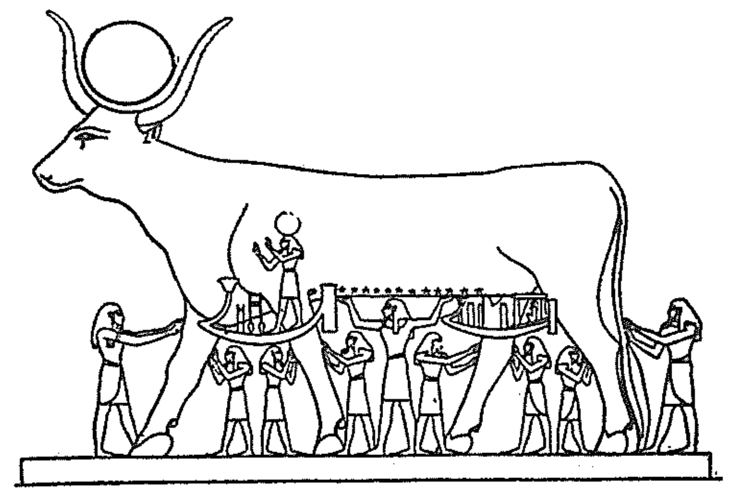
ومنذ القدم كان إله القمر «سين» هو الإله الذى يعبده البدو فى تلال سيناء ولعل اسم «سيناء» مشتق من اسمه. ثم فى عهد الدولة الوسطى أصبحت الإلهة المصرية «حاتحور» هى المعبودة فى هذه المنطقة وأقيمت لها معابد هناك. وصورها المصريون أولا على هيئة بقرة يزين رأسها قرص الشمس بين قرنى البقرة وكانت تعتبر رمزا للحنان وإلهة للحب. كما أنها هى السماء التى تخيلها الفنان المصرى على هيئة بقرة يمسكها إله الهواء «شو» وعلى بطنها النجوم وسفينة الشمس (شكل ٢٤٩). أو فى صورة امرأة تحنو على الأرض ولها جناح يزينه قرص الشمس (شكل ٢٥٠). كانت مجاورة بنى إسرائيل للمصريين هذه السنين الطوال قد جعلتهم يتأثرون بما يرونه فى المعابد من تماثيل. وأحدث ذلك شرخا عميقا فى داخلهم واهتزت عقيدة التوحيد فى نفوسهم.

بعد مسيرة يومين فى سيناء مر بنو إسرائيل على جماعة من عمال المناجم المصريين يتعبدون للإلهة «حاتحور» (شكل ٢٥١). وقد قام عالم الآثار البريطانى «پترى» فى عام ١٩٠٤ برحلة استكشافية فى هذه المنطقة وعثر على بقايا المعبد الذى كان قد أقامه رمسيس الثانى للإلهة «حتحور» فى هذه المنطقة – عبارة عن جزء من واجهة المعبد وعدة أعمدة مكسرة (شكل ١٥٠ ص ٧٢٥).

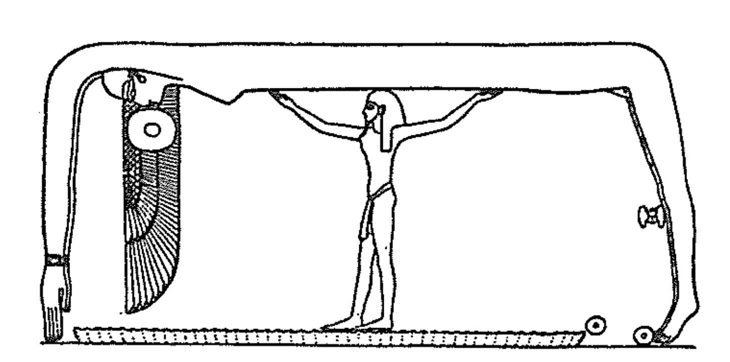
وما إن رأى بنو إسرائيل العمال يتعبدون للإلهة «حاتحور» حتى ظهر ما ترسخ فى عقلهم الباطن فقالوا لموسى عليه السلام:

«اجعل لنا إلها كما لهم آلهة...». (١٣٧–الأعراف)

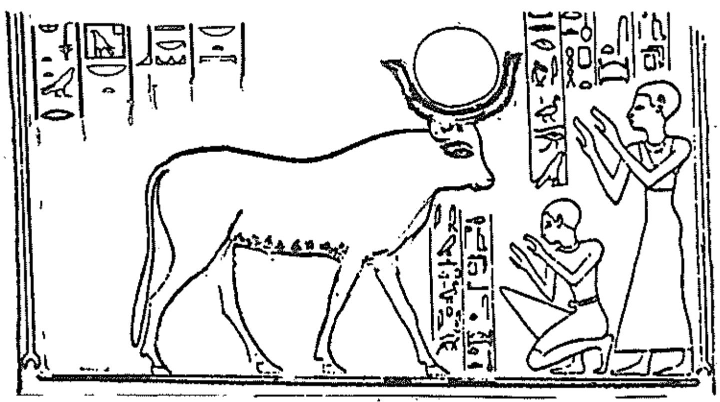
فدلّ هذا القول منهم على أنهم لم يتخلصوا بعد من وثنية قدماء المصريين. ويماثله هذا ما حدث من بعض الأعراب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما خرج فى غزوة حنين. وكان لهم فى الجاهلية شجرة خضراء ينوطون بها سلاحهم أي يعلقونه ولذلك سُمِّيت ذات أنواط وكان الكفار يخرجون إليها يوما فى السنة يعظمونها. فلما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الشجرة قال له بعض الأعراب: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال عليه الصلاة والسلام. الله أكبر قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى «اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون» لتركبن سنن من قبلكم حذو القُذَّة بالقذة حتى إنهم لو دخلوا جحرضبٍّ لدخلتموه (تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٩٧). والقذَّة ريش السهم وهو مثل



شكل ٢٤٩ – السماء على هيئة بقرة يمسكها إله الهواء «شو»
وآلهة أخرى. وعلى بطنها النجوم وسفينة الشمس (من مقبرة سيتي الأول).



شكل ٢٥٠ – السماء على هيئة امرأة يحملها «شو»
وعليها الشمس على هيئة قرص مجنح



شكل ٢٥١ – شخصان يتعبدان للإلهة «هاتحور»

يضرب للشيئين يستويان ولايتفاوتان.

لما قال بنو إسرائيل لموسى «**اجعل لنا إلها كما لهم آلهة**» ساءه هذا القول وقال لهم إنكم قوم جاهلون وهؤلاء القوم الذين رأيتموهم ستدمَّر أصنامهم لأن ما يعملونه هو باطل. ثم قال فى صيغة سؤال استنكار ونفى إنه لا يجوز له أن يوجههم لإله آخر غير الله سبحانه وتعالى – وهو الذى فضلهم على العالمين.

«وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم. قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. قال أنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبَّر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون. قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضَّلكم على العالمين. وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يُقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم».

(١٣٨ – ١٤١ – الأعراف)

وراح موسى يذكرهم بأن الله هو الذى أنجاهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم فى مصر العذاب ليل نهار ويسخرونهم فى المبانى ويقتلون أبناءهم الذكور وكانت نجاتهم من كل هذا اختبارا من الله لهم ولكى يعلموا أنه هو وحده الحق. وقيل إن الخطاب فى الآية الأخيرة **«وإذا أنجيناكم»** مُوجَّه ليهود عصر النبى صلى الله عليه وسلم أى واذكروا إذ أنجينا أسلافكم. ويحتمل أن المقصود به بنى إسرائيل وأنه استمرار لتأنيب موسى لهم لِمَا قالوا ولكن القرآن الكريم عبَّر عنه بخطاب مباشر من الله سبحانه وتعالى لهم لكون اللوم المباشر أشد وأقسى. وعَدَل بنو إسرائيل عن مطلبهم هذا لما زجرهم موسى ونهاهم عنه.

المياه المرة Marah.

تقول التوراة (خروج ١٥: ٢٢) ثم ارتحل موسى بإسرائيل وساروا ثلاثة أيام فى البرية ولم يجدوا ماء. فجاءوا إلى مارة (وهو اسم عبرى معناه مرارة ويُظن أنها هى المكان المعروف حاليا عين حوارة فى وادى الإمارة شمال عيون موسى. وماء هذه العين مر جداً). ولم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر. فتذمر الشعب على موسى قائلين: ماذا نشرب؟ فصرخ إلى الرب.. فأراه الرب شجرة فطرحها فى الماء فصار الماء عذبا. هناك وضع له فريضة وحكما وهناك امتحنه. فقال إن كنت تسمع لصوت الرب إلهك وتصنع الحق فى عينيه وتصغى إلى وصاياه وتحفظ جميع فرائضه فمرضا مما وضعته على المصريين لا أضع عليك فإنى أنا الرب شافيك.

ويقول مفسرو أهل الكتاب إن ذلك كان امتحانا من الرب حتى يعلموا أن الله هو الذى سييسر لهم كل احتياجاتهم المادية بشرط إطاعة الله والثقة فيه وتأدية الفرائض التى فرضها.

إيليم Elim

ثم سار بنو إسرائيل إلى الجنوب قليلا وأتوا الى بلدة إيليم وهى حاليا عيون موسى وتقول التوراة (خروج ١٥ : ٢٧): وهناك اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة فنزلوا هناك عند الماء. وهذه الاثنتا عشرة عينا كانت موجودة بنفسها فهى غير الاثنتى عشرة عينا التى فجرها موسى لهم عندما ضرب الحجر وسيأتى ذكر ذلك فيما بعد.

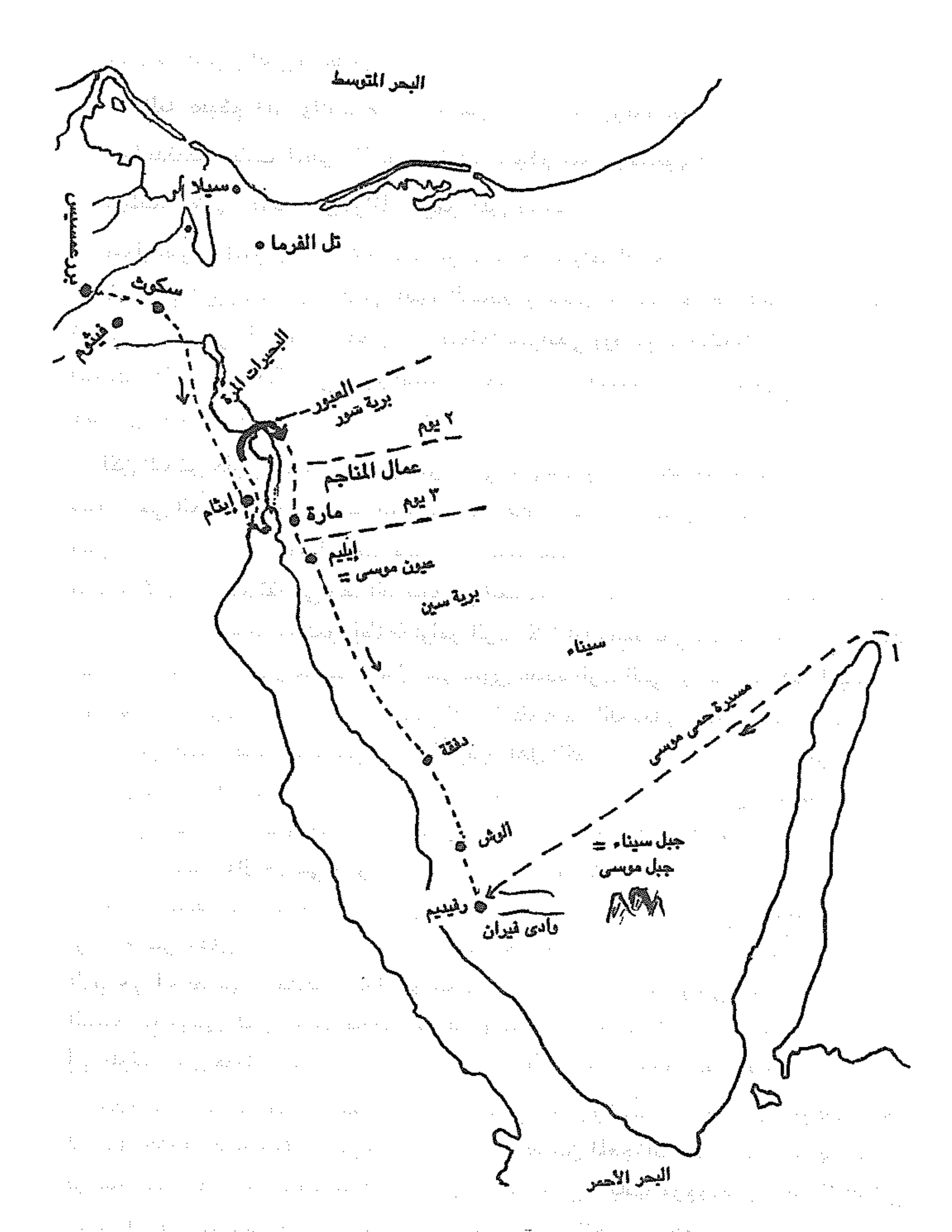
المن والسلوي Manna & Quail

ثم ارتحل بنو إسرائيل جنوبا وساورا فى المنطقة الجدباء المسماة برية سين. وكل من يدرس جغرافية سيناء يعلم أنها اليوم - كما كانت فى ذلك الماضى البعيد - ليس بها أمطار كافية والكمية التى تنزل عليها لا تكفى إلا لنمو بعض الأعشاب والكلأ التى تصلح للماشية والماعز. ومن هذا فإن اعتماد البدو الذين يتجولون فيها يكون على ألبان الماشية للشرب ولعجن الدقيق ليكون خبزا. وفى أحيان قليلة قد تذبح الماشية لأكل لحومها. ولكن هذا ما كان يتجنبه بنو إسرائيل إذ لو نفذت الماشية والغنم لماتوا جوعا وعطشا لذلك كان جل اعتماد بنى إسرائيل فى برية سيناء على الألبان ومنتجاتها وكان الماء ضروريا.

وتقول التوراة (خروج ١٦ : ١) وأتى كل جماعة بنى إسرائيل إلى برية سين فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثانى بعد خروجهم من أرض مصر. فتذمر كل جماعة بنى إسرائيل على موسى وهارون فى البرية وقال لهما بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع. فكلم الرب موسى قائلا: سمعت تذمر بنى إسرائيل كلمهم قائلا: فى العشية تأكلون لحما وفى الصباح تشبعون خبزا وتعلمون أنى أنا الرب إلهكم.

وفى المساء جاءت ريح تدفع معها أعداداً كبيرة من طائر السمان حتى غطت المكان كله وتساقط عليهم فأمسكوا به وذبحوه وطبخوه وأكلوا. وأمروا أن يأخذ كل واحد كفاية يومه ولا يدخر شيئا لأن كل يوم سيأتيهم مثله إلا يوم السبت فلن يأتيهم ولكن يوم الجمعة سيأتيهم ضعف ما يأتى كل يوم حتى يمكنهم أن يدخروا ليوم السبت.

وفى الصباح مع سقوط الندى إذا وجه الأرض كله قد تغطى بالمن. وهو شىء أبيض مثل الدقيق أو مثل رقائق الذرة (Corn flakes) ولم يعرفوا ما هو فسألوا موسى فقال لهم هو الخبز الذى أعطاكم الرب لتأكلوا. وقيل طعمه مثل الرقاق بالعسل. وكان يجب جمعه فى الصباح الباكر قبل أن يذوب ويصبح سائلا بفعل أشعة الشمس. وأُمروا أن يأخذوا منه مقدار عُمِر لكل شخص (العُمر مكيال للأشياء الجافة مثل الحبوب وهو يوازى ٨,٥ لتر تقريبا - قاموس الكتاب المقدس ص ٨٠٣). كما أمروا أن يأخذوا منه كفاية يومهم وألا يختزنوا منه أو يدخروا ليوم تال لأنهم سيجدونه فى صباح كل يوم ما عدا السبت فيجب عليهم أن يدخروا له من يوم الجمعة وسيجدون فيه ضعف ما يأتيهم فى الأيام الأخرى.



شكل ٢٥٢ – فى سيناء – من العبور إلى جبل موسى.

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى :

«وأنزلنا عليكم المن والسلوى. كلوا من طيبات ما رزقناكم». (٥٧ - البقرة)

«وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى». (٨٠ - طـه)

«وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى». (١٦٠ - الأعراف)

تقول التوراة (خروج ١٦ : ٢٧) ستة أيام تلتقطونه وأما اليوم السابع ففيه سبت لا يوجد فيه لأن للرب اليوم سبتا. وحدث فى اليوم السابع أن بعض الشعب خرجوا ليلتقطوا فلم يجدوا فقال الرب لموسى: إلى متى تأبون أن تحفظوا شرائعى ووصاياى انظروا إن الرب أعطاكم السبت. لذلك هو يعطيكم فى اليوم السادس خبز يومين اجلسوا كل واحد فى مكانه لايخرج أحد من مكانه فى اليوم السابع. فاستراح الشعب فى اليوم السابع.

لكن البعض كان يغريهم الطمع ويدخرون فى يوم غير يوم الجمعة مخالفين بذلك أمر موسى فكانوا فى الصباح يجدونه وقد تولد عنه دود فأنتن. فسخط عليهم موسى. أما ما كانوا يخزنونه يوم الجمعة ليوم السبت لاينتن أو يتولد عنه دود. وواضح أن رغبتهم فى اختزان الطعام كان عن عدم ثقة فى وعد الله بأنه فى الغد سيأتيهم بطعام مثله. فكان عقابهم أن ينتن وكان هذا درسا عمليا ليتعلموا إطاعة أوامر الرب. كما أنه تأكيد على حرمة يوم السبت كعطلة أسبوعية وعدم الانشغال فيه بأى عمل آخر سوى عبادة الرب التى فرضها فى هذا اليوم. كما كان ذلك أيضا درسا عمليا لتعويدهم على الثقة الكاملة فى الله تعالى وأنه هو وحده الذى يرزق الناس وأن عليهم التوكل عليه حق التوكل. ويقول أهل الكتاب إن الدلائل تشير إلى أن المن كان أمرا فريدا ليس له شبيه بين المنتجات الطبيعية وقد أعده الله خصيصا لبنى إسرائيل طوال ما كانوا فى سيناء. ولما كان المن هو معجزة من الرب كانت إرادة الله أن تبقى ذكراه فى قلوب الأجيال القادمة وقال موسى (خروج ١٦ : ٣٢) هذا هو الشىء الذى أمر به الرب. ملء العُمِر منه يكون للحفظ فى أجيالكم لكى يروا الخبز الذى أطعمتكم فى البرية حين أخرجتكم من أرض مصر. وقال موسى لهارون خذ قسطا واحدا واجعل فيها ملء العُمر منًا وضعه أمام الرب فى الحفظ فى أجيالكم. وكما أمر الرب موسى وضعه هارون (وفى المستقبل وُضِع هذا القسط مع لوحى الشهادة فى تابوت العهد). وأكل بنو إسرائيل المن أربعين سنة حتى جاءوا إلى طرف أرض كنعان. ولمّا عبروا نهر الأردن إلى الأرض الخصبة فى غربيه توقف نزول المن.

حاول بعض علماء الغرب إيجاد تفسير علمى للمن والسلوى. يقول (وارنركيللر The Bible as History P. 122) إن المن والسلوى ليسا نوعا من المعجزات بل هى أمر عادى الحدوث فى سيناء وما علينا إلا سؤال أفراد البدو فى سيناء ليجيبوا بأنها موجودة فى عصرنا الحالى. وطائر السمان معروف. وهجرات الطيور من الشمال إلى الجنوب وبالعكس معروفة كذلك. وكان خروج بنى إسرائيل من مصر فى الربيع وهو وقت الهجرات الكبرى للطيور من وسط أفريقيا

شديد الحرارة إلى الشمال المعتدل وهناك طريقان للهجرة. أحدهما من غرب أفريقيا إلى أسبانيا والثانى من شرقها عبر سيناء والبحر المتوسط إلى البلقان. وردا على هذا التفسير نقول إن هجرات الطيور لها وقت محدد. وموسمها – كما هو معروف لدى سكان شمال الدلتا – لا يزيد عن شهر واحد أو شهرين فى السنة. فاستمرار وجود السمان أى السلوى – على مدار السنة – هو بلاشك معجزة من الله سبحانه وتعالى.

أما عن المن فقالوا إن بدو سيناء يجدونه حتى الآن فى وقت انبلاج الصبح على هيئة حبيبات – مثل قطرات الندى – على الحشيش والأحجار وأفرع الأشجار. وفى عام ١٨٢٣ نشر عالم النبات الألمانى إهرنبرج G. Ehrenberg مقالا قال فيه إن المن ما هو إلا إفراز شجرة الطرفاء (Tamarisk trees) عندما تثقب أوراقها حشرة معينة موجودة فى سيناء هى حشرة Plant - louse. وفى عام ١٩٢٣ قام عالمان فى النبات هما فردريك سيمون بودنهيمر وأوسكار تيودور من الجامعة العبرية فى القدس ببعثة استكشافية فى وسط سيناء وأثبتا صحة ما قاله إهرنبرج وأنه بدون الوخز الذى تحدثه هذه الحشرة لا يتكون المن إطلاقا – أما عندما تثقب الحشرة أوراق النبات فإن العصارة اللزجة تخرج منها وعندما تسقط على الأرض تكون بيضاء اللون وبعد فترة تصبح صفراء مائلة إلى البنى. وطعم هذه العصارة حلو مثل العسل. وبعد شروق الشمس بقليل تصبح الحشرة خامدة ولا يتم إفراز منٍّ جديد وتنشط حشرة النمل فتأكل المن ويختفى. ولكن وُجد أن كمية المن تختلف باختلاف فصول السنة – فتكثر فى الشتاء إذ ينمو هذا النوع من النبات فى الشتاء وخاصة إذا كان الشتاء كثير الأمطار.

وعلى كلٍّ فما توصل إليه العلماء بهذا الخصوص لا يقدح فى كون المن كان معجزة من الله لإطعام بنى إسرائيل فى صحراء سيناء القاحلة فليس من الضرورى أن تكون المعجزة خرقا تاما لما هو موجود. فطوفان نوح ما هو إلا مطر وماء ينبع من الأرض. وكلاهما معروف وظاهرة طبيعية ولكن المعجزة كانت فى كميته بحيث أغرق الأرض. والريح الصرصر العاتية التى أهلكت قوم عاد. ما هى إلا ريح ولكن المعجزة كانت فى شدتها واستمرارها ٧ أيام و٨ ليال متواصلة. وبالمثل فإن كان المن موجودا كإفراز طبيعى من نبات معين فى سيناء فهذا لا ينتقص من المعجزة. لأن وجوده بكميات كبيرة تكفى لإطعام ٦٠٠ر٠٠٠ فرد – وكل يوم على مدار السنة – ومضاعفة كميته يوم الجمعة حتى يمكن تخزين ما يحتاجونه لطعام يوم السبت كل هذه تدل على تدخل العناية الإلهية سواء فى توفير النبات الملائم لإفرازه فى كل مكان ساروا فيه أو الحشرة التى تثقب الأوراق حتى تخرج العصارة. وما دامت العناية الإلهية قد وُجدت فهذه هى المعجزة.

اثنتا عشرة عينا :

استمر بنو إسرائيل فى سيرهم إلى الجنوب ومرُّوا على دفقة وألوش. ثم وصلوا إلى

«رفيديم» Rephidim وهو اسم عبرى معناه «متسعات» وهى «وادى فيران» حاليا. وكان الماء الذى يحملونه قد نفذ. فخاصم الشعب موسى (خروج ١٧ : ٢) وقالوا اعطونا ماء لنشرب. فقال لهم موسى لماذا تخاصموننى. لماذا تُجربون الرب. وعطش هناك الشعب إلى الماء. وتذمر الشعب على موسى وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش. فصرخ موسى إلى الرب قائلا: ماذا أفعل بهذا الشعب بعد قليل يرجموننى. فقال الرب لموسى: مُرَّ قدام الشعب وخذ معك من شيوخ إسرائيل وعصاك التى ضربت بها النهر خذها فى يدك واذهب. ها أنا أقف أمامك على الصخرة فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب. ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل ودعا اسم الموضع «مسَّة ومريبة» (Massah and Meribah) من أجل مخاصمة بنى إسرائيل ومن أجل تجربتهم للرب قائلين أفى وسطنا الرب أم لا؟ – ومسَّة اسم عبرى معناه تجربة ومريبة اسم عبرى معناه خصام لأنهم استرابوا فى قدرة الرب.

وضرب موسى عليه السلام الحجر فتفجَّرت منه اثنتا عشرة عينا. عين لكل سبط من أسباط إسرائيل الاثنى عشر. فشربوا وملأوا أوعيتهم.

وقد ذكر ذلك فى القرآن الكريم :

«وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم. كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين». (٦٠–البقرة)

قال بعض المستشرقين إن الماء فى هذه المنطقة من سيناء – عند وادى فيران – يوجد تحت طبقة رقيقة من الحجر الجيرى لاتزيد عن قدمين. محاولين الإيهام بأن الأمر لم يكن معجزة إلهية بل كان شيئا طبيعيا! ويروى وارنركيللر (الإنجيل كتاريخ ص ١٣٣) أن الچنرال چارڤيس C.S. Jarvis الحاكم البريطانى لسيناء فى الثلاثينيات من هذا القرن أخذ عددا من قوات الهجانة تحت إمرته إلى وادى فيران وراحوا يحفرون فى الرمال أمام صخرة يرشح من تحتها ماء. وأخذ الحماس أحد الجنود وراح يضرب الرمل بالفأس بقوة. وفى إحدى المرات أخطأ وجاءت الضربة على الحجر نفسه وأطاحت بكسرة منه فاندفع الماء بقوة من مكانها وصاح الباقون: الله أكبر الله أكبر. لقد حاكيت موسى عليه السلام! – وحتى لو كانت هذه الرواية صحيحة. فلا شك أنها – بالمصادفة – كانت صخرة تحتجز وراءها كمية أو نبعا للمياه. أما معجزة موسى عليه السلام فكانت فى تفجر الماء من أى صخرة يضربها ضربة بسيطة بعصاه وتتفجر منها المياه بعدد معين – هو اثنتا عشرة عينا – على عدد الأسباط وبكمية تكفى أعدادهم الغفيرة ومعهم مواشيهم أيضا.

قيل حجر مُعيَّن مربع من الطور على قدر رأس الشاة يلقى فى جوالق ويُرحل به. وقيل هو

حجر بعينه ولذلك ذكر بلفظ التعريف – وإذا نزلوا وضع فى محلتهم. وقالوا كان حجرا مربعا تطَّرِد من كل جهة ثلاثة عيون إذا ضربه موسى. وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفت العيون. وقيل إن موسى أُمر أن يضرب أى حجر شاء وهذا أبلغ فى الإعجاز (تفسير القرطبى جـ ١ ص ٤٢٠).

محاربة العماليق :

كان يسكن وادى فيران – رفيديم – أناس من العماليق (انظر الجزء الثانى. ص ١٩٥ و ٣٨٧). يقول أهل الكتاب إن الله سلطهم على بنى إسرائيل ليحاربوهم كنوع من العقاب الإلهى على كثرة تذمرهم. فقال موسى ليشوع بن نون – وهو فتى من بنى إسرائيل كان قوى الإيمان يلازم موسى – وهو الفتى المشار إليه فى القرآن الكريم بقوله تعالى : وإذ قال موسى لفتاه... فى سورة الكهف. قال موسى ليشوع (خروج ١٧ : ٨) انتخب لنا رجالا واخرج حارب عماليق. وغداً أقف أنا على رأس التلة وعصا الله فى يدى. ففعل يشوع كما قال له موسى ليحارب عماليق وأما موسى وهارون وحور (زوج مريم أخت موسى) فصعدوا على رأس التلة. وكان إذا رفع موسى يده أن إسرائيل يغلب وإذا خفض يده أن عماليق يغلب. فلما صارت يدا موسى ثقيلتين أخذا حجرا ووضعاه تحته فجلس عليه ودعم هارون وحور يديه الواحد من هنا والآخر من هناك فكانت يداه ثابتتين إلى غروب الشمس. فهزم يشوع عماليق وقوّمه بحد السيف. وجاء فى تفسير الكتاب المقدس (جـ ١ ص ٢٣٩): لا يعنى ذلك أن الفرقة التى كانت تحارب كانت ترى يدى موسى مرفوعتين أو أن بركة الله لهم كانت تتوقف على وضع يدى موسى. بل كما أن اليدين المرفوعتين تشيران إلى القلب المرفوع لله فى صلاة شفاعية فكذلك هما تعلمان الناس قيمة الصلاة واعتماد الإنسان الكلى على الله وحده. وتدعيم هارون وحور يدى موسى بمعنى أنهما إذا سندا جسمه شجعا فكره وروحه ليصلى. ولو أن جاميسون وفاوست (تفسير الانجيل الكامل. ص ١٧) يرى أن هذا لا يفسر معنى الإمساك بالعصا فى يده وفى رأيهم أن العصا ترمز إلى أفعال الله الحافظة وأن رفعها فيه تذكير للمحاربين بهذه الحقيقة ويشجعهم. وما نراه فى هذا الأمر هو أن موسى عليه السلام لم يشأ أن يشترك فى القتال بنفسه إذ علم أنه لو أصيب فكل بنى إسرائيل هالكون فى البرية ولكنه علم أن مشاركته من بعيد مشاركة رمزية ستشد من أزر المحاربين فلا يضعفوا فى القتال. فكان أن وقف على رأس التل رافعا يده وممسكا بالعصا. وهى عملية متعبة إذا استمرت وقتا طويلا فكان المحاربون إذا رأوا جَلَدَ موسى على هذا الوضع اشتد حماسهم وقويت عزيمتهم على القتال ومرت ٦ ساعات أو أكثر وانتصف النهار وجاء العصر والمعركة لا تزال دائرة وموسى عليه السلام لا يزال رافعا يده إلى أعلا ممسكا بالعصا. ولكن هناك حد لاحتمال الجسم البشرى فبدأت عضلاته تتعب ويده تكاد تسقط فيتجلد ويرفعها وجاء هرون وحور ليساعداه فى بقاء يده مرفوعه حتى انتهت

المعركة عند غروب الشمس بانتصار المحاربين من بنى إسرائيل.

وقل الرب لموسى اكتب هذا تذكارا فى الكتاب وضعه فى مسامع يشوع. فإنى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء. فبنى موسى مذبحا للرب (خروج ١٧ : ١٥).

زيارة حمي موسي :

كان قد مضى على موسى منذ خروجه ببنى إسرائيل من مصر قرابة ثلاثة أشهر وقدَّر أن مرنبتاح لم يدر بخلده أن بنى إسرائيل قد اتجهوا جنوبيا فى سيناء إذ هو لم يلاحقه حتى الآن فاطمأن إلى أنه لن يطارده فى المستقبل وعلم كذلك أن المحطة التالية هى الجبل الذى كلمه ربه عنده أثناء عودته من مدين منذ خمس سنوت. وما كان له أن يأتى إلى الجبل إلا أن يؤمر بذلك ويؤذن له من الله سبحانه وتعالى. وأدرك أن إقامته فى رفيديم ستطول بعض الشىء. فأرسل فى طلب زوجته وولديه من مدين وكنا قد ذكرنا (ص ٨٤٤) أن موسى كان قد أرسلهم لحميه فى مدين حتى لا يشغلوه عن مهمته مع فرعون – ولاشك أن زوجة موسى قد حكت لأبيها أن زوجها – موسى – قد اختاره الله نبيا. كما أنه ولا شك قد سمع عن الآيات التى أجراها الله على يديه فى مصر – من القوافل التى كانت تسافر بين البلدين. ولعل نفسه قد تاقت لروية زوج ابنته بعد أن أصبح نبيا. فلما وصله رسول منه لم يشأ أن يرسل ابنته وحفيديه بل رافقهم إلى حيث موسى. ونختصر ما جاء فى التوراة (١٨ خروج): وأتى يثرون حمو موسى وابناه وامرأته إلى موسى فى البرية وقصَّ موسى على حميه كل ما صنع الرب بفرعون والمشقة التى أصابتهم فى الطريق ففرح يثرون وقال: مبارك الرب الذى أنقذكم من أيدي المصريين ومن فرعون وأخذ يثرون محرقة وذبح ذبائح قربانا وشكرا.

وكان موسى عليه السلام يقعد من الصباح إلى المساء فى مجلس ويأتى الشعب يسألونه عن أمور دينهم فَيُعرفهم فرائض الله وشريعته. وكان أيضا يقضى فيما ينشأ بينهم من منازعات. ورأى يثيرون أن هذا إرهاق لموسى وتحميل له فوق طاقته. فنصحه بالاقتصار فى مجلسه على تعليم بنى إسرائيل أمور الدين والشريعة. أما الأمور الأخرى والمنازعات المدنية فأشار عليه أن يتخير أشخاصا «صالحين يخافون الله أمناء مبغضين الرشوة» ويقيمهم عليهم يفصلون بين الناس فى المنازعات العادية وإذا أعضلتهم مشكلة لجأوا إلى موسى. فسمع موسى لصوت حميه وفعل كل ما قال واختار موسى ذوى قدرة من جميع إسرائيل وجعلهم رؤساء على الشعب ورؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات فكانوا يقضون للشعب كل حين. الدعاوى العسرة يجيئون بها إلى موسى وكل الدعاوى الصغيرة يقضون هم فيها. ثم لما ارتحلوا من عند جبل سيناء (ص ١٠٣٧) صرف موسى حماه فمضى إلى أرضه (خروج ١٨ : ١٣ – ٢٧).

وواعدنا موسى:

ثم سار موسى عليه السلام ببنى إسرائيل من رفيديم - باتجاه جنوب شرق ونزلوا قرب الجبل الذى كلمه الله عنده أثناء عودته من مدين وقد سبق أن ذكرنا أن الله كان قد أخبره وقتذاك (ص ٨٣٢) بأن هذا الوادى مقدس:

«فلما أتاها نودى يا موسى. إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادِ المقدس طوى».

(١١ - ١٢ - طه)

وفى هذه المرة أعاد الله تذكيره بأن هذا الجبل مقدس وأمره أن يقيم عليه حدودا من كل ناحية وأن يحذر الشعب من أن يصعدوا الجبل: كل من يمس الجبل يقتل قتلا. لا تمسه يد بل يرجم رجما أو يرمى رميا. بهيمة كان أم إنسانا لا يعيش (التوراة خروج ١٩ : ١٢). وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى عليه السلام أن يصعد إلى الجبل وسيبقى فيه ثلاثين ليلة ليتلقى الشريعة كاملة من الله.. فأخبر موسى أخاه هارون بذلك وطلب منه أن ينوب عنه ويتولى أمور بنى إسرائيل أثناء غيابه وأن يصلح أمرهم.

«وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين».

(١٤٢ - الأعراف)

ويقول ابن كثير (تفسيره جـ ٢ ص ٢٤٣) حينئذ استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون عليه السلام نبى شريف كريم على الله له وجاهته وجلاله. ولا نرى أن المعنى هو نهى هارون نفسه عن الفساد بل المقصود أنه لو أفسدت فئة أو مجموعة فعليه ألا يتبع سبيلهم ولا يوافقهم على أهوائهم ولا يكون عونا لهم بسكوته عما يفعلون.

وبعد أن استخلف موسى أخاه هارون فى بنى إسرائيل ذهب لميقات ربه. وتروى كتب التفسير أن موسى عليه السلام كان قد وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوّهم أن يأتيهم بكتاب من عند الله فيه أحكام شريعتهم. فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب. فأمره الله أن يصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة. ذكر القرطبى فى تفسيره جـ ١ ص ٣٩٦) إن صوم الثلاثين يوم كان وصالا (أى صيام النهار والليل) وإن كان الأنبياء يواصلون الصوم إلاّ أن عامة الناس غير مأمورين به. وخاصة فى شريعة الإسلام. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إياكم والوصال إياكم والوصال. تأكيدا فى المنع (أخرجه البخارى). وعن أبى سعيد الخدرى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر. قالوا فإنك تواصل يارسول الله. قال: لست كهيئتكم إنى أبيت لى مطعم يطعمنى وساق يسقينى. وهذه إباحة لتأخير الفطر إلى السحر ومنع من اتصال يوم بيوم.

بعد أن أتم موسى عليه السلام صيام الثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة أنكر خلوف فمه فتسوَّك فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك. فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة. وأخرج الديلمى عن ابن عباس: لما أتى موسى ربه وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين يوما كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم فتسوَّك فأوحى إليه: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك. ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتنى ففعل ما أمره به ربه. فتم ميقات ربه أربعين ليلة. ونُصَّ على ذلك لئلا يُتَوهم أن العشرة داخله فى الثلاثين.

«وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولاتتبع سبيل المفسدين».

(١٤٢ - الأعراف)

«وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة..». (٥١ - البقرة)

التجلى الإلهى :

لما صام موسى الأربعين ليلة كان يقترب من ربه أكثر. وكان موسى بتكليم الله له يزداد حبا فى ربه أكثر. ودفعه هذا الحب الإلهى لطلب المستحيل فسأل الله الرؤية (أنبياء الله. أحمد بهجت. ص ٢٣١).

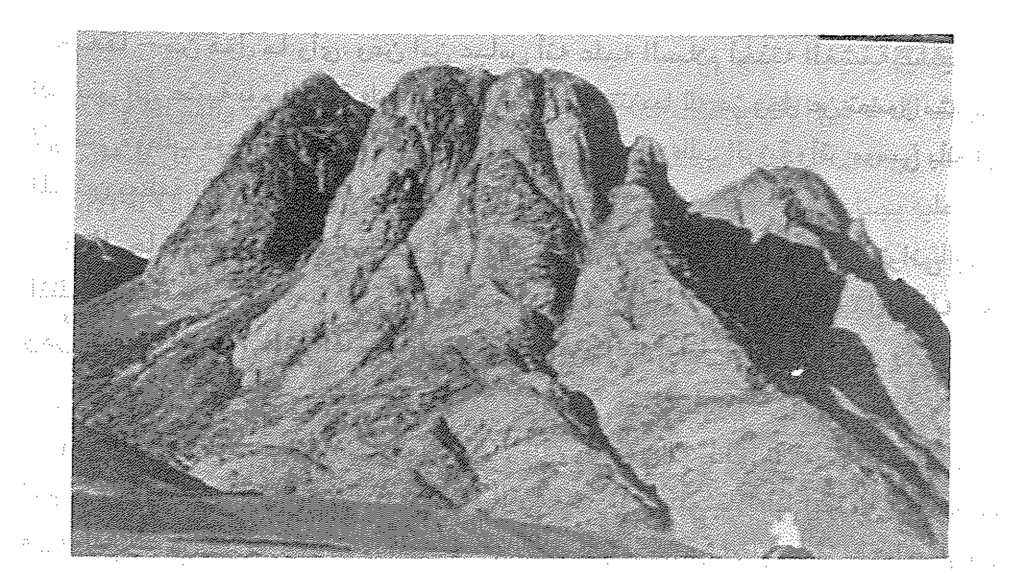
«ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك. قال لن ترانى».

(١٤٣ - الأعراف)

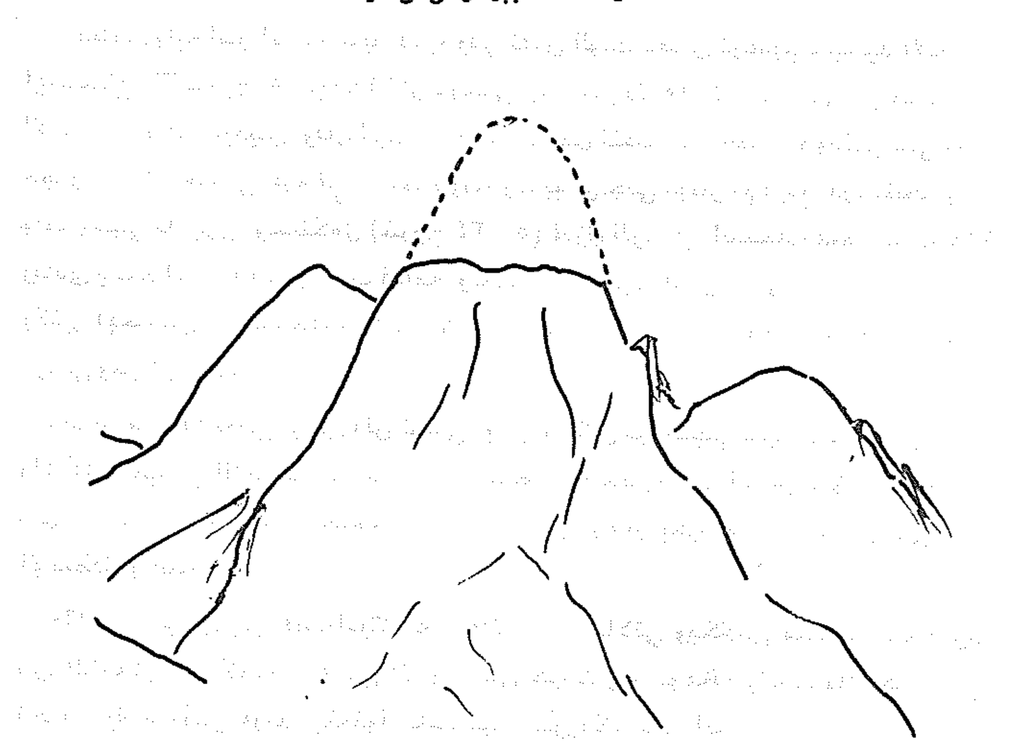
وهكذا كان رد الله سبحانه وتعالى على طلب الرؤية أن قال الله تعالى **«لن ترانى»** فالطبيعة البشرية لا تحتمل التجلى الإلهى. فى حديث قدسى أخرجه الترمذى عن ابن عباس: قال الله تعالى: يا موسى لن ترانى. إنه لن يرانى حى إلا مات ولا يابس إلا تدهده ولا رطب إلا تفرق. إنما يرانى أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم (الإتحافات السينة فى الأحاديث القدسية - محمد المدنى - ص ٣٨). وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن المؤمنين يرون الله سبحانه وتعالى فى الدار الآخرة لقوله تعالى:

«وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة». (٢٢-٢٣ - القيامة)

هذا فى الآخرة. أما فى الدنيا فلا يستطيع شىء مهما عظم أن يصمد لنوره عز وجل ولذلك قال الله سبحانه وتعالى لموسى أن ينظر إلى الجبل فإن استقر مكانه وبقى على حاله حين يتجلى له الله. فقد يتحمل هو أيضا هذا الموقف. وتجلى ربه للجبل بالكيفية التى أرادها الله عز وجل فتفتت الجبل وصارت قمته ترابا مدكوكا (شكل ٢٥٣ - أ ، ب) وخر موسى مغشيا عليه



شكل ٢٥٣ أ – جبل موسى في سيناء.



شكل ٢٥٣ ب – تصور لما كان عليه الجبل قبل التجلي الإلهي.

– صعقا – من هول ما رأى. وعن ابن عباس أنه عليه السلام أخذته الغشية عشية يوم الخميس إلى عشية يوم الجمعة فلما أفاق قال سبحانك تنزيها لله عز وجل عن تصور مشابهته لأى شيء وطلب موسى التوبة من الله على إقدامه على سؤال طلب الرؤية وأقر موسى بأنه أول المؤمنين بعظمة الله وجلاله وبأنها لايمكن لبشر أن يدركها:

«ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرَّ موسى صعقا. فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين».

(١٤٣ - الأعراف)

وفى الحديث الصحيح من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تُخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأرفع رأسى فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أصعق فيمن صعق فأفاق قبلى أم حوسب بصعقته الأولى. أو قال كفته صعقته الأولى. (تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٢٧٩).

تختلف رواية التوراة عما سبق ذكره وفى نفس الوقت تعكس نزعتهم لتجسيد الإله. ففى الإصحاح ٣٣ خروج: ١٨ جاء: فقال موسى أرنى مجدك قال لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش. وقال الرب هو ذا عندى حل فتقف على الصخرة ويكون متى أجتاز مجدى أنى أضعك فى نقرة في الصخرة وأسترك بيدى حتى أجتاز ثم أرفع يدي فتنظر ورائى وأما وجهى فلا يرى. وتستكمل (خروج ٣٤ : ٥) فنزل الربُ فى السحاب فوقف عنده هناك ونادى باسم الرب. فاجتاز الرب قدامه. ونادى: الرَّب الربُّ إله رحيم ورؤوف بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء حافظ الإحسان إلى ألوف. غافر الإثم والمعصية والخطيَّة فأسرع موسى وخرَّ إلى الأرض وسجد.

بعد أن قال الله تعالى لموسى «**لن ترانى**» وكان ما كان من التجلى للجبل وخر موسى صعقا ولما أفاق تاب إلى الله. فقال له الله إنه قد اصطفاه واختاره على الناس لتنزل عليه التوراة وهى رسالة موسى. وكذلك اصطفاه بتكليمه إياه وأمره أن يكون من الشاكرين على شرف الإصطفاء والتكليم.

«قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين. وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين».

(١٤٤ - ١٤٥ - الأعراف)

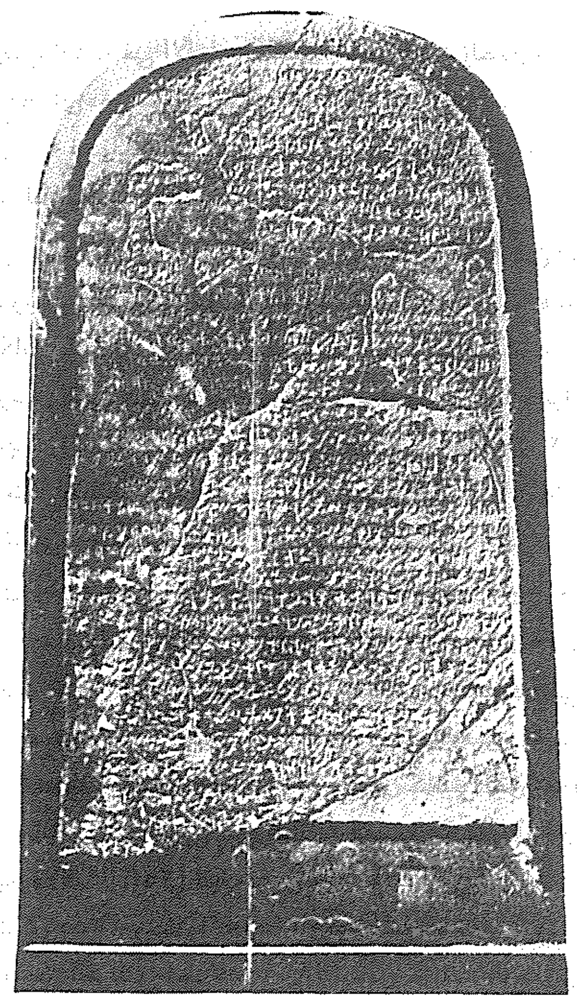
الألــواح :

وكتب الله له فى الألواح تفصيل الشريعة من الحلال والحرام والعبادات والشرائع والأحكام والمواعظ. أى «**من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء**» وروى فى الخبر أن جبريل عليه السلام قبض عليه بجناحه فمر به فى العلا حتى أدناه فسمع صريف القلم حين كتب الله له الألواح. ذكره الترمذى.

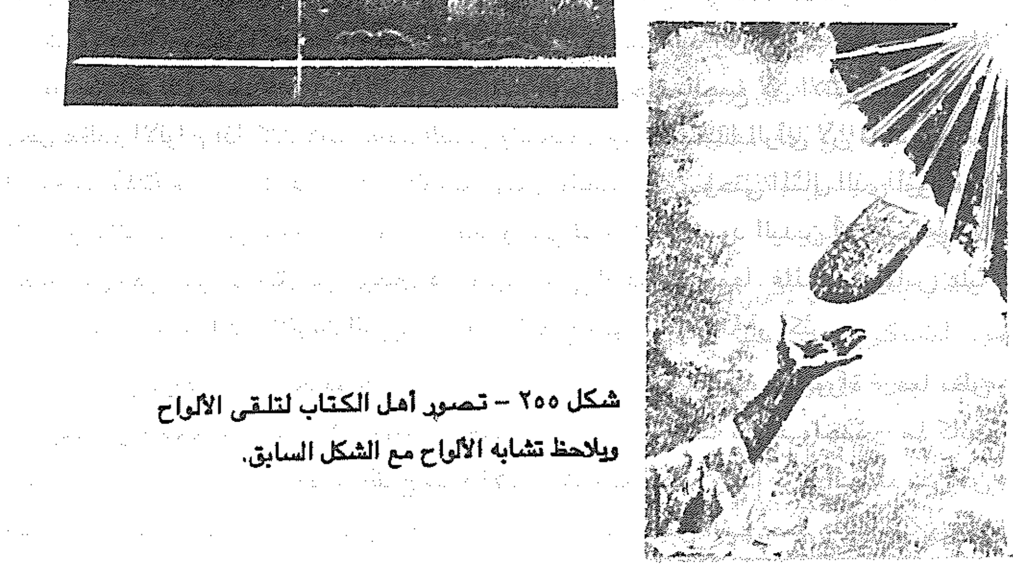
وفى **عدد الألواح** قيل لوحين. ولعل ذلك أخذاً عن التوراة إذ تقول (خروج ٣٢ : ١٥) فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة فى يده لوحان مكتوبان على جانبهما. ومن هنا كانا مكتوبين. واللوحان هما صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين. وفى رأينا أن لوحين اثنين – مهما عظما وكبرت أبعادهما – كما قالوا ١٢ ذراعا × ١٠ أذرع – مع العلم أن تابوت الشهادة – وقد وضعا فيه – كانت أبعاده ٢,٥ × ١,٥ ذراعا (ص ١٠١٠, ١٠١٤) – ما كانا ليتسعا لكل ما أنزل على موسى وكما نص القرآن الكريم «**من كل شيىء – وتفصيلا لكل شيىء**» ولذلك فمن المرجّح أن الألواح كانت أكثر من ذلك فى العدد وهذا ما نص عليه القرآن الكريم حينما قال: «**وكتبنا له فى الألواح**» والجمع هو ثلاثة فأكثر.

وعن مادتها قيل الكثير: تقول التوراة (خروج ٣٤ : ١) ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما. وعن هذا القول أخذ المفسرون الإسلاميون فقالوا: أمر الله موسى أن يقطعهما من صخرة صمّاء ليّنها له فقطعها بيده. ولعل كاتبى التوراة وهم يكتبونها فى المنفى فى العراق كانوا متأثرين بما يرونه من الكتابة المسمارية على ألواح الطين سواء النيىء أو المحروق أو الحجارة (شكل ٢٥٤) لذلك تصوّروا الألواح التى أعطيت لموسى على هذه الصورة كما يتضح من شكل ٢٥٥. وحددوا عددها بلوحين اثنين باعتبار أن تحمل اليد الواحدة لوحا واحدا. وجاء فى تفسير القرطبى (جـ ٧ ص ٢٨١). ويروى أنهما لوحان وجاء بالجمع لأن الاثنين جمع ويقال رجل عظيم الألواح إذا كان كبير عظم اليدين والرجلين. ولا نرى هذا الرأى لأن المشهور عن الجمع هو ثلاثة فأكثر. ولا نقول: وقف التلاميذ ونحن نقصد اثنين. وحتى المثال الذى أورد فهو أكثر من ثلاثة لأن عظم اليدين والرجلين أربعة وحتى لو كان المقصود اليدين **أو** الرجلين فلا يُتصور أن يكون للرجل أكثر من لوحين لأى منهما حتى لو ذكرت جمعا. فالمثال لا يقاس عليه ما نحن بصدده. وما دام القرآن الكريم قد قال «الألواح» فهى إما ثلاثة أو أكثر.

وأما عن كونها كانت مصنوعة من الحجارة – والكل قد نقل ذلك عن التوراة – فما نظن أن لوحا من الحجارة – مهما كان رقيقا – حتى يستطيع المرُء حمله فى يد واحدة – ما كانت أبعاده تزيد عن متر × ١/٢ متر. واللوح بهذه الأبعاد لايتسع للكثير ولهذا نرى أنها لم تكن من الحجارة – أخرج ابن أبى حاتم عن جعفر بن محمد عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم



شكل ٢٥٤ – أحد الألواح الحجرية وجدت في أرض مؤاب.



شكل ٢٥٥ – تصور أهل الكتاب لتلقى الألواح ويلاحظ تشابه الألواح مع الشكل السابق.

أنه قال: الألواح التى أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة وعن الحسن أنها كانت من خشب نزلت من السماء (تفسير الألوسى جـ ٩ ص ٥٧) وهذا ما يرجحه الألوسى. ونرى أيضا أنها كانت رقيقة للغاية حتى ليمكن تشبيهها بما يسمى فى عصرنا الحالى «قشرة خشب» وبهذا تكون خفيفة للغاية بحيث يمكن لليد الواحدة أن تحمل منها عشرة أو أكثر كهيئة «ملزمة» من كتاب وبهذا تتسع صفحاتها لما نص عليه القرآن الكريم **«من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء»** وخاصة أننا لو راجعنا ما فى التوراة من تفاصيل عن بيت العبادة والشرائع والأحكام نجدها مكتوبة فى مائة صفحة بالخط الصغير. وقد يؤيد هذ الرأى قوله تعالى: «**والطور وكتاب مسطور فى رق منشور**» (١ - ٣ - الطور) والكتاب المسطور قيل القرآن. وقال الكلبى التوراة وقيل اللوح المحفوظ. والمعنى الأخير ينفيه وصف منشور إذ معناه أنه معرض للنظر. وما يرجح أن المقصود هو التوراة هو أن القَسَم كان بالطور وهو الجبل الذى كلم الله موسى عليه والتوراة هى التى أنزلت كتابا مسطورا والقرآن الكريم لم ينزل كذلك بل قال الله تعالى : **«ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين»**. (٧ - الأنعام) لذلك فإن الأقرب هو أن الكتاب المشار إليه هو التوراة - ووصف بأنه فى رق منشور. والرق الشىء الرقيق. مثل رق الدُّفّ أو جلد رقيق يكتب فيه.

عن ابن عمر أن عليا كرم الله وجهه قال: خلق الله تعالى آدم بيده وخلق جنة عدن بيده وكتب الألواح بيده. وأضاف بعضهم: وخلق جبريل بيده وخلق عرشه بيده. وكتب الكتاب الذى عنده لايطلع عليه غيره بيده.

«وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء».

(من الآية ١٤٥ - الأعراف)

«أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون».

(من الآية ١٥٤ - لأعراف)

وأشهر ما عرف بأنه مكتوب فى الألواح هى «الوصايا العشر». إلا أن موسى عليه السلام تلقى أيضا أحكم الشريعة بالتفصيل وطريقة بناء بيت العبادة والتنظيمات الخاصة بالكهنة من حيث اختيارهم وملابسهم والطقوس التى يقومون بها بكل تفصيل.

أ - الوصايا العشر (The Ten Commandments) - خروج ٢٠ :

١ - أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمام وجهى.

٢ - لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولاصورة ما مِمَّا فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض. ولا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك إله غيور.

أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع من أعدائى وأصنع إحسانا إلى ألوف من أحبائى وحافظى وصاياى.

٣ - لا تحلف باسم الرب إلهك باطلا. لأن الرب لا يبرىء من ينطق باسمه باطلا.

٤ - اذكر يوم السبت لتقدسه. فى ستة أيام تعمل وتنجز كل أعمالك واليوم السابع سبت للرب إلهك لاتصنع فيه عملا أنت وابنك وبنتك وعبدك وبهيمتك وأمتك ونزيلك الذى داخل أبوابك لأن الرب خلق السموات والأرض والبحر وكل ما فيها فى ستة أيام وفى اليوم السابع استراح لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه.

٥ - أكرم أباك وأمك لكى يطول عمرك فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك.

٦ - لا تقتل.

٧ - لا تزن.

٨ - لا تسرق.

٩ - لا تشهد على قريبك شهادة زور.

١٠ - لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما هو لقريبك.

(ب) - **بيت العبادة** : لم يكن مناسبا أن يبنى بالطوب أو الحجارة لأن بنى إسرائيل كانوا كثيرى التنقل كما أن وجودهم فى سيناء كان وجودا مؤقتا ينتهى بحلول الوقت المناسب لدخولهم الأرض. لذلك وجب أن يكون بيت العبادة متنقلا يسهل فكه وحمله ثم إقامته. وكان يشمل:

١ - الفناء الخارجى يحيط به سور وبالفناء مذبح المحرقة والمغسلة (أو المرحضة).

٢ - خيمة الاجتماع وفى داخلها المسكن.

٣ - يتكون المسكن من المقدس وبه المائدة والمنارة ومذبح البخور.

٤ - قدس الأقداس وبه التابوت.

٥ - تعليمات خاصة بالكهنة وثيابهم ومواردهم.

(جـ) - **الشريعة اليهودية :**

ونذكر بعضها فيما يلى.

١ - الاعتراف والتطهير.

٢ - الحلال والحرام فى الأكل.

٣ - الزواج والطلاق.

٤ – الأعياد.

٥ – الزكاة.

٦ – الصوم.

٧ – الصلاة.

٨ – زيارة بيت المقدس.

وليس هنا مجال ذكر تفاصيل ذلك ولمن يريد التوسع يمكنه قراءة الكتب المتخصصة. غير أن هناك أمر نود أن نشير إليه وهو قوله تعالى :

«وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون». (٥٣ – البقرة)

فما هو الفرقان الذى جاء معطوفا على الكتاب فى هذه الآية ؟

الفرقان :

الفرقان فى اللغة كل ما فرق به بين الحق والباطل وسمى يوم بدر يوم الفرقان « **وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان».** (٤١ – الأنفعال)

إلا أن كثيرا من المفسرين يرون أن الفرقان هو القرآن. وجاء فى المعجم الوسيط: الفرقان كتاب الله تعالى – ومنها جاء قوله تعالى : «**تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا».** (١ – الفرقان)

وفى معنى قوله تعالى : **«وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان»** قال أبو اسحق الزجاج الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره باسمين تأكيدا وقال ابن زيد الفرقان انفراق البحر له حتى صار فرقا فعبروا. وقيل الفرقان الفرج من الكرب لأنهم كانوا مستعبدين ومنها قوله تعالى: **«إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا »** أى فرجا ومخرجا. وقال ابن بحر والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان والواو قد تزاد فى النعوت كقولنا فلان حسن وطويل وواضح أن هذه الأقوال ما هى إلا اجتهادات تقريبية ولا يزال الباب مفتوحا لاجتهادات أخرى.

والمعروف أن التوراة هى ما أنزل على موسى وجاء عيسى عليه السلام مصدقا بها. لقوله تعالى**«وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة»**(٤٦ – المائدة). والتوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام تشمل الأسفار الخمسة الأولى: التكوين والخروج والعدد واللاويين والتثنية. أما باقى التوراة فقد كتب بعضها أنبياء مثل سفر المزامير وهى مزامير داود عليه السلام أى الزبور – وأسفار كتبها حفاظ التوراة.

والتوراة تشمل الوصايا العشر وأحكام الشريعة وقيل: الوصايا العشر هى الفرقان وأحكام الشريعة هى الكتاب (د. محمد شحرور. الكتاب والقرآن. ص ٦٤). وقد يثور تساؤل: ماذا عن الفرقان الذى أنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم؟ قيل إن القرآن الكريم فيه وصايا عشر هى

ما جاءت فى **سورة الأنعام** الآيات ١٥١ - ١٥٣:

«قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم :

١ - ألا تشركوا به شيئا.

٢ - وبالوالدين إحسانا.

٣ - ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم.

٤ - ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

٥ - ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون.

٦ - ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده.

٧ - وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفسا إلا وسعها.

٨ - وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى.

٩ - وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون.

١٠ - وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون.

والفواحش فى الوصية ٤ تشمل نكاح المحارم. والشذوذ الجنسى والزنا.

والوصية ٩ - وبعهد الله أوفوا - تشمل كل تعهد ظاهر أو باطن فى المعاملات بين الناس ويندرج تحتها إلتزام الأمانة فى المعاملات وتصبح السرقة من المحرمات وكذلك الرشوة والاختلاس.

فإذا عدنا إلى ما قيل عما أنزل على موسى عليه السلام «**وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان**» فالفرقان هو الوصايا العشر والكتاب هو أحكام الشريعة الأخري التى سبق ذكرها فى الصفحة السابقة. والله أعلم.

عبادة العجل :

قلنا سابقا (ص ٩٨٥) إن موسى عليه السلام استخلف أخاه هارون فى بنى إسرائيل وأخبره أنه سيذهب لملاقة ربه ثلاثين يوما ليتلقى منه الألواح والشريعة. ولما طُلِبَ من موسى أن يتم المدة بعشر ليال لتصبح أربعين ليله تأخر موعد عودته. كان السامرى فى هذه الأثناء قد أخذ الحلى التى كان بنو إسرائيل قد استعاروها من المصريين قبيل الخروج وهو ما ذكرناه (ص ٩١٩) وصهرها وصنع لهم عجلاً له خوار وقال لهم هذا إلهكم وإله موسى. لقد قال موسى إنه ذاهب لملاقاة ربه ولكنه نسى أن ربه هنا - وهو هذا العجل - وليس هناك عند الجبل . وافتتن بالعجل أناس كثيرون من بنى إسرائيل. ولما تأخر موسى عن موعد عودته زاد

هذا من شكوكهم وظنوا أنه لن يعود وزاد إقبالهم على عبادة العجل. وأخبر الله موسى بما فعل السامرى من إضلالهم

«قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى». (٨٥ - طه)

تقول التوراة (خروج ٣٢) ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لانعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم واتونى بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلا مسبوكا. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر. فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه ونادى هارون وقال غدا عيد للرب. فبكروا فى الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للَّعب. فقال الرب لموسى اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك. زاغوا سريعا عن الطريق الذى أوصيتهم به. صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر.

وهذا افتراء من كاتبى التوراة على نبى الله هارون. وقد نفى عنه القرآن الكريم هذه الفرية إذ نص على أن السامرى هو الذى أضلهم وأثبت أن هارون قد استنكر منهم هذا الفعل.

«ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى». (٩٠ - طه)

نعود إلى موسى عليه السلام وقد أخبره ربه عما فعل قومه فى غيابه فغضب موسى وأسرع عائدا.

«فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً». (٨٦ - طه)

وكان أسف موسى ناتجا من أن هذا الشعب قد أكرمه الله بالآيات والمعجزات وخلَّصه من يدى فرعون الذى كان يسومهم سوء العذاب وشق لهم البحر وأغرق فرعون أمام أعينهم. هذا الشعب ما إن أبطأ عليه موسى حتى ارتدوا للوثنية وعبدوا عجلا كما رأوا المصريين يعبدون عجل أبيس (ص ٧٣٢).

«وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم». (٩٣ - البقرة)

تعبيرا عن تمكن هذه العبادة فى قلوبهم وكأنما تغلغلت عبادته فى أجسامهم كما يتغلغل الماء فى الأعضاء بعد شربه.

ولما اقترب موسى من مكان قومه سمع صوت الدفوف والغناء والرقص. ولما اقترب أكثر رأى فى وسط الدائرة عجلا ذهبيا له صوت يخرج منه هو أشبه بخوار الثور والراقصون يدورون حوله. وصاح موسى بغضب قائلا

«بئسما خلفتمونى من بعدى». (من الآية ١٥٠ – الأعراف)

كان فى إمكان موسى عليه السلام أن يقتص من المتسبب فى هذه الفتنة فقد أخبره الله سبحانه وتعالى أن السامرى هو السبب **«وأضلهم السامرى»** ولكنه أراده تحقيقا علنيا حتى يكون القوم مقتنعين بعدالة الحكم الذى سيصدره فالجريمة عظيمة وخطيرة. وهى جريمة الردة عن عبادة الله الواحد الأحد – والعقوبة لابد ستتناسب مع عظم الجرم وستكون عقوبة قاسية. وبدأ التحقيق. هنا يمكن تشبيه ما حدث بتمرد فيه متمردون وزعيم للتمرد وجهة منوط بها المحافظة على الأمن. وبدأ بسؤال المتمردين أولا وهم ذلك النفر من بنى إسرائيل الذين عبدوا العجل. ثم سؤال هارون وقد استخلفه موسى على القوم وكان منوطا به نهيهم عن الضلال ومنعهم من ارتكابه. ثم فى النهاية سؤال زعيم المتمردين أى المتسبب فى الضلال وهو السامرى ليدافع عن نفسه.

توجًه موسى بخطابه إلى من ضلوا من بنى إسرائيل موبخا لهم فى صيغة سؤال نفى حتى تكون إجابتهم إقرارا لما يقوله من أن الله قد وعدهم وعدا حسنا. وعدهم بتخليصهم من العذاب الذى كانوا فيه بمصر وأوفى الله بوعده وزيادة على ذلك أغرق عدوهم حتى لا يلاحقهم فى المستقبل :

«قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا...»

وأتبع ذلك بسؤال آخر هو لماذا أخلفوا وعدهم له بألا يعبدوا إلا الله ؟ وهنا بين لهم أن ضلال الأقوام قد يكون بسبب طول المدة بينهم وبين نبيهم فتنسى تعاليمه أو تحرف وفى هذه الحالة قد يكون لهم بعض العذر فيرسل الله إليهم رسولا يحيى فى نفوسهم تعاليم الله ويعيدهم إلى التوحيد أما إذا تم الضلال على قرب عهد من النبى فهنا يحل عليهم غضب الله ويكونون مستوجبين لعذابه.

«أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى».

(٨٦ – طه)

وجوابهم على هذا التساؤل سيكون بأنه لم يطل العهد بهم فإن نبيهم لا يزال موجودا بينهم فلا يبقى إلا الاحتمال الآخر وهو أنهم – أو كأنهم أرادوا أن يحل عليهم غضب من ربهم أى أنهم بفعلهم هذا أصبحوا مستحقين أن يحل عليهم غضب من ربهم.

كان جوابهم أن الأمر لم يكن باختيارهم وأن إخلافهم الموعد الذى بينهم وبينه – وهو الثبات على دين الله – كان فوق قدرتهم فإن السامرى هو الذى أضلهم بأن صنع من الذهب والفضة التى أخذوها من المصريين وسمّوها «أوزارا» أى أثقالا لأنها كانت كثيرة وقد تعنى آثاما لأنهم استعاروا هذه الحلى بحجة أنهم سيحتفلون بعيد لهم وعبادة ربهم فى البرية ولم يعيدوها لأصحابها. قال بعض المفسرين إن هارون عليه السلام أمرهم بإلقاء الحلى فى حفرة فيها نار لأنها لا تحل لهم. وذكر الألوسى (تفسيره جـ ١٦ ص ٢٤٧) ما روى عن ابن عباس من أن هارون قال لهم إنما تأخر موسى عنكم لما معكم من حلى القوم وهو حرام عليكم. فالرأى أن نحفر حفرة ونجعل فيها نارا ونقذف فيها ما معنا. وقيل إن السامرى وضع فى الحفرة قالب عجل دون أن يدروا. وجعل القوم يأتون بما معهم فيقذفونه فيها وجاء السامرى ومعه تراب من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام وأقبل إلى النار وقال لهارون عليه السلام: يا نبى الله أألقى ما فى يدى؟ فقال نعم وهو يظن أنه بعض الحلى مثل ما جاء به غيره. فألقى السامرى هذه القبضة من أثر الرسول وقال كن عجلا جسدا له خوار فكان البلاء والفتنة.

ينفى أغلب المفسرين أن الحلى تحولت إلى عجل حقيقى له خوار ولذلك لا نوافق على ما ذكره الأولوسى من أن موسى قال: إلهى هذا السامرى صاغ لهم العجل فمن نفخ فيه الروح؟ والمقصود أن الله قد سهل للسامرى فعله ليختبر بنى إسرائيل ويظهر لهم أن الإيمان لم يرسخ بعد فى قلوبهم إلا أن البعض قالوا إن ما كانوا يرونه من حمرة فى جسمه هى حمرة الذهب وليست حياة حقيقية ولذلك قيل «عجلا جسدا» أى جسما لا روح فيه. وقال آخرون «جسدا» أى جثة ذا لحم ودم (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ٢٤٧). وَجَهَدَ آخرون أنفسهم لتفسير الخوار من تمثال ليس فيه روح فقالوا (أنبياء الله – أحمد بهجت. ص ٢٣٣) إن السامرى كان فيما يبدو نحاتا محترفا أو صائغا سابقا فصنع العجل مجوفا من الداخل ووضعه فى اتجاه الريح بحيث يدخل الهواء من فتحته الخلفية ويخرج من أنفه فيحدث صوتا يشبه خوار العجول الحقيقية ويقال إن سر هذا الخوار أن السامرى كان قد أخذ قبضة من تراب سار عليه جبريل عليه السلام حين نزل إلى الأرض فى معجزة شق البحر أى أن السامرى أبصر بما لم يبصروا به فقبض قبضة من أثر الرسول (جبريل عليه السلام) فوضعها مع الذهب وهو يصنع منه العجل. وكان جبريل عليه السلام لا يسير على شىء إلا دبت فيه الحياة فلما أضاف السامرى التراب إلى الذهب وصنع منه العجل خار كالعجول الحقيقية. وعاد الذين ينفون الحياة عن العجل وينفون أن يكون الخوار ذاتيا وليس بفعل الريح – يقولون إننا نعلم أن التراب إذا أضيف إلى الذهب وصُهر انفصل التراب من الذهب وترك تجويفا فى مكانه وأغلب الظن أن السامرى استخدم هذا التراب، كأى تراب آخر، فى صنع تجويف داخل العجل، بحيث تحول الذهب إلى تمثال له صوت. والحقيقية أن الأمر لا يحتاج لهذا المجهود فى نفى الحياة عن العجل إذ أن

القضية هى أنه حتى لو كان الخوار ذاتيا وحتى لو كانت دبت فيه حياة حقيقية فهل يجوز لبنى إسرائيل أن يعبدوه؟ وهكذا تجاوز القرآن الكريم عن هذه المسألة فقال «**عجلا جسداً له خوار**» وترك الأذهان تفسر هذا الخوار كما تشاء. بفعل الريح أو دبت فيه الحياة – وأثبت أن هذا العجل لا يصح أن يكون إلها على أى وجه لأنه لا يتكلم إذا خوطب ولو سألوا شيئا لا يرجع عليهم بجواب بل يخور فقط ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرا ولا يملك أن ينفعهم بشىء. ووضع ذلك فى صيغة سؤال استنكار وتقبيح لفعلهم هذا:

«قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى. فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى. أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا».

(٨٧ – ٨٩ طه)

ونلاحظ دقة اللفظ القرآنى. فهو قد نسب صُنع العجل للسامرى «فأخرج». ولم يقل لهم السامرى إن هذا هو إلهكم فوافقوه وفى هذه الحالة يكون قد ضُلِّلَ بهم. ولكن هذه الفئة التى اتبعت السامرى كانت تميل بطبعها إلى الضلال إذ ما أن رأوا العجل حتى أسرعوا لعبادته والفاء تعنى التعقيب بلا تراخى «فقالوا» هذا هو الإله. أى أن الضلال فى دخيلتهم ولم يكن ينتظر إلا أن يروا العجل حتى يفصحوا عن ضلالهم. بل وإمعانا فى ضلالهم لم يقولوا هذا هو إلهنا تعبيرا عن أنفسهم فقط ولم يكتفوا بأن يقولوا لمن لم يتبعوهم هذا هو إلهكم بل راحوا يحثونهم على الضلال ويوهمونهم أن هذا هو إلههم وإله موسى. وإن كان موسى قد قال إنه ذاهب لملاقاة ربه فهو قد نسى لأن إلهه هنا. وهكذا انتهى التحقيق مع من ضلوا بنتيجة.. مؤداها أن رأس الفتنة هو السامرى ولكنهم هم أنفسهم لا يقلون عنه فى الجرم والضلال. ولم يتبين لموسى عليه السلام ما يفعل بهم فأرجأ أمرهم لما بعد انهاء التحقيق مع الأطراف الأخرى.

انتقل موسى بعد ذلك إلى سؤال هارون خليفته فى قومه وكان قد حدد له طريقة عمله حين قال له..

«اخلفنى فى قومى. وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين».

وكان الغضب قد بلغ بموسى مداه وأخذته الغيرة على دين الله حدا لا يوصف فلم يتمالك نفسه إلا وقد ألقى الألواح من يده. قالوا بعضها انكسر واعترض الآخرون بأنه مهما كان من غضبه فإن احترام كتاب الله واجب فلا يلقى بشدة فينكسر. وفى رأينا أن الإلقاء لا يستدعى العنف فى الفعل وإن كان يفيد العجلة. فقد قيل لأم موسى «فألقيه فى اليم» ولا يُتصوَّر أن تلقى الأم وليدها بشدة وإن كانت قد وضعته فى اليم بسرعة – كذلك نقول ألقى عليه السلام أى حياه وتفيد السرعة أيضا أى حياه فور رؤيته.. هكذا وضع موسى عليه السلام الألواح

على الأرض بسرعة فكأنه ألقاها. وتقول التوارة (خروج ٣٢ : ١٩) وكان عندما اقترب من المحلة أنه أبصر العجل والرقص فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما فى أسفل الجبل. وفى الإصحاح ٣٤ : ١ - ثم قال الرب لموسى انحت لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما. وعلى كُلٍّ فقد وصلنا سابقا (ص ٩٩١) إلى أنها كانت رقائق من خشب فلا تتكسر عند إلقائها.

بعد أن ألقى موسى عليه السلام الألواح من يده أمسك بمقدمة رأس هارون وجرَّه إليه تعنيفا له ولسؤاله عما حدث خشية أن يكون قد قصر فى نهيهم عن الضلال.

«وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه». (من الآية ١٥٠ - الأعراف)

وسأله عما منعه أن يردهم عن الغيِّ إذ رآهم قد ضلوا وما منعه أن يتبع طريق موسى فى الحفاظ على دين الله

«قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألاَّ تتبعن. أفعصيت أمرى».

(٩٢ - ٩٣ - طه)

والأمر كان : **«أصلح ولا تتبع سبيل المفسدين».**

رأى هارون حدة غضب موسى وكما يقولون يتطاير الشرر من عينيه. فأراد أن يرقق قلبه ويلطف من حدة غضبه فاختار لفظا يذكر بالأخوة ويعبر عن الحنان فقال **«يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى»** ويفهم من هذا أن موسى أمسك أولا بلحية هارون - ولعل هارون كان أطول منه - فلما خفض رأسه من أثر جذب اللحية أمسك بشعر رأسه وجذبه إليه. وروى أن موسى عليه السلام كان غضوبا واستبدت به الغيرة على دين الله ففعل ما فعل فى هارون مع أنه نبى أيضا.

كان هارون قد نهاهم عن عبادة العجل حين رآهم قد فتنوا به لما رأوا من خواره وأخبرهم أن ربهم هو الرحمن وطلب منهم أن يتبعوا قوله ويطيعوا أمره. فلم يسمعوا له وقالوا له سنظل على عبادة العجل حتى يعود إلينا موسى لنرى رأيه. فاعتزلهم هارون. هو ومن بقوا على إيمانهم.وأثبت القرآن الكريم موقف هارون هذا. وبذلك ينفى ما ادعته التوراة أن هارون هو الذى صنع لهم العجل (خروج ٣٢).

«ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى. قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى». (٩٠-٩١-طه)

دفع هارون عن نفسه تهمة عصيان الأمر إذ سأله موسى أفعصيت أمرى؟ وقدم دفاعين: قال إن القوم استضعفوه ورأوه هو ومن معه من المؤمنين قلة وضعافا وكادوا يثورون عليهم ولما نهاهم عما فعلوه من عبادة العجل كادوا يقتلونه وطلب منه ألا يظن أنه مخطىء ولا يجعله فى

عداد الظالمين وألا يعاقبه لأن ذلك سيشمت به الأعداء إذ يقولون هذا هارون قد عارضنا وناله عقاب من موسى فيفرحوا بذلك.

«وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه. قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين».

(١٥٠ - الأعراف)

أما الدفاع الثانى الذى أبداه هارون فهو خشيته من أن لو قام هو ومن بقوا على إيمانهم بمنع الضالين من عبادة العجل واستعمل العنف معهم لقام قتال بين الفريقين. ويقع قتلى وتثور الأحقاد ويثأر أقارب القتلى لقتلاهم فتكون فُرقة فى بنى إسرائيل وقد تلومنى على ذلك وتقول إنه كان الواجب على أن أنتظر عودتك لتتصرف أنت بما ترى.

«قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرّقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى». (٩٤ - طه)

قَبِل موسى عليه السلام اعتذار أخيه. وأراد أن يستغفر ربه عما فعل بأخيه قبل أن يستجلى الأمر **«قال رب اغفر لى»** وكذلك طلب المغفرة لأخية بما يُعد ذنبا إذ لم يستطع منع الفتنة **«ولأخى»** وفى هذا الضم ترضية لهارون عليه السلام ورفع للشماتة عنه.

«قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين».

(١٥١ - الأعراف)

بقى سؤال رأس الفتنة وهو السامرى

«قال فما خطبك يا سامرى». (٩٥ - طه)

أى ما شأنك وما هذا الأمر الخطير المنسوب إليك فقال مدافعا عن نفسه إنه رأى مالم يره باقى القوم وقد ذكرنا سابقا ما قيل من أنه قبض قبضة من التراب الذى مر عليه حافر فرس جبريل عليه السلام. فهى من أثر الرسول - وألقاها فى الحلى المذابة - وزينت له نفسه هذا الفعل ليرى ما يحدث. وهو بهذا يتنصل من مسئولية فعله وأن القبضة من الأثر وما فيها من قوة إحياء كانت هى السبب المباشر وأن كل ذنبه أن نفسه قد سولت له إلقاءها على الذهب المنصهر. وكان هذا كذبا منه إذ هو الذى صنع قالبا على هيئة العجل ووضعه فى الحفرة أو أنه عند عمل الحفرة - ولعله هو الذى تطوّع بحفرها - جعلها على هيئة عجل وسواء دبت فيه حياة أم كان يخور بفعل الريح فإن القوم اتبعوه وعبدوا العجل وحدثت المعصية وكان هو المدبر لها. لم يكن موسى عليه السلام فى حاجة لكل هذا التحقيق ليصل إلى النتيجة فقد أطلعه الله عليها من قبل إذ قال له وهو فى الجبل **«فإنا قد فتنا قومك وأضلهم السامرى»**. ولكن موسى أراد أن يكون تحقيق على الملأ حتى يتقبلوا ما يحكم به. وانتهى التحقيق وكان الحكم متضمنا

ثلاثة بنود :

بند خاص بالرأس المدبر وهو السامرى.

و بند يتعلق بجسم الجريمة وهو تمثال العجل.

و بند ثالث يختص بالذين اتبعوا السامرى وعبدوا العجل.

كان الحكم على السامرى من شقين. عقاب دنيوى وعقاب فى الآخرة وناهيك عن عقاب الآخرة الذى لن يتخلف عنه ولن يخلفه. ولم يفصح عنه حيث أنه معروف سلفا وهو نار جهنم.

أما العذاب الدنيوى فلم يكن حكما بالإعدام لأن حكم الأعدام يقصر من أمد الحياة الدنيا والله يريد له عذابا أليما فى الدنيا وأن تطول معاناته بطول بقائه فى الدنيا. قالوا إن الله رماه بداء عضال لا يكاد يمس أحداً أو يمسه أحد إلا ُحمً من ساعته حمى شديدة. فتحاشاه الناس وتحاشاهم وكان يصيح بأعلى صوته لا مساس أى لا تمسونى. وتلافى الناس ملاقاته ومكالمته ومؤاكلته ومبايعته وغير ذلك مما يعتاد جريانه بين الناس من المعاملات. ويقول الألوسى (تفسيره جـ ١٦ ص ٢٥٥) وصار بين الناس أوحش من القاتل اللاجىء إلى الحرم ومن الوحشى النافر فى البيداء. وهام فى البرية لايجد أحدا من الناس.

«قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس وإن لك موعدا لن تخلفه».

(٩٧ – طه)

«لن تُخْلَفَه» أى لن يخلفك الله تعالى ذلك الوعد بل ينجزه لك. وقرئت لن تُخلِفه بكسر اللام أى لا تملك أن تتخلف عنه.

لا تذكر التوراة شيئا عن السامرى وتنسب صنع العجل إلى هارون وقد نفى القرآن الكريم عنه ذلك. وقال المستشرقون إن السامرى اشتقاق من السامرة (شمرون العبرية) فى فلسطين ولم يكن بنو إسرائيل قد دخلوها بعد لينسب أحد إليها ليقال له شمرونى أو شامرى أو سامرى. يقصدون أن الإسم اختراع وليس حقيقة. ويرد الأستاذ رؤوف أبو سعده (من إعجاز القرآن – جـ ٢ ص ٢٩) قائلا: إن اسم السامرى لاشأن له بالسامرة فى فلسطين بل هو من عشيرة شمرون وبالرجوع إلى التوراة (عدد ٢٦ : ٢٣) نجد بنو يساكر بن يعقوب هم: تولاع وفوة وياشوب وشمرون. فهو شمرونى أو شامرى أى سامرى. ويقول إن الإسم يحمل أيضا معنى عدم المس والاحتراز من المس واللمس إذ أن شَمَرَ العبرية معناها حفظ وصان وحَرَزَ و «شَمَرَه مِن» معناها «احترز مِن» وتوقَّى فإذا قلت شمرنى بإضافة ضمير المفعول للمتكلم كما فى العربية تصبح شمرنى أى توقَّنى فإذا كان المخاطب جمعا قيل شمرونى أى توقونى أو تحاشونى أى لا مساس التى جاءت فى القرآن الكريم. فالاسم يشير إلى عشيرته وإلى الجزاء الذى ناله بسبب دوره فى صنع العجل وعبادته. وهذا وجه من وجوه إعجاز اللفظ فى القرآن الكريم إذ تحمل كلمة سامرى هذين المعنيين.

أما فيما يتعلق بجسم الجريمة وهو العجل فقد ذكره القرآن الكريم:

«وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً».

(٩٧ – طـه)

والكلام هنا موجه إلى السامرى بصفته هو الذى صنع العجل وأول من عبده ولذلك قيل **«إلهك»** – و **«ظلت»** أصلها ظللت وحذفت اللام الأولى للتخفيف. وقيل إن موسى عليه السلام برده بالمبرد ثم أحرقه بالنار ثم ذراه فى البحر حتى لا يبقى منه أثر.

وتقول التوراة (خروج ٣٢ : ٢٠) ثم أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل – وكأنما ليشربوه حقيقة بعد أن أشربوا عبادته فى قلوبهم كما ذكر القرآن الكريم.

بقى أن نعود إلى هؤلاء الذين ضلوا وارتدوا عن عبادة الله وتبعوا السامرى فعبدوا العجل، لنعرف ماذا كان جزاؤهم. وكان هؤلاء قد أفاقوا من غفوتهم وتنبهوا إلى أنهم قد ارتكبوا أكبر معصية بعبادة العجل :

«ولما سُقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين». (١٤٩–الأعراف)

وسقط فى أيديهم تعبير عن شدة الندم لأن النادم إذا اشتد ندمه عضَّ يده – ويقال عضَّ أصابع الندم – فتكون يده مسقوطا فيها أو أسقط فيها أو **«سقط فى أيديهم»**. وتبينوا أنهم قد ضلوا واتضح ذلك لهم وكأنهم قد رأوه بأعينهم. قالوا لئن لم يرحمنا ربنا بإنزال التوبة المكفرة لذنبنا ويغفر لنا خطيئتنا لنكونن من الخاسرين. ولكن هل يكفى أن يطلبوا التوبة بألسنتهم هكذا ليتوب الله عليهم وهم قد ارتكبوا أكبر الذنوب؟ قد يجعل ذلك الناس فى المستقبل يتجرؤون على حدود الله مادامت التوبة بهذه البساطة. إذن لابد من جزاء يردع كل من تسول له نفسه الإشراك بالله. وهكذا جاء الحكم قاسيا ورادعا. يتناسب مع عظم الجرم.

«إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين». (١٥٢ – الأعراف)

بينت هذه الآية أن هؤلاء الذين عبدوا العجل قد غضب الله عليهم وسينزل بهم عقاب ينالهم. وقيل اختصارا **«سينالهم غضب من ربهم»** وهذا العقاب سيسبب لهم ذلة فى الحياة الدنيا. ثم أوضحت آية من سورة أخرى نوع العذاب الذى حكم الله به عليهم فى الحياة الدنيا. والكفر بعد الإيمان ردة. والردة حدها القتل. وأخبرهم موسى بما أمر الله به فى شأنهم حتى يتوب الله عليهم فلا ينالهم عذاب فى الآخرة :

«وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ». (٥٤ – البقرة)

وأجمع المفسرون على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده. قيل فقاموا وقتل بعضهم بعضا حتى قيل لهم كُفُّوا. وقيل وقف الذين عبدوا العجل صفا ودخل عليهم الذين لم يعبدوه بالسلاح فاستسلم لهم عبدة العجل فقتلوهم وسمى استسلامهم للقتل قتلا لأنفسهم على سبيل المجاز. أو هى مثل «ولا تلمزوا أنفسكم» أى يلمز بعضكم بعضا أى كان الأمر أن يقتل بعضهم بعضا، وقيل لما بلغ عدد القتلى سبعة آلاف تاب الله على المذنبين الذين لم يُقتلوا إذ هم رضوا بالقتل جزاء لما اقترفوه من ذنب فرفع عنهم القتل. وأُخبِروا أن من قُتل احتُسب شهيدا عند الله ومن لم يُقتل فقد تاب الله عليه. وقيل أوحى إلى موسى: ما يحزنك . أما من قُتل فهو حى عندى يُرزق وأما من بقى فقد قبلت توبته فسُرَّ بذلك موسى وبنو إسرائيل رواه ابن جرير بإسناد جيد.

«فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم. فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم».

(٥٤ - البقرة)

«ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البنيات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا». (١٥٣-النساء)

تقول التوراة (خروج ٣٢ : ٢٦) إن بنى لاوى هم الذين أوكل إليهم قتل عبدة العجل فقالوا: وقف موسى في باب المحلّة وقال من للرب فإلىَّ. فاجتمع إليه جميع بنى لاوى. فقال لهم هكذا قال الرب إله إسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب فى المحلة واقتلوا كل واحد أخاه (أى حتى لو كان أخاه) وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه (أى حتى لو كان صاحبه أو قريبه) ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى ووقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلف رجل. ويقول أهل الكتاب إن بنى لاوى - وهم عشيرة موسى وهارون - بتمسكهم بعبادة الرب وغيرتهم على دينه استحقوا أن يكونوا هم فى المستقبل سبط الكهنوت.

وهكذا انتهت فتنة عبادة العجل وزالت شدة الغضب عن موسى عليه السلام وكان كما ذكرنا من قبل قد ألقى الألواح من يده - فعاد وأخذها. قيل لما ألقى الألواح تكسرت فصام أربعين يوما فُرَّد عليه ما فيها و أعطى لوحين جديدين فيهما ما فى اللوحين الأَوَّلين بعينه فكأنهما نسخة منهما.

«ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون». (١٥٤ - الأعراف)

ويقول البعض الأرجح أنها لم تكسر **«وفى نسختها هدى»** أى ما هو مكتوب فيها ومنسوخ عليها هدى ورحمة للذين يخافون أشد الخوف.

تقول التوراة (خروج ٣٢ : ٣٠) إن موسى ذهب للقاء ربه فأعطاه لوحين آخرين:

وكان فى الغد أن موسى قال للشعب أنتم قد أخطاتم خطيَّة عظيمة فأصعد الآن إلى الرب لعلى أكفر عن خطيتكم. فرجع موسى إلى الرب وقال آه قد أخطأ هذا الشعب خطية عظيمة وصنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب والآن إن غفرت خطيتهم وإلا فامحنى من كتابك الذى كتبت. فقال الرب لموسى من أخطا إلى أمحوه من كتابى. والآن اذهب اهد الشعب إلى حيث كلمتك. (وفى ٣٤ : ١) ثم قال الرب لموسى انحتْ لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتبُ أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما.

الاعتذار عن فتنة العجل :

كان آخر شيء فى فتنه العجل أن الله أمر موسى أن يأتيه فى ملأ من بنى إسرائيل ليعتذروا عن عبادة العجل (تفسير ابن كثير. جـ ٢ ص ٢٤٩) فاختار موسى من قومه سبعين رجلا أمرهم أن يصوموا ويتطهروا وينطلقوا معه إلى الجبل ليعتذروا عما فعل باقى القوم من عبادة العجل ويسألوه المغفرة. ففعلوا وخرجوا معه. وأمرهم بالبقاء فى سفح الجبل وأن يدعوا الله ليغفر لقومهم. وتقدم هو لمناجاة ربه وليطلب المغفرة أيضا.

«واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا...». (١٥٥-الاعراف)

فلما فرغ من كلام ربه عاد إليهم وزفَّ إليهم البشرى بأن الله قد تاب على الجميع. وكان الواجب أن يسجدوا لله شكرا على ما امتن به عليهم وعلى قومهم من قبول توبتهم. ولكنهم طلبوا رؤية الله جهرة حتى يتأكدوا صِدقَه.

«وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون». (٥٥-لبقرة)

وقَبْلَ أن يخبرهم موسى باستحالة هذ الأمر. حتى بالنسبة له وهو نبى الله ورسوله وأنه سبق أن طلب ذلك وكان الرد «**لن ترانى**» وتجلى الله للجبل فدك وأنه هو نفسه لم يتحمل هذا الموقف فخر صعقا. قبل أن يشرح لهم ذلك كانت قد أخذتهم الرجفة وماتوا لتوهم ولحظتهم. فهؤلاء الذين ذهبوا للاعتذار عن ذنب ارتكبه قومهم إذا بهم هم أنفسهم يرتكبون ذنبا أكبر بطلبهم رؤية الله جهرة فكان جزاءهم الموت. وراح موسى يناشد ربه ويدعوه ويتضرع إليه قائلا لو شئت أهلكتهم من قبل أن نخرج إلى الميقات وأهلكتنى أيضا معهم بمحضر من بنى إسرائيل. ولعل موسى عليه السلام شعر بحرج من أنه لوعاد بدونهم يتهمه قومه بأنه هو الذى قتلهم. لذلك كانت هذه المناشدة والضراعة. ثم وصفهم بأنهم سفهاء وتساءل.. «**أتهلكنا بما فعل السفهاء منا**» والسؤال سؤال استعطاف وثقة بلطف الله عز وجل. ثم بعد ذلك أرجع الأمر كله لله ولمشيئته فمن شاء الله له الهدى اهتدى. ومن شاء له غير ذلك ضل. فالله هو الولى وهو القائم بأمور الكون كله ثم فى النهاية طلب المغفرة والرحمة لأن الله هو خير الغافرين.

«قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين». (١٥٥ - الأعراف)

واستجاب الله لضراعة موسى.. فأحياهم جميعا:

«ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون». (٥٦ - البقرة)

تدعى التوراة أن هؤلاء السبعين رأوا الله سبحانه وتعالى إذ جاء فيها (إصحاح ٢٤ خروج): وقال لموسى اصعد إلى الرب أنت وهارون وناداب وأبيهو (وهما الابن الأول والثانى لهارون) وسبعون من شيوخ إسرائيل واسجدوا من بعيد ويقترب موسى وحده إلى الرب وهم.لا يقتربون وأما الشعب فلا يصعد معه. ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل. ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل. فرأوا الله وأكلوا وشربوا. ولما رأى أهل الكتاب أن ما جاء فى هذه الفقرة يتعارض مع ما جاء فى (٢٣ : ٢٠) «لأن الإنسان لا يرانى ويعيش» قالوا: ولذلك فإن ما رآه أولئك الرجل لم يكن إلا قبسا من ذاته ومع ذلك فقد كان هذا لطفا ظاهرا صنعه الله معهم حتى أنهم يرونه كذلك ولا يموتون (تفسير الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين جـ ١ ص ٢٥٣) ويقول جاميسون وفاوست (تفسير الانجيل. ص ١٠٦) إن ما رأوه هو رمز لمجده وبهائه كشفه لهم ورأوا عرشه مصنوعا من الياقوت الأزرق وهو أغلى أنواع الأحجار الكريمة - ٠ ولعل هذا خير مثال يوضح نزعتهم إلى تجسيد الإله! إذ هو سبحانه وتعالى كما قرر فى قرآنه **«ليس كمثله شىء»** و **«لاتدركه الأبصار»**.

كذلك تذكر التوراة أن بنى إسرائيل فى وقت لاحق شهدوا تجلى الله على الجبل وسمعوا تكليم الله لموسى. ولكن عن بعد - إذ جاء فى إصحاح خروج ١٩ : ٩ - فقال الرب لموسى ها أنا آت إليك فى ظلام السحاب لكى يسمع الشعب حينما أتكلم معك فيؤمنوا بك أيضا إلى الأبد ثم جاء ما معناه أن الله أخبره أن يأمر بنى إسرائيل بأن يتطهروا لمدة يومين «لأنه فى اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء. وتقيم للشعب حدودا من كل ناحية قائلا احترزوا من أن تصعدوا إلى الجبل أو تمسوا طرفه» وفعلوا كما أمر الرب «وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا. فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة (أى المحل الذى كانوا نازلين فيه). وأخرج موسى الشعب من المحله لملاقة الله. فوقفوا فى أسفل الجبل وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جدا فكان صوت البوق يزداد اشتدادا جدا. وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت. ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل. ودعا الله موسى إلى رأس الجبل. فصعد موسى فقال الرب لموسى انحدر حذر

الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون فقال موسى للرب لا يقدر الشعب أن يصعد الى جبل سيناء لأنك أنت حذرتنا قائلا أقم حدودا للجبل وقدسه.

وتفسيرنا لما ذهبوا إليه من أن بنى إسرائيل شهدوا التجلى الإلهى على جبل سيناء وسمعوا صوت الرب وهو يتكلم مع نبيه موسى هو كما يلى: من المعروف أن بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى عاشوا طوال عمرهم فى مصر المعروفة بشمسها الدافئة وقلة مطرها وندرة الرعد والبرق. وعايشوا المصريين وهم يقدسون «رع» إله الشمس. وسمعوا من القادمين من العراق وبالذات من مناطقها الشمالية الجبلية ويكثر فيها الرعد والبرق أنهم هناك يقدسون آلهة الربوات (انظر الجزء الثانى ص ١٩٨) فوق قمم الجبال وأنها تحدث الناس وتحثهم على تقديم القرابين فى المعابد. لذلك فإن بنى اسرائيل لما كانوا فى جبال سيناء التى ترتفع عن سطح البحر بحوالى ٢٦٠٠ مترا وجبل موسى بالذات يبلغ ارتفاعه أكثر من ٣٠٠٠ مترا. وفى الشتاء يحفه الضباب وتكثر الرعود والبروق والصواعق وهو شىء لم يروه من قبل فقفزت إلى أذهانهم آلهة الربوات التى تحدث عنها القادمون من العراق وفسروا ما رأوه من أن الرب نزل بنفسه على الجبل فى وسط السحاب. أما ما يدَّعونه من سماع صوت الرب وهو يكلم موسى كصوت بوقٍ فمن المعروف أن الريح عند اشتداد سرعتها تحدث أصواتا ولذلك يقال عواء الريح. وصوَّرت لهم خيالاتهم أنها كلام الرب مع موسى بلغة لا يفهمونها!

لا بأس من أن نأخذ هنا وقفة قصيرة لنعرف كيف وجد «دير سانت كاترين» فى هذه المنطقة من جبل موسى. ذلك أنه فى العصور المسيحية الأولى لجأ عدد من الرهبان والنساك إلى وادى فيران وبنوا مكانا للتعبد فى سفح جبل موسى وأقاموا هناك. وكان بدو سيناء كثيرا ما يغيرون على الرهبان للسلب والنهب. ولما اعتنق الامبراطور قسطنطين المسيحية قامت والدته – القديسه هيلينا بزيارة القدس عام ٣٢٧م – وعلمت بما يلاقية الرهبان فى سيناء فأمرت ببناء يقيمون فيه ليحميهم وفى عام ٥٣٠م قام الامبراطور البيزنطى چوستنيان ببناء سور قوى حول المعبد الموجود فى سفح جبل موسى. وفى العصور الوسطى بنيت كنيسة داخله وعرف المكان بدير سانت كاترين. وما هو جدير بالذكر أيضا أن عالم اللاهوت الألمانى كونستانتين فون تيشندورف عثر فى دير سيناء عام ١٨٥٩ على نسخة من الكتاب المقدس مخطوطة على الجلود – وهى المشهورة باسم « مخطوطة سينا» وترجع إلى القرن الرابع الميلادى وتحتوى على الإنجيل وأجزاء من العهد القديم. وقد أخذها القيصر كهدية وأعطى الدير منحة مقدارها ٩٠٠٠ روبل. ثم أخذت النسخة طريقها إلى مكتبة سان بطرسبرج. وفى العام ١٩٣٣ اشتراها المحتف البريطانى من الحكومة السوفيتية بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى.

بيت العبادة Tabernacle

لقد سبق أن ذكرنا (ص ٩٩١) أن الألواح كان بها الوصايا العشر والشريعة. ومن تعاليم الشريعة بناء بيت العبادة. وكان تنقل بنى إسرائيل الدائم فى سيناء سببا فى أن يكون بيت العبادة متنقلا. يمكن فكه عند الارتحال - وحمله أثناء المسيرة ثم إقامته فى المكان الجديد الذى ينزلون فيه. ومن أهم مكونات بيت العبادة الخيمة التى تسمى بخيمة الاجتماع ذلك أن موسى عليه السلام كان - بعد إنشائها - يناجى ربه فيها ولم يكن الوحى ينزل عليه إلا فيها ومن هنا جاءت تسميتها بخيمة الاجتماع لأنه كان يجتمع بالوحى فيها. وأطلق اسم خيمة الاجتماع على بيت العبادة بأكمله. وكان من أهم مكونات خيمة الاجتماع «المقدس» وسمى أيضا «المسكن» إذ تقول التوراة (خروج ٢٥ : ٨) إن الرب أمر : «فيصنعون لى مقدسا لأسكن فى وسطهم» وكان المسكن عبارة عن خيمة أصغر داخل خيمة الاجتماع وتحتوى على التابوت أو تابوت الشهادة - وبعض أثاث آخر سنذكره فيما بعد.

كذلك كان من مكونات بيت العبادة عند بنى إسرائيل المذبح الكهنوتى أو مذبح المحرقة - إذ كانت القرابين لا تقبل إلا إذا ذبحت عليه ولا يجوز لأحد أن يقدم ذبيحة عليه إلا الكاهن اللاوى. ولنقارن هذا بالتيسير فى شريعة الإسلام إذ أن ذبائح الصدقات أو النذور تذبح فى أى مكان وبواسطة أى شخص وتوزع على الفقراء والمحتاجين وينال مقدمها الأجر والثواب من الله وله أن يأكل جزءا منها أيضا. عن قتادة أن موسى قال لربه: رب إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ويؤجرون عليها وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق أحدهم بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلتها. وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير وأن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم رب فاجعلهم أمتى. قال تلك أمة أحمد.

أما عن تابوت الشهادة فقد حفظت فى داخله التوراة والألواح وكان بنو اسرائيل - فيما بعد - يقدمونه فى الحروب أمامهم إعلانا عن تأييد الله لهم فينتصرون. كذلك كان مما أمر به الرب صنع أبواق وكان لهذه الأبواق مهام عدة وسيجىء فى الجزء الخامس إن شاء الله دورها فى فتح مدينة أريحا. إذ تقول التوراة إن هذه المدينة لما استعصت عليهم ظلوا يضربون الأبواق سبعة أيام متواصلة فسقطت أسوار المدينة وتم لهم فتحها.

لذلك فقد رأينا لزاما أن نذكر شرحا مبسطا عن هذه الأمور كلها. غير أنه يتعين أن نناقش أولا التشابه الموجود بين بعض الطقوس الدينية التى نصت عليها التوارة وبعض الطقوس التى كانت تقام فى معابد مصر الفرعونية. الأمر الذى جعل البعض يشك فى أنها من التعاليم الدينية التى أنزلت على موسى وجعلت عالما مثل سيجموند فرويد يقول إن الديانة الموسوية مشتقة من ديانة أخناتون.

كما أن أونجر (قاموس الكتاب المقدس ص ١٠٢٩) يرى أن تأثر بنى إسرائيل بالفكر الدينى المصرى القديم بدأ منذ اللحظات الأولى لقدومهم إلى مصر وأن ذلك بدأ بيوسف الصديق نفسه إذ زَّوجه فرعون من أسنات بنت كاهن أون (الجزء الثالث ص ٤٩٠) وأنه تعبيرا عن الاحترام الذى كان يكنه للكهنة فإنه فى السنوات السبع العجاف لم يمس ممتلكاتهم. كما يرى أن يوسف - رغبة فى تثقيف نفسه - بدأ يتردد على كليات اللاهوت المقامة فى المعابد ومن هنا تسرب الفكر الدينى الفرعونى إلى ديانة بنى إسرائيل. ولكننا لا نرى هذا الرأى. وإن كان يوسف قد تردد على معابد قدماء المصريين فقد كان ذلك «بحكم وظيفته» لمعرفة احتياجاتهم من الحبوب والمؤن. ولئن حضر أحيانابعض الاحتفالات الدينية فبصفته «نائب الملك» وليس بغرض تثقيف نفسه . إذ هو نبى كريم يوحى إليه من ربه - وهو القائل عن نفسه لصاحبى السجن: «ذلكما مما علمنى ربى» وليس لمن علمه ربه أن يستزيد من منهل آخر. فضلا عن أن يكون هذا المنهل الآخر هو الثقافة الوثنية لقدماء المصريين. وقد سبق أن ذكرنا (جـ٣ ص ٥٦٣) تأثر الفكر المصرى القديم بديانة التوحيد التى كان عليها يوسف إذ من المؤكد أنه جعل زوجته تؤمن بديانة التوحيد التى كان عليها وهى ديانة يعقوب وإسحق وإبراهيم عليهم السلام. وقلنا إن فكر التوحيد بدأ يتسرب إلى المصريين أنفسهم وأن ذلك كان له أثر فى نشأة ديانة أخناتون التوحيدية فيما بعد.

غير أنه فى المقابل - وعلى مر السنين بعد عصر يوسف عليه السلام - تأثر بنو إسرائيل بالفكر الدينى المصرى القديم وعلى مدى ما يزيد عن أربعة قرون تشبعوا بما كانوا يرونه من طقوس تقام فى معابد آلهة المصريين. وأعجبوا بملابس الكهنة الزاهية الألوان فتوهموا أن هذه الطقوس جزء مكمل أو من مستلزمات الدين وأصبح فى تصورهم أن عبادة الرب لا تكون إلا بمثل هذه «الشكليات». ولما كان الأمر كذلك وتغلغل فى قلوبهم حب هذه الطقوس فقد نزل بها الوحى وجعلها فريضة عليهم. وسنرى أن ذلك كان شبه عقوبة لهم لأنها كانت عملية غاية فى الصعوبة سواء فى صنع مكوناتها أو فى ممارساتها . فالكاهن له لباس معين والكاهن الأعظم له لباس آخر مكون من رداء وجبة وصدرة مرصعة بالأحجار الكريمة والملابس مكلفة إذ هى موشاة بالذهب. ولكن ألم تكن هذه رغبتهم! وحينما صعب عليهم التقُّيد بكثير من هذه الشرائع كان لابد من إجبارهم عليها . فكان نتق الجبل فوقهم والتهديد بوقوعه عليهم كما سيجىء فيما بعد (ص ١٠٢٨). ونقارن هذا بالبساطة التى يتسم بها الإسلام. فليس فيه كهنة ولا ثياب معينة وإمام المصلين يمكن أن يلبس جبة أو جلبابا أو قفطانا أو بدلة وصلاته وصلاة من يؤمهم مقبولة. وحتى لا يشترط أن تكون الصلاة فى المسجد بل الصلاة جائزة فى أى مكان والحديث الشريف: جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا. ولعلنا الآن ندرك معنى الدعاء الذى ورد فى القرآن الكريم «ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا».

وعلى كل حال فإن هذه الطقوس التى فرضت على بنى إسرائيل لم تكن تمس جوهر الدين وهو التوحيد المنصوص عليه فى أول الوصايا العشر: أنا الرب إلهك. لا يكن لك آلهة أخرى. لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا تسجد لها ولا تعبدها لأنى أنا الرب إلهك.

والآن لنذكر ما جاء فى التوراة بخصوص إنشاء بيت العبادة (خروج ٢٥): وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى إسرائيل أن يأخذوا لى تقدمة (أى ما يقدمونه. أى تبرع) من كل من يحثه قلبه تأخذون تقدمتى: ذهب وفضة ونحاس وأسمانجونى (حجر كريم يشبه الياقوت لونه أزرق ضارب إلى الحمرة) وأرجوان (لون صباغة يشمل البنفسجى والقرمزى أو الأحمر) وقرمز وبوص. وشعر معزى وجلود كباش وجلود تُخسْ (حيوان) وخشب سنط وزيت للمنارة وأطياب لدهن المسحة وللبخور العطر وحجارة جزع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة. فيصنعون لى مقدسا **لأسكن فى وسطهم** بحسب ما أريك من مثال المسكن ومثال جميع آنيته هكذا تصنعون ويصنعون تابوتا من خشب السنط وفى التابوت تضع الشهادة التى أعطيك (ولذلك سمى تابوت الشهادة أو تابوت العهد) وتصنع غطاء للتابوت وتصنع الخيمة. **وأنا أجتمع بك هناك وأتكلم معك** من على الغطاء من بين الكروبين (تمثالى الملاكين) اللذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به إلى بنى إسرائيل. وتصنع مائدة ومسكن وحجاب ومذبح.

لا ندرى إن كان اختيار الصناع قد أوحى به من الله أم أنه كان فراسة من موسى عليه السلام ولكن التوراة تقول: وقال موسى. قد دعا الرب بصلئيل بن أورى بى حور فى سبط يهوذا وملأه من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة ولاختراع المخترعات ليعمل فى الذهب والفضة والنحاس. ونقش حجارة للترصيع ونجارة الخشب وجعل فى قلبه هو وأهولياب بن أخيساماك من سبط دان ليصنعا كل عمل النقاش والحائك الحاذق والطراز وكل عمل النساج. وجاء كل الحكماء الصانعين كل عمل المقدس كل واحد من عمله الذى هم يصنعونه (خروج ٣١ ، ٣٥).

خيمة الاجتماع Tent of Meeting

وهى تحوى ثلاثة أشياء المسكن – الخيمة – الغطاء:

المسكن مصنوع من البوص المبروم المطرَّز (أى المشغول مثل الحصير) ملَوَّن بلون أسمانجونى (أزرق شديد الزرقة) على لون أرجوانى بالإضافة إلى ألواح من خشب السنط للسقف وكل الألواح مغطاة بالذهب. ولألواح الجوانب قواعد من فضة ترتكز عليها. والمسكن ينقسم إلى **المقدس** و **قدس الأقداس** وبينهما ستارة تسمى الحجاب من بوص مبروم منسوج مثل الحصير بلون اسما نجونى و٤ أعمدة تحمله مطلية بالذهب – والمقدس فى الأول ويحتوى على المنارة على اليسار. ومائدة خبز الوجوه على اليمين ومذبح البخور فى الوسط يلى ذلك الحجاب ثم قدس الأقداس وبه التابوت المسمى تابوت الشهادة.

وسنكتفى بالأشكال ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩ التى تبين أبعاد بيت العبادة وارتفاع السور وعدد الأعمدة وطريقة تثبيتها فى الأرض. وكل ذلك جاء بالتفصيل الشديد فى التوراة فى ثلاثة إصحاحات (خروج ٢٥، ٢٦، ٢٧).

والخيمة فوق المسكن جوانبها من بوص مبروم منسوج مثل الحصير أما السقف فمصنوع من شعر الماعز. ويأتى الغطاء فوق الخيمة وهو مصنوع من جلود والكباش والتيوس لوقايتها من الشمس والمطر (شكل ٢٥٩ ب).

تابوت العهد : Ark of the Covenant, (شكل ٢٦٠)

جاء ذكر التابوت مرتين فى القرآن الكريم. مرة التابوت التى وضعت أم موسى فيه وليدها وألقته فى اليم وكان مصنوعا من البوص – أما تابوت العهد فقد جاء ذكره عندما طلب بنو إسرائيل من نبى لهم أن يجعل لهم ملكا فاختار لهم – بإيحاء من الله – طالوت:

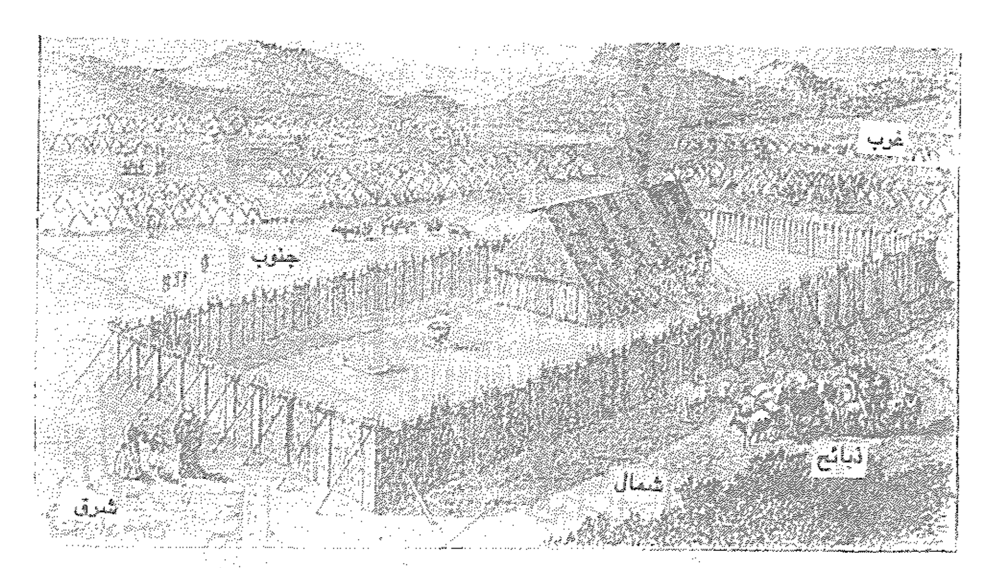
«وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة». (٢٤٨ – البقرة)

وسيأتى ذكر ذلك فى الجزء الخامس إن شاء الله. وكان هذا التابوت عبارة عن صندوق صنعه موسى عليه السلام بإرشاد من الله تعالى. طوله ٥ر٢ وعرضه ٥ر١ وارتفاعه ٥ر١ ذراعا (شكل ٢٦٠). وكان مصنوعا من خشب السنط ومغطى بصفائح ذهب نقى من داخل ومن خارج ويحيط بأعلاه إكليل من ذهب فوقه غطاء من ذهب نقى وفوق كل طرف من الغطاء كروب من ذهب – والكروب هو تمثال ملاك. ويرى أهل الكتاب أن وجود الكروبين فوق التابوت هو لتظليل ظهور مجد الله عن الناظر (قاموس الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين . ص ٧٧٩) ويمثل الكروبان حضور الرب وسكناه بين الكروبين وإعلان صوته من بينهما وهناك يجتمع مع الشعب (المرجع السابق ص ٢٠٩). وكان فى التابوت الوعاء الذى يحتوى على المن. والألواح (ألواح العهد) ثم وضع بجانبها. عصا هارون التى أفرخت (وسيأتى شرح ذلك فيما بعد. ص ١٠٥٥) ثم كتاب التوراة وكذلك عصا موسى. وكان للتابوت حلقتان من ذهب فى كل جانب يوضع فيهم عصوان من خشب السنط المغطى بالذهب لحمل التابوت.

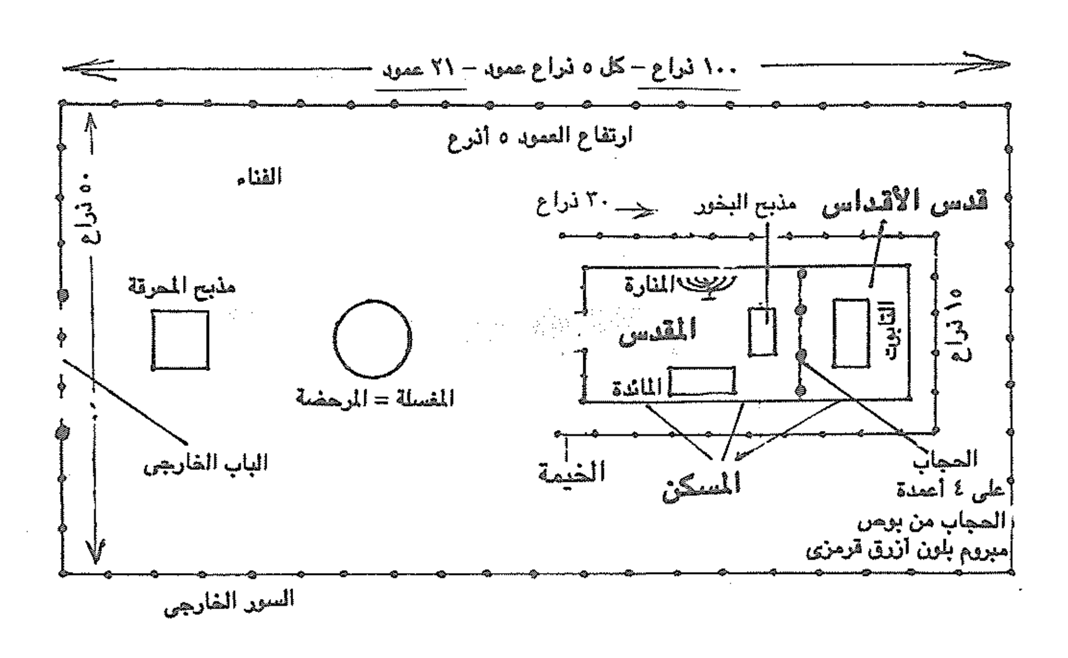
والتابوت هو الأثاث الوحيد الموجود فى قدس الأقداس أما خارج الحجاب فيوجد داخل المسكن ثلاثة أشياء: مائدة خبز الوجود والمنارة ومذبح البخور.

مائدة خبز الوجود أو الوجوه : Table of the Bread of the Presence

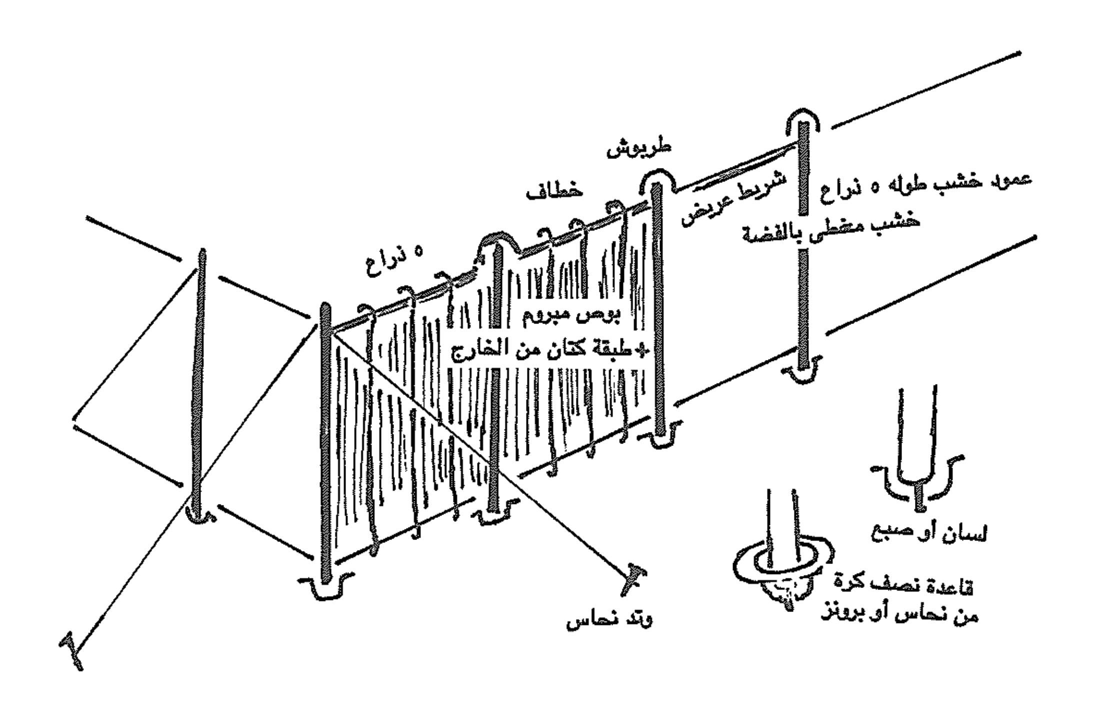
وهى مصنوعة من خشب السنط ومغطاة بالذهب النقى وطول المائدة ذراعان وعرضها ذراع واحد وارتفاعها ١,٥ ذراعا (شكل ٢٦١) ولها حاجب (حاجز) من ذهب بعرض شبر حواليها وفى كل ركن من الأركان يوجد إكليل من ذهب. ولها فى كل زاوية حلقة من ذهب ولها عصوان



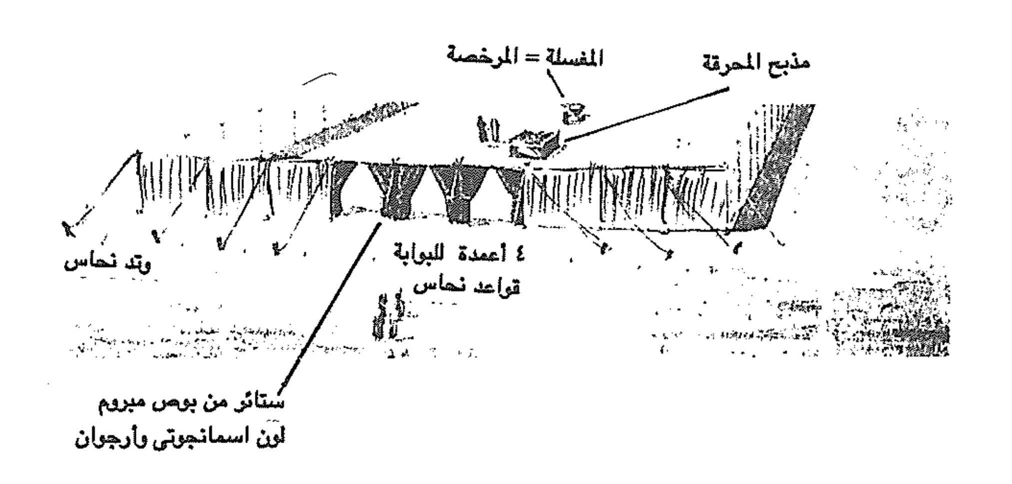
شكل ٢٥٦ أ – الخيمة والساحة حولها والسور الخارجي والذبائح بقربها ثم مساكن جموع بني إسرائيل.



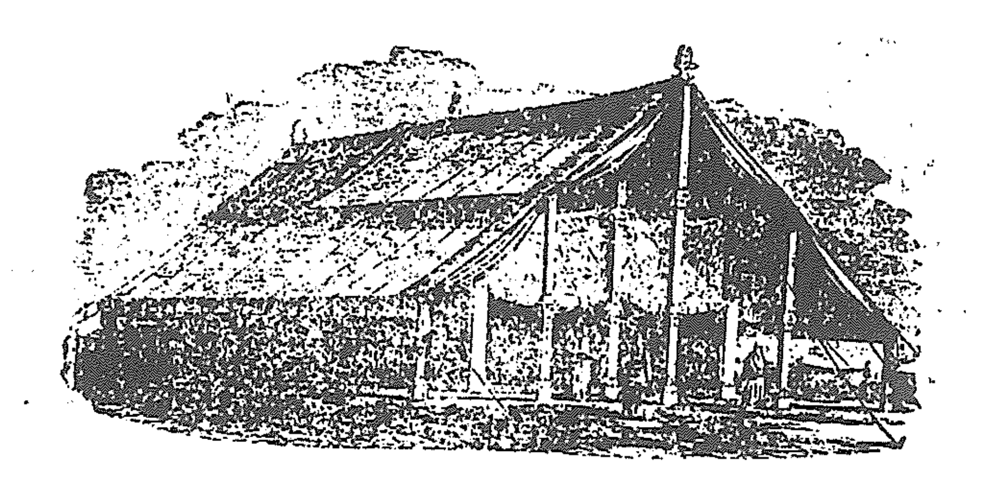
شكل ٢٥٦ ب رسم تخطيطي لبيت العبادة.



شكل ٢٥٧ – السور الخارجى لخيمة الاجتماع.



شكل ٢٥٨ – الباب الخارجى.



شكل ٢٥٩ أ – المسكن داخل خيمة الاجتماع.

نقلا عن قاموس الكتاب المقدس . دار الثقافة . ص ٢٥٢

الخيمة شعر ماعز

جلد كباش وتيوس

الغطاء بدون جوانب

المسكن

الواح خشب

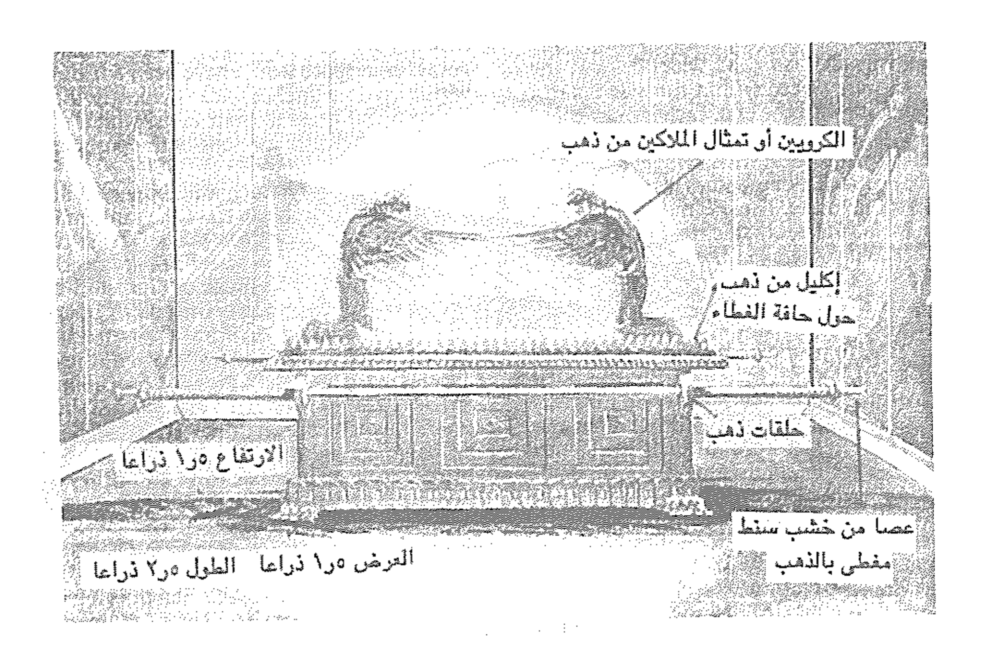
قواعد نحاس

باب المسكن ستارتين

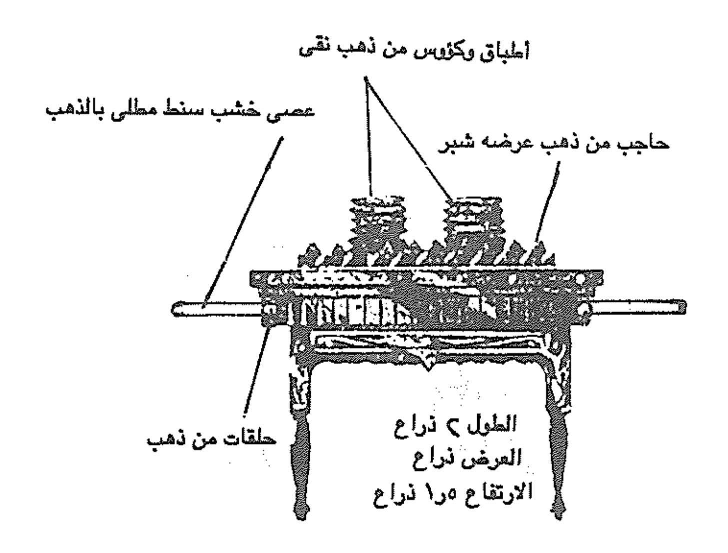
جوانب الخيمة

بوص مبروم منسوج مثل الحصر

شكل ٢٥٩ ب – قطاع رأسى.



شكل ٢٦٠ – تابوت العهد.



شكل ٢٦١ – مائدة خبز الوجوه
(كلها من خشب سنط مفطى بالذهب).

من خشب السنط المغطى بالذهب لحمل المائدة. ومكان المائدة على يمين الداخل إلى المقدس فى خيمة الإجتماع. أما أدوات المائدة التى توضع عليها فكانت عبارة عن صحاف وأكواب وكؤوس وإبريق كلها من الذهب الخالص. أما الخبز الذى كان يوضع عليها والذى سميت باسمه فهو خبز الفطير الذى كان يصنع كل يوم سبت ويقدم على المائدة ساخنا وكان يُقدم منه ١٢ رغيفا بعدد الأسباط الاثنى عشر. ولم يكن يحل لأحد أن يأكل منها إلا الكهنة وهم فى المقدس. وكان بنو قهات هم الذين يصنعون هذا الخبز ويهيئونه كل يوم سبت. ويقول قاموس الكتاب المقدس (جماعة اللاهوتيين. ص ٣٣٦) إن الأرغفة الإثنى عشر ترمز إلى صلة مستمرة بين يهوه وبين شعبه فهو واهب المنح والخيرات التى يستمتعون بها فى حضرته ويستخدمونها لخدمته.

المنارة Lampstand (شكل ٢٦٢) :

وتوضع على يسار الداخل فى مقابل المائدة وهى مصنوعة من الذهب الخالص. وتتكون من قاعدة وعمود أوسط ويخرج من كل جانب ثلاث شعب أو أفرع مقوسة ترتفع بارتفاع العمود الأوسط. وينتهى كل منها بكأس صغير هو السراج حيث يوضع زيت الزيتون النقى وكل سراج يسع $\frac{1}{2}$ لتر زيتاً تقريبا. ويتم إيقاد المنارة فى العشية عند تقديم قربان المساء وفى الصباح يتم ملؤها بالزيت وقت تقديم قربان الصباح. ومن مكملات المنارة ملاقط وأحواض تستعمل لأخذ قطع الفحم من المذبح لوضعه بجانب فتيل القطن والنفخ فيه حتى يشتعل نارا لإيقاد سرج المنارة.

مذبح البخور Altar of Incense (شكل ٢٦٣) :

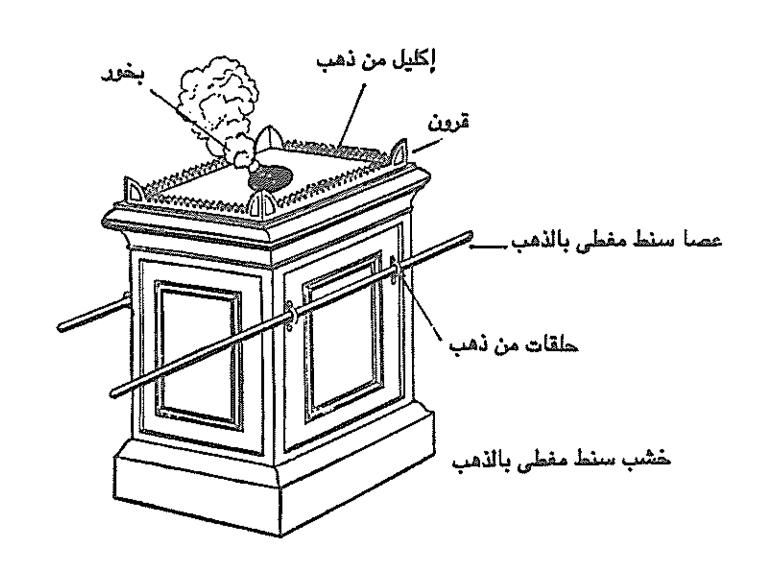
ويوضع فى نهاية المقدس فى الوسط قبل الحجاب الذى يؤدى إلى قدس الأقداس. وهو مصنوع من خشب السنط وأبعاده ١ × ١ ذراعا وارتفاعه ذراعان وسطحه وجدرانه كلها مغطاة بذهب نقى. وله من فوق إكليل حلية من ذهب وقرون فى الزوايا. وفى الأركان توجد ٤ حلقات من ذهب وعصوان مغطاتان بالذهب لحمله. وقد شرحت التوراة (خروج ٣٠ : ٣٤) طريقة صنع البخور: وقال الرب لموسى: خذ لك أعطارا: ميعة وأظفاراً وقنَّة عطرة ولبانا نقيا. تكون أجزاء متساويه وتصنعها بخورا عطرا صنعة العطار مُملَّحا نقيا مقدَّسا وتسحق منه ناعما وتجعل منه قدام الشهادة فى خيمة الاجتماع حيث أجتمع بك. قدس أقداس يكون عندكم والبخور الذى تصنعه على مقاديره لا تصنعوا لأنفسكم. يكون عندك مقدسا للرب. كل من صنع مثله ليشمَّه يقطع من شعبه.

وكان هارون هو المكلف بوضع البخور على المذبح وكان وقت البخور هو فى الصباح عند إطفاء المنارة ، وفى المساء عند إيقادها. ومن شعائر عيد الغفران أن يدخل الكاهن الأعظم إلى قدس الأقداس بمبخرة قد أُخذت نارها من مذبح البخور ثم يلقى عليها بالبخور ويدخل بها قدس الأقداس كما جاء فى التوراة (لاويين ١٦ : ١٢): ويأخذ ملء المجمرة جمر نار عن المذبح



شكل ٢٦٢ – المنارة.

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس ، أونجر ، ص ١٢٤٢



شكل ٢٦٣ – مذبح البخور.

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس ، أونجر ، ص ١٢٤٢

من أمام الرب وملء راحتيه بخورا عطرا دقيقا ويدخل بهما إلى داخل الحجاب ويجعل البخور على النار أمام الرب فتغشى سحابة البخور الغطاء الذى على الشهادة. وهذه أيضا أحد شعائر ذبيحة الخطيَّة التى تُقدم للتفكير عن الذنوب.

والمباخر الصغيرة (شكل ٢٦٤) كثيرة الشكل ولكل كاهن مبخرته. وتصنع من النحاس أو البرونز

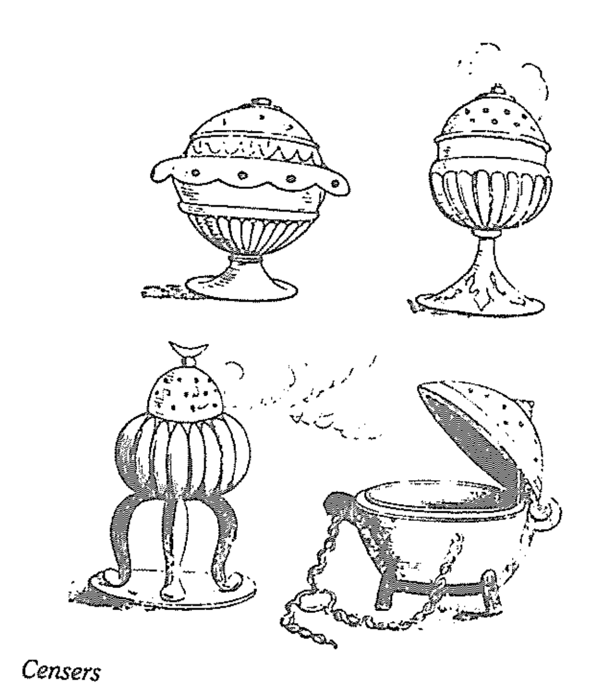
المغسلة أو المرحضة Laver (شكل٢٦٥).

وكما جاء فى التوراة (خروج ٣٠ : ١٧) وكلم الرب موسى قائلا: وتصنع مرحضة من نحاس وقاعدتها من نحاس للاغتسال وتجعلها بين خيمة الاجتماع والمذبح وتجعل فيها ماء. فيغسل هارون وبنوه أيديهم وأرجلهم منها عند دخولهم إلى خيمة الاجتماع يغسلون بماء لئلا يموتوا. أو عند اقترابهم إلى المذبح للخدمة ليوقدوا وقودا للرب يغسلون أيديهم وأرجلهم لئلا يموتوا. ويكون لهم فريضة أبدية له ولنسله فى أجيالهم.

مذبح المحرقة Altar of Burnt Offering (شكل ٢٦٦، ٢٦٧).

وكان يوضع فى أول الفناء بعد المدخل الرئيسى وكان مصنوعا من خشب السنط وأبعاده ٥ × ٥ ذراعا وارتفاعه ٣ أذرع. وهو مجوف ومغطى بصفائح من نحاس. وله قرون على زواياه الأربع مصنوعة من الخشب ومغطاة بالنحاس أيضا. وكانت معلَّقة به من الداخل فى منتصف المسافة من القاع للسطح شبكة من النحاس لوضع النار عليها وشبكة من أعلا لوضع القربان المحرقة عليها. وللمذبح ٤ حلقات من نحاس يدخل فى كل اثنتين منها عصا من خشب السنط (مغطاة بالنحاس) لحمله. أما نار المذبح فتقول التوارة إن الله قد أشعلها فى البداية فى أول مرة قدمت فيها ذبيحة محرقة ثم استمرت مشتعلة لا تنطفى لأن الذبائح كانت تقدم بدون انقطاع فينسكب دمها على النار دائما ويتصاعد الدخان بصفة متواصلة. وإن كنا نرى أنه أثناء انتقال بنى إسرائيل من مكان إلى مكان آخر وعند حمل المذبح لابد سيكون مطفأ إذ من الصعب حمله وهو مشتعل. وعن أول اشتعال له تقول التوراة (لاويين ٩: ٢٢) ثم رفع هارون يده نحو الشعب وباركهم وانحدر من عمل ذبيحة الخطية والمحرقة وذبيحة السلامة ودخل موسى وهارون إلى خيمة الاجتماع ثم خرجا وباركا الشعب فتراءى مجد الرب لكل الشعب وخرجت نار من عند الرب وأحرقت ما على المذبح المحرقة والشحم فرأى جميع الشعب وهتفوا وسقطوا على وجوهم.

وملحقات المذبح من القدور والمناشل (قطعة من معدن فى رأسها خطاف ينشل بها اللحم من القدور) ومجامر (الوعاء الذى يوضع فيه البخور) ومراكن (جمع ركوة وهى الدلو الصغير) كل هذه مصنوعة من نحاس.



Censers

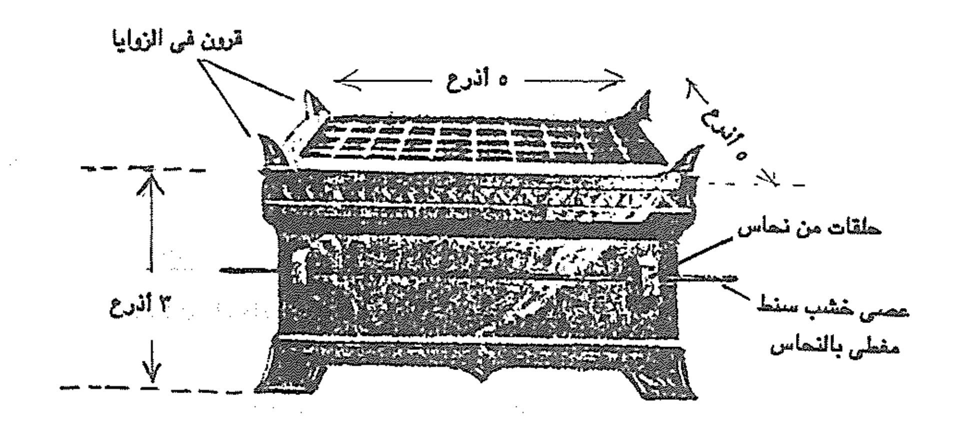
شكل ٢٦٤ – مباخر صغيرة.

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس . أونجر . ص ٦١٦



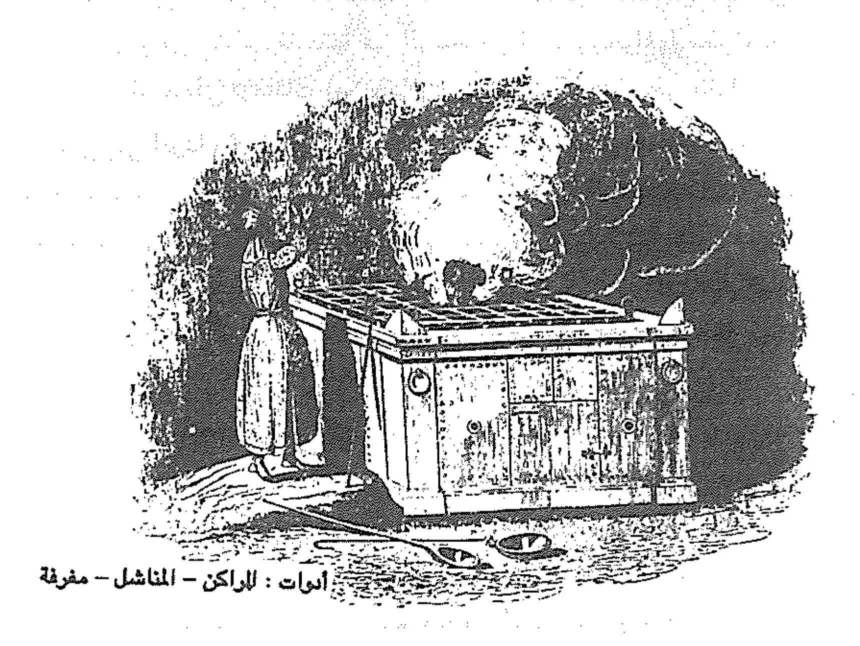
شكل ٢٦٥ – المغسلة (المرحضة).

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس . أونجر . ص ٧٥٨



شكل ٢٦٦ – مذبح المحرقة (خشب سنط مغطى بالنحاس من داخل وخارج).

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس . أونجر . ص ٤٨



شكل ٢٦٧ – كاهن أمام مذبح المحرقة.

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس . أونجر . ص ١١٠٥

الكهنة وثيابهم :

فى الشريعة التى أنزلت على بنى إسرائيل يُختار الكهنة من سبط لاوى وبالذات من عائلة هارون بشرط ألا يكون فى الشخص المختار أى عيب أو تشويه جسدى، وكان البكر فقط يمكنه أن يكون كاهنا عظيما. وكان الكاهن يتقيد فى حياته ومعيشته بقواعد لم تكن تفرض على غيره من اللاويين أو من عامة الشعب، وقد عُين هارون كاهنا أعظم فى احتفال رسمى كما سيجىء فيما بعد (ص ١٠٢٤).

وكانت واجبات الكهنة هى الذبائح اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية وعدا ذلك فإنهم يخدمون فى الاحتفالات والتطهير ويعتنون بالآنية المقدسة والنار المقدسة وأثاث المقدس. وكانوا يطلقون الصوت فى الأبواق المقدسة ويحملون تابوت العهد ويُفسرون الشريعة للشعب ويقومون باستشارة الرب لمعرفة إرادته فى الأمور الكهنوتية أو بعض الأمور السياسية. وكان تعيين الكاهن وتقديسه يحتفل به احتفالا عظيما يدوم سبعة أيام ويجرى تقديم الذبائح والاغتسال ولبس الثياب المقدسة ونضح الدم والدهن والزيت.

أما ثياب الكهنة فقد حددتها التوارة وتختلف حسب رتبة الكاهن فالكاهن العظيم له ثياب معينة (شكل ٢٦٨) تختلف عن الكاهن العادى (شكل ٢٦٩). وأول الثياب هو **قميص** من كتان يمتد من العنق إلى الكعبين وأكمام ضيقة (شكل ٢٧٠) وفوق القميص **جبة الرداء** (Robe of the Ephod) وهى بدون أكمام وفتحتها فى الوسط من الأمام وحوافها مطرزة حتى لا تنسل. وذيل الجبة من أسفل محلى برمانات (من قماش) وجلاجل من ذهب على التوالى.

ثم نأتى إلى **الرداء** Ephod (شكل ٢٧١) وهو مصنوع من كتان منسوج ومُحلًى بخيوط من ذهب وأسمانجونى وهو مكون من قطعتين قطعة أمامية وقطعة خلفية تصلان إلى ما تحت الركبة بقليل. والقطعتان موصولتان على الأكتاف بخيوط من كتان مجدول بالذهب ويوجد حجرين من العقيق اليمانى. واحد على كل كتف منقوش على كل واحد أسماء ٦ من الأسباط تذكرة لهارون بأنه يمثل الأسباط الإثنى عشر. ويوجد حزام أو **منطقة** يربط على الخصر ثم تأتى بعد ذلك **الصدرة** وتسمى أيضا صدرة القضاء (شكل ٢٧٢) وكانت تصنع من الكتان الموشى بالذهب. وأبعادها شبر فى شبر وهى مثنية (قطعان مطبقتان) ومرصعة بأربعة صفوف من أنواع مختلفة من الحجارة الكريمة. فى كل صف ثلاثة أحجار والمجموع ١٢ حجرا على كل حجر اسم من أسماء الأسباط الاثنى عشر. وفى كل ركن حلقة من ذهب تثبت من أعلى بضفائر مجدولة من ذهب إلى الرداء عند الكتفين ومن أسفل بشرائط زرقاء اللون تثبت فى الرداء فوق الحزم وهكذا فإن الصدرة مثبتة فى الرداء لا تنزع عنه. والصدرة يلبسها الكاهن الأعظم فقط. ثم أخيرا **غطاء الرأس**: وهى إما إكليل (أى تاج) من الذهب للكاهن الأعظم أو قلنسوة (مثل العمامة) بلون أزرق للكهنة الآخرين .



شكل ٢٦٨ – كاهن عظيم *Jewish high priest*

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس . أونجر . ص ١٠٣٠



شكل ٢٦٩ – كاهن عادى. *Jewish priest*

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس . أونجر . ص ١٠٣٤



Long coat worn by priests

شكل ٢٧٠ – قميص الكهنة.

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس . أونجر . ص ١٠٣٧

عمامة أو قلنسوة
كبير الكهنة له إكليل من ذهب

الصدرة

أكمام القميص

جبة الرداء

منطقة (حزام)

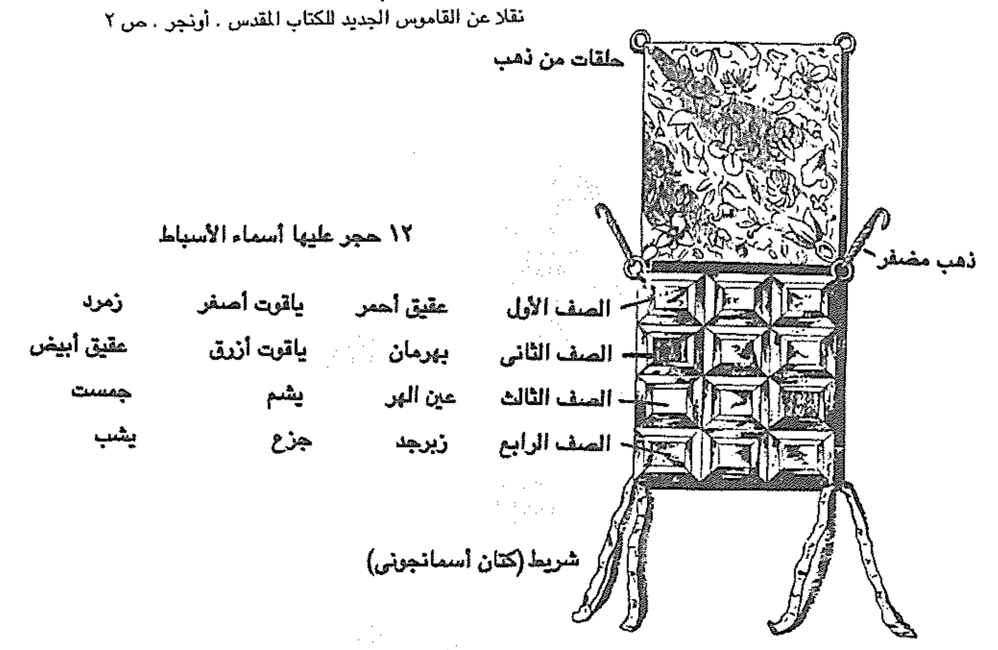
الرداء

رمانات (قماش) وجلاجل (ذهب)

القميص

شكل ٢٧١ – ثياب كاهن عظيم .

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس . أونجر . ص ٢



شكل ٢٧٢ – صدرة القضاء . نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس . أونجر . ص ١٠٢٩

التدشين والافتتاح : (خروج ٤٠)

تقول التوراة إن الرب أمر موسى أن يقيم المسكن وخيمة الاجتماع ويضع فيها تابوت الشهادة ويستره بالحجاب ثم يضع المائدة والمنارة والمذبح ويوقد سرج المنارة ثم تأتى عملية التقديس أى المسح بالدهن: فيأخذ دهن المسحة ويمسح المسكن وكل ما فيه ومذبح المحرقة والآنية والمائدة وباقى المحتويات. وتستمر التوراة (٤٠ : ١١) وتُقدِّم هارون وبنيه إلى باب خيمة الاجتماع وتغسلهم بماء وتلبس هارون الثياب المقدسة وتمسحه وتقدسه ليكهن لى. وتُقدِّم بنيه وتلبسهم أقمصة. وتمسحهم كما مسحت أباهم ليكهنوا لى ففعل موسى بحسب كل ما أمره الرب. هكذا فعل. وكان فى **الشهر الأول من السنة الثانية فى أول الشهر** أن المسكن أقيم أى أن بنى إسرائيل كانوا قد مضى عليهم فى سيناء للآن سنة كاملة. ثم يشرحون كيف كان الرب يقرر لهم مدة البقاء فى المكان الذى يحلون فيه وموعد الرحيل هكذا (خروج ٤٠ : ٣٤) ثم غطت السحابة خيمة الاجتماع وملأ بهاء الرب المسكن فلم يقدر موسى أن يدخل خيمة الاجتماع لأن السحابة حلت عليها وبهاء الرب ملأ المسكن. وعند ارتفاع السحابة عن المسكن كان بنو إسرائيل يرتحلون فى جميع رحلاتهم وإن لم ترتفع السحابة لا يرتحلون إلى يوم ارتفاعها لأن سحابة الرب كانت على المسكن نهارا وكانت فيها نار ليلا أمام عيون كل بيت إسرائيل فى جميع رحلاتهم. وفى المكان حيث حلت السحابة هناك كان بنو إسرائيل ينزلون. حسب قول الرب كان بنو إسرائيل يرتحلون وحسب قول الرب كانوا ينزلون. جميع حلول السحابة على المسكن كانوا ينزلون. وإذا تمادت السحابة على المسكن أياما كثيرة كان بنو إسرائيل يحرسون حراسة الرب ولا يرتحلون (عدد ٩ : ١٨).

ثم كُلِّف كل سبط بتقديم قرابينهم بواسطة الرؤساء أمام المذبح فى كل يوم سبط. والقربان يتكون من طبق واحد من فضة ومنفحة (مثل القصعة) من فضة كلتاهما مملوءتان دقيقا ملتوتا بزيت وصحن واحد مملوء بخورا وثور واحد وكبش واحد وخروف واحد وتيس واحد. هذه لذبيحة الخطية. ولذبيحة السلامة ٢ ثور ٥ كبش ٥ تيس ٥ خروف.

وهكذا تقدم فى اليوم الأول سبط يهوذا بهذا القربان واليوم الثانى سبط يساكر والثالث زبولون - ٤ - رأوبين ٥ - شمعون ٦ - جاد ٧ - سبط أفرايم ٨ - سبط منسى ٩ - سبط بنيامين ١٠ - سبط دان ١١ - سبط أشير ١٢ - سبط نفتالى. وبهذا كملت شعائر تدشين بيت العبادة وخيمة الاجتماع.

وفى ١٤ من ذلك الشهر - أى بعد يومين من انتهاء الأسباط من تقديم القرابين - حل موعد الاحتفال بعيد الفصح وأمر الرب موسى بإقامته فى وقته «فكلم موسى بنى إسرائيل أن يعملوا الفصح فعملوا الفصح فى اليوم الرابع عشر من الشهر بين العشاءين حسب كل ما أمر الرب.. (عدد ٩ : ٢).

تنصيب هارون عليه السلام كاهنا أكبر لبني إسرائيل :

تم تنصيب هارون عليه السلام كاهنا أكبر لجماعة بنى إسرائيل فى احتفال علنى أقامه موسى أمام خيمة الاجتماع. تقول التوراة (لاويين ٨): وكلم الرب موسى قائلا: خذ هارون وبنيه معه والثياب ودهن المسحة وثور الخطية والكبشين وسل الفطير واجمع كل الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع. ثم قال موسى للجماعة هذا ما أمر الرب أن يفعل. فقدم موسى هارون وبنيه وغسلهم بماء وجعل عليه القميص ونطقه بالمنطقة وألبسه الجبة وجعل عليه الرداء وشد زنار (حزام) الرداء. ووضع عليه الصدرة ووضع العمامة على رأسه ووضع على العمامة صفيحة الذهب الإكليل المقدس كما أمر الرب. ثم أخذ موسى دهن المسحة ومسح المسكن وكل ما فيه ونضح على المذبح سبع مرات وجميع آنيته والمرحضة (أى المغسلة) وقاعدتها لتقديسها وصب من دهن المسحة على رأس هارون ومسحه لتقديسه. ثم قدم موسى بنى هارون وألبسهم أقمصة ونطقهم بمناطق وشدَّ لهم قلانس كما أمر الرب. ثم جيء بثور الخطية (أى ثور قربان للتكفير عن الخطايا) ووضع هارون وبنوه أيديهم على رأسه وذبحه موسى وأخذ من دمه ومسح المذبح. وأخذ الشحم الذى على الأحشاء وأوقده على المذبح أما الجلد واللحم والفرث فتم إحراقها خارج المحلة. ثم جيء بكبش المحرقة ووضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الكبش وذبحه موسى ورش الدم على المذبح وتم حرق الكبش كله. ثم جيء بكبش ثان هو كبش الملء وأيضا وضع هارون وبنوه أيديهم على رأسه وذبحه موسى وأخذ موسى من دمه وجعل على شحمة أذن هارون اليمنى وعلى إبهام يده اليمنى وعلى إبهام رجله اليمنى وكذلك فعل مع بنيه ثم رش الدم على المذبح. أما شحم الإلية وشحم الحوايا (حول الأحشاء) فوضعه للحرق على المذبح. ومن الدم الذى على المذبح نضح موسى على ثيابه وعلى ثياب هارون وثياب بنيه وأمرهم بطبخ اللحم على باب خيمة الاجتماع ويأكلونه مع الخبز والباقى يحرقونه بالنار. وأمرهم ألا يخرجوا ٧ أيام من باب خيمة الاجتماع.وهكذا اكتملت طقوس تطهير هارون وبنيه وتقديسهم.

وفى اليوم الثامن دعا موسى هارون وبنيه وشيوخ إسرائيل وقام هارون بذبح ذبيحة خطية تكفيرا عن الشعب وذبح ذبيحة المحرقة وذبح ذبيحة السلامة كل ذلك عمله كما علمه موسى وعمله معه من قبل.

جزاء مخالفة الطقوس: وكان المطلوب إجراء هذه الطقوس بدقة تامة والالتزام الشديد بترتيبها وفى المكان المحدد لها. وحدث أن ابنى هارون: ناداب وأبيهو أخذ كل منهما مجمرته وجعلا فيها نارا ووضعا عليها بخورا وقربا أمام الرب - وهذا شيء لم يأمر به الرب. وتقول التوراة (لاويين ١٠ : ٢) فخرجت نار من عند الرب وأكلتهما فماتا. ويقول أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس جـ ١ ص ٢٩٦) أنهما فعلا ذلك بمقتضى رأيهما الخاص وليس بمقتضى أمر موسى. كما أنهما لم يأخذا النار من على المذبح النحاسى بل قرَّبا «نارا غريبة» كما أن تقديم

البخور على المذبح الذهبى كان من واجبات رئيس الكهنة وكان تقدمهم على أبيهم فى هذا الشأن وفى أول مرة يتم فيها عمل هذه الطقوس يعتبر تطفلا وإخلالا خطيرا. كما أن الوقت المحدد لتقديم البخور (صباحاً ومساء) لم يكن قد حان بعد. ويرجح أهل الكتاب أنهم فعلا كل تلك المخالفات لأنهما كانا تحت تأثير خمر أو مسكر مع أن الكهنة محرم عليهم تعاطى الخمر إذ جاء (لاويين ١٠ : ٨) وكلم الرب هارون قائلا خمرا ومسكرا لاتشرب أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع لكى لا تموتوا. فرضا دهريا فى أجيالكم - أى يسرى هذا الحظر على كل الأجيال القادمة. ويلفت أهل الكتاب النظر إلى أن هذا كان أمرا مباشرا من الله لهارون وليس عن طريق موسى دلالة على أهميته الشديدة.

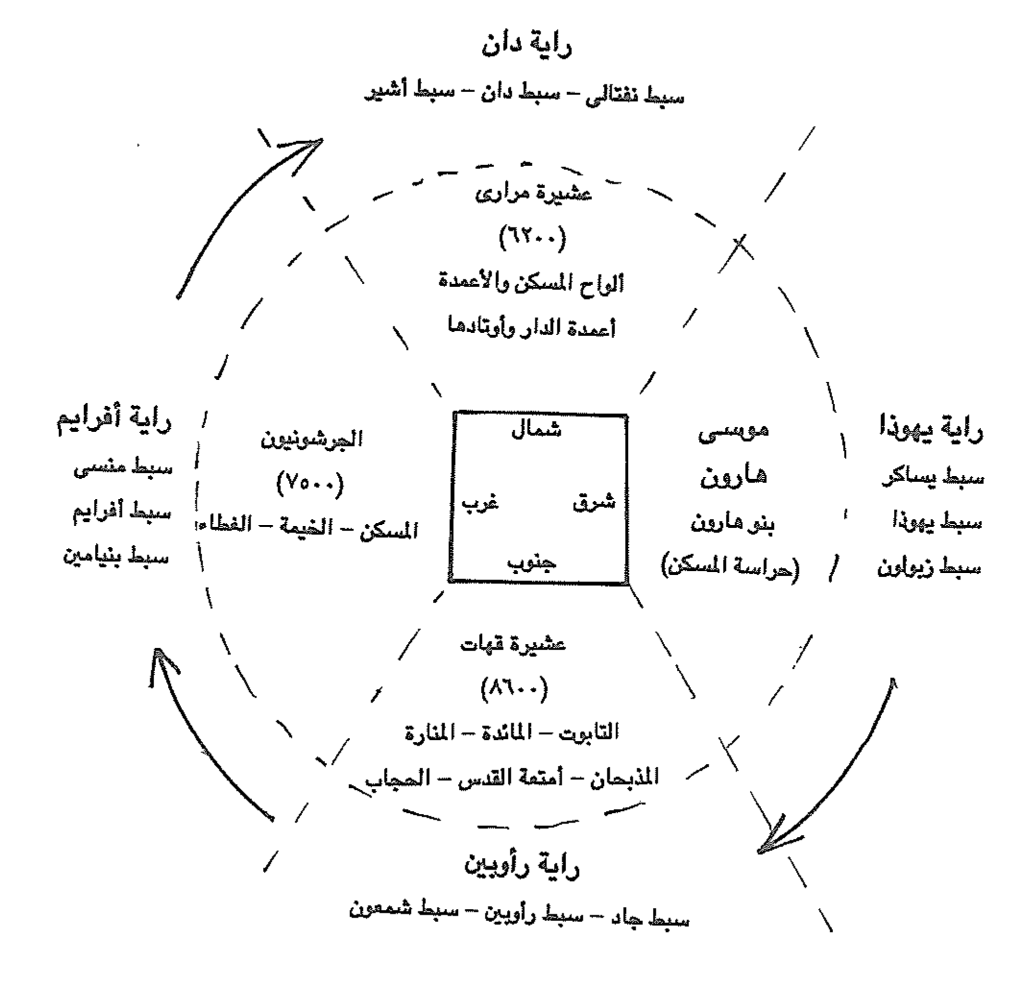
وتحدد لكل سبط مكان إقامة (شكل ٢٧٣) فاللاويون يقيمون حول خيمة الاجتماع لأنهم الموكلون بحراستها عند النزول فى محلة وحملها عند الارتحال. والشكل يبين مكان نزول عشائر اللاويين ومهامهم. أما الأسباط الاثنا عشر فينزلون حول الخيمة عن بعد. ثلاثة أسباط فى كل جانب من جوانب الخيمة الأربعة. وعند الارتحال يبدأ النازلون إلى الشرق بالتحرك أولا ثم باقى الأسباط فى اتجاه عقرب الساعة أى النازلون فى الجنوب يليهم الغرب وأخيرا النازلون إلى الشمال.

الأبواق (جمع بوق) :

لقد رأينا أن نقدم شرحا لماهية الأبواق هذه حتى يكون القارىء على علم بما قد يقرأ عنه من تصرفات جيراننا فى إسرائيل اليوم. ففى شكل ٢٧٤ صورة منقولة عن جريدة الأخبار يوم ١٩٩٦/١٢/١٣ والخبر بجوارها يقول إن آلاف اليهود المتطرفين احتشدوا فى مظاهرة طالبوا فيها بإعادة قدسية يوم السبت والالتزام الصارم بالعطلة فى هذا اليوم. وقد سبق أن ذكرنا (ص ١٠٠٧) دور ضرب الأبواق فى فتح مدينة أريحا. تقول التوراة (عدد ١٠ : ١): وكلم الرب موسى قائلا: اصنع لك بوقين من فضة فيكونان لك لمناداة الجماعة. وإذا ضربوا بواحد يجتمع إليك الرؤساء رؤوس ألوف إسرائيل وإذ ضربتم هتافا ترتحل المحلات النازلة إلى الشرق وإذا ضربتم هتافا ثانية ترحل المحلات النازلة إلى الجنوب. وأما عندما تجمعون الجماعة فتضربون ولا تهتفون. وبنو هارون الكهنة يضربون بالأبواق فتكون لهم فريضة أبدية فى أجيالكم. وإذا ذهبتم إلى حرب فى أرضكم على عدو يَضُر بكم تهتفون بالأبواق فتُذكرون أمام الرب إلهكم وتُخلَّصون من أعدائكم. وفى يوم فرحكم وفى أعيادكم ورؤوس شهوركم تضربون بالأبواق على محرقاتكم وذبائح سلامتكم فتكون لكم تذكارا أمام إلهكم. أنا الرب إلهكم.

ويمكننا من هذا أن نلخص مهمة ضرب الأبواق فى الآتى :

١ - المناداة على شيوخ ورؤساء إسرائيل لتبليغهم أمرٍ ما.



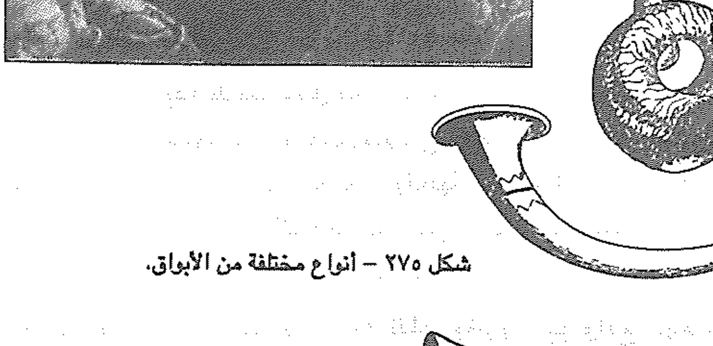
شكل ٢٧٣ – توزيع الأسباط حول خيمة الإجتماع.



شكل ٢٧٤

مجموعة من اليهود أمام حائط المبكى ينفخون في الأبواق مطالبين باحترام حرمة يوم السبت.

(جريدة الأخبار ١٣/١٢/١٩٩٦)



شكل ٢٧٥ – أنواع مختلفة من الأبواق.



شكل ٢٧٦ – كهنة ينفخون الأبواق فى أحد الأعياد.

٢ – المناداة على الجماعة كلها للارتحال مع تنظيم ذلك بارتحال الأسباط النازلين فى شرق بيت العبادة ثم النازلين إلى الجنوب.

٣ – فى الحروب لشد الأزر وطلب العون من الرب.

٤ – فى الأفراح والأعياد واحتفال أوائل الشهور ومحرقات ذبائح السلامة.

ويمكن اعتبار ضرب الأبواق عند اليهود مثل دق أجراس الكنائس عند المسيحيين. وكان البوق قبل ذلك يصنع من قرن كبش أو قرن ماعز. ولما نزلت الشريعة أمروا بصنعها من الفضة. وخصص أبناء هارون لينفخوا هم فى الأبواق دون سواهم. وكان كاهنان موكلان بذلك كل كاهن ينفخ فى بوق حسب ماورد سابقا. وكان عيد اليوبيل يعلن عنه بنفخة طويلة فى الأبواق.

ورفعنا فوقهم الطور :

لقد ذكرنا سابقا طريقة عمل بيت العبادة وطريقة عمل ثياب الكهنة ورأينا كم هى مكلفة لكثرة تطريزها بخيوط من الذهب وكم هى معقدة فى طريقة صنعها. كما سنرى فى أحكام الشريعة بعض أنواع العقاب القاسية. ولعلها كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تكون كذلك لتتناسب مع قسوة قلوبهم وكثرة تمردهم على نبيهم. ولم يطيقوا تطبيق هذه الأحكام والشرائع بدقة فكان من اللازم إجبارهم على الإلتزام بها.

«وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة. وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون». (١٧١ – الأعراف)

وقبل أن نتطرق إلى شرح نتق الجبل أو رفعه يلزم أن نذكر شيئا عن الأحكام التى لم يطيقوا تنفيذها.

قلنا إن أحكام الشريعة التى أنزلت على موسى عليه السلام ليطبقها على بنى إسرائيل كانت فيها بعض الشدة لتتناسب مع طباعهم. وهكذا جاءت شريعة بنى إسرائيل متسمة بالسمات الآتية:

أ – كثرة المحرمات.

ب – كثرة الخطايا وضرورة تقديم قربان لغفرانها.

جـ – كثرة مسببات النجاسة.

د – التشدد فى بعض أحكام المعاملات.

أ – المحرمات :

«فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا». (١٦٠–النساء)

ويشير القرآن الكريم إلى هذه المحرمات فى قوله تعالى :

«وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم. ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون». (١٤٦-الأنعام)

وقد ذكرت التوراة بالتفصيل (لاويين ١١) هذه المحرمات :

وكلم الرب موسى وهارون قائلا لهما: كلّما بنى إسرائيل قائلين هذه هى الحيوانات التى تأكلونها: واختصارا ولسهولة بيانها يمكن تقسيمها للآتى:

١ - **حيوانات البحر** : «كل ما شق ظلفا وقسمه ظلفين ويجتر من البهائم فإياه تأكلون. إلا هذه فلا تأكلوها» أى أن المباح يجب أن يكون مشقوق الظلف ويجتر. وعلى ذلك:

- الجمل والوبر: محرمة لأنها غير مشقوقة القدم ولو أنها تجتر.

- الخنزير محرم : ولو أنه مشقوق الظلف ولكنه لا يجتر فلا يؤكل ولا تلمس جثته.

- وحرمت الشحوم كما أشار القرآن الكريم فى الآية المذكورة. واستثنى من التحريم الشحم الموجود على الظهر أو بين الأمعاء أو شحم الإلية المختلط بعظم العصعص. وقيل إنه لما نزلت هذه الآية قال اليهود: لسنا أول من حُرمت عليه هذه الأشياء. وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومَن بعدَهما عليهم السلام حتى انتهى التحريم إلينا - يقصدون أن ينفوا البغى الذى وصفوا به وكان سببا للتحريم. وقد ذكرنا فى الجزء الثالث (ص ٤٢٩ - ٤٣٠) الحديث الشريف المتعلق بذلك.

- وتحرم السباع والكلاب والسنانير.

- ويحرم أكل الأرانب وما شابهها من القوارض آكلة العشب لأنها ذات أظافر وليست ذات أظلاف مشقوقة.

- يحرم الدم. وما اقتطع من لحم بهيمة وهى حية وما ذبح قربانا لصنم.

- القوارض: (لاويين ١١: ٢٩) ابن عرس والفأر والضب والحرذون والورل والحرباء هذه هى النجسة من الدبيب الذى يدب على الأرض. كل من مسها بعد موتها يكون نجسا إلى المساء وكل ما وقع عليه واحد منها بعد موتها يكون نجسا. من كل متاع خشب أو ثوب أو جلد. كل متاع تنجس بها يلقى فى الماء ويكون نجسا إلى المساء ثم يطهر. وكل متاع خزف وقع فيه منها فكل ما فيه يتنجس وأما هو فتكسرونه لأن ما يأتى عليه ماء من كل طعام يكون نجسا. التنور والموقدة يهدمان. إنها نجسة وتكون لكم نجسة. ولنا أن نتصور فى الصحراء والفئران أو الحرباء أو ما شابهها موجودة بكثرة وقد تدخل إلى التنور وتموت فيه فيكون لزاما هدم التنور بأكمله.

وتستمر التوراة: إلا العين والبئر تكونان طاهرتين. لكن ما مسّ جثتها يكون نجسا وإذا وقعت واحدة من جثتها على شيء من بذر زرع فهو طاهر. وإذا مات واحد من البهائهم التى هى طعام لكم فمن مسَّ جثته يكون نجسا إلى المساء. ومن أكل من جثته يغسل ثيابه ويكون نجسا إلى المساء ومن حمل جثته يغسل ثيابه ويكون نجسا إلى المساء. ونلمس هنا التوسع فى مفهوم النجاسة.

وكل دبيب يدب على الأرض فهو مكروه لا يؤكل (الزواحف والثعابين والدود) كل ما يمشى على بطنه وكل ما يمشى على أربع مع كل ما كثرت أرجله لا تأكلوه لأنه مكروه.

٢ – **الطيور** – وهذه تكرهونها من الطيور لا تؤكل: النسر والأنوق والعقاب والحدأة والغراب والنعامة والباز والبوم والغواص والكركى والبجع واللقلق والببغاء والهدهد والخفاش وكل دبيب الطير الماشى على أربع فهو مكروه لكم. ما عدا هذا تأكلونه ماله كراعان فوق رجليه يثب بهما على الأرض (الإصبع فى الساق ولا تلامس الأرض) كما فى الدجاج والأوز والبط والسمان والعصافير تؤكل. الجراد على أجناسه يؤكل.

٣ – **حيوان البحر**: وهذا تأكلونه من جميع مافى الماء: كل ماله زعانف وحرشف فى المياه فى البحار وفى الأنهار فأياه تأكلون. لكن ما ليس له زعانف وحرشف من كل نفس حية فى البحار والأنهار فهو مكروه لكم من لحمه لا تأكلون.

وبناء عليه فالسمك الذى ليس له زعانف وقشور (فلوس) مثل القرموط وسمك القرش وثعبان الماء لا تؤكل والأخطبوط والجمبرى والسرطان والمحار لا تؤكل.

ونقارن هذا بما ورد فى القرآن الكريم عما حرم على المسلمين:

«إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله. فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم». (١٧٣ – البقرة)

«ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه». (١٢١ – الأنعام)

«حرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب».

(من الآية ٣ – المائدة)

وهذه المحرمات الأخيرة فما لُحقَ منها وفيه روح أى تحركت بأى حركة تدل على بقاء الحياة فيها وذبحت أصبح الأكل منها حلالا. وحتى مع كل هذا فمن اضطر لأكل أى من المحرمات لحفظ حياته فلا يأثم والله غفور رحيم.

ب – الخطايا :

الخطايا فى الشريعة اليهودية كثيرة – ومعظمها لا يكفى لغفرانه الندم والتوبة إلى الله بل لابد من تقديم قربان أو ذبيحة.

– **الطمث** نجاسة وكل شيء مقدس لا تمس.

– **الولادة** إذا كان ذكرا تكون نجسة سبعة أيام وفى اليوم الثامن يتم ختان الطفل ثم تظل ٣٣ يوماً نجسة مدة النفاس كل شيء مقدس لا تمس. وإذا كانت بنتا تكون نجسة أسبوعين ونفاسها ٦٦ يوما. وبعد انتهاء النفاس تأتى بخروف حولى محرقة وفرخ حمامة أو يمامة ذبيحة خطية إلى باب خيمة الاجتماع إلى الكاهن فيقدمها أمام الرب ويكفر عنها فتطهر. فإن كانت فقيرة تأخذ يمامتين أو فرخى حمام واحد محرقة والثانى ذبيحة خطية.

البَرَصْ. مرض عضال ويسمى أحيانا «ضربة البرص». وجاء فى قاموس الكتاب المقدس (عن دار الثقافة – ص ١٧٠) أنه غير الجذام المعروف. إلا أنه فى النسخة الانجليزية من الكتاب المقدس New American Standard Bible اسمه Leprosy أى جذام. كما أن قاموس الكتاب المقدس بالإنجليزية «أونجر Unger» ذكره على أنه Leprosy أى الجذام . على أى حال فإن المرض يبدأ بنتوءات (أورام) فى الجلد أو بياض كالقوباء Leucodermia وبعد قليل تتآكل حوافها وتصير شبه قرحة وإذا ظهر اللحم تحتها يعتبر المريض نجسا أما إذا غطى المرض الجسم كله ولم يظهر فيه لحم فيعتبر الشخص طاهرا. وقد يصيب المرض الذقن أو الأنف أو سقف الحلق أو عقد الأصابع. وسنرى فيما بعد (ص ١٠٤١) أن مريم لما تكلمت ضد أخيها موسى عليه السلام أصابها الرب بضربة البرص. ودعا موسى الله كى يشفيها فشفاها.

فإذا قرر الكاهن أن درجة إصابة الشخص من النوع الذى يسبب نجاسة فإنه يتم حجر صحى على المصاب خارج المحله أى خارج مكان إقامة الجماعة ويعتبر كأنه فى عداد الأموات. وبعد مدة إذا قرر الكاهن أن الجذام أو ضربة البرص قد برئت يتم التطهير خارج المحلة فيؤخذ عصفوران حيان وطاهران وخشب أرز ويذبح أحد العصفورين فى ماء جارٍ (عين ماء جارية أو نهر) ويغمس خشب الأرز فى دم العصفور وينضح به على المصاب سبع مرات ثم يُطلق العصفور الحى ليطير على وجه الصحراء كرمز لعودة الحياة للمصاب بعد شفائه من المرض. ثم يحلق جميع شعر المصاب حتى حواجبه وتغسل ثيابه فتطهر. ثم يؤخذ خروفين صحيحين ونعجة واحدة حولية ودقيق تقدمة ملتوتة بزيت ويقف الشخص أمام باب خيمة الاجتماع ويقوم الكاهن بذبح خروف ويقربه ذبيحة إثم مع الزيت وينضح من دم الذبيحة والزيت على المصاب. ثم يقدم الكاهن الخروف الثانى ذبيحة خطية. ثم تُقدم ذبيحة المحرقة.

جـ – النجاسة :

كانت الأشياء التى تسبب النجاسة كثيرة ولكل منها طريقة للتطهر منها. ويمكن تقسيمها إلى الأنواع الآتية :

١ – نجاسة بسبب الحيوانات المحرمة. وكما فى الإسلام فإن الميتة والمنخنقة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع كل ذلك إذا مات يحرم أكله إلا أنه فى الفكر اليهودى مثل هذه الحيوانات تعتبر نجسة ويتنجّس من يلمسها. كذلك كل حيوانات البحر والبر والقوارض التى سبق ذكرها فى المحرمات تعتبر نجسة وهناك خلاف بين طوائف أهل الكتاب حول ما إذا كانت نجسة أيضا وهى حية أم تنجس بعد وفاتها فقط. كذلك كل ما ذبح لأوثان (وما ذبح على النصب). كذلك ما قطع من لحم حيوان وهو حى.

٢ – نجاسة الميت – فجثة الانسان – سواء مات ميتة طبيعية أو قتل – تسبب نجاسة الخيمة (أو الحجرة) التى مات بها لمدة سبعة أيام وكل الأوانى التى كانت بها وكل الأشخاص الذين كانوا بها أو دخلوها. كما يسبب النجاسة أيضا لمسُ جثة إنسان مات فى الخلاء أو مس عظام ميت أو قبره. وكل من أصبح نجسا بإحدى هذه الطرق فإنه ينقل نجاسته إلى كل شىء يمسه أو كل شخص يلمسه ولكن هذه النجاسة (المنقولة) تكون مؤقتة أى تبقى للمساء فقط وتزول بغروب الشمس.

٣ – نجاسة لمس الحيوانات الميتة أو الحيوانات النجسة تبقى إلى المغرب ولكن الشخص نفسه يجب أن يغتسل ويغسل ثيابه.

٤ – نجاسة بسبب إفرازات جسدية: من مجرى البول والمجارى التناسلية سواء كانت بسبب طبيعى مثل الجماع أو دم الحيض أو دم وإفرازات النفاس – أو بسبب مرضى مثل مرض سلس البول أو السيلان. وهى تستدعى الاغتسال وغسل الثياب وإذا استمرت الإفرازات أكثر من أسبوع يلزم تقديم ذبيحة خطيّة وذبيحة محرقة.

د – أحكام المعاملات:

وهى كثيرة جداً وجاءت بالتفصيل فى التوراة نذكر بعضا منها فقط لبيان قسوة أحكامها وصعوبة تطبيقها:

- من ضرب أباه وأمه يقتل قتلا.
- من شتم أباه أو أمه يقتل قتلا.
- من سرق إنسانا وباعه أو وجد فى يده يُقتل قتلا.
- الشاهد الذى يكتم شهادته يرتكب خطية.
- حلف اليمين وعدم الوفاء به ويسمى الحلف الطائش يُعتبر خطية.

وفى الحالتين الأخيرتين يأتى إلى الرب بذبيحة عن خطيته. أنثى من الأغنام نعجة أو عنزا من الماعز ذبيحة خطية فيكفر عنه الكاهن من خطيته وإن كان فقيرا يأتى بيمامتين أو فرخى حمام إحداهما ذبيحة خطية والأخرى محرقة. وإن لم يجد فيأتى بقربان دقيق ولا يضع عليه زيتا ولالبانا فيقبض منه الكاهن ملء قبضة ويوقده على المذبح.

– إذا أخطأ أحد سهوا فى أقداس الرب يأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه كبشا صحيحا من الغنم ويدفعه إلى الكاهن فيكفر عنه فيُصفح عنه. وإذا أخطأ وعمل واحدة من جميع مناهى الرب التى لا ينبغى عملها ولم يعلم كان مذنبا وحمل ذنبه فيأتى بكبش صحيح من الغنم ذبيحة إثم فيكفر عنه الكاهن من سهوه الذى سها وهو لا يعلم فيُصفح عنه (لاويين ٥ : ١٧). ونقارن هذا بما جاء فى الحديث الشريف: رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.

– إذا جحد شخص وديعة أو أمانة أو اغتصب من صاحبه أو وجد لُقطة وجحدها أو حلف كاذبا على شىء فإنه يرد المسلوب الذى سلبه أو المغتصب الذى اغتصبه أو الوديعة التى أودعت عنده أو اللُّقطة التى وجدها أو كل ما حلف عليه كاذبا – فإنه يعوِّضه برأسه ويزيد عليه خُمسه إلى صاحبه (أى يرد الوديعة مضافا إليها ٢٠٪) ويأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه كبشا صحيحا من الغنم ذبيحة إثم إلى الكاهن. فيكفِّر عنه الكاهن أمام الرب حتى يُصفح عنه فى الذنب الذى ارتكبه (لاويين ٦ : ٣).

د – **يوم السبت** : ذكرنا ص ٩٩٢ أن رابع الوصايا العشر كانت «اذكر يوم السبت لتقدسه» وكان الالتزام به من أبرز الواجبات الدينية وليس خطيئة أكبر من خطيئة عدم حفظ حرمة يوم السبت. وقد أوصى موسى عليه السلام بالتفرغ التام عن العمل يوم السبت ومدته من غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السبت. وفيه يحرم كل ما يشعر بالسعى فى الرزق والانشغال بحرفة أو صناعة. ويحرم حتى إيقاد النار إلاّ أن إبقاء النار التى أشعلت قبل دخول يوم السبت جائز ويحل الانتفاع بها يوم السبت نفسه. ويحرم أى تبادلات تجارية كما يحرم عقد الزواج فيه.

هـ – القرابين :

القربان جزء هام من الشريعة اليهودية ووضع له موسى نظاما دقيقا ومفصلا. وحَصرَ تقديم الذبائح فى الكهنة. وكانت القرابين تقدم فى مناسبات كثيرة: للتوبة والاعتراف والكفارة والتكريس والشكر على السلامة أو النجاح وغير ذلك. والقرابين تقدم من الحيوانات المستأنسة الطاهرة وتشمل من البقر الثيران الفتية والكبيرة ومن الغنم أى من الضأن والماعز ما كان حوليا أى ابن سنة أما الفقراء فيمكنهم تقديم زوج يمام أو فرخى حمام.

أما القرابين من الحبوب فكانت تقدم كدقيق معجون بالزيت بعد أن تخبز أقراصا ملتوتة بزيت أو رقاقا مدهونة بزيت. أما ما يسمى بـ «خبز الوجوه» وهو ما يوضع على مائدة الرب كل يوم سبت. فكان يُصنع أقراصا سميكة ولا تكون ملتوته بالزيت بل كان يوضع عليها بعض اللبان. أما باكورات الحبوب فقد كانت تقدم بشكل فريك مشوى وجريش. وكان الزيت يعد من التقدمات الفاخرة المحترمة.

– **كيفية تقديم الذبائح** : كان مُقرِّب الذبيحة يضع يده على رأسها ويعترف بالخطيئة ثم

يذبحها هو أو الكاهن ثم يتم سلخ الذبيحة وتقطيعها ويحرقون ما أمر الرب بحرقه على المذبح. والباقى يتم التصرف فيه حسب أوامر الرب وهناك نوعان:

- قربان يقدم كله للرب. وهذا يحرق بأكمله ويسمى قربان محرقة.

- قربان يخصص قسم منه للرب ويحرق. وقسم آخر للكهنة أو لهم ولمقدم القربان كما فى القرابين التى تقدم فى الأعياد أو ذبيحة الشكر وذبيحة السلامة.

أما ذبيحة الخطيئة وهى ما تقدم للتكفير عن الخطايا فهذه لا يسمح لمقدم الذبيحة أن يأكل أى جزء منها لأن مُقدمها وقد ارتكب خطيئة فهو يتقدم بها وهو معترف بعدم استحقاقه للشركة مع الرب فلا يأكل منها وتتميز هذه الذبيحة من الجهة الطقسية عن غيرها برش الدم على قوائم البيت وعلى زوايا المذبح الأربع وعلى قوائم باب الدار الداخلية وعلى قرون المذبح الأربعة. ثم تحرق الجثة. فإذا كان السبب وقوع الجماعة فى خطيئة فإنها تسمى **ذبيحة خطيئة الجماعة**. ويزيد فيها أن الكاهن يأخذ من دم الذبيحة وينضح بإصبعه على وجه غطاء تابوت الشهادة سبع مرات والذبيحة تكون ثورا. أما الخطايا الشخصية فقربانها يسمى «**ذبيحة إثم**» وهذه تكون غالبا كبشا أو تيسا من الماعز.

وهكذا نرى أن التكفير عن الخطايا لايكون بالاستغفار فقط والندم. بل لابد من الاعتراف أمام الكاهن والتطهير بتقديم ذبيحة.

نتق الجبل ورفعه فوقهم :

شق على بنى إسرائيل تطبيق كثير من أحكام الشريعة بحذافيرها وبدأوا فى عدم تنفيذها وطلب الله من موسى أن يُذكرهم بها وينفذوها حسب ما وَعدوا.

«وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون. ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين». (٦٣-٦٤-البقرة)

«وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا». (٩٣ - البقرة)

«وإذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم. خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون». (١٧١ - الأعراف)

ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم...». (من الآية ١٥٤ - النساء)

وعن ابن عباس (تفسير الألوسى جـ ١ ص ٢٨٠) أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة وما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم وأبوا قبولها فأُمر جبريل بقلع الطور فظلله

فوقهم حتى قبلوا وكان على قدر عسكرهم – فرسخا فى فرسخ! ونتق الشىء رفعه من مكانه ليرمى به (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٩٠٧). وقيل – أمر الله جبريل عليه السلام فقلع الجبل ورفعه عليهم كأنه غمامة أو سقيفة وظنوا أنه سيقع عليهم وتيقنوا أنهم إن لم يُنفِّذوا أحكام الشريعة فإنه سيسقط عليهم لأن الجبل لن يبقى معلقا فى الجو إلى الأبد وهى معجزة أخرى أظهرها الله لهم ليمتثلوا لأوامره وقيل إن قبلتم وإلا ليقعن عليكم. فوقع كل منهم ساجدا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل. فرحمهم الله وكشفه عنهم فقالوا ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنا فكانوا يسجدون كذلك. (تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٠٤) وقيل الطور هو الجبل المعَّين المعروف بهذا الإسم. وعن ابن عباس الطور هو ما أنبت من الجبال ومالم ينبت فليس بطور

وقد خالف السيد رشيد رضا فى تفسير المنار ما ذهب إليه الجمهور فى نتق الجبل ورفعه حسب ما سبق شرحه وقال إن ذلك إكراه والقاعدة هى «**لا إكراه فى الدين**» وقال إن النتق معناه الزلزلة والزعزعة وليس بالضروروة الرفع. ووافقه على هذا الرأى الأستاذ عبدالوهاب النجار (قصص الأنبياء. ص ٢٥١) وزاد بأن قال إن الظلة كل ما أظلك سواء كان فوقك أو فى جانبك وهو مرتفع وله ظل. وفوقهم لاتعنى بالضرورة فوق الرأس واستشهد بالآية: «**وإذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم**» بأن فوقكم هنا تعنى من أعلى الوادى وأسفل تعنى من أسفل الوادى. كما قال سيادته إن الجبل لاتعنى كل الجبل بل أن بعض الجبل يطلق عليه الجبل مجازا. كقول المرء وقفت على الجبل وهو لم يقف إلا على موضع قدميه من الجبل. ويقول الحاج وقفت على جبل عرفات وهو لم يقف إلا على جزء منه. وخلص من هذا كله أنه من المحتمل أن زلزالا أصاب الجبل فاهتز وتزعزع جزء منه ومال ووقع ظله على بنى إسرائيل فظنوا أن الجبل سيقع عليهم. ويقول إن التوراة ذكرت نتق الجبل كما يلى (خروج ١٩): وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة.. وارتجف كل الجبل جدا... ولما رأى الشعب ذلك ارتعدوا ووقفوا من بعيد.

وما نراه هو أن الحدثين مختلفان. فما ذكرته التوراة كان لتأييد موسى فيما يبلغ عن ربه إذ تقول: فقال الرب لموسى ها أنا آت إليك فى ظلام السحاب لكى يسمع الشعب حينما أتكلم معك فيؤمنوا بك أيضا إلى الأبد... فانحدر موسى من الجبل إلى الشعب وأمرهم بالتطهر وغسل ثيابهم وقال للشعب كونوا مستعدين وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا.. وارتجف كل الجبل جدا...وقد سبق ذكر ذلك فى ص ١٠٠٥ أما ما ذكره القرآن الكريم من نتق الجبل «**فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم**» فكان بعد أن أوتوا الشريعة ومضت مدة ولم يطبقوها فكان التهديد

بالهلاك إذا لم ينفذوا أحكامها. فكانت هذه آية أخرى غير التى ذكرتها التوراة. وكان رفع الجبل آية للردع والتخويف ولا يعنى ذلك إكراها. بل هو تخويف حتى تكون هناك استجابة ويتمشى ذلك مع مفهوم قوله تعالى :

«وما نرسل بالآيات إلا تخويفا». (٥٩ - الإسراء)

وكان وقت الحدث الأول المذكور فى التوراة هو فى اليوم الثالث من نزولهم بجوار جبل موسى أما نتق الجبل المذكور فى القرآن الكريم فكان قرب نهاية مدة إقامتهم فى هذه المحلة وكانت قد حدثت فتنة السامرى وانتهت.

لقد رأينا الآن كم كانت التكاليف والتشريعات شاقة وصعبة التنفيذ فلم تستطع الغالبية العظمى من بنى إسرائيل الالتزام بها وظلت الأجيال المتتالية - جيلا بعد جيل - ملزمة بتنفيذها وهى لا تطيقها وقد جاء فى سورة الأعراف خطاب إلى اليهود المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم برفع كل هذه التكاليف عنهم لو اتبعوه:

«ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم». (١٥٧ - الأعراف)

والإصر هو الثقل الذى يُعجز صاحبه عن الحراك. والغل هو القيد الذى كانت يد الأسير تربط به إلى عنقة وهى استعارة عن شدة التكاليف التى كانوا مكلفين بها بمقتضى شريعتهم. ولكن قلة فقط هى التى أسلمت وبقى الآخرون مكبلين بهذه الأغلال حتى يومنا هذا.

وكان من رحمة الله بالمسلمين أن علّمهم دعاء يدعون به ليخفف الله عنهم ولا يفرض عليهم التكاليف الشاقة التى كانت على أهل الديانات السابقة:

«... ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. ربنا ولاتحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا. ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا ..». (٢٨٦ - البقرة)

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: أوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهن نبى قبلى (تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٤٣٤).

كان قد مضى على بنى إسرائيل فى سيناء عام كامل وشهر وعشرون يوما وكان آخر محلاتهم هو بجوار جبل موسى حيث تلقى موسى عليه السلام أحكام الشريعة وأقام دار العبادة المتنقل المتمثل فى المسكن وخيمة الاجتماع.

الارتحال من جبل موسي :

وتقول التوراة (عدد ١٠ : ١١) وفى السنة الثانية فى الشهر الثانى فى العشرين من الشهر ارتفعت السحابة عن مسكن الشهادة. فارتحل بنو إسرائيل. وارتحلوا حسب الترتيب التالى:

(انظر شكل ٢٧٣ ص ١٠٢٦). أولا راية محلة بنى يهوذا (الشرق) وبنى يساكر وبنى زبولون، ثم أنزل المسكن فارتحل بنو جرشون حاملو خيمة الاجتماع وبنو مرارى حاملو ألواح المسكن وعوارضه ثم محلة رأوبين (الجنوب) وشمعون وجاد. ثم ارتحلت عشيرة قهات حاملو أدوات خيمة الاجتماع. ثم ارتحلت الجماعات التى فى الغرب وهم أفرايم ومنسى وبنيامين وأخيرا دان ونفتالى وأشير. ويكون التشكيل أثناء المسيرة هكذا (شكل ٢٧٧): التابوت فى المقدمة يحمله أبناء هارون وخلفه مباشرة يسير موسى وهارون عليهما السلام ثم ثلاثة أسباط فالمسكن ثم ثلاثة أسباط ثم أثاث المقدس ثم الستة أسباط الباقية. وارتحلوا من جبل الرب مسيرة ثلاثة أيام وتابوت عهد الرب راحل أمامهم ليلتمس لهم منزلا. وكانت سحابة الرب عليهم نهارا. وكان موسى يدعو: قُم يارب فلتتبدد أعداؤك ويهرب مبغضوك من أمامك.

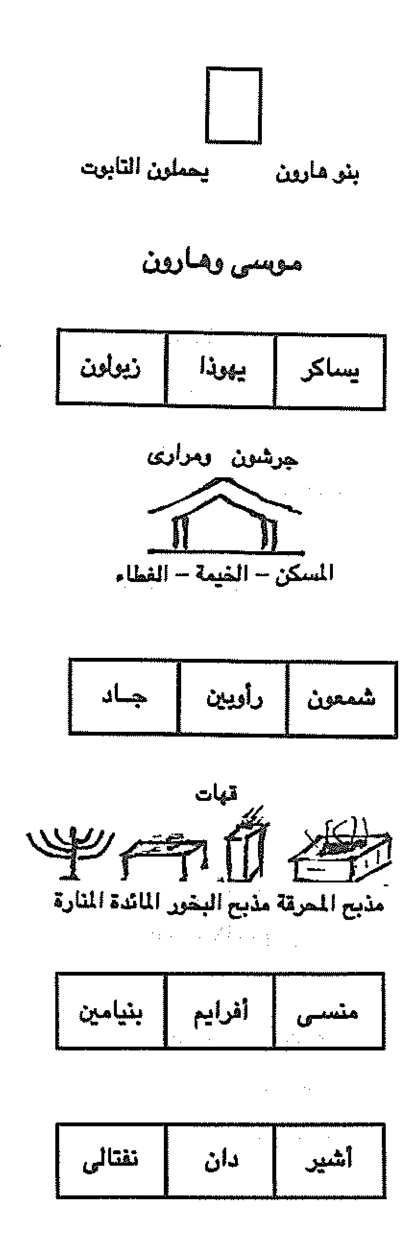
سبق أن ذكرنا (ص٩٨٤) أن حما موسى قد جاءه فى رفديم ومعه زوجة موسى وولداه ولما ارتحل بنو إسرائيل من جبل موسى وصاروا قرب خليج العقبة رأى حمو موسى أن مدين صارت قريبة فأعرب عن رغبته فى العودة إلى أرضه. وتقول التوراة إن موسى عليه السلام قال له: إننا راحلون إلى المكان الذى قال الرب أعطيكم أياه. اذهب معنا فنحسن إليك فقال لا أذهب. بل إلى أرضى وعشيرتى أمضى - (عدد ١٠ : ٢٩) وتركهم عائدا إلى مدين.

وأقاموا المسكن والخيمة ونزلوا فى مكان قرب خليج العقبة (شكل ٢٧٨). وبدأ بعض الأفراد يشتكون ويتذمرون. فاشتعلت نار فى طرف المحلة فى خيام هؤلاء الذين تذمروا. ولجأ الشعب إلى موسى. فصلى موسى إلى الرب فخمدت النار ودعى اسم ذلك المكان تبعيرة Taberah وهو اسم عبرى معناه «**اشتعال**».

وتقول التوراة (عدد ١١) وعاد بنو إسرائيل يشتكون وبكوا وقالوا: من يطعمنا لحما. قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجانا والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم والآن قد يبست أنفسنا. ليس شىء غير أن أعيننا إلى هذا المن.

«وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير . اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم». (٦١-البقرة)

وُعبر عن المن والسلوى بطعام واحد لتكراره كل يوم. والبقل والقثاء والعدس والبصل معروف. وقيل الفوم هو الحنطة - قال ابن عباس وغيره. وقيل هو الثوم والثاء أبدلت فاء كما يقال جدث وجدف أى القبر وقرأ ابن عباس وثومها. وأيا كان الأمر فإن ما طلبوه كان مستحيلا فى حالتهم حيث أن رمال الصحراء لا تساعد على نموه كما أن زراعته تستدعى طول الإقامة حول أماكنه حتى ينضج وهم فى ترحال دائم ليدخلوا الأرض كما أمر الله. لذلك استنكر الله منهم هذ الطلب بقوله «**أتستبدلون...**» فالمن والسلوى التى أعطاهم الله هى خير من



شكل ٢٧٧ – ترتيب بنى إسرائيل أثناء الارتحال.

عدة وجوه: فهى من عند الله وخصيصا لهم. وهى دائمة لا تنضب ولا يتعبون فى زراعتها أو صيدها كما أنها ألذ طعما ولعلها كانت أسهل هضما وتعطى طاقة أكثر لتناسب المشقة فى الترحال الدائم فى الجبال والوديان. وكان الرد «**اهبطوا مصراً**» كأنه للتعجيز إذ لا توجد أمصار قريبة. ومن قالوا «**إهبطوا مصر**» كأنه يقال لهم إن كنتم تريدون ما اشتهيتم من أطعمة ألفتموها أثناء إقامتكم فى مصر فعودوا إلى مصر. وهم طبعا لن يفعلوا لما لا قوه فيها من تعذيب وتسخير - **أو أن** مطلبهم هذا مؤجل إلى أن يدخلوا الأرض وبها الأمصار - التى يجدون فيها بغيتهم. وفعلا حينما عبروا الأردن فيما بعد مع يشوع. انقطع المن والسلوى.

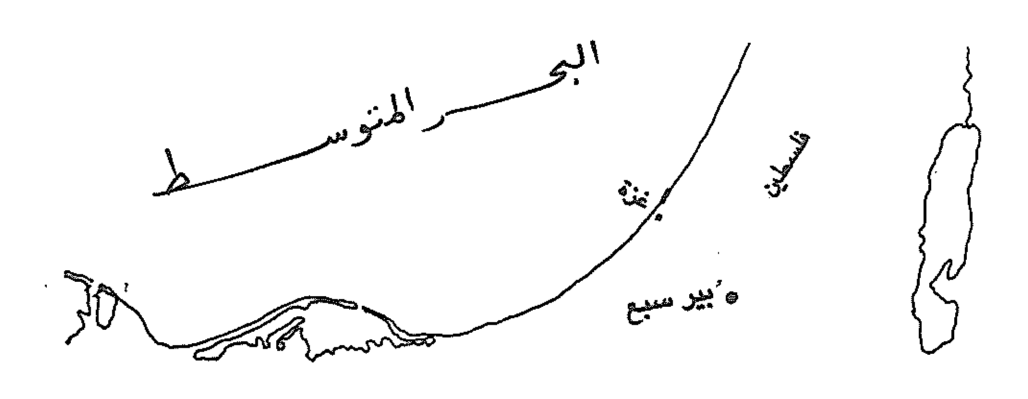
تضيف التوراة أن فئة أخرى تذمرت من قلة اللحم الذى يأكلونه وقالوا: قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجانا. وبكى الشعب فى خيامهم وسمع موسى بكاءهم.

وهنا لجأ موسى إلى الله يشكو إليه من بنى إسرائيل وأن حملهم أصبح ثقيلا عليه وإن كان كاتبو التوراة قد عبَّروا عن هذا بطريقة فيها شىء من الحدَّة (عدد ١١ : ١١): فقال موسى للرب لماذا لم أجد نعمة فى عينيك حتى أنك وضعت ثقل جميع هذا الشعب علىَّ. ألعلِّى حبلت بجميع هذا الشعب أو لعلى ولدته حتى تقول لى احمله فى حضنك كما يحمل المربى الرضيع؟ لا أقدر أنا وحدى أن أحمل جميع هذ الشعب لأنه ثقيل علىَّ. وتقول التوراة إن الله أمر موسى أن يختار سبعين رجلا من شيوخ إسرائيل ويأتى بهم إلى خيمة الاجتماع. ففعل ذلك وحلت عليهم الروح وبهاء الرب فتنبأوا أى صاروا أنبياء. (وإن كنا نرى أنهم أصبحوا مثل الأولياء) وحملوا عنه بعض العبء عما يلاقى من شعب بنى إسرائيل.

أما الفئة التى تذمرت من قلة اللحم فإن الله أوحى إلى موسى أنه سيعطيهم لحما ليأكلوا ليس يوما واحدا بل شهرا كاملا. قالوا: فخرجت ريح من قبل الرب وساقت سلوى من البحر وألقتها على المحلة نحو مسيرة يوم من هنا ومسيرة يوم من هناك حوالى المحلة ونحو ذراعين فوق وجه الأرض فقام الشعب كل ذلك النهار وكل الليل وكل يوم الغد وجمعوا السلوى وإذ كان اللحم بعدُ بين أسنانهم قبل أن ينقطع نزل عليهم غضبٌ من ربهم ومات هؤلاء الذين اشتهوا اللحم وتذمروا. ولأنهم دفنوهم فى قبور هناك فقد سُمِّىَ المكان «**قبروث هتأوة**» أى «**قبور الشهوة**».

تذمر مريم وهارون :

ثم ارتحل بنو إسرائيل مسيرة يومين أو ثلاثة أخرين فأتوا إلى «**حضيروت**» Hazeroth والمرجح أنها «عين خضرة» الحالية فى وادى خضرة قرب الطرف الشمالى لخليج العقبة جنوب غرب إيلات بستين كيلو مترا. هنا بدأت مريم تحرض هارون واتحد الاثنان فى التمرد على قيادة موسى للجماعة ولعلهما شعرا لكونهما أكبر سنا من موسى أنهما أحق بالقيادة منه ولكنهما اتخذا من زواجه من امرأة كوشية مجالا للتكلم عليه. واختلف مفسرو أهل الكتاب فى



أدوم

جبل هور

قادش برنيع

برية فاران

عودة حمى موسى
إلى مدين

حضيروت

قبروت هتأوة

تبعيرة

شكل ٢٧٨ – الارتحال من جبل موسى.

جنسية هذه الزوجة الثانية. قيل كوشية تعنى حبشية وإن كان من الصعب تفسير كيفية مجيئها للعيش مع بنى إسرائيل. وقيل هى مديانية. وقيل من عرب شمال الجزيرة. ولم تكن صفورة زوجته وأم ولديه قد ماتت بعد وهذا يدل على أن تعدد الزوجات عند اليهود جائز شرعا إلا أن حاخامات اليهود حرموه فيما بعد (الأديان والمذاهب. عبدالرزاق محمد ص . ١٧٢). ولتبرير ثورة مريم وهارون على قيادة موسى قال بعضهم (تفسير الكتاب المقدس. جاميسون وفاوست. ص ١٧٦) إنه لمَّا أشار حمو موسى (ص ٩٨٤) عليه بأن يختار رجالا «صالحين يخافون الله» ويجعلهم رؤساء على الشعب لم يختر من بينهم مريم وهارون. كذلك لما شعر موسى بعبء المهمة التى ألقيت على عاتقه (الصفحة السابقة) وأمره الله باختيار ٧٠ رجلا وحل عليهم بهاء الرب وتنبأوا وبدأوا فى معاونته فى إدارة شئون الشعب لم يكن من بينهم مريم وهارون. وقد يكون الرد على ذلك بالنسبة لهارون هو أنه نبى فعلا وهو وزير موسى فهو أعلى درجة من هؤلاء السبعين. ثم إنه هو رأس السلطة الدينية فى بنى إسرائيل وهو الكاهن الأكبر وبنوه يعاونونه. فليس له سبب ليتذمر إلا أن يكون اسمه قد أقحم فى هذا التمرد دون أن يكون مشتركا فيه فعلا ويؤيد هذا أن جزاءاً مالم ينله. أما مريم فلعل تعيين امرأة فى منصب رئاسى ما كان ليلقى قبولا لدى جموع بنى إسرائيل وخاصة فى هذه المرحلة من حياتهم. ولهذا كان جزاؤها صارما.

تقول التوراة (عدد ١٢ : ٤) فقال الرب لموسى وهارون ومريم اخرجوا أنتم الثلاثة إلى خيمة الاجتماع ففعلوا فنزل الرب فى عمود سحاب ووقف فى باب الخيمة وعنَّف مريم وهارون. ولما ارتفعت السحابة عن الخيمة إذا مريم برصاء كالثلج. واستعطف هارون موسى ألا يصيبه ما أصاب مريم. ودعا موسى ربه قائلا: اللهم اشفها فقال الرب: تحجز سبعة أيام خارج المحلة وبعد ذلك ترجع فحجزت مريم خارج المحلة سبعة أيام ثم شفاها الله فأرجعت إلى المحلة بعد أن برئت من البرص.

جاء فى هذا الإصحاح عن موقف موسى من هذا التمرد (فقرة ٣): «أما الرجل موسى فكان حليما جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض». وقد أثارت هذه الجملة جدلاً كبيرا بين مفسرى الكتاب المسيحيين حتى أن بعضهم قال إن هذا الاصحاح لم يكتبه موسى بنفسه إذ لا يعقل أن يمدح نفسه هكذا. وهذا يقابل المبدأ الإسلامى «ولا تزكوا أنفسكم». وآخرون رأوا فيه العكس تماما وقالوا إن ذلك دليل على وحى الكتاب المقدس. إذ هو يسجل موقف موسى بصدق وأنه لم يقل كلمة واحدة ليدافع بها عن نفسه بل ترك أمر تبرئته لله تعالى وفى الوقت الذى يستحسنه (تفسير الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين. جـ ١ ص ٣٦٩).

بعد انتهاء هذه الفتنة صدر أمر الرب بالارتحال إلى **فاران**. وكالمعتاد تم فك المسكن وخيمة الاجتماع وتحرك الركب بالتنظيم السابق شرحه فى شكل ٢٧٧ . وسار بنو إسرائيل مسيرة عشرة أيام حتى **برية فاران** Paran وكانت هذه هى المحطة الأخيرة قبل دخول الأرض.

وتقع برية فاران شمال سيناء وتمتد حتى برية صين Zin التى تفصلها عن البحر الميت وفى غربها تقع قادش أو **قادش برنيع** فنزلوا بها. وكانت تدعى من قبل عين مشفاط. وهى حاليا عين قديرات حوالى ٨٠ كم جنوب بير سبع. (أونجر. قاموس الإنجيل ص ٧٣١)

الاستعدادات النهائية لدخول الأرض :

نزل بنو إسرائيل فى قادش برنيع فى برية فاران ونصبوا المسكن وخيمة الاجتماع وبدأ موسى عليه السلام يعمل الترتيبات اللازمة لدخول «الأرض المقدسة» التى وعدها الله لهم. وكان من الضرورى قبل اقتحام الأرض من أمرين :

١ – **الاستطلاع** لمعرفة قوة العدو وقوة استحكاماته وطبيعة الأرض.

٢ – **الإحصاء والتعبئة العامة**: لإعداد القوة اللازمة ومعرفة عددها وتنظيمها بتقسيمها وتوزيع الرئاسات عليها.

وهى خطوات لاشك أنها كانت تتم بتوجيه من الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام.

١ – الاستطلاع :

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك :

«ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله إنى معكم». (من الآية ١٢ – المائدة)

وَنَقَبَ بمعنى فتَّش وفحص ونقَّب مبالغة فى الفحص والتفتيش وفى القرآن الكريم **«فنقبوا فى البلاد هل من محيص»** والنقيب كبير القوم المعنى بشؤونهم والجمع نقباء (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٩٥٢).

وتقول التوراة (عدد ١٣): ثم كلم الرب موسى قائلا: أرسل رجالا ليتجسسوا أرض كنعان التى أنا معيطها لبنى إسرائيل. رجلا واحدا لكل سبط من آبائه ترسلون. كل واحد رئيس فيهم. فأرسلهم موسى من برية فاران حسب قول الرب. كلهم رجال هم رؤساء بنى إسرائيل وهذه أسماؤهم:

١ – من سبط رأوبين	شموع بن ذكُّور.
٢ – من سبط شمعون	شافاط بن حورى.
٣ – من سبط يهوذا	كالب بن يُفَنَّة.
٤ – من سبط يساكر	يجال بن يوسف .
٥ – من سبط أفريم	هوشع (= يشوع) بن نون.

٦ – من سبط منسى		جدّى بن سوسى.

٧ – من سبط بنيامين		فلطى بن رافو .

٨ – من سبط زبولون		جَدّ ئيل بن سودى.

٩ – من سبط دان		عَمِّيئيل بن جِملِّى.

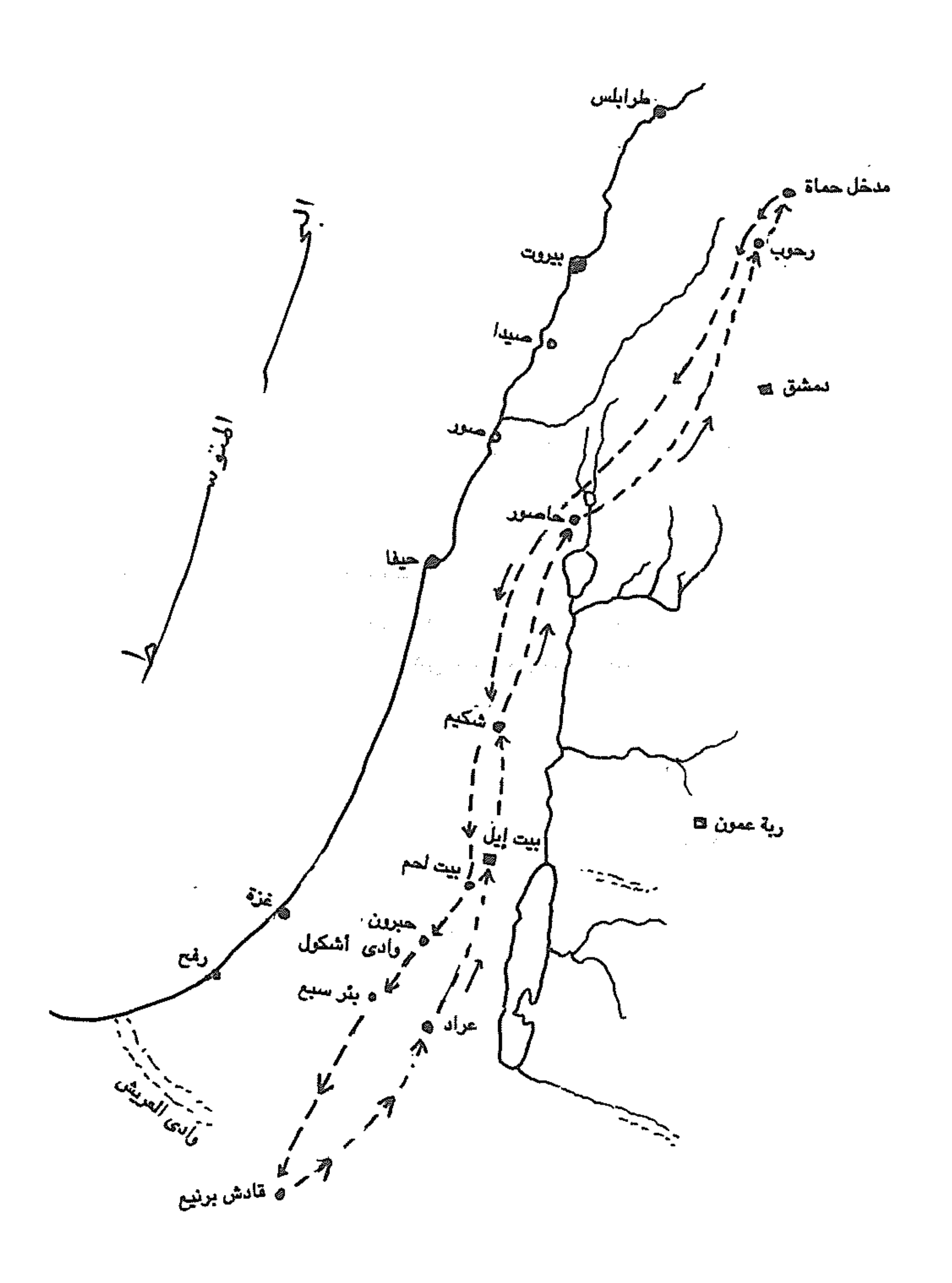
١٠ – من سبط أشير		ستور بن ميخائيل.

١١ – من سبط نفتالى		نحيى بن وفسى.

١٢ – من سبط جاد		جأوئيل بن ماكى.

وتستمر التوراة : فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان وقال لهم اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا الجبل وانظروا الأرض ماهى. والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف قليل أم كثير. وكيف هى الأرض التى هو ساكن فيها أجيدة أم رديئة. وما هى المدن التى هو ساكن فيها أمخيمات أم حصون. وتشددوا فخذوا من ثمر الأرض. وأما الأيام فكانت أيام باكورات العنب. وسار النقباء الإثنا عشر من برية فاران وعبروا برية صين إلى أرض كنعان (شكل ٢٧٩) وساروا حتى رحوب أو بيت رحوب وهى مدينة فى جنوب لبنان فى سهل البقاع ثم عادوا فى اتجاه الجنوب وأتوا إلى حبرون (مدينة الخليل الحالية) وبجوارها وادى مشهور بزراعة العنب فقطفوا عنقودا كبيرا من العنب وحملوه معهم «وعنقود العنب» بالعبرية يسمى أشكول لذلك يسمى «وادى أشكول» وأخذوا شيئا من الرمان والتين ليكون ذلك تأكيدا على خصب الأرض وغناها بالفواكه والثمار ويكون ذلك حافزا لبنى إسرائيل ومشجعا لهم على تحمل مصاعب اقتحام الأرض. وتقول التوراة (عدد ١٣ : ٢٣) وأتوا إلى وادى أشكول وقطفوا من هناك زرجونة بعنقود واحد من العنب وحملوه على عصا بين اثنين مع شىء من الرمان والتين. ويرى بعض المفسرين أنه من المستبعد أن يكون عنقود واحد بهذا الحجم بحيث يحمله اثنان على عصا والأرجح أنه كانت شجرة عنب بعناقيدها وهذا أدعى لعدم ذبول العنب حتى يعودوا. ووادى أشكول أو وادى العنب يقع جنوب غرب حبرون (الخليل) وهو من أخصب المناطق ولا يزال العنب يزرع به حتى الآن وثماره كبيرة الحجم حتى إن عنقودا من العنب يزن ٥ أو ٦ كيلو جراما يعتبر عاديا.

استغرقت بعثة التجسس ذهابا وإيابا أربعين يوما. فى هذه الأثناء كان موسى عليه السلم يقوم بمهمة الإحصاء والتعبئة استعدادا لدخول الأرض.



شكل ٢٧٩ – مسيرة الاثنى عشر نقيبا للاستطلاع داخل أرض كنعان.

١ - الإحصاء والتعبئة :

هذا هو الأمر الثانى اللازم قبل دخول أى معركة ليعرف المهاجم مدى قُوته. والعدد الكبير مصدر قوة. ولكن أهم منه هو الإيمان بالله والتوكل عليه ليتم النصر. وصحيح أن فئة قليلة قد تغلب فئة كثيرة بإذن الله إلا أن الاستعداد بالقوة الكبيرة على قدر الاستطاعة أمر مطلوب كذلك

وهكذا صدر أمر الله تعالى لموسى بعمل الإحصاء والتعبئة. تقول التوراة (سفر العدد): وكلم الرب موسى فى خيمة الاجتماع فى أول الشهر الثانى فى السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر قائلا: احصوا كل جماعة بنى إسرائيل بعشائرهم وبيوت آبائهم بعدد الأسماء كل ذكر برأسه من ابن عشرين سنة فصاعدا كل خارج للحرب فى إسرائيل. تحسبهم أنت وهارون ويكون معكما رجل من كل سبط. أما سبط لاوى فلا تعده بين بنى إسرائيل بل وكِّل اللاويين على مسكن الشهادة وجميع أمتعته. هم يحملون المسكن وكل أمتعته وهم يخدمونه وحول المسكن ينزلون. فعند ارتحال المسكن ينزله اللاويون وعند نزول المسكن يقيمه اللاويون والأجنبى (أى من غير اللاويين) الذى يقترب يقتل. وينزل بنو إسرائيل كل فى محلته. كل عند رايته بأعلام حول خيمة الاجتماع (حسب شكل ٢٨٠) وتذكر التوراة عدد الذكور أكبر من ٢٠ سنة فى كل سبط هكذا:

بنو رأوبين	٤٦,٥٠٠	بنو أفرايم	٥٤,٥٠٠
بنو شمعون	٥٩,٣٠٠	بنو منسى	٣٢,٢٠٠
بنو جاد	٤٥,٦٥٠	بنو بنيامين	٣٥,٤٠٠
بنو يهوذا	٧٤,٦٠٠	بنو دان	٦٢,٧٠٠
بنو يساكر	٥٤,٤٠٠	بنو أشير	٤١,٥٠٠
بنو زبولون	٥٧,٤٠٠	بنو نفتالى	٥٣,٤٠٠

فيكون العدد الكلى هو ٦١٧,٥٥٠ وقد أثارت هذه الأعداد الضخمة شكوكا عند بعض الباحثين عن مدى صحتها. وقد سبق أن أدرجنا (ص ٦٨٣) مسألة حسابية وكانت نتيجتها أن عدد الذكور البالغين كان يزيد قليلا عن ٢٠٠,٠٠٠. ولا يعقل أن يتم خروجهم جميعا للحرب فلاشك أن من تم تجنيدهم فعلا كانوا - على أقصى تقدير - النصف أى ١٠٠,٠٠٠. وهو عدد كبير جدا بمقاييس ذلك الوقت.

وبهذا تمت كل الترتيبات اللازمة لدخول الأرض وبقى فقط وصول النقباء الإثنى عشر لتكون المعلومات التى أتوا بها أساسا لوضع خطة الاقتحام الفعلى.

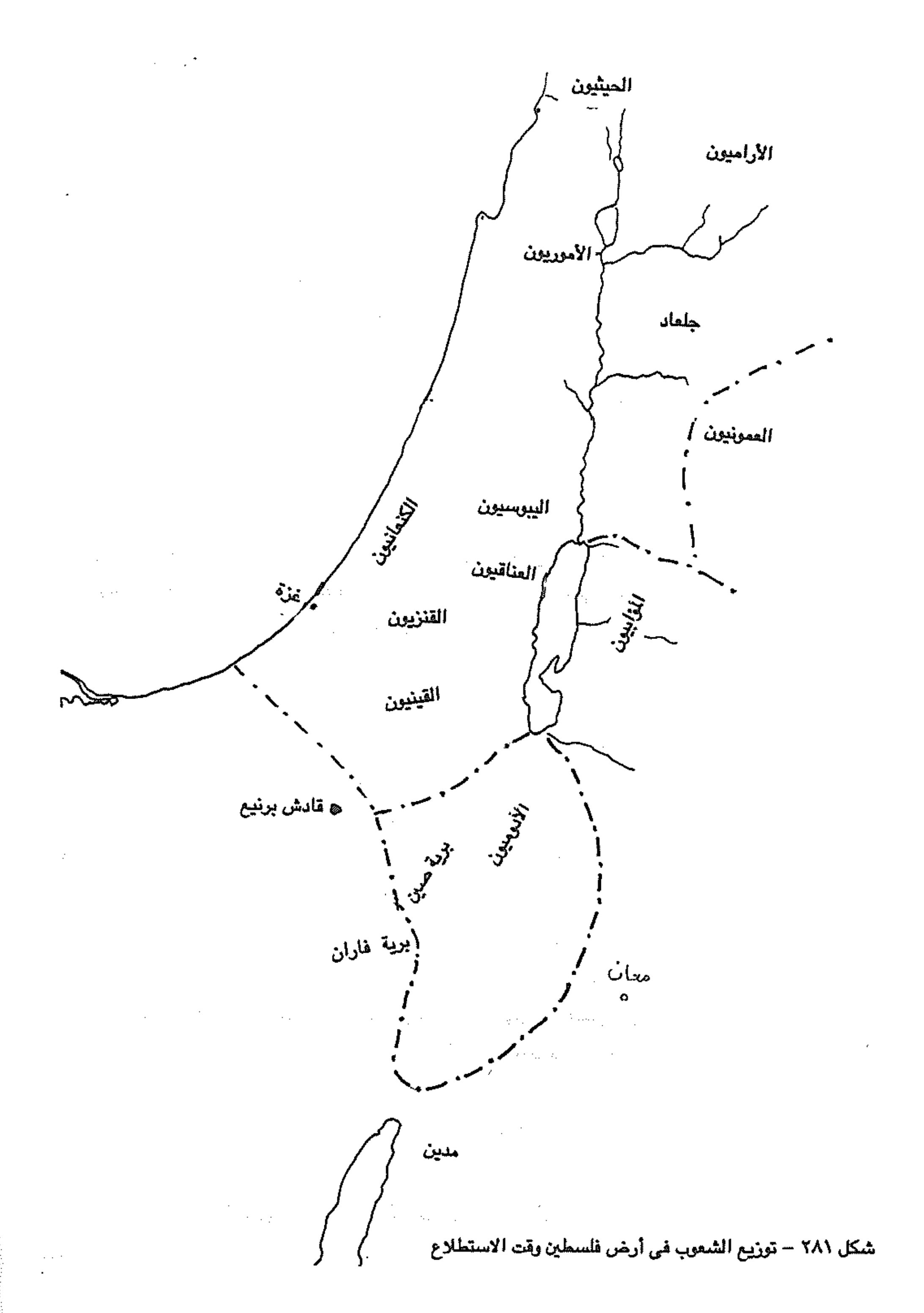
شكل ٢٨٠ – إحصاء الأسباط الأثنى عشر وتوزيعهم حول خيمة الاجتماع.

الانهزام من الداخل !

بعد أن أتم النقباء الإثنا عشر مهمتهم فى الاستطلاع عادوا بعد أربعين يوما. وتقول التوراة (عدد ١٣ : ٢٦): فساروا حتى أتوا إلى موسى وهارون وكل جماعة بنى إسرائيل فى قادش برنيع فى برية فاران وردُّوا إليهما خبرا وإلى كل الجماعة وأروهم ثمر الأرض وقالوا قد ذهبنا إلى الأرض التى أرسلتنا إليها وحقا إنها تفيض لبنا وعسلا وهذا ثمرها غير أن الشعب الساكن فى الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جدا. وأيضا قد رأينا بنى عناق هناك. العمالقة ساكنون فى أرض الجنوب والحيثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون فى الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن (شكل ٢٨١). ولكن كالب بن يفنة (نقيب سبط يهوذا) قال إننا نصعد ونمتلكها لأننا قادرون عليها. وأما الرجال الذين صعدوا معه فقالوا لا نقدر أن نصعد لأنهم أشد منا فأشاعوا مذمّة الأرض التى تجسسوها فى بنى إسرائيل قائلين الأرض التى مررنا فيها لنتجسسها هى أرض تأكل سكانها. وجميع الشعب الذى رأينا فيها أناس طوال القامة. وقد رأينا هناك الجبابرة بنى عناق من الجبابرة فكنا فى أعيننا كالجراد وهكذا كنا فى أعينهم. وتمضى التوراة فى تصوير موقف بنى إسرائيل من الدعوة لدخول الأرض هكذا (عدد ١٤): فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة وتذمّر على موسى وعلى هارون وقال لهما كل الجماعة: ليتنا متنا فى أرض مصر أو ليتنا متنا فى هذا القفر. ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف. تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة. أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر؟ فقال بعضهم لبعض نقيم رئيسا ونرجع إلى مصر. فسقط موسى وهارون هلى وجهيهما أمام كل معشر جماعة بنى إسرائيل. ويشوع بن نون وكالب بن يفنة من الذين تجسسوا الأرض مزقا ثيابهما. وكلّما كل جماعة بنى إسرائيل قائلين: الأرض التى مررنا فيها لنتجسسها الأرض جيدة جدا جدا. إن سُرّ بنا الرب يُدخلنا إلى هذه الأرض ويعطينا إياها أرضا تفيض لبنا وعسلا. إنما لا تتمردوا على الرب ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم خبزنا (أى سنأكلهم إن حاربناهم). قد زال عنهم ظلهم والرب معنا. لا تخافوهم.

ولكن جماعة بنى إسرائيل هددوا يشوع وكالب بالرجم بالحجارة لموقفهما وتحبيذهما اقتحام الأرض. وكان أكثر خوف بنى إسرائيل من بنى عناق وذريته ويُسمّون العناقيون. وقد كانوا يوصفون بالجبابرة لطول قامتهم وشدة بأسهم فى الحرب وكانوا يسكنون فى جنوب فلسطين بين القدس والخليل. وقد أشار إليهم القرآن الكريم فى قول بنى إسرائيل لموسى «**إن فيها قوما جبارين**» كما سيأتى ذكره بعد قليل وراح موسى يناشد قومه ويحثهم على دخول الأرض التى وعدها الله لهم ونهاهم عن التخاذل والنكوص عن دخولها لأنهم بذلك سيكونون من الخاسرين

«يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين». (٢١ - المائدة)



شكل ٢٨١ – توزيع الشعوب فى أرض فلسطين وقت الاستطلاع

ولكنهم لم يسمعوا لقول موسى وأصروا على موقفهم المتخاذل خوفا مما سمعوه عن بنى عناق – الجبابرة – الساكنين فيها:

«قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها. فإن يخرجوا منها فإنا داخلون». (٢٢ – المائدة)

أى أنهم اشترطوا أن يستسلم قومها أولا ويخرجوا منها وبعد ذلك يدخلون هم بسلام وهذا شيء محال إذ هو يتنافى مع سنن الله فى الكون إذ لابد من المجاهدة وسيكون الله عونا لهم فيكون النصر من نصيبهم ويدخلوا الأرض ولكنهم أرادوا أن يدخلوها بدون جهاد وبدون أى مشقة!

وهنا يشير القرآن الكريم إلى حث يشوع بن نون وكالب بن يفنة لبنى إسرائيل لدخول الأرض وأن يتوكلوا على الله وأن الله سيكون فى جانبهم يؤيدهم – إذا كانوا مؤمنين حقا – فتكون الغلبة لهم:

«قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين». (٢٣ – المائدة)

والمفهوم من كلمة «**يخافون**» أى يخافون الله. والمراد رجلان من النقباء الإثنى عشر «**أنعم الله عليهما**» بقوة فى الإيمان. ولكن بعضهم فسرها بأن المقصود رجلان من بنى إسرائيل لأن بنى إسرائيل هم الذين كانوا يخافون العدو. وآخرون تمادوا فى التفسير وقرأها «يُخافون» بضم الياء فيكون الرجلان من الجبابرة وادعوا أنهما آمنا بموسى وراحا يشجعان بنى إسرائيل. وقالوا أقوالا أخرى (تفسير الألوسى. جـ ٦ ص ١٠٧) غير مستساغة.

ولكن بنى إسرائيل ظلوا على موقفهم الرافض لدخول الأرض وأنه ما دام الجبارون – أهلها – موجودين فيها فإنهم لن يدخلوها أبداً ثم ختموا رفضهم بقول فيه استهانة واستهزاء بموسى وجرأة بالغة على الله سبحانه وتعالى:

«قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها. فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون». (٢٤ – المائدة)

وكان هذا معصية كبرى. إذ وصفهم الله – على لسان موسى – بعد ذلك بالقوم الفاسقين. وهنا أسقط في يد موسى إذ ماذا يفعل مع هذا الشعب العنيد ضعيف الهمة فاتر الإيمان أو فاقده. فلم يكن أمامه سوى أن يلجأ إلى الله ويشتكى إليه:

«قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين».

(٢٥ – المائدة)

أى أنه لا يجيبه إلا نفسه وأخيه فقط. ولعله لم يذكر الرجلين اللذين كانا يحثان بنى

إسرائيل على الدخول (يشوع وكالب) لأنها لن يزيدا من واقع الأمر شيئا أو لأنه - بعد ما رأى من تخاذل الجميع - لم يعد واثقا فى انضمامهما إليه فأفاد بما هو واثق منه: نفسه ونفس أخيه. وطلب من الله أن يقضى بينهما (هما وبنى إسرائيل) بحكمه أو أن يباعد بينهما حتى لا يلحقهما عذاب ينزله بهم.

تقول التوراة (عدد ١٤ : ١١): وقال الرب لموسى: حتى متى يُهيننى هذا الشعب وحتى متى لا يصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم. إنى أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصَيرك شعبا أكبر وأعظم منهم (أى شعبا من ذرية موسى) - ولكن موسى عليه السلام راح يتوسل إلى الله حتى لا يهلك بنى إسرائيل فقال: فالآن لتعظم قدرة سيدى. الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة. اصفح عن ذنب هذا الشعب كعظمة نعمتك - فقال الرب قد صفحت حسب قولك ولكن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجربونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولى لن يروا الأرض التى حلفت لآبائهم وجميع الذين أهانونى لا يرونها. قل لهم حىٌّ أنا يقول الرب لأفعلن بكم كما تكلمتم فى أذنى (عندما قالوا: أو ليتنا متنا فى هذا القفر). فى هذا القفر تسقط جثثكم. جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعدا الذين تذمرُّوا علىَّ. لن تدخلوا الأرض التى رفعت يدى لأسكنكم فيها ماعدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون: وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة فإنى سأدخلهم فيعرفون الأرض التى احتقرتموها. فجثثكم أنتم تسقط فى هذا القفر. وبنوكم يكونون رعاة فى القفر أربعين سنة. أنا الرب قد تكلمت. لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة. فى هذا القفر يفنون ويموتون. فمات الرجال الذين أشاعوا المذمَّة الرديئة على الأرض بالوباء وأما يشوع بن نون وكالب بن يفنة فعاشا (عدد ١٤ : ٣٨).

ويختصر القرآن الكريم هذا الموقف فى قوله تعالى:

«قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين». (٢٦-المائدة)

وقرئت بوقف بعد عليهم «محرمة عليهم» فيكون التحريم مطلقا. وتكون الأربعون سنة ظرف زمان للتيه كعقوبة أخرى. وقرئت بوقف بعد أربعين سنة فتكون الأربعون سنة هى فترة التحريم والتيه صفة لفترة التحريم المؤقت وعليهم بعد ذلك أن يدخلوها. وهذا ما حدث فعلا.

لما علم بنو إسرائيل بما حكم به الله عليهم - وهو التيه فى الصحراء أربعين سنة حتى يموت كل من نكص عن تنفيذ أمر الله بدخول الأرض. ومات بالوباء النقباء العشرة الذين تكلموا ضد اقتحام الأرض وكانوا سببا فى التخاذل. عندئذ. أدرك بنو إسرائيل أن الأمر جد فندموا. وتقول التوراة (عدد ١٤ : ٣٩): ولما تكلم موسى بهذا الكلام إلى جميع بنى إسرائيل

بكى الشعب جدا. ثم بكروا صباحا وصعدوا إلى رأس الجبل قائلين هو ذا نحن. نصعد إلى الموضع الذى قال الرب عنه فإننا قد أخطأنا فقال لهم موسى لماذا تتجاوزون قول الرب؟ فهذا لاينجح. لاتصعدوا لأن الرب ليس فى وسطكم لئلا تنهزموا أمام أعدائكم. إنكم قد إرتددتم عن الرب فالرب لا يكون معكم. لكنهم تجبروا وصعدوا إلى رأس الجبل فنزل العمالقة والكنعانيون الساكنون في ذلك الجبل وضربوهم وكسّروهم.

وهكذا أضاف بنو إسرائيل إلى عصيانهم الأول بعدم دخول الأرض عصيانا آخر بعدم الرضوخ لأمر الله ومحاولة أخذ الأرض حالا. ولما نهاهم موسى عن ذلك عزموا أن يقوموا بذلك بأنفسهم وكان من الطبيعى أن تفشل المحاولة وتقع بهم الهزيمة.

ويلخص القرآن الكريم موقف بنى إسرائيل هذا فى الآية التالية:

«ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا. وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل. فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم..».

(١٢ - المائدة)

فقد أخذ الله العهد على بنى إسرائيل وأخذ ميثاقهم «**وقال الله إنى معكم**» تكملة وخطاب إلى بنى إسرائيل - وهذا ما قاله أغلب المفسرين - ولا عبرة بضعيف القول من أنه خطاب للإثنى عشر نقيبا إذ لا يستقيم المعنى أن يكون إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وما بعدها خاصا بالإثنى عشر نقيبا فقط. فإذا كان الأمر كذلك يتبدى وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم فى جملة «**وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا**» إذ تصبح فى هذه الحالة جملة إعتراضية ويكون الهدف منها الإشارة إلى ما ورد تفصيلا فى التوراة عن أسماء هؤلاء الإثنى عشر نقيبا. ومسيرتهم وهدفهم فى استطلاع الأرض والإتيان بخبر أهلها. فالقرآن الكريم وهو أساسا كتاب هداية وإيمان لم يشأ إدراج هذه التفاصيل فأشار إليها بهذه الجملة الاعتراضية القصيرة. ولتكون عونا على فهم المضمون الإيمانى لباقى الآية - إذ كان قوله تعالى لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة عن إيمان صادق لوجب الإيمان بكل ما يأمرهم به الرسل وعليهم مؤازرتهم ومناصرتهم. هنا تأتى «**وأقرضتم الله قرض حسنا**» وجُلُّ المفسرون قالوا أى الإنفاق فى سبيل الخير. وما نراه أن القرض الحسن المقصود هنا هو الجهاد فى سبيل الله ومؤازرة موسى عليه السلام فى دعوته لهم لدخول الأرض فمن قتل. فقد جاد بروحه فى سبيل الله . وإذا كان إنفاق المال فى سبيل الله هو نوع من الإقراض لله تعالى فإن بذل الروح أعظم درجة فهو القرض الحسن. ويكون المقابل لذلك تكفير سيئاته وإدخاله فى الآخرة جنات تجرى من تحتها الأنهار. ومن عاش وقد أصيب فى جسده أو سلم فسيكفّر الله عنه سيئاته ويدخله الأرض التى وعدها

لهم. وهى غنية بالثمار وافرة المياه فهى أيضا جنات تجرى من تحتها الأنهار. وفى ختام الآية تحذير من نقض الميثاق والكفر به ومن لم ينفذه فقد ضل سواء السبيل. وفيه إشارة لما حدث من بنى اسرائيل إذ أحجموا عن مناصرة نبيهم ومؤازرته وبخلوا وضنوا بأرواحهم وقالوا «**إنا ها هنا قاعدون**» فكان هذا منهم كفرا ونقضا للميثاق. وكان جزاؤهم اللعنة «**فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم**» وتمثلت اللعنة فى حرمانهم من دخول الأرض أربعين سنة يتيهون فى الأرض.

وعاد بنو إسرائيل إلى «قادش برنيع» وبدأت سنوات التيه.

الفصل التاسع

فى التيه

مما لاشك فيه أنها كانت صدمة كبيرة لبنى إسرائيل لما علموا بأنهم قد حُكم عليهم بالبقاء فى سيناء مدة أربعين سنة أخرى. كان قد مضى عليهم منذ خروجهم من مصر سنة وحوالى أربعة أشهر وكانوا قد بدأوا يتذمرون من المعيشة فى الصحراء والوديان والجبال ويمنون أنفسهم بقرب دخول الأرض وإذا بهم يُفرض عليهم البقاء أربعين سنة كاملة فى سيناء! ولكن لم يكن أمامهم إلا الرضوخ لأمر الرب. وها هم قد جربوا أن يدخلوا الأرض رغما عن تحذيرات موسى فنالوا جزاءهم هزيمة على أيدى العمالقة والكنعانيين.

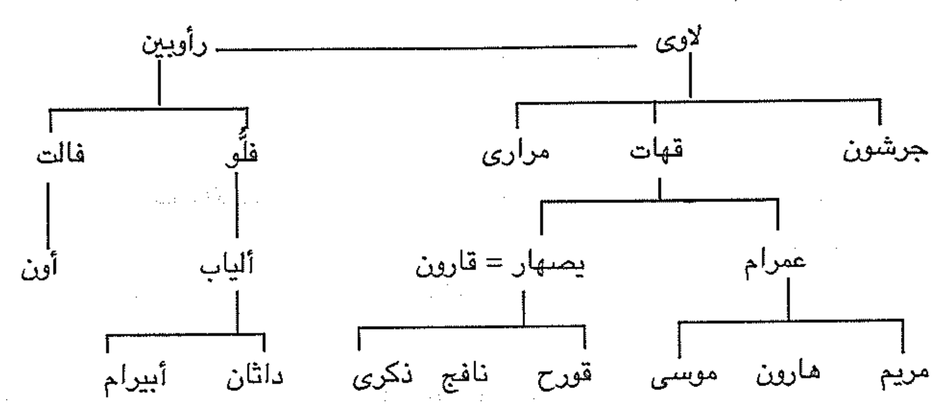
كذلك مما لاشك فيه أن موسى عليه السلام قد خاب أمله فى هذا الشعب الذى أُوكل إليه أمره. لقد كان فى ظنه أنهم – وقد ذاقوا الذل والعبودية فى مصر سنوات طويلة – سيكونون حريصين على دخول الأرض وأنه ما إن يأمرهم بذلك حتى يأخذهم الحماس لتحقيق الحلم الذى طالما راود خواطرهم ويمتثلوا لأمره. ولكنهم تخاذلوا وعصوا أمر ربهم حتى استحقوا غضبه وحكم عليهم بالتيه أربعين سنة – وهو معهم. كانت سنه تقارب الثانية والستين. أى لن يغادر سيناء إلا وقد زاد عن المائة سنتين!

عكف موسى عليه السلام على بنى إسرائيل يُرسِّخ فيهم القيم الدينية التى أنزلت. إذ الواضح أنهم لم يستوعبوها حق الاستيعاب فى السنة وعدة أشهر التى أنقضت منذ أخذ الألواح من ربه عند الجبل. ولكن ها هى السنون الطوال أمامه – أربعون سنة – فوجَّه إهتمامه كله إلى الشباب إذ هم جيل المستقبل الذى سيحمل عبء دخول الأرض ويجب أن يكون مسلحا بالإيمان الكامل. وهكذا بدأ يشرح لهم التعاليم ويفسر لهم الأحكام يعاونه فى ذلك هارون وفتاه يوشع بن نون والسبعون رجلا الذين أمره الله باختيارهم وحلَّ عليهم بهاء الرب فتنبأوا كما تقول التوراة أو أصبحوا كالحواريين وانتشروا بين جموع بنى إسرائيل يعلمونهم الكتاب ويدرِّسونه لهم ولأبنائهم وأكد موسى على بنى إسرائيل ضرورة الالتزام بالشريعة وأحكامها.

تقول التوراة (عدد ١٥:٣٢) ولما كان بنو إسرائيل فى البرية وجدوا رجلا يحتطب حطبا فى يوم السبت فقدمه الذين وجدوه إلى موسى وهارون فوضعوه فى المحرس لأنهم لم يعرفوا ماذا يُفعل به. (لم تكن قد نزلت بعد العقوبة المقررة لمن يعمل يوم السبت) فقال الرب لموسى: قتلا يقتل الرجل. يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة. فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة فمات كما أمر الرب.

ثورة قورح :

لقد سبق أن ذكرنا (ص ٨٧٠) شجرة نسب أبناء لاوى بن يعقوب عليه السلام ومنها يتضح أن قارون (يصهار) هو أبو قورح. ولا بأس من إعادة شجرة النسب ثانية مع توسيعها بعض الشيء لنعلم من انضم إلى قورح فى ثورته.



كان قارون هو عم موسى – فقورح هو ابن عم موسى. وذكرنا ماحدث لقارون من خسف الأرض به وبداره وماكان بها من كنوز. وحُرِمَ ابنه قورح من الثروة التى كان يمنِّى نفسه بالتمتع بها بعد وفاة والده وأحدث ذلك جرحا غائرا فى نفسه ولكنه كتمه. ولما صدر أمر الخروج خرج مع بنى إسرائيل إذ لم يعد يربطة شىء بأرض مصر. ولعله كان يمنى نفسه طوال المسيرة فى سيناء أنه ما إن يصل إلى «الأرض الجديدة» حتى يعمل بهمة ونشاط – كما فعل والده من قبل – ولا بأس من التعاون مع سكان الأرض – حتى يُكوِّن ثروة أخرى. ولكن ها قد تأخر دخول الأرض لا سنة واحدة أو اثنتين. بل أربعين سنة. هنا تحركت الأفعى داخله وراحت تبث سمومها فأفرزت سخطا على موسى وعلى قيادته. لاندرى إن كان قد بدأ يفكر فى العودة بالشعب إلى أرض مصر ثانية ويسلمه إلى فرعون مصر ويعمل نفس الدور الذى عمله والده ويكنز الأموال. المهم أن الثورة على موسى اختمرت فى رأسه وراح يجمع حوله الأعوان. ولئن كانت هذه دوافعه فقد كان لمن جمعهم حوله دوافعهم. فإن داثان وأبيرام وأون هم من نسل رأوبين. الابن البكر ليعقوب. ويشعرون أنهم أولى من موسى بالمكان الممتاز فى الشعب.

تقول التوراة (عدد ١٦:١) وأخذ قورح بن يصهار بن قهات بن لاوى وداثان وأبيرام ابنا ألياب وأون بن فالت بنو رأوبين يقاومون موسى مع أناس من بنى إسرائيل ٢٥٠ رؤساء الجماعة. فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما: كفاكما. إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفى وسطها الرب فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب. فلما سمع موسى سقط على وجهه ثم كلم قورح وجميع قومه قائلا غدا يعلن الرب من هو له ومن المقدَّس حتى يقربه إليه. افعلوا هذا. خذوا لكم مجامر. قورح وكل جماعته واجعلوا فيها نارا وضعوا عليها بخورا أمام الرب غدا

فالرجل الذى يختاره الرب هو المقدَّس. وواضح من شجرة النسب أن قورح هو واحد من اللاويين الذين اختارهم الرب لخدمة المسكن وخيمة الإجتماع ولكنه كان يطمع فى الكهانة أيضا – ولذلك قال موسى موجها الكلام لقورح ومن التف حوله من اللاويين: أقليل عليكم أن إله إسرائيل أفرزكم من جماعة إسرائيل ليقربكم إليه لكى تعملوا خدمة مسكن الرب وتطلبون أيضا كهنوتا؟ وأرسل موسى فى طلب داثان وأبيرام ليسمع منهما فرفضا القدوم إليه وأرسلا يقولان: أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبنا وعسلا لتميتنا فى البرية حتى تترأس علينا كذلك لم تأت بنا إلى أرض تفيض لبنا وعسلاً ولا أعطيتنا نصيب حقول وكروم.

واغتاظ موسى وطلب من قورح وجماعته أن يأخذوا مجامرهم كما أمر. ففعلوا واجتمعوا أمام باب خيمة الاجتماع. فتراءى مجد الرب على الجماعة وكلم موسى وهارون قائلا ابتعدوا عن هذه الجماعة فإنى أفنيهم فى لحظة وكلَّم الشعب قائلا اطلعوا من حوالى مسكن قورح وداثان وأبيرام. فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التى تحتهم وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال وانطبقت عليهم الأرض وبادوا. وخرجت نار من عند الرب وأكلت الـ ٢٥٠ رجلا الذين قرَّبوا البخور. وأُمر أن يأخذ أليعازار بن هارون المجامر التى كانت فى أيديهم ويعملها صفائح مطروقة غشاء للمذبح فتكون علامة لبنى إسرائيل أى تذكرة لكل من تسوِّل له نفسه التمرد على موسى وهارون وقيادتهما.

وبدأت جماعة من بنى إسرائيل من الأسباط الأخرى تتذمر وتتهم موسى وهارون قائلين: أنتما قتلتما شعب الرب. فحل عليهم غضب الرب. وفشا بينهم وباء يميتهم فأمر موسى هارون بأن يأخذ مجمرته ويجعل فيها نارا من على المذبح وبخورا ويسرع إلى وسط الجماعة ليكفِّر عنهم فامتنع الوباء بعد أن مات ١٤,٧٠٠ أربعة عشر ألف وسبعمائة عدا الذين ماتوا مع قورح بانخساف الأرض والـ ٢٥٠ الذين أكلتهم النار أمام باب خيمة الاجتماع.

وهكذا انتهى التمرد الذى قاده قورح ضد موسى وهارون. وكأنما أراد الله أن يُظهر حق هارون فى الكهنوت لباقى الأسباط بطريقة عملية. فأمر أن تؤخذ عِصِىّ على عدد الأسباط – ١٢ عصا – ويكتب اسم كل سبط على عصاه ويكتب اسم هارون علِى عصا سبط لاوى ثم توضع العصى فى خيمة الاجتماع أمام التابوت فالرجل الذى تخضرُّ عصاه يكون هو الذى اختاره الرب. ففعلوا كذلك. وفى اليوم التالى أخرج موسى العصىّ ليشاهدها جميع بنى إسرائيل فرأوا أن عصا هارون قد اخضرَّت وأزهرت وأنتجت لوزا. وقال الرب لموسى رُدَّ عصا هارون إلى أمام تابوت الشهادة لأجل الحفظ علامة لبنى التمرد فتكُفَّ تذمراتهم. فوُضِعت عصا هارون التى أفرخت داخل التابوت.

وأطمأن موسى إلى أن بنى إسرائيل – بعد هذا الدرس القاسى – لن يحاولوا التمرد على هارون أو عصيانه كما فعلوا حينما استخلفه فيهم من قبل عندما ذهب لميقات الأربعين يوما مع ربه فعبدوا العجل.

منازل التيه :

استمر بنو إسرائيل يرتحلون فى سيناء وتذكر التوراة (عدد ٣٣:١٧-٣٧) أسماء الأماكن التى نزلوا فيها وهى تربو على ٢٠ منزلا لم يتمكن الجغرافيون أو علماء الآثار من تحديد موقعها على الخريطة الجغرافية. ذلك أنها لم تكن قرى تُسكن سكنا دائما. بل كانت منازل ينزلون بها ويعطونها إسما ثم يرتحلون إلى غيرها. وقد وردت فقرة فى التوراة (تثنية ٢:١٤) تقول: والأيام التى سرناها من قادش برنيع حتى عبرنا وادى زارد كانت ٣٨ سنة حتى فنى كل الجيل رجال الحرب من وسط المحلة كما أقسم الرب. وقد فهم البعض معنى هذه الفقرة على أن بنى إسرائيل أمضوا هذه الـ ٣٨ سنة فى قادش برنيع. وفى رأينا أن هذا فهم خاطىء لأن الفقرة تشير إلى مكان بدء التيه من قادش برفيع - وحينما قاربت الأربعون سنة على الانتهاء كانوا عند وادى زارد. أما ما بين هاتين النقطتين فلا تشير إليه هذه الفقرة. والحقيقة أنه يستحيل أن تتوافر مقومات الحياة لكل هذا العدد (٦٠٠,٠٠٠) أو المراعى اللازمة لمواشيهم فى بقعة محدودة كهذه. بل لابد من الارتحال الدائم وراء الكلأ للماشية فجابوا سيناء من شمالها إلى جنوبها. ومما لاشك فيه أن أياً من هذه المنازل ماكانت لتزيد الإقامة فيه عن عامين. وحالما كانوا ينزلون فى منزلٍ كان بنو لاوى يقيمون المسكن وخيمة الاجتماع لنزول الوحى على موسى عليه السلام ولإقامة العبادات والطقوس الدينية الأخرى ولاحتفالات الأعياد. وحينما ينوون الرحيل يتم فك الدار وخيمة الاجتماع ويحملها بنو لاوى ويسير الركب كله حتى يروا منزلا آخر يستقرون به عاما أو عامين.

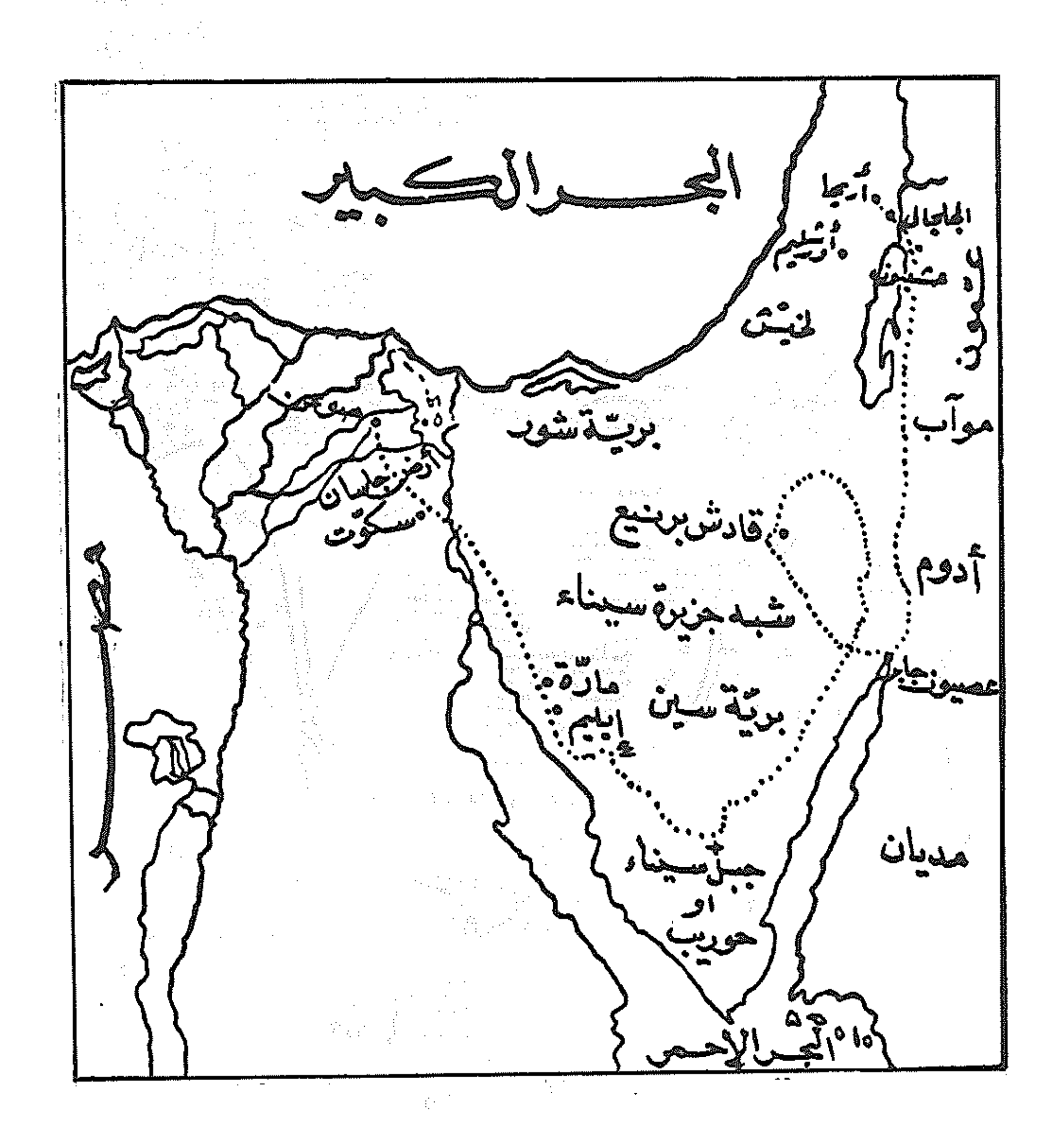
ويختلف علماء الأثار والتاريخ فى تقديراتهم لمواقع الأماكن التى نزل بها بنو إسرائيل أثناء وجودهم فى سيناء وبذلك يختلف خط السير المذكور فى كتاب عن كتاب آخر ويمكن تصنيف خطوط السير المختلفة إلى مجموعتين: الأولى يمكن تسميتها بنظريات التمركز حول قادش برنيع والثانية يمكن تسميتها بنظريات التيه فى كل سيناء.

أ - التمركز حول قادش برنيع :

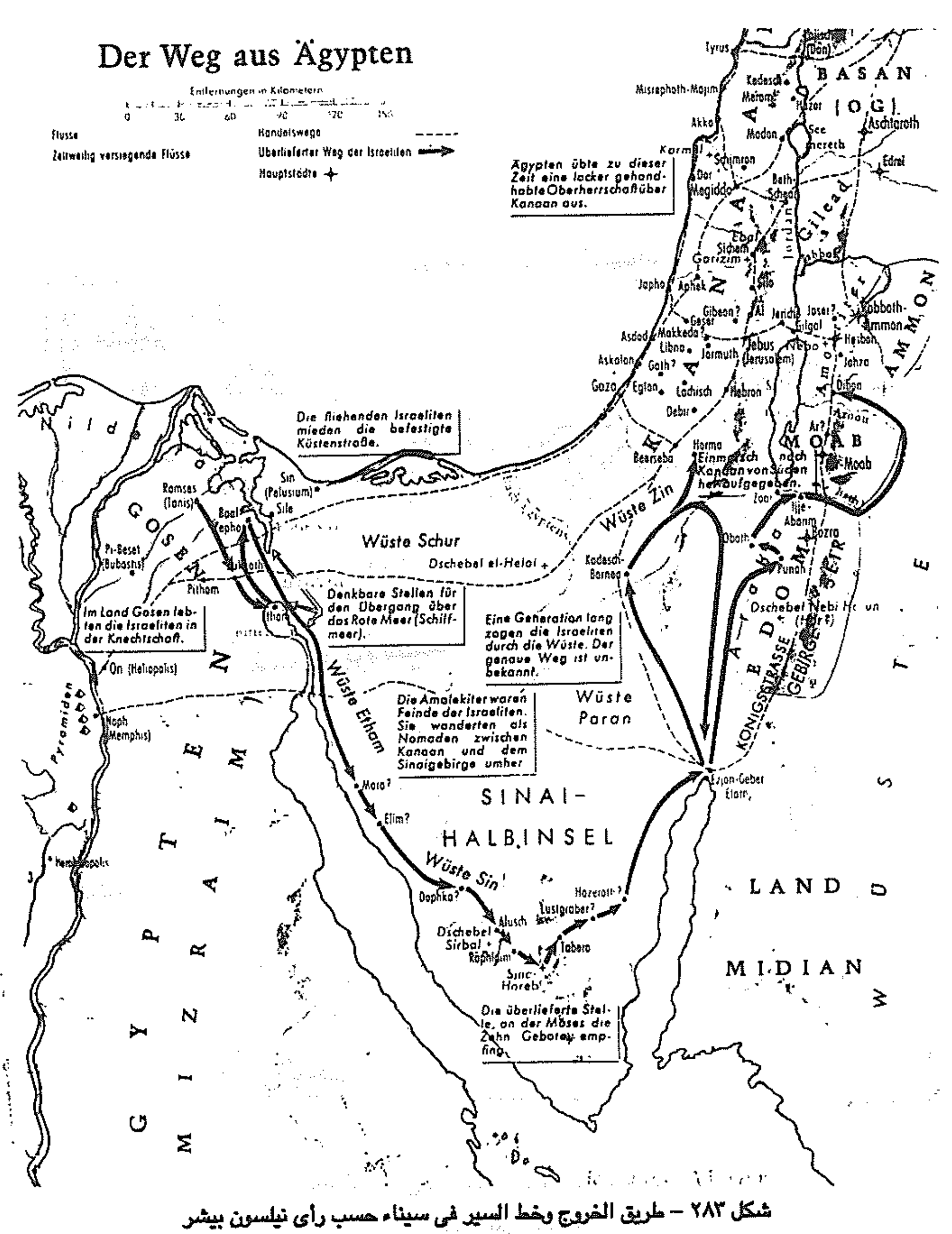
يرى أصحاب هذه النظريات - كما سبق أن ذكرنا آنفا أن بنى إسرائيل أمضوا معظم الوقت - ٣٨ سنة - متخذين من قادش برنيع مركزا لهم يتجولون حولها في البرية. ويتبنى هذا الرأى.

١ - **قاموس الكتاب المقدس** (جماعة اللاهوتيين ص٢٣٨). وخط السير من وجهة نظرهم مبين فى شكل ٢٨٢. وهو يسير فى دائرة بعكس عقارب الساعة.

٢ - نيلسون بيشر (The Story of the Bible, p.29) وهو تقريبا نفس المسار السابق إلاَّ أنه يعكس اتجاه السير فيجعله مع عقارب الساعة (شكل ٢٨٣).



شكل ٢٨٢ – خط السير فى سيناء كما ورد فى تفسير الكتاب المقدس
(تأليف جماعة اللاهوتيين – ص ٢٣٨).



شكل ٢٨٣ – طريق الخروج وخط السير فى سيناء حسب رأى نيلسون بيشر
فى كتابه The Story of the Bible
النسخة الألمانى – ص ٢٩

٣ - **ميريل أونجر** Merril F.Unger (قاموس الكتاب المقدس ص ٣٧١ . ٣٨٤) وهو نفس خط السير - كما هو مبين فى شكل ٢٨٤ . وإن لم يوضح عليه اتجاه الدوران.

وهذه الآراء الثلاثة تقول إن بنى إسرائيل قد أمضوا ٣٨ عاما حول قادش برنيع استنادا إلى فقرة التوراة التى ذكرناها أعلاه (تثنية ٢:١٤). ويشرح أونجر سنوات التيه بأن بنى إسرائيل انتشروا فى المنطقة حول قادش برنيع يتجولون فيها كجماعات متفرقة ثم تلاقى الجميع ثانية فى قادش برنيع مستندا إلى الفقرة (عدد ٢٠:١) وأتى بنو إسرائيل إلى الجماعة كلها **وأقام الشعب فى قادش وماتت مريم ودفنت هناك**. وهذا كان فى نهاية سنوات التيه. وكما قلنا سابقا إن ذلك لا يعنى أن بنى إسرائيل ظلوا فى قادش برنيع طوال الـ ٣٨ سنة. كما أن التوراة (عدد ٣٣:١٤) قد ذكرت حوالى ٢٠ منزلا نزلها بنو إسرائيل فى سيناء ولا يمكن تصوٌر وضع جميع هذه الأماكن على الخط الموصل من قادش برنيع إلى عصيون جابر على الطرف الشمالى لخليج العقبه. كما لا يمكن تصوٌر النزول بها جميعا فى فترة السنتين الباقيتين من سنوات التيه إذ أن ذلك يعنى أن إقامتهم فى أى منها ماكانت لتزيد عن شهرين وهذا مستحيل عمليا . وهو مايجعل النظريات الأخرى أكثر قبولا وهى مايمكن تسميتها:

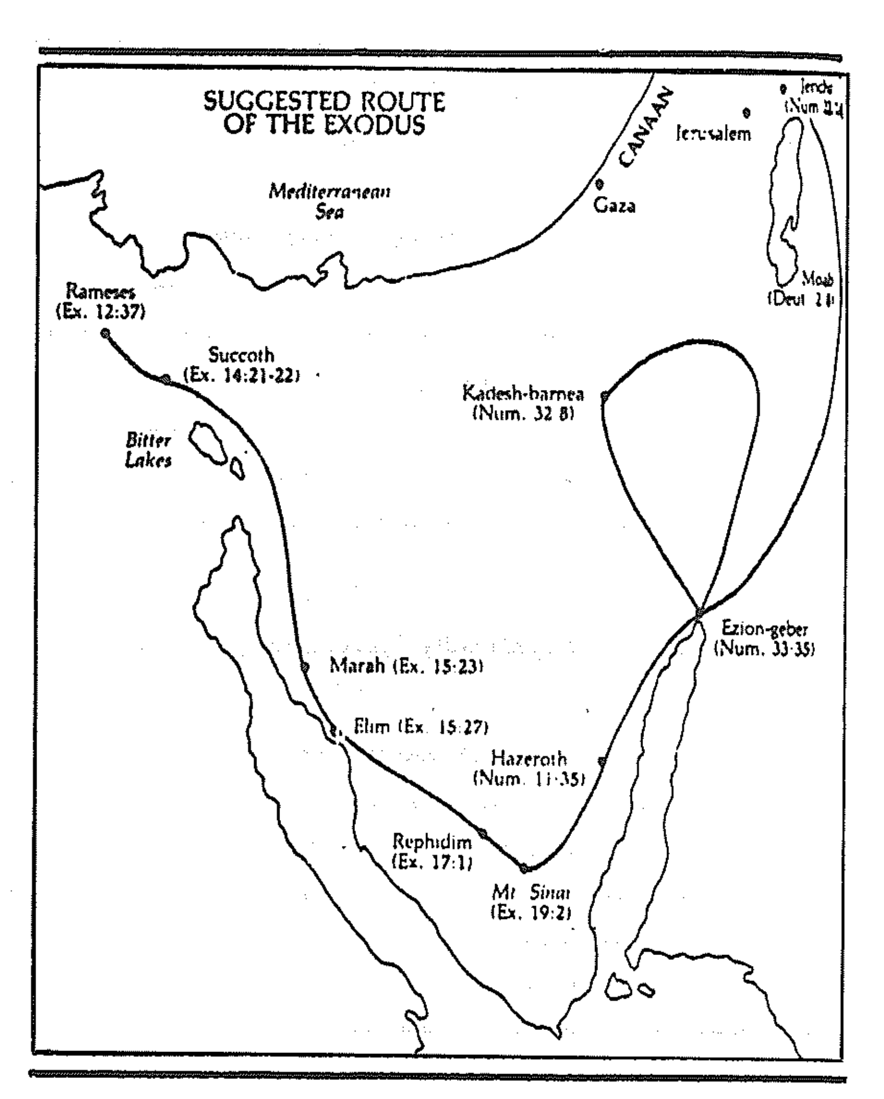
ب - نظريات التيه فى كل سيناء :

ولغويا تاه فى الأرض ضل وذهب متحيرا . والتيه المفازة لا علامة فيها يُهتدى بها (المعجم الوسيط جـ١ ص٩٢). وجاء فى القرآن الكريم:

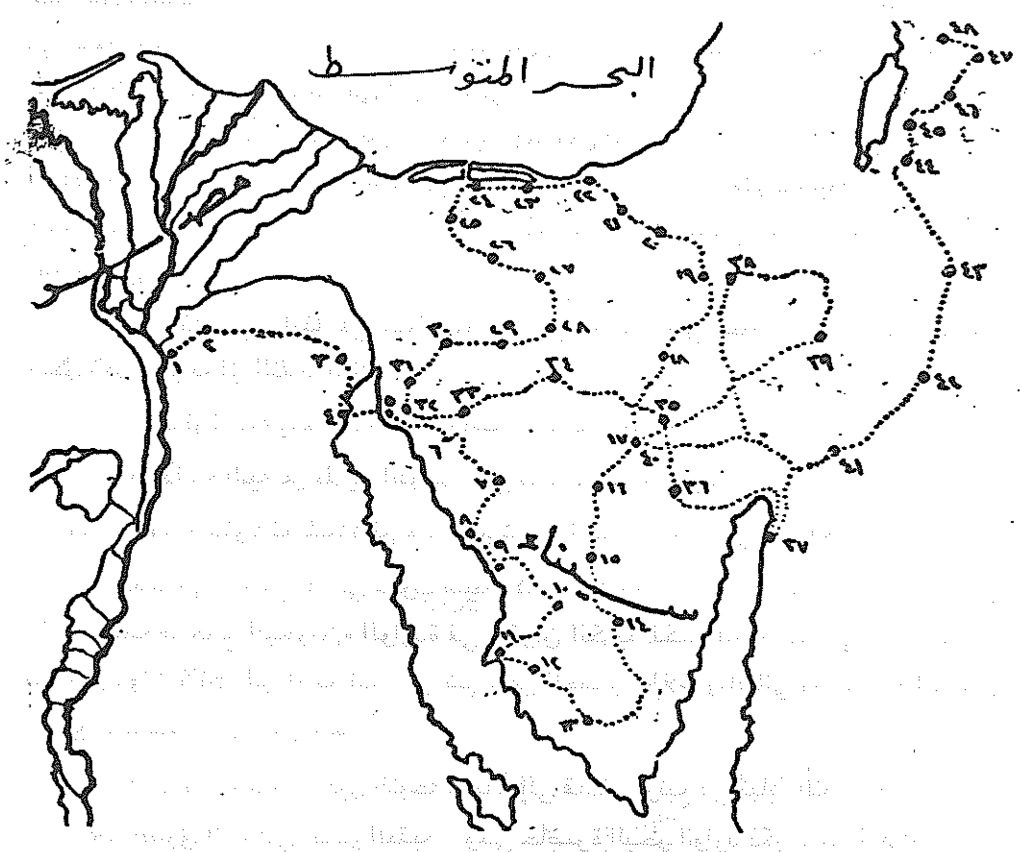
«فإنها محرمة عليهم أربعين سنة. يتيهون فى الأرض». (٢٦ - المائدة)

والتمركز حول مدينة معينة لا يعتبر تيها فضلا عن أن مدينة قادش برنيع تقع على طريق القوافل فلا تعتبر تيها . كما أن ذلك قد يُغرى بتسرب بعض الأفراد أو الجماعات - مع القوافل - إلى البلدان المجاورة وخاصة لطول المدة - ٤٠ عاما - وهذا ماكان موسى عليه السلام - بلاشك - يحرص على عدم حدوثه. لذلك فإنه بعد أن رفض بنو إسرائيل دخول الأرض وفُرض عليهم التيه فإنه قادهم من قادش برنيع إلى صحراء سيناء الواسعة. ومعالمها متشابهة ومن البديهى أن عمود الدخان وعمود النار اللذين كانا يهديانهم الطريق - كما يقولون - قد اختفيا . فظلوا يدورون فى الوديان والسهول بين الجبال على غير هدى حتى إذا قاربت السنوات الأربعون على الانتهاء هداهم الله إلى طريق قادش برنيع ثانية لدخول الأرض من الجنوب كما كانت خطتهم.

١ - **فى هذا الإطار تأتى نظرية الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم** (مصر والشرق الأدنى القديم. جـ٥ ص١٦٤) والمسيرة كما ارتآها موضحة فى شكل ٢٨٥ . واعتراضنا عليها يتمثل فى جعله معظم منازل التيه فى شمال سيناء الذى تخترقه كثير من طرق القوافل. مما يعرِّض بنى إسرائيل لاكتشاف أمرهم وسهولة تتبعهم بقوات الفرعون الجديد (مرنبتاح أو



شكل ٢٨٤ – المسيرة فى سيناء كما يراها أونجر ميريل
وهى تشبه شكل ٢٨٣ لنيسلون بيشر.



شكل ٢٨٥ – طريق الخروج ومسيرة سيناء والتيه حسب رأى الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم . (مصر والشرق الأدنى القديم جـ٥ ص ١٦٤).

١ – بررعمسيس
٢ – سكوت
٣ – ايثام
٤ – فم الحيروث
٥ – برية شور
٦ – برية ايثام
٧ – مـارة
٨ – ايليـم
٩ – البحر الأحمر
١٠ – برية سين
١١ – دفقة
١٢ – الوش
١٣ – رفيديم
١٤ – جبل سيناء
١٥ – برية فاران
١٦ – تابيراه = تبعيرة
١٧ – كبروت حتاوة
١٨ – حضيروت
١٩ – قادش برنيع
٢٠ – رمون باريز
٢١ – لبنة
٢٢ – رصة
٢٣ – كهلاتة = قهيلاتة
٢٤ – جبل شافار
٢٥ – حرادة
٢٦ – ماكيلوث
٢٧ – طهات
٢٨ – طرح
٢٩ – متكة
٣٠ – حمشونة
٣١ – بيروت
٣٢ – موسيروث
٣٣ – بانيا (بنى يعقان)
٣٤ – هوجا جدجاد (جنجدة)
٣٥ – يوتباثة اتيباثة
٣٦ – ابرونا
٣٧ – عزيون جابر
٣٨ – قادش برنيع
٣٩ – جبل هور
٤٠ – كبروت حتاوة
٤١ – زلمونة
٤٢ – بونون
٤٣ – أوبوت
٤٤ – تيم
٤٥ – وادى زرد
٤٦ – أر
٤٧ – ياهص
٤٨ – يزجة

خلفاؤه) وإعادتهم إلى مصر أو القضاء عليهم وخاصة أن كتب التاريخ تذكر أن مرنبتاح قد جرَّد فى السنة الخامسة من حكمه حملة إلى فلسطين ولو كانت منازلهم فى شمال سيناء لكان قد عرف مكانهم ولكان ما ادعاه فى اللوح المعروف باسمه من إبادته لبذرة بنى إسرائيل – قد حدث فعلا ولكان قد قُضِىَ على بنى إسرائيل ولما كان لهم ذكر بعد ذلك – أو على الأقل لكان قد أعادهم إلى مصر. ولكن لأن منازلهم فى التيه كانت فى وسط وجنوب سيناء فقد عَمِىَ عن مكانهم وكانوا بعيدين عن متناول يده وكان ما ذُكر فى لوح مرنبتاح مجرد ادعاء وتفاخر من النوع المعروف عن الفراعنة.

٢ – من هنا يأتى **رأينا فى خط سير بنى إسرائيل فى سيناء** كما هو موضح فى شكل ٢٨٦ وهو يحقق النقاط التالية:

أ – سعة دائرة التيه بحيث يمكن أن توضع عليها جميع الأماكن التى وردت فى التوراة.

ب – بعد دائرة التيه عن طريق القوافل حتى تأمن مطاردة الفراعين.

حـ – الاتجاه جنوبا ثم شمالا ثم جنوبا ثم شمالا ثانية وهو ما يعنى تيها فعليا.

د – جعلنا قهيلاته فى أقصى جنوب سيناء لأن قهيلاته تعنى بالعبرية «مجمع» وبهذا ينطبق عليها كلمة «مجمع البحرين» الواردة فى القرآن الكريم لمكان إلتقاء موسى عليه السلام بالخضر، وإن كانت التوراة لم تذكر أى شىء عن الخضر إطلاقا وبالتالى فإن جميع المؤرخين الغربيين لم يذكروا أى شيىء عنه.

هـ – كانت آخر محطة – قبل التوجه شمالا إلى قادش برنيع فى نهاية التيه – هى عصيون جابر عند الطرق الشمالى لخليج العقبة – وهى حاضرة البحر الوارد ذكرها فى القرآن الكريم – وأهلها الذين اعتدوا على حرمة يوم السبت فمسخوا قردة وخنازير – وبالطبع لا نتوقع أن يذكر أهل الكتاب ذلك الأمر بل تجاهلوه كلية.

لذلك فإن ما نراه فى طريق السير فى سيناء يحقق أكبر قدر من الحقائق الدينية الثابتة فى القرآن الكريم ويحقق أكبر عدد من الأماكن التاريخية الواردة فى التوراة.

نعود ثانية إلى بنى إسرائيل فى قادش برنيع وقد رفضوا دخول الأرض وحُكِم عليهم بالتيه. وكانت ثورة التمرد التى تزعمها قورح وتم القضاء عليها كما سبق ذكره.

بعد ذلك ارتحل بنو إسرائيل – بقيادة موسى عليه السلام – جنوبا فوصلوا إلى **«رثمة»** وهى تقع إلى الشمال قليلا من «عين خضراء» أو «عين الأخضر» الحالية التى تقع حوالى ٤٠كم شمال جبل موسى وفيها حدثت قصة البقرة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم وسميت باسمها أول سورة بعد الفاتحة.



شكل ٢٨٦ – المسيرة فى سيناء فى فترة التيه كما يراها مؤلف هذا الكتاب .

قصة البقرة :

جاءت قصة البقرة فى القرآن الكريم مبتدئة بقوله تعالى :

«وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة..».

(٦٧ - البقرة)

والقصة حسب تسلسلها الزمنى كما وردت فى كتب التفاسير (وعلى سبيل المثال، تفسير ابن كثير جـ١ ص١٠٨) قال عبيدة السلمانى: كان رجل من بنى إسرائيل عقيما لا ولد له وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح عليهم حتى تسلَّحوا وركب بعضهم على بعض فقال ذوو الرأى منهم والنهى: علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا إلى موسى عليه السلام يسألونه المشورة:

«وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ماكنتم تكتمون».

(٧٢ - البقرة)

فلما جاءوا إلى موسى عليه السلام قال لهم :

«إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة». (٦٧ - البقرة)

لقد جاءوا يسألونه بشأن قتيل لم يعرفوا قاتله فكانت الإجابة على غير ماتوقعوا إذ قال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة!! وظاهر الأمر أنه لا علاقة بما جاءوا يسألونه عنه وذبح البقرة أو هكذا بدا لهم، والمؤمنون حقا - مادام نبيهم يقول لهم إن الله يأمركم بكذا فليس لهم أن يبحثوا فى الرابطة بين هذا وذاك، بل الواجب عليهم أن يسارعوا إلى تنفيذ ما أمر الله به، وذلك ماجاء فى قوله تعالى:

«إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون». (٥١ - ٥٢ النور)

صحيح أن هذه الآية نزلت فى المنافقين فى المدينة إلا أنها - مثل كثير من آى القرآن الكريم - تقرر قاعدة عامة للعلاقة بين المؤمنين ورسولهم فى كل زمان ومكان، وهكذا كان على بنى إسرائيل وقد احتكموا إلى موسى - رسولهم - وقال لهم إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة - أن يقولوا سمعنا وأطعنا ويذبحوا بقرة - أى بقرة - وينتظروا بعد ذلك مايشير به رسولهم. ولكن اللجاجة والجدل طبع فى بنى إسرائيل وخلق من أخلاقهم ولعله الخوف من أن يصيبهم مكروه من ذبح البقرة لما علق فى نفسوهم من تقديس المصريين لها. فقالوا لموسى: أتسخر بنا. وماكان لرسولٍ أن يسخر من قومه، وخاصة أن الموقف موقف جدٍّ. قتيل لم يعرف قاتله والقوم على وشك الاقتتال. لهذا نفى موسى عليه السلام ذلك عن نفسه فقال معاذ الله أن أكون كما توهمتم لأن من يسخر فى مثل هذا الموقف لاشك يكون من الجاهلين.

«قالوا أتتخذنا هُزوًا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين».

(٦٧ - البقرة)

كان الواجب - وقد أكد لهم أن الأمر ليس فيه هزل وأن هذا فعلا أمر من الله. أن يبادروا إلى تنفيذ الأمر. ولكنهم بطبيعتهم المراوغة لم يصدقوه فى قرارة أنفسهم للمرة الثانية وأرادوا أن يستوثقوا. فكان سؤالهم الثانى دالا على سوء أدبهم فى مخاطبة نبيهم إذ قالوا ادع لنا ربك. بدلا من أن يقولوا ادع لنا ربنا أو ادع لنا الرب. فكأنهم قالوا فى أنفسهم إن كان هناك أمر فهو من ربك أنت فادعوه يبين لنا ماهية هذه البقرة. هل هى بقرة عادية أم لها مواصفات خاصة.

«قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى». (من الآية ٦٨ - البقرة)

فأجابهم بأن الله يقول لهم إنها بقرة **«لا فارض»** وهو اسم للمُسنَّة التى انقطعت ولادتها من الكبر. **«ولا بكر»** أى الصغيرة التى لم تلد. متوسطة بين هذا وذاك أى عوان بينهما. وهى التى ولدت بطنا أو بطنين.

قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون».

(٦٨ - البقرة)

كان المفروض وقد قال لهم نبيهم **«فافعلوا ماتؤمرون»** أن يسارعوا ويذبحوا أى بقرة متوسطة العمر. وهذا أمر هين إذ البقر المتوسط العمر كثير. ولكن بنى إسرائيل عادوا إلى تعنتهم - لشكهم فى جدية الأمر - فسألوه عن لونها.

«قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها». (من الآية ٦٩ - البقرة)

وهنا كان الجزاء من نفس العمل. فماداموا يتشددون فقد رد الله عليهم بتشدد أيضا. ولكنه لم يكن تشددا مرهقا لهم. فالبقر الأصفر كثير. صحيح أن هناك اللون البنى والأبيض والأسود والأحمر. والأصفر موجود ولكنه قليل والأصفر الفاقع موجود ولكن بدرجة أقل وخاصة لو كان صفارها يسر من ينظر إليها.

«قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين».

(٦٩ - البقرة)

إلى هنا وكان الواجب أن يذبحوا أى بقرة صفراء فاقعة اللون ولكن التعنت وصل بهم إلى درجة أن سألوا موسى عليه السلام للمرة الثالثة وطلبوا تبيانا أوضح بأن تذكر أوصاف أخرى:

«قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون». (٧٠ - البقرة)

قال المفسِّرون إنه لولا قولهم **«وإنا إن شاء الله لمهتدون»** وأرجعوا الاهتداء إلى مشيئة الله لما اهتدوا أبدا. وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: لو لم يستثنوا لما تبينت لهم آخر الأبد (تفسير الألوسى جـ١ ص ٢٩٠).

قال لهم موسى عليه السلام إن الله يقول إنها بقرة ليست مذللة بالحراثة. ذلك أن البقرة إذا حرثت الأرض ثار تراب وغطى جلد البقرة وبان الشقاء والذل عليها فأصبحت ذلولا ولكن هذه البقرة **«لا ذلول»**. وهى أيضا ليست مُعدَّة للعمل فى السواقى لتسقى الحرث والزرع **«ولا تسقى الحرث»**. كما أنها سالمة صحيحة لا عيب فيها وليس فيها ما يشوهها «لا شيه فيها» أى ليست فيها بقع بيضاء ولا سوداء ولا حمراء وهذا يتفق مع ما وصفت به قبلا من أنها صفراء فاقع لونها تسر الناظرين.

«قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مُسلَّمة لا شيَة فيها. قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وماكادوا يفعلون». (٧١ - البقرة)

أدركوا أنهم أكثروا من طلب الأوصاف فأصبح الأمر صعبا. فالبقر كله للحرث وسقى الأرض وما من بقرة إلا وفيها بقعة من لون آخر. وأنهم بكثرة أسئلتهم قد صَعَّبوا الأمر على أنفسهم. فبدأوا فى البحث عن البقرة التى تنطبق عليها هذه الأوصاف. قالوا وجدوها - بعد الجهد والمشقة - عند يتيم بار بوالدته واشتروها منه بثمن غالٍ. ومن المبالغات ما قيل من أنهم اشتروها بملء جلدها دنانير أو بوزنها ذهباً أو غير ذلك. وقولهم لموسى عليه السلام **«الآن جئت بالحق»** يدل على عدم توقيرهم الكامل لنبيهم كأن ماقاله لهم من قبل كان باطلا. وإن كان بعضهم يرى أن المعنى هو أن ماسبق لم يُظهر الحق كمال الظهور أما الآن فقد كملت الأوصاف. فلما وجدوا البقرة واشتروها ذبحوها. وقيل كانوا مترددين فى ذبحها خوفا من الفضيحة على أنفسهم فى معرفة القاتل منهم.

بعد ذلك تجيء الآية التى تذكر سبب هذه القصة:

«وإذ قتلتم نفسا فادَّارأتم فيها والله مخرج ماكنتم تكتمون». (٧٢ - البقرة)

وما داموا قد احتكموا إلى نبيهم ليسأل الله حتى يُعرف القاتل. فإن الله سيوضح لهم الحقيقة وسيخرج لهم ما كان يكتمه أهل القاتل ومن كانوا يتستَّرون عليه ويريدون أن يلقوا بالتهمة على رجل آخر. وقال الله تعالى لهم اضربوه بجزء من لحم البقرة - أى جزء منها أى ببعضها ولم يكن تحديد الجزء مُهِمًا فالمعجزة حاصلة بأمر الله من إحياء القتيل عند ضربه ببعضها. قال السدى فضربوه ببعضها فعاش القتيل وقال قتلنى فلان. قال آخرون قتلنى فلان ابن أخى. ثم مات ثانية.

«فقلنا اضربوه ببعضها. كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون».

(٧٣ - البقرة)

ولعل بعضا من بنى إسرائيل كانوا يشكُّون فى البعث بعد الممات فأراد الله أن يجعل من هذه الحادثة مجالا لإظهار قدرة الله سبحانه وتعالى على إحياء الموتى أو لعلهم أخبروا بأن القتيل هو الذى سيخبر باسم قاتله فلم يصدقوا أنه يحيا بعد موته. ولما كان الإحياء بعد الموت من أعظم الآيات لذلك قيل **«ويريكم آياته»** أو لأن الإحياء بعد الموت فيه آيات متعددة أو لأن رؤيتهم لآية الإحياء كأنهم لمسوا قدرة الله فى جميع آياته فى الكون. وهى ظاهرة لكل من يعقل وبإدراكها والتيقن منها يكتمل العقل. أو لعلكم تعقلون مايتبع الإحياء فى الآخرة بعد الموت من ضرورة الحساب على الأفعال.

نعود ثانية إلى ما أشرنا إليه من أن القرآن الكريم قد بدأ القصة بأمر الذبح ولعل ذلك مرجعه إلى أن بعضا من بنى إسرائيل كان لايزال تقديس البقرة - كما كان عند قدماء المصريين - عالقا فى نفوسهم فأراد الله بذلك أن يزيل أى بقايا من هذا الأثر.

ونذكر الآن قصة البقرة مكتملة كما وردت فى القرآن الكريم.

«وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ماتؤمرون. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون. قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلَّمة لاشيه فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون. وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ماكنتم تكتمون. فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون».

(٦٧- ٧٣- البقرة)

تذكر التوراة قصة ذبح البقرة ولكن بطريقة مغايرة (عدد ١٩: ١ - ١٠) إذ يذكرون أنها كانت للتكفير عن خطيئة الجماعة.

وكلم الرب موسى وهارون قائلا: هذه فريضة الشريعة التى أمر بها الرب قائلا. كَلِّم بنى إسرائيل أن يأخذوا إليك بقرة حمراء صحيحة لا عيب فيها ولم يعل عليها نير . ونلاحظ أن هذه الأوصاف هى نفس ماجاء فى القرآن الكريم ولكن بدلاً من صفراء قالوا حمراء. ولا عيب فيها هى **«مسلمة لا شيه فيها»** ولم يعل عليها نير. والنير هو الخشبة المعترضة فوق عنق الثور أو البقرة لجر المحراث أو غيره - وهو ما عبر عنه القرآن الكريم **«لا ذلول تثير الأرض ولا**

تسقى الحرث». ولعل كاتبى التوراة عند إعادة كتابتها فى السبى لم يهتدوا إلى السبب فى ذبح البقرة فجعلوها تكفيرا عن خطيئة الجماعة إذ يستمر القول: فتعطونها لألعازار الكاهن فتُخرَج إلى خارج المحلَّة وتُذبح قدامه ويأخذ ألعازار الكاهن من دمها بإصبعه وينضح من دمها إلى جهة وجه خيمة الاجتماع سبع مرات. وتحرق البقرة أمام عينيه ويحرق جلدها ولحمها ودمها مع فرثها ويأخذ الكاهن خشب أرز وزوفا (الزوف نوع من العشب. انظر ص٢٨٦) ويطرحها فى وسط حريق البقرة ثم يغسل الكاهن ثيابه ويرحض جسده بماء وبعد ذلك يدخل المحلة ويكون الكاهن نجسا إلى المساء. والذى أحرقها يغسل ثيابة بماء ويرحض جسده بماء ويكون نجسا إلى المساء. ويجمع رجل طاهر رماد البقرة ويضعه خارج المحلة فى مكان طاهر فتكون لجماعة بنى إسرائيل فى حفظ ماء نجاسة إنها ذبيحة خطية والذى جمع رماد البقرة يغسل ثيابه ويكون نجسا إلى المساء. ويقول أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس، جماعة اللاهوتيين. ص٣٨٤) إن ذلك كان لازما لإزالة النجاسة الناتجة عن تمرد قورح وجماعته.

بعد **رثمة** انتقل بنو إسرائيل جنوبا إلى **رمون فارص**، ثم إلى **لبنة** ومعناها بالعبرية بياض ثم إلى **رسة** ومعناها ندى ثم ساروا جنوبا أكثر حتى قاربوا الطرف الجنوبى لشبه جزيرة سيناء ونزلوا هناك وسمُّوا المكان **«قهيلاته»** وهو اسم عبرى معناه مجمع ولعل ذلك كان لقربه من تجمع أو التقاء خليجى السويس والعقبة. وهنا جرت قصة موسى عليه السلام والخضر. والتى لم يرد فى التوراة أى ذكر عنها.

بعد إخماد ثورة قورح والعقاب الذى نزل به وبمن انضموا إليه كان موسى عليه السلام واثقا أن بنى إسرائيل لن يتمردوا على هارون لو غاب هو عنهم بعض الوقت. فتركهم وذهب ليستزيد من علم الله.

موسى والخضر :

يدَّعى بعض المؤرخين أن موسى الذى رافق الخضر هو غير موسى عليه السلام وقالوا هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب وقيل موسى بن أفرايم بن يوسف. وذكر الألوسى أن أحد الصحابة قال لابن عباس إن أحد بنى يهود يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى بنى إسرائيل فقال كذب عدو الله ثم ذكر حديثا طويلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو فيه نص على أنه موسى بنى إسرائيل (تفسير الألوسى جـ١٥ ص٣١٠). وقيل تجاهل أهل الكتاب قصة الخضر لإنكارهم تعلم نبى من غيره وخاصة أنه موسى عليه السلام نبيهم لظنهم أن ذلك ينقص من قدره. وهذا تعصب أعمى. فكل نبى يفضُل قومه فى علمه وفى قربه من الله ولكن ذلك لا ينفى أن يكون هناك علم لم ينبئه الله به واختص به عبدا آخر من عباده. سواء كان

ذلك العبد نبيا أو مجرد رجل صالح فالله يختص برحمته وعلمه من يشاء من عباده. وكان الخضر كما قال عنه سبحانه وتعالى:

«عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما».

(٦٥ – الكهف)

ويرجع الألوسى إنكار أهل الكتاب لقصته أنه لما غاب عنهم ظنوا أنه ذهب يناجى ربه ويتعبد ولما عاد لم يوقفهم على حقيقة غيبته لعلمه بقصور فهمهم وأوصى فتاه بكتم ذلك عنهم أيضا. ويجوز أن يكون أعلمهم بحقيقة غيبته وبقصته مع الخضر ولكن لم يتناقلوها جيلا بعد جيل لتوهمهم أن فيها حط من قدر النبوة التى عليها موسى عليه السلام. ويمكن إضافة سبب آخر وهو أنه عليه السلام لم يخبرهم خشية أن بعضا منهم قد ينفلت إلى «القرية» ويبحث عن الجدار المقام حديثا ويأخذ الكنز الذى تحته – وهو ميراث اليتيمين.

وسبب القصة ما ورد فى الصحيحين عن أبى بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن موسى عليه السلام قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه فأوحى إليه إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يارب فكيف لى به قال تأخذ معك حوتا فتجعله فى مِكتل (زنبيل يعمل من الخوص) فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ. (تفسير القرطبى جـ١١ ص١٠). حينئذ صمم موسى عليه السلام ملاقاة ذلك العبد الصالح مهما أرهقه البحث عنه ومهما طالت مدة ترحاله فى الأرض بحثا عنه:

«وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا».

(٦٠ – الكهف)

والحقب زمان من الدهر غير محدود والمعنى مهما طال الوقت حتى يبلغ ذلك المكان والفتى المشار إليه هو هوشع بن نون والذى سمى فيما بعد يشوع بن نون – من سبط أفرايم وكان أحد النقباء الاثنى عشر (ص ١٠٤٢) وهو أحد الرجلين اللذين أنعم الله عليهما وكانا يحثان بنى إسرائيل على دخول الأرض (ص ١٠٤٩). كما أن موسى عليه السلام أوكل إليه محاربة العماليق فى وادى رفيديم (ص ٩٨٣). فى أول أمره كان خادما لموسى وقيل لازم موسى ليتعلم منه وسُمِّى فتاهُ ولكنه كان حُرا. وسنرى فيما بعد أن موسى عليه السلام – قبل وفاته – استخلفه لقيادة بنى إسرائيل وهو الذى قادهم ودخل بهم الأرض (الجزء الخامس إن شاء الله).

مجمع البحرين :

اختلف المفسرون فى تحديد مكان **«مجمع البحرين»** يقول الألوسى والطبرى: روى عن مجاهد وقتادة: البحران بحر فارس والروم (أى بمفهومنا الحالى الخليج الفارسى والبحر

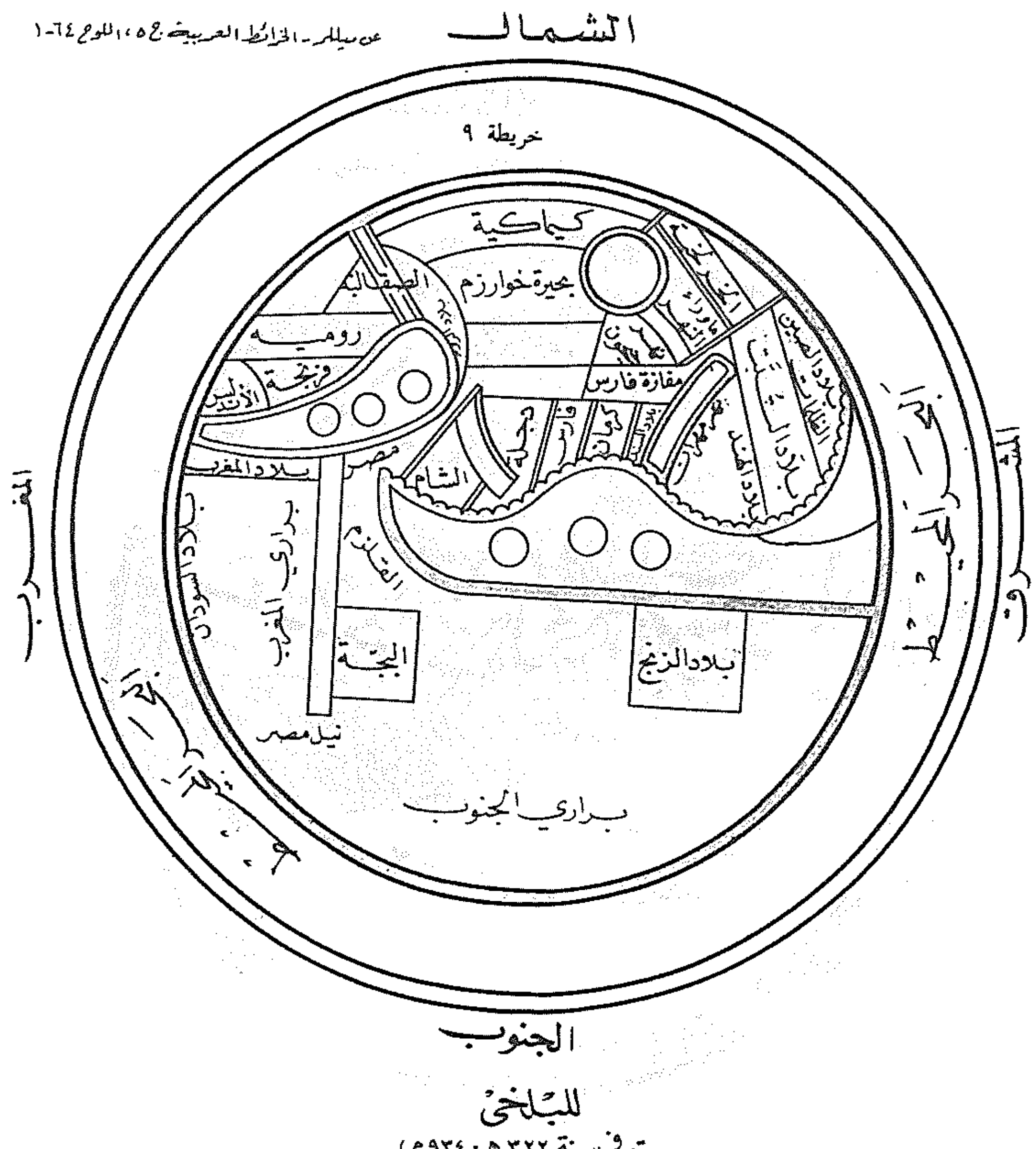
المتوسط) وقالوا: ملتقاهما مما يلى المشرق ولعل المراد مكان يقرب فيه التقاؤهما وإلا فهما لا يلتقيات إلا فى البحر المحيط وهما شعبتان منه (تفسير الألوسى جـ ١٥ ص ٣١٢). وذكر أبو حيان أن مجمع البحرين يلى بر الشام. وقال محمد بن كعب القرظى: هو عند طنجة حيث يجتمع البحر المحيط والبحر الخارج منه من دبور إلى صبا. وقال أُبىّ إنه بإفريقية. وروى عن السدى: البحران هما الكر والرس بأرمينية. وقيل بحر القلزم (البحر الأحمر) وبحر الأزرق (لا يوجد على الخرائط بحر اسمه الأزرق). وقيل هما بحر ملح وبحر عذب وملتقاهما فى الجزيرة الخضراء فى جهة المغرب.

ولو نظرنا إلى الخرائط فى أشكال ٢٨٧- ٢٨٨- ٢٨٩ وهى مرسومة فى أعوام ٩٣٤ و ١١٦٤ و١٥٥٠ميلادية على التوالى أدركنا كم كانت المعلومات الجغرافية فى ذلك الوقت مشوشة وغير دقيقة إذ تجمع كل الخرائط على أن اليابسة يحيط بها ماء هو البحر المحيط ولا يلتقى به إلا بحر الروم (البحر المتوسط) عند طنجة فى المغرب وبحر الصين فى الشرق. فلا عجب أن المعلومات الجغرافية فى ذلك الوقت لم تساعدهم على فهم المعنى الحقيقى لمجمع البحرين. إذ المعلومات المتاحة حاليا تجعل مايفهم من «مجمع البحرين» بداهة ولأول وهلة هو مكان إلتقاء خليجى السويس والعقبة (شكل ٢٩١) ولكن ذلك لم يكن معروفا فى زمانهم إذ لو نظرنا إلى الخرائط السابقة نجدهم يرسمون الطرف الشمالى للبحر الأحمر مدببا بفرع واحد (شكل ٢٨٧ - ٢٨٨) وحتى الخريطة التى رسمها هـ . قايسل فى القرن السادس عشر بعد الميلاد (شكل ٢٨٩) لا يبين فيها تفرع البحر الأحمر إلى خليجيه. ونفس الشيىء فى خريطة الجغرافى الهولندى أبراهام أورتيليوس المرسومة فى عام ١٥٩٥ (شكل ٢٩٠). ولكن هذا التفرع موجود منذ ملايين السنين وإن لم يدركه علماء الجغرافيا. والإشارة إليه فى هذه الآية دليل على أن القرآن الكريم وحى من الله سبحانه وتعالى:

«وإنك لتُلَقّى القرآن من لدن حكيم عليم». (٦ - النمل)

إذ لم تعرف هذه المعلومات إلا بعد نزول القرآن بأكثر من ستمائة عام. ولعل بنى إسرائيل وقد نظروا من مكان عالٍ فرأوا بحرا إلى الشرق وبحرا إلى الغرب فأدركوا أنهما لابد يجتمعان ولذلك سمَّوا المكان الذى كانوا ينزلون فيه «مجمع» وبالعبرية «قهيلاته». وتركهم موسى عليه السلام وسار جنوبا ووصل فعلا إلى «مجمع البحرين».

ولعلنا بهذا قد أدركنا سبب كثرة أقوال المفسرين الأوائل فى هذا الشأن وما نعتبره الآن شططا فى التفسير - والحقيقة أنهم قد اجتهدوا على قدر معطيات العلوم التى كانت متوافرة فى أوقاتهم. ولما أعيت بعضهم الحيل إذ وجدوا إلتقاء البحرين فى المغرب أو فى الصين أو فى أرمينية فى حين أن موسى عليه السلام كان فى سيناء. فافترضوا أن البحرين هما موسى والخضر أى أنهما بحران من المعرفة وقال آخرون إن شخصية الخضر هى شخصية اعتبارية أو رمزية.



شكل ٢٨٧ – خريطة العالم كما رسمها «البلخي»

(توفى سنة ٣٢٢ هـ – ٩٣٤ م)

ويلاحظ جعله طرف البحر الأحمر (القلزم) مدببا بفرع واحد .

صُورَة الأرض

للشريف الأدريسي المتوفى ٥٦٠ هـ - ١١٦٤م



شكل ٢٨٨ – خريطة العالم كما رسمها «الشريف الإدريسي»

(توفى سنة ٥٦٠ هـ – ١١٦٤ م) .

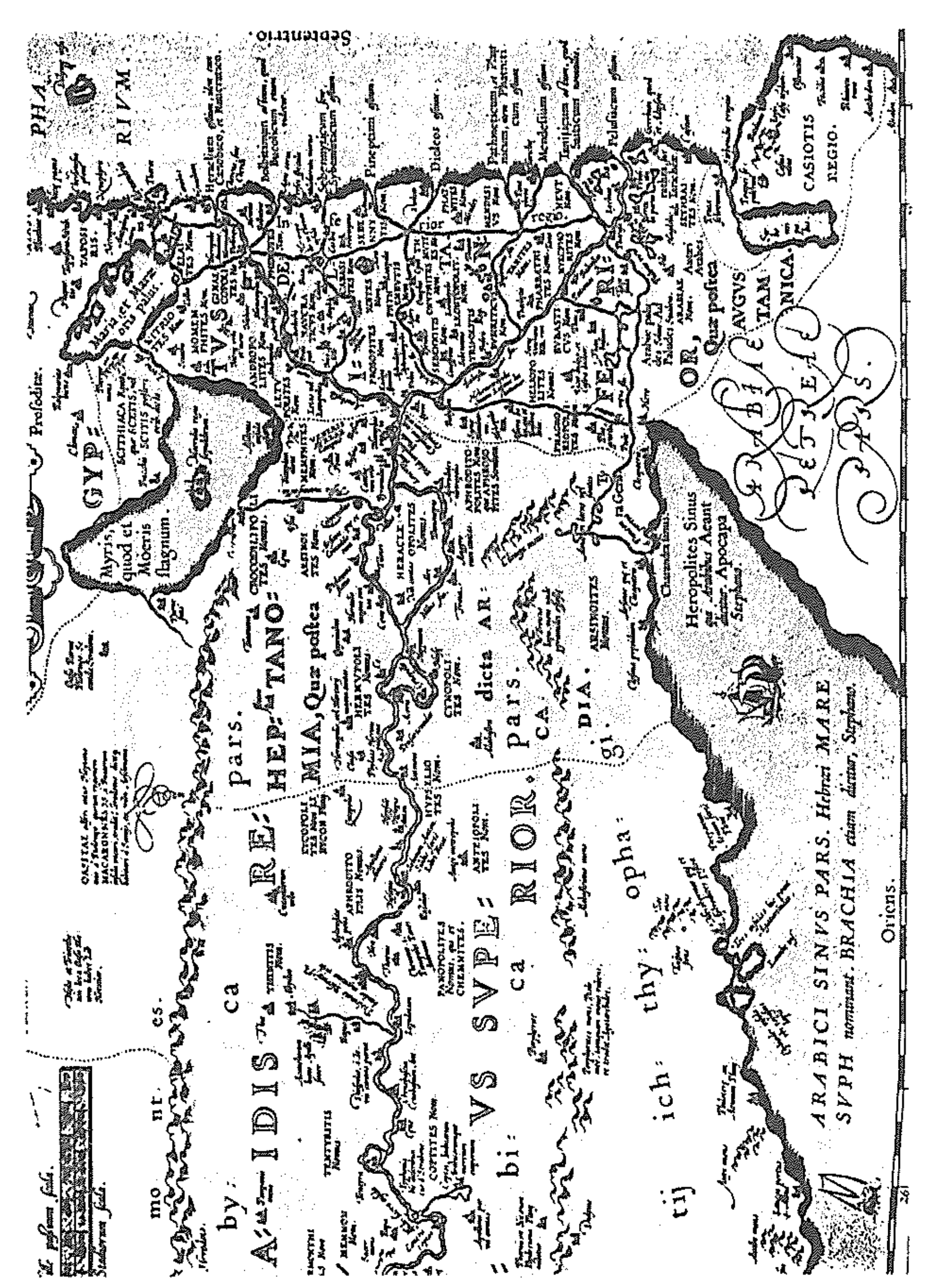
ويلاحظ شكل الجزء الشمالى للبحر الأحمر فى استوائه

من الشرق للغرب إلا من انحناءه بسيطة مقابل سيناء .



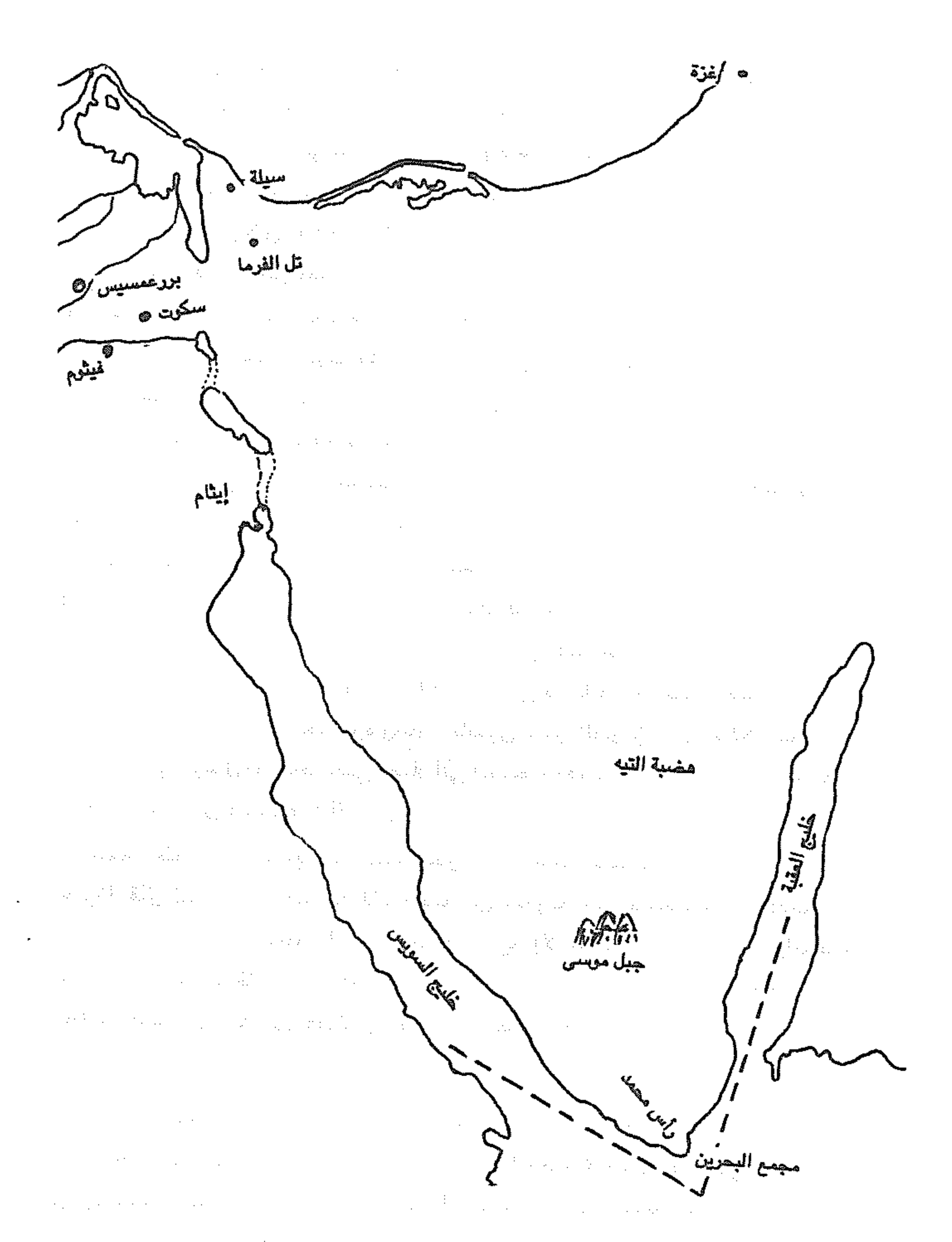
شكل ٢٨٩ – خريطة الشرق الأدنى والأوسط كما رسمها

هـ . ڤايسل H. Weisel عام ١٥٥٠ م .



شكل ٢٩٠ – خريطة مصر وسيناء كما رسمها الجغرافى الهولندى أبراهام أورتيليوس عام ١٥٩٥ م .

(نقلا عن كتاب أطلس مصر القديمة – لجون بينز وجارومير مالك ص ٢٣).



شكل ٢٩١ – مجمع البحرين حسب المفهوم الحالى .

قلنا إن موسى عليه السلام أُعْلِم بأن مكان لقائه بالعبد الصالح هو المكان الذى سيفقد فيه الحوت. ولعل موسى لم يشأ أن يطلع فتاهُ على هذا الأمر إذ قدَّر أن فتاة سيخبره عن ذلك حال حدوثه لغرابته. وسارا. حتى مجمع البحرين. وجلس موسى فى ظل صخرة ليستريح فأخذته غفوة. قيل: فبينا هو فى ظل صخرة إذ أصاب ماء البحر الزنبيل الذى فيه الحوت فتحرك الحوت. قيل بعد أن كان ميتا وقيل كان مملَّحا وقيل كان قد أُكِل نصفه ولكن بقدرة الله عادت له الحياة وتحرك فى الزنبيل فقلبه فانفتح غطاؤه وتسرب الحوت إلى البحر. ويوشع بن نون يتعجب من أمر هذا الحوت وكيف دبت فيه الحياة ولعله ظن أن الحوت لم يكن قد مات موتا كاملاً فما إن طاله ماء البحر حتى تحرك. ولما استيقظ موسى لم يخبره الفتى بما حدث إذ نسى هذا الأمر أو لعله ظن أن الأمر ليس بهذه الأهمية حتى يخبره به. فمعهما من الزاد أنواع أخرى. أو لعله ظن أن موسى لن يصدِّقه إذا أخبره. فكان نسيان موسى أن يخبر فتاه بأهمية هذا الأمر دافعا لنسيان الفتى أن يخبره بمكانه. ولذلك نسب النسيان إليهما معا **«نسياحوتهما»**. وسار الاثنان حتى تجاوزا ذلك المكان. وبعد مدة شعرا بالتعب والجوع فقال موسى ليشوع آتنا غداءنا فقد تعبنا فى هذا اليوم بما فيه الكفاية. فقال يشوع: أتذكر الصخرة التى جلسنا عندها لنستريح فقد نسيت أن أخبرك بأمر عجيب حدث. ذلك أن السمكة قد دبَّت فيها الحياة وتسربَّت من السلة وفقدت فى البحر ولقد أنسانى الشيطان أن أذكر لك هذا الأمر. قال موسى هذا هو الأمر الذى كنت أبتغيه لأنه أمارة المكان الذى سألتقى فيه بالعبد الصالح. وطلب منه أن يعود به إلى المكان الذى به هذه الصخرة وسارا عائدين نفس الطريق الذى سلكاه بأن قصَّا أثر أقدامهما فى الرمال وتتبَّعاها حتى وصلا إلى الصخرة وهناك وجد موسى العبد الصالح الذى آتاه الله رحمة من عنده وعلَّمه الله من لدنه علما.

«فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا. فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا. قال ذلك ماكنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا. فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنَّا علما».

(٦١ - ٥٦ - الكهف)

لم يذكر القرآن الكريم اسم ذلك العبد الصالح ولكن كتب التفسير تجمع على اسم الخِضر بكسر الخاء أو الخَضر بفتحها. وقال مجاهد سمى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضرَّ ما حوله. وروى الترمذى عن أبى هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما سُمِّى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز تحته خضراء. والفروة هنا وجه الأرض. قال القرطبى هذا حديث صحيح غريب (تفسيره. جـ ١١ ص١٦). والخضر نبى عند الجمهور. وقيل هو عبد

صالح غير نبى. ورُدَّ على ذلك بأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى فهو نبى. كما أن الإنسان لا يتعلم ولا يتَّبع إلا مَن فوقَه ولا يجوز أن يكون فوق النبى من ليس بنبى. وقالوا الرحمة فى هذه الآية النبوة و «علما من لدنا» أى علم الغيب. قيل كان علمه معرفة بواطن الأمور قد أوحيت إليه.

من المؤكد أن موسى عليه السلام لما رأى العبد الصالح عن بُعد طلب من فتاه - يشوع - أن ينتظره فى مكانه أو يتجول فى المنطقة المحيطة إذ هو سيبقى فى صحبة الخضر يوما أو يومين ثم يعود ليلقاه فى نفس المكان.

قالوا لما لقى موسى الخضر ألقى عليه السلام فقال الخضر وعليك السلام يانبى بنى إسرائيل فقال موسى وما أدراك بى؟ قال: الذى أدراك بى ودلَّك علىَّ. قال موسى: إن ربى أرسلنى إليك لأتبعك وأتعلم من علمك. ووضعه فى صيغة سؤال للملاطفة والمبالغة فى حسن الأدب «هل اتبعك». فقال الخضر إنك لن تستطيع أن تصبر على ماتراه لأن الظواهر التى هى علمك لا تعطيك كل الحقيقة وستظن أن ما أفعله خطأ ولن يَسَعَك السكوت عليه ولن تستطيع السكوت على أفعال لا تدرى ما حقيقة خبرها وخفاياها. فقال موسى إنه بإذن الله سيكون صابرا ولا يعصى أمره. فاشترط الخضر على موسى ألا يسأله عن شيىء يراه وينكره حتى يكون الخضر هو المبتدىء من تلقاء نفسه بشرحه.

«قال له موسى هل أتبعك على أن تُعَلمن مما علمت رشدا. قال إنك لن تستطيع معى صبرا. وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا. قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا. قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيىء حتى أحدث لك منه ذكرا». (٦٦ - ٧٠ - الكهف)

وسارا معا حتى أتيا مرفأ صغيرا تمر به السفن التى كانت تتاجر بين ميناء السويس التابع لمصر وموانى الصومال المسماة بلاد پونت وهو طريق بحرى معروف لتبادل التجارة ولعل السفن كانت ترسو بالمرفأ بضعة أيام للتزود بالمياه. ومن المحتمل أنه كان قرب رأس محمد الحالية فى الطرف الجنوبى لشبه جزيرة سيناء.

قيل عرف أصحاب السفينة الخضر فأركبوهما بدون أجرة فلما ركبا السفينة عمد الخضر إلى أحد ألواحها فخلعه ثم رقَّعه. وهنا قال موسى للخضر أفعلت ذلك لتغرق السفينة وأصحابها منكرا عليه هذا الفعل وأن هذا أمر منكر لأنه يضر بالقوم. فذكَّره الخضر بالشرط الذى اشترطه عليه لمرافقته وهو أن لا يكون موسى البادىء فى تكلمته عن شيىء يفعله. فاعتذر موسى لأنه نسى هذا الشرط وأنه كان من الصعب عليه وفوق طاقته أن يرى مافعله ويسكت عنه.

«فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت

شيئا إمرا. قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا. قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا». (٧١ - ٧٣ - الكهف)

فى صحيح البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وكانت الأولى من موسى نسيانا - ونزلا من السفينة ومشيا على البر فلقيا غلاما حسن الهيئة يلعب مع غلمان فى مثل سنه فأخذه الخضر وقالوا ذبحه بسكين كانت معه وقيل ضربه بحجر فقتله وهنا لم يتمالك موسى إلا أن قال للخضر إنه قد قتل نفسا طاهرة من الذنوب - لأنه غلام لم يُكلَّف بعد - دون أن يكون ذلك قصاصا لقتله نفساً. وهذا شيىء منكر. بل أكثر إنكارا من الأمر الأول. فقال له الخضر ألم أقل لك من قبل إنك لن تستطيع صبرا على أفعالى؟ للمرة الثانية اعتذر موسى بأن الأمر كان فوق طاقته وأخبره برغبته فى استمرار مصاحبته على أن تكون هذه هى المرة الأخيرة التى يخالف الشرط الذى بينهما فإذا بدأ بسؤاله عن شيىء آخر فعله فللخضر العذر بعدها إن رفض مصاحبة موسى ولن يكون عليه لوم وفى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رحمة الله علينا وعلى موسى. لولا أنه عجَّل لرأى العجب ولكن أخذته من صاحبة ذمامة ولو صبر لرأى العجب. والذمامة الإشفاق من اللوم. وفى البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: يرحم الله موسى لَوَدِدنا أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما. (تفسير القرطبى جـ١١ ص٢٣).

«فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا. قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا. قال إن سألتك عن شيىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا». (٧٤ - ٧٦ - الكهف)

وقبل الخضر اعتذار موسى وسمح له بالبقاء معه ومصاحبته وسارا حتى جاءا إلى قرية وكان الجوع والتعب قد نال منهما. وكان أهلها - كما بدا من تصرفهم - بخلاء. فمن الكرم وحسن الخلق دعوة الغريب للطعام دون أن يطلب - يلى ذلك أن يطلب الغريب الضيافة فتجيبه. ولكن أن يطلب الاستضافة ويأبى القوم ذلك فهو منتهى البخل أو هو لؤم يوجب الازدراء. وطلب الخضر وموسى من أهل القرية أن يُضَيِّفوهما فرفضوا. وقيل «استطعما أهلها» تفيد معنى طلب الضيافة أكثر من مرة فكأنهم طلبوا الضيافة من هذا وذاك ورفض أهل القرية جميعا «أبوا أن يُضَيفوهما» تفيد معنى استنكار فعلهم هذا. بعد ذلك جلس الخضر وموسى إلى جوار جدار يستريحان ووجد الخضر أن الجدار يكاد يسقط فأصلحه وقوَّم ما مال منه وبنى ماكان سقط فعلا. ولم يتمالك موسى نفسه فقال للخضر لِمَ لم تطلب على ذلك أجرا فكأنه يريد الأجر حتى يمكنهما شراء ما يحتاجان من طعام مادام أهل القرية رفضوا أن يضيفوهما - أو أن أهل القرية لا يستحقون أن يُعمَلَ لهم هذا العمل - وهو إقامة الجدار - مجانا. فقال له الخضر لقد وجب الفراق بينى وبينك حيث أنك قد ابتدأت بالحديث عن هذا الأمر وقد كان الشرط فى المرة

السابقة أنك لو فعلت لم يكن علىَّ لوم فى طلب فراقك. وقبل أن يفارقه أخبره أنه سيفسِّر له سبب ما عمله من أعمال أنكرها موسى عليه.

«فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه. قال لو شئت لتخذت عليه أجرا. قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا».

(٧٧ – ٧٨ – الكهف).

راح الخضر يخبر موسى بما صعب عليه فهمه من تصرفاته وهو مالم يستطع عليه صبرا فكان يستنكره. أخبره بالأمر الأول وهو أن السفينة مملوكة لأناس فقراء يعملون فى نقل البضائع فى البحر. وكان هناك ملك ظالم كلما رأى سفينة جديدة وجيدة الصنع وليس بها عيب استولى عليها ظلما واغتصابا فأراد الخضر بإظهار عيب فيها أن يصرفه عنها وبذلك تبقى لأصحابها وهى مصدر رزقهم. أما الغلام فكان أبوه وأمه مؤمنين أما هو فكان كافرا أو أن الغلام طُبِعَ كافرا ولو عاش وكبر فإن أبواه لحبهما له كانا سيتبعانه فى كفره وطغيانه أو على الأقل سيكدِّر حياتهما بكفره وطغيانه ويكون سببا فى إرهاقهما. وبعض الأطفال يظهر طغيانهم وجبروتهم منذ الصغر وحتى قبل أن يبلغوا سن التكليف ويتعوذ الناس بالله منهم إذ يكبرون. فأراد أبواه أن يُبدِلهما الله ولداً أزكى منه وأرقّ طباعا فيكون بارا بهما ولا يرهقهما بطغيانه وكفره. ثم أخبره بالأمر الثالث وهو أن الجدار كان لغلامين يتيمين فى القرية وكان تحته مال دفنه أبوهما ليكون عدة لهما فى المستقبل وكان هذا الرجل صالحا. والرجل الصالح يُحفظ فى ذريته وتعم بركته أجيالا منهم ولو سقط الجدار الآن لانكشف المال ولأخذه أهل المدينة لضعف اليتيمين عن مقاومتهم. فكانت إرادة الله أن يبقى الجدار قائما – بما فعله الخضر – حتى يكبر الغلامان ويصبحا أشداء فيستخرجا كنزهما بأن يسقط الجدار أو أن يزمعا إعادة بناء الدار فيهدما الجدار ويكتشفا ماخبَّأه لهما والدهما من مال فينتفعا به. وهذا من رحمة ربهما بهما. وأخبر الخضر موسى أنه لم يفعل هذه الأشياء بناء على اجتهاده أو من تلقاء نفسه وإنما هى رحمة من الله بأصحابها وختم الخضر مقالته بأن قال وهذا هو تفسير هذه الأشياء التى لم تُطق ولم تستطع عليها صبرا. وحُذِفت التاء تخفيفا للنطق فصارت «تسطع».

«أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا. وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا. فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رُحما. وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا». (٧٩ . ٨٢ – الكهف)

وقيل إن موسى عليه السلام لما أنكر أمر خرق السفينة نودى: ياموسى أين كان تدبيرك هذا وأنت فى التابوت مطروحا فى اليم. فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكزك المصرى وقضائك عليه. فلما أنكر إقامة الجدار نودى: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر (تفسير القرطبى جـ١١ ص ٣٣).

وهكذا انتهت قصة الخضر مع موسى عليهما السلام. وتبقى العبرة فى أن المرء مهما علم وازداد علما فهناك من هو أعلم منه والله فوق الكل عليم خبير. كذلك فإن الدروس المستفادة من قصة الخضر – كما نراها – هى:

١ – لا بأس من اتخاذ الحيلة لدفع ظلم أو مضرة. فإن كان نظامُ حكمٍ يصادر الثروات فالواجب إخفاء مظاهر اليسر والغنى.

٢ – قد يكون الولد سببا فى شقاء الوالدين. وكم من ولد أرهق أبويه بمطالبه أو بانحرافه – وكما قال الله تعالى: **«إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم»**. (١٤ – التغابن). وقد تتولى الحوادث والأمراض القيام بما قام به الخضر من قتل الغلام. فيجب على المرء التسليم بحكمة القدر واحتساب ماراح عند الله. وأن يطلب **«خيرا منه زكاة وأقرب رحما»**.

٣ – أما حفظ مال اليتيم فهو واجب كما أمر الله سبحانه وتعالى: **«ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده»** (١٥٢ – الأنعام). ولا يبتغى الأجر إلا من الله.

وعاد موسى إلى الصخرة – لا ندرى كم استغرقت صحبته للخضر ولعله كان يوما واحدا فى ضُحاه ركبا السفينة ثم نزلا منها. ثم فى القرية قتل الغلام وفى آخر النهار أقام الجدار وكان فراقه للخضر وعاد. فوجد يشوع ينتظره لا ندرى هل أخبر موسى فتاه بقصته مع الخضر أم لا. أغلب الظن أنه لم يفعل. وعادا إلى بنى إسرائيل فى قهيلاته.

ثم ارتحل بنو إسرائيل واتجهوا شمال شرق فوصلوا إلى **جبل شافر** وشافر اسم عبرى معناه جَمَال، ولعله أحد الجبال المجاورة لمنطقة شرم الشيخ الحالية وهى منطقة مشهورة بجمالها. كان قد مضى على بنى إسرائيل فى التيه قرابة خمسة عشر عاما وبقى خمس وعشرون سنة تنقلوا فيها بين حوالى عشرة منازل هى (شكل ٢٨٦ ص ١٠٦٢): حرادة – مقهيلوت – تاحت – تارح – مثقة – حشمونة – مسيروت – بنى يعقان – حور الجدجاد – بطبات – ثم **عبرونة** وعبرونة اسم عبرى معناه ممر أو مقابل واسمها الحالى عين دفية على بعد ١٠كم شمال غرب إيلات (قاموس الكتاب المقدس ص٦٠٠). ثم ارتحلوا من عبرونة ونزلوا فى **«عصيون جابر»** على الطرف الشمالى لخليج العقبة إلى الغرب من ميناء إيلات الحالى. وهى آخر محطة فى التيه. كان كل الجيل الذى عارض موسى فى دخول الأرض قد مات إلا من بعض أفراد قلائل. ونشأ جيل جديد شب منذ بدايته على حياة الحرية فى الصحراء والجبال ولم تفسده سنوات العبودية فى مصر وطوال هذه السنوات الأربعين كان موسى يعكف على تعليمه

أحكام التوراة والشريعة. لم يشهد هذا الجيل الآيات العظام التى شهدها الجيل السابق. لم يشهد الآيات التى أتى بها موسى فرعونَ مصر. ولم يشهد معجزة شق البحر ولا غيرها من الآيات. وكانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يُشهِدهم آية رادعة حتى يلتزموا بتعاليم الشريعة فى قابل أيامهم.

القردة والخنازير :

خُصِّص يوم السبت – فى بنى إسرائيل – لعبادة الرب وأخذ عليهم العهد والميثاق الغليظ بتنفيذ شريعة الله فيما يختص بحرمة يوم السبت وغير ذلك من الشرائع.

«وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا». (١٥٤ – النساء)

ومن الوصايا العشر التى تلقاها موسى عليه السلام من ربه كانت الوصية الرابعة وقد سبق أن ذكرناها ص ٩٩٢ – تقول: اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأمّا اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك.. وكان الحكم قاسيا على من يعمل فى يوم السبت. وقد ذكرنا سابقا (ص ١٠٥٣) عثورهم على رجل من بنى إسرائيل يحتطب حطبا يوم السبت فقُبض عليه وأخذوه إلى موسى وهارون. فقال الرب لموسى «قتلا يقتل الرجل» يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة ففعلوا ومات الرجل (إصحاح ١٥ عدد: ٢٥).

لقد شرع الله فى كل ملة يوما فى الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع الله للمسلمين يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذى أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه النعمة وتمت على عباده ويقال إن الله شرع ذلك لبنى إسرائيل أيضا على لسان موسى فعدلوا عنه واختاروا السبت لأنه اليوم الذى لم يخلق فيه الرب شيئا من المخلوقات فألزمهم به فى التوراة ووصاهم أن يتمسكوا به ويحافظوا عليه وظلوا متمسكين به إلى أن بعث عيسى بن مريم ويقال إنه ظل محافظا على يوم السبت حتى رُفع وأن النصارى من بعده فى زمن قسطنطين هم الذين تحوَّلوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود (تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٩١) وسيحكم الله بينهم يوم القيامة فى ذلك:

«إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون». (١٢٤ – النحل)

كان بعض بنى إسرائيل – أثناء إقامتهم فى عصيون جابر – يعملون فى صيد السمك. وكان ما يصيدونه فى جميع أيام الأسبوع – عدا يوم السبت – يكفيهم فكانوا يأكلون منه يوم السبت ولكن الله سبحانه وتعالى أراد اختبارهم لإظهار مدى حرصهم على تنفيذ أمره بعدم الانشغال بأى عمل فى يوم السبت غير العبادة. وقد تم مثل هذا الاختبار أيضا للمسلمين

المحرمين بالحج ومُحَّرم عليهم صيد البر فقال الله تعالى:

«يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب. فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم. يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حُرم». (٩٤ - المائدة)

فالحكمة هى أن الله يريد أن يُظهر من يخافه بالغيب ويتقه فى نفسه. لذلك كما روى عن مقاتل كانت الوحوش - وهم مُحرِمُون فى عمرة الحديبية - تغشاهم فى رحالهم وكانوا متمكنين من صيدها أخذا بأيديهم أو طعنا برماحهم. فكان ذلك اختبارا من الله لهم.

وذلك نفس ماحدث لبنى إسرائيل إذ جعل الله الحيتان تأتى لهم يوم السبت ظاهرة على وجه الماء قريبة من الشاطىء. أما فى الأيام الأخرى - يوم لا يسبتون - لا تكون كذلك ويتكبدون بعض المشقة فى صيدها. فكان هذا اختبارا لهم من الله سبحانه وتعالى وليكون حجة عليهم ولبيان عدم تمسكهم بتنفيذ أوامر الله فى غير ذلك من الأمور. ولعلهم كانوا بقايا الجيل القديم الذى دأب على التذمر وعصيان موسى منذ خروجهم من مصر ولذلك وصفوا بالفسق. وقام هؤلاء النفر بالاحتيال على صيد الحيتان يوم السبت وحتى لا يبدو الأمر مخالفة صريحة لأوامر الله وضعوا شصوصا وحبائل وشباكا قبل يوم السبت حتى إذا جاءت الحيتان على عادتها فى الكثرة يوم السبت علقت بتلك الشصوص أو منعتها الحبائل من العودة للبحر ثانية فإذا جاء الليل وانقضى السبت أخذوها وأكلوا منها وباعوا ماتبقى. وواضح أن مافعلوه كان تحايلا على أمر منع الصيد فى يوم السبت. وقام فريق ينهونهم عما يفعلون ويحذرونهم من غضب الله فقال فريق آخر لهم. لماذا تعظونهم وأنتم تعلمون أنهم قد استحقوا غضب الله وأن الله سيهلكهم أو يعذبهم عذابا شديدا. ورد عليهم الفريق الأول بأنهم يعظونهم لعلهم يرجعون عن فعلهم المخالف لأمر الرب وحتى لا يكونوا قد أخطأوا بسكوتهم عن المعصية إذ رأوها. كما أنهم ينهونهم عن المنكر حتى يكون ذلك معذرة إلى ربهم حتى لا يوقع بهم ماقد ينال المخطئين من عذاب. ولكن هؤلاء النفر ظلوا فى غيِّهم سادرين وتكبروا على النصح. ولعل الله لم يعجل لهم العذاب فأغراهم هذا على التمادى فى المعصية. وعادت الفئة الملتزمة بتعاليم الله يذكرونهم بما حُرم عليهم من عمل يوم السبت ولكن هؤلاء كانوا قد نسوا تعاليم الشريعة أو أنهم أهملوها كأنهم قد نسوها. فأنزل الله بهم عذابا أليما وأنجى الله الفئة التى كانت تنهى عن السوء.

«واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدُون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم. كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون. وإذ قالت أمَّة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون. فلما نسوا ماذُكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عن مَّا

نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين». (١٦٣ - ١٦٦ - الأعراف)

والخطاب هنا موجه إلى اليهود الذين كانوا فى المدينة يجاورون رسول الله صلى الله عليه وسلم - يذكرهم بقصة أصحابهم الذين خالفوا أوامر الله. ومن الجدير بالذكر أن التوراة لم تذكر شيئا عن قصتهم إطلاقا ولعل كاتبى التوراة حرصوا على عدم تدوين أى شىء يشير إليها إذ أن فيها مايسىء إليهم إذ مُسِخَ بعض أفرادهم قردة وخنازير.

قالوا وفى يوم من الأيام رأوا أن أحدا من هؤلاء الخاطئين لم يخرج من بيته. فنظروا إليهم من فوق الجدران فإذا هم قردة وخنازير. عن قتادة أن الشبان صاروا قردة والشيوخ خنازير ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسابها من الإنس ولم تعرف الإنس أنسابهم من القردة. فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكى فيقول ألم ننهكم؟ فتقول برأسها نعم (تفسير القرطبى جـ٧ ص٣٠٦). وظلوا ثلاثة أيام لا يأكلون ولا يشربون وماتوا ولم يعقبوا نسلاً. وفى صحيح مسلم حديث رواه عبد الله بن مسعود أن قوما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير: أهِىَ مما نسخ؟ فقال: إن الله لم يهلك قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك. وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل.

«ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين».

(٦٥ - ٦٦ - البقرة)

فجعل الله هذه القرية عبرة لما حولها من القرى ولكل من عاصرها من بنى إسرائيل ولكل من سيأتى خلفهم من الزمان وعظة لمن يريد أن يتقى عذاب الله ونقمته.

ولقد كان من رحمة الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه لم يجعل العمل محرّما فى يوم الجمعة. إذ يمكن للمسلمين أن يعملوا مايشاءون من عمل فى يوم الجمعة فإذا نودى لصلاة الجمعة تركوا ما بأيديهم من عمل وذهبوا إلى الصلاة الجامعة فى المساجد. ثم بعد الصلاة يمكنهم أن يعودوا ثانية إلى أعمالهم:

«يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعَوْا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون».

(٩ - ١٠ - الجمعة)

الفصل العاشر

ماقبل دخول الأرض

كانت آخر قرية من منازل التيه هى «عصيون جابر» وهى «حاضرة البحر» وقضى بها بنو إسرائيل مايقرب من عامين وقد ذكرنا ماحدث بها من مخالفة شريعة الرب فى عدم الانشغال بعمل سوى عبادة الرب فى يوم السبت. وكانت الفئة التى خالفت ومُسخت قردة وخنازير هى ماتبقى من الجيل القديم الذين عصوا وقالوا لموسى «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» فكان أن حكم عليهم بالموت فى البرية. وكان جيل الشبان يرى الكهول يموتون ويرى بنو إسرائيل يهيمون فى صحراء سيناء الواسعة ولعله لم يكن يدرك لذلك سببا فقد كانوا لم يُولدوا بعد أو صغارا لم يُكلَّفوا ولم يدركوا لماذا أو كيف تكون مخالفة أوامر الرب. ولكن ماحدث فى قرية عصيون جابر أوضح لهم غاية الوضوح جزاء مخالفة أوامر الشريعة ولعل هذا الدرس كان لازما لهم إذ أنهم هم الجيل الذى سيقع عليه عبء دخول الأرض.

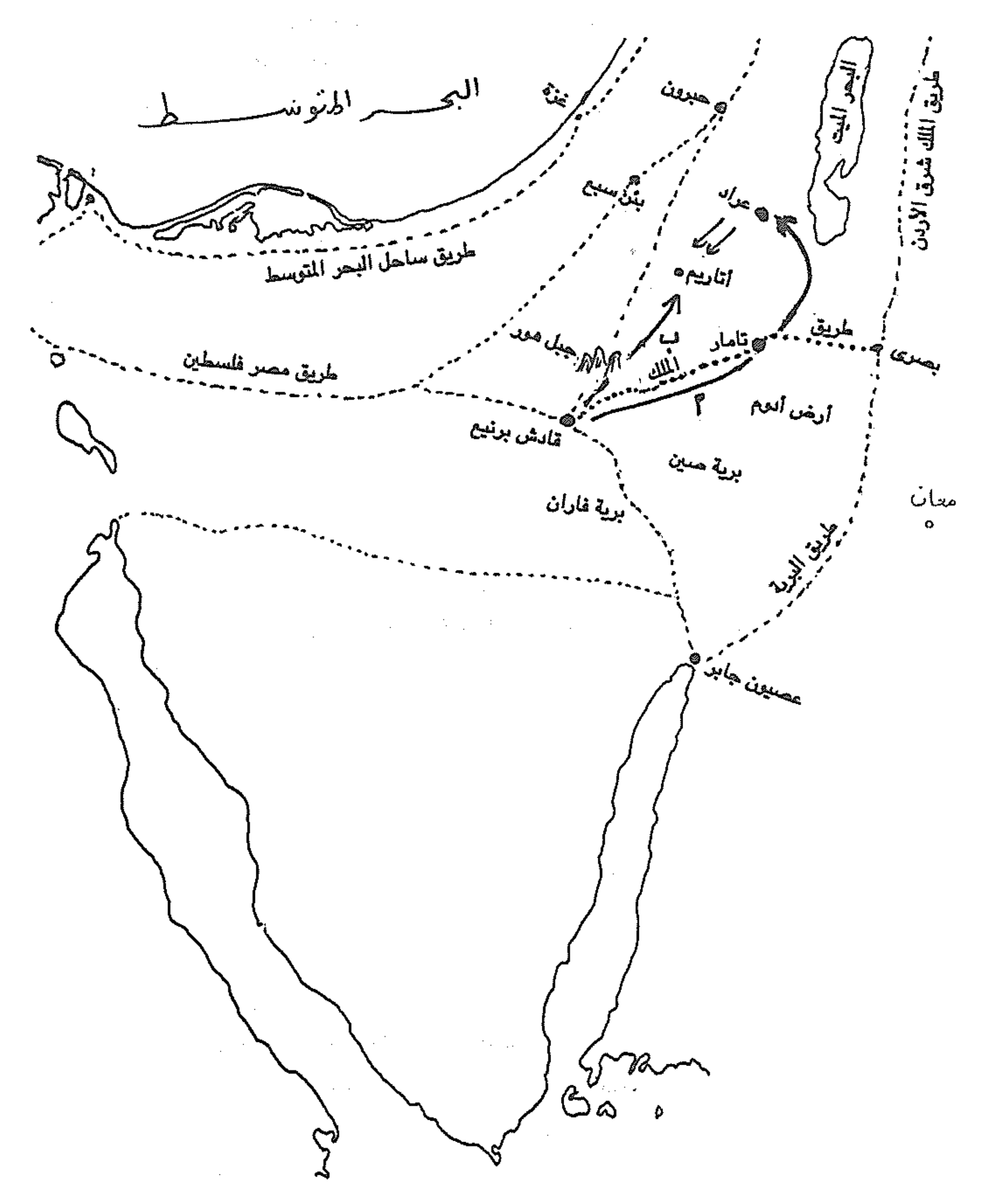
فى قادش برنيع ثانية :

بعد عصيون جابر سار بنو إسرائيل فى اتجاه شمال غرب. كانت برية صين Zin إلى يمينهم وبرية فاران Paran إلى يسارهم حتى وصلوا إلى قادش برنيع التى كانوا فيها من قبل حين رفضوا دخول الأرض وفرضت عليهم سنوات التيه ولعل هذا ماجعل بعض المؤرخين يتبنون فكرة أن بنى إسرائيل قد أمضوا ٣٨ سنة فى قادش برنيع (ص ١٠٥٦) والحقيقةأنهم تجولوا فى مسيرة واسعة فى وسط سيناء وجنوبها ثم عادوا ثانية إلى قادش برنيع استعدادا لدخول «الأرض» من الجنوب كما كانوا ينوون. وفى قادش برنيع ماتت مريم ودفنت هناك.

وتقول التوراة (عدد ٢٠:٢) ولم يكن ماء للجماعة فاجتمعوا على موسى وهارون وخاصم الشعب موسى وكلموه قائلين: ليتنا فنينا فناء إخوتنا أمام الرب لماذا أتيتما بجماعة الرب إلى هذه البريّة لكى نموت فيها نحن ومواشينا. وتدَّعى التوراة أن موسى وهارون جمعا بنى إسرائيل أمام صخرة وقال لهم موسى: اسمعوا أيها المردة أَمِّن هذه الصخرة نخرج لكم ماء؟ (أى أنه غير مؤمن بخروج ماء من الصخرة). ثم تقول ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين فخرج ماء غزير فشربت الجماعة ومواشيها وتمضى التوراة فتقول: فقال الرب لموسى وهارون من أجل أنكما لم تؤمنا بى حتى تقدسانى أمام أعين بنى إسرائيل لذلك لا تُدخِلان هذه الجماعة إلى الأرض التى أعطيتهم إياها (عدد ١٢:٢٠). وهذا موقف غريب من كاتبى التوراة تجاه موسى وهارون. فموسى عليه السلام سبق أن ضرب الحجر بعصاه قبل

ذلك عشرات المرات وكان يخرج منه الماء فى كل مرة وليس هناك من سبب يجعله يشك فى خروج الماء فى هذه المرة. أما أن عدم دخول موسى وهارون الأرض كان «عقابا» لهما فهذا غير صحيح. وهارون كان أكبر سنا من موسى وتوفى قبله. أما موسى فقد حمل عبء بنى إسرائيل – وما أثقلهم من عبء – منذ خروجهم من مصر – وقادهم عبر سيناء وتحمل كثرة تذمرهم – وتحمل عبء التيه – أربعين سنة – معهم. وسنرى أنه أوصلهم إلى مشارف الأرض. وحارب الأموريين واستولى على المناطق الواقعة شرق الأردن وعلم الله أن دخول الأرض غرب النهر ستكون مهمة صعبة وقتال متواصل فكانت مشيئته أن يقوم بهذا العبء من يخلفه وهو فتاه يشوع بن نون. ويعود بعض أهل الكتاب فيقولون (تفسير الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين جـ١ ص٣٨٦) إن خطأ موسى أن الكبرياء أخذ بنفس موسى فدعا الشعب «بالمردة» ووضع نفسه مكان الله ناسيا أن «غضب الإنسان لا يصنع بر الله». وبذلك بيَّن أنه لم يعد عنده الاحتمال المطلوب لقيادة الشعب إلى أرض الموعد. ولما رأوا أن هذا السبب قد يبرر حرمان موسى من دخول الأرض ولكنه لا يبرر ذلك بالنسبة لهارون عادوا فقالوا: وقد وقف هارون وموسى معا فى هذا العمل فحكم عليهما بالعقاب معا! وكان هارون قد سقط فى خطأ شنيع من قبل (يقصدون ثورة مريم وهارون على موسى – ص ١٠٣٩). مع أن هذا قد حدث من فترة طويلة وتم العفو عنه فى حينه كما ذكرت التوراة. فلاداعى لافتراء «عقاب» ما من الله على نبيين كريمين. وقد أوضحنا آنفا لماذا لم يُتح لهما دخول الأرض.

كانت سنوات التيه الأربعون قد انقضت لتبدأ المرحلة الأخيرة لدخول «الأرض الموعودة» وكانت تلك هى أخطر المراحل وأدقها. كان موسى عليه السلام يدرك أن بنى إسرائيل ليس لديهم الأسلحة التى تمكنهم من محاربة الجيوش النظامية الموجودة عند أمراء الدويلات القائمة فى أرض كنعان لذلك فقد ارتأى أن يفاجئهم من حيث لا يتوقعون. فوضع خطة لدخول الأرض من عند الطرف الجنوبى للبحر الميت فى الممر المعروف بطريق أدوم. ولكن ذلك يستدعى المرور فى أرض أدوم (شكل ٢٩٢). فأرسل رسلا من قادش برنيع إلى ملك أدوم (عدد ٢٠: ١٤) يقول له: هكذا يقول أخوك إسرائيل. قد عرفت كل المشقة التى أصابتنا. إن آباءنا انحدروا إلى مصر وأقمنا فى مصر أياما كثيرة وأساء المصريون إلينا وإلى آبائنا فصرخنا إلى الرب فسمع صوتنا وأرسل ملاكا وأخرجنا من مصر وها نحن فى قادش مدينة فى طرف تخومك دعنا نمر فى أرضك. لا نمر فى حقل ولا فى كرم ولا نشرب ماء بئر. فى **طريق الملك** نمشى لا نميل يمينا ولا يسارا حتى نتجاوز تخومك. فقال له أدوم لا تمر بى لئلا أخرج للقائك بالسيف. فقال له بنو إسرائيل: فى السكة نصعد وإذا شربنا أنا ومواشىَّ من مائك أدفع ثمنه. لا شيىء. أمر برجلى فقط. فقال لا تمر. وخرج أدوم للقائه بشعب غفير وبيد شديدة. وأبى أدوم أن يسمح لإسرائيل بالمرور فى تخومه فتحول إسرائيل عنه.



شكل ٢٩٢ – التخطيط لدخول أرض كنعان من الجنوب

أ – الخطة لدخول الأرض عبر أرض أدوم .

ب – ملك عراد يمنع بني إسرائيل من دخول الأرض.

وطريق الملك المشار إليه فى هذه الفقرة هو الطريق الرئيسى الذى كان يربط بين الدويلات المختلفة. ولعله كان أكثر الطرق تمهيدا واتساعا بحيث يتيح للملك وحاشيته - أو وجنوده فى حالة الحرب - المرور فيه بسهولة ولذلك سمى طريق الملك وتسميه المراجع الأجنبية King's Highway. وكانت الطرق السريعة فى المنطقة كما هى مبينة فى الشكل السابق. ولعل خطة موسى عليه السلام كانت السير شرقا فى طريق الملك عبر أدوم فيظن ملك عراد أنهم قد صرفوا النظر عن مهاجمة أرضه. وعند تامار يترك بنو إسرائيل طريق الملك ويتخذون طريقا فرعيا يتجه شمالاً وعند الطرف الجنوبى للبحر الميت يتجهون شمال غرب عبر أحد الوديان ثم ينقضون على عراد من جهة الشرق. والخطة بهذه الطريقة كانت توحى باحتمالات النجاح والاستيلاء على منطقة جنوب فلسطين بأقل الخسائر لولا أن ملك أدوم رفض بشدة مرور بنى إسرائيل فى أرضه.

ولا يأخذنا العجب من هذا الموقف الذى اتخذه ملك أدوم من بنى إسرائيل بالرغم من أنهما «أولاد عمومة» إذ أن «أدوم» أو «عيسو» جد الأدوميين هو أخو «يعقوب» أو «إسرائيل» جد بنى إسرائيل وكان المتوقع مساعدتهم أو على الأقل إجابة مطلبهم وهو مجرد المرور فى أرضهم. ولكن لعل الأدوميين لم ينسوا كيف أخذ يعقوب البكورية من أخيه عيسو (الجزء الثالث ص٤٠٢) ثم كيف نال بركة إسحق وأصبح نبيا. من هنا كان العداء لبنى إسرائيل. ولعلهم خشوا أن يكون طلب المرور مجرد حجة لدخول أرضهم والاستيطان بها. أو أنهم إذا انهزموا من الكنعانيين ارتدُّوا وشاركوهم أرضهم. من هنا كان إصرار ملك أدوم على رفض مرور بنى إسرائيل من أرضه.

رأى موسى عليه السلام أنه لا مفر من دخول أرض كنعان من الجنوب. فرحل بنو إسرائيل من قادش برنيع شمالا وأتوا إلى **جبل هور** الذى يقع فى أقصى الجنوب من أرض فلسطين على حدود الدويلة التى يحكمها ملك عراد.

وفاة هارون عليه السلام :

تقول التوراة (عدد ٢٠:٢٤) وكلَّم الرب موسى وهارون فى جبل هور على تخم أرض أدوم قائلا يُضَمُّ هارون إلى قومه لأنه لا يدخل الأرض التى أعطيت لبنى إسرائيل لأنكم عصيتم قولى عند ماء مريبة. خذ هارون وألعازار ابنه واصعد بهما إلى جبل هور. واخلع عن هارون ثيابه (ثياب الكهنوتية) وألبس ابنه ألعازار إياها فيُضَمّ هارون ويموت هناك. ففعل موسى كما أمر الرب وصعدوا إلى جبل هور أمام أعين كل الجماعة. فخلع موسى عن هارون ثيابه وألبس ألعازار ابنه إياها. فمات هارون هناك على رأس الجبل ثم انحدر موسى وألعازار عن الجبل فلما رأى الجماعة أن هارون قد مات بكى جميع بيت إسرائيل على هارون ثلاثين يوما.

قال عمرو بن ميمون إن بنى إسرائيل اتهموا موسى بقتل هارون. ولجأ موسى إلى الله

ليبرِّئه أمام بنى إسرائيل فأوحى الله إليه أن أنطلق بهم إلى قبره فإنى باعثه حتى يخبرهم أنه مات موتا ولم تقتله. فانطلق بهم إلى قبر هارون. فناداه ياهارون فخرج من قبره ينفض التراب عن رأسه فقال له أنا قتلتك؟ قال لا والله ولكنى مت. فعادوا وانصرفوا (عرائس المجالس للثعلبى ص٢٢٠) وواضح أن ذلك من الموضوعات. وتقول التوراة (عدد ٣٨:٣٣) ومات هارون فى جبل هور فى السنة الأربعين لخروج بنى إسرائيل من أرض مصر فى الشهر الخامس فى الأول من الشهر وكان هارون ابن ١٢٣ حين مات فى جبل هور. وفى هذه الفقرة معلومة غير دقيقة هى مايتعلق بتحديد عمر هارون بـ ١٢٣ سنة. إذ معروف أن هارون يكبر موسى بثلاث سنوات – وقد سبق أن ذكرنا (ص ٨٤٦) قول التوراة «وكان موسى ابن ثمانين سنة وهرون ابن ثلاث وثمانين سنة حين كلما فرعون» – وبالرجوع إلى جدول حياة موسى (ص ١١٢١) نجد أنه عند وفاة هارون كان موسى عمره ١٠٥ سنة وبذلك يكون عمر هارون عند وفاته هو ١٠٨ سنة وليس ١٢٣.

محاولة دخول الأرض من الجنوب :

كانت شعوب المنطقة قد استشعرت خطر بنى إسرائيل لذلك فقد اتخذوا أهبتهم لصدهم. وكان ملك عراد يسكن فى جنوب فلسطين فمملكته هى أولى الممالك المعرضة للغزو ولاشك أن عيونه وجواسيسه أخبروه بوصول جموع بنى إسرائيل إلى جبل هور على حدوده وذهب لمقاتلتهم. تقول التوراة (عدد ١:٢١) ولما سمع الكنعانى ملك عراد الساكن فى الجنوب أن إسرائيل جاء فى طريق **أتاريم** (أتاريم مدينة فى النقب بين عراد وجبل هور) حارب إسرائيل وسبى منهم سبيا. فنذر إسرائيل نذرا للرب وقال إن دفعت هؤلاء القوم إلى يدى أحرِّم مدنهم وأدمِّرها. فسمع الرب لقول إسرائيل ودفع الكنعانيين فحرَّموهم ومدنهم فدعى اسم المكان «حُرمة». ولا نظن أن بنى إسرائيل قد تغلبوا على ملك عراد ودمروا مدنه إذ لو كان ذلك صحيحا لتقدَّموا ودخلوا أرض كنعان من هذا الاتجاه. والحقيقة هى ماذكرته التوراة من أن ملك عراد حارب إسرائيل وسبى منهم سبيا وذلك لايكون إلا بعد أن يكون قد هزمهم. وهكذا فشل مشروع اقتحام الأرض من الجنوب فارتد بنو إسرائيل وعزموا على دخول الأرض من جهة الشمال شرق.

الدوران حول أدوم :

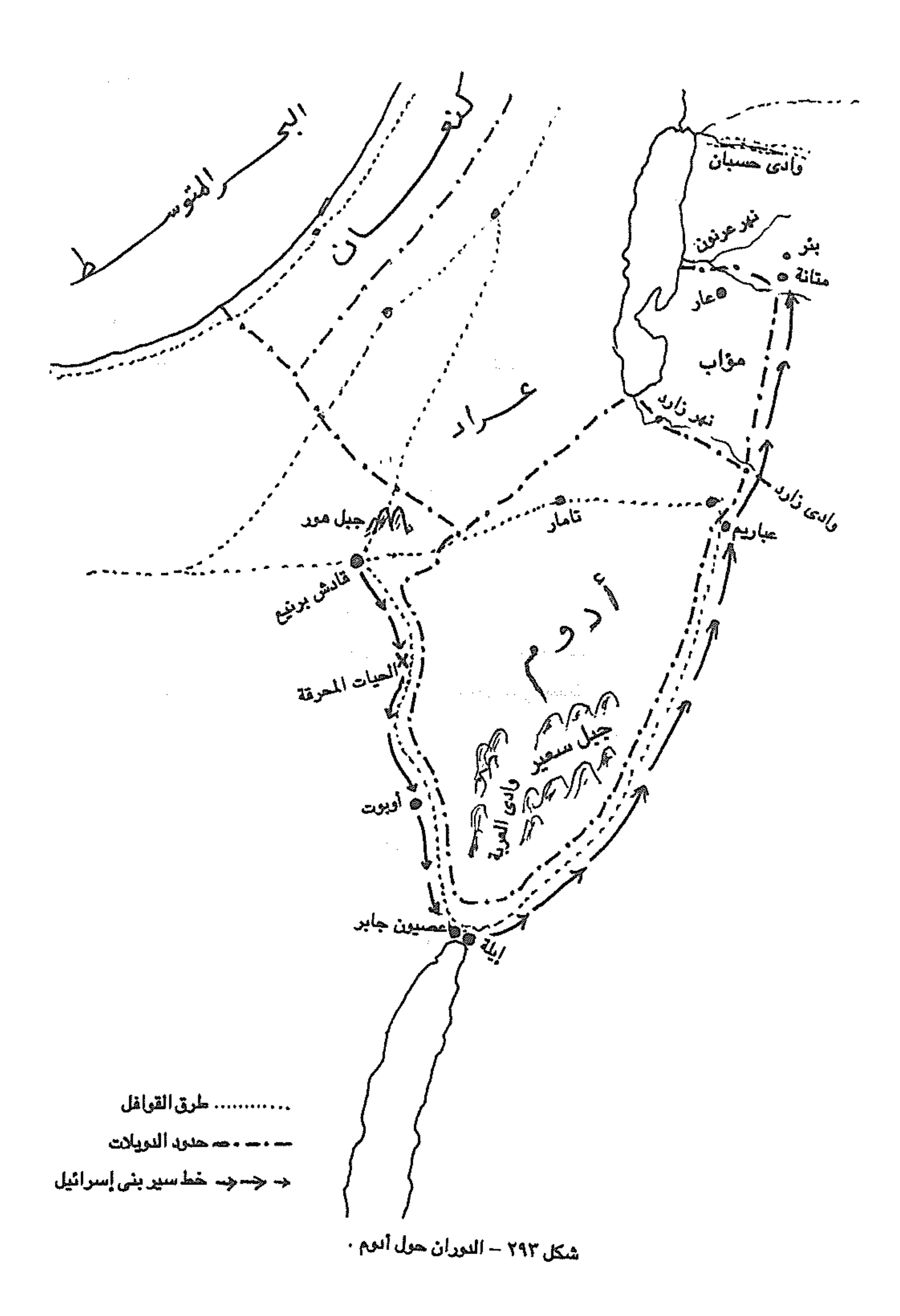
ارتد بنو إسرائيل إلى جبل هور ثم ساروا جنوبا على حدود أدوم ليدوروا حولها لأن ملكها رفض مرورهم بأرضه كما سبق أن ذكرنا. وتقول التوراة (عدد ٤:٢١) فضاقت نفس الشعب فى الطريق وتكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت فى البرية لأنه لا خبز ولا ماء وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف (يقصدون المن والسلوى !). – وهذا التذمر أدَّى إلى وقوع عقاب إلهى فى صورة ضربة الحيَّات – فأرسل الرب على الشعب

«**الحيات المحرقة**» فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل (وسم هذه الحيات كان يرفع حرارة المصاب حتى ليحس أنه يحترق): فأتى: الشعب إلى موسى وقالوا قد أخطأنا إذ تكلمنا على الرب وعليك. فَصَلِّ إلى الرب ليرفع عنا الحيات. فصلى موسى لأجل الشعب فقال الرب لموسى اصنع لك حية من نحاس وضعها على راية فكل من لُدِغَ ونظر إليها يحيا ففعل موسى كذلك وكان متى لدغت حية إنسانا ونظر إلى حية النحاس يحيا. ويقول أهل الكتاب إن ذلك يوضح أنه إذا توافر الإيمان الحق كان الخلاص وقد وُضعت حية نحاسية فى هيكل سليمان كتذكرة لما حدث. ولكن الحية النحاسية بعد أن كانت رمزا لبعث الإيمان فى النفس - بدأ بنو إسرائيل يقدسونها وصارت موضوعا للعبادة لذلك فإن حزقيا الملك (٧٠٠ ق.م.) كسرها ودقها ناعما (وارنر كيللر. ص١٤٦). وقد وجد عالم الآثار الإسرائيلى بنود روذنبرج إحدى الحيات النحاسية فى حفرياته فى بلدة تمنة فى وادى العربة.

بعد ذلك سار بنو إسرائيل فى اتجاه خليج العقبة ووصلوا إلى **أوبوت** Oboth وهى كلمة عبرية تعنى «قُرب الماء» ومكانها اليوم «عين الويبة». ثم وصلوا إلى **عصيون جابر** ثم **إيلة** على الطرف الشمالى لخليج العقبة وكانت هذه المسيرة من جبل هور إلى خليج العقبة طولها حوالى ١٦٠كم. ثم التفوا حول جبل سعير وساروا باتجاه شمال شرق (شكل ٢٩٣) كان جبل سعير إلى يسارهم وظلوا يدورون حول جبل سعير أياما كثيرة مترددين هل يعبرونه ويفاجئون الأدوميين ويخترقون أرضهم من الجنوب إلى الشمال حتى يصلوا إلى أرض كنعان مادام ملك أدوم قد رفض طلبهم بالمرور سلما فى أرضه. وكلَّم الرب موسى قائلا (تثنية ٢) كفاكم دورانًا بهذا الجبل. تحوَّلوا نحو الشمال وأَوْصِ الشعب قائلا أنتم مارون بتخم إخوتكم بنى عيسو الساكنين فى سعير فاحترزوا جدا. لا تهجموا عليهم لأنى لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم لأنى لعيسو قد أعطيت سعير ميراثا. طعاما تشترون منهم بالفضة لتأكلوا وماء أيضا تبتاعون منهم بالفضة لتشربوا.

ونفَّذ بنو إسرائيل أوامر الرب وساروا على حدود أدوم من الشرق ولم يحتكوا بهم حتى وصلوا إلى **عباريم** ثم عبروا **نهر زارد** وجاءوا إلى بلدة **متَّانة** على الحدود الشرقية لمؤاب على الشاطىء الشمالى لنهر عرنون ويحتمل أن تكون هى «خربة المدينة» الحالية وقال الرب لموسى (تثنية : ٩) لا تُعاد مؤاب ولا تُثر عليهم حربا لأنى لا أعطيك من أرضهم ميراثا. لأنى لبنى لوط قد أعطيت عار ميراثا (عار إحدى المدن الكبرى فى مؤاب على حدودها الشمالية على حافة وادى أرنون أو عرنون).

ونفذ بنو إسرائيل أوامر الرب وساروا على حدود مؤاب الشرقية ولم يعادوا المؤابيين أبناء مؤاب بن لوط (الجزء الثانى ص٣٣٤) وعبروا نهرا أرنون وأتوا إلى **بئر**. وقال الرب لموسى اجمع الشعب فأعطيهم ماء. حينئذ ترنَّم بنو إسرائيل بهذا النشيد: «اصعدى أيتها البئر. أجيبوا



شكل ٢٩٣ – الدوران حول أدوم .

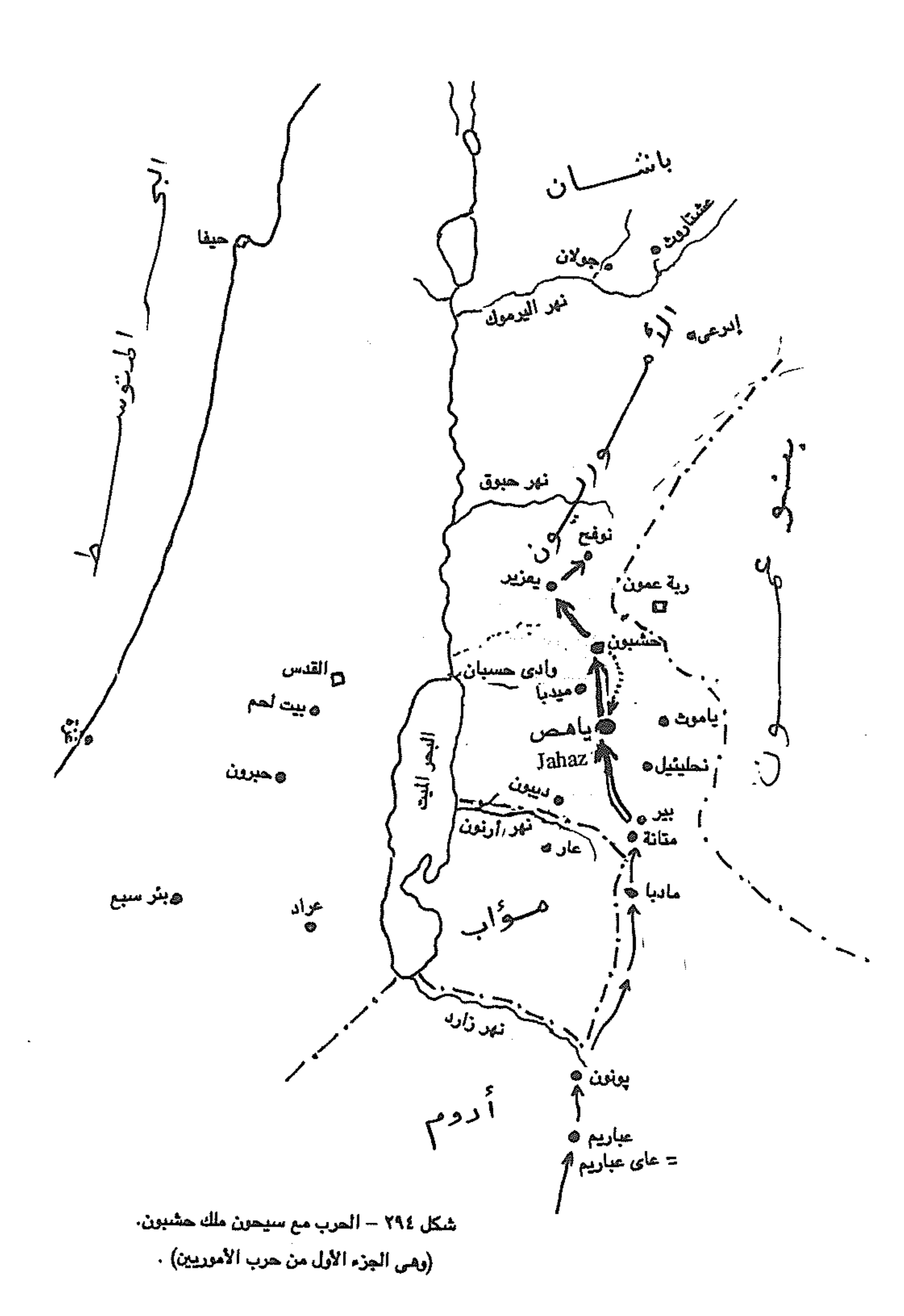
لها. بئر حفرها رؤساء. حفرها شرفاء الشعب بصولجان بعصيهم». ويفهم من هذا أن بنى إسرائيل قد حفروا هذه البئر بعصيٍّ وكان الرؤساء أصحاب الصولجان يشرفون على عملية الحفر حتى تمت وتدفق الماء منها غزيرا. وهذا يعنى أن دور عصا موسى وضرب الحجر لتتفجر منه المياه قد انتهى – وأن لبنى إسرائيل أن يعتمدوا على أنفسهم فى تدبير مايلزمهم من ماء للشرب أو لمواشيهم سواء بحفر الآبار أو بمياه الأنهار.

كان بنو عمون يسكنون الأرض التى إلى الشرق من «بئر» والأموريون إلى اليسار أى جهة الغرب. وكلم الرب موسى (تثنية ٢:١٨) قائلا: فمتى قربت إلى تجاه بنى عمون لاتعادهم. ولا تهجموا عليهم لأنى لا أعطيك من أرض بنى عمون ميراثا لأنى لبنى لوط قد أعطيتها ميراثا (عمون هو الابن الأصغر للوط. الجزء الثانى. ص ٣٣٦). قوموا اعبروا وادى أرنون. قد دفعتُ إلى يدك سيحون ملك حشبون الأمورى وأرضه. ابتدىء تملّك وأثِر عليه حربا. فى هذا اليوم أبتدىء أجعل خشيتك وخوفك أمام وجوه الشعوب تحت كل السماء. الذين يسمعون خبرك يرتعدون ويجزعون أمامك.

والمنطقة شمال نهر عرنون كانت فى الأصل من أراضى مؤاب التى كانت تمتد من وادى نهر زارد جنوبا حتى وادى حسبان عند الطرف الشمالى للبحر الميت وكانت حشبون ضمن أملاك مؤاب ولكن الأموريين حاربوا مؤاب الأول وغلبوهم وسبُوا بناتهم وانتزعوا منهم المنطقة من وادى حسبان حتى نهر أرنون أى حوالى نصف أرضهم. وقد أجرى عالم الآثار سيجفريد هورن حفريات فى منطقة حشبون بين عامى ١٩٦٨ – ١٩٧١ وكذلك العالم لورانس جيراتى فى أعوام ١٩٧٤ – ١٩٧٦ وأثبتا أن هذه المنطقة كانت آهلة بالسكان فى الفترة بين القرنين ١٢ ق.م. وحتى القرن ١٤ الميلادى (قاموس أونجر الجديد. ص٥٦٥).

محاربة الأموريين :

تقول التوراة (عدد ٢١:٢١) وأرسل إسرائيل رسلا إلى سيحون ملك الأموريين قائلا: دعنى أمر فى أرضك. لا نميل إلى حقل ولا إلى كرم ولا نشرب ماء من بئر فى طريق الملك نمشى حتى نجاوز تخومك. فلم يسمح سيحون لإسرائيل بالمرور فى تخومه بل جمع جميع قومه وخرج للقاء إسرائيل فى البرية – هنا نجد أن بنى إسرائيل لجأوا إلى الخدعة وأرادوا إظهار المهادنة حتى يدخلوا أرض الأموريين ثم ينقضوا عليهم فيغلبوهم بأقل الخسائر وخاصة أن تسليح بنى إسرائيل كان يقل كثيرا عن تسليح الأمم الأخرى. ولكن هذه الطريقة لم تفلح وخرج ملك سيحون لمحاربة بنى إسرائيل. وكان اللقاء فى مدينة **ياهص** Jahaz (شكل ٢٩٤) فضربه إسرائيل بحد السيف وملك أرضه من أرنون حتى الطرف الشمالى للبحر الميت . وكما قلنا سابقا إن هذه المنطقة كانت أصلا من أملاك مؤاب وكان من العار أن أخذها منهم الأموريون. لذلك قال بنو إسرائيل عند امتلاكها هذا النشيد :



شكل ٢٩٤ – الحرب مع سيحون ملك حشبون.
(وهى الجزء الأول من حرب الأموريين) .

ايتوا إلى حشبون فتُبنى وتُصلح مدينة سيحون.

لأن نارا خرجت من حشبون. لهيبا من قرية سيحون.

أكلت عار مؤاب . أهل مرتفعات أرنون .

ويل لك يا مؤاب. هلَكت يا أمة كموش.

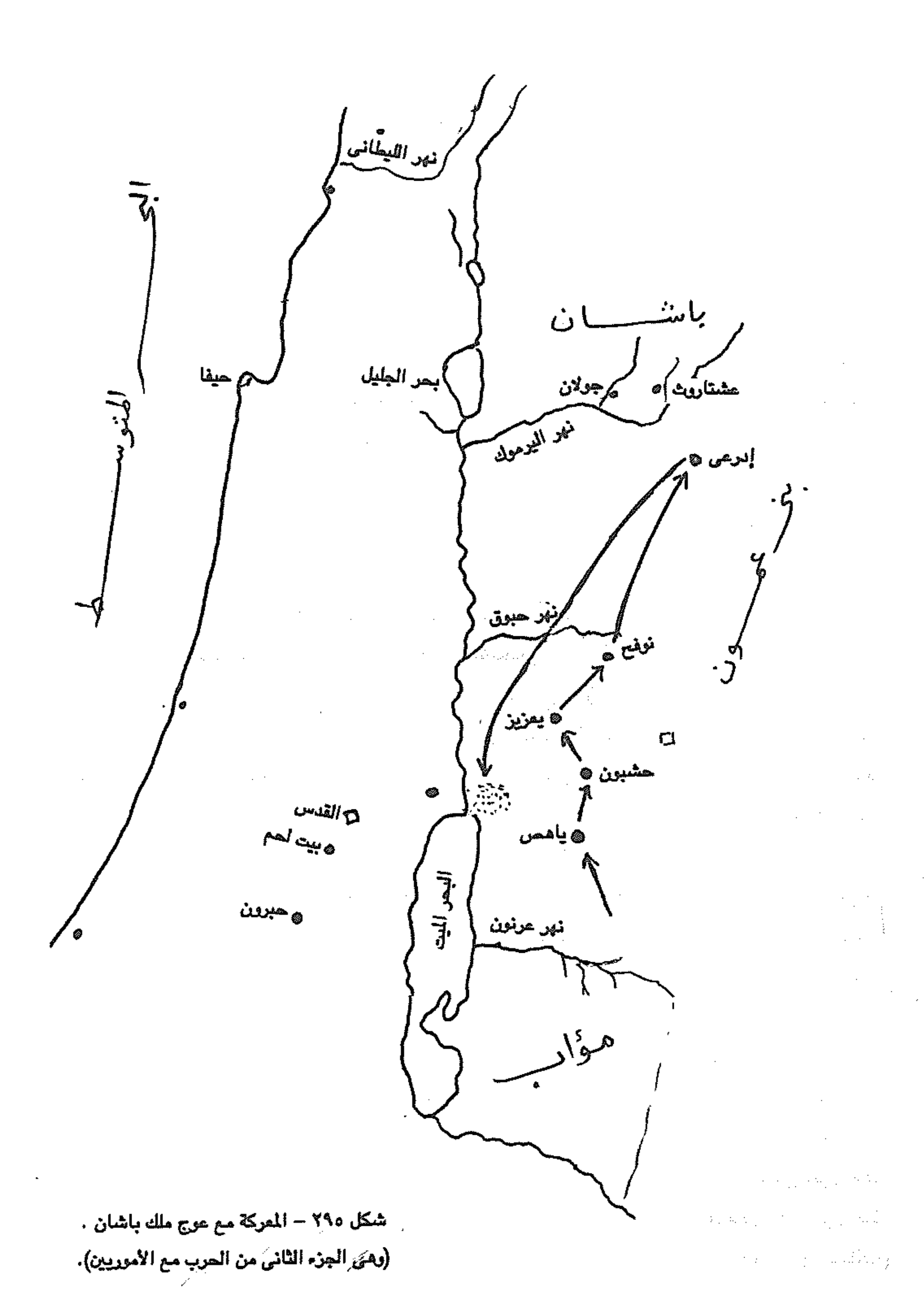
قد صيَّر بنيه هاربين وبناته فى السبى لملك الأموريين سيحون .

لكن قد رميناهم. هلكت حشبون إلى ديبون وأخربنا إلى نوفح التى إلى ميدبا.

وكموش هو إله المؤابيين وقد سمُّوا به «أُمة كوش» وسمى كموش «رجس المؤابيين». وكان من طقوس عبادته تقديم الأولاد ذبائح له. وكان له صله بملكوم أو مولك إله العمونيين الذى كانت تقدم له هو أيضا ذبائح من الأولاد.

وكان بنو إسرائيل يخربون المعابد بالذات إذ كان الأموريون وثنيين وكان من آلهتهم «رشف» إله النار و«دجان» إله الخصب والطعام و«حدد» أو «أدد» و«رمان» أو «رمانو» إله الرعد والمطر والعواصف.

ولاشك أن بنى إسرائيل قد غنموا بعض الأسلحة من الأموريين. وكان انتصارهم على الأموريين أول النجاحات التى لاقوها. وهذا ماشجعهم على الاستيلاء على كل المنطقة حول حشبون. وأرسل موسى (عدد ٢١:١٢) رسلا ليتجسس **يعزير** Jazer ثم استولى عليها – ثم على **نوفح** Nophah . ثم عبر نهر حبوق. وسار فى اتجاه الشمال صوب أرض باشان شرقى بحر الجليل. وباشان معناها خصيب وكانت مراعى باشان مشهورة بخصبها. وكان عوج ملك باشان يتخذ من مدينة عشتاروث (٣٠ كم شرق بحر الجليل) مركزا له. فخرج لملاقاة بنى إسرائيل ودارت المعركة فى بلدة **إدرعى** Edrei (شكل ٢٩٥). فقال الرب لموسى لا تخف منه لأنى دفعته إلى يدك مع جميع قومه وأرضه فتفعل به كما فعلت بسيحون ملك الأموريين. فضربوه وبنيه وجميع قومه حتى لم يبق له شارد وملكوا أرضه (عدد ٢١:٣٥). وقد ذكرنا سابقا (الجزء الثانى ص١٩٧) أن العماليق هم من نسل مالوق بن لود بن نوح. ومن خط السير المفترض لارتحالهم نرى أنهم مروا بهذه المنطقة من جنوب غرب سوريا – أرض باشان (الجولان حاليا). والعماليق ينتمون إلى إنسان العصر البرونزى المتوسط (٢٢٠٠ – ٢٠٠٠ ق.م.) وقد ارتحلت فرقة منهم جنوبيا واستقروا فى الجزيرة العربية عند تفجر الماء من بئر زمزم (جـ٢ ص٣٠٢) وذابوا فى الأقوام هناك. وفرقة ارتحلت إلى سيناء. وقد ذكرنا أن بنى إسرائيل حاربوهم عند رفديم (وادى فيران – ص ٩٨٣) وانتصروا عليهم وأبادوهم. كان عوج ملك باشان وقومه هم بقايا العماليق. وإلى هذا تشير التوراة (تثنية ٣:١١) فتقول: إن عوج ملك باشان وحده بقى من بقية الرَّفائيين (المراجع الإنجليزية تترجم الرفائيين إلى giants أى عمالقة)



شكل ٢٩٥ – المعركة مع عوج ملك باشان .
(وهى الجزء الثانى من الحرب مع الأموريين).



Dolmen in the Golan Heights

شكل ٢٩٦ – أحد الباحثين بجوار «سرير عملاق»
ويوجد حطام كثير منها فى مرتفعات الجولان .

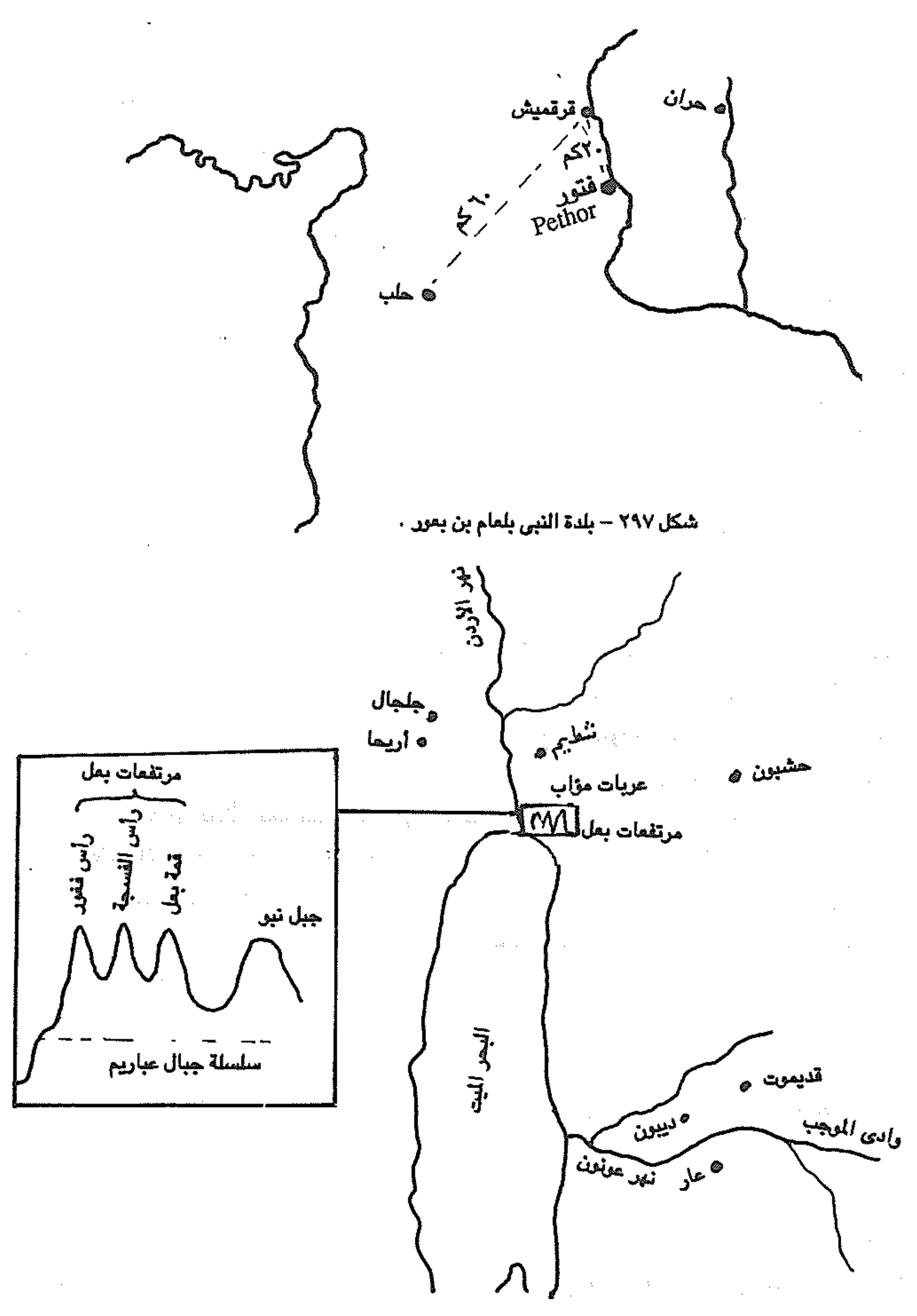
هو ذا سريره، سرير من حديد. أليس هو فى ربة بنى عمون (عمان الأردن حاليا) طوله تسع أذرع وعرضه أربع أذرع بذراع رجل. وقد اكتشف الأثريون مئات من هذه «السرر» عبارة عن قطعة ضخمة من حجر البازلت الصلد ٩ أذرع × ٤ أذرع ترتكز على ٤ قطع حجارة أصغر ترفعها عن الأرض ويسميها الناس «سرير العملاق» (شكل ٢٩٦). ويرجح الأثريون أنها أضرحه أو قبور مكشوفه لهؤلاء العمالقة. وقد وجدت مئات منها فى الجولان والتى هى أرض باشان. وهذا يؤيد ما ذُكر من أن عوج ملك باشان كان آخر العمالقة. وقد أبادهم بنو إسرائيل، حتى لم يبق لهم شارد كما ذكرنا أعلاه.

بعد أن استولى موسى وبنو إسرائيل على أرض باشان عادوا ونزلوا فى السهل المقابل لمدينة أريحا عبر نهر الأردن وهذا السهل يسمى «**عربات مؤاب**» وبدأوا يُعدُّون العدة لعبور نهر الأردن إلى «الأرض الموعودة» التى أصبحت على مرمى البصر. لقد أمَّنوا ظهرهم فهزموا الأموريين واستولوا على أرضهم. وهادنوا بنى عمون ومؤاب واحترموا سيادتهم على أرضهم ولم يهاجموهم كما أمر الرب. ولكن حدث من مؤاب أمر لم يكن متوقعا ولا كان فى الحسبان.

«بلعام بن بعور» «نبي فتور» :

بالرغم من أن بنى إسرائيل كانوا قد تجنبوا الاشتباك مع مؤآب إلا أن بالاق بن صِفُّور ملك مؤاب انزعج من اكتساح بنى إسرائيل للأموريين ثم لما عادوا ونزلوا فى شرق الأردن مقابل أريحا ظن أنهم سيتقدمون صوبه للاستيلاء على أرضه. تقول التوراة (عدد ٢٢:٢) ولما رأى بالاق بن صفور جميع مافعل إسرائيل بالأموريين فزع فقال مؤاب لشيوخ مديان. الآن يلحس بنو إسرائيل كل ماحولنا كما يلحس الثور خضرة الحقل! كان المؤابيون قد فشت فيهم عبادة الأوثان وكانوا يعبدون إلها اسمه «كيموش». وكان العمونيون يعبدون إلها اسمه «ملكوم» وكانوا يقدمون أبناءهم ذبائح له كما سبق أن ذكرنا. وكان المديانيون أيضا قد ضلوا وعبدوا الأوثان. ولعل المؤابيين ظنوا أن بنى إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام لن يتركوا أيا من الشعوب التى تعبد أصناما فى حالها وأنهم إن عاجلا أو آجلا لابد مكتسحوهم فرأوا أن يستبقوا الأمور فاتصلوا بشيوخ مدين واتفقوا معهم على أن يعملوا على إضعاف بنى إسرائيل باستعداء الرب عليهم.

بلعام بن بعور كان نبيا فى فتور Pethor – وإن كان البعض يرى أنه كاهن فقط – وكان يعيش فى قومه. ويحتمل أن مدينة فتور مكانها الآن تل الأحمر – ٢٠كم جنوب قرقميش على الضفة الغربية للفرات الأعلى (شكل ٢٩٧) وكان مشهورا بتقواه وبأن دعاءه مستجاب. فأرسل بالاق رسلا إليه يدعوه قائلا: هو ذا شعب قد خرج من مصر هو ذا قد غَشيَ وجه الأرض وهو مقيم مقابلى فالآن تعالي والعن لى هذا الشعب لأنه أعظم منى لعله يمكننا أن نكسره فنطرده من الأرض لأنى عرفت أن الذى تباركه مبارك والذى تلعنه ملعون – ولعل بالاق كان يطمع فى



شكل ٢٩٧ – بلدة النبى بلعام بن بعور .

شكل ٢٩٨ – مباركة بلعام بن بعور لبنى إسرائيل .

استرداد النصف الشمالى من مملكته الذى استولى عليه الأموريون فلما استولى عليه بنو إسرائيل وجدها فرصة ليعيده إلى سيطرته فأراد أن يُضعِفَ بنى إسرائيل بالدعاء عليهم ولعنهم حتى يستطيع أن يتغلب عليهم.

وانطلق شيوخ مؤاب وشيوخ مديان وفى أيديهم حُلوان العرافة وأتوا إلى بلعام وكلَّموه بكلام بالاق فطلب منهم أن يمهلوه إلى الغد حتى يستشير الرب. وأُوحى إلى بلعام ألاَّ يذهب معهم ولا يلعن شعب بنى إسرائيل لأنه شعب مبارك. وفى الصباح أخبرهم أن الرب لم يسمح له بالذهاب معهم. فعاد الوفد إلى بالاق وأخبروه أن بلعام رفض طلبه. فعاد بالاق وأرسل رسلا أكثر وأعظم فأتوا إلى بلعام وألحوا فى مجيئة معهم وأغروه بهدايا أكثر. ورفض بلعام قائلا: ولو أعطانى بالاق ملء بيته فضة وذهبا لا أقدر أن أتجاوز قول الرب فى أى عمل صغير أو كبير وطلب منهم امهاله الليلة لينظر ما يأمر به الرب. يرى أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين. ص٢٩٢) أن ذلك التصرف من بلعام كان خطأ فقد سبق أن أُعلنت له إرادة الرب فكان عليه أن يكرر فى الحال رفضه السابق. إذ أنه لم تكن هناك أية حقيقة جديدة يمكن أن تبرر إعادة فتح الموضوع. لكن على مايبدو أن بلعام كان قد مال قلبه للذهاب معهم لما رأى كثرة الهدايا هذه المرة فأراد أن يستشير الرب «لعله» يسمح له بالذهاب معهم وحتى لو لم يفعل مايطلبونه. فإن هذا الموقف منه يدل على عدم الولاء الكامل لله. وكان طلبه مشورة الرب مُعبِّرا عن شهوة خفية للحصول على هذه العطايا الثمينة. وكأنما أراد الله أن يعطيه فرصة أخرى. فرأى بلعام فى المنام أن الرب يقول له: إذا أتى الرجال ليدعوك فقم اذهب معهم إنما تعمل الأمر الذى أكلمك به. هنا كان الواجب على بلعام – أن يفهم المغزى الحقيقى لإرادة الرب إذ مادام قد أعلنه أن يتكلم بما يكلمه به الرب فهذا معناه عدم الموافقة على التكلم بما يطلبونه فيتعين عليه ألا يذهب معهم. ولكنه – لرغبته فى الذهاب معهم ليكون من حقه الهدايا التى عرضوها – عَمِيَ عن إرادة الرب وقام بلعام صباحاً وركب أتانه (الأتان أنثى الحمار) وانطلق مع رؤساء مؤاب. وتقول التوراة (عدد ٢٢:٢٢): فحمى غضب الرب لأنه منطلق معهم ووقف ملاك الرب فى الطريق ليقاومه وتوقف الأتان فضربه بلعام فسار قليلا ثم اعترضه الملاك ثانية فجنح إلى حائط حقل كروم وضغطت رجل بلعام بالحائط فضربها. ثم لما اعترضها ملاك الرب للمرة الثالثة ربضت وأبصر بلعام ملاك الرب واقفا فى الطريق شاهرا سيفه فسجد بلعام على وجهه وقال أخطأتُ والآن إن قبح فى عينيك فإنى أرجع فقال له الملاك اذهب مع الرجال وإنما تتكلم بالكلام الذى أكلمك به فقط.

فلما سمع بالاق بمجيء بلعام خرج لاستقباله وقال بلعام هأنذا قد جئت إليك. الكلام الذى يضعه الله فى فمى به أتكلم. وانطلقا معا إلى قرية «حصوت» وذبح بالاق بقرا وغنما وأولم وليمة لبلعام وفى الصباح أخذ بالاق بلعام بن بعور. وأصعده إلى **قمة بعل** (إحدى القمم فى سلسلة جبال عباريم – شكل ٢٩٨) ورأى من هناك شعب بنى إسرائيل.

وأمر بلعام بعمل الشعائر المطلوبة من بناء سبعة مذابح وتقديم قرابين (سبعة ثيران وسبعة كباش) ووقف على إحدى القمم العالية بحيث يرى الشعب. ولقَّنه الرب مايقول فقال: كيف ألعن من لم يلعنه الله ويبارك بنى إسرائيل. وقال بالاق جئت بك لتلعنهم فإذا بك تباركهم. هلُمَّ إلى مكان آخر لتلعنهم فذهبوا إلى **رأس الفسجة** وعملوا نفس الشعائر ونطق بلعام وبارك بنى إسرائيل أيضا وغضب بالاق وطلب منه الانتقال إلى مكان ثالث ليلعنهم فانتقلوا إلى **رأس فغور**. وبنى أيضا سبعة مذابح وقدَّم سبعة ثيران وسبعة كباش قربانا وتكلم بلعام وبارك بنى إسرائيل للمرة الثالثة. وغضب بالاق بن صفور – ملك مؤاب على بلعام وقال له جئت بك لتلعنهم وهو ذا أنت باركتهم ثلاث مرات. فالآن اهرب إلى بلدك. فقال له بلعام: لقد أخبرت رسلك بأنك لو أعطيتنى ملء بيتك فضة وذهبا فلا أقدر أن أتجاوز قول الرب لأعمل خيرا أو شرا من نفسى فالذى يتكلم به الرب إياه أتكلم.

نبوءات بلعام: قال بلعام: وحى الذى يسمع أقوال الله ويعرف معرفة العلىّ الذى يرى رؤيا القدير وهو مكشوف العينين. أراه ولكن ليس الآن. أبصره ولكن ليس قريبا. يبرز كوكب من يعقوب ويقوم قضيب من إسرائيل فيحطم طرفى مؤاب ويكون أدوم ميراثا ويكون سعير أعداؤه ميراثا. ويصنع إسرائيل ببأس ويتسلط الذى من يعقوب. (وهذه النبوءة تنطبق على داود التى انتصر على مؤآب وأدوم). بعد ذلك لم يعد بلعام إلى بلده فتّور بل رافق شيوخ مديان إلى بلادهم.

محاربة المديانيين :

كانت جموع بنى إسرائيل بجوار شطِّيم. فبدأ شباب بنى إسرائيل يترددون على القرية ويزنون مع بنات مؤاب والبنات المديانيات الموجودات بالقرية. بل وبدأ بعضهم يسجد لآلهتهن. فغضب الرب وأوحى إلى موسى بأن يقوم رئيس كل سبط بقتل الأفراد الضالين فى سبطه. وسلط الله عليهم وباء قتل منهم الكثيرين. وكلَّم الرب موسى قائلا (عدد ٣١:١) انتقم لبنى إسرائيل من المديانيين ثم تُضَمُّ إلى قومك (أى تموت). فكلَّم موسى الشعب قائلا: جردوا منكم رجالا للجند فيكونوا على مديان. ألفا واحدا من كل سبط. فاختير اثنا عشر ألفا مجرَّدون للحرب وأمَّر عليهم فينحاس بن ألعازار الكاهن وسار بهم ومعه أمتعة المقدس وأبواق الهتاف وتوجهوا جنوبا شرقى أدوم إلى أرض مدين شرق خليج العقبة وقتلوا ملوكهم وقتلوا كل الذكور. **وبلعام بن بعور قتلوه** بالسيف وسبى بنو إسرائيل نساء مدين وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم ومواشيهم وكل أملاكهم وأحرقوا جميع مدنهم. وكانت الغنائم ٦٧٥,٠٠٠ رأس غنم ومن البقر ٧٢,٠٠٠ ومن الحمير ٦١,٠٠٠ والسبايا النساء ٣٢,٠٠٠.

أشار الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم إلى قتل بنى إسرائيل لبعض الأنبياء بقوله:

«قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم صادقين». (٩١ – البقرة)

ولعل بلعام بن بعور نبى فتور كان أول الأنبياء الذين قتلهم بنو إسرائيل. يتَّهم أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين ص٣٩٩) بلعام بأنه أقنع المؤابيين والمديانيين أنهم يمكنهم أن يفوزوا ببغيتهم فى إضعاف إسرائيل عن طريق إغراء شباب بنى إسرائيل للوقوع فى الفساد وعبادة الأصنام التى تجعل الله لا يؤيدهم بنصره. ولا نظن أن بلعام يحرِّض على الفساد بمثل هذه النصيحة. إلا أن يكون أنه لما لم يحصل على الهدية من بالاق أُوغرَ صدره على بنى إسرائيل. ففعل مافعل وبذلك كان قتله قصاصا عادلا. وما نراه هو أن بلعام قد تخلى عن الله فتخلى الله عنه. ولعل بلعام خشى أن يعود وحده إلى بلده فى الفرات الأعلى خشية أن يوقع به بالاق فى الطريق ويقتله. والأنبياء لا يخشون أحدا إلا الله ولو كان مقدرا له القتل فلن يفلته منه أى تدبير يفعله. كما أن الأنبياء لا يخطون خطوة إلا بأمر الله. ولعله لم يستشر ربه فى تَوَجُّهه إلى مدين بدلا من بلده الأصلى. ولكن على مايبدو كان بلعام قد بدأ يتصرف من تلقاء نفسه. ورأى أنه بمرافقة شيوخ مدين العائدين إلى بلدهم سيكون فى حمايتهم وفى مأمن من غدر بالاق. فى حين أن هذا التصرف كان فيه حتفه وانطبق عليه قوله تعالى:

«قل إن الموت الذى تفِرُّون منه فإنه ملاقيكم». (٨ – الجمعة)

ولاشك أن جنود بنى إسرائيل بقيادة فينحاس بن ألعازار قد تعرفوا عليه وظنوا أنه قد انحاز إلى أعدائهم فقتلوه بالرغم من أنه رفض إغراءات بالاق بأن يلعنهم وباركهم ثلاث مرات.

بعد انتصار بنى إسرائيل على مدين خاف المؤابيون ولم يعودوا يشكلون أى مشكلة بالنسبة لبنى إسرائيل. وتفرغ موسى للخطوة التالية وهى:

الاستعدادات الأخيرة لدخول الأرض :

كان الكنعانيون يتوقعون الغزو من الجنوب وبعد هزيمتهم لبنى إسرائيل قرب جبل هور (ص١٠٨٨) وما رأوه من اتجاه بنى إسرائيل فى سيرهم نحو الجنوب – ظنوا أنهم صرفوا النظر عن دخول الأرض وأنهم عائدون إلى سيناء للاستطيان بها واسترخى القوم فى كنعان ولم يهتموا بمعرفة مايجرى فى شرق الأردن لظنهم أنها المناوشات العادية التى كانت تجرى بين المؤآبيين والأموريين.

وبدأ بنو إسرائيل فى اتخاذ الاستعدادات النهائية لدخول الأرض من الشرق وكانت هذه الاستعدادات تشمل :

أ – التعبئة العامة الأخيرة .

ب – وضع قواعد تقسيم الأرض بعد الاستيلاء عليها .

أ – التعبئة العامة الأخيرة :

نتيجة لما حدث لبنى إسرائيل أثناء التيه فى سيناء أربعين سنة وهى مدة طويلة تغير حجم الأسباط تغيرا كاملا فقد مات جيل بأكمله ونشأ جيل جديد ولا يمكن لقائد حصيف أن يدخل معركة معتمدا على بيانات إحصائية لحجم قواته من أربعين سنة لذلك صدر الأمر بإحصاء جديد لتقدير عدد رجال الحرب القادرين على حمل السلاح لغزو فلسطين ودخول الأرض وامتلاكها. وكان الحد الأدنى لسن التجنيد هو ٢٠ سنة كما فى الإحصاء الأول: (عدد ٢٦:١) ثم كلم الرب موسى وألعازار بن هارون الكاهن قائلا: خذ عدد كل جماعة بنى إسرائيل من **ابن عشرين سنة** فصاعدا حسب بيوت آبائهم كل خارج للجند فى إسرائيل فكان الإحصاء هكذا:

السبط	العدد	العشائر	السبط	العدد	العشائر
١ – سبط رأوبين	٤٣,٧٣٠	٤ عشائر	٧ – بنو أفرايم	٣٢,٥٠٠	٤ عشائر
٢ – سبط شمعون	٢٢,٢٠٠	٥ عشائر	٨ – بنو منسى	٥٢,٧٠٠	٤ عشائر
٣ – بنو جاد	٤٠,٥٠٠	٧ عشائر	٩ – بنو بنيامين	٤٥,٦٠٠	٧ عشائر
٤ – سبط يهوذا	٧٦,٥٠٠	٨ عشائر	١٠ – بنو دان	٦٤,٤٠٠	عشيرة واحدة
٥ – بنو يساكر	٦٤,٣٠٠	٤ عشائر	١١ – بنو أشير	٥٣,٤٠٠	٦ عشائر
٦ – بنو زبولون	٦٠,٥٠٠	٣ عشائر	١٢ – بنو نفتالى	٤٥,٤٠٠	٤ عشائر

وكان مجموع الجند من بنى إسرائيل ٦٠١,٧٣٠ وقد سبق أن أبدينا رأينا (ص ١٠٤٥) فى مصداقية هذه الأرقام.

وكان سبط لاوى المعدودون من **ابن شهر** فصاعدا هو ٢٣,٠٠٠ وبالطبع سبط لاوى لا يُجنَّدون لأنهم يخدمون الرب. وكان اللاويون ثلاث عشائر: جرشون وقهات ومرارى.

ب – قواعد تقسيم الأرض :

تقول التوراة (عدد ٢٦:٥٢) ثم كلَّم الرب موسى قائلا لهؤلاء تُقْسم الأرض نصيبا على عدد الأسماء. الكثير تُكثر له نصيبه والقليل تُقلِّل له نصيبه كل واحد حسب المعدودين منه يعطى نصيبه. إنما بالقرعة تُقسم الأرض. حسب أسماء أسباط آبائهم يملكون حسب القرعة.

وحدثت مشكلة إذ أن أحد رؤساء عشائر منسى – وهو صلفحاد توفى ولم يكن له أبناء ذكور بل كانت له ٣ بنات تظلمن إلى موسى عليه السلام إذ لم يعط لهن نصيب. فكلَّم الرب موسى وأنزل القاعدة الشرعية: أيما رجل مات وليس له ابن تنقلون ملكه إلى ابنته وإن لم يكن له إبنة تعطوا ملكه لإخوته. وإن لم يكن له إخوة تعطوا ملكه لإخوة أبيه وإن لم يكن لأبيه إخوة تعطوا ملكه لنسيبه الأقرب إليه من عشيرته فيرثه فصارت لبنى إسرائيل فريضة كما أمر الرب موسى (عدد ٢٧:٦). ونلاحظ هنا فرقا بين اليهودية والإسلام. ففى الشريعة اليهودية تحجب الإبنة الإخوة عن الميراث. وفى المذهب السنى يكون للإخوة نصيب فى الميراث إذا لم يكن

للمتوفى أبناء ذكور. ولكن الشيعة يفسرون الآية الواردة فى هذا الشأن تفسيرا يجعل الإخوة لا يشاركون ابنة أو بنات المتوفى فى الميراث.

كذلك لم يعط لعشائر سبط لاوى نصيب فى الأرض عند التقسيم (تثنية ١٨): لايكون للكهنة اللاويين قسم ولا نصيب مع إسرائيل. يأكلون وقائد الرب ونصيبه. وهذا هو حق الكهنة من الشعب الذين يذبحون الذبائح بقرا كانت أو غنما يعطون الكاهن الساعد والفكين والكرش. وتعطيه أول حنطتك وخمرك وزيتك وأول جزاز غنمك لأن الرب إلهك قد اختاره من جميع أسباطك لكى يقف ليخدم باسم الرب هو وبنوه.

لجنة تقسيم الأرض :

وكلم الرب موسى قائلا (عدد ٣٤:١٦) هذان اسما الرجلين اللذين يقسمان الأرض لكم: ألعازار الكاهن ويشوع بن نون ورئيساً واحدا من كل سبط تأخذون لقسمة الأرض:

من سبط يهوذا : كالب بن يفنة

من سبط شمعون : شموئيل بن عَمِّيهود .

من سبط نبيامين : أليداد بن كسلون .

من سبط بنى دان : بُقِّى بن يجلى.

من سبط منسى : حَنِّينيل بن إيفود .

من سبط أفرايم : قموئيل بن شِفطان .

من سبط زبولون : أليصافان بن فرناخ .

من سبط يساكر : فلطيئيل بن عزَّان .

من سبط أشير : أخيهود بن شلومى .

من سبط نفتالى : فدهئيل بن عَمِّيهود .

هؤلاء هم الذين أمرهم الرب أن يقسموا لبنى إسرائيل فى أرض كنعان.

وأما بنور رأوبين وبنو جاد فكلَّموا موسى وألعازار الكاهن ورؤساء الجماعات قائلين (عدد ٣٢): إن وجدنا نعمة فى عينيك تعطنا أرضا فى شرق الأردن وعينوا له المناطق بالإسم حسب شكل ٢٩٩ - اعطنا هذه الأرض ولا تُعَبِّرنا الأردن. فغضب موسى وقال لبنى جاد وبنى رأوبين: هل ينطلق إخوتكم إلى الحرب وأنتم تقعدون ههنا. لماذا تصدُّون قلوب بنى إسرائيل عن العبور إلى الأرض. وذكرَّهم بأن الذين ثبطوا الناس عن الحرب عند قادش برنيع غضب الرب عليهم. وكان جزاؤهم أن يموتوا فى البرية. فقالوا نحن نعبر معهم. ونحارب معهم حتى ينتصروا

ويتملكوا الأرض وبعد هذا لا نقتسم معهم لأننا نأخذ نصيبنا من الأرض شرق نهر الأردن. وعلى هذا الشرط وافق موسى عليه السلام على طلبهم إذ لم يكن فيه نكوص عن دخول الأرض. كذلك طلب ٣ عشائر من عشائر منسى الأربعة مثل هذا الطلب. فعين لهم موسى مناطق فى شرق الأردن. وهكذا أصبح اقتسام الأرض غرب النهر على ٩,٥ سبط وفى شرقه على ٢,٥ سبط.

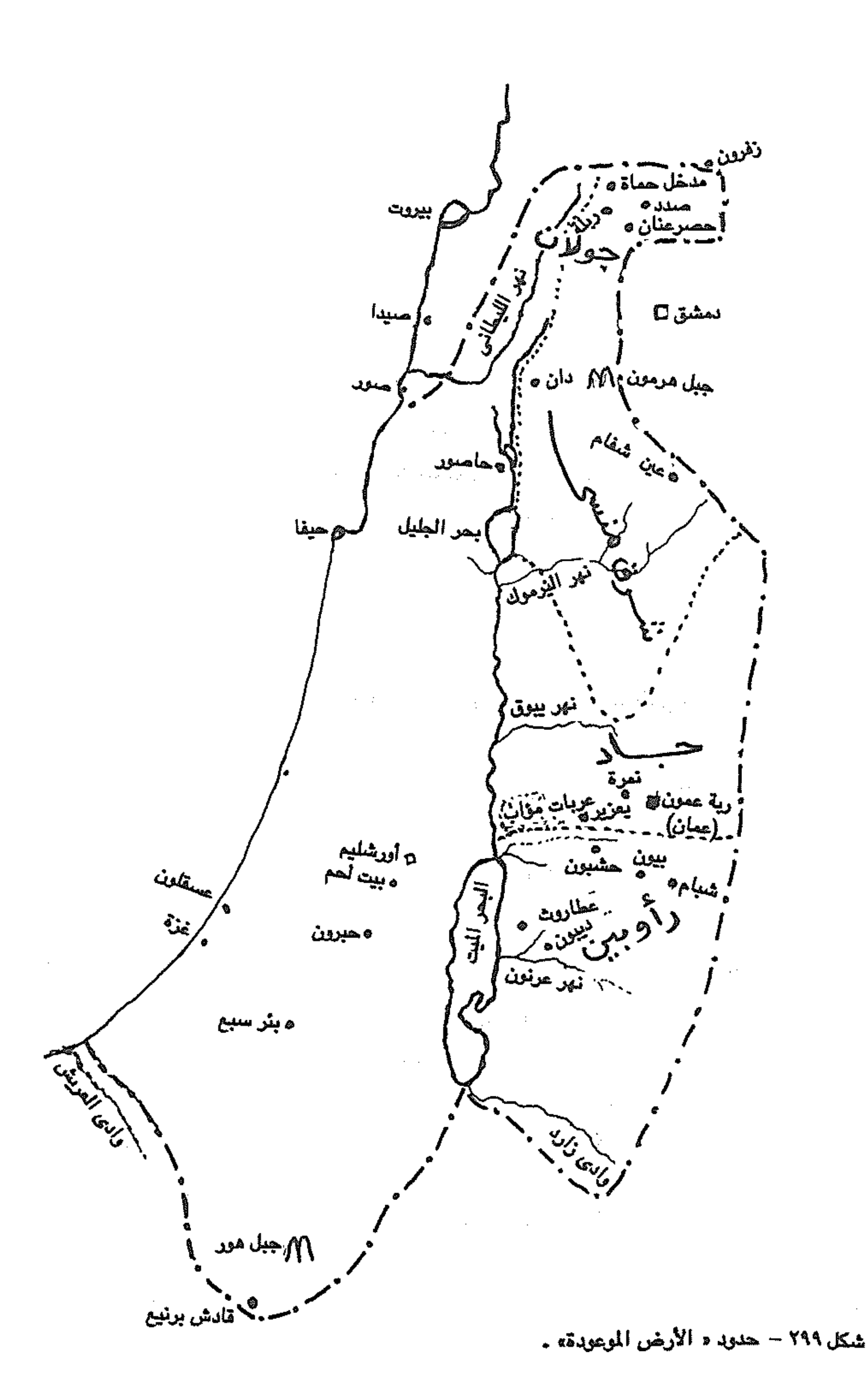
حدود الأرض :

بدلا من إطالة الشرح فإن الخرائط أكثر توضيحا. وشكل ٢٩٩ يبين لنا أنه فى المفهوم الإسرائيلى **«الأرض الموعودة»** تشمل فلسطين كلها بما فيها الضفة الغربية بأكملها. وشرق الأردن وجنوب لبنان والجولان! ونرى أن الحدود الشمالية تمتد فى الشرق لتشمل منابع ووادى الليطانى وهى من أخصب المناطق لوفرة المياة بها. أما «إسرائيل الكبرى» فهى من النيل إلى الفرات كما يدَّعون فى الوقت الحاضر.

وكلم الرب موسى فى عربات مؤاب قائلا: كلِّم بنى إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفاتهم (أى معابدهم التى كانت تقام على مرتفعات وتسمى زقورات. انظر الجزء الثانى ص١٨٧). وتقول التوراة (تثنية ٣:٢٥) وتضرع موسى إلى الرب قائلا: دعنى أعبر وأرى الأرض الجيدة التى عبر الأردن. هذا الجبل الجيِّد ولبنان. ولكن الله أمره: لا تعد تكلمنى أيضا فى هذا الأمر. اصعد إلى رأس الفسجة (أحد قمم الجبال العالية فى مرتفعات بعل. شكل ٢٩٨) وارفع عينيك إلى الغرب والشمال والجنوب والشرق وانظر بعينيك لكن لا تعبر هذا الأردن.

استخلاف يشوع :

أدرك موسى عليه السلام أن مهمته قد انتهت. فقد أخذ بيد بنى إسرائيل وأخرجهم من مصر وسار بهم إلى سيناء وأعطاهم شريعة الرب ثم تغرّب معهم فى البرية ٤٠ سنة وهاهو قد وضع أقدامهم على أعتاب الأرض التى وعدها الله لهم. وحارب معهم حتى تملكوا الأرض الواقعة فى شرق الأردن. وأدرك أن أجله قد اقترب موعده فكلم الرب قائلا: ليوكِّل الرب رجلا على الجماعة لكى لا تكون الجماعة كالغنم التى لا راعى لها. فقال الرب لموسى: خذ يشوع بن نون - رجلا فيه روح. وضع يدك عليه وأوقفه قدام ألعازار الكاهن وقدام كل الجماعة وأوصه أمام أعينهم. واجعل من هيبتك عليه لكى يسمع له كل جماعة بنى إسرائيل. ففعل موسى كما أمر الرب. وقال له الرب: وأما يشوع فأوصه وشدِّده وشجعه لأنه هو يعبر أمام هذا الشعب وهو يقسم لهم الأرض.



شكل ٢٩٩ – حدود « الأرض الموعودة» .

وتقول التوراة (تثنية ١٤:٣١) وقال الرب لموسى. هو ذا أيامك قد قربت لكى تموت. ادع يشوع وقفا فى خيمة الاجتماع لكى أوصيه. فانطلق موسى ويشوع ووقفا فى خيمة الاجتماع. فتراءى الرب فى الخيمة فى عمود سحاب ووقف عمود السحاب على باب الخيمة وأوصى يشوع بن نون وقال تشدَّد وتشجَّع لأنك أنت تدخل ببنى إسرائيل الأرض التى أقسمت لهم وأنا أكون معك.

الوصية الأخيرة لموسي عليه السلام
(خُطب الوداع الثلاث)

كانت الوصية الأخيرة لموسى عليه السلام من الطول بحيث استغرقت ثلاثة أيام فى إلقائها وتكونت من ثلاث خطب. ألقى كل واحدة منها على قمة من قمم جبال بعل الموجودة على الضفة الشرقية لنهر الأردن عند الطرف الشمالى للبحر الميت (شكل ٢٩٨) فى المنطقة المعروفة بعربة مؤاب وقف موسى يرنو ببصره إلى الأرض عبر الأردن والتى كان يتمنَّى أن يدخلها - ولكن شاءت إرادة الله أن يدخلها خلفه يشوع بن نون - ويمكننا تلخيص هذه الخطب التى ذكرت فى التوراة (سفر التثنية) فى الآتى:

الخطبة الأولى :

بدأ موسى عليه السلام الخطبة بمقدمة تاريخية ذكَّر فيها بنى إسرائيل - أو بالأحرى سرد فيها لهذا الجيل من بنى إسرائيل - الأحداث التى مرت على آبائهم وفضل الله عليهم إذ أخرجهم من مصر وأهلك عدوَّهم. ثم جاءوا إلى البريَّة. وأنزل الله عليه ألواح الشريعة والأحكام. وراح يسرد عليهم ما أخطأوا به إلى الرب ولكن الرب عفا عنهم. ثم كيف أرسل الاثنى عشر نقيبا ليتجسسوا فى الأرض وكيف رفض آباؤهم دخول الأرض فكان التيه أربعين سنة. ولما انقضت داروا حول أدوم ومروا بجوار مؤاب وبنى عمون ولم يعادوهم. ثم حاربوا الأموريين وهزموهم واستولوا على أرضهم ثم حاربوا المديانيين وهزموهم وخربوا ديارهم وغنموا منهم الغنائم والسبايا.

بعد هذه المقدمة انتقل موسى عليه السلام إلى صلب الخطاب الأول وهو يحث على عبادة الرب وحده وعدم الإشراك به والبعد عن عبادة الأصنام وتحطيم الأصنام التى يجدونها فى الأرض التى يدخلونها. ويمكن تلخيص الخطبة الأولى فى النقاط التالية:

١ – التأكيد على عبادة الرب وحده وعدم الإشراك به :

فالآن ياإسرائيل اسمع الفرائض والأحكام التى أنا أعلمكم لتعملوها لكى تحيوا وتدخلوا وتمتلكوا الأرض التى الرب إله آبائكم يعطيكم. لا تزيدوا على الكلام الذى أنا أوصيكم به ولا تنقصوا منه. احفظوا وصايا الرب إلهكم التى أنا أوصيكم بها. أعينكم قد أبصرت ما فعله الرب بكل من ذهب وراء بعل فغور (إله الكنعانيين) أباده الرب من وسطكم. وأما أنتم الملتصقون بالرب فجميعكم أحياء. قد علّمتكم فرائض وأحكام كما أمرنى الرب إلهى لكى تعملوا بها فى الأرض التى أنتم داخلون إليها فاحفظوا واعملوا واحفظ نفسك جيدا لئلا تزول من قلبك. وعلمها أولادك وأولاد أولادك. لا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالا منحوتا شبِه ذكر أو أنثى أو شبِه بهيمة ما مما على الأرض أو شبه طائر مما يطير فى السماء. ولئلا ترفع عينيك إلى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم فتسجد لها وتعبدها. اخترزوا من أن تنسوا عهد الرب إلهكم وتصنعوا لأنفسكم تمثالا منحوتا صورة كل ما نهاك عنه الرب إلهك.

أشهد عليكم اليوم السماء والأرض – أنكم إن فعلتم ذلك – أنكم تبيدون سريعا عن الأرض ويبددكم الرب فى الشعوب فتبقون عددا قليلا بين الأمم التى يسوقكم الرب إليها.

ملحوظة: لم يلتزم بنو إسرائيل بهذه الوصية ونفذ فيهم تهديد موسى كما جاء فى القرآن الكريم:

«وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم. وقطعناهم فى الأرض أمما».

(١٦٧ – الأعراف)

لا تصنعوا آلهة من خشب أو حجر مما لا يُبصر ولا يسمع ولا يأكل ولا يشم.

تذكر عندما يُضيَّق عليك وتُصيبك كل هذه الأمور فى آخر الأيام ترجع إلى الرب إلهك وتسمع لقوله لأن الرب رحيم لا يتركك ولا يُهلكك. لقد علمتم مافعل الرب فى مصر من آيات لتعلم أن الرب هو الإله. ليس آخر سواه. فاعلم اليوم وردِّد فى قلبك أن الرب هو الإله فى السماء من فوق وعلى الأرض من أسفل. ليس سواه – وهو نفس المعنى الذى جاء فى القرآن الكريم:

«وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم».

(٨٤ – الزخرف)

٢ – تحطيم الأصنام فى الأرض التى يفتحونها :

هذه هى الفرائض والأحكام لتعملوها فى الأرض التى أعطاك الرب. تُخَرِّبون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التى ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة

خضراء وتهدمون مذابحهم وتُكسِّرون أنصابهم وتحرقون سواريهم بالنار وتُقَطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان.

٣ – عدم الإنصياع لأى دعوة لعبادة الأصنام :

إذا أغواك سرا أخوك ابن أمك أو ابنتك أو امرأتك أو صاحبك قائلا نذهب ونعبد آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولك فلا ترض منه ولا تسمع له. ولا تشفق عليه ولا تَرِقّ له بل قتلا تقتله. يدك تكون عليه لقتله ثم أيدى جميع الشعب أخيرا. ترجمه بالحجارة حتى يموت لأنه التمس أن يُطرحك عن الرب إلهك الذى أخرجك من مصر.

إذا سمعت عن إحدى مدنك التى يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولا قد خرج أناس من وسطك قائلين نذهب ونعبد آلهة أخرى. فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتُحرِّمها بكل مافيها مع بهائمها بحد السيف وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها.

٤ – التأكيد على التوحيد :

اسمع ياإسرائيل. الرب إلهنا واحد. فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قُوّتك. ولتكن هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها اليوم على قلبك وقُصَّها على أولادك وتكلم بها حين تجلس فى بيتك وحين تمشى فى الطريق وحين تنام وحين تقوم واربطها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك.

٥ – تكرار التحذير من عبادة آلهة أخرى :

الرب إلهك تتقى. وإياه تعبد. وباسمه تحلف. لا تسر وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التى حولكم لئلا يحمى غضب الرب عليكم فيبيدكم عن وجه الأرض. لا تعبد آلهتهم لأن ذلك شرك لك. إن قلت فى قلبك هذه الشعوب أكثر منى فلا تخف منهم . لا ترهب وجوههم لأن الرب إلهك وسطك إله عظيم وسيدفعهم الرب أمامك ويوقع بهم اضطرابا حتى يفنوا. تماثيل آلهتهم تحرقون بالنار. لا تشته فضة أو ذهبا مما عليها وتأخذ منها لأنها رجس ولا تُدخل رجسا إلى بيتك. تُكسِّرون أصنامهم وتقطعون سواريهم. لا تعط لهم عهدا ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم. بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لابنك لأنهم سيفتنونهم فيعبدوا آلهة أخرى.

٦ – خير الدنيا فى الإيمان بالله وحده :

أعلم أن الرب إلهك هو الله الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان لمن يحبونه ويحفظون وصاياه. والذين يعملون بأحكامه يحبهم ويباركهم فيكثر ثمرة بطنك وثمرة أرضك قمحك وزيتك ونتاج بقرك وإناث غنمك. لايكون عقيم ولا عاقر فيك ولا فى بهائمك. ويرد الرب عنك كل مرض.

٧ – ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان :

تذكر كيف سار بك الرب هذه الأربعين سنة فى القفر لكى يجربك ليعرف مافى قلبك أتحفظ

وصاياه أم لا. فأذلَّك وأجاعك وأطعمك المن لكى يعلِّمك أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. بكل مايخرج من فم الرب يحيا الإنسان.

متى شبعتم فى الأرض التى تملكونها تُبارك الرب لأجل الأرض الجيدة التى أعطاك. احترز من أن تنسى الرب إلهك ولا تحفظوا وصاياه وأحكامه وفرائضه. فإذا شبعت وبنيت بيوتا جيدة وكثرت بقرك وغنمك وكثرت لك الفضة والذهب يرتفع قلبك وتنسى الرب. ولئلا تقول فى قلبك قوتى وقدرة يدى اصطنعت لى هذه الثروة. بل اذكر الرب أنه هو الذى يعطيك قوة لاصطناع الثروة.

٨ - تنتصر على الشعوب بخطاياهم :

لأجل إثم هذه الشعوب يطردهم الرب من أمامك. ليس لأجل بِرِّك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب من أمامك.

٩ - التهديد بغضب الرب إذا عبدوا آلهة أخرى :

حذَّرهم موسى عليه السلام من أن ينصرفوا عن الرب : والرجل الذى يذهب ليعبد آلهة أمم أخرى وأصنامهم تحل عليه كل اللعنات ويمحو الله اسمه من تحت السماء وتناله الضربات وأمراض . وأرضه تصبح كبريت وملح لا تُزرع ولا تنبت ولا يطلع فيها عشب. واذكر كيف اشتعل غضب الرب على أمم واستأصلهم الرب من أرضهم مثل سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم (مدن قوم لوط انظر الجزء الثانى ص٣٣٠) لأنهم ذهبوا وعبدوا آلهة أخرى وسجدوا لها.

١٠ - باب التوبة مفتوح :

واستكمل موسى قائلا : ومتى أتت عليك كل هذه الأمور فإن رجعت إلى الرب إلهك وسمعت لصوته حسب كل ما أنا أوصيك به أنت وبنوك بكل قلبك وبكل نفسك. يردُّ الله إلهك سبيك ويرحمك ويعود فيجمعك من جميع الشعوب الذين بدَّدك إليهم الرب إلهك. إن يكن قد بدَّدك إلى أقصاء السموات فمن هناك يجمعك ويأتى بك إلى الأرض التى امتلكها آباؤك فتمتلكها ويحسن إليك ويكثرك ويجعل الرب إلهك كل هذه اللعنات على أعدائك وعلى مبغضيك الذين طردوك - وكان فى هذا القول نبوءة بالسبى نتيجة ضلال بنى إسرائيل وعبادتهم لآلهة أخرى. ثم أرسل الله لهم أنبياء فى المنفى أعادوهم إلى عبادة الله فأعادهم الله لأرضهم ثانية.

ونجد أن موسى عليه السلام فى هذه الخطبة ركَّز على أمرين اثنين - عبادة الله وحده وعدم عبادة الأصنام. وأعاد ذلك وكرره مرات ومرات حتى يرسخ فى الأذهان.

ب - الخطبة الثانية :

أعاد موسى عليه السلام فى أول هذه الخطبة أيضا التأكيد على ضرورة التمسك بعبادة الرب - وعدم صنع وعبادة الأوثان أو الانسياق وراء الشعوب الأخرى وعبادة أصنامهم وآلهتهم

وكان يتخلَّل ذلك تذكيرهم بما لاقوه فى مصر من صنوف العذاب وما منَّ الله به عليهم من إخراجهم من مصر وإهلاك عدوهم. وكان يكرر أيضا تذكيرهم بما نال آباءهم عندما كانوا يعصون الرب أثناء مسيرتهم فى سيناء. ثم أتبع ذلك بالنقاط التالى :

١ – كرر عليهم **الوصايا العشر** وأكد على ضرورة الالتزام بها.

٢ – **تذكيرهم بالأعياد** التى يحتفلون بها **وضرورة تقديم قرابين** للرب.

٣ – ثم حثهم على الزكاة وهى تُعطَى للاويين لأنه كما قال الرب: سبط لاوى ليس له قسم ولا نصيب مع إسرائيل. يأكلون وقائد الرب ونصيبة. الرب هو نصيبه.

٤ – تحريم السحر والعرافة :

لا يوجد فيك من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ولا من يسأل جانا أو تابعه ولا من يستشير الموتى لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب. وبسبب هذه الأرجاس التى ترتكبها الشعوب الأخرى الرب إلهك طاردُهم من أمامك. هم يسمعون للعائفين والعرَّافين. وأما أنت فلم يسمح لك الرب إلهك بهذا (العائف المتكهن بالطير أو غيرها – القاموس المحيط جـ٣ ص١٧٩).

٥ – أنبياء فى المستقبل :

يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلى. له تسمعون ويجعل الله كلامه فى فمه فيكلمكم بكل ما يوصيه به الرب. وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسم الرب كلاما لم يوصه به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى.

٦ – التنبؤ بملوك من بنى إسرائيل ووصيته لهم :

متى أتيت إلى الأرض التى يعطيك الرب إلهك وامتلكتها وسكنت فيها فإن قلت أجعلُ علىَّ ملكا كجميع الأمم الذين حولى فإنك تجعل عليك ملكا الذى يختاره الرب إلهك. من وسط إخوتك تجعل عليك ملكا. لا يحل لك أن تجعل عليك رجلا أجنبيا ليس هو أخاك. ولكن لا يُكثِّر له نساء لئلا يزيغ قلبه. وفضة وذهبا لا يُكثِّر له كثيرا (وهو تحذير من طغيان الملوك) وعندما يجلس على كرسى مملكته يكتب لنفسه نسخة من هذه الشريعة فى كتاب من عند الكهنة اللاويين فتكون معه ويقرأ فيها كل أيام حياته لكى يتعلم أن يتقى الرب إلهه ويحفظ جميع كلمات هذه الشريعة وهذه الفرائض ليعمل بها لئلا يرتفع قلبه على إخوته ولئلا يحيد عن الوصية يمينا أو شمالا لكى يطيل الأيام على مملكته هو وبنوه فى وسط إسرائيل.

٧ – التوصية بإقامة بيت للعبادة :

وأوصى موسى الشعب وشيوخ إسرائيل قائلا: احفظوا جميع الوصايا التى أنا أوصيكم بها اليوم. فيوم تعبرون الأردن إلى الأرض التى يعطيك الرب إلهك تقيم لنفسك حجارة كبيرة وتكتب

عليها جميع كلمات هذا الناموس. تقيمون هذه الحجارة فى جبل عيبال وتُكلِّسها بالكلس وتبنى هناك مذبحا للرب مذبحا من حجارة لا ترفع عليه حديدا . من حجارة صحيحة تبنى مذبح الرب وتُصعد عليه محرقات للرب وتذبح ذبائح سلامة وتأكل هناك وتفرح أمام الرب إلهك وتكتب على الحجارة جميع كلمات هذا الناموس نقشا جيدا – وقد وجدت فى فلسطين شرائع كثيرة بعضها مُسجَّل على حجارة وبعضها على طبقة من الجير.

٨ – استنزال اللعنات على مرتكبى الخطايا :

وأوصى موسى قائلا: هؤلاء يقفون على جبل جرزيم لكى يباركوا الشعب حين تعبرون الأردن: شمعون ولاوى ويهوذا ويساكر ويوسف وبنيامين. وهؤلاء يقفون على جبال عيبال لكى يلعنوا: رأوبين وجاد وأشير ودان وزبولون ونفتالى. وجبلا جرزيم وعيبال جبلان لا يفصل بينهما إلا واد ضيق بالقرب من شكيم (نابلس الحالية) وجبل عيبال اليوم يسمى جبل السلامية شرق نابلس وارتفاعه ٣٠٧٧ قدما.

ويقول اللاويون بصوت عال لجميع قوم إسرائيل :

– ملعون الإنسان الذى يصنع تمثالا منحوتا أو مسبوكا. ويجيب جميع الشعب آمين :

– ملعون من يستخف بأبيه وأمه. ويجيب الشعب : آمين .

– ملعون من ينقل تخم صاحبه (حدود الحقول). آمين.

– ملعون من يعوِّج حق الغريب واليتيم والأرملة . آمين.

– ملعون من يضطجع مع امرأة أبيه . آمين.

– ملعون من يضطجع مع أخته بنت أبيه أو بنت أمه. آمين.

– ملعون من يضطجع مع حماته . آمين.

– ملعون من يضطجع مع بهيمة ما . آمين .

– ملعون من يقتل قريبه فى الخفاء. آمين.

– ملعون من يأخذ رشوة لكى يقتل نفس دم برىء. ويقول الشعب آمين.

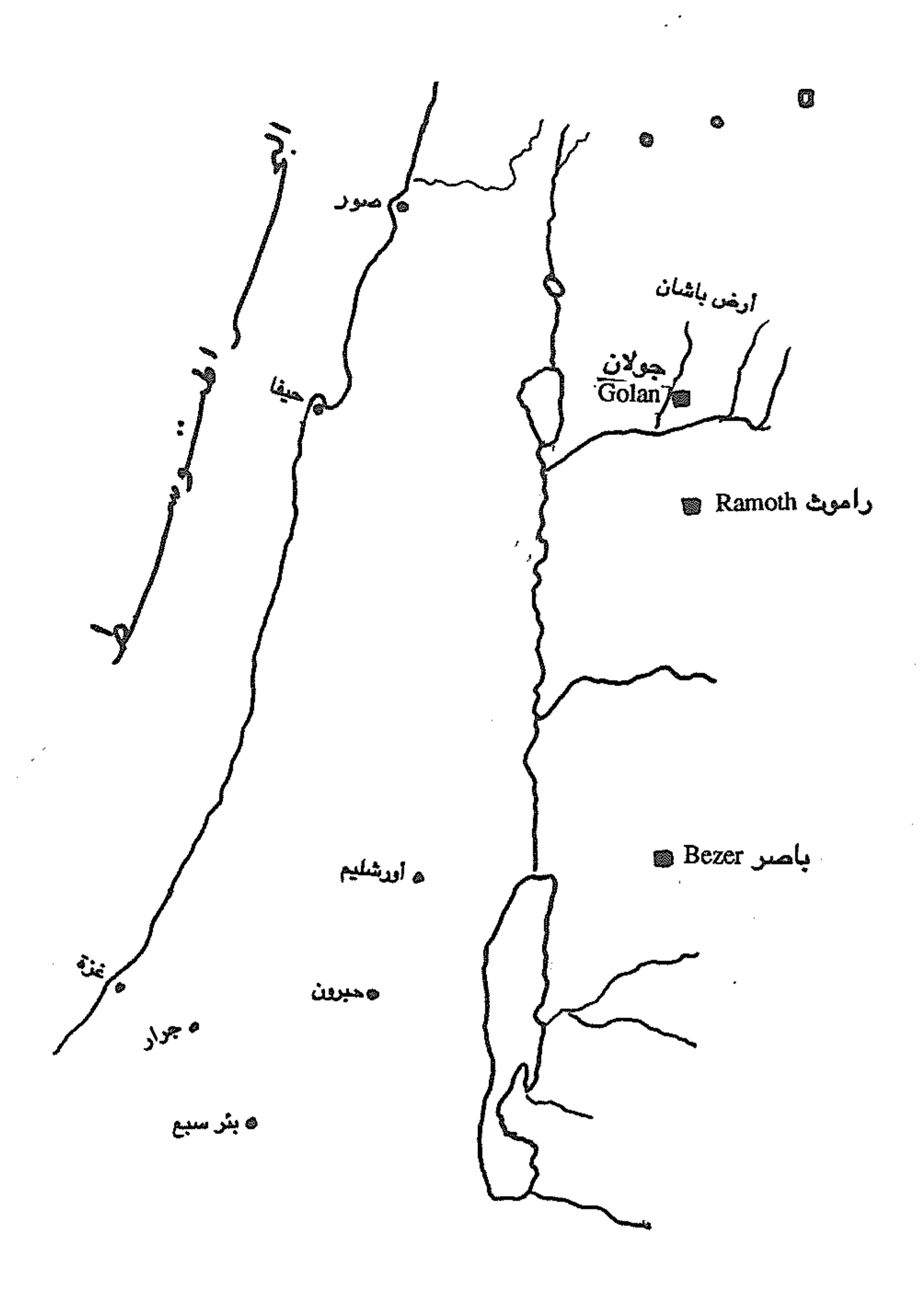
– ملعون من لا يقيم كلمات هذا الناموس ليعمل بها. ويقول جميع الشعب آمين.

جـ – الخطبة الثالثة :

تضمنت هذه الخطبة – وهى الأخيرة – خمسة أمور: ١ – تحديد مدن الملجأ ٢ – الحث على دخول الأرض. ٣ – مباركة الأسباط. ٤ – كتابة التوراة وحفظها ٥ – النشيد الختامى.

١ – مدن الملجأ :

وهى مدن قُصِدَ بها أن يلجأ إليها مرتكب القتل الخطأ دون تعمد فيصبح آمنا ولا يحق لولى الدم مطاردته هناك أو أخذ ثأره منه. أما القاتل المتعمد والذى يلجأ إليها فإنه لا يتمتع بهذه



شكل ٣٠٠ – مدن الملجأ شرق الأردن .

الحماية. وقد شرح موسى عليه السلام ذلك فقال: (تثنية ١٩:١-١٤) تفرز لنفسك ثلاث مدن فى وسط أرضك فتكون لكى يهرب إليها من ضرب صاحبه بغير علم وهو غير مبغض له. ومن ذهب مع صاحبه فى الوعر ليحتطب فاندفعت يده بالفأس ليقطع الحطب وأفلت الحديد من الخشب وأصاب صاحبه ومات. فهو يهرب إلى إحدى تلك المدن فيحيا لئلا يسعى ولى الدم وراءه حين يحمى قلبه ويدركه ويقتله. وإن وسَّع الرب تخومك وأعطاك جميع الأرض فزد لنفسك أيضا ثلاث مدن على هذه الثلاث. ولكن إذا كان إنسان مبغضا لصاحبه فكمن له وقام عليه وضربه ضربة قاتلة ثم هرب إلى إحدى تلك المدن يرسل شيوخ مدينته ويأخذونه من هناك ويدفعونه إلى ولى الدم فيموت. وقد عيَّن لهم موسى عليه السلام المدن الثلاث فى شرق نهر الأردن كالآتى (تثنية ٤:٤٣) شكل ٣٠٠:

١ – باصر Bezer فى البرية فى أرض السهل فى أرض رأوبين.

٢ – راموث Ramoth فى جلعاد لبنى جاد.

٣ – جولان Golan فى باشان لسبط منسى.

ثم ترك أمر تحديد المدن الأخرى لهم بعد الاستيلاء على الأرض.

٢ – الحث على دخول الأرض :

وتكلم موسى بهذه الكلمات لجميع إسرائيل (تثنية ٣١) وقال لهم: أنا اليوم ابن مائة وعشرين سنة لا أستطيع الخروج والدخول بعدُ والرب قال لى لا تعبر هذا الأردن. يشوع عابر قدامكم كما قال الرب. تشدَّدوا وتشجَّعوا. لاتخافوا ولا ترهبوا وجوه أعدائكم لأن الرب إلهك سائر معك لا يُهمِلك ولا يتركك. ودعا موسى يشوع وقال له أمام أعين جميع إسرائيل: تشدَّد وتشجَّع لأنك أنت تدخل مع هذا الشعب إلى الأرض وأنت تقسمها لهم والرب سائر أمامك هو يكون معك لا يُهملك ولا يتركك. لا تخف ولا ترتعب.

٣ – مباركة الأسباط : (تثنية ٣٣).

وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى إسرائيل قبل موته كل سبط باسمه:

– **رأوبين** : ليحيى رأوبين ولا يمت ولا يكن رجاله قليلون.

– **يهوذا** : يارب اسمع صوت يهوذا وات به إلى قومه. بيديه يقاتل لنفسه فكن عونا له على أضداده. ولم يذكر اسم **شمعون** وكان هذا تنبؤا بزوال هذا السبط وفعلا فقد ذاب سبط شمعون فى يهوذا وكانت أرضه فى وسط أرض يهوذا.

– وعن **لاوى** قال : حفظوا كلامك وصانوا عهدك. يضعون البخور فى المحرقة والقرابين فى المذابح. يارب بارك قوَّته وارتضِ بعمل يديه. وحطِّم متون مقاوميه ومبغضيه حتى لا يقوموا.

وعن **بنيامين** قال: حبيب الرب يسكن لديه آمنا . يستره طول النهار وبين منكبيه يسكن.

وعن **يوسف** قال: مباركة من الرب أرضه بنفائس السماء بالندى واللجة الرابضة تحتُ ونفائس مُغَلاَّت الشمس ونفائس مُنْبَتات الأقمار. ومن مفاخر الجبال القديمة. ومن نفائس الإكام الأبدية. ومن نفائس الأرض وملئها . ورضى الساكن فى العلِّيقة (الرب) فلتأت على رأس يوسف وعلى قمة نذير إخوته (وكانت الأرض التى خصصت لسبط يوسف متنوعة الجغرافية: تلال ووديان وغابات وسهول ومياه وفيرة فأعطت غلة وافرة من جميع المحاصيل). بكر ثوره زينة له وقرناه قرنا ريم بهما ينطح الشعوب معا إلى أقاصى الأرض. هما ربوات **أفرايم** وألوف **مَنسَى**. وكانت الأرض من نصيب أفرايم ومنسى ولدى يوسف مثمرة وتميز عن إخوته ورفيع الشأن (قمة نذير إخوته – والرئم حيوان ذو قرون قوية شديد البأس).

– **زبولون ويساكر**: افرح يازبولون بخروجك وأنت يايسّاكر بخيامك. إلى الجبل يدعوان القبائل. هناك يذبحان ذبائح البر لأنهما يرتضعان من فيض البحار وذخائر مطمورة فى الرمل. وهذا وعد لزبولون بنجاح تجارته ووعد ليساكر بنجاح زراعته وبيته.

وعن **جاد** قال: مبارك الذى وسَّع جاد كلبوة سكن وافترس الذراع من قمة الرأس ورأى الأول لنفسه لأنه هناك قسما من الشارع محفوظا فأتى رأسا للشعب يعمل حق الرب وأحكامه مع إسرائيل. وكان جاد يسكن فى الجبال وهى تحتاج لسرعة وقوة وذلك كان دعاء له بذلك وبأخذ أكثر قسط من الغنائم وجاء لمعاونة الأسباط فى حربها لدخول كنعان.

وعن **دان** قال: دان شبل أسد يثب من باشان.

ولنفتالى قال: يانفتالى اشبع رضى وامتلىء بركة من الرب واملك الغرب والجنوب. وقد أعطى سبط نفتالى الأرض الخصبة الواقعة جنوب وغرب بحر الجليل.

ولأشير قال: مبارك من البنين أشير. ليكن مقبولا من إخوته ويغمس فى الزيت رجله. حديد ونحاس مزاليجك وكأيامك راحتك . وكانت أرضه مشهورة بالزيتون. ويحثه على أبواب ومزاليج لحماية نفسه من العدو القادم من الشمال.

وختم موسى عليه السلام بركته للأسباط بقوله: ليس مثل الله إذا كنت مستقيما . يركب السماء فى معونتك. الإله ملجأ فيطرد من قدامك العدو فيسكن إسرائيل آمنا وحده. طوباك ياإسرائيل من مثلك ياشعبا مَنْصورا بالرب.

٤ – كتابة التوراة وحفظها :

وكتب موسى التوراة وسلمها للكهنة بنى لاوى حاملى تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل وأمرهم موسى قائلا. فى نهاية السبع سنين وفى ميعاد سنة الإبراء فى عيد المظال (فى هذا العيد يصنعون مظلات أو عرايش من جريد النخل الأخضر – ويقيمونها فى أفنية

الدور والشوارع والميادين وعلى أسطح المنازل ويدخل تحتها المحتفلون بالعيد إحياء لذكرى خروجهم من مصر وذكرى تجمعهم في سكوث إذ عملوا هذه المضلات انتظارا لوصول باقي جموع بني إسرائيل حتى تبدأ المسيرة). حينما يجيء جميع إسرائيل لكي يظهروا أمام الرب إلهك. تقرأ هذه التوراة أمام كل إسرائيل في مسامعهم. اجمع الشعب الرجال والنساء والأطفال والغريب الذي في أبوابك لكي يسمعوا ويتعلموا أن يتقوا الرب إلهكم ويحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة وأولادهم الذين لم يعرفوا يسمعون ويتعلمون أن يتقوا الرب إلهكم.

وأمر موسى اللاويين قائلا: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم - ثم قال مُوجِّها الكلام لجموع الشعب: ليكون هناك شاهدا عليكم. لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هو ذا وأنا بعدُ حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتي. اجمعوا إليَّ كل شيوخ أسباطكم وعرفاءكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليهم السماء والأرض. لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به ويصيبكم الشر في آخر الأيام لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم.

وماكتبه موسى عليه السلام هو الأسفار الخمسة الأولى وهي: تكوين - خروج - لاويون - عدد - تثنية. وهي **التوراة** Torah - وتسمى أيضا **أسفار الشريعة** Book of the law - وتسمى كذلك Pentateuch التي تتكون من مقطعين يونانيين: Pente أي خمسة و Teuchos أي سفر أو مجلد. أما باقي أسفار العهد القديم Old Testament فلم يكتبها موسى وهي تتكون من أسفار الأنبياء (المتقدمين والمتأخرين) وهي تتميز بالسرد التاريخي للأحداث ولذلك تسمى بالكتب أو الأسفار التاريخية. أما الجزء الثالث من العهد القديم فيسمى كتب الحكمة ويشمل مزامير داود وأمثال سليمان ونشيد الإنشاد وهي أسفار يغلب عليها الطابع الأدبي نثرا وشعرا.

٥ - النشيد الختامي :

وقال الرب والآن اكتبوا لأنفسكم هذا النشيد وعلِّم بني إسرائيل إياه. ضعه في أفواههم لكي يكون هذا النشيد شاهدا على بني إسرائيل لأني أدخلهم الأرض التي أقسمت لآبائهم. تفيض لبنا وعسلا فيأكلون ويشبعون ويسمنون ثم يلتفتون إلى آلهة أخرى ويعبدونها ويزدرون بي وينكثون عهدي. فمتى أصابته شرور كثيرة وشدائد يجاوب هذا النشيد أمامه شاهدا لأنه لا يُنسى من أفواه نسله.

فكتب موسى النشيد. ونطق في مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد إلى تمامه.

انصتي أيتها السموات فأتكلم. ولتسمع الأرض أقوال فمي.

إني باسم الرب أنادي.

اعطوا عظمة لإلهنا. إن جميع سبله عدل. إله أمانة لاجور فيه وعادل هو.

ياشعبا غبيا غير حكيم. آلرب تكافئون بهذا؟ أليس هو عَمِلَك وأنشأك؟

اذكر أيام القِدم. وتأملوا سنى دور فدور (سنى التيه والدوران فى سيناء).

اسأل أباك فيخبرك. وشيوخك فيقولون لك.

هكذا الرب وحده اقتاده. أركبه على مرتفعات الأرض فأكل ثمار الصحراء.

وأرضعه عسلا من حجر وزيتا من صخر الصوان.

سمنت وغلظت واكتسيت شحما.

فرفض الإله الذى عمله. ذبحوا لأوثان ليست آلهة.

فرأى الرب وقال أحجب وجهى عنهم.

أجمع عليهم شرورا وأنفذ سهامى فيهم إذ هم خاوون من جوع ومنهكون من حمى.

أرسل فيهم أنياب الوحوش.

إنهم أمة عديمة الرأى ولا بصيرة فيهم.

لو عقلوا لفطنوا بهذه وتأملوا آخرتهم.

كيف يطرد واحد ألفا لولا أن الله سلَّمهم.

لأن من جفنة «سدوم» جفنتهم. ومن كروم «عمورة» عنبهم. عنب سم ولهم عناقيد مرارة.

إن يوم هلاكهم قريب لأن الرب يدين شعبه وعلى عبيده يشفق

اسمعوا قوله: أنا أنا هو وليس إله معى. أنا أميت وأحيى سحقت وإنى أشفى.

إنى أرفع إلى السماء يدى وأقول حىٌّ أنا إلى الأبد.

أرد نقمة على أعدائى وأجازى مبغضى.

تهللوا أيها الأمم لأنه يصفح عن شعبه.

وهذا النشيد يتكلم عما يحدث لدولة إسرائيل فى المستقبل. وأنهم سيضلون فيسلط عليهم بذنوبهم من يذلهم. ثم ينفِّذون تعاليم الرب فيعفو عنهم ويقف معهم ضد أعدائهم.

وبهذا النشيد اختتم موسى خطبه الثلاث والتى تضمنت وصيته إلى بنى إسرائيل قبل وفاته وأشهد الله عليهم وأشهدهم على أنفسهم أنه قد بلَّغهم ما أمر به الرب بتمامه. ونصحهم وكرر النصح. بالتمسك بعبادة الله وتنفيذ شرائعه. وحذَّرهم. وكرر التحذير من الانسياق وراء آلهة الأمم الأخرى وعبادتها. وأصبح موسى عليه السلام مستعدا للقاء ربه.

وفاة موسى عليه السلام:

وتقول التوراة (تثنية ٣٤) وصعد موسى من عربات مؤاب إلى رأس الفسجة الذى فى قبالة أريحا (جبل نبو Nebo) فأراه الرب جميع الأرض وقال له الرب هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها. قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر. ومات هناك موسى عبد الرب. ودُفِن ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم. وكان موسى ابن ١٢٠ سنة حين مات ولم تكل عيناه ولا ذهبت نضارته. فبكى بنو إسرائيل موسى ثلاثين يوما فكملت أيام بكاء مناحة موسى.

وكانت وفاة موسى عليه السلام على مانرى فى عام ١١٦٠ ق.م. تقريبا إذ كان مولده فى عام ١٢٨٠ ق.م.

روى مسلم عن أبى هريرة (تفسير القرطبى جـ٦ ص ١٣١) قال: أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صَكَّه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فقال: أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت. قال فرد الله إليه عينه وقال ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة قال: أى رب ثم مه؟ قال ثم الموت. قال فالآن فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية حجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلو كنتُ ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر. ولاشك أن ذلك من الموضوعات - فقد وُصف قبر هود عليه السلام فى حضرموت أنه أيضا تحت «كثيب أحمر» كما سبق أن ذكرنا فى الجزء الأول (ص ١٤٧). ولعلها كانت إرادة الله سبحانه وتعالى ألا يُعلَمَ مكان قبره حتى لا يُفتن به بنو إسرائيل ويقدسوه أو يعبدوه لما هو معروف عنهم من سرعة انحرافهم عن التوحيد الصحيح.

وبهذا تنتهى قصة موسى وهارون عليهما السلام:

«ولقد مننَّا على موسى وهارون. ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هم الغالبين. وآتيناهما الكتاب المستبين. وهديناهما الصراط المستقيم. وتركنا عليهما فى الآخرين. سلام على موسى وهارون. إنا كذلك نجزى المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين».

(١١٤ - ١٢٢ - الصافات)

وصدق الله العظيم.

جدول حياة رمسيس الثانى

ق . م .	عمر رمسيس	سنة الحكم	الأحـــداث
١٣١٥	٠		مولد رمسيس الثانى
١٣٠٧	٨		قائد فخرى للجيش
١٣٠٥	١٠		اشتراكه رسميا مع والده فى الحكم وتعيينه مديرا للإنشاءات
١٣٠٢	١٣		إعلانه وليا للعهد
١٣٠١	١٤		تزوج من نفرتارى
١٣٠٠	١٥		احتفال لتتويجه مشاركا فى الحكم مع والده
	١٦		ولادة ولده خعمواست الأول ووفاته
	١٧		ولادة ولده آمون خرخبشف الأول ووفاته .
١٢٩٢	٢٣		تولى الحكم بمفردة بعد وفاة والده. وزواجه من «إست نفرت».
	٢٤	١	ولادة ابنه آمون حرونمف ووفاته .
١٢٩٠	٢٥	٢	ولادة ابنه بارع حرمنف الأول ووفاته.
١٢٨٩	٢٦	٣	نقل العاصمة إلى بررعمسيس .
	٢٧	٤	حملته فى فلسطين ولبنان ووصوله إلى نهر الكلب.
١٢٨٧	٢٨	٥	معركة قادش الشهيرة.
١٢٨٥	٣٠	٧	مولد موسى وتبنى إست نفرت له.
		٨	ثورة فى فلسطين تم إخمادها .
	٣٣	١٠	البدء فى بناء معبد أبى سمبل الكبير.
١٢٨٠	٣٥	١٢	مولد خعمواست الثانى.
		١٣	مولد بارع حرا منف الثانى.
		١٤	مولد رعمسسو .
		١٥	مولد منتو حرشف
١٢٧٥	٤٠	١٧	مولد مرنبتاح موسى عمره ١٠ سنوات
١٢٧٠	٤٥	٢٢	خعمواست ١٠ سنوات وأصبح معلوما أنه ولى العهد مرنبتاح عمره ٥ سنوات وموسى ١٥ سنة وخروجه من القصر
١٢٦٩	٤٦	٢٣	المعاهدة مع الحيثيين

تكملة جدول حياة رمسيس الثانى

ق . م .	عمر رمسيس	سنة الحكم	رمسيس الثانى	موسى
١٢٦٩	٤٦	٢٣	المعاهدة مع الحيثيين	موسى عمره ١٦ سنة
١٢٦٨	٤٧	٢٤	الانتهاء من بناء معبد أبى سمبل الكبير	
١٢٦٥	٥٠	٢٧	خعمواست عمره ١٥ سنة	
١٢٦٢	٥٣	٣٠	العيد الثلاثينى الأول وإعلان خعمواست (١٨ سنة) وليا للعهد	عمر موسى ٢٣ سنة
١٢٦١	٥٤	٣١	زلزال النوبة وتصدع معبد أبى سمبل	
١٢٥٨	٥٧	٣٤	زواجه من ابنه ملك «خيتا»	
		٤٠		عمر موسى ٣٣ سنة
		٤٥		
١٢٤٥	٧٠	٤٧		عمر موسى ٤٠ سنة
١٢٤٢	٧٣	٥٠		
١٢٤٠	٧٥	٥٢	. . . .	قتل المصرى والخروج إلى مدين عمر موسى ٤٥ سنة
١٢٣٧	٧٨	٥٥		
١٢٣٦	٧٩			
١٢٣٥	٨٠	٥٧	وفاة خعمواست وأصبح مرنبتاح وليا للعهد وعمره ٣٨ سنة	
١٢٣٢	٨٣	٦٠		
١٢٣٠	٨٥	٦٢	اللقاء الأول مع موسى وهارون	عودة موسى من أرض مدين (٥٥ سنة)
		٦٣		
		٦٤		
		٦٥		الآيات فى مدة ٥ سنوات
		٦٦		(انظر جدول حياة موسى)
١٢٢٥	٩٠	٦٧	غرق رمسيس الثانى	الخروج وعمر موسى ٦٠ سنة

جدول حياة موسي عليه السلام (١)

الحدث المعاصر	سنة ق . م	عمر موسى	موسى عليه السلام
	١٢٨٢		مولد هارون
رمسيس الثانى عمره ٣٠	١٢٨٥	٠	مولد موسى وتبنى إيست نفرت له.
مولد خعمواست	١٢٨٠	٥	موسى لايزال فى القصر .
مولد مرنبتاح	١٢٧٥	١٠	" " " " " "
خعمواست وليا للعهد	١٢٧٠	١٥	خروج موسى من القصر وانضمامه لبنى إسرائيل
المعاهدة مع الحيثين		١٦	
رمسيس الثانى ٥٣ سنة العيد الثلاثينى الأول		٢٣	
	١٢٥٥	٣٠	
	١٢٤٥	٤٠	
	١٢٤٠	٤٥	قتل المصرى وخروج موسى إلى أرض مدين
وفاة خعمواست وأصبح مرنبتاح وليا لعهد	١٢٣٥	٥٠	
عمر رمسيس الثانى ٨٥ سنة	١٢٣٠	٥٥	عودة موسى – نوفمبر ١٢٣٠ تقريبا
			اللقاء الأول مع فرعون ديسمبر ١٢٣٠
(السنة ٦٢ من الحكم)			الآيات بواقع آية كل ٦ شهور تقريبا
	١٢٢٩		يوم الزينة تقريبا مايو ١٢٢٩
			الطوفان تقريبا ديسمبر ١٢٢٩
	١٢٢٨		الجراد تقريبا مايو ١٢٢٨
			القمل تقريبا نوفمبر ١٢٢٨
			الضفادع تقريبا فبراير ١٢٢٧
	١٢٢٧		الدم تقريبا أغسطس ١٢٢٧
			البعوض تقريبا ديسمبر ١٢٢٧
			وباء المواشى تقريبا أبريل ١٢٢٦
	١٢٢٦		الظلام تقريبا أغسطس ١٢٢٦
عمر رمسيس الثانى ٩٠ سنة	١٢٢٥	٦٠	موت الأبكار تقريبا مارس ١٢٢٥
(السنة ٦٧ من الحكم)	١٢٢٥	٦٠	الخروج تقريبا أبريل ١٢٢٥

جدول حياة موسى عليه السلام (٢)

الحدث المعاصر	سنة ق.م	عمر موسى	موسى عليه السلام
غرق رمسيس الثانى	١٢٢٥	٦٠	الخـــروج
(عمره ٩٠ عاما)			
وتولى مرنبتاح الحكم			
عمره ٥٠ عاما	٢ يوم	بعد الخروج	المرور على عمال المناجم «اجعل لنا إلها»
وحكم ١٠ سنوات	٥ يوم		المياه المرة
	١٥ يوم		إيليم
	١,٥ شهر		دفقة – المن والسلوى
	٢,٥ شهر		مسة ومريبة. وادى فيران «اثنتا عشرة عينا»
			محاربة عماليق
	٣ شهر		زيارة حمو موسى وعودة الزوجة والأولاد
	٦ شهر		عند جبل موسى
	٧ شهور		٤٠ ليلة. التجلى الإلهى
	٨,١٠ شهر		بنو إسرائيل يعبدون العجل
	٩		٧٠ رجلا للميقات
		٦١	اشتهاء اللحم . قبروث
		٦١,٣ شهر	حضيروت
		٦١,٦	قادش برنيع
		٦١,٧	إرسال الاثنى عشر نقيبا
			الاحصاء والتعبئة
		٦١,٨,١٠	عودة الجواسيس ورفض دخول الأرض
	١٢٢٣	٦٢	بدء التيه
	١٢١٨	٦٣	ثورة قورح
غارات الليبيين فى السنة	١٢٢٠	٦٥	رثمة وقصة البقرة
٥ من الحكم		٦٨	رمون فارص
موت مرنبتاح (٦٠) وتولى	١٢١٥	٧٠	لبنة
سيتى الثانى		٧٢	رسة
(٦ سنة)		٧٤	قهيلاته مجمع البحرين – الخضر
أمنموس بوصاية باى ١٢٠٩	١٢٠٩	٧٦	جبل شافر
(سنة واحدة) ١٢٠٨	١٢٠٧	٧٨	حرادة
سابتاح مرن بتاح	١٢٠٥	٨٠	مقهيلوث

جدول حياة موسى عليه السلام (٣)

أحداث مصر	سنة ق . م	عمر موسى	أحداث بنى إسرائيل
سابتاح مرنبتاح	١٢٠٥	٨٠	مقهيلوث
	١٢٠٣	٨٢	تاحت
	١٢٠٢	٨٣	
الملكة تاوسرة – ستين تن موت	١٢٠١	٨٤	تارح
(٨ سنة)	١١٩٩	٨٦	مثقة
	١١٩٧	٨٨	حشمونة
	١١٩٥	٩٠	مسيروث
-١١٩٤- ست نخت (٢ سنة) -١١٩٢-	١١٩٣	٩٢	بنى تعبان
	١١٩١	٩٤	حور الجدجاد
رمسيس الثالث		٩٦	بطبات
(٣١ سنة)		٩٨	عبرونة
	١١٨٥	١٠٠	عصيون جابر = حاضرة البحر
		١٠٢	انتهاء التيه
		١٠٣	قادش برنيع – وفاة مريم
	١١٨١	١٠٤	خطاب إلى ملك أدوم بالمرور فى أرضه
	١١٨٠	١٠٥	جبل هور – وفاة هارون
		١٠٦	الاتجاه جنوبا – وادى الحيات
		١٠٧	عصيون جابر مرة ثالثة – وإيلة
		١٠٨	المسيرة شرق أرض أدوم
	١١٧٥	١١٠	محاربة الأموريين فى حشبون .
	١١٧٣	١١٢	محاربة الأموريين فى باشان.
	١١٧٠	١١٥	محاربة المديانيين
		١١٨	التعبئة العامة الأخيرة
		١١٩	قواعد ولجنة تقسيم الأرض
	١١٦٥	١٢٠	الوصية الأخيرة ووفاة موسى عليه السلام
وفاة رمسيس الثالث – ونهاية الأسرة الـ ١٩	١١٦١		

يتبع بإذن الله الجزء الخامس وبه داود وسليمان عليهما السلام وباقى أنبياء وملوك بنى إسرائيل.

مراجع

إضافة إلى المراجع التى ذكرت فى الجزء الأول.

١ – الآثار المصرية فى وادى النيل. چيمس بيكى. مترجم . مراجعة دكتور محمد جمال الدين مختار: خمسة أجزاء.

٢ – الآلهة والناس فى مصر. ڤرانسواز دونان وكرستيان زڤى كوش. ترجمة فريد بورى مراجعة د. زكية طبوزادة. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٩٦.

٣ – الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية. محمد المدنى. دار الجيل بيروت . لبنان.

٤ – الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة جـ١ ، ٢ سليم حسن. مطبوعات كتاب اليوم عن مؤسسة أخبار اليوم ١٩٩٠.

٥ – الأديان فى القرآن. دكتور محمد بن الشريف دار المعارف بمصر ١٩٧٠.

٦ – الإرتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل. دكتور محمد وصفى. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة. ١٩٦٥.

٧ – الفرعون الذى يطارده اليهود بين التوراة والقرآن. سعيد أبو العينين. كتاب اليوم عن دار أخبار اليوم. ١٩٩٧.

٨ – المدخل إلى الأديان والمذاهب. العميد عبد الرازق محمد أسود. دار السيرة. دار العربية للموسوعات. بيروت. لبنان. ١٩٨١.

٩ – تفسير الإمام القرطبى. دار احياء التراث العربى. بيروت. لبنان ٢٠ جزءاً. ١٩٩٥.

١٠ – تفسير الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين برئاسة دكتور فرنسس داڤدس. دار منشورات النفير. بيروت. لبنان. ١٩٨٦.

١١ – دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة. موريس بوكاى دار المعارف. ١٩٧٧.

١٢ – قاموس الكتاب المقدس. دكاترة بطرس عبد الملك. چون ألكساندر طومسون. إبراهيم مطر. دار الثقافة.

١٣ – فى ظلال القرآن . الصبر . الشيخ سيد قطب.

١٤ – مصر القديمة . سليم حسن . جـ ٦ ، ٧.

١٥ – مصر والشرق الأدنى القديم. د. نجيب ميخائيل إبراهيم. ستة أجزاء . مطبعة الإسكندرية. ١٩٥٧.

١٦ – موسى مصريا. سيجموند فرويد ترجمة محمد العزب موسى. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. المكتبة الثقافية. ١٩٦٩.

17. A History of Ancient Egypt. Nicholas Grimal Blackwell, 1997.
18. An Atlas of Ancient Egypt. John Baines and Jarmoir Malek, Phaidon, Oxford, 1958.
19. Egypt of the Pharaohs. Sir Alan Gardiner, Oxford at the Clarendon Press, 1961.
20. Moses, Paraoh of Egypt, the Mystery of Akhenaten resolved. Ahmed Osman. Grafton Books, London, Glasgow. 1990.
21. Pheraoh Triumphant, the Life and times of Ramesse II. K.A. Kitchen. The American University in Cairo Press, 1990.
22. Ramesses the Great, the Pharaoh and his time. Rita E. Freed, 1982.
23. Ramesside Inscriptions Translated and Annonated. K.A. Kitchen, Blackwell Publishers, vol. I&II.
24. The Ancient Near East vol I&II Amelie Kuhrt. Routledge. London & New York, 1997.
25. The Ancient Near East. James B. Pritchard. Princeton University Press, Oxford, 1958.
26. The Bible as History. Warner Keller. Bantam Books, New York London, 2nd ed., 1982.
27. The Obelisks of Egypt. Labib Habachi. The American University Press in Cairo. 1988.
28. New Commentary on the Whole Bible. Jamieson, Fausset & Brown. Tyndale House Publishers. Wheaton, Illnois. 1990.
29. New Unger's Bible Dictionary. Merrill F. Unger. Moody Press, Chicago. 1988.

هــذا الكتاب

هذا هو الجزء الرابع من سلسلة «قصص الأنبياء والتاريخ» ويختص بقصة موسى وهارون عليهما السلام. وهى من أطول قصص الأنبياء. فضلا عن ذلك كان لزاما الإجابة على سؤال كثر الجدل بشأنه: من هو فرعون موسى؟ وبلغت النظريات التى وضعت عشرا. وإن كان الرأى قد استقر أخيرا على أن رمسيس الثانى هو فرعون التسخير إلا أن الخلاف لايزال محتدما حول فرعون الخروج: هل هو رمسيس الثانى أيضا أم ابنه مرنبتاح؟

وكان لابد من دراسة ماكتبه رمسيس الثانى على آثاره العديدة المنتشرة فى جميع أنحاء مصر لنخرج منها بتحليل عن شخصيته ولمعرفة سبب التسخير الذى أنزله ببنى إسرائيل. وللوصول إلى دلائل مادية على ادعائه الألوهية ليتأكد لنا أنه هو القائل: أنا ربكم الأعلى

من هو قارون؟ من هو هامان؟ من هو مؤمن آل فرعون؟ من هى امرأة فرعون التى امنت؟ أمور لم يتصدى لها كتاب من قبل . وهذا الكتاب يجيب عنها .

إضافة إلى ذلك فإن الكتاب يُفصِّل عملية الخروج Exodus ومكان انشقاق البحر وغرق الفرعون وهى أمور اختلف العلماء حولها كذلك. وقد أدرجنا شرحا لما حدث لجثة رمسيس الثانى حتى وصلت إلى المتحف المصرى لنصل إلى حقيقة معنى قوله تعالى: «فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية». وما هى هذه الآية؟

ثم نأتى إلى المسيرة الطويلة فى سيناء. وقد اختلف العلماء كذلك حولها وخاصة فى فترة التيه. وسيلمس القارىء مقدار ماتحمل موسى عليه السلام من كثرة تذمر بنى إسرائيل وتمردهم. وكيف صبر عليهم وقادهم حتى أوصلهم إلى مشارف «الأرض الموعودة» والتى لم يُقدَّر له أن يدخلها وكانت هذه مهمة خلفه – يشوع بن نون – وهو ما سيجىء فى الجزء الخامس إن شاء الله مع قصة داود وسليمان عليهما السلام وباقى أنبياء بنى إسرائيل.

المؤلــف

سعر النسخة عشرون جنيهاً

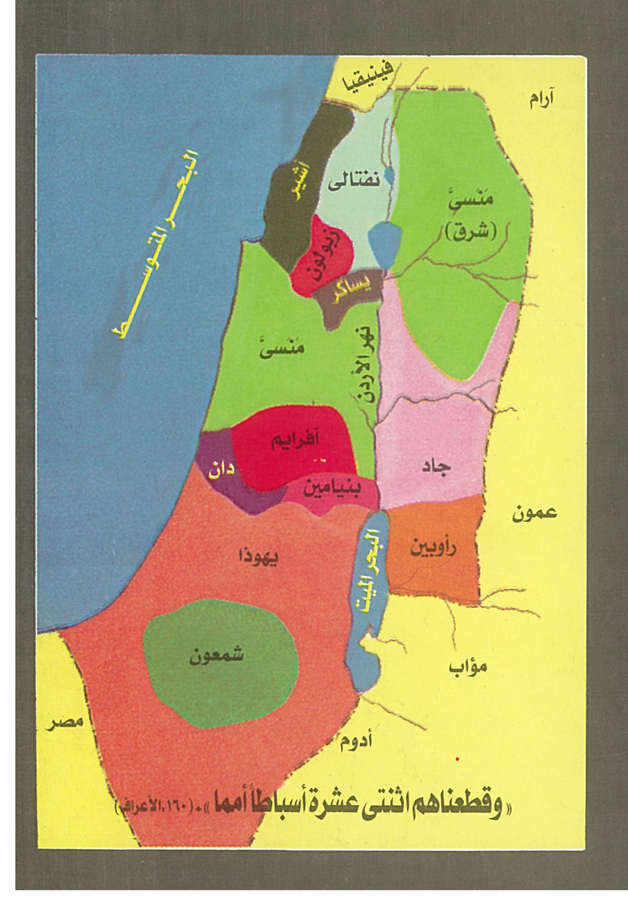
أنبياء بني إسرائيل

يشوع . صموئيل . داود . سليمان . يونس . إلياس
اليسع . شمعيا . إشعياء . إرميا . حزقيال . دانيال
وغيرهم عليهم السلام جميعا .



الجزء الخامس

تأليف دكتور
رشدي البدراوي
الاستاذ بجامعة القاهرة



أنبياء بني إسرائيل

يشوع . صموئيل . داود . سليمان . يونس . إلياس
اليسع . شمعيا . إشعياء . إرميا . حزقيال . دانيال
وغيرهم عليهم السلام جميعا .

قصص الأنبياء والتاريخ

الجزء الخامس

تأليف دكتور

رشدي البدراوي

الاستاذ بجامعة القاهرة

قصص الأنبياء والتاريخ. الجـزء الخامس

أنبياء بنى إسرائيل

د . رشدى البدراوى

يناير ٢٠٠١

رقم الإيداع ١٦٠٤ / ٢٠٠١

محتويات الجزء الخامس

الفصل الثالث والعشرون : الثورة المكابية

مقدمـــة

هذا هو الجزء الخامس من سلسلة «قصص الأنبياء والتاريخ». وهو يغطى فترة زمنية تمتد أحد عشر قرنا. تبدأ من عام ١١٦٥ ق.م. وهو العام الذى تُوفى فيه موسى عليه السلام وتولى يشوع قيادة بنى إسرائيل لدخول «الأرض الموعودة». وينتهى فى عام ٦٣ ق.م. عند استيلاء الرومان على فلسطين. وسيبدو واضحا فى هذا الجزء تداخل قصص الأنبياء مع التاريخ بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. وأنبياء بنى إسرائيل عديدون. وقد ذكرنا فى هذا الجزء سبعة وعشرين نبيا هم: يشوع، دبورة النبية، جدعون بن يوآش، صموئيل، داود، سليمان يونان (يونس)، إلياس (إيليا)، اليسع (أليشع)، شمعيا، عزريا بن عوديد، يحزئيل بن زكريا، أليعازار، إشعياء، ميخا، صفنيا، ناحوم، إرميا، حبقوق، أوريا، حزقيال، حننيا، دانيال، نحميا، ملاخى، عزرا، حجّى. وتُصنِّفهم التوراة إلى «أنبياء كبار» وهؤلاء كانت فترة نبوّتهم تمتد لعدة سنوات، وغالبا ما يقودون حركة إصلاح دينى ولهم رؤى أو نبوءات. و«أنبياء صغار» وهؤلاء كانت مهمتهم النبويّة محدودة كأن يلفتوا نظر الملك المعاصر إلى خطأ ارتكبه أو ينصحوه – أو ينهوه – عن دخول حرب ما. والكل كانوا يسيرون على الشريعة الموسوية ويحضُّون على التمسك بها.

وكان عديد من «الأنبياء الكبار» يتنبأون بأحداث تقع فى المستقبل القريب وتتعلق بالحالة السياسية للدولة – أو للدول المجاورة – الأمر الذى جعل هؤلاء الأنبياء فى بؤرة الصراع ومشاركين – أو مُوجِّهين – للأحداث السياسية. وكان لزاما علينا أن نذكر بشيىء من التفصيل الأحداث التاريخة المعاصرة حتى يمكننا أن نفهم مغزى نبوءاتهم ومن هنا كان «الجزء التاريخى» يكاد يساوى «قصص الأنبياء» بل ويزيد عنه فى بعض الأحيان. وقد بُذل مجهود كبير لتبسيط المعلومة التاريخية واختصارها بقدر الإمكان لتكون فى حدود الهدف منها وهو فهم قصص الأنبياء.

ومما هو جدير بالذكر أن المراجع الإسلامية عندما تذكر قصتى داود وسليمان عليهما السلام تُركِّز على جانب النبوّة وتهمل جانب المُلك مع أن كلا منهما كان ملِكاً ونبياً. والجانب السياسى فى حياتيهما لا يقل أهمية عن جانب النبوّة. وفى قصة يونس عليه السلام سنرى كيف أن المعلومة التاريخية قد ساعدت على فهم أعمق لتسلسل الأحداث مما أدى إلى رؤية جديدة فى تفسير الآيات القرآنية الواردة عنه. كذلك سنلمس فى هذا الجزء براعة اليهود فى التغلغل فى نظام الحكم فى فارس حتى صارت لهم كلمة عليا فى الشئون السياسية استغلوها لصالحهم. وهو دور يشبه سيطرتهم الحالية على الرأى العام ومراكز صنع القرار فى كثير من دول العالم الغربى.

وأخيرا فقد أضيفت ثلاث خرائط (شكل ١٠٤ – ١٠٥ – ١٠٦) تبين أهم المدن فى الشام وفلسطين القديمة. وقد وُضعت فى آخر الكتاب حتى يسهل على القارئ الرجوع إليها كلما أراد معرفة موقع مدينة جاء ذكرها فى المتن.

أرجو أن أكون – بهذا الجزء – قد ألقيت الضوء على جوانب كانت خافية من قصص أنبياء بنى إسرائيل. وفى الجزء السادس إن شاء الله سنذكر آخر أنبيائهم: زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام

والله ولى التوفيق،،

يناير ٢٠٠١ المؤلف

الفصل الأول

أرض كنعان = فلسطين

وقفنا فى آخر الجزء الرابع عند وفاة موسى عليه السلام بعد أن مكّن بنى إسرائيل من تملُّك الأرض الواقعة شرق نهر الأردن. وقد ذكرنا سابقا (ص١١١٢) أن الله أمره أن لا يعبر نهر الأردن وإنما يشوع هو الذى يعبر. ودعا موسى يشوع وقال له أمام أعين جميع إسرائيل: تشدَّد وتشجَّع لأنك أنت تدخل مع هذا الشعب إلى الأرض وأنت تقسمها لهم (تثنية ٣١) وقبل أن نشرح كيفية تملُّك «الأرض» علينا أن نذكر نبذة مختصرة عن بعض النقاط الآتية :

- جغرافية أرض كنعان .
- التركيب السكانى لفلسطين فى ذلك الوقت .
- المعتقدات الدينية لسكان فلسطين القدامى .
- الوضع السياسى .

الاسم « أرض كنعان » :

كنعان هو ابن حام بن نوح عليه السلام (الجزء الأول. ص١٣٥، ١٣٦). وانتقل أبناء كنعان الأحد عشر وسكنوا على ساحل البحر المتوسط فى المنطقة الممتدة من صيدون إلى غزة أى الجزء الجنوبى من الساحل الشرقى للبحر المتوسط وسُميت هذه المنطقة على اسمه «أرض كنعان» وسكانها «كنعانيون». إلا أن هناك من يرى (د. محمد بيومى مهران. مصر والشرق الأدنى القديم. جـ ٨ بلاد الشام. ص٧٩) أن كلمة كنعان مشتقة من خَنَعَ - قَنَعَ - إشارة إلى الأرض المنخفضة. على عكس مرتفعات لبنان. ولما كان سكانها يسكنون السهول الساحلية المنخفضة لذلك سُمُّوا «كنعانيين». وهناك من يرى اشتقاقا آخر. إذ أن كلمة «كناجى» فى اللغة الحورانية تعنى اللون الأحمر ومقابلها فى اللغة الأكدية كلمة «كناخِى». وفى الفينيقية «كينغ» ومنها «كنع» و «كنعان». ومن هنا يرى بعض علماء التاريخ أن أرض كنعان كانت فى الماضى تشمل أيضا الجزء الشمالى من ساحل البحر المتوسط والذى أطلق عليه اليونانيون اسم

«فينكس» Phoenix وهى كلمة تعنى اللون الأحمر لما تخصصت به هذه المنطقة منذ القدم فى صناعة نوع من الصبغة الأرجوانية التى كانوا يستخرجونها من حيوانات بحرية رخوة تكثر قرب شواطئها. ومن هنا جاء اسم «فينيقيا». وقد اشتهر نساء هذه المنطقة – وبالأخص مدينة صور – باستخدام الألوان الزاهية الجميلة – وخاصة الحمراء – فى صباغة ما برعن فى تطريزه من أقمشة. (مصر والشرق الأدنى القديم. د . نجيب ميخائيل إبراهيم. جـ٣.ص٤٤). ثم أصبح اسم «فينيقيا» يطلق على الجزء الشمالى وهو لبنان حاليا. واسم «أرض كنعان» يطلق على الجزء الجنوبى الممتد حتى حدود مصر.

وإلى الشرق من فينيقيا تقع الدويلات الأرامية (شكل ١ وانظر أيضا الجزء الثانى من هذه السلسلة. ص١٨٢ . ١٨٣). وكانت هذه المنطقة تسمى «شرين Shryn» وفى المصادر العبرية تسمى «سريون» وهى تعنى إقليم لبنان الداخلى. وكان البابليون يطلقون على جزء الفرات الموجود ناحية الساحل اسم «سر – رى» أو «سو – رى» ومنه جاء اسم سوريا. أما العرب فكانوا ينتقلون فى تجارتهم بين اليمن فى الجنوب وفينيقيا فى الشمال فقابلوا بينهما : اليد اليمنى ناحية اليمن واليد اليسرى أو «الشولَى» أو «الشومَى» فى الناحية الأخرى ومن هنا جاء اسم «الشام» ليشمل سوريا ولبنان.

جغرافية أرض فلسطين

تنقسم فلسطين بدءا من ساحل البحر المتوسط فى اتجاه الشرق إلى ٥ مناطق جغرافية هى (شكل ٢) :

١ – السهل الساحلى .

٢ – سلسلة الجبال الوسطى .

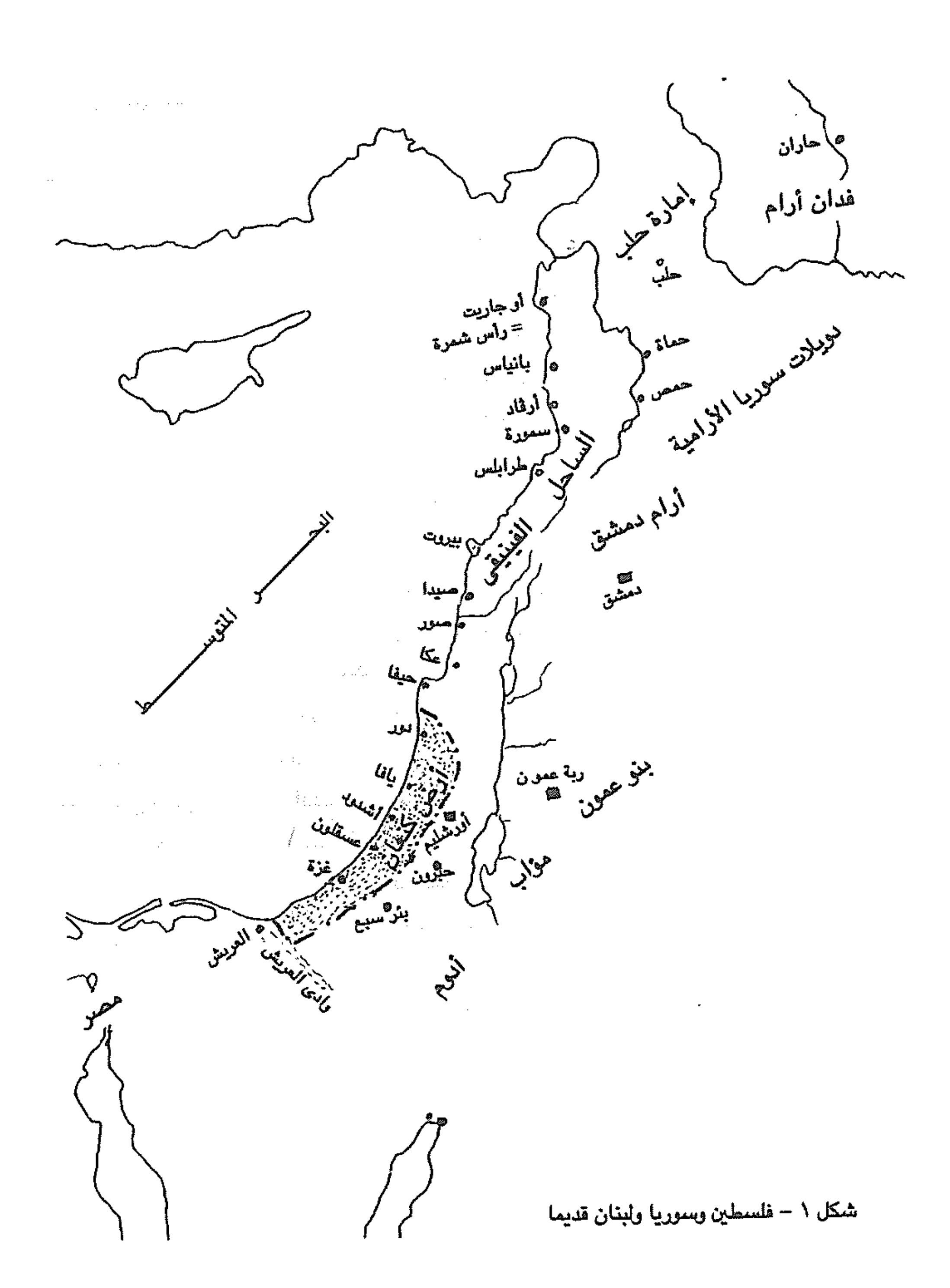
٣ – غور الأردن .

٤ – جبال شرق الأردن .

٥ – الصحراء الشرقية .

١ – السهل الساحلى :

وهو يمتد من صور شمالا إلى ما بعد غزة بقليل أى لمسافة ١٩٣ كيلو مترا تقريبا. ويمكن تقسيم السهل الساحلى إلى أربع مناطق من الشمال إلى الجنوب:



شكل ١ - فلسطين وسوريا ولبنان قديما

أ – فى أقصى الشمال «**سهل عكا**» ممتدا من صور قرب مصب نهر الليطانى إلى جبل الكرمل وعلى البحر مدينة حيفا الحالية. وتقع مدينة عكا فى ثلثة الجنوبى.

ب – يلى ذلك جزء صغير يسمى «**سهل دور**» نسبة إلى ميناء «دور» وهو يمتد من جبل الكرمل إلى نهر الحاضرة. وهو سهل ضيق.

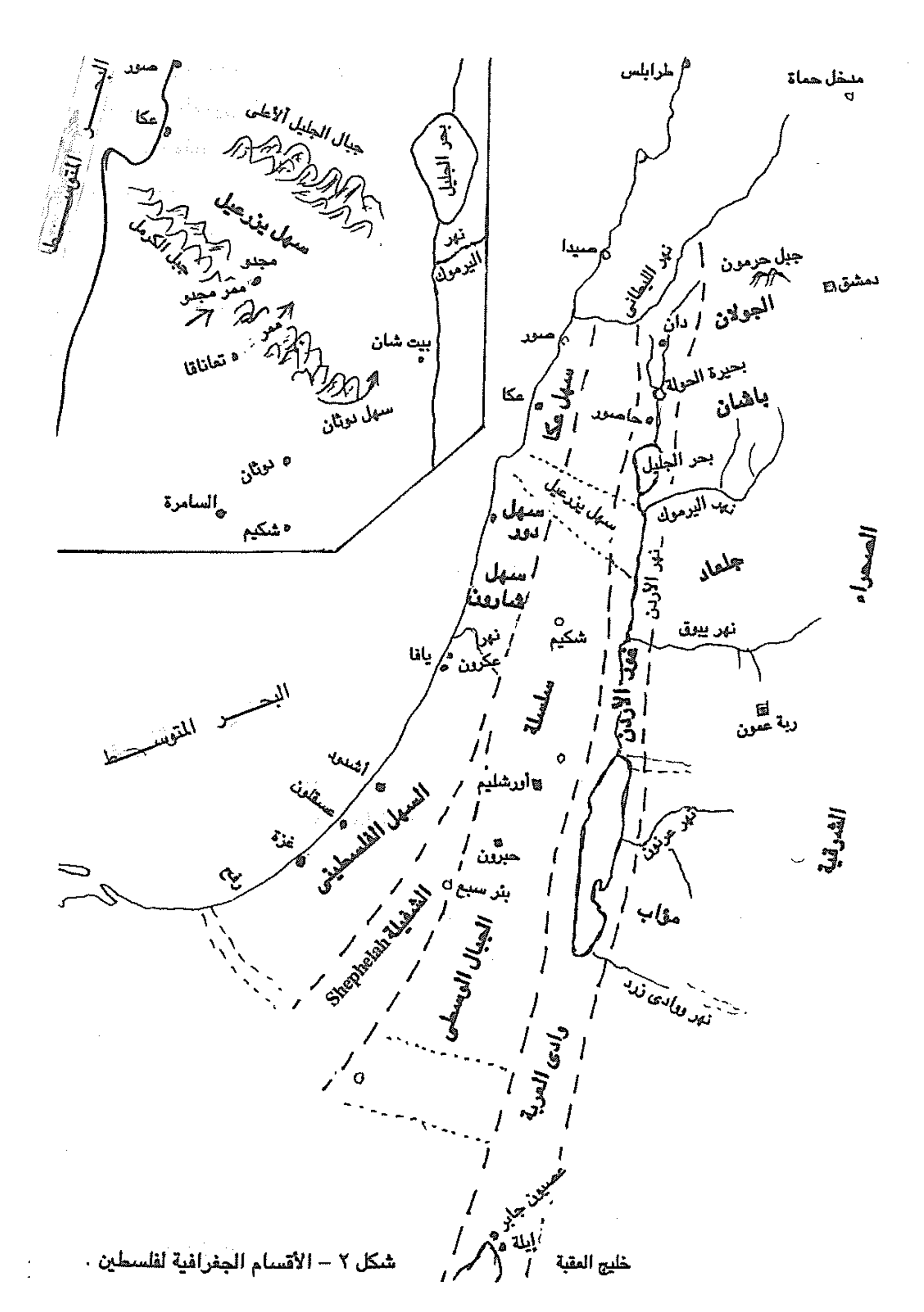
جـ – بعد ذلك يأتى «**سهل شارون**» وهو متسع ويمتد إلى نهر عكرون.

د – وأخيرا «**السهل الفلسطينى**» الأكثر اتساعا والذى يمتد حتى الحدود مع مصر.

ويتكون السهل الساحلى من تلال صغيرة تغطيها طبقة من الطمى. إلا أنه فى الشمال توجد بعض التلال من الحجر الجيرى. ويخلو السهل الساحلى من العوائق الجغرافية ولذلك أصبح هو الطريق الطبيعى المُوصِّل بين سوريا وأشور وبابل فى الشمال ومصر فى الجنوب وإن كان على المسافرين أن يتخطُّوا بعض العقبات المتمثلة فى بعض الكثبان الرملية وعبور نهر عكرون المتسع نوعا ما وبعض المنخفضات التى تتحول إلى مستنقعات فى أشهر الشتاء. كذلك يجب على المسافرين الدراية بآبار مياه الشرب والأنهار والجداول.

ولما كان ساحل البحر يخلو من أى خلجان أو تعرجات فإن المدن الساحلية لم تكن موانى بمعنى الكلمة فيما عدا عكا التى تقع فى خليج عكا. وهذا بعكس الساحل الفينيقى فى الشمال الذى يكثر به الرؤوس والخلجان فكانت موانيه كثيرة مما شجَّع على بناء السفن. وتوسَّعَ أهله فى التجارة البحرية وبرعوا فى تسيير الأساطيل إلى قبرص وكريت واليونان.

ويطلق اسم «الشفيلة Shephelah» على ذلك الجزء من جنوب فلسطين الممتد بين المنطقة الجبلية فى الشرق والسهل الساحلى فى الغرب ولو أن البعض يعتبر هذا الاسم يشمل السهل الساحلى أيضا. وعرض «الشفيلة» حوالى ١٢كم وطولها حوالى ٦٠كم وارتفاعها يتراوح بين ٥٠٠ – ١٠٠٠ قدم. وتحتوى على مدن دفاعية مهمة وهى لخيش Lachish و دبير Debir و لبنة Libnah وبيت شميس Beth - Shemesh. وكان سكان مدن السهل الساحلى يستفيدون من تقديم الزاد والمؤن للقوافل المارة. ولكن أوقات الحروب كانت نقمة عليهم إذ تكتسح الجيوش المنطقة وتستولى على المحاصيل لإطعام الجنود وتقوم أحيانا بأسر بعض الأفراد لخدمة المحاربين. وقد ازدهرت المستعمرات الكنعانية على الساحل الفلسطينى فى صورة مدن أو شبه ثغور إذ تحميها الجبال من خلفها. وكانت كل مدينة عبارة عن إمارة مستقلة عن جاراتها وإن كان ينشأ بينها أحيانا اتحاد يجمعها لمواجهة خطر ما أو بدافع مصلحة مشتركة. وكانت إحدى المدن تتزعم الاتحاد فكانت صيدا زعيمة الاتحاد فى القرن الحادى عشر ثم صور فى عهد الملك حيرام الذى كان معاصرا لسليمان عليه السلام. ولكن لما استولت أشور على المنطقة انحلت عرى الرابطة بينها.



شكل ٢ – الأقسام الجغرافية لفلسطين .

بقى سهل يجب التحدث عنه وإن لم يكن سهلا ساحليا.. ذلك هو «**سهل يزرعيل**» ويُسمَّى أيضا «**السهل الكبير**» (شكل ٢) وهو يمتد من البحر المتوسط غربا إلى غور الأردن شرقا. وشكله يشبه مثلث متساوى الساقين تقريبا قاعدته عند غور الأردن طولها ٢٥ كيلوا مترا وعندها تقع مدينة بيسان (بيت شان القديمة) وهى تحرس الوادى ضد أى هجوم من ناحية نهر الأردن. أما ضلع المثلث الشمالى فهو جبال الجليل الأعلى. وضلعه الجنوبى يتكوَّن من سلسلة جبال الكرمل والمسافة من القاعدة إلى القمة حوالى ٤٠ كيلو مترا. والقمة تقع على الطريق الساحلى بين سهل دور وسهل شارون فى الجنوب والساحل الفينيقى فى الشمال. وسهل يزرعيل هو باب فلسطين ومفتاحها من ناحية الشمال إذ يتعين على الغزاة أن يمروا به ولذلك فإن مدينة مجدو لها موقع استراتيجى هام فى الدفاع عن السهل ومن ثَم فى الدفاع عن فلسطين. ويمكن الوصول إلى سهل يزرعيل عن طريق ٣ **ممرات رئيسية:**

١ - ممر يلتف حول الطرف الجنوبى لسلسلة جبال الكرمل حيث يوجد سهل دوثان وهو أوسعها وأسهلها مرورا للقوافل إذ يوصِّل من سهل شارون على الساحل إلى سهل يزرعيل ومن ثم إلى شرق الأردن. أما بالنسبة للجيوش فهو أكثرها توقعا من العدو وبذلك ينعدم عنصر المفاجأة. وهو عنصر هام فى الحروب.

٢ - ممر فى الجبال قبالة بلدتى تعاناقا وجفتى.

٣ - ممر ضيق قبالة بلدتى عارونا ومجدو. وهو لا يتسع إلا لصف واحد من الجنود لعبوره ويسهل اصطياد الجنود بالسهام من قمم الجبال المجاورة وهو غير مطروق لوعورته ويكون عبوره مجازفه كبيرة إلا أنه إذا أمكن عبورهُ فى سرِّية تامة فإن حامية مجدُّو تجد نفسها أمام جيش معاد وتسقط بسهولة. وهذا ما اتبعه تحوتمس الثالث (انظر الجزء الثالث. ص ٥٤٧).

٢ - سلسلة الجبال الوسطى :

وهى تمتد من بحر الجليل فى الشمال حتى هضبة النقب فى الجنوب وهى تتكون من الحجر الجيرى الصلب وترتفع لأكثر من ٣٠٠٠ قدم عن سطح البحر (٩١٥ مترا). ويقطعها أفقيا سهل يزرعيل فى الشمال وحوض النقب جنوبى بئر سبع. وبذلك يمكن المرور بسهولة نسبية فى اتجاه الشرق - غرب. كما يقطعها عدد من مجارى الأنهار الصغيرة التى تصب فى البحر المتوسط أو فى نهر الأردن والتى تجعل من السير عبر الجبال عملية شبه مستحيلة إذ يضطر المسافر إلى النزول إلى قاع الوادى فى انحدارات شديدة ثم الصعود فى الجهة المقابلة لأعلى الجبل ثانية. لذلك خلت سلسلة الجبال الوسطى من طرق مواصلات مطروقة إلا من طريق رئيسى يربط بين شكيم فى الشمال وحبرون فى الجنوب.

وسلسلة الجبال الوسطى هذه غزيرة الأمطار (٥٠٠ - ١٠٠٠مم فى السنة) وتربتها خصبة.

وعلى سفوح الجبال تجود زراعة أشجار الزيتون والكروم ويزرع القمح فى مصاطب. كما أن الأمطار الزائدة تتشرب فى الأرض وينتج عنها عيون مياه فى الوادى.

والإقليم الجبلى هذا ليس به مدن كثيرة. وأهم مدنه هى أورشليم وبيت لحم وحبرون. وأشهر الجبال هى التلال الواقعة حول أورشليم: جبل صهيون وجبل الزيتون. وشمال وجنوب شكيم يقع جبل عيبال وجبل جرزيم. وعلى هذا الأخير أقام سكان المملكة الشمالية (إسرائيل) معبدا لينافسوا به معبد أورشليم. والجبال غرب البحر الميت سكنها سبط يهوذا ولذلك تسمى جبال يهوذا.

٣ – غور الأردن :

وهو يمتد من دان فى أقصى الشمال إلى الطرف الجنوبى للبحر الميت وهى مسافة تبلغ ٢٤٠ كم ويستمر إلى إيلات وعصيون جابر على الطرف الشمالى لخليج العقبة فى مسافة تبلغ ١٧٥كم تقريبا. ويسمى الجزء الشمالى من الغور بحوض الحولة وهو غزير الأمطار وافر المياه إذ به بحيرة الحولة ويغذيها بالمياه فرعان من الشمال. ومن جنوبها ينبع نهر الأردن. ثم يسير النهر ليدخل فى بحر الجليل (بحيرة طبرية) والذى ينخفض ٦٩٠ قدما تحت سطح البحر. وأبعاد بحيرة طبرية تبلغ ١٢×٢١ كم وماؤها عذب وهو زاخر بالسمك وتجود المحاصيل على شواطئها. ثم يسير النهر ليصل إلى البحر الميت وهى مسافة تبلغ ١٥٠كم ولكن لكثرة تعرجات النهر فإن طوله الفعلى يكاد يصل إلى الضعف إذ يبلغ حوالى ٢١٥ كيلو مترا. وفى شاطئه الشرقى يستقبل نهر اليرموك الذى يضيف إلى النهر كمية مياه مساوية لتلك الآتية من بحر الجليل. وفى منتصفه – من الشرق أيضا – يستقبل نهر يبوق (نهر الزرقا حاليا) وفى مقابله يستقبل نهر الفارعة. ويختلف عرض وادى نهر الأردن: ففى الشمال يبلغ ٥,٥كم ويتسع مقابل أريحا إلى ٢٢كم تقريبا. وينتهى نهر الأردن إلى مصب فى البحر الميت والذى ينخفض ٤٠٠ مترا (١٣١٠ قدما) عن سطح البحر.

والبحر الميت بحر مقفل أبعاده ٧٦×١٨كم. وهو أعمق فى ثلثيه الشماليين. أما الثلث الجنوبى فهو ضحل. وبسبب البخر من سطحه وعلى مر آلاف السنين زادت نسبة الملوحة فى مائه حتى وصلت لدرجة قتلت جميع الأحياء فيه ولذلك سمى «البحر الميت Dead Sea» أو «البحر المالح Salt Sea». وهو يستقبل فضلا عن نهر الأردن. نهر «عرنون» فى منتصف شاطئه الشرقى ونهر «زرد» فى الطرف الجنوبى وإن كان جافا معظم أيام السنة ولذلك يسمى «وادى زرد».

والجزء من الغور غربى البحر الميت صخور جرداء تسمى «**برية يهوذا**» تليها غربا جبال يهوذا (وهى جزء من سلسلة الجبال الوسطى) وتليها غربا «**الشفيلة**» ثم السهل الساحلى.

بعد البحر الميت يمتد الغور فيما يسمى «**وادى العربة**». والذى تحده من الشرق جبال أدوم (جبال سعير) ومن الغرب مرتفعات النقب. حتى الطرف الشمالى لخليج العقبة .

٤ - جبال شرق الأردن :

وهى تقع شرق غور الأردن وتمتد من جبل حرمون (جبل الشيخ) فى الشمال إلى الطرف الشمالى لخليج العقبة. والجزء الشمالى يسمى «باشان» وهو هضبة الجولان الحالية التى تقع بين جبل الشيخ ونهر اليرموك. يلى ذلك جنوبا «أرض جلعاد» التى تمتد إلى الطرف الشمالى للبحر الميت ويقسمها فى المنتصف «نهر يبوق» (نهر الزرقا). أما المنطقة شرق البحر الميت فكانت تسمى مؤاب وهى تمتد حتى «وادى زرد» ويقسمها فى المنتصف نهر «عرنون». أما جنوب البحر الميت فإن سلسلة الجبال تمتد حتى تصل إلى خليج العقبة وتصل إلى ارتفاعات ٤٥٠٠ قدما (١٣٧٠ مترا) وكانت تسمى فى ذلك الوقت جبال سعير. والجزء الشمالى كان به من الأمطار ما يسمح بزراعة القمح والشعير. وجبال سعير مع وادى العربة يشكلان معا ما كان يسمَّى «أرض أدوم» التى سكنها بنو عيسو شقيق يعقوب عليه السلام. وأشهر مدن أدوم هى البتراء التى اتخذها العرب النبط عاصمة مملكتهم (من ٢٠٠ ق.م. إلى ٢٠٠ ميلادية). ولكن توجد مدن أخرى هامة مثل بُصرى وتامار وصوغر. وهذه الأخيرة هى الوحيدة التى بقيت من مدن قوم لوط الخمس (انظر جـ ٢ من هذه السلسلة شكل ٧٤ ص ٣١٠).

٥ - الصحراء الشرقية :

وهى آخر الأقسام وتمتد من جبال شرق الأردن حتى نهر الفرات فى العراق بعد مسافة ٧٢٥كم تقريبا. وكان يسكن هذه المنطقة المقفرة قبائل أمورية وأرامية وعرب النبط. وكانوا كثيرا ما يغيرون على سكان أراضى الهلال الخصيب. كما كانت الحروب فيما بينهم كثيرة.

الطرق الطبيعية

تنبع أهمية هذه الطرق من أنها وقت السلم تستخدم طرقا للقوافل التجارية لذلك كانت الدول تتسابق للسيطرة عليها إذ أنها تسهل تجارتها - صادرات أو واردات - مما يزيد من رخائها. بالإضافة إلى الدخل المتمثل فى الرسوم التى تدفعها قوافل الدول الأخرى عند مرورها فيها. كما أنها وقت الحرب تستعمل لمرور الجيوش والمعدات الحربية. وسكان المدن التى تمر بها هذه الطرق يتعرضون لأنواع مختلفة من الحضارات والثقافات والديانات مما يجعلهم يتأثرون بها. مثال ذلك أن السامرة - عاصمة المملكة الشمالية - كانت تقع على طرق القوافل مما كان له أثر فى انسياق أهلها وراء آلهة الدول التى كانت قوافلها تمر بهم. بعكس أورشليم التى تقع فى جبال يهوذا بعيدا عن طرق القوافل مما حماها إلى حد كبير من التأثر بعبادات الدول المجاورة

ويمكن تقسيم الطرق إلى: طرق دولية وطرق محلِّيَّة. وأهم هذه الطرق موضَّح فى شكل ٣.

وهناك طرق فرعية بين القرى لم توضع على الشكل لكثرتها ولعدم أهميتها التجارية أو السياسية.

التركيب السكانى

يمكن تقسيم الأقوام التى كانت تسكن هذه المنطقة إلى قسمين :

أ - **شعوب** تُكوِّن دولا أو دويلات أو إمارات.

ب - **عشائر** أو تجمعات فى منطقة معينة تبسط عليها نفوذها ولكنها ليست من القوة أو الاستقلالية بحيث تصبح دويلة أو إمارة.

الشعوب :

١ - **الكنعانيون** و ٢ - **الفينيقيون** : وقد سبق الكلام عنهما عند ذكر أرض كنعان. ويجمع علماء الأجناس على أن الاثنين من الشعوب السامية ويمتُّون بصلات لغوية إلى الأراميين وعليه فالمرجح أن أحد أحفاد سام بن نوح تسمى باسم كنعان ونُسبوا إليه إذ لو كانوا من نسل كنعان بن حام بن نوح لوجب أن يكونوا حاميين وليسوا ساميين.

٣ - **الأراميون** : وكانوا يسكنون الفرات الأعلى وسوريا وشرق الأردن وقد ذكرنا بالتفصيل الدويلات الأرامية (الجزء الثانى. ص ١٨٣) وكان أهمها دويلة دمشق وخاصة بعد أن ضمَّت إليها بعض الدويلات الصغيرة المجاورة وكان حكامها يسمون ملوكا.

٤ - **الأموريون** : وكانوا يسكنون وسط العراق وشرق سوريا (الجزء الثانى ص١٩٦).

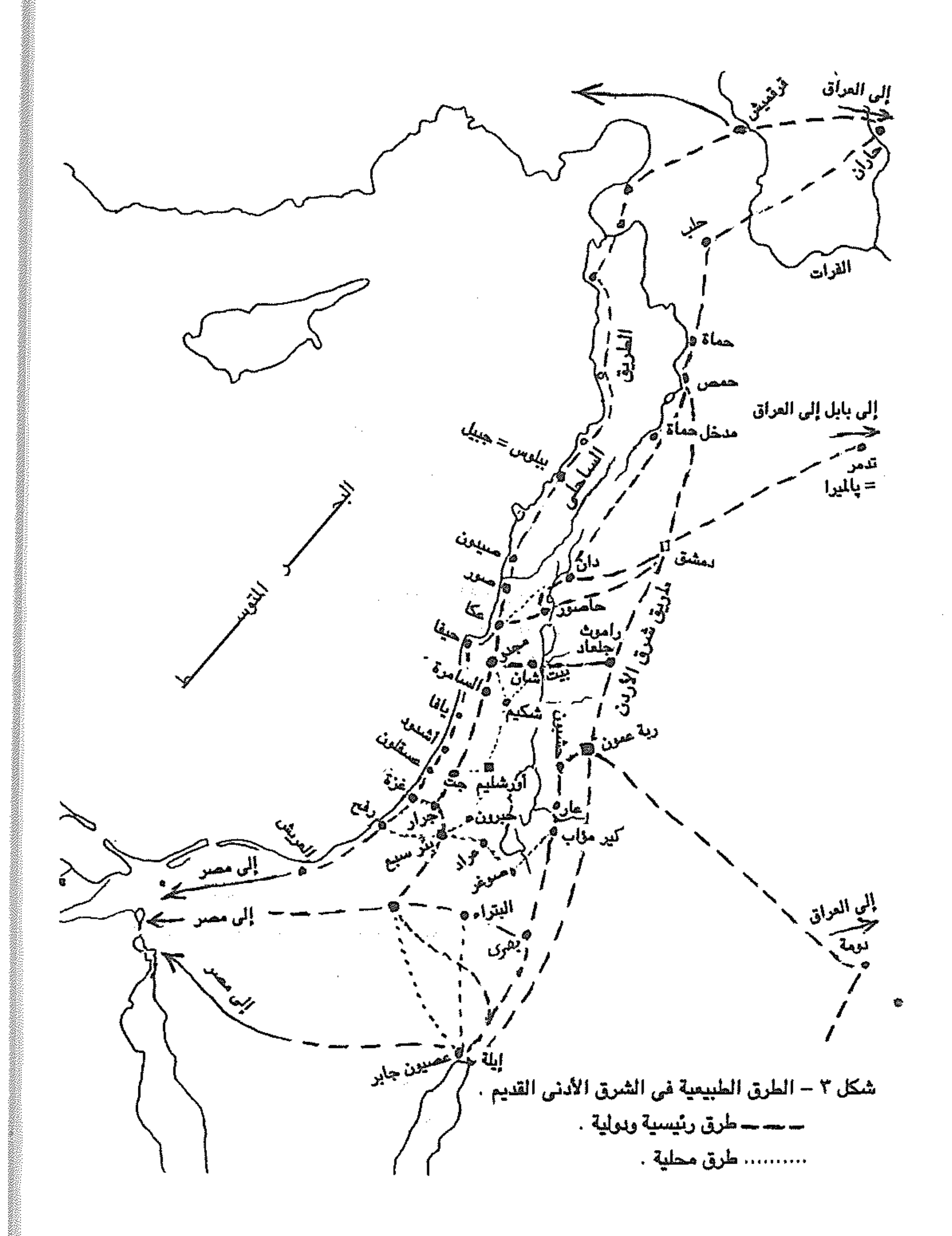
٥ - **المؤابيون** : أبناء مؤاب بن لوط. واستقروا شرق البحر الميت.

٦ - **العمونيون** : أبناء عمون بن لوط. واستقروا شرق مؤاب أى جنوب سوريا.

٧ - **الحيثيون** : وهم سكان مملكة «خيتا» أو «حاتى» فى آسيا الصغرى وكانوا أحيانا يحتلون الجزء الشمالى من ساحل البحر المتوسط حتى فينيقيا. وبعد أن أغارت شعوب البحر على بلادهم زادت هجراتهم إلى أرض كنعان.

٨ - **الفلسطينيون** :

يجمع علماء التاريخ والأجناس على أن «شعب البالست Palest» قدم مع شعوب البحر من جنوب آسيا الصغرى وجزيرة كريت وجزر بحر إيجه (شكل ٤) وأغاروا على الجزء الجنوبى من ساحل البحر المتوسط واستوطنوا هذه المنطقة فسميت باسمهم بالستين Palestine أو فلسطين. وكان استقرارهم بصفة دائمة فى السهل الساحلى فى المنطقة بين يافا وغزة (شكل ٥). ولم يكن قدومهم مقصورا على طريق البحر. بل إن بعضهم قدِم من جنوب غرب آسيا الصغرى



شكل ٣ – الطرق الطبيعية فى الشرق الأدنى القديم .

——— طرق رئيسية ودولية .

.... طرق محلية .

سائرين شرقا ثم جنوبا فى سوريا حتى التحقوا بإخوتهم القادمين عن طريق البحر. واندمجوا مع السكان المحليين – وهم الكنعانيون – وتكلموا لغتهم ومارسوا عاداتهم فأصبحوا جزءا من أهل البلاد. وكانت أهم مدن الفلسطينيين هى: أشقلون (عسقلون) وأشدود وعقرون وجت وغزة (شكل ٥).

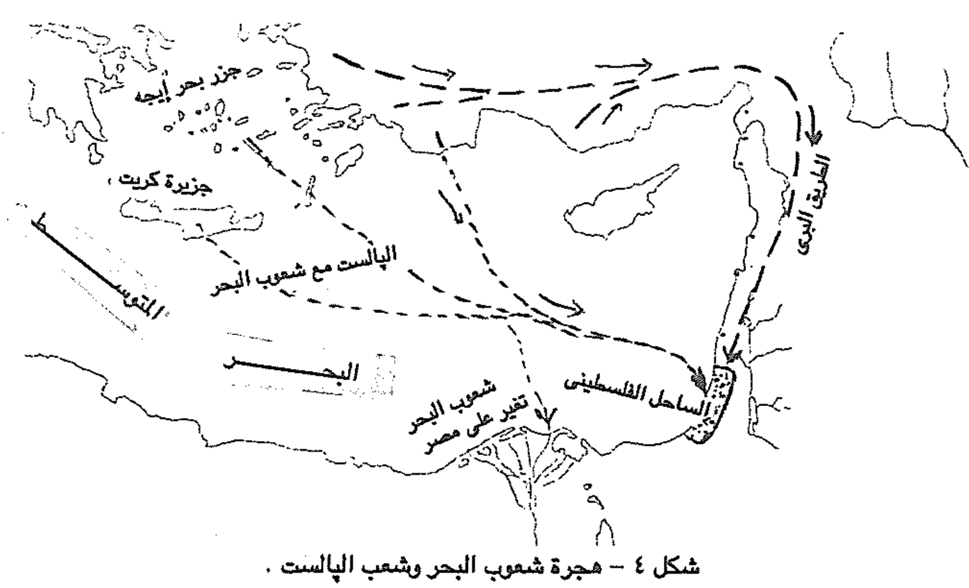
١ – **أشقلون** : وهى إحدى المدن الفلسطينية الخمس الرئيسية. وكان حاكمها يعتبر قطبا من أقطاب الفلسطينيين . وهى تقع ٢٠كم شمال غزة. وكان لعسقلون فى العهود الغابرة ميناء بحرى.

٢ – **غزة** : وهى آخر المدن الفلسطينية ناحية الجنوب. وبها يمر الطريق الساحلى الرئيسى الممتد من شمال فلسطين إلى جنوبها والذى يمتد فيصل إلى مصر جنوبا وإلى لبنان شمالا ولذلك كانت غزة مركزا استراتيجيا هاما جعل الفاتحين يهتمون بالاستيلاء عليها. فهى أول محطة لمن يريد فتح فلسطين من مصر. وآخر محطة لمن يريد فتح مصر من جهة الشمال. وقد سكنها الكنعانيون بادىء الأمر. وربما كانوا هم بُناتها. ولما دخل بنو إسرائيل الأرض كانت من نصيب يهوذا فاحتلها رجاله مع باقى مدن الجنوب. ولكن الفلسطينيين استرجعوها منهم ثم جاء شمشون واستردها لبنى إسرائيل. ولكن الفلسطينيين استردوها مرة ثانية وبقيت فى قبضتهم إلى أن ضم سليمان عليه السلام كل الساحل الفلسطينى إلى مملكته.

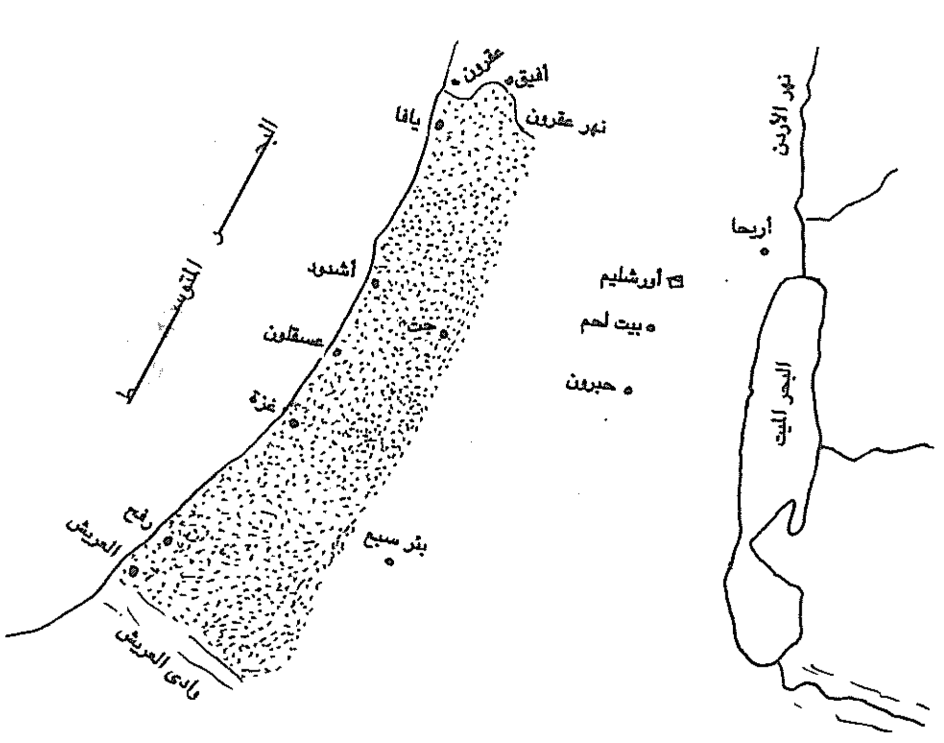
٣ – **أشدود** : ومعناها قوة أو حصن. وكانت من نصيب يهوذا ولكنه لم يتمكن من أخذها. وسنرى فيما بعد أنه فى حرب بين الفلسطينيين وبنى إسرائيل. هُزِم فيها بنو إسرائيل واستولى الفلسطينيون على تابوت عهد الرب وحملوه معهم إلى أشدود ووضعوه فى هيكل «داجون» إلههم وأصيب أهل المدينة بالمرض فأرسلوا التابوت إلى «جت».

٤ – **جت** : وكانت فيما مضى أشهر مدن الفلسطينيين الخمس إذ كان حاكمها يسمى ملكا. وهى تقع ٤٠ كم جنوب شرق يافا وهى ليست على الساحل بل تقع بين بعض التلال فى الداخل. وظل الفلسطينيون وبنو إسرائيل يتنازعونها لأجيال طويلة ثم آلت إلى الفلسطينيين حتى أخذها منهم داود عليه السلام. ثم أخذها الفلسطينيون ثانية إلى أن استردها سليمان عليه السلام. ثم استردها الفلسطينيون وظلت فى أيديهم إلى أن استولى الأشوريون على المنطقة كلها. ومن كثرة هذا التداول تتضح أهميتها الاستراتيجية إذ هى مدخل لأورشليم من الجنوب الغربى.

٥ – **عقرون أو عكرون** Ekron : وهى إحدى مدن الفلسطينيين الخمس فى اتجاه الشمال على بعد ١٠كم من الشاطىء. وكانت بعد فتح الأرض من نصيب يهوذا على حدوده الشمالية. ثم أعطيت لسبط دان وقد استرجعها الفلسطينيون سريعا. وقد سبق أن ذكرنا أن أهل أشدود لما



شكل ٤ – هجرة شعوب البحر وشعب الپالست .



شكل ٥ – استقرار الپالست (الفلسطينيين) فى أرض كنعان.

تفشى فيهم المرض أرجعوه إلى غضب الرب عليهم لاستيلائهم على تابوت عهد الرب فبعثوا بالتابوت إلى جت. وأصاب أهلها الطاعون فبعثوا به إلى عقرون ولم يرض به أهلها فقرر الفلسطينيون إعادة التابوت إلى بنى إسرائيل كما سيجىء فيما بعد (ص٦٧).

ويقع جبل الكرمل إلى الشمال من عقرون وهو الحد الفاصل بين منطقة الفلسطينيين وبين الفينيقيين فى الشمال.

هذه هى الشعوب الكبيرة التى سكنت هذه المنطقة . بقى أن نذكر نبذة عن تجمعات العشائر التى سكنت مناطق معينة ولم تكن لهم القوة لتكوين دويلة أو إمارة . ومن هذه التجمعات (شكل ٦):

١ – **اليبوسيون** : وكانت تجمعاتهم حول مدينة «يبوس» وهو الاسم الذى كانت تحمله مدينة «القدس» قبل أن تحمل الاسم العبرى «أورشليم». وكانوا يسكنون الجبال المحيطة بالمدينة. وبعد أن استولى بنو إسرائيل على أرض كنعان ظل اليبوسيون فى منطقتهم ولم يخضعوا لنفوذ بنى إسرائيل وبقيت المدينة خالصة لهم وسط الكيان الإسرائيلى إلى أن استولى عليها داود عليه السلام. وأخضع سليمان اليبوسيين لنفوذه وفرض عليهم الجزية.

٢ – **القنزيون** : هم قبيلة سامية كانت تعيش فى أرض كنعان منذ أيام إبراهيم عليه السلام. وكانوا عمالا مهرة فى أعمال التعدين بمصانع النحاس فى وادى الأردن.

٣ – **الكالبيون** : هم قبيلة من نسل «كالب بن يفنة» زميل يشوع فى بعثة التجسس على الأرض وكان هو ويشوع يحثان بنى إسرائيل على دخول الأرض (الجزء الرابع ص ١٠٤٢، ١٠٤٧). وكان الكالبيون يسكنون المنطقة المحيطة بمدينة «حبرون» (الخليل حاليا).

٤ – **الفرزيون** : قبيلة من الكنعانيين كانت تسكن فى قرى مسوَّرة فى المنطقة الجبلية غرب البحر الميت مباشرة ولم يخضعوا لبنى إسرائيل إلا فى عهد سليمان عليه السلام.

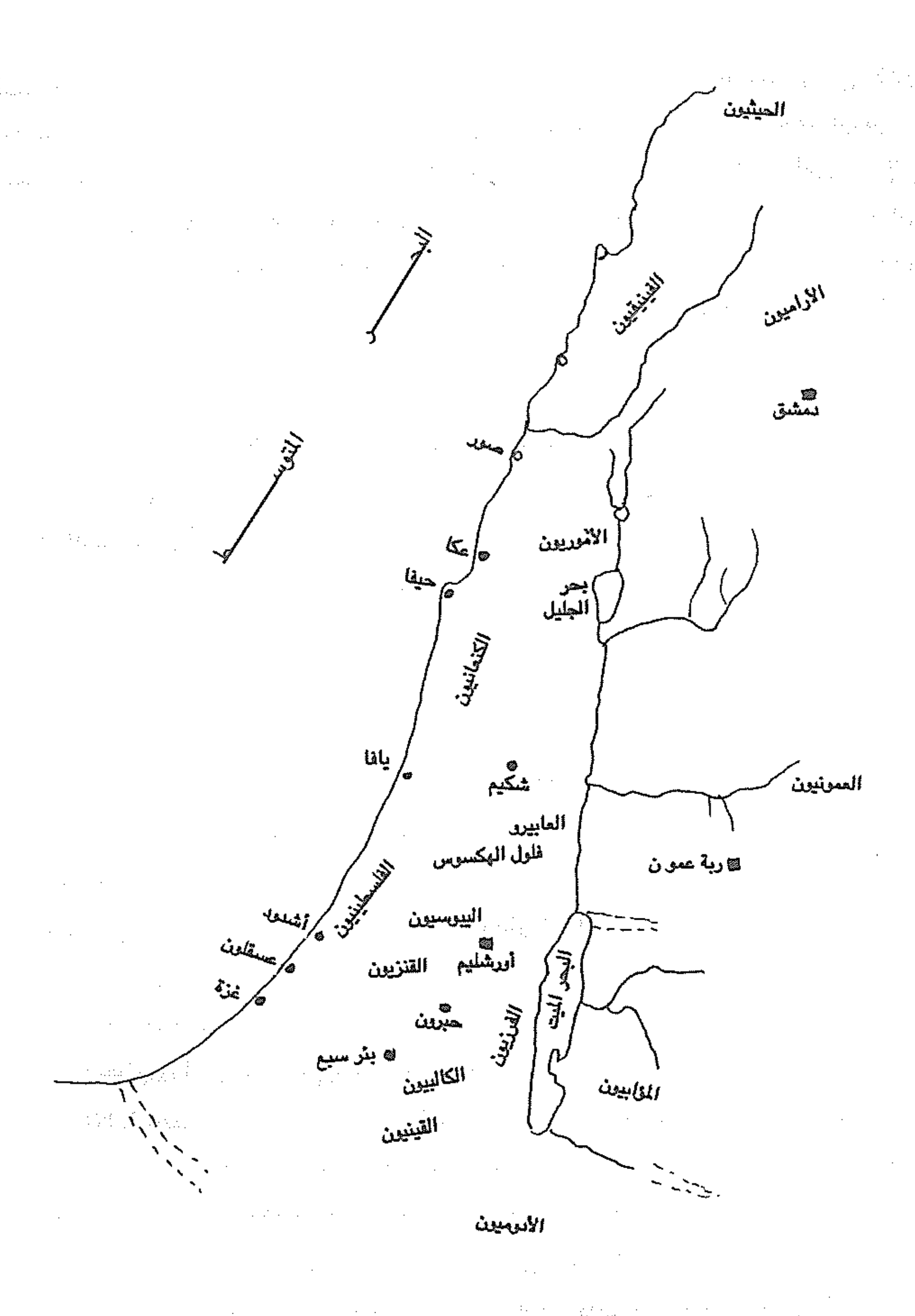
٥ – **العبرانيون** : يُنسبون إلى «عابر» من نسل سام بن نوح. فهم ساميون. وعابر هو الجد الخامس لإبراهيم عليه السلام ولذلك كان إبراهيم يُطلق عليه اسم «أبرام العبرانى» (قاموس الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين. ص٥٩٦). ولعل العبرانيين كان لهم طابع مميز فى الشكل بحيث لما أحضرت قافلة الإسماعيليين يوسف إلى مصر عُرِفَ أنه عبرانى ولما راودته امرأة العزيز واتهمته قالت (تكوين ٣٩:١٤) انظروا. قد جاء إلينا برجل عبرانى... (جـ٢. ص٤٦٥) وأصبح يوسف نائبا للملك وأرسل فى طلب أبيه يعقوب (= إسرائيل) وإخوته أثناء المجاعة. وتكاثر العبرانيون فى مصر. ولكنهم أصبحوا يعرفون ببنى إسرائيل.

٦ – **فلول الهكسوس** : بعد طرد الهكسوس من مصر بواسطة أحمس عام ١٥٧٥ ق.م.

ومطاردة تجمعاتهم فى شيروكين (أو شاروحين) قرب غزة (الجزء الثالث ص ٥٤٠) فإنهم تفرقوا فى فلسطين وسوريا وعاشوا فيها كجماعات متفرقة لاتزال تحمل فى داخلها العداء لمصر والمصريين. وراحوا - بين الحين والآخر - يثيرون شعوب المنطقة ضد الولاة الموالين لمصر فكانوا مصدر إزعاج للفراعنة. وقد كانت لهم فى بعض الأوقات تجمعات كبيرة نسبيا فى بعض المناطق ولهم ثقافتهم الخاصة وهو ما يسميه بعض المؤرخين «عصر الهكسوس المتأخر».

٧ - **العابيرو** - Apiru or Abiru :

كانت فكرة «الأرض الموعودة» هى حلم بنى إسرائيل طوال مدة إقامتهم فى مصر وقد ذكرنا سابقا (الجزء الثالث ص ٥٢٣) قول يوسف عليه السلام لإخوته قبل وفاته: «أنا أموت ولكن الله سيُصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التى حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب». واستحلف إخوته أن يأخذوا رفاته معهم عند عودتهم إلى فلسطين. ولم يكن بنو إسرائيل فى مصر يعرفون متى يصعدون من أرض مصر إلى الأرض الموعودة. ولا ماذا سيكون مصيرهم هناك. وحتما سيرفضهم سكان الأرض ويقاتلونهم وهم بعدُ قلة وأسباط متفرقة. فلم يكن بُدٌّ من بقائهم فى مصر. وجاء أحمس وقام بطرد الهكسوس (جـ٣ ص٥٣٦) ولاشك أن بعضا من أفراد بنى إسرائيل كانت لهم مصالح مشتركة مع الهكسوس فآثروا الخروج معهم. وقد سبق أن رجَّحنا أن هؤلاء النفر هم «العابيرو» ولعل هدفهم أيضا كان دراسة أحوال سكان الأرض وليندسوا بينهم ويكونوا - كما نقول بلغة عصرنا - طابورا خامسا يسهل لبنى إسرائيل عند خروجهم من مصر مهمة امتلاك الأرض. وعلى ذلك فقد انتشروا فى فلسطين وسوريا وعُرِفوا - أو بعضهم على الأقل - باسم «الخابيرو». وراحوا يثيرون الفتن ضد مصر فى هذه المناطق. وقد جاء فى كتابات الآثار المصرية أن تحتمس الثالث وأمنحتب الثانى - فى حروبهما فى فلسطين - أخذا أسرى من العابيرو، ولبيان الدور الذى لعبه العابيرو فى إضعاف نفوذ مصر فى فلسطين نشير إلى مجموعة خطابات وُجدت فى تل العمارنة عبارة عن رسائل بالخط المسمارى على ألواح من الطين مرسلة من أمراء فلسطين والساحل الفينيقى وجنوب سوريا لكل من تحتمس الثالث وأخناتون وهى فى جملتها تصل إلى ٣٧٧ وثيقة. وأحد هذه الخطابات مكتوب فيه: «إلى الملك سيدى وشمسى وإلهى. يقول سوارداتا الخادم. خادم الملك والتراب الذى تحت قدميه. والأرض التى يمشى عليها. وإنى عند قدمى الملك سيدى - إلهى شمس السماء قد سجدت له سبع مرات». ويقول وارنر كيللر (الكتاب المقدس والتاريخ. ص١٤٢) ولا يجب أن نستغرب هذه المقدمة لأنها كانت شيئا معتادا حسب البروتوكول فى أيامهم. ثم يستكمل الخطاب: «ويجب أن يعرف الملك إلهى أن العابيرو قد ثاروا فى الأرض التى أعطاها الإله الملك لى وأننى قد ضربتهم. كما يجب أن يعرف الملك - إلهى - أن جميع إخوتى قد تركونى وأننى - عبدو خيبا (مُرسِل الخطاب) - تُرِكتُ وحيداً فى مواجهة قائد العابيرو. وأن



شكل ٦ – تجمعات الشعوب فى فلسطين القديمة .

أمير عكا زوراتا - وإنداروتا أمير أكشاف - كانا الوحيدين اللذين أسرعا لنجدتي في مقابل ٥٠ عربة حربية حُرِمتُ منها. ولكنهم راحوا يحاربون ضدي، وآمل أنه قد يَسُر جلالَته أن يرسل الملك - إلهي - عونا حتى يمكننا أن ندير حربا حقيقية لإعادة أرض الملك - إلهي - إلى حدودها القديمة». وهذا يوضح أن قبائل العابيرو والخابيرو باتت تهدد النفوذ المصري في فلسطين. وعندما خفَّت قبضة الإدارة المصرية في بلاد الشام أغار بعض أمرائها على جيرانهم. ولم يُقدِّر الفراعين خطورة هذه الأحوال وأغلبهم لم يرد على رسائل الاستغاثه التي كان يبعث بها الحكام الموالون لمصر. كما أن رسائل بعض الحكام كانت مملوءة بالنفاق والتضليل - يسرفون في إظهار الود والطاعة لمصر في حين أنهم يعملون ضدها. ويُصدِّق الفراعنة - وخاصة أخناتون - هذه الخطابات لعدم رغبتهم في الحرب.

وقد ذكرنا في الجزء الثالث (ص ٥٨٩ ، ٥٩٠) رسائل أخرى من هذا النوع كما ذكرنا في الجزء الرابع (ص٧٨٥ وما بعدها) وصف معركة قادش والدور الذي قام به بدويان من العابيرو بخداع رمسيس الثاني بغية الإيقاع بالجيش المصري وتقليص نفوذ مصر في فلسطين مما يدل على أن العابيرو كانوا يعملون بتنسيق مع بني إسرائيل في مصر. ويمهدون لدخولهم الأرض وتملُّكها.

المعتقدات الدينية

كان أقوام هذه المنطقة وثنيين - ماعدا بني إسرائيل الذين كانوا على التوحيد الذي جاء به موسى عليه السلام.

فالأراميون كانوا يعبدون «حدد» أو «هدد» وكان إلها للأمطار وما يصاحبها من زوابع ورعود وبرق. وهو نافع إن أرسل الماء الذي ينبت الزرع ومهلك إن أرسل سيولا جارفة. ومن هنا جاء لقبه «رمون» أو «رمان» أي الرعب مثير العواصف.

أما **الحيثيون** فكان معبودهم يسمى «تشوب».

أما الآلهة **الفينيقية** فهي «رشف» إله النار و «عليان بعل» إله الخضرة وخصمه «موت» وهو يشير إلى الذبول وإله القمر «سين». وأشهر الإلهات الإناث كانت عشتار وهي تمثل الأمومة وتصوَّر لابسة تاجا ويصحبتها أسد (انظر الجزء الثالث ص ٥٥٧).

أما آلهة **الكنعانيين** فكان أشهرهم إله السماء «إيل» وهو الإله الأب. وإلهة الأرض «أشيرة» أو «أشيرات» أو «عشتار» وهي أيضا «عناة» و «بعلة». ومن خصائصها الحب والحرب. وقد عرفها اليونانيون باسم «أفروديت» وكانت ترمز للخصب. ويشير اتصالها بعشيقها إلى العملية الانتاجية. وكانت تعتبر في بعض المناطق إلهة الفجور والحب الشهواني. وكانت عابداتها من

الفتيات الصغيرات اللائى كن يستسلمن للغرباء فى جوار الهيكل بهدف أن يكون هذا الفعل إيحاء قويا إلى الأرض بتكاثر النبات والحيوان. وقد أحبت عشتار «دموزى» أو «تموز» أو «أدنى» وهو «أدونيس» عند اليونان. وتقول الأسطورة إنه مات على ناب خنزير برى فى رحلة صيد وانتقل إلى العالم السفلى فحل الموت بالطبيعة. فنزلت عشتار إليه وأقامته من الموت فعادت الأرض إلى اخضرارها. ويحدث ذلك فى الشهر السابع من كل عام ولذلك سُمِّى شهر «دموزى» أو «تموز» (يوليو). وكان عيد «عشتروت» يُحتفل به فى الاعتدال الربيعى وكان يستمر ٧ أيام. وكانت تصحب الاحتفال نغمات الناى ودق الطبول ويرقص الكهنة رقصا عنيفا ويضربون أجسادهم بالمدى والسكاكين. ثم تقوم النساء بتقديم أنفسهن للرجال رمزا وإيحاء للخصب ومن هنا ظهرت طبقة «بغايا المعبد» أو «العاهرات المقدسات».

وفى سهول فلسطين كان هناك إله يُدعى «داجون Dagon» وكان يُمثَّل ملتحيا ذا خصلات طويلة من الشعر ويمسك فى كل يد بسمكة وينتهى نصف جسمه الأسفل على هيئة ذيل سمكة مغطى بالفلوس وبه زعانف وكان له هيكل كبير فى أشدود وهيكل آخر فى غزة. واسمه مشتق من «داج» أى سمكة أى الإله السمكة. وقد كشفت عمليات التنقيب فى «أوجريت» أو «رأس الشمرة» عن هيكل به تمثال لداجون نصفه الأعلى إنسان ونصفه الآخر سمكة. ويرى بعض الباحثين أن «داجون» هو نفسه «داجان» إله الحنطة. وكانت له مكانة عظيمة من عصور قديمة كإله الأرض والزراعة فى كل المنطقة من بابل إلى البحر المتوسط. وإن كان فى بابل يسمى «داكان Dakan» (مصر والشرق الأدنى القديم. د. نجيب ميخائيل إبراهيم جـ٥ ص ٦١. وانظر أيضا الجزء الثانى من هذه السلسلة «قصص الأنبياء والتاريخ» ص ١٩٨. والجزء الثالث ص٥٥٥).

أما فى سوريا وصور فكان يعتبر «ملكروث» - وهو هرقل لدى اليونان - إلها للقوة والبطولة. وهو الإله الذى كان العبرانيون يُضحُّون له بالأطفال باسم «مولوخ» أو «مولك» أى الملك الإله الرهيب. وحين يحزبهم أمر شديد - كعدو يطيل حصارهم - كانوا يضحُّون له بأطفالهم فيذبحونهم تحت أقدام تمثاله تقربا له أو يحرقونهم أحياء أمام مذبحه. وقد مارس اليهود هذه العادة الشنيعة ولاسيما فى الموضع المسمَّى «وادى بنو هنوم» (أرميا ٣٢:٣٥ - انظر ص٣٨٠ فيما بعد) الذى يقع جنوب أورشليم وهو «وادى ربابة» الآن. ويُعرف الجزء الجنوب شرقى منه باسم «وادى توفة» أو «وادى القتل».

وكانت المعابد فى أول الأمر غاية فى البساطة لاتزيد عن حجرة واحدة بها تمثال الإله وتقدم له فيها القرابين ويدعو العُبَّاد بما يشاءون. ثم تطورت وظهر بها النُصب المقدس وهو يرمز إلى الخصب. وغرف سفلية الغرض منها التنبؤ والعرافة وإدراك رغبات الإله وتحديدها. وكان يستعاض عن المعابد فى القمم العالية من التلال والجبال بمذبح وعمود الحجر المقدس أو

سارية مرتفعة غناء عن المعبد الكامل ولذلك كانت تسمى «مرتفعات» أو «سوارى» وتعنى مكان العبادة الوثنية.

الوضع السياسى لفلسطين والأحداث فى مصر

منذ إنشاء الدولة الحديثة فى مصر بعد طرد الهكسوس فى عام ١٥٧٥ ق.م. كانت فلسطين خاضعة للنفوذ المصرى حتى لتُعتبر امتدادا طبيعيا لسيناء التى هى أرض مصرية. وكانت الدول المجاورة تعترف بسيادة مصر على فلسطين ولا تنازعها فيها. وظل الوضع كذلك لفترة تزيد عن خمسة قرون. ولم يكن بنو إسرائيل بقيادة يشوع يستطيعون دخول الأرض لو كانت مصر لاتزال تبسط سلطانها عليها. لذلك لابد من ذكر كيفية انحسار النفوذ المصرى عن فلسطين بما مكن لبنى إسرائيل من دخولها والاستيطان بها. ويتعين العودة لمتابعة الأحداث التى مرت بمصر بعد خروج بنى إسرائيل من مصر وغرق رمسيس الثانى.

ذكرنا فى الجزء الرابع (ص ٩٧١) أن مرنبتاح تولى الحكم وفى اعتقاده أن بنى إسرائيل – بعد نجاحهم فى الخروج من مصر – لابد قد توجَّهوا الى «الأرض الموعودة – فلسطين» وبدأ يُعِدُّ العُدَّة لتكوين جيش جديد للانتقام لموت والده إما بإعادة بنى إسرائيل لمصر صاغرين أذلاء كما كانوا أو إبادتهم كلية فى فلسطين واستئصال شأفتهم من الأرض. وبدأ العمال يصنعون مركبات حربية جديدة وأدوات حربية من سيوف ودروع وفؤوس. ثم بدأ فى إعداد الجند وتدريبهم. وكان يزمع أن يقود الجيش إلى فلسطين ولكنه انشغل فى حربة مع حجافل قادمة من الغرب مكونة من شعوب البحر (انظر شكل ٤ ص١٢) وعدة قبائل تزعمهم شيخ قبائل «ريبو» أو «ليبو» أو «ليبيا». وزحف هذان العدوَّان على غرب الدلتا ووصلوا إلى الفرع الكانوبى للنيل واحتلوا وادى النطرون. وجمع مرنبتاح الجيش وسار به لملاقاة العدو. وانتصر المصريون. وطارد مرنبتاح فلول الأعداء حتى معاقلهم فى ليبيا. وسجَّل انتصاره على اللوح المسمى لوح مرنبتاح والذى سبق ذكره بالتفصيل فى الجزء الرابع (ص ٦٧٠). ولم يدم حكم مرنبتاح سوى ١٠ سنوات ثم خلفه ابنه سيتى الثانى الذى حكم ٧ سنوات. وأشارت برديات إلى وقوع اضطراب داخلى شمل منطقة طيبة ويحتمل أن أصحابه كانوا من أنصار الإله آمون معبِّرين عن سخطهم على العاصمة المستحدثة «بررعمسيس» والإله «ست».

وبعد وفاة سيتى الثانى حدثت فترة قلق سياسى لوجود عدد كبير من الأمراء والأميرات وكلهم طامع فى العرش ويذكر المؤرخون منهم خمسة وإن لم يتفقوا على ترتيبهم. وانقسمت مصر إلى أقسام وولايات استقل بكل منها أمير. وشجَّع هذا الانقسام الأجانب على غزو مصر. فمدَّ أمير سورى نفوذه على الولايات المصرية واحدة بعد الأخرى حتى شمل جميع

البلاد تقريبا. ووجدت كتابة تصف هذه الفترة تقول (مصر القديمة. سليم حسن. جـ٧ ص٢٥٧): «لقد أقْصِى كل رجل عن حقه وظل الناس يرون فمًا أعلى (أى رئيس) سنين عدة حتى أتى وقت كانت مصر فى أيدى أمراء وحكام مدن. وذبح الرجل جاره عظيما كان أم حقيرا (تعبيرا عن الفوضى وعدم استتباب الأمن) وقد توالى على ذلك وقت فيه سنون عجاف وكان معهم «أرسو» وهو سورى المنبت. الذى جعل نفسه رئيسا على البلاد وجعل كل البلاد تابعة له وجمع كل رفاقة ونهب ممتلكات المصريين. ولم يُقرِّبوا قربانا للمعابد». ولاشك أن هذه الصورة القاتمة للحالة الداخلية تُوضّح أيضا أنه لم يكن بالإمكان الاحتفاظ بأى نفوذ لمصر فى فلسطين.

ثم هبت روح الوطنية فى مصر من سباتها وخلعت عنها نير الحكم الأجنبى بزعامة أمير من نسل الرعامسة هو «**ست نخت**» أو «ست المنتصر» الذى كان آخر ملوك الأسرة ١٩. ثم خلفه إبنه **رمسيس الثالث** مؤسسا الأسرة ٢٠ والذى حكم مدة طويلة راجيا أن يعيد لمصر ما كان لها من نفوذ فى منطقة الشرق الأدنى. ولكنه انشغل – مثل مرنبتاح – بإنقاذ مصر من الخطرين العظيمين اللذين تجدَّد تهديدهما فى ذلك الوقت وهم الليبيون من الغرب وشعوب البحر من الشمال والشرق. كان الليبيون منذ هزيمتهم على يد مرنبتاح ينظمون أنفسهم ويتطلعون إلى إعادة الكَرَّة على مصر. فلما كانت السنة الخامسة من حكم رمسيس الثالث تقدموا نحو الدلتا وتجمعوا فى مكان قريب من الفرع الكانوبى للنيل – كما فعلوا أيام مرنبتاح – ولكن رمسيس الثالث هزمهم وقتل كثيرين منهم وأسر كثيرين أيضا. بعد ذلك بثلاث سنوات عاد نشاط شعوب البحر. فتقدموا إلى آسيا الصغرى واخترقوا ممرات جبال طوروس وأغاروا على الحيثيين وأنهوا دولتهم. وزحفوا على الشام وفلسطين. وفى الوقت نفسه سارت سفنهم حذاء ساحل الشام وتقدم الشرادنة (من جزيرة سردينيا) نحو مصر قاصدين فتحها واستيطانها. إلاَّ أن رمسيس الثالث صدَّ جموعهم عند رفح على الحدود المصرية الشرقية وانتصر الأسطول المصرى على سفنهم قرب مصب النيل الغربى وأسر الكثيرين منهم.

أمضى بعد ذلك رمسيس الثالث عشرين عاما مشغولا فى مجابهة خطر داخلى متمثِّل فى سلطة الكهنة التى ظلت تزداد يوما بعد يوم. ولم ير رمسيس الثالث بُدًّا من مهادنتهم فأغدق عليهم الخيرات . ويتضح ذلك من بردية هاريس المحفوظة فى المتحف البريطانى وفيها يذكر أن $\frac{1}{7}$ الأراضى الصالحة للزراعة كانت ملكا لهم وكانت أملاكهم كلها معفاة من الضرائب فى حين كان العمال المساكين هم الذين يدفعون الضرائب لسد حاجة الدولة إلى المال مما ألجأهم إلى الإضراب عن العمل فى كثير من الأحيان. وانتشرت جماعات اللصوص لسرقة المقابر الملكية وما بها من كنوز.

من هذا نرى أن عوامل الانحلال كانت قد بدأت تنخر فى أجهزة الحكومة المصرية وهو ما

منع أى تفكير فى محاولة استعادة نفوذ مصر فى فلسطين. كان موسى عليه السلام قد حارب الأموريين فى حشبون وباشان واستولى على الأرض شرق الأردن. وفى عام ١١٦٥ ق.م. توفى موسى عليه السلام وتولى يشوع قيادة بنى إسرائيل وبدأ يتأهب لعبور نهر الأردن ودخول أرض فلسطين. كان ذلك فى العام العشرين من حكم رمسيس الثالث. ثم توفى رمسيس الثالث عام ١١٦١ ق.م. وكان خلفاؤه أكثر ضعفا وازداد التفكك الداخلى. إذ فى عهد رمسيس الثانى عشر قام أمير من تانيس اسمه «سمندس» واستولى على الدلتا وجعل نفسه ملكا عليها. وبالطبع كان كل همه تأمين الدلتا ضد الملك الحاكم فى طيبة. كما أن قيام مملكة مستقلة فى الدلتا قطع مملكة الصعيد عن اتصالها بالشام وفلسطين تجاريا وسياسيا. بل إن رمسيس الثانى عشر كان حكمه فى طيبة اسمياً إذ كانت السلطة الفعلية فى يد «حرحور» رئيس كهنة آمون. وهذا أدى إلى إنكفاء مصر على همومها الداخلية وأصبح نفوذ مصر السياسى ينتهى إلى حدود سيناء بين خليج العقبة ومدينة رفح أما ما بعد ذلك فلا شأن لمصر به. وساعدت الظروف بنى إسرائيل من عدة نواحٍ أخرى. إذ أن هجمات شعوب البحر على خيتا قد أضعفتها وأدت إلى زوالها كدولة. كما أن الأشوريين فى العراق كانوا يمرُّون بفترة ضعف مثل تلك التى كانت فى مصر. وهكذا كان يوجد ما يمكن أن نسميه - بلغة عصرنا - فراغا سياسيا نتج عن غياب كل هذه الدول عن المنطقة وهو ما أعطى لبنى إسرائيل الفرصة لغزو فلسطين واستيطانها. زد على ذلك أن الحكم فى فلسطين كان فى يد طبقة أرستقراطية تدين بالولاء لمصر وتنفذ أوامرها. وكل همهم هو ما يجمعونه من أموال الشعب لأنفسهم بجانب الجزية التى كانوا يرسلونها لمصر. وكان الحكام أنفسهم طغاة مستبدين. أما الشعب فليس له أى حقوق قبلهم. فلما انحسر النفوذ المصرى زاد طغيان الولاة وانتشرت الرشوة وساد الظلم وانخفض مستوى المعيشة. وما تهدم من أسوار المدن كان يترك على حاله لعدم وجود مال لترميمه. كل ذلك جعل شعوب المنطقة غير متحمسة للدفاع عن حكامها.

من هذا نرى أن جميع الظروف كانت مهيأة لبنى إسرائيل لدخول الأرض بقيادة يشوع بن نون.

الفصل الثانى

النبى يشوع بن نون

هو «هوشع» أو «يهوشوع» بن نون من سبط أفرايم أصغر ولدى يوسف عليه السلام. وفى أول الأمر كان فتى يخدم موسى عليه السلام وهو المشار إليه فى قوله تعالى :

«**وإذ قال موسى لفتاة آتنا غداءنا .....**» . (٦٠ – الكهف)

ثم غير موسى اسمه . تقول التوراه (عدد ١٣:١٥): «ودعا موسى هوشع بن نون يشوع».

وهو الذى تولى – بأمر من موسى عليه السلام – قيادة الفرقة التى حاربت العماليق عند رفديم (وادى فيران) كما سبق أن ذكرنا (الجزء الرابع ص ٩٨٣) وانتهت المعركة عند غروب الشمس بانتصار المحاربين من بنى إسرائيل. وكان أحد الاثنى عشر نقيبا الذين أرسلهم موسى ليتجسَّسوا الأرض وبعد عودتهم قام يشوع بن نون وكالب بن يُفنَّة يِحَثٍّ بنى إسرائيل على دخول الأرض:

«**قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله توكلوا إن كنتم مؤمنين**» (٢٣ – المائدة. وقد سبق ذكر ذلك فى الجزء الرابع ص١٠٤٩).

ثم استخلفه موسى حسب ما كلمه به ربه فأخذه وأوقفه أمام ألعازار الكاهن بن هارون وأمام كل الجماعة وأوصاه وشجعه على دخول الأرض. ثم إن موسى ويشوع وقفا معا فى خيمة الاجتماع وتراءى لهما مجد الرب وأصبح يشوع نبيا (الجزء الرابع ص ١١٠٣). وبعد موت موسى عليه السلام تولى يشوع قيادة بنى إسرائيل وكلَّمه الرب قائلا: (يشوع ١) «موسى عبدى قد مات فالآن قم اعبر هذا الأردن. أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض. لا يقف إنسان فى وجهك كل أيام حياتك. كما كنتُ مع موسى أكونُ معك. لا أهملُك ولا أتركك. تشدَّد وتشجَّع لأنك أنت تقسم الأرض لهذا الشعب. إنما كن متشدِّدا وتشجَّع لكى تتحفَّظ للعمل حسب كل الشريعة التى أمرك بها موسى عبدى. لا تمل عنها يمينا ولا شمالا لكى تفلح حيثما تذهب. لا يبرح سفر هذه الشريعة من فمك. بل تلهج فيه نهارا وليلا لكى تتحفَّظ للعمل حسب كل ما هو مكتوب فيه لأنك حينئذ تُصلح وحينئذ تُفلح».

فأمر يشوع عرفاء الشعب قائلا «جوزوا فى وسط المحِلَّه (محل إقامتهم) وامروا الشعب

قائلين: هيئوا لأنفسكم زادا لأنكم بعد ثلاثة أيام تعبرون الأردن هذا لكى تدخلوا فتمتلكوا الأرض التى يعطيكم الرب إلهكم لتمتلكوها . ثم كلَّم يشوع الرأوبينيين والجاديين ونصف سبط منسى (وهؤلاء كانوا قد طلبوا من موسى قبل وفاته أن يعطيهم الأرض فى شرق الأردن كما ذكرنا فى الجزء الرابع ص ١١٠٢ فوافق موسى بشرط أن يعبروا مع باقى الأسباط ويحاربوا معهم حتى يتملَّكوا الأرض). قائلا: اذكروا الكلام الذى أمركم به موسى قائلا: الرب إلهكم قد أراحكم وأعطاكم هذه الأرض. نساؤكم وأطفالكم ومواشيكم تلبث فى الأرض التى أعطاكم موسى فى شرق الأردن وأنتم تعبرون متجهزين أمام إخوتكم كل الأبطال ذوى البأس وتعينونهم حتى يريح الرب إخوتكم مثلكم ويمتلكوا هم أيضا الأرض التى يعطيهم الرب ثم ترجعون إلى أرض ميراثكم التى أعطاكم موسى. فأجابوا يشوع قائلين: كل ما أمرتنا به نعمله وحيثما ترسلنا نذهب. حسب كل ما سمعنا لموسى نسمع لك. إنما الرب إلهك يكون معك كما كان موسى. كل إنسان يعصى قولك ولا يسمع كلامك فى كل ما تأمره به يُقتل. إنما كن متشدِّدًا وتشجَّع». وبدأ يشوع يمارس سلطاته ابتداء من عام ١١٦٥ ق.م. وبدأ يخطِّط لغزو أرض كنعان.

التجسُّس على أريحا :

كان يشوع وبنو إسرائيل يقيمون فى شطِّيم Shittim . (شكل ٧) وهى تل الحمام حاليا ١٢كم شمال شرق الطرف الشمالى للبحر الميت. وبدأ يخطِّط للاستيلاء على الضفة الغربية بدءا بأريحا. وأريحا معناها «مدينة القمر» أو «مكان الرؤية العطرية» وتقع على مسافة ٨كم غرب نهر الأردن شمال غرب الطرف الشمالى للبحر الميت إلا أن المدينة القديمة موضعها الآن تل السلطان على بعد ٢كم من مدينة أريحا الحديثة. وكانت أهميتها تنبع من أنها تتحكم فى الوديان الذاهبة إلى أورشليم ومن هنا رأى يشوع أن يبدأ بها.

أرسل يشوع رجلين من شطيم ليتجَسَّسا على مدينة أريحا ويتعرفا على حصونها ودفاعاتها. فعبرا نهر الأردن واتجها إلى أريحا. وحتى لا يلفتا الأنظار وإخفاء لمهمتِّها الرئيسية فإنهما تظاهرا بأنهما إنما قدما المدينة قاصدين المتعة فاتجها إلى بيت غانية اسمها «راحاب» واستراحا فى بيتها بعض الوقت. وكان جواسيس الحاكم قد أخبروه بمقدم رجلين غريبين فأرسل ملك أريحا إلى راحاب طالبا منها تسليم الرجلين. ولكن راحاب خبَّأتهما بين عيدان كتان على سطح منزلها وأخبرت رسل الحاكم أن الرجلين بعد أن قضيا معها وقتا قد انصرفا ولا تعرف أين ذهبا. وبعد أن انصرف الجند أخبرت الرجلين أنَّها قد عرفت حقيقة أمرهما وحقيقة مهمتهما واستحلفتهما – عند فتحهم لأريحا – أن يردوا لها المعروف الذى عملته معهما بأن لا تُضارَّ أو يضارَّ أحد من عائلتها: أبوها وأمها وإخوتها وأخواتها. فأعطوها عهدا بذلك إن هى لم تُفشِ سرِهما. فأنزلتهما بحبل من على السطح. وطلبا منها أن تربط حبلا

من خيوط القرمز في شباك بيتها لتكون علامة وأن تجمع في البيت كل عائلتها فيكون أنه عند فتح المدينة يتعرَّف الجنود على بيتها فلا يُحرق أو يُضارُ أحدٌ ممن فيه. وخرج الرجلان من المدينة بعد أن درسا استحكاماتها. وتخفَّيا في الجبل ثلاثة أيام حتى يئس جنود الحاكم من العثور عليهما فنزلا من الجبل وعادا إلى يشوع في شطيم. وأخبروه بأن سكان الأرض مرعوبون من سماع الأخبار عن نية إسرائيل عبور الأردن وامتلاك الأرض. وأخبروه أيضا أن تحصينات المدينة ليست قوية بالدرجة التي تمنعهم من الاستيلاء عليها. وقالا ليشوع إن الرب قد دفع بيدنا الأرض كلها وقد ذاب كل سكان الأرض بسببنا (يشوع ٢:٢٤).

الاستيلاء على أريحا :

بكرً يشوع في الغد وارتحلوا من شطيم وأتوا إلى شاطىء الأردن هو وكل بني إسرائيل. وأمر يشوع الكهنة أن يحملوا تابوت عهد الرب ويسيروا أمام الشعب. ولكنه أمر الشعب بأن يجعل بينه وبين التابوت مسافة ٢٠٠٠ ذراعا. ويقال إن النهر كان ممتلئا بالمياه ولما انغمست أرجل الكهنة في مياه الأردن وقفت المياه المنحدرة من فوق وعبر الشعب مقابل أريحا. وهذه المنطقة من نهر الأردن معروفة حاليا باسم «المغطس» (على مبعدة ميلين من كوبرى اللنبى) وهي منطقة معروفة بضحالة مياهها. وإن كانت الصيغة التي كُتِبت بها هذه الفقرة في التوراة توحي بأن الأمر كان معجزة تشبه انفلاق البحر لموسى عليه السلام. (يشوع ٣:١٥): «فعند إتيان حاملي التابوت إلى الأردن وانغماس أرجل الكهنة حاملي التابوت في ضفَّة المياه والأردن ممتلىء إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد. وقفت المياه المنحدرة من فوق وقامت ندِاً واحداً بعيدا جدا. والمنحدرة إلى بحر العربة بحر الملح وانقطع تماما وعبر الشعب مقابل أريحا. فوقف الكهنة حاملو تابوت عهد الرب على اليابسة في وسط الأردن وجميع إسرائيل عابرون على اليابسة حتى انتهى جميع الشعب من عبور الأردن». ويرى وارنر كيللر (الكتاب المقدس والتاريخ. ص ١٥٩) أن احتجاز مياه نهر الأردن كثيرا ما يحدث نتيجةً للزلازل. ففي عام ١٩٢٧ حدث زلزال شديد بالمنطقة وانهارت أطنان من الحجارة والأتربة من أعلى التلال على جانبي النهر وأوقفت جريان المياه تماما لمدة ٢١ ساعة. وحدث نفس الشيء في عام ١٩٢٤. وفي عام ١٩٠٦ حدث زلزال وانهارت جوانب المجرى المائي بحيث جف النهر تماما مقابل أريحا لمدة ٢٤ ساعة. ويرى وارنر كيللر أن زلزالا لابد قد حدث في موضع ما في الشمال نتج عنه توقف سريان المياه. في حين يرى بعض المفسِّرين أن مياه النهر أحيانا كثيرة تقلُّ بحيث لا يزيد عمق المياه عن قدمين. وهذه تسمى مخاضة لأن المرء يمكن أن يخوضها ويعبر إلى الضفة الأخرى. وتكثر هذه المخاضات في نهر الأردن وخاصة مقابل مدينة أريحا.

وعسكر بنو إسرائيل في الجلجال شرقي أريحا وأقاموا هناك نُصُباً من ١٢ حجرا أُخذت من قاع النهر تخليدا لذكرى عبورهم. وعملوا الفصح في سهول أريحا. ويمكننا أن نستنتج أن

عبور الأردن كان فى الربيع لأن الفصح يحتفل به فى أواخر شهر إبريل. «وأكلوا من غلة الأرض فى الغد بعد الفصح فطيرا وفريكا. وانقطع المن عند أكلهم من غلة الأرض». (يشوع ١٢:٥). ثم أمر يشوع بأن يختتن كل بنى إسرائيل الذين ولدوا فى الطريق فى القفر ولم يكونوا قد اختتنوا بعد وأقاموا مكانهم فى الجلجال حتى برئوا.

حصار أريحا وسقوطها :

تصف التوراة عملية سقوط مدينة أريحا فتقول: ووقف بنو إسرائيل أمام أريحا فلم يكن لهم عهد بمهاجمة المدن. كانت معاركهم مع الأموريين والمؤابيين فى أرض مكشوفة. أما أريحا فلها أسوار وحصون. ولم يكن معهم سلالم لتسلق الأسوار أو معاول لنقبها. وتقول التوراة (يشوع ٥: ١٣): «وحدث لما كان يشوع عند أريحا أنه رفع عينيه ونظر وإذا رجل واقف قبالته وسيفه مسلول بيده فسار يشوع إليه وقال له هل أنت لنا أو لأعدائنا. فقال كلا بل أنا رئيس جند الرب (أى جبريل عليه السلام)». وأمره بأن يصطف كل الجند كدائرة حول المدينة وسبعة كهنة يحملون أبواق الهتاف أمام التابوت وأن يفعلوا ذلك ستة أيام. وفى اليوم السابع يدورون حول المدينة سبع مرات والكهنة يضربون بالأبواق وجميع الشعب يهتف هتافا عظيما. وقال لهم يشوع إن الرب قد أعطاهم المدينة لتكون المدينة وكل ما فيها مُحَرَّما للرب - أى تكون مثل قربان للرب فتحرق حرقا تاما - ماعدا بيت راحاب «هى فقط تحيا وكل من معها فى البيت لأنها خبأت الرجلين اللذين أرسلهما ليعرفوا أخبار المدينة. وقال لهم يشوع: وأما أنتم فاحترزوا من الحرام. ولا تأخذوا شيئا من المدينة فيحل سخط الرب على مَحِلَّة إسرائيل لأن كل الفضة والذهب وآنية النحاس تكون قدسا للرب وتدخل فى خزانة الرب» (يشوع ٦:١٨).

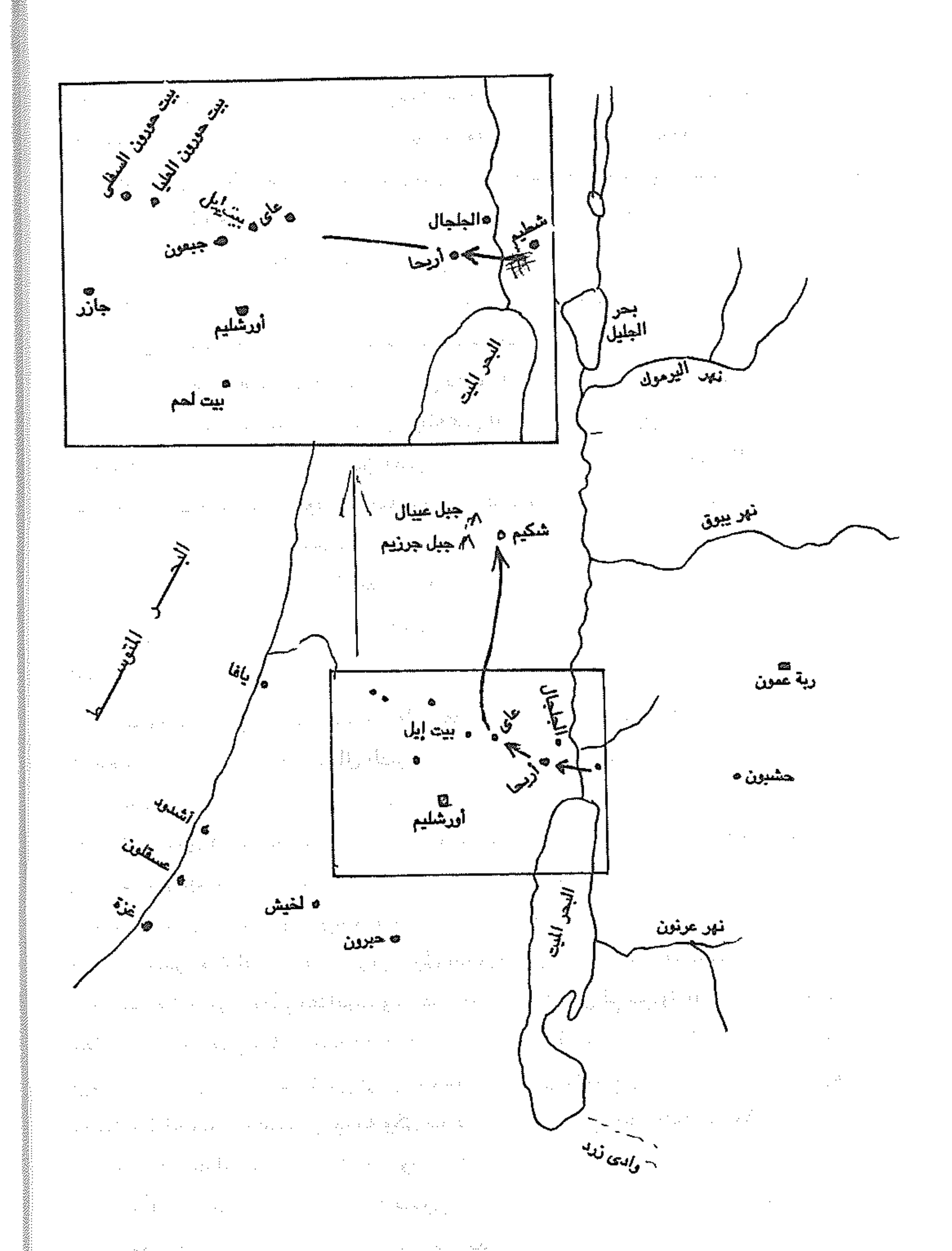
وفى اليوم السابع دار الشعب حول المدينة ٦ مرات وفى المرة السابعة ضرب الكهنة بالأبواق وهتف الشعب هتافا شديدا فسقطت أسوار المدينة فدخلوها وقتلوا كل من فيها ماعدا بيت راحاب وجميع من كانوا به من أقاربها. وغنموا الذهب والفضة التى كانت بالمدينة وجعلوها فى خزائن بيت الرب. ثم أخرجوا راحاب وأهلها من البيت وانضمت إلى بنى إسرائيل وعاشت فى وسطهم ثم أحرقوا المدينة بالكامل مع كل ما فيها من أحياء. وحلف يشوع فى ذلك الوقت قائلا (يشوع ٦:٢٤) «ملعون قدام الرب الرجل الذى يقوم ويبنى هذه المدينة أريحا. ببِكْرِه يؤسسها وبصغيره ينصب أبوابها». وأخذ رجل من سبط يهوذا مالا حراما من المدينة وخبَّأه ليكون له وحده مخالفا بذلك أمر يشوع..

وقد كانت منطقة أريحا مكانا لعديد من بعثات التنقيب عن الآثار طوال القرن الماضى (العشرين) بحثا عن أثر يدل على مصداقية ما جاء بالتوراة بخصوصها (الكتاب المقدس والتاريخ. وارنركيللر. ص١٦١) ففى الفترة ١٩٠٧-١٩٠٩م قامت بعثة ألمانية نمساوية برئاسة أرنست سلِن وكارل واتزنجر بالحفر فى تل السلطان ووُجِد سور مزدوج من الطوب اللبن:

الداخلى سمكه ١٢ قدما والخارجى يبعد عنه ١٠-١٢ قدما وسمكه ٦ أقدام وأثبتا أن هذه بقايا أسوار مدينة أريحا الواردة فى التوراة. وفى عام ١٩٣٠ جاءت بعثة أخرى برئاسة چون جارستانج ووجدت آثار تدمير شديد فى أجزاء من السور والمسافة بين السورين مملوءة بحطام أخشاب محترقة وطوب مُسودّ بفعل حريق. كما أنهم وجدوا داخل السور ما يدل على أن المنازل قد تم إحراقها فانهارت أسقفها. وفى الخمسينيات قامت الباحثة كاثلين كنيون بالتنقيب فى المنطقة ووجدت مايدل على أن أسوار المدينة قد تعرضت للدمار وإعادة البناء حوالى ١٧ مرة مما يدل على أن المنطقة فى ذلك الوقت كانت تتعرض لهزات أرضية كثيرة وأن التربة كانت غير مستقرة فتسبب انهيار السور بفعل التقادم. ويرى باحثون أنه لهذا السبب فإن سكان المدينة كثيرا ماكانوا يهجرونها وأنه فى الوقت الذى استولى عليها بنو إسرائيل كانت المدينة قليلة السكان. ولا بأس من افتراض زلزال خفيف تزامن مع نفخ الكهنة فى الأبواق وهتاف الشعب فسقطت أسوار المدينة. وأثبتت الحفريات أن المدينة ظلت مهدمة لمدة ٣٠٠ سنة تقريبا إذ كان قول الرب: «ملعون قدام الرب الرجل الذى يقوم ويبنى هذه المدينة أريحا». فتجنب كل ملوك إسرائيل ويهوذا بناءها. ولكن فى عهد أخاب بن عمرى ملك إسرائيل (٨٦٥ - ٨٤٩ ق.م.) بنيت كما سيجىء فيما بعد (ص٢٥٣).

التخطيط للاستيلاء على «عاى Ai»

أرسل يشوع رجالا ليتجسسوا على عاى - وهى قرية «التل» الحالية وتقع على مسافة ١٥كم غرب أريحا. ورجع الرجال الذين أرسلهم يشوع ونصحوا بأن لا يصعد كل الرجال. لأن رجال عاى قليلون ويكفى ألفين أو ثلاثة آلاف رجل لفتحها. فأرسل يشوع ٣٠٠٠ رجلا لفتحها ولكن أهل عاى هزموهم وقتلوا منهم ٣٦ رجلا وطاردوهم فى سفح التل. وخاف بنو إسرائيل وتزلزلت قلوبهم من هذه الهزيمة. وتضرع يشوع إلى الرب. فأوحى الله إليه أن هذه الهزيمة بسبب أن فى وسطهم حرام (يشوع ٧:١٠): «لقد أخطأ إسرائيل. بل تعدُّوا عهدى الذى أمرتهم به. بل أخذوا من الحرام بل سرقوا. بل أنكروا. بل وضعوا فى أمتعتهم. فلم يتمكن بنو إسرائيل من الثبوت أمام أعدائهم. ولا أعود أكون معكم إن لم تبيدوا الحرام من وسطكم». هنا اعترف الرجل الذى خالف بأنه قد أخذ رداء شنعاريا نفيسا و ٢٠٠ شاقل فضة ولسان ذهب وزنه ٥٠ شاقل وأنه خبأها فى أرض خيمته. فأرسل يشوع رجالا استخرجوها. وجاءوا به وبنيه وبناته وبقره وغنمه وخيمته وكل ما له وأتوا بهم إلى أحد الوديان فقال له يشوع: لقد كدّرتنا. يكدِّرك الرب فى هذا اليوم. وأمر به فرجمه جميع بنو إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار وأقاموا فوقه حجارة عظيمة لتكون تذكرة لمن تسوّل له نفسه مخالفة أوامر الرب. وقد أثار بعض المفسرين اعتراضا بما جاء فى تثنية ٢٤:١٦: «لا يُقتل الآباء عن الأولاد. ولا يقتل الأولاد عن الآباء. كل إنسان بخطيئه». والرد على ذلك بأنه يستحيل أن يحفر المرء حفرة فى



شكل ٧ – فتح أريحا وعاى.

خيمته لتخبئة ما اختلسه دون علم أفراد أسرته ورضاهم عن فعلته. وفى هذه الحالة يكونون مشتركين معه فى الجريمة ويستحقون مثل ماناله من عقاب.

بعد تطهير بنى إسرائيل من هذه الخطيئة أخذ يشوع جميع جيشه وصعد ثانية إلى عاى ووضع خطة ذكية للإيقاع بأهلها. إذ أمر ٣٠ ألفا من رجاله بالتخفى فى مكان خلف المدينة ثم تقدم يشوع ببعض الجنود إلى المدينة من الأمام وكانت الخطة هى أنه عندما يخرج أهل «عاى» للقائهم يفر بنو إسرائيل من أمامهم فيظن أهل «عاى» أنهم خافوا كما فى المرة السابقة ويتعقبونهم. وحدث كما توقَّع يشوع إذ خرج كل الرجال وكل الجند من «عاى» لمطاردة بنى إسرائيل وتركوا المدينة مفتوحة ليس بها من يدافع عنها فانقض عليها الـ ٣٠,٠٠٠ إسرائيلى المختبئين خلفها وقتلوا من كان بها: الشيوخ والنساء والأطفال. وأشعلوا النيران فى كل بيوتها. ولما رأى يشوع الدخان تصاعد من المدينة علم أن الخطة نجحت فارتد وهاجم جنودُه «عاى» وحصروهم فى الوسط وقتلوهم عن آخرهم فى البرية وبلغ عدد القتلى ١٢,٠٠٠. وأُخذت البهائم غنيمة وعلِّقت جثة ملك «عاى» على خشبة طول اليوم.

وقد قامت بعثات متعددة بحفريات فى منطقة «عاى» ووجدت طبقة كثيفة من الرماد المحترق تتزامن مع وقت غزو بنى إسرائيل للمدينة.

كانت «عاى» هى مفتاح الجزء الشمالى فسقط كله حتى شكيم. وقام يشوع على جبل عيبال. وفى مقابله جبل جرزيم. قام عليه الكهنة وحاملو تابوت عهد الرب. وجمع يشوع جميع بنى إسرائيل وقرأ عليهم التوراة. ونفَّذ ما كان أوصى به موسى عليه السلام من مباركة الشعب من على جبل جرزيم ولعن مرتكبى الخطايا من فوق جبل عيبال (الجزء الرابع ص١١١٠ – ويشوع ٨:٣٢). كما بنى يشوع مذبحا للرب فى جبل عيبال كما أمر موسى وأصعدوا عليه محرقات وذبحوا ذبائح سلامة وكتب هناك على الحجارة فقرات كثيرة من التوراة. وقد اكتشف مؤخرا أحد المنقبين عن الآثار ما وصفه بأنه «مجمَّع دينى» على قمة جبل عيبال.

٤ قرى فى الوسط تصالح إسرائيل :

كان يشوع قد اتخذ من الجلجال مركزا له فعاد إليها. ولما سمع سكان قرية جبعون وما حولها من قرى وهى الكفيرة وبئيروت ويعاريم (شكل ٨) بما فعله بنو إسرائيل بالقرى التى تقع فى الأرض التى يريدون امتلاكها من قتل لجميع السكان وإحراق البيوت كلها. خافوا من هذا المصير المؤلم وفكروا فى حيلة ينجون فيها بحياتهم، فأخذوا جوالق بالية لحميرهم وزقاق خمر بالية مشققة ومربوطة ونعالاً بالية ومرقعة فى أرجلهم وثيابا رثة وحتى خبزهم جعلوه يابسا فتاتا. وساروا حتى وصلوا إلى يشوع فى الجلجال. وقالوا له ولإسرائيل: نحن أتينا من بلاد

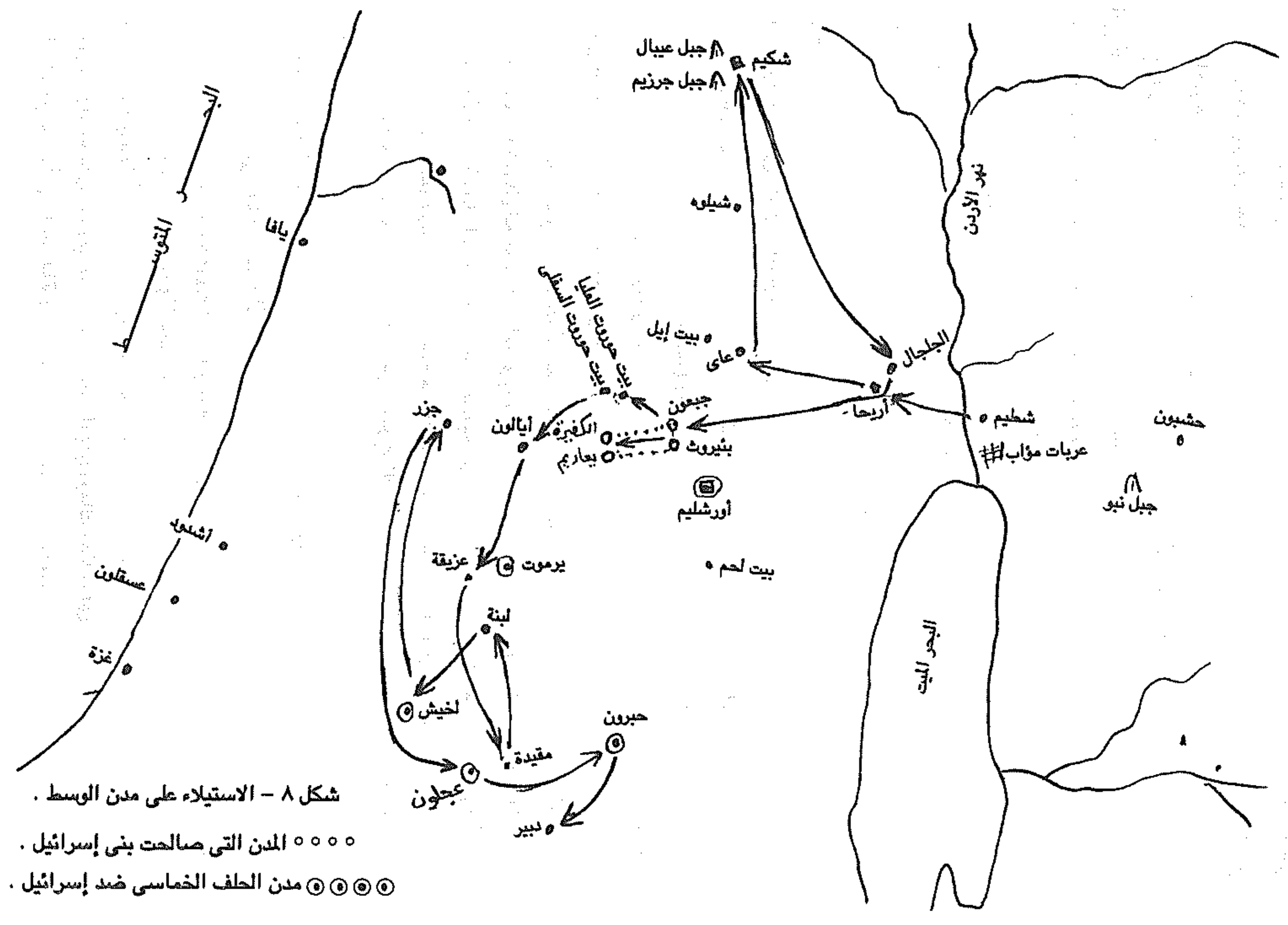
بعيدة جداً وسمعنا ما عملتموه بالأموريين ومؤاب. فجئنا لكى نكون لكم عبيدا والآن اقطعوا لنا عهداً ألا تقتلوننا. فعمل يشوع لهم صلحا وقطع لهم عهدا لاستحيائهم وحلف لهم رؤساء الجماعة (يشوع ٩:١٦). وانصرف أهل القرى عائدين إلى قراهم. ثم سار بنو إسرائيل ثلاثة أيام فالتقوا بالقوم الذين ادّعوا أنهم جاءوا من بلاد بعيدة ووجدوا أن قراهم قريبة وتقع فى وسط الأرض التى يريد بنو إسرائيل امتلاكها. فلم يقدر بنو إسرائيل أن يقتلوهم أو يحرقوا قراهم لأنهم قطعوا لهم عهداً وأدرك يشوع أن القوم خدعوه فقال لهم ملعونون أنتم. وتركوهم يحيون ولكنهم جعلوهم عبيدا لهم يحتطبون لهم ويستقون الماء واستولوا على قراهم ولم يحرقوها. وعاد يشوع إلى الجلجال.

٥ ملوك يتحالفون ضد بنى إسرائيل :

حينما سمع ملك أورشليم بما فعله بنو إسرائيل من استيلاء وحرق لأريحا وعاى وسمع أيضا أن أهل جبعون وما حولها من القرى قد استسلموا بدون قتال نظير استحيائهم أزعجه ذلك لأن جبعون مدينة كبيرة ورجالها أشداء. فقرر عمل حلف خماسى من نفسه و٤ ملوك آخرين من ملوك الأموريين هم :

أدونى صادق	ملك	أورشليم .
الملك هوهام	ملك	حبرون .
الملك فرام	ملك	يرموث .
الملك يافيع	ملك	لخيش .
الملك دَبير	ملك	عجلون .

وقرر الملوك الخمسة مهاجمة جبعون لأنها صالحت بنى إسرائيل، فأرسل أهل جبعون يستنجدون بيشوع فى الجلجال. فخفَّ يشوع وبنو إسرائيل لنجدتهم. وسار يشوع ليلا وباغت قوات الحلف صباحا فى جبعون وطردهم منها وطاردهم حتى بلدة بيت حورون العليا إلى الغرب من جبعون. وبيت حورون تقع على مرتفع من الأرض. فطاردوهم حتى انحدروا إلى السفح المنحدر. وتقول التوراة (يشوع ١٠:١١) «ورماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء طول الطريق من بيت حورون حتى «عزيق» وقِطَع من البَرَد. فكان الذين ماتوا بالحجارة والبَرَد أكثر من الذين قتلهم بنو إسرائيل بالسيف». كما تقول التوراة إنه قد حدثت معجزة فى ذلك اليوم. إذ وقفت الشمس فى كبد السماء يوما كاملا ولم تغرب حتى تتيح فرصة لبنى إسرائيل للقتال حتى يهزموا الحلف الخماسى. فدامت الشمس حتى انتقم الشعب من أعدائه. وبعد هزيمتهم سارع الملوك الخمسة للاختباء فى مغارة فى «مقيدة» فلما علم يشوع بذلك أمر رجاله بدحرجة حجر عظيم ليسد باب المغارة وأقام عليها حراسا لئلا يهربوا واستمر بنو إسرائيل فى مطاردة



شكل ٨ – الاستيلاء على مدن الوسط .

○○○○ المدن التى صالحت بنى إسرائيل .

◎◎◎◎ مدن الحلف الخماسى ضد إسرائيل .

قواتهم حتى أفنوهم وأحرقوا مدنهم وعاد إلى المغارة وفتحها وأخرج الملوك الخمسة وأمر بقتلهم وتعليقهم على خمس خشبات ثم عند غروب الشمس أنزلوهم من على الخشب وطرحوهم فى المغارة ووضعوا حجارة كبيرة على فم المغارة فدفنوهم فيها (يشوع ١٠:٢٥). واستولى يشوع على قرية مقيدة وقتل أهلها وملكها وكل نفس بها لأنها ساندت الملوك الخمسة. ثم تحول إلى لبنة التى ساندت الحلف الخماسى. ثم استدار إلى لخيش إحدى مدن الحلف. وأحرقها وقتل أهلها. وكان ملك جازر قد خف لنجدة لخيش فاتجه يشوع إلى جازر واستولى عليها وقتل أهلها ثم عاد ثانية فى اتجاه الجنوب إلى عجلون إحدى مدن الحلف وقتل أهلها وأحرقها. ثم اتجه شرقا إلى حبرون وحاربها وأخذها وقتل أهلها. وقد قام العالم البريطانى «لسلى ستاركى» بحفريات فى المنطقة التى كانت بها مدينة لخيش (حاليا «تل الدوير» ٤٠كم جنوب غرب أورشليم) واكتشف حطام المدينة القديمة على مساحة ١٢ فدانا محاطة بسور سميك ورماد يدل على حريق هائل دمرً كل شيء فى عصر يتزامن مع سقوط لخيش فى أيدى بنى إسرائيل (الكتاب المقدس والتاريخ. وارنر كيللر – ص ١٦٤).

الاستيلاء على مدن الجنوب (شكل ٩) :

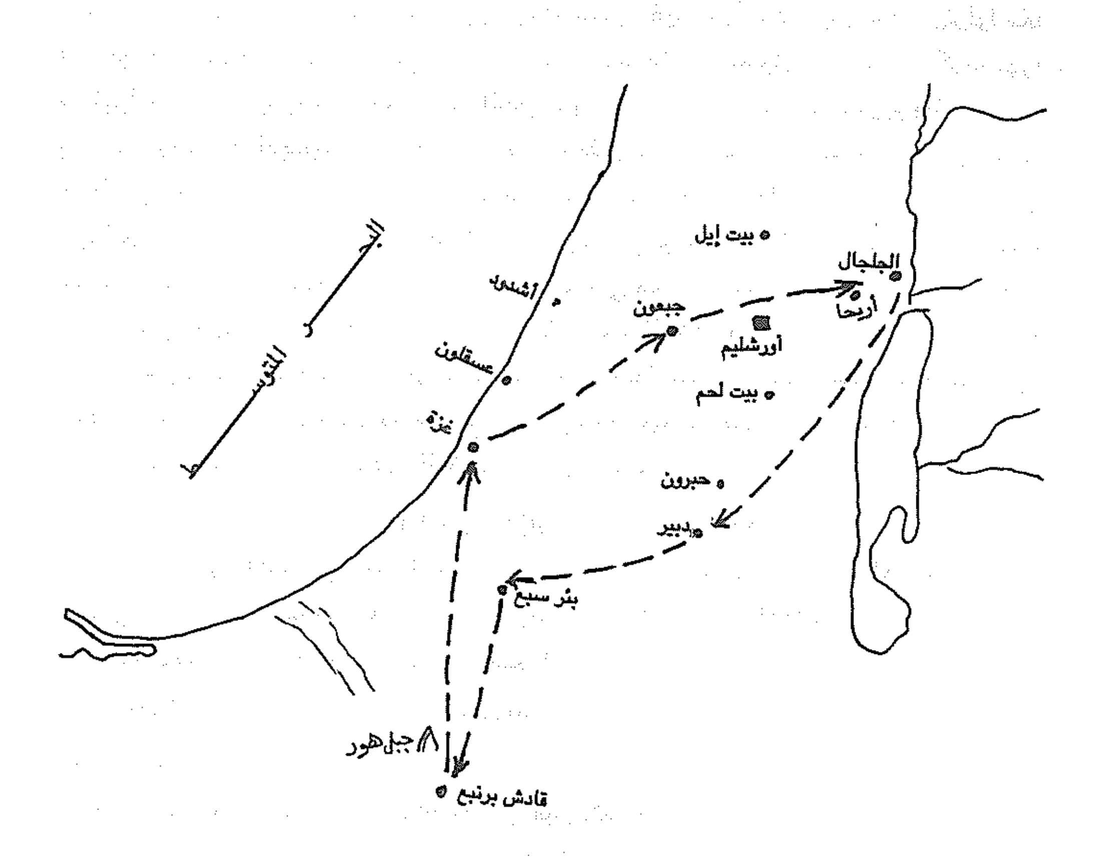
بعد ذلك اتجه يشوع إلى مدينة «دبير» التى تقع فى جبال يهوذا فى النقب (وكانت تدعى أيضا «مدينة سفِر» أى «مدينة الكتب») وكان يسكنها العناقيون (فرع من العماليق) فاستولى عليها وقتل أهلها. ثم توغل جنوبا واستولى على بئر سبع. وقادش برنيع ثم ارتد شمالا إلى غزة على ساحل البحر المتوسط ثم إلى جبعون مرة ثانية وهو فى طريقة إلى الجلجال.

ونلاحظ أن خط سير الحملات لم يكن خطا مستقيما. بل كان يتجه إلى بلدة فى الجنوب ثم إلى بلدة فى الشمال ثم يرتد إلى الجنوب مرة ثانية. ولعل المقصود بذلك كان مفاجأة المدن غير المتوقعة للغزو. فمثلا إذا استولى على مدنية فى الجنوب تتوقع المدن المجاورة بأنها التالية فيستعد أهلها. فيتركهم ويهاجم مدينة فى الشمال غير مستعدة للقتال فيستولى عليها. وتكون المدن فى الجنوب قد تراخت لبعدها عن مسرح القتال فيفاجئها ويستولى عليها وهكذا كانت الضربات شمالا وجنوبا ثم شرقا وغربا حتى استولى على مدن الجنوب الحصينة.

بعد الاستيلاء على الجنوب رجع يشوع إلى الجلجال وبدأ يخطط لغزو مدن الشمال.

الاستيلاء على مدن الشمال (شكل ١٠) :

انزعج يابين ملك «حاصور» (١٥ كم شمال بحر الجليل) وكوَّن حلفا من ملوك مدن الشمال الهامة: يوباب ملك «مادون» وانضم إليه ملك «شمرون» (تقع ٢٠كم شمال مجدو) وملك «أكشاف» (ويُحتمل أنها هى خربة الحرباى الحالية ٢٠كم جنوب عكا) وملوك الشمال فى جبال لبنان وملوك السهول جنوب طبرية على بحر الجليل وملك ميناء «دور» على ساحل البحر المتوسط والساكنون فى وادى المصفاة (عند سفح جبل حرمون ويحتمل أنها هى مرج عيون فى جنوب



شكل ٩ – الاستيلاء على مدن الجنوب .

لبنان) وتحالف معهم الحويُّون والكنعانيون والأموريون. وتجمَّع كل هؤلاء الملوك وجيوشهم وكما تقول التوراة (يشوع ١١:٤) **مع شعب غفير كرمل البحر بِخيْل ومركبات كثيرة جدا. ونزلوا معا عند مياه «ميروم»**. وهو اسم عبرى معناه المرتفع وفيها عين تسيل منها المياه مكوِّنة نهرا صغيرا اسمه «ميرون» يصب فى بحر الجليل. ووقعت المعركة عند مياه ميروم وانتصر بنو إسرائيل وانهزمت الجيوش المتحالفة وأمر يشوع بقتل جميع سكان «حاصور» وإحراق المدينة لأنها هى التى ألَّبت الجميع ضدهم. واستولى على المدن التى تحالفت معها واستولى على البهائم وأخذها غنيمة. وقد قام عالم الآثار البريطانى جون هارستانج بالكشف عن مدينة حاصور وسط تراب وحجارة «تل الكدة» الموجود على ضفة الأردن الغربية بين بحيرة الحولة وبحيرة طبرية (بحر الجليل). واستكمل الحفريات (عام ١٩٥٣) باحثون تحت إشراف الجامعة العبرية فى أورشليم يرأسهم إيجال يادين. وأسفرت الحفريات عن كشف مدينة بها قلاع قوية ويدل الرماد على حريق هائل يتزامن مع عصر يشوع. ولم تُبن قلاعها مرة ثانية إلا فى عصر سليمان عليه السلام (وارنر كيللر. الكتاب المقدس والتاريخ. ص ١٦٥).

بعد هذا الانتصار قسَّم يشوع جيشه إلى قسمين: قسم اتجه إلى صور ثم شمالا إلى صيدون عبر نهر الليطانى. أما القسم الثانى فاتجه شمال شرق إلى وادى المصفاة. وهكذا استولى يشوع على الشمال كله (شكل ١٠). وتقول التوراة (يشوع ١٣:١) **وشاخ يشوع وتقدم فى الأيام فقال له الرب: أنت قد شِخت. تقدمت فى الأيام. وقد بقيت أرض كثيرة جدا للامتلاك.**

وكانت الأراضى الباقية كثيرة. وسيأتى تفصيلها فيما بعد (شكل ١٣ ص ٤١).

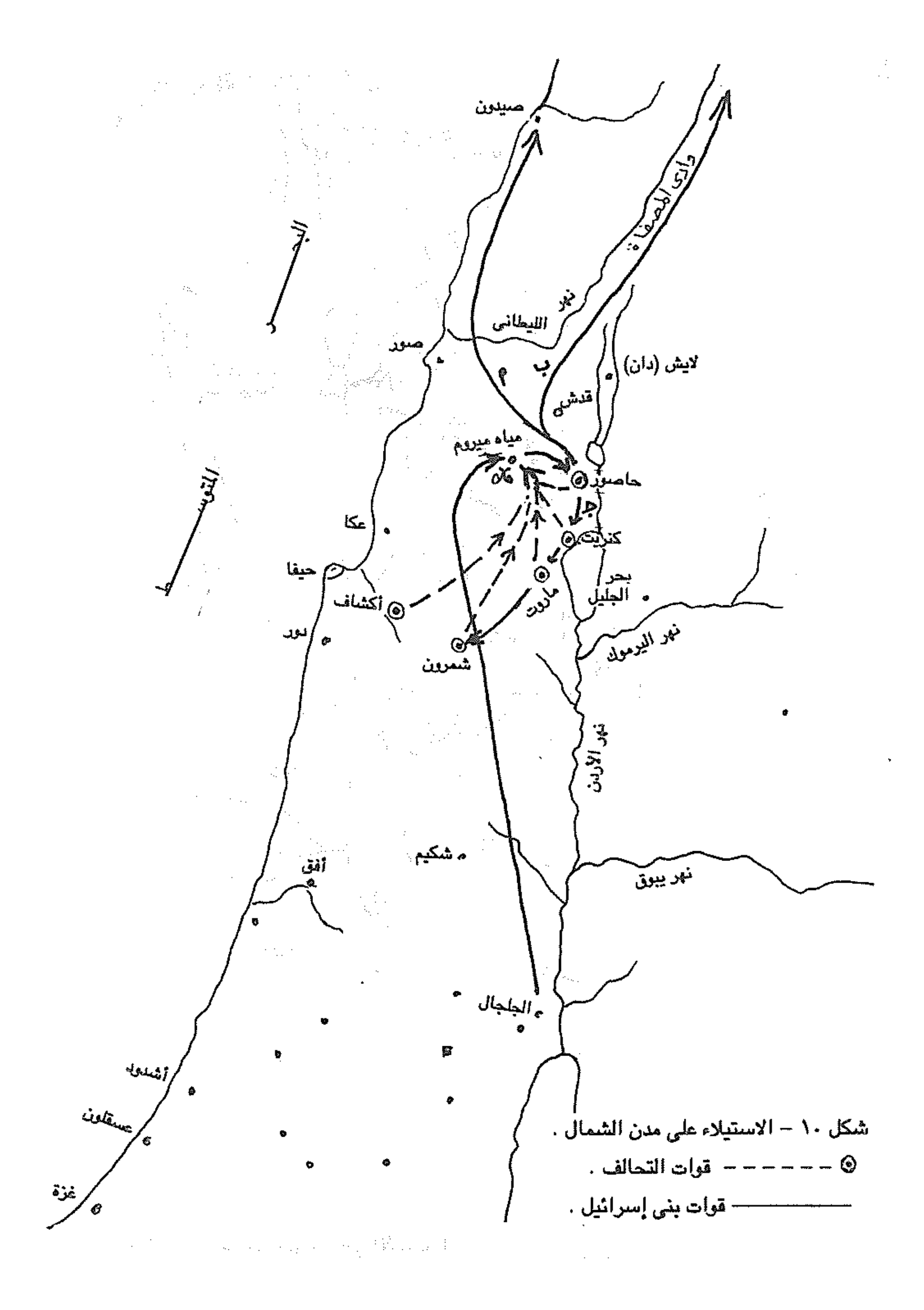
تقسيم الأرض :

بالرغم من هذا النقص فى امتلاك الأرض فإن يشوع بدأ فى تقسيمها بين الأسباط بالقرعة وحسب القواعد التى وضعها موسى عليه السلام قبل وفاته (الجزء الرابع ص١١٠١) وكان رأوبين وجاد وسبط منسًّى قد أخذوا أرضهم فى شرق الأردن (الجزء الرابع ص ١١٠٢) وبذلك قسمت الأرض غرب نهر الأردن على $\frac{1}{2}$٩ سبط فيكون المجموع ١٢ سبطا وذلك بالرغم من أن اللاويِّين لم يعطوا أرضا لأنهم يقومون بالكهانة وخدمة الرب فى جميع أرض إسرائيل وفى المقابل اعتُمِدَ ولدى يوسف أفرايم ومنسى سبطين منفصلين. وشكل ١١ يبين تقسيم الأرض بين الأسباطَ .

وكان أنه لما امتدت الأرض المستولى عليها فى اتجاه الشمال. أن أصبحت الجلجال فى الجزء الجنوبى فاختار يشوع مدينة «شيلوه» محلَّة له أى عاصمة. ويرجَّح أن مكانها الآن مدينة «سيلون» ١٥كم جنوب شكيم (نابلس). وجعل منها مقرا للتابوت والخيمة وبقيت الخيمة فيها مدة ٣٠٠ سنة وكان الشعب يُعيِّد هناك.

مدن الملجأ :

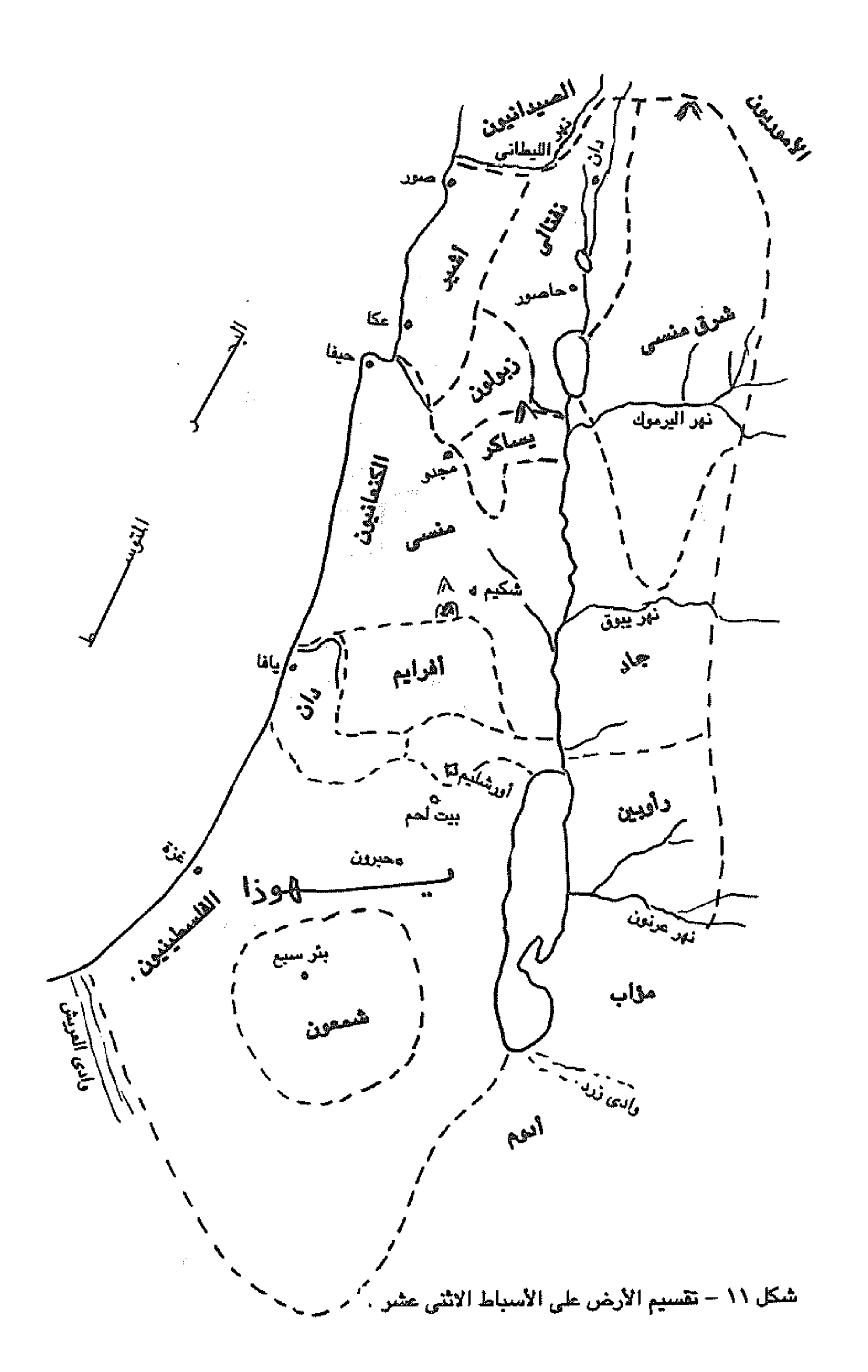
(يشوع ٢٠ : ١) وكلم الرب يشوع قائلا: كلِّم بنى إسرائيل قائلا: اجعلوا لأنفكسم مدن



شكل ١٠ - الاستيلاء على مدن الشمال .

⊙ - - - - - - قوات التحالف .

———— قوات بنى إسرائيل .



شكل ١١ – تقسيم الأرض على الأسباط الاثنى عشر .

الملجأ كما كلمتكم على يد موسى لكى يهرب إليها القاتل ضارب نفس سهوا بغير علم فتكون لكم ملجأ من ولى الدم حتى لا يقتله فى ثورة غضبه وحتى يمكن للقاتل أن يثبت أنه لم يكن قتلا متعمدا فيسقط عنه القصاص. وكانت هذه المدن الثلاث هى :

١ – قادش فى جبل نفتالى فى الجليل .

٢ – شكيم فى جبل أفرايم .

٣ – حبرون فى جبل يهوذا .

هذا بالإضافة إلى ثلاث مدن الملجأ شرق الأردن وهى جولان وراموث جلعاد وباصر السابق ذكرها (الجزء الرابع ص ١١١١)

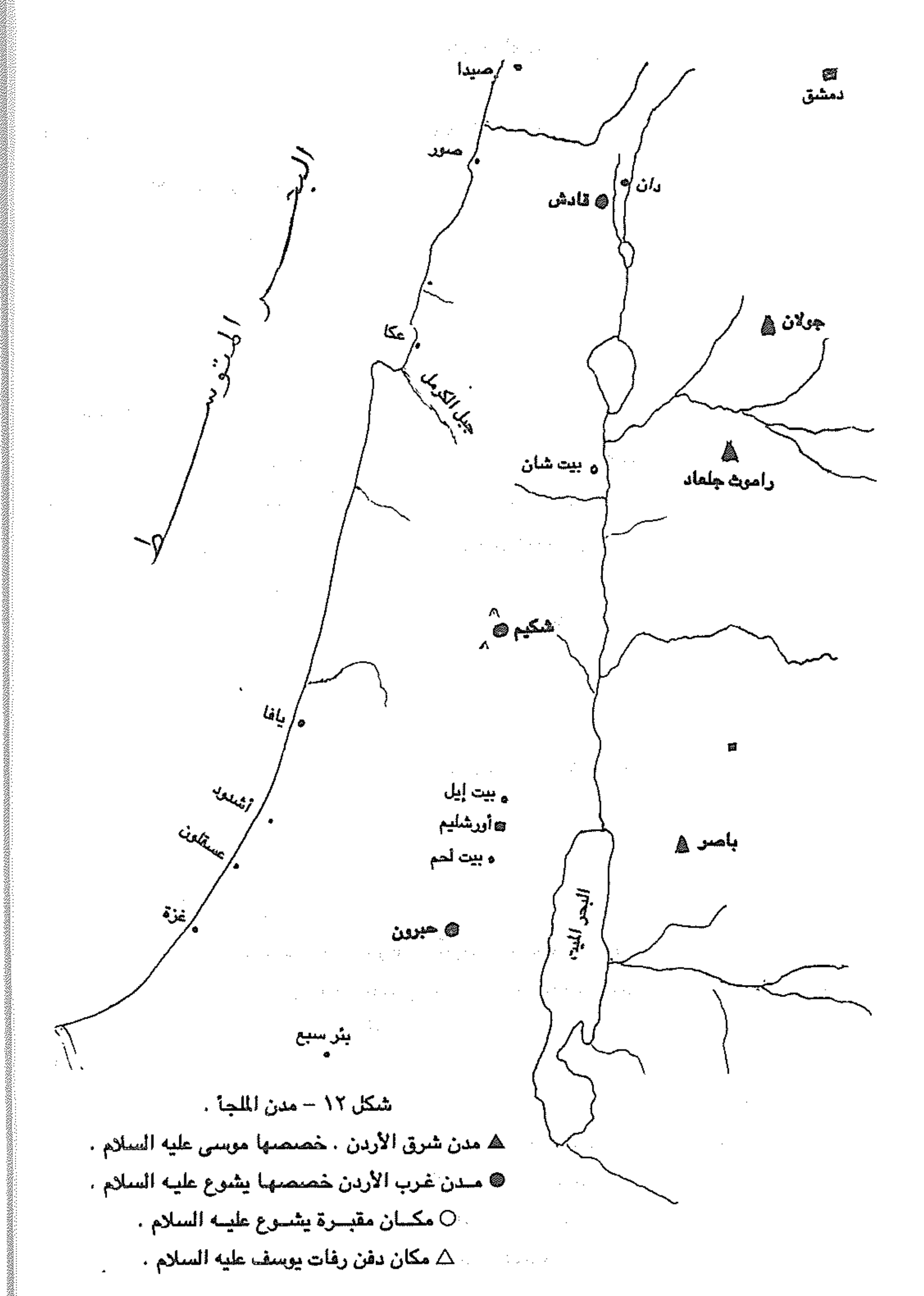
نصيب اللاويين :

سبق أن ذكرنا أن اللاويين – وهم عشيرة موسى وهارون عليهما السلام لم يعطوا أرضا باعتبار أن منهم الكهنة وحملة التابوت ويقومون بخدمة الرب فى جميع أسباط بنى إسرائيل فتقدموا بطلب إلى ألعازار الكاهن ويشوع بن نون وقالوا إن موسى عليه السلام قد وعدهم مدنا للسكنى مع مسارحها (مساحة حولها) للبهائم. فأعطى كل سبط من أرضه بعض المدن أو القرى وحولها أرض زراعية حسب ما حكم به يشوع وكان ذلك بالقُرعة فأَعطوا :

بنى هارون	١٣ مدينة	(من أسباط يهوذا وشمعون وبنيامين) .
ولبنى قهات	١٠ مدن	(من أرض أفرايم ودان و $\frac{1}{2}$ منسى غرب الأردن) .
ولبنى جرشون	١٣ مدينة	(من أرض يساكر وأشير ونفتالى و $\frac{1}{2}$ منسى شرق).
ولبنى مرارى	١٢ مدينة	(من أرض رأوبين وجاد وزبولون) .
فكانت كلها	٤٨ مدينة .	

الأسباط شرق الأردن :

(يشوع ٢٢ : ١) حينئذ دعا يشوع الرأبونيين والجاديين ونصف سبط منسى وقال لهم: «إنكم قد حفظتم كل ما أمركم به موسى عبد الرب وسمعتم صوتى فى كل ما أمرتكم به ولم تتركوا إخوتكم هذه الأيام الكثيرة إلى هذا اليوم. وحفظتم وصية الرب إلهكم. والآن قد أراح الرب إلهكم إخوتكم كما قال لهم. فانصرفوا الآن واذهبوا إلى خيامكم فى أرض ملككم التى أعطاكم موسى عبد الرب فى عبر الأردن. وإنما احرصوا جداً أن تعملوا الوصية والشريعة التى أمركم بها موسى عبد الرب: أن تحبوا الرب إلهكم وتسيروا فى كل طرقه وتحفظوا وصاياه وتلصقوا به وتعبدوه بكل قلبكم وبكل نفسكم». ثم باركهم يشوع وصرفهم فذهبوا إلى خيامهم وكلَّمهم قائلا: «بمال كثير ارجعوا إلى خيامكم وبمواش كثيرة جدا وبفضة وذهب ونحاس وحديد وملابس كثيرة جداً اقتسموا غنيمة أعدائكم مع إخوتكم».



شكل ١٢ – مدن الملجأ .

▲ مدن شرق الأردن . خصصها موسى عليه السلام .

● مدن غرب الأردن خصصها يشوع عليه السلام .

○ مكان مقبرة يشوع عليه السلام .

△ مكان دفن رفات يوسف عليه السلام .

وبدأ الأسباط الذين تملكوا الأرض شرق الأردن. فى بناء مذبح ضخم حتى لا ينسوا ولاءهم للرب. إلا أن الأسباط الغربية أوَّلت هذا العمل تأويلا سيئا واعتبروه محاولة لإقامة مذبح ثان خلافا للشريعة الموسوية التى تجعل لبنى إسرائيل كلهم مذبحا واحدا. واجتمع رؤساء الأسباط الغربية فى شيلوه لكى يصعدوا للحرب مع إخوتهم لمنع إقامة هذا المذبح وأرسلوا فينحاس بن ألعازار الكاهن ورئيسا من كل سبط إلى أرض جلعاد (شرق الأردن) لكى يتحرَّوا ما اعتبروه خيانه من جانب إخوتهم. فقد أعادوا إلى ذاكرتهم النكبات التى كانت تنزل بالجماعة كلها نتيجة خطيَّة بعض الأفراد وحذَّروهم من التمرد على الرب، فأوضح رؤساء الأسباط الشرقية أنهم يؤمنون بإله الآلهة الرب إله إسرائيل. وأن المذبح الذى بنوه لا يعدو كونه نصبا تذكاريا يربط فكرهم بالأسباط القاطنة غرب النهر. وأنهم بنوه لإصعاد محرقات للرب عليه وعمل ذبائح سلامة حسب أوامر الرب وخاصة أن نهر الأردن قد أصبح عائقا يفصل بينهم وبين إخوتهم فى غربه. واقتنع وفد الأسباط الغربية بهذا التبرير وأنهم لم يقيموا الذبح بغرض الانفصال عن إسرائيل أو التمرد على الرب. وسكت غضبهم وانصرفت نيتهم عن محاربتهم، وسُمِّى المكان «مذبح الشهادة» لأنه شاهد أن الرب هو الإله.

وصية يشوع الأخيرة

وكان لما تقدمت السن بيشوع وأدرك أن منيَّته قد قربت أنه جمع بنى إسرائيل ليوصيهم وكانت وصيته فى خطبتين :

أ - الخطبة الأولى :

ألقيت هذه الخطبة من مدينة **شيلوه** حيث يوجد التابوت وخيمة الاجتماع. فاجتمع إلى يشوع جميع زعماء الشعب وقادته وقضاته. وبدأ يشوع كلامه بأن أشهدهم بأنه قد قسَّم الأرض على أسباطهم حسب ما أمر به موسى عليه السلام. ثم ذكَّرهم بكل ما عمله الرب بالشعوب الأخرى من أجلهم وأن الرب قد حارب عنهم وملَّكهم الأرض. ثم أوصاهم يشوع بأن يعملوا كل المكتوب فى سفر شريعة موسى وأن لا يحيدوا عنها يمينا أو شمالا. وأن لا يُدخِلوا بينهم الشعوب الأخرى الباقين فى الأرض. وأمرهم باتباع أحكام شريعة موسى ووصاياه فلا يحلفوا باسم آلهة هذه الشعوب ولا يعبدوها ولا يسجدوا لها. وحذَّرهم أنهم إذا اندمجوا مع هؤلاء الشعوب وصاهروهم «ودخلتم إليهم وهم إليكم فاعلموا يقينا أن الرب إلهكم لا يعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم فيكونوا لكم فخا وشركا وسوطا على جوانبكم وشوكا فى

أعينكم حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التى أعطاكم إياها الرب إلهكم. وحينما تتعدُّون عهد الرب إلهكم الذى أمركم به وتسيرون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها يحمى غضب الرب عليكم فتبيدون سريعا عن الأرض الصالحة التى أعطاكم» (يشوع ١٣:١٢-١٦).

ب - الخطبة الثانية :

دعا يشوع جميع أسباط إسرائيل وشيوخهم ورؤساءهم إلى الاجتماع فى شكيم. وذكر لهم كيف أن الله منَّ عليهم بأن جعل جدهم الأكبر إبراهيم نبيا ومن ذريته إسحق ويعقوب وعيسو. وكيف تغرَّب يعقوب وبنى إسرائيل فى مصر وكيف عاملهم المصريون بقسوة. ثم كيف أنجى الله بنى إسرائيل وأغرق آل فرعون وخرجوا من مصر بقيادة موسى ثم أورثهم الأرض وطرد الشعوب الوثنية من أمامهم. ثم قال لهم (يشوع ١٤:٢٤): «فالآن اخشوا الرب واعبدوه بكمال وأمانة وإن ساء فى أعينكم أن تعبدوا الرب فاختاروا لأنفسكم اليوم من تعبدون. إن كان آلهة الأموريين الذين أنتم ساكنون فى أرضهم. وأما أنا وبيتى فنعبد الرب، فأجاب الشعب وقالوا: حاشا لنا أن نترك الرب لنعبد آلهة أخرى. فنحن أيضا نعبد الرب لأنه هو إلهنا فقال يشوع: الرب إله قدوس وإله غيور لا يغفر ذنوبكم وخطاياكم وإذا تركتم الرب وعبدتم آلهة غريبة يرجع فيسىء إليكم ويفنيكم بعد أن أحسن إليكم. فقال الشعب ليشوع: لا بل الربَّ نعبد. فقال يشوع للشعب: أنتم شهود على أنفسكم أنكم قد اخترتم لأنفسكم الربَّ لتعبدوه. فقالوا نحن شهود. وقطع يشوع عهدا للشعب فى ذلك اليوم وجعل لهم فريضة وحكما فى شكيم. وكتب يشوع هذا الكلام فى سفر شريعة الله. وأخذ حجرا كبيرا ونصبه هناك تحت البلوطة التى عند مقدس الرب ثم قال لهم: إن هذا الحجر يكون شاهدا علينا لأنه سمع كل الكلام الذى تكلمتم به فيكون شاهدا عليكم لئلا تجحدوه».

وفاة يشوع :

بعد ذلك توفى يشوع بن نون عليه السلام وعمره ١١٠ سنة ودُفن فى «تمنة سارح» ٣٠كم شمال غرب أورشليم فى جبل أفرايم بعد أن أمضى ٧ سنوات قائدا ونبيا لبنى إسرائيل أى توفى عام ١١٥٨ ق.م. تقريبا.

وجدير بالذكر أن يشوع عليه السلام قام قبل وفاته بتنفيذ وصية يوسف عليه السلام فدفن التابوت الذى فيه رفاته فى شكيم. وكان بنو إسرائيل قد حملوه معهم عند خروجهم من مصر وبقى معهم طوال سنوات التيه فى سيناء إلى أن استقر الجثمان فى شكيم.

عصر القضاة

بالرغم من أن يشوع قد قسَّم الأرض حسب الحدود وحسب القواعد التى وضعها موسى عليه السلام قبل وفاته إلا أنه بقيت أراضى كثيرة لم يتمكن يشوع من امتلاكها وقد أشرنا إلى هذا فى صفحة ٣٢. ذلك أن بنى إسرائيل – عند دخولهم الأرض – بدأوا بامتلاك المناطق الجبلية قليلة الكثافة السكانية بغرض جعلها نقاط ارتكاز ينطلقون منها بعد ذلك لتملُّك باقى الأرض وتجنبوا السهول والوديان ذات الكثافة السكانية العالية والتى يُتَوقَّع أن تكون المقاومة فيها أشد. كما أنهم تجنبوا المدن الحصينة والمعروفة بقوة أسوارها وأبراجها الدفاعية إذ لم تكن لهم خبرة وليس عندهم السلالم الكبيرة التى تمكِّنهم من تسلق الأسوار أو أدوات الحفر التى تمكنهم من نقبها. لذلك عمدوا إلى المدن الصغيرة والقرى ضعيفة التحصينات فاستولوا عليها. وكان التمثيل بأهلها وقتلهم جميعا وإحراق المدن بالكامل رسالة إلى المدن المجاورة ودعوة للإستسلام لتجنب هذا المصير المؤلم. ومن المؤكد أن بنى إسرائيل حتى نهاية عصر يشوع لم يستولوا إلا على حوالى ثلثى الأرض. وكانت المناطق الباقية التى لم يتم الاستيلاء عليها هى كما فى شكل ١٣:

١ – **كل الساحل الفلسطينى** من حدود مصر حتى عقرون بما فيه مدن الفلسطينيين الخمس الرئيسية: غزة وأشدود وعسقلون وجت وعقرون. وكان يسكن هذه المنطقة الفلسطينيون والجشوريون والحويون والعقرونيون. إلا أن الفلسطينيين كانوا هم الأشد عداء لبنى إسرائيل. وهذه المنطقة كانت تدخل ضمن أرض يهوذا ولكنه لم يستطع امتلاكها إلا فى عصر سليمان عليه السلام.

٢ – **الساحل من دور إلى عقرون** والمفروض أنه ضمن أرض سبط دان. ولكن ظل الكنعانيون والفرزيون يسكنونه ولم يستطع سبط دان استخلاصه من أيديهم.

٣ – **الساحل من دور حتى حدود الأموريين** شمالا. وكان يسكنه جماعات من الأموريين والحيثيين بعد أن استولت شعوب البحر على بلادهم فى آسيا الصغرى.

٤ – **ظلت يبوس (أورشليم)** فى أيدى اليبوسيين. وتقول التوراة: (يشوع ١٥:١٢) «وأما اليبوسيون الساكنون فى أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا فى أورشليم». ولم يستطع بنو إسرائيل الاستيلاء عليها بالكامل إلا على أيام داود عليه السلام.

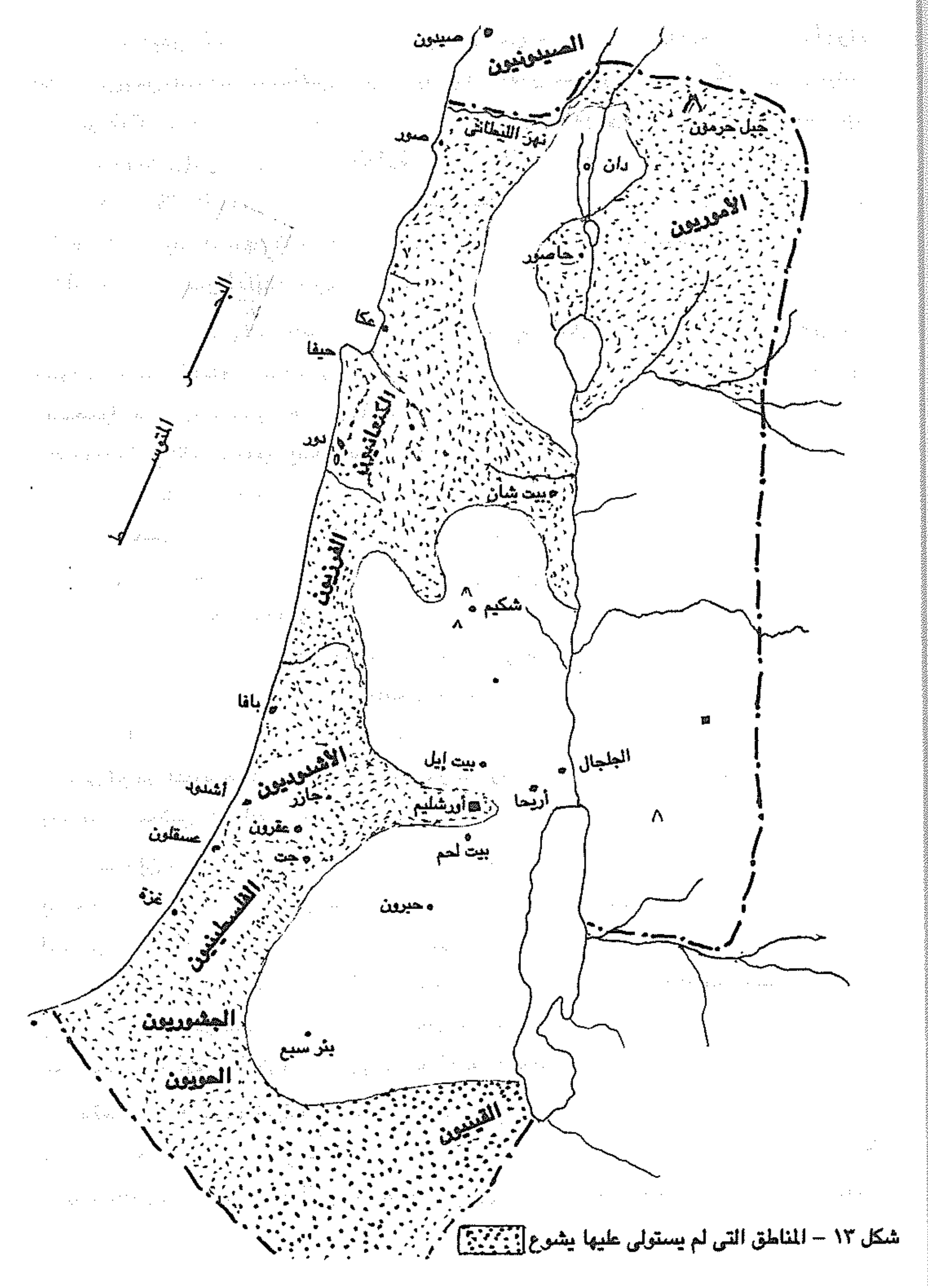
٥ – **منطقة جازر** ولم يستطع بنو أفرايم طرد الكنعانيين الساكنين فيها. ولم يتم الاستيلاء عليها إلا فى عهد سليمان عليه السلام وبمساعدة جيوش مصر (ملوك أول ١٦:٩) «وصعد فرعون ملك مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين فى المدينة وأعطاها مهرا لابنته امرأة سليمان».

٦ – كما أن **سهل يزرعيل** (شكل ٢ ص٥) وهو يقع فى أراضى يساكر وزبولون وأشير ومنسى لم يستطيعوا امتلاكه إلا فى عصر القضاة.

كما قلنا كان استيلاء بنى إسرائيل – أول دخولهم الأرض – مُنصبًا على المناطق الجبلية فى يهوذا وأفرايم ومنسى ومناطق الجليل الأعلى والأسفل وجلعاد وهضبة مؤاب. وبدأوا فى إزالة الغابات وأنشأوا المستوطنات والمزارع وبنوا البيوت وبدأوا يزرعون العنب والزيتون والتين والقمح وبدأوا فى نحت المجارى المائية فى الصخر والبحث عن خزانات المياه الجوفية وتجميع المياه فى أحواض كبيرة مبطنة بالجبس حتى لا يتسرب الماء منها. كل ذلك مكَّنهم من زراعة أراضى بعيدة عن الأنهار. وهكذا أمكن لبنى إسرائيل أن يعيشوا فى أماكن بعيدة نسبيا عن أعين السكان المحليين.

أما سبط دان فكان نصيبهم من الأرض ضعيفا لم يزد عن كونه قطعة من الساحل بين يافا و دور كان يسكنها الأموريون والفرزيون وحصروا سبط دان فى منطقة جبلية ولم يفسحوا لهم المجال للنزول إلى الوادى. ومن ثم بحث الدانيُّون عن أرض جديدة فى أقصى الشمال فى الجليل الأعلى وانتقلوا بكاملهم إليها. وكان هذا تحقيقا لقول موسى عليه السلام عند مباركته للأسباط قبل وفاته (الجزء الرابع ص ١١١٢) «دان شبل أسد يثب من باشان». (انظر فيما بعد ص٦٠).

ويشير سفر القضاة إلى أن هذه الأرض التى لم يتم الاستيلاء عليها كانت امتحانا من الرب لبنى إسرائيل. فقد كانت التعليمات (قضاة ٢:٢): **«لا تقطعوا عهدا مع سكان هذه الأرض. اهدموا مذابحهم»**. ولاشك أن بنى إسرائيل لو نفَّذوا هذا الأمر وحاربوا هذه الأقوام لكانت يد الله معهم ونصرهم على أعدائهم وخلصت لهم الأرض بكاملها. ولكنهم تقاعسوا وخافوا من المواجهة مع هذه الشعوب وهادنوهم وسكنوا معهم لذلك تنعى عليهم التوراة هذا المسلك (قضاة ٢:٢) **«ولم تسمعوا لصوتى. فماذا عملتم؟ فقلت أيضا لا أطردهم من أمامكم. بل يكونون لكم مضايقين وتكون آلهتهم لكم شركا»**. لاختبار قوة إيمان بنى إسرائيل ومدى تمسكهم بدينهم. ولكن بنى إسرائيل انساقوا وراء الشعوب الأجنبية التى تعيش بينهم وتزاوجوا معهم وعبدوا آلهتهم. وتقول التوراة: (قضاة ١١:٢) **«وفعل بنو إسرائيل الشر فى**



شكل ١٣ – المناطق التى لم يستولى عليها يشوع

عينى الرب وعبدوا البعليم. وتركوا الرب إله آبائهم الذى أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغضبوا الرب . تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروث فحمى غضب الرب على إسرائيل. فدفعهم لأيدى ناهبين نهبوهم وباعهم بيد أعدائهم حولهم ولم يقدروا بعدُ على الوقوف أمام أعدائهم. حيثما خرجوا كانت يد الرب عليهم للشر كما تكلم الرب وكما أقسم الرب لهم. فضاق بهم الأمر جدا. وأقام الرب قضاة فخلصوهم من يد أعدائهم كل أيام القاضى. وعند موت القاضى كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ليعبدوها وسجدوا لها».

هذه الفقرة تُلخِّص هذا الفصل «عصر القضاة» إذ يفعل بنو إسرائيل أو سبط من بنى إسرائيل الشر ويعبدون آلهة أخرى فيسلِّط الله عليهم الشعوب المجاورة أو الساكنة وسطهم فينقضوا عليهم ويتسلَّطوا عليهم ويفرضوا عليهم الجزية ويستعبدوهم. فيضج بنو إسرائيل بالشكوى إلى الله ويتوبون إليه. فيُقَيِّض الله لهم قاضيا - أو قدِّيسا أو نبيا - يهديهم إلى طريق الحق ويقودهم. وتكون يد الله معه ومعهم فينتصروا على أعدائهم وينفضوا الذل عنهم ويتمتعوا بالحرية لبعض الوقت ولكنهم سرعان ما يزيغون عن الحق ثانية وتتكرر القصة مرة أخرى فى سبط آخر ومكان آخر. وهكذا كان تاريخ بنى إسرائيل فى هذه الفترة سلسلة من الحروب يقودها القضاة. وكان منهم قضاة كبار ذُكرت حروبهم بشىء من التفصيل وقضاة صغار وردت نبذات صغيرة عنهم. وكانت المعارك فى فترة القضاة تدور فى أماكن مختلفة. فليس من الضرورى أنهم كانوا فى تتابع زمنى فقد يتفق أن يكون اثنان منهم فى وقت واحد فعلى سبيل المثال فإن الصراع مع العمونيين عبر نهر الأردن والصراع مع الفلسطينيين عند ساحل البحر المتوسط كانا تقريبا فى وقت واحد وكان القاضى يفتاح الجلعادى فى الشرق والقاضى شمشون فى الغرب فى وقت واحد.

كذلك فإن التنظيم الفيدرالى الذى اتبعه يشوع فى ربط أسباط بنى إسرائيل بعضها بالبعض الآخر كان يعتمد على شخصه وقوة النفوذ التى استمدها من ملازمته لموسى عليه السلام واستخلاف موسى له قبل وفاته ثم من نبوَّته هو نفسه. ولو أن كثيرا من أهل الكتاب يعتبرونه خليفة لموسى عليه السلام له من الكرامة والهيبة عند الناس ما ألزمهم بطاعته دون أن يكون نبيا. وعلى كلٍّ فقد تبع موت يشوع تفرق وحدة بنى إسرائيل ولم يعد سبط يساعد سبطا آخر لصد عدو لهم . وكان هذا التفرق مصداقا لقوله تعالى:

«**وقطَّعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما**» (من الآية ١٦٠ - الأعراف) وكان على كل سبط أن يُسَيِّر أموره فى المنطقة التى خُصِّصت له بمفرده. إلا أنه - فى بعض الأحيان - كان السبط المهدد بالحرب يرسل رسلا إلى الأسباط الأخرى يحيطهم بما يحيق به من أخطار. فكان البعض ينجده بعدد من الجنود والبعض الآخر يتراخى. ولم تكن هناك «حكومة مركزية» تجبر

على تعبئة الجنود لمجابهة العدو. هذا من الناحية السياسية. أما من الناحية الدينية فإن سبط لاوى توزَّعوا على الأسباط الآخرين كلهم. يقومون بالكهانة والخدمات الدينية فى دور العبادة وتقديم القرابين على المذبح. ويتجمَّع الكل حول هيكل رمزى فى «شيلوه» حيث توجد خيمة الاجتماع والتابوت. وصحيح أن الكاهن الأعظم كان له سلطة كبيرة. ولكن لم تكن له قوة سياسية فلم تكن حكومة ثيوقراطية تربط بين الأسباط المختلفة. كما أن سلطات القضاة كانت محلِّية وعارضة ومحدودة المدة. فالأسباط يتكونون من عشائر ولكل عشيرة شيخها. وفى الوقت الذى تتعرض له العشيرة للخطر أو يتعرض السبط لغزو خارجى فإن القاضى يُكَوِّن مجموعة من المحاربين أو جيشا فينقذ السبط من يد أعدائه. والقضاة لا يأتون بتشريع جديد بل يطبقون شريعة موسى عليه السلام. وقد يكون هناك نبى أو رجل صالح يُعِين هذا القاضى فى مهمته. وغالبا ما يكون سبب الأزمة التى يمر بها السبط هو تخلى أفراده عن أحكام الشريعة كأن يكون قد انساق وعبد آلهة الوثنيين المجاورين له. أو ظهر فساد من نوع ما فى هذه العشيرة فيسلِّط عليهم إحدى الأمم المجاورة أو أحد الأقوام الذين يعيشون بينهم – فتستعبدهم وتأخذ منهم الجزية ثم يهيىء لهم الله قاضيا يهديهم إلى الطريق القويم وينقذهم من هذا الاستعباد.

وقد اختلف المؤرخون فى طول فترة القضاة. بعضهم يرى أنها استغرقت قرنين ونصف قرن من الزمان (محمد عزة دروزة – تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم. ص ١٢٢). وبعضهم يرى أنها قرن وثلاثة أرباع القرن (ج جراى. إسرائيل وأساطير الشرق الأدنى القديم. ص ١١٢) فى حين يرى آخرون أنها لم تزد عن قرن واحد (فيليب حتى. تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ ١ ص ١٩٥) وهذا ما نرجِّحه وما يتفق مع التواريخ التى اعتمدناها. إذ أن يشوع توفى عام ١١٥٣ ق.م. وتولى شاول الملكية فى عام ١٠٦٠ ق.م. أى أن عصر القضاة استغرق ٩٣ عاما فقط. وسنكتفى بذكر ثمانية من القضاة.

١ – القاضى عثنييل Othniel

وعثنييل اسم عبرى معناه «الله قوة» وهو أخو كالب بن يفنة زميل يشوع النبى والمشار إليهما فى قولة تعالى: **«قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ...»** (من الآية ٢٣ – المائدة).

تقول التوراة (قضاة ٧:٣): «فعمل بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين فاستعبد بنى إسرائيل ٨ سنوات».

ويرى كثير من المفسرين أن كوشان كان أحد الأمراء الحيثيين وكان قد استولى على دولة ميتانى على الفرات ولذلك وصفته التوراة بأنه «ملك أرام النهرين». وتوجد آثار لغزوه لفلسطين

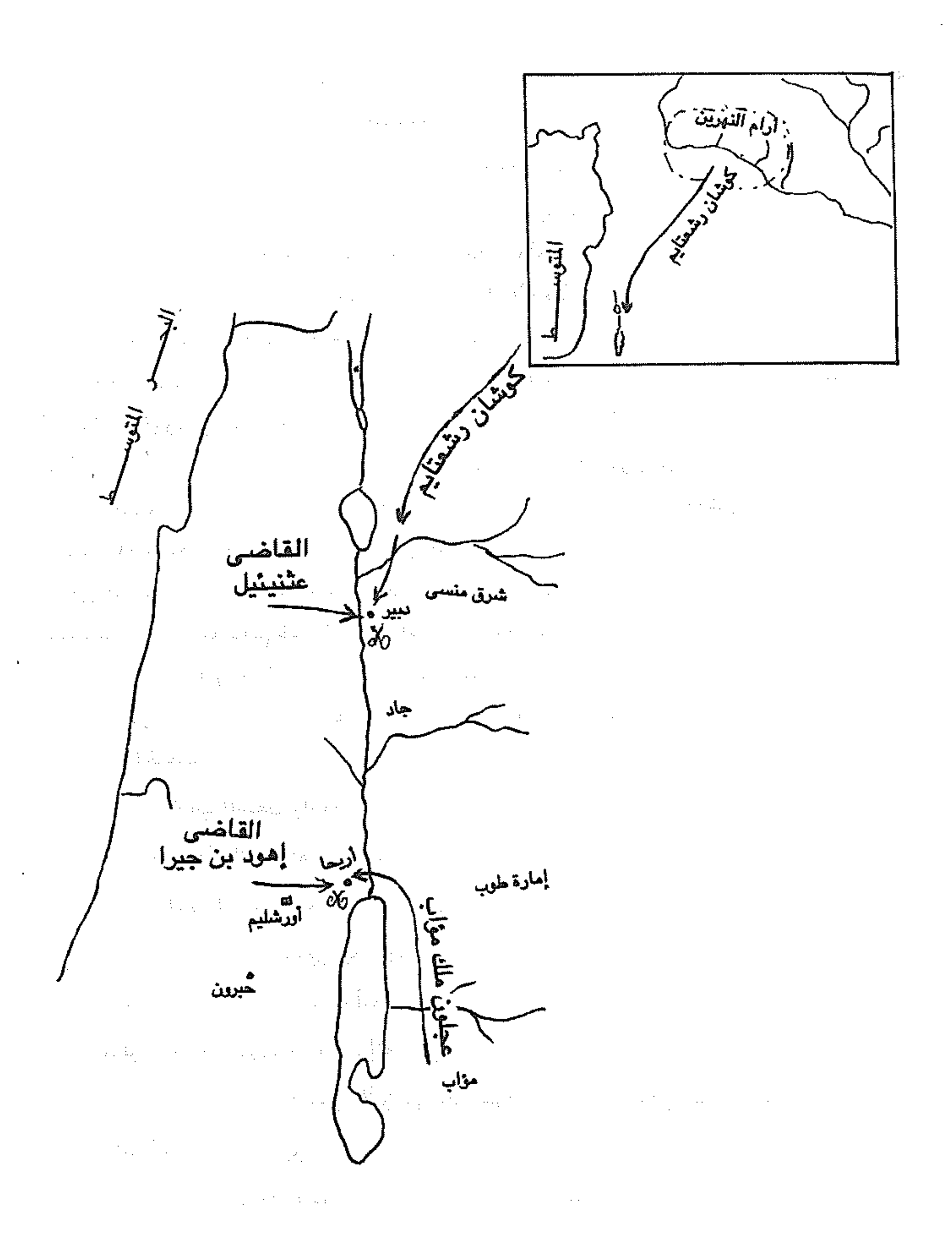
فى مدينة بيت شان (أونجر - قاموس الكتاب المقدس، ص٢٦٨) وعليه تكون الأسباط الشمالية - نفتالى وأشير ويساكر وزبولون ومنسى - هى التى تعرضت للغزو. «وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب فأقام الرب مُخلِّصا لهم هو عثنيئيل أخو كالب الأصغر. فكان عليه روح الرب وقضى لإسرائيل وخرج للحرب». و «كان عليه روح الرب» تعبير يستعمل لإعطاء معنى أن ذلك الشخص حلَّت عليه قوة خاصة سببها انسكاب النعمة الإلهية. وقد استعمل هذا التعبير مع قضاة آخرين (يفتاح وشمشون) ومع شاول وداود. كما أن وصف «اللابسين لروح الرب» ينطبق على أنبياء وقديسين ويشمل كذلك بعض الأشخاص الذين تُعلن لهم الرغبة الإلهية لتنفيذ مهمة معينة فى بعض الأوقات الحرجة من حياة الأمة تستدعى شجاعة فائقة وتفانيا فى خدمة الرب بحيث لا يأبه بأى أخطار جسيمة تقابله. المهم أن عثنيئيل جمع الرجال وقادهم واستخلص من العدو «قرية سفر» أو «كريات سفر» أو «دبير» التى يرى البعض أنها تقع فى أرض جلعاد على الضفة الشرقية لنهر الأردن ١٥كم جنوب بحر الجليل (شكل ١٤). وقاد عثنيئيل جيشا من بنى إسرائيل وطرد المعتدى من البلاد وخلَّص إسرائيل من الاستعباد وقضى لإسرائيل ٤٠ سنة نعمت فيها بالسلام والرخاء.

٢ - القاضى إهود بن جيرا

تقول التوراة (قضاة ٣:١٢) «وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر فى عينى الرب فشدَّد الرب عجلون ملك مؤاب على إسرائيل فجمع إليه بنى عمون وعماليق وسار وضرب إسرائيل وامتلكوا مدينة النخل (أى أريحا) وبنى لنفسه قصرا فيها واستعبد بنى إسرائيل ١٨ سنة. وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب فأقام لهم الرب مُخلِّصا إهود بن جيرا البنياميني». فجنَّد جنودا من سبط بنيامين وممن انضموا إليه من باقى الأسباط. ولكنه أراد أن يفت فى عضد العدو قبل المعركة بقتل ملكهم. فأخذ هدية لعجلون ملك مؤاب وفى نفس الوقت كان قد أخفى سيفا ألصقه على فخذه اليمنى تحت ثيابه. وبعد أن قدم إهود الهدية إلى عجلون مال عليه قائلا إن لديه سرا يريد أن يطلعه عليه وحده فصرف الملك حُراسه وجميع من عنده. فمد إهود يده وأخرج السيف وضرب به عجلون فى بطنه فمات. وخرج إهود من قاعة الملك وأغلق بابها وانصرف. ومضى وقت ولم يخرج عجلون إلى بلاطه فظنوا أنه يستريح لبعض الوقت. فلما أبطأ عليهم فتحوا الباب فوجدوه ساقطا على الأرض ميتا. كان إهود فى هذه الأثناء قد أسرع إلى الجلجال ثم إلى جبل أفرايم وأمر بنفخ البوق وجمع الإسرائيليين وأمرهم أن يتبعوه. فنزلوا وراءه وعبروا مخاضه الأردن إلى مؤاب وقتلوا من المؤابيين نحو ١٠,٠٠٠ . واستراح بنو إسرائيل ٨٠ سنة.

٣ - القاضية دبورة النبية

ظهر الفساد هذه المرة فى سبط نفتالى فى الشمال وعملوا الشر فى عينى الرب فسلَّط الله

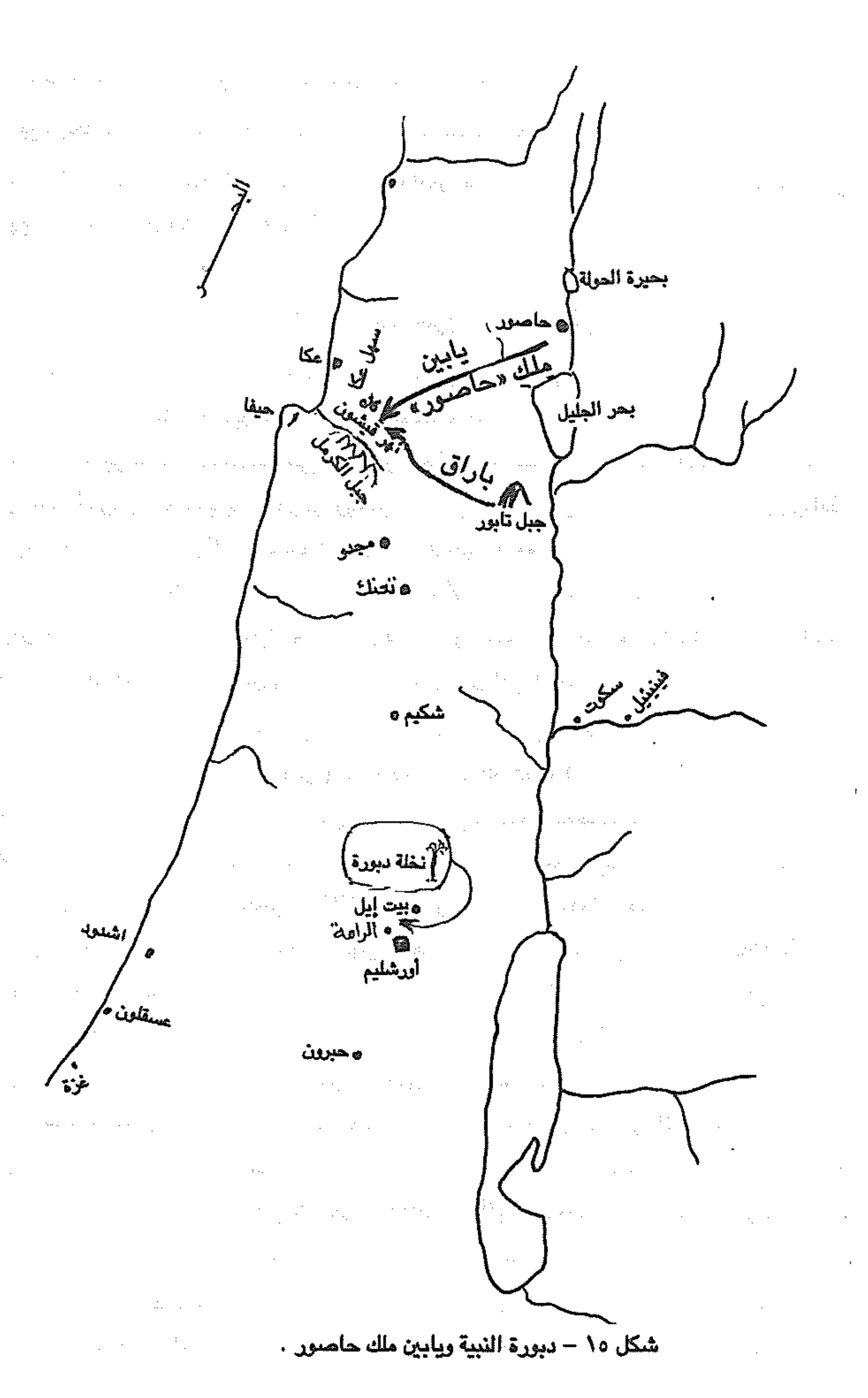


شكل ١٤ – القاضى عثنيئيل والقاضى إهود بن جيرا .

عليهم «يابين Jabin» ملك «حاصور» والذى كان له ٩٠٠ مركبة حربية. وكان قائد جيشه اسمه سيسرا. الذى ضايق سبط نفتالي واستبعدهم لمدة ٢٠ سنة .

وكانت دبورة قاضية لبنى إسرائيل فى ذلك الوقت وكانت تجلس تحت نخلة فى مكان بين بيت إيل والرامة فى جبل أفرايم. ولجأ إليها رجال سبط نفتالى يستشيرونها فقد كانت نبية أيضا. فأرسلت «باراق» أحد رؤساء سبط نفتالى وأمرته أن يجند جيشا من سبط نفتالى وسبط زبولون قوامه ١٠,٠٠٠ مقاتل ووضعت له الخطة وسارت معهم تساندهم بدعواتها. وصعد باراق يقود العشرة آلاف مقاتل إلى جبل تابور. وعلم سيسرا بذلك فقاد جيشه ومركباته الحربية الـ ٩٠٠ إلى نهر قيشون Kishon (ونهر قيشون ينبع من السفح الشمالى لجبل الكرمل ويسير متعرجا ليصب فى خليج عكا شمالى حيفا بقليل). وشجعّت دبورة النبية باراق قائلة له: إن الله يخرج قدامك وقد دفع ليدك سيسرا. فنزل باراق من جبل «تابور» وهو يقع ٢٠كم جنوب غرب بحر الجليل (ويسمى الآن الطور) وهاجموا جيش سيسرا ومركباته الحربية وهزموهم وهرب سيسرا على رجليه. ولجأ إلى خيمة ياعيل امرأة أحد أعوانه إلا أن باراق كان قد استمالها إلى صفِّه. وخرجت ياعيل لاستقبال سيسرا وطمأنته وأدخلته الخيمة ليستريح وبينما هو نائم ضربته بوتد الخيمة ضربة شديدة على صدغه فنفذ الوتد فى رأسه ومات لساعته. وانهزم يابين ملك حاصور واستولى سبط نفتالى على حاصور وخلُصت لهم الأرض التى كان يابين ملكا عليها. وترنمت دبورة وباراق فى ذلك اليوم بأنشودة قائلين (قضاة ١:٥) مع اختصارها:

- لأجل انتداب الشعب باركوا الرب .
- اسمعوا أيها الملوك واصغوا أيها العظماء.
- أنا أنا للرب أترنمّ. أُزمر للرب إله إسرائيل.
- يارب بخروجك من سعير. بصعودك من صحراء أدوم.
- الأرض ارتعدت. السماوات أيضا قطرت .
- تزلزلت الجبال من وجه الرب إله إسرائيل.
- باركوا الرب أيها الراكبون الأُتُن فى الصحراء (جمع أتان وهى أنثى الحمار).
- والسالكون فى الطريق سبِّحوا .
- جاء ملوك . حاربوا. الكواكب من حبكها حاربت سيسرا.
- نهر قيشون جرفهم .
- البركة على ياعيل امرأة جابر القينى. طلب ماء فأعطته لبنا.



شكل ١٥ – دبورة النبية ويابين ملك حاصور .

– مدت يدها إلى الوتد وضربت سيسرا وسحقت رأسه .

– بين رجليها سقط. انطرح مقتولا. هكذا يبيد جميع أعدائك يارب.

وغنم بنو إسرائيل مغانم كثيرة: فتى وفتاتان لكل رجل غنيمة وثياب مصبوغة مطرّزة الوجهين. واستراحت الأرض ٤٠ سنة.

٤ – النبي جدعون بن يوآش

تقول التوراة (قضاة ٦:٢) : «وعمل بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب. فدفعهم الرب ليد مديان ٧ سنوات». وكان المديانيون أول من استخدم الجمال على نطاق واسع فى غاراتهم مما مكنهم من السير مسافات طويلة فى الصحراء فكانوا يسيرون فى اتجاه الشمال فى الطريق شرقى نهر الأردن. ثم يعبرون الأردن ويغيرون على وسط إسرائيل وبه غرب منسى وبالذات سهل يزرعيل الخصيب. وكان ينضم إليهم فى غاراتهم العمالقة من سيناء الشمالية والعمالقة من صحراء سوريا . وكان إذا زرع الإسرائيليون يجيء هؤلاء ويغيرون عليهم وينهبون المحاصيل «ولا يتركون لإسرائيل قوت الحياة ولاغنما ولا بقرا ولا حميرا. لأنهم كانوا كالجراد من الكثرة. ويأتون بالجمال فينهبون ويعودون. وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب».

وكان جدعون بن يؤاش الأبيعزرى – وهو من سبط منسى – يجلس تحت البطمة (نوع من البلوط يعمّر لمدة طويلة وبعضه يُقَدَّس) فى بلدة عفرة Ophrah (شكل ١٦ أ) وهى قرية الطيبة الحالية التى تقع ٨كم جنوب مجدّو. كان جدعون يخبط حنطة بعصاه وظهر له ملاك الرب وقال له (قضاة ٦:١٢) «الرب معك ياجبار البأس. فقال له جدعون: إذا كان الرب معنا فلماذا أصابتنا كل هذه. وأين كل عجائبه؟. فالتفت إليه وقال: اذهب بقوّتك هذه وخلِّص إسرائيل من كف مديان وسأكون معك. فقال له جدعون اجعل لى علامة أنك معى. فقال له ملاك الرب خذ لحما وفطيرا وضعهما على تلك الصخرة. ففعل كذلك. فمد ملاك الرب طرف العكاز الذى بيده ومسَّ اللحم والفطير فصعدت نار من الصخرة وأكلت اللحم والفطير وذهب ملاك الرب. فبنى جدعون هناك مذبحا للرب ودعاه «يهوه شلوم» ومعناه «الرب سلام» لأن ملاك الرب قال له «السلام لك». ولايزال المذبح موجودا فى عفرة إلى اليوم. وخروج نار من الصخرة تأكل القربان الذى يوضع عليها علامة يؤيد بها الله أحد رسله أو أنبيائه ليطمئن قلبه إلى أن ما يؤمر به هو حقا من عند الله كما يحكى لنا القرآن الكريم: «**الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألاَّ نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار...**» (من الآية ١٨٣ – آل عمران)

وأمره الرب أن يهدم مذبح البعل الذى كان أبوه قد بناه وأن يبنى مكانه مذبحا للرب على رأس الحصن ويقطع السارية (رمز العبادة الوثنية). ففعل كما أمر الرب ولكنه لم يجرؤ أن

يهدم مذبح البعل نهاراً خوفا من أهل المدينة فأخذ عشرة من عبيده وهدمه ليلا وبنى مكانه مذبحا للرب وأصعد عليه ثورا وفى الصباح رأى أهل المدينة مذبح البعل وقد هُدِم. ولما عرفوا أن جدعون بن يوآش هو الذى فعل ذلك طلبوا من والده أن يُسلمهُ إليهم ليقتلوه. فقال لهم: إن كان البعل إلها فليقاتل عن نفسه. فأسقط فى أيديهم وسكتوا (قضاة ٦:٣٢).

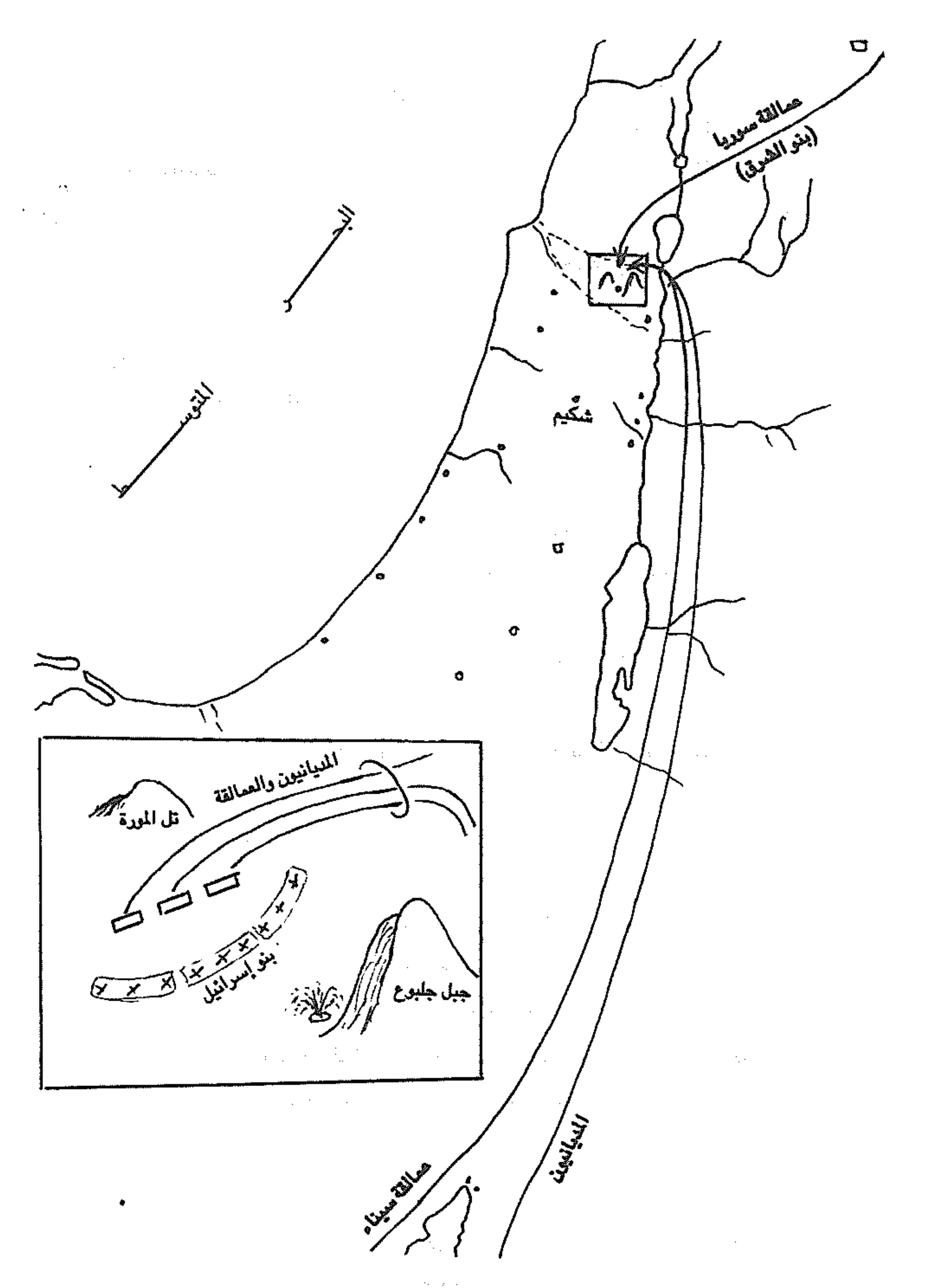
واجتمع المديانيون وعمالقة سيناء وعمالقة سوريا وتقدموا فى جيشين وعبروا نهر الأردن (شكل ١٦ أ) ونزلوا فى سهل يزرعيل للإطباق على جيش جدعون من الناحيتين.

وكان جدعون قد أرسل رسلا إلى أسباط منسى وأشير وزبولون ونفتالى (أسباط الشمال) فمدُّوه بالرجال واجتمع له جند كثير – حوالى ٣٢,٠٠٠. وقبل المعركة بيومين أراد جدعون أن يتأكد أن الله معه فطلب من الله أن يريه آية على تأييده متمثلة فى أنه سيضع جِزَّة صوف على الأرض وطلب من الله أن تصبح جزة الصوف مبللة من الندى والأرض جافة. وفى الصباح بكرً ورأى أن جزة الصوف مبلولة بل وعصر منها قصعة ماء. وأراد جدعون أن يتأكد مرة ثانية من تأييد الله له فطلب العكس أى تظل جزة الصوف جافة والبلل على الأرض. ففعل الله له ذلك فى الليلة التالية. فأيقن جدعون أن الله معه يسانده بعونه وتأييده فبكر هو والجند الذين معه ونزلوا عند «عين حرود» (حاليا عين جالود. ١٥كم شمال غرب بيت شان وعلى بعد ميل واحد شرقى جزريل – والعين اتساعها ٥ أمتار ويتدفق منها الماء عند أسفل سفح جبل جلبوع). وتقدم جيش المديانيين إلى تل المورة فى وادى يزرعيل (١٥كم شمال غرب جبل جلبوع).

وأراد الله أن يثبت لبنى إسرائيل أن النصر هو من عند الله وليس بكثرة الجند فقال الرب لجدعون: الشعب الذى معك كثير وإذا انتصرتم يفتخر بنو إسرائيل ويقولوا أيدينا هى التى خلَّصتنا. وأمره أن ينادى فى الشعب قائلا: من كان خائفا فليرجع وينصرف. فرجع من الشعب ٢٢,٠٠٠ ويبقى ١٠,٠٠٠ وقال الرب لجدعون: لايزال الشعب كثيرا. انزل بهم إلى الماء فأُنقِّهم لك هناك. وكل من يَلَغ بلسانه فى الماء كما يلغ الكلب فليرجع وكذلك كل من جثا على ركبتيه للشرب يرجع أما من يغترف بيده ليشرب فهو الذى يذهب معك. وهذا يشبه ما حدَّث عنه القرآن الكريم فى قصة طالوت وسيأتى تفصيلها فيما بعد (ص ٩٥):

«فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده. فشربوا منه إلا قليلا منهم» (٢٤٩ – البقرة).

وكان الذين اغترفوا الماء بيدهم ليشربوا ٣٠٠ فقط استبقاهم وأمر الباقين بالعودة إلى ديارهم. وقسَّم الـ ٣٠٠ رجل إلى فرق وجعل فى أيديهم أبواقا وجرارا فارغة ومصابيح فى وسط الجرار. كانت خطة جدعون تعتمد على أن يكون الهجوم ليلا وهو تكتيك لم يكن مألوفا فى ذلك الوقت إذ المعتاد أن يكون الهجوم مع أول ضوء النهار. وكانت المصابيح موضوعة داخل الجرار حتى لاتنطفىء بفعل تيارات الهواء ولإخفاء ضوئها إلى أن تحين ساعة الصفر.



شكل ١٦ أ - غارات المديانيين والعمالقة على بنى إسرائيل أيام جدعون .

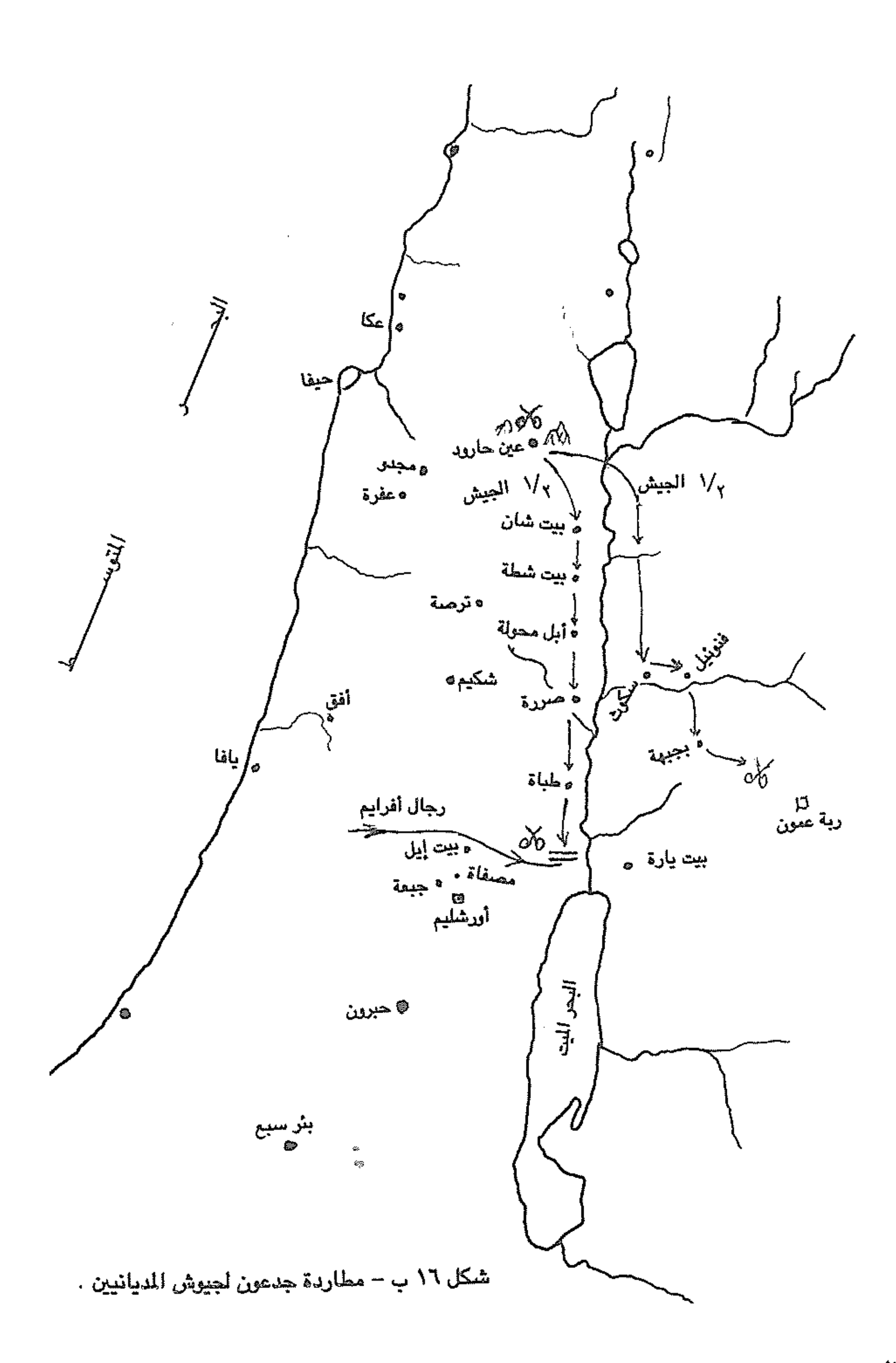
وجاء جدعون ومعه مائه رجل من ناحية. والفرقتين الأخريين من نواحى ثانية فكانت الفرق الثلاث حول جيش المديانيين. ثم ضربت الفرق الثلاث بالأبواق وكسروا الجرار فظهر ضوء المصابيح وصاحوا جميعا فى وقت واحد: سيف للرب ولجدعون. وبالطبع كان منظرا مخيفا وصوتا رهيبا. الأبواق والصرخات وضوء المصابيح من كل ناحية ليلا. فخاف المديانيون وهربوا شرقا فلما اعترضهم نهر الأردن عبر نصف الجيش فقط واتجه النصف الآخر جنوبا إلى «بيت شطة» ثم إلى «أبل محولة» وتتبعهم جدعون إلى صردة ثم إلى طباة.(شكل ١٦ ب) فأرسل جدعون رسلا إلى سبط أفرايم ليخرجوا ويقطعوا عليهم الطريق قبل أن يعبروا نهر الأردن من آخر أجزائه عند البحر الميت وخاصة أنهم منهكون من طول المطاردة. وفعلا خرج رجال أفرايم واعترضوهم وقتلوهم جميعا وحملوا رؤوس أمرائهم وقادة الجيش إلى جدعون. وكان رجال أفرايم فى شدة الغضب من جدعون لأنه لم يستعن بهم من أول الأمر ظنا منهم أنه قصد أن لا يكون لهم شرف المساهمة فى حرب المديانيين وخاصموه بشدة ولكن جدعون هدأ خاطرهم بلطف وأوضح لهم أن مافعلوه من قتل أمراء المدانيين أكثر شرفا وأدعى للفخر من كل ما عمله هو ورجاله فزالت حدة غضبهم وعادوا إلى أرضهم راضين.

أما الجزء الآخر من جيش المديانيين الذى عبر نهر الأردن من الشمال فكان عددهم ١٥,٠٠٠ يرأسهم ملك المديانيين. فعبر جدعون ومعه رجاله الـ ٣٠٠ لمطاردتهم. وكان السير قد أعيا جدعون ورجاله فطلب من أهل «سكوث» زادا له ولجنوده فرفضوا فتوعدهم بأنه بعد أن ينتهى من المديانيين سيعود وينتقم منهم. وسار جدعون ورجاله حتى بلدة فنوئيل ورفض أهلها أيضا إمداده بالزاد فتوعدهم بالانتقام منهم عند عودته. واستمر فى مطاردة جيش المديانيين حتى لحقوهم وقتلوا منهم عددا كبيرا من ضمنهم الملك وقائد جيشه وفر الباقون. ثم عاد جدعون إلى سكوث وقتل ٧٧ من رؤسائها. ثم سار إلى فنوئيل وكان لهم حصن يلجأون إليه للحماية من الأعداء فأضرم النار به فمات من به من سكان المدينة انتقاما منهم لعدم تقديم الزاد له ولرجاله.

بعد انتهاء الحرب مع المديانيين طلب بنو إسرائيل من جدعون أن يصبح ملكا عليهم ولكنه رفض وظل قاضيا إلى أن مات ودفن فى قبر والده فى بلدة عفرة.

٥ – يفتاح الجلعادى Jephthah

تقول التوراة (قضاة ٦:١٠) إن بنى إسرائيل عادوا يعملون الشر فى عينى الرب وعبدوا البلعيم والعشتاروث وآلهة أرام ومؤاب وعمون وهى الدول المجاورة من ناحية الشرق فغضب الله عليهم وسلط عليهم بنى عمون فكانوا يعبرون نهر الأردن ويغيرون على أراضى بنيامين وأفرايم ويهوذا ينهبون البيوت والحقول ويعودون. وهكذا لمدة ١٨ سنة إلى أن أدرك بنو



شكل ١٦ ب – مطاردة جدعون لجيوش المديانيين .

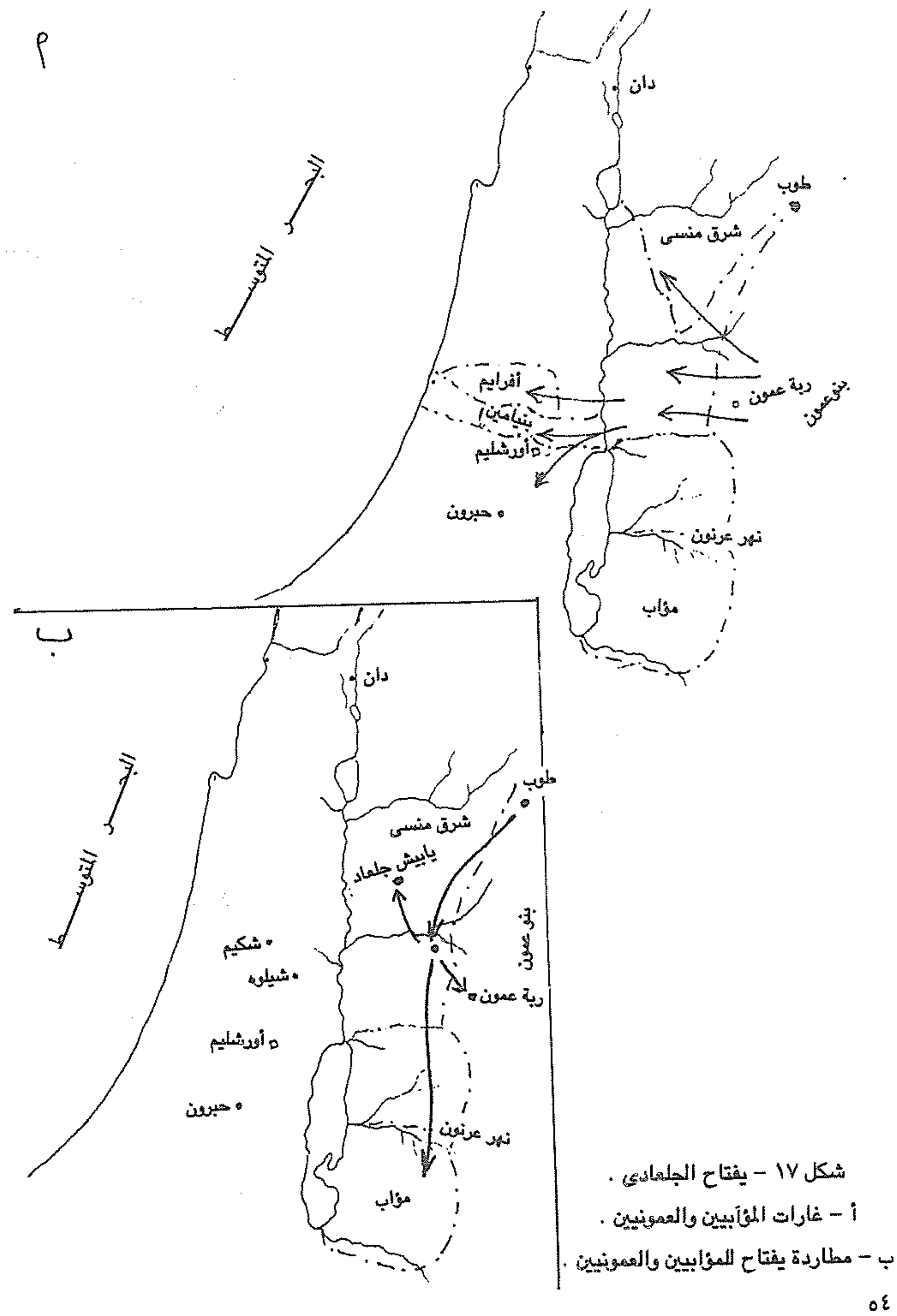
إسرائيل أن هذا من غضب الله عليهم فندموا على أفعالهم وتابوا فقيَّض الله لهم يفتاح الجلعادى ليخلِّصهم من غارات بنى عمون.

وكان إخوة يفتاح قد طردوه من بيتهم لأنه أخ غير شقيق. فخرج وأقام فى بلدة «طوب» فى الصحراء خارج أرض إسرائيل وهى حاليا بلدة الطيبة - وتقع ٧٠كم شمال شرق «ربة عمون» (عمان الحالية). وانضم إليه عدد من الرجال المغضوب عليهم من أهليهم أو عشائرهم أو الفارين من ذنب ارتكبوه ويخشون القصاص وتكونت منهم جماعة يرأسها يفتاح. وكانوا يغيرون على بعض القرى يسلبون المال والحبوب ليتَعيَّشوا.

وقد سبق أن ذكرنا أن المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن من نهر يبوق حتى وادى حسبان عند الطرف الشمالى للبحر الميت كانت تابعة لبنى عمون ولكن الأموريين غلبوهم وأخذوها منهم وأزاحوهم شرقا إلى الأرض الصحراوية. كذلك كانت الأرض الواقعة شرق البحر الميت كلّه تابعة لمؤاب واستولى الأموريون على النصف الشمالى حتى نهر عرنون. ومرت سنون طويلة ثم جاء موسى عليه السلام واستولى على الأراضى التى كانت فى حوزة الأموريين وخُصِّصت لرأوبين وجاد وشرق منسى ومضت مائة سنة واستقرت الأوضاع على هذه الحدود. ولكن بنى عمون والمؤابيين بدأوا يطالبون بهذه الأرض وادعوا ملكيتهم لها وخاصة لما رأوا من تفرق أسباط بنى إسرائيل. وبدأوا يغيرون على أجزاء من الأرض وينهبون ما فيها. بل أحيانا كانوا يتوغلون غربا ويعبرون الأردن ويغيرون على أرض بنيامين وأفرايم ويهوذا (شكل ١٧ أ) فلجأ بنو إسرائيل إلى يفتاح وجماعته ليخلِّصوهم من هذه الغارات ووعدوه إن هو خلَّصهم من هذا الخطر أن يجعلوه ملكا عليهم. واستجاب يفتاح وأخذ جماعته ومن استطاع تجنيدهم من سبطى جاد وشرق منسى واتخذ قاعدة له فى المصفاة (٢٥كم شمال غرب عمان). ونذر يفتاح نذرا للرب قائلا: **«إن دفعت بنى عمون ليدى فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعى بالسلامة من عند بنى عمون يكون للرب وأصعده محرقة»** (قضاة ١١:٣١). وقاد يفتاح جنوده وحارب بنى عمون والمؤابيين وهزمهم (شكل ١٧ ب) وكف عن بنى إسرائيل شرهم. ثم لدى عودة يفتاح إلى بيته فى المصفاة إذ بإبنته خارجة للقائه بدفوف ورقص ولم يكن له ابنة غيرها. ولما رآها مزَّق ثيابه لأنه يجب أن يوفى بنذره وفيه هلاكها. وهى أيضا حزنت وبكت واستمهلته شهرين قبل الوفاء بنذره تودع فيها الدنيا. وفى نهاية الشهرين أوفى بنذره وأصعدها محرقة. وبكاها أناس كثيرون. ومن هنا صارت عادة عند بنى إسرائيل أن يذهب بناتها كل سنة إلى المصفاة ليبكين على بنت يفتاح الجلعادى أربعة أيام فى السنة.

وغضب رجال أفرايم لأن يفتاح جنَّد الرجال من جاد ومنسى ولم يدعُهُم إلى الاشتراك فى الحرب وبذلك لم يكن لهم نصيب من الغنائم وخاصموه. ولكنه رد بأنه دعاهم إلى الحرب فتقاعسوا. وقامت حرب بين الفريقين وتقول التوراة إنه سقط فيها ٤٢,٠٠٠ من أفرايم قتلى!

وكانت المدة التى قضاها يفتاح لإسرائيل ٦ سنوات.



شكل ١٧ – يفتاح الجلعادي .

أ – غارات المؤآبيين والعمونيين .

ب – مطاردة يفتاح للمؤابيين والعمونيين .

٦ – شمشون Samson

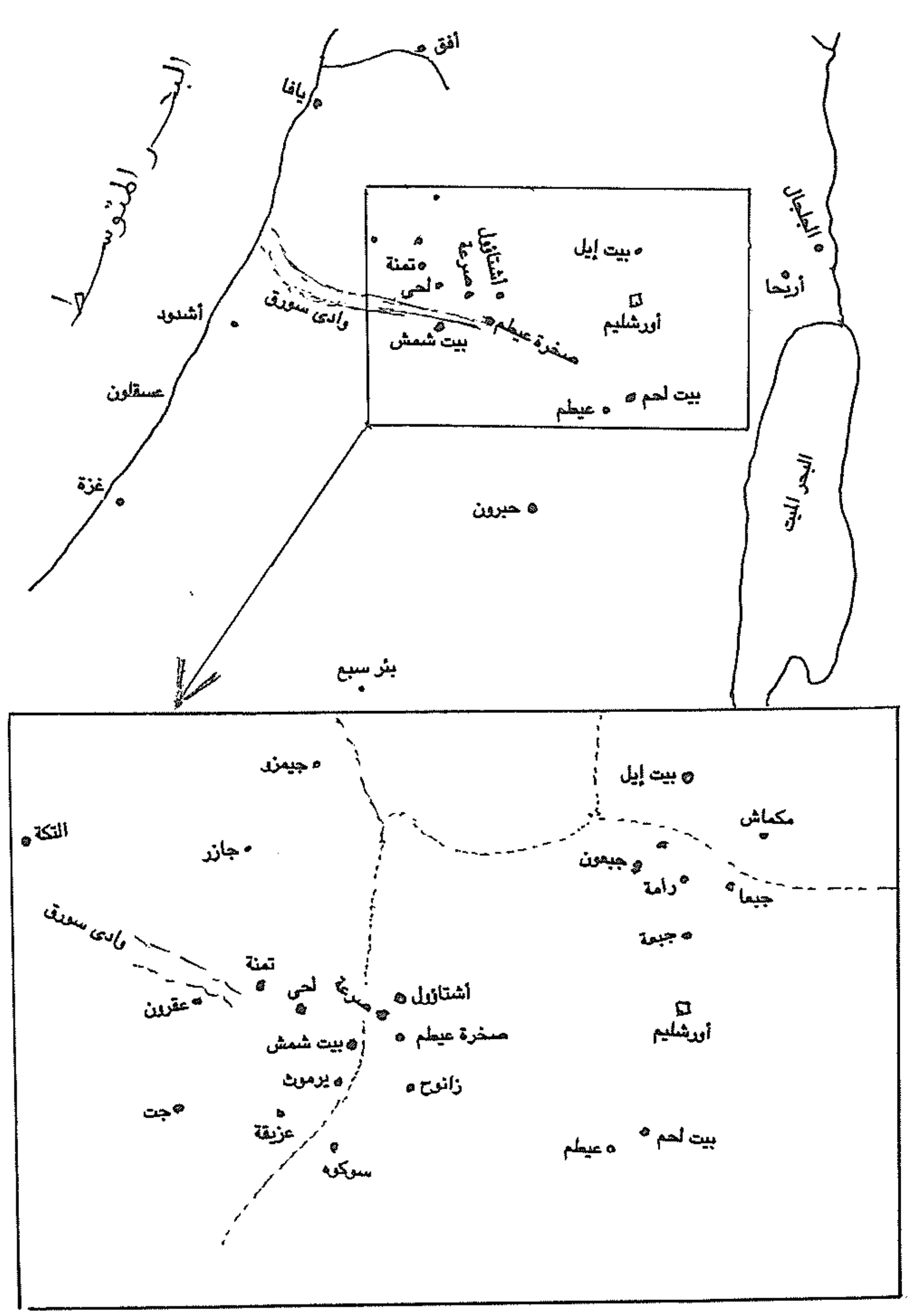
تقول التوراة (قضاه ١٣:١) «وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر فى عينى الرب فغضب الرب عليهم وسلط عليهم الفلسطينيين فتسلَّطوا عليهم مدة ٤٠ سنة.

وكان منوح رجلا تقيا من سبط دان يعيش فى بلدة صرعة Zoreh (٢٢كم غربى أورشليم) وكانت امرأة منوح عاقرا. وظهر لها ملاك الرب وبشَّرها بأنها ستلد صبيا على شرط أن لا تشرب خمرا أو مُسكِرا ولا تأكل شيئا محرَّما لأن الصبى نذر لله. وظهر لها ملاك الرب ثانية فى الحقل وكان معها زوجها وقال له نفس الكلام. فقدم منوح ذبيحة شكرٍ لله تعالى. وولدت زوجة منوح الولد وسمَّياه «شمشون» وهو اسم عبرى معناه «الشمس الصغيرة». وكبر الصبى وباركه الرب وكان يروح ويجىء بين «صرعة» و«أشتأول» التى تقع على مسافة ٢,٥كم شمال شرق صرعة (شكل ١٨).

ولما بلغ مبلغ الشباب نزل شمشون إلى السهل الفلسطينى وأعجبته فتاة من بلدة «تمنة» من بنات الفلسطينيين. ومدينة تمنة تقع قرب الحدود الشمالية الغربية لأرض يهوذا حوالى ٣٢كم جنوب شرق يافا. وكانت فى يد الفلسطينيين. وتضايق والدا شمشون لأنهما كانا يريدانه أن يتزوج واحدة من بنات العشيرة. ولم يدروا أن ذلك بتدبير من الله لتكون هذه الزيجة. وما ترتب عليها من خلافات – هى السبب الذى يوجب عليه حرب الفلسطينيين. وبينما هو نازل مع والديه لخطبة فتاته قابله أسد. وكما تقول التوراة (قضاة ١٤) «فحلَّ عليه روح الرب» وأعطى قوة خارقة فشق الأسد نصفين بيديه. ونزلوا إلى تمنة وخطبوا الفتاة وفى طريق العودة مر على جثة الأسد ليرى ما حل بها. فوجد النحل قد اتخذ منه خلية ملأى بالعسل. فأخذ وأكل منه وأعطى والديه. ثم بعد عدة أشهر أكمل زواجه فى بيت حميه وعمل شمشون وليمة دعا إليها ٣٠ من رؤساء الفلسطينيين وقدم لهم أحجية. إذا عرفوا حلَّها فى نهاية سبعة أيام الوليمة أعطاهم ٣٠ قميصا و٣٠ حلة ثياب وإن لم يعرفوا الحل أعطوه هم ٣٠ قميصا و٣٠ حلة ثياب. وكانت الأحجية عن الأسد الذى قتله والنحل الذى عشش فيه فقال (قضاة ١٤:١٤):

«من الآكل خرج أكل. ومن الجافى خرجت حلاوة»

ولما لم يستطيعوا التوصل إلى الحل وقاربت أيام الوليمة السبعة على الانتهاء هددوا العروس وأهلها بالحرق لتعرف الحل من زوجها. فبكت لشمشون لتعرف الحل مؤكدة له أنها ستحتفظ به لنفسها. ورق قلبه لبكائها وأخبرها بالحل. وهى بدورها أخبرت قومها. وفى اليوم السابع جاءوا وقالوا له: «أى شيىء أحلى من العسل. وما أجفى من الأسد». فقال لهم: «لو لم تحرثوا على عِجلتى لما وجدتم أحجيتى» كناية عن أنهم عرفوا الحل عن طريق زوجته. ولما كان عليه أن يعطيهم ٣٠ قميصا و٣٠ حُلة ثياب. ولما لم يكونوا قد توصلوا إلى الحل بأنفسهم فقد



أفق
يافا
البحر المتوسط
أشدود
عسقلون
غزة
وادى سورق
تمنة
لحى
صرعة
أشتاؤل
صخرة عيطم
بيت شمش
بيت إيل
أورشليم
بيت لحم
عيطم
الجلجال
أريحا
البحر الميت
حبرون
بئر سبع
جيمزو
التكة
جازر
بيت إيل
مكماش
جبعون
رامة
جيبا
جبعة
وادى سورق
تمنة
لحى
أشتاؤل
عقرون
صخرة عيطم
أورشليم
بيت شمش
يرموث
زانوح
جت
عزيقة
سوكوه
بيت لحم
عيطم

شكل ١٨ – شمشون .

رأى أن تكون الثياب من بنى جلدتهم. فنزل إلى أشقلون (عسقلون) وجاءته قوته الخارقة. فقتل ٣٠ من رجالها وأخذ قمصانهم وثيابهم وأعطاها للأشخاص الذين تراهن معهم.

لم يتفق والد شمشون مع والد العروس على المهر الذى به يتم الزواج ويصبح - حسب تقاليد ذلك الزمان - زواجا من الدرجة الأولى. تنتقل فيه العروس إلى بيت العريس وإلى أهل الزوج. وإذا لم يتفقا على المهر ظل الزواج من الدرجة الثانية وفيه تبقى الزوجة فى بيت أبيها ومع أسرتها ويزورها زوجها من حين لآخر. وكان الأولاد الذين يولدون لهذا النوع الثانى من الزواج يُنسبون إلى أسرة الأم. وكان زواج شمشون زواجا من الدرجة الثانية. وكان أنه ترك العروس قبل مرور أسبوع كامل ونزل أشقلون ليأتى بالقمصان والحُلل. وكان ترك الزوج لزوجته قبل مرور أسبوع كامل من الزفاف يُعتبر إهانة بالغة للزوجة. فقام أبوها بتزويجها من رجل آخر مَحواً للعار. ولما عاد شمشون ومعه الثياب جاء أيضا بجدى معزى ترضية لزوجته وفوجىء بأنها قد أصبحت زوجة لرجل آخر. وعرض أبوها أن يزوجه من أختها الصغرى. ولكن شمشون كان قد بلغ به الغضب أقصاه فقال لهم: إنى برىء الآن من الفلسطينيين. وذهب شمشون وأمسك ٣٠٠ حيوان ابن آوى وربط ذيل كل اثنين مع بعضها ووضع مشعلا بين كل ذنبين. ثم أضرم المشاعل نارا وأطلق حيوانات ابن آوى فى حقول الفلسطينيين. وكانت الحنطة نامية وقد نضجت وجفت عيدانها. فاحترق المحصول كله وامتدت النار إلى الزيتون أيضا. وغضب الفلسطينيون على أهل الزوجة لأنهم كانوا السبب فيما حدث بتزويجهم زوجة شمشون لآخر. فصعدوا وأحرقوا بيت الزوجة وبيت أبيها بالنار. ولكن هذا لم يُهدِّىء من غضب شمشون وأخبر الفلسطينيين أن انتقامه منهم لم ينته بعد. ثم نزل وأقام فى كهف فى عيطم ويرجِّح البعض أن صخرة عيطم هى «عراق اسمعين» الحالية ٤كم شرقى صرعة.

كان الفلسطينيون متسلِّطين على يهوذا فى هذه المنطقة. وكان رجال يهوذا راضين بهذا الوضع ومستكينين له وخشوا من أن مسلك شمشون قد يدفع الفلسطينيين للانتقام منهم. وصعد الفلسطينيون إلى يهوذا وطلبوا منهم أن يسلِّموا إليهم شمشون ليقتصوا منه ليعود الوئام ويبقى السلام بينهما كما كان. فنزل ٣٠٠٠ من رجال يهوذا إلى كهف عيطم حيث يقيم شمشون ولاموه على أفعاله. وطلبوا منه أن يُسلِّم نفسه إليهم ليسلِّموه بدورهم إلى الفلسطينيين. فأخذ عليهم العهد أن لا يقتلوه هم. وطلب منهم أن يوثقوه بحبلين جديدين ونزلوا به إلى الفلسطينيين فى «لَحْى» وهو موضع بين صرعة وتمنه وحاليا يُسمَّى «رامات لحى» فى وادى سورق أو وادى السرار. واجتمع الفلسطينيون حول شمشون للانتقام منه فجاءته القوة الربانية الخارقة فمزَّق الحبل الذى قُيِّد به ووجد عظمة فك حمار فأخذها كسلاح فى يده وقاتل الفلسطينيين حتى قتل منهم - كما تقول التوراة - ١٠٠٠ رجل. ثم عطش جداً وأعيا وخشى السقوط فى يد الفلسطينيين من العطش فدعا الله فأنبع الله له عين ماء فى الصخر فشرب ورجعت روحه وانتعش (قضاة ١٥:١٩). واختاره بنو إسرائيل قاضيا لمدة ٢٠ سنة.

ثم ذهب شمشون إلى غزة ودخل إلى بيت امرأة غانية ليستريح وعلم الغزاويون بمجيئه. وكانوا قد علموا ما فعله بإخوتهم فى عسقلون ولحى وغيرها من المدن الفلسطينية فأحاطوا بالمكان لينتقموا منه. وكمنوا له الليل كله ليقتلوه وهو خارج فى الصباح عندما يُفتح باب المدينة. وعلم بما يدبِّرون فقام فى منتصف الليل وأتى إلى باب المدينة المغلق فخلعه وصعد إلى رأس الجبل ونجا. وإمعانا منه فى إغاظتهم حمل الباب على كتفه وأخذه معه.

دليلة ونهاية شمشون :

ثم أحب شمشون «دليلة» وهى امرأة فلسطينية من «وادى سورق» واسمه اليوم وادى الصرار ويبدأ من جنوب مدينة تمنة ويمتد أفقيا إلى البحر المتوسط وبه نبع يصب فى البحر ١٥كم جنوبى يافا (شكل ١٨). وصعد أقطاب الفلسطينيين إلى دليلة وطلبوا منها أن تتحايل عليه وتتملَّقه حتى تعرف سر قوته العظيمة ومنُّوها بأن كل واحد من أقطاب الفلسطينيين الخمسة سيعطيها ١١٠٠ شاقل فضة فقبلت. ولما جاء إليها شمشون ليمضى وقتا معها تلطفت معه وسألته عن سر قوته. فأراد شمشون أن يهزأ من الفسطينيين ومنها. فقال لها إذا أوثقونى بسبعة أوطار طرية لم تجف أضعف وأصير كواحد من الناس. فأحضر لها الفلسطينيون ٧ أوطار طرية فأوثقته بها ولتجرب الأمر صاحت عليه: الفلسطينيون عليك ياشمشون. فقام وقطع الوثاق وعلمت أنه لم يصدقها القول.

وعادت دليلة – فى ليلة أخرى – تتحايل عليه وأظهرت غضبها إذ لم يصدقها القول فى المرة الأولى ولم يخبرها بسر قوته. وأراد أن يهزأ بها مرة ثانية فقال لها: إذا أوثقتينى بحبال جديدة لم تستعمل أضعف وأصير كواحد من الناس. فأخذت دليلة حبالا جديدة وأوثقته بها ثم صاحت: الفلسطينيون عليك ياشمشون فقطع الحبال عن ذراعيه. فأظهرت غضبها وراحت تتدلَّل وتتمنَّع عليه ليطلعها على سر قوته فأخبرها أن سر قوته فى خصلة شعره وأنها إن ضفَّرت سبع خصلات من شعره مع خيوط النول اليدوى الموجود فى بيتها بحيث يصبح شعره كأنه جزء من النسيج فإنه يصبح كواحد من الناس. ففعلت هكذا بشعره وهو نائم ثم صاحت عليه بأن الفلسطينيين قادمون فهب من نومه وخلع النول وحطَّم النسيج وأطاح بعارضتى النول كله. فعلمت أنه – للمرة الثالثة – يهزأ بها.

وراحت تتحايل من جديد وأنكرت عليه أنه يحبها إذ أنه يبخل عليها ولا يطلعها على سر قوته. وأكثرت من إلحاحها عليه بهذا الأمر كل يوم وكل لحظة حتى ضاقت نفسه فأضطر إلى أن يكشف لها عن سر قوته. وأخبرها أن موسى لم يعلُ رأسَه قط لأنه نذر الله من بطن أمه فإن حُلِق شعر رأسه تفارقه قوَّته ويضعف ويصير كواحد من الناس. وعلمت أنه قد صدقها فى هذه المرة. فأرسلت ودعت أقطاب الفلسطينيين وطمأنتهم أنه قد أطلعها على سر قوته فأحضروا الفضة التى وعدوها معهم. ولما نام على ركبتها حلقت سبع خصلات من شعره ففارقته قوَّته

ودعت الفلسطينيين وخرج ليقاتلهم ظانا أن قوّته معه. ولكنه وجد أنهم قد أمسكوا به وأوثقوه وقلعوا عينيه ونزلوا به إلى غزة وأوثقوه بسلاسل من نحاس وسجنوه وجعلوه يطحن فى السجن. وبدأ شعر رأسه ينبت من جديد. وكان الفلسطينيون قد اجتمعوا ليحتفلوا بإلههم «داجون» ويقدموا له ذبيحة عظيمة شكرا على أن تمكنوا من شمشون عدوِّهم. وكانت فتنة كبيرة للناس لأنهم ظنوا أن إلههم داجون هو الذى دفع إليهم شمشون. واستمروا فى الهزء بشمشون. وأحضروه من السجن ليلعب أمامهم ألعاب القوة ويسلِّيهم. وطلب من الغلام الذى يقوده أن يوقفه بجوار الأعمدة التى يقوم عليها أساس المعبد. وكان المعبد مملوءا بالرجال والنساء وجميع أقطاب الفلسطينيين مجتمعون به. وعلى السطح نحو من ٣٠٠٠ رجل ينظرون لعب شمشون. فدعا شمشون الرب وقال: ياسيدى الرب اذكرنى وشدِّدنى يا الله هذه المرة فقط فأنتقم نقمة واحدة من الفلسطينيين. وقبض شمشون على العمودين المتوسطين اللذين كان المعبد قائما عليهما. وقال «علَّى وعلى أعدائى لتمت نفسى مع الفلسطينيين». وضغط بقوة فسقط البناء على من فيه من الفسلطينيين وأقطابهم وكل الشعب الذى كان فيه. فكان الموتى الذين أماتهم فى موته أكثر من الذين أماتهم فى حياته. ونزل إخوة شمشون وكل بيت أبيه وحملوا جثته وصعدوا ودفنوه بين صرعة وأشتاؤل فى قبر منوح أبيه (قضاة ١٦:٣١). وكانت حياته مصداقا لنبوءة يعقوب عليه السلام التى ذكرها فى خطبه قبل وفاته (تكوين ٤٩:١٦ – انظر الجزء الثالث من هذه السلسلة. ص ٥٢٩). التى جاء فيها «يكون دان حية على الطريق أقعوانا على السبيل يلسع عقربى الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء». فشمشون كما ذكرنا من سبط دان. وقد شُبِّهت غاراته الفجائية على الفلسطينيين مثل الحية التى تلسع الفرس فيموت من السم ويسقط الراكب. فهو عمل فردى وليس حربا منظمة يكون لها تأثير فى التخلص من نير الفلسطينيين.

جاء فى القرآن الكرقم: **«واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها. ولكنه أخلد إلى الأرض واتَّبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون»** (١٧٥ – ١٧٦ – الأعراف).

هاتان الآيتان من سورة الأعراف تخبران عن شخص اختاره الله وآتاه آيات من عنده – لم تُبيَّن ماهيتها – ولكنه لم يرتفع إلى مستوى المسئولية التى ألقيت على عاتقه وراح يجرى وراء أهوائه الشخصية. ولم يذكر القرآن الكريم اسم ذلك الشخص لذلك راح المفسرون نواحى شتى: عن ابن أبى طلحة أنه من بنى إسرائيل. وروى عن ابن مردويه عن ابن عباس أنه بلعم بن باعوراء (تفسير الألوسى جـ ٩ ص ١١١). وقد سبق أن ذكرنا بلعام بن بعور فى قصة موسى عليه السلام (الجزء الرابع ص١٠٩٦) وذكرنا أنه لجأ إلى أهل مدين وقتله بنو إسرائيل

عند حربهم للمديانيين. وما نراه هو أن هذه الآية تنطبق أكثر ما تنطبق على شمشون. ذلك أن الله آتاه آية وهي القوة الخارقة التى كان يمتع بها. وكان المفروض أن يقوم بتخليص بنى إسرائيل من تسلُّط الفلسطينيين عليهم ولكنه لم يستغل هذه القوة لصالح شعبه بل - كما يقول چيمس فريزر (الفولكلور فى العهد القديم. ترجمة نبيلة إبراهيم جـ ٢ ص١٣) - نراه رجلا استغل موهبته فى إحداث الشغب. وكان يقوم بمجرد هجوم مفاجىء على الفلسطينيين ويقتل منهم العدد الذى يستطيع ثم يفر. وحتى قتله للفلسطينيين كان دافعه الانتقام الشخصى وليس دفاعا عن بنى إسرائيل أو غيرة على دين الله. وتردد على بيوت الدعارة لاهثا وراء أهوائه وشهواته. وفى النهاية أفضى بسرٍّ قوته إلى معشوقته التى خانته ودلَّت بنى جنسها على نقطه الضعف فيه فتمكَّنوا منه وفقأوا عينيه. فلم يجد فى النهاية من خلاص إلا أن يقول «علىَّ وعلى أعدائى» وهدم المعبد على من كان فيه من الفلسطينيين فماتوا ومات معهم. فكانت حياته كلها لهثا. يحمل عليه الفلسطينيون فيهرب منهم لاهثا. وإن تركوه نجده يلهث وراء شهواته. ولم يدرك أن هذه القوة هى آية من الله ولكنه كذَّب بفضل الله عليه. وأُمِرَ رسولنا صلى الله عليه وسلم أن يقص قصته لعل الناس تتفكر فيها وتتعلَّم منها. وفى رأينا كذلك أنه لا يشترط أن تكون الآية قوة بدنية بل قد تكون موهبة أدبية - نثرا أو شعرا - أو تكون قوة حجة أو غير ذلك. وعلى المرء أن يستغلها فى الخير وفى إعلاء الحق.

انتقال الدانيين إلى الشمال :

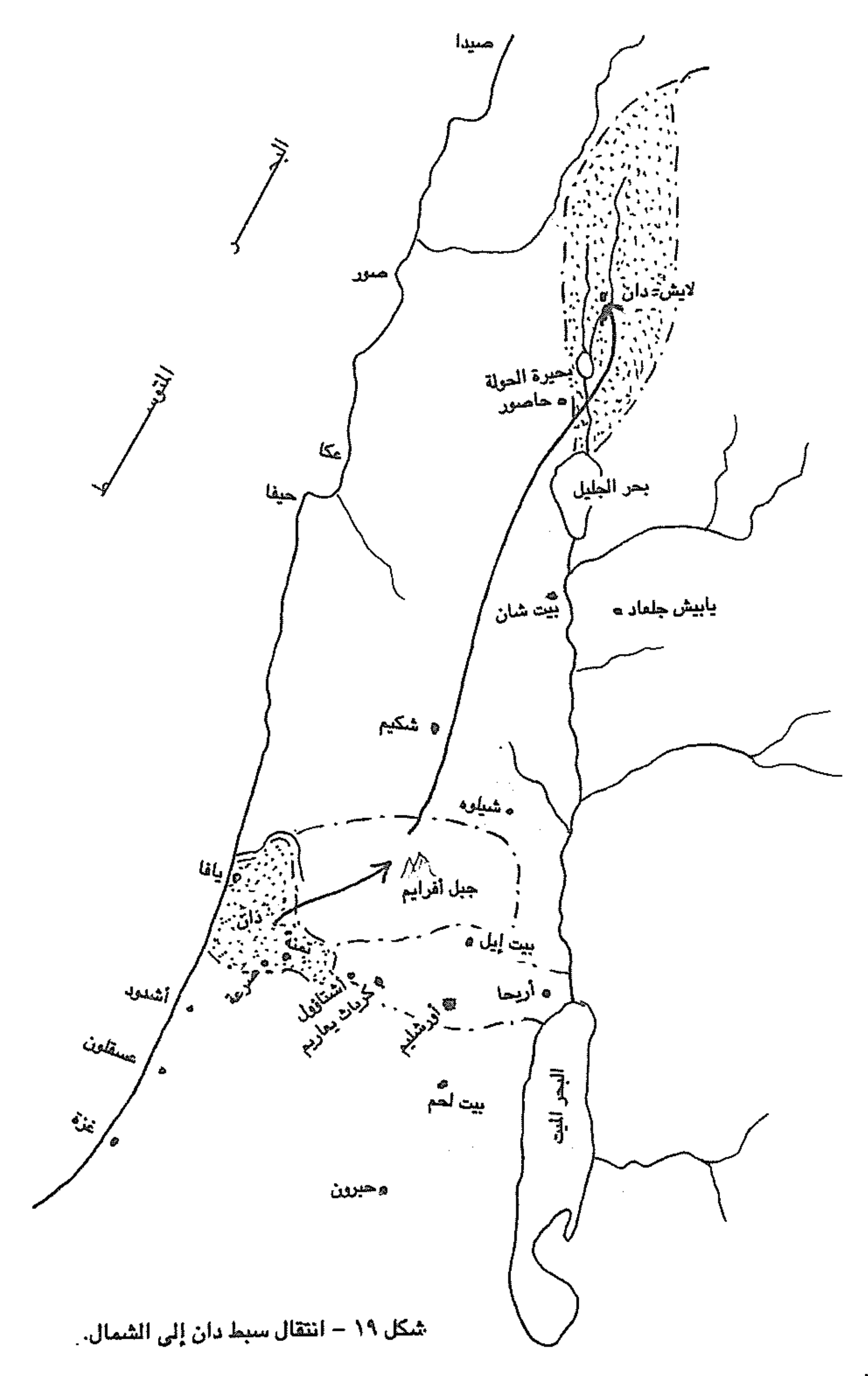
كان دان (وأخوه نفتالى) أبناء بلهة جارية راحيل (الجزء الثالث ص٤١٥) وهى تُعتبر زوجة ثانوية وبالتالى فأولادها أقل درجة من أولاد الزوجات الأصليات لذلك كانت الأرض التى أُعطيت لهما أقل مساحة وأقل خصبًا من أرض باقى الإخوة. وكان دان هو آخر من طلعت عليه القرعة عند توزيع الأرض فأعطى قطعة ضيقة من الأرض تقع شمال أرض يهوذا (شكل ١١ ص ٣٤) نصفها الشرقى جبلى وعر والنصف الغربى وهو السهل الساحلى الخصب كان فى أيدى الفلسطينيين ولم يستطيعوا استخلاصه منهم. ولما ضاقت بهم الحال فكروا فى استقطاع أرض أخرى لهم فى أقصى الشمال . لا مطمع لأحد فيها وبعيدة عن المشاكل. وترينا القصة التالية عن الكاهن ميخا مقدار الفوضى التى كانت سائدة فى إسرائيل فى ذلك الوقت ومقدار الضلال الذى انتشر بحيث أن «ميخا» يجعل من نفسه كاهنا ويعين ابنه كاهنا كذلك مع أن الكهنة لابد أن يكونوا لاويين. كما ترينا كيف أن الوثنية كانت قد انتشرت بين بنى إسرائيل انتشارا واسعًا. والقصة كما جاءت فى التوراة (قضاة ١٧) تقول: «وفى تلك الأيام لم يكن ملك فى إسرائيل. وكان كل واحد يعمل ما يحسن فى عينيه». فكان أن ميخا هذا - ولم يكن من اللاويين - جعل جزءا من بيته بيتا للآلهة وضع فيه تمثالين وعمل أفود (ملابس تستعمل فى طلب مشورة الآلهة) وصنع تراقيم (تماثيل صغيرة ليسهل حملها وكان الناس

يعتقدون أنها مجلبة للفأل الحسن). وواضح أن كل ما كان يهدف إليه ميخا هو المال إذ يتقاطر الناس على بيت الآلهة الخاص به ويقدمون القرابين والنذور ويدفعون مقابل لاستطلاع رغبات الآلهة وثمنا للتراقيم التى يحملونها معهم فى أسفارهم. وعيَّن ميخا نفسه وابنه كاهنين لذلك البيت. ولكنه كان يشعر بأن الناس لن تقبل على بيت الآلهة الخاص به لأن كاهنه ليس من اللاويين. وتصادف أن كان لاوىٌ من بيت يهوذا - لم يوفق فى أن يصبح واحدا من رجال الكهنوت فى سبط أو جماعة من بنى إسرائيل - مارا بتلك الناحية ولما عرف ميخا ظروفه وجدها فرصة ليضفى على بيت آلهته القداسة اللازمة فعرض على اللاوى أن يقيم عنده ويصبح كاهنا نظير أجر سنوى مقداره ١٠ شاقل فضة وحلة ثياب بالإضافة إلى الإقامة والمأكل والمشرب فقبل اللاوى. وهذا أيضا يرينا الهوة التى تردَّى فيها بعض اللاويين إذ يتغاضى عن هذا الضلال للحصول على معايشه.

وكما سبق أن ذكرنا أن سبط دان - ضاقت بهم أرضهم - فأرسلوا خمسة رجال ليتجسسوا الأرض فى الشمال ليبحثوا عن أرض تصلح لهم لينتقلوا إليها. وعند مرورهم بجبل أفرايم قابلوا ميخا الذى استضافهم وقابلوا اللاوى وطلبوا منه أن يسأل الرب هل ينجحون فى مهمتهم ففعل وطمأنهم بأن الله معهم. فساروا إلى أقصى الشمال حتى وصلوا مدينة لايش Laish (التى تقع عند منابع الأردن فى السهل ٢٥كم شمال بحيرة الحولة عند سفح جبل حرمون). والسهل خصب وسكانه يعيشون فى سلام مع جيرانهم فلم يروا ما يستوجب إقامة حصون أو استحكامات أو حتى أسوار لمدنهم. وعاد الرجال الخمسة إلى سبط دان فى الجنوب وأخبروا إخوانهم أن الأرض خصبة وجيدة وبدون دفاعات فجنَّدوا ٦٠٠ رجلا مسلَّحين. ولما مروا بجبل أفرايم عرجوا على بيت ميخا واستمالوا الكاهن اللاوى ليرافقهم ويصير كاهنا لسبطهم ففرح بذلك ورافقهم. ثم ساروا إلى لايش وحاربوا أهلها وقتلوهم وأحرقوا المدينة واستولوا على أرضهم وحقولهم واستقروا فى الأرض وأرسلوا فى طلب باقى عشائرهم (شكل ١٩). وغيَّروا اسم «لايش» إلى «دان».

الفساد فى سبط بنيامين :

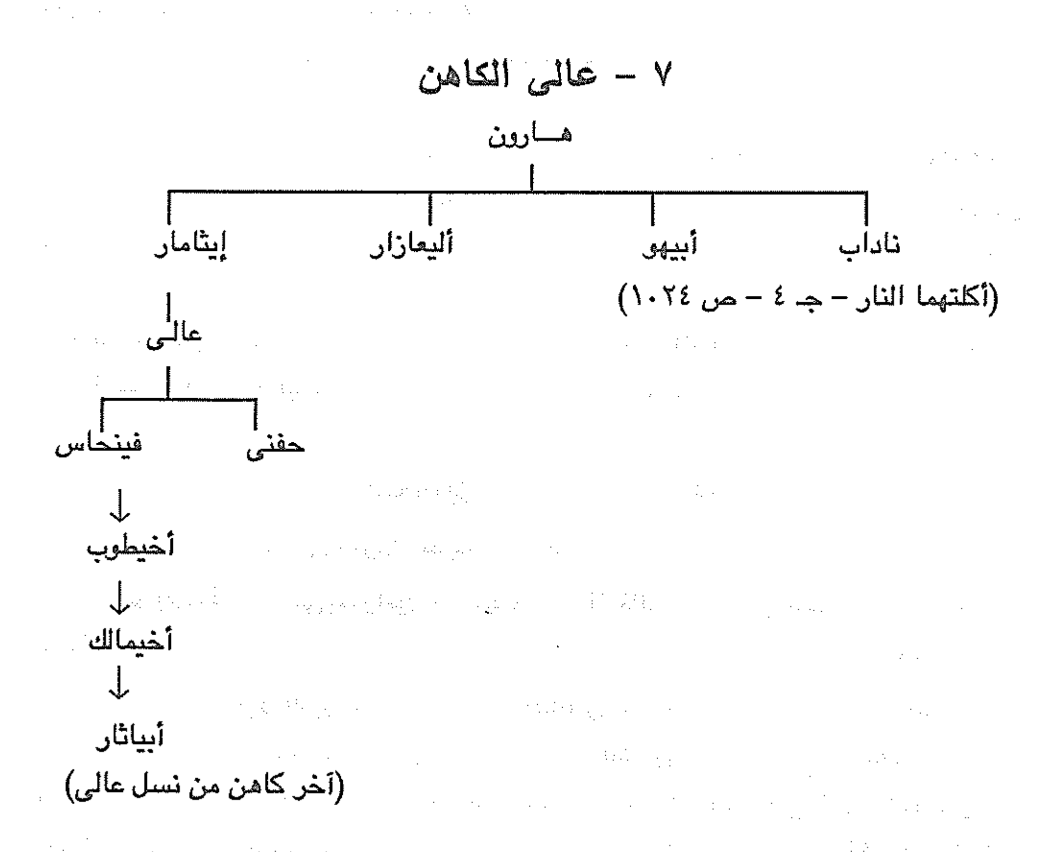
نذكر هذه القصة أيضا للدلالة على الفوضى التى كانت تسود فى إسرائيل. والفساد الذى استشرى حتى إن رجال الدين اللاويين لم يعودوا يحظون بالاحترام الواجب. والقصة تقول (قضاة ١:١٩) إن رجلا لاويا كان عائدا من مهمة دينية هو وجارية له وجاء الليل وهو قرب قرية جبعة بنيامين (شكل ٢١ ص ٦٩) (حاليا تل الغول - ٧كم شمال أورشليم) واستضافهم شيخ وقور فى بيته. وكان فى القرية رجال فاسدون يعملون عمل قوم لوط. فأحاطوا ببيت الشيخ وطلبوا منه إخراج ضيوفه ليفعلوا فيهم الفاحشة ولما رفض اقتحموا البيت واختطفوا الجارية وتناوبوا إغتصابها حتى لفظت أنفاسها. فأخذ الرجل سكينا وقطع جسدها إلى ١٢



شكل ١٩ – انتقال سبط دان إلى الشمال.

قطعة وأرسل قطعة إلى كل سبط من أسباط بنى إسرائيل ليشهدهم على مدى الفساد الذى وصل إليه البنياميينيون. وغضب بنو إسرائيل لما فعله سبط بنيامين وجمعوا جيشا قوامه ٤٠,٠٠٠ رجل. وجند البنياميينيون جيشا من ٢٦,٧٠٠ رجل وانتصر بنو إسرائيل وقتلوا جميع الرجال والنساء من سط بنيامين عدا ٦٠٠ رجل. ولما رأى بنو إسرائيل أن السبط سينقرض إذ رفض الأسباط الآخرون أن يصاهروهم أغاروا على بلدة «**يابيش جلعاد**» فى شرق الأردن وقتلوا معظم رجالها لأنهم كانوا يؤيدون البنياميينيين وأسروا ٤٠٠ فتاة عذراء. وأغاروا على «شيلوه» واختطفوا ٢٠٠ فتاة عذراء وأعطوهن زوجات لـ ٦٠٠ رجل الباقين أحياء من سبط بنيامين فعاد السبط إلى التكاثر ولم ينقرض. ويابيش جلعاد مدينة فى شرق الأردن ١٠كم شرقى النهر و٢٠كم جنوب بيت شان (شكل ١٩) ويظن أنها تل أبو خرز الحالية إلى الجهة الشمالية من «وادى اليابس» أو «وادى يبيش» (قاموس الكتاب المقدس ص ١٠٤٣).

٧ - عالى الكاهن



عالى الكاهن من نسل هارون عليه السلام. وكان هو الكاهن الأعظم فى «شيلوه». العاصمة الدينية لإسرائيل فى ذلك الوقت. وكانت شيلوه فى جبال أفرايم وعلى قمة منطقة جبلية مما

أعطاها حماية طبيعية ومن الصعب الوصول إليها ومن هنا كان اختيارها لوضع المقدسات بها: خيمة الاجتماع والمسكن وتابوت الشهادة.

وكان لعالى الكاهن ولدان حفنى وفينحاس. وكانا يقومان بوظيفة الكهنوت فى شيخوخة والدهما ولكنهما - كما تصفهما التوراة (صموئيل ٢:١٢) «كانا فجَّارا أرذالا برغم وظيفتهما المقدَّسة». كان على العابد من الشعب أن يُقرِّب الذبيحة للرب فيقوم الكاهن بإيقاد الشحم على المذبح أولا باعتبار أنه للرب ثم يكون الصدر لهارون أو نسله والساق للكاهن حسب أحكام الشريعة (لاويين ٧:١١). أما حفنى وفينحاس فكانا يطلبان نصيبهما أولا قبل رفع نصيب الرب على المذبح كما كانا يستوليان على ما يخص العابد من الذبيحة. ليس هذا فقط بل كانا يضاجعان النساء المجتمعات فى باب خيمة الاجتماع. وسمع عالى الكاهن بكل الشرور التى يعملها أبناؤه فنصحهم بالإقلاع عنها ولكنه لم يكن حازما فى نهيهم ولا شديدا فى زجرهم. بل قال لهم: «لماذا تعملون مثل هذه الأمور لأنى أسمع بأموركم الخبيثة من جميع هذا الشعب. لا يا بَنِيَّ لأنه ليس حسنا الخبر الذى أسمع. تجعلون شعب الرب يتعدُّون. إذا أخطأ إنسان إلى إنسان يدينه الله. فإذا أخطأ إنسان إلى الرب فمن يصلِّى من أجله؟» ونلمس هنا مدى ضعفه فى مواجهتهم ونهيهم عما يرتكبونه من شرور - مما استوجب عقابا من الله. فأرسل الله إليه أحد الأولياء يخبره بما حكم به الله عليه: أنَّ ابنيه يموتان كلاهما فى يوم واحد وأن يُنزع الكهنوت من نسله إلى الأبد. ثم أعلنت هذه النبوءة مرة ثانية بواسطة صموئيل النبى. وقد تحقق هذا فعلا إذ قُتِل حفنى وفينحاس فى المعركة ضد الفلسطينيين والتى انهزم فيها بنو إسرائيل واستولى فيها الفلسطينيون على تابوت عهد الرب (انظر ص ٦٦) ولما تولى سليمان عليه السلام الملك طرد أبياثار من الكهنوت ولم يتولَّ أحد من نسل عالى الكهنوت بعد ذلك.

٨ - صموئيل النبى - آخر القضاة

هو النبى المشار إليه فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

«ألم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله......»

(٢٤٦-البقرة)

وقد ظهر صموئيل النبى فى عصر عالى الكاهن آخر قضاة بنى إسرائيل والذى قضى لإسرائيل ٤٠ عاما. وكان لصموئيل القيادة الفعلية للشئون الدينية فى النصف الثانى من قضاء عالى الكاهن وكذلك كانت له توجيهاته السياسية فقد كان يدعو إلى الحرب لتخليص بنى إسرائيل من اعتداءات الفلسطينيين. ثم طلب منه الشعب أن يعين عليهم ملكا. فاختار لهم طالوت (شاول) ملكا حسب أوامر الرب. ثم لما طغى شاول وتجَبَّر مسح صموئيل داود ملكا. ثم أوتى داود النبوة فكان أول من جمع بين النبوَّة والمُلك.

«اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء، وجعلكم ملوكا ...» (٢٠-المائدة).

مولد صموئيل :

صموئيل اسم عبرى معناه «اسم الله أو اسمه إيل أى الله» وأبوه ألقانة لاوى ومن عشيرة قهات، وكان أفرايميا لأن عشيرته قد أعطيت بالقرعة أن تسكن أرض أفرايم. وقد عاش ألقانة والده فى بلدة الرامة وكان له زوجتان: فتنة التى كان لها أولاد – وحنة، الزوجة المُفضَّلة ولكنها لم ترزق أولادا. وكانت ضرتها تغظيها لعدم إنجابها. وكان ألقانة يذهب كل عام إلى شيلوه (المركز الدينى لإسرائيل والتى كان يُحفظ بها خيمة الاجتماع والمسكن وتابوت الشهادة) ليقدم ذبيحة لله وكانت حنة زوجته تذهب معه وتدعو الله ليهب لها الولد ونذرت لئن أعطاها الرب ولدا «فإنى أعطيه للرب كل أيام حياته ولا يعلو رأسه موسى». وسمع عالى الكاهن تضرعها لله ولمس مافيه من صدق وإخلاص فقال لها: اذهبى بسلام وإله إسرائيل يعطيك سؤلك الذى سألتِ من لدنه. وكان أن حملت حنَّة وولدت ولدا دعت اسمه «صموئيل» قائلة لأنى من الرب سألته. الرب سامع» أى «شموئيل». وبعد أن فطمته صعدوا به إلى شيلوه ومعهم ٣ ثيران أحدها محرقة لتكريس صموئيل واثنان للذبيحة السنوية.

وصلَّت حنة وترنَّمت بهذا النشيد (١ صموئيل ٢:١ مع اختصاره):

– فرح قلبى بالرب. ارتفع قرنى بالرب. اتسع فمى على أعدائى .

– ليس قدوس مثل الرب لأنه ليس غيرك وليس صخرة مثل إلهنا .

– لا تكثروا الكلام العالى المستعلى ولتبرح وقاحة من أفواهكم .

– لأن الرب إله عليم وبه توزن الأعمال .

– إن العاقر ولدت وكثيرة البنين ذبلت .

– الرب يُميت ويُحيى. يُهبط إلى الهاوية ويُصعد .

– الرب يُفقِر ويُغنى. يضع ويرفع. ويُقيم المسكين من التراب .

ولما صار صموئيل صبيا تركه والده فى شيلوه مع الكاهن عالى ليخدم الرب. وكانت والدته حنة تصنع له كل سنة جُبَّة صغيرة تعطيها له عند صعودها إلى شيلوه لتقديم الذبيحة السنوية.

بداية الوحى لصموئيل :

وحينما كان صموئيل يناهز ١٢ عاما. وفى إحدى الليالى قبيل الفجر وبينما هو نائم فى الهيكل الذى به التابوت سمع صوتا يناديه فظن أنه عالى الكاهن ينادى عليه فذهب إليه ولكنه أخبره أنه لم ينادِ عليه. وتكرر هذا الشيىء مرتين أخريين. وأدرك عالى الكاهن أن هذا الصوت

وحى من الله لإخباره بشيىء ما. وفى المرة الرابعة أُوحِيَ لصموئيل ما الله فاعله من القضاء على بيت عالى الكاهن من أجل الشر الذى يعمله بنوه ولأنه لم يكن جاداً فى ردعهم وكان الواجب عليه عزلهم من الكهنوت وأن ذنبه هذا لا يُكفَّر عنه بذبيحة أو بتقدمة. وفى الصباح قام صموئيل وفتح أبواب بيت الرب كالمعتاد وخاف أن يخبر عالى الكاهن بالرؤيا ولكن الكاهن عالى استحلفه أن يخبره بما أُوحِيَ إليه. فأخبره صموئيل بجميع الكلام ولم يخف منه شيئا. فقال عالى: هو الرب. ما يَحْسُنُ فى عينيه يعمل.

من هذا الوقت بدأت نبوءة صموئيل، وكبر صموئيل وكان الرب معه. وكان يتبع شريعة الرب ولا يحيد عنها. وعرف جميع الشعب من دان فى أقصى الشمال إلى بئر سبع فى أقصى الجنوب أن صموئيل قد اعتُمِدَ نبيا من قِبَل الرب.

بنو إسرائيل يحاربون الفلسطينيين (شكل ٢٠) :

كان عمر صموئيل حوالى ٢٥ عاما حينما كان شمشون يشن غاراته على الفلسطينيين. وكان الفلسطينيون بعد قتال شمشون لهم فى وادى سورق (ص ٥٧) قد جمعوا قواتهم فى «**أفق**» عند منبع نهر عكرون استعدادا لغزو المنطقة الجبلية التابعة لأفرايم. ولمجابهة هذا التهديد فإن بنى إسرائيل أقاموا معسكرا وحامية فى «**حجر المعونة** Ebenezer » وهى الآن عزبة سارتا ٥كم شرقى أفق. وانهزم بنو إسرائيل وقُتِل منهم ٤٠٠٠ رجل. واجتمع شيوخ إسرائيل وتشاوروا فى أمر الهزيمة واستقر رأيهم على أن يُحْضِروا تابوت عهد الرب ليكون فى وسطهم وقت القتال ليجلب لهم النصر. ويرى المفسِّرون (تفسير الكتاب المقدس جـ ٢ ص ٩٧) أن بنى إسرائيل لم يفطنوا إلى أن هزيمتهم كانت بسبب ابتعادهم عن الله وأن مجرد إحضار التابوت لا يعنى أن الرب سيكون معهم. وجاء ابنا عالى الكاهن حفنى وفينحاس مع التابوت. وعند دخول التابوت هتف جميع بنى إسرائيل هتافا عظيما حتى ارتجَّت الأرض. وأعطى وجود التابوت بنى إسرائيل حماسا. وسمع الفلسطينيون صوت هتافهم وعلموا أن تابوت الرب جاء. فخاف الفلسطينيون ولكنهم مالبثوا أن تشجَّعوا ودارت المعركة وانهزم بنو إسرائيل وسقط منهم – كما تقول التوراة – ٣٠,٠٠٠ قتيلا ومات ابنا عالى الكاهن – حفنى وفينحاس – وأَخَذَ الفلسطينيون تابوت عهد الرب. وأسرع رجل إلى شيلوه وأخبر عالى الكاهن بموت ابنيه وأَخْذِ الفلسطينيين للتابوت . وكان عالى ابن ٩٨ سنة فلما سمع بما حدث سقط عن الكرسى ومات لساعته بعد أن قضى لإسرائيل ٤٠ سنة.

التابوت فى يد الفلسطينيين :

وتابع الفلسطينيون الحرب وتقدموا نحو شيلوه فدمَّروها تماما. وقتلوا الكهنة ولكن صموئيل أفلح فى إنقاذ أوانى الهيكل المقدسة وانسحب الفلسطينيون آخذين معهم التابوت إلى أشدود. وأشدود كما سبق أن ذكرنا (ص ١١) إحدى مدن الفلسطينيين الخمس الرئيسية وكان بها

هيكل به تمثال كبير للإله «داجون». ووضع الفلسطينيون التابوت فى هيكل داجون أمام تمثال داجون مباشرة. وفى الصباح وجدوا تمثال داجون ساقطا على وجهه إلى الأرض أمام التابوت. فأخذوا داجون وأقاموه مكانه وفى صباح اليوم التالى وجدوا التمثال مرة ثانية وقد سقط على وجهه أمام التابوت ويداه مقطوعتان على عتبة الهيكل. ومن هنا نشأت العادة الوثنية والتى كانت منتشرة عند الشعوب التى كانت تجاور إسرائيل فى ذلك الوقت من أن كهنة داجون أو أى من الداخلين إلى بيت داجون لا يدوسون على عتبة الهيكل لأنها قد تقدَّست بوجود يدى تمثال داجون المقطوعتين عليها.

وتقول التوراة (١ صموئيل ٥:٦): «وثقلت يد الرب على الأشدوديين وضربهم بالبواسير فى أشدود وتخومها. ولما رأى أهل أشدود الأمر كذلك قالوا لا يمكث تابوت إله إسرائيل عندنا لأن يده قد قست علينا وعلى داجون إلهنا. فأرسلوا وجمعوا جميع أقطاب الفلسطينيين إليهم وقالوا ماذا نصنع بتابوت إله إسرائيل. فقالوا لينقل التابوت إلى «جت» فنقلوا التابوت إلى «جت». بعض الأطباء يرون أن ما أصاب الفلسطينيين هو طاعون من النوع الذى يصيب الغدد الليمفاوية Bubonic plague وخاصة غدد الفخذ والحوض فيسبب انسداد الأوردة وينتج عن ذلك دوالى فى الرجلين وبواسير فى الشرج. ويرى جاميسون وفاوست (تفسير الكتاب المقدس. ص٣٤٢) أن الكلمة الأنسب هى دمامل Boils أو أورام Tumours ناتجة أيضا عن الطاعون الدرنى.

بعد أن وصل التابوت إلى جت أصاب أهلها الطاعون كما حدث فى أشدود فأرسلوا التابوت إلى «عكرون أو عقرون» Ekron . ولم يرضَ به العقرونيون خوفا من أن يصيبهم ما أصاب أهل المدينتين السابقتين. وأخيرا استقر رأى الفلسطينيين على أن يُعيدوا التابوت إلى إسرائيل بعد أن ظل فى حوزتهم ٧ أشهر.

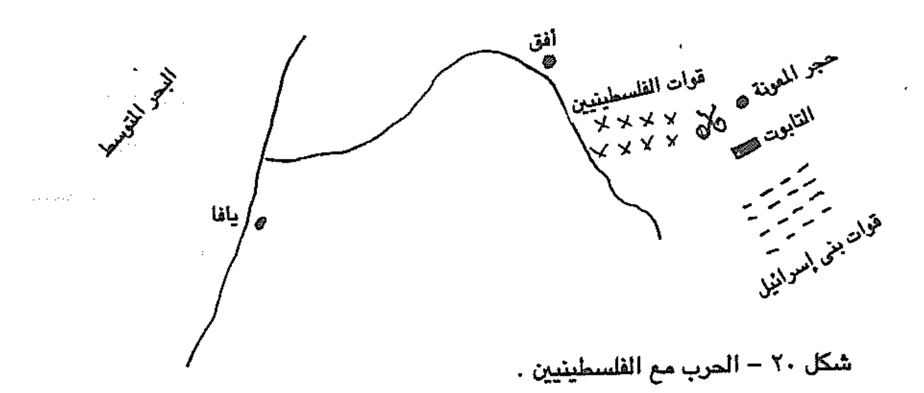
مما لاشك فيه أن الفلسطينيين بعد استلائهم على التابوت فتحوه ولعلهم كانوا يتوقعون – كوثنيين – أن يجدوا بداخله تمثالا من الذهب للإله الذى يعبده الإسرائيليون. ولكنهم وجدوا بداخله «عصا» هى عصا موسى عليه السلام. وعصا هارون التى أفرخت (الجزء الرابع ص ١٠٥٥) ولوحين من الحجارة مكتوب عليهما كتابة لم يفهموا معناها. والتوراة التى كتبها موسى بيده قبل وفاته. وجرةً صغيرة بها ٣ أرطال من المن. ولعلهم عجبوا أن يحتفظ بنو إسرائيل بهذه الأشياء «العادية» ويقدسوها هذا التقديس الشديد. ولكنهم أيقنوا أن إله إسرائيل إله قوى قادر بدليل الأوبئة التى أصابتهم.

الفلسطينيون يعيدون التابوت :

قلنا إن الفلسطينيين قرروا إعادة التابوت لبنى إسرائيل. كما رأوا ضرورة تقديم قربان إثم كفارة عن الذنب الذى اقترفوه بأخذهم التابوت . وحسب الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت أن

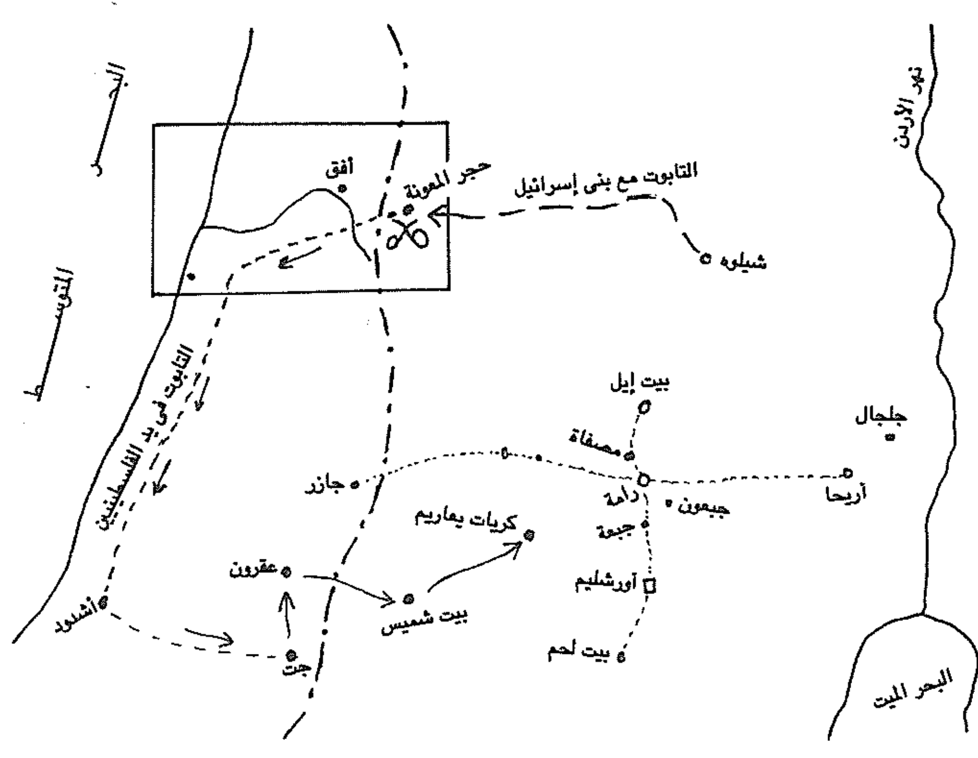
يصنعوا تقدمة المثل بالمثل. فمن المعروف أن الطاعون مرض تنقله الفئران للإنسان. فإذا صنعوا تماثيل من ذهب للفئران وأرسلوها خارج البلدة فإن الفئران ستترك البلدة ويرتفع عنهم الطاعون. لذلك فإنهم صنعوا خمسة تماثيل ذهب للأورام وخمسة تماثيل ذهب للفئران - حسب عدد مدن الفلسطينيين الرئيسية الخمس - وصنعوا عربه جديدة بعجلات لم تستعمل لأى غرض من الأغراض فى الحقل أو نقل أو خلافه. تقودها بقرتان مرضعتان لم يَعْلُهما نير ولم تعملا من قبل فى حراثة الأرض أو أى عمل من أعمال الحقل. وربطوا البقرتين إلى العربة ثم وضعوا التابوت على العربة ومعه قربان الإثم فى صندوق بجانبه. وقال كهنة الفلسطينيين: تضعون العربية على أول الطريق ولا توجِّهوها أنتم. فإن صعدت فى الطريق إلى بيت شمس دلَّ ذلك على أن هذه إرادة الرب لإرجاع التابوت. وإلا فإن الطاعون الذى أصابهم كان مصادفة ولا علاقة له باستيلائهم على التابوت. وفعل الرجال كما أمرهم الكهنة ووجدوا أن البقرتين سارتا فى طريق بيت شمس ولم تحيدا عنه يمينا أو شمالاً. وبيت شمس أو بيت شميس هى تل الرميلة الحالية وتقع ٢٥كم غربى أورشليم. وكان أهل القرية يعملون فى الحقل فرفعوا أعينهم ورأوا التابوت وفرحوا به وسارت العربية حتى أوقفها حجر كبير فى أحد الحقول. كان وقت الحصاد وهذا ما جعل الفرحة بالنسبة لهم فرحتين. فرحة بالحصاد وفرحة بعودة التابوت. وكان أنه لما توقفت العربية فكُّوا البقرتين واستعملوا خشب العربة محرقة وذبحوا البقرتين قربانا للرب ولو أن هذا مخالف لشروط القربان إذ تنص الشريعة (لاويين ١:٣ ، ١٩:٢٢) على أن يكون القربان ذكرا صحيحا من البقر أو الغنم أو المعز. ولكن كانت هاتان البفرتان استثناءً واعتُبرتا قربانا صحيحا حيث نذرهما مُقَدِّموهما كقربان للرب. وأخذوا أيضا القرابين الذهبية وهى نماذج الفئران الخمسة ونماذج الأورام الخمسة قربانا عن مدن الفلسطينيين الخمس الرئيسية.

ويبدو أن أهل بيت شمس فتحوا التابوت ليروا ما بداخله وكان هذا ممنوعا على الشعب لذلك فقد حكم الله على عدد منهم بالموت. تقول التوراة (١ صموئيل ١٩:٦): «وضرب أهل بيت شمس لأنهم نظروا إلى تابوت الرب وضرب من الشعب ٥٠,٠٧٠ رجلا» وقد أثار هذا الرقم مشكلة. إذ جاء فى تفسير الكتاب المقدس (جـ ٢ ص ٩٤) أن بيت شميس (بيت شمس) لم يكن فيها هذا العدد من السكان. وحتى أورشليم نفسها لم يكن بها أكثر من ٧٠,٠٠٠ نسمة. ويرى بعض المفسرين أن النسخ العبرية القديمة تجعل الرقم ٧٠ فقط بينما يرى أوزوالد أليس (المجلة الإنجيليه الربع سنوية أكتوبر ١٩٤٣) أنه ضُربَ ٥٠ رجلا من كل ألف وبذلك يكون السبعون من ١٤٠٠ نسمة وهو عدد معقول لسكان بيت شميس فى ذلك الوقت. المهم أن أهل بيت شميس قرروا عدم بقاء التابوت فى مدينتهم وأرسلوا رسلا إلى قرية «يعاريم» أو «كريات بعل» (حاليا تل كريات يعاريم ١٥كم غرب أورشليم) ليأخذوا التابوت. فجاء أهل يعاريم



شكل ٢٠ – الحرب مع الفلسطينيين .

أ – الحرب الأولى : قتل من بنى إسرائيل ٤٠٠٠ .
ب – الحرب الثانية : قتل من بنى إسرائيل ٣٠,٠٠٠ واستولى الفلسطينيون على التابوت .



شكل ٢١ – مسيرة التابوت .

وأصعدوا تابوت الرب وأدخلوه إلى بيت أبيناداب الذى قبل أن يستضيف التابوت. وتقدَّس ابنه أليعازار لأجل حراسة التابوت. أما لماذا لم يُرجع التابوت إلى شيلوه حيث كان قبل أن يقع فى أيدى الفلسطينيين فذلك لأن شيلوه نفسها كانت قد دُمِّرت وكان الفلسطينيون يحتلونها. لذلك بقى التابوت فى قرية يعاريم وظل هناك لمدة ٢٠ سنة.

صموئيل يدعو للإصلاح الديني :

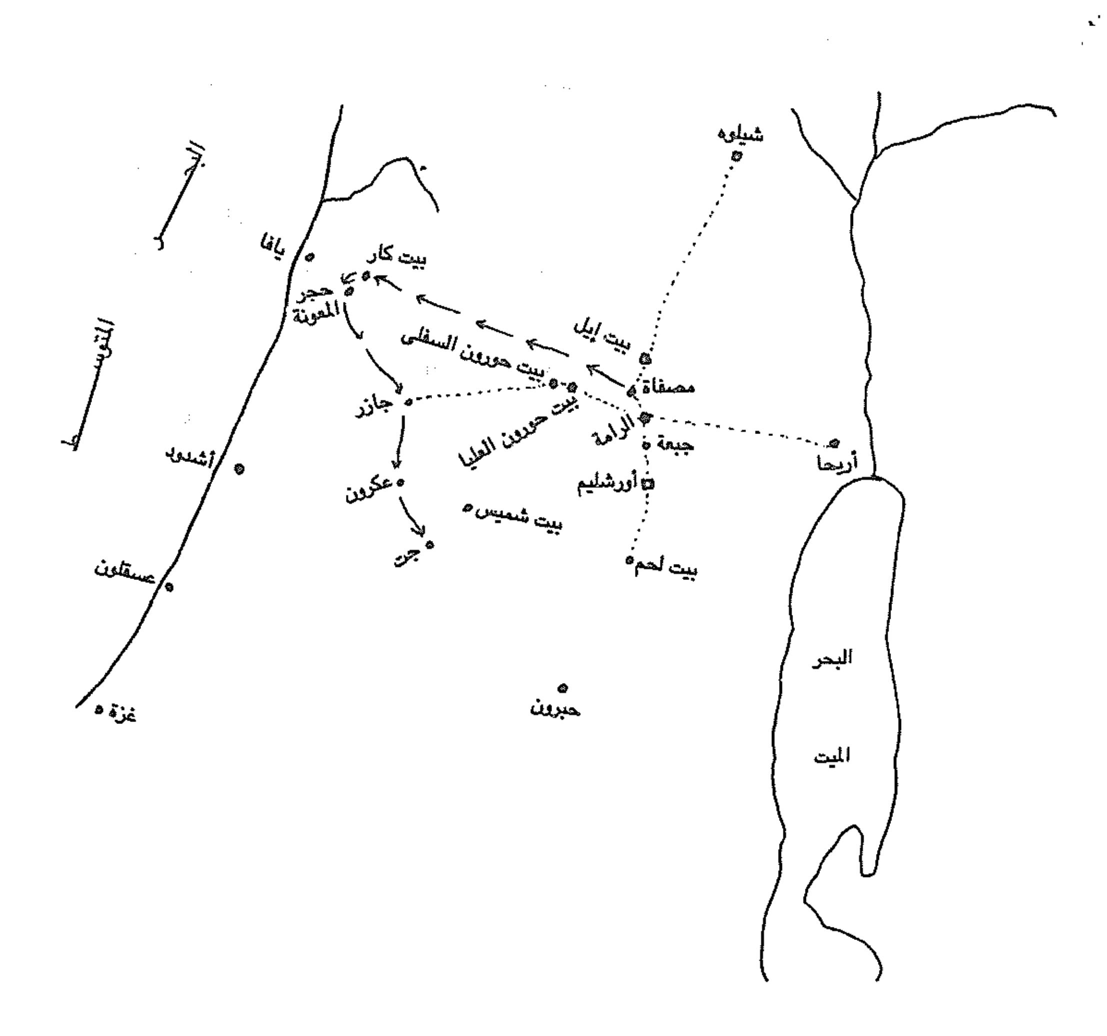
كانت عبادة الأصنام قد انتشرت فى بنى إسرائيل متأثرين بما عليه الفلسطينيون والدول المجاورة وكان الظلم متفشيا وكان الفلسطينيون متسلطين عليهم ويأخذون منهم الجزية وبدأ صموئيل يدعو للإصلاح الدينى بالرجوع إلى عبادة الرب إله السموات والأرض وكان يتجوَّل مناديا بالتوبة. وكلَّم كل بنى إسرائيل قائلا (١ صموئيل ١٣:٧) **«إن كنتم بكل قلوبكم راجعين إلى الرب فانزعوا الآلهة الغريبة والعشتاروث من وسطكم وأعِدُّوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده فينقذكم من يد الفلسطينيين».**

كان صموئيل قد اتخذ من «الرامة» مقرا له (شكل ٢٢). وهى بلدة حصينة واستراتيجية إذ تقع على الطريق المستعرض من أريحا إلى جازر والطريق الرأسى من شيلوه الى بيت لحم. ولكن مقتضيات وظيفته كنبى كانت تستلزم أن يتجول من الرامة إلى بيت إيل والمصفاة وغيرها من المدن.

الحرب مع الفلسطينيين :

جمع صموئيل بنى إسرائيل فى المصفاة وصلَّى من أجلهم وصاموا ذلك اليوم واعترفوا بخطيئتهم فى حق الرب وعزموا على التوبة. وسمع الفلسطينيون بتجمع بنى إسرائيل فى المصفاة فظنوه تجمُّعًا استعدادا للحرب فصعدوا لمواجهتهم. وسمع بنو إسرائيل بصعود الفلسطينيين إليهم فخافوا وقال بنو إسرائيل لصموئيل أن لا يكف عن الصلاة والضراعة إلى الله حتى يخلِّصهم من أيدى الفلسطينيين. فأخذ صموئيل حَمَلا رضيعا وأصعده محرقة بتمامه إلى الرب وأخذ يدعو الله أن يكف بأس الفلسطينيين عنهم. ووقعت المعركة وتدخَّل الرب لنصرة بنى إسرائيل. فأرعدت السماء بصوت عظيم. وساد الذعر فى وسط الفلسطينيين وانتهز بنو إسرائيل فرصة اضطراب عدوهم فكَرُّوا عليهم وهزموهم وطاردوهم وأخذ صموئيل حجرا ونصبه وسماه حجر المعونة Ebenezer وقال إلى هنا أعاننا الرب وذَلَّ الفلسطينيون. واستعاد بنو إسرائيل مدن «عكرون» و «جت».

كان بنو إسرائيل قد تعبوا من كثرة هجوم شعوب الدول المجاورة عليهم: أدوم . مؤاب . ملك حاصور. المديانيون. العمونيون وأخيرا الفلسطينيون. وأرجعوا ذلك إلى تفرُّقهم. فكل سبط استأثر بقطعة من الأرض فصاروا أمما صغيرة متفرِّقة. وكل سبط يكتفى بالحفاظ على كيانه



شكل ٢٢ – الرامة مقر صموئيل النبى والحرب مع الفلسطينيين .

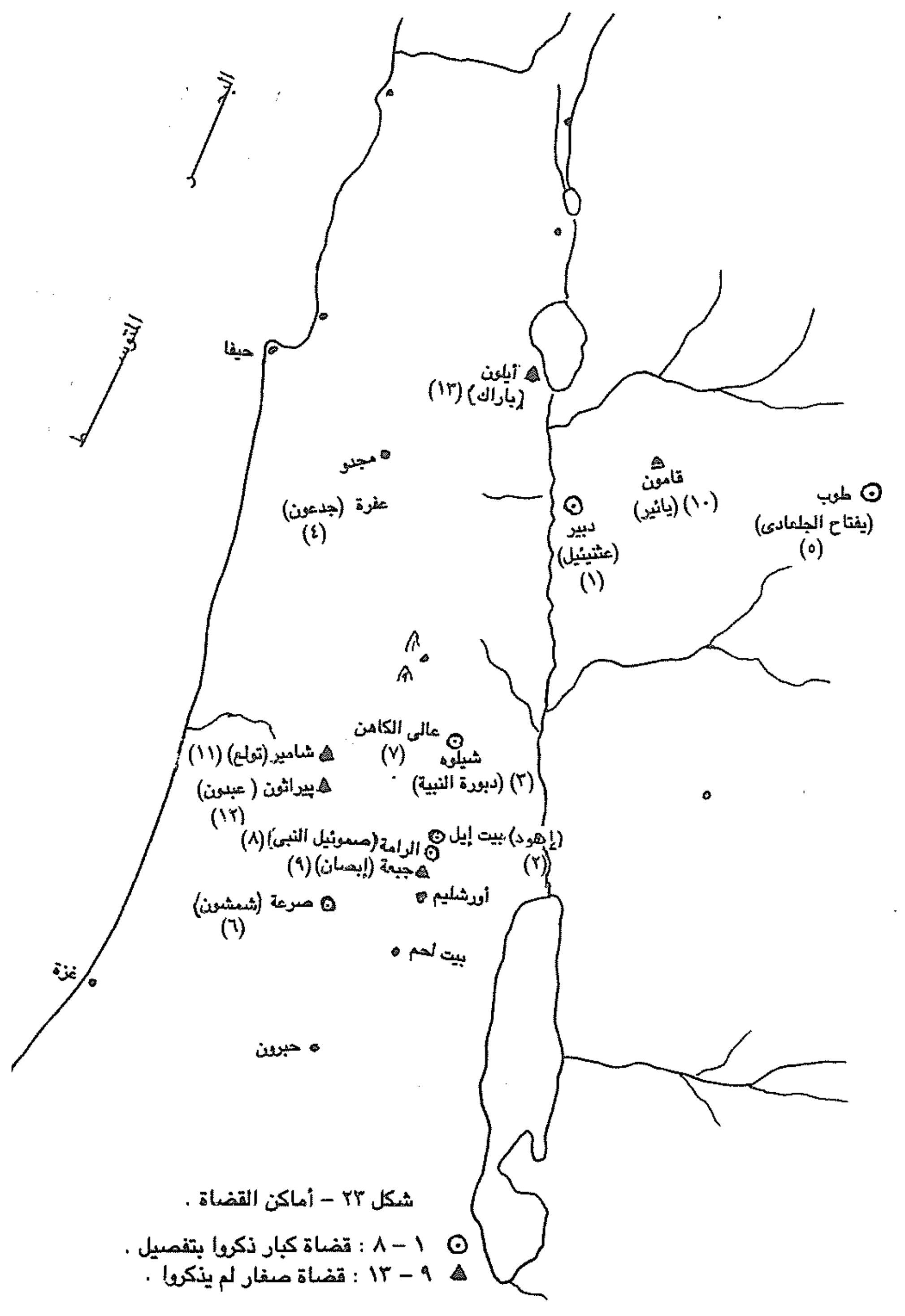
ويصدّ أعداءه دون أن يبالى بحالة الأسباط الأخرى. فنادراً ماكان سبط يهب للدفاع عن سبط مجاور تعرّض لغزو. وفكّروا فى أنهم لو اتحدوا جميعا فى دولة واحدة يحكمها حاكم واحد – مثل الدول المحيطة بهم – يُسَيِّر أمورها فيزيد هذا من قوّتهم. فتخشاهم الدول المجاورة إذ يكون فى مقدور الملك أن يُجَنِّد جيشا من جميع الأسباط. فيكون جيشا كبيرا يحمى أى بقعة تتعرض لغزو خارجى.

واستقر رأى بنو إسرائيل على أن يطلبوا من نبيهم صموئيل أن يجعل لهم ملكا فاستجاب لهم. وهكذا توحّدت دويلات الأسباط فى كيان واحد ووُلدت «مملكة اسرائيل».

ويمكننا أن نقسم عصر الملكية الى قسمين :

١ – **الملكية الأولى** : فيها يتولى المَلِك الشئون الإدارية والحربية. وكان دائما يوجد نبى. له الزعامة الدينية وله «وصاية على العرش» إذ أن الملك إنما يجلس على العرش ويبايعه الشعب بأمر من هذا النبى.

٢ – **الملكية المتأخرة** : فى هذه الفترة حكم داود وسليمان عليهما السلام واجتمع فى شخص كل منهما الملك والنبوّة كما سيأتى فيما بعد.



شكل ٢٣ – أماكن القضاة .

⊙ ١ – ٨ : قضاة كبار ذكروا بتفصيل .
▲ ٩ – ١٣ : قضاة صغار لم يذكروا .

الفصل الرابع

الملكية الأولى

يشير القرآن الكريم إلى الانتقال من عصر «الأسباط الأمم» الواردة فى قوله تعالى: «**وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما**» (١٦٠ - الأعراف) إلى نظام الملكية فى قوله تعالى :

«**ألم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله. قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا. قالوا وما لنا ألاَّ نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا**» . (٢٤٦ - البقرة) .

وتقول التوراة: (١ صموئيل ٣:٨) «فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل فى الرامة وقالوا له هوذا أنت قد شِخت وابناك لم يسيروا فى طريقك بل ساروا وراء المكسب وأخذا الرشوة وعوَّجا القضاء. فالآن اجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب. فساء الأمر فى عينى صموئيل إذ قالوا اعطنا ملكا يقضى لنا. وصلَّى صموئيل إلى الرب فقال الرب لصموئيل: اسمع لقول الشعب فى كل ما يقولون لك. لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياى رفضوا».

وهذه الجملة الأخيرة تبين لنا السبب الذى من أجله «ساء الأمر فى عينى صموئيل» إذ أن بنى إسرائيل أرجعوا ضعفهم أمام الشعوب الأجنبية إلى نظام القضاة. مع أن القضاة أشخاص مختارون من قِبَل الرب أو يختارهم أنبياء بناء على إيحاء من الرب. ولم يفطن بنو إسرائيل إلى أن ضعفهم ناتج عن بعدهم عن الله وإهمالهم تطبيق شريعة الرب. وضلالهم بعبادة آلهة أخرى غير الله. وكانت إرادة الله أن يأمر صموئيل بأن يستجيب لمطلبهم ويعين لهم ملكا حتى يتأكد لهم أن نظام الحكم فى حد ذاته ليس هو السبيل لتحقيق النصر. بل إن المَلِكَ نفسه قد يطغى ويُفسِد ويكون وبالا على شعبه. فيريد الشعب التخلص منه بعد أن كانوا هم البادئين بطلَبه. ولم تكن الشريعة الموسوية تعارض قيام الملكية إذ جاء فى وصية موسى الأخيرة (تثنية ١٤:١٧ - انظر أيضا الجزء الرابع ص ١١٠٩): «متى أتيت إلى الأرض التى يعطيك الرب إلهك وامتلكتها وسكنت فيها. فإن قلتَ اجعل علىَّ ملكا كجميع الأمم الذين حولى فإنك تجعل عليك ملكا الذى يختاره الرب إلهك من وسط إخوتك تجعل عليك ملكا». فهذه الفقرة تسمح بقيام الملكية على أنها خيار مسموح وليس شرطا واجب الاتباع. إلا أن موسى عليه السلام أراد أن يحصِّن بنى إسرائيل ضد طغيان الملوك فاستمر قائلا: «ولكن لا يكثِّر له الخيل ولا يكثر له نساء لئلا يزيغ قلبه. وفضة وذهبا لا يكثر له كثيرا. وعندما يجلس على كرسى

مملكته يكتب لنفسه نسخة من هذه الشريعة فى كتاب من عند الكهنة اللاويين فتكون معه ويقرأ فيها كل أيام حياته لكى يتعلم أن يتَّقى الرب إلهه ويحفظ جميع كلمات هذه الشريعة وهذه الفرائض ليعمل بها. لئلا يرتفع قلبه على إخوته ولئلا يحيد عن الوصية يمينا أو شمالا. لكى يطيل الأيام على مملكته هو وبنوه فى وسط إسرائيل». كذلك فإن صموئيل النبى راح يوضح لهم مساوىء الحكم الملكى (١ صموئيل ٨:١٠) «فكلَّم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكا بجميع كلام الرب وقال هذا يكون قضاء الملك الذى يُملَّك عليكم. يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه. ويجعل لنفسه أتباعا ويعملون عدة حربه ويأخذ بناتكم عطَّارات وطباخات وخبَّازات. ويأخذ من حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده. ويُعشِّر زروعكم (أى يأخذ العُشر) وكرومكم ويعطى لعبيده..». واستمر صموئيل يبين لهم أن طغيان الملوك قد يجلب عليهم مساوىء «فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم. فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا لا بل يكون علينا ملك. فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا. فسأل صموئيل الرب عما يفعل فقال الرب لصموئيل. اسمع لصوتهم وملِّك عليهم ملكا».

يقول القرآن الكريم :

«وقال لهم نبيهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكا. قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه. ولم يؤت سعة من المال. قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم. وقال لهم نبيهم إن آية ملكة أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة. إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين» . (٢٤٧ - ٢٤٨ - البقرة).

أما التوراة فقد أسهبت فى وصف كيفية إبلاغ صموئيل لبنى إسرائيل بمن وقع عليه اختيار الرب ليكون ملكا. والحقيقة أن اختيار شخص بالذات ليكون ملكا على بنى إسرائيل لم يكن أمرا سهلا. ذلك لأن اختيار شخص من أحد الأسباط القوية قد يثير غيرة الأسباط الأخرى القوية. الأمر الذى قد يؤدى إلى حرب أهلية. ولا يخفى ماكان عليه الأسباط من تنافر وتنازع فيما بينهم. وكان سبط بنيامين من أضعف الأسباط. وكانت الأرض التى خصصت له من أصغر الأراضى مساحة لاتزيد عن شريط ضيق لا يزيد عرضه عن ٨كم وطوله ٢٥-٣٠كم محصور بين يهوذا جنوبا وأفرايم شمالا. وسبق أن ذكرنا (ص٦٣) أن الأسباط الأخرى تكاتفوا لتأديبهم وقتلوا منهم ٢٦,١٠٠ رجل ولم يبق من رجالهم إلا ٦٠٠ فقط. ولم يكن اختيار ملك من سبط ضعيف - مثل سبط بنيامين - ليثير حساسية لدى الأسباط الآخرين.

تقول التوراة (١ صموئيل ٩:١) «إن رجلا من سبط بنيامين – الحفيد الخامس لبنيامين – هو قيس وكان له ابن اسمه شاول».

بنيامين ← بكورة ← ضرور ← أبيئيل ← قيس ← شاول .

وكان شاول حسن المنظر طويل القامة وليس هناك من هو أكثر منه مهابة. وضلَّت أُتُن قيس (أُتُن جمع أتان وهى أنثى الحمار) فطلب من ابنه شاول أن يذهب للبحث عنها مع غلام له. فراحا يفتِّشان عنها فى جبل أفرايم فلم يجداها. وذهبا للبحث فى أرض بنيامين فلم يجداها أيضا هناك. ولما كانا قرب مدينة الرامة قيل لهما إن فى المدينة رجل مُكرَّم وهو رائى ونُصحوا بأن يذهبا إليه علَّه يستطيع أن يخبرهما بمكان الأتن الضالة. والرائى هو الاسم الذى كانوا يطلقونه على الشخص المعروف عنه أنه يستطيع الإخبار عن مشيئة الله فيما يسأل الناس عنه. وقد يكون نبيا أيضا. وكان الرب قد أوحى إلى صموئيل قائلا: غداً فى مثل ذلك الوقت أرسل إليك رجلا من أرض بنيامين فامسحه رئيسا لشعب إسرائيل فيخلِّص الشعب من يد الفلسطينيين.

وكان اليوم الذى دخل فيه شاول وغلامه المدينة يوم ذبيحة للشعب والشعب لا يأكل حتى يأتى صموئيل ويبارك الذبيحة. فلما كان اليوم التالى. وفيما كان صموئيل خارجا بعد أن بارك الذبيحة قابله شاول وأخبره الوحى أن هذا الرجل هو المختار من الرب ليكون رئيسا لشعب إسرائيل. فطلب صموئيل من شاول وغلامة أن يصعدا معه ليأكلا. وطلب من شاول ألا يقلق على الأتن الضالة منذ ٣ أيام لأنها قد وجدت وأدخلهما إلى بيته وأعطاهما مكانا فى رأس المدعوِّين وهم نحو ثلاثين رجلا من الرؤساء. ووضع أمامه أطيب الطعام وقال له إن كل شىء شهى هو له وكان يكلمه بكل توقير واحترام. فقال شاول لصموئيل: ما أنا إلا بنياميني من أصغر أسباط إسرائيل وعشيرتى من أصغر عشائر بنيامين فلماذا تكلمنى بهذا الكلام؟

وفى اليوم التالى أخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأس شاول وقبَّله وقال: إن الرب قد مسحك على إسرائيل رئيسا. واستدعى صموئيل الشعب إلى المصفاة وقال لبنى إسرائيل: هكذا يقول الرب إله إسرائيل وأنه اختار سبط بنيامين من أسباط بنى إسرائيل ثم نادى على شاول بن قيس فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب لايكاد أحد أن يصل إلى كتفه. فقال صموئيل للشعب: أرأيتم الذى اختاره الرب. إنه ليس كمثله فى جميع الشعب. وأنه هو الذى سيخلِّصهم من يد الفلسطينيين. ولكن فريقا من بنى إسرائيل اعترضوا على هذا الاختيار ولعلهم كانوا من أحد الأسباط الأقوياء ورأوا أنهم أجدر بالملك منه.

«قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال. قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم».

(٢٤٧ – البقرة).

وتقول التوراة (١ صموئيل ١٠:٢٧) «فقالوا كيف يخلصنا هذا. فاحتقروه ولم يقدِّموا له هدية ولكنه لم يأبه لهم». ولإسكات ألسنة المعارضين أراد الله أن يعطيهم آية على أن هذا هو المختار من قِبل الرب.

«وقال لهم نبيهم إن آية ملكة أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة. إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين». (٢٤٨-البقرة).

ويقول الألوسى (تفسيره . جـ ٢ ص ١٦٩) وحَمْلُ الملائكة له إما حقيقة أو مجازا. وروى عن ابن عباس قوله: جاءت الملائكة تحمل التابوت حتى وضعته بين يدى طالوت. وقال السدى: أصبح التابوت فى دار طالوت. وفى رأينا أن التابوت - بعد أن أعاده الفلسطينيون - كان قد استقر به المقام فى بلدة «يعاريم». ولعل أهلها خافوا من أن أحدا منهم قد لا يقدِّس التابوت التقديس الكافى فتحيق بهم النكبات. ففعلوا كما فعل الفلسطينيون من قبل. فوضعوا التابوت على عربة تجرها أبقار وتركوها تسير كيفما تشاء . فكان أن وجَّهتها الملائكة إلى حيث كان شاول بالمصفاة . فرضى الناس بشاول ملكا وكما تقول التوراة: فهتف كل الشعب وقال ليحيى الملك.

وكان شاول حينئذ ابن ٣٢ سنة (تفسير الكتاب المقدس جـ ٢ ص ٩٩).

طالوت أم شاول ؟

زعم بعض المستشرقين المغالين فى إنكارهم للإسلام أنه عليه الصلاة والسلام أخطأ فى الاسم إذ قيلت له شاول فوقعت فى سمعه طالوت ولم يتثبَّت. والافتراء فى هذا الزعم واضح إذ شتان بين طالوت وشاول. وأنصف آخرون بعض الإنصاف فقالوا إنه علم من وصف هيئة شاول فى التوراة إفراطه فى الطول فلقَّبه بكنية يستفاد منها المبالغة فى الطول فقال «طالوت».

ويرى الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن. جـ ٢ ص ١٣٤) أن اسم «طالوت» هو إعجاز من القرآن الكريم من عدة وجوه: منها أن شاول فى العبرية تعنى سُؤْل فهى اسم المفعول من شأل العبرى أى سأل العربى وتقول سألت الله أى طلبت من الله. وسُؤل من الله أى طلبة من الله. واسم «طُلبه» شائع فى ريف مصر. وتكون إجابة السؤل من الله أى إجابة الطلبة من الله هى مِنَّة وفضل. وطال الله على عبده بإجابة سؤله. فكأن بنى إسرائيل لما سألوا نبيهم صموئيل أن يعيِّن لهم ملكا طال الله عليهم وأجاب سؤلهم. وكان الملك هو طالة من الله عليهم أى طالوت من الله. كما أن الاسم الذى ورد فى القرآن الكريم يتضمَّن ما كانت عليه هيئة هذا الملك وصفته الجسدية البالغة الطول. فقد كان شاول رجلا طُوالا مفرطا فى الطول لا يجاوز أحد من قومه كتفيه. طال يطول طُولا وطَولاً فهو طالوت. أما لماذا لم يرد الإسم فى القرآن الكريم كما ورد فى التوراة «شاول» فلأن «شَاوَلَ» العربية تعنى «هايج» وتشاول القوم.

رفع كل فريق السلاح فى وجه الفريق الآخر. والعقرب تشول بذنبها. وشوَّلت الناقة أو شوَّل لبنها نقص وجف. والشول بقية الماء فى السقاء وشوَل القوم خفَّت منازلهم أو تفرَّقت كلمتهم أو ذهب عِزُّهم (القاموس المحيط جـ ٣ ص ٤٠٤) وهذا يُبعد الذهن عن المعنى الحقيقى لاسم شاول الملك. كذلك فإن اسم «شاول» تكتب أحيانا «شاؤول» وهى فى العربية ساؤول أى كثير السؤال وهو عكس المعنى الحقيقى للإسم. من هذا يكون لفظ «طالوت» الذى أطلقه القرآن الكريم هو أنسب تعريب لاسم «شاول» حيث أنه يعنى: سؤل من القوم . ومنة وطالة من الله إجابة لمطلبهم وفيه صفته الجسدية المفرطة فى الطول.

«إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم». (٢٤٧-البقرة).

وقُدِّمت البسطة فى العلم على البسطة فى الجسم إيماء إلى أن الفضائل العلمية أعلى وأشرف من الفضائل الجسمية. ولعل ما حباه الله من طول فى الجسم كان مطلوبا لأن بعض القبائل التى قاتلها كانوا من العمالقة وكانوا ضخاما ذوى بسطة فى الجسم. وكان ملكهم «جالوت» طويلا أيضا فكان المناسب أن يكون ملك إسرائيل موازيا له فى الطول.

شاول يحكم من جبعة :

بعد انتخاب شاول ملكلا على إسرائيل اتخذ من جبعة قاعدة له وعاصمة لملكه. ولو أن هذا المكان «**جبعة بنيامين**» كان قد دُمِّر تماما عند حرب بنى إسرائيل مع البنيامينيين (ص ٦٣) إلا أن شاول بنى فيها حصنا وأعيد إعمارها وسُميت «**جبعة شاول**». وهى حاليا تل الفول» على بعد ٧كم شمال أورشليم شرق الطريق من أورشليم إلى شكيم (نابلس). وقد كشفت الحفريات التى أجريت بالمنطقة عن قلعة ذات حوائط سميكة ترجع إلى عهد شاول كما وجد بها بعض الأسلحة (قاموس الكتاب المقدس ص ٥٠٤).

شاول يحارب العمونيين :

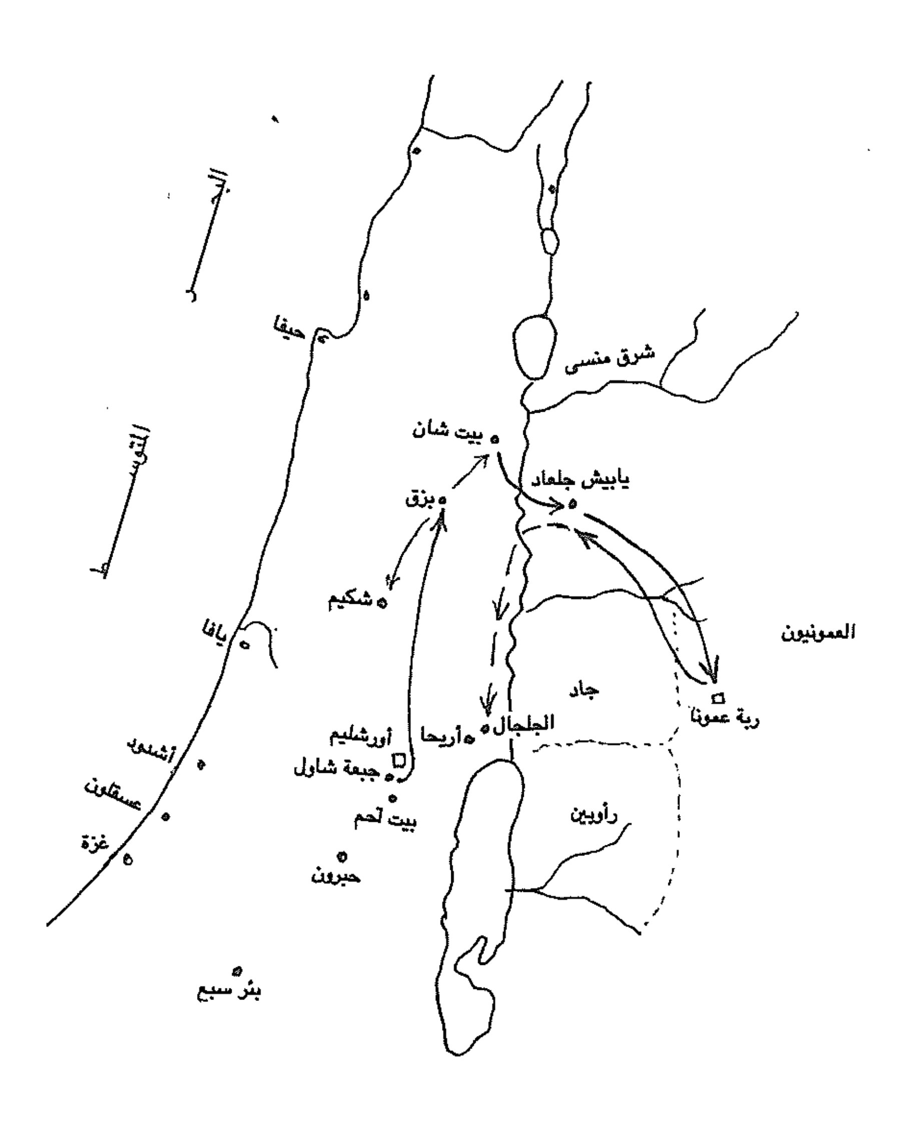
كما سبق أن ذكرنا (ص ٥٣) كان العمونيون دائما يعلنون أنهم هم الملاَّك الأصليون لأرض جلعاد – وهى الأرض شرق الأردن والتى استولى عليها موسى عليه السلام وخصصها لسبطى جاد وشرق منسىً وحاول العمونيون إجلاء هذين السبطين منها ولكنهم لم يفلحوا. ولكن لما بدأ بنو إسرائيل يعملون الشر ويعبدون الأصنام سلَّط الله عليهم بنى عمون «فحطَّموا ورضَّضوا بنى إسرائيل الذين فى أرض جلعاد». وعبروا الأردن وراحوا يغيرون على يهوذا وبنيامين وبيت أفرايم ولكن الله قيض لبنى إسرائيل يفتاح الجلعادى فهزم العمونيين. ولكن بعد أن حارب بنو إسرائيل يابيش جلعاد وقتلوا كثيرا من رجالها (كما سبق أن ذكرنا ص٦٣) ظن العمونيون أنها قد أصبحت لقمة سائغة فحاصرها «ناحاش» ملك عمون واستبدَّ بأهلها. واشترط – مقابل أن يتركهم أحياء – أن يُقَوِّر العين اليمنى من كل فرد من السكان (ولعل

الهدف هو ألا يتمكنوا من تسديد السهام أو الحرب ضده فى المستقبل) فاستمهلوه سبعة أيام للرد. وفى هذه الأثناء أرسلوا الرسل إلى باقى الأسباط يخبرونهم بمحنتهم وأرسلوا رسولا إلى جبعة شاول يخبرونه بهذا الأمر. ولما سمع شاول ذلك حمى غضبه فأخذ زوجين من البقر وقطّعه وأرسل جزءا إلى كل سبط من أسباط بنى إسرائيل قائلا: من لا يخرج وراء شاول ووراء صموئيل فهكذا يُفعل ببقره. فأجاب كل أسباط إسرائيل واجتمع له ٣٠٠,٠٠٠ رجل ومن يهوذا ٣٠,٠٠٠ فكان كل جيشه ٣٣٠,٠٠٠ رجل! وسار شاول من جبعة إلى «بزق أو بزقة» Bezek وهى على الطريق الموصل من بيت شان إلى شكيم (شكل ٢٤). وفى الصباح الباكر قسَّم شاول الجيش إلى ٣ فرق وتسللت فرقة إلى وسط المدينة. وفى جنح الليل أحاطت الفرقتان الأخريان بجيش العمونيين . وفى الصباح الباكر ضربوهم وشتتوهم حتى لم يبق منهم اثنان معا» (١ صموئيل ١١:١١). وبعد هذا الانتصار على العمونيين طلب الرجال من شاول أن يدلُّهم على من يعارضون تملُّكه عليهم حتى يقاتلوهم. فقال شاول: لا يُقتل أحد فى هذا اليوم لأنه فى هذا اليوم صنع الرب خلاصا فى إسرائيل. «وقال صموئيل للشعب هلموا نذهب إلى الجلجال ونجدِّد هناك المملكة فذهب كل الشعب إلى الجلجال وملَّكوا شاول أمام الرب وذبحوا ذبائح سلامه أمام الرب وفرح هناك شاول وجميع رجال إسرائيل » (١ صموئيل ١١:١٥).

خطبة جامعة لصموئيل النبي : (١ صموئيل ١٢)

وقال صموئيل لكل إسرائيل. هأنذا قد سمعت لصوتكم فى كل ما قلتم لى وملَّكت عليكم ملكا. والآن هوذا الملك يمشى أمامكم. وأما أنا فقد شختُ وشبتُ وهوذا أبنائى معكم. وأنا قد سرت أمامكم منذ صباى إلى هذا اليوم. هأنذا فاشهدوا علَّى قدام الرب وقدام مسيحه. ثور من أخذتُ وحمار من أخذتُ ومن ظلمتُ ومن سحقتُ ومن يد مَن أخذتُ فدية لأغضى عينَىَّ عنه فأرد لكم. فقالوا لم تظلمنا ولاسحقتنا ولا أخذت من أحد شيئا. فقال لهم: شاهدٌ الرب عليكم وشاهدٌ مسيحه اليوم هذا أنكم لم تجدوا بيدى شيئا فقالوا شاهد. وقال صموئيل للشعب: الرب الذى أقام موسى وهارون وأصعد آباءكم من أرض مصر فالآن امثلوا لأحاكمكم أمام الرب بجميع حقوق الرب التى صنعها معكم ومع آبائكم.

وذكَّرهم صموئيل النبى بنعمة الله عليهم حينما أرسل لهم موسى وهارون وخلَّصهم من الاستعباد فى أرض مصر وقادهم موسى فى سيناء واستولى لهم على الأرض شرق الأردن. ثم استكمل يشوع المسيرة وملَّكهم الأرض التى هم عليها الآن. وأنهم لما نسوا الرب وتعاليمه استعبدهم الفلسطينيون والمؤآبيون. فلما صرخوا إلى الرب أرسل لهم قضاة وأنبياء فخلَّصوهم من يد أعدائهم. ثم اختار الرب بنفسه رجلا ليصبح ملكا عليهم حسب ما طلبوا . واستمر قائلا: «إن اتقيتم الرب وعبدتموه وسمعتم صوته ولم تعصوا قول الرب. وكنتم أنتم والملك أيضا الذى



شكل ٢٤ – شاول يستعيد يابيش جلعاد .

– – – – – تجديد المملكة فى الجلجال .

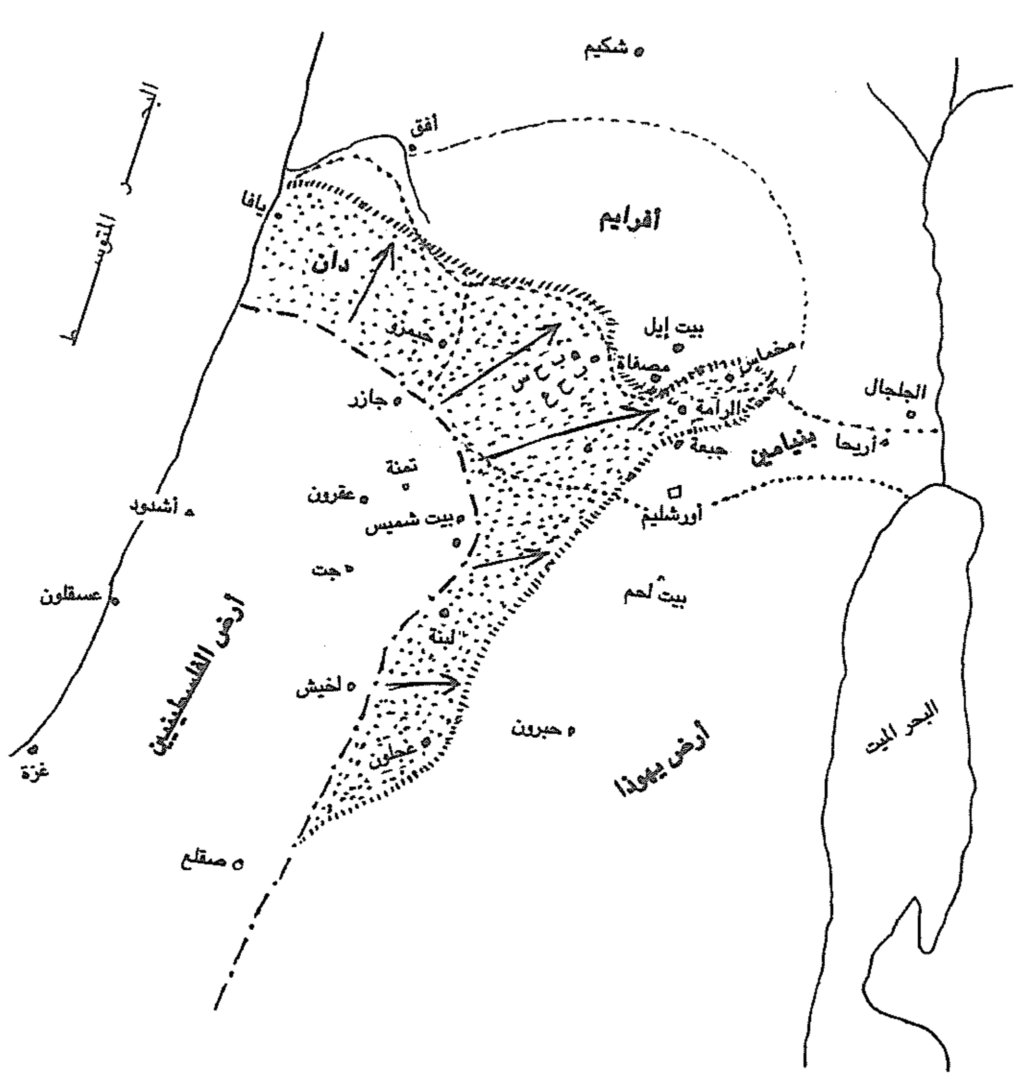
يَملِكُ عليكم وراء الرب إلهكم. ينصركم على أعدائكم. وإن لم تسمعوا صوت الرب بل عصيتم قول الرب تكن يد الرب عليكم». وليدلل لهم على أن كلامه هذا ليس مجرد تهديد وليعطيهم آية على صدق كلامه ووعيده قال لهم إن الوقت وقتُ حصاد الحنطة (أى شهر مايو) وهو ليس وقت رعود ولكنه سيدعو الرب فتكون رعود وبرق. ودعا فأعطى الرب رعوداً ومطرا وبرقًا وخاف الشعب وتأكد من صدق كلام صموئيل. وطلبوا منه أن يصلى للرب حتى لا يهلكوا. فطمأنهم وطلب منهم أن يتَّجهوا للرب بكل قلوبهم ويعبدوه بإخلاص وأن لا ينساقوا وراء أباطيل الشعوب الأخرى وآلهتها ووعدهم بأنه سيستمر فى الصلاة من أجلهم وأنهم إن عبدوا الله بإخلاص نجوا. وإن فعلوا الشر فإنهم يهلكون جميعا هم ومَلِكُهم.

طالوت يقود الحرب ضد الفلسطينيين :

كان شاول قد أمضى سنتين على مُلْك إسرائيل. ثم بدأ يعد العدَّة لحرب مع الفلسطينيين الذين كانوا يسيطرون على الجزء الغربى من أرض بنيامين ويحتلون بلدة جبعون المجاورة لجبعة بنيامين ومن ثم يسيطرون على الطرق الموصلة إلى مدنهم الكبيرة فى السهل الساحلى وكانوا ينوون التوغل شرقا فى هضبة بنيامين بغرض فصل إسرائيل عن يهوذا (شكل ٢٥). وفى الحقيقة كان بنو إسرائيل فى موقف حربى ضعيف وخاصة أن الفلسطينيين كانوا يمنعونهم من جميع أنواع الحدادة حتى لا يصنعوا سيوفا أو دروعا للحرب.

وبدأ شاول يجس نبض الفلسطينيين. فاختار ٣٠٠٠ رجلا وقسمهم قسمين: ٢٠٠٠ معه فى محماس وفى جبل أفرايم. و ١٠٠٠ مع يوناثان ابنه البكر. وقد ظهرت بطولة يوناثان وبسالته فى الهجوم على الحامية الفلسطينية فى جبعون والانتصار عليهم. وبدأ الفلسطينيون التجمع للحرب. وضرب شاول بالبوق فى جميع الأسباط كنداء للحرب واجتمع الشعب وراء شاول فى الجلجال. كانت قوة الفلسطينيين ٣٠,٠٠٠ مركبة (!!) و ٦٠٠٠ فارس وشعب كالرمل ونزلوا فى مخماس شرقى بيت أون Beth Aven وبيت أون معناه بيت الأصنام أو بيت الشر وكانت فى أرض بنيامين. ولما خصصت لسبط أفرايم لم يقدروا على الاستيلاء عليها وكان بها كثير من الأصنام (قاموس الكتاب المقدس. ص ٢٢٩). أما قرية مخماس فهى تقع على بعد ٨ كم شمال أورشليم ولايزال هناك آثار عواميد وصهاريج ترجع إلى ذلك العهد.

وأحسَّ بنو إسرائيل أن قوة الفلسطينيين كبيرة وأصيبوا بالإحباط واختبأوا فى الكهوف والآبار وبعضهم عبر الأردن إلى الضفة الشرقية. وكان شاول فى الجلجال ومعه قواته ينتظر وصول صموئيل النبى. وكانت القاعدة أن لا تبدأ الحرب قبل مباركة النبى وتقديم الذبائح للرب حتى يكون النصر حليفهم. ولعلها كانت إرادة الله فى تأخير وصول صموئيل النبى لاختبار مدى تمسك شاول بشريعة الرب وتنفيذ الشعائر الدينية بحذافيرها ولمعرفة مدى اعتماده على الرب. ولما طال الانتظار سبعة أيام ولم يصل صموئيل قال شاول: قدِّموا إلىَّ المحرقة وذبائح



شكل ٢٥ – التوسع الفلسطينى فى أرض يهوذا وبنيامين ودان .

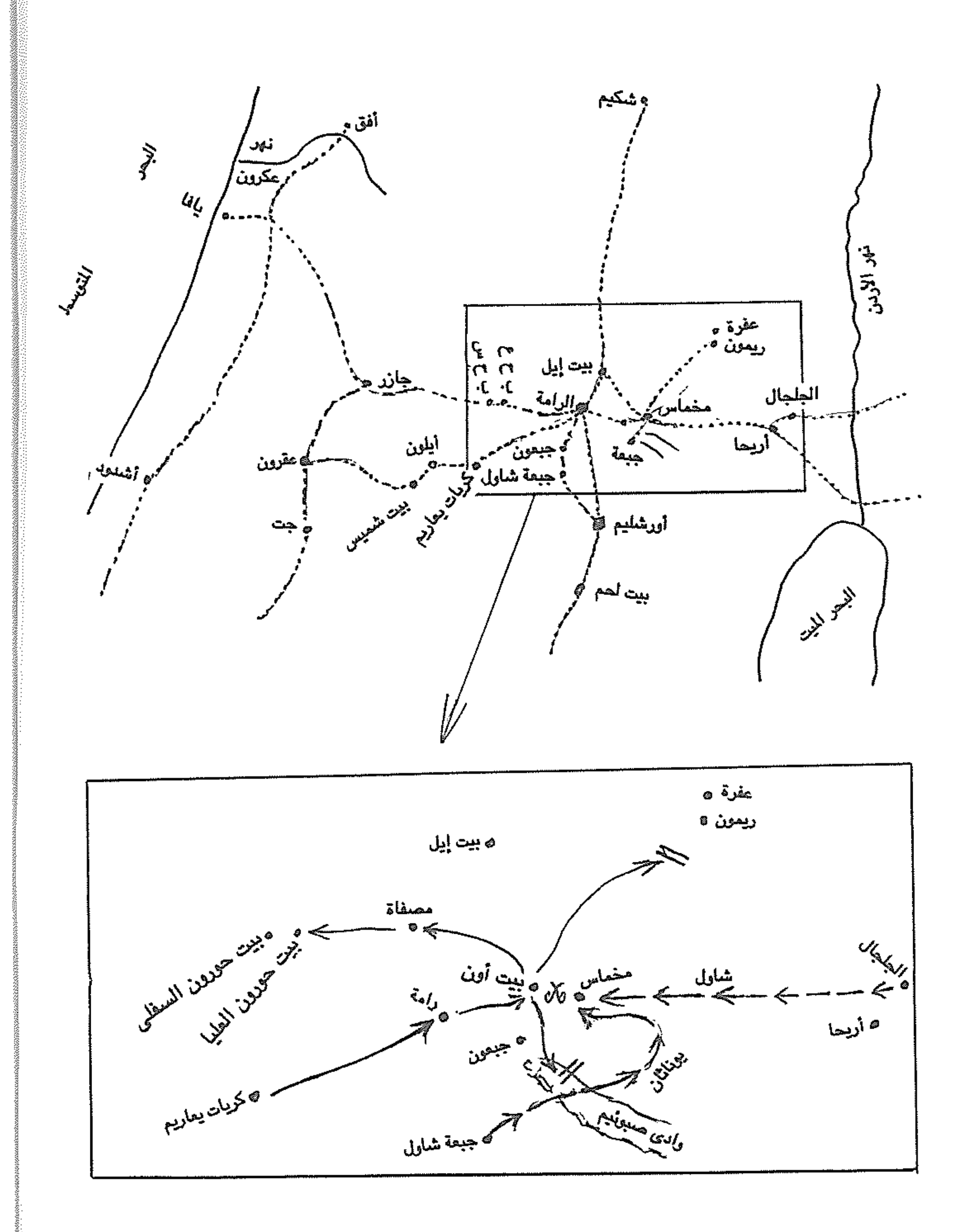
ب ح ع = بيت حورون العليـــا .
ب ح س = بيت حورون السفلى .

السلامة فأصعد بنفسه المحرقة. وكان لما انتهى من إصعاد المحرقة إذا صموئيل مقبل. فخرج شاول للقائه ليباركه فقال صموئيل ماذا فعلت؟ قال شاول: لأنى رأيت أن الشعب قد تفرَّق عنى وأنت لم تأتِ فى أيام الميعاد والفلسطينيون متجمعون فى مخماس. فقلت الآن ينزل الفلسطينيون إلىَّ فى الجلجال ولم أتضرَّع إلى وجه الرب فتجلَّدت وأصعدت المحرقة. فقال صموئيل لشاول. قد انحمقت. لم تحفظ وصية الرب إلهك التى أمرك بها لأنه الآن كان الرب قد ثبَّت مملكتك على إسرائيل إلى الأبد وأما الآن فمملكتك لا تقوم. قد انتخب الرب لنفسه رجلا حسب قلبه وأمره الرب أن يترأس على شعبه لأنك لم تحفظ ما أمرك به الرب. وقام صموئيل وصعد من الجلجال إلى جبعة بنيامين (١ صموئيل ١٣:١٥).

ومن الواضح أن شاول قد أخطأ لأن إصعاد المحرقة هو من اختصاص الكاهن أو نبىٍّ إن وجد. وكان تصرف شاول فيه رغبة فى تعجُّل الحرب اعتمادا على قوة جيشه وأن هذه الأمور هى شكليات لا ينبغى التقيد بحرفيتها وأنه لا بأس بأن يقوم هو بإصعاد المحرقة بنفسه.

معركة مخماس Micmash : صعد شاول بقواته من الجلجال. وصعد يوناثان ابنه بالقوات التى كانت فى جبعة شاول. واجتمع الجند كلهم تحت قيادة شاول. كانت الأسلحة بيد الإسرائليين قليلة إذ كان الفلسطينيون متسلطين عليهم ويحظرون عليهم كل أنواع الحدادة حتى لا يصنعوا سيوفا أو دروعا. فكانت الأسلحة التى مع بنى إسرائيل لا تزيد عن بلطات الحرب وبعض السيوف والدروع التى أمكن تهريبها. وكانت قوات الفلسطينيين قد تجمعت فى مخماس. وأرسلوا ثلاث فرق: فرقة فى طريق عفرة (بلدة الطيبة الحالية ٢٠كم شمال شرق أورشليم) بهدف منع وصول إمدادات إلى بنى إسرائيل من الأسباط الشمالية. وفرقة ثانية فى اتجاه وادى صبوئيم جنوب شرق مخماس لمنع وصول إمدادات من يهوذا وفرقة ثالثة إلى بيت حورون العليا لتأمين طريق اتصالهم بالسهل الساحلى الفلسطينى ولطلب المدد عند الحاجة.

ثم إن يوناثان – دون أن يخبر والده شاول – تسلل هو والغلام الذى يحمل سلاحه ومعهما عدد قليل من الرجال – إلى خلف القوات الفلسطينية المتجمعة فى مخماس. وباغتوا عددا من الفلسطينيين متمركزين على صخرة عالية وقتلوهم وألقوا بهم من حافة الصخرة لتقع جثثهم وسط معسكر الفلسطينيين. وكان سقوط ٢٠ جثة هكذا معناه أنهم قد هوجموا بقوة كبيرة وأسرع الجنود الفلسطينيون بالهرب فى ذعر فى اتجاه المعسكر الرئيسى. وبث الله الرعب فى قلوب الفلسطينيين وخاصة أنه حدث فى ذلك الوقت زالزال أرعد المنطقة كلها. ونظر شاول والإسرائيليون وإذا بالفلسطينيين يفرون مذعورين. وسأل عن يوناثان فلم يجده فعلم أن هذه فعلته وعزم على الهجوم بقواته وطلب من الكاهن «أخيا» أن يقدم تابوت الرب. وتزايد الذعر والضجيج الذى فى معسكر الفلسطينيين. فقال شارل للكاهن: كُفَّ يدك . أى يكفى هذا. وهو يقصد أنه مادام الاضطراب قد دب فى معسكر الفلسطينيين فإن قوة جيشه كافية للقضاء



شكل ٢٦ – معركة مخماس بين شاول والفلسطينيين .

عليهم. أى أنه لم يعد بحاجة إلى دعاء الكاهن واستنصاره بالرب. وكان هذا خطأ ثانيا من شاول إذ أن عون الرب مطلوب فى كل وقت. وحتى حين يبدو لك أن قوتك أكبر من قوة خصمك **«وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم»** (١٢٦ - آل عمران).

وهرب الفلسطينيون وتبعهم شاول وحث الشعب على تتبعهم وقتالهم قائلا: ملعون الرجل الذى يأكل خبزا إلى المساء حتى أنتقم من أعدائى. أى أنه أعلن الصيام. وسار الشعب إلى البرية. وتقول التوراة (١ صموئيل ١٤) «وكان عسل على وجه الحقل. وامتثل جميع الشعب لأمر شاول ماعدا يوناثان فإنه أخذ من العسل وأكل وشعر بقوة واستنارت عيناه» ولما أخبره أحد الجنود أن شاول والده قد أمر الشعب بصيام بقية النهار وحلّفهم على ذلك استنكر يوناثان هذا الأمر من والده وقال انظروا كيف استنارت عيناى لأنى ذقت قليلا من هذا العسل. فكم بالحرى لو أكل كل الشعب. وهذا العسل غنيمة لنا من الفلسطينيين ولكانت لنا قوة أكبر على قتالهم. ولكن الشعب امتثل لأمر شاول ولم يأكل أحد إلا يوناثان وتم النصر وكان الشعب قد أجهد وأعيا وكان الغروب قد أتى وانتهى الصوم.

من تعاليم الشريعة الموسوية أن أول الغنائم من الغنم والثيران تُقَدَّم قربانا للرب وإصعاد محرقة مما يستدعى بناء مذبح. هذه هى تقاليد الحرب الدينية التى يشرف عليها نبى أو كاهن والتى يكون فيها تابوت الرب حاضرا. «فى المكان الذى يختاره الرب تصعد محرقاتك... وأما الدم فلا تأكله. على الأرض تسفكه كالماء» (تثنية ١٢:١٥). ولكن الشعب كان قد بلغ به الجوع مبلغه فلم ينفذ هذه التعاليم وأخذ غنما وبقرا وعجولا وذبحوا على الأرض وأكل الشعب. ولما علم شاول بذلك أنّبهم وقال لهم قد غدرتم. وقال لهم. دحرجوا إلىَّ حجرا كبيرا وأقامه كمذبح وطلب منهم أن يذبحوا على الحجر كل واحد ثوره أو شاته. وكان هذا خطأ ثالثا من شاول إذ أقام المذبح بنفسه ولم يترك ذلك للكهنة المرافقين والمختصين بالأمور الدينية.

وقال شاول لننزل وراء الفلسطينيين وننهبهم. ولكن الكاهن اقترح استشارة الرب. فسأل شاول أننحدر وراء الفلسطينيين أم لا؟ ولم يتلق الكاهن إجابة من الرب. وعدم الإجابة يكون بسبب ذنب اقترفه أحدهم. ولما علم شاول بما فعله ابنه يوناثان من مخالفة لأمر الصوم وأكله من العسل. كان الواجب أن يطبقَّ عليه الحد وهو الرجم لأنه عصى أمر الرب. ولكن الشعب قال له إن الرب كان مع يوناثان فى كل ما فعل كما أنه لم يسمع بالأمر الذى أصدره شاول ولا بالحلف الذى عمله. فاقتنع شاول ولم يرجم ابنه. ولكن كان من الواجب أن يفديه بذبيحة حسب أحكام الشريعة «وكل بكر إنسان من أولادك تفديه» (خروج ١٣:١٣) ولكن شاول لم يُفْدِهِ وكان هذا أيضا خطأ رابعا.

طالوت يحارب مؤاب وأدوم :

بعد انتصاره على الفلسطينيين وطرد قواتهم التى كانت تتوغل فى جبال يهوذا وبنيامين حارب شاول مؤاب وأدوم وملك صوبة الأمورى وهزمهم كلهم.

طالوت يحارب عماليق :

ثم قال صموئيل لشاول إن الله يأمره بأن يحارب عماليق ويقتل كل رجل وامرأة منهم وكل طفل وكل رضيع وكل البقر والغنم والحمير. فجمع شاول من الشعب ٢٠٠,٠٠٠ رجل و١٠,٠٠٠ من يهوذا وكمن فى الوادى. وطلب من القينيين أن يخرجوا من وسط العمالقة.

كان العمالقة يسكنون البرية التى تقع ١٣كم شرقى بئر سبع. والقينيُّون قبيلة من قبائل مدين وكانوا يسكنون قرب خليج العقبة (يثرون كاهن مدين حمو موسى كان قينيا) وقد نزح بعض القينيين شمالا وسكنوا فى منطقة العمالقة شرقى بئر سبع وكانوا على علاقة طيبة ببنى إسرائيل وبيهوذا. وهكذا طلب شاول من القينيين الخروج من وسط العمالقة حتى لا يضاروا. وحارب شاول العماليق وانتصر عليهم وطاردهم حتى برية شور على حدود مصر وأمسك «أجاج» ملك عماليق واستبقاه حيا - ربما لأخذ فدية مالية كبيرة عنه - ولكنه قتل جميع الشعب كما أمر صموئيل كذلك لم يقتل خيار الغنم والبقر والخراف وقتل الهزيل منها. وكانت هذه كلها أخطاء من شاول إذ كانت تعاليم الرب المبلَّغة إليه عن طريق النبى صوئيل هو قتل الجميع. وأوحِيَ إلى صموئيل. بأن شاول لم يفعل كما أمر الرب. وغضب صموئيل وفى الصباح بكَّر للقاء شاول. وقال له شاول: قد أقمتُ كلاب الرب. فقال صموئيل: وما هو صوت الغنم وصوت البقر الذى أنا سامع؟ فقال شاول لأن الشعب قد عفا عن خيار الغنم والبقر لأجل الذبح للرب إلهك. ولكن صموئيل أوضح له أن تعاليم الرب كانت بقتل كل شيء ولكنه آثر أن يحتفظ بها كغنيمة. واحتج شاول بأنه استبقى هذه الأغنام لتكون محرقات وقرابين للرب. ولكن صموئيل أوضح له أن الذبائح للرب لاتكون بمخالفة أمره وأن التمرد على الرب خطية كبرى. ولأجل أنه قد رفض كلام الرب فقد رفضه الرب من المُلكِ. وحاول شاول أن يسترضى صموئيل واعترف بخطئه وأنه تعدَّى قول الرب واحتج بأنه خاف من الشعب وسمع صوتهم. وطلب منه أن يعود معه ليغفر خطيئته ولكن صموئيل رفض ودار ليمضى فأمسك شاول بذيل جُبَّته فتمزق فى يده. فقال له صموئيل: يمزق الله المُلك عنك ويعطيها لصاحبك الذى هو خير منك. وقال صموئيل. قدِّموا إلىَّ أجاج ملك عماليق. فذهب إليه أجاج ظانا أن صموئيل قد أقرَّ عفو شاول عنه ولكن صموئيل قتل أجاج فى الجلجال. ثم ذهب صموئيل إلى الرامة وصعد إلى بيته فى «جبعة شاول» ولم يلتقيا بعد ذلك أبداً.

العماليــق :

ذكرنا آنفا قتل صموئيل النبى أجاج ملك عماليق الذين كانوا يسكنون البرية شرقى بئر سبع. كما ذكرنا سابقا (الجزء الرابع ص٩٨٣) أن موسى عليه السلام أمر يشوع بمحاربة العماليق فى وادى فيران. وذكرنا أيضا (ص ١٠٩٣) أن موسى عليه السلام حارب عوج ملك العماليق الذين كانوا يسكنون باشان. وكان أجاج هو آخر العماليق وبقتله وقتل كل قومه انقرض من الأرض هذا الجنس البشرى الذى كان الواحد منهم يصل إلى ما يقرب من ثلاثة أمتار طولا. أما العماليق الذين سكنوا بجوار جرهم فى مكة عند تفجُّر الماء من زمزم فقد فقدوا صفة الطول البالغ على مر الأزمنة بتزاوجهم من أقوام ذوى طول عادى. وشكل ٢٧ يبين تصوراً لنشأة وتوزيع فئات العماليق .

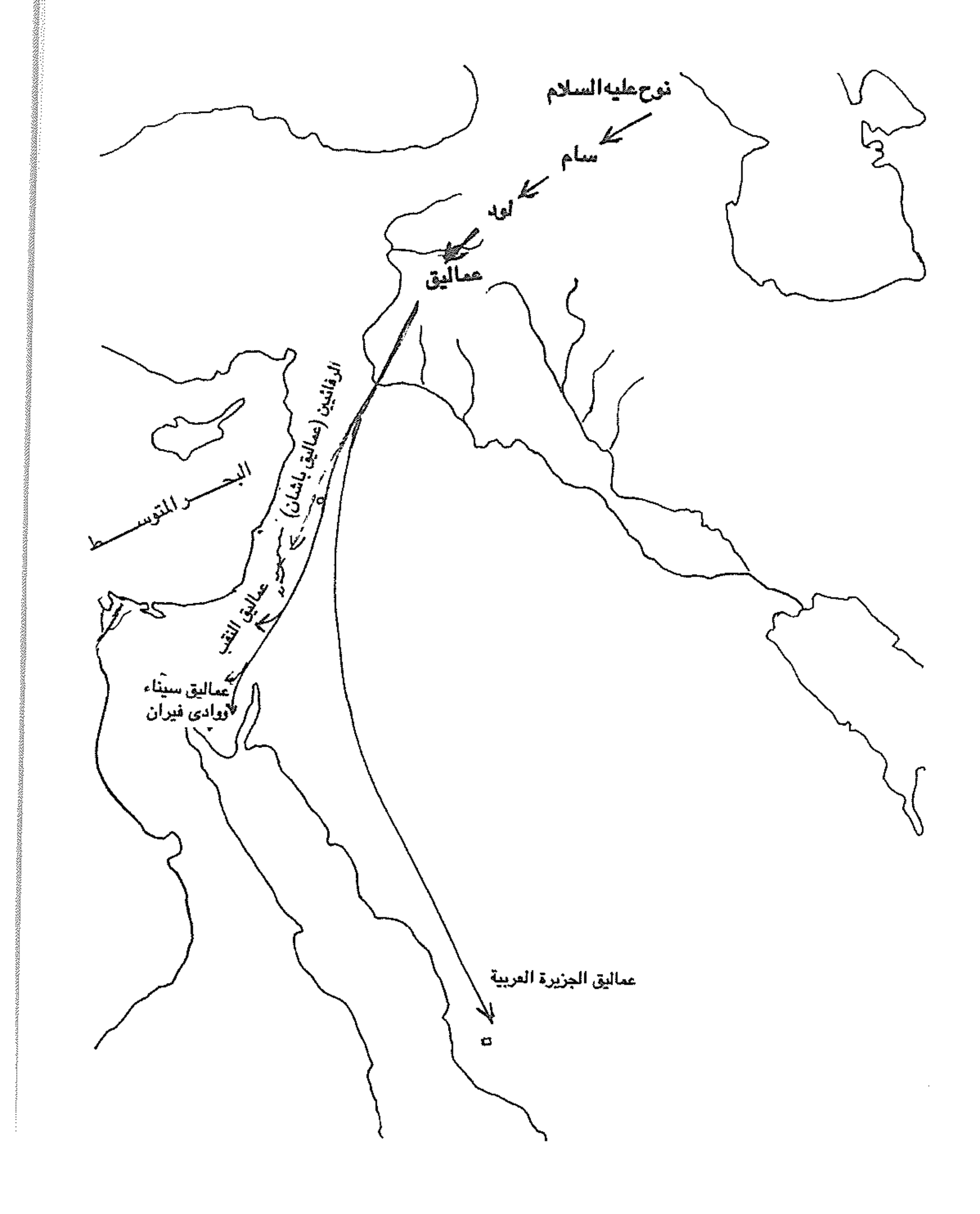
مملكة شاول :

تمكن شاول من جمع كلمة بنى إسرائيل فأصبح لهم كيان واحد يهبُّون جميعا للدفاع عنه. وقد خلَّص شاول الأراضى التى كان الفلسطينيون قد استولوا عليها. وكذلك الأراضى شرق الأردن التى كان الآراميون والعمونيون والمؤابيون قد اقتطعوها من أرض الأسباط المجاورة. وشكل ٢٨ يبين مملكة إسرائيل أثناء حكم شاول .

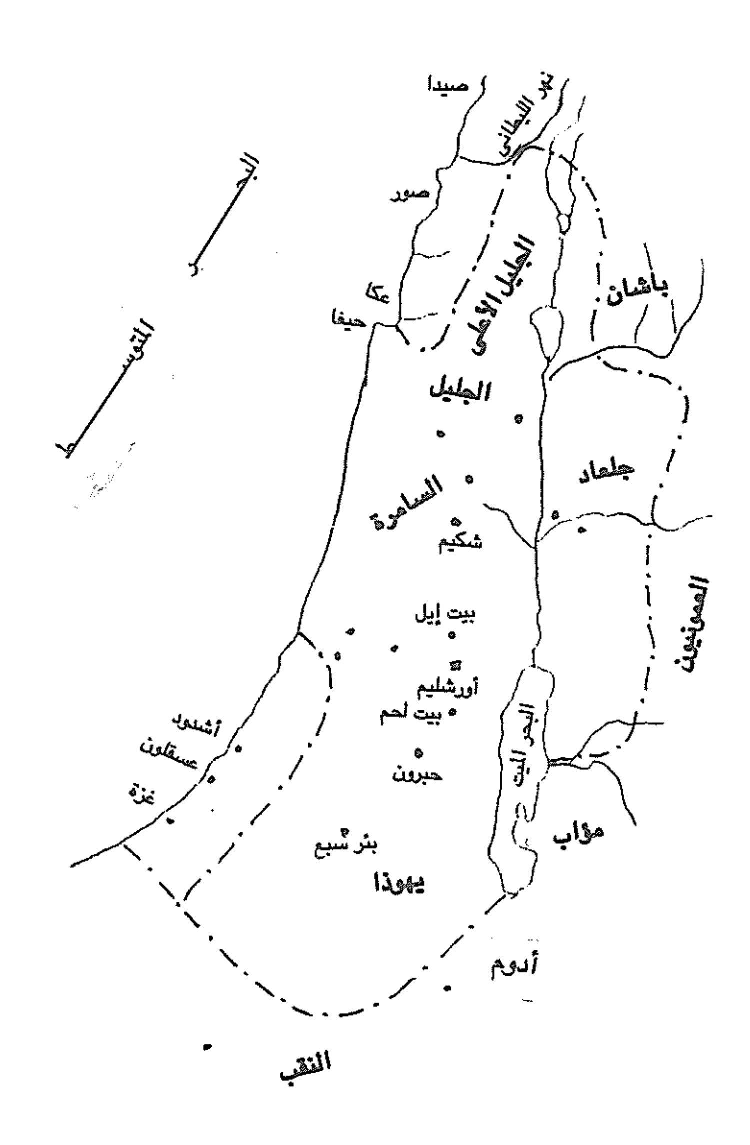
تدهور حالة شاول النفسية :

وضح مما سبق أن طالوت (شاول) قد خالف أحكام الشريعة أكثر من مرة واستهان بتعاليمها وتعدى على اختصاص الكهنة بأن مارس طقوسا دينية لا يجوز له القيام بها. وكان أن أخبره النبى صموئيل أن الرب قد نزع الملك منه ومن بيته ولكنه لم يُفضِ إليه باسم الشخص الذى اختاره الرب ليخلفه. فأصبح شاول دائم التشكك فيمن حوله ينظر إليهم بعين الريبة. ويسأل نفسه أيهم سيكون خليفته؟ وهل ستكون نهايته ميتة طبيعية أم أن المرشح لخلافته سيقوم باغتياله؟ فكان دائم التوجس من كل حركة يأتى بها أى من حاشيته أو رجال البلاط. وأدى ذلك إلى حالة توتر أعصاب دائم وأصبح فى خوف مستمر وكل ذلك أثر على حالته النفسية وتنتابه نوبات اكتئاب. وقد وصفت التوراة حالته بأنه «كان يبغته روح ردىء من أرواح الشر».

كان صموئيل النبى قد مسح داود ليخلف شاول فى الملك. ولكنه فعل ذلك فى سرِّية تامة وكان داود لايزال صبيا صغيرا لا يُخْشى بأسه.



شكل ٢٧ – تصور لنشأة وتوزيع فئات العماليق .



شكل ٢٨ – مملكة شاول .

داود عليه السلام

نسبه :

إبراهيم عليه السلام ← إسحق ← يعقوب ← يهوذا ← فارص ← حصرون ← أرام ← عميناداب ← نحشون ← سلمون ← بوعز (تزوج راعوث المؤابية) ← عوبيد ← يَسَّى ← داود. ووالده يسَّى يطلق عليه الرجل الأفراتى من بيت لحم أو يسَّى البيتلحمى لأنه كان يقيم فى بيت لحم وكان له سبعة أبناء غير داود كما كان له ابنتان.

الاسم داود :

ورد اسمه فى القرآن الكريم ١٦ مرة.

ويقال إن اسم «داود» مشتق من جذر فى العبرية هو دَوَدَ مقابل الجذر العربى ودد - ودٌّ يعنى حبٌ فداود معناه «محبوب». وفى التوراة الأصلية يُكتب «دَوُدْ» بغير ألف بعد الدال الأولى. وفى بعض الترجمات يكتب «داويد» على وزن فاعيل وتحورت داويد إلى «داڤيد David» حيث تُقلب الواد فاء فى بداية كلمة أو بداية مقطع دا ويد أصبحت داڤيد. ولبعض العلماء رأى آخر. إذ ورد فى نصوص منقوشة فى قصر مارى على الفرات كلمة داڤيدم Davidum بمعنى «والى أو قائد جيش» واستنتجوا أنها ليست اسم علم بل لقب مثل قيصر أو كسرى أو فرعون ولكنها بعد ذلك صارت علما لداود (فيليب حتى. ص ٢٠٥).

ويرى الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن الكريم جـ ٢ ص ١٥٠) أن اسم داود يحمل أيضا الاسم الذى وصف به داود فى القرآن الكريم: **«واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوَّاب»** (١٧ - ص). وذا الأيد تعنى القوة فى العبادة والقوة فى القتال أيضا. فوصف «ذو الأيد» يكتب بالعبرية «دى - أود» وعلى مر الأزمنة حُرِّفت إلى داويد . ويقال إن يهود يثرب كانوا ينطقون «داويد» ثم حُرِّفت إلى «داڤيد»..

داود فى صباه :

ليس لنا من مصدر عن الفترة الأولى من حياة داود سوى التوراة إذ تقول (١ صموئيل ١٦): أمر الله صموئيل النبى أن يذهب إلى بيت لحم ليمسح من يخلف شاول. وخشى صموئيل إن علم شاول بالغرض الحقيقى لسيره إلى بيت لحم أن يقتله أو يقتل من يمسحه. لذلك فقد

أعلن أنه ذاهب ليذبح للرب. وبعد أن قدَّم الذبيحة بارك يسَّى وطلب منه أن يقدم بنيه لكى يباركهم. وقدم يسَّى أكبر بنيه «أليآب» وظن صموئيل أن هذا هو الملك المنتظر لطول قامته وهيبة منظره ولكن الله أوحى إليه: «**الإنسان ينظر إلى الجسم أما الرب فينظر إلى القلب**». ثم جاء الابن الثانى «أمينا داب» ثم «شمة» حتى جاء أبناء يسى السبعة لم يختر الرب أحدا منهم. وسأل صموئيل هل كمل الغلمان؟ قالوا: لم يبق إلا الصغير وهو يرعى الغنم. فطلب منهم أن يبعثوا له ليحضر. فلما جاء قال الرب لصوئيل: قم امسحه لأن هذا هو. ومسحه صموئيل بالدهن فحلَّ عليه روح الرب ثم عاد صموئيل إلى الرامة. ويقول المؤرخ يوسيفوس إن داود فى ذلك الوقت كان فى العاشرة من عمره. إلا أن أغلب مفسِّرى أهل الكتاب يرجِّحون أنه كان فى سن الخامسة عشرة (چاميسون وفاوست. التفسير الحديث للكتاب المقدس . ص ٣٦١).

ويشير المزمور ٧٨ إلى اختيار داود فيقول: «واختار (الرب) داود عبده وأخذه من حظائر الغنم. من خلف المرضعات أتى به ليرعى شعب إسرائيل فرعاهم حسب كمال قلبه وبمهارة يديه هداهم».

كان داود يرعى غنم أبيه وكان أشقر مع حلاوة العينين وحَسَن المنظر. وأنعم الله على داود بالصوت الندى ووهبه نعمة التلحين باللحن الشجى. يسبح ويرنِّم حتى إن الطير يصدح ويشدو على نغماته وكذلك الجماد فتُسبِّح الجبال معه.

«**ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوِّبى معه والطير**». (١٠ – سبا) .

ولقد عرف داود فى صغره هذه النعمة فوضعها حيث يجب أن تكون تسبيحًا وتمجيداً للرب وتهليلا وتكبيراً واستغفاراً ودعاء. يشدو بقدرة الله سبحانه وتعالى فى خلق السموات والأرض وكل ما فيها من دابة. ويشكره على نعمه ويهلِّل لنعمائه ويستصرخه فى الشدة. ويلجأ إليه فى المحن يطلب منه النصر والمعونة. ويتوجع فلا يشكو إلا إلى الله إذا ألَّت به المصائب ويطلب من الله التأييد والفرج. وإذا أخطأ يندم ويسترجع الذنب ويكرر الندم وطلب المغفرة. ويكثر من الاستغفار طالبا التوبة من الله. ويتفنَّن فى اختيار الألفاظ والألحان.

كان داود بحق إمام المغنيين. وفقه الله إلى أعذب الألحان منها ما فيه قوة فيتردد صداه بين الجبال فترجِّع مقاطعه وألحانه فى توافق تام. ومنها ما فيه رقة وعذوبة بحيث تتمثَّل به الطير فى شقشقتها. ويسير الكل معه فى معزوفة متناغمة جوهوها التسبيح لله فى كل الأوقات صباحاً ومساء.

«**إنا سخَّرنا الجبال معه يسبِّحن بالعشىِّ والإشراق . والطير محشورة كل له أوَّاب**» (١٧ – ١٨ – ص).

كان داود يرعى الغنم فى البرِّية وكان وجوده فى البرّيَة مكان ملائما ليتفكر فى خلق

السموات والأرض والشمس والقمر. وكان فى مزاميره تسابيح لله فيها تفكُّر وشكر لله على نِعَمِهِ وتمجيد لذاته وتواضع لعظمته. وكان داود تقيا من صغره. يعرف الله ويحفظ وصاياه. ولوجوده غالب وقته فى البرِّيَّه لم يخالط غيره من الشباب وبذلك جنَّبه الله ما قد يكون فى فترة الشباب من نزق أو طيش وبُعدٍ عن طريق الله. ولاشك أن ما كان يتغنَّى به داود كان مزيجا من حكمةٍ وهبه الله إياها «**وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب**» (٢٠ - ص) مع وحى من الله سبحانه وتعالى. «**وآتينا داود زبورا**» (٥٥ - الإسراء). والزبور هو الكتاب الذى أنزل على داود. وسنأتى إلى شرحه باستفاضة فيما بعد (ص ١٣٥). وقد كانت مزامير داود معبَّره عن واقع حاله فى الوقت الذى يتغنى به بالمزمور. وهذه مقتطفات من بعض مزاميره:

من المزمور ٢٣ :

وقد ترنَّم بهذا المزمور بعد أن مسحه صموئيل باسم الرب: الرب راعىَّ فلا يعوزنى شيىء. فى مراعٍ خضر يربضنى. إلى مياه الراحة يوردنى. يرد نفسى. يهدينى إلى سُبُل البِرِّ من أجل اسمه. أيضا إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شرا لأنك أنت معى. مسحت بالدهن رأسى. كأسى ريًا. إنَّما خير ورحمة يتبعانى كل أيام حياتى. وأسكن فى بيت الرب إلى مدى الأيام.

من المزمور ٢٤ :

للرب الأرض وملؤها. المسكونة وكل الساكنين فيها لأنه على البحار أسَّسها وعلى الأنهار ثبَّتها. من يصعد إلى جبل الرب ومن يقوم فى موضع قُدسهِ. الطاهر اليدين النقى القلب الذى لم يحمل نفسه إلى الباطل ولا حلف كذبا يحمل بركة من عندَ الرب وبراً من إله خلاصه.

من المزمور ٢٥ :

إليك يارب أرفع نفسى. يا إلهى عليك توكَّلت فلا تدعنى أخزى. طرقك يارب عرِّفنى. سُبلك علِّمنى دربْنى فى حَقِّك وعلِّمنى لأنك أنت إله خلاص. إياك انتظرت اليوم كله. أذكر مراحمك يارب وإحساناتك لأنها منذ الأزل هى. لا تذكر خطايا صباى ولا معاصىِّ. كرحمتك اذكرنى من أجل جودك يارب. الرب صالح ومستقيم. كل سبل الرب رحمة وحق لحافظى عهده وشهاداته. التفت إلىَّ وارحمنى لأنى وحدى ومسكين أنا.

من المزمور ٢٦ :

اقضِ لى يارب لأنى بكمال سلكت وعلى الرب توكلت. جرِّبنى يارب. وامتحنِّى. صفِّ كليتىَّ وقلبى لأن رحمتك أمام عينىَّ. وقد سلكت بحقِّك. لم أجلس مع أناس السوء. ومع الماكرين لا أدخل. أبغضتُ جماعة الأثمة ومع الأشرار لا أجلس. أغسل يدىَّ فى النقاوة فأطوف بمذبحك يارب لأسمعَ بصوت الحمد وأُحدِّث بجميع عجائبك. يارب أحببت محل بيتك وموضع سكن

مجدك. لا تجمع مع الخطاة نفسى ولا مع رجال الدماء حياتى الذين فى أيديهم رذيلة ويمينهم ملآنة رشوة. أما أنا فبكمالى أسلك. افدنى وارحمنى. رجلى واقفة على سهل. فى الجماعات أبارك الرب.

من المزمور ١٤٨ :

هللوا . سبّحوا الرب من السموات. سبّحوه فى الأعالى. سبّحوه يا جميع ملائكته. سبحوه يا كل جنوده. سبّحيه يا أيتها الشمس والقمر. سبحيه ياجميع كواكب النور. سبحيه ياسماء السموات. وياأيتها المياه التى فوق السموات. لتسبّح اسم الرب لأنه أمَرَ فَخُلِقَت وثبّتها إلى الدهر والأبد. وضع لها حدا فلن تتعداه. سبّحى الرب من الأرض يا أيتها التنانين وكل اللجج. النار والبَرَد الثلج والضباب الريح العاصفة الصانعة كلمته. الجبال وكل الآكام. الشجر المثمر وكل الأرز. الوحوش وكل البهائم الدبابات والطيور ذوات الأجنحة. ملوك الأرض وكل الشعوب الرؤساء وكل قضاة الأرض. الأحداث والعذارى. أيضا الشيوخ مع الفتيان. ليسبّحوا اسم الرب لأنه قد تعالى اسمه وحده. مجده فوق الأرض والسموات.

ولطيب صوته كان إذا ترنم بهذه التسابيح تقف الطير فى الهواء تجاوبه وترد عليه الجبال تأويبا .

«إنا سخرنا الجبال معه يسجّن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أوّاب» (١٧ - ١٨ - ص).

مر النبى صلى الله عليه وسلم على أبى موسى الأشعرى وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جداً فوقف واستمع لقراءته وقال: لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود. قال يارسول الله لو علمت أنك تستمع لحبّرته لك تحبيراً (تفسير ابن كثير. جـ ٣. ص ١٨٧) وحبّر الشعراء أو الكلام أو الخط زيّنه ونمّقه (المعجم الوسيط جـ١ ١ ص ١٥١).

داود يصبح من خاصة طالوت (شاول) :

قلنا إن شاول علم من صموئيل أن الرب قد رفضه وسينزع الملك من بيته. ولكنه لم يدرِ أن صموئيل قد مسح داود خليفة له لأن ذلك تم فى تكتم شديد عند زيارته لبيت لحم حفاظا على حياة الصبى من انتقام شاول وتقول التوراة (١ صموئيل ١٦:١٤): «وذهب روح الرب من عند شاول وبغته روح ردىء من قبل الرب». ويرى أخصائيو الأمراض النفسية أن ما كانت تنتابه هو نوبات اكتئاب Manic - depression. «فقال عبيد شاول له فليأمر سيدنا عبيده قدامه أن يفتشوا عن رجل يُحْسنُ الضرب بالعود ويكون إذا كان عليك الروح الردىء أنه يضرب بيده فتطيب. فقال شاول لعبيده: انظروا إلىَّ رجلا يُحْسنُ الضرب واتوا به إلىَّ. فأجاب واحد من الغلمان. هوذا قد رأيت ابنا لِيَسَّى البيتلحمى يُحسنُ الضرب. وفصيح ورجل جميل والرب معه.

فأرسل شاول رسلا إلى يسَّى يقول: أرسل إلىَّ داود ابنك الذى مع الغنم. فجاء داود إلى شاول ووقف أمامه فأحبَّه جداً. وكان عندما يجىء الروح الشرير على شاول أن داود يأخذ العود ويضرب بيده فكان شاول يرتاح ويطيب ويذهب عنه الروح الردىء».

وهكذا – كما كان تفسير الأحلام هو المدخل الذى أوصل يوسف عليه السلام ليصبح عزيز مصر ونائب الملك – كان الصوت الشجى والضرب على العود هو السبيل الذى هيَّأه الله لداود ليصبح من خاصة شاول والمرافقين له. وكان اتصاله بشاول وسيلة لمعرفة شيىء عن أمور السياسة التى كان بعيداً عنها تماما والتى كانت لازمة له إذ هو الملك المقبل لإسرائيل. إلاَّ أن داود لم ينغمس فى الترف الذى يعيش فيه رجال البلاط الملكى ولم يترك بيت والده كلية. بل كان إذا انتابت شاول إحدى نوبات الإكتئاب بعثوا فى طلبه فيأتى ويضرب على العود فتطيب نفسه وتزول النوبة عنه. وحتى فى الأوقات القليلة التى كان يضطر فيها إلى البقاء فى القصر لفترات طويلة – أياما أو أسابيع – كان يلوذ بركن قصى فى حديقة القصر يخلو فيها إلى نفسه ويسبِّح لله كما كان يفعل فى البرية أثناء رعيه الغنم. ونجتزىء هنا بعضا من تسابيحه :

من المزمور الأول :

طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار وفى طريق الخطاة لم يقف وفى مجلس المستهزئين لم يجلس لكن فى ناموس الرب مسرَّته. وفى ناموسه يلهج نهارا أو ليلاً فيكون كشجرة مغروسة عند مجارى المياه التى تعطى ثمرها فى أوانه وورقها لا يذبل وكل ما صنعه ينجح. ليس كذلك الأشرار. لأنهم كالعصافه التى تذريها الرياح. لذلك لا تقوم الأشرار فى الدين ولا الخطاة فى جماعة الأبرار. لأن الرب يعلم طريق الأبرار أمَّا طريق الأشرار فتهلك».

من المزمور الثانى :

أيها الرب سيدنا. ما أمجد اسمك فى كل الأرض حيث جعلت جلالك فوق السموات. سمواتك عمل أصابعك. القمر والنجوم التى خلقتها. فَمَنْ هو الإنسان حتى تذكُره وابن آدم حتى تفتقده وتنقصه قليلا عن الملائكة وبمجد بهاءٍ تُكلِّله؟ جعلت كل شيىء تحت قدميه: الغنم والبقر جميعا وبهائم البحر أيضا وطيور السماء وسمك البحر السالك فى سبيل المياه. أيها الرب سيدنا. ما أمجدَ اسمك فى كل الأرض.

من المزمور ١٩ :

السموات تحدِّث بمجد الله والفَلَكُ يخبر بعمل يديه. يوماً إلى يوم يُذيع كلاما. وليلاً إلى ليل يُبدِى علما. لا قول ولا كلام. لا يُسمع صوتهم. فى كل الأرض خرج منطقهم. وإلى أقصى المسكونة كلماتهم. جعل للشمس مسكنا فيها وهى مثل العروس الخارج من حجلته يبتهج مثل الجبَّار للسباق فى الطريق. من أقصى السموات خروجها ومدارها إلى أقاصيها ولا شيىء

يختفى من حَرِّها.. ناموس الرب كامل. يَرُدُّ النفس. شهادات الرب صادقة تُصَيِّر الجاهل حكيما. وصايا الرب مستقيمة تُفَرِّح القلب. أمر الرب طاهر ينير العينين. خوف الرب نقى ثابت إلى الأبد. أحكام الرب هى عادلة كلها. أشهى من الذهب والإبريز الكثير وأحلى من العسل وقطرات الشهد. وفى حفظها ثواب عظيم. من الخطايا المستترة أبرئنى. أيضا من المتكبرين احفظ عَبْدَك فلا يتسلَّطوا علىَّ حينئذ أكون كاملا وأتبرأً من ذنب عظيم. لتكن أقوال فمى وفكر قلبى مَرْضيةً أمامك يارب .

الحرب بين شاول والفلسطينيين :

بدأ الفلسطينيون يستعدون لجولة جديدة من الحرب مع بنى إسرائيل وجمعوا جيوشهم فى بلدة «سوكوه Socoh» وهى بلدة فى يهوذا ٢٥كم جنوب غرب أورشليم وهى حاليا «خربة عياد أو خربة الشويكة» وعندها ينحنى وادى الشور إلى الغرب ويصبح اسمه وادى السنط (شكل ٢٩). كان بنو إسرائيل قد عرفوا من قبل شدة بأس الفلسطينيين وحُسْنَ استعدادهم فى حين كانت الأسلحة فى أيدى بنى إسرائيل قليلة. ولما بدأت الجموع فى الزحف للملاقاة بدأ الخوف يتسرَّب إلى نفوس بنى إسرائيل. ومما يُذكر أن طالوت (شاول) تحرَّى أن يكون الخارج للقتال معه متفرغًا تماما لا يشغله شيىء وراءه. فقال لبنى إسرائيل: «لا يخرج معى من بنى بناء لم يفرغ منه ولا تاجر مشتغل بتجارة ولا متزوج بامرأة لم يبن عليها. فاجتمع إليه ٨٠,٠٠٠ رجل». ثم قال لهم إن الله سيختبرهم ليظهر الصادق المخلص فى إيمانه. وكان العطش قد اشتد عليهم فقال لهم ستقابلون نهراً فمن شرب منه كثيرا لن يقوى على القتال. وكان الجند يستلقون على بطونهم ويكرعون من النهر بأفواههم مباشرة وبذلك تمتلىء بطونهم بالماء فلا يقدرون على السير بعد ذلك. ونهاهم عن فعل ذلك. ومن يفعل ذلك فليرجع ولا يصحبه فهو ليس من جنوده. إلاّ من يريد أن يطفىء عطشه بأن يغترف قليلا من الماء بيده. ولما وصلوا إلى الماء شرب أغلبهم من النهر وكرعوا منه حتى امتلأت بطونهم. ولما تخطوا النهر قالوا لا قدرة لنا على محاربة الفلسطينيين وأظهروا الضعف. وقيل إن ٧٦,٠٠٠ هم الذين شربوا وتخاذلوا فلم يبق معه إلا ٤٠٠٠ فقط وقال بعضهم أقل من ذلك (تفسير الألوسى. جـ ٢ . ص ١٧١). وقالت الفئة المؤمنة التى امتثلت لأمر الله والتى تتيقَّن أنها ستقابل الله فى اليوم الآخر. وعبَّر عن التيقن بالظن. وقد يكون – وهو الأرجح – الذين يظنون أنهم إن قاتلوا قد يقتلون ويلاقوا ربهم فى يومهم هذا ولكنهم استهانوا بالموت فى سبيل الله. كما أنهم – لقوة إيمانهم ومع قلة عددهم – يعرفون أن النصر ليس بكثرة العدد فالنصر من عند الله وأن الفئة القليلة قد تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله.

« فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر. فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى. إلا من اغترف غرفة بيده. فشربوا منه إلا قليلا منهم. فلما جاوزه هو والذين

معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده. قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين». (٢٤٩-البقرة).

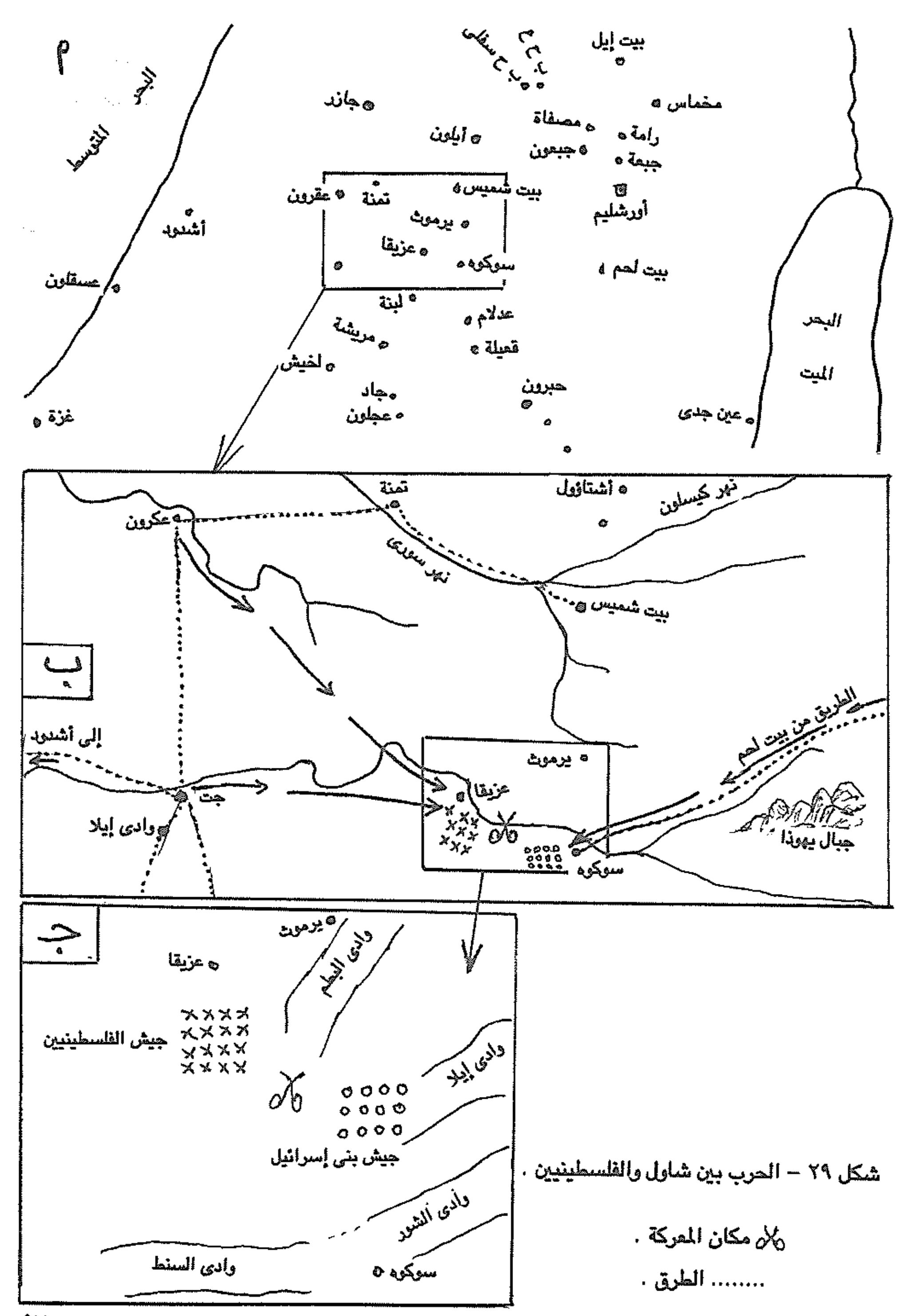
وتقدمت القوات الفلسطينية من عكرون ومن جت وتجمعت بين سوكوه وعزيقا على الجانب الغربى من وادى البطم. بينما تجمعت القوات الإسرائيلية القادمة من بيت لحم ومن جبال يهوذا فى وادى إيلاه وعلى رأسها شاول (شكل ٢٩ جـ).

جالوت = جليات = Goliath :

وخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات. وحسب وصف التوراة له «كان طوله ستة أذرع وشبر (حوالى ٢,٥ متر) وعلى رأسه خوذة من نحاس. وكان لابسا درعا حرشفيا ووزن الدرع ٥٠٠٠ شاقل نحاس (الشاقل ١١,٤جم أى ٥٧ كيلو جراما) وجرموقا نحاس على رجليه ومزراق نحاس بين كتفيه. وقناة رمحه كنول النساجين. وسنان رمحه ٦٠٠ شاقل حديد (٧ كيلو جرامات) وحامل الترس كان يمشى قدامه (١ صموئيل ١٧:٦). وكان يزهو بكبرياء وصلف ويقول: أنا الفلسطينى! هل من مبارز؟» وكانت القاعدة آنذاك أنهم ينتخبون ممثلين من الجيوش المتحاربة يتبارزون قبل بدء القتال الفعلى بين الجيوش والجانب الذى ينتصر أبطاله فى هذه المبارزات ترتفع معنويات جنوده كثيرا مما يكون له أثر كبير على سير المعركة بعد ذلك. وكان بروز جليات هكذا لابسا دروعه المخيفة هذه مدعاة لبث الرعب فى نفوس الإسرائيليين. وكان جليات يصيح فى الإسرائيليين: اختاروا لأنفسكم رجلا ولينزل إلىَّ. فإن قدر أن يحاربنى ويقتلنى نصير لكم عبيدا. وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيدا وتخدموننا. ولما سمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطينى هذا ارتاعوا وخافوا جدا. وكان أبناء يسىَّ الثلاثة الكبار - إخوة داود - وهم أليآب وأبيناداب وشمَّة - قد تبعوا شاول إلى الحرب. أما داود فقد بقى ليرعى الغنم. وأراد يسَّى أن يطمئن على سلامة أبنائه الثلاثة فأمر داود أن يذهب إلى مكان المعركة ليأتيه بخبرهم. وظل جليات يخرج كل يوم فى درعه يزهو بنفسه ويدعو من يجد فى نفسه الشجاعة من بنى إسرائيل على مبارزته أن يتقدم إليه فلا يتقدم أحد. ولتشجيع أحد الجند على مبارزته أعلن شاول أنه سيعطى الرجل الذى يقتل جليات أموالا طائلة ويزوّجه ابنته.

جليات أم جالوت ؟

ذُكِرَ اسم ذلك الفلسطينى فى التوراة «جليات» وراح المستشرقون يطنطنون ويتقوّلون إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - قد أخطأ عند سماعه اسم «جليات» وقال «جالوت». والحقيقة أن القرآن الكريم قد أورد اسم «جالوت» ليرد الاسم إلى معناه الحقيقى. فاسم «جليات» كما يقول مفسرِّو أهل الكتاب مشتق من الجذر العبرى «جلا» وهو جذر له مقابل فى العربية وبنفس



شكل ٢٩ – الحرب بين شاول والفلسطينيين .

مكان المعركة .

.... الطرق .

المعنى حين نقول «جلا عن وطنه» وجاء فى قاموس الكتاب المقدس (ص ٢٦٥) جليات اسم كنعانى معناه «سبى أو نفى». ولا يُتَصَوَّر أن الفلسطينى الذى كان يتحدى بنى إسرائيل فى ساحة القال يُسمًّى «جليات» بمعنى الأسير أو المنفى أو السبى!. ويرى الأستاذ رؤوف أبو سعده (من إعجاز القرآن. جـ٢ . ص ١٣٩) أن «جالوت» مشتق من فعل «جلا» وتقول جلا الصدأ عن سيفه. وجلا الأمر أى أوضحه. وقال الحجاج قولته الشهيرة: أنا ابن جلا وطلاَّع الثنايا. وكان جالوت فارسا شجاعا يتحدى المبارزين فى وضوح وجلاء وكان ظاهرا بين قومه وجاء القرآن الكريم بصيغة المبالغة من «جلا» بهذا المعنى فقال «جالوت» كما يقال على من بالغ الطغيان «طاغوت». وهكذا نرى أن الاسم الذى اختاره القرآن الكريم هو الأصح لصفة هذا الفلسطينى عما سمته به التوراة «جليات» بمعنى الأسير أو السبى.

«وقتل داود جالوت» :

نعود ثانية إلى أرض المعركة وجالوت يروح ويجيء متبخترا فى درعه الحديدى يدعو من يجد فى نفسه الشجاعة لقتاله فلا يتقدم أحد. ورأى داود فعل جالوت وما يقول من تهكم على بنى إسرائيل – وساءه ذلك وقال: من هو هذا الفلسطينى الأغلف حتى يُعَيِّر صفوف الله الحىّ. وسأل عما يعطونه لرجل يقتله ويزيل العار عن إسرائيل. وسمع أليآب – أخو دواد الأكبر – كلام داود واستهزاءً به لامه على ترك الغنم فى البرية والمجيء للتفرُّج على الحرب. ولكن داود راح يهدَّد جليات بالقتل. وسمع شاول بذلك فاستدعى داود. وقال داود إنه مستعد لمحاربة هذا الفلسطينى. وأشفق عليه شاول وقال له: لا تستطيع لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه. ورد عليه داود أنه بينما كان يرعى الغنم إذ هجم عليها أسد ودب فضربهم وقتلهم. فقال له شاول: اذهب وليكن الرب معك. وألبسوا داود درعا وخوذة من الحديد ولم يكن قد لبسها من قبل فلم يستطع السير بهما ونفضهما عن نفسه. كان داود يعلم أن النصر هو من عند الله أولا وآخرا. وأن الإيمان الحقيقى أقوى من أى درع. فتقدم ليقاتل جالوت وليس معه إلا عصاه التى يهش بها على الغنم والحجارة التى يرمى بها الذئاب خمسة حجارة فى جراب ومقلاعه فى يده. ولما رأى الفلسطينى داود استحقره لأنه كان غلاما وقال له: ألعلِّى أنا كلب حتى تأتى إلىَّ بعصا؟ وبدأ يسب داود وإلهه. وقال لداود تقدم إلىَّ فأعطى لحمك لطيور السماء ووحوش البرية. فقال داود لجالوت: أنت تأتى إلىَّ بسيف ورمح وترس وأنا آتى إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الذين عيَّرتهم. هذا اليوم يحبسك الرب فى يدى فأقتلك وأقطع رأسك وأعطى جثث جيشك لطيور السماء وحيوانات الأرض. فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله لإسرائيل. وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يخلِّص الرب. لأن الحرب للرب وهو يدفعكم ليدنا. وتقدم جالوت للقاء داود. ولكن داود أسرع وأخذ حجرا من جرابه ورماه بالمقلاع فأصابه فى جبهته.

وسقط جالوت على الأرض من شدة الضربة فأسرع داود إليه وأخذ سيفه منه وقتله به وقطع رأسه. ولما رأى الفلسطينيون ذلك خافوا وبدأوا فى الفرار ولحقهم جنود بنى إسرائيل وقتلوا منهم الكثير. وعاد داود إلى معسكر الملك شاول. وكان يوناثان ابن شاول شاهدا على ما فعل داود فأعجب به وأحبَّه وخلع عليه جُبَّته وأعطاه أيضا سيفه وقوسه ومنطقته. كما أن شاول عيَّنه رئيسا لفرقة من الجنود وحَسُنَ فى أعين الشعب.

«فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت». (٢٥١ - البقرة).

وخرج النساء من جميع مدن إسرائيل بالغناء والرقص للقاء شاول بدفوف وكُنَّ يُحيين داود لشجاعته. وبدأت الغيرة تدب فى قلب شاول وخشى أن ينتزع داود الملك منه وخاصة أن صموئيل النبى قد سبق وأخبره أنه لم يعد مرغوبا فيه من قِبَل الرب. وخشى أن يكون داود هو ملك إسرائيل المقبل. ولم يكن يعلم أن صموئيل النبى قد مسح داود فعلا ملكا على إسرائيل لأن ذلك تم - كما سبق أن ذكرنا - فى سرية تامة (ص ٩١). وكان المفروض - حسب ما وعد شاول - أن يعطى ابنته مَيْرَب زوجة لداود. ولكنه أعطاها لعدرئيل. أحد ضباط جيشه ولم يكن داود قد قاتل طمعا فى الجائزة التى رصدها شاول ولا للزواج من ابنته. ولكن ابنة شاول الصغرى «ميشال» أو «ميكال» كانت قد أحبَّت داود وعلم أبوها بذلك فرحَّب بزواجها من داود ظانًا أنه بذلك يطويه تحت جناحه فلا ينافسه على المُلك. وأرسل شاول رسولا يحث داود على التقدم لطلب يد ابنة الملك. فقال لهم داود أين أنا من الملك وأنا رجل مسكين. ولما أخبروا شاول بذلك طلب منهم أن يقولوا لداود إن الملك لا يهمه الجاه ولا الثروة. بل يكفيه أنه رجل شجاع وأمين وهذا كافٍ. وتمت المصاهرة وتزوج داود ميكال ابنة شاول.

شاول يحاول قتل داود :

عادت الغيرة تعمل عملها فى قلب شاول فحرَّض أبناءه وعبيده على قتل داود. وكما سبق أن قلنا إن يوناثان ابن شاول كان قد أحب داود فأفضى إليه بما ينتويه أبوه تجاهه ونصحه بأن يأخذ حذره . ثم راح يوناثان يدافع عن داود عند أبيه فصفت نفسه مؤقتا وتراجع عن قتل داود.

وانتصر داود فى معركة أخرى بينه وبين الفلسطينيين. وعاد الروح الردىء يتلبَّس شاول ويحرِّضه على التخلص من داود. وتقول التوراة (١ صموئيل ١٩:١٠) إن شاول انتهز فرصة انفراده بداود وهجم عليه برمحه وداود ليس معه سلاح فكان يدفع الرمح بيده ويتفاداه حتى استطاع أن ينجو منه وهرب وعاد إلى بيته. فأرسل شاول رجالا لبيت داود ليقتلوه عند خروجه فى الصباح ولما كان رجال شاول يحيطون بالبيت تضرَّع داود إلى الله فقال :

المزمور (٥٩) :

أنقذنى من أعدائى يا إلهى. من مُقَاوِمِيَّ احمنى. نجِّنى من فاعلى الإثم. ومن رجال الدماء

خلِّصنى لأنهم يكمنون لنفسى. الأقوياء يجتمعون علىَّ. لا لإثمى ولا لخطيَّتى يارب. بلا إثم منى يجرون ويُعِدُّون أنفسهم. استيقظ إلى لقائى. انظر وأنت يارب إله الجنود. إله إسرائيل. كل غادر أثيم لا ترحم. إلهى رحمته تتقدَّمنى. الله يرينى أعدائى. خطيَّة أفواههم هى كلام شفاههم وليؤخذوا بكبريائهم ومن اللعنة ومن الكذب الذى يُحدِّثون به. أما أنا فأغنِّى بقُوَّتك. وأرنِّم بالغداة برحمتك لأنك كنت ملجأ لى ومناصا فى يوم ضيقى. ياقُوَّتى. لك أُرنِّم لأن الله ملجئى إله رحمتى.

وساعدته ميكال زوجته على أن يهرب من كوة فى البيت ووضعت فى الفراش بعض التراقيم (تماثيل صغيرة) ولبدة معزى مكان الرأس وغطَّته بثوب حتى إذا نظروا من فرجة فى الباب ظنوا أنه داود نائم فى فراشه. وفى الصباح دخلوا عليها البيت وسألوا عن داود فأخبرتهم أنه مريض فى الفراش. فلما هجموا على الفراش ليقتلوه لم يجدوا إلا التراقيم ولبدة المعزى. وغضب شاول على ابنته لأنها مكنت داود من الهرب. وطلَّقها من داود وزوَّجها إلى أحد جنوده واسمه «فلطى ابن لايش» (١ صموئيل ٢٥:٤٤). وبالطبع كان هذا زواجا باطلا لأن الرجل هو الذى يملك حق تطليق زوجته وداود لم يطلِّقها وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد (ص ١١٩).

بعد أن هرب داود من رجال شاول ذهب إلى صموئيل النبى فى **الرامة** وأخبره بما فعل شاول معه. ثم انتقلا إلى البلدة المجاورة وهى **نايوث** وفى هذا المكان كان يجتمع القديسون حيث يرأسهم صموئيل النبى يتعبدون لله وبعضهم كان يطمع أن ينزل عليه الوحى فيتنبأ (يصبح نبيا) وعلم شاول بذلك فأرسل فرقة من الجنود لأخذ داود ولكنهم انضموا إلى رجال صموئيل وأرسل فرقة ثانية انضمَّت هى الأخرى لصموئيل. فلم ير شاول بدا من الحضور بنفسه واندس بين القديسين ليصل إلى داود. ورآه الناس وتعجبوا وقالوا: **أشاول أيضا بين الأنبياء!** فصارت مثلا عند أهل الكتاب. حين يرون رجلا فاسدا فى وسط أهل التقوى والصلاح.

وعاد داود إلى **الرامة** وقابل يوناثان ابن شاول واشتكى إليه من أفعال والده. وكما سبق أن قلنا إن يوناثان كان يحب داود ويخلص له النصيحة فأخبره أن والده لا يفعل شيئا دون أن يستشيره. وكان من عادة شاول أنه فى أول كل شهر يصنع وليمة تستمر ثلاثة أيام يدعو إليها رجال الحاشية وضباط الجيش. وهناك أمكنة على المائدة بجوار مكان شاول مخصَّصه لأبنائه ولزوج ابنته – داود – ونصح يوناثان داود بأن لا يحضر الوليمة ووعده بأنه سيكلم أباه فى أثناء الوليمة لإصلاح الجفوة التى بينهما. وفى اليوم الأول للوليمة وجد شاول مكان داود خاليا. ولما لم يأت فى اليوم التالى أيضا سأل ابنه يوناثان عنه فأخبره أنه ذهب إلى **بيت لحم** لأن عندهم ذبيحة للعشيرة وأنه سمح له بالذهاب. فغضب شاول على ابنه يوناثان ولامه على الصداقة بينه وبين داود. وبدأ يوغر صدره على داود بدعوى أنه يخطط لاغتصاب الملك منه

وبذلك لن يؤول إليه المُلك فى المستقبل. ولكن يوناثان لم يهمه هذا الأمر وكل ماكان يهمه هو سلامه صديقه داود. وأرسل يحذره وطلب إليه الهرب من بيت لحم.

هرب داود إلى نوب Nob وهى مدينة الكهنة فى أرض بنيامين ويحتمل أنها حاليا قرية العيساوية ٢,٥كم شمال شرق أورشليم. ولجأ إلى أخيمالك الكاهن وادَّعى أنه خرج فى مهمة عاجلة للملك فلم يأخذ معه خبزًا ولا سلاحا. وكان الخبز الوحيد الموجود آنئذ هو الخبز المقدَّس فأعطاه أخيمالك منه. ثم إن داود أخبره أنه لم يأخذ بيده سيفا أو رمحا لأن أمر الملك كان عاجلا فقال الكاهن: إن سيف جوليات الفلسطينى موجود وأعطاه له. فأخذ داود الخبز والسيف ومضى.

كان الخبز المقدس يوضع على المائدة فى القدس داخل المسكن ويأكل منه الكاهن وعائلته ولا يحق لأحد آخر أن يأكل منه. وإلى هذا أشار السيد المسيح عليه السلام فى قوله:

«أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه. كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة. الذى لم يحل أكله له ولا للذين معه. بل للكهنة فقط» (إنجيل متى ١٢:٣).

كان هناك رجل اسمه دواغ الأدومى جاسوس لشاول. فراح وأخبر شاول بما حدث. فجاء شاول على عجل إلى نوب للقبض على داود فوجده قد هرب منها.

داود يهرب إلى أرض الفلسطينيين :

إزاء هذه المطاردة فى كل مكان يذهب إليه لم يكن أمام داود من سبيل آخر إلا أن يهرب إلى «**جت** Gath» وهى إحدى مدن الفلسطينيين الخمس العظمى (ص ١١) وملكها أخيش Achish كان عدواً لدودا لبنى إسرائيل. وظن داود أن أخيش سيرحِّب به لما هو معروف عن عداوة شاول لداود. ولكنه اشتم من أخيش الغدر إذ لم ينسى الفلسطينيون أن داود هو الذى قتل جالوت وتسبب فى هزيمتهم فألقوا القبض عليه. فاحتال لينجو. فتظاهر بالجنون وكان يخربش الباب ويسيل لعابه على لحيته وهذا يعتبر من علامات الجنون فتركوه لحاله. وهرب داود إلى الجبال. ولعل هذا كان من أصعب المواقف التى جابهها داود. فشاول يطارده فى كل مكان والفلسطينيون كادوا أن يتمكنوا منه لولا تظاهره بالجنون فراح يضرع إلى الله **بهذا المزمور (٥٦)** قائلا :

ارحمنى يا الله لأن الإنسان يتهمَّنى واليوم كله محاربا يضايقنى. تهمَّنى أعدائى اليوم كله لأن كثيرين يقاوموننى بتجبرٍ وكبرياء. فى يوم خوفى أنا عليك أتَّكل. الله أفتخر بكلامه. على الله توكلت فلا أخاف ماذا يصنعه بى البشر. اليوم كله يُحرِّفون كلامى. علىَّ كل أفكارهم بالشر. يلاحظون خطواتى عندما ترصَّدوا نفسى. على إثمهم جازهم. بغضب أخضِع الشعوب يا الله. اجعل أنت دموعى فى زِقِّك حينئذ يرتد أعدائى إلى الوراء فى يوم أدعوك فيه.على الله

توكلت فلا أخاف. اللهم عليَّ نذورك. أوفى ذبائح شكر لك لأنك نجَّيت نفسى من الموت. نعم ورجليَّ من الزلق. لكى أسير قدام الله فى نور الأحياء.

وكذلك تضرَّع إلى الله بالمزمور التالى (٣٤) :

أبارك الرب فى فى كل حين. دائما تسبيحه فى فمى بالرب تفتخر نفسى. عظِّموا الرب معى. ولنُعْلِ اسمه معا. طلبتُ إلى الرب فاستجاب لى. ومن كل مخاوفى أنقذنى. نظروا إليه واستناروا ووجوههم لم تخجل. هذا المسكين صرخ والرب استمعه. ومن كل ضيقاته خلَّصه. ملاك الرب حال حول خائفيه وينجِّيهم. ذوقوا وانظروا. ما أطيب الرب. طوبى للرجل المتوكِّل عليه. اتقوا الرب يا قدِّيسيه لأنه ليس عَوَزٌ لمتَّقيه. طالبو الرب لا يعوزهم شيىء من الخير.

ومن المزمور ١٤٠ :

أنقذنى يارب من أهل الشر. من رجل الظلم احفظنى. الذين يتفكَّرون بشرور فى قلوبهم. اليوم كله يجتمعون للقتال. سنُّوا ألسنتهم كحيَّة. حمة الأفعوان تحت شفاههم. احفظنى يارب من يد الشرير. من رجل الظلم أنقذنى. أخفى لى المستكبرون فخًا وحبالاً. وضعوا لى أشراكا. قلت للرب أنت إلهى. اصغ يارب إلى صوت تضرُّعاتى.

ومن المزمور ١٤١ :

يارب إليك صرخت . أسرع إلىَّ. اصغ إلى صوتى عندما أصرخ إليك لتستقيم صلاتى قدامك. لا تُملْ قلبى إلى أمر ردىء.

هذه مجرد عينة من تضرعات داود إلى الله كى يحميه من أعدائه الذين كانوا يطاردونه فى كل مكان: شاول من ناحية والفلسطينيين من ناحية أخرى. ولجأ داود إلى مغارة تسمى مغارة عَدُلاَّم Adullam وهى حاليا مغارة الشيخ مذكور حوالى ٢٧كم جنوب غرب أورشليم والمغارة طولها أكثر من ١٦٠ مترا وتتسع لمئات الرجال وتسمى أيضا مغارة وادى قريطون (قاموس الكتاب المقدس . ص٦١٣). وفيها اختبأ داود (شكل ٢٩ أ) .

ولما كان مختبئا فى المغارة تضرَّع بهذا المزمور (١٤٢) :

بصوتى إلى الرب أصرخ. بصوتى إلى الرب أتضرَّع. أسكب أمامه شكواى بضيقى قدامه أُخبر. عندما أعيت روحى فىَّ وأنت عرفت مسلكى. فى الطريق التى أسلك أخفوا لى فخًا. صرخت إليك يارب. قلتُ أنت ملجئى. اصغ إلى صراخى لأنى قد تذلَّلت جدا. نجنى من مضطهدىَّ لأنهم أشد منى. أخرج من الحبس نفسى لتحميد اسمك.

وتضرع أيضا بهذا المزمور (١٤٣) :

يارب اسمع صلاتى. واصغ إلى تضرُّعاتى بأمانتك. استجب لى بعدلك لأن العدو قد اضطهد نفسى. سحق إلى الأرض حياتى. أجلسنى فى الظلمات مثل الموتى. أعيت فىَّ روحى.

تحيَّر فى داخلى قلبى. لهجت بكل أعمالك. بصنائع يديك أتأمَّل. بسطت إليك يدىَّ. أجبنى يارب. فنيت روحى. لا تحجب وجهك عنى. أسمعنى رحمتك لأنى عليك توكلت. عرِّفنى الطريق التى أسلك فيها لأنى إليك رفعت نفسى. أنقذنى من أعدائى يارب. إليك التجأت أنت إلهى. من أجل اسمك يارب تحيينى. بعدلك تخرج من الضيق نفسى. وبرحمتك تستأصل أعدائى وتُبيد كل مضايقى نفسى لأنى أنا عبدك.

واستجاب الله لتضرعاته. فقد سمع إخوته أنه لجأ إلى مغرة عدُلَّام. فنزلوا إليه. هم وجميع بيت أبيه. واجتمع إليه كل رجل مضطهد ومظلوم فَتجمَّع له حوالى ٤٠٠ رجل. وجعل من المغارة مركز قيادة له. وأصبحت هذه المجموعة هى السند الحربى له ينطلق بها لعملياته ثم يعود إلى المغارة ثانية. وخاف داود على أبويه من بطش شاول لو بقيا فى نطاق مملكة إسرائيل. وكانت راعوث - زوجة جد يسّى والده - مؤابية من بيت شديد البأس فى مؤاب. فذهب إلى «مصفاة مؤاب» شرقى البحر الميت قرب نهاية الأردن وطلب من ملك مؤاب أن يُبقى أباه وأمه عنده وتحت حمايته حتى يعلم ما ينتهى به المطاف. وظل والداه عند ملك مؤاب كل الأيام التى كان فيها داود مطاردا فى الجبال. وبدأ أتباعه يتزايدون حتى وصلوا إلى ٦٠٠ رجل. وكان من بينهم كاهن اسمه جاد انضم إلى داود وأصبح الرائى الخاص به أى الكاهن الذى يستشيره قبل الإقدام على عمل ما. ويبدو أن النبوّة لم تكن قد أعطيت بعدُ لداود. وكثر أعوان داود من الرجال الشجعان بالإضافة إلى المعونة الدينية بواسطة الكاهن جاد لإقامة الشعائر الدينية فى هذا المجتمع الصغير. وظل شاول يطارد داود ويتبعه فى صحراء يهوذا فى الجنوب. وكان السكان المحليون يعطفون على داود ويساعدونه بالمؤن والزاد وبأخبار تحركات شاول حتى يستطيع الإفلات من رجاله. وكان داود فى المقابل يحمى هؤلاء السكان من أعدائهم وخاصة أنه كان يُنظرُ إليه على أنه رئيس سبط يهوذا وملك إسرائيل المقبل. إلاَّ أنَّ هذا لم يمنع شاول من استمالة سكان قريتى زف Ziph وكارمل Carmel وهما قريتان فى يهوذا جنوب حبرون (انظر شكل ٢٩ أ) فحاول سكان القريتين الإيقاع بداود لتسليمه لشاول ولكنه أفلت منهم. وكان من الصعب على داود إعاشه رجاله فى صحراء يهوذا لقلة خيراتها فيضطر إلى اللجوء إلى القرى وفى هذا مخاطرة له ولرجاله فهو لا يضمن ولاء أهل هذه القرى. لذلك لجأ إلى عين جدى En Gedi على الشاطىء الغربى للبحر الميت حوالى ١٥كم شرقى حبرون وفيها نبع عين جدى من الماء العذب وهو نبع فياض وتنحدر مياهه من علو شاهق على جبل صخرى وعند أسفله أرض خصبة. ولغزارة المياه تجود زراعة الكروم والنخيل فاتخذها داود قاعدة له ولرجاله إذ تتوافر فيها مقومات المعيشة ويسهل الدفاع عنها. وكان شاول ينزل فى جبعة فى منطقة بنيامين ولام البنيامينيين لأنهم لا يحيطيونه بتحركات داود حتى يتمكن من القبض عليه .

«وألنا له الحديد» :

كانت إحدى العقبات التى يواجهها داود هى قلة السلاح بأيدى رجاله. فلم يكن أحد من رجاله يتقن صناعة الحدادة ذلك أن الفلسطينيين أثناء تسلّطهم على أرض إسرائيل فرضوا عليهم ما يمكن تسميته «حظر التسلّح» فمنعوهم من تعلم صنعة الحدادة أو إفتتاح دكاكين الحدادة أو أى «ورش» لطرق الحديد حتى إن الاسرائيلى إذا أراد أن يشحذ نصل منجله أو فأسه كان عليه أن يلجأ إلى أحد الفلسطينيين وقلة هى التى تعلمت هذه الصنعة فيما بعد وعملت فى خدمة شاول. وكانت مشكلة أن يحصل داود على السيوف وبلطات الحرب لرجاله. وفى يوم من الأيام استغرق فى حل لهذه المشكلة وتضرَّع بهذا **المزمور (٩١)**: أقول للرب ملجئى وحصنى. إلهى فأتكل عليه لأنه ينجيك من فخ الصياد ومن الوباء الخطر. تحت أجنحته تحتمى. لا تخشى من خوف الليل ولا من سهم يطير فى النهار ولا من وباء يسلك فى الدُّجى ولا من هلاك يُفسِدُ فى الظهيرة. يسقُطُ عن جانبك ألف وترى مجازاة الأشرار. لأنك قلت أنت يارب ملجئى. جعلت العلىَّ مسكنك. لا يلاقيك شر ولا تدنو ضربة من خيمتك لأنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فى كل طرقك. وعلى الأيدى يحملونك لئلا تصطدم بحجر رجلك. على الأسد والصل تطأ. الشبل والثعبان تدوس. لأنه تعلق بى أُنجِّيه. أرفعه لأنه عرف اسمى. يدعونى فأستجيب له. معه أنا فى الضيق. أنقذه وأريه خلاصى.

وهكذا لما دعا داود الله استجاب له وأنقذه وكان الخلاص أن ألان له الحديد. قيل فصار الحديد فى يده مثل العجين يُشكِّله كيف يشاء بدون حاجة إلى تسخين أو طرق. كما أن الله علَّمه طريقه صنع دروع سابغات تغطى الجسم كله ولا تعوق حركة المحارب فكانت هذه ميزة تفوَّق بها على أعدائه. فقد كانت الدروع تصنع على هيئة صفائح ثقيلة مكونة من قطع تغطى الصدر والأيدى والأرجل فكانت تعوق المحارب عن الحركة وتجعله فريسة سهلة لمن يهاجمه من الجنب أو الخلف. كما أن المفاصل لابد أن تكون مكشوفه ليتمكن المحارب من الحركة فيمكن إصابته فيها. فعلَّمه الله كيفية صنع دروع سابغات. والسبوغ هو التمام والكمال. ويقال أسبغ الله عليه نعمه أى أتمَّها:

«وألنَّا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدِّر فى السرد» . (١٠ - ١١ - سبأ).

والسرد النسج ودروع مسرودة أى مكوَّنة من حلقات يتداخل بعضها فى بعض كأنه النسيج. ويسرد الحديث إذا كان جيد السياق والمتابعة والنقاط مرتبط بعضها ببعض. وأُمِرَ داود أن يُحكِم وضع الحلقات ويقدِّر السرد.

«وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم» . (٨٠ - الأنبياء).

وبهذا تمكن داود أن يصنع لرجاله سلاحا يفوق مالدى أعدائه. وتمكن من صد هجمات مطارديه. وشجَّع هذا الكثيرين على الانضمام إليه وتزايد أعوانه وأصبح يسيطر على منطقة

كبيرة من أرض يهوذا فى حين كان شاول يكتسب كل يوم كراهية بنى إسرائيل وإن كان يُخضعهم بالخوف والتسلُّط عليهم.

مذبحة نوب وكهنتها :

قلنا (ص ١٠١) إن داود كان قد هرب إلى نوب وكان فيها دواغ الأدومى رجل - كما تصفه التوراة - مملوء شر وجاسوس لشاول. أسرع إلى شاول وأخبره أن أخيمالك الكاهن تستَّر على داود وأعطاه من الخبز المقدس وأعطاه سيف جليات. فأرسل شاول وأحضر أخيمالك كاهن نوب وجميع أهل بيته وجميع كهنة نوب. وسأل شاول أخيمالك لماذا ساعد داود. فأجابة ومَن من جميع عبيدك مثل داود. أمين وصهر الملك. وصاحب سرِّك ومكرَّم فى بيتك. ولكن شاول حكم عليه بالقتل وأمر السعاة بتنفيذ الحكم فلم يمتثلوا. فأمر دواغ الأدومى فقام بقتل أخيمالك وجميع أهل بيته وقتل من الكهنة ٨٥ رجلا. ثم تحوَّل إلى نوب نفسها وقتل جميع أهلها. الرجال والنساء والأطفال والرضَّع وحتى البهائم. كل ذلك حسب أمر شاول. ولم ينج أحد إلا ولد واحد لأخيمالك (اسمه أبياثار) هرب إلى حيث يقيم داود وأخبره بخبر مذبحة الكهنة وأهل نوب. فطمأنه داود على حياته وضمَّه إلى رجاله وصار رئيس كهنة له. وقال داود هذا **المزمور** (٥٢) ينعى فيه على دواغ الأدومى دوره فى مذبحه الكهنة وأهل نوب: «لماذا تفتخر بالشر أيها الجبار. رحمة الله هى كل يوم. لسانك يخترع مفاسد كموسى مسنونة يعمل بالغش. أحببتَ الشر أكثر من الخير. والكذب أكثر من التكلُّم بالصدق. أحببتَ كل كلام مهلك ولسان غش». ثم يؤكد له أن كلامه الذى تسبَّب فى هلاك أشخاص أبرياء فإن الله سيجازيه به فقال: «أيضا يهدمك الله إلى الأبد. يخطفك ويقلعك من مسكنك ويستأصلك من أرض الأحياء فيرى الصدِّيقون ويخافون وعليه يضحكون: هو ذا الإنسان الذى لم يجعل الله حصنه. بل اتكل على كثرة غناه واعتزَّ بفساده». وبالمقابلة بهذا المصير لدواغ الأدومى يرى داود نفسه كشجرة زيتونة مورقة ناضرة مثل تلك الأشجار التى لا تزال تنمو على منحدرات نوب فيقول: «أما أنا فمثل زيتونة خضراء فى بيت الله. توكلت على رحمة الله إلى الدهر وإلى الأبد. أحمدك إلى الدهر يارب لأنك فعلتَ. وانتظرُ اسمك فإنه صالح قدام أتقيائك».

داود يحرر قعيلة :

كان الفلسطينيون قد هاجموا بلدة **قعيلة** Keilah (وهى مدينة فى يهوذا على بعد ٣٠كم جنوب غرب أورشليم) ونهبوها واحتلوا مساكنها. وأُوحى إلى داود أن يذهب ويحارب الفلسطينيين ليحرر المدينة. وخاف رجاله من مجابهة الفلسطينيين ولكن الله أوحى إليه أنه سيؤيدهم وينصرهم. فتشجَّع رجاله. فذهب إلى قعيلة وحارب الفلسطينيين وهزمهم واستولى على مواشيهم وحرَّر المدينة وسكَّانها. وأقام بالمدينة هو ورجاله فترة من الوقت.

شاول يطارد داود فى برية يهوذا :

فرح شاول لما علم أن داود موجود بمدينة قعيلة فعزم على أن يحاصر المدينة ويقبض على داود ويقتله. واستشار داود الرب سائلا: هل يسلمه أهلها؟ فأتاه الوحى أنهم سيسلمونه إلى شاول لو جاء إلى المدينة لأخذه ولن يدافعوا عنه. فخرج منها ونجا بنفسه ولجأ إلى **برية زيف** وهى المنطقة الوعرة التى تقع جنوب شرق حبرون وعلم شاول أن داود ترك قعيلة فعدل عن القدوم إليها. ثم جاء الزيفيون إلى شاول فى جبعة وأخبروه أن داود يختفى فى تل حخيلة قريبا من زيف. فقام شاول ونزل ومعه ٣٠٠٠ رجل إلى بريَّة زيف لكى يفتش على داود فى التلال والكهوف الموجودة بها.

ولجأ داود إلى الله وتضرَّع إليه بهذا **المزمور (٥٤)**.

اللهم باسمك خلِّصنى. وبقُوَّتك احكم لى. اسمع يا الله صلاتى. اصغ إلى كلام فمى لأن غرباء قد قاموا علىَّ وعُتاة طلبوا نفسى. لم يجعلوا الله أمامهم. هوذا الله معين لى. (ثم يدعو على أعدائه) يرجع الشر على أعدائى. بحقِّك أفنهم. أحمدُ اسمك يارب لأنه صالح لأنه من كل ضيق نجانى. وبأعدائى رأت عينى.

وفى المزمور (٥٥) يقول:

اسمع يا الله صلاتى ولا تتغاضى عن تضرُّعى. اسمع لى. واستجب لى. أتحيَّر فى كربتى واضطرب من صوت العدو. أهلِكهم يارب فرِّق ألسنتهم. لأنى قد رأيت ظلما وخصَامًا فى المدينة. نهارا وليلا يحيطون بها على أسوارها. أما أنا فإلى الله أصرخ والرب يخلِّصنى. مساء وصباحا وظهرا أشكو وأنوح فيسمع صوتى. إلقِ على الرب همك فهو يعولك. لا يَدَعُ الصدِّيق يتزعزع إلى الأبد. وأنت ياالله تُحدِّرُهُم إلى جب الهلاك. رجال الدماء والغش لا ينصفون أيامهم. أما أنا فأتكل عليك.

يوناثان بن شاول يبايع داود :

وبحث يوناثان عن داود صديقه وذهب إليه وأيَّده وقال له: لا تخف لأن يد شاول أبى لن تجدك وأنت تملك على إسرائيل وأنا أكون لك ثانيا. وشاول أبى أيضا يعلم بذلك. وتعاهدا على الإخلاص وقطعا عهدا أمام الرب وأقام داود فى البرية أما يوناثان فعاد إلى بيته.

داود يتعفَّف عن قتل شاول :

ظفر داود بشاول مرتين وكان فى إمكانه أن يقتله ولكنه لم يفعل ليُظهر له أنه لا يكن له حقدا أو ضغينة علَّه يكف عن مطاردته وقد حدَثت المرة الأولى كما يلى :

قلنا إن داود لجأ إلى حصون الغاب فى **تل حخيلة** فى **برية زيف** وصعد الزيفيون إلى جبعة حيث يقيم شاول ليحرضوه على داود ويُسلِموه إليه. وأحسَّ داود بذلك فترك حخيلة ونزل إلى

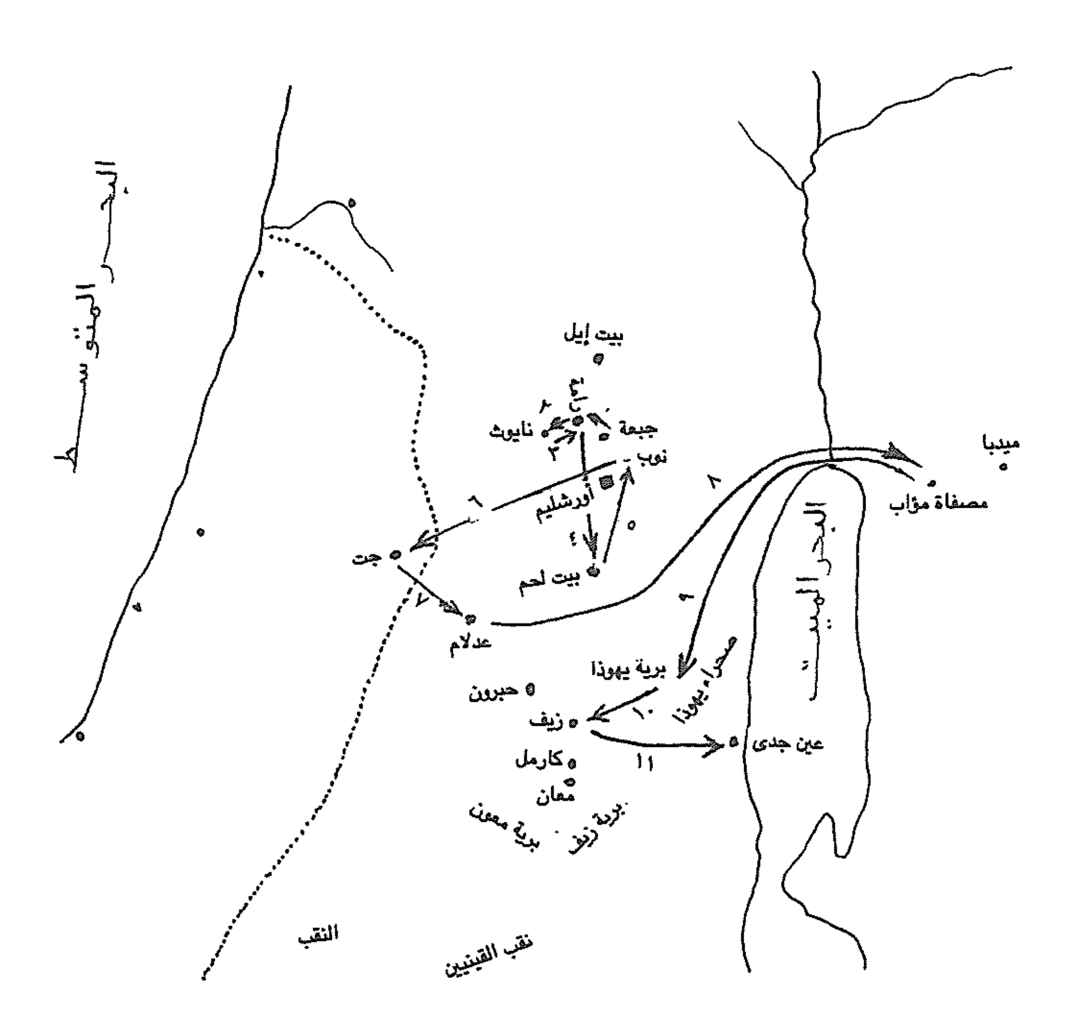
«برية معون» ومعون بالعبرية معناها سكن. ويوجد حاليا جبل مخروطي الشكل ١٣كم جنوبي حبرون يسمى «معين» ويُرجّح أنه هو معون (قاموس الكتاب المقدس ص ٩٠٩). واستجاب شاول للزيفيين ونزل برجاله للإمساك بداود. ولكن الفلسطينيين انتهزوا فرصة انشغال شاول بمطاردة داود وبدأوا يغيرون على المدن الإسرائيلية فترك شاول داود مؤقتا ورجع لقتال الفلسطينيين وصد غاراتهم. وكان داود قد عاد إلى عين جدى. ولما فرغ شاول من حرب الفلسطينيين عاد لمطاردة داود. ولجأ شاول إلى كهف ليستريح فيه. وكان داود ورجاله جلوسا فى مغارات متفرعة من الكهف نفسه. فقالوا له: لقد حان الوقت لتنتقم من عدوك الذى يطاردك فى كل مكان. فقام داود وقطع قطعة من جبة شاول وهو نائم وقال لرجاله: حاشا لى من قِبَل الرب أن أقتل سيدى مسيح الرب فأمد يدى إليه. ومنعهم من إلحاق أى أذى بشاول. وقام شاول وخرج من الكهف ذاهبا فى طريقه. وهنا خرج داود من الكهف ونادى عليه وقال له: انظر هاهو طرف جُبَّتك فى يدى ولو شئت لقتلتك. ولكنى لم أفعل لأن ليس فى يدى شر ولا جرم. ولم أخطىء إليك وأنت تتصيَّدنى لتقتلنى يقضى الرب بينى وبينك. وينتقم الرب لى منك. ولكن يدى لا تكون عليك. وأظهر شاول ندمه وعاهد داود ألاَّ يضرَّه بعد الآن. وعاد شاول إلى بيته فى جبعة وذهب داود ورجاله إلى قواعدهم فى البرية.

وفاة صموئيل النبي :

تقول التوراة (١ صموئيل ٢٥:١) ومات صموئيل فاجتمع إسرائيل وندبوه ودفنوه فى بيته فى الرامة. ونزل داود إلى قرية «معون» فى برية معون جنوب حبرون.

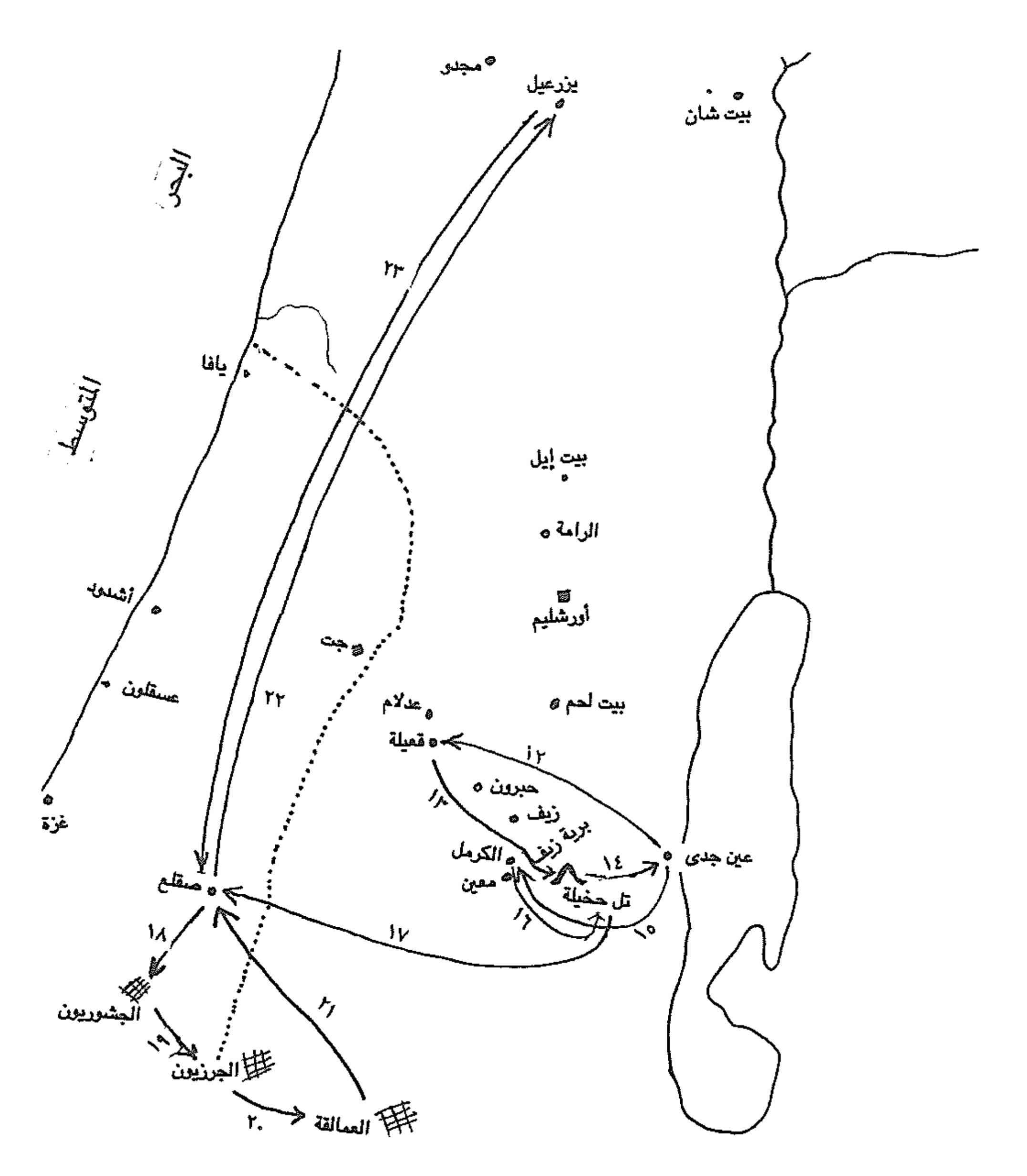
داود وأبيجال :

كان نابال رجلا من بلدة «الكرمل» وهى بلدة فى جبال يهوذا تقع ٢ كيلو متر شمال بلدة معون - المذكورة أعلاه - وكان لنابال ثروة عظيمة ٣٠٠٠ من الغنم و ١٠٠٠ من المعز. وكان داود ينزل فى بلدة معون فأرسل رسلا إلى نابال يذكر له فيها أنه - أثناء مطاردات شاول له - لم يُغِرْ على ممتلكاته بل كان دائما يتوخى سلامتها والمحافظة عليها. وطلب منه عدة خراف لرجاله. فرفض نابال بوقاحة. فأزمع داود تأديبه وقاد ٤٠٠ من رجاله وذهب لمهاجمته. وعلمت «أبيجال» زوجة نابال بسلوك زوجها الشائن مع داود والخطر المحدق بزوجها فأخذت بنفسها حمولة كبيرة من الخبز والحبوب والنبيذ على حمير وقادتها مع عبيد لها إلى حيث داود ورجاله واعتذرت له عن مسلك زوجها ورجته أن يعفو عن وقاحته فى الرد عليه. ورجته أيضا ألا يحمل فى نفسه ضغينة على زوجها وعندما يصير الأمر إليه فى المستقبل ويصبح ملكا على إسرائيل لا يقتله. وذكَّرته بأنه - داود - كريم مع أعدائه لم يخضِّب يده بدم شاول الذى يطارده فأحرى به ألا يسفك دما انتقاما لنفسه. فقال داود لأبيجال: مبارك الرب إله إسرائيل الذى أرسلك هذا اليوم لاستقبالى. ومبارك عقلك ومباركة أنت لأنكِ منعتِنى اليوم من إتيان الدماء وانتقام يدى



شكل ٣٠ – مطاردات شاول لداود (أ) .

١ – من جبعة إلى الرامة .
٢ – من الرامة إلى نايوث .
٣ – عودة إلى الرامة .
٤ – إلى بيت لحم .
٥ – إلى نوب .
٦ – إلى جت .
٧ – إلى عدلام .
٨ – إلى مصفاة مؤاب .
٩ – إلى صحراء يهوذا .
١٠ – إلى زيف .
١١ – إلى عين جدى .



شكل ٣١ – مطاردات شاول لداود (ب) .

١٢ – من عين جدى إلى قعلية .
١٣ – إلى برية زيف وتل حخيلة .
١٤ – إلى عين جدى .
١٥ – إلى الكرمل . نابال .
١٦ – إلى حخيلة .
١٧ – إلى صقلع .

١٨ محاربة الجشوريين .
١٩ – محاربة الجرزيين .
٢٠ – محاربه العمالقة .
٢١ – العودة إلى صقلع .
٢٢ – إلى يزرعيل .
٢٣ – العودة من يزرعيل إلى صقلع .

لنفسى. وأخذ داود ما أتت به من زاد له ولرجاله وقال لها: اصعدى بسلام إلى بيتك. قد سمعت لصوتك. وترك داود الرجل ليقتصَّ الرب منه. ولما عادت أبيجال إلى بيتها كان نابال قد أولم وليمة كبيرة احتفالا بجزِّ صوف غنمه. وشرب كثيرا من الخمر. وبعد عشرة أيام مات. ولما علم داود بموته قال: مبارك الرب الذى انتقم لى من نابال وأمسك يدى عن الشر وردَّ الرب شر نابال على رأسه. وكان داود قد أُعجب برجاحة عقل أبيجال وبجمالها. فلما انقضت عدَّتها أرسل يخطبها فوافقت فتزوَّجها وشاطرته حظه وتنقلاته. وكانت ضمن من أسرهم العماليق فى بلدة «زقلاج» Ziklag كما سيأتى فيما بعد وحررها داود ورافقته إلى حبرون حينما تُوِّج ملكا على إسرائيل وهى والدة ابنه «كيلآب» Chileab .

داود يظفر بشاول ولا يقتله :

للمرة الثانية ظفر داود بشاول وكان فى مقدوره أن يقتله ولكنه تورَّع عن قتله. كان ذلك حين راح الزيفيون يحرِّضون شاول على داود للمرة الثانية وأخبروه أنه نزل فى حخيلة فقام شاول من جبعة ونزل إلى برية زف ومعه ٣٠٠٠ من رجاله ونصب خيمته هناك. وعلم داود عن طريق جواسيسه المكان الذى نزل به شاول. فتسلل ليلا ومعه نفر قليل من رجاله إلى حيث خيمة شاول وبجوارها خيمة أبنير رئيس جيشه. وكان شاول نائما ورمحه مركوز فى الأرض عند رأسه. فهمس رجال داود مزّينين له أن يضربوا شاول بالرمح ويقتلوه. فرفض داود قائلا: لا تُهلكه. فمَنْ الذى يمد يده إلى مسيح الرب ويتبرأ؟ حىٌّ هو الرب. سوف يضربه أو يأتى يومه فيموت أو ينزل إلى الحرب ويهلك. حاشا لى من قبَل الرب أن أمد يدى إلى مسيح الرب. وأخذ الرمح الذى عند رأسه وكوز الماء وذهبوا. وفى الصباح وقف داود على رأس الجبل المقابل لخيمة شاول ورجاله ونادى على أبنير ووبَّخه لأنه لم يحرس سيده شاول الليلة الماضية وأراه رمحه الذى أخذه وكوز الماء وأنه كان فى إمكانه أن يقتل شاول ولكنه لم يفعل. ولما علم شاول بما حدث اعترف بخطئه فى حق داود وطلب منه أن يعود لخدمته متعهِّدا له ألا يسىء إليه فى المستقبل. ولكن داود رفض وطلب منه أن يرسل أحد غلمانه ليأخذ رمحه. ثم رجع شاول إلى جبعة. وفكَّر داود فى مكان يهرب إليه ولا تصل إليه يد شاول.

داود يتمركز فى أرض الفلسطينيين :

كان داود قد ضاق بمطاردات شاول المستمرة. كما أنه لم يشأ أن تكون نهاية شاول على يديه. فرأى أن خير وسيلة هى أن يلجأ إلى أرض الفلسطينيين. فذهب إلى «جت» وملكها أخيش واستأذن منه أن ينزل فى «صقلغ Ziklag » التى تقع فى جنوب أرض الفلسطينيين ٢٢كم جنوب شرقى غزة. وهى فى الأصل كانت إحدى مدن شمعون. ثم لما ذاب سبط شمعون فى سبط يهوذا أصبحت إحدى مدن يهوذا ولكن الفلسطينيين استولوا عليها منذ مدة طويلة. ولعل ذلك كان هو السبب فى أن أخيش سمح له بالإقامة فيها إذا لو حاول شاول استردادها

فسيكفيه داود عبء الحرب إذ سيدافع عنها حتى لا تقع فى يد شاول. فضلا عن كونها فى الجنوب بعيداً عن المدن ذات الأغلبية الفلسطينية حتى لا يحدث احتكاك بين الفريقين. أما من وجهة نظر داود فلعل السبب الذى جعله يختارها لإقامته فهو وجود جالية كبيرة من بنى إسرائيل بها فضلا عن وقوعها فى الجنوب بعيدة عن أعين الفلسطينيين مما يعطيه حرية فى اختيار الأماكن التى ستكون هدفا لهجماته.

قلنا إن داود ذهب إلى أخيش ملك جت وكان هو الذى يترأس اتحاد الفلسطينيين فى ذلك الوقت وطلب الإذن لنفسه ولزوجته ورجاله بالإقامة فى صقلع فأذن له. ولعله كان من أقسى المواقف على داود أن يتظاهر بموالاته للفلسطينيين في حين أنه لم يكن كذلك. وكان كل ما يطمع فيه هو قطعة من الأرض يأمن فيها على نفسه وعلى رجاله يجعلها مركزا وينطلق منها إلى عملياته. وانضم إليه فى صقلع عدد كبير من بنى إسرائيل من أسباط مختلفة. فمن سبط بنيامين – الذى منه شاول – انضم إليه أخيعزر ومعه عدد كبير من الرجال: ومن بنى جاد انضم إليه عدد كبير أيضا يرأسهم عازر ومن سبط يهوذا رجال كثيرون. فخرج داود لاستقبالهم وقال لهم: إن كنتم قد جئتم بسلام إلىَّ كى تساعدونى يكون لى معكم قلب واحد. وإن كنتم جئم لكى تدفعونى لعدوِّى (شاول) ولا ظلم فى يدى فلينظر إله آبائنا وينصف. فرد رؤساء الجماعات قائلين: نحن ياداود معك. سلام لك وسلام لمساعديك لأن إلهك معينك. فضمَّهم داود إلى رجاله الذين زاد عددهم كثيرا وبلغوا أكثر من ٦٠٠٠ رجل (أيام أول ١٢).

داود يحارب أعداء إسرائيل:

الجشوريون قبيلة من القبائل الكنعانية كانت تقطن جنوب فلسطين فى السهل الساحلى. ويجاورهم شرقا قبيلة الجرزيون فى جنوب يهوذا ويليهم العمالقة (شكل ٣١). وكانت هذه القبائل كثيرا ما تهاجم سكان يهوذا وتستولى على مواشيهم ومحاصيلهم. وتظاهر داود بأنه خارج ليحارب الإسرائيليين فى جنوب يهوذا وحارب هذه القبائل وعاد بالغنائم وأرسل جزءا منها إلى أخيش ملك جت ولما سأله عن مصدرها أخبره بأنه أغار على جنوب يهوذا وسُرَّ أخيش إذ اعتقد أن داود أصبح مكروها لدى الإسرائيليين وأنه بذلك سيكون طوع يديه. وأرسل داود جزءا من الغنائم إلى رؤساء يهوذا فشكروا له صنيعه بأن منع عنهم غارات هذه القبائل وصار محبوبا لديهم.

الاستعداد لمعركة مع الفلسطينيين :

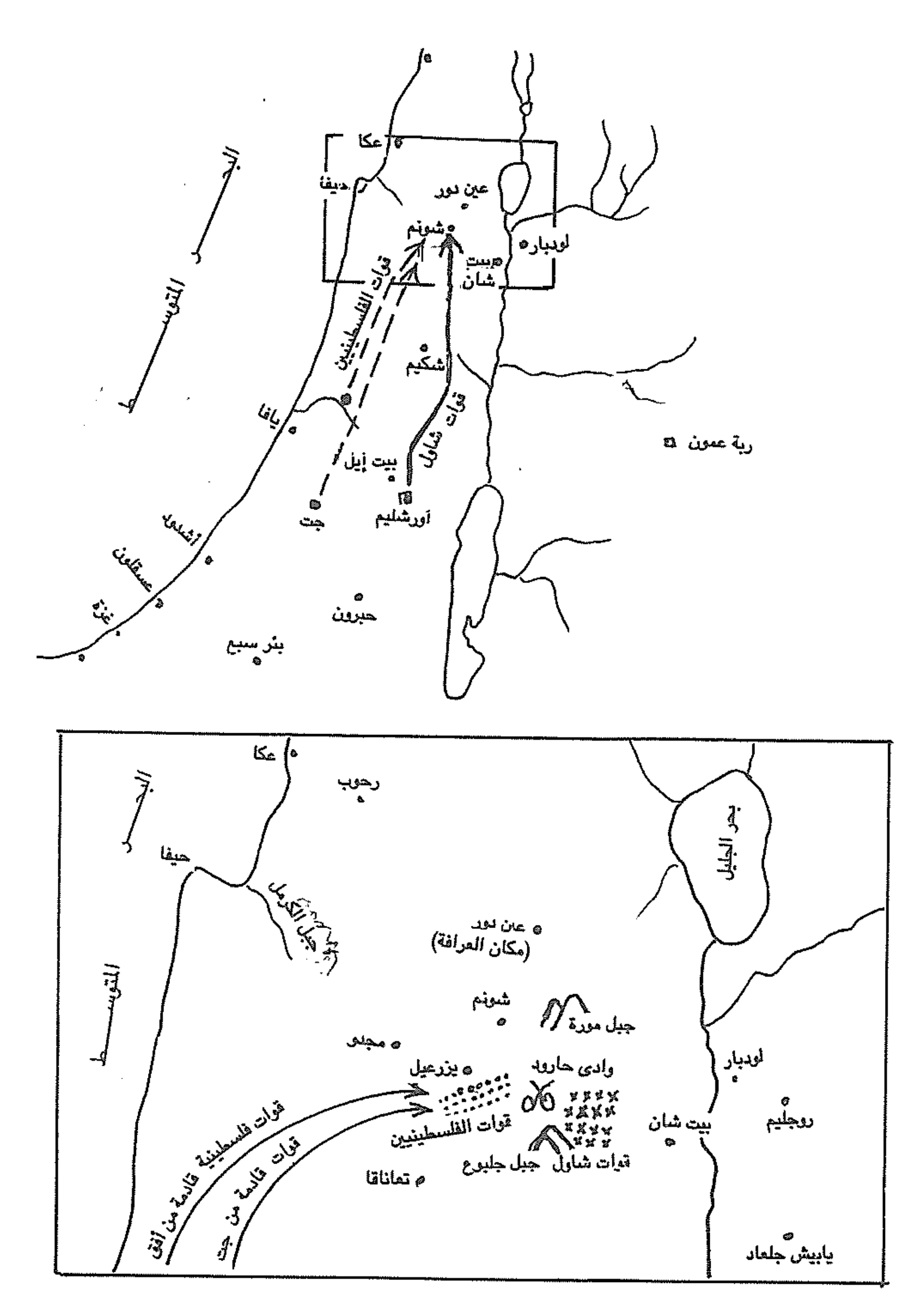
فرح الفلسطينيون لما هو حادث من انشقاق فى صفوف بنى إسرائيل وانشغال شاول بمطاردة داود فجمعوا جيوشهم بقيادة أخيش ملك جت لمحاربة إسرائيل. ولمَا يعلمه من عداوة بين داود وشاول فإن أخيش طمع فى أن ينضم إليه داود فى محاربة شاول فقال له: اعلم يقينا أنك ستخرج معى فى الجيش أنت ورجالك. كان داود فى موقف حرج. فهو لا يريد محاربة

قومه. كما لا يريد إغضاب الفلسطينيين وهو نازل فى أرضهم. فردّ ردا دبلوماسيا فقال: لذلك أنت ستعلم ما يفعل عبدك.

كان الفلسطينيون قد قرروا مهاجمة إسرائل من أقصى الشمال. ولعلهم أرادوا أن يتجنبوا الاشتباك فى منطقة الوسط الجبلية وذات الكثافة السكانية العالية مما يكبدهم خسائر فادحة وخاصة أن بنى إسرائيل يسيطرون على أعالى الجبال. فى حين أن الشمال سهل منبسط ويسكنه سبطا يساكر وزبولون وهما من أضعف الأسباط. لذلك سار الفلسطينيون من جت إلى شونم Shunem التى تقع ١٥كم شرقى مجدو عند سفح جبل مورة فى حين نزل شاول وقواته عند جبل جلبوع Gilboa – ١٠كم إلى الجنوب من جبل مورة (شكل ٣٢).

بعد مذبحة كهنة نوب (ص ١٢٢) كان كل رجال الدين قد ابتعدوا عن شاول وكذلك كل العرافين والرائين. وكان صموئيل النبى قد مات. وأراد شاول أن يستطلع رغبة السماء فى هل يحارب الفلسطينيين أم لا. فلم يجبه الرب لا بالأحلام ولا بالإلهام. وأُخبر عن امرأة تصاحب الجان ويمكنها تحضير الأرواح تسكن فى عين دور Endor ٦ كم شمال جبل مورة. وخوفا من أن ترفض طلبه لو علمت أنه شاول الملك فإنه تنكّر فى ثياب بسيطة وذهب ومعه رجلان من أتباعه وجاءوا إلى المرأة ليلا وبالطبع لم تعرف أنه الملك شاول فقالت له خائفة: أنت تعلم أن شاول قتل جميع العرافين والمتنبئين وأخاف أن يعرف عنى فيقتلنى. فحلف لها بالرب أنه لن يلحقها أذى. فسألته عن الروح الذى يريد تحضيره. فطلب منها أن تُحضِّر روح صموئيل النبى. فلما فعلت وحضر الروح أخبرها أن ضيفها هو شاول نفسه. فصرخت المرأة خائفه وقالت لشاول: لماذا خدعتنى. فقال لها لا تخافى. ثم قال الروح لشاول: لماذا أقلقتنى بتحضير روحى؟ فقال شاول: قد ضاق بى الأمر جدا. الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى ولم يعد يجيبنى فدعوتك لكى تخبرنى ماذا أصنع. فقال صموئيل: ولماذا تسألنى والرب قد فارقك وصار عدوك. وقد فعل الرب كما تكلّم عن يدى وقد شق الرب المملكة وأعطاها لقريبك داود لأنك لم تسمع لصوت الرب. وغدا أنت وبنوك تكونون معى (أى تكونون فى عالم الأرواح أى ستُقتلون). وعاد شاول إلى معسكره.

وفى الصباح تقدم شاول بقواته إلى يزرعيل Jezreel وتقدمت قوات أخيش إلى يزرعيل أيضا وانضمت إليها باقى القوات الفلسطينية التى كانت متجمعة فى أفيق. وأُخبر أخيش باقى أقطاب الفلسطينيين أن داود منشق على شاول ولم ير منه طوال إقامته فى صقلع إلا خيرا وأنه قد طلب منه الخروج معه إلى الحرب. ولكن أقطاب الفلسطينيين وضعوا فى الاعتبار أن داود قد ينقلب عليهم أثناء المعركة وينضم إلى قومه الإسرائيليين وطلبوا من أخيش أن يأمره بالعودة إلى الأرض التى عُيِّنت لإقامته. وكلّم أخيش داود وقال له إنه يثق فيه ولكن الأقطاب الفلسطينيين الآخرين لا يثقون فيه وأمره بالعودة. وفى الصباح عاد داود إلى صقلع فى الجنوب.



شكل ٣٢ – معركة شاول الأخيرة مع الفلسطينيين .

العماليق يهاجمون صقلع :

كان العماليق قد انتهزوا فرصة تحرك أخيش وجيشه إلى الشمال لمحاربة شاول. ورافقهم داود ورجاله كطلب أخيش (قبل أن يأمره بالعودة) وأرادوا الثأر لمهاجمة داود لمواقعهم. فتقدموا إلى صقلع وهاجموها وسبوا النساء والأولاد وكل من فيها واستولوا على البهائم وأخذوا الغنائم ثم أحرقوا المدينة. وكان من ضمن السبى زوجتا داود: أخينوعم اليزرعيلية وأبيجال. وأسرع بعض من نجوا ليخبروا داود الذى كان عائدا من الشمال فغضب ولجأ إلى الله يستطلع مشيئته. وكما سبق أن قلنا إن أبياثار ابن الكاهن أخيمالك كان قد نجا من مذبحة كهنة نوب (ص ١٠٥) ولحق بداود وأصبح كاهنا له. فطلب منه داود لبس الأفود الخاص لاستطلاع رغبة الإله فى ملاحقة العماليق أم لا. وكانت الإجابة أن يلحق بهم. فسارع داود فى ٤٠٠ من رجاله. وترك الباقين لحماية من بقى من النساء والأطفال والمتاع. وفى الطريق عثروا على رجل يكاد يموت جوعا وعطشا فسألوه عن حكايته فأخبرهم أنه عبد لأحد العماليق وأنهم كانوا قد أغاروا على جنوب يهوذا وحرقوا صقلع. وفى العودة مرض فتركه سيده فى العراء فأعطوه ماء وخبزا فاسترد عافيته. وطلبوا منه أن يدلهم على مكان العماليق نظير تأمينه على حياته فأرشدهم إلى الوجهة التى اتجه نحوها العماليق وقادهم إلى مكانهم فإذا هم منتشرون فى وادى يأكلون ويشربون ويرقصون فرحين بالغنائم الكثيرة التى غنموها. وانتظر داود إلى الليل حتى ناموا. ثم هجم عليهم هو ورجاله واستخلص منهم كل الأسرى وزوجتيه وكل الغنائم وقتل رجال العماليق كلهم ولم ينج منهم إلا بعض الغلمان الذين ركبوا جمالا وهربوا فى الصحراء. وعاد داود إلى صقلع. محمَّلا بالغنائم التى غنهما من أسرى أحياء وإبل وأمتعة. وكان رأى المحاربين الذين رافقوا داود أن لا يعطوا من لم يشتركوا فى هذه الحرب نصيبا من الغنائم التى غنموها من العماليق ولكن داود حكم بأن المقيمين عند الأمتعه والنساء والأولاد لحراستهم قد أدوا واجبهم وجعلوا المحاربين يحاربون وهم مطمئنون إلى سلامة مؤخرتهم وقسَّم الغنائم بالتساوى بين المحاربين والقاعدين عند الأمتعة فصارت تشريعا لبنى إسرائيل فى أجيالهم التالية. وكان من حكمته أيضا أنه أرسل جزءا من الغنائم إلى شيوخ يهوذا فى المدن الهامة: بيت إيل – راموث – عروعير وغيرها من المدن التى تردد عليها هو ورجاله أثناء مطاردات شاول له فسُرُّوا جميعا وشكروا صنيعه.

شاول والفلسطينيون :

أما فى شمال إسرائيل فقد دارت المعركة بين شاول ورجاله وبين الفلسطينيين قرب مدينة يزرعيل وانهزم الإسرائيليون وسقطوا قتلى فى جلبوع وقُتِل يوناثان وأبيناداب وملكيشوع أبناء شاول وجرح شاول جرحا عميقا وكان ألمه شديدا فطلب من حامل سلاحه أن يجهز عليه حتى لا يقع أسيرا فى يد الفلسطينيين فيذلونه فرفض. وتقول التوراة (١ صموئيل ٣١) إن شاول

انتحر بأن غرس سيفه فى الأرض وسقط عليه فمات وكذلك فعل حامل سلاحه. وفى رواية أخرى (٢ صموئيل ١) إنه لما جرح فى المعركة ورأى مركبات وفرسان العدو تقترب منه رأى بجواره رجلا من العماليق الذين كانوا يحاربون فى صفوف الفلسطينيين. فطلب منه أن يقتله ففعل.

وفى اليوم التالى للمعركة جاء الفلسطينيون ليتعرَّفوا على القتلى. وأخذوا رأس شاول وسلاحه ووضعوها فى بيت عشتاروت وسمَّروا جسده على سور «بيت شان» وكذلك فعلوا بأجساد أبنائه الثلاثة. ولما سمع سكان يابيش جلعاد بما فعل الفلسطينيون قام جماعة شجاعة من رجالهم بالليل وأخذوا جسد شاول وأبنائه وعادوا بها إلى يابيش جلعاد وأحرقوها ثم دفنوا عظامهم تحت أثلة هناك وصاموا سبعة أيام.

داود بعد موت شاول :

عاد داود من حرب العماليق فى الجنوب وأقام فى صقلغ يومين. وفى اليوم الثالث أتى الرجل من العماليق الذى قتل شاول وأخبر داود أن شاول وأبناءه الثلاثة قد قتلوا فى المعركة وأن الإسرائيليين قد انهزموا شر هزيمة. وسأله داود كيف عرف أن شاول قد مات فأخبره أنه تصادف أن كان خلف شاول لما جرح وطلب منه أن يقتله ففعل وأخذ الإكليل الذى على رأسه والسوار الذى على ذراعه وأحضرهما لداود. ولعل الرجل ظن أن داود سيُسرُّ بهذه الأخبار وقد يكافئه على قتله لشاول لمعرفته بالعداوة التى كانت بينهما. ولكن داود لام الرجل على أنه قد مد يده وقتل شاول الذى كان الرب قد مسحه ملكا على إسرائيل وقال له: دمك على رأسك لأن فمك شهد عليك قائلا أنت قتلت مسيح الرب . وأمر أحد غلمانه فضربه بالسيف فمات . وصام داود ذلك اليوم وأمر رجاله بصومه . ورثاه داود كما رثا صديقه يوناثان بهذا النشيد (٢ صموئيل ١:١٩):

الظبى يا إسرائيل مقتول على شوامخك. كيف سقط الجبابرة.
لا تُخبروا فى جت . لا تُبشِّرُوا فى أسواق أشقلون.
لئلا تفرح بنات الفلسطينيين. لئلا تشمت بنات الغلف .
ياجبال جلبوع لا يكن طلٌّ ولا مطر عليكن ولا حقول تقدمات.
لأنه هناك طُرحَ مجنُّ الجبابرة. مجن شاول بلا مسح بالدهن.
من دم القتلى . من شحم الجبابرة لم ترجع قوس يوناثان إلى الوراء.
وسيف شاول لم يرجع خائبا .
شاول ويوناثان المحبوبان والحُلوان فى حياتهما لم يفترقا فى موتهما.
أخف من النسور وأشد من الأسود .
يابنات إسرائيل ابكين شاول الذى ألبسكن قرمزا بالتنعُّم.

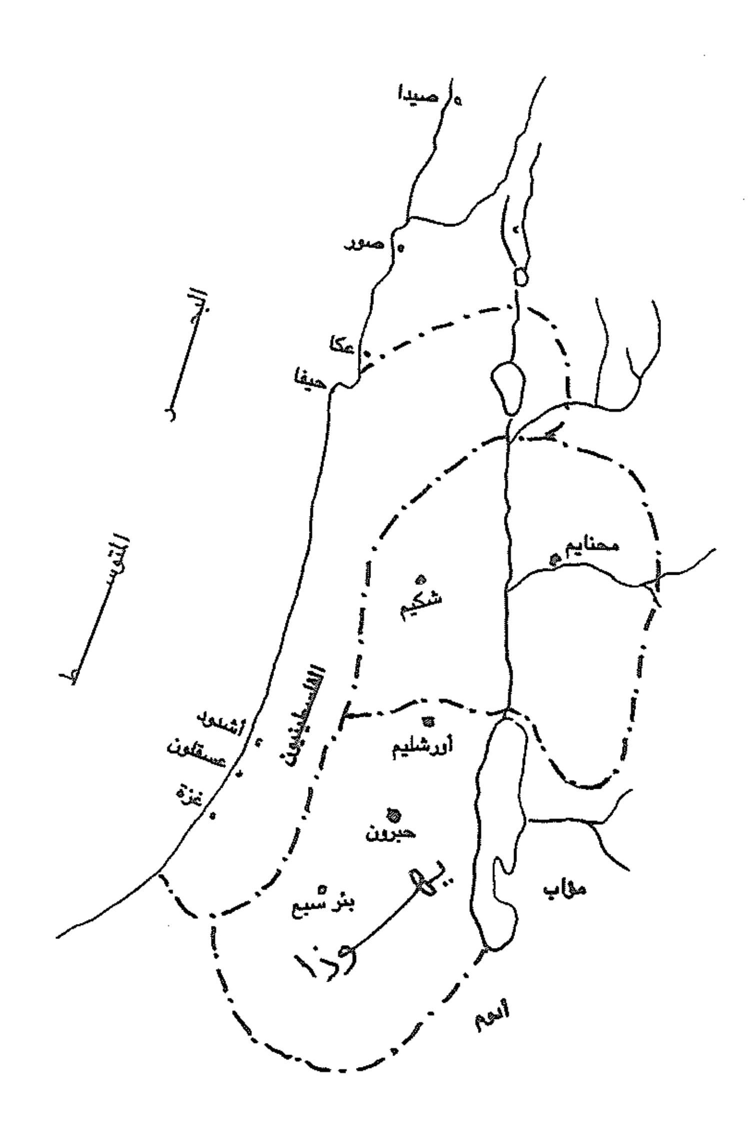
وجعل حلى الذهب على ملابسكن.
كيف سقط الجبابرة فى وسط الحرب ؟
يوناثان على شوامخك مقتول .
قد حزنت عليك يا أخى يوناثان .
كنت حلُوا لى جداً .
محبتك لى أعجب من محبة النساء .
كيف سقط الجبابرة . وبادت آلات الحرب ؟
وأمضى داود فى صقلع سنة وسبعة أشهر .

إسرائيل بعد مقتل شاول :

أُوحى إلى داود أن يصعد إلى حبرون فصعد هو وزوجتاه وأبناؤه ورجاله وأتى شيوخ يهوذا ومسحوا داود ملكا على بيت يهوذا . وكان عمر داود ٣٠ عاما. أما إبنير رئيس جيش شاول فإنه أخذ إيشبوشث ابن شاول إلى محنايم التى تقع فى شرق الأردن ٢٥كم على نهر يبوق وهى إحدى مدن اللاويين فى أرض جلعاد. ونصَّبه ملكا على جلعاد (شرق منسَّى وجاد) وعلى يزرعيل (منسَّى) وعلى أفرايم وسبط بنيامين الذى كان شاول ينتسب إليه. وكان الفلسطينيون بعد هزيمة شاول قد سيطروا على شمال إسرائيل الذى به مناطق دان ونفتالى وأشير وزبولون بالإضافة إلى السهل الساحلى الجنوبى. ولعل هذا ما جعل إيشبوشث يتخذ من محنايم عاصمة له إذ هى بعيدة عن الفلسطينيين. كما أنها بعيدة أيضا عن داود. وكان إيشبوشث فى الأربعين من عمره لما نودى به ملكا على الجزء الذى كان تحت سيطرته. ولكن مملكته لم يكن لها أساس دينى إذ كانت ترتكز على أساس وراثى وهو أن إيشبوشث هو ابن شاول ولا شيىء غير ذلك. ولم يكن هناك مرشح آخر مناسب إذ كان هو ابن شاول الوحيد الباقى على قيد الحياة بعد مقتل والده وإخوته الثلاثة فى المعركة مع الفلسطينيين. ولاشك أن الفلسطينيين أسعدهم انقسام بنى إسرائيل إلى مملكتين. فهم بالدرجة الأولى لم يكونوا مرتاحين حينما مُسِحَ شاول ملكا على كل إسرائيل بواسطة صموئيل النبى. وحتى لما انفصل عنه داود. فهو لم يزد عن كونه فردا واحدا جمع حوله بضع آلاف من الرجال ثم هو فى آخر الأمر لجأ إلى أرضهم وأقام فى صقلع وظنوه مواليا لهم ولم يهتموا كثيراً حينما تولى عرش يهوذا إذ ظنوا أنه سيظل على مهادنته لهم وسعدوا بانقسام بنى إسرائيل إلى مملكتين لعل التناحر بينهما يقضى على كل منهما فتخلو لهم الأرض.

داود وتوحيد إسرائيل :

اتبع داود – بعد توليه عرش يهوذا – سياسة حكيمة. وأول مابدأ به هو استمالة بيت شاول وبنى بنيامين – بأن أحضر عظام شاول ويوناثان من يابيش جلعاد ودفنهما فى قبر قيس –



شكل ٣٢ – فلسطين بعد موت شاول .
– داود ملكا على يهوذا وعاصمته حبرون .
– إيشبوشث في جلعاد وعاصمته محنايم .
– الفلسطينيون وقد استولوا على شمال إسرائيل .

والد شاول – فى أرض بنيامين. ثم أحسن إلى بيت يوناثان صديقه فقدم مساعدات إلى كل الأحياء منهم ثم قال: هل يوجد أحد قد بقى من بيت شاول فأصنع معه معروفا من أجل يوناثان؟ وكان ليوناثان ابن أعرج الرجلين اسمه مفيبوشث. وبعد موت أبيه سكن فى بلدة لودبار وهى مدينة أم الديار الحالية ١٧كم جنوب شرق بحر الجليل (شكل ٣٣) فأرسل داود إليه وأنزله فى حبرون وردَّ له كل الحقول والممتلكات التى كانت لشاول على اعتبار أنها كانت ستؤول إلى يوناثان ثم إلى مفيبوشث من بعده. وضمَّه إلى حاشيته وجعله يأكل على مائدته وأسكنه فى أورشليم. ولعل هذا الفعل كان بُعدَ نظر من داود إذ أنه بهذا استمال قلوب عدد كبير من بيت شاول ومن البنياميننين فلا يقفوا جميعا خلف إيشبوشث الذى نودى به ملكا فى محنايم. ثم أرسل داود رسلا إلى يابيش جلعاد الذين دفنوا عظام شاول وأبنائه وقال لهم: مباركون أنتم من الرب إذ فعلتم هذا المعروف بسيدكم شاول فدفنتموه. والآن ليصنع الرب معكم إحسانا وحقا. وأنا أيضا أفعل معكم هذا الخير لأنكم فعلتم هذا الأمر. والآن فلتتشددً أيديكم وكونوا ذوى بأس لأنه قد مات سيدكم شاول وإياى مسح بيت يهوذا ملكا عليهم. ونلمح هنا الحكمة والدبلوماسية الفائقة فى رسالته فقد شكرهم وباركهم. ثم لم ينازعهم فيمن اختاروه ملكا عليهم بل طلب منهم أن يكونوا يدا واحدة «فلتتشددوا» وفى النهاية أخبرهم أن أهل يهوذا اختاروه ملكا عليهم وهى دعوة غير مباشرة لمبايعته.

لم يكن هناك مفر من أن تلتقى جيوش الطرفين فى معركة. رجال داود بقيادة يوآب ورجال إيشبوشث بقيادة أبنير. وكان اللقاء فى جبعون. وقبل المعركة الرئيسية اتفق القائدان على أن يتقابل ١٢ مقاتل من كل فريق وعلى نتيجة هذه المعركة الابتدائية يتقرر الفريق المنتصر وعلى المهزوم أن يخضع له. وانهزم جنود ابن شاول. ثم تقابل ألف من كل جيش فى معركة محدودة قتل فيها ٣٦٠ من رجال ابن شاول فى حين فقد جند داود ١٩ فقط. ثم دارت المعركة الرئيسية وكان النصر فيها حليف يوآب رئيس جيش داود. وبعد انتهاء المعركة بدأ كل فريق يلم شمل قواته تمهيدا للإنسحاب كل إلى قاعدته فى العاصمة. وكان عسائيل أخو يوآب رئيس جيش داود يطمع فى قتل أبنير رئيس جيش ابن شاول فتبعه وتبارزا ولكن أبنير تغلَّب عليه وقتله وحزن يوآب على أخيه حزنا شديداً وحقد على أبنير ظانا منه أنه غدر بأخيه وخاصة أن المعركة كانت قد انتهت ولم يدرِ أن أخاه هو الذى بدأ المبارزة.

الظروف تخدم داود :

بدأت الظروف تخدم داود ليصبح ملكا على كل إسرائيل. ذلك أنه كانت هناك سُرِّية لشاول. فهى فى مرتبة أم إيشبوشث ابن شاول أو خالته. وكان أن ضاجعها أبنير رئيس الجيش. فغضب إيشبوشث جدًا وأنَّب أبنير على هذا الفعل. وردَّ أبنير عليه بجفاء ومنَّ عليه بأنه هو الذى أتى به ملكا على شمال إسرائيل وأنه هو الذى يحميه من يد داود. وسكت إيشبوشث

صاغرا إلا أن أبنير أصبح لا يأمن على نفسه خوفا من أن يقتله إيشبوشث جزاءً على فعلته. فقرر الانضمام إلى داود. وأرسل رسلا إلى داود يخبره أنه سينضم إليه ويؤيده فى تنصيبه ملكا على إسرائيل كلِّها. ووافق داود ولكنه طلب منه أن يأتى معه بميكال ابنة شاول التى كان قد تزوجها بعد أن قتل جالوت. وقد سبق أن ذكرنا (ص ١٠٠) أن شاول كان قد طلَّقها منه وزوَّجها إلى فلطى بن لايش. فذهب أبنير إلى بيت فلطى وأخذ ميكال وسار بها فى طريقه إلى حيث يقيم داود فى حبرون. وتقول التوراة (٢ صموئيل ٣:١٦) إن فلطى كان يسير وراءها ويبكى حتى قرية بحوريم (٢,٥كم شمال شرق أورشليم) إلى أن أمره أبنير بالعودة وإلا تعرَّض للمتاعب فعاد. وقد استنكر بعض مفسِّرى الكتاب المقدس هذا التصرف من داود. ولكن لو علمنا أن الشريعة اليهودية تجعل الطلاق حقا للرجل وحده ولا يجوز لولى أمر المرأة أن يطلِّقها من زوجها لأى سبب كان وما دام داود لم يطلق ميكال فزواجها منه قائم وزواجها من فلطى بن لايش زواج باطل. ولعل هذا أيضا كان من ذنوب شاول إذ تعدى شريعة الرب وزوَّج ابنته من آخر وهى لاتزال فى عصمة زوجها داود. وكذلك كان فلطى متعدِّيا إذ قبل التزوج بامرأة رجل آخر. وكان ما فعله داود هو إصلاح الخطأ وردَّ الأمور إلى نصابها وصحَّح الخطأ الذى ارتكبه شاول. وكثيرا ما نقرأ فى أخبار الحوادث حكما قضائيا بإعادة زوجة إلى زوجها الأول واعتبار زواجها الثانى باطلا شرعا وقد يكون مضى عليه عدة سنوات.

وجاء أبنير إلى حبرون ومعه ميكال فعادت إلى زوجها داود. وأولم داود وليمة حضرها شيوخ بيوت بنيامين وأفرايم ورؤساء جاد ومنسَّى. وراح أبنير يحثهم على مبايعة داود ملكا على كل إسرائيل. ثم طلب أبنير من داود أن يتركه يذهب ليحصل على مبايعة باقى الأسباط الذين كانوا مع إيشبوشث ابن شاول فتركه يذهب فى سلام. وكان يوآب – رئيس جند داود – فى هذه الأثناء فى غزوة من الغزوات وعاد بغنائم كثيرة وعلم ما كان من مجيء أبنير وذهابه فى سلام. فكلَّم يوآب داود وحذَّره من أبنير وأنه لا يُركن إلى وعوده. وأسرع يوآب – دون علم من داود – خلف أبنير فأدركه غير بعيد من حبرون وقتله بذنب أخيه الذى كان أبنير قد قتله كما ذكرنا فى الصفحة السابقة. ولعل قتل أبنير كان قصاصا من الله لاضطجاعه مع سُرِّيَّة شاول والقتل هو حد الزنا فى التوراة ولو أن هذا السبب لم يكن فى ذهن يوآب حين قتله. بل قتله أخذا بثأر أخيه. ولما سمع داود بذلك قال: إنى برىء أنا ومملكتى لدى الرب إلى الأبد من دم أبنير. فليحل على رأس يوآب وعلى كل بيت أبيه ولا ينقطع من بيت يوآب ذو سيل وأبرص وعاكز على العكازة وساقط بالسيف ومحتاج الخبز. وقال داود ليوآب ولجميع الشعب الذى معه مزِّقوا ثيابكم وتنطقُّوا بالمسوح والطموا أمام أبنير. وكان داود الملك يمشى وراء النعش. ودفنوا أبنير فى حبرون. وأعلن داود الصيام ذلك اليوم وعلم الشعب كله أن داود لم تكن له يد فى قتل أبنير.

علم إيشبوشث ابن شاول بأن أبنير انصرف فى سلام من عند داود فظن أنه رفض انضمامه إليه وتجدد الأمل لديه أن يعود فى خدمته فقد كان قائدا ماهرا. ولكن لما وصلته الأخبار بمقتله وهنت عزيمته وانتهز قائدان من قواد جيشه فرصة وتسللا إلى معسكره وكان نائما فى سريره فقتلاه وقطعا رأسه وحملاها إلى داود فى حبرون ظانين أنهما بذلك يتقربان إليه ولكنه قال لهما: إن الذى قتل شاول فى ساحة القتال قد قتلتُه فكم بالحرى إذا كان رجلان باغيان يقتلان رجلا فى بيته على سريره! وأمر غلمانه فقتلوهما. وأما رأس إيشبوشث ابن شاول فدفنوه فى قبر أبنير فى حبرون.

وهكذا خلص الأمر لداود دون أن يريق بنفسه قطرة دم واحدة من دماء أحد من بنى إسرائيل. وجاء جميع أسباط شمال إسرائيل إلى داود فى حبرون وبايعوه رئيسا عليهم. وبهذا أصبح داود ملكا على كل إسرائيل شمالها وجنوبها.

كان داود ابن ٣٠ سنة حين ملك فى حبرون وبقى ملكا على يهوذا ٧,٥ سنة ثم ملك على جميع إسرائيل ويهوذا لمدة ٣٣ سنة.

أبناء داود :

ولد لداود وهو فى حبرون ستة أبناء :

١ – ابنه البكر أمنون   من أخينوعم اليزرعيلية .
٢ – ابنه كيلآب   من أبيجال .
٣ – إبشالوم   من معكة بنت تلماى ملك جشور .
٤ – أدونيا   من حجِّيت .
٥ – شفطيا   من أبيطال .
٦ – يثرعام   من عَجلة .

أورشليم :

معنى أورشليم هو «مدينة السلام» أو «أساس الإله شاليم» (قاموس الكتاب المقدس. ص ١٢٩). وللمدينة عدة أسماء: يبوس – مدينة العدل – المدينة المقدسة – مدينة القدس. ويغلب فى العربية اسم القدس. أما اسم يبوس فهو اسم رجل من عائلة كنعان بن حام بن نوح. واليبوسيون هم ذريته. وكوَّنوا قبيلة سكنت المدينة وسُمِّيت باسم جدهم «يبوس». وكانت المدينة صغيرة جدا فى أول الأمر. وقاوم أهلها يشوع عند فتحه للأرض ولكنه هزمهم وقتل ملكهم وأعطى أرضهم لبنيامين. ولكن رجال يهوذا استولوا على المدينة لأنها كانت متاخمة لحدود سبطهم. ولكن اليبوسيين لم يسلِّموا قلعتهم بل سكنوا مع بنى يهوذا والبنياميين وظلوا محتفظين بحصن المدينة. وليستطيعوا الصمود لأى حصار يفرض عليهم ولتوفير المياه لسكان

الحصن والمدينة فإنهم حفروا قناة بطول ٤٠ قدما ونفقا أفقيا بطول ٦٠ قدما ليأتوا بالمياه من عين كانت خارج أسوار المدينة. كما أن وجود المدينة فى أعلا الجبل أعطاها مركزا استراتيجيا حصينا يسهل الدفاع عنه. واشتهر عنها أنها لا تظهر عند الزحف عليها بينما تستطيع حاميتها أن تكشف تحركات المهاجمين. وقد رأى داود أن يبوس هى خير مدينة تصلح عاصمة لملكته. وتوصل يوآب رئيس جنده إلى خطة ذكية إذ أدخل أعوانا له عن طريق قناة المياه قاموا بفتح أبواب المدينة لباقى الجنود فباغت أهلها واستولى على المدينة وجعلها عاصمة لملكة إسرائيل الموحدة. ولم يقم داود بطرد جميع اليبوسيين من المدينة بعد الاستيلاء عليها. بل أبقاهم بها ثم اشترى حقل أرومة اليبوسى وفيه بُنِىَ الهيكل فيما بعد. وتتكون المدينة وما حولها (شكل ٣٤) من خمسة تلال تحيط بها الوديان. وكانت مدينة يبوس الأصلية على التل الجنوبى الشرقى. أما التل الشرقى الأوسط فهو المكان الذى أقيم فيه الهيكل فيما بعد. أما التلال الأخرى فكانت خارج نطاق المدينة القديمة. وبدأ اسم صهيون يطلق على التل الذى به الهيكل ومن ثم أصبح يعرف بجبل صهيون. ويحيط بالمدينة عدة جبال: جبل الزيتون فى الشرق. وجبل دير أبو طور فى الجنوب ويسمى أيضا «تل المشورة الشريرة» وسلسلة جبال يهوذا الرئيسية فى الغرب. وعلى سفح التل الجنوبى الشرقى الذى كانت عليه مدينة يبوس القديمة كان يوجد الحصن الذى أطلق عليه مدينة داود وأصبح مقرا للحكم. وفى المستقبل بنى الهيكل على التل الشرقى مقابل الحصن.

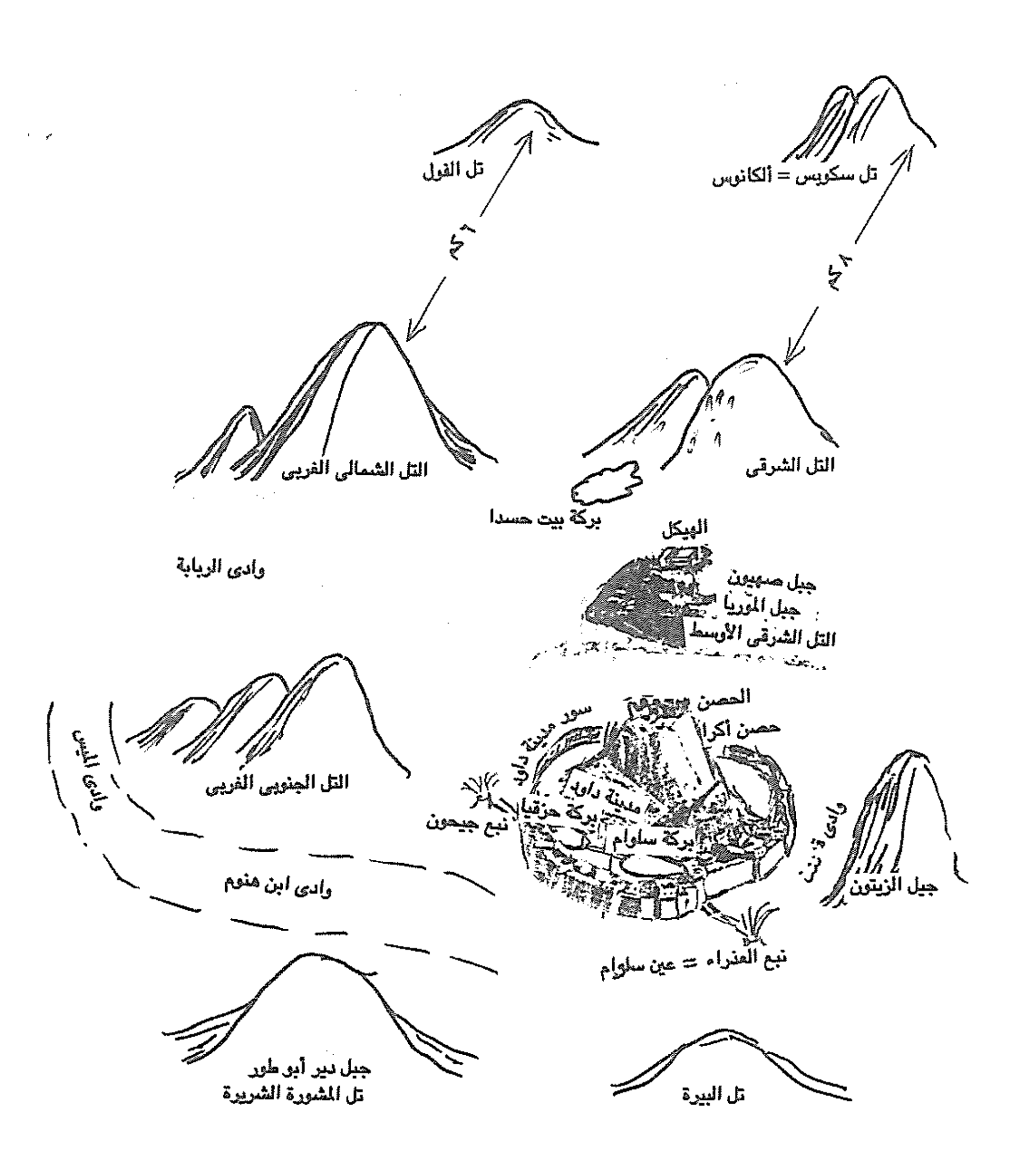
وأرسل حيرام ملك صور رسلا لتوثيق العلاقة مع داود وأرسل له خشب أرز ونجارين وبنائين فبنوا لداود بيتا وبيوتا لزوجاته وسراريه وأبنائه. وفى أسوار مدينة أورشليم الحالية باب يدعى «باب النبى داود» وفى السور برج بالقرب من «باب الخليل» يسمى «برج داود». وسنذكر تفاصيل أخرى عن المدينة عند الكلام عن بناء سليمان عليه السلام للهيكل (ص ١٧٣).

أبناء داود المولودون فى أورشليم :

ذكرنا فى الصفحة السابقة أبناء داود الستة الذين ولدوا فى حبرون. ثم ولد لداود فى أورشليم أحد عشر ابناً هم :

١ – شموع ويسمى أيضا شمعى من زوجته بثشوع بنت عميئيل .
٢ – شوباب أو شوبان " " " " " .
٣ – ناثان " " " " " .
٤ – سليمان من زوجته بثشبع التى كانت زوجة أوريا الحثى .

ثم سبعة أولاد لم تُذكر أسماء أمهاتهم : ٥ – يبحار ٦ – إليشوع ٧ – نافج ٨ – يافيع ٩ – أليشمع ١٠ – أليداع ١١ – أليفلط .



شكل ٣٤ – أورشليم القديمة عند أول إنشائها

(مدينة داود) .

إحضار التابوت إلى أورشليم :

وأعدَّ داود مكانا لتابوت الرب ونصب خيمة الاجتماع. وبقى إحضار التابوت. وكانت أحكام الشريعة أن التابوت غير مسموح لأحد إطلاقا أن يلمسه. بل كان يحمل على عصوين. وكان التابوت فى قرية يعاريم – ١٥كم غربى أورشليم (شكل ٢١ ص ٦٩) على الحدود بين يهوذا وبنيامين. وكان موجودا هناك منذ حوالى ٨٧ سنة وكما ذكرنا، ص ٧٠ ، كان التابوت موجودا أثناءها فى بيت أبيناداب وتقدَّس ابنه أليعازار لخدمة التابوت ومن بعده كان أبناؤه وأحفاده يُعنون به وكانوا على علم بقواعد معاملة التابوت إذ كانت أى مخالفة لهذه القواعد جزاؤها الموت.

وهكذا توجه داود فى ٣٠,٠٠٠ من رجاله وذهب إلى قرية يعاريم وحمل اللاويون التابوت من العصوين ووضعوه على عربة جديدة تجرها الثيران. وكان داود قد جمع كل بيوت إسرائيل إلى أورشليم لحضور إصعاد تابوت الرب إلى مكانه الذى أعده له. وكانوا يلعبون بالعيدان والرباب فرحين مهلِّلين. وأثناء المسير انحرفت الثيران وكاد التابوت أن يسقط فمدَّ عزَّة ابن أبيناداب يده ليمنع التابوت من السقوط. ولما كان غير مسموح لأحد إطلاقا أن يلمس التابوت فكان جزاء عزَّة أن أصيب بمرض فجائى ومات. وخاف الجميع بما فيهم داود نفسه وترك التابوت مكانه لمدة ٣ أشهر أمام بيت «عوبيد» وحلَّت البركة على بيت عوبيد بوجود التابوت. وعلم داود. فزال خوفه. فذهب وأصعد التابوت من أمام بيت عوبيد إلى مدينة داود. وتقدم الكهنة من بنى هارون وحملوا التابوت بالعصى على أكتافهم ليصعدوه إلى مكانه. وكانوا كلما خطوا بالتابوت ٦ خطوات يذبح ثورا وعجلا تقدمة للرب إلى أن أدخلوا التابوت فى مكانه فى وسط خيمة الاجتماع وسط إنشاد المغنيين وتهليل اللاويين. ثم ذبحوا سبعة عجول وسبعة كباش. وكان داود لابسا جُبة من كتان. ولما انتهى داود من إصعاد المحرقات وذبائح السلامة بارك الشعب باسم الرب وقسَّم على كل آل إسرائيل من الرجال والنساء على كل إنسان رغيف خبز وكأس خمر وقرص زبيب (أخبار أول ١٥: ٢٨). وعيَّن داود خداما من اللاويين لخدمة التابوت وجعل داود يحمد الرب بهذه الكلمات :

احمدوا الرب. ادعوا باسمه. أخبروا فى الشعوب بأعماله. غنوا له. ترنموا له. تحادثوا بكل عجائبه. افتخروا باسم قدسه تفرح قلوب الذين يلتمسون الرب. اطلبوا الربَّ وعِزَّه. التمسوا وجهه دائما. اذكروا عجائبه التى صنع. آياته وأحكام فمه. ياذرية إسرائيل عبده وبنى يعقوب مختاريه. هو الرب إلهنا. فى كل الأرض أحكامه. اذكروا إلى الأبد عهده. غنوا للرب يا كُلَّ الأرض. حدِّثوا فى الأمم بمجده وفى كل الشعوب بعجائبه لأن الرب عظيم ومفتخر جدا. وهو مرهوب فوق جميع الآلهة لأن آلهة الأمم أصنام وأما الرب فقد صنع السموات. الجلال والبهاء أمامه. العزة والبهجة فى مكانه. احمدوا الرب لأنه صالح لأن إلى الأبد رحمته وقولوا خلِّصنا

يا إله خلاصنا واجمعنا وأنقذنا من الأمم لنحمد قدسك ونتفاخر بتسبيحك. مباركٌ الرب إله إسرائيل من الأزل وإلى الأبد. فقال كل الشعب آمين وسبَّحوا الرب (أخبار أول ١٦:٢٦).

رغبة داود فى بناء بيت للرب :

كان النبى المعاصر لداود – بعد وفاة صموئيل – هو ناثان. وأفضى إليه داود بما فى نفسه من أنه يسكن فى بيت من خشب الأرز فى حين أن تابوت الرب موضوع فى خيمة ولئن كان ذلك جائزا فى وقت موسى ويشوع عليهما السلام لأن بنى إسرائيل كانوا وقتئذ دائمى التنقل. ولكن الوضع تغيَّر الآن بعد أن استقروا فى الأرض مما يوجب بناء بيت للرب. وأوحى الله إلى ناثان النبى أن يخبر داود أنه سيكون هناك بيت للرب ولكنه لن يقوم هو ببنائه بل أحد أبنائه هو الذى يبنيه: «متى كَمُلت أيامك واضطجعت مع آبائك (أى تُوفِّى) أقيم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك وأثبِّت مملكته. هو يبنى بيتا لاسمى. وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد» (صموئيل ثان ٧ : ١٢).

ورضى داود بما حكم الرب فقال« «عَظُمتَ أيها الرب الإله لأنه ليس مثلك وليس إله غيرك. ثبَّتَّ لنفسك شعبك إسرائيل شعبا لنفسك إلى الأبد وأنت يارب صرت لهم إلها. والآن ياسيدى الرب أنت هو الله وكلامك هو حق. وقد كلَّمت عبدك بهذا الخبر. فالآن ارتضِ وبارك بيت عبدك ليكون إلى الأبد أمامك». ورغبة من داود فى المشاركة فى بناء البيت فإنه جهَّز الحجارة اللازمة. واستورد أخشاب الأرز والسرو ودفع ثمنها لحيرام ملك صور.

فى حديث قدسى (الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية – محمد المدنى ص ٢٨) قال الله عز وجل لداود : ابن لى بيتا فى الأرض. فبنى داود لنفسه بيتا قبل البيت الذى أمر به الرب. فأوحى الله إليه: ياداود نصبت بيتك قبل بيتى. قال أى رب. هكذا قلتَ فيما قضيت. من ملك استأثر. ثم أمر فى بناء المعبد فلما تم السور سقط ثلثاه. فشكا ذلك إلى الله تعالى فأوحى الله إليه أنه لا يصلح أن تبنى لى بيتا. قال أى ربٍّ ولم؟ قال لما جرى على يديك من الدماء. قال أى رب. أو لم يكن ذلك فى هواك ومحبَّتك؟ قال بلى ولكنهم عبادى. أنا أرحمهم. فشقَّ ذلك عليه فأوحى الله إليه: لا تحزن فإنى سأقضى بناءه على يدى ابنك سليمان. فلما مات داود أخذ سليمان فى بنيانه. فلما تمَّ قرَّب القرابين وذبح الذبائح وجمع بنى إسرائيل فأوحى الله تعالى إليه: قد أرى سرورك ببنيان بيتى فسلنى أعطك. قال أسألك ثلاث خصال: حكما يصادف حكمك. وملكا لا ينبغى لأحد من بعدى. ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة أُخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. أما اثنتان فقد أعطيهما وأنا أرجو أن يكون قد أُعطى الثالثة. أخرجه الطبرانى فى الكبير عن رافع بن عمير.

حروب داود

١ – الحرب مع الفلسطينيين :

سمع الفلسطينيون أنهم قد مسحوا داود ملكا على كل إسرائيل. وبالطبع ساهم أن يتجمَّع بنو إسرائيل من جديد تحت راية واحدة فتجمعوا لحربهم. وتوغَّل الفلسطينيون شرقا وانتشروا فى وادى الرفائيين وهو وادى جنوب أورشليم بينها وبين بيت لحم. ولجأ داود إلى الحصن. ويرى ألبرايت أنه لجأ هو ورجاله إلى حصنه فى مغارة عدلاَّم. ولكننا نرى أن عدلام بعيدة عن مكان المعركة إذ هى تقع حوالى ٣٠كم جنوب غرب أورشليم لذلك نرى أنه لابد لجأ إلى الحصن الذى بناه داخل أسوار أورشليم نفسها. ومن هناك هاجم الفلسطينيين وانتصر عليهم وقتل منهم الكثير. ثم أعاد الفلسطينيون تجميع فلولهم وانتشروا مرة ثانية فى وادى الرفائيين. واستخار داود الرب فأوحى إليه أن يكون هجومه من ورائهم على مؤخرة جيشهم مقابل أشجار البكا وهى عدة أشجار يتساقط منها عصير يشبه الدموع ولذلك سُمِّيت أشجار البكا وسُمِّى الوادى الموجودة به «وادى البكا».

وتقول التوارة إنه أوحى إليه أن يبدأ هجومه عندما يسمع صوت «خطوات فى رؤوس الأشجار» وهو إشعار بوجود التأييد الإلهى ويزيد من عزيمة الجنود الإسرائيليين وفى نفس الوقت يلقى فى قلوب الفلسطينيين الرعب إذ يظنون صوت الخطوات صادراً عن قوات أخرى قادمة للإشتراك فى المعركة ضدهم. وفعلا انتصر داود وطارد الإسرائيليون القوات الفلسطينية حتى جازر وجت واستولوا على المدينتين وهما من مدن الفلسطينيين الخمس الرئسية بالإضافة إلى احتفاظ داود بمنطقة صقلع وما حولها وهكذا فإنه يكون قد استولى على $\frac{١}{٢}$ أرض الفلسطينيين تقريبا.

٢ – الحرب مع الأراميين (صوبة وأرام دمشق) :

كان هدد ملك دويلة صوبة (انظر الدويلات الأرامية الجزء الثانى ص ١٨٣ – شكل ٣٨) قد وسَّع سلطته ومدَّها حتى نهر الفرات وأصبح قوة تهدِّد مملكة إسرائيل فأخذ داود ١٧٠٠ فارسا و ٢٠,٠٠٠ راجلا وسار إلى دويلة صوبة وهاجمها. فخف ملك أرام دمشق لنجدتهم فضرب داود من الأراميين – كما تقول التوراة – ٢٢,٠٠٠ رجلا وهزمهم وغنم كثيرا من الذهب والفضة أتى به إلى أورشليم بعد أن عين واليا من قبله على أرام دمشق. وظل الأراميون طوال بقية حكم داود يدفعون له الجزية. وسمع ملك حماة بما فعله داود فأرسل ابنه يُهادِن داود وحاملا معه هدايا آنية فضة وآنية ذهب نحاس. وهذه أيضا قدَّسها داود للرب.

كان أحد رجال البلاط الدمشقى واسمه «رزون الأرامى» قد هرب وكوَّن فرقة صغيرة من الرجال ظلت تغير على دمشق بين الحين والآخر. وفى أيام سليمان قويت شوكة رزون الأرامى وكان مصدر متاعب لسليمان وهو ما سنذكره فيما بعد (ص ٢٤٠).

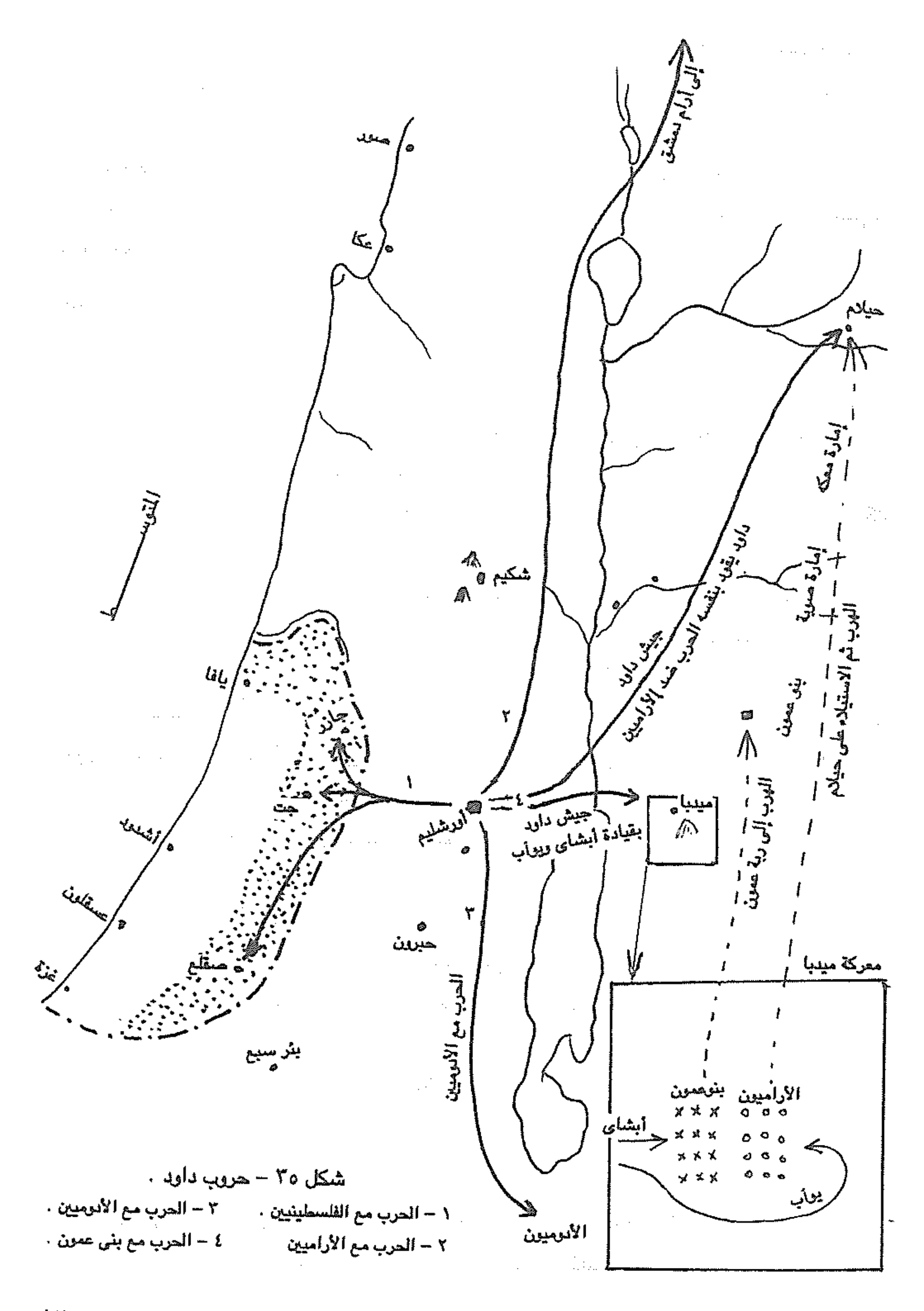
٣ – الحرب مع أدوم :

كان الأدوميون قد استولوا على أجزاء كثيرة من أرض إسرائيل غرب البحر الميت. وتضرع داود بهذا المزمور (٦٠) معترفا بأن العدو قد انتصر على بنى إسرائيل لبعدهم عن الله. وطلب من الله المغفرة والعفو والنصر: «يا الله رفضتنا. اقتحمتنا. سخطت. زلزلت الأرض. اجبر كسرها لأنها متزعزعة. أَرَيْتَ شعبك عُسراً. سقيتنا خمر الترنّح. خلِّص بيمينك واستجب لى». ثم يبشِّر بالنصر فيقول: «الرب قد تكلم بقدسه. لى جلعاد ولى منسًّى وأفرايم خوذة رأسى. يهوذا صولجانى. على أدوم أطرح نعلىً. من يقودنى إلى المدينة المحصَّنة. من يهدينى إلى أدوم. أليس أنت يا الله. اعطنا عونا فى الضيق فباطل هو خلاص الإنسان. بالله نصنع ببأس وهو يدوس أعداءنا».

وأرسل داود حملة بقيادة يوآب قائد جيشه لحرب الأدوميين. وقام يوآب بمجزرة بشرية أفنى فيها الذكور كلهم. ولكن بعض أفراد الأسرة المالكة استطاعوا الهرب ومعهم طفل ملكى عمره ٧ سنوات هو «هدد» ولجأ إلى مصر فى عهد بسونس الثانى من الأسرة ٢١. واحتضنه ملك مصر ولما كبر زوَّجه من أخته تحفنيس (١ ملوك ١١:١٤-٢٢). وسنرى أن هدد الأدومى هذا أصبح فى المستقبل عدوا لسليمان عليه السلام (انظر ص ٢٤٠).

٤ – الحرب مع بنى عمون :

كان «ناحاش» ملك العمونيين صديقا لدواد. وبعد وفاته مَلَكَ «حانون» ابنه عوضا عنه وأراد داود أن يبقى على علاقات حسنة مع الابن كما كانت مع الأب. فأرسل رسلا يعزِّيه فى وفاة والده. ولكن مستشارى حانون حرَّضوه قائلين إن هؤلاء ليسوا إلا جواسيس جاءوا ليروا نقاط الضعف فى البلاد تمهيداً لغزوها. فأخذ حانون رسل داود وحلق أنصاف لحاهم وقصَّ ثيابهم من الوسط إلى الإست ثم أطلقهم ليعودوا. فلما علم داود بذلك طلب منهم البقاء فى أريحا حتى تنبت لحاهم. وشعر بنو عمون أنهم قد استثاروا عداوة داود وأنه لابد مهاجمهم إن عاجلا أو آجلا. فأرسلوا يستعينون بجنود مرتزقة من إمارتى رحوب وصوبة الأراميتين المجاورتين. فأمدوهم ب ٢٠,٠٠٠ مقاتل ومن إمارة معكة ١٠٠٠ رجل ومن إمارة طوب ١٢,٠٠٠ رجل. ولما سمع داود باستعدادهم لحربه سار بجيشه وعبر نهر الأردن ووقعت المعركة الرئيسية قرب ميدبا. وقسَّم يوآب رئيس جيش إسرائيل الجند إلى قسمين نصف معه هاجم الأراميين من جهة الشرق والقسم الثانى بقيادة أخيه أبشاى هاجم العمونيين من جهة الغرب. وهرب الأراميون بعد أن هزمهم يوآب وفروا فى الصحراء فأسرع العمونيون وهربوا من أمام أبشاى ودخلوا مدينة «ربة عمون» وتحصنوا بها. ورأى يوآب أن من الصعب اقتحام مدينتهم فعاد إلى أورشليم. ولكن الأراميين ما لبثوا أن جمعوا فلولهم وهاجموا حيلام التى تقع ٥٠كم شرقى بحر الجليل. فخرج داود بنفسه للقائهم فى معركة كبرى انهزم فيها الأراميون وقُتل منهم –



شكل ٣٥ – حروب داود .

١ – الحرب مع الفلسطينيين . ٣ – الحرب مع الأدوميين .

٢ – الحرب مع الآراميين ٤ – الحرب مع بنى عمون .

كما تقول التوراة - ٤٠,٠٠٠ جندى واستولى داود على ٧٠٠ مركبة. وصالحت الدويلات الأرامية الباقية داود على دفع الجزية. وخافوا أن يُنجدوا بنى عمون مرة ثانية. ثم سار داود جنوبا نحو ربة عمون عاصمة العمونيين فاستولى عليها وأخذ تاج ملكها المصنوع من ذهب والمرصع بالأحجار الكريمة وغنم غنائم كثيرة من المدينة. وتقول التوراة (صموئيل ثانى ١٠ ، ١١): «وأخرج الشعب الذين فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس ووضعهم فى أفران الطوب وقتلهم. وهكذا فعل بجميع مدن بنى عمون. ثم عاد إلى أورشليم».

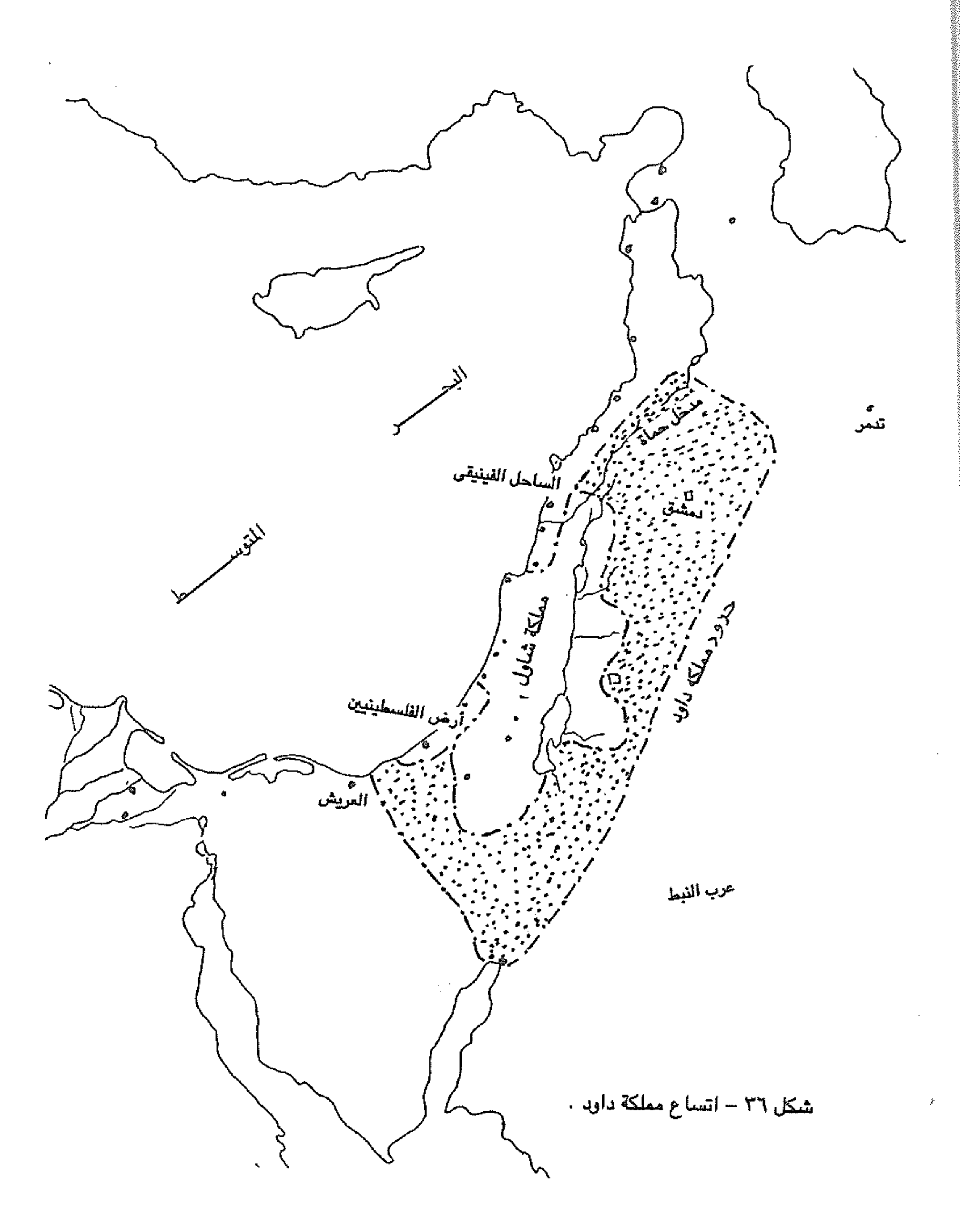
اتساع مملكة داود :

لا ريب فى أن داود قد كتب له النجاح فى أن يخلِّص قومه الإسرائيليين من التسلط الفلسطينى وفى أن يحقق لهم الاستقلال التام. واستطاع أن يفرض نفوذه فى المنطقة ويأخذ الجزية من مؤاب وأدوم وعمون وكثير من الإمارات الأرامية. ومع هذا فعلينا ألا ننساق وراء بعض المؤرخين الأوربيين الذين يجعلونها «امبراطورية» امتدت من الفرات إلى البحر المتوسط ومن دمشق إلى الخليج العربى. إذ أن التوراة نفسها حددت هذا الاتساع بأن مُلك داود كان من دان إلى بئر سبع . تلك هى حدود إسرائيل نفسها (شكل ٣٦). ولكن بإضافة الدول «الخاضعة» لها يمكن القول إنها كانت تمتد - كما حددها الحاخام الدكتور «إيشتين» - من نهر العاصى (الأورنت) فى الشمال إلى رأس خليج العقبة فى الجنوب ومن فينيقيا فى الغرب إلى حدود الصحراء العربية فى الشرق. والساحل الفينيقى بأكمله كان مستقلا استقلالا تاما وفقط كان صديقا ويقدم خشب الأرز والأخشاب الأخرى بالثمن. فضلا عن أن السيطرة العبرية لم تمتد لتشمل كل أرض الفلسطينيين ولئن كان داود قد استولى على جت وجازر وصقلع. إلاَّ أنه لم يستطع الاستيلاء على بقية الأراضى الفلسطينية لاحتمائها فى النفوذ المصرى. حتى أن الفلسطينيين أعادوا الاستيلاء على منطقة جازر وظلت فى حوزتهم إلى أن قام فرعون مصر بتقديمها هدية عند زواج سليمان من ابنته إلا أن ذلك لا يمنع من القول بأن النصف الثانى من حكم داود كان فترة رخاء بالنسبة لمملكة إسرائيل . إذ كانت تسيطر على طرق التجارة بين العراق وسوريا ومصر وكذلك على التجارة بين بلاد العرب فى الجنوب وحلب والساحل الفينيقى فى الشمال. فكانت قوة اقتصادية وسياسية وعسكرية.

فتنة داود

ذكرت هذه الفتنة فى القرآن الكريم فى سورة ص هكذا :

«وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوَّروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم. قالوا لا تخف. خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط. إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزَّنى فى الخطاب. قال لقد



شكل ٣٦ - اتساع مملكة داود .

ظلمك بسؤالك نعجتك إلى نعاجه. وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم. وظن داود أنما فتنَّاه فاستغفر ربه وخرَّ راكعا وأناب. فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب. يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض. فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب».
(٢١-٢٩-ص).

ذلك ما ورد فى القرآن الكريم عن هذه الفتنة. ومما لاشك فيه أنها قصة رمزية تشير إلى حادثة معينة. وأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لداود الخطأ فيما فعل .

روى عن ابن عباس (تفسير الألوسى جـ ٢٣ ص ١٧٨) أن داود جزأ زمانه أربعة أجزاء: يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للاشتغال بخاصة نفسه ويوما لجميع بني إسرائيل يعظهم ويعلمهم أمور دينهم. وكان اليوم يوم العبادة وفيه يحتجب عن الناس وينبِّه على الحرس ألا يُدخلوا عليه أحدا. وكان أن أرسل الله سبحانه وتعالى ملكين على هيئة بشرية. ولما رأوا أن الحراس قد يمنعوهم من الدخول تسوَّروا المحراب. وعلوا السور ونزلوا إلى المكان الذى خصَّصه داود فى بيته للعبادة أى محراب بيته وفوجىء داود بوجودهم ففزع منهم وخاف إذ هو يوم العبادة ولا يتوقع رؤية أحد من الشعب. ولعلَّه ظن أنهم قد اقتحموا بيته ليقتلوه. وليزيلوا الفزع منه مما ذهب إليه ذهنه. قالوا: لا تخف. ثم شرعا فى بيان سبب مجيئهما «خصمان» أى نحن خصمان. اختلفا وبغى بعضهم على بعض وطلبا منه أن يحكم بينهما بالحق ولا يبعد عن الحق «لا تُشطِط» وقرأ قتادة «ولا تَشطُّ». وطلبا منه أن يهديهم إلى الطريق المستقيم بزجر الباغى ونهيه عن طَريق الجور والظلم. ثم عرضا عليه القضية. شرحها المظلوم فقال: **إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزَّنى فى الخطاب»** فما كان من داود – دون أن يسمع دفاع المدَّعى عليه – إلا أن أصدر حكمه **«قال لقد ظلمك بسؤالك نعجته إلى نعاجه»**. وقالوا إن ذلك كان مخالفة من داود لأصول الحكم بالعدل بين الناس وهو ألا يصدر حكما دون أن يتحرى الحقيقة بسماع دفاع المدعى عليه فقد يكون له حق فيما فعل. وليؤيد حكمه الذى أصدره قال داود إن ذلك يحدث كثيرا بين الشركاء فيظلم بعضهم بعضا: **«وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم»**. وبعد أن قال داود ذلك فوجىء باختفاء الرجلين فجأة من أمامه. وأدرك أن الرجلين فى الحقيقة كانا ملكين أرسلهما الله إليه ليعلِّماه درسا فى أصول الحكم. وقد قيل: «إذا جاءك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تحكم له فقد يكون خصمه قد فقئت عيناه».

وقد رأى فريق من المفسِّرين أن خطيئة داود كانت فى تسرُّعه بإصدار حكمه قبل أن يسمع دفاع المدَّعَى عليه. ولو كان الأمر كذلك لما كانت تلك خطيئة أو فتنة إذ هى هفوة لم يؤذَ أحدٌ منها ولا توجب الاستغفار الكثير والندم أربعين يوما كما جاء فى حديث قدسى. وفى المقابل

هناك آخرون انساقوا وراء الإسرائليات. وقبل أن نناقش هذه الإسرائيليات نذكر أولا ما جاء فى التوراة عن هذا الموضوع (صموئيل ثان ١١) :

«وكان فى وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من السطح امرأه تستحم. وكانت جميله المنظر جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة وأُخبر أنها بتشبع امرأة أوريا الحثى. فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهى مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إنى حبلى».
ونختصر ما جاء بالتوراة بعد ذلك من أن داود أراد أن يوهم بأن الحمل كان من زوجها فأرسل إلى قائد جنده يأمره بإعطاء أوريا أجازة من الميدان. وعاد أوريا ولكنه استنكر على نفسه أن يكون جنوده فى حرب ويموتون فى القتال وهو يتنعَّم مع امرأته فأقام مع الحراس على باب الملك. ولما علم داود بذلك قال له: أما جئت من السفر فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟ فقال أوريا لدواد: إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيام وسيدى يوآب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء وأنا آتى إلى بيتى لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتى! وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر. وحاول داود أن يجعله ينزل إلى بيته فى الليلة التالية فلم يفلح. فأعاده إلى ميدان القتال وأعطاه خطابا مغلقا إلى يوآب قائد الجيش يقول فيه (صموئيل ثان ١٤:١١) «اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيُضرب ويموت . ولما تم ذلك وعلمت بتشبع بوفاة زوجها ندبته. ولما انتهت المناحة أرسل داود وضمَّها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت ابنا. وأما الأمر الذى فعله داود فقبح فى عينى الرب».

تلك هى القصة كما وردت فى التوراة، وهى تنسب إلى داود الاعتداء على زوجه أحد ضباطه. ثم تدبير مقتل ذلك القائد حتى يخلو له الجو فيضم المرأة إلى حريمه. وهى أفعال شائنة توجب القصاص من فاعلها بالقتل مرتين مرة بحد الزنا ومرة قصاصا لتدبير مقتل الزوج. ولا يكفى أن يخر فاعلها راكعا وينيب ليُغْفر له ثم يكون له بعد ذلك قربة من الله وحسن ثواب! **«فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب»** إذ لا يستقيم ذلك مع عِظم الجرم كما تصوِّره هذه الراوية. لذلك فإنه من المستبعد جدًّا أو من المستحيل أن يكون الأمر هو كما جاء فى السرد التوراتى. كماأنه من المستبعد أيضا أن تكون القصة برمتها محض اختلاق من ألفها إلى يائها وليس فيها ولو ظلٌ من الحقيقة وخاصة أن ما ورد فى التوراة لتنبيه داود إلى فعلته لا يختلف كثيرا عما ورد فى القرآن الكريم بهذا الخصوص. إذ تقول التوراة (صموئيل ثان ١:١٢): فأرسل الرب ناثان النبى إلى داود فجاء إليه وقال له: كان رجلان فى مدينة واحدة واحد منهما غنى والآخر فقير. وكان للغنى غنم وبقر كثير جداً وأما الفقير فلم يكن له شيىء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها وربَّاها وكبرت معه ومع بنيه جميعا. فجاء ضيف إلى الرجل الغنى فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيِّء للضيف الذى جاء إليه فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيَّأ للضيف. فحَمِىَ غضب داود على الرجل جدا وقال لناثان: حىٌّ هو الرب. إنه يقتل

الرجل الفاعل ذلك ويرد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر. فقال ناثان لداود أنت هذا الرجل. هكذا قال الرب إله إسرائيل. أنا مسحتك ملكا على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك. ثم قتلت أوريا الحثى بسيف بنى عمون وأخذت امرأته امرأة لك.

ونلاحظ أن القصة الرمزية التى وردت فى التوراة لا تختلف كثيرا فى مضمونها عن مثليتها فى القرآن الكريم إلا فى أن التوراة جعلت النبى ناثان يُوضِّح لداود أنه هو المقصود بالقصة أما فى القرآن الكريم فإن اختفاء الملكين - كما قال المفسرون - هو الذى جعل داود يستنتج أنه هو المقصود بالقصة. كما أن سوْقَ قصة رمزية سواء فى القرآن الكريم أو التوراة - لتعبِّر عن واقعة حدثت بالفعل - يشير إلى أن ما وقع كان أمرا عظيما يستحى الناهى عنه من كشفه ويستشعر النبى ناثان حرجا من مواجهة داود به. كما أن الإخفاء قصد به أن يُصدر داود الحكم العادل فى هذا الموقف. لأنه لو علم من البداية أنها تخصُّه فقد يتحيَّز ويُصدِر حكما فيه تبرئة لنفسه. لذلك كان إيراد القصة الرمزية أولا لتوَخِّى صدور الحكم الصحيح والعادل ثم بعد ذلك تكون مواجهة داود بأنه هو المقصود بالقصة.

بعض المفسِّرين أنكر أن تكون القصة فيها رمزية وإشارة. فليس فى الآيات ولا فى كتب الحديث المعتمدة ما يصرف لفظ النعجة من حقيقته إلى مجاز (أى المرأة). وأن الأمر لا يعدو كونه درسا لداود حتى لا يتعجَّل فى الحكم لأحد الخصوم قبل سماع دفاع الخصم الآخر. ولكن داود استغفر ربه **«فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب»**. واجتهد فى الاستغفار وبالغ فى ذلك مما يدل على أن ما حدث كان أكثر من مجرد تسرُّع فى إصدار حكم - فقد روى عن أنس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن داود مكث أربعين ليلة ساجداً حتى نبت الزرع من دموعه فأكلت الأرض جبهته وهو يقول فى سجوده: ربِّ ذَلَّ داود ذلَّة أبعد ما بين المشرق والمغرب. ربِّ إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنوبه جعلت ذنبه حديثا فى الخلائق من بعده. وجاءه جبريل عليه السلام من بعد أربعين ليلة فقال: يا داود إن الله قد غفر لك وقد عرفت أن الله حق لا يميل (الإسرائيليات والموضوعات - محمد بن محمد أبو شهبة. ص ٣٧١). فالأمر إذن أكبر من أن يكون تسرعا فى إصدار حكم. ولكن هل هو ما ادَّعاه كاتبو التوراة من ارتكاب الفاحشة وتدبير مقتل الزوج؟ كلا. وحاشا لله من أن تصدر هذه الأفعال عن رجل صالح مثل داود. قد يقول البعض إن ذلك حدث فى فترة كان فيها داود ملكا فقط ولم يكن نبيا بعد. ولكن حتى هذا لا يمكن حدوثه إذ أن الأنبياء معصومون من ارتكاب الفواحش حتى فى فترة ما قبل النبوة.

فى رأينا أن ما حدث من داود هو أن نظره وقع على امرأة أوريا الحثى مصادفة. وهذا فى حد ذاته ليس بذنب وكان ذنبه أنه أعاد النظر. والحديث الشريف يقول: لا تتبع النظرة فإن لك

الأولى وعليك الأخيرة. فلما أعاد النظر تمنَّى أن تكون له حلالاً. وكان أوريا الحثي فى حرب بنى عمون وحارب مع الجيش وقُتلَ فيمن قُتِل. فلما بلغ داود مقتلُه لم يجزع بل سُرَّ فى قرارة نفسه لأن ذلك وافق مراده. وكان ذلك ذنبا آخر. وكانت الشريعة الموسوية تقضى أن من يموت أو يُقتل عنها زوجها فإن أولياءه أحق بها إلا أن يرغبوا عن التزوج بها. ولكن لما قُتِل أوريا أسرع داود وخطبها لنفسه. فلما سمع أولياء أوريا بذلك منعتهم هيبة المَلِك وجلاله أن يتقدَّموا لخطبتها كما هى العادة. فكان إسراعه. بإعلان خطبته لها قبل ولىِّ الأمر ذنبا آخر. وقال الألوسى (تفسيره جـ ٢٣ . ١٨٠) فى تفسير «فقال أكفلنيها وعزَّنى فى الخطاب» أى اجعلنى أكفلها أى اجعلها تحت يدى. وعزَّنى أى غلبنى «فى الخطاب» والكلام على لسان الولى - أى فى مخاطبته إياى أى جاء بحجاج لم أطق رده. وقال الضحاك أى إن تكلم كان أفصح منى. وقال ابن عطية كان أوجَهَ منى وأقوى.

فالأمر كان اتباع النظرة الأولى نظرة ثانية ثم اشتهاء زوجة جاره وهو أمر تنهى عنه شريعتهم فآخر الوصايا العشر تقول: «لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما هو لقريبك». ثم كان السرور الداخلى لمقتل الزوج دون تدبير منه لمقتله كما ادَّعوا. ولرب قائل: إنها كلها من وساوس الشيطان فى النفس. ولكن - كما هو معروف يختلف تقدير الذنب باختلاف مكان مرتكبه ومبلغ علمه ويكبر من العالم مالا يكبر من الجاهل. وبالرغم من أن ما حدث كان مجرد وسوسة من وساوس الشيطان إلا أن داود استعظم صدور ذلك منه **«فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب»**. فى حديث قدسى: (الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية. محمد المدنى. ص ٣٣١) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: ذكر النبى صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فعظَّم شأنه وشدته. قال: ويقول الرحمن لداود عليه السلام: مُرَّ بين يدىَّ. فيقول داود: يارب أخاف أن تُدحِضنى خطيئتى. فيقول مُرَّ من خلفى. فيقول يارب أخاف أن تُدحِضنى خطيئتى. فيقول: خذ بقدمى. فيأخذ بقدمه فيمر. قال فتلك الزلفى التى قال الله تعالى: «وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب». أخرجه ابن مردويه.

وأخرج أحمد وغيره أن داود نقش خطيئته فى كفه لكى لا ينساها وكان إذا رآها اضطربت يداه. وقالوا كان قبلها يصوم يوما ويفطر يوما وبعدها صام الدهر كله.

وقد ذكرت التوراة استغفار داود وندمه فى عدة مزامير نختصر بعضها فيما يلى : مزمور ٣٢:

طوبى للذى غُفِرَ إثمه وسُترت خطيئته. طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطيَّة ولا فى روحه غش. لما سكتُّ بَليت عظامى من زفيرى اليوم كله. أعترف لك بخطيئتى ولا أكتم إثمى. قلت أعترف للرب بذنبى. وأنت رفعت آثام خطيتى. لهذا يصلى لك كل تقى فى وقت يجدك فيه. أنت ستر لى. من الضيق تحفظنى. بترنم النجاة تكتنفنى.

مزمور ٣٨ :

يارب . لا توبخنى بسخطك . ولا تؤدبنى بغيظك. لأن سهامك قد انتشبت فىَّ ونزلت علىَّ يدُك. ليس فى جسدى صحة من جهة غضبك. ليست فى عظامى سلامة من جهة خطيئتى لأن آثامى قد طمت فوق رأسى كحمل ثقيل أثقل مما أحتمل. يارب أمامك كل تأوُّهى وتنهُّدى ليس بمستور عنك. قلبى خافق. قوَّتى فارقتنى ونور عينى أيضا ليس معى لأننى أخبر بإثمى وأغتم من خطيتى. لا تتركنى يارب. يا إلهى لا تبعُد عنى. أسرع إلى معونتى يارب ياخلاصى.

مزمور ٥١ :

ارحمنى يا الله حسب رحمتك . حسب كثرة رأفتك. أُمْحُ معاصىَّ. اغسلنى كثيرا من إثمى ومن خطيَّتى طهِّرنى لأنى عارف بمعاصىَّ وخطيتى أمامى دائما . إليك وحدك أخطأت. والشر قدام عينيك صنعت. قلبا نقيا أخلق فىَّ يا الله وروحا مستقيما جدِّد فى داخلى. لا تطرحنى من قدام وجهك. وروحك القدوس لا تنزعه منى. رد لى بهجة خلاصك.

مزمور ٦٩ :

يا الله. أنت عرفت حماقتى وذنوبى عنك لم تخف. غطَّى الخجل وجهى. لك صلاتى يارب. استجب لى بحق خلاصك. استجب لى يارب لأن رحمتك صالحة ككثرة مراحمك. إلتفت إلىَّ ولا تحجب وجهك عن عبدك لأن لى ضِيقا. استجب لى.

مزمور ١٣٩ :

أين أذهب من روحك ومن وجهك. أين أهرب؟ إن صعدت إلى السموات فأنت هناك. وإن فرشت فى الهاوية فها أنت. إن أخذتُ جناحَىْ الصبح وسكنت فى أقاصى البحر فهناك أيضا تهدينى يدك وتمسكنى يمينك. فقلت إنما الظلمة تغشانى.

مزمور ١١٩ :

مبارك أنت يارب. علِّمنى فرائضك. بوصاياك ألهج وألاحظ سُبُلك. لا أنسى كلامك. أحسِن إلى عبدك فأحيا وأحفظُ أمرك. لصقت بالتراب نفسى فأحينى حسب كلمتك. حوِّل عينى عن النظر إلى الباطل. فى طريقك أحينى. أزِل عارى الذى حَذِرتُ منه لأن أحكامك طيبة. لتأتنى رحمتك يارب. لا تنزع من فمى كلام الحق. ذكرت فى الليل اسمك يارب وحفظت شريعتك. ترضَّيت وجهك بكل قلبى. ارحمنى حسب قولك. فى منتصف الليل أقوم لأحمدك على أحكام برِّك. رحمتك يارب قد ملأت الأرض. قبل أن أُذلَّلَ أنا ضللت أما الآن فحفظت قولك. صالح أنت ومحسن. علمنى فرائضك. خير لى أنى تذلَّلت لكى أتعلم فرائضك. شريعة فمك خير لى من ذهب وفضة. تاقت نفسى إلى خلاصك. كلامك انتظرت. كَلَّت عيناى من النظر إلى قولك فأقول

متى تعزِّينى؟ انظر إلى ذُلِّى وأنقذنى لأنى لم أنسى شريعتك. حسب كلمتك أحيِنى. كثيرة هى مراحمك يارب. حسب أحكامك أحْيِنى.

بعد هذه التضرعات والاستغفار والتوبة والإنابة غفر الله لداود «**فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب**». ثم أكمل الله نعمته عليه: «**وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب**» قالوا الحكمة النبوَّة. وهكذا أصبح داود نبيا. فكان أول من جمع بين المُلك والنبوَّة. أما فصل الخطاب فهو إصابة القضاء. كان داود صادقا فى ندمه على ما وسوست به نفسه. وكان صادقا فى توبته وصادقا فى خوفه من الله سبحانه وتعالى. والصدق من أعلى المقامات وكان الجزاء على ذلك :

«**يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق**» وهكذا تجمَّع لداود السلطة الدنيوية كملِك. والسلطة الدينية كنبى وأُمر بأن يحكم بين الناس بالحق والعدل. ثم أنزل عليه الكتاب المقدس وهو الزبور :

«**وآتينا داود زبورا**» . (١٦٣ - النساء) .

«**ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا**» . (٥٥ - الإسراء).

الزبـور :

الزبور هو الكتاب الذى أُنزل على داود عليه السلام. وقد أنزل عليه مُنَجَّما حسب مقتضيات الأحوال والأحداث. وفى الجلالين (جـ ١ ص ٤٤٨) أن به ١٥٠ سورة ليس فيها أحكام ولا حلال ولا حرام بل فيها تسبيح وتقديس وحمد وثناء على الله عز وجل وفيها أيضا مواعظ. وفى التوراة يسمى الكتاب الذى أنزل على داود «سفر المزامير» جمع «مزمور» وظن البعض أنها مشتقة من النفخ فى المزمار. ولكن الفعل العبرى «زَمَرَ» معناه قطع وقسَّم وشذَّب. والمراد تقطيع القصيد ونظمه. وكلمة «زمرا» العبرية معناها القصيدة التى يُتغنىً بها. والأصل العبرانى للإسم هو «سفر تهليم» أى سفر التهاليل أو سفر التسابيح. وفى العربية كلمة «زُبَر» تعنى «قطع» وجاء قوله تعالى على لسان ذى القرنين «**آتونى زُبَرَ الحديد**» (٩٦ - الكهف) أى قطع الحديد وقوله تعالى: «**وتقطَّعوا أمرهم بينهم زُبُرًا . كل حزب بما لديهم فرحون**» (٥٣ - المؤمنون). ومن معانى زَبَرَ أيضا كتب والزُبُر هو الكتاب المكتوب. وجاء قوله تعالى: «**وكل شيىء فعلوه فى الزبر**» (٥٢ - القمر) وكذلك قوله تعالى: **وإنه لفى زبر الأولين**» (١٩٦ - الشعراء).

واختار القرآن الكريم لفظ «الزبور» بالمعنيين معا: الكتاب كمعنى أول. أما المعنى الثانى فهو أنه منظوم فى قطع وأناشيد بحيث يُتغنَّى به ويكون له وقع موسيقى على الأذن. وهذا من إعجاز القرآن الكريم (الأستاذ رؤوف أبو سعدة. من إعجاز القرآن. جـ ٢ ص ١٥٦).

ونجتزىء فيما يلي بعض التسبيحات التى وردت به :

مزمور ٦٥ :

لك ينبغى التسبيح يا الله. ولك يوفَى النذر. ياسامع الصلاة. إليك يأتى كل بشر. آثام قد قويت علىَّ. معاصينا أنت تكفِّر عنها. طوبى للذى تختاره وتُقرِّبه ليسكن فى ديارك.

مزمور ٦٦ :

اهتفى لله يا كل الأرض. رنِّموا بمجد اسمه. اجعلوا تسبيحه ممجَّداً. قولوا لله ما أعظم أعمالك. كل الأرض تسجد لك وتُرنِّم لاسمك. هلُمَّ انظروا أعمال الله. حوَّل البحر إلى يبس وفى النهر عبروا (إشارةٍ إلى انشقاق البحر لموسى عليه السلام) هناك فرحنا به. باركوا إلهنا يا أيها الشعوب وسمِّعوا صوت تسبيحه.

مزمور ٦٧ :

ليتحنَّن الله علينا ويباركنا. لينِرْ بوجهه علينا. لكى يُعرفَ فى الأرض طريقك. وفى كل الأمم خلاصك. يحمدك الشعوب يا الله. يحمدك الشعوب كلهم.

مزمور ٩٢ :

حسنٌ هو الحمد للرب والترنُّم لاسمك أيها العلىّ. أن يُخبر برحمتك فى الغداة وأمانتك كل ليلة. على ذات عشرة أوتار وعلى الرباب وعلى عزف العود لأنك فرحتنى يارب بصنائعك. بأعمال يديك أبتهج. ما أعظم أعمالك يارب. وأعمق جداً أفكارك.

مزمور ٩٨ :

رنِّموا للرب ترنيمة جديدة لأنه صنع عجائب. اهتفى للرب يا كُلَّ الأرض. اهتفوا ورنِّموا وغنوا. رنِّموا للرب بعود. بعود وصوت نشيد بالأبواق وصوت الصور. اهتفوا قُدام الرب. ليعجَّ البحر وملؤُه. المسكونة والساكنون فيها. الأنهار لتُصفِّق بالأيادى. الجبال لتُرنِّم معا أمام الرب.

مزمور ١٠٣ :

باركى يا نفسُ الرب وكل ما فى باطنى ليبارك اسمه القدُّوس. باركى يا نفس الرب ولا تنسى كل حسناته. الذى يغفر جميع ذنوبك. الذى يشفى كل أمراضك.. الذى يُكَلِّلك بالرحمة والرأفة. الذى يُشبع بالخير عمرك. كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خَائفيه لأنه يعرف جبلَّتنا. يذكر أننا تراب نحن. الإنسان مثل العشب أيامه. كزهر الحقل كذلك يزهر. لأن ريحا تعبر عليه فلا يكون ولا يُعرف موضعه بعد. أما رحمة الرب فإلى الدهر والأبد على خائفيه وحافظى عهده وذاكرى وصاياه ليعملوها. الرب فى السموات ثبَّت كرسيه. ومملكته على الكل تسود. باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين. باركوا الرب يا جميع جنوده. باركوا الرب يا جميع أعماله فى كل مواضع سلطانه. باركى يا نفسُ الربَّ.

مزمور ١٠٤ :

باركى يا نفسُ الربَّ. يارب. إلهى. قد عَظُمتَ جداً. مجدا وجلالاً لبست. اللابس النور كثوب. الباسط السموات كشُقَّة. المسقف علاليه بالمياه. الجاعل السحاب. المؤسسُ الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر وإلى الأبد. كَسَوْتها الغَمر (المياه) كثوب. فوق الجبال تقف المياه. تنزل إلى البقاع إلى الموضع الذى أسسته بها. وضعت لها تُخُما (حدودا) لا تتعداه. المفجِّر عيونا فى الأودية بين الجبال تجرى. تسقى كل حيوان البر. تكسر الفِراء (الحيوانات ذات الفراء) ظمأها. فوقها طيور السماء تسكن. من بين الأغصان تُسمِّع صوتا. المنبت عشبا للبهائم وخضرة لخدمة الإنسان لإخراج خبز من الأرض. وخمر تفرح قلب الإنسان. وخبز يسند قلب الإنسان. صنع القمر للمواقيت. الشمس تعرف مغربها. تجعل ظلمة فيصير ليل فيه يدب كل حيوان الوعر. (هذا المزمور ادعى برستد أنه مشتق من تسابيح أخناتون وهو ما نفيناه فى الجزء الثالث ص ٥٧٨ – ٥٨٢).

مزمور ١٠٥ :

احمدوا الرب. ادعو باسمه. عرِّفوا بين الأمم بأعماله. غنوا له. رنِّموا له. انشدوا بكل عجائبه. افتخروا باسمه القدُّوس. لتفرح قلوب الذين يلتمسون الرب. اطلبوا الرب وقدرته. التمسوا وجهه دائما. اذكروا عجائبه التى صنع. هو الرب إلهنا. فى كل الأرض أحكامه.

مزمور ١٠٦ :

هلِّلوا. احمدوا الرب لأنه صالح. لأن إلى الأبد رحمته. طوبى للحافظين الحق. وللصانع البر فى كل حين. اذكرنى يارب برضا شعبك. تعهدنى بخلاصك.

مزمور ١٥٠ وهو آخر المزامير ونهاية الزبور :

هلِّلوا. سبحِّوا الله فى قدسه. سبحِّوه فى فَلَك قُوَّته. سبِّحوه على قواته. سبِّحوه حسب كثرة عَظَمته. سبحوه بصوت الصور. سبِّحوه برباب وعود. سبِّحوه بدف ورقص. سبحوه بأوتار ومزمار. سبِّحوه بصنوج التصويت. سبحوه بصنوج الهتاف. كل نسمة فلتسبِّح للرب هلِّلوا لله.

متاعب عائلية وسياسية

تعرض داود عليه السلام فى أخريات أيامه لمتاعب عائلية وسياسية خطيرة – تصل إلى حد الكوارث – وهى :

١ – اغتصاب الأخ لأخته وقتل الأخ لأخيه .

٢ – ثورة ابنه أبشالوم عليه .

٣ – ثورة بنى بنيامين ضده .

١ – الكارثة الأولى :

كان لداود زوجات كثيرات ومن أخينوعم اليزرعيلية كان ابنه البكر أمنون. ومن معكة بنت ملك جشور كان له ابن هو أبشالوم وأخت شقيقة هى ثامار وكانت جميلة جدا . وأحب أمنون أخته غير الشقيقة ثامار وهام بها واحتال حتى انفرد بها واغتصبها. وغضب أبشالوم شقيق ثامار. وأولم وليمة دعا إليها أمنون وبعد أن أغرقه فى شرب الخمر هجم عليه وقتله. ثم هرب إلى أخواله فى دويلة جشور وظل متغربا بها ٣ سنوات.

وكانت صدمة كبيرة لداود إذ قُتِلَ ابنه البكر أمنون وهرب أبشالوم. وكان رئيس جيش داود يوآب يشعر أن داود لن يمانع فى عودة أبشالوم إذ هو الآن ابنه البكر بعد مقتل أمنون ووفاة أخ له كان يليه فى البكورية. وأراد أن يُمهِّد لعودة أبشالوم بطريقة غير مباشرة. فأرسل إلى امرأة حكيمة واتفق معها على أن تقوم بتمثيلية فادَّعت أنها أرملة وأن لها ولدين تخاصما وقتل أحدهما الآخر. وأن أهلها يطلبون منها أن تسلِّم القاتل ليقتلوه قصاصا. وأنها إن فعلت ذلك عَدِمت الولدين ولم يبق أحد ليخلِّد ذكرى زوجها. وأنَّ قتل الابن الثانى لن يعيد الحياة للأول. فقال لها داود: حىٌ هو الرب. إنه لا تسقط شعرة من شعر ابنك إلى الأرض. وهنا قالت له المرأة الحكيمة. إذا كان هذا هو حكمك لى فلماذا لاتعفو عن ابنك أبشالوم وتعيده من غربته؟ فأرسل داود يوآب رئيس جنده إلى جشور وأتى بأبشالوم إلى أورشليم وسمح له داود بالعودة إلى بيته على ألا يريه وجهه بعد الآن!

٢ – ثورة أبشالوم على أبيه داود :

كان القدر يخبِّىء كارثة أخرى لداود أشد من الأولى. كان أبشالوم قد سُمِح له بالعودة إلى بيته فى أرشليم. وكان محمود السيرة. بهى الطلعة. وكان يستدعى كل صاحب حاجة فيقضيها له ويحكم فى الخصومات بحِكمة. فبدأ يستميل الشعب واستقطب كثيرا من شيوخ بنى إسرائيل وضمنهم إلى جانبه. ثم إن أبشالوم استأذن والده داود فى الذهاب إلى حبرون بحجة الوفاء بنذر كان قد نذره أثناء تغربه فى جشور. ومن حبرون أرسل رسلا إلى شيوخ أسباط بنى إسرائيل يخبرهم أنه قد نصَّب نفسه ملكا فى حبرون ويطلب ولاءهم له. وشايعه نفر كبير من إسرائيل.

وجاء الرسل إلى داود فى أورشليم وأخبروه بانشقاق ابنه أبشالوم عليه وأن معظم بنى إسرائيل قد شايعوه وأنه بسبيل الهجوم على أورشليم نفسها. وأراد داود أن يتجنب المواجهة وأن لا يقتل ابنه بسيفه فقرر ترك أورشليم. فخرج برجاله وجنده وأهل بيته كلهم ماعدا عشر

سراری ترکهن لحفظ البيت. وخرج الجميع من أورشليم متجهين شرقا ليعبروا نهر الأردن. وكان داود يقصد محنائيم (على نهر يبوق) ليتخذها مقرا له. ورأى اللاويين حاملين تابوت عهد الرب يريدون أخذه مع داود. ولكن داود أمرهم بإعادة التابوت إلى المدينة قائلا: إن كان الله راض عنى فإنه سيرجعنى إلى المدينة لأرى التابوت ثانية أما إن كان به غضب علىَّ فليفعل بى ما يشاء. وأثناء خروج داود من أورشليم كان شمعى رئيس البنياميين (عشيرة شاول) يمشى فى الطرقات ويسب داود ويرشقه بالحجارة ويقول (صموئيل ثان ٧:١٦) «أُخرج يا رجل الدماء. قد رد الرب عليك كل دماء بيت شاول الذى ملكت عوضا عنه. قد دفع الرب المملكة ليد أبشالوم ابنك وها أنت واقع بِشرِّك لأنك رجل الدماء».

وحينما وصل داود إلى محنايم أرسل العمونيون والجلعاديون له زادا يكفيه هو ورجاله حنطة وشعيرا ودقيقا وفريكا وفولا وعدسا وطسوتا وآنية خزف وفُرُشًا وعسلا وزبدة وضأنا وجبن بقر لداود وللشعب الذى معه ليأكلوا لأنهم قالوا الشعب جوعان ومتعَب وعطشان فى البرية (٢ صموئيل ٢٨:١٧).

ودخل أبشالوم مدينة أورشليم بدون مقاومة. ولم يكتف بذلك بل أزمع مطاردة والده داود فى شرق الأردن. وكان فى القصر بعض الرجال الموالين لداود. فأرسلوا رسلا يخبرونه بما ينتويه أبشالوم. وبلغ الضيق ذروتة بداود فهو لا يريد أن يقاتل ابنه. ولكنه فى نفس الوقت لا يريد استمرار هذا التمرُّد الذى قد يغرى الأعداء بالهجوم على إسرائيل فتفقد استقلالها. لذلك لجأ إلى الله يدعوه ويتضرَّع إليه:

مزمور ٦١ :

إنما لله انتظَرت نفسى. من قِبله خلاصى. إنما هو صخرتى وخلاصى وملجئى. إلى متى تهجمون على الإنسان. تهدمونه كلكم كحائط منقضٍّ كجدار واقع. إنما يتآمرون عليه. يرضون بالكذب. بأفواههم يباركون وبقلوبهم يلعنون. إنما لله انتظرى يانفسى لأن من قِبَله رجائى. إن العزة لله. ولك يارب الرحمة لأنك أنت تجازى الإنسان كعمله.

مزمور ٦٤ :

استمع يا الله صوتى فى شكواى. من خوف العدوّ احفظ حياتى. استرنى من مؤامرة الأشرار من جمهور فاعلى الإثم الذين صقلوا ألسنتهم كالسيف فوّقوا سهمهم كلاما مُرًا ليرموا بغتة ولا يخشون. يُشدِّدون أنفسهم لأمر ردىء. يتحادثون بطمر فخاخ. يخترعون إثما محكما.

مزمور ١٤٠ :

أنقذنى يارب من أهل الشر. من رجل الظلم احفظنى الذين يتفكَّرون بشرور فى قلوبهم

اليوم كله يجتمعون للقتال. سنُّوا ألسنتهم كحية حمة الأفعوان تحت شفاههم. احفظنى يارب من يد الشرير. من رجل الظلم أنقذنى. الذين تفكرُّوا فى تعثير خطواتى. أخفى لى المستكبرون فخا وحبالا. مدُّوا شبكة بجانب الطريق. وضعوا لى أشراكا. قلت للرب أنت إلهى. اصغ يارب إلى صوت تضرعاتى. لا تعط يارب شهوات الشرير. لا تنجح مقاصده. أما رؤوس المحيطين بى ليسقط عليهم حجر. ليسقطوا فى النار وفى غمرات (مياه عميقة) فلا يقوموا. قد علمتُ أن الله يُجرى حكما للمساكين وحقا للبائسين. الصدِّيقون يحمدون اسمك. المستقيمون يجلسون فى حضرتك.

مزمور ١٤١ :

يارب إليك صرخت. أسرع إلىَّ. أَصغِ إلى صوتى عندما أصرخ إليك. بك احتميت. لا تُفرِغ نفسى. احفظنى من الفخ الذى نصبوه لى ومن أشراك فاعلى الإثم. ليسقط الأشرار فى شباكهم حتى أنجو أنا بالكلِّية.

نهاية أبشالوم :

كان مفيبوشث ابن يوناثان – الذى كان داود قد أكرمه وأعطاه كل حقول شاول – كما سبق أن ذكرنا (ص ١١٨) قد بقى فى أورشليم وانضم إلى أبشالوم على أمل أن يُرجع له – إذا استتب له الأمر – جزءا من مملكة جده شاول أو على الأقل يجعله حاكما على أحد الأقاليم. وسار أبشالوم بجنوده وعبر الأردن قاصدا محنايم التى ينزل بها داود للاستيلاء عليها. وقسَّم داود رجاله إلى أربعة أقسام: قسم بقى فى محنايم نفسها لحمايتها وظل هو فى المدينة مع هذا القسم. ووضع يوآب رئيس الجيش خطة بحيث يستدرج أبشالوم وجيشه بحيث يدخل فى منخفض من الأرض مقتفيا أثر جزء ثانٍ من الجيش يقوده هو ويتظاهر بالتراجع فيهجم القسمان الآخران من الجانبين فيثيرا الذعر فى الجنود وتدب الفوضى فى صفوفهم. ثم يتقدم هو ثانية للإجهاز على الجيش. وسارت المعركة حسب الخطة التى وضعها يوآب. إذ اغتر أبشالوم بتقهقر قوات يوآب ثم فوجىء بهجوم قوات على ميمنته وميسرته فتشتت جنوده للدفاع عن أنفسهم. فكرَّ عليهم يوآب بالجزء الأكبر من الجيش فأجهز على جيش أبشالوم وقَتَل أبشالوم بالرغم من أن تعليمات داود كانت بعدم قتله. وفتَّ مقتل أبشالوم فى عضد الباقى من الجنود فتوقفوا عن القتال بعد أن قُتِل منهم ٢٠,٠٠٠ ورجع الأحياء كل إلى سبطه.

وحزن داود حزنا عظيما على ابنه. وجلس يتقبَّل التعازى من الشعب. ثم جاءه رجال إسرائيل وأبدوا ندمهم على مشايعتهم لأبشالوم وطلبوا منه العفو وأن يعود إلى أورشليم ملكا عليهم كما كان. وجاء مفيبوشث ابن يوناثان واعتذر لداود وأبدى ندمه على انضمامه لأبشالوم فعفا عنه . أما شمعى البنياميني فقد جاء ومعه ألف رجل من بنيامين وعبروا الأردن إلى

حيث كان يقيم داود وأعلنوا تأييدهم لداود واعتذر شمعى عن سبابه له وطلب السماح والعفو. وأشار رجال داود بقتله ولكن داود عفا عنه (٢ صموئيل ١٩:٢٣) وقال له: ابنِ لنفسك بيتا فى أورشليم وأَقم هناك ولا تخرج من هناك إلى هنا أو هنالك فيوم تخرج اعلم أنك موتا تموت ويكون دمك على رأسك. فقال شمعى للملك. حسن الأمر. كما تكلم سيدى كذلك يصنع عبدك. وكان هذا بمثابة تحديد إقامة لشمعى فى بيت فى أورشليم تحت أنظار الملك حتى لا يدبِّر أو يشترك فى تمردٍ آخر.

وهكذا انتهت ثورة أبشالوم وعاد داود إلى أورشليم وترنَّم بهذا المزمور :

أحمدُ الربَّ بكل قلبى. أُحَدِّث بجميع عجائبه. أفرح وأبتهج بك. أرنِّم لاسمك أيها العلى عند رجوع أعدائى إلى خلف ويسقطون ويهلكون من قدام وجهك لأنك أقمت حقِّى ودعواى. جلستَ على الكرسى قاضيا عادلا. أهلكتَ الشرير. محوتَ اسمهم إلى الدهر والأبد. العدو تم خرابه إلى الأبد. الرب ملجأ فى أزمنة الضيق. ويتكل عليك العارفون اسمك. رنِّموا للرب.

والمزمور ١٣٨ :

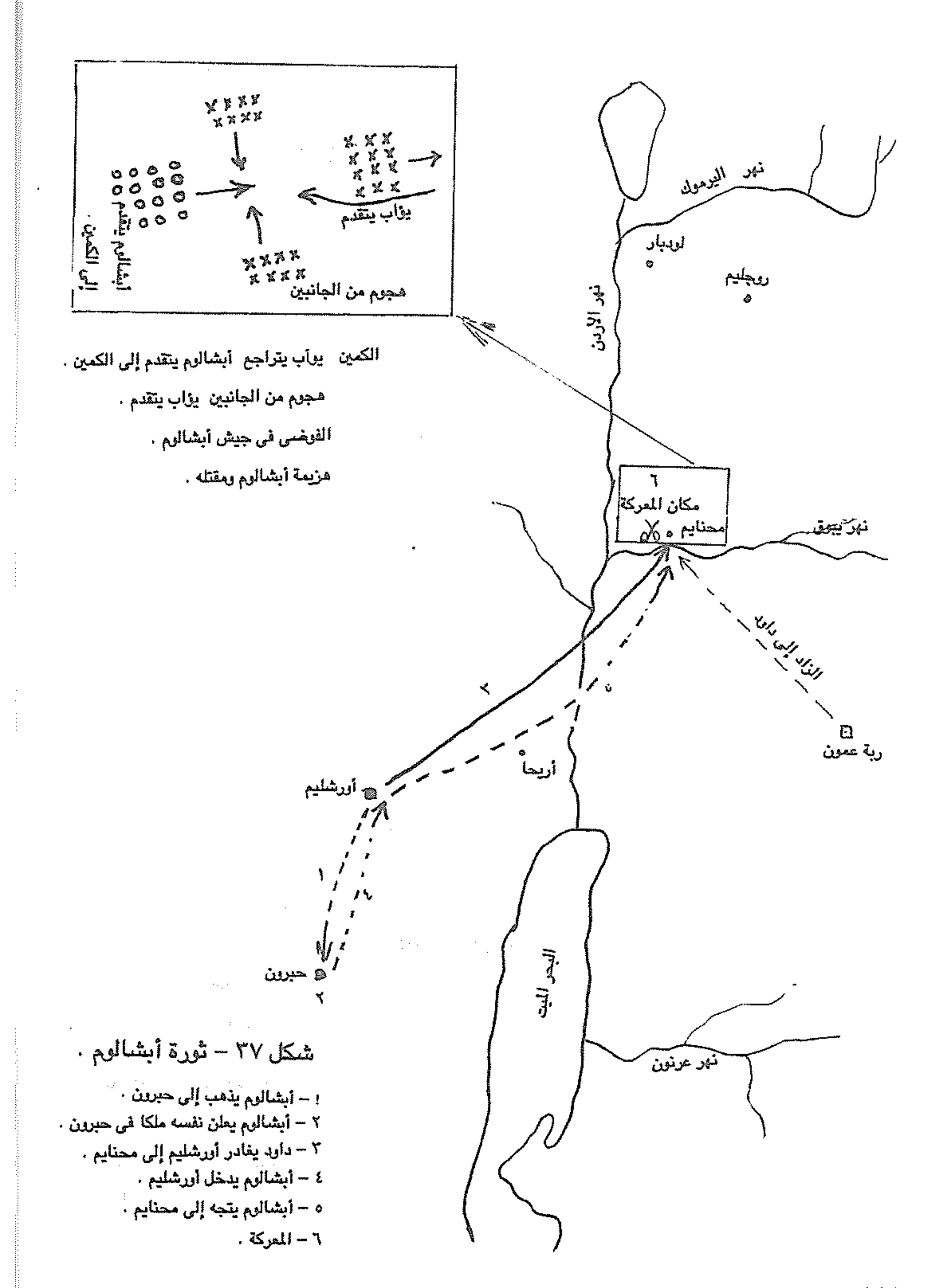
أحمدك من كل قلبى. أُرنِّم. أسجد فى هيكل قُدسك وأحمد اسمك على رحمتك وحقِّك لأنك قد عظَّمت كلمتك على كل اسمك. يوم دعوتُك أجبتنى. شجَّعتنى قوَّةً فى نفسى. يحمدك يارب كل ملوك الأرض إذا سمعوا كلمات فمك. ويُرنِّمون فى طرق الرب لأن مجد الرب عظيم. إن سلكتُ فى وسط الضيق تُحيينى. على غضب أعدائى تمتد يدك وتخلِّصنى يمينك. الرب يحامى عنى. يارب رحمتك إلى الأبد .

٣ – ثورة البنياميين :

إذا تذكرنا أن شاول كان من سبط بنيامين لأدركنا سبب عدم رضاء البنياميين عن داود لذلك فقد اجتمعوا وحرَّضهم «شبع البنيامينى» على التمرد وأعلنوا عدم الولاء. وقرر داود محاربتهم. ففر شبع ورجاله إلى شكيم. وسار يوآب قائد جيش داود خلفهم. ففروا إلى أقصى الشمال واحتموا فى مدينة «بيت معكة» (شمال بحيرة الحولة وحوالى ٦كم غربى دان – شكل ١٠٥) فحاصرها يوآب وطلب من أهلها تسليم شبع قائد التمرد حتى لا يضطر إلى تدمير مدينتهم. فاحتالوا على شبع وقتلوه وألقوا بجثته من على سور المدينة وانتهى التمرد.

انقراض بيت شاول :

كان شاول قاسيا أثناء فترة حكمه وعند إقامته فى جبعة شاول كان الجبعونيون يعيشون فى مدينتى جبعة وجبعون: الأولى تقع ١٠كم شرقى جبعة شاول والثانية تقع تقريبا نفس المسافة شمالها. وبالرغم من أنه كان قد أمَّن الجبعونيين على حياتهم إلا أنه غدر بهم وقتل منهم الكثير. وانتهز الجبعونيون فرصة انشغال داود بقحط ومجاعة أصابت البلاد وبإخماد



شكل ٣٧ – ثورة أبشالوم .

١ – أبشالوم يذهب إلى حبرون .
٢ – أبشالوم يعلن نفسه ملكا فى حبرون .
٣ – داود يغادر أورشليم إلى محنايم .
٤ – أبشالوم يدخل أورشليم .
٥ – أبشالوم يتجه إلى محنايم .
٦ – المعركة .

الثورات التى قامت ضده . وقاموا وقتلوا كل الأحياء من ذرية شاول بما فيهم مفيبوشت ابن يوناثان.

الفلسطينيون :

انتهز الفلسطينيون أيضا فرصة انشغال داود بهذه المتاعب الداخلية وبدأوا يغيرون على حدود إسرائيل الغربية ويتوغلون فى جبال يهوذا . فجرَّد داود عدة حملات لطردهم. وأعاد الاستيلاء على مدينة جت ولكنه لم يستطع أن يُخضع باقى المدن الفلسطينية. وظلَّ معظم السهل الساحلى الـفلسطينى مستقلا إلى أن ضمه سليمان إلى مملكته.

نشيد الشكر :

شعر داود أن الأمر قد استتب له ثانية. فها هم الأسباط كلهم قد ارتضوا حكمه والفلسطينيون لمسوا قوة بأسه فلم يعودوا يشكلون بالنسبة له تهديدا وكذلك باقى الدول المجاورة: أدوم ومؤاب والعمونيون والأراميون – عندئذ شكر الله بهذا النشيد (صموئيل ثان ١:٢٢):

الرب صخرتى وحصنى ومنقذى، به أحتمى، هو ترسى وملجئى ومناصى. أدعو الرب الحميد فأتخلَّص من أعدائى لأن أمواج الموت اكتفتنى. سيول الهلاك أفزعتنى. جبال الهاوية أحاطت بى شُرُك الموت أصابتنى. فى ضيقى دعوت الرب وإلى إلهى صرخت. فسمع من هيكله صوتى. وصراخى دخل أذنيه. فارتجَّت الأرض وارتعشت. أسس السموات ارتعدت وارتجَّت لأنه غضب. ثم أرسل من العلا فأخذنى. نشلنى من مياه كثيرة. أنقذنى من عدوِّى القوىِّ وكان الرب سندى. أخرجنى إلى الرحب. خلَّصنى لأنه سُرَّ بى. يكافئنى الرب حسب بِرِّى حسب طهارة يدىَّ يرد علىَّ لأنى حفظت طرق الرب ولم أعصِ إلهى لأن جميع أحكامه أمامى وفرائضه لا أحيد عنها. حىٌّ هو الرب ومبارك صخرتى. الإله المنتقم لى والمخضع شعوبا تحتى. والذى يخرجنى من بين أعدائى وينقذنى من رجل الظلم. لذلك أحمدك يارب فى الأمم ولاسمك أرنِّم.

ثم أتبعه بمزمور حمد (١٠٠) :

اهتفوا للرب يا كل الأرض. اعبدوا الرب بفرح. ادخلوا إلى حضرته بترنم. اعلموا أن الرب هو الإله. ادخلوا أبوابه بحمد. باركوا اسمه لأن الرب صالح. إلى الأبد رحمته.

بناء مذبح للرب نواة للهيكل :

قلنا سابقا (ص ١٢٤) إن داود أبدى لصموئيل النبى رغبته فى بناء بيت للرب ولكن صموئيل أخبره أن الذى سيبنى البيت هو ابنه. وبعد أن توطَّد ملك داود واصطفاه الله نبيا.

جاءه الوحى وقال له: اصعد وأقم للرب مذبحا فى حقل أرونة اليبوسى. فصعد داود إلى أرونة وطلب منه الحقل ليبنى مذبحا للرب. وعرض أرونة أن يقدم الحقل مجانا بكل ما فيه من مواشى ويكون البقر محرقات. ولكن داود أصر على شرائه واشترى الحقل والبقر بـ ٥٠ شاقلا من الفضة (الشاقل = ٨,٤١٦ جم – أى أن الثمن الكلى كان حوالى ½ كيلو جراما من الفضة) وبنى داود مذبحا للرب وأصعد محرقات وذبائح سلامة.

فى حديث قدسى (الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية. محمد المدنى ص ٥٨): قال داود عليه السلام. إلهى ماحق عبادك عليك إذا هم زاروك فإن لكل زائر على المزمور حقا؟ قال يا داود فإن لهم علىَّ أن أعافيهم فى دنياهم وأغفر لهم إذا لقيتهم. أخرجه الطبرانى وابن عساكر عن أبى ذر وقال سنده ضعيف.

بعد بناء المذبح قال داود (أخبار أول ٤:٢٢) «إن سليمان ابنى صغير وغض والبيت الذى يبنى للرب يكون عظيما جدا فى الاسم والمجد فى جميع الأراضى فأنا أهيىء له. فهيأ داود كثيرا قبل وفاته». وأمر داود جميع الأجانب الذين فى أرض إسرائيل من الصنّاع المهرة والنحّاتين فنحتوا حجارة مُرتَّبة. وجهّز داود حديدا كثيرا للمسامير للأبواب ونحاسا كثيرا بلا وزن. وخشب أرز بكميات كثيرة كل ذلك تسهيلا لمهمة سليمان فيما بعد حينما يشرع فى بناء البيت.

تفضيل داود لسليمان :

ذكرنا فى صفحة ١٢٠ أسماء أبناء داود الستة الذين ولدوا له فى حبرون وفى ص ١٢١ ذكرنا أسماء الأحد عشر ابنا الذين ولدوا فى أورشليم. وكان داود يفضل سليمان على باقى أبنائه لأنه من زوجته المحبوبة بثشبع (التى كانت زوجة لأوريا الحثى) وعند ولادة سليمان اختار له ناثان النبى اسم «يديديا» بمعنى محبوب يهوه. ولكن أوحى إليه فيما بعد أن يغيره إلى «شلومون» بالعبرية أى رجل السلام وينطق بالعربية سليمان.

ولما أُخبِر داود بأن الذى سيبنى البيت هو «الذى يخرج من أحشائك وأُثبِّت مملكته وهو يبنى بيتا لاسمى وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد». أخذ يفكرٍّ أى أبنائه هو الذى سيخلفه على العرش ويكون له شرف بناء البيت؟ إنه يتمنى أن يكون سليمان هو الملك من بعده. ولكن أدونيا هو الابن البكر الآن بعد وفاة إخوته الأكبر منه. كان داود يعلم أن سليمان تقى من صغرة. تلقى تعليما على يدى ناثان النبى ولاحظ أنه ذكى وعاقل فى تصرفاته وحكيم فى أفعاله فأشركه معه فى مجالس القضاء التى يعقدها للفصل بين المتنازعين.

وظهرت حكمة سليمان واضحة جلية. ففى إحدى جلسات القضاء جاء خصمان. أحدهما صاحب زرع قد قارب الحصاد وقيل صاحب كرم قد أنبتت عناقيده. ونزلت غنم الآخر ليلا إلى الحقل فأكلت ثمره وأفسدت الزرع. والنَفَش رعى الماشية بالليل بغير راع. والقاعدة أن ترك

الغنم ترعى ليلا بغير مراقبة تكون مسئوليته على صاحب الغنم أما بالنهار فإن صاحب الحقل مطالب بمراقبة حقله وحمايته من أى غنم تقترب منه. وطبقا لهذا العرف فإن مسئولية إتلاف الزرع فى القضية المعروضة كانت تقع على صاحب الغنم. وحكم داود عليه السلام بأن يدفع صاحب الغنم غنمه إلى صاحب الحقل عوضا عما أتلفه من زرعه. فقال سليمان أن لو كان الأمر له لقضى بغير هذا. فسأله داود كيف يقضى. فقال أدفع الغنم لصاحب الحرث فيكون له أولادها وألبانها ومنافعها. ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحقل مثل حرثهم فإذا بلغ الذى كان عليه تراداً. أى أخذ أصحاب الغنم غنمهم وعاد الحقل لصاحبه كما كان قبل أن تتلفه الغنم. وأقر داود الحكم الذى قضى به سليمان.

وقد أثار بعض المفسِّرين مسألة أن سليمان كان صبيا ولم يكن بعدُ نبيا فهو يحكم باجتهاده فى حين أن داود كان نبيا وهو يحكم بوحى من الله أو بنص من شريعتهم. فكيف يُنْقَضُ حكم النص بالاجتهاد (تفسير الألوسى جـ ١٧ ص ٧٤). البعض قال إن الحكمين كانا وحيا فلا بأس من أن ينسخ حكمُ سليمان ما قضى به داود. وآخرون قالوا إن حكم سليمان وحده هو الذى كان وحيا. وما نراه أن الوحى للأنبياء لا يكون فى كل الأوقات ولا فى كل الحالات وإنما يُترك الأمر لاجتهادهم فى بعض الحالات. وخير مثال على ذلك ماكان من رسولنا صلى الله عليه وسلَّم حينما أشار بعدم تأبير النخل. فلما لم يثمر قال قولته الشهيرة: أنتم أعلم بأمور دنياكم. ولاشك أن حكمى داود وسليمان عليهما السلام كانا عن اجتهاد. وكان الله شاهدا لحكمهما. وكان حكم سليمان عن فهم أوتيه من الله وليس عن وحى خاص بهذه القضية – وكما يحدث كثيرا فى عصرنا الحالى من إستئناف أو نقض للأحكام وقد يكون القائم بهذا الاستئناف أو النقض هو أحد أعضاء الهيئة القضائية ذاتها (ممثل النيابة) ثم قد تحكم المحكمة الأعلى بغير ما قضت به المحاكم السابقة ولا غبار على ذلك. وعليه فيمكن اعتبار الحكم الأول حكما ابتدائيا صدر عن محكمة بقاضٍ واحد هو داود أما الحكم الثانى فهو حكم نقض أو استئناف بمحكمة أخرى فيها قاضيان هما داود وسليمان عليهما السلام. وكان الفهم الذى أبداه سليمان أرفق بالمخطىء إذ ردَّ إليه غنمه بعدما أصلح ما أفسدت:

«وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان. وكُلاً آتينا حكما وعلما» .. (٧٨ – ٧٩ – الأنبياء).

قضية أخرى. روى الإمام أحمد فى مسنده عن آخرين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين. فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا. فدعاهما سليمان وقال هاتوا السكين أشقه بينكما. فقالت الصغرى يرحمك الله. هو ابنها لا تشقَّه. فقضى به للصغرى (تفسير ابن كثير. جـ ٣ ص ١٨٧) وإن كان البعض يرى أن هذه القصة حدثت فى عهد سليمان لا فى عهد أبيه.

المهم أن داود أدرك أن ابنه سليمان هو الأصلح لخلافته على عرش إسرائيل. ولكن أدونيا أكبر منه وهو الأحق بالملك. فترك الأمور لله يصرفها كيف يشاء: «**والله يؤتى ملكه من يشاء**».

(من الآية ٢٤٧ – البقرة).

الصراع علي المُلْك :

أصبح أدونيا هو الابن البكر لداود بعد أن قُتِل أمنون لاعتدائه على أخته – ومات كيلاب – وقتل أبشالوم فى تمرده على والده. وأدونيا ابن داود من زوجته حجِّيت وهو اسم عبرى مؤنث حجىٍ ومعناه عيدية أى مولودة يوم عيد. وأدونيا اسم عبرى معناه «يهوه هو السيد» أو «الرب هو السيد» وكان داود يحبه ويدلله إذ تقول التوراة (ملوك أول ١:٧) «ولم يغضبه أبوه قط قائلا لماذا فعلت هكذا». ولعل هذا التدليل هو ما جعله يعتقد أن العرش لا محالة صائر له بحكم أنه أكبر الأبناء. وكان داود إلى هذه اللحظة لم يعين من الذى سيخلفه. ونسى أدونيا أن والده نبى وأن إرادة الله هى التى جعلته ملكا على إسرائيل مع أنه لم يكن من نسل شاول فالأمر لله من قبلُ ومن بعد. وكان عليه أن ينتظر ما يوحَى إلى والده من إرادة الله سبحانه وتعالى. ولكن أدونيا لم ينتظر وأعلن نفسه وريثا للعرش وملكا. ولعله بذلك أراد أن يضع والده أمام الأمر الواقع ويقطع الطريق على أى تفكير آخر. واتخذ لنفسه كل مظاهر الملك: عجلات وفرسانا وخمسين رجلا يجرون أمامه. واستمال إلى جانبه يوآب رئيس الجند وأبياثار الكاهن. وقد سبق أن ذكرنا (ص ١٠٥) أن أبياثار هو الوحيد الذى نجا من مذبحة كهنة «نوب» وأنه لجأ إلى داود فطمأنه على حياته وجعله رئيس كهنة له. ونراه الآن قد انقلب على داود وانضم إلى أدونيا.

وكان داود قد أوحى إليه من ربه أن سليمان هو الذى يخلفه: «**وورث سليمان داود**» (من الآية ١٦ – النمل) وكذلك أوحى إلى ناثان النبى بذات المعنى. وبذلك أصبح هناك فريقان كل منهما يسعى إلى تولية ابن من أبناء داود على عرش إسرائيل:

	حزب داود وسليمان	حزب أدونيا
رئيس الجند	بناياهو	يوآب
الكاهن	صادوق	أبياثار
	ناثان النبى	

وأمر داود صادوق الكاهن وناثان النبى وبناياهو رئيس الجند أن يأخذوا سليمان وينزلوا إلى نبع جيحون وهو نبع فى ضواحى أورشليم (شكل ٣٤ ص ١٢٢). وأن يمسحه هناك صادوق الكاهن وناثان النبى ملكا على إسرائيل وأن يضربوا بالبوق ويقولوا: ليحيى الملك سليمان. «ثم تصعدون وراءه فيأتى ويجلس على كرسىٍّ وهو يملك عوضا عنى وأنى قد أوصيت أن يكون رئيسا على إسرائيل ويهوذا. ففعلوا كما أمر داود وكان أفراد الشعب يضربون بالناى ويفرحون فرحا عظيما».

وسمع أدونيا وجميع من التفوا حوله. وعلموا أن داود قد ملَّك سليمان وأن سليمان قد جلس على كرسى إسرائيل وأن جميع الحاشية قد باركوا لداود قائلين: يجعل الله اسم سليمان أحسن من اسمك وكرسيه أعظم من كرسيك. فخاف أدونيا ومن حوله وهرب كل واحد إلى بيته. وارتعد أدونيا ولجأ إلى المعبد وأمسك بقرون المذبح حتى لا يقتله أحد الجنود. وأرسل مَن يأخذ له الأمان من سليمان قائلا: ليحلف لى اليوم الملك سليمان أنه لا يقتل عبده بالسيف. فعفا عنه سليمان وأمره أن يذهب إلى بيته ويلزمه أى حدد إقامته فى بيته.

وصية داود لسليمان :

١ – **وصية خاصة** : لما شعر داود بدنو أجله استدعى سليمان وقال له (ملوك أول ٢:١): أنا ذاهب فى طريقى فتشدَّد وكن رجلا. احفظ شعائر الرب إلهك. إذ تسير فى طرقه وتحفظ فرائضه ووصاياه وأحكامه وشهاداته كما هو مكتوب فى شريعة موسى لكى تفلح فى كل ما تفعل وحيثما توجَّهت لكى يقيم الرب كلامه الذى تكلَّم به قائلا: «إذا حفظ بنوك طريقهم وسلكوا أمامى بالأمانة من كل قلوبهم وكل أنفسهم قال لا يُعدَمَ لك رجل عن كرسىٍّ». كذلك أوصاه على بعض الرجال الذين ساعدوه أيام كان شاول يطارده وأيام أن ثار عليه أبشالوم ابنه.

٢ – **وصية ببناء بيت للرب** : (أخبار أول ٢٢ :٦) ودعا داود سليمان ابنه وأوصاه أن يبنى بيتا للرب إله إسرائيل وقال داود لسليمان: يا ابنى قد كان فى قلبى أن أبنى بيتا لاسم الرب إلهى. فكان كلام الرب أن لا أبنيه قائلا: هو ذا يولد لك ابن يكون صاحب راحة وأريحه من جميع أعدائه حواليه لأن اسمه يكون سليمان فأجعل سلامة وسكينة فى إسرائيل فى أيامه. هو يبنى بيتا لاسمى وهو يكون لى ابنا وأنا له أبا وأثبِّت كرسى ملكه على إسرائيل إلى الأبد. الآن يا ابنى ليكن الرب معك فتفلح وتبنى بيت الرب إلهك كما تكلم عنك. إنما يعطيك الرب فطنة وفهما ويوصيك بإسرائيل لحفظ شريعة الرب إلهك. حينئذ تفلح إذا تحفَّظت لعمل الفرائض والأحكام التى أمر الرب بها موسى لأجل إسرائيل. تشدَّد وتشجَّع. لا تخف ولا ترتعب. هأنذا فى شيخوختى هيأت لبيت الرب ذهبا مائه ألف وزنة. وفضة ألف ألف. ونحاسا وحديدا بلا وزن لأنه كثير. وقد هيأت خشبا وحجارة فتزيد عليها. وعندك كثيرون من عاملى الشغل نحاتين وبنائين ونجارين وكل حكيم فى كل عمل. قم واعمل وليكن الرب معك.

٣ – **وصية لرؤساء إسرائيل** : وأمر داود جميع رؤساء إسرائيل أن يساعدوا سليمان ابنه فقال: اجعلوا قلوبكم وأنفسكم لطلب الرب إلهكم وقوموا ابنوا مقدس الرب الإله ليؤتى بتابوت عهد الرب وبآنية قدس الله إلى البيت الذى يُبنى لاسم الرب. وجمع داود كل رؤساء إسرائيل ورؤساء الأسباط وقال لهم: اسمعونى يا إخوتى وشعبى. كان فى نيتى أن أبنى بيت قرار لتابوت عهد الرب. ولكن الله قال لى: لا تبن بيتا لاسمى لأنك رجل حروب واختار الرب سليمان

ابنى ليجلس على كرسى إسرائيل وهو الذى سيبنى بيت الرب. ثم إن داود أحصى فرق اللاويين والكهنة وحدَّد لكل فرقة عملها الذى ستعمله بعد بناء البيت. ذلك أنه وقت أن كانت إسرائيل أسباطا متفرقة كان لكل سبط عدد من اللاويين والكهنة يقومون بتقديم الذبائح والمحرقات . ولكن إذ أوشكت أورشليم أن تصبح المقدس المركزى لكل إسرائيل فقد صار عدد اللاويين والكهنة أكثر من اللازم فقُسِّموا إلى ٢٤ فرقة وذلك معناه أنه فى المستقبل تقوم كل فرقة بالواجب الكهنونى مدة أسبوعين فى العام. ثم قال داود لكل الجماعة. باركوا الرب إلهكم. فبارك كل الجماعة الربَّ وخروا سُجَّدًا للرب وذبحوا للرب ذبائح وأصعدوا محرقات فى ذلك اليوم.

وبعد هذه الوصية توفى داود عليه السلام عن ٧٠ عاما ودُفن فى مدينة داود أى فى أورشليم.

أحاديث قدسية عن داود عليه السلام

١ – فى حديث قدسى (الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية. محمد المدنى. ص ١٦٣):
إن الله لما خلق آدم مسح على ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه فرأى فيهم رجلا يزهر (أى حسن الهيئة) فقال أى رب. أىُّ بنىَّ هذا؟ قال هذا ابنك داود. قال فكم عمره؟ قال ستون. قال أى رب زده فى عمره. قال: لا إلا أن تزيده أنت من عمرك. وكان عمر آدم ألف سنة. قال أى رب. زده من عمرى. فزاده أربعين سنة وكتب عليه كتابا وأشهد عليه الملائكة. فلما احتُضِر آدم أتته الملائكة لتقبض روحه قال إنه بقى من عمرى أربعون سنة. فقالوا إنك جعلتها لابنك داود. قال أى رب ما فعلتُ فأنزل عليه الكتاب وأقام عليه البينة. ثم أكمل الله تعالى لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة سنة.

أخرجه أبو داود الطيالسى وابن سعدون فى الكبير والبيهقى عن ابن عباس.

٢ – ويروى عن ابن عباس: قال داود عليه السلام فى مناجاته: إلهى من يسكن بيتك وممن تقبل الصلاة؟ فأوحى الله إليه. ياداود. إنما يسكن بيتى وأقبل الصلاة منه من تواضع لعَظَمتى. وقطع نهاره بذكرى. وكفَّ نفسه عن الشهوات من أجلى. يطعم الجائع. ويؤوى الغريب ويرحم المصاب. فذلك الذى يضىء نوره فى السموات كالشمس. إن دعانى لبَّيته. وإن سألنى أعطيته. أجعل له فى الجهل حلما. وفى الغفلة ذكرا. وفى الظلمة نورا. وإنما مثله فى الناس كالفردوس فى أعلى الجنان . لا تيبس أنهارها ولا تتغيَّر ثمارها.

(إحياء علوم الدين – الإمام أبو حامد الغزالى. جـ ١ ص ١٣٦).

٣ – قال داود عليه السلام فيما يخاطب ربه: يارب، أيُّ عبادك أحب إليك، أحبه بحبك؟ قال يا داود: أحَبُّ عبادى إلىَّ تقى القلب، نقى الكفين، لا يأتى إلى أحد سوءا، ولا يمشى بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبَّنى وأحبَّ من يحبنى ويحبِّبنى إلى عبادى، قال يارب: إنك لتعلم أنى أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحبِّبك إلى عبادك؟ قال ذكِّرهم بآلائى وبلائى ونعمائى، ياداود إنه ليس من عبد يعين مظلوما أو يمشى معه فى مظلمته إلاَّ أثبِّت قدميه يوم تزول الأقدام.

أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان، وابن عساكر، عن ابن عباس (الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية، محمد المدنى، ص٥٩).

٤ – أوحى الله إلى داود، ياداود، مثل الدنيا كجيفة اجتمعت عليها الكلاب يجرونها، أفتحب أن تكون كلبا مثلهم فتجرَّ معهم؟ ياداود طِيب الطعام ولين اللباس والصيت فى الناس والآخرة لا يجتمع أبداً.

(المرجع السابق، ص ١٩٤) أخرجه الديلمى عن على.

٥ – أوحى الله إلى داود أن قُل للظَّلَمة لا يذكرونى، فإنى أذكر من يذكرنى وإن ذكرى إياهم أن ألعنهم.. أخرجه الحاكم فى تاريخه والديلمى وابن عساكر عن ابن عباس (المرجع السابق، ص ١٩٩).

٦ – قال داود عليه السلام: يارب هل بات أحد من خلقك أطول ذكرا منى؟ فأوحى الله تعالى إليه: الضفدع، وأنزل سبحانه عليه «**اعملوا آل داود شكرا**» فقال داود: كيف أطيق شكرك وأنت الذى تنعم علىَّ ثم ترزقنى على النعمة الشكر فالنعمة منك والشكر منك فكيف أطيق شكرك؟ فقال جل وعلا: ياداود الآن عرفتنى حق معرفتى. (تفسير الألوسى، جـ ٢٢، ص ١٢٠).

وقيل إنه لما نزل على داود قوله تعالى: «**اعملوا آل داود شكرا**» لم يأت ساعة على القوم إلا ومنهم قائم يصلى، وفى رواية كان مُصلًّى آل داود لا يخلو من قائم يصلى ليلا ونهارا وكانوا يتناوبونه.

وجاء فى رواية ابن أبى حاتم عن الفضل أنه عليه السلام قال: يارب كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال سبحانه: الآن شكرتنى حين علمت النِعم منى.

وبهذا تنتهى قصة داود عليه السلام

«**نعم العبد إنه أوَّاب**» (٣٠–ص).

ناثان النبى

هو نبى من سبط يهوذا عاش فى أيام الملكين داود وسليمان وكان مستشارا لهما ورسولا يحمل إليهما نصائح الرب وتحذيراته. كما كان كاتبا يؤرخ حياتهما. واسم ناثان العبرى معناه «الله قد أعطى» (قاموس الكتاب المقدس. ص ٩٤٣).

ويمكننا أن نلخص أهم أعماله فى الآتى :

١ - استشاره داود فى بناء الهيكل إلا أن الرب أوحى إليه أن يُفَهِّم داود أن الذى سيبنيه هو ابنه سليمان (انظر ص ١٢٤).

٢ - أرسله الله ليبكِّت داود على افتتانه بامرأة جاره وأحد ضباطه وهو أوريا الحثى (ص١٣١).

٣ - عند ولادة سليمان اختار له ناثان اسم «يديديا» ثم غيَّر اسمه إلى سليمان كما سبق أن ذكرنا (ص ١٤٤).

٤ - هو الذى قام بوضع المغنين والموسقيين من اللاويين فى الهيكل حسب أمر داود.

٥ - وقف مع داود لتأمين وصول سليمان للعرش (ص ١٤٦).

وكان لناثان ابنان: «زابود» خلف والده كمستشار للملك سليمان والثانى «عزريا» جعله سليمان رئيسا على الاثنى عشر وكيلا الذين عينهم على جميع إسرائيل وجعله مسئولا عن جباية المال.

الفصل السادس

سليمان عليه السلام

اسمه :

سبق أن ذكرنا (ص ١٤٤) أنه فور ولادة سليمان جاء النبى ناثان وسماه «يديديا» بمعنى «محبوب يهوه» ثم أُوحى إليه بعد ذلك أن يغيره إلى «شلومون» أى رجل السلام وفى العربية يسمى سليمان. وشلومون مشتق من الجذر العبرى شَلَمْ المقابل للجذر العربى سلم. وجاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: «ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلَمًا لرجل. هل يستويان مثلا» (٢٩ – الزمر). فهو رجل السلام. وقالوا إن كلمة شلومون يقابلها فى العربية سلْمَان. ومن هنا كان انتقاد بعض المستشرقين لاسم «سليمان» حيث أنه تصغير لاسم سلمان. والحقيقة أنهم لم يفطنوا إلى أن شلومون أصلها شلومو. وفى العبرية يتم تصغير الاسم بوضع نون فى آخره. فكلمة صبع تصغيرها صبعون ويثر تصغيرها يثرون (كاهن مدين وحمو موسى). وشلومون يقالها فى العربية سليمان تصغير سلمان (من إعجاز القرآن الكريم. رؤوف أبو سعدة جـ ٢ ص ١٦٢).

تولّيه الحكم وتأمينه :

سبق أن ذكرنا (ص ١٤٦) محاولة أدونيا انتزاع الملك من سليمان وانتهى الصراع بأن نودى بسليمان ملكا وأجلسه داود على العرش فى أخريات أيامه. وفور توليه الحكم عفا سليمان عن أخيه أدونيا ولكنه حدد إقامته فى بيته فى أورشليم وبشرط أن لا يتدخل فى الأمور السياسية.

ثم جاء أدونيا إلى بثشبع – والدة سليمان – وطلب منها أن تتوسط له لدى سليمان حتى يسمح له بالزواج من « أبيشج » وكانت إحدى سرارى والدهما داود . وكانت العادة فى ذلك الوقت أن الملك الجديد يرث « حريم » الملك السابق أى جواريه وسراريه حتى لو كان والده . ومن هنا اعتبر سليمان هذا الطلب من أدونيا إصرارا منه على اعتبار نفسه الوريث الشرعى للمملكة باعتبار أنه هو الابن الاكبر لداود. ولعل سليمان رأى أن أدونيا – مادامت له هذه التطلعات – لن يُؤمَنَ جانبه ولن يُؤمَنَ مكره فى المستقبل. وخاصة أن أبياثار الكاهن ويوآب قائد جيش داود كانا يؤيدانه فى هذا الطلب. ومن ثَمَّ اشتمَّ سليمان مؤامرة تحاك ضده فى

الخفاء فرأى أن يجتثها من جذورها. فأمر بناياهو – قائد جنده – فضرب عنق أدونيا. وعزل أبياثار الكاهن من وظيفته وحدد إقامته فى قرية عناثوث مسقط رأسه وهى حاليا «عناتا» على بعد ٤كم شمال شرق أورشليم. (شكل ١٠٥). وقال له سليمان: لأنك مستوجب القتل ولست أقتلك لأنك حملت تابوت الرب أمام داود أبى.

ولما سمع يوآب ماحدث لأدونيا وأبياثار خاف وهرب إلى خيمة الاجتماع بجانب المذبح وتمسَّك بقرون المذبح فأرسل سليمان قائد جيشه بناياهو ليخرجه من الخيمة ويقتله فأبى يوآب أن يخرج وقال له إن كنت تقتلنى فاقتلنى ها هنا معتقدا أن وجوده بجانب المذبح يعصم دمه. فعاد بناياهو إلى سليمان وأخبره بما قاله يوآب. فقال له سليمان. افعل كما تكلَّم. وابطش به وادفنه. ففعل بناياهو كما أمره سليمان وقتل يوآب.

وهكذا تخلص سليمان من كل من نازعوه الملك: أدونيا ويوآب وأبياثار وعيَّن سليمان «صادوق» كاهنا أكبر بدلاً من أبياثار. كما عيَّن بنايهو قائدا للجيش مكان يوآب.

أما شمعى رئيس البنياميينين. والذى كان قد انضم لأبشالوم فى ثورته ثم عفا عنده داود وحدد إقامته فى بيته. والتزم شمعى بتحديد الإقامة هذا طوال مابقى من عمر داود والمفروض أن يستمر ذلك فى حكم سليمان أيضا. ولكن فى السنة الأولى من حكم سليمان هرب عبدان لشمعى إلى أخيش ملك مدينة «جت» الفلسطينية. فذهب شمعى وراءهما إلى جت وعاد بهما. وأُخبر سليمان بما حدث. ولعل سليمان قد اشتبه فى مؤامرة يدبِّرها شمعى مع أخيش ملك جت وأرسل العبدين مدعيا فرارهما.ثم ذهب بنفسه لمقابلة أخيش بحجة إعادة العبدين. فاستدعى سليمان شمعى وذكَّره بالوعد الذى قطعه على نفسه بأن لا يخرج من بيته فى أورشليم وبأنه يوم يفعل ذلك سيكون عقابه الموت. ودعا سليمان رئيس الجند بناياهو وأمره بقتل شمعى. ومن المؤكد أن أخيش علم بما حدث لشمعى وأدرك مدى حزم سليمان فى معاقبة المخالفين لأوامره. ومدى عنفه فى الرد على ماقد يهدِّد ملكه. فآثر السلام وطوال مدة حكم سليمان لم يثر الفلسطينيون له أية متاعب.

وقد انتقد بعض الكتاب ماقام به سليمان ووصفوه بأنه «قسوة بالغة» فانتقدوا إقدامه على قتل أخيه أدونيا ويوآب وشمعى وأبياثار الكاهن. ولكن لو تمعنا فى أفعال هؤلاء لوجدنا أنها تنطبق عليها ما نصفه بلغة عصرنا بمؤامرات لقلب نظام الحكم أو التخابر مع دول معادية وعقوبتها كلها الإعدام. وخاصة أن كلا منهم قد سبق اشتراكه فى تآمر ضد الحاكم الشرعى للبلاد وتم العفو عنه فالعود لارتكاب نفس الجرم يوجب الإعدام.

سليمان مَلكٌ ونبي :

ينظر أهلَ الكتاب إلى داود وسليمان على أنهما ملِكين فقط وينفون عنهما صفة النبوة

الثابتة لهما بنص القرآن الكريم إذ ذكرهما الله سبحانه وتعالى ضمن أسماء الأنبياء فى الآية التالية: «**ووهبنا له (لإبراهيم) إسحق ويعقوب. كُلاًّ هدينا. ونوحا هدينا من قبل. ومن ذريته داود وسليمان وأيوب وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين**» (٨٤-الأنعام). وفى المقابل فإن المفسرين الإسلاميين لا يولون جانب الملك حقه من الدراسة مع أنه لا يقل فى أهميته عن جانب النبوَّة. والحقيقة أن أحدهما مُكمِّلٌ للآخر ولا يكتمل فهمنا لقصة أى من هذين النبيين الكريمين دون دراسة جانب المُلك. وقد عمدنا فى قصة داود عليه السلام إلى استكمال هذا النقص فذكرنا مطاردات شاول له. وحروبه. والكوارث التى حلَّت ببيته فى أخريات أيامه. وسنسير على هذا المنوال أيضا فى قصة سليمان عليه السلام لنلقى الضوء على جوانب جديدة من حياته وأعماله. وكملك يروم مصلحة شعبه اهتم سليمان بأمرين :

١ - **السياسة الداخلية** : وهى ما تتعلق برفع مستوى معيشة الناس وعدم تعريضهم لمصاعب وأزمات.

٢ - **السياسة الخارجية** : وهى علاقة الدولة - متمثلة فى حاكمها - بالدول المجاورة وحكامها لتقل الحروب وما يصاحبها من دماء وإتلاف للحرث والنسل. وكلما عم السلام عم الرخاء. إلا أن الحروب - فى العصور القديمة - كانت فى بعض الأحيان عملا رابحا بالنسبة لطرف قوى يستعبد جارا ضعيفا ويفرض عليه «جزية» يدفعها ذهبا أو فضة أو مقداراً من الحبوب يدفع كل عام. وقد يرى الطرف الضعيف أن دفع الجزية أهون من القتل والتدمير إذا هو قاوم فيستمر هذا الوضع إلى أن يقيِّض الله للضعيف من عناصر القوة ما يزيح به هذا الظلم الواقع عليه.

ولقد رأينا مثل هذا فى تاريخ بنى إسرائيل فى الفصل الثالث من هذا الكتاب وهو «عصر القضاة» (ص ٣٩). فقد كان الكنعانيون أو الفلسطينيون أو غيرهم من الشعوب المجاورة تستعبد سبطا من الأسباط لفترة يدفعون خلالها الجزية لذلك الطرف القوى حتى يُقيِّض الله لهم قاضيا يقودهم ويُمكنِّهم من طرد المتسلِّط عليهم لينعموا بالحرية لفترة ما. وتتكرر القصة فى سبط آخر وهكذا. وهذا ما دفع بنى إسرائيل لأن يطلبوا من صموئيل النبى أن يجعل عليهم ملكا يوحِّد كلمتهم ويدافع عن حدودهم. وكان أن بعث الله لهم طالوت (شاول) ملكا كما رأينا فى الفصل الرابع. ولكن القَبَلية كانت لاتزال متغلغلة فى بنى إسرائيل. وكل سبط يكاد يكون مستقلا عن الأسباط الأخرى. وتمادى البنياميون فى تأييد شاول - بالرغم من مساوئه - لأنه بنيامينى. وتمادوا فى عداوتهم لداود لأنه غير بنيامينى. وحتى فى عهد داود كان رؤساء الأسباط لهم دور كبير فى تسيير الأمور الداخلية ولهم الكلمة العليا فى مناطقهم. واتهموا داود بمحاباة يهوذا على حساب الأسباط الأخرى. وعمل البنيامينيُّون على تأجيج الصراعات

الداخلية فى بيت داود فأيَّدوا ثورة أبشالوم على أبيه داود. وثورة أدونيا على أخيه سليمان. لذلك رأى سليمان أن استقرار مُلكه يسلتزم منه أن يولى النقاط التالية اهتماما خاصا:

١ - دمج الأسباط .

٢ - السيطرة على طرق التجارة .

٣ - النشاط البحرى .

٤ - التعدين .

٥ - السياسة الخارجية .

وهى أمور لم توف حقها من الدراسة فى المراجع الإسلامية. وحتى ما تناوله الباحثون فإنهم تطرقوا إليه من زاوية دينية ولم ينظروا إلى الجانب السياسى.

١ - دمج الأسباط

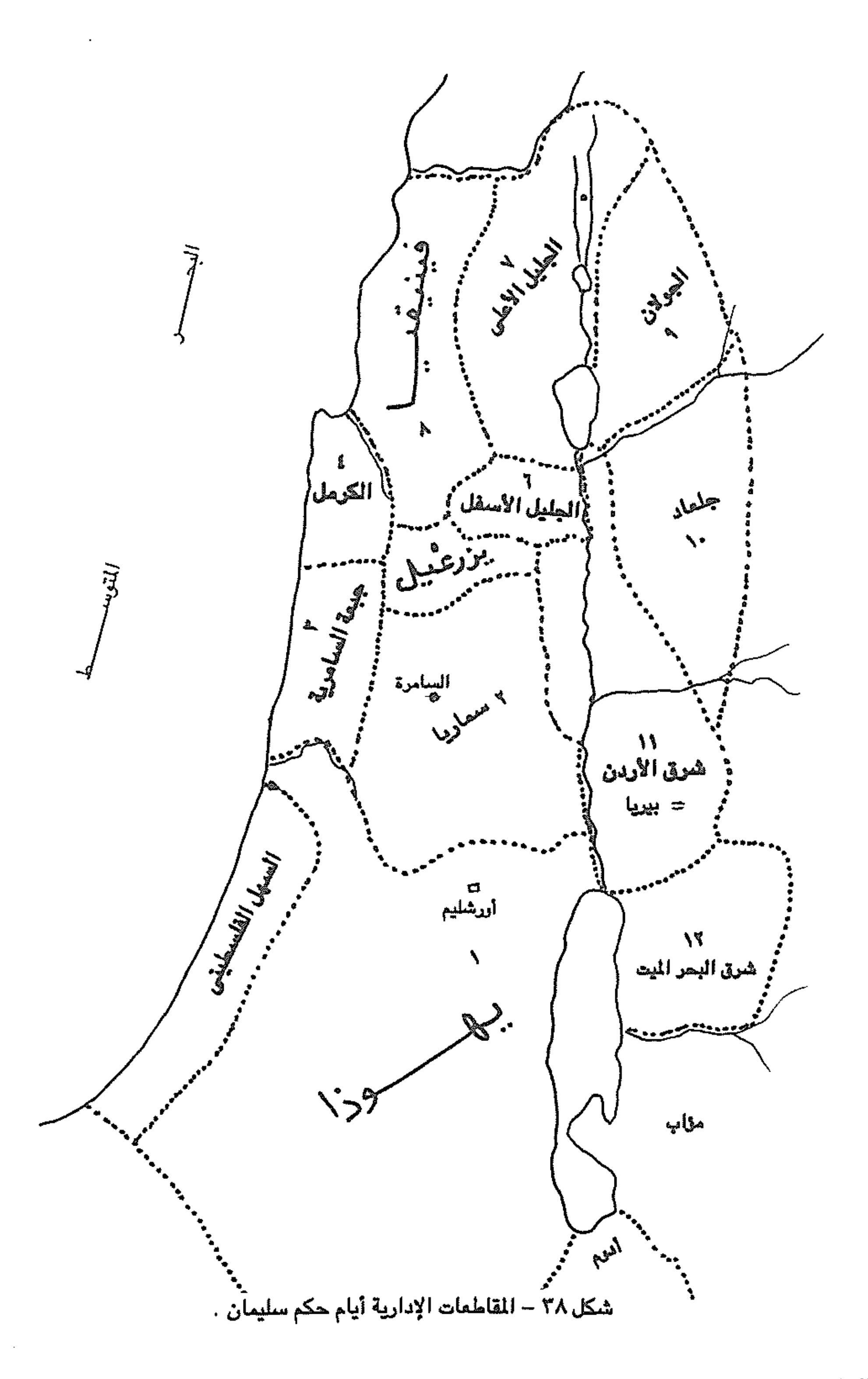
كان هذا أول ما اهتم به سليمان عليه السلام. فعمل على تذويب الكل فى كيان واحد مُتَّحد تهابه الأمم المجاورة. كانت المنطقة الواقعة جنوبى أورشليم هى منطقة سبط يهوذا وأصبح يُنظر إلى الجنوب كله على أنه «يهوذا». المشكلة كانت فى العشرة أسباط الباقية فهى التى كانت متنافرة. من هنا لجأ سليمان - بحكمته - إلى إعادة تقسيمها إلى وحدات إدراية عددها ١٢ وحدة غير متقيد بأن تكون الوحدة الإدارية قاصرة على سبط بعينه. بل توخَّى فى التقسيم الجديد أن تحتوى الوحدة الإدارية على أكثر من سبط لكى يتم تذويب الفوارق بين الأسباط. وبالطبع لم يكن ذلك أمرا سهلا. فاستقلال الأسباط بعضهم عن بعض قد ترسَّخ منذ كانوا أبناء يعقوب الاثنى عشر وعلى مدى تسعة قرون تقريبا (من ١٨٦٢ ق.م. حتى ٩٧٠ ق.م) فكان هدف سليمان هو إضعاف النزعة القبلية بين بنى إسرائيل. وكان لكل منطقة من المناطق الجديدة «مشرفٌ» أو «وكيل». عليه أن يتولى جمع الضرائب بالإضافة إلى أن على كل وحدة إدارية أن تلتزم بإعاشه الحكومة والقصر لمدة شهر فى السنة. فكان المشرف أو الوكيل يتولى جمع المقدار المفروض عليه من الحبوب والأغنام ويضعها فى مخازن ثم يسلمها إلى العاصمة أورشليم فى الوقت المحدد له. وكان سبط يهوذا معفى من هذا الأمر. ولما كان سليمان ينتمى إلى سبط يهوذا فقد نظر البعض إلى أن هذا فيه محاباة لسبط يهوذا. وهذا ولَّد فى الوحدات الشمالية شعورا معاديا لسبط يهوذا. ولعل السبب فى إعفاء سبط يهوذا يرجع إلى أن الأرض المخصصة له كانت فى مجملها أرضا صحراوية: صحراء النقب وصحراء بئر سبع وصحراء يهوذا. كما أن انتاج المنطقة الجبلية كان من القلة بحيث يكفى بالكاد أهلها. أما الأراضى

الشمالية فهى غزيرة الأمطار وبها وديان كثيرة صالحة للزراعة فكان من الطبيعى أن تتحمل هذه الأراضى الشمالية الجزء الأكبر من النفقات الملكية والحكومية.

لا يمكننا فى الوقت الحالى تحديد الحدود بين الوحدات الإدارية بدقة كما كانت أيام سليمان ولكن شكل ٣٨ يبين حدودها كما أمكن لعلماء التاريخ تحديدها. ويمكن الرجوع إلى شكل ١١ وهو يبين حدود الأسباط للمقارنة. وكما نرى فإن بعض الوحدات الإدارية كان يشمل مدنا كنعانية ولكن فيها جاليات كبيرة من بنى إسرائيل. كذلك فإن السهل الساحلى لم يكن يتبع إسرائيل فالجزء الشمالى كان يتبع الفينيقيين - يليه منطقة تابعة لإسرائيل من حيفا حتى يافا. ثم منطقة الفلسطينيين من يافا حتى حدود مصر. ومما أُخِذ على سليمان أن وحدتين من هذه الوحدات. وهما الواقعتين شرقى نهر الأردن كان يرأسها اثنان من أزواج بناته. ولكن لعله رأى أن الأرض شرق الأردن بعيدة نوعا ما عن العاصمة ويفصلها عائق مائى هو نهر الأردن مما قد يغرى حاكمها بالتمرد على الإدارة المركزية فى أورشليم. وضمانا لعدم حدوث ذلك فقد ولَّى على اثنتين منها زوجى ابنتيه. وعلى العموم يمكننا أن نقول إن سليمان قد نجح إلى حد كبير فى توحيد الأسباط فى مملكة واحدة. إلا أن الوحدات الشمالية كانت أقرب إلى الاندماج فى كيان واحد يحمل بعض الشعور المعادى ليهوذا فى الجنوب ولكنه لا يُظهر ذلك لأن الملك من سبط يهوذا. وسنرى أنه ما إن توفى سليمان عليه السلام حتى انفصلت الأسباط الشمالية مكوِّنة مملكة إسرائيل الشمالية مستقلة عن مملكة يهوذا فى الجنوب (ص ٢٤٢).

٢ - السيطرة على طرق التجارة

اهتم سليمان اهتماما خاصا ببناء القلاع والحصون ووضع بها الحاميات. وعن طريقها أصبح هو المتحكم فى جميع طرق التجارة فى المنطقة ويجبى الضرائب والمكوس على البضائع التى تمر بهذه الطرق مما عاد على المملكة بأموال جمة. فقام بتجديد الحصون التى كانت فى مدن جازر ومجدو وحاصور ودان وبذلك سيطر على تجارة المصريين والفلسطينيين المتجهة إلى دمشق والعراق. **وجازر** مدينة كنعانية قديمة تقع ٢٥كم جنوب شرق يافا. وقد عجز الأفرايميون عن طرد الكنعانيين منها وظل الكنعانيون يعيشون وسط أفرايم. وقد غزاها فرعون مصر وأحرقها وأعطاها دوطة لابنته عند زواجها من سليمان. فأعاد سليمان بناءها واسمها الحالى هو تل الجزر. وكان لـ جازر وضع خاص لأنها تقع على الطريق الذى يؤدى إلى أورشليم من جهة الغرب ومن ثم فقد قوَّى حاميات **مدينتى بيت حورون** وهما مدينتان كانتا تقعان على حدود أفرايم وبنيامين ويفصلهما ٤كم وعلى بعد ٢٠كم شمال غرب أورشليم وكانتا تُسمَّيان بيت حورون العليا وبيت حورون السفلى ويقابلهما حاليا بيت عور الفوقة وبيت عور التحته. والطريق



شكل ٣٨ – المقاطعات الإدارية أيام حكم سليمان .

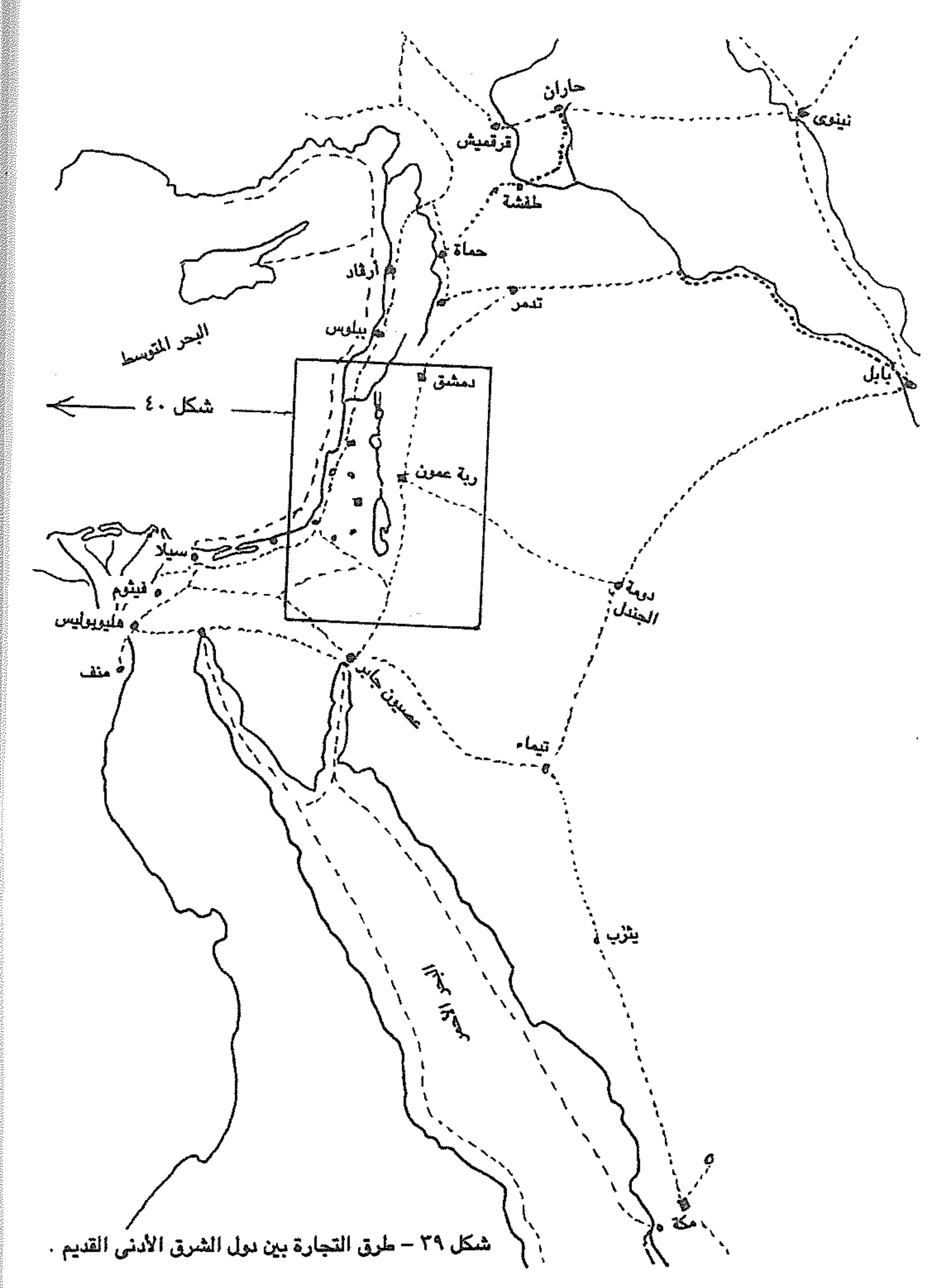
بينهما ينحدر من العليا بانحدار شديد نحو السفلى وهو أحد الطرق الموصلة من الساحل إلى وسط إسرائيل وعليه فإن مدينتى بيت حورون تعتبران خط متقدم للدفاع عن أورشليم ضد أى غزو من جهة الغرب. كما كان هذا الطريق مهما من ناحية أخرى. فقد كانت الأخشاب اللازمة للمنشآت فى أورشليم تنقل عبره. إذ تقطع الأخشاب من الغابات حول عكا ثم تنقل فى البحر إلى يافا. ثم بعد ذلك عن طريق جازر – بيت حورون إلى أورشليم.

وللسيطرة على الطرق التجارية فى الجنوب قوّى حصون «**بعلة بئر**» التى تقع ٣٠كم جنوب بئر سبع وبنى «**قلعة النقب**» على الطريق من بئر سبع إلى خليج العقبة. كما أنشأ مدينة جديدة فى صحراء أدوم هى «تمر» وهى «تامار» المذكورة فى التوراة. كما اهتم سليمان على وجه الخصوص بمدينة **عصيون جابر** على الطرف الشمالى لخليج العقبة. إذ هى فضلا عن كونها نقطة لمرور القوافل من الجزيرة العربية ومدين إلى فلسطين ومصر فهى مركز نشاطه البحرى ومقر أسطوله فى البحر الأحمر كما سيأتى فيما بعد. وأحكم السيطرة على الطريق السريع Highway شرق الأردن الممتد من عصيون جاء إلى عروعير – حشبون – ربة عمون – دمشق. وبنى مدينة فى الصحراء بين دمشق والعراق هى **تدمر** (پالميرا). وقد ثار نقاش كبير حول قول التوراة إن سليمان هو الذى بنى «تدمر» إذ يرى علماء التاريخ أنها مدينة قديمة جدا وهى تقع على بعد ٢٠٠كم شمال شرق دمشق. ولعلها كانت مجرد محطة للقوافل التى تقطع الصحراء الشاسعة بين سوريا والفرات فقام سليمان بمد نفوذه إليها ووضع بها حامية لتأمين طرق التجارة وجباية الرسوم على البضائع المارة بها فازدهرت المدينة وصارت واحدة من أجمل مدن العالم القديم. وهى الآن عبارة عن أطلال تمتد على مساحة ٢,٥×٣كم.

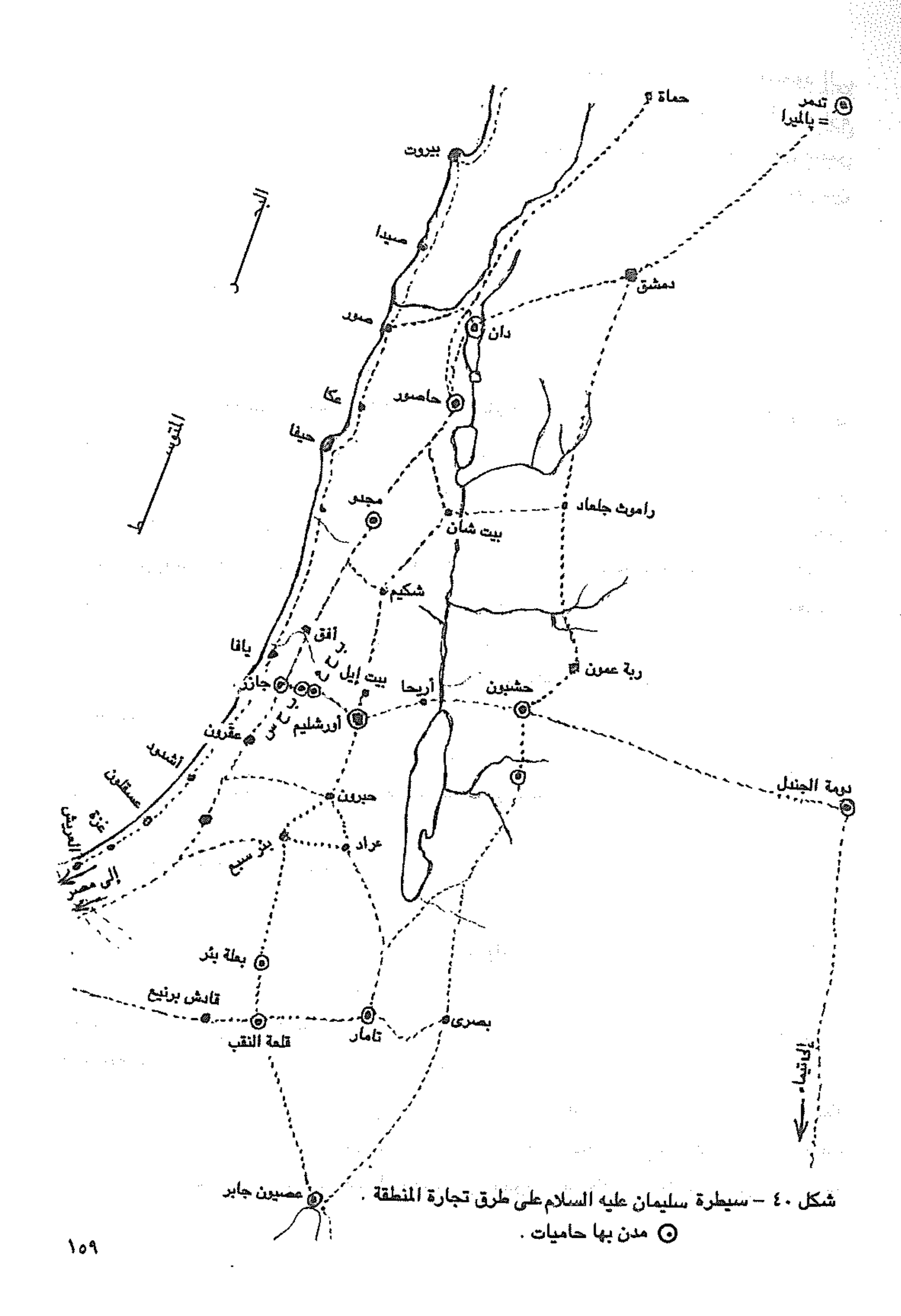
ووضع بكل هذه المحطات حاميات عسكرية ومخازن للحبوب وعربات وجيادًا كثيرة. وقد أثبتت الحفريات الحديثة أن عددا لا يقل عن ٥٠ قلعة قد بنيت فى عهد الملك سليمان. منها ما هو مربع أو على هيئة دائرة تبلغ أبعادها حوالى ٤٥×٤٥ مترا. وكانت تبنى بحوائط مزدوجة ولها بوابة يحرسها برجان. وبالقرب من القلعة بيوت كل منها مكون من ٤ غرف. وغرف خدمات تشمل مخازن للحبوب وخزانات مياه تحت الأرض واسطبل للخيل. ولاشك أن هذه البيوت كانت لإقامة عائلات الجنود الذين كانوا يقومون أيضا بزراعة منطقة حول الحصن تكفى لإعاشتهم.

لم تكن الحصون والحاميات هى وسيلة سليمان الوحيدة للسيطرة على الطرق التجارية بل إن علاقاته الحسنة مع الدول المجاورة من خلال مصاهراته مع ملوكها سهّلت له الأمر دون اللجوء إلى الحرب. وكمثال فإن علاقته المتميزة مع مصر من خلال زوجته المصرية مكّنته من السيطرة على طرق التجارة التى تربط مصر بالعراق وسوريا وبلاد العرب.

ولم تقتصر سيطرة سليمان على الطرق البرية بل بسط سلطانه على طرق التجارة فى



شكل ٣٩ - طرق التجارة بين دول الشرق الأدنى القديم .



شكل ٤٠ – سيطرة سليمان عليه السلام على طرق تجارة المنطقة .

⊙ مدن بها حاميات .

البحر الأحمر من عصيون جابر إلى الصومال واليمن وسبأ وبلاد شرق أفريقيا وسنعود إلى ذلك بالتفصيل فيما بعد (ص ١٦٥). وبهذا أصبحت مملكة سليمان وسيطا فى كل تجارة المنطقة. وتمثل هذا بوضوح فى استيراد الخيول من الجزيرة العربية والأناضول ومن مصر أيضا. وتصنيع المركبات الحربية لحسابه فى مصر. ثم يقوم هو ببيعها بخيولها إلى الحيثيين والأراميين وغيرهم. وكان يجنى من وراء ذلك أموالا طائلة.

ولع سليمان بالخيل

أشار القرآن الكريم إلى ولع سليمان بالخيل فى قوله تعالى :

«إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال إنى أحببت حُب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب. ردوها علىَّ. فطفق مسحًا بالسوق والأعناق» (٣١-٣٣-ص).

والصافن من الخيل الذى يرفع أحد رجليه - الأمامية أو الخلفية - ويقف على مقدم حافرها. والجياد جمع جواد للذكر والأنثى. وقالوا «**الصافنات الجياد**» وَصْفَيْنِ للخيل حال وقوفها وجريها. والخيل تُمدح بالسكون فى الموقف كما تمدح بالسرعة فى الجرى (تفسير الألوسى. جـ ٢٣. ص ١٩٠). وقالوا إنه استعرض الخيل - وكانت كثيرة - فلم تزل تُعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن صلاة العصر. وروى عن الطبرسى عن على كرم الله وجهه وقتادة والسدى أن سليمان عليه السلام انشغل عن الصلاة وندم. والمشهور أنه تكفيرا عن ذنبه عقرها ووهب لحمها للفقراء صدقة منه. فقد أحب الخيل وهى من الخير - حتى غربت الشمس وشُبِّه ذلك بتوارى المرأة بحجابها. فقال ردُّوا هذه الخيل ثانية وشرع يمسح السيف بسوقها أى كسف العراقيب حتى لا تجرى. وأعناقها كناية عن ذبحها. وعارض آخرون هذا التفسير إذ يجب حينئذ النص على المسح بالسيف وإلا كان قوله تعالى: «فأمسحوا برؤوسكم» (فى الوضوء) يُفهمم منها الضرب بالعنق!

ويرى ابن جرير (تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤) أن سليمان لم يكن يُعذِّب حيوانا بالعرقبة ويهلك مالاً بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها. إلا أن ابن كثير يستدرك ويقول إن الذى ذهب إليه ابن جرير فيه نظر لأنه قد يكون فى شرعهم جواز مثل هذا ولاسيما إذا كان غضبا لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة. وسنرى بعد قليل أنه لم يكن فى شرعهم صلاة عصر كما عندنا.

وفى تفسير قوله تعالى: «**رُدُّوها علىَّ...**» قيل كلام كثير. قالوا إنه خطاب موجه إلى الملائكة يطلب رد الشمس. وعارض آخرون ذلك لأن الله وحده هو القادر على رد الشمس فالخطاب موجه إلى الله سبحانه وتعالى بصيغة التعظيم. وردَّ آخرون بأن طلب رد الشمس بهذه الصيغة

لا يليق بنبى يطلب من ربه مثل هذا الطلب. ولو رجعت الشمس بعد غروبها لرآها الناس كلهم ولكان هذا الحدث قد سجَّلته الأخبار المتواردة عن السلف. كما أن رجوع ضمير «توارت» إلى الخيل هو الأصح لأن الخيل وهى الصافنات الجياد مذكورة بصريحها والشمس لم تُذكر. وعَوْد الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدَّر. أما الذين يقولون برد الشمس لسليمان فيرون أنه كردِّها ليشوع أثناء المعركة مع الملوك الخمسة الذين تحالفوا ضده (ص ٢٨) ومثل ردِّها لنبينا صلى الله عليه وسلم فى حديث العير ويوم الخندق. جاء فى الحديث الصحيح: لم تُحبس الشمس على أحد إلا ليوشع بن نون ومعنى الحديث لم تحبس لأحد من الأنبياء غيرى إلا ليوشع. وفى هذا نفى عن حبسها لسليمان. وحديث العير أنه لما أُسرِيَ برسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التى فى العير. قالوا متى يجىء. قال يوم الأربعاء فلما كان ذلك اليوم أشرقت قريش ينظرون وقد ولَّى النهار ولم يجىء. فدعا رسول الله عليه وسلم فزيد له فى النهار ساعة وحُبِسَت عليه الشمس. وقيل كان بركة فى الزمان. وكما يقول الصوفية «نشر الزمان» ولكن هذا الحديث اختلفوا فى صحته وقالوا موضوع.

أما يوم الخندق فقد روى عن أسماء بنت عميس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه ورأسه فى حجر على كرم الله وجهه. فلم يُصَلِّ العصر حتى غربت الشمس. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صلَّيت العصر ياعلى؟ قال لا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس. قالت أسماء. فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت ووقَعَت على الأرض وذلك بالصهباء فى خيبر. وهذا الحديث أيضا فى صحته خلاف. وقد وصفه كثيرون بأنه من الموضوعات. وقالوا متروك وقالوا حديث باطل ولا أصل له وضعيف. كما أن ما حدث يوم الخندق قد روى بطريق آخر لم يرد فيه ردُّ الشمس. فقد روى ابن كثير (تفسيره . جـ٤ . ص ٣٣) أن النبى صلى الله عليه وسلم شُغِل عن صلاة العصر بحفر الخندق حتى صلاها بعد الغروب وذلك ثابت فى الصحيحين. وعن جابر رضى الله عنه قال: جاء عمر رضى الله عنه يوم الخندق بعد ما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش ويقول يارسول الله والله ماكدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. والله ما صلَّيتُها. قال فقمنا إلى بطحان فتوضأ نبى الله صلى الله عليه وسلم للصلاة وتوضأنا لها فصلَّى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب.

من هذا نرى أن رد الشمس للنبى صلى الله عليه وسلَّم لم يثبت. والحديث الذى يفيد أنها رُدَّت ليوشع مشكوك فى صحته وقد كانوا يستشهدون بهما لإثبات ردِّها لسليمان. كما أن القول بأن «حتى توارث بالحجاب» تعنى غروب الشمس فهذا مالا دليل عليه. فإن القرآن الكريم دائما يُعبِّر عن غروب الشمس بلفظ غربت أو تغرب أو الغروب أو غروبهما كما فى الآيات التالية.

«وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال» . (١٧ – الكهف) .

«حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمأة». (٨٦ – الكهف) .

«وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب». (٣٩ – ق) .

«وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» . (١٣٠ – طه) .

وبناء عليه فليست الشمس هى المقصودة بقوله تعالى «حتى توارت بالحجاب».

أما تفسير «عن ذكر ربى» بأنها صلاة العصر فهذا أيضا مالا دليل عليه إذ أنه ربط بين الذكر وتوارت بالحجاب التى فسرّوها بأنها تعنى غروب الشمس وقد نفينا ذلك. كما أن سليمان عليه السلام كان يدين بالموسوية. والصلاة فى الشريعة اليهودية لم تكن صلاة محدودة أى تقام فى مواقيت واجبة كل يوم كما هى الصلاة عندنا – نحن المسلمين – بل كانت الصلاة فى اليهودية تقام حسب الأحوال والاحتياجات الشخصية أو اليومية. والصلاة عندهم نوعان (الأديان والمذاهب. عبد الرازق محمد أسود. ص ١٧٩):

أ – صلاة فردية أى شخصية يقوم بها الأفراد حسب ظروفهم واحتياجاتهم ولا علاقة لها بالطقوس والمواعيد والمواسم. مثل صلاة إبراهيم من أجل أهل سدوم. وصلاة يعقوب لخلاصه من عيسو. وصلاة موسى من أجل بنى إسرائيل. وهذا النوع من الصلاة يقام فى أى وقت وفى أى مكان.

ب – صلاة مشتركة أو عمومية وهى التى تقام باشتراك جملة أشخاص علنا وتكون غالبا فى أماكن مخصصة وفى مواعيد معلومة وحسب طقوس وقواعد مقرَّرة. ولم تفرض الصلاة الطقسية فى الشريعة اليهودية إلا بعد تدمير الهيكل والسبى. إذ أُبطِلت الذبائح فتقررت الصلاة اليومية لتحل محل الذبائح وهذه الصلوات اليومية ثلاث:

١ – صلاة الفجر وتسمى صلاة السَحَر ووقتها من الفجر إلى ارتفاع النهار.

٢ – صلاة نصف النهار أو القيلولة. ووقتها من انحراف الشمس عند نقطة الزوال إلى مابعد الغروب.

٣ – صلاة المساء ووقتها من غروب الشمس إلى الظلمة.

من هذا نرى أنه فى وقت سليمان لم تكن الصلاة اليومية قد فُرضت بعد ولا كان لها وقت محدد. فلا محل لتفسير «ردوها علىَّ» بأنه طلب لرد الشمس حتى يتمكن من صلاة العصر.

أما تفسير «عن ذكر ربى» بأنها الصلاة بالذات فهذا مالا دليل عليه أيضا. إذ أن ذكر الله قد يكون بالصلاة وقد يكون بغير الصلاة. وحتى الآية التى قد تُفِيد بأن ذكر الله هو الصلاة فى قوله تعالى: «إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله» (٩ – الجمعة) فإن

ذكر الله لا يقتصر على صلاة الجمعة. بل إن قراءة أو الاستماع إلى قراءة القرآن الكريم هو نوع من ذكر الله. والخطبة نوع من ذكر الله. والتسبيح ذكر لله. والتفكر فى آيات الله فى الكون هو ذكر لله. وهناك آيات كثيرة تُفرِّق بين ذكر الله والصلاة مثل قوله تعالى:

«رجال لا تلهيهم تجارة عن ذكر الله وإقام الصلاة». (٣٧ - النور).

«فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم». (١٠٣-النساء).

فهذه الآيات تفرِّق بين الصلاة وذكر الله وتبين أن ذكر الله أشمل وأعمُّ من الصلاة. فالصلاة هى الصلوات المفروضة بكيفيتها المعروفة تكبيرا وركوعا وسجودا. أما ذكر الله فيستحب فى كل وقت فإذا أكلت أو ابتدأت أى عمل قلت: باسم الله. وإذا انتهيت من طعامك قلت: الحمد لله. وإذا نمت قلت: باسمك ربى أضع جنبى وبك أرفعه. وعند استيقاظك تقول: الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا. وهكذا. ويكون ذلك مصداقا لقوله تعالى: **«الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم»** . (٢٤ - الكهف).

وإذا استشعر المرء نعمة من نعم الله عليه ذكر الله: **«فلولا إذ دخلت جنتك قلتَ ماشاء الله. لا قوة إلا بالله»** (٣٩ - الكهف). فإذا رأيت ابنك يكبر ويترعرع قلت ماشاء الله. وإذا نجح فى امتحاناته قلت: الحمد لله. وحتى بافتراض أن المقصود بذكر الله هو الصلاة. فإن تأخير الصلاة عن وقتها - بنسيان أو انشغال عنها - يمكن للمرء قضاءها حال تذكُّرِه لها دون كفارة بذبح مئات أو آلاف الخيل التى يُنتفع بها فى وقت السلم والحرب.

وما نراه هو - وفى بساطة - أن سليمان عليه السلام - كان محبا للخيل وكان فى يوم يستعرض قطعانها - ولعلها كانت من سلالة متميزة ليست متوافرة عند أحد غيره. وأعجب بها أيما إعجاب فنسى أن يقول: ماشاء الله أو يقول الحمد لله. وهذا هو ذكر الله الذى نسيه **«إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى»**. وكانت الخيل قد بعدت فى سيرها **«حتى توارت بالحجاب»** توارت فى حجاب من مثار التراب من حوافرها. وتذكر سليمان أنه لم يحمد الله على هذه النعمة ولم يذكره. وخاف أن يكون هذا النسيان سببا لحرمانه من هذه النعمة فطلب من الحراس أن يردوا الخيل فردُّوها فطفق يمسح بيده على سيقانها وأعناقها وهو يذكر الله ولعله كان يقول: ماشاء الله. لا قوة إلا بالله. الحمد لله. ليبارك الله فيها.

يرى الأستاذ أحمد بهجت (أنبياء الله . ص ٢٧٦) أن سليمان استعرض الخيل عصرا حتى كادت صلاة العصر أن تفوت فسجد سليمان لله وصلَّى ثم أمر أن يردُّا إليه الخيل فراح يمسح على أعناقها وأرجلها بيده وهو يعتذر لله من أن الإعداد للجهاد والحرب والغزو كاد يُفوِّت عليه وقت الصلاة. ومن يومها استغنى سليمان عن الخيل فى جيشه. فعوَّضه الله عنها بالريح التى تحمل جنوده حيث يشاء! ولو كانت الريح تحمل الجنود إلى حيث يشاء لكانت

معجزة كبرى يراها الناس كلهم ويراها العدو. جنودا تحملهم الريح ويراهم يسقطون أمامه وينتظمون فى صفوف للحرب ولجاء ذكر هذه المعجزة فى أخبار الأولين. وأخيرا فإن القرآن الكريم قد أوضح مهمة الريح فى قوله تعالى: «**فسخَّرنا له الريح تجرى بأمره رُخاء حيث أصاب**» (٣٦ – ص). والرُخاء بضم الراء الريح اللينة. حيث أصاب أى حيث أراد وسنعود إلى تسخير الريح بتفصيل أكثر فيما بعد (ص ١٩٤).

ونعود إلى الخيل. تقول التوراة (ملوك أول ١٠:٢٦) وجمع سليمان مراكب وفرسانا فكان له ١٤٠٠ مركبة و ١٢,٠٠٠ فارس. فأقامهم فى مدن المراكب (مدن خاصة بالمركبات والخيل وهى الحصون والحاميات التى سبق ذكرها) ومع الملك فى أورشليم. وكان مخرج الخيل التى لسليمان من مصر. وكانت المركبة تصعد وتخرج من مصر بـ ٦٠٠ شاقل من الفضة والفرس بـ ١٥٠ ثم يبيعها هكذا لجميع ملوك الحيثيين وملوك أرام.

ذلك أن المصريين كانوا قد أدركوا أن سبب انتصار الهكسوس عليهم هو ماكان لديهم من عجلات حربيه تجرها الخيل. وبعد طرد الهكسوس أولوا الخيل عناية خاصة واستولدوا منها سلالات متميزة وبرعوا فى صناعة المركبات الحديدية السريعة ذات العجلتين للصيد والحرب وكانوا يستوردون لها الأخشاب المتينة اللازمة لصنع بعض أجزائها – مثل المقاعد – من سوريا وفينيقيا. ولعل مما سهل لسليمان أن يكون وسيطا فى تجارة الخيول والمركبات هو علاقته الوطيدة بمصر عن طريق زوجته المصرية. وكان المصدر الثانى للخيول هو دويلة سيلسيا فى جنوب آسيا الصغرى بين جبال طوروس والبحر المتوسط وتشتهر أيضا بخيولها.

وأقام سليمان حظائر للخيل فى جهات متعددة من مملكته: فى بيت شان وحاصور ومجدُّو وتعنك وأورشليم وغيرها من المدن التى بها الحاميات المسيطرة على طرق التجارة. وقد كشفت بعثات التنقيب الأمريكية فى مجدو عن حظائر ترجع إلى عهد سليمان. ووجدوا بقايا من إسطبلات الخيول والتى كانت تنتظم حول فناء دائرى مبلَّط بملاط من الحجر الجيرى وحوله ممر عرضه ١٠ أقدام وقد رصف بصخور خشنة ليحول دون انزلاق الخيل. وخارج الممر مرابط فسيحة عرض كل منها ١٠ أقدام. ووجدوا بعض معالف طعام الخيول ومعدات السقى. وخارج الحظائر توجد مساحات واسعة للمركبات. وقدِّر أن كل إسطبل كان يحوى ٤٥٠ حصانا ولكل حظيرة ١٥٠ عربة. فإذا افترضنا عرض المربط ١,٥ مترا لكى يتحرَّك فيه الحصان بحريَّة كان محيط الفناء الدائرى ١١٥ مترا وبذلك تبلغ مساحة الإسطبل الواحد بفنائه الخارجى الذى توضع فيه المركبات – حوالى ١٣ فدانا وهذا يثير الدهشة من اتساع هذه الإسطبلات والعناية غير العادية التى بذلت بوفرة فى المبانى والخدمات وهو ما يدل على أن الخيل فى عهد سليمان كانت تلقى أحسن رعاية. الأمر الذى استحق أن يُسجَّل فى القرآن الكريم.

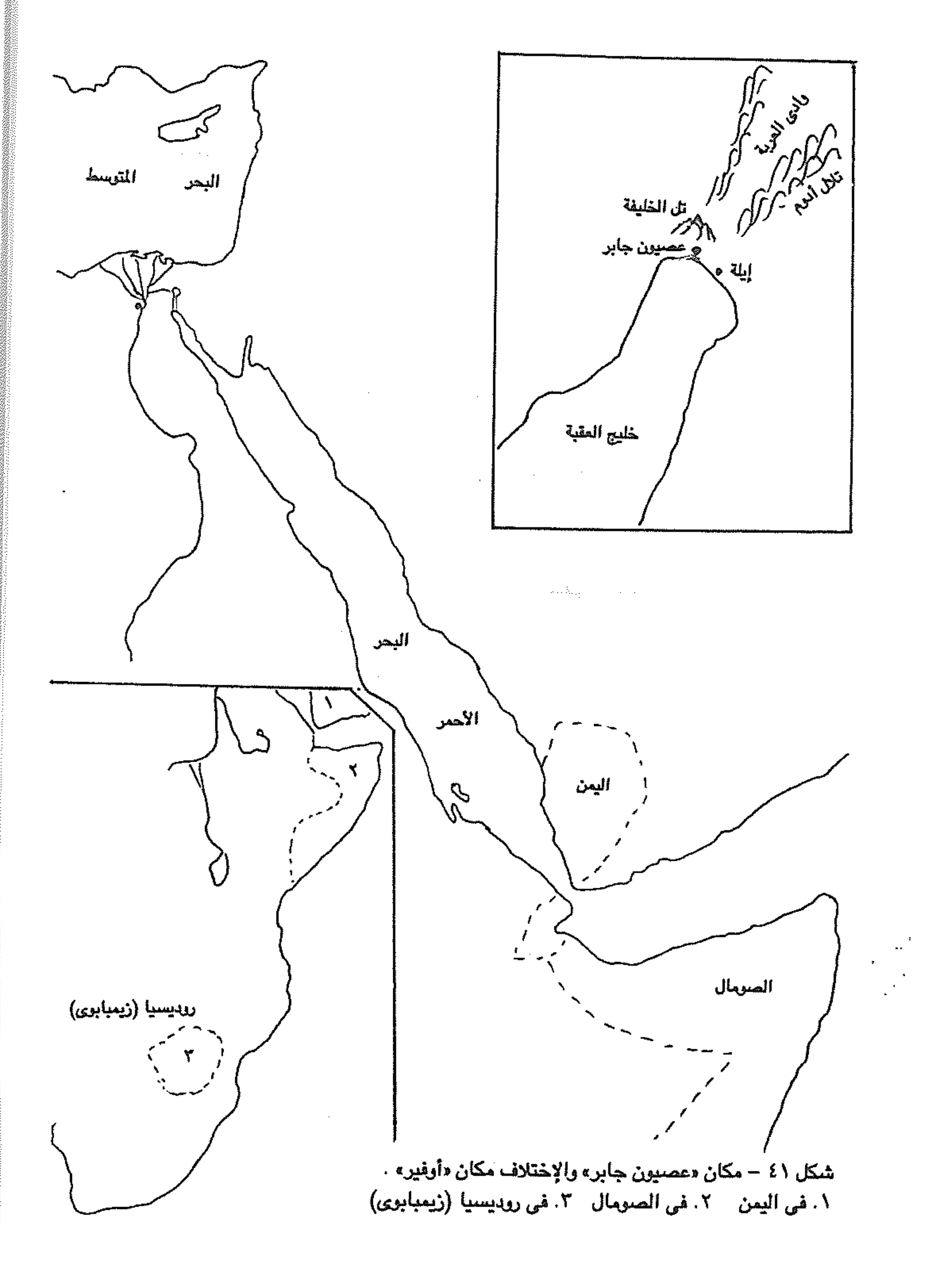
٤ - النشاط البحرى

بدأ سليمان عليه السلام بعد ذلك فى الاتجاه نحو البحر الأحمر كطريق للتجارة مع الدول الواقعة على شواطئه الجنوبية ودول أفريقيا (انظر شكل ٣٩). وعلى الرغم من أن مملكة إسرائيل كان لها جزء مطل على البحر المتوسط - من حيفا إلى شمال أشدود - بين فينيقيا وإمارة عكا فى الشمال والساحل الفلسطينى فى الجنوب - إلا أن سليمان عليه السلام لم يفكر فى أى نشاط بحرى فى البحر المتوسط. ولعله أراد أن يتجنّب حدوث منافسة بينه وبين حيرام ملك صور قد ينتج عنها إفساد العلاقات الطيبة بينهما. كما أن سواحل البحر المتوسط لم تكن بها مناطق «بكر» تنعم بالخيرات. ولاشك أن سليمان سمع من زوجته المصرية عن الرحلات التى كانت تقوم بها سفن الملكة حتشبسوت إلى بلاد پونت وتعود محملة بالخير الوفير. ولصنع الأسطول اللازم كانت الأخشاب تُقطع من الغابات فى صور ويرسلها بحرا صديقه حيرام إلى يافا. ثم تنقل من يافا برا إلى عصيون جابر بجوار - إيلة على الطرف الشمالى لخليج العقبة. وقد كشفت بعثات التنقيب فى تل الخليفة (مكان عصيون جابر) عن مسامير كبيرة من الحديد أو النحاس الممزوج بالحديد وقطع من الحبال الغليظة لضم الأخشاب وكتل من الصمغ والقار للصق الخشب وطلاء السفن. وقام رجال حيرام المتمرّسين فى الملاحة بتدريب فريق من بنى إسرائيل على الأعمال الملاحية.

وتقول التوراة (ملوك أول ٩:٢٦) «وعمل الملك سليمان سفنا فى عصيون جابر التى بجانب إيلة على شاطىء بحرسوف فى أرض أدوم. فأرسل حيرام عبيده النواتى العارفين بالبحر مع عبيد سليمان وأتوا إلى «أوفير» وأخذوا من هناك ذهبا». ويفهم من هذا أن ربابنة السفن كانوا من الصوريين وهم الذين كانوا يقودون السفن بسبب خبرتهم بالبحار وتحت إمرتهم البحارة من بنى إسرائيل. وتعود السفن بالغنائم كلها لسليمان.

وقد اختلف العلماء فى تحديد مكان «أوفير» (شكل ٤١). ففى عام ١٨٧١ قام «كارل ماوخ» الألمانى بالتنقيب فى روديسيا (زيمبابوى) ووجد منطقة كبيرة بها بقايا مبان. وبعد ١٥ عاما عثر الباحث ستاينبرج من جنوب أفريقيا فى نفس المنطقة على منشآت تعدينية. ورجّح أنها عملت لتقديم المعادن اللازمة لأورشليم والهيكل. وأثبت أن الذهب والفضة كانا يستخرجان من هذه المنطقة. وفى عام ١٩١٠ قام الألمانى كارل پيتر بتصوير نقوش ورسومات هناك يرى المتخصصون أن فيها ملامح فينيقية. ويرى دكتور أولبرايت أن «أوفير» هى حاليا الصومال (الكتاب المقدس كتاريخ. وارنر كيللر. ص ٢١٢).

وهناك آخرون يرون أن «أوفير» تقع على الجزء الجنوبى من الساحل الغربى لجزيرة العرب (جواد على. جـ ١ . ص ٦٣٩). وقد ذكر الهمذانى أن باليمامة موضعا اسمه «الحفير» وقال



شكل ٤١ – مكان «عصيون جابر» والإختلاف مكان «أوفير» .
١ . فى اليمن ٢ . فى الصومال ٣ . فى روديسيا (زيمبابوى)

إن به معدن الذهب بغزارة وهو ما ينطبق على وصف «أوفير» إلى حد كبير. وهناك من يرى أن «أوفير» معناها «الأرض الحمراء» أى الحمراء بلون الذهب وأنها ليست علما على بلد معيَّن. وهو وصف ينطبق على بلاد عدة كاليمن وشرق أفريقيا (محمد بيومى مهران. دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم. جـ ٨. ص ٧٨٦). ويرى السيد يعقوب بكر أن اليمن الحالية هى «أوفير» وكانت موطنا للذهب وكان يستخرج خالصا نقيا لا يُعالج بالنار لتنقيته من الشوائب الغريبة ولهذا سماه الاغريق Apyron التى أُخذ منها لفظ Ophir «أوفير» (مونتجمرى. بلاد العرب والكتاب المقدس. ص ٣٩).

وبالإضافة إلى الذهب كان أسطول سليمان يعود محملا بالفضة والعاج والقرود والطواويس من شرق أفريقيا.

٥ - التعدين

احتاج سليمان عليه السلام - للمنشآت الكثيرة التى قام بها فى أورشليم وغيرها من المدن ولأسطوله - كميات كبيرة من المعادن من نحاس وحديد لصنع المسامير ومصاريع الأبواب وتجليد أبواب المدن الكبيرة ولصنع المركبات سواء الحربية أو لنقل البضائع. لهذا كله نال التعدين عناية خاصة من سليمان عليه السلام. وكان اختيار «عصيون جابر» على الطرف الشمالى لخليج العقبة اختيارا موفَّقا. إذ هو يقع على مقربة من أرض أدوم التى وصفتها التوراة بقولها: «أرض حجارتها حديد وفى جبالها تحفر نحاسا» (تثنية ٨:٩) . ويعتقد أنها كانت مكان تل الخليفة الموجود على بعد ٥٠٠ قدم من ساحل البحر غرب ميناء إيلات الإسرائيلى (شكل ٤١).

وقد قامت بعثتان أمريكيتان باستكشاف المنطقة. الأولى فى عام ١٩٣٧ برئاسة نلسون جلوك ووجدت البعثة أن الصخور فى هذه المنطقة غنية بالحديد والنحاس. وفى كل مكان على طول وادى العربة وُجدت ممرات محفورة فى الصخر هى كل ما تبقى من مناجم مهجورة. كما عُثِر على قوالب طوب هى بقايا حوائط مبانى هذه المدينة القديمة. وفى كل مكان فى حدود المدينة أو بقربها وجدوا اللون الأخضر الذى يدل على أكاسيد النحاس والخبث الذى يطفو على سطح النحاس المنصهر. وقد ثبت أن هذه البقايا ترجع إلى عام ١٠٠٠ ق.م. أى حين كان سليمان يحكم إسرائيل. وفى عام ١٩٤٠ قامت البعثة الثانية باستكشافاتها وأكَّدت ما وجدته البعثة الأولى وزادت بأن وجدت قوالب لصب النحاس المنصهر. كما وُجد بناء ثبت أنه كان الفرن الرئيسى لصهر النحاس. إذ وُجِد به صفَّان من الفتحات هى بلا شك فتحات تهوية ومداخن. لا تقل فى إتقانها وتوزيع أماكنها عن أى تصميم حديث لأفران صهر المعادن . إذ أن

مداخل الهواء والفتحات المقابلة تقع على محور شمالى - جنوبى وهو اتجاه الريح السائدة فى وادى العربة وهو ما يؤدى عمل الكير المستعمل حاليا لنفخ الهواء فى أفران صهر المعادن. وهذا يدل على البراعة فى اختيار هذا المكان بالذات لإقامة أفران صهر المعادن إذ هو يقع فى أعالى الجبل وهو ما يهيىء الاستفادة القصوى من سرعة الرياح فى إذكاء النار اللازمة للصهر. ويرى بعض الباحثين أن الفينيقيين هم الذين علّموا أتباع سليمان كيفية تنقية النحاس إلى هذه الدرجة بالغة النقاوة وإن كنا نرى أن هذا النحاس النقى كان هبة من الله سبحانه وتعالى لسليمان عليه السلام كما جاء فى القرآن الكريم:

«وأسلنا له عين القِطر» . (١٢ - سبأ)

والقطر هو النحاس المذاب. وقال الألوسى (تفسيره . جـ ٢٣ . ص ١١٧): كما ألان الله الحديد لداود. كذلك أذاب النحاس لسليمان فكان النحاس النقى المذاب يخرج من العين كما يسيل الماء. إذ أنه لإسالة المعادن يلزم التسخين فكانت إسالة النحاس لسليمان معجزة. وقال آخرون إن الله أسالها له ثلاثة أيام (عكرمة والسدى) أو ثلاثة أيام بلياليهن (مجاهد). وقالوا كان النحاس يسيل ثلاثة أيام كل شهر (رواية أخرى عن مجاهد). وقال بعضهم إن نسبة الإسالة إلى العين مجازية كما فى قولنا «جرى النهر» أى أنهم يرون أنه كان يلزم تسخين النحاس ليصير سائلا. ولكن اللفظ القرآنى يفيد غير هذا إذ أن نسبه الإسالة إلى الله سبحانه وتعالى «وأسلنا» تجعل الإسالة حقيقة مؤكدة. كما أن إسالة المعادن يلزم لها أن تصل إلى درجة معينة من الحرارة فهذه أيضا سنة من سنن الكون «ولن تجد لسنة الله تحويلا». ومن هنا كانت كثرة التفاسير. **وما نراه** هو أن المنطقة الجنوبية من أرض سعير هى منطقة جبال بركانية. ومعروف أنه قبل ثورات البراكين تسيل الحمم المنصهرة من شقوق فى الأرض ويتصاعد الدخان والغازات وبخار الماء. وقد تطول هذه الفترة لعشرات السنين قبل أن ينفجر البركان. وقد لا ينفجر ويخمد. وهكذا قيَّض الله لسليمان عليه السلام عينا يخرج منها النحاس المنصهر سائلا. وقد يرى البعض أن الله قادر على إسالة النحاس دون الحاجة إلى منطقة براكين ودون الحاجة إلى سخونة الحِمَم. وهذا حق ولكنها سنة الله فى الأسباب والمسببات ولن تجد لسنة الله تبديلا. وبهذا تكون «عين القطر» عبارة عن فوهة بركان صغير يسيل منها النحاس السائل. وبالطبع كانت المنطقة كلها تتصاعد منها - من شقوق فى الأرض - الأبخرة الساخنة وغازات الكبريت والميثان الخانقة. وما كان للبشر أن يستطيعوا العمل فى مثل هذه البيئة. لذلك كان الجان - بطبيعتهم النارية - هم أصلح من يعمل فى هذا الجو. ولذلك كان تسخير الجن من تمام المعجزة. ولقد جاء ذكر هذا التسخير فى القرآن الكريم مباشرة بعد ذكر إسالة عين القطر.

«وأسلنا له عين القِطر. ومن الجن مَن يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير» (١٢ - سبأ).

تسخير الجـن

تشير الآية السابقة إلى أن الله سبحانه وتعالى سخَّر الجن لسليمان وقيل «من الجن» للتبعيض أى سخَّر الله بعضا من الجن يعمل له بإذن ربه. ومن يَحِدْ أو يتوانى عما أمره الله من إطاعة سليمان يذيقه الله من عذاب النار فى الآخرة كما قال أغلب المفسِّرين وقالوا تعذيب فى الدنيا أيضا. والرد المشهور على كيف تحرق النار الجن وهم مخلوقون من نار. هو أن الإنسان مخلوق من طين ومع ذلك يؤله أن يُضرب بقالب من طين!

«يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات» . (١٣ - سبأ).

وهكذا سخر الله الجن يعملون لسليمان ما يشاء من أثاث لازم لبيت الرب والهيكل الذى يبنيه. ومحاريب جمع محراب. وقيل كانت أماكن العبادة فى أيامهم تسمى محاريب.

«فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبِّحوا بكرة وعشيا» . (١١ - مريم).

«كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا» . (٣٧ - آل عمران).

«فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب» . (٣٩ - آ عمران).

«وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوَّروا المحراب» . (٢١ - ص).

وقيل سُمِّى محرابا لأنه محل محاربة الشيطان. أما المحراب بمفهومنا الحالى فهو مُقام الإمام من المسجد وهو ما أُحدِثَ فى المساجد ولم يكن موجوداً من قبل. وقد كره الفقهاء الوقوف فى داخله لذلك نرى الأئمة دائما يتأخرون عن المحراب ذاته وأصبح المحراب الآن فى المساجد يُتَّخذ كبيان لاتجاه القبلة.

كذلك كان الجن يعملون لسليمان ما يشاء من تماثيل. ولم تكن محظورة فى شريعتهم وقد سبق أن ذكرنا (الجزء الرابع. ص ١٠١٤) أن تابوت العهد كان فوق غطائه تمثالان لَملكين. «وجفان» جمع جفنة وهى ما يوضع فيه الطعام. «والصحيفة» هى ما يوضع فيه طعام لشخص واحد. يليها فى الكبر «المئكلة» وهى ما تشبع الاثنين أو الثلاثة. يليها «الصحفة» وهى ما يشبع الخمسة ثم «القصعة» وهى ما يشبع العشرة ثم «الجفنة». وكانت سعة جفان سليمان عليه السلام تشبه الجابية «وجفان كالجواب» والجابية هى الحوض الذى يُجبى فيه الماء للإبل. قال البعض بأنه كان يجلس إلى الواحدة ألف رجل! ولا شك أن فى هذا مبالغة كبيرة. إذ لو افترضنا أن كل ثلاثة أشخاص يشغلون لمجلسهم مترا لكان محيط الجفنة ٣٣٣ مترا ولكان نصف قطر الجفنة الواحدة هو ٥٥ مترا. ويستحيل الوصول إلى الطعام الموجود بداخلها لأبعد من متر. كما يستحيل ملؤها بالطعام إلاَّ أن يغوص العمال بأرجلهم فى الجفنة ذاتها. لذلك نرى أن الجفنة الواحدة ماكان ليزيد نصف قطرها عن متر فيكون محيطها ٦,٣٠ مترا. وهو

يكفى عشرين شخصا ليجلسوا حولها. كذلك كان الجان يعملون قدورا أكبر لطبخ الطعام. وهذه كانت ثابتة على المواقد والتنانير ولذا وُصِفت بأنها «قدور راسيات».

هنا قد يثور السؤال: كيف كانت هذه الأشياء التى يعملها الجان تأتى إلى الناس؟ فالجان فى الحالة التى خلقهم الله عليها لا تراهم أعين البشر. فهل كان الناس يرون النحاس يتشكل أمامهم فى تماثيل وجفان وقدور بدون أن يروا من يقوم بتشكيله؟ أى أنهم يرون النحاس أو غيره من المعادن وكأنه يتشكَّل من نفسه! ما نظن أن أمرا كهذا كان يحدث إذ يكون أمرا عجيبا جديرا بالذكر فى كتب وروايات الأولين. وما نراه هو أن الجان لابد وأنهم قد تشكلوا فى صورة بشرية. وقد مرَّ بنا أن الملائكة - رسل الله - المكلَّفون بإهلاك قوم لوط - لما قدِموا على إبراهيم عليه السلام تشكلوا فى صورة بشرية (الجزء الثانى ص ٣٢١).

وقياسا على ذلك فلابد أن الجان تشكلوا أيضا فى صورة بشرية ولكنها تتحمل الظروف القاسية حول عين القِطر من حرارة شديدة وأبخرة خانقة. ويصنعون الجفان الكبيرة التى لابد كانت من الثقل بحيث يعجز البشر عن حملها. وظن بنو إسرائيل أن هؤلاء العمال عبيد من الشعوب التى قهروها. تقول التوراة (ملوك أول ٩:٢٠): «جميع الشعوب الباقين من الأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. الذين ليسوا من بنى إسرائيل. أبناؤهم الذين بقوا من بعدهم فى الأرض. الذين لم يقدر بنو إسرائيل أن يُحرِّموهم جعل عليهم سليمان تسخير عبيد إلى هذا اليوم. وأما بنو إسرائيل فلم يجعل سليمان منهم عبيدا». وفى رأينا أن هذا هو السبب فى أن التوراة لم تذكر شيئا عن تسخير الجن لسليمان. ومما يُؤيد أن هؤلاء العبيد المسخرِّين فى أعمال التعدين كانوا فى حقيقتهم من الجن أن هذه المنطقة لم يكن بها عيون ماء إطلاقا. ولو كانوا بشرا للزم لهم كميات هائلة من المياه للشرب. كما أن البعثات التى نقَّبت فى هذه المنطقة لم تعثر على أى هيكل عظمى بشرى مع أن المتوقع لعمال من البشر يعملون فى هذه الظروف القاسية أن يتساقط منهم المئات بل الآلاف أمواتا. مع أن بعثات التنقيب قد وجدت آثارا كثيرة مثل الجفان والقدور الفخارية التى كان يصهر فيها النحاس أو التى كان يجمع فيها النحاس الذى يسيل من «عين القِطر» وكثير منها تبلغ سعته ١٤ قدما مكعبا أى ٣٧٨ لترا وهذا يعنى أن الجفنة قطرها ١,٥ - ٢ مترا. وقد سمَّى الباحث نلسون منطقة عصيون جابر بأنها كانت «بتسبرج» إسرائيل القديمة!

ثراء الملك سليمان

يُضرب المثل بسليمان فى ثرائه وكنوزه. وتقول التوراة (ملوك أول ١٠-١٤): «وكان وزن الذهب الذى أتى سليمان فى سنة واحدة ٦٦٦ وزنة ذهب». ولما كانت وزنة الذهب تساوى ٣٠ منًّا والمن من الذهب ١٠٠ شاقلا والشاقل ٢٠ جبرة أى ١١,٤٢٤ جراما (قاموس الكتاب

المقدس، ص ١٠٢٤). فتكون وزنة الذهب تساوى ٣٤,٢٧٢ كيلو جراما أى أن ال ٦٦٦ وزنة ذهب تساوى ٢٣ ألف كيلو جراما من الذهب!! وتستمر التوراة قائلة: ماعدا الذهب عند التجار وولاة الأرض. وعمل الملك سليمان ٢٠٠ ترس من ذهب مطرَّق. خصٌ الترس الواحد ٦٠٠ شاقل من الذهب و ٣٠٠ مِجَنّ من ذهب مطرَّق خصٌ المجن ٣ أمناء من الذهب (أى ٣٠٠ شاقل). والمجن هو الترس الكبير. والتُّرس هو ما جرى الناس على تسميته بالدروع فى حين أن الدروع غطاء واقى تُلبَس على الجسم ويغطى الصدر والبطن والظهر ويتألف من جزءين موصولين عند الجنب. أما الترس فهو ما يحمله المحارب بيده اليسرى ليتقى بها الضربات وكان يصنع من الخشب وكثيرا ماكان يغطى بجلد مغموس فى الزيت حتى لا يتشقق. وكان المحارب يحمل الترس بحزام جلدى على ظهره فإذا جاءت المعركة نزعه ليمسكه بيده اليسرى بإدخال اليد تحت سيرين من الجلد على مؤخر الترس وقبض الأصابع على سير صغير عند حافته. أما المجن – وهو الترس الكبير – فكثيرا ماكان يحمله رجل خاص يرافق المحارب (قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٧٧) ووضع الملك التروس والدروع فى قصره المسمى «بيت وعر لبنان» وسُمِّى كذلك لأنه استخدم فى بنائه كميات هائلة من خشب الأز المجلوب من لبنان. وعمل الملك كرسيا عظيما من عاج وغشاه بذهب إبريز وللكرسى ٦ درجات. وتستمر التوراة فى وصف الكرسى فتقول: «للكرسى رأس مستدير من وراء. ويدان من هنا ومن هناك على مكان الجلوس. وأسدان واقفان بجانب اليدين و١٢ أسداً واقفة هناك على الدرجات الست من هنا ومن هناك لم يعمل مثله فى جميع الممالك. وجميع آنية شرب الملك من ذهب وجميع آنية بيت وعر لبنان من ذهب خالص لا فضة. هى لم تُحسب شيئا فى أيام الملك سليمان لأنه كان للملك فى البحر سفن مع سفن حيرام. فتعاظم الملك سليمان على كل ملوك الأرض فى الغنى والحكمة. وكانت كل الأرض ملتمسة وجه سليمان لتسمع حكمته التى جعلها الله فى قلبه. وكانوا يأتون كل واحد بآنية فضية وآنية ذهب وحُلل وسلاح وأطياب وخيل وبغال سنة فسنة».

وكدليل على عِظَم ثرائه نذكر أيضا ما قالته التوراة (ملوك أول ١٠:٢٧): «وجعل الملك الفضة فى أورشليم مثل الحجارة. وجعل الأرز مثل الجميز الذى فى السهل فى الكثرة» (خشب الأرز هو أرقى أنواع الخشب لمتانته واستواء فروعه فى حين أن خشب الجميز هو أرخص أنواع الخشب). وهناك عشرات القصص التى نُسِجت حول ثراء الملك سليمان يؤيدها ما روى من بذخ شديد فى بناء وتأثيث الهيكل وتأثيث قصور الملك وقصور زوجاته وحريمه. وقد أدى هذا البذخ الشديد إلى استهلاك معظم هذه الثروة. الأمر الذى ألجأ سليمان لأخذ خشب من صور لم يدفع ثمنه كما استدان ١٢٠ وزنه ذهب من حيرام ملكها واضطر – لتسديد هذا الدين – أن يتنازل له عن ٢٠ مدينة فى الجليل. تقول التوراة (ملوك أول ٩:١١): «وكان حيرام ملك صور قد ساعد سليمان بخشب أرز وخشب سرو وذهب حسب كل مسرَّته. أعطى حينئذ الملك سليمان حيرام ٢٠ مدينة فى أرض الجليل. فخرج حيرام من صور ليرى المدن التى

أعطاها إياه سليمان فلم تحسُن فى عينيه. فقال ماهذه المدن التى أعطيتنى يا أخى ودعاها أرض كابول إلى هذا اليوم وأرسل حيرام للملك ١٢٠ وزنة ذهب».

ولما أراد سليمان الحصول على كميات أكثر من الخشب اضطر إلى إرسال رجال من طرفه لقطع الأخشاب من غابات الأرز فى لبنان فلجأ إلى تسخير رجال من بنى إسرائيل (ملوك أول ٥ : ١٣) «وسخَّر الملك سليمان من جميع بنى إسرائيل وكان السُّخر ٣٠,٠٠٠ رجل فأرسل إلى لبنان ١٠,٠٠٠ فى الشهر بالنوبة. يكونون شهرا فى لبنان وشهرين فى بيوتهم. وكان أدونيرام على التسخير». وأحيانا تكتب أدورام (٢ صموئيل ٢٠:٢٤) أو هدورام (٢ أخبار ١٠:١٨) وقد أقامه سليمان على الجزية أيضا طوال مدة حكمه. واستمر إلى عصر رحبعام ابنه (قاموس الكتاب المقدس. ص ٤١). وكان لسليمان ٧٠,٠٠٠ يحملون أحمالاً و ٨٠,٠٠٠ يقطعون فى الجبل. بالإضافة إلى رؤساء العمال ٣٣٠٠ متسلطين على الشعب العامل. وأمر الملك أن يقطعوا قطعا كبيرة من الحجارة مربعة الشكل لأساس البيت ونحتها بنَّاؤو سليمان بإشراف من بنائى حيرام. وهيَّأوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت بالإضافة إلى الحجارة والأخشاب التى كان داود عليه السلام قد هيأها قبل وفاته.

هيكل سليمان

أورشليم :

قبل الدخول فى تفاصيل بناء بيت الرب والهيكل فى أورشليم نستكمل ما بدأناه فى صفحة ١٢٠ عن هذه المدينة. فقد ذكرنا أن اسمها الأصلى كان يبوس نسبة إلى الجد الأكبر لقبيلة اليبوسيين الذين كانوا يسكنون المدينة. وهو من نسل كنعان بن حام بن نوح. إلا أن علماء اللغويات يرجعون الاسم إلى أصل سامى قديم ويرجِّحون أن الأموريين هم الذين بنوها وسموها على اسم إلههم «شالم» وسُمِّيت «يوروشالم» أى «أسسها الإله شالم». وكانت الكتابات المصرية القديمة فى القرن التاسع عشر ق.م. تسميِّها «يوروساليموم» أما خطابات تل العمارنة فى القرن الرابع عشر ق.م. فتكتبها «يوروسالم» ولكن المقطع الثانى من الإسم ارتبط فى الفكر اليهودى بكلمة «شالوم» وهى تعنى السلام وعليه فمعنى «أورشليم» هو «مدينة السلام». وسماها العرب «بيت المقدس» أو اختصاراً «القدس».

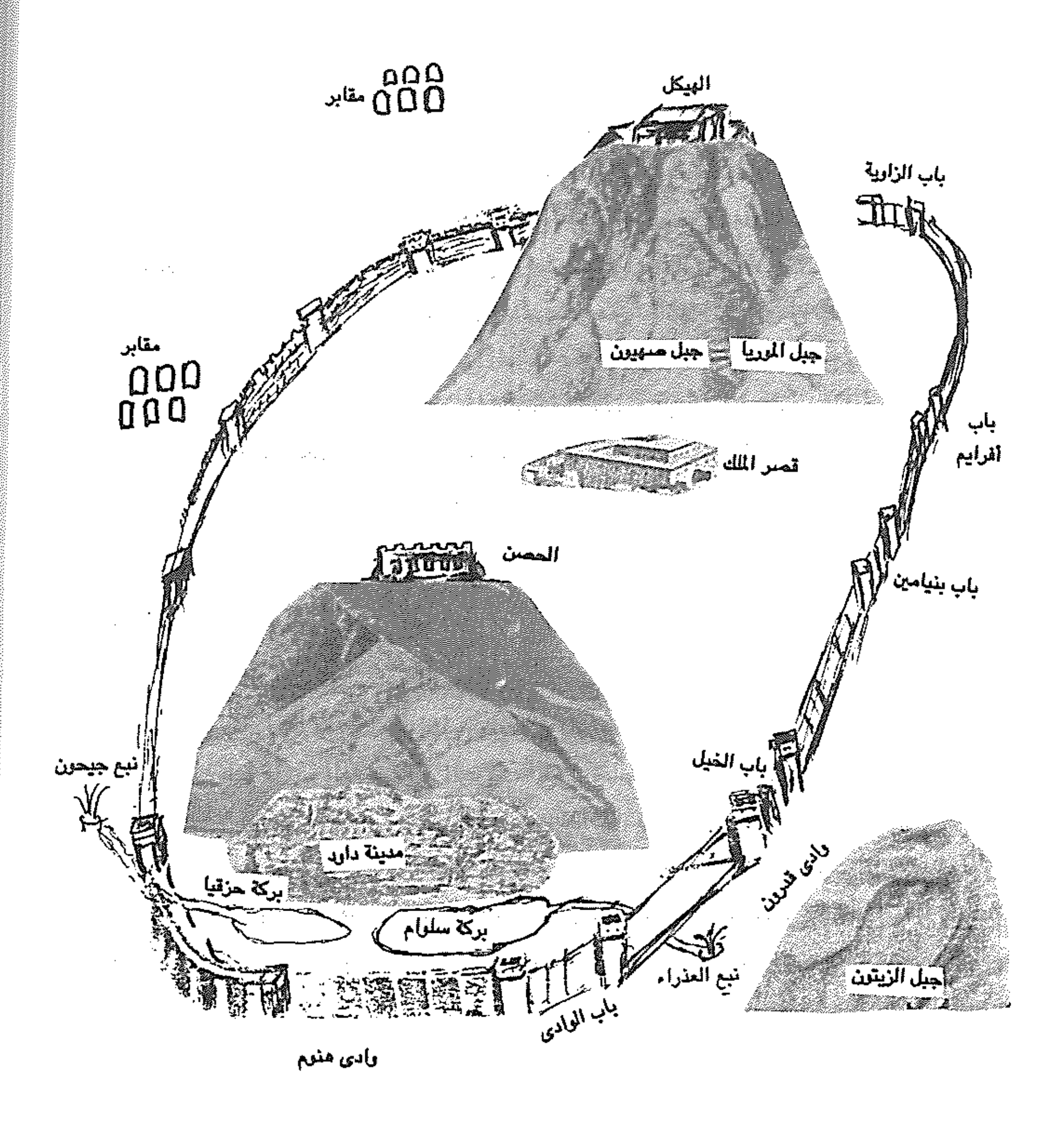
وتقع أورشليم ٢٥كم غربى الطرف الشمالى للبحر الميت وحوالى ٥٥كم شرقى ساحل البحر المتوسط. وهى تقع على هضبة غير مستوية يتراوح ارتفاعها بين ٧١٠ و ٨٢٥ مترا فوق سطح البحر وجوها قارى صحراوى إلى حد كبير فالحرارة فى الصيف قد تتجاوز ٣٠ درجة مئوية وقد تنزل فى الشتاء إلى – ٥ درجة ومطرها شتوى متوسط وليس بها أنهار إنما تحيط بها

عيون كثيرة تتفاوت فى غزارة مياهها وصلاحيتها للشرب. وتندفع المياه من بعضها بغزارة عند نزول الأمطار فتكون جداول مؤقتة. وأشهر هذه العيون هو «نبع العذراء» الذى يسيل ماؤه فى قناة ملتوية منحوتة فى الصخر طولها ١٧٨٠ قدما عملها أهلها القدامى لتأمين مصدر للمياه للسكان فى حالة حصار الأعداء لها. ويفيض الماء عند نهايتها مكونا مياه هى «بركة سلوام» وهى التى تسمى اليوم بركة سلوان وطولها ١٩ مترا وعرضها ستة أمتار. وقد قام بنو إسرائيل بتحويل القناة المكشوفة إلى نفق فى الصخر. وفى عام ١٨٨٠ اكتشفت نقوش باللغة العبرية القديمة تفيد أن العمال بدأوا ينحتون الصخر من جانب العين ومن جانب البركة وظلا يعملان حتى التقيا أخيرا. وجرى الماء إلى البركة من خلال النفق بدلا من أن يجرى فى قناة مكشوفة يسهل للأعداء ردمها ومن ثم حرمان سكان المدينة من المياه. ونفس الشىء عمله الملك حزقيا فى عين جيحون فحول ماءها إلى قناة منحوته فى الصخر لتكون بركة صغيرة داخل أسوار المدينة هى «بركة حزقيا» وتسمى حاليا «بركة الحمام».

بناء بيت الرب والهيكل :

لقد رأينا مدى العلاقة الحميمة التى كانت بين سليمان عليه السلام وحيرام ملك صور. وتقول التوراة (١ ملوك ٥ : ٧): «وأرسل سليمان إلى حيرام يقول: أنت تعلم أن داود أبى لم يستطع أن يبنى بيتا للرب إلهه بسبب الحروب التى أحاطت به. والآن فقد أراحنى الرب إلهى من كل الجهات فلا يوجد خصم ولا حادثة شر. وهأنذا قائم على بناء بيت لاسم الرب إلهى كما كلم الرب داود قائلا: إن ابنك الذى أجعله مكانك على كرسيك هو يبنى البيت لاسمى. والآن فأْمُر أن يقطعوا لى أرزا من لبنان ويكون عبيدى مع عبيدك وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب ما تقول لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين. فلما سمع حيرام كلام سليمان فرح جدا. وقال: مبارك اليوم الرب الذى أعطى داود ابنا حكيما على هذا الشعب الكثير. أنا أفعل كل ما يسرُّك فى خشب الأرز وخشب السَّرو. عبيدى يُنْزِلون ذلك من لبنان إلى البحر وأنا أجعله أرماثا فى البحر إلى الموضع الذى تعرفنى عنه وأنفضه هناك وأنت تحمله. وأنت تعمل ما يرضينى بإعطائك طعاما لبيتى. فكان حيرام يعطى خشب أرز وخشب سرو. وأعطى سليمان حيرام ٢٠,٠٠٠ كُر حنطة و ٢٠ كُر زيت» . (الكُرّ من مكاييل الحبوب ولغويا يعنى كومه ويُسمَّى أيضا « حومر » وهو حمولة حمار – تفسير الكتاب المقدس – أونجر ص ٨٤٣).

وفى السنة الرابعة لملك سليمان على إسرائيل بدأ سليمان فى بناء بيت الرب. وقد بنى المعبد على جبل مورية (الموريا) وهو أحد تلال أورشليم (شكل ٤٢ و شكل ٣٤) فى المكان



شكل ٤٢ – رسم تقريبى لمدينة القدس أيام سليمان عليه السلام .
(١٠٠٠ ق . م) .

الذى بنى فيه داود مذبحا للرب بعد أن مُهدت الأرض وسُدَّت الثغرات التى كانت فيها. وكان الهيكل بوجه عام على شكل خيمة الشهادة (خيمة الاجتماع) إلا أن الأبعاد كانت ضعف ماكانت عليه فى الخيمة. كما أن معالم الزينة كانت أكثر بذخا وفخامة. وكان مدخل الهيكل يتجه ناحية الشرق. ويبين شكل ٤٣ التخطيط العام للمعبد وشكل ٤٤ يبين المنظر الخارجى للهيكل كما أمكن للرسامين إعادة تصوُّره من الأوصاف التى وردت فى التوراة.

وكان البيت طوله ٦٠ ذراعا وعرضه ٢٠ ذراعا وارتفاعه ٣٠ ذراعا والرواق قدام الهيكل طوله ٢٠ ذراعا وعرضه ١٠ أذرع. وعمل للبيت نوافذ مسقوفه مُشبكة. وبنى مع حائط البيت أجنحة جانبية حول الهيكل والمقدس. وكانت الحوائط سميكة من أسفل وكلما ارتفع الطابق قل سمكها. وكانت الحجارة قد تم قطعها وتسويتها وصقلها فى المحاجر ثم نقلت إلى مكان البيت وهذا يفسِّر ما ذكرته التوراة (١ ملوك ٦:٧) «ولم يسمع فى البيت عند بنائه منحت ولا معول ولا أداة من حديد».

أما قدس الأقداس وهو مكان التابوت فكانت أبعاده ٢٠×٢٠×٢٠ ذراعا. ومبنى من أضلاع (عروق) خشب الأرز وغُشِّىَ من داخل بذهب خالص. وسُدَّ بسلاسل من ذهب مكان الحجاب فى الخيمة. وعمل فى المحراب كروبين من خشب الزيتون ارتفاع الواحد ١٠ أذرع ومن طرف الجناح إلى طرف الجناح الآخر ١٠ أذرع. فلما وُضع الاثنان كانت أجنحتهما فى وسط البيت يمسّ أحدهما الآخر وتحتها التابوت. وغشّى الكروبين بذهب خالص.

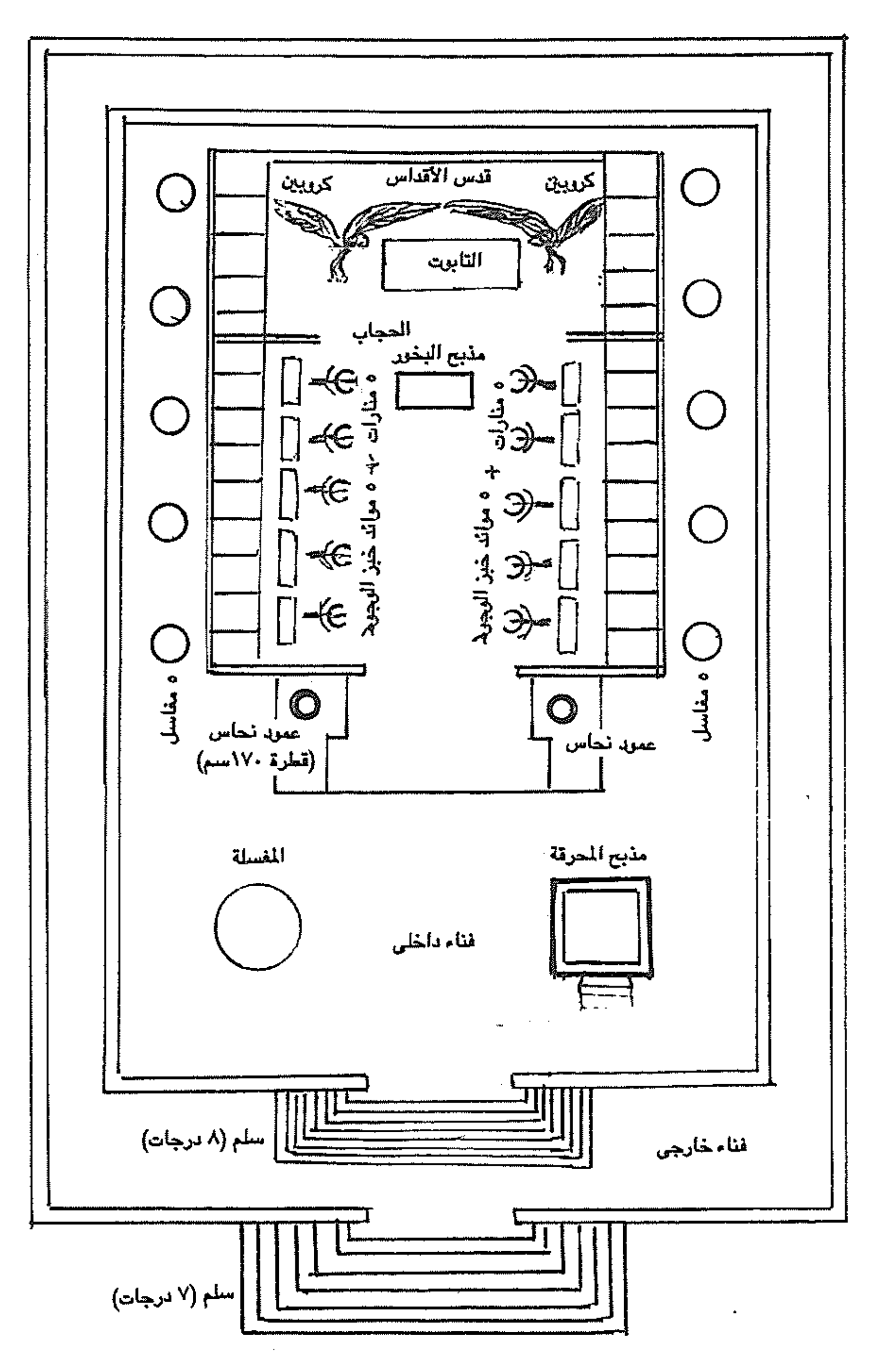
أما **المسكن** فكان به ٥ موائد خبز الوجوه على اليمين و ٥ على اليسار وكذلك ٥ منارات فى كل جانب. ومذبح البخور يقع فى نهاية المسكن قبل الحجاب. أما باب البيت فكان من خشب الزيتون وعلى مصراعية نقش كروبيم ونخيل وبراعم وزهور وكله مغشى بالذهب وعلى جانبى الباب عمودان من نحاس طول العمود ١٨ ذراعا والعمود مجوَّف ومحيطه ١٢ ذراعا أى أن قطره يبلغ ١٧٠سم. ولكل عمود تاج على شكل الكرة منقوش نقوشا جميلة. وقد أقيم العمودان أمام الرواق لمجرد الزينة دون أن يُقصد منهما تدعيم المبانى. وقد استعان سليمان فى عملهما برجل نحَّاس ماهر من صور أرسله حيرام ملكها.

أما الأدوات والآنية المقدسة فكانت :

– **المنارات** : ١٠ منائر ذهبية: ٥ على اليمين و ٥ على اليسار – كما سبق أن ذكرنا – والسُرُجْ والملاقط . كلها من ذهب خالص.

– **موائد خبز الوجوه** : ١٠ موائد ذهبية : ٥ عن اليمين و ٥ عن اليسار.

– **أوانى المائدة** وتشمل ١٠٠ منضحة والصحون والأكواب وكلها من الذهب كما أدخل سليمان أقداس أبيه داود الفضة والذهب والآنية وجعلها فى خزائن بيت الرب.



شكل ٤٣ – رسم توضيحي للمعبد والهيكل .

أما الفناء الخارجى فكان به :

١ – **مذبح المحرقة النحاس** : وهو موجود بين باب السور المحيط بالبيت وباب المسكن. وهو مربع الشكل وأبعاده ٢٠×٢٠ ذراعا وارتفاعه ١٠ أذرع.

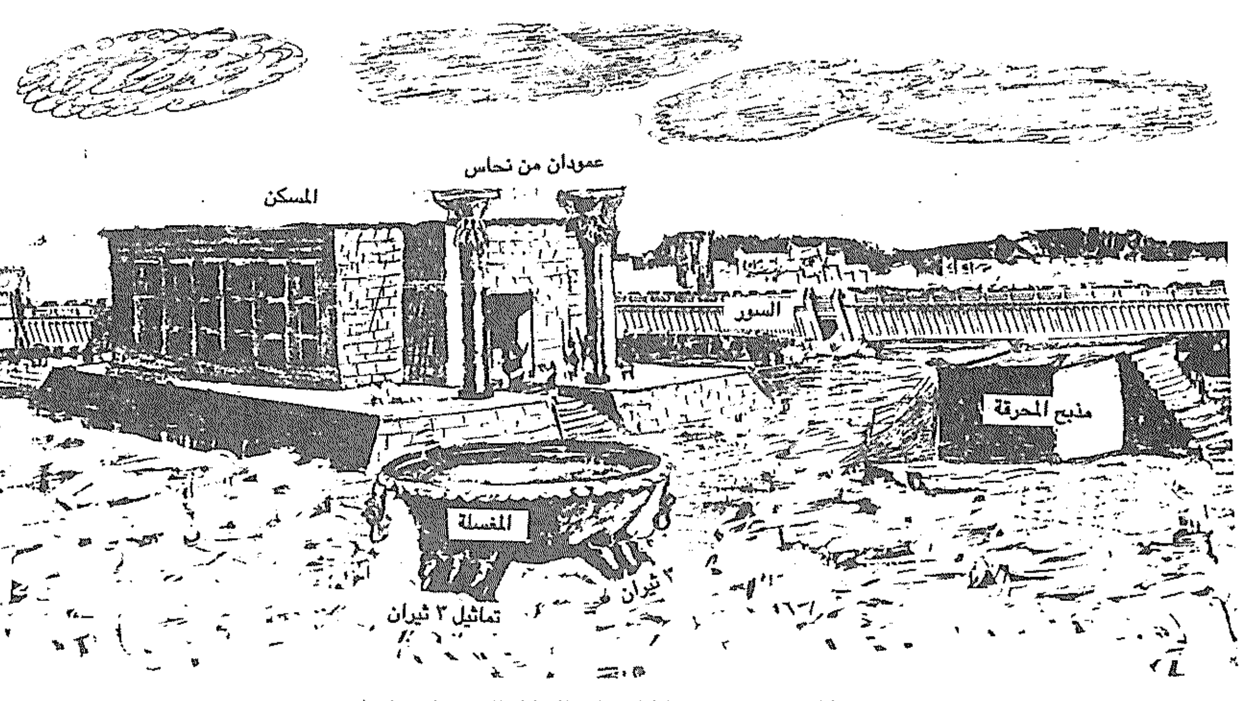
٢ – **خزان المياه البرونزى** : ويوضع به ماء لغسل أيدى الكهنة وأرجلهم وهو عبارة عن إناء كبير سمكه حوالى ٩سم وقطره حوالى ٤,٥ مترا وارتفاعه حوالى مترين. وبهذه الأبعاد فإن وزنه لا يقل عن ٢٥–٣٠ طنا. وهو مصبوب من البرونز. وكانت سعته حوالى ١٨,٠٠٠ جالون مياه أى حوالى ٧٢ مترا مكعبا. وكان الخزان يرتكز على ١٢ تمثالا لثيران – ٣ فى كل جهة من الجهات الأصلية الأربع ورؤوسها متجهة إلى الخارج وكانت من المتانة بحيث يمكنها تحمل وزن الخزان وهو مملوء بالماء والذى يبلغ حوالى ١٠٠ طن. وعمل له ٤٠٠ حلية على هيئة رمانات أو أجراس كلها من الذهب. ولم يكن الكهنة يغتسلون فيه مباشرة بل كانوا يأخذون الماء منه بواسطة أوانى على شكل «القلَّة» أو «ثمار القرع» مربوطة فى محيطه.

٣ – كذلك كانت توجد ١٠ **مغاسل** أو مراحض من نحاس ٥ شمال البيت و ٥ جنوبه يغسلون فيها ما يقربونه من محرقة.

وفى السنة الحادية عشرة من حكم سليمان أكمل البيت . ولما كان ابتداء بنائه فى السنة الرابعة كان معنى ذلك أنه استغرق ٧ سنوات لبنائه. وبعد ذلك بنى قلعة لحماية الهيكل.

نقل التابوت إلي الهيكل :

كان بناء الهيكل قد أوشك على الإنتهاء. وكان عيد المظال قد اقترب موعده فقرر سليمان عليه السلام نقل التابوت إلى الهيكل فى ذلك العيد. تقول التوراة (ملوك أول ٨:١): حينئذ جمع سليمان شيوخ إسرائيل وكل رؤساء الأسباط ورؤساء الآباء (العشائر) من بنى إسرائيل إلى الملك سليمان فى أورشليم لإصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود إلى قدس الأقداس فى الهيكل. وجاء الجميع فى العيد وحمل الكهنة التابوت وأصعدوا التابوت وخيمة الاجتماع مع جميع آنية القدس التى فى الخيمة فأصعدها الكهنة واللاويُّون والملك سليمان وكل جماعة إسرائيل معه. أمام التابوت كانوا يذبحون من الغنم والبقر ما لايحصى ولا يعد من الكثرة. وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه فى محراب البيت فى قدس الأقداس تحت جناحى الكروبين . ولم يكن فى التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك فى حوريب. وقد وضع التابوت فى اتجاه من الشمال إلى الجنوب فى موازاة الكروبين على مسافة من الحجاب. ولا يدرى المفسرون أين اختفى كتاب التوراة الذى كتبه موسى بيده قبل وفاته. وأغلب الظن أنه ضاع فى الفترة التى كان الفلسطينيون قد استولوا فيها على التابوت.



شكل ٤٤ – تصور لما كان عليه الهيكل الذى بناه سليمان .

التدشين والافتتاح :

تأخر التدشين حتى تم بناء المعبد تماما وكان ذلك بعد ١١ شهرا من نقل التابوت إليه. تقول التوراة (ملوك أول ١٢:٨): «حينئذ تكلم سليمان: قال رب إنى قد بنيت لك بيت سكنى مكانا لسكناك إلى الأبد. وحوّل الملك وجهه وبارك كل جمهور إسرائيل الواقف أمامه. وقال مبارك الرب إله إسرائيل الذى تكلّم بفمه إلى داود أبى. وكان فى قلب أبى أن يبنى بيتا لاسم إله إسرائيل فقال الرب لداود أبى إنك أنت لا تبنى البيت. بل ابنك الخارج من صلبك هو يبنى البيت لاسمى. وقد قمت أنا مكان داود أبى وجلست على كرسى إسرائيل كما تكلم الرب وبنيت البيت لاسم الرب إله إسرائيل وجعلت هناك مكانا للتابوت الذى فيه عهد الرب الذى قطعه مع آبائنا عند إخراجه إياهم من مصر».

نشيد التدشين :

ووقف سليمان عليه السلام أمام مذبح الرب تجاه كل جماعة إسرائيل وبسط يديه إلى السماء وقال (١ ملوك ٢٢:٨): «أيها الرب إله إسرائيل. ليس إله مثلك فى السماء من فوق ولا على الأرض من أسفل. حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم. هو ذا السماوات وسماء السماوات لا تسعك فكم بالأقل هذا البيت الذى بنيتُ. فالتفتْ إلى صلاة عبدك وإلى تضرُّعه أيها الرب إلهى واسمع الدعاء والصلاة التى يصلِّيها عبدك أمامك اليوم. لتكن عيناك مفتوحتين على هذا البيت ليلا ونهارا على الموضع الذى قلت إن اسمك يكون فيه لتسمع الصلاة التى يصليها عبدك فى هذا الموضع واسمع تضرُّع عبدك وشعبك إسرائيل الذين يُصلُّون فى هذا الموضع. واسمع أنت فى موضع سكناك فى السماء. وإذا سمعتَ فأغفر.

إذا أخطأ أحد إلى صاحبه ووضع عليه حلفا ليحلفه وجاء الحلف أمام مذبحك فى هذا البيت فاسمع أنت فى السماء واعمل واقض بين عبيدك إذ تحكم على المذنب فتجعل طريقه على رأسه وتبرِّر البار إذ تعطيه حسب برِّه.

إذا انكسر شعبك إسرائيل أمام العدو لأنهم أخطأوا إليك ثم رجعوا إليك واعترفوا باسمك وصلوا وتضرَّعوا إليك نحو هذا البيت فاسمع أنت من السماء واغفر خطية شعبك إسرائيل.

اذا أُغلقت السماء ولم يكن مطر لأنهم أخطأوا إليك ثم صلُّوا فى هذا الموضع واعترفوا باسمك ورجعوا عن خطيئتهم. فاسمع أنت من السماء واغفر خطية عبيدك وشعبك. فتعلمهم الطريق الصالح الذى يسلكون فيه.

إذا صار فى الأرض جوع. إذا صار وباء. إذا صار لفح أو يرقان أو جراد أو إذا حاصره عدو فى أرض مدنه. فكل صلاة وكل تضرُّع تكون من أى إنسان كان من شعبك إسرائيل يبسط يده نحو هذا البيت فاسمع أنت من السماء واغفر وأعط كل إنسان حسب كل طرقه كما

تعرف قلبه لأنك أنت وحدك قد عرفت قلوب كل البشر. وكذلك الأجنبى الذى ليس من شعبك إسرائيل وجاء من أرض بعيدة من أجل اسمك لأنهم يسمعون باسمك العظيم وبيدك القوية وذراعك الممدودة. فمتى جاء وصلَّى فى هذا البيت فاسمع أنت من السماء وافعل حسب ما يدعو به إليك الأجنبى لكى يَعلَمَ كل شعوب الأرض اسمك فيخافوك ولكى يعلموا أنه قد دُعِيَ اسمك على هذا البيت الذى بنيت.

إذا خرج شعبك لمحاربة عدو فى الطريق الذى ترسلهم فيه. وصلُّوا إلى الرب نحو المدينة التى اخترتها (أورشليم) والبيت الذى بنيتُه لاسمك فاسمع من السماء صلاتهم وتضرُّعهم واقض قضاءهم. إذا أخطأوا إليك لأنه ليس إنسانٌ لا يخطىء. وغضبت عليهم ودفعتهم أمام العدو وسباهم إلى أرض بعيدة أو قريبة. فإذا ردُّوا إلى قلوبهم ورجعوا وتضرعوا إليك فى أرض سبيهم قائلين: قد أخطأنا وعوَّجنا وأذنبنا. ورجعوا إليك من كل قلوبهم. وصلُّوا إليك نحو هذا البيت الذى بنيتُ لاسمك. فاسمع فى السماء صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم واغفر لشعبك ما أخطأوا به إليك وجميع ذنوبهم التى أذنبوا بها إليك. وأعطهم رحمة أمام الذين سبوهم فيرحموهم لأنهم شعبك الذى أخرجت من مصر. لتكن عيناك مفتوحتين نحو تضرع عبيدك وتضرع شعبك إسرائيل».

وكان لما انتهى سليمان من الصلاة إلى الرب بكل هذه الصلاة والتضرُّع أنه نهض من أمام مذبح الرب من الجثو على ركبتيه ووقف وبارك كل جماعة إسرائيل بصوت عالٍ قائلا: «مبارك الرب الذى أعطى راحة لشعبه إسرائيل حسب كل ما تكلم به ولم تسقط كلمةٌ واحدة من كل كلامه الصالح الذى تكلم به عن يد موسى عبده. ليكن الرب إلهنا معنا كما كان مع آبائنا فلا يتركنا ولا يرفضنا لِنَملْ بقلوبنا إليه لكى نسير فى جميع طرقه ونحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه التى أوصى بها آباءنا. وليكن كلامى هذا الذى تضرَّعت به أمام الرب قريبا من الرب إلهنا نهارا وليلا ليقضى قضاء عبده وقضاء شعبه ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله وليس آخر. فليكن قلبكم كاملا لدى الرب إلهنا إذ تسيرون فى فرائضه وتحفظون وصاياه».

ثم إن الملك وجميع إسرائيل ذبحوا ذبائح أمام الرب. وذبح سليمان ذبائح السلامة التى قرَّبها للرب من البقر ٢٢,٠٠٠ ومن الغنم ١٢,٠٠٠. فدشَّن الملك وجميع بنى إسرائيل بيت الرب وقدَّس الفناء وقَرَّب محرقات وذبائح سلامة. وعيَّد سليمان وجميع بنى إسرائيل ٧ أيام ثم صرفهم فباركوا الملك وذهبوا إلى خيامهم فرحين وطيِّبى القلب.

وحى السماء بعد بناء البيت :

(١ ملوك ٩ : ٢) «وكان لما أكمل سليمان بناء بيت الرب أن الرب تراءى لسليمان وقال له:

قد سمعت صلاتك وتضرعك الذى تضرَّعت به أمامى. قدَّست هذا البيت الذى بنيته لأجل وضع اسمى فيه إلى الأبد. وأنت إن سلكت أمامى كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة وعملتَ حسب كل ما أوصيتك وحفظت فرائضى وأحكامى فإنى أقيم كرسى مُلكِكَ على إسرائيل إلى الأبد. أما إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائى ولا تحفظون وصاياى وفرائضى التى جعلتها أمامكم. بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها فإنى أقطع إسرائيل عن وجه الأرض. والبيت الذى قَدَّستُه لاسمى أنفيه من أمامى ويكون إسرائيل مَثَلاً وهزأة فى جميع الشعوب وهذا البيت يكون عبرة. كل من يمر عليه يتعجَّب ويقول لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت. فيقولون من أجل أنهم تركوا الرب إلههم وتمسَّكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر».

قصر سليمان :

بعد أن بنى البيت - بنى سليمان عليه السلام قصرا له واستغرق فى بنائه ١٣ سنة. ويقول أهل الكتاب إنه استغرق كل هذا الوقت لأن سليمان لم يكن فى عجلة من أمره. كما أن الحجارة ومواد البناء لم تكن جاهزة كما كان الحال وقت بناء بيت الرب. والوصف الذى جاء فى التوراة عن قصر سليمان وملحقاته (١ ملوك ٧) لم يكن واضحا تماما. فصعُب وضع تصورٍ دقيق لما كان عليه البناء. ويسمى قصر سليمان «بيت وعر لبنان» لأن أكثر ما يميزه هو الأعمدة المصقولة من خشب الأرز المجلوب من لبنان والتى كانت تحمل الطابق الثانى (تفسير الكتاب المقدس. جاميسون وفاوست ص ٤٤٩) ويقول أهل الكتاب إن ذلك يماثل التسمية الحالية لأحد الأبنية فى لندن «البيت الهندى الشرقى». ويرى معظم المفسرين أن القصر فى مجمله كان يشبه القصور الأشورية فى نينوى وبابل بينما يرى آخرون أنه كان فى تخطيطه أقرب إلى المعابد الفرعونية فهو يتكون من (شكل ٤٥):

١ - **رواق صغير** بعد الباب الرئيسى - وهذا الرواق خال من الأعمدة وأبعاده ٢٠×٥٠ ذراعا يليه:

٢ - **رواق الأعمدة** ٥٠ × ٧٥ ذراعا فيه ١٠ أعمدة فى كل جانب من ممر الوسط.

٣ - **فناء مكشوف** ٥٠ × ١٠٠ ذراعا حوله غرف وله طابق ثان به غرف أيضا ويبلغ مجموع الغرف ٤٥ غرفة.

٤ - **صالة العرش** وهو رواق معمد له باب خارجى وفى نهايته كرسى العرش الذى كان سليمان يجلس عليه وهو يحكم بين الناس فى المنازعات. كما كان يقابل فى صالة العرش سفراء الدول الأجنبية.

٥ - **سكن الملك** سليمان نفسه .

٦ – قصر ابنة فرعون .

٧ – بيوت باقى الزوجات .

وكانت قصور الزوجات بعيدة بعض الشيىء عن القصر الملكى والهيكل إذ أن كثيرات منهن لم يَكنَّ على ديانة بنى إسرائيل ولا يحق لهن الاقتراب من الهيكل. وكان أساس المبانى من قطع كبيرة من الحجارة. أما الحوائط فكانت من حجارة أصغر ومستوية الجوانب وغطيت بألواح من خشب الأرز.

٨ – قلعة ببرج أو برجين للدفاع عن القصر والاحتماء بها عند أى حصار للمدينة. وكانت هذه هى العادة المتَّبعة فى قصور الملوك فى العصور القديمة.

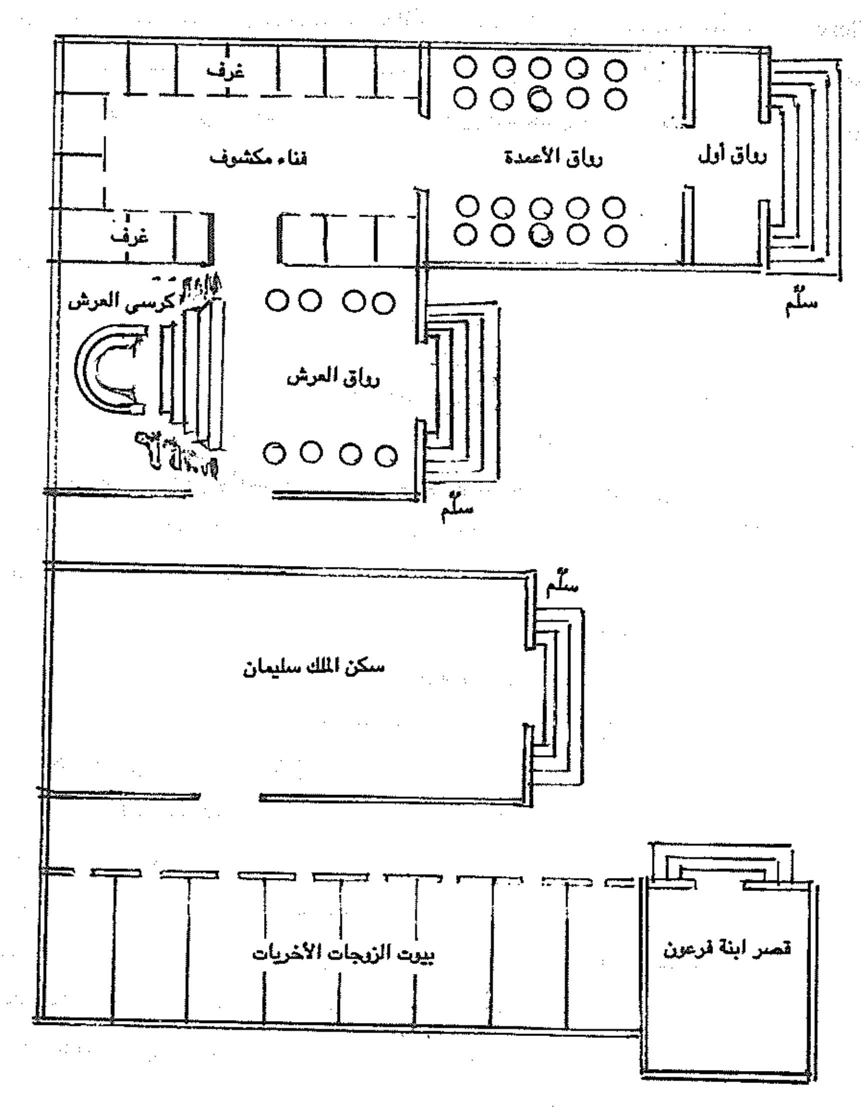
سياسة سليمان الخارجية

كان سليمان مختلفا عن أبيه داود. كان داود محاربا قضى كل حياته فى حروب بدأها بقتله جالوت، ثم طارده طالوت (شاول) فى كل مكان ثم حروبه مع الشعوب المجاورة: أدوم – مؤاب – بنى عمون – الفلسطينيين. ولكن عهد سليمان تميز بالسلام وإن كان قد أدرك أنه من الضرورى أن يكون له جيش قوى يحمى المملكة. فكان له جند كثير مشاة وفرسانا وعربات حربية. إلاَّ أنه اتَّبع سياسة التفاهم مع الدول المجاورة ومن وسائل ذلك كان الارتباط بالمصاهرة مع جيرانه من الملوك والرؤساء. فقد تزوج زوجات من مصر ومن بنى عمون وأرام وكان له أيضا زوجات كنعانيات وحيثيات.

١ – مصر :

كانت مصر – فى أواخر عصر شاول – يحكمها رمسيس الحادى عشر وتمر بفترة اضطرابات وعدم استقرار سياسى. ومع بداية الأسرة ٢١ فى عام ١٠٥٨ ق.م كانت مصر منقسمة إلى مملكتين واحدة فى مصر العليا ويحكمها من طيبة كبار كهنة آمون. يحكمون حكما ثيوقراطيا معتمدين على مكانتهم الدينية ومكانة طيبة كمقر لآمون رع رب الدولة. ومملكة الدلتا وعاصمتها تانيس فى شرق الدلتا أسسها سمندس ثم من بعده تولى عدة ملوك حتى تولى بسونس الثانى الحكم عام ٩٨٤ ق.م وهو الذى كان معاصرا لسليمان الذى تولى الملك عام ٩٧٣ ق.م.

ويرى «هربرت ويلز» أنه كان من الجائز أن يقبل فراعنة مصر فى حريمهم أميرة بابلية أو

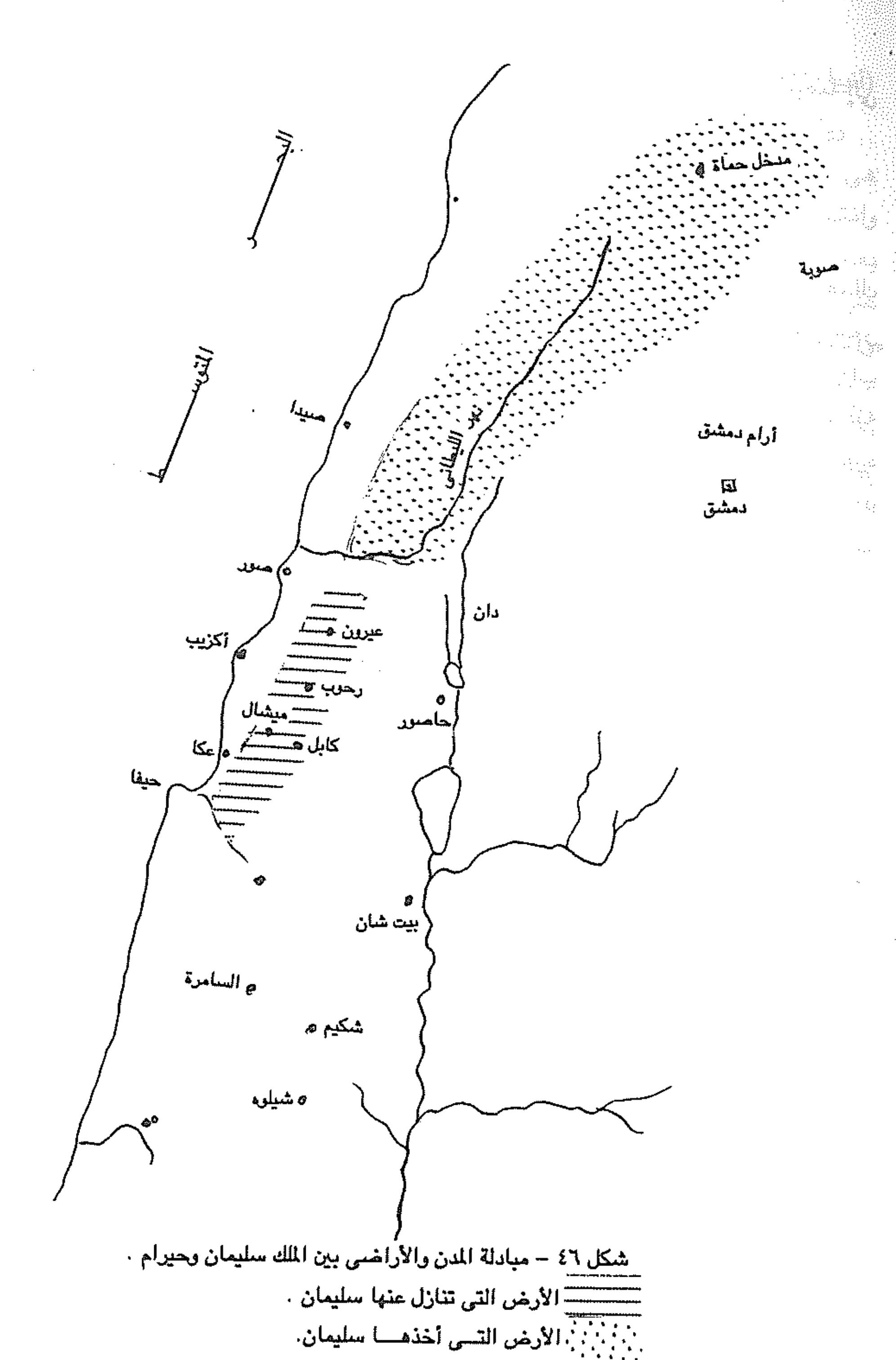


شكل ٤٥ – قصر الملك سليمان .

حيثية ولكن الفراعين كانوا يرفضون رفضا تاما أن يُسمح لأميرة مصرية أن تصبح زوجة لملك غير مصرى. ويُستنتج من قبول الفرعون مصاهرة ملك أجنبى – وهو سليمان – مدى الضعف الذى كان عليه فراعين مصر ومدى عِظَم مكانة سليمان الدولية. وكانت مدينة جازر Gezer مدينة كنعانية استعصى فتحها على بنى إسرائيل عند دخول فلسطين. ولم يستطع داود امتلاكها. فقام بسوسنس الثانى فرعون مصر بتجريد حملة إلى فلسطين واستولى عليها وقدَّمها هدية زواج سليمان من ابنته.

٢ – صور :

كانت علاقة داود بالملك حيرام ملك صور طيِّبة. ولما تولى سليمان الحُكم أرسل حيرام رسله مهنئا سليمان وأرسل معهم هدايا تعبيرا عن رغبته فى استمرار العلاقات الطيبة بين البلدين. وتوطَّدت العلاقات أكثر بالمساعدات التى قدَّمها حيرام لبناء بيت الرب وبناء قصور سليمان متمثلة فى أخشاب الأرز والسرو. كما أن حيرام ساعد سليمان فى بناء أسطوله فى البحر الأحمر كما سبق أن ذكرنا (ص ١٦٥). ولم تكن هذه المساعدات مجانية بل كان سليمان يدفع ثمنها فضة أو ذهبا. ولكثرة الإنشاءات التى قام بها سليمان وما اتصفت به هذه الإنشاءات من بذخ فقد عجز عن دفع ثمنها نقدا واضطر إلى التنازل لحيرام عن ٢٠ مدينة فى أرض الجليل وكما سبق أن ذكرنا (ص ١٧٢) أنها لم ترق فى عينى حيرام. يرى جاميسون وفاوست (تفسير الكتاب المقدس ص ٤٥٣) أن ما صرفه سليمان ببذخ على بناء بيت الرب وقصره الملكى قد كلفه أموالا طائلة. وكان استبدال مدن بكميات من الذهب سائغا فى ذلك الوقت. ويرى آخرون أن إعطاء هذه المدن كان مجرد رهن فقط وليس تنازلا عن جزء من «الأرض الموعودة». وقال آخرون إنها كانت مبادلة (شكل ٤٦) وكانت صفقة رابحة لكلا الجانبين فإن المنطقة التى تنازل عنها سليمان كانت من نصيب أشير ولم يتمكن من طرد الكنعانيين منها وكان يسكنها أيضا أغلبية من الجشوريين فكان بنو إسرائيل أقلية. كما كانت الأرض، وخاصة قرب عكا إما كثبانا رملية بجوار البحر أو أرضا سبخة قرب الجبال. وكانت المدن الموجودة بها لا تزيد عن كونها قرى كبيرة وهى إن لم ترق فى عينى حيرام من الناحية الاقتصادية إلا أنها بلا شك كانت مكسبا عسكريا له إذ هى تعطى لصور عمقا إستراتيجيا. وكانت المنطقة التى أخذها سليمان فى الشمال حول منابع نهر الليطانى أراضى خصبة فضلا عن موقعها الاستراتيجى بالنسبة للتجارة مع الشام مما يمكِّن سليمان من إحكام قبضته على طريق القوافل من فلسطين إلى بابل وأشور وتقول التوراة (أخبار أيام ثان ٨:٣): «وبنى سليمان المدن التى أعطاها حيرام لسليمان وأسكن فيها بنى إسرائيل. وذهب سليمان إلى حماة صوبة وقوى عليها وبنى تدمر فى البرية. وجميع مدن المخازن التى بناها فى حماة». وعلى ذلك فإن سليمان



شكل ٤٦ – مبادلة المدن والأراضى بين الملك سليمان وحيرام .

الأرض التى تنازل عنها سليمان .

الأرض التـى أخذهـا سليمان.

قد سدَّد ديونه وأخذ أرضا أكبر مما تنازل عنه ولها موقع تجارى ممتاز. ولعله نظر أيضا إلى أن أحد أبنائه فى المستقبل قد يسترد هذه المدن المتنازل عنها.

٣ - أدوم :

سبق أن ذكرنا (ص ١٢٦) أن داود حارب الأدوميين وأن يوآب قائد جيشه ارتكب هناك مذبحة بشرية ولم ينج من البيت الملكى سوى طفل عمره ٧ سنوات هو «هدد» هرب إلى مصر فاحتضنه فرعون ولما كبر زوَّجه من أخته «تحفنيس». ولما علم هدهد بموت داود وموت يوآب كذلك قال لفرعون: أطلقنى إلى أرضى. ولعل بسونس الثانى - فرعون مصر - اشتم أنه سيعود إلى أدوم ليأخذ بثأر والده فيحارب سليمان. وليجنِّب سليمان - بعد أن أصبح صهره - متاعب سياسية من ناحية أدوم فإنه لم يسمح لهدد بترك البلاد . فلم يتركها إلا فى عهد شيشنق الأول مؤسس الأسرة ٢٢ الليبية وبدأ يناصب سليمان العداء كما سيجىء فيما بعد (ص٢٣٩).

فتنة سليمان

أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى :

«ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب. قال رب اغفر لى. وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهَّاب» (٣٤-٣٥-ص).

وقد ذكرت روايات كثيرة فى فتنة سليمان قال عنها ابن كثير (البداية والنهاية. جـ ٢ ص ٢٤): وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات. وفى كثير منها نكارة شديدة. واختار الألوسى وصاحب المواقف الحديث الصحيح الذى وَرَدَ مرفوعا أنه صلى الله عليه وسلم قال: إن سليمان عليه السلام قال: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ولم يقل «إن شاء الله». فطاف عليهن فلم تحمل إلاَّ امرأة واحدة جاءت بشق طفل. والذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون. وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين رواه البخارى مُسنداً ٦ مرات ومرة واحدة معلَّقا ورواه مسلم فى كتاب الإيمان بطرق متعددة ثم إن الروايات التى وردت عن الحديث تختلف فى بيان عدد النساء: ٦٠ - ٧٠ - ٩٠ - ٩٩ - ١٠٠: وقد خالف الأستاذ عبد الوهاب النجار (وهو من مشايخ الأزهر فى الثلاثينيات من هذا القرن) واعتبره حديث آحاد لا يصح الارتكان إليه فى إثبات أمر اعتقادى. كما رأى أن الطواف على مثل هذا العدد من النساء - أو نصفه - لا تتسع له ليلة واحدة مهما قصر الوقت الذى يقضيه مع كل واحدة منهن. وقال الأستاذ أحمد بهجت عن هذه الراوية

(أنبياء الله ص ٢٧٧) «والقصة مُختلَقة من بدايتها لنهايتها وهى من الإسرائيليات الخرافية».

رواية أخرى تقول إن سليمان عليه السلام كانت له زوجة صيدونية (من مدينة صيدون التى هى صيدا) وكانت تبكى على أبيها لمفارقتها له. فأمر سيلمان بعمل تمثال على هيئة أبيها. وانتهى الأمر بها إلى أن سجدت للتمثال هى وجواريها وكان مُلْك سليمان فى خاتمة. وكان يعطيه لإحدى زوجاته إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة. وفى إحدى المرات جاءها الشيطان على صورة سليمان وأخذ منها الخاتم فتختَّم به وجلس على كرسى سليمان. فذلك تفسير «وألقينا على كرسيه جسداً». فكان الشيطان هو الجسد الذى ألقى على كرسيه. وكان سليمان – بعد فقدان الخاتم – قد تغيَّرت هيئته فلما أتى زوجته يطلب الخاتم أنكرته وطردته. فعرف أنه يُعَاقَبُ لتركه زوجته تعبد صنما فندم. وصار يدور على البيوت يتكفَّف وصار يخدم السمَّاكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين. ومكث على هذه الحال ٤٠ يوما. قالوا عدد ما عُبِد الوثن فى بيته. وفى خلال هذه المدة كان الشيطان يحكم بما لا يتفق مع الشريعة. وشكَّ الوزراء فى أمره. وسألوا نساءه عنه فقلن: ما يدع امرأة فى دمها ولا يغتسل من جنابة. وأدرك الشيطان أن أمره على وشك أن يفتضح. فطار وقذف الخاتم فى البحر فابتلعته سمكة. وأعطيت السمكة لسليمان أجرا على عمله. فلما بقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختَّم به ووقع ساجداً لله تعالى ورجع إليه مُلكُه.

ولهم رواية ثانية أنه لما ترك زوجته تعبد الصنم كان الخاتم لا يثبت فى يده فسقط الخاتم وأخذه الشيطان. وراوية ثالثة أن سلميان قال لبعض الشياطين كيف تفتنون الناس؟ فقال أرنى خاتمك أخبرك.فأعطاه له فلبسه وجلس على كرسى المُلك. وتتمةٌ الروايتين هى كما فى الرواية الأولى. وهى كلها روايات تروى للتسلية وما كان المُلك يرتبط بخاتم يُلبس فى الإصبع!!

قول آخر روى عن أبى عبد الله أنه وُلد لسليمان ابن. فقالت الجن والشياطين. إن عاش له ولد لنلقينَّ منه ما لقينا من أبيه من البلاء. فأشفق عليه السلام منهم عليه فجعله فى السحاب حفظا له. فلم يشعر إلا وقد ألقى به على كرسيه ميتا تنبيها على أن الحذر لا ينجى من القدر وعوقب على تركه التوكل على الله.

ويرى ابن كثير – ووافقه الأستاذ عبد الوهاب النجار أن إشراك داود لسليمان معه فى الحكم بين الناس جعل سليمان يعتقد أن الملك لا محالة صائر إليه. فكان ماكان من ثورة أبشالوم على أبيه داود (ص ١٣٨) وفرار داود ومعه سليمان إلى شرق الأردن وجلس أبشالوم على كرسى الحكم ورأى سليمان أن كرسى الحكم قد أفلت من يده فاستغفر ربه لما حدَّثته به نفسه من زهو بالعرش وأناب . فكان جلوس أبشالوم على كرسى داود – الذى هو كرسى سليمان – هو المقصود بـ «وألقينا على كرسيِّه جسداً». ومما يضعِفُ هذا التفسير أن هناك تجوُّز بنسبة الكرسى إلى سليمان وهو فى الحقيقة كرسى داود وقد كان سليمان لايزال

صغيرا لا يزيد عمره عن ١٣ سنة ولا يترتب على ما تجول به نفسه مثل هذا الأمر العظيم. كما أنه من المستبعد أن يُعَبَّر عن أخية بالجسد.

وقال الفخر الرازى فى تفسيره إن سليمان ابتُلى بمرض شديد ضنى منه حتى صار لشدة المرض كأنه جسد أو جسم بلا روح. ثم أناب أى رجع إلى حالة الصحة. ويعتنق الأستاذ أحمد بهجت هذا الرأى (أنبياء الله ص ٢٧٧) فيقول إن مرضه حار فيه أطباء الإنس والجن. وأحضرت له الطيور أعشابا طبية من أطراف الأرض فلم يُشفَ وكل يوم كان المرض يزيد عليه حتى أصبح سليمان إذا جلس على كرسيه جلس كأنه جسد بلا روح كأنه ميت من كثرة الإعياء والمرض واستمر هذا المرض فترة كان سليمان فيها لايتوقف عن ذكر الله وطلب الشفاء منه واستغفاره وعرف أن كل ملكه وعظمته لا تستطيع أن تحمل إليه الشفاء إلا إذا أراد الله سبحانه وتعالى. «ثم أناب» أى استجار برحمة الله فشفاه الله ورحمه. وما نراه هو أن هذا التفسير يجعل من سليمان صورة مصغَّرة من أيوب عليه السلام الذى امتد به المرض ١٨ عاما (الجزء الثالث ص ٦٢٦). فى حين أن مرض سليمان – لو سلَّمنا بصحته – لم يزد عن ٤٠ يوما. كما أن المرض فى حد ذاته لا يعتبر ذنبا يوجب الإنابة والاستغفار «**ثم أناب. قال رب اغفرلى وهب لى ملكا...**» ثم إن طلب الملك بعد الإنابة والاستغفار فيه إشارة إلى ضياع الملك قبل ذلك. كمن يمرض فإذا شفى قال: اللهم أدم علىَّ الصحة والعافية. ومن كان غنيا ثم افتقر ثم رد الله عليه المال دعا الله طالبا دوام الغنى فلا يذوق الفقر ثانية.

وهكذا نرى أن التفاسير التى قُدِّمت كلها غير مقبوله. وما نراه هو أن تفسير هذه الآية مرتبط بآية أخرى فى القرآن الكريم هى قوله تعالى: «**واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان. وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل. هاروت وماروت. وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر**».

(من الآية ١٠٢ – البقرة).

فهذه الآية تنفى عن سليمان الكفر «**وما كفر سليمان**» مما يعنى أن سليمان فى فترة ما من حكمه قد اتهم بالكفر . ولا يُتَصَوَّر أن يتم اتهام نبى أو ملك بالكفر إلا أن يكون قومه قد شاهدوا عليه أفعالا لا تتفق مع الشريعة. وهذا يجرنا إلى فقرة فى التوراة تتعلق بالموضوع ذاته تقول (ملوك أول ١١:٥) : «وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتروث إلاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر فى عينى الرب. ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه . حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذى تجاه أورشليم وللملوك رجس بنى عمون . وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن».

كذلك تخالف التوراة القرآن الكريم فى سبب نزول الملَكين فى بابل إذ تقول (تكوين ١١:٦): «هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض فبدَّدهم الرب من هناك على وجه الأرض فكفُّوا عن بنيان المدينة لذلك دُعِيَ اسمها بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض». والحقيقة أن اختلاف اللغات والألسنة كان موجودا قبل أن توجد بابل فقدماء المصريين فى عصر ما قبل الأسرات كان لهم لغتهم. وسكان ما بين النهرين فى العصر الحجرى فى الألف الخامس قبل الميلاد كان لهم لغتهم التى تختلف عن لغة مصر أو سكان آسيا الصغرى. وعليه فإن نزول الملَكين ببابل لم يكن لبلبلة الألسنة – بل كان كما قرر القرآن الكريم – مرتبطا بتعليم الناس السحر. وكان بعض الناس يدوِّنون ما يتعلمون منهما فى كتب. وكان الملَكان ينبِّهان الناس أن السحر فتنة وقوة تغرى من يتعلمه باستعماله فى الشر. ويكون تعلم السحر نوعا من الكفر. وزاد بعض الأشخاص بأن استعانوا بالشياطين لقضاء أغراضهم.

فإذا وضعنا الآية من سورة ص الخاصة بفتنة سليمان مع الآية من سورة البقرة والتى تنفى عن سليمان الكفر وتوضِّح مهمة الملكين هاروت وماروت وتعلم الناس منهما السحر يمكننا أن نضع التصور التالى:

كان سليمان عليه السلام قد تزوج من زوجات أجنبيات كثيرات، ولم يجبرهن على اعتناق الديانة الموسوية. بل اتبع مبدأ «لكم دينكم ولى دين». فتركهن على ديانتهن. وهن أيضا لم يكتفين بذلك بل بَنَيْنَ مذابح ومرتفعات لآلهتهن وذبحن لها وقدَّمن القرابين. وتغاضى سليمان عن هذا الأمر. وظن بنو إسرائيل أن سليمان نفسه هو الذى أمر بذلك. وحقيقة الأمر أن سليمان كان غائبا عن أورشليم فى جوله فى جنوب أدوم حيث مناجم النحاس عند خليج العقبة. وفى هذه الفترة تمثل الشيطان فى هيئة سليمان وجلس على كرسيه يحكم بالسحر والاستعانة بالشياطين أقرانه. وبدأ يعبد الآلهة الأجنبية ويبنى لها المرتفعات وشاهد بنو إسرائيل ذلك وقالوا: «فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين..» والحقيقة أن سليمان عليه السلام لم يكفر «وما كفر سليمان» إذ أنَّ من قام بهذه الأفعال هو الشيطان الذى كان ملقًى على كرسيه ويحكم باسمه «**وألقينا على كرسيه جسداً**». وقد وردت كلمة «جسدا» فى القرآن الكريم ٤ مرات: مرتان إشارة إلى العجل الذى عبده بنو إسرائيل عند ذهاب موسى لميقات ربه :

«**واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً**». (١٤٨-الأعراف).

«**فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار**» . (٨٨ – طه) .

هنا المعنى خروج الذهب من طبيعته الجامدة إلى ما يشبه طبيعة أخرى «له خوار» سواء

بفعل دخول الهواء فيه أم دبت فيه بعض الحياة (الجزء الرابع من قصص الأنبياء والتاريخ. ص ٩٩٧).

والمرة الثالثة فى معرض الحديث عن طبيعة الرسل وضرورة أن يكونوا من البشر:

«وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون. وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وماكانوا خالدين» (٧ - ٨ الأنبياء). وكان الكفار يقولون بأنه لو كان الله حقيقة مرسلا رسلا لكانوا من الملائكة وليسوا بشرا. ورد عليهم القرآن الكريم احتجاجهم هذا فى موضع آخر بأن الملائكة لا تمكن رؤيتهم ولذلك لابد أن يتشكلوا فى صورة ما حتى يمكن رؤيتهم **«ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون»** (٩ - الأنعام). ثم جيء بنفس المعنى ولكن معكوسا أى أن الرسل ماهم إلا بشر ولو كانوا من الملائكة لكانت أجسامهم لها طبيعة مختلفة. مثل الرسل الذين أرسلوا إلى إبراهيم بالبشرى . فهم وإن تشكلوا فى صورة آدمية إلا أنهم لا يأكلون : **«فلما رأى أيديهم لا تصل إليه (أى إلى الطعام)...»** (٧٠ - هود) والمرة الرابعة هى فى الآية المتعلقة بفتنة سليمان.

مما سبق نرى أنه فى المرات الثلاث الأولى جاءت كلمة «جسداً» لتفيد أن الشيء المعنىّ ليس جسما حقيقيا من دم ولحم. فالعجل الذى صنعه بنو إسرائيل من حليهم لم يكن عجلا حقيقيا وإن كان له خوار. ولو كان الرسل ملائكة تشكلوا فى هيئة بشرية لكانوا جسداً لا يأكلون الطعام كما بينت الآية من سورة الأنبياء. وما دام ما ألقى على كرسى سليمان وُصف بأنه جسدٌ . فهو شيىء آخر وإن تشكّل فى صورة جسم إنسان وعلى هيئة سليمان عليه السلام. ولما كانت أفعاله تدل على الكفر فهو إذن شيطان تشكل جسدا آدميا. ونستكمل تصورنا للأمر بأن الشيطان كان قد كتب ما نزل على الملكين هاروت وماروت ببابل من فنون السحر ووضعها تحت كرسى سليمان. ولما اقترب موعد عودة سليمان اختفى الشيطان. ولكنه أعثر أحد الخدم على كتب السحر التى دسّها تحت كرسى سليمان. ونشرها الخادم على الناس وراح يذيع أن سليمان ليس نبيا وأنه يتسلط على الناس بالسحر. وجاء القرآن الكريم لينفى عن سليمان الكفر أو أنه يستخدم السحر. وأثبت أن الشياطين. وبالذات الشيطان الذى ألقى على كرسيه جسداً. هو الذى فعل ذلك مع أعوان له من الشياطين **«وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا . يعلّمون الناس السحر»** وعاد سليمان عليه السلام وعلم بما حدث فى غيابه. وأدرك أن هذا كان فتنة له وتحذيرا من تركه لنسائه يعبدن آلهتهن لأن ذلك قد يغرى نفرا من بنى إسرائيل على اتباع دياناتهن. ومن المؤكد أن سليمان عليه السلام هدم هذه المرتفعات وأزال ما بها من أصنام وخيّر نساءه بين أن يعتنقن دينه أو يُسرّحهن. وأدرك سليمان أن نزع الملك منه هو أمر فى غاية البساطة وأن كل ثرائه وجنده الملتفين حوله لا يستطيعون حمايته من

أمر الله. لذلك فإنه بالغ فى التوبة والاستغفار «وأناب». فغفر الله له ذلك. فشكر الله أن أعاد إليه الملك وطلب منه أن يهبه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده كما جاء فى الآية الكريمة.

مُلْك سليمان

لو قارنا اتساع أرض إسرائيل فى عهد داود (شكل ٣٦) وفى عهد سليمان (شكل ٤٧) لوجدنا أن سليمان قد ضم أراضى كثيرة زادت من اتساع رقعة المملكة.

«قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب. فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب. والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الأصفاد. هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب».

(٣٥ - ٤٠ - ص).

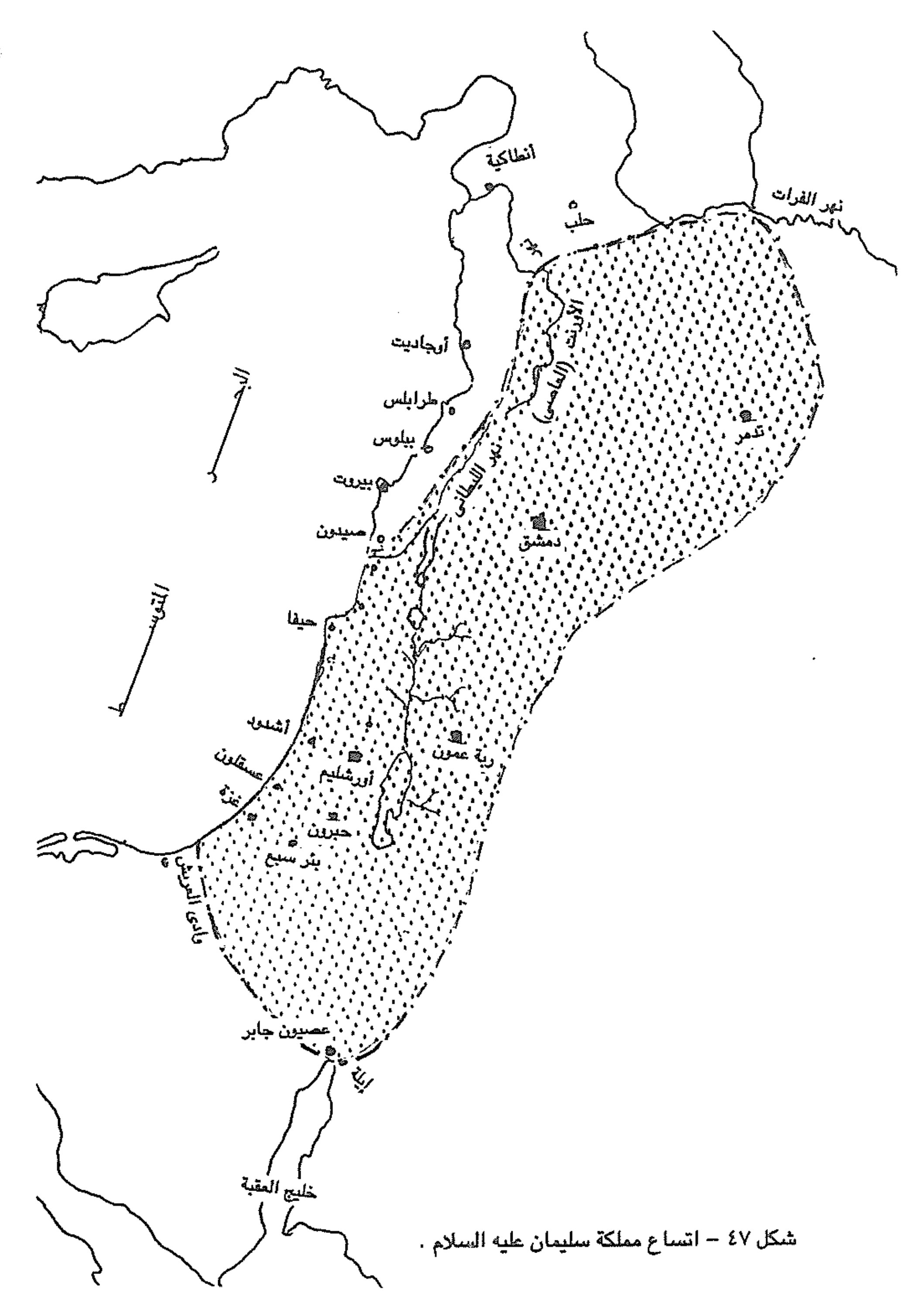
فى هذه الآية طلب سليمان عليه السلام من ربه عز وجل أن يعطيه ملكا واسعا كما طلب أن لا يعطى أحد بعده مثل ذلك. وقد تساءل بعض المفسِّرين: كيف أقدم سليمان - وهو نبى - على طلب الدنيا؟ ورد آخرون بأنه إنما طلب ذلك ليكون اتساع ملكه دليلا على نبوته وليس طلبا للدنيا ذاتها فالأنبياء أزهد خلق الله فى الدنيا. وصحيح أنه فى الفترة التى كان سليمان فيها ملكا كانت مملكة إسرائيل تعتبر كبيرة بالنسبة للدول المجاورة. (شكل ٤٨) فأشور كانت لاتزال دولة صغيرة على أعالى نهر دجلة. كما أن مصر كانت قد تمزقت وحدتها وصارت دويلات متنازعة. وكانت باقى الأرض عبارة عن دويلات مدن مثل دويلات الأراميين فى دمشق وصوبة وحلب وغيرها. ولم يكن متماسكا فى دولة واحدة إلا إسرائيل. إلاَّ أن دعوة سليمان «لا ينبغى لأحد من بعدى» تثير الحيرة. إذ لو كان المقصود هو اتساع رقعة الأرض لكان ذلك حِجرا على المستقبل وما تجرى به الأقدار لا يجوز لنبى أن يطلبه. وسنرى مدى اتساع مملكة الفرس (شكل٨١ ص ٤٢٩) أو مملكة الاسكندر الأكبر التى شملت اليونان وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر والعراق وإيران وشمال غرب الهند (شكل ٨٨ ص٤٦٠). ومن بعدها الامبراطورية الرومانية. ناهيك عن اتساع الامبراطورية الإسلامية فى عهود الأمويين والعباسيين والعثمانيين.

إلا أن الله سبحانه وتعالى قد استجاب لدعوة سليمان من وجهة نظر أخرى وأعطاه ثلاثة أشياء لم تعط لأحد من بعده وهى:

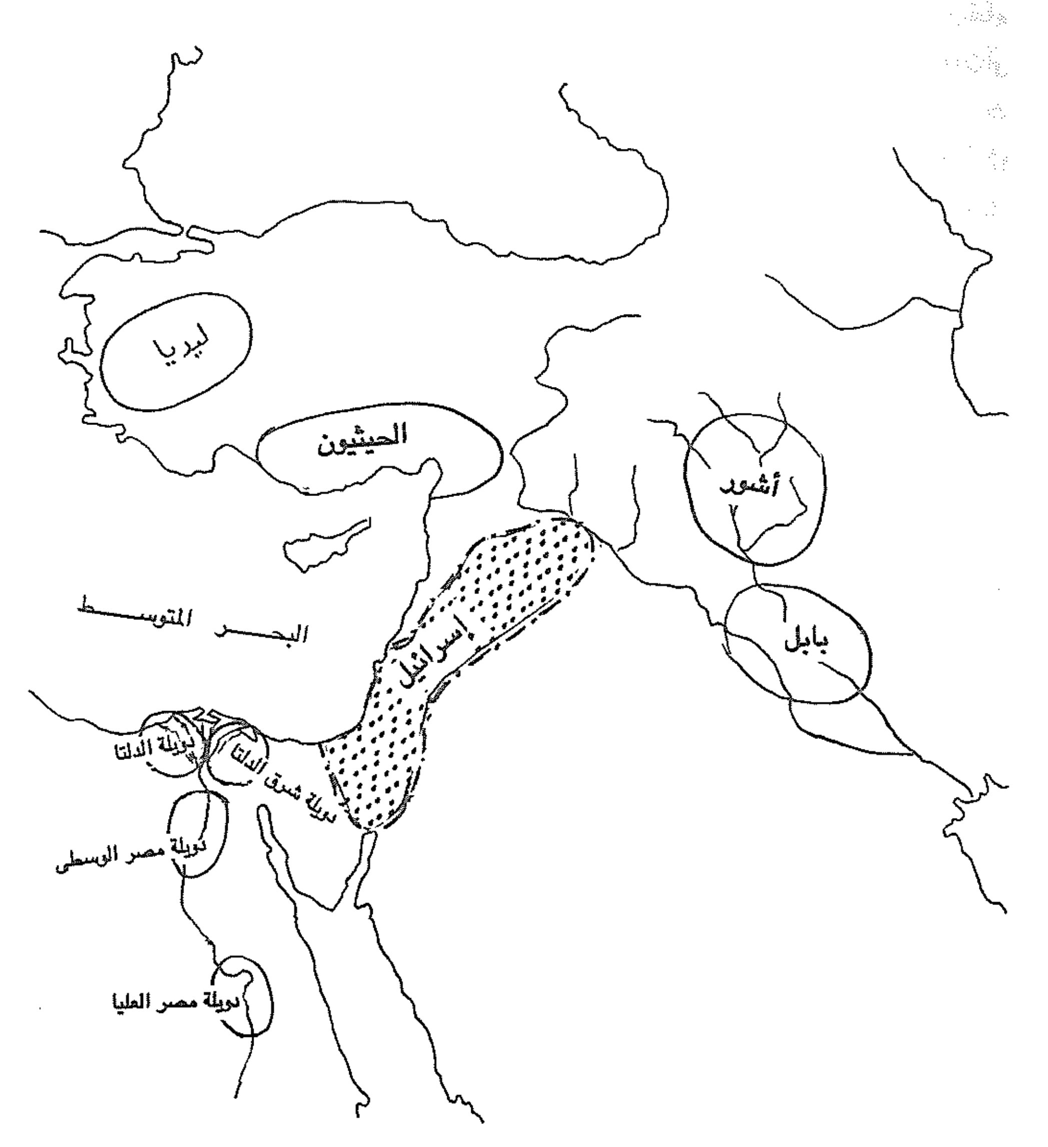
١ - تسخير الرياح .

٢ - تسخير الجن والشياطين .

٣ - الدراية بمنطق الطير .



شكل ٤٧ – اتساع مملكة سليمان عليه السلام .



شكل ٤٨ - إسرائيل أكبر دول المنطقة فى عام ٩٧٠ ق.م.

يؤيد ذلك سياق اللفظ القرآنى. إذ لما طلب سليمان من ربه أن يهب له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده جاء الرد مسبوقا بفاء الترتيب مع التعقيب « **فسخَّرنا له الريح تجرى بأمره رُخاء حيث أصاب. والشياطين كل بنَّاء وغواص وآخرين مقرَّنين فى الأصفاد. هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفى وحسن مئاب** » (٣٥ - ٤٠ - ص). وفى سورة أخرى «**وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علِّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيىء إن هذا لهو الفضل المبين**» . (١٦ - النمل).

١ - تسخير الرياح

«**ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر**» . (١٢ - سبأ) .

«**فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب**» . (٣٦ - ص).

«**ولسليمان الريح عاصفة تجرى إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شيىء عالمين**».

(٨١ - الأنبياء).

فذلل الله له الريح وسخَّرها بحيث تجرى بأمره. فإن أمرها تحرَّكت. وإن أمرها بالسكون سكنت. وقد تجرى رخاء لينة واستشكل البعض بأنها وصفت مرة بالرخاوة ومرة أخرى بصفة مضادة «عاصفة» أى الريح الشديدة. وقال ابن عباس والحسن والضحاك : رخاء مطيعة لا تخالف أمره فالمراد انقيادها له وهو لا يتنافى مع عصفها (تفسير الألوسى. جـ ٢٣ . ص ٢٠٣).

وما نراه أنه لمَّا كان من معانى الرُّخاء - بضم الراء - الأرض اللينة (القاموس المحيط . جـ ١ . ص ٣٣٧) فإن الريح اللينة تسوق السحاب إلى أرض جافة فتجعلها أرضا رُخاءً تنبت الزرع. والقرآن الكريم يقول:

«**والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها. كذلك النشور**» . (٩ - فاطر).

ولعل سليمان عليه السلام كان يعلم من الناس أو من الطير أن جهة ما فى مملكته أصابها الجدب فيأمر الريح أن تتوجه إليها. تسوق السحاب فينزل المطر وينبت الزرع ويعم الرخاء. ولاشك أن الدول المجاورة قد لمست الخير الذى عم أرض إسرائيل فى عهد سليمان. وأنه بينما كان القحط يصيب ما حولهم من دويلات فإن أرض إسرائيل كانت تنعم بالماء الوفير.

أما الريح العاصفة - أى شديدة الهبوب - فهى جند من جنود الله كما حدَّث القرآن الكريم عن غزوة الخندق:

«**إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها**» (٩ - الأحزاب). فقد أرسل الله

سبحانه وتعالى على الأحزاب ريحا شديدة الهبوب حتى لم يبق لهم خيمة ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار. وفى هذا يقول الحديث الشريف: «نُصِرتُ بالصبا وأهلكت عاد بالدبور». ومما لاشك فيه أن الطير كانت تخبر سليمان عليه السلام بتجمعات الأعداء وهى لاتزال خارج حدود مملكته فيأمر الريح عاصفة فتقتلع خيام الجند وتشتت شملهم قبل وصولهم إلى حدود بلاده وهى الأرض التى باركها الله **«ولسليمان الريح عاصفة تجرى إلى الأرض التى باركنا فيها»** لتحميها من غزو الأعداء.وهذا ما جعل عصر سليمان يتسم بالسلام ويخلو من الحروب إلا من بعض المعارك القليلة فى أخريات أيامه.

أما قولهم إن الريح كانت تحمل بساطه. وقال حسن البصرى. كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدى بها ويذهب رائحا من اصطخر فيبيت فى كابل. وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرع وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع أيضا (تفسير ابن كثير . جـ ٣ . ص ٥٢٨). وما روى عن الحسن من أن سليمان عليه السلام كان يغدو من بيت المقدس فيقيِّل فى اصطخر ثم يروح ويبيت بقلعة خراسان (تفسير الألوسى ج ٢٢. ص ١١٧) فهذه كلها تفسيرات من وحى الخيال. فأى فائدة أو عبرة للناس فى أن يغدو نبى الله من دمشق ليتغدى باصطخر ويبيت بكابل أو خراسان. كما أنه تصورٌ ساذج لكيفية استخدام القوى الخفية. كذلك من الموضوعات قولهم إن بساط سليمان الذى كانت الريح تحمله كان له ألف ركن وفى كل ركن ألف بيت. فهو مدينة كبيرة فيها مليون بيت وإذا افترضنا لكل بيت ١٠ أمتار مربعة لكانت مساحة البساط ١٠ كيلو مترات مربعة أى ٢٤٠٠ فدانا تقريبا!

٢ - تسخير الجن والشياطين :

«ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات». (١٢ - ١٣ - سبأ).

وقد سبق شرح ذلك (ص ١٦٩) عند الكلام عن التعدين. كما سبق أن ذكرنا النشاط البحرى لسليمان (ص ١٦٥) وأنه أنشأ أسطولا تجاريا فى البحر الأحمر ساعده فى بنائه حيرام ملك صور ودرَّب البحارة على قيادته وطرق السير فى أعالى البحار. ولكن بنى إسرائيل لم تكن لهم دراية بالغوص لاستخراج اللؤلؤ. لذلك سخَّر الله الشياطين للقيام بذلك بالإضافة إلى أعمال البناء ولابد أن ذلك كان بعد تشكلهم فى هيئة بشرية على شكل أقوام مجاورة غلبها سليمان وأخذ منهم أسرى وعبيدا:

«والشياطين كل بنَّاء وغوَّاص وآخرين مُقرَّنين فى الأصفاد» . (٣٦ - ٣٧ - ص).

«ومن الشياطين من يغوصون له. ويعملون عملا دون ذلك. وكنا لهم حافظين». (٨٢ - الأنبياء).

٣ - لغة الطير :

«وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس عُلِّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء، إن هذا لهو الفضل المبين». (١٦ النمل).

ومنطق الطير هو لغته التى يتعارف بها أفراد جنسه. وجاء فى تفسير الألوسى (جـ ١٩ ص ١٧٠) يحكى أنه عليه السلام مرَّ على بلبل على شجرة يُحرِّك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه. أتدرون ما يقول؟ قالوا الله تعالى ونبيه أعلم. قال يقول: أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء. وصاحت فاختة (أى أنثاه) فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يُخلَقوا. وصاح طاووس فقال يقول: كما تدين تدان. وصاح هدهد فقال يقول: استغفروا الله تعالى يا مذنبون. وصاح طيطوى فقال يقول: كل حى ميت وكل جديد بال. وصاح خطاف فقال يقول: قدِّموا خيرا خيرا تجدوه. وصاحت رخمة فقال تقول: سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وملء أرضه. وصاح قمرى فأخبر أنه يقول: سبحان ربى الأعلى وقال الحدأة تقول: كل شيء هالك إلا الله تعالى. والقطاة تقول من سكت سلم. والببغاء يقول ويل لمن الدنيا همه. والديك يقول: اذكروا الله تعالى ياغافلون. والنسر يقول: يابن آدم عش ماشئت فإن آخرك الموت. والعقاب يقول: فى البعد من الناس أنس. والضفدع يقول: سبحان ربى القدوس. والقنبرة تقول: اللهم العن مبغض محمد وآل محمد. والزرزور يقول: اللهم إنى أسألك قوت يوم بيوم يارزاق. والدارج يقول: الرحمن على العرش استوى. ويقول الألوسى ونظم الضفدع فى سلك المذكورات من الطيور ليس فى محلِّه. ومع هذا الله تعالى أعلم بصحة هذه الحكاية.

وفى رأينا أن هذا من وضع بعض السلف محاكاة لما يصدره الطير من أصوات. كما نقول فى أيامنا هذه إن الكروان يقول: المُلك لك لك لك يا صاحب المُلك. أو أن اليمامة تقول: وَحِّدوا ربكم وحِّدوا ربكم. وعلى كُلٍّ فمن المؤكد أن للطيور - كما لكل حيوانات البر والبحر - لغة يتفاهم بها أفراد الجنس الواحد يدل بها بعض أفراد القطيع البعض الآخر على مكان الغذاء أو تحذِّرها من عدوم قادم. كما تستعمل فى موسم التزاوج لاجتذاب الجنس الآخر. وقد أمكن لبعض العلماء المتخصِّصين من خلال متابعاتهم الدقيقة لبعض أنواع الحيوانات وعلى مدى عدة سنوات وتسجيل ما تصدره من أصوات فى الظروف المختلفة مثل ما تُصدِره عند الفزع أو عند العثور على غذاء - أمكنهم أن يعرفوا مدلولات جزء من لغة بعض الحيوانات. ولكن الله سبحانه وتعالى وهب لسليمان هذا العلم بلغة الطير «عُلِّمنا منطق الطير». فكان يعرف لغة الطيور كلها وقد سبق أن ذكرنا أنها ربَّما كانت تدله على مناطق الجفاف فيوجِّه إليها الريح الرخاء حاملة المطر وربما كانت تدل على تجمعات الأعداء فيوجِّه إليها الريح العاصفة تخرِّب معسكراتهم وتمنع تقدمهم.

الفصل السابع

حكمة سليمان عليه السلام

العلم هو معرفة الأمور وبواطنها - والحكمة هى حسن تقدير الأمور. وحسن التصرف فى المواقف المختلفة. ولقد آتى الله داود وسليمان علما فحمدا الله على هذه النعمة:

«**ولقد آتينا داود وسليمان علما. وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين**» . (١٥ - النمل).

ثم يقرر القرآن الكريم أن الله آتاهما الحكمة إضافة إلى نعمة العلم: «**وكلا آتينا حكما وعلما**» . (٧٩ - الأنبياء).

وزاد الله سبحانه وتعالى سليمان فى قدر الحكمة التى أوتيها وزادت مقدرته على فهم الأمور فتفوق فى هذا على والده وهو ما ذكرناه سابقا (ص ١٤٥) «**ففهمناها سليمان**» (٧٩ - الأنبياء). فصارت حكمة سليمان مضرب الأمثال.

وقد أوردت التوراة حِكم سليمان عليه السلام فى سفر أسمته «سفر الأمثال» والأولى تسميته «سفر الحكم» جمع حكمة إذ أن **الحكمة** هى عصارة خبرةٍ فى الحياة وخلاصة فهم لأسرارها تنشأ من إعمال الفكر والتعمق فى دراسة تصاريف الحياة والوقوف على فلسفة مفاهيمها. يقوم به ذهن ذكى فطِن فيتوصل إلى قاعدة عامة تحكم تصرفات الأشخاص أو تصاريف القدر وثابتة إلى حد ما فيقوم بصياغتها فى جملة مرصوصة رصًا محكما فيه إيجاز. وكلما اتسعت ثقافة الحكيم جاءت حكمته أعمق وأسدّ وأشمل. وقد نجد تشابها فى معنى حكم قيلت حول الموضوع الواحد ولكن يختلف اللفظ تبعا لثقافة وتجارب قائلها والبيئة التى عاش فيها.

أما **المثل** فهو وإن كان يشبه الحكمة فى إيجازه ونظمه إلا أنه يشير إلى واقعة معينة أو قصة وقعت فى الماضى ويريد ضارب المثل أن يشبه الموقف الحالى بالقصة السابقة فيستعمل نفس الألفاظ التى قيلت فى الماضى - دون تغيير - للتعبير فى الموقف الحالى عن تشابه الأطراف وتشابه النتائج. ومثال ذلك أن نقول «بيدى لا بيد عمرو» يقولها الرجل وتقولها المرأة وحتى لو كان الخصم المعنىُّ امرأة. يقوله من غُلِب على أمره فيقوم بنفسه بتنفيذ ما يتوقع أن يقوم به الخصم حتى يُفوِّت عليه لذّة تنفيذه. مثال آخر هو قولنا «رجع بخفىّ حنين» تُضرب لمن يروم شيئا عظيما ويبذل جهدا ولكنه لا يعود عليه إلا بالنزر اليسير وبالخيبة وحتى بضياع ما كان فى يده. والأمثال كثيرة يضيق عنها المكان وإنما ضربنا هذين المثلين لإيضاح أن ما قاله

سليمان عليه السلام ليست أمثالا بل هى حِكم. وكما قلنا كان الأولى تسمية السفر «سفر الحِكَمْ» بدلاً من «سفر الأمثال» وخاصة أن التوراة نفسها تقول «وكانت كل الأرض ملتمسة وجه سليمان لتسمع حكمته التى جعلها الله فى قلبه (ملوك أول ١٠:٢٤).

وتقول التوراة أيضا (ملوك أول ٣ :٥): وأصعد سليمان ألف محرقة على المذبح فى جبعون. وتراءى الرب لسليمان فى حلم ليلا وقال الله اسأل ماذا أعطيك. قال سليمان إنك قد فعلت مع عبدك داود أبى رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبرٍّ واستقامة قلب معك فحفظت له هذه الرحمة العظيمة. والآن أيها الرب إلهى أنت ملَّكت عبدك مكان داود أبى وأنا فتى صغير لا أعلم الخروج والدخول. وعبدك فى وسط شعبك. فأعط عبدك قلبا فهيما لأحكم على شعبك وأميِّز بين الخير والشر. فحَسُنَ الكلام فى عينى الرب لأن سليمان سأل هذا الأمر فقال له الله: من أجل أنك قد سألت هذا الأمر ولم تسأل لنفسك أياما كثيرة. ولا سألت لنفسك غنى. ولا سألت أنفُس أعدائك. بل سألت لنفسك تمييزًا لتفهم الحكم. هو ذا قد فعلتُ حسب كلامكَ. هو ذا قد أعطيتك قلبا حكيما ومميِّزا حتى إنه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك. قد أعطيتك أيضا مالم تسأله غنى وكرامة حتى أنه لا يكون مثلك فى الملوك كل أيامك. فإن سلكت فى طريقى وحفظت فرائضى ووصاياى كما سلك داود أبوك فإنى أطيل أيامك. فاستيقظ سليمان فإذا هو حلم. وجاء إلى أورشليم ووقف أمام تابوت عهد الرب وأصعد محرقات وقرَّب ذبائح سلامة وعمل وليمة لكل عبيده.

وسفر الأمثال فى التوراة مكون من ٣١ إصحاحا فى ٣٤ صفحة. وكل إصحاح يتناول موضوعات شتى هى الحكم التى كان يدلى بها لأصحابه فى أوقات مختلفة. وقد اخترنا بعض هذه الحكم ورتبناها حسب موضوعاتها ليسهُل استيعابها. وهو ما يشبه ما يقوم به البعض بالنسبة للقرآن الكريم من تجميع الآيات التى تتعلق بموضوع واحد مثل: المورايث أو معاملة الوالدين أو غير ذلك وهو ما يسمى «ترتيب موضوعى» لبعض الآيات. وها هى بعض من حِكَم سليمان عليه السلام مرتبة ترتيبا موضوعيا.

١ - فى الشريعة ومخافة الرب والتوكل عليه :

- لا تنس شريعتى وليحفظ قلبك وصاياى فإنها تزيدك طول أيام وسِنى حياة سلامة.
- لا تدع الرحمة والجق يتركانك. تَقلَّدهما فى عنقك. اكتبها على لوح قلبك فتجد نعمة وفطنة صالحة فى أعين الله والناس.
- توكل على الرب بكل قلبك وعلى فهمك لا تعتمد. فى كل طرقك اعرفه. وهو يُقَوِّم سُبُلَك.
- لا تكن حكيما فى عينى نفسك. اتق الرب وابعد عن الشر فيكون شفاء لنفسك.

- للإنسان تدابير القلب ومن الرب جواب اللسان.

- كل طرق الانسان تقيه فى عينى نفسه. والرب وازن الأرواح.

- ألق على الرب أعمالك فتثبت أفكارك .

- البوطة للفضة . والكور للذهب. وممتحن القلوب الرب.

- اسم الرب برج حصين يركن إليه الصِّدِّيق ويجد فيه منَعة.

- فى قلب الإنسان أفكار كثيرة. لكن مشورة الرب هى تثبيت .

- مخافة الرب أدب حكمة. وقبل الكرامة التواضع .

- فى سبيل البر حياة. وفى طريق مسلكه لا موت.

- فى مخافة الرب ثقة شديدة. ويكون لبنيه ملجأ .

- مخافة الرب ينبوع حياة لتجنب أشراك الموت .

- الفرس معد ليوم الحرب. أما النصرة فمن الرب .

- فى كل مكان عينا الرب مراقبتان للطالحين وللصالحين.

- بَركة الرب هى تُغنى ولا يزيد معها تعبا .

- منهج المستقيمين تجنب الشر .

- حافظ نفسه حافظٌ طريقه .

- لا يحسدنَّ قلبك الخاطئين . بل كن فى مخافة الرب اليوم كله لأنه لابد من ثواب ورجاؤك لا يخيب.

٢ - فى الحكمة والفهم والمعرفة :

- الرب بالحكمة أسَّس الأرض. أثبت السموات بالفهم. بعلمه انشقَّت اللجج وتقطر السحاب ندى. احفظ الرأى والتدبير فيكون حياةً لنفسك ونعمة لعنقك. حينئذ تسلك فى طريقك آمنا . ولا تعثر رجلك. لا تخشى من خوف باغت. ولا من خراب الأشرار إذا جاء لأن الرب يكون معتمدك ويصون رجلك من أن تؤخذ.

- طوبى للإنسان الذى يجد الحكمة. للرجل الذى ينال الفهم لأن تجارتهما خير من تجارة الفضة. وربحهما خير من الذهب. هى أثمن من اللآلىء وكل جواهرك لا تساويها .

- نبع الحكمة نهر متدفق .

- اقتناء الذهب خير من الفضة، واقتناء الحكمة خير من الذهب.
- إن كنت حكيما فأنت حكيم لنفسك، وإن استهزأت فأنت وحدك تتحمَّل.
- أعطِ حكيما فيكون أوفر حكمة. علم صدِّيقا فيزداد علما .
- بدء الحكمة مخافة الرب، ومعرفة القدُّوس فهم.
- الفطِن من جهة أمر يجد خيرا . ومن يتكل على الرب فطوبى له.
- حكيم القلب يدعى فهيما . وحلاوة الشفتين تزيد علما .
- الفطنة ينبوع حياة لصاحبها.
- قلب الحكيم يرشد فمه، ويزيد شفتيه علما .
- ذو المعرفة يبقى كلامه، وذو الفهم وقور الروح .
- المقتنى الحكمة ينفع نفسه . الحافظ الفهم يجد خيرا .
- قلب الفهيم يقتنى معرفة . وأذن الحكيم تطلب علما .
- كون النفس بلا معرفة ليس حسنا .
- طريق الحياة للفطن إلى فوق لتجنب الهاوية من تحت .
- يوجد ذهب وكثرة لآلىء، أما شفاه المعرفة فكنز ثمين .
- وجِّه قلبك إلى الأدب وأذنيك إلى كلام المعرفة.
- كن حكيما وأرشد قلبك فى الطريق.
- اقتن الحق ولا تبعْه، والحكمة والأدب والفهم.
- قلب الفهيم يطلب المعرفة، وفهم الجُهَّال يرعى حماقة.

٣ - الحكمة تنادى (أمثال ٨:١) :

ألعل الحكمة لا تنادى والفهم ألا يعطى صوته عند رؤوس الشواهق عند الطريق بين المسالك تقف بجانب الأبواب عند ثغر المدينة، عند مدخل الأبواب تُصَرِّح: لكم أيها الناس أنادى وصوتى إلى بنى آدم، أيها الحمقى تعلَّموا ذكاء، ويا جُهَّال تعلَّموا فهما . اسمعوا فإنى أتكلم بأمور شريفة، وافتتاح شفتى استقامة لأن حنكى يلهج بالصدق، ومكرهة شفتى الكذب، كل كلمات فمى بالحق، ليس فيها عوج ولا إلتواء، كلها واضحة لدى الفهيم، ومستقيمة لدى الذين يجدون المعرفة، خذوا تأديبى لا الفضة، والمعرفة أثمن من الذهب المختار لأن الحكمة خير من اللآلىء وكل الجواهر لا تساويها .

أنا الحكمة أسكن الذكاء وأجد معرفة التدابير. مخافة الرب بغض الأشرار. الكبرياءَ والعظمة وطريق الشر وفمَ الأكاذيب أبغضتُ . لى المشورة والرأى. أنا الفهم . بى القدرة. بى تقضى الملوك وتقضى العظماء عدلا. بى تترأس الرؤساء والشرفاء وكل قضاة الأرض. أنا أحب الذين يحبوننى. والذين يبكّرون إلىَّ يجدوننى. عندى الغِنى والكرامة. قنية فاخرة وحظ. ثمرى خير من الذهب ومن الإبريز. وغلّتى خير من الفضة المختارة. فى طريق العدل أتمشّى فى وسط سبل الحق فأورِّث محبِّىَّ رزقا وأملأ خزائنهم.

فالآن أيها البنون اسمعوا لى. فطوبى للذين يحفظون طرقى. اسمعوا التعليم وكونوا حكماء ولا ترفضوه. طوبى للإنسان الذى يسمع لى ساهرا كل يوم عند مصاريعى حافظا قوائم أبوابى لأنه مَنْ يجدنى يجد الحياة وينال رضى الرب. ومن يُخطىء عنى يضرُّ نفسه.

الحكمة بنت بيتها. تحت أعمدتها السبعة أرسلت جوابها تنادى على ظهور أعالى المدينة. من هو جاهل فليمل إلى هنا. والناقص الفهم قالت له: هلمُّوا كلوا من طعامى واشربوا من الخمر التى مزجتها. اتركوا الجهالات فتحيوا. وسيروا فى طريق الفهم.

فى البدء كانت الكلمة منذ الأزل. الرب أوجدنى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم. منذ الأزل منذ البدء منذ أوائل الأرض. إذ لم يكن غمر (مياه) من قبل أن تقررت الجبال والتلال. إذ لم يكن صنَعَ الأرضَ بعدُ ولا البرارى. لما ثبَّت السموات كنت هناك أنا. لما أثبت السحب من فوق لما وضع للبحر حده فلا تتعدَّى المياه تخمه (حدوده) لما رسم أسس الأرض كنت قد وُجِدتُ.

يا ابنى. إن قبلت كلامى وخبأت وصاياى عندك حتى تميل أذنك إلى الحكمة وتُعطِّف قلبك على الفهم. إن دعوت المعرفة ورفعت صوتك إلى الفهم. إن طلبتها كالفضة وبحثت عنها كالكنوز. فحينئذ تفهم مخافة الرب وتجد معرفة الله لأن الرب يعطى حكمة من قمة المعرفة والفهم يدَّخر معونة للمستقيمين والسالكين بالكمال لنصر مسالك الحق وحفظ طريق أتقيائه. حينئذ تفهم العدل والحق والاستقامة.

إذا دخلت الحكمة قلبك ولذَّت المعرفة لنفسك. فالعقل يحفظك والفهم ينصرك لإنقاذك من طريق الشر ومن الإنسان المتكلم بالأكاذيب . التاركين سبل الاستقامة للسلوك فى مسالك الظلمة. الفرحين بفعل السوء. المبتهجين بأكاذيب الشر. الذين طرقهم معوجة وهم ملتوون فى سبيلهم.

اسمع يا ابنى. أريتُك طريق الحكمة. هديتُك سبيل الاستقامة. تمسَّك بالأدب. لا تُرْخِه. احفظه فإنه حياتك. لا تدخل فى سبيل الأشرار ولا تسر فى طريق الأثمة. تنكَّب عنه. لا تمرَّ به. حِدْ عنه واعبر لأنهم لا ينامون إن لم يفعلوا سوءا. وينزع نومهم إن لم يُسقِطوا أحداً لأنهم يطعمون خبز الشر. ويشربون خمر الظلم. أما سبل الصِّديقين فهى مثل نور مشرق يتزايد وينير إلى النهار الكامل. أما طريق الأشرار فهى كالظلام.

يا أبنى. اصغ إلى كلامى. أمل أذنك إلى أقوالى لا تبرح عن عينيك. احفظها فى وسط قلبك لأنها حياة للذين يجدونها. ودواء لكل الجسد. احفظ قلبك لأن منه مخارج الحياة. انزع عنك التواء الفم. وأبْعِد عنك انحراف الشفتين. لِتنظر عيناك إلى قدامك وأجفانك إلى أمامك مستقيما. مَهِّد سبل رجلك فتثبُت كل طرقك. لا تمل يمنة ويسرة. باعد رجلك عن الشر.

الحكمة تنادى فى الخارج قائلة: إلى متى أيها الجُهَّال تحبُّون الجهل؟ رفضتم كل مشورتى. فأنا أيضا أضحك عند بليَّتكم. أشمت عند مجىء خوفكم. أما المستمع لى فيسكن آمنا ويستريح من خوف الشر.

٤ - مقارنة بين الحكمة والجهل :

- الحكمة عند الفهيم وعينا الجاهل فى أقصى الأرض.
- الجاهل لا يُسَرُّ بالفهم بل يكشف قلبه .
- فم الجاهل مهلكة له وشفتاه شرك لنفسه .
- شفتا الجاهل تداخلان فى الخصومة. وفمه يدعو بضربات .
- الأغبياء يرثون الحماقة. والأذكياء يُتوَّجون بالمعرفة .
- الحماقة فرح لناقصى الفهم. أما ذو الفهم فيُقوِّم سلوكه.
- البغضة تهيج خصومات. والمحبة تستر كل الذنوب.
- فى شفتى العاقل توجد حكمة. والعصا لظهر الناقص الفهم.
- من فم الجاهل قد يكون هلاكه. أما شفاه الحكيم فتحفظهم.
- من يحفظ فمه ولسانه يحفظ من الضيقات نفسه. وهذا يشبه الحكمة العامية التى تقول: لسانك حصانك إن صنته صانك.
- لسان الحكماء يُحَسِّن معرفة. وفم الجهال ينبع حماقة.
- الحكماء يذخرون معرفة. أما فم الغبى فهلاك قريب.
- شفتا الصدِّيق تهديان كثيرين. أما الأغبياء فيموتون من نقص الفهم.
- توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت.
- الحكيم يخشى ويتجنب الشر والجاهل يتصلَّف ويثق.
- الغبى يصدِّق كل كلمة. والذكى ينتبه إلى خطواته.

٥ - الحث على التروّى والمشورة :

- مقاصدُ بغير مشورة تبطل. وبكثرة المشيرين تقوم .
- المشورة فى قلب الرجل مياه عميقة. وذو الفطنة يستقيها .
- المقاصد تثبت بالمشورة. وبالتدابير اعمل حربا .
- المستعجل برجليه يخطىء .

٦ - الحث على تجنب أصدقاء السوء :

كان السلب بالقوة منتشرا فى تلك الأيام وكان الأشرار (يسميهم هنا الخطاة) لا يتورعون عن اقتراف العنف لنوال مغنم. وهو فى هذه الفقرة يحث على رفض الدعوة للمشاركة فى مغنمهم الأثيم ورفض المشاركة فى أفعالهم الشريرة فيقول:

يا ابنى إن تملَّقك الخطاة فلا ترضَ. إن قالوا هلُمَّ معنا لنختف للبرىء لنقتله لنبتلعهم أحياء كالهاوية وصحاحا كالهابطين فى الجب فنجد كل قنية فاخرة ونملأ بيوتنا غنيمة. تُلقى قرعتك وسطنا (أى تشاركنا أفعالنا وتشترك فى الغنيمة) يكون لنا جميعا كيس واحد. يا ابنى لا تسلك فى الطريق معهم. امنع رجلك عن مسالكهم لأن أرجلهم تجرى إلى الشر وتسرع إلى سفك الدماء.

٧ - قبول تأديب الرب :

هذا اللفظ «تأديب الرب» تردد عدة مرات فى «سفر الأمثال» - كما تردد أيضا فى قصة أيوب عليه السلام (الجزء الثالث من هذه السلسلة. ص ٥٩٤) ومعناه أن الإنسان إذا ارتكب خطيئة فإن الله يجازيه بسوء يقع به فى ماله أو جسده جزاء لما فعل حتى يرتدع. وهذا نوع من التأديب الذى ينزله الله بالعبد. وواجب المرء حينئذ أن يَعِىَ ذلك فلا يضجر مما ينزل به. ومن أمثال سليمان عليه السلام التى قالها فى هذا المعنى:

- يا ابنى. لا تحتقر تأديب الرب ولا تكره توبيخه لأن الذى يحبه الرب يؤدبه وكأب بابن يُسَرّ به. فلا تسخط على ما ينزل بك من بلاء لأن ذلك تأديب الرب.
- من يحب التأديب يحب المعرفة. ومن يبغض التأديب فهو بليد .
- هوان لمن يرفض التأديب ومن يلاحظ التوبيخ (ويقبله) يكرم.

٨ - مقابلة بين الخير والشر وبين الصدِّيقين والأشرار :

- كنوز الشر لا تنفع. أما البر فينجى من الموت.

– بركات على رأس الصدِّيق. أما رأس الأشرار فيغشاه ظلم .
– فم الصدِّيق ينبوع حياة. وفم الأشرار يغشاه ظلم.
– عمل الصدِّيق للحياة . ربح الشرير للخطية .
– لسان الصدِّيق فضة مختارة. قلب الأشرار كشيء زهيد.
– مخافة الرب تطيل العمر. أما سنو الأشرار فتقصر .
– الصدِّيق لن يزحزَحَ أبداً . والأشرار لن يسكنوا الأرض .
– فم الصدِّيق ينبت الحكمة. ولسان الأشرار كذب ويُقطع .
– برّ المستقيمين ينجيهم. أما الغادرون فيؤخذون بفسادهم.
– الصدِّيق ينجو من الضيق والشرير يهلك.
– كما أن البر يؤدى إلى الحياة. كذلك من يتبع الشر فإلى موته.
– من يطلب الخير يلتمس الرضا . ومن يطلب الشر فالشر يأتيه.
– أفكار الصدِّيق عدل. تدابير الأشرار غش .
– لا يصيب الصدِّيق شر. أما الأشرار فيمتلئون مصائب.
– بيت الأشرار يخرب. وخيمة المستقيمين تُزهِر.
– فى بيت الصدِّيق كنز عظيم. وفى داخل الأشرار كدر
– الرب بعيد عن الأشرار. ويسمع صلاة الصديقين .
– ذبيحة الأشرار مكرهة للرب . وصلاة المستقيمين مرضاته.

٩ – فى عدم الشماتة :

الفرحان ببليَّة غيره لا يتبرأ .

١٠ – فى الوشاية :

– الساعى بالوشاية يُفشى السر. والأمين الروح يكتم الأمر.
– الرسول الشرير يقع فى الشر . والسفير الأمين شفاء .

١١ - فى الجهل والحمق :

- طريق الجاهل مستقيم فى عينيه. أما سامع المشورة فحكيم .
- كل ذكى يعمل بالمعرفة. والجاهل ينشر حمقا .
- بحسب فطنته يُحمد الإنسان. أما الملتوى القلب فله الهوان .
- ليصادف الإنسان دبة ثكول ولا جاهل فى حماقته .
- من يلد جاهلا فلحزنه ولا يفرح أبو الأحمق .
- الأحمق إذا سكت يُحسب حكيما . فإذا تكلم ظهر حمقه .
- من يجيب عن أمر قبل أن يسمعه فله حماقة وعار .
- حماقة الرجل تعوِّج طريقه. وعلى الرب يحنق قلبه.
- كل أحمق ينازع . مجد الرجل أن يبتعد عن الخصام .
- الحكماء ينالون مجدا . والحمقى يحملون هوانا .

١٢ - فى الحث على عدم الاعتداء على حقوق الآخرين :

- لا تنقل التخم القديم الذى وضعه آباؤك (التخم هى العلامات التى تُدَق لتفصل بين الحقول المتجاورة. ونقل الحدّ مرض منتشر بين الفلاحين).

- لا تنقل التخم القديم. ولا تدخل حقول الأيتام لأن وليهم قوى (هو الله). هو يقيم دعواهم عليك(وينصرهم).

- لا تمنع الخير عن أهله حين يكون فى طاقة يدك أن تفعله. ولا تقل لصاحبك غداً أعطيك وغداً موجود عندك.

- لا تخترع شرا على صاحبك وهو ساكن لديك آمنا. لا تخاصم إنسانا بدون سبب إن لم يكن قد صنع معك شرا.

١٣ - فى الحث على الصدقات :

- يوجد من يُفَرِّق (صدقات) فيزداد أيضا. ومن يمسك أكثر من اللازم (أى البخيل) فإنما إلى الفقر .

وهذا يقابل : - ما نقصت صدقة من مال.

– حصنّوا أموالكم بالزكاة .

– اللهم أعط منفقا خلفا. وأعطِ ممسكا تلفا .

– النفس السخية تُسَمَّن .

– محتكر الحنطة يلعنه الشعب. والبركة على رأس البائع .

– من يرحم الفقير يقرض الرب وعن معروفه يجازيه .

– من يسد أذنيه عن صراخ المسكين فهو أيضا يصرخ ولا يستجاب له .

– لا تسلب الفقير لكونه فقيرا. ولا تسحق المسكين فى الباب. لأن الرب يقيم دعواهم ويسلب سالبى أنفسهم.

١٤ – فى الفقر والغنى :

– الغِنى يكثر الأصحاب. والفقير منفصل عن قريبه .

– أيضا من قريبه يُبغَض الفقير . ومحبُّو الغنى كثيرون .

– القليل مع مخافة الرب. خير من كنز عظيم مع هَمّ.

– المقترض عبد للمقرِض. وهو يقابل : الدين هَم بالليل وذل بالنهار

– يوجد من يتغانى ولا شيىء عنده. ومن يتفاقر وعنده غنى جزيل .

– المستهزىء بالفقير يُعَيِّر خالقه .

– بتضرعات يتكلم الفقير . والغنى يجاوب بخشونة .

– الغنى والفقير يتلاقيان . صانعهما كليهما الرب .

١٥ – فى الحث على العدل :

– تغريم البرىء ليس بحسن. وكذلك ضرب الشرفاء .

– فعل العدل والحق أفضل عند الرب من الذبيحة .

– التابع العدل والرحمة يجد حياة حظا وكرامة .

– إجراء الحق فرح للصِّدِّيق وهلاك لفاعلى الإثم .

– الرجل الظالم يُغوِى صاحبه ويسوقه إلى طريق غير صالحة .

– ظالم الفقير ليكثر ماله فقير. والمتقرب زلفى للغنى أيضا فقير.

١٦ - فى التواضع والتكبُّر :

- ثواب التواضع ومخافة الرب هو غني وكرامه وحياة.
- تأتى الكبرياء فيأتى الهوان . ومع المتواضعين حكمة .
- الرب يقلع بيت المتكبرين. ويُوطِّد تخم المتواضعين .
- تواضع الروح مع الودعاء خير من قَسْمِ الغنيمة مع المتكبرين .

١٧ - فى الخمر :

- الخمر مستهزئه. السكر عَجَاج (أى غبار) ومن يترنَّح بهما ليس بحكيم.
- لا تكن بين شاربى الخمر. بين المتلفين أجسادهم لأن السكير والمسرف يفتقران.
- محب الخمر لا يصبح غنيا .
- لمن الويل؟ لمن الشقاوة؟ لمن المخاصمات؟ لمن الكرب؟ لمن الجروح بلا سبب؟ لمن ازمهرار العين؟ للذين يدمنون الخمر. الذين يدخلون فى طلب الشراب الممزوج.
- لا تنظر إلى الخمر إذا احمَّرت حين تظهر حبابها فى الكأس (الحباب الفقاقيع تظهر على سطح السائل) وساغت مرقرقة. فى الآخر تلسع كالحية وتلدغ كالأفعوان. عيناك تنظر الأجنبيات (وتبحلق فيهن) وقلبك ينطق بأمور ملتوية ويكون كالمضطجع فى قلب البحر أو كمضطجع على رأس سارية.

١٨ - فى الغش والمال الحرام :

- موازين الغش مكرهة للرب. والوزن الصحيح رضاه .
- المولع بالكسب الحرام يُكدِّر بيته والكاره الرشوة يعيش .
- غِنى البُطل (المكتسب بالباطل) يقل . والجامع بيده يزداد .
- القليل مع العدل خير من دخل جزيل بغير حق.

١٩ - فى النهى عن الكسل والحث على العمل :

- العامل بيد رخوة (الكسول) يفتقر . أما يد المجتهد فتغنى.
- شهوة الكسلان تقتله لأن يديه تأبيان الشغل .

– يد المجتهد تسود. أما الرخوة فتكون تحت الجزية .

– الرخاوة لا تمسك صيدا . أما ثروة الإنسان الكريمة فهى الاجتهاد .

– نفس الكسلان تشتهى ولا شيىء لها. ونفس المجتهدين تسمن .

– فى كل تعب منفعة ومن يكتفى بكلام الشفتين إنما هو إلى فقر.

– المتراخى فى عمله أخو المسرف .

– من يشتغل بحقله يشبع خبزا. أما تابع البطالين فهو عديم الفهم.

– من ثمر يد الإنسان يشبع بطنه. والنفس المتراخية تجوع .

– الكسلان لا يحرث بسبب البرد. فيستعطى فى الحصاد ولا يُعطىَ.

– لا تحب النوم لئلا تفتقر. افتح عينيك (استيقظ واعمل) تشبع خبزا .

– الإنسان يشبع خيرا من ثمرة يده. ومكافأة يدى الإنسان تُرَدُّ له .

٢٠ – فى الغضب :

– البطىء الغضب خير من الجبار . والمتسامح خير ممن يأخذ مدينة .

– تعقل الإنسان يبطىء غضبه. وفخره الصفح عن إساءة .

– لا تستصحب غضوبا . ومع رجل ساخط لا تمشى لئلا تألف طرقه .

– بطىء الغضب كثير الفهم . وسريع الغضب أحمق .

– الجواب اللين يصرف الغضب. والكلام الموجع يهيج السخط .

– الرجل الغضوب يهيج الخصومة. وبطىء الغضب (الحليم) يسكِّن الخصام .

٢١ – فى العفو والتسامح :

– لا تقل إنى أجازى شرا . انتظر الرب فيخلِّصك .

– معيار فمعيار. مكيال فمكيال (أى رد الشر بمثله) كلاهما مكرهة للرب.

٢٢ – فى شهادة الزور :

– شاهد الزور لا يتبرَّأ. والمتكلم بالأكاذيب لا ينجو .

– الشاهد اللئيم يستهزىء بالحق. وفم الأشرار يبلع الإثم .
– شاهد الزور يهلك . والرجل السامع للحق يتكلم .
– الشاهد الأمين لا يكذب . والشاهد الزور يتكلم بالأكاذيب .
– الشاهد الأمين منجى للنفوس . ومن يتفوّه بالأكاذيب فغشٌ .
– من يتفوّه بالحق يُظهر العدل . والشاهد الكاذب يُظهر غشا .
– مُبرِّىء المذنب ومذنِّب البرىء كلاهما مكرهة للرب .

٢٣ – الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة :

– كراهة الرب شفتا كذب. أما العاملون بالصدق فرضاه.
– خبز الكذب لذيذ للإنسان ومن بعده يمتلىء فمه حصى .
– جمع الكنوز بلسان كاذب هو بخار مطرود لطالبى الموت .
– كثرة الكلام لا تخلو من معصية . أما الضابط شفتيه فعاقل .
– رجل الأكاذيب يطلق الخصومة. والنَّمام يفرِّق الأصدقاء .
– كلام النمَّام مثل لقم حلوة وهو ينزل إلى مخادع البطن .
– الكلام الحسن شهد عسل . حلو للنفس وشفاء للعظام .
– المتقلِّب اللسان يقع فى السوء . والملتوى القلب لا يجد خيرا .
– يوجد من يهزر مثل طعن السيف . أما لسان الحكماء فشفاء .
– هدوء اللسان شجرة حياة . واعوجاجه سحق فى الروح .
– شفة الصِّديق تثبت إلى الأبد. ولسان الكذب إنما هو لطرفة عين .
– للإنسان فرح بجواب فمه. والكلمة فى وقتها ما أحسنها .

٢٤ – فى الملوك :

– الملك الحكيم يشتت الأشرار ويرد عليم النورج .
– الرحمة والحق يحفظان الملك. وكرسيُّه يُسند بالرحمة .
– قلب الملك فى يد الرب كجداول مياه حيثما شاء يميله .
– يُكرَه من الملوك فعل الشر لأن الكرسى يثبت بالبر .

– فى نور وجه الملك حياة، ورضاه كسحاب المطر .

– حيث لا تدبير يسقط الشعب أما الخلاص فبكثرة المشيرين .

٢٥ – فى تأديب الأب لابنه :

– اسمع يا ابنى تأديب أبيك . ولا ترفض نصائح أمك . لأنها إكليل نعمة لرأسك وقلائد لعنقك .

– يا ابنى . احفظ وصايا أبيك، ولا تترك نصائح أمك، اربطها على قلبك قلِّد بها عنقك، إذا ذهبت تهديك، إذا نمت تحرسك، وإذا استيقظت فهى تحدِّثك لأن الوصية مصباح، والنصائح نور.

– من يمنع عصاه يمقت ابنه . ومن أحبَّه يطلب له التأديب بمعنى أن تأديب الابن بالضرب هو دليل محبة، وكما قيل «فليقس أحيانا على من يرحم».

– أدِّب ابنك لأن فيه رجاء ولكن على أمانته لا تحمل نفسك .

– لا تمنع التأديب عن الولد لأنك إن ضربته بعصا فلن يموت، تضربه أنت بعصا فتنقذ نفسه من الهاوية.

– رَبِّ الولد فى طريق مستقيم فمتى شاخ لا يحيد عنه (أى من شبَّ على شيىء شاب عليه).

٢٦ – فى الأبناء :

– الابن الحكيم يسر أباه، والابن الجاهل حُزْن لأمه .

– الابن الحكيم يسر أباه . والابن الجاهل يحتقر أمه .

– الابن الحكيم يقبل التأديب . والمستهزىء لا يسمع انتهارا .

– الابن الجاهل غم لأبيه . ومرارة للتى ولدته .

– الابن الجاهل مصيبة على أبيه .

– اسمع لأبيك الذى ولدك، ولا تحتقر أمك إذا شاخت .

– من وُلِد حكيما يُسَرُّ به، يفرح أبوك وأمك وتبتهج التى ولدتك.

– من سب أباه وأمه ينطفىء سراجه فى حدقة الظلام .

٢٧ - فى الزوجة :

- المرأة الفاضلة تاج لبعلها . أما المخزية فهى كنخر فى العظام .
- حكمة المرأة تبنى بيتها . والحمَّاقة تهدمه بيدها .
- من يجد زوجة فاضلة يجد خيرا وينال رضا الرب .
- مخاصمات الزوجة كالبيت المتهاوى . أما الزوجة المتعقِّلة فمن عند الرب.
- السكنى فى أرض برية خير من امرأة مخاصمة حَرِدة .

٢٨ - فى المرأة الأجنبيه ونهى عن الزنا :

- فم الأجنبيات هوة عميقة ممقوت الرب يسقط فيها .
- لا تشته امرأة أجنبية بقلبك. ولا تأخذك بهدبها لأنه بسبب امرأة زانية يفتقر المرء إلى رغيف خبز .
- أيأخذ إنسان نارا فى حضنه ولا تحترق ثيابه؟ أو يمشى إنسان على الجمر ولا تكتوى رجلاه؟ هكذا من يدخل على امرأة صاحبه. كل من يمسَّها لا يكون بريئا .
- الزانى بامرأة هو عديم الفهم. المهلك نفسه هو يفعله. ضربًا وخزيا يجد وعاره لا يمَّحى. لأن الغيرة هى حمِيّة الرجل. فلا يشفق فى يوم الانتقام. لا ينظر إلى فدية ولا يرضى ولو أكثرت الرشوة.

ثم يحكى قصة شاب أغوته امرأة غاب عنها زوجها فى سفر فيقول: من كوة بيتى تطلعت فرأيت غلاما عديم الفهم عابرا فى الشارع صاعدا فى طريق بيتها فى حدقة الليل والظلام. واستقبلته المرأة خبيثة القلب فى بيتها فأمسكته وقبلته وقالت له: بالديباج فرشت سريرى بموشى كتان من مصر. عطَّرت فراشى بمرٍّ وعودٍ وقرفة. هلم نرتَوِ ودًّا إلى الصباح نتلذَّذ بالحب لأن الرجل ليس فى البيت. ذهب فى طريق بعيدة. يوم الهلال يأتى إلى بيته. أغوته بكثرة فنونها . ذهب وراءها لوقته كثور هائج إلى المذبح. كطير يسرع إلى الفخ. والآن أيها الأبناء اسمعوا لى واصغوا لكلمات فمى. لا يمل قلبك إلى طرقها ولا تشرد فى مسالكها لأنها طرحت كثيرين جرحى. وكل قتلاها أقوياء. طرق الهاوية إلى بيتها هابطة إلى حدود الموت. تقف عند باب بيتها فى أعالى المدينة لتنادى عابرى السبيل. من هو جاهل فليمل إلى هنا . والناقص الفهم تقول له: المياه المسروقة حلوة وخبز الخفية لذيذ. ولا يَعلم أن فى أعماق الهاوية ضيوفها .

٢٩ - أمثال عامة :

- المساير الحكماء يصير حكيما ورفيق الجهال يصير جاهلا .
- إذا أرضت الرب طرق الإنسان جعل أعداءه أيضا يسالمونه .
- قلب الإنسان يفكر فى طريقه والرب يهدى خطوته - (مثل المثل المعاصر : العبد فى تفكير والرب فى تدبير).
- كل طرق الإنسان نقية فى عينى نفسه . والرب وازن الأرواح .
- من يحتقر قريبه يخطىء. ومن يرحم المساكين فطوبى له .
- مخافة الرب فى تجنب الشر . وبالرحمة والحق يُستَر الإثم .
- من يجازى عن خير بشرٍّ لن يبرح الشر من بنيه .
- الصيت أفضل من الغنى العظيم .
- الزارع إثما إنما يحصد بَلِيَّة .
- المحتقر صاحبه هو ناقص الفهم .
- الرجل الرحيم حسن إلى نفسه . والقاسى يُكدِّر لحمه .

٣٠ - ختام :

- اذكر خالقك فى أيام شبابك قبل أن تأتى أيام الشر أو تجيء السنون. قبل ما تُظلِم الشمس والنور والقمر والنجوم. فى يوم يتزعزع فيه حَفَظَةُ البيت. لأن الإنسان ذاهب إلى بيته الأبدى والنادبون يطوفون فى السوق فيرجع التراب إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله الذى أعطاها .

حِكَم سليمان وتعاليم أمنمؤوبى

أثار بعض كتاب الغرب مسألة وجود بعض تشابه بين حكم سليمان عليه السلام وتعاليم الحكيم المصرى القديم أمنمؤوبى Amen-em-Opet ومن ثم قالوا إن الأولى مشتقة من الثانية.

وأمنمؤوبى من أهل أخميم فى صعيد مصر وكان أحد موظفى الإدارة الخاصة بمخازن الحبوب. وقد عثر على هذه التعاليم فى بردية وجدت فى قبره فى الجبل الغربى فى أخميم. واشتراها أحد تجار الأقصر من تاجر أخميم. ثم اشتراها المتحف البريطانى وهى موجودة

هناك تحت رقم ١٠٤٧٤ ومكتوبة باللغة الهيراطيقية ويتاح للباحثين والدارسين الاطلاع عليها. وكان العالم البريطانى «السير أرنست ألفريد بدج Sir Ernest Alfred Budge» قد نشر فى عام ١٩٢٤ ترجمة انجليزية لتعاليم أمنمئوبى. ثم قام العالم الألمانى «أدولف إرمان» فى نفس العام بنشر ما رآه من أن تعاليم أمنمئوبى هى الأساس الذى اشتُقَّت منه حكم سليمان التى جاءت فى سفر الأمثال فى العهد القديم. وفى عام ١٩٢٥ قام العالم «لانج» بنشر ترجمة للبردية وأيَّد هذا الرأى. وفى عام ١٩٢٦ قام العالمان «فرانسيس جريفث» و «سمپسون» بترجمة البردية من جديد وعملا مقارنة بين بعض نصوصها وبعض نصوص سفر الأمثال وخلصا إلى أن سفر الأمثال إنما اعتمد على تعاليم أمنمئوبى إلى حد كبير نظرا لما وجداه من تشابه قوى فى الأفكار وفى الأسلوب. وفى عام ١٩٢٩ نشر العالم «كادبرى» ترجمة أخرى للبردية وأبان تأثيراتها على سفر الأمثال. إلا أن البحث المستفيض هو الذى قام به « چيمس برستد » فى عام ١٩٣٩ فى كتابه «فجر الضمير». واكتفى «ج. پرتشارد» فى كتابه «الشرق الأدنى القديم» عام ١٩٥٨ بنشر ترجمة انجليزية لتعاليم أمنمئوبى مع إشارة فى الهامش إلى رقم الإصحاح والفقرة المشابهة من سفر الأمثال.

ومن الطبيعى أن لا يرحِّب المحافظون من اليهود بهذه الأقوال وراح بعضهم يؤكد أن بردية أمنمئوبى هى التى نقلت عن سفر الأمثال. أما المؤرخون المصريون فقد نقلوا عن الترجمة العربية لكتاب برستد «فجر الضمير» والتى لم تحتو إلا على فقرات من تعاليم أمنمئوبى والفقرات من سفر الأمثال التى رأى أن فيها تطابقا فى اللفظ – ومن ثَمَّ تبنوا وجهة النظر التى خَلُصَ إليها. ولكى نكون محايدين فقد رجعنا إلى الترجمة الانجليزية لتعاليم أمنمئوبى الكاملة التى نشرها «چ برتشار» عام ١٩٥٨ (كتاب الشرق الأدنى القديم. الصفحات ٢٣٧ – ٢٤٣) . لنعرف نسبة الأجزاء المتشابهة إلى الأجزاء التى ليس فيها تشابه لتأثير ذلك على النتيجة التى يُتَوصَّلُ إليها. ويذكر پرتشارد أن هناك خلاف حول الوقت الذى كتبت فيه تعاليم أمنمئوبى ويرى أنها بالتأكيد كتبت بعد عصر الدولة الحديثة ويُرجِّح كتابتها فى وقت ما بين القرنين العاشر والسادس ق.م. مع ترجيح أكثر للقرنين السابع أو السادس. ولما كان سليمان قد حَكَم فى القرن العاشر ق.م. (٩٧٣ – ٩٣٣ ق.م.) أى فى وقت سابق على وقت أمنمئوبى . فتكون تعاليم أمنمئوبى هى التى أخذت عن حِكَم سليمان. ولكن ليس من سند لهذا التوقيت الذى رجَّحه پرتشارد ولا يجب الاعتماد على الظن فى مسألة مهمة كهذه. كما أنه من المهم أن نضع فى الإعتبار أن تعاليم أمنمئوبى تكاد تساوى ١/٤ أو ١/٣ مادة سفر الأمثال. وعلى كُلٍّ فإن الاحتمالات القائمة هى :

١ – سفر الأمثال أخذ عن تعاليم أمنمئوبى .

٢ – أمنمئوبى هو الذى نقل عن سفر الأمثال.

٣ – مجرَّد توارد خواطر. وقد سبق أن ذكرنا أن الحكم والأمثال فى كثير من البلدان المتباعدة قد تتشابه دون أن تكون إحداها قد نقلت عن الأخرى إذ الحكمة تنشأ من نبض الشعب معبِّرة عن مشاعره وسلوكه أو تعبِّر عن تصاريف القدر وأسراره ولا يخلو شعب من الشعوب من حكيم أو حكماء يصوغون له فلسفة الحياة ومفاهيمها فى ألفاظ موجزة.

٤ – هناك احتمال رابع لم يضعه الباحثون من قبل فى اعتبارهم. وهو أن يكون الاثنان قد استقيا من مصدر واحد. ولما كان الله سبحانه وتعالى هو أحكم الحاكمين لذلك كانت الحكمة الواردة فى الكتب المقدسة – التوراة والإنجيل والقرآن الكريم – هى من أغلى الحكم ومن جوامع الكَلِمْ . يلى ذلك أقوال الأنبياء والمرسلين فهم يتكلمون بوحى من الله أو بحكمة أودعها الله فى قلوبهم. فهو سبحانه وتعالى «يعلمهم الكتاب والحكمة». وهذا الاشتقاق من مصدر واحد يوجدُ تشابها فى بعض أقوالهم دون أن يكون هناك نقل أو اقتباس.

ولا يفوتنا أن نُذَكِّر بأن چيمس برستد – فى كتابه عن تاريخ مصر – سبق أن ادعى أن المزمور ١٠٤ من مزامير داود عليه السلام مأخوذ من «الأنشودة الكبرى» لأخناتون. وقد ناقشنا هذا الادعاء باستفاضة فى الجزء الثالث من هذه السلسلة (ص ٥٧٧) وأثبتنا عدم صحته. والآن نورد المقارنة التى وضعها برستد لنرى إن كان سليمان عليه السلام قد أخذ عن أمنمئوبى أم أن هذا الادعاء أيضا غير صحيح.

تعاليم أمنمئوبى	أمثال سليمان
الفصل الأول	**أمثال ٢٢ : ١٧ – ١٨**
أعرنى أذنيك. اسمع ما أقول. اعرف قلبك لتفهمها لأنها تستحق أن توضع فى قلبك ولكنها مدمِّرة لمن يهملها . دعها تكن «ذخيرة وكنزا» فى جوفك. ولتكن «مفتاحا فى قلبك».	أمل أذنك واسمع كلام الحكماء ووجِّه قلبك إلى معرفتى لأنه حسن إن حفظتها فى جوفك. إن تثبَّتت جميعا على شفتيك. ليكن اتكالك على الرب .

التعليق : هناك تشابه فى السطر الأول. ولكننا فى عصرنا الحالى كثيرا ما نسمع شخصا يقول لابنه أو لشخص آخر: أعطنى أذنك – أو خللى ودنك معايا– دون أن يكون هذا الشخص قد قرأ شيئا عن أمنمئوبى أو سليمان أو حتى سمع بهما – فهو تعبير عام لجذب الانتباه لأهمية ما سيأتى من كلام.

تعاليم أمنمئوبى	أمثال سليمان
فى وقت ما ستكون هناك عاصفة من الكلمات وستكون هذه (كلماتى) علامة حق ثابتة للسانك. إذا قضيت بعض الوقت وهى راسخة فى قلبك فستجد أنها ناجحة وستجد أن كلماتى ثراء لحياتك وجسدك حتى يثمر على الأرض	أمثال ٢٢ : ١٩ – ٢٠ ألم أكتب لك أمورا شريفة من جهة مؤامرة ومعرفة.

التعليق : ليس هناك تشابه لا فى المعنى ولا فى اللفظ.

لأجل أن ترد على تقرير لمن أرسله	أمثال ٢٢ : ٢١ لأعلمك قسط كلام الحق لترد جواب الحق للذين أرسلوك.

التعليق : هذه الجملة من تعاليم أمنمئوبى أوردها پرستد فى ترجمته للنص فى حين أنها غير موجودة فى النص الانجليزى الذى نشره پرتشارد.

الفصل الثانى حاذر أن تسلب المظلوم أو تقف ضد المسكين ولا تمد يدك ضد رجل هَرِم. ولا تسرق (تنسب لنفسك) كلمات كبار السن. لا تسمح لنفسك أن تكون ضمن غارة سلب ولا تحب من يقوم بها ولا تَصِحْ ضد من هاجمه ولا تتجاوب معه. إن من يفعل الشر فإن ضفاف النهر تلفظه. ومياه الفيضان تحمله بعيدا. إنه يلتقى بالعاصفة والرعد العالى والتماسيح الخبيثة. أنت أيها الرجل ذو الضمير كيف بك أنت الآن؟ إنه يصرخ وصوته يرتفع إلى السماء. والقمر شاهد على الجريمة. فأدر طريقك بعيدا عن الرجل الشرير لأننا لن نفعل مثل أفعاله.	أمثال ٢٢ : ٢٢ لا تسلب الفقير لكونه فقيرا ولا تسحق المسكين فى الباب لأن الرب يقيم دعواهم ويسلب سالبى أنفسهم.
انتشله . وأعطه يدك واتركه فى أيدى الإله. املأ بطنه بخبزك كى يشبع للنهاية ويخجل وهذا منك فعل حسن فى قلب الإله. وتتمهَّل قبل الكلام.	أمثال ٢٥ : ٢١ – ٢٢ إن جاع عدول فأطعمه خبزا . وإن عطش فاسقِهِ ماء فإنك تجمع جمراً على رأسه والرب يجازيك.

التعليق : قالوا إن السطر الأول فيه تشابه. ولكن الحقيقة هى تكرر لفظ المسكين فقط. أمنمئوبى نهى عن سلب المظلوم أو الوقوف ضد المسكين فى حين أن سليمان نهى عن سلب الفقير أو سحق المسكين فى الباب بمعنى إغلاق الباب فى وجهه بحيث يسحقه. أما الفقرة الأخيرة فإنها فى تعاليم أمنمئوبى تقصد الرجل الشرير عموما أما سفر الأمثال فيقصد «العدو فى الحرب». ثم إن أمنمئوبى يقصد أن تشبعه حتى التخمة ليخجل ولا يكون له عذر فى اعتدائه وسلبه للآخرين. أما سفر الأمثال فيحث على حسن معاملة الأعداء فإذا جاع عدوك تطعمه ولا تتركه يموت من الجوع ولا تتركه يموت من العطش وهو إذا رآك تحسن إليه فإنه يشعر بالندم فكأنك تضع نارا على رأسه. ثم يحث على أن تكل أمرك إلى الله والرب يجازيك على حسن صنيعك.

الفصل الثالث :لا يوجد به تشابه ولذلك تجاوزه برستد وبرتشارد .

الفصل الرابع :

أما بالنسبة لرجل المعبد الغضوب (الثائر) فهو يشبه شجرة تنمو فى الخلاء (فى البرية) فحين يكتمل وقتها وتسقط أوراقها. ينتهى بها المطاف إلى مصنع للسفن وتعوم بعيدا عن مكانها الأصلى أو يكون اللهب هو كفنها (أى نهايتها الحرق فى موقد). أما رجل الدين المتواضع فهو يشبه شجرة تنمو فى حديقة تزدهر وتعطى محصولها مضاعفا. وتقف أمام سيدها (مالكها) ثمرها حلو وظلها لذيذ ونهاية مطافها فى الحديقة كذلك.

قالوا إن فيها تشابها مع المزمور الأول لداود :

طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار وفى طريق الخطاة لم يقف. وفى مجلس المستهزئين لم يجلس. لكن فى ناموس الرب مسرَّته وفى ناموسه يتفكر نهارا وليلا فيكون كشجرة مغروسة عند مجارى المياه تعطى ثمرها فى أوانه وورقها لا يذبل وكل ما يصنعه ينجح. ليس كذلك الأشرار فإنهم كالعصافة التى تذريها الريح لذلك لا تقوم الأشرار فى الدين ولا الخطاة فى جماعة الأبرار لأن الرب يعلم طريق الأبرار أما طريق الأشرار فتهلك.

وآخرون قالوا هناك تشابه مع فقرة فى سفر إرميا (١٧:٥ – ٨): هكذا قال الرب ملعون الرجل الذى يتكل على الإنسان ويجعل البشر ذراعه وعن الرب يحيد قلبه. ويكون مثل العرعر فى البادية ولا يرى إذا جاء الخير بل يسكن الحرَّة فى البريَّة أرضا سبخة وغير مسكونة. مبارك الرجل الذى يتكل على الرب.

تعاليم أمنمؤوبى

أمثال سليمان

وكان الرب متّكله فإنه يكون كشجرة مغروسة على مياه وعلى نهر تمد أصولها ويكون ورقها أخضر وفى سنة القحط لا تجف ولا تكف عن الإثمار

التعليق : وللقارىء أن يحكم إن كان هناك تشابه يشى باقتباس . أم أنه مجرد انعكاس لأثر البيئة الزراعية.

الفصل الخامس : ليس هناك تشابه ولم نر داعيا لذكره .

الفصل السادس

لا تنقل علامات حدود الأرض الزراعية ولا تُغيِّر موضع شريط القياس. ولا تكن شرِهًا من أجل ذراع أرض. ولا تتعدَّينَّ على حدود أرملة وحاذر من أن تتخطىً حدود الحقول وإلا يأتى رعب يحملك بعيدا .

(أمثال ٢٢ : ٢٨)

لا تنقل التخم القديم الذى وضعه أباؤك.

(أمثال ٢٣ : ١٠ – ١١)

لا تنقل التخم القديم ولا تدخل حقول الأيتام لأن وليّهم قوى (هو الله) وهو يقيم دعواهم عليك.

التعليق : يوجد تشابه فعلا. ولكنه راجع إلى أن زحزحة حدود الحقول مرض منتشر فى جميع المجتمعات الزراعية منذ القدم وحتى يومنا هذا .

المرء يرضى بمشيئة الرب الذى يحدد علامات الأرض المزروعة. احرث فى الحقول التى تجد فيها قوتك حتى تأخذ خبزا من الأرض المملوكة لك وغلتها التى درستها: فالأحسن هو المساحة التى يعطيها الإله لك خير من خمسة آلاف تؤخذ بطريقة غير قانونية. فغلتها لن تبقى ولو ليوم فى مخازنك أو مزرعتك. ولن تملأ قدر الجعة وإذا بقيت وقتا فى مخزنك فعند ظهور النهار فإنها تختفى عن الأنظار. الفقر وأنت فى جانب الله خير من ثروات فى المخزن (غير مستفاد منها) وخبز (تحصل عليه) بقلب فرح خير من ثروة مصحوبة بتعاسة.

(أمثال ١٥ : ١٦ – ١٧)

القليل مع مخافة الرب خير من كنز عظيم مع همٍّ. أكلة من البقول حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعه بغضة.

التعليق : تشابه فى المعنى ولكنه ليس تاما. كما أن الإيجاز الشديد فى الأمثال ينفى الاقتباس

الفصل السابع :

لا تتعب قلبك فى تتبع (طلب المزيد) الثروات لأن الحظ والثروة لا تخطىء (صاحبها). لا تضع قلبك على (لا يكن همك) المزيد الخارجى لأن لكل إنسان ساعته (ورزقه) المحددة. لا تجهد نفسك للبحث عن مزيد حينما تكون احتياجاتك مضمونة لك. وإذا جُلِب إليك المال بالسرقة فإنه لا يمكث معك سواد الليل. وعندما يأتى الصباح لا يكون بعدُ فى منزلك. قد ترى مكانه أين كان ولكن (المال نفسه) ليس موجودا. كأن الأرض قد فتحت فمها لتبتلعه. وقد يكون قد غطس إلى العالم السفلى أو أنها قد اختُزِلت فى حجمها (صَغُرت جدا) وغطست إلى أسفل المخزن أو كأنما صنعت لنفسها أجنحة كالأوز وطارت بعيدا فى السماء.

(أمثال ٢٣ : ٤ – ٥)

إذا جلست تأكل مع متسلِّط فتأمَّل ما هو أمامك. وضع سكينا على حنجرتك إن كنت شرها. لا تشته أطايبه لأنها خبز أكاذيب. لا تتعب لكى تصير غنيا (بطرق غير قانونية) كُفَّ عن فطنتك. هل تطيِّر عينيك نحوه (الرجل المتسلِّط) وليس هو لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء (ولن ينجح فى الارتفاع).

التعليق : ولو أن اللفظ فيه تشابه إلا أن المعنى مختلف. فأمنمئوبى يتكلم عن المال المجلوب بطريق غير مشروع. وكما نقول فى عصرنا يتبخَّر أو يطير. أما سفر الأمثال فيتكلَّم عن الوالى المتسلط أى الظالم والذى يستولى على ما لدى الآخرين. فلا تشته مالديه لأنه خبز حرام. ولا تتمنى أن تكون مثله فهو يريد أن يرتفع على حساب الآخرين. ويريد أن يصنع لنفسه أجنحة مثل النسور ليرتفع. والمفهوم أنه لن يُقدَّر له النجاح.

ويستكمل أمنمئوبى تعاليمه عن المال فيقول: لا تفرح نفسك بثراء يأتى عن طريق السرقة. ولا تحزن على أنك فقير. إذا رامى السهام فى العربة تقدم (كثيرا) فإن الفِرقة تتخلَّى عنه.

لا يوجد فى الأمثال ما يشبه هذه الفقرات

تعاليم أمنمؤبى	أمثال سليمان
إن سفينة المشتهى للثراء (بطرق غير أخلاقية) تُترك فى الطين (مغروسة) فى حين أن قارب الرجل المتدين يدفعه نسيم هادىء. يجب عليك أن تقدم صلاة إلى الإله حينما يشرق قائلا: اعطنى غنى وصحة. وهو سيعطيك احتياجاتك لهذه الحياة وستكون آمنا من الرعب.	

الفصل الثامن : لا يوجد تشابه فتجاوزنا عنه .

الفصل التاسع :	(أمثال ٢٢ : ٢٤ – ٢٥)
لا تربط نفسك إلى رجل حاد الطباع (أحمق) ولا تزُره لتتحدث معه. واحفظ لسانك (راقبه) عندما تجيب على من هم فوقك. واحفظ نفسك من أن تسيىء الكلام معه. واحذر أن يصنع لك من كلامك أنشوطة لاصطيادك ولا تتبسَّط معه فى الإجابة. بل تناقش الجواب مع من هم فى منزلتك. واحذر الاندفاع فى التكلم. فكلمات القلب المجروح أحدٌ من الريح عند منبع النهر (أو الزوبعة التى تسبق المطر) ولا تقفز لتمسك بشخص كهذا (أى تتمنى أن تكون مثله) وإلا يأخذك الرعب بعيدا فالإنسان يبنى ويهدم بلسانه. ومع ذلك فإنه يقول قولا مقذعا ويجيب بجواب تستحق عليه الضرب لأنه يتضمَّن الشر. ويستمر الفصل بعد ذلك فى سرد مساوىء الكلام الجارح.	لا تستصحب غضوبا. ومع رجل ساخط لا تجىء (لا تمشى) لئلا تألف طرقه وتأخذ شركا لنفسك

التعليق : إن كان يوجد تشابه فى كلمة أو كلمتين فى هذه الفقرة الطويلة إلا أن تعاليم أمنمؤبى تركزٌ على طريقة محادثة الرؤساء الأعلى منزلة حادِّى الطباع. فى حين أن سفر الأمثال يتكلم عن الرجل الغضوب الأحمق وليس بالضرورة أن يكون أعلى منزلة.

تعاليم أمنمئوبى	أمثال سليمان
الفصل العاشر :	(أمثال ١٢ : ٢٢)
لا تحيِّى (أى لا تجِب على) عدوك الغضوب وأنت متقِّد الشعور لأنك بذلك تجرح قلبك. ولا تُحيِّه رياء فى الوقت الذى يكون فى باطنك حقد عليه. لا تخاطب رجلا نفاقا فإن ذلك مكروه عند الرب. لا تفصل قلبك عن لسانك (أى يتحدث لسانك بما هو ليس فى قلبك) لتكون كل أعمالك ناجحة وكن مخلصا فى حضور الناس العاديين لأن المرء آمن فى يد الرب. الرب يكره ذلك الذى يُزَيِّف الكلام. وأكثر ما يكره الخصام غير المعلن.	كراهة الرب شفتا كذب. أما العاملون بالصدق فرِضَاهُ .

التعليق : اختلاف المعنى واضح. فتعاليم أمنمئوبى تقصد أساسا النهى عن «النفاق». فى حين أن سفر الأمثال يتكلم عن «الكذب». وهناك فرق بين الاثنين.

تعاليم أمنمئوبى	أمثال سليمان
الفصل الحادى عشر :	(أمثال ٢٣ : ٦ – ٧ – ٨)
لا تطمعنَّ فى متاع رجل فقير. ولا تشته خبزه. لأن ممتلكات المسكين تقف فى الحلق وتسده وتتقيؤه الأمعاء إذا حصلت عليه بأيمان كاذبة والقلب تفسده المعدة. فإن ملء الفم لآخره بالخبز أكبر من أن تبتلعه وستتقيؤه. فأنت إذن قد جُرِّدت من زادك.	لا تأكل خبز ذى عين شريرة ولا تشته أطايبه لأنه كما شعر فى نفسه هكذا هو . يقول لك كل واشرب وقلبه ليس معك.اللقمة التى أكلتها تتقيؤها وتخسر كلماتك الحلوة.

التعليق : هناك تشابه فى أن المال أو الكسب الحرام لا يستفيد منه المرء كما تتقيأ المعدة الطعام الفاسد .

الفصل الثانى عشر : ليس فيه تشابه وتجاوزنا عنه .

تعاليم أمنمئوبى	أمثال سليمان
الفصل الثالث عشر :	(أمثال ١٤ : ١٥)
لا تضُرَّن رجلا بجرة قلم على بردية لأن ذلك مكروه عند الرب ولا تؤدِّين شهادة كذبا	الغبى يصدِّق كل كلمة والذكى ينتبه

تعاليم أمنمئوبى	أمثال سليمان
وتؤيد شخصا آخر بكلماتك. ولا تفرضنَّ إتاوة على شخص لا يملك شيئا. وإذا وجدت فقيرا عليه دين كبير فقسِّمه ثلاثة أقسام وتنازل عن جزءين وأبقِ واحدا. فستجد فى ذلك سبيلا للحياة. وستضطجع بالليل وتنام نوما عميقا (هادئا) وفى الصباح ستجد أيضا أخبارا طيبة. وخير للإنسان مدح الناس وحبهم له عن أن يكدس ثروات. والأفضل لقمة خبز مع سعادة القلب عن غِنًى مصحوب بالحزن.	لخطواته. (لا يوجد أى تشابه إطلاقا). ((أمثال ٢٢ : ٢٦ – ٢٧) لا تكن مع صافقى الكف . ولا من ضامنى الديون إن لم يكن معك ما تفى. فلماذا يؤخذ فراشك من تحتك!

التعليق : الاختلاف فى المعنى واضح ولو أن الكلام عن الديون. فأمنمئوبى يحث على التخفيف عن المدين بالتنازل عن ثلثى الدين أما سفر الأمثال فينهى عن أن تضمن مدينا وليس عندك ما يفى بقيمة الدين وإلا يؤخذ منك فراش بيتك تسديدا للدين الذى ضمنته.

الفصل الرابع عشر والخامس عشر: ليس هناك تشابه مع الأمثال.

الفصل السادس عشر :	
لا تُخسر الميزان ولا تزيف الصنجات ولا تنقص من أجزاء مكاييل الغلال. لا تطمع فى مكاييل الحقول (أى الضريبة) وتهمل مكاييل الخزانة (أى لا تنقص منها) فإن القرد (إله العدالة) يجلس بجوار الميزان وقلبه لسان الميزان. وأى إله عظيم مثله ذلك الذى اكتشف هذه الأشياء وصنعها. فلا تصنع لنفسك موازين ناقصة فإنها مملوءة بالأحزان بإرادة الله.	(أمثال ٢٠ : ٢٣) معيار فمعيار مكرهة للرب، وموازين الغش غير صالحة. (أمثال ١٦ : ١١) قبان الحق وموازينه للرب. كل معايير الكيس عمله .

التعليق : محاولة الغش فى الميزان أو عند كيل الحبوب مرض منتشر فى كل

المجتمعات الزراعية. وأمنمئوبى ينهى عن ذلك مع تعداد أنواع الغش. أما سفر الأمثال ففيه إيجاز شديد ينفى الاشتقاق. وجاء نفس المعنى فى القرآن الكريم: «ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين» (١ – ٦ المطففين). وإن كان المعنى الذى جاء به القرآن يجعل التطفيف ينطبق على كل أنواع المعاملات وليس فقط فى وزن الحبوب.

الفصل السابع عشر :

التعليق : هو تقريبا تكلمه للفصل السابق فهو ينهى عن الغش فى كيل الغلال ولا يوجد فى سفر الأمثال ما يشابهه ونختصر منه بعض الفقرات:

لا تُسِء استعمال المكاييل ولا تجعل لها قعرا مغشوشا وأوفِ مكيالها بدقة. ولا تتخذ لنفسك مكيالا ذا حجمين (صغير عند البيع وكبير عند الشراء). لأن المكيال هو عين رع وما يمقته هو الرجل المدلِّس وكيَّال الغلال الذى يضاعف الغش. ولا تتآمر مع كيال الغلال (لإنقاص حق الحكومة) ولا تلعب لعبة «ترتيب الداخل» (أى عمل ألاعيب بينك وبينه. تعطيه رشوة فيتغاضى عن أجزاء من حق الحكومة).

الفصل الثامن عشر :

لا تقضِ الليل خائفا من الغد. فعند انبلاج الصبح لا تعرف ما شكل الصبح. والإنسان لا يعلم ما يحمله له الغد. الإله وحده هو الذى يعرف بدقة ولكن الإنسان يخطىء. والكلمات التى يقولها الناس شيىء والأفعال التى يفعلها الله شيىء آخر (تقابل: أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد).

(أمثال ٢٧ : ١)

لا تفتخر بالغد لأنك لا تعلم ما ذا يلده اليوم.

(أمثال ١٩ : ٢١)

فى قلب الإنسان أفكار كثيرة . لكن مشورة الرب هى تثبيت .

التعليق : المعنى العام واحد لكن الأمثال فيها إيجاز ينفى الإشتقاق .

تعاليم أمنمؤوبى	أمثال سليمان
لا تقل ليس لى سيئات، ولا تفتعل مشاجرة. أما عن فعل السيئات فهذا من اختصاص الرب وقد سبقت بها إرادته وقد ختم عليها بإصبعه وليس هناك مفر من يد الإله التى لا تخطىء. إذا وجَّه المرء نفسه ليبحث عن النجاح فقد يُفسده فى اللحظة التى يظن فيها أنه قد أكمله. كن حازمًا فى قلبك وثابتا فى عقلك ولا تسر وراء اللسان فقط لأن لسان الإنسان دفة قلبه (أى يُوَجِّهه) والرب هو القائد.	(مثال ٢٠ : ٨ - ٩) الملك الجالس على كرسى القضاء يُذَرِّى بعينيه كل شر (أى يلحظ أو يكشف كل شر) من يقول إنى زكَّيت قلبى وتطهَّرت من خطيئتى!

التعليق : لا تشابه إطلاقا .

الفصل التاسع عشر :

وهو نصائح لكيفية الكلام فى المحكمة والشهادة أمام القاضى وليس فى الأمثال ما يشابهه. ولا بأس من إدراج بعضها لبيان مدى حكمة أمنمؤوبى:

لا تدخل قاعة المحكمة قبل نبيل. ثم تزيِّف كلماتك. ولا تتذبذب فى جوابك ولا تخترع فى أيمانك بربك. قل الصدق أمام الشريف فلا يكون له سلطان على جسمك. فإذا حضرت أمامه فى اليوم الثانى فإنه يقبل كل ما تقول (لأنه عرف أنك شاهد صدق). وسيذكر قولك أمام مجلس الثلاثين (مجلس الآلهة).

الفصل العشرون :

وهو فى مجمله يحث على الأمانة فى تأدية الوظائف العامة. وليس فى الأمثال ما يشابهه. ولا بأس أيضا من إدراج بعض فقراته:

تعاليم أمنمئوبى	أمثال سليمان
لا تقبل هدية رجل قوى ولا تظلم الضعيف من أجله لأن العدل هبة عظيمة من الله وسيعطيها من يشاء. وحقا فإن قوة الإله تنجى الفقير البائس من ضربة. لا تؤلف لنفسك وثائق مزيَّفة لأن ذلك خيانة عظمى تستحق الإعدام. لا تزيِّف فى الدخل فى دفاترك وبذلك تفسد تدبير الإله. لا تجلب على نفسك غضب الإله وسلم الأمتعة (الأمانة) لأربابها. وابغ الحياة لنفسك. ولا تبنى فى بيتهم (أى تغتصب حقوقهم) وإلا كانت عظامك لخشبة الإعدام.	

الفصل الحادى والعشرون :

تعاليم أمنمئوبى	أمثال سليمان
لا تقل أبحثُ عن سند قوى لأن رجلا فى المدينة قد أضرَّ بى. لا تقل أبحثُ عن مُخلِّص لأن رجلا يكرهنى قد أضرَّ بى. لأنك قطعا لا تعرف تدابير الإله فقد تتصرف بما تخجل منه فى الغد. دع أمورك فى يد الإله وحلمك سيقهرهم. والواقع أن التمساح الصامت يكون الفزع منه شديدا.	(أمثال ٢٠ : ٢٢) لا تقل إنى أجازى شرا. انتظر الرب فيخلِّصك. (أمثال ٢٧ : ١) لا تفتخر بالغد لأنك لا تعلم ماذا يلده اليوم.

التعليق : الاختلاف فى المعنى واضح إذ أن تعاليم أمنمئوبى تعالج رجلا مظلوما يبحث عن سند ينصره فينصحه بترك أمره إلى الله. أما الأمثال فهى تجارب شهوة الانتقام وتنصح أيضا بترك الأمر لله.

تعاليم أمنمئوبى	أمثال سليمان
لا تُفضى بما فى نفسك لكل إنسان (أى لا تشكو لكل من تقابله) لأنك تسىء إلى هيبتك. لا تُذِع أقوالك (شاكيا) إلى عامة الناس فالأفضل الرجل الذى يكتم ما فى باطنه عن الرجل الذى يتكلم ويجرح. فالمرء لا يجرى ليصل إلى النجاح. وعلى المرء ألا يرمى فيصيب نفسه بالأذى.	(أمثال ٢٠ : ١٩) الساعى بالوشاية يفشى السر فلا تخالط المفتح شفتيه. (أمثال ٢٣ : ٩) فى أذنى جاهل لاتتكلم لأنه يحتقر كلامك. (أمثال ١٢ : ٢٣) الرجل الذكى يستر المعرفة. وقلب الجاهل ينادى بالحمق.

التعليق : الاختلاف فى المعنى واضح. فأمنمئوبى ينهى عن إذاعة الشكوى ويحث على كتمان ما ينزل بالمرء من أحداث أما الأمثال فتنهى عن الوشاية أو التكلم مع الجاهل بائتمانه على سر مثلا.

الفصل الثانى والعشرون:

وهو نصائح لمن يدخل فى مجادلة مع طرف آخر فينصحه بالهدوء. وأن تدع خصمك يُظهر ما فى باطنه وتَجرَّ رجله فى الكلام وتكون حليما. وتدع الأمور لله. وليس له ما يشابهه فى سفر الأمثال.

الفصل الثالث والعشرون :

لا تأكل خبزا فى حضرة نبيل. ولا تكن أول من يلوك بفمه. وإذا كنت ترضى بمضغ خبز كذب (أتى بطريق غير مشروع) فهو مجرد تسلية طريقك (أى لا يشبع). انظر إلى الكأس الذى أمامك واجعلها تفى حاجتك (أى لا تطلب غيرها) فكما أن النبيل عظيم فى مكتبه فهو أيضا كثير فى طلباته (أى يتطلب الكثير فيمن يقابلونه).

(أمثال ٢٣ : ١ - ٣)

إذا جلست تأكل مع متسلِّط فتأمل ماهو أمامك. وضع سكينا لحنجرتك إن كنت شرِهاً. لا تشته أطايبه لأنها خبز أكاذيب.

التعليق : اختلاف فى المعنى. فالأول يوضح آداب المائدة فى حضرة نبيل أما الأمثال فهى توضح كيف تأكل على مائدة عظيم ظالم وينهى عن أن تتمنى أن تكون مثله.

الفصل الرابع والعشرون:

وهو يحث على كتمان الأسرار وليس فى الأمثال ما يشابهه.

الفصل الخامس والعشرون :

وهو يحث على عدم السخرية بذوى العاهات فى حين أن سفر الأمثال ينهى عن الاستهزاء بالفقير. وشتان بين المعنيين:

تعاليم أمنمؤبى	أمثال سليمان
لا تسخر من رجل أعمى ولا تهزأ من قزم. ولا تجرح مشاعر الأعرج . لا تؤذ رجلا فى معية الإله (المتصوِّف) ولا تكن عابس الوجه ضده إذا أخطأ لأن الإنسان مخلوق من طين وقش والرب هو خالقه وهو يميت ويخلق كل يوم ويصنع آلاف الرجال الفقراء حسب مشيئتة. أو يجعل آلاف الرجال مشرفين (أى أغنياء) وفى أثناء حياته (الرجل الفقير) فإنه يفرح إذا وصل إلى جهة الغرب (أى إذا مات) حيث يكون آمنا فى يدى الإله.	(أمثال ١٧ : ٥) المستهزىء بالفقير يُعيِّر خالقه. الفرحان ببليَّة (غيره) لا يتبرأ. (مرموز ١٠٣ : ١٤) لأنه يعرف جبلَّتنا. يذكر أننا تراب.

التعليق : فى جميع الحضارات وفى جميع الأزمنة يعرف الانسان أنه مخلوق من تراب وهذا ما ذكره الجزء المذكور من الأمثال. ولكن تعاليم أمنمؤبى زادت بأن حثت على عدم السخرية بذوى العاهات أو بالفقراء. أو بالزهاد والمتصوفين لأن الله قادر على أن يجعلهم من الأغنياء.

الفصل السادس والعشرون:

فى كيفية معاملة من هم أكبر مقاما فى المجتمع. ولا يوجد فى الأمثال ما يشابهه.

الفصل السابع والعشرون:

فى احترام كبار السن. ولا يوجد فى الأمثال ما يشابهه .

لفصل الثامن والعشرون :

لا تغتصب أرملة أن أمسكت بها فى الحقول ولا تتأخر عن إجابتها (إذا طلبت المساعدة فى عمل ما) ولا تهمل غريبا يحتاج إلى قنينة زيت. بل اجعله يتضاعف (يكبر) أمام إخوانك فالرب يرغب احترام الفقير أكثر من تبجيلك للعظيم.	(أمثال ٢٢ : ٢٢ – ٢٣) لا تسلب الفقير لكونه فقيرا ولا تسحق المسكين فى الباب لأن الرب يقيم دعواهم ويسلب سالبى أنفسهم

التعليق : اختلاف المعنى واضح فالأمثال تتكلم عن الفقير والمسكين فى حين أن تعاليم أمنمئوبى تقصد ضعيف الحيلة: الأرملة أو الغريب وأضافت إليهما الفقير.

الفصل التاسع والعشرون :

وهو حث صاحب المعدِّية على مساعدة الآخرين على عبور الأنهار وألا يرفض من ليس معه أجر. وليس فى الأمثال ما يشابهه.

الفصل الثلاثون :

وهو ختام تعاليم أمنمئوبى: تأمل لنفسك هذه الفصول الثلاثين فهى مسرَّة لك وتَعَلُّمٌ. وهى تفوق كل الكتب. فهى تُعلِّم الجاهل. وإذا قرئت أمام الجاهل فإنه يتطهَّر بها. فاملأ نفسك بها وضعها فى قلبك وكن أنت الرجل الذى يستطيع تفسيرها (أى تعرفها تماما) ويفسرِّها كمعلِّم. مثل الكاتب الخبير فى وظيفته وسيجد نفسه جديرا بأن يكون مديرا للبلاط (أى ينالك خير كثير) وهذه نهاية.

(أمثال ٢٢ : ٢٩)
أرأيت رجلا مجتهدا فى عمله يقف أمام الملوك ولا يقف أمام الرعاع!

التعليق : بعض الكتاب – رغبة منهم فى إيجاد تشابه فى هذا الفصل يقولون إن التوراة الأصلية فيها الفقرة (أمثال ٢٢:٢٠) مكتوبة: ألم أكتب لك ثلاثين فصلا أمورا شريفة. مع أن التوراة الحالية ليس فيها النص على أنهم ثلاثين فصلا. والحقيقة أن سفر الأمثال مكوَّن من ٣١ إصحاحًا وليس ٣٠.

الخلاصة :

من هذه المقارنة يمكننا ملاحظة وجود بعض التشابه فى فقرات قليلة. لا تؤيِّد ما زُعِم عن «نقل» إذ أن النقل يستلزم تطابقا فى المعنى واللفظ فى فقرات كثيرة. لهذا فإننا نُرجع هذا التشابه البسيط إلى أن الاثنين قد استقيا من مصدر واحد. وهو الله العلى القدير. فسليمان عليه السلام قد أوتى الحكمة من الله عز وجل. فالحكمة من أشراط النبوة. ولكن الحكمة فضل من الله قد يهبها الله لغير الأنبياء وحتى قد يكونون من غير المؤمنين بالله. ولتقريب المسألة إلى الأذهان نشير إلى ما أسماه فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى «عطاء الربوبية». بمعنى أن الله هو خالق الخلق مؤمنهم وكافرهم وهو يعطيهم ما تقوم به حياتهم. وقد يجتهد غير المؤمن فى

أسباب الحياة فيصل إلى درجة لم يصل إليها المؤمن. والحكمة ممًا تقوم عليه حياة المجتمعات البشرية ولذلك فهى عطاء ربوبية تظهر فى المجتمعات المؤمنة وغير المؤمنة. لذلك فإن حضارة مصر القديمة. وهى فى مجملها وثنية وتؤمن بتعدد الآلهة إلا أنها حفلت بالعديد من الحكماء. وأهم ما وصل إلينا وحسب ترتيبهم التاريخى هم: حكم وأمثال «بتاح حتب» وتعاليم «كاجمنى» وهما من الدولة القديمة. وتعاليم «مرى كارع» من العهد الإقطاعى. ووصايا «الملك أمنمحات» وتعاليم «سحت. أب.رع» وتعاليم «حينتى» من الدولة الوسطى. وتعاليم «آنى» وتعاليم «أمنمئوبى» من الدولة الحديثة. إلا أن أمنمئوبى كان أشهرهم وسجَّل له القرآن الكريم حكمته هذه إذ أننا نرى أنه هو «لقمان» الحكيم والذى سُمِّيَت باسمه إحدى سور القرآن الكريم:

«ولقد آتينا لقمان الحكمة.....» . (١٢ – لقمان)

لقمان :

أنكر المستشرقون على القرآن الكريم ما ذكر فيه عن لقمان اعتماداً على أنه لم يأت أى ذكر له فى التوراة. وقالوا إن اسم «لقمان» يجىء فى العربية من لَقَمَ أى بَلَعَ. وقالوا تأسيسا على ذلك أن لقمان يعنى بلعام على وزن فعلام. وعليه قالوا إن لقمان هو بلعام بن بعور. نبى فتور. والذى استأجره ملك مؤاب ليلعن بنى إسرائيل (انظر الجزء الرابع . ص ١٠٩٦). وقد نقل عنهم أصحاب التفاسير الإسلامية هذه الأقوال مثل ابن اسحق. وقال السهيلى: كان لقمان نوبيا من أهل أيلة. مع أن النوبة فى جنوب مصر وأيلة على الطرف الشمالى لخليج العقبة. وقال سعيد بن المسيَّب إن لقمان أسود من سودان مصر ذو مشافر يعنى عظيم الشفتين وذلك محاولة لتفسير معنى لقمان بأنه عظيم اللقمة مبالغة من لَقَم. ويرى الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن الكريم. جـ ٢. ص ٢٢٠) خطأ هذا الافتراض لأن اللقم هو الأخذ بجُمع الفم. واللقمة تسمى بذلك طوال ما بقيت فى الفم وإنما البلع يأتى بعد ذلك إذ تمر اللقمة إلى البلعوم فمساواة لَقَمَ بـ بَلَع والقول بأن لقمان هو بلعام خطأ بيِّن.

والحقيقة أن الجذر «لقم» له عدة معانى: فقد جاء فى المعجم الوسيط (جـ٢ص ٨٤٢) عن الجذر لَقِمَ: ألقمته أذنى فصبَّ فيها كلاما. ويقال التقم أذنه أى سارَّه. وقد كانت أول تعاليم أمنمئوبى: «أعرنى أذنيك. اسمع ما أقول» فهو ملتقم الأذن وهو لقمان. كما أن «اللقم» هو الطريق الواضح. واللقَم معظم الطريق أو وسطه (القاموس المحيط. جـ ٤ . ص ١٧٦). أما اللقْم بسكون القاف فهو سرعة الأكل. والقرآن الكريم وقد نزل بلسان عربى مبين لم يكن ليذكر اسم «أمنمئوبى» كما هو فاختار له اسما عربيا. وقد سبق أن ذكرنا أن الملابسات المصاحبة للحدث يشتق منها الاسم. فمن ضحك سارة عندما بشرتها الملائكة بالولد كان اشتقاق اسم اسحق من سحق أى ضحك (الجزء الثانى . ص ٣٤٢).

«وامرأته قائمة فضحكت . فبشرناها بإسحق ....» (٧١ - هود). وعلى هذا النسق كان اشتقاق اسم عربى لأمنمئوبى. فمن اللقم أى الطريق الواضح والطريق الوسط الحكيم. ومن التقام الأذن لتسمع أقواله. صاغ القرآن الكريم من الجذر «لَقَمَ» بهذين المعنيين اسم «لقمان».

وزيادة على ذلك كان هذا الإسم مناسبا من وجهة أخرى إذ فيه إشارة إلى مهنة أمنمئوبى فقد كان أمنمئوبى من كبار موظفى الإدارة الخاصة بمخازن الحبوب. و«الحنطة اللقيميَّة» الكبار (القاموس المحيط. جـ ٤. ص ١٧٦). ففى الإسم إشارة إلى كبر وظيفته. وفى هذا يقول أمنمئوبى فى مقدمة تعاليمة: «ألَّفه ملاحظ الأراضى الحاذق فى عمله ملاحظ الغلال ومدير المكاييل وهو الذى يقيِّد الجزر والأراضى الجديدة (طرح النهر) ملاحظ الغلال والقابض على زمام الأطعمة والذى ينقل مخازن الغلال». فهو يعمل فى الغلال وكبير فى مركزه فهو يشبه الحنطة اللقيمية. وآخر معانى الجذر لقم هو ما يقال «رجل لَهِمٌ لَقِمٌ» يعلو الخصوم. ولَقَم الطريق سد فمه. وأمنمئوبى فى حكمته كان يعلو على كل أقرانه فهو «لَقِمٌ». كما أن أحداً لم يكن ليجاريه فى حكمته فكانه لَقِم الطريق أى سدَّه فى هذا المجال على من بعده.

من كل هذه المعانى للجذر «لقم» سواء بفتح القاف أو كسرها أو سكونها صاغ القرآن الكريم لأمنمئوبى اسما عربيا هو «لقمان» بوزن فعلان.

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن أمنمئوبى هو لقمان أن أمنمئوبى كان له ابن يُسمَّى «حور. إم. ماع. خرو» ويصفه بقوله «لابنه أصغر أولاده. وهو صغير إذا قيس بأقاربه» وقد كتب له أمنمئوبى هذه الوصايا والنصائح لتعليمه - كما يقول هو فى المقدمة - «بداية درس الحياة والإرشاد إلى الخير وكل قواعد الاندماج بين كبار الموظفين ليعرف كيف يجيب عن سؤال يلقى عليه ويعرف كيف يرد كتابة على تقرير ورد إليه ليجعله يُفلح على الأرض وبذلك يُبعده عن الشر حتى يكون ممدوحا فى أفواه القوم». (الأدب المصرى القديم. سليم حسن. جـ ١ ص ٢٤٧ و ٢٤٩). وهذا يتفق مع ما ذكره القرآن الكريم.

«وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه. يا بُنَيَّ...» (١٢ - لقمان).

هنا تجابهنا مشكلة وهى أن القرآن الكريم ذكر أن أول تعاليم لقمان هى قوله: **«يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»** وبمراجعة تعاليم أمنمئوبى لا نجد فيها مثل هذه الدعوة الصريحة لعدم الشرك بالله. إلا أن القارىء المدقق لتعاليم أمنمئوبى يلاحظ تدينة الشديد. وبالرغم مما ذكره فى بعض الفقرات من أسماء لآلهة قدماء المصريين إلا أننا نلمس إيمانه بقوة أخرى عظيمة خفية سماها الإله أو الله. فهو يؤمن بإله واحد فوق كل الآلهة. هو الذى يرزق فى الدنيا ويحاسب فى الآخرة. لذلك يجب على الإنسان ألا يخاف أحداً إلا الله. وإذا ما ظُلِمَ فيوكل أمره إلى الله. وإذا استبد به الغضب وعزم على الانتقام من خصمه عليه أن يكظم

غيظه ويترك الأمر لله وهو يتولى مجازاة الخصم. ولكن لأن ثقافة القوم فى ذلك الوقت - النظام الحاكم . الفرعون والكهنة - لم تكن تتيح له أن يصرح فى تعاليمه بهذا التوحيد الخالص مما قد يُعرِّضها للمصادرة وهو كان يريد لتعاليمه الانتشار والوصول إلى أكبر عدد من الناس. ويرى «أودلف إرمان» أن تعاليم أمنمئوبى كان لها شهرة عظيمة لدرجة أنها كانت تستعمل بمثابة «كتاب مطالعة وتمرين» فى المدارس فى عهد الدولة الحديثة. فقد عثر على فصول من هذه التعاليم مكتوبة على برديات صغيرة أو ألواح من الخشب عليها طبقة من الجص وبها أخطاء إملائية مما يوحى بأن كاتبيها كانوا من التلاميذ الصغار. إلا أمنمئوبى كان من الحصافة بحيث ضمَّن تعاليمه فكرة الإله الواحد دون أن يسجل ذلك صراحة فيها ولكنه قالها شفاهة لابنه «**يا بنى. لا تشرك بالله. إن الشرك لظلم عظيم**» وهو ما سجَّله له القرآن الكريم. كما أن القارىء المتمعِّن يستطيع أن يستخلص أن المثل الأعلى عند أمنمئوبى هو الرجل الرزين المتواضع «**ولا تصعِّر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا**». وكانت تعاليمه عبارة عن أمر بالمعروف فى جميع صوره ونهى عن المنكر فى جميع أشكاله. ولا شك أن أمنمئوبى نفسه كان على هذه الصفات الحميدة التى نصح بها ابنه. وهكذا كانت الحكمة التى أسبغها الله عليه هى التى قادته إلى معرفة الله وتوحيده.

الفصل الثامن

سليمان وملكة سبأ

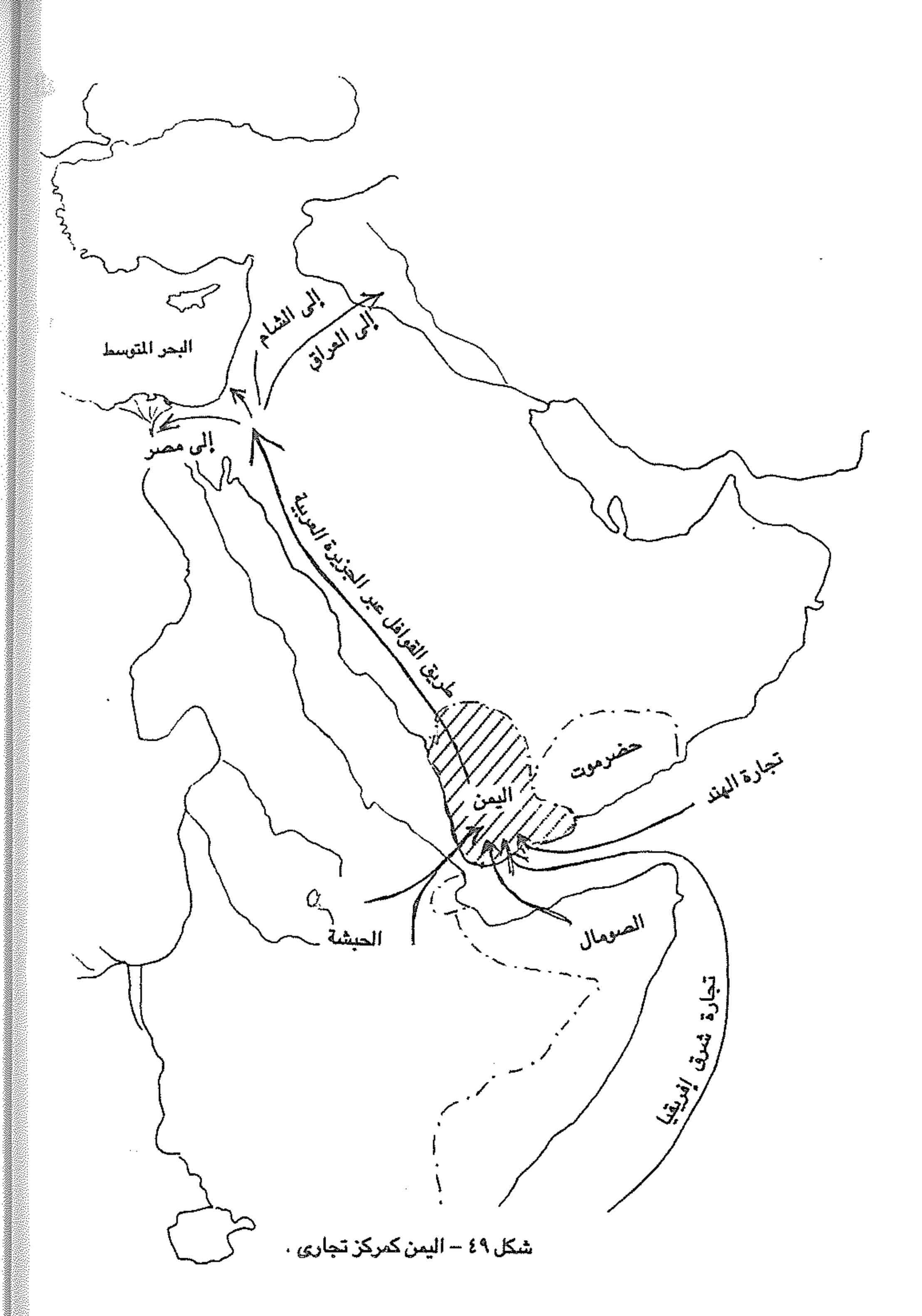
اليمن وسكانها :

كانت اليمن فى أقدم أزمانها تتكون من مقاطعات تشبه المقاطعات فى أوربا والتى كان يمتلكها اللوردات أو البارونات إلا أن هذه المقاطعات فى اليمن كانت تسمى «محافد» جمع محفد أو قصور. والمحفد أو القصر كالحصن أو القلعة يحيط بها سور ويقيم فيها شيخ أو أمير تحف به الحاشية والأعوان والخدم. ويقيم أيضا داخل الحصن المزارعون والعمال الذين يعملون فى الأرض المحيطة بالحصن. ويُعرف صاحب القصر بلفظ «ذو» أى صاحب فيقال. «ذو معين» أى «صاحب معين» «وذو غمدان» أى صاحب غمدان وهكذا. وقد تجتمع عدة محافد على واحد منهم يتولى توجيه شئونهم ويسمى «قَيْلْ» فإذا كانت المحافد كثيرة كانت المساحة التى يحكمها هذا القيل كبيرة فيسمى ملكا.

وكانت اليمن وأمراؤها يشتغلون بالتجارة لوقوع اليمن فى مكان متوسط بين الهند والحبشة والصومال من ناحية ومصر والشام والعراق فى الناحية الأخرى فكانوا ينقلون التجارة بين هذه البلاد. إذ ترسو السفن بالبضاعة فى موانىء اليمن ثم تنقلها القوافل فى طرق خاصة إلى الشمال (شكل ٤٩). وقد ذكر اليونانيون عدة فترات من الحكم فى اليمن كان أقدمها الدولة المعينية ثم السبئيون وعاصمتهم مأرب.

ويقول چورچى زيدان (مؤلفاته الكاملة. ص ١٥٨) إن **المعينيين** من عمالقة العراق وبدو الأراميين الذين كانوا فى أعالى شبه الجزيرة العربية ولما ظهر حمورابى فى بابل اقتبسوا عنه شرائعه وتنظيماته الإدارية وكانت لغتهم هى اللغة الكلدانية. ثم نزح المعينيون جنوبا حتى وصلوا إلى اليمن واستوطنوها إذ ساعدهم تمدينهم على غلبة من كانوا فيها قبلهم. وما لبثوا أن امتدت سيادتهم على معظم أنحاء الجزيرة العربية ولذلك يعتبر علماء الأجناس أنهم عرب متعربة لأنهم اقتبسوا اللغة العربية من العرب البائدة (الذين كانوا فى الأرض قبل قدومهم إليها).

أما عن أصل السبئيين فيرى كثيرون أنهم من نسل قحطان. وأنهم نزلوا اليمن وأقاموا بجوار المعينيين حينا من الدهر واختلطوا بهم وبغيرهم من أهل الجزيرة العربية واقتبسوا اللغة العربية. واستمر السبئيون فى حكم اليمن حتى عام ١١٥ ق.م. ثم ضعفت تجارتهم وبدأت **«ريدان»** فى الظهور. وهم نوع من السبئيين يسكنون إلى الجنوب من سبأ. ثم تغلب الريدانيون



شكل ٤٩ – اليمن كمركز تجارى .

واتخذوا من ظفار عاصمة لهم. وكان ملكهم يسمى «ملك سبأ وريدان». ثم لما تداعى سد مأرب انتقل ثقل الحكم إلى الجنوب وسُمِّى «ملك سبأ وريدان وحضرموت».

وأقدم جيران اليمن هى الحبشة. وكانت العلاقات التجارية متينة بين البلدين اللذين لا يفصلهما إلا مضيق صغير يسهل عبوره هو «مضيق باب المندب» لذلك فقد كان فى اليمن عدد كبير من الأحباش حتى إن بعض الباحثين يرون أن سكان اليمن كلهم جاءوا من الحبشة. كما يعتقدون أن ملكة سبأ هى من الأحباش وأنها لما تزوجت سليمان عليه السلام ولدت له ابنا ومن ذريته جاءت سلسلة ملوك الحبشة. ولذلك يلقب ملك الحبشة نفسه بـ «الأسد الخارج من سبط يهوذا».

وتتضمن قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ قصتين فرعيتين هما: قصة النملة وقصة الهدهد.

قصة النملة :

ذكرت هذه القصة فى القرآن الكريم هكذا:

«وورث سليمان داود وقال يأيها الناس عُلِّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيىء إن هذا لهو الفضل المبين. وحُشِر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون. حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسَّم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدىَّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين».

(١٦ – ١٩ النمل).

قام سليمان – بعد موت أبيه داود – مقام والده فى النبوة والملك. وصار نبيا وملكا فوراثته مجاز. ولا تعارض بين ذلك وبين الحديث الشريف: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورِّث». ثم بعد ذلك راح سليمان يحدث بنعمة الله عليه عملا بقوله تعالى: «**وأما بنعمة ربك فحدث**». فذكر بالخصوص تعلم منطق الطير ثم أجمل باقى النعم فى «**وأوتينا من كل شيىء**» وهذا يشمل الحكمة والعلم والمُلك والغنى وغيره. «**وحُشِر**» أى جُمِعَ. وقيل قُدِّم الجن لما لهم من خواص وقدرات تجعل تسخيرها أشق. ومن هذا المنطلق أُخِّرت الطير لكونها أضعف الثلاثة. والوزع الكفُّ والمنع ونقول وازع من ضميره ينهاه عن المحرمات. ومعنى «فهم يوزعون» أى يُحبس أوَّلهم ليجتمع مع آخرهم فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد ويكونون كثرة عظيمة.

حتى إذا اقتربوا من مساكن النمل بواد من الوديان – ولا يهم تحديد مكانه – رأت نملة – ولعلها كانت المسئولة عن حراسة قومها وتحذيرهم من الأخطار – جيوش سليمان تقترب من

أماكن سعيها فخشيت أن تحطمها فصاحت تحذِّر أقرانها وتأمرهم أن يدخلوا مساكنهم تحت الأرض إلى أن يمر جيش سليمان. ويرى المفسرون أن القرآن الكريم استعمل لفظ «مساكنكم» وقد كان يمكن القول «ادخلو بيوتكم» لأن النمل كان قد أصابه الذعر وكان فى حاجة إلى ما يسكِّن من روْعه فكان استعمال كلمة «مساكنكم» أنسب لما فى معناها من بث السكينة. وأقدام الجند وهى تدب على الأرض تبعث موجات من الذبذبات يمكن الشعور بها من مسافة بعيدة. ولكن هل كان سمع سليمان عليه السلام من الحدَّة بحيث يسمع كلام النملة من هذه المسافة مع اختلاطها بصوت أقدام الجند وهى أعلى منها كثيرا؟ قيل إن الله عز وجل أوحى إلى سليمان: إنى قد زدتك فى مُلكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيىء إلا جاءت به الريح إليك وألقته فى سمعك (تفسير الألوسى . جـ ١٩ . ص ١٧٤). ولا نظن الأمر كذلك. فآلاف الأشخاص يتكلمون وعشرات الآلاف من الخلائق تُصدر أصواتا فتكون النتيجة ضوضاء لا يتحملها أحد. والأغلب أن الله قد أوحي إليه بما قالت النملة. ومن المؤكد أن سليمان قد أبطأ من سيره. وبذلك أبطأ الجيش من تقدمه ليعطى فرصة للنمل حتى تدخل مساكنها. «**وتبسَّم ضاحكا من قولها**». قيل تعجبا من حذرها واهتدائها إلى تدبير مصالح بنى نوعها واستحسانا لكلامها إذ نفت عنه وعن جنوده القسوة والغلظة وأن أى ضرر – لو حدث – فهو على سبيل السهو والخطأ «**وهم لا يشعرون**». وقد قيل لماذا لم يكتف سليمان عليه السلام بالابتسام. والتبسُّم من شأن الأنبياء بينما الضحك هو دأب عامة الناس. قيل أراد أن تسمع النملة ضَحِكَهُ فتعرف أنه قد سمع مقالتها وسيعمل حسب مضمونها ويكون عليها أن تبلِّغ ذلك باقى النملَ حتى تزيل ما أصابهم من ذعر. «**وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك**» أى اجعلنى أَزَعُ شكر نعمتك أى أرتبط به مجاز عن ملازمة الشكر والمداومة عليه. كما طلب من الله أن يوفقه إلى فعل الصالحات من الأمور فيكون برحمة الله من عباده الصالحين. وإلى هنا تنتهى قصة النملة وتبدأ قصة الهدهد.

قصة الهدهد :

جاءت هذه القصة بعد قصة النملة مباشرة إذ تستمر الآيات من سورة النمل:

«وتفقد الطير فقال ما لِيَ لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينِّى بسلطان مبين. فمكث غير بعيد. فقال أحطت بمالم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألاَّ يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون. الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم». (٢٠ – ٢٦ . النمل).

وتفقَّد سليمان عليه السلام الطير فوجد أن الهدهد غائب. ولما كان الجندى لا يجب أن يغيب عن مكانه دون إذن من قائده فإن ذلك يعتبر ذنبا يوجب العقاب. فكان تهديد سليمان بالذبح أو التعذيب الشديد إلا إذا جاء بعذر واضح مبين. ويرى المفسرون أن الهدهد كان جريئا فى مواجهته لسليمان عليه السلام إذ بدأ بقوله: «**أحطت بمالم تحط به**» وذلك لترغيبه فى الإصغاء إلى عذره. ثم شرح إبهامه السابق قائلا: «**وجئتك من سبأ بنبأ يقين**». ولا يخفى مافى سبأ ونبأ من جرس موسيقى إذ هو جناس ناقص. والمشهور أن اسم الملكة التى أشار إليها الهدهد هو «بلقيس». وقيل كلام كثير فى وصف عرشها الذى قال عنه الهدهد «**ولها عرش عظيم**». قالوا كان مصنوعا من الذهب الخالص ومرصَّعا بالياقوت وغير ذلك من المبالغات. وقد يتساءل البعض: لماذا لم يخبر الله نبيَّه سليمان بأمر ملكة سبأ بوحى منه أو بواسطة جبريل عليه السلام. قالوا: أراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح له - ولنا - ألا نستصغر كائنا ماكان من خلقه. فهذا الهدهد علم مالم يعلمه نبى الله سليمان. ولقد بنى البعض - بناء على تسخير الهدهد لإبلاغ سليمان بهذا الأمر. كرامة للهدهد. ومن ثم كرهوا اصطياده أو أكله.

«**يخرج الخبء فى السموات والأرض**» أى يظهر المخبوء فيهما من مطر ينزل من السماء ونبات يخرج من الأرض. أما ما قيل من أن الهدهد قد أودع الله فيه القدرة على معرفة الماء تحت الأرض فلا دليل عليه وهو من قبيل المبالغات. كذلك لفت الهدهد النظر إلى أن الله يعلم ما يعلنه الإنسان وما يخفيه. ثم يختم بقوله «**لا إله إلا هو رب العرش العظيم**» وهو بهذا القول ينزع ما سبق أن وصف به عرش بلقيس «**ولها عرش عظيم**» فالله سبحانه وتعالى هو رب العرش العظيم على الإطلاق.

ملكة سبأ :

لم يكتف سليمان عليه السلام بجواب الهدهد وأراد أن يستوثق من صدق أقواله:

«قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تولَّ عنهم فانظر ماذا يرجعون. قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلىَّ كتاب كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا علىَّ وائتونى مسلمين» . (٢٧ - ٣١ - النمل).

قالوا إن «بسم الله الرحمن الرحيم» هنا تُعوِّض خلو سورة براءة من افتتاحها بالبسلمة كباقى سور القرآن الكريم.

«قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون. قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين. قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون. وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون». (٣٢ - ٣٥ - النمل).

وروى أنها قالت (تفسير الألوسى. جـ ١٩ . ص ١٩٨). إن كان مَلِكًا دنيويا أرضاه المال وإن كان نبيا لم يرضه المال وينبغى أن نتبعه على دينه. أما فى ماهيةِ الهدية فقد كانت مجالا للمبالغات: قالوا ١٠٠ أو ٥٠٠ غلام و ١٠٠ جارية وقيل ما قيل فى ملبسهم والأساور الذهبية فى أيديهم وآذانهم وأعناقهم بالإضافة إلى ترصيعها بالجواهر الكريمة.

واستنكر سليمان عليه السلام الهدية وقال للرُسُل إن ما آتاه الله من الملك والنبوة خير من أى مال وردَّ عليهم هديتهم وأنذرهم بأنه سيسير إليهم بجيش عظيم لن يستطيعوا الوقوف فى وجهه:

«فلما جاء سليمان قال أتمدُّونن بمال. فما آتانىَ الله خير مما آتاكم. بل أنتم بهديتكم تفرحون. ارجع إليهم فلنأتينَّهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون». (٣٦ – ٣٧ – النمل).

فلما رجع الرسل بالهدية تيقَّنت من أنه نبى وأنها لا قِبَلَ لها بمحاربته لأن الله لابد ناصره عليها فانتوت الاستسلام والمسير إليه. وأعلمه الله بذلك. وأراد سليمان أن يريها ما أفاء الله عليه من نعمة ومُلك وأن الله سخَّر له قوى غير متاحة لغيره من البشر مما يشهد له بالنبوَّة. فقرر إحضار عرشها وإحداث تغيير فيه لينظر أتعرف أنه عرشها أم غيره.

«قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين. قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين. قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر. ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم. قال نكرُّوا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون. فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو. وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين» . (٣٨ – ٤٣ – النمل).

والعفريت هو القوى المارد. يقال عَفِرْ أى يعفر أقرانه بالتراب والتاء زائدة للمبالغة. أما الذى عنده علم من الكتاب فقيل إنه أحد وزرائه وكان وليا من أولياء الله. وكانت هذه كرامة للولى يؤيد بها نبى الله. وقيل كان يعلم الاسم الأعظم الذى به تُقضى جميع الحاجات. وقيل إنه جبريل عليه السلام. ولم ينتظر الذى عنده علم من الكتاب أن يأمره سليمان بإحضاره بل فعل ذلك فى التو واللحظة. ورأى سليمان العرش مستقرا أمامه فشكر الله على هذه المعجزة. فلما جاءت الملكة تعرفت على عرشها واعترفت بأنها قد آمنت بأنه نبى ومرسل من عند الله حتى من قبل إظهار هذه المعجزة. وما منعها وصدَّها أن تُظهِر من قبل أنها كانت من قوم كافرين وخشيت أن يثور

عليها قومها إن هى أظهرت إيمانها وهى فى أرضها فأرجأت ذلك إلى حين أن تكون فى أرضه وفى حمايته وإلى أن يرى جنودها من كراماته ومعجزاته ما يجعلهم يؤمنون أيضا.

«قيل لها ادخلى الصرح. فلما رأته حسبته لجَّة وكشفت عن ساقيها. قال إنه صرح ممرَّد من قوارير. قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» . (٤٤ – النمل)

كان سليمان عليه السلام قد أمر الجان فبنوا قصرا من زجاج. وقيل زجاج من تحته ماء وبه سمك فظهر وكأنه كله ماء. والصرح هو صحن الدار. وصرحة الدار ساحتها. ومُمرَّد أى طويل. فكانت الساحة طويلة وعرشه في نهايتها ولتصل إليه كان عليها أن تعبر ما حسبته لجة ماء وكشفت عن ساقيها لئلا تبتل أذيالها. أما قولهم إنه قد قصد بذلك أن يستوثق إن كانت شعراء الساقين. أو كما أخبره الجن من أن أمها من الجن ورجلها رجل حمار (تفسير القرطبى للآية ٤٤ من سورة النمل) فهذه كلها من الخرافات. وبعض كتب الفقه تستدل بذلك على جواز إباحة النظر قبل الخطبة. وسارع سليمان عليه السلام فأخبرها أنه لا ماء يُخشى منه وأنه صرح من زجاج. فلما رأت هذه المقدرة وهو ما يمكن أن نسميه بلغة عصرنا إعجازا تقنيا وتفوقا علميا يؤكد نبوَّته – أعلنت إسلامها أمامه. والمشهور فى كتب التفسير الإسلامية أنه تزوجها بعد ذلك وبهذا تنتهى قصة سليمان عليه السلام وملكة سبأ كما وردت فى القرآن الكريم.

أما فى التوراة فإن القصة قد ذكرت هكذا: (ملوك أول ١:١٠ – ١٣): وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا حاملة أطيابا وذهبا كثيرا جدا وحجارة كريمة وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها. فأخبرها سليمان بكل كلامها. لم يكن أمرا مخفيا عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذى بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التى كان يصعدها فى بيت الرب لم يبق فيها روح بعدُ. فقالت للملك صحيحا كان الخبر الذى سمعتُه فى أرضى عن أمورك وعن حكمتك ولم أصدِّق الأخبار حتى جئتُ وأبصرت عيناى. فهو ذا النصف لم أُخبر به. زدت حكمة وصلاحا على الخبر الذى سمعتُه. طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما السامعين حكمتك. ليكن مباركا الرب إلهك الذى سرَّ بك وجعلك على كرسى إسرائيل. لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد جعلك ملكا لتجرى حكما وبرًا. وأعطت الملك ١٢٠ وزنة ذهب وأطيابا كثيرة جدا وحجارة كريمة لم يأت بعدُ مثل ذلك الطيب فى الكثرة الذى أعطته ملكة سبأ للملك سليمان. وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذى طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان. فانصرفت وذهبت إلى أرضها هى وعبيدها.

يرى بعض مفسرى أهل الكتاب (جاميسون وفاوست. تفسير الكتاب المقدس. ص ٤٥٦) أن

زيارة ملكة سبأ كانت أساسا لأغراض اقتصادية. ذلك أن الأسطول الذى بناه سليمان فى البحر الأحمر أصبح منافسا لطريق نقل التجارة عبر اليمن وأثر سلبا على دخل مملكة سبأ الأمر الذى حدا بها للقيام بهذه الزيارة. إلا أن القرآن الكريم يعطى الزيارة طابعا إيمانيا وهو دخول ملكة سبأ وقومها فى الدين اليهودى وهو ما يتمشى مع وقائع التاريخ من وجود جاليات يهودية فى اليمن والحبشة وفى يثرب على طريق القوافل من اليمن إلى الشام.

وما كفر سليمان :

تتهم التوراة سليمان عليه السلام بأنه قد ضلَّ فى أخريات أيامه. إذ تقول (ملوك أول ١١:١ - ١٣): «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون. مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنه الرب لبنى إسرائيل: لا تدخلون إليهم. وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له ٧٠٠ من النساء السيدات و ٣٠٠ من السرارى. فأمالت نساؤه قلبه. وكان من زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى. ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتورث إلاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذى تجاه أورشليم ولملوك رجس بنى عمون. هكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن. فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذى تراءى له مرتين وأوصاه فى هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب. فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدى وفرائضى التى أوصيتك بها فإن أمزِّق المملكة عنك تمزيقا. إلا أنى لا أفعل ذلك فى أيامك من أجل دواد أبيك بل من يد ابنك أمزقها. على أنى لا أمزق منك المملكة كلها بل أعطى سبطا واحدا لابنك لأجل داود عندى ولأجل أورشليم التى اخترتها».

وتستمر التوراة (نفس الإصحاح: ١٤، ٢٣، ٢٦) فتذكر أن عقاب الله لسليمان كان أن أقام له خصوما يناوؤنه ويثيرون له المتاعب. وقد سبق أن أوضحنا (ص ١٨٨) أن سليمان عليه السلام برىء من هذه الاتهامات وأن ما أُخذ عليه من أفعال لا تتفق مع الإيمان كانت فى فترة تسلط الشيطان على كرسيه، فكانت فى الحقيقة من فعل الشيطان وليست من أفعال سليمان نفسه.

الفصل التاسع

متاعب سياسية لسليمان عليه السلام

بدأت هذه المتاعب السياسية لسليمان عليه السلام فى أخريات أيامه وتمثلت فى:

١ - هدد الأدومى .

٢ - رزون الأرامى .

٣ - يربعام الإسرائيلى .

١ - هدد الأدومى :

سبق أن ذكرنا (ص ١٢٦) أن يوآب قائد جيش داود حينما اجتاح أدوم قام بمذبحة قتل فيها كل الذكور من أهلها ومن البيت المالك كذلك إلا أن طفلا من الأسرة المالكة عمره ٧ سنوات واسمه «هدد» تم تهريبه إلى مصر. واحتضنه بسوسنس الثانى فرعون مصر. وتقول التوراة (ملوك أول ١١ :١٤): «وحدث لما كان داود فى أدوم عند صعود يوآب رئيس الجند لدفن القتلى وضرب كل ذكر فى أدوم. لأن يوآب وكل إسرائيل أقاموا هناك ٦ أشهر حتى أفنوا كل ذكر فى أدوم. أن «هدد» هرب هو ورجال أدوميون من عبيد أبيه معه ليأتوا إلى مصر. وكان هدد غلاما صغيرا وقاموا من مديان وأتوا إلى فاران وأخذوا معهم رجالا من فاران وأتوا إلى مصر إلى فرعون ملك مصر فأعطاه بيتا وعيَّن له طعاما وأعطاه أرضا. فوجد هدد نعمة فى عينى فرعون جداً وزوَّجه أخت امرأته تحفنيس الملكة. وسمع هدد فى مصر بأن داود قد اضطجع مع آبائه (أى مات) وبأن يؤاب رئيس الجيش قد مات. فقال هدد لفرعون أطلقنى إلى أرضى. فقال له فرعون: ماذا أعوزك عندى حتى إنك تطلب الذهاب إلى أرضك فقال لا شيىء وإنما تُطلقنى». ولعل بسوسنس اشتم من طلب هدد ترك مصر أنه ينوى الانتقام لمقتل والده من سليمان فلم يشأ أن يفسد العلاقات بينه وبين سليمان الذى كان قد أصبح صهره فلم يسمح لـ «هدد» بترك مصر. ولما مات بسوسنس وتولى بعده شيشنق الأول مؤسس الأسرة ٢٢ الليبية سمح له أن يترك مصر. فعاد إلى أدوم وأقام نفسه ملكا فيها . وظل يثير المتاعب لسليمان فى الفترة الأخيرة من حكمه (جاردنر - مصر الفرعنية - ص ٣٢٩) ويرجِّح الدكتور محمد بيومى مهران (إسرائيل طبعة ١٩٧٨ - ص ٧٩٩) أن شيشنق قد توسَّط لتحسين العلاقات بين هدد وسليمان وأن سليمان قد قَبِلَ أن تصبح

لأدوم وملكها هدد «حكما ذاتيا» ضمن مملكة إسرائيل وكان حلا مُرضيا للطرفين. أرضى تطلُّعات هدد وضمن لسليمان السلام مع جاره بدون حرب.

٢ - رزون الأرامى :

سبق أن ذكرنا (الجزء الثانى ص ١٨٢ ، ١٨٣) أن الأراميين ظلوا دويلات متفرقة منها دويلات على نهر الفرات الأعلى ودويلات فى شرق الأردن ودويلات فى سوريا وهى التى تهمنا منها دويلة حلب وحماة وحمص وصوبة وأرام دمشق. وكان رزون يعمل فى خدمة ملك صوبة. فلما قام داود بغزو بلاده هرب وكوَّن فرقة من الرجال وجمع حوله الأنصار. وكما سبق أن ذكرنا (ص ١٢٥) أنه كان يقوم بغارات نهب على أرام دمشق وعلى الجزء الشمالى من إسرائيل (قاموس الكتاب المقدس. أونجر. ص ١٠٨٠) وظل رزون خصما لسليمان أيضا - كما كان لداود أبيه - إلا أنه لِمَا سمعه عن قوة سليمان وكثرة جنوده وخيله رضى أن يدفع له الجزية مع احتفاظه بمركزه كأمير على دمشق فيما يشبه استقلالا ذاتيا.

٣ - يربعام الإسرائيلى :

يربعام اسم عبرى مكون من مقطعين «يرب» من يربو أى يكثر و «عام» أى الشعب. فاسم يربعام معناه يكثر الشعب. وهو ابن ناباط من سبط أفرايم. ولد فى بلدة «صردة» (١٥ كم جنوب غرب شكيم) وأظهر منذ حداثته ذكاء وفطنة فعيَّنه سليمان ناظرا على العمال من سبط يوسف (الأفرايميين والبنياميين) عندما كان يرمِّم سور أورشليم الذى تصدَّع وتهدَّم عندما استولى داود على المدينة من اليبوسيين. وبهذا تهيَّأت الفرصة ليربعام ليصبح معروفا من رجال سبطى أفرايم وبنيامين كما تهيأت له الفرصة لدراسة مشكلاتهم ومعرفة ما يضايقهم وخفَّف العمل والضرائب عنهم فأصبحوا يعتبرونه زعيمهم. وكانت كل القبائل الشمالية تتطلَّع إليه حتى يتحدث باسمها إلى سليمان لتخفيف العمل والضرائب عنهم (د. نجيب ميخائيل إبراهيم. الشرق الأدنى القديم. جـ ٣ ص ٣١٨). وفى ذات يوم قابله النبى أخيا الشيلونى (نسبة إلى بلدة شيلوه. وهى المسماة حاليا سيلون التى تبعد ٢٥كم شمالى أورشليم . وهى التى اختارها يشوع لتكون مقرا للتابوت والخيمة وبقيا فيها ٣٠٠ سنة. وكانت مسكن عالى الكاهن وصموئيل النبى) وتنبأ له أنه بعد موت سليمان ستنقسم المملكة قسمين وأنه سيصبح ملكا على العشرة أسباط الشمالية بينما يملك ابن الملك سليمان على سبط يهوذا فى الجنوب. وخاف يربعام من أن يحاول رحبعام ابن سليمان قتله حتى لا ينافسه على العرش فهرب إلى مصر أيام حكم الملك شيشنق وظل بها إلى أن توفى سليمان عليه السلام (ملوك أول ١١ : ٤٠).

وفاة سليمان عليه السلام :

ملك سليمان على إسرائيل ٤٠ عاما ثم توفى عام ٩٣٣ ق.م. ودفن فى مدينة داود فى أورشليم. وعن موت سليمان يقول القرآن الكريم:

«فلما قضينا عليه الموت مادلَّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته. فلما خرَّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين».
(١٤-سبأ).

والضمير فى «دلَّهم» عائد على الجن الذين كانوا يعملون له مايشاء. وكانوا مسخَّرين له لفترة حياته وكان سليمان عليه السلام قد قُبض وهو متكيئٌ على عصاه فلم تعرف الجن أنه مات إلا بعد مدة حين أكلت حشرة الأرض عصاه فاختل توازنه وسقط وعلمت الجن أنه قد مات من مدة وتأكد أنهم لا يعلمون الحاضر. وهم عن علم الغيب أعجز . إذ مات سليمان أما أعينهم ولم يعرفوا أنه مات وظلوا يعملون مع أن تسخيرهم كان ينتهى بموته.

وبهذا تنتهى قصة سليمان عليه السلام **«نعم العبد إنه أواب».** (٣٠ - ص).

الفصل العاشر

انقسام مملكة سليمان

رحبعام بن سليمان :

تولى الملك بعد سليمان ابنه رحبعام. و«رحبعام» اسم عبرى مكون من مقطعين: «رحب» أى متسع و«عام» أى الشعب وعليه يكون «رحبعام» معناه «اتسع الشعب». وهو ابن سليمان من زوجته نعمة العمونية. وكان ضيق التفكير. فبعد موت سليمان اجتمع فى شكيم ممثلون للإثنى عشر سبطا ليجعلوه ملكا إذ كان هو الوريث الشرعى. وشكيم كانت عاصمة لأكبر إقليم من الأقاليم الإدارية التى أقامها سليمان فى شمال إسرائيل فضلا عن أنها كانت إحدى مدن الملجأ فى الأرض غرب نهر الأردن (شكل ١٢ ص ٣٦) ولذلك كانت ملتقى الأسباط الشمالية يجتمع فيها رؤساؤهم إذا أرادوا التشاور فى أمر ما. وصعد إليها رحبعام ليحصل على مبايعتهم له ملكا مكان والده. فطلبوا منه أن يخفِّف من ثقل العمل الذى كان سليمان عليه السلام قد فرضه عليهم (فى أعمال البناء - ص ١٧٢) ومن الضرائب المفروضة عليهم وإعاشة الحكومة والقصر (ص ١٥٤). فطلب منهم مهلة ثلاثة أيام ليرد على مطالبهم. وفى هذه المدة استشار الشيوخ الذين كانوا يعملون كمستشارين لأبيه فأشاروا عليه بأن يجيب مطلب الشعب ويكلمهم كلاما حسنا. وبعد ذلك طلب مشورة الشباب من أهل القصر والأمراء الذين نشأوا معه فأشاروا عليه بأن يكون حازما معهم وأكثر قسوة حتى يطيعوه كما أطاعوا والده. فأهمل مشورة الشيوخ واتبع مشورة الشباب. وتقول التوراة (ملوك أول ١٢:١١): «فقال لبنى إسرائيل. إن خنصرى أغلظ من مِتْنَىْ أبى (المتنان صُلب الظَّهر بما فيه من عصب ولحم عن يمين وشمال - والمعنى إنى أقسى من أبى) والآن أبى حمَّلكم نيرا ثقيلا وأنا أزيدكم على نيركم. أبى أدَّبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب (وهو يقصد الضرب بالسوط ذى الثلاثة أفرع والذى كان المذنبون يُضربون به ٣٣ مرة بدلا من ٩٩ جلدة مفردة)».

وهكذا أهمل رحبعام مشورة الشيوخ الحكماء واتبع مشورة الشبان الهوجاء. وشعر رؤساء الأسباط أن رحبعام سيكون طاغية وسيجعل من الشعب عبيدا فاكتسب كراهيتهم. إلاَّ أن بعض المفسرين يدافع عن رحبعام ويرون أنه كان ضحية مؤامرة دُبِّرت بإحكام (تفسير الكتاب المقدس جـ ٢. ص ١٩٧) ذلك أن يربعام كان قد عاد من مصر وراح يُحرِّض بعض أفراد الشعب ليتقدموا بهذه المطالب - تخفيف العمل وتخفيض الضرائب - وأن مستشارى الملك سليمان قد

تفهَّموا الوضع فأشاروا بسياسة الملاينة. أما أصدقاءه الشبان فقد أزعجهم وجود يربعام واعتقدوا أن هذا المطلب ما هو إلا «جس نبض» وسيعقبه مطالب متزايدة إن هو رضخ لهذا المطلب فأشاروا عليه بأن يواجههم بالعنف ليردعهم. وتستمر التوراة (ملوك أول ١٢:١٦): «فلما رأى إسرائيل أن الملك لم يسمع لهم ردَّ الشعب جوابا على الملك قائلين: أى قسم لنا فى داود.لا نصيب لنا فى ابن يسَّى. إلى خيامك يا إسرائيل. الآن انظر إلى بيتك ياداود. وذهب إسرائيل إلى خيامهم».

ويسَّى هو أبو داود. والمعنى أن الشعب لما رد عليهم رحبعام بهذا الرد القاسى المعبِّر عن الاحتقار والمنبىء بسوء المعاملة فى المستقبل تأكد لهم أن ليس لهم مكان إن تولى رحبعام بن سليمان بن داود بن يسَّى المُلكَ. فرفضوا مبايعته. «والآن انظر إلى بيتك يا داود» أى أنه لن يبايعه إلا بيت آل داود وهم قلة والمعنى كما نقول فى العامية «خللِّى أهلك ينفعوك» يقصدون سبط يهوذا الذى منه بيت داود. وهذا ما حدث فعلا إذ أن سبط يهوذا فقط هم الذين بايعوا رحبعام وأعلنوه ملكا عليهم. أما باقى الأسباط فلم يبايعوه.

وأراد رحبعام أن يفرض سلطانه على الأسباط الشمالية. ونلاحظ أيضا سوء تصرفه السياسى إذ لم يعمل على استمالتهم باللين والحسنى. بل أرسل لهم «أدورام» الذى أقامه سليمان رئيسا لتسخير بنى إسرائيل لقطع الحجارة اللازمة لبناء الهيكل ولجمع الجزية التى فرضها عليهم (ص ١٧٢). وكان داود قد أقامه أيضا لجمع الضريبة المفروضة على الإسرائيليين حسب الشريعة (مقابل الزكاة) وهى عبارة عن نصف شاقل أى درهمين عن كل فرد بلغ عشرين سنة فصاعدا (خروج ٣٠ : ١٣). وظل أدورام قائما على جمع هذه الضرائب طوال مدة حكم سليمان. ويبدو أنه كان فظ المعاملة عند جمعها لذلك كان مكروها من الشعب. ولعل رحبعام قد اختاره هو بالذات ظانا أن ماهو معروف عنه من شدة وقسوة سيجعل الشعب يستسلم له إذا طلب مبايعتهم لرحبعام. ولكن الشعب رجم أدورام بالحجارة حتى مات. وخشى رحبعام على نفسه من عداء الأسباط الشمالية فعاد إلى أورشليم. وتقول التوراة: (ملوك أول ١٢:١٩) «فبادر رحبعام وصعد إلى المركبة ليهرب إلى أورشليم. فعصى إسرائيل على بيت داود إلى هذا اليوم. ولما سمع جميع إسرائيل أن يربعام قد رجع أرسلوا له فدعوه إلى الجماعة وملَّكوه على جميع إسرائيل. لم يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحده».

رحبعام يحاول إخضاع الأسباط الشمالية بالقوة :

وتستمر التوراة قائلة: «ولما جاء رحبعام إلى أورشليم جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين ١٨٠ ألف مختار محارب ليحاربوا بيت إسرائيل ويردُّوا المملكة لرحبعام بن سليمان. وكان كلام الله

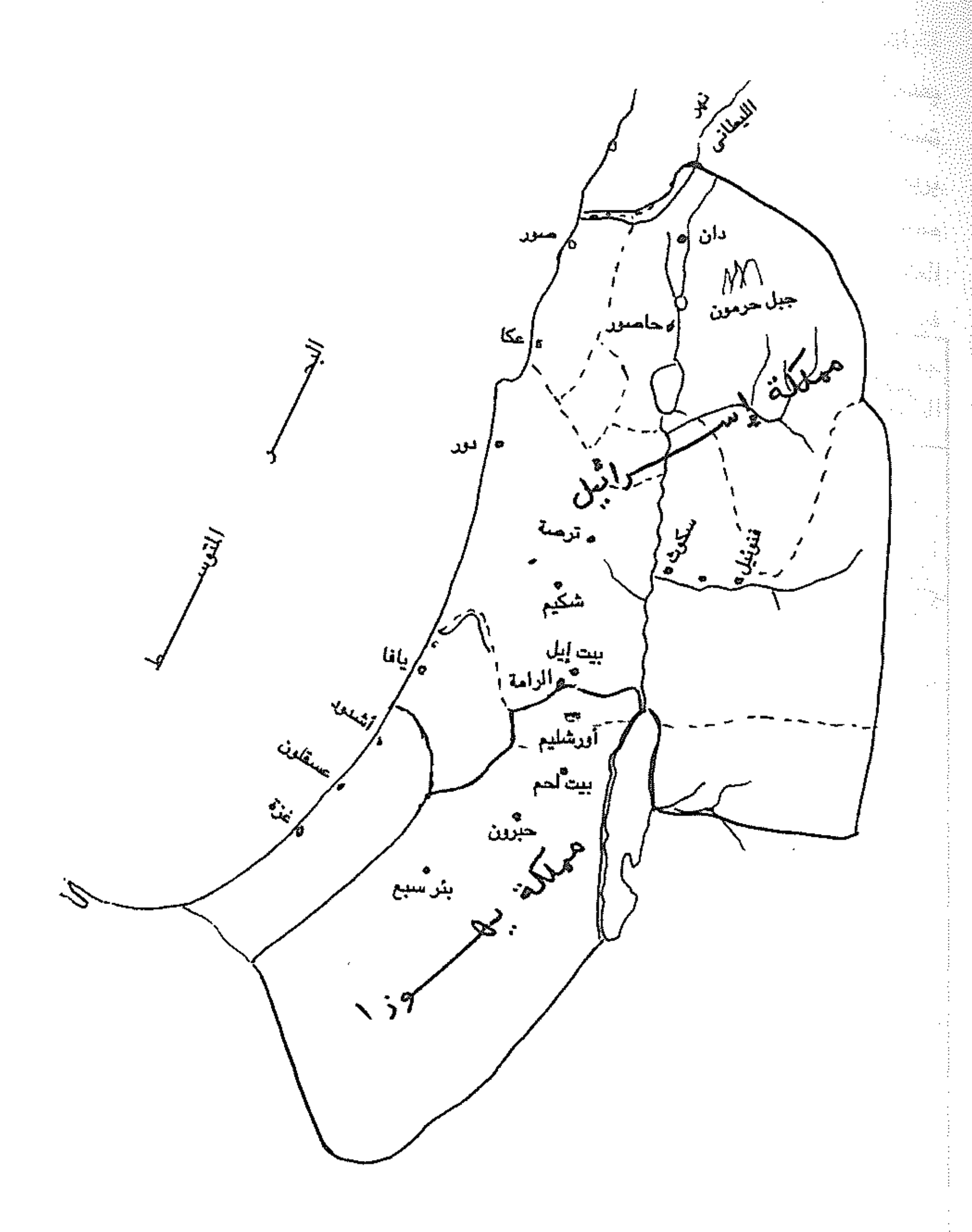
لشمعيا رجل الله قائلا: كَلِّم رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وكل بيت يهوذا وبنيامين وبقية الشعب قائلا: هكذا قال الرب. لا تصعدوا وتحاربوا إخوتكم بنى إسرائيل. ارجعوا كل واحد إلى بيته لأن من عندى هذا الأمر. فسمعوا لكلام الرب ورجعوا لينطلقوا حسب قول الرب».

وبهذا انقسمت المملكة إلى قسمين (شكل ٥٠).

١ – رحبعام بن سليمان ملكا على يهوذا وبنيامين فى الجنوب. وعاصمته أورشليم .

٢ – بقية الأسباط ملَّكوا عليهم يربعام. واتخذ من شكيم عاصمة لمملكة إسرائيل الشمالية.

وسنتكلم فيما يلى عما آل إليه مصير المملكتين: إسرائيل فى الشمال ويهوذا فى الجنوب. وسنرى أن تاريخ بنى إسرائيل فى هذه المرحلة كان عبارة عن فترات من الضلال والزيغ عن عبادة الرب إذ يعبدون آلهة أخرى مثل البعل وعشتروث فيعاقبهم الله بأن يُسلِّط عليهم أعداءهم ليذلوهم ويفرضوا عليهم الجزية. عندئذ يندمون على عصيانهم أوامر الرب فيرسل الله لهم نبيا يهديهم ويستغفر لهم. فيرحمهم الله ويرفع الذل عنهم ويخلِّصهم من أعدائهم. ولكن يعاودهم الضلال. وتعود الشعوب المجاورة لاستعبادهم. وتكرر هذا فى المملكة الشمالية بالذات التى كانت قد ضلَّت وعبدت الأوثان فى معظم فترات حكمها إلى أن انتهت بسقوط السامرة عام ٧٢٢ ق.م والسبى الأشورى عام ٧١٩ ق.م. أما المملكة الجنوبية فقد كان ملوكها مؤمنين إلى حد ما إلا أنهم فى النهاية زاغوا فعاقبهم الله هم أيضا – وكان السبى البابلى عام ٥٨٥ ق.م.



شكل ٥٠ – مملكتى إسرائيل (الشمالية) ويهوذا (فى الجنوب).

الفصل الحادى عشر

مملكة إسرائيل الشمالية

ترتيبه	اسم الملك	سنوات حكمه ق.م	مصيره وفاة	مصيره قتل	النبى المعاصر
١	يربعام	٩٣٢ – ٩٠١	وفاة		أخيا الشيلونى
٢	ناداب بن يربعام	٩٠١ – ٩٠٠		قتل	
٣	بعشا (أسرة جديدة)	٩٠٠ – ٨٧٧	وفاة		النبى ياهو بن حنانى
٤	أيلة بن بعشا	٨٧٧ – ٨٧٦		قتل	
٥	زمرى (انقلاب قصير الأجل)	٨٧٦– سبعة أيام		قتل	
٦	عمرى (أسرة جديدة)	٨٧٦ – ٨٦٩	وفاة		
٧	أخاب بن عمرى	٨٦٩ – ٨٥٠		قتل فى الحرب	ميخايا وإلياس
٨	أخزيا بن أخاب	٨٥٠ – ٨٤٩	توفى		أليشع النبى
٩	يورام بن أخاب	٨٤٩ – ٨٤٣		قتل	
١٠	ياهو بن نمشى (أسرة جديدة)	٨٤٣ – ٨١٥	توفى		
١١	يهو أحاز بن ياهو.	٨١٥ – ٨٠١	توفى		
١٢	يهو آش (يوآش) بن يهو أحاز	٨٠١ – ٧٨٦	توفى		يونان النبى (يونس)
١٣	يربعام الثانى بن يوآش	٧٨٦ – ٧٤٦		قتل	
١٤	زكريا بن يربعام	٧٤٦ – ٧٤٥		قتل	عاموس النبى
١٥	شلوم بن يابيش (أسرة جديدة)	٧٤٥		قتل	
١٦	منحيم بن جادى (أسرة جديدة)	٧٤٥ – ٧٣٨	توفى		هوشع النبى
١٧	فقحيا بن منحيم	٧٣٨ – ٧٣٧		قتل	
١٨	فقح بن رمليا (أسرة جديدة)	٧٣٧ – ٧٣٢		قتل	
١٩	هوشع (أسرة جديدة)	٧٣٢ – ٧٢٢			
	سقوط السامرة	٧٢٢ ق.م			

اتسمت المملكة الشمالية – إسرائيل – خلال عمرها الذى امتد ٢١٠ عاما (٩٣٢ – ٧٢٢) – بعدم الاستقرار . إذ أن الـ ١٩ ملكا الذين حكموها جاءوا من ٩ أسرات مختلفة . واغتيل منهم تسعة وواحد قتل فى حرب. كما انعكس عدم الاستقرار السياسى على مكان العاصمة إذ أن يربعام اختار «شكيم» لما لها من ثقل دينى. أما فنوئيل فقد لجأ إليها يربعام مؤقتا ليبعد عن مسرح القتال عند غزو شيشنق ليهوذا . أما ترصة التى تقع على مرتفع حصين فقد ظلت العاصمة لأربعين عاما . وفى منتصف مدة حكم عمرى نُقلت العاصمة إلى السامرة كما سيجىء فيما بعد (ص ٢٥٢). ولَّما كانت السامرة مفتوحة على سهل شارون ويسهل الوصول إليها من جهة الغرب عبر «وادى شكيم» لذلك فقد كانت سهلة التأثر بثقافة الساحل الفينيقى وزاد هذا التأثير بالمصاهرة التى تمت بين البيتين المالكين كما سيجىء فيما بعد (ص ٢٥٢).

ومما زدا من عدم استقرار المملكة الشمالية كثرة الحروب بينها وبين الأراميين وبالذات أرام دمشق حتى بلغت حوالى ١٣ معركة. والحقيقة أن أسبابا اقتصادية كانت وراء هذه الحروب إذ أن وجود إسرائيل قوية وتسيطر جيدا على مدن الشمال: دان وعيون وآبل معكة معناه التحكم فى الطريق المتجه غربا من دمشق إلى ساحل البحر المتوسط وبالتالى التحكم فى تجارة العطور والبخور والتوابل القادمة من اليمن وشرق أفريقيا . وكانت القوافل البرية تنقلها عبر الجزيرة العربية ثم طريق شرق الأردن ثم عبر دمشق أو مباشرة إلى مدن شمال إسرائيل لتصل إلى موانى البحر المتوسط، عكا وصور وصيدون ومنها إلى الدول المطلة على البحر المتوسط وأصبح التنافس بين دمشق وإسرائيل حادا لما يُدره عبور هذه البضائع من أموال.

كانت هذه نظرة عامة على وضع المملكة الشمالية والآن نذكر ملوكها وأنبياءها .

١ – يربعام الأول

هو أول ملوك مملكة إسرائيل الشمالية. تولى الحكم بعد أن بايعه الأسباط العشرة الشمالية ملكا عليهم. وأعاد بناء «شكيم» وسكن بها وجعلها عاصمة له ثم راح إلى «فنوئيل» على نهر يبوق فى شرق الأردن فحصنَّها وجعلها مركزا ثانيا له (ملوك أول ١٢:٢٥). ثم فى السنة الثانية من حكمه اتخذ من «ترصة» عاصمة له. وظلت عاصمة له ولخلفائه لمدة ٤٠ عاما إلى أن بنى الملك عمرى مدينة «السامرة» عام ٨٧٠ ق.م. فصارت عاصمة لإسرائيل.

ولا بأس من إعادة تذكرة القارىء ببعض المعلومات عن هذه المدن «فشكيم» – وهى نابلس الحالية – بلدة قديمة خيَّم بالقرب منها إبراهيم عليه السلام وكان الكنعانيون يسكنون فيها (الجزء الثانى ص ٢٦٩). وفى وقت عودة يعقوب من حاران فى الفرات الأعلى كان الحويون

يقيمون فيها. وفيها ابتاع يعقوب قطعة أرض أقام فيها إلى أن اضطُر إلى الخروج من المدينة (الجزء الثالث ص ٤١٩) وفيها دفن التابوت الذى به جثمان يوسف عليه السلام بعد أن حمله بنو إسرائيل معهم عند خروجهم من مصر. وهناك سمع الشعب خطبة الوداع الثانية ليشوع (ص ٣٨). وهى إحدى مدن الملجأ غرب الأردن. أما «**فنوئيل**» فقد سبق ذكرها (الجزء الثالث. ص ٤١٧) وقد أعطاها يعقوب هذا الاسم لأنه هناك – كما تقول التوراة (تكوين ٣٢:٣٠) – نظر إلى الله وجها لوجه!! وفى عصر القضاة كانت عبارة عن برج وحوله بيوت المدينة وقد هدم جدعون البرج وقتل سكان المدينة (قضاة ٨:٨) ثم أعاد يربعام بناءها وتحصينها. وهى تقع شمال نهر حبوق ١٣كم شرق نهر الأردن. أما «**ترصة**» فتقع على بعد ١٠كم شمال شرق شكيم.

وخشى يربعام من ذهاب الشعب إلى أورشليم لتقديم الذبائح هناك فتميل قلوبهم إلى بيت داود فى يهوذا فينصرفوا عنه. فأراد أن يصرفهم عن الذهاب إلى أورشليم فقام بتدعيم هيكلين فى مملكته واحد فى دان والآخر فى بيت إيل . وتقع **دان** قرب الحدود الشمالية لمملكة إسرائيل وهى حاليا «تل دان» فى الطرف الشمالى لوادى الحولة قرب سفح جبل حرمون ٣٠كم شمال شرق حاصور. أما **بيت إيل** فهى مدينة قديمة أقام ابراهيم عليه السلام خيمته قربها (الجزء الثانى ص ٢٦٩) كما أنها هى المكان الذى نام فيه يعقوب عند ذهابه إلى حارات فرأى فى نومه معراجا منصوبا من الأرض إلى السماء والملائكة يصعدون فيه وينزلون فقال يعقوب هذا بيت الله وغيَّر اسم المكان من «لوز» إلى «بيت إيل» (الجزء الثالث ص ٤١٢). وهو يقع ١٩ كم شمال أورشليم.

ومما لاشك فيه أن إقامة هذين الهيكلين كان مخالفا للشريعة التى لا تعترف إلا بهيكل واحد لكل إسرائيل. ولكن على ما يبدو فإن إقامة يربعام فى مصر لعدة سنوات قد أثرت فى عقيدته فلم يعد يتمسَّك بحرفية الشريعة الموسوية. بل إنه تأثر بعبادة عجل أبيس وتيس منديس. فأقام مرتفعات (أماكن عبادة) للتيوس والعجول وجعل لها كهنة يقومون على خدمة معابدها ويتقبلون القرابين ويذبحونها على النصب. ومنع اللاويين من أن يكهنوا للرب حسب الشريعة فتركوا إسرائيل وذهبوا إلى مملكة يهوذا حيث يمكنهم عبادة الرب وتبعهم كل المؤمنين المتمسكين بدينهم (ملوك أول ١٢:١٦). وعمل يربعام عيدا فى الشهر الثامن (زيو = مايو) فى اليوم الخامس عشر من الشهر كالعيد الذى فى يهوذا وأصعد محرقات على المذبح فى بيت إيل. وهكذا ارتكب يربعام ثلاث خطايا جسيمة:

١ – إحياء عبادة العجل .

٢ – عيَّن كهنة من عامة الشعب وليسوا من بيت لاوى .

٣ – ابتدع عيدا جديدا فى ١٤ من الشهر الثامن ليضاهى به عيد المظال والمحدد له ١٤ من الشهر السابع (شهر أبيب) من السنة اليهودية.

ويرى بعض الباحثين أن يربعام كان مُشَجَّعًا من الفراعنة لإحداث انقسام المملكة بغرض إضعافها حتى تتمكن مصر من إعادة سيطرتها على فلسطين كما كانت فى عهد الأسرة ١٩. وما نراه هو أن يربعام كان يرغب فى علاقات حميمة مع فراعين مصر ليقفوا معه ضد أى محاولة من رحبعام لضم المملكة الشمالية بالقوة. فكان أن جاملهم على حساب العقيدة الموسوية. فضلا عن أن سابق إقامته فى مصر وزواجه من أخت الفرعون بسونس جعلته أكثر ميلا لعقيدة المصريين.

اتضح الآن أن يربعام قد ضل ضلالا بعيدا. ولم يكتف بهذا بل بدأ يتآمر على يهوذا التى كانت تسير على شريعة الرب. فكان لابد من أن ينال جزاءه.

نبي من يهوذا يحذّر يربعام :

وجاء نبى من يهوذا - لم تذكر التوراة اسمه - ليحذِّر يربعام من غضب الله (ملوك أول ١:١٣) «وإذا برجل الله قد أتى من يهوذا بكلام الرب إلى بيت إيل ويربعام واقف لدى المذبح لكى يوقد. فنادى نحو المذبح بكلام الرب. وقال: يا مذبح يا مذبح هكذا قال الرب. هو ذا سيولد لبيت داود ابن اسمه يوشيا ويذبح عليك كهنة المرتفعات الذين يوقدون عليك. (وكان هذا تنبؤًا بشيىء سيحدث بعد ٣٠٠ عام أيام يوشيا - ٦٤٠ - ٦١٠ ق.م - والذى قام بحركة إصلاح دينى كبيرة كما سيأتى فيما بعد ص ٣٦١). وأعطى رجل الدين علامة على صدق كلامه وهى أن المذبح سينشق ويصبح رمادا. ولما سمع يربعام ذلك الكلام مد يده ليمسك برجل الله فتيبَّست يده. وانشق المذبح وأصبح رمادا فخاف يربعام وطلب من رجل الله أن يصلِّى للرب حتى تعود يده كما كانت. ففعل. وطلب الملك منه أن يدخل إلى البيت ليأكل معه فقال رجل البيت إن الله أمره قائلا: «لا تأكل خبزا ولا تشرب ماء ولا ترجع فى الطريق الذى ذهبت فيه». وهكذا رفض رجل الله أى خبز أو شرب مع يربعام ولم يرجع فى نفس الطريق الذى جاء منه بل رجع من طريق آخر. وكان فى بيت إيل نبى شيخ لم تذكر التوارة اسمه هو أيضا. ولعله كان كاهنا فقط. فذهب وراء نبى يهوذا حتى أدركه وطلب منه العودة ليأكل ويشرب معه فاعتذر إليه بأن أمر الرب هو ألا يأكل أو يشرب شيئا من هذه البلدة. ولكن كاهن بيت إيل كذب عليه وأخبره أن ملاك الرب قد كلَّمه قائلا: ارجع به معك إلى بيتك فيأكل خبزا ويشرب ماء. فرجع معه فى نفس الطريق وأكل وشرب وبهذا خالف أوامر الرب. وكان الواجب عليه الامتثال التام لأمر الرب وإن كان هناك تغيير فى أوامر الرب فيجب أن يُبلَّغَ إليه شخصيا ولا يأخذه عن أى أحد آخر. وعقابا له على مخالفته أمر الرب قابله أسد وافترسه وهو عائد إلى بلده.

مرض ابن يربعام :

ومرض ابن يربعام مرضا شديدا ورأى الملك أن يستعين على شفاء ابنه بدعوات النبى **«أخيا الشيلونى»** وكان يقيم فى بلدة شيلوه. (ويَرجَّح أنها المسمَّاة الآن «سيلون» ٢٥كم

شمالى أورشليم على طريق شكيم). وخشى يربعام – لأنه سار فى طريق الشر وعبد الأوثان – أن يرفض النبى الدعاء لابنه بالشفاء. فرأى أن تتنكَّر امرأته وتأخذ معها هدية لأخيا. وكان أخيا قد كبر فى السن وضعف بصره. ولكن الله أعلمه بقدوم امرأة يربعام. وتقول التوراة (١ ملوك ١٤:٦): «فلما سمع أخيا حس رجلها وهى داخلة فى الباب قال: ادخلى يا امرأة يربعام. لماذا تتنكَّرين وأنا مُرسَلٌ إليك بقول قاس. اذهبى وقولى ليربعام هكذا قال الرب إله إسرائيل: من أجل أنى رفعتك من وسط الشعب وجعلتك رئيسا على شعبى إسرائيل وشققت المملكة من بيت داود وأعطيتك إياها. ولم يكن كعبدى داود الذى حفظ وصاياى والذى سار ورائى بكل قلبه ليفعل ما هو مستقيم فقط فى عينىَّ. وقد ساء عملك فسرتَ وعملتَ لنفسك آلهة أخرى ومسبوكات وقد طرحتنى وراء ظهرك. لذلك هأنذا أجلب شرا على بيت يربعام. وأقطع ليربعام كل بائل بحائط محجوزا ومطلقا فى إسرائيل وأنزع آخر بيت يربعام حتى يفنى. من مات ليربعام فى المدينة تأكله الكلاب ومن مات فى الحقل تأكله طيور السماء لأن الرب تكلم». ثم أمرها أن تعود إلى بيتها. وأنه عند لحظة دخولها المدينة يموت ابنها وهو الوحيد من بيت يربعام الذى سيتم دفنه. أما الآخرون فستحق عليهم كلمة الرب كما قال. وحدث ما تنبأ به النبى أخيا الشيلونى. ومات ابن يربعام. وكان الواجب على أبيه أن يعود إلى الله بعد مصيبته هذه ولكنه لم يعتبر واستمر فى طريق الضلال حتى مات بعد أن ملك على إسرائيل ٢٢ سنة (٩٢٢ – ٩٠١ ق.م) وتولى ابنه «ناداب» الملك من بعده.

٢ – ناداب بن يربعام

حكم ناداب بعد موت أبيه مدة سنتين فقط (٩٠١ و ٩٠٠ ق.م.) وسار فى طريق الضلال مثل والده إذ ترك عبادة الرب وعبد الأصنام. وكانت مدينة جِبَّثُون Gibbethon – (وهى تقع فى الجزء الشمالى من أرض الفلسطنيين – حاليا «تل الميلاط» ٥كم غربى مدينة جازر) من أملاك دان ولكن الفلسطينيين استولوا عليها فهبَّ ناداب لتخليصها من أيديهم. وفيما هو يحاصر المدينة قام عليه «بعشا» رجل من سبط يساكر. فقتله وقضى على كل أهل بيته وبهذا تحققت نبوءة النبى أخيا الشيلونى. ومَلَكَ بعشا على إسرائيل.

٣ – بعشا . Baasha

كان بعشا هو أول ملوك الأسرة الجديدة التى حكمت إسرائيل بعد أسرة يربعام. وأول ما فعل هو أنه قام بضرب عنق كل فرد من بيت يربعام فأبادهم جميعا. وكان بعشا من أسرة

متواضعة وكان الواجب عليه أن يدرك أن الله هيأ له الانتصار على ناداب وأنه كان أداة الرب للتنكيل ببيت يربعام لسيرهم فى طريق الضلال ومن ثم كان الواجب عليه أن يعود إلى طريق الرب. ولكن بعشا سار على نفس طريق سابقيه فى الضلال وعبادة الأصنام.

وأعاد بعشا بناء مدينة «الرامة Ramah»، وهو اسم عبرى معناه مرتفعة. أعاد بناءها على هضبة عالية فى أرض بنيامين على بعد ٨كم شمال أورشليم على طريق بيت إيل. وحصَّنها لكى تمنع حاميتها أى فرد من شعب إسرائيل من الذهاب إلى مملكة يهوذا. وكان كلام الرب إلى النبى «ياهو بن هنانى» على بعشا قائلا: «من أجل أنى قد رفعتك من التراب وجعلتك رئيسا على شعب إسرائيل فسرت فى طريق يربعام وجعلت شعب إسرائيل يخطئون. هأنذا أنزع نسل بعشا ونسل بيته وأجعل بيتك كبيت يربعام. فمن مات لبعشا فى المدينة تأكله الكلاب ومن مات له فى الحقل تأكله طيور السماء (١ ملوك ١٦ : ١ – ٤)».

وكانت العلاقات بين بعشا وبنهدد ملك دمشق جيدة إلا أنها ما لبثت أن ساءت وتحاربا وحصل بنهدد على نوع من الاستقلال الذاتى وتم عقد معاهدة تحالف وعدم اعتداء. ثم توفى بعشا بعد أن ملَك على إسرائيل ١٣ سنة.

٤ – أيلة بن بعشا .Elah

تولى الحكم بعد وفاة أبيه وحكم لمدة سنتين وكانت عاصمته «ترصة Tirzah ». وبينما كان يشرب الخمر ويسكر فى قصره دخل عليه «زمرى» رئيس فرقة المركبات وقتله وتولى الملك من بعده. وقتل كل أسرة بعشا. وكما تقول التوراة (١ ملوك ١٦:١٢) «فأفنى زمرى كل بيت بعشا حسب كلام الرب الذى تكلَّم به على بعشا عن يد ياهو النبى لأجل خطايا بعشا وخطايا ابنه أيلة».

٥ – زِمرى .Zimri

لم يحكم زمرى سوى سبعة أيام – فى ترصة – إذ لما سمع «عمرى» قائد الجيش بما فعله زمرى توجَّه إلى ترصة وحاصر القصر. ولما أدرك زمرى أنه لا أمل له فى مقاومة عمرى فإنه انسحب إلى داخل قلعة القصر وأغلقها على نفسه وأشعل النار فيها فمات محترقا. عندئذ قام أحد الضباط واسمه تبنى Tibni وأعلن نفسه ملكا على إسرائيل وتحصَّن داخل ترصة . وانقسم الشعب والجنود نصف مع تبنى ونصف مع عمرى وظل هذا الانقسام قائما لمدة ٥ سنوات إلى أن مات تبنى وأصبح عمرى هو الملك لمملكة إسرائيل الشمالية.

٦ - عمرى Omri.

تولى الحكم بعد انتحار زمرى. وبعد وفاة تبنى أصبح هو ملك إسرائيل لا ينازعه أحد. وبقى يحكم فى ترصة لمدة ٦ سنوات ثم انتقل إلى «تل سامريا» الذى اشتراه من «شمر» بمثقالين من الفضة وبنى به مدينة سماها «السامرة» Samaria وجعلها عاصمة لإسرائيل الشمالية وظلت كذلك لحوالى ١٥٠ عاما حتى سقوط إسرائيل بالسبى الأشورى عام ٧٢٢ ق.م.

واستطاع عمرى أن يهزم المؤآبيين ويستولى على الأرض الواقعة شرقى البحر الميت وأجبرهم على دفع الجزية. «وعمل عمرى الشر فى عينى الرب أكثر من جميع الذين قبله وسار فى طريق يربعام وفى خطيته وعبد الأصنام» (١ ملوك ١٦:٢٥) ومات عمرى ودفن فى السامرة وملك أخاب ابنه مكانه.

٧ - أخاب بن عمرى.

ملك بعد وفاة والده عمرى وكانت العاصمة هى السامرة. وتقول التوراة: «وعمل الشر فى عينى الرب واتخذ «إيزابل» ابنة «أثبعل» ملك الصيدونيين زوجة له. فأغوته فعبد البعل وسجد له وبنى مذبحا للبعل فى بيت البعل الذى بناه فى السامرة» (١ ملوك ١٦:٣٠). وكان زواج أخاب بن عمرى من ابنة ملك الصيدونيين زواجا سياسيا. إذ كان العداء مستحكما بين الدويلات الأرامية وخاصة أرام دمشق وبين إسرائيل بسبب الصراع على التجارة وجباية الرسوم على البضائع. وما إن بنيت السامرة حتى سارع «بنهدد» ملك أرام دمشق بإقامة أسواق له فيها لتصريف بضائع دمشق بدون دفع رسوم جمركية عليها. وقامت الحرب بين البلدين. واستعان أخاب بالنبى ميخا - الذى كان معاصرا له - ليدعو له بالنصر ودعا له ميخا فكان انتصاره ساحقا على بنهدد ملك دمشق. وكان الواجب يقضى بقتل الخصم تبعا لتقاليد الحرب الدينية. ولكن أخاب تصالح مع بنهدد واتفقا على أن يقوم أخاب فى المقابل بفتح أسواق فى دمشق لبضائع إسرائيل. ثم بعد فترة توترت العلاقات بين البلدين بسبب قيام بنهدد باحتلال أرض من أسباط إسرائيل فى شرق الأردن وقامت حرب بين البلدين. وحرب استرداد الأرض تعتبر حربا دينية. وبعد انتصار أخاب كان الواجب عليه وللمرة الثانية قتل بنهدد. ولكنه عفا عنه وأطلق سراحه بعد أن وقع معاهدة بعدم الاعتداء.

وبالرغم من هذه المهادنة فإن أخاب رغب فى تحالف مع ملوك إمارات الساحل الفينيقى. فتزوج - كما ذكرنا آنفا - من إيزابل ابنة أثبعل ملك صيدا. وأثبعل معناها «بعل معه» وكان أخاب من الضعف أمام زوجته فترك لها العنان. وما إن جاءت إيزابل إلى السامرة حتى أدخلت

إليها الآلهة الفينيقية وفرضت عبادتها على نطاق واسع وأحضرت معها إلى القصر ٤٥٠ من كهنة بعل و ٤٠٠ من كهنة عشتاروث وأمرت بذبح كهنة الديانة الموسوية. وبنت دور العبادة والمذابح لآلهتها. وخالف أخاب أوامر الرب إذ سمح لأحد رجاله بإعادة بناء مدينة أريحا التى قال يشوع عند استيلائه عليها (ص ٢٥) «ملعون قدام الرب الرجل الذى يقوم ويبنى هذه المدينة أريحا. ببكره يؤسسها وبصغيره ينصب أبوابها» (يشوع ٦:٢٦). وقد أصابت اللعنة أخاب فمات ابنه البكر وهو يضع أساس المدينة ومات أصغر أبنائه وهو ينصب أبوابها.

الحرب مع أشور ومعركة قرقار :

كان شلمناصر الثالث قد تولى مُلك أشور عام ٨٥٨ ق.م. وبدأت نظرته تتجه إلى التوسع غربا. وقد وُجدت أخبار حروبه مسجَّله على مسلة تعرف باسم «المسلة السوداء» محفوظة بالمتحف البريطانى وفيها يذكر أنه بسط سلطانه على بابل وأكد وكلديا فى جنوب العراق. وتسلم العصا والصولجان من الإله «أشور» وأصبح كاهنَه الأكبر وحاكم الشعب. ثم اتجه نحو البحر الكبير (البحر المتوسط) واجتاح «حاتى» (بلاد الحيثيين) وهاجم الدويلات الأرامية فى سوريا وهزمها واستولى عليها واحدة بعد الأخرى. واستولى على «حلب» وأخذ الجزية من أهلها فضة وذهبا. ثم هاجم «حماة». وقد تحالف ضدَّه «حدد عزر» ملك دمشق و ١٠,٠٠٠ من المشاة من قبَل أخاب ملك إسرائيل. وراح يُعدِّد ١٢ ملكا تحالفوا ضده - ولأول مرة تظهر مملكة الأنباط العربية كقوة سياسية إذ يذكر أن «جندبو» ملكها قد ساهم فى هذا التحالف بـ ١٠٠٠ جمل. ودارت المعركة عند مدينة «قرقار» أو «كركار» Qarqar (شكل ٥١) واندحر الاثنا عشر ملكا. وفى نص آخر مدوَّن على أحد التماثيل كتب شلمناصر: لقد هزمت حدد عزر الدمشقى مع ١٢ أميرا هم حلفاؤه (وذكر عددا من الأسماء من بينهم أخاب ملك إسرائيل). وقد طرحتُ على الأرض (أى قتلت) ٢٠,٩٠٠ من محاربيهم الأقوياء. أما بقية الجيوش فقد قذفتُ بها إلى «نهر الأورنت» (نهر العاصى) فتفرَّقوا لينجوا بأنفسهم واستولى على «قرقار» ودمَّرها. وسجل أن غنائمه كانت:

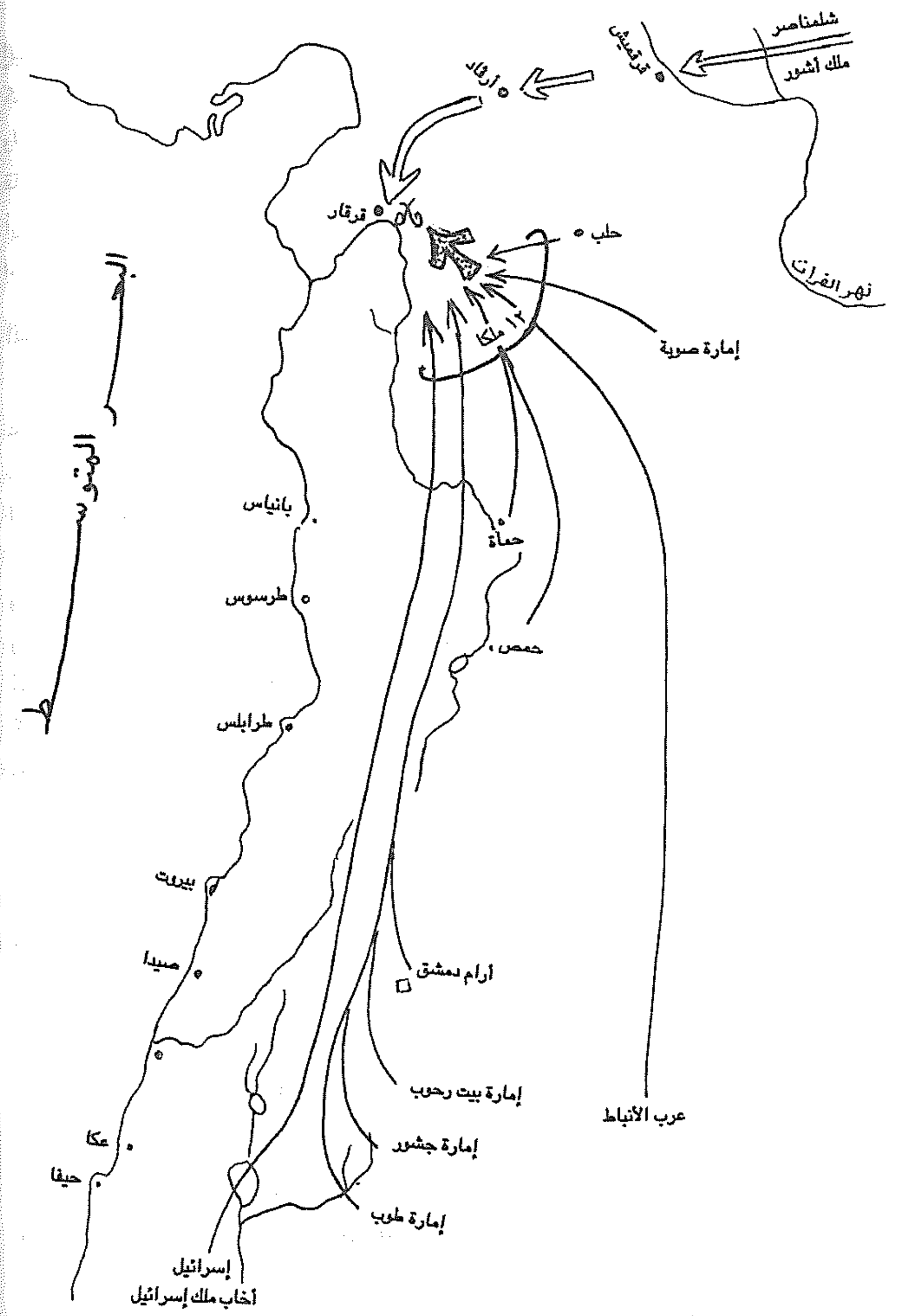
من ملك دمشق ١٢,٠٠٠ عربة حربية + ٢٠,٠٠٠ أسير + ١٢٠٠ حصانا.

من ملك حماة ٧٠٠ عربة حربية + ١٠,٠٠٠ أسير.

من ملك إسرائيل ٢٠٠٠ عربة حربية + ١٠,٠٠٠ أسير.

بالإضافة إلى غنائم كثيرة من الملوك الآخرين.

وفى نص آخر يقول: هذا التحالف كان ضدى وجاء للحرب معى ولكن بمعاونة قوة الرب «أشور» وبسواعد «نرجال» الذى كان يسير أمامى فقد حاربت من قرقر إلى جيلا (المقصود من قرقار إلى الجولان) وحققت انتصارا عليهم وقتلت ١٤,٠٠٠ من محاربيهم. وقد أمطرتُ عليهم طوفانا من الجنود وقد خطوتُ فوق جثثهم. ومات «حدد عزر» (ملك دمشق) وأخذ العرش واحد



شكل ٥١ – معركة قرقار بين شلمناصر ملك آشور و ١٢ ملكا تحالفوا ضده .

من العامة يدعى حزائيل – وفى هذا مصداق لنبوءة إيليا النبى التى سيأتى ذكرها فيما بعد (ص٢٦٢).

وعاصر أخابُ ثلاثة أنبياء هم ميخايا أو اختصارا ميخا – وإيليا أو إلياس وأليشع (اليسع) نذكرهم لارتباط نبوءاتهم بأخاب.

النبى ميخا

هو ميخايا بن يملة Micaiah son of Imlah ويُختصر إلى ميخا. وميخا تعنى «من مثل يهوه» أو «من كيهوه» وهو نبى ظهر فى المملكة الشمالية – إسرائيل – فى السامرة وكان معاصرا لأخاب ملك إسرائيل (٨٦٥ – ٨٢٥ ق.م) مع النبيين إيليا (إلياس) وأليشع (اليسع).

ولعب النبى ميخا بن يملة دورا مهما فى حياة أخاب ملك إسرائيل: فقد سبق أن ذكرنا (ص ٢٥٢) أن أخاب قد استعان به فى حربه مع بنهدد ملك دمشق فدعا له ميخا النبى وكان أن نصره الله على بنهدد نصرا ساحقا. وكان الواجب أن يقتل بنهدد ولكن أخاب عفا عنه فوبّخه ميخا على ذلك وكان توبيخه مقنّعا فى صورة رمزية (ملوك أول ٢٠ : ٣٥) إذ طلب النبى ميخا من أحد أتباعه أن يحدث به جرحا وتنكّر ووقف فى طريق الملك أخاب. ولما مرّ أخاب قال له إنه كان فى معركة وجاءه جندى بأسير وطلب منه أن يتحفّظ عليه ولو هرب فستكون نفسه فداء له أو يدفع له وزنة من الفضة وأخبره أن الأسير غافله وهرب وطلب مساعدة الملك فى دفع الفضة حتى لا يدفع حياته فداء للأسير الهارب. ولكن الملك قال له: هذا حُكمك. أنت قضيت. أى أنك قد قبلت هذا الشرط فأنت الذى حكمت على نفسك بالموت! هنا رفع النبى العصابة عن رأسه وكان فى جبهته علامة يُعرف بها. فعرفه الملك. فقال له ميخا: هكذا قال الرب لأنك قد أفْلتّ من يدك رجلا قد حرّمتُه (أى تقضى الشريعة بقتله) تكون نفسك بدل نفسه – فمضى ملك إسرائيل مكتئبا مغموما وعاد إلى السامرة. ومعنى القصة واضح إذ أن بنهدد كان أسير أخاب وعفا عنه ولم يقتله وسيكون جزاؤه القتل. وقد تحقق حكم الله فى أخاب كما سنرى فيما بعد (ص ٢٦٤) إذ فى آخر سنة من حكمه قرر التحالف مع يهوشافاط ملك يهوذا لحرب بنهدد وحذّره ميخا النبى من هذه الحرب إذ فيها نهايته ولكنه لم يستمع له ودخل الحرب بعد أن وضع ميخا فى السجن وضيّق عليه فى المأكل والمشرب حتى مات فيه. وفى الحرب انهزم أخاب وجرح جرحا كبيرا كانت فيه نهايته.

إلياس عليه السلام : إيليا
Elihah = Elias

«إيليا» اسم عبرى معناه «إلهى يهوه». والصيغة اليونانية لهذا الاسم هى «إلياس» بصورة المرفوع إذ أن علامة الرفع فى اليونانية فى المذكر هى إضافة سين فى آخر الاسم (رؤوف أبو سعدة. من إعجاز القرآن الكريم. جـ ٢ – ص ١٦٧). وهو الاسم الذى اختاره القرآن الكريم. وقد جاء ذكره مرتين «إلياس» وفى الثالثة جاء الاسم مزيدا ياء ونون فى آخره ومقطَّعه «إلْ ياسين» وليست مجموعة «إلياسين». ولاشك أن هذا التقطيع فى الاسم كان بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم. ويرى الأستاذ رؤوف أبو سعدة أن المقصود من ذلك هو لفت النظر إلى أن «إل» فى أول اسم «إلياس» ليست أداة التعريف وإنما هى اسم الله عز وجل فى العبرانية «إيل» وحتى لا يُتَوهَّم أن اسم «الياس» مشتق من كلمة اليأس بعد تسهيل الهمزة.

«وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس. كل من الصالحين» . (٨٥ – الأنعام).

«وإن إلياس لمن المرسلين. إذ قال لقومه ألا تتقون. أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين. الله ربكم ورب آبائكم الأولين. فكذَّبوه فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلَصين. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إل ياسين. إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين» . (١٢٣ – ١٣٢ الصافات).

وقد كان إلياس معاصرا لأخاب بن عمرى ملك إسرائيل. وقد سبق أنه ذكرنا أن أخاب قد ضل وعبد البعل وبنى مذبحا للبعل فى «بيت البعل» الذى بناه فى السامرة. وتزوج إيزابل ابنة أثبعل ملك صيدا. وتبعه قومه فى عبادة البعل. وقد نعى القرآن الكريم عليهم هذا الضلال **«أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين....»**

وإلياس من بلدة «تشبة» فى جلعاد شرق الأردن ولذلك يسمى فى التوراة «إيليا التشبى» وكان عادة يلبس ثوبا من الشعر (مسوحا) ومنطقة من الجلد وكان يقضى الكثير من وقته فى البرِّية.

وقد كان للنبى إلياس دور كبير فى تسيير الأحداث السياسية لا فى إسرائيل وحدها بل فى الدول المجاورة كذلك وخاصة دويلة أرام دمشق. وقد سبق أن ذكرنا أن زواج أخاب بن عمرى ملك إسرائيل من إيزابل الصيدونية كان زواجا سياسيا ليقوِّى إسرائيل ضد ضغط سوريا والخطر المتوقَّع من أشور. ولقد كان زواج سليمان عليه السلام من ابنة ملك صور – ملك الفينيقيين – زواجا سياسيا أيضا ولكن كانت إسرائيل هى الطرف الأقوى ولم يسمح سليمان لديانة الفينيقيين بالتغلغل فى إسرائيل فظلَّت محصورة فى الزوجة الفينيقية وجواريها وأتباعها. إلا أنه فى عهد أخاب كانت إسرائيل على درجة كبيرة من الضعف السياسى ومن البعد عن تعاليم

الدين الصحيح – بعد زيغ كل ملوكها عن الديانة الموسوية منذ عهد يربعام – لذلك فإن إيزابل احتلت مكانة ممتازة فى عهد أخاب. وأطلق أخاب يدها فى الدعاية لآلهتها. وتمادت هى فى مساندة آلهتها حتى أنها حكمت بالإعدام على أتباع «يهوه» الذين عارضوا آلهتها جهارا. وقامت بطرد اللاويين من مملكة إسرائيل. فكان من تبقى على الديانة الموسوية هم الأنبياء وبعض رجال الدين وحتى هؤلاء. قامت إيزابل بمطاردتهم فاحتمى بعضهم برجال من البلاط كانوا يكتمون إيمانهم بينما فر الباقون إلى البرية وإلى يهوذا المجاورة. ووصل الضعف بأخاب إلى حد أنه لم يستطع منع حيئيل البيتئيلى (من بلدة بيت إيل) من بناء مدينة أريحا مع أن الرب على لسان يشوع قد حَرَّم إعادة بنائها ولعن من يقوم بذلك كما سبق أن ذكرنا (ص ٢٥٣).

الأخذ بالشدة :

كما كانت إرادة الله هى أخذ آل فرعون بالشدة لعلهم يرجعون: «**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذَّكرون**» (١٣٠ – الأعراف) . كذلك كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يأخذ أخاب وإسرائيل ببعض الشدة لعلهم يعودون إلى طريق الحق. فجاء إلياس إلى أخاب وأخبره أن الله سيمنع المطر عن إسرائيل. فإذا تأكد له أنهم قد عادوا إلى الحق وإلى عبادة الله فإنه سيدعو الله لينزل المطر ثانية: «وقال إيليا التشبى من مستوطنى جلعاد لأخاب: حى هو إله إسرائيل الذى وقفتُ أمامه. إنه لا يكون طَلٌ ولا مطرٌ فى هذه السنين إلا عند قولى» (ملوك أول ١٧ : ١) ورحمة من الله بنبيه إلياس أمره الله أن يعتزل إلى مكان فى شرق الأردن عند نهر كريث – وهو رافد صغير لنهر الأردن من الجهة الشرقية (ويحتمل أنه – بعد جفافه – هو وادى كلت الحالى) فكان يشرب منه. وأمر الله الطيور بأن تعوله فكانت تأتى له بالطعام . وبعد مدة جف النهر فأمره الله أن ينتقل إلى «صرفة Zarephath» وهى ميناء فينيقى صغير بين صور وصيدا . وكان مُقَدَّراً له أن ينزل هناك ضيفا على أرملة تعيش هى وابنها . وكانا على وشك الهلاك جوعا . فحلَّت بركته عليهما لأنها وثقت بكلامه الذى نطق به باسم الرب. تقول التوراة (ملوك أول ٨:١٧) «وكان له كلام الرب قائلا. قم اذهب لصرفة وأقم هناك. هوذا قد أمرت أرملة أن تعولك. فقام وذهب إلى صرفة وجاء إلى باب المدينة. وإذا بامرأة أرملة هناك تقشُّ عيدانا فناداها وقال هاتى لى قليل ماء فى إناء فأشرب. وفيما هى ذاهبة لتأتى به ناداها وقال هاتى لى كسرة خبز فى يدك. فقالت حىٌ هو الرب إلهك. إنه ليس عندى كعكة ولكن ملء كف من الدقيق فى الكوَّار وقليل من الزيت فى الكوز وهأنذا أقشُّ عودين لآتى وأعمله لى ولابنى لنأكله ثم نموت. فقال لها إيليا لاتخافى. ادخلى واعملى كقولك ولكن اعملى لى منها كعكة صغيرة أوَّلاً واخرجى بها إلىَّ ثم اعملى لك ولابنك أخيرا لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل: إن كوَّار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذى يعطى فيه الرب مطرا على وجه الأرض. فذهبت

وفعلت حسب قول إيليا وأكلت هى وهو وبيتها أياما. كوَّار الدقيق لم يفرغ وكوز الزيت لم ينقص حسب قول الرب». ثم مرض ابن المرأة صاحبة البيت واشتد مرضه حتى مات وحزنت عليه والدته جدا. فأخذ إيليا الولد وصعد به إلى العلِّيَّة التى كان مقيما بها (الحجرة العلوية بالدار) وأضجعه على سريره وصرخ إلى الرب ودعا الله وقال: يارب إلهى. لتَرجعِ نفس هذا الولد إلى جوفه. فسمع الرب لصوت إيليا ورجعت نفس الولد إلى جوفه وعاش. فأخذ إيليا الولد ونزل به من العلية ودفعه لأمه (ملوك أول ١٧).

إلياس يطلب لقاء الملك أخاب :

استمرت المجاعة ٣ سنوات و٦ أشهر لم يكن بها مطر. ولحق ضرر بالغ بالسامرة من جراء عدم نزول المطر. وعاد إيليا إلى السامرة فوجد أخاب لايزال حيا لم يصبه ضرر من المجاعة ولاتزال زوجته إيزابل قائمة على عبادة آلهتها وكهنة البعل يقودون الناس إلى الضلال. وكان أوَّل من قابل إيليا ضابط كبير اسمه «عوبديا» وهو اسم عبرى معناه «عبد يهوه» وكان مسؤولا عن حماية بيت أخاب وكان تقيا لم يعبد البعل. وعندما اضطهدت الملكة إيزابل أنبياء الرب يهوه قام بإخفاء ١٠٠ منهم وحماهم من بطش إيزابل وأعوانها. وكان لما اشتد الجدب حدث خلاف بين أخاب وعوبديا حول المرعى لمواشيهما. واتفقا على قسمة الأرض بينهما. وكل واحد يبحث فى جهة من الأرض عن عيون الماء والعشب اللازم لإعاشة الخيل والبغال والبهائم. واتخذ أخاب من البحث عن المرعى والماء ستارا لكى يخفى غرضه الحقيقى وهو البحث عن النبى إيليا (إلياس) ليقتصَّ منه ظنا أنه هو بدعواته قد تسبب فى المجاعة. وفيما كان عوبديا فى الطريق إذا بإيليا قد لقيه فعرفه وسجد له وقال له أأنت سيدى إيليا؟ فقال له أنا هو. اذهب إلى سيدك أخاب وأخبره أنى أود لقاءً معه. وخاف عوبديا من بطش أخاب لو حمل له رسالة من إيليا ولكن إيليا طمأنه بأن ضررا لن يلحق به وأمره بأن يذهب إلى أخاب ويخبره بأن يكون مكان اللقاء فى جبل الكرمل.

إلياس يقتل كهنة البعل :

تقول التوراة (١ ملوك ١٨:١٧): ولما رأى أخاب إيليا قال له: أأنت هو مُكدِّر إسرائيل؟ فقال له: لم أكدِّر إسرائيل. بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وبسيرك وراء البلعيم. فالآن أرسل واجمع إلىَّ كل إسرائيل إلى جبل الكرمل وأنبياء البعل الـ ٤٥٠ (أى كهنة البعل) وأنبياء السوارى الـ ٤٠٠ الذين يأكلون على مائدة إيزابل. فأرسل أخاب إلى جميع بنى إسرائيل وجمع الكهنة إلى جبل الكرمل. فتقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال: حتى متى تعرجون بين الفرقتين. إن كان الرب هو الله فاتبعوه وإن كان البعل فاتبعوه. وكان التحدى أن يُقدِّم كهنة البعل ثورا قربانا للبعل ويقدم هو ثورا قربانا للرب ولا يوقدون نارا. والإله الحق هو الذى ينزل نارا من

السماء تأكل قربانه. ويؤيد هذا ما ورد فى القرآن الكريم «**الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار. قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين**» . (١٨٣ - آل عمران).

وقدَّم كهنة البعل قربانهم ثورا وظلوا يدعون من الصباح إلى الظهر قائلين: يا بعل أجبنا - فلم يجبهم وكانوا يرقصون حول المذبح الذى عملوه. وعند الظهر سخر بهم إيليا وقال: ادعوا بصوت عالٍ. لعله مستغرق أو فى خلوة أو فى سفر أو لعله نائم فيتنبَّه. وتقطَّعوا حسب عادتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم (كما يفعل الشيعة الآن فى احتفالاتهم بذكرى استشهاد الحسين). ولما جاء الظهر ولم يكن صوت ولا مجيب تقدم إيليا وأخذ اثنى عشر حجراً بعدد الأسباط وبنى مذبحا للرب ثم رتب الحطب وقطع الثور وصب ماء كثيرا جداً فى قناة حول المذبح وعند وضع القربان على المحرقة تقدم إيليا وقال: أيها الرب إله إبراهيم وإسحق وإسرائيل. ليُعلَمَ اليوم أنك أنت الله فى إسرائيل وأنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور. استجبنى يارب. استجبنى ليعلَمَ هذا الشعب أنك أنت الرب الإله. فسقطت نار من السماء وأكلت المحرقة والحطب والحجارة وجفَّفت المياه التى فى القناة. فلما رأى جميع الشعب ذلك سجدوا وقالوا: الرب هو الله. الرب هو الله. فقال لهم إيليا: أمسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك.

وأخبر إيليا أخاب أن الفتنة قد انتهت واللعنة قد زالت وأن المطر سينزل. وتوجه إيليا إلى الله بالدعاء من قمة جبل الكرمل وسجد إلى الأرض وطلب من غلامه أن يتطلَّع إلى البحر ليرى إن كان هناك سحاب قادم. ولم ير الغلام سحابا. وطلب منه إيليا ذلك ٦ مرات وفى المرة السابعة قال: هو ذا غيمة صغيرة صاعدة من البحر. فقال اصعد وقل لأخاب: انزل لئلا يمنعك المطر. وكان أن اسودَّت السماء من الغيم والريح وكان المطر عظيما. فركب أخاب ومضى إلى يزرعيل Jezreel إذ كان له قصر هناك. وسار إلياس أيضا حتى وصل إلى يزرعيل. وأخبر أخاب زوجته إيزابل بكل ما عمله إيليا. وكيف أنه قتل جميع كهنة وأنبياء البعل بالسيف. فأرسلت إيزابل رسولا إلى إيليا تتوعَّده بالقتل. فهرب إيليا إلى بئر سبع فى يهوذا وترك غلامه هناك ثم سار هو وحده فى البرية مسيرة يوم حتى أتى وجلس فى ظل شجرة وطلب من الله أن يأخذ نفسه. وقال «قد كفى الآن. يارب خذ نفسى لأنى لست خيرا من آبائى. واضطجع ونام تحت الشجرة. وإذا بملاك قد مَسَّهُ وقال قم وكل. فتطلَّع فإذا كعكة وكوز ماء عند رأسه فأكل وشرب ثم رجع واضطجع. فعاد ملاك الرب ثانية فمسَّه وقال قم وكُلْ لأن المسافة كثيرة عليك. فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة ٤٠ نهارا و ٤٠ ليلة إلى جبل الله حوريب (جبل موسى بجنوب سيناء) ودخل هناك مغارة وبات فيها. وكان كلام الرب إليه قائلا: مالك ها هنا يا إيليا؟ فقال قد غرت غَيْرةً للرب إله الجنود لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدى وهم يطاردون نفسى ليأخذوها» (ملوك أول ٩: ٥ - ١٠).

التجلى الإلهى لإلياس :

تقول التوراة (ملوك أول ١٩ : ١١): «فقال اخرج وقف على الجبل أمام الرب. وإذا بريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسَّرت الصخور أمام الرب. ولم يكن الرب فى الريح. وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب فى الزلزلة. وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب فى النار. وبعد النار صوت منخفض حفيف. فلما سمعه إيليا لف وجهه بردائه وخرج ووقف فى باب المغارة وإذا بصوت إليه يقول: مالك ها هنا يا إيليا؟ فقال غِرتُ غيرة للرب إله الجنود لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدى وهم يطلبون نفسى ليأخذوها. فقال له الرب: اذهب راجعا فى الطريق إلى برية دمشق وادخل وامسح حزائيل ملكا على أرام. وامسح ياهو بن نمشى ملكا على إسرائيل وامسح إليشع بن شافاط من آبل محولة نبيا عوضا عنك».

وهكذا رأى إيليا ثلاث ظواهر طبيعية وهو على جبل حوريب: الريح القوية والزلزلة والنار. ولم يكن الرب الإله فى أى واحدة منها. وإنما كانت إشعارا بالحضور الإلهى ومقدمة لما سيلقى على إيليا من أوامر ليقوم بتنفيذها وللتأكيد على أن هذه الأوامر هى حقا من عند الله العلى القدير. فالريح التى تفتت الصخر كانت كفيلة بتفتيت جسده لولا أن الله حماه منها. والزلزلة كانت كفيلة بأن تنهار الصخور عليه من كل جانب وتسد الكهف أو تهده لولا أن الله حفظه. كما أن النار الضخمة التى اندلعت كان فى إمكانها أن تطوله هو أيضا لولا أن الله وقاه من شرها. ومن هنا تأكد لإيليا أن من يكلِّمه هو الله حقا وأنه كما حفظه هنا فإن حفظه له سيستمر معه حتى يؤدى المهام الموكلة إليه وهى:

١ – أن يمسح حزائيل ملكا على أرام دمشق .

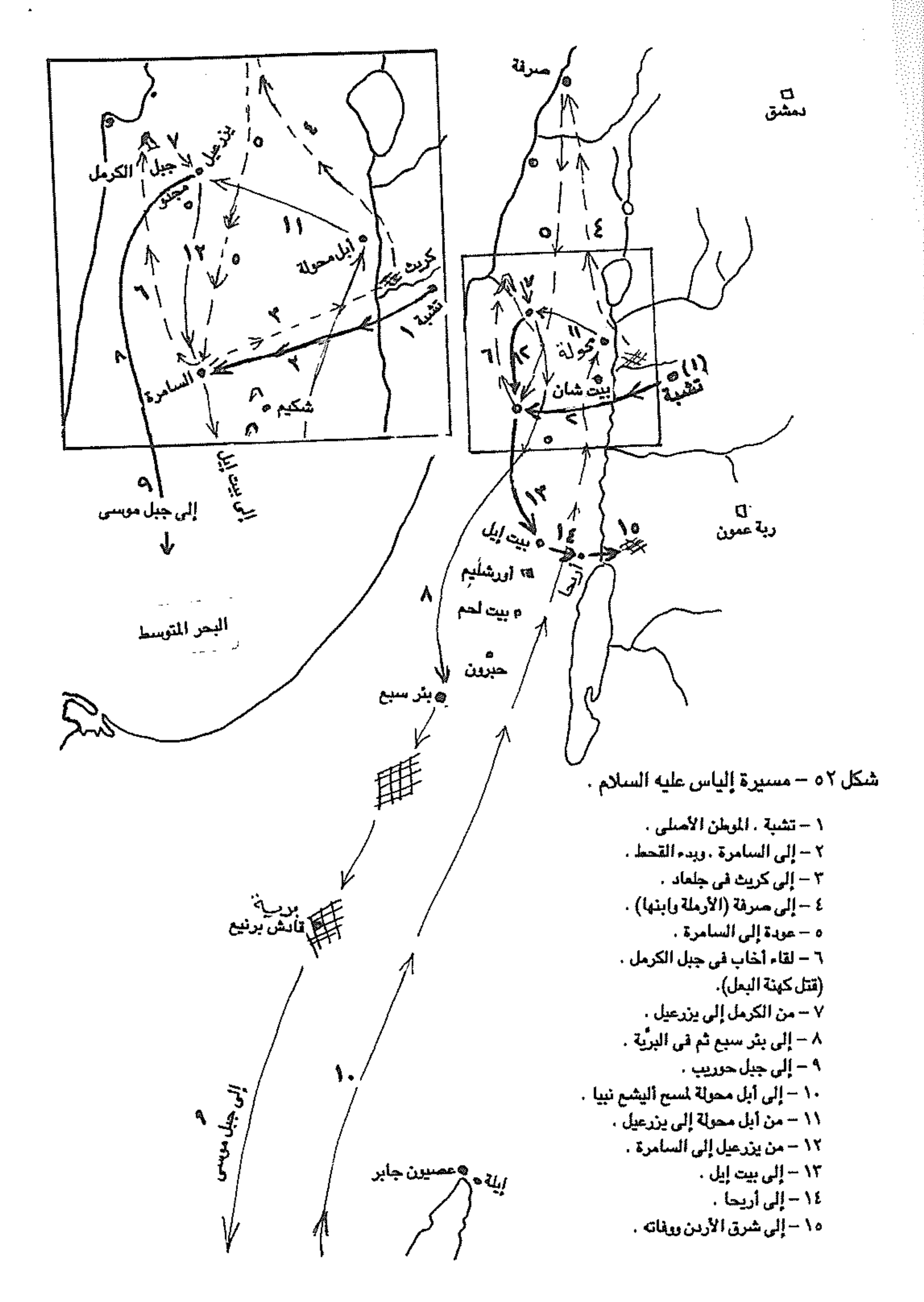
٢ – أن يمسح ياهو بن نمشى ملكا على إسرائيل بدلا من أخاب .

٣ – أن يمسح أليشع بن شافاط نبيا عوضا عنه. أى أن مهمته تنتهى بانتهائه من تنفيذ هذه الأوامر وبعدها يفارق الحياة.

وغادر إيليا جبل حوريب عائدا إلى إسرائيل عبر يهوذا لتنفيذ ما أُمِر به.

١ – مسح أليشع نبيا Elisha :

وأليشع هو اليسع فى القرآن الكريم وسيأتى ذكره بتفصيل أكثر فيما بعد (ص ٢٧٥). وكان يقطن مدينة «أبل محولة» وهى تقع فى غور الأردن على الضفة الغربية للنهر ١٥كم جنوبى مدينة بيت شان. وأليشع من سبط يساكر. وهو من عائلة ثرية إذ أن حقل أبيه كان يستلزم اثنى عشر زوجا من الثيران لحرثه. ووجد إيليا أليشع يحرث الأرض فمرَّ به وطرح رداءه عليه وكان هذا تقليدا يفيد اصطفاءه للعمل النبوى. وهنا طلب منه أليشع أن يعطيه مهلة ذبح فيها بقرتان



شكل ٥٢ – مسيرة إلياس عليه السلام .

١ – تشبة . الموطن الأصلى .
٢ – إلى السامرة . وبدء القحط .
٣ – إلى كريث فى جلعاد .
٤ – إلى صرفة (الأرملة وابنها) .
٥ – عودة إلى السامرة .
٦ – لقاء أخاب فى جبل الكرمل .
(قتل كهنة البعل).
٧ – من الكرمل إلى يزرعيل .
٨ – إلى بئر سبع ثم فى البرية .
٩ – إلى جبل حوريب .
١٠ – إلى أبل محولة لمسح أليشع نبيا .
١١ – من أبل محولة إلى يزرعيل .
١٢ – من يزرعيل إلى السامرة .
١٣ – إلى بيت إيل .
١٤ – إلى أريحا .
١٥ – إلى شرق الأردن ووفاته .

وتصدَّق بلحمها على الشعب ثم قبَّل أباه وأمه ومضى وراء إيليا وكان يخدمه (١ ملوك ١٩: ١٩ - ٢١).

٢ - مسح حزائيل ملكا على أرام دمشق :

كانت هذه هي المهمة الثانية التى كلِّف بها إيليا. وقد سبق أن ذكرنا أن الدويلات الأرامية كانت موزَّعة فى سوريا وأن ملوك أرام دمشق قد رفعوها إلى شبه مملكة ذات قوة وبأس بحيث أصبحت تهدد جيرانها. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٢٥٢) أنه تم عقد معاهدة تحالف وعدم اعتداء بين بعشا ملك إسرائيل وبنهدد ملك أرام دمشق. ثم ساءت العلاقات بين البلدين فى عهد الملك أخاب وكانت العلاقات بين إسرائيل ويهوذا سيئة فانتهز بنهدد هذه الفرصة وجمع معه ٣٢ أميرا من أمراء الدويلات والمدن الأرامية وأرسل رسلا إلى أخاب ملك إسرائيل يطلب منه تسليم ما يملك من ذهب وفضة وتسليم نسائه وبناته الحسان. وخاف أخاب ووعد بنهدد بإجابة طلباته. فأخبره بنهدد بأنه سيرسل رجالا من عنده ليفتشوا بيوته ويأخذوا ما بها من ذهب وفضة وكل ما هو ثمين. وهنا شعر أخاب بالمهانة وجمع شيوخ إسرائيل طالبا المشورة فأشاروا برفض طلبات بنهدد. فتقدم بنهدد وحاصر السامرة عاصمة إسرائيل. وجاء النبى إيليا إلى أخاب وشجَّعه. وكان عدة جيش إسرائيل ٧٠٠٠ مقاتل و ٢٣٢ من رؤساء المقاطعات (١ ملوك ٢٠). فقاتلوا بنهدد وهزموه هزيمة عظيمة وأسر بنهدد. ولكن أخاب أطلق سراحه مما حدا بالنبى ميخايا أن يأتى له ويوبخه على ذلك كما سبق أن ذكرنا (ص ٢٥٢).

وجاء إيليا النبى إلى أخاب وأخبره أن بنهدد سيحاربه فى السنة التالية بجيش أكبر وعليه ألا يتراخى. وعند تمام السنة كان بنهدد قد أعد جيشا أكبر من الأول وهاجم إسرائيل ولكن الله أيَّد بنصره جنود إسرائيل فانهزم الأراميون وقتل منهم كما تقول التوراة (ملوك أول ٢٠:٢٨) ١٢٧,٠٠٠ وهرب الباقون. وهرب بنهدد واختبأ فى مدينة أفيق Aphek وأرسل يطلب الرأفة من أخاب الذى قبل استعطافه ولم يقتله وتعهَّد بنهدد برد المدن والأراضى التى استولى عليها أيام الملك عمرى كما وعد بأن يصرِّح لإسرائيل بفتح إسواق فى دمشق مقابل الأسواق الأرامية التى فتحها والده فى السامرة. وأطلق أخاب سراح بنهدد الذى عاد إلى دمشق.

ثم إن بنهدد مرض مرضا خطيرا وتصادف أن كان النبى أليشع موجودا فى دمشق فأرسل بنهدد «حزائيل» رئيس البلاط إلى أليشع يسأله إن كان سيشفى من مرضه الخطير. فأخبر أليشع حزائيل أن سيده لن يشفى وأنه هو نفسه سيكون ملك دمشق من بعده. فرجع حزائيل إلى بنهدد وطمأنه بأنه سيشفى. وفى اليوم التالى قام عليه وقتله وملك عوضا عنه وكان فى ذلك تحقيق لمهمة إيليا وإن كان قد قام بها أليشع.

وهنا قد يثور التساؤل: أليس فى هذا التصرف ما يمكن أن نسميه تدخلا فى شئون دولة

أخرى وهو ما تنهى عنه الأعراف الدبلوماسية؟. كما أنه تحريض صريح على قلب نظام حكم دولة أخرى! وعلى كل فهو قد أتى بحزائيل حاكما على دمشق. ولا ندرى هل كان معروفا من قبل بسياسة مسالمة تجاه إسرائيل أم أن هذه المُسَالمَة جاءت منه كعرفان جميل «بالنبوءة» التى كانت بمثابة دعم معنوى لحزائيل وللحزب الموالى لإسرائيل فى دمشق. وعلى العموم فإن هذا الفعل هو مثال لما سنراه فى المستقبل من ارتباط وثيق بين العمل النبوى والأمور السياسية بحيث يُصبح أنبياء بنى إسرائيل وكأنهم «بنبوءاتهم» هم الذين يصنعون التاريخ ويحرِّكون أحداثه.

٣ - مسح ملك إسرائيل المقبل :

كانت المهمة الثالثة التى كُلِّف بها إيليا عند جبل موسى هى مسح «ياهو بن نمشى» ملكا على إسرائيل بدلا من أخاب. وكانت الأحداث التى وقعت بعد ذلك. وما ارتكبه أخاب من ظلم ومخالفة للشريعة هى التى استوجبت عقابه بنزع الملك من أسرته. ولكن لما وبَّخه النبى إيليا على أفعاله ندم وتواضع لله فكان وعد الله أن لا ينزع الملك منه هو شخصياً بل يُنزع من ابنه ويتولى ياهو بن نمشى الحكم فى إسرائيل. وقد حدث ذلك فعلاً ولكن بعد وفاة إيليا . إذا آلت النبوة إلى أليشع الذى أرسل أحد الأنبياء الصغار الذين يعاونونه لكى يخبر ياهو بن نمشى - وهو أحد قواد جيش إسرائيل - بأن الرب قد اختاره ليكون ملكا لإسرائيل.

نعود الآن إلى أخاب لنرى كيف أنه - بتصرفاته - كان كمن يحفر قبره بيديه. ذلك أنه كان لرجل يدعى «نابوت» حقل كرم فى يزرعيل بجوار قصر أخاب وأراد الملك أن يستولى على الحقل ليضمه إلى قصره. وعرض على نابوت أن يعطيه حقلا بدله فى مكان آخر أو يعطيه ثمنه فضة. ولكن نابوت رفض بيع ميراث أجداده. وهنا تفتق ذهن إيزابل الملكة - زوجة أخاب - عن حيلة تأخذ بها حقل نابوت. فأوعزت لرجلين من أعوانها أن يشهدا زورا أن نابوت قد جدَّف على الله وعلى الملك. وذهب الشاهدان إلى شيوخ مدينة يزرعيل وشهدا ضد نابوت فأخرجوه خارج المدينة ورجموه بالحجارة حتى مات فأخبرت إيزابل أخاب بموت نابوت وطلبت منه أن يرث حقل نابوت. وهنا أمر الله إيليا أن يذهب للقاء أخاب ويوبخه وينذره بعقاب الرب هو وزوجته انتقاما لما اقترفاه فى حق نابوت (ملوك أول ٢١ : ١٧ - ٢٨). فقال إيليا لأخاب: «هكذا قال الرب: هل قتلتَ وورثتَ أيضا؟ فى المكان الذى لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أنت أيضا». وعن إيزابل تكلم الرب وقال «إن الكلاب تأكل إيزابل عند مترسة يزرعيل». ولما سمع أخاب هذا الكلام شق ثيابه ولبس مسحاً (ثوب خشن يلبسه الزاهد أو الراهب). فكان كلام الرب إلى إيليا قائلا: هل رأيت كيف اتضع أخاب أمامى. فمن أجل أنه قد اتضع أمامى لا أجلب الشر (نزع الملك) فى أيامه. بل فى أيام ابنه أجلب الشر على بيته.

تحالف أخاب (ملك إسرائيل) مع يهو شافاط (ملك يهوذا) ضد أرام :

مرت ثلاث سنوات. وكانت العلاقات بين إسرائيل ويهوذا طيبة. وكانت هناك مصاهرة بين البيتين المالكين إذ زوَّج «يهوشافاط» ملك يهوذا ابنه «يهورام» من «عثاليا» ابنة أخاب من زوجته إيزابل. وكان يهوشافاط فى زيارة لصهره ملك إسرائيل. وكانت المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن شمالى نهر يبوق وهى المنطقة المسماة «راموث جلعاد» من أرض إسرائيل ولكن الأراميين كانوا قد استولوا عليها وأراد أخاب أن يستردها فقال ليهوشافاط (ملوك أول ٢٢:٤): «أتذهب معى للحرب إلى راموث جلعاد؟» فوعده يهوشافاط بالمساندة التامة وقال له «مَثَلِى مِثلك. شعبى كشعبك وخيلى كخيلك». ولكن يهوشافاط طلب من أخاب أن يتلمَّس إرادة الإله فى هذا الشأن. فجمع أخاب ٤٠٠ من رجال الدين من أنحاء مملكته من كهنة البعل. وكانوا من مُدَّعى النبوة الذين يتلمَّسون رضا الحاكم ويشيرون بما يوافق هواه. ولعل يهوشافاط ملك يهوذا - بما حباه الله من صدق فراسة - أدرك هذا فسأل أخاب عما إذا كان هناك «نبى للرب» ليسأله. فأخبره أنه يوجد نبى اسمه «ميخا» ولكنه لا يحبه لأن تنبؤاته دائما لا تتفق مع ما يهواه. فطلب يهوشافاط أن يُرسل إليه. فحضر ورأى أن الكهنة مُدَّعى النبوة كلهم قد أشاروا بالحرب حتى إن كبير الكهنة وهو المتكلم الرسمى عن الـ ٤٠٠ متنبىء صنع لنفسه قرنين من حديد وادَّعى أن الرب قال له بهذه تنطح الأراميين حتى يفنوا. ولكن النبى ميخا أوضح له أن الحرب لن تكون فى صالحه بل ستكون فيها نهايته. فتقدم رئيس الجند وضرب ميخا على الفك وأمر أخاب أن يوضع النبى ميخا فى السجن وأن يُضَيَّق عليه فى الطعام والشراب حتى يرجع بسلام من الحرب فقال له ميخا إن رجعت بسلام!

وسار أخاب ويهوشافاط بجيشيهما إلى راموث جلعاد لاستعادتها من أيدى الأراميين. وكانت تعليمات بنهدد إلى جنوده ألا يقاتلوا يهوشافاط ملك يهوذا. بل يحرصوا على قتل أخاب ملك إسرائيل. وكان أخاب قد تنكَّر فى زى جندى عادى حتى لا يكون هدفا للخصم. ولكنه مع هذا أصيب بجرح نافذ فطلب من قائد مركبته أن يخرج من المعركة حتى يضمِّد جرحه. ولكن دمه سال غزيرا حتى لوَّث المركبة ومات عند المساء. وانتهت المعركة بانهزام جيش أخاب وقُتل معظم رجاله فلم يجد يهوشافاط بُدًّا من العودة بجيشه إلى مملكته. وعاد من تبقى من جيش أخاب كلٌ إلى مدينته. وحُمِل جثمان أخاب ودخلوا به إلى السامرة حيث دفن هناك. ولحست الكلاب دمه الذى كان على المركبة فكان هذا تصديقا لنبوءة إيليا النبى التى أنذره بها حين وبَّخه على قتل نابوت واغتصاب حقله.

وتولى أخزيا بن أخاب الملك على إسرائيل فى السامرة. ولم يرد فى التوراة شيىء عن ميخا النبى بعد أن وضعه أخاب فى السجن وإن كان يوسيفيوس المؤرخ يرى أنه تم التخلص منه بوسيلة ما. ولعله أحد الأنبياء الذين قتلهم بنو إسرائيل وأشار إليهم القرآن الكريم فى قولة :

«أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم. ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون» . (٨٧ – البقرة).

إلياس عليه السلام وأخزيا بن أخاب :

بعد وفاة أخاب تولى ابنه أخزيا الحكم. وحدث أن سقط أخزيا مريضا فى بيته بالسامرة. فأرسل رسلا إلى مدينة عقرون الفلسطينية يطلب الشفاء من إلهها «بعل زبوب». فأوحى الله إلى إلياس أن يذهب لمقابلة رسل أخزيا ووبَّخهم على أنهم لم يستنجدوا بالرب إله إسرائيل واستنجدوا بالبعل وأمرهم أن يعودوا إلى الملك ويخبروه «أن السرير الذى صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتا تموت» (٢ ملوك ١:٤). فأرسل أخزيا قائدا و ٥٠ جنديا للقبض على إلياس ليعاقبه على نبوءته ضدَّه. فدعا عليهم إلياس فنزلت نار من السماء وقتلتهم. فأرسل أخزيا قائدا آخر ومعه ٥٠ جنديا آخرين فدعا عليهم إيليا فأكلتهم نار من عند الرب. فأرسل قائدا ثالثا و٥٠ جنديا ولما قابلوا إيليا استعطفه ورجاه ألا يدعو عليه فيهلك. فأمَّنه إيليا وطلب منه أن يعود إلى أخزيا ويعيد عليه ما حكم الله به عليه من موت جزاء أنه استعان بإله غير الله. ومات أخزيا بن أخاب وملك بعده يهورام أخوه عوضا عنه.

وفاة إلياس (إيليا) عليه السلام :

علم إيليا (إلياس) بعد أن مسح أليشع (اليسع) نبيا أن مهمته فى الأرض قد قاربت على الانتهاء ولم يرد أن يحضر أليشع وفاته فقال له: امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى بيت إيل. فقال أليشع: «حىٌ هو الرب وحيَّةٌ هى نفسك أنى لا أتركك». ونزلا إلى بيت إيل (٢ ملوك ٢:٢). ثم قال إيليا: «يا أليشع امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى لأريحا. فقال: حىٌ هو الرب وحية هى نفسك إنى لا أتركك». وذهبا إلى أريحا. ثم قال له إيليا: «امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى الأردن (أى شرق النهر). فقال حىٌ هو الرب وحية هى نفسك إنى لا أتركك وانطلقا كلاهما». فذهب ٥٠ رجلا من الكهنة ورجال الدين ووقفوا قبالتهما من بعيد. ووقف كلاهما بجانب الأردن. وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وإلى هناك فعبرا كلاهما فى اليبس (وهى معجزة تشبه معجزة شق البحر لموسى عليه السلام وليشوع بن نون عند أول دخول الأرض – ص ٢٣). فلما عبرا وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وحبل من نار فصلت بينهما فصعد إيليا فى العاصفة إلى السماء (٢ ملوك ٢ : ١٢). وعبر أليشع الأردن وعاد إلى أريحا. أما الخمسون رجلا فلم يصدِّقوا أن إيليا قد أُخِذ منهم لذلك راحوا يفتشون عنه فى الجبال والأودية فلم يجدوه فتيقنوا أنه قد رُفع إلى السماء. وإن كان القرآن الكريم قد ذكر أن من رفعوا من الأنبياء هم إدريس وعيسى عليهما السلام. ولكن هذا لا ينفى أن إلياس قد رفع أيضا وإن لم يرد ذكر ذلك فى القرآن الكريم.

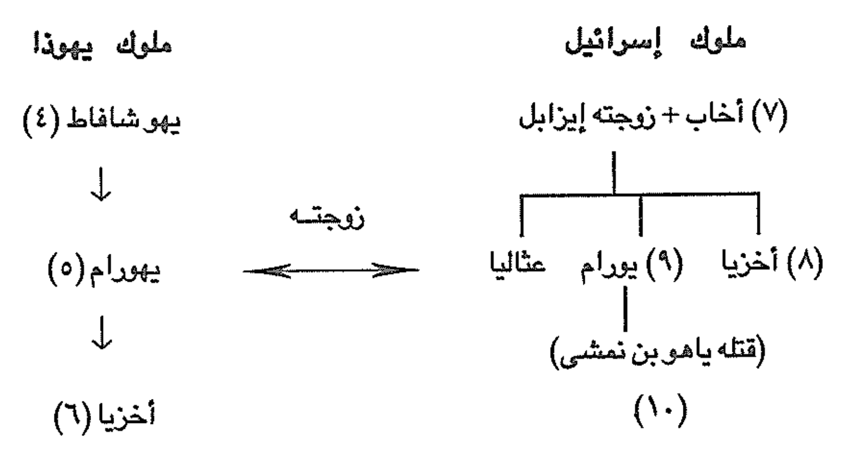
نتابع الآن ذكر ملوك المملكة الشمالية (إسرائيل) وكان آخر ملك ذكرناه هو أخاب بن عمرى (ص٢٥٢).

٨ - أخزيا بن أخاب .

وقد جاء ذكره فى الصفحة السابقة وحكم سنة واحدة. وبعد وفاته تولى أخوه يورام الحكم .

٩ - يورام بن أخاب .

ويورام اسم عبرى مكون من مقطعين «يو أو يهوه» وهو اسم الرب و«رام» بمعنى يعلو فيكون يورام أو يهورام معناه «الله يُعلِّى» أى «الذى يعليه الله» أو «علىُّ الله» كما نسمى «فضل الله». وكانت العلاقات بين البيتين المالكين فى إسرائيل ويهوذا طيبة حتى إن يهوشافاط ملك يهوذا سمَّى ابنه يهورام على اسم ملك إسرائيل وزوَّجه من «عثاليا» ابنة إيزابل. وسنرى أنه عن طريق هذه المصاهرة تسللت عبادة البعل إلى يهوذا . وعند الكلام على ملك إسرائيل سنذكره باسم «يورام» حتى لا يختلط الأمر مع «يهورام» زوج أخته ملك يهوذا .



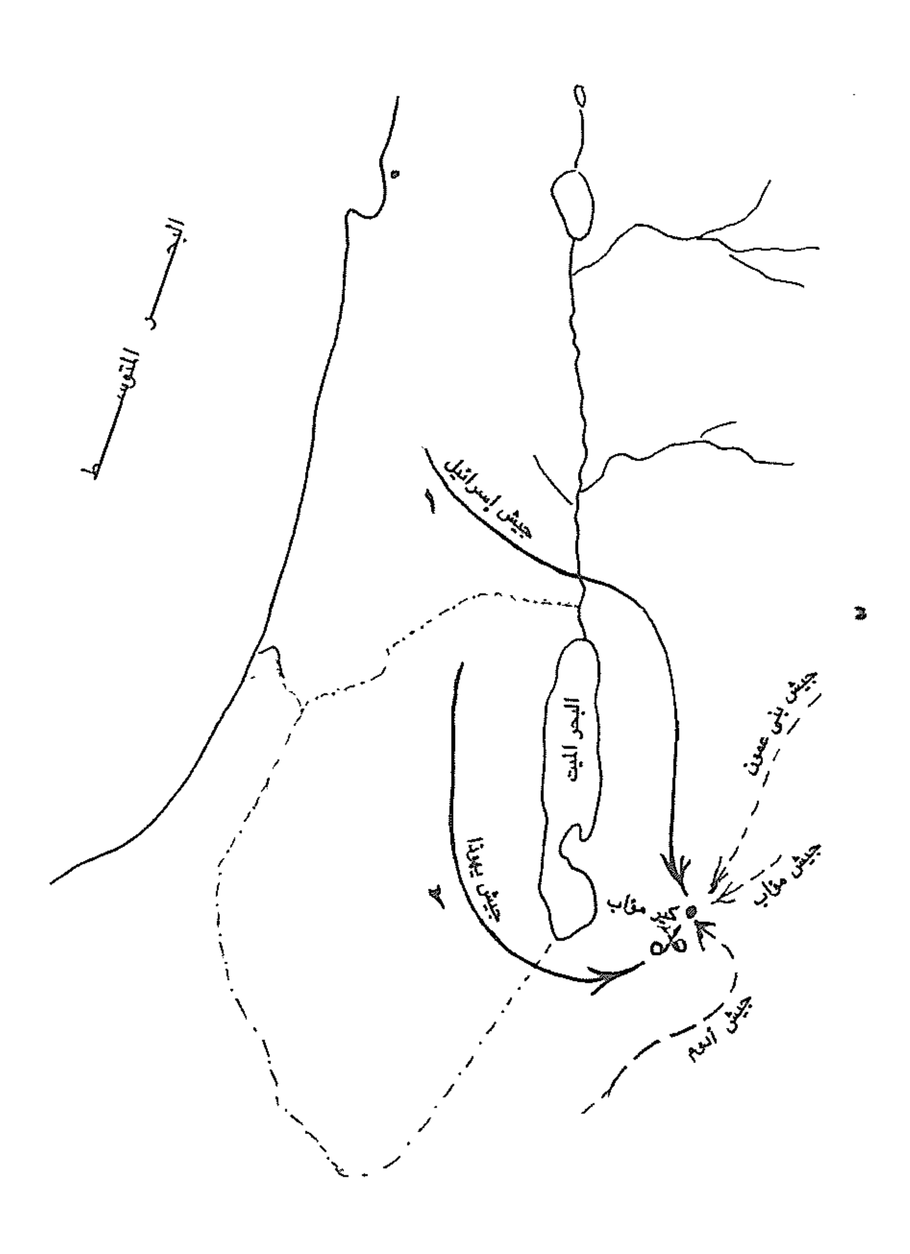
تولى يورام الملك فى إسرائيل بعد وفاة أخيه أخزيا وملك ٦ سنوات. وكان يورام أقل معصية من أبيه فأزال تمثال البعل الذى عمله أبوه. إلا أنه لم يستطع القضاء على كل مظاهر عبادة البعل فقد كانت والدته إيزابل لاتزال على قيد الحياة ولها من النفوذ ما مكَّنها من إبقاء معابد البعل منتشرة فى البلاد وكهنة البعل يسيطرون على عقول الشعب. واضطُرَّ يورام إلى الإبقاء على تمثالى العجل فى السامرة.

تحالف يورام مع يهوشافاط ملك يهوذا ضد مؤاب :

سبق أن ذكرنا (ص ٢٥٢) أن عمرى – ملك إسرائيل – حارب المؤابيين وضم إليه الجزء الشمالى من بلادهم وفرض عليهم الجزية «١٠٠,٠٠٠ خروف و ١٠٠,٠٠٠ كبش بصوفها» ثم تذكر كتب التاريخ (الشرق الأدنى القديم. د. نجيب ميخائيل إبراهيم. جـ ٥ ص ٢٤٩) أنه بعد موت أخاب ملك إسرائيل تلقى «ميشع» ملك مؤاب أمرا من إلهه «كيموش» باسترداد أرضه التى فقدها. فاستولى على المدن التى كانت فى قبضة إسرائيل واحدة بعد الأخرى وذبح الآلاف من أهلها الإسرائيليين وحوَّل معابد يهوه إلى معابد لكيموش. واستمال إلى جانبه ملَكَىْ أدوم وبنى عمون وكوَّن الثلاثة حلفا ضد إسرائيل. ونوى يورام ملك إسرائيل حربهم وأرسل يستعين بحميه – يهوشافاط – ملك يهوذا – وسار يورام بجيشه ٧ أيام فى البرية ولم تكن هناك آبار ولا مطر. فأرسل يورام يستدعى أليشع عليه السلام ليدعو الله ويستسقى لهم. فقال له أليشع (٢ ملوك ١٣:٣): «مالى ولك. اذهب إلى أنبياء أبيك وأنبياء أمك (يقصد أنبياء البعل الذى تعبده أمه إيزابل) فقال له ملك إسرائيل كلا. فقال أليشع: حىٌّ هو رب الجنود الذى أنا واقف أمامه. إنه لولا أنى رافع وجه يهو شافاط ملك يهوذا لما كنت أنظر إليك ولا أراك» أى أنه لولا خاطر يهوشافاط (وكان ملوك يهوذا لايزالون مؤمنين لم يتسلل الضلال إليهم بعد) لما أعاره أى اهتمام. وتبرأً يورام من عبادة البعل فأخبره أليشع أن النصر سيكون حليفه. وسينزل مطر فيمتلىء الوادى فيشربون هم وبهائمهم فى حين يبقى المؤابيون بدون ماء. وكان يهوشافاط ملك يهوذا – لما استنجد به يورام ملك إسرائيل – قد قام بفتح جبهة ثانية للقتال (شكل ٥٣) إذ التف حول الطرف الجنوبى للبحر الميت وهاجم مؤاب من الجنوب وكان جيش إسرائيل يهاجم من الشمال. ووقعت المعركة عند العاصمة «كير مؤاب». ولما اشتد الخناق على ملك مؤاب قدَّم ابنه ذبيحة على سور المدينة للصنم «كيموش» لكى ينصره. وألقى الله الخلاف بين الحلفاء الثلاثة فبدأوا يقتتلون فيما بينهم. إذ تحالف المؤابيون والعمونيون ضد الأدوميين وقتلوهم. ثم بدأ القتال بين المؤابيين والعمونيين. وتقدم بنو إسرائيل فأجهزوا على من تبقى من الفريقين وجمعوا الغنائم (تفسير الكتاب المقدس. أو نجر ص ٨٨٠) وأعادوا فرض الجزية على مؤاب وعادوا إلى بلادهم وعاد يهوشافاط إلى أرض يهوذا. وكان الواجب على يورام ملك إسرائيل أن يدرك أن هذا النصر المؤزر كان بتوفيق من الله سبحانه وتعالى ولاشتراك يهوشافاط المؤمن معه ودعوات النبى أليشع وكان الواجب عليه أن يستمر فى الطريق الذي بدأه فى أول سنى حكمه من تقليص عبادة البعل. ولكن يبدو أنه لم يستطع مجابهة نفوذ والدته إيزابل.

تحالف يورام مع أخزيا ملك يهوذا ضد أرام دمشق :

كانت الحرب سجالاً بين إسرائيل وأرام دمشق التى كان يحكمها فى ذلك الوقت «بنهدد»



شكل ٥٣ – حرب إسرائيل ويهوذا ضد مؤاب وأدوم وبني عمون .

١ – جيش يورام (إسرائيل) يهاجم من الشمال.

٢ – جيش يهوشافاط (يهوذا) يهاجم من الجنوب .

وكان كلما تهيأ بنهدد بجيش للحرب أوحى الله إلى أليشع بخطة الحرب التى يُعِدُّها بنهدد فيبلغها إلى يورام الذى كان يتخذ خطة مضادة فينتصر. وفى إحدى المعارك كان انتصار يورام ساحقا. ولكن أليشع نهاه عن سفك دماء أعدائه (٢ ملوك ٦:٨ – ٢٣). وفى جولة أخرى من الحرب بين الدولتين نجح بنهدد فى الدخول إلى أرض إسرائيل وحاصر السامرة. فاستدعى يورام أليشع ولامه على نصيحته السابقة بعدم قتل الأراميين وكان غضبه على أليشع شديدا حتى أنه أراد قتله غير أنه عدل عن ذلك لأن أليشع أخبره أن المدينة ستنجو (٢ ملوك ٦:٢٤). ذلك أن الأراميين تعرضوا لهجوم من الأشوريين عليهم من جهة الشرق فاضطروا لفك حصار السامرة والعودة بجيوشهم لمجابهة هذا الخطر الجديد. وطلب يورام المدد من أخزيا – ملك يهوذا – وهو ابن أخته عثاليا زوجة يهورام. وحارب الاثنان معا الأراميين وتم استرجاع راموث جلعاد لإسرائيل من بنهدد إلاَّ أن يورام جرح فى المعركة فعاد إلى يزرعيل (٢ ملوك ٨:٢٨). وقد سبق أن ذكرنا (ص ٢٦٠) أن المهمة الثانية التى كُلِّف بها إيليا النبى – عند جبل موسى – كانت مسح «ياهو بن نمشى» ليملك على إسرائيل فى المستقبل. وتوفى إيليا قبل إتمام هذه المهمة كما أن الله سبحانه وتعالى لما رأى تواضع أخاب وعده بعدم نزع الملك منه شخصيا بل من أحد أبنائه. وتولى أخزيا العرش ثم توفى فتولى الملك أخوه يورام. وحارب أرام كما ذكرنا آنفا وجرح فى المعركة لاستعادة راموث جلعاد. وأرسل أليشع أحد رجال الدين من أعوانه وطلب منه أن يذهب إلى راموث جلعاد ويقابل «ياهو بن نمشى» وهو أحد قواد الجيش «ويصب الدهن على رأسه ويقول له: هكذا قال الرب. قد مسحتك ملكا على إسرائيل فتضرب بيت أخاب سيدك وانتقم لدماء عبيدى الأنبياء ودماء جميع عباد الرب من يد إيزابل فيبيد كل بيت أخاب وتأكل الكلاب إيزابل فى حقل يزرعيل وليس من يدفنها». وفعل رجل الدين كما أمره أليشع.

وكان يورام قد رجع من راموث جلعاد إلى يزرعيل يستشفى فيها من الجروح التى أصابته فى المعركة مع الأراميين وعلم بقدوم ياهو بن نمشى مع جند كثير فتوجَّس شرا. فركب مركبته وقاد الجند الذين معه وكان اللقاء مع ياهو عند حقل نابوت اليزرعيلى. وتقول التوراة (٢ ملوك ١:١٦) إن يورام لما رأى ياهو سأله إن كان قادما فى سلام. فرد عليه ياهو ما معناه أى سلام وأُمك تعيث فى الأرض فسادا وتنشر عبادة البعل؟ فاستدار يورام ليهرب وحذَّر أخزيا (ملك يهوذا – ابن أخته – وحليفه فى حرب الأراميين) ليهرب هو الآخر. ولكن ياهو سدد قوسه إلى يورام وضربه بسهم نفذ من ضلوعه إلى قلبه فسقط فى مركبته. فقال لعبيده ألقوه فى حقل نابوت اليزرعيلى. أما أخزيا ملك يهوذا فقد هرب. وطارده جنود ياهو فلحقوه عند مجدُّو وقتلوه فحمله أعوانه إلى أورشليم. ثم دخل ياهو بن نمشى يزرعيل. ولما سمعت بذلك إيزابل – والدة يورام – تزينت فى محاولة للفت نظر ياهو إلى جمالها وإغوائه حتى لا يقتلها. ولكنه أمر غلمانه بأن يطرحوها من شباك القصر فسقطت فى حقل نابوت الذى كانت قد ضمته إلى القصر. بعد

ذلك دخل ياهو القصر منتصرا وأكل وشرب. ثم تذكر وقال: ادفنوا هذه الملعونة لأنها بنت ملك. ولما مضوا ليدفنوها لم يجدوا إلا الجمجمة والرجلين وكفَّىْ اليدين. فرجعوا إلى ياهو وأخبروه فقال: «إنه كلام الرب الذى تكلم به عن عبده إيليا قائلا: فى حقل يزرعيل تأكل الكلاب لحم إيزابل وتكون جثة إيزابل كَدِمْنَة على وجه الحقل فى يزرعيل» (٢ ملوك ٩: ٢٥ – الدِّمنة هى المزبلة المعجم الوسيط . جـ ١ . ص ٢٩٧).

١٠ – يا هو بن نمشى

تولى ياهو بن نمشى مُلك إسرائيل بعد أن قتل يورام بن أخاب وإيزابل وأرسل جندا إلى السامرة وقتل كل الذين بقوا من أسرة أخاب. وكانوا ٧٠ رجلا وقتل كل عظمائه وكل من عرف بالولاء له. ثم قتل كهنة البعل (٨٠ رجلا) واستأصل عبادة البعل من إسرائيل وقتل جنودُه أيضا أفراد عائلة أخزيا ملك يهوذا الذين كانوا قد حضروا معه إلى السامرة وبلغوا ٤٢ رجلا. ولكى يتمكن من قتل جميع عَبَدة البعل فى المدن الأخرى لجأ ياهو إلى الحيلة. إذ تظاهر أنه يُعظِّم البعل مثل آخاب بل وأكثر منه وأعلن أنه قدَّم ذبائح عظيمة للبعل. ودعا إليها كل كهنة البعل وعَبَدته من جميع أنحاء إسرائيل. فأتوا جميعا حتى امتلأ بهم معبد البعل ودخلوا ليقربوا ذبائح هم أيضا فأمر جنوده بقتلهم جميعا . وأخرجوا تماثيل البعل وأحرقوها وكسروا التمثال الكبير وهدموا بيت البعل وحرقوه بالنار. وتقول التوراة: (٢ ملوك ١٠ : ٣٠): وقال الرب لياهو: من أجل أنك قد أحسنت بعمل ما هو مستقيم فى عينىَّ. وحسب كل ما بقلبى فعلت ببيت أخاب فأبناؤك إلى الجيل الرابع يجلسون على كرسى إسرائيل.ثم إن ياهو شجَّع نشاط جماعة من الزهَّاد كانوا يدعون إلى الأخلاق الكريمة وتجنب الخمر ويدعون إلى السكنى فى الخيام والبعد عن ترف الحياة. واستعان ياهو بهم فى مطاردة وقتل كل من بقى من عُبَّاد البعل. ولكن ياهو لم يستكمل إصلاحاته الدينية بحيث تشمل كل مظاهر الوثنية التى تسللت إلى إسرائيل. لذلك أبقى على عجول الذهب التى أدخلها يربعام فى المعبد فى بيت إيل وفى دان. ولعله رأى إرجاء ذلك إلى وقت لاحق حتى لا يعادى الجميع فى وقت واحد فيتَّحدوا ضده.

سياسة ياهو الخارجية : لم يستوعب ياهو أن سوريا ممكن أن تقوم بدور «دولة حاجزة» بين إسرائيل ودولة أشور الصاعدة وكان الواجب عليه مساندة الدويلات السورية ضد التوسع الأشورى. ففى العام الأول من حكم ياهو قاد شلمناصر الثالث ملك أشور حملة موفقة ضد الدويلات السورية ومن بينها دمشق ووصل إلى شاطىء البحر المتوسط وتسلم الجزية من مدن الساحل الفينيقى مثل صور وصيدا . ولم يساعد ياهو أيا من هذه الدويلات بل أظهر الخضوع للملك الأشورى كما هو ثابت فى رسم على «المسلة السوداء» المحفوظة بالمتحف البريطانى التى

تُصوِّر ياهو راكعا أمام شلمناصر فى ذلة وخضوع ويدفع الجزية على هيئة أوانى من الفضة والذهب.

وقد ساءت العلاقات بين ياهو و«صور» بعد أن قتل إيزابل ابنة ملكها وبالتالى ساءت العلاقات مع كل المدن الفينيقية. كذلك فقد عادته مملكة يهوذ لقتله أخزيا ملكها. هكذا وجد ياهو نفسه وحيدا فى الميدان فاتجه إلى أشور يطلب عونها أو حمايتها. ولكن أشور كانت فى ذلك الوقت تؤجل تطلعاتها فى الجبهة الغربية نظرا لقلاقل على حدودها الشرقية فبدأت دمشق تستعيد أنفاسها واستولت على أرض إسرائيل الواقعة شرقى **نهر الأردن** (شكل ٥٤) ودمَّروا جلعاد ويقروا بطون الحوامل هناك (عاموس ١٣:١).

وتوفى ياهو ودفن فى السامرة بعد أن خسرت إسرائيل حوالى ثلث مساحتها.

١١ - يهو أحاز بن ياهو بن نمشى.

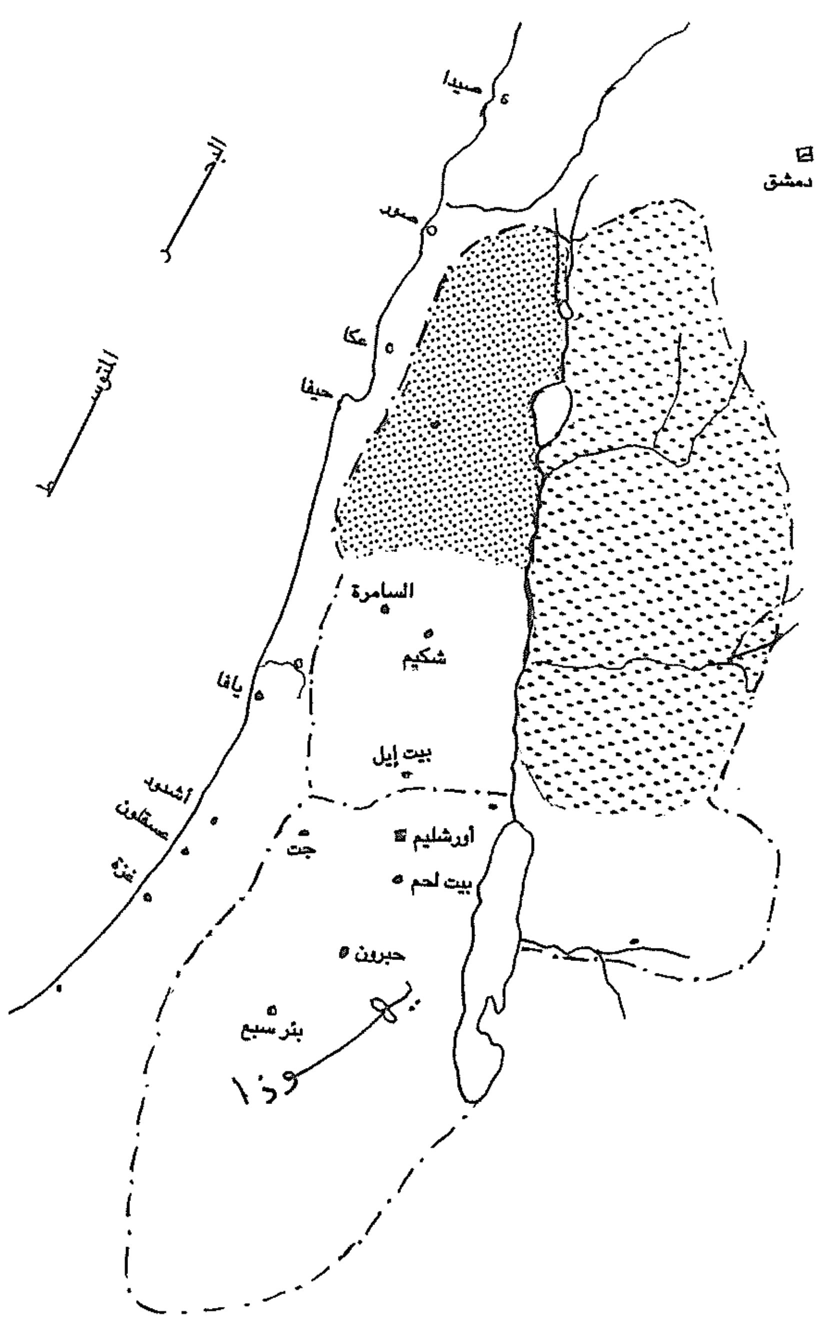
ملك «يهو أحاز» على إسرائيل بعد وفاة والده «ياهو بن نمشى» وأقام فى السامرة وسار فى طريق الشر فسلَّط الله عليه حزائيل ملك دمشق فاستولى على أجزاء كبيرة من أرض إسرائيل غرب **نهر الأردن** بعد أن قتل الجزء الأكبر من جيش يهوآحاز ولم يبق من جنده إلا ١٠,٠٠٠ مقابل و ٥٠ فارسا و ١٠ مركبات. فتضرع إلى الله وتاب وأقلع عن عبادة الأوثان قبل أن يتوفى.

١٢ - يهوآش (يوآش) بن يهو أحاز.

ملك «يهوآش» على إسرائيل بعد موت أبيه واتخذ من السامرة عاصمة له. وكان يُكِنُّ تقديرا عظيما للنبى أليشع ولكنه لم يتمكن من القضاء على عبادة العجل التى أدخلها يربعام.

العداء بين إسرائيل ويهوذا :

قلنا إن ياهو بن نمشى قتل يورام بن أخاب ملك إسرائيل (ص ٢٦٩). ثم تعقب أخزيا ملك يهوذا فلحقه عند مجدُّو وقتله ثم بعد ذلك قتل أفراد عائلته الذين كانوا معه ومن هنا ولد العداء بين إسرائيل ويهوذا وتنامى هذا العداء حتى وصل إلى حد الحرب بين المملكتين الشقيقتين. ولتأمين ظهره فإن يوآش وضع حدا للنزاع الطويل والعداء المستحكم مع آرام دمشق. وكان الآراميون أنفسهم راغبين فى مثل هذا السلام إذ كان الضغط الأشورى يزداد عليهم من جهة الشرق. لذلك فإن السلام مع إسرائيل تضمَّن استرداد يهوآش للأراضى التى فقدها والده



شكل ٥٤ – الأراضى التى فقدتها مملكة إسرائيل .

أراضى شرق الأردن استولى عليها حزائيل من ياهو بن نمشى .

أراضى غرب الأردن استولى عليها حزائيل من يهو أحاز .

يهوأحاز فى غرب الأردن والأراضى التى فقدها جده (ياهو بن نمشى) فى شرق الأردن وهى أرض باشان وجلعاد وبذلك أمَّن ظهره إذ استتب السلام بينه وبين أرام دمشق. بعد ذلك بدأ يوآش يجهز للحرب مع يهوذا وكان يحكمها الملك أمصيا. فتوغل فى أرضه ودارت معركة عند بيت شميس - وهى المعروفة حاليا بـ «تل الرميلة أو عين شمس» على بعد ٣٠كم جنوب غرب أورشليم - وتقول التوراة (٢ ملوك ١٤:٨) «وانتصر يوآش وأخذ الذهب والفضة الموجودة فى بيت الرب فى أورشليم وفى خزائن بيت الملك». وأخذ رهائن من البيت المالك والأمراء إلى السامرة ضمانا لعدم إثارة المتاعب فى المستقبل. وهدم جزءا كبيرا من أسوار أورشليم.

واتقاء للحرب مع أشور ولمعرفته بإنه لا قِبَلَ له بمقاومتها. فإن يوآش ارتضى طواعية دفع الجزية لملكها. ثم مات بعد أن حكم ١٦ سنة ودفن فى السامرة.

١٣ - يربعام الثانى بن يوآش .

تولى يربعام الثانى الملك فى إسرائيل بعد وفاة والده يوآش وظل يحكم لمدة ٤٠ عاما كانت فى مجملها سنوات هدوء إذ كانت أشور فى شغل بأمورها الداخلية. والسلام مع أرام دمشق مستتب بعد أن استعاد والده الأراضى التى كان الأراميون قد استولوا عليها. أما من الناحية الدينية فإن عبادة البعل كان قد قضى عليها تماما إلا أن عبادة العجول الذهبية التى أدخلها يربعام الأول بدأت تمتزج بعبادة الرب «يهوه» فلم تكن ما سماه البعض «صحوة دينية» توحيدا خالصا بل كانت مزجا بين العبادتين. وظهر فى ذلك الوقت نبى اسمه «عاموس» راح يندِّد بأفعالهم وقال لهم على لسان الرب (عاموس ٥ : ٢٢): «بغضت وكرهت أعيادكم ولست ألتذ باعتكافاتكم. إنى إذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى..». وهو ما سنذكره بتفصيل أكثر عند ذكر سيرة هذا النبى (ص ٢٨١). وقد صاحب هذا الضلال الدينى انحطاط خلقى. وراح عاموس النبى يُندِّد بالملك والأمراء الذين يملكون قصورا شتوية وأخرى صيفية مزينة بالعاج والأبنوس فى حين تجاورها بيوت خشنة للفقراء (عاموس ٣ : ١٥) كما راح يقارن بين الأغنياء الذين يأكلون الخراف والعجول ويشربون الخمر على أصوات الرباب ويتطيبون بأفضل أنواع الطيب ولكن هذه الرفاهية وصلوا إليها بالظلم والاغتصاب لتعب الفقراء والمساكين وبالغش فى التجارة والموازين وأخذ الرشوة فيقول: «رؤساء متمردون وشركاء اللصوص كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا. لا يقضون لليتيم ودعوى الأرملة لا تصل إليهم» وهو هنا يندد بالقضاة الذين يظلمون اليتيم والأرملة لأنهم لا يقدِّمون رشاوى ولا هدايا. ومن كل هذه المظالم تحول الفلاحون إلى أُجَراء وعبيد فى أراضيهم التى استولى عليها الكبار. وهكذا عمَّ الفساد كل شيء مما ينذر بانهيار الدولة ذاتها.

١٤ - زكريا بن يربعام .

ملك بعد موت أبيه ولكن مدة حكمه لم تزد عن ٦ شهور إذ قام عليه شلُّوم بن يابيش وقتله وملك عوضا عنه فى السامرة (٢ ملوك ١٥ : ٩). وهكذا انتهت أسرة ياهو بن نمشى بعد أن حكم منها أربعة أجيال حسب ما قال الرب (ص ٢٧٠).

بدأت المرحلة الأخيرة من حياة مملكة إسرائيل الشمالية. تولى فيها الملك ٤ ملوك حكموا مدة عشرين عاما انتهت باجتياح أشور للسامرة. ولكن نرجىء الكلام عن هذه المرحلة إلى ما بعد الكلام عن النبى أليشع (اليسع) بتفصيل أكثر وكذلك ذكر أربعة أنبياء آخرين: يونان (يونس) الذى كان مرسلا إلى أهل نينوى عاصمة آشور يحذِّرهم من غضب الله عليهم للشرور والظلم والفساد المنغمسين فيه. وثلاثة هم: عاموس وناحوم وهوشع. وهؤلاء كانت نبوتهم تتلخَّص فى التحذير من خراب وشيك الوقوع بإسرائيل بسبب البعد عن الرب والظلم السائد فى المجتمع ودعوة إلى العودة إلى تعاليم الشريعة عسى الله أن يخفف مِنْ وقع البلاء القادم.

الفصل الثانى عشر

خمسة أنبياء

١ – أليشع = اليسع .

٢ – عاموس .

٣ – يونان = يونس .

٤ – ناحوم .

٥ – هوشع .

١ – اليسع عليه السلام = أليشع Elisha

جاء ذكره فى القرآن الكريم مرتين :

« واسماعيل واليسع ويونس ولوطا. وكلاً فضلنا على العالمين» . (٨٦ – الأنعام).

«واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكلٌّ من الأخيار» (٤٨ – ص) .

وأليشع اسم عبرى معناه «الله خلاص» وهو خليفة إيليا (إلياس) فى العمل النبوى. وقد ذكرنا سابقا (ص ٢٦٠) أنه كان يقيم فى «أبل محولة» ووجده إيليا (إلياس) يحرث فى حقل أبيه فطرح عليه رداءه تعبيرا عن اختياره للعمل النبوى. وعندما ذهب إلياس إلى ما وراء الأردن (شرق الأردن) ليرفع إلى السماء (ص ٢٦٥) ذهب معه اليشع وأخذ رداءه الذى سقط منه عند رفعه. ثم عبر أليشع النهر عائدا إلى الضفة الغربية (٢ ملوك ٢:١) وكان أليشع يرتدى ملابس عادية ويحمل معه عكازا، وكان له بيت خاص فى السامرة. وكان له فتى اسمه «جيحزى» يرافقه فى روحاته وسفرياته يخدمه وينفِّذ ما يطلبه منه. وقد أتى أليشع بمعجزات كثيرة ليثبت للشعب أن الرب هو الإله الواحد وهو قادر على كل شيىء وهو الوحيد الجدير بالعبادة.

مسيرة اليسع ومعجزاته :

١ – **مياه أريحا** : بعد عودته من شرق الأردن أقام أليشع فترة فى أريحا، واشتكى سكان المدينة من عفونة المياه التى يشربون منها. فاستفتح أليشع باسم الرب وألقى فى العين بعضا من الملح فصار ماؤها عذبا.

٢ - جزاء السخرية بنبى الله :

ترك أليشع أريحا وذهب إلى بيت إيل. وهناك أغرى بعض الوثنيين أبناءهم الصغار على السخرية من أليشع. فكانوا يتبعونه صائحين: «اذهب اذهب يا أصلع الرأس». وكان الاستهزاء بنبى الرب كأنه استهزاء بالرب نفسه. فخرجت من الغابة المجاورة دبتان هاجمتا الأولاد وجرحتهم ومات بعضهم متأثرا بجراحه. فأيقن أهل البلدة أن أليشع مؤيد من السماء. بعد ذلك عاد أليشع إلى بيته فى السامرة.

٣ - معجزة الاستسقاء :

سبق أن ذكرنا (ص٢٦٧) تحالف يورام ملك إسرائيل مع حميه يهوشافاط ملك يهوذا لمجابهة التحالف الثلاثى المكون من مؤاب وبنى عمون والأدوميين. وكان نقص الماء شديدا حتى أوشك الجميع على الهلاك عطشا فلجأوا إلى أليشع وطلبوا منه أن يدعو الله أن ينزل المطر. ففعل ونزل المطر وامتلأت الآبار فشرب بنو إسرائيل وطمروا الآبار التى يستقى منها الأعداء. وكان لهم النصر كما سبق ذكره.

٤ - معجزة جرة الزيت :

وفى طريق سيره مر ببلدة يزرعيل وهناك لقى أرملة أحد رجال الدين وكان لها ولدان. وكان عليها دَيْن لم تستطع الوفاء به وكان القانون يقضى بأخذ أولادها منها وبيعهم لتسديد دينها. ولما كانت فى أقصى درجات اليأس فإنها لجأت إلى اليسع عليه السلام. ولما حكت له مشكلتها سألها عما تمتلكه من متاع فلم يجد فى بيتها إلا جرة زيت فطلب منها أن تستعير أقصى ما تستطيع من جرار الزيت الفارغة من جاراتها. وأمسك بجرتها وسكب منها زيتا حتى ملأ الجرار التى استعارتها وتقاضت من أصحابها ثمن الزيت وسددت دينها.

٥ - المرأة الشونمية :

لما وصل إلى بلدة شونم (١٥ كم شرقى مجدو) أكرمته امرأة شونمية غنية. وكانت مؤمنة بالله. ولما كانت ترغب فى استضافته كلما مر بالبلدة فإنها خصصت له الحجرة العلوية من دارها. ودائما تكون علِّية الدار هى أفضل الحجرات. وكان أليشع ممتنا لهذا الكرم فطلب منها إن كان لها حاجة عند الملك أو رئيس جنده ليقضيها لها. ولكنها أخبرته أنها لا ينقصها شيىء. ولكن أحد جيرانها لفت نظر أليشع إلى أن المرأة وزوجها لم يرزقا بالولد فبشرها بأنها بعد فترة وجيزة ستحمل وتضع ولدا. ومرت الأيام وتحققت البشرى وكبر الغلام وبينما هو ذاهب إلى أبيه فى الحقل أصيب بضربة شمس ومات ووضعت الأم جثمان ابنها على سرير أليشع وأسرعت تبحث عنه حتى وجدته فى الكرمل وأخبرته بمصابها فأسرع عائدا معها. وأغلق على نفسه الحجرة مع جثمان ابنها وراح يدعو الله ويصلى واستجاب الله لدعائه وتضرعاته فعادت الحياة للولد.

٦ - معجزة العشب السام :

كان أليشع فى الجلجال وكان الناس فى مجاعة لا يجدون ما يأكلونه سوى الأعشاب البِّرية بعد سلقها. وكان بعض الرجال قد وضعوا قدرا كبيرا به ماء على النار. وألقوا فيه بملء شوال من الأعشاب البرية لسلقها وأكلها. ولما بدأوا يأكلون شعروا بطعم غريب ينبىء بوجود عشب سام بينها. فألقى أليشع بعض الأعشاب فى القدر وتلى اسم الرب فزال الطعم الغريب. وأكل الناس ولم يضاروا بشيىء.

٧ - إطعام مائة شخص :

وفى الجلجال أيضا أحضروا إلى أليشع هدية عبارة عن باكورة انتاج فواكه وعشرين رغيفا من الشعير. فاستفتح أليشع باسم الرب فأشبعت هذه الكمية ما يزيد عن مائة شخص.

٨ - شفاء الأبرص :

كان قائد الجيش السورى (واسمه نعمان) قد أصيب بالبرص. فأرسل ملك دمشق (بنهدد) رسلا إلى يهوآش ملك إسرائيل طالبا منه شفاء قائد جيشه وأرسل معه هدايا كثيرة من الذهب والفضة و ١٠ ثياب. وكان هدف بنهدد هو إحراج ملك إسرائيل حيث أن البرص مرض ليس له علاج معروف. ولما سمع أليشع بهذا الأمر طلب أن يُرسَلَ له قائد الجيش. وأمره أليشع أن يغتسل ٧ مرات فى نهر الأردن فشفِي. ورفض أليشع قبول الهدايا التى أحضرها معه فعاد إلى بلاده معترفا بفضل إله إسرائيل وقدرته.

٩ - جزاء الكذب على نبى الله ومخالفة أمره :

لما رأى جيحزى - غلام أليشع - أن سيده لم يأخذ الهدايا طمع هو فى أخذ جزء منها فجرى وراء قائد الجيش السورى ولحق به وادعى كذبا أن أليشع هو الذى أرسله طالبا وزنتى فضة وحلتى ثياب لاثنين من أتباعه فأعطاه قائد الجيش ما طلب. فأخذهما جيحزى وخبَّأهما بداره ورجع إلى أليشع. وكان الله قد أعلمه بما فعله غلامه (٢ ملك ٥:٢٥) فقال له أليشع: «من أين يا جيحزى؟ فقال: لم يذهب عبدك إلى هنا أو هناك. فقال له: ألم يذهب قلبى حين رجع الرجل من مركبته للقائك؟ أهو وقت لأخذ الفضة ولأخذ الثياب؟ فبَرَصُ نعمان يلصق بك وبنسلك إلى الأبد. فخرج من أمامه أبرص كالثلج».

١٠ - معجزة طفو الحديد :

وكان بعض رجال الدين يقيمون فى موضع وضاق بهم المكان فقرروا الذهاب إلى مكان أوسع على شاطىء الأردن. وطلبوا من أليشع الذهاب معهم ليبارك لهم المكان الجديد. وبينما أحدهم يقطع شجرة إذ طار حديد البلطة ووقع فى الماء فصرخ الرجل لأن البلطة لم تكن ملكا له

بل استعارها من جار له واستنجد بأليشع الذى قطع عودا من النبات وألقاه فى الماء. فغاص فى الماء ثم طفا وقد علق به حديد البلطة فأمر أليشع الرجل أن يأخذه بيده (٢ ملوك ٦:٧).

١١ - الإيقاع بالجنود الآراميين :

ذكرنا فى أكثر من موضوع سابق العداء بين الآراميين - وأرام دمشق بالذات - وإسرائيل، والحروب الكثيرة التى كانت بينهما. وفى أيام أليشع كانت خطط الآراميين الحربية، مهما كانت تحاط بالسرِّية - كان الله يُطلع أليشع عليها وهو بدوره يخبر ملك إسرائيل ليأخذ حذره ويضع خطة مضادة فتضيع على أرام فرصة النصر. وتكرر هذا الأمر عدة مرات. وشك ملك أرام أن هناك خائنا من رجاله يطلع إسرائيل على خططه فنفى رجاله ذلك وقالوا له «ولكن أليشع النبى الذى فى إسرائيل يخبر ملك إسرائيل بالأمور التى تتكلم بها فى مخدع مضجعك. فقال اذهبوا وانظروا أين هو فأُرسِل وآخذُه. فقيل له هو ذا فى دوثان. فأرسَلَ إلى هناك خيلا ومركبات وجيشا كبيرا وجاءوا ليلا وأحاطوا بالمدينة. وكان خادمه هو أول من لاحظ هذه الحشود حول المدينة وحول الدار. وأدرك الخطر المحيق بسيده ولفت نظره إليه فطمأنه أليشع وقال (٢ ملوك ٦:١٣): لا تخف لأن الذى معنا أكثر من الذى معهم. وصلَّى أليشع وقال يارب افتح عينيه فيبصر فرأى الغلام الجبل وقد امتلأ بحراس من الملائكة. ولما نزل جنود أرام وأحاطوا بالبيت صلَّى أليشع وطلب من الله أن يُغشِىَ أبصارهم. فصاروا كالمنوَّمين مغناطيسيا. فخرج إليهم أليشع وقال لهم: ليست هذه هى الطريق وليست هذه هى المدينة. اتبعونى فأسير بكم إلى الرجل الذى تفتشون عليه. فسار بهم إلى السامرة ولما زالت الغشاوة عنهم وجدوا أنفسهم وسط جنود الملك فى السامرة. وكان الملك راغبا فى قتلهم وسأل أليشع: هل أضرب. هل أضرب يا أبى؟ فقال: لا تضرب. تضرب الذين سبيتهم بسيفك وبقوسك. ضع خبزا وماء أمامهم فيأكلوا ويشربوا ثم ينطلقوا إلى سيدهم. فأولم لهم الملك وليمة عظيمة فأكلوا وشربوا ثم أطلقهم فانطلقوا إلى بلادهم. وقد أثار بعض مفسرى التوراة نقاشا حول مصداقية تصرف أليشع وخديعته للجنود الآراميين وقال بعضهم إن قوله لم يتعد الحقيقة لأن بيت أليشع الأساسى كان فى السامرة. ومانراه هو أن هذا التصرف كان لإظهار مقدرة ربه وتمكُّنه من الإيقاع بهم ولكنه رب رحيم فلم يسمح للملك بضرب أعناقهم. ولعل هذا العفو عند المقدرة جعلهم يلهجون بالثناء على أليشع وعلى ربه. ونقلوا هذه الصورة إلى ملكهم. ولكن بنهدد خشى من تزايد الشعور الموالى لإسرائيل بين جنوده وأفراد شعبه فقرر حصار السامرة.

١٢ - حصار السامرة والمجاعة :

وكان أن بنهدد ملك أرام جمع كل جيشه وحاصر السامرة (٢ ملوك ٦ : ٢٤) حتى بلغ الجوع أقصاه فى المدينة. وصب ملك إسرائيل غضبه على أليشع لأنه أشار باطلاق سراح الجنود

الأراميين الذين كانوا فى متناول يده ولم يسمح بقتلهم فكانوا قوة لبنهدد فى حصارهم. كما أنهم بعودتهم سالمين أخبروا بنهدد بمعلومات عن تحصين المدينة أفادته فى الحصار. وعزم يهورام ملك إسرائيل على قتل أليشع. وأرسل رجلا لتنفيذ أمر القتل. وأخبر الرب أليشع بذلك وكان أليشع جالسا وسط بعض من شيوخ إسرائيل فأخبرهم بأن الملك أرسل رجلا ليقتله وطلب منهم ألا يُدخِلوه لأن الملك بنفسه قادم ليستوثق من تنفيذ أمره بقطع رأس أليشع. فلما جاء الملك قال أليشع: اسمعوا كلام الرب. هكذا قال الرب. فى مثل هذا الوقت غداً تكون كيلة الدقيق بشاقل وكيلتا الشعير بشاقل فى باب السامرة. أى أن الحصار سيرفع ويأتى الزاد بحيث ترخص الأسعار. وكان أحد جنود الملك يرتكن إلى باب الحجرة فقال هازئا: أيفتح بوابات من السماء؟ فقال له أليشع. إنك ترى بعينيك ولكن لا تأكل منه.

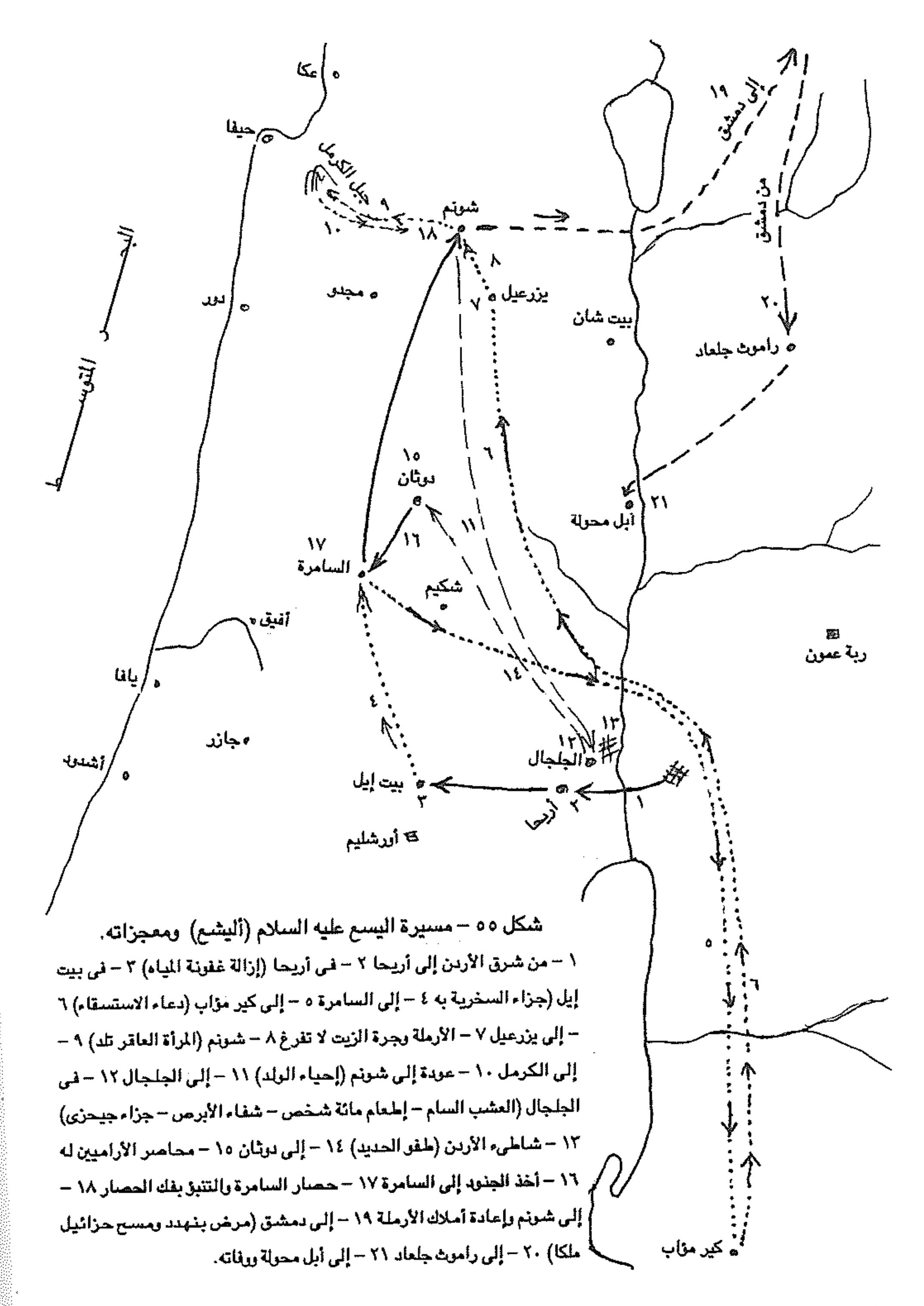
وفى الصباح وجدوا معسكر الأراميين مهجورا إذ تركه الجنود وهربوا. ذلك أن الله أسمع بنهدد وجنوده صوت خيل ومركبات كثيرة من كل ناحية. وكما تقول التوراة (٢ ملوك ٧:٧) «فقال الواحد لأخيه. هوذا ملك إسرائيل قد استأجر ضدنا ملوك الحيثيين وملوك المصريين ليأتوا علينا. فقاموا وهربوا فى العشاء وتركوا خيامهم وخيلهم وحميرهم فى المحلة كما هى». وهكذا خلَّص الله السامرة من الحصار. أما الجندى الذى لم يُصدِّق كلام الرب وهزأ بكلام أليشع فقد داسته جموع الجياع المحاصرين والذين اندفعوا عبر بوابة المدينة قاصدين خيام الأراميين المهجورة ليأخذوا مابها من زاد كثير وكان واقفا مستندا على البوابة فداسوه حتى مات وبهذا تحقق وعيد أليشع «ولكن لا تأكل منه». ومن كثرة الزاد انخفضت أسعار الدقيق والشعير كما تكلم أليشع.

١٣ - أملاك المرأة الشونمية تعود لها :

فى وقت لاحق أخبر الرب أليشع بمجاعة تعم المنطقة. وحفظا لجميل المرأة الشونمية التى أكرمته وهيَّأت له علِّية بمسكنها رأى أن يخبرها بما سيحدث حتى تتدبَّر أمرها. فتركت دارها ولجأت إلى أقارب لها بساحل البحر حيث الأمطار متوافرة وبقيت هناك ٧ سنوات حتى انتهت المجاعة ولما عادت إلى شونم وجدت أن دارها قد احتلها شخص غريب. فلجأت إلى الملك ليعينها على استرداد دارها. وفى نفس الوقت كان عند الملك جيحزى غلام أليشع فقصَّ على الملك المعجزات التى تتحقق على يدى أليشع. وتعرف جيحزى على المرأة الشونمية وأخبر الملك أنها هى التى أكرمت سيده وأن أليشع قد أعاد الحياة لابنها بعد أن مات. وفى الحال أمر الملك بأن تعاد لها دارها وأرضها وريع الأرض طوال مدة غيابها.

١٤ - مسح حزائيل ملكا على أرام دمشق :

سار أليشع بعد ذلك إلى دمشق. وكان ملكها بنهدد مريضا. فأرسل رئيس جنده - حزائيل -



شكل ٥٥ – مسيرة اليسع عليه السلام (أليشع) ومعجزاته.

١ – من شرق الأردن إلى أريحا ٢ – فى أريحا (إزالة عفونة المياه) ٣ – فى بيت إيل (جزاء السخرية به ٤ – إلى السامرة ٥ – إلى كير مؤاب (دعاء الاستسقاء) ٦ – إلى يزرعيل ٧ – الأرملة وجرة الزيت لا تفرغ ٨ – شونم (المرأة العاقر تلد) ٩ – إلى الكرمل ١٠ – عودة إلى شونم (إحياء الولد) ١١ – إلى الجلجال ١٢ – فى الجلجال (العشب السام – إطعام مائة شخص – شفاء الأبرص – جزاء جيحزى) ١٣ – شاطىء الأردن (طفو الحديد) ١٤ – إلى دوثان ١٥ – محاصر الأراميين له ١٦ – أخذ الجنود إلى السامرة ١٧ – حصار السامرة والتنبؤ بفك الحصار ١٨ – إلى شونم وإعادة أملاك الأرملة ١٩ – إلى دمشق (مرض بنهدد ومسح حزائيل ملكا) ٢٠ – إلى راموث جلعاد ٢١ – إلى أبل محولة ووفاته.

إلى أليشع يسأله هل يشفى من مرضه أم لا. فأخبره أليشع أن بنهدد سيموت وأنه - حزائيل - سيصبح ملكا على دمشق بدلا منه. وقد سبق ذكر ذلك (ص ٢٦٢).

وفاة أليشع عليه السلام :

ومرض أليشع مرضه الذى مات به فنزل إليه يهوآش (يوآش) ملك إسرائيل وتقول التوراة (٢ ملوك ١٣:١٤) وبكى على وجهه. وهنا أراد أليشع أن يمتحن صلابته فأعطاه قوسا وسهاما وطلب منه أن يرمى. فرمى ثلاث رميات وتوقف. فغضب أليشع وقال له لو رميت ٥ أو ٦ رميات لضربت أرام إلى الفَنَاء. وأما الآن فإنك تضرب أرام ثلاث مرات ولكن لا تفنيهم. ثم مات أليشع ودفنوه.

لم تنته معجزات أليشع بموته إذ تقول التوراة (٢ ملوك ١٣ : ٢٠) إن جنازة كانت مارة بالقرب من قبره ورأى المشيعون جماعة من المؤابيين متجهين نحوهم لمهاجمتهم. فوضعوا جثمان الميت بسرعة فى قبر أليشع استعدادا لدفع الهجوم. وبمجرد أن مسَّت الجثة رفات أليشع حتى دبت فيها الحياة وخرج الميت من القبر واقفا على رجليه.

٢ - عاموس النبى Amos

هو أحد الأنبياء الاثنى عشر «الصغار» (كما يسميهم مفسرو أهل الكتاب). وهو من بلدة تقوع Tekoa التى تقع فى يهوذا ١٦كم جنوب أورشليم و١٠كم جنوب بيت لحم (انظر شكل ١٠٤ فى آخر الكتاب). وكان من طبقة فقيرة وعمل فى مطلع حياته راعيا للغنم يرعى قطيعه غرب البحر الميت وكان أيضا جانى جميز. وعاصر يربعام الثانى ملك إسرائيل وعزِّيا ملك يهوذا وكان متزامنا مع النبى هوشع. وكانت نبوته سنتين قبل زلزال مدمرٍ ضرب المنطقة ولنستطيع فهم معنى تنبؤاته علينا أن نلم إلمامة سريعة بالظروف التى كانت تمر بها منطقة الشرق الأدنى القديم.

سبق أن ذكرنا (ص ٢٥٣) أن ملك أشور أنزل هزيمة ساحقة بالدويلات الأرامية فى شمال سوريا مما جعلها فى موقف الضعف بالنسبة لجارتها إسرائيل. ثم انشغلت أشور بمتاعب داخلية واضطرابات على حدودها الشرقية وتمكن يربعام الثانى (ص ٢٧٣) من استعادة الأقاليم الواقعة شرق الأردن التى كانت دمشق قد استولت عليها بل ومد نفوذه شمالا إلى مدخل حماة وأصبحت إسرائيل - كما كانت أيام سليمان عليه السلام - تتحكَّم فى طرق التجارة الرئيسية بالمنطقة وأصبحت السامرة - عاصمة إسرائيل - مركزا هاما للتجارة المارة من بلاد مابين النهرين ودمشق إلى مصر وجنت إسرائيل من وراء ذلك أموالا طائلة وازدهرت الحياة وبُنيت القصور الفاخرة فى السامرة للتجار والأغنياء الذين ازدادوا نهما لجمع المال ونسوا تعاليم الرب

وأهملوا السبوت وانتشر الظلم والفساد. وازداد الفقراء فقرا ورهنوا ممتلكاتهم للحصول على القوت اللازم لحياتهم. واعوجَّ القضاء بسبب الرشوة. وكان عاموس – كما قلنا – من الطبقة الكادحة وكان مطلًّعًا على مصاعبها ويلمس ما تعانيه.

ولم يكن الضلال الدينى قاصرا على إسرائيل (الشمالية) بل كان قد بدأ فى التسلل إلى يهوذا فى صورة عبادة العجل حين تزوج يهورام ملك يهوذا من عثاليا ابنة إيزابل ابنة ملك صور وزوجة أخاب ملك إسرائيل ورائدة عبادة البعل. وبالرغم من الصحوة الدينية التى تلت ذلك على يد ياهو بن نمشى فى إسرائيل (ص ٢٧٠) إلا أن معابد البعل لم تُدمَّر كلها. كما بقيت عبادة العجول الذهبية التى كان يربعام الأول قد أدخلها إلى إسرائيل. وكان الشعب يتردد عليها ويذبحون لها. وأدرك عاموس بحكمته أن هذه الحال لابد ستقود البلاد إلى كارثة. لذلك نزلت النبوَّة على عاموس فى تقوع فى أرض يهوذا ولكنه أُمِرَ بالذهاب إلى المملكة الشمالية وخاصة بيت إيل. وهذه من الحالات النادرة التى يؤمر فيها نبى من يهوذا بالذهاب إلى إسرائيل لتحذير الناس هناك. إلا أن نبوءاته كانت مُوجَّهة إلى إسرائيل ويهوذا معا. وقد اتُّهِم بالتآمر على يربعام الثانى وتحريض الشعب ليثور عليه. وتوعَّده أمصيا الكاهن الأكبر فى بيت إيل. ويكتنف الغموض باقى حياته. لكن مما لاشك فيه أنه بعد أن أدى مهمته فى إسرائيل عاد إلى يهوذا. ولا يُعرف متى وكيف وأين كانت وفاته.

رسالة عاموس :

ليس لنا من مصدر معلومات عن هذا النبى سوى ماجاء فى سفر عاموس فى التوراة. وقد كانت رسالة عاموس فى مجملها تحذيرا من غضب الرب بسبب الفساد الذى انتشر وبسبب بعد الناس عن عبادة الرب سواء فى إسرائيل أو فى يهوذا. ويبدأ السفر (عاموس ١:٢) بالتحذير من زلزال مُدمِّر سيحدث بعد سنتين ويعقبه قحط تجف منه المراعى فقال: «إن الرب يزمجر من صهيون ويعطى صوته من أورشليم فتنوح مراعى الرعاة وييبس رأس الكرمل». والكرمل منطقة تمتد رأسها داخل البحر وتعلو ١٢٠٠ قدم عن سطح البحر وهى غزيرة المطر ومن أخصب المناطق. وضُرِبَ به المثل فى أنه عندما ييبس الكرمل فلاشك أن المراعى الأخرى ستكون الكارثة فيها أشد وأقسى. ثم بعد ذلك يذكر عاموس كل دولة على حدة ويذكر خطيئتها التى استوجبت نزول العقاب بها ونوع العقاب فيقول:

١ – دمشق (عاموس ١ : ٣) :

هكذا قال الرب: «من أجل ذنوب دمشق الكثيرة لا أرجع عنهم لأنهم داسوا جلعاد بنوارج من حديد. فأرسل نارا على بيت حزائيل فتاكل بنهدد وأكسِّر مغلاق دمشق. وأقطع الساكن من بقعة أون. وماسك القضيب من بيت عدن».

وبقعة أون هى وادى الوثنية فى غوطة دمشق الفسيحة. وماسك القضيب كناية عن الإله «مردوك» الذى كان يمثِّل ممسكا بيده اليسرى المضمومة إلى صدره دائرة وقضيبا من حديد رمزا للقوة وهو «بعل» سيد الآلهة فى هذه المنطقة (انظر الجزء الثانى ص ٢٠٤). وبيت عدن هى منطقة بعلبك. وفى هذه النبوءة يشير عاموس إلى أن أرام دمشق وباقى الدويلات الآرامية أثناء تسلطهم على إسرائيل واستيلائهم على المناطق الواقعة شرق الأردن - باشان وجلعاد - عاملوا أهلها بقسوة بالغة فكأنهم داسوهم بالنوارج الحديدية فكان التنبؤ بهلاك ملوكها وذريتهم وهدم أسوار دمشق وسقوط آلهتها.

٢ - غزة أي الفلسطينيون (عاموس ١ : ٦) :

هكذا قال الرب: «من أجل ذنوب غزة الكثيرة لا أرجع عنهم لأنهم سبوا سبيا كثيرا لكى يسلموه إلى أدوم فأرسلُ نارا على سور غزة فتأكل قصورها وأقطع الساكن من أشدود وماسك القضيب من أسقلون وأرد يدى على عقرون فتهلك بقية الفلسطينيين. هكذا قال السيد الرب».

وقد ذكرت غزة أولا لأنها أكبر مدن الفلسطينيين وكانت ملتقى طرق قوافل التجارة. وكان أهلها يقومون بغارات ويأخذون السبى من بنى إسرائيل ويبيعونهم إلى أدوم. هذا فضلا عن وثنيه الفلسطينيين ولشدة خصومتهم لبنى إسرائيل منذ أيام شاول وداود وحتى مملكة إسرائيل ويهوذا ولهذا كان الوعيد لكل مدن الفلسطينيين.

٣ - صور (عاموس ١ : ٩) :

هكذا قال الرب: «من أجل ذنوب صور الكثيرة. لا أرجع عنهم لأنهم سلَّموا سبيا كثيرا إلى أدوم ولم يذكروا عهد الأخوة فأرسل نارا على صور فتأكل قصورها».

وتمثلت ذنوب صور - وهى تعبير عن الساحل الفينيقى بأكمله - فى أخذ السبى وبيعه إلى أدوم قاصدين تقوية أدوم والتقرب منها - كما كان يفعل الفلسطينيون - حتى يتكون حلف ضد بنى إسرائيل. وهذا نقض للأخوه التى كانت بين سليمان عليه السلام وحيرام ملك صور. وقد لقيت صور الخراب على أيدى الأشوريين. ومرة أخرى على يد نبوخذ نصر الملك البابلى ومرة ثالثة حين استولى عليها الاسكندر الأكبر وباع من سكانها ٣٠,٠٠٠ عبيداً.

٤ - أدوم (عاموس ١ : ١١) :

هكذا قال الرب : «من أجل ذنوب أدوم الكثيرة لا أرجع عنهم لأنه تبع بالسيف أخاه وأفسد مراحمه وغضبه إلى الدهر يفترس وسخطه يحفظه إلى الأبد. فأرسل نارا على تيمان فتأكل قصور بُصرة».

وفى هذا إشارة إلى أخوة عيسو (أدوم) ويعقوب (بنى إسرائيل) ولكن الأدوميين لم يرعوا هذه الأخوَّة وحملوا عداء مستحكما فتوعَّدهم عاموس بنار وحرب تأكل مدنهم وأهمها تيمان وبُصرى.

وبقعة أون هى وادى الوثنية فى غوطة دمشق الفسيحة. وماسك القضيب كناية عن الإله «مردوك» الذى كان يمثَّل ممسكا بيده اليسرى المضمومة إلى صدره دائرة وقضيبا من حديد رمزا للقوة وهو «بعل» سيد الآلهة فى هذه المنطقة (انظر الجزء الثانى ص ٢٠٤). وبيت عدن هى منطقة بعلبك. وفى هذه النبوءة يشير عاموس إلى أن أرام دمشق وباقى الدويلات الأرامية أثناء تسلطهم على إسرائيل واستيلائهم على المناطق الواقعة شرق الأردن - باشان وجلعاد - عاملوا أهلها بقسوة بالغة فكأنهم داسوهم بالنوارج الحديدية فكان التنبؤ بهلاك ملوكها وذريتهم وهدم أسوار دمشق وسقوط آلهتها.

٢ - غزة أي الفلسطينيون (عاموس ١ : ٦) :

هكذا قال الرب: «من أجل ذنوب غزة الكثيرة لا أرجع عنهم لأنهم سبوا سبيا كثيرا لكى يسلموه إلى أدوم فأرسلُ نارا على سور غزة فتأكل قصورها وأقطع الساكن من أشدود وماسك القضيب من أسقلون وأرد يدى على عقرون فتهلك بقية الفلسطينيين. هكذا قال السيد الرب».

وقد ذكرت غزة أولا لأنها أكبر مدن الفلسطينيين وكانت ملتقى طرق قوافل التجارة. وكان أهلها يقومون بغارات ويأخذون السبى من بنى إسرائيل ويبيعونهم إلى أدوم. هذا فضلا عن وثنيه الفلسطينيين ولشدة خصومتهم لبنى إسرائيل منذ أيام شاول وداود وحتى مملكة إسرائيل ويهوذا ولهذا كان الوعيد لكل مدن الفلسطينيين.

٣ - صور (عاموس ١ : ٩) :

هكذا قال الرب: «من أجل ذنوب صور الكثيرة. لا أرجع عنهم لأنهم سلَّموا سبيا كثيرا إلى أدوم ولم يذكروا عهد الأخوة فأرسل نارا على صور فتأكل قصورها».

وتمثلت ذنوب صور - وهى تعبير عن الساحل الفينيقى بأكمله - فى أخذ السبى وبيعه إلى أدوم قاصدين تقوية أدوم والتقرب منها - كما كان يفعل الفلسطينيون - حتى يتكون حلف ضد بنى إسرائيل. وهذا نقض للأخوه التى كانت بين سليمان عليه السلام وحيرام ملك صور. وقد لقيت صور الخراب على أيدى الأشوريين. ومرة أخرى على يد نبوخذ نصر الملك البابلى ومرة ثالثة حين استولى عليها الاسكندر الأكبر وباع من سكانها ٣٠,٠٠٠ عبيداً.

٤ - أدوم (عاموس ١ : ١١) :

هكذا قال الرب : «من أجل ذنوب أدوم الكثيرة لا أرجع عنهم لأنه تبع بالسيف أخاه وأفسد مراحمه وغضبه إلى الدهر يفترس وسخطه يحفظه إلى الأبد. فأرسل نارا على تيمان فتأكل قصور بُصرة».

وفى هذا إشارة إلى أخوة عيسو (أدوم) ويعقوب (بنى إسرائيل) ولكن الأدوميين لم يرعوا هذه الأخوَّة وحملوا عداء مستحكما فتوعَّدهم عاموس بنار وحرب تأكل مدنهم وأهمها تيمان وبُصرى.

٥ - **بنو عمون** (عاموس ١ : ١٣) :

وكانت جريمة بنى عمون فى غاية الوحشية إذ كانوا يبقرون بطون الحوامل وتنبأ لهم عاموس بعقاب يتمثل فى حرب تدمر عاصمتهم «ربة عمون» وتبيدها وأما رؤساؤها فسيتم سبيهم.

٦ - **مؤاب** (عاموس ٢ : ١) :

وكانت جريمة مؤاب أنهم مثَّلوا بجثة ملك أدوم فأحرقوها. وكان المعتقد السائد وقتها أن حرق الجسد يؤدى إلى فناء النفس. ولم يكن عاموس النبى متصديًا لصحة هذا المعتقد أو عدم صحته ولكنه كان يرمى إلى التأكيد على عدم التمثيل بالجسد بعد موت صاحبه.

٧ - **يهوذا** (عاموس ٢ : ٤) :

هكذا قال الرب : «من أجل ذنوب يهوذا الكثيرة لا أرجع عنهم لأنهم رفضوا ناموس الله ولم يحفظوا فرائضه وأضلَّتهم أكاذيبهم التى سار آباؤهم وراءها. فأُرسلُ نارا على يهوذا فتأكل قصور أورشليم».

كان جُرم يهوذا أفظع من جرم الأمم السابق ذكرها إذ لم يكن جرمهم مُوَجَّها ضد البشر وإنما كان موجَّها إلى الله باتباعهم آلهة كاذبة وباطلة فإذا قيل إن الأمم الأخرى كانت هى أيضا تعبد الأصنام وأن يهوذا إنما قلَّدتها. كان الردُّ بأن الأمم الأخرى لم تعرف الله كما عرفه بنو إسرائيل ويهوذا بالذات ولهذا توعَّد الله يهوذا بحرب تدمِّرها وبالأخص أورشليم عاصمتها ومابها من قصور.

٨ - **إسرائيل** (عاموس ٢ : ٦) :

«من أجل ذنوب إسرائيل الكثيرة لا أرجع عنهم لأنهم باعوا البارَّ بالفضة والبائس لأجل نعلين. الذين يتهَمَّمُون تراب الأرض على رؤوس المساكين ويصدُّون سبيل البائسين. ويذهب رجل وأبوه إلى صبيةٍ واحدة حتى يُدنِّسوا اسم قدسى. ويتمددون على ثياب مرهونة بجانب كل مذبح. ويشربون خمر المُغرَّمين فى بيت آلهتهم. وأنا قد أبدت من أمامهم الأمورى الذى قامته مثل قامة الأرز وهو قوى كالبلوط. أبدتُ ثمره من فوق وأصوله من تحت. وأنا أصعدتكم من أرض مصر وسرتُ بكم فى البرية ٤٠ سنة لترثوا أرض الأمورى وأقمتُ من بينكم أنبياء. ومن فتيانكم نذيرين. ولكنكم سقيتم النذيرين خمرا وأوصيتم الأنبياء قائلين لا تتنبأوا. هأنذا أضغط ما تحتكم كما تضغط العجلة الملآنة حزما. ويبيد المناصّ (جمع منصَّة - أى الذين وُضعوا على المنصة أى الرؤساء) والقوى لا يُشدِّد قوَّته. والبطل لا يُنجىٍ نفسه. وماسك القوس لا يثبت وسريع الرجلين لا ينجو وراكب الخيل لا يُنجِّى نفسه والقوى القلب بين الأبطال يهرب عريانا فى ذلك اليوم».

في هذه الفقرة ندد النبى عاموس ببعض الذنوب التى ارتكبها بنو إسرائيل مثل :

١ - الاسترقاق :

حثت الشريعة اليهودية الغنى على مساعدة الفقير ونهت عن إقراضه بالربا وأباحت للفقير أن يبيع نفسه عبدا تسديدا لدين عليه لم يستطع الوفاء به ولكنها حرصت على أن يعامل العبد معاملة حسنة إذ تقول (لاويين ٢٥ : ٣٩): «إذا افتقر أخوك وقصرت يده عندك فاعضده غريبا أو مستوطنا فيعيش معك. لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة. بل اخش إلهك فيعيش أخوك معك. فضتك لا تعطه بالربا. وطعامك لا تعطه بالمرابحة. أنا الرب إلهكم الذى أخرجكم من أرض مصر ليعطيكم أرض كنعان فيكون لكم إلها. وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد. كأجير كنزيل عندك إلى سنة اليوبيل يخدم عندك ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود إلى عشيرته وإلى مُلك آبائه يرجع لأنه عبيدى الذين أخرجتهم من أرض مصر لا يباعون بيع العبيد. لا تتسلط عليه بعنف بل اخش إلهك. وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم. منهم تقتنون عبيداً وإماء. وأيضا من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين يلدونهم فى أرضكم فيكونون ملكا لكم وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث مُلك تستعبدونهم إلى الدهر. وأما إخوتكم من بنى إسرائيل فلا يتسلّط إنسان على أخيه بعنف».

ثم تستمر الشريعة فى بيان الموقف من الفرد من بنى إسرائيل الذى يفتقر ويباع إلى غير إسرائيل فتوجب على أى فرد قادر أو مجموعة أفراد من أقاربه أن يدفعوا مالا لسيده ليفكّوا أسره وحتى إذا لم يفعلوا فإنه يصبح حُرًّا «تلقائيا» فى عيد المظال فى سنة اليوبيل. هذا هى أحكام الشريعة ولكنهم لم يُطبقوها فاسترقوا إخوانهم وباعوا البار بالفضة. وبيع البائس الفقير بأبخس الأسعار «لقاء نعلين».

٢ - الجشع :

كان هذا من أمراض المجتمع التى انتشرت وندّد بها عاموس. فالأغنياء طماعون والفقير المسكين يحسو التراب على رأسه من البؤس. والغنى لا يزيل بؤسه بل إنه لشدة جشعه يطمع حتى فى حفنة التراب التى فوق رأس المسكين. ويمنعون عن المساكين الإنصاف إذا لجأوا إلى القضاء «ويصدُّون سبيل البائسين».

٣ - بغاء المقدس :

كانت هذه هى الخطيئة الثالثة التى ندد بها النبى عاموس. فقد كانت «العاهرات المقدسات» من مقوِّمات الديانة الكنعانية وتسللت إلى المعابد الإسرائيلية مع أن ذلك منهى عنه بحكم الشريعة (تثنية ٢٣ : ٢٧) «لا تكن زانية من بنات إسرائيل. لا تدخل أجرة زانية إلى بيت الرب إلهك». بل وصل الأمر أن يذهب الرجل وابنه إلى نفس المرأة لممارسة الخطيئة.

٤ - الخمر وإدمانه .

كانت هذه هى الخطايا الأربع التى ركَّز عليها عاموس ثم راح يهددهم بأهوال ستحدث لهم فى المستقبل القريب جزاء على خطاياهم بحيث أنهم سيُسحقون كما تسحق العربة حزم القش التى تمر عليها وسيسلِّط الله عليهم أعداء يذيقونهم من أهوال الحرب ألوانا بحيث لن تكون هناك نجاة للبطل أو للهارب سريع الجرى ولا لراكب الخيل. وحتى الشجاع سيهرب عريانا كناية عن شدة الهول الذى سينزل بهم. وقد صدقت هذه النبوءة عند السبى الأشورى (ص٣٠٦).

ثم يستمر عاموس فى كلامه مُوضِّحا بتفصيل أكثر مدى العقوبات التى ستنزل بإسرائيل وقد سردها فى ثلاث خطب. نذكر فيما يلى أهم النقاط التى جاءت فيها:

١ - الخطبة الأولى (عاموس ٣) :

اسمعوا هذا القول الذى تكلم به الرب عليكم يا بنى إسرائيل. ثم يذكر عاموس عدة صور مجازية من واقع البيئة التى كانوا يعيشونها فى ذلك الوقت يدلل بها على أن كلامه ليس من عنده بل موحى إليه من ربه. وليس مصادفةً ما سيحدث لهم فى المستقبل بل جزاءً على أفعالهم فيقول: «هل يسير اثنان معا إن لم يتواعدا؟ هل يزمجر الأسد فى الوعر وليس له فريسة؟» لأن الأسد يظل صامتا حتى تلوح له فريسة فإذا أمسك بها زمجر. والمعنى أن كلامه نذير بأن عقاب الله قد أقبل. «هل يسقط عصفور فى فخ الأرض وليس له شرك؟» ومعنى هذا أن ثبات العصفورعلى الأرض يدل على وجود فخٍ أمسك به. «أم يُضرب بالبوق فى مدينة والشعب لا يرتعد؟». إذ كان النفخ فى البوق ينذر الناس بأمر خطير. كذلك فإن صوت النبى ينذر بأمر خطير وشيك الوقوع. «السيد الرب قد تكلم». ثم يوضح ما تكلم به الرب: «نادوا على القصور فى أشدود وعلى القصور فى أرض مصر وقولوا اجتمعوا على جبال السامرة وانظروا شعبا عظيما فى وسطها ومظالم فى داخلها. فإنهم لا يعرفون أن يصنعوا الاستقامة. يقول الرب. أولئك الذين يخزنون الظلم والاغتصاب فى قصورهم. لذلك هكذا قال السيد الرب: ضيق حتى فى كل ناحية من الأرض فينزل عنك عزِّك وتُنهب قصورك». أى عدو يحيط بالمدن ويحاصرها من كل جانب. وهذا ماحدث فعلا. ففى عام ٧٣٤ ق.م. اجتاح تجلات بلاسر الثالث مناطق جلعاد وباشان والجليل وحوالى عام ٧٢٤ ق.م. اجتاح شلمنصر الخامس إسرائيل الشمالية وبدأ حصار السامرة فى عام ٧٢٢ ق.م. ثم أكمل الحصار ابنه سرجون الثانى إلى أن سقطت السامرة فى عام ٧١٩ ق.م. وبسقوطها انتهت مملكة إسرائيل الشمالية ونُهبت قصورها وسُبِىَ الأغنياء المترفون وتم نفى الشعب إلى شمال الفرات. ويُصوِّر عاموس النبى ذلك الموقف بقوله: «هكذا قال الرب. كما ينزع الراعى من فم الأسد كراعين (مستدق الساق الخالى من اللحم وبالعامية

كوارع) أو قطعة أذن. هكذا يُنتزع بنو إسرائيل الجالسون فى السامرة فى زاوية السرير وعلى دمقس الفراش. اسمعوا واشهدوا على بيت يعقوب. إنى يوم معاقبتى إسرائيل على ذنوبه أعاقب مذابح بيت إيل فتُقطع قرون المذبح وتسقط إلى الأرض. وأضرب بيت الشتاء مع بيت الصيف فتبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة».

٢ - الخطبة الثانية (عاموس ٤) :

«اسمعى هذا القول يابقرات باشان التى فى جبل السامرة» وهذا تنديد بنساء السامرة الثريات اللاتى كن لا يعنيهن إلا العيشة المرفهة حتى أصبحن مكتظات باللحم مثل بقرات باشان السمان «الظالمة المساكين الساحقة البائسين القائلين لسادتها هات لنشرب» أى أنهن يطلبن من أزواجهن الحصول على المال ليتمتعن فيجعلنهم يظلمون المساكين ويسحقون البائسين. «قد أقسم السيد الرب بقدسه: هوذا أيام تأتى عليكن يأخذونكن بخزائم وذريتكن بشصوص السمك» أى ستكون العقوبة هى الأسر وتساق النسوة والأبناء مربوطين. وفى النقوش الأشورية نرى الأسرى وهم يُجَرُّون بكلاليب فى أفواههم. ثم يوبخهم عاموس على أنهم يكثرون من العبادات وتقديم القرابين. ولكنها مجرد أفعال خالية من كل مضمون إيمانى لذلك فهى مردودة عليهم وغير مقبوله. ثم يأتى توبيخ مباشر من الرب بأنه قد أنزل بهم القحط فلم يرجعوا إليه وأمسك عنهم المطر فلم يرتدعوا. وسلَّط عليهم الجراد فأكل زرعهم وكرومهم وزيتونهم فلم يتوبوا إلى الرب. ثم أنزل بهم وباء مثل الأوبئة التى أصابت المصريين أيام موسى عليه السلام فلم يرجعوا. «يقول الرب (عاموس ٤ : ٩): «ضربتكم باللفح واليرقان. كثيرا ما أكل القَمَصُ (بعوض صغير يطير فوق الماء) جناتكم وكرومكم وتينكم وزيتونكم فلم ترجعوا إلىَّ. يقول الرب. أرسلت بينكم وباء على طريقة مصر. قتلت بالسيف فتيانكم مع سبى خيلكم وقلبت بعضكم كما قلب الله سدوم وعمورة فصرتم كشعلة منتشلة من الحريق فلم ترجعوا إلىَّ يقول الرب. لذلك هكذا أصنع بك يا إسرائيل: فمن أجل أنى أصنع بك هذا فاستعد للقاء إلهك يا إسرائيل. فإنه هو ذا الذى صنع الجبال وخلق الريح وأخبر الإنسان ما هو فكره الذى يجعل الفجر ظلاما ويمشى على مشارف الأرض. يهوه إله الجنود اسمه». والمعنى أنه مادامت كل هذه الأشياء السابق ذكرها لم تردعهم فليتوقعوا شيئا أشد «استعد للقاء إلهك» أى هولا أفظع وعذابا أقسى. فهو إله قادر صنع الجبال وأجرى الريح ويعلم ما توسوس به نفس الإنسان من شرور تقلب الفجر ظلاماً. فإله هذه صفاته لا يجب الاستخفاف بوعيده.

٣ - الخطبة الثالثة (عاموس ٥) :

«اسمعوا هذا القول الذى أنا أنادى به عليكم مرثاة يا بيت إسرائيل. سقطت عذراء إسرائيل. لا تعود تقوم. انطرحت على أرضها. ليس من يقيمها لأنه هكذا قال السيد الرب».

بهذا الاستهلال يبدأ عاموس خطبته برثاء شعرى يبكى فيه سقوط إسرائيل. وعذراء إسرائيل هى أورشليم. وسيكون السقوط فاجعا لا يستطيع بشرٌ دفعه ولا إعانة الشعب إلا أن هناك رجاء فى الله إذا هم طلبوه وتوجهوا بقلوبهم نحوه «لأنه هكذا قال الرب لبيت إسرائيل. اطلبوا فتحيوا. ولا تطلبوا بيت إيل وإلى الجلجال لا تذهبوا وإلى بئر سبع لا تعبروا (لأن هذه الأماكن لن تستطيع مساعدتهم) لأن الجلجال تسبى سبيا. وبيت إيل تصير عدما. اطلبوا الرب فتحيوا» ثم يذكر تمجيدا للرب «الذى صنع الثريا والجبار (وهما كوكبتان فى السماء كانت بعض الشعوب تُعظِّمها وتعبدها). ويحوِّل ظل الموت صبحا. ويظلم النهار كالليل. الذى يدعو مياه البحر ويصبها على وجه الأرض يهوه اسمه». ثم يوضِّح أنواع الظلم التى يمارسها الأغنياء ضد الفقراء وكان جزاؤهم أن الله جعلهم لا يتمتعون بما جمعوه من مال. فيقول: «لذلك من أجل أنكم تدوسون المسكين وتأخذون منه هدية قمح، بنيتم بيوتا من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها. وغرستم كروما شهية ولا تشربون خمرها. لأن ذنوبكم كثيرة وخطاياكم وافرة. أيها المضايقون البارَّ. الآخذون الرشوة. الصادُّون البائسين فى الباب. اطلبوا الخير لا الشر لتحيوا. فعلى هذا يكون الرب معكم. أبغضوا الشر وأحبُّوا الخير وثبتوا الحق فى الباب لعل الرب يتراءف عليكم». وكلمة «الباب» تعنى ساحة الاجتماع الكبيرة. وهو المكان الذى كان من عادة المشايخ الجلوس فيه للقضاء بين الناس. ويدعو عاموس إلى أن يكون الحكم فى القضايا المطروحة بالحق وليس بتأثير الرشوة والهدايا فينسحق المسكين. «لذلك هكذا قال السيد الرب: فى جميع الأسواق نحيب. وفى جميع الأزقة يولولون ويدعون جميع عارفى الرثاء للندب. وفى جميع الكروم ندب لأنى أعبر وسطك قال الرب». ثم بعد ذلك يندد بالعبادات الشكلية الباطلة ويبين أن الله لا يرضى عنها ولا يقبلها ويخبرهم عما يقوله الرب بشأنها: «بغضت وكرهت أعيادكم. ولست أُسَرُّ باعتكافاكم. إنى إذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى. وذبائح السلامة من مُسمَّناتكم لا ألتفت إليها. أبعد عنى ضجة أغانيك. ونغمة ربابك لا أسمع. حملتم خيمة ملكوم (إله المؤابيين) وتمثال أصنامكم الذى صنعتم لأنفسكم. فأسبيكم إلى وراء دمشق. هكذا قال الرب».

ثم يمضى عاموس النبى يحذِّر ويتوعَّد المترفين الظالمين فيقول (عاموس ٦:١): «ويل للمترفين فى صهيون والمطمئنين فى جبل السامرة. المضطجعين على أسرَّة من العاج والمتمدِّدين على فرشهم والآكلين خرافا من الغنم الشاربين فى كؤوس الخمر والذين يدهنون بأفضل الأدهان. لذلك الآن يُسبَوْن فى أول المسبيين. أنتم الفرحون بالباطل. لأنى هكذا أقيم عليكم يا بيت إسرائيل أمة فيضايقونكم. فيقول السيد هأنذا واضع زيجا فى وسط شعبى إسرائيل. لا أعود أصفح له بعد. فتُقفِر مرتفعات إسحق وتخرب مقادس إسرائيل وأقوم على بيت يربعام بالسيف». والزيج سبيكة شديدة الصلابة يدخل الزنك والرصاص والحديد فى تركيبها ويصنع منها قضبان لهدم المبانى. والمعنى أن دمار إسرائيل قادم ولن يصفح الله عنهم بسبب كثرة شرورهم. أما النبوءة التى تختص بيربعام فقد تحققت إذ أن شللوم بن يابيش قام على زكريا بن يربعام الثانى وقتله واغتصب الملك منه.

ولما كانت النبوءة الأخيرة تمسُّ البيت المالك وتتنبأ بقتل أحد أفراده، هنا ثار أمصيا كاهن بيت إيل وكان يفضِّل جانب المَلِك. ولا يعتبر عاموس نبيا بل يعتبره مجرد رائى يحلم بأشياء أو يدَّعى حدوثها. تقول التوراة (عاموس ٧ : ١٠) «فأرسل أمصيا كاهن بيت إيل إلى يربعام ملك إسرائيل قائلا: قد فتن (انشق) عليك عاموس فى وسط بيت إسرائيل لأنه هكذا قال عاموس يموت يربعام بالسيف ويسبى إسرائيل عن أرضه». ولكن الملك لم يأخذ هذا التهديد مأخذ الجد لشعوره بالأمان أو لاحتقاره لرسالة هذا النبى الراعى القادم من يهوذا واستصغارا لشأنه. فما كان من أمصيا – ليخلو له الجو فى إسرائيل – إلا أن نصح عاموس بالعودة إلى يهوذا بلده «قال أمصيا لعاموس: أيها الرائى. اذهب . اذهب. اهرب إلى أرض يهوذا وكلْ هناك خبزا وهناك تنبأْ وأما بيت إيل فلا تعد تتنبأْ فيها بعدُ لأنها مقدس الملك وبيت الملك. فأجاب عاموس وقال لأمصيا أنا راعى وجانى جميز فأخذنى الرب من وراء الضأن وقال لى أذهب تنبأ لشعبى إسرائيل». ثم يوضح لأمصيا جزاء إنكاره لنبوَّته ومنعه من إعلان نبوءات الرب وما سيصيبه هو نفسه وأهل بيته: «ولذلك هكذا قال الرب: بنوك بناتك يسقطون بالسيف وأرضك تُقسَّم بالحبل (بين ناهبيها) وأنت تموت فى أرض غريبة. وإسرائيل يُسبى سبيا عن أرضه».

ثم يُنهى عاموس نبوءاته بالتبشير بعفو الرب عن إسرائيل وردِّهم من السبى وعودة الأيام الهنية ثانية (عاموس ٩ : ١١): «فى ذلك اليوم أقيم مظلة داود الساقطة وأُحصِّن شقوقها وأقيم ردمها وأبنيها كأيام الدهر. ها أيام تأتى يقول الرب: يدرك الحارث الحاصد (أى من كثرة الخير فبمجرد أن يحرث الأرض ينمو الزرع ويأتى حصاده فكأن الحارث والحاصد يلتقيان) ودائس العنب باذر الزرع (نفس المعنى فبمجرد زرع العنب ينمو وينضج ويجمع ويداس لعمل النبيذ). وتقطر الجبال عصيرا وتسيل جميع التلال. وأرد سبى شعبى إسرائيل فيبنون مدنا خربة ويسكنون. ويغرسون كروما ويشربون خمرها. ويصنعون جنات ويأكلون أثمارها. وأغرسهم فى أرضهم ولن يُقلَعُوا بعدُ من أرضهم التى أعطيتهم. قال الرب إلهك».

٣ – يونس عليه السلام

هو يونس بن متى Jonah son of Amittai . قال صلى الله عليه وسلم: لا تفضلونى على يونس بن متى. وعند أهل الكتاب هو يونان. وبالعبرية هو يونه Jonah ومعناه حمامة. وفى اليونانية تضاف سين الرفع فتكتب Jonas. وعنهم أخذ العرب الاسم مع كسر النون فأصبح «يونِس» وعرَّب القرآن الكريم الاسم على ما اشتهر به عند العرب ولكن بضم النون «يونُس» منعا لشبهة فهمه من الأنس والإيناس فيما لو كانت النون مكسورة. مثلما ضُمت السين فى اسم «يوسُف» (من إعجاز القرآن – الأستاذ رؤوف أبو سعده، الجزء الثانى . ص ١٨٥).

وقد ذكر اسمه فى القرآن الكريم ٤ مرات باسم «**يونس**» ومرة باسم «**ذا النون**» والنون اسم من أسماء الحوت (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٩٧٤). ومرة «**صاحب الحوت**».

ويونس بن متى أو يونان بن أميتاى من سبط زبولون. ولد فى بلدة «جت حافر» فى شمال إسرائيل قرب الحدود الشرقية لأرض زبولون وعلى بعد ٥ كم شمال شرق مدينة الناصرة (شكل٥٦).

وجاء ذكره فى القرآن الكريم فى الآيات :

«وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان. وآتينا داود زبورا» . (١٦٣ - النساء).

«وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين». (٨٦ - الأنعام).

«وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون...». (١٣٩ - الصافات).

«فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين» . (٩٨ - يونس).

«وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه...» . (٨٧ - الأنبياء).

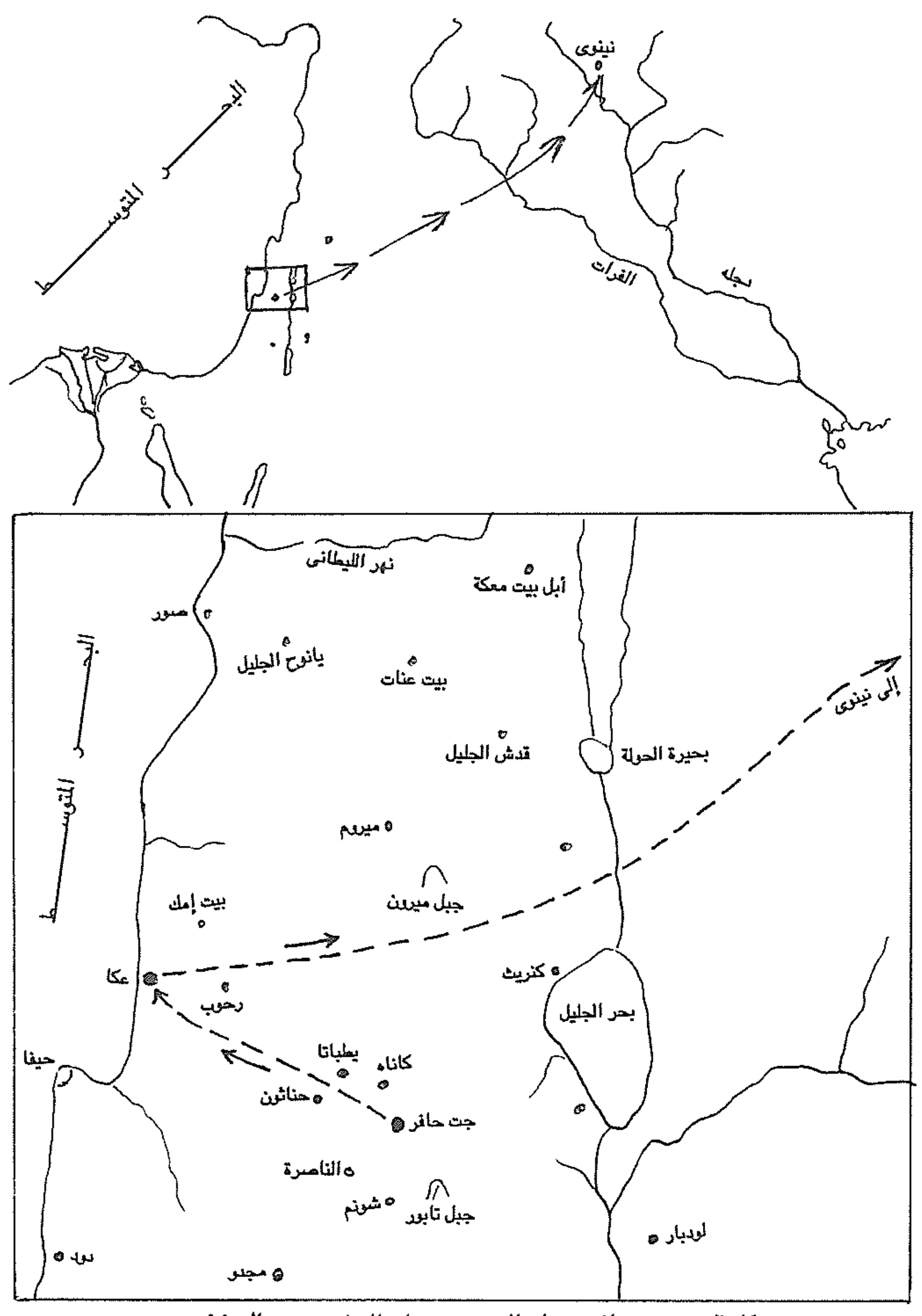
«فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين» . (٤٨ - ٥٠ القلم).

وكانت رسالة يونس موجّهة إلى أهل نينوى عاصمة أشور. أقوى امبراطورية فى ذلك الوقت وكانت بالغة فى ظلمها وقسوتها على الشعوب التى تستعمرها. وكانت نينوى العاصمة رمزا على هذا الظلم. كما أن الترف والرفاهية أدت إلى انغماس أهلها فى الشهوات والموبقات. وكلما زاد ثراؤها زاد فجور أهلها. فكان أن اختار الله يونس عليه السلام ليردعهم عما هم فيه ويحذّرهم من غضب الله وعما قد ينزله بهم من عذاب جزاء على فسادهم.

ولقد اختلفت آراء المفسرين حول قوله تعالى: **«وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه. فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين»** (٨٧ - ٨٨ - الأنبياء) والاختلاف دار حول كلمة «مغاضبا». فوزن فَاعَلَ ومنه مُفَاعِلاً يعنى تبادل الفعل أى تبادل الغضب. وجُلُّ المفسرين رأوا أنه لا يجوز لنبى أن يفعل ما يغضب ربه. ولا يجوز له هو نفسه أن يغضب من ربه. ولتفسير كلمة «مغاضبا» ذكروا أقوالا كثيرة. جاء فى تفسير القرطبى (جـ ٦ ص ٣٢٩) قال الحسن والشعبى وسعيد بن جبير مغاضبا لربه عز وجل. واختاره الطبرى واستحسنه المهدوى. وقال النحاس خرج مغاضبا من أجل ربه أى غضب على قومه من أجل كفرهم به.

ويقول الأستاذ أحمد بهجت (أنبياء الله ص ١٧٥): وظل ذو النون ينصح قومه فلم يؤمن منهم أحد وجاء يوم على يونس فأحسً باليأس من قومه وامتلأ قلبه بالغضب عليهم لأنهم لا يؤمنون وخرج مغاضبا وقرر هجرهم. ويفهم من هذا أن «مغاضبا» أى تبادل الغضب كان بين يونس وقومه. هو غضب على قومه لأنهم لا يؤمنون. ولكن ما هو غير مفهوم هو لماذا غضب قومه عليه. ألأنه خرج من بلدتهم؟ وما داموا لم يؤمنوا فلاشك أنهم فرحوا إذ ذهب وكف عن وعظه لهم. والوعظ ثقيل على نفس لا تقبله. وفرحوا أيضا لأنهم استراحوا من وعيده وتهديده بعذاب مقبل. فكلمة المغاضبة فى مثل هذه الحالة لا تتفق مع واقع الحال. إضافة إلى ذلك فمماً لاشك فيه أن جميع الأنبياء والمرسلين قد كذبتهم أقوامهم فى أول الأمر ولاشك أيضا أنهم قد غضبوا على أقوامهم. وحسبنا ما قاله نوح عليه السلام وهو فى قمة غضبه: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً» (٢٦ - نوح) . ومع ذلك لم يوصف نوح بأنه «ذهب مغاضبا» مع أنه لا يدعو بمثل هذا الدعاء إلا أن يكون غضبه على قومه قد بلغ الذروة. ثم يمضى الأستاذ أحمد بهجت فيقول: لم يكن الأمر الإلهى قد صدر ليونس بأن يترك قومه أو ييأس منهم. وظن يونس أن الله لن يقدر عليه عقوبة لأنه ترك قومه. ويفهم من هذا أن الله قد غضب على يونس لأنه ترك قومه. وحاصل هذا أن يونس غضب على قومه لأنهم لم يؤمنوا . والله سبحانه وتعالى غضب على يونس لأنه ترك قومه دون إذن من ربه. والمغاضبة تكون بين طرفين اثنين لا ثلاثة.

ولكى لا يُنسب إلى يونس أنه غضب من ربه - لأنه لا يجوز لنبيٍّ أن يفعل ذلك - قال الأخفش وآخرون (تفسير القرطبى جـ ١١ ص ٣٣٠): إنما خرج مغاضبا للملك الذى كان على قومه إذ أراد شعيا النبى والملك الذى كان فى وقته اسمه حزقيا - أن يبعثوا يونس إلى ملك نينوى - وكان غزا بنى إسرائيل وسبى منهم الكثير - ليكلمه حتى يرسل معه بنى إسرائيل. وكان الأنبياء فى ذلك الزمان يوحى إليهم والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه فيعمل على وحى ذلك النبى. ويستمر القرطبى قائلا: فكان أن أوحى الله لشعيا . أن قل لحزقيا الملك أن يختار نبيا قويا أمينا من بنى إسرائيل فيبعثه إلى أهل نينوى فيأمرهم بالتخلية عن بنى إسرائيل فإنى ملق فى قلوب ملوكهم وجبابرتهم التخلية عنهم. فقال يونس لشعيا: هل أمرك الله بإخراجى؟ قال لا. قال فهل سمَّانى لك؟ قال لا. قال فها هنا أنبياء أمناء أقوياء. فألحُّوا عليه فخرج مغاضبا للنبى والملك وقومه وأتى بحر الروم. وكان من قصته ماكان فابتُلى ببطن الحوت لتركه أمر شعيا. وهذا التفسير يخالف وقائع التاريخ. إذ أن أحداث قصة يونس عليه السلام وقعت أثناء حكم يربعام الثانى ملك إسرائيل (٧٨٥ - ٧٤٦ ق.م.) أى قبل السبى بما يزيد عن ثلاثين عاما فليس صحيحا أن مهمة يونس كانت طلب التخلية عن بنى إسرائيل. كما أن حزقيا كان ملكا على يهوذا (المملكة الجنوبية) فى حين أن يونس كان يعيش فى بلدة «جت حافر» وهى بلدة - كما سبق أن ذكرنا - تقع فى إسرائيل الشمالية. وثالثا فإن السبى الأشورى لبنى



شكل ٥٦ - «جت حافر» موطن النبى يونس عليه السلام وسيره إلى نينوى .

إسرائيل كان بنقلهم إلى منطقة فى الفرات الأعلى كما سيأتى فيما بعد (ص ٣٠٦) فى حين أن نينوى تقع على أعالى نهر دجلة وبينهما مسافة تبلغ ٢٠٠ كيلو مترا. وأخيرا فإن رسالة يونس - كما ذكرت فى القرآن الكريم - كانت دعوة للإيمان بدليل تكرر كلمة الإيمان ومشتقاتها ثلاث مرات متتابعات: «فلولا كانت قرية **آمنت** فنفعها **إيمانها** إلا قوم يونس لما **آمنوا** كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين» (٩٨ - يونس). وهذا لا يدع مجالا للشك فى أن مهمة يونس لم تكن لتخليص بنى إسرائيل. بل كانت دعوة للإيمان بالله. كما أن فى هذه الرواية أمر غير منطقى. إذ الملك هو الذى يأمر يونس بالذهاب إلى نينوى - بناء عن أمر من النبى شعيا بناء عن وحى من ربه. ثم يترك أمر تحديد النبى المرسل إلى نينوى لشعيا. فى حين أن النص القرآنى يفيد وحيا مباشرا من الله سبحانه وتعالى إلى يونس: «**وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس**».

(١٦٣ - النساء).

وقال القشيرى: والأظهر أن المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلّهم فإنه كره رفع العذاب عنهم ويصف القرطبى (جـ ١١ ص ٣٣١) هذا التفسير فيقول: إن هذا من أحسن الأقوال ويذكر تفصيلا أكثر (جـ ١٥ ص ١٢٢) بأنه دعا القوم وبلّغهم رسالة ربه ولكنه وعدهم نزول ما كان حذّرهم من بأس الله فى وقت وقّته لهم ففارقهم إذ لم يتوبوا ولم يرجعوا إلى طاعة الله. فلما أظل القوم العذاب وغشيهم تابوا إلى الله فرفع الله العذاب عنهم. وبلغ يونس سلامتهم وارتفاع العذاب الذى كان قد توعّدهم به فغضب من ذلك. وقال وعدتهم وعدا فكذب وعدى. فذهب مغاضبا ربه وكره الرجوع إليهم وقد جرّبوا عليه الكذب. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. ورواية أخرى بنفس المعنى عن أبى اسحق عن ابن مسعود قال: إن يونس وعد قومه بالعذاب وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام. ففرقوا بين كل والدة وولدها. وخرجوا وجأروا إلى الله عز وجل واستغفروا فكف الله عنهم العذاب. وغدا يونس ينتظر العذاب فلم ير شيئا. وكان من كذب ولم تكن له بينة قُتِل فخرج يونس مغاضبا. فأتى قوما فى سفينة وكان ما كان من التقام الحوت له. ولا يُعقل أنّ يونس عليه السلام قد غضب لأن قومه آمنوا فكشف الله عنهم العذاب «**لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى**» إذ أن الإخبار بالعذاب هو بمثابة إنذار أخير من الله سبحانه وتعالى وليس من شخص النبى ذاته والأمر متروك لله أولا وأخيرا. إن استمر القوم فى تكذيبهم نزل بهم العذاب. وهنا يمضى النبى عنهم ولسان حاله يقول كما قال صالح عليه السلام: «**ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين**» (٧٩ - الأعراف) أو كما قال شعيب عليه السلام: «**يا قوم لقد أبلغتكم رسالات بى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين**» (٩٣ - الأعراف). أما إذا وعى القوم هذا الإنذار الأخير وآموا وتابوا إلى الله وكشف الله عنهم العذاب فلاشك أن

النبى يُسَرُّبذلك لأن الله قد هداهم به وله أجر - لا أن يغضب وكأنما كان يتمنى أن يظل القوم على عصيانهم حتى ينزل بهم العذاب! ولو كان هذا ما فى قرارة نفسه لما كان يصلح للرسالة إذ يفضلُ نزول العذاب بقومه على هدايتهم ومهمة الرسل محددة فى قوله تعالى **«فهل على الرسل إلا البلاغ المبين»** (٣٥ - النحل). ويعرف الرسل حقيقة مهمتهم فهم دائما يقولون لأقوامهم **«وما علينا إلا البلاغ المبين»** (١٧ - يونس).

ومن الأقوال الواهية ما ذكره الطبرى عن شهر بن حوشب (تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ١٢١) من أن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال: انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم. قال ألتمس دابة. قال الأمر أعجل من ذلك. قال ألتمس حذاء قال الأمر أعجل من ذلك قال فغضب فانطلق إلى السفينة. ومثله ما روى عن الحسن البصرى (عرائس المجالس للثعلبى. ص ٥٠٢) إذ قال: إنما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه فسأل ربه أن يُنظِره للتأهب للشخوص إليهم فقال له الأمر أسرع من ذلك ولم ينظره حتى سأل أن يُنظره إلى أن يأخذ نعله ليلبسه فقيل له نحو القول الأول وكان رجلا فى خلقه ضيق فقال: أعجلنى ربى أن آخذ نعلى فذهب مغاضبا! وردُّ هذه الأقوال أن بلدة «جت حافر» - موطن يونس - تقع قريبا من ساحل البحر المتوسط فى حين أن نينوى - المرسل إليها - تقع على أعالى نهر دجلة أى أن المسافة بين البلدتين أكثر من ٩٠٠ كيلو مترا لا يمكن قطعها فى أقل من شهر. فلا يمكن أن تكون هذه العجلة التى تصوَّروها لأمر لن يُبَلَّغ قبل شهر من الزمان.

كذلك فإن أغلب المفسرينِ يقولون إن الإرسال إلى نينوى كان قبل التقام الحوت ليونس. ويعتنق هذا الرأى الأستاذ أحمد بهجت (أنبياء الله ص ١٧٥ - ١٧٧) فيذكر أن السفينة كانت ترسو فى ميناء صغير والمفهوم أنه قرب مدينة نينوى أى على أعالى نهر دجلة. ثم يذكر فى بلاغة أدبية وشاعرية تخيُّلا لما دار بين يونس والقبطان حول الأجرة! ولا يُتصور أن يكون فى نهر من الأنهار حوت من الكبر بحيث يبتلع إنسانا. إذ أن مثل هذا الحوت لا يوجد إلا فى البحار. والبحر المتوسط كما ذكرنا يبعد مسافة تزيد عن ٩٠٠ كم. والخليج العربى يبعد حوالى ١١٠٠كم. وما نظن أنه قطع أيا من هاتين المسافتين ليركب السفينة!

ولو كان الارسال إلى القوم قبل التقام الحوت له لجابهتنا مشكلة أخرى وهى أنه فى سورة الصافات جاء قوله تعالى: **«وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون وساهم فكان من المدحضين. فالتقمه الحوت وهو مليم. فلولا أنه كان من المسبِّحين. للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون. فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين. وأرسلناه إلى مائه ألف أو يزيدون. فمتعناهم إلى حين»** (١٣٩ - ١٤٨ - الصافات). يقول الألوسى (تفسيره. جـ ٢٣. ص ١٤٧) هو إرسال ثان

إليهم بعد أن أصابه ما أصابه. وقيل هو إرسال لغيرهم. وقيل إن الأولين بعد أن آمنوا سألوه أن يرجع إليهم فأبى. وروى القرطبى (تفسيره جـ ١٥ ص ١٢٨) أن يونس لما انتوى العودة إلى قومه لقى راعيا أخبره أن قومه ينتظرون عودته إليهم فأمره أن يخبرهم أنه لقى يونس. فطلب منه الراعى شاهدا حتى لا يكذبه الناس إذا أخبرهم بذلك فأخبره أن العنزة والمرعى وشجرة فيها ستشهد له. فلما لقى الراعى الناس أخبرهم أنه لقى يونس وأخذهم إلى بقعة الأرض فشهدت له كما شهدت له العنزة والشجرة فصدَّقوه. ثم أتاهم يونس بعد ذلك فبقى بينهم وكان هذا هو الإرسال الثانى إلى مائة. ألف أو يزيدون. ولكن لو كان الأمر كذلك لما كان ذهابه إليهم مرة ثانية يسمى إرسالا إذ كان القوم قد آمنوا ورفع عنهم العذاب وسياق الآية يدل على أن الإرسال إلى مائة ألف أو يزيدون نتج عنه «**فمتعناهم إلى حين**» وذلك يعنى رفع العذاب وتأجيله لفترة «**إلى حين**».

من هذا نرى أن كل التفسيرات التى ذكرت – مع كثرتها – لم تُؤدِّ بِنَا إلى تفسير مقبول. ذلك أنها تجاهلت حقائق ثابتة: أين كان يعيش يونس؟ وأين نينوى؟ ومن أى دولة كان يونس؟ وأى امبراطورية كانت نينوى عاصمة لها؟ وكلها أمور لو وضعت فى الاعتبار لقادت إلى غير ما قالوا. وفى رأينا أن قصة يونس عليه السلام هى كالتالى:

كما سبق أن ذكرنا (ص ٢٩٠) كان يونس يعيش راعيا للغنم وجانيا لشجر الجميز فى جت حافر (شكل ٥٦) التى تقع حوالى ٢٥كم شرقى ساحل البحر المتوسط. وكانت أشور – على أعالى نهر دجلة – امبراطورية صاعدة فرضت الجزية على الدويلات الآرامية مثل دمشق وحلب وحماة وغيرها. وكذلك على مدن الساحل الفينيقى مثل صور وصيدا. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٢٧٣) أن يوآش ملك إسرائيل آثر السلامة وارتضى – بدون حرب – دفع الجزية لأشور فقد كانت أشور أقوى دولة فى المنطقة فى حين كانت إسرائيل دولة صغيرة تقف وحيدة لا ناصر لها. فالعداء بينها وبين شقيقتها – يهوذا – قائم (ص ٢٧١). ومصر كانت من الضعف والتمزق بحيث قفز الليبيون على عرشها مكونين الأسرة ٢٢. وتلاهم النوبيون مكونين الأسرة ٢٤ وهى حينئذ أضعف من أن تكون سندا لغيرها. وأوحى إلى يونس أن يذهب إلى نينوى وينصح أهلها بتقويم سلوكهم وتحذيرهم من عذاب يقع بهم. حتى هذه اللحظة لم يكن يونس نبيا. إذ كان قد بلِّغ بالتكليف بالمهمة. وتمام النبوَّة يأتى بعد أن يقبل التكليف ولكن يونس خاف وتردد فى قبول المهمة الموكلة إليه إذ رأى أن فى ذهابه مخاطرة عظيمة أو كما يقال «كمن يضع رأسه فى فم الأسد». فشعر بغضب فى قرارة نفسه لاختياره هو بالذات لهذه المهمة الخطرة. فما هو إلا راعى غنم وجانى جميز. ليس له عزوة تسانده. ولعله ارتأى – من وجهة نظره – أن لو كان من كلف بالمهمة شيخا من شيوخ إسرائيل أو شخصا من العائلة المالكة أو قائداً من قواد الجيش مثلا ليكون مرهوب الجانب فلا يصيبه من العدو أذى. ولكن أن يكون هو بالذات الذى يُختار لهذه

المهمة – وليس له نصيب من هذه الوجاهات تحميه – ومن هنا كان غضبه. وعدم امتثاله لأمر ربه. ولم يصبر حتى يرى أن تأييد الله له هو أقوى حماية. ولهذا كان قوله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: «**واصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت**» مما يعنى أن صاحب الحوت – يونس – لم يصبر لحكم ربه ولم يمتثل لأمره. وغضب. ولعدم رغبته فى تنفيذ ما أمر به فإنه اتجه غربيا إلى شاطىء البحر المتوسط ليركب سفينة تذهب به بعيداً إلى «ترشيش» وهى أسبانيا وهى آخر الأرض المأهولة فى ذلك الوقت يليها مباشرة بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى). فكان أن غضب الله عليه لأنه حاول التنصل من المهمة الموكلة إليه.

ومن هنا كانت دقة اللفظ القرآنى وإيجازه «فذهب مغاضبا» واختيار صيغة المفاعلة لصدور الفعل من الجانبين. «**وظن أن لن نقدر عليه**» وظن يونس أن الله لن يُقدِّر عليه عقوبه من أجل محاولة التنصل من المهمة من التقدير وليس من القدرة. وقرأها بعضهم «وظن أن لن نُقدِّر عليه» وآخرون قرأوا «أن لن يُقدَّر عليه». وحتى لو فُهِم المعنى على أنه من القدرة فلا بأس. فالمخالف لأمر ربه قد يظن أن يد الله لن تطوله. وهذا الظن فى حد ذاته أمر مذموم. وكان يونس بظنه هذا جديرا بأن يُطرح بعيدا وينبذ نبذ النواة لأنه أتى فعلا مذمومًا لولا أن رحمة الله واسعة وعفوه أقرب من غضبه فجعل يونس يدرك خطأه وهو فى بطن الحوت ويجتهد فى التسبيح «**فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت إنى كنت من الظالمين**» (٨٧ – الأنبياء). ظلم يونس نفسه حين حاول التنصل من المهمة التى أوكلت إليه. وظلم نفسه بمغاضبته لربه وأخيرا لظنه أن الله لن يقدر عليه سواء من التقدير أو القدرة «**لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم**» (٤٩ – القلم). ونلاحظ هنا استعمال لفظ «نُبِذَ» و كلمة «مذموم» إذ تفيدان أنه قد أتى ما يستحق أن يطرح بعيدا أو يذم لولا نعمة الله ورحمته.

وركب يونس السفينة وهاج البحر بطريقة غير معهودة. وأَرْجَعَ رُبَّان السفينة ذلك إلى وجود راكب ارتكب ذنبا جسيما فى حق الإله. أو أن أصحاب السفينة – وهم وثنيون – كانوا يعتقدون فى «إله البحر» ولتهدئة غضبه يجب التضحية له بأحد الركاب. فأجروا القرعة لاختيار من يلقونه «**فساهم فكان من المدحضين**» أى أجريت القرعة وكانت نتيجتها أن يونس هو الشخص المذنب ويجب إلقاؤه فى البحر. وكان الله سبحانه وتعالى قد هيأ حوتا كبيرا كى يلتقطه وأمره ألا يؤذيه. فما إن سقط يونس فى البحر حتى التقطه الحوت وغاص به فى أعماق البحر. فكانت ظلمة الليل وظلمة بطن الحوت وظلمة قاع البحر «**فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين**» وظل يُسَبِّح. ويناجى ربه ويستغفره. أما عن المدة التى قضاها يونس فى بطن الحوت فقد قيلت أقوال كثيرة أشهرها أنها ثلاثة أيام لم يكف خلالها عن التسبيح.

ومن التسابيح التى تذكرها التوراة (يونان ٢): «فصلى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت

وقال: دعوت من ضيقى الرب فاستجابنى. صرخت من جوف الهاوية فسمعتَ صوتى لأنك طرحتنى فى العمق فى قلب البحار فأحاط بى نهر. جازت فوقى جميع تياراتك ولججك. فقلتُ قد طردتُ من أمام عينيك. ولكن أعود أنظر إلى هيكل قدسك. قد اكتنفتنى مياه إلى النفس. أحاط بى غمر. التف عشب البحر برأسى نزلت إلى أسافل الجبال. مغاليق الأرض علىَّ إلى الأبد. ثم أصعدتَ من الوهدة حياتى أيها الرب إلهى. حين أعيت فىَّ نفسى ذكرتُ الرب فجاءت إليك صلاتى إلى هيكل قدسك. الذين يراعون أباطيل كاذبة يتركون نعمتهم. أما أنا فبصوت الحمد أذبح لك وأوفى بما نذرته. للرب الخلاص».

واستجاب الله لدعاء يونس.

«فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين». (٨٨ - الأنبياء).

«فلولا أنه كان من المسبِّحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون». (١٤٣ - الصافات).

وأمر الله الحوت أن يلفظه على البر. وكان جلد يونس قد تسلَّخ. من الحامض فى معدة الحوت. وكانت أشعة الشمس كفيلة بأن تزيده إلتهابا. فانبت الله عليه شجرة من يقطين – وهو نبات القرع – تظلله بأوراقها العريضة لتحمية من أشعه الشمس حتى برىء.

«فنبذناه بالعراء وهوت سقيم. وأنبتنا عليه شجرة من يقطين» . (١٤٥ - الصافات)

بعد أن بَرِىء يونس من جراحه كان قد أيقن أن الأمر كله بيد الله وأن عليه أن لا يخاف أحداً إلا الله. كان قد اكتسب الحكمة وصار مستعدا لتنفيذ أمر ربه فاكتملت له أركان النبوة:

«فاجتباه ربه فجعله من الصالحين». (٥٠ - القلم).

«وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» . (١٤٧ - الصافات).

وهو نفس العدد الذى ذكر فى التوراة إذ جاء فيها (يونان ٤ : ١١) أن نينوى كان يوجد بها أكثر من ١٢ ربوة من الناس والربوة عند اليهود هى عشرة آلاف شخص. أى أن سكان المدينة كانوا ١٢٠,٠٠٠ نسمة. أخرج الترمذى عن أبى كعب: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى «وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» قال يزيدون عشرون ألفا (تفسير الألوسى . جـ ٢٣ . ص ١٤٨).

لما وصل يونس إلى نينوى بدأ ينهى أهلها عن المظالم التى يرتكبونها فى حق الضعفاء والمساكين وحق الشعوب المغلوبة على أمرها التى يفتحونها. واستهانوا به فى أول الأمر لعلمهم أنه من دولة إسرائيل الصغيرة ولكن بعض العقلاء منهم ذكروهم بما كان لسليمان عليه السلام من هيبة وسطوة فى المنطقة وأن إله إسرائيل إله قادر وأنه لا يجب الاستخفاف بكلام أنبيائهم. وظل يونس مدة ٤٠ يوما يدعوهم ثم أخبرهم أنه خلال ثلاثة أيام سيأتيهم العذاب إن لم يؤمنوا

بأنه مرسل من رب العالمين ويُقلعوا عن مظالمهم ومفاسدهم. وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يخرج من المدينة حتى لا يصيبه العذاب معهم. وبعد أن خرج ثاب أهل المدينة إلى رشدهم واستغفروا لذنوبهم. فرفع الله العذاب عنهم.

«فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين» . (٩٨ - يونس).

«وأرسلناه إلى مائه ألف أو يزيدون. فآمنوا. فمتعناهم إلى حين».

(١٤٧ - الصافات).

وإلى هنا تنتهى قصة يونس كما وردت فى القرآن الكريم.

تزيد التوراة فصلا آخر فى القصة إذ تقول إن يونان اغتم غما ثقيلا لما رأى أن العذاب لم ينزل بهم وخرج من المدينة وجلس شرقيها وصنع لنفسه مظلة وجلس تحتها. وتقول (يونان ٤ : ٦) «فأعد الرب الإله يقطينة فارتفعت فوق يونان لتكون ظلا على رأسه لكى يُخلصه من غمه. ففرح يونان من أجل اليقطينة فرحا عظيما. ثم أعد الله دودة عند طلوع الفجر فى الغد فضربت اليقطينة فيبست وحدث عند طلوع الشمس أن الله أعد ريحا شرقية حارة فضربت الشمس على رأس يونان فذبل. فقال الله ليونان: هل اغتظت من أجل اليقطينة التى لم تتعب فيها ولا ربَّيتها التى بنت ليلة كانت وبنت ليلة هلكت. أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثر من اثنتى عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة».

من هذا نرى أن كاتبى التوراة نقلوا اليقطينة إلى آخر القصة بدلا من أن تكون فى موضعها الصحيح وهو أن يستظل بها حتى يبرأ جلده من التسلخات التى أصابته من وجوده فى بطن الحوت. وخاصة أن التوراة تذكر أن يونس قد صنع لنفسه مظلة وجلس تحتها. فلا حاجة إذا لظل اليقطينة.

كان إيمان أهل نينوى سببا فى عدم وقوع العذاب بهم **«فمتعناهم إلى حين»** ولا ندرى كم من الزمن كان ذلك الحين. إلا أنه من المؤكد أن الأجيال التالية عادت ترتكب نفس المظالم التى ارتكبها الأجداد ويعملون نفس الشرور. وأصبحت نينوى رمزا للظلم والفساد وقهر الشعوب واستعبادها. فكان لابد أن ينالها عقاب من الله. وأن تدمَّر المدينة لتكون شاهدا على مصير المفسدين. وتنبأ النبى «ناحوم» الذى ظهر فى أرض يهوذا بهذا السقوط.

٤ - النبى ناحوم Nahum

ويسمى ناحوم الألقوشى نسبة إلى مدينة «ألقوش» واختُلف فى تحديد مكانها. والرأى الغالب أنها تقع فى يهوذا جنوب غرب أورشليم (شكل ١٠٥). وزمن نبوته يقع عدة سنوات قبل سقوط أشور ودمار نينوى فى عام ٦٠٩ ق.م. ولم يُركِّز ناحوم طويلا على خطايا شعبه وإنما كان تركيزه الأساسى على ما سيلحق نينوى عاصمة أشور من دمار. الأمر الذى يبشر بانهيار الامبراطورية الأشورية وأن ذلك قصاص عادل من الرب لهذه الامبراطورية التى كانت شديدة القسوة فى معاملتها للشعوب المغلوبة. وأهم النقاط التى ذكرها هى :

١ - تقرير بقوة الرب (ناحوم ١ : ١) :

«وحى على نينوى. الرب إله غيور منتقم. الرب منتقم من مبغضيه. الرب بطىء الغضب وعظيم القدرة ولكنه لا يبرِّىء البتة». ثم يفصِّل مظاهر قدرة الرب الانتقامية: «الرب فى الزوبعة. وفى العاصفة طريقه. ينتهر البحر فينشِّفه ويجفف جميع الأنهار. يزيل باشان والكرمل (هى من أخصب الأرض فى شمال إسرائيل) وزهر لبنان يذبل. الجبال ترتجف منه والتلال تذوب. والأرض ترفع من وجهه. من يقف أمام سخطه. ومن يقوم فى حموِّ غضبه. غيظه ينسكب كالنار والصخور تنهدم منه. ومع ذلك فالله رحيم بعباده المتقين صالح هو الرب. حصن فى يوم الضيق وهو يعرف المتوكلين عليه».

٢ - نبوءة بخراب نينوى (ناحوم ٣) :

يتوعد النبى ناحوم مدينة نينوى بالويل وينعى على أهلها الغش فى التجارة والسطوة الشريرة فيقول: «ويل لمدينة الدماء. كلها ملآنة كذبا وخطفا. لا يزول الافتراس». ثم يقدم وصفاً رائعا لهجوم جيش على المدينة فيقول: «صوت السوط وصوت رعشة البكر. وخيل تخبُّ. ومركبات تقفز . وفرسان تنهض. ولهيب السيف. وبريق الرمح. وكثرة جرحى. ووفرة قتلى. ولا نهاية للجثث. يعثرون بجثثهم».

ثم يضرب المثل بما حدث لمدينة طيبة. المدينة الحصينة فى صعيد مصر وما عرف عن معابدها الكبيرة والتى كانت تخرج منها الجيوش والمقاتلين الأشداء ومع ذلك استولى عليها الأشوريون. وبالمثل فإن نينوى ستسقط كما سقطت طيبة. فيقول: «هل أنتِ أفضل من نُوِّ آمون (طيبة) الجالسة بين الأنهار حولها المياه التى هى حصن وسور لها. كوشُ (النوبة) قوَّتها مع مصر هى أيضا قد مضت إلى المنفى وأطفالها حُطِّمت فى رأس جميع الأزقة. وجميع عظمائها تقيَّدوا بالقيود. أنتِ أيضا تطلبين حصنا بسبب العدو». ويصف ضعف حصونها بقوله: «جميع قلاعك أشجار تين بالبواكير إذا انهزَّت تسقط فى فم الآكل هو ذا شعبك نساء فى وسطك.

تنفتح لأعدائك أبواب أرضك. تأكل النار مغاليقك». ثم هو يطلب من أهل نينوى أن يحصِّنوها للحرب ويخزنوا ماء لا ينفذ بطول الحصار. وأن يبنوا القلاع ويسدوا ثغرات الأسوار. كل ذلك على سبيل التهكم بمعنى أن جميع هذه الاحتياطات لن تمنع سقوط المدينة. فيقول. «استقى لنفسك ماء للحصار. أصلحى قلاعك. ادخلى فى الطين ودوسى فى الملاط. هنالك تأكلك نار. يقطعك سيف. تكاثرى كالغوغاء. تعاظمى كالجراد. أكثرت تُجَّارك أكثر من نجوم السماء. رؤساؤك كالجراد. وولاتك كحرجلة الجراد الواقفة على الجدران فى يوم البرد. تشرق الشمس فتطير. ولا يعرف مكانها أين هو. نعست رعاتُك يامالك أشور. اضطجعت عظماوك. تشتَّت شعبك على الجبال ولا من يجمع. ليس جبر لكسرك. جرحك عديم الشفاء».

٥ – هوشع النبى Hosea

هو النبى «هوشع بن بئيرى Hosea, son of Beeri» . وكان يعيش فى إسرائيل الشمالية. ودامت فترة نبوته حوالى ٤٠ عاما. وعاصر يربعام الثانى ملك إسرائيل. وأربعة ملوك من يهوذا هم عزريا ويوثام وأحاز وحزقيا. وعاصر النبيين يونس وعاموس فى المملكة الشمالية وإشعياء وميخا النبيين فى يهوذا.

وفى النصف الأول من حياته ركَّز هوشع على التنديد بعدم وفاء بنى إسرائيل وخيانتهم للرب على مدى تاريخهم الطويل. فبالرغم من أن الله قد أنجاهم من العبودية فى مصر ورزقهم رزقا حسنا إلا أنهم تركوه وساروا وراء البعل. جاء فى سفر هوشع ٢:٨ على لسان الرب: «وهى (إسرائيل) لم تعرف أنى أنا أعطيتها القمح والزيت. وكثَّرت لها فضة وذهبا جعلوه لبعل. لذلك أرجع آخذ قمحى فى حينه وأنزع صوفى وكتَّانى. ولا ينقذها أحد من يدى. وأبطِّل كل أفراحها وأعيادها ورؤوس شهورها وسبوتها وجميع مواسمها. وأخرِّب كرمها وتينها. وأجعلها وعراً فيأكلها حيوان البرية. وأعاقبها على أيام بلعيم التى كانت تبخِّرُ له وتنسانى أنا يقول الرب. شعبى يسأل خشبة وعصاه تخبره (وهى إشارة إلى عادة وثنية من عادات العرافة بواسطة عصى ترمى أرضا وعلى حسب موضع سقوطها واتجاهها كان العراف يتنبأ بالمستقبل). يذبحون على رؤوس الجبال (حيث توجد آلهة الوثنيين). ويل لهم لأنهم هربوا عنى. تبًّا لهم لأنهم أذنبوا إلىَّ. صنعوا لأنفسهم من فضتهم وذهبهم أصناما. حمى غضبى عليهم. إنهم يزرعون الريح ويحصدون الزوبعة. زرع ليس له غلة لا يصنع دقيقا. وإن صنع فالغرباء تبتلعه. الآن صاروا بين الأمم كإناء لا مسرة فيه. لأنهم صعدوا إلى أشور (أى لجأوا إليها لتحميهم) وصعدوا إلى مصر (أيضا لتحميهم) وقد نسى إسرائيل صانعه وبنى قصورا. وكثَّر يهوذا مدنا حصينة. لكن أرسل على مدنه نارا فتأكل قصوره. لا تفرح يا إسرائيل طربا. لأنك قد بعدت عن إلهك

جاءت أيام العقاب. جاءت أيام الجزاء. سيعرف إسرائيل من أجل سوء أفعالهم أطردهم من بيتى. لا أعود أحبهم. جميع رؤسائهم متمردون. أصلهم قد جف لا يصنع ثمرا. يرفضهم الإله لأنهم لم يسمعوا له فيكونون تائهين بين الأمم».

أما فى النصف الثانى من حياته فهو يدعو الناس إلى التوبة لأنها سبيل الخلاص عسى الله أن يرفع عنهم غضبه وعذابه. فيقول (هوشع ١٤ : ١): «ازرعوا لأنفسكم بالبر. احصدوا بحسب الصلاح. ارجع يا إسرائيل إلى الرب إلهك لأنك قد تعثرت بإثمك. خذوا معكم كلاما وارجعوا إلى الرب. قولوا له ارفع كل إثم واقبل حسنا. أنا أشفى ارتدادهم. أحبهم لأن غضبى قد ارتد عنهم. إن طرق الرب مستقيمة والأبرار يسلكون فيها. وأما المنافقون فيعثرون فيها».

الفصل الثالث عشر

سقوط مملكة إسرائيل الشمالية

(السبى الأشورى)

نعود الآن لنستكمل ملوك إسرائيل الشمالية وقد تبقى منهم خمسة ملوك استغرقت مدة حكمهم ٢٥ عاما ثم بعدها سقطت السامرة فى أيدى الأشوريين وانتهت مملكة إسرائيل الشمالية وتم سبى أهلها إلى مدن فى أعالى الفرات كما سيجىء تفصيله فيما بعد.وكان آخر ملك توقفنا عنده هو زكريا بن يربعام (ص ٢٧٤) والذى لم يحكم سوى ستة شهور.

١٥ - شلُّوم بن يابيش

قام شلوم بن يابيش على زكريا بن يربعام الثانى وقتله وملك عوضا عنه فى السامرة. ولكن شلوم لم يمكث فى الحكم إلا شهرا واحدا إذ قام عليه منحيم بن جادى فقتله وملك بدله.

١٦ - منحيم بن جادى

والمشهور عن منحيم بن جادى أنه أحد كبار ضباط الجيش فى أيام زكريا بن يربعام. ولما سمع بالمؤامرة التى قام بها شلوم وقتل فيها زكريا فإنه تحرك بجنوده من ترصة إلى السامرة وقتل شلوم واغتصب الملك لنفسه. واشتهر عنه الظلم والقسوة فى معاملة أعدائه. واستمر على عبادة العجل وهو ما ندد به الأنبياء عاموس وهوشع. وسلَّط الله عليه ملك أشور تجلات بلاسر الثالث الذى هاجم إسرائيل عند الحدود الشمالية الشرقية فقدم له منحيم هدية عبارة عن ١٠٠ وزنة من الفضة. فاكتفى ملك أشور بذلك وبالجزية التى فرضها على إسرائيل ورجع. أما منحيم فقد وضع ضريبة على كل رجل من بنى إسرائيل عبارة عن ٥٠ شاقل من الفضة ليتمكن من دفع الجزية لملك أشور.

وحكم منحيم حوالى ٧ سنوات ثم خلفه ابنه فقحيا.

١٧ - فقحيا بن منحيم

ملك على السامرة – بعد والده – لمدة سنتين . وسار على عبادة العجل. ثم قام عليه أحد قواد جيشه هو فقح بن رمليا فقتله وملك عوضا عنه.

١٨ - فقح بن رمليا

تولى العرش وكانت إسرائيل قد أنهكتها الاغتيالات والإنقلابات والجزية التى كانت تدفعها إلى أشور. ولما كانت خزانة المملكة خاوية فقد عمد إلى التحالف مع «رصين» ملك دمشق ضد «يوثام» ملك يهوذا لمهاجمته واقتسام الغنائم. ولكن الله أخَّر هذه الخطة إذ كان يوثام مستقيما مع الرب (مثل عُزِّيا والده. ص ٣٣٠ و ٣٣١) إلا أنه بعد وفاة يوثام تولى ابنه آحاز عرش يهوذا وعمل الشر فى عينى الرب فسلط الله عليه الأعداء. وأغرى الله به **رصين ملك دمشق** وفقح بن رمليا ملك إسرائيل فهاجموا مملكته وأخذوا منه سبيا عظيما. وعن هذه الحرب تقول التوراة (٢ أخبار ٢٨ : ٥): «ودُفِعَ أيضا (أحاز ملك يهوذا) **ليد ملك إسرائيل** فقح بن رمليا فضربه ضربة عظيمة. وقتل إسرائيل من يهوذا ١٢٠,٠٠٠ فى يوم واحد! وسبى بنو إسرائيل من إخوانهم ٢٠٠,٠٠٠ من النساء والبنين والبنات. ونهبوا أيضا منهم غنيمة وافرة وأتوا بالغنيمة إلى السامرة. وكان هناك نبى للرب اسمه «عوديد Oded » فخرج للقاء الجيش العائد إلى السامرة وقال لهم: هوذا من أجل غضب الرب على يهوذا قد دفعهم ليدكم. وقد قتلتموهم بغضب بلغ السماء. واستمر النبى فى توبيخهم ونهاهم عن أن يتخذوا من إخوانهم (من يهوذا) عبيدا وإماء وأمرهم ألا يدخلوا بالسبى إلى السامرة. فاستجاب الشعب وأخذوا المسبيين وكسوهم وأعطوهم طعاما وشرابا وطيبا ليتطيبوا ثم حملوهم إلى أريحا وأطلقوهم ليعودا إلى يهوذا. وعادوا هم إلى السامرة».

وقام رصين بالاستيلاء على ميناء إيلة على خليج العقبة وطرد اليهود منها. وكانت هذه ضربة قوية لموارد يهوذا من التجارة. ثم حاصر أورشليم. ولم يكن أمام ملك يهوذا وسيلة لحفظ ملكة إلا بالتحالف مع ملك أشور. وتقول التوراة (٢ ملوك ١٦ : ٧): «وأرسل أحاز رسلا إلى تجلات بلاسر ملك أشور قائلا: أنا عبدك وابنك. اصعد وخلصنى من يد ملك أرام ومن يد ملك إسرائيل (فقح بن رمليا) القائمين عليَّ. فأخذ آخاب الذهب والفضة الموجودة فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك وأرسلها إلى ملك أشور هدية. فسمع له ملك أشور وصعد ملك أشور إلى دمشق وأخذها وسباها وقتل رصين وسار الملك أحاز (ملك يهوذا) للقاء تجلات بلاسر ملك أشور فى دمشق (ليشكره على استجابته لندائه) ورأى أحاز المذبح الذى فى دمشق فأرسل إلى أوريا

كاهن أورشليم ليأتى ويراه ويأمر بصنع واحد مثله. ولما عاد الملك إلى أورشليم وجد المذبح مصنوعا فقدّسه وأصعد عليه القرابين وجعله بجوار مذبح النحاس الذى كان موجودا من قبل والذى خصصه لنفسه ليقدم عليه قربانا كلما أراد استخارة الرب فى أمر ما».

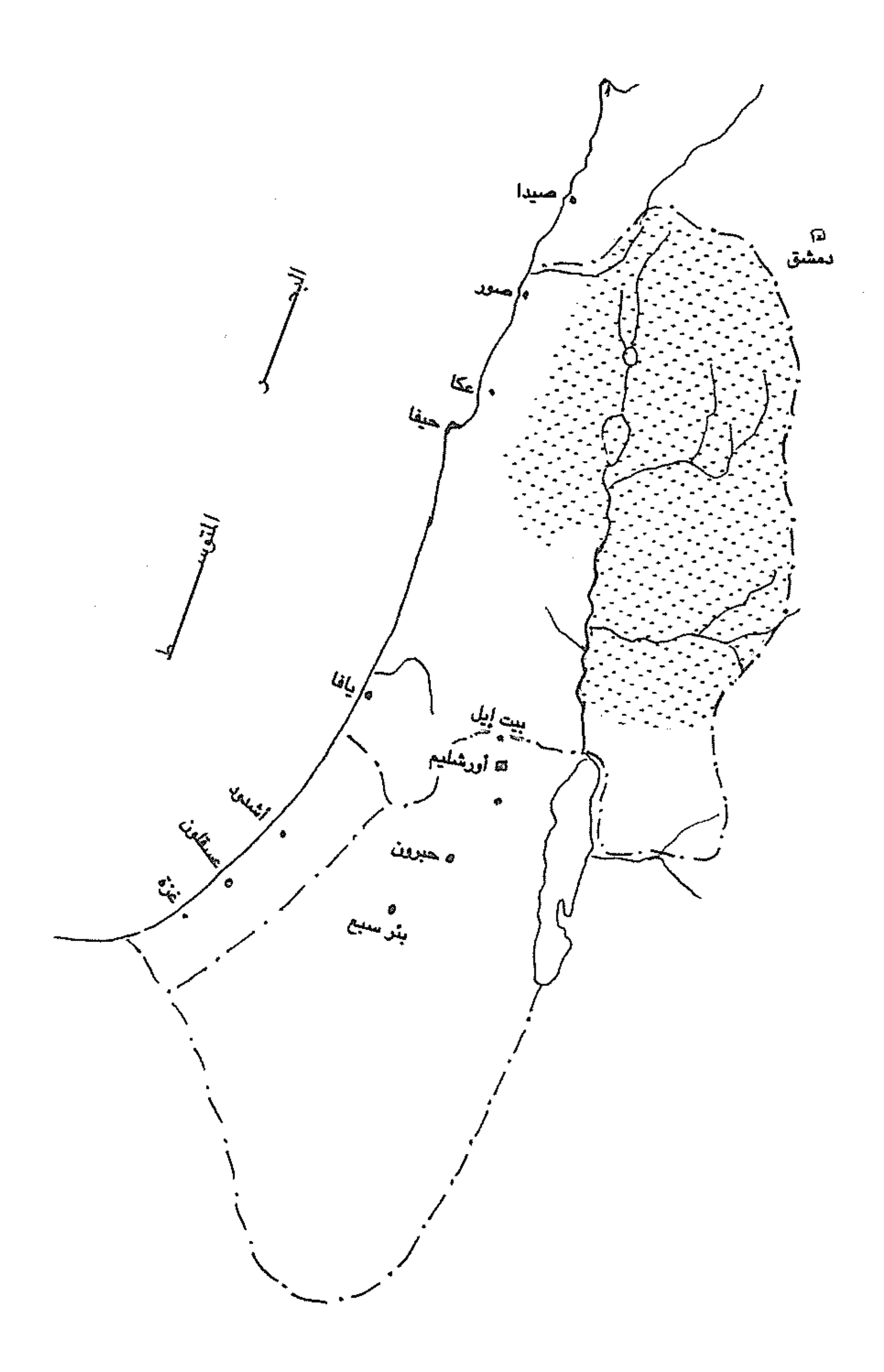
أشور يستولي على شمال إسرائيل :

لم يتوقف جيش أشور عند دمشق ولم يكتف بفك الحصار عن أورشليم إذ وجد تجلات بلاسر أن إسرائيل قد أصبحت لقمة سائغة ولا ناصر لها. وتقول التوراة (٢ ملوك ١٥:٢٩): «وفى أيام فقح بن رمليا ملك إسرائيل جاء تغلات بلاسر ملك أشور وأخذ عيون وآبل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالى وسباهم إلى أشور». وتؤيد كتب التاريخ ذلك إذ تذكر أن تجلات بلاسر هاجم شمال إسرائيل بجيش ضخم وعجلات حربية وخيول وفرسان واستولى على أبل معكة وكانت مدينة حصينة فى أرض نفتالى ٧كم غرب دان. ويانوح ٩كم شرقى صور. وحاصور ١٥كم شمال بحر الجليل. وجلعاد هى الأرض شرق الأردن. أى أن ملك أشور استولى على ما يزيد عن نصف أراضى المملكة الشمالية إسرائيل (شكل ٥٧) ودمجها فى الولايات الأشورية التابعة له ولم يترك لملكها فقح بن رمليا سوى جبل أفرايم والعاصمة السامرة. واستمر تجلات بلاسر فى سيره فأخضع جميع الدويلات الأرامية فى سوريا وبهذا انتهت قوة الأراميين السياسية ولم يعد التاريخ يذكر شيئًا عنهم بعد ذلك.

١٩ - هوشع بن أيلة

هو آخر ملوك المملكة الشمالية. ويرى بعض المؤرخين أن هوشع - بتحريض من تجلات بلاسر ملك أشور - قام بقتل فقح بن رمليا وجلس على العرش مكانه. بينما يرى فريق آخر أن هوشع قام بالانقلاب لحسابه الخاص. وعلى أى حال فإن هوشع - لكى يضمن بقاءه على العرش - أظهر الخضوع التام لأشور واستمر فى دفع الجزية. فكان فى أول سنى حكمه حاكما إسميا على السامرة. وظل يجاهد للحصول على نفوذ له حتى تمكن بعد ٨ سنوات من إقامة نفسه ملكا على عرش إسرائيل.

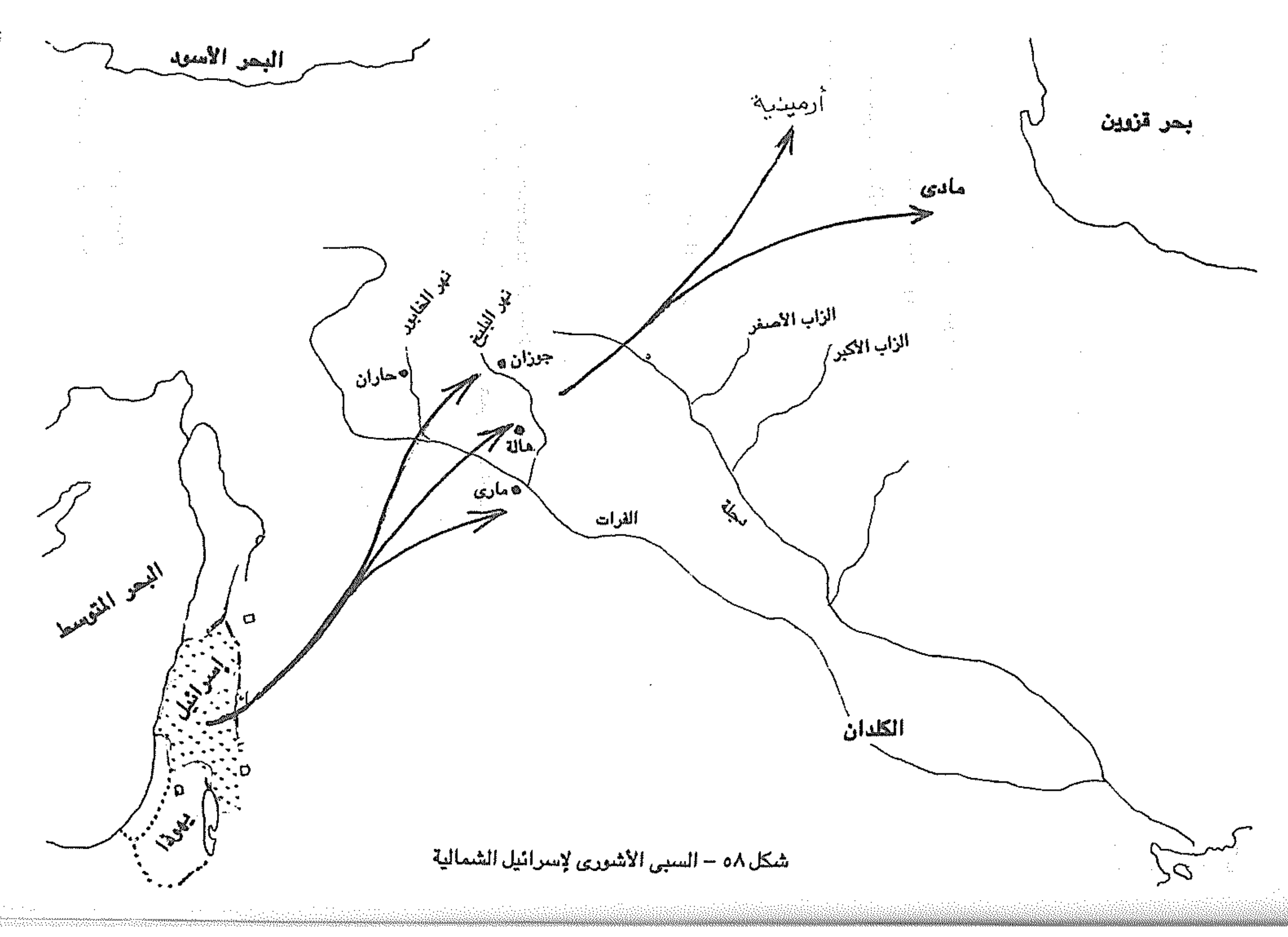
ولما مات تجلات بلاسر تولى بعده شلمناصر الخامس عرش آشور وبدأ الأمل يراود هوشع فى استعادة النصف الشمالى من مملكته وبدأ يراسل ملك مصر - بعنخى - أحد ملوك الأسرة الرابعة والعشرين الذى وعده بالمساعدة فتشجع وامتنع عن دفع الجزية لأشور. وهنا ثار شلمناصر ورأى أن يؤدب هوشع فتوجه وحاصر السامرة ثلاث سنوات ولكنه لم يفلح فى الاستيلاء عليها إذ اضطر للعودة إلى بلاده لإخماد قلاقل بها ووافته المنية فور عودته إلى بلاده وتولى سرجون الثانى العرش بعده.



شكل ٥٧ – الجزء الذى استولى عليه تجلات بلاسر ملك أشور
من أراضى مملكة إسرائيل الشمالية .

سقوط السامرة :

يرى بعض المؤرخين أن سرجون الثانى كان قائد جيش شلمناصر ولما توفى هذا الأخير ولم يكن له ابن يرث العرش تولى هو الحكم بينما يرى آخرون أنه قام بانقلاب ضد الوريث الشرعى وقتله. ولعله كان الرجل المناسب لتولى عرش أشور فى هذا الوقت إذ كان الكلدان من الجنوب قد احتلوا بابل وكانت حدوده الشمالية وشمال سوريا يتعرضان لهجرات قبائل من أرمينيا. وراود الأمل مصر فى استعادة نفوذها الضائع فى فلسطين. واستطاعت أن تكسب إلى صفها ملوك حماة ودمشق وحمص. وبالرغم من كل هذه القلاقل فإن سرجون الثانى أثبت أنه رجل المهمات الصعبة إذ استطاع أن يحافظ على تماسك بلاده. بل ويفرض نفوذه ويهيمن على المنطقة بأسرها. ففى عام ٧٢٠ ق.م حدثت معركة «قرقار» على نهر العاصى انتصر فيها سرجون واستسلم ملك حماة وضُمَّت الولاية إلى الإمبراطورية الأشورية أما جيش مصر فكرَّ راجعا إلى مصر ولكن الجيش الأشورى لحقه عند رفح وهزمه. وأمَّا أهل رفح وغزة الذين ساعدوا الجيش المصرى فقد تم سبيهم (الشرق الأدنى القديم. د. نجيب ميخائيل إبراهيم. ج ٣ . ص ٢٧١). وكان جزءٌ من الجيش الأشورى لايزال يحاصر السامرة حتى سقطت فى عام ٧١٩ ق.م. ودمَّرها ونفى أهلها إلى وادى نهر الخابور. ونقل جزءا من السبى إلى ميديا أو مادى (شكل ٥٨). وفى ذلك الوقت كانت مادى يحدها شمالا بحر قزوين ونهر أراكس وأرمينيا غربا أى أنها كانت تشمل شمال إيران وشمال العراق وأرمينيا وجزءا من شرق تركيا. إلا أن معظم السبى كان إلى وادى نهر الخابور: إلى جوزان وهى حاليا تل خلف على نهر الخابور وجزءا أُسكِنَ فى مدينة هابور على نهر الخابور أيضا. ولا ندرى هل كان اختيار سرجون الثانى لهذه المناطق عشوائيا أم أنه اختارها لقربها من «حاران» بلدة أجداد إبراهيم عليه السلام ولعلمه أن بنى إسرائيل ينتسبون إلى إبراهيم فأراد أن يخفف عنهم وقع السبى بأن وضعهم فى مكان قريب من جدودهم الأوائل. ولمَّا وجد أن من تبقَّى من الإسرائيليين لايزال عندهم نزعة التمرد دبَّر خطة يقتل بها وطنيتهم الثائرة. فنقل شعبا من بابل وحماة ومن القبائل العربية فى بادية الشام إلى السامرة ومن امتزاج هذا المجاميع نشأت جماعة السامريين Samaritans وكان الوافدون قد أحضروا معهم آلهتهم وأصنامهم. وبسبب الحروب والأوبئة قل عدد السكان فكثرت الوحوش البرية فى الأرض. وقد قتلت تلك الوحوش كثيرا من سكان الأرض الجدد فاعتقدوا أن «إله الأرض» غاضب عليهم. فأرسلوا يستغيثون بملك أشور فأرسل إلى أحد الكهنة من السبى الإسرائيلى وأمره بالتوجه إلى السامرة ليعلم السكان الجدد فرائض «إله الأرض. إله إسرائيل». وجاء الكاهن وسكن فى بيت إيل. على أن الكاهن لم يقدر أن يجعلهم يتخلوا عن عبادة أصنامهم فظلوا يمارسون عبادة الله كما فى شريعة موسى مع عبادة آلهتهم. (قاموس الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين ص ٤٠). وهم لا يعترفون إلا بالأسفار الخمسة الأولى من التوراة ويعتبرونها



شكل ٥٨ – السبى الأشورى لإسرائيل الشمالية

كتابهم المقدس. وظل هذا المزج قائما فى عبادة السامريين حتى عاد عزرا ونحميا من السبى البابلى ودعيا إلى تنقية الإسرائيليين من الدماء الأجنبية. وتنقية الديانة مما أدخل إليها من ممارسات وثنية. ولكن السامريين ظلوا يعتبرون أنفسهم يهوداً وبنوا لهم **هيكلا على جبل جرزيم للإله «زفس»** حامى الغرباء (قاموس الكتاب المقدس . ص ٤٥٠) وظلُّوا طائفة مستقلة ومع الزمن ازداد العداء بينهم وبين الإسرائيليين.

وفى منطقة «فرسباد» وهى العاصمة الجديدة التى كان سرجون الثانى قد بناها عُثر على بقايا قصره وعلى حوليات له منقوشة على ألواح حجرية وفيها يقول: فى بداية حكمى الملكى حاصرت «سامى رى نا» (السامرة). وفتحتها وأسرت من سكانها ٢٧,٢٩٠ كفنيمة. أما باقى السكان فتركتهم يمارسون وظائفهم الاجتماعية وعينت عليهم ضابطا من ضباطى وفرضت عليهم جزية مماثلة لجزية الملك السابق. وقد خرج ضدى ملك غزة وملك مصر ولكنى هزمتهم وأخذت الجزية من «سمس» ملكة بلاد العرب ذهبا وخيلا وحميراً.

مصير السبي الأشوري :

كان سبى إسرائيل الشمالية والسامرة وشرق الأردن يشمل عشرة أسباط من بنى إسرائيل. ولم يقدَّر لهذه الأسباط العشرة أن تعود إلى موطنها ثانية (بعكس سبى يهوذا كما سيجىء فيما بعد) ولكنهم ظلوا يتكاثرون فى المناطق التى هُجرُّوا إليها. ويرى هيرودوت أن كثيرين منهم نزحوا فى هجرات متتالية من آسيا إلى أوربا وسكنوا فى المنطقة شمالى البحر الأسود. وقد عُثر فى القرم على مئات من المقابر عليها نصوص تشير إلى استيطان الإسرائيليين هناك وتتحدث عن تجلات بلاسر وسرجون وتذكر قبائل جاد ورأوبين. ولا تدع مجالا للشك فى أن أصحابها هم من نسل القبائل العشر المشرَّدة. كما يرى هيرودوت أنهم بعد أن تكاثروا انتشروا فى مربع يَحُده جنوبا البحر الأسود من مصب نهر الدن إلى مصب نهر الدانوب. وحده الشرقى مجرى نهر الدن. وركنه الشمالى الشرقى بالقرب من موسكو الحالية. أما جانبه الشمالى فتحده سلسلة من التلال تمتد من جنوب موسكو حتى البلطيق أما الحد الغربى فهو نهر الفستيولا وجبال الكربات (شكل ٥٩). ويرى بعض المؤرخين أن سبط دان هاجر شمالا إلى جوار بحر البلطيق وسميت المنطقة بلاد دان أو Dan mares والتى تحورت إلى الدنمارك. ولو كان هذا القول قد قيل فى الوقت الحالى لوجب أخذه بشيىء من الحذر لما نعرفه عن رغبة اليهود فى إرجاع كل حضارة إلى أجدادهم. أما وقائله هو هيرودوت فإننا لا نستبعد حدوثه. ولعل بنى إسرائيل المسبيين إلى شمال العراق أو إلى مادى قد ضاقوا بالعبودية فهاجروا إلى هذه المناطق التى ذكرها هيرودوت. وحسبنا دليلا على إمكانية حدوث ذلك ما حدث من هجرتهم إلى أمريكا فور اكتشافها هربا من الاضطهاد الذى كانوا يلاقونه فى أوربا وخاصة فى أسپانيا.

شكل ٥٩ – رأى هيرودوت فى انتشار يهود السبى الأشورى .

بهذا نسدل الستار على مملكة إسرائيل الشمالية التى بدأت بعد موت سليمان عليه السلام بمناداة الأسباط العشرة الشمالية بيربعام ملكا عليهم عام ٩٢٢ ق.م. ودامت حتى ٧٢٠ ق.م. أى ٢١٣ سنة تولى خلالها الحكم ١٩ ملكا. اغتيل منهم عشرة وقتل واحد فى حرب وتوفى عشرة ميتة طبيعية. وكان كل ملوكهم يسيرون فى الضلال ويعبدون الأصنام. وأُرسل إليهم ثمانية أنبياء لم يفلحوا فى إعادتهم إلى طريق الرب فكان لابد من سقوط مملكتهم.

ونعود الآن لنتابع ما حدث فى المملكة الجنوبية - يهوذا. التى تولى ملكها رحبعام بن سليمان عام ٩٢٢ ق.م واستمرت قائمة حتى عام ٥٨٧ ق . م حين سقطت أورشليم هى الأخرى ولكن بالسبى البابلى.

مملكة يهوذا

ترتيبه	اسم الملك	سنوات حكمه ق.م	مدة الحكم	مصيره	النبى المعاصر
١	رحبعام بن سليمان	٩٣٣ – ٩١٥	١٨ سنة		شمعيا
٢	أبيا بن رحبعام	٩١٥ – ٩١٣	٢ سنة		
٣	أسا بن أبيا	٩١٣ – ٨٧٣	٣٠ سنة		عزريا بن عوديد
٤	يهوشافاط بن أسا	٨٧٣ – ٨٤٩	٢٤ سنة		يحزئيل بن زكريا
٥	يهورام بن يهو شافاط	٨٤٩ – ٨٤٣	٧ سنة		أليعازار
٦	أخزيا بن يهو رام	٨٤٣	١ سنة	قتل فى الحرب	
٧	عثاليا زوجة يهورام	٨٤٢ – ٨٣٦	٦ سنة	قتلت	
٨	يوآش بن أخزيا	٨٣٦ – ٧٩٧	٤٠ سنة	قتل	
٩	أمصيا بن يوآش	٧٩٧ – ٧٦٣	٣٤ سنة	قتل	
١٠	عزيا بن أمصيا	٧٦٣ – ٧٤٢	٢١ سنة		
١١	يوثام بن عزيا	٧٤٢ – ٧٣٦	٦ سنة		أشعياء
١٢	أحاز بن يوثام	٧٣٦ – ٧٢٥	١١ سنة		ميخا
١٣	حزقيا بن آخاز	٧٢٥ – ٦٩٧	٢٨ سنة		
١٤	منسى بن حزقيا	٦٩٧ – ٦٤٢	٥٥ سنة		
١٥	أمون بن منسى	٦٤٢ – ٦٤٠	٢ سنة	قتل	صفنيا – ناحوم
١٦	يوشيا بن أمون	٦٤٠ – ٦٠٩	٣١ سنة		إرميا
١٧	يهو أحاز بن يوشيا	٦٠٩	٣ شهور	عُزِل	حبقوق
١٨	يهو ياقيم بن يوشيا	٦٠٩ – ٥٩٨	١١ سنة		أوريا – حزقيال
١٩	يهو ياكين بن يهو ياقيم	٥٩٨	٣ شهور		حننيا
٢٠	صدقيا	٥٩٨ – ٥٨٧	١٠ سنة		
	سقوط أورشليم	٥٨٧ ق.م.			

قلنا إن سليمان عليه السلام توفى عام ٩٣٣ ق.م. (ص ٢٤١) ونودى برحبعام ابنه ملكا على كل إسرائيل إلا أنه لم يحسن التصرف مع الأسباط الشمالية وعاملهم بغلظة فالتفوا حول يربعام الذى كان قد عاد من مصر ونادوا به ملكا على الجزء الشمالى والذى أصبح يسمى المملكة الشمالية أو إسرائيل ويبقى رحبعام ملكا على الجزء الجنوبى وهو ما أصبح يسمى مملكة يهوذا وتشمل سبطى يهوذا وبنيامين (شكل ٥٠ ص ٢٤٥). وقد وعد الرب أن بيت داود سيظل أبناؤه يحكمون من بعده. وفعلا استمر الحكم فى يهوذا يتوارثه الأبناء عن الآباء لحوالى ثلاثة قرون ونصف (٣٤٦ عاما) إلا من فترة قصيرة نجحت فيها الأميرة «عثاليا» بنت أخاب من الاستيلاء على الحكم لمدة ٥ سنوات وحاولت أن تقضى على بيت داود. ولكن يوشيا نجح فى إعادة عرش يهوذا لبيت داود إلى أن سقطت أورشليم عام ٥٨٧ ق.م. فى يد البابليين. وقد حكم مملكة يهوذا ١٩ ملكا اغتيل منهم أربعة فقط وعُزِل واحد فى الحرب والباقون ماتوا ميتة طبيعية. وظهر فى يهوذا عديد من الأنبياء تقسمهم التوراة إلى «أنبياء كبار» وهم الذين كانت فترة نبوّتهم تمتد لعدة سنوات ولهم معجزات لتقنع الناس بصدق إنبائهم عن الله عز وجل. وكانوا يدعون الناس إلى عبادة الله ونبذ عبادة الأصنام وغالبا ماكانوا يتنبأون بأحداث تقع فى المستقبل لبنى إسرائيل أو للدول المجاورة مما يعتبر تدخلا فى السياسة وهو ما جعلهم فى كثير من الأحيان هدفا للأحزاب السياسية التى لا ترضيها هذه التنبؤات. أما من تسميهم التوراة «أنبياء صغار» فغالبا ما كانت فترة نبوتهم قصيرة وكان الوحى ينزل عليهم لتبليغ الملك أو الحاكم بأمر معين كأن لا يدخل أو - يدخل - حربا معينة. أو لتنبيهه إلى خطيئة ارتكبها. كذلك يمكن تقسيم أنبياء يهوذا إلى أنبياء ما قبل السبى وأنبياء السبى وأنبياء ما بعد العودة وكل ذلك سيأتى تفصيله فى حينه. ولنبدأ الآن فى ذكر ملوك يهوذا.

١ - رحبعام بن سليمان

هو ابن سليمان عليه السلام من زوجته نعمة العمونية. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٢٤٢) كيف أنه كان السبب - برعونته - فى انقسام إسرائيل إلى مملكتين ومَلَك هو على المملكة الجنوبية المكونة من سبط يهوذا وسبط بنيامين إلا أنه لصغر سبط بنيامين فقد سميت مملكة يهوذا. كما ذكرنا أيضا كيف أنه حاول أن يسترد سيطرته على الأسباط الشمالية بالقوة (ص ٢٤٣) ولكن شمعيا النبى - بوحى من الله - نهاه عن ذلك. واستجاب رحبعام. وقنع بالمملكة الجنوبية وتكرّس انفصال المملكتين.

تحصين البلاد :

توقع رحبعام أن الصداقة التى تكونت بين يربعام وبين شيشنق - أثناء أن كان يربعام لاجئا

فى مصر – لابد ستجعل شيشنق يفكر فى غزو يهوذا تأييدا لصديقه يربعام. فبدأ رحبعام يحتاط للأمر بإقامة حصون فى المدن الهامة أو تقوية ماهو موجود فيها (شكل ٦٠). وتقول التوراة (٢ أخبار ١١:٥) «وأقام رحبعَام فى أورشليم وبنى مدنا للحصار فى يهوذا فبنى حصونا فى بيت لحم وعيطام تقوع وسوكووعَدُلاَّم ومريشة وزيف وأدورايم ولخيش وعزيقة وصرعة وأيلون وحبرون. وشدَّد الحصون وجعل فيها قوادا وخزائن ومأكل وزيت وخمر وأتراسا فى كل مدينة ورماحا وشددها كثيرا جدا».

زوجاتـه :

واتخذ رحبعام لنفسه زوجات كثيرة أهمهن :

– محلة حفيدة داود عليه السلام .

– أبيجايل بنت آلياَب .

– معكة بنت أبشالوم .

– بالإضافة إلى ١٨ زوجة أخرى و ٦٠ سُرِّية .

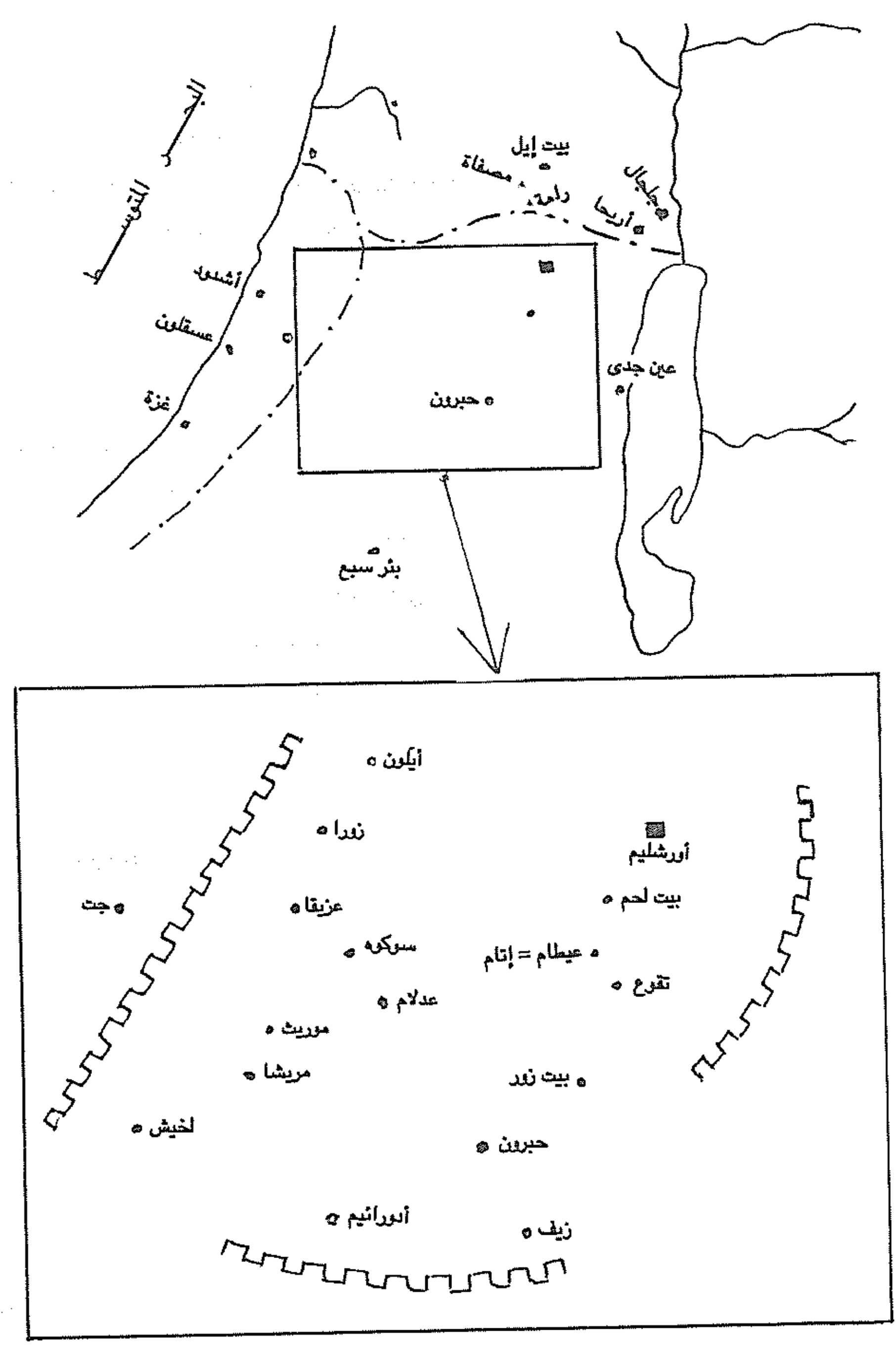
ووُلِد له ٢٨ ابنا و٦٠ بنتا. ووزع أبناءه فى جميع أرض يهوذا وبنيامين وكل المدن الحصينة. وكانت هذه عادة الملوك فى ذلك الوقت، الاكثار من الزوجات لينجبن الكثير من الأبناء للاستعانة بهم فى إدارة شئون البلاد مطمئنين إلى ولائهم.

السياسة الدينية :

سبق أن ذكرنا (ص ٢٤٨) أن يربعام ملك إسرائيل الشمالية أقام معابد لعبادة التيوس والعجول وعين لها كهنة وطرد اللاويين من مملكته فلجأوا إلى يهوذا. تقول التوراة: (٢ أخبار ١١:١٤) «والكهنة واللاويون الذين فى كل إسرائيل مثلوا بين يديه (رحبعام) من جميع تخومهم لأن اللاويين تركوا مسارحهم وأملاكهم وانطلقوا إلى يهوذا وأورشليم لأن يربعام وبنيه رفضوهم من أن يكهنوا للرب وأقام لنفسه كهنة للمرتفعات وللتيوس والعجول التى عمل. وبعدهم جاء إلى أورشليم من جميع أسباط إسرائيل الذين وجَّهوا قلوبهم إلى طلب الرب إله إسرائيل ليذبحوا للرب إله آبائهم وشدَّدوا مملكة يهوذا. وقوَّوا رحبعام بن سليمان ثلاث سنين لأنهم ساروا فى طريق داود وسليمان». وكان هذا التأييد المتزايد الذى بدأ رحبعام يناله من رجال الدين فى جميع الأسباط دافعا لميل قلوب كثير من شعب إسرائيل إلى رحبعام ولعل هذا هو ما جعل يربعام يطلب من صديقه شيشنق دعم مركزه بغزو يهوذا.

شيشنق يغزو يهوذا (١ ملوك ١٤ : ٢٥) :

وفى السنة الخامسة لحكم رحبعام تحرك شيشنق بجيش عظيم مكون من ٦٠,٠٠٠ فارس

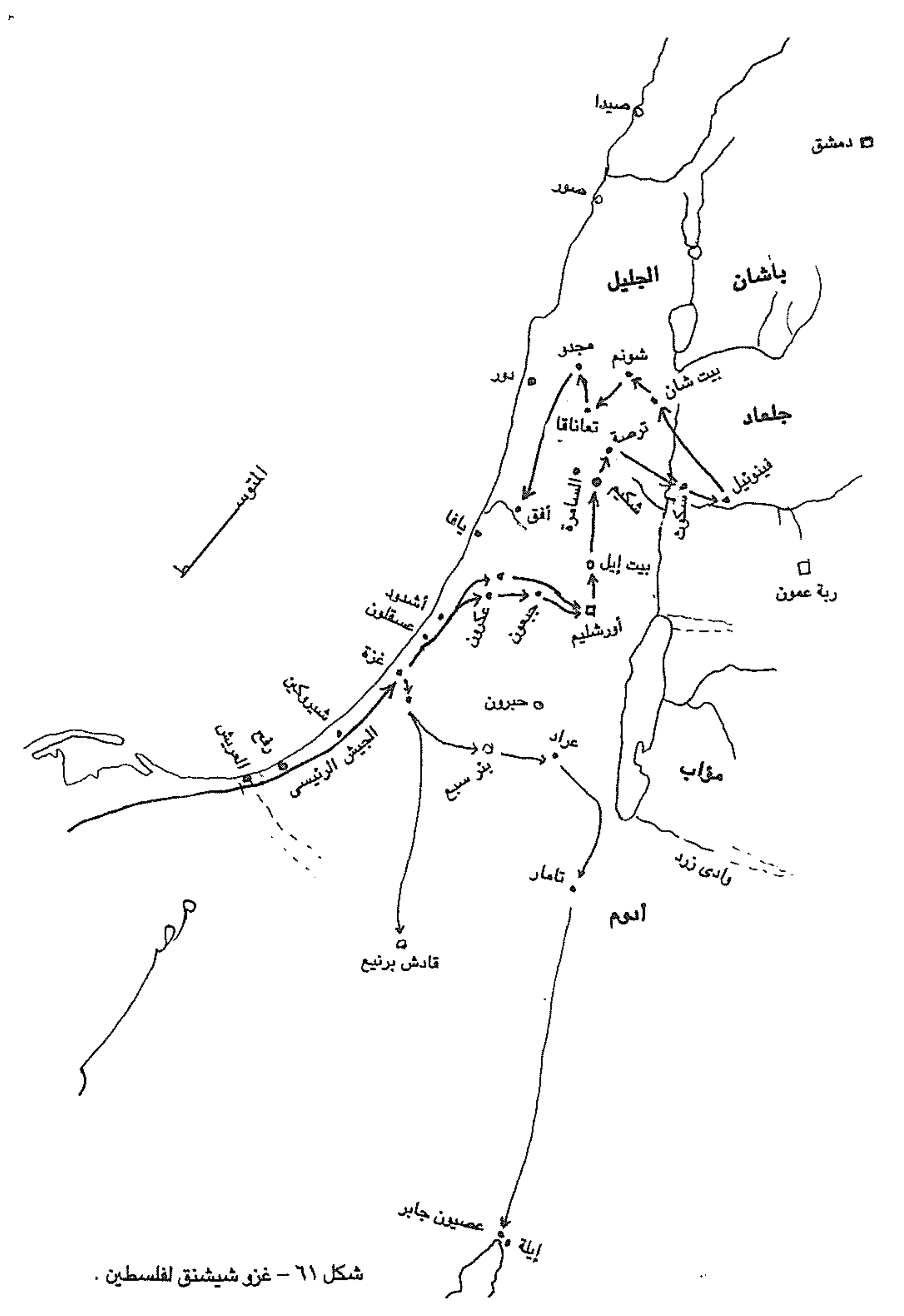


شكل ٦٠ – التحصينات والمدن التى بناها رحبعام لحماية أورشليم ويهوذا.

و ١٢٠٠ مركبة وكان يجتاح المدن فى طريقه. واستولى على المدن الحصينة التى أقامها رحبعام فى الجنوب حتى وصل إلى مشارف العاصمة أورشليم. ويوجد على جدران معبد آمون وصف تفصيلى لغزو شيشنق لفلسطين يقول: سار شيشنق فى السهل الساحلى ماراً برفح واستولى على غزة ثم أرسل جزءا صغيرا من الجيش ليستولى على مدن الجنوب: بير سبع - قادش برنيع - عراد - تامار فى أدوم ثم عصيون جابر على خليج العقبة. أما الجزء الرئيسى من الجيش فقد استمر فى سيره شمالا فاستولى على عكرون وجبعون وجازر وحاصر أورشليم (شكل٦١).

تذكر التوراة أن رحبعام فى السنوات الثلاث الأولى من حكمه اتبع طريق الرب وتمسَّك بشريعته ولكنه بدأ يتراخى فى تنفيذ الشريعة بعد ذلك ولم تنته السنة الرابعة إلا وكان قد بَعُدَ عن الطريق المستقيم فأقام مرتفعات لآلهة أخرى. ولا ندرى دوافع هذا الانحراف إن كان قد حدث فعلا أم أن ذلك كان مجرد تخيل من كاتبى التوراة لتبرير غزو شيشنق ليهوذا. إذ تقول التوراة إنه لما حاصر شيشنق أورشليم جاء شمعيا النبى إلى رحبعام ورؤساء يهوذا الذين اجتمعوا فى أورشليم وقال لهم (٢ أخبار ١٢:٥) «هكذا قال الرب. أنتم تركتمونى وأنا أيضا تركتكم ليد شيشنق. فتذلَّل رؤساء يهوذا والملك وقالوا: بارٌ هو الرب. فلما رأى الرب أنهم تذللوا كان كلام الرب إلى شمعيا قائلا: قد تذللوا فلا أهلكهم بل أعطيهم قليلا من النجاة ولا ينصبُّ غضبى على أورشليم بيد شيشنق لكنهم يكونون له عبيدا (أى يدفعون الجزية). فصعد شيشنق ملك مصر على أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ أتراس الذهب التى عملها سليمان. فعمل الملك رحبعام عوضا عنها أتراس نحاس».

وهكذا فإن شيشنق لم يقتل أحدا من الشعب. كذلك لم يدمّر أيًا من المدن التى استولى عليها. وحتى عندما دخل أورشليم لم يدمرها واكتفى بأخذ مابها من ذهب وفضة فى الهيكل وفى قصور الملك وفرض الجزية على شعب يهوذا. وتروى الكتابات المصرية أنه اتجه شمالا إلى بيت إيل واخترق المملكة الشمالية واستولى على شكيم ثم بيت شان فى الجليل ومجدو ثم سكوث وفنوئيل فى شرق الأردن وفى الغالب أن هذا الجزء الأخير عن غزو المملكة الشمالية هو مجرد مبالغة من المبالغات المشهورة عن الفراعين عند تسجيل أعمالهم الحربية إذ كان شيشنق صديقا ليربعام. فلابد أنها كانت زيارة وديّه للمملكة الشمالية قبل أن يعود إلى مصر. وفى بوابة أقيمت فى الكرنك سجَّل شيشنق هذا الانتصار وظهر «آتون رع» يقود خمسة صفوف من أسرى الحرب تتلوه الإلهة «موت» تجر خمسة صفوف أخرى. وكل أسير يمثل قرية أو مدينة وقعت فى قبضة الملك فى حملته هذه. وقد أفادت هذه الحملة مصر اقتصاديا بالغنائم من الذهب والفضة وكذلك بالجزية السنوية التى فرضت على يهوذا وخاصة أن الحالة الاقتصادية فى مصر فى ذلك الوقت كانت مترديه.



شكل ٦١ – غزو شيشنق لفلسطين .

وتوفى رحبعام بعد أن حكم يهوذا ١٨ سنه وخلفه ابنه أبيًّا.

النبى شمعيا

واسم شمعيا معناه «يهوه يسمع» وتُنطق شَمْعِيا أو شَمَعْيَا. وهو نبى ظهر فى يهوذا فى أيام رحبعام وانحصرت نبوته فى مهمتين:

١ - حينما أعد رحبعام جيشا من ١٨٠,٠٠٠ مقاتل ليخضع الأسباط الشمالية لحكمه بالقوة فإن النبى شمعيا نصحه بعدم مهاجمة إخوانهم فى الشمال.

٢ - حينما حاصر شيشنق أورشليم أخبرهم شمعيا أن ذلك كان عقابا من الله لأنهم حادوا عن الطريق الصحيح.

٢ - أبيًّا بن رحبعام

تولى أبيًّا الملك فى يهوذا بعد وفاة والده وحكم ٣ سنوات وقلد والده فى كثرة الزوجات والأبناء فقد كانت له ١٤ زوجة و٢٢ ابنا و ١٦ بنتا.

وقد حاول أبيًّا استعادة الأسباط الشمالية فسار على رأس جيش من ٤٠٠,٠٠٠ مقاتل وقابله يربعام على رأس جيش من ٨٠٠,٠٠٠ مقاتل. وتقابل الجيشان عند جبل أفرايم وهناك ألقى أبيًّا خطبة على يربعام والجيش الذى معه دافع فيها عن شرعية مملكته وأنها تستند إلى أسس دينية وتسير فى طريق الرب أمَّا المتمردون فهم أعداء الله (٢ أخبار ١٣:٤) فقال: «اسمعونى يابريعام وكل إسرائيل. أمَا آن لكم أن تعرفوا أن الرب إله إسرائيل أعطى الملك على إسرائيل لداود إلى الأبد ولبنيه بعهد مِلحٍ. فقام يربعام بن نباط عبد سليمان بن داود وعصى سيده فاجتمع إليه بطاًلون وتشددوا على رحبعام. والآن أنتم تقولون أنكم تثبتون أمام مملكة الرب وأنتم جمهور كثير ومعكم عجول ذهب قد عملها يربعام لكم آلهة. أمَا طردتم كهنة الرب بنى هارون واللاويين وعملتم لأنفسكم كهنة كشعوب الأراضى. كل من أتى ليملأ يده بثور ابن بقر وسبعة كباش (أى قدمها رشوة) صار كاهنا للذين ليسوا آلهة. وأمَّا نحن فالرب إلهنا ولم نتركه. والكهنة الخادمون للرب هم بنو هارون واللاويون. نحن حارسون حراسة الرب إلهنا وأما أنتم فقد تركتموه وهو ذا الله معنا رئيسا وكهنة وأبواق الهتاف للهتاف عليكم. فيا بنى إسرائيل لا تحاربوا الرب إله آبائكم لأنكم لا تفلحون».

ولكن يربعام لجأ إلى الحيلة (٢ أخبار ١٣:١٣) إذ جعل جزاء من جيشه يدور ويأتى من خلف جيش رحبعام. ولما رأى جنود يهوذا أنهم أصبحوا محاصرين من الأمام ومن الخلف «فصرخوا

إلى الرب. وبوَّق الكهنة بالأبواق وهتف رجال يهوذا. ولما هتف رجال يهوذا ضرب الله يربعام وكل إسرائيل أمام أبيا ويهوذا. فانهزم بنو إسرائيل من أمام يهوذا ودفعهم الله ليدهم وضربهم أبيًا ضربة عظيمة. فسقط قتلى من إسرائيل ٥٠٠,٠٠٠ ! وتشجَّع بنو يهوذا لأنهم اتكلوا على الرب إله آبائهم وطارد أبيا يربعام وأخذ منه مدن بيت إيل وقراها. وبشانا وقراها. وعقرون وقراها».

ثم مات أبيا ودفن فى مدينة داود وملك ابنه «أسا» بعده.

٣ – أسا بن أبيًا Asa .

ملك «أسا» بعد وفاة والده وحكم لمدة ٤١ عاما وتميزت فترة حكمه بالآتى :

١ – الاصلاح الدينى بتوجيه من النبى عزريا .

٢ – تقوية الجيش .

٣ – الحرب مع الكوشيين .

٤ – الحرب مع إسرائيل .

١ – النبى عَزَرْيا بن عوديد والإصلاح الدينى :

تقول التوراة : (٢ أخبار ١٥ : ١) «وكان روح الله على عزريا بن عوديد (أى نزل عليه الوحى فصار نبيا) فخرج للقاء أسا وقال له: اسمعوا يا أسا وجميع يهوذا وبنيامين. الرب معكم ماكنتم معه. وإن طلبتموه يوجد لكم وإن تركتموه يترككم. ولإسرائيل أيام كثيرة بلا إله حق (أى اتجهوا إلى آلهة باطلة) وبلا كاهن معلم وبلا شريعة ولكن لما رجعوا إلى الرب وطلبوه وُجِد لهم. وفى تلك الأزمان (أوقات الضلال) لم يكن أمان للخارج ولا للداخل ،لأن اضطرابات كثيرة كانت على كل سكان الأراضى. فأُفنيت أمةٌ بأمة. ومدينة بمدينة. فتشدَّدوا أنتم ولا ترتخ أيديكم لأن لعملكم أجرًا. فلما سمع «أسا» هذا الكلام ونبوءة عزريا النبى تشدَّد ونزع الرجاسات من كل أرض يهوذا وبنيامين وعمل «أسا» ماهو صالح ومستقيم فى عينى الرب إلهه. ونزع المذابح الغريبة والمرتفعات وكسَّر التماثيل وقطَّع السوارى وقال ليهوذا أن يطلبوا الرب إله آبائهم وأن يعملوا حسب الشريعة والوصية ونزع من كل مدن يهوذا المرتفعات وتماثيل الشمس وخلع عن أمه لقب «الملكة الأم» لأنها عملت تمثالا وكانت تؤيد الوثنية فقطع التمثال الذى صنعته وأحرقه. وزوَّد بيت الرب فى أورشليم بأقداس وآنية من ذهب ومن فضة».

٢ - تقوية الجيش :

بالرغم من أنه لم تكن هناك حرب فى السنوات العشر الأولى من حكمه إلا أنَّ «أسا» لم يهمل تحصين البلاد وجدَّد أسوار المدن وأبوابها وقوَّى الحصون وزوَّدَها بالأتراس والرماح واحتفظ بجيش كبير: ٣٠٠,٠٠٠ رجل من يهوذا و ٢٨٠,٠٠٠ من بنيامين. ومن المؤكد أن هذا الجيش الضخم قد أثار مخاوف الدول المجاورة وجعله هو نفسه يطمع فى إعادة السيطرة على طرق التجارة كما كانت أيام سليمان عليه السلام لما تُدره من أموال. ومن المؤكد أيضا أن حكام مصر كانوا يعارضون هذا الاتجاه ولعلهم كانوا يطمعون فى استعادة نفوذهم فى فلسطين لذلك أزمعوا محاربة «أسا» ملك يهوذا. وبالرغم من أن التوراة تذكر اسم «الكوشيين» إلا أن «كوش» تعنى بلاد النوبة. ومصر كانت تحكمها الأسرة ٢٢ الليبية. فمن المؤكد أن «تكرتى الأول» فرعون مصر الليبى قد استعان بجنود من النوبة. لذلك جاء فى توبيخ «حنانى الرائى» لأسا قوله: «ألم يكن الكوشيون واللوبيون جيشا كثيرا بمركبات وفرسان...».

٣ - الحرب مع الكوشيين واللوبيين :

تقول التوراة (٢ أخبار ١٤:٩) «فخرج إليهم زارح الكوشى (تكرتى الأول) بجيش ألف ألف (المقصود جيش كبير وليس مليونا من الجند) وبمركبات ٣٠٠ وأتى إلى مريشة (مدينة فى يهوذا حصَّنها رحبعام ٢٠ كم شمال غرب حبرون). وخرج «أسا» للقائه واصطفوا للقتال عند مريشة (شكل ٦٢). ودعا «أسا» الرب إلهه وقال: أيها الرب. ليس فرقا عندك أن تساعد الكثيرين ومن ليس لهم قوة. فساعدنا أيها الرب إلهنا لأننا عليك اتكلنا. وباسمك قدمنا على هذا الجيش. أيها الرب أنت إلهنا. لا يقوى عليك إنسان. فضرب الرب الكوشيين أمام «أسا» وأمام يهوذا فهرب الكوشيون. وطردهم «أسا» والشعب الذى معه إلى «جرار» وغنموا غنيمة كثيرة جدا. ثم رجعوا إلى أورشليم. واجتمع الكل هناك وذبحوا للرب من الغنائم التى أخذوها فى الحرب ٧٠٠ من البقر و ٧٠٠ من الغنم. ودخلوا فى عهد (أى عاهدوا الله) أن يطلبوا الرب إله آبائهم بكل قلوبهم وكل أنفسهم حتى إن كل من لا يطلب الرب يُقتل من الصغير إلى الكبير ومن الرجال والنساء. وحلفوا للرب بصوت عظيم وهتاف وبأبواق وقرون».

٤ - الحرب مع إسرائيل :

تقع مدينة الرامة ٨ كم شمال أورشليم قرب الحدود بين يهوذا وإسرائيل (شكل ٦٣). وهى أصلا تقع فى أرض بنيامين ولكن - كما ذكرنا سابقا ص ٢٥١ - كان «بعشا» ملك إسرائيل قد حصَّنها ووضع فيها حامية مهمتها أن تمنع من يريد من سكان إسرائيل الذهاب إلى أورشليم ليتعبد للرب الإله. وبالطبع فإن هذا العمل أثار مخاوف «أسا» ملك يهوذا من أن تكون هذه نقطة انطلاق لغزو بلاده وخاصة لقربها من العاصمة أورشليم. هنا قرر «أسا» الضغط على إسرائيل

فتحالف مع بنهدد الأول ملك دمشق. وكان هذا ذنبا ارتكبه أسا لأنه لم يعتمد على الرب إلهه وتحالف مع ملك وثني. وزاد من الجرم أنه أخذ آنية الفضة والذهب من بيت الرب وأرسلها هدية إلى بنهدد ليتحالف معه. تقول التوراة (٢ أخبار ١٦:٢): «وأخرج أسا فضة وذهبا من خزائن بيت الرب وبيت الملك وأرسل إلى بنهدد ملك أرام الساكن فى دمشق قائلا: إن بينى وبينك وبين أبى وأبيك عهدا. هو ذا قد أرسلت لك فضة وذهبا فتعال انقض عهدك مع بعشا ملك إسرائيل فيصعد عنى (أى يخف ضغطه عليَّ - أو كما نقول بالعامية «يحل عني»). فسمع بنهدد للملك أسا وأرسل رؤساء الجيوش التى له على مدن إسرائيل فضربوا «عيون» و«دان» و«أبل بيت معكة» وجميع مخازن مدن نفتالى (شكل ٦٤) . فلما سمع بعشا كفَّ عن بناء الرامة».. وهكذا أفلح الضغط الذى مارسه بنهدد بتحريض من أسا ملك يهوذا - وهدد فيه بالاستيلاء على شمال إسرائيل - أن يوقف خطط بعشا الرامية إلى زيادة استحكامات مدينة الرامة. بل إن أسا انتهز الفرصة وأرسل رجاله فاستولوا على الحجارة والأخشاب التى كان بعشا قد أعدَّها وبنى هو بها حصونا فى «جبع» و«المصفاة» لتكون خط دفاع عن أورشليم ضد أى غزو من ناحية إسرائيل.

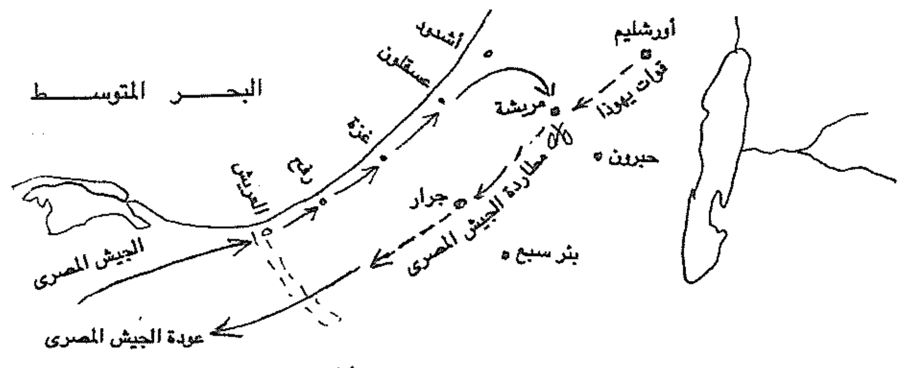
وذهب «**حنانى الرائى**» ووبَّخ أسا لطلبه المعونة من بنهدد ضد بعشا. تقول التوراة (٢ أخبار ١٦ : ٧): «وفى ذلك الزمان جاء حنانى الرائى إلى أسا ملك يهوذا وقال له: من أجل أنك استندت على ملك أرام ولم تستند على الرب إلهك لذلك قد نجا جيش ملك أرام من يدك. ألم يكن الكوشيون واللوبيون جيشا كثيرا بمركبات وفرسان كثيرة جدا؟ فمن أجل أنك استندت على الرب إلهك دفعهم ليدك لأن عينى الرب تجولان فى كل الأرض ليتشدَّد مع الذين قلوبهم كاملة نحوه. فقد حَمِقت فى هذا حتى إنه من الآن تكون عليك حروب. فغضب أسا على الرائى ووضعه فى السجن».

وارتكب أسا خطأ ثالثا فى حق الرب. إذ فى أواخر أيامه أصابه مرض فى رجليه. ولما اشتد عليه المرض لم يطلب الشفاء من الرب. بل أرسل فى طلب السحرة والعرافين وكهنة الأصنام ليشفوه من مرضه.

ومات أسا بعد أن حكم يهوذا ٤١ سنة وخلفه ابنه يهوشافاط.

٤ - يهوشافاط بن أسا .

«يهوشافاط» اسم عبرى معناه «يهوه قضى». وقد اشترك مع والده فى الحكم فى أخريات أيامه وحكم منفردا ٢٤ سنة (٨٧٣ - ٨٤٩ ق.م). وفى إسرائيل كان أخاب بن عمرى قد تولى الحكم فى عام ٨٧٤ ق.م. أى قبل عام واحد من تولى يهوشافاط الحكم فى يهوذا ويمكن تلخيص أهم أعمال يهوشافاط فى الآتى :



شكل ٦٢ – الحرب بين أسا ملك يهوذا وتكرتى الأول فرعون مصر

يشانا
عفرة
بيت إيل
جبل زماريام
ناران
جازر
بيت حورون السفلى
بيت حورون العليا
مصفاة
مخماس
أريحا
جبعا
الرامة
جبعون
جبعة
كريات يعازيم
أورشليم

شكل ٦٣ – الحرب بين أسا ملك يهوذا وبعشا ملك إسرائيل.

الحدود بين المملكتين . ——— جيش أبيا .

دمشق
عيون
دان
أبل بيت معكة
البحر
عكا
المتوسط
حاصور
بحر الجليل
حيفا
جبل الكرمل
دور

شكل ٦٤ – استيلاء بنهدد على مدن شمال إسرائيل بتحريض من أسا ملك يهوذا .

١ - تنظيم الجهاز القضائى :

عين يهوشافاط قضاة فى كل المدن للفصل فى المنازعات وقال للقضاة (٢ أخبار ١٩:٦): «انظروا ما أنتم فاعلون لأنكم لا تقضون للإنسان بل للرب وهو معكم فى أمر القضاء. والآن لتكن هيبة الرب عليكم. احذروا وافعلوا لأنه ليس عند الرب إلهنا ظلم ولا محاباة ولا ارتشاء».

٢ - الناحية الدينية :

سار يهوشافاط فى طريق أبيه إذ عمل المستقيم فى عينى الرب. كما وضع على رأس القضاء الكاهن الأكبر «أمريا» ووضع الإجراءات الكفيلة بنشر سفر شريعة الرب بين الناس فى كل مكان من مدن يهوذا. تقول التوراة (٢ أخبار ١٧:٧): «وفى السنة الثالثة لِمُلكه أرسل إلى رؤسائه أن يقوموا ومعهم اللاويون والكاهنان الأكبران بتعليم شريعة الرب فى يهوذا. وجالوا فى جميع مدن يهوذا وعلَّموا الشعب. وكانت هيبة الرب على كل ممالك الأراضى التى حول يهوذا فلم يحاربوا يهوشافاط. وبعض الفلسطينيين أتوا يهوشافاط بهدايا وحمل فضة. والعُربان أيضا (العرب الأبناط) أتوه بغنم من الكباش ٧٧٠٠ ومن التيوس ٧٧٠٠».

٣ - تحصين البلاد :

لم يهمل يهوشافاط تحصين البلاد فبنى حصونا ومخازن للمؤن. وتذكر التوراة (٢ أخبار ١٧:١٤) أن تعداد جيشه بلغ ٩٦٠,٠٠٠ جنديا بالإضافة إلى ٢٠٠,٠٠٠ رامى بالسهام.

٤ - العلاقة مع إسرائيل :

أهم ما يميز عهد يهوشافاط هو تلك العلاقة الودية بين يهوذا وإسرائيل وإن كانت إسرائيل هى الطرف الأقوى. فقد تزوج يهورام - ولى عهد يهوذا - من عثليا ابنة أخاب ملك إسرائيل من زوجته إيزابل. وإيزابل هى ابنة أثبعل ملك صور. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٢٥٢) أنها هى التى أدخلت عبادة البعل إلى إسرائيل. وعن طريق هذه المصاهرة بين أخاب ويهوشافاط بدأت عبادة البعل تتسلل إلى يهوذا وإن لم تبلغ مبلغ الانتشار الذى وصلته فى إسرائيل الشمالية.

٥ - محاولة إحياء الأسطول البحري :

حاول يهوشافاط إحياء النفوذ البحرى ليهوذا كما عمل سليمان عليه السلام فقام ببناء السفن فى ميناء عصيون جابر. ولم يستَعِن بالفينيقيين كمل فعل سليمان بل اعتمد على نفسه. وحينما عرض عليه أخزيا ملك إسرائيل الاشتراك معه فى بناء الأسطول وفى عائد رحلاته رفض. غير أن عمال يهوذا لم يكونوا على دراية تامه ببناء السفن ولا بتسييرها لذلك فإن السفن تحطمت وهى لاتزال فى الميناء وفشل المشروع.

٦ - الحرب مع الأراميين :

بعد سنتين من المصاهرة مع إسرائيل قام يهوشافاط بزيارة ودية لصهره أخاب. وقام هذا الأخير بذبح أغنام كثيرة وبقر بهذه المناسبة وانتهزها فرصة فأغوى يهوشافاط بالإنضام إليه فى حربه لاسترداد أرض جلعاد من الأراميين وهو ما سبق ذكره (ص ٢٦٤) وقلنا إن النبى ميخا حذرهما من أن نتيجة المعركة لن تكون فى صالحهما وذكرنا أن أخاب جرح فى المعركة ومات ونقلت جثته إلى السامرة. ورجع يهوشافاط إلى بيته فى أورشليم. وتقول التوراة (٢ أخبار ١:١٩) إن «ياهو بن حنانى» الرائى خرج للقائه وقال له: أتساعد الشرير وتحب مبغضى الرب. فلذلك الغضب عليك من قبل الرب غير أنه وُجِدَ فيك أمور صالحة لأنك نزعت السوارى من الأرض وهيأت قلبك لطلب الله.

٧ - تحالف ثلاثي ضد يهوذا :

تحالف ملوك مؤاب وبنى عمون وأدوم ضد يهوذا. واجتمعت جيوشهم فى تامار ٣٥كم جنوب غرب الطرف الجنوبى للبحر الميت (شكل ٦٥). وتقول التوراة (٢ أخبار ٢٠ : ٦) «فخاف يهوشافاط وجعل وجهه ليطلب الرب ونادى بصوم فى كل يهوذا. واجتمع يهوذا ليسألوا الرب فوقف يهوشافاط فى جماعة يهوذا وأورشليم فى بيت الرب أمام الدار الجديدة وقال: يارب إله آبائنا. أما أنت هو الله فى السماء وأنت المتسلط على جميع ممالك الأرض وبيدك قوة وجبروت وليس من يقف أمامك. ألست أنت إلهنا الذى طردت سكان هذه الأرض من أمام شعبك إسرائيل وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلى الأبد فسكنوا فيها وبنوا لك فيها مقدسا لاسمك قائلين: إذا جاء علينا شرٌ. سيف قضاء أو جاء جوع ووقفنا أمام هذا البيت وأمامك لأن اسمك فى هذا البيت وصرخنا إليك من ضيقنا فإنك تسمع وتُخلِّص. والآن هوذا بنو عمون ومؤاب وجبل سعير (أدوم) الذين لم تدع إسرائيل يدخلون إليهم حين جاءوا من أرض مصر بل مالوا عنهم ولم يهلكوهم. فهو ذا هم يكافئوننا بمجيئهم لطردنا من مُلكك الذى ملَّكتنا إياه. يا إلهنا أما تقضى عليهم لأنه ليس فينا قوة أمام هذا الجمهور الكثير الآتى علينا ونحن لا نعلم ماذا نعمل. ولكن نحوك أعيننا. وكان كل يهوذا واقفين أمام الرب فى أطفالهم ونسائهم وبنيهم».

وكان فى المدينة أحد اللاويين اسمه «**يحزئيل بن زكريا**» نزل عليه الوحى يأمره بأن يشجِّع الشعب ويعدهم بتأييد الرب (٢ أخبار ٢٠ : ١٥) فقال: «اصغوا يا جميع يهوذا وسكان أورشليم وأيها الملك يهوشافاط. هكذا قال الرب لكم: لا تخافوا ولا ترتاعوا بسبب هذا الجمهور لأن الحرب ليست لكم بل لله. ليس عليكم أن تحاربوا. قفوا واثبتوا وانظروا خلاص الرب. فخرَّ يهوشافاط ساجدا على الأرض وكل يهوذا وسكان أورشليم سقطوا سجودا أمام الرب وقام اللاويون ليسبِّحوا للرب بصوت عظيم جدا. ووقف يهوشافاط وقال: اسمعوا يايهوذا وسكان

أورشليم. آمنوا بالرب إلهكم فتأمنوا. آمنوا بأنبيائه فتُفلحوا. وأقام مغنيين للرب ومسبِّحين وبدأوا فى الغناءوالتسبيح».

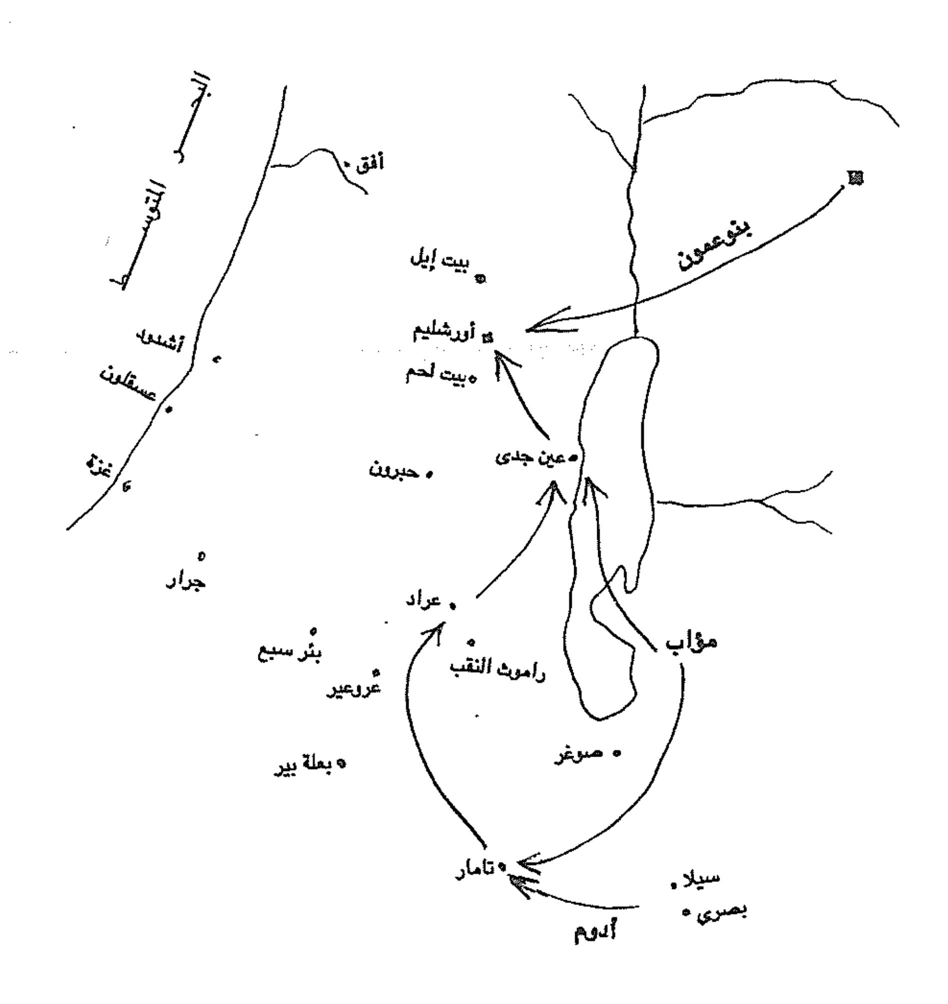
وكان بعض الجنود من مؤاب قد أتوا بقوارب عبر البحر الميت. بينما الآخرون مع أدوم اجتمعوا فى تامار ثم تقدموا برا ناحية عين جدى حيث حدَّدوها مكانا للتجمع قبل الهجوم على أورشليم. وألقى الرب الخبال فى صفوف الجيوش المهاجمة وبدأت فرقه تقاتل بعضها البعض ظنا منهم أنهم بنو يهوذا. فقام بنوعمون ومؤاب على الأدوميين. ثم اقتتل بنوعمون والمؤابيون. ولما جاء جنود يهوذا إلى أرض المعركة وجدوا جثثا ساقطة وكفاهم الله شر القتال وبدأوا فى جمع الغنائم وكانت من الكثرة بحيث أمضوا ثلاثة أيام فى جمعها. وفى اليوم الرابع عادوا ودخلوا أورشليم بالرباب والعيدان والأبواق. وفرض الجزية على الدول الثلاث.

وتوفى يهوشافاط بعد أن حكم ٢٦ سنة (٨٧٥ - ٨٤٩ ق.م.) وملك بعده ابنه يهورام.

٥ - يهورام بن يهوشافاط

خَلَفَ يهورام والده وحكم ٨ سنوات. وكان قد تزوج - كما سبق أن ذكرنا من «عثليا» بنت أخاب ملك إسرائيل من زوجته إيزابل ابنة أثبعل ملك صور. وكانت عثليا تتصف بصفات أمها السيئة ومتشبعة بعبادة البعل وقاسية وتحب الشر وتبطش بالأبرياء. وعلى ما يبدو كان يهورام ضعيفا أمامها فجاراها أو لعلها هى التى كانت تملى عليه السياسة التى تريدها. فما إن تولى الحكم حتى قتل إخوته الستة بالسيف إلا أن ابنا صغيرا هو «أخزيا» نجا من القتل. كما قتل يهورام بعض النبلاء ورجال البلاط. وفى عهده دخلت عبادة البعل إلى يهوذا بل إنه عمل على تثبيتها كديانة رسمية للبلاد.

وأرسل له النبى إلياس عليه السلام (إيليا) يوبِّخه على هذا الضلال (٢ أخبار ٢١:١٢): «وأتت إليه كتابة من إيليا النبى تقول: هكذا قال الرب إله داود أبيك، من أجل أنك لم تسلك فى طريق يهوشافاط أبيك وطرق أسا ملوك يهوذا بل سلكت فى طرق ملوك إسرائيل وجعلت يهوذا وسكان أورشليم يضلُّون كبيت أخاب. وقتلت أيضا إخوتك من بيت أبيك الذين هم أفضل منك. هوذا يضرب الرب بيتك ونساءك وكل مالك ضربة عظيمة وإياك بأمراض كثيرة. بداء أمعائك حتى تخرج أمعاؤك بسبب المرض يوما فيوم. وأهاج الرب على يهورام الفلسطينيين والعرب (النبط فى شمال الجزيرة العربية) فصعدوا إلى يهوذا وافتتحوها وسبوا كل الأموال الموجودة فى بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضا ولم يبق له إلا أصغر بنيه. بعد هذا كله ضربه الرب فى أمعائه بمرض ليس له شفاء ظل يتعذب منه باقى أيام حياته». وسلَّط الله عليه الفلسطينيين فأغاروا على المدن الواقعة فى الجزء الغربى من يهوذا ونهبوها. وانتهزت أدوم الفرصة وأطاحت بولائها ليهوذا



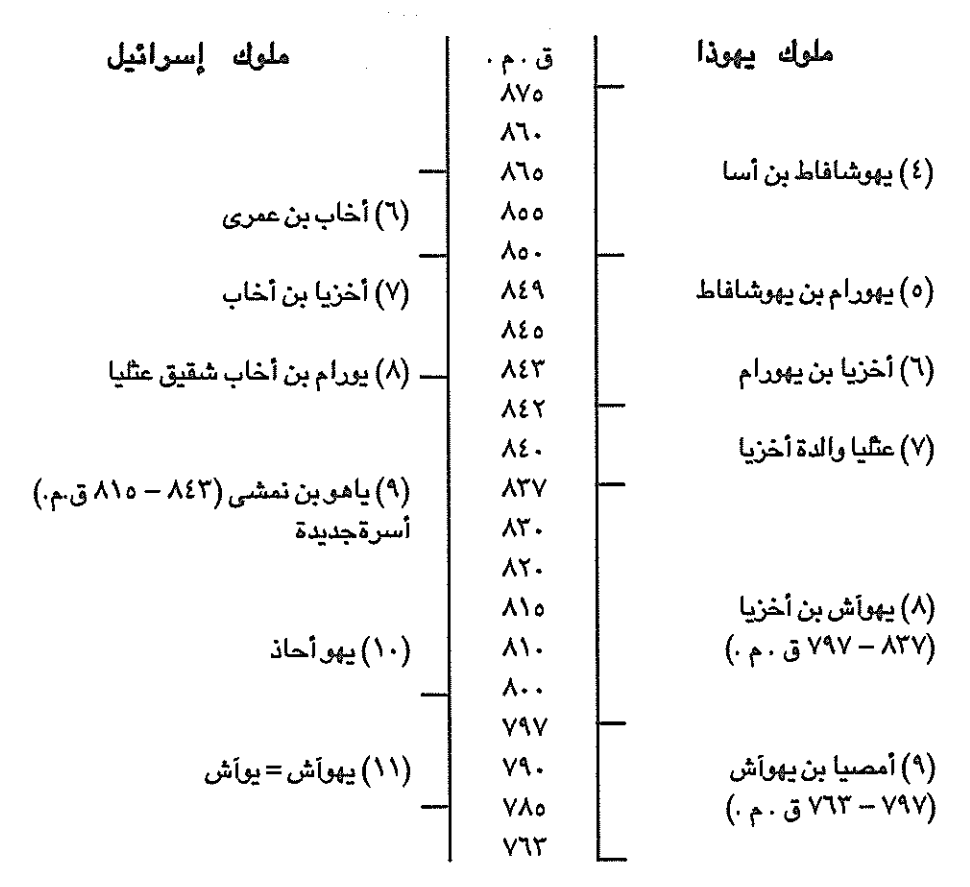
شكل ٦٥ – تحالف مؤاب وأدوم وبنى عمون ضد يهوذا .

وامتنعت عن دفع الجزية. وحاول استعادة نفوذة فى أدوم بحملة عسكرية فشلت. كما هاجمت القبائل العربية الساكنة فى سيناء مدن النقب وجنوب المملكة ونهبوها. وتوفى يهورام بعد أن أفقر البلاد اقتصاديا وأضاع هيبتها السياسية وتوفى غير مأسوف عليه ودُفِنَ فى مدينة داود ولكن ليس فى قبور الملوك.

وتولى الحكم بعده ابنه «أخزيا».

٦ - أخزيا بن يهورام

بعد وفاة يهورام نادى سكان أورشليم بابنه «أخزيا» ملكا مكانه. ولا بأس من إدراج جزء من شجرة النسب فى كلا المملكتين حتى لا يلتبس الأمر على القارىء بين أخزيا بن يهورام سادس ملوك يهوذا وأخزيا بن أخاب سابع ملوك إسرائيل وبين يهوآش ثامن ملوك يهوذا ويهوآش الملك رقم ١١ فى سلسلة ملوك إسرائيل.



وحكم أخزيا سنة واحدة. وكان فيها خاضعا لمشورة والدته عثليا ومستشاريها فسار فى طريق الشر وعبادة البعل. وقد ذكرنا سابقا (ص ٢٦٧) تحالفه مع خاله يورام بن أخاب لمحاربة أرام. وكيف أن يورام ملك إسرائيل جرح فى المعركة ولما عاد إلى يزرعيل ليستشفى دخل عليه ياهو بن نمشى وقتله . وطارد أخزيا ملك يهوذا حتى لحقه عند مجدو وقتله هو ومن معه من أسرته وبطانته.

٧ - عثليا والدة أخزيا

ما إن وصلت الأخبار إلى أورشليم وتعلم عثليا بمقتل ابنها أخزيا - وقد كانت شديدة الرغبة فى العرش - حتى قامت بقتل كل أبناء الأسرة المالكة الذين لهم حق ولاية العرش وأعلنت نفسها ملكة على يهوذا . وأعلنت عبادة «بعل» إله صور ديانة رسمية. ولم ينج من مذبحة عثليا للبيت المالك سوى ابن صغير لأخزيا من زوجة أخرى غير عثليا - كان رضيعا واسمه «يهوآش» واختصاراً «يوآش». خبأته امرأة الكاهن فى بيت الله ٦ سنوات تقول التوراة: (٢ أخبار ١٢:٢٢): «وأما يهوشبعة فأخذت يوآش ابن أخزيا وسرقته من وسط بنى الملك الذين قتلوا وجعلته هو ومرضعته فى مخدع السرير فلم تقتله عثليا وكان معهم فى بيت الله مختبئا ٦ سنين». وفى السنة السابعة أظهرته عمته وحملته إلى الهيكل وعمل الكاهن الأكبر «يهو دا ع» - زوج يهوشبعة - على مبايعة «يهوآش» ملكا على البلاد. وأُخذت البيعة له من رؤساء المئات وقواد الجيش. فتملك عثليا الغضب وخشيت أن يضيع العرش من يدها فأسرعت إلى الهيكل واتهمت يهوداع بتدبير مؤامرة ضدها مستغلا يوآش فيها . فأمر الكاهن قواد الجيش «وقال لهم أخرجوها إلى خارج الصفوف والذى يتبعها اقتلوه بالسيف لأن الكاهن قال لا تُقتل فى بيت الرب. فأخذوها إلى بيت الملك وقتلت هناك (٢ ملوك ١١:١٥). وقطع الكاهن عهدا بين الرب وبين الملك والشعب ليكونوا شعبا للرب. ودخل جميع الشعب إلى بيت البعل وهدموا مذابحه وكسّروا تماثيله تماما وقتلوا كاهن البعل أمام المذبح وهكذا انتهت فتنة البعل وكهنته وقُتلت عثليا بعد أن حكمت يهوذا ست سنوات. وأنزلوا الملك الصغير من بيت الرب وأجلسوه على كرسى العرش وأعلنوه ملكا على يهوذا وعمره ٧ سنوات».

٨ - يهوآش = يوآش بن أخزيا

نجح الكاهن يهوداع فى إجلاس يوآش بن أخزيا ملكا على عرش يهوذا وبذلك عاد الحكم لبيت داود. واستمر الكاهن يهوداع يباشر وصايته على العرش ويباشر نفوذه الدينى وربما السياسى كذلك. فظلت الدولة متماسكة ومتمسكة بأوامر الرب. إلا أنه بعد وفاة الكاهن يهوداع تغيّرت الأمور وعادت عبادة البعل مرة ثانية وعبدوا السوارى والأصنام وكان الملك صغير السن

غير متمرِّس على السياسة فلم يستطع مقاومة هذا التيار. وتقول التوراة: (٢ أخبار ٢٤:٢٠) «فأرسل الرب إليهم أنبياء لإرجاعهم إلى الرب فلم يُصغوا لهم. ولبس روح الله «زكريا بن يهوداع الكاهن» (أى نزل عليه الوحى وصار نبيا) فوقف فوق الشعب وقال لهم: هكذا يقول الله: لماذا تتعدّون وصايا الرب فلا تفلحون؟ لأنكم تركتم الرب فقد ترككم. ففتنوا عليه (أى قاموا عليه بفتنة ومؤامرة) ورجموه بحجارة بأمر الملك فى دار بيت الرب وقتله». وهكذا فإن يوآش لم يرد الجميل الذى صنعه معه الكاهن يهوداع الذى حماه من القتل وربّاه فى بيت الرب وأجلسه على العرش. بل قتل ابنه زكريا. كما أن يوآش – نظرا لسوء الحالة الاقتصادية فى البلاد – وكانت إصلاحات بيت الرب يتكفَّل بها الملك وتدفع من خزانة القصر – إلا أن يوآش جعلها تدفع من تقدمات الأفراد ومن مخصصات المعبد مما أغضب الكهنة.

وحدث أمر آخر – ذلك أن حزائيل ملك دمشق قام بغزو يهوذا واقترب من أورشليم نفسها فقدم له يوآش كل الذهب الموجود فى خزائن بيت الرب وبيت الملك. فاكتفى حزائيل بهذه الغنيمة ولم يهاجم أورشليم وعاد إلى بلده. ولكن هذا التصرف أغضب رجال الدين والشعب إذ عدّوه ضعفا وتهاونا واعتداء على المقدسات. فقام عليه بنو يهوداع الكاهن وقتلوه بدم زكريا أخيهم بعد أن حكم ٣٧ عاما. ودفن فى مدينة داود فى أورشليم ولكن ليس فى قبور الملوك. وملّك ابنه أمصيا بدلا منه.

٩ – أمصيا بن يوآش Amazieh

فور توليه الحكم قام أمصيا بقتل قاتلى والده. وأما بنوهم فلم يقتلهم عملا بشريعة موسى حيث أمر الرب: «لا تموت الآباء لأجل البنين ولا البنون يموتون لأجل الآباء. بل كل واحد يموت لأجل خطيئته» (٢ أخبار ٢٥:٤). ثم بدأ فى تقوية البلاد فأعاد تنظيم بيوت الآباء والرؤساء (رؤساء العشائر) وعمل إحصاء للشعب وكوّن جيشا قويا بلغ ٣٠٠,٠٠٠ جنديا.

الحرب مع أدوم :

كانت أدوم (سعير) دائما تابعة ليهوذا. وقد ذكرنا سابقا (ص ٣٢٦) كيف أنها امتنعت عن دفع الجزية فى أواخر حكم جده يهورام مما كان له أثر سيىء على أحوال يهوذا الاقتصادية. فضلا عن فقدان يهوذا سيطرتها على طرق تجارة بلاد العرب وجنوب العراق المارة عبر سيناء إلى مصر. فانتوى أمصيا الحرب مع سعير. ورغبة فى زيادة قدرته الهجومية فإنه استأجر ١٠٠,٠٠٠ من جنود إسرائيل الشمالية من سبط أفرايم بمائة وزنة من الفضة (وزنة الفضة ٦٠ شاقل – والشاقل ١١,٤جم – فيكون المبلغ كله ٦٨,٤ كيلو جراما من الفضة) . وجاء إليه

رجل الله (أحد الأنبياء الصغار ولم تذكر التوراة اسمه) قائلا (٢ أخبار ٧:٢٥) «أيها الملك. لا يأتى معك جيش إسرائيل لإن الرب ليس مع إسرائيل» ثم أمره أن يذهب ويحارب وحده ويتشجع وسيكون الرب معه. فقال أمصيا لرجل الله: فماذا يُعمل لأجل المائة وزنة التى أعطيتها لجنود إسرائيل؟ فقال رجل الله: إن الرب قادر على أن يعطيك أكثر منها. فأفرز أمصيا الجنود الأجراء الذين جاءوا إليه من أفرايم وأمرهم بعدم الاشتراك فى الحرب والعودة لبلادهم. وقاد أمصيا جيشه وحارب بنى سعير (أدوم) وقتل منهم ١٠٠,٠٠٠ وأسر ١٠٠,٠٠٠ ساقهم أحياء إلى مدينة البتراء المبنية على صخرة عالية جداً وأمر جنوده بطرح الأسرى من فوقها فماتوا جميعا. أما الجنود الذين كان قد استأجرهم من أفرايم فإنهم غضبوا لمنعهم من الاشتراك فى الحرب وبالتالى حرمانهم من الغنائم. لذلك فإنهم – فى طريق عودتهم إلى بلادهم – اقتحموا عدة مدن فى يهوذا وقتلوا ٣٠٠٠ فردا ونهبوا نهبا كثيرا.

تقول التوراة (٢ أخبار ١٤:٢٥) إن أمصيا بعد عودته من حرب سعير أتى بآلهة بنى سعير وسجد لها وقدم لها القرابين. فأرسل الله له نبيا يوبخه على فعله هذا ويبين له أن هذه الآلهة لو كان بيدها شيىء لساعدت أهل سعير الذين كانوا يعبدونها. فقاطعه أمصيا وأمره بالسكوت وهدَّده بالقتل. فقال له النبى: «قد علمتُ أن الله قد قضى بهلاكك لأنك عملت هذا ولم تسمع مشورتى». وينفى بعض مفسِّرى أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس – جاميسون وفاوست – جـ ٢ ص ٣٢٣) أن يكون أمصيا قد ضل هذا الضلال. ويرون أنه كانت عنده فكره مشوَّشه عن الإله. وهو يدرك أن يهوه هو إله إسرائيل. ومع ذلك كان يرى أن لكل شعب إلهه. فأراد أن يحرم أهل سعير من آلهتهم فأحضرها معه ووضعها – احتراما لها – فى المعبد. أما الأتقياء من شعبه فكانوا يرون الرب «يهوه» هو الإله الواحد لا سواه. ووضع أى آلهة أخرى بجانبه – أو حتى تحت إمرته – هى خطية كبرى.

الحرب مع إسرائيل :

قرر أمصيا حرب إسرائيل جزاء على ما فعله الجنود الأجراء أثناء عودتهم لبلادهم – وربما طمعا فى أن يستطيع استرداد الفضة التى دفعها لاستئجارهم. ولما علم يوآش الذى كان ملكا على إسرائيل فى ذلك الوقت أرسل له يحذِّره من أن يغتر بقوَّته بعد أن هزم الأدوميين وقال له: «فالآن أقم فى بيتك. لماذا تهجم على الشر فتسقط أنت ويهوذا معك؟» فلم يسمع أمصيا له إذ أعماه الله عن الصواب. ولعل ذلك كان عقابا له من الله جزاء ما فعله من تبجيل آلهة أخرى. وجاء يوآش ملك إسرائيل بجيشه ودارت المعركة عند مدينة «بيت شميس Beth Shemesh» ٢٥كم غربى أورشليم وانهزم أمصيا وأسره يوآش. ثم تقدم إلى أورشليم وهدم جزاء كبيرا من سورها وأخذ كل الذهب والفضة وكل الآنية الموجودة فى بيت الله وخزائن بيت الملك ورجع إلى السامرة بعد أن أطلق سراح أمصيا وتركه حاكما ليهوذا وربما كتابع له.

انخفضت شعبية أمصيا كثيرا بعد هذه المعركة الفاشلة وبسبب انغماسه فى عبادة الأصنام. فثار عليه الشعب فى أورشليم فهرب إلى لخيش فى مدن الفلسطينيين فأرسلوا وراءه جندا قبضوا عليه وقتلوه هناك وأحضروا جثته ودفنوها فى مدينة داود فى أورشليم وكان قد حكم ٣٤ سنة (٧٩٧ – ٧٦٣ ق . م .) وملك بعده ابنه عُزيا.

١٠ – عُزِّيًا بن أمصيا Uzziah

ملك عُزِّيًا على يهوذا بعد مقتل والده أمصيا. وكان تقيا يتبع تعاليم الرب وكان فى زمانه نبى اسمه زكريا (وهو غير زكريا بن يهوداع الذى قتله يهوآش جده) وكان يتبع توجيهاته فأنجح الله أعماله. ويمكن تلخيص أعماله فى:

١ – تحصين البلاد :

بنى ما كان قد تهدم من أسوار أورشليم وبنى أبراجا عند أبوابها وحصَّنها وكان له جيش بلغ ٣٠٧,٥٠٠ مقاتل وهيأ له الدروع والرماح والخوذ والقِسِيّ. وعمل فى أورشليم منجنيقات لتكون على الأبراج والزوايا لترمى الحجارة العظيمة.

٢ – الاهتمام بالزراعة :

اهتم كذلك بالزراعة فحفر آبارا كثيرة وأقام خزانات لمياه الأمطار وحمى قطعانه فى البرية من غارات البدو فبنى أبراجا لاتزال آثارها باقية إلى اليوم ويمكن معرفتها بقطع الخزف الملونة التى يرجع تاريخها إلى عصره.

٣ – العلاقة مع إسرائيل :

قام عُزِّيا بإصلاح الصدع السياسى بين إسرائيل ويهوذا ونتج عن ذلك انصرافهما إلى التجارة مما عاد بالنفع عليهما وبدأ الرخاء يتسلل إلى الحياة العامة.

٤ – حربه مع الفلسطينيين :

هاجم مدينتى جت وأشدود. وهما من مدن الفلسطينيين الخمس الكبرى وكذلك هاجم مدينة «يبنة» قرب ميناء يافا. وقد اشتهرت مدينة جت بكونها مسكنا لبقية العناقيين الجبابرة طوال القامة وتقع ٤٠ كم جنوب ميناء يافا.

٥ – حربه مع القبائل العربية :

حارب عزيا القبائل العربية التى كانت فى مدينة «جور بعل» والتى يظن أنها البتراء. وكذلك قبائل المعينيين الذين كانوا يقطنون فى شمال غرب الجزيرة العربية. وإن كان بعض علماء التاريخ ينسبها إلى مدينة «معان» فى أرض أدوم. وتابع فتوحاته الجنوبية فى شمال سيناء حتى حدود مصر.

٦ - بنى عمون :

حارب بنى عمون وقدموا له هدايا وفرض عليهم الجزية .

وقد قويت مملكة يهوذا أيام عُزيا وسادها الرخاء وهو مالم تشهده منذ أيام سليمان عليه السلام.

نهاية عزِّيا :

لما قويت المملكة وساد الرخاء نسى عزِّيا الرب ونسى تعاليم الشريعة فدخل هيكل الرب ليوقد على مذبح البخور فمنعه عزريا Azariah رئيس الكهنة ومعه ٨٠ من الكهنة وقالوا له: ليس لك ياعزِّيا أن توقد للرب. بل للكهنة بنى هارون المقدسين للإيقاد. اخرج من المقدس لأنك خنت وليس لك من كرامة عند الرب الإله (٢ أخبار ٢٦ : ١٧) فحنق عزيا. وبينما لاتزال مجمرة البخور فى يده ضربه الرب بالبَرَص فبادر إلى الخروج من المقدس واعتزل الناس وأقام فى مايمكن تسميته بمكان عزل المرضى وتولى ابنه يوثام تصريف أمور المملكة إلى أن توفى فملَك بعده.

١١ - يوثام بن عزيا

ملك «يوثام بن عزيا» على أورشليم ٤ سنوات (٧٤٠ - ٧٣٦ ق . م .). وسار على طريق الرب. كما استكمل التحصينات التى بدأها والده فأعاد بناء الباب الأعلى فى بيت الرب. وبنى مدنا فى جبل يهوذا وبنى قلاعا وأبراجا فى الغابات وعلى طرق القوافل. مما يدل على أن المملكة كانت فى فترة رخاء نسبى. كذلك فإن الصراع بين أشور الصاعدة والدويلات الأرامية حوَّل عنه الخطر الذى كان دائما يتهدد يهوذا من الأراميين مما أتاح له فرصة الهجوم على بنى عمون وفرض عليهم الجزية ظلوا يدفعونها له لمدة ٣ سنوات وكانت تتكون من ١٠٠ وزنة من الفضة و ١٠,٠٠٠ شوال قمح و ١٠,٠٠٠ شوال شعير. ثم توفى يوثام وملك ابنك أحاز بدلا منه.

١٢- آحاز بن يوثام

كان آحاز فى العشرين من عمره حين ملك على يهوذا. ولكنه سار فى طريق الضلال فصنع تماثيل للبعل وأوقد على المرتفعات فكان أن سلَّط الله عليه الأعداء من كل جانب :

١ - هاجمه ملك أرام دمشق وسبى منه سبيا كثيرا أتى بهم إلى دمشق. وزاد آحاز ضلالاً بأن ضحَّى لآلهة دمشق وطلب عونها إذ اعتقد أنها الآلهة الأقوى ولذلك انتصرت دمشق عليه. بل إنه شيد مذبحا فى معبد أورشليم على النمط الذى رآه فى دمشق وقدم عليه القرابين.

٢ - **هاجمه ملك إسرائيل** «فقح بن رمليا» وهو ما سبق ذكره (ص ٣٠٢) وضربه ضربة عظيمة وقتل ١٢٠,٠٠٠ فى يوم واحد. كما قتلوا ابن الملك ورئيس البيت وسبى إسرائيل ٢٠٠,٠٠٠ من النساء والبنين والبنات ونهبوا أيضا غنيمة وافرة وعادوا بالسبى والغنائم إلى السامرة. وخرج **النبى عوديد** للقاء جيش إسرائيل المنتصر والعائد إلى السامرة وأخبرهم أن الله سلّطهم على يهوذا ليعاقبهم على ضلالهم. ولكن قسوتهم فى معاملة إخوانهم قد أغضبت السماء وندّد بما فعلوه من قتل وسبى وذكّرهم بأنهم أيضا لهم خطاياهم ونصحهم بإطلاق سراح الأسرى. واستمع له رجال إسرائيل وأطلقوا سراح الأسرى وألبسوهم كسوة وأطعموهم وسقوهم وحملوهم على حمير وأتوا بهم إلى أريحا وتركوهم ليعودوا إلى يهوذا وعادوا هم إلى السامرة كما سبق ذكره.

٣ - التحالف مع أشور :

كان النبى إشعياء معاصرا لآحاز وجاء إليه ونصحه بعدم معاداة أشور. وقاد النبى إشعياء الحركة ضد الحلف المعادى لأشور. وكان يرى أن الأمر فى حقيقته نزاع بين أشور ومصر وأن يهوذا يجب أن تقف موقف الحياد ومن ثم بدأ يدعو الملك والشعب إلى البعد عن الأحلاف وأن يضعوا ثقتهم فى ربهم «يهوه». وحدث أن دمشق وإسرائيل بدأتا فى تكوين حلف ضد أشور. ورأوا أن لا يكون يهوذا شوكة فى ظهرهم وذلك بأن يغزوه ويخضعوه لنفوذهم. فتحالف «رصين» ملك دمشق و«فقح بن رمليا» ملك إسرائيل ضد يهوذا. وعلم آحاز بذلك «فوجف قلبه وقلوب شعبه. فقال الرب لأشعياء (أشعياء ٧:١) اخرج لملاقاة آحاز وقل له اهدأ لا تخف ولا يضعف قلبك لأن أرام تآمرت عليك بشرٍّ مع ابن رمليا قائلة نصعد على يهوذا ونستفتحها لأنفسنا. هكذا يقول السيد الرب. هذا لن يكون. لأن رأس أرام دمشق ورأس ابن رمليا والسامرة ينكسر».

ولكن آحاز لم يكن إيمانه بالله صادقا ولم يتوكل على الله ورأى أن الوسيلة لحفظ ملكه هى بالتحالف مع ملك أشور. فأرسل أحاز رسلا إلى تغلات بلاسر ملك أشور قائلا: أنا عبدك وابنك. اصعد وخلصنى من يد ملك أرام ومن يد ملك إسرائيل القائمين علىَّ (وقد سبق ذكر ذلك ص ٣٠٢ عند الكلام على فقح بن رمليا ملك إسرائيل). وأخذ آحاز الفضة والذهب الموجودة فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك وأرسلها إلى ملك أشور هدية. فسمع له ملك أشور وصعد إلى دمشق وأخذها وسبى أهلها وقتل رصين ملك دمشق وبذلك انتهت دولة دمشق الأرامية وأنقذ أورشليم من السقوط. وفى المقابل فرض على آحاز دفع الجزية لأشور. وفى نقش لتجلات بلاسر الأشورى نجد اسم آحاز مذكورا فيمن كانوا يدفعون الجزية لأشور ضمن آخرين مثل ملوك حماة وأرڤاد ومؤاب وغزة وعسقلون وأدوم و ... وغيرهم. وكانت الجزية المقررة على يهوذا تتكون من ذهب وفضة ورصاص وحديد وقصدير وملابس صوفية زاهية الألوان وكتان وجميع المنتجات الثمينة فى بلاده وأحصنة وبغال.

ولكن الأخطر من هذا كله أن آحاز تأثر بالمعتقدات الأشورية فأدخل فى يهوذا طقوس التضحية بالطفل التى كان يمارسها الأشوريون. حتى إنه قدَّم ابنه الوحيد لنيران «مردوخ» إله الأشوريين. وفى نفس الوقت أدخل فى المعبد تماثيل للخيول المقدسة كتعبير عن الولاء لمعبودات أشور إرضاء لملك أشور.

٤ - **نقض الأدوميون** ولاءهم ليهوذا واستولوا على ميناء إيلات.

٥ - **الفلسطينيون** : تقول التوراة (٢ أخبار ٢٨ : ١٦) «وسلط الله عليه (على آحاز) الفلسطينيين وأخذوا بيت شميس وأيلون وجديروث وسوكو وتمنة وجمزو. (شكل ٦٦) واضطر سكان يهوذا إلى التراجع والسكنى فى منطقة جبال يهوذا وخاصة فى أورشليم وما حولها. وزاد من ازدحام أورشليم أن كثيرين من سكان إسرائيل الشمالية أتوا إلى يهوذا هربا من قسوة تجلات بلاسر الأشورى.

زيادة ضلال آحاز :

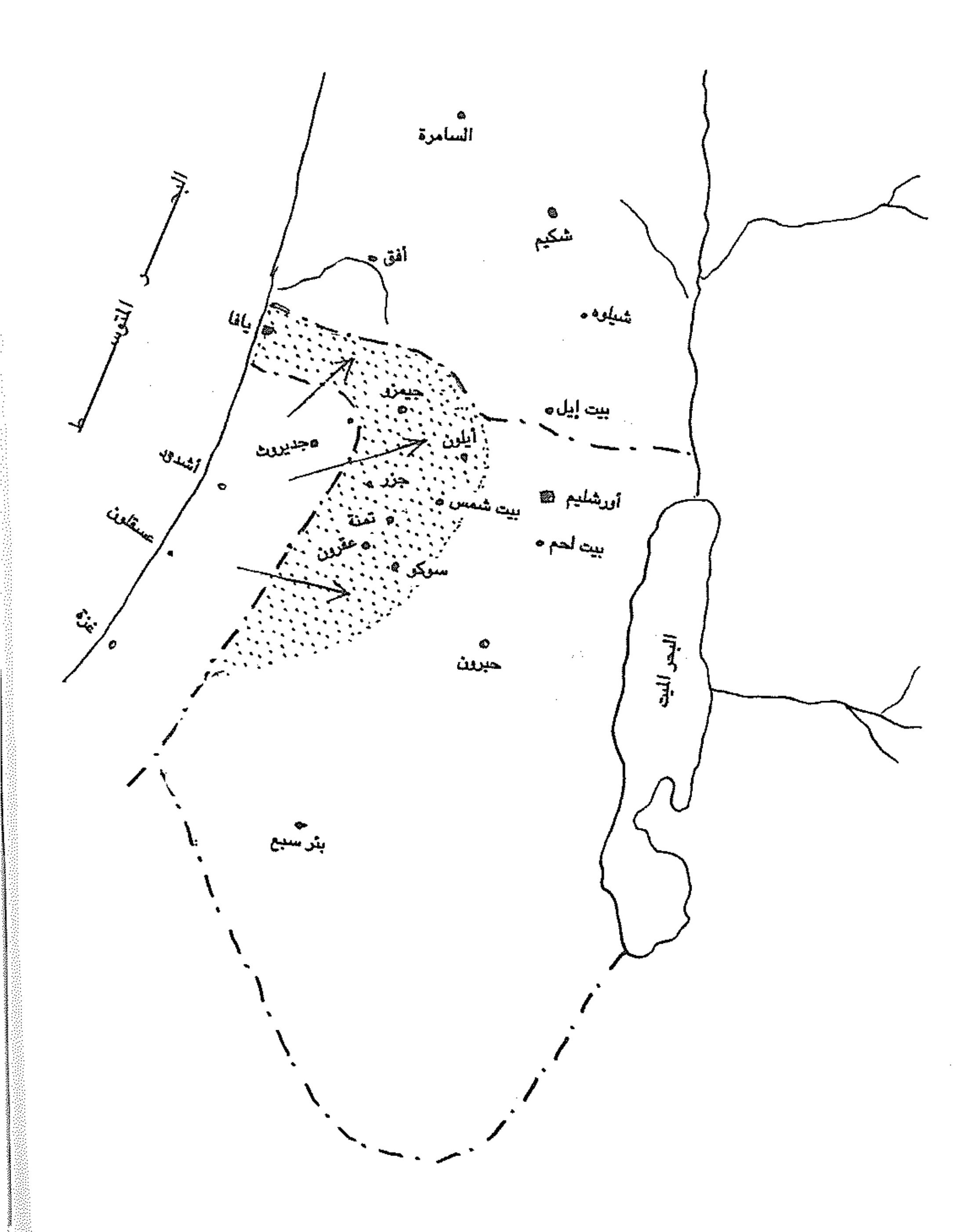
(٢ أخبار ٢٨ : ٢٢) «وفى ضيقه زاد آحاز خيانة للرب وذبح لآلهة دمشق وقال لأن آلهة ملوك أرام تساعدهم أنا أذبح لهم فيساعدونني. وجمع آحاز آنية بيت الرب وقطعها وأغلق أبواب بيت الرب وعمل لنفسه مذابح فى كل زاوية فى أورشليم. وفى كل مدينة فى يهوذا عمل مرتفعات للإيقاد لآلهة أخرى. وأسخط الرب إله آبائه». وقامت ثورة من بعض من أغضبهم ضلال آحاز قُتِلَ فيها ابنه ورئيس وزرائه ولكن آحاز نفسه نجا من القتل. وظل يحكم يهوذا وأخيرا مات غير مأسوف عليه عام ٧٢٥ ق . م . بعد أن حكم لمدة ١٠ سنوات .

١٣ - الملك حزقيا بن آحاز Hezekiah

حَزَقيا أو حِزْقيا اسم عبرى معناه «الرب قد قوَّى» أو «الرب قوة» وهو ابن آحاز ملك يهوذا وحكم لمدة ٢٨ سنة (٧٢٥ - ٦٩٧ ق.م.) ويمكن تلخيص أهم أعماله فى الآتى:

١ - السير فى طريق الرب المستقيم :

فى السنة الأولى من حكمه فتح حزقيا أبواب بيت الرب ورمَّمها وأرجع الكهنة اللاويين وجمعهم وأمرهم أن يُقدِّسوا بيت الرب وأن يخرجوا النجاسة منه وذكر لهم ما كان من ضلال آحاز فكان أن أسلمه الرب إلى أعدائه (٢ أخبار ٢٩ : ٢٥) «وقال لهم: اسمعوا لى أيها اللاويون. تقدَّسوا الآن وقدِّسوا بيت الرب إله آبائكم وأخرجوا النجاسة من القدس لأن آباءنا خانوا وعملوا الشر فى عينى الرب إلهنا. وتركوا وحوَّلوا وجوههم عن مسكن الرب وأغلقوا أبواب الرواق وأطفأوا السُرُج ولم يوقدوا بخورا ولم يصعدوا محرقة فى القدس لإله إسرائيل فكان



شكل ٦٦ – المنطقة التى استولى عليها الفلسطينيون من أرض يهوذا أيام الملك أحاز بن يوثام .

غضب الرب على يهوذا وأورشليم وأسلمهم للعدو. وهوذا قد سقط آباؤنا بالسيف وبنونا وبناتنا ونساؤنا فى السبى لأجل هذا. والآن فى قلبى أن أقطع عهدا مع الرب إله إسرائيل فيرد عنا حمو غضبه. يابَنِىّ. لا تضلوا الآن لأن الرب اختاركم لكى تقفوا أمامه وتخدموه وتكونوا خادمين وموقدين له. فقام الكهنة وطهَّروا الهيكل من النجاسة التى كان آحاز قد أدخلها فيه. وأعادوا الآنية التى كان آحاز قد طرحها. وقدَّم الكهنة ذبائح خطية حسب الشريعة عن كل إسرائيل وبعد أن سبَّحوا سجدوا للرب».

وأرسل حزقيا رسلا إلى جميع إسرائيل ويهوذا ومنسى (شرق الأردن) كى يأتوا إلى بيت الرب فى أورشليم ليعملوا فصحا للرب. وكان هذا العيد قد أوقف منذ زمن طويل. وكان معظم الشعب يهزأ بالرسل. ولكن بعض الشعب آمن وأتى إلى أورشليم وعملوا عيد الفصح وعيد الفطير. وقدَّم حزقيا ذبائح سلامة ١٠٠ ثور و ٧٠٠ من الضأن. والرؤساء قدموا ١٠٠٠ ثور و ١٠,٠٠٠ من الضأن. وكان فرح عظيم فى أورشليم لأنه من أيام سليمان بن داود لم يكن كهذا فى أورشليم (٢ أخبار ٣٠:٢٥). وقام الكهنة اللاويون وباركوا الشعب. وخرج الشعب وكسَّروا الأنصاب وقطعوا السوارى وهدموا المرتفعات والمذابح فى كل مدن يهوذا وبنيامين وأفرايم ومنسًى. وجاء بنو إسرائيل وبنو يهوذا بالزكاة المفروضة على أوائل الحنطة والزيت والعسل ومن كل غلة الحقل وهى العشر. وعشر البقر والضأن والغنم.

لاشك أن سرجون الثانى ملك أشور قد استاء من دبلوماسية حزقيا ومحاولته التقريب بين يهوذا وإسرائيل إذ أن تحالفا كهذا يمكن أن يشكل قوه تستطيع الوقوف فى وجه أطماعه. من هنا كان إسراعه باستكمال ما بدأه سلفه شلمناصر الخامس من الاستيلاء على إسرائيل الشمالية إلى أن سقطت السامرة فى عام ٧٢٢ ق.م. ولاشك أن سقوط السامرة فى يد الأشوريين وتهجير أهلها إلى الفرات الأعلى فى السنة السادسة من حكم حزقيا كان له دوىٌ عالٍ فى يهوذا. صحيح أنه كان هناك تنافسا – وصل إلى حد العداء أحيانا – بين المملكتين إلا أن سقوط الشقيقة جعل يهوذا تتوقع نفس المصير. وخاصة أنها كانت قد بدأت تسير فى نفس طريق الضلال بعبادة الأصنام التى أدخلتها عثليا أيام أخزيا بن يهودام وأصبح للأوثان حزب قوى فى البلاد وفى البلاط الملكى أيضا. ولعل الآية التى تنطبق على ذلك الحال هى قوله تعالى:

«وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» . (١٦ – الإسراء).

«ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون» . (١٣١ – الأنعام).

فكانت إرادة الله أن يتولى الأمر فى يهوذا ملوك يسيرون فى الضلال ويفسقوا فيها فيحق عليها القول وتنال جزاءها. ولقد حاول حزقيا جهده فى تجنب مصير كمصير المملكة الشمالية.

فسار فى طريق الرب واهتم بتحصين البلاد وخاصة العاصمة أورشليم واستمع إلى تعليمات النبى إشعياء واتبعها. ولكن خلفاءه لم يسيروا على منواله بل ساروا فى طريق الضلال فحق عليهم القول ودُمِّرت أورشليم وسُبِىَ أهلها كما سيجىء فيما بعد.

٢ - تأمين مصدر مياه لأورشليم :

ومن أعمال حزقيا المجيدة هو تأمين مصدر مياه عذبة لمدينة أورشليم. حتى يمكنها أن تقاوم أى حصار لمدة طويلة. فقد كانت أورشليم تعتمد على مياه الشرب التى تصلها من «عين جيحون» والتى كانت توجد تحت سفح جبل صهيون (شكل ٣٤ ص ١٢٢) وهى بهذا كانت معرضة لهجوم الأعداء. فإذا تم لهم الاستيلاء عليها أمكنهم قطع المياه عن أورشليم فلا تستطيع أن تصمد للحصار طويلا. لذلك قام حزقيا بتغطية هذه العين تماما وجعل مياهها تسير فى قناة طولها ١٧٧٧ قدما محفورة فى الصخر لتصب فى خزان كبير داخل أسوار المدينة يُسمَّى بركة سلوام Siloam Reservoir وكانت أبعاده ٢٠×٣٠ قدما. وتقول التوراة: (٢ أخبار ٣٢:٣٠) «وحزقيا هذا سد مخرج مياه جيحون الأعلى وأجراها تحت الأرض إلى الجهة الغربية من مدينة داود». وتقول أيضا (٢ ملوك ٢٠:٢٠) «وعمل البركة والقناة وأدخل المياه إلى المدينة». وقد اكتشف فى عام ١٨٨٠ «لوح سيلوم» وهو عبارة عن لوحة تذكارية مكتوب عليها ٦ أسطر تصف كيف حفر العمال هذا النفق من الناحيتين حتى التقيا فى المنتصف وتدفقت المياه لتملأ الخزان.

٣ - التحصينات الحربية :

أقام حزقيا حاميات فى المدن الاستراتيجية فى جبال يهوذا والشفيلة (الجزء المجاور للسهل الساحلى. انظر ص ٨) وزودها بالضباط والجنود والأسلحة والدروع والمؤن. وفى الحفريات التى أجريت فى فلسطين وُجدت جرار نبيذ يرجع تاريخها إلى هذه الفترة ومختومة بختم مكتوب عليه: «من الملك من مدينة حبرون» أو «من الملك إلى مدينة سوكو» أو إلى «زف» والمعنى أنها كانت من مدن بها ضياع كروم تابعة للملك ومنها تشحن جرار النبيذ إلى الحاميات فى المدن المختلفة.

٤ - استعادة بعض المدن من الفلسطينيين :

كانت وفاة سرجون الثانى (٧٠٥ ق . م .) حافزا لكثير من دول الشرق الأدنى القديم للتمرد على الحكم الأشورى ومحاولة الاستقلال. وقد انتهز حزقيا الفرصة وقام بمهاجمة الفلسطينيين واسترجع المنطقة التى كانوا قد استولوا عليها أيام آحاز (شكل ٦٦). وقام بعزل أمير عكرون (عقرون) الموالى لأشور وأخذه أسيرا إلى أورشليم وعين بدلاً منه واليا موالٍ له. وأدرك سنحاريب - الذى خلف سرجون الثانى على عرش أشور - خطورة تطلعات حزقيا وخاصة أن ملك بابل - مردوخ بلادن الثانى - كان يشجع هذا الاتجاه الاستقلالى للأقاليم الخاضعة لأشور لإضعاف أشور نفسها وانتهز فرصة مرض حزقيا وأرسل مندوبا متظاهرا بعيادته فى مرضه وفى

الحقيقة ليشجِّعه فى اتجاهاته ضد أشور . كذلك فإن مصر لابد شجَّعت حزقيا للتشدد إزاء أشور.

٥ - مرض حزقيا وإطالة عمره وعيادة ملك بابل :

مرض حزقيا مرضا شديداً ظن أنه مرض الموت ولم يكن له فى ذلك الوقت ابن ليرثه لذلك اغتم غمًّا شديدا إذ يخرج ملك يهوذا من ذريته. وتمنى على الله أن يطيل فى عمره حتى ينجب ابنا يرثه. وعاده إشعياء النبى. وتوجَّه حزقيا بقلبه إلى الله وصلَّى بخشوع. فكان كلام الرب إلى إشعياء: ارجع وقل لحزقيا هكذا قال الرب: قد سمعتُ صلاتك. قد رأيتُ دموعك. هأنذا أشفيك. فى اليوم الثالث تصعد إلى بيت الرب. وأزيد على أيامك ١٥ سنة. وأنقذك من يد ملك أشور مع هذه المدينة. وأعطاه إشعياء قرص تين أكله فبرىء من مرضه. هنا طلب حزقيا من إشعياء آية من الرب على صدق ما يقول عن إطالة عمره. وكان فى فناء القصر ما يمكن أن نسميه مزولة شمسية ومن امتداد ظل عامود فى وسطها على درجات مرسومة على الأرض يمكن معرفة الوقت. فأخبره إشعياء أن الرب هو الذى يُسَيِّر الشمس فيكون للأشياء ظل. ودعا إشعياء الرب ليرجع الشمس فيقصر ظل الأشياء. وإستجاب الرب لدعاء إشعياء وأرجع الظل ١٠ درجات إلى الوراء (٢ ملوك ٢٠:٩). وقد قام الفلكى البروفيسور إيرى Airey بعمل حسابات وأثبت وقوع كسوف كلى للشمس فى ذلك الوقت وهو ١١ يناير عام ٦٩٠ ق.م. وأنه حدث حوالى الساعة ١١ صباحا . وقام فلكى آخر بتحديد وقت المعجزة بالساعة العاشرة صباحا!! بينما يرى آخرون أن سحابة هى التى تسبب فى انكسار أشعة الشمس ونتج عنه قصر ظل الأشياء. ولكن من المؤكد أن قِصَر الظل كان معجزة من الله سبحانه وتعالى نتج عن تأخر الشمس لفترة محدودة ثم عاد الظلِ إلى طبيعته ثانية. بعض المفسرين يرى وقوع كاتبى التوراة فى خطأ عند ذكر عدد درجات التأخر وأنها لابد كانت ١٥ درجة لتتفق مع تأخر الموت عن حزقيا ١٥ سنة أى بكل درجة سنة. وإن كان ذلك الافتراض معقولا إلا أنه ليس بلازم لأنها كانت مجرد آية من الله ليتأكد من أن كلام إشعياء هو من وحى الله له.

وتقول التوراة (٢ ملوك ٢٠:١٢): «فى ذلك الوقت علم ملك بابل - مردوخ بلادان - بمرض حزقيا فأرسل رسله بهدايا فاستقبلهم حزقيا استقبالا حسنا وأراهم كل بيت ذخائره والفضة والذهب والأطياب والزيت الطيب وكل بيت أسلحته وكل ما وجد فى خزائنه. لم يكن شيىء لم يرهم إياه حزقيا فى بيته وفى بيت سلطنته». فجاء إشعياء النبى إلى الملك حزقيا وسأله عن هؤلاء الرجال. فأخبره أنهم من قِبَلِ ملك بابل وأنه أراهم كل شيىء فى بيته. «فقال إشعياء لحزقيا. اسمع قول الرب. هوذا تأتى أيام يُحمل فيها كل ما فى بيتك وما ذخره آباؤك إلى هذا اليوم إلى بابل. لا يترك شيىء. يقول الرب. ويؤخذ من بنيك الذين يخرجون منك فيكونون خصيانا فى

قصر ملك بابل فقال حزقيا لإشعياء: جيد هو قول الرب الذى تكلمت به ثم قال. فكيف لا إن يكن سلام وأمان فى أيامى». أى أن سلاما وصداقة مع بابل فى أيامه تكفيه.

كانت بابل فى ذلك الوقت مقاطعة خاضعة لأشور. إلا أن مردوخ حاكمها كان له استقلال ذاتى بحيث يمكنه أن يراسل رؤساء الدول الأخرى دون الرجوع إلى أشور فحقٌ له أن يرسل رسله إلى حزقيا. وقد انتهز مردوخ حاكم بابل فرصة انشغال أشور فى الحرب فى شمال إسرائيل وتضامن هو وحاكم ميديا (بلاد فارس) وأعلنا استقلالهما عن آشور. كل بمقاطعته. ومن هنا كان اهتمام حزقيا برسل ملك بابل على أمل أن يكون سندا له ضد أشور وهذا يدل على عدم توكُّل كامل على الله ولهذا كان توبيخ النبى إشعياء له وإخباره بأن بابل هذه التى يود صداقتها ستكون حربا عليه فى المستقبل.

٦ - بين أشور ويهوذا :

لاشك أن سنحاريب ملك أشور تضايق من سياسة التقارب بين بابل ويهوذا وأدرك أنه لو انضمت مصر لتحالف كهذا لأصبح الأمر خطيرا . من هنا فإنه بدأ بمهاجمة يهوذا واحتل المدن المجاورة للحدود الشمالية. هنا تشاور حزقيا مع رؤساء الشعب فيما يمكن عمله لحماية البلاد وحماية أورشليم بالذات. فقاموا بطمر جميع آبار المياه والعيون والجداول ماعدا موارد المياه لأورشليم وما حولها . وبنى ماكان قد تهدم من سور المدينة ورمَّم الأبراج وحصَّن القلاع التى تدافع عن المدينة ثم جمع الشعب وقال لهم (٢ أخبار ٣٢ : ١٠): «تشددُّوا وتشجَّعوا. لا تخافوا ولا ترتاعوا من ملك أشور ومن كل الجمهور الذى معه لأن معنا أكثر مما معه. معه ذراع بشر ومعنا الرب إلهنا ليساعدنا ويحارب حروبنا . وأرسل سنحاريب رسله إلى أورشليم قائلا: إن حزقيا يغويكم ليدفعكم للموت بالجوع والعطش. أليس حزقيا هو الذى أزال مرتفعاته ومذابحه وكلم يهوذا وأورشليم قائلا أمام مذبح واحد تسجدون وعليه توقدون (يندد بسياسة التقارب التى اتبعها حزقيا تجاه إسرائيل قبل سقوطها). أما تعلمون ما فعلتُه أنا وآبائى بجميع شعوب الأرض؟ فهل قدرت آلهه أمم الأرض أن تنقذ أرضها من يدى؟ مَنْ مِنْ جميع آلهة هؤلاء الأمم استطاع أن ينقذ شعبه من يدى حتى يستطيع إلهكم أن ينقذكم من يدى؟ والآن لا يخدعنكم حزقيا ولا يغويكم ولا تصدقوه. والآن هوذا قد اتكلتم على هذه القصبة المرضوضة (كما نقول فى العامية: استند على حيطة مائلة) على مصر التى إذا توكأ أحد عليها دخلت فى كفه وثقبتها . هكذا هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه».

فلما سمع الملك حزقيا تهديدات سنحاريب مزَّق ثيابه وتغطى بمسوح وأرسل إلى إشعياء النبى وأخبره بالشدة التى نزلت بهم وتهديد ملك أشور فطمأنهم إشعياء وطلب منهم ألا يخافوا من كلام ملك أشور لأن الله سيرد كيده عنهم ويجعله يعود إلى أرضه وسيقتل هناك. فصلى حزقيا الملك وإشعياء النبى وصرخا إلى السماء فأرسل الرب ملاكا فأباد كل جبار بأس ورئيس

وقائد فى محلة آشور. فرجع بخزى الوجه إلى أرضه بعد أن فرض الجزية على يهوذا ٣٠٠ وزنة من الفضة و ٣٠ وزنة من الذهب. فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك. واضطر حزقيا للوفاء بالجزية إلى تقشير الذهب عن أبواب الهيكل والدعائم التى كانت مغشاة بالذهب».

كان هذا هو وصف المعركة كما وردت فى التوراة وقد اهتمت بنتيجتها التى كانت فى صالح يهوذا ولم تهتم بخطواتها التفصيلية التى وردت فى كتب التاريخ والتى تذكر أن سنحاريب أراد تأمين الجبهة الجنوبية قبل أن يبدأ حملته فى سوريا وفلسطين. وكانت بابل تسعى للإنسلاخ عن أشور فى محاولات متعددة وإن لم يكتب لها النجاح حتى الآن.. وكانت «دولة العرب» - وهم من نسل قيدار بن إسماعيل عليه السلام وعاصمتها «دومة الجندل» - تساند بابل فى محاولاتها الانفصالية لإضعاف أشور درءا للخطر عن نفسها. ولكن كُتِبَ للعاهل الأشورى نجاح كبير فى القضاء على تمرد البابليين. ثم اتجه بعد ذلك إلى دومة الجندل وفرض عليها الحصار (جواد على. تاريخ العرب. جـ١ ، ص ٥٩٢) ثم استولى عليها. وكذلك أخضع عرب البادية المجاورين لها وفرض نفوذه عليهم مما دعا هيرودوت أن يطلق عليه «ملك العرب والأشوريين» (محمد بيومى مهران - دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم. إسرائيل. ص ٩٧٣).

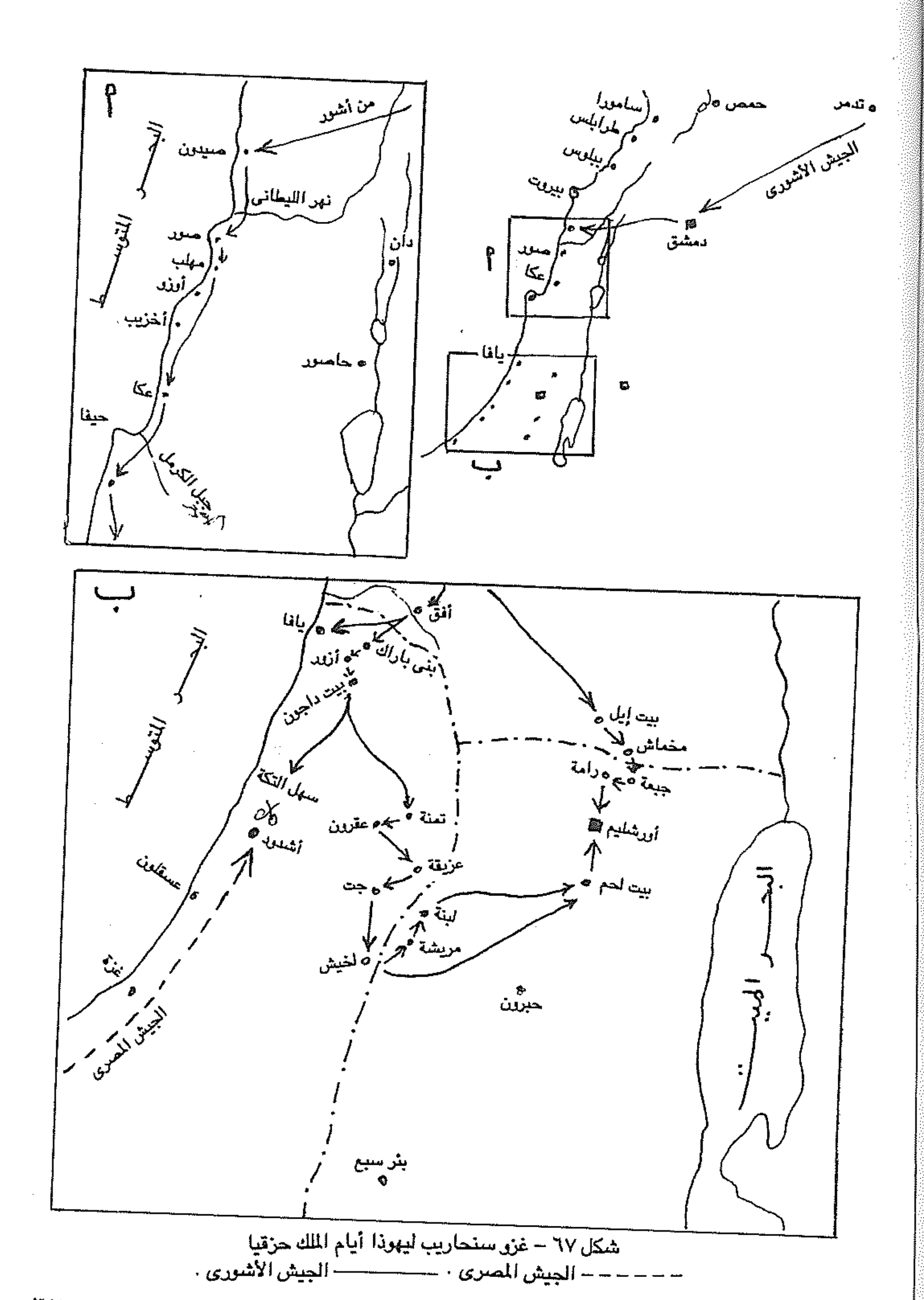
غزو سنحاريب لفلسطين ويهوذا :

وتفاصيل هذه الحملة مستقاة من الوصف الأشورى الموجود على ما يسمى بـ «منشور سنحاريب Prism of Sennacherib». وهو يصف الغزوة بالتفصيل ويكمل الوصف ما وُجد مؤخرا على هيئة «خطاب إلى الآلهة» من سنحاريب. وكذلك ما وجد من كتابات فى حجرة العرش فى آثار مدينة نينوى. وهى تكمل بعضها بعضا وتصف الحملة ضد يهوذا هكذا (شكل ٦٧):

سار سنحاريب بجيشه غربا حتى وصل ساحل البحر المتوسط. ثم اتجه جنوبا فى الساحل الفينيقى وعزل ملك صيدون المتمرد وعين آخر موالٍ له. وكذلك فعل فى باقى مدن الساحل: صور. مهلب . أوز . أكزيب . عكا . ثم سار جنوبا وقبض على ملك «سهل دور» ورحَّله هو وحاشيته وآلهته إلى آشور واستمر فى غزو الساحل الفلسطينى فاستولى على يافا وبنى باراك وأزور وبيت داجون. ثم تلاقت قواته مع القوات المصرية فى «سهل التكة» وانهزمت القوات المصرية (كانت مصر فى ذلك الوقت تحكمها الأسرة ٢٥ النوبية وكان الملك شباكا الموالى لأشور قد توفى وتولى بعده شباتاكا وكان معاديا لأشور وأرسل جيشه لمساندة حزقيا). وبعد أن انهزمت القوات المصرية سَهُل على سنحاريب الاستيلاء على بقية مدن الفلسطينيين وخاصة مدينة عقرون وأعيد ملكها الموالى لأشور إلى مكانه بعد أن كان حزقيا قد عزله. ثم اتجه سنحاريب جنوبا واستولى على «عزيقة» ثم «جت» ثم اتجه إلى المدينة الحصينة فى الجنوب وهى «لخيش» واستولى عليها. وكان الاستيلاء على هذه المدينة مُهِمًا لسنحاريب بحيث سجَّله على

جدران قصره فى نينوى. وقد أثبتت الحفريات التى أجرتها جامعة تل أبيب تحت إشراف عالم الآثار داود أوسشكين أن الطبقة الثالثة من حفريات المدينة تتطابق مع الدمار الذى أحدثه سنحاريب. وقد وجد فى بعض المناطق تراب ورماد حريق بسمك ٦ - ١٠ أقدام. ومن لخيش أرسل فرقة للاستيلاء على مريشة ثم لبنة ثم بيت لحم حيث تلاقت مع فرقة سارت من لخيش مباشرة وهكذا تجمع الجيش الذى غزا الجنوب فى بيت لحم. وكان النصف الثانى للجيش قد تقدم من الشمال واستولى على بيت إيل ثم مخماش ثم جبعة ثم الرامة. وهكذا أصبحت أورشليم مهددة بالقوات الأشورية من الشمال ومن الجنوب (ب شكل ٦٧). وأرسل سنحاريب ٣ من قواد الجيش الكبار إلى أورشليم يطلب من حزقيا الاستسلام. وتكلموا بالعبرية إلى الشعب يحثونهم على الاستسلام قائلين إن حصارا سيُفرض على أورشليم حتى ليضطر الرجال المدافعون عنها لأكل فضلاتهم ويشربوا بولهم! واستمروا قائلين (٢ ملوك ١٨ : ١٨): «اسمعوا كلام الملك العظيم ملك أشور. هكذا يقول الملك. لا يخدعنكم حزقيا لأنه لا يقدر أن ينقذكم من يدى ولا يجعلكم حزقيا تتكلون على الرب قائلا إنقاذا ينقذنا الرب ولا تُدفع هذه المدينة إلى يد ملك أشور (كما قال النبى إشعياء). لا تسمعوا لحزقيا. اعقدوا معى صلحا واخرجوا إلىَّ. وكلوا كل واحد من جفنته وكل واحد من تينته واشربوا كل واحد من بئره حتى آتى وآخذكم إلى أرض كأرضكم (أى ينقلهم سبيا). أرض حنطة وخمر. أرض خبز وكروم. أرض زيتون وعسل. واحيوا ولا تموتوا. ولا تسمعوا لحزقيا لأنه يَغُرُّكم قائلا الرب ينقذنا هل أنقذ آلهة الأمم كل واحد أرضه من يد ملك أشور؟ أين آلهة حماة وأرفاد؟ أين آلهة غيرها من المدن؟ هل أنقذوا السامرة من يدى؟ مَن مِن كل آلهة الأراضى أنقذوا أرضهم من يدى حتى ينقذ الرب أورشليم من يدى؟ فسكت الشعب ولم يجيبوه بكلمة لأن أمر الملك كان قائلا لا تجيبوه».

وأرسل حزقيا إلى إشعياء النبى (٢ ملوك ١٩:٣) فقالوا له: «هكذا يقول حزقيا. هذا اليوم يوم شدة وتأديب وإهانة. لعل الرب إلهك يسمع جميع كلام الرسول الذى أرسله ملك أشور ليُعيِّر الإله الحى. فارفع صلاة من أجل البقية الموجودة. فقال إشعياء: هكذا تقولون لسيدكم. هكذا قال الرب: لا تخف بسبب الكلام الذى سمعته الذى جَدَّف علىَّ به غلمان ملك أشور. هأنذا أجعل فيه روحا فيسمع خبرا ويرجع إلى أرضه وأسقطه بالسيف فى أرضه. وصلَّى حزقيا أمام الرب وقال: أيها الرب إله إسرائيل. أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الأرض. أنت صنعت السماء والأرض. أمِل يارب أذنك واسمع. افتح عينيك وانظر. واسمع كلام سنحاريب الذى أرسله ليُعَيِّر اللهَ الحى. والآن أيها الرب خلِّصنا من يده فتعلم ممالك الأرض كلها أنك أنت الرب الإله وحدك. وقال إشعياء هكذا قال الرب عن ملك أشور: لا يدخل هذه المدينة ولا يرمى هناك سهما ولا يتقدم عليها بترس ولا يقيم عليها مترسة. فى الطريق الذى جاء فيه يرجع وإلى هذه المدينة لا يدخل يقول الرب وأحامى عن هذه المدينة لأخلِّصها».



شكل ٦٧ – غزو سنحاريب ليهوذا أيام الملك حزقيا

- - - - - الجيش المصرى . ———— الجيش الأشورى .

وفعلا تذكر كتب التاريخ أن سنحاريب عاد إلى نينوى دون أن يستولى على أورشليم. واختلفت الآراء فى السبب الذى دعا سنحاريب إلى العودة المفاجئة إلى بلاده. فهناك من يرجعها إلى اضطرابات خطيرة فى نينوى هددت العرش. ومنهم من يقول إن حجافل من الفئران أكلت قِسِيَّ الغزاة (جمع قوس) وجعابهم (جمع جعبة وهى كنانة السهام) وحمائل دروعهم. فكانت النتيجة أنهم أصبحوا لا يستطيعون رمى السهام ولا حتى حمل الدروع لحماية أنفسهم فآثر سنحاريت العودة. فإذا كان الأمر كذلك فهى معجزة من السماء: **«وما يعلم جنود ربك إلا هو»** (٣١ – المدثر).

وتقول التوراة (٢ ملوك ١٩:٣٥) إن ملاك الرب (أى جبريل) قد خرج وضرب من جيش أشور ١٨٥,٠٠٠ بوباء غامض تفشَّى فيهم. فلما رأى سنحاريب جثث جنوده عاد بالبقية إلى نينوى. وبعد أن عاد سنحاريب إلى نينوى وبينما هو يتعبَّد لإلهه قام عليه ابنان له فضرباه بالسيف وقتلاه. وعلى ما يبدو كانا يطمعان فى حكم البلاد. وكان «أسرحدون» يقود الجيش فى إحدى الغزوات على الحدود الشرقية. فلما سمع بذلك عاد مسرعا إلى نينوى فهرب القاتلان إلى أرمينيا فتولى «أسرحدون» الحكم. ولعله كان قد ضاق بكثرة حروب سنحاريب ولذلك سنرى أنه اتخذ سياسة أكثر سِلما ومهادنة مع الدول المجاورة. ولكى ينفى عن نفسه أى ضعف فإنه يفخر بنفسه فى إحدى كتاباته فيقول فيها: أنا قوى. أنا قوى جداً. أنا بطل. أنا ضخم. أنا كبير. أنا أقوى من ملك مصر ولقد قتلت عشرات من جنوده. ولقد ضربت بحربتى خمس مرات ضربات ولم يكن بعدها شفاء. أما ممفيس مدينته الملكية فقد قمت فى نصف نهار بحصارها وحفر أنفاق تحت أسوارها واعتليت قلاعها واستوليت عليها وحطَّمتها وأحرقتها بالنار (چيمس پرتشارد. نصوص مخطوطات الشرق الأدنى القديم. ص ٢٨٩ – ٢٩٤).

وفاة حزقيا :

بعد أن زاد الله فى عمر حزقيا ١٥ سنة أنجب خلالها الولد الذى تمناه ليرث عرش يهوذا مات حزقيا بعد أن ملك ٢٨ سنة (٧٢٥ – ٦٩٧ ق.م.).

١٤ – منسَّى بن حزقيا Manassah

كان عمر منسَّى حين ملك على يهوذا ١٢ سنة وحكم ٥٥ سنة (٦٩٧ – ٦٤٢ ق.م.) ولم يسر فى طريق الهداية كوالده بل سار فى طريق الشر. ويمكن تفسير هذا الاتجاه بأن البلاط الملكى كان لايزال به فريق متأثر بالمعتقدات الدينية التى كان يسير عليها آحاز والجد الأكبر أخزيا وما أدخلته زوجته عثليا من عبادة البعل فى البلاد. فلاشك أن منسى – لصغر سنه – وقع تحت تأثير هذا الفريق ثم أصبح هو نفسه أحد المتحمسين لعبادة الأصنام. لذلك فإنه بنى المرتفعات

التى تعبد فيها الأوثان والتى كان أبوه حزقيا قد هدمها . وأقام مذابح للبعل وعشتاروث. وسجد للشمس والقمر والكواكب وبنى لها مذابح فى بيت الرب ووضع تماثيل لها فى الهيكل. ثم بدأ يحث الناس على اتباع تقديس هذه الآلهة. كما أنه استخدم الجان وتوابعه لتحقيق أغراض شريرة. ولما عارضه إشعياء النبى أمر بقتله بنشر جسمه بالمنشار للتخلص منه. كما أنه أدخل طقوس الديانات الوثنية والتضحية بالأبناء قربانا للآلهة حتى إنه ضحَّى بابنه قربانا لأصنامه. وتكلم الرب (٢ ملوك ٢١:١٠) لعدد من الأنبياء كانوا معاصرين لمنسى (إشعياء وأنبياء غيره) قائلا: «من أجل أن منسَّى ملك يهوذا قد عمل هذه الأرجاس وأساء أكثر من جميع من كانوا قبله وجعل أيضا يهوذا يخطىء ويعبد الأصنام. لذلك قال الرب إله إسرائيل: هأنذا أجلب شراً على أورشليم ويهوذا حتى أن كل من يسمع به تطن أذناه. وأمد على أورشليم خيط السامرة (أى يصبح مصيرها مثلها) وأمسح أورشليم كما يمسح واحد الصحن ويقلبه على وجهه. وأدفعهم إلى أيدى أعدائهم فيكونون غنيمة ونهبا لجميع أعدائهم لأنهم عملوا الشر فى عينى الرب. فسلَّط الله على منسى أشور بانيبال ملك أشور».

الحرب بين يهوذا وأشور :

حدث فى أثناء حكم أشور بانيبال أن قام عصيان وتمرد ضده لصالح أخيه. وانتهز ملك مصر – طهراقا النوبى – الفرصة لإعادة بعض النفوذ المصرى فى فلسطين فأرسل حملة إلى الشام بهدف ظاهرى وهو مساندة دُوَلِه فى الوقوف ضد أشور. وفى نفس الوقت قام منسَّى ملك يهوذا بالعصيان على أشور وامتنع عن دفع الجزية ولما كان جيشه أضعف من أن يقف وحده فقد تحالف مع مصر وانضم كثير من اليهود إلى جيش مصر كجنود مرتزقة. وقاد أشور بانيبال جيشه وقمع الفتنة فى بلاده ثم سار إلى الساحل الفينيقى فأخضع مدنه الثائرة. ثم عاد إلى أورشليم ودخلها وقبض على منسَّى وقيده بالسلاسل ووضعوا خزامة فى أنفه وسيق إلى بابل وألقى فى السجن. وتقول التوراة (٢ أخبار ١١:٣٣) «ولما تضايق منسى طلب وجه الرب إلهه وتواضع جدا أمام إله آبائه وصلى إليه فاستجاب له وسمع تضرُّعه وردَّه إلى أورشليم إلى مملكته. فعلم منسى أن الرب هو الله. وأزال الآلهة الغريبة والأشياء من بيت الرب وجميع المذابح التى بناها فى جبل بيت الرب وفى أورشليم وطرحها خارج المدينة وأمر يهوذا أن يعبدوا الرب إله إسرائيل». إلا أن كثيرا من المفسِّرين يشككون فى صحة هذه الفقرة الأخيرة إذ يرون أن إدخال الآلهة الغريبة كان رمزا لخضوعه لأشور. ولابد بعد الأسر والسجن أنه أصبح أكثر خضوعا لأشور لأنه أعيد بوصفه حاكما من قِبل أشور فليست له الحرية الكاملة فى التصرف. وفى المقابل فمن المحتمل أن ملك أشور قد ترك ليهوذا بعض الحرية الدينية تهدئة لمشاعرهم ومنعا لثورتهم.

بابل تصبح عاصمة أشور :

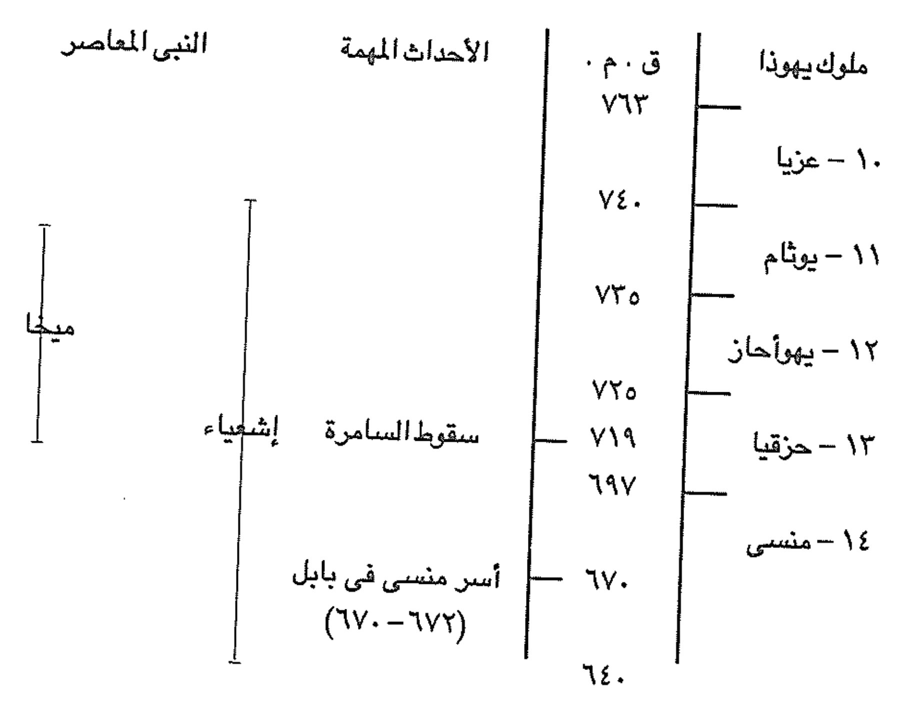
رأى أشور بانيبال أن العاصمة نينوى فى الشمال الشرقى من المملكة بعيدة عن سوريا وفلسطين وأن بابل كانت دائما مثار القلاقل له لذلك قرر نقل العاصمة إلى بابل. وفى كتابات له على الآثار يقول: «لقد وجدت أن قصر مدينة نينوى الذى بناه آبائى الملوك الذين كانوا قبلى قد أصبح صغيرا جدا ولا يفى بمتطلباتى وتطلعاتى لذلك فقد هدمته بالكامل وبنيت قصرا فى بابل واستدعيت البنائين وأهل بابل كلهم وجعلتهم يحملون الحجارة وقمت ببناء بابل من جديد ووسعتها ورفعت شأنها وجعلتها مدينة عظيمة.

ظل منسى فى الأسر سنتين قبل أن يطلق سراحه ويعاد إلى أورشليم حاكما تابعا لأشور وظل يحكم بعد ذلك لمدة ٣٠ عاما.

كانت نهاية يهوذا وأورشليم قد اقتربت وتتابع أنبياء من قبل الرب يُحذِّرون الناس من قرب النهاية ويحثونهم على فعل الخير والعودة إلى طريق الرب علَّ الله يلطف بهم فيما ستجرى به المقادير. ولنترك الملوك جانبا ونذكر اثنين من الأنبياء الذين ظهروا فى هذه الفترة وعاصروا سقوط السامرة بالسبى الأشورى وراحوا يحذرون أهل يهوذا من نفس المصير إن هم ساروا فى طريق الضلال.

نبيان فى يهوذا عاصرا سقوط السامرة

ظهر فى يهوذا نبيان عاصرا سقوط السامرة : أحدهما من الأنبياء الكبار هو إشعياء والثانى من الأنبياء الصغار هو ميخا .



إشعياء النبى Isaiah

هو إشعياء بن آموص ولا يُعرف إلى أى سبط كان ينتمى. ومعنى «إشعياء» هو «الرب يُخلِّصنى»، وهو من الأنبياء الكبار. وقد عاش فى أورشليم وعاصر خمسة من ملوك يهوذا: عُزِّيا (آخر سنة من حكمه) ثم يوثام وآحاز وحزقيا ومنسًى (٢٥ سنة من حكمه أى إلى مابعد عودته من الأسر). وامتدت نبوءة إشعياء ما يزيد عن ٦٠ عاما وزاد عمره عن الثمانين. ويقول التقليد العبرى إن آموص والده كان أخا لأمصيا ملك يهوذا والد عزيا. ولعل هذا يفسر لماذا كان يَسهُل عليه الدخول إلى ملوك يهوذا.

بدء نبوّة إشعياء :

تصف التوراة كيفية اصطفاء إشعياء للنبوة وبداية نزول الوحى عليه وصفا التبس الأمر فيه على كاتبى التوراة بحيث لم يدركوا الفرق بين جبريل عليه السلام – ملاك الرب – وبين ذات الله. إذ جاء فى سفر إشعياء (١:٦) وعلى لسانه: «وفى سنة وفاة عزيا الملك رأيت السيد جالسا على كرسى عالٍ ومرتفع. وأذياله تملأ الهيكل. والسرافيم (الكائنات النورانية التى تخدم عرش الرب أى الملائكة) واقفون. لكل واحد ستة أجنحة. باثنين يغطى وجهه وباثنين يغطى رجليه وباثنين يطير. وهذا نادى ذاك وقال: قدوس قدوس قدوس رب الجنود. مجده ملء الأرض. فاهتزت أساسات العتب من صوت الصارخ وامتلأ البيت دخانا. ثم سمعت صوت السيد قائلا: من أُرسل ومن يذهب من أجلنا؟ فقلت هأنذا أرسلنى. فقال اذهب وقل لهذا الشعب...».

ووصف السرافيم أو الملائكة الذى ورد فى هذه الفقرة يتفق مع ما جاء فى القرآن الكريم: «**الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق مايشاء إن الله على كل شيىء قدير**» (١ - فاطر). ويزيد الله فى عدد أجنحة الملائكة ما يشاء فيصل إلى ستة كما ذكرت التوراة أما ما يدعيه البعض من أن إشعياء رأى ذات الله فهذا يتعارض مع فقرة وردت فى التوراة تقرر أن «الله لم يره أحد».

ثم تمضى التوراة فى ذكر ما أُوحى به من الله سبحانه وتعالى لإشعياء: «فقال اذهب وقل لهذا الشعب اسمعوا سمعا ولا تفهموا وأبصروا إبصارا ولا تعرفوا. غلِّظ قلب هذا الشعب وثقِّل أذنيه واطمس عينيه لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع ويشفى. فقلت إلى متى أيها السيد. فقال إلى أن تصبح المدن خربة بلا ساكن والبيوت بلا إنسان وتخرب الأرض وتقفر ويُبعد الربُّ الإنسان ويكثر الخراب فى وسط الأرض». والمعنى كما نراه هو أن يقوم إشعياء بدعوة الشعب إلى الله وإلى الإقلاع عن الفساد والخطايا. ولكن الشعب لن يسمع له ولن يطيعه بل سيكون أكثر انغماسا فى مفاسده فيحق عليه العذاب. فكأن إشعياء قد غلَّظ قلب الشعب وطمس عينيه.

بعد هذه الرؤيا التى أعلنت لإشعياء بدء نبوته راح يُبلِّغ الناس ما يوحى إليه من ربه :

وكان أول ما أوحى إلى إشعياء هو (إشعياء ٢:١): «اسمعى أيتها السموات واصغى أيتها الأرض لأن الرب يتكلم. ربَّيتُ بنين ونشَّأتهم أمَّا هم فعصوا علىَّ. الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه. أما إسرائيل فلا يعرف. شعبى لا يفهم. ويل للأمة الخاطئة. للشعب الثقيل الإثم. نسل فاعلى الشر. أولاد مفسدين. تركوا الرب. استهانوا بقدُّوس إسرائيل. ارتدُّوا إلى الوراء. ازدادوا زيغانا. كل الرأس مريض. وكل القلب سقيم من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة. بل جرح وإحباط. وضربة طرية لم تُعصر ولم تُعصب. بلادكم خربة. مدنكم محرقة بالنار.

أرضكم تأكلها غرباء قدامكم. فبَقِيت ابنة صهيون (أورشليم) كمظلة فى كرم. كمدينة محاصرة لولا أن رب الجنود أبقى لنا بقية صغيرة لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة».

فى هذه الفقرة ينعى الرب على إسرائيل زيغهم عن طريق الحق وبالطبع فإن الكلام يعتبر تحذيرا ليهوذا من الانسياق فى طريق الضلال وإلا سيكون نفس المصير ويبين إشعياء لإسرائيل ويهوذا أنَّ نِعَم الله عليهم كثيرة. وكان الواجب عليهم أن يعرفوا الله ويتَّقوه. وضرب أمثلة من البيئة التى كانت موجودة فى ذلك الوقت. فالثور والحمار وهما حيوانان أعجمان ولكنهما بالفريزة يعرفان صاحبهما الذى له فضل عليهما. وكان الأحرى بالإنسان - بإسرائيل ويهوذا - أن يعرفوا ربهم. ثم يذكر أن الفساد كثر فيهم وازدادوا زيغا حتى أصبح جسد الأمة كله مريضًا. واستحقوا أن ينزل بهم عذاب من دمار وغزو وسبى. وقد حدثت فى وقت إشعياء ٣ غزوات على الأقل لأرض يهوذا: واحدة قامت بها قوات التحالف الثلاثى المكون من مؤاب وبنى عمون وأدوم أيام يهوشافاط (ص ٣٢٣). ثم غزو الفلسطينيين لأرض يهوذا واستيلائهم على الجزء الشمالى الغربى أيام الملك آحاز (ص ٣٣٣). والثالثة بقيادة سنحاريب الأشورى (ص ٣٣٩) أيام الملك حزقيا. ونتج عن هذه الغزوات خراب الأرض وأصبحت قصور أورشليم الفاخرة ومساكنها الفخمة كأنها تشبه المظلة التى تنصب فى الحقول إبان الحصاد كمأوى بدائى. ثم إنه - لولا فضل من الله على يهوذا - لكان مصيرها مثل مصير سدوم وعمورة حين قلبت بهم الأرض وأصبح عاليها سافلها وقتل أهلها جميعا.

ويمكن تلخيص رسالة إشعياء فى نقاط ثلاث :

أ - توبيخ بنى إسرائيل (إسرائيل ويهوذا) على الشرور المنتشرة فيهم مع شرح لبعض هذه الشرور والمفاسد.

ب - توبيخ لأشور وعفو عن بنى إسرائيل .

جـ - نبوءات إشعياء .

أ - توبيخ بنى إسرائيل :

قام إشعياء بتوبيخ بنى إسرائيل على الشرور والمفاسد المنتشرة بينهم فى ذلك الوقت وذكر أهمها مثل :

١ - العبادات شكلية والظلم منتشر :

وهذه العبادات التى لا تصدر من القلب لا يقبلها الرب. فيقول لهم (إشعياء ١:٦): «اسمعوا اسمعوا كلام الرب. اسمعوا إلى شريعة إلهنا. لماذا لى كثرة ذبائحكم. يأتون بتقدمة باطلة. البخور هو مكرهة لى. لست أطيق الإثم والاعتكاف. رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى.

فحين تبسطون أيديكم أستر عينيَّ عنكم. وإن كثَّرتم الصلاة لا أسمع. كيف صارت القرية الأمينة التى كان العدل يبيت فيها وأما الآن فالقاتلون يملأونها. صارت زَغَلا (الزغل الغش). وخمرك مغشوشة بماء. رؤساؤك متمردون ولصوص. كل واحد منهم يحب الرشوة. ويتبع الهدايا. لا يقضون لليتيم ودعوى الأرملة لا تصل إليهم. لذلك يقول الرب. إنى أنتقم من أعدائى. (إش ٣) فإنه هو ذا السيد الرب ينزع من أورشليم ومن يهوذا كل سند خبز وكل سند ماء. قد انتصب الرب للمخاصمة وهو قائم لدينونة الشعوب. الرب يدخل فى المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم. وأنتم قد أكلتم الكرم. سَلَبُ البائس فى بيوتكم. مالكم تسحقون شعبى وتطحنون وجوه البائسين».

٢ - فساد النساء (إش ٣ : ١٦) :

وقال الرب «من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات فى مشيهن ويخشخشن بأرجلهن (مثل قوله تعالى «ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن». ٣١ - النور) ينزع السيد فى ذلك اليوم (يوم الانتقام) زينة الجلاجل والضفائر والأهلَّة والحلق والأساور والبراقع والعصائب والسلاسل والمناطق والخواتم وخزائم الأنف والثياب المزخرفة. فيكون عوض الطيب عفونة. وعوض المنطقة حبل. وعوض الجدائل قَرَعَة. وعوض الجمَال كى. رجالك يسقطون بالسيف وأبطالك فى الحرب فتئنُّ وتنوح أبوابها».

٣ - فى الخمر (إش ٥ : ١١) :

«ويل للمبكِّرين صباحا يتبعون المسكر. للمتأخرين فى العتمة تلهبهم الخمر. وصار العود والرباب والدف والناى ولائمهم. وإلى أفعال الرب لا ينظرون. وعمل يديه لا يرون. لذلك يُسْبَى شعبى لعدم المعرفة. ويصير شرفاؤه رجال جوع وعامته يابسين من العطش».

٤ - فعل الشر عامة (إش ٥ : ٢٠) :

«ويل للقائلين للشر خيرا وللخير شرا. الجاعلين الظلام نورا والنور ظلاما. الجاعلين المُرَّ حلوا والحلو مُرًّا. ويل للأبطال فى شرب الخمر. ولذوى القدرة على مزج المسكر. الذين يُبَرِّرون الشر من أجل الرشوة وأما حق الصدِّيقين فينزعونه منهم. لذلك كما يأكل لهيب النار القش يكون أصلهم كالعفونه. ويصعد زهرهم كالغبار لأنهم رذلوا شريعة الرب واستهانوا بكلام قُدُّوس إسرائيل. من أجل ذلك حَمِيَ غضب الرب على شعبه ومد يده عليه وضربه حتى ارتعدت الجبال. وصارت جثثهم فى الأزقة».

٥ - انحراف القضاة :

«ويل للذين يقضون أقضية الباطل وللكتبة الذين يُسجِّلون جورا ليصدُّوا الضعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائسى شعبى لتكون الأرامل غنيمتهم وينهبوا الأيتام».

ب - توبيخ لأشور وعفو عن بنى إسرائيل :

(إش ١٠ : ٢): «ويل لأشور قضيب غضبى. والعصا فى يدهم هى سَخَطى. على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطى أوصيه ليغتنم غنيمة وينهب نهبا ويجعلهم مدوسين كطين الأزقة. أما هو فلا يفتكر هكذا ولا يحسب قلبه هكذا. بل فى قلبه أن يُبيد ويَقْرض أمما ليست بقليلة. فإنه يقول أليست السامرة مثل دمشق. كما أصابت يدى ممالك الأوثان وأصنامها المنحوته هى أكثر من التى لأورشليم وللسامرة. أفليس كما صنعتُ بالسامرة وبأوثانها أصنع بأورشليم وأصنامها؟»

هذا توبيخ لأشور لأنهم لم يفهموا أنهم أداة عقاب سلَّطها الرب لينتقم من بنى إسرائيل لتركهم عبادة الله ولعبادتهم الأصنام. وأنه بعد أن يتم مراد الله فى تأديب بنى إسرائيل سيكون الانتقام أيضا من أشور نفسها. تطبيقا لقوله تعالى: «**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**». (٢٥١ - البقرة).

وتوضِّح الفقرة التالية الانتقام الذى سيحل بأشور نفسها: «فيكون متى أكمل السيد الرب كل عمله بجبل صهيون وبأورشليم أنى أعاقب ثمر عَظَمَةِ قلب ملك أشور وفخر رفعة عينيه. لأنه قال بقدرة يدى صنعت وبحكمتى لأنى فهيم. ونقلت تخوم شعوب ونهبت ذخائرهم. وحططت الملوك كبطل. فأصابت يدى ثروة الشعوب كعُشٍّ. وكما يجمع بيض مهجور جمعت أنا كل الأرض! هل تفتخر الفأس على القاطع بها؟ أو يتكبَّر المنشار على مُرَدِّده؟» وأيضا فى هذه الفقرة تأكيد على أن أشور لم تكن إلا أداة فى يد الرب لتأديب شعبه الذى أخطأ ولكن أشور ظنت أنها فعلت ذلك بقدرتها هى وقُوَّتها.

ويعود إشعياء لإحياء الأمل فى نفوس الشعب والرجاء فى عفو الله حتى يرفع عنهم سخطه. فيقول إشعياء (إش ١٠ : ٢٤): «ولكن هكذا يقول السيد رب الجنود: لا تخف من أشور ياشعبى الساكن فى صهيون. يضربك الرب بالقضيب ويرفع عصاه عليك على أسلوب مصر. لأنه بعد قليل جداً يتم السخط ويكون فى ذلك اليوم أن حمله سيزول عن كتفك ونيره عن عنقك. ويكون فى ذلك اليوم أيضا أن بقية إسرائيل يتوكلون على الرب قدوس إسرائيل بالحق. وتقول فى ذلك اليوم أحمدك يارب لأنه إذا غضبت علىَّ ارتد غضبك فتعزِّينى. هوذا الله خلاصى فأطمئن ولا أرتعب لأن يهوه قوَّتى وترنيمى. وتقولون فى ذلك اليوم: احمدوا الرب. ادعوا باسمه. عرِّفوا بين الشعوب بأفعاله وذكِّروا بأن اسمه قد تعالى. رنِّموا للرب».

جـ - نبوءات إشعياء :

هذه النبوءات كان بعضها وحيا من الله سبحانه وتعالى إلى النبى إشعياء. والبعض الآخر

تذكر التوراة أن إشعياء قد عُرِجَ به إلى السماء ليتلقَّاه. وهذه النبوءات تختص بالدول المجاورة. والهدف منها هو حثُّ بنى إسرائيل على التوكل على الله دائما وأبداً إذ توضح لهم أنهم لو فكَّروا فى الاحتماء بالدول فإن هذه الدول نفسها سيصيبها الدمار ولن تستطيع حمايتهم. كما تهدف أيضا هذه النبوءات إلى تحذير الشعوب المجاورة حتى لا تتمادى فى شرورها وخطاياها. وكان يتم تبليغ الدول المعنيَّة بهذه النبوءات إمَّا بمبعوثين أو برسائل مكتوبة ترسل إلى ملوكها. وقد شملت هذه النبوءات أشور وبابل ومؤاب ودمشق ومصر وبلاد العرب وصور. كما اختص بعضها بيهوذا نفسها.

١ - نبوءة ضد أشور (إش ١٤ : ٢٤) :

«قد حلف رب الجنود قائلا: إنه كما قصدتُ يصير وكما نويتُ يثبت. أن أُحطِّم أشور فى أرضى وأدوسه على جبالى فيزول عنهم نيره ويزول عن كتفهم حمله. هذا هو القضاء المقضى به على كل الأرض. وهذه هى اليد الممدودة على كل الأمم. فإن رب الجنود قد قضى فمن يُبطِّل؟ ويده هى الممدودة فمن يردّها؟». وقد حدث هذا فعلا فقد سلَّط الله بابل على أشور فقضت عليها.

٢ - نبوءة ضد بابل (إش ١٣) :

كانت بابل - كما سبق أن ذكرنا ص ٣٣٨ - خاضعة لأشور ويحكمها «مردوخ بلادان» ويدفع الجزية السنوية ولكن كان له شبه حكم ذاتى. فلما مات شلمناصر الخامس أعلن مردوخ بلادان عدم تبعيته لأشور ورفض دفع الجزية. وسانده ملك عيلام (غرب إيران وشرق العراق) ولم ينضم الفرس إلى هذا التحالف ولعلهم كانوا يهدفون إلى ادخار قوتهم حتى إذا ضعفت هذه الدول بالحرب مع أشور انقضوا هم على الكل وملكوا المنطقة. وفى هذا الوقت ظن ملك يهوذا أن بابل تستطيع حمايته وفكَّر فى التحالف معها ولكن إشعياء حذَّره من ذلك وأخبره أن أشور ستخمد هذا التمرد. وحتى فى المستقبل حينما تستقل بابل وتصبح هى سيدة المنطقة سيسلط الله عليها الفرس (الماديون). وقال فى النبوءة:

«وحى من جهة بابل رآه إشعياء بن آموص: ولولوا لأن يوم الرب قريب. قادم كخراب مِن القادر على كل شيء. لذلك ترتخى كل الأيادى. ويذوب كل قلب إنسان فيرتاعون. تأخذهم أوجاعٍ ومخاض يتلوَّون كوالدة. يبهتون بعضهم إلى بعض. هوذا يوم الرب قادم قاسيا بسخط وحموِّ غضب ليجعل الأرض خرابا ويبيد منها خطاتها. فإن نجوم السماء لا تُبرِز نورَها. تظلم الشمس عند طلوعها والقمر لا يلمع بضوءه». وهذا يشبه قوله تعالى: «**إذا الشمس كوِّرت وإذا النجوم انكدرت**» (١ - ٢ - التكوير). وهذا يحدث يوم القيامة. فكأن غضب الله على بابل يشبه فى شدته يوم القيامة فتنكسف الشمس ويخسف القمر. ويستكمل إشعياء النبوءة فيقول: «هأنذا أهيِّج عليهم الماديين (الفرس) الذين لا يعتدُّون بالفضة ولا يُسَرُّون بالذهب. ولا

يرحمون ثمرة البطن ولا تشفق عيونهم على الأولاد وتصير بابلُ بهاءُ الممالك وزينةُ فخر الكلدانيين (إشارة إلى حدائق بابل المعلقة المشهورة والمعدودة من عجائب الدنيا السبع) كتقليب الله سدوم وعمورة لا تُعْمر إلى الأبد ولا تُسكن على مدار الأيام. ولا يُخيم هناك أعرابى. ولا يربض هناك رعاة (أى تصير خرابا بحيث لا تصلح للرعاة ولا حتى لإقامة خيام البدو الرحل). بل تربض هناك وحوش القفر ويملأ البوم بيوتهم وتسكن هناك معز الوحش. وتصيح بنات آوى فى قصورهم والذئاب فى هياكل التنعيم. ووقتها قريب المجىء وأيامها لا تطول». ثم يعلن: «سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوته كسرها إلى الأرض». وقد تحقق هذا فعلا بعد حوالى ٢٣٠ سنة حينما اجتاح كيروش الثانى ملك الفرس بابل عام ٥٣٩ ق.م. وأنهى وجود بابل كدولة من دول الشرق الأدنى القديم.

٣ - نبوءة ضد مؤاب (إش ١٥ : ١٦) :

مقدمة تاريخية لفهم النبوءة: عند انقسام المملكة بعد موت سليمان عليه السلام صار ولاء مؤاب إلى إسرائيل (الشمالية) وكانوا يدفعون لها الجزية إلا أنه بعد موت آخاب وأثناء حكم يورام ابنه (ص ٢٦٧) شق المؤابيون عصا الطاعة ورفضوا دفع الجزية. بل وبدأوا فى الاستيلاء على مدن إسرائيلية فى شرق الأردن. فما كان من يورام بن آخاب إلا أن شنَّ الحرب على مؤاب. يؤازره يهوشافاط ملك يهوذا - وصهره - وتم لهما الاستيلاء على مدينة «عار» العاصمة وتدمير «قير» ثانى المدن الرئيسية. وقد ذكرنا أيضا كيف أنه لما أشتد الخناق على مؤاب قدَّم ملكهم ابنه ذبيحة على سور المدينة قربانا للإله «كموش». واقشعر بنو إسرائيل من هذا المنظر ورفعوا الحصار عن المدينة ورجعوا إلى أرضهم. ولحماية نفسها تحالفت مؤاب مع أشور وأصبحت تشعر بأمان وقوة وكبرياء وهو ما أُخذَ عليها. فقال إشعياء (إش ١٦ : ٦): «قد سمعنا بكبرياء مؤاب. المتكبِّرة جدا. عظمتها وكبرياؤها وصلفها وبُطلِ افتخارها» وتستمر النبوءة فتذكر خراب المدن الرئيسية فى مؤاب (شكل ٦٩): «وحى من جهةِ مؤاب. إنه فى ليلة خربت «عار» مؤاب وهلكت. إنه فى ليلة خربت «قير» مؤاب وهلكت. تولول مؤاب على «ميدبا» (ثالث مدن مؤاب الكبرى). فى كل رأسٍ لحية مجزورة وتصرخ «حشبون» ويسمع صوتها إلى «ياهص» (رابع وخامس مدن مؤاب الكبرى). ويستمر وصف الخراب الذى سيحدث. ثم يحث مؤاب على الخضوع ليهوذا ودفع الجزية فيقول: «أرسلوا خرفان حاكم الأرض من مؤاب إلى جبل صهيون» (أى إلى الهيكل فى أورشليم لتكون قربانا) ثم بعد ذلك دعوة إلى يهوذا بإيواء مشرَّدى مؤاب فيقول ليهوذا: «اصنعي إنصافا. اجعلى ظلَّك كالليل فى وسط الظهيرة. استُرى المطرودين لا تطردى الهاربين. ليتغرَّب عندك مطرودو مؤاب. كونى سترا لهم. لأن الظالم يبيد ويفنى عن الأرض».

٤ - نبوءة ضد دمشق (إش ١٧) :

فى ذلك الوقت كانت إسرائيل متحالفة مع أشور وخاف ملك يهوذا من هذا التحالف وحاول



شكل ٦٨ – ممالك الشرق الأدنى القديم.

شكل ٦٩ – المدن الرئيسية فى مؤاب .

استمالة دمشق لتقف معه ولكن إشعياء النبى أخبره أن دمشق نفسها ستخرب. وتقول النبوءة: «هوذا دمشق تُزال من بين المدن وتكون رُجمة ردم. تكون للقطعان فتربض وليس من يخيف ويزول المُلكُ من دمشق وبقية أرام. فى ذلك اليوم تصير مدنه الحصينة كالردم فى الغاب».

٥ - نبوءة ضد مصر (إش ١٩ : ٢٠) :

الخلفية التاريخية: كانت أشور فى صعود مستمر. ولذلك وجَّه ملوك يهوذا أنظارهم وقلوبهم إلى مصر للتحالف معها درءا للخطر عن أنفسهم بالرغم من أن مصر وثنية. وكان الواجب على يهوذا التوكل على الله وحده ليحميهم من أعدائهم. وقد عارض إشعياء فكرة التحالف مع مصر وأوضح أن مصر سيصيبها قحط وستمزقها حروب أهلية. تقول النبوءة: «وحى من جهة مصر. هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر فترتجف أوثان مصر من وجهه. ويذوب قلب مصر داخلها. وأُهيِّج مصريين على مصريين فيحارب كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه. مدينة تحارب مدينة وتراق دماء مصر داخلها وأفنى مشورتها. فيسألون الأوثان والعارفين وأصحاب التوابع والعرَّافين. وأُغلق على المصريين فى يد مولى قاسٍ فيتسلط عليهم ملك عزيز. يقول السيد رب الجنود. وتنشف المياه من البحر ويجف النهر وييبس. وتنتن الأنهار وتجف سواقى مصر ويتلف القصب. وكل روض أو مزرعة على النيل تيبس . والصيادون يئنون. وكل الذين يلقون شصا فى النيل يتوجَّعون . والذين يبسطون شبكة على وجه المياه يحزنون . ويخزى الذين يعملون فى الكتان الممشط والذين يحيكون الأنسجة البيضاء وكل العاملين بالأجرة مكتئبى النفس».

فى أثناء حكم الليبيين لمصر غادر أشراف طيبة وكهنة وأتباع عقيدة آمون مصر إلى النوبة وأقاموا فيها مملكة مستقلة عاصمتها «نباتا» عند الشلال الرابع وانتشرت عبادة الآلهة المصرية فى النوبة. وفى أواخر الحكم الليبى أصاب البلاد قحط شديد ووقعت مصر فى فوضى شديدة وانقسمت إلى عدة دويلات صغيرة دب بين أمرائها الشقاق وجاءت الأسرة ٢٣ و ٢٤ وتقهقرت مصر أكثر واضمحلَّت. وهنا تقدم النوبيون يقودهم «بعنخى» واستولى على الصعيد. وكانت الدلتا موزعة بين ثلاثة بيوتات. بيت فى تانيس. وثان فى بوبسطة وثالث فى صا الحجر فى غرب الدلتا قرب فرع رشيد. وبينهما تنافس وتناحر. فكان هذا مصداقا للنبوءة «وأهيِّج مصريين على مصريين. فيحارب رجل أخاه ورجل صاحبه...». وظل التناحر بين الدويلات إلى أن نجح أمير صا الحجر فى إعادة الاستقرار إلى الدلتا ومصر الوسطى. ولكن قوة ملوك نباتا كانت قد تعاظمت ومدت نفوذها شمالا حتى نجح شباكا من بسط نفوذه على مصر كلها مؤسسا الأسرة ٢٥ . وبعد وفاة سرجون الثانى انفجر الشرق الأدنى (الشام وفلسطين) فى ثورة عارمة ضد الاحتلال الأشورى وكان ممن تطلَّعوا إلى عون مصر دولة يهوذا وملكها حزقيا . وقد سبق أن ذكرنا (ص ٣٣٥) أن حزقيا كان قد سار فى طريق الرب وبدأ محاولة للإصلاح الدينى فى يهوذا . ولكن إشعياء النبى أعلن أن وقت الإصلاح الدينى قد فات وأن غضب الرب قادم لا محالة

ولتقليل الخسائر عن الشعب اليهودى ما أمكن فعليهم التباعد عن محالفة مصر الوثنية لأن مصر ستنال جزاءها ولكن حزقيا لم يسمع له. وذكرنا أيضا (ص ٣٣٩ - ٣٤٢) غزو سنحاريب لفلسطين وحصار أورشليم ثم اضطراره لرفع الحصار والعودة لبلاده. ورأى خلفه أسرحدون أن مصر هى آخر قوة منافسة فى الشرق الأدنى القديم وهى التى تشجع كل دوله على الوقوف ضده. فقرر الاستيلاء على مصر نفسها. فتقدم الجيش الأشورى بإزاء ساحل البحر المتوسط واستولى على أشدود. ورغب ملك يهوذا فى التحالف مع مصر فأراد الله أن يلفت نظره إلى أن واجبه التوكل على الله وحده. فكان الأمر إلى إشعياء بأن يتجوَّل ٣ سنوات حافيا وبملابس بسيطة فى شوراع أورشليم. وكانت حالته الزرية إشارة إلى ماهو مُقدَّر أن يصيب مصر فى أعقاب انتصار أشور عليها. تقول التوراة (إش ٢:٢٠): «فى ذلك الوقت تكلم الرب عن يد إشعياء بن آموص قائلا: اذهب وحُلَّ المسح عن حقويك (وسطك) واخلع حذاءك عن رجليك. ففعل هكذا ومشى معرًى حافيا. فقال الرب: كما مشى عبدى إشعياء معرًى وحافيا ٣ سنوات آية وأعجوبة على مصر وعلى كوش (بلاد النوبة) هكذا يسوق ملك أشور سبى مصر وجلاء كوش الفتيات والشيوخ عراة وحفاة خزيا لمصر. ويقول ساكنو هذا الساحل (الفلسطينيون ويهوذا) فى ذلك اليوم. هكذا ملجؤنا الذى هربنا إليه للمعونة لننجو من ملك أشور فكيف نسلم نحن؟».

استيلاء أشور على مصر :

وبعد استيلاء أسرحدون على الساحل الفلسطينى تقدم نحو مصر فى عام ٦٧٤ ق.م. ولكنه هُزم فى معركة على الحدود المصرية قرب رفح. ثم أعاد الهجوم بعد ٣ سنوات (٦٧١ ق.م.). وبالرغم من مقاومة المصريين المستبسلة والمشقة التى لاقاها من نقص المياه إلا أن أسرحدون نجح فى دخول البلاد ودمَّر مبانيها ومعابدها. ثم عين الأمراء الإقليميين عمَّالا له لإدارة البلاد واستولى على كنوز القصر الملكى وطمع فى الاستفادة من مهارة الحرفيين المصريين فأمر بترحيل جماعات من الصاغة والكتبة والموسيقيين والسحرة وصانعى الجعة والخبازين إلى بلاده وعيَّن «نخاو» أمير مدينة «سايس» (صا الحجر - مركز كفر الزيات) حاكما من قِبله على مصر. ولكن ما إن عاد أسرحدون إلى نينوى حتى قامت فى مصر ثورة ضد الحكم الأشورى. وبدأ أسرحدون يُعِدُّ لحملة ثالثة ولكنه مات فى عام ٦٦٨ ق . م. وتولى آشوربانيبال بدله فقاد الحملة واستولى مرة ثانية على الوجه البحرى واستولى كذلك على الوجه القبلى وطرد الملوك النوبيين واستولى على طيبة. وقتَل جنودُه وأسروا كثيرا من أبنائها ثم نهبوا كل ما فى معابدها من ذهب وتماثيل بديعة وأثاث جميل وأدوات غالية ونُقلت كلها إلى عاصمة أشور. وعَيَّن بسماتيك بن نخاو حاكما من قبله على الوجه البحرى ومنف وأبقى بقية الدلتا (غربها) والوجه القبلى مقسما بين الأمراء إذ حرص الأشوريون على أن تبقى مصر مسرحا للمنازعات ويظل التنافس بين الأمراء قائما حتى تظل مصر ممزَّقة ضعيفة فلا تتحد ضدهم.

أما وقد وصلت مصر إلى هذه الحال فيقول إشعياء لمن أرادوا الاحتماء بها (إش ٣٠:١):
«ويل للبنين المتمردين – يقول الرب– حتى أنهم يُجرون رأيا وليس منى. الذين يذهبون لينزلوا إلى مصر ولم يسألوا فمى ليلتجئوا إلى حصن فرعون ويحتموا بظل مصر فيصير لكم حصن فرعون حملا. والاحتماء بظل مصر خزيا. قد خجل الجميع من شعب لا ينفعهم».

٦ – نبوءة ضد بلاد العرب :

قيدار هو ثانى أبناء إسماعيل عليه السلام وظلت القبيلة تسكن مكة وما حولها إلاَّ أن فرعا من القيداريين نزحوا إلى شمال غرب الجزيرة العربية وسكنوا المنطقة شرقى أدوم وكوَّنوا شبه دولة يلجأ إليها الفارون من الدول المجاورة فى أثناء الحروب طلبا للماء والقوت كما أنهم كانوا رجالا أشداء ومحاربين متمرسين ويمكنهم المساندة عند طلبها. وفكَّر ملك يهوذا فى طلب العون منهم ولكن إشعياء نهاه وقال له: «قال لى السيد الرب. فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار».

٧ – نبوءة ضد صور وصيدا (إش ٢٣) :

لقد رأينا ملك صور صديقا لسليمان عليه السلام. وساعد بأخشاب الأرز فى بناء الهيكل فى أورشليم. وكانت صور مدينة منيعة يصعب على العدو الاستيلاء عليها. وقد فكَّر ملك يهوذا أن يتحالف مع الصوريين ناسيا أن إيزابل ابنة ملكهم أثبعل والتى تزوجها أخاب هى التى أدخلت عبادة البعل فى إسرائيل (ص ٢٥٣) وأن ابنتها عثليا التى تزوجها يهورام ملك يهوذا هى التى أدخلت عبادة البعل إلى يهوذا (ص ٣٢٤). لذلك نهاه إشعياء عن التحالف مع صور وقال: «وحى من جهة صور. وَلْوِلِى لأنها خربت حتى ليس بيت. حتى ليس مدخل. اخجلى ياصيدون لأن صور خربت. من قضى بهذا على صور المتوِّجة التى تُجَّارها رؤساء. رب الجنود قضى أن تُخرِّب حصونها ويكون من بعد ٧٠ سنة أن الرب يتعهد صور فتعود إلى أجرتها مع كل ممالك البلاد وتكون تجارتها وأجرتها قدسا للرب. وتكون تجارتها للمقيمين أمام الرب لأكل الشبع وللباس فاخر». وفى هذا إشارة إلى أن صور ستقوم فى المستقبل بتقديم أموالها وأخشابها لبناء الهيكل مرة ثانية بعد تدميره. ويوضِّح أكثر فيقول: «واعطوا فضة للنحاتين والنجارين ومأكلاً ومشربا وزيتا للصيدونيين والصوريين ليأتوا بخشب أرز من لبنان إلى بحر يافا حسب إذن قورش ملك فارس لهم». وقورش هو الذى سمح بعودة السبى إلى يهوذا وإعادة بناء الهيكل فى أورشليم كما سيجىء فيما بعد.

٨ – نبوءة بخراب يهوذا نفسها (إش ٢٢) :

«وحى من جهة وادى الرؤيا (أورشليم) يا ملآنة من الجلبة. المدينة العجَّاجة. القرية المفتخرة. قتلاك ليس هم قتلى السيف ولا موتى الحرب. جميع رؤسائك هربوا معا. كل الموجودين بك أُسروا معا». ثم ينعى عليهم أنهم نسوا الله واعتمدوا على قوَّتهم الذاتية. والأسلحة الموجودة فى

حصون المدينة وخزان المياه الذى عملوه لتأمين احتياجات المدينة من الشرب أثناء حصارها. وأن أسوار المدينة متينة. فيقول «ورأيتم شقوق مدينة داود (أورشليم) أنها صارت كثيرة (فرمِّمتموها) وجمعهتم مياه البِركة السفلى. وهدمتم البيوت لتحصين السور وصنعتم خندقا بين السورين لمياه البركة العتيقة. لكن لم تنظروا إلى صانعه (أى الله) ولم تروا مُصَوِّره من قديم». أى أنهم اتخذوا كل الاستعدادات المادية ولكنهم لم يطلبوا المعونة من الله الذى يهب النصر. وظنوا أن الاستعدادات وحدها هى صانعة النصر وكان هذا إثما وخطيئة تضاف إلى سابق خطاياهم التى تستوجب عقابا. «ودعا السيد رب الجنود فى ذلك اليوم إلى البكاء والنوح وأعلن فى أذنى لا يغفرنَّ لكم هذا الإثم».

ثم يوجه الرب الكلام إلى إشعياء (إش ٣٠ : ٨) «تعال الآن. اكتب هذا عندهم على لوح وارسمه فى سفر ليكون لزمن آت للأبد إلى الدهور لأنه شعب متمرد. أولاد كَذَبة. لم يشاءوا أن يسمعوا شريعة الرب. الذين يقولون للرائين لا تروا. حيدوا عن الطريق. ميلوا عن السبيل. اعزلوا من أمامنا قدُّوس إسرائيل. لذلك هكذا يقول قدوس إسرائيل: لأنكم رفضتم هذا القول وتوكلتم على الظلم والاعوجاج واستندتم عليهما لذلك لكم هذا الإثم كصدع منقض ناتىء فى جدار مرتفع ينهدم بغتة فى لحظة. لأنه هكذا قال السيد الرب قدوس إسرائيل. بالرجوع والسكون تَخلُصون. بالتقوى والإيمان تكون قوتكم».

ثم يخبرهم بعد ذلك برأفة الله ورحمته بهم: «ولذلك ينتظر الرب ليتراءف عليكم ويرحمكم لأن الرب إله حق. طوبى لجميع منتظريه. يتراءف عليك عند صوت صراخك. حينما يسمع يستجيب لك ويعطيكم السيد خبزا فى الضيق وماء فى الشدة. ثم يعطى مطر زرعك الذى تزرع الأرض به. وخبز غلة الأرض فيكون دسما وسمنا وترعى ماشيتك فى ذلك اليوم فى مرعى واسع».

ثم يعود فيندِّد بمن يطلبون المعونة من مصر (إش ٣١:١): «ويل للذين ينزلون إلى مصر للمعونة ويستندون على الخيل ويتوكلون على المركبات لأنها كثيرة وعلى الفرسان لأنهم أقوياء جدا. ولا ينظرون إلى قُدُّوس إسرائيل ولا يطلبون الرب. وأما المصريون فهم أناس لا آلهة لهم. وخيلهم جسد لا روح. والرب يمد يده فيعثر المعين ويسقط المُعان ويفنيان كلاهما معا».

٩ - نبوءة عن السبى البابلى ليهوذا :

سبق أن ذكرنا (ص ٣٣٧) أن الملك حزقيا رحَّب برسل بابل الذين جاءوا لعيادته فى مرضه وأراهم كل نفائس بيت الرب وكنوز قصره. فوبَّخه إشعياء النبى وأخبره أن بابل - التى يود صداقتها - هى نفسها التى ستقوم بسبيه وسبى أهل بيته وشعبه فقال له: «اسمع قول الرب: هوذا تأتى أيام يحمل فيها كل مافى بيتك وما ذخره آباؤك إلى هذا اليوم إلى بابل لا يُترك شيىء. يقول الرب ويؤخذ من بنيك الذين منك الذين تلدهم فيكونون عبيدا فى قصر ملك بابل».

وقد تحقق هذا فعلا بعد حوالى ٨٠ عاما إذ هاجم بنوخذ نصر ملك بابل يهوذا عام ٥٩٧ ق.م. واستولى على أورشليم وسبى أهلها كلهم بما فيهم الملك يهوياكين والبيت المالك وعددا كبيرا من الشعب كما سيجيء فيما بعد.

١٠ – نبوءة عن سقوط بابل وعودة السبى لفلسطين : (إش ٤٠ – ٤٧) :

قضى المسبيون من يهوذا حوالى ٥٠ عاما فى الأسر البابلى. وفى هذه المدة كانت قلوبهم قد تطهَّرت وعلموا أن الله هو الحق وراحوا يتلمَّسون الشريعة ليطبقوها. فسخَّر الله كورش (قورش) ملك الفرس لتحطيم بابل. وإذ تم ذلك سمح قورش للسبى من يهوذا بالعودة إلى فلسطين وسمح لهم كذلك ببناء هيكل أورشليم مرة ثانية. وقد تنبَّأ إشعياء النبى بكل هذا قبل حدوثه بحوالى ١٤٠ عاما. يقول إشعياء: «عزُّوا شعبى. يقول إلهكم. طيِّبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمُل (أى استوفت نصيبها من العقاب) إن إثمها قد عُفِىَ عنه. أنها قد قَبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها (أى أنها قد نالت من العذاب ما تستحقه وزيادة). وأما أنت يا إسرائيل عبدى يايعقوب. لا تخف لأنى معك. لا تتلفَّت لأنى إلهك. قد أيدتك وأعنتك وعضَّدتك بيمين برِّى. هكذا يقول الرب: أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيرى».

ثم يوضح أن كورش ملك فارس هو أداة الرب لتأديب بابل فيقول: «هكذا يقول لكورش الذى أمسكتُ بيمينه لأدوس أمامه أمما وملوكا. أفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق. أنا أسير قدامه. والهضاب أمهِّد لأجل عبدى يعقوب وإسرائيل مختارى. دعوتك باسمك. لقيتك وأنت لست تعرفنى. أنا الرب وليس آخر. لا إله سواى. أنا صنعت الأرض وخلقت الإنسان عليها. يداى أنا نشرتا السموات وكل جندها. أنا قد أنهضته بالنصر وكل طرقه أُسهِّل». وهذه الفقرة توضح أن كل انتصارات الفرس كان الله هو المدبِّر لها بالرغم من أن الفرس لا يعرفون الرب إله السموات والأرض. وقد أثار بعض المفسِّرين من أهل الكتاب مسألة ورود اسم «كورش» هكذا صريحة فى النبوءة. ويرى معظم المفسرين أن الوحى ذكر كورش بالإسم حتى يعلم بنو إسرائيل المسبيون فى بابل أنه حالما يأتى كورش فقد انتهت أيام سبيهم وجاء خلاصهم. ويرى آخرون أن هناك قصداً آخر وهو أنه حينما يأتى كورش ويعلم أن اسمه قد ذُكر فى وحى لبنى إسرائيل سيكون ذلك حافزا له ليتجاوب مع هذا القصد السماوى ويعمل على تحقيقه بأن يرد المسبيين إلى فلسطين.

ثم يوضح كيف تذل بابل لأنها تمادت فى ظلم بنى إسرائيل: (إش ٤٧): «انزلى واجلسى على التراب أيتها العذراء ابنة بابل. اجلسى على الأرض بلا كرسى يا ابنة الكلدانيين لأنك لا تعودين تدعين ناعمة ومترفهة. خذى الرحى واطحنى دقيقا. اكشفى نقابك. شمِّرى الأيدى. اكشفى الساق. اعبرى الأنهار. آخذ نقمة ولا أصالح أحداً. اجلسى صامته وادخلى فى الظلام يا ابنة الكلدانيين لأنك لا تعودين تُدعين سيدة الممالك. غضبتُ على شعبى ودفعتهم إلى يدك. لم

تصنعى لهم رحمة. على الشيخ ثقَّلت نيرك جدا. وقلت إلى الأبد أكون سيدة. حتى هذه لم تضعى فى قلبك. لم تذكرى آخرتها وأنت اطمأننت فى شرِّك فيأتى عليك شر لا تعرفين فجره. وتقع عليك مصيبة لا تقدرين أن تصدِّيها ويأتى عليك بغتة تهلكة لا تعرفين بها».

ثم يتوجه الخطاب إلى بنى إسرائيل ليعودا إلى فلسطين (إش ٤٨): «اخرجوا من بابل. اهربوا من أرض الكلدانيين بصوت الترنم أخبروا. نادوا بهذا وأشيعوه إلى أقصى الأرض. قولوا قد فدى الرب عبده يعقوب. فى وقت القبول استجبتك وفى يوم الخلاص أعنتك فأحفظك قائلا للأسرى اخرجوا. للذين فى الظلام اظهروا. ترنَّمى أيتها السموات. وابتهجى أيتها الأرض. لِتَشُدُّ الجبال بالترنم لأن الرب قد عفا عن شعبه وعلى بائسيه يترحَّم. انتفضى من التراب. قومى اجلسى يا أورشليم. انحلِّى من أربطة عنقك أيتها المسبيَّة. اطلبوا الرب مادام يوجد. ادعوه وهو قريب هكذا قال الرب. احفظوا الحق وأجروا العدل لأنة قريب مجىء خلاصى. طوبى للإنسان الذى يعمل هذا. الحافظ السبت. والحافظ يده من كل عمل شر. هكذا قال الرب. السموات كرسىًّ والأرض موطىء قدمىَّ. أين البيت الذى تبنون لى. افرحوا مع أورشليم وابتهجوا معها ياجميع محبِّيها».

وفاة إشعياء :

المشهور أن منسى ملك يهوذا اختلف مع إشعياء وأمر بقتله نشرا بالمناشير.

ميخا النبى Micah

«ميخا» كلمة عبرية تعنى «من كيهوه» ويسمى أيضا «ميخا المورشتى» نسبة إلى مورشة أو مريشة مسقط رأسه وهى قرية قرب جت ١٠كم شمال شرق لخيش (شكل ١٠٥). وقد عاصر ميخا النبى إشعياء كما عاصر ثلاثة من ملوك يهوذا هم: يوثام وآحاز وحزقيا. وهو غير النبى ميخايا (ويُختصر إلى ميخا) والذى ظهر فى المملكة الشمالية أيام الملك آخاب وقد سبق ذكره (ص ٢٥٥). ويتضمَّن سفر ميخا عدة نبوءات:

١ - نبوءة بخراب السامرة : (مى ١) :

قيلت هذه النبوءة فى أوائل سنى نبوَّته حوالى عام ٧٣٥ ق.م. أى قبل سقوط السامرة بما يقرب من ١٥ عاما. «قول الرب الذى صار إلى ميخا المورشتى الذى رآه على السامرة وأورشليم. اسمعوا أيها الشعوب جميعكم. اصغى أيتها الأرض وملؤها. وليكن السيد الرب شاهدا عليكم. السيد من هيكل قدسه فإنه هو ذا الرب يخرج من مكانه وينزل على شوامخ الأرض فتذوب

الجبال تحته وتنشقُّ الوديان كالشمع قدام النار. كل هذا من أجل خطيئة بيت إسرائيل. ماهو ذنب يعقوب؟ أليس هو السامرة؟ وما هى مرتفعات يهوذا؟ أليست هى أورشليم! فأجعل السامرة خربة فى البرية وألقى حجارتها إلى الوادى وأكشف أسسها. وجميع تماثيلها المنحوته تحطَّم وكل بيوتها تحرق بالنار وجميع أصنامها أجعلها خرابا».

٢ - الفساد المنتشر هو سبب الخراب القادم : (مى ٢) :

«ويل للمفتكرين بالباطل والصانعين الشر على مضاجعهم. فى نور الصباح يفعلونه لأنه فى قدرة يدهم. فإنهم يشتهون الحقول ويغتصبونها. والبيوت ويأخذونها. ويظلمون الرجل وبيته والإنسان وميراثه لذلك هكذا قال الرب: هأنذا أفتكر على هذه العشيرة بِشَرٍّ لا تزيلون منه أعناقكم. فى ذلك اليوم يُقال خربنا خرابا. اسمعوا يامن تكرهون الحق ويعوِّجون كل مستقيم. الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم. رؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يُعلِّمون بالأجرة وأنبياؤها يُعرِّفون بالفضة قائلين أليس الرب فى وسطنا وهو لا يأتى علينا بشرٌ. لذلك بسببكم تُفلَح صيون كحقل وتصير أورشليم خرابا».

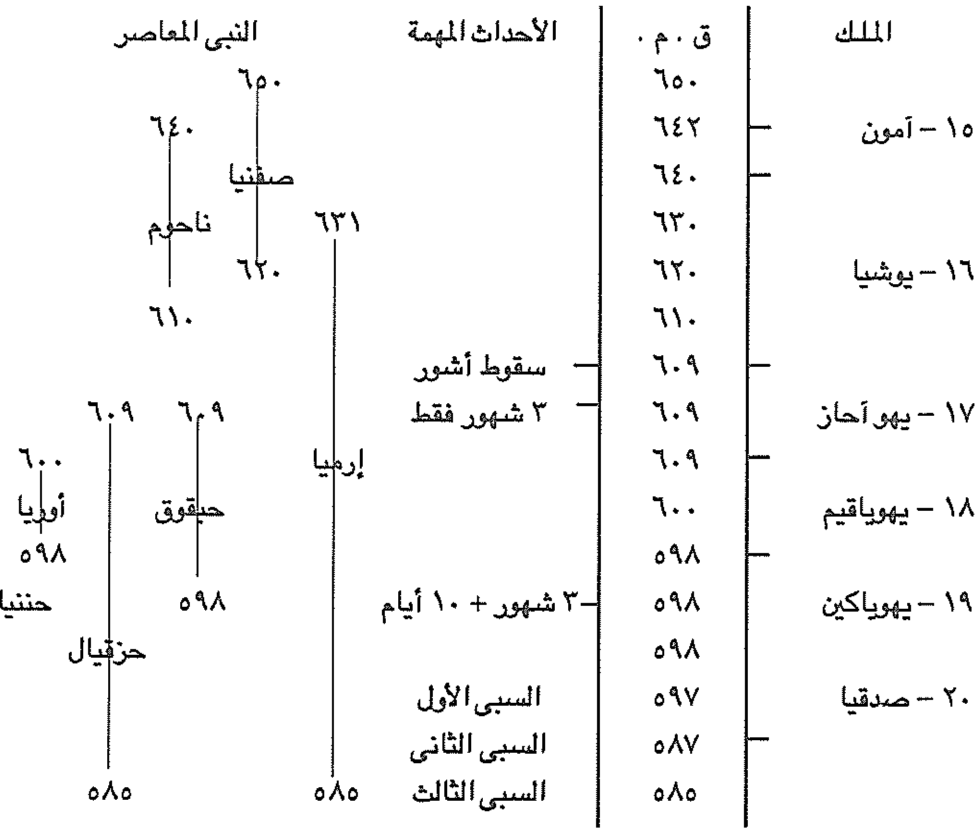
٣ - نبوءة بمقدم المسيح عليه السلام : (مى ٥) :

«أما أنت يا بيت لحم أفراته. وأنت صغيرة أن تكونى بين ألوف يهوذا فمنكِ يخرج الذى يكون متسلِّطا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم. منذ أيام الأزل ويقف ويرعى بقدرة الرب. بعظمة اسم الرب إلهه».

٤ - ترنيمة عفو الرب ومغفرته : (مى ٧ : ١٨) :

«مَنْ إله مثلك غافر الإثم وصافح عن الذنب لبقية ميراثه. لا يحفظ إلى الأبد غضبه. فإنه يُسَرُّ بالرأفة. يعود يرحمنا. يدوس آثامنا. وتطرح فى أعماق البحر جميع خطايانا».

ملوك وأنبياء فترة ماقبل وحتى سقوط يهوذا



هذه الفترة تشمل الخمسين سنة التى سبقت سقوط يهوذا والسبى البابلى وتبدأ من عهد الملك أمون الذى حكم عامين (٦٤٢ – ٦٤٠ ق.م.) وخلفه ابنه يوشيا الذى حكم ٣٠ سنة (٦٣٩ – ٦٠٩ ق.م.) ثم يهو أحاز وملك ٣ شهور فقط. ثم خلفه أخوه يهوياقيم وحكم ١١ سنة (٦٠٩ – ٥٩٨ ق.م.) ثم خلفه يهوياكين وحكم ٣ شهور وعشرة أيام ثم خلفه صدقيا الذى حكم ١١ سنة (٥٩٨ – ٥٨٧ ق.م.) وفى عهده حدث السبى الأول عام ٥٩٧ ثم السبى الثانى أو السبى الكبير عام ٥٨٧ وتلاه سقوط أورشليم وانتهاء مملكة يهوذا . وظهر فى هذه الفترة خمسة أنبياء: اثنان كبار هم: إرميا وحزقيال. وثلاثة صغار هم: صفنيا وناحوم وحبقوق.

١٥ – الملك أمون Amon

حكم الملك أمون بعد والده منسى بن حزقيا (ص٣٤٢) وكان عمره ٢٢ سنة عند توليه الحكم. وسار على منهاج والده فى عمل الشر وعبادة الأصنام. فذبح لجميع التماثيل التى عملها منسًى أبوه وعبدها (٢ أخبار ٢١:٣٣). وقد تآمر عليه جماعة من البلاط وقتلوه ولم يحكم إلا سنتين. وقد انتقم الشعب من المتآمرين فقتلوهم وملَّكوا ابنه يوشيا مكانه.

١٦ – يوشيا Josiah

تولى يوشيا الملك وهو ابن ٨ سنوات وحكم ٣٠ سنة. ولما كان عمره ١٥ سنة أى فى السنة السابعة من حكمه ظهر إرميا النبى وكان لهذا تأثير كبير على سلوك يوشيا إذ سار فى طريق الرب (٢ أخبار ٢:٣٤). فبدأ يُطهِّر يهوذا وأورشليم من المرتفعات والسوارى والتماثيل والمسبوكات. وهدم مذابح البلعيم وتماثيل الشمس. وقتل كهنة الأوثان وكذلك عُبَّادها. ولم تقتصر حملة التطهير على يهوذا بل امتدت إلى الجزء المجاور من إسرائيل التى كانت خاضعة لأشور خضوعا مباشرا بعد سقوط السامرة. وفى السنة ١٨ من حكمه بدأ يوشيا فى ترميم بيت الرب فى أورشليم. وفى أثناء عملية الترميم وجد الكاهن حلقيا سفر شريعة الرب المكتوبة بيد موسى فسلَّمه إلى الملك. ولما قرأه الملك يوشيا هاله ما وجده مكتوبا فيه من شدة غضب الرب على مخالفيه. وجمع يوشيا جميع شيوخ يهوذا فى أورشليم والكهنة والشعب وقرأ كلام الله المكتوب فى السفر وقطع عهدا أمام الرب لحفظ وصاياه وفرائضه. وأمر يوشيا بعمل فصح للرب وأعطى من ماله الخاص ٣٠,٠٠٠ من الحملان والجدى و ٣٠٠٠ من البقر. وقدم رؤساء الشعب ٢٦٠٠ من الحملان و ٣٠٠ من البقر وقدم الكهنة واللاويون ٥٠٠٠ من الغنم و ٥٠٠ من البقر. ولما اكتملت التقدمة (٣٧,٦٠٠ من الغنم و ٣٨٠٠ من البقر) تم ذبحها حسب الشريعة وتسويتها على المحرقة ووُزِّعت على العشائر بحسب عدد البيوتات فيها وعدد الأفراد. وكان الاحتفال بعيد الفصح احتفالا عظيما عمَّ يهوذا كلها. ولعل يوشيا أراد بهذا الاحتفال وهذه الذبائح التكفير عن خطايا بنى إسرائيل وأن يدرأ عنهم غضب الله الذى تنبأ به الأنبياء.

أشور ومصر :

ذكرنا سابقا (ص ٣٥٤) أن أسرحدون نجح فى دخول مصر واستولى على الدلتا ووصل إلى منف ثم ذكرنا أن أشور بانيبال – خلفه – استولى على طيبة عام ٦٥٩ ق.م. ودمَّرها وأمر بنقل كنوزها إلى بلاده ومنها مسلتين كانتا مُغشَّيتين بالذهب و ٣٥ تمثالا من تماثيل الملوك المصريين. وقد وجدت كلها فى «تل النبى يونس» فى شمال العراق. وكان لسقوط طيبة دوى كبير إذ كانت

من أقوى العواصم السياسية والدينية طيلة عدة قرون فى العالم القديم. وقد عبَّر عن ذلك النبى ناحوم وهو ينذر نينوى عاصمة أشور - التى سقطت عام ٦٠٩ ق.م. أى بعد ٥٠ سنة من سقوط طيبة - بأنها لن تكون أعز من «نوآمون» أى طيبة. ويصف سقوطها (ناحوم ٨:٣) فيقول: «هل أنت أفضل من «نوآمون» الجالسة بين الأنهار حولها المياه التى هى حصن البحر سورها. كوش (النوبة) مع مصر وليست نهاية (أى كانت تظن أنها باقية إلى الأبد وليس لها نهاية). لوبيم (الليبيون) كانوا معونتك. هى (طيبة) أيضا قد مضت إلى المنفى بالسبى وأطفالها حُطِّمت فى رأس جميع الأزقة. وعلى أشرافها ألقوا قرعة (فيمن يقتل أوَّلا) وجميع عظمائها تقيَّدوا بالقيود».

ثم تولى حكم مصر بسماتيك الأول مؤسسا الأسرة ٢٦ تحت الحكم الأشورى ويدفع الجزية لأشور ولكنه بدأ يمسك بزمام الأمور فى يده واستمال كهنة طيبة ثم ضم إلى جانبه أمراء مصر الوسطى. ويقول هيرودوت إنه أيضا استعان بجنود مرتزقة من الإغريق ومن الليبيين. وكانت أشور مشغولة بنزاعاتها مع عيلام فى الشرق وبابل فى الجنوب وبثورات قامت ضدها فى بلاد الشام كما أنها اشتبكت فى حروب مع ليديا فى آسيا الصغرى. فانتهز بسماتيك الأول الفرصة للتخلص من النفوذ الأشورى وأعلن استقلاله عن أشور وعمل على تأمين حدوده الشمالية من ناحية فلسطين.فاستولى على جزء كبير من الساحل الفلسطينى ومن جنوب يهوذا. ولما بدأت أشور تضعف تعاظم الخطر البابلى وبدا أنها سترث الأشوريين فى امبراطوريتهم. وهنا بدأت مصر تمد العون لأشور لاتقاء الخطر البابلى المتنامى. ويقول إرميا (أر ١٤:٢): «أعبدٌ إسرائيل أو مولود البيت هو؟ لماذا صار غنيمة؟ زمجرت عليه الأشبال. أطلقت صوتها وجعلت أرضه خربة. أحرقت مدنه فلا ساكن. وبنو نوف وتحفنيس (أى المصريون) قد شجُّوا هامتك. أمَا صنعتِ هذا بنفسك إذ تركتِ الرب إلهك حينما كان مسيِّرك فى الطريق. والآن مالكِ وطريق مصر لشربِ مياه شيحور (أى بحيرة حورس كناية عن نهر النيل).»

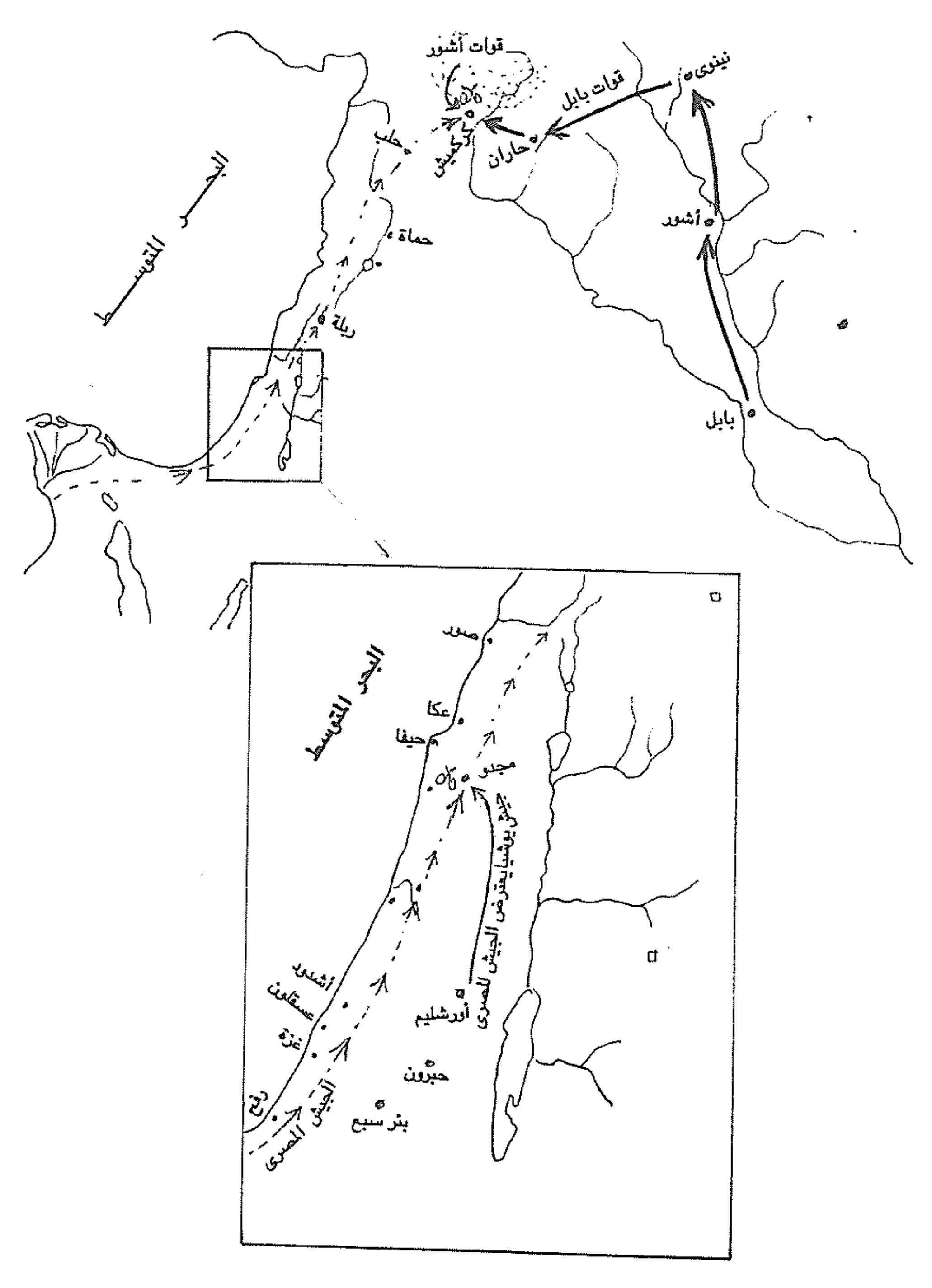
بداية النهاية لأشور :

بعد موت أشور بانيبال (سنة ٦٢٦ ق.م. فى السنة ١٤ من حكم يوشيا ملك يهوذا) حدث صراع على العرش انتهى لصالح الملك «أشور أو بليط». وانتهزت بابل فرصة الصراع هذه وانسلخت عن أشور وقام القائد الكلدانى «بنو آبل أوصر» بتأسيس الأسرة البابلية الجديدة وكانت دولته تشمل بابل فقط. ثم أخذ يزيد مساحتها حتى شملت جنوب العراق كله. وبدأ يتطلع إلى توسيع مملكته على حساب أشور نفسها. وفى عام ٦١٦ ق.م قام بسماتيك الأول ملك مصر بإرسال جيش لمعاونة أشور على صد تطلعات بابل. ولكن بابل تحالفت مع الميديين (الفرس) فى شمال إيران الذين كانت لهم أطماع فى الجزء المجاور لهم من أرض أشور. ثم فى عام ٦١٠ ق.م. حاول آخر ملوك أشور مع حليفه المصرى نخاو الثانى الهجوم على بابل والفرس المتحالفين معها. فلم يكتب لهما النجاح. وسقطت نينوى فى أيدى البابليين.

سقوط نينوى :

كان لسقوط مدينة نينوى دوى كبير فى أنحاء العالم المعروف آنذاك إذ اعتبرته دول الشرق الأدنى القديم رمزا لسقوط الظلم والشر. وفجرا جديداً للشعوب التى غُلبت على أمرها وطالما رزحت تحت نير أشور التى لم ترعَ أضأل مبادىء الإنسانية فى معاملة الشعوب المغلوبة على أمرها والتى قُدِّر لها أن تحكمها بالحديد والنار (د. نجيب ميخائيل إبراهيم. الشرق الأدنى القديم. جـ٣. ص ٣٠٩). ولذلك غضب الرب «يهوه» على أشور. وقد دُمِّرت مدينة نينوى عقب سقوطها ونهبت بيوتها ثم أحرقت بالنار وهرب الملك إلى حران مستمسكا بجزء المملكة الواقع على أعالى الفرات. وقد ذكرنا آنفا أن آخر ملوك أشور وهو «أشور أو بليط» قام بمحاولة أخيرة لاسترجاع أرضه وطلب من مصر إرسال جيش لمساعدته. واستجاب نخاو الثانى ملك مصر وقاد الجيش بنفسه. كانت جميع الدويلات الخاصعة لأشور قد تمرَّدت على الحكام الأشوريين إلا أن يوشيا ملك يهوذا خشى إن انتصر تحالف مصر وأشور أن تستعيد مصر نفوذها فى فلسطين ويفقد عرشه. لذلك فإنه اعترض الجيش المصرى فأرسل نخاو له رسالة يقول فيها (٢ أخبار ٢١:٣٥): «مالى ولك ياملك يهوذا. لستُ عليك أنت اليوم ولكن على بيت حربى والله أمر بإسراعى فكُفَّ عن الله الذى معى فلا يُهلكك...» ونصحه النبى إرميا بالوقوف على الحياد وخاصة أن المصريين قد وعدوا بعدم إلحاق ضرر بيهوذا. ولم يستمع يوشيا إلى نصح إرميا. وكان المصريون قد استولوا على غزة وعسقلون. وسار الجيش المصرى شمالا لنجدة أشور فى الفرات الأعلى ولكن يوشيا اعترضه بجيش عند مجدُّو (شكل ٧٠). وأصيب الملك بجرح ونقل إلى أورشليم حيث مات (عام ٦١٠ ق.م.) وتابع نخاو سيره شمالا. فى ذلك الوقت كان بنوخذ نصر – ولى عهد بابل وقائد الجيش – قد استولى على حاران ودارت المعركة بين بابل وبين نخاو ملك مصر وفلول أشور الهاربة – عند كركميش. وكانت هذه المعركة هى المسمار الأخير فى نعش أشور إذ زالت دولتهم من الوجود بعد هذه المعركة. أما الجيش المصرى فإنه تراجع جنوبيا فى حين تقدم الجيش البابلى واستولى على شمال سوريا وكانت الحدود بينهما هى منطقة «ربلة» فى أرض حماة. وفى الأعوام الثلاثة التالية حاول الجيش المصرى استعادة بعض النفوذ فى سوريا ولكن بنوخذ نصر انتصر عليه واستولى على كل الساحل الفلسطينى وأصبح وادى العريش هو الحد الشمالى لمصر. وهنا وجدت يهوذا نفسها مضطرَّة للخضوع لبابل ودفع الجزية لها. وبعد أن دخلت يهوذا فى عداد الدول الخاضعة لبابل ولضمان استمرار خضوعها له فإن بنوخذ نصر أخذ عددا من كبار القوم والصناع المهرة أسرى إلى بابل.

واضطر نبوخذنصر إلى العودة إلى بابل لوفاة والده عام ٦٠٥ ق.م. وتولى هو الملك بعده وظل محتفظا بقيادة الجيش أيضا وهو يعتبر من أبرز ملوك بابل. وفور توليه الحكم اهتم بمدينة بابل التى كان الأشوريون قد أهملوها ودمَّروها. فجدَّد جميع معابدها وزرع حدائق وجنات فى



شكل ٧٠ – نهاية أشور برغم مساعدة الجيش المصرى .

مصاطب. كل مصطبة تعلو الأخرى وكلها مزروعة بأشجار مختلفة فسميت «**حدائق بابل المعلقة**» ويضعها البعض فى عداد عجائب العالم.

النبى صَفَنْيا بن كوشى

واسم صفنيا Zephaniah – معناه «يهوه قد حفظ» أى أنه قد حُفظ من القتل. وقد ولد صفنيا فى أورشليم أثناء حكم الملك منسّى (ص ٣٤٣) الذى قتل كثيرا مِن الأبرياء. وتقول التوراة إن صفنيا كان أحد الأحفاد الصغار للملك حزقيا ولذلك كان يسهل عليه الدخول على الملوك. وقد تنبأً فى عصر الملك يوشيا وكان شابا لم يجاوز الخامسة والعشرين عندما بدأ مهمته النبوية. وقد كانت الظروف التى دُعِىَ فيها صفنيا للعمل النبوى محفوفة بالمخاطر. فخلال ملك منسًّى الطويل – ٥٥ سنة – تدهورت الحالة الأخلاقية والدينية فى يهوذا تدهورا خطيرا إذ ناهض الصحوة الدينية التى بدأها أبوه حزقيا – فبنى المذابح للبعل وعبد الكواكب فكان الابن الشرير للملك الصالح حزقيا. وقد كان شباب وفتوة صنفيا لازمين للاضطلاع بأعباء النبوة والدعوة للاصلاح الدينى التى وجدت استجابة لدى الملك الشاب يوشيا الذى تحمَّس لدعوة صَفَنيا فى محاولة لمنع يهوذا من المصير المؤلم الذى سبق أن أحاق بالمملكة الشمالية.

ويتميز أسلوب صفنيا بالصراحة والعنف والوضوح. وأهم أقواله هى:

١ – التنبؤ بحركة الاصلاح التي قادها يوشيا :

«كلمة الرب التى صارت إلى صفنيا. يقول الرب. أمدُّ يدى على يهوذا وعلى كل سكان أورشليم وأقطع من هذا المكان بقية البعل مع الكهنة والساجدين الحالفين بملكوم. والمرتدين من وراء الرب والذين لم يطلبوا الرب ولا سألوا عنه».

٢ – إنذار الخطاة بقرب يوم الدينونة (صف ١ : ٧) :

«اسكت قدام الرب لأن يوم الرب قريب. ويكون فى ذلك اليوم أنى أعاقب الرؤساء وجميع اللابسين لباسا غريبا (يتشبهون فى لباسهم بالطبقة الأرستقراطية الكافرة). الذين يقفزون من فوق العتبة (إشارة إلى كهنة الإله داجون الذين يتحاشون أن يدوسوا عتبة هيكله لأن صنمه وقع عليها فصارت مقدسة) وأعاقب الرجال القائلين فى قلوبهم إن الرب لا يُحسِن ولا يُسىء. فتكون ثروتهم غنيمة وبيوتهم خرابا. قريب يوم الرب العظيم».

٣ – نبوءة بخراب بعض الأمم الأجنبية

مثل غزة وأشدود وأسقلون وهى من مدن الفلسطينيين. وكذلك خراب مدن مؤاب وبنى عمون وأشور. «ويمد الرب يده على الشمال ويبيد أشور ويجعل نينوى خرابا كالقفر».

٤ - نبوءة على أورشليم :

يُحذِّر المدينة من العصيان والتعجرف تجاه الأنبياء واللامبالاة بالله ويصف الرؤساء بالعنف والقسوة والقضاة بالجشع والغدر والكهنة بأنهم متفاخرون ومبذرون ومكابرون وغير أمناء فيما يختص بتطبيق الشريعة «لذلك فانتظرونى لأصب عليهم سخطى».

٥ - وعد بالغفران والعودة من السبى :

بعد عقوبات الله التأديبية تأتى الرحمة على البقية الباقية. فليس عقاب الله غاية بذاتها وهو لا يعاقب بلا مسوِّغ. فعقابه دائما عادل. فالبقية الباقية التى تواضعت للرب ستعود من الأسر البابلى «لأنى حينئذ أنزع من وسطك مبتهجى كبريائك ولن تعودى بعد إلى التكبر فى جبل قدسى وأبقى فى وسطك شعبا متواضعا فيتوكلون على اسم الرب. بقية إسرائيل لا يفعلون إثما ولا يتكلمون بالكذب ولا يوجد فى أفواههم لسان غش. ترنَّمى يا ابنة صهيون. اهتف يا إسرائيل. افرحى وابتهجى بكل قلبك يا ابنة أورشليم. قد نزع الرب الأقضية عليك. أزال عدوك. فى ذلك اليوم يقال لأورشليم لا تخافى. الرب إلهك فى وسطك جبار يُخلِّص. أردُّ مسببيكم قدام أعينكم. قال الرب».

بقية ملوك يهوذا :

١٧ - يهوأحاز بن يوشيا = شلوم

بعد موت يوشيا (٦٠٩ ق.م.) مسح الشعب فى أورشليم ابنه يهوأحاز Jehoahaz - ويدعى أيضا شلوم - مقدمينه على أخيه الأكبر إلياقيم. وفى ذلك الوقت كان الجيش المصرى عائدا إلى بلاده بعد هزيمته فى كركميش وشعر نخاو بميل يهوأحاز إلى بابل فعزله وهو لم يمض إلا ٣ شهور فى الحكم وولى مكانه إلياقيم ملكا على أورشليم وتسمى باسم يهوياقيم. ولكن ظلت يهوذا تابعة لبابل وتدفع لها الجزية وحتى لا يثير يهوأحاز اضطرابات ضد مصر فإن نخاو سجنه مقيدا بالسلاسل الحديدية فى حماة. وعند انسحاب الجيش المصرى الكامل من الساحل الفينيقى والساحل الفلسطينى فإن نخاو حمل معه يهوأحاز إلى مصر التى ظل بها إلى أن مات.

وقد أشارت نبوءات إرميا إلى ذلك (إرميا ٢٢ : ١٠) إذ تقول: «لا تبكوا ميتا ولا تندبوه. ابكوا ابكوا من يمضى لأنه لا يرجع بعدُ فيرى أرض بلاده لأنه هكذا قال الرب عن شلوم (الاسم الثانى ليهوأحاز) ملك يهوذا المالك عوضا عن يوشيا أبيه. الذى خرج من هذا الموضع لا يرجع إليه بعدُ. بل فى الموضع الذى سبوه إليه يموت وهذه الأرض لا يراها بعد».

١٨ - يهوياقيم بن يوشيا Jehoiakim

قلنا آنفا إن اسمه الأصلى هو إلياقيم وهو اسم عبرى معناه «من يثبته الله». ولما أصبح ملكا على يهوذا ضمَّن اسمه لفظ الإله «يهوه» فأصبح «يهوياقيم». وهو الابن الأكبر للملك يوشيا وحكم ١١ سنة (٦٠٩ - ٥٩٨ ق.م.) وكما تقول التوراة «وعمل الشر فى عينى الرب إلهه وعبد الأوثان». وراح النبى إرميا يحذِّر من أن غضب الله آت لا محالة متمثلا فى الاستعباد لملك بابل وراح يحض الدول المجاورة على الخضوع لبابل (إرميا ٢٧:١): «فى ابتداء ملك يهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا صار هذا الكلام إلى إرميا من قِبَلِ الرب قائلا: هكذا قال الرب لى: اجعل لنفسك أنيارا واجعلها على عنقك (أنيار جمع نير وهو الخشبة المعترضة فوق رقبة الثور لجرِّ المحراث) وأرسلها إلى ملك أدوم وإلى ملك مؤاب وإلى ملك بنى عمون وإلى ملك صور وإلى ملك صيدون بيد الرسل القادمين إلى أورشليم إلى ملك يهوذا وأوصهم إلى سادتهم قائلا: هكذا قال الرب إله إسرائيل: إنى أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذى على وجه الأرض بقوَّتى العظيمة وبذراعى الممدودة وأعطيتها لمن حَسُنَ فى عينىَّ. والآن قد دفعت كل هذه الأراضى لنبوخذنصر ملك بابل عبدى وأعطيته أيضا حيوان الحقل ليخدمه. فتخدمه كل الشعوب». وتضايق يهوياقيم من ذلك القول الذى يدعو للخضوع لبابل فى حين أنه كان يُمنِّى نفسه بالاستقلال الكامل عن بابل. وليمنع إرميا من مخاطبة الشعب بمثل هذه الأقوال فإنه حبسه فى إحدى غرف القصر.

وفى السنة الرابعة لحكم يهوياقيم أمر الله إرميا بتدوين أقواله وما يوحى إليه فى درج لحفظها (الدرج قطعة طويلة من قماش الكتان أو ورق البردى عرضها حوالى ٣٠سم وطولها يختلف حسب المطلوب كتابته عليها وعند كل طرف قضيب من الخشب يلَف الدرج عليه كما تلف الخرائط الجغرافية اليوم). فاستدعى إرميا معاونه باروخ وأملى عليه الكلام فدوَّنه على لسانه وطلب منه أن ينوب عنه فى إبلاغ محتوياته للشعب عسى أن تتوب يهوذا عن فعل الشر قبل أن ينزل بهم عذاب الرب. وذات عيد قرأ باروخ كلام الدرج على الناس. وأحدث ذلك ذعرا كبيرا لما فيه من نبوءة عن خراب أورشليم وسبى أهلها. واستُدعى باروخ للمثول أمام الرؤساء فقال إنه كتبه بأمر إرميا النبى وهو الذى كان يملى الكلام عليه. وعلم الملك يهوياقيم بالأمر وقرئت عليه بضعة أسطر من الدرج فأخذته سورة غضب ومزَّق الدرج وألقاه فى النار. ثم أمر بالقبض على باروخ وانتوى قتله هو وإرميا ولكن أمكنهما الفرار والاختباء منه. وأمر الله إرميا أن يعيد كتابة الدرج وأن يتوعد يهوياقيم بأنه سيُقتل وتكون جثته مطروحة للحر نهارا وللبرد ليلا وأن الله سيعاقبة هو وعبيده على إثمهم.

فشلت كل محاولات مصر للإبقاء على الامبراطورية الأشورية المنهارة كحاجز بين مصر

وبابل – وبذلك أصبح الصراع مباشرا بين بابل ومصر ورأى نبوخذنصر أنه لابد من القضاء على مصر. وفي عام ٦٠١ ق.م. قاد جيشه إلى مصر. ولكنه لم يستطع دخول مصر بل وتم إجلاؤه عن الجزء الجنوبي من الساحل الفلسطيني. كانت يهوذا حتى هذه اللحظة خاضعة لبابل وتدفع لها الجزية. إلا أن الحزب الموالي لمصر فاز وثار يهوياقيم على تبعيته لبابل رغم تحذيرات النبي إرميا. وتراخى نبوخذنصر بعض الوقت على اعتبار أنها مجرد ثورة محلية صغيرة ولكنه خشي من امتداد عدواها إلى الساحل الفينيقي وسوريا لذلك أسرع بقيادة جيشه لإخمادها. وبينما كان في الطريق مات يهوياقيم وخلفه ابنه يهوياكين.

١٩ – يهوياكين بن يهوياقيم

خلف يهوياكين والده على عرش يهوذا وكان عمره عند توليه الحكم ١٨ سنة ولم يملك إلا ٣ أشهر و١٠ أيام. «وعمل الشر في عيني الرب» ومن أول حكمه أظهر عداء للنبي إرميا. وكان نبوخذنصر قد واصل تقدمه لإخماد تمرد يهوذا فحاصر أورشليم. ولم يقاوم يهوياكين. ودخل نبوخذنصر المدينة واستولى على جميع مافي خزائن بيت الرب وبيت الملك من فضة وذهب وكل آنية الذهب التي كان سليمان عليه السلام قد وضعها في الهيكل. وسبى كل الرؤساء وجميع العظماء من سكان أورشليم حوالي ١٠,٠٠٠ سبي كما سبى جميع الصناع ولم يترك إلا المساكين الذين يعملون في الأرض. وسبى يهوياكين وأمه ونساءه كلهم إلى بابل. ومعظم السبي كان من أورشليم نفسها. وهذا ما يسمى بـ «**السبي الأول**». وكان فيه تصديق لنبوءة إشعياء النبي حينما أطلع الملك حزقيا رسل بابل على جميع كنوز بيت الرب وكنوز قصره (ص ٣٣٧)، فقال له إشعياء: «اسمع قول الرب. هوذا تأتي أيام يحمل فيها كل مافي بيتك وما ذخره آباؤك إلى هذا اليوم إلى بابل. لا يترك شيء. يقول الرب ويؤخذ من بنيك الذين تلدهم فيكونون عبيدا في قصر ملك بابل».

بعد ذلك قام نبوخذنصر بتعيين «متانيا» عم يهوياكين ملكا على أورشليم ويهوذا وغيَّر اسمه إلى «صدقيا» وظل يهوياكين سجينا في بابل إلى أن توفي نبوخذنصر فمنحه خلفه بعض الحرية نظرا لسابق مركزه.

ولقد كان تسليم يهوياكين للمدينة إنقاذا لها من دمار محقق وهو أمر أشاد به المؤرخون ويمكن تشبيهه في عصرنا الحالي – في الحرب العالمية الثانية – باستسلام فرنسا وإعلان باريس مدينة مفتوحة. الأمر الذي حماها من التدمير بواسطة الجيش النازي. وكان من ثمرة استسلام يهوياكين أن بنوخذنصر عامل المدينة برفق نسبي فلم يدمِّر أيًا من مبانيها أو يحرقها. أما عن عدد السبي ففيه اختلاف فهو مرة ١٠,٠٠٠ ومرة ٨,٠٠٠ ومرة ثالثة يزيدونه إلى ٢٣,٠٠٠.

٢٠ - صدقيا . Zedekiah

هو عم الملك يهوياكين وبالتالى فهو أخو أحاز وابن الملك يوشيا . وعُين ملكا على أورشليم من قبَل نبوخذنصر ملك بابل. وفى ذلك الوقت كان فى يهوذا حزبان رئيسيان: حزب يتزعمه إرميا النبى ويعلن أن نبوخذ نصر هو «خادم يهوه» و«أداة الرب» و«القبضة الحديدية التى لن تتمزق». وأن بابل هى «سوط عذاب فى يد الرب» وأن مشيئة الرب هى عقاب يهوذا على الفساد المستشرى والظلم السائد فى أركانها . وأنه لتقليل الخسائر ما أمكن ينصح بالاستسلام لنبوخذ نصر. وحزب آخر يتزعمه «حننيا بن عزور» وهو نبى كاذب يحض على المقاومة وعدم الخضوع للغزاة البابليين وسيجىء تفصيل الصراع بين ملوك يهوذا وبين إرميا فيما بعد (ص ٣٨٣).

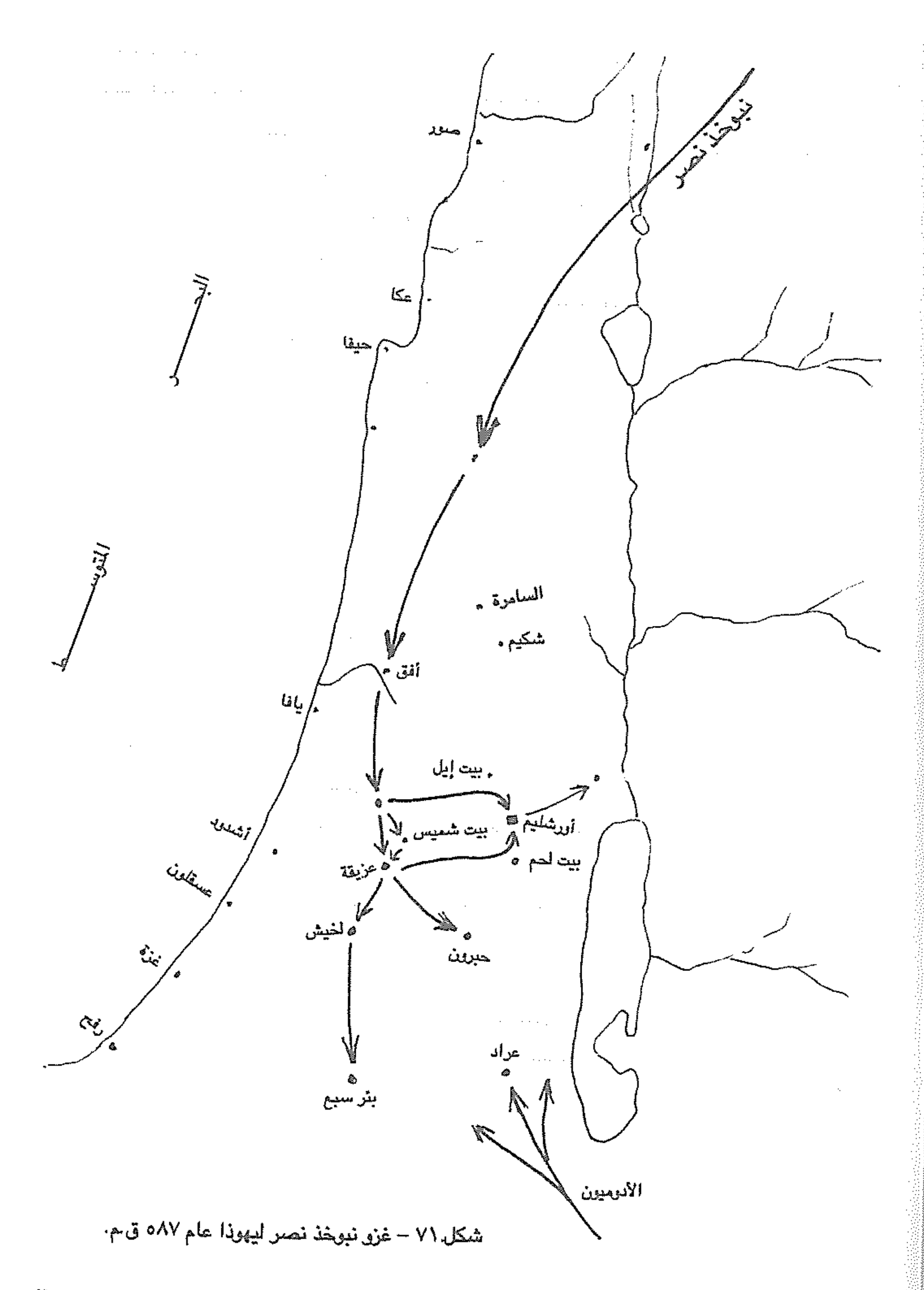
وإعلانا عن مذهبه سار إرميا وهو يحمل نيرا من خشب على كتفه مشيرا بذلك إلى أن نير بابل سيظل على كواهل الشعب بأمر يهوه الرب وأن محاولة التخلص منه عبث لا طائل وراءه. وأنذر بأن الرب يقول (إرميا ٢٧ : ٦) «دفعتُ كل هذه الأراضى ليد نبوخذ نصر ملك بابل عبدى وأعطيته أيضا حيوان الحقل ليخدمه فتخدمه كل الشعوب وابنه وابن ابنه. ويكون أن الأمة أو المملكة التى لا تخدم نبوخذ نصر ملك بابل والتى لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل إنى أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء. يقول الرب - حتى أفنيها بيده. فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرافيكم وحالميكم وعائفيكم وسَحَرتكم الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل. لأنهم إنما يتنبأون لكم بالكذب لكى يبعدوكم من أرضكم ولأطردكم فتهلكوا . والأمة التى تُدخل عنقها تحت نير ملك بابل وتخدمه أجعلها تستقر فى أرضها . يقول الرب. وتسكن بها». ويستمر إرميا فى تحذيراته قائلا: «وكلّمت صدقيا ملك يهوذا بكل هذا الكلام قائلاً: أدخِلوا أعناقكم تحت نير ملك بابل واخدموا شعبه واحيوا . لماذا تموتون أنت وشعبك بالسيف والجوع والوباء كما تكلم الرب عن الأمة التى لا تخدم ملك بابل. فلا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم بالكذب لأنى لم أرسلهم يقول الرب. بل هم يتنبأون باسمى بالكذب لكى أطردكم فتهلكوا».

وظلت مصر متمسكة بالسلام مع بابل وإن كانت تستقبل اللائذين بها من أهل الشام واليهود الفارين من وجه البابليين. ولكن التوسع البابلى فى الشام أثّر على تجارة مصر الخارجية وأضرّ بمصالحها . وأراد ملك مصر «واح إيب رع» والمسمّى» «إبريس» استعادة بعض النفوذ فى فلسطين والشام لتأمين تجارته الخارجية فقاد حملة واستولى على صور وصيدا . وشجّعت التحركات المصرية الدول الأخرى على الثورة على بابل. وراحت مصر تبذل كل جهدها لاستمالة يهوذا إلى جانبها وبثّت الموالين لها بين الشعب وقوّاده. وحذّر الأنبياء وعلى رأسهم إرميا - الشعب من الانسياق وراء ما تدعو إليه مصر. ولكن صدقيا بدأ يميل إلى الحزب المشايع لمصر وفى النهاية أعلن تمرده على بابل. إزاء ذلك وجد نبوخذ نصر نفسه مضطرا إلى القيام بحملة

ثانية إلى فلسطين وبدأ يحتل مدن يهوذا مدينة تلو الأخرى قادما من الساحل الفينيقى (شكل ٧١). فاستولى على مدن الحدود: بيت شمس وعزيقة. ثم سار جنوبا واستولى على المدينة الحصينة لخيش. وتشير حفريات أجريت فى الفترة ١٩٦١ - ١٩٦٧ إلى تدمير كامل للمدينة يرجع تاريخه إلى عام ٥٨٨ ق .م. ويعلوها ٨ أقدام من رديم الأنقاض المحترق مما يدل على إشعال الحرائق فى كل مكان. كما دُمِّرت قلعة القصر تماما. ووجدت خارج المدينة ما يمكن اعتباره مقبرة جماعية لألف من الجثث. ثم أرسل نبوخذ نصر فرقة صغيرة استولت على بئر سبع وبذلك دان له جنوب يهوذا كله.

حصار أورشليم وسقوطها :

بعد ذلك ركز نبوخذ نصر جهوده كلها تجاه أورشليم وفرض عليها الحصار لمدة سنتين. وخرج جيش مصر بقيادة الفرعون «نخاو» بقصد مساعدة يهوذا. فلما سمع الجيش المحاصِر لأورشليم بذلك خفَّفوا قبضتهم عن أورشليم وراودت الآمال الناسَ بأن المحنة قد زالت. ولكن النبى إرميا حذَّرهم من هذا الأمل الكاذب. (إر ٣٧:٧) «وصارت كلمة الرب لإرميا: إن جيش فرعون الخارج إليكم لمساعدتكم يرجع إلى أرضه مصر ويرجع الكلدانيون (البابليون) ويحاربون هذه المدينة ويأخذونها ويحرقونها بالنار. هكذا قال الرب. لا تخدعوا أنفسكم قائلين إن الكلدانيين سيذهبون عنا». وفى الفترة التى خف فيها الحصار عن أورشليم خرج إرميا من المدينة قاصدا أرض بنيامين لينساب من هناك فى وسط الشعب ويعلن نبوءاته. وقبض ناظر الحراس على إرميا وأتى به إلى الرؤساء الذين كانوا غاضبين عليه لأنه كان يدعو إلى الاستسلام ووضعوه فى السجن وأشاروا على الملك بقتله. فأسلمه إليهم. ولعلهم تحرَّجوا من قتله بالسيف فأدلوه فى بئر ليس به إلا قليل من الماء فغاص فى الوحل مؤملين أن يموت ببطء. ولكن رق له أحد العبيد وأشار على الملك بإنقاذه قبل أن يموت فأخرجوه من البئر ووضعوه فى السجن. ولما اشتد الحصار على أورشليم أرسل صدقيا الملك رسولا إلى إرميا وأخرجه من السجن وسأله أن يصدقه الخبر فيما سيحدث للمدينة وله. فطلب منه إرميا الأمان.. فقال إرميا (إر ٣٨:١٧): هكذا قال الرب إله الجنود إله إسرائيل. إن كنت تخرج خروجا إلى رؤساء ملك بابل تحيا نفسك ولا تحرق هذه المدينة بالنار بل تحيا أنت وبيتك. ولكن إن كنت لا تخرج (مستسلما) تُدفع هذه المدينة ليد الكلدانيين فيحرقونها بالنار وأنت لا تفلت من يدهم». هنا قدم له النبى الخيارين. إما الاستسلام لبابل أو مقاساة ما هو أسوأ عند سقوط المدينة وإحراقها. ويجيب صدقيا مُعبِّرا عن خوفه من الأزدراء الذى سيحلُّ عليه من بنى إسرائيل إن هو استسلم. وهكذا فإنه وضع كرامته الشخصية فوق الاستماع إلى صوت النبى الذى هو من عند الرب. وفوق إنقاذ المدينة من الدمار وللشعب من القتل بالرغم من أن إرميا قد قال له: «وهذه المدينة تحرقها أنت بالنار» أى تكون أنت بتصرُّفك - سببا فى إحراقها بالنار. ولن يفلت هو ولا أهل



شكل ٧١ – غزو نبوخذ نصر ليهوذا عام ٥٨٧ ق.م.

بيته. وطلب الملك صدقيا من إرميا أن لا يخبر أحداً بما دار بينهما. وجاء الرؤساء وسألوا إرميا عما طلب الملك منه فقال إنه هو الذى تضرَّع إلى الملك حتى لا يعيده إلى البئر ثانية. وبهذا حافظ إرميا على وعده للملك بأن لا يفشى حقيقة مادار بينهما. وأعيد إرميا إلى السجن ثانية.

واستمر حصار المدينة واشتد الجوع. وأخيرا قرر صدقيا الهرب ليلا حتى لا يقع فى أيدى الجنود البابليين فقام أعوانه بعمل ثغرة فى سور المدينة وهرب منها صدقيا مع حرسه وأهل بيته واتجه إلى الشرق عبر بريه يهوذا وأُسِرَ وهو يعبر وادى الأردن قرب أريحا وأُخذ إلى نبوخذ نصر الذى اتخذ من «ربلة» مركز قيادة له ولجيشه. وأُتِيَ بأبناء صدقيا وذُبحوا أمام عينيه. وبعد ذلك سُمِلت عيناه وقُيِّدَ بالسلاسل واقتيد إلى بابل وبقى هناك إلى أن مات. ونهب الغزاة أورشليم وأشعلوا النيران فى كل مبانيها وأحرقوا القصر الملكى وهدموا المعبد وأشعلوا النيران فيه فأتت على جميع محتوياته بما فيها تابوت الرب وما به من نسخة التوراة التى كتبها موسى بنفسه قبل وفاته. وجاء قائد شرطة بابل وأحرق كل بيوت العظماء بالنار.

السبى البابلى أو السبى الكبير :

تقول التوراة (٢ ملوك ٢٥:١١): «وبقية الشعب الذين بقوا فى المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط. ولكنه أبقى من مساكين الأرض كرامين (عمال مزارع الكرم أى العنب) وفلاحين. واقتاد الكهنة وحراس بيت الرب ورجال البلاط وكاتب رئيس الجند وستين رجلا من الرؤساء الموجودين بالمدينة وسار بهم إلى ملك بابل فى ربلة. فضربهم ملك بابل وقتلهم». أما عن التدمير الذى حدث فى أورشليم فتقول التوراة: «وأعمدة النحاس التى فى بيت الرب والقواعد فقد كسَّرها الكلدانيون وحملوا نحاسها إلى بابل والقدور والرقوش والمقاص والصحون وجميع آنية النحاس التى كانوا يخدمون بها أخذوها. والمجامر والمناضح ماكان من ذهب وما كان من فضة أخذوها» وكل النحاس أو الذهب الذى غُشِّيت به الأبواب والأعمدة وتيجان الأعمدة كلها نزعوها وأخذوها. وهكذا نهب بيت الرب ونهبت المدينة وقصورها ثم أحرق الكل بالنار فدُمِّرت تدميرا شديدا بعد أن أفرغت المدينة من سكانها بالسبى أو القتل. وكان عدد المسبيين أحياء إلى بابل حوالى ٤٠,٠٠٠ وفى تقدير آخر ٥٠,٠٠٠ وهو ما يسمى بالسبى الكبير أو الأسر البابلى الثانى وقد حدث عام ٥٨٧ ق.م. ولما دخل جنود بابل القصر وجدوا إرميا مسجونا فى إحدى غرفه فأخذوه مع الأسرى. إلا أن قائد الجيش - طبقا لتوجيهات من نبوخذ نصر نفسه - أطلق سراحه وسمح له بالعودة إلى أورشليم تقديرا له ولنبوءاته التى كانت تحثُّ على عدم مقاومة بابل.

الباقون فى أورشليم :

لم يبق فى أورشليم بعد السبى إلا بعض المساكين من الشعب مثل الفلاحين وعمال مزارع العنب وبعض الصناع. ورأى نبوخذنصر أن يترك الإدارة المحلية لواحد من اليهود. فعين

جَدَلْيا – وهو ابن موظف كبير – حاكما على يهوذا . ولما كانت أورشليم قد أحرقت تماما . فإنه اتخذ من مدينة «المصفاة Mizpeh» – على بعد ٨كم شرقى أورشليم – عاصمة له ولم تكن قد تعرضت للتدمير مثل باقى مدن يهوذا . وكان إرميا أحد كبار مستشاريه. وتغلبت سياسة المهادنة على الجماعات التى كانت تنادى بالمقاومة وحرب العصابات. ومع ذلك فإن بعض أفراد البيت المالك داعبتهم الآمال فى التمرد على بابل فقاموا بقتل جدليا أثناء وليمة عامة ثم قتلوا بعضا من القوات البابلية نفسها التى كانت فى المصفاة. واستطاع أحد اليهود الموالين لبابل إحباط المؤامرة. وخاف الشعب من انتقام نبوخذ نصر لقتل الحاكم الذى عينه ومقتل بعض جنوده. واعتَبَرَ أهل يهوذا هذا اليوم كارثة قومية واعتُبِرَ من أيام الصيام الرئيسية. وكان فى هذا اعتذار كاف لنبوخذ نصر فلم يقم بأى إجراء انتقامى من أهل المصفاة. إلا أن المتآمرين خافوا وكان الهروب إلى مصر هو سبيل النجاة الوحيد أمامهم وهرب معهم من كان رافضا للحكم البابلى.

الفارون إلى مصر :

ولكن كثيرا من أفراد الشعب فى يهوذا ظل متخوِّفا من انتقام نبوخذ نصر فى وقت لاحق أو عند وقوع أى حادث ولو بسيط لأى فرد من قواته – لذلك لجأوا إلى إرميا النبى يسألونه العون من الرب ويشير عليهم بما يفعلون (إذ ٤٢ : ٣) فقال لهم: «هكذا قال الرب إله إسرائيل: إن كنتم تسكنون فى هذه الأرض فإنى أبنيكم ولا أنقضكم وأغرسكم ولا أقتلعكم. لا تخافوا ملك بابل لأنى أنا معكم لأخلّصكم وأنقذكم من يده. وأعطيكم نعمة فيرحمكم ويردكم إلى أرضكم. وإن قلتم لا نسكن فى هذه الأرض. بل إلى أرض مصر نذهب حيث لا نرى حربا ولا نجوع للخبز وهناك نسكن فإن كلمة الرب يا بقية يهوذا: إن كنتم تجعلون وجوهكم للدخول إلى مصر وتذهبون لتتغربّوا هناك يحدث أن السيف الذى أنتم خائفون منه يدرككم هناك فى أرض مصر والجوع الذى أنتم فيه خائفون يلحقكم هناك فى مصر فتموتون هناك بالجوع والوباء لأنه هكذا قال الرب. كما انسكب غضبى على سكان أورشليم هكذا ينسكب غضبى عليكم عند دخولكم إلى مصر. قد تكلم الرب عليكم يابقية يهوذا . لا تدخلوا مصر».

ولكن بعض الرؤساء وكبار القوم اتهموا إرميا بالكذب قائلين (إر ٤٣:٢): «أنت متكلم بالكذب. لم يرسلك الرب إلهنا لتقول لا تذهبوا إلى مصر لتتغربّوا هناك» واتهموه بأنه يريد أن يدفعهم إلى أيدى البابليين ليقتلوهم أو يسبوهم إلى بابل. وكان جزء كبير من الشعب قد فر من نبوخذ نصر إلى الدول المجاورة ليهوذا . ولمّا استقرت الأوضاع بدأوا فى العودة إلى يهوذا ولكنهم خافوا من ملاحقة جنود بابل لهم فقرروا الهجرة إلى مصر مع أهل يهوذا الرافضين للحكم البابلى وحمل الجميع معهم إرميا قسراً وأتوا إلى «تحفيس» وهى مدينة فى شرق الدلتا على الفرع البيلوزى وتقع ١٥ كم غرب القنطرة.

إرميا يتنبأ بغزو بابل لمصر (إر ٤٣ : ٨) :

ثم صارت كلمة الرب إلى إرميا فى تحفنيس مبينا له أن نبوخذنصر سيأتى «ويضرب أرض مصر. الذى للموت فللموت. والذى السبى فللسبى. والذى للسيف فللسيف. ويوقد نارا فى بيوت آلهة مصر فيحرقها ويكسر أيضا بيت شمس التى فى أرض مصر (مدينة أون. عين شمس الحالية) ويحرق بيوت آلهة مصر بالنار» ونعى على الفارين إلى مصر أنهم سيضطرون إلى تقديم البخور لآلهة مصر.

وكرر إرميا التحذير من أن مصر نفسها ستخضع لبابل فقال (إر ١٢:٤٦): «الكلمة التى تكلم بها الرب إلى إرميا النبى فى مجىء نبوخذ نصر ملك بابل ليضرب أرض مصر: أخبروا فى مصر واسمعوا فى مجدل (جنوبى الفرما أو شرق الاسماعيلية) واسمعوا فى نوف (منف أى ممفيس) وفى تحفنيس. قولوا انتصب وتهيأ لأن السيف يأكل حواليك. لماذا انطرح مقتدروك. لا يقفون لأن الرب قد طرحهم. كثَّر العاثرين حتى يسقط الواحد على صاحبه ويقولوا قوموا فنرجع إلى شعبنا وإلى أرض ميلادنا من وجه السيف الصارم. قد نادوا هناك. فرعون مصر هالك. قد فات الميعاد. حى أنا يقول الرب. اصنعى لنفسك أُهْبة جلاء أيتها الساكنة مصر لأن نوف تصير خربة وتحرق أيضا. يرتدُّون. يهربون. لم يقفوا لأن يوم هلاكهم أتى عليهم وقت عقابهم. قد أُخْزِيت مصر ودُفِعت ليد شعب الشمال (بابل) قال الرب هأنذا أعاقب آمون نو مصر (طيبة) وآلهتها والمتوكلين عليه. وأدفعهم ليد نبوخذنصر ملك بابل وليد عبيده».

وقد تحققت نبوءة إرميا وخدمت الظروف بابل فى احتلالها لمصر. ذلك أن مصر كانت تجابه بعض المشاكل على حدودها الغربية مع الليبيين. ودفع «واح إيب رع» أى «أبريس» بجيش لقتالهم ولكن الجيش هُزم وقتل أغلب أفراده. فعاد الباقون ثائرين على أبريس. فندب قائد جيشه «أمازيس» للتفاوض معهم. فاستمالوه إلى جانبهم ونصَّبوه زعيما لهم فعاد وهاجم الفرعون واستولى على الحكم. ويرى بعض علماء التاريخ (أميلى كورت. الشرق الأدنى القديم. جـ ٢ ص ٦٤٤) أن أبريس بعد طرده من الحكم لجأ إلى البلاط البابلى وحرَّض نبوخذ نصر أن ينتهز فرصة النزاعات الداخلية فى مصر لشن حملة على مصر ليضمها إلى أملاكه ويعيد أبريس ملكا. وتقدم نبوخذ نصر نحو مصر التى كانت قد تلقت عونا من أمير «سيرين» وهى مقاطعة برقة الليبية. ودارت معركة شرسة على الحدود الشرقية قتل فيها أبريس. واختلف المؤرخون حول نتيجة المعركة إذ يقول يوسيفوس إن نبوخذ نصر انتصر ودخل بيت شمس (هليوبوليس) ودمَّرها. بينما يرى آخرون أن أمازيس صالح نبوخذ نصر ورضى بالتبعية لبابل ودفع الجزية لها ومنذ عام ٥٧٠ ق.م. أصبحت مصر تدين بالولاء لبابل. وفريق ثالث يرى أن قوة الفرس المتنامية اضطرت الجانبين إلى «التحالف» لمجابهة هذا الخطر الجديد ولذلك فإن العلاقة بين بابل ومصر لم تكن علاقة تابع بمتبوع بل حلفاء على قدم المساواة وبقى أمازيس حاكما على مصر وإن كان

قد سمح لبابل بأسر اليهود المقيمين فى شرق الدلتا وهليوبوليس وسبيهم إلى بابل وهو ما يعرف بالسبى الثالث. إلا أن أعدادا كبيرة من اليهود الفارين إلى مصر كانوا قد هربوا إلى مصر العليا وأسوان فأصبحوا بعيدين عن يد بابل وبقوا هناك وتكاثروا وكونوا الجالية اليهودية فى جزيرة إلفانتين والتى سيجىء ذكرها بالتفصيل فيما بعد (ص ٤٣٨).

مصير سبى يهوذا :

قاد نبوزرادان – قائد شرط بابل – السبى من أورشليم ويهوذا إلى ربلة التى اتخذها نبوخذ نصر مركز قيادة له أثناء حروبه فى الشام وفلسطين. ثم بعد ذلك قادهم إلى حماة ثم حلب ثم رزف على الفرات ويحتمل أنها مدينة الرصافة الحالية ٤٠كم جنوب بلدة الرقة على الفرات الأعلى فى سوريا. ثم ساروا على الشاطىء الغربى للفرات باتجاه جنوب شرق حتى وصلوا إلى بابل (شكل ٧٢). وأُسكِن السبى فى بابل وما حولها وعلى نهر كيبار حتى مدينة نيبور قرب نهر دجلة. ولم يعامل البابليون أفراد السبى من اليهود كعبيد بل عاملوهم على أنهم شعب منفى إجباريا حتى لا يثير قلاقل فى فلسطين. وهكذا كان لليهود فى المنفى حرية نسبية لممارسة المهن التى يرغبونها وممارسة الحياة التى كانوا يحيونها فى بلادهم. وأدرك أهل السبى أن ما حل بهم كان نقمة من الإله الرب الذى لم ينل منهم التوقير اللازم. وأرسل لهم إرميا النبى – قبل أن يؤخذ إلى مصر – رسالة يحثهم فيها على الاستقرار وعدم إثارة المتاعب فى أرض بابل وأن يعيشوا فى سلام مع أهلها ويندمجوا معهم. وسيجىء ذكر ذلك فيما بعد (ص ٣٩٠). وهكذا كيَّف اليهود أنفسهم وكانت لهم الحرية فى اختيار المكان الذى يقطنونه والمهن التى يحترفونها وتكوَّن منهم مجتمع يهودى مترابط يسَّر لهم إقامة شعائرهم الدينية فحافظوا عليها. واليهود كما هو معروف عنهم ماهرون فى التجارة. فقد كانوا تجارا منذ القدم واكتسبوا مهارة أكثر فى عهد سليمان عليه السلام إذ كانت أورشليم من أنشط المراكز التجارية فى منطقة الشرق الأدنى القديم. وزادت خبرتهم فى التجارة أثناء إقامتهم فى بابل لما هو معروف عن البابليين من مهارة فى التجارة. وبدأ يهود المنفى يكدسون الثروات. وبدأوا يقرضون النقود بالربا إلى أهل البلاد وإن كان التعامل بالربا مُحرمًا فيما بين اليهود حسب الشريعة «لا تقرض أخاك بربا. ربا فضة أو ربا طعام أو أى شيىء مما يُقرض بربا. للأجنبى تقرض بربا» (تثنية ٢٣:١٩). وأظهروا تفانيا وإخلاصا فى عملهم حتى أوكل نبوخذ نصر إلى بعضهم مراكز هامة فى إدارة البلاد وعُيِّن منهم موظفون فى القصر الملكى. وعلى العموم فإن اليهود فى بابل أصبحوا فى أحسن حال وراقت لهم الحياة. وبنوا بيوتا وغرسوا حدائق. ولم يكونوا مجبرين على اتباع ديانة بابل بل تركت لهم الحرية فى عبادة الرب «يهوه» إلا أن بعضا منهم بدأوا يتعبدون للآلهة البابلية فكان لابد من أنبياء يحثونهم على التمسك بعبادة الإله الواحد. وبدأ التفكير فى إقامة معبد مؤقت فى أرض المنفى لحين الرجوع إلى أرض الوطن الذى لم ينسوه أبداً وكانوا يذكرونه فى أدبهم

شكل ٧٢ – السبى البابلى والطريق من أورشليم إلى بابل .

ويتمنون العودة إليه. تقول التوراة على لسانهم (مزمور ١٣٧): «على أنهار بابل هناك جلسنا. بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون. على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا. لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة. ومعذِّبونا سألونا فرحا قائلين: رنِّموا لنا من ترنيمات صهيون. كيف تُرنِّم ترنيمة الرب فى أرض غريبة. إن نسيتك يا أورشليم تُنسى يمينى. ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك. إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى». وفى فترة السبى كثر الأنبياء بينهم يحثونهم على التمسك بتعاليم الشريعة. والصبر إلى أن يأتى خلاص الرب فيعودوا إلى أرضهم. إلا أن كثيرا منهم كان من مُدَّعى النبوة وحذَّر الأنبياء الحق منهم: «ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئا (أى لم يوح إليهم ولم يروا رؤيا). أنبياؤك يا إسرائيل صاروا كالثعالب فى الخَرِب القائلون وحى الرب والرب لم يرسلهم» (حزقيال ١٣:٣).

الباقون فى يهوذا :

لم يفعل البابليون كما فعل الأشوريون فلم يستقدموا سكانا لإسكانهم فى أرض يهوذا. ولكن قلة الكثافة السكانية فى أرض يهوذا أدت إلى نزوح بعض الأدوميين إليها وخاصة أن بلادهم كانت تتعرض لضغط عرب شمال الجزيرة العربية. كذلك حضرت جاليات من الكلدان وسكنوا مكان العائلات التى تم سبيها. وهؤلاء أحضروا معهم آلهتهم. واحتجَّ إرميا النبى على عبادة ملكة السماء أى عشتار وكذلك احتجَّ حزقيال على مشاركة النساء اليهوديات فى طقوس عبادة «تموز» الذى تجلس عنده النسوة ويبكين. ولما كان هناك حزب موالٍ لمصر فقد كانت عبادة الآلهة المصرية تمارس أيضا. إلا أن عددا كبيراً من الأفراد كان لايزال على الشريعة الصحيحة. بل إن المؤمنين من أهل ماكان يعرف بالمملكة الشمالية كانوا يَقدُمون من شكيم وشيلوه والسامرة كحجَّاج إلى أورشليم ويقدمون القرابين والذبائح إلى بيت يهوه الذى خُرِّب (إر ٤١ : ٤).

لقد تكلمنا كثيرا عن إرميا النبى ونبوءاته، فى سياق الكلام عن ملوك يهوذا الذين حكموا فى الفترة التى سبقت السبى البابلى. وبقى أن نتكلم عن هذا النبى بشيىء من التفصيل وخاصة أنه – حسب تصنيف أهل الكتاب – من «الأنبياء الكبار».

النبى إرميا Jeremiah

هو إرميا بن حلقيا الكاهن من بلدة عناثوث فى أرض بنيامين وهى تقع ٥كم شمال شرق أورشليم (انظر شكل ١٠٥) وقد اختاره الرب للقيام بالعمل النبوى فى رؤيا رآها وهو بعدُ حدث. وشعر وقتها بأنه لايزال قليل الخبرة وغير كفؤ للقيام بهذا العمل العظيم ومخاطبة الرجال الذين يكبرونه سنا وخبرة ومركزا. ويقول إرميا عن ذلك: (إر ١:٥) «فكانت كلمة الرب إلىَّ قائلا: قبلما صوَّرتك فى البطن عرفتك. وقبلما خرجت من الرحم قدَّستُك. جعلتك نبيا للشعوب. فقلت آه

ياسيد الرب. إنى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد. فقال الرب لى لا تقل إنى ولد لأنى إلى كل من أرسلك إليه تذهب وتتكلم بكل ما آمرك به. لا تخف من وجوههم لأنى أنا معك لأنقذك يقول الرب. ومد الرب يده فلمس فمى وقال لى الرب: ها قد جعلت كلامى فى فمك. انظر. قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتَهدم وتُهلك وتنقض وتبنى وتغرس».

وبدأت نبوَّة إرميا فى السنة ١٣ من حكم يوشيا بن أمون ملك يهوذا ولما كان يوشيا قد حكم ٣١ سنة يكون إرميا قد عاصره لمدة ١٨ سنة - ثم عاصر يهوياقيم بن يوشيا طوال مدة حكمه (١١ سنة) وطوال مدة حكم صدقيا (١١ سنة) حتى سبى أورشليم وبذلك تكون جملة مدة عمله كنبى ٤٠ أو ٤١ سنة (قاموس الكتاب المقدس، ص ٥٢).

ثم أخبره الرب بمضمون رسالته وهو تحذير يهوذا وشعبها من شر قادم (إر ١:١٣) «ثم صارت كلمة الرب إلىَّ ثانية فقال الرب لى: من الشمال ينفتح الشر على كل سكان الأرض. لأنى هأنذا داعٍ كل عشائر ممالك الشمال فيأتون ويضعون كل واحد كرسيه فى مدخل أبواب أورشليم وعلى كل أسوارها حواليها وعلى كل مدن يهوذا. وأقيم دعواى على كل شرِّهم لأنهم تركونى وبخَّروا لآلهة أخرى وسجدوا لأعمال أيديهم. أمَّا أنت فقم كلِّمهم بكل ما آمرك به. لا ترتعِ من وجوههم لئلا أريعك أمامهم. هأنذا قد جعلتك اليوم مدينة حصينة للملوك يهوذا ولرؤسائها ولكهنتها ولشعب الأرض. فيحاربونك ولا يقدرون عليك لأنى أنا معك - يقول الرب - لأنقذك».

وقد كانت رسالة إرميا هى إخبار شعب يهوذا بما قضاه الرب عليهم جزاء الشرور التى ارتكبها آباؤهم ولا يزالون يفعلونها هم أيضا. ومن أثقل المهام أن تجابه الناس بأخطائهم. لذلك فقد جلب هذا عليه مقت مواطنيه وبغضهم. واضطره ثقل تبليغ الرسالة أن يتوجَّع بمرارة فى بعض الأوقات ولكنه بقى أمينا لرسالته وللمهمة التى ألقيت على عاتقه. واضطُهِدَ وافتُرِىَ عليه. ووضع فى السجن وقاسى عذابه وحاولوا التخلص منه ولكن الله أنقذه. ولما لم يستمع قومه له ويستجيبوا لتحذيراته وقع بهم عذاب الرب. واستولى نبوخذنصر ملك بابل على يهوذا ودمَّر أورشليم وسبى أهلها إلى بابل كما سبق أن ذكرنا.

الفترة الأولى من نبوَّة إرميا :

قلنا إن إرميا بدأ نبوَّته فى السنة الثالثة عشرة من حكم الملك يوشيا. وكما سبق أيضا أن ذكرنا (ص ٣٦١) أنه فى السنة الثامنة عشرة من حكم يوشيا - وفى أثناء إجراء بعض الترميمات فى الهيكل - عُثِرَ على سفر شريعة الرب الذى كتبه موسى بيده قبل وفاته. وكان لكلمات هذا السفر ولكلمات إرميا أثر قوى فى قلب الملك فقام بحرب شعواء على العبادة الوثنية. ومن كلمات إرميا توبيخه للناس على تركهم عبادة الرب. قال (إر ٢:٤): «اسمعوا كلمة الرب يابيت يعقوب وكل عشائر بيت إسرائيل هكذا قال الرب: ماذا وجد فِىَّ آباؤكم من جور حتى

ابتعدوا عنى وساروا وراء الباطل وصاروا باطلاً». ثم ذكَّرهم بأن الرب هو الذى أخرجهم من العبودية فى مصر وأتى بهم إلى «أرض بساتين لتأكلوا ثمرها وخيرها. فأتيتم ونجَّستم أرضى وجعلتم ميراثى رجسا. الكهنة لم يقولوا أين هو الرب. وأهل الشريعة لم يعرفونى والرعاة عصوا علىَّ. والأنبياء تنبَّأوا ببعل وذهبوا وراء مالا ينفع. لذلك أخاصمكم بعدُ. يقول الرب. وبنى بنيكم أخاصم».

ثم ذكرَّهم بما حدث للمملكة الشمالية – إسرائيل – من أنها قد عبدت البعل والأصنام وأن يهوذا هى الأخرى قد خانت العهد وضلَّت الطريق وعبدت الأصنام فحذَّرهم من نفس المصير الذى صار إليه أشقاؤهم فى الشمال (إر ٣ : ٦) فقال: «هكذا خنتمونى يابيت إسرائيل. يقول الرب. سمع صوت على الهضاب. بكاء تضرعات بنى إسرائيل لأنهم عوَّجوا طريقهم. نسوا الرب إلههم. ارجعوا أيها البنون العصاة فأشفى عصيانكم». ثم يُشهدهم على أنفسهم أن الظلم قد ملأ يهوذا هى الأخرى (إر ٥): «طوفوا فى شوارع أورشليم وانظروا واعرفوا وفتِّشوا فى ساحاتها هل تجدون إنسانا أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها؟ كيف أصفح؟ بنوك تركونى وحلفوا بما ليست آلهة. أما أعاقب على هذا؟ يقول الرب. أوَمَا تنتقم نفسى من أمة كهذه؟» ثم يوجه خطابا إلى بابل لتكون أداة الرب لعقاب بنى إسرائيل العصاة. «اصعدوا على أسوارها واخربوا ولكن لا تفنوها. انزعوا أفنانها لأنها ليست للرب لأنه خيانة خاننى بيت إسرائيل وبيت يهوذا. يقول الرب. جحدوا الرب وقالوا ليس هو ولا يأتى علينا شر ولا نرى سيفا ولا جوعا. لذلك قال الرب. من أجل أنكم تتكلَّمون بهذه الكلمة هأنذا جاعل كلامى فى فمك نارا. وهذا الشعب حطبا فتأكلهم. هأنذا أجلب عليكم أمة من بُعد. أمة قوية. أمة لا تعرف لسانها ولا تفهم ما تتكلم به. كلهم جبابرة. فيأكلون حصادك وخبزك. يأكلون غنمك وبقرك. يُهلكون بالسيف مدنك الحصينة التى أنت متَّكل عليها ويكون حين تقولون لماذا صنع الرب إلهنا بنا كل هذه تقول لهم، كما أنكم تركتمونى وعبدتم آلهة غريبة فى أرضكم هكذا تعبدون الغرباء فى أرض ليست لكم. اسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم. الذين لهم أعين ولا يبصرون. لهم آذان ولا يسمعون. أإيَّاى لا تخشون؟ يقول الرب. أوَلاَ ترتعدون من وجهى؟ وصار لهذا الشعب قلب عاصٍ ومتمرِّد. عصوا ومضوا ولم يقولوا بقلوبهم لِنَخَفْ الرب إلهنا. أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذبا وتبخِّرون للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى لم يعرفوها ثم تأتون وتقفون أمامى فى هذا البيت الذى دُعىَ باسمى عليه؟ هل صار هذا البيت الذى دُعِىَ باسمى عليه مغارة لصوص فى أعينكم؟».

وقال الرب لى (إر ١١:٩) «توجد فتنة بين رجال يهوذا وسكان أورشليم قد رجعوا إلى آثام آبائهم الأولين الذين أبوا أن يسمعوا كلامى. وقد ذهبوا وراء آلهة أخرى ليعبدوها. قد نقض بيت إسرائيل وبيت يهوذا عهدى الذى قطعته مع آبائهم. لذلك قال الرب: هأنذا جالب عليهم شرا لا

يستطيعون أن يخرجوا منه ويصرخون إلىّ فلا أسمع لهم. فينطلق مدن يهوذا وسكان أورشليم ويصرخون إلى الآلهة التى يبخِّرون لها فلن تخلِّصهم فى وقت بليَّتهم. هكذا قال الرب. هكذا أفسد كبرياء يهوذا وكبرياء أورشليم العظيمة. هذا الشعب الشرير الذى يأبى أن يسمع كلامى. الذى يسلك فى عناد قلبه ويسير وراء آلهة أخرى ليعبدها ويسجد لها».

القحط :

ثم إن الله أصابهم ببعض السنين الجدباء حتى يتعظوا (إر ١٤): «كلمة الرب التى صارت إلى إرميا من جهة القحط. ناحت يهوذا وأبوابها. ذبلت. حزنت إلى الأرض وصعد عويل أورشليم». ثم يرسم صورة بليغة لآثار القحط فيقول: «وأشرافهم أرسلوا أصاغرهم للماء. أتوا إلى الأجباب (جمع جب وهو البئر الواسعة. وتجمع أيضا جباب وجببة. المعجم الوسيط . جـ ١ . ص ١٠٤) فلم يجدوا ماء ورجعوا بآنيتهم فارغة. خزوا وخجلوا وغطوا رؤوسهم من أن الأرض قد تشققت لأنه لم يكن مطر على الأرض. خزى الفلاحون. غطوا رؤوسهم».

بعض الخطايا :

ثم ينتقل إرميا فيوضح أن البلاء والقحط كان بسبب الآثام والخطايا التى كانوا يرتكبونها فراح يُندِّد بها ويحثهم على الاقلاع عنها وركَّز على خطيئتين:

١ - **عدم تقديس يوم السبت** (إر ١٧:١٩): هكذا قال الرب لى. اذهب وقف فى باب بنى الشعب الذى يدخل منه ملوك يهوذا ويخرجون منه وفى كل أبواب أورشليم وقل لهم: اسمعوا كلمة الرب ياملوك يهوذا وكل يهوذا وكل سكان أورشليم. تحفَّظوا بأنفسكم ولا تَحملوا حِملا يوم السبت ولا تُدخِلوه فى أبواب أورشليم (إدخال أحمال البضائع من أبواب المدينة معناه ممارسة التجارة). ولا تُخرِجوا حِملا من بيوتكم يوم السبت. ولا تعملوا شغلا ما. بل قدِّسوا يوم السبت كما أمرت آباءكم فلم يسمعوا أو يميلوا أذنهم. بل قسُّوا أعناقهم لئلا يسمعوا ولئلا يقبلوا تأديبا. وإن لم تسمعوا لى وتقدِّسوا يوم السبت فإنى أشعل نارا فى أبوابها فتأكل قصور أورشليم ولا تنطفىء».

٢ - **عبادة الأوثان** : كانت هذه هى الخطيئة الثانية التى نهاهم عنها. وكانوا يمارسون العادات الوثنية بتقديم الأبناء قرابين للآلهة. فراح إرميا ينتقل بين المدن المختلفة ينذر أهلها بشرٍّ قادم يقع بهم إن لم يرتدُّوا عن هذه الممارسات. فذهب إلى **«وادى هنوم»**. وهو وادى يمر جنوب غرب أورشليم. (شكل ٣٤ ص ١٢٢) وجزء من هذا الوادى يسمى **«توفة»** ومعناها بالأرامية مكان الحريق. وقد اعتادت الشعوب الوثنية فى تلك الأيام أن يحرقوا هناك أولادهم وبناتهم فى النار تقدمه للإله «مولوك» وكان فى «توفة» جحر عميق واسع يُجمع فيه الخشب وتشعل فيه النار ويلقى فيه الأطفال. فقال الرب لإرميا (إر ١:١٩): «اخرج إلى وادى ابن هنوم

وقل اسمعوا كلمة الرب ياملوك يهوذا وسكان أورشليم. هكذا قال الرب: هأنذا جالب على هذا الموضع شراً من أجل أنهم تركوني وبخّروا فيه لآلهة أخرى وملأوا هذا الموضع من دم الأزكياء. وبنوا مرتفعات للبعل ليحرقوا أولادهم بالنار محرقات للبعل. لذلك ها أيام تأتي – يقول الرب – ولا يُدعى بعدُ هذا الموضع «توفة» ولا «وادى ابن هنوم» بل «وادى القتل» وأجعل يهوذا وأورشليم يسقطون بالسيف أمام أعدائهم وبيد طالبى نفوسهم. وأجعل جثثهم أكلا لطيور السماء ولوحوش الأرض». وسمع يوشيا لكلام إرميا ومنع الاقتراب من «توفة» و«وادى هنوم» لكى لا يرمى أحد ابنه أو ابنته فى النار لـ «مولك». وسرت فى البلاد نهضة دينية كما سبق أن ذكرنا (ص ٣٦١). إلا أن هذه النهضة ما لبثت أن خبت تحت وطأة الظروف السياسية. ذلك أن التهديد البابلى جعل يهوذا تركن إلى مصر لمساعدتها. وقَوِيَ الحزب الممالىء لمصر والمتشبع بعبادة آلهة المصريين. فعاد الفساد ثانية إلى البلاد وانتشرت عبادة الأوثان. فكان كلام الرب إلى إرميا (إر ٣:١١) «اذهب وناد بهذه الكلمات نحو الشمال. وقل ارجعى أيتها العاصية يقول الرب. لا أوقع غضبى بكم لأنى رؤوف . يقول الرب. لا أحقد إلى الأبد. اعرفى فقط إثمك أنك إلى الرب إلهك أذنبت ولصوتى لم تسمعوا . يقول الرب. ارجعوا أيها البنون العصاة . يقول الرب . إن رجعت إلىَّ يا إسرائيل وإن نزعتِ مكرهاتك من أمامى فلا يحدث لك اضطراب. شعبى أحمق. إياى لم يعرفوا . هم بنون جاهلون وهم غير فاهمين. هم حكماء فى عمل الشر ولعمل الصالح لا يفهمون. كيف أصفح لكِ عن هذه؟ بنوك تركونى وحلفوا لما ليست آلهة. أمَا أُعاقب على هذا؟ يقول الرب. أوَ ما تنتقم نفسى من أمة كهذة؟». ثم يوضح إرميا نوع هذا العقاب وماهية ذلك الانتقام فيقول (إر ٥) «هأنذا أجلب عليكم أمة من بُعد يا بيت إسرائيل. أمة قوية. أمة لا تعرف لسانها ولا تفهم ما تتكلم به. كلهم جبابرة فيأكلون حصادك وخبزك الذى يأكله بنوك وبناتك. يأكلون غنمك وبقرك. يهلكون بالسيف مدنك الحصينة التى أنت متّكل عليها».

المؤامرة الأولى على حياة إرميا:

كانت «عناثوث» مقر إقامة إرميا. ومقر إقامة «أبياثار» الذى كان كاهنا أكبر فى أورشليم وعزله سليمان عليه السلام وعين «صادوق» – الجد الأكبر لإرميا – مكانه. لذلك كان آل أبياثار يشعرون بمرارة تجاه أى شخص من بيت صادوق. ولما رأى أن إرميا يدعو إلى عدم الركون إلى المساعدة المصرية وعدم الوقوف ضد بابل وبالتالى فهى دعوة للتعاطف مع العدو وهى تعتبر جريمة «خيانة عظمى». فراح يؤجج نار الغضب فى قلوب أهل عناثوث مما جعلهم يتآمرون على إرميا. هنا لجأ إرميا إلى الله يطلب عونه (إر ١٨: ١٩): «اصغ لى يارب. اذكر وقوفى أمامك لأتكلم عنهم بالخير لأرد غضبك عنهم». ثم هو بعد ذلك يستمطر عليهم غضب الرب ولعناته لما تآمروا به عليه فيقول: «لذلك سلِّم بنيهم للجوع وادفعهم ليد السيف فتصير نساؤهم ثكالى وشبانهم مضروبى السيف فى الحرب لأنهم حفروا حفرة ليمسكونى وطمروا فخاخا لرجلىَّ. وأنت

يارب عرفت كل مشورتهم عليَّ للموت. لا تصفح عن إثمهم. ولا تمحُ خطيَّتهم من أمامك. فى وقت غضبك عاملهم». ولا يفوتنا أن نقارن هذا بمسلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. فمهما آذاه قومه كان يدعو لهم بالهداية قائلا: اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون. ولما اشتد أذاهم نزل إليه جبريل عليه السلام يخبره أن الله قد بعث له مَلَك الجبال وقال له إن شئت تطبق عليهم الأخشبين (جبلى مكة) فقال صلى الله عليه وسلم: أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا.

تعذيب إرميا :

لما سمع «فشحور» الكاهن (فشحور بالعبرية تعنى رئيس) – وكان رئيس كهنة الهيكل – بكلمات إرميا الداعية إلى الخضوع لبابل . ضرب إرميا وحبسه فى المقطرة وهى أداة تعذيب خشبية ذات ثقوب كانت تقيد فيها رِجلا (أو رجلا ويدا) الشخص المراد تعذيبه . إذ كان فشحور من الحزب المؤمن بأن أورشليم – بما لها من تحصينات قوية – فى أمان. وحتى لو هاجمتهم بابل وحاصرت أورشليم فإن مساعدات مصر ستضطر البابليين لرفع الحصار. ولهذا كان من رأية عدم الالتفات إلى أقوال إرميا. وفى الليل أعاد فشحور التفكير فى موقفه من إرميا مما جعله يطلق سراحه أملا فى أن يجعله ذلك يُغيِّر أقواله أو يلطِّف منها. ولكن إرميا ظل ثابتا على آرائه وأقواله. وليسخر من فشحور أطلق عليه اسما تهكُّميا هو «مجور مِسَّابيب» أى «هَوْلاً من كل جهة» والمعنى أنه عندما يثبت النصر لبابل فإن فشحور يتحمَّل كل ما يصيب أورشليم وأهلها من أهوال (إر ٢٠: ٤) «لأنه هكذا قال الرب. هأنذا أجعلك خوفا لنفسك ولكل محبيك فيسقطون بسيف أعدائهم وعيناك تنظران. وأدفع كل يهوذا ليد ملك بابل فيسبيهم إلى بابل ويضربهم بالسيف. وأدفع كل ثروة هذه المدينة وكل تعبها وكل مثمَّناتها وكل خزائن ملوكها أدفعها ليد أعدائهم. وأنت يافشحور وكل سكان بيتك تذهبون فى السبى وتأتى إلى بابل وهناك تموت وهناك تُدفن أنت وكل محبيك الذين تنبأت لهم بالكذب».

إرميا يشتكى إلى الله :

ثم يتوجه إرميا إلى الله شاكيا ما يلاقيه بسبب قيامه بأعباء النبوَّة وتبليغ كلمات الرب المعارضة للمفاهيم السياسية السائدة فى يهوذا فى ذلك الوقت. فيقول (إر ٢٠ : ٧) «قد أقنعتنى يارب فاقتنعت. كل واحد استهزأ بى. لأنى كلما تكلمتُ صرخت. لأنى سمعت مذمَّة من كثيرين يقولون اشتكوا (للمسئولين والرؤساء) فنشتكى عليه وننتقم منه. ولكن الرب معى كجبار قدير. من أجل ذلك يعثر مضطهدىَّ ولا يقدرون. فيارب الجنود مختبر الصدِّيق ناظر الكُلَى والقلب. دعنى أرى نقمتك منهم لأنى لك كشفت دعواى. رنِّموا للرب. سبِّحوا للرب لأنه قد أنقذ المسكين من يد الأشرار».

إرميا ويهوأحاز بن يوشيا :

سبق أن ذكرنا (ص ٣٦٣) أن يوشيا جرح فى معركة مجدو حينما اعترض الجيش المصرى بقيادة «نخاو» والذى كان ذاهبا لنجدة أشور عند هجوم نبوخذ نصر ملك بابل عليها. وحُمِل يوشيا إلى أورشليم حيث مات. وكانت وفاته ضربة عظيمة لحركة الإصلاح الدينى التى بدأها. وأوضح لهم إرميا أن يوشيا قد مات فى أرضه وبين أهله. أما الذى يستحق البكاء عليه والندب فهو ابنه شلوم (= يهوأحاز) الذى ملك بعده. فقد تنبأ له إرميا بأنه سيسبى إلى مصر ويموت فى أرض الغربة (كما سبق ذكره ص ٣٦٦): «لا تبكوا ميتا ولا تندبوه. ابكوا ابكوا من يمضى لأنه لا يرجع بعدُ فيرى أرض ميلاده لأنه هكذا قال الرب عن شلوم بن يوشيا ملك يهوذا المالك عوضا عن يوشيا أبيه. الذى خرج من هذا الموضع لا يرجع إليه بعدُ. بل فى الموضع الذى سبوه إليه يموت وهذه الأرض لا يراها بعدُ».

إرميا ويهوياقيم :

استمر إرميا يذيع نبوءاته فى عهد يهوياقيم بن يوشيا ويخبر عن العدو البابلى القادم من الشرق والدمار الذى سيحدثه بيهوذا وبمدينة أورشليم وخراب بيت الرب والهيكل. وعظم الأمر على الرؤساء والكهنة واجتمعوا ليتشاوروا بشأن إرميا. تقول التوراة (إر ٢٦ : ١) «فصعدوا من بيت الملك إلى بيت الرب وجلسوا فى مدخل بيت الرب الجديد. فتكلم الكهنة والأنبياء مع الرؤساء وكل الشعوب قائلين: حق الموت على هذا الرجل لأنه قد تنبأ على هذه المدينة كما سمعتم بآذانكم. فكلَّم إرميا كل الرؤساء وكل الشعب قائلا: الرب أرسلنى لأتنبأ على هذا البيت وعلى هذه المدينة بكل الكلام الذى سمعتموه. فالآن أصلحوا طرقكم وأعمالكم واسمعوا لصوت الرب إلهكم فيرفع الرب الشر الذى تكلم به عليكم. أمَّا أنا فهأنذا بيدكم اصنعوا بى كما هو حسن ومستقيم فى أعينكم. لكن اعلموا علما أنكم إن قتلتمونى تجعلون دما زكيا على أنفسكم وعلى هذه المدينة وعلى سكانها لأنه حقا قد أرسلنى الرب إليكم لأتكلم فى آذانكم بهذا الكلام. فقال الرؤساء وكل الشعب للكهنة والأنبياء: ليس على هذا الرجل حق الموت لأنه كلَّمنا باسم الرب إلهنا. فقام أناس من شيوخ الأرض وكلَّموا كل جماعة الشعب قائلين إن ميخا المورشتى تنبأ فى أيام حزقيا ملك يهوذا وكلَّم كل شعب يهوذا قائلا: هكذا قال رب الجنود: إن صهيون تفلح كحقل وتصير أورشليم خربا وجبل البيت شوامخ وعر. هل قتلا قتله حزقيا ملك يهوذا؟ ألم يَخَفْ الرب وطلب وجه الرب فرفع الرب الشر الذى تكلم به عليهم؟ فنحن عاملون شرا عظيما ضد أنفسنا (إن قتلنا إرميا)». وهكذا نجا إرميا بفضل تدخل الشيوخ العقلاء نافذى البصيرة.

النبى أوريا بن شمعيا .

ظهر فى قرية كريات يعاريم Kiriath - Jearim وهى مدينة تابعة ليهوذا وتقع ١٥كم غرب أورشليم (شكل ١٠٥) – رجل تنبأ باسم الرب هو أوريا بن شمعيا Uriah son of Shemaiah. فتنبأ على يهوذا وأورشليم بكل الكلام الذى قاله إرميا. ولما سمع الملك يهوياقيم وكل الرؤساء قرروا قتل أوريا فهرب إلى مصر. ولكن حسن العلاقات السياسية مع مصر أتاحت ليهوياقيم أن يرسل رسلا إلى مصر فأحضروا أوريا مقبوضا عليه وقتله بالرغم من دفاع إرميا عنه. ودفنت جثته فى مقابر عامة الشعب.

حننيا بن عزور (نبى كاذب) .

فى بداية عهد الملك صدقيا جاء حننيا بن عزور Hananiah son Azur من بلدة جبعون (١٠ كم شمال غرب أورشليم) وكلَّم إرميا فى بيت الرب أمام الكهنة وكل الشعب قائلا: «هكذا تكلم رب الجنود إله إسرائيل قائلا: قد كسرت نير ملك بابل. فى سنة من الزمان أردُّ إلى هذا الموضع كل آنية بيت الرب التى أخذها نبوخذ نصر ملك بابل من هذا الموضع وذهب بها إلى بابل وأرد إلى هذا الموضع يكنيا بن يهوياقيم ملك يهوذا (وهو نفسه يهوياكين – ص ٣٦٨ – والذى تم سبيه إلى بابل). وهنا نلمس صراعا بين نبى صادق هو إرميا ونبى كاذب هو حننيا بن عزور قال إن الرب تكلم له بعكس ما يقول إرميا. ولكى يدلل على صدق روايته فإنه قام بكسر النير عن عنق إرميا. وعن هذا تقول التوراة (إر ٢٨: ١٠): «ثم أخذ حننيا النّير عن عنق إرميا النبى وكسره وتكلم حننيا أمام كل الشعب قائلا: هكذا قال الرب: هكذا أكسر نير نبوخذ نصر ملك بابل فى سنتين من الزمان عن عنق كل الشعوب». نلاحظ هنا أن حننيا تكلم الكلام الذى يحبه السياسيون وهو المقاومة وعدم الاستسلام لبابل لأن بابل ستنكسر قريبا – فى مدة عام أو عامين – وأورشليم بما لها من استحكامات وتأمين مصدر المياه – يمكنها الصمود. وغاب عنه أن المقاومة ستحفز العدو على الانتقام فيما لو استولى على المدينة – بتدميرها وسبى أهلها فى حين أن الاستسلام – كما حدث أيام يهوياكين فى السبى الأول – سيجنب المدينة الدمار ويجنب أهلها ويلات الحصار. «ثم صار كلام الرب إلى إرميا النبى بعد ما كسر حننيا النبى النير عن عنق إرميا النبى قائلا. اذهب وكلِّم حننيا قائلا: هكذا قال الرب. قد كسرت أنيار الخشب وعملتَ عوضا عنها أنيارا من حديد لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: قد جعلت نيرا من حديد على عنق كل هؤلاء الشعوب ليخدموا نبوخذنصر ملك بابل فيخدمونه. فقال إرميا. اسمع ياحننيا. إن الرب لم يرسلك وأنت قد جعلت هذا الشعب يتكل على الكذب. لذلك هكذا قال الرب: هأنذا طاردك عن وجه الأرض. هذه السنة تموت لأنك تكلمت بعصيان على الرب. فمات حننيا فى تلك السنة فى الشهر السابع» (إر ٢٨:١٢).

إرميا ويهوياكين :

قلنا سابقا (ص ٣٦٨) إن يهوياكين عمل الشر فى عينى الرب ومن أول أيام حكمه أظهر عداء للنبى إرميا. وبالرغم من أنه لم يقاوم نبوخذ نصر إلا أن ذلك لم يكن عن إيمان أو إطاعة لكلام إرميا بل كان تسليما للمدينة كى ينقذ نفسه ولذلك قال إرميا عنه (إر ٢٢:٢٤): «حى أنا، يقول الرب. ولو كان يهوياكين بن يهو ياقيم ملك يهوذا خاتما على يدى اليمنى فإنى من هناك أنزعك وأسلِّمك ليد طالبى نفسك وليد الذين تخاف منهم وليد نبوخذ نصر ملك بابل، وأطرحك وأمك التى ولدتك إلى أرض أخرى لم تولدوا فيها وهناك تموتان». وقد حدث هذا فعلا إذ أُخِذ يهوياكين وأمه فى السبى الأول إلى بابل وماتا هناك.

إرميا وصدقيا :

لما بدأ نبوخذ نصر حصاره لأورشليم أرسل صدقيا إلى إرميا يطلب منه أن يتوسل إلى الله ليخلِّصهم ويفك حصارهم. ولكن إرميا أجابه أن الرب قد شاء أن تكون بابل أداته لينفُذ قضاءه فى أورشليم، وأن الملك وحاشيته والشعب وجميع الذين يبقون أحياء بعد هول الحصار وما يصاحبه من مجاعة وأوبئة – هؤلاء يُدفعون ليد نبوخذ نصر ليسبيهم وسيكون الموت مصير الذين لا يستسلمون. أما أورشليم فسوف تحرق وتدمَّر عن آخرها.

والحقيقة أن إرميا كان فى موقف لا يحسد عليه فقد أطلعه الله سبحانه وتعالى على ما سيحدث فى المستقبل القريب من استيلاء نبوخذ نصر على أورشليم وتدميره لها. ولخوفه على بنى قومه ولرغبته فى تجنيبهم ويلات الحرب فإنه دعا إلى تقبل الأمر وعدم المقاومة لأن تلك هى مشيئة الرب. ولكن رجال السياسة اعتبروا ذلك انحيازا لجانب العدو وخيانة للوطن وفتًّا فى عضد المحاربين. ويثور السؤال: هل كان على إرميا أن يجارى السياسيين فيما تهواه أنفسهم فيجنِّب نفسه غضبهم أو على الأقل أكان عليه أن يصمت؟ أوَلاَ يكون ذلك إخلالا بواجب النبوة وكتمانا لما أُمِر أن يُبلِّغه؟ وقرر إرميا أن يجهر بما أوحى إليه من ربه مهما ناله من تكذيب وتعذيب. وإلى هذا يشير القرآن الكريم:

«أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقا كذبتم، وفريقا تقتلون» . (٨٧ – البقرة).

«كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم، فريقا كذَّبوا وفريقا يقتلون» . (٧٠– المائدة).

واستمر إرميا فى تبليغ رسالته (إر ٢١): «هكذا قال الرب إله إسرائيل: هأنذا أرد أدوات الحرب التى بيدكم التى أنتم محاربون بها ملك بابل والكلدانيين الذين يحاصرونكم خارج السور وأجمعهم فى وسط هذه المدينة وأنا أحاربكم بيد ممدودة وبذراع شديدة وبغضب وحموٍ وغيظ عظيم، وأضرب سكان هذه المدينة، الناس والبهائم معا بوباء عظيم فيموتون. ثم بعد ذلك قال

الرب. أدفع صدقيا ملك يهوذا وعبيده والشعب والباقين فى هذه المدينة من الوباء والسيف والجوع ليد نبوخذ نصر ملك بابل وليد أعدائهم وليد طالبى نفوسهم فيضربهم بحد السيف لا يترأف عليهم ولا يشفق ولا يرحم. وتقول لهذا الشعب: هكذا قال الرب: هأنذا أجعل أمامكم طريق الحياة وطريق الموت: الذى يقيم فى هذه المدينة يموت بالسيف والجوع والوباء والذى يخرج ويسقط (أى يستسلم) إلى الكلدانيين الذين يحاصرونكم يحيا وتصير نفسه له غنيمة لأنى قد جعلت وجهى على هذه المدينة للشر لا للخير. يقول الرب. ليد ملك بابل تُدفع فيحرقها بالنار».

هذا أبلغ تطبيق عملى لقوله تعالى : «**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**» (٢٥١ - البقرة). فالله يدفع فساد بنى إسرائيل بتسليط البابليين عليهم لإبادة هذه الفئة الباغية الفاسدة والمفسدة من سكان يهوذا وأورشليم حتى ترتدع البقية وينصلح حالها . ولعل هذا كان من أصعب المواقف على إرميا أن يجد نفسه مضطرا لدعوة بنى قومه للاستسلام للعدو. فاتُّهِم بأنه خائن للوطن وعميل للعدو البابلى ولم يكن السياسيون راضيين عن أقواله. وراح الكهنة الخاضعون لنفوذهم يعارضون دعوة إرميا . وليقنعوا الناس بأقوالهم ادَّعوا كذبا أنهم أنبياء وأن ما يقولونه هو وحى من الرب. فراح إرميا يفضح حقيقة ادعاءاتهم فأُوحى إليه أن يقول (إر ٢١:٢٣): «لم أرسل الأنبياء بل هم جروا . لم أتكلَّم معهم بل هم تنبَّأوا . ولو وقفوا فى مجلسى لأخبروا شعبى بكلامى. قد سمعت ما قالته الأنبياء الذين تنبأوا باسمى بالكذب قائلين حَلِمت حلمت (أى رأوا رؤيا من الرب) حتى متى يوجد فى قلب الأنبياء المتنبئين بالكذب. بل هم أنبياء خداع قلوبهم»، ويقول أيضا : «هأنذا على الأنبياء يقول الرب. الذين يأخذون لسانهم ويقولون قال (أى يدَّعون أن الرب قال لهم). هأنذا على الذين يتنبأون بأحلام كاذبة . يقول الرب. الذين يقصُّونها ويُضلون شعبى بأكاذيبهم ومفاخراتهم وأنا لم أرسلهم ولا أمرتهم. إنى أرفضكم فالنبى أو الكاهن الذى يقول وحى الرب أعاقب ذلك الرجل وبيته».

لماذا كان السبى ؟

هذا هو السؤال الذى لابد أن يقفز إلى الأذهان. والجواب يتمثل فى نقطتين.

١ - أن هذا المصير كان عقابا على الشرور والمفاسد التى ارتكبها بنو إسرائيل وذلك ما نعاه عليهم عديد من أنبيائهم. وبلَّغهم إرميا تحذير الرب: «شعبى أحمق. إياى لم يعرفوا . هم بنون جاهلون وهم غير فاهمين. هم حكماء فى عمل الشر ولعمل الصالح لا يفهمون. كيف أصفح لكِ عن هذه؟ بنوك تركونى وحلفوا (وعبدوا) لما ليست آلهة. أمَا أعاقب على هذا؟ يقول الرب. أوَمَا تنتقم نفسى من أمة كهذه؟». فالهدف هو إفناء الطغمة الباغية الفاسدة حتى ترتدع الفئة الباقية فتعود أكثر التصاقا بالرب وتعاليم شريعته. ويشرح إرميا ذلك بضرب مثال عملى فيقول (إر ١:٢٤): إن الله أراه سلتين موضوعتين أمام هيكل الرب. فى إحداهما تين

جيد جدا وفى السلة الأخرى تين ردىء جدا لا يؤكل من رداعته. ثم صار كلام الرب إلى إرميا قائلا: «هكذا قال الرب إله إسرائيل. كهذا التين الجيد هكذا أنظر إلى سبى يهوذا الذى أرسلته من هذا الموضع إلى أرض الكلدانيين للخير وأجعل عينىَّ عليهم للخير وأرجعهم إلى هذه الأرض وأبنيهم ولا أهدمهم. وأغرسهم ولا أقلعهم وأعطيهم قلبا ليعرفونى. أنى أنا الرب. فيكونوا لى شعبا وأنا أكون لهم إلها لأنهم يرجعون إلىَّ بكل قلبهم. وكالتين الردىء الذى لا يؤكل من رداعته. هكذا قال الرب. أجعل صدقيا ملك يهوذا ورؤساءه وبقية أورشليم الباقية فى هذه الأرض والساكنة فى أرض مصر. وأسلمهم للقلق والشر فى جميع ممالك الأرض عارا ومُثُلا وهزأة ولعنة فى جميع المواضع التى أطردهم إليها فأرسل عليهم السيف والجوع والوباء حتى يفنوا عن وجه الأرض.

٢ - أما **الحكمة الثانية** الكامنة وراء القضاء السماوى على بنى إسرائيل بالسبى فتذكرها التوراة بإيجاز وإبهام فى قول إرميا (إر ٢٣:٢٠) «لا يرتد غضب الرب حتى يجرى ويقيم مقاصده. **فى آخر الأيام تفهمون فهما**». فما هو هذا الفهم الذى لن يُفهم إلا فى آخر الأيام؟ **وما نراه فى الإجابة على هذا السؤال** هو أن بنى إسرائيل - وقد أنجاهم الله من الذل الذى كانوا يُسامونه فى مصر. وأغرق فرعون أمام أعينهم. ثم أدخلهم الأرض التى وعدها لهم ثم كان الملك العظيم لسليمان عليه السلام - لكل هذا شعر بنو إسرائيل أنهم «شعب الله المختار» وأن غيرهم من الشعوب ماخلقوا إلا ليكونوا لهم تابعا. لذلك فإنهم انغلقوا على أنفسهم وعلى حضارتهم وظنوا أن لا حضارة غيرها. وكانوا يأنفون من مخالطة الآخرين وإن اضطروا إلى ذلك فمن منطلق أنه أمر مؤقت. فكانت إرادة الله أن ينزع من نفوسهم هذه النظرة المتعالية ويجبرهم - بالسبى - على الاختلاط بغيرهم من الشعوب ليأخذوا من حضاراتهم. وليؤمنوا بأن التفاعل بين الحضارات ينتج عنه نضج وترقى. كذلك لتوسيع الدائرة التى يعملون فيها لتشمل دولا أخرى دون أن تكون هذه الدول «خاضعة» لهم ولتوسيع دائرة تعاملهم لتشمل الشعوب فى الدول المجاورة بدلاً من التقوقع فى مكان واحد هو «الأرض الموعودة» ولجعلهم يدركون أن الانتشار فى الأرض يجعلهم أقدر على التحكُّم فى شعوبها وتوجيه سياسة قادتها. تلك هى - فى نظرنا - الحكمة الثانية من السبى. وقد حدث هذا فعلا. وسنرى فيما بعد كيف كان تسلل اليهود إلى البلاط الفارسى فأصبحوا عاملا مؤثرا فى اتخاذ قرارات سياسية خطيرة أفادت اليهود فائدة كبيرة منها العودة للأرض وبناء الهيكل. ولما تزوَّجت «أستير» اليهودية الملك وأصبحت ملكة فارس قامت بحماية اليهود من حملة كانت تُدَبَّر لإبادتهم والاستيلاء على أموالهم وممتلكاتهم.

إلا أن الأذهان فى ذلك الوقت - وقت حصار أورشليم - كانت منصرفة إلى النجاة من ويلات الحرب ولم تجعل لدى الساسة وقتا للتفكير العميق فى مقاصد الرب ولا لقبول ما قضى به عليهم

ورأوا أن إرميا بتنبؤاته هذه يفت في عضد المقاومة فقبضوا عليه - وكما سبق أن ذكرنا (ص ٣٧٠) أنزلوه في بئر مملوء بالوحل بُغية موت غير مباشر وبطء. ثم خُفِّف عنه وسُجن في إحدى غرف القصر. ولكن السجن لم يمنعه من إبلاغ رسالته. فقد كان يكتب نبوءاته ويحملها عبيد القصر الموالين له ويذيعونها على الشعب.

نبوءات إرميا

لم يترك إرميا الناس في وهدة اليأس بل أعطى أملا وتعزية متمثلين في أن الأمة التي ستسببهم ستكون نهايتها أيضا إلى خراب فيقول إرميا (إر ٢٥:١٢) «ويكون عند تمام السبعين سنة أني أعاقب ملك بابل وتلك الأمة . يقول الرب. على إثمهم وأرض الكلدانيين أجعلها خربا أبدية». ففي هلاك المعتدي تعزية حتى لو كان هذا الهلاك مؤجلاً لما بعد سبعين سنة.

كذلك مما يعزي النفس أن يشعر المصاب أن المصيبة ليست خاصة به وحده بل شملت آخرين. من هنا كانت نبوءات إرميا بأن بابل ستُحكم قبضتها - ليس على يهوذا أو أورشليم وحدها - بل على كل دول المنطقة أيضا. وكل دولة سينالها نصيب من الخراب والدمار.

١ - نبوءة إرميا على مصر (إر ٤٦) :

بدأ إرميا بمصر لأن المصريين استمالوا بني إسرائيل إلى جانبهم وشجعوهم على معاداة أشور وبابل ثم لم يستطيعوا حمايتهم من غضبة هاتين الامبراطوريتين. وكانت هزيمة المصريين في معركة كركميش (ص ٣٦٣) مؤشرا على فقدان الجيش المصري كفاءته القديمة المشهورة عنه منذ أيام تحتمس الثالث ومُنبِّها إلى أن مصر لم تعد تستطيع مساندة غيرها أو حتى الدفاع عن نفسها. وقد صدقت الأحداث هذه النبوءة إذ استولى نبوخذ نصر على مصر كما سبق أن ذكرنا ص ٣٧٤ وكما قال إرميا (إر ٤٦:١٣): «الكلمة التي تكلم بها الرب إلى إرميا النبي في مجيء نبوخذ نصر ملك بابل ليضرب أرض مصر. أخبروا في مصر وأسمِعوا في مجدل وأسمِعوا في نوف (منف).. نادوا هناك. فرعون ملك مصر هالك... اصنعي لنفسك أهبة جلاء أيتها البنت الساكنة مصر لأن نوف تصير خربة وتحرق فلا ساكن. الهلاك من الشمال جاء».

٢ - نبوءة على الفلسطينيين (إر ٤٧) :

كان الفلسطينيون دائما أعداء إسرائيل الألداء. وقد تنبأ إرميا باكتساح بابل للساحل الفينيقي والساحل الفلسطيني فقال: «هكذا قال الرب. ها مياه تصعد من الشمال ويكون سيلا جارفا فتغشى الأرض. المدينة والساكنين فيها. فيصرخ الناس ويولول كل سكان الأرض من صوت قرع حوافر أقويائه. من صرير مركباته وصريف بكراته (بكرات عجلات المركبات

الحربية). لا تلتفت الآباء إلى البنين بسبب اليوم الآتى لهلاك كل الفلسطينيين. لينقرض من صور وصيدون كل بقية لأن الرب يهلك الفلسطينيين. أتى الصلع على غزة (يشبه غزة بامرأة قصت شعرها فصارت صلعاء). أُهلكت أشقلون».

٣ - نبوءة على مؤاب (إر ٤٨):

سبق أن ذكرنا (الجزء الرابع ص ١٠٩١) أن موسى عليه السلام حارب الأموريين واستولى على المنطقة شرق البحر الميت شمال نهر عرنون والتى كانت قديما من أملاك مؤاب ولكن الأموريين استولوا عليها، وخُصِّصت هذه المنطقة لرأوبين. وكانت دائما مثار نزاع بين مؤاب وإسرائيل لرغبة مؤاب فى استردادها. وكان إله مؤاب هو «كموش». وعن مؤاب قال إرميا: «هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: ويل لمؤاب لأنها خربت خزيت وأُخذت وارتعبت. ليس موجودا بعدُ فخر مؤاب. قد حُطِّمت مؤاب وأُسمع صغارها صراخا. فمن أجل اتكالك على أعمالك وعلى خزائنك ستؤخذين أنت أيضا ويخرج «كموش» إلى السبى كهنته ورؤساؤه معا. ويأتى المهلك إلى كل مدينة فلا تفلت مدينة وتصير مدنها خربة بلا ساكن فيها».

٤ - نبوءة على عمون (إر ٤٩):

كان بنو عمون دائمى الإغارة على أرض سبط «جاد» لنهبها. ويقول إرميا: «لذلك ها أيام تأتى، يقول الرب، وأُسمِعُ فى ربة عمون (العاصمة وهى عمان الحالية) جلبة حرب وتصير تلا خربا وتحرق بناتها بالنار».

٥ - نبوءة على أدوم (إر ٤٩ : ٧):

كان الأدوميون (نسل عيسو أخى يعقوب عليه السلام) العدو التقليدى لإسرائيل فقد رفضوا طلب موسى عليه السلام المرور فى أرضهم عند محاولة امتلاك الأرض كما سبق أن ذكرنا (الجزء الرابع ص ١٠٨٨). وقال إرميا عن أدوم: «هكذا قال رب الجنود، ألا حكمة بعدُ فى تيمان؟ هل بادت المشورة من الفهماء؟ هل فرغت حكمتهم؟ إن بصرة (ثانى المدن الرئيسية فى أدوم) تكون دَهَشًا وعاراً وخرابا ولعنة. وكل مدنها تكون خربا أبدية».

٦ - نبوءة على دمشق (إر ٤٩: ٢٢):

وتذكر النبوءة أن دمشق وحماة وأرفاد ستكون مسرحا للحرب وطعما للنيران «لذلك تسقط شُبَّانها فى شوارعها وتهلك كل رجال الحرب فى ذلك اليوم، يقول الرب، وأشعل نارا فى سور دمشق فتأكل قصور بنهدد (ملكها)».

٧ - نبوءة على عرب البادية - قيدار (إر ٤٩ : ٢٨):

كانت قيدار قبيلة إسماعيلية تسكن شمال شبة الجزيرة العربية بين العراق فى الشرق والبحر

الميت وخليج العقبة غربا وكانت المنطقة فى ذلك الوقت غنية بالمراعى وقطعان الماشية. تقول النبوءة: «هكذا قال الرب. قوموا اصعدوا إلى قيدار. اخربوا بنى المشرق. يأخذون خيامهم وغنمهم ويأخذون كل آنيتهم وجمالهم».

٨ - نبوءة على عيلام (إر ٤٩ : ٣٤) :

تقع عيلام شرق العراق. «كلمة الرب التى صارت لإرميا النبى على عيلام. هكذا قال رب الجنود. هأنذا أحطِّم قوس عيلام ولا تكون أمة وأبيد من هناك الملك والرؤساء». وكان استيلاء بابل على عيلام هو أقصى توسع لها من جهة الشرق فكانت الإمبراطورية البابلية فى أقصى توسع لها كما فى شكل ٧٣ وانتهت عيلام كدولة منذ استيلاء بابل عليها.

٩ - نبوءة بمعاقبة بابل نفسها (إر ٥١ : ٣٤) :

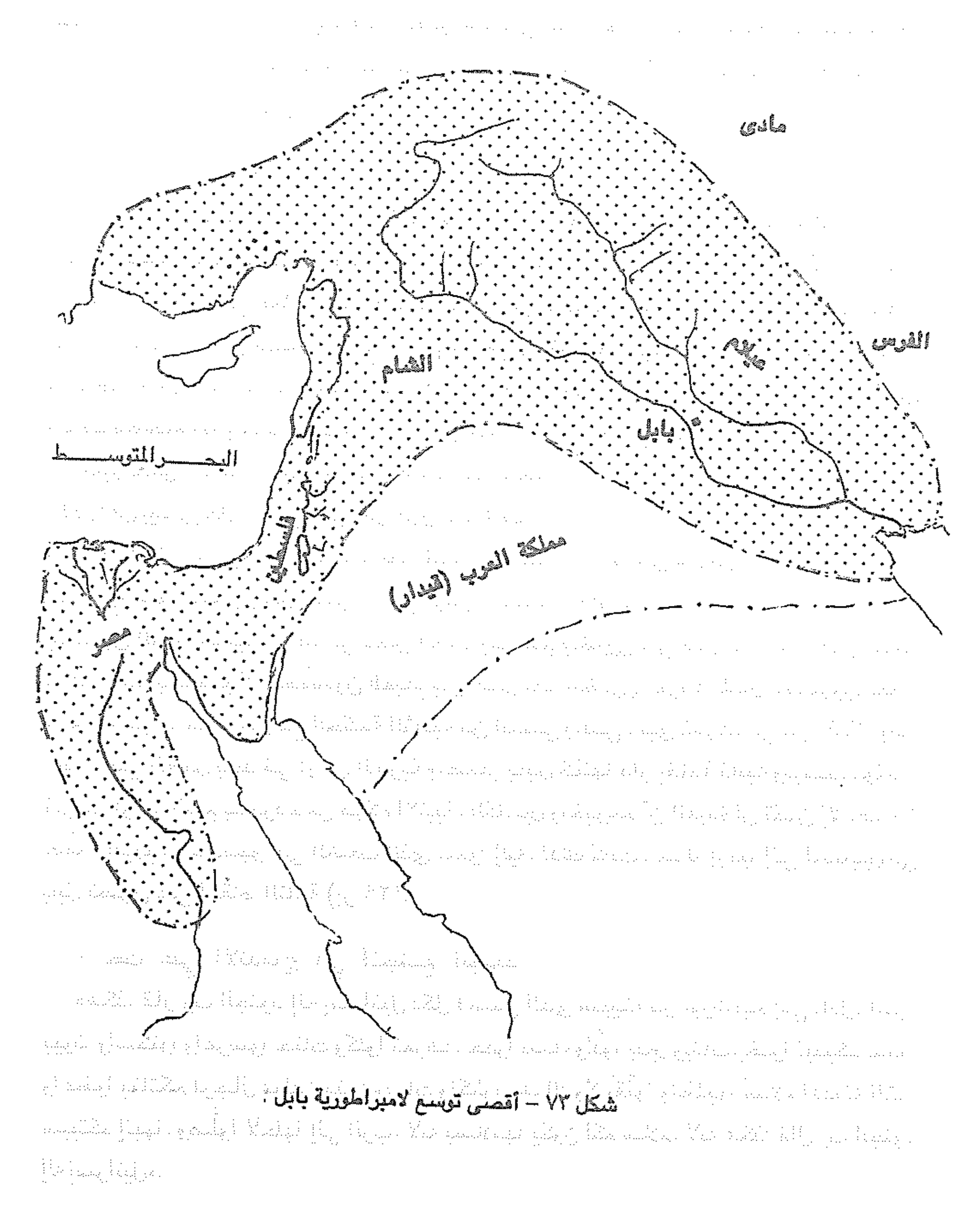
تبدأ النبوءة ببيان الظلم الشديد الذى مارسته بابل ضد بنى إسرائيل فتقول: «أكل أفنانى نبوخذ نصر ملك بابل. جعلنى إناء فارغا. ابتلعنى كتنين وملأ جوفه من نِعمى. طوَّحنى. ظلّمى ولحمى على بابل. دمى على سكان أرض الكلدانيين تقول أورشليم». ثم تأتى النبوءة بهلاك بابل نفسها: «لذلك هكذا قال الرب. هأنذا أُخاصم خصومتَكِ وأنتقم نقمتكِ. وأُنشِّف بحرها وأُجفِّف ينبوعها وتكون بابل كوما ومأوى بنات آوى». وقد تحقق هذا فعلا. فبعد أن بلغت امبراطورية بابل أقصى توسع لها بالاستيلاء على مصر عام ٥٧٠ ق.م لم تمض سوى ٣١ سنة حتى قام الفرس بتحطيم بابل عام ٥٣٩ ق.م.

١٠ - نبوءة بالعودة (إر ٥٠ : ١٧) :

ولعل هذه النبوءة قد طيبت خاطر بنى إسرائيل ورفعت روحهم المعنوية إذ يدركون أنهم فى يوم ما - قَرُب أم بَعُدَ - سيعودون إلى الأرض التى سبوا منها. تقول التوراة: «إسرائيل غنم متبدِّدة قد طردته السباع. أوّلا أكله ملك أشور ثم هذا الأخير نبوخذ نصر ملك بابل هرس عظامه. لذلك هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: هأنذا أعاقب ملك بابل وأرضه كما عاقبت ملك أشور. وأرد إسرائيل إلى مسكنه فيرعى «كَرْمَلْ» و«باشان» . وفى جبل أفرايم وجلعاد حتى تشبع نفسه فى تلك الأيام وفى ذلك الزمان . يقول الرب. وخطيَّة يهوذا لا توجد لأنى أغفر لمن أُبقيه».

وقد تنبأ إشعيا أيضا بذلك (إشعياء ٤٠ : ١): «عزُّوا شعبى. يقول إلهكم طيِّبوا قلب أورشليم ونادوا بأن جهادها (أى عقابها) قد كمل. إن اثمها قد عُفى عنه. أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها» وقد سبق ذكر ذلك (ص ٢٥٧).

ثم كانت نبوءة ثانية بالعودة : «ثم صارت كلمة الرب إلى إرميا ثانية وهو محبوس بعد فى دار السجن قائلة: هكذا قال الرب: ادعنى فأجيبك وأخبرك بأمور عظيمة وعويصة لم تعرفها



شكل ٧٣ – أقصى توسع لامبراطورية بابل

لأنه هكذا قال الرب عن بيوت هذه المدينة وعن بيوت ملوك يهوذا التى هدمت. هأنذا أضع عليها علاجا وأشفيهم وأرد سبى يهوذا وسبى إسرائيل. وأبنيهم كالأول وأطهِّرهم من كل إثمهم الذى أخطأوا به إلىَّ وأغفر كل ذنوبهم التى عصوا بها علىَّ. هكذا قال الرب. سيُسمع فى مدن يهوذا وشوارع أورشليم الخربة صوت الطرب وصوت الفرح. صوت القائلين احمدوا رب الجنود لأن الرب صالح. لأن إلى الأبد رحمته».

رسالة إرميا إلى المسبيين فى بابل :

لما استولى نبوخذ نصر على أورشليم كان إرميا سجينا فى سجن بالقصر الملكى فأخذه رئيس الشرطة مع غيره من الأسرى إلى الرامة مركز إقامة نبوخذ نصر الذى كان قد علم بنبوءاته التى كانت فى صالح بابل وعلم بما قاسى من تعذيب واضطهاد من قومه بسببها فأطلق سراحه وخيَّره فى أن يذهب إلى بابل أو يبقى فى وطنه. فآثر إرميا أن يبقى. فأعطاه رئيس الشرطة زادا وهدية وأطلقه فسار حتى أتى إلى جدليا الذى تولى الحكم فى يهوذا واتخذ من المصفاة عاصمة له وأصبح أحد مستشاريه وأقام فى وسط الشعب الباقين فى الأرض. وسيقت إلى بابل جموع الشعب الذين تم سبيهم وقد بلغ عددهم ٤٠,٠٠٠ أو ٥٠,٠٠٠ وكان من بينهم الملك وأهل بيته ورجال البلاط وكثير من الرؤساء والكهنة.

ووصلت إلى إرميا فى المصفاة أنباء تفيد أن بعض الأشخاص من بين المسبيين قد ادَّعوا النبوة وراحوا يتنبأون بعودة قريبة إلى أرض فلسطين. وإذا كان هذا الأمر يجعل المسبيين يتحملون الغربة بصبر إلا أنه فى نفس الوقت يجعلهم ينظرون إلى بابل على أنها «دار إقامة مؤقتة» مما يجعلهم لا يتحمَّسون للقيام بأى عمل بها فيظلون أغرابا قلقين منتظرين لحظة العودة وهو ما يتعارض مع الحكمة الثانية من السبى والتى سبق ذكرها فى ص ٣٨٧. وهو الحث على العمل بجد فى أرض الغربة واعتبار بابل كأنها دار إقامة ثانية وليست مؤقتة. فأرسل إرميا إليهم يحذِّرهم من هؤلاء الأنبياء الكاذبين وأخبرهم أن العودة لن تكون إلا بعد ٧٠ عاماً وعليهم أن يندمجوا فى الشعب الذى سبوا إليه. لذلك كانت رسالة إرميا إلى المسبيين فى بابل تحتوى على النقاط التالية (إر ٢٩):

١ - حث على الاندماج في المجتمع الجديد :

«هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لكل السبى الذى سبيته من أورشليم إلى بابل: ابنوا بيوتا واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها. خذوا نساء ولِدُوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا هناك ولا تَقلّوا واطلبوا سلام المدينة التى سبيتكم إليها. وصلُّوا لأجلها إلى الرب. لأنه بسلامها يكون لكم سلام. لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل».

٢ - تحذير من الأنبياء الكاذبين :

«لا يغشكم أنبياؤكم الذين فى وسطكم وعرّافوكم ولا تسمعوا لأحلامكم التى تتحلّمونها لأنهم إنما يتنبأون لكم باسمى بالكذب. أنا لم أرسلهم. يقول الرب». وكان هناك ثلاثة أنبياء كاذبين هم: آخاب بن قولايا وصدقيا بن معيسيًا وشمعيا النحلامى. فتوعّدهم إرميا بأن الله سيسلط عليهم نبوخذ نصر فيقتلهم.

٣ - وعد برد السبي :

«لأنه هكذا قال الرب. إنى عند تمام ٧٠ سنة لبابل أتعهدكم وأردكم إلى هذا الموضع (إر ٢٩: ١٠). هكذا تكلم الرب قائلا: ها أيام تأتى وأرد سبى شعبى إسرائيل ويهوذا وأرجعهم إلى الأرض (إر ٣٠: ٢). ويكون فى ذلك اليوم أنى أكسر نيره عن عنقك وأقطع قيدك ولا يستعبدك الغرباء. أما أنت فلا تخف. يقول الرب. ولا ترتعب يا إسرائيل لأنى هأنذا أخلّصك من بعيد ونسلك من أرض سبيه فيرجع ويطمئن ويستريح ولا مُزعج. لأنى أنا معك. يقول الرب لأخلّصك. هكذا قال الرب. هأنذا أرد سبى إسرائيل وأرحم مساكنه وتُبنى المدينة على تلّها والقصر يُسكن على عادته ويخرج منه الحمد» (٣٠ : ١٨) .

أنبياء السبى

ظهر فى اليهود المسبيين إلى بابل نبيان هما :

١ – النبى حزقيال . وقد أُخذ إلى بابل فى السبى الأول ١١ عاما قبل سقوط أورشليم.

٢ – النبى دانيال . وكان هو أيضا أحد أفراد السبى الأول .

١ – النبى حزقيال .

هو حزقيال بن بوزى – أحد الأنبياء الكبار . وقد أخذ أسيرا إلى بابل فى **السبى الأول** عند أسر يهوياكين (انظر ص ٣٦٨). وكان ضمن مجموعة الأسرى الذين أُسكنوا على ضفاف نهر «شيبر» – وهو نهر فى بابل شرقى نهر الفرات. وفى هذا المكان بدأت نبوته فى السنة الخامسة لسبى يهوياكين، أى ست سنوات قبل السبى الكبير ليهوذا . وكان دائم التجوال بين الأماكن التى وضع فيها سبى يهوذا قرب بابل. وكذلك الأماكن التى كان فيها سبى إسرائيل (المملكة الشمالية) فى الفرات الأعلى على نهر الخابور. ينطق بنبوءاته. كما كان شيوخ الشعب يلجأون إليه طالبين النصيحة.

بدء نبوّة حزقيال (حز ١ ، ٢) :

يقول حزقيال إن أول عهده بالنبوّة كان رؤيا استهلالية ظهر له فيها مجد الرب على هيئة سحابة عاصفة لما رآها خر على وجهه ساجداً ثم سمع صوت متكلم يقول: «يا ابن آدم. قم على قدميك فأتكلم معك. فدخل فىّ روح لما تكلم معى وأقامنى على قدمىّ وقال لى يا ابن آدم أنا مرسلك إلى بنى إسرائيل. إلى أمة متمرِّدة قد تمرَّدت علىّ. هم وآباؤهم عصوا علىّ إلى ذات هذا اليوم. أما أنت فلا تخف منهم ومن كلامهم ومن وجوههم لا ترتعب. وتتكلم معهم بكلامى إن سمعوا وإن امتنعوا لأنهم متمردون». ثم يذكر أن الرب أعطاه كتابا نشره أمامه وهو مكتوب على وجهى صفحاته. ثم يذكر أن الرب أمره أن «يهضم» أى يتفهَّم جيدا كل ما يجده فى هذا الكتاب. ثم أمره أن يذهب إلى بيت إسرائيل المسبيين عند نهر الخابور ويبلغهم كلام الرب.

ويمكن تلخيص رسالة حزقيال فى النقاط التالية :

١ - إزالة المرارة من نفوس المسبيين :

لاشك أن أفراد السبى الأول من يهوذا وكذلك المسبيين من إسرائيل كانوا يشعرون بمرارة أن أُخذوا هم للسبى بينما باقى الشعب - كما اعتقدوا - آمن فى وطنه. فكان على حزقيال أن لا يوجه لهم توبيخا أو لَومًا على شعورهم هذا. وكانوا كثيرا ما يسألون عن سبب هذه التفرقة فلا يدرى بم يجيب وكانت إرادة الله أن يتريث فى الإجابة عدة أيام فأمره الله أن يلزم بيته ولا يخرج منه لأن بَكَمًا سيحل به فلا يستطيع إجابة من يسأله. وهذا يشبه ما حلَّ بزكريا عليه السلام حينما بُشِّر بيحيى «**قال رب اجعل لى آية. قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا**» (١٠ - مريم). ولكن فترة البكم الذى حل بحزقيال كانت سبعة أيام. ويقول حزقيال (حز ٣:١٦) «وكان عند تمام السبعة أيام أن كلمة الرب صارت إلىَّ قائلة: يا ابن آدم. قد جعلتك رقيبا لبيت إسرائيل. فاسمع الكلمة من فمى وأنذرهم من قِبَلى». ثم أطلعه الله على أنه فى المستقبل القريب سيتم حصار أورشليم حتى تصير مجاعة شديدة وأوبئة وعلى ذلك فلا يجب أن يسخطوا أو يقنطوا لسبيهم لأن الباقين فى الأرض سيكونون أسوأ حالا (حز ٥ : ١٣) «ثلث يموت بالوباء والجوع يفنون فى وسطك. وثلث يسقط بالسيف من حولك وثلث أذرِّيه فى كل ريح وأستل سيفا وراءهم. وإذا تم غضبى وأحللت سخطى عليهم يعلمون أنى أنا الرب تكلمت فى غيرتى إذا أتممت سخطى فيهم. وأجعلكِ (الخطاب لأورشليم) خرابا وعارا بين الأمم التى حواليك أمام عينى كل عابر. فتكونين عارا ولعنة وتأديبا ودَهَشًا للأمم التى حواليك. أنا الرب تكلمت».

وقد يتساءل البعض: **لماذا يعاقب الله إسرائيل وحدها** مع أن الأمم المجاورة كلها وثنية وترتكب نفس الرجاسات والشرور؟ والرد هو أن بنى إسرائيل - بما حباهم الله من امتياز بصفتهم شعب الرب وبينهم وبين الله ميثاق أن لا يعبدوا إلا إيَّاه - فإن خطيئتهم تكون أعظم وذنبهم يكون أكبر ويستوجب عقابا. وفى هذا يقول القرآن الكريم: «**فبما نقضهم ميثاقهم لعنَّاهم**» (١٣ - المائدة). وكما قيل: يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل.

«هكذا قال السيد الرب لأرض إسرائيل. قد جاءت النهاية عليك وأرسل غضبى عليك فلا تشفق عليك عينى ولا أعفو. ها هو ذا اليوم قد جاء. دارت الدائرة. فلا يفرحنَّ الشارى ولا يحزننَّ البائع لأن الغضب على كل جمهورها. السيف من خارج والوباء والجوع من داخل. الذى فى الحقل يموت بالسيف والذى فى المدينة يأكله الجوع والوباء». ويستمر حزقيال فى سرد ما سيحدث من أهوال فيقول «ستأتى مصيبة على مصيبة. ويكون خبر على خبر. والشريعة تباد عن الكاهن. والمشورة تباد عن الشيوخ. الملك ينوح. والرئيس تلبسه حيرة. وأيدى شعب الأرض ترتجف. كطريقهم أصنع بهم وكأحكامهم أحكم عليهم. فيعلمون أنى أنا الرب». ولكن الشعب لا يصدق ما يقول به حزقيال إذ كانت الأخبار ترد مؤكِّدة أن مصر ستقف مع أورشليم ضد أى غزو من جانب بابل.

٢ - الإسراء بحزقيال إلى أورشليم (حز ٨:١) :

يروى حزقيال كيف أسرى به من بابل إلى أورشليم ليريه الله فساد الشعب هناك فيقول إنه فى السنة السادسة بعد السبى الأول (٥ سنوات قبل السبى الكبير) «وأنا جالس فى بيتى ومشايخ يهوذا جالسون أمامى أن يد السيد الرب وقعت علىَّ هناك. ومد شبه يد وأخذنى بناصية رأسى ورفعنى روح بين الأرض والسماء وأتى بى فى رؤى الله إلى أورشليم» ويذكر حزقيال أنه أُخِذَ إلى الهيكل ليرى الممارسات الوثنية الجارية فيه على قدم وساق. فعند الباب المتجه إلى الشمال كان منسىّ قد نصب عمودا يسمى «تمثال الغيرة». ثم أُخِذ إلى باب الدار حيث وجد أصناما على شكل حيوانات وواقف قدامها ٧٠ رجلا من شيوخ بيت إسرائيل يبخِّرون أمامها. ثم أُخذ إلى باب بيت الرب من جهة الشمال حيث وجد نسوة جالسات يبكين على «تموز». وتموز إله بابلى وكان يعتبر إله الخصب وقد جرت العادة أن تقام المناحات السنوية على موته فى زمن اشتداد الحر. وأن يُحتفل بعيد انبعاثه فى الربيع. ثم أخِذ إلى باب الهيكل فوجد بين الرواق والمذبح نحو ٢٥ رجلا ظهورهم نحو هيكل الرب ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس. ثم أمر الله ملائكة بأن تمر فى وسط أورشليم وتضع علامة على جبهة كل الرجال الذين يعارضون هذه الممارسات الوثنية. وأمر ملائكة آخرين بأن يهلكوا كل من لا يحمل هذه العلامة سواء كان شيخا أو شابا أو طفلا أو امرأة أو عذراء. وراح حزقيال يتضرع إلى الرب حتى لا يهلك كل الشعب. ثم ينتهى الإسراء ويقول حزقيال: «وحملنى روحٌ وجاء بى فى الرؤيا بروح الله إلى أرض الكلدانيين إلى المسبيين فصَعِدَت عنى الرؤيا التى رأيتها. فكلمت المسبيين بكل كلام الرب الذى أرانى إياه». ولاشك أن هذه الصورة التى نقلها لهم حزقيال جعلت المسبيين يؤمنون بعدل الله وأن عقابه لن يكون من فراغ.

٢ - نبوءات حزقيال على الأمم المجاورة (حز ٢٥) :

أعلن حزقيال نبوءاته هذه فى فترة الحصار وقبل سقوط أورشليم. ولعلها كانت تهدف إلى منع هذه الدول من الشماته بيهوذا لأن مصيرا مثله أو أسوأ منه ينتظرهم.

أ - نبوءة على بنى عمون : ذلك أن العمونيين انتهزوا فرصة حصار أورشليم وقاموا بالاستيلاء على بعض مدن إسرائيل. كما أنهم هم الذين حرَّضوا على قتل «جدليا» الذى عيَّنه ملك. بابل حاكما على اليهود.

ب - تنديد بموآب لمحاولتهم الاستيلاء على الجزء شمال نهر عرنون.

جـ - أطلع حزقيال قومه على غدر أدوم واستيلائهم على أجزاء من أرض يهوذا .

د - نبوءة بأن الرب سينتقم من الفلسطينيين لعداوتهم لبنى إسرائيل.

هـ - نبوءة ضد صور لأنها كانت تتمنى أن تنكسر إسرائيل ويهوذا حتى تكون تجارة المنطقة من نصيبها وحدها فتمتلىء خزائنها بالمال. وتنبأ حزقيال أن البابليين سيهاجمونها ويهدمون أبراجها ويخربون أسوارها .

و – نبوءة ضد صيدون : أنذرهم حزقيا بأن الرب سيرسل عليهم «وباء ودما إلى أزقتها ويسقط الجرحى فى سطها بالسيف الذى عليها من كل جانب فيعلمون أنى أنا الرب».

ز – نبوءة ضد مصر : وقد قيلت فى السنة الأولى لحصار أورشليم. وكان أهل أورشليم متأكدين أن مصر ستخف إلى نجدتهم وفك الحصار عنهم فكانت النبوءة أن مصر ستنهزم وينزل الخراب بمدنها وسينزل بها قحط وتجف الآبار (حز ١:٢٩) «كان كلام الرب إلى حزقيال قائلا: يا ابن آدم اجعل وجهك نحو فرعون ملك مصر وتنبأ عليه وعلى مصر كلها. تكلّم وقل هكذا قال السيد الرب. هأنذا عليك يا فرعون ملك مصر التمساح الكبير الرابض فى وسط أنهاره الذى قال نهرى لى وأنا عملته بنفسى.. لذلك هكذا قال السيد الرب: هأنذا أجلب عليك سيفا واستأصل منك الإنسان والحيوان. وتكون أرض مصر مقفرة وخربة فيعلمون أنى أنا الرب لأنه قال النهر لى وأنا عملته. لذلك هأنذا عليك وعلى أنهارك وأجعل أرض مصر خربة مقفرة من مجدل (القنطرة) إلى تخم كوش (أى حدود النوبة)».

٤ – النبوءة بسقوط أورشليم :

كان أفظع من سقوط المدينة ذاتها هو حالة الجوع الذى عمّ أهلها من جراء الحصار الذى استمر ٣ سنوات وصاحبه انتشار الأوبئة فمات عدد كبير من السكان. ثم أمكن للبابليين فى النهاية اقتحام أسوار المدينة ودخولها وقاموا بقتل عدد كبير من المدافعين عنها ومن الأهالى العزل شيوخا ونساء وأطفالا. ولاشك أن الإفاضة فى وصف الويلات التى يقاسيها أهل أورشليم جعلت أهل السبى الأول يدركون أن الله كان أرحم بهم من إخوتهم. كذلك كانت هذه النبوءة تهيئة لهم لاستقبال الفوج الثانى من السبى وهو «السبى الكبير» الذى وصل عدد أفراده إلى ٤٠,٠٠٠ أو ٥٠,٠٠٠. واستمر حزقيال فى ذكر ما أطلعه الله عليه مما هو وشيك الحدوث فى أورشليم (حز ١٢:١٢): «قل لهم. هكذا قال السيد الرب. قل هذا هو الرئيس فى أورشليم وكل بيت إسرائيل والذين هم فى وسطهم. قل أنا آية لكم. هكذا يُصنع بهم. إلى الجلاء إلى السبى يذهبون. والرئيس الذى فى وسطهم يُحمل على الكتف فى العتمة ويخرج. ينقبون فى الحائط ليخرجوا منه (وقد سبق أن ذكرنا ص ٣٧٢ أن صدقيا قام بعمل ثغرة فى سور المدينة وهرب منها ولكنه أُسِر) يُغطِّى وجهه لئلا ينظر إلى الأرض بعينيه. وأبسط شبكتى عليه فيؤخذ فى شرَكى وآتى به إلى بابل إلى أرض الكدانيين ولكن لا يراها (لأن الكلدانيين سيسملون عينيه) وهناك يموت!!.

كل هذا أخبرهم به حزقيال. وبالطبع لم يصدقوه لأن استحكامات المدينة كانت قوية وأسوارها محصّنة بالأبراج ومصدر المياه مؤمن. وتقول التوراة: «وكان فى السنة الثانية عشرة من سبينا (السبى الأول أى فى السنة الأولى بعد السبى الكبير) أنه جاء إلى بابل هارب من أورشليم فقال خربت المدينة...». ووصف الأحداث التى وقعت عند دخول الجنود البابليين المدينة

و – نبوءة ضد صيدون : أنذرهم حزقيا بأن الرب سيرسل عليهم «وباء ودما إلى أزقتها ويسقط الجرحى فى سطها بالسيف الذى عليها من كل جانب فيعلمون أنى أنا الرب».

ز – نبوءة ضد مصر : وقد قيلت فى السنة الأولى لحصار أورشليم. وكان أهل أورشليم متأكدين أن مصر ستخف إلى نجدتهم وفك الحصار عنهم فكانت النبوءة أن مصر ستنهزم وينزل الخراب بمدنها وسينزل بها قحط وتجف الآبار (حز ٢٩:١) «كان كلام الرب إلى حزقيال قائلا: يا ابن آدم اجعل وجهك نحو فرعون ملك مصر وتنبأ عليه وعلى مصر كلها. تكلَّم وقل هكذا قال السيد الرب. هأنذا عليك يا فرعون ملك مصر التمساح الكبير الرابض فى وسط أنهاره الذى قال نهرى لى وأنا عملته بنفسى.. لذلك هكذا قال السيد الرب: هأنذا أجلب عليك سيفا واستأصل منك الإنسان والحيوان. وتكون أرض مصر مقفرة وخربة فيعلمون أنى أنا الرب لأنه قال النهر لى وأنا عملته. لذلك هأنذا عليك وعلى أنهارك وأجعل أرض مصر خربة مقفرة من مجدل (القنطرة) إلى تخم كوش (أى حدود النوبة)».

٤ – النبوءة بسقوط أورشليم :

كان أفظع من سقوط المدينة ذاتها هو حالة الجوع الذى عمَّ أهلها من جراء الحصار الذى استمر ٣ سنوات وصاحبه انتشار الأوبئة فمات عدد كبير من السكان. ثم أمكن للبابليين فى النهاية اقتحام أسوار المدينة ودخولها وقاموا بقتل عدد كبير من المدافعين عنها ومن الأهالى العزل شيوخا ونساء وأطفالا. ولاشك أن الإفاضة فى وصف الويلات التى يقاسيها أهل أورشليم جعلت أهل السبى الأول يدركون أن الله كان أرحم بهم من إخوتهم. كذلك كانت هذه النبوءة تهيئة لهم لاستقبال الفوج الثانى من السبى وهو «السبى الكبير» الذى وصل عدد أفراده إلى ٤٠,٠٠٠ أو ٥٠,٠٠٠. واستمر حزقيال فى ذكر ما أطلعه الله عليه مما هو وشيك الحدوث فى أورشليم (حز ١٢:١٢): «قل لهم. هكذا قال السيد الرب. قل هذا هو الرئيس فى أورشليم وكل بيت إسرائيل والذين هم فى وسطهم. قل أنا آية لكم. هكذا يُصنع بهم. إلى الجلاء إلى السبى يذهبون. والرئيس الذى فى وسطهم يُحمل على الكتف فى العتمة ويخرج. ينقبون فى الحائط ليخرجوا منه (وقد سبق أن ذكرنا ص ٣٧٢ أن صدقيا قام بعمل ثغرة فى سور المدينة وهرب منها ولكنه أُسِر) يُغطِّى وجهه لئلا ينظر إلى الأرض بعينيه. وأبسط شبكتى عليه فيؤخذ فى شَرَكى وآتى به إلى بابل إلى أرض الكدانيين ولكن لا يراها (لأن الكلدانيين سيسملون عينيه) وهناك يموت!!.

كل هذا أخبرهم به حزقيال. وبالطبع لم يصدقوه لأن استحكامات المدينة كانت قوية وأسوارها محصَّنة بالأبراج ومصدر المياه مؤمن. وتقول التوراة: «وكان فى السنة الثانية عشرة من سبينا (السبى الأول أى فى السنة الأولى بعد السبى الكبير) أنه جاء إلى بابل هارب من أورشليم فقال خربت المدينة...». ووصف الأحداث التى وقعت عند دخول الجنود البابليين المدينة

والفظائع التى ارتكبوها والمجازر التى قاموا بها. تماما كما أخبر حزقيال قبل وقوعها بسنة كاملة: ثلث السكان ماتوا بالوباء والجوع. وثلث قتلوا بسيوف جنود بابل وعدد كبير سيق خارج البلدة إلى الرامة حيث يقيم نبوخذ نصر وقتلوا هناك. وثلث تم تجميعهم فى معسكرات تمهيدا لترحيلهم سبيا إلى بابل. وكان أن أهل السبى الأول الموجودين فى بابل والذين لم يُصدِّقوا حزقيال. أن آمنوا بصدق نبوَّته وحزن أهل السبى على ما صار إليه حال إخوانهم فى يهوذا واقترح بعض الشيوخ إعلان «الحداد العام» ولكن كان الوحى لحزقيال بالأمر التالى:

٥ - النهى عن إعلان الحداد :

أخبر حزقيال أن زوجته ستموت: «هأنذا آخذ عنك شهوة عينيك بضربة فلا تَنُحْ ولا تبكِ ولا تنزل دموعك. تنهَّد ساكتا. لا تعمل مناحة على أموات. لف عصابتك عليك واجعل نعليك فى رجليك ولا تغطِّ شاربك». وماتت زوجة حزقيال. ولم يبك عليها كما أمر الرب ولا عمل مناحة. وفى اليوم التالى لموت زوجته زاول أعماله المعتادة. وكان هذا التصرف غير عادى. فسألوه عن ذلك فقال إن أورشليم وهيكلها عزيزان عندهم شأن الزوجة عند زوجها وأنهم يجب عليهم عند سماعهم بخرابها وفقدان أقاربهم أن لا ينوحوا أو يبكوا. بل يجب عليهم أن يتقبلوا قضاء الله العادل بصمت وصبر وقبول تام لحُكمِهِ وحكمته.

٦ - تنديد بالأنبياء الزائفين والنبيات الزائفات (حز ١٣) :

يقول حزقيال. وكان إلىَّ كلام الرب قائلا: «يا ابن آدم. ويل للذين يتنبأون. وقل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم اسمعوا كلمة الرب. ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئا. رأوا باطلا وعرافة كاذبة. القائلون وحى الرب والرب لم يرسلهم وأنا لم أتكلم. لذلك هكذا قال السيد الرب: لأنكم تكلمتم بالباطل ورأيتم كذبا لذلك تكون يدى عليهم. وأنت يا ابن آدم. فاجعل وجهك ضد بنات شعبك اللواتى يتنبأن من تلقاء ذواتهن». وكانت النبيات الكاذبات يُخِطن عصائب أحجبة توضع على معاصم الأيدى. وهو نوع من السحر المنهى عنه وكن يفعلن ذلك «لأجل حفنة شعير ولأجل فتات من الخبز». ثم توعَّد الأنبياء الزائفين والنبيات الزائفات بعقاب من الرب.

٧ - نبوءة بانتهاء السبى والعودة للوطن (حز ٣٧) :

توحى الصيغة التى كتبت بها هذه النبوءة أنها كانت عن طريق إسراء إلى أرض فى مكان ما إذ تقول: «كانت علىَّ يد الرب فأخرجنى بروح الرب وأنزلنى فى وسط بقعة وهى ملآنة عظاما وجعلنى أمُرُّ من حولها وعليها. وإذا العظام كثيرة جدا على وجه البقعة وإذا هى يابسة جدا. فقال لى: يا ابن آدم أتحيا هذه العظام؟ فقلت يا سيد الرب أنت تعلم. فقال لى: تكلم إلى هذه العظام وقل لها. أيتها العظام اليابسة اسمعى كلمة الرب. هكذا قال السيد الرب لهذه العظام. هأنذا أُدخِل فيكم روحا فتحيون وأضع عليكم عصبا وأكسيكم لحما وأبسط عليكم جلدا وأجعل

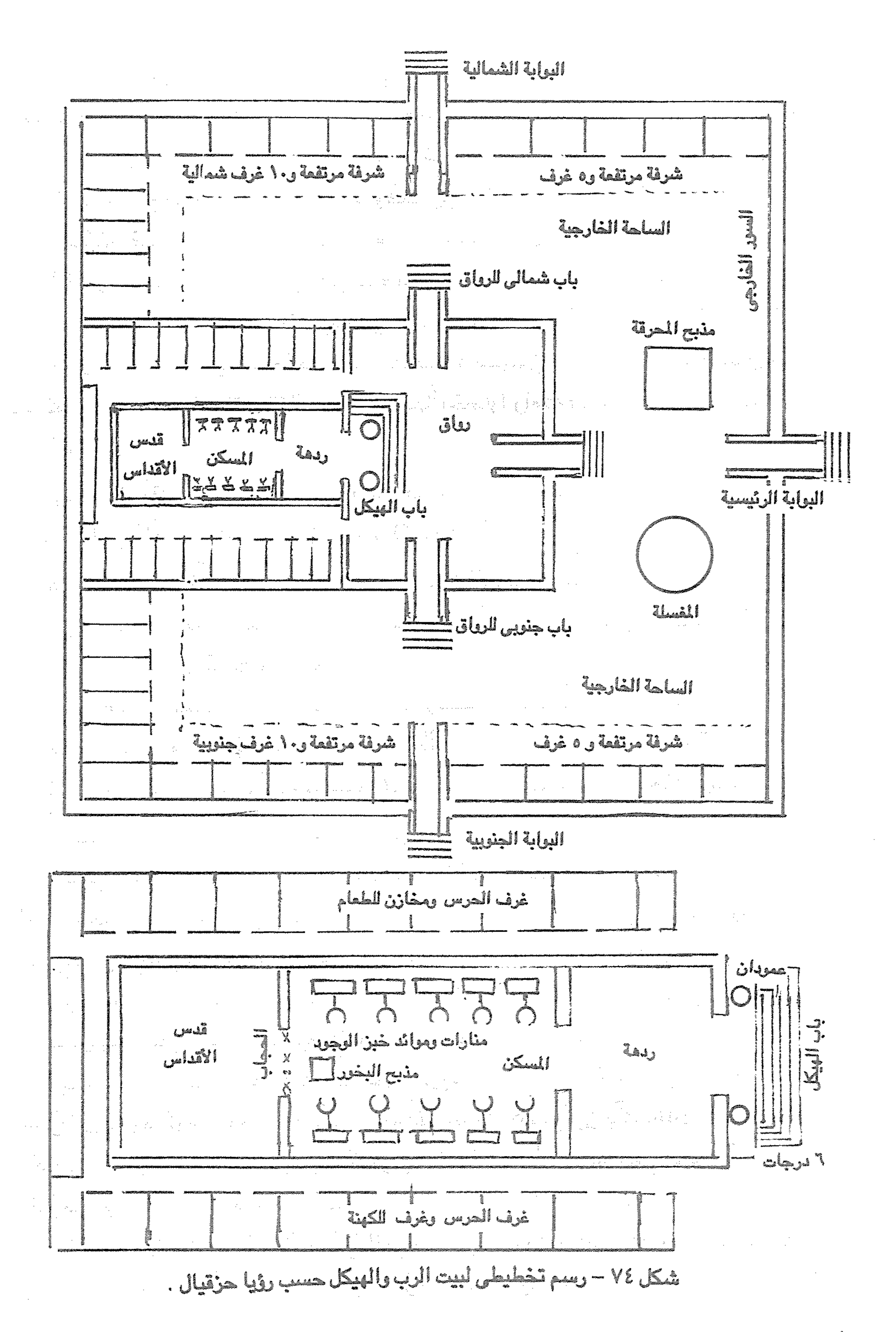
فيكم روحا فتحيون وتعلمون أني أنا الرب. فتكلمت . وبينما أنا أتكلم كان صوت. فتقاربت العظام كل عظم إلى عظمة. ونظرتُ وإذا بالعصب واللحم كساها وبُسِط الجلد عليها من فوق ثم دخل فيها الروح فحيُوا وقاموا على أقدامهم. ثم قال لي يا ابن آدم. هذه العظام هي كل بيت إسرائيل. ها هم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا . قد انقطعنا . قل لهم هكذا قال السيد الرب. هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبور ياشعبى وآتى بكم إلى أرض إسرائيل فتعلمون أنى أنا الرب تكلمتُ وأفعلُ. يقول الرب. هأنذا آخذ بنى إسرائيل مـن بين الأمم التى ذهبوا إليها وأجمعهم من كل ناحية وآتى بهم إلى أرضهم وأصيرهم أمة واحد فـى الأرض على جبال إسرائيل . وملك واحد يكون ملكا عليهم كلهم ولا يكونون بعدُ أمتين ولا ينقسمون بعدُ إلى مملكتين. وأخلِّصهم من كل مساكنهم التى فيها أخطأوا وأطُهِّرهم فيكونون لى شعبا وأنا أكون لهم إلها».

ووصف طريقة إحياء العظام التى جاءت هنا تشبه ما جاء عنها مختصرا فى القرآن الكريم. **«وانظر إلى العظام كيف نُنشزها ثم نكسوها لحما»**. (من الآية ٢٥٩ - البقرة).

كان اليهود فى أقصى درجات اليأس. فقد كان الأنبياء الكاذبون يمنونهم بعودة قريبة ولكن هاهى كارثة أكبر تقع وسبى آخر أكثر عددا يقدمُ عليهم ولم تكن هناك أى بادرة أمل فى عودتهم إلى أرضهم فكانت هذه النبوءة بصيصا من نور فى وسط الظلام المحيط بهم. فكما أن الله قادر على أن يحيى العظام بعد أن تبلي وتيبس. كذلك هو قادر أن يحيى الأمة التى قتل ثلثها فى الحرب ومات ثلث بالوباء وسبى الثلث الأخير. بل وسيجعلها أمة واحدة ولا تكون مملكتين كما كانت فى الماضى. وسيسخِّر الله لهم أمما أو أمة تحقق لهم هذا الهدف.

٨ - نبوءة ببناء الهيكل من جديد (حز ٤٠) :

وتوحى الصيغة التى كتبت بها هذه النبوءة أنها أيضا كانت إسراءً ثالثا . إذ يقول: «فى السنة الخامسة والعشرين من سبينا (من السبى الأول أى السنة ١٤ بعد سقوط أورشليم) كانت علىَّ يد الرب وأتى بى إلى هناك. فى رؤى الله أتى بى إلى أرض إسرائيل. ووضعنى على جبل عالٍ جداً عليه كبناء مدينة من جهة الجنوب. ولما أتى بى إلى هناك إذا برجل منظره كمنظر النحاس وبيده خيط كتان وقصبة القياس وهو واقف بالباب. فقال لي الرجل. يا ابن آدم انظر بعينيك واسمع بأذنيك واجعل قلبك إلى كل ما أُريكَه لأنه لأجل إراءتك أُتيَ بك إلى هنا . أَخبِرْ بيت إسرائيل بكل ما ترى». ثم يشرح كيف أراه ذلك الرجل كيف يكون بناء البيت وأبعاده بالتفصيل. وكذلك المقدس وقدس الأقداس. وسنكتفى بشكل ٧٤ مع شرح بسيط. فللبيت أو الهيكل سور خارجى. وفى السور بوابة ضخمة من الجهة الشرقية هى البوابة الرئيسية وبوابتان أصغر قليلا واحدة فى الجهة الشمالية والثانية فى الجهة الجنوبية. وتؤدى البوابات إلى الساحة الخارجية. وفى الجهات الشمالية والغربية والجنوبية توجد شرفة مرتفعة قليلا عن أرض الساحة. وفى كل



شكل ٧٤ – رسم تخطيطى لبيت الرب والهيكل حسب رؤيا حزقيال .

جانب ١٠ غرف أى أن الشرفة بها ٣٠ غرفة. ثم مبنى الهيكل نفسه وهو مرتفع قليلا إذ يُصعد إليه بعدة درجات. وفى منتصف المسافة إلى الهيكل يوجد مذبح المحرقة. وباب الهيكل يتجه ناحية الشرق ويفضى إلى ممر على جانبيه غرف للحرس ثم باب آخر يفضى إلى الرواق. وللرواق أيضا بابان إضافيان واحد فى الشمال والثانى فى الجنوب. بعد الرواق يجىء المقدس الذى يبدأ بردهة صغيرة يليها المسكن وبه الأدوات المعتادة وهى المنارات وموائد خبز الوجوه ثم الحجاب ثم قدس الأقداس. هذا بالإضافة إلى حجرات الخدمات وتشمل مطابخ ومخازن للطعام والنبيذ وحجرات الكهنة والحرس. وهؤلاء يجب أن يكونوا من اللاويين. وأوحى إلى حزقيال أيضا بواجباتهم وكيفية إعالتهم.

وبالطبع فإن حزقيال دوّن كل هذه التفاصيل فى درج وطلب من الكهنة حفظه حتى يحين وقت العودة وبناء الهيكل.

النبى دانيال Daniel

هو ثانى الأنبياء الكبار فى فترة السبى البابلى وهو من عائلة شريفة. ولد فى أورشليم وكان ضمن السبى الأول الذى حدث فى أيام الملك يهوياكين عام ٥٩٧ ق.م. مثله فى ذلك مثل النبى حزقيال. وكان ضمن أربعة فتيان اختارهم الملك نبوخذنصر لشرفهم فى قومهم ولحسن منظرهم ولِمَا اشتُهِر عنهم من حكمة وفهم فى العلم. فخصص لهم من يعلّمهم اللغة الكلدانية فتعلموها وأجادوها فى ٣ سنوات ثم ضمّهم إلى البلاط الملكى. وقد وصل هؤلاء الأربعة إلى مراكز عليا فى القصر وخاصة دانيال الذى أصبح فى المرتبة الثالثة فى المملكة بعد الملك وابنه. وقد أعطاه الله حكمة عالية ومقدرة على تفسير الرؤى والأحلام (مثل يوسف عليه السلام). وكان بنوخذ نصر قد أمر أن يحظى هؤلاء الأربعة برعاية خاصة وأن يقدم لهم أطايب الطعام والشراب. ولكن دانيال ورفاقه الثلاثة زهدوا عن هذا الطعام وطلبوا أن يأكلوا ما كانوا يأكلونه فى أورشليم من الحبوب والبقول مثل الفول والعدس.

دانيال يفسّر حلم الملك :

ذات ليلة – حلم الملك حلما انزعج منه وطار عنه النوم بسببه فأمر أن يُستدعى المجوس والسحرة والعرافون الكلدانيون ليفسّروا له الحلم. فلما حضروا أراد أن يمتحنهم أكثر فلم يخبرهم بالحلم وطلب منهم معرفة الحلم ثم تفسيره فلم يستطيعوا فأمر بقتلهم. وعلم دانيال بالأمر فصلى إلى الله ثم دخل على الملك وقال له (دا ٢ :٢٧): «السر الذى طلبه الملك لا يقدر الحكماء ولا السحرة ولا المجوس ولا المنجمون أن يُبيّنوه للملك. ولكن يوجد إله فى السموات كاشف الأسرار وقد عرّف الملك نبوخذ نصر ما يكون فى الأيام الأخيرة». وأخبر دانيال الملكَ أنه

رأى فى الحلم تمثالا عظيما منظره هائل رأسه من ذهب وذراعاه من فضة وبطنه وفخذاه من نحاس وساقاه من حديد وقدم من حديد وقدم من خزف. ثم جاء حجر وضرب التمثال فانسحق وصار رماداً حملته الريح. ثم فسَّر له الحلم: الرأس الذى هو من ذهب هو نبوخذ نصر نفسه وبعده تقوم مملكة أخرى أصغر منه ومملكة ثالثة يرمز لها بالنحاس الذى يلى الذهب والفضة ثم تكون مملكة رابعة من حديد. ويقول المفسرون إن المملكة الثانية هى فارس والثالثة هى دولة الإسكندر الأكبر والرابعة هى انقسام امبراطورية الإسكندر إلى الممالك الأربعة فى عهد خلفائه. بينما يرى آخرون أن الرأس يرمز إلى بابل وهى المملكة الأولى والمملكة الثانية هى فارس والثالثة اليونان والرابعة روما. المهم أن الملك سُرَّ وأثنى على دانيال وإلهه وأعطاه هدايا كثيرة وعيَّنه حاكما على ولاية بابل. ولكن دانيال طلب من الملك أن يولى زملاءه الثلاثة ولاية بابل ويظل هو مرافقا للملك فتم له ذلك.

إلقاء زملاء دانيال فى النار :

لاشك أن المراكز التى وصل إليها هؤلاء الأربعة من اليهود المسبيين أثارت غيرة رجال البلاط الملكى البابليين فرأو أن يكيدوا لهم. فأوعزوا إلى نبوخذ نصر أن يصنع تمثالا ضخما من الذهب وأن يأمر الجميع أن يسجدوا أمامه ويتعبدوا له. ولكن الفتية الثلاثة زملاء دانيال رفضوا. فأمر الملك بإلقائهم فى وسط أتون نار متَّقدة. فقالوا له (دا ٣ : ١٧) «هوذا يوجد إلهنا الذى نعبده يستطيع أن ينجينا من أتون النار وأن ينقذنا من يدك أيها الملك. وإلا فليكن معلوما لك أيها الملك أننا لا نعبد آلهتك ولا نسجد لتمثال الذهب الذى نصبته». فحموا النار وألقوا فيها الثلاث فتية موثقين بالحبال. ونظر الملك فرآهم يتمشون وسط النار ويرافقهم رابع (ولعله جبريل عليه السلام أو أحد الملائكة). وخرجوا من النار لم تحترق شعرة من رأسهم ولا احترقت ملابسهم. واعترف الملك بقوة إلههم وترك لهم الحرية الدينية وأمر كل الشعب باحترام إله اليهود وأصدر نشرة يقول فيها (دا ٤ : ١): «من نبوخذ نصر الملك إلى كل الشعوب والأمم والألسنة الساكنين فى الأرض كلها. ليكثر سلامكم. الآيات والعجائب التى صنعها معى الله حسنٌ عندى أن أخبر بها. آياته ما أعظمها وعجائبه ما أقواها. ملكوته ملكوت أبدى وسلطانه دائم على مدار الأيام». وهى كلمات تدل على أنه آمن بالإله الرب وإن لم يعبر عن ذلك بصراحة. وسنرى أن ابنه أيضا قد تبعه فى هذا الإيمان.

حلم ثانٍ للملك (دا ٤ : ١) :

حلم نبوخذ نصر أن شجرة كبيرة جدا ارتفعت كثيرا فى السماء وأكل من ثمرها الجميع. وإذا بصوت آت من السماء يأمر بقطع الشجرة ويتركوا ساقها. وفشل الحكماء والمجوس والعرافون فى معرفة تفسير الحلم. وجاء دانيال وأخبر الملك «أن الشجرة العظيمة إنما هى أنت أيها الملك الذى كبُرت وعظمتك قد زادت وبلغت إلى السماء وسلطانك إلى أقصى الأرض». وأن

قضاء الله سيأتى عليه فيُطرد من الملك. ولم يصدِّق الملك هذا التفسير. ولكن بعد سنة وفيما هو يتمشى فى قصره أصابه الغرور وقال: أليست هذه بابل العظيمة التى بنيتها بقوة اقتدارى ولجلال مجدى! وإذا بصوت من السماء يخبره أن الملك سيزول عنه ويخرج من بابل وتكون سكناه مع حيوان البر وتمضى عليه سبعة أزمنة حتى يعلم أن الله العلى بيده مقاليد الأمور يعطى مُلكه من يشاء وينزع الملك عمَّن يشاء. ولما تكتمل الأيام المحدَّدة لعقابه يعود إلى مُلكه ثانية. وتقول المراجع التاريخية أن نبوخذ نصر كان قد بنى لنفسه فى تيماء فى شمال الصحراء العربية قصرا يشبه قصره فى بابل وكان يلجأ إليه بين الحين للآخر للاستجمام والصيد. وفى إحدى هذه المرات ضلَّ الطريق وهام فى البرية يسكن الكهوف مع حيوان البر ويقتات من العشب سبعة أيام حتى زال عنه كبرياؤه. ثم اهتدى إلى الطريق فعاد إلى قصره وإلى مُلكه.

حكمة دانيال وسوسنة العفيفة :

كانت سوسنة Susanna فتاة من أسرة غنية لها قصور ومزارع واسعة ولها من الخدم والعبيد الكثير وهى متمسكة بوصايا الرب تسير على طريقه وتحافظ على شرائعه. وكانت متزوجه من رجل من بنى يهوذا اسمه يواقيم. وكان هناك قاضيان يقضيان للناس فيما ينشأ بينهم من منازعات. وعلى ما يبدو كان يواقيم قد أجَّر للدولة جزءا من داره ليكون مكانا للقضاء. ولمح القاضيان سوسنة وهى تتمشى فى حديقة الدار وأعجبا بجمالها. وفى أحد الأيام هجما عليها محاولين اغتصابها فلم تمكنهما من نفسها وصرخت فاجتمع الخدم والعبيد. ولتبرئة نفسيهما ادَّعى القاضيان بأنه كان معها شاب. وفى اليوم التالى أقيمت المحاكمة واجتمع الشعب وزوج سوسنة وأولادها الأربعة ووالدها وهم يشعرون بالخزى من هذا الموقف. وقام القاضيان بوضع أيديهما على رأسها - كعادة تلك الأيام - وأقسما بصحة ما ادَّعياه عليها فحكِمَ عليها بالموت. فرفعت سوسنة عينيها إلى السماء وهى باكية وقالت : أيها الإله الأزلى البصير بالخفايا. العالم بكل شيىء قبل أن يكون. أنت تعلم أنهما شهدا علىَّ بالزور. ها أنا أموت ولم أصنع شيئا مما افتريا علىَّ هذان. واستجاب الله دعاها وساق دانيال النبى. فسأل كل واحد منهما على حدة عن المكان الذى رآها فيه مع الشاب فاختلفت إجابتهما . فعلم كذبهما وظهرت براءتها . فقام الشعب ورجم القاضيان حتى ماتا ونجت سوسنة بفضل دعائها إلى الله وعَظُم دانيال عند الشعب.

نهاية بابل

يتعين علينا أولا أن نذكر نبذة قصيرة عن خلفاء نبوخذ نصر :

١ - ساد الاضطراب بابل عقب وفاة نبوخذ نصر . وخلفه على العرش ابنه «أويل مردوك»

الذى أظهر رحمة واضحة تجاه الملك صدقيا فعامله معاملة حسنة. إلا أن رجال الدين البابليين كانوا يعتبرون أوبل مردوك مارقا عن الدين البابلى لما أظهره من تسامح أو تعاطف مع ديانة اليهود فأباحوا دمه وقُتل.

٢ – خلفه على العرش زوج أخته «نرجال شار أوصر» لمدة ٤ سنوات ثم مات.

٣ – ملك بعده ابنه «لياشى مردوك» وكان طفلا وقتله رجال الدين ولما يمضى فى الحكم سوى ٩ شهور.

٤ – ملك بعده «نبونيد» وقد اختلفت الأقوال فى نسبه وكيفية وصوله إلى الحكم – والمرجَّح – كما يرى الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم (الشرق الأدنى القديم. جـ ٣ ص ٣٢٦) أن نبونيد كان ابن أحد الأشراف. وكانت أمه كاهنة تقية ورعة. وانعكس ذلك على نبونيد فكان تقيا ورعا هو الآخر. ولما قتل لياشى مردوك بويع نبونيد ملكا للبلاد باعتبار أنه أصلح من يتولى الحكم. وقد وجدت لوحة مسمارية تذكر موت «نرجال شار أوصر» وانتقال العرش إلى ابنه الأصغر «لياشى مردوك» الذى جلس على العرش ضد الرغبة الإلهية وضد رغبة الكهنة فتم اغتياله. ويستمر النص يقول على لسان نبونيد: جاءوا بى إلى وسط القصر وألقوا بأنفسهم جميعا على قدمىَّ وقبَّلوا قدمى وقدَّموا الخضوع لذاتى الملكية. وبناء على أمر مردوك رُفعت إلى مركز السلطان وهم يُهلِّلون: «إنه أب للبلاد. إنه لا مثيل له». وللتقرب لرجال البلاط والكهنة وتثبيتا لمركزه فإنه اتخذ من «بيلشاصر» حفيد نبوخذ نصر مستشارا له ورجلا ثانيا فى المملكة. وكان المشهور عن بيلشاصر أنه لا يكن احتراما للديانة اليهودية. وكان نبونيد كثيرا ما يذهب إلى القصر الملكى فى تيماء ويقضى فيه فترات طويلة للراحة والتأمل ويترك بيلشاصر يُصرِّف أمور المملكة.

وليمة بيلشاصر والكتابة الغامضة : ذات يوم صنع بيلشاصر وليمة كبيرة وشرب كثيرا من الخمر فأمر بإحضار آنية الذهب والفضة المقدسة التى أخذها نبوخذ نصر من الهيكل فى أورشليم ليشرب بها هو وعظماؤه وزوجاته وسراريه. ولعله بذلك أراد أن يُمالىء رجال الدين البابليين بإظهار عدم احترام لمشاعر اليهود وعدم إحترام لديانتهم. فها هو يشرب الخمر فى آنية بيت ربهم المقدسة. حينئذ ظهرت أصابع يد إنسان وكتبت على طبقة الجص الموجود على حائط القاعة كتابة غامضة. وخاف الملك. ولم يستطع الحكماء ولا العرافون فك رموزها ومعرفة معناها. وأشارت الملكة الأم باستدعاء دانيال وذكَّرت بيلشاصر بأن جده كان قد اتخذ دانيال مستشارا له حيث وجد فيه فطنة وحكمة كحكمة الآلهة ولمس فيه روحا فاضلة ومعرفة بتعبير الأحلام. وكان بيلشاصر قد تعهد بأن من يستطيع حل رموز هذه الكلمات سيعطيه حلة أرجوانية وقلادة من ذهب ويتسلَّط ثالثا فى المملكة (بعد نبونيد الملك وبيلشاصر نائبه). فلما جاء دانيال قال للملك: «لتكن عطاياك لنفسك وهَبْ هباتك لغيرى لكنى أقرأ الكتابة للملك وأعرِّفه بالتفسير». ثم أخبره بأنه تعاظم جدا على الرب وتجبَّر قلبه حتى إنه شرب الخمر فى آنية بيت الرب وأن

الرب قد قضى بأن مُلكَهُ قد انتهى وأن تعطى مملكة بابل للفرس. ولعل جواسيس فارس كانوا قد علموا منذ فترة بموعد هذه الوليمة وأن الملك وقواد جيشه وعظماء المملكة سيكونون مدعوين إلى الوليمة ويكون الجند والناس فى حالة استرخاء تام. فحدد «داريوس» ملك الفرس هذه الليلة بالذات للهجوم على بابل. واقتحمت قواته القصر وقتلت بيلشاصر كما أخبر دانيال. وكانت قوة قد اتجهت إلى تيماء فاعتقلت نبونيد. ولم يُبدِ الجيش أى مقاومة. ويُرجع المؤرخون ذلك إلى أن قائد الجيش رأى أن الأمل الوحيد فى إنقاذ بلاده من الدمار هو سرعة الاستسلام لعدم جدوى المقاومة. كما أن جميع طبقات الشعب رحبت بالفرس وخاصة الكهنة والنبلاء ذلك أن نبونيد فى أول سنى حكمه حاول توحيد الآلهة فجمع كل تماثيل المعبودات من الأقاليم وجاء بها إلى العاصمة وبذلك أغضب الكهنة فاعتبروا دخول الفرس تحريرا لهم فرحبوا بهم (الشرق الأدنى القديم – د. نجيب ميخائيل إبراهيم جـ ٣ ص ٣٣٤ ، ٣٣٥).

دانيال فى جب الأسود :

بعد أن أتم داريوس الاستيلاء على بابل وأخضع جميع مدنها واستتب له الأمر. وكان قد سمع عن حكمة دانيال فطمع فى الاستفادة منه كما فعل ملوك بابل. ولكن الوزراء وعظماء فارس كبُرَ عليهم أن يصل دانيال إلى هذه المكانة من نفس الملك فعملوا على الإيقاع بينهما. فأوحوا إلى الملك بأن يصدر أمرا يُلزم كل أفراد الشعب بأن يتعبَّدوا له. ولما علم دانيال بذلك لزم بيته يصلِّى فيه لربِّ السموات والأرض. ووشى به الوشاة إلى الملك فأمر بإلقائه فى جب الأسود. وفى الصباح أسرع داريوس إلى الجب ليرى ما حل بدانيال فنادى عليه وهو يتوقع أنه لن يجد إجابة لظنه أن الأسود لابد قد التهمته. وصاح بأعلى صوته: هل إلهك الذى تعبده قدر أن ينجيك من الأسود؟ فرد عليه دانيال: إلهى أرسل ملائكة فسدَّ أفواه الأسود ولم يضرنى لأنى برىء. فأصدر الملك أمرا بأن يحترم الشعب ديانة «يهوه» وأن يتركوا اليهود يعبدون ربهم وإلههم كما يشاءون. كما أنزل دانيال منزلة كبيرة فى بلاط القصر. وكما سيأتى ذكره فيما بعد فإن كيروش الذى خَلَف داريوس سمح لليهود بالعودة إلى فلسطين ولكن سن دانيال المتقدم لم تسمح له بمصاحبتهم فاكتفى برؤية اليهود يعودون إلى أورشليم وظل هو فى بابل يحوطه ملوك فارس برعايتهم إلى أن مات.

دانيال وكهنة الإله بيل :

كان فى مدينة بابل صنم اسمه «بيل» يتعبد له الملك داريوس. ولما سأل الملكُ دانيال النبى لماذا لا يتعبد له قال (دا ١٤) «لأنى لا أعبد أصناما صَنَعَته الأيدى بل أعبد الإله الحى خالق السموات والأرض الذى له السلطان على كل ذى جسد». فقال الملك كيف ذلك والصنم حىٌّ لأنه يأكل كل يوم ١٢ مكيالا من السميد وأربعين كبشا ويشرب ستة أقداح من الخمر. فقال دانيال

إنه صنم وأما داخله فهو طين فكيف يأكل ويشرب. فرأى الملك أن يفحص الأمر بنفسه فأمر بوضع المأكولات والمشروبات وقفل الباب وختم عليه بخاتمه. وفى اليوم التالى قصد المعبد وفتح الباب فلم يجد شيئا من المأكولات والمشروبات. إلا أن دانيال كان قد فرش بواسطة غلمانه أرض المعبد برماد ناعم أظهر أثر أقدام أشخاص دخلوا ليلا وأخذوا الأغذية. حينئذ قبض الملك على كهنة بيل السبعين وعذّبهم حتى كشفوا له عن الباب السرى الذى كانوا يدخلون منه ويأخذون المأكولات والمشروبات ويدّعون أن الصنم حى وأكلها. فقتلهم الملك جميعا مع نسائهم وبنيهم ودفع الصنم إلى دانيال فسحقه وهدم مذبحه (أطلس الكتاب المقدس - عدلى اسكندر - ص٣٣١).

دانيال النبى والتنين (دا ١٤) :

كان فى مدينة بابل تنين عظيم وكان البابليون يعبدونه. فقال الملك داريوس لدانيال: أتقول عن هذا أيضا إنه نحاس. ها إنه حى يأكل ويشرب ولا تستطيع أن تقول إنه ليس إلها. فقال دانيال إنما أسجد للرب إلهى لأنه هو رب السموات والأرض. ولو تركتنى فإنى أقتل التنين بلا سيف ولا عصا. فأخذ دانيال زفتا وشحما وشعرا وطبخها معا وصنع أقراصا ووضعها أمام التنين فأكلها. فانشق ومات. فقال دانيال. انظروا إلهكم! فغضب أهل بابل وقالوا عن الملك إنه يهودى (أطلس المقدس. عدلى اسكندر . ص ٣٣١).

رؤى النبى دانيال

فى أخريات أيامه رأى دانيال النبى رؤى أربعة أخبر بها ولم يشأ أن يفسرها تفسيرا واضحا لذلك اجتهد المفسرون فى بيان المقصود بها وأسماء الدول التى ترمز إليها. ونختصر هذه الرؤى فيما يلى:

١ - الرؤيا الأولى (دا ٧) :

وقد حدثت فى عهد نبوخذ نصر. وملخصها أن أربعة حيوانات صعدت من البحر. الحيوان الأول كالأسد وله جناحا نسر وهو يرمز إلى بابل. والحيوان الثانى شبيه بالدب وهو يرمز إلى فارس. والثالث مثل النمر له أربعة أجنحة وهو يرمز إلى الإسكندر الأكبر وقواده الأربعة الذين ملكوا بعده. ثم خرج قرن قوى داس الباقين ودخل الهيكل وخرّبه وهو يرمز إلى أنطيوخوس الذى هدم الهيكل وحارب القديسين فى مملكة يهوذا مما أدى إلى قيام ثورة المكابيين.

٢ - الرؤيا الثانية :

بعد سنتين من الرؤيا الأولى رأى دانيال كبشا وله قرنان وهو يمثل مملكة مادى والفرس. ثم

جاء تيس انتصر على الكبش. والتيس يمثل الإسكندر الأكبر. ثم انكسر قرن التيس وظهر بدله أربعة قرون (انقسام امبراطورية الإسكندر بعد وفاته إلى أربع ممالك) ثم طلع قرن صغير وكبر حتى صار عظيما. وهى إشارة إلى مملكة السلوقيين وما فعله أنطيوخوس من إبطال المحرقة وذبح الخنزير على المذبح فنجسَّه ثم قام بهدم المذبح المقدس والمسكن فقامت الثورة المكابية.

٣ - الرؤيا الثالثة :

جاءت استجابة لصلاة التضرع التى صلاها دانيال (دا ٩ : ٤) وقال فيها: «أيها الرب الإله العظيم المهوب حافظ العهد والرحمة لمحبيه وحافظى وصاياه. أخطأنا وأثمنا وعملنا الشر وتمرَّدنا وحِدنا عن وصاياك وعن أحكامك». واستمر دانيال فى تضرعاته. وأخيرا جاءه جبريل عليه السلام بالرسالة: «سبعون أسبوعا قُضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لكفارة الإثم وليؤتى بالبر الأبدى ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القدوسين. فاعلم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعا يعود ويبنى وبعد ٦٢ أسبوعا يُقطع المسيح. وليس له شعب». ويرى مفسرو أهل الكتاب أن هذه الرؤيا فيها بشارة بمقدم المسيح عليه السلام وأن ٧٠ أسبوعا × ٧ أيام = ٤٩٠. أى بعد ٤٩٠ سنة يأتى المسيح عليه السلام آخر أنبياء بنى إسرائيل. ولمَّا كان اليهود قد عادوا مع عزرا إلى فلسطين عام ٤٨٠ ق.م. وبُنى الهيكل ثانية يكون المسيح قد ظهر بعد ٤٨٠ سنة بفارق ١٠ سنوات وهو فارق بسيط يمكن التجاوز عنه. كما أن الرؤيا أشارت إلى صلبه إذ قال «ويُقطع المسيح».

٤ - الرؤيا الرابعة (دا ١٠) :

وقد حدثت فى السنة الثالثة لمُلك كورش ملك الفرس. يذكر دانيال أنه كان قد صام عن أكل اللحم وشرب الخمر والدهن بالطيب ٣ أسابيع وفى نهايتها جاءه جبريل عليه السلام فى هيئة رجل مهيب عليه لباس من كتان. فلما رآه سجد دانيال إلى الأرض. فقال له الرجل: «يا دانيال. أيها الرجل المحبوب. إنى أرسلت إليك. لا تخف لأن إلهك سمع كلامك وأنا أتيت لأجل أن أخبرك أنه يقوم فى فارس ثلاثة ملوك. والرابع يَستغنى بقوَّته ويُهيِّج الجميع على مملكة اليونان. ويقوم ملك جبار ويتسلط تسلطا عظيما ثم تنكسر مملكته وتنقسم إلى رياح السماء الأربع». وتفسير هذا الجزء من الرؤيا هو أن الملوك الثلاثة هم قمبيز ودارا الأول وإكزركسيس والرابع الذى يستغنى بقوته هو أنتاكزركسس الثانى والملك الجبار هو الإسكندر الأكبر ورياح السماء الأربع هى الممالك الأربع التى انقسمت إليها امبراطوريته. ثم تستمر الرؤيا فتصف الصراع بين ملك الجنوب (ملك البطالمة فى مصر) وملك الشمال (ملك السلوقيين فى سوريا) وهو الصراع الذى استمر حتى قامت روما بالاستيلاء على المنطقة كلها بما فيها فلسطين وأورشليم.

بنو إسرائيل والفرس

نبوءات بسقوط بابل :

كانت امبراطورية بابل من أقصر الامبراطوريات عمرًا. بدأت الأسرة البابلية الحديثة عام ٦٢٦ ق.م. وفى عام ٦٠٩ قضت على أشور وأقامت الامبراطورية البابلية التى انتهت على يد الفرس عام ٥٣٩ ق.م. أى أنها لم تُعمِّر سوى ٧٠ عاما (٦٠٩ - ٥٣٩ ق.م.). وبينما كانت بابل فى أوج عزها ولا يتوقع أحد قرب سقوطها تنبأ عدد من أنبياء بنى إسرائيل بزوالها:

١ - (إشعياء ٤٨ : ٢٠): «اخرجوا من بابل. اهربوا من أرض الكلدانيين». فهذه دعوة لبنى إسرائيل بالخروج من الأرض التى سباهم إليها البابليون ولا يكون ذلك إلا بعد انكسار بابل.

٢ - (إرميا ٢٥:١٢) «ويكون عند تمام السبعين سنة أنى أعاقب ملك بابل وتلك الأمة على إثمهم. وأرض الكلدانيين أجعلها خربا أبديًا».

٣ - (إرميا ٥٠:٩): «لأنى هكذا أوقظ وأُصعد على بابل جمهور شعوب عظيمة من أرض الشمال فيصطفُّون عليها. من هناك تؤخذ. نبالهم كبطل مُهلِك لا يرجع فارغا. وتكون أرض الكلدانيين غنيمة. كل مغتنميها يشبعون. اصطفُّوا على بابل حواليها. ياجميع الذين ينزعون فى القوس ارموا عليها. لا توفِّروا السهام لأنها قد أخطأت إلى الرب. اهتفوا عليها حواليها. قد أعطت يدها. سقطت أسسها. نُقِضت أسوارها. لأنها نقمة الرب هى فانتقموا منها. كما فعلت افعلوا بها. اقطعوا الزارع من بابل وماسك المنجل فى وقت الحصاد».

٤ - (إرميا ٥٠ : ٤١): «هوذا شعب مقبل من الشمال وأمة عظيمة ويُوقَظ ملوك كثيرون من أقاصى الأرض يمسكون القوس والرمح. هم قساة لا يرحمون. صوتهم يعج كبحر وعلى خيل يركبون. مصطفِّين كرجل واحد لمحاربتك يابنت بابل. سمع ملك بابل خبرهم فارتخت يداه. لذلك اسمعوا مشورة الرب التى قضى بها على بابل. إنه يخرب مسكنهم عليهم».

٥ - (إرميا ٥٠ : ٤٥): «لذلك اسمعوا مشورة الرب التى قضى بها على بابل وأفكاره التى افتكر بها على أرض الكلدانيين. إن صغار الغنم تسحبهم. إنه يخرب مسكنهم. من القول (أى فتصبح مثلا) أُخِذت بابل. رجعت الأرض وسُمِع صراخ فى الشعوب».

٦ - (إرميا ٥٠:٥١): «هكذا قال الرب. هأنذا أوقظ على بابل وعلى الساكنين فيها ريحا

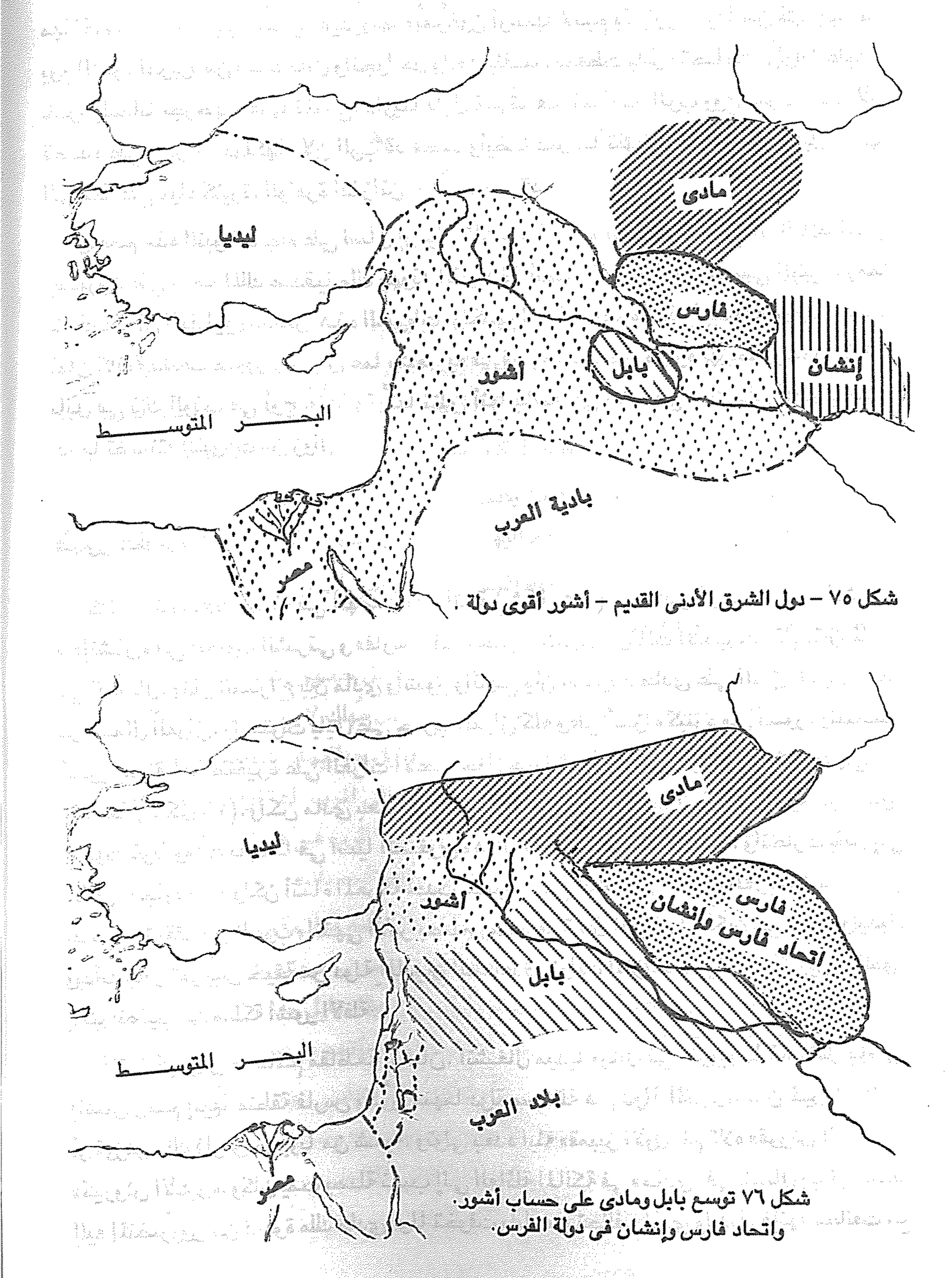
مهلكة. وأرسل إلى بابل مُذَرِّين فيذرُّونها ويُفرِّغون أرضها لأنهم يكونون عليها من كل جهة فى يوم الشر. اهربوا من وسط بابل وانجوا كل واحد بنفسه. سقطت بابل وتحطَّمت. وَلوِلُوا عليها. خذوا بلسانا لجرحها لعلها تشفى. داوينا بابل فلم تُشفَ. قد أيقظ الرب روح ملوك مادى لأن قصده على بابل أن يهلكها. لأن الرب قد قصد وأيضا فعل ما تكلم به على سكان بابل. أيتها الساكنة على مياه كثيرة. الوافرة الخزائن. قد أتت آخرتك».

ومعظم هذه النبوءات جاء على لسان إرميا وكان يرسلها مع «سرايا» أحد رجال البلاط الذين يسهرون على راحة الملك صدقيا ملك يهوذا الذى أخذ أسيرا إلى بابل فى السبى الكبير. ومما لاشك فيه أن البابليين سمعوا هذه النبوءات. ولكنهم لم يأخذوها مأخذ الجد واعتبروها مجرد أمانٍ كاذبة لشعب مقهور وتنفيس عما يشعر به فى قرارة نفسه من مرارة لهزيمته وسبيه. كانت بابل فى ذلك الوقت فى أوج عزِّها وقوَّتها تظن أنها باقية إلى الأبد فى حين كان القدر يخبىء لها ما تضمَّنته النبوءات من زوال.

ظهور الفرس :

كانت هناك ثلاث ممالك فى الهضبة الإيرانية (شكل ٧٥) : « مادى أو ميديا » فى الشمال و«إنشان» فى الجنوب الشرقى و«فارس» فى الجنوب الغربى. وكانت الأخيرتان تابعتين لمادى فى الشمال. وثار الصراع بين مادى وأشور وانتهى بأن استولت مادى على الجزر المجاور لها من شمال العراق. واستولت بابل على جنوب العراق كله وعلى أجزاء كبيرة من أشور. وتقلصت أشور إلى قطعة صغيرة على الفرات الأعلى حول حاران. وأصبحت بابل هى القوة الأولى فى المنطقة (شكل ٧٦). ولكن مادى بعد أن استولت على الأجزاء الشمالية والشرقية من أشور اتجهت غربا ومدَّت نفوذها فى آسيا الصغرى وهناك اصطدمت بدولة «ليديا». وانحازت بابل إلى مادى – جارتها – ولكن أثناء المعركة حدث كسوف كلى للشمس اعتبره الفريقان نذيرا من السماء فتوقفا عن الحرب وانتهى الأمر بصلح ومصاهرة بين البيتين المالكين فى مادى وليديا. وبدأت بابل تتوجَّس خيفة من دولة الماديين الصاعدة وتوالت النزاعات بينهما. كل يريد الفوز بأكبر نصيب من مملكة أشور الآفلة.

انتهز كيروش – حاكم مقاطعة إنشان. انشغال ميديا وبابل فى حروبهما فاستقل بإمارة إنشان وضم إليها منطقة فارس وكوَّن منهما دولة مستقلة هى دولة الفرس. كان كيروش الأول أو قورش ملك فارس محبوبا من شعبه. وتولى بعده ابنه «قمبيز الأول» ثم تلاه «قورش الثانى» أو «كيروش الأكبر». وكان يمت بصلة نسب إلى العائلة المالكة فى «مادى» فى شمال إيران. فلجأ إليه المتضرِّرون من قسوة ملك مادى. ولما تخوفت بابل من تحالف مادى وليديا. فإنها تحالفت مع



شكل ٧٥ – دول الشرق الأدنى القديم – أشور أقوى دولة .

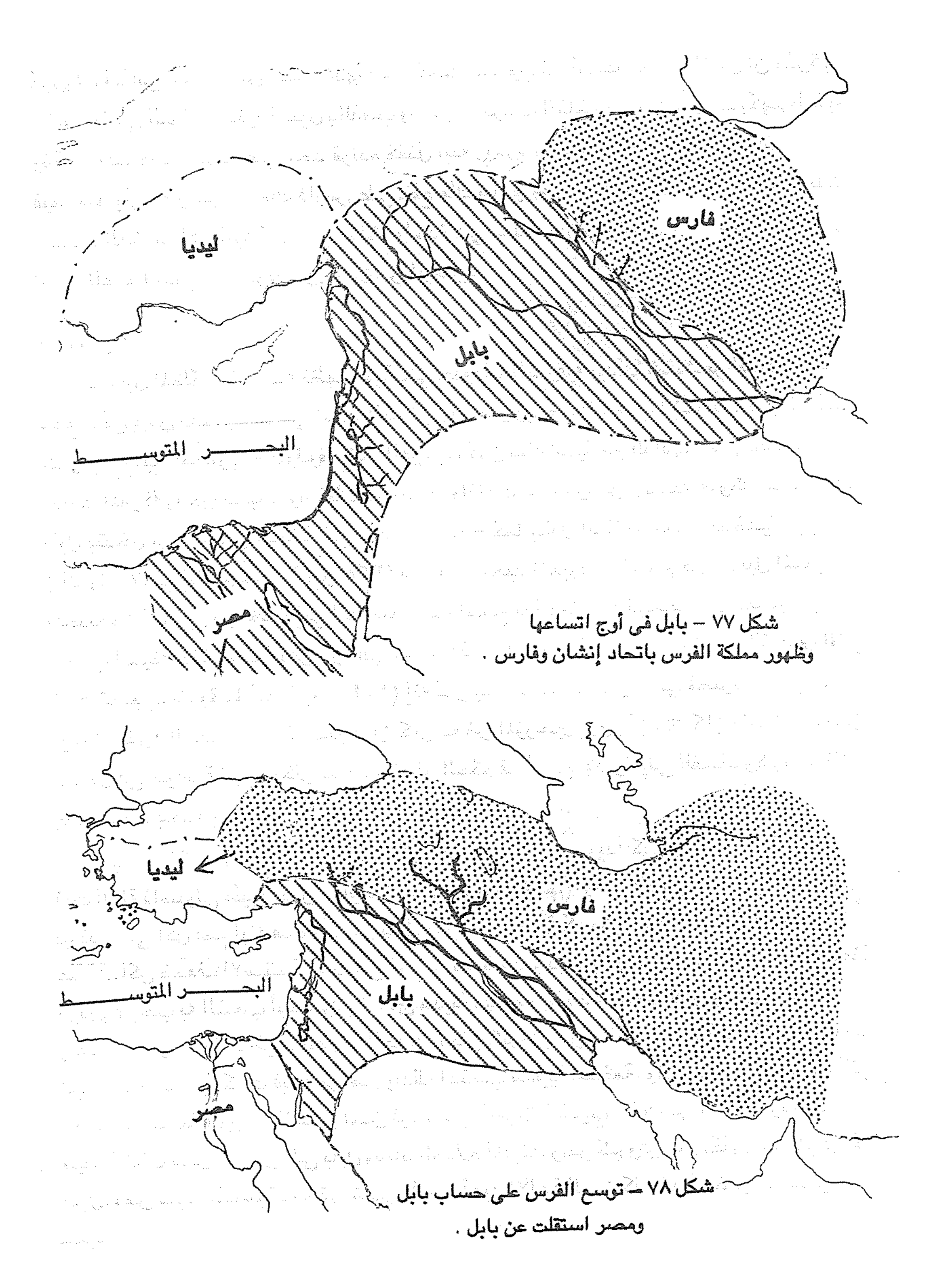
شكل ٧٦ توسع بابل ومادى على حساب أشور.
واتحاد فارس وإنشان فى دولة الفرس.

كيروش الثانى ملك فارس ضد مادى التى كانت الحروب قد أنهكتها فضلا عن أن ملوكها انغمسوا فى الترف وزينوا الخيل بالذهب وركبوا العربات الفاخرة. وكان آخر ملوكهم طاغية وظالما. فقد غضب يوما على أحد قواده فقتل ابنه وأمره أن يأكل لحمه. وانتقم القائد لنفسه فيما بعد بأن أعان قورش ملك فارس على خلع ملك مادى وضم مملكته إلى مملكة فارس وبذلك توحدت الهضبة الإيرانية كلها فى مملكة واحدة هى مملكة فارس (شكل ٧٧) التى قُدِّر لها أن تسود العالم القديم لفترة تزيد عن قرنين من الزمان.

نهاية بابل :

رأت بابل المملكة الفارسية تظهر قوية على حدودها الشرقية وبدأت تستشعر الخطر وعقدت حلفا مكونا من بابل وليديا فى آسيا الصغرى ومصر وبعض الشعوب الإغريقية فى الساحل الغربى لآسيا الصغرى - للوقوف ضد الفرس. وكان ملك ليديا هو البادىء بمهاجمة الفرس ودارت المعركة وانهزمت ليديا وسقطت عاصمتها وانتهت ليديا من الوجود كدولة. وكان نبونيد ملك بابل يتدخل فى الشئون الدينية فى بلاده. بل إنه - كما يقول الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم (الشرق الأدنى القديم، جـ ٣ ص ٣٣٥) فكَّر فى توحيد المعبودات فجمع كل تماثيل المعبودات المحلية من الأقاليم وجاء بها إلى العاصمة. فلم تتسع لها معابدها فوضعت فى المخازن وبذلك أغضب الكهنة الذين كانوا يقومون على خدمة هذه الآلهة لفقدانهم مورد رزق من القرابين التى كانت تقدم إليها. وقلنا أيضا (ص ٤٠٤) إنه كان يقضى فترات طويلة فى قصره الذى بناه فى تيمان ويترك الحكم لـ «بيلشاصر» وإن كان بعض المؤرخين يرون أن ذلك كان «إبعادا» له عن التدخل فى سياسة البلاد وكان عدم استقرار الحكم قد أدى بالإدارة إلى الفساد وكَثُرت المظالم وبدأ الشعب يتطلع إلى تغيير ما.

وسبق أن ذكرنا (ص ٤٠٤) الوليمة التى أقامها بيلشاصر. وبدأ كورش هجومه على بابل فى ذات الليلة فاستولى عليها بدون مقاومة تذكر (عام ٥٣٩ ق.م.). وكان الضابط البابلى الذى أجبره نبونيد على أكل لحم ابنه قد هرب من بابل وعمل فى خدمة كيروش. فقاد الجيش الفارسى ودلَّه على أماكن ضعف الاستحكامات فى المدينة فسقطت مدينة بابل دون معركة. ورحَّب به كهنة مردوك ورحب به الشعب أيضا ولم تبدِ أى مدينة مقاومة وبذلك خضعت لفارس كل بلاد النهرين واعترفت سوريا وفلسطين بالغازى الجديد. وكان كيروش من الذكاء بحيث أعاد المعبودات إلى المدن والمعابد التى كانت فيها من قبل وبذلك اكتسب شعبية ضخمة. وفى إحدى النصوص التى وجدت فى مدينة الوركاء (إحدى المدن فى جنوب العراق القديم) جاء: «فى شهر مارشزقان فى اليوم الثالث دخل كيروش إلى بابل وساد السلام المدينة. وأمر كيروش بأن يكون السلام فى كل بابل. ومن شهر «كسليف» حتى شهر «آزار» أعيد الآلهة الذين كان قد أحضرهم نبونيد إلى مدنهم».



شكل ٧٧ - بابل فى أوج اتساعها
وظهور مملكة الفرس باتحاد إنشان وفارس .

شكل ٧٨ - توسع الفرس على حساب بابل
ومصر استقلت عن بابل .

كان الاحتلال الفارسى للبلدان يختلف عن الاحتلال الأشورى أو البابلى. فقد كان الفرس يتركون القوميات على حالها ويتركون للبلاد التى يغزونها ممارسة حريتهم الدينية والاحتفاظ بعباداتهم ويتركون للسكان حرية ممارسة نشاطاتهم التجارية ولا يزيدون الضرائب إلا قليلا لذلك كانت الشعوب لا تشعر بتغيير كبير بعد الاحتلال إلا فى اسم الملك ولقبه. ولكن هذه السياسة السلمية شجعت بعض أفراد الأسرة المالكة البابلية على الثورة ومحاولة استعادة نفوذهم الضائع فما كان من داريوس (الذى خلف كيروش الأول) إلا أن حاصر بابل ودمَّر مبانيها. وفى عهد إكزركسيس قامت ثورة أخرى فلم يجد الفرس بُدًّا من هدم أسوار المدينة وتخريب مبانيها الجميلة وحدائقها وهدم معابدها.

كيروش Cyrus :

من العقائد اليهودية الراسخة أن مسيحا سيأتى ليعيد لهم دولتهم فى فلسطين. ومن هذه العقيدة كانت نظرة التبجيل إلى كيروش ملك الفرس لَماَّ سمح لهم بالعودة إلى فلسطين وسمح لهم بإعادة بناء الهيكل. وكان كيروش - بعد استيلائه على بابل - واعترافا بفضل النبى دانيال ونبوءاته التى كان لها أثر كبير فى انتصاراته قد عين واحدا من سبط يهوذا - اسمه «زربابل» وهو اسم عبرى معناه «زرع بابل» أى «المولود فى بابل» - عيَّنه واليا على اليهود وكان قائدا لأول فوج من اليهود العائدين إلى أورشليم. كما عين يهوشع بن صادوق رئيسا للكهنة.

ولم يكن دانيال وحده هو الذى تنبأ بالعودة على يد كيروش بل إن إشعياء النبى ذكر ذلك أيضا (إشعياء ٤٥): «هكذا يقول الرب لمسيحه. لكورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما وأحقاء ملوك (أحقاء جمع حقو وهو الخصر) لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق. أنا أسير قدامك والهضاب أُمهِّد. أكسر مصراعى الناس ومغاليق الحديد أقصف. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابىء لكى تعرف أنى أنا الرب. الذى يدعوك باسمك. إله إسرائيل. دعوتك باسمك وأنت لست تعرفنى. أنا الرب وليس آخر. لا إله سواى. نطَّفتك (خلقتك من نطفة) وأنت لم تعرفنى. لكى يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها أن ليس غيرى أنا الرب وليس آخر. مصوِّر النور وخالق الظلمة. صانع السلام وخالق الشر أنا الرب صانع كل هذه. أنا صنعت الأرض وخلقت الإنسان عليها. يداى أنا نشرتا السموات وكل جندها أنا أمرت. أنا قد أنهضته بالنصر. وكل طرقه أُسهِّل. هو يبنى مدينتى ويطلق سبيى لا بثمن ولا بهديَّة. هكذا قال الرب».

فى هذه الفقرة دعوة لكيروش للإيمان بإله إسرائيل. تبدأ بتوضيح أن كل هذه الانتصارات التى أحرزها كيروش كانت بفضل الله فهو الذى أمسك بيمينه ويفتح أمامه الأبواب المغلقة ويمهِّد الطريق. وكأنه سبحانه وتعالى يقول له «**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**». ثم القول «لكى تعرف أنى أنا الرب الذى يدعوك باسمك وأنت لست تعرفنى». يتبع ذلك

بيان قدرة الله وأنه هو الذى خلقه من نطفة وأن الله هو خالق الليل والنهار وخالق الأرض والإنسان والسموات. ولا نستطيع الجزم ما إذا كان كيروش قد استجاب لدعوة الإيمان هذه أم لا. غير أن أفعاله بعد ذلك تدل على توقير كامل لإله إسرائيل. فالسماح لليهود بالعودة إلى فلسطين والسماح لهم ببناء الهيكل وتقديم الذهب والفضة مساهمة منه فى نفقات البناء كل ذلك يدل على إيمانه بالإله «يهوه» وإن لم يتلفظ بذلك.

وأعلن إشعياء نبوءة ثانية عن انتصارات كيروش (إشعياء ٤١): «انصتى إلىَّ أيتها الجزائر (يعنى أرض ما بين النهرين لأنها كالجزيرة. والخطاب يشمل أيضا كل المدن الساحلية). مَنْ أنهض من المشرق الذى يلاقيه النصر عن رجليه (المقصود هو كيروش) دفع الرب أمامه أمما وعلى ملوك سلَّطه. جعلهم كالتراب بسيفه وكالقش المنذَرِى بقوسه. طردهم. مرَّ سالما فى طريق لم يسلكه برجله. من فعل وصنع داعيا الأجيال من البدء. أنا الرب الأول. ومع الآخرين أنا هو».

وتنبأ إشعياء بهجوم الفرس المباغت على بابل وقت وليمة بيلشاصر فيقول مخاطبا بابل: «فيأتى عليكِ شر لا تعرفين فجره وتقع عليك مصيبة لا تقدرين أن تصدِّيها. وتأتى عليك بغتة تهلكة لا تعرفين بها» – وفى فقرة أخرى يقول: «تاه قلبى. بغتنى رعب. ليلة لذَّتى جعلها لى رعدة. يُرتِّبون المائدة. يحرسون الحراسة. يأكلون. يشربون. قوموا أيها الرؤساء امسحوا المِجنَّ».

العودة وبدء بناء البيت

ما إن استولى كيروش على بابل – وبالطبع على كل ممتلكاتها فى سوريا وفلسطين – حتى سمح لليهود المسبيين فى بابل بالعودة إلى فلسطين. وهذه تسمى **«العودة الأولى»** وكان يقودهم **«زربَّابل»** والذى ذكرنا فى الصفحة السابقة أنه أحد اليهود المولودين فى بابل. ومن سبط يهوذا – وعينه كيروش واليا على اليهود. ورافقه يهوشع كاهنا أكبر و ٢٢ من الكهنة. تقول التوراة (٢ أخبار ٣٦:٢٢): «وفى السنة الأولى لكورش ملك فارس لأجل تكميل كلام الرب بفم إرميا نبَّه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداء فى كل مملكته وكذا بالكتابة قائلا: هكذا قال كورش ملك فارس إن الرب إله السماء قد أعطانى جميع ممالك الأرض وهو أوصانى أن أبنى له بيتا فى أورشليم التى فى يهوذا. مَن منكم مِن جميع شعبه الرب إلهه معه وليصعد». وفى عزرا ١:١: تأتى نفس هذه الفقرة ويزداد عليها: «ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم التى فى يهوذا فيبنى بيت الرب إله إسرائيل. هو الإله الذى فى أورشليم. وكل من بقى فى أحد الأماكن حيث هو متغرِّب فلينجده أهل مكانه بفضة وبذهب وبأمتعة وببهائم مع التبرع لبيت الرب الذى فى أورشليم. فقام رؤساء آباء يهوذا وبنيامين والكهنة واللاويون مع كل من نبَّه الله روحه ليصعدوا

ليبنوا بيت الرب الذى فى أورشليم. وكل الذين حولهم أعانوهم بآنية فضة وبذهب وبأمتعة وببهائم وتحف فضلا عن كل ما تبرع به. والملك كورش أخرج آنية بيت الرب التى أخرجها نبوخذ نصر من أورشليم وجعلها فى بيت آلهته أخرجها كورش ملك فارس من المخازن وسلَّمها إلى أحد رؤساء يهوذا (واسمه شيشبصَّر. وهو اسم بابلى معناه «يا إله الشمس والسماء احفظ الابن» وكانت الآنية كالآتى : (عزرا ١:٩):

٣٠ طستا من ذهب .

١٠٠٠ طستا من الفضة .

٢٩ سكينا .

٣٠ قدحا من ذهب .

٤١٠ قدحا فضة من الرتبة الثانية .

١٠,٠٠٠ قطعة من آنية أخرى .

ثم عدَّدت التوراة أعداد العائدين بحسب بيوت آبائهم وبحسب البلدان التى سُبوا منها فبلغوا ٤٢,٣٦٠ فردا ومن الكهنة ٤٤٨٧ ومن اللاويين ٧٤ ومن المغنيين ١٢٨ فضلا عن عبيدهم وإمائهم الذين بلغوا ٧٣٣٧ أى أن الجميع بلغ حوالى ٥٠,٠٠٠. ومن الخيل ٧٣٦. ومن البغال ٢٤٥. والجمال ٤٣٥ والحمير ٦٧٢٠. وعند مجيئهم إلى بيت الرب فى أورشليم تبرع رؤساء البيوت بـ ٦١,٠٠٠ درهما من الذهب و ٥٠٠٠ مَنًّا من الفضة و ١٠٠ قميصا للكهنة. ويرى بعض المؤرخين (فيليب حتى ص ٢٤٣) أن العدد المذكور للعائدين - ٤٢,٣٦٠ أو ٥٠,٠٠٠ - فيه مبالغة حيث أن السبى كله كان ٤٠,٠٠٠ أو ٥٨,٠٠٠. وعدد كبير فضَّل البقاء فى بابل. إلاَّ أن ذلك يُرَدُّ عليه بأن الإقامة الآمنة فى بابل - حيث لا حروب ولا مجاعات ولا أوبئة - لاشك قد أدت إلى زيادة كبيرة فى عدد اليهود وحتى لو بقى عدد فى بابل فإن العدد المذكور للعائدين يبدو معقولا.

ولعل السبب فى إصدار كورش أمره بالسماح للمنفيين من اليهود بالعودة إلى ديارهم هو الاعتراف بالدور الذى قام به اليهود فى تحطيم بابل من الداخل بالفتِّ فى عضد محاربيهم بالنبوءات التى أذاعها أنبياؤهم عن قرب زوال مُلك بابل وأن تلك هى مشيئة الرب فرأى كثير من المحاربين تقبل الأمر الواقع ولم يعد لديهم حماس لحرب فارس. ولقد رأينا كيف سقطت بابل نفسها بدون مقاومة تقريبا وكذلك كان الحال فى باقى المدن. كما أنه من المؤكد أن كورش قد قدَّر أن اليهود العائدين سيحملون له امتنانا وشكرا وسيزداد ولاؤهم له بعد بناء مدينتهم أورشليم وبناء معبدهم فيكونون حزبا مواليا له فى مقابل الحزب الموالى لمصر. سبب ثالث لا بأس من افتراضه وهو أن كورش قد آمن بإله إسرائيل. يتضح ذلك من صيغة الأمر الذى أصدره

بالسماح لليهود بالعودة وأصبح هو نفسه متحمسًا مثلهم لبناء المدينة أورشليم وبناء الهيكل وبيت الرب.

وبالرغم من السماح بالعودة فإن عددا كبيرا من اليهود فضل البقاء فى بابل إذ تأقلموا فيها وكانوا قد امتلكوا حقولا وضياعا وكانت لهم تجارة رابحة. وهكذا فإن أغنياء اليهود فضلُّوا البقاء فى بابل وشاركوا بمساعدات مالية وتقدمات عينيه لبناء المدينة والمعبد. ولكنهم لم يندمجوا بالسكان المحليين أو يذوبوا وسطهم بل كوَّنوا ما عرف باسم «اليهود المقيمون خارج فلسطين» أو «**يهود الشتات**» أو «**الدياسپورا** Diaspora». وهذا يماثل ما حدث فى عصرنا الحالى عند إنشاء دولة إسرائيل والدعوة إلى العودة إلى «أرض الميعاد» فإن أغنياء اليهود فى أمريكا لم يهاجروا إلى إسرائيل ولكنهم شاركوا بالأموال الوفيرة التى تبرعوا ولا زالوا يتبرَّعون . بها والتى لولاها لما تمكنت إسرائيل من البقاء.

يذكر ول ديورانت (تاريخ الحضارة ص ٣٦٥) أن العائدين من السبى لاقوا صعوبة فى إيجاد مكان لهم فى الأرض إذ أن حقولهم وبيوتهم - على مدى السبعين سنة فترة السبى - قد سكنها أفراد من العائلات التى لم يتم سبيهم أو عائلات جاءت مما كان يسمى إسرائيل الشمالية أو حتى من الدول المجاورة. إلاَّ أنَّ مساندة الفرس لهم ساعدتهم فى استرداد بيوت آبائهم وحقولهم.

الشروع فى بناء بيت الرب :

فور العودة - عام ٥٣٨ ق.م. - بدأ اليهود فى البحث بين أنقاض المدينة عن مكان المعبد القديم. وبنوا مذبحا فى نفس مكان المعبد القديم حتى يتمكنوا من تقديم القرابين اليومية وتقدمات الأعياد. ثم بدأوا فى إقامة أساسات المعبد الجديد مكان المعبد القديم وتم وضع الأساس فى السنة الثانية بعد العودة وسط هتافات الكهنة بالأبواق وبمنتهى الاحترام والتقديس.

توقف البناء :

رأى سكان السامرة (ما كان يعرف بإسرائيل الشمالية) أن بناء البيت شرف لا يجب أن يفوتهم فطلبوا المشاركة فى البناء مع يهوذا ولكن طلبهم رُفض من سكان يهوذا ولما رفض طلبهم لجأوا إلى رفع قضايا ضد بيت يهوذا وتوقف بناء المعبد مؤقتا. كما أن السامرين - إمعانا فى الكيد ليهوذا - أرسلوا رسالة إلى ملك فارس يحذِّرونه من أنه إذا بنيت المدينة وأسوارها فإن يهوذا ستخرج عن طوع الملك ولن يؤدوا الجزية. فأرسل الملك خطابا إلى صاحب القضاء فى فلسطين يأمره بإيقاف البناء. وهذه هى الرسالة التى أرسلوها إلى الملك كما ذكرتها التوراة (عزرا ٤ : ١١): «من عبيدك القوم الذين فى عبر النهر. ليعلم الملك أن اليهود الذين صعدوا من عندك إلينا قد أتوا إلى أورشليم ويبنون المدينة العاصية الرديَّة. وقد أكملوا أسوارها

ورمموا أسسها . ليكن الآن معلوما لدى الملك أنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يؤدون الجزية ولا خراجا ولا خفارة فأخيرا تضر الملوك. والآن بما أننا نأكل ملح دار الملك ولا يليق بنا أن نرى ضرر الملك لذلك أرسلنا فأعلمنا الملك. فأرسل الملك جوابا إلى صاحب القضاء فى السامرة: سلام إلى آخره. الرسالة التى أرسلتموها إلينا قد قرئت بوضوح أمامى وعلمنا أن هذه المدينة منذ الأيام القديمة قد جرى فيها تمرد وعصيان. فالآن أصدروا أمرا بتوقيف أولئك الرجال فلا تبنى هذه المدينة حتى يصدر منى أمر. فاحذروا أن تَقْصُروا عن عمل ذلك».

ولما توقف البناء انصرف العائدون إلى بناء بيوت يسكنون فيها حتى يمكنهم الاستقرار وزراعة الأرض أو ممارسة التجارة أو الصناعة حسب حِرَفهم. كما وجَّهوا اهتمامهم لبناء المدن الأخرى التى تهدَّمت. وظل بناء المعبد متوقفا طوال ١٧ عاما مات أثناءها كورش وهو يحارب على حدوده الشمالية والشرقية وملَك بعده قمبيز الثانى. ولم يكن متحمسا لبناء المعبد فى أورشليم وتخوَّف من أن بناء المعبد سيجعل قلوب اليهود جميعهم تلتف حوله ويبعث فيهم شعورا وطنيا يجعلهم يحاولون الاستقلال لذلك فإنه خفَّض المساعدة المالية التى كانت مخصصة سنويا إلى حد أن أصبحت مجرد رمز لموافقة والده السابقة. كما أن قمبيز الثانى انشغل فى تأمين مُلكه ضد اضطرابات داخلية قامت ضده. ومات قمبيز الثانى وهو يحارب فى سوريا بعد أن حكم ٨ سنوات وخلفه شقيقه «برديا» ولكنه لم يمكث فى الحكم إلا مدة قصيرة إذ قام عليه «دارا» بمعاونة بعض النبلاء وقضوا عليه وتولى «دارا» الملك فى فارس عام ٥٢٢ ق.م وعادت آمال اليهود من جديد فى استكمال بناء الهيكل لِمَا توسَّموا فى دارا من سماحة. وبدأ النبى حجَّى فى عام ٥٢٠ ق.م. يتكلم عن إعادة بناء الهيكل. وفى عام ٥١٩ ق.م. بدأ كذلك النبى زكريا يتحدث عن رؤياه بهذا الخصوص. وبدأ النبيان يوبِّخان الشعب على تراخيهم فى بناء بيت الرب وانشغالهم فى بناء بيوتهم مفضِّلينها على بيت الرب. وكان حجَّى وزكريا هما النبيان اللذين ظهرا فى أورشليم بعد العودة من السبى.

١ - حجَّى النبى Haggai

هو أول الأنبياء الذين ظهروا فى أورشيلم بعد عودة السبى من بابل. وحجَّى اسم عبرى معناه «عيد» أى «مولود يوم عيد». وكان حجر الأساس قد وضع لبناء الهيكل ثم توقف البناء كما سبق أن ذكرنا فجاء حجَّى ليوبِّخ اليهود على تراخيهم فى بناء بيت الرب (حجَّى ١:٣): «فكانت كلمة الرب عن يد حجَّى النبى قائلا: هل الوقت لكم أنتم أن تسكنوا بيوتكم المغشاة (المزخرفة) وهذا البيت خراب؟ والآن فهكذا قال الرب . اجعلوا قلبكم على طرقكم. زرعتم كثيرا ودخَّلتم قليلا. تأكلون وليس إلى الشبع. تشربون ولا ترتوون. تكتسون ولا تدفأون. والآخذ أجرة يأخذ

أجرة لكيس مثقوب». وكل هذا معناه أن ما تفعلونه قد نزع الله منه البركة «هكذا قال رب الجنود. اصعدوا إلى الجبل واتوا بخشب وابنوا البيت فأرضى عليه وأتمجَّد. لماذا يقول الرب لأجل بيتى الذى هو خراب وأنتم راكضون كل إنسان إلى بيته. لذلك مَنَعت السموات من فوقكم الندى. ومنعت الأرضُ غلَّتها». حينئذ سمع الحاكم زربابل ويهوشع الكاهن الأعظم وكل بقية الشعب هذا الكلام. ثم بدأ يشجِّعهم على العمل المتواصل وينزع عنهم الحزن ويُوجِّه أنظارهم إلى أن بناء البيت والهيكل فيه مرضاة الرب وحثَّهم على مواصلة البناء حجرا على حجر حتى يتم البناء. وكانت الفترة التى مارس فيها حجَّى نبوته قصيرة لم تزد عن أربعة أشهر. ثم تلاه فى النبوة زكريا.

٢ - زكريا النبى Zechariah

هو زكريا بن برخيا بن عِدُّو - وهو غير زكريا والد يحيى اللذين عاصرا مريم والدة المسيح عليه السلام - ولد فى بابل أثناء السبى وعاد مع زربابل قائد الفوج ويهوشع الكاهن أثناء حكم كورش العظيم. ثم عاصر خلفه قمبيز ثم دارا الأول وبدأت نبوته فى السنة الثانية من حكم دارا أو داريوس. وقد اشترك مع حجَّى فى تشجيع اليهود على بناء الهيكل واستمر فى مهمته النبوية لمدة سنتين. وكان من أهم واجباته أن يقوِّى عزائم الشعب ويستنهض هممهم ليتمُّوا بناء الهيكل. وبدأ يروى عن رؤى رآها بلغت ثمانى رؤى. وكلها تهدف فى معناها إلى الحث على بناء الهيكل وتبشِّر بالدور الذى ستلعبه إسرائيل فى المستقبل وكذلك طالب الشعب بأن يتوب إلى الله. ووعدهم بالغفران والمباركة للتائبين. ثم بشر بمجىء المسيح عليه السلام وتكذيبه وصلبه ثم بشارة ثانية بعودته وقبوله قرب آخر الزمان. ونختصر الرؤى فيما يلى:

١ - الرؤيا الأولى :

رأى زكريا فى الليل رجلا راكبا على فرس أحمر والرجل واقف فى وادٍ خفيض به أيكة وخلفه ثلة من الفرسان على خيل حمر وشقر وبيضاء وملاك والنبى زكريا نفسه. ويرى المفسرون أن الرجل الراكب على الفرس الأحمر هو ملاك الرب (جبريل عليه السلام) بينما يرى المسيحيون أنه يرمز إلى المسيح عليه السلام. ويسأله زكريا فى الحلم عن هؤلاء الفرسان فأجابه القائد أن أتباعه هؤلاء قد جالوا فى أنحاء الأرض ووجدوها مستريحة وساكنة. وهو يطابق الأوضاع السياسية فى ذلك الوقت فقد كان العالم القديم فى فترة هدوء وسكون ليس فيها حروب. وكان هذا الوضع فى مصلحة اليهود إذ أتاح لهم الفرصة لبناء الهيكل. ثم أخبره الفارس القائد أن الرب أبلغه أن يخبر اليهود بأن غضب الرب عليهم قد زال وأن الهيكل سيعاد بناؤه وأورشليم تُبنى وتُجدَّد ومدن يهوذا تكون عامرة.

٢ - الرؤيا الثانية :

رأى زكريا أربعة قرون فسأل الملاك عنها فأخبره أنها القرون التى بدّدت يهوذا وإسرائيل وأورشليم - ثم جاء أربعة صنَّاع فبردوا القرون بالمبارد. ويرى بعض المفسرين أن القرون ترمز إلى القوى التى استذلّت إسرائيل وهى مصر وأشور وبابل ومادى (الفرس) بينما يرى آخرون أنها أعم وأشمل من ذلك إذ تشير إلى الجهات الأربع أى الأعداء من أى جهة طلعوا. أما الصنَّاع الأربعة فترمز إلى القوى التى أتم الله بها انتقامه من أعداء إسرائيل.

٣ - الرؤيا الثالثة :

رأى زكريا رجلا بيده حبل قياس فسأله عما سيفعل فأخبره أنه ذاهب لقياس أورشليم ليرى كم طولها وكم عرضها. وأخبره أنه ينبغى أن تبنى أورشليم بدون أسوار لأن مواطنين كثيرين سيخفقون فى الحصول على مساكن داخل حدود المدينة القديمة وسيضطرون إلى البناء خارج الأسوار لكنهم سيكونون أيضا فى أمان تام لأن الرب هو الحارس وهو الحصن. ثم يختم بدعوة اليهود المقيمين ببابل إلى العودة لفلسطين.

٤ - الرؤيا الرابعة :

رأى زكريا يهوشع - الذى عُيِّن كاهنا أعظم فى أورشليم - لابسا ثيابا قذرة وواقفا أمام ملاك الرب. والثياب القذرة ترمز إلى خطيَّة الشعب الذى يمثله. ثم نزعت عنه الثياب القذرة وأُلبِس ثيابا نظيفة ووُضعت على رأسه عمامة رئاسة الكهنة. وهى إشارة إلى أنه سيتولى الرئاسة الكهنوتية ليس فى أورشليم وحدها بل فى كل يهوذا.

٥ - الرؤيا الخامسة :

وفيها رأى زكريا منارة كلها من ذهب ولها سبعة سُرُج وسبع أنابيب للسرج لضخ الزيت. ورأى زيتونتان واحدة عن يمين المنارة والثانية عن يسارها. ولما سأل عن معنى الرؤيا أُخبر أن موارد القوة والقدرة كانت تنقص زربَّابل ومعاونيه لبناء بيت الرب ولكن مدد الزيت سيأتى من عند الرب ليتم البناء. والزيتونتان ترمزان إلى زربابل وزكريا. والعمل سيجرى على قدم وساق تحت مراقبة الرب وعنايته وسيتم إنجاز المهمة بفرح.

٦ - الرؤيا السادسة :

وفيها رأى زكريا فيما يرى النائم دَرَجًا (أى كتابا) ضخما طوله ٢٠ ذراعا وعرضه عشرة أذرع طائرا فى الهواء وهو مفتوح. مما يعنى أن الرسالة التى فيه سيتيسَّر للجميع أن يراها ومضمونها التمسك بالشريعة والتنديد بخطيَّتين كانتا متفشيتين فى يهوذا فى ذلك الوقت: السرقة وشهادة الزور. وأن اللعنة ستلحق مرتكبيها ومرتكبى باقى الخطايا المذكورة فى الشريعة.

«فتدخل اللعنة بيت السارق وبيت الحالف باسمى زورا وتبيت فى وسط بيته وتفنيه مع خشبه وحجارته».

٧ - الرؤيا السابعة :

رأى زكريا إيفة (مثل زلعة كبيرة سعتها ٣٢,٥ لترا كانت تستعمل قديما كمكيال) وفوهتها مسدودة بغطاء من الرصاص. ولما رفع الغطاء ظهرت امرأة جالسة داخلها (وهى ترمز إلى الشر) ثم خرج من الزلعة امرأتان لهما أجنحة وطارتا وأخذتا معهما الإيفة (الزلعة). وسأل زكريا عن وجهتهما فأُجيب بأنهما طارتا إلى أرض بابل لتبنيا لهما بيتا هناك وتستقران فيه. ويرى بعض المفسرين أن روح الشر ستُطرد من داخل إسرائيل إلى البلدان المجاورة بينما يرى آخرون أن المعنى أن اليهود سيتم تشتيتهم إلى بابل بيد الرومان.

٨ - الرؤيا الثامنة :

وفيها رأى زكريا أربع مركبات خارجات من بين جبلين. والجبلان من نحاس (وهما يرمزان إلى جبل الموريا وجبل صهيون وتقع أورشليم بينهما). وبيَّن له ملاك الرب أن هذه المركبات الأربع هى رياح السماء الأربع خارجة من قِبَل الرب كخدام لتنفيذ مشيئته وأوامره. وكانت الجياد ذات ألوان مختلفة: الأولى حمراء والثانية سوداء والثالثة بيضاء والرابعة مُرقَّطة شقراء. وقد خرجت المركبة التى تجرها الجياد السود فى اتجاه الشمال. وتبعتها مركبة الخيول البيضاء. ويرى المفسرون أن فارس وبابل هما أرض الشمال وأن الجياد الحمر هى فارس التى كبحت جماح الكلدانيين. أما العربة ذات الجياد المرقطة فخرجت فى اتجاه الجنوب. وهو اتجاه مصر وبلاد العرب وهى ترمز إلى أن حياة اليهود فى هذين البلدين ستكون أفضل من الحياة فى بابل ولكنها لا تُغنى عن العودة إلى أرض الوطن. أما الخيل البيض فقد خرجت لتتمشى فى الأرض وهو رمز للسلام الذى سيعم الأرض بعودة أورشليم لسابق مجدها.

التتويج الرمزى ليهوشع :

بعد انتهاء سلسلة الرؤى السابقة أمر الله النبى زكريا أن يقوم بعمل رمزى توكيداً لمضمون الرؤى. فأمره الرب أن يجتمع برؤساء أهل السبى العائدين ويأخذ منهم الفضة والذهب التى أرسلها اليهود الذين مازالوا فى أرض الغربة لإعادة بناء الهيكل وأن يصنع منها تاجا يضعه على رأس يهوشع باعتباره الكاهن الأعظم. وأنه عند إتمام عمله الكهنوتى سينال مكافأة عظيمة من الرب. وبعد إتمام هذا التتويج صدر الأمر بإحياء ذكرى هذه الحادثة باستمرار كل عام من قِبَل شهودها وبإيداع التاج فى الهيكل تذكارا. كما يرى المفسِّرون المسيحيون فى هذا العمل وعدا إلهيا بمجىء الذى يجمع وقار الكهنوت وجلاله وهو المسيح عليه السلام.

وفد بيت إيل :

كان اليهود فى المنفى قد فرضوا على أنفسهم صوم الشهر الخامس من السنة وهو الشهر الذى سقطت فيه أورشليم وخُرِّب الهيكل. وبعد سنتين من العودة جاءوا إلى زكريا يسألونه إن كان من الجائز إبطال هذا الصوم الآن. وكان الجواب أن صومهم هذا الشهر فى السبى لم يكن خالصا لوجه الله ولذلك لم يكن مقبولا عند الرب. وهذا يعنى أن صيامهم هذا الشهر ليس بلازم ولا ثواب عليه فأبطلوه. ثم أوحى إلى زكريا أن يُشجِّع على بناء الهيكل وبعد تمامه. يجعلون أيام الصيام هذه أيام عيد.

النبوءات الأخيرة :

– ثم أوحى إلى زكريا بقرب عقاب الأمم التى أساءت إلى اليهود مثل أرام وصور وأن الفلسطينيين سيتم اندماجهم مع اليهود.

– ثم أوحيت له نبوءة عن خراب أورشليم على أيدى جيوش الرومان.

– ثم نبوءة بمقدم المسيح كمخلِّص لليهود من خطاياهم.

بنـــاء المعبـــد

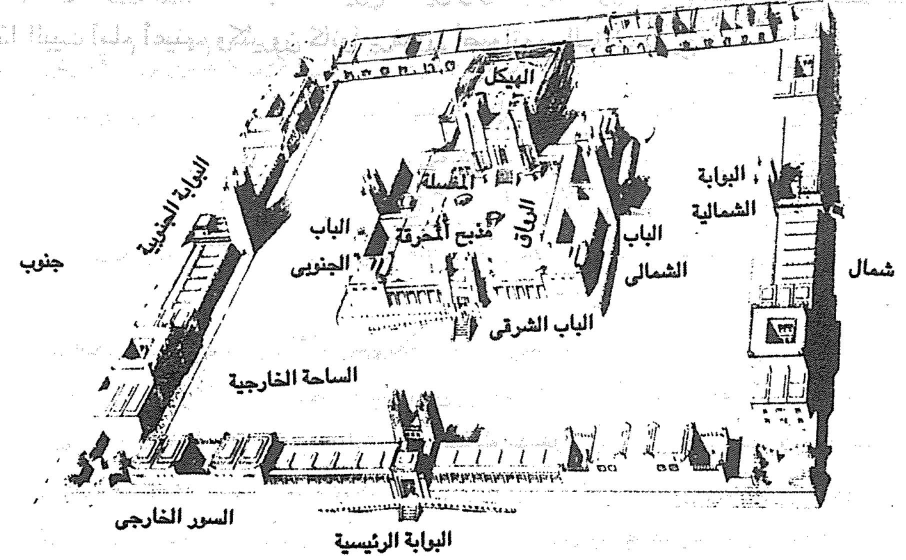
قلنا إن الفوج العائد من بابل برئاسة زربابل قام فى الشهر السابع بعد العودة بإقامة مذبح لتقديم التقدمات المطلوبة. وفى العام الثانى وُضع أساس المعبد ولكن العمل توقف بعد ذلك لمدة ١٧ عاما. وكافح حجَّى النبى روح الحزن والتشاؤم لدى المسنين من اليهود الذين عاصروا المعبد القديم وما ناله من تدمير منذ ٦٧ عاما. ويرى د. نجيب ميخائيل إبراهيم (الشرق الأدنى القديم. جـ٥ ص ٣١٣) أن ما حفز النبيين حجَّى وزكريا إلى الحث بالإسراع فى بناء المعبد والهيكل هو ما لمساه من اضطراب داخلى بدأت تظهر بوادره فى الامبراطورية الفارسية جعلهما لا يطمئنان إلى من يعقب دارا. وتقول التوراة (حجَّى ٢:٢٠) «وصارت كلمة الرب ثانية إلى حجَّى فى الرابع والعشرين من الشهر قائلا. كلِّم زربابل والى يهوذا قائلا إنى أزلزل السموات والأرض وأقلب كرسى الممالك وأبيد قوة ممالك الأمم وأقلب المركبات والراكبين فيها وينحط الخيل وراكبوها كل منهما بسيف أخيه». ثم كانت الفقرة التالية تقول: «فى ذلك اليوم. يقول رب الجنود. آخذك يازربابل عبدى وأجعلك كخاتم لأنى قد اخترتك. يقول رب الجنود». وفى هذه الفقرة وعد جميل لزربابل «كخاتم». وقد كان خاتم التوقيع يعنى العزة ورمزا السلطة وهو وعد بإعادة زربابل إلى العرش باعتباره من سلالة داود عليه السلام. ولعل هذا الوعد لزربابل قد أقلق السلطات الفارسية إذ معناه انسلاخ فلسطين عن سلطانها. ويرى المؤرخون أن زربابل اختفى فجأة بعد هذه النبوءة لأن السلطات الفارسية كانت لا تمانع فى بناء المعبد أما إقامة عرش جديد فأمر

يستوجب المقاومة. ومن المحتمل أنهم دبَّروا اغتيال زربابل بوسيلة ما. وقام حاكم سوريا الفارسى بزيارة أورشليم ليقدم تقريرا عن المبنى الجديد وأطلع داريوس على ما تم فيه فعزَّز الأمر السابق ببناء المعبد وأمر بالإسهام فى نفقات البناء واكتمل بناء المعبد فى عام ٥١٦ ق.م. وتم إحياء عيد الفصح به بعد ذلك مباشرة.

تقول التوراة (عزرا ٦:١): «حينئذ أمر داريوس الملك ففتَّشوا فى مكتبة القصر فوجدوا الكتاب الذى كان قد أصدره كيروش بالإذن ببناء المعبد هذا نصه: فى السنة الأولى لكورش الملك. أَمْر كورش الملك من جهة بيت الله فى أورشليم: لِيُبْنَ البيت المكان الذى يذبحون به ذبائح ولْتوضع أسسه. ارتفاعه ٦٠ ذراعا وعرضه ٦٠ ذراعا بثلاثة صفوف من حجارة عظيمة وصف من خشب جديد. ولْتُعط النفقة من بيت الملك. وأيضا آنية بيت الله التى من ذهب وفضة التى أخرجها نبوخذنصر من الهيكل الذى فى أورشليم وأتى بها إلى بابل فلتُردّ وترجع إلى الهيكل الذى فى أورشليم إلى مكانها وتوضع فى بيت الله». كذلك أمر داريوس واليه وعمَّاله بعدم المعارضة فى بناء البيت فأصدر مرسوما يقول: «اتركوا عمل بيت الله هذا. أما والى اليهود وشيوخ اليهود فلْيبنوا بيت الله فى مكانه. وقد صدر منى أمر بما تعملون مع شيوخ اليهود هؤلاء فى بناء بيت الله هذا. فمن مال الملك من جزية عبر النهر تُعطَ النفقة عاجلا لهؤلاء الرجال حتى لا يتوقفوا. وما يحتاجون إليه من الثيران والكباش والخراف محرقة لإله السماء وحنطة وملح وخمر وزيت حسب قول الكهنة الذين فى أورشليم لِتُعطَ لهم يوما بيوم حتى لا يتوقفوا عن تقريب ذبائح لإله السماء والصلاة لأجل حياة الملك وبنيه. وقد صدر منى أمر أن كل إنسان يُغيِّر هذا الكلام تسحب خشبة من بيته ويُعلَّق مصلوبا عليها. والله الذى أسكَنَ اسمَه هناك يُهلك كل ملك وشعب يمد يده لتغيير أو لهدم بيت الله هذا الذى فى أورشليم. أنا داريوس قد أمرت. فلْيُفعل عاجلاً». حينئذ أخذ أعوان الملك الخطاب إلى أورشليم وبدأ اليهود فى بناء البيت وكمل البناء فى ٣ آذار من السنة السادسة من مُلك راديوس (أى سنة ٥١٦ ق.م.).

الهيكل الثانى أو هيكل زربابل :

لا توجد فى التوراة تفاصيل كثيرة عن هذا الهيكل تعين على وضع تصوُّر لما كان عليه فى ذلك الوقت. وعلى العموم فقد كان - كما تخيله الرسامون (شكل ٧٩) - أكبر من هيكل سليمان عليه السلام بمقدار الثلث تقريبا ولكنه أقل فخامة. كما أن قدس الأقداس كان خاليا لأن التابوت كان قد فُقِد. وقد بقى هذا الهيكل قائما مدة خمسة قرون إلى أن جدَّده هيرودس عام ٢٠ ق.م. فصار يعرف باسم « **هيكل هيرودس** » وقد وُسعت مساحته فأصبحت ضعف ما كان عليه قبلا وأصبح ارتفاعه ١,٥ مرة ارتفاع معبد سليمان وسيأتى تفصيل ذلك فى الجزء السادس إن شاء الله.



شكل ٧٩ – تصورٌ لما كان عليه «الهيكل الثانى».

ويرى أونجر (قاموس الكتاب المقدس . ص ١٢٦١) أن هيكل زربابل كان سوره الخارجي يحيط بمساحة كبيرة ١٦٥ مترا طولا × ٤٥ مترا عرضا . أما الهيكل نفسه فكانت أبعاده ٤٥×٢٧ مترا . ومن خارج يوجد رواق أو شرفة مرتفعة بها حجرات وفى الوسط يوجد المسكن ذاته. وكان مذبح المحرقة مربعا ٩ مترا × ٩ مترا والمغسلة (المرحضة) مستديرة. وكانا موضوعين فى الفناء الخارجي.

وتقول التوراة (عزرا ٣ : ١٠): «ولما أسس البناءون هيكل الرب أقاموا الكهنة بملابسهم بأبواق واللاويين بالصنوج لتسبيح الرب وغنوا بالتسبيح والحمد للرب لأن إلى الأبد رحمته على إسرائيل. وكل الشعب هتفوا هتافا عظيما بالتسبيح للرب لأجل تأسيس بيت الرب. وكثيرون من الكهنة واللاويين ورؤساء الآباء الشيوخ الذين رأوا البيت الأول بكوا بصوت عظيم عند تأسيس هذا البيت أمام أعينهم وكثيرون كانوا يرفعون أصواتهم بالهتاف بفرح».

التغلغل اليهودى فى فارس

قبل أن نشرح كيف نجح اليهود فى الوصول إلى مركز صنع القرار فى فارس وهو القصر الملكى - بحيث أصبح «مردخاى» اليهودى المستشار الأول للملك الفارسى وأصبحت ابنة عمه «أستير» هى ملكة فارس - علينا أن نلم إلمامة سريعة بتاريخ الفرس لنرى مهارة اليهود الفائقة فى استغلال الظروف لصالحهم.

ذكرنا سابقا (ص ٤٠٩) أن تاريخ الفرس يبدأ بـ «كورش الأول = كيروش = قورش» الذى كان حاكما لإقليم إنشان فى جنوب شرق إيران ثم ضم إليه إقليم فارس المجاور له غربا. ثم استطاع أن يضم إلى مُلكِه سلميا مملكة مادى فى شمال إيران وكوَّن من الجميع مملكة قوية هى «مملكة فارس» . وتوفى كيروش الأول عام ٦٠٠ ق.م.

تولى قمبيز **الأول** الحكم فى فارس بعد وفاة والده كورش. وكان نبوخذنصر ملك بابل وخلفه أبل مردوك معاصرين له.

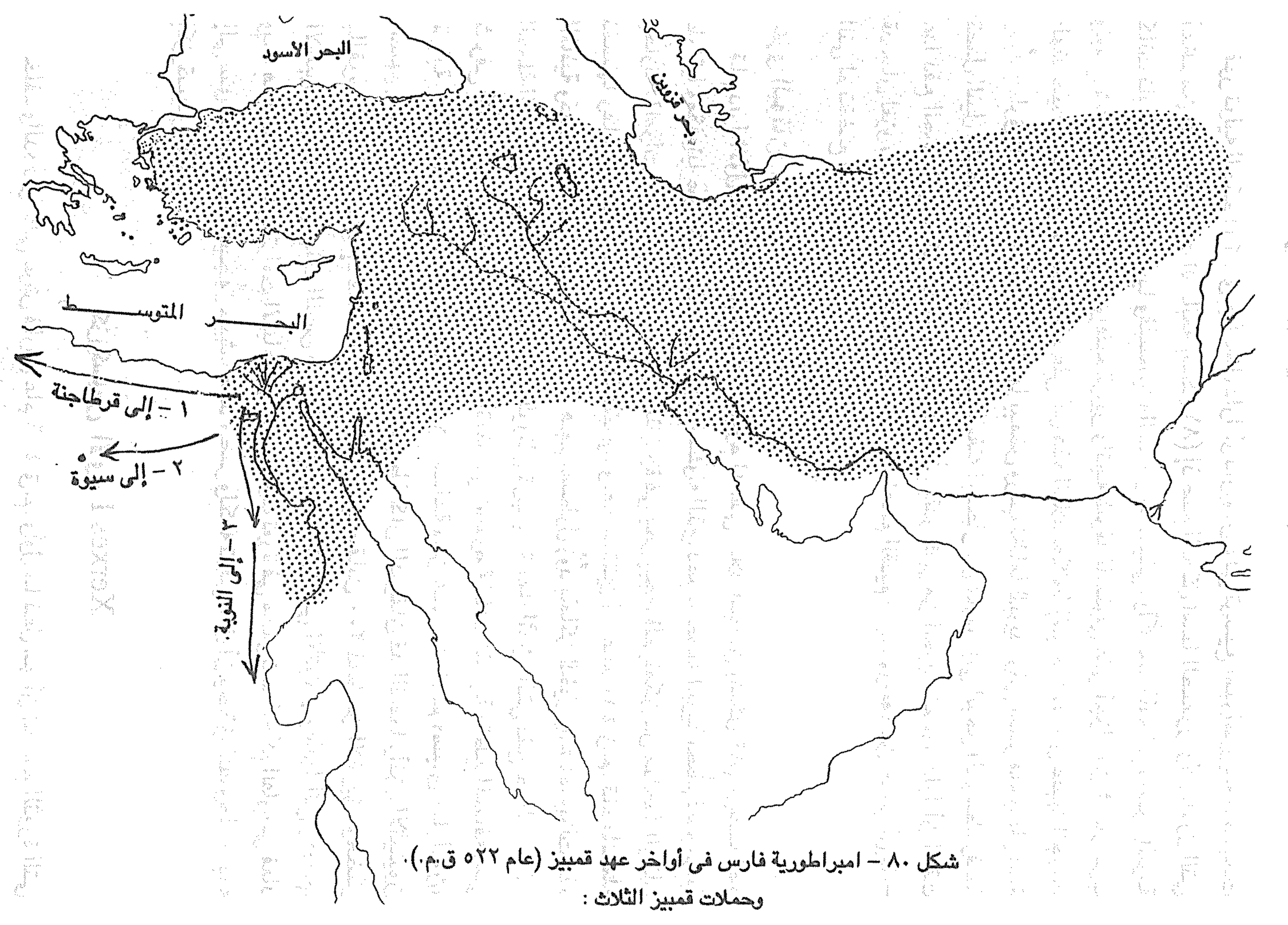
بعد وفاة قمبيز الأول تولى الحكم فى فارس «**كيروش الثانى**» أو «قورش العظيم» الذى انتصر على ليديا واستولى على كل آسيا الصغرى وأصبح الصدام بين فارس وبابل حتميا. وقد حدثت مناوشات متفرقة بين القوتين ولعلها كانت لجس النبض - ولكن الحوليات البابلية تذكر معركة كبيرة دارت فى «أوپيس Opis » شرقى نهر دجلة للاستيلاء على مقاطعة عيلام وانهزم نبونيد ملك بابل . ولم يبق أمام كيروش إلا الاستيلاء على بابل نفسها. وقد ذكرنا سابقا (ص ٤٠٤ ، ٤١١) وليمة بيلشاصر ونهاية بابل بدخول قورش العظيم بابل فى ذات ليلة الوليمة عام ٥٣٩ ق.م. وذكرنا (ص ٤١٤) كيف سمح كيروش بعودة الفوج الأول من يهود السبى إلى أورشليم يقودهم زربابل ومعه يهوشع كاهنا أكبر وسمح ببناء المعبد وكيف وُضِع الأساس ثم توقف البناء لمدة ١٧ سنة. وكان كيروش يحلم بفتح مصر ولكنه انشغل بتأمين حدوده الشرقية ولقى حتفه عام ٥٢٩ ق.م. فى إحدى الغزوات وخلفه ابنه قمبيز الثانى.

قمبيز الثانى وفتح مصر :

بعد تولِّيه الحكم مباشرة بدأ قمبيز الثانى يعد العدة لفتح مصر. وكانت مصر تابعة لبابل منذ قيام نبوخذنصر بغزوها عام ٥٦٨ ق.م. وأصبح أمازيس حاكما تابعا لبابل إلا أن «عحموزة سانيت» ويسمى أيضا «أحمس» استطاع فى عام ٥٥٠ ق.م. أن يحرر مصر من التبعية لبابل

وخلفه بسمتيك الثالث عام ٥٢٥ ق.م. ولم يحكم إلا بضعة شهور. كان الجيش المصرى قد أضعفه التنافس بين الجنود المصريين والجنود المرتزقة. وساعدت الظروف قمبيز فى فتح مصر إذ يقول المؤرخون إن أحد قواد فرقة من جيش مصر كان من المرتزقة الإغريق وانحاز بجنده الإغريق إلى جيش قمبيز. كذلك كان بدو الصحراء يدلُّون الجيش الغازى على الدروب عبر التلال والوديان وعلى عيون الماء الموجودة فيها. كما أن اليهود الذين فروا إلى مصر حينما استولى نبوخذ نصر على أورشليم (ص ٣٧٣) كانوا يعتبرون «كيروش العظيم» - والد قمبيز - مسيحهم المنتظر - بعد أن سمح لليهود بالعودة إلى فلسطين وبدأوا فى بناء المعبد - فلاشك أنهم قدَّموا مساعدات مستترة لقمبيز. ودارت معركة عنيفة على حدود مصر الشمالية الشرقية عند بلوزيوم (الفرما) عام ٥٢٥ ق.م. وكانت معركة ضارية كما وصفها هيرودوت بعد أن رأى آثارها عند زيارته لمصر. وانهزم الجيش المصرى وتراجع إلى العاصمة منف. ولكنها سقطت هى الأخرى وأُسِر بسمتيك الثالث. ويبدو أن قمبيز أطلق سراحه بشرط ألا يثير المتاعب. ولكن بسمتيك قام بمحاولة لاسترداد عرشه ولما فشلت انتحر وخضعت مصر تماما للفرس وأصبح اتساع الامبراطورية الفارسية كما فى شكل ٨٠.

وفى أول فترة من الاحتلال تعرضت مصر - كما يحدث دائما لأى بلد مغلوب - للتخريب والنهب والغرامات ونهب ثروات المعابد وتدمير بعضها. ثم هدأت هذه الموجة وبدأ قمبيز يفكر فى جعل مصر نقطة للوثوب إلى ما بعدها غربا. فأرسل حملة لغزو قرطاجنة ذات الشهرة التجارية (تونس حاليا). ولم يكن له أسطول ليحكم الحصار والغزو من ناحية البحر أيضا. وفشل فى الحصول على معاونة من الأسطول الفينيقى لما لقرطاجنة من أصول فينيقية. فلم يفلح فى حملته. فأرسل حملة ثانية لاحتلال واحة سيوة وهى أحد المراكز الكبرى لعبادة الإله آمون. ولعله كان يرمى إلى التقدم بعد ذلك لغزو قرطاجنة من ناحية الجنوب بعيدا عن الطريق الساحلى قوى الاستحكامات. ولكن العواصف الرملية أهلكت الجيش بأكمله. وقاد حملة ثالثة فى الجنوب إلى نباتا طمعا فى ذهب النوبة وليفتح بها طريقا إلى السودان ولكن الحملة فشلت لقلة الزاد وحرارة الجو ووعورة الطريق ومقاومة النوبيين. ورأى المصريون فى فشل الحملات الثلاث انتقاما من آلهتهم لما أصاب المعابد من دمار على أيدى الفرس. ويروى هيرودوت (جـ ٣ ص ١٣) أن قمبيز لما رجع إلى مصر بعد فشل حملة النوبة وجد أهلها يحتفلون بمولد عجل أبيس جديد. فظنَّ الاحتفال شماته فى فشله. وحمله الغضب على قتل عدد من كبار المصريين وطعن العجل أبيس فى فخذه بخنجره. ثم سمع بنبأ مؤامرة فى فارس للاستيلاء على عرشه فأسرع عائدا إلى بلاده بعد أن أمضى بمصر ٣ سنوات. وفى أثناء سفره فى سوريا حدث أن أصيب بجرح عارض من سلاحه فى فخذه فى موضع مماثل للموضع الذى طعن فيه عجل أبيس المقدس ومات متأثرا بتسمم جرحه قبل أن يصل إلى «سوسة» العاصمة فخلفه فى الحال «دارا الميدى» عام ٥٢١ ق.م. وهو ابن أحد كبار مستشارى كيروش والده.



شكل ٨٠ - امبراطورية فارس فى أواخر عهد قمبيز (عام ٥٢٢ ق.م).
وحملات قمبيز الثلاث :

دارا الأول أو الملك العظيم Darius I :

فور توليه الحكم (٥٢١ ق.م.) عمل دارا أو داريوس على توسيع امبراطوريته فأصبحت أعظم من الامبراطوريات السابقة (شكل ٨١) إذ ضم إليه كل آسيا الصغرى وكل الدول التى كانت تابعة لبابل مثل سوريا وفلسطين والساحل الفينيقى. وأكَّد سلطانه فى مصر والنوبة وتوسع شمالا فى بلاد القوقاز وإقليم قزوين واتجه شرقا فاستولى على أجزاء من شمال غرب الهند حيث منبع نهر السند. وأقام على كل هذه البلاد حكاما إقليميين وفرض عليها الجزية. ومهَّد الطرق التى تصل الولايات بعضها ببعض ورتب نظاما للبريد. وفى مصر قام بحفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر حتى تستطيع سفنه الإبحار من فارس إلى البحر المتوسط. وفيما عدا دفع الجزية فإن الحكومات المحلية كانت تتمتَّع بقدر كبير من الحرية. ثم قرر دارا أن الوقت قد حان لغزو بلاد اليونان حيث أنها الوحيدة فى العالم القديم – وما وراءها من جنوب أوربا – التى لم تخضع له.

غزو اليونان :

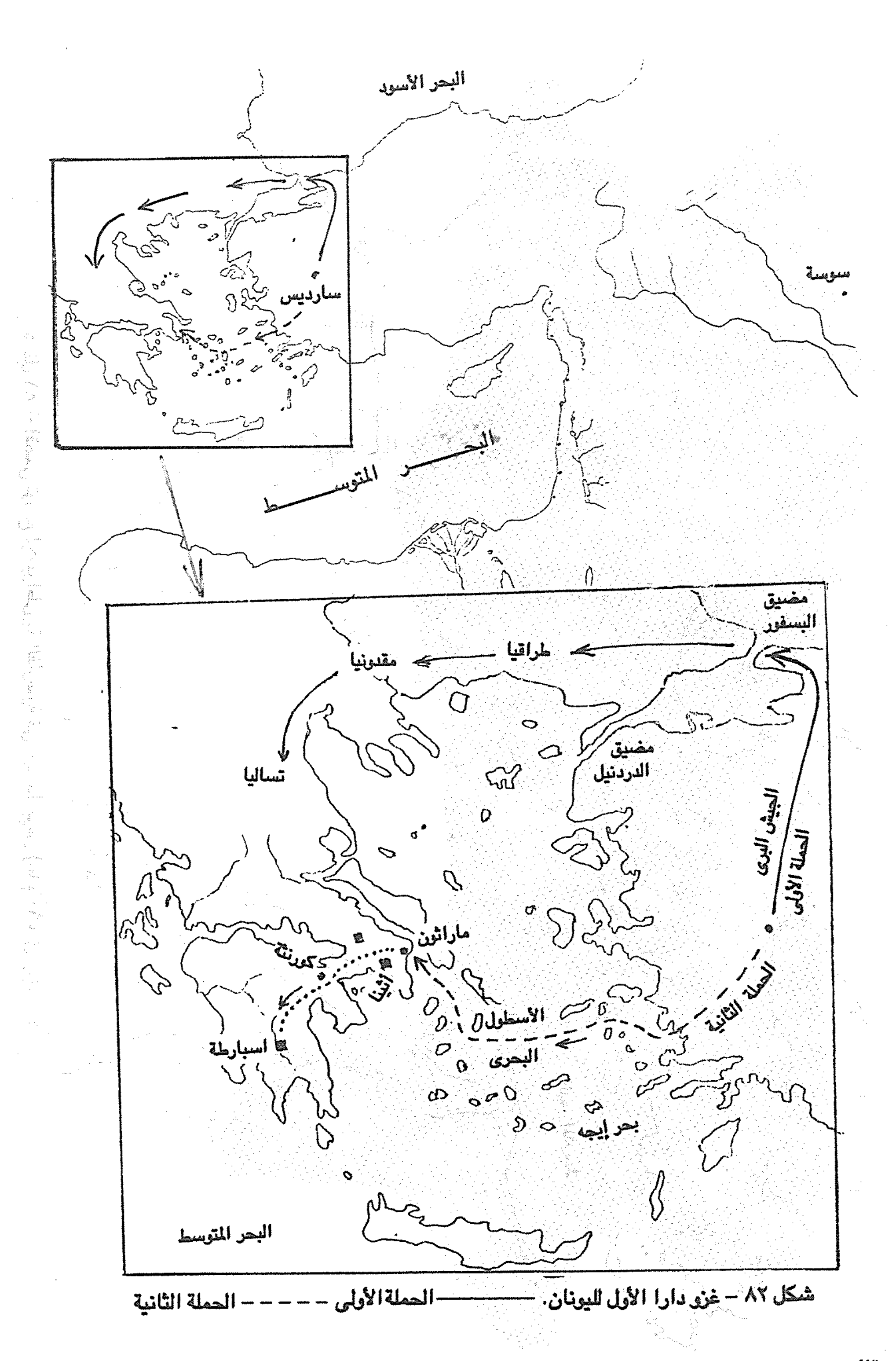
قام دارا الأول عام ٤٩٢ ق.م. **بأول هجوم** له على بلاد اليونان (شكل ٨٢) فزحف نحو طراقيا ومقدونيا عبر مضيق البسفور. لكن أسطوله الذى دعم به حملته البرية تحطَّم لعدم دراية بحَّارته بالممرات البحرية بين آلاف الجزر المنتشرة فى بحر إيجه. فلم يتمكن من مهاجمة اليونان نفسها وعاد إلى بلاده ليجهز لحملة أخرى. وبعد سنتين أى عام ٤٩٠ ق.م. قام **بالحملة الثانية** وكانت حملة بحرية فى أساسها إذ هجم بأسطول زُوِّد بأماكن للخيل والمشاة. ونزلت هذه الحملة العسكرية على الساحل الشرقى لليونان قرب بلدة «**ماراثون**» التى تقع حوالى ٢٠كم شرقى أثينا. وتمكَّن عدَّاءٌ أن ينطلق من أثينا إلى اسبرطة لطلب المعونة وقطع المسافة وهى قرابة ١٠٠ ميل أى ١٧٠ كيلو مترا فى ٤٨ ساعة ومن هنا جاء اسم «**سباق الماراثون**» الشهير. على أنه قبل وصول المعونة من اسبوطة كان الفريقان قد التحما وأنزل الأثينيون بالفرس هزيمة ساحقة إذ فقد الفرس ٦٤٠٠ جنديا مقابل ٢٠٠ فقط من الإغريق. وحضر الاسبرطيون وشاهدوا جثث الفرس فى ساحة المعركة فأثنوا على الأثينيين وعادوا إلى بلادهم. وبعد هذه الهزيمة المرة ترامت الأنباء إلى دارا بنشوب ثورة فى مصر ضد الحكم الفارسى فعاد إلى سوسة العاصمة ليجهِّز جيشا ضد مصر ولكنه توفى قبل أن يحقق ذلك وخلفه ابنه إكزركسيس الأول.

إكزركسيس الأول Xerxes I

خلف والده دارا على عرش فارس عام ٤٨٦ ق.م. وأول ما فعل هو أن أخضع الثورة التى



شكل ٨١ – أقصى توسع للإمبراطورية الفارسية فى عهد داريوس (عام ٤٩٠ ق.م).



شكل ٨٢ – غزو دارا الأول لليونان. ———— الحملة الأولى - - - - الحملة الثانية

قامت فى مصر . ولما تم له ذلك عيَّن عليها واليا فارسيا وعاد إلى بلاده واستمر ٤ سنوات يعد العدة للهجوم على بلاد الإغريق. وبعد أن تجهَّز الجيش أولم الملك وليمة للشعب ليشهد الاستعدادات التى عملت للحملة ليكون راضيا عنها وعمًّا دفع من ضرائب لتجهيزها . وهذا يشبه الاستعراضات العسكرية التى تُعمل فى أيامنا هذه وتعرض فيها مختلف وحدات الجيش أنواع الأسلحة الحديثة التى تسلَّحت بها حتى يشعر المواطن أن ما دفعه من ضرائب يعود عليه فى صورة أمن للوطن وأمن للمواطنين. واستمرت الاحتفالات فى سوسة عاصمة الفرس سبعة أيام وكان الجميع يشرب الخمر مجانا وبلا حساب.

غضب إكزركسيس على الملكة «وشتى» :

تقول التوراة (أستير ١ : ١٠) «ولما طاب قلب الملك بالخمر أمر الخصيان السبعة المشرفين على قصر الحريم بأن يأتوا بالملكة «وشتى» («وشتى» اسم فارسى معناه بالفارسية القديمة «محبوبة» وبالفارسية الحديثة «جميلة» أو «بديعة» – قاموس الكتاب المقدس. ص ١٠٢٨) أمام الملك وضيوفه ليرى الشعب والرؤساء جمالها لأنها كانت حسنة المنظر. فأبت الملكة وشتى أن تأتى حسب أمر الملك فاغتاظ الملك جدا واشتعل غضبه فيه».

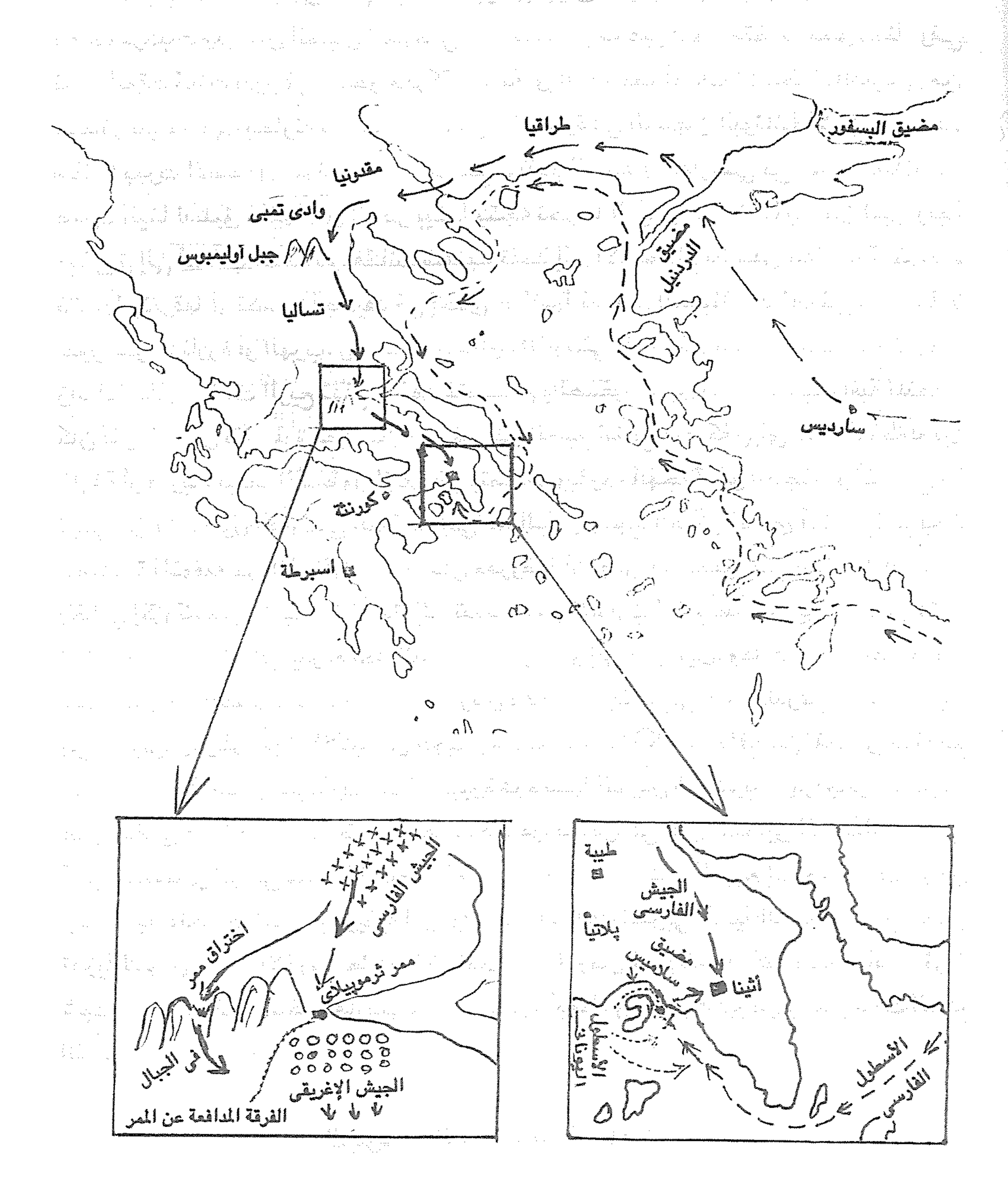
وكانت العادة الفارسية أن تحضر الزوجات فى ولائم الشرب التى يقيمونها . فكان رفض «وشتى» الحضور إهانة للملك. وكان فى فارس ٧ عائلات عريقة كان رؤساؤها هم المشيرون الأول للملك وكانت العادة أن يختار الملك – أو ولى العهد – زوجته – والتى ستصبح ملكة البلاد – من بين فتيات هذه العائلات السبع . ولم تكن «وشتى» من بين هذه العائلات السبع لأنه تزوجها – كما تقول التوراة – ٣ سنوات قبل أن يصبح ملكا . ولعله أيضا لم يكن وقتذاك وليا للعهد. المهم أن رفض وشتى الحضور كان فرصة للمشيرين لإزاحتها علَّ أحدهم يصبح صهرا للملك عند اختيار ملكة جديدة. لذلك اتحدوا جميعا ضد «وشتى» وحرَّضوا الملك عليها «فقال أحدهم: ليس إلى الملك وحده أذنبت وشتى الملكة بل إلى جميع الرؤساء وجميع الشعوب الذين فى كل بلدان الملك لأنه سوف يبلغ خبر ما فعلته الملكة إلى جميع النساء حتى يُحتقر أزواجهن فى أعينهن عندما يقال إن الملك إكزركسيس أمر بأن يؤتى بوشتى أمامه فلم تأت. ومثل ذلك احتقار وغضب. فإذا حَسُنَ عند الملك فليخرج أمرٌ ملكى من عنده أن لا تأتى وشتى إلى أمام الملك وليعط الملك مُلكها لمن هى أحسن منها . فيُسمع أمر الملك الذى يخرجه فى كل مملكته فتعطى جميع النساء الوقار لأزواجهن من الكبير إلى الصغير». أى أنهم صوروا له الأمر كأن رفض وشتى أمر الملك بالحضور أمامه وأمام ضيوفه هو دعوة لكل النساء للتطاول على أزواجهن إذا لم يؤخذ إجراء حازم فى هذا الأمر. فأمر الملك بعزل «وشتى». وحتى لا يعود الملك فى أمره حرَّضوه على أن يكون عزلها (أى طلاقها) بأمر ملكى يُسجَّل فى السجلات الملكية الأمر الذى يجعله غير قابل للتغيير أو فعل ما يتعارض معه. «وأرسل كتبا إلى كل بلدان الملك إلى كل بلاد حسب لغتها وإلى كل شعب حسب لسانه ليكون كل رجل متسلط فى بيته».

حملة إكزركسيس الأول فى اليونان :

قد يظن البعض أن هذه تفاصيل تاريخية كان يجمل التجاوز عنها. ولكن القارىء سيدرك الارتباط الوثيق بين نتائج هذه الحملة ومستقبل اليهود فى بلاد فارس وكيف استغل اليهود الموقف لصالحهم كما سيأتى تفصيله فيما بعد.

كان الجيش قد تجهَّز. وكان جيشا عظيما كما وصفه هيرودوت إذ يقول: «فأى شعب لم يخرج به إكزركسيس من آسيا على اليونان؟ وأى ماء لم ينضب حين ينهال عليه جيشه شربا اللهم إلا الأنهار العظيمة دون سواها! لقد كان بعض هذه الشعوب يزوده بالسفن. كما كان بعضها مكلَّفا بالخدمة فى الجيش البرى. وكان على بعضها أن يقدم سفنا تحمل الخيل. وأَمَر آخرين بتقديم سفن حربية للجسور. وأمر آخرين بتقديم سفن محملة بالمؤن. وكثيرون أُمِروا بالاشتغال فى الحملة نفسها. ويرى هيرودوت أن الجيش كان يتألف من ١,٧٠٠,٠٠٠ جنديا. لكن كثيرا من المؤرخين يفضلون حذف صفر من اليمين. وحتى بعد هذا فإن جيشا من ١٧٠,٠٠٠ جنديا - فى ذلك الوقت - لهو جيش ضخم جدا.

كانت الحملة (شكل ٨٣) برية وبحرية. فسار بجيشه إلى الدردنيل فى حين أن مضيق البسفور أقل اتساعًا وأسهل فى عبوره ولكن إكزركسيس اختار **مضيق الدردنيل** لأن العدو لا يتوقع العبور عنده ولذلك فإن دفاعاته أقل تحصينا. وليتمكن هذا الجيش الكبير من عبور المضيق أمر الملك بإقامة جسرين أحدهما مؤلف من ٣٦٠ سفينة مشدودة بعضها إلى بعض والثانى من ٣١٤ سفينة وقد وضعت مراسيها على نحو بارع لكى تقاوم الرياح وتيارات المياه ومُدَّت فوقها العوارض الخشبية. واستطاع الجيش والخيل العبور إلى الضفة الأخرى. وكان الأسطول يسير بحذاء الساحل من رأس إلى رأس إلا أن عاصفة هوجاء أغرقت ٤٠٠ سفينة بينها الكثير من حاملات المؤن. فعاقب إكزركسيس البحر بجلد مياهه ٣٠٠ جلدة وبإلقاء زوج من الأغلال فيه واستمر فى سيره. وكان الإغريق قد توحَّدوا فى جيش واحد وينتظرون فى وادى تمبى شمال جبل أوليمبوس. ولكنهم بعد ذلك قرروا التراجع إلى ما وراء سهل تساليا حيث توجد هناك هضبة مرتفعة لا تترك إلا ممرا ضيقا بينها وبين الشاطىء لا يتسع إلا لمركبة واحدة ويسمى **ممر ثرموبلاى** Thermopylae. وسقط **سهل تساليا** فى أيدى الفرس بدون أى مقاومة. إلا أن الإغريق المتحكمين فى الممر استطاعوا مجابهة جيش الفرس وتعويقه ٣ أيام كاملة وأنزلوا به خسائر فادحة. ولكن أحد رجال الجبال الخونة دلَّ الجيش الفارسى على طريق فوق الجبل عبرته كتيبة فارسية فأصبحوا فى مؤخرة جيش الإغريق. وهنا تجلت شجاعة فرقة مكونة من ٣٠٠ من الاسبرطيين و ٧٠٠ من التسبيين و ٤٠٠ من الطيبيين تمكنوا من تعويق تقدم الجيش الفارسى ليوم كامل تمكن فيه جيش الإغريق من التقهقر بكامل سلاحه. وأبدى أفراد هذه الفرقة ضروبا خارقة من الشجاعة إذ كان الفرس يهاجمونهم من الأمام ومن الخلف ولكنهم



شكل ٨٣ – حملة إكزركسيس فى بلاد اليونان .

ظلوا متشبثين بالمر يعوقون تقدم الجزء الأكبر من جيش الفرس حتى أبيدوا عن آخرهم. عندئذ أخذت مركبات وفرسان الجيش الفارسى فى التقدم ببطء عبر الممر متقدمة نحو أثينا . وفى نفس الوقت كانت تدور فى البحر معركة بحرية. وبالرغم مما أصاب الأسطول الفارسى من خسائر نتيجة جهل بحارته بالصخور البحرية المنتشرة فى الخلجان اليونانية إلا أن كثرة عدد سفنه أجبرت الأسطول اليونانى على التراجع. وتقدم الأسطول الفارسى فى مضيق سلاميس صوب أثينا ليطبق عليها من البحر بينما يتجه نحوها الجيش ليطبق عليها من البر. ولجأ الإغريق إلى أسلوب التصادم. فكانت سفنهم تعمد إلى الاصطدام بالسفن الفارسية بكل قوة فتثقبها وتغرقها أو تكسر المجاديف فى إحدى جوانبها فتصبح السفينة بعد ذلك فريسه سهلة لا تقوى على المناورة أو الهرب. وحوصر الأسطول الفارسى واصطكّت سفنه بعضها ببعض مما زاد الخسائر. وكانت الريح تدفع السفن فتصطدم بالصخور لجهل بحارتها بجغرافية المنطقة. كان إكزركسيس يقف فوق جبل عالٍ يشرف على الخليج ليتابع المعركة ورأى سفن أسطوله بين غارقة أو هاربة. بينما الأسطول الإغريقى يتماسك ويقوم بالهجمة تلو الهجمة. واستطاع ما تبقى من الأسطول الفارسى التراجع إلى تساليا. وتراجع الجيش البرى أيضا إذ لم يجد المساعدة المتوقعة من الأسطول والذى كان مفروضا أن جنوده ستطبق على أثينا من الجنوب. وخشى إكزركسيس أن يلجأ الإغريق إلى تدمير جسر القوارب المقام عبر مضيق الدردنيل فترك معظم جيشه فى تساليا يقوده أحد الضباط وأسرع هو إلى الدردنيل. وكانت الرياح قد أطاحت بجزء كبير من الجسر فحملته السفن هو ومن معه من الجنود إلى البر الشرقى ثم تابع سيره إلى ساردیس. وظل الجزء الأكبر من الجيش فى تساليا سنة كاملة يدافع عن نفسه ويساندهم ماتبقى من الأسطول. ثم دارت معركة كبيرة هُزِم فيها الفرس شر هزيمة وتراجعوا محاولين عبور المضيق سباحة أو على ظهر السفن. وعاد من نجحوا فى عبور المضيق إلى ساردیس فى آسيا الصغرى ثم إلى سوسة العاصمة وانتهت الحملة بالفشل الذريع إذ لم يضم أى أرض جديدة. بل وتحررت المدن الإغريقية الموجودة على الساحل الغربى لآسيا الصغرى. ومما يعتبر تعزية للفرس هو أن الإغريق حاولوا الاستيلاء على قبرص فلم يفلحوا . كما أنهم ساندوا ثورة شبت فى مصر ضد الحكم الفارسى ولكنهم فشلوا أيضا . واستمرت قبرص ومصر تحت الحكم الفارسى.

اليهود يستغلون الظروف لصالحهم

عاد إكزركسيس إلى عاصمة مُلكه وكان عنده مشكلتان :

١ - **فراغ عاطفى** . إذ هو قد طلَّق الملكة «وشتى» قبل البدء فى حملة اليونان وقد انتهت هذه المشكلة بأن أصبحت أستير اليهودية ملكة لفارس.

٢ – خواء الخزانة من النقود : بسبب تكاليف هذه الحملة ونتج عن ذلك أن دبَّر الوزير هامان مؤامرة لإعدام اليهود ومصادرة أموالهم ليسد عجز ميزانية الدولة ولكنهم ردُّوا كيده وتسببوا في إعدامه هو وكل من تآمر عليهم.

١ – أستير Esther :

يبدو أن إكزركسيس بدأ يفكر في إعادة «وشتى» كزوجة وملكة ولكن مستشاريه الذين أفتوا بعزلها خافوا من انتقامها لو عادت. لذلك اقترحوا بأن يأتوا إلى الملك بفتيات عذارى حسناوات من أي مكان في المملكة والتي تنال القبول لديه يتزوجها ويجعلها ملكة بصرف النظر عن عائلتها. وكان في القصر رجل يهودي اسمه «مردخاي Mordecai» من أفراد السبي البابلي وكان في حِجره ابنة عم صغيرة تولى تربيتها بعد وفاة والديها واسمها «أستير» وكانت جميلة جدا تأسر قلب كل من ينظر إليها. فأدخلها ضمن الفتيات اللائي سيستعرضهن الملك بعد أن أخفى صلته بها ونبَّه عليها بعدم إعلان جنسيتها اليهودية. ولما أدخلت على الملك أعجب بها جداً وكما تقول التوراة (أستير ٢:١٧): «ووضع تاج المُلك على رأسها وملَّكها مكان «وشتى» وعمل الملك وليمة عظيمة لجميع رؤسائه وعبيده وأعطى الشعب عطلة ووزع العطايا والهدايا».

ولأمر ما غضب الملك على اثنين من حراسه الخصوصيين وخافا انتقام الملك منهما فجلسا يرتبان مؤامرة لقتل الملك وتصادف أن كان مردخاي في حجرة قريبة فسمع بمؤامرتهما دون أن يشعرا فأخبر أستير لتُحذِّر الملك. مما يدبِّران. فأخبرت أستير الملك بالمؤامرة كما أخبرته بأن مردخاي – الموظف في القصر – هو الذي اكتشف المؤامرة. وفحص الملك الأمر وتحقق من صحته وصلب الحارسان جزاءً على خيانتهما وكتب ذلك في سجلات القصر الملكية. وبالطبع زادت مكانة أستير لدى الملك. وكذلك زاد تقديره لمردخاي وخاصة أنه لم يطلب أي مقابل نظير كشف المؤامرة.

٢ – العجز المالي للدولة :

تكبدت الحملة على اليونان أموالا طائلة ولم تأت بغنائم – كما كان مأمولا – تعوِّض ما أنفق عليها فحدث عجز مالي في خزانة الدولة. وهنا تفتق ذهن «هامان» رئيس الوزراء عن وسيلة يسد بها هذا العجز. وكانت الوسيلة هي إعدام جميع اليهود الموجودين في المملكة ومصادرة أموالهم. وكانت كراهية هامان لليهود تنبع من أنه لاحظ نشاطهم في التجارة ومهارتهم في اكتساب ثقة الناس وبالتالي نجاحهم في جمع النقود حتى أصبحوا يملكون الضياع والقصور. سبب آخر. هو أن هامان كان هنده نزعة تعالٍ ففرض على جميع من يعملون في القصر السجود له عند مقابلته. ولكن مردخاي لم يسجد له ولما سُئل أجاب بأنه يهودي ولا يسجد إلا ليهوه إلهه وإله إسرائيل. هنا استشاط هامان غضبا وفكر في الانتقام من جميع اليهود في المملكة فراح

يحرِّض الملك ضدهم ويغريه بأنه يتعهد بأن يقدم له ١٠,٠٠٠ وزنة من الفضة (الوزنة = ٤٥ كيلو جراما) من مصادرة ممتلكات اليهود بعد إبادتهم وهو مبلغ كفيل بإصلاح العجز فى الميزانية. وتقول التوراة (أستير ٣:١١) «فنزع الملك خاتمه من يده وأعطاه لهامان عدو اليهود. وقال الملك لهامان: الفضة قد أعطيت لك (لخزانة الدولة) والشعب أيضا لتفعل به ما يحسن فى عينيك. فحضر الكُتَّاب وأملى عليهم هامان أوامر إلى الولاة فى كل أنحاء المملكة لإهلاك وقتل وإبادة جميع اليهود من الغلام إلى الشيخ والأطفال والنساء فى يوم واحد وأن يُسلبوا غنيمتهم». وحُدِّد ذلك اليوم بعد سنة من تاريخ صدور الأمر ليكون مُوحَّدا فى جميع أنحاء المملكة. وكانت الأوامر سرية بُلِّغت إلى الولاة وأُمروا بإبقائها فى طى الكتمان حتى يوم التنفيذ. إلا أن اليهود علموا بها وكانت مناحة عظيمة عند اليهود وصوم وبكاء ونحيب. وأعلن مردخاى الحداد بأن لبس مسحا. ولما علمت أستير بالأمر اغتمَّت غمًّا شديدا وأرسل إليها مردخاى صورة من الأمر وطلب منها أن تبذل قصارى جهدها لدى الملك لإبطاله إنقاذا لليهود. وعملت أستير وليمة عظيمة بمناسبة عيد الفصح. وبالطبع كان الملك على رأس الوليمة ودعت إليها الأمراء وأعيان المملكة وكذلك هامان الذى كان إلى هذه اللحظة يجهل أن أستير يهودية. وظن أن دعوته تكريم له لحسن تدبيره فى تصريف الأمور المالية للمملكة.

ولاحظ الملك على أستير مسحة من الحزن فسألها عما بها. وكعادة الملوك قال لها: «ماهو سؤلك فيُعطى لك. وما هى طلبتك. إلى نصف المملكة تُقضى!» فأخبرته أنها تؤجل سؤلها إلى اليوم التالى.

وفى اليوم السابق للوليمة جاء هامان إلى القصر ومرَّ بمردخاى الذى لم يقم له ولا سجد له كما يفعل غيره من موظفى القصر. فعاد هامان إلى بيته وطلب من عبيده أن يعملوا خشبة وأخبرهم أنه سيطلب من الملك أن يُصلب مردخاى عليها. وعلمت أستير بما يدبره هامان لمردخاى وأرادت أن تؤكد للملك إخلاص مردخاى فأمرت بأن يؤتى بسجلات القصر الملكية ولما راجعها الملك وجد مكتوبا فيها المؤامرة التى كان الحارسان قد دبَّراها لقتله وأن مردخاى هو الذى كشف المؤامرة وأنه لم يطلب شيئا مقابل كشف المؤامرة. كما أن رئيس الوزراء لم يكافئه بشيىء. عندئذ أدرك الملك تحامل هامان على مردخاى بدون وجه حق وقرر أن يسخر قليلا من هامان وأن يكرهه على تكريم مردخاى. وقبل الوليمة استدعى الملك هامان وسأله: ماذا يُعمل لرجل يُسَرُّ الملك بأن يكرمه؟ وظن هامان أن الملك يقصده هو نفسه بهذا السؤال فقال: إنهم يأتون باللباس السلطانى الذى يلبسه الملك وبالفرس الذى يركبه الملك وبتاج الملك الذى يوضع على رأسه فيلبس لباس الملك ويركب فرس الملك ويسيرون به فى ساحة المدينة والمنادون قدامه. فقال الملك لهامان: أسرع وخذ اللباس والفرس كما تكلمت وافعل هكذا لمردخاى اليهودى الجالس فى باب الملك. لا يسقط شيىء من جميع ما قُلتَهُ.

وفى أثناء الوليمة التى عملتها أستير – وكان هامان ضمن من دُعُوا من رجال الدولة – سألها الملك مرة ثانية: «ما هو سؤلك يا أستير الملكة فيعطى لك. وما هى طلبتك ولو إلى نصف المملكة تُقضى!» فأطلعته على الأمر الصادر من هامان بإبادة شعبها – اليهود – كلهم ومصادرة أموالهم ومختوم بخاتم الملك. وتملَّك الغيظ الملك. وراح هامان يتوسل للملك ولأستير أن يعفُوَا عنه. وأُخبر الملك أن هامان كان قد أعدَّ فى بيته خشبه لصلب مردخاى عليها. فأمر الملك بإحضار الخشبة وصلب هامان عليها. بقى بعد ذلك تخليص اليهود من أمر الإبادة السابق صدوره من هامان وعليه خاتم الملك. ولما كان أى أمر ممهور بخاتم الملك لا يمكن نقضه أو إلغاؤه فقد سلَّم الملك خاتمه – الذى كان عند هامان – إلى مردخاى ليتصرَّف. وتفتَّق ذهن مردخاى عن وسيلة ينقذ بها قومه دون أن ينقض الأمر الملكى السابق. فأصدر أمرا يسمح لليهود أن يدافعوا عن أنفسهم ويهلكوا أعداءهم وختم الأمر بخاتم الملك وأرسله إلى جميع الولاة وحكام الأقاليم الذين شعروا أن اليهود الآن أصبحت لهم حظوة لدى القصر وأن مردخاى نفسه قد أصبح قوة يحسب لها حساب. وتقول التوراة إن ٥٠٠ من رجال القصر الذين كانوا موالين لهامان قد قتلوا. وفى أنحاء المملكة تمكن اليهود من قتل ١٥,٠٠٠ من المشهورين بعدائهم لليهود وإن كان الرقم يختلف من ترجمة إلى أخرى بين ١٠,١٠٧ و ٧٥,٠٠٠. إلاَّ أنهم لم يستولوا على أموالهم بل كانت تؤول إلى خزانة الدولة واحتفل اليهود فى جميع أنحاء المملكة بنجاتهم بأن جعلوا من ١٤ آذار عيدا يسمى «عيد الفوريم» يُقرأ فيه سفر أستير فى الصباح فى حضور النساء والرجال وتُقدم فيه الهدايا.

الجالية اليهودية فى مصر القديمة

كانت مصر – المشهورة بخصبها وغناها واستقرارها السياسى. ولقربها من فلسطين – ملجأً لمن تضيق بهم الحال من اليهود يهاجرون إليها طلبا للأمن والأمان. كما أن مصر كانت دائما تتطلع إلى استعادة نفوذها فى فلسطين إلى ما كان عليه أيام الأسرة ١٨ ، ١٩. لذلك فإن الفراعين كانوا ينتهزون أى فرصة تلوح فى الأفق فيرسلون جيوشهم إلى فلسطين – أو غيرها – لتأييد ملكها أو للوقوف معه أو مع دولة حليفة فى المنطقة ضد عدو مشترك. وفى جميع هذه الحالات كان بعض اليهود ينضمون للجيش المصرى – وخاصة إذا كان قد جاء لنجدتهم – ليحاربوا فى صفوفه – كحلفاء أو كجنود مرتزقة – وكان كثير منهم – بعد انتهاء المعارك – يعودون مع الجيش المصرى إلى مصر فرارا من الأوضاع غير المستقرة فى بلادهم. هذا فضلا عن نزوح بعض الأفراد المدنيين للسبب ذاته. بعضها يكون على شكل هجرة مجموعة صغيرة – وإن كان تكررها يجعل عدد أفرادها فى النهاية كبيرا – والبعض الآخر يأخذ شكل هجرة جماعية فتنزح أعداد كبيرة مرة واحدة. وتكونت من الجميع جالية يهودية فى مصر لعبت فى بعض الأوقات دورا مؤثرا فى سياسة الدولة. ويمكننا إيجاز المراحل التى تمت بها هجرة اليهود إلى مصر – بتسلسلها التاريخى – كما يلى :

١ – **عند استيلاء سرجون الثانى على مملكة إسرائيل الشمالية** عام ٧١٩ ق.م وعقب سقوط السامرة (ص ٣٠٦) والسبى الأشورى لأهلها إلى شمال الفرات فضَّل بعضٌ من بنى إسرائيل الهجرة إلى مصر خوفا من بطش أشور واختاروا مكانا أبعد ما يكون فى جنوب مصر – عند أسوان فى جزيرة إلفانتين – كما تشير إلى ذلك بعض برديات عُثِر عليها هناك فى أوائل القرن الحالى. كما عثر فى تونا الجبل عام ١٩٥٠ على مجموعة أخرى من البرديات تشير إلى وجود جالية يهودية فى الأشمونين ترتبط بجالية إلفانتين بصلة القرابة والنسب.

٢ – يرى البعض أن **منسَّى حين ملك على يهوذا** عام ٦٩٧ ق.م. وبدأ يحيد عن طريق الرب ويعبد الأصنام والكواكب. وحين عارضه إشعياء النبى أمر بقتله (ص ٣٤٣) وقتل أتباعه ففركثير من المؤمنين بـ«يهوه» وهربوا إلى مصر.

٣ – سبق أن ذكرنا (ص ٣٤٣) كيف انتهزت دول الشرق الأدنى القديم **قيام ثورة داخلية على أشور** بانيبال اضطرته للعودة بجيشه إلى بابل لإخمادها فرفعت راية العصيان على

أشور وانتهز طهراقا - ملك مصر النوبى - الفرصة وأرسل جيشا بغرض مناصرة الدول التى ثارت على أشور بالإضافة إلى استعادة بعض النفوذ فى فلسطين. وانضم ملك يهوذا إلى هذا التمرد. ولكن سرعان ماعاد جيش أشور وأخضع سوريا وصيدا وباقى مدن الساحل الفينيقى. وانسحب جيش مصر آخذا معه مَن كانوا قد انضموا إليه من اليهود كفرقة متحالفة أو كجنود مرتزقة ودخل جيش أشور أورشليم وقُبِض على منسى وسيق أسيرا إلى بابل وهرب كثير من أعوانه إلى مصر.

٤ - حينما قام أشور بانيبال بفتح مصر (عام ٦٧٠ ق.م.) جاء ضمن جيشه بعض الجنود المرتزقة من اليهود. ورأى أشوربانيبال عدم عودتهم إلى فلسطين فأسكنهم مع إخوانهم فى أسوان.

٥ - عُيِّن بسمتيك الأول حاكما على الدلتا ومنف من قِبَل أشور بانيبال بينما ظلت باقى مقاطعات مصر يحكمها حكام يتناحرون فيما بينهم - وذلك ما أراده الأشوريون ليظلوا تحت نفوذهم. ولكن بسمتيك عنى بإنشاء جيش قوى اعتمد فى إنشائه على الجنود المرتزقة من الأجانب من يونانيين وليبيين وسوريين وبعض من بنى إسرائيل. وقد أنزل هؤلاء المرتزقة فى معسكرات خاصة بهم أقيمت على الحدود: فى مدينة «ماريا» جنوبى رشيد لتحمى مصر من الغرب وفى مدينة تحفنيس - ٢٠ كم غربى القنطرة - للحماية من الشرق. وفى جزيرة إلفانتين عند أسوان كى تحمى مصر من الجنوب. وكان من حسن تدبير بسمتيك أن جعل الجنود المرتزقة اليهود فى أقصى الجنوب فى إلفانتين إذ أن مصر كانت دائما تتوق إلى استعادة نفوذها فى فلسطين. ولاشك أن وجود جنود يهود فى حامية القنطرة (تحفنيس) قد يجعلهم يقاومون عودة الجيش المصرى إلى فلسطين أو أنهم قد ينضمون إلى إخوتهم فى فلسطين فيكونون قوة تمنع عودة السيطرة المصرية. وكان اختيار جزيرة وسط النيل - جزيرة إلفانتين - لإسكانهم. زيادة فى الحيطة إذ أن انتقالهم إلى الوادى لابد أن يتم بواسطة مراكب وهذا أمر يمكن السيطرة عليه بحيث يمكن التأكد من أن تحركاتهم لن تخرج عما يرسمه الفراعنة لهم. ولاشك أن وجود هؤلاء الجنود فى إلفانتين جعل المدنيين من اليهود اللاجئين إلى مصر يفضلون أسوان على غيرها من المدن لشعورهم بأمان أكثر بجوار جنود من بنى جلدتهم وأصبح اليهود يمتلكون المنازل فى أسوان وإلفانتين ويمارسون التجارة بنشاطهم المعهود وأصبحوا من الأثرياء. وتذكر إحدى الوثائق الآرامية أن أحد أفراد الجالية اليهودية فى أسوان كان يعمل فى خدمته عدد من العمال المصريين.

٦ - لما مات بسمتيك الأول خلفه ابنه نخاو الثانى وقاد حملة لمساندة الأشوريين (ص ٣٦٣) انخرط بعض اليهود فى الجيش المصرى. ووقعت معركة «كركميش» الشهيرة وانهزم الجيش المصرى وعاد إلى بلاده وعاد معه اليهود الذين انخرطوا فى صفوفه وعدد كبير من المدنيين أيضا تخوفا من هجوم بابل المتوقع على بلادهم.

٧ – ذكرنا (ص ٣٦٨) تمرد يهوذا أيام يهوياكين على النفوذ البابلى على وعد بالمؤازرة من مصر. وسار نبوخذنصر وحاصر أورشليم عام ٥٩٧ ق.م. حتى سقطت وتم سبى عدد كبير من اليهود وهو ما يعرف بالسبى الأول. وفر عدد كبير من اليهود إلى مصر.

٨ – فى عام ٥٨٧ ق.م. ثارت يهوذا على بابل بتحريض من أبريس ملك مصر (وهو حفرع فى التوراة) إلاَّ أن مصر كانت فى حالة تفكك وضعف فلم تستطع أن تقدم أى مساعدة لصدقيا ملك يهوذا فقام نبوخذ نصر بحصار أورشليم (ص ٣٧٠) ودخلها بعد أن دمَّر أسوارها وخرب المدينة ودمَّر الهيكل تدميرا تاما وسبى سبيا كثيرا وهى ما يسمى **بالسبى الكبير**. وفتح أبريس صدره لليهود الذين نجوا من السبى البابلى. وكانت تلك الموجه الجديدة هى أكبر الهجرات عددا وجاء ذكرها فى سفر إرميا وفى وثائق إلفانتين الأرامية.

٩ – **بعد قتل جدليا** – الذى عينه نبوخذ نصر واليا على يهوذا (ص ٣٧٣) خاف عدد كبير من اليهود من انتقام البابليين وهربوا إلى مصر. وقالت التوراة عن ذلك (٢ ملوك ٢٥:٢٦) «فخاف جميع الشعب من الصغير إلى الكبير ورؤساء الجيوش وجاءوا إلى مصر لأنهم خافوا من الكلدانيين».

١٠ – يرى البعض أنه فى **عهد الملك بسمتيك الثانى** وخلال حملة على منطقة «خارو» فى جنوب الشام انضم إليه بعض اليهود وعادوا معه إلى مصر ورافقوه فى حملته على حدود دولة نباتا فى الجنوب ثم استقروا مع إخوانهم فى أسوان.

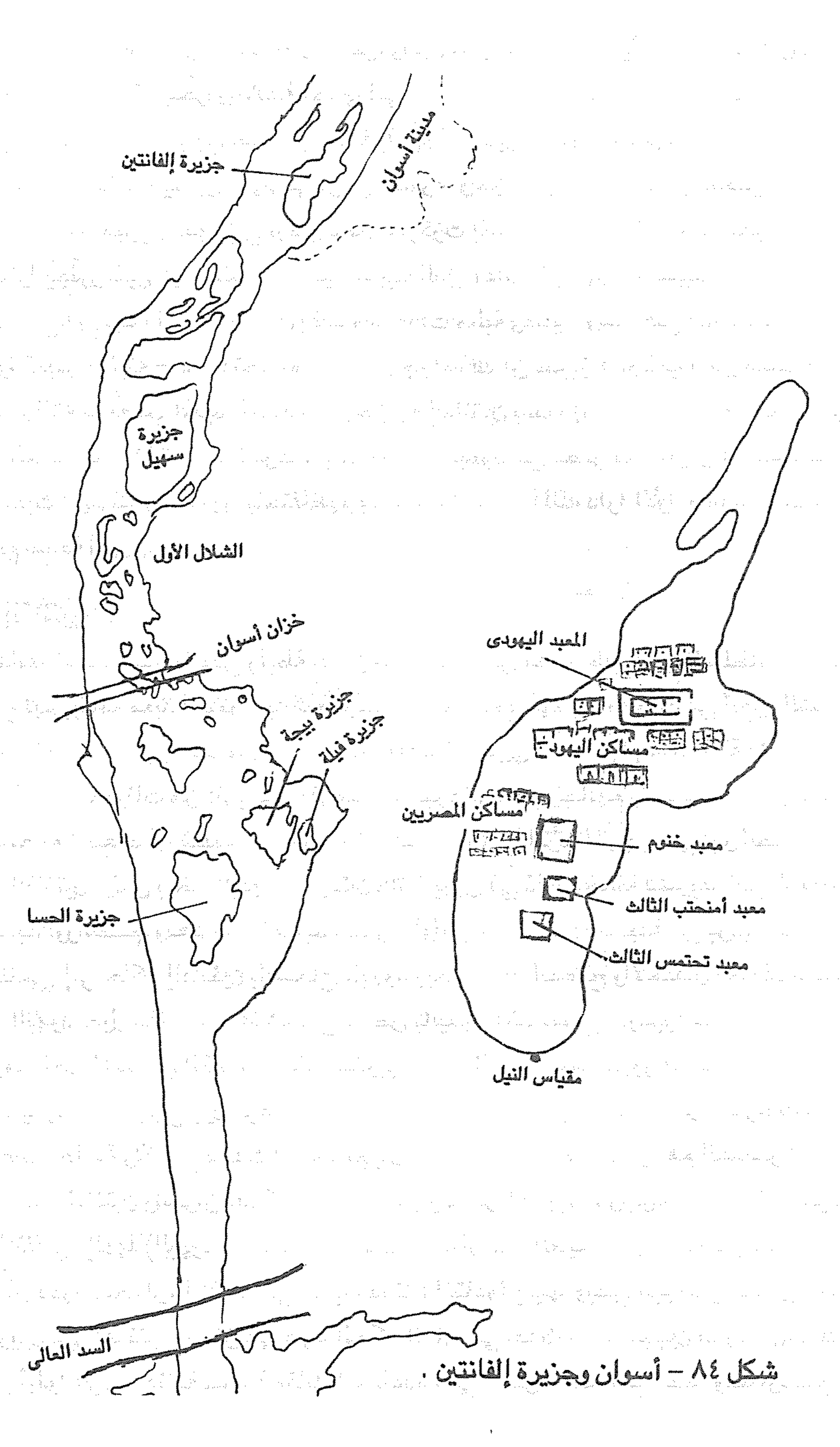
١١ – **فى أواخر عهد خلفه إبريس** كانت حرب مع الليبيين لم يُحسِن التخطيط لها فهُزِم المصريون (ص ٣٧٤) وثار الجنود والتفوا حول قائد هو أمازيس أو أحمس فسار بالجنود – ومعظمهم من المرتزقة الإغريق – إلى الدلتا لقتال أبريس واستولى على الحكم وأعطى الجنود الإغريق امتيازات تجارية كبيرة وأراضى فى منطقة غرب الدلتا إذ كان يحكم من صا الحجر. وظلت الجالية اليهودية والمرتزقة اليهود فى أسوان وجزيرة إلفانتين وصارت لهم اليد العليا بعد أن ارتحل الإغريق إلى الدلتا.

١٢ – عقب **استيلاء الفرس على أورشليم**. وبرغم تحذير إرميا النبى لليهود من الهرب إلى مصر فإن عددا كبيرا من اليهود نزحوا إلى مصر. وجاء فى التوراة (إرميا ٤٤:١) «الكلمة التى صارت إلى إرميا من جهة كل اليهود الساكنين فى أرض مصر. الساكنين فى مجدل (على الحدود الشمالية الشرقية) وتحفنيس (غرب القنطرة) وفى نوف (منف) وفى أرض فتروس (مصر العليا)». وهذا معناه أن الجالية اليهودية كانت منتشرة فى أقاليم كثيرة مع تركيز أكثر فى جزيرة إلفانتين. وحذَّر إرميا اليهود فى أورشليم ويهوذا من النزوح إلى مصر إذ أنهم سيضطرون إلى مجاراة المصريين فى عباداتهم الوثنية وأنهم فى مصر قد يتعرضون – على

المدى الطويل – لخطر الذوبان فى أهل مصر. وأنهم بهجرتهم هذه سيثيرون غضب الرب. قال إرميا (إر ٤٤:٨) «إذ تبخّرون لآلهة أخرى فى أرض مصر. لذلك هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل. هأنذا أجعل وجهى عليكم وآخذ بقية يهوذا الذين جعلوا وجوههم للدخول إلى أرض مصر ليتغرّبوا هناك فيفنون كلهم فى أرض مصر». ولكن اليهود لم يسمعوا لتحذيرات إرميا وزادت أعداد المهاجرين منهم إلى أرض مصر وتركزت إقامتهم فى إلفانتين. وقد سبق أن ذكرنا أنهم كانوا يُجِلُّون كيروش باعتباره «مسيح الرب» الذى أعاد إخوانهم – المسبيين فى بابل – إلى يهوذا وسمح لهم ببناء المعبد والهيكل وقدَّم مساعدات مالية وعينية. وبناء على هذا الشعور فإنهم ساعدوا قمبيز – ابنه – عند فتحة لمصر. وكان جزاء ذلك أن قمبيز هدم كثيرا من معابد الآلهة المصرية ولكنه لم يُصب المعبد اليهودى فى جزيرة إلفانتين بسوء (د. عبد العزيز صالح. الشرق الأدنى القديم. ص ٢٤٣). واستمرت سياسة تقرب اليهود فى مصر من الفرس فى عهد خلفاء قمبيز بحيث أنهم كانوا يعتزون باحتفاظهم بنسخة من تاريخ الملك دارا الأول وعندما بليت كتبوا لأنفسهم نسخة أخرى!

معبد إلفانتين :

كطائفة تعتمد أساسا على رابطة الدين فإن اليهود فى مصر طلبوا من السلطات المصرية السماح لهم بإقامة معبد ليقيموا فيه شعائرهم الدينية وسُمِحَ لهم بإقامة معبد فى الجزء الشمالى من جزيرة إلفانتين غير بعيد من معبد «خنوم» الإله المصرى الرسمى لهذه المنطقة (شكل ٨٤). وجمع اليهود المعونات من أثريائهم وفرضوا له تبرعات على رجالهم ونسائهم وجعلوه صورة متواضعة من معبد أورشليم. ووصفوا الإله «يهوه» بأنه «الرب الموجود فى آبو الحصن» أي حصن إلفانتين. ولكن بعض اليهود المتزمتين كانوا يرون فى ذلك مخالفة للشريعة التى لا تعترف إلا بمعبد أورشليم. وبعد بناء المعبد صدرت أوامر فارسية (مسجَّلة فى بردية بالمتحف البريطانى) إلى حاكم إلفانتين بالسماح لليهود بإحياء عيد الفصح والاحتفال به. وقد تجمعت منازل اليهود حول هذا المعبد فنشأ حى خاص باليهود أخذ يتسع تدريجيا حتى بلغت حدوده مشارف الحى المصرى الذى كان يقع جنوبى معبد اليهود. ومع مرور الوقت قامت علاقات اجتماعية وعلاقات زواج بين اليهود والمصريين. وعُثِر على برديات تحكى عن منازعات عائلية ومنازعات تجارية ولكن لم يحدث أى صدام بين الفريقين. ولم يكن اليهود هم العنصر الأجنبى الوحيد فى إلفانتين وأسوان. إذ كان الجنود المرتزقة من الإغريق موجودين مع بعض الليبيين وكل طائفة لها إلهها (اليهود فى مصر – مصطفى كمال عبد العليم – ص ٩). ولكن الإغريق كما سبق أن ذكرنا فضلوا الإقامة فى غرب الدلتا فانتقلوا إليها وبقى اليهود يعيشون بجوار المصريين فى إلفانتين. ولكن فى عهد الحكم الفارسى حدث الصدام بين الفريقين. ذلك أن الفرس أولوا اليهود عناية خاصة مقابل المساعدة التى قدموها عند فتح مصر ومسارعتهم إلى



شكل ٨٤ – أسوان وجزيرة إلفانتين .

تقديم فروض الولاء للملك الفارسى. وقد وجد الفرس فيهم أداة طيِّعة يمكنهم استخدامها في السيطرة على مصر التى كانت بعيدة عن عاصمة الامبراطورية الفارسية كما أن لديها شعور بذاتية وحضارة عريقة تجعلها تتوق إلى استرجاع استقلالها. ولعل اليهود – وهم فى حماية الفرس – تجاهلوا مشاعر المصريين فقدموا علنا الأضاحى من الكباش وهو رمز مقدس للإله خنوم فى أسوان مما أثار سخط المصريين وإن كتموا ذلك فى نفوسهم. وعندما تعاقبت ثورات المصريين ضد الاحتلال الفارسى لم يشترك فيها اليهود مما أثار حفيظة المصريين عليهم. وحين ثار المصريون على الفرس عقب اعتلاء دارا الثانى العرش (٤٢٤ ق.م.) بقى اليهود على ولائهم للفرس وساهم بعض جنودهم فى إخماد الثورة. وفى عام ٤١٠ ق.م. اندلعت ثورة أخرى ضد الفرس واستُدعِىَ والى مصر الفارسى لمقابلة الملك دارا الثانى فى العاصمة «سوسة» وانتهز المصريون غياب الحاكم الفارسى وقاموا بتدمير المعبد اليهودى فى إلفانتين والذى كان شمالى معبد الإله «خنوم» ولكن الجالية اليهودية لم ينلهم أذى أو اعتداء. ومما هو جدير بالذكر أن الحاكم المحلِّى للإقليم – وهو من الفرس – اشترك مع المصريين فى تدمير المعبد. إذ وجدت بردية بها رسالة منه إلى ابنه يأمره بأن يدمِّر المعبد. ويرى المؤرخون أن المصريين لابد قد استمالوه إلى جانبهم بالهدايا والوعود. ويرى فريق آخر أن بعضا من اليهود المتزمتين قد حرَّضوه من جانب دينى إذ كانوا – كما سبق أن ذكرنا – يؤمنون بأن أى معبد غير معبد أورشليم يعتبر غير قانونى. فكان أن تلاقت الرغبات وتم تدمير المعبد تماما. ومما يساند هذا الافتراض الأخير أنه عندما فزع أحبار معبد إلفانتين إلى الحبر الأعظم فى أورشليم طالبين توسُّطه لدى السلطات الفارسية فى مصر لتأمر بإعادة تشييد المعبد فإنه آثر الصمت ولعله لم يشأ أن يتوسط لإعادة بناء تُحرِّمه الشريعة. فاضطروا إلى الكتابة إلى الحاكم الفارسى ليهوذا وكذلك إلى حاكم السامرة يلتمسون منهما بذل المساعى الحميدة لدى والى مصر الفارسى ليسمح بإعادة بناء المعبد. وقد حمل وفد يهود إلفانتين عند عودتهم رداً من حاكم السامرة الفارسى إلى والى مصر الفارسى عبارة عن رسالة تتضمَّن النقاط التالية:

١ – أنه لما كان المعبد قد أنشىء قبل قدوم قمبيز إلى مصر فإن المصريين لا يستطيعون الزعم بأن الفرس هم الذين سمحوا بإقامته.

٢ – يُعتبر الحاكم المحلى الفارسى هو المسئول عن تدمير المعبد حيث كان موجودا ولم يتخذ إجراء لحمايته.

٣ – ضرورة إعادة بناء المعبد.

٤ – عند إعادة بناء المعبد يُكتفى بتقديم البخور وعدم ذبح الحيوانات التى يقدسها المصريون من كباش وأغنام وثيران.

وقد عُرض على اليهود بناء المعبد فى مكان آخر بعيداً عن معبد خنوم ولكن اليهود رفضوا وأصرُّوا على بنائه فى نفس المكان.

وبعد وفاة دارا الثانى تولى الحكم أرتاكزركسيس الثانى وكانت الثورة ضد الحكم الفارسى لاتزال قائمة وحصل اليهود على وعد ثان بإقامة المعبد مقابل المساعدة فى إخماد الثورة فأسرعوا بإعادة بناء المعبد بصورة جزئية. إلا أن الثورة استمرت وتمكنت مصر من تحرير نفسها من حكم الفرس عام ٤٠٤ ق.م. وكوَّن «آمون حر» أحد مواطنى «سايس - صا الحجر» الأسرة ٢٨ ودام حكمه ست سنوات (٤٠٤ - ٣٩٨ ق.م.) ولكن حكمه لم يمتد ليشمل مصر العليا. وكانت الجالية اليهودية لاتزال تعترف بالحكم الفارسى معلِّلين النفس بأن الفرس سرعان ما يخمدوا الثورة. ولكن ذلك لم يحدث واضطر اليهود آخر الأمر لإظهار ولائهم للملك المصرى.

ثم تربع على عرش مصر الملك «نايف عارور الأول = نفريتس الأول» مؤسسا الأسرة ٢٩ وأصله من منديس (تل الربع - شرق الدلتا. جنوب المنصورة). وكانت منديس هى مركز عبادة الإله الكبش. وكان طبيعيا أن تُولى هذه الأسرة اهتمامها إلى الإله الكبش «خنوم» فى إلفانتين مما أكسب كهنته قوة ونفوذا كانا نذيرا بخطر جسيم على اليهود إذ تُرك اليهود تحت رحمة المصريين. وراح كهنة خنوم يُنفِّسون عن غضبهم على اليهود فتم تدمير ماكان قد بُدِئَ بناؤه من المعبد. وبدأ اليهود يهاجرون من أسوان وإلفانتين. وعندما تولت حكم مصر الأسرة ٣٠ السمنودية (عام ٣٧٨ ق.م.) استمر قلق الجالية اليهودية. ولما أعاد ملوك فارس فتح مصر عام ٣٤٢ ق.م. راود الجالية اليهودية الأمل فى بعض الاستقرار ولكن حكم الفرس لمصر لم يدم طويلا إذ سرعان ماجاء الإسكندر الأكبر وفتح مصر عام ٣٣٠ ق.م. وبقيت الجالية اليهودية مشتتة ومستكينة إلى أن استعادوا بعض كيانهم فى عصر البطالمة.

والآن لنترك الجالية اليهودية فى مصر ونعود إلى اليهود الباقين فى بابل والمدن الأخرى فى فارس بعد عودة الفوج الأول من السبى إلى يهوذا وأورشليم بقيادة زربابل (ص ٤١٤). وكنا قد توقفنا - ص ٤٩٣ - عند إنقاذ إستير لليهود من المؤامرة التى كان هامان قد دبرها لإبادتهم ومصادرة أموالهم.

الفصل الحادى والعشرون :

عودة الفوج الثانى وأنبياؤه ونهاية الفرس

فى ظل وجود إستيراليهودية زوجة لإكزركسيس وملكة لفارس. ووجودمردخاى مستشارا للملك وحامل ختم الدولة شعر اليهود بالإطمئنان ونزح كثير منهم إلى العاصمة «سوسة» ومارسوا التجارة على نطاق واسع وبدا أنهم أصبحوا يسيطرون على فارس سياسيا واقتصاديا. ولم يعجب الأمراء ورجال البلاط الفارسى هذا الوضع وقُتِل إكزركسيس فى قصره (عام ٤٦٦ ق.م.) وتولى بعده أرتاكزركسيس. واستشعراليهود أن الظروف السياسية قد بدأت تتغير فى غير صالحهم فكانت عودة الفوج الثانى من اليهود إلى فلسطين يقودهم «عزرا» الكاهن. ورحب الملك الفارسى الجديد ورجال البلاط بهذه العودة وشجعوها.

عَـزْرَا Ezra .

ذكرت التوراة (عزرا ٧ : ١) نسب عزرا الكاهن وأنه ينتهى إلى فينحاس بن ألعازار بن هارون عليه السلام وقالت عنه أيضا: «وهو كاتب ماهر فى شريعة موسى التى أعطاها الرب إله إسرائيل. لأن عزرا هيَّأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها وليعلِّم إسرائيل فريضة وقضاء». وقد نقل عنهم مفسرو القرآن الكريم (تفسير القرطبى للآية ٣٠ من سورة التوبة) فذكروا أنه كان أحفظ الناس لتوراة موسى يتلوها عن ظهر قلب أيام سبيهم فى بابل. فلما عاد بهم إلى أورشليم طابقوا كتابته على نسخة عثروا عليها تحت أطلال الهيكل الذى خرَّبه البابليون فوجدوا كتابته مطابقة لتلك النسخة فافتتنوا به. ليس فى التوراة ما يفيد أن اليهود فى ذلك الوقت زادوا عن وصفه بأنه «أحفظ الناس لتوراة موسى» ولكن يهود الجزيرة العربية فيما بعد - تمثلا بما قاله النصارى من أن المسيح ابن الله - ادعوا بأن عزرا أو عزير ابن الله. وقد نعى القرآن الكريم عليهم هذين الإدعاءين: **«وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله»** (٣٠-التوبة).

عزرا أم عُزير ؟

«عزرا» اسم عبرى معناه «عون» وهو اختصار لاسم «عزريا» (قاموس الكتاب المقدس ص ٦٢١). وقد استنكر المستشرقون ورود اسمه فى القرآن الكريم «عُزير» ظانين أنها بصيغة

التصغير لاسم عِزْرا . ويرد الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن الكريم. جـ ٢ . ص ٢٠٩) مصححًا فيقول إن اسم الفاعل من فعل «عزر» هو «عُزِير» مضمومة العين مكسورة الزاى بعدها ياء إمالة وعلى هذا النحو كان ينطقها يهود يثرب فجاء القرآن الكريم باسم «عُزَيْر» تعريبا لاسم «عُزِير» بياء الإمالة وليس تصغيرا لعزرا كما يدَّعى المستشرقون.

عودة الفوج الثانى من السبى :

أصدر أرتاكزركسيس أمرا هذا نصه (عزرا ٧ : ١٢): «من أرتحشتا (أرتاكزركسيس) ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء الكامل إلى آخره. قد صدر منى أمر أن كل من أراد فى ملكى من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى أورشليم معك فليرجع من أجل أنك مُرسل من قِبَل الملك ومشيريه السبعة لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم حسب شريعة الرب إلهك التى بيدك ولحمل فضة وذهب تبرع به الملك ومشيريه لإله إسرائيل. وكل الذهب والفضة من تبرعات الشعب والكهنة المتبرعون لبيت إلههم لكى تشترى بهذه الفضة والذهب ثيرانا وكباشا وخرافا وتقربها على المذبح. ومهما حَسُنَ عندك وعند إخوتك أن تعملوه بباقى الفضة والذهب فحسب إرادة إلهكم تعملونه. ومنى أنا أرتحشتا الملك صدر أمر إلى كل الخزنة الذين فى عبر النهر (أى فى فلسطين) أن كل ما يطلبه منكم عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء فليُعمل بسرعة إلى ١٠٠ وزنة من الفضة و ١٠٠ كر من الحنطة و ١٠٠ بث من الخمر و ١٠٠ بث من الزيت (البث = ٢٢,٩٩ لترا والكر ١٠ أبثاث أى شوال كبير تقريبا). والملح من دون تقييد. كل ما أمر به إله السماء فليعمل باجتهاد لبيت إله السماء لأنه لماذا يكون غضب على مُلكِ المَلِك وبنيه. ونعلمكم أن جميع الكهنة واللاويين والمغنيين وخدَّام بيت الله هذا لا يؤذن أن يُلقى عليهم جزية أو خراج».

كان «عزرا» أو «عزير» موظفا فى بلاط فارس أيام الملك أرتاكزركسيس ومشتسارا لشئون الطائفة اليهودية. وقد تمكن – لثقة الملك فيه – من أخذ موافقته على عودة الفوج الثانى من يهود السبى إلى أورشليم حاملين معهم ما شاءوا من مال. وأمرا إلى الوالى هناك بتقديم معونة باسم الملك للمساهمة فى بناء البيت. ويلاحظ أن أمر الملك يشير إلى إله بنى إسرائيل بكل توقير وتعظيم وأنه «إله السماء» وهو يخشى غضبه مما يكاد يصل إلى حد الإيمان به وإن لم يعلنه صراحة. وتمكن عزرا أيضا من أخذ موافقة الملك على السماح لليهود بما يشبه الحكم الذاتى فى مقاطعة «يهوديا» فى فلسطين حتى يمكنهم إقامة مجتمعهم على التقاليد العبرانية أما فى علاقاتهم الخارجية والسياسة فهم يخضعون للفرس ويقدمون الجزية. وكانت عودة الفوج الثانى عام ٤٥٩ ق.م. وبلغ عدد العائدين ١٤٩٦ أو ١٦٩٠ فردا منهم عدد من الكهنة و ٣٨ لاويًا و ٢٢٠ من خُدَّام المعبد. وحمل عزرا معه مالا وكنوزا وفيرة ومجوهرات من اليهود

الذين بقوا فى سوسة وبابل. وحمل معه هدايا مقدمة من رجال البلاط الفارسى مشاركة فى تأثيث بيت الرب فى أورشليم وعُيِّن عزرا قاضيا لأورشليم ومقاطعة يهوديا (شكل ٨٥) كما صُرِّح له بأن يعين فيهما من يشاء من القضاة للحكم فى المنازعات.

وجه عزرا بعد عودته اهتماما خاصا للشئون الدينية وتطبيق شريعة الرب وعمل على محاربة زواج اليهود من أجنبيات إذ تقدم إليه الرؤساء يشكون من تفشِّى هذا الأمر وكما قالوا (عزرا ٩:٣) «واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضى» حتى أن بعض الرؤساء والولاة كانوا متزوجين من أجنبيات. وكعادة تلك الأيام فى التعبير عن الحزن الشديد فإن عزرا مزَّق ثيابه ورداءه ولم يكتف بحلق رأسه وذقنه بل تقول التوراة إنه «نتفهما!». فاجتمع إليه الرؤساء فذكرَّهم بتعاليم الشريعة القائلة: «والآن لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم». ودعا عزرا جميع الشعب إلى اجتماع عام فى ساحة أورشليم وعملوا حصرا لأسماء المتزوجين من أجنبيات ثم أمرهم بتطليقهن وتقريب كباش وغنم تكفيرا عن خطيتهم. ففعلوا كما أمرهم.

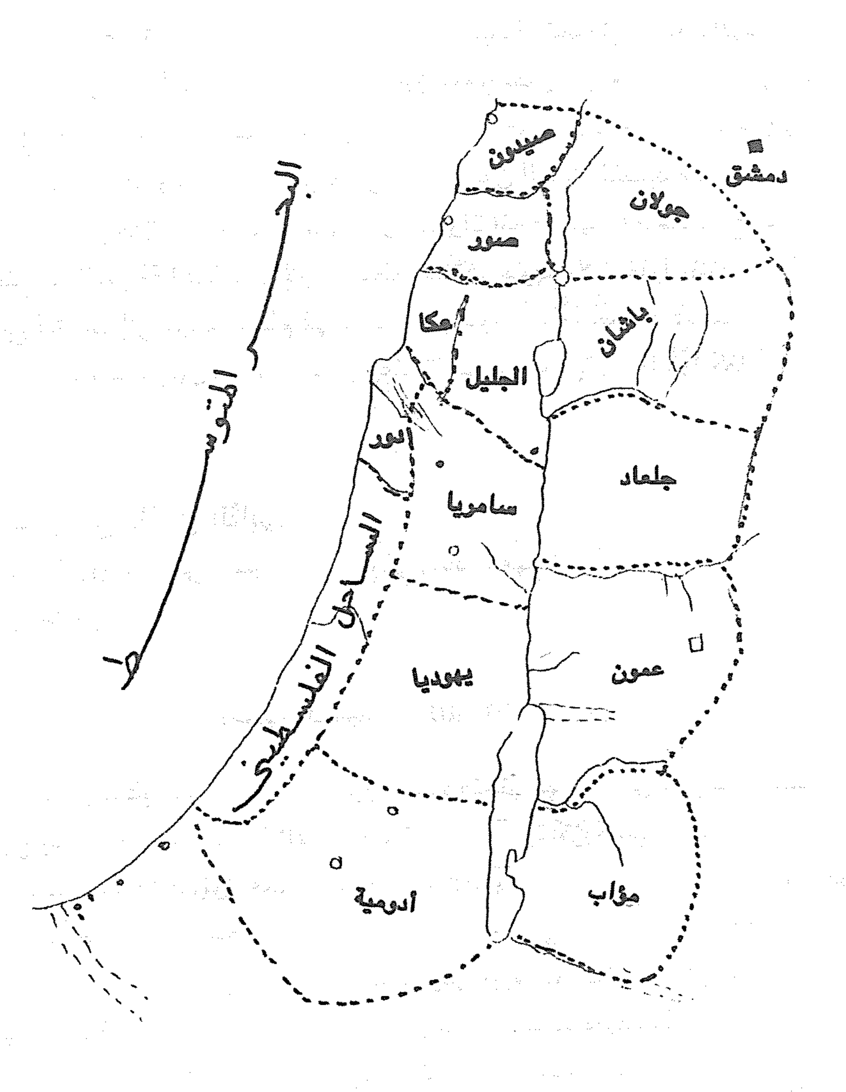
أنبياء عادوا مع الفوج الثانى :

ظهر فى اليهود وهم فى أرض فارس نبيان وعادا معهم إلى أورشليم. هذان النبيان هما: «نحميا» و «ملاخى».

النبى نحميا Nehmiah

هو نحميا بن حكليا . ونحميا اسم عبرى معناه «تحنَّن يهوه». وهو من يهود السبى ولد فى بابل ونزح إلى «سوسة» عاصمة الفرس واختاره الملك أرتاكزركسيس ساقيا له وهى ظيفة عظيمة لا يُختار لها إلا الموثوق فيهم والمعروف إخلاصهم. واهتم بأمر اليهود وخاصة من بقى منهم فى فلسطين. يقول (نحميا ١ :٢): «جاء إلىَّ «حنانى» واحد من أصحابى ورجال من يهوذا فسألتهم عن اليهود الذين بقوا من السبى وعن أورشليم. فقالوا لى إن الباقين الذين بقوا من السبى هناك فى البلاد فى شر عظيم وعار. وسور أورشليم منهدم وأبوابها محروقة بالنار». فلما سمع نحميا هذا الكلام بكى وصام وصلَّى لله وأخذ يتضرَّع إلى الله وختم ضراعته بقوله: «يا سيد. لتكن أذنك مصغية إلى صلاة عبدك وصلاة عبيدك الذين يريدون مخافة اسمك. وأعطِ النجاح اليوم لعبدك وامنحه رحمة أمام هذا الرجل. لأنى كنت ساقيا للملك».

ولاحظ الملك أرتاكزركسيس حزن نحميا واكتئابه فسأله عن السبب فأخبره ما علمه من سوء حالة أورشليم. ورجا الملك أن يرسله إلى أورشليم لكى يعيد بناءها . فوافق الملك. فطلب



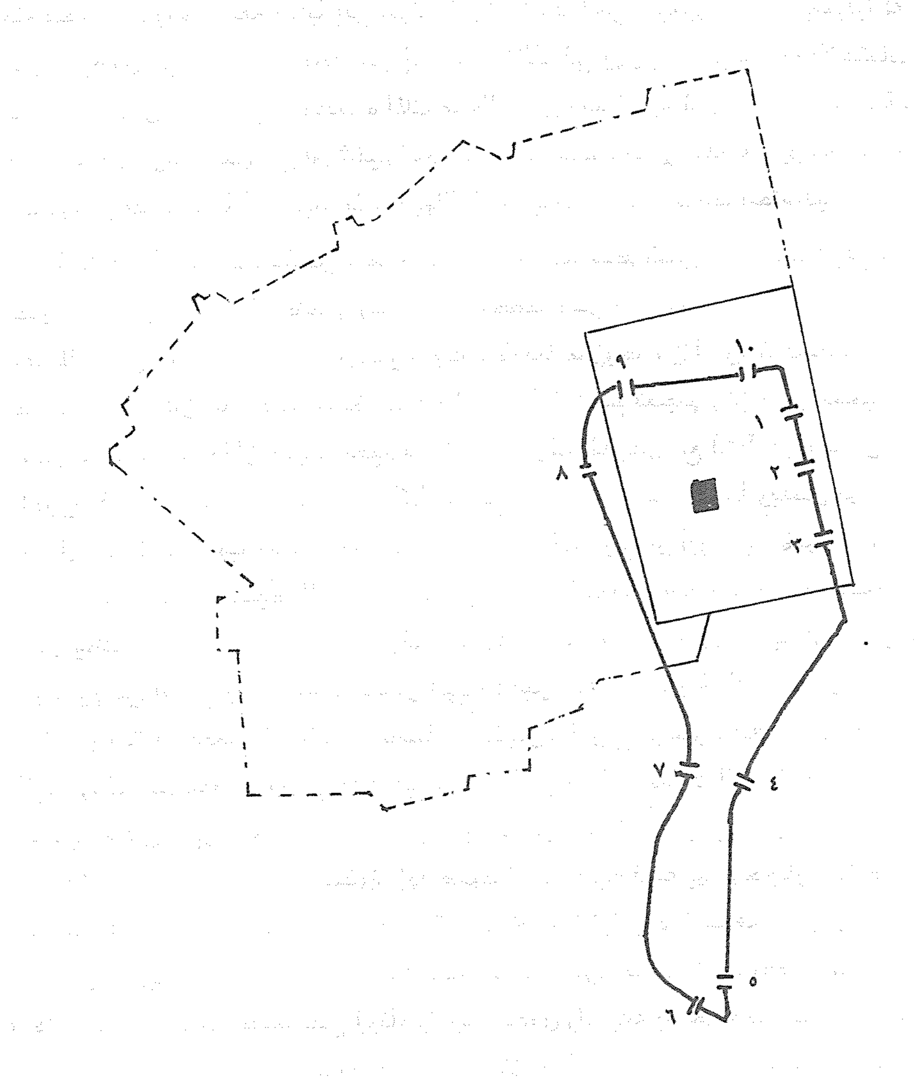
شكل ٨٥ – الأقسام الإدارية لفلسطين أثناء الحكم الفارسى .

منه نحميا أن يرسل معه كتابا إلى الولاة فى الولايات التى سيعبرها حتى يُسهِّلوا له الطريق إلى أن يصل إلى يهوديا. وكتابا آخر إلى نائب الملك فى يهوديا حتى يعطيه الأخشاب اللازمة لسقف البيت ولسور المدينة. فأعطاه الملك ما طلب من رسائل وعيَّنه واليا على مقاطعة «يهوديا» فى فلسطين. ولما وصل إلى أورشليم قام وحده ليلا بتفقد سور المدينة وأبوابه لمعرفة ما يلزم لإعماره. ولعله لم يشأ أن يحيط مَقْدَمه بهالة كبيرة حتى لا يثير سخط الحاسدين.

وكان فى أورشيلم شخص عظيم النفوذ هو «سنبلط الحوروني» نسبة إلى بلدة «بيت حورون» لا يريد الخير لأورشليم. وضمَّ إليه شخصا آخر هو «طوبيا» وهو عبد عمونى. فتعاونا معا لمقاومة إعادة بناء أسوار أورشليم. وكان طوبيا متزوجا من أسرة ذات جاه فصار رئيس جماعة قوية وكان على صلة ببعض نبلاء اليهود الذين لم يعجبهم أن يعيِّن نحميا واليا على «يهوديا» وعليهم. وكان طوبيا يقيم فى إحدى غرف الهيكل مع أنه ليس بكاهن ولا هو من اللاويين فقام نحميا بطرده منها. وهكذا اجتمع الحاقدان وعشيرتاهما وبعض من نبلاء اليهود للعمل معا ضد نحميا ومشاريعه التى يريد بها إعادة إزدهار أورشليم. تقول التوراة (نحميا ٢:١٠): «ولما سمع سنبلَّط الحورونى وطوبيا العبد العمونى ساءهما إساءة عظيمة لأنه جاء رجل يطلب خيرا لبنى إسرائيل». وخوفا من دسائسهما فقد رأى نحميا أن ينجز بناء سور أورشليم فى أسرع وقت. فقسَّم السور إلى ٥٠ جزءا وأعطى جزءا لكل بيت من بيوتات اليهود ليبنيه. واشترك الجميع فى البناء: الصناع والتجار والزراع. وشارك اللاويون والكهنة أيضا فى البناء وبذلك تم بناء السور فى وقت قياسى – ٥٢ يوما كما ذكرت التوراة – وأثناء بناء السور وتحديد مكان الأبواب كان سنبلَّط وطوبيا وعدد من أهل السامرة يهزأون بمن يبنون ويوهنون فى عزائمهم بقولهم «إن ما يبنونه إذا صعد ثعلب عليه فإنه يهدم حجارة حائطهم!». فدعا نحميا الله قائلا: «اسمع يا إلهنا لأننا قد صرنا احتقارا وردَّ تعبيرهم على رؤوسهم واجعلهم نَهباً فى الأرض. ولا تستر ذنوبهم ولا تمح خطيتهم من أمامك لأنهم أغضبوك أمام البنائين». وكان نحميا يشرف بنفسه على البناء وتوزيع العمل ولم يأبه بسخرية سنبلط وطوبيا. وأقام من وراء البنائين حراسا ومعهم رماح ودروع ليلا ونهارا لحمايتهم أثناء البناء وحتى لا يهدم المعارضون ليلا ما يبنونه نهاراً. واكتمل السور وكان له عشرة أبواب (شكل ٨٦) منها أبواب كبيرة وهذه عليها حراسة من الجنود تمنع دخول العدو أو من يشتبه فى كونهم جواسيس للعدو. وأبواب صغيرة لتسهيل مرور الناس دخولا للمدينة أو خروجا منها لقضاء مصالحهم.

المكائد ضد نحميا :

١ – لما اكتمل بناء السور وإن كانت الأبواب لم تركَّب بعد . تكاتف أعداء نحميا لمحاولة النَيْل منه فأرسلوا له رسالة يطلبون منه أن يلاقيهم عند بلدة «أونو» وهى تقع ٣٢كم شمال



شكل ٨٦ – أورشليم القديمة .

——— سور أورشليم الذى بناه نحميا .

- - - - حدود القدس القديمة .

١ – باب التفتيش .	٦ – باب القمامة .
٢ – البوابة الشرقية .	٧ – بوابة الوادى .
٣ – باب الأحصنة .	٨ – الباب القديم .
٤ – باب المياه .	٩ – باب السمك .
٥ – باب النافورة .	١٠ – باب الغنم .

أورشليم وكان السبب الذى أبدوه هو الرغبة فى التفاهم والتصالح. وكان يمكن أن يُقتل نحميا أو يُخطف لو أنه ابتعد مسافة كهذه عن أورشليم التى بها أعوانه وحراسه. وفهم نحميا هدفهم فرفض طلبهم مع أنهم كرَّروه أربع مرات.

٢ - بعد ذلك اتهموه بأنه يريد من بناء السور تحصين المدينة ثم يجعل الشعب ينادى به ملكا على أورشليم. وكان غرضهم الوقيعة بينه وبين السلطات فى فارس. واضطر لأن يسافر إلى سوسة العاصمة لدفع هذه التهمة عن نفسه وشَرَح الأسباب التى جعلت أعداءه يطلقون هذه الإشاعة ويختلقون هذه الفرية. ثم عاد إلى أورشليم.

٣ - ثم أراد أعداء نحميا أن يوقعوه فى عمل يجرِّمه أمام الشعب فيحق لهم قتله. فاستأجروا شخصا لإرهاب نحميا بنبوءات كاذبة والإيهام بأن هناك مؤامرة لقتله. ونصحه بأن يدخل إلى الهيكل ويغلقه على نفسه حرصا على حياته. وفهم نحميا الخدعة وقال (نحميا ٦:١١): «أرَجُل مثلى يدخل الهيكل فيحيا؟ لا أدخل. وتحقَّقتُ وهو ذا لم يرسله الله لأنه تكلم بالنبوءة علىَّ. وطوبيا وسنبلط قد استأجراه لكى أخاف وأفعل هكذا وأخطىء فيكون لهما خبر ردىء لكى يعيِّرانى». إذ لم يكن يحق لنحميا دخول الهيكل لأنه ليس من اللاويين. ولو فعل ذلك يُعيِّراه بهذه الخطيَّة ويعزلوه من الولاية أو يقتلوه.

نحميا يقوم بإصلاح دينى :

ويمكن تلخيص ما قام به نحميا من حركة الإصلاح الدينى فى النقاط التالية :

١ - كان الشعب يصرخ من سيطرة الغنى على الفقير وخاصة فى موضوع الإقراض بالربا بين اليهود أنفسهم ومن لا يقدر على رد دينه يؤخذ ابنه أو ابنته عبداً أو أمة لمن أقرضه. تقول التوراة (نحميا ٥ :١): «وكان صراخ الشعب ونسائهم عظيما على إخوتهم اليهود. وكان من يقول بنونا وبناتنا نحن كثيرون. دعنا نأخذ قمحا فنأكل ونحيا. وكان من يقول حقولنا وكرومنا نحن راهنوها حتى نأخذ قمحا فى الجوع. وكان من يقول قد استقرضنا فضة لخراج الملك على حقولنا وكرومنا. والآن لحمنا كلحم إخوتنا وبنونا كبنيهم. وها نحن نُخضِع بنينا وبناتنا عبيدا ويوجد من بناتنا مستعبدات وليس شيىء فى طاقة يدنا. وحقولنا وكرومنا للآخرين»، هنا غضب نحميا وأخذ يوبخ العظماء والولاة على أنهم يأخذون الربا من إخوتهم اليهود وبيَّن لهم خطأ ما يفعلون. وطلب منهم أن يردُّوا على إخوتهم ما أخذوه منهم. وحذَّرهم من غضب الله: ففعلوا كما أمرهم.

٢ - دعا نحميا إلى التخفيف عن الشعب وعدم إرهاقه. وأوضح لهم أنه - بالرغم من أنه مُعَيَّن واليا على «يهوديا» إلا أنه لم يفعل فِعل الولاة الذين سبقوه. الذين كانوا يفرضون على الشعب شبه إتاوة يسمونها «خبز الوالى» تتكون من خبز وخمر وفضة. واشترى الولاة من وراء

ذلك حقولا. أما هو – نحميا – فلم يفعل من ذلك شيئا. بل وكان يشارك فى بناء السور مثلهم. وجميع غلمانه كانوا يشاركون فى العمل وكانت مائدته مفتوحة كل يوم لـ ١٥٠ من اليهود، وحتى للعاملين من الأمم الأخرى. وأنه كان يذبح كل يوم من ماله الخاص ثورا واحدا و ٦ خراف ممتازة وطيورا بلا عدد وكان يوزع خمورا بكثرة.

٣ – وفى الشهر السابع دعا نحميا كل الشعب إلى اجتماع فى ساحة المدينة. وطلب من عزرا (عزير) الكاتب أن يأتى بسفر شريعة موسى. ووقف عزرا على منبر من الخشب صنعوه له. ووقف على يمينه ويساره أشراف أورشليم ورؤساء العشائر وقرأ عزير شريعة موسى «وبارك عزرا الرب الإله العظيم وأجاب جميع الشعب آمين رافعين أيديهم وخرُّوا سُجَّدًا للرب». واستمر عزرا فى قراءة شريعة موسى وقرأ فيها كيفية الاحتفال بعيد المظال الذى كان موعده قد حل. وظل يقرأ لهم الشريعة سبعة أيام أى طوال أيام الاحتفال بالعيد. وفى اليوم الثامن اعتكاف حسب الشريعة وصوم وانفصال عن جميع الغرباء ووقفوا جميعا واعترفوا بخطاياهم وقاموا بصلاة جماعية. وقام نحميا بكتابة ميثاق بين الله والشعب ووقَّع عليه نحميا وختمه بخاتمه واشترك معه فى التوقيع ٢٢ كاهنا و ١٧ لاويا و ٤٤ من رؤساء العشائر وتعهَّدوا جميعا أمام الرب بترك الشر وعدم عصيان الرب وحفظ أيامه وعدم الزواج من الأجنبيات الوثنيات.

٤ – **تصحيح عقيدة السامريين** : سبق أن ذكرنا (ص ٣٠٦) أن من بقوا من بنى إسرائيل فى السامرة بعد السبى الأشورى امتزجوا بالسكان الذين وفدوا عليهم من بابل وحماة وبادية الشام وتكوَّن من الجميع جماعة «السامريين» وكان اليهود السامريون لا يعترفون إلا بالأسفار الخمسة الأولى من شريعة موسى وشاب عقيدتهم بعض الممارسات الوثنية التى أدخلها الوافدون. وكان السامريون فى نزاع دائم مع باقى اليهود وخاصة القادة الدينيين الذين جاءتهم النبوة فى بابل لذلك فإنهم لم يَضُمُّوا لأسفارهم الخمسة تلك التعاليم التى أنزلت فى بابل. فقام عزرا بتصحيح عقيدتهم وتنقيتها مما يخالف شريعة موسى. ولكن السامريين مع ذلك ظلوا جماعة دينية سياسية مستقلة.

٥ – **التأكيد على حرمة العمل يوم السبت** : كان للتجار الصوريين (تجار مدينة صور) الذين يتاجرون فى السمك المجفف وسلع أخرى، مراكز رئيسية فى أورشليم. وكان الناس يكسرون قداسة يوم السبت بالشراء منهم فى هذا اليوم. فكان على نحميا والكهنة أن يوقفوا هذه التجارة. فأمروا الحراس الواقفين على الأبواب الكبيرة لأورشليم بمنع دخول التجار الصوريين فى أيام السبت. فلجأ التجار إلى الدخول من الأبواب الصغيرة وهى كثيرة ولم يكن عليها حراسة من الجنود. فأقام نحميا عليها أفرادا من اللاويين لمنع دخول التجار فى أيام السبت.

٦ – **جمع الزكاة** : وكَّل نحميا أناسا لجمع الزكاة وهى تشمل الأوائل (أوائل الثمار)

والأعشار (زكاة العُشر) فيقومون بجمعها من المزارع والحقول لأنها أنصبة خصصتها الشريعة للكنهة واللاويين.

٧ - **منع الزواج من الأجنبيات** : يبدو أن هذا الزواج كان متفشيا لدرجة كبيرة وكان أهل الشريعة ينظرون إليه على أنه يهدِّد نقاء العنصر اليهودى. وقد رأينا كيف أن عزرا (ص ٤٤٧) قام بتطليق الزوجات الأجنبيات من أزواجهن اليهود. وجاء أيضا نحميا يعيب على الشعب الزواج بالأجنبيات ويوضح لهم مساوىء هذا الزواج فقال (نحميا ١٣:٢٢): «في تلك الأيام رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات ومؤابيات ونصف كلام بنيهم باللسان الأشدودى ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودى بل بلسان شعب وشعب فخاصمتُهم ولعنتُهم وضربتُ منهم أناسا ونتفت شعورهم واستحلفتهم بالله قائلا: لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم». وكان أخو رئيس الكهنة فى أورشليم متزوجا من أجنبية ولم يشأ أن يطلقها فطرده نحميا من الكهنوت ومن أورشليم.

٨ - ترتيبات لحراسة المدينة : أحسَّ نحميا أن بعض الشعب يتآمرون سرا مع العدو . فأقام حراسا على أبواب المدينة فى نوبات مستمرة ليلا ونهارا . وكانت أورشليم - قبل بناء السور - مدينة لا يقبل أحد على السكنى بها لعدم توافر الأمان . أما بعد اكتمال السور فقد بدأ الناس يعودون للسكنى بها . وأراد نحميا أن يتأكد أن لا يأتى إلى أورشليم للإقامة الدائمة بها إلاَّ اليهود الأقحاح فلجأ إلى السجلات القديمة واتخذها أساسا لقبول الراغبين فى السكنى بالمدينة.

وهكذا نجح نحميا فى خلال الاثنى عشر عاما التى قضاها واليا على أورشليم ومقاطعة «يهوديا» من بناء السور وإعادة الأمن إلى أورشليم وقام بحركة إصلاح دينى كبيرة وأعاد العمل بشريعة موسى عليه السلام.

النبى ملاخى Malachi

«ملاخى» اسم عبرى معناه «رسول». وهو آخر أنبياء العهد القديم. وعاصر النبى نحميا فترة من الزمن.

كان اليهود قد عادوا من السبى. وبنوا الهيكل من جديد. ومرت السنون. ولم تزدهر إسرائيل وباتت الحياة صعبة فخابت آمال اليهود. ومرت عليهم سنون كثيرة من القحط وقاسوا من قلة الغلال. فبدأو يشكُّون فى عدالة حكم السماء. «وقالوا إن فاعل الشر صالح فى نظر الرب وأن لا فائدة تُجنَى من إطاعة الله والعمل بوصاياه. وأن الشرير والمتكل على نفسه هو الذى ينجح». وقد نعى عليهم الرب هذا القول (ملاخى ٣:١٣): «أقوالكم اشتدَّت علىَّ . قال

الرب. قلتم عبادة الله باطلة. وما المنفعة من أننا حفظنا شعائره وأننا سلكنا بالتقوى والوقار أمام رب الجنود وفاعلو الشر يبنون». فبادر النبى ملاخى بالرد عليهم موضحا لهم أن هذه النزعة التشكيكية مبنية على خطأ فى الفهم. وما أصابهم كان بسبب أن عبادتهم شكلية وفاسدة. وأن الكهنة كانوا قدوة سيئة لباقى الشعب فى مظهرية العبادة فكانوا يأتون بالتقدمات المعيبة وكل ذلك فيه عدم توقير للرب. فنعى عليهم ملاخى هذه التصرفات (ملاخى ١:٦): «يقول الرب. الابن يكرم أباه. والعبد يكرم سيده. فإن كنتُ أنا أبًا فأين كرامتى؟ وإن كنتُ سيدا. فأين هيبتى؟ قال لكم رب الجنود. أيها الكهنة المحتقرون اسمى. تُقرِّبون خبزا بخسا على مذبحى وتقولون بِمَ نجَّسناك؟ وإن قربتم قرِّبتم الأعمى ذبيحة. أفليس ذلك شرًّا؟ وإن قرَّبتم الأعرج والسقيم أفليس ذلك شرا؟ بل لا توقدون على مذبحى مجانا. ليست لى مسرَّة بكم. قال رب الجنود ولا أقبل تقدمة من يدكم. ملعون الماكر الذى يَنْذُرُ ويذبح للرب عائبا. والآن إليكم هذه الوصية أيها الكهنة. إن كنتم لا تسمعون ولا تجعلون فى القلب لتعطوا مجداً لاسمى فإنى أرسل عليكم اللعن وألعن بركاتكم». ثم يوضح لهم أنهم إن اتقوا الله حق تقاته (ملاخى ١١:٣): «أفتح لكم كوى السموات وأفيض عليكم بركة حتى لا توسع. ولا يفسد لكم ثمر الأرض ولا يعقر لكم الكرم فى الحقل. قال رب الجنود».

وهذا يشبه قوله تعالى فى القرآن الكريم :

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات فى السماء والأرض» . (٩٦-الأعراف).

«ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» . (٦٦ - المائدة).

ودعا ملاخى الشعب إلى التوبة وأن يطهِّروا أنفسهم من الخطايا وأن يُقدِّموا العشور كاملة وتكون الذبائح خالية من العيوب. وبَشَّر المتقين بأنهم سيظهرون على الأشرار (ملاخى ٢:٤) «ولكم أيها المتقون اسمى تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها فتخرجون وتدوسون الأشرار لأنهم يكونون رمادا تحت بطون أقدامكم يوم أفعل هذا قال رب الجنود. اذكروا شريعة موسى عبدى التى أمرته بها فى حوريب (جبل موسى) على كل إسرائيل الفرائض والأحكام». وكان ملاخى آخر أنبياء هذه الفترة من تاريخ بنى إسرائيل إلى أن جاء يحيى المعمدان مبشرا بمقدم المسيح عليهما السلام.

بقيت بعض النقاط المهمة التى يجب ذكرها. ذلك أننا شرحنا كيف ظهرت فارس والخدمات الجليلة التى قدمتها لليهود. وجاءت رؤى النبى دانيال - الأولى والثانية (ص ٤٠٦) - تتنبأ بزوال دولة الفرس وقيام مملكة الاسكندر الأكبر. ثم انقسامها إلى أربع ممالك بعد وفاته فلزِم أن نبين كيف تحققت هذه النبوءات. ونختم بفصل عن حال اليهود تحت حكم الإغريق.

نهاية الامبراطورية الفارسية

لقد رأينا كيف كانت فارس أداة الرب لتأديب بابل التى كانت قاسية فى معاملتها لليهود وكيف سمح ملوك فارس بعودة السبى إلى أورشليم وسمحت لهم وساعدتهم فى بناء الهيكل. ولكن دوام الحال من المحال كما يقال. وبدأت امبراطورية فارس تدخل فى دور الشيخوخة والاضمحلال. أنهكتها الحروب وأرهقتها المعارك فى مختلف الميادين والثورات التى قامت ضدها فى معظم البلدان التابعة لها. وكَثُرت الصراعات والاقتتال حول العرش. وقد ذكرنا سابقا (ص ٤٤٥) مقتل إكزركسيس (٤٦٦ ق.م). وتولى بعده أرتاكزركسيس الأول (٤٦٦ – ٤٢٤ ق.م.) ثم تولى بعده دارا الثانى (٤٢٤ – ٤٠٤) وكان عابدا للنار متعصبا لمعتقداته ثم تولى بعده أرتاكزركسيس الثانى Artaxerxes II بعد أن تغلّب على أخيه وحكم لمدة ٦٣ عاما (٤٠٤ – ٣٤١ ق.م) وقامت فى أوائل سنى حكمه ثورة فى مصر ضد الحكم الفارسى:

ثورة مصر (٤٠٤ ق.م.) :

قام «أميرتى» أو «أميرتايوس» حاكم «صا الحجر» (فى غرب الدلتا قرب دسوق) بالثورة على التبعية لفارس وأيده أمراء كثيرون ثم أعلنوه فرعونا ابنا للإله رع. وبه بدأت **الأسرة ٢٨** . واستطاع أن يستولى على كل الدلتا ويحررها من فارس وأصبح الوالى الفارسى محاصرا فى منف ومعه بعض جنوده. وثار كذلك الأمير «إنياروس» حاكم مقاطعة مريوط واتصل بأثينا طالبا مساعدتها فأمدته بأسطول مكون من ٣٠٠ سفينة. وتقدم الأسطول من البحر المتوسط فى فرع النيل الغربى حتى وصل منف واحتل الجنود اليونانيون أجزاء منها ولكن أرتاكزكسيس كان قد أرسل نجدة فارسية مكونة من ٣٠٠,٠٠ مقاتل. وشعر اليونانيون بضعف موقفهم فانسحبوا إلى الشمال من منف. ولكن الفرس أحرقوا السفن اليونانية وقتلوا الجند وأخذوا «إنياروس» أسيرا إلى سوسة عاصمة الفرس وصُلِب هناك. وظل «أميرتايوس» زعيما للحركة الوطنية ومحتفظا باستقلال الدلتا. وأرسل إلى أثينا يطلب معاونتها لطرد الفرس كلية من البلاد فأرسلت له أسطولا مكونا من ٦٠ سفينة ولكنها عادت قبل أن تصل إلى مصر لوفاة ملك أثينا ولعقد هدنة بين فارس وأثينا فكانت فترة قصيرة من السلم. ورأى أرتاكزركسيس الثانى أن يسحب الوالى الفارسى من مصر وعيَّن حكاما مصريين للأقاليم. وفى هذه الفترة زار مصر عدد من أعلام اليونان مثل «هيرودوت» «أبو التاريخ» الذى تجوَّل فى كل مكان وقيَّد كل ملاحظة وتحدث إلى كل من لاقاه. وشهد أعياد مصر فى سايس وبوبسطة ورأى مواكب إيزيس. وسجَّل ذلك كله فى كتاباته الخالدة.

الأسرة ٢٩ :

قام « نف عاوورو الأو ل» أو « نفريتس » بقتل أمير تايوس فانتهت الأسرة ٢٨ وأسس

الأسرة ٢٩ وكان «نف عاورور» من «منديس» (تل الربع ٢٠كم جنوب المنصورة) واتبع سياسة الاستعانة بالإغريق ضد الفرس. وكانت اسبرطة تحارب الفرس فأرسل «نف عاورور» أسطولا من ١٠٠ سفينة عليها ٨٠٠,٠٠٠ مكيال من القمح وذخيرة حرب (سهام ودروع) لمعاونة اسبرطة. ولكن الأسطول الفارسى اعترضها عند جزيرة رودس فعادت إلى مصر.

ثم جاء بعده «أكوريس» (٣٩٣ - ٣٨٠ ق.م) وتحالف مع أثينا ضد الفرس وأرسل ٥٠ سفينة حربية ومددا من القمح والمال ولكن فارس استطاعت بالسياسة أن تفضّ هذا التحالف فوضع أكوريس همه فى الإصلاح الداخلى وإقرار الأمن فى البلاد وترميم الآثار طوال باقى مدة حكمه. وخلفه «نف عاورور الثانى» الذى لم يحكم سوى أربعة أشهر إذ قام عليه «نختانبو الأول» وقتله وتولى الحكم مؤسسا الأسرة الثلاثين.

الأسرة ٣٠ السمنودية :

كانت فترة سلم نسبى بين فارس واليونان حينما تولى «**نختانبو الأول**» حكم مصر. وركزت فارس جهدها للانتقام من مصر وجمعت جيشا فى عكا قوامه ٢٢٠,٠٠٠ مقاتلا وهاجم الفرس من ناحية البحر عند مصبات الأنهار فى حين كان جيشهم البرى يتقدم من ناحية بلوزيوم. ولكن الجيش المصرى استطاع أن يرد الفرس ونعمت مصر بـ ٣٠ عاما أخرى من الاستقلال زارها أثناءها بعض من مشاهير العلماء اليونان مثل «أفلاطون».

وبعد نختانبو حكم «تيوس» وجهّز جيشا ضخما من ٨٠,٠٠٠ مصرى و ١٠,٠٠٠ مرتزقة من أثينا وألف متطوع من اسبرطة وما بين ٢٠٠ - ٣٠٠ سفينة. وكان هدفه استعادة النفوذ المصرى فى فلسطين وسوريا. وللإنفاق على تجهيز الحملة ولدفع أجور الجنود المرتزقة اضطر إلى فرض ضرائب أثقلت كاهل المصريين وحض الكهنة على التنازل عن جانب من أملاكهم واستولى على معظم المخصصات المرصودة للمعابد مما أدّى إلى حالة تذمر وعدم رضا فى البلاد. وعندما خرج الجيش إلى بلاد الشام لضرب الفرس فيها انقلب أخو «تيوس» فى مصر عليه وأرسل يستدعى ابنه وكان يقود فرقة من الجنود المصريين فى جيش عمه - فعاد وقاد الانقلاب وانضم إليه الجنود الاسبرطيون. ولما رأى الجنود المرتزقة الباقين هذه الفُرقة انسحب الأثينيون، وفشلت الحملة. وتولى الحكم فى مصر «نختانبو الثانى» (بدلا من عمه) وأرضى الكهنة وأعاد للمعابد مخصصاتها.

إعادة الفرس فتح مصر :

رأى أرتاكزركسيس الثالث (٣٤١ - ٣٣٥ ق.م.) أنه لابد من إعادة فتح مصر فقاد جيشا قوامه ٣٠٠,٠٠٠ جندى يسانده أسطول مكون من ٣٠٠ سفينة واتجه نحو مصر وكان الجيش المصرى لا يزيد عن ١٠٠,٠٠ جندى بالإضافة إلى عدة آلاف من المرتزقة الإغريق. ووقعت

المعركة عند بلوزيوم (الفرما) وقاومت القوات المصرية مقاومة مستبسلة ولكن لما رأى الإغريق أن كفة الفرس هى الراجحة انضموا إليهم وهُزم الجيش المصرى وتراجع إلى منف. ومع تقدم الفرس تراجع إلى أقصى الصعيد حيث احتفظ ببعض النفوذ لمدة عامين إلى أن أعاد الفرس سيطرتهم على كل البلاد عام ٣٤١ ق.م ولكن هذه الفترة من الاحتلال الفارسى لم تدم أكثر من ١١ عاما (إذ دخل الاسكندر الأكبر مصر فاتحا عام ٣٣٠ ق.م.) إلا أنها كانت أسوأ فترة إذ بدأها الفرس بانتقام عنيف. وأمر أرتاكزركسيس الثالث بتدمير أسوار المدن الرئيسية ونهب كنوز المعابد وامتهن ديانة المصريين وأمر بنقل تماثيلها الثمينة إلى فارس. وعيَّن واليا فارسيا على مصر وعاد بجيشه إلى سوسة عاصمة ملكه. ولكنه مات مسموما بعد وقت قصير من عودته وخلفه ولده الذى مات مسمومًا أيضا.

نهاية امبراطورية الفرس:

قامت فى مصر ثورة ثانية. واعترف كهنة منف وبعض أمراء الصعيد بزعيمها فرعونا للبلاد. ولم يهبّ الفرس لإخماد هذه الثورة إذ كانوا مشغولين بدرء الخطر القادم من الغرب متمثلا فى جيش اسكندر ابن فيليب المقدونى الذى كان قد عبر الدردنيل مهدِّداً فارس نفسها. وكان قد تولى حكم فارس - بعد أنتاكزركسيس الثالث - أرسيس (٣٣٨ - ٣٣٥ ق.م) ثم داريوس الثالث (٣٣٥ - ٣٣١ ق.م.) وكان اسكندر الأكبر قد تقدم واستولى على الشام وفلسطين وأخيرا مصر عام ٣٣١ ق.م. فأنهى حكم الفرس وأصبحت كل هذه البلاد ولايات يونانية. ثم تابع فتوحاته فأخضع العراق وفارس كما سيأتى فى الفصل التالى.

الفصل الثانى والعشرون :

اليهود فى ظل الإغريق

فى هذا الفصل والفصل التالى سنتكلم عن :

أ – الاسكندر الأكبر .

ب – خلفاء الاسكندر .

جـ – الثورة اليهودية المكابية .

الاسكندر الأكبر

ذكرنا سابقا (ص ٤٣٤) حملة إكزركسيس الأول على اليونان وكيف انتهت بهزيمته وبالكاد استطاع عبور الدردنيل والنجاة بنفسه وبجزء من جيشه. ولكن المقاطعات اليونانية على الساحل الغربى لآسيا الصغرى حررت نفسها من الحكم الفارسى. وشعرت الدويلات الإغريقية بفائدة اتحادها بدلا من تطاحنها وظهرت المقولة «اسبرطة تملك أحسن الجيوش وأثينا تملك أحسن الأساطيل». ومرت عدة مراحل من الحروب المحلية حتى استطاع فيليب المقدونى من توحيدها جميعا تحت إمرته إذ كان الجيش المقدونى هو الأكثر عددا والأكثر تدريبا ونظاما. وبدأ فيليب يعد العدة لغزو الفرس فى عقر دارهم ولكنه اغتيل فى عام ٣٣٦ ق.م. وخلفه ابنه الاسكندر والذى كان يبلغ من العمر ٢١ عاما – وقد قُدِّر له أن يقضى على امبراطورية الفرس وينشىء أكبر امبراطورية عرفها التاريخ فى ذلك الوقت ولذلك سمى «اسكندر الأكبر Alexander the Great».

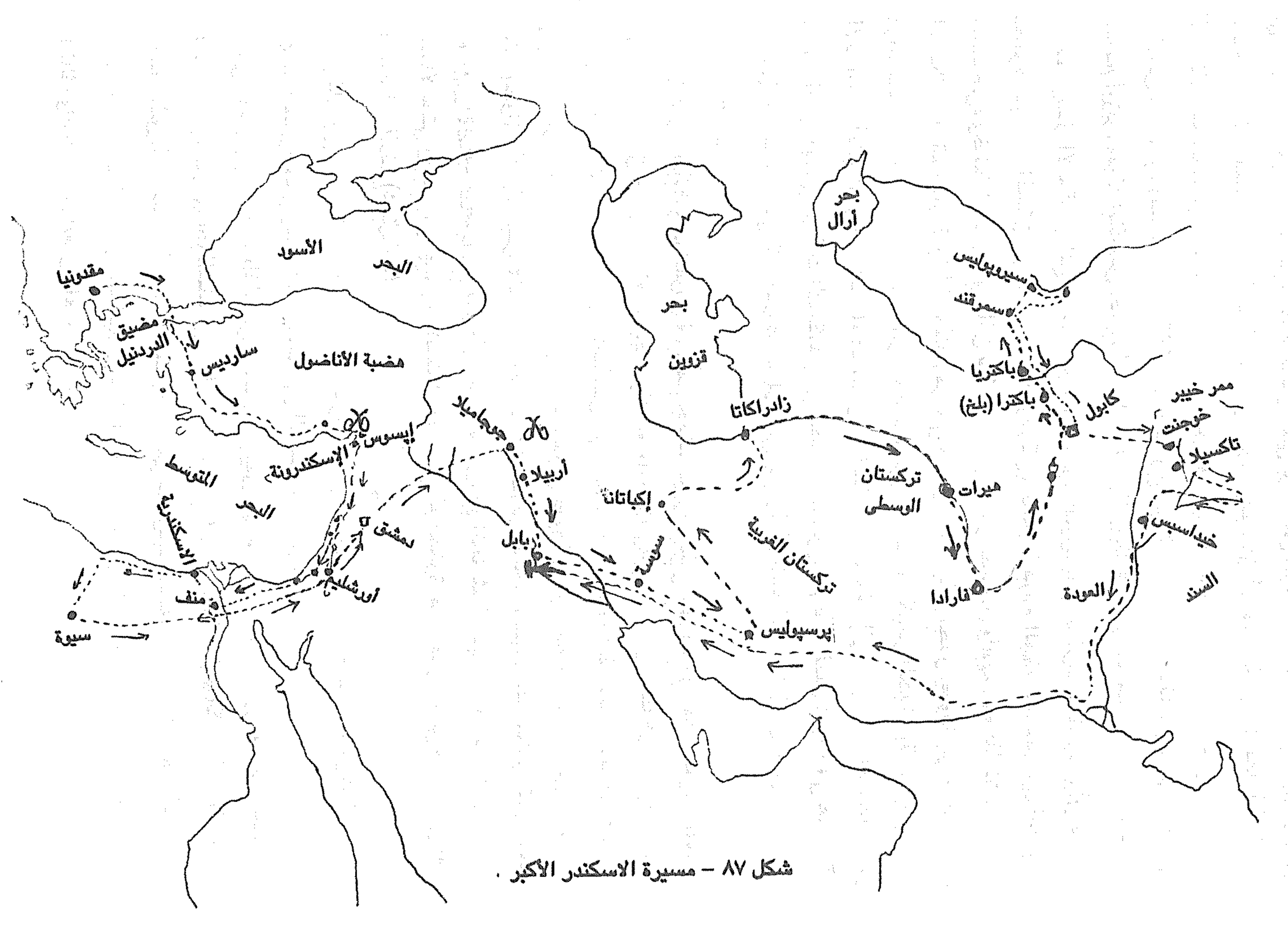
بدأ اسكندر حملته فى عام ٣٣٤ ق.م. فعبر مضيق الدردنيل وتقابل مع الجيش الفارسى فى ساردیس وهزمه. وتقدم فى آسيا الصغرى وقابل الفرس فى معركة ثانية عند إيسوس (قرب الاسكندرونة الحالية) وهزمهم. فتراجع الفرس إلى شمال العراق. لم يطارد الإسكندر الفرس فى شمال العراق بل سار جنوبا واستولى على مدن الساحل الفينيقى ثم استولى على فلسطين ويهوديا حتى وصل إلى أورشليم وقوبل بالترحاب وخاصة من رئيس الكهنة اليهودى وذكر له نبوءات النبى دانيال التى تنبأ بها على فارس وزوال ملكها. وسُرَّ الاسكندر الأكبر سرورا عظيما بهذه النبوءات. كان الوقت هو صيف عام ٣٣٢ ق.م. وتابع سيره جنوبا وجرح

فى معركة فى غزة فقضى فيها عدة أشهر حتى برىء من جرحه ولم يستأنف المسيرة إلا فى ديسمبر. واتجه نحو مصر. واستولى على بلوزيوم. ولم يلاق أى مقاومة فوصل بعد أيام قليلة إلى منف وهربت حامية الفرس وباركه المصريون ورحَّب به الكهنة. وأدخله كهنة بتاح إلى قدس الأقداس فى المعبد ومنحه الكاهن الأكبر «مملكة رع وجلال حور» وطلب منه أن يقدم ذبيحة فى ضريح أوزير. وبهذا التكريس أصبح الاسكندر فرعونا وابنا لآمون وإلها لمصر العليا والسفلى.

ثم ارتحل الاسكندر إلى الشمال وأمام جزيرة «فاروس» وجد قرية صغيرة ورأى بثاقب بصره أنها من الممكن أن تصبح ميناء ومركزيا تجاريا فردم الجزء الفاصل بين الجزيرة والشاطىء وخطط الشوارع وأماكن سكنى المقدونيين والمصريين واليهود وهكذا نشأت مدينة الإسكندرية. ثم سار غربا إلى مكان مرسى مطروح الحالية وانحدر جنوبا إلى واحة سيوة فوصلها بعد ١٠ أيام. واتجه صوب معبد آمون. ورحَّب به كبير الكهنة وقاده إلى قدس الأقداس. وأعلن أن وحى السماء قد أعلن أن العالم من شرقه إلى غربه مِلكُ الاسكندر عن طريق الحق الإلهى. ومكث الاسكندر فى مصر ٦ شهور. ثم عبر النيل شرقا فى عام ٣٣٠ ق.م. واتخذ طريقه إلى فلسطين فاستولى على بقيتها ثم اتجه إلى دمشق. وواصل سيره إلى شمال العراق.

كان دارا الثالث ملك الفرس قد جمع جيشا كبيرا للدفاع عن بلده ووقعت المعركة الفاصلة فى عام ٣٣١ ق.م. فى مدينة «جوجا ميلا» أو «أربيلا» وهى على نهر دجلة قرب مدينة نينوى. وانهزم الفرس شر هزيمة وسار الإسكندر إلى «سوسة» العاصمة الفارسية واستولى عليها ثم إلى «پرسپوليس» - العاصمة الثانية - واستولى عليها وأحرق قصر الملك وأعلن أن هذا رد على إحراق إكزركسيس لأثينا. ثم أمضى الاسكندر السبع سنوات التالية فى تجوال حول الهضبة الإيرانية ووصل إلى شواطىء بحر قزوين. ثم اتجه شرقا عبر التركستان الغربية وسار شمالا حتى وصل إلى جبال تركستان الوسطى ثم اخترق ممر خيبر حتى وصل إلى إقليم السند فى الهند (شكل ٨٧).

وكان يريد الاستمرار فى سيره شرقا إلا أن جنوده أبوا مواصلة السير فاضطر إلى الاتجاه جنوبا حتى وصل إلى مصب نهر السند وسار غربا بمحاذاة الشاطىء فى أرض قاحلة حتى وصل إلى الخليج الفارسى وقاسى الجيش فى طريقه متاعب كثيرة وعانى الجنود من الجوع والعطش ومات الكثيرون وعاد إلى سوسة فى عام ٣٢٤ ق.م وكان الاضطراب يعم الامبراطورية. ووصلت الأنباء باضطرابات فى مقدونيا نفسها. فأخذ يشق طريقه إلى بلاد الإغريق بيد أنه فى حفل صاخب فى بابل أكثر من الشرب وألَمّت به حمى مباغتة ومات وهو فى الثالثة والثلاثين من العمر عام ٣٢٣ ق.م.



شكل ٨٧ – مسيرة الاسكندر الأكبر .

خلفاء الاسكندر الأكبر

فور موت الاسكندر الأكبر فى صيف عام ٣٢٣ ق.م. عقد قواده مؤتمرا فى بابل لبحث مشكلة حكم الامبراطورية المترامية الأطراف. وكان الموت قد فاجأ الاسكندر دون أن يترك وصية أو يرشح خلفا له ودون أن يترك وريثا للعرش يخلفه وإن كان قد ترك زوجة فارسية هى «روكسانا Roxana » حاملا فى الشهر السادس كما ترك أخا غير شرعى ومصابا بتخلف عقلى. وكان لكل قائد مطامعه الشخصية ولكنهم جمحوها حفاظا على وحدة الامبراطورية لذلك اتفقوا على أن يتولى شقيق الاسكندر الحكم كسلطة مركزية تحت وصاية القائد «برديكاس» فى حين يتولى قواد الجيش حكم الولايات. ولكن راح كل قائد يحاول توسيع نفوذه على حساب غيره ونشبت حروب كثيرة بينهم وبين الوصى على العرش الذى أراد أن تكون له الكلمة العليا. فاجتمع القواد مرة ثانية فى سوريا لإعادة تقسيم ولايات الامبراطورية ونتج عن هذا المؤتمر تقليص سلطات الوصى على العرش إلى مجرد سلطة اسمية وتم الاعتراف بشبه استقلالية للأقاليم الأربعة الكبار (شكل ٨٨):

١ – مصر من نصيب بطليموس Ptolemy.

٢ – بابل من نصيب سلوقس Seleucus.

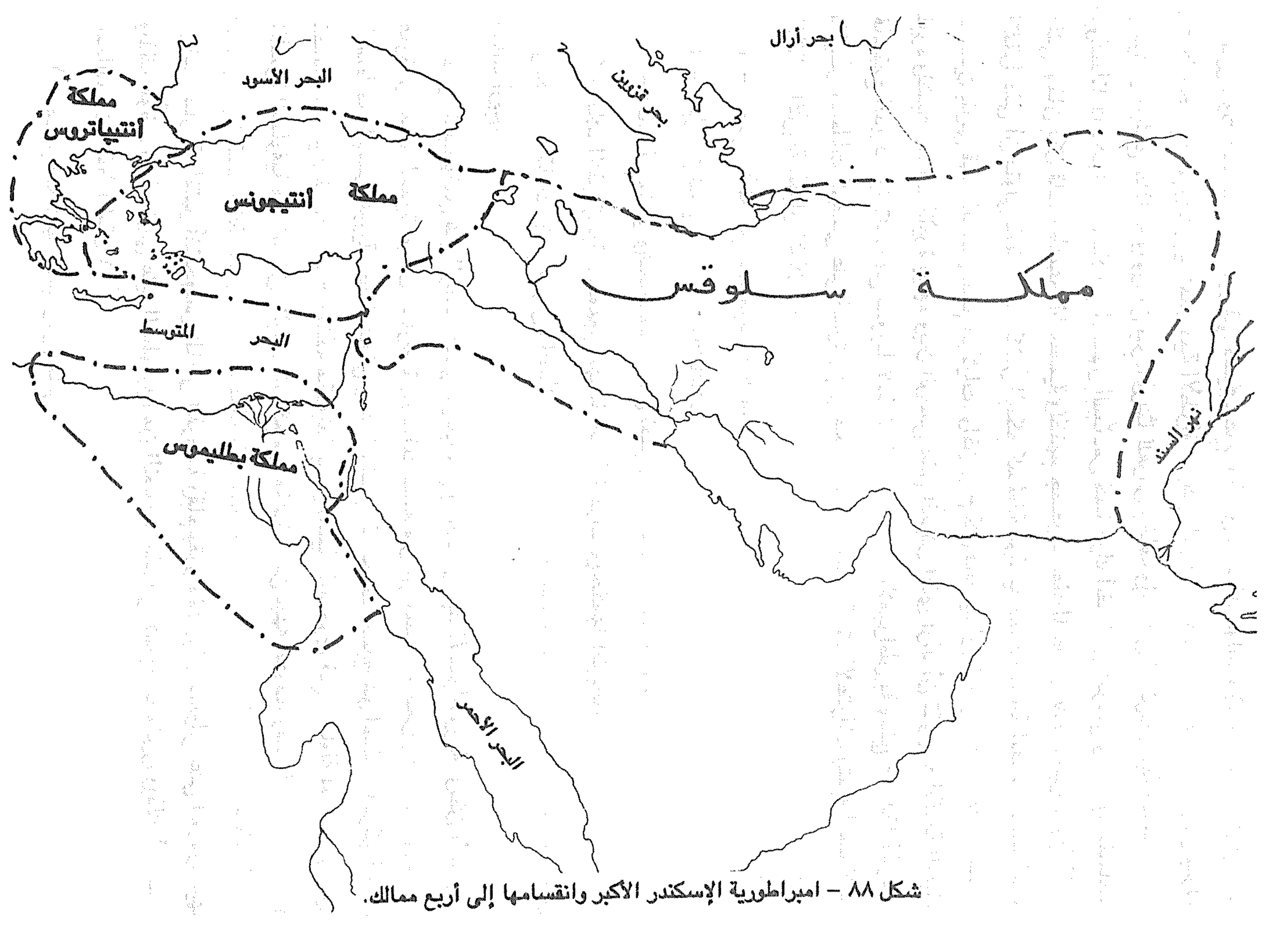
٣ – آسيا الصغرى وشمال سوريا من نصيب أنتيجونس Antigonus.

٤ – بلاد الإغريق تبقى جمهورياتها خاضعة لمقدونيا ويحكمها أنتيباتروس .

وهكذا تحققت رؤى النبى دانيال (ص ٤٠٦) بانقسام امبراطورية الاسكندر إلى ممالك أربع.

كان أنتيجونس هو الوحيد الذى يرغب فى إعادة توحيد الامبراطورية. ولكن الآخرين عارضوا هذه الفكرة. ولعل معارضتهم كانت تنبع من أن آسيا الصغرى تعتبر فى مركز الوسط من الإمبراطورية مما قد يعنى وضعا متميزا له بحيث يصبح هو السلطة المركزية لذلك تحالف الجميع ضده وقامت مملكة مقدونيا بغزو آسيا الصغرى فى محاولة لتقسيمها بين الأسرة السلوقية فى الشرق والبيت الحاكم فى مقدونيا من جهة الغرب. ولكن قبائل من البدو الرحّل من الكلت Celts أغارت من منطقة الدانوب الأوسط على بلاد اليونان وأحالتها إلى فوضى عارمة وانتهز أنتيجونس الثانى الفرصة وقام بغزو مقدونيا واستولى على العرش فيها وبذلك عوَّض ما استولى عليه السلوقيين من النصف الشرقى لآسيا الصغرى وبذلك أصبحت الممالك ثلاث فقط (شكل ٨٩):

١ – مصر ويحكمها بطليموس الثانى .



شكل ٨٨ – امبراطورية الإسكندر الأكبر وانقسامها إلى أربع ممالك.

٢ – المملكة السلوقية (بابل وسوريا وشرق آسيا الصغرى) ويحكمها أنطيوخس.

٣ – مقدونيا وغرب آسيا الصغرى ويحكمها أنتيجونس.

كان هذا تبسيطا لما دار من صراعات بين قواد الإسكندر الأكبر عقب وفاته. إلا أن الأمر كان أعقد من ذلك بكثير . ومن يريد التوسع يمكنه الرجوع إلى كتب التاريخ المختصة بهذه الفترة . وقد كان لهذه الصراعات انعكاس على فلسطين – التى تقع فى الوسط بين القوى المتصارعة – وبالتالى على اليهود. ونبدأ بموجز عن بعض هذه القوى:

أ – بطليموس فى مصر :

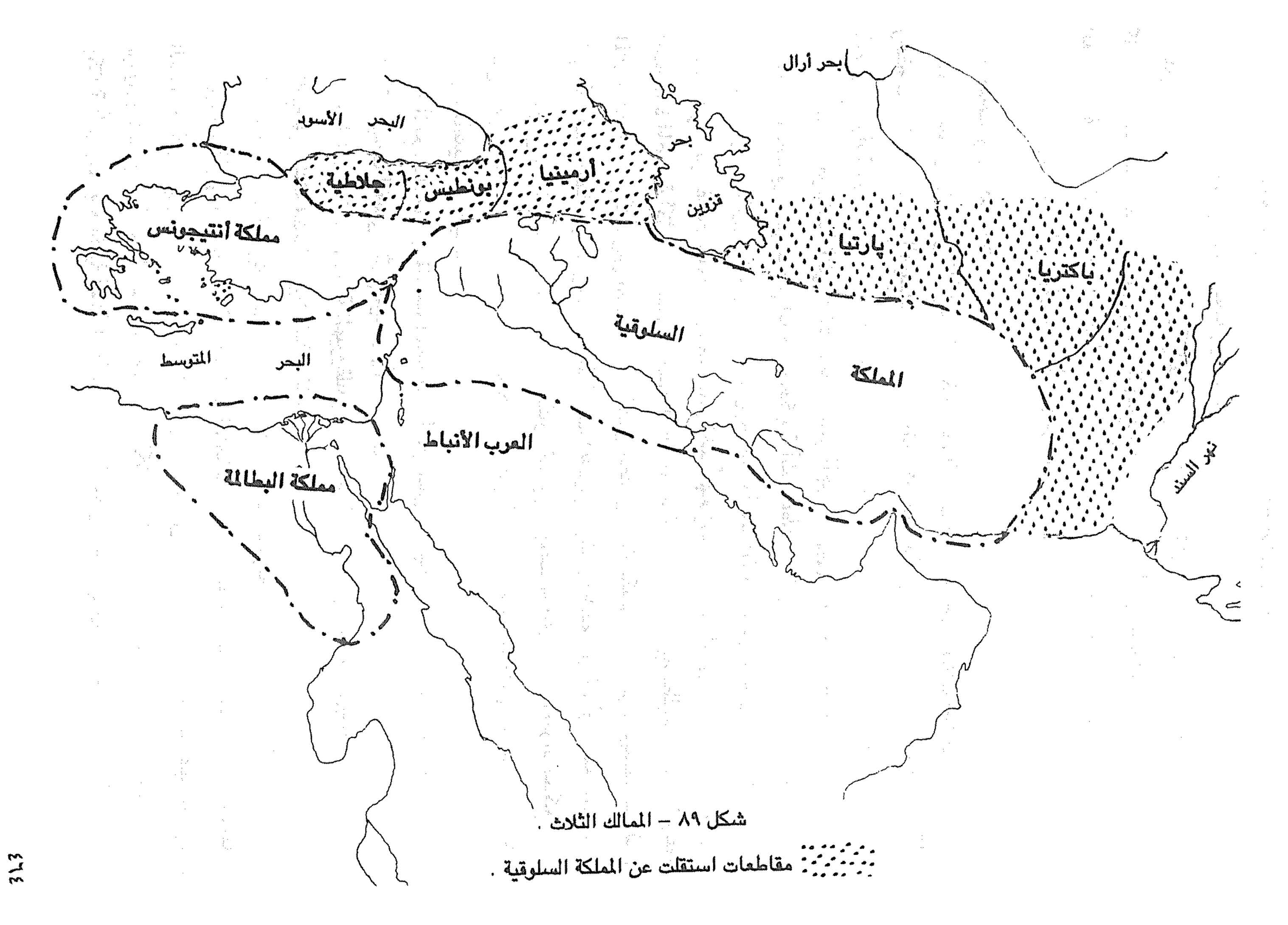
كانت مصر من أغنى الأقاليم كما كان من السهل الدفاع عنها. وكان تدمير ميناء صور والقضاء على البحرية الفينيقية وإنشاء مدينة الإسكندرية وبناء أسطول قوي فيها قد أتاح لمصر السيادة فى شرق البحر المتوسط والسيطرة على الموانىء الجنوبية لآسيا الصغرى. ونافست مصر قرطاجنة التى كانت تسيطر على الجزء الغربى من البحر المتوسط.

ووجد المصريون فى حكام البطالمة حكومة أشد عطفا وأكثر تسامحا من أى حكم أجنبى نزل بهم سابقا. ويقول المؤرخون إن المقدونيين ليسوا هم الذين سادوا مصر وحكموها. بل إن مصر هى التى غلبت البطالمة ومصَّرتهم فضمَّتهم إليها. إذ أن الذى حدث كان عودة إلى الحضارة المصرية أكثر منه محاولة لصبغ البلاد بصبغة إغريقية وأصبح بطليموس هو الفرعون الملك الإله. وكان بطليموس أحد الشبان الذين أحاطوا بالإسكندر فى مقدونيا وتشبَّع بالأفكار التى أوحاها وبثَّها «أرسطو» فى بلاط فيليب المقدونى. وكان بطليموس قد أوتى مواهب عقلية خارقة يجمع بين تنظيم المعرفة وقوة الابتكار. فما إن أتيحت له الفرصة بالانفراد بحكم مصر حتى ظهرت مواهبه فى ملامح رئيسية كان هو المبتكر الأول لبعضها وفى البعض الآخر كان عاملا أساسيا فى إنجاحها:

١ – أقام بطليموس المتحف Museum والذى كان فى جوهره كلية من علماء يُعنون بصفة خاصة بالبحث العلمى مثل إقليدس وأرشميدس.

٢ – اللغة: لم تصمد اللغة الهيروغليفية – لصعوبتها – أمام اللغة الإغريقية وأصبحت اللغة اليونانية هى اللغة الشائعة بين طبقة المتعلمين.

٣ – مكتبة الاسكندرية: عمل بطليموس على تنظيم المعرفة فكان أن أنشأ مكتبة الإسكندرية الشهيرة والأولى من نوعها فى العالم. إذ كانت ذات طابع موسوعى تهدف إلى الإحاطة الشاملة بكل شيىء. فلو أحضر أى شخص غريب إلى مصر كتابا كان لزاما عليه أن يقدِّمه ليقوم الكتبة بكتابة نسخة منه لحفظها فى المكتبة. وكان تنظيم ما يتجمع من الكتب وترتيبها وكتابة الفهارس يتم بغاية الدقة (معالم تاريخ الإنسانية. هـ . ج ويلز . جـ ٢. ص ٤٥٧).



شكل ٨٩ – الممالك الثلاث .

مقاطعات استقلت عن المملكة السلوقية .

٤ – كان يلذ لبطليموس صحبة العلماء والأدباء وفطن إلى أن رعاية العلوم والفنون هى أنجح وسيلة تكسبه وسلالته المجد والخلود. لذلك فإنه دعا إلى الإسكندرية كثيرا من شعراء الإغريق وأدبائهم وفلاسفتهم وفنانيهم.

٥ – فلسفة الإسكندرية الدينية: سرعات ما تحولت الاسكندرية إلى مركز نشاط عقلى تنافس فى ذلك أثينا ذاتها وأصبحت الإسكندرية مركزا لا يُضاهى للفلسفة الدينية وكان من نتائجها اتحاد الآلهة. فقد تم توحيد «أوزريس» مع العجل المقدس «أبيس» تحت اسم «سيرابيس» ثم تم توحيده مع «چوپيتر» الإله الإغريقى فى «چوپيتر سيرابيس» رب الاسكندرية الهيلينية. بعد ذلك تم إحياء الثالوث المقدس المكون من :

أ – الرب «سيرابيس» المكون من اتحاد أوزريس مع أبيس .

ب – الربة «إيزيس» وهى «هاتور» الربة البقرة مع القمر .

جـ – الرب الطفل «حورس» وهو أيضا إله الشمس.

فهى ثلاثة آلهة ولكنها أيضا عبارة عن إله واحد. وقد عارض اليهود هذه الفلسفة إذ كانت عقيدتهم تؤمن بإله واحد هو «يهوه» رب السموات والأرض.

٦ – السياسة الخارجية: فطن بطليموس إلى أن القوة العسكرية هى التى تضمن بقاءه فى الحكم. ولما كانت ثروة مصر تعتمد – بجانب الزراعة – على تجارتها الخارجية واتساع نطاقها فإن السيطرة على الطرق البحرية تضمن له الاستقلال السياسى والقوة الاقتصادية. لذلك وجّه بطليموس جهده لبناء أسطول قوى. وكان السبيل للحصول على الأخشاب اللازمة لبناء الأسطول هو الاستيلاء على الأقاليم الغنية بالأخشاب مثل سوريا والساحل الفينيقى وقبرص. وهكذا كان للبطالمة تطلعات سياسية لمد نفوذهم خارج مصر.

٧ – اليهود فى عصر البطالمة: عند مجيء الاسكندر الأكبر لمصر رحب به اليهود. وعند بناء الاسكندرية سكنوا فى حى من أحيائها وبلغ من كِبَر هذا الحى أن أصبحت مدينة الاسكندرية تضم أكبر تجمّع سكانى يهودى فى ذلك الوقت. وبها من اليهود عددا يوازى أو يفوق عددهم فى أورشليم ذاتها. إذ قدم إليها عدد كبير من يهود فلسطين. ولما كانت اللغة الإغريقية قد أصبحت هى لغة العلوم والمتعلمين فقد وجدت الجالية اليهودية فى الإسكندرية لزاما عليها أن تترجم التوراة إلى اللغة اليونانية إذ لم يعد كثير من اليهود قادرين على فهم اللغة العبرانية.

ب – المملكة السلوقية :

كانت هذه المملكة من أكبر أجزاء امبراطورية الاسكندر اتساعا. إذ تمتد من نهر السند شرقا حتى آسيا الصغري غربا. وتضم أقواما وقوميات كثيرة. وكان من الصعب السيطرة عليها بواسطة الجنود الإغريق الذين تحت إمرة سلوقس. كما أن بعدها عن اليونان يجعل من الصعوبة طلب النجدة عند احتياجها فضلا عن وصولها فى الوقت المناسب. وقد لمس سلوقس

ونجله أنطيوخس هذه الصعوبات وعملا جهدهما لحلِّها. وتمثل الحل فى تشجيع الهجرة من اليونان. وللتشجيع على ذلك بدأ سلوقس ببناء مدن كثيرة على الطراز الإغريقى. وكانت مدينتان من هذه المدن كبيرتين نوعا ما : الأولى «أنتيوخ» فى سوريا والثانية «سلوقيا» على نهر دجلة. وقد نمتا بحيث اتسعت كل واحدة لـ ٧٥,٠٠٠ نسمة وأصبحتا العاصمة الغربية والشرقية للدولة. أما المدن الأخرى فكانت الواحدة تسع من ٥ - ١٥ ألف نسمة. واستقدم سلوقس حوالى ١٠٠,٠٠٠ عائلة من اليونان لسكنى هذه المدن وليكونوا النواة لإبقاء هذه البلاد المترامية تحت سيطرته. وبالرغم من هذا فإن الأقاليم فى أقصى الشرق وأقصى الشمال لم يمكن السيطرة الفعلية عليها وأصبحت شبه مستقلة. لذلك فإن سلوقس ونجله أنطيوخس ركزًا على الجزء الغربى من المملكة وخاصة سوريا وما جاورها من العراق شرقا ومن آسيا الصغرى غربا وحاولا أن يصبغا البلاد بالصبغة الإغريقية بنشر الثقافة وعبادة الآلهة اليونانية وإجبار الشعوب على التقاليد الإغريقية.

فلسطين فى ظل الحكم الإغريقى :

كانت فلسطين وجنوب سوريا نقطة التقاء بين الدول الثلاث: الدولة البطلمية فى مصر والدولة السلوقية فى الشرق وأنتيجونس فى اليونان وآسيا الصغرى. وظلت فلسطين يتنازعها بطليموس وأنتيجونس. ففى أول الأمر تطلع بطليموس إلى الاستيلاء على فلسطين ليؤمِّن سلطانه فى مصر. فقام بطليموس الأول بغزو سوريا فى عام ٣٢٠ ق.م. واستولى على أورشليم فى عام ٣١٩ ق.م. ولكن أنتيجونس انتزعها منه. إلا أن بطليموس سرعان ما عاد إليها بعد انتصاره العظيم على ديمتريوس ابن أنتيجونس فى موقعة غزة عام ٣١٢ ق.م. ثم تابع تقدمه واستولى على فلسطين والساحل الفينيقى. ولكن ديمتريوس عاد فانتصر على بطليموس فى شمال سوريا فى العام التالى ٣١١ ق.م. فانسحب بطليموس من فلسطين مرة أخرى. ولكنه عاد إليها فى عام ٣٠٢ ق.م. منتهزا فرصة إنشغال ديمتريوس فى حروب فى آسيا الصغرى. واستقر الأمر لبطليموس فى فلسطين ويهوديا فترة من الوقت. ثم بدأت المنطقة تشهد صراعا بين الأسرتين البطلمية والسلوقية وتكررت الحروب بينهما للسيطرة على فلسطين وسوريا وتبادل فيها الجانبان النصر والهزيمة عدة مرات ثم استقر الأمر للبطالمة وظلوا يحكمون فلسطين لمدة ١٠٢ سنة متعاقبة هى طوال مدة حكم بطليموس الأول (ماعدا السنوات العشر الأولى) ثم بطليموس الثانى والثالث والرابع. وكان التقسيم الإدارى لفلسطين فى عصر البطالمة كما فى شكل ٩٠. وقسمت إسرائيل إلى ٥ مناطق رئيسية: الجولان والجليل وسماريا ويهوذا أو يهوديا وأدوميا.

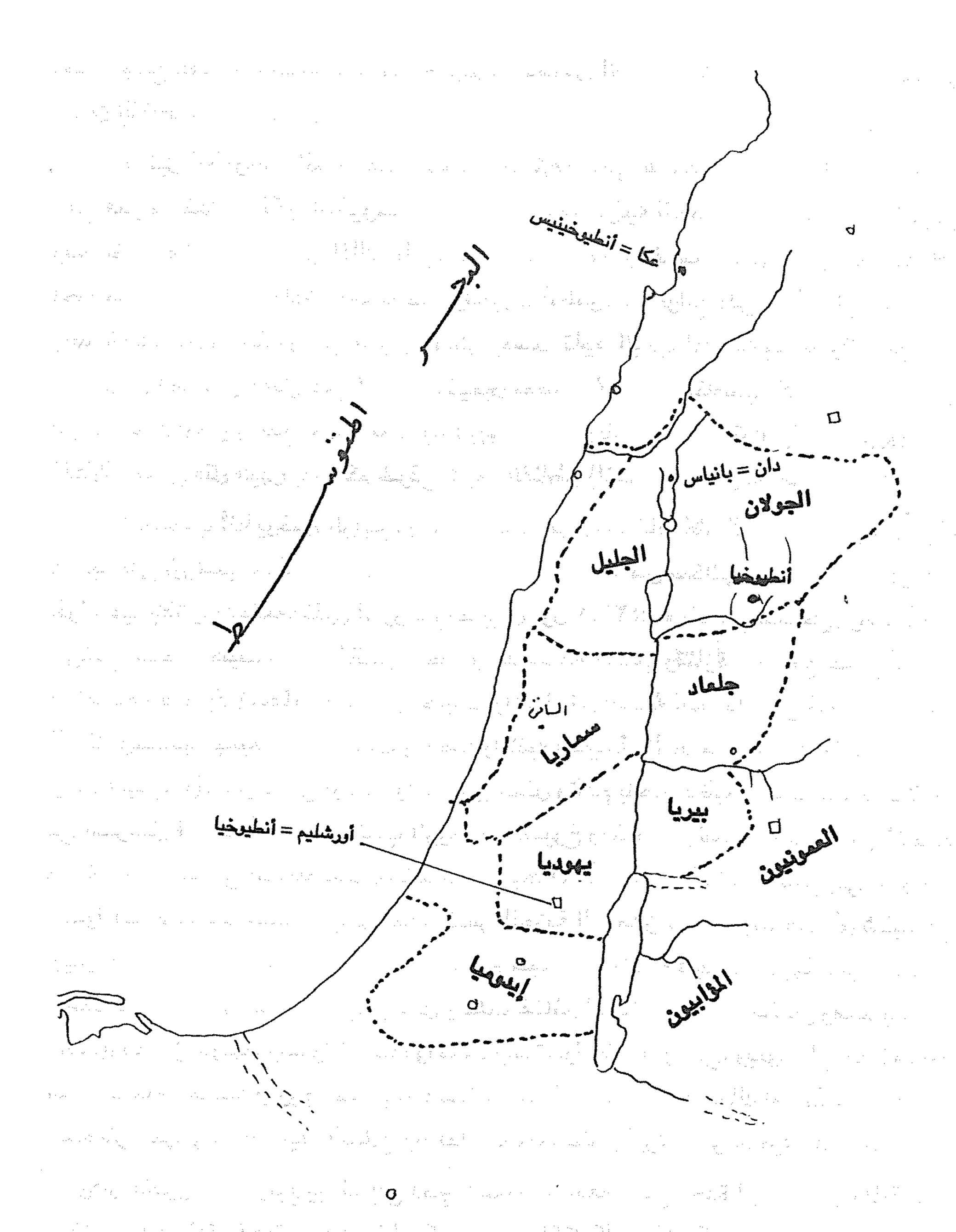
قلنا إن بطليموس الأول استولى على أورشليم عام ٣١٩ ق.م. وكان طبيعيا أن يحمل معه

شكل ٩٠ – أقسام فلسطين الإدارية تحت حكم البطالمة .

(٣١١ – ١٩٨ ق . م .)

عند عودته إلى مصر أسرى من اليهود الذين كانوا يعارضون السلطة البطلمية وتكرر الأمر عند انتصاره فى معركة غزة وإعادة استيلائه على فلسطيم عام ٣١٢ ق.م. ويبالغ المؤرخون اليهود كثيرا عندما يتعرضون لتحديد عددا الأسرى الذين جلبهم بطليموس الأول إلى مصر - وإن كان ابنه بطليموس الثانى قد حرر غالبيتهم - فيقول بعض مؤرخيهم إنهم بلغوا ١٠٠,٠٠٠. ولكن معظم المؤرخين يرون أنهم كانوا أقل من ذلك بكثير ويذكرون عددا مساويا للذين أجلاهم نبوخذنصر فى السبى البابلى أى ٣٠ أو ٤٠ ألفا. وإلى جانب هؤلاء الأسرى جاء كثير من اليهود بمحض إرادتهم إذ استشعروا سماحة بطليموس الأول وسمعوا عن معاملته الطيبة. كذلك فإن الملك أدرك فائدة استخدام اليهود فى جيشه كجنود مرتزقة فمنحهم أراضى ليستقروا فى مصر. فاستقروا وخاصة فى مدينة الإسكندرية حتى أصبحت الجالية اليهودية فيها من أكبر الجاليات كما سبق أن ذكرنا.

وظلت فلسطين تابعة لمصر إلى أن قام أنطيوخس الثالث أو أنطيوخس الكبير ملك السلوقيين بالاستيلاء على سوريا وفلسطين وزحف على مصر فوقعت معركة عند رفح عام ٢١٧ ق.م. استرد فيها بطليموس الرابع النصف الجنوبى من فلسطين - أدوميا ويهوذا - وقام بزيارة هيكل أورشليم دعما لليهود الموالين للبطالمة. ولكن فى عام ١٩٩ ق.م. قاد أنطيوخس الثالث جيشا إلى المنطقة وانهزم البطالمة بقيادة بطليموس الخامس فى معركة «بانيون أو بانياس» واستولى السلوقيون على سوريا وفلسطين. ثم اتجه إلى آسيا الصغرى عام ١٩٧ ق.م. فاستولى على المدن التى كانت قد خضعت للحكم البطلمى. وكان البطالمة قد بنوا فى هذا الجزء مدينة «الإسكندرونه» تصغيرا لاسم «الاسكندرية» وبعد استيلاء السلوقيين على فلسطين أعادوا التقسيم الإدارى فأصبح كما فى شكل ٩١. وأكثروا من تسمية المدن بأسمائهم فغيَّروا ميناء بطوليا (عكا) إلى «أنطيوخينيس». وحتى أورشليم نفسها أطلقوا عليها اسم «أنطيوخيا» ومدن أخرى سميت «أنطيوخيا» أو «سلوقيا» رغبة منهم فى طمس الهوية اليهودية مما كان له رد فعل سيىء فى نفوس اليهود. وفى هذه الفترة ظهر فى فلسطين حزبان: الحزب السلوقى والحزب البطلمى وأخذا يتناحران. وفى فترة سيطرة السلوقيين فر كثير من اليهود من أنصار البطالمة وجاءوا إلى مصر. وحاول السلوقيون فرض الأغرقة على اليهود فى فلسطين بالقوة ولكن الغالبية آثرت التمسك بتقاليدها ودينها. وفئة صغيرة هى التى تقبلت الحضارة الإغريقية وتشبهت بها. وهؤلاء كانوا غالبا من الأُسَر الأرستقراطية وإن كان بعض رجال الدين قد شاطروهم هذا الاتجاه حتى إن «ياسون» أو «جاسون» شقيق الحبر الأعظم «أونياس الثالث» ذهب فى تحمسه للحضارة الإغريقية إلى حد أنه أصبح زعيما للحزب الإغريقى فى أورشليم وطمع فى انتزاع منصب الحبر الأعظم من أخيه بمساعدة السلوقيين. وفعلا تم له ذلك بعد مصرع أخيه «أونياس الثالث». وعندئذ هرب ابنه «أونياس الرابع» من أورشليم وجاء إلى مصر



شكل ٩١ - تقسيم فلسطين الإدارى تحت الحكم السلوقى .

(١٩٨ - ١٤٢ ق.م.)

ومعـه جمع غفير من أنصاره . وسمح لهم بطليموس السادس بالإقامـة فى مكـان شرقـى شبين القناطر.

ولما اغتيل أنطيوخس الثالث عادت مصر فاستولت على فلسطين عام ١٧٤ ق.م. واستولت على قبرص كذلك. ولكن أنطيوخس الرابع قام فور توليه الحكم بالاستيلاء على قبرص وفلسطين وغزا مصر وأسر الملك بطليموس السادس وكان غلاما صغير السن وقام بإعلان أخيه ملكا على مصر. ولكن روما تدخلت وأجبرت أنطيوخس الرابع على الانسحاب من مصر وإعادة بطليموس السادس إلى العرش. ولكى يكسب تأييد اليهود المقيمين بمصر وفلسطين فإن بطليموس السادس أغدق على اليهود المقيمين بمصر الأموال والمناصب. كما أعطى أونياس الرابع قطعة أرض وسمح له بإقامة معبد لليهود فى «ليونتوپوليس» ولاتزال بقاياه موجودة فى المكان المسمى «تل اليهودية» ٢كم شرقى شبين القناطر (انظر الجزء الرابع ص ٧٢٦).

بعد انسحاب أنطيوخس الرابع من مصر بأمر من روما فإنه عاد إلى فلسطين وصبَّ جام غضبه على أورشليم وعلى اليهود. ويقال إنه قتل ٤٠,٠٠٠ من سكانها وإن كان يبدو أن هذا الرقم فيه بعض المبالغة. تقول التوراة (مكابيين أول ١:٢١): «فعاد إلى فلسطين وصعد إلى أورشليم بجيش كثيف ودخل القدس بتجبُّر وأخذ مذابح الذهب ومنارة النور مع جميع أدواتها ومنضدة التنضيد ومجامر الذهب والحجاب والأكاليل والحلية الذهبية التى كانت على وجه الهيكل وحطَّمها جميعا وأخذ الذهب والفضة والآنية النفيسة. وأخذ ما وجد من الكنوز المكنونة وأخذ الجميع وانصرف إلى أرضه. وأكثر من القتل وتكلم بتجبُّر عظيم. فكانت مناحة عظيمة فى إسرائيل فى كل أرضهم وانتحب الرؤساء والشيوخ والفتيات والنساء. وكل عروس اتخذت مرثاة. والجالسة فى الحجلة عقدت مناحة. فارتجَّت الأرض على سكانها وجميع بنى إسرائيل لبِسوا الخزى. وبعد سنتين أرسل الملك رئيس الجزية إلى مدن يهوذا فوفد على أورشليم فى جيش كثيف وخاطبهم سلام مكر فوثقوا به. ثم هجم على المدينة فجأة وضربها ضربة عظيمة وأهلك شعبا كثيرا من نسل إسرائيل وسلب غنائم المدينة وأحرقها بالنار وهدم بيوتها وأسوارها من حولها. وسبوا النساء والأولاد واستولوا على المواشى. وبنوا على مدينة داود سورا عظيما متينا وبروجا حصينة فصارت قلعة لهم. وجعلوا هناك أمة أثيمة منافقين فتحصنوا فيها ووضعوا فيها السلاح والطعام وجمعوا غنائم أورشليم ووضعوها هناك».

وكان أنطيوخس الرابع يهدف إلى دمج الشعوب التابعة له فى وحدة اجتماعية وثقافية لذلك (مكابيين أول ١:٤٢) «كتب الملك أنطيوكس إلى مملكته كلها بأن تكون جميعا شعبا واحدا. فأذعنت الأمم بأسرها لكلام الملك ماعدا اليهود». وقد حاول الملك تحويل اليهود عن تقاليدهم الدينية والاجتماعية إلى التقاليد اليونانية. وتجاوبت معه – كما سبق أن ذكرنا – بعض الأسر الأرستقراطية والأغنياء ثم سار أنطيوخس إلى أبعد من هذا. فأصدر إلى الوالى المعيَّن من

قبله لحكم اليهود أمرا بأن يُنصب تمثال للإله «زفس» أو «زيوس» فى معبد أورشليم وكذلك إقامة مذبح له داخل المعبد. وأمر كذلك بأن يُدعى اليهود إلى المشاركة فى الطقوس الدينية السلوقية وأن يشتد على المخالفين أو المعارضين. ورضخ كثير من اليهود لهذه الأوامر. وكما تقول التوراة (مكابيين أول ١:٤٥): «وارتضوا دينه وذبحوا للأصنام ودنَّسوا السبت. وأنفذ الملك كتبا على أيدى رسل إلى أورشليم ومدن يهوذا أن يتبعوا سنن الأجانب فى الأرض ويمتنعوا عن المحرقات والذبيحة فى المقدس ويذبحوا الخنازير والحيوانات النجسة حتى ينسوا الشريعة. ومن لم يعمل بكلام الملك يُقتل. وكتب بمثل هذا الكلام كله إلى مملكته بأسرها وأقام رقباء على جميع الشعب». وكما سبق أن ذكرنا فإن بعض اليهود امتثل لهذه الأوامر خوفا من بطش السلوقيين. إلا أن فريقا آخر رفضها وقرر التمسك بالتقاليد الموسوية ووشى الفريق الأول بالفريق الثانى مما نتج عنه التنكيل الشديد بالمتمسكين بالدين. وكان النبى دانيال قد تنبأ بهذا فى رؤياه الثانية (دانيال ٨:٨): «ولما اعتزَّ انكسر القرن العظيم (الاسكندر) وطلع عوضا عنه أربعة قرون معتبرة نحو رياح السماء الأربع (الممالك الأربع) ومن واحد منها خرج قرن صغير (سلوقس) وعَظُم جدا نحو الجنوب ونحو الشرق ونحو فخر الأراضى (أورشليم) وتعظَّم حتى إلى جند السموات وطرح بعضا من الجند والنجوم إلى الأرض وداسهم. وأُبطلت المحرقة الدائمة وهدم مسكن قدسه وجعل جندا على المحرقة بالمعصية فطرح الحق أرضا».

وكان هذا فوق احتمال اليهود فكانت «الثورة المكابية».

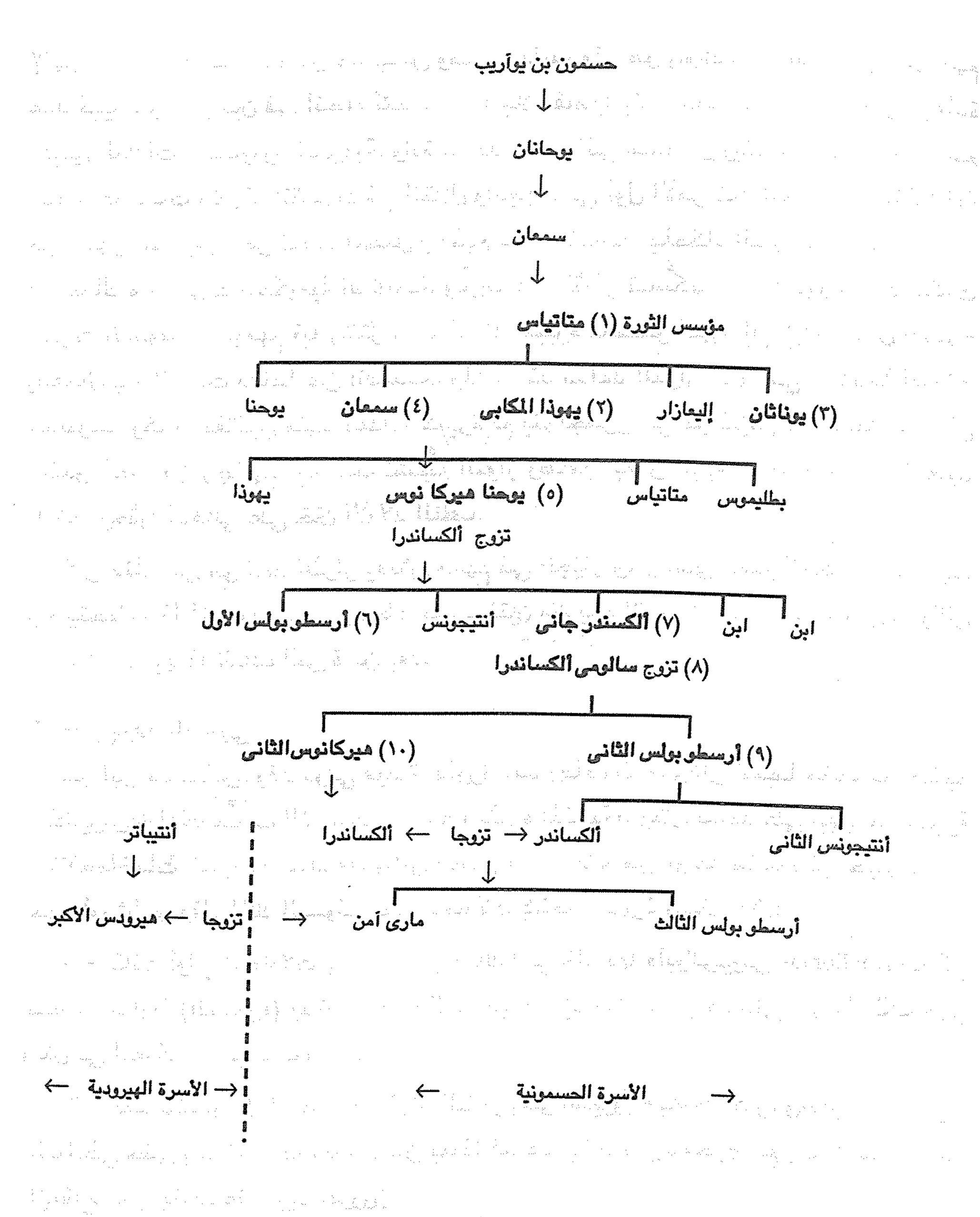
الفصل الثالث والعشرون :

الثورة المكابية

كانت الإعدامات بالجملة التى أمر بها أنطيوخس الرابع فى محاولة لإجبار اليهود على اتباع الديانة والتقاليد الإغريقية ومحاولة صرفهم عن تعاليم الشريعة الموسوية هى السبب الرئيسى لانفجار ثورة اليهود فى فلسطين عام ١٦٨ ق.م. والتى عُرِفت باسم «الثورة المكابية». وقد ساعد على اندلاعها رغبة الحزب الهيلينى من اليهود – المؤيِّد للأغرقة – فرض سيطرته على اليهود كلهم وقد ذكرنا سابقا (ص ٤٦٨) كيف آزاح «ياسون» – وهو من الحزب الهيلينى – أخاه «أونياس الثالث» الحبر الأعظم فى أورشليم من منصبه. وبعد ٣ سنوات أزاح الكاهن «منلاوس» «ياسون» برشوة كبيرة إلى المسئولين. فسقط مركز الكاهن الأعظم فى أورشليم فى أعين الناس إذ شعروا أن الوظيفة أصبحت تباع لمن يدفع رشوة أكبر. وكل هذه العوامل ولَّدت شعورا بالغيظ وعدم الرضا عن المحتل السلوقى وعن أعوانه من اليهود فقامت الثورة المكابية بزعامة كاهن تقى ورع هو «متاتياس بن يوحنا» وتتابع من بعده على زعامة الثورة أبناؤه وأحفاده. وعند سردنا لتاريخ هذه الفترة سنلمس كثرة الصراعات التى كانت تجرى فى هذه الأوقات حول العروش. فقد كان عرش سلوقيا – فى معظم الأوقات – يتنازعة اثنان. كلٌ يدَّعى أحقيته بالمُلك. ولترامى أطراف المملكة السلوقية فقد كانت تتسع لكليهما. كلٌ له جيشه وكلٌ يعمل على الإطاحة بمنافسه ويتلمَّس قوة إضافية – ولو ضئيلة – تعينه على تحقيق رغبته. وهذه القوة الضئيلة كانت الثورة المكابية الوليدة. وأصبحت الثورة فى موقف حرج إذ تجد نفسها مجبرة على الانحياز لطرف ضد الآخر. إن استقلت عن كليهما فقد يتحدان ضدها. وإن انحازت لهذا الطرف أو ذاك فقد تكون العاقبة وخيمة إذا خسر الطرف الذى انحازت إليه. وسنحاول فى الصفحات القليلة التالية متابعة الثورة بشيىء من الإيجاز حتى لا نتوه فى خضم التفصيلات.

١ – الكاهن متاتياس بن يوحنا :

يوضح شكل ٩٢ شجرة نسب الأسرة الحسمونية . فالجد الأكبر «حسمون بن يوآريب هو جد يوحنا أبو متاتياس الذى فجَّر الثورة. ومتاتياس هو الكاهن لأعز بيوتات اليهود وأكرمها. ولما كان متقدما فى السن فقد اعتزل العمل الدينى وقعد فى بلدة «مودين» Modin التى تقع غرب أورشليم بمسافة قصيرة. وجاء إليه أحد الضباط السلوقيين وأمره بتقديم التقدمات



شكل ٩٢ – شجرة نسب الأسرة الحسمونية والمكابيين .

(الأرقام تبين ترتيب قادة الثورة) .

لإلههم الوثنى. فأخذ الحماس متاتياس وضربه فقتله وفر هو وأولاده إلى البرية. واقتدى بهم عدد كبير من المؤمنين فى أنحاء كثيرة من البلاد قاموا بنبذ العبادة الوثنية وبدأوا بإعادة تطبيق العادات والطقوس الشرعية. وانضم عدد كبير إلى متاتياس وبنيه فى البرية. وقد نظم الثوار عصابات متفرقة انتشرت فى التلال واتجهت فى أول الأمر ضد الطبقة الأرستقراطية من اليهود لصرفهم عن تأييد المحتل وحثهم على التمسك بأحكام الشريعة. وتجنَّب الثوار الاشتباك مع القوات الحكومية النظامية. وعُرِف عن الثوار تمسُّكهم بحرمة يوم السبت فكانت القوات السلوقية تهاجمهم فيه وتقتل منهم أعدادا كبيرة فاضطر الثوار إلى إباحة حمل السلاح والقتال يوم السبت دفاعا عن أنفسهم. ولما اشتد ساعد الثوار بدأوا فى مهاجمة القوات السلوقية وكانوا يقتلون منهم أعدادا كبيرة ثم يتراجعون إلى مراكزهم فى الجبال دون أن يفقدوا أحدا من رجالهم. إثر ذلك تشجَّع الثوار وطافوا بمدن اليهودية وقاموا بهدم المعابد الوثنية وحثوا الأهالى على ختن الأولاد الغلف.

كان متاتياس هو قائد الثوار يعيش معهم فى الجبال وهو الذى يضع الخطط لهجماتهم. ولم يتحمل هذا المجهود المضنى فمات بعد سنتين من بدء الثورة أى فى عام ١٦٦ ق.م. وكان قد عين ولده يهوذا لقيادة الثورة من بعده.

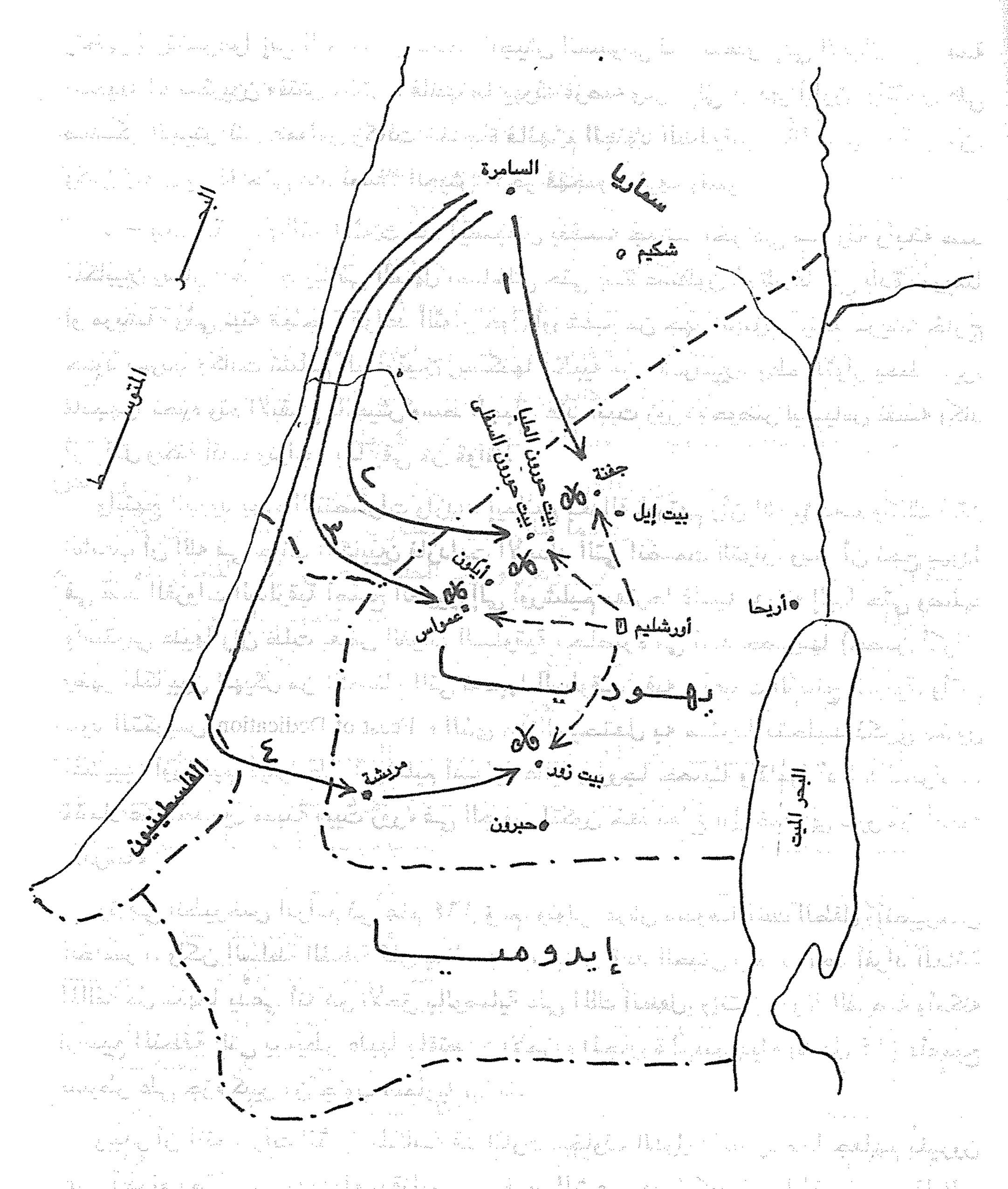
٢ - يهوذا المكابى :

هو ابن متاتياس. وقد تولى قيادة الثورة بعد وفاة والده. وكان نشطا متحمسا ولقبه «مكابيوس» ولذلك سُمِّيت الثورة على اسمه «الثورة المكابية». وكان يعتمد على الهجمات الليلية والانقضاضات السريعة الخاطفة. وكان ينطلق هو ورجاله من قواعد متغيرة فى جبال يهوذا حول أورشليم. وقام الملك السلوقى بعدة محاولات لإخماد الثورة (شكل ٩٣):

١ - كانت أولى المحاولات لإخماد الثورة تلك التى قام بها «أبوللونيوس Apollonius» حاكم منطقة سماريا (السامرة) وقائد الحامية السلوقية بها إذ سار بجنوده لمحاربة يهوذا ولكنه هزم وقتل فى المعركة عند جفنة Gophna.

٢ - بعد ذلك أرسل الملك أحد القواد الكبار وهو «سيرون» بفرقة أكبر. وسار فى الطريق الساحلى حتى يافا ثم اتجه شرقا وكان يهوذا قد علم بخط سيره فخرج مع رجاله لملاقاته وتم الإيقاع به وبجنوده عند «بيت حورون».

٣ - كلَّف الملك بعد ذلك أحد القواد العظام هو «ليسياس Lysias » بإخماد الثورة فأعدَّ جيشا قوامه ٤٠,٠٠٠ جندى و ٧٠٠ فارس وأمَّر عليه أربعة من الضباط الكبار. وسار الجيش فى الطريق الساحلى واتَّجه جنوبا حتى وصل إلى مدينة «عمواس Emmaus» ومنها يبدأ طريق يتجه شرقا إلى أورشليم صاعدا هضبة يهوديا. ولما رأى الثوار حجم القوات السلوقية صاموا



شكل ٩٣ – حروب أنطيوخس الرابع ضد يهوذا المكابى .
١ – حملة أبوللونيوس .
٢ – حملة سيرون .
٣ – حملة ليسياس بقيادة أربعة من ضباطه .
٤ – حملة بقيادة ليسياس نفسه .

وتطهَّروا وتضرَّعوا إلى الله. وكان نصف الجيش السلوقى قد صعدوا إلى الجبال فى مهمة يسميها العسكريون «فتِّش واقتل». فانتهزها يهوذا فرصة ونزل إلى «وادى أيلون» وانقض على معسكر الجيش فى عمواس وكانت مفاجأة فانهزم الجنود السلوقيين وقُتِل منهم الكثيرون. وكمن رجال يهوذا حتى عاد نصف الجيش الآخر فهجموا عليهم وقتلوهم.

٤ - بعد هذه الهزائم الثلاث قاد ليسياس بنفسه جيشا آخر فى محاولة رابعة ضد المكابيين وسار أيضا جنوبا فى السهل الساحلى حتى بلدة عسقلون ثم شرقا إلى بلدة «مريسا أو مريشة» وفى نيته مهاجمة قواعد الثوار حول أورشليم من جهة الجنوب. وتقع مريشه خارج حدود يهوديا وكانت تشايع السلوقيين ويسكنها أغلبية من الأدوميين. وعلم الثوار بخط سيره فاتجهوا نحوه وتم الايقاع بالجيش وسط الجبال عند «بيت زور» وحوصر ليسياس نفسه وكاد أن يُقتل ولكنه أفلت وتراجع بما بقى من قواته.

وابتهج اليهود بهذه الانتصارات وازداد إيمانهم بعدالة ثورتهم وأن الله يؤيدهم وكذلك أيقن الشعب أن الله فى جانب المكابيين فازدادت الأعداد التى انضمت للثوار. وبعد أن نجح يهوذا فى صدِّ الغزوات السلوقية أصبح الطريق إلى أورشليم مفتوحا فاتجه بقواته إليها حتى وصلها واستولى عليها وإن ظلت بعض القوات السلوقية محاصرة فى أحد حصونها (حصن أكرا). وطهَّر المكابيون الهيكل من الأصنام التى نصبها السلوقيون فيه. وأعيدت الذبائح اليومية. وأقيم «عيد التكريس Feast of Dedication » الذى مازال يُحتفل به سنويا بتخليد ذكرى دخول المكابيين أورشليم. وبنوا على أورشليم أسوارا عالية وبروجا حصينة وأقاموا أفرادا للحراسة. فضلا عن تحصين مدينة «بيت زور» فى الجنوب لتكون خط دفاع أول ضد أى غزو من ناحية «أدوميا».

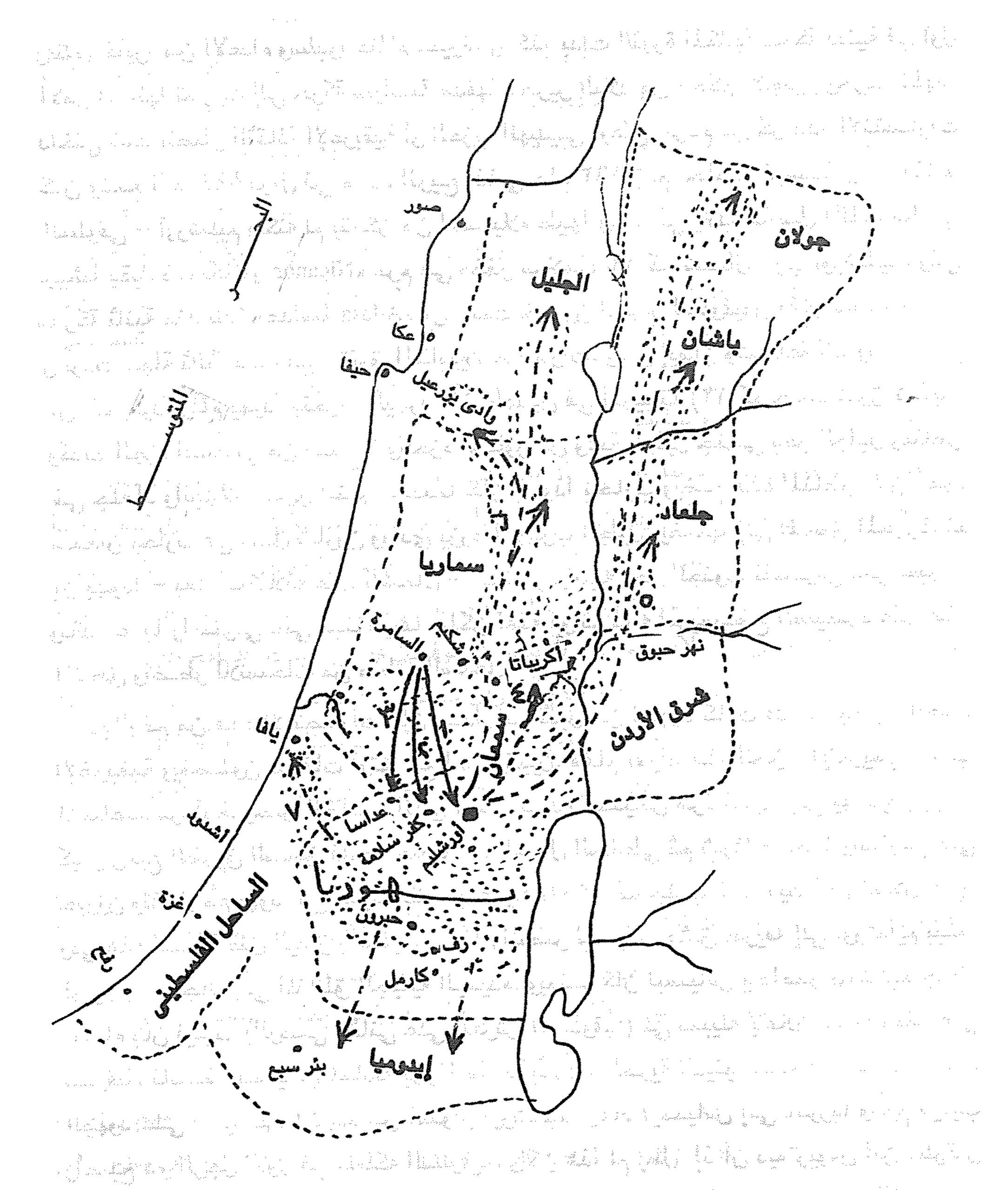
وتوفى أنطيوخس الرابع فى عام ١٦٤ ق.م. وتولى عرش سلوقيا الملك الطفل «أنطيوخس الخامس». ولكن السلطة الفعلية كان يتنازعها ليسياس قائد الجيش وفيليب أحد أفراد العائلة المالكة كل منهما يدَّعى أنه هو الأحق بالوصاية على الملك الطفل. وانتهز يهوذا الفرصة وأمكنه توسيع المنطقة التى يسيطر عليها باقتطاع الأجزاء المجاورة لـ «يهوديا» (شكل ٩٤) فأصبح يسيطر على جزء كبير من جنوب سماريا أيضا.

ويبدو أن انتصارات الثورة المكابية قد أثارت مخاوف الدول المجاورة مما جعلهم يُغيرون على أطراف مقاطعة «يهوديا» ويقتلون من أفراد الشعب عددا كبيرا مما اضطر يهوذا إلى محاربتهم. فبدأ بالأدوميين فى مقاطعة «أدوميا» فى الجنوب وحارب العمونيين فى الشرق وهزمهم. فتحالفت جميع الدول المجاورة وقررت الهجوم فى جبهتين فى آن واحد. واحدة فى الشرق عند جلعاد. والثانية فى الجليل. فقسم يهوذا قواته قسمين قاد هو نصف القوات إلى جلعاد. وأسند قيادة النصف الثانى إلى أخيه سمعان وسيَّره إلى الجليل. وانتصر الجيشان

وقتلوا كثيرا من الأعداء وسلبوا غنائم كثيرة. وهكذا بدأت الثورة المكابية حركة دينية فى أول الأمر إلاَّ أنها تطوَّرت إلى حركة سياسية هدفها تحرير البلاد من الحكم الأجنبى وحركة تطهير داخلى ضد أنصار الثقافة الإغريقية أو الحزب الهيلينى. وعلى الرغم من كل هذه الانتصارات كان وضع الحركة لايزال فى مهب الريح. ففى عام ١٦٣ ق.م. حاصر ليسياس - القائد السلوقى - أورشليم ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها وعاد إلى بلاده فأرسل الملك السلوقى جيشا بقيادة «نيكانور Nicanor» هُزِم فى «كفر سلامة» ١٢ كم شمال غرب أورشليم. وفى معركة ثانية عند بلدة «عداسا Adasa» قرب بيت حورون انهزم السلوقيون وقُتِل قائد الجيش. وجُرِّدت حملة ثالثة بقوة أكبر تفوق المكابيين عدة مرات. ولكن إيمان وشجاعة اليهود مكنتهم من الصمود. وقام يهوذا بتحرير اليهود المضطهدين فى أكريباتا (١٢ كم جنوب شرق شكيم) وكذلك الجزء الشمالى من سماريا والجزء المجاور من ولاية الجليل جنوبى بحر الجليل ومناطق فى جلعاد والجولان شرق النهر. وبينما كان يهوذا يحارب ويضم هذه المناطق كان أخوه سمعان يحارب فى سهل شارون ووادى يزرعيل وغرب الجليل ويضمها إلى المناطق المحرَّرة. ثم إن يهوذا - بعد استيلائه على الشمال - استدار واتجه نحو الجنوب فاستولى على حبرون وتقدم غربا واستولى على ميناء يافا. ولكن لقلة قواته فإنه لم يستطع السيطرة على هذه المناطق واضطر للانسحاب من منطقة الساحل.

وبالرغم من هذه الانتصارات فإن عددا غير قليل من اليهود كانت قد استهوتهم الحياة الإغريقية ويفضلون علاقات أوثق مع السلوقيين. فقام أفراد هذا الحزب الإغريقى بطلب المساعدة من أنطيوخس الخامس الذى أرسل قائده ليسياس مرة أخرى إلى يهوديا بجيش كبير واتبع الطريق السابق فاتجه جنوبا فى السهل الساحلى ثم شرقا فشمالا واستولى على حبرون وتقابل مع يهوذا فى معركة عند «بيت زكريا» ١٢ كم جنوب غرب بيت لحم (شكل ٩٥). وفى هذه المعركة قتل إليعازار شقيق يهوذا وانتصر ليسياس وشق طريقه إلى أورشليم بينما فر يهوذا ورجاله إلى المناطق الجبلية البعيدة. وبينما كان ليسياس يحاصر أورشليم جاءته الأنباء بأن فيليب (الوصى الثانى على العرش السلوقى) فى سبيله لإعلان نفسه ملكا على سلوقيا. فاضطر ليسياس لمهادنة يهوذا مانحا يهوديا الحرية الدينية وعدم التدخل فى عبادة اليهود على ألاَّ يُرمَّم ما تهدَّم من أسوار أورشليم. وعاد ليسياس إلى سوريا وهَزَم فيليب وأصبح هو الرجل الأول فى المملكة السلوقية. ولكن هذا لم يطل. إذ أن ديمتريوس ابن سلوقس الرابع - وكان رهينة فى روما - هرب بحرا ونزل فى طرابلس فنادى به الشعب ملكا شرعيا لسلوقيا فقام بالقبض على ليسياس والملك الطفل أنيوخس الخامس وأعدمهما.

أما فى «يهوديا» فبعد أن تحقق ما كانت الثورة قد قامت من أجله - وهو الحرية الدينية - فقد فتر الحماس الثورى وبدأ أنصار يهوذا ينفضون من حوله وخاصة أن ديمتريوس كان قد



شكل ٩٤ – توسيع يهوذا المكابى للمناطق تحت سيطرته فى عهد أنطيوخس الخامس والحروب ضده .

١ – حملة ليسياس وحصار أورشليم . ٢ – حملة نيكانور كفر سلامة . ٣ – معركة عداسا .

٤ – تحرير يهوذا لأكريباتا . ٥ – استيلاء يهوذا على جلعاد وباشان وجولان .

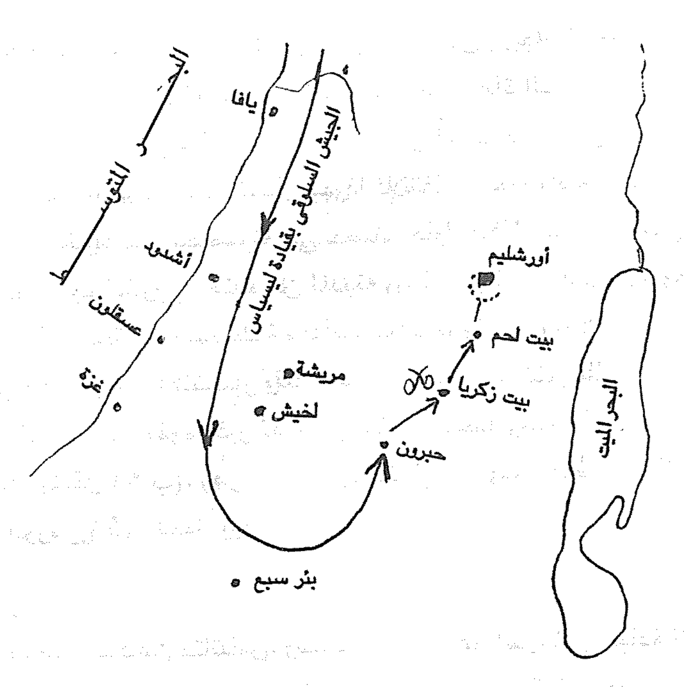
٦ – استيلاء سمعان على سماريا ووادى يزعيل والجليل . ٧ – استيلاء يهوذا على يافا .

عيَّن ألكيموس Alcimus كاهنا أعظم. الأمر الذى وافق هوى رجال الثورة باعتباره من نسل هارون ووافق عليه أيضا الحزب الإغريقى لأنه كان من دعاة التعاون مع السلوقيين. ولكن ألكيموس مالبث أن ظهر على حقيقته بإعدامه ٦٠ من الأتقياء. كما أن قائد الجيش السلوقى أعدم عددا كبيرا من اليهود. فعاد أنصار يهوذا للإلتفاف حوله ثانية وبدأوا يتحفزّون لمعاودة نشاطهم الثورى. وخوفا من محاصرته فى حصنه حاول القائد نيكانور الذى يرأس الحامية السلوقية فى أورشليم الخروج بجنده من المدينة وسار غربا فى الطريق الموصِّل إلى السهل الساحلى ولكن الثوار لحقوا به عند بلدة «عداسا Adasa» وقتلوه (شكل ٩٦ أ). ويحتفل اليهود بـ «يوم نيكانور» ذكرى هذا الانتصار وقتل الضابط نيكانور. ولكن قائد عام الجيش السلوقى «باخيدس Bacchides» جاء بقوة أكبر للانتقام لمقتل ضابطه وجنوده ووقعت المعركة عند بلدة «إلياسا Eleasa» (شكل ٩٦ ب). وهُزِم المكابيون وقُتِل يهوذا وفر الأحياء من الثوار إلى الجبال. وتولى قيادة الثورة يوناثان شقيق يهوذا.

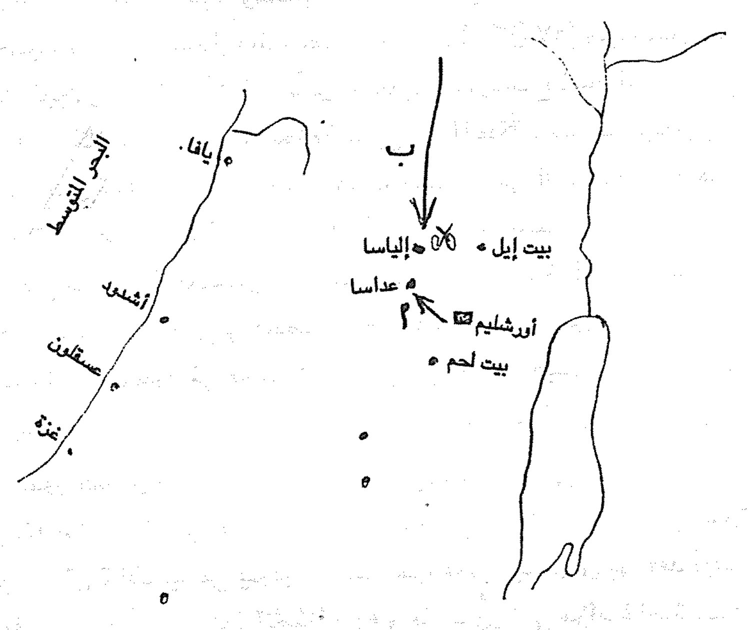
٣ - يوناثان :

هو الابن الأصغر للكاهن متاتياس. وشقيق يهوذا. وهو الذى تولى قيادة الثورة بعده. ولجأ إلى جبال الأردن وجبال يهوذا احتماء بها من بطش باخيدس قائد الجيش السلوقى. ولحماية أورشليم من استيلاء الثوار عليها ولحماية ما بها من اليهود المشايعين للحكم السلوقى أقام باخيدس حصونا فى مدن تشكل دائرة حول أورشليم (شكل ٩٧) وترك بكل منها حامية من الجنود السلوقيين وبذلك ظن أن قد ضَمِنَ استتباب الأوضاع فعاد إلى أنتيوخ فى سوريا (شكل ٩٨) والتى كانت مركز قيادة الجزء الغربى من المملكة السلوقية. ولكن يوناثان سرعان ما جمع أنصار الثورة واستأنف نشاطاته وهاجم «بيت باسى Beth Basi» (٢ كم جنوب شرق بيت لحم) واستولى عليها بينما كان سمعان أخوه يجمع أنصارا للثورة من مختلف المناطق وبدأ الاثنان فى مهاجمة الحصون فى مختلف المدن من مختلف الاتجاهات وحرقها ثم الاختفاء. وعاد القائد باخيدس إلى المنطقة ورأى أنه من المستحسن الوصول إلى حل وسط مع الثوار. فسمح لهم بالوجود فى «مكماش» و «بيت باسى» و «بيت لحم» على أن يبقى اليهود الموالين لسلوقيا فى أورشليم وبيت زور وهدأت الأحوال على هذا الوضع ٤ سنوات.

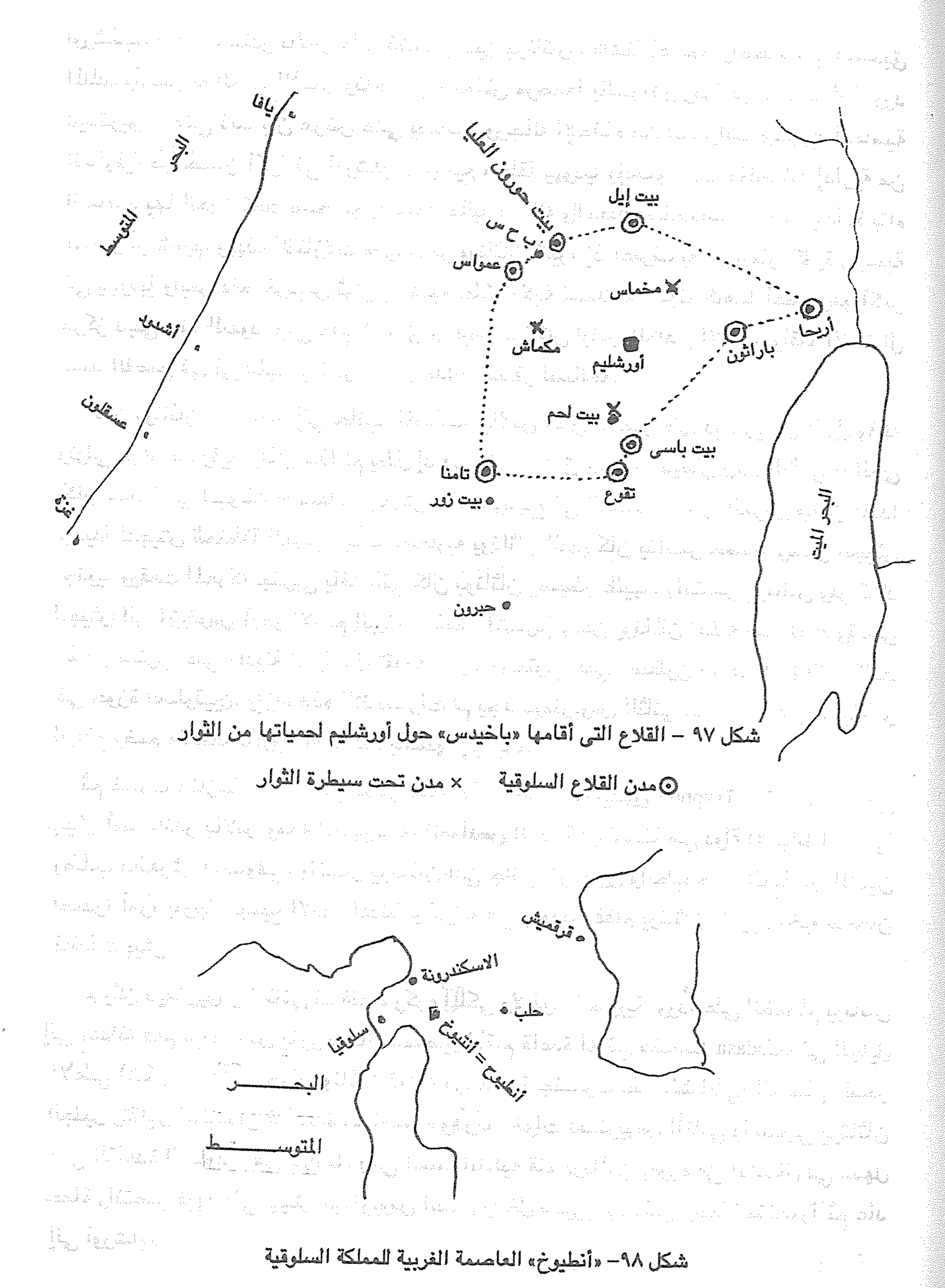
بعد ذلك ظهر لديمتريوس (ابن سلوقس الرابع) منافس على عرش سلوقيا هو ألكساندر بالاس على أنه ابن ثان لأنطيوخس الرابع وبدأ الصراع بين المتنافسين على العرش السلوقى. ولما كان رجال الثورة الكابية فى يهوديا قد أصبحوا قوة لا يستهان بها فقد أراد كل جانب أن يضمن وقوفهم فى صَفِّه فى هذا الصراع وهو ما تحوَّل إلى مزايدة استفادت منها الثورة المكابية كثيرا فقد أطلق ديمتريوس جميع الأسرى اليهود لديه وسمح ليوناثان بالدخول إلى



شكل ٩٥ – معركة بيت زكريا ومقتل إليعازار



شكل ٩٦ – أ – معركة عداسا ومقتل نيكانور .
ب – معركة إلياسا ومقتل يهوذا .



شكل ٩٧ – القلاع التى أقامها «باخيدس» حول أورشليم لحمياتها من الثوار

⊙مدن القلاع السلوقية × مدن تحت سيطرة الثوار

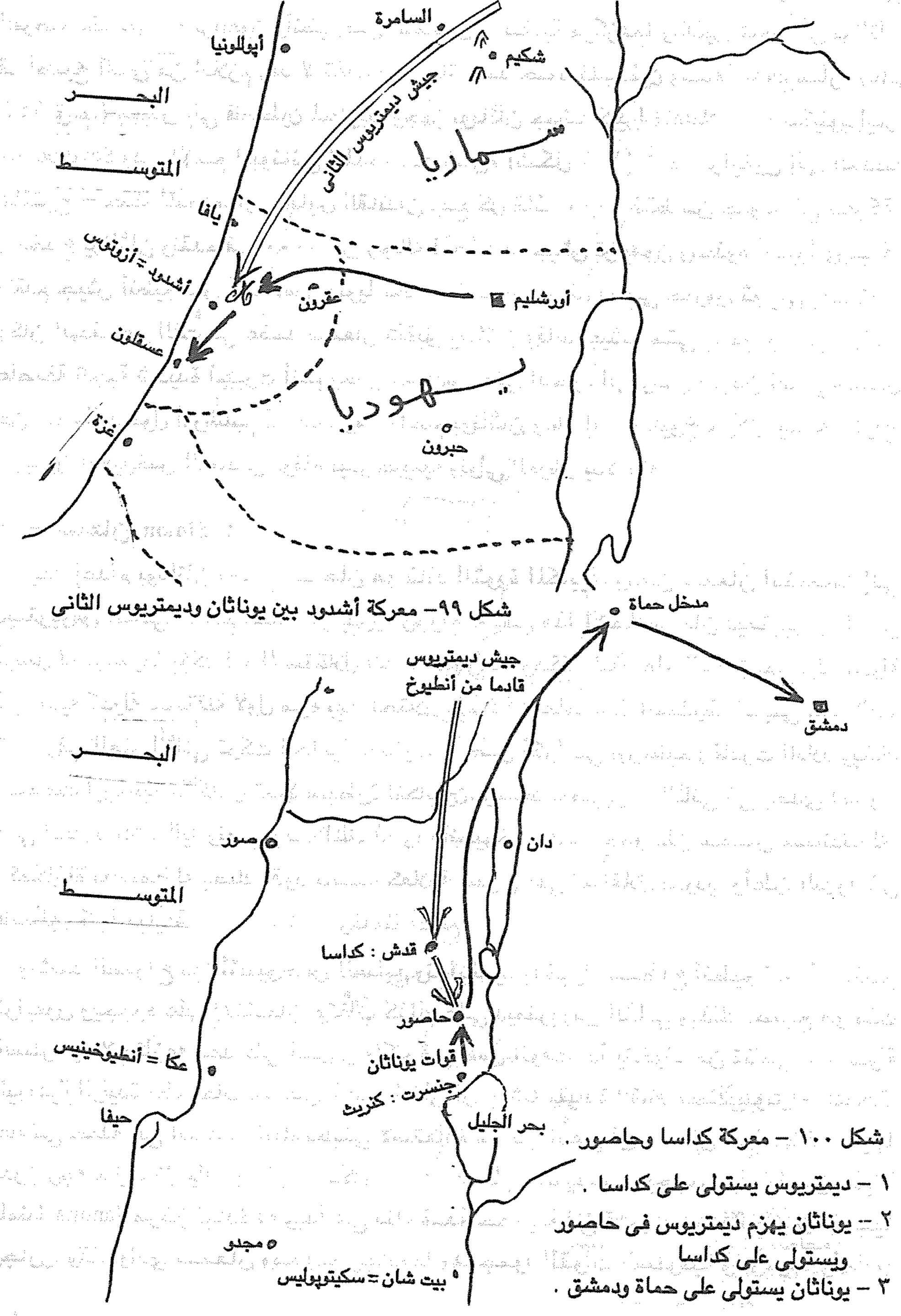
شكل ٩٨– «أنطيوخ» العاصمة الغربية للمملكة السلوقية

أورشليم. وردَّ ألكسندر بالاس على ذلك بأن عيَّن يوناثان «كاهنا أعظم». وأعطاه لقب «صديق الملك» وأرسل له الروب الأحمر وتاجا من القماش مرصعا بالجواهر رمزا لهذه الصداقة. ورد ديمتريوس على ذلك بأن عرض على يوناثان ورجاله الإعفاء من الضرائب وخروج الحامية السلوقية من حصن أكرا فى أورشليم وتوسيع منطقة يهوديا بإلحاق ثلاث مقاطعات إدارية من السامرة بها لتكون تحت سيطرته وإعانات مالية لرجاله وللمعبد ومخصصات مالية لإعادة بناء أسوار أورشليم. وبهذه التنازلات قوى مركز يوناثان كثيرا إذ اعترف به الجانبان كقوة رئيسية فى يهوديا وليس فقط كرئيس ثوار بل شبه حاكم ولاية فضلا عن كونه كاهنا أعظم وهو أكبر مركز دينى عند اليهود. وفى عام ١٥٢ ق.م. لبس يوناثان لباس الكاهن الأعظم وأقام الاحتفال بعيد الفصح فى أورشليم وبدا أن الأمور بدأت تستقر لصالحه.

كان يوناثان قد انحاز إلى جانب ألكساندر بالاس الذى انتصر على ديمتريوس الأول وقتله وتولى عرش سلوقيا. ولكن هذا لم يطل إذ فى عام ١٤٧ ق.م. ظهر **ديمتريوس الثانى** - الذى كان مقيما فى اليونان - مطالبا بعرش والده. ونجح فى الاستيلاء على العرش وعيَّن قائدا جديدا للجيش للمنطقة الغربية وكلَّفه بمحاربة يوناثان الذى كان يناصر خصمه وسار الجيش جنوبا ووقعت المعركة جنوبى يافا التى كان يوناثان يسيطر عليها. وانتصر يوناثان وفر قائد الجيش إلى **أزوتوس** (وهو الاسم اليونانى لميناء أشدود) ولكن يوناثان تعقبه إلى هناك وقبض عليه واستولى على المدينة ثم واصل تقدمه جنوبا واستولى على عسقلون (شكل ٩٩) التى كانت فى حوزة السلوقيين. وإزاء هذه الانتصارات لم يجد ديمتريوس الثانى بدا من الاعتراف بالأمر الواقع وضم مقاطعة عكرون Accaron بأكملها إلى يهوديا.

ثم ظهرت منازعة أخرى على عرش سلوقيا إذ ظهر «ترايفون Tryphon» وكان قائدا فى جيش ألكساندر بالاس ومعه **أنطيوخس السادس** الذى كان لاجئا فى دولة الأنباط العربية وطالب بالعرش السلوقى. وانحاز يوناثان إلى جانب ترايفون وأنطيوخس السادس اللذين أصدرا أمرا بتوليته جميع الأمور المدنية والدينية فى يهوديا. فقام يوناثان بتعيين أخيه سمعان قائدا للجيش.

لم يكن **ديمتريوس الثانى** قد فقد مركزه الملكى ولا قوته الحربية. ورداً على انضمام يوناثان إلى أعدائه قام ديمتريوس بغزو شمال فلسطين وأقام قاعدة له فى «كداسا Cadasa» فى الجليل الأعلى (شكل ١٠٠) . وحركَ يوناثان قواته من قاعدة جنسرت على الشاطىء الشمالى لبحر الجليل وتقابل الجيشان فى بلدة «حاصور» وهُزِمت قوات ديمتريوس الثانى واستولى يوناثان على القاعدة السلوقية فى كداسا. وفى السنة التالية قام يوناثان بغزوة فى الشمال فى سهل حماة وانتصر فيها على جيش ديمتريوس الثانى ودخل سوريا ودمشق وحماة منتصرا ثم عاد إلى أورشليم.



شكل ٩٩– معركة أشدود بين يوناثان وديمتريوس الثانى

شكل ١٠٠ – معركة كداسا وحاصور .

١ – ديمتريوس يستولى على كداسا .

٢ – يوناثان يهزم ديمتريوس فى حاصور ويستولى على كداسا

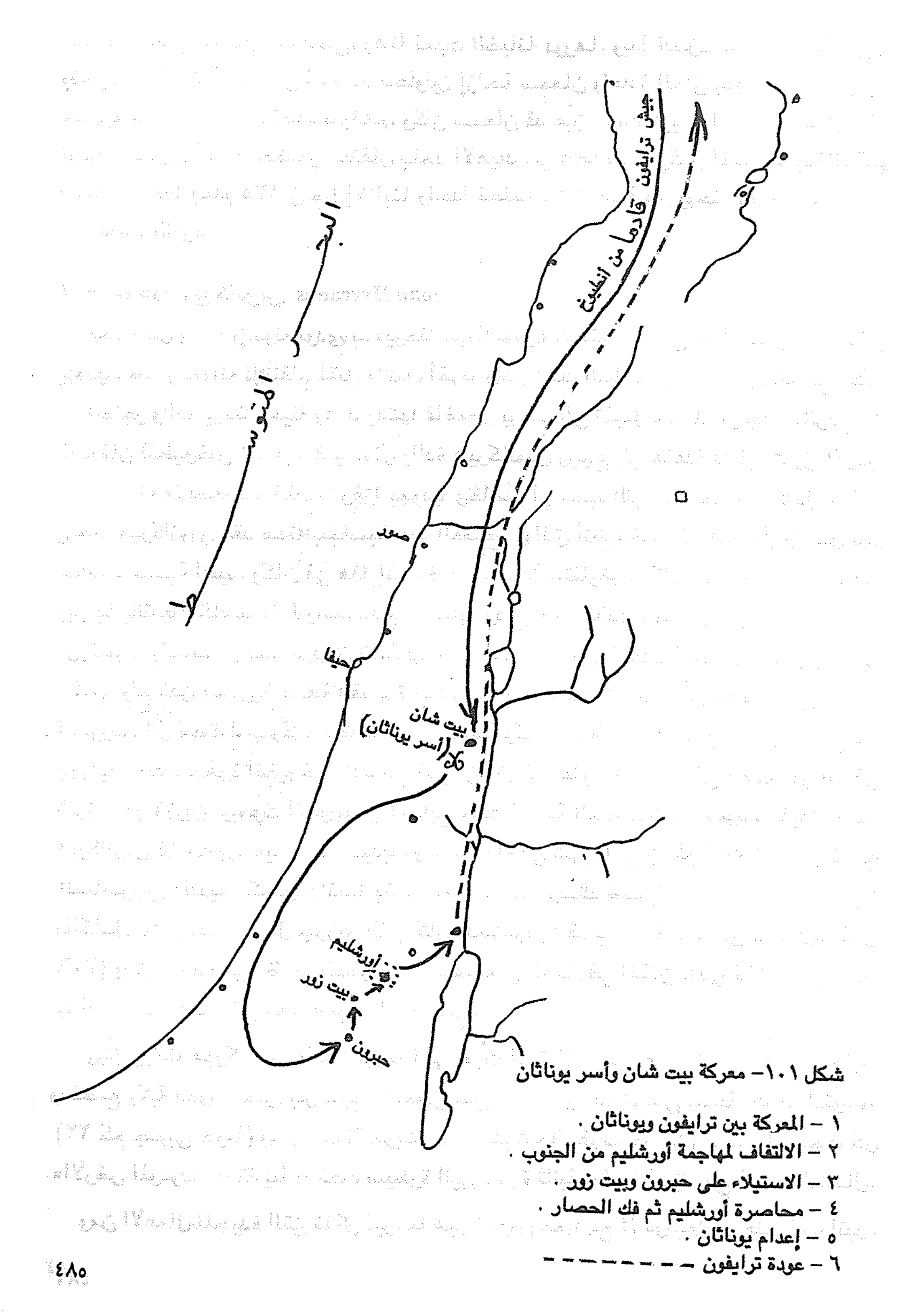
٣ – يوناثان يستولى على حماة ودمشق .

ثم انشغل ديمتريوس الثانى فى حروب لتأمين الحدود الشرقية للمملكة السلوقية مما أعطى الفرصة لخصومه - ترايفون وأنطيوخس السادس - لتقوية مركزهما واللذين شعرا أن يوناثان قد أصبح أقوى من اللازم وقد لا تقف طموحاته عند حدود فلسطين وحدها لذلك سارا (عام ١٤٣ ق.م.) بجيش إلى فلسطين لمحاربته وجهَّز يوناثان جيشا كبيرا وتقابلا عند «سكيثوبوليس Scythopolis وهو الاسم اليونانى لبلدة «بيت شان» (شكل ١٠١). ولجأ ترايفون إلى الخدعة فاقترح - حقنا للدماء. أن يتقابل القائدان ومع كل قائد ١٠٠٠ فقط من جنوده فى معركة. وانخدع يوناثان وتقدم فى ١٠٠٠ من رجاله فأحاط به جيش ترايفون وأخذوه أسيرا ورهينة. وتقدم جيش أنطيوخس السادس جنوبا بحذاء الساحل ثم شرقا إلى حبرون ثم إلى بيت زور. وكان الهدف هو الفتُّ فى عضد سمعان شقيق يوناثان وقائد جيشه حتى يسلِّم أورشليم. ولكن عاصفة ثلجية شديدة أجبرت أنطيوخس السادس على اللجوء إلى وادى الأردن الدافىء فعدل عن محاولة دخول أورشليم أو حصارها وأعدم يوناثان وعاد إلى أنطيوخ مركز قيادته. وأزاح ترايفون أنطيوخس السادس بوفاة تبدو طبيعية وتولى العرش بدلا منه.

٤ - سمعان Simon :

بعد إعدام يوناثان أصبح سمعان هو قائد الثورة المكابية. وأعلن سمعان انضمامه إلى ديمتريوس الثانى خصم القائد ترايفون. وجزاء له على هذا الإخلاص فإن ديمتريوس الثانى أرسل له مرسوما يؤكد فيه الاستقلال الكامل ليهوديا. وهكذا شهد عام ١٤٢ ق.م. مولد الدولة اليهودية كدولة مستقلة لأول مرة بعد احتلال دام ٤٤٤ عاما منذ السقوط البابلى عام ٥٨٦ ق.م. وفى العام الثانى تركت الحامية السلوقية حصن أكرا فى أورشليم وغادرت البلاد وبذلك أصبحت أورشليم بالكامل تحت سيطرة المكابيين. وسقط ديمتريوس الثانى فى إحدى المعارك على الحدود الشمالية وتولى بعده المُلكَ أخوه «أنطيوخس السابع» وأعلن سمعان مساندته له. وكمكافأة له سمح له بصك نقود باسمه كعلامة أخرى على استقلال يهوديا وأعلن اليهود فى فلسطين كلها مبايعة سمعان حاكما وكاهنا أعظم.

واشتد الصراع بين أنطيوخس السابع وترايفون. وأخيرا استطاع أنطيوخس أن يأسر ترايفون ويجبره على الانتحار. وتغلَّب كذلك على ديمتريوس الثانى وبذلك أصبح هو ملك السلوقيين لا ينازعه أحد على العرش ولكنه فى نفس الوقت بدأ يتخوف من تنامى قوة الدولة اليهودية الوليدة وطموحات سمعان حاكمها فأرسل جيشه بقيادة القائد «سنديبيوس Cendebe-us» فى حملة إلى الساحل الفلسطينى لاستعادة مناطق ادَّعى أن سمعان قد استولى عليها بدون وجه حق مثل يافا وجازر (شكل ١٠٢) . فسار سنديبيوس بجيشه واتخذ من مدينة جامنيا Jamnia مركز قيادة له وبدأ فى بناء قلعة حصينة فى قدرون Kidron - بين جامنيا وجازر. وقام ولدى سمعان ومعهما رجالهما وهاجموا القوات السلوقية وهزموها وأعادوا



شكل ١٠١– معركة بيت شان وأسر يوناثان

١ – المعركة بين ترايفون ويوناثان .
٢ – الالتفاف لمهاجمة أورشليم من الجنوب .
٣ – الاستيلاء على حبرون وبيت زور .
٤ – محاصرة أورشليم ثم فك الحصار .
٥ – إعدام يوناثان .
٦ – عودة ترايفون – – – – – – – –

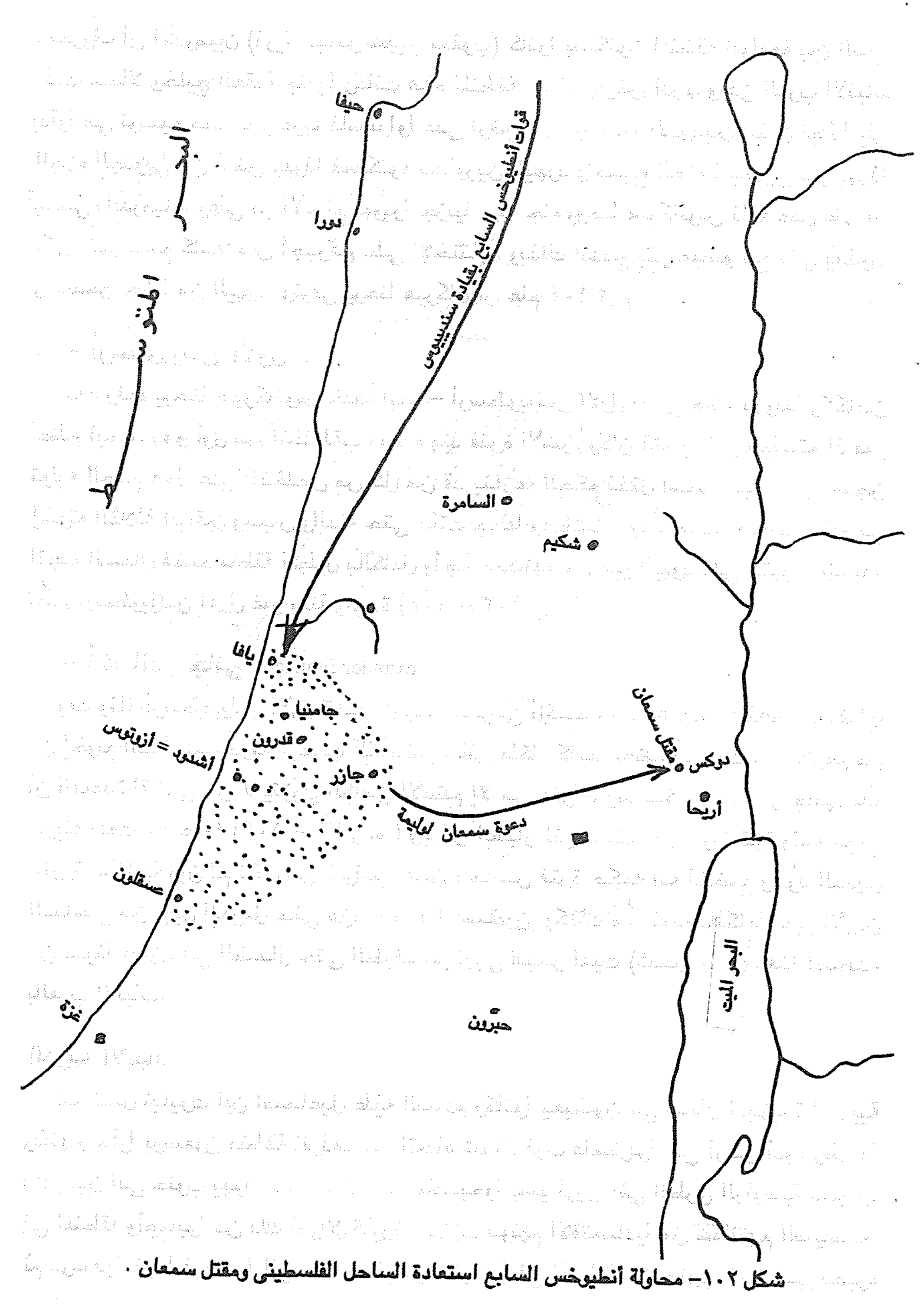
السيطرة على السهل الساحلى. وهنا لعبت الخيانة دورها. وبدأ الحزب الموالى للسلوقيين يتحرك لمساعدة أنطيوخس السابع محاولين إزاحة سمعان وإعادة إلحاق يهوديا ثانية كولاية سلوقية حتى يمكنهم استعادة نفوذهم. وكان سمعان قد عيَّن أحد أقاربه حاكما لمقاطعة أريحا. فدعا سمعان وأبناءه لحضور احتفال بأحد الأعياد فى قلعة بلدة دوكس المجاورة وهناك قام بقتلهم جميعا (عام ١٣٥ ق.م.) إلا ابنا واحدا تخلف عن الوليمة هو يوحنا هيركانوس فآلت إليه قيادة الثورة.

٥ - يوحنا هيركانوس John Hyrcanus :

بعد مقتل والده وإخوته نودى بـ «يوحنا هيركانوس» كاهنا أكبر فى أورشليم وحاكما على يهوديا. فسار بقواته للإنتقام لمقتل والده وأخويه ولكن الملك السلوقى (أنطيوخس السابع) كان قد احتجز والدة يوحنا رهينة وهدد بقتلها فاضطر يوحنا إلى تأجيل حصار أريحا. وبالرغم من ذلك فإن أنطيوخس السابع قام بقتل والدة هيركانوس ورجع إلى قاعدة له فى شرق الأردن كانت قواته متجمعة بها فقادها وغزا يهوديا وحاصر أورشليم التى صمدت لعام كامل. وطلب يوحنا هيركانوس عقد هدنة بمناسبة عيد الفصح. ووافق أنطيوخس السابع. بل وأرسل لهم هدايا بمناسبة العيد. وكان فى هذا إشارة لقبوله مبدأ التفاوض. وكانت شروطة هى اعتراف يهوديا بالتبعية لملك سلوقيا واستسلام أورشليم ودفع ٥٠٠ تالنت فضة فورا وهدم تحصينات أورشليم. (التالنت وحدة موازين تساوى ٩٣ رطلا - أطلس الكتاب المقدس - أونجر - ص ٨٤٤). ولم تكن الشروط بالغة القسوة إذ لم يتم إعدامات للشعب. وقَبِل يوحنا هيركانوس الشروط وظل محتفظا بمركزه كحاكم لولاية يهوديا وكاهنا أعظم فى أورشليم. وظل الوضع فى يهوديا تحت سيطرة أنطيوخس السابع إلى أن قتل فى عام ١٢٩ ق.م. فى إحدى غزواته فى شرق بحر قزوين. وبموت أنطيوخس السابع خفَّت قبضة السلوقيين عن يهوديا. فبدأ يوحنا هيركانوس غزوات توسعية فضم «ميدبا» و «سماجا» فى شرق الأردن. ثم اتجه شمالا وأخضع السامريين الذين كانوا دائما يضايقون اليهود وبذلك ضم إلى نفوذه ولاية سماريا بالكامل. وقام بهدم هيكل جرزيم الذى كان السامريون قد بنوه كما سبق أن ذكرنا (ص ٣٠٦) ولكن السامريين ظلوا يقدمون قرابينهم على الجبل فى المكان الذى كان به هيكلهم. وظلوا يفعلون ذلك حتى جاء المسيح عليه السلام.

ووثَّق يوحنا هيركانوس علاقته بروما التى أقرَّت استقلاله. وفى عام ١٢٥ ق.م. اتجه جنوبا وأخضع ولاية إيدوميا حتى بئر سبع واستولى على ميناء دورا Dora على ساحل البحر المتوسط (٢٢ كم جنوبى حيفا) وعلى مدينة مريشا (٢٠ كم شمال غرب حبرون) وهكذا أصبحت كل «الأرض الموعودة» - تقريبا - تحت سيطرة اليهود مرة ثانية. ماعدا أجزاء فى أقصى الشمال.

ومن الأعمال المجيدة التى تذكر ليوحنا هيركانوس هو دمج الأدوميين فى بنى إسرائيل.



شكل ١٠٢- محاولة أنطيوخس السابع استعادة الساحل الفلسطيني ومقتل سمعان.

فمعروف أن الأدوميين (ذرية عيسو شقيق يعقوب) كانوا يسكنون المنطقة الواقعة بين البحر الميت شمالا وخليج العقبة جنوبا وكانت هذه المنطقة تعرف بأرض أدوم. ولكن العرب الأنباط بدأوا فى توسيع مملكتهم غربا فاستولوا على أرض أدوم وطردوا الأدوميين الذين لجأوا إلى الجزء الجنوبى من أرض يهوذا فسكنوه مجاورين اليهود وأصبح الجزء الجنوبى من يهوذا يسمى «إيدوميا». وعلى مر الأعوام تهوَّدوا جزئيا. ولما جاء يوحنا هيركانوس فإنه عمل على أن يكون تهويدهم كاملا بأن أجبرهم على الإختتان. وبذلك اندمج بنو عيسو مع بنى يعقوب وأصبحوا جزءا من اليهود. وتوفى يوحنا هيركانوس عام ١٠٤ ق.م.

٦ - أرسطوبولس الأول :

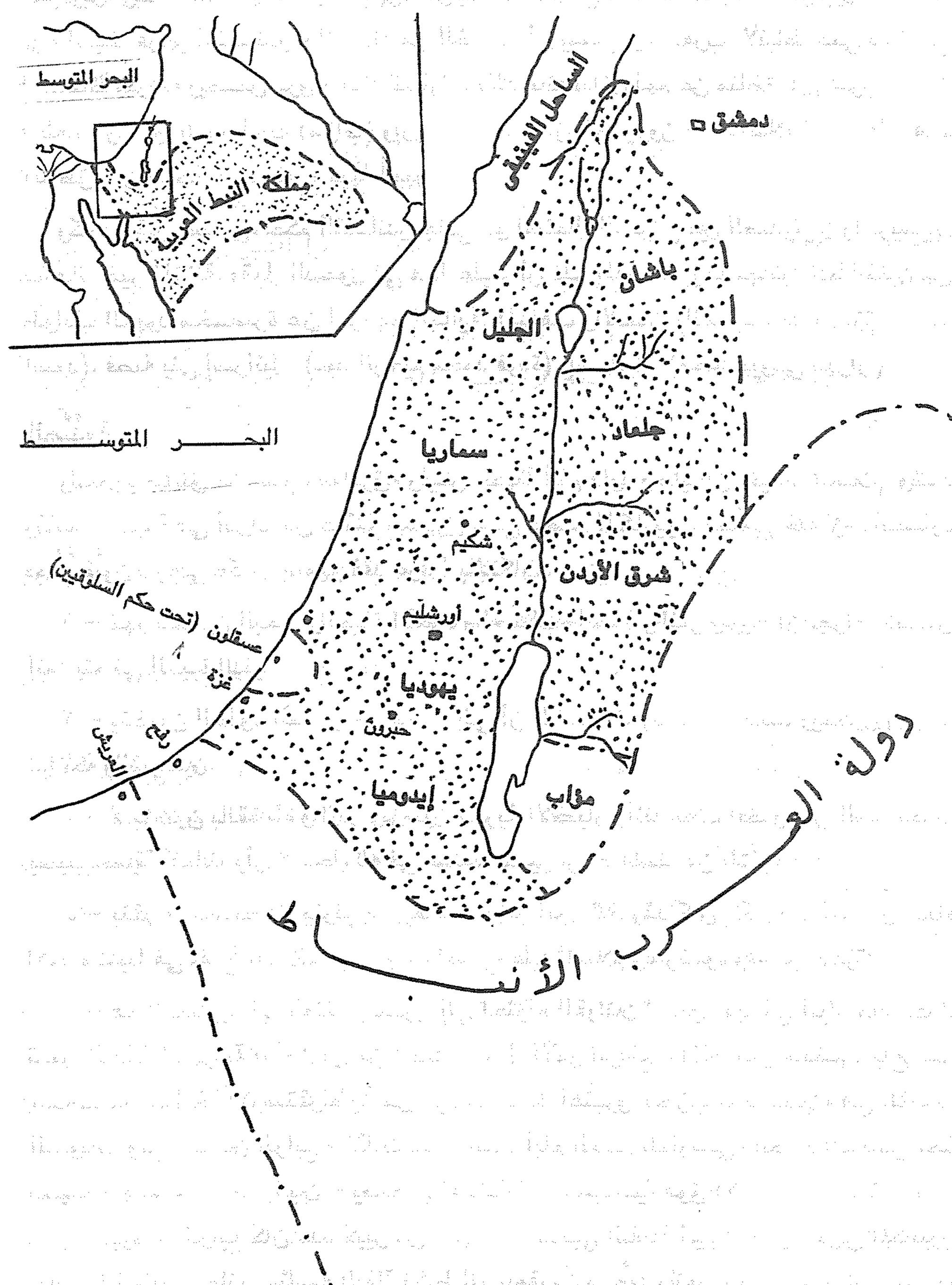
بعد وفاة يوحنا هيركانوس خلفه ابنه - أرسطوبولس الأول - فى حكم يهوديا وككاهن أعظم أيضا. وهو أول من اتخذ لقب «ملك» منذ فترة الأسر. وكان قاسيا فى سياسته إذ فور توليه الحكم عمل على التخلص من كل من قد ينازعه الحكم فقتل أخاه أنتيجونس وسجن إخوته الثلاثة الباقين وحبس والدته حتى ماتت جوعا وعطشا. ووسَّع مملكته ووطَّدَ ملكه فى اتجاه الشمال فضم منطقة الجليل بالكامل وأجبر سكانها من غير اليهود على التهوُّد. ولم يدم حُكم أرسطوبولس الأول غير سنة واحدة (١٠٤ - ١٠٣ ق.م.).

٧ - ألكساندر جانى Alexander Jannaeus :

بعد وفاة أرسطوبولس الأول قامت زوجته سالومى ألكسندرا Salome Alexandra بالإفراج عن إخوته الثلاثة المسجونين وعينت ألكساندر جانى ملكا وكاهنا أعظم وتزوجت منه بالرغم من أن القاعدة تقضى بأن لا يتزوج الكاهن الأعظم إلا من عذراء. وقد حكم ألكساندر جانى مدة طويلة بلغت ٢٧ عاما (١٠٣ - ٧٦ ق.م.) ويمكن اعتبار فترة حكمه هى ذروة قوة وقمة نجاح الثورة المكابية وإن لم تخل من شوائب. فمن محاسن فترة حكمه أنه أخضع وهوَّد السهل الساحلى من جبل الكرمل حتى غزة - ماعدا عسقلون. وكذلك مدَّ نفوذه بالكامل عبر الأردن من مدينة «دان» فى الشمال حتى الطرف الجنوبى للبحر الميت (شكل ١٠٣) وهنا اصطدم بالعرب الأنباط.

العرب الأنباط :

هم نسل نبايوت ابن اسماعيل عليه السلام وكانوا يعيشون فى شمال الجزيرة العربية ولكنهم بدأوا يوسعون منطقة نفوذهم فى اتجاه شمال غرب فاستولوا على أرض أدوم وطردوا الأدوميين إلى جنوب يهوذا كما ذكرنا آنفا فأصبحوا يسيطرون على الطرق الرئيسية للتجارة فى المنطقة وأصابوا من ذلك أموالا كثيرة. وعززت قوتهم الاقتصادية من مكانتهم السياسية. ثم توسعوا غربا فوصلوا إلى ساحل البحر المتوسط فى المنطقة من جنوب غزة حتى بحيرة



شكل ١٠٣– مملكة اليهود المكابية فى أقصى توسعها فى عهد ألكساندر جانى (١٠٠ ق.م.) ومملكة النبط العربية .

البردويل. ويدأ خطر يتهدد دولة اليهود الوليدة متمثلا فى تحالف الملوك السلوقيين مع ملوك دولة النبط. فرأى ألكساندر جانى أنه من الخير له أن يكسب ود العرب الأنباط حتى يستطيع الاحتفاظ بعرشه ويضمن مرورا آمنا لتجارته. لذلك فإنه تنازل لهم عن مناطق فى شرق الأردن (جلعاد) وشرق البحر الميت (مؤاب) وإن كان بعض المؤرخين يرون أن استيلاء النبط على هذه المناطق كان نتيجة حرب انهزم فيها اليهود.

وكانت أكبر مساوىء حكم ألكساندر جانى هو اشتعال الصراع بين الصدوقيين والفريسيين بأفعاله غير المتزنة. وقبل الدخول فى هذا علينا أن نلم إلمامة سريعة بهاتين الطائفتين من طوائف اليهود مختصرة عن المراجع التالية: المذاهب والأديان (العميد عبد الرازق محمد أسود). قصة بنى إسرائيل. (عبد الرحيم محمد فودة). إسرائيل. (محمد بيومى مهران).

الصدُّوقيون :

واسمهم مشتق من اسم «صادوق» رئيس الكهنة أيام داود وسليمان عليهما السلام. وظلت رئاسة الكهنة فى أفراد من عائلة صادوق حتى عصر المكابيين. فسُمِّى خلفاؤه وأنصاره «صدُّوقيُّون». وعلى عكس اسمهم فقد عرفوا بالإنكار:

١ – فهم ينكرون البعث والحياة الآخرة والحساب والجنة والنار ويرون أن جزاء الإنسان إنما يتم فى الحياة الدنيا.

٢ – ينكرون الخلود الفردى ويذهبون إلى أن النفس تموت مع الجسد وينكرون وجود الملائكة والشياطين.

٣ – لا يؤمنون بالقضاء والقدر ويؤمنون بحرية الاختيار وأننا سبب الخير وأن الشر يحدث بسبب حماقة أفعالنا وأن لا دخل لله فى صنعنا للخير أو إعراضنا عن الشر.

٤ – ينكرون المسيح ولا يترقبونه ويقولون عزير ابن الله. وقد كان إنكارهم للبعث والحياة الآخرة سببا فى وقوع الخلاف بينهم وبين المسيح عليه السلام وعارضوه وقاوموا دعوته.

٥ – هم لا يميلون إلى العنف ويميلون إلى احترام القوانين المعمول بها فى البلد مادامت لا تمس الديانة اليهودية ويرون أن من الحكمة قبول الأمر الواقع. ولذلك كان معظم أتباع هذا المذهب من الطبقة الأرستقراطية من اليهود ولذلك اعتُبروا «حزب المحافظين» فى الشعب اليهودى. وفى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد أيام الحكم الفارسى والحكم اليونانى أخذ الكهنة – وهم من الصدوقيين – يضعون الاعتبارات السياسية فوق الاعتبارات الدينية. وفى زمن أنطيوخس الرابع كان عدد كبير من الكهنة من محبى الثقافة اليونانية. ولما تولى المكابيون رئاسة الكهنوت بجانب رئاسة الدولة نشط الصدوقيون وزجُّوا بأنفسهم فى السياسة وزادوا تقربا من الثقافة والنفوذ اليونانيين. وقد أبدى يوحنا هيركانوس ميلا إلى الصدوقيين. أما

ألكساندر جانى فقد كان منحازا بالكامل إلى الصدوقيين إلى حد التعصب وتمادى فى معاداة الفريسيين.

الفريسيون :

وفريسى كلمة أرامية معناها «المنعزل» ويمكن تشبيههم بفرقة «المعتزلة» إحدى الفرق الإسلامية. ويرى أونجر (قاموس الكتاب المقدس . ص ٩٩٧) أن البعض يرجع نشأتهم إلى وقت عودة السبى بقيادة زربابل أو مع عزرا واعتزالهم للوثنيين الذين وجدوهم يعيشون فى الأرض واعتزالهم لنجاساتهم ولكن آخرين يرون أنهم لم يعتزلوا نجاسة الوثنيين فقط بل - لتزمُّتهم الشديد - فإنهم اعتزلوا كل ما أصاب اليهود من تقاليد وممارسات يشتبه فى نجاستها. وهم إحدى الفئات اليهودية الرئيسية وكانوا مناهضين للصدوقيين. وأهم ما يميز مذهبهم هو أنهم:

١ - يؤمنون بالقدر ويجمعون بينه وبين إرادة الإنسان الحرة.

٢ - يؤمنون بخلود النفس وقيامة الجسد ووجود الأرواح ومكافأة الإنسان أو معاقبته فى الآخرة بحسب صلاح حياته الأرضية أو فسادها. غير أنهم حصروا الصلاح فى طاعة الناموس فجاءت عباداتهم ظاهرية وليست قلبية داخلية.

٣ - يؤمنون بالمسيح الذى سيجىء ليعيد ملكوت الله وأن دولة اليهود لابد أن تستعيد مكانتها.

٤ - يؤمنون بأنه إلى جانب الأسفار الخمسة من التوراة يوجد التلمود وهو روايات شفاهية ومجموعة من القواعد والوصايا والشروح والتفاسير تناقلها الحاخامات جيلا بعد جيل. أى أنها توراة شفاهية أو تقليد سماعى عن موسى تناقله الخلف عن السلف ولكن دوَّنوه خوفا عليه من الضياع وزعموا أنه معادل للشريعة أو أهم منها. ولضمان تقديس التلمود أعلنوا أن الحاخامات معصومون وأن أقوالهم صادرة عن الله تعالى وأن مخافتهم هى مخافة الرب.

٥ - كان الفريسيون عند نشأتهم من أنبل الناس خلقا وكان أكثرهم يعيشون فى تصوف وزهد ولا يتزوجون. غير أنهم على مر الزمان دخل حزبهم من كان دون ذلك ففسد جهازهم واشتُهر عن معظمهم الرياء والعُجب فتعرضوا - عن استحقاق - للانتقاد اللاذع والتوبيخ القاسى.

٦ - كانوا ينظرون إلى الأمور ليس من وجهة نظر سياسية بل من وجهة نظر دينية. وكان هدفهم هو التطبيق الحرفى للشريعة. وفقط عندما بدأت السلطات المدنية تمنعهم من تطبيق الشريعة بحذافيرها فإنهم تجمَّعوا وبدأوا يعارضون السلطات وبذلك تحولوا إلى حزب ولكنهم لا يؤمنون بالعنف. لذلك كانوا ينظرون إلى الأمور السياسية بنظرة غير مبالاة. وفى نظرهم أنه

إذا ساد الوثنيون على إسرائيل فهذه إرادة الله وأنه تأديب من الرب ويجب قبوله بنفس راضية. وأن أى حكومة قاسية أو ظالمة يجب تحملها مادام تطبيق تعاليم الشريعة لا يُمنع. وفى المقابل فإنهم يؤمنون بمبدأ أفضلية اليهود بصفتهم شعب مختار وأن أى سيادة وثنية عليهم هى ظرف شاذ ويجب مناهضته. كما أنهم يؤمنون بأن الحكم يجب أن يكون فى بيت داود الذى مسحه الله.

٧ – كانوا يتجنبون الاختلاط بالوثنيين بصفتهم نجسين. ثم انسحب عدم الاختلاط كذلك على فِرَق اليهود الأخرى لأنهم فى نظرهم غير طاهرين. وقد اشتركوا فى الثورة المكابية ضد أنطيوخس الرابع وكان يوحنا هيركانوس من الفريسيين ولكنه تركهم والتحق بالصدوقيين وتمادى ابنه ألكساندرجانى فى عداوته للفريسيين.

وكما سبق أن قلنا إن تصرفات ألكساندر جانى زادت من حدة الصراع بين الفريقين. مثال ذلك أنه فى أحد الأعياد الدينية (عيد الفصح) بدلاً من أن يسكب الماء المقدس على المذبح كما تقضى بذلك التقاليد الفريسية فإنه سكبه على قدميه! فردَّ المتعبدون من الفريسيين بقذفه بالليمون. وكان رده عنيفا إذ أعدم ٦٠٠٠ من الفريسيين مستخدما فى ذلك جنودا مرتزقة وقامت على إثر ذلك حرب أهلية بين الجانبين سقط فيها ٥٠,٠٠٠ معظمهم من الفريسيين الذين اضطروا إلى طلب العون من العاهل السلوقى ديمتريوس الثالث الذى سرعان ما استجاب وغزا فلسطين وهزم ألكساندر جانى فى شكيم. ولكن الفريسيين أدركوا ما قد يتهدد استقلال دولة اليهودية من جراء هذا التدخل الخارجى وبدأوا يراجعون أنفسهم ورأوا أنه من الأفضل لهم أن يعيشوا تحت حكم الصدُّوقيِّين من اليهود عن أن يحكمهم السلوقيون. وبدأوا يتركون معسكر ديمتريوس الثالث الذى لمس هذا التحول فى المشاعر نحوه فآثر أو اضطر إلى الانسحاب. وعاد ألكساندر جانى. ولم يعامل معارضيه بالرحمة بل إنه أمر بصلب ٨٠٠ فريسى وقتل زوجاتهم وأولادهم أمام أعينهم بينما كان هو يعربد مع محظياته.

وأصيب ألكساندرجانى بالأمراض نتيجة انغماسه فى الملذات الحسِّية. وفيما هو على فراش الموت أدرك أن الفريسيين يحظون بمساندة شعبية كبيرة فأوصى زوجته سالومى ألكساندرا بعقد صلح معهم وتوفى عام ٧٦ ق.م.

٨ – سالومى ألكساندرا :

بعد وفاة ألكساندرجانى تولت زوجته سالومى ألكساندرا الحكم وعينت نجل ألكساندر جانى المسمى هيركانوس الثانى كاهنا أعظم وكبحت جماح الابن الثانى أرسطوبولس الثانى الذى كان يتطلع إلى هذا المنصب. واتبعت سياسة المهادنة مع الفريسيين كما أوصاها زوجها

قبل وفاته. وقد تميزت فترة حكمها (٧٦ – ٦٧ ق.م.) بالهدوء. وقاد أرسطوبولس حملة إلى دمشق ولكنها منيت بالفشل ونجحت الملكة فى إبعاد خطر الغزو من جانب أرمينيا فى الشمال باتباع سياسة الدبلوماسية وتقديم الهدايا. كما أنها نجحت إلى حد كبير فى حفظ التوازن بين حزبى الدولة الرئيسيين: وهم الصدوقيون والفريسيون.

٩ – أرسطوبولس الثانى :

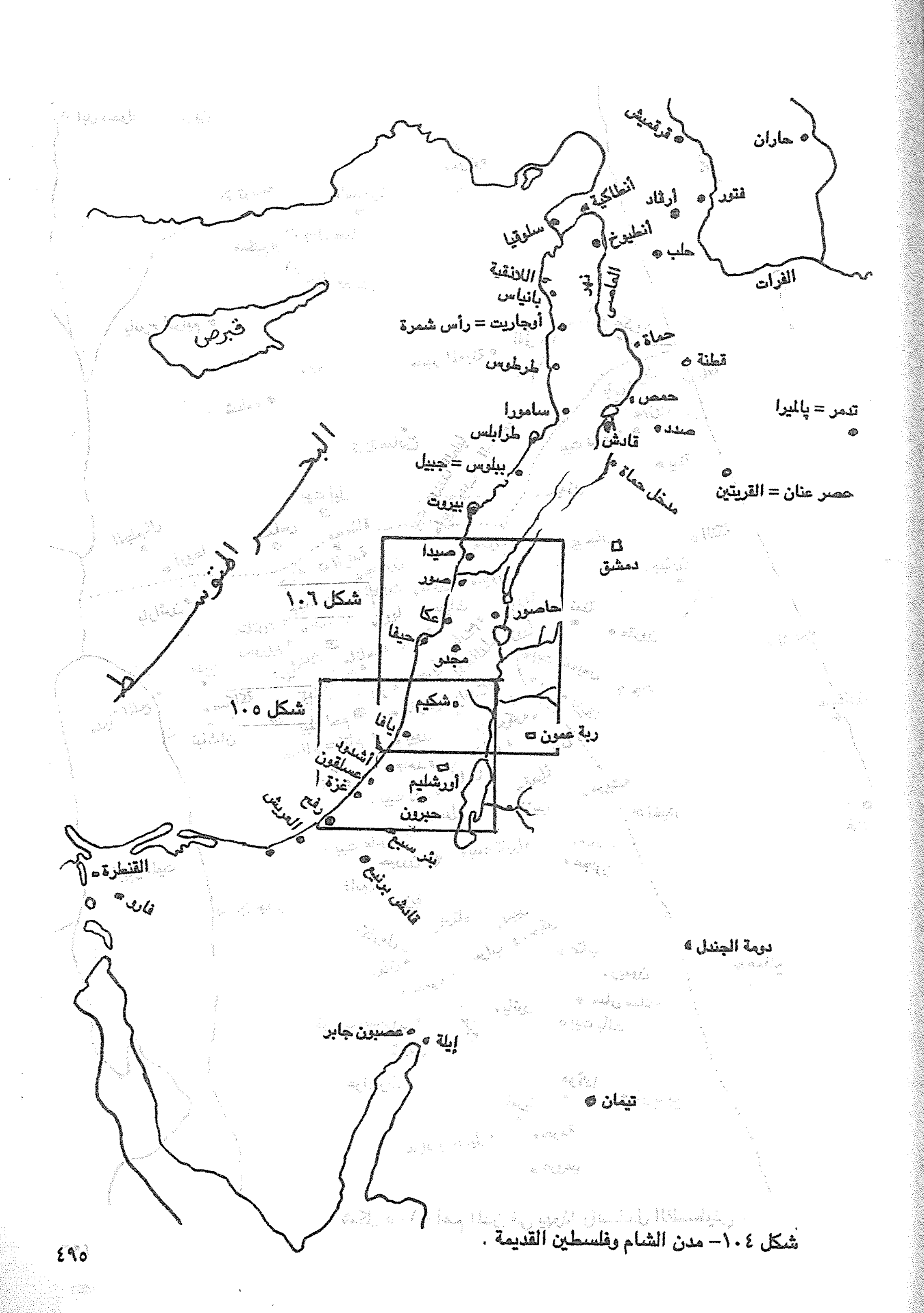
بمجرد وفاة سالومى ألكساندرا قام أرسطوبولس الثانى يسانده الجيش بحركة ضد هيركانوس الثانى – صاحب الحق الشرعى فى الحكم والمعيَّن كاهنا أعظم – فأبعد عن الحكم وتولى أرسطوبولس الثانى الحكم ومنصب الكاهن الأعظم أيضا. وانسحب هيركانوس الثانى من الحياة السياسية بهدوء. ولكن «أنتيباتر» – وهو أدومى تهوَّد – وكان قد وُلِّى حاكما على مقاطعة أدوميا – رأى أن يؤجِّج الصراع بين الأخوين فأغرى هيركانوس باللجوء إلى «أريتاس» ملك النبط ليساعده فى الإطاحة بأرسطوبولس واستعادة حقه فى الحُكم. وقام أريتاس بغزو أورشليم. فى ذلك الوقت كانت قوات روما تتقدم شرقا فى آسيا الصغرى. ووصل القائد الرومانى إلى دمشقٍ عام ٦٥ ق.م. فمثل أمامه الأخوان أرسطوبولس الثانى وهيركانوس الثانى حاملين الهدايا وكلٌ يطلب تعيينه حاكما وكاهنا أعظم لليهود. وأقر القائد الرومانى بقاء أرسطوبولس الثانى فى منصب الكاهن الأعظم وحاكما أيضا. وطلب من أريتاس ملك النبط سحب قواته من أورشليم. ولما وصل پومپى حاكم روما والقائد الأعلى للقوات الرومانية بنفسه إلى دمشق عام ٦٣ ق.م. مثل الأخوان الخصمان أمامه وطلبا حلاً للنزاع بينهما. ولم يبت پومپى فى الحال فى طلبهما إذ انشغل فى حملة ضد العرب الأنباط. ولما لم يشترك أرسطوبولس فى الحملة إلى جانبه فإنه بعد أن فرغ من النبط سار بقواته إلى أورشليم. وفتح أعوان هيركانوس الثانى أبواب المدينة التى تقع فى ناحيتهم لقوات روما. ولكن أتباع أرسطوبولس الثانى ظلوا متمسكين ويدافعون عن جبل المعبد. وبعد حصار دام ثلاثة أشهر دخل الرومان منطقة المعبد وتم إعدام ١٢,٠٠٠ يهودى. وبعد الاستيلاء على المعبد دخل پومپى بنفسه إلى قدس الأقداس ولكنه سرعان ما أمر بأن يُنظَّف المعبد ثانية وتقدم الذبائح اليومية كما كانوا يفعلون فى السابق. أما أرسطوبولس وكل أفراد أسرته فقد أخذوا أسرى إلى روما.

١٠ – هيركانوس الثانى :

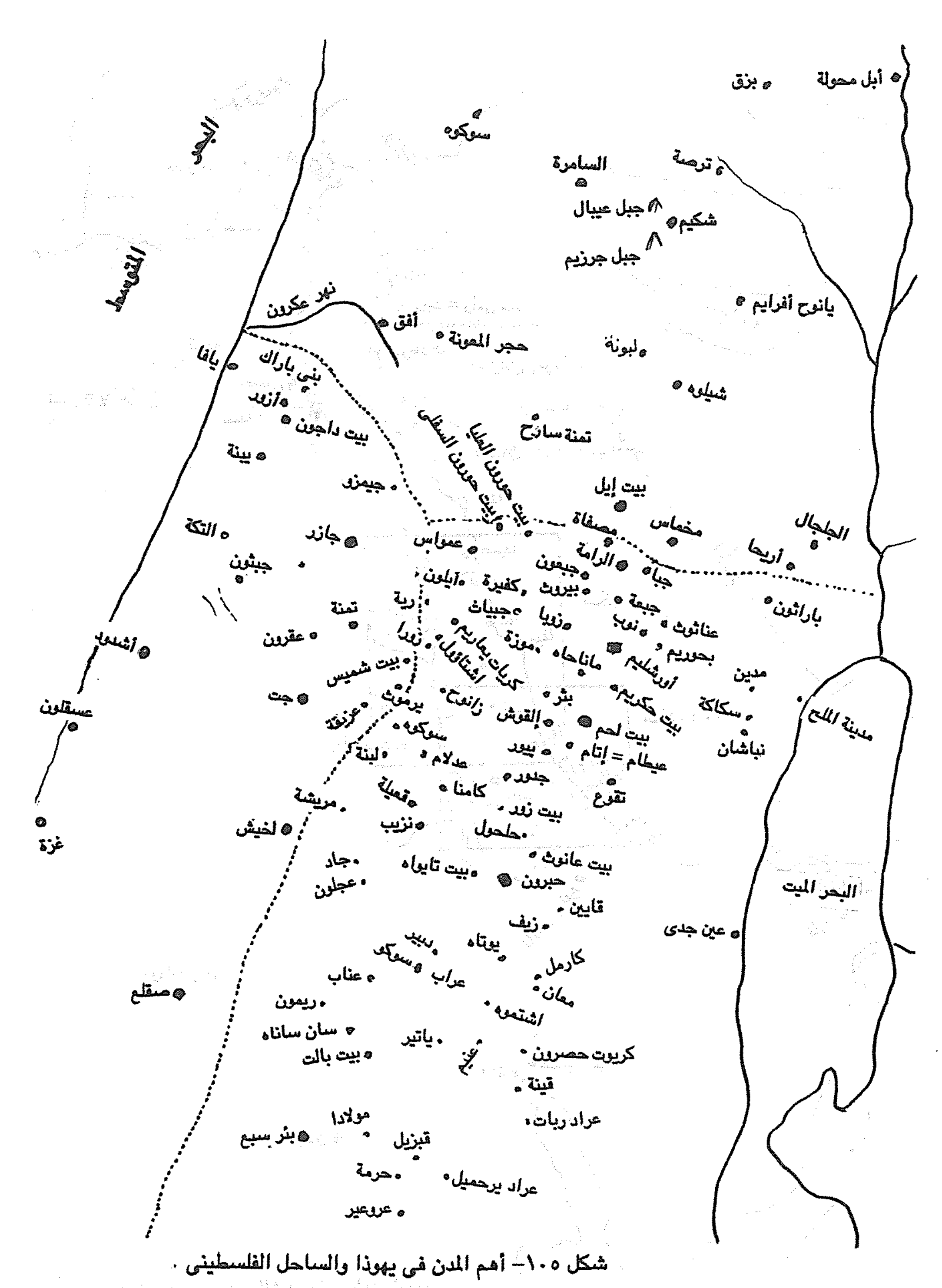
تم إعادة هيركانوس الثانى إلى منصب الكاهن الأعظم والذى كان يشغله قبل إزاحة أرسطوبولس له. ولكن هيركانوس لم تكن له أى سلطة سياسية أذ كانت يهوديا وأورشليم تحت قبضة الرومان القوية بعد أن أصبحت كل فلسطين ولاية رومانية فى عام ٦٣ ق.م. وظل هيركانوس كاهنا أعظم لمدة ٣٣ سنة إذ قتل فى عام ٣٠ ق.م. وكان هو آخر سلالة الأسرة الحسمونية التى حكمت يهوديا أثناء الثورة المكابية.

ختام :

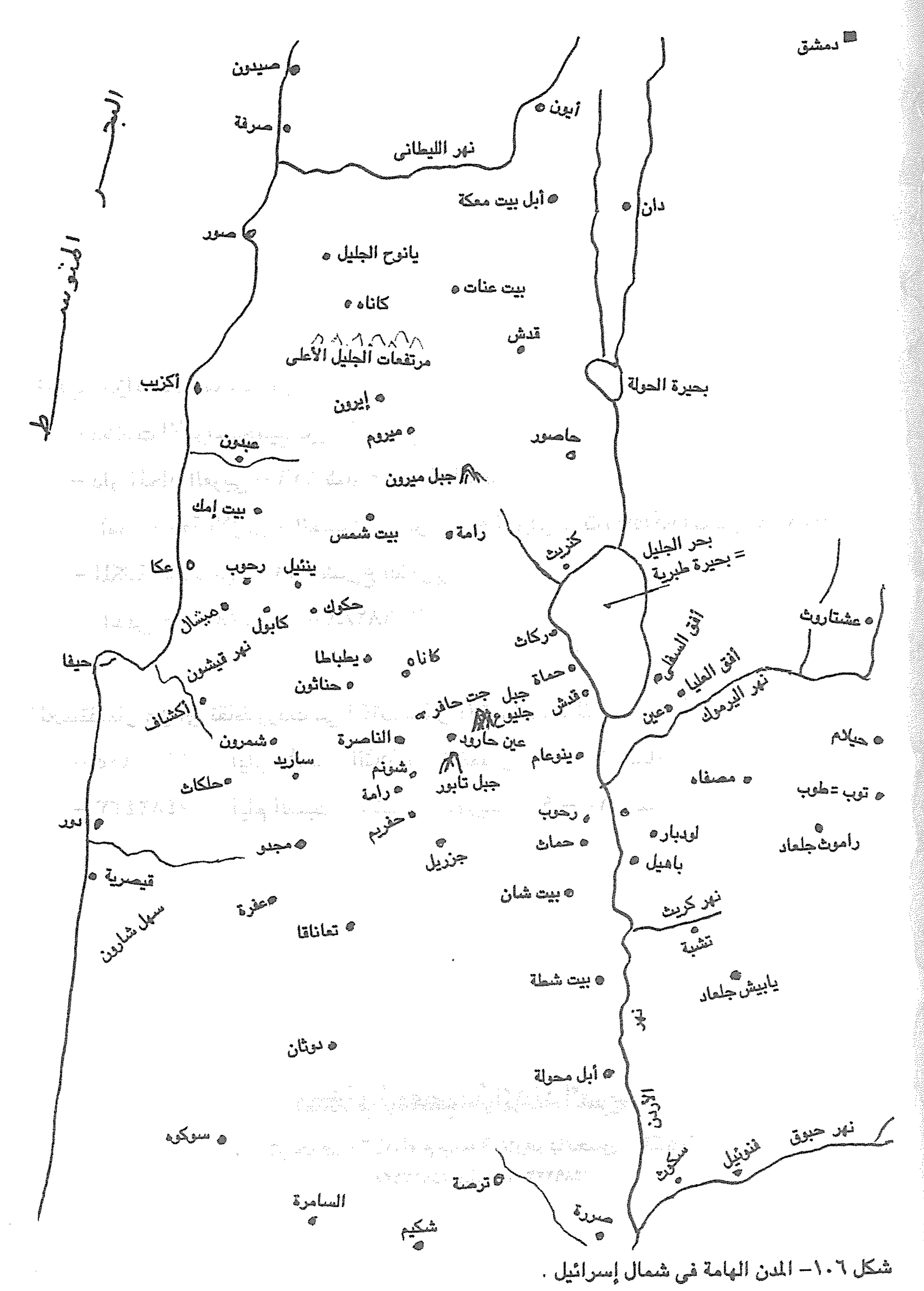
يعتز اليهود كثيرا بهذه الثورة ويعتبرونها من مفاخرهم العظمى إذ أنها حققت لهم الاستقلال الكامل بعض الوقت. وأطلق على بعض حكامها لقب «ملك» الأمر الذى لم يتمتعوا به منذ عدة قرون . منذ الاحتلال الأشورى. ولكن الاحتلال الرومانى قضى على هذا الاستقلال وإن كانت يهوديا ظلت تحتفظ بوضع خاص إذ يحكمها حاكم من أبنائها هو «حاكم اليهودية» يدير شئونها الدينية والمدنية فيما يمكن اعتباره حكما ذاتيا تحت الحكم الروماني. ولكن اليهود ظلوا ينتظرون «المخلِّص» الذى توقعوا – حسب تفسيراتهم لنبوءات أنبيائهم – أن يخلِّصهم من الاستعمار الأجنبى ويعيد لهم استقلالهم ودولتهم بل ويصبح الآخرون خاضعين لهم. وجاء عيسى عليه السلام. ولكن مملكته كانت روحية ولم يعطِ لليهود ملكا دنيويا. لذلك رفضوه وأسلموه إلى أعدائه كما سيجىء فى الجزء السادس إن شاء الله.



شكل ١٠٤– مدن الشام وفلسطين القديمة .



شكل ١٠٥– أهم المدن فى يهوذا والساحل الفلسطينى .



شكل ١٠٦– المدن الهامة فى شمال إسرائيل .

هـذا الكتاب

هذا هو الجزء الخامس من سلسلة « قصص الأنبياء والتاريخ» وهو يغطى فترة تمتد أحد عشر قرنا تبدأ من عام ١١٦٥ ق.م. وهو العام الذى خلف فيه يشوع النبى موسى عليه السلام فى قيادة بنى إسرائيل لدخول «الأرض» فأنشأوا دويلات متفرقة «اثنتى عشرة أسباطا أمما». ثم طلبوا من صموئيل نبيهم أن يُوحدهم فى مملكة واحدة فبعث الله لهم طالوت (شاول) ملكا. ولما تجبَّر شاول اختار الله دواود ملكا ونبيا وخلفه سليمان أيضا ملكا ونبيا. ولما توفى سليمان انقسمت مملكته إلى مملكتين: الشمالية «إسرائيل» والتى تعاقب على حكمها ١٩ ملكا. ضل معظمهم وعبدوا الأصنام. فكانت نهايتها على يد أشور إذ استولى الأشوريون عليها عام ٧٢٢ ق.م. وكان «السبى الأشورى» لأهلها. ولاقت المملكة الجنوبية «يهوذا» نفس المصير ولكن بعد حوالى مائتى عام باسيتلاء بابل على أورشليم وتدمير الهيكل عام ٥١٩ ق.م. وكان «السبى البابلى». ثم جاء الفرس وقضوا على بابل. وسمح «قورش» بعودة فوج من اليهود وإعادة بناء الهيكل فى أورشليم. ثم جاء الإسكندر الأكبر وقضى على امبراطورية الفرس وخضع اليهود للحكم الإغريقى. ولكن طغيان المملكة السلوقية وسوء معاملتها لليهود فجَّرا الثورة المكابية التى حققت لليهود استقلالاً قصيرا سرعان ما قضى عليه استيلاء الرومان على الشرق الأدنى القديم عام ٦٣ ق.م.

فى هذه الأحد عشر قرنا ظهر فى بنى إسرائيل كثير من الأنبياء. نذكر فى هذا الجزء سبعة وعشرين نبيا هـم: يشوع. دبورة النبية. جدعون. صموئيل. داود. سليمان. يونس (يونان). إلياس (إيليا). اليسع (أليشع). شمعيا. عزريا. يحزئيل. أليعازر. إشعياء. ميخا. صفنيا. ناحوم. إرميا. حبقوق. أوريا. حزقيال. حننيا. دانيال. نحميا. ملاخى. عزرا. حجَّى.

أرجو أن أكون فى هذا الجزء قد ألقيت الضوء على جوانب كانت خافية من قصص أنبياء بنى إسرائيل ومن تاريخهم. وفى الجزء السادس إن شاء الله سنذكر آخر أنبيائهم: زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام.

المؤلف

المسيح عيسى ابن مريم

وزكريا ويحيى عليهم السلام



الجزء السادس



تأليف دكتور

رشدي البدراوي

الاستاذ بجامعة القاهرة





الجزء السادس

تأليف دكتور

رشدى البدراوى

الاستاذ بجامعة القاهره

قصص الأنبياء والتاريخ. الجـزء السادس
المسيح عيسى ابن مريم وزكريا ويحيى عليهم السلام
د . رشدى البدراوى

مكتبة ومطبعة المجلد العربى
١١٦ ش جوهر القائد أمام جامعة الأزهر بالحسين ـ القاهرة
ت : ٢٥٩١٢٥٢٤ ـ ٢٥٨٩٣٥٨ فاكس : ٢٥٨٩٢٢٣١

رقـم الإيـداع : ٢٠٠١/١٧٣٥٢
الترقيم الـدولى : 5 - 0376 - 17 - 977

محتويات الجزء السادس

الفصل الأول

الرومــــان

توقفنا فى نهاية الجزء الخامس عند استيلاء الرومان بقيادة پومپى على فلسطين فأنهوا استقلال الدولة اليهودية التى أقامها المكابيون وأصبحت فلسطين ولاية رومانية. ولا بأس من نبذة قصيرة عن نشأة الرومان. ولنعد إلى العام ٣٣٦ ق.م. حينما بدأ الاسكندر الأكبر حكمه فى بلاد الإغريق. وكانت الامبراطورية الفارسية تسيطر على جميع ممالك الشرق الأدنى القديم: سوريا. فلسطين. فينيقيا. مصر. العراق. إضافة إلى الهضبة الإيرانية. فى ذلك الوقت كانت شبه جزيرة إيطاليا لاتزال فى طور المقاطعات ودويلات المدن. وكانت هناك ٣ شعوب تسكنها (شكل ١):

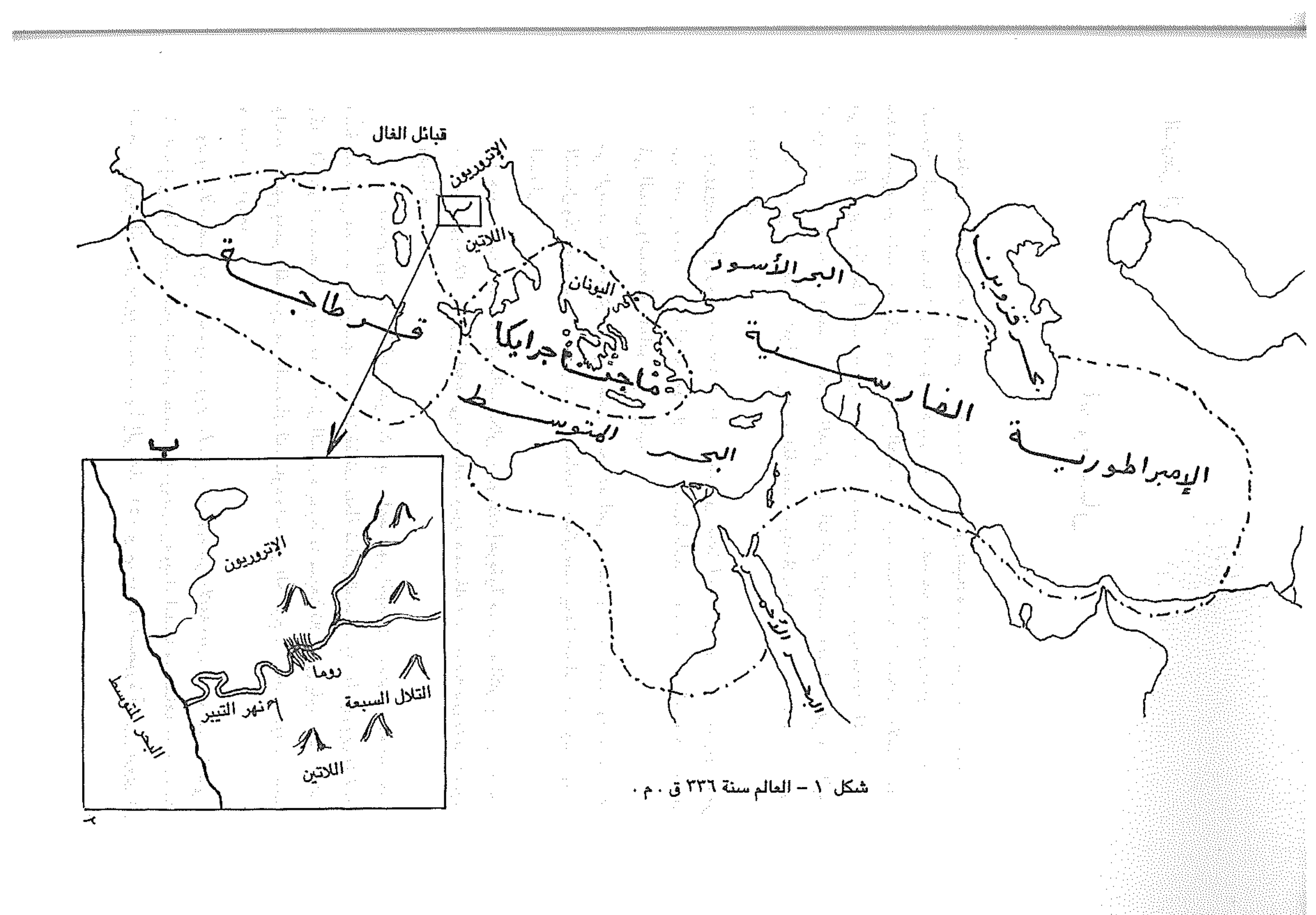
١ - **الإترووريون أو الإترسك** The Etruscans : يسكنون الثلث الشمالى من شبه الجزيرة حتى نهر التيبر مكوِّنين ١٢ مقاطعة ودويلات مدن ترتبط باتحاد فيما بينها. وكانوا هم الأسبق فى التمدُّن واستعمال المعادن فى حياتهم.

٢ - فى الوسط كان يسكن **اللاتين** الذين كانوا لايزالون شعبا زراعيا متأخرا نسبيا عن الشمال وكانوا أيضا ينتظمون فى ١٢ مقاطعة تشكل فيما بينها اتحادا مثل جيرانهم فى الشمال.

٣ - أما جنوب شبه الجزيرة الإيطالية فكان به **دويلات إغريقية** ضمن ماكان يسمى «ماجنا جرايكا» أى «بلاد الإغريق العظمى». وكانت جزيرة صقلية مقسمة بين بلاد الإغريق وقرطاجة.

نعود إلى شمال ووسط إيطاليا اللذين كان يفصلهما نهر التيبر (ب شكل ١) وكانت هناك «مخاضة» أى مياه ضحلة يسهل عبورها فكانت نقطة تبادل للتجارة بين الإترووريين واللاتين. وكان السهل المنبسط الذى يتم فيه تبادل التجارة يحيط به سبعة تلال كان يقيم فيها اللاتين. وانضم إليهم بعض القادمين من الشمال للتجارة واستقر الجميع بها واندمجوا فى مدينة واحدة هى «روما».

وتربط الأساطير بين إنشاء روما وبين الأمير «إنياس» ابن الإلهة «إفروديت» الذى انتهى به المطاف إلى هذا المكان وقام ابنه (أو حفيده) «روموس» ببناء المدينة وسماها «روما» على اسمه. ويرجع البعض تاريخ تأسيسها إلى عام ٧٥٣ ق.م. وهناك أسطورة أخرى تروى عن



شكل ١ - العالم سنة ٣٣٦ ق . م .

الأخوين «رومولوس» و «ريموس» اللذين أبعدهما عمهما عن المدينة للاستئثار بالحكم دونهما وقذف بهما إلى الغابات بغية إهلاكهما ولكن ذئبة آوتهما وأرضعتهما حتى كبرا وعادا إلى المدينة وتمكن رومولوس من استعادة الحكم فسميت «روما» على اسمه وإن كان المؤرخون العصريون لا يعتقدون فى صحة هذه القصة الفولكلورية بالرغم من أن بعض الأثريين يدَّعون العثور على قبور كثيرة فى هذه المنطقة ويزعمون أن أحدها هو قبر رومولوس بالرغم من أن الكتابة التى عليه لم يستطع أحد حل رموزها إلى الآن.

ثم تعرض الإتروريون فى شمال إيطاليا لهجمات قبائل الغال القادمة من فرنسا وقتلت جنودهم وخربت ديارهم فانتهزتها روما فرصة ووسعت حدودها الشمالية على حساب الدويلات الإترورية وعقدت معاهدة مع المدن اللاتينية الأخرى فكانت هذه أول خطوة خطتها روما للتوسع شمالا وجنوبا. وكان لكل المدن والمقاطعات حقوق متساوية بيد أن روما كان لها الزعامة لموقعها المتميز على نهر التيبر ولما بذلته من جهد فى مقاومة قبائل الغال وقبائل الإتروريين الرافضة لهذا الاتحاد وكانوا دائمى الإغارة على روما. وكذلك أيضا حاولت بعض المدن اللاتينية التمرد على روما واستنجدت بقرطاجة ولكن روما سرعان ما استعملت دهاءها السياسى وعقدت معاهدة مع قرطاجة تعهدت فيها قرطاجة بعدم مساعدة المدن اللاتينية إذا ثارت على روما. وفى النهاية اندمج اللاتين فى دولة واحدة عاصمتها روما. ثم مدت روما نفوذها جنوبا فاستولت على المدن الإغريقية وأعطت الجميع حقوق المواطنة الرومانية. وبعد حروب عدة بين روما وقرطاجة استولت روما على جزيرة صقلية ثم ضمت إليها جزيرتى سردينيا وكورسيكا والشاطىء المقابل من أسبانيا. وكان هانيبال قائد جيوش قرطاجة قد استولى على أجزاء من إيطاليا نفسها. ولكن روما طردت القرطاجيين وحررت أراضيها بالكامل ثم مدت سلطانها إلى شبه جزيرة البلقان وثلاثة أرباع أسبانيا.

نظام الحكم :

لا بأس من أن نأخذ هنا وقفة قصيرة نذكر فيها باختصار نظام الحكم فى روما إذ أنها منذ نشأتها الأولى كانت ذات صبغة ديمقراطية بعكس ماكان سائدا فى دول الشرق الأدنى القديم: مصر وسوريا والعراق. التى كانت نظم الحكم فيها ملكية دكتاتورية. فالملك هو الحاكم الأعلى وله الكلمة العليا فى كل شئون البلاد المدنية والعسكرية. والمُلك وراثى إلاَّ فيما ندر حينما يحدث انقلاب (يؤيده العسكر أو رجال الدين) والشعب لا رأى له فى كثير أو قليل من أمر الحكم بل عليه أن يطيع ويدفع الضرائب المفروضة عليه.

أما فى إيطاليا فمنذ أن فرضت روما سيطرتها على كل شبه الجزيرة فقد وضعت دستورا للحكم بمقتضاه كان يتم اختيار الحاكم بقرار من الشعب وتقر الآلهة هذا الاختيار بإظهار فأل

ميمون يعرفه الكهنة. وأى خطأ فى تطبيق هاتين النقطتين يجعل اختيار الحاكم باطلا. فإذا تم اختيار الحاكم بالطريق الشرعى فله مدى الحياة السلطة العليا فى الأمور الدينية والمدنية. وفى الأمور الدينية يعاونه مجلس صغير من الكهنة ومجلس آخر من العرافين الخبيرين بتفسير الطوالع والتنبؤ بمشيئة الآلهة. أما فى الأمور المدنية فإن الحاكم – وإن كان له سلطة غير محدودة فى الفصل فى المنازعات وتوقيع العقوبات – ومن بينها عقوبة الموت – إلاً أن سلطته فى هذا المجال لم تكن استبدادية بل كان يعاونه مجلس الشيوخ Senatus وهو يتكون من ٦٠٠ من الرجال كبار السن وكانوا ممن شغلوا مناصب عامة ومن آباء الأسر والعائلات العريقة. ولم يكن باستطاعة الحاكم اتخاذ قرارات هامة دون الرجوع إلى مجلس الشيوخ. وبذلك قُيِّدت سلطة الحاكم وحيل دون أن تكون استبدادية. كذلك كان للحاكم سلطة مطلقة كقائد فى الحرب. ولكنه كان يستشير قواد الجيوش أو غيرهم من الضباط المشهور بحنكتهم وإن لم يكن ملزَما باتباع مشورة أى منهم إذ كان عليه أن يتخذ بنفسه القرار النهائى وتقع المسئولية كاملة عليه.

وفى عام ٥١٠ ق.م. بُدِئ العمل بالنظام الجمهورى إذ لم يعد الحُكم يمنح مدى الحياة ولا لفرد واحد. وإنما أصبحت السلطة تمنح لحاكمين بدلاً من حاكم واحد ويسمى كل منهما «قنصلا» وتمنح لسنة واحدة يتخلى فى نهايتها الحاكمان عن السلطة ويعودان مواطنين عاديين وينتخب بدلهما قنصلان جديدان. وكان الشعب بأسره يشترك فى الانتخابات عن طريق جمعية تسمى الجمعية المئوية مرتبة فى طبقات حسب اختلاف الثروة. إلاً أن ضباط الجيش كانت لهم أصوات راجحة الكفة عند الاقتراع. وأصبحت الجمعية المئوية هى التى تصدر القوانين وتختار حكام الولايات وتعلن الحرب أو تبرم السلام. كذلك كان لكل من القنصلين حق الاعتراض على قرارات زميله. ومجلس الشيوخ «السناتو» يعاونهما بالرأى.

وكان آخر تتويج لهذا النظام الديمقراطى هو مجلس العامة. ذلك أن الأثرياء والأشراف المنتمون إلى العائلات العريقة اعتبروا أنفسهم مدافعين عن صغار الملاك والفلاحين والعمال الذين كانوا يدفعون الضرائب ويجنَّدون فى الحرب. فطلبوا بأن يكون لهم حق انتخاب نواب يمثلون طبقتهم. وهكذا نشأ مجلس العامة أو مجلس العموم الذى ينتخب نوابا للدفاع عن مصالح الشعب.

السياسة الخارجية :

بعد أن أرسى الرومان أسس النظام الديمقراطى الذى يكفل حق المواطنة الحرة لجميع أفراد الشعب بدأت الأنظار تتطلع إلى توسيع رقعة البلاد فكان الصراع مع قرطاجة فى الجنوب والإغريق فى الشرق. وقد انتهت الحرب مع قرطاجة – وهى ما تُسمَّى بالحروب البونية – عام ٢٠١ ق.م. بهزيمة هانيبال قائد جيش قرطاجة وهربه إلى آسيا الصغرى ثم انتحاره

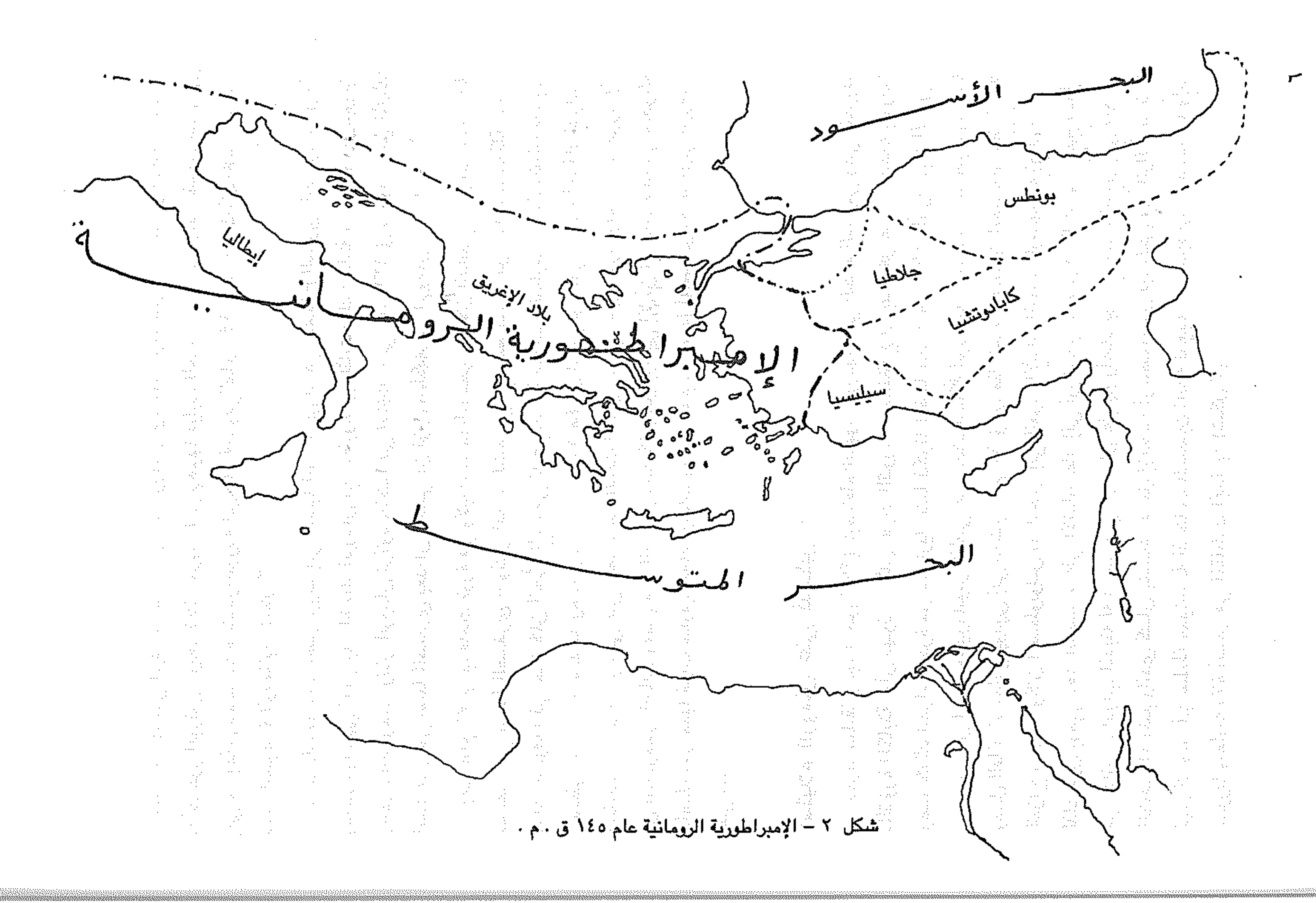
مفضلًا الموت على الوقوع أسيرا فى يد الرومان. ولم تكد روما تفرغ من سحق قرطاجة حتى بدأت غزو اليونان . وبعد ثلاثة حروب انهزم فيها فيليب الخامس ملك مقدونيا. ضُمَّت مقدونيا إلى ما يمكن تسميته «الإمبراطورية الرومانية». وفى عام ١٤٦ ق.م. كانت كل بلاد الإغريق تحت السيطرة الرومانية (شكل ٢).

بعد ذلك تطلعت أنظار روما إلى آسيا الصغرى إذ هى مفتاح الشرق: العراق وسوريا ومصر. وانتهى الأمر بأن اشتبك الرومان مع أنطيوخس الثالث ملك المملكة السلوقية فى سوريا وانهزم أنطيوخس ولكن الرومان تركوه حاكما فى أملاكه. وفى عام ١٣٣ ق.م. توفى آخر الملوك السلوقيين فى آسيا الصغرى بعد أن أوصى أن تؤول مملكته إلى الرومان.

وفى عام ٧٢ ق.م. قامت ثورة فى ولايات آسيا الصغرى تمكن القائد پومپى من إخمادها ثم تقدم فى آسيا الصغرى – وكان الجزء الشمالى والوسط مكوَّنا من ممالك مستقلة حلفاء لمملكة سلوقيا فى حين كان الجزء الشرقى تابعا تبعية مباشرة لسلوقيا – واستطاع پومپى بأسطول من ٥٠٠ سفينة وجيش من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل السيطرة على جميع الممالك الموالية لسلوقيا. ثم عرض پومپى على أنطيوخس الثالث الخروج سلميا من سوريا وآسيا الصغرى. إلا أن أنطيوخس الثالث رفض هذا العرض فما كان من پومپى إلا أن اشتبك معه فى معركة فاصلة دمَّر فيها قوات سلوقيا تماما وبدأت روما تتقدم فى آسيا الصغرى ثم استولى الرومان على سوريا.

استيلاء الرومان على فلسطين :

ذكرنا سابقا (جـ ٥ ص ٤٧٢) كيف قام اليهود بثورتهم على الحكم السلوقى وهى المعروفة بالثورة المكابية. وأن يهوذا – ثانى قواد الثورة – استطاع أن يسيطر على مقاطعة يهوديا وضم كذلك أجزاء كبيرة من سماريا. كما ذكرنا أيضا (جـ ٥ ص ٤٩٣) النزاع بين الأخوين أرسطوبولس الثانى وهيركانوس الثانى على حكم المملكة اليهودية الوليدة فى فلسطين. وحينما وصل القائد الرومانى پومپى إلى دمشق عام ٦٣ ق.م. مثل أمامه الأخوان الخصمان وطلبا حلا للنزاع بينهما. وكان أرسطوبولس قد انحاز إلى العرب الأنباط أثناء مقاومتهم للغزو الرومانى. لذلك فإن پومپى بعد انتصاره على الأنباط عاد إلى أورشليم وحاصرها ٣ أشهر وفتح أعوان هيركانوس أبواب المدينة له فاستولى الرومان عليها وأعاد پومپى هيركانوس إلى منصب الكاهن الأعظم والذى كان يشغله قبل إزاحة أرسطوبولس له. ولكن فى الواقع لم تكن لهيركانوس أى سلطة سياسية إذ كانت فلسطين تابعة تبعية مباشرة لروما يحكمها والى سوريا ويعاونه ولاة أصغر فى المقاطات الإدارية (شكل ٣).



شكل ٢ – الإمبراطورية الرومانية عام ١٤٥ ق.م.

شكل ٣ – فلسطين أثناء غزو پومپی عام ٥٥ ق.م.

الأسرة الهيرودية :

كان أنتيباتر من الأدوميين الذين تهوّدوا (جـ ٥ ص ٤٨٨) وكان سيِّدا فى قومه فعُيِّن حاكما لمقاطعة إيدوميا أثناء حكم أواخر ملوك الأسرة المكابية: ألكساندر جانى ومن بعده سالومى ألكساندرا. وخلف أنتيباتر على حكم إيدوميا ابنه هيرودس أنتيباتر والذى تزوج من «مارى آمن» ابنة سالومى ألكساندرا وبدأ يتطلع إلى عرش اليهودية ذاتها. فبدأ يتقرب إلى الحكام الرومان الذين لمسوا ولاءه فمنحه قيصر روما الجنسية الرومانية وأعفاه من دفع الضرائب ونال مرتبة سياسية على حساب هيركانوس الذى اعتُبر رئيس الكهنة فقط (أطلس الكتاب المقدس. عدلى اسكندر – ص ٣٧٩). ولما قُتل هيركانوس عَيَّن الرومان هيرودس أنتيباتر حاكما على كل المناطق اليهودية: يهوديا وإيدوميا وسماريا والجليل وردَّ إليه الشريط الساحلى وميناء دور وسهل يزرعيل (شكل ٤).

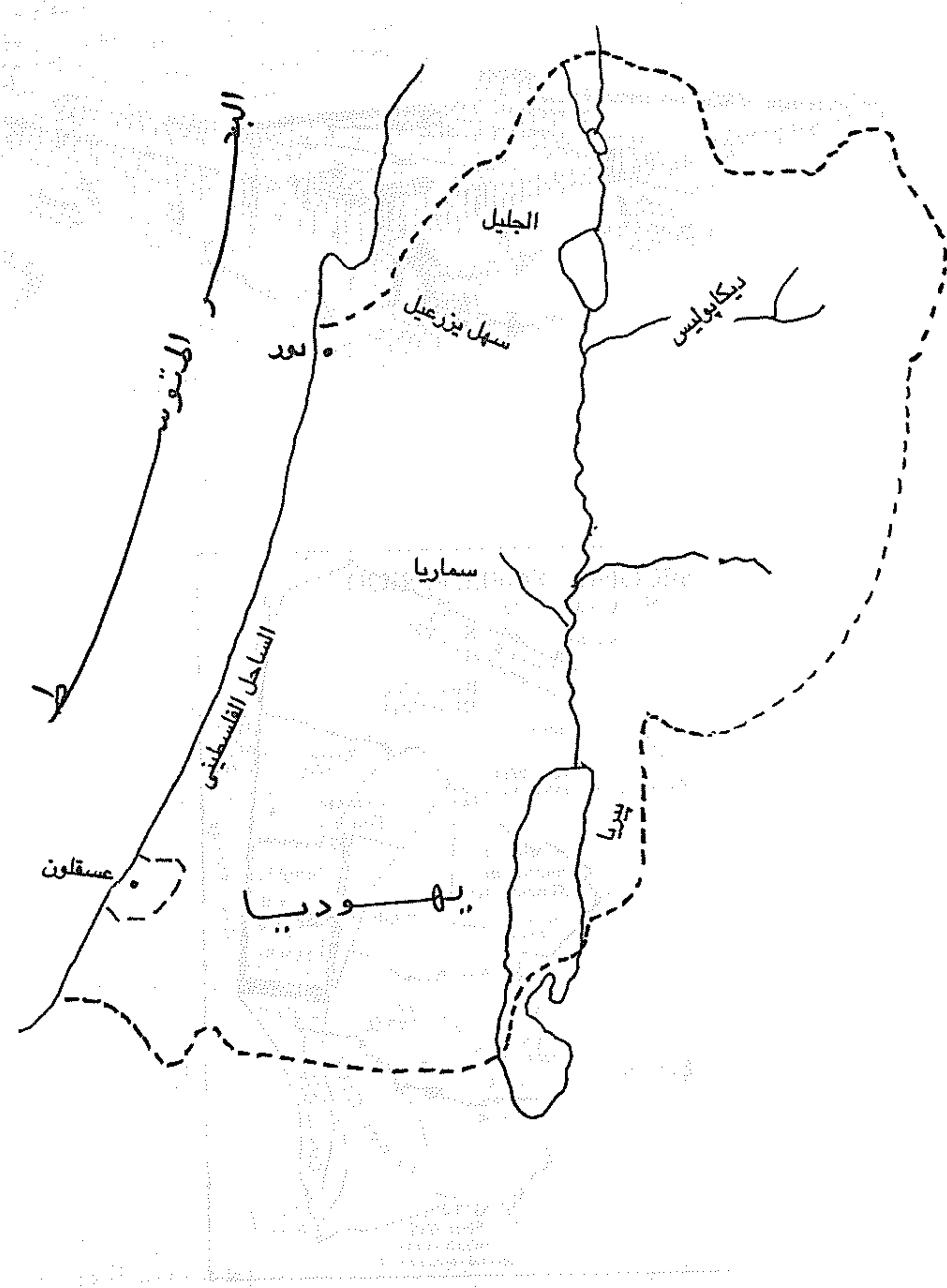
وكان هيردوس محبا للعمارة ولعًا بإقامة المبانى الفخمة والتماثيل حتى ليمكن اعتباره أكثر حكام اليهود إقامة للمبانى. ولكنه كان قاسى القلب يكثر من تقتيل معارضيه. كما أن اليهود كانوا لا ينسون أنه ليس من بيت داود. وليس حتى يهوديا خالصا لأنه من الأدوميين المتهوِّدين وأمه أدومية. ولكى يسترضى اليهود فإنه شرع فى تجديد وتوسعة المعبد الذى بناه سليمان عليه السلام وظن أنه بذلك يضفى على نفسه قداسة قد تُفضى به إلى أن يكون هو نفسه المسيا أو المخلِّص الذى ينتظره اليهود.

معبد هيرودس :

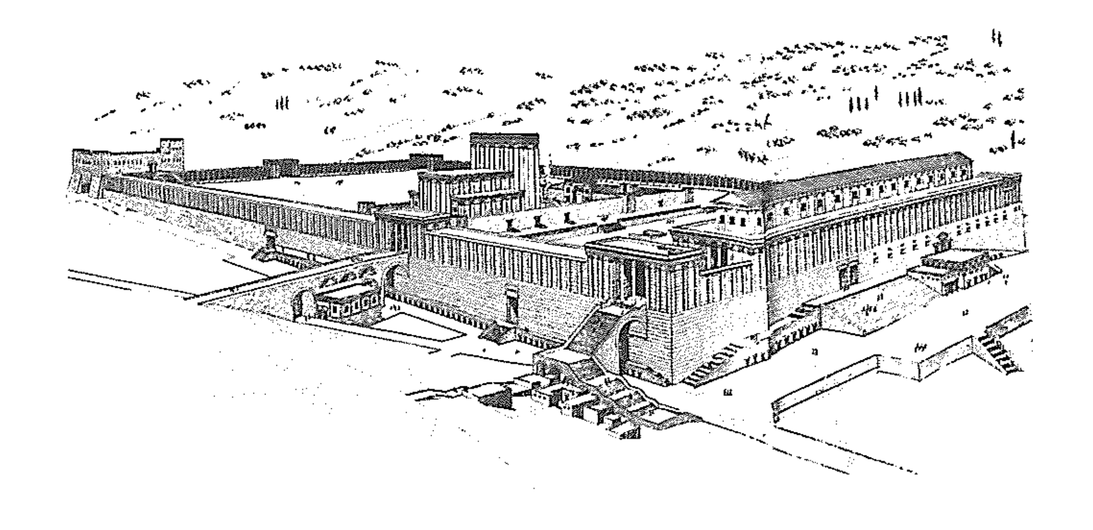
أصبح معبد سليمان فى أورشليم بعد أن أعاد هيرودس بناءه يعرف باسم «معبد هيرودس» (شكل ٥) وكان طوله ١٠٠ ذراعا وارتفاعه ٢٠ ذراعا. وكان مبنيا من الحجر الأبيض. وقد تم بناؤه فى عام ونصف وتم الافتتاح وسط احتفال كبير قُدِّمت فيه الأضحيات والقرابين . أما الزخارف الداخلية فقد استغرقت وقتا طويلاً جدا امتد إلى ٤٦ سنة استنادا إلى ما جاء فى الإنجيل (يوحنا ٢ : ١٨): «إذ قال له اليهود. أية آية ترينا حتى تفعل هذا؟ أجاب يسوع وقال لهم: انقضوا هذا الهيكل وفى ثلاثة أيام أقيمه. فقال اليهود فى ستة وأربعين سنة بُنى هذا الهيكل أفأنت فى ثلاثة أيام تقيمه؟ وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده. فلما قام من الأموات تذكر تلاميذه أنه قال هكذا فآمنوا بالكتاب والكلام الذى قاله يسوع». وقد دُمِّر المعبد الذى بناه هيرودس فى عام ٧٠م عندما قام تيتوس بإخماد ثورة اليهود الكبرى فى فلسطين كما سيجئ ذكره فيما بعد.

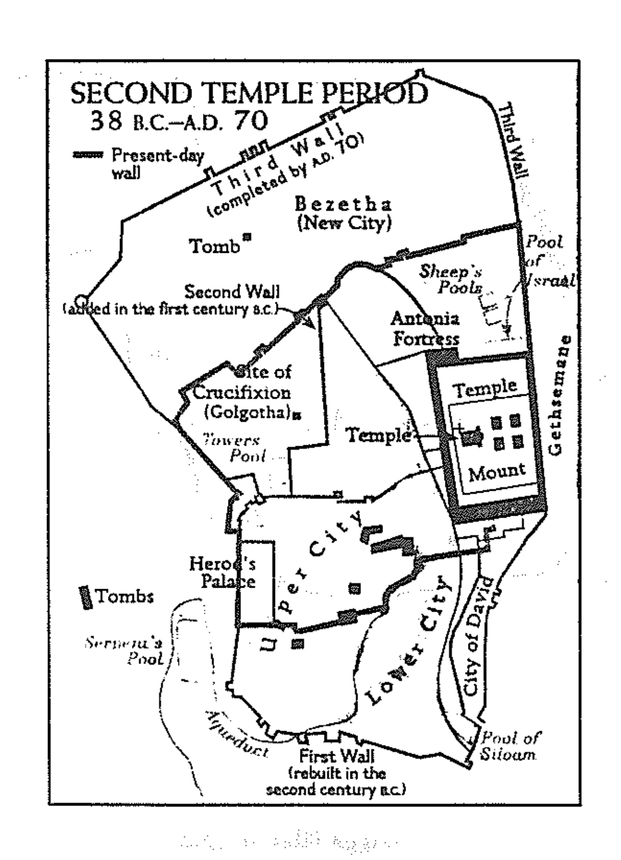
سياسة الرومان تجاه اليهود فى فلسطين :

لقد نجح الرومان فى صهر الكثير من الشعوب التى ضموُّها إلى إمبراطوريتهم ولكن شعبا



شكل ٤– مملكة هيرودس .





شكل ٥ – معبد هيرودس فى أورشليم

واحدا استعصى أمره على الرومان ورفض الاندماج فى العالمية الرومانية ألا وهم اليهود. فاليهود موحِّدون بالله وفى نظرهم الدولة خادم للعقيدة. أما نظرة الرومان فقد كانت بعكس ذلك تماما وهو أن الدين يعمل فى خدمة جهاز الدولة الكبير ويعمل على تثبيت دعائم الحكم. وكان يوليوس قيصر قد تمكن من إيجاد نوع من التوازن بين النظريتين عن طريق إصدار مجموعة من القرارات والتشريعات التى تعترف بوضع اليهود كقومية ذات كيان مُعيَّن بين شعوب الإمبراطورية وتعفيهم من بعض الإلتزامات التى تعارض عقيدتهم. وقد استمرت هذه السياسة فى عهد الإمبراطور أغسطس الذى اعتمد على سيطرة صديقه هيرودس على الشعب اليهودى والذى نجح فى جعل اليهود يلتزمون بالسلام الرومانى.

ولما حاول الامبراطور جايوس أن يفرض عبادته بالقوة على اليهود وأن ينصب تمثالا لعبادته داخل المعبد الكبير فى أورشليم ثار الشعب اليهودى الذى أحسَّ بالخطر يتهدد ديانته. ومما زاد الأمر سوءا هو تفجر الصراعات الطائفية بين اليهود أنفسهم: بين الحزب الموالى للرومان والحزب المعارض للسيطرة الأجنبية. كذلك تفجر الصراع بين اليهود والفلسطينيين. وفى عام ٦٦م اندلعت الثورات فى مدن فلسطين وحدثت أعمال شغب فى مدينة قيصرية مقر المندوب الرومانى. وحدث شغب فى أورشليم حينما صادر الحاكم الرومانى نقودا من خزائن المعبد الكبير مقابل متأخرات الضرائب المفروضة على اليهود . ولم يعبأ الرومان فى بادئ الأمر بأعمال الشغب التى قام بها اليود احتجاجا على هذه الإجراءات مثل رفض تقديم الأضاحى فى هيكل سليمان من أجل سلامة الإمبراطور. ثم تحول هذا الرفض إلى ثورة ضد الرومان يقودها الكهنة. وفى فبراير ٦٧م أرسل نيرون أحد كبار قادة جيشه وهو الجنرال فسباسيانوس الذى وصل إلى فلسطين وبفضل خططه الذكية بدأ في تطهير جيوب المتمردين واحدا بعد الآخر حتى كاد أن يطهِّرها تماما. وبدأ فى حصار أورشليم. ولكن وصلته أنباء عن قيام ثورة فى روما وأن نيرون انتحر وأن نظام الحكم فى روما غير مستقر إذ تولى الحكم بعد نيرون «جاليا» لمدة ٩ أشهر ثم الإمبراطور «أوتو» لمدة ٣ أشهر ثم ڤيتلليوس لمدة ٨ أشهر. وأخيرا اختار الجيش فى الشرق الجنرال ڤسباسيانوس ليتولى عرش الإمبراطورية الرومانية فترك ابنه تيتوس ليستمر فى قيادة الحرب ضد الثوار اليهود وعاد هو إلى روما وتغلب على خصومه وتولى الحكم.

قلنا إن ثورة اليهود اندلعت فى عام ٦٦م. وسرعان ما عمَّت كل فلسطين وطردت الحامية الرومانية من أورشليم. وكان الفلسطينيون يساعدون الرومان . وزاد الأمر سوءا إعلان الرومان أن اليهود لا يتمتعون بحقوق المواطنة فى مدينة قيصرية عاصمة الإقليم فعمَّت الثورة. وراح الفلسطينيون يفتكون باليهود فى كل مكان. وردَّ اليهود وبدأوا فى قتل الفلسطينيين. وأرسل الرومان فرقة لإخماد الثورة كما سبق أن ذكرنا. وفى عام ٧٠م تولى تيتوس مهمة إخماد

الثورة فقام بتصفية جيوب التمرد فى أنحاء اليهودية واستمر فى حصار أورشليم الذى بدأه والده. وكان للمدينة ثلاثة أسوار كل منها له قلاعه وأبراجه. وأدى طول الحصار إلى انتشار المجاعة والمرض. وأخيرا تمكن تيتوس من تدمير الأسوار واقتحم المدينة وهجم على الهيكل ودمَّره وأحرقه ثم استولى على قلعة جبل صهيون بعد قتال عنيف. ودُمِّرت أورشليم تماما ودُمِّر المعبد وسُوِّى بالأرض. وأصبحت اليهودية ولاية رومانية . وأمر تيتوس بحل التنظيمات السياسية والدينية اليهودية. وفرض على اليهود ضريبة الرأس السنوية ومقدارها ديناران رومانيين تدفع لحساب معبد جوبيتر الكابيتولى رب الرومان إمعانا فى إذلال اليهود. وغادر كثير من اليهود أورشليم بل وغادروا فلسطين كلها. وأصبح رئيس المجمع الدينى المعروف باسم «السنهدريم» مسئولا عن الجالية اليهودية المتبقية فى فلسطين. وحرَّم الرومان على اليهود الاقتراب من أورشليم أو من أطلال المعبد. ولكن بعض اليهود كانوا يتسللون من آن لآخر للبكاء على قدس الأقداس. وبقيت أورشليم أطلالا حتى قرر هادريانوس بناء مدينة رومانية مكانها يتوسطها معبد كبير للإله جوبيتر الرومانى يدفع له اليهود الجزية السنوية. وقد أثار هذا التصرف غضب اليهود مرة ثانية فقاموا بثورة ضد الرومان ودمَّروا ماكان قد بنى من معبد جوبيتر ولكن الرومان أخمدوا الثورة بقسوة بالغة وكانت هذه هى الضربة القاضية التى وضعت نهاية مأساوية للتجمع اليهودى فى فلسطين وإن ظلوا كأقلية مبعثرة فى مدنها.

وكان من نتيجة هذه الثورات وقيام الرومان بقمعها . تدمير معبد أورشليم الذى بناه هيرودس تدميرا تاما فلم يُبْنَ إلى يومنا هذا. ويحاول يهود إسرائيل فى عصرنا الحالى إعادة بناء المعبد ويسمُّونه المعبد الثالث (معبد سليمان هو الأول ومعبد هيرودس الثانى) ويحاولون تدمير المسجد الأقصى مدَّعين أنه بنى على أنقاض معبد أورشليم.

لما أحسَّ هيرودس بقرب أجله رغب فى مشاركة أبنائه الثلاثة معه فى الحكم فعيَّن (شكل ٦):

١ – هيرود فيلبس حاكما على باشان .

٢ – هيرود أنتيباس حاكما على منطقة الجليل .

٣ – هيرود أرخيلاوس حاكما على شرق الأردن وبيريا والعشر مدن .

وظل هو محتفظا بحكم اليهودية وسماريا. إلاَّ أن أرخيلاوس بعد وفاة والده – هيرودس الكبير – نصَّب نفسه ملكا على كل الأراضى اليهودية. وكان أرخيلاوس مكروها من اليهود. فأبحر ٥٠ من رجالات إسرائيل إلى روما وقدموا معارضتهم فى أن يرث أرخيلاوس ملك اليهودية واقترحوا بأن يُكتفى بتعيينه كاهنا أكبر لليهود بينما تكون النواحى الإدارية والسياسية تابعة تبعية مباشرة لروما. فاستجاب القيصر ولم يعين أرخيلاوس واليا على كل

شكل ٦ – تقسيم مملكة هيرودس الكبير .

المناطق اليهودية لكن عينّه حاكما من قِبَل روما على نصف الأراضى اليهودية: يهوديا والسامرة وإيدوميا وتحت شرط أنه إذا رضى عنه اليهود عيّنه ملكا على كل اليهود. ولكن أرخيلاوس بدأ يتصرّف كأنه ملك مما أثار غضب الشعب وقامت ضده ثورات قمعها بقسوة بالغة. وفى عيد الفصح اليهودى قام بقتل ٣٠٠٠ من معارضيه. وإزاء هذه الممارسات التى بعثت عدم الاستقرار فى البلاد قام القيصر بعزله ونفيه إلى بلاد الغال (فرنسا) وبقى هناك إلى أن توفى.

قلنا إن هيرود فيلپس كان حاكما على باشان ومتزوجا من هيروديا الجميلة. أما هيرود أنتيباس فكان حاكما على الجليل وبيريا فى شرق الأردن. وقد أقر القيصر حكم هذين الأخوين كل فى منطقته بينما ظلت باقى الأراضى اليهودية تابعة تبعية مباشرة للحاكم الرومانى . وقد تزوج أنتيباس من ابنة أريتاس (الحارث) ملك العرب الأنباط. ثم فى زيارة له لأخيه فيلبس شغف بزوجته هيروديا ورغب فى الزواج بها مما جرَّ عليه غضب يحيى المعمدان كما سيجئ فيما بعد.

وبعد وفاة أبناء هيرودس تحولت كل الأراضى اليهودية إلى إدارة رومانية يديرها والى رومانى جعل مقره مدينة قيصرية يعاونه الكهنة والأرستقراطيون اليهود. وقد اتبع الحكم الرومانى الدبلوماسية الحذرة مع اليهود لإدراك القياصرة حساسية الديانة اليهودية فحرصوا على أن لا يتدخّلوا فى أمورها. فكل ماكان يهم الرومان هو الخضوع السياسى والاقتصادى دون التدخل فى العقائد الدينية الخاصة برعاياهم. وحتى عندما ظهر المسيح نظر إليه الرومان على أنه منشق على الديانة اليهودية ولم يلقوا إليه بالا. إلا أنه عندما دخل أورشليم فى مظاهرة كبيرة من أتباعه الذين كانوا ينظرون إليه على أنه «ملك اليهود» أحسَّ الرومان ببعض القلق. وأثار التفاف الشعب حول المسيح غيرة الكهنة اليهود فحرّضوا عليه السلطات الرومانية التى استجابت وقبضت عليه كما سيجئ فيما بعد (ص ١٠٠).

الفصل الثانى

زكريا ويحيى عليهما السلام
ومريم رضى الله عنها

تبين شجرة النسب التالية الأجداد من وقت داود وسليمان عليهما السلام. ومنها تتبين القرابة بين زكريا ويحيى والمسيح عليهم السلام. وفى حديث المعراج يقول النبى صلى الله عليه وسلَّم: «فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى..»

داود
سليمان
رحبعام
إيان
إيشا
بهنا شافاط

يازم	شلوم
أحريهو	↓
ياوش	ناحور
أمصيا	↓
عزازيا	بالعاطة
مدثم	يرخيا
حريق	↓
حزقيا	صديقة
نبا	↓
أيوب	مسلم
باسم	↓
عمران	↓
مريم	زكريا (تزوج أخت مريم)
عيسى	يحيى

الإسم «زكريا» :

هو فى العبرانية «زخريا». والخاء فى العبرية تنقلب إلى كاف إذا وقعت بعد متحرك أو معتل فأصبح الاسم «زكريا» Zacharia. وهو مكون من مقطعين: الجذر العبرى «زكر» المكافىء فى معناه للجذر العربى «ذكر» أما «يا» فهى اختصار «يهوا» اسم الله عز وجل فى العبرية وعلى هذا يكون معنى «زكريا» هو «ذكر الله» بمعنى الذى يذكره الله أو ذاكر الله أى الذى يذكر الله (الأستاذ رؤوف أبو سعدة. من إعجاز القرآن. جـ ٢. ص ٢٢٩). وقد جاء المعنيان فى أول سورة مريم: **«كهيعص. ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفيا»** فهو ذكر الله رحمة ربك. الذى ذكر الله. إذ ناداه نداء خفيا.

وقد ورد اسم زكريا فى القرآن الكريم ٧ مرات.

٣ مرات فى سورة آل عمران فى الآيتين ٣٧ ، ٣٨.

وفى الآية ٨٥ من سورة الأنعام.

وفى الآية ٢ من سورة مريم وكذلك فى الآية ٧.

وفى الآية ٨٩ من سورة الأنبياء.

وكان زكريا ممن يخدمون فى الهيكل فى أورشليم وكان قد بلغ من الكبر عتيًا وامرأته عاقر لا تلد فيئس من أن يكون له ولد. وكان معاصرا لعمران. أحد شيوخ بنى إسرائيل ووالد مريم والدة المسيح عليه السلام.

عمران :

لا تذكر الأناجيل اسم أبى مريم. والمشهور أنه مات قبل مولدها. فلم يشهد ولادتها ولم يُسمِّها بل سمَّتها والدتها كما جاء فى القرآن الكريم **«وإنى سميتها مريم»**. ،بالطبع هو غير عمران والد موسى وهارون إذ أن بينهما ما يزيد عن ثلاثة عشر قرنا من الزمان.

وكانت امرأة عمران قد رزقت بنتا ولكنها رغبت فى ابن. فنذرت لئن رزقت ذكرا لتجعلنه فى خدمة الهيكل.

«إذ قالت امرأة عمران. رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرَّرا فتقبَّل منى إنك أنت السميع العليم» . (٣٥ – آل عمران).

وحرَّر الولد أى أفرده لطاعة الله وخدمته (المعجم الوسيط جـ ١ ص ١٦٥) ولم يكن يحرَّر فى ذلك الزمان إلا الغلمان. فلما وضعت وجاء المولود أنثى توجَّهت إلى الله معتذرة بأن المولود جاء أنثى:

«قالت رب إنى وضعتها أنثى – والله أعلم بما وضعت – وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا». (٣٧ – آل عمران).

ومريم اسم أرامى أصله مارى + أما. المقطع الأول «مارى» فى الأرامية معناه «الرب» ومختصره «مار» بمعنى سيد القوم أو السيد ومنها جاء مارجرجس ومار مرقس أى السيد جرجس والسيد مرقس. والمقطع الثانى «أما» هو «أمة» فى العربية وعليه يكون اسم «مريم» مارى + أما أى «أمة الرب» بعد أن قُدم اسم المضاف إليه على المضاف (رؤوف أبو سعدة. من إعجاز القرآن . جـ ٢. ص ٢٥١) وجاء فى الإنجيل (لوقا ١ : ٣٨) وقالت مريم. هو ذا أنا أمة الرب. ليكن لى كقولك. فمضى من عندها الملاك».

«فتقبلها ربها بقبول حسن» أى رضى بمريم فى النذر مكان الذكر ولم يُقبل قبلها أنثى لخدمة الهيكل. «وأنبتها نباتا حسنا» أى ربَّاها الرب تربية حسنة. تكثر من العبادة حتى فى صغرها. حتى بلغت السن التى يمكنها فيه الخدمة فى بيت الرب. ولما كان الواجب أن تكون الأنثى فى حماية رجل يكفلها. كانت مشيئة الله أن يكفلها زكريا. وهيَّأ لذلك بأن أمها حين أخذتها إلى بيت الرب اختلف القائمون على خدمة البيت كل يريد أن تكون فى رعايته. فقرروا أن يقترعوا ليتحدد من يكفلها.

«ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم. وماكنت لديهم إذ يختصمون». (٤٤ – آل عمران)

والأقلام جمع قلم وهو ما يكتب به. ولكنها هنا تعنى عِصىً. يكتب كل واحد منهم اسمه على عصاه ثم يُطلب من طفل صغير أن يختار إحدى العصىّ. وخرجت القرعة على عصا زكريا ليكفلها. وهو زوج أختها لكون يحيى وعيسى عليهما السلام أبناء خالة كما جاء فى حديث المعراج من قوله صلى الله عليه وسلم: فإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم ويحيى ابن زكريا.

وتفانت مريم فى عبادة الله. وكثيرا ما كانت تعتكف فى المحراب تصلى وتتعبَّد. وفى مرات عديدة كان زكريا إذا دخل عليها المحراب وجد عندها طعاما مع أنه لم يكن يراها تخرج من المحراب لإحضاره فتعجب.

«كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا. قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب». (٣٧ – آل عمران).

ولما لمس زكريا كرم الله مع مريم طمع فى أن يناله هو أيضا مثل هذا الكرم ولكن بأن يكون له ولد.

«هنالك دعا زكريا ربه. رب هب لى من لدنك ذرية طيبة. إنك سميع الدعاء. فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مُصدِّقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين». (٣٨ – ٣٩ آل عمران).

وقالوا إن الله اختار له اسم «يحيى» إذ علم أنه سيموت شهيدا. والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون. واسمه عند أهل الكتاب «يوحنا المعمدان» لأنه كان يعمِّد الناس. «مصدِّقا بكلمة من الله» والمراد بكلمة الله عيسى عليه السلام. والحصور الذى لا يأتى النساء. ولكن يحيى كان حصورا ليس عن عجز بل حصراً لنفسه أى منعا لها من الشهوات. وهذا مكروه فى شريعة الإسلام. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لعن الله تعالى والملائكة رجلا تحصَّر بعد يحيى بن زكريا.

«قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر. قال كذلك الله يفعل ما يشاء» (٤٠ – آل عمران).

فى هذه الاية ذكر زكريا كبر نفسه أولا ثم عقم امرأته كسببين يحولان بينه وبين أن يكون له ولد. وإن كان كبر السن سببا غير مؤكد. فالرجال قادرون على الإنجاب مهما تقدمت بهم السن. وكم من مُعمَّر أنجب وهو فوق المائة بعشرات السنين. وقد ذكر نفس المعنى فى سورة مريم ولكن بتقديم العقبة المؤكدة التى تحول دون أن يرزق بالولد وهو عقم الزوجة وأضيف سبب آخر وهو كبر السن حتى لا يُلقى اللوم كله على الزوجة: **«قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيًّا».** (٨ – مريم).

وما قبل هذه الايات يوضح سبب طلبه الولد:

«ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفيا. قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا. وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا. يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا. يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًّا». (٢ – ٧ مريما).

«إذ نادى ربه نداء خفيا» أى دعاء مستورا عن الناس وغالبا ما يكون ذلك فى جوف الليل وفيه كناية عن الإخلاص فى الدعاء. «قال رب إنى وهن العظم منى». والعظم عماد البدن ودعام الجسد فإذا أصابه الضعف والوهن كان ما عداه أضعف. «واشتعل الرأس شيبا» هنا شُبِّه ابيضاضُ الشعر الذى يصاحب كبر السن بنار اشتعلت فى الرأس. «ولم أكن بدعائك رب شقيا».أى لم يكن خائبا فى دعائه فى سابق الأوقات وأنه كلما دعا الله استجاب له. فهو يتوسل بسابق الاستجابة ليستجاب هذا الدعاء أيضا وخاصة لما قدمه من تمهيد يستدعى الرحمة: كبر السن وضعف الحال.

«وإني خفت الموالى من ورائى» والمراد من يرثه من حواشيه لأنه لا ولد له. فخاف عليه السلام أن لايُحسنوا خلافته فى أمَّته وأن لا يكونوا على نهجه فى السير فى الطريق الصحيح. فسأل الله أن يهب له ولداً هو أقدر على تربيته بحيث يشب مثله ويرث التقوى والصلاح ويرث النبوة التى آلت إليه من ذرية يعقوب عليه السلام فيكون مرضيًا عنه من الله سبحانه وتعالى ومرضيا عنه من العباد «واجعله رب رضياً».

واستجاب الله لدعاء زكريا **«فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يُبشرك بيحيى مُصدقًا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين»** (٣٩ - آل عمران). ولزيادة التأكيد على هذه البشارة ذُكرت في سورة مريم منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى: **«يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً. قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتياً»**. (٧ - ٨ مريم).

تعَّجب زكريا من أن يكون له ولد وهو فى هذه السن المتقدمة وامرأته عاقر. فردَّ الله سبحانه وتعالى مؤكدا قدرته المطلقة:

«قال كذلك الله يفعل مايشاء». (٤٠ - آل عمران).

«قال كذلك قال ربك هو علىَّ هيِّن وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا». (٩ - مريم).

عن زكريا يقول أهل الكتاب (لوقا ١ : ٥): كان فى أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا وامرأته اسمها اليصابات (إليزابث Elizabeth). وكان كلاهما بارّين أمام الله سالكين فى جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم ولم يكن لهما ولد إذ كانت اليصابات عاقرا وكان كلاهما متقدمين فى أيامها. فبينما هو يكهن فى نوبة فرقته أمام الله حسب عادة الكهنوت أصابته القرعة بأن يدخل إلى هيكل الرب ويبخِّر. وكان كل جمهور الشعب يُصلُّون خارجا وقت البخور. فظهر له ملاك الرب واقفا عن يمين مذبح البخور. فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك لا تخف يا زكريا لأن طَلِبتك قد سُمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ابنا وستُسميه يوحنا ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته لأنه يكون عظيما أمام الرب. وخمراً ومسكرا لا يشرب. ومن بطن أمه يمتلىء من روح القدس، ويردُّ كثيرين من بنى إسرائيل إلى الرب إلههم. ويتقدم أمامه بروح إيليا وقُوَّته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء والعصاة إلى فكر الأبرار لكى يهيئ للرب شعبا مستعدا».

يذكر القرآن الكريم أن زكريا طلب من ربه أن يعطيه علامة على تحقق الدعاء ومجىء الولد:

«قال رب اجعل لى آية. قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا». (٩ - مريم).

« قال رب اجعل لى آية. قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال إلا رمزا. واذكر ربك كثيرا وسبِّح بالعشى والإبكار». (٤١ - آل عمران).

فكانت الآية أنه لن يستطيع أن يكلم الناس فى شئون الدنيا. إلا رمزاً أى الإشارة باليد والرأس ولكنه يستطيع الذكر والتسبيح والتهليل. بل وأُمرَ أن يجتهد فى ذكر الله عشية وصباحا «بالعشى والإبكار» بل إنه أمر قومه أن يفعلوا مثله فيسبحوا الله صباحا ومساء «فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً». (١١ - مريم).

وعن هذا يقول أهل الكتاب (لو ١ : ١٨): «وقال زكريا للملاك كيف أعلم هذا لأنى أنا شيخ وامرأتى متقدمة فى أيامها. فأجاب الملك وقال له أنا جبريل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا. وها أنت تكون صامتا ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذى يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامى الذى سيتم فى وقته. وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجِّبين من إبطائه فى الهيكل. فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا فى الهيكل فكان يومىء إليهم. وبقى صامتا. ولما كملت أيام خدمته مضى إلى بيته. وبعد تلك الأيام حبلت اليصابات امرأته وأخفت نفسها خمسة أشهر قائلة: هكذا فعل بى الرب فى الأيام التى فيها نظر إلىّ لينزع عارى بين الناس» (أى عار العقم).

وُلِد يحيى. وكان أكبر من عيس بستة أشهر ولكنه كان أول من صدَّق به فذلك وصفه «مصدِّقا بكلمة من الله» لأن عيسى كما وُصِف فى القرآن الكريم: **«إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه»**. (١٧١ - النساء).

وقد أثنى الله على يحيى فى قوله تعالى:

«يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا وزكاة. وكان تقيا. وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا». (١٢ - ١٥ مريم).

ويقول المفسرون إن هذه الآية تذكر ٩ صفات ليحيى:

١ - فقد أمر أن يأخذ الكتاب - وهو التوراة - وهو لا يزال صبيا. وكان من يستطيع فهم التوراة هم الشيوخ فقط.

٢ - «وآتيناه الحكم صبيا» والحكم هو النبوة. والعادة أن النبوة تأتى عند سن يقارب الأربعين ولكن يحيى أوتى النبوة وهو لا يزال صبيا. وإن كان البعض يرون أنها الحكمة التى تصلح للحكم بين الناس. ويرى آخرون أن إيتاء النبوة - خرقا للعادة فى سن صغيرة كان معجزة من الله سبحانه وتعالى ليحيى عليه السلام.

٣ - «وحنانا من لدنا» أى فكان ذلك حنانا من الله عليه. وقيل أيضا أوتى حنانا مطبوعا فى خلقه وكل من رآه أحبه.

٤ - « وزكاة» أى كان كل عمله عملا صالحا زكيا.

٥ - «وكان تقيا» أى مراقبا لله ويخشاه فى كل أفعاله فلم يذنب قط، وهناك أحاديث شريفة فى

ذلك. منها قوله صلى الله عليه وسلم: ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا أذنب. إلاَّ يحيى بن زكريا.

٦ – «وبرا بوالديه». فكان يحيى بارا بهما مسارعا فى طاعتهما وراحتهما.

٧ – «ولم يكن جبارا» أى لم يكن متكبراً متعاليا عن قبول الحق ولا متطاولا على الخلق. والمراد كانت صفته التواضع ولين الجانب.

٨ – «عصيا» أى لم يكن عصيا. والعصىّ أبلغ من العاصى وهو المخالف لأمر ربه فلا يعصى أمر ربه ولا أمر والديه.

٩ – «وسلام عليه...». أى أمان من الله له فى المواقف الثلاثة التى يكون فيها المرء أضعف ما يكون ويستوحش أكثر من أى وقت آخر: يوم يولد ضعيفا لا حول له ولا قوة. ويوم يموت فينتقل إلى عالم لم يره قط ثم يوم يبعث فى الآخرة فى محشر عظيم. فخصَّه الله بالسلام فى هذه المواقف الثلاثة. وجاء فى خبر رواه أحمد وغيره عن الحسن أن عيسى ويحيى عليها السلام التقيا – وهما ابنا الخالة – فقال يحيى لعيسى ادع الله تعالى لى فأنت خير منى. فقال له عيسى: بل ادع لى أنت فأنت خير منى. سلَّم الله تعالى عليك وإنما سلَّمت على نفسى (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ٧٤) مشيرا إلى قوله تعالى عن يحيى: **«وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا»** (١٥ – مريم). وقول عيسى عن نفسه **«والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا»** . (٣٣ – مريم).

الفصل الثالث

مريم ومولد المسيح عليه السلام

اصطفاء مريم :

«وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين. يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين» (٤٢ - آل عمران). هنا ذكرت ثلاثة أمور: الاصطفاء الأول ولم يميّز ثم التطهير ثم الاصطفاء الثانى على نساء العالمين. وفى معنى الاصطفاء الأول أقوال كثيرة أحسنها هو تكريسها لخدمة الرب فى الهيكل بالرغم من أنها أنثى ولم يكن هذا الأمر لغيرها من الإناث. أما قولهم إن أمها لما وضعتها ما غذّتها طرفة عين بل ألقتها إلى زكريا وكان رزقها يأتيها من الجنة فذلك تزيُّد لا يستدعيه الموقف إذ أن سنة الله أن تكون الرضاعة عامين ثم طفولة لمدة ثلاث أو خمس سنوات حتى يشب الطفل عن الطوق ويستطيع المشى وقضاء حاجته بدون مساعدة وعلى ذلك تكون مريم عليها السلام قد أُخِذَت إلى الهيكل فى سن الخامسة أو السابعة وهناك اقتُرع فيمن يكفلها فكفلها زكريا حسبما سبق ذكره (ص١٧). أما التطهير فهو التأكيد على طهارتها من المعصية وفى هذا نفى لمقالة اليهود عنها. واتهامهم لها بالفاحشة. ويتأكد المعنى فى قولة تعالى:

« والتى أحصنت فرجها » . (٩١ - الأنبياء).

ثم كان الاصطفاء الثانى بشيئ تميزت به على نساء العالمين وعلى جميع النساء فى جميع العصور وهو الحمل من دون رجل بل من الروح القدس **«فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين»** (٩١ - الأنبياء). **«وجعلنا ابن مريم وأمه آية»** (٥٠ - المؤمنون).

وفى الحديث الشريف عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسيه امرأة فرعون. وحديث آخر أخرجه بن جرير أن فاطمة قالت: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم البتول.

تبشير مريم بعيسى :

نشأت مريم نشأة طهر وعفاف تقيم فى المحراب الذى خُصِّص لها لتعبد الله فيه فلا يدخل عليها أحد إلا زكريا الذى كان يكفلها ونادرا ماكانت تخرج من المحراب فقد كان رزقها يأتيها من عند الله كما سبق أن ذكرنا (ص ١٧) فلما بلغت مبلغ النساء جاءها جبريل عليه السلام

فى صورة رجل فأخذها الرعب وظنته يريد بها سوءاً فاستعاذت بالله منه:

«واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا. فاتخذت من دونهم حجابا. فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا» (١٥ – ١٨ – مريم). أى إن كنت تتقى الله تعالى وتخشاه حتى لا تتعرض لسخطه.

«قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا» (١٩ – مريم) قال الملك – مُطمئناً لها – أنه ما هو إلا رسول ربها الذى استعاذت به. وأنه جاء ليهب لها بأمر ربه «غلاما زكيا» أى زائدا فى الخير والصلاح.

«قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا» (٢٠ – مريم). فنفت عن نفسها أن بشرا قد مسَّها فى الحلال حيث أنها لم تتزوج. ولم تكن باغية لتتصل بالرجال بدون زواج.

«قال كذلك قال ربُك هو علىَّ هين. ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا».

(٢١ – مريم).

أخبرها جبريل عليه السلام أن حملها دون أن يمسَّها بشر شيئ هيِّن على الله سبحانه وتعالى. وهذا نفس ما قيل لزكريا حينما تعجب من أن يكون له ولد فى شيخوخته لأن إرادة الله تقول للشيئ كن فيكون «ولنجعله آية للناس» ثم بين لها تعليل هذا الأمر فبيَّن لها أن خلق الغلام بدون أب هو آية من الله للناس ودلالة على طلاقة قدرته التى لاتحدها الأسباب والمسببات ولا النواميس الثابتة التى وضعها للكون «ورحمة منا» إذ به يهتدى الناس إلى الطريق القويم فيحسنوا عبادتهم فتنالهم رحمة الله سبحانه وتعالى ويكون هو سببا لهذه الرحمة من الله. «وكان أمرا مقضيا» تقرير بأن هذا الأمر صار أمراً مقضيا من الله سبحانه وتعالى لا راد له ولا رجعة فيه ويجب التسليم به.

«قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر. قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون» . (٤٧ – آل عمران).

وهكذا شاءت إرادة الله أن يتم هذا الأمر. قيل إن جبريل عليه السلام نفخ فى جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها فحملت. ونُسب النفخ إلى الله سبحانه وتعالى.

«والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين» (٩١ – الأنبياء).

مولد المسيح :

«فحملته فانتبذت به مكانا قصيا» . (٢٢ – مريم)

يقول المفسرون (الألوسى جـ ١٦. ص ٨٠) مكانا بعيدا من أهلها وراء الجبل. وقال آخرون

هربت حياء من قومها فأخذت مكانا بعيدا حتى لا يراها أحد. وفى رأينا أن الله سبحانه وتعالى كان رفيقا بها فى هذا الموقف إذ هيأ لها الظروف التى تحتم عليها الانتقال إلى مكان آخر حتى لا تشعر بحرج موقفها عند من يعرفون أنها لاتزال عذراء. ذلك أن أغسطس قيصر روما أصدر أمراً بعمل إحصاء عام كأساس لتحصيل الضرائب ويلزم أن يكون كل مواطن فى مكان ولادته ليتم إحصاؤه فيه.

ويقول أهل الكتاب (لوقا ٢:١) وفى تلك الأيام صدر أمر أغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة. فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد إلى مدينته. فصعد يوسف النجار من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التى تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى . وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد فولدت ابنها البكر وقمَّطته وأضجعته فى المذود إذ لم يكن لهما موضع فى المنزل.

والمسافة بين الناصرة وبيت لحم تبلغ ١٥٠ كم فهى مكان قصى فعلا كما وصفه القرآن الكريم «فانتبذت به مكانا قصيا».

يقول أهل الكتاب (متى ١٨:١): أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لما كانت مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجدت حبلى من الروح القدس. فيوسف رجلها إذ كان بارا ولم يشأ أن يُشهرها أراد تخليتها سرا. ويوسف المذكور اسمه رجل من بيت لحم هاجر إلى الناصرة ومارس فيها مهنة النجارة ولذلك لُقِّب «يوسف النجار» وفى الناصرة تعرف إلى أهل مريم وخطبها. ولما وجدها قد حبلت دون أن يقربها أو يتزوجها أراد فسخ الخطبة. ويقول جاميسون وفاوست (تفسير الكتاب المقدس جـ ٣ مت ١٨:١) إن إجراءات فسخ الخطبة كانت مثل الطلاق وكانت تستلزم إجراءات رسمية منها شاهدين أو ثلاثة والمثول أمام الكاهن أو القاضى مع ذكر سبب فسخ الخطبة. ولما كان يوسف النجار لا يرغب لمريم هذا التشهير فإنه رغب فى تسريحها فيما بينه وبين أهلها بإعطائها الورقة التى تفيد ذلك. ولا يرى أهل الكتاب فيما دار فى ذهن يوسف النجار من التخلى عن مريم دليلا عل عدم تصديقه لحكاية حملها من الروح القدس. إلا أنه لابد قد فكر فى أن إتمام الزواج مع هذا الوضع ليس مقبولا.

ويستمر إنجيل متى فيقول (مت ١:٢٠) ولكن فيما هو متفكر فى هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له فى حلم قائلا: يا يوسف بن داود. لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذى حُبل فيها هو من الروح القدس. فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع لأنه مُخلِّص شعبه من خطاياهم. وهذا كله لكى يتم ما قيل من قِبَل الرب بالنبى القائل: هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمَّانوئيل الذى تفسيره الله معنا. فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب وأخذا امرأته ولم يعرفها (أى لم يقربها) حتى ولدت ابنه البكر ودعا اسمه يسوع.

وهذا يعنى أنه بعد ولادة يسوع أصبحت العلاقة بين يوسف النجار ومريم علاقة زوجية

كاملة. يؤيد هذا ما جاء فى الكتاب المقدس. (مت ١٢:٤٦) وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجا طالبين أن يُكلموه. فقال له واحد. هو ذا أمك وإخوتك خارجا طالبين أن يكلموك . كما جاء أيضا (متى ١٣:٥٤). ولما جاء إلى وطنه كان يُعلِّم جموعهم حتى بهتوا وقالوا من أين لهذا هذه الحكمة. أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم وإخوته يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا؟ أو ليست أخواته جميعهن عندنا؟ فمن أين لهذا هذه كلها؟!

وعن ولادة المسيح ويحيى عليهما السلام يقول إنجيل لوقا (١:٢٦): «وفى الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل تُسمى «ناصرة» إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم. فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المُنعَم عليها. الرب معك. مباركة أنت فى النساء. فلما رأته اضطربت من كلامه وفكَّرت ما عسى أن تكون هذه التحية. فقال لها الملاك: لا تخافى يامريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسميه يسوع. هذا يكون عظيما. ويعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية. فقالت مريم للملاك: كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا. فأجاب الملاك وقال لها: الروح القدس يحل عليك وقوة العلى تظلُّلك. فلذلك أيضا القدوس المولود منك. وهو ذا إليصابات نسيبتك هى أيضا حبلى بابن فى شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرا. لأنه ليس شيئ غير ممكن لدى الله. فقالت مريم: هو ذا أنا أمة الرب. ليكن لى كقولِكَ فمضى من عندها الملاك. فقامت مريم فى تلك الأيام وذهبت بسرعة إلى الجبال إلى مدينة يهوذا ودخلت بيت زكريا وسلَّمت على إليصابات فلما سمعت إليصابات صوت مريم ارتكض الجنين فى بطنها وقالت مريم. تُعظِّم نفسى الرب وتبتهج روحى بالله مخلِّصى لأنه نظر إلى اتضاع أمته فهو ذا منذ الآن جميع الأجيال تُطوِّبنى لأن القدير صنع بى عظائم واسمه قدوس ورحمته إلى جيل الأجيال للذين يتقونه. صنع قوة بذراعه. شتَّت المستكبرين بفكر قلوبهم. أنزل المتكبرين عن الكراسى ورفع المتواضعين. أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين. وأما إليصابات فتم زمانها لتلد فولدت ابنا وبعد اختتانه فى اليوم الثامن سمَّته أمه يوحنا ووافق زكريا على اسم يوحنا. وفى الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم وبارك الله. وتعجب الحاضرون من زوال البكم الذى كان قد أصاب زكريا وأيقنوا ببركة هذا المولود (يحيى) وتحدث جميع سكان اليهودية قائلين: أترى ماذا سيكون هذا الصبى؟ وكانت يد الرب معه. وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ (صار نبيًّا) وقال: مبارك الرب إله إسرائيل لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه وأقام لنا قرن خلاص. وأنت أيها الصبى نبى العلىِّ تدعى لأنك تتقدم أمام وجه الرب لتُعِدَّ طرقه لتعطى شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم. أما الصبى فكان ينمو ويتقوَّى بالروح وكان فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل».

ولادة المسيح :

«فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا» .

(٢٣ - مريم).

تمنت مريم الموت لأنها شعرت بالحرج مما قد يقوله أهلها عندما يرونها تحمل وليدها والمعروف عندهم أنها عذراء مخطوبة ليوسف النجار ولم يتزوجا بعد.

«فناداها مِن تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا». (٢٤ - مريم).

قيل الضمير فى «مِن» راجع إلى عيسى عليه السلام. وقال البعض هو جبريل عليه السلام وكان فى مكان أخفض من البقعة التى كانت فيها تحاشيا من حضوره بين يديها وهى فى تلك الحال. ولكن القول الأول أولى. أى أن الله سبحانه وتعالى أنطق المولود فور ولادته ليذهب عنها الحزن والقلق. ولاشك أن مريم استعادت رباطة جأشها بعد أن سمعت مقالة وليدها . ثم أوحى الله إليها ما تفعله لتتغذى بعد الولادة:

«وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا. فكلى وأشربى وقرِّى عينا» (٢٦ - مريم).

قيل إن رطب النخل يناسب النفساء. ومن أحسن ما قيل فى «هزى إليك».

ألـم تــر أن اللـه أوحــى لمريـم ∴ وهزى إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه ∴ إليها ولكـن كـل شيـئ له سبـب

الرعــاة :

يقول أهل الكتاب : (لوقا ٢ : ٨) «وكان فى تلك الكورة (البقعة) رعاة يحرسون حراسات الليل على رعيتهم. وإذا ملاك الرب وقف بهم. ومجدُ الرب أضاء حولهم فخافوا خوفا عظيما. فقال لهم الملاك: لا تخافوا فها أنا أبشّركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب. أنه ولد لكم اليوم فى مدينة داود مخلِّص هو المسيح وهذه لكم العلامة. تجدون طفلا مُقمَّطا مُضجَعًا فى مذود. وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماوى مسبحين الله وقائلين: «المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرَّة».

ولما مضت عنهم الملائكة إلى السماء قال الرجال الرعاة بعضهم إلى بعض لنذهب الآن إلى بيت لحم وننظر هذا الأمر الواقع الذى أعلمنا به الرب فجاءوا مسرعين ووجدوا مريم ويوسف والطفل مضجعًا فى المذود. فلما رأوه أخبروا بالكلام الذى قيل لهم عن هذا الصبى. وكل الذين سمعوا تعجَّبوا مما قيل لهم من الرعاة. وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به فى قلبها. ثم رجع الرعاة وهم يمجِّدون الله ويسبِّحونه على كل ما سمعوه ورأوه كما قيل لهم.

المجــوس :

ولد عيسى فى بيت لحم. وكان فى أرض الفرس مجوس من المنجِّمين كانوا قد علموا من حساباتهم الفلكية أن طفلا سيولد بأرض فلسطين وأنه سيكون ملكا على اليهود. ورأوا أن نجمه قد ظهر فى السماء فعلموا أنه قد وُلد. فشدُّوا الرحال إلى فلسطين ليتشرَّفوا برؤية هذا الوليد ويتحققوا من صدق نبوءتهم. فجاءوا إلى أورشليم لظنهم أنه لابد يولد بها مادام سيكون ملكا على اليهود. وراحوا يسألون الناس عن المولود . يقول الإنجيل (مت ٢:١): وإذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له. فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه. فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح فقالوا إنه يولد فى بيت لحم اليهودية لأنه هكذا مكتوب بالنبى: «وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مُدبِّر يرعى شعبى إسرائيل».

ولعل المجوس كانوا يتوقعون أن يجدوا أورشليم على علم بهذا المولود والجميع ينتظرون ويرحبون بمليكهم المقبل. فإذا بهم يكونون أول المبشِّرين به. ولما علموا من الكهنة أنه سيولد فى بيت لحم تشككوا فى حساباتهم وكذلك تشكك هيرودس فى صدق نبوءتهم فلم يتخذ إجراء حاسما للتأكد منها. بل طلب من المجوس أن يذهبوا إلى بيت لحم ويبحثوا عن المولود الذى يتوقعونه.

جاء فى الإنجيل (مت ٢:٧): حينئذ دعا هيرودس المجوس سراً وتحقق منهم زمان النجم الذى ظهر ثم أرسلهم إلى بيت لحم وقال اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبى ومتى وجدتموه فأخبرونى لكى آتى أنا أيضا وأسجد له. فلما سمعوا من الملك ذهبوا وإذا النجم الذى رأوه فى المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف حيث كان الصبى. فلما رأوا النجم فرحوا فرحا عظيما جدا وأتوا إلى البيت ورأوا الصبى مع مريم أمه فخروا وسجدوا له. ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهبا ولبانا ومُراً. ثم أُوحى إليهم فى حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس فانصرفوا فى طريق آخر إلى كورتهم». ومن المؤكد أنهم إذ لم يرجعوا إلى هيرودس فإنه ظن أنهم لم يعثروا على الطفل وأن رؤيتهم لنجمه كانت مجرد أوهام.

وكانت مريم قد علمت من المجوس أن هيرودس يطلب الصبى. ولاشك أنها حدست أنه يريد به شرا وإن ادعي للمجوس أنه يريد أن يسجد له. ولاشك أنها أسرَّت بمخاوفها ليوسف النجار خطيبها فقرر أن يلجأ إلى أقارب لهم فى إحدى ضواحى بيت لحم وهى بلدة فارس التى تبعد ١٩كم عن بيت لحم. وبمجرد أن طهُرت مريم من نفاسها بعد ٤٠ يوما من الولادة اشترى يوسف أتانا (أنثى الحمار) وأركب مريم وابنها معها وسار هو يقود الأتان. وعند مغارة فى بيت لحم جنوب شرق كنيسة الميلاد توقف الركب لترضع مريم طفلها. ويقال إن بعض نقط من

اللبن سقطت على صخرة فتحولت الصخرة إلى اللون الأبيض الناصع. وفى زمن تالٍ (فى القرن الخامس الميلادى) بُنيت كنيسة فوق تلك الصخرة سُميت كنيسة مغارة الحليب. ثم فى عام ١٨٧١ بنيت الكنيسة الموجودة حاليا وبداخلها المغارة المقدسة والصخرة. وكان رؤساء الكنائس فى أوربا كثيرا ما يحضرون ويأخذون قطعا من حجارة الصخرة ليحتفظوا بها فى كنائسهم.

خرج الركب من بيت لحم قاصدين بلدة فارس. ولاشك أن مريم قد شعرت بالخزى مما قد يقوله الأهل عنها إذ هم يعرفون أنها مخطوبة ليوسف النجار ولم يتزوجا بعد. ولكن الله سبحانه وتعالى أعلمها ماتقول عندما يقابلها الناس بشكوكهم:

«فإما ترينَّ من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا» (٢٦ – مريم). وكان الإمساك عن الكلام عند الصيام مشروعا عندهم.

فلما دخلت مريم – وهى تحمل وليدها – على قومها وعشيرتها اتهموها بارتكاب الفاحشة.

«فأتت به قومها تحمله. قالوا يامريم لقد جئت شيئا فَرِيًّا. يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا. فأشارت إليه. قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا. قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا. وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا. والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا» (٢٧ – ٣٣ مريم).

فلما أشارت إلى عيسى بما يفيد أن يسألوه استنكروا أن يُكلِّموا طفلا لا يزال فى المهد ولكن الله أنطقه بما قال. فكان هذا دليلا على معجزة من الله سبحانه وتعالى وعلى قدرته بأن تحمل مريم من غير رجل. واختلف المفسرون فى أنه بعد ما تكلم بما ذُكر هل بقى يتكلم كعادة الكبار أم عاد فلم يتكلم حتى بلغ السن التى يتكلم فيها الصبيان. والأرجح أنه لم يتكلم إلا بهذه الكلمات. إذ لو ظل يتكلم لشاع خبر هذه المعجزة ووصلت إلى أسماع هيرودس وعرف مكان الصبى. وأغلب الظن أن هيرودس لما لم يرجع المجوس إليه أرسل بعض الجند الى بيت لحم وراحوا يسألون عن مولود حديث الولادة. ولكن المدينة كانت تعج بالغرباء الذين جاءوا لتسجيل أنفسهم فى التعداد حسب أوامر القيصر فلم يستدلوا عليه وبذلك ضاع أى أثر يمكن لهيرودس أن يتتبَّعه. ولعل من سمعوا ما قاله عيسى فى المهد ظنوها حيلة أو سحرا لجأ إليه يوسف النجار ليدارى بها موقف خطيبته مريم فلم يصدقها من سمعها فلم تنتشر.

ولكن مر وقت وسمع هيرودس أن هناك طفلا تكلم فى المهد. وكان قد مضى على مجئ المجوس عامان. فعادت المخاوف إلى ذهنه. فقرر أن يقتل كل الأطفال الموجودين فى بيت لحم الأصغر من سنتين ليكون من بينهم الطفل الذى أشارت إليه النبوءة.

ويقول أهل الكتاب إن هيرودس الملك أقام سنتين كاملتين ينتظر عودة المجوس. ثم ظهر له الشيطان ذات ليلة فى شكل إنسان وكلّمه قائلا. ما بالك والكسل مع أن مملكتك سوف تضيع منك؟ فأجابه ما العمل؟ قال إبليس: قم واقتل كل الأطفال الذين فى بيت لحم اليهودية وتخومها من عمر سنتين فما دون لعلّك تظفر بقتل يسوع (٢٠٠٠ عام على مجئ العائلة المقدسة إلى مصر . الأنبا اثناسيوس. ص ٢٢). ويقال إنه قتل ١٤٤٠٠٠ طفلا. وسمعت مريم ويوسف النجار بخبر المذبحة التى حدثت فى بيت لحم وخافوا أن يكرر هيرودس نفس الأمر فى المدن المجاورة فقررا مغادرة البلدة. ولكن كانت أبواب المدينة مغلقة. فوضعوا يد عيسى على القفل فانفتح وبعد ما خرجوا انغلق الباب ثانية وعاد القفل إلى مكانه (الأنبا سلوانس. من مصر دعوت ابنى. ص ٢١). وخرجوا من المدينة إلا أنه لم يكن أمان لهم مادام هيرودس فى الحكم.

يقول الإنجيل (مت ٢ : ١٢) «وإذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف فى حلم قائلا: قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه. فقام وأخذ الصبى وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر وكان هناك إلى وفاة هيرودس» .

الفصل الرابع

العائلة المقدسة فى مصر

يذكر القرآن الكريم هذه الفترة باختصار شديد فى قوله تعالى:

«وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين». (٥٠ - المؤمنون).

ويقول الألوسى (تفسيره. جـ ١٨ ص ٣٩): ذات قرار أى مستقر من أرض منبسطة. ومعين أى ماء جار. وهو ما ينطبق على أرض مصر إذ هى سهل منبسط يجرى فى وسطه نهر النيل بماء معين فى حين أن أرض فلسطين أو سيناء فى معظمها جبلية وتعتمد أساسا فى زراعتها على المطر.

وكان عمر عيسى عليه السلام عند دخوله مصر سنتين. وكان دخوله - على ما يرى أهل الكتاب وفقا لما أجروه من حسابات - فى بشنس وأمضت العائلة المقدسة فى مصر أكثر من ٣ سنوات ونصف. وقد تبلغ ٤ سنوات إلى أن تلقت الأمر الإلهى بالعودة إلى فلسطين بعد موت هيرودس الملك. واستغرقت رحلة العودة بضعة شهور. وقد نشرت جريدة الأهرام (بتاريخ ١٩٩٨/٦/٦) عثور باحثين من جامعة كولون على بردية أثرية ترجع إلى القرن الرابع الميلادى تتحدث عن فترة وجود المسيح والعائلة المقدسة فى مصر مؤكدة أن مدة بقاء المسيح فى مصر بلغت ٣ سنوات و ١١ شهرا. والبردية مكتوبة باللغة القبطية وعثر عليها بمنطقة الفيوم وهى موجودة بمكتبة جامعة كولون.

بالطبع لم تقض العائلة المقدسة هذه المدة الطويلة فى بلدة واحدة بل كانت دائمة الترحال والانتقال من مكان لآخر. إذ ما إن يحل عيسى عليه السلام فى مكان ما حتى تحل البركة على هذا المكان. ولو استضافهم شخص ما وكان فى البيت مريض بشلل مثلا فإنه حالا يشفى من مرضه. ويشيع خبر الشفاء فى البلدة مما يجعل المرضى يتقاطرون إلى حيث تقيم هذه العائلة المباركة تلمسا لشفاء مرضاهم.

ولا شك أن هذه الأمور كانت لابد أن تلفت نظر الحاكم الرومانى فى مصر والذى لابد قد سمع أن هيرودس يبحث عن طفل تقول النبوءة إنه سيصبح ملك اليهود. ولابد أن يوسف النجار قد حدس كل هذا وخوفا من أن تتبعهم عيون الحاكم وأعوانه فيقع فى أيديهم وحرصا على سلامة المسيح وأمه فإنه ما كان يمكث طويلا فى مكان واحد. بل يمكننا أن نقول باطمئنان إن

العائلة المقدسة ما كانت تستقر فى مكان واحد أكثر من أيام قليلة وعلى الأكثر أسبوعين تنتقل بعدها إلى مكان آخر. ومن هنا كانت كثرة الأماكن التى ذكر أن العائلة المقدسة مرت بها.

وفى كل مكان كانت تحل به العائلة المقدسة كانت تستريح فى ظل شجرة وكثيرا ما كان الله ينبع لهم عين ماء يستقون منه – وعندما اعتنق المصريون المسيحية فإنهم قاموا ببناء كنيسة فى كل مكان استراحت فيه العائلة المقدسة وغالبا ما كان حوش الكنيسة يحتوى على البئر التى استقى منها السيد المسيح. ومن هنا جاء اعتقاد الناس فى مقدرة مائها على شفاء الأمراض.

كذلك فإن بعض الأمكان التى مرت بها العائلة المقدسة كان بها تماثيل لآلهة المصريين وتقول الروايات إنها كثيرا ما كانت تسقط على وجهها مكسَّرة بمجرد مرور السيد المسيح أمامها. وكان لا بد من الإسراع بمغادرة المكان حتى لا يربط الناس بين مرور المسيح أمامها وتكسُّرها مما قد يدفع الأهالى إلى الانتقام منهم أو التيقن من بركة هذا الصبى مما يلفت نظر الحاكم الرومانى وجنده إلى أن هذا الصبى هو من يبحث عنه هيرودس.

كما أنه فى بعض الأماكن كان الناس يحسنون ضيافتهم فتحل عليهم البركة. وفى بلدان أخرى كان الناس ينهرونهم ويسيئون معاملتهم فكان عيسى عليه السلام يتنبأ لهم بضيق الرزق وسوء المصير.

لقد كان عام ٢٠٠٠ مناسبة لعدد كبير من الكتاب المسيحيين لتأليف كتيِّبات عن مسيرة العائلة المقدسة فى مصر استعنَّا ببعضها مثل.

١ – «من مصر دعوت ابنى» «تأليف الأنبا سلوانس الأسقف العام لمنطقة المطرية وعين شمس وعزبة النخل ومار مينا.

٢ – «٢٠٠٠ عام على مجيء العائلة المقدسة إلى مصر» تأليف الأنبا اثناسيوس مطران كرسى بنى سويف والبهنسا.

٣ – «يسوع فى مصر» شريط ڤيديو للمخرج خيرى بشارة.

وتبين أشكال ٧ – ١١ الأماكن التى مرت بها العائلة المقدسة.

وقد سبق أن ذكرنا أن العائلة المقدسة بدأت مسيرتها من بيت لحم إلى بلدة فارس ثم إلى حبرون (حاليا الخليل). ولم يسلك يوسف النجار الطرق المعروفة التى يسلكها المسافرون من فلسطين إلى مصر – وهى تنتهى إلى غزة على الطريق الساحلى – حتى لا يصل إليه جنود هيرودس. بل اتجه جنوبا إلي بئر سبع ثم خان يونس ثم رفح على الحدود بين فلسطين ومصر. ومن هذه المدينة نبدأ فى إعطاء أرقام مسلسلة للأماكن والمدن التى مرت بها العائلة المقدسة فى مصر. والرقم فى المتن سيكون هو نفس الرقم على الخريطة.

١ – كانت **رفح** المصرية هى أولى الأماكن التى وصلتها العائلة المقدسة. وفى ١٩٩٥/٦/٢٥ قام البابا شنودة ومحافظ سيناء وعدد من الأساقفة بتدشين كنيسة مدينة رفح البديلة لموضع الكنيسة القديمة التي كانت قد بنيت فى المكان الذى مرت به العائلة المقدسة.

٢ – بعد رفح وصلت العائلة المقدسة إلى **العريش (شكل ٧)**.

٣ – ثم **أوستراكين** على بحيرة البردويل وهى حاليا قرية «**المزار**».

٤ – ثم **بلوزيوم** وهى الآن تل الفرما ٣٠ كم شمال شرق القنطرة.

٥ – ثم **تل بسطة** ٢ كم جنوب الزقازيق. وفيها تم شفاء امرأة كانت مشلولة وتقاطر المرضى على مكان العائلة المقدسة طلبا للشفاء مما لفت نظر الحاكم الرومانى فأرسل جنوده لمطاردتهم فاختبأوا فى حقل قمح وحدثت معجزة إذ استطالت أعواد القمح إلى طول مترين حتى تخفيهم عن أعين الجنود. وبعد أن ذهب الجند عادت أعواد القمح إلى طولها المعتاد. ثم مرَّت العائلة المقدسة بالبلدان التالية (شكل ٨):

٦ – **دقادوس**.

٧ – **ميت غمر**.

٨ – **سندبيس**.

٩ – **بلبيس**.

١٠ – **فاقوس**.

١١ – **صان الحجر**.

١٢ – ميت **سمنود**. شرق فرع دمياط ثم عبروه إلى

١٣ – **سمنود**. وفى كنسية سمنود يوجد ماجور كبير من الحجر الأسود يقال إن السيدة مريم قد عجنت فيه الخبز أثناء إقامتهم فى سمنود. وحاليا يوضع فى هذا الماجور ماء مَصلًى عليه. ومن المعجزات التى يرويها أهل الكتاب ما حدث يوم العنصرة الموافق ٧ يونو عام ١٩٨٧ بعد القداس الإلهى إذ تحول الماء الموجود بالماجور إلى زيت.

١٤ – ثم سارت العائلة المقدسة إلى **المحلة الكبرى**.

١٥ – ثم إلى **بلقاس**. ثم

١٦ – إلى **المطلع** وبها حاليا كنسية الملاك ميخائيل. ثم

١٧ – **سخـــا**.

١٨ – ثم إلى **دسوق**.

شكل ٧ – مسيرة العائلة المقدسة من فلسطين إلى مصر.

١٩ – ثم إلى **كفر الزيات**. ومن هناك عبروا فرع نهر النيل إلى

٢٠ – **ترنوث** أو تيرنوثيس أو المطرانة الآن. والتى كانت فيما مضى الميناء الذى يشحن منه الملح من وادى النطرون لينقل بالمراكب إلى باقى مدن الدلتا. والمنطقة الواقعة إلى الغرب هى وادى النطرون (شكل ٩).

٢١ – **وادى النطرون**. وقد استراحت العائلة المقدسة فى أربعة أماكن بُنيت فيها أربعة أديرة هى: ديرببيشوى (إبشواى) ودير مواس ودير سريانى ودير مكاريوس أو مقار

٢٢ – ثم إلى قرية **الهوكارية** أو بيرهوكر خلف الرست هاوس على طريق اسكندرية الصحراوى.

٢٣ – ثم ساروا فى اتجاه جنوب شرق حتى وصلوا إلى نهر النيل عند تفرعه عند **القناطر الخيرية**. ثم ساروا جنوبا فوصلوا.

٢٤ – **المطرية**. وهى بلدة «مرتى» القديمة. ثم ساروا شرقا إلى

٢٥ – **تل اليهودية** التى تقع ٢ كم شرق شبين القناطر. وقد سبق أن ذكرنا (جـ ٤ ص ٧٢٦) أنه كان بها معبد أسسه الكاهن أونياس (جـ ٥ ص ٤٦٨ – ٤٧٠). ويقال إن يوسف النجار كان يسير متوكئا على عصا من شجر البلسان أخذها من شجرة فى أريحا فأخذها وقطعها إلى قطع صغيرة وغرسها فى الأرض وسقاها بالماء فاخضرّت ونبتت لها الأغصان. وكان هذا هو أول معرفة المصريين بشجر البلسان وزرع بكثرة بعد ذلك وزيته يستعمل فى الطقوس المسيحية.

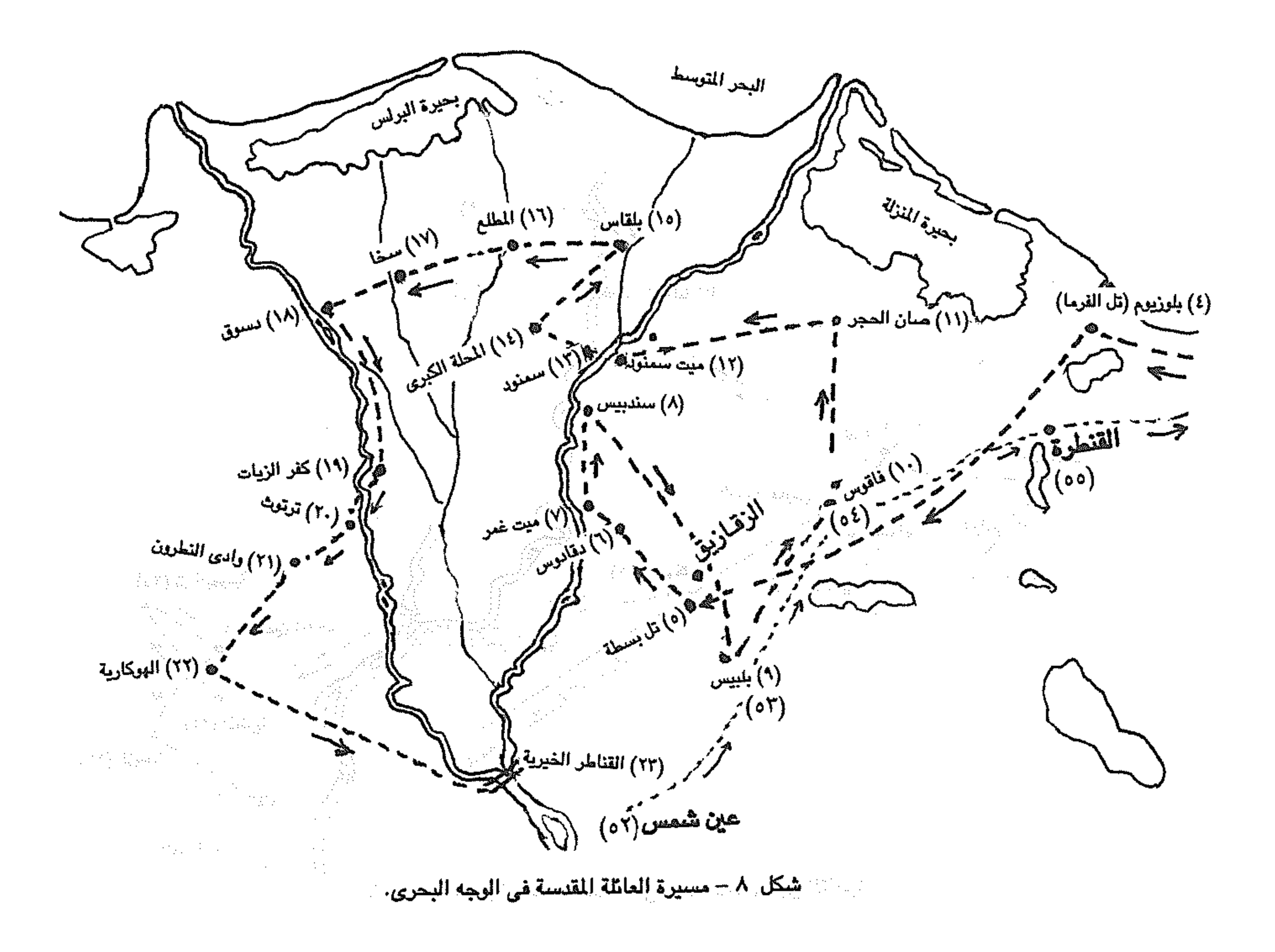
٢٦ – ثم سارت العائلة المقدسة إلى **عين شمس**.

٢٧ – ثم **الزيتون**. وقد شيدت بها كنيسة للعذراء ويروى أن السيدة العذراء ظهرت بها فى ٢ أبريل عام ١٩٦٨ وحدثت ضجة كبرى وقتها وظلت وسائل الإعلام من صحف وتليفزيون تتحدث عن هذا الظهور المبارك.

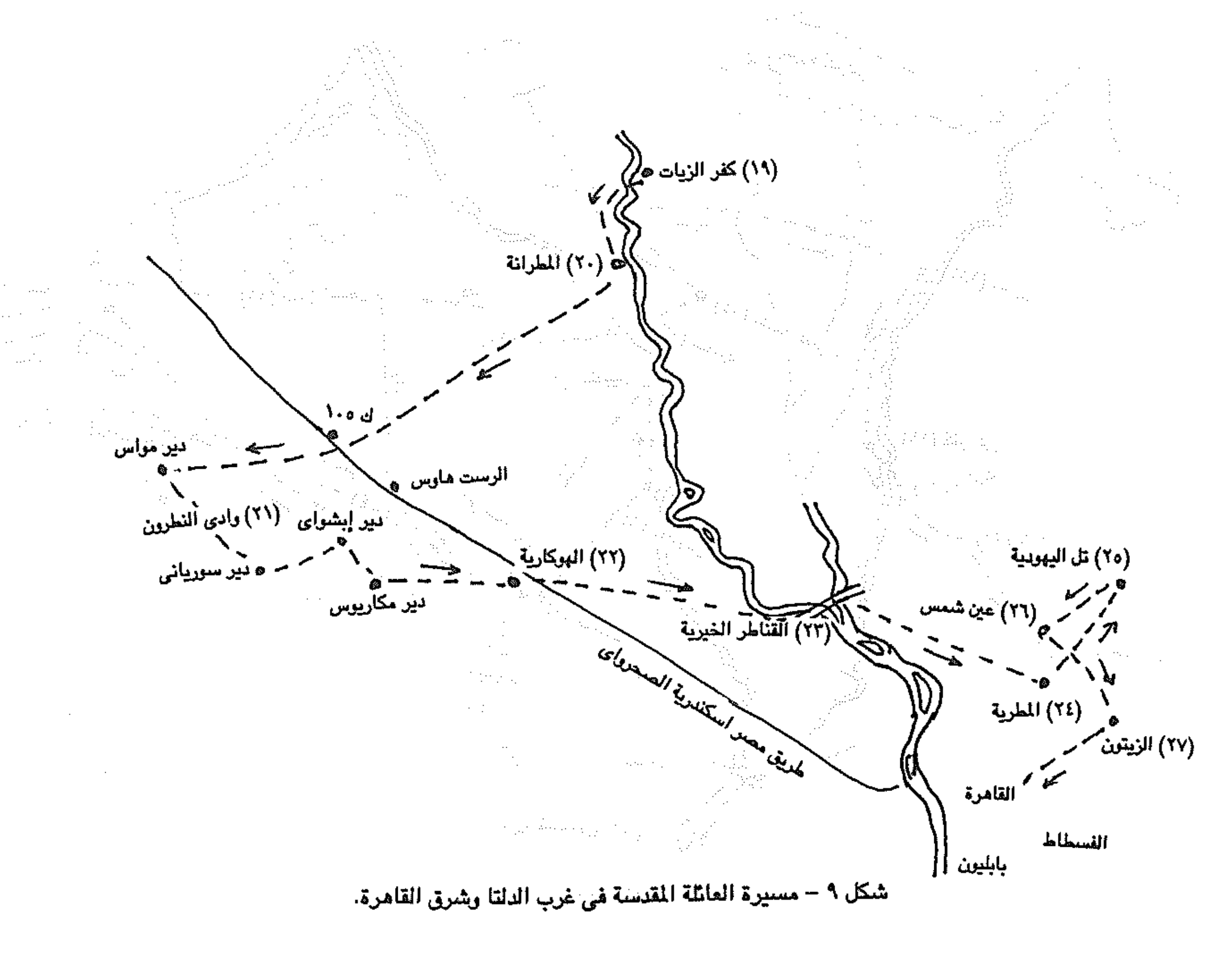
٢٨ – وفى **القاهرة** عدة أماكن مشهور عنها أن العائلة المقدسة أقامت بها بعض الوقت منها: حى الأزبكية وحى زويلة والفسطاط وبابليون.

٢٩ – ثم سارت العائلة المقدسة جنوبا إلى **المعادى** وبعد أن أمضوا بها حوالى الشهر استقلوا مركبا شراعيا متجها إلى الصعيد. ويقال إنه أثناء طهى الطعام على ظهر المركب أمسكت النيران بأخشاب المركب ذاتها فأخذ عيسى عليه السلام حفنة ماء بيده الطاهرة ورشها على النار فانطفأت. ولما رأى أصحاب المركب هذه المعجزة أيقنوا أن هذا الطفل مبارك وله شأن فرفضوا أن يتقاضوا أجرة من العائلة المقدسة.

٣٠ – ثم نزل الركب فى بلدة **الفشن (شكل ١٠)**.



شكل ٨ – مسيرة العائلة المقدسة فى الوجه البحرى.



شكل ٩ – مسيرة العائلة المقدسة فى غرب الدلتا وشرق القاهرة.

٣١ – ثم إلى مغاغة.

٣٢ – ثم ساروا إلى **دير الجرنوس** التى تقع ١٠ كم جنوب غرب مغاغة (شكل ١١) وكان بها بئر شربت منه العائلة المقدسة فأصبح ماؤه مباركا يشفى المرضى ثم فى زمن تالٍ بنى الدير حوله ويتراوح زواره سنويا من ٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ زائر للاستشفاء بماء البئر. ثم سارت العائلة المقدسة غربا إلى

٣٣ – **البهنسا**. وبالتحديد قرية «إباى إيسوس» أى «بيت يسوع». وفى هذه القرية استضافهم مزارع وأنبع له الله عين ماء فى داخل داره إذ كان المصدر الذى يستقى منه الماء بعيدا ويتكلف جهداً كبيرا لنقل احتياجاته من الماء.

٣٤ – ثم ساروا إلى **القيس**.

٣٥ – ثم **سمالوط**. ثم عبروا إلى شرق نهر النيل إلى.

٣٦ – **جبل الطير**. وهناك كانت حجارة ساقطة من الجبل تسد الطريق أمامهم فوضع السيد المسيح يده الكريمة على الحجارة فانطبعت يده عليها ولذلك يسمى الجبل الآن «جبل الكف» وانشقت الحجارة عن ممر سارت فيه العائلة المقدسة ويسمى الآن «شق مريم» وأقيمت فيما بعد كنيسة باسم العذراء على قمة الجبل.

٣٧ – ثم سارت العائلة المقدسة إلى **أطسا** . ثم عبروا ثانية إلى غرب النهر إلى

٣٨ – **الأشمونين** Hermopolis. وكان بها شجرة لبخ تقول الروايات إنها انحنت تعظيما لعيسى عليه السلام عندما َمر أمامها فباركها قائلا «لن يلمسك الدود إلى آخر الزمان وسوف تبقين شهادة لدخولى هذه المدينة». ومكثت العائلة المقدسة فى الأشمونين حوالى الأسبوعين. ويقال إن أحد الكهنة سمع عن وصول طفل تأتى المعجزات على يديه فقصد حيث يقيم وتعرَّف على العائلة المقدسة وآمن ونبذ عبادة الأصنام فقام زملاؤه الكهنة بقتله.

٣٩ – ثم انتقلت العائلة المقدسة إلى **ديروط الشريف** والتى كانت تسمى «فيلبس» وهناك قام عيسى بشفاء ابن نجار أكرمهم. ثم ساروا إلى

٤٠ – **صنبو** . ثم إلى

٤١ – **القوصية** (قسقام).

وكان قد مضي على العائلة المقدسة فى مصر حوالى سنة وثلاثة أشهر ومن المرجَّح أن عيون الرومان ما كانت لتصل إلى هذا المكان القصى فى الصعيد لذلك شعر يوسف النجار أنهم قد أصبحوا بمأمن من المطاردة فبنى بيتا بالطوب اللبن وغطاه بأخشاب النخيل وأقامت فيه العائلة المقدسة لفترة بلغت ١٩٠ يوما أى ستة أشهر وعشرة أيام.

شكل ١٠ – مسيرة العائلة المقدسة فى شمال مصر العليا.

ثم جاء رجل يدعى يوسى من سبط يهوذا وهو من أقارب مريم . جاء من فلسطين وأمكنه بعد تعب أن يستدل على مقر العائلة المقدسة فى جبل قسقام وأخبرهم بما فعل الملك هيرودس من قتل جميع الأطفال فى بيت لحم وضواحيها وأنه أرسل ١٠ من جنوده للبحث عن الطفل يسوع والقبض على أفراد العائلة المقدسة وإعادتهم إلى فلسطين ليقتلهم بنفسه. وطلب يوسى منهم الازدياد فى الحرص حتى لايقعوا فى أيدى جنود هيرودس. فطمأنه يوسف النجار أن الله يرعاهم ولن يسلمهم إلى أعدائهم. وتقول الروايات إن يسوع على صغر سنه - ٣ر٥ سنة - شكر يوسى على تكلفه المشاق لتحذيرهم وأخبره أنه قد حان الوقت ليستريح، فأخذ يوسى حجرا ووضعه تحت رأسه وأغمض عينيه وماهى إلا فترة وجيزة حتى أسلم الروح. وقد وُجد فى دير المحرق حجر مربع مكتوب عليه بالعبرية: أنا يوسف النجار من الناصرة أقر أنى وخطيبتى مريم العذراء قضينا فى هذا المكان ستة أشهر وعشرة أيام بذلك الجبل الطاهر وأنه فى هذا المكان يرقد يوسى (مخطوطات الباب ثيئوفيلس بدير المحرق ١٤/٩).

العـودة:

ظهر ملاك الرب ليوسف النجار فى حلم وقال له: قم خذ الصبى وأمه وعد إلى إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى. وبدأت العائلة المقدسة تعد لرحلة العودة التى استغرقت ثلاثة أشهر. ولم يتخذوا فيها نفس الطريق الذى جاءوا فيه وزيادة فى الحيطة والتمويه فإنهم ساروا بضعة أيام فى اتجاه الجنوب إلى

٤٢ - **بوق** ٥ كم جنوب القوصية. ثم إلى

٤٣ - **جبل درنكة** ٨ كم جنوب أسيوط وأووا إلى مغارة هناك ثم عبروا النهر إلى.

٤٤ - **القصير** على الضفة الشرقية واتجهوا شمالا. وعند

٤٥ - **ملوى** عبروا النهر ثانية إلى غربه ليمروا على

٤٦ - **الأشمونين** مرة ثانية. ثم ساروا شمالا بعيدا عن النهر فى دروب الصحراء حتى وصلوا إلى

٤٧ - **إهناسيا**. وعندها اتجهوا شرقا وعبروا النهر إلى المكان المسمى حاليا

٤٨ - **بياض النصارى** مقابل بنى سويف. (شكل ١٠) ثم عبروا النهر ثانية إلى غربه إلى

٤٩ - **منف** (شكل ١٠).

ويلاحظ أن خط مسير العائلة كان كثير التنقل من غرب النيل إلى شرقة وبالعكس. وكان ذلك زيادة فى الحيطة لتضليل أى جنود يحاولون اقتفاء أثرهم. ثم بعد منف عبروا النهر إلى الضفة الشرقية إلى

٥٠ - **معصرة حلوان** . ثم

إلى إهناسيا
(٤٧)
الفشن (٣٠)
مفاغة (٣١)
دير الجرنوس
(٣٢)
البهنسا
(٣٣)
القيس (٣٤)
سمالوط
(٣٥)
(٣٦) جبل الطير
المنيا
(٣٧) أطسـا
أبو قرقاص
الأشمونين (فى الذهاب) (٣٨)
(فى العودة) (٤٦)
(٤٥)
ملوى
دير مواس
ديروط الشريف (٣٩)
ديروط
(٤٤) القصير
صنبو (٤٠)
القوصية (٤١)
بوق (٤٢)
أسيوط
(٤٣) درنكة

شكل ١١ – مسيرة العائلة المقدسة في مصر الوسطى.

٥١ – **المعادى** ثم بابليون واستراحوا فى مكان كنيسة أبو سرجة. ثم

٥٢ – **عين شمس.**

٥٣ – **بلبيس.**

٥٤ – **فاقوس.**

٥٥ – **القنطرة.**

ثم عبروا شمال سيناء إلى أن دخلوا أرض فلسطين.

وقد نشرت جامعة كولون بألمانيا نبأ عثورها على بردية أثرية ترجع إلى القرن الرابع الميلادى طولها ٣١,٥ سم وعرضها ٨,٤ سم مكتوبة باللغة القبطية الفيومية (نسبة إلى منطقة الفيوم) مكتوب بها أن فترة وجود المسيح والعائلة المقدسة فى مصر استمرت ثلاث سنوات وأحد عشر شهرا. وهذا ما يقبله رجال الدين المسيحى وجميع المؤرخين. ويمكننا أن نحسب عمر المسيح عند عودته إلى فلسطين هكذا.

عمره عند ترك فلسطين	٢ سنة
المدة فى مصر	٣ سنوات وأحد عشر شهرا
رحلة العودة	٣ شهور
	٦ سنوات وشهران

بعد العودة إلى فلسطين:

وصلت العائلة المقدسة إلى بيت لحم وعلموا أن أرخيلاوس قد أعلن نفسه ملكا على اليهودية. وكان أرخيلاوس قد ورث عن والده طباعه الفظّة وكراهيته لليهود لذلك عدل يوسف النجار عن الإقامة فى اليهودية إذ لم يطمئن إلى تصرفات أرخيلاوس. فقرر الرحيل إلى الجليل وكان يحكمه هيرودس أنتيباس واستقرت العائلة المقدسة فى بلدة «الناصرة» (شكل ١٢).

جاء فى الإنجيل (متى ٢ : ٢٣) ولكن لما سمع (يوسف النجار) أن أرخيلاوس يملك على اليهودية عوضا عن هيرودس أبيه خاف أن يذهب إلى هناك وإذ أوحى إليه فى حلم انصرَفَ إلى نواحى الجليل وأتى وسكن فى مدينة يقال لها الناصرة لكى يتم ما قيل بالأنبياء إنه سيدعى ناصريا.

قلنا إن عيسى عليه السلام لما عاد إلى فلسطين كان عمره ٦ سنوات وشهران. ومضت ٢٣ سنة لم تذكر الكتب فيها شيئا عن حياته ولا أى معجزات جرت على يديه فى هذه الفترة مع أنها ذكرت معجزات شفاء كثيرة تمّت فى مصر وهو لا يزال بعدُ طفلا. ولا ندرى لهذه المفارقة سببا إلاَّ أن تكون حماية له من الله سبحانه وتعالى حتى لا تلتفت إليه الإنظار فيناله ابن هيرودس بأذى. ومرت السنون وقارب عيسى عليه السلام الثلاثين من عمره.

شكل ١٢ – الناصرة وكفر ناحوم.

الفصل الخامس

يحيى عليه السلام

اسم يحيى :

«يحيى» فعل مضارع مثل «يزيد» ولم يُسَمَّ به أحد قبل يحيى عليه السلام مصداقا لقوله تعالى **«لم نجعل له من قبل سميًا»**.

وفى سبب تسميته نقلوا عن ابن عباس قوله إن الله تعالى أحيا به عقر أمه. وعن قتادة أن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والنبوة وعن الحسن بن الفضل أن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يهم بمعصية (الأديان والمذاهب. عبد الرزاق محمد أسود . ص١٣٦) ولاشك أن السببين الأخيرين ليسا بذى بال إذ أن كل الأنبياء كانوا على طاعة الله وعُصِموا من المعاصى.

ويرى الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن جـ ٢ ص٢٣٤) أن يحيى فعل المضارع المفرد المذكر الغائب من الجذر العربى «حيا». وهذا الجذر له معنيان: المعنى الأول من الحياة نقيض الموت والثانى من الحياء أى الاحتشام. ويرى الأستاذ رؤوف أن «الحياء» هو المعنى الذى اشتق منه اسم يحيى لأنه كان حيياً محتشماً حتى إنه ترك شهوة النساء ليتفرَّغ كلية للدعوة إلى الله وبذلك حصر نفسه تقرُّبًا إلى الله. وإلى هذا أشار القرآن الكريم فى قوله تعالى: **«وسيدًا وحصورًا ونبيا من الصالحين»** . (٣٩ – آل عمران).

وفى الأناجيل هو «يوحنا». وفى العبرية « يو » اختصار يهوا اسم الله فى العبرية + «حنا» اختصار حنان بنفس المعنى فى العربية أى «حنان من الله». ومن إعجاز القرآن أنه ضمَّن الاسم العبرى فى آية أخرى:

«وآتيناه الحكم صبيا. وحنانا من لدنَّا وكان تقيا» . (١٣ – مريم).

ويسمى «يوحنا المعمدان» لأنه كان يعمد الناس فى ماء الأردن كما سيجئ فيما بعد.

مولده وشبابه :

سبق أن ذكرنا (ص ١٩) أن يحيى هو ابن زكريا الشيخ من زوجته إليصابات وكان أكبر من عيسى بستة أشهر. وقد عينت الكنيسة يوم ميلاده فى ٢٤ يونيو (حزيران) أى عندما يأخذ النهار فى النقصان وعيد ميلاد المسيح فى ٢٥ ديسمبر (كانون الأول) أى عندما يأخذ النهار فى الزياده استنادا إلى الفقره من الإنجيل (يوحنا ٣٠:٣) والتى تقول: «ينبغى أن ذلك يزيد وأنا أنقص».

وأرجح الأقوال أنه ولد فى قرية «عين كارم» إحدى ضواحى أورشليم ناحية الجنوب. ولا يُعلم شيئ عن حداثته. ولكن لما بلغ سن الرجوله نراه ناسكا وزاهدا يُخضِع نفسه بكثرة الصوم والتذلل إلى الله مرتديا أخشن الثياب – عباءة من وبر الإبل – مقتديا فى ذلك بإيليا النبى وشاداً على وسطة منطقة من جلد الإبل ويتقوّت بطعام النسّاك الفقراء: الجراد والعسل البرى.

وراح يجوب القرى والمدن يُبكت الناس على خطاياهم ويدعوهم إلى التوبة وكان قد انتقل إلى بلدة «عبرة» بجوار نهر الأردن حيث كان يعمِّد الناس هناك ويطهِّرهم من خطاياهم.

التعميد : فى الانجليزية يسمى Baptism مشتقة من الفعل اليونانى baptizo بمعنى يغطِّس أو الغسل فى الماء. وهى إحدى شعائر التطهير فى اليهودية والمسيحية. وحينما أراد موسى عليه السلام أن ينصب هارون كاهنا أكبر لبنى إسرائيل كما سبق أن ذكرنا (جـ ٤ ص ١٠٢٤) «قدم موسى هارون وبنيه وغسلهم بماء وجعل عليه القميص ونطَّقه بمنطقة وألبسه الجبة» (لاويين ٨:٦). وفى خروج ١٠:١٩ «فقال الرب لموسى اذهب إلى الشعب وقدِّسهم اليوم وغدا وليغسلوا ثيابهم». وكان التعميد الذى يقوم به يحيى يتبع التعاليم الموسوية ولكنه كان خاصا بالتوبة لأن مجئ المخلِّص قد قرب وهو يقوم بتمهيد الطريق لمجيئه.

صوت صارخ في البرية :

وسمع كهنة أورشليم بما يفعل يحيى وبما يقول فأرسلوا إليه كما جاء فى الإنجيل (يوحنا ١:١٩) «وهذه هى شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟ فاعترف ولم ينكر وأقر إنى لست أنا المسيح. فسألوه إذن ماذا. إيليا أنت؟ (كان. إيليا قد رفع إلى السماء فكان سؤالهم إن كان هو وقد عاد إلى الأرض) فقال لست أنا. آلنبى أنت فأجاب لا فقالوا له من أنت لنعطى جوابا للذين أرسلونا. ماذا تقول عن نفسك؟ قال: **أنا صوت صارخ فى البريَّة**. قوِّموا طريق الرب كما قال إشعياء النبى. وكان المرسلون من الفريسيين (جـ ٥ ص ٤٩١ – وهم يؤمنون بالمسيح الذى سيجئ ليعيد ملكوت الله ودولة اليهود) فسألوه وقالوا له فما بالك تعمِّد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبى؟ أجابهم يوحنا: أنا أعمِّد بماء ولكن فى وسطكم قائم الذى لست تعرفونه. هو الذى يأتى بعدى الذى صار قدامى الذى لست مستحقا أن أحل سيور حذائه. كان هذا فى بيت عَبْرَة فى عبر الأردن حيث كان يوحنا يعمِّد. وفى الغد نظر يوحنا وإذا يسوع مقبلا إليه. فقال هوذا حَمَلُ الله الذى يرفع خطيئة العالم هو ذا الذى قلت عنه: يأتى بعدى رجل صار قدامى لأنه كان قبلى ولم أكن أعرفه ولكن ليُظهَرَ لإسرائيل لذلك جئت أعمِّد بالماء. وهذا هو الذى يُعمِّد بالروح القدس» .

وهكذا تعرَّف يحيى على السيد المسيح بأنه هو المخلِّص المرسَل إلى بنى إسرائيل وكما سبق أن قلنا إن يحيى وُلِد قبل المسيح بسته أشهر. أى أن المسيح كان بعده. ثم صار قبله فى المكانة من الله – ولكن يوحنا لم يعلن ذلك وترك الأمر للمسيح يعلنه بنفسه فى الوقت الذى يحدده له الله سبحانه وتعالى.

ويستمر الإنجيل قائلا: حينئذ خرج إليه (أى إلى يحيى) أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة (المناطق) المحيطة بالأردن واعتمدوا منه فى الأردن معترفين بخطاياهم (الاعتماد يتضمَّن الاعتراف بالخطايا أمام النبى أو الكاهن الذى يقوم بتغطيس جسد الشخص فى الماء). فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته قال لهم: يا أولاد الأفاعى. من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى. فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم أبا لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم» وهو يقصد أن الأمة اليهودية لا تمتلك أى امتياز فى عينى الله بتسلسلهم من إبراهيم وأن الله قادر أن يعطى الريادة لأمة أخرى أكثر تقوى.

ويستمر قائلا: «والآن وقد وُضِعت الفأس على أصل الشجر. فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار. أنا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه. هو سيعمِّدكم بالروح القدس ونار» (مت ٣:٩ – ١٢) (والمقصود هنا أن النار تحرق خطايا المؤمن) .

يحيى يُعمِّد المسيح :

(مت ٣ : ١٣) «حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا المعمدان ليعتمد منه ولكن يوحنا منعه قائلا: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتى إلىَّ! فأجاب يسوع وقال له: اسمع الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمِّل كل بر. حينئذ سمح له. فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء. وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه».

وقد أثار البعض مسألة أن يسوع لم يكن له خطايا ليعترف بها أثناء التعميد ومع ذلك أصرَّ على أن يتعمَّد من يحيى الذى أمسك بجسده الطاهر وغطَّسه فى الماء ويرى كثير من أهل الكتاب أن المسيح ارتضى لنفسه أن يُعمِّده يحيى مع أنه لم يكن فى حاجة لهذا التعميد ولكنه أوضح أنه يعتمد «لأنه هكذا يليق بنا أن نُكمِّل كل بر» (متى ٣:١٥). ذلك أنه لم يشأ أن يكسر القواعد المعمول بها وأراد أن يتمشَّى مع هذه القواعد ليكون النبى والكاهن الأعظم حسب الشريعة الموسوية إذ يقضى قانون اللاويين أن يتطهَّر جميع الكهنة حينما يبلغون سن الثلاثين وذلك يتضمَّن الاغتسال ثم المسح بالدهن. ويرى أهل الكتاب أنه بعد أن أغتسل المسيح فى

النهر فُتحت أبواب السماء ونزل الروح القدس عليه عوضا عن المسح بالدهن ليكون مسيحا سماويا إلى الأبد.

يحيى وهيرودس أنتيباس :

قلنا سابقا (ص ١٤) إن هيرودفيلبس كان متزوجا من هيروديا الجميلة وكان حاكما على باشان وكان أخوه هيرودأنتيباس حاكما على الجليل وبيريا. وفي زيارة له لأخيه فيلبس قابل هيروديا وشغف بها وهي أيضا شغفت به فافتعلت شجارا مع زوجها فطلقها. فلجأت إلى أخيه أنتيباس الذي تزوجها. وعارض يحيى المعمدان هذا الزواج وراح يندد به في كل مكان واصفا إياه بأنه «زنا» وليس زواجا تقره الشريعة. يرى البعض إن هيروديا انتظرت حتى توفي زوجها فيلبس فلجأت إلى أنتيباس وتزوجته . وحتى لو كان ذلك صحيحا فإنها أيضا لا تحل له لأن أحكام الشريعة اليهودية تقضي بالآتي:

– إذا كان هناك أخوين يعيشان تحت سقف واحد ومات أحدهما فإن شقيق الزوج يجب عليه أن يتزوج زوجة أخيه ويحمل أولاده منها اسم عمهم المتوفى.

– إذا كانت الزوجة قد أنجبت أبناء من الزوج المتوفى ولم يكن الأخوان يعيشان تحت سقف واحد فيحرم على الزوجة الزواج ثانية إطلاقا بل تبقى لتربية أبنائها.

ولما كان لهيروديا ابنة اسمها سالومي من زوجها فيلبس فإنها بحكم الشريعة لا تستطيع الزواج من أنتيباس حتى بعد وفاة زوجها فيلبس . ولكن العاشقان ضربا بأحكام الشريعة عرض الحائط وتزوجا. ولما أصر يحيى عليه السلام على معارضة هذا الزواج قام أنتيباس بالقبض عليه ووضعه في السجن.

قتل يحيى عليه السلام :

جاء في الإنجيل (متى ١٤:٦) : «لأن هيرودس أنتيباس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه في السجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه إذ كان قد تزوج منها لأن يوحنا كان يقول لهيرودس (أنتيباس): لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك. فحنقت هيروديا عليه وأرادت أن تقتله. ولم تقدر لأن هيرودس أنتيباس كان يهاب يوحنا عالما أنه رجل بار وقدِّيس وكان يحفظه. ثم لما صار مولد هيرودس (عيد ميلاده) رقصت ابنة هيروديا (سالومي) في الوسط فسرَّت هيرودس ومن ثم وعد بقسم أنها مهما طلبت يعطيها. فهي إذ كانت تلقنت من أمها قالت أعطني هنا على طبق رأس يوحنا المعمدان. فاغتم الملك. ولكن من أجل الأقسام والمتكئين معه

(أى الضيوف) أمر أن يُعطَى. وقطع رأس يوحنا فى السجن فأحضر رأسه على طبق ودفع إلى الصبية فجاءت به إلى أمها. فتقدم تلاميذه ورفعوا الجسد ودفنوه ثم أتوا وأخبروا يسوع».

بعد مقتل يحيى بدأ عيسى عليه السلام عمله النبوى.

الفصل السادس

عيسى عليه السلام

الإســـم :

هو فى اللغة العبرية «يشوع». وكان يهود ونصارى الجزيرة العربية ينطقونها «يسوع» لأن الشين فى العبرية تُقلب إلى سين فى العربية. و«يسوع» هو الاسم الذى ورد فى الترجمات العربية للإنجيل أما لماذا قال القرآن الكريم «عيسى» ولم يقل يسوع فلأن يسوع مشتق من الفعل ساع يسوع سوعاً بمعنى هلك وضاع، وساعت الإبل أو الماشية ذهبت فى المرعى أو تركت بلا راعٍ (المعجم الوسيط جـ ١ ص ٤٦٤) وعيسى لم يهلك على الصليب كما يعتقدون. وقال بعض الصوفية إن عيسى جاءت من «عسى» ذلك الفعل الذى يفيد الرجاء . فهو المرجوّ الذى فيه الرجاء. ويرى الأستاذ رؤورف أبو سعدة (من إعجاز القرآن جـ ٢ ص ٢٧٠) أن «عيسى» مشتق من الفعل ثلاثى معتل الوسط «عاس. يعيس». وعاس على عياله كدًّ وكدح عليهم وعاس ماله أحسن القيام عليه. والأعيس من الإبل الكريم منها وجمعها عيس. واشتقاق الاسم «عيسى» يكون بمعنى الكريم الذى كدح وكدًّ فى مهمته وأحسن القيام عليها. وهل هناك كدٌّ وكدح حتى يصبح على قيد شعرة من الصلب فلا يزيده هذا إلا تمسكًا بالله ورضوخا لمشيئته !

أما الاسم الثانى «المسيح» فقد سمَّاه به الله عز وجل قبل ولادته **«إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشِّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين»** (٥٤ – آل عمران). والمسيح معناه فى مصطلح اليهود «الذى مُسِحَ بدهن البركة» بأن صُبَّ زيتُ الزيتون على رأسه. والمَسحُ بهذه الطريقة أحد طقوس الديانة اليهودية. يَرسم بها الكاهن كاهنا مثله أو يرسم بها نبى نبيا كما فعل صموئيل النبى مع داود عليه السلام (جـ ٥ ص ٩١) أو يرسم بها النبى ملكا. كما فعل صموئيل النبى مع طالوت (جـ ٥ ص ٧٦) «إذ أخذ صموئيل قنينة الدهن وصبَّ على رأس شاول وقبَّله وقال: إن الرب قد مسحك على إسرائيل رئيسا». أما عن عيسى فلم يمسحه كاهن ولا نبى بل سمَّاه الله «المسيح» دلالة على أن الله هو الذى مسحه ولذلك عُرِّف بالألف واللام فأصبح اسم «المسيح» علماً عليه وحده. وبهذا الاسم «المسيح» – دون ذكر اسم عيسى – ورد ذكره فى القرآن الكريم فى ثمانى مواضع: فى الآية ١٧٢ – النساء (مرَّتان) و ١٧ المائدة (مرتان)، ٧٢ – المائدة و ٧٥ – المائدة و ٣٠ و ٣١ التوبة.

رسالة عيسى عليه السلام:

رسالة عيسى عليه السلام ثابتة فى القرآن الكريم فى عدة آيات:

«ويعلمه الكتاب والحكمة ورسولا إلى بنى إسرائيل». (٤٨ – ٤٩ آل عمران)

«وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم» . (٦ – الصف).

ويقول المسيح عن نفسه «لم أرسل إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٥ : ٢٤).

ومن هذا يتبين أن عيسى عليه السلام كان رسولاً إلى قومه – بنى إسرائيل – ولكن رسالة عيسى لم تكن امتدادا لرسالة موسى كما يتضح من قوله تعالى: **«ومصدقًا لما بين يدى من التوارة ولأحل لكم بعض الذى حُرِّم عليكم وجئتكم باية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون».**

(٥٠ – آل عمران).

فقد أحل عيسى عليه السلام لحوم الإبل وشحومها وأنواعاً من السمك والطير كانت محرَّمة فى الشريعة اليهودية. وغير ذلك من محرمات ليس هنا محل ذكرها. ولكن اليهود لم يعترفوا بعيسى نبيا ولذلك أصبحت المسيحية شريعة قائمة بذاتها تختلف عن الشريعة الموسوية. كذلك فإن عيسى عليه السلام لما أحس أن اليهود ينكرونه ويريدون به شرا وأنهم سيفعلون ذلك أيضا بتلاميذه قال لهم (مرقس ١٣ : ٩): «لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس وتُجلدون فى مجامع وتوقَفون أمام ولاة وملوك من أجلى شهادة لهم. وينبغى أن يُكرز أولا بالإنجيل فى جميع الأمم». وبهذا لم تبق دعوته قاصرة على بنى إسرائيل بل تعدَّتهم إلى الأمميين وبذلك أصبحت المسيحية ديانة عالمية.

التجربة مع الشيطان:

يرى أهل الكتاب أن عيسى عليه السلام – قبل أن يبدأ عمله النبوى – كان لابد أن يمر بتجربة مع الشيطان الغرض منها تحدى قوة الشيطان وسيطرته على عقول الناس وإضلالهم فكان لزاما أن يلتقى مع ذلك العدو ويهزمه. وكان ميدان اللقاء بعيدا عن الناس وكان التحدى فى عدة نقاط:

١ – جاء فى الإنجيل (متى: ٤ : ١): ثم أُصعِد يسوع إلى البرية من الروح ليُجرَّب من إبليس. فبعد ما صام أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا. فتقدم إليه المجرِّب وقال له إن كنت رسول الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزا. فأجاب وقال: مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله.

٢ – ثم أخذه إبليس إلى المدينة (أورشليم) وأوقفه على جناح الهيكل وقال له إن كنت رسول

الله فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك فعلى أيديهم يحملونك لكى لا تصطدم بحجر برجلك. قال له يسوع: مكتوب أيضا لا تجرِّب الرب إلهك.

٣ – ثم أخذه أيضا إبليس إلى جبل عال جدا وأراه ممالك العالم ومجدها وقال له أعطيك هذه جميعا إن خررت وسجدت لى. حينئذ قال له يسوع اذهب ياشيطان لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد. ثم تركه إبليس. وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه.

وصف عيسى ليحيى عليهما السلام:

سبق أن ذكرنا (ص ٤٦) أن هيرودس أنتيباس وضع يحيى عليه السلام (يوحنا المعمدان) فى السجن. ويقول الإنجيل (متى ١١ : ٢): أما يوحنا فلما سمع فى السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه وقال له أنت هو الآتى أم ننتظر آخر؟ فأجاب يسوع وقال لهما اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران: العمى يبصرون والعرج يمشون والبُرص يُطَهَّرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون وطوبى لمن لا يعثر فىَّ.

لم يشأ عيسى أن يقول عن نفسه أنه هو المخلِّص الذى بشَّر به الأنبياء السابقون بل ترك يحيى ليستخلص هذه النتيجة بنفسه بعد أن يعرف المعجزات التى يجريها الله على يديه. ثم بدأ عيسى فى بيان مكانة يوحنا المعمدان وأنه كان الصوت المبشِّر بقدومه فيقول(متى ١١ : ٧): «ابتدأ يسوع يقول للجموع عن يوحنا. ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا؟ أقصبة تحركها الرياح (أى شيئا عاديا يحدث كل يوم؟ وهو سؤال استنكارى للنفى) ولكن ماذا خرجتم لتنظروا. أإنسانا لابسا ثيابا ناعمة. هو ذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم فى بيوت الملوك (وهى إشارة إلى الثياب الخشنة التى كان يلبسها يوحنا). لكن ماذا خرجتم لتنظروا؟ أنبيًّا؟ نعم أقول لكم. وأفضل من نبى. فإن هذا هو الذى كتب عنه هاأنا أرسل أمام وجهك ملاكى الذى يهيىء طريقك قدامك. الحقَّ أقول لكم. لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان. لأنه جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فيقولون فيه شيطان. جاء ابن الإنسان (أى عيسى) يأكل ويشرب فيقولون هو ذا إنسان أكول وشِريب خمر محب للعشارين والخطاة. والحكمة تبرَّرت من بنيها.

عيسى يبدأ دعوته فى كفر ناحوم:

لما علم عيسى أن يحيى (يوحنا المعمدان) قد قتل ترك الناصرة وسكن فى «كفر ناحوم» التى تقع على الشاطىء الغربى لبحر الجليل (شكل ١٢ ص ٤٢) وجعلها مركزا له. وقد أتى عيسى عليه السلام فى هذه المدينة بعديد من المعجزات – سنذكرها فيما بعد – ولكن أهلها لم

يؤمنوا ولهذا تنبأ بخرابها (متى ١١ : ٢٣) «وأنتِ يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء ستهبطين إلى الهاوية» وقد تم خراب هذه المدينة فى وقت لاحق كما تنبأ السيد المسيح. ويرجَّح أن كفر ناحوم هى حاليا «تل حوم» التى تبعد ٤ كم إلى الجنوب الغربى من مصب نهر الأردن فى بحر الجليل. وقد وجدت فى تل حوم آثار مجمع لليهود يقع فى مكان المجمع الذى وعظ فيه المسيح (قاموس الكتاب المقدس. دار الثقافة. ص ٧٨٣).

الحواريون الأربعة الأوائل:

يقول الإنجيل (مرقس ١ : ١٤) وبعد ما أُسلمَ يوحنا (أى قتل) جاء يسوع إلى الجليل يَكرِزْ (أى يُبشِّر) ببشارة ملكوت الله ويقول «قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل».

وفيما هو يمشى عند بحر الجليل أبصر **سمعان وأندراوس** أخان يلقيان شبكة فى البحر فإنهما كانا صيَّادَين. فقال لهما يسوع. هلم ورائى فأجعلكما تصيران صيَّادى الناس. فللوقت تركا شباكهما وتبعاه. ثم اجتاز من هناك قليلا فرأى **يعقوب بن زبدى ويوحنا** أخاه وهما فى السفينة يصلحان الشباك فدعاهما للوقت فتركا أباهما زبدى فى السفينة مع الأجراء وذهبا وراءه.

فكان هؤلاء الأربعة هم أول الحواريين الذين لازموا المسيح فى تنقلاته.

(متى ٤ : ٢٢) «وكان يسوع يطوف كل الجليل يُعلِّم فى مجامعهم ويكرز بشارة الملكوت ويشفى كل مرض وكل ضعف فى الشعب فذاع خبره فى سورية فأحضروا إليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة والمجانين والمصروعين والمفلوجين فشفاهم. فتبعته جموع كثيرة من الجليل والعشر مدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن».

«الأب» و «الآب» و «أبى» و «أبوكم»:

«الأب» فى حق الله عز وجل - أراميا وعبريا - لغة المسيح عليه السلام - تعنى الرب الإله. ولقد تردد فى أقوال المسيح قوله «أبى الذى فى السموات» و «أبوكم» الذى فى السموات. ولا يُتخيَّل أن المسيح عليه السلام حينما يقول لتلاميذه «أبوكم الذى فى السموات» يقصد أبوةً حقيقية ولكنه يقصد «ربكم الذى فى السموات». وحينما يقول المسيحى فى صلاته «أبانا الذى فى السموات» فهو يقصد أيضا «ربنا الذى فى السموات». وهناك معنى مجازى. وهو أن الأب فى العائلة هو الذى يرعى أولاده فيكفل لهم الرزق وأسباب المعيشة فكذلك الله رب السموات هو الذى يكفل الرزق لعباده. ومن هذا المنطلق فكل العباد عيال على الله سبحانه وتعالى. إلا

أن بعض اليهود والنصارى فهموا من قول المسيح لهم. «أبوكم الذى فى السموات» أن لهم وضعا متميزا عن جميع الخلق. وذلك ما نعاه عليهم القرآن الكريم ونفاه فى قوله تعالى: **«وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه. قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير»** (١٨ – المائدة). وهكذ وضع القرآن الكريم هذه الأبوة التى ذكرها المسيح عليه السلام. فى موضعها الصحيح. فهم بشر مثل سائر البشر الذين خلقهم الله وإن كان هناك أفضلية فهى مرتبطة بمدى تمسكهم بالأوامر والنواهى التى جاء بها المسيح ومن قبله موسى عليهما السلام.

وقياسا عليه فلا يجب أن يفهم من قول المسيح عن نفسه «أبى الذى فى السموات» أنه يعتقد فى بنوة حقيقية لله سبحانه وتعالى تضفى عليه صبغة إلهية فهى بنوة مجازية حيث لا أب له من البشر بل بكلمة من الله – وروح منه – تخلَّق فى رحم مريم العذراء وولد كما يولد سائر البشر. وما ذلك على الله بعزيز. وها نحن نرى فى أيامنا هذه استنساخ المخلوقات. فمن خلية واحدة يتكون حيوان كامل. وقوله تعالى: **«والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا»** (٩١ – الأنبياء). وعليه يمكننا أن نفترض أن النفخة الإلهية سبَّبت إنقسام البويضة – دون أن يخصبها حيوان منوى – وتوالى انقسام البويضة حتى تكون الجنين الذى شاء الله له أن يوجد بدون أب. وقد حدث شىء مثل ذلك عند خلق آدم عليه السلام: **«وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين»** (٧٢ – ص). ولا يدَّعى أحد أن آدم هو ابن الله اعتماداً على أنه **«نفخ فيه من روحه»** كما ادعوا أن المسيح هو ابن الله استناداً إلى النفخة الإلهية فى رحم مريم البتول **«والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا»** (٩١ – الأنبياء). وهكذا يتساوى آدم وعيسى فى خلقهما **«إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون»** (٥٩ – آل عمران). كما أن هذا نفى للألوهية عن الروح القدس (جبريل) أيضا فلا تبقى إلا ألوهية الله وحده. وهذا ما أكده عيسى عليه السلام كما جاء فى إنجيل مرقس (٢٨:١٢) «فجاء واحد من الكتبة وسأله أيَّة وصية هى أول الكل. فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هى اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا إله واحد وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك. هذه هى الوصية الأولى».

كما أن عيسى عليه السلام كان كثيرا ما يقول عن نفسه «ابن الإنسان» أى أنه كان يؤكد على أنه «ابن إنسان» نفيا لما قد يفهم خطأ من قوله «أبى الذى فى السموات».

وأخيرا فإن موسى عليه السلام استعمل كلمة «أباك» وهو يقصد «ربك» حينما قال لبنى إسرائيل (تثنية ٢ : ٦): آلرب تكافئون بهذا ياشعبا غبيا وغير حكيم. أليس هو أباك ومُقتنيك. هو عملك وأنشأك».

ولكن المسيحيين المتأخرين تأثروا بما أجراه الله على يدى عيسى من المعجزات. وقصروا معنى «أبى الذى فى السموات» على أبوه حقيقية متأثرين بآراء بولس الرسول المنادية بالتثليث.

كذلك جاء وصف عيسى بأنه «فتاى» فى إنجيل متى (١٢: ١٦): «لكى يتم ما قيل بإشعياء النبى القائل: هو ذا فتاى الذى اخترته. حبيبى الذى سُرَّت به نفسى. أضع روحى عليه فيخبر الأمم بالحق. لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة مدخنة لا يطفىء حتى يخرج الحق إلى النصرة وعلى اسمه يكون رجاء الأمم». والفقرة الواردة فى إشعياء (٤٢ : ١) تقول: «هو ذا عبدى الذى أعضده. مختارى الذى سُرَّت به نفسى وضعتُ روحى عليه فيخرج الحق للأمم. لا يصيح ولا يرفع ولا يُسمعُ فى الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفىء. إلى الأمان يُخرج الحق، لا يكلُّ ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض وتنتظر الجزائر شريعته.هكذا يقول الله الرب خالق السموات وناشرها. باسط الأرض ونتائجها. مُعطى الشعب عليها نسمة والساكنين فيها روحا. أنا الرب قد دعوتك بالبر فأُمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب نورا للأمم. لتفتح عيون العمى. لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين فى الظلمة».

ونلاحظ هنا أن عيسى عليه السلام أشير إليه بلفظ «هو ذا فتاى» ومرة أخرى «هو ذا عبدى». ثم جاء وصف لبعض أخلاقه: هدوء الطبع ولطف الطباع ولم يرتكب أى إثم ولو بسيط كأن تكون عصا (قصبة) مكسورة فلا يكسرها ثانية أو فتيلة قد أوشكت على الانطفاء فلم يقم بإطفائها كناية عن أنه ما داس قط أو طرد أحدا ولو ضعيف الإيمان وما قسا أبدا على ضمير مجروح. ثم أشارت نهاية الفقرة إلى أنه سيخرج المؤمنين من سجن الخطيئة إلى حرية الإيمان بالله ومن ظلمات الشرك إلى نور الإيمان. وهو فى هذا لا يختلف عن رسالة غيره من الأنبياء والمرسلين.

الحواريون أو التلاميذ الاثنا عشر:

حور العين شدة بياض بياضها وشدة سواد سوادها (القاموس المحيط جـ ٢ ص ١٥) والحوارى فى اللغة مبيض الثياب. وهو أيضا الشخص الذى أخلص واختير ونُقِّىَ من كل عيب. ويقال هو حوارى فلان أى خاصته من أصحابه وناصره وجمعها حواريون. والحواريون أنصار عيسى عليه السلام (المعجم الوسيط جـ ١ ص ٢٠٤): وأهل الكتاب يسمونهم تلاميذ.

يقول الإنجيل (متى ٨ : ١٨): «ولما رأى يسوع جموعا كثيرة خرج إلى مكان أرحب. فتقدم كاتب وقال له يا معلِّم أتبعك أينما تمضى. فقال له يسوع: للثعالب أوجرة (الوجار جحر الضبع والأسد والذئب والثعلب ونحو ذلك وجمعها أوجرة ووُجُر. المعجم الوسيط جـ ٢ ص ١٠٢٥)

ولطيور السماء أوكار وأما ابن الإنسان فليس له أين يُسند رأسه». وفى هذه الإجابة تبصرة لما قد يجابهه من متاعب إذا تبعه لأنه قد لايجد مكانا يأوى إليه لأنه هو نفسه - المسيح - ليس له بيت يسند رأسه فيه. «وقال له آخر من تلاميذه. ياسيد ائذن لى أن أمضى أولا وأدفن أبى. فقال له يسوع اتبعنى. ودع الموتى يدفنون موتاهم» ويرى مفسرو أهل الكتاب أن والد ذلك التلميذ لم يكن قد مات وإلا فإنه لا يعقل أن يمنعه المسيح من تقديم هذه الشعيرة الأخيرة - وهى الدفن - نحو والده. وإنما كان والده مريضا جدا وقد يطول الوقت لحين وفاته وإن انتظره تفوت على التلميذ فرصة مرافقة المسيح مع ما فى هذه المرافقة من منافع تساوى الحياة نفسها فأمره أن يتبعه ويترك والده لإخوته يدفنونه عن وفاته - وهم فى هذه الحالة - عدم اتباعه - كأنهم موتى معنويون ويدفنون ميتا حقيقيا هو والدهم. «دع الموتى يدفنون موتاهم» ويزيد إنجيل لوقا «واذهب أنت وناد بملكوت الله» أى أن تلك هى الحياة الحقيقية.

وقال آخر (لوقا ٩ : ٦٢) «أتبعك ياسيد ولكن ائذن لى أولا أن أودع الذين فى بيتى. فقال له يسوع ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله» والمعنى أن من يريد أن يتبعه عليه أن يفرغ قلبه كلية من مشاغل الدنيا وحتى من الارتباط بالأهل ليكون أهلا للفيض الإلهى الذى سيسبغه الله عليه.

وحينما استأنف يسوع رحلته تبعته جموع غفيرة. كلٌ رغب أن يكون ملازما وتلميذا له. ولكن عيسى أراد أن يوقف هذا الحماس الزائد لدى الجماهير ويبين لهم شروط التلمذة وتبعاتها.

١ - وكان أول هذه الشروط أن يختار بين أقرب المقربين إليه وبين المسيح. أى أن يكون المسيح أحبَّ إليه من أى شخص آخر حتى من نفسه. وفى هذا يقول إنجيل لوقا (١٤ : ٢٥): «وكان جموع كثيرة سائرين معه فالتفت وقال لهم: إن كان أحد يأتى إلىَّ ويحب أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر أن يكون لى تلميذا». وهذا هو نفس المعنى الذى جاء فى القرآن الكريم: **«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين»** (٢٤ - التوبة). فهذه الآية توضح أن يكون الله ورسوله أحبَّ إلى المرء مما سواهما وأن يكون مستعدا للجهاد والموت فى سبيل الله.

٢ - وكان ثانى الشروط التى وضعها المسيح عليه السلام لتلاميذه ليتبعوه ويرافقوه هو أن يكونوا مستعدين للموت فى سبيل عقيدتهم فقال: «ومن لا يحمل صليبه ويأتى ورائى فلا يقدر أن يكون لى تلميذا» والمعنى أن يكون مستعدا للصلب على خشبة. وكما نقول فى عصرنا «يحمل كفنه على يديه» كناية عن توقعه وقبوله للموت فى أى لحظة.

٣ - وكان ثالث شرط هو أن يعلم أن التلمذة لها تبعات أخرى وعليه أن يعيها منذ البداية ويتحملها حتى النهاية. وعليه أن يثبت فى طريق الله ولا ينكص على عقبيه إذا ناله اضطهاد أو تعذيب، وهو نفس المعنى الوارد فى قوله تعالى **«ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين»** (١١ - الحج). ويضرب عيسى عليه السلام مثلين ليبيّن لمن يريد اتباعه أن يتبين موقع خطواته ويُقدر التبعات التى ستلقى عليه والصعاب التى سيجابهها ويرى إن كان قادرا على تحملها فيقول: «ومن منكم وهو يريد أن يبنى برجا لا يجلس أولا ويحسب النفقة هل عنده ما يلزم لكماله لئلا يضع الأساس ولا يقدر أن يكمّل فيبتدىء جميع الناظرين يهزأون به قائلين هذا الإنسان ابتدأ يبنى ولم يقدر أن يُكمل. وأى ملك إن ذهب لمقاتلة ملك آخر فى حرب لا يجلس أولا ويتشاور هل يستطيع أن يلاقى بعشرة آلاف الذى يأتى عليه بعشرين ألفا. وإلا فما دام ذاك بعيدا يرسل سفارة ويسأل ما هو للصلح. فكذلك كل منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون تلميذا لى» ومعنى هذا أن يترك الدنيا بما فيها من مباهج ولذات ويتبع المسيح ويتوكل على الله توكلا تاما.

ويمكننا أن ندرك لم وضع عيسى عليه السلام هذه الشروط إذا علمنا أن الحواريين سيكونون رسله إلى الناس يبشّرون بملكوت السموات وينقل إليهم بعض المقدرة التى وهبها الله له لشفاء الأمراض (متى ١٠ : ١) «ثم دعا تلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم سلطانا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف».

وقد غيَّر المسيح أسماء بعض الحواريين بعد أن قبلهم كتلاميذ له. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٥١) أسماء الحواريين الأربعة الأوائل. ولمَّا بدأ عيسى يأتى بالمعجزات ويشفى المرضى تقاطر عليه الناس والمرضى من كل ناحية بالعشرات والمئات فكان لزاما أن يشاركه تلاميذه فى هذا العبء، يقول الإنجيل (متى : ٩ : ٣٥): «وكان يسوع يطوف المدن كلها والقرى يعلِّم فى مجامعها ويكرز ببشارة الملكوت ويشفى كل مرض وكل ضعف فى الشعب. ولما رأى الجموع تحنَّن عليهم إذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعى لها. حينئذ قال لتلاميذه: الحصاد كثير ولكن الفعلة قليلون. فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده».

وقد استجاب الله الدعاء وهيأ ثمانية أشخاص آخرين ليكتمل الحواريون إلى اثنى عشر حواريا هم (متى ١٠ : ٢):

١ - الأول سمعان الذى يقال له بطرس   ٢ - وأندراوس أخوه.

٣ - يعقوب بن زبدى.   ٤ - يوحنا أخوه.

٥ - فيلبس.   ٦ - برثولماوس.

٧ – توما. ٨ – متى العشَّار.

٩ – يعقوب بن حلفى. ١٠ – لباوس الملقب تداوس.

١١ – سمعان القانوى. ١٢ – يهوذا الأسخريوطى الذى أسلمه.

وصية المسيح للحواريين :

هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلا: «إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا». أى لا تبشّروا أقواما ليسوا من اليهود. وكانت توجد فى الجليل مدن يونانية فأوصاهم أن يحصروا عملهم فى المدن اليهودية. والسامريون كما سبق ذكره (جـ ٥ ص ٣٠٦) هم الشعوب الشرقية الذين جلبهم الأشوريون بعد خراب المملكة الشمالية وجاءوا معهم بآلهتهم وأصنامهم. ونشأت ذريتهم يمارسون عبادة الله - كما فى شريعة موسى مع عبادة آلهة آبائهم. وكانوا دائما على عداوة اليهود. فرأى عيس عليه السلام أن لا فائدة من تبشيرهم فمنع الحواريين من دخول مدنهم. ويستمر الإنجيل «بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة. وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات. اشفوا مرضى. طهروا برصا. أقيموا موتى. أخرجوا شياطين. مجّانا أخذتم مجانا اعطوا. لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا فى مناطقكم. ولا كيس نقود للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا لأن الفاعل مستحق طعامه. وأى مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا من فيها مستحق. وأقيموا هناك حتى تخرجوا. وحين تدخلون البيت سلِّموا عليه. فإن كان البيت مستحقا فليأت سلامكم عليه. ولكن إن لم يكن مستحقا فليرجع سلامكم إليكم. من لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضوا غبار أرجلكم. الحق أقول لكم ستكون لأرض سدوم وعمورة يوم الدين حالة أكثر احتمالا مما لتلك المدينة (التى ترفضكم).

«ها أنا أرسلكم كغنم فى وسط ذئاب فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام ولكن احذروا من الناس لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس. وفى مجامعهم يجلدونكم وتساقون أمام ولاة وملوك من أجلى شهادة لهم وللأمم. فمتى أسلموكم فلا تهتموا كيف أو بما تتكلمون. لأنكم تُعطَوْن فى تلك الساعة ما تتكلمون به. لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم (ربكم) الذى يتكلم فيكم. وسيسلم الأخ أخاه إلى الموت والأب ولده ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى ولكن الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يَخلُص. ومتى طردوكم فى هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى.

«ليس التلميذ أفضل من المعلم ولا العبد أفضل من سيده. يكفى التلميذ أن يكون كمعلمه والعبد كسيده. الذى أقوله لكم فى الظلمة قولوه فى النور. والذى تسمعونه فى الأذن نادوا به

على السطوح ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها بل خافوا بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم (أى خافوا من الله).

«من أحب أبا أو أُمًّا أكثر منى فلا يستحقنى، ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى. ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى. من وجد حياته يضيعها. ومن أضاع حياته من أجلى يجدها. من يقبلكم يقبلنى. ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى».

ولما أكمل يسوع أمره لتلاميذه الاثنى عشر انصرف من هناك ليعلِّم ويكرز فى مدنهم.

عظــة الجبــل

فى هذه العظة لخص عيسى عليه السلام تعاليم المسيحية التى جاء بها والتى أوجزها القرآن الكريم فى قوله تعالى على لسان المسيح مخاطبا بنى إسرائيل: **«ومصدِّقا لما بين يدىَّ من التوارة ولأُحل لكم بعض الذى حُرِّم عليكم».** (٥٠ – آل عمران).

جاء فى الإنجيل (متى ٥ : ١) ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل. فلما جلس تقدم إليه تلاميذه ففتح فاه وعلَّمهم قائلا:

«طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات. طوبى للحزانى لأنهم يتعزون. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعِطاش إلى البر لأنهم يُشبَعون. طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون. طوبى للأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يُدعون. طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات. طوبى لكم إذا عيَّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين. افرحوا وتهلَّلوا لأن أجركم عظيم فى السموات فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم.

«أنتم ملح الأرض ولكن إن فسد الملح فبماذا يُملَّح؟ لا يصلح بعدُ لشىء إلا أن يطرح خارجا ويداس من الناس. أنتم نور العالم. لايمكن أن تُخفى مدينة موضوعة على جبل. ولا يوقدون سراجا ويضعونه تحت المكيال بل على المنارة فيضىء لجميع الذين فى البيت. فلُيضىء نوركم هكذا قدام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة ويُمجِّدوا أباكم الذى فى السموات.

لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمِّل. فإنى والحق أقول لكم إلى إن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلَّم الناس هكذا يُدعىَ أصغَر فى ملكوت السموات. فأما من عمل وعلَّم بها فهذا يُدعى عظيما فى ملكوت السموات. فإنى أقول لكم إنكم إن لم يَزِد برُّكم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات».

ثم يبدأ عيسى عليه السلام بعد ذلك فى تفصيل ما أوجز عندما قال إنه ما جاء لينقض الناموس بل ليكمله. وهو هنا يضع أول نقطة وهو أن الإنجيل مبنى ومؤسس على العهد القديم. ثم بعد ذلك يغوص فى أعماق النفس البشرية ليطهرها من المشاعر السيئة فعلى سبيل المثال لا يكفى أن تمتنع عن قتل أخيك بل لا يجب أن تقول لأخيك كلمة جارحة تؤذيه ولا حتى أن تحقد عليه أو تغضب منه فى قرارة نفسك. وقس على هذا المنوال فى جميع الأحكام التى وردت فى التوراة.

١ - (متى ٥ : ٢١) قد سمعتم أنه قيل للقدماء «لا تقتل» (وهى الوصية السادسة من الوصايا العشر) ومن قتل يكون مستوجب الحكم (أى تقديمه أمام المحكمة) ومن قال لأخيه رقا (تعبير عبرى للاحتقار) يكون مستوجب المجمع (محاكمة أمام المجلس الأعلى القضائى والمكون من سبعين عضوا ويسمى السنهدرين) ومن قال يا أحمق يكون مستوجب النار - (ويرى بعض مفسرى أهل الكتاب أن المقصود هو نار جهنم فى الآخرة بينما يرى آخرون أن المقصود هو نار وادى هنوم أو وادى القتل التى كان يضحى فيها الوثنيون بأطفالهم تقربا للإله مولوك كما سبق أن ذكرنا فى الجزء الخامس ص ٣٨٠ وكان عبارة عن خندق عظيم تؤجج فيه النار بصفة مستمرة بإلقاء الحطب ومخلفات المدينة وجيف الحيوانات النافقة): فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئا عليك فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولا اصطلح مع أخيك وبعدئذ تعال وقدّم قربانك. كن مراضيا لخصمك سريعا مادمت معه فى الطريق لئلا يسلمك الخصم إلى القاضى ويسلمك القاضى إلى الشرط فتلقى فى السجن. الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفى الفلس الأخير. والمعنى أن الله لا يقبل عبادة أو يتقبل قربانا من امرىء يأكل حقوق الآخرين ولا يوفى ما عليه من دين. ويستمر عيسى عليه السلام قائلا:

٢ - (متى ٥ : ٢٧) قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن (وهى الوصية السابعة من الوصايا العشر جـ ٤ ص ٩٩٢). وأما أنا أقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله فى جهنم. وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم. وهذا نفس المعنى الوارد فى الحديث الشريف:.. فالعينان تزنيان وزناهما النظر واليدان تزنيان وزناهما البطش. والرجلان تزنيان وزناهما المشى (فى شر) والفم يزنى وزناه القبلة. والقلب يهم أو يتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه. أخرجه مسلم والبيهقى عن أبى هريرة (إحياء علوم الدين. أبى حامد الغزالى جـ ٣ ص ٩٧).

٣ – (متى ٥ : ٣١) : «وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب الطلاق. وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزنى ومن يتزوّج مطلقة فإنه يزنى» ومن هذه الفقرة نبع مبدأ تحريم الطلاق فى المسيحية. إلا أنه فى وقت لاحق سُمح به فى حالات زنا الزوجة. وكذلك جاء مبدأ تحريم الزواج من مطلقة فى المذهب الكاثوليكى وإن كان البروتستانت يبيحونه.

٤ – (متى ٥ : ٣٣): « أيضا سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث بل أوف للرب أقسامك. وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة. لا بالسماء لأنها كرسى الله ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم. ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء. بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا وما زاد على ذلك فهو من الشرير».

تنهى الشريعة الموسوية فى الوصية الثالثة من الوصايا العشر عن الحلف باسم الرب باطلا. ومعنى ذلك أنها سمحت بالحلف ولكن صانته بصدق النية فى تحقيق ما حُلف به. وجاء عيسى بخطوة أخرى ترتكز على أمانة القلب البشرى وصدقه فى الوفاء بالوعد أو صدقه فيما يخبر به. وما دام الأمر كذلك فليس هناك ضرورة للحلف. فمنع الأقسام كليًّة.

٥ – (متى ٥ : ٣٨) «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضا. ومن أراد أن يخاصمك فى ثوبك فاترك له الرداء أيضا. ومن سخَّرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين. من سألك فأعطه ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده». لم يكن مبدأ القصاص – عين بعين وسن بسن – فى الشريعة الموسوية دعوة لكل من اعتدى عليه أن يأخذ ثأره بنفسه. بل كان توجيها للقضاة بأن الشخص الذى نزل به أذى يُعوَّض من المعتدى بمثل ما نزل به من ضرر. ثم جاء عيسى عليه السلام فأمر بأن يترك القصاص إلى الله كُليًّة وهو الذى يتولى مجازاة المعتدى ومكافأة الصابر على الأذى. إما فى الدنيا أو فى الآخرة.

٦ – (متى ٥ : ٤٣) «سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أما فأقول لكم أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطرودنكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين. ويُمطر على الأبرار والظالمين لأنه إذا أحببتم الذين يحبونكم فقط فأى فضل تصنعون. أليس العشارون أيضا يفعلون هكذا؟ فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل».

٧ – فى الصدقة (متى ٦ : ١) «احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى

ينظروكم وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السموات فمتى صنعت صدقة فلا تصوّت قدامك بالبوق كما يفعل المراءون فى المجامع وفى الأزقة لكى يُمجدُوا من الناس. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تُعرِّف شمالك ما تفعل يمينك لكى تكون صدقتك فى الخفاء. فأبوك الذى يرى فى الخفاء هو يجازيك علانية».

وهناك أحاديث نبوية كثيرة تحث على إخفاء الصدقة حتى لا يداخلها رياء يبطل ثوابها. والأحاديث تمدح ابن آدم حين يتصدق فلا تعلم شماله ما أنفقت يمينه. وفى حديث شريف أن المرائى يقال له يوم القيامة: ضل عملك وحبط أجرك. اذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له.

٨ – الصلاة (متى ٦ : ٥) «ومتى صليت فلا تكن كالمرائين فإنهم يحبون أن يصلُّوا قائمين فى الجامع وفى زوايا الشوارع لكى يظهروا للناس. الحقَّ أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم. وأمَّا أنت فمتى صلَّيت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وَصَلِّ إلى أبيك الذى فى الخفاء. فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية. وحينما تُصلُّون لا تكرروا الكلام باطلا كالأمم فإنهم يظنون أنهم بكثرة كلامهم يستجاب لهم. فلا تتشبَّهوا بهم لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه. فصلُّوا أنتم هكذا: أبانا الذى فى السموات. ليتقدس اسمك. ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا. ولا تدخلنا فى تجربة. لكن نجنا من الشرير لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين. فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضا أبوكم السماوى. وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضا زلاتكم».

٩ – فى الصيام:

جاء فى إنجيل مرقس (٢ : ١٨): «وكان تلاميذ يوحنا والفريسيين يصومون فجاءوا وقالوا له لماذ يصوم تلاميذ يوحنا والفريسيين وأما تلاميذك فلا يصومون. فقال لهم يسوع: هل يستطيع بنو العرس أن يصوموا والعريس معهم. مادام العريس معهم لا يستطيعون أن يصوموا. ولكن ستأتى أيام حين يرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون فى تلك الأيام» لقد أوصت الشريعة الموسوية بصوم يوم واحد فقط هو يوم الكفارة العظيم ولكن أياما أخرى كانت قد أضيفت إلى هذا حتى أصبحت أيام الصيام كثيرة. وأراد عيسى أن يبطل صيام هذه الأيام الزائدة وشبه وجوده بين تلاميذه بصاحب عرس ولا يجوز الصيام فى أيام العرس واستمر عيسى قائلا: «ليس أحد يخيط رقعة من قطعة جديدة على ثوب عتيق وإلا فالملء الجديد يأخذ من العتيق فيصير الخرق أردأ. وليس أحد يجعل خمرا جديدة فى زقاق عتيقة لئلا تشق الخمر الجديدة الزقاق فالخمر تنصبُّ والزقاق تتلف. بل يجعلون خمرا جديدة فى زقاق جديدة. وهو بهذا المثل ينهى عن المزج بين القديم والجديد وينهى عن خلط تعاليمه الجديدة بالشريعة السابقة.

وفى إنجيل متى (٦ : ١٦) ينهى عيسى عليه السلام عن الرياء فى الصيام وإظهاره والتباهى به ويريده خالصا لوجه الله تعالى فيقول: «ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين فإنهم يغيِّرون وجوههم لكى يظهروا للناس صائمين. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لكى لا تظهر للناس صائما بل لأبيك الذى فى الخفاء. فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية».

١٠ – وفى اكتناز الأموال قال (متى ٦ : ١٩): «لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يُفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا يُفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون. لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا. سراج الجسد هو العين. فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيِّرا. وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلما. فإن كان النور الذى فيك ظلاما فالظلام كم يكون !»

١١ – فى الحث على التوكل على الله وعدم التوكل على الماديات الدنيوية (مت ٦ : ٢٤) يقول: «لا يقدر أحد أن يخدم سيدين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الأخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال. لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس؟ انظروا إلى طيور السماء. إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن. وأبوكم السماوى يُقوِّتها. ألستم أنتم بالحرى أفضل منها. ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدة. ولماذا تهتمون باللباس. تأمَّلوا زنابق الحقل كيف تنمو. لا تتعب ولا تغزل. ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان فى كل مجده كان يلبس كواحدة منها. فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويُطرح غدا فى التنور يُلبسه الله هكذا أفليس بالحرى جداًّ يُلبِسكم أنتم يا قليلى الإيمان. فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس. فإن هذه كلها يطلبها الأمم. لأن أباكم السماوى يعلم أنكم محتاجون إلى هذه كلها. لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبرَّه وهذه كلها تُزاد لكم. فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه. يكفى اليوم شرَّه».

١٢ – أما عن علاقة الفرد مع الآخرين فقد قال عيسى عليه السلام (متى ٧ : ١): «لاتدينوا (أى لا تحاسبوا الناس) لكى لا تُدانوا لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون. وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم. ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها. أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك وها الخشبة فى عينك. يا مرائى. أخرج أولا الخشبة من عينك وحينئذ تبصر جيدا أن تخرج القذى من عين أخيك».

١٣ – وللحث على الإخلاص فى الدعاء قال: (متى ٧ : ٧):

«اسألوا تُعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يفتح لكم. لأن كل من يسأل يأخذ. ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له. أم أى إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزاً يعطيه حجرا. وإن سأله سمكة يعطيه حيةً فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحرى أبوكم الذى فى السموات يهب خيرات للذين يسألونه. فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضا بهم».

١٤ – حرُمة يوم السبت:

كان العمل داخل البيوت يوم السبت مسموحا به فى الشريعة. وتحايل الفريسيون ليجعلوا حمل الأشياء مباحا فى شوارع المدينة يوم السبت بأن عملوا عواميد وعوارض أبواب فى كل مكان فى الشوارع فكأنهم حولّوا المدينة كلها إلى بيوت فيباح لهم حمل الأشياء فيها. كذلك كان السير لمسافة ٣ كم تقريبا مسموحا به فى يوم السبت. ولما كانوا أحيانا يدعون إلى وليمة ويكون بيت صاحب الوليمة على مسافة أكبر من المسموح فإنهم تحايلوا بأن وضعوا «شبه بيوت» فى الطريق على مسافات أقل من المسموح وبذلك ينتقلون بينها بحرية حتى يصلوا إلى البيت الذى به الوليمة. وواضح أن ذلك كله كان تحايلا حتى لا تبدو أفعالهم اعتداء على حرمة يوم السبت. ويقول الإنجيل (متى ١٢ : ١) «وفى ذلك الوقت ذهب يسوع فى السبت بين الزرع فجاع تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون. فالفريسيون لما نظروا قالوا هو ذا تلاميذك يفعلون ما لا يحل فعله يوم السبت. فقال لهم أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه. كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذى لم يحل أكله له ولا للذين معه بل للكهنة فقط. أوما قرأتم فى التوراة أن الكهنة فى السبت فى الهيكل يُدنِّسون السبت وهم أبرياء. ولكن أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل. إنى أريد رحمة لا ذبيحة» وهو هنا يحتج على الكهنة الذين كانوا يخرجون الخبز من الهيكل لتأكله عائلاتهم. وكانوا أيضا يُجهِّزون الذبيحة يوم السبت وكل ذلك منهيٌ عنه. ومع ذلك يغضبون لأن تلاميذ المسيح كانوا يفركون سنابل القمح بين أيديهم ليأكلوا. فأوضح لهم أن الضرورات تبيح المحظورات كما فعل داود عليه السلام (جـ ٥ ص ١٠١) وأن الرحمة مطلوبة وليس التطبيق الحرفى والأعمى للشريعة.

«ثم انصرف من هناك وجاء إلى مجمعهم. وإذا إنسان يده يابسة فسألوه قائلين هل يحل الإبراء فى السبوت لكى يشتكوا عليه فقال لهم: أى إنسان منكم يكون له خروف واحد فإن سقط هذا فى السبت فى حفرة أفما يمسكه ويقيمه. فالإنسان كم هو أفضل من الخروف. إذاً يحل فعل الخير فى السبوت. ثم قال للإنسان مُدَّ يدك فمدَّها. فعادت صحيحة كالأخرى.

وهذا يدل على أن المسيح عليه السلام لم يُغير يوم العبادة – وهو يوم السبت – ولكن كما

سيجىء فيما بعد (ص ١٣٦) فإن الإمبراطور قسطنطين الذى اعتنق المسيحية هو الذى أعلن أن يوم الأحد هو يوم الرب ويجب أن يكون عطلة رسمية للدولة ليخالفوا اليهود فى يوم عبادتهم. ويشير القرآن الكريم إلى الخلاف حول يوم السبت فى قوله تعالى: **«إنما جُعِل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون»**.

(١٢٤ – النحل).

١٥ – الأكل مع الخطاة:

كان الفريسيون كما سبق أن ذكرنا (جـ ٥ ص ٤٩٢) يتجنبون الاختلاط بالوثنيين بصفتهم نجسين. ثم انسحب عدم الاختلاط كذلك على فرق اليهود الأخرى لأنهم فى نظرهم غير طاهرين. وكان العشارون (أى الذين يجبون ضريبة العشر) من الرومان أو جنسيات أخرى مكروهين ولذلك حرم الفريسيون الاختلاط بهم.

«وإذ جلس يسوع فى البيت ليأكل إذا عشَّارون وخطاة كثيرون قد جاءوا وجلسوا ليأكلوا مع يسوع وتلاميذه. فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه لماذا يأكل مُعلِّمكم مع العشارين والخطاة؟ فلما سمع يسوع قال لهم: لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. فاذهبوا وتعلموا ما هو. إنى أريد رحمة لا ذبيحة لأنى لم آت لأدعو أبرارا بل خطاة إلى التوبة».

١٦ – الطريق المستقيم (متى ٧ : ١٣):

قال عيسى : «ادخلوا من الباب الضيق لأنه واسعٌ الباب ورحبٌ الطريق الذى يؤدى إلى الهلاك وكثيرون هم الذين يدخلون منه. ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة وقليلون هم الذين يجدونه».

والمعنى أن الدخول من الباب الضيق فيه بعض المشقة وكذلك طريق الشريعة إذا التزم به المرء تكلَّف بعض المشقة وضيَّق على نفسه فلا يتركها تمشى على هواها. أما المستهترون الذين لا يتبعون أحكام الشريعة فلا يتكلفون أى مشقة فلا عبادات ولا صدقات فكأنهم يسيرون فى طريق رحب واسع ولكنه يؤدى إلى الهلاك. وهذا نفس المعنى الذى ورد فى الحديث الشريف: «حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات».

١٧ – التحذير من الأنبياء الكذبة (متى ٧ : ١٥):

«احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا؟ هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية. لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع

أثمارا ردية ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارا جيدة. كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار. فإذاً من ثمارهم تعرفونهم».

١٩ – ختام (متى ٧ : ٢٤):

«فكل من يسمع أقوالى هذه ويعمل بها أشبِّهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط لأنه كان مؤسسا على الصخر، وكل من يسمع أقوالى هذه ولا يعمل بها يُشبَّه برجل جاهل بنى بيته على الرمل. ونزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط. وكان سقوطه عظيما».

فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بُهتت الجموع من تعليمه لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة.

الفصل السابع

معجزات المسيح

أُرسِل المسيح عليه السلام هاديا لقومه بنى إسرائيل. وأيَّده الله سبحانه وتعالى بعديد من المعجزات المادية ليتأكد الناس من صدق رسالته. وقد ذكر القرآن الكريم هذه المعجزات فى قوله تعالى:

«ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى جئتكم بآية من ربكم. أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله. وأنبئكم بما تأكلون وما تدَّخرون فى بيوتكم. إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين» . (٤٩ . آل عمران).

ولعل معجزة إحياء الموتى كانت أعظمها جميعا. يليها خلق الطير من الطين. فهذه الأمور لا يقدر عليها إلاَّ الله سبحانه وتعالى. ومع أن عيسى عليه السلام قد أرجع هذه المعجزات إلى الله عز وجلَّ. إلا أن بعض الناس ظنوا أنه يأتى بهذه المعجزات لطبيعة إلهية فيه. ولما كان بلا أب بشرى فقد نسبوه إلى الله فى بُنوَّة وأن الروح التى نُفخت فى مريم هى جزء من ذات الله. ولكنا سنرى فيما يلى من صفحات أنه كان يرجع هذه المعجزات إلى تأييد الله له ويعيد التأكيد على أنه «ابن الانسان» – وفى عديد من الترجمات «ابن آدم» – وما هو إلا رسول مثل من سبقوه من الرسل:

«ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» (٧٥ – المائدة) .

وقد ذكر الإنجيل عديد من معجزات المسيح منها.

١ – شفاء الأبرص (متى ٨ : ١) :

ولما نزل من الجبل تبعته جموع كثيرة. وإذا أبرص قد جاء وسجد له قائلا. يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرنى. فمد يسوع يده ولمسه قائلا أريد فأطهر. وللوقت طهر برصه. فقال له يسوع انظر أن لا تقول لأحد. بل اذهب أر نفسك للكاهن وقدِّم القربان الذى أمر به موسى شهادة لهم.

والبرص مرض جلدى عضال. كما أنه يؤثر فى الأعضاء التى يصيبها فتتساقط عقد الأصابع والأنف وسقف الحلق. وكثيرا ما يبدأ كنتوء أو ورم صغير أو بياض كالقوباء إلا أنها بعد قليل تتآكل حوافها وتصبح قرحة. وإذا وضح لحم حى فى أرضية القرحة صار الأبرص نجسا ويجب أن ينعزل عن الناس لأنه يُعدى غيره. أما قبل ذلك فهو غير نجس. وبالرغم من أن

قاموس الكتاب المقدس (جماعة اللاهوتيين. ص ١٧٠) ينص على أن البرص غير الجذام إلا أن الترجمات الإنجليزية تذكره بأنه Leprosy أى الجذام وهو ما ينطبق على أعراض المرض. وكان الشفاء من البَرَص فى ذلك الوقت لا يتم إلا بمعجزة إلهية كما حدث مع مريم أخت موسى عليه السلام (جـ ٤ ص ١٠٤١).

٢ – شفاء المفلوج (متى ٨ : ٥) :

«ولما دخل يسوع كفر ناحوم جاء إليه قائد يطلب إليه ويقول: ياسيد غلامى مطروح فى البيت مفلوجا متعذِّبا جدا. فقال له يسوع أنا آتى وأشفيه. فأجاب قائد المئة وقال ياسيد لستُ مستحقا أن تدخل تحت سقفى لكن قل كلمة فقط فيبرأ غلامى لأنى أنا أيضا إنسان تحت سلطان لى جند تحت يدى. أقول لهذا اذهب فيذهب ولآخر ايت فيأتى ولعبدى افعل هذا فيفعل. فلما سمع يسوع تعجَّب وقال للذين يتبعونه: الحقَّ أقول لكم لم أجد ولا فى إسرائيل إيمانا بمقدار هذا. وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب فى ملكوت السموات. وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان. ثم قال يسوع لقائد المئة. اذهب وكما آمنت ليكن لك. فبرأ غلامه فى تلك الساعة». وقائد المائة كانت رتبة فى الجيوش قديما ويمكن معادلتها حاليا برتبة باشجاويش وكان تبجيل قائد المائة للمسيح شديدا حتى إنه رأى أنه لا يليق به أن يأتى إلى بيته المتواضع. كما كان إيمانه قويا لدرجة اليقين بأن عيسى يمكنه شفاء غلامه دون الانتقال إليه. ولَمِس عيسى شدة هذا الإيمان وحقق له الشفاء.

٣ – شفاء الحمى (متى ٨ : ١٤) :

«ولما جاء يسوع إلى بيت بطرس رأى حماته مطروحة ومحمومة فلمس يدها فتركتها الحمى فقامت وخدمتهم».

٤ – شفاء المجانين :

«ولما صار المساء قدَّموا إليه مجانين كثيرين فأخرج الأرواح بكلمة وجمع المرضى وشفاهم لكى يتم ما قيل بإشعياء النبى القائل: هو أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا».

٥ – معجزة هدوء البحر (متى ٨ : ٢٣):

«ولما دخل السفينة تبعه تلاميذه وإذا اضطراب عظيم قد حدث فى البحر حتى غطت الأمواج السفينة وكان هو نائما فتقدم تلاميذه وأيقظوه قائلين: يا سيد نجنا فإننا نهلك. فقال لهم ما بالكم خائفين يا قليلى الإيمان. ثم قام وانتهر الرياح والبحر فصار هدوء عظيم. فتعجب الناس قائلين أى إنسان هذا. فإن الرياح والبحر جميعا تطيعه».

٦ – شفاء مجنونى مدينة جرجسا.

«جرجسا» مدينة على الشاطىء الشرقى لبحر الجليل وموقعها حاليا الآثار المعروفة باسم

«كرسا» وكانت إحدى المدن العشر لإقليم ديكابوليس. وكان بها مجنونان بهما مس من الشيطان كانا يتخذان من القبور مكمنا لهما ويخيفان المارة. يقول إنجيل متى (٨ : ٢٨): «ولما جاء إلى العبر إلى كورة الجرجسيين استقبله مجنونان خارجان من القبور هائجان ولم يكن أحد يقدر أن يجتاز من تلك الطريق. وإذا هما قد صرخا قائلين مالنا ولك يا يسوع. أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذِّبنا (والمعنى أن الشياطين التى كانت تلبس المجنونين تعرف أن لها عذابا فى الآخرة ولكنها رأت يسوع مقبلا عليهم فى الدنيا فكان سؤالهم عما إذا كان قد جاء لإنزال عذاب بهم قبل الوقت أى قبل يوم القيامة). وكان بعيدا منهم قطيع خنازير كثيرة ترعى (والخنازير حيوانات نجسه فى الشريعة اليهودية ولا يجوز تربيتها). فالشياطين طلبوا إليه قائلين. إن كنت تخرجنا فاذن لنا أن نذهب إلى قطيع الخنازير فقال لهم امضوا فخرجوا ومضوا إلى قطيع الخنازير -(يبدو أن هذه الشياطين كانت نوعا لا يستطيع العيش إلا متلبِّسة حيوان ما) وإذا قطيع الخنازير كله قد اندفع من على الجرف إلى البحر ومات فى المياه (أى أن الخنازير لما تلبَّستها الشياطين جن جنونها فاندفعت هائجة وسقطت من على الجرف فى البحر وماتت غرقا وماتت معها الشياطين). أما الرعاة فهربوا ومضوا إلى المدينة. وأخبروا عن كل شيئ وعن أمر المجنونين فإذا كل المدينة قد خرجت لملاقاة يسوع ولما أبصروه طلبوا منه أن ينصرف عن تخومهم».

وواضح أن أهل هذه المدينة كانوا من الأشرار. فقد ارتكبوا خطيئة بتربيتهم الخنازير مع أن الشريعة تنهى عن ذلك. ثم إنهم غضبوا لموت قطيع الخنازير ولم يفرحوا لشفاء المجنونين وفضلوا تجارتهم على الاحتفاء بيسوع وطلبوا منه مغادرة مدينتهم.

٧ - شفاء المفلوج وجدال الكتبة :

ركب عيسى عليه السلام السفينة وعاد إلى الشاطئ الغربى لبحر الجليل عائدا إلى بلدته «كفر ناحوم». يقول إنجيل متى (١:٩):

«فدخل السفينة واجتاز وجاء إلى مدينته. وإذا مفلوج يقدِّمونه إليه مطروحا على فراش. فلما رأى إيمانهم قال للمفلوج: ثق يابنى مغفورة لك خطاياك. وإذا قوم من الكتبة قد قالوا فى أنفسهم هذا يجدِّف. فعلم يسوع أفكارهم. فقال لماذا تفكرون بالشر فى قلوبكم. أيَّما أيسر أن يقال مغفورة لك خطاياك أم أن يقال قم وامش ولكن لكى تعلموا أن لابن الإنسان (أى هو نفسه) سلطانا على الأرض أن يغفر الخطايا. حينئذ قال للمفلوج قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك. فقام ومضى إلى بيته. فلما رأى الجموع تعجبُّوا ومجَّدوا الله الذى أعطى الناس سلطانا مثل هذا».

وواضح أن الكتبة أرادوا أن يلصقوا بالمسيح تهمة التجديف فى حق الإله لأنه لا أحد يملك غفران الخطايا إلا الله. ولكن المسيح أراد أن يوضِّح لهم أنه كما أن الله أعطاه المقدرة على

شفاء المرضى فقد أعطاه أيضا الشفاعة والسلطة لغفران خطاياهم. وأوضح لهم بالأمر المحسوس وهو شفاؤه للمفلوج ليقتنعوا بالمقدرة أيضا فيما هو غير محسوس وهو غفران الخطايا.

٨ – شفاء المرأة التى كانت تنزف (متى ٩ : ٢١) :

«وإذا امرأة نازفة دم منذ اثنتى عشرة سنة قد جاءت من ورائه ومسّت هدب ثوبه لأنها قالت فى نفسها. إن مسست ثوبه فقط شفيت. فالتفت يسوع وأبصرها فقال كفى يا ابنة. إيمانك قد شفاك.فشفيت المرأة من تلك الساعة».

٩ – إحياء الموتى :

وقد ذُكر ذلك فى القرآن الكريم: «... **وإذ تخرج الموتى بإذنى...**» (١١٠ – المائدة)

كما يذكر القرآن الكريم قول عيسى: «... **وأحيى الموتى بإذن الله...**» (٤٩ – آل عمران).

وكان الصدوقيون (جـ ٥ ص ٤٩٠) ينكرون البعث والحياة الآخرة ويذهبون إلى أن النفس تموت مع الجسد وينكرون المسيح ولا يترقبونه. فأراد الله أن يبين لهم خطأ معتقدهم بمثال حى فكانت معجزة إحياء الموتى فى حالتين:

أ – إحياء ابنة الرئيس (متى ٩ : ١٨) .

«وفيما هو يكلم تلاميذه إذا رئيس قد جاء فسجد له قائلا: إن ابنتى الآن ماتت ولكن تعال وضع يدك عليها تحيا. فقام يسوع وتبعه هو وتلاميذه ولما جاء يسوع إلى بيت الرئيس ونظر المزمِّرين والجميع يضجُّون قال لهم تنحُّوا فإن الصبية لم تمت ولكنها نائمة فضحكوا عليه. فلما أخرج الجميع دخل وأمسك يدها فقامت الصبية. فخرج ذلك الخبر إلى تلك الأرض كلها».

ب – إحياء لعازر (يوحنا ١١ : ١) .

كان لِعازر من بلدة «بيت عنيا» فى اليهودية – ومرض مرضا شديدا. فأرسلت أختاه إلى يسوع ليحضر ويشفيه. وتأخر يسوع يومين قبل أن يستجيب لمطلبهما فمات لعازر. ثم قرر يسوع الذهاب إليه وقال لتلاميذه: لعازر حبيبنا قد مات ولكنى أذهب لأوقظه. فلما ذهب يسوع إلى بيت عنيا وكان كثير من اليهود قد جاءوا إلى الأختين ليعزوهما فى وفاة أخيهما. وقالت إحدى الأختين: «يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخى لكنى الآن أيضا أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه. قال لها يسوع. سيقوم إخوكِ. قالت له أنا أعلم أنه سيقوم فى القيامة فى اليوم الآخر قال لها يسوع: «من آمن بى ولو مات فسيحيا وكل من كان حيًا وآمن بى فلن يموت إلى الأبد.» وأخذوا يسوع إلى قبر لعازر. وكان مغارة قد وضع عليها حجر «فقال يسوع ارفعوا الحجر. قالت له أخته: ياسيد قد أنتن لأن له أربعة أيام. فقال لها يسوع: ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله. فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعا. ورفع يسوع عينيه إلى فوق

وقال أيها الرب أشكرك لأنك سمعت لى. وأنا علمت أنك فى كل حين تسمع لى. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتنى. ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم: لِعازر. هلم خارجًا! فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطة بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل . فقال لهم يسوع: حُلُّوه ودعوه يذهب». ويستمر الإنجيل: «فكثير من اليهود الذين نظروا ما فعل يسوع آمنوا به. وأما قوم منهم فمضوا إلى الفريسيين وقالوا لهم عما فعل يسوع. فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعا وقالوا ماذا نصنع فإن هذا الإنسان يصنع آيات كثيرة إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به فيأتى الرومانيون ويأخذون موضعنا وأُمَّتنا . فقال لهم رئيس الكهنة إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها. فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه» (يوحنا ١١:٥٢).

١٠ - شفاء الأعميين (متى ٩ : ٢٧) :

«وفيما هو مجتاز من هناك تبعه أعميان يصرخان ويقولان ارحمنا يا ابن داود. ولما جاء إلى البيت تقدم إليه الأعميان فقال لهما يسوع: أتؤمنان أنى أقدر أن أفعل هذا؟ قالا له نعم ياسيد. حيئذ لمس أعينهما قائلا بحسب إيمانكما ليكن لكما. فانفتحت أعينهما. فصرفهما يسوع قائلا. انظرا لا يعلم أحد. ولكنهما خرجا وأشاعا فى تلك الأرض كلها.

وتقاطر عليه العُمْىُ من كل مكان يشفيهم وقد ذكر إنجيل متى (٢٠:٢٩) «وفيما هم خارجون من أريحا تبعه جموع كثيرة. وإذا أعميان جالسان على الطريق فلما سمعا أن يسوع مجتاز صرخا قائلين: ارحمنا ياسيد يا ابن داود. فانتهرهما الجميع ليسكتا فكانا يصرخان أكثر قائلين ارحمنا ياسيد يا ابن داود. فوقف يسوع وناداهما وقال ماذا تريدان أن أفعل بكما. قالا له ياسيد أن تفتح أعيننا. فتحنَّن يسوع ولمس أعينهما فللوقت أبصرت أعينهما فتبعاه».

١١ - شفاء الأكمه :

وهذا ما ذكره القرآن الكريم فى الآية ٤٩ من سورة آل عمران فى قوله تعالى على لسان عيسى « ... وأبرئ الأكمة...» والأكمه هو الأعمى منذ ولادته. وقد ذكر الإنجيل (يوحنا ٩:١) ذلك كما يلى: «وفيما هو مجتاز رأى إنسانا أعمى منذ ولادته فسأله تلاميذه قائلين يا معلِّم من أخطأ. هذا أم أبواه حتى ولد أعمى؟ أجاب يسوع: لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه. قال هذا وتفل على الأرض وصنع من التفل طينا وطلى بالطين عينى الأعمى وقال له اذهب واغتسل فى بركة سلوام (بركة مياه فى مدينة أورشليم - انظر جـ ٥ ص ١٧٤ شكل ٤٢). فمضى واغتسل وأتى بصيراً».

وكان الاعتقاد وقتئذ أن من وُلِد به عاهة فلابد أن أحد أبويه قد ارتكب خطيئة ما وأن الجزاء العقابى لخطايا الآباء يلحق بالأبناء. وأوضح يسوع عدم صحة هذا المعتقد. وأنها فقط

مشيئة الله حتى يحمد المبصرون الله على نعمة الإبصار. وكان شفاء ذلك الأكمه فى يوم سبت. فاستنكر قوم من الفريسيين هذا الفعل وقالوا: هذا الإنسان (عيسى) ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت. آخرون قالوا كيف يقدر إنسان خاطئ أن يعمل مثل هذه الآيات» ولما سمع قولهم قال «لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يُبصر الذين لا يُبصرون. ويعمى الذين يبصرون».

١٢ – شفاء الأخرس (متى ٩ : ٣٢) :

«وفيما هما خارجان إذا إنسان أخرس مجنون قدَّموه إليه. فلما أُخرج الشيطان تكلم الأخرس. فتعجب الجموع قائلين: لم يظهر قط مثل هذا فى اسرائيل. أما الفريسيون فقالوا برئيس الشياطين يُخرج الشياطين». والفريسيون كما سبق أن ذكرنا (جـ ٥ ص ٤٩١) كانوا ينظرون إلى الأمور السياسية نظرة عدم مبالاة وكانوا يعارضون عيسى لخوفهم من أن التفاف الشعب حوله سيثير سخط الحكام الرومان على اليهود وما يتبع ذلك من تدابير انتقامية ولذلك فمع أنهم يؤمنون بمخلِّص فإنهم اتهموه بأنه ما هو إلا ساحر يستعين برئيس الشياطين ليطرد الشياطين المتلبِّسة أجساد المرضى.

١٣ – شفاء مجنون أعمى أخرس (متى ١٢ : ٢٢) :

«حينئذ أحضر إليه مجنون أعمى وأخرس. فشفاه حتى إن الأعمى الأخرس تكلم وأبصر فبهت كل الجموع وقالوا ألعلَّ هذا هو ابن داود (أى المسيح الذى ينتظرونه) أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا هذا لا يخرج الشياطين إلا ببعلزبول رئيس الشياطين» أى أن الفريسيين لم يؤمنوا أنه المسيح المنتظر المؤيَّد من الله ليأتى بهذه المعجزات بل اتهموه بأنه يستعين برئيس الشياطين فى عمليات الشفاء التى يقوم بها. «فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم: كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب. وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت. فإن كان الشيطان يُخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته فكيف تثبت مملكته؟ وإن كنت أنا ببعلزبول أخرج الشياطين فأبناؤكم بم يُخرجون؟ لذلك هم يكونون قضاتكم» وهنا يسألهم عيسى عن عمليات الشفاء التى يقوم بها تلاميذه وهم من أبناء الشعب أى أبناؤهم ويسألهم هل يستعينون أيضا ببعلزبول فى عمليات الشفاء والجواب طبعا بالنفى. فكأن التلاميذ هم القضاة الذين حكموا بخطأ ما قالوه عن استعانة يسوع برئيس الشياطين. وراح يشرح لهم أنه يشفى المرضى بكلمة الله وبروح الله وفى هذه الحالة فقد شملتهم رحمة الله وأقبل عليهم ملكوته. ثم وضَّح لهم أنه لا موقف وسط فإما أن يجمع نفسه مع المسيح أو يشتتها بعيدا عن الله فقال لهم (متى ١٢:٢٦) «ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل ملكوت الله. من ليس معى فهو علىَّ. ومن لا يجمع معى فهو يُفَرِّق. لذلك أقول لكم كل خطية وتجديف يُغفر للناس وأما التجديف على الروح فلن يُغفر للناس. ومن قال كلمة علىَّ يغفر له. وأما من قال على الروح القدس فلن يُغفر

له لا فى هذا العالم ولا فى الآتى. اجعلوا الشجرة جيدة وثمرها جيدا أو اجعلوا الشجرة رديَّة وثمرها رديًا لأن من الثمرة تعرف الشجرة (والمعنى أنه من الكلام تعرف خافيات النفوس. فإن كان الكلام رديئا كانت النفس رديئة) يا أولاد الأفاعى كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار فإن من فضلة القلب يتكلم الفم. الإنسان الصالح من الكنز الصالح فى القلب يُخرج الصالحات. والإنسان الشرير من الكنز الشرير يخرج الشرور. ولكن أقول لكم إن كل كلمة بطَّالة يتكلم بها الناس سوف يُعطُون عنها حسابا يوم الدين لأنك بكلامك تتبرَّر وبكلامك تدان.

نقطة أخيرة وهى أن المسيح لم يكن متصديا لمسألة سبب مرض الجنون أو أن تلبس الشياطين لأجساد المرضى هو سبب اختلال تفكيرهم. فهذه قضية يطول شرحها ولايزال فى عصرنا الحالى أناس كثيرون وعلى درجة كبيرة من العلم يؤمنون بتلبس الجن أجساد المرضى فما بالنا بما كان الناس يؤمنون به قبل ألفى عام! وما كان فى المقام الأول فى الأهمية هو أن ينفى عيسى عليه السلام عن نفسه أنه يستعين بالشياطين فى العلاج وبيان أن تلك مقدرة وهبها له الله لتكون دليلا على صدق ما يخبر به عن ربه.

١٤ – معجزة إطعام ٥٠٠٠ رجل بخمسة أرغفة (متى ١٤ : ١٤)

«فلما خرج يسوع أبصر جمعا كثيرا فتحَنَّن عليهم وشفى مرضاهم. ولما صار المساء تقدم إليه تلاميذه قائلين: الموضع خلا والوقت قد مضى. اصرف الجموع لكى يمضوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعاما. فقال لهم يسوع. لا حاجة لهم أن يمضوا. اعطوهم أنتم ليأكلوا. فقالوا له ليس عندنا ههنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان. فقال ائتونى بها إلى هنا. فأمر الجميع أن يتكئوا على العشب ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسَّر وأعطى الأرغفة للتلاميذ والتلاميذ للجموع. وأكل الجميع وشبعوا. ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنى عشر قُفَّة مملوءة والآكلون كانوا نحو خمسة آلاف رجل ماعدا النساء والأولاد.

١٥ – إطعام الأربعة الاف بسبعة أرغفة وقليل من صغار السمك :

وهى مثل المعجزة السابقة فى حدوثها.

١٦ – معجزة شفاء ابن المرأة الكنعانية (متى ١٥ : ٢١)

خرج يسوع إلى صور وصيدا وجاءته امرأة كنعانية وطلبت منه شفاء ابنتها المصابة بالجنون فأجاب وقال «لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» أى أنه لا يشفى إلاَّ من كان يهوديا. «ولكنها تقدمت وسجدت أمامه قائلة ياسيد أعنِّى. حينئذ أجابها وقال لها. يا امرأة عظيم إيمانك. ليكن لك ما تريدين. فشفيت ابنتها من تلك الساعة».

١٧ – معجزة المشى على الماء (متى ١٤ : ٢٢)

أمر عيسى عليه السلام تلاميذه أن يسبقوه إلى السفينة ليعبر إلى الشاطئ الآخر لبحر

الجليل. وبعدما صرف الجموع التى كانت محتشدة صعد إلى الجبل منفردا ليصلّى. وهاج البحر وتلاعبت الأمواج بالسفينة وقذفتها بعيدا عن الشاطئ. ولما انتهى من صلاته مضى إليهم يسوع ماشيا على الماء. فلما أبصره تلاميذه ماشيا على الماء ظنوه خيالا. ولكن يسوع كلّمهم قائلا أنا هو لا تخافوا. فأجابه بطرس وقال إن كنت هو فمرنى أن آتى إليك على الماء. فقال تعالَ. فنزل بطرس من السفينة ومشى على الماء ليأتى إلى يسوع. ولكن لما رأى الريح شديدة خاف وإذ ابتدأ يغرق صرخ قائلا يارب نجنى. ففى الحال مدّ يسوع يده وأمسك به وقال له: يا قليل الإيمان لماذا شككت ولما دخلا السفينة سكنت الريح.

١٨ – خلق الطير :

هذه المعجزة أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى : **«وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى»** (١١٠ – المائدة). وأيضا قال عيسى مخاطبا بنى إسرائيل: **«أنى قد جئتكم بآية من ربكم. أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله»** . (٤٩ – آل عمران).

١٩ – «وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم». (٤٩ – آل عمران).

٢٠ – نزول المائدة :

وأخبر عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى: **«إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن يُنزِّل علينا مائدة من السماء؟ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابن مريم. اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين»** . (١١٢ – ١١٥ – المائدة).

التعليم بالأمثال

فائدة الأمثال :

لقد سبق أن أوضحنا (جـ ٥ ص ١٩٧) أن المثل يشير إلى قصة وقعت فى الماضى ويريد ضارب المثل أن يشبه الموقف الحالى بالقصة السابقة. وقد تكون القصة افتراضية أى لم تقع فعلاً ويكون الهدف من المثل هو تقريب المسألة إلى ذهن السامع بشيىء ملموس يسهل فهمه واستخلاص النتيجة منه ثم يقاس عليه الموقف الحالى ومن ثم يسهل إدراك النتيجة المتوقعة من المقدمات المطروحة حاليا ولقد حفل القرآن الكريم بعديد من الأمثال **«ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم»** (٢٥ - النور) **«وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون»** (٤٣ - العنكبوت).

ومن الأمثال التى وردت فى القرآن الكريم مايلى:

«مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم» (٢٦١ - البقرة). **«مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون»**. (١٧ - البقرة).

«ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها. ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار». (٢٤ - ٢٦ - إبراهيم).

«إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس. كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون».

(٢٤ - يونس).

ولما كان عدد كبير من الشعب أيام المسيح غير متعلمين. لذلك كان يلزم عليه أن يلجأ إلى الأمثال ليقرب المسألة إلى أذهانهم. ليستطيعوا استيعاب ما يريده والنتيجة التى يرمى إليها. وخاصة أنه فى كثير من الأحيان كانت تعاليمة تعارض ما يقوله الكهنة والكتبة والذين كانوا يفسِّرون الشريعة على حسب أهوائهم أو على حسب فهمهم القاصر لأهدافها. وكان كهنة

اليهود والكتبة من الجمود بحيث أحالوا الشريعة إلى «حدود» فحرصوا على أن لا يفلت من حدودها أحد وعليهم أن يتصيدوا المخطئين ليقيموا عليهم الحد. وجاء عيسى ليصحح هذا المفهوم ويعلِّم أن الوصايا الإلهية لم تُجعل للزهو والتيه بالنفس ووصم الأخرين بالتهم والذنوب. ولكنها جُعِلت لحساب النفس قبل حساب الآخرين. وللعطف على الناس بالرحمة والمغفرة. وأن لا يكون الدين سبيلا للتعالى على الآخرين بعلم أو بصلاة أو صوم. فطلب من الناس أن يؤدوا العبادات فيما بينهم وبين خالقهم حتى تكون العبادة خالية من الرياء فيكون الأجر عليها كاملاً.

معنى الأُخوة :

قبل أن يبدأ عيسى تعليمه بالأمثال رأى أن يُوضِّح لهم معنى الأُخوة. يقول الإنجيل (متى ١٢ : ٤٦): «وفيما هو يكلِّم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلِّموه. فقال له واحد: هو ذا أمك وإخوتك قد وقفوا خارجا طالبين أن يكلِّموك. فأجاب وقال للقائل: من هى أمى ومن هم إخوتى؟ ثم مدَّ يده نحو تلاميذه وقال: ها أمى وإخوتى. لأن من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى وأختى وأمى». والمعنى أن الإيمان بالله يربط بين المؤمنين بأخوَّة هى أقوى من رابطة الدم والنسب. كما قال الله تعالى: **«إنما المؤمنون إخوة»** (١٠ – الحجرات). **«فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا»**. (١٠٣ – آل عمران).

التعليم علي شاطىء البحر :

(متى ١٣ : ١) «فى ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس عند البحر فاجتمع إليه جموع كثيرة. حتى إذا دخل السفية وجلس والجمع كله وقف على الشاطىء فكلَّمهم كثيرا بأمثال». وقد عمد عيسى إلى هذه الطريقة عند مخاطبته للجموع الكثيرة بأن يركب قاربا يقف به قرب الساحل والجموع الغفيرة وقوف على الشاطىء حتى يكون مواجها لكل المستمعين فيرون تعبيرات وجهه وحركات يديه وهو يشرح وهذا لا يتحقق لو وقف فى أرض منبسطة وتحلَّق الناس حوله إذ سيكون موليا ظهره نحو نصف الجموع. كما أن وجوده فى القارب يجعل بينه وبينهم مسافة تحقق انتشار الصوت بدرجة أكبر فيسمع الكل بوضوح وخاصة عند البعد عن المدن وضجيجها.

عيسى يُعلم الناس بالأمثال :

قلنا إن عيسى عليه السلام كان يدرك أن أكثر سامعيه هم من الناس البسطاء الذين قد يفوت عليهم إدراك المقصود مما يقول ولا يستطيعون استخلاص الحكمة التى يهدف إليها لذلك كان معظم تعليمه بالأمثال، ومن الأمثال التى ضربها ما يلى:

(١) **مثل الزارع أو تأثير الكلمة حسب صدورها من القلب.** (متى ١٣ : ٤): قال: «هو ذا الزارع قد خرج ليزرع. وفيما هو يزرع سقط بعض فى الطريق. فجاءت الطيور وأكلته. وسقط آخر على الأماكن المحجرة حيث لم تكن له تربة كثيرة فنبت حالا إذ لم يكن له عمق أرض. ولكن لما أشرقت الشمس احترق وإذ لم يكن له أصل جف. وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه. وسقط آخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمرا. بعض مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين. من له أذنان للسمع فليسمع. فتقدم التلاميذ وقالوا له لماذ تكلمهم بأمثال. فأجاب وقال لهم: لأنه قد أُعطِىَ لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السموات. وأما لأولئك فلم يُعطَ. فإن من له سيعُطى ويزُاد. وأما من ليس له فالذى عنده سيؤخذ منه من أجل ذلك أكلمهم بأمثال». والمعنى أن الأمثال تفتح عيون المتقين على أسرار الحكمة الإلهية فيستمتعون بها وتزيدهم تقوى وأما الذى يمر عليها مراً سريعا دون تفكر وكأنها شيئ عديم القيمة فلن يفهمها. بل إنها تزيده شكا وجهلا. وهذا يشبه قوله تعالى:

«قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمًى».

(٤٤ – فصلت).

واستمر عيسى عليه السلام قائلا: «من أجل ذلك أكلمهم بأمثال لأنهم مبصرون لايبصرون وسامعون لا يسمعون ولا يفهمون. فقد تمت فيهم نبوَّة إشعياء القائلة: تسمعون سمعاً ولا تفهمون. ومبصرين تبصرون ولا تنظرون. لأن قلب الشعب قد غلظ. وآذانهم قد ثقل سمعها وغمَّضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم. ولكن طوبى لعيونكم لأنها تبصر ولآذانكم لأنها تسمع. فإنى الحق أقول لكم. إن أنبياء وأبراراً كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا. وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا».

وهذا يشبه قوله تعالى: **«لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها».** (١٧٩ – الأعراف).

وقوله تعالى: **«أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور».** (٤٦ – الحج).

ثم بعد ذلك بدأ عيسى عليه السلام يشرح لهم معنى المثل فقال: «فاسمعوا أنتم مثل الزارع: كل من يسمع كلمة الملكوت ولا يفهم فيأتى الشرير ويخطف ما قد زرع فى قلبه. هذا هو المزروع على الطريق. والمزرع على الأماكن المحجَّرة هو الذى يسمع الكلمة وحالا يقبلها بفرح ولكن ليس له أصل فى ذاته بل هو إلى حين فإذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فحالا يعثر. والمزروع بين الشوك هو الذى يسمع الكلمة وهَمُّ هذا العالم وغرور الغنى يخنقان الكلمة فيصير بلا ثمر. وأما المزروع على الأرض الجيدة فهو الذى يسمع الكلمة ويفهم وهو الذى يثمر فيصنع بعض مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين.

(٢) مثل الزوان (متى ١٣ : ٢٤) :

قدم لهم مثلا آخر قائلا: يشبه ملكوت السموات إنسانا زرع زرعاجيداً فى حقله وفيما هم نيام جاء عدو وزرع زوانا فى وسط الحنطة (الزوان عشب ضار شديد المرارة ينبت بين أعواد الحبوب وإذا طحنت بذوره مع الغلال فالدقيق الناتج يكون ساما - تفسير الكتاب المقدس. جـ ٥ ص ٥٢). فلما طلع النبات وصنع ثمرا حينئذ ظهر الزوان أيضا فجاء عبيد رب البيت وقالوا له يا سيد أليس زرعا جيدا زرعت فى حقلك فمن أين له زوان؟ فقال لهم: إنسانٌ عدوٌّ فعل هذا. فقال له العبيد أتريد أن نذهب ونجمعه. فقال لا. لئلا تقلعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه. دعوهم ينْميان كلاهما معا إلى الحصاد. وفى وقت الحصاد أقول للحصادين اجمعوا أولا الزوان واحزموه حزماً ليحرق وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزنى.

وتقدم إليه تلاميذة قائلين فسر لنا مثل الزوان فأجاب وقال لهم: الزارع الزرع الجيد هو الإنسان والحقل هو العالم والزرع الجيد هو بنو الملكوت (المؤمنون) والزوان هو بنو الشرير والعدو الذى زرعه هو إبليس. والحصاد هو انقضاء العالم. والحصادون هم الملائكة فكما.. يجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا يكون فى انقضاء هذا العالم يرسل الرب ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلى الإثم ويطرحونهم فى أتون النار هناك يكون البكاء وصرير الأسنان. حينئذ يضىء الأبرار كالشمس فى ملكوت أبيهم. من له أذنان للسمع فليسمع.

٣ - مثل حبة الخردل (متى ١٣ : ٣١) :

«قدَّم لهم مثلا آخر قائلا: يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها الإنسان وزرعها فى حقله. وهى أصغر جميع البذور ولكن متى نمت فهى أكبر البقول وتصير شجرة حتى إن طيور السماء تأتى وتأوى فى أغصانها».

ويُضرب المثل بحبة الخردل فى صغرها كما ورد فى القرآن الكريم: **«وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين»**. (٤٧ - الأنبياء).

ومع صغر حبة الخردل فإنها عندما تنمو قد يبلغ طول شجرها ثلاثة أمتار وكبر النبتة التى تنمو من هذه البذور الصغيرة يمثل تكاثر ملكوت السموات من بداية ضيئلة إلى نهاية فى غاية الكبر (قاموس الكتاب المقدس. دار الثقافة ص ٣٤١) أى أن من يفعل خيرا ولو صغيرا ابتغاء وجه الله يكون أجره كبيرا فى الآخرة.

٤ - مَثل الخميرة :

والمعروف أن العجين إذا اختمر يزيد حجمه، ويضرب كمثل للشيىء الصغير الذى يزيد إلى أضعاف حجمه. قال عيسى (متى ١٣ : ٣٣): «يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها فى ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع». ويرى بعض مفسرى الكتاب أن هذا المثل

القصير بشير إلى الكنيسة بفهمها الصحيح للإنجيل ستعمل على نشره فى جميع أنحاء المعمورة.

٥ - **مَثل الكنز المخفى واللؤلؤة الثمينة** (متى ١٣ : ٤٤) :

«أيضا يشبه ملكوت السموات كنزا مُخفًى فى حقل وجده إنسان فأخفاه ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل (وحسب الشريعة اليهودية يصبح الكنز ملكا له). أيضا يشبه ملكوت السموات إنسانا تاجرا يطلب لآلىء حسنة فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع ما كان له واشتراها».

ويرى بعض المفسِّرين أن المقصود بهذين المثلين هو ومضة الإيمان التى قد تنير فى القلب فيدرك الإنسان الواعى أن هذه هى الثروة الحقيقية فيبيع كل مباهج الدنيا وزينتها ويتبع ذلك النور. وقد تحدث هذه الومضة الإيمانية مصادفة مثل الكنز المخفى فى الحقل أو تحدث لباحث يبحث عن النفيس من العلم. وفى كلتا الحالتين يناله الخير الكثير والخلاص فى الدنيا والآخرة.

٦ - مَثل شبكة الصيد (متى ١٣ : ٤٧):

قال يسوع «أيضا يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة فى البحر وجامعة من كل نوع. فلما امتلأت أصعدوها على الشاطىء وجلسوا وجمعوا الجيد فى أوعية وأما الردىء فطرحوه بعيدا. هكذا يكون فى انقضاء العالم. يخرج الملائكة ويُفرِزون الإشرار من بين الأبرار ويطرحونهم فى أتون النار هناك يكون البكاء وصرير الأسنان». وهذا المثل يعنى أن الشر موجود مع الخير ومختلط به ويجب فرز الشر لتجنُّبه أما الذين يتبعون الشر فإن مصيرهم فى الآخرة إلى النار.

٧ - **حوار مع الفريسيين حول النجاسة** (متى ١٥ : ١) :

«جاء إليه (إلى يسوع) كتبة وفريسيون من أورشليم قائلين: لماذا يتعدى تلاميذك التقاليد فإنهم لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون خبزا. فأجاب وقال لهم: وأنم أيضا لماذا تتعدَّون وصية الله فإن الله أوصى قائلا أكرم أباك وأمك ومن يشتم أبا أو أما فليمت موتا. وأما أنتم فتقولون من قال لأبيه أو أمه قربان هو الذى تنتفع به منى فلا يُكرِم أباه أو أمه فقد أبطلتم وصية الله. يامراءون. حسناً تنبأً عنكم إشعياء قائلا: يقترب إلى هذا الشعب ويكرمنى بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عنى بعيدا». وهو هنا يشير إلى ما كان يفعله بعض اليهود - ويقرُّه بل ويشجعه الكهنة - من جعل ممتلكاتهم وقفا للهيكل وبذا يتجنب ضرورة إعالة والديه مع أنه يستطيع أن يتمتع بريعها. وهذا التصرف وإن كان يبدو فى ظاهره قانونيا إلا أنه مخالف لروح الشريعة التى تحضُّ على إكرام الوالدين. فنعى عليهم عدم استنكارهم لهذا التصرف وتمسكهم بالتافه من الأمور وهو غسل الأيدى قبل الأكل. ويستمر الإنجيل قائلا: «ثم دعا الجميع وقال لهم اسمعوا

وافهموا. ليس ما يدخل الفم يُنجِّس الإنسان، بل ما يخرج من الفم هذا يُنجِّس الإنسان. حينئذ تقدم تلاميذه وقالوا له أتعلم أن الفريسيين لما سمعوا القول نفروا . فأجاب وقال لهم: كل غرس لم يغرسه رب السموات يُقلع. اتركوهم. هم عميان قادة عميان. وإن كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما فى حفرة». فأجاب بطرس وقال له فَسِّر لنا هذا المثل. فقال يسوع: وهل أنتم أيضا حتى الآن غير فاهمين؟ ألا تفهمون بعدُ أن ما يدخل الفم يمضى إلى الجوف ويندفع إلى المخرج. وأما ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر وذاك يُنجِّس الإنسان لأن من القلب تخرج أفكار شريرة: قتل. زنى. فسق. سرقة. شهادة زور. تجديف. هذه هى التى تُنجِّس الإنسان وأما الأكل بأيد غير مغسولة فلا يُنجِّس».

٨ – **الفريسيون والصدوقيون يطلبون آية** (متى ١٦ : ١):

«وجاء إليه الفريسيون والصدُّوقيون ليجربوه فسألوه أن يريهم آية من السماء فأجاب وقال لهم: إذا كان المساء قلتم صحو لأن السماء مُحمرَّة. وفى الصباح شتاء لأن السماء محمرَّة بعبوسة. يا مراءون. تعرفون أن تميزوا وجه السماء وأما علامات الأزمنة فلا تستطيعون. جيل شرير فاسق يلتمس آية. ولا تعطى لهم آية. ثم تركهم ومضى». يذكر إنجيل مرقس (٨ : ١١) هذه الحادثة باختصار هكذا: «فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكى يجربوه. فتنهَّد بروحه وقال: لماذا يطلب هذا الجيل آية. الحق أقول لكم. لن يعطى هذا الجيل آية».

واضح أن الفريسيين لم يطلبوا آية ليؤمنوا. ولكن لكى يمتحنوه ويقنعوا أنفسهم أنه ليس المخلص الذى ينتظره بنو إسرائيل وعلم عيسى بنيَّتهم هذه ورفض أن يأتيهم بآية وأفهمهم أنهم قادرون على استطلاع السماء من ناحية صفو الجو أو عبوسه فالأحرى – لو كانت نيتهم صادقة – أن يؤمنوا بالآيات الكثيرة التى أتى بها من شفاء المرضى وإحياء الموتى وغير ذلك من المعجزات.

٩ – **التحذير من تعليم الفريسيين والصدوقيين** (متى ١٦ : ٥) :

«ولما جاء تلاميذه إلى العبر (أى عبروا بحر الجليل) نسوا أن يأخذوا خبزا وقال لهم يسوع. انظروا وتحرَّزوا من خمير الفريسيين والصدوقيين. ففكرُّوا فى أنفسهم قائلين إننا لم نأخذ خبزا. فعلم يسوع وقال لهم: لماذا تفكِّرون فى أنفسكم يا قليلى الإيمان أنكم لم تأخذوا خبزا. أحتى الآن لا تفهمون أنى ليس عن الخبز قلت لكم أن تتحرَّزوا من خمير الفريسيين الصدوقيين. حينئذ فهموا أنه لم يقل أن يتحرَّزوا من خمير الخبز بل من تعليم الفريسيين والصدوقيين».

١٠ – **قوة الإيمان تصنع المعجزات** (متى ١٧ : ٢٠):

«فقال لهم يسوع. فالحق أقول لكم. لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم».

وهذا يشبه الحديث القدسي القائل: «عبدى أطعنى تكن ربَّانيا تقول للشيئ كن فيكون».

١١ - الإيمان الصادق :

فى هذا المثل يشبه المؤمن رقيق الحال بالولد الصغير البرىء الذى ليس فى إيمانه ذرة من رياء. جاء فى الإنجيل (متى ١٨ : ١): «تقدم التلاميذ إلى يسوع قائلين: فمن هو أعظم فى ملكوت السموات؟ فدعا يسوع إليه ولداً وأقامه فى وسطهم وقال: الحق أقول لكم. إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات. فمن وضع نفسه مثل هذا الولد فهو الأعظم فى ملكوت السموات. ومن أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى فخير له أن يُعلَّق فى عنقه حجرالرمى ويُغرق فى لجة البحر. ويل للعالَم من العثرات. فلابد أن تأتى العثرات ولكن ويل لذلك الإنسان الذى به تأتى العثرة. فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك. خير لك أن تدخل الجنة أعرج أو أقطع من أن تلقى فى النار الأبدية ولك يدان أو رجلان. وإن أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك. خير لك أن تدخل الجنة أعور من أن تلقى فى نار جهنم ولك عينان لأن ابن الإنسان (أى عيسى نفسه) قد جاء لكى يخلِّص ما قد هلك (من ارتكب خطيئة). ماذا تظنون. إن كان لإنسان مائة خروف وضلَّ واحد منها. أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال ويذهب يطلب الضال وإن اتفق أن يجده فالحق أقول لكم إنه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التى لم تضل. هكذا ليست مشيئة أبيكم الذى فى السموات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار (صادقى الإيمان)».

١٢ - إطاعة قوانين الجماعة :

كانت هناك ضريبة اسمها ضريبة صيانة الهيكل مفروضة على كل يهودى أكبر من ٢٠ سنة مقدارها درهمين يدفعها سنويا إعانة لصيانة الهيكل. وكان سلالة بيت داود معفيين منها. ولما كان عيسى من بيت داود لذلك لم يكن عليه أن يدفع الضريبة. ولكن لما قد يُساء فَهمُ امتناعه عن دفع هذه الضريبة وأنه يكسر القانون لذلك فإنه ارتضى لنفسه أن يدفع الضريبة مثل باقى الشعب. ولما لم يكن معه نقود فإنه أتى بمعجزة لدفع الضريبة. جاء فى إنجيل متى (١٧ : ٢٤): «ولما جاء إلى كفر ناحوم تقدم الذين يأخذون الدرهمين إلى بطرس وقالوا: أما يوفى معلمكم الدرهمين؟ قال بلى. فلما دخل البيت سبقه يسوع قائلا: اذهب إلى البحر وألق صنارة والسمكة التى تطلع أولا خذها ومتى فتحت فاها تجد عملة فضية فخذها وأعطهم عنى وعنك».

١٣ - فى الصلح بين المتخاصمين :

قال عيسى عليه السلام (متى ١٨ : ١٥): «وإن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكم. إن سمع منك فقد ربحت أخاك. وإن لم يسمع فخذ معك أيضا واحدا أو اثنين لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة. وإن لم يسمع منك فقل للكنيسة. وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثني أو العشَّار. حينئذ تقدم إليه بطرس وقال له: كم مرة يخطيء إليَّ أخي وأنا أغفر له هل سبع مرات؟ قال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات.

١٤ – مَثَل المدين عديم الرحمة (متى ١٨ : ٢٣) :

قال يسوع «يشبه ملكوت السموات إنسانا مَلِكا أراد أن يحاسب عبيده. فلما ابتدأ فى المحاسبة قُدِّم إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة (كناية عن أن الدين كان عظيما جداً). وإذ لم يكن له ما يوفى أمر سيده أن يُباع هو وامرأته وأولاده وكل ماله ويوفى الدين. فخرَّ العبد وسجد له قائلا يا سيد تمهَّل على فأوفيك الجميع. فتحنَّن سيد ذلك العبد وأطلقه وترك له الدين. ولما خرج ذلك العبد وجد واحدًا من العبيد رفقائه كان مديونا له بمائة دينار فأمسكه وأخذ يعنفه قائلا أوفنى ما عليك. فخرَّ العبد رفيقه على قدميه وطلب إليه قائلا: تمهَّل عليَّ فأوفيك الجميع. فلم يُرد بل مضى وألقاه فى سجن حتى يوفى الدين. فلما رأى العبيد رفقاؤه ما كان حزنوا جدا وأتوا وقصوا على سيدهم كل ما جرى. فدعاه حينئذ سيده وقال له: أيها العبد الشرير. كل ذلك الدين تركته لك لأنك طلبت إليَّ. أفما كان ينبغى أنك أنت أيضا ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا؟ وغضب سيده وسلَّمه إلى المعذِّبين حتى يوفى كل ما كان له عليه. فكهذا أبى السماوى يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته.

١٥ – تعليم عن الطلاق والزواج :

فى هذا المثال أوضح عيسى للفريسيين تعاليم جديدة عن الطلاق. جاء فى إنجيل متى (١٩ : ٣): «وجاء إليه الفريسيون ليجربوه (أى ليمتحنوه) قائلين له هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب (أى لأى سبب ولو تافه)؟». وفى ذلك الوقت كان هناك مذهبان فكريان بين اليهود. أحدهما لا يبيُح الطلاق إلا بسبب الخيانة الزوجية أو الفسق والثانى يجيزه لعلل تافهة. «فأجابهم وقال لهم. أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكرا وأنثى وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً وإذًا ليس بعدُ اثنين بل جسد واحد، فالذى جمعه الله لا يفرِّقه إنسان. قالوا له فلماذا أوصى موسى أن يُعطى كتاب الطلاق فتطلَّق. قال لهم إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلِّقوا نساءكم ولكن من البدء لم يكن هكذا. وأقول لكم. إن من طلَّق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى فإنه يزنى. والذى يتزوج بمطلقة يزنى. قال له تلاميذه. إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج» وهم يشيرون إلى أن المرأة أحيانا تكون مشاغبة أو خائنة لزوجها ومادام لا يمكنه

الطلاق فإن الزواج فى هذه الحالة يكون نقمة وليس نعمة فالأولى تجنبه كلية. «فقال لهم: ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أعطى لهم» وراح يشرح لهم أنه يوجد أشخاص بطبيعتهم عزوفين عن النساء وهؤلاء يمكنهم العيش دون زواج. وهناك أشخاص عندهم غريزة طيِّعة يمكنهم كبتها. وهناك أشخاص لهم من قوة الإرادة ما يمكنهم من كبح غريزتهم لأجل ملكوت السموات «من استطاع أن يقبل فليفعل» وأغلب الظن أن فكرة الرهبنة وعدم الزواج للتفرُّغ كلية لعبادة الرب نبعت من هذه الفقرة. ولكن القاعدة هى الزواج اللازم لاستمرارية الجنس البشرى وهذا هو الغالب والمفروض ولكن هناك المسموح ولكل إنسان أن يختار حسب تكوينه الجسمانى وتركيبه النفسى.

١٦ – حب المال وحب الدنيا (متى ١٩ : ١٦) :

«وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلِّم الصالح: أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية. فقال له لماذا تدعونى صالحا. ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله. ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا. قال له أيَّةُ الوصايا؟ فقال يسوع: لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد بالزور. أكرم أباك وأمك وأحب قريبك كنفسك. فقال له الشاب. هذه كلها حفظتها منذ حداثتى فماذا يُعوزنى بعدُ. قال له يسوع. إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعالى اتبعنى. فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة. فقال يسوع لتلاميذه. الحقَّ أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات. وأقول لكم إيضا إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله. فلما سمع تلاميذه بُهتوا جدا قائلين. إذا من يستطيع أن يخلُص. فنظر إليهم يسوع وقال لهم: هذا عند الناس غير مستطاع ولكن عند الله كل شىء مستطاع. فأجاب بطرس حينئذ وقال له: ها نحن قد تركنا كل شىء وتبعناك. فماذا يكون لنا؟ فقال لهم يسوع كل من ترك بيوتا أو إخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمى يأخذ مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية».

١٧ – السابقون واللاحقون ومثَل العُمَّال والأجر :

ظن بعض الحواريين أنهم باتباعهم المسيح قد صارت لهم مكانة مميزة فى السماء لن ينالها أحد ممَّن يأتى بعدهم. فأراد عيسى عليه السلام أن يوضح لهم خطأ هذا الاعتقاد فضرب لهم مَثَل العمال والأجر. فقال (متى ٢٠ : ١): «إن ملكوت السموات يشبه رجلا رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فعلة لكَرمْه فاتفق مع الفَعَلَة على دينار فى اليوم وأرسلهم إلى كرمه. ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياما فى السوق عاطلين فقال لهم اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم فمضوا. وخرج أيضا نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك. ثم نحو الساعة الحادية عشر خرج ووجد آخرين قياما عاطلين فقال لهم لماذا وقفتم ههنا كل

النهار عاطلين. قالوا لأنه لم يستأجرنا أحد. قال لهم اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم. فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله. ادع الفعلة وأعطهم الأجر مبتدئا من الآخرين إلى الأولين. فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة فأخذوا دينارا. فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم أيضا دينارا. وفيما هم يأخذون تذمَّروا على رب البيت قائلين هؤلاء الآخرين عملوا ساعة واحدة وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر فأجاب وقال لواحد منهم. يا صاحبُ ما ظَلَمتُك. أما اتفقت معى على دينار فخذ الذى لك واذهب فإنى أريد أن أعطى هذا الأخير مثلك. أوما يحل لى أن افعل ما أريد بمالى أم عينك شريرة لأنى أنا صالح» (أى أنه يحقد على أخيه لما ناله من خير). والمعنى الاجمالى للمثل أن من دخل فى ملكوت الله. أى تاب ورجع إلى الله – حتى لو كان ذلك فى وقت متأخر ولم يعمل من الصالحات إلاَّ القليل فقد وقع أجره على الله ويُدخله الله الجنة بفضله وبرحمته.

ويزيد القرآن فى أن ثواب التائب قد يكون أكثر مما عمل من الأعمال الصالحة **«إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدِّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما»** (٧٠ – الفرقان) وهناك أحاديث نبوية شريفة يضيق المقال عن ذكرها – توضح أن الأعمال بخواتيمها. وبصدق النية عند عملها.

١٨ – **الراعى الصالح** (يوحنا ١٠ : ١ – ٢١):

ضرب يسوع عليه السلام هذا المثل بعد أن شفى الأكمه (ص ٦٩) ليوضح للفريسيين أنهم ليسوا جديرين بأن يقودوا الآخرين. ومعروف أن حظيرة الخراف عبارة عن حوش يحيط به سياج والدخول إليه يكون عن طريق باب تساق منه الخراف ليلا لحمايتها وفى الصباح يأتى الراعى فيفتح له البواب الباب. أما السارق فيحاول أن يتسلق السور. فطريقة الدخول تُبيِّن الراعى الحقيقى. وفوق ذلك فإن الخراف تعرف صوت صاحبها وتأنس إليه أما صوت السارق فإنه يسبب لديها ذعرا. والراعى الحقيقى يعرف خرافه لأنه قد أطلق عليها أسماء وهو يسير أمامها وهى تتبعه مطمئنة. قال عيسى:

«الحق الحق أقول لكم. إن الذى لايدخل من الباب إلى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص. وأما الذى يدخل من الباب فهو راعى الخراف. لهذا يفتح البواب والخراف تسمع صوته فيدعو خرافه الخاصة بأسماء ويخرجها ومتى أخرج خرافه الخاصة يذهب أمامها والخراف تتبعه لأنها تعرف صوته. وأما الغريب فلا تتبعه بل تهرب منه لأنها لا تعرف صوت الغرباء. هذا المثل قاله لهم يسوع. وأما هم فلم يفهموا ما هو الذى يكلمهم به. فقال لهم يسوع: أيضا الحقَّ أقول لكم: إنى أنا باب الخراف. جميع الذين أتوا قبلى – الكتبة والكهنة – هم سراق ولصوص. ولكن الخراف لم تسمع لهم. أنا هو الباب. إن دخل بى أحد فيخلُص ويدخل ويخرج ويجد مرعىً. السارق لا يأتى إلا ليسرق ويذبح ويهلكِ. وأما أنا فقد

أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل. أنا هو الراعى الصالح. والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف وأما الذى هو أجير وليس راعيا. الذى ليست الخراف له فيرى الذئب مقبلا يترك الخراف ويهرب فيخطف الذئب الخراف ويبددها. والأجير يهرب لأنه أجير ولا يبالى بالخراف. أما أنا فإنى الراعى الصالح وأعرف خاصتى وخاصتى تعرفنى. وأنا أضع نفسى عن الخراف ولى خراف أخرى ليست من هذه الحظيرة ينبغى أن آتى بتلك أيضا فتسمع صوتى وتكون رعية واحدة وراعٍ واحد. لهذا يحبُّنى الرب لأنى أضع نفسى لآخذها أيضا. ليس أحد يأخذها منى بل أضعها أنا من ذاتى. لى سلطان أن أضعها ولى سلطان أن آخذها أيضا. هذه الوصية قبلتُها من ربى».

ويقصد عيسى عليه السلام أنه هو باب الدخول إلى ملكوت السموات وعن طريق الإيمان به يكون الدخول إلى ملكوت الله. أما الهيئة الكهنوتية فهم مثل سُرَّاق ولصوص لأنهم حجبوا تعاليم الله وأبدلوا وصاياه. ولم تنقد لهم الخراف لأنهم ذئاب فى ثياب حملان. وهدفهم هو استغلال الشعب أما عيسى فقد جاء لكى تكون للناس حياة أفضل. وهو يدافع عن الشعب بأقصى ما يمكن حتى إنه ليبذل روحه طواعيه من أجله، ليس فقط أفراد الشعب اليهودى بل أفراد من الأمم الأخرى يرى لزاماً عليه أن يهديها إلى الله فتكون حظيرة واحدة. ورعية واحدة وراعٍ واحد.

ويختم الإنجيل هذا المثل بقوله: «فحدث أيضا انشقاق بين اليهود بسبب هذا الكلام. فقال كثيرون منهم: به شيطان وهو يهذى لماذا تسمعون له. آخرون قالوا: ليس هذا كلام من به شيطان ألعلَّ شيطانا يقدر أن يفتح أعين العميان!».

الفصل التاسع

المسيح فى أورشليم

استخلاف بطرس :

«قال يسوع . طوبى لك ياسمعان بن يونا . أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى ،أبواب الجحيم لن تقوى عليها . أعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات. وكل ما تُحِلُّه على الأرض يكون محلولا فى السموات».

المسيح يتنبأ بالقبض عليه ومحاولة قتله :

يقول الإنجيل (متى ٢١:١٦): «من ذلك ابتدأ يسوع يُظهر لتلاميذه أنه ينبغى أن يذهب إلى أورشليم ويعانى كثيرا من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة، ويُقتَل. وفى اليوم الثالث يقوم» ونلاحظ هنا أن كاتبى الإنجيل كانوا متأثرين بعقيدة الصلب – الأمر الذى لم يحدث حسب عقيدتنا نحن المسلمين – واستمر يسوع يقول لتلاميذه «إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه (أى لا يهتم بحياته) ويتبعنى. فإن من أراد أن يخلِّص نفسه يُهلكها ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها. لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه. أو ماذا يُعطِى الإنسان فداء عن نفسه. فإن ابن الانسان سوف يأتى مع الملائكة (عودة المسيح فى آخر الزمان) وحينئذ يجازَى كل واحد حسب عمله .

ويتكرر التنبؤ بقتلة فى متى ٢٢:١٧: «وفيما هم يترددون فى الجليل قال لهم يسوع ابن الانسان سوف يُسلَّم إلى أيدى الناس فيقتلونه وفى اليوم الثالث يقوم».

التجلى الإلهى لعيسى (متى ١٧ : ١) :

«أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عالٍ منفردين. وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور. وإذا موسى وإيليا قد ظهرا يتكلمان معه. وقال بطرس للمسيح. فإن شئت أن نصنع هنا ثلاث مظال. لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة (وهذا كناية عن رغبته فى أن يظلوا وسطهم). وفيما هم كذلك إذا سحابة نَيِّرة ظلَّلتهم وصوت من السحابة قائلا: هو ابنى الحبيب الذى به سررت. له اسمعوا. ولما سمع

التلاميذ سقطوا على وجوههم. ولمسهم يسوع وقال قوموا فرفعوا أعينهم ولم يروا أحداً إلاّ يسوع وحده. وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم يسوع قائلا: لا تخبروا أحداً بما رأيتم».

الدخول إلى أورشليم (متى ٢١ : ١) :

جاء فى الإنجيل (مت ٢١ : ١) «ولما قربوا من أورشليم وعند جبل الزيتون أرسل يسوع تلميذين قائلا لهما. اذهبا إلى القرية التى أمامكما تجدان أتانا وجحشا معها فحلاهما وأْتيانى بهما. فكان هذا كله لكى يتم ما قيل بالنبى القائل. قولوا لابنة صهيون (أى أورشليم) هو ذا ملك يأتيك وديعا راكبا على أتان وجحش. فذهب التلميذان وفعلا كما أمرهما يسوع وأتيا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليها والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم فى الطريق. وآخرون قطعوا أغصانا من الشجر وفرشوها فى الطريق. والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين: مبارك الآتى باسم الرب. مبارك ابن داود. وتساءل أهل أورشليم قالوا من هذا. فأجابتهم الجموع هذا المسيح نبى الناصرة من الجليل».

تطهير الهيكل :

يقول الإنجيل (متى ٢١ : ١٢): «ودخل يسوع إلى هيكل الله. وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون فى الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسى باعة الحمام».

كانت الشريعة اليهودية تقضى أن كل من بلغ العشرين من عمره عليه أن يدفع نصف شاقل إلى خزينة الرب فدية عن نفسه. ثم صارت هذه الضريبة تدفع كل سنة. كذلك فإن الأتقياء من اليهود كانوا يبذلون من المال طوعا فيلقونه فى خزائن موضوعة فى الهيكل ويجب أن يكون هذا المال بالعملة الوطنية. وحيث أن جماهير كثيرة من اليهود كانت تفد من بلاد بعيدة حاملة معها عملة بلادها فقد كان لزاما عليها أن تحول هذا النقد الأجنبى إلى العملة الوطنية عند الصيارفة المنتشرين فى المدينة. ولكن عند اقتراب العيد كان الصيارفه يقيمون لأنفسهم مكاتب وموائد بجوار الهيكل. كذلك كان قربان ذبائح السلامة وذبائح الخطية (انظر الجزء الرابع ص ١٠٣٣ - ١٠٣٤) تختلف من شاة أو كبش إلى فرخى حمام حسب مقدرة مُقدِّمها وكان باعة المواشى والحمام لهم كراسى أيضا فى الهيكل بجانب الصيارفة. وكان هذا مع ما يثيرونه من ضوضاء وشغب لا يتفق مع قداسة الهيكل.

يقول الإنجيل (متى ٢١:١٣): «فقام يسوع بقلب موائد الصيارفة وكراسى باعة المواشى والحمام وقال لهم. مكتوب بيتى بيتَ الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص. وتقدم إليه عُمى وعُرج فى الهيكل فشفاهم. فلما رأى رؤساء الكهنة والكتبة العجائب التى صنع والأولاد يصرخون فى الهيكل ويقولون مبارك ابن داود غضبوا وقالوا أتسمع مايقول هؤلاء. فقال لهم

يسوع: أما قرأتم قط «من أفواه الأطفال والرضَّع هيَّأت تسبيحا؟ ثم تركهم وخرج خارج المدينة إلى بيت عنيا وبات هناك» (وبيت عنيا كانت قرية على الكتف الشرقى من جبل الزيتون تبعد حوالى ٢كم إلى الشرق من أورشليم).

يسوع وشجرة التينة :

جاء فى الإنجيل (متى ١٨:٢١) . «وفى الصبح إذ كان راجعا إلى المدينة جاع فنظر شجرة تين على الطريق وجاء إليها فلم يجد شيئا إلاَّ ورقا فقط فقال لها: لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد: فيبست التينة فى الحال. فلما رأى التلاميذ ذلك عجبوا قائلين: كيف يبست التينة فى الحال. فأجاب يسوع وقال لهم: الحق أقول لكم. إن كان لكم إيمان ولا تَشكُّون فلا تفعلون أمر التينة فقط بل ان قلتم لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر فيكون. وكل ما تطلبونه فى الصلاة مؤمنين تنالونه».

وهذا نفس معنى الحديث القدسى: «عبدى أطعنى تكن ربانيا تقول للشيىء كن فيكون» كما سبق أن ذكرنا فى ص ٧٩.

حوار مع رؤساء الكهنة حول سلطة يسوع :

«ولما جاء إلى الهيكل تقدم إليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وهو يُعلِّم قائلين: بأى سلطان تفعل هذا ومن أعطاك هذا السلطان؟ فأجاب يسوع وقال لهم: وأنا أيضا أسألكم كلمة واحدة فإن قلتم لى عنها أقول لكم أنا أيضا بأى سلطان أفعل هذا. معمودية يوحنا من أين كانت. من السماء أم من الناس؟ ففكرُّوا فى أنفسهم قائلين. إن قلنا من السماء يقول لنا فلماذا لم تؤمنوا به وإن قلنا من الناس (أى من عند نفسه) نخاف من الشعب لأن يوحنا عند الجميع مثل نبى. فأجابوا يسوع وقالوا لا نعلم. فقال لهم هو أيضا. ولا أنا أقول لكم بأى سلطان أفعل هذا».

من كان منكم بلا خطيئة (يوحنا ٨ : ١) :

«ثم حضر أيضا إلى الهيكل فى الصبح وجاء إليه جميع الشعب فجلس يعلِّمهم وقدَّم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أُمسكت فى زنا. ولما أقاموها فى الوسط قالوا له يا معلِّم هذه المرأة أُمسكت وهى تزنى فى ذات الفعل. وموسى فى الناموس أوصانا أنَّ مثل هذه تُرجم. فماذا تقول أنت؟ قالوا هذا ليجرِّبوه لكى يكون لهم ما يشتكون به عليه. وأما يسوع فانحنى إلى أسفل وكان يكتب بإصبعه على الأرض. ولمَّا استمرُّوا يسألونه انتصب وقال لهم «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجر» ثم انحنى أيضا إلى أسفل وكان يكتب على الأرض. وأما هم

فلما سمعوا وكانت ضمائرهم تُبكِّتهم خرجوا واحدا فواحدا مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين. وبقى يسوع وحده والمرأة واقفة فى الوسط. فلما رفع يسوع رأسه ولم ينظر أحدا سوى المرأة قال لها يا امرأة أين هم أولئك المشتكون عليك. أما دانكِ أحد؟ فقالت لا أحد ياسيد. فقال لها يسوع ولا أنا أدينك اذهبى ولا تخطئى أيضا.

لقد أراد الكتبة والفريسيون أن ينصبوا له شركا. فقد كان يمكنهم أن يذهبوا بها إلى القاضى فيصدر عليها حكمه. لكنهم أرادوا إحراج عيسى. فإن قال ارجموها فقد جعل من نفسه قاضيا وادَّعى حق الولاية فيمكنهم أن يشتكوا عليه. وإن قال أطلقوها فقد خالف شريعة موسى فى قلب الهيكل! ولكنه خلُص إلى حل لا يدَّعى به السلطة ولا ينكر به الشريعة وفى نفس الوقت لا يجاملهم بل يشير إلى أن لهم هم أيضا خطاياهم ومستحقين إقامة الحد عليهم كما حرصوا على إقامة الحد على هذه المرأة.

يسوع يُعلِّم فى أورشليم بالأمثال

راح عيسى عليه السلام يناقش الكهنة والكتبة والفريسيين والصدوقيين وجميع الطوائف ويضرب لهم الأمثال ليوضح لهم ما يريد.

١ – مَثَل الأبنين . والفريسيون والعشارون:

«ثم ضرب لهم مثلا فقال «ماذا تظنون؟ كان لإنسان ابنان. فجاء إلى الأول وقال يا ابنى اذهب اليوم اعمل فى كرمى فأجاب وقال لا أريد. ولكنه فيما بعد ندم ومضى (ليعمل فى الكرم). وجاء إلى الثانى وقال كذلك فأجاب وقال ها أنا يا سيد ولم يمضِ (أى أنه أظهر الموافقة بلسانه ولكنه لم يفعل) فأى الاثنين عمل إرادة الرب؟. قالوا الأول. قال لهم يسوع الحق أقول لكم إن العشارين يسبقونكم إلى ملكوت الله لأن يوحنا جاءكم فى طريق الحق فلم تؤمنوا به وأما العشارون فآمنوا به. وأنتم إذ رأيتم لم تندموا أخيرا لتؤمنوا».

ويرى أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس جـ ٥ ص ٧١) أن الفريسيين كانوا بمثابة الابن الذى تظاهر بأنه مطيع ولكنه لم يُنفِّذ. وأن العشارين كالابن الذى لم يطع أولا ولكنه بعدئذ تاب ولذلك صاروا مقبولين عند الرب.

والعشَّارون جمع عشَّار. وهو ملتزم جمع ضريبة العشر فى الامبراطورية الرومانية. وكانوا عادة من الرومان الأثرياء الذين يتعهدون بجمع الضرائب أو تسديدها من جيوبهم فى حال عجزهم عن جمعها. ولكن أيضا كان هناك عشارون من اليهود الأغنياء وكانوا يقرضون المحتاجين بالربا. وكانوا يلجأون إلى العنف عند تحصيل ضريبة العشر أو عند استيفاء ديونهم ولذلك اشتُهروا بالقسوة والظلم حتى إن الشعب احتقرهم ومنعهم من دخول الهيكل أو من

الاشتراك فى الصلاة. وقد بلغ من نقمة الشعب على العشَّارين أن نعى الفريسيون على يسوع جلوسه ليأكل مع العشارين (متى ٩:١) «فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه لماذا يأكل مُعلِّمكم مع العشارين والخطاة؟». والحقيقة أن يسوع قصد بهذا أن يحرر العشارين من الوصمة التى لحقت بهم. وقد آمن به عدد كبير من العشارين واتبعوه. وقد ذكرنا آنفا فى مثل الابنين أن العشارين الذين تابوا عن المظالم قد قبلهم الله فى ملكوت السموات.

٢ - مثل الكرَّامين الأشرار :

قال يسوع (متى ٢١:٣٣) «اسمعوا مثلا آخر. كان إنسان رب بيت غرس كرما وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلَّمه إلى كرَّامين وسافر (الكَرْم العنب والكرَّام العامل فى الكرم وجمعها كرَّامون). ولما قرب وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره. فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا. ثم أرسل إليهم ابنه قائلا يهابون ابنى. وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه . فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين؟. قالوا له: أولئك الأشرار يهلكهم هلاكا ويُسلِّم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار فى أوقاتها. فقال: لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره. ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلَّم عليهم وأرادوا أن يمسكوه ولكنهم خافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبى» وواضح من المثل أن عيسى عليه السلام شبَّه اليهود بالكرامين الأشرار الذين استؤمنوا على الشريعة فلم يعملوا بها فكان عدلا أن تنزع الخلافة منهم وتُعطى إلى أمة جديدة أمينة هم أتباع المسيح.

٣ - مثل وليمة الملك ولباس العرس :

كانت العادة الشرقية قديما لاحتفلات العرس أن يعقد الاحتفال فى بيت العريس الذى يتحمل تكاليفه وليس فى بيت العروس كما يحدث فى أيامنا هذه. وإذا كان العريس غنيا عليه أن يُجَهِّز ألبسة يوزعها على الضيوف ويلبسونها أمامه ومن لم يفعل ذلك من المدعوِّين اعتبر عمله إهانة للعريس (قاموس الكتاب المقدس. دار الثقافة ص ٦١٨). وقد شبَّه الكتاب المقدس علاقة يهوه (الله) مع شعبه ثم علاقة المسيح مع كنيسته بالأعراس وبعلاقة العريس بالعروس. ومن ذلك جاء ما نقرأ فى صفحة الوفيات عن فلان «عريس السماء» وفلانة «عروس السماء».

قال عيسى عليه السلام (متى ٢٢:١): «يشبه ملكوت السموات إنسانا ملَكا صنع عرسا لابنه وأرسل عبيده ليدعوا المدعوِّين إلى العرس. فلم يريدوا أن يأتوا. فأرسل أيضا عبيداً آخرين قائلا قولوا للمدعوِّين هو ذا غذائى أعددته. ثيرانى ومسمَّناتى قد ذبحت وكل شيئ مُعَدٌّ. تعالوا إلى العرس. ولكنهم تهاونوا ومضوا واحد إلى حقله وآخر إلى تجارته والباقون أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم. فلما سمع الملك غضب وأرسل جنوده وأهلك أولئك القتلة وأحرق

مدينتهم. ثم قال لعبيده: أما العرس فمستعد وأما المدعوين فلم يكونوا مستحقين. فاذهبوا إلى مفارق الطرق وكل من وجدتموه فادعوه إلى العرس. فخرج أولئك العبيد إلى الطرق وجمعوا كل الذين وجدوهم. أشراراً وصالحين. فامتلا العرس بالمدعوين. فلما دخل الملك ينظر رأى هناك إنسانا لم يكن لابسا لباس العرس فقال له ياصاحب كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس؟ فسكت. فحينئذ قال الملك للخدم: اربطوا رجليه ويديه وخذوه واطرحوه فى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان لأن كثيرين يُدعَوْن وقليلون يُنتخبون».

وفى هذا المثل يُشَبِّه عيسى عليه السلام طريق الله القويم وملكوت السموات بعُرسٍ أقيم ودُعِيَ إليه الشعب – وهم اليهود – بواسطة الأنبياء العديدين الذين أرسلوا إليهم ولكن اليهود انصرفوا عنهم وكذَّبوهم بل إنهم قتلوا بعضا منهم. فكان جزاؤهم أن سلط الله عليهم الأمم المجاورة من أشوريين وبابليين ورومان فقتلوا منهم الكثير وسبوهم وأحرقوا مدينتهم (أورشليم). ثم أعاد المَلِك الدعوة إلى العرس وملكوت السموات بإرسال المسيح وأمر بدعوة الناس كلهم وامتلأ العرس بالمدعوين وكل واحد ناله من النفحة الإلهية والإشراقة السماوية. وتطهَّر الأشرار بما أسبغه الله على الجميع من نعمة الإيمان بالمسيح. وهو ما شُبِّه بلباس العرس. وأما القلة التى لم تنل لباس العرس فهم اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح وجحدوه فكان جزاؤهم أن تُقَيَّد أيديهم وأرجلهم ويطرحوا بعيدا فى الظلمات خارج رحمة الله.

وجاء القرآن الكريم يصدِّق على هذا فى قوله تعالى : **«إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك إلىَّ ومُطهِّرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة. ثم إلىَّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون. فأما الذين كفروا فأعذِّبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين».** (٥٥ – ٥٦ – آل عمران).

٤ – سؤال حول دفع الجزية لقيصر (متى ٢٢ : ١٥) :

«حينئذ ذهب الفريسيون وتشاوروا لكى يصطادوه بكلمة فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيروديسيين (حزب يرأسه سلالة هيرودس وكان الحزب – مثل هيرودس – مشايعا للرومان) قائلين: يا مُعلِّم. نعلم أنك صادق وتعلِّم طريق الله بالحق ولا تبالى بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس. فقل ماذا تظن. أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا؟» وكان القصد من سؤالهم أن يأخذوا عليه كلمة تُدينه. فإذا قال «نعم» يمكنهم أن يُشهِّروا به أمام الشعب على أنه موالى للرومان وخائن لليهود. وإن قال «لا» يشتكون عليه لدى الرومان بتهمة التمرد على سلطانهم «فعلم يسوع خبثهم وقال: لماذا تُجرِّبونني يا مراءون. أرونى معاملة الجزية. فقدموا له ديناراً. فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة. قالوا له لقيصر. فقال لهم. **اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله.** فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا.

٥ – مجادلة الصدوقيين حول قيامة الأموات :

وكما سبق أن قلنا (جـ ٥ ص ٤٩٠) إن الصدوقيين ينكرون البعث ولا يعتقدون فى يوم القيامة. وحول هذه النقطة راحوا يجادلون عيسى عليه السلام. يقول الإنجيل (متى ٢٢:٢٣) «فى ذلك اليوم جاء إليه صدوقيون الذين يقولون ليس هناك قيامة فسألوه قائلين. يا مُعلِّم. قال موسى. إن مات أحد وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته ويُقم نسلا لأخيه (كانت شريعة موسى تقضى بأن من مات ولم يكن له ولد يتزوج أخوه من امرأته وينسب الأولاود منها إلى الزوج المتوفى وبذلك تكون له سلالة). فكان عندنا سبعة إخوة وتزوج الأول ومات وإذ لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه. وكذلك الثانى والثالث إلى السبعة. وآخر الكل ماتت المرأة أيضا. ففى القيامة لمَن مِنَ السبعة تكون زوجة فإنها كانت للجميع؟ فأجاب يسوع وقال لهم. تَضِلُّون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله. لأنهم فى القيامة لا يُزوِّجون ولا يتزوَّجون بل يكونون كملائكة الله فى السماء. وأما من جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قِبَل الله القائل: أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب ليس الله إله أموات بل إله أحياء. فلما سمع الجموع بُهتوا من تعليمه».

أما الفريسيون فلما سمعوا أنه أبكم الصدوقيين اجتمعوا معا وسأله واحد منهم وهو ناموسى (أى من معتنقى ناموس موسى) ليجربه قائلا: يا مُعلِّم. أية وصية هى العظمى فى الناموس. فقال له يسوع. تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. هذه هى الوصية الأولى والعظمى. والثانية مثلها. تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء».

«حينئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلا : على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون. فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فأحفظوه وافعلوه. ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يعملون. فإنهم يحزمون أحمالا ثقيلة عَسِرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم». والمعنى أنهم ينصحون الناس ولا يطبقون هذا النصح على أنفسهم. ويتشددون فى تطبيق الشريعة فكأنهم يُحمِّلون الناس أحمالا ثقيلة ولا يخففون عنهم. واستمر عيسى عليه السلام يفضح مراءاة الفريسيين قائلا: «وكل أعمالهم يعملونها لكى تنظرهم الناس. فيُعرِّضون عصائبهم ويُعظِّمون أهداب ثيابهم ويحبون المتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجامع والتحيات فى الأسواق وأن يدعوهم الناس سيدى سيدى! وأما أنتم فلا تُدعوا سيدى لأن مُعلِّمكم واحد هو المسيح. ولا تُدعوا مَعلِّمين لأن معلمكم واحد هو المسيح. وأكبركم يكون خادما لكم. فمن يرفع نفسه يتَّضع ومن يضع نفسه يرتفع» (أى من تواضع لله رفعه).

ونعود لشرح قول عيسى عليه السلام «فيُعرِّضون عصائبهم» وكانت العصابة عبارة عن

شريط من جلد رقيق مكتوب عليه أجزاء من الأسفار الخمسة ويوضع داخل علبة من الجلد يربطها اليهود بسير من الجلد على جباههم وعلى ظهر اليد اليمنى مُتَّبعين فى ذلك حرفية ما جاء فى خطبة موسى الثانية من خطب الوداع حيث قال (تثنية ٦:٤) اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك. ولتكن هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها اليوم على قلبك واربطها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك».

والمعنى أن تكون كلماته هذه حاضرة فى الذهن على الدوام. إلاَّ أنهم حوَّلوها إلى ما يشبه «الحجاب» يلبس على اليد وتربط على الجبهة وعادة كانت تلبس فقط أثناء الصلاة. ولكن الفريسيين كانوا يلبسونها فى كل الأوقات ويجعلونها ظاهرة بشكل واضح علامة على تَديُّنهم. وكانت المراءاة أيضا تظهر فى إطالتهم لأهداب ثيابهم. والعُجب بأنفسهم يتضح من سرورهم بمناداة الناس لهم «سيدى سيدى».

الويــلات :

بعد هذا راح عيسى عليه السلام ينذر الكتبة والفريسيين ويحذِّرهم من غضب الله وعقابه فقال:

١ – ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تُغلقون ملكوت السموات قدَّام الناس. فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون.

٢ – ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل وتتذرَّعون بإطالة صلواتكم لذلك تأخذون دينونة أعظم.

٣ – ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تطوفون البر والبحر لتكسبوا متهوِّدًا واحدا فإذا تهوَّد جعلتموه أهلا لجهنم ضعف ما أنتم عليه.

٤ – ويل لكم أيها القادة العميان. تقولون من أقسم بالهيكل فَقَسَمُه غير مُلزِم وأما من أقسم بذهب الهيكل فقَسَمه مُلزِم! أيها الجهال والعميان. أى الاثنين أعظم الذهب أم الهيكل الذى يجعل الذهب مُقدَّسًا؟ وتقولون من أقسم بالمذبح فقسمه غير ملزم أما من أقسم بالقربان الذى على المذبح فقَسَمه ملزِم! أيها العميان أى الاثنين أعظم. القربان أم المذبح الذى يجعل القربان مقدَّسًا! فإن من أقسم بالمذبح فقد أقسم به وبكل ما عليه ومن أقسم بالهيكل فقد أقسم به وبالساكن فيه. ومن أقسم بالسماء فقد أقسم بعرش الله والجالس عليه.

٥ – ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون. فإنكم تؤدُّون حتى عشور النعنع والشبت والكمون وقد أهملتم أهم ما فى الشريعة: العدل والرحمة والأمانة. كان يجب أن تفعلوا هذه ولا تفعلوا تلك. أيها القادة العميان. إنكم تُصفُّون الماء من البعوضة ولكنكم تبلعون الجمل!

٦ - ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون. فإنكم تنظفون الكأس والصحفة من الخارج وهما من داخل مملوءان اختطافا ودعارة. أيها الفريسى الأعمى نقِّ أولا داخل الكأس والصحفة لكى يكون خارجها أيضا نقيا.

٧ - ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون فإنكم كالقبور المطلية بالكلس تبدو جميلة من الخارج ولكنها من الداخل ممتلئة بعظام الموتى وكل نجاسة. كذلك أنتم تبدون للناس أبرارا ولكنكم من الداخل ممتلئون بالريا والفسق.

٨ - ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون. فإنكم تبنون قبور الأنبياء وتزيِّنون مدافن الأبرار وتقولون لو عشنا فى زمن آبائنا لما شاركناهم سفك دم الأنبياء. فبهذا تشهدون على أنفسكم بأنكم أبناء قاتلى الأنبياء. فأكملوا ما بدأه آباؤكم ليطفح الكيل!

أيها الحيات أولاد الأفاعى. كيف تفلتون من عقاب جهنم. لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء ومعلِّمين. فبعضهم تقتلون وتصلبون وبعضهم تجلدون فى مجامعكم وتطاردونهم من مدينة إلى أخرى. وبهذا يقع عليكم كل دم زكى سُفِك على الأرض. من دم هابيل البار إلى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح. الحقَّ أقول لكم. إن عقاب ذلك كله سينزل بهذا الجيل.

يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها. كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها فلم تريدوا. ها إن بيتكم يُترك خرابا. فإنى أقول لكم إنكم لن ترونى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب!

المسيح ينبئ بخراب الهيكل وبظهور المسيح الدجّال :

«ثم خرج يسوع من الهيكل. ولما غادره تقدم إليه تلاميذه ولفتوا نظره إلى مبانى الهيكل فقال لهم: أما ترون هذه المبانى كلها؟ الحق أقول لكم. لن يُتركَ حجر فوق حجر إلا ويُهدم». وبينما كان جالسا على جبل الزيتون تقدم إليه التلاميذ على انفراد وقالوا له: أخبرنا متى يحدث هذا وما هى علامة رجوعك وانتهاء الزمان. فأجاب يسوع. انتبهوا. لا يُضللكم أحد. فإن كثيرين سيأتون باسمى قائلين إنى أنا هو المسيح فيضلون كثيرين وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب فإياكم أن ترتعبوا. فلابد أن يحدث هذا كله ولكن ليست النهاية بعدُ. فسوف تنقلب أمة على أمة. ومملكة على مملكة. وتحدث مجاعات وزلازل فى عدة أماكن ولكن هذه كلها ليست إلا أول المخاض. عندئذ يسلمكم الناس إلى العذاب ويقتلونكم وتكونون مكروهين لدى جميع الأمم من أجل اسمى فيرتد كثيرون ويُسلمون بعضهم بعضا ويُبغضون بعضهم بعضا. ويظهر كثير من الأنبياء الدجالين ويُضلُّون كثيرين. وإذ يعم الإثم تبرد المحبة لدى الكثيرين

ولكن الذى يثبت حتى النهاية فهو يَخلُص. فسوف ينادى ببشارة الملكوت هذه فى العالم كله شهادة لى لدى الأمم جميعا وبعد ذلك تأتى النهاية.

علامات قرب نهاية الزمان :

ذكر عيسى عليه السلام عدة علامات تحدث قرب نهاية زمان هذا العالم:

١ - الضيق العظيم (متى ٢٤:١٥): «فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس ليفهم القارئ. فحينئذ ليهرب الذين فى اليهودية إلى الجبال. والذى على السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئا. والذى فى الحقل فلا يرجع إلى ورائه ليأخذ ثيابه. وويل للحبالى والمرضعات فى تلك الأيام. وصلُّوا لكى لا يكون هربكم فى شتاء ولا فى سبت لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون. ولو لم تُقَصَّر تلك الأيام لما كان أحد من البشر ينجو. ولكن لأجل المختارين تُقَصَّر تلك الأيام».

٢ - تحذير من المسيح الدجال: «فإن قال لكم أحد عندئذ: ها إن المسيح هنا أو هناك فلا تصدِّقوا. فسوف يبرز أكثر من مسيح دجال ونبى دجال ويُقدِّمون آيات عظيمة وأعاجيب ليُضلُّوا حتى المختارين لو استطاعوا. ها أنا قد أخبرتكم بالأمر قبل حدوثه. فإذا قال لكم الناس: ها هو المسيح فى البرية لا تخرجوا إليها. أو ها هو فى الغرف الداخلية فلا تصدِّقوا. فكما أن البرق يومض فى الشرق فيضئ فى الغرب هكذا يكون رجوع ابن الإنسان (المسيح).

وهناك أحاديث نبوية تُحذِّر من المسيح الدجال. روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُعلِّمهم هذا الدعاء:

اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم.

وأعوذ بك من عذاب القبر.

وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال.

وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات.

عودة المسيح في آخر الزمان:

واستمر عيسى عليه السلام مُحدِّثا تلاميذه (متى ٢٤:٢٩): وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس. والقمرُ لا يعطى ضوءه. والنجوم تسقط من السماء وقُوَّات السموات تتزعزع وحينئذ تظهر علامة ابن الانسان فى السماء. فتنتحب قبائل الأرض كلها. ويرون ابن الانسان آتيا على سحب السماء بقُدرةٍ ومجدٍ عظيم. فيرسل ملائكة ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الجهات الأربع من أقاصى السموات إلى أقصائها.

ويستدل بعض علماء المسلمين على عودة المسيح بقوله تعالى: «**وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمِنَنَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا**» (١٥٩ - النساء). والمعنى أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى عليه السلام إلا ليؤمننَّ به قبل أن يموت وتكون الأديان كلها دينا واحداً. كما أخرج أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما.

أمثــال أخــرى

١ - يوم القيامة :

وقال عيسى عليه السلام (متى ٣٢:٢٤) «وتعلَّموا هذا المثل من شجرة التين عندما تلين أغصانها وتطلع ورقا تعلمون أن الصيف قريب. هكذا أيضا حين ترون هذه الأمور جميعا تحدث فاعلموا أنه قريب. بل على الأبواب. الحق أقول لكم. لا يزول هذا الجيل أبداً حتى تحدث هذه الأمور كلها. إن السماء والأرض تزولان ولكن كلامى لا يزول أبداً. أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفهما أحد. ولا ملائكة السموات. إلا الرب وحده وكما كان الحال فى زمن نوح. كذلك ستكون عند رجوع ابن الإنسان (أى رجوع المسيح) فقد كان الناس فى الأيام السابقة للطوفان يأكلون ويشربون ويتزوَّجون ويُزوِّجون حتى فاجأهم اليوم الذى دخل فيه نوح السفينة. ونزل الطوفان وهم لاهون فأخذ الجميع. هكذا سيكون الحال عند رجوع ابن الإنسان. عندئذ يكون رجلان فى الحقل فيُؤخذ أحدهما ويُترك الآخر وامرأتان تطحنان على الرحى فتؤخذ إحداهما وتُترك الأخرى. فاسهروا إذن لأنكم لا تعرفون فى أى ساعة يرجع المسيح واعلموا أنه لو علم رب البيت فى أى ربع من الليل يدهمه اللص لظلَّ ساهرا ولم يدع بيته ينقب. فكونوا أنتم أيضا على استعداد لأن ابن الإنسان سيرجع فى ساعة لا تتوقَّعونها.

٢ - مثل العذارى الحكيمات والجاهلات وضرورة الاستعداد :

ضرب عيسى عليه السلام هذا المثل ليبين الفرق بين المسيحيين الحقيقيين والمسيحيين بالاسم وينبه على المقدمات التى أُعطيت بضرورة الاستعداد لعودة المسيح. وكانت العادة فى تلك الأيام أنه بعد أن يسود الظلام فى عشية يوم العرس كان العريس يقود العروس إلى بيته مصحوبا بأصدقاء الطرفين وينضم إليهما فى الطريق آخرون يحملون مصابيح تكريما العريس والعروس. وكانت الاحتفالات فى بعض الأحيان تدوم سبعة أيام.

قال عيسى (متى ١:٢٥) «يشبه ملكوت السموات بعشر عذارى أخذن مصابيحهن وانطلقن لملاقاة العريس. وكانت خمس منهن حكيمات وخمس جاهلات. فأخذت الجاهلات مصابيحهن

دون زيت. وأمَّا الحكيمات فأخذن مع مصابيحهن زيتا وضعنه فى أوعية. وإذ أبطأ العريس نعسْن جميعا ونِمْنَ . وفى منتصف الليل دوَّى الهتاف: ها هو العريس آتٍ. فانطلِقن لملاقاته. فنهضت العذارى جميعا وجهَّزن مصابيحهن. وقالت الجاهلات للحكيمات أعطيننا بعض الزيت من عندكن فإن مصابيحنا تنطفئ. فأجابت الحكيمات: ربما لا يكفى لنا ولَكُنَّ فاذهبن بالأحرى إلى بائعى الزيت واشترين لَكُنَّ. وبينما الجاهلات ذاهبات للشراء وصل العريس فدخلت المستعدات معه إلى قاعة العرس وأُغلق الباب. وبعد حين رجعت العذارى الأخريات وقلن ياسيد افتح لنا فأجاب العريس: الحق أقول لكُنَّ إنى لا أعرفكن فاسهروا إذن لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة التى يأتى فيها ابن الإنسان».

٣ - مَثَل الوزنات وضرورة العمل الجاد فى الدنيا :

ثم ضرب عيسى عليه السلام مثلا آخر (متى ٢٥ : ١٤) ليوضِّح لسامعيه ضرورة العمل الجاد فى الدنيا فقال: «وكأنما إنسان مسافر دعا عبيده وسلَّمهم أمواله. فأعطى واحدا خمس وزنات وآخر وزنتين وآخر وزنة. كل واحد على قدر طاقته ثم سافر. وفى الحال مضى الذى أخذ الوزنات الخمس وتاجر بها فربح خمس وزنات أخرى. وعمل مثله الذى أخذ الوزنتين فربح وزنتين أخريين. ولكن الذى أخذ الوزنة الواحدة مضى وحفر حفرة فى الأرض وطمر مال سيده. وبعد مدة طويلة رجع سيد أولئك العبيد واستدعاهم ليحاسبهم. فجاء الذى أخذ الوزنات الخمس وقدَّم الوزنات الخمس الأخرى وقال يا سيد. أنت سلمتنى خمس وزنات فهذه خمس وزنات غيرها ربحتها! فقال له سيده حسنا فعلت أيها العبد الصالح والأمين. كنت أمينا على القليل فسأقيمك على الكثير ادخل إلى فرح سيدك. ثم جاءه أيضا الذى أخذ الوزنتين وقال ياسيد أنت سلمتنى وزنتين. فهاك وزنتان غيرهما ربحتهما. فقال له سيده. حسنا فعلت أيها العبد الصالح والأمين. كنت أمينا على القليل فسأقيمك على الكثير. ادخل إلى فرح سيدك. ثم جاءه أيضا الذى أخذ الوزنة الواحدة وقال ياسيد عرفتك رجلا قاسيا تحصد من حيث لم تزرع وتجمع من حيث لم تبذر. فخفت. فذهبت وطمرت وزنتك فى الأرض فهذا مالك. فأجابه سيده أيها العبد الشرير الكسول. عرفتَ أنى أحصد من حيث لم أزرع وأجمع من حيث لم أبذر فكان يحسن بك أن تودع مالى عند الصيارفة لكى أسترده لدى عودتى مع فائدته. ثم قال لعبيده خذوا منه الوزنة وأعطوها لصاحب الوزنات العشر. فإن كل من عنده يعطى المزيد فيفيض. ومن ليس عنده فحتى الذى عنده يُنتزع منه. أما هذا العبد الذى لا نفع منه فاطرحوه فى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان».

فالعبدان الأول والثانى يحبان سيدهما ويوقِّرانه فى داخلهما وظهر ذلك خارجيا على أفعالهما. فعملا على إرضائه بزيادة ماله ولا يهم إن كان الأول أعطى كثيرا والثانى أعطى

قليلا. فكل واحد أعطى على حسب مالمس فيه سيده من مقدرة. وكل واحد منهما اجتهد بقدر ما يستطيع فضاعف ما أُعطِى له. أما الأخير الذى أعطى وزنة واحدة فقد عرف سيده كسله فأعطاه وزنة واحدة وكان المتوقع أن يعمل بهذا القليل ولكنه لشدة كسله لم يرد أن يعمل وراح يتّهم سيده بأنه قاس ولذلك خاف لو تاجر بها يفقدها فأخفاها فى الأرض للمحافظة عليها. ويرى بعض مفسرى أهل الكتاب أن هذا رمز لبعض المسيحيين الذين خافوا من الاختلاط بغيرهم فحبسوا أنفسهم فى البرية وفى الكهوف بعيدا عن الناس وعن الحياة التى يمكنهم فيها العمل ومساعدة الآخرين واكتفوا بإيمانهم. هم فقط فكأنهم أصبحوا أشرارا بعدم مساعدة الآخرين ومادموا قد اتهموا أو ظنوا فى سيدهم القسوة وأرادوا النجاة بتقديم الحد الأدنى من العمل فسيكون عند ظنهم به وسيكون قاسيا معهم ناسين أن حُب الآخرين والعمل لما فيه خير المجموع هو خير ما يقدمونه لسيدهم الرحيم بعبيده. ومن يفيض حبا لغيره يُعطى أكثر ليعُمَّ الخير وسيبارك الرب هؤلاء الذين يعملون لا الذين يقفون ساكنين وفقط منتظرين عودة المسيح.

٤ – الرب يحكم بين العباد :

استمر عيسى عليه السلام يُعلِّم الناس بالأمثال فقال (متى ٢٥:٣١): «يجلس الرب على عرش مجده وتجتمع أمامه الشعوب كلها فيفصل بعضهم عن بعض كما يفصل الراعى الغنم عن الماعز فيوقف الغنم عن يمينه والماعز عن يساره. ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا من باركتهم لترثوا الملكوت الذى أُعِدَّ لكم منذ إنشاء العالم لأنى جعت فأطعمتمونى. عطشت فسقيتمونى. كنت غريبا فآويتمونى. سجينا فأتيتم إلىَّ . فيرد الأبرار قائلين: يارب متى رأيناك جائعا فأطعمناك أو عطشانا فسقيناك؟ ومتى رأيناك غريبا فآويناك أو عريانا فكسوناك ومتى رأيناك مريضا أو سجينا فزرناك؟ فيجيبهم الملك. الحق أقول لكم. بما أنكم فعلتم ذلك بأحد إخوتكم هؤلاء الصغار فبى فعلتم.

«ثم يقول للذين عن يساره. ابتعدوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المُعدَّة لإبليس وأعوانه. لأنى جعت فلم تطعمونى. وعطشت فلم تسقونى. كنت غريبا فلم تأوونى عريانا فلم تكسونى. مريضا وسجينا فلم تزورونى! فيرد هؤلاء قائلين: يارب متى رأيناك جائعا أو عطشانا أو غريبا أو عريانا أو مريضا أو سجينا ولم نخدمك؟ فيجيبهم. الحق أقول لكم. بما أنكم لم تفعلوا ذلك بأحد إخوتكم هؤلاء الصغار فبى لم تفعلوا. فيذهب هؤلاء إلى العقاب الأبدى والأبرار إلى الحياة الأبدية».

ونفس هذا المعنى جاء فى الحديث القدسى (الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية. محمد المدنى. ص ١٤٤): إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تَعُدنى. قال يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تَعُدْه. أما علمت

أنك لو عُدتَه لوجدتنى عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى. قال يارب كيف أُطعمك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فل تطعمه. أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى قال يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال استسقاك عبدى فلان فلم تسقه. أما أنك لو أسقيته لوجدت ذلك عندى. أخرجة مسلم عن أبى هريرة.

رؤساء الكهنة يتآمرون لقتل المسيح (متى ٢٦ : ٣) :

«حينئذ اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب إلى دار رئيس الكهنة الذى يدعى «قيافا» وتشاوروا لكى يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه. ولكنهم قالوا ليس فى العيد لئلا يكون شغب فى الشعب.

وقد تنبأ عيسى عليه السلام بأن أحد تلاميذه سيخونه وسيسلمه إلى أعدائه فقال لتلاميذه «تعلمون أنه بعد يومين يكون الفصح وابن الإنسان (أى يسوع) يُسلّم ليُصلب».

ونلاحظ فى هذه الفقرة أن عيسى نفسه لم يكن يعرف أنه سيُرفع إلى السماء فكان إيحاء الله له أنه سيُسلَّم إلى أعدائه يعنى له أنه سيُقتل. وكانت وسيلة القتل الشائعة وقتئذ هى الصلب. ولعل ذلك كان امتحانا لعيسى عليه السلام حتى يُثبت أنه من أولى العزم من الرسل ولن يتراجع عن أقواله.

«حينئذ ذهب واحد من الاثنى عشر الذى يدعى «يهوذا الإسخريوطى» إلى رؤساء الكهنة وقال ماذا تريدون أن تعطونى وأنا أُسلِّمه إليكم؟ فجعلوا له ثلاثين من الفضة. ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليُسلِّمه».

عشاء الفصح مع الحواريين (متى ٢٦ : ١٧)

«وفى اليوم الأول من أيام الفطير تقدم التلاميذ إلى يسوع يسألون: أين تريد أن نجهز لك الفصح لتأكل؟ أجابهم. ادخلوا المدينة واذهبوا إلى فلان وقولوا له المعلِّم يقول إن ساعتى قد اقتربت. وعندئذ سأعمل الفصح مع تلاميذى. ففعل التلاميذ ما أمرهم به يسوع وجهّزوا الفصح هناك».

ويذكر القرآن الكريم هذا العشاء بشيئ من التفصيل. إذ ما إن اجتمعوا فى البيت الذى حدده يسوع حتى بادره تلاميذه قائلين:

«إذ قال الحواريون يا عيسىابن مريم هل يستطيع ربك أن يُنزِّل علينا مائدة من السماء. قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا

ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإنى أعذبه عذابا لا أُعَذِّبه أحدا من العالمين». (١١٢ - ١١٥ - المائدة)

ويقول الإنجيل (متى ٢٦ : ٢٠) «وعند المساء اتكأ مع الاثنى عشر. وبينما كانوا يأكلون قال الحق أقول لكم: إن واحدا منكم سيسلِّمنى. فاستولى عليهم الحزن الشديد وأخذ كل منهم يسأله: هل أنا يا معلِّم؟ فأجاب: الذى يغمس يده معى فى الصحفة هو الذى سيُسلِّمنى. إن ابن الإنسان (أى عيسى) لا بد أن يمضى كما قد كُتب عنه ولكن الويل لذلك الرجل الذى على يده يُسلَّم ابن الإنسان. كان خيرا لذلك الرجل لو لم يولد. فسأله يهوذا: هل أنا هو يا معلِّم؟ أجابه أنت قلت.

يسوع ينبىء بإنكار بطرس له:

«عندئذ قال لهم يسوع. فى هذه الليلة ستشكُّون فىَّ كلكم لأنه قد كُتب: سأضرب الراعى فتتشتت خراف القطيع. فردَّ عليه بطرس قائلا: ولو شك فيك الجميع فأنا لن أشك. أجابه يسوع. الحقَّ أقول لك إنك فى هذه الليلة - قبل أن يصيح الديك - تكون قد أنكرتنى ثلاث مرات. فقال بطرس ولو كان علَىَّ أن أموت معك لا أنكرك أبداً وقال التلاميذ كلهم مثل هذا القول».

وصية عيسى الأخيرة لتلاميذه:

ونختصر هنا ما جاء فى إنجيل يوحنا إصحاح ١٤، ١٥، ١٦.

«لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بى. فى بيت أبى منازل كثيرة أنا أمضى لأعد مكانا وإن مضيت وأعددت لكم مكانا آتى أيضا وآخذكم إلى حتى حيث أكون تكونون أنتم أيضا وتعلمون حيث أنا أذهب. وتعلمون الطريق. إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى. وأنا أطلب من الآب (الرب) فيعطيكم مُعَزِّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد».

ويرى علماء المسيحية أن المعزى الآخر هو المسيح نفسه عند عودته إلى الدنيا أما علماء المسلمين فيرون فيها البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم. والتى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى: **«وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرًا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد. فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين»** (٦ - الصف). ويرى خبراء اللغات أن عيسى عليه السلام كان يتكلم باللغة الأرامية. وتُرجمت أقواله إلى اليونانية وضاع الأصل الأرامى. ويرون أن لفظ «بيركليت» الوارد فى الترجمة اليونانية هو صيغة «أفعل» من فعل الحمد أى «أحمد» إلا أن آخرين قالوا إن

اللفظ هو پاركليت والتى أقر المؤتمر اليهودى المسيحى الذى عقد عام ١٤٠٠م أنه اسم من أسماء المسيا أو المسيح. فيكون إشارة إلى نزوله قرب آخر الزمان. وتمت الترجمة فى العربية إلى لفظ «المعزِّى» (تفسير إنجيل يوحنا لمتى هنرى جـ ٣ ص ٣٠٨). إلاَّ أن هذا التفسير لا يؤيده قول المسيح (فى الصفحة التالية) «ومتى جاء المعزى الذى سيرسله لكم الآب فهو يشهد لى» وقوله «ذاك يمجِّدنى» يفيد أنه يتكلم عن المعزِّى كشخص آخر غير المسيح نفسه.

واستمر عيسى عليه السلام فى وصيته لتلاميذه فقال: «إن أحبنى أحد يحفظ كلامى ويحبه أبى وإليه نأتى وعنده نصنع منزلا. الذى لا يحبنى لا يحفظ كلامى. والكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للآب الذى أرسلنى. بهذا كلمتكم وأنا عندكم. وأما المعزى. الروح القدس الذى سيرسله الآب فهو يعلِّمكم كل شيئ ويُذكِّركم بكل ما قلته لكم.

«سلاما أترك لكم. سلامى أعطيكم. ليس كما يُعطِى العالم أعطيكم أنا. لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب. سمعتم أنى قلت لكم أنا أذهب ثم أتى إليكم. لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون لأنى قلت أمضى إلى الآب. لأن أبى أعظم منى.

«أنا الكرمة الحقيقية. وأبى الكرَّام. كل غصن فىَّ لا يأتى بثمر ينزعه وكل ما يأتى بثمر ينقيِّه ليأتى بثمر أكثر. أنتم الآن أتقياء بسبب الكلام الذى كلمتكم به. اثبتوا فى الكرمة. كذلك أنتم أيضا إن لم تثبتوا فىَّ. أنا الكرمة وأنتم الأغصان. الذى يَثْبُتَ فىَّ وأنا فيه هذا يأتى بثمر كثير. لأنكم بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئا. إن ثبتُّم فىَّ وثبت كلامى فيكم تطلبون ما تريدون فيكون لكم.

«هذه هى وصيتى. أن تحبوا بعضكم بعضا كما أحببتكم. ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبِّائه. أنتم أحبَّائى إن فعلتم ما أوصيكم به. قد سميتكم أحبَّاء لأنى أعلمتكم بكل ما سمعته من أبى. إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضنى قبلكم. اذكروا الكلام الذى قلته لكم. ليس عبد أعظم من سيده. إن كانوا قد اضطهدونى فسيضطهدونكم وإن كانوا قد حفظوا كلامى فسيحفظون كلامكم. ومتى جاء المعزى الذى سيرسله لكم الآب روح الحق الذى من عند الحق ينبثق فهو يشهد لى وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء.

«قد كلمتكم بهذا لكى لا تعثروا. سيخرجونكم من المجامع. بل تأتى ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله. وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفونى لكنى قد كلمتكم بهذا حتى إذا جاءت الساعة تذكرون أنى أنا قلته لكم. ولم أقل لكم من البداية لأنى كنت معكم. وأمَّا الآن فأنا ماضٍ إلى الذى أرسلنى وليس أحد منكم يسألنى أين تمضى. لكنى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق . لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزِّى. ولكن إن ذهبت يُرسَل لكم. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه. بل كل ما يسمع يتكلَّم به ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجِّدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم.»

يسوع يُصلّى :

«ثمَّ ذهب يسوع وتلاميذه إلى بستان وقال لهم: اجسلوا هنا ريثما أذهب إلى هناك وأصلى. وقد أخذ معه بطرس وابنى زبدى. وبدأ يشعر بالحزن والكآبة فقال لهم: نفسى حزينة جدا حتى الموت. ابقوا هنا واسهروا معى. وابتعد عنهم قليلا وارتمى على وجهه يصلى قائلا: يارب إن كان ممكنا فلتعبر عنى هذه الكأس. ولكن لا كما أريد أنا بل كما تريد أنت. ورجع إلى التلاميذ فوجدهم نائمين. فقال لبطرس: أهكذا لم تقدروا أن تسهروا معى ساعة واحدة؟ اسهروا وصلُّوا لكى لا تدخلوا فى تجربة. إن الروح نشيط. أما الجسد فضعيف. وذهب ثانية يصلى فقال: يا ربى. إن كان لا يمكن أن تعبر عنى هذه الكأس إلا بأن أشربها. فلتكن مشيئتك! ورجع إلى التلاميذ فوجدهم نائمين أيضا لأن النعاس أثقل أعينهم فتركهم وعاد يصلى مرة ثالثة وردد الكلام نفسه ثم رجع إلى تلاميذه. وقال: ناموا الآن واستريحوا. حانت الساعة وسوف يُسلَّم ابن الإنسان إلى أيدى الخاطئين. قوموا لنذهب. ها قد اقترب الذى يُسلِّمنى». ونستنتج من هذا أن عيسى عليه السلام كان قد أوحى إليه من الله أن أحد تلاميذه سيُسلمه إلى أعدائه فيقبضون عليه وحتما سيقتلونه فهم لم يتورَّعوا أن يقتلوا أنبياء قبله. لم يكن يدرى أن الله سيرفعه وينجيه من القتل ولذلك كان دعاؤه كمن يقول: اللهم هوِّن على سكرات الموت!

القبض على عيسى عليه السلام (متى ٢٦ : ٤٧) :

«وفيما هو و يتكلم إذا يهوذا – أحد الاثنى عشر – قد وصل ومعه جمع عظيم يحملون السيوف والعصى وقد أرسلهم رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب. وكان يهوذا قد أعطاهم علامة قائلا الذى أُقبِّله فهو هو اقبضوا عليه. فتقدم فى الحال إلى يسوع وقال: سلام ياسيدى وقبَّله. فقال له يسوع. ياصاحبى لماذا أنت هنا؟ فتقدم الجمع وألقوا القبض على يسوع. وإذا واحد من الذين كانوا مع يسوع قد مدَّ يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه. فقال له يسوع: رُدَّ سيفك إلى غمده فإن الذين يلجأون إلى السيف بالسيف يَهلِكون. أم تظن أنى لا أقدر الآن أن أطلب إلى ربى فيرسل لى أكثر من اثنى عشر جيشا من الملائكة؟ ولكن كيف يتم الكتاب حيث يقول إن ما يحدث الآن لابد أن يحدث! ثم وجَّه يسوع كلامه إلى الجموع قائلا: أكما على لص خرجتم بالسيوف والعصىِّ لتقبضوا علىَّ. ولكن قد حدث هذا كله لتتم نبوءات الأنبياء! عندئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا».

متى حدث الرفع ؟

جاء فى القرآن الكريم: **«وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى**

شك منه. مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما» (١٥٧- النساء). وقد اجتهد المفسرون فى بيان كيفية حدوث هذا الشبه ووقته. وكلهم أجمعوا على أنه حدث لحظة إلقاء القبض على المسيح فلم يقبض عليه هو نفسه بل قُبِضَ على شبيهه.

جاء فى تفسير ابن كثير (جـ ١ ص ٥٧٤) قال ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن عيسى لما أُخبر من الله سبحانه وتعالى أنه سيرفعه إلى السماء خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين وقال أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى فقام شاب من أحدثهم سنا فقال له اجلس وكرر عيسى قوله ثلاث مرات فلا يقوم إلا هذا الشاب فقال هو أنت ذاك. وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه وقتلوه وصلبوه. وروى ابن جرير عن ابن إسحق مثل هذا القول مع اختلاف بسيط هو أنه قال: وهو رفيقى فى الجنة بدلاً من «ويكون معى فى درجتى».

كما يروى ابن كثير روايات عن ابن اسحق مفادها أن الشبه ألقى على الحوارى الذى خان عيسى ودلَّ جنود الرومان عليه إذ لم يكونوا يعرفونه وفى ذات اللحظة رفع عيسى فدخل الجنود وقبضوا على الخائن ظانين أنه عيسى.

ويرى هذا الرأى الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن. جـ ٢ ص ٢٢٨) ويتفق مع ما جاء فى الأناجيل من أن يهوذا الإسخريوطى هو الذى خان المسيح ودلَّ جنود الرومان عليه ونختصر هنا ما ذكره عن تصوُّره لما حدث إذ يقول: إن الشيطان أغوى يهوذا فشك فى نُبوَّة معلِّمه وزين له الشيطان أن يمتحن صدق المسيح فى دعواه النبوة فدل عليه خصومه وطالبى دمه قائلاً فى نفسه: إن كان نبيا فلن يمكِّنهم الله منه ويخلِّصه وإن كان دعيًا محتالاً فبئس جزاء المحتال المدَّعى. وعند لحظة إلقاء القبض على يسوع فوجئ يهوذا بالجند يقبضون عليه هو. فيُدرك أن الله عاقبة على خيانته بأن ألقى صورة المسيح عليه. وهنا استيقظ ضميره ورأى أن يكفِّر عن خطيئته بأن يستسلم للصلبِ حتى ينجو عيسى فلم يجادل عن نفسه ويقول إنه ليس عيسى. ويُكملُ الأستاذ رؤوف التصوُّر بأن مرقس رأى شابا عريانا إلا من إزاء ائتزر به يتبع يهوذا المقبوض عليه ويفترض أن هذا الشاب كان عيسى نفسه إذ أن الملائكة أخذوا لباس عيسى ووضعوه على يهوذا ثم اختفى هذا الشاب لأن الله رفعه.

وهذا السيناريو المتخيَّل لا يتفق مع المنطق فى عدة نقاط:

١ - خيانة يهوذا لم تكن مجرد «شك» فى نبوءة عيسى بل كانت - كما ذكرت الأناجيل - صفقة تقاضى عنها يهوذا ثلاثين من الفضة.

٢ - لو أن الشبه ألقى على يهوذا وهو يُقبِّل المسيح لرأى الناس مسيحان ويلزم حينئذ أن

يُلقى شبه يهوذا على المسيح ثم يختفى المسيح لأنه رفع إلى السماء فيرى الحاضرون أن يهوذا هو الذى اختفى أو رُفع وليس المسيح!

٣ - افتراض أن الملائكة أخذت ملابس عيسى وألقتها على يهوذا ليخرج عيسى من الموقف وهو يكاد يكون عاريا. افتراض بالغ الغرابة.

٤ - الثابت فى الأناجيل أن يهوذا بعد القبض على يسوع ندم وذهب ليعيد الفضة للكهنة فلما رفضوها ألقى بها فى صندوق الهيكل ثم راح وانتحر كما سيجئ ذكره فى الصفحة التالية.

حاصل هذا أن المنطق يؤدى إلى أن الشبه لم يلق على يهوذا وإلا لراح يجادل عن نفسه ويعترض بأنه ليس المسيح. كما أن الجند كانوا يتابعونه بأعينهم متابعة جيده ليروا من سيُقَبِّل فيلقوا القبض عليه لأنهم لم يكونوا يعرفون شكل المسيح فحتى لو ألقى شبه المسيح على يهوذا فى هذه اللحظة لما اهتم الجند بذلك لأنهم سيلقون القبض على من «ينال القبلة» وكانت هذه هى العلامة المتفق عليها لتدلهم على شخص المسيح.

وما نراه هو أن الشبه لم يلق على يهوذا ولم يحدث فى لحظة القبض هذه بل حدث فيما بعد كما سيأتى ذكره ويكون من قبض عليه هو عيسى عليه السلام.

بطرس ينكر يسوع (متى ٢٦ : ٦٩) :

فى تلك الأثناء كان بطرس جالسا فى الدار الخارجية فتقدمت إليه جارية قائلة: وأنت كنتَ مع يسوع الجليلى. فأنكر قدام الجميع قائلا لست أدرى ما تقولين. ثم إذ خرج إلى الدهليز رأته أخرى فقالت للذين هناك: وهذا كان مع يسوع الناصرى. فأنكر أيضا بقَسَم إنى لست أعرف الرجل. وبعد قليل جاء الواقفون هناك إلى بطرس وقالوا له: بالحق إنك واحد منهم فإن لهجتك تدل عليك. فابتدأ بطرس يلعن ويحلف قائلا إنى لا أعرف الرجل وللوقت صاح الديك. فتذكر بطرس كلام يسوع الذى قال له إنك قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات، فخرج إلى الخارج وبكى بكاء مرًّا.

تسليم يسوع إلى بيلاطس :

ولما طلع الصبح عقد رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب اجتماعا آخر وتآمروا على يسوع لينزلوا به عقوبة الموت ثم قيدوه وساقوه وسلموه إلى بيلاطس النبطى الوالى الرومانى.

انتحار يهوذا :

فلما رأى يهوذا أن الحكم على يسوع بالموت قد صدر ندم وردَّ الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ وقال: قد أخطأت إذ سلَّمتكم دما بريئا. فأجابوه: ليس هذا شأننا نحن. بل هو شأنك أنت. فألقى قطع الفضة فى الهيكل وانصرف ثم ذهب وخنق نفسه (متى ٢٧ : ٥). «فأخذ رؤساء الكهنة قطع الفضة وقالوا: هذا المبلغ ثمن دم. فلا يحل لنا إلقاؤه فى صندوق الهيكل. وبعد التشاور اشتروا بالمبلغ حقل الفخارى ليكون مقبرة للغرباء. عندئذ تم ما قيل بلسان النبى إرميا القائل: وأخذوا الثلاثين قطعة من الفضة ثمن الكريم الذى ثمَّنه بنو إسرائيل ودفعوها لقاء حقل الفخارى كما أمرنى الرب».

بيلاطس يستجوب يسوع ويحكم عليه بالموت :

ووقف يسوع أمام بيلاطس فسأله: أأنت ملك اليهود؟ أجابه أنت قلت. وكان رؤساء الكهنة والشيوخ يوجِّهون ضده الاتهامات وهو صامت لا يرد. فقال له بيلاطس: أما تسمع ما يشهدون به عليك؟ لكن يسوع لم يجب الحاكم ولو بكلمة.

وكان من عادة الحاكم فى كل عيد أن يطلق لجمهور الشعب أى سجين يريدونه. وكان عندهم وقتئذ سجين مشهور اسمه «باراباس». ففيما هم مجتمعين سألهم بيلاطس: من تريدون أن أطلق لكم. باراباس أم يسوع الذى يُدعى المسيح؟ إذ كان يعلم أنهم سلَّموه عن حَسَد. وفيما هو جالس على منصة القضاء أرسلت إليه زوجته تقول: إياك وذلك البار! فقد تضايقت اليوم كثيرا فى حلم بسببه. ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرَّضوا الجموع أن يطالبوا بإطلاق سراح باراباس وقتل يسوع. فسألهم بيلاطس: أىَّ الاثنين تريدون أن أطلق لكم؟ أجابوا: باراباس. فعاد يسأل: فماذا أفعل بيسوع الذى يُدعى المسيح؟ أجابوا جميعاً: ليصلب. فعاد يسأل: وأى شر فعل؟ فازدادوا صخبا: ليصلب. فلما رأى بيلاطس أنه لا فائدة وأن فتنة تكاد تنشب. أخذ ماء وغسل يديه أمام الجميع وقال: أنا برىء من دم هذا البار. فانظروا أنتم فى الأمر. فأجاب الشعب بأجمعه: ليكن دمه علينا وعلى أولادنا. فأطلق لهم باراباس. وأما يسوع فجلده وسلَّمه إلى الحراس فى انتظار الصلب.

الرفع والصلب:

فاقتاد الجنود يسوع إلى السجن وجردُّوه من ثيابه وألبسوه رداء قرمزيا وجدلوا إكليلا من شوك وضعوه على رأسه ووضعوا قصبة فى يده اليمنى وركعوا أمامه يسخرون منه وهم يقولون: «سلام يا ملك اليهود». وبصقوا عليه وأخذوا القصبة منه وضربوه بها على رأسه.

وبعدما أوسعوه سخرية وضعوا القيود فى يديه ورجليه وتركوه فى حجرة السجن منفرداً إلى الصباح حتى يتم الصلب.

وفى السجن تضرَّع عيسى إلى الله من كل قلبه قائلا «إيلى إيلى لماذا شبقتنى؟» أى «إلهى إلهى لماذا تركتنى»؟

ورأينا فيما حدث بعد ذلك أن الله استجاب لاستغاثته وجاءته النجدة الإلهية لتنجيه من المكر الذى أوقعوه فيه **«ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين. إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىَّ ومُطهرك من الذين كفروا»**. (٥٤ – آل عمران).

وهكذا رُفع عيسى عليه السلام بجسده وروحه إلى السماء. ودخل الحارس الموكل به فلم يجد أحدا فى زنزانته. ووجد القيود ملقاة على الأرض. ففزع وخاف أن يُتَّهم بتدبير هربه فيصلب عقابا على ذلك. فذهب إلى باقى حجرات السجن وتخيَّر سجينا محكوما عليه بالإعدام فى مثل طول يسوع وعجب أشد العجب إذ وجد أيضا أن له مثل هيئته فأدخله الزنزانة ووضع القيود فى يديه ورجليه.

وجاء الجند فى الصباح وساقوا الشبيه إلى الصلب وحدَّث القرآن الكريم عن ذلك ونفى صلب المسيح **«وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم. وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه. مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا»** (١٥٧ – النساء) واقتيد لصان للصلب معه واحد عن يمينه وواحد عن يساره. ومن بعيد كانت نساء كثيرات يراقبن ما يجرى وكن قد تبعن يسوع من الجليل ليخدمنه والكل يظن أن من على الصليب هو يسوع نفسه. وكما جاء فى الأناجيل لَفَظَ البديل أنفاسه الأخيرة حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر.

ولما حل المساء جاء رجل من بلدة «الرامة» اسمه يوسف وكان أيضا تلميذا ليسوع. فتقدم إلى بيلاطس يطلب الجثمان المصلوب فأمر بيلاطس أن يُعطى له. فأخذ يوسف الجثمان وكفنه بكتان نقى ودفنه فى قبر جديد كان قد حفره فى الصخر ودحرج حجرا كبيرا على باب القبر ثم ذهب.

حراسة القبر:

جاء فى الإنجيل (متى ٢٧ : ٦٢): «وفى الغد اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس قائلين: يا سيد. قد تذكرنا أن ذلك المضِلّ قال وهو حى إنى بعد ثلاثة أيام أقوم. فمر بحراسة القبر إلى اليوم الثالث لئلا يأتى تلاميذه ويسرقوه ويقولوا للشعب إنه قام من الأموات فتكون الضلالة الأخيرة أشرَّ من الأولى. فقال لهم بيلاطس. عندكم حراس. اذهبوا واحرسوا كما تعلمون. فمضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر».

وفى اليوم الثالث حدث زلزال عنيف ضرب المنطقة كلها فتدحرج الحجر الذى كان يسد القبر. وكانت مريم المجدلية ومعها زميلة لها قد جاءتا تتفقدان القبر. ولما سكت الزلزال دخلتا مع الحراس إلى القبر فلم يجدوا به جثة فتأكد لديهم أنه قد قام.

وتفسيرنا لما حدث أن الزلزال قد نتج عنه شق فى الأرض ابتلع جثة الشبيه الذى صلب. وهكذا لم يجدوا جثة فى القبر. فظنوا أن من صلب فعلا هو المسيح وأنه قد قام.

وانطلقت المرأتان من القبر مسرعتين وقد استولى عليهما خوف شديد وفرح عظيم وركضتا إلى التلاميذ تحملان البشرى. وفيما هما منطلقتان لتبشرا التلاميذ إذا يسوع نفسه قد التقاهما وقال: سلام! لا تخافا! اذهبا قولا لإخوتى أن يوافونى إلى الجليل وهناك يروننى.

وبينما كانت المرأتان ذاهبتين إذا بعض الحراس قد ذهبوا إلى المدينة وأخبروا رؤساء الكهنة بكل ما جرى. بالزلزال وباختفاء الجثة من القبر. فاجتمع رؤساء الكهنة والشيوخ وتشاوروا فى الأمر ثم رشُوا الجنود بمال كثير وقالوا لهم: قولوا إن تلاميذه جاءوا ليلاً وسرقوه ونحن نائمون فإذا بلغ الخبر الحاكم فإننا ندافع عنكم فتكونون فى مأمن من أى عقاب. فأخذ الجنود المال وعملوا كما لُقِّنوا.

المسيح يظهر لتلاميذه :

يقول الإنجيل (متى ٢٨ ١٦) : «وأمَّا التلاميذ الاثنا عشر فذهبوا إلى منطقة الجليل إلى الجبل الذى عينه لهم يسوع. فلما رأوه سجدوا ولكن بعضهم شكُّوا. فتقدم يسوع وكلَّمهم قائلا: اذهبوا وعلِّموا جميع الأمم أن يعملوا كل ما أوصيتكم به. أنا معكم».

ويقول أهل الكتاب (أعمال الرسل ١:٢) إن عيسى عليه السلام ظل يظهر لحواريه مدة ٤٠ يوما ويتكلم معهم فى الأمور المختصة بملكوت الله. وفيما هو مجتمع معهم أوصاهم أن لا يبرحوا من أورشليم. أما المجتمعون فسألوه قائلين: هل فى هذا الوقت (وقت عودته الثانية) تَرُدُّ الملك إلى إسرائيل. فقال لهم: ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى جعلها الرب فى سلطانه لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لى شهودا فى أورشليم وفى كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض. ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون وأخذته سحابة عن أعينهم. فكان هذا هو الرفع النهائى.

من هذا يمكننا أن نفترض أن رفع المسيح عليه السلام تم على مرحلتين: المرحلة الأولى رفع فيها إلى السماء الدنيا ومنها كان ينزل إلى الأرض فيراه تلاميذه ويوالى توجيههم كما كان يفعل وهو بينهم قبل رفعه وهذه الفترة امتدت إلى ٤٠ يوما. ثم المرحلة الثانية وفيها رفع إلى السماء الثانية – حسبما جاء فى حديث الإسراء – وفيها يبقى إلى أن ينزل مرة ثانية إلى الأرض فى الوقت الذى يحدده الله سبحانه وتعالى.

«إنى متوفيك» :

جاء فى سورة آل عمران (الآية ٥٥) **«إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ»** (٥٥ - آل عمران) وقد فهم البعض من هذه الآية أن عيسى قد صلب فعلا ولكن قبل أن يموت من الصلب توفاه الله ثم رفعه. وكأن المعنى لم يقتلوه ولم يصلبوه وإنما أماته الله كى لا ينالوه حيًا! ثم رفعه الله بروحه أو بروحه وجسده معا. وإن كان الرفع بالروح فقط فلا معجزة فى هذا. فأرواح كل البشر تُرفع إلى الله بعد موتها. **«الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها»** (٤٢ - الزمر). فالتوفِّى فى اللغة هو الاستيفاء. تقول وفَّيته حقه. وتوفَّى هو حقه يعنى أخذه كاملا. وتوفِّى الأنفس يترتب عليه الإماتة وعليه سمى الموت وفاة مجازا. وعليه فقوله تعالى «إنى متوفيك ورافعك إلىَّ» لو فُهِمت بمعنى إنى مميتك ورافعك إلىَّ. تصبح غير ذات معنى إذ أن الله لا يرفع جسداً ميتا. وهو أيضا لا يرفع نفسا أميت جسدها بالتوفى. واستيفاء النفس فى هذه الحالة لا يسمى رفعا بل قبضا. وهو يسرى على كل البشر. ويكون الله عز وجل قد قبض نفس عيسى كما يقبض أنفس جميع البشر! ثم نأتى إلى قوله تعالى **«ومكروا ومكر الله. والله خير الماكرين»** (٥٤ - آل عمران) هم أرادوا صلبه وأراد الله بالمسيح شيئا آخر. ولا يصحّ أن يكون هذا الشيئ الآخر هو أن يميت الله عيسى كيلا ينالوه حيا إذ ليس فى هذا إنجاء وتخليص كما هو المفهوم من «مكرهم» وفى مقابله «مكر الله». ولما كان «الله خير الماكرين» فلابد أن عيسى قد أنجى من الموت - صلبا أو وفاة - ورفع بجسده حيًا.

بعض من فهموا التوفى فى هذه الآية بالموت قالوا إن هناك تقديم وتأخير والمعنى أن الله رافعه بجسده ونفسه ثم يعيده إلى الأرض ليستوفى عمره كاملا ثم يُتَوفَّى كما يتوفى سائر البشر. وفى تفسير الآية بهذه الطريقة افتعال لا يليق بجلال القرآن الكريم. فضلا عن أن المفعول فيه فى «متوفيك» هو المسيح نفسه لا عمره. وأخيرا فإن تكملة الآية «ومطهِّرك من الذين كفروا» لا تعنى إلا الاستخلاص سليما وكاملا ونقيًا كما يُطهَّرُ الثوب من الوسخ ولا يكون ذلك إلا برفع الجسد والنفس معًا.

عـودة المسيح :

إن الأديان الثلاثة تؤمن بعودة المسيح:

أ - فاليهود لم يؤمنوا بعيسى مسيحًا. ولذلك فهم ينتظرون مجىء المسيح الذى سيعيد لهم دولتهم فى فلسطين. ويعملون على بناء الهيكل الذى يؤمنون بأن المسيح سينزل عليه.

ب - والمسيحيون ينتظرون عودة المسيح بعد أن رفع إلى السماء بعد قيامته من الصلب.

جـ - والمسلمون بدورهم يؤمنون بعودة المسيح قرب آخر الزمان ويستدلُّون على ذلك بكتاب الله وبأحاديث نبوية عديدة:

١ – «وإن مّن أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته ويوم القيامه يكون عليهم شهيدا» (١٥٩ – النساء). أى أن عيسى عليه السلام سينزل إلى الأرض ويؤمن به كل أهل الكتاب الموجودون فى زمانه قبل أن يموت عيسى الميتة التى حكم الله بها على جميع بنى آدم. وعن ابن عباس: عند نزول عيسى لا يكون أحد من أهل الكتاب إلا آمن به ثم يموت عيسى. وبهذا قال جميع المفسرين.

٢ – «ويكلم الناس فى المهد وكهلا» (٤٦ – آل عمران). وهو قد كلَّم الناس فى المهد عقب ولادته. ويرى المفسرون أنه سيعود ليكلم الناس «كهلا» لأنه مات قبل الكهولة. وفى اللغة الكهل هو من وخطه الشيب وجاوز الثلاثين أو أربعة وثلاثين إلى إحدى وخمسين (القاموس المحيط جـ ٤ ص ٤٧). وقد ذكر الألوسى (تفسيره جـ ٣ ص ١٦٢) أن الشباب هو ما بين الثلاثين والأربعين والكهل بعد الأربعين إلى أن يستوفى الستين. ولما كان عيسى عليه السلام قد رفع وعمره ٣٣ عاما فإنه سيعود ليبلغ الأربعين وما بعدها ليكون كهلا.

٣ – روى الشيخان عن أبى هريرة قوله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذى نفسى بيده ليوشِكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب (أى يوضِّح للمسيحيين أنه لم يُصلب) ويقتل الخنزير (أى يُحرِّم على المسيحيين أكل لحم الخنزير) ويضع الجزية (أى لا يقبل من أحد إلا أن يؤمن به) ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها.

٤ – وروى الشيخان أيضا عن أبى هريرة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم.

٥ – روى مسلم فى صحيحه عن الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: لاتزال طائفه من أُمَّتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. قال فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم تعال صلِّ لنا فيقول لا. إن بعضكم على بعض أمراء. تكرمة الله هذه الأمة.

٦ – عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: والذى نفسى بيده ليهلَّنَّ ابن مريم بفجِّ الروحاء حاجا أو معتمرا أو ليثنينَّهما. وهناك العديد من الأحاديث – يضيق المجال عن ذكرها – تؤكد على نزول عيسى عليه السلام قرب آخر الزمان فيَقتل المسيح الدجَّال ويعم العدل والسلام الأرضَ ليس بين اثنين عداوه لمدة سبع سنين (أو أربعين سنة) ثم يموت.

وبهذا تنتهى قصة عيسى عليه السلام. ومنها يتضح أنه لم يدَّع لنفسه الألوهية ولا بُنوَّة لله وحتى عندما كان يقول «أبى الذى فى السموات» فإنه كان يقصد «ربى الذى فى السموات» كما سبق أن ذكرنا (ص ٥٢).

وقد برأه القرآن الكريم من ادعاء الألوهية فى قوله تعالى:

«وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأُمِّيَ إلهين من دون الله. قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق. إن كنت قلته فقد علمته. تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به. أن اعبدوا الله ربى وربكم. وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم. فلما توفيتنى كنتَ أنتَ الرقيب عليهم. وأنت على كل شيئ شهيد. إن تعذِّبهم فإنهم عبادك. وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم».

(١١٦ – ١١٨ – المائدة).

وقوله تعالى : **«لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم. إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار. وما للظالمين من أنصار».** (٧٢ – المائدة).

الفصل العاشـر

الرسل أو خلفاء المسيح

كان آخر ظهور للمسيح عليه السلام لتلاميذه على جبل الزيتون القريب من أورشليم وبعد أن رفع رجع الرسل من جبل الزيتون وهو من أورشليم على مسافة قصيرة يجوز قطعها يوم سبت. وصعدوا إلى العُلِّيَّة التى كان الحواريون الاثنا عشر يقيمون فيها وظلوا مواظبين على الصلاة. ويقول الإنجيل (أعمال الرسل ٢ : ١) «ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معا بنفس واحدة. وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم. وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا». وقد كانت اللهجة الجليلية مميِّزة وصعبة على غير الجليليين فلا يفهمونها جيدا. فكانت مقدرة التلاميذ الفجائية على أن يتكلموا بألسنة مفهومة لدى الجمهور فضلا عن لغة أجنبية إضافية: فهذا يعرف لغة الماديين وآخر لغة العيلاميين وثالث اللغة الهيروغليفية التى يتكلم بها المصريون وهكذا. مثار تعجب الجمهور «واجتمع الجمهور وتحيروا لأن كل واحد كان يسمعهم يتكلمون بلغته. فبهت الجميع وتعجبوا قائلين بعضهم لبعض: أتُرى ليس جميع هؤلاء المتكلمون جليليين. فكيف نسمع نحن كل واحد منا لغته التى ولد فيها: ماديون وعيلاميون وفريجيَّة ومصر ونواحى ليبية والرومانيون وكريتيون وعرب. فتحيَّر الجميع وارتابوا». ووقف بطرس وأوضح لهم أن ذلك حدث لأن الرب سكب من الروح القدس عليهم فتنبأوا. ومن الواضح أن تلك كانت معجزة إلهية حتى يُرسل كل واحد منهم إلى قوم من الأقوام متكلما بلغتهم يدعوهم إلى الإيمان بالله وبأن المسيح كان مُرسلا من عند الرب.

وأهم اثنين من خلفاء المسيح هما: بطرس الرسول وبولس الرسول. وسنتكلم عنهما بشيء من التفصيل وخاصة الأخير منهما إذ أنه أضاف إلى تعاليم المسيحية الكثير وأحدث فيها مالم يكن موجودا أيام المسيح نفسه حتى إنه ليعتبر لدى علماء الغرب هو مؤسس المسيحية وواضع شرائعها.

بطرس الرسول

بطرس اسم يونانى معناه «صخرة أو حجر». وكان هذا الرسول يُسمَّى أولا سمعان واسم أبيه يونا واسم أخيه أندراوس وهم من مدينة بيت صيدا. فلما تبع يسوع سَمَّاه «كيفا» وهى

كلمة أرامية معناها صخرة، والصخرة باليونانية بيتروس Petros ومنها بطرس العربية.

وكان بطرس – قبل اتباعه لعيسى – تلميذا ليوحنا المعمدان. وقد جاء به إلى عيسى أخوه أندراوس الذى كان أيضا تلميذًا من تلاميذ يوحنا. وعن ذلك يقول إنجيل يوحنا (١ : ٣٥): «كان يوحنا واقفا مع إثنين من تلاميذه (كان أحدهما أندراوس) ونظر إلى يسوع ماشيا فقال: هُوَ ذا حَمَل الله. فسمعه التلميذان يتكلم فتبعا يسوع. فالتفت يسوع ونظرهما يتبعانه فقال لهما ماذا تطلبان. فقالا يا معلِّم أين تمكث. فقال لهما تعاليا وانظرا. فأتيا ونظرا أين كان يمكث ومكثا عنده ذلك اليوم. وتأكد أندراوس أن عيسى هو المسيا أو المسيح الذى جاء ذكره فى نبوءات العهد القديم. وأحضر أندراوس أخاه سمعان إلى المسيح فنظر إليه يسوع وقال: أنت سمعان بن يونا. أنت تُدعى صفا الذى تفسيره بطرس».

وكانت دعوة عيسى لبطرس على ثلاث مراحل:

١ – دعاه ليكون تلميذا يتعلَّم منه.

٢ – ثم دعاه ليكون رفيقا ملازما له باستمرار أى ليكون من الحواريين. إذ لما وجده هو وأخاه أندراوس يصطادان بالشبكة فى بحر الجليل قال لهما: هلم ورائى فأجعلكما تصيران صيَّادى الناس (أى تقودان الناس إلى طريق الرب) فللوقت تركا شباكهما وتبعاه كما سبق ذكره (ص ٥١).

٣ – ثم دعاه ثالثا ليكون أحد الرسل: «وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات. وكل ما تُحِلُّه على الأرض يكون محلولا فى السموات».

وقد ساعد حماس بطرس ونشاطه على أن يبرز بين الحواريين فيذكر اسمه دائما فى الأول. وبالرغم من محبَّته ليسوع فإن الضعف البشرى هو الذى جعله ينكره فى ليلة المحاكمة ثلاث مرات كما سبق أن أوضحنا (ص ١٠٢) وكانت نظرة العتاب من عيسى هى التى جعلته يخرج من القاعة ويبكى بكاء مُراً.

أول تبشير لبطرس بالمسيحية:

وقف بطرس وسط الشعب اليهودى وقال: أيها الرجال الإسرائيليون. اسمعوا هذه الأقوال. يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قِبَل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده فى وسطكم كما أنتم تعلمون. هذا أخذتموه مسلَّماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق. وبأيدى أثمة صلبتموه وقتلتموه (هو هنا يتكلم بحسب ما ظهر لهم وما حدث أمامهم من صلب

الشبيه). فلما سمعوا قالوا لبطرس ولسائر الرسل: ماذا نصنع أيها الرجال الإخوة. فقال لهم بطرس: توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتَقبلوا عطية الروح القدس. ويقول الإنجيل (أعمال الرسل ٢ : ٤١) إنه فى ذلك اليوم انضم ٣٠٠٠ نفس إلى أتباع المسيحية.

بطرس يشفى الأعرج (أعمال الرسل ٣):

وصعد بطرس ويوحنا (أحد الحواريين. وهو غير يوحنا المعمدان) معا إلى الهيكل فى ساعة الصلاة. وكان رجل أعرج منذ ولادته ولايستطيع المشى يُحمل ويضعونه كل يوم عند باب الهيكل ليسأل صدقة من الذين يدخلون الهيكل. ولما رأى بُطرسَ ويوحنا وهما يَهُمَّان بدخول الهيكل سألهم صدقة. فتفرَّس فيه بطرس مع يوحنا وقال انظر إلينا. فلاحظهما منتظرا أن يأخذ منهما شيئا. فقال بطرس. ليس لى فضة ولا ذهب ولكن الذى لى فإياه أعطيك. باسم يسوع المسيح الناصرى قم وامش. وأمسكه بيده اليمنى وأقامه. وفى الحال شفى الرجل ووقف وأصبح قادرا على المشى ودخل معهما إلى الهيكل وهو يمشى ويُسبِّح الله. وأبصره جميع الشعب وهو يمشى ويسبِّح الله.ولما كانوا قد عهدوه مُقعدا لا يستطيع المشى فإنهم تعجبوا وامتلأوا دهشه وحيرة مما حدث له واجتمع جمهور كبير فى رواق سليمان بالمعبد ليشهدوا هذه المعجزة. وكان شفاؤه آية على صدق رسالة المسيح.

وقد أشار إشعياء إلى هذه المعجزة حين قال: «حينئذ تنفتح عيون العمى وآذان الصم. حينئذ يقفز الأعرج كالأيل ويترنَّم لسان الأخرس» (إشعياء ٣٥ : ٦).

وانتهز بطرس الفرصة وراح يدعو إلى الإيمان بالمسيح فقال: أيها الرجال الإسرائيليون. مالكم تتعجبون من هذا ولماذا تشخصون إلينا كأننا بقُوَّتنا أو تقوانا قد جعلنا هذا يمشى ؟ إن إله إبراهيم وإسحق ويعقوب إله آبائنا مجَّد عبده يسوع الذى أسلمتوه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس وهو ينوى الحكم بإطلاقه. ولكن أنتم أنكرتم القدُّوس البار وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل ورئيس الحياة قتلتموه وأقامه الله من الأموات ونحن شهود لذلك. وبالإيمان باسمه أُعطِى هذا الصحة أمامكم جميعا. والآن أيها الإخوة أنا أعلم أنكم بجهالة عملتم كما أمر رؤساؤكم. فتوبوا وارجعوا لتُمحى خطاياكم لكى تأتى أوقات الفرج من وجه الرب ويرسل يسوع المسيح المُبشَّر به لكم قبل. الذى ينبغى أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شىء (أى أنه حى فى السماء حتى الزمن الذى يحدده الله لردِّه إلى الأرض). ثم راح يشرح لهم أن الله تكلم عن هذا «بفم جميع أنبيائه القدِّيسين منذ الدهر».

بدء الاضطهاد :

ولم يرق هذا الأمر للكهنة. وتزايدَ أعداد المستمعين لبطرس وازداد المؤمنون به وبأقواله. فحرَّض الكهنة والصدُّوقيون الجند فألقوا القبض على بطرس ويوحنا ووضعوهما فى الحبس. وكان أتباع المسيحية قد ازدادوا إلى خمسة آلاف. وفى اليوم التالى جاء الرؤساء والشيوخ والكتبة وأحضروا السجينين وجعلوا يسألونهما بأى قوة وبأى اسم صنعا هذا الأمر. ورد عليهم بطرس بجرأة وقال لهم «يا رؤساء الشعب وشيوخ إسرائيل. إن كنا نتهم اليوم لأننا أحسنَّا إلى إنسان مريض. فبماذا شفى هذا. وليكن معلوما عندكم جميعا وجميع شعب إسرائيل أنه باسم يسوع المسيح الناصرى شُفِىَ هذا الأعرج ووقف أمامكم صحيحا. إن الحجر الذى احتقرتموه أيها البناءون (أى المسيح) قد صار رأس الزاوية وليس بأحد غيره الخلاص». وعجب الجميع من كلام بطرس ويوحنا لأنهما لم يتعلما فى مدارس الربِّيين ولكنهما كانا من أتباع المسيح. ولكن الكهنة نبَّهوا عليهما أن يكُفَّا عن الدعوة للمسيحية وأن يتوقَّفا عن التبشير باسم يسوع. ولكن بطرس أجابهم بأنه يجب أن يستمرَّا فى إبلاغ كلام الله. ولم يجد الكهنة ما يمكن أن يؤخذ عليهما. كما أنهم خافوا من الشعب إن هم اتخذوا أى إجراء ضدهما فأطلقوا سراحهما فعادا إلى رفاقهما وقصَّا عليهم ما حدث لهما. فلما سمعوا رفعوا صلاة جماعية شكرا لله.

التبشير بالمسيحية في السامرة:

وكان بطرس ورفاقة قد أوتوا من الله القدرة على شفاء المرضى كما كانت للمسيح. فكان الناس يحملون مرضاهم ويضعونهم على فرش فى الشوارع حتى إذا جاء بطرس وباركهم كانوا جميعا يبرأون من أمراضهم. وكان فى مدينة السامرة رجل اسمه سيمون يستعمل السحر ويدهش شعب السامرة وافتتن به أناس كثيرون معتقدين أنه مؤيد من الله. ولما جاء بطرس ومعه يوحنا إلى السامرة أراد سيمون أن ينال روح القدس «فقدَّم دراهم قائلا أعطيانى أنا أيضا هذا السلطان حتى يحل روح القدس على من أضع يدى عليه». وعلى ما يبدو كان يريد هذا ليشفى المرضى لقاء أجر فيصيب من وراء ذلك مالا كثيراً وأدرك بطرس ذلك فقال له: لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتنى موهبة الله بدراهم. ليس لك نصيب ولا قرعة فى هذا الأمر لأن قلبك ليس مستقيما أمام الله. فتب من شرِّك هذا واطلب إلى الله أن يغفرلك فكر قلبك لأنى أراك فى مرارة المر ورباط الظلم.

وعاد بطرس ويوحنا إلى أورشليم وفى الطريق كانا يبشران قرى كثيرة للسامرين فاعتنق المسيحية عدد كبير من الناس. وفى أورشليم قابلا – ومعهما فيلبس (أحد الرسل الصغار) – وزير مملكة النوبة التى كانت تحكم مصر فى هذه الفترة وكان قد جاء حاجًّا إلى أورشليم.

فبشروه بيسوع فاعتنق المسيحية. ولما عاد إلى بلاده عمل على نشر المسيحية حتى وصلت إلى الحبشة التى أصبحت معقلا هاما للمسيحية.

اشتراكية المسيحيين الأوائل :

يقول سفر أعمال الرسل (٢ : ٤٢) إن المسيحيين الأوائل كانوا يواظبون على تعاليم الرسل. وكانوا يشتركون فى الصلوات. ويواظبون فى الهيكل بنفس واحدة. وكانوا يكسرون الخبز ويقتسمونه فيما بينهم «وكانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب مسبِّحين الله. وكان الشعب ينظر إليهم بإعجاب وكانت أعداد المؤمنين تزداد كل يوم.

وكان كل شيء عندهم مشتركا. لأن أصحاب الحقول أو البيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أقدام الرسل الذين كانوا يوزِّعونها على الأتباع كلٌ حسب احتياجاته.

جزاء الخيانة: على أن الأمور فى مجتمع مثل هذا لا يمكن أن تكون مثالية تماما بل لابد أن يكون هناك بعض ضعاف النفوس وضعاف الإيمان الذين يحيدون عن هذه المشاركة التامة. فقد كان هناك رجل اسمه حنانيا باع حقلا له وأخذ نصف الثمن لنفسه وأحضر النصف الثانى للرسل. وأعلم الله بطرس بما فعل الرجل فقال بطرس: «ياحنانيا. لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس وتختلس من ثمن الحقل. أليس ما تقدمه هو باقٍ لك؟ أنت لم تكذب على الناس بل على الله». فلما سمع حنانيا هذا الكلام وقع ميتا من شدة شعوره بجسامة ما اقترف فى حق الله فقام إخوانه بتكفينه ودفنه. وبعد ساعات جاءت امرأته ولم تكن تدرى بموت زوجها. وسألها بطرس: «أبهذا المقدار بعتما الحقل فقالت نعم بهذا المقدار فقال لها بطرس: ما بالكما اتفقتما على تجربة روح الرب وهؤلاء الذين دفنوا زوجك سيقومون بدفنك أنت أيضا». فعلمت أن اختلاسهما من الثمن قد انكشف وأن زوجها قد نال جزاء كذبه على الرب واستعظمت هى أيضا ما حدث منها ومن زوجها وسقطت ميتة هى الأخرى فحملوها ودفنوها بجانب زوجها.

محاكمة الرسل :

تضايق الكهنة والصدوقيون من تزايد أعداد المؤمنين بالمسيح فقبضوا على الرسل ووضعوهم فى السجن. ويقول سفر أعمال الرسل (٥ : ١٧) إن ملاك الرب جاء فى الليل وأخرجهم من السجن وقال لهم «اذهبوا قفوا وكلّموا الشعب فى الهيكل وادعوا الناس إلى الإيمان بالرب وبمسيحه». وجاء رئيس الكهنة فى الصباح وعلم خبر اختفاء المساجين بالرغم

من أن أبواب السجن مغلقة والحراس واقفون خارجها. ثم علم أن الرسل واقفون فى الهيكل يعلمون الشعب. فأحضرهم وسألهم رئيس الكهنة: «أما أوصيتكم أن لا تعلّموا باسم يسوع. وها أنتم قد ملأتم أورشليم بتعليمكم وتريدون أن تجلبوا علينا دم هذا الإنسان. فأجاب بطرس والرسل وقالوا: ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس. إله آبائنا أقام يسوع الذى أنتم قتلتموه معلّقين إياه على خشبة. هذا رفعه الله بيمينه رئيسا ومخلّصا ليعطى إسرائيل التوبة وغفران الخطايا ونحن شهود له بهذه الأمور. والروح القدس أعطاه الله أيضا للذين يطيعونه. فلما سمعوا هذه الإجابة اغتاظوا وراحوا يتشاورون أن يقتلوهم».

وقام حاخام يهودى من الفريسيين وعضو فى السنهدريم (وهو المحكمة العليا للأمة اليهودية وعدد أعضائه ٧٠ عضوا) ونصح باقى أعضاء المحكمة برفع القيود عن رسل المسيح والكف عن اضطهادهم استنادا على أنه إذا كان الرسل مُدَّعين فلن يقدَّر لهم النجاح وإن كانوا مؤيدين من الله فلن تقدروا أن تقفوا فى وجوههم. فاستجابوا لدعوته واكتفوا بجلد الرسل وأطلقوا سراحهم ونبّهوا عليهم أن لا يتكلموا باسم يسوع. ولكن الرسل استمروا فى إبلاغ دعوتهم وظلوا يبشّرون بيسوع كل يوم فى الهيكل وفى البيوت.

كان يعقوب قد أخذ مكان القيادة الدينية فى أورشليم وكان من دعاة المسيحية. وكان بولس الرسول قد أخذ على عاتقه الدعوة للمسيحية بين الأمم غير اليهودية. وتولى فيلبس التبشير فى السامرة. وكان بطرس يرى أنه لابد للأُمَمِى أن يختتن ويتهوّد قبل أن يدخل فى المسيحية ومن هنا كان خلافه مع بولس الذى كان يرى أنه لا ضرورة للختان ولذلك سمى بطرس «رسول إنجيل الختان» وسُمِّى بولس «رسول إنجيل الغرلة» وسيجيء تفصيل ذلك فيما بعد (ص ١٢٠).

وسافر بطرس إلى أنطاكية وكورنثوس. وانتهى به المطاف إلى روما حيث سجن. ومن سجنه فى روما أرسل رسالتين إلى المسيحيين الأوائل:

١ – كانت **رسالة بطرس الأولى** موجهة إلى المسيحيين فى بابل وهى المدينة فى وسط العراق وإن كان البعض يرى أنها مدينة بابلون بمصر القديمة الآن. وأهم النقاط التى تضمَّنتها هى :

أ – دعوة إلى الأمن والاطمئنان بالرغم من الاضطهاد.

ب – الإيمان بقيامة المسيح بعد صلبه.

حـ – الحث على المحبَّة للإخوة المسيحيين.

د – احترام قواعد المجتمع عملا بقول المسيح «اعطوا ما لقيصر لقيصر».. إلاَّ أنه حبَّذ المقاومة عند ادعاء القياصرة لأنفسهم حقا من حقوق الله.

هـ – كان العالم القديم يضع النساء والعبيد فى صف «الكائنات المرؤوسة». وراح بطرس

يُشَدِّد على المساواة الروحية بين الرجل والمرأة بوصفهما وارثين معا للبركات الإلهية ولكنه يحافظ على وجوب خضوع المرأة لزوجها وفى نفس الوقت يدعو كل زوج لمعاملة زوجته «بكرامة وبرحمة».

٢ – أمَّا رسالة بطرس الثانية فقد كانت موجَّهة إلى المسيحيين فى آسيا الصغرى. وأهم النقاط التى جاءت بها هى:

أ – وجوب أن يتسلح المبشِّر بالإيمان حتى يستطيع أن يرد على التعاليم الكاذبة التى يروِّجها أعداء المسيحية. ومن هذا الإيمان يصل إلى التقوى ويستزيد نُمواً روحيا مما يعطيه قوة ضبط النفس والتعفف.

ب – تنبأ بطرس بقرب نهايته ولكنه أوضح أن الموت ماهو إلا خروج من هذا الوجود للدخول فى ملكوت السموات.

حـ – حذَّرهم من الأنبياء الكذبة.

د – التذكير بعودة المسيح.

هـ – عدم استعجال وعود الرب. وقال لهم: «إن يوما واحدا عند الرب كألف سنة وألف سنه كيوم واحد. لا يتباطأ الرب عن وعده كما يحسب قوم التباطؤ لكنه يتأنَّى علينا. وهو لا يشاء أن يَهلك أناس. بل أن يُقبل الجميع إلى التوبة».

ثم بدون تفاصيل تذكر المراجع التاريخية أن بطرس بعد أن سُجن فى روما تم صلبه.

بولس الرسول

يُعتبر بولس الرسول من أشهر رجالات الكنيسة المسيحية على الإطلاق إذ عمل على نشر رسالة السيد المسيح وتعاليمه فى كافة أرجاء الامبرطورية الرومانية فى القرن الأول الميلادى. وينتمى بولس إلى سبط بنيامين الذى اشتهر بتعصبه. وقد ولد من أبوين يهوديين فى مدينة طرسوس التى تقع فى مقاطعة كليكيليا بآسيا الصغرى أيام حكم الإمبراطور الرومانى أوغسطس قيصر وكان متمتعا بالرعوية الرومانية.

كان اليهود تحت حكم الرومان ينتظرون مجىء المسيح الموعود أو «المسيا المنتظر» الذى أشارت إليه نبوءات العهد القديم. وكان الاعتقاد السائد عند اليهود أن المسيا (المسيح) المنتظر سيكون ملكا أرضيا يملك عليهم ويخلِّصهم من ظلم الرومان ويمنحهم الغلبة والانتصار على أعدائهم.

وُلد بولس - أو شاول كما كان اسمه الأصلى - تقريبا فى نفس الوقت الذى ولد فيه المسيح. وكان شاول ابن رجل يهودى ينتمى إلى طائفة الفريسيين المعروفة بتعصبها والمتمسكة بتعاليم وتقاليد الشريعة اليهودية. وكانت هذه الطائفة تنظر باحتقار لغير اليهود ولكل من لا ينتمى إليها. ونذرته أمه لخدمة الهيكل وعليه فقد تعلّم من صغره أن يركع ووجهه فى اتجاه أورشليم وأن يتلو صلاة الصبح والمساء التى اعتاد المتدينون من الشعب العبرى تلاوتها. وبعد الدراسة المبدئية درس الشريعة اليهودية وتفقه فى الدين حتى أصبح عضوا فى المجلس الدينى المعروف بمجلس السنهدريم.

وفى سن الثالثة عشرة أُرسل شاول فى صحبة الحجاج الذين اعتادوا الذهاب إلى أورشليم لحضور عيد الفصح بها. وأكمل تعليمه فى مدارس أورشليم. ودرس العهد القديم دراسة وافية وتخرج من المدرسة واجتاز الامتحان الخاص ونال لقب «مُعَلِّم» أو «ربِّى». ولا شك أن شاول قد تعلم أيضا اليونانية وبذلك أتيح له أن يتسلَّح بحكمة اليونان وفلسفتهم وكذلك ألمَّ بتاريخ أمته. ثم عاد شاول إلى طرسوس حيث أصبح صانعا للخيام يتكسَّب من هذه المهنة معيشته وفى نفس الوقت يقوم بالتعليم.

كان شاول يعتبر الشعب اليهودى شعبا مُمَيَّزاً ومختارا. ووعى العذابات التى عاناها فى مختلف العصور. كما كان يضيق بالاحتلال الرومانى لبلاده ويترقب مجيء المسيًا الموعود الذى بشَّرت به نبوءات العهد القديم وتصور - كما تصور غيره من اليهود - أنه سيأتى كملك. مُلكه أرضى. يعطى الغلبة لشعب إسرائيل ويعيد لملكة إسرائيل أمجادها السابقة. وعندما بلغ مبلغ الشباب كان المسيح قد بدأ دعوته وسمع عن معجزاته ولكنه بشَّر بمُلك سماوى ومملكة روحانية. ومن هنا أنكر عليه شاول - كما فعل معظم اليهود - أن يكون هو المسيًّا المنتظر وامتلأ بغضا له وكرها لأتباعه المسيحيين. وبعد أن صُلِبَ المسيح وقام - حسب ما ظهر لهم - وسمع أن بطرس - أحد تلاميذ المسيح - قد حل عليه الروح القدس وراح يعظ الجماهير وأن ٣٠٠٠ شخصا قد اهتدوا به فى يوم واحد. لم يزده ذلك إلا بُغضا لهذا الدين الجديد.

وبعد أن بدأ عدد المسيحيين يزداد ازداد اضطهاد اليهود لهم وألقى القبض على الرسل - كما سبق أن ذكرنا (ص ١١٢) وتمت محاكمتهم أمام مجلس السنهدريم وتم جلدهم والتنبيه عليهم بعدم التبشير باسم المسيح أو الدعوة لتعاليم المسيحية. وكان استفانوس - أحد الشمامسة السبعة - قد بدأ يدعو للمسيحية وحوكم وتم رجمه حتى مات فكان بذلك الشهيد الأول للمسيحية. وكان شاول راضيا عن إعدام استفانوس بل إنه كان على رأس مضطهدى المسيحيين وتشريدهم وقتلهم. وكان يلاحقهم من مدينة إلى أخرى للقضاء عليهم وتهديد أو قتل كل من يؤمن بالمسيح أو يبشِّر به.

وتابع شاول ملاحقته للمسيحيين لقتلهم. وأزمع مطاردتهم فى دمشق فقد بلغه أن عددهم

هناك يتزايد. ولكى يُكسب أفعاله صفة قانونية فإنه طلب من رؤساء الكهنة فى أورشليم أن يُزوِّدوه برسائل إلى رؤساء الجاليات اليهودية فى دمشق تُخوِّل له القبض على من آمنوا بالمسيح وسوقهم إلى أورشليم.

إشراقة الإيمان:

وبينما كان ذاهبا إلى دمشق – وحسبما روى هو بعد ذلك – حدث أن أبرق حوله نور عظيم من السماء – وسمع صوتا يناديه – شاول . لماذا تضطهدنى؟ عندئذ قال شاول وهو يرتعد. وماذا تريد أن أفعل؟ فقال له يسوع. قم وادخل المدينة (أى دمشق) فيقال لك ماذا ينبغى أن تفعل. ويقول الإنجيل إن الرجال المسافرين معه وقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحدا. فنهض شاول عن الأرض وكان مفتوح العينين ولكن لا يُبصر لأن الضوء الشديد قد أعمى بصره (أعمال الرسل ٩ : ٤). وسأل شاول الرب: من أنت وماذا تريد أن أفعل؟ فأجابه يسوع: قم وقف على رجليك لأنى لهذا ظهرت لك لأنتخبك خادما وشاهدا بما رأيتَ وبما سأظهر لك به منقذا إياك من الشعب ومن الأمم الذين أنا أرسلك إليهم لتفتح عيونهم كى يرجعوا من ظلمات إلى نور ومن سلطان الشيطان إلى الله حتى ينالوا بالإيمان بى غفران الخطايا ونصيبا مع المقدَّسين (أعمال الرسل ٢٦ : ١٦).

يعتنق بعض المفكرين الغربيين فكرة أن شاول – الذى تسمَّى باسم بولس – اختلق هذا الحوار مع يسوع وادعى اعتناق المسيحية ليدخل فى الدين الجديد ويسعى إلى تخريبه من الداخل بتحريف تعاليمه ويستدلون على ذلك بأنه هنا قد نصَّ صراحة على أن المسيح هو الرب نفسه مع أن المسيح لم يقل ذلك أبداً. وإن كان قد قال «أبى الذى فى السموات» فقد كان يعنى «ربى الذى فى السموات» كما كان يقول أبوكم الذى فى السموات بمعنى «ربكم» كما أن شاول – أى بولس – هو الذى أدخل التثليث فى العقيدة المسيحية الأمر الذى أثار الخلافات العديدة بين المسيحيين وتحزَّبوا بسببه إلى طوائف عدة كما سيأتى ذكره فيما بعد (ص ١٣٦). بينما يرى فريق آخر أن كل ما أحدثه فى الدين الجديد كان «وحيا» له من الله وأنه كان استكمالا للدين لم يتمكن يسوع من القيام به بنفسه.

نعود إلى شاول الذى تابع سيره إلى دمشق بمساعدة رفقائه لأنه كان فاقد البصر كما ذكرنا. ودخل إلى دمشق – ليس ليضطهد المسيحيين ويقتلهم كما كان يأمل – بل دخلها – كما يقول مفسِّرو الكتاب المقدس – ذليلا أعمى وطلب من مرافقيه أن يقودوه إلى بيت يهوذا وهو أحد المؤمنين بالمسيحية فى دمشق ومكث فى بيته ثلاثة أيام.

وكلَّم الرب أحد المؤمنين بالمسيح فى دمشق واسمه «حنانيا» وأمره بأن يذهب إلى بيت

يهوذا ويضع يده على عين شاول لكى يبُصر. وخاف حنانيا لما كان يسمعه من عداوة شاول للمسيحيين . ولكن الرب أخبره أن شاول سيصبح واحدا من المؤمنين بيسوع والمبشرين به. فمضى إليه فى بيت يهوذا ووضع يديه عليه وقال (أعمال الرسل ٩ : ١٣): أيها الأخ شاول قد أرسلنى الذى ظهر لك في الطريق الذى جئت فيه لكى تبُصر وتمتلىء من الروح القدس. فللوقت وقع من عينيه شيىء كأنه قشور فأبصر فى الحال وقام واعتمد ودخل فى المسيحية. ويعتقد المسيحيون أن اهتداء شاول يعد ثانى حدث هام بعد قيامة المسيح. وبعد أن أصبح شاول مسيحيا تغير اسمه إلى «بولس» وبدأ يمهِّد نفسه للتبشير بالمسيح.

رأى بولس – بعد أن اهتدى إلى المسيح – أنه لابد أن يقضى فترة من الوقت فى خلوة روحية يُعدُّ نفسه فيها للمهمة العظيمة الملقاة على عاتقه ، لذلك ذهب إلى «أرابيا» أى العربية وهى المنطقة الممتدة من شبه الجزيرة العربية حتى الفرات شمالا – وهى حاليا صحراء العراق – وأمضى هناك ٣ سنوات عاد بعدها إلى دمشق ليواجه اتهام اليهود له بأنه مارق عن الدين اليهودى وتآمروا عليه ليقتلوه ولكن الجماعة المسيحية ساعدته على الهرب من دمشق. وسافر بولس إلى أورشليم وقابل بطرس الرسول ومكث عنده ١٥ يوما.

بعد ذلك حاول بولس الاتصال بباقى الرسل ولكنهم خافوا منه ولم يصدِّقوا أنه أصبح مسيحيا وظنوا أنه يتظاهر بالمسيحية ليندس بين المسيحيين ويتعرف عليهم لينكِّل بهم فيما بعد. ولكن برنابا – أحد المؤمنين – أحضره إلى الرسل وأكد لهم صدق إيمانه. وراح بولس يجاهر ويبشر باسم يسوع وكان يناقش اليهود اليونانيين الذين ساءهم اعتناقه للمسيحية فحاولوا قتله ولكن المسيحيين هرَّبوه إلى ميناء قيصرية ومن هناك سافر إلى طرسوس مسقط رأسه.

بولس ومبادىء المسيحية :

يرى بعض علماء الغرب أن بولس لما بدأ تبشيره بالمسيحية ولمس عدم إيمان اليهود بأن المسيح هو المسيا المنتظر ورغبة منه فى نشر الدين المسيحى ولأجل فتح الباب أمام جميع الشعوب لتدخل فى المسيحية فإنه أدخل الى المسيحية بعض الأفكار التى استمدَّها – كما يقول «ويلز» – «من الثقافات الأجنبية والديانات المجاورة» فقال إن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب بل إنه «ابن الله» نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قربانا ويصلب تكفيرا عن خطيئة البشر. فموته كان تضحية. ويقول «بيرى» إن بولس هو مؤسس المسيحية وقد أدخل على الديانة بعض تعاليم اليهود ليجذب له العامة من اليهود. كما أدخل صورا من فلسفة الإغريق ليجذب أتباعا له من اليونان. فبدأ يذيع أن عيسى منقذ ومخلِّص وسيد استطاع الجنس البشرى بواسطته أن ينال النجاة (الأديان والمذاهب. العميد محمد عبد الرزاق محمد أسود.

ص ٢٠٩). وبهذا أدخل بولس إلى المسيحية المبادىء الأساسية التالية:

١ – التثليث : ألوهية الآب وألوهيه المسيح وألوهية الروح القدس.

٢ – فداء المسيح بنفسه للتكفير عن خطيئة البشر.

٣ – عدم ضرورة الختان إذ لا يشترط للأممى (غير اليهودى) أن يتهوَّد قبل أن يصبح مسيحيا بل يمكنه أن يصبح مسيحيا مباشرة.

وبهذه المبادىء أصبحت المسيحية «ديانة جديدة» تختلف كلية عما نادى به المسيح. ولكنها فى هذه الصورة لاقت قبولا لدى الأمم (غير اليهود) وبدأ الكثيرون – وخاصة فى الغرب – فى اعتناقها. واستمر بولس بعد ذلك ١٤ سنه يدعو للمسيحية وشيَّد عددا من الكنائس.

بولس ينشر المسيحية في آسيا الصغرى :

بدأ بولس يكرز بالمسيح فى بلدة طرسوس. ثم جاءه برنابا موفدامن قبل الرسل فى أورشليم ليذهبا معا إلى أنطاكية لنشر المسيحية فيها وكانت فى ذلك الوقت تضم عددا غفيرا من السكان قُدِّر بنصف مليون نسمة وبذلك كانت ثالث مدينة فى تعداد السكان بعد روما والإسكندرية. وكان أهلها من الوثنيين. وكان الدين المسيحى قد بدأ ينتشر بينهم عن طريق الأفراد المسيحيين الذين هربوا من الاضطهاد فى فلسطين. ولما وصل بولس وبرنابا خطبوا فى الجموع حاثين على زيادة الخضوع للرب والولاء للمسيح ومكث بولس وبرنابا فى أنطاكية مدة سنة تزايد فيها عدد المؤمنين زيادة كبيرة. ورأى برنابا أن بولس هو خير من يرعى هذه الجماعة المسيحية ويقوم على شؤونهم فعينه راعيا لهم. وحدث أن حلت مجاعة كبيرة فى إقليم اليهودية بفلسطين لقلة الأمطار. فأسرع أهل أنطاكية بتقديم المعونات الغذائية لإخوانهم فى فلسطين.

بعد أن انتشرت المسيحية بين الأمميين (غير اليهود) فى أنطاكية عاد بولس وبرنابا إلى أورشليم وكرَّزهم باقى الرسل بأن وضعوا أيديهم عليهم وكانت هذه طريقتهم فى أخذ العهد عليهم لنشر الدين الجديد. بعد ذلك سافر بولس وبرنابا إلى قبرص ونزلا فى مدينة سلاميس الواقعة على الطرف الشرقى للجزيزة وبشرا هناك. ثم انتقلا إلى بافوس فى غرب الجزيرة. وهى مركز السلطة الرومانية فى الجزيرية. ورغب الوالى الرومانى سرجيوس فى سماع ما يبشران به فدعاهما إلى قصره. وكان هناك يهودى ساحر ادَّعى النبوة وكان يفتن الناس بسحره. فلما رآه بولس عرف كذبه وقال له (أعمال الرسل ١٣ : ١٠): أيها الممتلىء كل غش وكل خبث. يا ابن إبليس. يا عدو كل برّ. ألا تزال نفسك تُفسد سبل الله المستقيمة؟ فالآن هو ذا يد الرب عليك فتكون أعمى لا تبصر الشمس. وفى الحال فقد الساحر بصره. ولما رأى

الوالى الرومانى هذه المعجزة تحدث أمامه آمن واعتنق المسيحية وانتشرت المسيحية فى الجزيزة كلها.

بعد ذلك سافر بولس وبرنابا إلى مدينة أنطاكية بيسيديه فى آسيا الصغرى ثم إلى إيقونية ثم لسترة ثم درنة (شكل ١٣) وفى كل مكان كان كثيرون يؤمنون بالمسيحية ولكن اليهود كانوا يحرِّضون غير المؤمنين على إيذاء الرسل وإهانتهم فيضطرون إلى ترك البلدة إلى بلدة أخرى. وأخير عادا إلى أنطاكية فى سوريا وأمضيا فيها حوالى العام.

بعد عودة بولس وبرنابا إلى أنطاكية نشط الداعون لليهودية فى جلاطيا وراحوا يحثون الأمميين الذين اعتنقوا المسيحية على ضرورة الختان وممارسة الناموس الطقسى الموسوى ليكون إيمانهم بالمسيح كاملاً. وبدأ عدد من المسيحيين يستجيب لهذه الدعوة. وجاءت الأنباء إلى بولس فى أنطاكية بأن هؤلاء اليهود يخلعون على دعوتهم صفة «إنجيل الناموس». أو «إنجيل البشارة» لمحاربة الإنجيل الذى ينادى به وهو «إنجيل النعمة» أو «إنجيل المسيح» أو «إنجيل الله» الذى يدور حول نعمة المسيح. فكتب بولس رسالة عاجلة إلى أهل جلاطيا تعتبر من الوثائق الهامة فى إرساء تعاليم المسيحية كما فهمها بولس أو كما قال إنه تلقاها وحيا من الرب أى من المسيح مباشرة وليس عن طريق الرسل الذين اختارهم المسيح فى حياته. وفى هذه الرسالة أكَّد على ألوهية المسيح وأوضح أن الآب أرسل ابنه المسيح فى صورة بشرية حتى يصلب فيكون صلبه كفَّارة عن خطيئة آدم الأولى التى وصمت البشرية منذ نشأتها. ومن خلال الإيمان بهذا الفداء يتطهَّر الإنسان من الخطايا. وطلب منهم أن لا يستجيبوا بل ويلعنوا كل من يبشرهم بغير هذه المبادىء. ثم شرح لهم خلافه مع بطرس. ذلك أن بطرس ينادى بضرورة الختان لأنه أؤتُمِن على «إنجيل الختان» أما بولس فقد أؤتمن على ما أسماه «إنجيل الغرلة».

نقطة أخرى من نقاط الخلاف بين الرسولين كانت حول مشاركة الأمميين فى المائدة الواحدة وكان اليهود يضعون الكثير من القيود فى مسألة مشاركة الطعام مع الأمميين غير اليهود. فاليهودى المختتن يرفض مشاركة الأممى الأغلف الطعام. لأن الختان كان علامة على الطاعة للناموس الموسوى. ولكن جاءت المسيحية ودعا الإنجيل إلى أن الإنسان يخلص بالخضوع لناموس المسيح وأن الأمميين الذين يعتنقون المسيحية ينالون إيمانا واحدا مساويا لإيمان إخوتهم فيكون الكيان المسيحى جسداً واحدا. وهكذا راح بولس يدعو إلى مشاركة الأمميين لطعامهم.

شكل ١٣ – مسيرة بولس في آسيا الصغرى.

المؤتمر الكنسى الأول :

وحدثت منازعات ومخاصمات بين الفريقين. وعقد اجتماع فى أورشليم بين بولس الرسول وبين الكهنة اليهود وشيوخهم ونادى الفريسيون بأنه يجب على المسيحيين أن يختتنوا ويحفظوا ناموس موسى ورد بولس بأن أركان الشريعة الموسوية وطقوسها كانت عبئا على المؤمنين لم يستطع الناس أن يتحملوها وجاء المسيح ليخفف عن الناس ويمنحهم الخلاص وانتهى الرأى بالموافقة على ما قال به بولس. وفقط على المسيحيين من الأمم أن يمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا.

وبعد هذا المؤتمر ثبت مركز بولس كمبشر بالمسيحية بين الأمميين أى غير اليهود وعاد بولس وبرنابا إلى أنطاكية يقويان إيمان المسيحيين بها ويحثانهم على عدم الاستماع إلى الدعاة اليهود.

بولس ينشر المسيحية فى اليونان :

بعد أن عاد بولس وبرنابا إلى أنطاكية افترقا. فسافر برنابا إلى قبرص آخذا معه ابن أخته «مرقس» بينما أخذ بولس معه رسولا آخر هو «سيلا» وخرج من إنطاكية فى رحلته الثانية قاصدا بلاد اليونان لنشر المسيحية بها (شكل ١٤).

فى الطريق إلى اليونان كان عليه أن يعبر آسيا الصغرى فزار المدن التى كان قد بشَّر فيها بالمسيحية فى رحلته الأولى - ليُقوِّى من إيمان المسيحيين بها ويشد من أزرهم. فزار مدن دربة ولسترة وأنطاكية بيسيدبه ثم ميسيا ثم تراوس (وهى جنوب مدينة طروادة بمسافة قليلة). ثم عبر البسفور إلى بلاد اليونان. وكان يرافقه أيضا لوقا (كاتب إنجيل لوقا) وزارا سامو تراكى ثم نياپوليس وهى ميناء مدينة فيلبى وكلها مدن فى مقدونيا التى كانت مقاطعة رومانية.

وفى فيلبى أمسك الأهالى ببولس وسيلا وأحضروهما أمام الحاكم الرومانى ووجَّهوا إليهما الاتهام بأنهما يهوديان يزعجان المدينة ويناديان بتعاليم غريبة وأنهما يدعوان إلى دين جديد. فأمر الوالى الرومانى بضربهما بالعصى وألقاهما فى السجن ووُضعت أرجلهما فى قالب ثقيل من الخشب حتى لا يهربا. وحدث فى الليل زلزال شديد فخاف السجَّان ولجأ إلى بولس يسأله عما يفعل لكى يخلُص لما لاحظه عليه من صلاح وتقوى. فدعاه بولس إلى الإيمان بالمسيح ربًا ومُخلصا. فآمن هو وأهل بيته. وأخرج بولس من قيده ومن السجن وأخذه إلى بيته وأكرمه وأطعمه. وأخبر الحاكم أن بولس ورفيقه يتمتعان بالرعوية الرومانية فأطلق سراحهما وطلب منهما الخروج من المدينة بعد أن آمن عدد كبير من أهل فيلبى.

بعد ذلك سار بولس إلى تسالونيكى. وهى تقع بالقرب من جبل أوليمبس وكان بها مجمَّع

شكل ١٤ – بولس ينشر المسيحية فى اليونان.

لليهود. وذهب بولس إلى المجمع وتناقش مع اليهود وبيَّن لهم أن المسيح الذى من الناصرة والذى صُلب كان هو المسيًا المنتظر والموعود. فآمن عدد كبير من اليهود. ولكن الذين لم يؤمنوا ألَّبوا عليه الجموع فاضطر هو ورفيقه لوقا إلى ترك المدينة وذهبا إلى بيرية وهناك آمن كثير من الأمميين. ثم توجَّها إلى أثينا.

كانت أثينا هى العاصمة الفكرية للعالم القديم وفيها المذابح والهياكل وتماثيل الآلهة المختلفة منتشرة فى كل مكان. فغضب بولس ودخل المجمَّع اليهودى وأخذ يوبِّخ الكنهة على تركهم الناس فى هذا الضلال واحتج على وضع بعض الأصنام فى الهيكل وراح يدعو الجميع إلى المسيحية. فآمن به عدد كبير من اليهود وغير اليهود.

ثم توجَّه بولس إلى كورنثوس وكانت المدينة يؤمها تجار وجنود مسافرون إلى مختلف البلدان وكانت مملوءة بالرذائل والفساد منتشر وتنشط بها تجارة الرقيق من أسرى الحروب والمخطوفين. وكان الظلم منتشرا والربا هو القاعدة فى التعامل. وتوجَّه بولس إلى المجمَّع اليهودى فى كورنثوس وراح يجادل زعماء اليهود وشيوخهم على مسمع من الشعب. فآمن بالمسيحية عدد كبير من اليهود ومنهم رئيس المجمَّع ولكن باقى اليهود قاوموا دعوته فتركهم وراح يبشِّر بين الكورنثيين فآمن به عدد كبير. وتضايق اليهود من انتشار المسيحية فى البلدة فاشتكوا إلى الوالى الرومانى الذى قال لهم: «لو كان الأمر ظلما أو خبثاً ردياً لكنت بالحق قد حكمت بينكم. ولكن إذا كان مسألة عن كلمة وأسماء وناموسكم فأنتم أبصر بها لأنى لست أشاء أن أكون قاضيا لهذه الأمور». وحتى عندما ضرب اليهود رئيس المجمَّع الذى اعتنق المسيحية لم يشأ الوالى الرومانى أن يتدخل فى الأمر.

بعد ذلك ترك بولس كورنثوس وذهب إلى إفسس. ولم يمكث بها طويلاً: ثم عاد إلى أنطاكية ماراً بها وهو فى طريقة إلى أورشليم ليحضر عيد العنصرة بها.

رحلة بولس التبشيرية الثالثة والأخيرة :

قام بولس بهذه الرحلة فى عام ٥٣م. فقد توجَّه من أنطاكية إلى إفسس. وراح يُقوِّى من إيمان المسيحيين بها. وكان بالمدينة رجل يصنع تماثيل من الفضة للإلهة «ديانا» المعبودة فى هذه المنطقة. وخشى من انتشار المسيحية فتبور تجارته. فاشتكى على المبشرين بالمسيحية وألقى القبض على اثنين من تلاميذ بولس الذى كان قد ترك المدينة. ودافع كاتب المدينة عن المقبوض عليهما بأنهما لم يسرقا الهيكل ولا جدَّفا على الآلهة فتركوهما.

كان بولس قد توجه إلى كورنثوس والتى كان قد بشَّر فيها أثناء رحلته الثانية فراح يشدُّ من عزائم المسيحيين بها. ومن كورنثوس أرسل رسالة إلى أهل روما يشرح لهم فيها مبادىء

المسيحية ويدعوهم إلى الإيمان بالمسيح ربًّا وفاديا ومخلِّصا. وأوضح أن البشر جميعا متساوون لا فرق بين يهودى وأممى وسيد وعبد وشجب نظرة التعالى لدى اليهود. وتعتبر رسالة بولس إلى «رومية» أى روما من الوثائق الهامة فى الفكر المسيحى لما بها من شرح لمبادئ المسيحية وفلسفتها.

بعد ذلك سافر بولس إلى **مالطة** يبشر بها ثم عاد إلى **فيلبى** ثم إلى **تراوس** فى آسيا الصغرى، ثم زار **أفسس** ثانية، ثم سافر إلى **جزيرة رودس**. وبعد أن بشَّر بها استقل سفينة متجهة إلى الساحل الشرقى للبحر المتوسط ونزل فى **صور** بهدف السفر برا إلى أورشليم. وحاول المسيحيون فى **صور** أن يثنوه عن السير إلى أورشليم حتى لا يتعرَّض لمؤامرات اليهود. ولما مر على **ميناء قيصرية** حاول المسيحيون بها أيضا إثناءه عن الذهاب أورشليم ولكنه قال لهم: «إنى مستعد لأن أوثق فى أورشليم وأموت هناك لأجل اسم الرب يسوع» وكان جوابهم «لتكن مشيئة الرب» فسار بولس ورفاقه إلى أورشليم (شكل ١٥).

بولس فى أورشليم :

فى أورشليم التقى بولس بيعقوب راعى الكنيسة المسيحية بها والتقى أيضا بشيوخها وحدثهم بكل ما فعله وبأن كثيرا من الأمم قد اعتنقوا المسيحية.

وبدأ اليهود يهيجون المشاعر ضده قائلين إن بولس يحرِّض اليهود الذين يعيشون خارج فلسطين على أن يعصوا شريعة موسى، ودبَّروا مؤامرة للإيقاع به. وكانت الحيلة هى أن طلبوا منه أن يأخذ أربعة من المسيحيين اليهود ويرافقهم إلى الهيكل ويدفع عنهم النفقات المترتبة عليهم للوفاء بنذور كانوا قد نذروها حسب الشريعة الموسوية. وحتى يُبعد عن نفسه تهمة أنه ضد الشريعة الموسوية فإنه اصطحب الرجال الأربعة إلى الهيكل. ولما رآه اليهود أهاجوا عليه الشعب قائلين إنه أدخل يونانيين إلى الهيكل فدنَّسه. وهجم عليه جمهور كبير فأخرجوه من الهيكل وسط فوضى كبيرة وهرج عظيم. وعلم القائد العام للحامية الرومانية فى أورشليم بالشغب الذى حصل فأسرع رجاله لإخماد الثورة والقبض على المشاغبين. وتم القبض على بولس ووُضعت القيود فى يديه ونُقل إلى قلعة الحامية العسكرية. وفيما هو على سلم القلعة وقف وراح يبشر بالمسيح فهاج المحتشدون وراحوا يلقون الغبار فى الجو علامة على عدم الرضا. فأمر القائد الرومانى بأخذ بولس إلى السجن وبدأوا يضربونه. وهنا احتج بولس بأنه يتمتع بالرعوية الرومانية ولا يجوز ضربه دون محاكمة فأمر القائد بإخلاء سبيله.

وأمر القائد الرومانى بعمل مناظرة بين أعضاء مجلس السنهدريم وبين بولس وراح بولس يشرح تعاليم المسيحية. واتهم المجلس بولس بأنه يُجدِّف ويدعو إلى إلغاء ناموس موسى.

شكل ١٥ – رحلة بولس التبشيرية الثالثة.

وضاق اليهود ببولس وأزمعوا قتله. وعلم القائد الرومانى بما ينتويه اليهود فقام بنقله تحت حراسة مشددة إلى ميناء قيصرية وهناك سُلِّم إلى الوالى الرومانى. وتعقبه اليهود واتهموه فى المحكمة بتهمة الفساد وتهييج الشعب وإحداث فتنة طائفية بدعوته إلى يسوع الناصرى وبتدنيس الهيكل. وظل بولس سجينا فى سجن قيصرية إرضاء لليهود لمدة سنتين . ثم تولى والى جديد فى قيصرية فأعاد محاكمة بولس. وفى النهاية طلب بولس رفع دعواه إلى قيصر روما. فقرر الوالى إحالة القضية إلى مجلس القضاء الأعلى فى روما.

النهاية فى روما :

استغرق الوصول إلى روما عدة أشهر إذ كان البحر هائجا واضطروا إلى النزول فى **مالطا** وقضاء أشهر الشتاء الثلاثة بها ثم أقلعوا إلى صقلية ثم نزلوا فى إيطاليا وساروا برا إلى **روما**. وفى روما قابله المسيحيون بالترحاب والتعظيم وظل مقيما فى بيت فى روما. ولكنه فى الحقيقة كان سجينا إذ كان مربوطا بسلسلة طويلة تنتهى بأحد الحراس. ولكنه حر فى مقابلة من يشاء. وظل بولس هكذا مدة سنتين داوم فيها على الدعوة للإيمان بالمسيح ربا ومخلِّصا.

كان الرقيق فى الإمبراطورية الرومانية قد وصل إلى أسوأ حالاته. فكان ما يربو على نصف سكان الامبراطورية من العبيد المحرومين من حقوقهم الشرعية وقد وجدت المسيحية فى العبيد أرضا خصبة إذ أن تعليم بولس كان يقول: «ليس يهودى ولا يونانى. ليس عبد ولا حر. ليس ذكر أو أنثى.لأنكم جميعا واحد فى المسيح يسوع».

ومن روما أرسل بولس رسائل إلى المسيحيين فى البلاد المختلفة التى بشَّر بها. ولكن رسالته الأخيرة كانت إلى العبرانيين – وهم اليهود الذين اعتنقوا المسيحية لأنهم كانوا على وشك الارتداد والرجوع إلى الديانة اليهودية. وكان اليهود نشطين فى الدعوة المضادة للمسيحية فى كنائس روما. وأخيرا نجح اليهود فى تقديم بولس إلى المحاكمة كمجرم. وكان قيصر روما فى ذلك الوقت هو نيرون. وشب حريق هائل أحرق روما واتُّهم المسيحيون بأنهم هم الذين قاموا بإشعال الحريق وبدأت سلسلة من التنكيل بالمسيحيين وقتلهم وحكم على بولس بالإعدام. وأُخذ خارج أسوار المدينة ونُفذ فيه الحكم بفصل رأسه عن جسده بضربة سيف. كان ذلك حوالى عام ٦٧م.

الفصل الحادى عشر

اليهود والمسيحيون تحت حكم الرومان

ذكرنا سابقا (ص ٨) أن الرومان كانوا يتبعون سياسة محايدة بين الطوائف اليهودية المتصارعة فى فلسطين. رغبة من الرومان فى النأى بأنفسهم عن التدخل فى الأمور الدينية. إلا أنه عندما دخل يسوع مع أتباعه أورشليم فى شبه مظاهرة كبيرة ومع انتشار النبوءة بأن المسيح المنتظر سيعيد لليهود دولتهم - فإن الرومان خضعوا لتحريض الكهنة اليهود فقبضوا على يسوع وتمت محاكمته وصلبه أو فى الحقيقة صلب شبيهه كما سبق أن ذكرنا (ص ١٠٤).

وعمت القلاقل والفوضى فلسطين من كل جهة: صراعات بين طائفة اليهود المتعاونة مع الرومان وهم الصدوقيون. والطبقة العامة من اليهود الداعين إلى التمسك بالسُنَّة الموسوية وعدم الخضوع للدول الوثنية. فضلا عن الصراع بين اليهود من ناحية والفلسطينيين من ناحية أخرى. وظهرت أعمال لصوصية فدائية. ومن أشهر هؤلاء الإرهابيين اللصوص باراباس الذى أُطلق سراحه بدلاً من يسوع بناء على طلب اليهود والذى قاد ٤٠٠ من أتباعه إلى نهر الأردن مُدَّعيا أنه سوف يشق النهر إلى قسمين مثل ما فعل موسى. وآخر كان يهوديا مصريا جمع أتباعه فوق جبل الزيتون معلنا أن أسوار أورشليم سوف تنهار فوق رؤوس اليهود. وكان الهدف هو إثارة الذعر وإفساد السلام. وحتى هذه الأعمال لم تبلغ الدرجة التى تثير مخاوف الدولة الرومانية إذ نظروا إليها على أنها خلافات محلِّية.

وكان أتباع المسيح قلة مستكينة لا يشكلون أى خطورة. ولكن عندما بدأ الرسل يبشرون بالمسيحية. وخاصة بولس الذى بشر بها بين الشعوب غير اليهودية وأنشأ الكنائس فى آسيا الصغرى واليونان. بدأ عدد المسيحيين يتزايد ولكن مبادئهم المسالمة لم تثر قلقا لدى السلطات الرومانية.

ولما تولى الإمبراطور كاليجولا السلطة فى روما أدى إصراره على إلزام الشعوب الخاضعة له على اعتباره ربا فى صورة البشر إلى نشوب الخلاف بينه وبين اليهود الذين كانوا قد أُعفوا من هذا الإلتزام. وقامت حوادث شغب فى مدينة الاسكندرية حيث كانت تعيش جالية يهودية كبيرة كانت - لنشاطها الاقتصادى - مستولية على اقتصاد المدينة ولذلك كانت مكروهة من المصريين الذين أرادوا إظهار عدم ولاء اليهود بطريقة عملية. إذ دعوهم لتنفيذ أمر الإمبراطور بعبادته فلما رفض اليهود اقتحمت الغوغاء معابد اليهود وأقاموا فيها تماثيل الامبراطور بالقوة

ولما قاومهم اليهود اتهموهم بعدم الولاء للإمبراطور ومن ثم راحوا يهاجمون منازلهم وينهبون متاجرهم وأحياءهم. وأسقط فى يد الوالى الرومانى واضطر إلى مجاراة المصريين بأن أصدر منشورا نزع من اليهود كافة الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها فبدأ اليهود يتركون الاسكندرية. ولجأ اليهود إلى إرسال وفد إلى الإمبراطور كاليجولا. ولكن صادف حظ اليهود التعس أن قام بعض اليهود بتدمير معبد أقيم للإمبراطور فى قيصرية فاستشاط الامبراطور غضبا وبعث إلى حاكم سوريا يأمره بتنصيب تمثال له فى قلب المعبد الكبير فى أورشليم.

وفى عام ٤١م تم اغتيال كاليجولا وعُيِّن أوغسطس امبراطوراً. وتوفى هذا الأخير عام ٥٤م وتولى بعده الحكم نيرون.

اضطهاد المسيحيين :

كانت أعداد المسيحيين تتزايد بفضل رحلات التبشير التى قام بها بولس ورسائله التى كان يبعث بها إلى أهالى البلدان المختلفة. وأدرك الأباطرة أن المسيحيين يؤمنون بإله فى السموات وأن يسوع هو ابن الله ولذلك فهم يرفضون دعاوى تأليه الأباطرة وهذا ما أثار حفيظة الرومان عليهم. وفى عام ٦٤م شب فى روما حريق مروع استمر ستة أيام وأتى على شطر كبير من المدينة. وكان نيرون فى ذلك الوقت فى قصر له فى إحدى ضواحى روما وبعد أن توقفت النيران فى اليوم السادس شب حريق جديد أتى على البقية الباقية من بيوت روما القديمة. وقد اتُّهم الإمبراطور نفسه بأنه هو الذى أشعل الحريق الثانى ليتخلص من هذه الأحياء الفقيرة القذرة. وبدوره فإن نيرون وأعوانه ألصقوا تهمة إشعال الحريق الأول بالمسيحيين. ويرى البعض أن اليهود كانوا وراء إلصاق هذه التهمة بالمسيحيين. وقُدِّم المئات من المسيحيين إلى المحاكمة وأُنزلت بهم عقوبات قاسية وصلت إلى حد الإعدام. وقد سبق أن ذكرنا أن بولس الرسول كان فى روما فى ذلك الوقت وقد تم إعدامه فى موجة اضطهاد المسيحيين هذه. وكذلك أعدم القديس مرقس الذى كان قد وصل إلى الإسكندرية ليبشر بها.

ثورة اليهود الكبرى فى فلسطين :

فى عام ٦٦ ميلادية صادر الحاكم الرومانى لفلسطين ١٧ تالنتا من خزائن المعبد الكبير فى أورشليم (التالنت أكبر وحدة موازين فى ذلك الوقت وكانت تستعمل لوزن الذهب والفضة والحديد والبرونز. وقدَّرها البعض بأنها تساوى ٩٣,٥ رطلا وإن كان البعض قرَّبها إلى ١٠٠ رطل – قاموس الكتاب المقدس. أونجر. ص ٨٤٤). مقابل متأخرات الضرائب المفروضة على اليهود. وعارض اليهود هذا الإجراء وتمثلت معارضتهم فى رفض تقديم الأضاحى فى هيكل

أورشليم من أجل سلامة الإمبراطور. ثم سرعان ما تحول هذا الرفض إلى ثورة ضد الرومان تولى قيادتها كهنة اليهود وأحبارهم. وفى عام ٦٧م أرسل نيرون الجنرال ڤاسباسيانوس لإخماد الثورة. فبدأ فى تطهير جيوب المتمردين واحدا بعد الآخر ثم حاصر أورشليم. وجاءته الأنباء بأن نيرون قد انتحر وأن جنرالات روما يتنازعون على العرش. إذ تولى الحكم جاليا ٨ أشهر ثم أوتو ٤ أشهر ثم ڤيتلليوس ٨ أشهر. وعاد ڤسباسيانوس وعُيِّن امبراطورا وفوَّض ابنه تيتوس لوضع حد لثورة اليهود فى فلسطين. وفى عام ٧٠ ميلادية قام تيتوس بتشديد الحصار حول قلعة أورشليم ودمَّر الأسوار الثلاثة التى كانت حولها واقتحم المدينة وهجم على الهيكل وأحرقه ودمَّره تماما وأمر بحل التنظيمات السياسية والدينية وفرض على اليهود ضريبة الرأس السنوية ومقدارها ديناران رومانيان تدفع لحساب معبد چوبيتر الكابيتولى رب الرومان إمعانا فى إذلال اليهود. وحمل كنوز معبد أورشليم لتعرض فى روما بمناسبة هذا الانتصار. وحرَّم الرومان على اليهود الاقتراب من أورشليم أو من أطلال معبدها وظل هذا الحظر قائما لمدة ستين عاما لكن بعض اليهود كانوا يتسللون خفية للبكاء على قدس الأقداس.

ثورة اليهود الثانية :

قرر الامبراطور هادريانوس بناء مدينة رومانية مكان أورشليم تقام للإله چوپيتر الكابيتولى ويتوسطها معبد كبير يوضع فيه تمثال كبير لچوبيتر وقد أثارت هذه النية غضب اليهود فقاموا عام ١٣٣م بثورة ثانية تزعمها حاخام يهودى ادعى أنه المسيح المنتظر وأنه جاء ليحرِّر اليهود من الرومان الوثنيين. وانتشرت الثورة إلى يهود قبرص ومصر وبلاد ما بين النهرين أيضا. وأرسل الامبراطور جيشا تمكَّن فى عام ١٣٥م من قمع الثورة بعنف دموى إذ بلغ عدد اليهود الذين لقوا حتفهم فى هذه الحرب ما يقرب من ١/٢ مليون يهودى وأُسِر ما يقرب من هذا العدد أيضا (تاريخ الإمبراطورية الرومانية سيد أحمد على الناصرى. ص٢٤٥). ودُمِّر ما كان قد بقى من أطلال أورشليم وتفرق اليهود تاركين فلسطين وهاجر بعضهم إلى الحجاز واليمن ومصر وتناقص عدد اليهود فى فلسطين كثيرا حتى كاد أن ينقرض تماما.

كتابة الأناجيل :

الإنجيل هو اسم الكتاب المقدس الذى أنزل على عيسى عليه السلام. وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم عدة مرات:

«يُعلِّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل». (٤٨ – آل عمران).

«وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدِّقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقًا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين» . (٤٦ – المائدة).

«ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل». (٢٧ - الحديد).

وقالوا إن الإنجيل وفى الانجليزية Gospel مشتق من دمج كلمتى Good spell ومن ثَّم قالوا إن تعريف الإنجيل هو «الأخبار السارة» أى «البشارة» وهو يتحدث عن «أقوال يسوع وأفعاله». ويرى بعض العلماء أن الأناجيل عبارة عن تجميعات لموضوعات متواترة تناقلها المسيحيون الأوائل شفاها ثم كتبت فيما بعد وصُنِّفت لتحقيق مطلب الكنيسة فى التهذيب والعبادة والدفاع عن معتقداتها.

وقد كتبت أناجيل عديدة. ولما أريد التمييز بينها كان يُكتب «إنجيل مرقس» أى حسب رواية مرقس أو «إنجيل متى» حسب رواية متى وهكذا. وأقدم الأناجيل لم يكتب أثناء حياة المسيح ولا عقب رفعه مباشرة ولكنه كتب بعد حوالى ٣٥ عاما بعد رفع المسيح. ولعل ذلك يرجع إلى أن المسيحيين الأوائل أو الغالبية العظمى منهم لم يكونوا متعلمين فلم يهتموا بكتابة أقوال المسيح أو أفعاله فور صدورها. كما أن تكاليف الكتابة كانت عائقا بالنسبة للمسيحيين الأوائل الذين كانوا معدمين تقريبا. ويرى بعض العلماء أن ثمة عامل آخر كان له أثره فى عدم كتابة حياة المسيح وتعاليمه فى وقت مبكرٍ ألا وهو تفشِّى فكرة المجئ الثانى أى عودة المسيح ثانية إلى الأرض فى مجده فى وقت قريب. ومن ثَّمَّ كان المزاج النفسى يتركز على انتظار هذا المجئ وتسجيله بدقة أكثر بدلا من التركيز على تسجيل «الماضى». وأخيرا فإن الاضطهاد الذى نزل بالمسيحيين الأوائل على أيدى اليهود الذين حاولوا منعهم من نشر هذه الدعوة الجديدة لم يترك لهم الفرصة لتدوينٍ كامل ودقيق لحياة المسيح وأقواله وأفعاله.

ولكن لما أوشك الجيل الأول الذى عاصر المسيح على الانقراض وتباعَدَ الأمل فى تحقيق المجئ الثانى ظهرت الحاجة ماسة إلى تدوين سيرة المسيح. فقام بهذا العمل الجيل الثانى. وهكذا لم تبدأ كتابة الأناجيل إلا بعد عشرات السنين من رفع المسيح وبعد تشريد أو قتل أغلب تلاميذه أو وفاتهم. وقد ظهرت أناجيل عديدة أحصى أحد الباحثين عددها فوجدها تبلغ ٣٥ إنجيلا. وقد اختير منها أربعة هى ما تتداوله كنائس اليوم. إنجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا. والمرجَّح أن اختيار هذه الأناجيل الأربعة واستبعاد الباقى قد تم فى منتصف القرن الثانى للميلاد. وهناك كتب كثيرة درست الاختلافات بين الأناجيل الأربعة الواردة فى الكتاب المقدس يضيق المجال حتى عن تلخيصها وسنكتفى بإشارة مختصرة عن كُتَّابها :

١ - إنجيل متى :

ومتى هو الوحيد بين كتبة الأناجيل الذى كان حواريا للمسيح. وهو يذكر لقاءه الأول مع المسيح هكذا (متى ٩:٩): «وفيما يسوع يجتاز من هناك رأى إنسانا جالسا عند مكان الجباية اسمه متى فقال له اتبعنى. فقام وتبعه». كما ذكر اسمه ضمن الاثنى عشر حواريا (متى ١٠:٣) ووصف نفسه بأنه «متى العشار». وكان متى قبل أن يتبع المسيح يهوديا. ويرى

المحللون أن خلفيته الثقافية كانت رومانية هيللينية شرقية. وكان يهاجم بعنف الفريسيين وريائهم. كما أنه كان ضد المسيحية المتحررة من قيود الناموس والتى نادى بها بولس. فهو يركز على قول المسيح: «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. بل لأكمِّل. فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (متى ٥:١٨). إلاَّ أن الباحثين المختصين يرون أن متى أسرف فى الاستشهاد بنبوءات العهد القديم وحرص على ربطها بكل ما يتعلق بقصة المسيح منذ ولادته حتى رفعه. كما أنه كان من المؤمنين بتوقع نهاية سريعة للعالم. فهو قد توقع عودة المسيح بعد رفعه بسنوات قليلة قبل أن يكون رسله قد أكملوا التبشير بالإنجيل فى مدن إسرائيل إذ يقول (متى ١٠:٢٣) «فإنى الحق أقول لكم لا تكمِّلون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان». ومن الجلىّ أن هذا لم يحدث كما أن خاتمة الإنجيل مشكوك فى صحة نسبتها إلى المسيح إذ هى تقول: (متى ٢٨:١٩) «فاذهبو وتلمذوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس». وصيغة التثليث هذه لم ترد أبداً على لسان المسيح. بل ظهرت فى وقت متأخر فى عصر الرسل وأول من نادى بها كان بولس الرسول. ويرجِّح كتابة إنجيل متى فى الفترة من ٨٥ – ١٠٥ ميلادية مما يتيح لمن يكتب أن يتأثر بالمعتقدات السائدة فى ذلك الوقت وتجئ كتاباته متأثرة بها. وكان هذا هو الحال مع كتبة الأناجيل الأخرى.

٢ – إنجيل مرقس :

ومرقس هو أحد المبشِّرين السبعين. طاف بكثير من البلاد داعيا للمسيحية ثم استقر بمصر كأسقف لكنيسة الإسكندرية ومات مقتولا. ولم يكن مرقس معاصرا للمسيح ولا تابعا له بل كان تابعا لبطرس وقد كتب إنجيله بالقدر الكافى من الدقة التى سمحت بها ذاكرته عما سمع عن أعمال يسوع وأقواله ولكن دون مراعاة للنظام أو التسلسل التاريخى.

٣ – إنجيل لوقا :

لم يكن لوقا من الحواريين أو تلاميذهم بل كان تلميذا لبولس. ودوَّن ما سمعه من بولس الرسول ويعتقد أنه كتب إنجيله حوالى عام ٧٠م. ويبدأ إنجيله بمقدمة يقول فيها: «إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة من الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعاينين وخُداما للكلمة. رأيت أنا أيضا. إذ قد تتبعت كل شيئ من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس. لتعرف صحة الكلام الذى علمت به».

ويتضح من هذه المقدمة أن لوقا يكتب إلى صديقه ثاوفيلس – بدافع شخصى – ولم يدَّع أنه كتبها بإلهام أو مسوقا من الروح لقدس بل يقرر صراحة أن هذه المعلومات جاءت نتيجة لاجتهاده الشخصى لأنه تتبع كل شيئ من الأول بتدقيق. نقلا عن الذين كانوا معاصرين للمسيح. وأنه يفعل ذلك تقليدا لكثيرين غيره فعلوا نفس الشيئ.

٤ – إنجيل يوحنا :

يرى البعض أن يوحنا كاتب هذا الإنجيل كان أحد تلاميذ المسيح بينما يرى أغلب المؤرخين أنه يوحنا بن زبدى وكان فى إفسس ولم ير المسيح ومن المرجَّح أنه كتب إنجيله فى العشر سنوات الأخيرة من القرن الأول الميلادى أى حوالى عام ٩٠م. ويرى آخرون أنه هو يوحنا مرقس تلميذ بولس الرسول استنادا إلى ماجاء به (يوحنا ٢٠:٢٠): «وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكى تكون لكم إذا آمنتم حياة بِاسمِهِ». وهذا هو نفس ماكان يقول به بولس.

٥ – إنجيل برنابا :

هذا إنجيل خامس ثار حوله خلاف كبير. ولا تعترف به الكنيسة. وهو ضمن الكتب المنهى عن مطالعتها. وبرنابا هو من الصف الأول من أتباع المسيح كما أنه أحد الرسل السبعين. وأهم ما يميز هذا الإنجيل أنه ينكر ألوهية المسيح أو أنه ابن الله. كما ينفى أن المسيح صُلِب. وقد أصدر البابا جلاسيوس الأول سنة ٤٩٢م أمرا بتحريم قراءته. ويتهم المسيحيون أحد المسلمين بتأليف هذا الإنجيل ونسبته إلى برنابا استنادا إلى مبادئ التوحيد التى جاءت به وإلى ماجاء به من أن من سيأتى فى آخر الزمان ليس هو يسوع بل محمد صلى الله عليه وسلَّم.

الصراع بين المسيحية والرومان

ما إن اقترب منتصف القرن الثالث الميلادى حتى كانت الكنيسة الرومانية قد ازدهرت وزاد عدد المسيحيين فى روما وفى إيطاليا كلها. وقد انتشرت المسيحية فى أول أمرها فى الطبقات الدنيا والوسطى وكان المسيحيون الأوائل متقوقعين على أنفُسهم فى خلايا معزولة عن الواقع. ولكن مع ازدياد عدد المسيحيين ومع انضمام كثير من رجالات الفكر والأدب إلى المسيحية فإنهم بدأوا فى المشاركة فى الحياة العامة. ولما كان المسيحيون يرفضون حرق البخور أمام تماثيل الامبراطور فقد اعتُبروا خونه وتشكلت الجماعات المسيحية تحت قيادة الأساقفة مكونة كيانا مستقلا داخل الدولة وحرَّموا على أبناء عقيدتهم المشاركة فى الحياة المدنية والعسكرية للإمبراطورية. ولما صادفت الإمبراطورية متاعب سياسية وعسكرية أفقدتها بلاد الغال التى استولى عليها الفرنجة فإنهم فسروا ذلك بغضب آلهة روما القديمة لسماح الرومان بتغلغل الديانة المسيحية فى البلاد وبدأت حملة لاضطهاد المسيحيين على يد الإمبراطور ماكسيمينوس. وبعد موته عام ٢٣٨م أعيدت سياسة حرية العقيدة للجميع وازدهرت المسيحية ثانية. ولكن فى عام ٢٥٠م بدأت فترة ثانية من اضطهاد المسيحيين قادها ديقيوس بإصدار

قراره للناس جميعا بتقديم القرابين علنا لآلهة الدولة وللإمبراطور وجعل الموت عقوبة لمن يرفض ذلك. ثم أصدر فاليريانوس عام ٢٥٧م قرارا بحظر تجمعات المسيحيين ومحاكمة أساقفتهم والكهنة والشمامسة إذا ما تمسكوا بالعقيدة المسيحية. ولكن عندما تولى الامبراطور جالينيوس الحكم أوقف هذا الاضطهاد وسمح للمسيحيين بالعودة إلى إقامة شعائرهم الدينية بحرية وعدم إجبارهم على تقديس الإمبراطور.

ثم تولى دقلديانوس الحكم وأعاد للإمبراطورية الرومانية ما كان قد استولى عليه الفرس من أراضى ما بين النهرين وأرمينيا. ويرى المؤرخون أن دقلديانوس لكثرة ما قضى من وقت فى الشرق فإنه تأثر بأفكاره وأُعجب بحياة الترف والتعالى والتأله التى يحياها ملوك الشرق وأيقن أن الهالة المقدسة التى يحيط بها ملوك الشرق أنفسهم تحول دون قيام الثورات ضدهم. ومن ثم أحاط دقلديانوس نفسه بما فى الشرق من بلاط ووصيفات وخدم وحشم ومستشارين وحرس. وأصبح القصر إدارة وقلعة قائمة بذاتها وأحاط نفسه بقداسة وانعزالية وأصبح كل ما يمت له يوصف بالقداسة. وأصدر أمرا بوجوب السجود أمامه عند المثول بين يديه ثم يقبلون أطراف ثيابه. وزيادة فى التألية أضاف دقلديانوس إلى اسمه لقب «چوفيوس» أى «ممثل الرب چوبيتر كبير الأرباب على الأرض». ورأى أنه لاستعادة أمجاد الإمبراطورية القديمة فيجب عليه إحياء العقائد الوثنية التى قامت عليها. وبدأ ينظر إلى المسيحية على أنها دعوة هدامة وخاصة بعد أن انتشرت بين الشعوب بل وتسللت إلى الجنود فى جيشه لهذا قرر تصفية المسيحية وإبادة المسيحيين.

بدأت عملية الاضطهاد عام ٢٩٩ أثناء تقديم الأضاحى لمعبودات الرومان وفحص العرافين لأكباد الحيوانات المذبوحة لاستقراء المستقبل إذ أعلن العرافون أن وجود عناصر غير مؤمنة (بألوهية الإمبراطور) قد أفسد استطلاعاتهم. عند ذلك أصدر دقلديانوس أمرا بتدمير الكنائس المسيحية وحرق الأناجيل وتحريم القيام بأى صلوات أو شعائر مسيحية. وألغى قرارا سابقا كان يسمح للمسيحيين بالدفاع عن أنفسهم فى المحاكم والإلتجاء إلى القضاء الرومانى. ثم حدث أن اشتعلت النار مرتين فى قصر الامبراطور دقلديانوس بطريقة غامضة. وبالطبع وُجِّهت أصابع الاتهام إلى المسيحيبن وخاصة أن المسيحيين ارتبطوا بفكر إشعال الحرائق منذ حريق روما الكبير فى عهد نيرون. كما أن بعض المتطرفين منهم راحوا يتحدثون عن النيران التى سوف تأكل العالم بمن فيه ثم بعدها تقوم القيامة. واشتدت أعمال التنكيل بالمسيحيين. فتم إلقاء القبض على الآلاف منهم. ولما امتلأت السجون بهم لم يكن هناك مفر من تخييرهم بين العودة إلى الوثنية أو القتل حرقا. وفى رأينا أن ما حدَّث به القرآن الكريم فى سورة البروج من تعذيب للمؤمنين ينطبق على هذه الفترة.

«والسماء ذات البروج. واليوم الموعود. وشاهد ومشهود. قُتِل أصحاب الأخدود. النار ذات

الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيئ شهيد» (١ - ٩ البروج). وإن كان المفسرون قد قالوا أقوالا كثيرة منها أن ذلك حدث فى اليمن أو فى فارس ورووا حكايات عما حدث أثناء إلقاء المؤمنين فى النار يصعب تصديقها.

وتحمل المسيحيون بصبر كل ما نزل بهم من تعذيب. وخرجت المسيحية من هذه المحنة أقوى من ذى قبل. وأيقن رجال الكنيسة أنها إرادة الله التى مكنت من الصمود. فكان هذا فى حد ذاته سببا فى زيادة المؤمنين بالمسيحية.

اعتناق قسطنطين للمسيحية :

كان هناك صراع مسلح على عرش الامبراطورية بين ماكسنتيوس وقسطنطين. ويُروى أن قسطنطين أتاه هاتف فى ليلة المعركة يطلب منه أن يأمر جنوده بأن يكتبوا على دروعهم الحرفين الأولين من اسم السيد المسيح باليونانية Christos . وهناك رواية أخرى أن قسطنطين روى أنه شاهد قبل المعركة علامة الصليب تُرسم عبر الشمس ومن تحتها برقت عبارة بالإغريقية تعنى «بهذا سوف تنتصر» فذهب إلى المعركة باسم الصليب واندفعت قواته: الفرسان أولا وفى أثرهم المشاه لتحاصر أعداءه وتُشتِّت شملهم. وفى اليوم التالى دخل قسطنطين روما منتصرا واجتمع السناتو ليعلن مبايعته لقسطنطين امبراطورا أعلى على كافة الولايات. لكن الولايات الشرقية: العراق وسوريا وفلسطين ومصر ظلت على ولائها لليكينيوس (خليفة ماكسنتيوس) وبدا أن صراعا آخر سينشب. وتقابل الخصمان فى سهل تراكيا (فى شمال اليونان) وتعادلا مما جعلهما يعقدان هدنة بمقتضاها تم تقسيم الإمبراطورية الرومانية سلميا إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية وتشمل ولايات آسيا وأفريقيا ويحكمها ليكينيوس. والإمبراطورية الرومانية الغربية وتشمل الولايات فى أوربا ويحكمها قسطنطين. ولكى يقوى قسطنطين من مركزه وليضم إلى جانبه المسيحيين فإنه أعلن أن انتصاره تم بفضل تدخل المسيح إلى جانبه. ثم أصدر أمرا إلى كافة الولاة بوقف اضطهاد المسيحيين فى جميع الولايات. وكذلك أمرا بإصلاح الكنائس التى هدمت وتسهيل تقديم الأموال التى يحتاجها الأساقفة والكهنة للصرف على المعابد وإعفاء الكهنة من الضرائب. وفى عام ٣١٣م أصدر قرار ميلان الشهير الخاص بحرية العبادة والاعتراف بالكنيسة وسلطانها. وأخيرا أعلن قسطنطين أنه قد أعتنق المسيحية ولكنه لم يعلن أن الديانة المسيحية هى الديانة الرسمية للدولة حتى لا يُغضِب الوثنيين الذين كانوا يمثلون السواد الأعظم من شعب الامبراطورية وجنودها وموظيفها وسائر أجهزتها الإدارية. لكنه استعاض عن ذلك بمنح المسيحيين المزيد من الامتيازات والحصانات والإعفاءات. بل إنه شجَّع زعماء كنيسة روما وكنائس الشرق على تقديم ما يرونه

من تشريعات يريدون من الدولة إقرارها وفرضها كقانون. وفى عام ٣١٨م اعترف بشرعية الأحكام التى تصدرها محاكم الأساقفة وعلى الدولة تنفيذها . وفى عام ٣٢١م أصدر قرارا بإقرار الأوقاف التى يهبها الرومان للكنيسة وحق الكنيسة فى وراثة ممتلكات الشهداء بشرط أن لا يكونوا قد أوصوا بخلاف ذلك. وفى نفس العام أعلن أن يوم الأحد هو يوم الرب ويجب أن يكون عطلة للعاملين فى أجهزة الدولة. ويرى المحلّلون أن اختيار يوم الأحد Sunday الذى هو يوم رب الشمس dies silis كان حلا وسطا لإرضاء عُبَّاد رب الشمس من ناحية وإرضاء المسيحيين من ناحية أخرى ليخالفوا اليهود فى يوم السبت. كما يرى آخرون أن عيد الشكر الذى يقام فى ٣ يناير من كل عام هو بعينه عيد تقديم البحَّارة لقرابين الشكر للإلهة إيزيس.

وبزوال الاضطهاد بدأت الكنيسة المسيحية تشهد صراعا عقائديا أحدث انقساما شاسعا بين المسيحيين أنفسهم.

خلافات الفرق المسيحية

ظهرت هذه الخلافات كنتيجة للإضطهاد والتعذيب الذى نزل بالمسيحيين أيام حكم دقلديانوس. وكان أول هذه الخلافات فى النصف الغربى من الإمبراطورية فى أفريقيا إذ أعلن كايكيليانوس أسقف قرطاجة المعين من قبل بابا روما عفوه عن جميع الكهنة الذين رضخوا لاضطهاد دقلديانوس ولم يتحملوا ما نزل بهم من تعذيب فسلَّموا الأناجيل لسلطانه لكى تحرق وبعضهم تراجع عن اعترافه وإيمانه بالمسيح. فاعترض دوناتوس وهو أحد رجال الكنيسة المتطرفين على هذا العفو وأعلن انشقاقه عن كنيسة أفريقيا. وتجمع حوله بعض مؤيديه وانتخبوه أسقفا بديلا للأسقف المعين من قبل بابا روما نظرا للآلام التى تحملها دوناتوس فى سبيل دفاعه عن عقيدته أيام عهد دقلديانوس. واختار الإمبراطور قسطنطين ثلاثة أساقفة من بلاد الغال (فرنسا) للحكم بين الفريقين وضم إليهم بابا روما ١٥ أسقفا إيطاليا من أتباعه وصدر الحكم بإدانة دوناتوس. ولم يرض أتباع دوناتوس بهذا الحكم فاستأنفوه. ودعا الإمبراطور أساقفة يمثلون جميع ولايات الإمبراطورية. وجاء قرارهم مؤيدا للحكم السابق ضد دوناتوس. وللمرة الثانية رفض أتباع دوناتوس الحكم وطلبوا من الإمبراطور الحكم بنفسه فى الخلاف. وأدرك قسطنطين عدم جدوى اضطهاد دوناتوس وأتباعه فأصدر قرارا بعدم إنزال عقاب ما بالمنشقين «وترك الحكم لله لينتقم بنفسه من دوناتوس وأتباعه». وخرج قسطنطين من هذه القضية وقد أصبح له حق التحكيم فيما ينشأ من منازعات لاهوتية وأصبح يتمتع بحق دعوة مجالس الكنائس إلى الانعقاد. وذلك أضفى عليه مكانة مقدسة إذ أصبح «خادم الكنيسة المختار عند الله والشبيه بالرسل».

وظهر خلاف مماثل فى الشرق – فى مصر هذه المرة – إذ أعلن أسقف كنيسة الإسكندرية العفو عن المسيحيين الذين كفروا إبان اضطهاد دقلديانوس ثم تابوا وعادوا إلى المسيحية.

فاعترض ميليتوس أسقف أسيوط على هذا التسامح وانشق ومعه عدد من مؤيديه على كنيسة الإسكندرية.

المذهب الآريوسى :

كان «آريوس» ناسكا صوفيا نقى السريرة وواعظا مؤثرا يجيد الإقناع الهادئ. ولعله أراد أن يخفف من «جرم» الذين كفروا «بالمسيح» أيام الاضطهاد باعتبار أنهم لم يكفروا «بالله» اعتمادا على اختلاف الطبيعتين. وكانت أراؤه هذه مثل نار سرت فى العالم المسيحى كله وكأنه فجَّر بركانا هز الكنيسة فى كل أرجاء الإمبراطورية. وأصبحت آراؤه فى طبيعة المسيح تعرف بالمذهب الأريوسى وبداية انفصال أبدى بين مؤيديه ومعارضيه. وتتلخص آراء آريوس فى أنه ليس من المعقول أن يكون المسيح الابن من نفس طبيعة الله لأنه من صُنْعِهِ وبالتالى هو أقل منه مرتبة. وصحيح أن المسيح خُلِقَ قبل الكون إلا أنه لابد أن كان هناك وقت لم يكن فيه المسيح مخلوقا وكان فيه الله الخالق وحده. ولهذا فإن المسيح له طبيعة مشابهة لطبيعة الله ولكنه ليس الله فى صورة بشر. كانت آراء آريوس يغلب عليها الطابع التوحيدى فالإله الواحد الأحد هو الأزلى وحده وأن الابن ليس أزليا ولكنه خَلْقٌ من خلق الله. فالله هو الوحيد الذى لم يولد وليس له بداية أو نهاية وليس له معادل أو مكافئ على الإطلاق وجوهره غير مخلوق. أما جوهر الابن فهو كائن مستقل ومختلف عن جوهر الآب. فالابن له طبيعة مغايرة ومشيئة مختلفة. فالابن ليس أزليا. والروح القدس يقف كجوهر ثالث مستقل.

وعارض «اسكندر» أو «الكسندروس» بطريرك الاسكندرية آراء آريوس وأعلن أن الابن من نفس طبيعة الآب وأن الآب والابن والروح القدس مادة وقوة واحدة تمثل الصفات الثلاث لقوة الله فى الكون. لهذا لا يمكن فصلها واحدا عن الآخر أو تقديم أحدها زمنيا عن الآخر. ثم أصدر قرارا بحرمان آريوس من الكنيسة وطرده من دوقية مصر. وكذلك قام بعزل بعض مشايخ وشمامسة الإسكندرية وبعض المطارنة فى ليبيا.

وسافر أريوس إلى فلسطين ليعرض آراءه على أسقف قيصرية ثم سافر إلى نيقوميديا ليعرض القضية على أسقفها (نيقوميديا مدينة فى آسيا الصغرى على بحر مرمرة جنوب البسفور). وفى نيقوميديا تألف مجمعٌ أقر آراء آريوس وأدان قرار أسقف الإسكندرية بطرد آريوس، وأمره بنقض قراره وإعادة آريوس إلى وضعه الكهنوتى. ولكن ألكسندروس رفض قرارات المجمع المقدس فى نيقوميدا وجمع مؤتمرا من ١٠٠ من الأساقفة المصريين والليبيين ليؤكد طرد آريوس. وأضاف إلى طائفة الطرد اثنين من الأساقفة الليبيين تعاطفا مع آريوس. واشتعل الموقف بين الفريقين.

سبق أن قلنا إن ليكينيوس الذى كان يحكم فى نصف الإمبراطورية الشرقى لم يكن من المؤمنين بالمسيحية فى حين أن قسطنطين الذى يحكم النصف الغربى كان قد اعتنق المسيحية. وكان ليكينيوس ينظر إلى المسيحيين فى نصفه الشرقى على أنهم عملاء لقسطنطين ومن ثم فهم أعداؤه. وانتهز هذه الفرصة وأصدر قرارا بإلغاء الامتيازات الكنسية. وطرد رجال البلاط فى قصره ممن اعتنقوا المسيحية. وطبّق نفس الشيئ على الجيش وعلى أجهزة الدولة المدنية. ولم يميز فى اضطهاده بين أتباع آريوس أو معارضيه بل أمر بسجن زعماء المذهبين ووضعهم فى السجن. وأغضبت هذه القرارات قسطنطين فراح يتحين الفرصة للتخلص من غريمه. فانتهز فرصة مهاجمة قبائل القوط لقاطعتى ميسيا وتراكيا فى شمال اليونان والتابعتين للإمبراطورية الشرقية فقاد جيوشه وطهر هذه المناطق من المعتدين وضمها إلى حكمه. ثم قاد جيوشه وعبر البسفور وقضى على جيش ليكينيوس الذى استسلم وتم إعدامه وأصبح قسطنطين هو الإمبراطور الأوحد على كافة ولايات الامبراطورية الشرقية والغربية وتوحّدت الإمبراطورية بعد ٤٠ عاماً من الانقسام.

ولكن هذا التوحد السياسى لم يؤثر إيجابيا على حالة الصراع المذهبى والانشقاق العقائدى الذى أحدثته آراء آريوس. وأدرك قسطنطين خطورة تلك الخلافات التى بدأت تمزق الكنيسة المسيحية وحتما ستؤثر على وحدة الامبراطورية. فأرسل خطابا إلى كل من اسكندر وآريوس وصف فيه الصراع بأنه جدل عقيم حول أشياء غير مفهومة وطلب منهما الاتفاق ولكنهما لم يستجيبا لهذا النداء.

وفى عام ٣٢٥م قرر الملك قسطنطين عقد مجمّع فى نيقية حضره ما يزيد عن ٢٠٠٠ من رجال الدين وتبنت الأغلبية آراء آريوس. فأصدر الإمبراطور قرارا بفض الاجتماع ثم أعيد عقده بحضور ٣١٨ فقط ووضع الامبراطور قسطنطين حدا للمجادلات بأن وضع بنفسه الصيغة التى يجب أن يوافق عليها المجتمعون وهى التثليث الذى نادى به اسكندر وأمر بإحراق كتب آريوس.

لم يستسلم آريوس وصمم مؤيدوه على المقاومة حتى استطاعوا فى عام ٣٢٨م جعل الامبراطور يعيد آريوس وأتباعه إلى كنائسهم. وفى ذلك الوقت كان «إثناسيوس» قد تولى كرسى كنيسة الاسكندرية وكان معارضا لآراء آريوس. واشتد الخلاف بين الفريقين وأخيرا اضطر إثناسيوس إلى الهرب خوفا على حياته من أتباع آريوس. وقرر الامبراطور عقد «مجمع نيقية المسكونى الأول» وفيه تقرر خلع إثناسيوس من منصبه ونفيه إلى فرنسا. ولكن بعد وفاة الإمبراطور قسطنطين عاد إثناسيوس إلى الإسكندرية. فثار عليه مؤيدو آراء آريوس. وتم عقد مجمع فى أنطاكية عام ٣٤٠م حكِم فيه بعزل إثناسيوس فهرب إلى روما. ولكن قسطنطينوس أحد أبناء الامبراطور – وكان حاكما لإيطاليا وأفريقيا – أطلق سراح إثناسيوس الذى عاد

إلى الإسكندرية عام ٣٤٦م. ولكن مؤيدى آريوس قاوموا عودته وحدثت اضطرابات عُقد على أثرها مجمع فى مدينة آرلس بفرنسا عام ٣٥٣م ومجمع آخر فى ميلانو عام ٣٥٥م وفيه أيد المجتمعون آراء آريوس. وفى عام ٣٥٧م عقد مجمع فى مدينة سرميوم فى جنوب فرنسا وفى عام ٣٥٩م عقد مجمعين أولهما فى مدينة ريمنى بفرنسا والثانى فى مدينة سلوقيا بسوريا وكلها أيدت آراء آريوس. وفى عام ٣٦١م عقد مجمعٌ فى أنطاكية وُضعت فيه صيغة إيمان جديدة تقول إن الابن مختلف عن أبيه فى الجوهر والمشيئة. ووافق الفريقان على هذه الصيغة وبهذا أصبحت آراء آريوس هى السائدة فى العالم المسيحى شرقه وغربه حتى منتصف القرن الرابع الميلادى.

وفى عام ٣٦١م تولى يوليانوس الحكم فى الامبراطورية. وكان - كما يصفه علماء التايخ - خبيثا يطبق سياسة «فرِّق تسد». فكان غرضه أن يقوم المسيحيون بعضهم على بعض فتنحل عرى الوحدة المسيحية التى تعارض تأليه الأباطرة. فأعاد إثناسيوس إلى كرسى الإسكندرية. ولم يمضى غير قليل حتى أسفر يوليانوس عن كفره. فأغلق الكنائس ونهب أوانيها وسلمها للوثنيين وجاهر بتجديد عبادة الأوثان وقدم بنفسه الضحايا لها (تطورات هامة فى المسيحية. أحمد عبد الوهاب. ص٣١٠).

وفى عام ٣٦٣م خَلّفه يوبيانوس فى حكم الامبراطورية وكان من معتنقى المسيحية وعقيدة التثليث فقام بفرضها فى جميع أنحاء الامبراطورية.

وفى عام ٣٨١م عُقد مجمع فى القسطنطينية تقرر فيه أن الروح القدس إله.

وفى عام ٤٣١م عُقد مجمع فى إفسس وفيه تقرر أن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة وأن العذراء ولدت إلها وهى لذلك تدعى «والدة الإله».

وفى عام ٤٥١م عقد مجمع فى خلقيدونيه وحضره أساقفة كثيرون وقرر المجتمعون أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين. ورفض بابا الإسكندرية الموافقة على هذه القرارات فنفاه الامبراطور بعيدا عن مصر ومات منفيا.

وفى عام ٥٥٣م عقد مجمع القسطنطينية الثانى وأيد قرارات مجمع القسطنطينية الأول وقرارات مجمع خلقيدونية.

وفى عام ٥٨٩م عقد مجمع فى طليطلة تقرر فيه أن الروح القدس منبثق أيضا من الابن.

وفى عام ٦٨٠م عقد مجمع القسطنطينية الثالث وفيه أيَّد المجتمعون أن للمسيح طبيعتين ومشيئين: طبيعة لاهوتية وطبيعة ناسوتية.

وفى عام ٨٦٩م عقد مجمع فى روما وفيه تقرر اعتبار الروح القدس منبثقا من الآب والابن.

وفى عام ٨٧٩م عقد مجمع فى القسطنطينية وفيه تقرر انبثاق الروح القدس من الآب فقط.

كانت المشكلة هى التوفيق بين ألوهية المسيح التى صدر بها قرارات وأصبحت معتقدا أساسيا وراسخا فى الديانة المسيحية وبين الحقيقة الثانية وهى أن المسيح وُلد من مريم العذراء وكان يمشى على الأرض ويأكل كما يأكل الناس. وهذا ما سجلّه القرآن الكريم:

«ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صِدِّيقة كانا يأكلان الطعام» (٧٥ – المائدة).

ومن هنا ظهرت المذاهب المسيحية المختلفة :

١ – **مذهب النسطوريين** نسبة إلى نسطور الذى كان بطريرك القسطنطينية سنة ٤٣١م. ويقول نسطور شارحا مذهبه: إن مريم لم تلد إلها لأن ما يولد من الجسد ليس إلا جسداً ولأن المخلوق لا يلد خالقا. فمريم ولدت إنسانا. وعلى هذا فمريم لا تسمى «والدة الإلة» بل والدة المسيح الإنسان. ثم جاء اللاهوت لعيسى بعد ولادته أى أن عيسى بعد الولادة اتحد بالأقنوم الثانى اتحادا مجازيا. أو كما شبَّهه البعض باتحاد الماء فى الزيت. فكل واحد منهما باق على جنسه وطبيعته. وبهذا يكون فى المسيح طبيعتان. واحدة بشرية والأخرى إلهية.

٢ – **المذهب اليعقوبى** : نسبة إلى داعية مشهور قام بنشر المذهب كرد فعل لعقيدة نسطور. وأقره مجمع إفسس عام ٤٣١م. وهو يقضى بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة. ففى المسيح أقنوم واحد تم بعد الاتحاد الذى شبهه بعضهم بالماء يلقى على الخمر فيصيران شيئا واحدا. وكان قرار المجمع هو : «إن لسيدنا يسوع المسيح أقنوما واحدا إلهيا اتحد بالطبيعة الإنسانية اتحادا تاما بلا اختلاط أو امتزاج ولا استحاله. فالعذراء هى بحق والدة الإله فمريم لم تلد إنسانا عاديا بل ولدت ابن الله المتجسِّد لذلك حقا هى أم الإله» (تاريخ الأقباط. زكى شنودة. ص ١٦٠). وقد تبنت هذه الآراء الكنائس الشرقية ويسمى أتباعها الأرثوذكس.

٣ – **المذهب الملكانى** : وهو يعتنق ما أقره مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م من أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين. فالمسيح أقنوم إلهى بحت ولكن له ذاتان وكيانان هما الإله والإنسان. وهو هنا يشابه مذهب النسطورين ولكنه يختلف عنه فى الاعتقاد بأن مريم ولدت الاثنين معا. فهى قد ولدت يسوع المسيح الذى هو مع أبيه فى الطبيعة الإلهية ومع الناس فى الطبيعة الإنسانية فهو طبيعتان ومشيئتان فى أقنوم واحد. ولذلك فهم يقولون: «نؤمن بالله الآب مالك كل شيئ. صانع كل شيئ. ما يُرى ومالا يُرى. بالرب الواحد يسوع المسيح. بكر الخلائق كلها وليس بمصنوع. إله حق من إله حق من جوهر أبيه الذى خلق كل شيئ من أجل الناس. ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسَّد من روح القدس. ونؤمن بروح القدس. بروح الحق الذى هو مشتق من أبيه. روح محبَّة وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا وبقيامة أبداننا وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين».

٤ – **المذهب المارونى** : نسبة إلى يوحنا مارون الذى دعا سنة ٦٦٧م إلى أن للمسيح طبيعتين ولكن له مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين فى أقنوم واحد.

خلاف حول من سيحاسب الناس :

يعتقد المسيحيون أن الآب أعطى سلطان الحساب لابنه يسوع لأن الابن بالإضافة إلى ألوهيته وأبديَّته – فهو ابن الإنسان أيضا ولذلك فهو أولى بمحاسبة الإنسان وأنه بعد أن ارتفع إلى السماء جلس بجوار الآب على كرسى استعدادا لاستقبال الناس يوم الحشر. وفى ذلك المعنى وردت فقرات من الكتاب المقدس:

– فى رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس يقول : «لابد أننا جميعا نظهر أمام كرسى المسيح لينال كل منا ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيرا كان أم شرا».

– فى رسالة بولس إلى أهل رومية يقول: «إننا جميعا سوف نقف أمام كرسى المسيح».

– فى إنجيل يوحنا : «الآب لا يدين أحدا بل قد أعطى كل الدينونة للأبن».

ولكن فى ١٩٦٦/٦/١٥ نشرت جريدة التميز اللندنية وثيقة دينية اكتشف مؤخرا جاء بها: تعتقد المسيحية أن عيسى ابن الله المقدَّس بالرغم من أن أكثر أتباعه فى السنوات التالية لوفاته اعتبروه مجرد نبى آخر لبنى إسرائيل. وجاء فى النص منسوبا إلى عيسى: «لن أحاسب الناس على أعمالهم أو أحكم عليهم. الذى أرسلنى هو الذى يصنع ذلك».

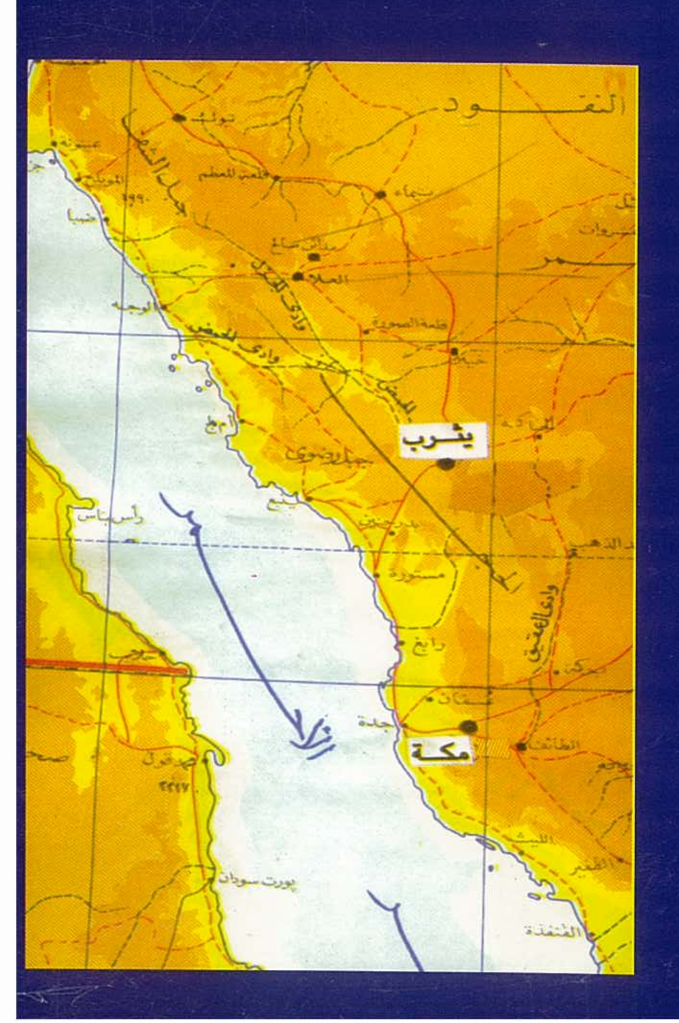
ختـــام :

هذه الخلافات الجوهرية حول علاقة المسيح بالله وبالروح القدس ومن سيحاسب الناس يوم القيامة أظهرت أن البشرية قد بعدت عن الطريق الصحيح ويلزمها رسول آخر يأخذ بيدها إلى الطريق المستقيم. فكان خاتم الأنبياء والمرسلين – محمد صلى الله عليه وسلم – وهو موضوع الجزء السابع من هذه السلسلة إن شاء الله.

خاتم الأنبياء

مُحَمَّد

صلى الله عليه وسلم



قصص الأنبياء والتاريخ

الجزء السابع

تأليف دكتور

رشدي البدراوي

الاستاذ بجامعة القاهرة

خاتم الأنبياء

محمد

عليه الصلاة والسلام



الجزء السابع

تأليف دكتور

رشدى البدراوى

الأستاذ بجامعة القاهره

قصص الأنبياء والتاريخ. الجـزء السابع
خاتم الأنبياء « محمد » صلى الله عليه وسلم
د . رشدى البدراوى

يناير ٢٠٠٤

طبع بمطابع

مكتبة و مطبعة المجلد العربى

تليفوت : ٢٥٩١٢٥٢٤ ـ فاكس : ٢٥٨٩٢٢٣١

الطبعة الثانية نوفمبر ٢٠١٠م

رقـم الإيـداع : ٢٠٠٣/١٣٥٨٩
الترقيم الدولى : 5 - 0376 - 17 - 977

المحتويات

الأشكال والخرائط

فهرس السـور

مقدمـــة

بعد أن انتهيت من كتابة الجزء السادس من هذه السلسلة أخذت أفكر فى الجزء السابع وهو يختص بسيرة خاتم الأنبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وترددت وساءلت نفسى: ماعساى أكتب فى سيرة سيد الخلق وقد كتب فيها الأولون والآخرون. منهم من كتب بتفصيل ومنهم من أوجز. ففى العصر الحديث كتب شيوخ أفاضل مثل: الشيخ محمد أبو زهرة والشيخ محمد الغزالى والشيخ محمد سيد طنطاوى والشيخ محمد متولى الشعراوى وغيرهم الكثير، ومن الكتاب الأساتذة: توفيق الحكيم، العقاد، محمد حسين هيكل، طه حسين، عبد الرحمن الشرقاوى وكثيرون غيرهم. ومن القدامى: ابن هشام وابن سعد وابن كثير وابن إسحق وعشرات آخرون. فما عساى أضيف! وإذا لم أضف شيئا فما جدوى الكتابة. وهنا قفز السؤال: كيف أكتب سلسلة عن «قصص الأنبياء والتاريخ» دون أن أشرُف بالكتابة عن خاتم الأنبياء، وهل تكتمل السلسلة دون أثمن حلقة فيها. وتمثلت الحديث الشريف: «مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمَّله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون ويعجبون له ويقولون: هلاَّ وُضِعت هذه اللبنة. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين». وقدَّرت أن القراء لابد سيتساءلون: هلاَّ كتب عن سيد الخلق وخاتم النبيين كما كتب عن الأنبياء قبله؟ وهكذا استقر الرأى على أن أتوكل على الله وأتوِّج السلسلة بهذا الجزء وأنا على يقين من أن الله سبحانه وتعالى سيوفقنى فيه كما وفقنى فى الأجزاء السابقة.

وقد رأيت أن أتابع سيرة الرسول الكريم يوما بيوم وسنة بسنة منذ مولده وشبابه وزواجه. ثم تلقِّيه النبوَّة فى سن الأربعين. فبدأ يدعو قريشا إلى عبادة الله الواحد الأحد. وكان القرآن الكريم هو وسيلته إلى الدعوة إلى الله. ويسجِّل القرآن أقوال المشركين وجدالهم مع النبى ويلقنه الوحى الرد على اعتراضاتهم وافتراءاتهم، كما يرد على أسئلة المسلمين ويوضح لهم أحكام شريعتهم: وهكذا تردد لفظ «قالوا» ٣٣١ مرة ولفظ «يقولون» ٩٢ مرة ولفظ «يسألونك» ١٥ مرة وتكرر لفظ «قل» ٣٣٢ مرة.

والقرآن – كما هو معروف – نزل منجمًا أى مفرقًا حسب مقتضيات الأحوال: كانت الآيات فى مكة تنزل تسفِّه عبادة الأصنام وتدعو المشركين إلى عبادة الله الواحد الأحد وتحث المسلمين على الصبر على إيذاءات قريش وفى المدينة نزلت الآيات التى ترسى أسس المجتمع الإسلامى الوليد، وتحذِّر من المنافقين وتفضح مؤامراتهم. كما كانت السور تنزل تعلِّق على الأحداث المختلفة: فسورة الأنفال تعلق على معركة بدر وسورة آل عمران فيها تعليق على

معركة أحد وسورة الأحزاب تعلق على معركة الخندق وسورة الفتح نزلت بعد صلح الحديبية. وقد أُلِّفت كتب كثيرة فى أسباب النزول أشهرها كتاب جلال الدين السيوطى «لباب النقول فى أسباب النزول» وقد رأيت أن أتوسع فى هذا المجال. فما من آية نزلت إلاَّ وهناك سبب أو هدف لنزولها ، ووضح لى الطريق الذى أسلكه فى كتابة السيرة العطرة.

وعند ذكر السور اتبعت الأسلوب الذى نهجه ابن كثير وهو تقسيم السورة إلى فقرات. وزدت بأن أضفت إلى الفقرات عنوانا يُعبِّر عن مضمون الفقرة . ولكن فى كثير من الأحيان لا يكون مضمون الفقرة قاصرا على ما جاء فى العنوان إذ أن أحد أوجه إعجاز القرآن الكريم أن الفقرة الواحدة بل إن الآية الواحدة قد تحتوى على أكثر من موضوع.

وقد ضمَّنتُ الكتاب عددا من الصور التوضيحية والخرائط الجغرافية تبين خط سير السرايا والغزوات ورسومات تبين مراحل المعارك الكبرى : بدر وأحد والخندق وفتح مكة ليسهل على القارئ تصور ما حدث بالفعل.

أملى أن أكون قد وُفِّقت فى النهج الذى نهجت وأضفت شيئا ما إلى الكثير الذى كتب من قبل فى سيرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم. والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

يناير ٢٠٠٤ المؤلف

جغرافية شبه الجزيرة العربية

تقع شبه الجزيرة العربية فى الطرف الجنوبى الغربى من قارة آسيا. ويطلق البعض عليها تجاوزا اسم «الجزيرة العربية» اعتمادا على أن نهر الفرات كمجرى مائى - يفصلها من ناحية الشمال عن باقى أراضى آسيا. ويحدها من الغرب البحر الأحمر ومن الجنوب المحيط الهندى وخليج عدن وشرقا الخليج الفارسى. وهى مستطيل غير متوازى الأضلاع يبلغ طوله أكثر من ٢٠٠٠كم وعرضه أكثر من ١٥٠٠كم.

ومع الايجاز الشديد يمكن وصف بلاد العرب بأنها هضبة مرتفعة لا يقل ارتفاع أى جزء منها عن ١٥٠٠ قدم عن سطح البحر. وهذه الهضبة تنحدر ناحية الغرب انحدارا شديدا تاركة بينها وبين ساحل البحر الأحمر واديا ضيقا لا يزيد عرضه عن ٣٠كم وأحيانا يتسع إلى ٥٧كم. أما الانحدار الشرقى فهو تدريجى وكذلك الانحدار ناحية الجنوب. وعليه يمكن تقسيم شبه الجزيرة العربية بطريقة مبسطة إلى (شكل ١):

أ - **وسط** : ويشمل من الشمال إلى الجنوب: بادية الشام ثم صحراء النفود الشمالية ثم نجد ثم الربع الخالى.

ب - **جنوب** : ويشمل من الغرب إلى الشرق: اليمن، حضرموت وكندة والأحقاف ثم الشحر.

جـ - **شريط ساحلى غرب الخليج الفارسى** ويشمل عمان فى الجنوب - ثم دولة الإمارات المتحدة، ثم الإحساء ثم جنوب العراق.

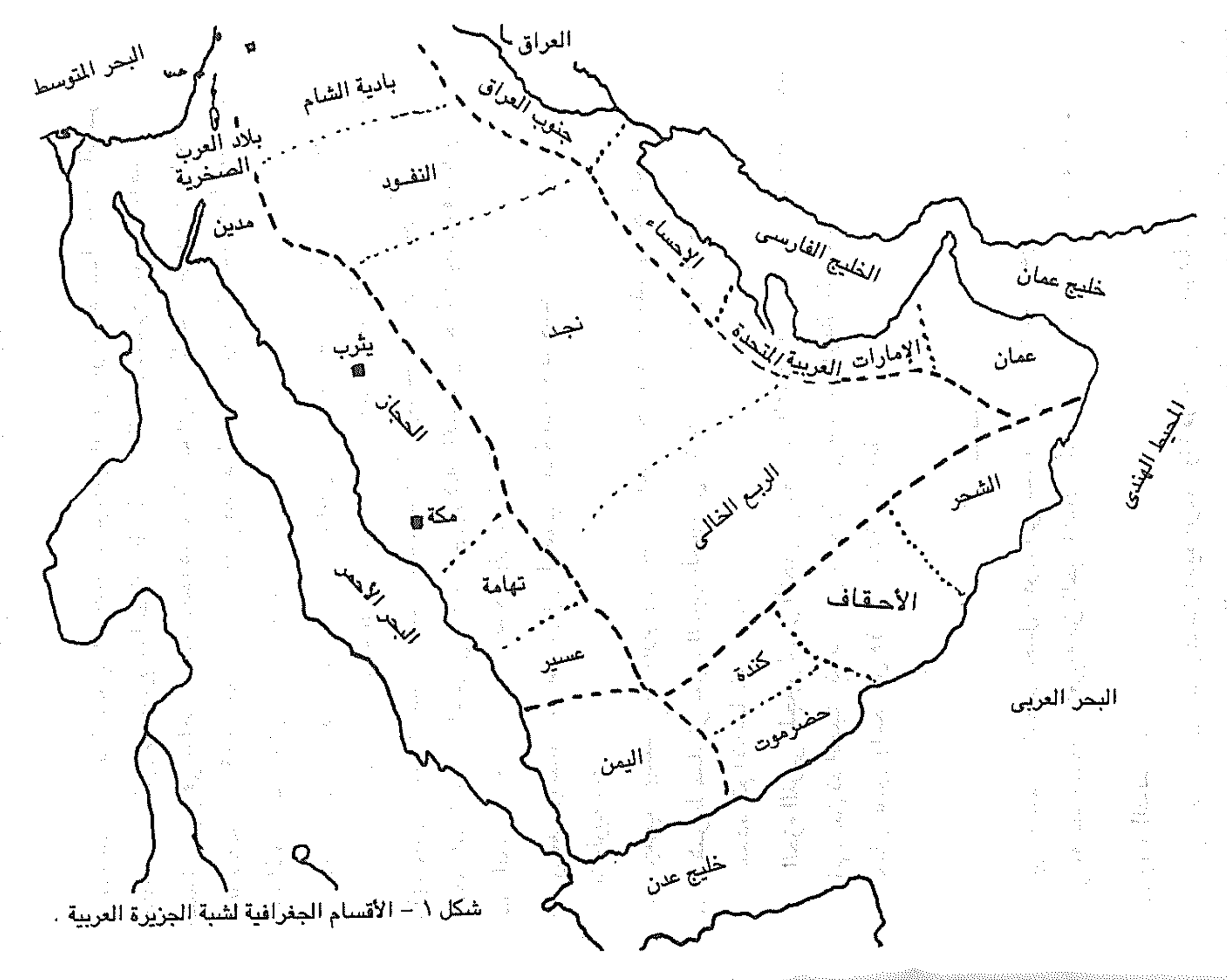
د - **الجزء الغربى المجاور للبحر الأحمر** ويشمل من الشمال إلى الجنوب: بلاد العرب الصخرية ثم مدين ثم الحجاز ثم تهامة وعسير وتنتهى سلسلة الجبال الموجودة به إلى أن تندمج مع جبال اليمن. وأهم مدن هذا الجزء هما مكة ويثرب.

العـــرب

يرجع علماء الأجناس أصل العرب إلى سام بن نوح أى أنهم ساميون. كما يُجمع المؤرخون على تقسيم الشعوب العربية من ناحية الامتداد الزمنى إلى قسمين: عرب بائدة وعرب باقية:

العرب البائدة :

وهى التى هلكت واندثرت من قديم الزمان وتناقل الناس أخبارها شفاها فتشكك البعض فى وجودها. وقد ذكر مؤرخو العرب أسماء عدد من قبائل العرب البائدة مثل طسم وجديس وأميم وعبيل وعمليق وجاسم. وانفرد القرآن الكريم بذكر قبيلة **عاد** ونبيهم هود والتى كانت



شكل ١ – الأقسام الجغرافية لشبة الجزيرة العربية .

تسكن الأحقاف (انظر الجزء الأول ص ١٤١) وكذلك قبيلة **ثمود** ونبيهم صالح والتى كانت تسكن الحجر فى الشمال (جـ ١ ص ١٥٨). وأنكر المستشرقون وجود هاتين القبيلتين اعتمادا على أن التوراة لم تذكر شيئا عنهما. إلا أن الكشوف فى أواخر القرن التاسع عشر أماطت اللثام عن آثار لقبيلة **ثمود** عبارة عن شواهد لبعض القبور. ثم وجد أن بعض مؤرخى اليونان والرومان قد أشاروا إليها فى كتاباتهم. ونشطت الاستكشافات فى هذه المنطقة وأهم ما عُثر عليه هو قصر البنت وقصر الباشا والقلعة والبرج (تاريخ العرب. عصر ما قبل الإسلام. محمد مبروك نافع.عام ١٩٤٨).

وكذلك حظيت **الأحقاف** بنصيب من الاستكشافات. ويُرجِّح كثير من العلماء أن تحت الكثبان الرملية فى الأحقاف والمناطق المجاورة آثارا لم تُكشَف بعد. وقد كشفت كاميرا مركبة على مكوك فضاء – لها خاصية اختراق سطح الأرض – عن عدد من المجارى المائية الجافة المدفونة تحت رمال الربع الخالى فى المملكة العربية السعودية. واستنتج الباحثون أن حضارة ما قد وجدت فى هذا المكان يرجع تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ ق.م. وكان هذا مؤيِّدا لما كتبه الجغرافيون القدامى مثل بللينى (من علماء الرومان ٢٣–٧٩ ميلادية) وبلطيموس الإسكندرى (١٠٠ – ١٧٠م) اللذين وصفا زيارتهما للمنطقة قبل أن تطمرها الرمال. ووصف كل منهما دولة ذات حضارة كانت تعيش فى المنطقة. بل إن الأخير قام برسم خريطة لأنهار المنطقة ومدنها. وكان علماء التاريخ ينظرون إلى كتاباتهم على أنها نوع من الأساطير. وبدأ الأثريون يركزون حفرياتهم فى المنطقة. فعُثر على ألواح من الصلصال أمكن فك رموز الكتابة التى عليها وأمكن التعرف على أسماء عاد وإرم. وفى عام ١٩٩٨ كشفت الحفريات عن قلعة سميكة الجدران مقامة على أعمدة ضخمة يصل ارتفاع الواحد منها إلى ٩ أمتار وقطره ٣ أمتار. ويرى الدكتور زغلول النجار (الأهرام ٢٠٠٢/١٠/٧ ص ١٢) أنها بقايا مدينة **«إرم ذات العماد»** الوارد ذكرها فى القرآن الكريم (٧ – ٨ – سورة الفجر). واكتُشف سور يحيط بالمدينة سمكه يزيد عن ٥ أمتار. وكتب كثير من الأثريين الغربيين عن هذه الحضارة المفقودة وما كانت عليه من عظمة وفخامة فى مبانيها تدل على نعمة وسعة فى الرزق مصداقا لقوله تعالى **«التى لم يخلق مثلها فى البلاد»** أى لم يكن فى وقتهم أحد يضاهيهم فى عظمة مبانيهم. وأكَّدوا أنها هلكت بطريقة غير مألوفة.

أما **طسم وجديس** فكل ما ورد عنها مختلف ولا يعدو – حتى الآن – أن يكون مجرد أساطير. وإن كانت قصة زرقاء اليمامة – وهى من طسم – مشهورة فى كتب الأدب العربى القديم لدرجة لا يمكن تجاهل احتمال اشتقاقها من قصة حقيقية وقعت فى قديم الزمان بالرغم من أن الكثيرين يعتقدون أنها ميثولوچيا من النوع الموجود لدى كثير من الشعوب.

العـرب الباقيـة :

وهم الذين ينتسب إليهم عرب الجاهلية وعرب ما بعد الإسلام. وينقسم العرب الباقية من حيث التوزيع الجغرافى إلى عرب الجنوب وعرب الشمال:

أ- عرب الجنوب أو العرب القحطانية :

وهم الذين سكنوا اليمن. ويُرجع المؤرخون نسبهم إلى يعرب بن قحطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح (جـ ١ ص ١٣٨) وأهم دولها حسب الترتيب الزمنى هى:

١ – **دولة يونت أو بُنط** : وكانت لها علاقات تجارية مع مصر إذ كان فراعنة مصر يقودون حملات فى البحر الأحمر إلى أرض البخور أشهرها الرحلة التى سيَّرتها الملكة حتشبسوت وقصتها مدوَّنة على جدران معبد الدير البحرى. وانتهت دولة بنط وتلتها.

٢ – **دولة المعينيين** : والتى استمرت قرابة ١٠ قرون أعقبتها.

٣ – **دولة سبأ** : والتى حكمت حوالى ٩ قرون (من ١٠٠٠ إلى ١١٥ ق.م.) وكلنا يعرف قصة بلقيس ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام (جـ ٥ ص ٢٣١). وكانت دولة سبأ على درجة كبيرة من الثراء لتجارتها الواسعة ولخصوبة أرضها وما بَنَوه من سدود تحجز مياه الأمطار ليستفاد بها طول العام. وكان أشهرها «سد مأرب». ولما تصدَّع ونتج عنه «سيل العرم» الذى أغرق الأرض تفرق أهلها ونزحوا إلى الشمال كما سيجئ فيما بعد (ص ٢٨٦–٢٨٧). بعد ذلك قامت فى جنوب اليمن

٤ – **دولة حِمْيَر** : وقد استمرت حوالى ٤ قرون وكانت عاصمتها «ظفار» . ومن ملوكهم «تُبَّع» المذكور فى القرآن الكريم:

«أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم» (٣٧ – الدخان).

«وأصحاب الأيكة وقوم تبع . كلٌ كذَّب الرسل» (١٤ – ق).

وملك من بعده ١٣ ملكا هم ملوك التبابعة وكان ثانيهم «ذو القرنين» وسمى كذلك لضفيرتين من شعره كان يرسلهما على جانبى رأسه. والمعتقد أنه هو الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم (الآيات ٨٣ – ٩٨. سورة الكهف).

وكان آخر الملوك التبابعة «ذانواس» الذى اعتنق اليهودية وتعصَّب لها وبالغ فى اضطهاد النصارى وحارب أهل نجران الذين كانوا يعتنقون النصرانية وقبض على عدد كبير منهم وحفر أخدودا عميقا ملأه بالحطب والأخشاب وأشعله نارا وصار يلقيهم فيها. وقد أشار القرآن الكريم إلى قصتهم فى سورة البروج: **«قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود»** (٤–٧–البروج).

وقد أدى هذا الاضطهاد إلى استنجاد النصارى بالإمبراطور جوستنيان إمبراطور الدولة البيزنطية التى أعطت لنفسها حق حماية النصارى فى كل مكان. فأرسل إلى ملك الحبشة بصفته مسيحيا ولقربه من اليمن. فأغارت الحبشة على اليمن وأسقطت دولة التبابعة حوالى عام ٥٢٥م. وحاول ذو نواس الفرار على فرس له ولكنه غرق فى البحر.

٥ - **اليمن تحت حكم الحبشة** : كان جيش الأحباش الذى أرسل إلى اليمن يتكون من ٧٠,٠٠٠ جندى. وكان قائد الجيش هو «أرياط» يساعده القائد الثانى «أبرهة الأشرم».

وظل أرياط يحكم اليمن باسم نجاشى الحبشة ثم نازعه أبرهة وانحاز إلى كل جانب فريق من الجنود وعدد من القبائل. ثم بدلاً من حرب شاملة بين الفريقين اتفقا على أن يتبارزا وأيهما انتصر صار حاكما للبلاد. وانتصر أبرهة وقُتل أرياط. فلما بلغ ذلك النجاشى فى الحبشة غضب ولكن أبرهه كتب إليه معتذرا ومُسترْضيا وأوضح أن سياسة أرياط الخرقاء كانت ستؤدى إلى ضياع حكم الأحباش لليمن. فرضى عنه الملك وثبَّته فى حكم اليمن.

ثم بدأ ملوك الحبشة فى التطلع إلى القضاء على ديانات العرب وصرفهم إلى النصرانية حتى يتصل نصارى الحبشة بنصارى الشام وتصبح الجزيرة العربية كلها على ديانة النصرانية. وصادف ذلك هوى فى نفس أبرهة الذى بنى فى العاصمة ظفار كنيسة كبيرة Eglise وعُرِّبت إلى «القليس» وهى التى كانت بداية محاولة أبرهة لهدم الكعبة كما سيجئ فيما بعد (ص ٢٦).

وتكملة لتاريخ اليمن نقول إن الحكام الأحباش بعد أبرهة زاد ظلمهم للناس فخرج سيف بن ذى يزن من اليمن قاصدا كسرى ملك الفرس ورغَّبه فى فتح بلاده لطرد الأحباش منها. ففعل كسرى بعد تردد وأصبحت اليمن تدين بالولاء لفارس ويحكمها سيف بن ذى يزن من قبل كسرى. وكان خامس ولاة الفرس على اليمن - وآخرهم - هو باذان الذى اعتنق الإسلام فى سنة ٦٢٨م. وهى السنة السادسة للهجرة وظل واليا عليها حتى سنة ٦٣٢م وهى السنة التى دخلت فيها اليمن فى حوزة الدولة الإسلامية وانتهت تبعيتها لفارس.

كندة : وكندة بطن من كهلان بن سبأ. وهم أصلا من البحرين أُجلوا عنها إلى حضرموت واستعملهم التبابعة ملوك اليمن فى مصالحهم وكانوا ينافسون المناذرة فى التقرب إلى الفرس وإن كان بعض المؤرخين يرجع أصلهم إلى اليمن ثم سكنوا كندة إلى الشمال من حضرموت ثم حدث خلاف بينهم وبين الحضرميين فهاجروا إلى الشمال وسكنوا غرب الخليج الفارسى.

ب - عرب الشمال :

ويسمون أيضا العرب المستعربة أو العرب العدنانية أو عرب الحجاز أو العرب الإسماعيلية ويغلب عليهم اسم العرب العدنانية نسبة إلى عدنان من سلالة إسماعيل عليه السلام (جـ ٢ ص ٣٨٧).

وتغلب البداوة على عرب الشمال. فهم يسكنون بيوتا من الشَعر أو الجلد يضربونها حيث يطيب لهم المقام. ولهم لغة تختلف عن لغة الجنوب. إلا أن الشعبين كانا يشتركان فى الوثنية وعبادة الأصنام.

وقامت فى الشمال عدة دويلات كانت بمثابة «دول حاجزة» بين الدولتين العظميين – فارس وروما – تحمى ظهرها من غارات بدو الصحراء. وولاءها يكون للدول العظمى المجاورة. هذه الدويلات هى (شكل ٢):

١ – دولة الأنباط :

وهى أقدم الدويلات الشمالية أقامها عرب هاجروا من وسط شبه الجزيزة العربية حوالى سنة ٥٠٠ ق.م. وسكنوا المنطقة التى تفصل بين الشام وبلاد العرب والتى تمتد من نهر الفرات إلى شرق البحر الميت. وقد ذكرنا نبذة عنهم فى الجزء الخامس (ص ٤٨٨) إذ بلغت دولتهم آنذاك أقصى توسعاتها التى ما لبثت أن أفلت باستيلاء الرومان على كل منطقة الشرق الأدنى فى عام ٦٣ ق.م. وآثار عاصمتهم «البتراء» لاتزال تجذب السائحين والمستكشفين.

٢ – دولة تدمر (پالميرا) :

تذكر التوراة أن سليمان عليه السلام بنى تدمر فى البرية على أنقاض مدينة صغيرة كانت موجودة من قديم الزمن. وأصبحت تدمر محطة هامة للقوافل التى تجتاز الصحراء الشاسعة من دمشق إلى بابل. وبعد سقوط الامبراطورية البابلية تجمع حولها بعض القبائل العربية وكوّنوا شبه دويلة لم تستمر كثيرا.

٣ – دولة الحيرة أو دولة المناذرة :

وتسمى أيضا «دولة لخم».. ويقال إنه بعد تصدع سد مأرب هاجرت بعض القبائل من اليمن وأخذت تغير على أطراف الدولة الفارسية فى العراق ورضخ الفرس للأمر الواقع وسمحوا لهذه القبائل بالسكنى فى منطقة الحيرة ومُنحوا شبة استقلال ذاتى حتى يكونوا حاجزا يحمى الفرس من غارات البدو المنتشرين فى الصحراء. كما أنهم كانوا يمدون العون للفرس فى معاركهم ضد الرومان.

وتقع مدينة الحيرة على نهر الفرات على مقربة من أنقاض مدينة بابل وعلى بعد ٥ كم جنوبا من الكوفه ومن ملوكهم: النعمان الأول ثم المنذر الأول فغلب عليهم اسم المناذرة. وكانت دويلتهم تشمل المنطقة الواقعة غرب الفرات ابتداء من مجراه الأوسط إلى جزء من الخليج الفارسى وكان نفوذها يشمل كافة القبائل الساكنة فى هذه المناطق.

الفرس الساسانيين
الحيرة
سوريا
لبنان
تدمر
دولة المناذرة
بيروت
دمشق
البحر المتوسط
صيدا
دولة تدمر
صور
حيفا
بادية الشام
روم
فلسطين
الخليج الفارسي
دولة الأنباط
الغساسنة
بترا
بصرى
معان
أيلة
الطرف الشمالي
لخليج العقبة

شكل ٢ – دويلات شمال شبه الجزيرة العربية.

٤ – دولة الغساسنة :

وقد لعبت دولة الغساسنة للروم نفس الدور الذى كانت تلعبه الحيرة بالنسبة للفرس بمعنى أنها كانت دولة حاجزة اتخذ منها الروم حاجزا يقيهم شر هجمات البدو عليهم من أطراف الصحراء. ولإمدادهم بالرجال فى حروبهم مع الفرس. ولا يستطيع المؤرخون تحديد متى قامت هذه الدويلة ولكنهم يرون أن بعض قبائل قضاعة نزلت فى إقليم شرق الأردن وانضم إليهم قبائل من أزد اليمن والذين كانوا يقيمون فى تهامة حول ماء يُسمَّى «غسَّان» فعرفوا بالغساسنة وغلبوا على قبائل قضاعة وصارت لهم اليد العليا فى الدويلة الناشئة. وقامت حروب بين الغساسنة والروم وأخيرا خضعوا لحكم الرومان ودفع الجزية ودانوا بالنصرانية واستقروا فى صحراء الشام جنوب دمشق وشرق نهر الأردن حتى الطرف الشمالى لخليج العقبة (شكل ٢). ثم قامت حرب بين الغساسنة والروم وجاء الغساسنة مددٌ من عرب شمال شبه الجزيرة العربية فانتصروا واضطر قيصر للصلح معهم معترفا بسيادتهم على الأرض التى فى حوزتهم على أن يقوموا بنصرته عند الحرب وتقديم نصيب من الحبوب كل عام.

وقد اختلف المؤرخون فى عدد ملوك الغساسنة وسنى حكمهم وأسمائهم ويُعَدُّ الحارث الأكبر (٥٢٨ – ٥٦٩م) أول أمير منهم يُعرف له تاريخ واضح. وهو فى نظر مؤرخى الغرب كان عاملا للروم. وهناك ما يشير إلى نشوب حروب بينه وبين المنذر الثالث أمير الحيرة. وكانت الحرب التي دارت سنة ٥٢٨م أكبرها وانتصرفيها الحارث ومن ثم فقد منحه جستنيان قيصر الروم لقب ملك. وهو لقب لم يمنحه الروم لواحد من عُمَّالهم فى سورية من قبل. كما سمحوا له ببسط نفوذه على القبائل العربية المجاورة بغية أن يجعلوا منه خصما قويا لأمير الحيرة. ويرى بعض المؤرخين أن الروم لم يخلعوا عليه لقب «ملك» وإنما هو الذى أطلقه على نفسه.

وقد اشترك الحارث فى المعركة التى نشبت بين الفرس والروم وانتهت بهزيمة الروم ثم وقعت معركة ثانية بعد ٨ سنوات انتصر فيها الروم. وهو ما أشار إليه القرآن الكريم: «**الم. غلبت الروم. فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين**» (١–٣– الروم) وهو ما سنشرحه مستقبلا (ص ٣٩٥). وكان الغساسنة يدينون بالنصرانية وعاصمتهم «بُصرى» التى كانت مركزا تجاريا هاما. وكان الفرس والروم يصلون بالأموال من يرونهم قادرين على تنفيذ سياستهم. كما كانت الدولتان الكبيرتان تبذلان الجهد كى تظل الدويلتان التابعتان على عداء حتى لا تتوحد كلمتهما.

الحجاز ونجد :

هذا هو الجزء المتبقى من شبه الجزيرة العربية. وقد ظل هذا الجزء قرونا طويلة وهو فى شبه عزلة تامة عن العالم المتمدين بينما الجنوب والشمال قد سجَّل لنا التاريخ من أخبارهما

الكثير. والسبب أن جدب الحجاز ونجد وجفاف تربته ووعورة المسالك إليه كانت تحول دون توغل الفاتحين العظام فى أرضه ومن حاول منهم فتحه عاد خائبا. فبعُدت الحجاز عن الاحتكاك بالدول المجاورة وكان نشاطه داخليا مما أبقى على حالة البداوة التى نشأ عليها أهله. ولم يخرج عن هذه البداوة إلا مكة ويثرب وبعض المدن التى كانت على طريق القوافل من الجنوب إلى الشمال - من اليمن إلى الشام - وبالعكس. وأثر فى يثرب عامل آخر وهو هجرة اليهود إليها بعد إجلائهم عن فلسطين عند إخماد ثورتهم على حكم الرومان عام ٦٣م.

مكـة :

تقع مكة فى واد منحصر بين الجبال تربطه عدة طرق بالشمال والجنوب. فكانت محطة لرجال القوافل يضربون فيها خيامهم للراحة، وكانت أرضا قفرا ليس بها زراعة. ويخبرنا القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام - لما حدث خلاف بين زوجتيه سارة وهاجر - أخذ هاجر وولدها إسماعيل وسار بهما حتى وصل إلى مكة فتركهما هناك وعاد إلى حبرون. وقد ذكرنا فى الجزء الثانى (ص٢٩٦ - ٣٠٣) كيف تفجّر ماء زمزم ببركة إسماعيل فارتوت هاجر وسقت وليدها. وجاءت جماعة من جرهم واستأذنوها فى الإقامة بجوار البئر فأذنت لهم. ثم جاء جماعة من العماليق فنزلوا أيضا بالوادى. وفاضت ماء زمزم وإذا بالوادى القفر ينبض بالحياة ويعمر وتصبح مكة أهم محطة على طريق القوافل وأصاب أهلها الخير الكثير وزادت مكانتها بعد بناء الكعبة - بيت الله الحرام - وتولى العماليق أمر الكعبة. ثم أجلت جرهم العمالقة عن مكة وتولوا هم أمر الكعبة وظلت فى أيديهم زهاء ١٠٠٠ سنة. ثم غلبت خزاعة جرهم. ولكن جرهم - طمرت بئر زمزم وغيّبت مكانها فكانت خزاعة تضطر إلى جلب الماء من الآبار خارج مكة مع ما فى ذلك من مشقة. وظلت خزاعة قائمة على أمور البيت والحج حوالى ٢٠٠ سنة حتى وصلت إلى قريش.

وكثيرا ما كانت الكعبة تُدَمَّر بفعل السيول التى كانت تجتاحها. وتعيد قريش بناءها فى كل مرة. وكان قصىّ بن كلاب هو أول من جعل لها سقفا وكانت حتى زمنه مكشوفة لا سقف لها.

وكان لقريش شرف خدمة حجاج بيت الله الحرام وهى تتكون من:

١ - **الحجابة** : أى خدمة الكعبة وفتح بابها.

٢ - **السقاية** : أى توفير الماء لسقى الحجيج .

٣ - **الرفادة** : أى إطعام من لا زاد معه أو من نفد زاده من الحجيج.

وأضافت قريش إلى ذلك :

٤ - **رئاسة دار الندوة** : وهى الدار التى أنشأها قصى كبير قريش ليجتمع فيه شيوخ قريش للتشاور فى المسائل الهامة.

٥ – **اللواء** : وهو رمز الجيش .

يثـرب :

وهى المدينة الثانية فى الحجاز بعد مكة وتقع على خط القوافل المتجهة من مكة إلى الشام. وسنرجئ الكلام المفصل عنها من ناحية تركيبها السكانى إلى ص ٢٢٥ لارتباط ذلك وما كان له من تمهيد لهجرة رسول الله إليها .

الديانـة فـى جزيـرة العـرب

ظل العرب من ذرية إسماعيل – على الحنيفية – دين إبراهيم عليه السلام. ولما انتشر أبناء قيدار بن إسماعيل فى أنحاء الجزيرة العربية ظلوا على ديانة التوحيد وخاصة الفروع التى أقامت حول البيت الحرام فى مكة يعظمون الكعبة ويطوفون بها .

وكان الذى سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أن أهل قريش – عند سفرهم – كانوا يحملون حجرا من حجارة الحرم وحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تعظيما للبيت وانتهى بهم الأمر إلى أن كانوا يطوفون بحجارة يستحسنونها إلى أن عبدوا الأوثان وهم مع ذلك يعظمون الكعبة ويطوفون بها . ثم استحيوا الأصنام التى كان يعبدها قوم نوح وهى: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر. وأشركوا مع الله آلهة أخرى فكانت نزار تقول فى طوافها: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك. إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك. وكانت «عك» إذا خرجوا حجاجا قدَّموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم فكانا أمام ركبهم يقولان: نحن غرابا عك ويرد عليهم الناس قائلين: عك إليك عانية عبادك اليمانية كيما تحج ثانية. وكانت ربيعة إذا حجّت وقضت المناسك نفرت فى النفر الأول ولم تبق بمنى إلى آخر أيام التشريق.

أما أول من أدخل الأصنام إلى قريش فهو لُحىّ بن حارثة بن عمرو الأزدى وهو أبو خزاعة. وهو الذى غلب جرهم على أمرها فأجلاهم عن مكة وتولى أمر الكعبة: الحجابة والسقاية والرفادة. وكان أن مرض مرضا شديدا فقيل له إن بالبلقاء بأرض الشام عينا إن أتاها برأ. فأتاها واستحم فيها فبرأ. ووجد أهلها يعبدون الأصنام فأخذ واحدا من أصنامهم وقدم به إلى مكة ونصبه بجوار الكعبة.

وانتشرت عبادة الأصنام فى جميع أنحاء الجزيرة العربية. كل قبيلة لها صنم تعبده وتتبرك به وتذبح له القرابين. وكانت كل القبائل تجد شرفا لها أن يوضع نموذج لمعبودها داخل الكعبة أو بجوارها . وقد روى أن ما وجد داخل الكعبة من تماثيل عند فتح مكة بلغ أكثر من ٣٦٠ تمثالا . كسرها النبى كلها وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

وكان لكل أهل دار فى مكة صنم يعبدونه. فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنعه قبل خروجه من داره أن يتمسّح بصنمه. وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل داره هو أن يتمسّح به أيضا. وإذا سافر ونزل منزلا فى الطريق فتّش عن أربعه حجارة حسناء الشكل واختار أحسنها فيتخذه ربًا وجعل ثلاثة أثافى لقدره يوقد تحته النار.

وكان بنو مليح – من خزاعة – يعبدون الجن وفيهم نزل قوله تعالى: **«إن الذين تعبدون من دون الله عباد أمثالكم»** (١٩٤ – الأعراف).

وفيما يلى أهم الأصنام التى عبدت فى الجزيرة العربية وشكل ٣ يبين أماكن عبادتها وللتسهيل جعلنا الرقم فى المتن هو نفس الرقم على الخريطة وشكل ٤ يبين أهم القبائل العربية وأماكنها:

١ – **هُبَل**: كان أعظم أصنام قريش وكان مقاما فى جوف الكعبة وقيل إنه كان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى فجعلوا له يدا من ذهب. وكان أول من نَصبهُ خزيمة ابن مدركة ولذا كان يسمى «هُبل خزيمة» وكان قُدّامه ٧ قداح كانوا يضربون عليها أى يقترعون لتخبر عن مشيئة الإله وهذا هو الاستقسام بالأزلام الذى نهى عنه القرآن الكريم. ولم يكن يسمح للحيض من النساء بالدنو من الأصنام أو التمسُّح بها.

٢ – ٣ **إساف ونائلة**: وكانا عاشقين من أرض اليمن أقبلا حاجين فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة ففجر بها فى البيت فمسخا حجرين وأصبح الناس فوجدوا التمثالين فأخرجوهما ووضعوهما بجوار الكعبة وعبدتها قضاعة وقريش.

٤ – **اللات**: وكانت تُعبد فى الطائف. وكانت صخرة مربعة ويقال إن الناس كانوا يلتُّون عندها السويق فاتخذوها إلها. وكان سدنتها من ثقيف الذين بنوا عليها بناء يطوفون حوله. وكانت قريش تعظّمها.

٥ – **العُزّى**: كانت فى وادى نخلة على طريق مكة العراق وتبعد عن مكة ٤٠كم تقريبا. واسم عبد العزى من الأسماء المشهورة عند قريش وثقيف. وكانت العزى من أعظم الأصنام عند العرب وكانت قريش تحج إليها. وحرّمت ثقيف جزءا من وادى حراض يضاهئون به حرم الكعبة وجعلوا لها منحرا ينحرون عنده قرابينهم.

٦ – **يعوق**: وكانت قبيلة خيوان تعبده وبنوا له بنيانا وهو على بعد ليلتين جنوب مكة.

٧ – **ذو الخلصة**: وهو صنم عبارة عن صخرة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج. وكان منصوبا فى قرية «تبالة» على طريق مكة اليمن وعلى بعد سبع ليال من مكة. وكانت خثعم تعظّمها وكذلك القبائل المجاورة: بجيلة وأزد السراة. ولما أقبل امرؤ القيس يريد الثأر من بنى أسد لقتلهم أبيه مرّ بذى الخلصة وكان له ثلاثة قداح: الآمر والناهى والمتربّص. فاستقسم عنده

ثلاث مرات وفى كل مرة يخرج الناهى فسبَّه وكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال: لو كان أبوك ما عوَّقتنى. ثم غزا بنى أسد وظفر بهم وكف الناس عن الاستقسام بذى الخلصة حتى جاء الإسلام وكان امرؤ القيس أول من أسلم من قومه.

٨ - **مناة**: وسُميت كذلك لأن دماء القرابين كانت تُمنى أى تراق عندها. وكان تمثالها منصوبا على ساحل البحر بمحاذاة القديد والمشلل على طريق مكة المدينة. وكان الناس يتسمُّون «عبد مناة» و «زيد مناة». وكانت العرب كلها تعظِّمها وخاصة الأوس والخزرج وما حول المدينة من قبائل ويذبحون عندها القرابين. وكان عُبادها يحجون إلى مكة فيقفون مع الناس بالمواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم حتى يأتوها فيحلقون عندها ويقيمون عندها ثلاث ليال ولا يرون للحج تماما إلا بذلك.

٩ - وكان لبنى كنانة بساحل جدة صنم يسمى «**سعداً**» وكان عبارة عن صخرة طويلة ملساء.

١٠ - وكان صنم بنى لحيان يسمى «**نهم**».

١١ - وكان لدوس صنم يقال له. «**ذو الكفين**».

١٢ - «**باجر**» صنم الأزد شمال المدينة.

١٣ - «**عبعب**» كان يعبد فى مدين وأيلة.

١٤ - أما قضاعة وجذام فى شرق الأردن فقد عبدوا «**الأقيصر**».

١٥ - وعبدت قبيلة كلب بدومة الجندل «**ودا**» - أحد آلهة قوم نوح.

١٦ - وكان لطيىء صنم يقال له «**الفلس**» من حجر أسود بهيئة إنسان وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ويذبحون عنده ذبائحهم ولا يطارد أحدهم طريدة فتلجأ إليه إلا تركت له. ثم إن عدى بن حاتم الطيئ تنصَّر ولم يعد يعبد صنمه حتى جاء الإسلام فأسلم.

١٧ -أما بنو زيد بن درام فى برية الشام فكان صنمهم يسمى «**أسيد**».

١٨ - وعبدت جديلة طيئ «**اليعبوب**».

١٩ - وشيبان قرب البصرة عبدت «**سعير**».

٢٠ - وبكر بن وائل عبدت «**عوض**».

٢١ - وعبد القيس وبنو حنيفة عبدوا «**ذو اللبا**».

٢٢ - والقطيف فى البحرين عبدوا «**رضى**».

٢٣ - وفى اليمامة عبدوا «**رحمن**».

٢٤ - أما تميم فقد عبدوا «**ذا الكعبات**».

٢٥ - وربيعة عبدت «**المحرق**».

٢٦ - «الضيزنان» عُبد فى عمان.

٢٧ - و «مرحب» فى شرق حضرموت وكندة.

٢٨ - «ذريح» عبد في غرب حضرموت.

٢٩ - أما حمير فقد عبدت «نسراً».

٣٠ - وكان لخولان فى اليمن صنم يقال له «عميانس» وكانوا يقسمون له من أنعامهم وحرثهم قسما بينه وبين الله - عز وجل - فما دخل فى حق الله من حق عميانس ردُّوه عليه وما دخل فى حق الصنم من حق الله تركوه وفيهم نزل قوله تعالى:

«وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا. فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون» (١٣٦ - الأنعام)

٣١ - وفى صنعاء عبد «ذو رئام» وكان له بيت كبير.

٣٢ - أما قبيلة مراد فقد عبدت **طائر النسر**.

٣٣ - أما مذحج وجرش فقد عبدا «**يغوث**».

٣٤ - وأزد السراة عبدوا «**عائم**».

٣٥ - أما «**ذو الشرى**» فقد غبد فى شمال نجران.

وقامت قبيلتا خثعم وبجيلة باليمن ببناء كعبة سموها **الكعبة اليمانية** - يضاهئون بها الكعبة التى بمكة - ووضعوا بها تمثال ذى الخلصة.

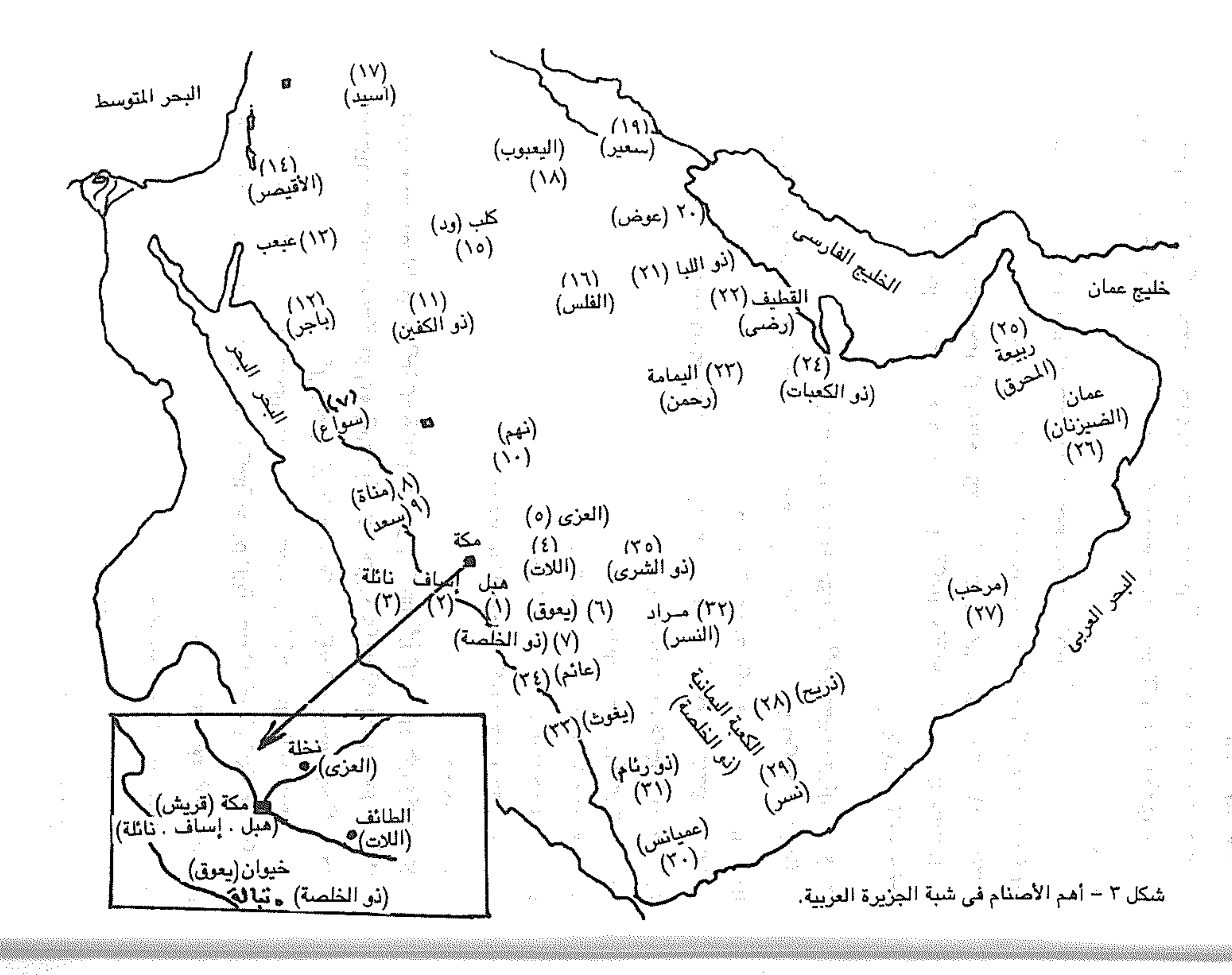
وهناك - غيرما ذكر - عشرات من الأصنام عبدها الناس فى أطراف الجزيزة العربية فقد كانت الوثنية منتشرة فى كل مكان ولكل قبيلة صنمها.

سياسة قريش التجارية:

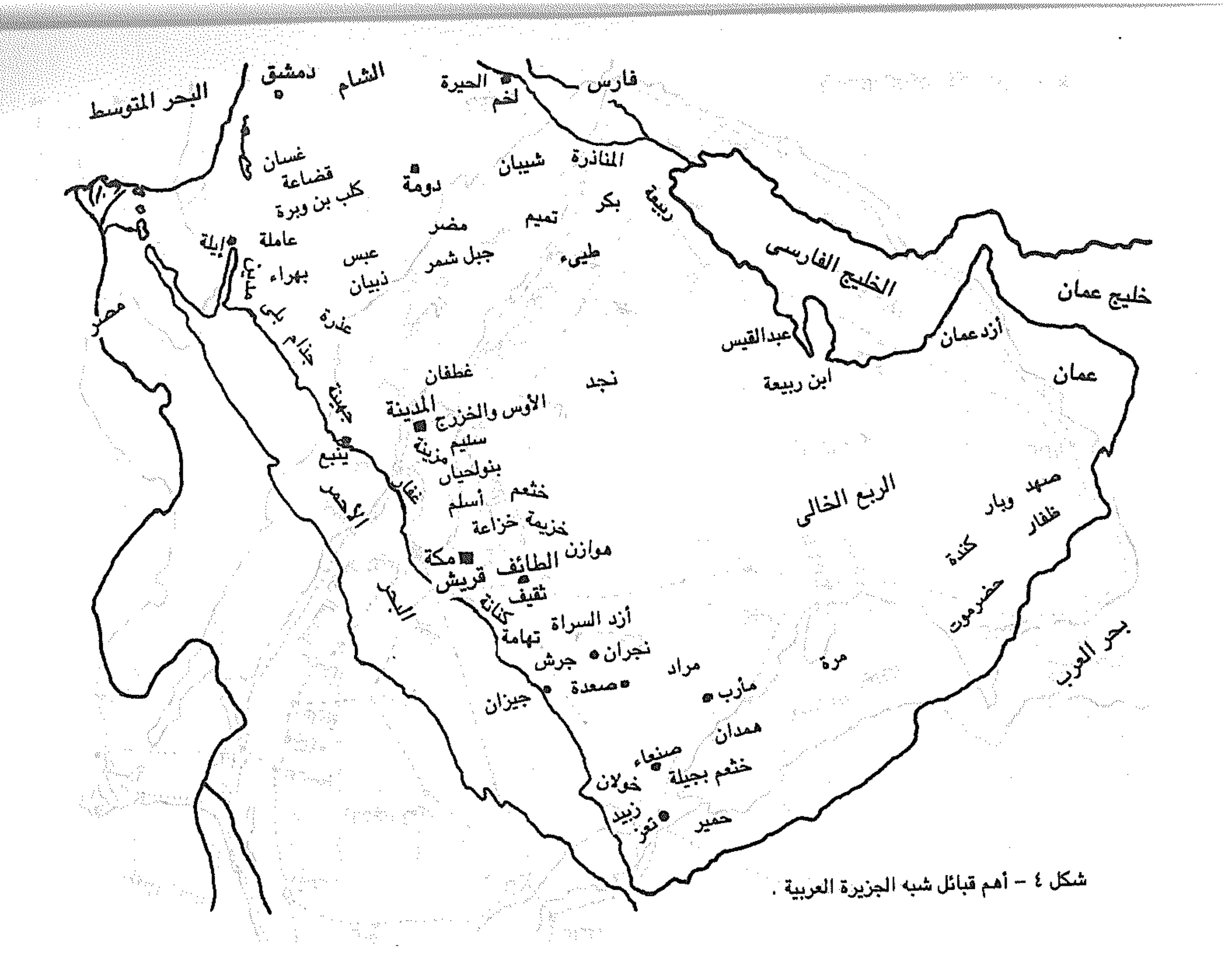
لما كانت الزراعة فى الجزيرة العربية نادرة - فيما عدا اليمن - لذلك كانت التجارة هى مصدر الرزق المتاح. فكانت القوافل تخرج من مكة: جنوبا إلى اليمن وشمال شرق إلى البصرة والعراق وشمالا إلى الشام وفلسطين ثم تعبر سيناء غربا إلى مصر.

وحرصت قريش على تأمين تجارتها فعقدت اتفاقيات مع الدول المجاورة (تاريخ الطبرى ١٣/٢):

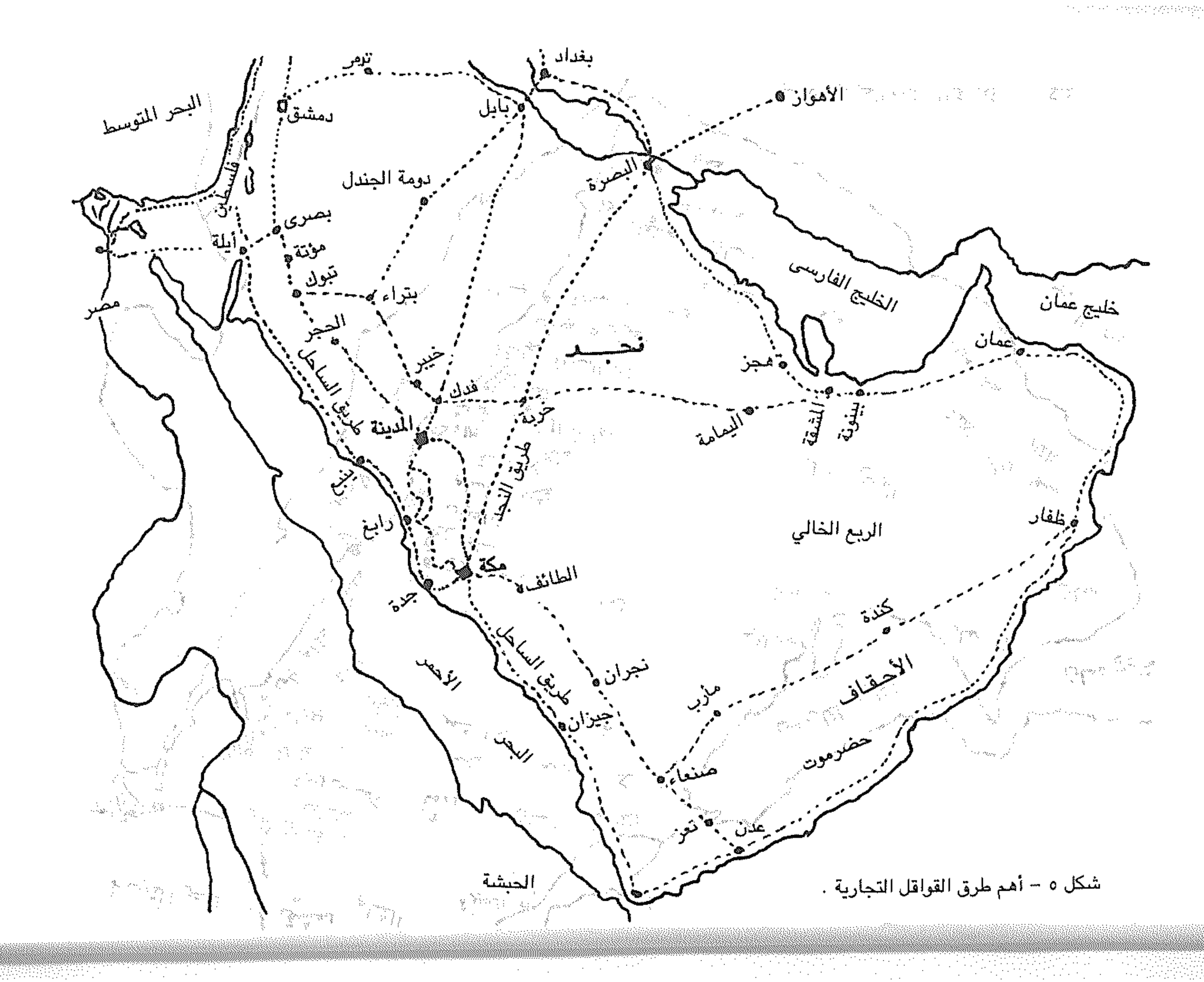
١ - **مع الامبراطورية الرومانية**: عقدها هاشم بن مناف. وهى تعتبر اتفاقية سياسية اقتصادية حصلت قريش بموجبها على امتياز التجارة والانتقال بسلام فى الأراضى الخاضعة للإمبراطورية الرومانية.



شكل ٣ – أهم الأصنام فى شبة الجزيرة العربية.



شكل ٤ – أهم قبائل شبه الجزيرة العربية .



شكل ٥ – أهم طرق القوافل التجارية .

٢ – **مع فارس:** عقد نوفل بن عبد مناف اتفاقية مماثلة وأعطت الدولة الساسانية (الفارسية) لقريش امتيازا فى الأراضى الخاضعة لها.

٣ – **مع الحبشة:** عقد عبد شمس اتفاقية ثالثة مع النجاشى امبراطور الحبشة حصلت بموجبه قريش على الامتيازات التجارية وحسن الجوار وتعزيز عرى الصداقة.

٤ – **مع اليمن:** عقد المطلب بن عبد مناف اتفاقية مع ملوك حمير تضمن لقريش حرية التنقل والتجارة فى بلاد اليمن والأراضى التابعة لها.

وبهذا استطاع القرشيون تعزيز موقعهم السياسى والاقتصادى مع الدول المجاورة مما مكنهم من نمو تجارتهم وأصبحوا مسيطرين على طرق التجارة بين الشمال (الشام) والجنوب (اليمن والحبشة) والشرق (العراق). وعرفت هذه الاتفاقيات بالإيلاف أى التحالف. وبها ازدادت قريش مكانة ورفعة بين العرب وعلّمت الأسفار سادة قريش كثيرا من أمور الحضارة والثقافة وكانت أهم القوافل تتجة إلى الشام فى الصيف وإلى اليمن فى الشتاء. وإلى هذا أشار القرآن الكريم فى قوله تعالى: «**لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف**» (١ – ٢ قريش) وسيجئ ذلك فيما بعد (ص ٦٨) ويبين شكل ٥ أهم الطرق التجارية فى ذلك العصر.

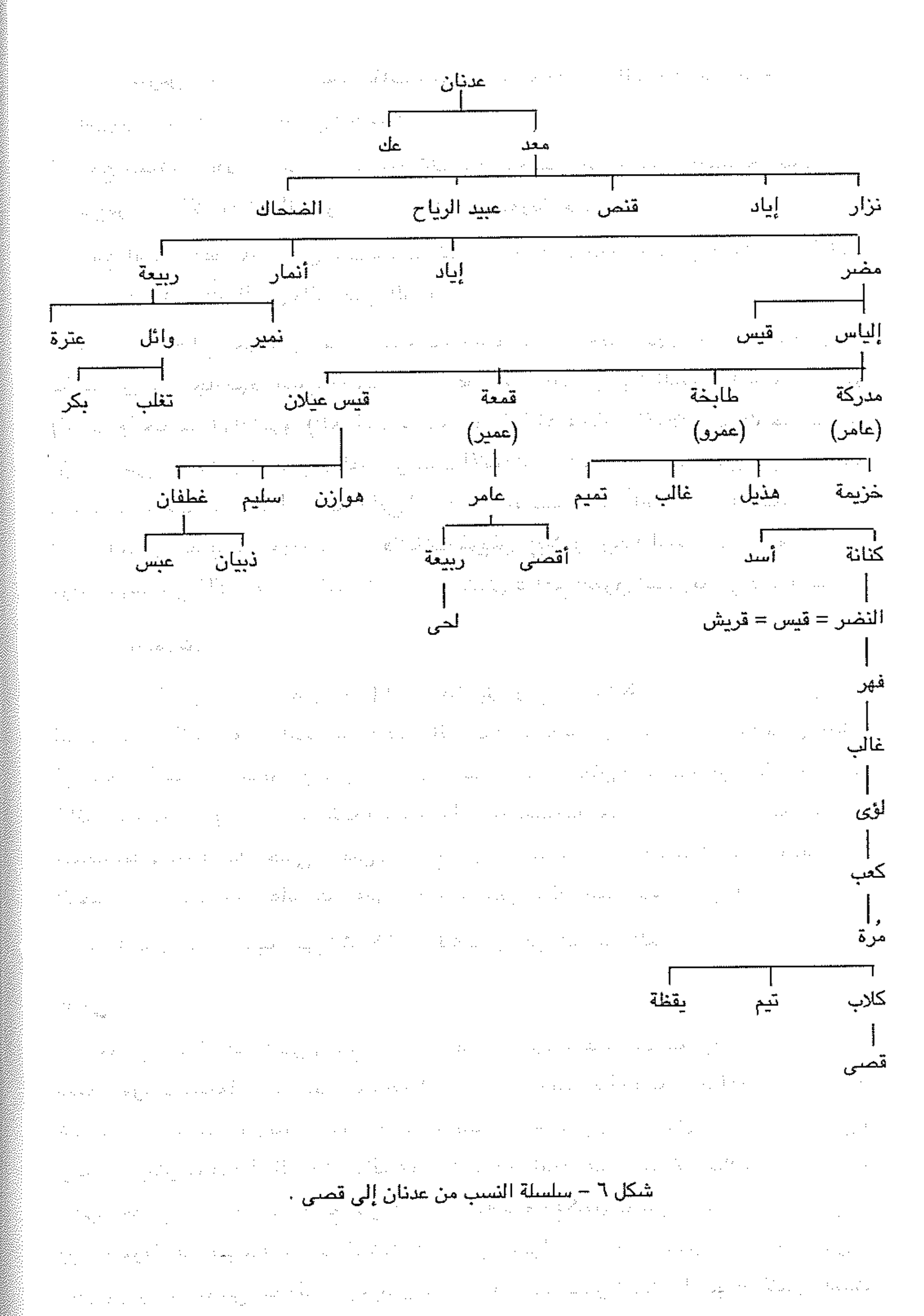
بنو إسماعيل:

قلنا فى الجزء الثانى (ص ٣٧٠) إن إسماعيل تزوج من عاتكة ابنة عمرو الجرهمى ومنها أنجب أبناءه الاثنى عشر الذين هم أجداد العرب الإسماعيليين. ولم يلبث أولادهم أن انتشروا فى شمال الجزيرة العربية. وأشهر أعقاب إسماعيل هو عدنان والمشهور أن عدنان وابنه معد كانا معاصرين لمولد المسيح عليه السلام. ولكن لم يستطع المؤرخون تتبع الأجيال منذ عهد إسماعيل وابنه قيدار حتى عدنان والمرجح أن بينهما حوالى ٣٠ جيلا. وبعد عدنان توالت الأجيال على مدى ٥٧٠ عاما كان فيها ٢٠ جيلا حتى مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

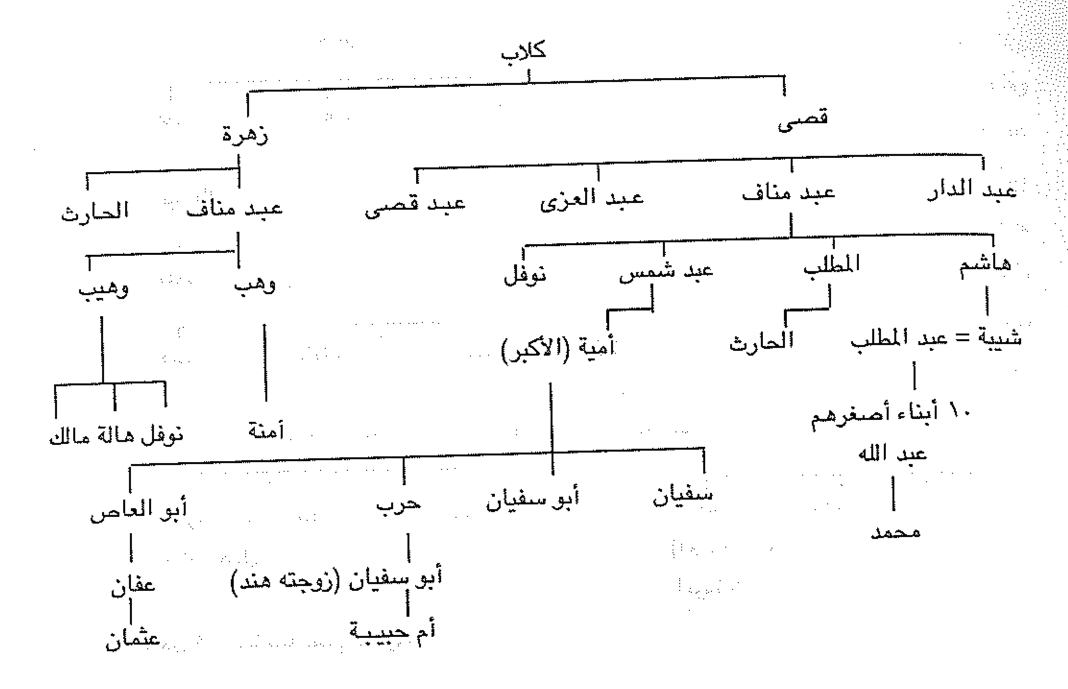
وسلاسل النسب المبينة فى الأشكال التالية تغنى عن كثير من الشرح:

قصىّ:

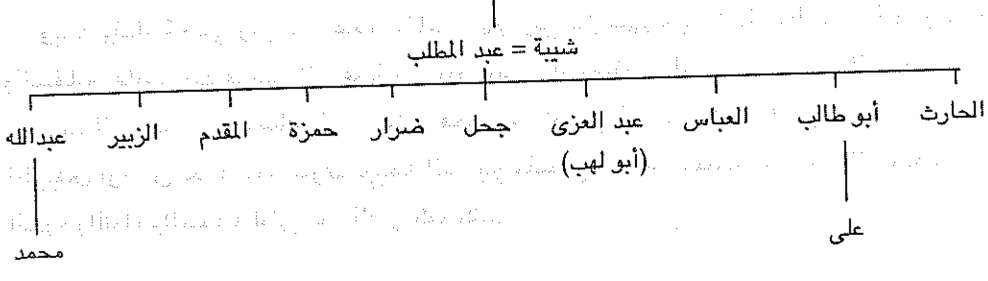
وقصى هو الزعيم الذى وضع أسس أمجاد قريش. فقد كانت قبله بطونا متفرقة فجمع شملها ووحّد صفوفها. وكانت السيادة السياسية والدينية قبله لقبيلة خزاعة فاستطاع بقوة شخصيته وحنكته أن ينتزع هذه السيادة فنصبته قريش زعيما على مكة فكان قصى أول رئيس لقريش وكانت له الحجابة والسقاية والرفادة واللواء فحاز شرف مكة كله. ولذلك سمّت العرب قصى «مُجمّعا» لما جمع أمرها. وتيمّن به قومه فكانوا يعقدون الزواج دائما فى داره ويستشيرونه فى مهام أمورهم. فأنشأ دار الندوة وفيها كان يجتمع كبار قريش يتباحثون فى شئونهم. ووضع قصى لمكة ولقريش قوانين تنظم العلاقات وتضمن للتجار وللحجاج الأمن والسلام.



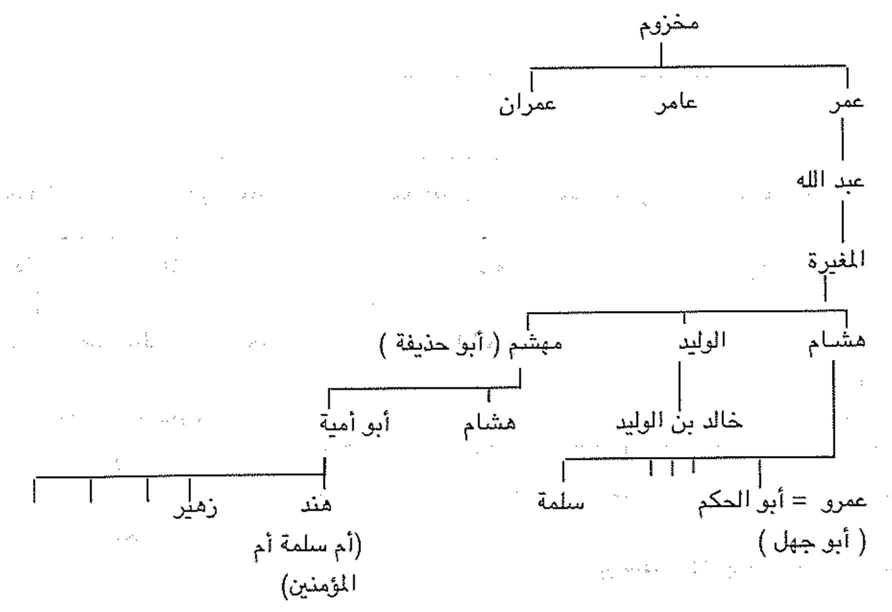
شكل ٦ – سلسلة النسب من عدنان إلى قصى .



شكل ٧ – بعض قرابات النبى .



شكل ٨ – أولاد عبد المطلب (أعمام النبى) .



شكل ٩ – سلسلة نسب مخزوم

أنجب قصىّ أربعة أبناء: عبد الدار أكبرهم، وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصىّ. وبرغم أن عبد الدار كان أكبرهم سنا إلا أن عبد مناف كان أقوى شخصية. وقد أوصى قصىّ لعبد الدار – بكره – بمفاتيح الكعبة لا يدخلها أحد إلا بإذنه وأعطاه دار الندوة والحجابة والسقاية والرفادة. وولد لعبد مناف أربعة أولا هم: هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل.

وبعد وفاة قصى رأى بنو عبد مناف أنهم أولى من بنى عبد الدار بالحجابة والرفادة والسقاية. فانقسمت قريش إلى فريقين : بنو عبد مناف وانضم إليهم بنو زهرة والفريق الآخر بنو عبد الدار يرون التمسك بكل ما كان قصى قد أوصى لهم به وكادت الحرب أن تنشب بين الفريقين لولا أن تم تقسيم شرف خدمة الحجيج فأعطى بنو عبد مناف السقاية والرفادة وظلت الندوة واللواء والحجابة لبنى عبد الدار كما كانت.

هاشم :

كان عبد شمس رجلا كثير الأسفار فتولى أخوه هاشم الرفادة والسقاية وهو الذى سنّ لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام. وكان هاشم جوادا يطعم ابن السبيل ويؤدى الحقوق ويتلألأ النور فى وجهه فأحبه الجميع. فحقد عليه أمية بن أخيه عبد شمس وكانت عداوة . فحكم شيوخ مكة بأن يخرج أمية وبنوه من مكة عشر سنين منعا للحرب. فرضخ أمية – كارها – لهذا الحكم.

وفى رحلة له إلى الشام من هاشم بيثرب ونزل على عمرو بن زيد بن عدى بن النجار – وكان سيد قومه – وأعجبته ابنته سلمى فخطبها إلى أبيها فزوَّجها منه واشترط عليه مقامها عنده. فحملت وسافر هاشم إلى الشام فمات بغزة ووضعت سلمى ولدها وفى شعره خصلة بيضاء فسمِّى «شيبة» أو «شيبة الحمد» وأقام عند أخواله بنى عدى بن النجار سبع سنين. ثم جاء عمه المطلب بن عبد مناف – ولم يكن له ولد – إلى يثرب وأقنع والدة شيبة وأخواله بالسماح له بأخذ ابن أخيه ليتولى رئاسة قريش فى مكة من بعده. وعاد المطلب وقد أردف شيبة خلفه على راحلته. ولما دخل مكة ظن الناس أنه عبد اشتراه فسمُّوه عبد المطلب واشتهر بهذا الإسم ونُسِىَ اسم شيبة وكان يعتبر ابنا للمطلب.

وخرج المطلب فى قافلة إلى اليمن ومات هناك فأراد نوفل أخوه أن يتولى رئاسة قريش بعد أخيه ولكن شيبة بن هاشم أى عبد المطلب رأى أن الرئاسة تؤول إليه بحكم الإرث. واستعان بأخواله بنى النجار لمقاومة أطماع عمه فأمدوه بثمانين رجلا جاءوا إلى مكة وطلبوا من نوفل أن لا ينازع شيبة فى حقه وانضمت خزاعة إلى هذا الحلف. وبالرغم من أن عبد شمس وقف إلى جانب أخيه نوفل إلاَّ أن هذا الأخير آثر السلام وبذلك أصبح عبد المطلب هو سيد قريش. وسافر نوفل فى قافلة إلى العراق وتوفى هناك.

إعادة حفر زمزم

جاء أوان الحج فخرج كل غنى فى قريش عن جزء من ماله إلى عبد المطلب مساهمة فى إطعام الفقراء من حجاج بيت الله فى مكة. وراح عبد المطلب يصنع أحواضا بفناء الكعبة وملأها بماء من آبار خارج مكة ليشرب منها الحجيج. ومر موسم الحج بسلام ولكن مشقة السقاية وجلب الماء من خارج مكة فى قِرَب على ظهور الإبل جعلت عبد المطلب يفكر كثيرا فيما تكون عليه الحال لو زاد الحجيج إلى أعداد كبيرة.

وفى ذات يوم وهو يتفيؤ فى حجر إسماعيل بجوار الكعبة أصابته غفوة وأتاه آت فقال له احفر طيبة فقال عبد المطلب وهو لايزال فى نومه: وما طيبة؟ فلم يجبه الهاتف واستيقظ عبد المطلب من غفوته ولكن ما رآه فى منامه لم يبارح ذهنه.

وفى اليوم الثانى ذهب إلى بيته ونام فجاءه الهاتف وقال له: احفر برَّة. فقال عبد المطلب: وما برَّة ؟. ولم يجبه الهاتف أيضا واستيقظ عبد المطلب وهو يعجب من ذلك الهاتف الذى يطلب منه حفر طيبة أو برَّة ولا يبين له ماهيتها. وفى الليلة التالية عندما آوى إلى مضجعه أتاه الهاتف وقال له: احفر المضنونة. وسأل عبد المطلب وما المضنونة؟ ولثالث مرة ذهب عنه الهاتف ولم يجبه. واستيقظ عبد المطلب وهو فى حيرة من أمره. وجعل يتساءل فيما بينه وبين نفسه. أهى أضغاث أحلام ليس لها معنى أم أمر من السماء. وإذا كانت أمرا من السماء فلماذا لا يبين لها الهاتف ماهية ما يطلب.

وفى اليوم الرابع أوى إلى مضجعه وكله أمل أن يبين له الإله مطلبه. ولما نام جاءه الهاتف وقال له: احفر زمزم. ورد عبد المطلب: وما زمزم؟ فأجابه: لا تنزف أبدا ولا تزم. تسقى الحجيج الأعظم وهى بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعظم عند قرية النمل. واستيقظ عبد المطلب وأخذ معه ابنه الحارث - وليس له يومئذ غيره - فحفر فى المكان الذى تنحر فيه قريش قرابينها للآلهة. بين تمثالى إساف ونائلة ووجد الغراب ينقر عندها فعرف أن الهاتف قد صدقه. وبدأ يحفر فارتطم المعول بالحجارة التى كانت البئر قد طُمِرَت بها. فصاح صيحة عظيمة اجتمع على أثرها أشراف مكة فحسدوا عبد المطلب أن يعاد حفر بئر زمزم على يديه وحده وطلبوا منه أن يشركهم فى هذا الشرف. ولكنه رفض وأوضح لهم أن هذا الشرف قد اختُصَّ به هو وابنه. ولم يقدر ابنه الحارث أن يذود عنه حتى يستمر فى الحفر . وأحسَّ عبد المطلب قهرا إذ لو كان معه ولد كثير لما قدرت عليه قريش. فوجَّه وجهه ناحية الكعبة ونذر لئن أكمل الله عشرة ذكور يمنعونه ويشدون أزره ليذبحن أحدهم قربانا لربه.

وتم الرأى على أن يحتكموا إلى كاهنة بنى سعد بأرض الشام. فركب عبد المطلب وركب من كل بطن من بطون قريش نفر وخرجوا طالبين الكاهنة. وكانت المسافة طويلة ونفد الماء وأيقنوا بالهلاك وظلوا فى أماكنهم ينتظرون الموت. ثم استقر رأيهم على أن يسيروا علَّهم يجدون ماء وركب كل واحد راحلته وسار. ولما ركب عبد المطلب راحلته وسارت انفجر الماء من تحت خُفِّها فكبَّر عبد المطلب وكبَّر أصحابه وشربوا جميعا حتى ارتووا . وقالوا لعبد المطلب: قد والله قُضِيَ لك علينا ووالله ما نخاصمك فى زمزم أبداً. إن الذى سقاك بهذه الفلاة هو الذى سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشدا ولم يكملوا السير إلى الكاهنة وعادوا إلى مكة وتركوه يكمل حفر زمزم.

ولما عمق الحفر وجد فيها غزالتين من ذهب كانت جرهم قد دفنتها ووجد أسيافا وأدرعا. وتنازعوا فيها. ثم استقر رأيهم على ضرب القداح عليها فخرج الغزالان للكعبة والأسياف والأدرع لعبد المطلب ولم يخرج قدح قريش بشيئ. فضرب عبد المطلب الأسياف والأدرع بابا للكعبة وضرب فى الباب الغزالين من الذهب. فكان ذلك أول حلية ذهب للكعبة. وأقام حوضا للماء حول زمزم لسقاية الحجيج. فانصرف الناس كلهم إليها لمكانها فى المسجد الحرام ولعذوبة مائها ولأنها بئر اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وقد روى عن رسول الله أنه قال: ماء زمزم لما شرب له. وقال أيضا: اللهم إنى لا أحلها لمغتسل وهى لشارب حِلٌّ وبلّ. تنزيها للمسجد الحرام عن دخول الجُنُب فيه.

وظلت السقاية لعبد المطلب طول حياته ثم صارت لابنه أبى طالب وفى إحدي السنين لم يكن معه مال لإطعام الحجيج فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف درهم. وفى الموسم الثانى استدان عشرة آلاف أخرى من أخيه العباس إلى الموسم الذى يليه واشترط العباس أنه إذا لم يدفع دينه يتنازل له عن السقاية. فلما جاء العام لم يستطع أبو طالب الوفاء بدينه فآلت السقاية إلى العباس.

نذر عبد المطلب ذبح ولده :

ومرت السنون وولد لعبد المطلب بنون حتى اكتلموا عشرة هم: الحارث. الزبير. حجل. ضرار. المقدم. أبو لهب. العباس. حمزة. أبو طالب وعبد الله. وتذكَّر عبد المطلب نذره الذى نذر عندما بدأ حفر زمزم: لئن ولد له عشرة نفر ليذبحنَّ أحدهم لله عند الكعبة. فجمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى معاونته على الوفاء بنذره. فأخذهم إلى الكعبة وضرب القداح عند هبل فخرج القدح على ابنه عبد الله وكان أصغرهم وأحبهم إليه فأخذه بيده ليذبحه. وعلمت قريش فاستنكروا ما ينوى فعله وحالوا بينه وبين ذبح ولده وأشاروا بالإحتكام إلى عرَّافة فى الحجاز علَّه يجد عندها مخرجا. فركبوا حتى جاءوها. وقص عليها عبد المطلب خبره. فسألتهم: كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الأبل. فقالت ارجعوا إلى بلادكم ثم قرِّبوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ثم اضربوا القداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا الإبل حتى يرضى ربكم وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم بالإبل عوضاً عن صاحبكم. فعادوا إلى مكة. وقدَّموا عشرا من الإبل وضربوا القداح فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا. ولم يزالوا يزيدون عشرا عشرا ويخرج القدح على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة. ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل ويقال إن عبد المطلب لم يقتنع برضا ربه إلا بعد أن خرجت القداح ثلاث مرات متتالية على الإبل فنحرها. فكان هذا أعظم فداء لرجل فى العرب.

زواج عبد الله :

خرج عبد المطلب ومعه ابنه عبد الله حتى أتى وهب بن عبد مناف بن زهرة وخطب ابنته آمنة لابنه عبد الله (انظر سلسلة النسب شكل ٧ ص ١٩).

ويقال إنه وهو فى طريقة إلى الكعبة مر على امرأة يقول ابن كثير (السيرة النبوية جـ ١ ص ١٧٨) إنها كاهنة اسمها فاطمة بنت مر الخثعمية. ويقول ابن هشام (السيرة النبوية جـ١ ص١٠٠) إنها أخت ورقة بن نوفل. فنظرت فى وجهه وقالت لك مثل الإبل التى نحرت لك وتتزوجنى فقال لها أنا مع أبى ولا أستطيع مخالفته. وخرج عبد الله مع أبيه عبد المطلب قاصدين قبيلة زهرة وخطب آمنة كما ذكرنا آنفا وتزوجها عبد الله ويقال إنه بعد الزواج مرَّ بالمرأة فقال لها مالك لا تعرضين علىَّ اليوم ما كنت عرضت علىَّ بالأمس؟ فقالت له: فارقك النور الذى كان معك بالأمس فليس لى بك اليوم حاجة!

وهذه القصة – قال ابن كثير فى تقديمها «فيما زعموا» أى أنه يتشكك فيها. وفى رأينا أنها مرفوضة إذ أنها لا تتفق مع التقاليد العربية التى تمنع المرأة من أن تعرض نفسها هكذا مباشرة وصراحة على رجل مما يزرى بكرامتها فيما لو رُفض عرضها. ثم إنه من المقطوع به أن هذا العرض كان بين عبد الله والمرأة ولا ثالث معهما. ولا يعقل أن تكون هى التى حدَّثت به

بعد ذلك لما فيه من مساس بكرامتها. وكذلك لن يكون عبد الله هو المتحدِّث به إذ فيه تعريض بامرأة من بيت عريق من قريش سواء كانت فاطمة الخثعمية أو أخت ورقة بن نوفل. واختلاف الرواة فى تحديد شخصية المرأة يؤيد الشك فى صحتها.

وفاة عبد الله :

حين دخل عبد الله بآمنة بنت وهب وأفضى إليها حملت. وبعد شهر من زواجه خرج فى قافلة لقريش إلى الشام. ولما فرغوا من تجارتهم وفى أثناء عودتهم مروا بيثرب وهناك مرض عبد الله. فتخلَّف عند أخواله بنى عدى بن النجار فأقام عندهم مريضا شهرا ومضى أصحابه فوصلوا مكة فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله فأخبروه بمرضه وتخلُّفه عند أخواله بيثرب. فبعث إليه بالحارث أكبر أبنائه فوجده قد توفى ودفن. فرجع إلى أبيه فأخبره فحزن عليه إخوته وأخواته ووالدهم عبد المطلب. حزنا شديدا. وكان عمر عبد الله عند وفاته ٢٥ سنة وكانت آمنة حاملا فى رسول الله.

اسم « محمد » :

كان قد شاع أن نبى آخر الزمان - الذى تنبأ به أهل الكتاب - قد اقترب موعد ظهوره. وشاع كذلك أن اسمه سيكون «محمدا». فقام بعض الناس بتسمية أبنائهم باسم محمد عسى أن يكون هو النبى المنتظر. وقد سمى باسم محمد ستة أشخاص غير «محمد» بن عبد الله الهاشمى وهم:

١ - محمد بن سفيان بن مجاشع وهو جد الشاعر الفرزدق.

٢ - محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى.

٣ - محمد بن جسان الجعفى.

٤ - محمد بن مسيلمة الأنصارى وقد ولد بعد النبى ولكن قبل مبعثه.

٥ - محمد بن براءة البكرى.

٦ - محمد بن خزاعى السلمى .

ومعروف أن اليهود كانوا يرحبون بالنبى المنتظر لو كان منهم. ولكنهم كانوا يتربصون به لو كان من العرب. وكان من السهل الكيد للنبى لو كان هو الوحيد الذى تسمى باسم محمد لذلك فإن وجود هؤلاء الستة كان فيه حماية للنبى إذ جعل الأمر يختلط على اليهود: أيهم هو النبى المنتظر؟

حمل آمنة بنت وهب :

روى عن النبى أنه قال عن نفسه: «ورؤيا أمى الذى رأت حين حملت بى كأنه خرج منها نور

أضاءت له قصور الشام». وقال محمد بن اسحق إن آمنة بنت وهب كانت تحدِّث أنها أُتِيَتْ حين حملت فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع إلى الأرض فقولى: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد من كل عبد رائد يذود عنى ذائد. وقيل لها أيضا: فإذا وقع فسمِّيه «محمدا» فإن اسمه فى التوراة «أحمد» يحمده أهل السماء والأرض. واسمه فى الإنجيل «أحمد» يحمده أهل السماء والأرض واسمه فى القرآن «محمد». (السيرة النبوية. ابن كثير . جـ١ ص٢٠٦).

ويروى أيضا أن آمنة بنت وهب قالت لقد حملت به (تعنى رسول الله) فما وجدت له مشقة حتى وضعته. فلما فصل منى خرج معه نور أضاء ما بين المشرق إلى المغرب وعن آخرين أنها قالت: فما شيئ أنظره فى البيت إلا نورٌ وإنى أنظر إلى النجوم حتى إنى لأقول ليقعُنَّ علىَّ.

أما قابلته «الشفاء أم عبد الرحمن» فيروى أنها حين سقط على يديها سمعت قائلا يقول: يرحمك الله. وأنه سطع منه نور رؤيت منه قصور الروم. فلما دثرته بعد ولادته بعثت إلى جده عبد المطلب وقالت قد ولد لك غلام فانظر إليه. فلما جاءها أخبرته آمنة بما رأت حين حملت به وما قيل لها وما أمرت أن تسميه. فأخذه عبد المطلب وشكر الله عز وجلَّ. ووجد الوليد مختونا فقال: ليكونن لابنى هذا شأن. ويروى أن النبى قال فيما بعد: من كرامتى على الله أنى قد ولدت مختونا ولم ير سوأتى أحد.

فلما كان اليوم السابع ذبح عنه عبد المطلب ودعا قريشا فلما أكلوا قالوا: ياعبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ما سمَّيتَه؟ قال سميتُه محمدا. قالوا فما رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال أردت أن يحمده الله فى السماء وخلقه فى الأرض. وكانت العرب تسمى كل جامع لصفات الخير محمدًا.

ومما يروى عن حسان بن ثابت أنه قال: إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أعقل ما رأيت وسمعت. إذا بيهودى فى يثرب يصرخ ذات غداة: يامعشر يهود. فلما اجتمعوا إليه قال: قد طلع نجم أحمد الذى يولد به فى هذه الليلة. وروى عن زيد بن ثابت قوله: كان أحبار يهود بنى قريظة والنضير يذكرون صفة النبى فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبى وأنه لا نبى بعده واسمه أحمد ومهاجره إلى يثرب.

وقال زيد بن عمرو بن نفيل – وكان فى رحلة فى الشام – أنه قابل حبرا من أحبار اليهود فقال له: قد خرج فى بلدك نبى قد خرج نجمه فارجع فصدِّقه واتبعه.

وروى عن مخزوم بن هانى المخزومى عن أبيه قوله: لما كانت الليلة التى ولد فيها النبي ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام. وغاضت بحيرة ساوة ورأى ملكُها رؤيا أن إبلاً صعابا تقود خيلا مرابًا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادهم، ووجد تفسير ذلك عند حبر من اليهود الذى أخبره أن الملك سيخرج

من عائلته بعد أربعة عشر ملكا. وقد حدث أن فتحت فارس فى عهد عثمان رضى الله عنه وكان قد ملك ١٤ ملكا فى فارس منذ ذلك الوقت.

تاريخ مولد الرسول :

طبقا لأغلب المصادر الإسلامية كان مولد الرسول فى عام الفيل. غير أن عام الفيل نفسه غير معروف على وجه التحديد إذ تتراوح تقديرات العلماء له بين أعوام ٥١٣ - ٥٥٢ - ٥٦٢ - ٥٧٠ - ٥٧١ ميلادية . ويرى توسان دى بريسيڤال أن مولد الرسول كان فى ٢٩ أغسطس عام ٥٧٠. أما محمود باشا الفلكى فقد حدده بيوم ٩ ربيع الأول الموافق ٢ أبريل عام ٥٧١م. ويتفق ذلك مع تقديرات سلڤستر دى ساس. وكان الإمام السهيلى (١١١٤ - ١١٨٥م) قد سبقهما فى تحديد تاريخ المولد النبوى بيوم ٢٠ أبريل. على أن أغلب المؤرخين يُجمعون على أن النبى وُلِدَ يوم الاثنين من الأسبوع الثانى من شهر ربيع الأول من عام الفيل. ويذهب جمهور كبير من العلماء على أن هذا التاريخ يوافق العام ٥٣ قبل الهجرة أى عام ٥٧١م حيث حددوا أن الهجرة كانت فى عام ٦٢٤م.

وإن كان لنا أن ندلى بدلونا فى هذا الموضوع فإننا نبدأ حساباتنا من حدث أشار إليه القرآن الكريم فى سورة الروم: «**الم غلبت الروم فى أدنى الأرض**». وكما سيجئ تفصيل ذلك فيما بعد. (ص ٣٩٤) أن كسرى أنوشروان حفيد كسرى الأول كان قد تولى عرش الامبراطورية الفارسية فى عام ٥٩٠م. وفى عام ٦١٨م استولى على القدس واستولى على الصليب الذى يعتقد المسيحيون أن يسوع قد صلب عليه وحمله معه إلى عاصمته المدائن. وفى العام التالى أى عام ٦١٩م هزم الروم واستولى على مصر وكان هذا هو أقصى توسع وصلته الامبراطورية الفارسية فى الشرق الأدنى «**فى أدنى الأرض**» ولما كانت سورة الروم مكية وقد نزلت فى العام الثامن لمبعث النبى أى كان عمره ٤٨ سنة فيكون مولده ٦١٩ - ٤٨ = عام ٥٧١م. ولعل هذا الحساب المستند إلى حدث أشار إليه القرآن الكريم يضع حدا للجدل الذى أثير حول تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم.

عام الفيل :

ذكرنا سابقا (ص ٥) كيف احتلت الحبشه اليمن وكيف تولى أبرهة الأشرم الحكم بعد إزاحته لأرياط قائد الجيش. وذكرنا تطلع ملوك الحبشة إلى القضاء على ديانات العرب وهدم بيوت عبادتهم حتى يتصل نصارى الحبشة بنصارى الشام. وكان أن بنى أبرهة فى العاصمة ظفار كنيسة كبيرة هى «القليس» وكتب إلى النجاشى يقول: إنى بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك من قبلك ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حج العرب. فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشى تُجمع كتب التاريخ على أن أحد العرب أغضبته نية أبرهة فى صرف

العرب عن كعبتهم وانتقاما منه أحدث فى القليس. فلما سمع أبرهة بذلك غضب غضبا شديدا. وإن كنا نشك فى حدوث هذه الواقعة ونرجِّح أن غضب أبرهة إنما كان لأنه رأى أن أحدا من العرب لم يحج إلى القليس. فقرر هدم بيوت عبادتهم.

وانطلق أبرهة فى جيش عظيم يقدمه فيل ضخم يخيف كل من رآه ويهدم ما يستعصى على الجند من مبانى. وهزم كل من تصدى له من قبائل العرب. فلما بلغ الطائف وأراد هدم بيت اللات تلقى أهل الطائف الجيش بالولاء والخضوع وزيَّنوا له هدم البيت العتيق بمكة فهو البيت الذى تهوى إليه قلوب العرب جميعا وهو الذى يربط بينهم وإن اختلفوا فى الآلهة التى يعبدونها. وقدموا إليه «أبا رغال» ليكون دليلا له يدله على طريق فى شعاب الجبال يوصله إلى مكة ليباغت أهلها. فلما وصلوا إلى المغمس وهو مكان يبعد عن مكة ٥ كم مات «أبو رغال» ودفن هناك فرجمت العرب قبره. وتوقف أبرهة عند المغمس وبعث واحدا من رجاله مع بعض الجند حتى انتهى إلى مكة واستولى على ما فى مراعيها من إبل وغنم وأصاب مائتى بعير لعبد المطلب وهو يومئذ كبير قريش وسيدها. وهمت قريش وكنانة وهذيل ومن حالفهم من القبائل أن يقاتلوا. ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك. ثم أرسل أبرهة أحد رجاله إلى سيد قريش يقول له: إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم. كما طلب منه أن يأتى به ليقابل أبرهة. وتعرف الرجل إلى عبد المطلب وبلَّغه كتاب أبرهة. فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه ومالنا بذلك من طاقة وانطلق عبد المطلب معه إلى أبرهة. فلما رآه أبرهة أجلَّه لوسامته وعظمته ونزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه. ثم سأله عن طريق الترجمان عن حاجته فقال له: حاجتى أن يرد علىَّ الملك مائتى بعير أصابها جنوده. فلما قال ذلك قال أبرهة: قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى. أتكلِّمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه؟ فقال له عبد المطلب: أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه. قال أبرهة: ما كان يمتنع عنى. فقال عبد المطلب: أنت وذاك.

فلما عاد عبد المطلب إلى مكة أمر أهلها بالخروج منها والتحرُّز فى شعاب الجبال ثم أخذ بحلقة باب الكعبة ودعا الله واستنصره على أبرهة وجنده.

فلما كان صباح اليوم الثانى تهيأ أبرهة لدخول مكة وسار بجيشه حتى صار البيت على مرأى البصر. فلما وجَّهوا الفيل نحوه أبى أن يسير فضربوه بعمود من حديد فأبى أن يتقدم وكان يهرول بعيدا عن البيت. ثم إن الله أرسل عليهم أسرابا من طيور تحمل فى مناقيرها أحجاراً صغيرة قدر الحِمَّص والعدس. أمطرتهم بها فكان الحجر لا يصيب أحداً إلا هلك. وخرج الباقون فارين إلى طريق اليمن. ومن لم يصبه حجر أصابته حمى ويقال إن أبرهة أصيب فى جسده وأصبح كله خراريج ترشح قيحا ودما. وساروا به حتى وصل صنعاء فمات. وهلك الجيش كله. إلا قِلة عادت لتروى ما حدث.

وعن ابن اسحق أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب كانت ذلك العام. فحمى الله بيته وأهلك عدوه. وعلت مكانة عبد المطلب الدينية والأدبية كما علت فى نفس الوقت مكانة قريش بين القبائل العربية. وقالت العرب عنهم: أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى سورة الفيل:

«ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم فى تضليل. وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول».

فكأن هذا النصر العظيم على أبرهة كان إرهاصا بما ينتظر البيت الحرام من تشريف وتكريم . وأصبح العرب بعد ذلك يؤرخون بعام الفيل. وعلى أثر هلاك جيش أبرهة قام عرب اليمن بطرد الأحباش من بلادهم. وفى هذا العام ولد النبى عليه الصلاة والسلام كما سبق أن ذكرنا.

حواضنه ومراضعه :

كانت «بركة» أو «أم أيمن» تحضنه وهو فى بيت أمه آمنة. وكانت «ثويبة» جارية أبى لهب بن عبد المطلب أول من أرضع النبى بعد أمه آمنة وظلت ترضعه بلبنها مع ابنها «مسروح» أياما حتى قدوم حليمة السعدية. ولما كبر النبى وتزوج كان يكرمها كلما زارته. كما كانت خديجة تحسن استقبالها ولا تنقطع عن إكرامها. وأرادت خديجة أن تشتريها من أبى لهب لتعتقها ولكن أبا لهب رفض. وظلت كذلك حتى أعتقها بعد هجرة النبى إلى يثرب. فكان النبى يرسل إليها من المدينة الكسوة وما يسد حاجتها حتى توفيت سنة ٧ من الهجرة.

إلا أن أشهر من أرضعه هى حليمة السعدية التى قدمت مكة فى عشرة نسوة من بنى سعد بن بكر يلتمسن بها الرضعاء فى سنة جدب. وقد جاءت على أتان ومعها صبى لها قد لا يجد فى ثديها قطرة لبن تبل ريقه ومعها شاة مُسنَّة عجفاء ولضعف الأتان جاءت متأخرة عن صويحباتها وعلمت أن مولود عبد المطلب قد عرض عليهن جميعا فكن يتركنه إذا علمن أنه يتيم قائلات: إنما نرجوا المعروف من أبى الولد فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا؟ فكن يأخذن رضيعا غيره. فلما لم تجد حليمة رضيعا غيره قالت لزوجها الحارث بن العزى: والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع، لأنطلقنَّ إلى ذلك اليتيم ولآخذنَّه. فقال: لا عليك أن تفعلى فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة. فذهبت وأخذته.

وكما روت هى بعد ذلك. فما هو إلا أن أخذته حتى امتلأ ثدياها باللبن فشرب حتى روى وشرب ابنها حتى روى كذلك. وقام زوجها إلى الشاة فوجد ضرعها مملوء لبنا فحلب وشرب وشربت زوجته حتى ارتويا فقال لها زوجها: يا حليمة والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة. ثم خرجا راجعين ولحقا بمن خرجوا قبلهما وسبقتهم الأتان وصواحبها يتعجبن وقلن لها: ويلك يا بنت أبى ذؤيب. أهذه أتانك التى خرجت عليها معنا؟ فتقول نعم والله إنها لهى فقلن: والله إن

لها لشأنا . وتستكمل حليمة قولها: حتى قدمنا أرض بنى سعد وما أعلم أرضا من أراضى الله أجدب منها فإن كانت غنمى لتسرح ثم تروح شباعا فنحلب لبنا ما شئنا وما حولنا أحد يحلب قطرة لبن. وإن أغنامهم لتروح جياعا حتى إنهم يقولون لرعاتهم: ويحكم، انظروا حيث تسرح غنم بنت أبى ذؤيب فاسرحوا معهم. فيسرحون مع غنمى حيث تسرح فتروح أغنامهم جياعا ما فيها قطرة لبن وتروح أغنامى شباعا فنحلب لبنا ما شئنا. فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين فكان يشب شبا لا تشبه الغلمان فى مثل سنِّه. فلما تمت السنتان عادا به إلى أمه فى مكة فلما رأته أمه فرحت به وبنموه وأجزلت لحليمة العطاء ولكن حليمة قالت لها: دعينا نرجع به هذه السنة الأخرى فإننا نخشى عليه وباء مكة ومازالت بها حتى وافقت فرجعت حليمة به.

شق الصدر :

تقول حليمة السعدية إنه بعد مرور شهرين أو ثلاثة وبينما هو خلف بيوتهم مع أخ له من الرضاعة جاء أخوه مسرعا ومنزعجا وقال: ذاك أخى القرشى جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقَّا بطنه! فخرجت حليمة وزوجها مسرعين نحوه فوجداه قائما ممتقع اللون. فاعتنقه «أبوه» وقال يا بنى ما شأنك؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشقَّا بطنى ثم استخرجا منه شيئا فطرحاه. ثم ردَّاه كما كان. فأخذته حليمة وعادا به. وقال زوجها: يا حليمة. لقد خشيت أن يكون الغلام قد أصيب فانطلقى بنا نرده إلى أهله قبل أن يحدث له ما نتخوف. فاحتملاه وقدما به على أمه فقالت آمنة: ما ردَّكما به؟ فقد كنتما عليه حريصين. فقالا لا والله إلا أن الله قد أدَّى عنا وقضينا الذى علينا ونخشى الإتلاف والإحداث نرده إلى أهله. فقالت ما ذاك بكما فاصدقانى ما شأنكما؟ فلم تدعهما حتى أخبراها بما حدث. فقالت أخشيتما عليه الشيطان؟ فلا والله ما للشيطان عليه من سبيل. والله إنه لكائن لابنى هذا شأن.

ويروى شق الصدر بروايات مختلفة، فقد رواه ابن عسكر عن خمسة آخرين (البداية والنهاية. ابن كثير . جـ ١ ص ٢٥٧) أن عروة بن الزبير حدَّث عن أبى ذر الغفارى قال: قلت يارسول الله كيف علمت أنك نبى حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبى؟ قال: يا أبا ذر. أتانى ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة فوقع أحدهما على الأرض وكان الآخر بين السماء والأرض فقال أحدهما لصاحبه أهو هو؟ قال هو هو. قال زنه برجل فوزننى برجل فرجحته وذكر شق الصدر وخياطته وجعل خاتم النبوة بين كتفيه وقال: فما هو إلا أن وليَّا عنى فكأنما أعاين الأمر معاينة.

وعن ابن عساكر أيضا عن آخرين آخرهم أنس بن مالك أن النبى قال إن جبريل أتاه وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فشق عن قلبه واستخرج منه علقه سوداء وقال هذا حظ الشيطان ثم

غسله فى طشت من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه أى إلى حليمة – فقالوا إن محمداً قتل فاستقبلوه وهو ممتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره!

ورواية ثالثة عن ابن عساكر أيضا عن آخرين أن ملكين أتيا النبى فذهبا به إلى زمزم فشقا بطنه فأخرجا حشوته فى طشت من ذهب فغسلاه بماء زمزم ثم ملأ جوفه حكمة وعلما.

وفى الصحيحين عن طريق شريك بن أبى نمر عن آخرين عن النبى فى حديث الإسراء أنه تم شق الصدر وغسل القلب بماء زمزم ويقول ابن كثير: ولا منافاة لاحتمال وقوع ذلك مرتين مرة وهو صغير ومرة ليلة الإسراء ليتأهب للوفود إلى الملإ الأعلى للمثول بين يديه تبارك وتعالى.

ولا بأس من مناقشة هذه الأقوال فهى ثلاث روايات عن ابن عساكر كل واحدة بصيغة مختلفة. فمرة يذكر أن ذلك حدث فى أرض بنى سعد ومرة أنه حدث فى مكة. وإذا كان شق الصدر قد حدث فى الصغر واستُخرج من القلب «حظ الشيطان» فلا داعى لتكرار ذلك. كما أن الادعاء بأن أثر الجرح كان يُرى فى صدر الرسول يتنافى مع ما هو معروف من أن أثر الجروح يتلاشى تدريجيا مع مرور السنين. ومع التقدم فى جراحات التجميل والعناية بخياطة الجروح فقد لا يُرى الجرح بعد سنين قلائل ولا شك أن جرحا تحدثه الملائكة وترده يكون أرقى من أى خياطة بشرية. بقى اعتراض له وجاهته فقد يقال: هذا رسول الله أخرج منه «حظ الشيطان» فلا تثريب علينا – نحن عامة الناس – إن أخطأنا!

وفاة آمنة والدته :

بقى النبى مع والدته بعد أن أعادته حليمة السعدية. يرعاه جده عبد المطلب فلما كان سنه ٦ سنوات أخذته والدته لتزيره أخواله بنى النجار. فخرجت إلى يثرب ومعها أم أيمن. ولاشك كان معهما بعض الرجال من أقاربهما ومحارمهما يحرسونهم ويدلون على الطريق. وفى طريق العودة عند الأبواء توفيت آمنة بنت وهب ودفنت هناك. والأبواء تقع على طريق مكة يثرب فى الثلث الأقرب إلى يثرب (شكل ٢٨ ص ٤٦٩).

كفالة جده وعمه :

بعد موت أمه انتقل النبى لبيت جده عبد المطلب. وكان جده يحبه حبًا جمًا وكان يُقربه ويُدنيه ويجلسه بجواره على فراشه الذى يوضع له فى ظل الكعبة فلما حضرت الوفاة عبد المطلب أوصى أبا طالب برعاية رسول الله وكانت سنه وقتئذ ثمان سنوات.

خروجه مع عمه أبى طالب إلى الشام وقصة بحيرا الراهب :

لما بلغ النبى ١٢ عاما خرج مع عمه أبى طالب فى قافلة للتجارة متجهة إلى الشام وفى

بصرى من أرض أدوم كان هناك راهب يقال له بحيرا فى صومعة له وكان عنده علم أهل النصرانية يتوارثونه كابرا عن كابر. وكان كثير من الناس يلجأون إليه يستشيرونه فى أمر حاضرهم ومستقبلهم. ويقال إنه أبصر القافلة قادمة ورأى الغمام يظلّل أولها ويسير معه أينما سار. فأدرك أن فى القافلة شخصا ترعاه السماء. فلما مرت القافلة بصومعته دعا رجالها إلى وليمة ثم تفرّس فيهم واحدا واحدا ولما وصل إلى النبى توقف عنده ثم نظر فى ظهره فوجد شامة كبيرة بين كتفيه وهى التى أشارت إليها كتب الأقدمين عندهم أنها خاتم النبوة. فسأل عمه أبا طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال ابنى. قال بحيرا. ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا. فقال أبو طالب هو ابن أخى مات أبوه وأمه حبلى به. قال صدقت. ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنّه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم.

ولما فرغ أبو طالب من تجارته أسرع عائدا بمحمد إلى مكة.

شبابه:

شب «محمد» يكلؤه الله برعايته ويحفظه. وأدّبه ربه فأحسن تأديبه كما جاء فى الحديث الشريف فكان أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقا وأكرمهم جواراً وأعظمهم حلما وأصدقهم حديثا وأشدهم أمانة حتى أسموه – الصادق» و «الأمين».

وكان النبى يُحدِّث – فيما روى ابن اسحق – عمّا كان من حفظ الله به فى صغره أنه قال: لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان كلُّنا قد تعرّى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة وإنى لأُقبل معهم وأُدبر إذ لكمنى لاكم ما أراه لكمة وجيعة ثم قال: شدَّ عليك إزارك. قال فأخذته فشددته على ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى علىَّ من بين أصحابى.

ومن دلائل حفظ الله له مما قد يحدث فى فترة الشباب حديث شريف رواه البيهقى عن آخرين عن على بن أبى طالب قال: سمعت رسول الله يقول: ما هممت بشيئ مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين كلتاهما عصمنى الله عز وجل فيهما. ذلك أن النبى طلب من صاحبه فى رعى الغنم أن يُبصر له غنمه حتى يدخل مكة ويسمر فيها كما يسمر الفتيان. وكانت ليلة زفاف أحد الرجال ولكن الله ضرب على أذنه فنام وما أيقظه إلا مسُّ الشمس فرجع إلى صاحبه وأخبره أنه لم يفعل شيئا. ولما همَّ أيضا فى الليلة التالية بمثل ذلك ضرب الله على أذنه فما أيقظه إلا مس الشمس. فما همَّت نفسه بعدهما لشيئ من ذلك. وقد وصف ابن كثير هذا الحديث بأنه غريب جدا. مع أنه ليس بمستبعد.

كذلك يُروى أن النبى لم يستلم صنما قط أثناء طوافه بالكعبة بل وكان ينهى أصحابه عن مس الأصنام أو التمسُّح بها. وكان لا يشهد مشاهد القوم ولا يحضر أعيادهم وما فيها من طقوس وثنية إلا أنه كان يقف بعرفات فى أيام الحج فى الجاهلية.

شهود النبى حرب الفجار :

ولما كان عمر النبى ٢٠ سنة حدثت حرب الفجار بين قريش وكنانة فى جانب وقيس وعيلان فى الجانب الآخر. وسميت حرب الفجار لما استحل فيها من المحارم ولأنها نشبت فى أحد الأشهر الحرم. وظل القتال دائرا أربعة أيام وكان الظفر أولا لقيس على قريش وكنانة ولكن فى النهاية انتصرت قريش وكنانة على قيس. وقال النبى: كنت أنبِّل على أعمامى أى أرد عنهم نبل عدوهم. ثم تواعد الفريقان إلى لقاء فى العام التالى فى عكاظ. فلما توافوا الموعد قام عتبة بن ربيعة وحثهم على الصلح فتصالحوا وهدأت العداوة .

حلف الفضول :

قيل أن رجلا قدِم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل. وأخذها ولم يدفع ثمنها. فلجأ صاحب البضاعة إلى مخزوم وعبد الدار وعدى فأبوا أن يعينوه. فلما لجأ إلى قريش مستنجدا بهم ليأخذ حقه اجتمع بنو هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان فتعاهدوا على أن يكونوا يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه. فقال الناس لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر فسُمِّى «حلف الفضول» ومشوا إلى الظالم وانتزعوا منه ثمن السلعة ودفعوها إلى صاحبها. وقد روى عبد الرحمن ابن أبى بكر أن النبى فيما بعد قال: لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به فى الإسلام لأجبت. تحالفوا أن يردُّوا الفضول على أهلها وألا يعزَّ (أى يغلب) ظالم مظلوما.

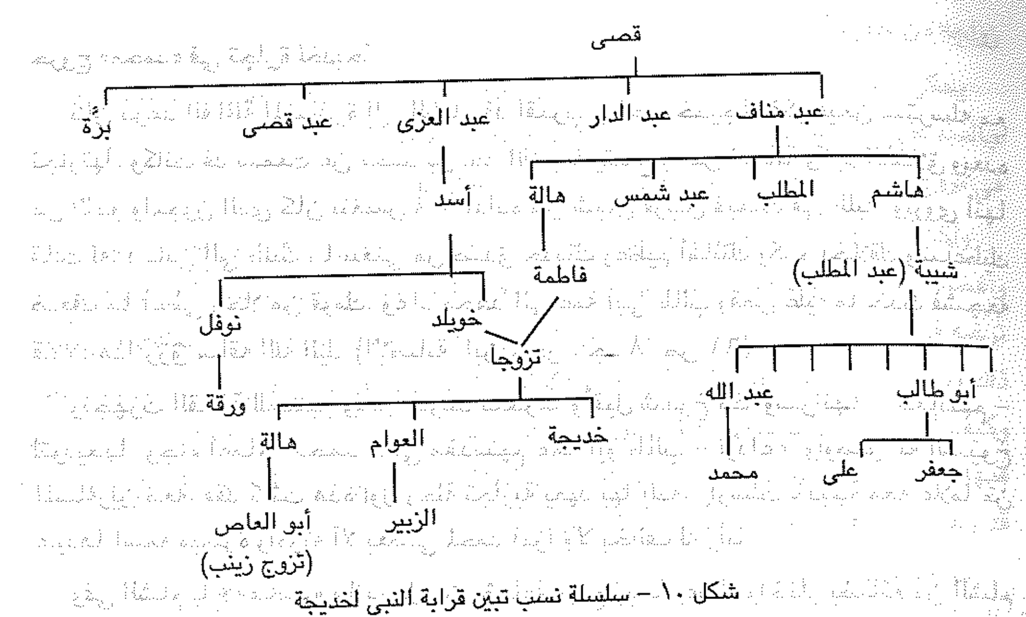
وكان بين حرب الفجار وحلف الفضول ٤ أشهر.

ومرت ثلاث سنوات ونصف كان «محمد» مقيما فى بيت عمه أبى طالب ويتكسَّب رزقه من بعض الأعمال التجارية. ولما بلغ ٢٤,٥ سنة حدث أن تولى أمر قافلة لخديجة بنت خويلد فكانت نقطة تحوُّل فى حياته.

خديجــة :

هى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى أخى عبد مناف. فنسبها يلتقى مع «محمد» عند جدِّه الرابع «قصى». وأمها فاطمة بنت هالة أخت هاشم والمطلب وعبد شمس أولاد عبد مناف (انظر شجرة النسب شكل ١٠).

وكان ورقة بن نوفل – ابن عم خديجة – أحد أربعة نفر أصدقاء من رجال قريش – هم ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وعثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش – لم يرضوا عما كان حول الكعبة من أصنام يعبدها الناس ويخرُّون لها ساجدين فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيئ. لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم. ما حجر نطوف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع. يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا فإنكم والله ما أنتم على شيئ.



شكل ١٠ – سلسلة نسب تبين قرابة النبى لخديجة

فتفرقوا فى البلاد وبعد بحث طويل تنصَّروا كلهم إلا أن زيد بن عمرو رأى فى كتاب النصرانية تحريفا كثيرا فتراجع عن نصرانيته. وبشَّره الأحبار والرهبان بوجود نبى قد أزف زمانه واقترب أوانه فرجع يتطلَّب ذلك واستمر على فطرته إلا أنه توفى قبل البعثة المحمدية. أما ورقة بن نوفل فقد اعتنق النصرانية وأكبَّ على دراسة كتبها حتى صار من أعلم الناس بها فى عصره.

يتضح من هذا أن خديجة بنت خويلد كانت من أعرق نساء قريش نسبًا، وأعلاهم حسبًا. نبتت فى بيت واسع الثراء ملتزم بالأخلاق الفاضلة ومعروف بالتدين والبعد عما كان يفعله بعض القرشيين من مجون وانغماس فى الشهوات. وقد ولدت قبل عام الفيل بـ ١٥ سنة. ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها تزوجها أبو هالة النباشى بن زرارة التيمى فولدت له ولدين: هند وأخيه هالة وهما اسمان من أسماء الإناث ولكن العرب كانت تسمى الذكور أحيانا بأسماء الإناث كما يحدث أحيانا فى أيامنا هذه للتدليل أو منعا للحسد. ولكن لم تمض إلا سنوات قليلة حتى توفى الزوج تاركا لخديجة وولديها ثروته الطائلة. ثم تزوجت خديجة من بعده من عتيق بن عائذ المخزومى ورزقت منه ببنت سمتها هند. ولكن ذلك الزواج لم يدم طويلا. فتفرغت خديجة لرعاية ولديها وابنتها. وكانت تُعرف بحسن سيرتها وجمال خلقها حتى أطلق عليها لقب «الطاهرة» وتقدم الكثيرون يطلبونها للزواج ولكنها رفضت كل من تقدم لها من سادات قريش وآثرت أن تتفرغ لرعاية أولادها وأن تشرف بنفسها على أموالها وتنميِّها بالتجارة. وكانت من الثراء بحيث أن تجارتها كانت تقرب من نصف القوافل الخارجة من مكة. وكانت تختار للخروج بتجارتها من رجال قريش من اشتُهر عنهم الصدق والأمانة.

خروج «محمد» فى تجارة لخديجة :

كان موعد القافلة المسافرة إلى الشام قد اقترب وراحت خديجة تفكر فيمن سترسله مع تجارتها. وكانت قد سمعت عن محمد بن عبد الله وما يتمتع به من الأمانة وكرم الأخلاق وبعده عن اللهو والمجون الذى كان ينغمس فيه أنداده من شبان قريش فبعثت فى طلبه. ويروى أنها قالت له: دعانى إلى طلبك ما بلغنى من صدق حديثك وعظيم أمانتك وكرم أخلاقك وسأعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك. وعاد محمد إلى عمه أبى طالب وقصَّ عليه ما حدث فشجَّعه قائلا: هذا رزق ساقه الله إليك (الإصابة. ابن حجر . جـ ٨ ص ٦١).

وتجهزت القافلة للمسير وحان موعد سفرها وأقبل شيوخ مكة وسراتها – كعادتهم – لتوديعها. وجاء أعمام «محمد» وفى مقدمتهم عمه أبو طالب – لوداعه. وأوصوا به الشيوخ المسافرين معه. فقد كانت هذه أول رحلة تجارية يعهد بها إليه. وأرسلت خديجة معه غلاما من عبيدها اسمه ميسرة وأمرته ألا يعصى لمحمد أمرا ولا يخالف له رأيا.

وفى الشام باع «محمد» ما يحمل من بضاعة فربح ربحا وفيرا. واختار بضائع من الشام تكون مطلوبة فى أسواق مكة. ثم عادت القافلة. فلما وصلوا إلى ما يعرف الآن بوادى فاطمة – شمال مكة بـ ٥ كم – قال له ميسرة: يا محمد انطلق إلى خديجة فأخبرها بما فتح الله عليها من ربح على يديك. فى حين سارت القافلة الهوينى حتى أناخت خارج مكة وخرج رجال قريش لاستقبالها. وخرج التجار لشراء ما يريدون من بضاعة.

وكان «محمد» قد قصد فور رجوعه إلى الكعبة فطاف بها كما كان يفعل أى قادم إلى مكة. ثم قصد دار خديجة فأحسنت استقباله وأطلعها على توفيقه فى بيع ماكان يحمله فى الشام بأعلى سعر وأعلمها بما اشتراه لتبيعه فى أسواق مكة ولما باعته ربحت ربحا وفيرا يكاد يصل إلى ضعف ما كانت تربح من قوافلها السابقة فأجزلت لمحمد العطاء وأعطته ضعف ما كانت قد اتفقت عليه. وقصَّ عليها ميسرة ما لاحظه من أن الغمام كان يظلِّل «محمداً» وهو راكب على بعيره ويسير معه أينما سار. وأن محمدا نزل يوما يستظل تحت شجرة قريبة من صومعة راهب يسمى «نسطورا» فلما رآه الرهب سأل ميسرة عنه فأخبره أنه فتى من أشراف قريش. فسأله الراهب: أفى عينيه حمرة؟ قال ميسرة نعم. فقال الراهب: إن هذا الرجل الجالس تحت الشجرة نبى من الأنبياء. كذلك ذكر لها أن رجلا من أهل الشام اختلف مع محمد أو بالأحرى تعمَّد أن يختلف معه على أمر من التجارة وطلب من محمد أن يحلف باللات والعزى على ما يقول. فرد عليه محمد قائلا: ما حلفت بهما قط وإنى لأمرُّ فأُعرض عنهما. فقال الرجل: القول قولك ثم انتحى الرجل بميسرة وقال له: هذا والله نبى تجده أحبارنا منعوتا فى كتبهم.

وانطلقت خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وأخبرته بما سمعته من ميسرة فقال ورقة: لئن كان هذا حقا يا خديجة إن محمداً لنَبِىُّ هذه الأمة. فقد عرفتُ أنه كائن لهذه الأمة نبى يُنتظر هذا زمانه. فعادت خديجة إلى دارها وقد رغبت فى الزواج من محمد.

زواجه من خديجة :

يحكى عمار بن ياسر أنه خرج ذات يوم مع «محمد» فمرًا على هالة أخت خديجة وهى جالسة على أدم تبيعها. فنادت عمارا فذهب إليها وحده فقالت له: أما بصاحبك هذا من حاجة فى تزوج خديجة. قال عمار فرجعتُ إليه فأخبرته. فقال بلى لعمرى.

ولكن المشهور رواية أخرى تقول إن خديجة اختارت صديقة لها هى نفيسة بنت أمية وأفضت إليها برغبتها وأوفدتها إلى محمد لتحقيق أمنيتها. وذهبت نفيسة إلى محمد وبدأت تُرَغِّبه فى الزواج. ثم سألته عما يمنعه من الزواج فقال: ما بيدى ما أتزوج به. فقالت فإن كُفِيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ألا تجيب؟ قال فمن هى؟ قالت خديجة. قال: وكيف لى بذلك؟ قالت دعنى وأنا أفعل. وعادت نفيسة إلى خديجة وطمأنتها إلى رغبة محمد فيها وما يمنعه إلا فقره. فأرسلت مولاتها إليه ليوافيها. فلما جاءها قالت له: يا ابن العم. إنى قد رغبت فيك لقرابتك وشرفك فى قومك وأمانتك وحسن خلقك.

فرجع محمد إلى عمه أبى طالب وأخبره بما كان فجاء محمد وأعمامه أبو طالب وحمزة والعباس ودخلوا على عمرو بن أسد وابن عمها ورقة بن نوفل وقام أبو طالب فقال: الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضِئْضِئ معد (الضِئْضِئ الأصل ويقال من ضِئْضِئ كريم. المعجم الوسيط جـ ١ ص ٥٣٤) وعنصر مُضَر. وجعلنا حضنة بيته وسُوَّاس حرمه وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا أحكام الناس. ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفا ونُبلا وفضلا وعقلا. وإن كان فى المال قَلَّ فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة. وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة. فقام ورقة بن نوفل فقال: الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت. فنحن سادة العرب وقادتهم. فأنتم أهل ذلك كلّه لا ينكر العرب فضلكم. ولا يردُّ أحد من الناس فخركم وشرفكم. ورغبتنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا علىَّ معاشر قريش أنى قد زوَّجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله. فطلب أبو طالب أن يُشرك عمها فى الأمر ففعل. ونحر محمد جزورين وأطعم الناس وضربت الدفوف.

كان محمد إذ ذاك عمره ٢٥ سنة وخديجة – فى أغلب الأقوال – فى الأربعين من عمرها وتم الزواج بعد عودة «محمد» من الشام بشهرين ونصف. وابتهاجا بزواجه من خديجة أعتق محمد حاضنته بركة وكانت جارية حبشية ورثها عن أبيه. حضنته وسهرت على خدمته وراحته بعد وفاة أمه آمنة فكانت أما ثانية له ولا يناديها إلا بقوله «يا أمَّة» وكان حفيا بها ويعتبرها من أهله. فلما أعتقها تزوجت وأنجبت ابنها البكر «أيمن» وأصبحت تعرف بـ «أم أيمن».

«محمد» الزوج :

عاش الزوجان عيشه راضية مستقرة فى بسطة من الرزق وبحبوحة من العيش ولمست

خديجة عن قرب ما يتحلى به زوجها من الإخلاص والمحبة ونبل العشرة وأيقنت أن كل ما سمعته عنه قبل الزواج لم يكن إلا جزءا يسيرا مما يتحلى به من كريم الأخلاق والحلم والجود.

واستمر محمد بعد الزواج فى ممارسة التجارة. وعهدت إليه خديجة بكل أمورها التجارية وأراحت نفسها من تحمل أعبائها وألقت عن كاهلها مشاقها. والحقيقة أنه - بعد الزواج - لم يعد هناك فرق بين مالها وماله. وكان جوادا كريما يكثر من الصدقات للفقراء والمحتاجين ويصل ذوى القربى.

كذلك كان «محمد» متواضعا لا يأنف من أن يخدم نفسه بنفسه وأُثِرَ عنه أنه كان يخصف نعله ويساعد الخدم والعبيد فى أعمالهم ولا يكلفهم من العمل ما هو فوق طاقتهم.

زيد بن حارثة :

كان زيد بن حارثة قد خرج مع أمه ليزوروا أهلها فأصابته خيل من البادية فأخذوه وباعوه بيع الرقيق واشتراه حكيم أخو خديجة. وفى إحدى زيارات خديجة لأخيها حكيم وهبها هذا الغلام. واستراح زيد فى بيت خديجة إذ كانت تعامله كأنه أحد أبنائها. وبعد زواجها من محمد وهبته هذا الغلام فأعتقه. وكان زيد سعيدا أن يخدم أصدق الناس وأكرمهم.

إكرامه لحليمة السعدية :

جاءت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية. مرضعة «محمد» لزيارة «ابنها» بعد زواجه فأكرمها واستضافتها خديجة فى البيت ضيفة عزيزة مكرّمة. ولما شكت من القحط الذى أصاب البادية وأهلك الزرع والضرع. رأى محمد - بأدبه وحكمته - أن يوصى بها خديجة خيرا. فلما أزمعت حليمة العودة أهدتها خديجة ٤٠ رأسا من الغنم وبعيرا (ابن سعد. الطبقات. جـ١ص ٧١).

مولد القاسم :

كانت خديجة تتوق إلى أبناء يزيدون رابطة المحبة بينها وبين زوجها. ولكن مضى عامان دون أن تحمل وبدأ القلق يساورها. صحيح أنها قد جاوزت الأربعين ولكن كثيرا من السيدات حملن وهُنَّ فوق الأربعين بل وحتى فوق الخمسين وخاصة أنها كانت تبدو أقل من سنها بكثير. وخافت أن يلجأ زوجها إلى اختيار زهرة قرشية تلد له البنين والبنات. فهو فى الثامنة والعشرين من عمره أى فى عز الشباب ومن حقه أن يتمتع بالولد. ولكنها كانت مقتنعة أن الله سبحانه وتعالى هو الذى هيأ لها الزواج من محمد ولابد أنه أيضا سيهيئ الأسباب لنجاح هذا الزواج إلى النهاية. فظلت تضرع إلى الله أن يهبها الولد. ومرت بضعة أشهر من العام الثالث فإذا بها تشعر بما تشعر به النساء فى بداية الحمل فخافت أن تكون واهمة. ولكن بعد بضعة أشهر بدأ الجنين يتحرك فى بطنها فكادت أن تطير من الفرحة وسارعت تزف البشرى إلى

زوجها الحبيب. وتلقى محمد النبأ مسرورا وشكر الله على هذه النعمة. ومرت الأيام وولدت خديجة وجاء المولود ذكرا فأجزل العطاء للقابلة التى بشرت به وسماه «القاسم» ومنذ ذلك اليوم صار محمد يُكنّى «أبا القاسم». وفى اليوم السابع لمولد القاسم أمر محمد بحلق شعر رأس المولود وتصدق على الفقراء بمثل وزن شعره من الفضة. كذلك ذبح ذبيحة وتصدق بلحمها على الفقراء وهذه هى العقيقة.

مولد زينب :

وكانت خديجة – مثل باقى نساء قريش – ترى فى كثرة الأولاد سعادة وعزا. ولذلك كانت القرشيات يعهدن بما يلدنه للمرضعات حتى يفرغن للإنجاب السريع. وتمشيا مع هذا عهدت خديجة إلى مرضعة بتولى أمر القاسم وراحت تضرع إلى الله أن يهبها الكثير من الأبناء. ومر عام وظهرت بوادر الحمل على خديجة. ولما وضعت جاءت أنثى فرح بها «محمد» وسمّاها زينب.

وفاة القاسم :

ومرّ عام ولم تحمل خديجة ولكنها كانت تسرُ إذ ترى القاسم ينمو ويمشى إذ بلغ عمره سنتين. ولكن لم تلبث أن نزلت بها كارثة زلزلت كيانها إذ مرض القاسم مرضا قصيرا ثم اختطفه الموت فكان مصابها فيه فادحا وفجيعتها شديدة. وتحمل «محمد» المصاب فى صبر وتسليم لقضاء الله ولم يُظهر حزنه بل راح يواسى زوجته ويخفف من وقع الحادث عليها.

مولد رقية :

ويمر عامان آخران وعدة أشهر وتشعر خديجة ببوادر الحمل. وبعد ٩ أشهر تلد أنثى وتقبلها محمد قبولا حسنا وهنّأ زوجته على سلامتها وأطلق على المولودة اسم «رقية».

مولد أم كلثوم :

وتتحمل خديجة آلام الحمل الرابع عن طيب خاطر يحدوها الأمل أن تهب لها السماء مولودا ذكرا يعوضها عن فقد القاسم. حتى إذا جاء موعد الولادة فإذا هى بنت. وتخوّفت من وقع الخبر على زوجها. ولكنها رأته يتهلل ويفرح بما جادت به السماء وأطلق على المولودة «أم كلثوم» فهدأت نفس خديجة واطمأن بالها.

كان هند ابن خديجة من زواجها الأول يعيش مع أمه بعد زواجها من محمد. وكان هند سعيدا أن يشب فى كنف أصدق الناس وأكرمهم. أما هالة ابنها الثانى. وهالة ابنتها من زواجها الثانى فكانا قد تزوّجا واستقل كلٌ فى بيته.

إعادة بناء الكعبة

كان عمر «محمد» ٣٥ عاما – أى بعد ١٠ سنوات من زواجه – وجاء الشتاء بأمطار غزيرة هطلت على جبال مكة فجرت سيولا جرفت الحجارة والردم الذى كانوا قد وضعوه لحماية البيت الحرام وتدفقت المياه إلى الكعبة فأوهنت بنيانها. وزاد الأمر سوءًا أن شب بعد ذلك حريق فى ستائر الكعبة وأمسك بأخشابها وبدأت حجارة المداميك العليا فى التساقط. وتملَّك القلق قريشا فقد كانوا على علم بأن ذلك البيت لو ذهب لذهبت مكة وذهبوا هم أيضا. واجتمع أشراف مكة فى دار الندوة يتشاورون وانتهى الرأى إلى ضرورة هدم الكعبة وإعادة بنائها. وكانت المشكلة هى الحصول على الأخشاب اللازمة بدلا من تلك التى احترقت. وتصادف أن كانت سفينة محملة بالأخشاب وتحمل تجارة للروم إلى الحبشة وقامت عاصفة هوجاء دفعتها وحطَّمتها على الشاطئ قرب المكان المعروف حاليا بجدة. وجاء الخبر إلى مكة فابتاعت قريش حمولتها من الخشب ونقلوه بالجمال إلى مكان الكعبة. وكانوا حريصين على ألا يدخل فى نفقة البيت مال حرام من بيع ربا أو خلافه ولا شيئا أصابوه من قطع رحم أو انتهاك حرمة أو مال مغتصب.

وتهيَّب الناس من هدم الكعبة خوفا من عقاب تنزله الآلهة المقامة حولها ولكن الوليد بن المغيرة تصدَّى بشجاعة لهذا الأمر ورفع معوله وبدأ الهدم وقد كتم الناس أنفاسهم إشفاقا عليه لما قد يصيبه من انتقام الآلهة ولكن شيئا ما لم يحدث له. وفى الصباح رأوا الوليد يحمل معوله ويتجه ناحية الكعبة ليتم ما بدأه بأمسه. فأطمأن الناس وراحوا يهدمون معه حتى وصلوا إلى الأساس الذى وضعه إبراهيم عليه السلام. ويقال إن معاولهم لم تستطع أن تخلع حجرا واحدا ولو صغيرا من هذا الأساس فتوقفوا.

وخف شباب مكة ورجالها وشيوخها ليُسهموا فى بناء الكعبة حتى إذا بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا أىُّ القبائل ترفعه واشتد الخلاف حتى أصبحوا على وشك القتال. وأخيرا اتفقوا على أن يُحكِّموا بينهم أول داخل من أحد أبواب فناء البيت وهو باب بنى شيبة والمعروف حاليا بباب السلام.

وساد سكون عميق. وأخذ القوم يترقبون وقد حبسوا أنفاسهم وتعلقت أبصارهم بباب بنى شيبة. ولم يطل انتظارهم فقد هلَّ عليهم محمد بن عبد الله. فصاحوا جميعا: هذا الأمين. هذا محمد. رضينا به حَكَماً. وتقدم محمد وقد هداه الله إلى فكرة يرضى بها جميع الأطراف المتنازعة. فخلع رداءه وبسطه على الأرض وحمل الحجر الأسود ووضعه عليه ثم طلب من رؤساء كل قبيلة أن يمسكوا بطرف من أطراف الرداء فحملوه جميعا فى وقت واحد حتى إذا وصلوا إلى مستوى الحجر أخذه بيده ووضعه فى مكانه وسوى عليه فطابت النفوس وساد السلام. وعاد محمد إلى داره شاكرا الله تعالى أن وفَّقه إلى منع الفتنة. وأكملوا البناء. وكانوا يبنون مدماكا من حجارة ومدماكا من خشب يربط الحجارة بعضها ببعض وهكذا حتى انتهوا

من بنائها وجعلوا لها سقفا من الخشب وكذلك رفعوا باب الكعبة حتى لا يدخلها أحد إلا بسلم فأصبحوا يتحكمون فيمن يدخلها ومن لا يدخلها. ثم راح الرسامون يرسمون على حيطان الكعبة من الداخل صورا دينية. فصوّروا إبراهيم عليه السلام وهو يستقسم بالأزلام وإسماعيل وفى يده الأزلام. وصوروا للملائكة حول مريم وهى تحمل المسيح بين ذراعيها. وأغلب الظن أن من قاموا بهذا الرسم كانوا من الروم النصارى الذين تكسرت سفينتهم فى البحر الأحمر واستعانت بهم قريش فى البناء والطلاء.

مولد فاطمة :

كانت خديجة قد حملت للمرة الخامسة. وما لبثت بعد بناء الكعبة بقليل حتى وضعت وكانت بنتا. وكما قالت خديجة بعد ذلك كانت أشبه أخواتها بوالدها محمد. وفرح بها النبى كما فرح بأخواتها من قبل وسمَّاها « فاطمة» ونفح القابلة مكافأة سخية. كان عمره الآن ٣٥ سنة وكانت خديجة فى الخمسين من عمرها.

زيد بن محمد :

كان موسم الحج على وشك الابتداء فذهب محمد إلى عرفة ومعه زيد بن حارثة فعرفه الحجيج من قومه وبعد انتهاء موسم الحج عادوا إلى بلادهم وأخبروا حارثة بأن ولده موجود فى مكة عند محمد بن عبد الله. فشد حارثة وأخوه الرحال إلى مكة حتى إذا ما بلغوها انطلقا إلى دار خديجة وسألا عن محمد فقيل لهما إنه فى البيت الحرام. فهرعا إلى الكعبة وقاباله وقالا له: يا ابن عبد المطلب أنتم أهل حرم الله وجيرانه تفكون الأسير العانى وتطعمون الجائع جئناك فى ولدنا عندك فامنن علينا وأحسن فى فدائه فإنا سندفع لك فقال محمد وماذاك؟ قالوا: زيد بن حارثة: فقال محمد في هدوء أوَ غير ذلك؟ قالوا وما هو؟ قال: ادعوه فخيِّروه فإن اختاركم فهو لكم من غير فداء وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على الذى اختارنى فداء. فقالا: زدت على النَّصف وأحسنت. وبعث محمد فى طلب زيد فلما جاء تعرَّف على والده وعمه. وقال له محمد: أنا من قد علمت وقد رأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما فقال زيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحداً. أنت منى مكان الأب والعم. وصعق الأب والعم لهذا الاختيار الذى لم يخطر لهما على بال. فقالا: ويحك يازيد. أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ ورد زيد قائلا: نعم لقد رأيت من هذا الرجل ما أنا بالذى أختار عليه أحد أبدا. فلما رأى محمد ذلك أخذه إلى محل جلوس قريش وقال: يا معشر من حضر. اشهدوا أن زيدا ابنى يرثنى وأرثه. وطابت نفس حارثة والده واطمأن على ولده وتركه فى كنف محمد وعاد إلى أرضه وأصبح زيد يدعى بعد ذلك «زيد بن محمد بن عبد الله الهاشمى» وهو نسب من أرفع الأنساب قدرا وأكثرها مدعاة للفخر والاعتزاز. وظل كذلك حتى أبطل الإسلام التبنى بنزول قوله تعالى **«ادعوهم لآبائهم»** (٥ – الأحزاب) وسيجئ تفصيل ذلك فيما بعد (ص ٥٩٥).

ضم على بن أبى طالب :

كان أبو طالب – عم محمد – قد بلغ من العمر ٦٥ عاما وقعدت به السن عن الخروج فى القوافل للتجارة وإن كان قد ظل يتاجر فيما تحضره القوافل من بضاعة. وقل ماله. ومع ذلك ظل بيته مفتوحا للضيف وعابر السبيل فأتى كرمه على ماله فنزل به الفقر ولكنه ظل سيد بنى هاشم. كان أخوه العباس فى غنى عريض من تجارته وكان أبو لهب أيضا يعيش فى بحبوحة من العيش بما يكسب من أموال من التجارة ولكنه كان مغرما بالشراب ولعب الميسر وينفق فيهما الكثير.

ومرت الأيام وأصابت قريش أزمة اقتصادية عاتية. لم يذكر المؤرخون أسبابها ولكن من المرجح أن القحط والجدب أصاب البلدان المجاورة فلم تعد القوافل تسير وتمر بمكة كالمعتاد. فأصاب الكساد أسواق مكة. فعانى القرشيون منها وأكلت الأزمة ما ادخروه وكان من أكثرهم تأثرا أبو طالب. فقد ورث عن أبيه السقاية والرفادة وكان هذا يكلفه الكثير.

وفطن محمد إلى ضيق عمه أبى طالب وتذكر أيام أن كان يتيما فى داره يرعاه ويحنو عليه كأحد أبنائه. وأراد أن يرد له الجميل فذهب إلى عمه العباس وقال له: ياعم.. إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفِّف عنه عياله. آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكفلهما عنه. فوافق العباس وانطلقا حتى أتيا أبا طالب وقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ماهم فيه فوافق أبو طالب وأخذ محمد عليا وكان فى السابعة من عمره وكان محمد حينئذ فى السابعة والثلاثين من عمره. وأخذ العباس جعفرا.

وفرحت خديجة بعلى إذ رأت فيه أخا لبناتها وكذلك فرحت به البنات إذ وجدن فيه أخا عطوفا على صغر سنه إذ كان فى سن زينب التى كانت هى الأخرى فى السابعة من عمرها أما فاطمة فكانت لاتزال تعنى بها مرضعتها فقد كانت قد بدأت العام الثانى من عمرها.

زواج زينب :

كان النبى قد بلغ من العمر ٣٩ سنة وكانت زينب قد بلغت العاشرة من عمرها وبدأت عيون الهاشميين ترنوا إليها كل واحد يطمع أن ينال شرف مصاهرة هذا البيت الكريم وكان ابن خالتها أبو العاص بن الربيع (انظر سلسلة النسب شكل ١٠ ص ٣٣) أحد رجال مكة المعدودين شرفا ومالا. فقد كانت رحلاته التجارية. صيفا وشتاء تدر عليه ربحا وافرا. وكانت قرابته لخديجة – خالته – تتيح له التردد على بيتها بدون حرج ويرى زينب ويجلس مع الجميع يحكى لهم عن مشاهداته فى أسفاره. وكانت زينب تأنس لحديثه. وكان أحيانا يحضر لها هدية من البلدان التى يمر بها. ومرت الأيام وأسرٌ أبو العاص بن الربيع لخالته برغبته فى خطبة

زينب وأفضت خديجة لمحمد بذلك فطلب منها أخذ رأى زينب. ولما سئلت كان سكوتها – حياء – علامة الرضا. وذاع النبأ السعيد فى مكة.

ولكن أغلب فتيان بنى هاشم كانوا يرون أن أبا العاص ليس أحق من شبان بنى هاشم بزواج زينب. فإن أبناء العم فى عرفهم – وفى عرف العرب –أحق ببنات أعمامهم. وأن زينب كانت ماتزال صغيرة وأن أبا العاص قد اغتنم الفرصة ونالها قبلهم بمساعدة خالته خديجة. ومن وجهة نظر خديجة فإنها رأت فى هذا الزواج تدعيما للروابط بين العائلتين. كما أن موافقتها على أبى العاص لم يكن مرجعه قرابته لها أو كثرة ماله بل كان أهم عنصر بنت عليه رأيها هو الخلق الكريم الذى امتاز به وجعل الناس فى مكة يحبونه ويحترمونه ولم يكن المال والخالة إلا عاملا مساعداً.

وعجَّل أبو العاص فى طلب الإسراع بالزفاف واستجاب له محمد. وازدادت فرحة خديجة. وأهدت خديجة – بين ما أهدت إلى ابنتها – قلادة كانت تتزين بها وكانت تفضلها على غيرها مما كانت تقتني من حلى وأوصت ابنتها بالحرص عليها. وسنرى فيما بعد (ص ٥١٦) أن هذه القلادة كانت سببا فى إطلاق سراح أبى العاص لما وقع أسيرا فى يد المسلمين فى غزوة بدر.

زواج رقية وأم كلثوم :

كان عمر النبى قد بلغ ٣٩,٥ سنة ولم يكن قد مضى على زواج زينب إلا سته أشهر. وكان عمر رقية ٧ سنوات وأم كلثوم ٦ سنوات – حين جاء وفد من بنى هاشم لزيارة «محمد» وقال شيخهم أبو طالب: إنك يا ابن أخى قد زوَّجت زينب أبا العاص بن الربيع وإنه لنعم الصهر غير أن بنى عمك يرون لهم عليك مثل ما لابن أخت خديجة وليسوا دونه شرفا ونسبا. فقال محمد: صدقت ياعم. واستطرد الشيخ يقول: وقد جئناك نخطب ابنتيك رقية وأم كلثوم وما أراك تضنُّ بهما على ابنى عمك عتبة وعتيبة ابنى عبد العزى – أبى لهب – ولم ير محمد مانعا فالشابان من أكفأ فتية قريش. واستطلع محمد رأى خديجة التى رأت أن أبا لهب هو عم محمد وهو من أغنى بنى هاشم وله مكرمة سابقة. فإنه ما كاد يسمع بشرى مولد محمد ابن أخيه عبد الله حتى أعتق جاريته ثويبة التى حملت إليه البشرى السعيدة. ولكن خديجة تخوفت على ابنتها من أم جميل زوجة أبى لهب. فهى امرأة متعجرفة سريعة الغضب والانفعال. سليطة اللسان تفرض سلطانها على أولادها وحتى على زوجها. ولكنها خافت إن هى عارضت هذا الزواج أن تتهم بأنها تحاول أن تمزق ما بين محمد وأعمامه من أواصر القربى كما أن أم جميل تنتمى إلى بيت قرشى كبير ولن تسكت على مهانة الرفض بل ستسعى جهدها لتؤلب قريشا عليها لذلك فإن خديجة تركت الأمر لزوجها محمد الذى أعلن موافقته ولم تمر أيام حتى تم زواج عتبة من رقية وعتيبة من أم كلثوم وانتقلت العروسان للعيش مع زوجيهما فى بيت أبى لهب ومع حماتهما أم جميل.

بدء النبوة

اشتُهر عن « محمد » أنه لا يقرب الأصنام ولا يتوسل أو يقسم بها. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٣٤) كيف أنه فى رحلته إلى الشام حينما طلب منه أحد التجار أن يقسم باللات والعزى قال: ما حلفت بهما قط وإنى لأمر فأعرض عنهما.

وتمر السنون وتتوالى الأحداث ويبلغ «محمد» السابعة والثلاثين من عمره فنراه يخبر زوجته خديجة أنه يريد أن يخلو إلى نفسه ليفكر فى هذا الكون ويتأمَّل فى عظمة الخالق وجمال خلقه بعيدا عن مظاهر الشرك والتماثيل المنتشرة حول الكعبة وأنه سوف يقصد لذلك غار حراء يتعبَّد هناك لمدة شهر. ولم تعجَب خديجة حين أخبرها زوجها بذلك فهى منذ أخبرها ميسرة – غلامها – بحديث الراهب نسطورا من أن نبيا قد اقترب زمانه (ص ٣٤) وهى ترى ببصيرتها أن محمداً هو أصلح رجل لذلك. ولكنها تعلم أيضا أن مثل هذا الأمر مرجعه إلى الله سبحانه وتعالى. وراحت تتساءل فى نفسها: هل هذا التعبد فى غار حراء هو المقدِّمات لذلك؟ فما أحراها إذن بتقديم العون ما وسعها له. فراحت تعد له الزاد اللازم. وكان اقتراب سنها من الواحدة والخمسين مساعداً لها على عدم التذمر من بعده عنها طوال هذا الشهر. وعاد محمد إلى مكة بعد انقطاعه للعبادة شهراً كاملاً فى غار حراء. وبدأ بالطواف حول الكعبة ثم انصرف إلى بيته فاستقبلته زوجته فرحة مستبشرة.

وفى العام التالى انقطع محمد فى غار حراء للعبادة طوال شهر رمضان ثم عاد إلى مكة. وفى العام الذى يليه فوجئت خديجة أن محمدا قد حُبِّبَ إليه الخروج إلى الصحراء المحيطة قبل شهر رمضان – يتأمل فى ملكوت الله تعالى فى ليالٍ كثيرة ثم يعود إلى بيته فيتزوَّد بما هو فى حاجة إليه ثم يعود إلى الصحراء يتأمل ويفكرٍ حتى إذا جاء شهر رمضان اعتكف طوال الشهر فى غار حراء للعبادة والتفكُّر فى خلق السموات والأرض وخالقهما وعاد إلى مكة بعد انقضاء رمضان.

وحين بلغ «محمد» ٣٩,٥ سنة من عمره بدأ يرى الرؤيا الصادقة. عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله من النبوَّة الرؤيا الصالحة. لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح. وكانت الرؤيا الصادقة ستة أشهر قبل نزول الوحى. وقد بُدئ بها كتمهيد للنبوة حتى لا يُفاجأ بالوحى فلا يتحمله العقل البشرى. فالرؤيا الصالحة تعطى صاحبها انطباعا بأن عنده نوعا من المكاشفة وقربى من الله وهذا يعطى استعدادا نفسيا لمرتبة أعلى وهى نزول الوحى.

أول ما نزل من القرآن :

وفى شهر رمضان. خرج «محمد» إلى غار حراء كما كان يخرج فى كل عام. وكان قد بلغ الأربعين من عمره. وفى إحدى الليالى – وقد جزم الإمام أبو حنيفة أنها ليلة الاثنين السابع

والعشرين من رمضان – وفى سحر تلك الليلة أتاه جبريل الأمين. وجاء فى البخارى أن الملك جاءه فغطَّه أى ضمَّه وعصره حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له اقرأ فقال ما أنا بقارئ فأخذه وغطَّه الثانية حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال اقرأ. قال ما أنا بقارئ فأخذه وغطَّه الثالثة ثم أرسله وقال:

«اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذى علَّم بالقلم. علَّم الإنسان مالم يعلم» (١ – ٥ العلق).

وكما قال النبى فيما بعد: قرأها وكأنها نقشت بحروف من نور على قلبه.

ويقول ابن هشام (السيرة النبوية جـ١ ص ١٤٨) إن النبى كان يقول لجبريل ماذا أقرأ؟ ويقول الألوسى (تفسيره جـ ٣٠ ص ١٧٨) إن قول «ما أنا بقارى» ما نافية بمعنى لست أعرف القراءة. ويقول ابن كثير (السيرة النبوية جـ ١ ص ٣٩٢) إن النبى كان يرد على جبريل قائلا: ما أرى شيئا أقرأه وما أقرأ وما أكتب. ونفى ابن كثير أن تكون «ما» استفهامية وقال إن الباء لا تزاد فى الإثبات. المهم أن النبى بعد ما حدث خرج مذعورا من الغار حتى إذا كان فى وسط الجبل سمع صوتا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. فرفع رأسه إلى السماء ينظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. فوقف ينظر إليه لا يتقدم ولا يتأخر. وجعل يصرف وجهه عنه فى آفاق السماء فلا ينظر فى ناحية منها إلا رآه كذلك.

وكانت خديجة قد صنعت طعاما وأرسلته إلى زوجها. فلما جاءوا إلى الغار لم يجدوا به أحدا فعادوا إليها وقالوا فى خوف إنهم لم يجدوه ثم بعد نحو ساعة جاء يرتجف. فقالت يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله بعثت رسلى فى طلبك ورجعوا إلىَّ. فقال وهو يرتجف. زمِّلونى زمِّلونى. فزملُّوه حتى ذهب عنه الروع. ثم أخبر خديجة بما حدث وقال: لقد خشيت على نفسى. فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق.

وانطلقت به خديجة حتى أتت ابن عمها ورقة بن نوفل فقالت له خديجة أن يسمع من محمد فقص عليه محمد ما حدث فقال له ورقة: هذا الناموس الذى كان ينزل على موسى. يا ليتنى فيها جَذَعا. ليتنى أكون حيًا إذ يُخرجك قومك. فقال النبى أَوَ مُخرِجِىَّ هم؟ فقال: نعم. لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودى. وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا.

ولكن ورقة بن نوفل توفى بعد قليل من هذا الحديث ولم تدركه دعوة الإسلام وفى رواية أخرى أن خديجة ذهبت وحدها إلى ورقة ابن نوفل وأخبرته بما حدثها به زوجها فقال لها ورقة: قُدُّوس قُدُّوس. والذى نفس ورقة بيده لئن كنتِ صدقتِنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة وقولى له فليثبت. فرجعت خديجة إلى محمد

فأخبرته بقول ورقة. وراح النبى ليطوف بالكعبة فلقيه ورقة بن نوفل وقال له: يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت فأخبره فقال له ورقة ما سبق أن ذكرناه فى الرواية الأولى.

نعود إلى أول ما نزل من القرآن وهو صدر **سورة العلق أو سورة اقرأ :**

«**اقرأ باسم ربك**» ومن هنا كان الاستفتاح فى قراءة القرآن الكريم «باسم الله» ثم لما نزلت الفاتحة صار الاستفتاح «بسم الله الرحمن الرحيم». وهو وإن كان خطابا للنبى إلا أنه ينطبق على جميع من يسلم.

«**الذى خلق**» أى خلق كل شيئ. ثم خَصَّ الإنسان بعد ذلك ببعض التفصيل «**خلق الإنسان من علق**» وقال الألوسى (تفسيره جـ ٣٠ ص ١٨٠) العلق قطعة من الدم الجامد ويقال علقت المرأة أى حبلت وقال الأقدمون هى قطعة الدم التى يتكون منها الجنين ولعلهم قالوا ذلك لملاحظتهم أن المرأة إذا أجهضت فى الأشهر الأولى من الحمل تنزل قطعة حمراء هى أشبه بالدم المتجمد. كما أن العلقة طور من أطوار الجنين لقوله تعالى: «**فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة**» (٥ - الحج). والعلقة دود أسود يكون فى الماء الآسن إذا شربته الدابة علق بحلقها ليمتص دمها ليتغذى عليه. ويرى المفسرون العصريون فى «**خلق الإنسان من علق**» إعجازا علميا إذ علم مؤخرا أن البويضة بعد إخصابها بالحيوان المنوى تعلق بجدار الرحم من الداخل كما تعلق العلقة بحلق الدابة كما أن كتلة الأنسجة الجنينية تكون فى مبدئ الأمر معلقة داخل الكيس الأمنيوسى (شكل ١١) .

ثم كان الأمر «**اقرأ وربك الأكرم. الذى علَّم بالقلم. علَّم الإنسان مالم يعلم**». أمر بالقراءة باسم الرب العظيم الذى لا يدانيه أحد فى كمال كرمه. ومن كرمه أنه علَّم العباد مالم يعلموا من العلوم والمعارف فألهمهم الكتابة بالقلم وعلَّمهم المعارف والعلوم وألهمهم من المخترعات مالم يخطر على بال السابقين وقيل (صفوة التفاسير جـ١ ص ٥٥٥) إن فى ذلك إشارة إلى أن الله سيعلِّم نبيه وإن كان أُمِّيا لا يقرأ ولا يكتب.

سورة القلم :

وبينما كان النبى راجعا إلى بيته جعل لا يمر على شجر ولا حجر إلا سمعه يسلِّم عليه. وظن النبى بنفسه مسا من الجن حتى إنه أراد أن يلقى نفسه من شاهق الجبل على ما رواه الطبرى (جـ٢ ص ٤٩) فنزلت الآيات من **سورة القلم** تطمئنه وتنفى ما ظنه وخشى منه وهو أن يكون ما رآه وما سمعه هو مس من الجن:

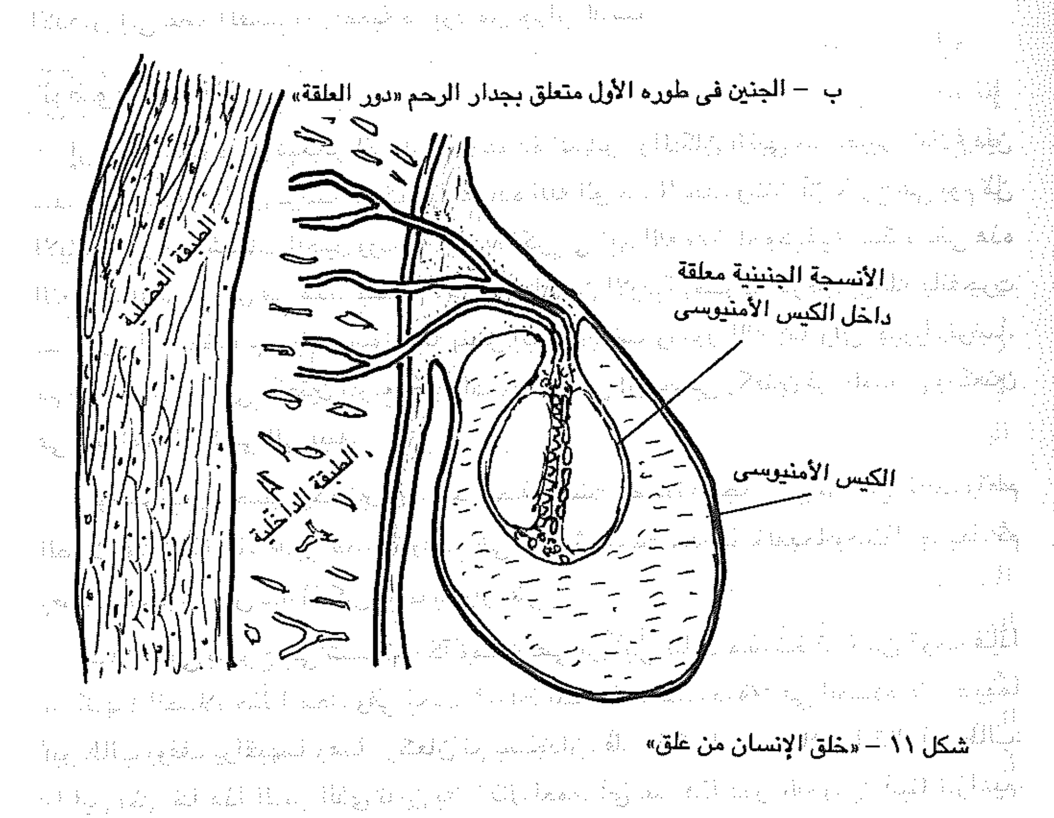
«**ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون، وإن لك لأجرا غير ممنون، وإنك لعلى خلق عظيم**» (١ - ٤ سورة القلم).

الطبقة العضلية

الطبقة الداخلية
(غنية بالأوعية الدموية)

جدار الرحم

أ- البويضة الملقحة تعلق بالطبقة الداخلية لجدار الرحم



ب – الجنين فى طوره الأول متعلق بجدار الرحم «دور العلقة»

شكل ١١ – «خلق الإنسان من علق»

وتبدأ السورة بقسم بالقلم الذى يكتب به الناس العلوم والمعارف وهو ما اختُصَّ به الإنسان من بين سائر المخلوقات. فالقسم هنا بشيئ عظيم دلالة على صدق جواب القسم وهو يطمئن النبى على أن ما رآه وما سمعه ليس نوعا من الجنون. ثم توكيد لما سيكون له من أجر عظيم لما سيتحمله فى سبيل إبلاغ رسالته ثم توكيد ثانٍ بأنه «**على خلق عظيم**». والمعنى أن من كانت له هذه الأخلاق العظيمة لا يكون هناك مجال لمسِّ الجن له أو لسيطرة الشياطين عليه.

أما عن ابتداء السورة بحرف متقطع من حروف الهجاء وهو «**ن**» فيقول علماء اللغة إن من معانى النون، الدواة والحوت وعليه فإن معنى الدواة يتمشى مع ما بعدها «**والقلم وما يسطرون**» ويكون داخلا فى القسم بهما. وأغلب الظن أن الصحابة لم يسألوا رسول الله عن معناه إذ لم يرد حديث صحيح يوضح المقصود منها أو من الحروف غيرها التى بدأت بها كثير من السور فيما بعد. ويرجح البعض أنها مما استأثر الله بعلمه وقال البعض إن فى هذه الحروف إشارة إلى أن القرآن مكون من الحروف العربية التى يعرفونها ولكنهم يعجزون عن الإتيان بمثله. وقال آخرون إنها جاءت للتنبيه واسترعاء الأسماع لما بعدها وخاصة أن كثيرا من هذه الحروف يجئ بعدها قَسَم بأن القرآن وحى منزل من عند الله فيكون المراد لفت الأذهان إلى عِظَمِ المقسم به وأهمية ما يرد من جواب للقَسَم.

الوضوء والصلاة :

إن أهم شعيرة من شعائر الأديان هى عبادة الخالق. ولما كان النبى قد اختير لإبلاغ دين جديد أصبح لزاما أن توضَّح له كيفية عبادة الله الواحد الأحد. وكان أن خرج فى يوم من الأيام يتنقل بين شعاب الجبل ووديانه وهو يتفكر فى نعم الله وفضله وكيفية شكره على هذه النعم. فوافاه جبريل فى هيئة بشرية وهو فى واد من الأودية وضرب الأرض برجله فانفجرت منه عين ماء فتوضأ جبريل ورسول الله ينظر إليه ثم توضأ رسول الله كما رأى جبريل توضأ. ثم قام جبريل فصلى ركعتين بأربع سجدات وأمر النبى أن يصلى ركعتين فى الصباح وركعتين فى المساء وعاد النبى إلى بيته.

وتوضأ النبى وصلى ركعتين ورأته خديجة فصلَّت بصلاته وجاء على بن أبى طالب وتعلم الصلاة فكان إذا قام النبى للصلاة وقف علىّ خلفه ثم وقفت خديجة خلفهما وصلوا جميعا. ثم بعد أن أسلم زيد بن حارثة كان يقف بجوار علىّ.

وكان النبى يخرج إلى شعاب مكة ومعه على بن أبى طالب مستخفيا من قومه فإذا أدركتهما الصلاة صلَّيا معا. وفى إحدى المرات بينما كانا مستغرقين فى الصلاة عثر عليهما أبو طالب ووقف يراقبهما وهما يركعان ثم يسجدان. فلما انتهيا من صلاتهما قال أبو طالب: يا ابن أخى ما هذا الدين الذى تدين به؟ فقال لعمه: أى عم. هذا دين الله ودين أبينا إبراهيم.

بعثني الله به رسولا إلى العباد وأنت ياعم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه. وساد الصمت والترقب فترة. ثم تكلم أبو طالب في صوت غلب عليه الحنان والحب قائلا: يا ابن أخي. إني لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي وما كانوا عليه. لكن والله لا يخلُص إليك أحد بشيئ تكرهه ما حييت. ثم التفت إلى عليّ بنظرة تساؤل فقال عليّ يا أبت آمنت بالله وبرسوله وصدقت بما جاء به وصلّيت معه واتبعته. فردّ عليه أبوه: إنه لم يدعُكَ إلا إلى خير فالزمه (تاريخ الطبري جـ٢ ص ٣١٣).

وعاد «محمد» إلى بيته وأخبر خديجة بما كان فاطمأنت بهذه الحماية التي أسبغها شيخ بني هاشم على ابن أخيه فلاشك أن أبا طالب بنفوذه وجاهه سوف يحمي محمدا من أذى أي شخص من البطون القرشية الأخرى.

سورة المزمّل :

في إحدى الليالي كان النبي يسير فرأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها يملأ ما بين السماء والأرض فخاف وعاد إلى بيته يرتجف وقال زملّوني زملّوني . ولما هدأ روعه نزل قوله تعالى:

«يا أيها المزمِّل قم الليل إلا قليلا. نصفه أو انقص منه قليلا. أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلا. إن لك في النهار سبحا طويلا. واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا (انقطع إليه في العبادة)**. رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا»** (١-٩).

والمزمِّل هو المتدثر بثيابه. **«قم الليل»** وقيام الليل يكون بالصلاة. فكان الأمر بقيام الليل معناه تكرار الركعتين مرات ومرات. كما نفعل الآن في صلاة التراويح في رمضان. ركعتين ركعتين سواء كانت ٨ ركعات أو ٢٠ ركعة . ولو حسبنا أن طول الليل في المتوسط هو ١٢ ساعة فإن زيد عن النصف قليلا كان ٧ ساعات وإن قل عنه قليلا أصبح ٥ ساعات. فكأن الرسول في هذه الآية قد أمر بالقيام ٥ أو ٧ ساعات كل ليلة. ومن منا يطيق ذلك؟ إن المرء حاليا إذا صلى العشاء والشفع والوتر وركعتي القيام بالليل – ظن أنه قد أدى فرض الله وأتى ما يوجب الإثابة مع أن كل ذلك لم يستغرق سوى ربع ساعة أو أقل. ناهيك عن كثرة الوساوس التي تُفرغ الصلاة من محتواها التعبُّدي! **«ورتل القرآن»** والترتيل بمعنى التمهل والتجويد في القراءة. وقد استنتج البعض من هذا الأمر أن هذا الجزء من سورة المزمل لابد قد نزل متأخرا بعد أن نزل عدد من السور لينطبق عليها «القرآن» ولكن جمهور الصحابة أجمع على أن هذه السورة هي ثالث ما نزل من القرآن بعد أول سورة العلق والآيات من سورة القلم وعليه يمكننا أن نستنتج أن المقصود بترتيل القرآن في هذه الآية هو قراءته في الصلاة وهذا يكون بتلاوة

مانزل منه فى ركعات صلاة القيام بالليل. سواء كان نصفه أو أقل من النصف قليلا أو أزيد منه قليلا. ثم تنتقل الآيات لبيان سبب ذلك الأمر **«إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا»** أى سينزل على النبى كلام جليل له هيبة وروعة فالثِقل هنا عظِمُ قدره. فكثرة الصلاة تجعل النفس مستعدة لهذا القول العظيم والصبر على ما سيتبع هذا من مشاق وأخطار. **«إن ناشئة الليل»** أى النفس التى تقوم من مضجعها وتنشأ من مكانها إلى العبادة فى جوف الليل **«هى أشد وطأ»** أى أكثر وقعا وقيل أثقل على النفس لأن الليل جعل للنوم والراحة. **«وأقوم قيلا»** والقيل هو القول أى أثبت لما يُقرأ لهدوء الأصوات فى الليل فيكون القلب حاضرا ومتفرغا من مشاغل الدنيا. **«إن لك فى النهار سبحا طويلا»** أى هناك مجال طويل بالنهار للعمل واشتغال المرء بأمور المعيشة أما صلاة الليل فتجعل المرء أقرب ما يكون إلى ربه وعلى كلٍّ فعلى النبى أن يكثر من ذكر الله والانقطاع لعبادته من كل شيئ فهو رب العالم كله مشرقه ومغربه ولا إله غيره وعليه أن يتوكل عليه فى كل شئونه.

صدر سورة المدثر :

حتى هذه اللحظة كان النبى يجتهد فى العبادة ويقوم أكثر من نصف الليل يتعبد ويذكر الله. صحيح أنه قد قيل له **«إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا»** ولكنه لم يكن يدرى ما هو ذلك القول الثقيل ولا ماهية هذه المهمة الجليلة التى سيُكلَّف بها. وبينما هو فى إحدى الليالى متدثر فى ثيابه مضطجع فى مخدعه نزل قوله تعالى:

«يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهِّر. والرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر. ولربك فاصبر» (١ - ٧ المدثر)

وفى الآيات أمر للنبى بأن يقوم من مضجعه وينذر الناس بأن عذابا ينتظر من لا يؤمن. **«وربك فكبِّر»** والصيغة تفيد أمرا باختصاص الرب وحده بالتكبير والأمر فى حقيقته موجه إلى من سينذرهم النبى أى إلى قريش بأن يجعلوا التكبير لله وحده. ثم أمر بأن تكون الثياب التى تؤدى فيها الصلاة طاهرة. والرجز هى المعاصى وقيل هى الأصنام فكان الأمر بهجرها والبعد عنها. ثم يتوجه الخطاب إلى النبى **«ولا تمنن تستكثر»** أى ولا تعط الناس عطاء وتستكثره أى لا تكلّ عن دعوتهم إلى الله مهما أكثرت من دعوتهم ومهما أكثروا من إعراضهم وليصبر إذا ما تعرضوا له بالأذى **«ولربك فاصبر»**.

بدء الدعوة :

عزم النبى على أن يدعو قريشا وينذرهم كما أمره ربه. فقام على الصفا وقال: يا معشر قريش فقالت قريش: محمد على الصفا يهتف. وجعل النبى ينادى: يابنى فهر. يابنى عدى. وعدد بطون قريش. فلما اجتمعوا قال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير

عليكم أكنتم مُصدِّقِيَّ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقا. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. وما نظن أن مقالته اقتصرت على هذه الجملة. فلا شك أنه بعد ذلك أوضح لهم - وإن لم تذكره كتب السيرة - أنه نبى مرسل من رب العالمين وطلب منهم الإيمان بالله وحده ونبذ عبادة الأصنام وأن عذابا شديدا ينتظر المكذِّبين. فقال أبو لهب: تبًا لك سائر الأيام. ألهذا جمعتنا؟

ولاشك أن البعض سأل عن هذا الإله الذى يدعو إليه. وكيف لهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم وأجدادهم. ويُروى أن أبا لهب - عند انصرافه - قال لمن حوله: إن محمدا يعدنا بأشياء لا نراها كائنة ويزعم أنها كائنة بعد الموت؟ مما يدل على أن النبى ذكر فى مقالته - البعث بعد الموت والحساب فى الآخرة.

وعاد أبو لهب إلى بيته وأخبر زوجته أم جميل بما قال محمد فأيدته فى رفضه لدعوة محمد وملأ الحقد قلبها أن يُختص «محمد» بشرف النبوة دون سادات قريش ودون زوجها بالذات. فضلا عن أنها كانت تحقد على خديجة ولقب «الطاهرة» الذى لقبته بها قريش. وكان فى جيد أم جميل عقد ثمين من ذهب لا يوجد فى مكة مثله جمالاً أو غُلوًّا فأعلنت أنها ستبيعه وتنفق ثمنه فى الكيد لمحمد لمنعه من إبلاغ دعوته.

سورة المسد :

لم تكن التقاليد العربية تسمح للنبى أن يردَّ على عمه أبى لهب حين قال: تبا لك سائر الأيام. ولا الرد على زوجته أم جميل التى راحت فى كل مجالسها تهجوه وتُسفِّه دعوته. إلا أنه لم يكن مستحبا أن تترك هذه الإهانات بدون رد. ولرفع الحرج عن النبى تولى الوحى الرد على أبى لهب فنزلت سورة المسد:

«تبت يدا أبى لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى نارا ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد» (١ - ٥).

وهكذا فى بلاغة وإيجاز شديد جاء الرد قويا ومُفحما. فمقابل قول أبى لهب «تبًا لك يا محمد» جاء قوله تعالى **«تبت يدا أبى لهب وتب»** أى هلكت يداه وخاب وخسر وضلَّ عمله وهلك هو الآخر. وأن كثرة ماله لن تغنى عنه ولن تمنع عنه العذاب وأنه فى الآخرة سيصلى نارا ذات لهب أى أن كنيته التى كان يُسمَّى بها لاحمرار وجهه ستصبح لهبا حقيقيا يوم القيامة. ثم كانت الإشارة إلى القلادة التى باعتها زوجته لتنفق ثمنها فى إيذاء محمد فسيُطوَّق جيدها فى الآخرة بقلادة من نار. وقيل **«حمالة الحطب»** أنها ستحمل حطبا لتزيد النار اشتعالا. وقيل أيضا إنها كانت تنفخ روح العدواة فى زوجها كلما رأت منه جنوحا إلى التروى والفتور بسبب ما كان يربطه بالنبى من قرابة أو على الأقل رابطة العصبية. وليس بعيدا أن يكون تأثيرها

أحد عوامل شذوذ هذا العم عن سائر أفراد بنى هاشم الذين كانوا ينصرون النبى ويحمونه بالرغم من أنهم لم يكونوا قد استجابوا لدعوته.

وبلغت هذه الآيات أبا لهب وزوجته ولاشك أنهما بهتا من شدة ما توعَّدهما به الوحى من عذاب فى الآخرة وتعجَّبا من قوة الرد وعنفه وبلاغته وشدة إيجازه.

طلاق رقية وأم كلثوم :

وذاعت سورة المسد فى مكة كلها وتناقلها الناس فاربدَّ وجه أبى لهب واستبد به الحنق والغضب فبعث فى طلب ولديه عتبة وعتيبة وقال لهما إن محمدا قد سبه وسب أم جميل والدتهما ثم حرَّضهما على طلاق زوجتيهما ابنتى محمد. فذهب عتبة إلى محمد وهو جالس فى المسجد وسبَّه وسب إلهه وردَّ عليه ابنته رقية أى طلَّقها فقال النبى: اللهم ابعث عليه كلبا من كلابك. وكان أبو طالب حاضرا فوجم وقال: ما كان أغناك يا ابن أخى عن هذه الدعوة. وقام عتيبة هو الآخر بتطليق أم كلثوم.

ويروى أن عتبة بعد أن بلغه هذا التهديد أصبح لا يمشى إلا ومعه عصا غليظة ويتلفت كثيرا خلفه خشية أن يتبعه كلب فيعقره. كما أنه امتنع بعض الوقت عن متابعة قوافله التجارية خشية الحيوانات الضارية. ولكنه بعد فترة تشجَّع وخرج فى قافلة وكان أصحابه يحيطون به ليحموه من أى عدوان. وفى إحدى الليالى خرج لقضاء حاجته مع اثنين من أصحابه فقفز عليه أسد انتزعه من بنى أقرانه وفتك به.

والحقيقة أن قريشا كانت قد مهَّدت الطريق لطلاق ابنتى النبى إذ كانوا قد قالوا لأبى لهب وابنيه: إنكم قد فرَّغتم محمداً من همه فرُدُّوا عليه بناته واشغلوه بهن. ومشوا إلى أصهار الرسول الثلاثة وقالوا لهم واحدا بعد الآخر: فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت. فأما أبو العاص فأبى. وأما ابنا أبى لهب فلم يكونا فى حاجة إلى سعى قريش فى هذا الشأن فقد تكفلت أم جميل والدتهما بالأمر حين أقسمت ألا يظلها وابنتى محمد سقف واحد. ومازالت بأبى لهب تحرِّضه حتى قال لولديه: رأسى من رأسكما حرام إن لم تُطلِّقا ابنتى محمد. ولعل أبا لهب ارتأى أيضا أن لا تكون هناك مصاهرة تمنعه من تنفيذ ما كان يدور فى رأسه من تدابير لإيذاء النبى. فما رؤى أحد أشد عداوة منه ومن زوجته أم جميل للنبى ولا بلغ أحد من أذاه ما بلغا ولا سُمع أن أحدا من بنى هاشم ظاهر قريشا على حفيد هاشم مثل ما فعل أبو لهب.

إسلام أبى بكر :

قلنا سابقا (ص ٤٦) إن أول من أسلم كان خديجة ثم على بن أبى طالب من أهل بيت النبى ثم أسلم بعدهما زيد بن حارثة أو زيد بن محمد. ولاشك أن مقالة النبى عند الصفا قد بلغت أبا بكر وراح يفكرَ فيها فمحمد هو أصدق أصدقائه ولم يعهد عليه كذبا قط فى جدٍّ أو

فى مزاح. وراح يفكر فى النفر القليل من قريش الذين نبذوا عبادة الأصنام وراحوا يبحثون عن دين آخر أقرب إلى العقل والمنطق. ووسط هذه الدوامة من الأفكار التى كانت تجول بخاطره قابله محمد وقال له إنه رسول الله ونبيه بعثه الله ليبلغ الناس. ودعا أبا بكر إلى الله وحده وأن لا يعبد أحدا غيره فأسلم أبو بكر فى الحال. وقد قال رسول الله فيما بعد: ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر. ما عكم (أى ما تلبث) عنه حين دعوته ولا تردد فيه.

دعوة بنى عبد المطلب للإسلام :

ثم نزل قوله تعالى : **«وأنذر عشيرتك الأقربين»** (٢١٤ – الشعراء) . فبعث النبى إلى بنى عبد المطلب للغذاء عنده. فحضروا وكان فيهم أبو لهب. فقام رسول الله وخطبهم قائلا: إن الرائد لا يكذب أهله. والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم. ولو غررت بالناس جميعا ما غررتكم. والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة. والله لتموتُنَّ كما تنامون ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون ولتحاسبُنَّ بما تفعلون. ولتجزونَّ بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبدا أو النار أبدا. والله يابنى عبد المطلب ما أعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به. إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة.

فتكلم القوم كلاما لينا إلا أن أبا لهب قال: يابنى عبد المطلب. هذه والله السوءة. خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم وإن منعتموه قتلتم. فقالت له أخته صفية، أى أخى. أيحسن بك خذلان ابن أخيك؟ فوالله مازال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضئ أى من صلب عبد المطلب نبى فهو هو. فقال أبو لهب فى ضيق: هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء فى المجال. إذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب فما قوتنا بهم؟ فوالله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس. وقال أبو طالب: فوالله لنمنعُنَّه ما بقينا. وأحسَّ «محمد» صدق تأييد عمه أبى طالب فبعد أن انفضَّ الاجتماع ذهب معه إلى داره وخاطب بنيه قائلا: إن الله قد بعثنى إلى الخلق كافة وبعثنى إليكم خاصة فقال: «وأنذر عشيرتك الأقربين» وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين فى الميزان: شهادة أن لا إله إلا الله. وأنى رسول الله. ولم يردَّ عليه أحد إيجابا أو سلبا فانصرف النبى إلى داره. ولم يؤمن به إلا علىّ وكان – كما سبق أن ذكرنا سابقا – يعيش فى دار محمد ولكنه كتم إيمانه عن إخوته.

أبو لهب وأبو جهل :

ومرت الأيام ويكرر محمد الدعوة لدين الله ويسير خلفه أبو لهب يخبر الناس أنه عمه ويحذِّرهم من تصديق ما يقول ويزعم لهم أنه مجنون أو أنه مسحور. وكان ينضم إليه آخرون من سادات قريش وأغنيائها. فقد تصوروا أن ترك ديانة الآباء ستجعل العرب ينصرفون عن البيت الحرام فتبور تجارتهم وهى مصدر ثرائهم.

وكان عمرو بن هشام أو أبو الحكم بن هشام بن المغيرة المخزومى (انظر سلسلة النسب شكل ٩ ص ٢٠) - والذى يعرف فى التاريخ الإسلامى بأبى جهل - من كبار الزعماء وأشد أعداء النبى والمؤلبين عليه. وقد رُوِىَ أنه تصدى للنبى وأغلظ له ونهاه عن دعوة الناس لدين الله فتوعده محمد بعذاب من الله. وروى أن أبا جهل قال: علام يتوعّدنى محمد وأنا أكثر أهل الوادى ناديا؟ ثم قال: واللات والعزّى لئن رأيته يصلى ثانية لأطأنّ عنقه ولأعفّرنّ وجهه. ولكن النبى لم يأبه لهذا التهديد واستمر على الصلاة فى فناء الكعبة فرآه أبو جهل وتقدم نحوه ليطأ عنقه ولكنه لم يلبث أن نكص على عقبيه رافعا يديه كأنما يقى بهما نفسه. فقيل له مالك؟ فقال إن بينى وبينه خندقا من نار وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله: لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا.

وتصف **بقية سورة العلق** هذا المشهد :

«كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى. إن إلى ربك الرجعى. أرأيت الذى ينهى. عبدا إذا صلى. أرأيت إن كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إن كذّب وتولّى. ألم يعلم بأن الله يرى. كلا لئن لم ينته لنسفعًا بالناصية. ناصية كاذبة خاطئة. فليدع ناديه. سندع الزبانية. كلا لا تطعه واسجد واقترب» (٦ - ١٩ العلق).

وهنا - مرة أخرى - تولى القرآن الكريم الرد على أبى جهل بقوة وحزم شديدين بادئا بتحدٍّ عنيف «كلاّ» ثم تنديد بغنى أبى جهل الذى جعله يطغى. ثم تذكير بأن هناك رجعة إلى الله وبالطبع سيكون هناك حساب. ثم تساؤل استنكارى لما يفعله من نهى محمد «عبدا» عن الصلاة. وقيل فى الكلام حذف والمعنى: هل أمِنَ من العقوبة. ثم سؤال مُوجَّه إلى أبى جهل مفاده: فما قولك إن كان محمد على الهدى ويأمر بالتقوى. ثم ينتقل الخطاب إلى النبى - ومعه كل السامعين - فى صيغة سؤال لتقرير واقع وهو أن أبا جهل كذّب وتولى معرضا ثم سؤال توبيخ عن إنكار أبى جهل لهذه الحقيقة **«ألم يعلم بأن الله يرى»** والمعنى أن الله يراه وسيحاسبه على أفعاله هذه. ثم تهديد فى غاية الشدة وتحذير من التمادى فى هذا المسلك **«كلا لئن لم ينته»** وهو قسم والمعنى: والله لئن لم ينته. **«لنسفعا بالناصية»**. وفى اللغة سفعت الشيئ أى قبضت عليه وجذبته جذبا شديدا. والمعنى أن أبا جهل سيُجذب من ناصيته يوم القيامة ويُسحب إلى النار وهى ناصية رأس مكذِّبة بالحق خاطئة أى متعمِّدة الخطأ فى فعلها. ثم ردٌّ على قول أبى جهل أنه أكثر ناديا فى صورة دعوة له ليدعو عشيرته وأهل مجلسه الذين يستنصر بهم وفى مقابلهم سيدعو الله الزبانية وهم ملائكة العذاب والمفهوم أن الملائكة هم الأقوى. ثم يأتى تحذير ثان **«كلا»** أى ليس الأمر كما يظن أبو جهل. ثم يتوجه الخطاب إلى النبى **«لا تطعه واسجد واقترب»** أى لا تطعه فى ترك الصلاة وصلِّ لله واسجد إذ أنه بذلك يزداد قربا من الله. روى عن أبى هريرة أن النبى قال: أقرب ما يكون العبد من ربه وأحبُّه إليه جبهته فى الأرض ساجدا له.

وهذه الآيات - وإن كانت قد نزلت بصدد حادثة معينة إلا أنها تنطبق على كل من ينهى شخصا عن الصلاة أو أى نوع من العبادات - وأمر النبى بأن توضع هذه الآيات بعد آيات **«أقرأ باسم ربك الذى خلق»** وبهذا اكتملت سورة العلق. ولاشك أن أبا جهل لمَّا بلغته هذه الآيات تزلزل كيانه من هذا التهديد العنيف وزاد من الخوف الذى انتابه حين رأى نارا تحول بينه وبين إيذاء النبى. فكان بعد ذلك إذا رأى النبى يصلى الله عند الكعبة لا يتعرَّض له.

من أسلموا على يد أبى بكر :

كان أبو بكر رجلا مألوفا لقومه محبا سهلا وكان تاجرا ذا خلق ومعروفا بين الناس بالصدق. وكان أعلم الناس بأنساب قريش. وكان رجال قومه يأتون مجلسه ويأنسون لحديثه. فجعل يدعو إلى الإسلام من يثق به ويتوقع منه الاستجابة فأسلم على يديه كثيرون أهمهم خمسة من رجالات قريش هم: الزبير بن العوام وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وانطلق بهم إلى رسول الله فأسلموا على يديه.وقرأ عليهم ما كان قد نزل من القرآن الكريم.

ويروى طلحة بن عبيد الله عن إسلامه أنه كان فى سوق بصرى فإذا راهب فى صومعته يقول: سلوا أهل الموسم أفيهم رجل من أهل الحرم؟ قال طلحة: نعم أنا. فقال: هل ظهر أحمد بعد؟ قال ومن أحمد؟ قال هو آخر الأنبياء وهذا شهره الذى يخرج فيه. مخرجه من الحرم ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ. فإياك أن تُسبَقَ إليه. قال طلحة فخرجت مسرعا حتى قدمت مكة فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا. نعم محمد بن عبد الله الأمين قد تنبَّأ وقد اتبعه أبو بكر. قال فخرجت حتى قدمت على أبى بكر. فقلت: اتَّبعت هذا الرجل؟ قال نعم فانطلق إليه واتبعه فإنه يدعو إلى الحق. وخرج أبو بكر بطلحة إلى رسول الله وأسلم طلحة.

سورة الفاتحة :

علم الله سبحانه وتعالى أن الناس يتفاوتون فى قدراتهم الذهنية. وسيكون بين المسلمين العالم والجاهل. وسيكون بينهم البليغ ومن لا يستطيع أن يُعبِّر عما فى نفسه فكان من رحمة الله بعباده أن أنزل هذه السورة - سورة الفاتحة - وأوجب تلاوتها فى كل ركعة فى الصلاة ليتساوى الناس فى القراءة ويكون التفاضل فى تدبُّر معانيها والقدر الذى يُقرأ بعدها من القرآن الكريم.

وبالرغم من أن السورة تعتبر من قصار السور إلاَّ أن معانيها من العظَم بحيث أنها تسمى **«أم الكتاب»** و **«السبع المثانى»** لقوله تعالى: **«ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم»** (٨٧ - الحجر). ولكن الغالب على تسميتها هو **«الفاتحة»** لأنها مفتتح السور القرآنية فى ترتيب المصحف ثم إنها مفتتح التلاوة القرآنية فى كل ركعة من ركعات الصلاة. ويرى البعض أنها

أول سورة نزلت تامة وأنها احتوت رموزا لكل ما جاء فى القرآن من مواضيع ففيها التوحيد وفيها الثناء على الله وفيها حث على قصر العبادة لله وحده والاستعانة به. وفيها إشارة إلى اليوم الآخر وإشارة إلى الأمم السابقة على اختلافها من مهتدين ومغضوب عليهم وضالين وفيها إشارة إلى ملكوت الله:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين .الرحمن الرحيم .مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» (١ - ٧).

والبسملة فى أول الفاتحة آية معدودة وفى حديث روى عن أبى هريرة أن النبى قال: إذا قرأتم أم القرآن فلا تَدَعُوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها إحدى آياتها. ثم جُعلت البسملة فى أوائل السور الأخرى تُفتح بها السورة وكفاصلة بين السورة والسورة التالية لها ولذلك لا يجهر بها الإمام عند قراءة السورة التى تلى الفاتحة. وعن ابن عباس أن النبى كان إذا جاءه جبريل فقرأ **«بسم الله الرحمن الرحيم»** علم أنها سورة جديدة. ويروى عن ابن مسعود قوله: كنا لا نعلم فصلا بين سورتين حتى نزلت «بسم الله الرحمن الرحيم» ولما نزل بعد ذلك قوله تعالى: **«فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم»** (٩٨ - النمل) وجب قول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قبل قول بسم الله الرحمن الرحيم عند البدء بقراءة القرآن الكريم.

وفى حديث بإسناد عن أبى هريرة أن النبى عليه الصلاة والسلام قال: يقول الله عز وجلَّ قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين. فإذا قال **بسم الله الرحمن الرحيم** قال الله تعالى: مجَّدنى عبدى. وإذا قال **الحمد لله رب العالمين** قال الله حمدنى عبدى وإذا قال **الرحمن الرحيم** قال أثنى علىَّ عبدى فإذا قال **مالك يوم الدين** قال الله تعالى فوَّض إلىَّ عبدى. وإذا قال **إياك نعبد وإياك نستعين**. قال الله تعالى هذا بينى وبين عبدى. وإذا قال **اهدنا الصراط المستقيم** قال الله تعالى هذا لعبدى ولعبدى ما سأل. (تفسير الألوسى جـ ١ ص ٤٠). ويستحب التأمين على هذا الدعاء بقول «آمين» فى نهاية السورة سواء كان الإنسان مأموما فى صلاة أو يقرأ القرآن تعبُّدا فى غير الصلاة.

بعد ذلك تتابع نزول عدد من السور القصيرة التى تعكس خصائص **القرآن المكى** من قِصَر الآيات وكثرة المحسِّنات اللفظية من سجع وجناس وطباق. وكان المقصود من ذلك تحدى العرب فيما برعوا فيه من اللغة العربية مما جعل بلغاءهم يحتارون فى تصنيفها. فلا هى شعر ولا هى نثر عادى مرسل. ولها جرس يجذب الأسماع. كما أن السجع فى القرآن يحقق الملاءمة بين المعنى والأسلوب أروع تحقيق. ذلك أن سجعاته متعانقة مع ما قبلها تحقق روعة المعنى وجمال الصورة وتجانس الجرس وحلاوة الوقع بريئة من التكلف. فلا نقص ولا زيادة ولا تكرار لضرورة السجع.

ولما كان العرب – فى مجملهم – فى ذلك الوقت – لا يؤمنون ببعث ولا حياة آخرة لذلك كان التركيز فى السور المكية على ذكر يوم القيامة والتأكيد على البعث بعد الممات. وبعد البعث سيكون حساب على الأفعال وجزاء: فإما جنة أبدا أو عذاب مقيم فى نار جهنم. ووُصف يوم القيامة فى السور المختلفة بأوصاف مختلفة وسُمِّى بأسماء مختلفة. وكثير من السور جاء فيها وصف لما سيحدث من تغير واختلاف فى نواميس الكون عما هى عليه فى الحياة الدنيا وصفًا تقشعر منه الأبدان وتخشع له القلوب وتجعل السامع يفكر مرات ومرات قبل أن يفعل ما يغضب الله فينزل به العذاب الأليم فى ذلك اليوم المهول.

سورة التكوير :

والسورة تتكون من فصلين. الأول فى صدد يوم القيامة وما يصاحبه من انقلاب وتبدل فى نواميس الكون ويذكر هذا الفصل اثنى عشر حدثا تلابس ذلك اليوم. أما الفصل الثانى ففيه توكيد صدق ما أخبر به النبى من صلته بوحى السماء ونفى الجنون عنه أو صلته بالشيطان:

١ – **«إذا الشمس كُوِّرت»** أى سُتِرت وتوقف إشعاعها وساد الظلام.

٢ – **«وإذا النجوم انكدرت»** أى اختل نظامها وتساقطت.

٣ – **«وإذا الجبال سُيِّرت»** أى نُسفت وتفتَّتت بعد أن كانت جبالا راسيات.

٤ – **«وإذا العشار عُطِّلت»** أى جفَّت السحب وامتنع مطرها. وقيل النوق العشار تركت مهملة من شدة الهول.

٥ – **«وإذا الوحوش حُشرت»** أى جمعت من كل ناحية.

٦ – **«وإذا البحار سُجِّرت»** تفجَّرت والتهبت نارا.

وقد أثبت العلم الحديث عن طريق دراسات الموجات السيزمية التى تحدث مع الزلازل أن لب الأرض فى حالة شبه سائلة تحت القشرة اليابسة Crust (شكل ١٢) وفى المركز لب صلب هو الذى ينتج عنه المجال المغناطيسى للكرة الأرضية. والطبقة شبه السائلة ثقيلة الكثافة فهى أشبه بالقطران السائل أو العسل الأسود السميك وترتفع درجة حرارته كلما اتجهنا إلى المركز. وذلك مشاهد عند حدوث البراكين إذ تندفع الحمم البركانية السائلة المرتفعة الحرارة وترتفع ألسنة اللهب من فوهة البركان الثائر. وهذه المعلومات العلمية الحديثة تؤكد صدق الحديث الشريف القائل: إن تحت البحر نارًا.

٧ – **وإذا النفوس زُوِّجت»** أى عادت الأرواح إلى الأبدان بعد مفارقتها.

٨ – **«وإذا الموءودة سئلت. بأى ذنب قتلت»** وهو تنديد بالعادة الجاهلية التى كانت تمارس فى ذلك الوقت من دفن الإناث أحياء خشية جلبهن العار لقومهن.

شكل ١٢ – قطاع طولى فى الكرة الأرضية .

٩ - «**وإذا الصحف نُشرت**» وهو توكيد بأن هناك ملائكة كَتَبَة يكتبون أفعال البشر فى صحف لا ترى ولكنها ستنشر فى ذلك اليوم ويحاسب الإنسان على أعماله.

١٠ - «**وإذا السماء كُشِطت**» أى تمزقت وأزيلت معالمها . ونزعت نجومها كما ينزع الجلد من الشاة.

١١ - «**وإذا الجحيم سُعِّرت**» أى أوقدت وتوقدت نارها بشدة لاستقبال المجرمين.

١٢ - «**وإذا الجنة أُزلفت**» أى قُرِّبت بنعيمها من الصالحين.

«**علمت نفس ما أحضرت**» وهذا هو جواب الشرط «**إذا**» الذى تكرر ١٢ مرة والمعنى أنه فى ذلك الوقت تطَّلع كل نفس على ما عملت لأنه مكتوب فى صحيفتها . والحساب سيتم على أساس هذه الأعمال.

بعد ذلك جاء قسم لم تعهده العرب من قبل فقد كان العرب يقسمون بآلهتهم فيقولون واللات والعزى فجاء القرآن بقَسَم بالكواكب والليل والصبح وغيره من مظاهر الكون. وجاء مسبوقا بحرف «**لا**»، وتقول بعض كتب التفاسير إن «لا» زائدة. ويرى الشيخ متولى الشعراوى أنه لا توجد فى القرآن حروف زائدة بل كل حرف له معنى يؤديه. ويرى البعض أنه اختصار لـ «ألا» التنبيهية أو حرف ابتداء بمعنى إنى لأقسم أو يكون حرف نفى ليفيد أن الأمر المذكور صحيح وواضح لا يحتاج إلى قسم لتوكيده. وجاء القسم بثلاثة أشياء:

١ - «**فلا أقسم بالخُنَّس. الجوار الكُنَّس**» والخُنَّس جمع خانس من خَنَس الشيئ إذا سكن واستخفى والمراد النجوم التى تختفى بالنهار كما تستتر الجوارى. وتقول العرب أوى الظبى إلى كناسه والوحوش عامة حين تختفى فى بيوتها . وقيل هى الكواكب تخفى عن العيون نهارا كأنها كُنِست.

٢ - «**والليل إذا عسعس**» إذا أقبل ظلامه أو إذا أدبر وانقضى عند طلوع الفجر.

٣ - «**والصبح إذا تنفَّس**» أى إذا امتد حتى صار نهارا بَيِّناً.

ثم يأتى جواب القَسَم ليؤكد على خمس حقائق:

١ - «**إنه لقول رسولٍ كريم. ذى قوةٍ عند ذى العرش مكين. مُطاع ثَمَّ أمين**» (١٩ - ٢١).

وجواب القسم فيه تأكيد أن ما يقوله النبى هو من كلام رب العالمين ذى العرش. نزل به رسول كريم هو جبريل عليه السلام «**ذى قوة**» أى شديد . وقد وُصف فى مكان آخر (٥ - سورة النجم . ص ١٩٨) «**علمه شديد القوى**» وله مكانة رفيعة عند الله ذى العرش. ومطاع فى الملإ الأعلى. وهو أمين فيما استؤمن عليه من كلام الله.

٢ - «**وما صاحبكم بمجنون**» وهى نفى لما اتهم المشركون به النبى من جنون.

٣ – «**ولقد رآه بالأفق المبين**» وهو تأكيد على أن النبى قد رأى جبريل فى صورته التى خلقه الله عليها. رآه فى الأفق كما سبق أن ذكرنا ص ٤٣.

٤ – «**وما هو على الغيب بضنين**» أى أن النبى لا يَضِنُّ ولا يُخفى شيئا من الغيب الذى يوحى إليه. وكان الكهان لا يطلعون الناس على ما يزعمون معرفته من غيب إلا بعد أخذ الحلوان أى أجر الكهانة.

٥ – «**وما هو بقول شيطان رجيم**» وهو نفى أن يكون القرآن من سجع الكهان الذى يوحَى إليهم من الشياطين التى تسترق السمع.

ثم تُختتم السورة بسؤال فيه استنكار وتوبيخ للكفار لتوقعهم أن يكون هناك طريق آخر للنجاة فى ذلك اليوم غير التصديق بالنبى وتقرير ثان بأن الهداية راجعة إلى مشيئة الله سبحانه وتعالى. وقيل كان ذلك ردا على قول أبى جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم.

«**فأين تذهبون. إن هو إلا ذكر للعالمين. لمن شاء منكم أن يستقيم. وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين**» (٢٦ – ٢٩).

ثم نزلت سورة الأعلى :

والسورة فيها عرض عام للدعوة وأهدافها ومهام النبى :

«**سبح اسم ربك الأعلى**» أمر للنبى بتقديس اسم الله. ولما نزلت هذه الآية قال النبى: اجعلوها فى سجودكم ولما نزل بعد ذلك قوله تعالى «فسبح باسم ربك العظيم» (٧٤ – الواقعة)جُعِلت فى الركوع فاكتملت كيفية الصلاة من قراءة الفاتحة وما يقال عند الركوع وما يقال عند السجود.

«**الذى خلق فسوّى. والذى قدَّر فهدى. والذى أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى**» (٢ – ٥).

وفيها تقرير بأن الله هو خالق كل شيئ. وقد أتقن كل شيئ خلقه وجعلَ الأشياء على مقادير مخصوصة ومناسبة ووجَّه كل شيئ إلى الوجهة المطلوبة منه. وكمثال أخرج فى المراعى نباتا غضا خضرا ترعاه الحيوانات ثم يصير جافا أسمر اللون يجرفه السيل فيطفو على سطح الماء ويلقيه على جانب الوادى وهو يصلح لإيقاد النار.

«**سنقرئك فلا تنسى. إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى. ونُيَسِّرك لليسرى**» (٦ – ٨).

وكان النبى يجهر بالقراءة مع قراءة جبريل خوف النسيان فطمأنته الآيات بأنه لن ينسى شيئا مما يوحى إليه من الله إلاَّ إذا أراد الله أن ينسخ حكما. إن الله يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوال وأفعال وسيوفقه الله للطريقة البالغة اليسر لتبليغ رسالته.

«فذكر إن نفعت الذكرى. سيذّكر من يخشى. ويتجنّبها الأشقى. الذى يصلى النار الكبرى. ثم لا يموت فيها ولا يحيى» (٩ - ١٣).

وعلى النبى أن يُذكرَ الناس بما فى القرآن من تعاليم وعظة فيستجيب من يخشى الله. أما الشقىّ فيتجنب هذه الهداية وسيكون جزاؤه نارا كبيرة يخلد فيها أبداً فلا هو يموت فيستريح وحياته مع العذاب ليست بحياة.

«قد أفلح من تزكّى. وذكر اسم ربه فصلى. بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى. إن هذا لفى الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى» (١٤ - ١٩).

وتقرر الآيات أن من طهّر نفسه من الكفر والمعاصى وتابع ما يدعو إليه الدين من الأخلاق الكريمة وذكر ربه وعَبَدَه وصلّى فقد أفلح وفاز. إلا أن غالبية البشر يحبون الحياة الدنيا الفانية فى حين أن الآخرة خير منها ولها صفة الدوام. وليس المطلوب هو الانقطاع إلى العبادة وترك أمور الدنيا ولكن يمكن للمؤمن الاستمتاع بما أحله الله من طيبات الدنيا دون جعلها شغله الشاغل فى سبيلها يرتكب الآثام ويظلم غيره ويعتدى عليهم.

ثم تختم السورة بتقرير أن ما يدعو إليه النبى ليس شيئاً جديداً بل هو نفس ما جاء به الأنبياء السابقون وضُرِبَ مثل باثنين هما: إبراهيم والصحف التى أنزلت عليه وموسى وما أنزل عليه من توراة.

ثم نزلت **سورة الليل** :

وقد بدأت السورة بالقَسَم بثلاثة أشياء :

«والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى. وما خلق الذكر والأنثى» (١ - ٣)

قَسَم بالليل إذا غشى الخليقة بظلامه وبالنهار إذا أشرق وملأ الدنيا بضيائه فأصبح كل شيئ واضحا متجليا. ثم أقسم الله بذاته العلية فهو خالق الذكر والأنثى مثل قوله تعالى: «والسماء وما بناها» أى ومن بناها.

ثم يجئ جواب القسم «إن سعيكم لشتى» (٤).والمعنى أن أعمال الناس مختلف بعضها عن بعض. فهناك فريقان من الناس:

«فأمّا من أعطى واتقى. وصدّق بالحسنى. فسنيسّره لليسرى. وأمّا من بخل واستغنى. وكذّب بالحسنى .فسنيسّره للعسرى. وما يغنى عنه ماله إذا تردّى» (٥ - ١١).

فالفريق الأول يتقى الله ويعطى الصدقات وصدّق بأن لا إله إلا الله. فهؤلاء سيرشدهم الله للخير وييسر لهم عمل الصالحات. أما الفريق الثانى فهو يضن بما عنده وكذّب بالله ولم يؤد حق الله فى ماله فسييسرٌ له طريق الشر. ولن يغنى عنه ماله الذى بخل به ولن ينفعه إذا تردّى فى النار فى الآخرة.

«إن علينا الهدى، وإن لنا للآخرة والأولى، فأنذرتكم نارا تلظّى، لا يصلاها إلا الأشقى، الذى كذَّب وتولى، وسيُجنَّبها الأتقى، الذى يؤتى ماله يتزكّى» (١٢ – ١٨).

وتوضح الآيات أن الله يبين للناس طريق الهداية والمفهوم أنهم إما أن يتبعوه أو يسيروا فى طريق الغواية ولله الآخرة وهو يوم القيامة والحياة الآخرة. والأولى هى الحياة الدنيا. ثم تقرر أن الله أنذرهم على لسان نبيه نارا تلتهب وتتوقد ويرتفع لهيبها وشديدة حرارتها وسيدخلها الشقى الذى كذَّب النبى وأعرض عن الإيمان. وسيكون بعيدا عنها التقى الذى ينفق من ماله راجيا زكاته عند ربه. عن أبى هريرة قال قال رسول الله «لا يدخل النار إلا شقى قيل له ومن الشقى؟. قال الذى لا يعمل بطاعة ولا يترك معصية» والأتقى صيغة المبالغة من التقىّ أى المبالغ فى اتقاء المعاصى وتجنبها.

«وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى» (١٩ – ٢١):

وختام السورة فيه بيان أن لا يكون المتصدِّق متوقعا لنعمة مقابل تصدقه بل يجب أن يبتغى وجه الله تعالى فى إنفاقه. وقيل إن فى الآية إشارة إلى ما فعل أبو بكر من شرائه سبعة عبيد – منهم بلال – لينجيهم من العذاب الذى كان ينزله بهم سادتهم، ثم أعتقهم. كل ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى. **«ولسوف يرضى»** أى أن الله سوف يرضى عنهم وعن أعمالهم. وقيل إن الضمير عائد إلى الأتقى الذى سيرضى بما أعد الله له من ثواب ولكن القول الأول أجمل لأن رضا الله عن العبد أعظم من رضا العبد عن ربه (تفسير الألوسى، جـ ٣٠ – ص ١٥٣).

ثم نزلت **سورة الفجر** :

«والفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر» (١ – ٤) :

والفجر معروف وقيل صلاة الفجر – والليال العشر هى العشر الأولى من ذى الحجة. وقالوا الوتر يوم عرفة لأنه التاسع والشفع يوم النحر وهو اليوم العاشر. أما قول البعض بأن المقصود الصلوات منها شفع والمغرب وتر فيضعفه أن الصلوات بكيفيتها وعددها لم تفرض إلا فى ليلة الإسراء فى السنة العاشرة للبعثة. وسورة الفجر نزلت قبل ذلك بكثير. ثم القَسَم الخامس بالليل الذى يُسرى فيه أو يسرِى أى يذهب فيأتى الفجر الذى بدأ به القَسَم.

ثم يأتى جواب القسم **«هل فى ذلك قسم لذى حجر»** (٥) ووضع فى صيغة سؤال لتقرير عِظَم الأشياء المقسم بها والمعنى: هل فيما ذكر من أشياء ما يراه العاقل «ذى حجر» قسما مقنعا؟

ثم تأتى إشارة إلى أقوام سابقين كذبوا رسلهم فنالهم من الله عذاب عظيم:

«ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التى لم يخلق مثلها فى البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذى الأوتاد، الذين طغوا فى البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد» (٦ – ١٤).

وفى الآيات إشارة إلى ما حاق بالمكذبين من الأمم السابقة: عاد وثمود وفرعون. ولاشك أن قصص هؤلاء الأقوام كانت معروفة لدى العرب فى ذلك الوقت مما سمح بذكر أهم صفة اتَّسمت بها كل أمة. فعاد كانوا من الطول بحيث فاقوا غيرهم من الأمم (انظر الجزء الأول ص ١٤٨). وقد ذكرنا سابقا (ص ٣) ما أسفرت عنه الاستكشافات الحديثة من آثار تدل على حضارة سابقة اندثرت. وثمود كانوا ينحتون بيوتهم فى الجبال ويقطعون الصخور ويجلبونها فى الوادى لمبانيهم. (جـ ١ ص ١٦١). أما فرعون مصر - رمسيس الثانى - فقد أقام من المسلات وهى الأوتاد (انظر الجزء الرابع ص ٧٧٧) عددا يفوق ما أقامه الفراعين الآخرون مجتمعين. ثم ذكرت الآيات أن الله أنزل بهم عذابا جزاء لهم على تكذيبهم رسلهم. وفى هذا تحذير خفى لقريش من عذاب مماثل إذا أصروا على تكذيبهم للنبى.

ثم تستمر الآيات تُبيِّن حال الإنسان الكافر الذى يُقيِّم كل شيئ بما يناله فى هذه الدنيا. فإذا أكرمه الله يفرح ولا يحمد الله وإذا ضُيِّق عليه فى رزقه ظن أن ذلك لهوانه عند الله. وتنفى الآيات هذا الاعتقاد ثم تبين أن ما أصابهم من ضيق رزق كان بسبب سوء أفعالهم: فقد كانوا يمنعون اليتيم ميراثه ولا يحسنون معاملته. ولا يتصدَّقون بالطعام على المساكين ويأكلون بجشع مال مورثيهم فيستولون على نصيب النساء والصبيان مع نصيبيهم ويحبون المال كثيرا دون تفرقة بين حلاله وحرامه:

«فأمَّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعَّمه فيقول ربى أكرمن. وأمَّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن. كلا بل لا تكرمون اليتيم. ولا تحاضون على طعام المسكين. وتأكلون التراث أكلاً لمًّا. وتحبون المال حبا جمًّا. كلا » (١٤ - ٢١).

ثم يأتى زجر «**كلا**» وتنبيه إلى ما سوف يكون فى يوم القيامة إذ تندك الأرض اندكاكا شديدا ويجئ الله لمحاسبة الناس والملائكة واقفين صفا صفا وتتهيأ جنهم لمستحقيها وحينئذ يتذكر الإنسان الذى اقترف أفعالا سيئة ما فعل ولكن الذكرى لن تنفعه لأنه أضاع وقتها ويندم على أنه لم يقدم لحياته الآخرة شيئا من عمل صالح فيصير إلى العذاب ولن يكون له مفلت منه. ولن يحل محله شخص آخر يتحمل العذاب عنه. كما أنه سيوثق بالأغلال ولن يكون له بديل يوثق بدله. أما المؤمنون الصالحون ذوو النفوس الطيبة المطمئنة لما قدمت من صالح الأعمال فى الدنيا فَيُهتف بهم أن لهم من ربهم رضوان ومكانهم بين عباد الله الصالحين ومنزلتهم الجنة:

«كلا إذا دكت الأرض دكًا دكاً. وجاء ربك والملك صفًا صفًا. وجئ يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنَّى له الذكرى. يقول يا ليتنى قدمت لحياتى. فيومئذ لا يعذِّب عذابه أحد. ولا يوثِق وثاقه أحد. يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعى إلى ربك راضية مرضية. فادخلى فى عبادى. وادخلى جنتى» (٢١ - ٣٠).

إبطاء الوحى :

كان الكفار ينتظرون كل يوم ما ينزل على النبى من الآيات ويسألون المسلمين عما نزل من القرآن. ولعلهم لاحظوا ما فى السور الأربع السابقة: التكوير والأعلى والليل والفجر من وصف لبعض مشاهد من يوم القيامة جعلتهم - وهم المكذبون بالبعث - يتخيلونه كحقيقة مائلة أمامهم. كذلك لاحظوا صِيغًا من القسم لم يعهدوها من قبل مِمَّا جعلهم يتحيَّرون. فهم مقتنعون بأن هذا الكلام لا يماثل كلام البشر ولكنهم فى نفس الوقت لا يريدون الاعتراف بأن «محمدا» نبى يوحى إليه من رب السماء الأرض.

ثم إن الوحى أبطأ على النبى. قالوا ١٢ يوما وقال ابن عباس ١٥ يوما وقيل ٢٥ يوما وقال مقاتل ٤٠ يوما . فقال المشركون إن رب محمد ودَّعه وقلاه ولو كان أمره من الله لتابع عليه كما كان يفعل بمن كانوا قبله من الأنبياء. وكانت دار أبى سفيان قريبة من دار محمد. فجاءت امرأة أبى سفيان وقالت: يا محمد إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك. لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثة؟

ولما امتدت فترة الوحى إلى أسبوعين أو ثلاثة أو أكثر حسب ما رووا ثار القلق فى نفس النبى من أن يكون الله قد تخلَّى عنه بالرغم من أنه لم يَقصِّر فى الدعوة إلى الله. ولعل النبى زاد من اجتهاده فى العبادة والتضرع إلى الله فنزلت سورة الضحى تنفى ما تقوَّل به الكفار من تخلِّى الله عنه:

سورة الضحى :

«والضحى. والليل إذا سجى. ما ودَّعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى» (١ - ٥).

وقد افتتحت السورة بقسمين يعبران عن وقتى النشاط والسكون: الضحى وهو وقت ارتفاع الشمس والنشاط فى العمل والليل إذا سكن وامتد ظلامه وخلد الناس للنوم والراحة. ثم يأتى جواب القَسَم ليؤكد أن رب محمد لم يتركه ولم يبغضه. وتُقرأ «**ما ودَّعك**» من ودَّع كتوديع المفارق. وتقرأ أيضا بالتخفيف «**ما وَدَعَكَ**» من ودع يدع أى يترك.. ثم تؤكد الآيات على أن ما يُعدِّه الله له فى الآخره من منازل الرفعة خير مما يكرمه به فى الحياة الدنيا . وأن الله سوف يعطيه من النعم ما يرضيه.

ثم راحت الآيات تُعدِّد نعم الله عليه فيما سبق:

«ألم يجدك يتيما فآوى» وهى إشارة إلى يتمه وكفالة جده المطلب ثم عمه أبى طالب من بعده. **«ووجدك ضالا فهدى»**، وضالاً بمعنى غافلا لقوله تعالى فيما بعد **«وإن كنت من قبله لمن الغافلين»** (٣ - يوسف.).

وقد روى أنه أخذ ينشأ فى بيئة النبى قبل مبعثه - عدد من العقلاء ساورهم الشك فى صواب ما عليه قريش والعرب من عبادة الأصنام وأخذوا يبحثون عن السبيل الحق ومنهم من اعتزم الطواف فى الأرض للبحث عن ملة إبراهيم ليسير عليها وأن النبى التقى ببعض هؤلاء وأنه راح هو الآخر يبحث ليتعرَّف إلى ملَّة إبراهيم ليسير عليها. ثم كان له من صفاء النفس وذكاء العقل وقوة القلب وعظيم الخلق ما أهلّه للاصطفاء للنبوّة وانتدابه للمهمة العظمى.

«ووجدك عائلا فأغنى» هى إشارة إلى تواضع حالته المالية فى شبابه حتى إنه كان يرعى الغنم لبعض سادات قريش لقاء أجر. ثم كان أن وفَّقه الله للزواج من السيدة خديجة التى أغنته بمالها فتمكن من التفرغ للاعتكافات الروحية التى مهَّدت الطريق إلى النبوة.

ثم تُختم السورة بثلاثة أوامر للنبى ولكنها قواعد عامة لكافة المسلمين:

«فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدِّث» (٩ - ١١).

وتكملة للنعم التى أنعم الله بها على نبيه جاءت سورة الشرح حتى إن بعض الروايات تذكر أن بعض الصحابة كانوا يتلون سورة الضحى والشرح معا بدون فاصل بالبسملة. غير أن الترتيب المأثور عن النبى أنهما سورتان منفصلتان.

سورة الشرح :

«ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذى أنقض ظهرك. ورفعنا لك ذكرك. فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا. فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب» (١ - ٨).

وأسلوب السورة فيه تذكير للنبى بما أنعم الله عليه من شرح الصدر بما أودع الله فيه من الهدى والإيمان. وخفف الله عنه ما أثقل ظهره من أعباء الدعوة بمساندته وتيسير أموره. كما أن الله رفع ذكره باختصاصه بالنبوة وجعل اسمه مقرونا باسم الله تعالى فى الشهادتين: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله» اللتين تتكرران فى الأذان لكل صلاة. وتدل الآيات أن النبى كان يلقى من قريش صداً وعسرا شديدين وكان يعتلج فى نفسه بسبب ذلك هم وغم شديدان. فتكرر التوكيد على أنه سيكون بعد العسر يسرا أى أن الأمر سينتهى إلى اليسر والنجاح. وتختم السورة بأمر للنبى - إلا أنه توجيه مندوب لكل فرد من أمته - وهو إذا فرغ من أمور الدنيا ومشاغلها فعليه أن ينصب إلى العبادة ويتجه إلى الله وحده بمسألته وحاجته.

جزء من سورة المزمِّل :

أخرج الحاكم أنه بعد نزول صدر سورة المزمِّل - والذى ذكرناه ص ٤٧ - بسنة تقريبا نزل باقى السورة إلا الآية الأخيرة فإنها مدنية على قول الجمهور (تفسير الألوسى. جـ ٢٩. ص ١٠٠).

«واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا. وذرنى والمكذبين أولى النَعمة ومهِّلهم قليلا. إن لدينا أنكالا وجحيما. وطعامًا ذا غُصَّة وعذابا أليما. يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا» (١٠ – ١٤).

والآيات فيها أمر للنبى بالصبر على ما يقوله المشركون وأن يهجرهم ولا يحاول الرد على أقوالهم وأفعالهم بل يغضى عنهم برفق.. **«وذرنى»** أى يترك أمرهم لله – ومعظم المكذبين هم من الأغنياء المترفين الذين يتمتعون فى نعم الله – وأن يخبرهم أن الله يمهلهم زمنا قليلا. حتى يرتدعوا فيؤمنوا أو يمهلهم مدة الحياة الدنيا ثم بعد ذلك لهم عذاب أليم متمثل فى **«أنكالا»** والنكل هو القيد الثقيل الشديد و **«جحيما»** أى نارًا شديدة الإيقاد. **«وطعاما ذا غصة»** أى طعاما يقف فى الحلق لمرارته وعدم إستساغته. والطعام إذا وقف فى الحلق سبَّب شبه اختناق أى غُصَّة. **«وعذابا أليما»** أى أنواعا أخرى من العذاب لم توضَّح لعجز العقل البشرى عن تصوُّر ماهيتها. وسيكون ذلك كله يوم القيامة. يوم تهتز الأرض وتصبح الجبال – على صلابتها – رخوة مثل تل من الرمال إذا وطئته الأقدام انهال من تحتها. وهذه الإشارة إلى بعض المشاهد الكونية التى ستحدث يوم القيامة قصد بها التدليل على قدرة الله الذى خلقها وسواها أول مرة وهو قادر على تغيير حالها وفى هذا إنذار للمكابرين المعاندين بسوء العاقبة إن ظلوا على جحودهم فهم ليسوا أعظم من الجبال.

«إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا. فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا. السماء مُنفطر به كان وعده مفعولا. إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا» (١٥ – ١٩ المزمل).

والخطاب موجَّه إلى سامعى القرآن الكريم وبالأخص إلى المكذبين يقرر لهم أن الله قد أرسل لهم رسولا شاهدا على أفعالهم وتكذيبهم كما سبق أن أرسل موسى إلى فرعون. فلما كذَّب فرعون الرسول أخذه الله أخذًا شديدًاوأغرقه. ثم سؤال عن الوسيلة التى سيتقون بها – إذا أصروا على كفرهم – هول يوم القيامة الذى يشيب الأطفال من هوله وتتصدَّع فيه السماء وهذا وعد من الله مؤكدُ حدوثه. ثم تختم هذه الفقرة بالتأكيد على أن القرآن هو تذكرة وإنذار والناس بعد ذلك موكولون إلى اختياراتهم فمن شاء أن يتعظ صدَّق الرسول وآمن والمفهوم أن من لم يفعل سيكون عليه أن يتحمل تبعة اختياره وما يستتبعه من عذاب أليم. والإشارة المقتضبة إلى قصة فرعون مصر وموسى – الرسول الذى أرسل إليه – تدل على أن العرب كانوا على دراية بها إما ممَّا ذكر فى كتب أهل الكتاب من يهود ونصارى وكانوا يتحدثون به أو مما سمعوه من أهل مَصر أثناء رحلاتهم التجارية. فكان التركيز على أن فرعون كذَّب موسى فأخذه الله أخذا أليما وأُغرِق فى اليم وهى ميتة شنيعة.

إسلام عدد آخر :

بعد نزول هذه السور - وخاصة سورة الشرح التى وعد الله بها بأن بعد العسر يسرا وتكررت مرتين - وحث النبى على الصبر على أذى الكفار نشط المسلمون الأوائل فى الدعوة إلى الإسلام فدخل كثير من الناس فى دين الله ومن بين من أسلم من القرشيين: أبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة المخزومى والأرقم بن أبى الأرقم وعثمان بن مظعون وأخوه قدامة. وجعفر بن أبى طالب. ومن النساء: أسماء بنت أبى بكر وهند المخزومية وفاطمة أخت عمر بن الخطاب وأمنية بنت خلف وأسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبى طالب. ومن العبيد الذين أسلموا: بلال بن رباح وياسر وابنه عمَّار وصهيب الرومى وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر. ومن نسائهم: بركة أم أيمن مولاة النبى وسُمية أم عمَّار وغيرهن كثيرات.

وبدأ الحديث يكثر بين الناس فى بيوتهم وأنديتهم عن الدين الجديد الذى لا يسجد أتباعه للأصنام. وكان رؤساء قريش وسادتها يسمعون ذلك ولكنهم كانوا لا يبدونه اهتمامًا. وكانوا إذا مرُّوا بالرسول وهو جالس بجوار الكعبة قالوا هازئين: إن غلام بنى المطلب ليُكلَّم من السماء.

واستمرت الدعوة الإسلامية تنتشر ببطء. ورأى النبى بسامى حكمته أن يتخذ مقرا يجتمع فيه مع المسلمين ليعلمهم مبادئ الدين الحنيف ويتلو عليهم ما ينزل عليه من سور القرآن الكريم ويعيدون تلاوتها أمامه حتى يتأكد من أنهم حفظوها وينطقها الذى أنزل عليه. واختار النبى هذا المقر فى بيت عند الصفا يملكه عبد الله الأرقم بن أبى الأرقم. وظلت تلك الاجتماعات سرية لا يعلم غير المسلمين عنها شيئا.

ثم نزلت السور تباعًا. فنزلت أحد عشرة سورة من قصار السور:

سورة العصر :

«والعصر. إن الإنسان لفى خُسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» (١ - ٣).

والسورة - على قصرها - جاءت بأسلوب حاسم قوى تؤكد للناس أن لا فلاح ولا نجاح إلا بالإيمان بالله وحده. وبدأت السورة بقسَم بالعصر وهو آخر ساعات النهار وقيل العصر هو الزمان على إطلاقه تقع فيه حركة الإنسان خيرا كانت أم شرا. وجواب القسَم أن كل انسان فى نوع من الخسران لما يغلب عليه من الأهواء والشهوات واستُثنِيَ من ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا على الطاعات وأوصى بعضهم بعضا بالتمسك بالحق وهو الخير كله وتواصوا بالصبر على المشاق التى تعترض من يعتصم بالدين. فهؤلاء ناجون فى الدنيا والآخرة.

سورة العاديات :

«والعاديات ضبحا. فالموريات قدحا. فالمغيرات صبحا. فأثرن به نقعًا. فوسطن به جمعا. إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد. أفلا يعلم إذا بُعثر ما فى القبور. وحُصِّل ما فى الصدور. إن ربهم بهم يومئذ لخبير» (١ - ١١).

يقسم الله تعالى فى هذه السورة بالخيل. التى تعدو مسرعة فيسمع لأنفاسها صوت هو الضبح. كما أنها إذا أسرعت على الصخر فإنها تورى شرر النار بوقع حوافرها. وهى تغير على العدو عند الصبح فتثير النقع وهو الغبار الكثيف كناية عن كثرة الكرِّ والفرِّ وشدة العدْو حتى يتوسط الغبار القوم الذين أُغير عليهم. وهذه الصورة البلاغية تُجسِّد إغارة عدو على بعض القوم. وهو ما كان العرب دوما يخشونه فهو أمر عظيم يستحق القسم به. ثم يجئ جواب القسم ليقرر حقيقةً هى من طباع البشر وهو الكفر بنعمة الله. وقد روى حديث شريف أن الكنود هو الذى يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده. وأن ذلك الإنسان الجاحد سيشهد على نفسه بذلك ويعترف بذنوبه. كذلك من طباع البشر الحب الشديد للمال بحيث لا يهتم من أى طريق جمعه وحريص عليه وبخيل به.

وتختتم السورة بسؤال تقريرى عن يوم القيامة معناه: أجَهِلَ عاقبة أمره فلا يعلم إذا نُشر ما فى القبور من أجساد ونشر ما كان خافيا فى الصدور وقد سُجِّل فى الصحف ؟ وجواب الاستفهام تقرير بأن الله عليم بكل شيئ والمفهوم أن الحساب الذى سيتم على أساس من هذا العلم سيكون حسابا عادلا. فالسورة فيها زجر للإنسان عن الكفر بنعمة الله أو التكالب على جمع المال والتيقن من أن الحساب فى الآخرة سيكون حسابا دقيقا وعادلاً.

مولد عبد الله ووفاته :

كانت قد مرت سنتان من مبعث النبى ووضعت خديجة ولدا ذكرا هو عبد الله وفرحت به خديجة أيما فرحة واعتبرته عوضا عن القاسم الذى توفى قبل ١٢ عاما (ص ٣٧) وفرح به النبى أيضا وحمد الله على نعمائه. ولكن بعد أشهر قليلة مرض عبد الله ولم يمهله القدر فلحق بأخيه القاسم وحزنت عليه خديجة حزنا شديدا إذ كانت تتمنى أن ترزق بولد تقر به عين زوجها. ولا شك أن النبى حزن أيضا لوفاة عبد الله ولكنه صبر واحتسب مصابه عند ربه.

وفرح المشركون لوفاة ابن النبى وقال بعضهم: إن محمداً أبتر - أى ليس له ولد ذكر - فإذا مات انقطع ذكره واسترحنا منه. وواضح أن هذا القول أحزن النبى فنزل الوحى بسورة فيها رد على قول الكافرين وهى:

سورة الكوثر :

«إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر» (١ - ٣).

وروى حديث أن النبى قال لأصحابة: أتدرون ما الكوثر؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال فإنه نهر وعدنيه ربى عز وجل عليه خير كثير وهو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة. وقيل إن الآية الثانية نزلت فى الحج. قال أنس كان النبى ينحر ثم يصلى فأُمِرَ أن يصلِّى ثم ينحر.

ثم نزلت **سورة التكاثر :**

«ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر. كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون. كلا لو تعلمون علم اليقين. لَتَرَوُنَّ الجحيم. ثم لترونَّها عين اليقين. ثم لتُسألُنَّ يومئذ عن النعيم» (١ – ٨).

والسورة تعيب على المشركين أن شغلتهم المباهاة بكثرة المال والولد عن طاعة الله حتى ماتوا ودفنوا فى المقابر وعبَّر عنه بـ **«زرتم المقابر»** لأن الإقامة فى القبر إقامة مؤقته فالقبر ليس إلا برزخا لما وراءه من حياة آخرة، ثم تنفى الآيات اعتقاد المشركين بأن الموت هو نهاية المطاف بل تقرر لهم أنهم سوف يعلمون، ثم يتكرر اللفظ توكيدا له. ثم تحذير لهم من أنهم لو يعلمون حقا ما ينتظرهم يوم القيامة، ثم تأكيد بأنهم سيشاهدون الجحيم وسيرونها عيانا وتأكيدا آخر بأنهم سيسألون عما فعلوا بالنعم التى أوتوها فى الحياة الدنيا.

ثم نزلت **سورة الماعون :**

«أرأيت الذى يكذِّب بالدين. فذلك الذى يَدُعُّ اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين. فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون. الذين هم يراءون. ويمنعون الماعون» (١ – ٧).

وبدأت السورة باستفهام أريد به تشويق السامع إلى تعرف ذلك المكذِّب ليتجنَّب فعله. كما أن فيه تعجب من أمر ذلك الذى يكذب بيوم القيامة والمعنى أن تلك حقيقة لا يجوز التكذيب بها. والجواب المضمر هو أليس مستحقا للعقاب؟ كما أنه يتصف بصفتين: نهر اليتيم وقيل نزلت فى أبى جهل وكان وصيا على يتيم وسأله شيئا من ماله فنهره. كذلك من صفات ذلك المكذب أنه لا يحث على إطعام المساكين وقيل قُصد بها أبو سفيان. كان ينحر جزورين كل أسبوع ولا يعطى المساكين منها شيئا. وعلى العموم فهو تنديد بكل من أتى أيًا من هذه الأفعال. وأضيف إليهم فريق آخر أعلنوا إسلامهم ولكن أفعالهم لا تدل على إيمان حقيقى. وذكرت الآيات ثلاثة من أفعالهم:

١ – الذين يغفلون عن صلاتهم. وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله قال: تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا.

٢ – **«الذين هم يراءون»** أى ما دفعهم إلى الصلاة إلا مراءاة الناس. كما أنهم يبالغون فى إظهار أعمالهم لينالوا المنزلة فى قلوب الناس والثناء عليهم.

٣ – «**ويمنعون الماعون**» أى يضنُّون بما عندهم عن الناس حتى ولو بإعارة ما يُنتفع به مع رجوع عينه إليهم فهؤلاء بالمثل يمتنعون عن مساعدة الناس أو إسداء المعونة لهم.

ثم نزلت **سورة الكافرون :**

عن ابن عباس أن قريشا كررت الدعوة لرسول الله إلى أن يعطوه من أموالهم حتى يكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء وقالوا هذا لك يا محمد وتكفَّ عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فنزل قوله تعالى:

«**قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولى دين**» (١ – ٦).

وفى السورة أمر من الله للنبى بأن يقطع أطماع الكافرين فى مساومتهم إياه فى دعوة الحق. وجاء التكرار ليفيد أن ما يطمعون فيه لن يحدث حاليا ولن يحدث فى المستقبل. كما أن الآيات فيها تهديد مستتر إن أصرُّوا على عقيدتهم الفاسدة والمعنى أن لكم دينكم وعليكم أن تتحملوا تبعة تمسككم به.

ولما لم يرعَوِ زعماء قريش عن عنادهم ولم يتعظوا حين ذُكِّروا بالأقوام السابقين: عاد وثمود وفرعون الذين ورد ذكرهم فى سورة الفجر (آية ٦ – ١٤ ص ٦٠) رؤى أن يُذَكَّروا بحدث قريب منهم وهو ما حدث فى عام الفيل من هلاك جيش أبرهة الذى أراد سوءا بالبيت العتيق وقد سبق أن ذكرناه (ص ٢٧) والحدث كان قد مر عليه حوالى ٤٢ أو ٤٣ سنة وكان هناك عدد من كبار السن الذين حضروه وكثيرون سمعوا عنه من آبائهم. والمعنى أن الله الذى صبَّ بلاءه على الأحباش ومزَّقهم شرَّ ممزَّق قادر على أن يصب بلاءه على الكفار والمكذبين للنبى من قريش.

فنزلت **سورة الفيل :**

«**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم فى تضليل. وأرسل عليهم طيرا أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول**» (١ – ٥).

ثم تلتها **سورة قريش** وهى أيضا التالية لها فى ترتيب المصحف :

«**لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء الصيف. فليعبدوا رب هذا البيت. الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**» (١ – ٤).

وكثير من المفسرين يرون السورتين مرتبطتين ولا فاصل بينهما وإن كان المشهور أنهما سورتان منفصلتان. والمعنى أن الله سبحانه وتعالى فعل ما فعل بأصحاب الفيل نعمة منه على قريش لكى تأمن ويستمروا على الخروج كعادتهم فى رحلتى الشتاء والصيف – شتاء إلى اليمن وصيفا إلى الشام – فلا يجترئ عليهم أحد أو يهدد تجارتهم.

معتقدات العرب في الكائنات الخفية والسحر والحسد:

كان العرب يخافون من الظلام ويعتقدون أن الجن يظهرون ويتعرضون للناس فيه حتى إنهم كانوا إذا نزلوا واديا بالليل هتفوا مستعيذين ومستجيرين بسكان الوادى من الجن ليكونوا فى جوارهم فلا يضرونهم بل يعملون على حمايتهم. كذلك كان هناك سحرة وساحرات يعتقد الناس أن لهم قدرات خارقة ولهم مقدرة على تسخير قوى خفية تقضى لهم ما يريدون قضاءه من حاجات فكان الناس يلجأون إليهم ليحققوا لهم رغباتهم سواء كانت للحصول على منفعة لأنفسهم أو لإنزال أذى بعدو لهم. وكان مما يفعله هؤلاء السحرة هو عقد العقد فى الخيوط والنفث فيها وتلاوة التعاويذ عليها. وكان الناس يؤمنون بنفع ذلك وضرره. ويوجد فى عصرنا الحالى من يؤمن بما يدَّعيه البعض من قدرة على تسخير الجان أو تحضير الأرواح لقضاء الحاجات.

كذلك كان العرب يؤمنون بتأثير الحسد وهناك الكثيرون فى عصرنا الحالى ممن يعتقدون فيه ويؤمنون بقدرة الحاسد على إيقاع الأذى بالمحسود فكان الأعرابى إذا كان له ولد أو بستان أو دابة وأصيب بعارض مفاجئ فسَّره بعين أصابته وحسودٍ حسده. ولم تكن مسببات الأمراض - من ميكروبات وفيروسات - فى ذلك الوقت معروفة. فأرجعوا كل وعك أو مرض إلى نوع من الحسد أو تسلط الجن أو الشياطين على الجسد البشرى ولا بأس من ذكر نبذة قصيرة عن المرض ومسبباته حسب معارف العلم الحديث.

فقد عرف مؤخرا أن الجهاز المناعى فى جسم الإنسان هو العامل الأساسى فى حمايته من الأمراض. والأمراض منها ما هو عضوى ومنها ما هو نفسى فالمرض العضوى غالبا ما ينتج من الميكروبات التى تُحدِث الإلتهابات أو ينتج عن تكاثر خلايا مَعِيبة فيحدث السرطان. ولم يكن من الممكن - فى ذلك الوقت - الكلام عن الميكروبات ودورها فى إحداث المرض ولكن الله برحمته حمى الإنسان منها حين حرَّم الميتة والدم والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع أى ما نهشته الوحوش المفترسة لأن كل هذه تكون الميكروبات قد تكاثرت فيها وترعرعت بحيث حتما تصيب آكلها بالمرض. كذلك شُرِع غسل اليدين قبل الأكل وكان اليهود من جماعة الفريسيين يتشددون فى هذا الأمر حتى إنهم استنكروا من أتباع المسيح أن يقطف أحدهم ثمرة من بستان فيأكلها دون أن يغسل يديه (جـ ٦ ص ٧٧). وجاء الإسلام وجُعل غسل اليدين واحدا من فرائض الوضوء قبل الصلوات وهكذا قلَّل فرصة انتقال الميكروبات عن طريق الأيدى.

نأتى بعد ذلك إلى الأمراض النفسية وهى - باختصار شديد - إما أن تكون ناتجة عن أسباب داخلية أو عوامل خارجية. فالناتجة عن أسباب داخلية أى نابعة من ذات المرء نفسه

كأن يشتد به الحزن على فقدان شخص عزيز عليه أو ضياع أى عرض من أعراض الدنيا كمال أو جاهٍ فيصاب باكتئاب شديد يُضعف جهاز المناعة فيصاب بالأمراض العضوية الميكروبية أو حتى السرطان وقد ثبت مؤخرا أن نسبة كبيرة من مرض السرطان تبدأ بعد الإصابة بحالة إحباط شديد. ولمنع ذلك كان الحث على التوكل على الله والإيمان بأن ما من شيئ يحدث فى الكون إلا وقد قدَّره الله عز وجل **«لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم»** (١٥٣ – آل عمران). **«الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون»** (١٥٦ – البقرة). فهذا التسليم بقضاء الله يمنع الإكتئاب الشديد المضعف للجهز المناعى.

أما المرض النفسى الناتج عن عوامل خارجية فقد شرحنا فى الجزء الرابع (ص ٨٦١ – ٨٦٢) الأساس العلمى المحتمل لظاهرة السحر فى مجال الكلام عن السحر الذى قام به سحرة فرعون **«فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم»** (١١٦ – الأعراف) **«فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى»** (٦٦ – طه). وقلنا إن الساحر يملك قوة تأثيرية على شكل موجات كهرومغناطيسية تنبعث من الجسم الصنوبرى فى المخ وعن طريقها يستحوذ الساحر على أفكار الناظرين وينقل إلى ذهنهم الصورة التى خلقها فى خياله أن العصى أصبحت ثعابين تتلوَّى فيرونها كذلك. ويَروى من زاروا الهند أن الحواة والسحرة هناك برعوا فى هذا المجال إذ يمكنهم التأثير على المشاهدين فيرون أن حبلا مُكوَّما على الأرض قد امتد وارتفع إلى السماء وصعد عليه غلام ثم يتسلقه غلام ثان ومعه مسكين فيذبح الغلام الأول ويلقى برأسه وجسده إلى الأرض ثم ينزل وسكينه يقطر دما. ثم يعيد الساحر كل شيئ كما كان من قبل. إذ لم يحدث قتل ولا الحبل المكوَّم على الأرض قد تغير وكلها من تأثير القوى المؤثرة للساحر ومقدرته على السيطرة على أذهان المشاهدين.

ومن الظواهر التى يدرسها الغرب حاليا ظاهرة التحريك عن بُعد Tele - Kinesis كذلك ظاهرة التخاطر عن بعد Tele - Pathy . وخير دليل على صحة الرؤية والسمع عن بعد هو ما حدث من عمر بن الخطاب وهو يخطب يوم جمعة إذ صاح: يا سارية الجبل يا سارية الجبل ولما سُئل عن ذلك قال إنه أُرِىَ جيش المسلمين فى موقف سيئ فقدَّر أنه لو لجأ إلى الجبل لتحسَّن الوضع. وأفاد سارية بعد رجوعه أنه سمع صوت أمير المؤمنين يهتف به أن يلجأ إلى الجبل ففعل وتحسَّن وضعه العسكرى.

وهناك بعض الأشخاص لهم من قوة الانبعاث ما يمكنهم من التأثير على أشخاص آخرين وإنزال الضرر بهم وهذا هو الحسد. والمرجَّح أنهم يؤثرون على الجهاز المناعى فيضعفونه فيصبح المحسود فريسة للمرض. وليس كل شخص قابل للحسد فهناك من عندهم قوة فى

جهازهم المناعى تحميهم من تأثير الحاسد. وهناك نفوس رقيقة يسهل على الحاسد اختراقها وإنتاج الأثر السيئ الذى يريده. وهؤلاء إذا استعاذوا بالله أمدَّهم الله بعون من عنده ومنع عنهم الحسد أو أزال أثره الضار.

لم يكن هدف القرآن الكريم – عند نزوله – التصدى لأسباب ومسببات الأمراض وإنما كان الهدف الذى استهدفته الآيات التى ذكرت الحسد والمسُّ هو تثبيت فكرة القدرة الإلهية وشمولها وكون الله عز وجل وحده هو النافع والضار ووجوب عدم الاستعانة بغيره عندما ينبعث فى النفس خوف أو هاجس أو اضطراب أو اكتئاب أو يصيب الجسد وَعَكُ أو مرض وتلقين كون الله سبحانه وتعالى هو القادر وحده على تسكين الروع وإدخال الطمأنينة إلى القلب ودفع الضرر وشفاء المرض وتحقيق النفع ووجوب الالتجاء إليه وحده والاستعاذة به وحده. وهذا مبدأ أساسى من مبادئ الإسلام وهو الإيمان بالله وحده ونبذ ما سواه خضوعا وعبادة ودعاءً ورجاءً. وعدم اللجوء إلى الكهان فى هذا الشأن ولكن هذا لا يمنع من استخدام ما توصل إليه العلم من وسائل الشفاء بالمضادات الحيوية عند حدوث الأمراض البكتيرية أو العلاج بالإشعاع للأورام. مع الإيمان الكامل بأن الشفاء من الله أولا وأخيرا وخير مثال على ذلك ما نراه من استجابة بعض الأشخاص للعلاجات بسرعة وتأخر البعض الآخر وذلك حسب ما قدَّره الله ليعلم الناس أن المسأله ليست «أوتوماتيكية».

وللحد من تأثير الحسد أو إزالة آثاره نزلت المعوذتان. وفى صحيح مسلم أن النبى قال عنهما أنهما من خير السور :

سورة الفلق :

«قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق. ومن شر غاسق إذا وقب. ومن شر النفاثات فى العقد. ومن شر حاسد إذا حسد» (١ – ٥).

وتبدأ السورة بأمر للنبى – وهو أمر لكل مسلم – بأن يستعيذ بالله من رب الفلق. والفلق هو فلق الصبح أى الفجر إذ ينفلق من ظلمة الليل ويستعيذ أيضا من ظلام الليل إذا خيَّم وانتشر **«غاسق إذا وقب»** ويستعيذ أيضا مما قد يكون من أثر لنفث السحرة فى العقد أو للحاسد بنظره المسموم وما انتواه من إحداث الضرر.

سورة الناس :

ثم نزلت بعدها سورة الناس وهى التالية لها أيضا فى ترتيب المصحف :

«قل أعوذ برب الناس. ملك الناس. إله الناس. من شر الوسواس الخناس. الذى يوسوس فى صدور الناس. من الجنة والناس» (١ – ٦).

وكسابقتها تبدأ بأمر للنبى - وهو لكافة المسلمين - بالاستعاذة بالله من وسوسة الإنس والمقصود بهم ذوو الأخلاق السيئة الذين يعملون على الإغراء والإغواء والحث على ارتكاب الشرور والمنكرات، أما وسوسة الجن فالمقصود منها تلك الكائنات الخفية التى توسوس فى صدور الناس وتغريهم بالشر والفساد والكفر. ووصفت بالخناس لأنها تأتى وتعود وتخنس وتذهب إذا استعذنا بالله منها. والسورة تحذِّر من خطر الهواجس النفسية. فبزعم العلم والعلمانية ينكرون وجود الله وبزعم التقدمية لا يؤمنون ببعث أو حساب أو حياة آخرة.

ثم نزلت **سورة الإخلاص :**

قيل إن بعض كفار قريش قال للنبى: صف لنا ربك فنزلت السورة :

«قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد» (١ - ٤).

والسورة تجيب على تساؤل الكفار بأسلوب حاسم وقطعى. وتخبر بأنه واحد أحد. يُصمد إليه فى الحاجات. وأيضا من معانى الصمد الدائم الباقى والمستغنى بنفسه عن غيره. لم يلد ولم يولد وليس له مماثل أو نظير.

قريش تقاوم الدعوة :

فى المراحل الأولى من الدعوة - حين كانت لاتزال قاصرة على أهل بيت النبى - لم تعرها قريش اهتماما ولعلها رأت فيها صراعا داخليا حول زعامة بنى هاشم واكتفت بما أبداه أبو لهب - عم النبى - وزوجه أم جميل ومن حولهما من معارضة للنبى. ولكن لما بدأت أعداد المسلمين تتزايد بدأ القلق يساور قريشا. ولما رأوا أن كثيرا من العبيد اعتنقوا الإسلام - لما ينادى به من مساواة بين البشر - اعتبروا ذلك تمردا على سلطانهم واعتبروا «محمدا» مثيرا للفتن. كما أنهم خشوا على مكانة البيت الحرام لو نبذوا عبادة الأصنام إذ ظنوا أن قبائل العرب التى كانت تحج إليه ستنصرف عن مكة فتبور تجارتهم ويفقدون المال الذى يجنونه من ورائها. وأخيرا فإن قريشا لم تستوعب الفكرة القائلة أن الإنسان يعود للحياة بعد الموت ويحاسب على أفعاله.

ولما بدأ المسلمون - وهم جلوس فى ساحة الحرم - يقرأون القرآن بصوت يسمعه كل من يطوف بالبيت. ورأت قريش كيف كان أفراد القبائل الوافدة يتحلَّقون حول النبى يستمعون له وهو يرتل القرآن فى خشوع. فخشوا من ازدياد أعداد المؤمنين وبدأوا فى محاولة وقف انتشار الإسلام بأساليب مختلفة باللين تارة وبالشدة تارة أخرى. وبالإغراء مرة وبالتهديد مرة أخرى:

وأخذ بعض رجالات قريش يتهمون النبى بأنه مفتون ضال خارج عن دين آبائه وتقاليدهم. وتولى الوحى الرد عليهم فنزلت بعض آيات من **سورة القلم** (وقد نزل أولها ص٤٤).

«فستُبصِر ويُبصِرون. بأيِّكُم المفتون. إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» (٥ – ٧ – القلم).

ثم اقترح بعضهم على النبى أن يلاين فيلاينوا بالمقابل. فيكف عن تسفيه وسب آلهتهم وهم بالمثل يتركونه ولا يؤذونه ولا يؤذون أتباعه. وكان بعضهم يقسم على ذلك فنزل الوحى ينهى عن مسايرتهم:

«فلا تُطِع المكذبين. ودُّوا لو تُدهن فيدهنون. ولا تطع كل حلاَّف مهين. همَّاز مشَّاء بنميم. منَّاع للخير معتد أثيم. عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم. أن كان ذا مال وبنين. إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين. سنسمه على الخرطوم» (٨ – ١٦ القلم).

والمشار إليه فى هذه الآيات هما الأخنس بن شريق والأسود بن عبد يغوث وإن كان الخطاب ينطبق كذلك على غيرهما ممن كانوا يفعلون فعلهما. ومما هو جدير بالذكر أن أولهما تلقى – فى معركة بدر – ضربة سيف على أنفه تركت ندبة واضحة فكان فيها مصداق لقوله تعالى **«سنسمه على الخرطوم»** مع مافى كلمة «الخرطوم» من تحقير إذ هى تطلق على أنف الفيل وأنف الخنزير.

حث علي الصدقة :

فى هذا الوقت المبكر من الدعوة والمسلمون لايزالون قلة. ولكن كان فيهم الغنى نسبيا والفقير مثل العبيد الذين أسلموا فنزلت آيات تحبب الصدقة وتنهى عن البخل. وتضرب المثل برجل من ثقيف كان له بستان وكان يترك ما يسقط من ثمر للفقراء فلما مات عقد أبناؤه النية على حرمان الفقراء من هذه الصدقة. فسلَّط الله على الثمر بلاء أفناه عقابا لهم. وراح بعضهم يلوم الآخرين على ما دبَّروه. وقال أوسطهم إنه كان قد نبهم إلى سوء ما انتووه وطلب منهم أن يسبحوا الله ويستغفروه. فاعترفوا بخطئهم وأنهم كانوا طاغين لعل الله يقبل توبتهم ويعيد لهم ثمر البستان خيرا مما كان. وكان هذا عقابهم فى الدنيا ولو لم يتوبوا لكان لهم عقاب أكبر فى الآخرة:

«إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمُنَّها (يجمعون ثمرها) **مصبحين** (وقت الصباح)**. ولا يستثنون** (لا يقولون إن شاء الله)**.فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم** (كالمجموع ثمرها)**. فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون.**

قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون. كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون» (١٧ - ٣٣).

موقف جدل مع المشركين :

وكان المشركون يدّعون أن ما هم عليه هو دين إبراهيم فنزلت الآيات تنفى هذا الزعم وتقرر أنه لا يستند إلى كتاب سماوى وأنهم لم يُعطوا من الله عهدا بما يفعلون - وصيغ ذلك فى صيغة أسئلة موجهة إلى المشركين. ثم تحذير لهم من يوم القيامة وما فيه من اشتداد الخطب فقيل **«يوم يكشف عن ساق»** كما يقال شمَّر عن ساعده:

«إن للمتقين عند ربهم جناتِ النعيم. أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون. أم لكم كتاب فيه تدرسون. إن لكم فيه لما تخيَّرون. أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون. سلهم أيهم بذلك زعيم (كفيل أو ضامن) **. أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين. يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون»** (٣٤- ٤٣).

والآيات تبدأ بتبشير المتقين بأن لهم جنات النعيم. يليه سؤال يستنكر مساواة المسلمين بالكافرين. ثم سؤال ثانٍ عن السند الذى يستندون إليه ككتاب سماوى أو عهد من الله. ثم سؤال ثالثٍ عن وكيلهم فى هذا الزعم وهل لهم شركاء. وتحدٍّ لهم بدعوة هؤلاء الشركاء وطلب نصرتهم يوم القيامة يوم يشتد الخطب وعبر عنه بكشف الساق - وقد أضاعوا الفرصة فى الحياة الدنيا حينما كانوا يدعون إلى السجود وهم فى متسع من الوقت والسلامة أما الآن فلا تقبل توبتهم ولا سجودهم.

تهديد للكافرين :

«فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأُملى لهم إن كيدى متين. أم تسألهم أجرا فهم من مَغرم مثقلون. أم عندهم الغيب فهم يكتبون» (٤٤ - ٤٧).

والآيات فيها أمر للنبى بأن يترك أمر الكافرين إلى الله الذى سيعمل على استدراجهم - بما يعطيهم من مال وقوة - ليزدادوا طغيانا فيحق عليهم العذاب وما ذلك إلا جزاء مكافئ لما بدأوه من تكذيب للنبى. ثم يأتى استنكار لعدم إيمانهم فى صيغة سؤال إلى النبى عما إذا كان يطلب منهم أجرا على دعوته فأثقلهم الأجر فلا يستجيبون. أم أنهم مُطَّلعون على الغيب أم بيدهم أمر المستقبل المكتوب فجعلهم هذا أكثر اجتراء على التكذيب.

أمر بالصبر :

«فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين» (٤٨ - ٥٠).

وصاحب الحوت هو يونس. وقد ذكرنا قصته بالتفصيل فى الجزء الخامس (ص ٢٨٩ - ٢٩٨) وهو معروف عند أهل الكتاب بـ «يونان» وزيدت سين فى الآخر علامة الرفع فى اليونانية فصارت يونس وبهذا عرف عند العرب. ولا شك أن قصته كانت معروفة مما كان يقصه أهل الكتاب مما هو مدون فى التوراة. وقد ذكرنا كيف أن يونس لم يصبر لحكم ربه باختياره نبيا إلى أهل نينوى وحاول التملص بالسفر بحرا إلى مكان بعيد فكان - كما هو معروف - أن هاج البحر وأُلقى فى الماء فالتقطه الحوت فظل يدعو ربه حتى أنقذه واجتباه نبيا. وقد أُمِر النبى بالصبر ولا يكن مثل يونس.

ثم يجئ ختام السورة : **«وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون. وما هو إلا ذكر للعالمين»** (٥١ - ٥٢).

فقد كان الكفار حين يسمعون النبى يقرأ القرآن ينظرون إليه شزرا حتى لكأنهم يكادون يلتهمونه بأبصارهم أو يتهمونه بأنه مجنون ورداً عليهم يأتى توكيد بأن القرآن هو هدى للعالمين.

قول الوليد بن المغيرة فى القرآن :

كان الوليد بن المغيرة سيدا عالى الصوت فى مكة ولما نزلت الرسالة على «محمد» قال أهل مكة: كيف تكون الرسالة فى يتيم بنى هاشم ولو نُزِّلت على الوليد بن المغيرة لكان أنسب لثرائه وقوته وعظمته فى قومه:

«وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سُخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون» (٣١ - ٣٢ الزخرف).

ويروى أن الوليد سمع النبى وهو يقرأ أول سورة السجدة:

الٓمٓ. تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون. الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولىٍ ولا شفيع أفلا تتذكرون. يدبرُ الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون. ذلك عالِمُ الغيب والشهادة العزيزُ الرحيم. الذى أحسن كل شيئ خَلَقَه وبدأ خَلْق الإنسان من طين. ثم

جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون» (١ - ٩ السجدة).

فعاد إلى قومه وقال لهم: لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن وما منكم رجل أعرف بالأشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بقصيده منى ولا والله ما يشبه الذى يقوله شيئا من هذا. والله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق. إنه ليعلو ولا يُعلى عليه. وخافت قريش أن يُسلِم الوليد فقام ابن أخيه أبو جهل وراح يُذكِّره بأن الاعتراف بنبوَّة محمد سترفع مكانة بنى هاشم على سائر القبائل. فتأثر الوليد بهذه العصبية. وقال له أبو جهل لن يرضى عنك قومك حتى تقول فيه (أى تذمَّه) فقال قف عنى حتى أفكرٍ برهة ثم قال: إن هو إلا ساحر. أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟

فنزل الوحى بجزء من سورة المدثر

«ذرنى ومن خلقت وحيدا. وجعلت له مالا ممدودا. وبنين شهودا. ومهَّدت له تمهيدا. ثم يطمع أن أزيد. كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صَعودا. إنه فكرً وقدَّر. فقُتل كيف قدَّر. ثم قُتل كيف قدَّر. ثم نظر. ثم عَبَس وبَسَر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر. وما أدرك ما سقر. لا تبقى ولا تذر. لوَّاحة للبشر. عليها تسعة عشر» (١١ - ٣٠ المدثر).

وقيل المقصود بهذا التهديد هو الوليد بن المغيرة المخزومى والأمر «ذرنى ...» هو من أشد ما يمكن أن يهدَّد به شخص إذ فيه معنى الوقوف أمام الله وفيه توعُّد بأقصى أنواع العذاب. وقد سبق مجيئ هذا التهديد فى الآية ١١ من سورة المزمِّل (ص ٦٤) **«وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً. إن لدينا أنكالا وجحيما»**.

أما **«عليها تسعة عشر»** فالمراد ١٩ ملاكا. فلما نزلت قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم. أسمع أن ابن أبى كبشة (أى النبى) يخبركم أن خزنة النار عليها تسعة عشر وأنتم الدهم. أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم. فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفونى أنتم اثنين. فنزل قوله تعالى:

«وما جعلنا أصحابَ النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقنَ الذين أوتوا الكتاب ويزدادَ الذين آمنوا إيمانا ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقولَ الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يُضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر. كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر. إنها (أى سقر) **لإحدى الكُبَر. نذيرا للبشر. لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر. كل نفس**

بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. فى جنات يتساءلون عن المجرمين. ما سلككم فى سقر. قالوا لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين. وكنا نكذّب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين (أى الموت)» (٣١ – ٤٧ المدثر).

وفى هذه الآيات إقامة حجة على أهل الكتاب من اليهود والنصارى إذ هم يعلمون من كتبهم أن لله ملائكة ينفذون ما يأمرهم به ربهم فكان الواجب أن يؤمنوا برسوله «محمد». أما المؤمنون فهم يزدادون إيمانا وأما الكفار والذين فى قلوبهم مرض أى المتشككون والمترددون فيقولون ماذا يريد الله بهذا العدد المستغرب عن خزنة جهنم. ويريد الله بهذا المثل أن يُصدِّقه من يشاء فيهتدى وينكره من يشاء فيضل. وما يعلم جنود الله – لكثرتهم – إلا هو سبحانه وتعالى. وما سقر إلا تذكرة للبشر وتخويف لهم.

ثم يأتى قسم بالقمر والليل والصبح أنّ سقر التى يتندّر الكفار على ملائكتها هى حقيقة كبرى وأنها نذير للبشر كافة. فمن شاء بعد ذلك فليتقدم للإيمان واتباع الرسول فينجو ومن شاء أن يتأخر عن ذلك هلك. وفى الآخرة كل نفس مسئولة عن اختيارها وعملها ومرتهنة به. إلا أن أصحاب اليمين – وهم فى الجنات – يسألون الكفار عما فعلوه ليكونوا فى النار فيقولوا إنهم لم يكونوا يُصَلون ولا يعبدون الله. ولم يكونوا يتصدقون بالطعام على المساكين. وكانوا يجادلون بالباطل فى آيات الله ويشتركون مع من كذَّبوا الرسول. ولم يصدقوا أن هناك بعث للحساب. حتى جاءهم الموت. وهذه كانت سبب إلقائهم فى النار. ثم تستمر الآيات:

«فما تنفعهم شفاعة الشافعين. فما لهم عن التذكرة مُعرضين. كأنهم حُمُر مستنفرة. فرَّت من قَسْوَرة. بل يريد كل امرئٍ منهم أن يوتى صحفا مُنشَّرة. كلا بلا لا يخافون الآخرة. كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره. وما يذكُرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة»

(٤٨– ٥٦ المدثر).

والقسورة اسم من أسماء السبع والمعنى أنهم مثل الحمر البرية التى تفر خائفة من أسد يهاجمها. ويريد كل واحد منهم أن تنزل عليه صحيفة من السماء منشورة ومكتوبة تثبت صدق الرسول. كلا. أى لن يحدث هذا. فهم يعرضون عن أى تذكرة لأنهم لا يؤمنون بالآخرة. ثم تأتى «كلا» مرة ثانية ردعا لهم فالقرآن فى نظمه وبلاغته فيه الكفاية وهو تذكرة فمن شاء أن يتعظ بما جاء به آمن. وما يذكَّرون إلا بمشيئة الله فهو الذى يقبل التقوى من عباده فيغفر لهم.

محاولات قريش لصرف النبى عن الدعوة :

١ – لما أعلن أبو طالب حمايته للرسول وإصراره على رد أى عدوان قد يتعرض له سار وفد من قريش إلى أبى طالب وقالوا له: إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وضلَّل آباءنا فإما أن تكُفَّه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه. فقال

لهم أبو طالب قولا ليِّنا وردَّهم ردًّا جميلا فانصرفوا عنه. ولكن أبا طالب لم ينه «محمدا» عن السير فى مهمته وظل «محمد» فى دعوته للإسلام ونبذ عبادة الأصنام.

٢ - فعاد الوفد إلى أبى طالب مرة ثانية وقالوا له فى حزم: يا أبا طالب إن لك فينا سنا وشرفا ومنزلة وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وإنا والله لا نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا فإما أن تكفَّه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الطرفين.

وأدرك أبو طالب حرج الموقف فهو لا يحب أن يثير عداوة قومه وليس معه من بنى هاشم أحد يعضِّده كما لا يريد خذلان ابن أخيه فأرسل إلى محمد وقال له: يا ابن أخى. إن قومك قد جاءونى بما علمت فأبق علىَّ وعلى نفسك ولا تُحمِّلنى من الأمر مالا أطيق. ولمس «محمد» ما فى هذا القول من ضعف عمه عن نصرته ولكنه أعلن أنه ماضٍ فى طريقه غير عابئ بتهديد قريش سواء نَصَره عمه أو تخلَّى عنه فقال قولته الشهيرة: «يا عم. والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه». ويقول ابن هشام إن النبى ذرف دمعة وقام متجها إلى بيته فناداه أبو طالب وقال له: يا ابن أخى. اذهب فقل ما أحببت فوالله لا أُسلِمُك أبداً.

٣ - وفى محاولة ثالثة مع أبى طالب ذهب وفد من قريش ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة وكان يوصف بأنه أعظم فتى فى قريش قوة وفكرا وقالوا لأبى طالب: خذ عمارة ولدا فلك عقله ونصره وأسلم إلينا ابن أخيك لنتخلَّص منه فهو رجل برجل. فغضب أبو طالب وصاح فيهم: بئس ما تساوموننى. أتعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه. فانصرفوا غير راضين وعندما أحس أبو طالب بتجمع القوم ضده وضد محمد دعا بنى هاشم وبنى المطلب يحثهم على حماية محمد فوعدوه أن يكونوا معه ضد من عادى محمدا ولم يشذ من بنى هاشم إلا أبو لهب.

٤ - وفى محاولة رابعة اتبعت قريش اللين والسياسة إذ أرسلوا أبا الوليد عتبة بن ربيعة والد هند زوجة أبى سفيان الذى راح إلى النبى وقال له: يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من الشرف فى العشيرة والمكانة فى النسب. وإنك قد أتيت قومك بأمر جلل فرَّقت به جماعتهم وسفَّهت به أحلامهم فاسمع منِّى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل بعضها. فقال له محمد: قل يا أبا الوليد أسمعْ لك. قال: يا ابن أخى. إن كنت تريد بما جئت مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا ثراء. وإن كنت تريد به مُلكا ملَّكناك علينا. وإن كان بك مسٌّ من الجن طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك. فقال له النبى: أوَقد فرغت يا أبا الوليد: قال نعم. قال فاسمع منى. ثم تلا عليه صدر **سورة فصلت** :

«بسم الله الرحمن الرحيم. حمٓ. تنزيلٌ من الرحمن الرحيم. كتاب فُصِّلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون. بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين. الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون. قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزيَّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم. فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» (١ - ١٣ ، فصلت). فلما وصل إلى ذلك وضع عتبة يده على فم النبى وقال له: ناشدتك الله والرحم أن تكفَّ. وقام يجر رجليه وعاد إلى أصحابه. فقالوا له ما وراءك يا أبا الوليد. قال: لقد سمعت قولا والله ما سمعت بمثله قط. ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة. يا معشر قريش أطيعونى وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه. فقال القوم. سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

المغالاة فى الطلب :

لما فشل الإغراء اتجهت قريش اتجاها آخر فقالوا للنبى: يا محمد إنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق منَّا بلداً ولا أقل ماء ولا أشقُّ عيشا. فسل ربك فليسيِّر عنا هذه الجبال التى ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليُفجِّر بها أنهارا. فقال لهم النبى: ما بهذا بعثت إليكم من الله. إنما جئتكم من الله بما بعثنى به وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم. وتمادوا فى طلباتهم التى سجلها القرآن الكريم فى آيات من **سورة الإسراء** مع الرد عليها:

«وقالوا لن نؤمن لك حتى تُفجِّر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفًا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرُقِيِّك حتى تُنزِّل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا. وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا. قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزَّلنا عليهم من السماء ملكا رسولا. قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيراً».

(٩٠- ٩٦ الإسراء).

ولكن قريشا ظلت على تصورُّها أن لو كان الله مرسلا رسولا لوجب أن يكون ملاكا أو على الأقل يكون معه ملك يساعده على تبليغ رسالته أو يُلقَى إليه كنز فيكفيه التردد على الأسواق

لكسب عيشه كما يفعل سائر البشر وأخيرا اتهموا النبى بالسحر. فردت عليهم آيات من سورة الفرقان:

«وقالوا مالِ هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق. لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا. أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلا. تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا» (٧ - ١٠ الفرقان).

التعذيب والإيذاء :

لما رأت قريش أن محاولاتها مع «محمد» لم تنجح فى صرفه عن الدعوة للإسلام راحوا يفكرون فى العنف. فبدأ سادة قريش بإنزال العذاب بعبيدهم الذين دخلوا فى الإسلام. ولعل سادة هؤلاء العبيد لاحظوا عليهم ما يدل على إسلامهم كعدم انحنائهم أمام تماثيل الآلهة الموجودة فى البيت أو إعراضهم بوجوههم عند مرورهم أمامها أو تمتمتهم ببعض آيات مما يتلوه «محمد» أو ضبطهم وهم يركعون أو يسجدون. وسنكتفى بذكر أشهر من نزل بهم عذاب من العبيد وهم بلال وآل ياسر:

بلال : وكان سيده يخرجه إذا اشتدت الظهيرة إلى بطحاء مكة ثم يأمر بصخرة عظيمة توضع على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بدين محمد وتعود إلى عبادة اللات والعزى. فلا يرد بلال إلا بقوله: أحدٌ أحد. ومرَّ به أبو بكر الصدِّيق يوما وهم يعذبونه فقال لأمية: ألا تتقى الله فى هذا المسكين؟ فأجابه أمية: أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى. فقال أبو بكر: أفعلُ. فاشتراه وفى رواية أخرى قال عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى وهو ثابت على دينك أعطيكه به. فقال أمية قد قبلت. وتم التبادل وأخذ أبو بكر بلالا فأعتقه.

ومما يذكر أن أبا بكر أعتق ستة من المستضعفين غير بلال.

آل ياسر: كان ياسر وزوجته وابنه عمَّار قد أسلموا فلما علم سيدهم بإسلامهم أنزل بهم أقسى أنواع العذاب من ضرب وحرمان من الطعام. كما كانوا يُخرجونهم إلى الرمضاء وتوضع فوقهم الحجارة الثقيلة الساخنة ويغرى الصبيان للعبث بهم فكانوا يشدون ياسر من لحيته ويجذبون زوجته من شعرها وهم موثقو الأيدى لا يستطيعون دفعا عن أنفسهم. ومرَّ رسول الله عليهم وهم يعذبون فقال لهم: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة. ومات ياسر وهو يُعذَّب ولما صرخت امرأته شاكية طعنها أبو جهل بحربة فقتلها.

لم يقتصر التعذيب على العبيد والضعفاء بل امتد إلى من أسلم من أبناء سادة قريش والقبائل الأخرى. إذ اتفقت القبائل على أن ينزلوا بمن أسلم من أفرادها - أيا كانت مكانتهم ومكانة آبائهم - أشد العذاب. ونكتفى بذكر أشهر من نالهم الإيذاء أو التعذيب:

أبو بكر وطلحة بن عبيد الله :

عندما أسلم أبو بكر وطلحة وكلاهما من بنى تيم تقدم نوفل بن خويلد وهو حينئذ زعيم بنى تيم فربطهما فى حبل واحد ونكَّل بهما معا ولذلك كانا يسميان «القرينين» وكان طلحة يفخر بأنه قُرِنَ مع أبى بكر.

وعن عائشة قالت: لما قارب عدد المسلمين حوالى الأربعين رجلا ألحَّ أبو بكر على النبى فى الظهور فقال يا أبا بكر إنا قليل. فلم يزل أبو بكر يلح حتى خرج المسلمون وضُرِبَ أبو بكر ضربا شديدا وجاء بنو تيم فخلصوه من أيديهم وحملوه حتى أدخلوه منزله وهو مغمى عليه. وكان أول ما تكلم به بعد أن أفاق أن سأل إن كان أحد قد نال رسول الله بأى أذى وتحامل على نفسه وسار إلى حيث رسول الله ليتأكد من سلامته.

سعد بن أبى وقاص :

لما أسلم سعد بن أبى وقاص غضبت أمه وهى من بنى أمية فنهته عن هذا الدين الجديد فلم يأبه فقالت له: لتدعُنَّ هذا الدين أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت وحينئذ يُعيِّرك الناس بى فقال لها سعد: والله يا أمى لو كانت لك سبعة أرواح وفى رواية أخرى مائة روح وخرجت كلها واحدة إثر أخرى ما تركت دينى فكلى إن شئت أو لا تأكلى. ونزل قوله تعالى:

«ووصينا الإنسان بوالديه حسنا. وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنَّهم فى الصالحين» (٨ - ٩ العنكبوت).

مصعب بن عمير :

كان مصعب من أهل جاه وغنى وكان زينة المجالس والندوات ويلبس أحسن الثياب ويضع أطيب العطور. ولما أسلم حاول قومه إقناعه بالعودة إلى دينهم ففشلوا ثم حبسته أمه فى حجرة من حجرات البيت ولكنه أفلح فى الفرار من سجنه وهاجر إلى الحبشة ضمن الهجرة الأولى (ص ١٦٢) ولكنه بعد فترة عاد إلى مكة وأعلنت عشيرته التخلِّى عنه طالما بقى على إسلامه. فكان بالكاد يتكسب قوته من أعمال بسيطه يقوم بها لبعض وجهاء مكة.

أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة :

كان عتبة بن ربيعة سيدا فى قريش وهو والد هند زوجة أبى سفيان. وكان ابنه أبو حذيفة مُنعَّما فى بيت والده الذى كان يُعِدُّه للزعامة من بعده. فلما أسلم أبو حذيفة قام والده بطرده من البيت فراح يتكسب رزقه فى أسواق مكة.

عثمان بن عفان :

لما أسلم عثمان بن عفان قام عمه الحكم بن العاص بحبسه فى حجرة مظلمة وقيده بسلاسل ثقيلة ولكن إزاء إصرار عثمان على إسلامه قام والداه بفك قيده.

الزبير بن العوام :

وخالته هى خديجة أم المؤمنين. قام عمه نوفل بن خويلد بحبسه فى حجرة مظلمة مكتوف الأيدى وأطلق دخانا كثيفا فى الحجرة ليجعله يرجع عن إسلامه. فلم ينقذه من الموت سوى أمه رقت لحاله وعملت على إطلاق سراحه.

إسلام قبيلتي غفار وأسلم :

غفار وأسلم قبيلتان تقعان بين مكة والمدينة (انظر شكل ٤ ص ١٥). غفار على ساحل البحر الأحمر وأسلم مقابلها فى الداخل. وكما هو مبين فى الشكل فإنهما تقعان على طريق القوافل المتجهة شمالا من مكة سواء إلى المدينة أو بطريق الساحل إلى أيلة. وكان أبو ذر الغفارى غير مقتنع بعبادة الأصنام فلما بلغه مبعث رسول الله أرسل أخاه أنيس إلى مكة ليأتيه بالخبر. وأُعجب أنيس بما سمعه من قرآن وعاد إلى أخيه بهذه الأنباء فأسرع أبو ذر بالرحيل إلى مكة ليرى بنفسه. فلما قابل النبى قال له: أنشدنى مما تقول فأجابه الرسول: ما هو بشعر حتى أنشدك. إنه قرآن كريم قال أبو ذر: فاقرأ علىّ. فقرأ الرسول بعضا من القرآن. فنطق أبو ذر بالشهادتين ودخل فى الإسلام.

وكان أبو ذر – مثل جميع أفراد قبيلة غفار – شجاعا جريئا فراح إلى الكعبة وصاح بأعلى صوته لا إله إلا الله محمد رسول الله. فتجمع عليه القوم وأوسعوه ضربا ولكما حتى خرً من فرط الضرب ولم ينقذه من بين أيديهم إلا العباس عم النبى الذى قال: يا معشر قريش إن الرجل من غفار. وإن استعدى قومه الذين يعيشون فى طريق تجارتكم فالويل لكم فخلوا عن أبى ذر. فتركوه.

ورأى الرسول أن يبعد أبا ذر عن مكة منعا لتحديه قريش ومنعا لما قد يناله من أذاهم فطلب منه أن يعود إلى قومه وينشر الإسلام بينهم. وفعلا عاد أبو ذر إلى غفار وبدأ يعرِّفهم بالإسلام فاستجابوا له حتى أسلمت غفار كلها تقريبا. ثم سار أبو ذر إلى مساكن قبيلة أسلم ونشر الإسلام بينهم. ويروى حديث عن رسول الله: غفار غفر الله لها. وأسلم سالَمها الله.

إيذاء الرسول نفسه :

كان سادات قريش – وسادات العرب عموما – وخاصة إذا كانوا كبار السن وأغنياء – يتمتعون بنفوذ سيادى فى قبائلهم يأمرون فيطاعون ولهم الكلمة الفاصلة فى القضايا. فلما

أخذ النبى يدعو إلى الإسلام عظم عليهم أن يكون نبيا يهتدى به الناس فيسلبهم السيادة. من هنا كان موقف زعماء مكة من النبى ودعوته سلبيا - بل وعدوانيا - منذ الخطوات الأولى للدعوة. بدأوا بالرفض ثم الإستنكار. ثم إتهموه بالجنون والسحر والشعر والكهانة والاتصال بالجان. ثم بدأت عمليات مساومة لصرفه عن الدعوة أو للوصول إلى حل وسط. كل ذلك وهو صامد لا يلين ولا يرضيه إلا أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وينبذوا عبادة الأصنام. فبدأوا بإيذائه جسديا آملين أن يجعله ذلك يلين أو يكف عن دعوته. وبالرغم من أن أبا طالب قد أسبغ حمايته على ابن أخيه فإن النبى لم ينج من المعتدين.

يروى أنه كان مرة يتعبَّد بالحجر فاجتمع عليه مجموعة من المشركين وقالوا له: أنت الذى تعيب آلهتنا وتسخر من عقولنا؟ فقال نعم. فوثبوا عليه وأخذ واحد منهم بمجمع ردائه حتى كاد يخنقه ولم ينقذه منهم إلا أبو بكر.

وكان أبو لهب - عبد العزى بن عبد المطلب - عم رسول الله - وأم جميل زوجته من أعدى أعداء الدين الجديد. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٤٩) سبب نزول سورة المسد. وغاظ أم جميل أن تذكر فى السورة بأنها «حمالة الحطب» فأخذت حجرا ثقيلا لتقذف به النبى وذهبت إلى حيث يجلس فى الحرم وكان معه أبو بكر. فصاحت يا أبا بكر. أين صاحبك فقد بلغنى أنه يهجونى فوالله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه ثم انصرفت. فقال أبو بكر للرسول أما تُراها تَراك؟ فقال النبى. ما رأتنى. لقد حجب الله بصرها عنى.

أما أبو جهل - وهو عمرو بن هشام - وعمه المغيرة ابن شعبة الذى كان يأمل فى يوم من الأيام أن يكون ملكا على قومه - فلم يقنع بعدوانه على الضعفاء والعبيد بل تمادى وكان يلقى بالقاذورات فوق الرسول وهو يصلى. وفى مرة قرر أبو جهل أن يلقى حجرا كبيرا على النبى وهو يصلى. فلما سجد أسرع أبو جهل بالحجر واتجه نحو الرسول ولكنه سرعان ما عاد ممتقع اللون مرعوبا وقد يبست يداه على الحجر ثم رمى به فسألوه عما جرى له فقال: قمت إليه حتى إذا ما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل. لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل عنقه ولا مثل أنيابه لفحل قط فهمَّ بى أن يأكلنى. وانتشر الخبر بسرعة البرق فى أرجاء مكة كلها وفرح المؤمنون وعلموا أن الله يحمى رسوله من غدر المشركين. وازدادت كراهية أبى جهل للنبى ولمن تبعه.

وحدث أن وفد على مكة تاجر إراشى (فرع من قبيلة خثعم) ومعه قطيع من الإبل. فاشتراها منه أبو جهل فلما استولى على الإبل أخذ يماطله فى دفع ثمنها. فذهب الإراشى إلى المسجد الحرام وأخذ يستجير بالمجتمعين فى أندية قريش راجيا أن يدلوه على رجل يستطيع أن يأخذ له حقه من أبى جهل. وظن بعض المشركين أنهم يستطيعون أن يسخروا من النبى

وكان جالسا فى المسجد فأشاروا إليه وقالوا للإراشى: إن هذا الرجل هو الذى يستطيع أن يأخذ لك حقك منه. وأسرع الإراشى إلى النبى وسرد عليه حكايته. فنهض النبى وهو يقول: انطلق إليه وخرج قاصدا بيت أبى جهل ومعه الإراشى واستولت الدهشة على المشركين فقالوا لرجل منهم اتبعهما فانظر ماذا يصنع. وضرب الرسول باب أبى جهل. فقال من هذا؟ فقال: محمد. فأخرج إلىَّ. فلما خرج قال له الرسول بصوت الآمر: اعط هذا الرجل حقه. فقال أبو جهل وقد امتقع لونه واستولى عليه الذعر: نعم . لا يبرح حتى أعطيه الذى له. ودخل المنزل وخرج بحقه فدفعه إليه. وعندئذ انصرف رسول الله وقال للإراشى: الحق بشأنك. وقبل أن ينصرف الإراشى عرج على نادى المشركين وقال لهم. جزاه الله خيرا فقد والله أخذ لى حقى. وجاء الرجل الذى بعثوه خلفهما فروى لهم ما رأى وما سمع وكيف استجاب أبو جهل فى الحال لأمر النبى واستولى العجب على المشركين. ولما جاء أبو جهل قالوا له: ويلك ما رأينا مثل ما صنعت قط. قال: ويحكم. والله ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت رعبا. ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلا ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط. والله لو أبيت لأكلنى. وانتشر الخبر فى مكة كلها وازداد المسلمون إيمانا بأن الله سيخزى الظالمين ويرد كيدهم فى نحورهم كما أخزى وأذل أبا جهل.

إسلام حمزة :

ازدادت عداوة أبى جهل لرسول الله واشتد بغضه له. فمر به يوما عند الصفا فوقف قبالته وأخذ ينهره ويهزأ به ويعيب دينه ويحقر من شأنه. والنبى جالس تحف به المهابة ولم يشأ أن يرد عليه. وانصرف أبو جهل إل المسجد ليقابل أقرانه وعاد النبى إلى بيته. وكانت جارية لعبد الله بن جدعان ترى وتسمع سفاهة أبى جهل وعدوانه على النبى. ولم يلبث أن مرَّ بها حمزة بن عبد المطلب عائدا من رحلة للصيد وقد تقلد قوسه وحمل سهامه. فقالت له: يا أبا عمارة. لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام (أبى جهل). وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف ولم يكلمه محمد. واستولى الغضب على حمزة. وأسرع نحو الحرم ليطوف بالبيت كعادته إذا عاد من الصيد. وبعد الطواف أخذ يجول ببصره باحثا عن أبى جهل حتى وجده جالسا فى قومه فسار نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجَّه ثم قال: أتشتم محمدا وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرُدَّ علىَّ إن استطعت. وبهت قومه – بنو مخزوم – لهذه المفاجأة ثم هبُّوا لنجدة أبى جهل. ولكنَّ أبا جهل احتمل الألم والإهانة وخشى نشوب صراع دموى بين قومه وبنى عبد مناف فقال لأصحابه: دعوا أبا عمارة فإني قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا . وسرى الخبر بسرعة فى أرجاء مكة أن حمزة بن عبد المطلب قد ثأر لابن أخيه من أبى جهل وأن حمزه أعلن إسلامه على مرأى ومسمع من الجميع.

ولما خلا حمزة إلى نفسه جعل يفكر فى أمره وكيف غلبه الحماس لابن أخيه فجعله يعلن إسلامه وترك دين آبائه. ويقول حمزة فى ذلك: لما احتملنى الغضب وقلت ما قلت أدركنى الندم على فراق دين آبائى وقومى ثم أتيت الكعبة وتضرعت إلى الله أن يشرح صدرى للحق. فامتلأ قلبى يقينا. فغدوت إلى محمد وأسلمت. وأصبح إسلام حمزة حديث الناس فى بيوتهم إذ كان حمزة أعز فتى فى قريش وأشدهم شكيمة وأَنَفَة وانتصارا للحق. فأدركت قريش أن رسول الله قد عزَّ وامتنع. ولم يكتف حمزة بذلك بل راح يدعو علانية للإسلام.

وخافت قريش أن تقوى نفوس المستضعفين فيسلموا. فقرر سادة قريش أن يشتطوا فى تعذيب كل من علموا بتركه عبادة الأصنام ليكون ذلك رادعا لمن تشاوره نفسه من العبيد والضعفاء بالإسلام. وقابل المسلمون هذا الطغيان الجديد بالعودة إلى إخفاء إسلامهم وإخفاء اجتماعاتهم التى كانوا يلتقون فيها برسول الله يؤمهم للصلاة ويتلو عليهم ما نزل من القرآن.

كان العام الخامس من بعثة النبى قد بدأ. وخاف طغاة المشركين من انتشار الإسلام فاجتمعوا فى ساحة الحرم واتفقوا على أنه عند دخول «محمد» الحرم يلتفوا حوله وينهالوا عليه ضربا وطعنا حتى يخر قتيلا. وتصادف أن كانت فاطمة الزهراء فى مكان قريب منهم فسمعت بمؤامرتهم وعادت مسرعة إلى البيت وأخبرت أباها فتوضأ وخرج متوجها ناحية الكعبة ودخل عليهم. ولعلهم ظنوا أن الله أخبره بمؤامرتهم فامتقعت وجوههم وأفقدتهم الدهشة ما تعاقدوا عليه فلم يتحرك أحد من مكانه.

كان هذا الفريق المكون من أبى جهل ومن على شاكلته يعارضون النبى حقدا وحسداً ولذلك لم يكونوا يتفكرون فى الآيات التى تنزل على النبى فقد كانت قلوبهم مملوءة بالكفر وقد خُتِمَ عليها فلا سبيل لنفاذ الإيمان إليها. إلاَّ أن فريقا آخر من المشركين كانوا يستمعون إلى ما ينزل على النبى ولعلهم كانوا يودون معرفة نواياه تجاههم. لذلك كانوا يجلسون إليه وهو يتلو القرآن عند الكعبة بل إن بعضهم كان دائم السؤال عما أنزل حديثا من آيات القرآن الكريم وكان عدد من أشراف مكة جالسين إلى النبى وقد طمع فى إسلامهم فأقبل عبد الله بن أم مكتوم وهو رجل أعمى رقيق الحال. فكره النبى أن يقطع عليه كلامه مع سادات قريش وأعرض عنه فنزلت سورة عبس:

سورة عبس :

«عبس وتولى. أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكى. أو يذَّكر فتنفعه الذكرى. أما من استغنى فأنت له تصدى. وما عليك ألا يزَّكَّى. وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهَّى. كلا إنها تذكرة. فمن شاء ذكره. فى صحف مكرَّمة. مرفوعة مُطهَّرة. بأيدى سفرة. كرام بررة» (١ – ١٦).

وفى الآيات عتاب من الله لنبيه لإعراضه عن ابن أم مكتوم وتفضيله صناديد قريش عليه وكان النبى بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول: مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى، ويقول هل من حاجة؟ ، ثم تأتى الآيات بعد ذلك بسؤال إلى النبى عما أدراه لعل هذا الأعمى ينتفع ويتطهر بما يتلقاه عن النبى أو يتعظ فتنفعه العظة فى حين أن من استغنى بثروته وقوته فإن النبى أقبل عليه يرجو إيمانه مع أنه غير مسئول عنه إذا لم يؤمن فى حين أن الأعمى جاءه يطلب الهداية وهو يخشى الله فتشاغل عنه. ثم تأتى «كلا» مبالغة فى العتاب ثم بيان أن من أراد ذكر الله فليتلو القرآن الكريم المكتوب عند الله فى صحف مكرّمة كتبت بأيدى الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله.

وكتنديد بهؤلاء الصناديد من قريش الذين طمع النبى فى إسلامهم فى حين أن الله قد علم سريرتهم تأتى الآيات بدعوة بالهلاك لهذا الإنسان الجاحد لأنه يكفر بنعم الله عليه. ثم تساؤل تقريرى عن كيفية خلق الإنسان ويأتى الجواب أنه خُلق من نطفة. وبتقدير الله وقدرته جعله بشرا سويا ثم يسَّر له سبيل المعيشه فى الحياة الدنيا وأمدَّه بكل ما يلزم. ثم أماته وكرّمه بأن علّمه كيف يدفن موتاه ولا يترك أجسادهم فى العراء تعبث بها الوحوش الضارية والطيور الجارحة. وعندما يشاء الله ينشره ويبعثه. ثم تأتى «كلا» هنا كلمة ردع لعدم وفاء ذلك الإنسان بما أُمر به فما من إنسان يخلو من تقصير:

«قتل الإنسان ما أكفره. من أى شيئ خلقه. من نطفة خلقه فقدّره. ثم السبيل يسّره. ثم أماته فاقبره. ثم إذا شاء أنشره. كلا لما يقضِ ما أمره» (١٧ - ٢٣).

ثم تأتى تذكرة بفضل الله على الإنسان فى توفير مختلف أنواع الطعام له وللأنعام التى تخدمه:

«فلينظر الإنسان إلى طعامه. أنَّا صببنا الماء صبًا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبًّا (عشبا للبهائم)**. متاعا لكم ولأنعامكم»** (٣٢ - ٤٤).

ثم تختم السورة بتذكرة بيوم القيامة والصيحة التى تصم الآذان ومن هوله ينشغل الإنسان بنفسه ويفر من أقرب الناس إليه ثم تأتى مقارنة بين حال المؤمن وحال الكافر فى ذلك اليوم:

«فإذا جاءت الصاخّة. يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه. وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة. ووجوه يومئذ عليها غبَرة. ترهقها قتَرة (أى تغشاها ظلمة)**. أولئك هم الكفرة الفجرة»** (٣٣ - ٤٢).

سورة القدر :

والسورة تقرر أن القرآن نزل فى ليلة القدر

«إنا أنزلناه فى ليلة القدر. وما أدراك ما ليلة القدر. ليلة القدر خير من ألف شهر. تَنَزَّلُ الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر. سلام هى حتى مطلع الفجر» (١ - ٥).

وقال بعض المفسرين إن القرآن نزل دفعة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ثم أخذ ينزل مُنجَّما أى مُفرَّقا حسب الأحداث ومقتضيات الأحوال. وقال بعض المفسرين بدأ إنزاله فى ليلة القدر. وسُمِّيت ليلة القدر للشرف الذى نالته بنزول القرآن فيها. ثم تساؤل عنها للدلالة على أن علو قدرها خارج عن دراية الخلق. ثم جواب موجز يبين أنها تعدل فى الخير والبركة أكثر من ألف شهر. وما احتوته السورة من الإشارة إلى نزول الملائكة وعلى رأسهم جبريل - الروح الأمين - وشمولها بالسلام حتى مطلع الفجر - دعوة ضمنية إلى المسلمين بإحيائها فى كل عام تحصيلا للبركة الإلهية وتكريما للذكرى التى انطوت عليها. وقد رويت أحاديث كثيرة عن النبى فى خير هذه الليلة وبركتها وهى تحث على تحرِّيها وإحيائها. ووردت أحاديث كثيرة فى صدد تعيين وقتها. بعضها يفيد أنها فى العشر الأخيرة من رمضان. وأخرى تفيد أنها فى الوتر من العشر الأواخر. وفى بعضها أنها تحديدا ليلة السابع والعشرين منه. وقالوا إن الحكمة فى إخفائها أن يجتهد من يطلبها فى العبادة فى غيرها ليصادفها كأن يحيى ليالى شهر رمضان كله أو العشر الأواخرمنه كما دأب السلف. وفى سبب تخصيص أمة محمد بهذه الليلة روى أن النبى ذكر يوما أن أربعة من بنى إسرائيل عبدوا الله ثمانين عاما لم يعصوه طرفه عين فعجب المسلمون من ذلك وصَغُرت أعمالهم فى أعينهم فأتاه جبريل فقال يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة فقد أنزل الله عليك خيرا من ذلك. وقرأ عليه سورة القدر (تفسير الألوسى . جـ ٣٠ ص ١٩٢) وألف شهر تزيد عن ثمانين عاما.

ثم نزلت **سورة الشمس** :

وتبدأ السورة بسبعة أقسام ستة منها ببعض مظاهر الكون ونواميسه:

١ - **«والشمس وضحاها»** قَسَمٌ بالشمس وضوئها فى أول النهار.

٢ - **«والقمر إذا تلاها»** قسم بالقمر إذا تبعها وخلفها فى الإنارة. ويقول علماء الفلك المعاصرين إن القمر يتلو الشمس فى ظهوره فى السماء ويتأخر عن موعده كل يوم ما بين ٤٠ إلى ٥٠ دقيقة لأن القمر عندما يتم دورته الظاهرية حول الأرض تكون الأرض قد انتقلت إلى نقطة أخرى فى مدارها حول الشمس فيتلوها القمر ويقطع مسافة أخرى ليصبح منها فى نقطة مثل النقطة التى بدأ دورانه منها.

٣ - **«والنهار إذا جلاَّها»** أى النهار إذا أظهر الشمس واضحة غير محجوبة. واختلف المفسرون فى «جلاَّها» فبعضهم جعل الضمير عائد إلى البسيطة فالنهار يجعلها واضحة والليل كما سيجئ فى الآية التالية يغشاها. وفريق آخر من المفسرين يجعل الضمير عائد

إلى الشمس لجريان ذكرها . أى أن النهار كلما تقدم فى الوقت ازدادت الشمس ارتفاعا فى السماء وزاد جلاء ضوئها أى أن النهار هو الذى يزيد الشمس جلاء.

٤ – **«والليل إذا يغشاها»**: قسم بالليل الذى يحل بظلامه فيغطى ضوء الشمس بحسب ما هو ظاهر لنا.

٥ – **«والسماء وما بناها»** قسم بالسماء وبالذات العلية لأنه هو الذى خلقها وأحكم بناءها.

٦ – **«والأرض وما طحاها»** قَسَم بالأرض والله الذى بسطها من كل ناحية.

٧ – **«ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها»**: وهو قَسَم بالنفس وبالله الذى خلقها وأنشأها وأودع فيها من الإمكانات ما يجعلها قابلة للتقوى والصلاح أو تجرى وراء شهواتها من الفسق والفجور.

ثم يجئ جواب القسم **«قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دسَّاها»** أى أن من يزكى نفسه بطاعة الله يُفلح أما من دنَّس نفسه بالمعاصى وأفسدها بسيئ الأعمال فقد خاب وخسر.

ولبيان جزاء من أفسد نفسه بسيئ الأعمال ضُرِب مثل بما نزل بثمود من عذاب حين كذبوا رسولهم وعقروا الناقة والمعنى أن المكذبين من قريش قد ينالهم العذاب أيضا:

«كذَّبت ثمود بطغواها. إذ انبعث أشقاها. فقال لهم رسولُ الله ناقةَ الله وسقياها. فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها. ولا يخاف عُقباها» (١١ – ١٥).

زيادة تعذيب ضعفاء المسلمين :

راح طغاة قريش ينزلون العذاب بالعبيد الذين أسلموا وتمادوا فى ذلك فكانوا – كما سبق أن ذكرنا (ص ٨٠) يربطون عبيدهم بالسلاسل الحديدية الثقيلة ويلقونهم فى الصحراء الحارقة وقت الظهيرة أو يضعون على صدورهم الصخور الساخنة. ومن أنواع العذاب كذلك كان الضرب بالسياط ومنع الطعام والكى بالحديد المحمى. وأراد الله ردع هؤلاء الطغاة. فلفت نظرهم إلى ما فعله ذو نواس من اضطهاد النصارى فى اليمن بإلقائهم فى النار وهو ما ذكرناه سابقا (ص ٤) وتحذيرهم من مغبَّة ذلك فنزلت

سورة البروج :

«والسماء ذات البروج. واليوم الموعود. وشاهد ومشهود» (١ – ٣).

وقد أجمع علماء الفلك قديما وحديثا على تقسيم الحزام المحيط بوسط الكرة السماوية إلى اثنى عشر برجا بعدد شهور السنة ورأوا فيها تجمعات للنجوم البعيدة. ولتبسيط التعرف عليها والتمييز بينها تصوروها على هيئة أشكال معينة وأعطوها أسماء محددة. فكانت البروج بالترتيب هى: الحمل. الثور. الأسد. الجوزاء. السرطان. العذراء. الميزان . العقرب. القوس.

الجدى. الدلو. الحوت. وكانوا يهتدون بها فى ظلمات البر والبحر ولكن المنجمين ألصقوا بها تأثيرات على طباع ومستقبل بنى البشر ومن هنا ظهرت – للتسلية – طريقة معرفة الحظ عن طريق معرفة البرج الذى ولد فيه.

ثم يأتى قَسَم باليوم الموعود وهو يوم القيامة ويمن سيشهدون ذلك اليوم إذ سيشهدون فيه أهوالا جساماً.

ثم يجئ جواب القسم: **«قتل أصحاب الأخدود»** أى لُعِن هؤلاء الطغاة الذين حفروا الأخدود (كما ذكرنا سابقا. ص٤) وأوقدوا فيه النيران وقعدوا يتفرجون على المؤمنين وهم يُلقَون فى النار **«النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود»**. ثم تذكر الآيات سبب هذا التعذيب وهو أنهم آمنوا بالله وهو نفس السبب الذى من أجله أنزل طغاة قريش العذاب بالمسلمين. **«وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيئ شهيد»** ثم أوردت الآيات ما ينتظر هؤلاء الطغاة – أصحاب الأخدود – من نار جهنم وبالطبع لن يختلف عن ذلك مصير الطغاة من كفار قريش. ثم تأتى الآيات بتبشير للمؤمنين بأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار. وبالطبع فإن ذلك يشد من عزائم المعذّبين ويقويِّهم على تحمل ما ينزل بهم من عذابات قريش:

«إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات (حاولوا بالتعذيب صرفهم عن الإيمان) **ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير»** (١٠ – ١١).

ثم يأتى تهديد هو فى غاية القوة وتأكيد على شدة بطش الله :

«إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعَّال لما يريد» (١٢ – ١٦).

والمعنى أن الله إذا أخذ الظالم أخذه أخذا شديدا وانتقامه من المجرمين انتقام رهيب. وهو الذى بدأ الخلق وقادر على إعادتهم وبعثهم يوم القيامة أو على إعادة خلق آخر لو قرر إفناء هذا العالم. ومع شدة بطشه فهو **«الغفور الودود»** أى كثير الغفران لمن جاءه مستغفرا وكثير الود والمحبة لمن جاءه تائبا ومودته سبحانه وتعالى للخلق بإنعامه عليهم. وهو **«ذو العرش المجيد»** أى صاحب العرش العظيم وقد وُصِف العرش فى مكان آخر بـ **«وسع كرسيه السموات والأرض»** فعرشه هو الكون كله وهو مالكه وهو المجيد فى ذاته وصفاته ويفعل ما يريد لا يتخلف عن إرادته شيئ.

ثم تختم السورة بتذكرة عابرة بما حدث لفرعون وثمود وتكذيبهم لأنبيائهم فكان بطش الله بهم شديدا فأغرق الأولين ودمَّر الآخرين. ثم تحذير للكافرين من قريش بأن الله محيط بكل

أفعالهم والمعنى أنه سيجازيهم عليها، ثم تقرير بأن ما يوحى به إلى الرسول هو قرآن مجيد مسطور فى اللوح المحفوظ:

«هل أتاك حديث الجنود، فرعون وثمود، بل الذين كفروا فى تكذيب، والله من ورائهم محيط، بل هو قرآن مجيد، فى لوح محفوظ» (١٧ – ٢٢).

وقد وضعت التذكرة فى صيغة تساؤل **«هل أتاك»** للفت الانتباه ولتقرير أن السامع لابد وأن يكون على دراية بهذا الأمر. أما عن اللوح فهذه أول مرة يأتى ذكره فى القرآن الكريم، واللوح فى اللغة هو الشيئ الممهد المنبسط الذى يصح عليه النقش والكتابة، ولما كان الناس قد اعتادوا أن يكتبوا ما يريدون حفظه من الأحداث على الألواح فالمعنى أن القرآن الكريم محفوظ حفظا تاما لا يمكن أن يطرأ عليه تبديل أو تغيير.

سورة التين :

ثم نزلت سورة التين وفيها تحذير للمشركين من إفساد فطرتهم بالكفر فينزلون بها إلى أسفل سافلين. وبدأت السورة بأقسام أربعة:

«والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين» (١ – ٣).

قسم بشجر التين الذى يأكلون وبشجر الزيتون الذى يعصرون، وبالطور وهو الجبل فى سيناء الذى كلَّم الله عليه موسى، وأخيرا بمكة هذا البلد الآمن لمن دخله. ثم يأتى جواب القسم:

«لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون» (٤ – ٦).

وفى هذه الفقرة تأكيد على أن الله قد خلق الإنسان فى أحسن تكوين خَلقا وخُلُقا بما أودعه فيه من مواهب وقوى وعقل يمكنه به التمييز بين الخير والشر والجميل والقبيح . ثم هو يرتد إلى أسفل سافلين لعدم قيامه بموجب ما خلق له فيكذِّب الرسل ولا يعمل الصالحات. واستثنى من هذا الارتداد الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات، فلهؤلاء عند ربهم أجر غير مقطوع عنهم ولا ممنون به عليهم .وتختم السورة بتساؤل: فإذا كان الأمر كذلك فما الذى يجعل الكافر يكذِّب بيوم الدين وبتساؤل ثان يقرر أن الله هو أحكم الحاكمين والمعنى أنه لن يظلم أحداً لأنه يجازى كل واحد حسب عمله:

«فما يكذبك بعدُ بالدين، أليس الله بأحكم الحاكمين» (٧ – ٨).

سورة القارعة :

وسورة القارعة تصف بعض مظاهر يوم القيامة وتقرر أن الله أحكم الحاكمين ويجازى كل واحد حسب أعماله:

«القارعة. ما القارعة. وما أدراك ما القارعة. يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش. فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية. وأما من خفت موازينه فأمه هاوية. وما أدراك ما هيه. نار حامية» (١ - ١١).

والقارعة هى التى تقرع الآذان لشدتها وتعنى نفخة البعث يوم القيامة الذى يقرع الخَلق بأهواله. تقول العرب: قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة. ثم يأتى استفهام عن ماهية القارعة تعظيما وتفخيما لشأنها ثم وصف لحال الناس فى ذلك اليوم فهم من الكثرة والضعف كالفراش ومعروف أن الفراش من أضعف المخلوقات ثم هو يحوم حول النار مُتخبِّطا حتى يقع فيها ويحترق. ثم وصف للجبال الصلبة وقد أصبحت مثل الصوف المنفوش فى تفرقها وتطايرها هنا وهناك. وكم يكون مهولا أن نرى الجبال العظيمة تتطاير فيخشى الناس أن تحط عليهم أجزاؤها فتسحقهم. ثم تأتى مقارنة بين جزاء المؤمن الذى تثقل موازينه من كثرة أعماله الصالحة فهو فى الجنة يعيش فيها عيشة راضية هنية. أما الكافر فموازينه خفيفة لقلة حسناته فمأواه هاوية تحتضنه كما تحتضن الأم وليدها. ثم يأتى شرح الهاوية بأنها نار جهنم الحامية.

يوم القيامة :

كان العرب فى ذلك الوقت - مثل كثير من شعوب الشرق الأدنى القديم - لا يؤمنون ببعث بعد الموت ولا بيوم يُحاسَب فيه المرء على ما فعل فى حياته الدنيا فيثاب إن كان قد أحسن العمل ويلقى جزاءه من العذاب إن كان قد كفر وطغى وتجبَّر. كان الناس يظنون أنها هى الحياة الدنيا ولا شيئ بعدها. فكان التكالب على الدنيا وزينتها. وجاء الإسلام ليلفت النظر إلى ما غفل عنه الناس ويؤكد لهم أن البعث بعد الموت حقيقة لا مراء فيها. وبعد البعث سيكون هناك حساب على كل ما فعل المرء فى حياته الدنيا إن خيرا فخير وإن شرا فشر. وبهذا نزلت كل الكتب السماوية ولما كان القرآن هو آخرها لذلك كان التأكيد على هذا المعنى واضحا وصريحا. ويتكرر فى أكثر من سورة بل ويتكرر عدة مرات فى السورة الواحدة وحتى السور التى نزلت بصدد حادثة معينة نراها تذكر يوم القيامة والبعث فى بعض آياتها. وتكرر فى القرآن الكريم وصف جانب من أهوال ذلك اليوم وتغير مظاهر الكون فيه وكذلك تكررت المقارنة بين الجنات التى وُعد بها المتقون وبين نار جهنم التى يُقذف فيها المكذِّبون الضالون. ومن هذا المنطلق

نزلت سورة القيامة :

والسورة تتحدث عن بعث الناس وحسابهم وعن القيامة وأهوالها ووازنت بين وجوه المؤمنين الناضرة ووجوه الكافرين الباسرة. وتحدثت عن حال المحتضر وما كان من تقصيره فى الواجبات حتى كأنه يظن أن لا حساب عليه وختمت بالأدلة التى توجب الإيمان بالبعث.

«لا أقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة. أيحسب الإنسان ألَّن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوى بنانه» (١ - ٤).

وتبدأ السورة بقَسَم بيوم القيامة. وحرف النفى «لا» - كما سبق أن ذكرنا - هو لتوكيد القَسم. ثم أعقب ذلك قَسَمٌ بالنفس البشرية ومن طبيعتها الندم على ما فاتها والتلوُّم على كل شيئ: فنفس المؤمن - يوم القيامة - تلومه على التقصير فى العبادة وعدم استكثاره من الصلاة. والكافر يلوم نفسه يوم القيامة على عدم إيمانه وانسياقه فى فعل الشر ويندم على النعيم الذى فاته. قال رسول الله: ليس من نفس برَّة ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة، إن عملت خيرا قالت كيف لم أزد منه. وإن عملت شرا قالت ليتنى قصَّرت (تفسير الألوسى جـ ٢٩ ص ١٣٦). وجواب القَسَم مركب من سؤال وجوابه: السؤال فيه تعجب من قصور فهم الإنسان وشكِّه فى قدرة الله على جمع عظامه. ويأتى جواب السؤال نافيا هذا الفهم ومؤكدا قدرة الله على إعادة الجسد إلى حالته الأولى حتى فى أصغر دقائقه. والبنان هو العقلة الأخيرة من الأصابع ومفرده بنانة وقد فهم الأقدمون منها أن الله قادر على أن يعيد خلق السلاميات على صغرها. وفى العصر الحديث عرف أن أطراف الأصابع لها بصمة لا يشترك فيها اثنان من البشر وهى حاليا تستخدم لتحقيق الشخصية ويكون بعث كل شخص حتى بالخطوط الدقيقة التى فى أطراف أصابعه كما كانت فى الحياة الدنيا. وهو إعجاز دال على قدرة الله العلى العظيم.

«بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيَّان يومُ القيامة» (٥ - ٦).

أى أن الإنسان الكافر يختار طريق الفجور لأنه لا يؤمن ببعث ويسأل مستنكرا: متى يكون يوم القيامة؟ ويجئ الجواب على هذا التساؤل:

«فإذا برق البصر. وخَسَف القمر. وجُمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفر» (٧ - ١٠).

فهذه من علامات يوم القيامة: يتحيَّر البصر فزعا ودهشا. ويذهب ضوء القمر وجمع بين الشمس والقمر بعد أن كان لكل منهما فلك يسبح فيه - وقيل سيصطدمان. ويرى بعض علماء الفلك المعاصرين (د. زغلول النجار، الأهرام ٢٠٠٢/٩/٣٠) أن القمر يتباعد عن الأرض بمعدل ٣سم فى كل عام وهذا التباعد التدريجى للقمر سوف يخرجه يوما ما من نطاق أسر الأرض له فينطلق بفعل جاذبية الشمس الأقوى ويرتطم بها وتبلعه. تلك حتمية علمية ستحدث بعد آلاف الملايين من السنين. وليس معنى ذلك أننا عرفنا متى تقوم الساعة. فقيام الساعة غيب لا يعلمه إلا الله ولن يكون بسنن أو قوانين الدنيا بل بقول: كن فيكون. ولكن الله أبقى لنا فى الكون شواهد تدل على حتمية انتهاء الدنيا فمن لم يؤمن بيوم القيامة جاء العلم ليؤكد أن للكون نهاية. وهذا أيضا ما أثبتته نظرية النسبية من أن الكون فى اتساع دائم **«والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون»** (٤٧ - الذاريات) وحتما ستأتى لحظة يتوقف فيها هذا التوسع ويبدأ الكون فى الانكماش حتى يعود إلى نقطة الصفر التى بدأ منها مصداقا لقوله تعالى: **«يوم**

نطوى السماء كطى السجل للكتب. كما بدأنا أول خلق نعيده. وعدا علينا إنا كنا فاعلين» (١٠٤ – الأنبياء).

وحينئذ – أى فى يوم القيامة – يتأكد الإنسان من صدق ما أُخبر به فى الدنيا ويبدأ فى البحث عن مخرج ومفر من هذا الموقف ولكن لا ملجأ ولا مفر:

«كلا لا وزر. إلى ربك يومئذ المستقر. ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخرً» (١١ – ١٣).

والوزر فى اللغة ما يُلجأُ إليه من حصن أو جبل أو غيرها للمَنَعة. والمعنى أنه فى يوم القيامة لا ملجأ يحمى من أمر الله.والمستقر والمنتهى هو إلى الله. وسيُخبرُ الإنسان بكل ما عمل وتكون أعمالهُ ماثلة أمام بصره ويصبح هو شاهدا على نفسه

«بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره» (١٤– ١٥).

ثم يأتى موضوع اعتراضى. ذلك أن النبى كان إذا نزل عليه القرآن يُعجِّل بتلاوته يريد أن يحفظه ولا يفوته منه شيئ فنزل الأمر:

«لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه» (١٦– ١٩).

ثم تعود السورة إلى الموضوع الأصلى وهو يوم القيامة فتذكر الناس بأنهم يحبون الحياة الدنيا ويهملون الآخرة: والناس فيها فريقان. فريق ناضر الوجه لما يشعر به من الرضا والطمأنينة وينال غاية ما يتمناه البشر وهو النظر إلى وجه ربه الكريم. وفريق عابس لما يتوقعه من الهول الذى يكسر فقرات الظهر:

«كلا بل تحبون العاجلة. وتذرون الآخرة. وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يُفعل بها فاقرة» (٢٠– ٢٥).

وقد اختلف المفسرون فى قوله تعالى **«إلى ربها ناظرة»** حيث قال فريق بإمكان الرؤية وقال الفريق الآخر بعدم إمكانها استنادا إلى قوله تعالى: **«لا تدركه الأبصار»** وفسروا قول: **«إلى ربها ناظرة»** أى منتظرة أوامر ربها وثوابه. والأولى بالمسلم أن يقف من هذه المسألة موقف التحفظ المؤمن مع التنزيه المطلق الواجب لله عز وجل عن المكان والحدود والجسمانية.

ثم تأتى كلمة «كلا» ردعا لحب الدنيا هذا المنسى للآخرة. ثم تذكرة بلحظة الموت وخروج الروح من الجسد:

«كلا إذا بلغت التراقِىَ. وقيل من راقٍ. وظن أنه الفراق. والتفَّت الساق بالساق. إلى ربك يومئذ المساق» (٢٦ – ٣٠).

والتراقى جمع ترقوة وهى العظمة المعروفة فى أعلا الصدر. وتصف الآيات حال الإنسان حين يحضره الموت ووصلت روحه إلى أعلا الصدر – فى مستوى الترقوة – فى طريقها إلى

الخروج. وتساءل الحاضرون عن راقٍ يرقيه ليخفف عنه ما به من سكرات الموت. وظن بمعنى تأكد المحتضر أن الذى نزل به هو فراق الدنيا وبلغت به الشدة أقصاها حتى التفَّت إحدى ساقيه بالأخرى من الهلع. وتأكد له أنه مسوق إلى ربه وقُدِّم الخبر للدلالة على أن المساق لله وحده لا إلى أحد غيره.

«فلا صدَّق ولا صلَّى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطَّى. أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى. أيحسب الإنسان أن يُترك سُدى. ألم يك نطفة من مَنِىٍّ يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوَّى. فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى. أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى» (٣١ – ٤٠).

أى أن الكافر يتذكر فى ذلك اليوم أنه لم يصدِّق الرسول ولم يصلِّ. بل كذَّب وتولَّى عنه ثم ذهب إلى أهله متبخترا متثاقلا. وتتوعده الآيات بالهلاك. وأى هلاك. ثم يأتى سؤال استنكارى إلى هذا الإنسان المنكر للبعث عما إذا كان يظن أن يُترك «سدى» أى مُهملا فلا يُكلَّف ثم يموت ولا يُبعث حتى يحاسب على عمله؟ وللإجابة على هذه السؤال جئ بسؤال تقريرى عن أن الإنسان كان نطفة ثم علقة ثم تخلَّق فى الرحم إلى أن صار بشرا سويا وجعل الله منه الذكر والأنثى. ثم تختم السورة بسؤال ليس من جواب له إلا الإقرار بأن ذلك الخلاَّق العظيم قادر على إحياء الناس بعد مماتهم.

الكفار يسخرون من المؤمنين :

كان كفار مكة وأثرياؤها يعقدون المجالس اللاهية ويتناولون فيها النبى والمسلمين بالسخرية والهمز واللمز بالقول والإشارة. وقيل كان أشدهم فى ذلك أبو جهل الذى كان يغتاب النبى ويقدح فيه وقد جاراه فى فعله أُبَىٍّ بن خلف وغيرهم من الكفار.

فنزلت **سورة الهمزة :**

«ويل لكل هُمَزة لُمَزة. الذى جمع مالا وعدَّده. يحسب أن ماله أخلده. كلا لينبذن فى الحطمة. وما أدراك ما الحطمة. نار الله الموقدة. التى تطَّلع على الأفئدة. إنها عليهم مؤصدة. فى عمد ممددة» (١ – ٩).

والسورة فيها وعيد شديد لكل مَن كان دأبه أن يعيب الناس وخصَّت بالذكر ذلك الثرى الذى غرَّه ماله وظن أن المال سيجعله يخلد فى الدنيا ويأتى حرف الزجر «كلا» لنفى هذا الظن ثم تأكيد على أنه سيلقى فى النار التى تحطِّم كل ما يلقى فيها **«الحطمة»**. ثم تساؤل عن هذه النار الشديدة. والجواب أنها نار أوقدها الله لتصل إلى قلوب الكافرين فتحرقها. وهى مغلقة الأبواب عليهم فلا فرار منها. فضلا عن أنهم مربوطون إلى أعمدة ممدودة فيها فلا حركة لهم ولا خلاص لهم منها.

ازدياد السور طولا :

لقد رأينا أن معظم السور السابقة كانت من قصار السور وكانت تُركز بشدة على مسألة

البعث ويوم القيامة ووصف أهواله وتبدل نواميس الكون فيه مع التوكيد على وحدانية الله ومقابلات سريعة بين ثواب المؤمنين وعذاب الكافرين فى الآخرة.

ثم بدأت السور تزداد طولا وبدأت مواضيعها تتعدد. فأصبحت السور تحتوى على:

١ – التأكيد على وحدانية الله وأنه هو وحده الجدير بالعبادة.

٢ – بيان قدرته عز وجل فى خلق السموات والأرض والإنسان والحيوان والنبات وجميع مافى الكون.

٣ – التذكير بيوم القيامة وأهواله ووصف بعض مشاهده.

٤ – تسفيه عبادة الأصنام وبيان أنها لا تضر ولا تنفع.

٥ – وبعد أن كان ذكر الأمم السابقة يقتصر على ذكر أمّتين أو ثلاث وباقتضاب شديد كما جاء فى سورة الشمس (الآية ١١ ص ٨٨) والتى اقتصرت على ذكر ثمود. وسورة الفجر (الآية ٩ و ١٠ ص ٦٠) والتى ذكرت فيها عاد وثمود. بدأ ذكر الأمم السابقة يأتى مطولا وذاكرا أقواما عدة وبتفصيلات لعل الهدف منها تصحيح بعض المعلومات التى وردت محرفة فى قصص أهل الكتاب. وعند تكرر ذكر الأقوام السابقين فى أكثر من سورة لا يكون ذلك تكرارا بل نجد أن كل سورة تذكر جانبا لم تذكره السورة الأخرى. مع التركيز على ماقاله الأنبياء لأقوامهم وما قالته الأقوام لرسلهم لتوضيح تشابه كفار اليوم بكفار الأمس. ثم ختام بذكر أنواع العذاب الذى نزل بالكفار السابقين.

٦ – ولما كان المسلمون قد ازداد عددهم نوعا ما وأسلم عدد من فتيان قريش الأقوياء مثل حمزة وغيره فاعتز المسلمون نوعا ما فقد جاءت الآيات توجه الإنذار المباشر إلى كفار قريش والتهديد القوى بالعذاب جزاء تكذيبهم.

٧ – كل ذلك مع احتفاظ السور بطابع القرآن المكى من قصر الآيات وكثرة المحسّنات اللفظية من سجع وجناس وطباق كما لم يمنع أن تأتى بعض سور قصار بين هذه السور متوسطة الطول.

سورة المرسلات :

«والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا. عُذرا أو نُذرا. إنما توعدون لواقع» (١ – ٧).

تبدأ السورة بخمسة أقسام اختلف فى معناها ويتبدى فيها نوع من الإعجاز اللفظى للقرآن الكريم إذ بالرغم من الاختلافات فى تفسيرها فإن هدفها واحد. بعض المفسرين (تفسير الألوسى جـ ٢٩ ص ١٦٩) قال هى خمس طوائف من الملائكة:

١ – المرسلات يرسَلن متتابعات كعرف الفرس .

٢ – فيعصفن فى مُضيِّهن عصف الريح .

٣ – وبعضهن نشرن أجنحتهن فى الجو.

٤ – وبما نزلت به من الشرائع فرقن بين الحق والباطل .

٥ – إعذارا للناس وإنذارا فلا تكون لهم حجة.

وقال أخرون هى أربعة أقسام بالريح والخامس بالملائكة :

١ – الرياح المرسلة التى تتتابع كعرف الفرس .

٢ – والعاصفة الشديدة .

٣ – والناشرات أى التى تنشر السحب .

٤ – والفارقات التى تبدد السحب وتفرقها أو السحب الممطرة تشبيها بالناقة الفارقة وهى الحامل.

٥ – وأخيرا قسم بالملائكة التى تلقى الذكر والآيات من الله إلى الأنبياء بالعذر أى التوبة لأوليائه ونذرا بالعذاب لأعدائه.

وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. (ص ٨٧٤) أنه قسم بالآيات:

١ – الآيات المرسلة على لسان جبريل إلى النبى للعرف والخير.

٢ – والآيات التى تعصف بالأديان الباطلة .

٣ – وتنشر الحكمة والهداية.

٤ – وتفرق بين الحق والباطل.

٥ – وتلقى على الناس تذكرة تنفعهم إعذارا أو إنذارا حتى لا تكون لهم حجة عند الله.

بعد هذه الأقسام الخمسة يجئ جواب القسم وهو أن ما يتوعدهم به النبى من مجئ يوم القيامة آت لا ريب فيه **«إن ما توعدون لواقع».**

وتكملة لذلك تأتى الآيات بمشهد مما سيحدث فى ذلك اليوم من اختلال السنن الكونية:

«فإذا النجوم طُمست. وإذا السماء فُرِجت. وإذا الجبال نُسِفت. وإذا الرسل أُقِّتت. لأى يوم أُجِّلت» (٨ – ١٢).

ففى ذلك اليوم تنطفئ النجوم وتنطمس ويذهب ضوؤها . والسماء يصبح فيها فروج أى تتشقق وتفتح فيها أبواب. والجبال تصبح هشة كالحب الذى يُنسف بالمنسف. وإذا الرسل قد

عين لهم الوقت الذى يحضرون فيه للشهادة على أممهم. ثم تساؤل عن هذا اليوم الذى أُخِّرت هذه الأمور العظيمة لتقع فيه. ويأتى جواب الشرط وجواب التساؤل وهو:

«ليوم الفصل. وما أدراك ما يوم الفصل. ويل يومئذ للمكذبين. ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين. كذلك نفعل بالمجرمين. ويل يومئذ للمكذبين» (١٣ - ١٩).

أى أن هذه الأمور العظيمة أُجِّلت لتحدث فى يوم فيه الفصل بين الخلائق وتساؤل لتعظيم شأن ذلك اليوم. إنه يوم الويل والهلاك للمكذبين. ثم يأتى تساؤل لتأكيد أن الله قد أهلك المكذبين من الأمم السابقة والأمم المتأخرة أيضا. وأن هذا سيكون مصير المجرمين من كفار قريش. ثم تكرار الإنذار بالويل والهلاك للمكذبين.

بعض نعم الله على العباد :

١ - ثم يأتى تساؤل تقريرى لبيان قدرة الله فى الخلق يعقبها إنذار بالويل والهلاك للمكذبين:

«ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلناه فى قرار مكين. إلى قدر معلوم. فقدرنا فنعم القادرون. ويل يومئذ للمكذبين» (٢٠ - ٢٤).

ويرى العلماء المعاصرون أن القرار المكين هو الرحم الذى يُمكِّن النطفة الأمشاج من أن تنمو داخله ويتضاعف حجمه فى نهاية الحمل عدة مئات من المرات ليتسع للجنين. وعنقه مزود بعضلات قوية لا تنفتح إلا وقت الولادة.

٢ - ثم بيان لنعمة أخرى وهى جعل الأرض من الاتساع بحيث يعيش عليها الأحياء وتضم فى بطنها الأجداث. والجبال راسيات وعاليات تنبع منها الأنهار لتسقى ماء عذبا فراتا وتختم الفقرة بدعوة الهلاك على المكذبين:

«ألم نجعل الأرض كفاتا. أحياء وأمواتا. وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا. ويل يومئذ للمكذبين» (٢٥ - ٢٨).

عود إلى مشاهد من يوم القيامة :

أ - تقرر الآيات أن الكافرين فى ذلك اليوم سيؤمرون بالسير إلى العذاب الذى كانوا يكذبون به فى الدنيا وأن يسيروا إلى دخان نار جهنم وهو يرتفع ويتشعَّب إلى ثلاث شعب ويظن الكافر أنها قد تُظِلُّه وتدرأ عنه شيئا من حر اللهب. ولكن ظنه يخيب ويجد أنها ترمى بشرر عظيم مثل القصر ومفردها قصرة وهى الواحدة من جزل الحطب الغليظ. والجمالات الحبال الغلاظ وعند اشتعال كل هذا تبدو النار صفراء اللون. وتختم الفقرة بدعوة الهلاك على المكذبين والتى تتكرر فى آخر كل فقرة:

«انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب. لا ظليلٍ ولا يغنى من اللهب. إنها ترمى بشرر كالقصر. كأنه جِمالات صفر. ويل يومئذ للمكذبين» (٢٩ – ٣٤).

ب – ثم تصف الفقرة التالية ما سوف يكون عليه حال المكذبين من سوء وحرج. فهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئا ولا يسمح لهم بالاعتذار عما بدا منهم:

«هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين» (٣٥ – ٣٧).

جـ – وفى فقرة ثالثة تتحداهم بسخرية فيقال لهم هذا يوم الفصل – الذى يَفصِل بين الحق والباطل أو يُفصَل فيه بين الحق والباطل – وقد جُمع فيه الأوَّلون والآخرون وتتحداهم إن كان باستطاعتهم أى حيلة للخلاص. ثم الويل للمكذبين.

«هذا يوم الفصل. جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد (حيلة فى دفع العذاب) **فكيدون. ويل يومئذ للمكذبين»** (٣٨ – ٤٠).

د – وفى الفقرة التالية يُؤكِّد على أن ثواب المصدقين المؤمنين جنات فيها فواكه من كل ما يشتهون فذلك هو جزاء المحسنين ثم تأتى دعوة الهلاك على المكذبين:

«إن المتقين فى ظلال وعيون. وفواكه مما يشتهون. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. إنا كذلك نجزى المحسنين. ويل يومئذ للمكذبين» (٤١ – ٤٤).

هـ – ثم يؤمر الكافرون – تهكُّما – بأن يستزيدوا من متع الحياة الدنيا أكلا وشربا فهى قليلة ولن تغنى عنهم شيئا لأنهم مجرمون ثم تأتى دعوة الهلاك على المكذبين. ثم يستأنف تأنيب الكفار بتذكيرهم بأنهم كانوا إذا طلب منهم الركوع والخشوع لله رفضوا. ثم الدعوة بالويل والهلاك على المكذبين:

«كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون. ويل يومئذ للمكذبين. وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون. ويل يومئذ للمكذبين» (٤٦ – ٤٩).

ثم تأتى الآية الخاتمة للسورة تتساءل عن أى شيئ أو أى حديث يجعلهم يؤمنون إذا لم يؤمنوا بالقرآن مع إدراكهم بأنه معجزة من رب العالمين:

«فبأى حديث بعده يؤمنون» (٥٠).

ولاشك أن كفار قريش قد ارتعدت فرائصهم وهم يسمعون التحذير الشديد الذى تضمنته هذه السورة بتكرر دعوة الهلاك **«ويل يومئذ للمكذبين»** عشر مرات. ولعل بعضهم بدأ يراجع موقفه المتصلِّب والمناوئ للرسول وهو ما هدفت إليه السورة. إلا أن الغالبية العظمى من قريش ظلت على موقفها المعادى للإسلام والمكذب بالبعث فقد كان الفكر السائد وقتئذ هو أن الحياة الدنيا يعقبها الموت ولا شيئ بعد ذلك. لا بعث ولا حساب ولا حياة آخرة. فنزلت سورة ق.

سورة ق :

والسورة فى مجملها تدور حول البعث وتأكيد وقوعه .وبدأت السورة بحرف «ق» وهى ثانى السور التى نزلت مبتدئة بحرف من حروف الهجاء إذ سبقتها سورة القلم التى بدأت بحرف «ن» (ص ٤٤). وقد سبق أن ذكرنا أن هذه الحروف المقطعة قصد بها التحدى وتنبيه الأذهان لما بعدها. أما القول بأنها من أسماء الله الحسنى أو أن كل حرف يشير إلى اسم من أسمائه أو صفة من صفاته عز وجلّ فهو افتراض لا دليل عليه. كما أن بعض الباحثين المعاصرين - استنادا إلى إحصاءات بآلات الكمبيوتر - قالوا إنها تشير إلى أكثر الحروف تكرُّراً فى السورة. وغيرهم قال إن لها ارتباطا بعدد آيات السورة أو عدد حروفها. وأرقامهم فيها كثير من التجوز وإن تصادف وصدقت فى سورة لم تصدق فى غيرها. والأولى التسليم بأنها سر استأثر به الله سبحانه وتعالى فى علمه وعلينا أن نتلوها هكذا كما وردت:

«ق والقرآن المجيد. بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيئ عجيب. أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد. قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ. بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج» (١ - ٥).

بدأت السورة بقسم بالقرآن العظيم. وجواب القسم محذوف وتقديره أن ما يتعجَّب الكافرون من إنذارهم به - صدق لا ريب فيه. فالكفار تعجبُوا من أمرين:أولا أن يأتيهم نبى منهم . ثم تعجبوا ثانية مما أنذرهم به فقالوا إن البعث بعد الممات وبعد أن تصير الأجساد ترابا والقول بأن هناك عودة إلى الحياة أمر بعيد الوقوع. وطبعا تعجُّبهم يدل على إنكارهم لما تعجبوا منه فكان الرد عليهم أن قدرة الله ليس لها حدود فالله سبحانه وتعالى يعلم ما تأكل الأرض من أجسادهم فكل شيئ مكتوب فى اللوح المحفوظ فلا تتعذَّر الإعادة ولكنهم كذبوا بالحق سواء كان المقصود تكذيبهم للرسول أو تكذيبهم بالبعث فهم فى تخبط واختلاف من أمرهم: مرة يقولون عن النبى إنه ساحر ومرة يقولون هو كاهن **«فهم فى أمر مريج»**.

ثم يأتى تساؤل فيه تعجب من غفلتهم عن أن يلاحظوا ما هو أعظم من البعث: وهو رفع السماء وما بها من نجوم تزينها. وبسط الأرض والجبال فيها رواسى. وإنبات الأرض بعد نزول المطر أزواجا تتكاثر منها أنواع مختلفة من النباتات بهجة للناظرين. وحَبا يُحصد فيتغذَّى عليه الأحياء وخُصَّ النخل بالذات لما له من أهمية لأهل الصحارى. وقياسا على قدرة الله هذه يكون البعث أمرا يسيرا:

«أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحبَّ الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج» (٦ - ١١).

ثم ذكرت الآيات أقواما سابقين كذّبوا رسلهم فحق عليهم وعيد الله وعقابه والمعنى أن المكذبين من قريش سينالهم أيضا عذاب. وتنكر الآيات عليهم عدم تصديقهم بالبعث مع أن الله هو الذى خلق فى البداية فلا تعجزه الإعادة:

«كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرّس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط. وأصحاب الأيكة (وهم قوم شعيب) **وقوم تُبَّع كل كذّب الرسل فحق وعيد. أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد»** (١٢ - ١٥).

ثم تذكر الآيات بعد ذلك كيف أن الله خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وأن الله أقرب إليه من حبل الوريد. ثم تذكر أن هناك ملكان موكلان بكل إنسان. ما يتكلم بشيئ أو يفعل فعلا إلا كتبوه. فإذا جاءه الموت - وهو الأمر الذى كان يهرب منه - ثم ينفخ فى الصور نفخة البعث. فيتأكد له أن البعث حقيقة وتأتى الأنفس ومعها سائق يسوقها إلى الحساب وشاهد يشهد عليها بما عملت. ثم يُذكر الجدل الذى سيحدث بين الإنسان وقرينه:

«ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد. إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد. لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد. وقال قرينه هذا ما لدىَّ عتيد. ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد. منّاع للخير معتد مريب. الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد. قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد. قال لا تختصموا لدىَّ وقد قدمت إليكم بالوعيد. ما يُبدَّل القول لدىَّ وما أنا بظلاَّم للعبيد. يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد» (١٦ - ٣٠).

ثم يذكر ما يثاب به المتقون فى جنات النعيم :

«وأزلفت الجنة (أى قُرِّبت) **للمتقين غير بعيد. هذا ما توعدون لكل أوَّاب حفيظ. من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود. لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد»** (٣١ - ٣٥).

ثم تأتى تذكرة بمن أهلكهم الله من المكذبين من الأمم السابقة وأنهم كانوا أكثر قوة من كفار قريش وأكثر تسلُّطاً. فلما نزل بهم العذاب ساروا فى الأرض يبحثون عن مهرب. وفى ذلك عظة لمن كان له قلب يدرك الحقائق أو يستمع إلى ما ينزل به الوحى من هداية:

«وكم أهلنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقّبوا فى البلاد هل من محيص. إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» (٣٦ - ٣٧).

وللتدليل على عِظم قدرة الله تذكر الآيات أن الله قد خلق السموات والأرض فى ستة أيام وما أصابه عز وجل من إعياء أو تعب:

«ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسَّنا من لُغوب» (٣٨).

وتأتى الفقرة الخاتمة للسورة بأمر إلى الرسول بالصبر على تكذيب الكافرين له. وأن يداوم على ذكر الله نهارا وليلا وفى كل وقت وأن ينتظر يوم القيامة حين يبعثون فيعلمون أن ما سبق ذكره عن البعث كان حقا. وفى ذلك اليوم تنشق الأرض عنهم للبعث وذلك أمر يسير بالنسبة لقدرة الله عز وجل. وليس من مهمة الرسول أن يجبرهم على الإيمان وكل ما عليه هو تذكيرهم بما ينزل من آيات القرآن فيؤمن من وعى وخاف ما جاء به من وعيد:

«فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبِّحه وأدبار السجود (أى عقب الصلاة)**. واستمع يوم ينادِ المنادِ من مكان قريب. يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج. إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير. يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير. نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبَّار فذكرٍ بالقرآن من يخاف وعيد»** (٣٩ – ٤٥).

سورة البلد :

آتى تكرار الإشارة إلى يوم القيامة والبعث بعد الموت والحساب فى الآخرة أثره فى نفوس الكفار وخاصة أن الأسلوب القرآنى لم يكن أسلوبا عاديا بل كان به بلاغة لم يعهدوها. فله جرس يجذب الأسماع. ليس له أوزان الشعر ولا هو مثل النثر المسجوع. بل كان شيئا فريدا فى ذاته. وبدأت أعداد المسلمين تتزايد ببطء وخشى كفار قريش على مكة إن انتشر الإسلام وأزيلت الأصنام من حول الكعبة وهى التى كان العرب يحجون إليها وعليها تقوم تجارتهم وثرواتهم. فنزلت سورة البلد لتطمئنهم من هذه الناحية. فها هو رب محمد يقسم بالبلد. والقَسَم لا يكون إلا بشيئ عظيم. وتؤكد الآيات أن وجود النبى يزيد البلد تكريما وتشريفا. ولعل قريشا اطمأنت بعض الشيئ إلى أن الدين الجديد لن يقلل من أهمية مكة:

«لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد» (١ -٢).

وقيل إن فى هذا تنديدا بما كانوا يفعلونه من إيذاء النبى والعمل على إخراجه إذ أن وجوده فيه يزيد من مكانة هذا البلد:

«ووالد وما ولد» (٣).

قَسَم ببنى آدم كلهم إلى أن تقوم الساعة فما منهم إلا هو والد أو ولد.

ثم يأتى جواب القسم يُقرِّرُ أن الإنسان خلق ليكون فى الحياة الدنيا فى مشقة وتعب :

«لقد خلقنا الإنسان فى كبد» (٤).

ثم يأتى تساؤل استنكارى: هل يظن ابن آدم أن أحداً لن يحاسبه على أفعاله وهو يكتسب المال وينفقه فى أوجه كثيرة. حلالاً أو حراما. ظانًا أن أحداً لم يره. ثم تأتى تذكرة للإنسان بأن الله هو الذى أعطاه نعمة البصر والقدرة على الكلام وأوضح له طريق الخير والشر. فكان الأولى به أن ينفق ماله فيما ينفعه. مثل خلاص عبد يعتقه من الرق أو إطعام مساكين وخاصة لو كان قريبا يتيما أو مسكينا فى وقت مجاعة وليس له شيئ فكأنه لُصِق بالتراب «ذا متربة» ولو فعل ذلك لكان قد تخطّى العقبة التى تحول بينه وبين النجاة ولكان من المؤمنين أصحاب الميمنة والمفهوم أن لهم الجنة. أما الذين كفروا بآيات الله فهم أصحاب المشئمة ولهم النار. أبوابها مغلقة عليهم فلا يستطيعون الخروج منها:

«أيحسب أن لن يقدر عليه أحد. يقول أهلكت مالا لُبدا. أيحسب أن لم يره أحد. ألم نجعل له عينين. ولسانا وشفتين. وهديناه النجدين. فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة. فك رقبة. أو إطعام فى يوم ذى مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. أولئك أصحاب الميمنة. والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة. عليهم نار مؤصدة» (٥ – ٢٠).

ثم نزلت **سورة الطارق :**

«والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب. إن كل نفس لما عليها حافظ» (١ – ٤).

وتبدأ السورة بقَسَم بالسماء والطارق ثم تساؤل عن ماهية الطارق لتعظيم شأنه. ثم توضيح بأنه النجم الثاقب. والعرب تقول ثقب الطائر إذا ارتفع وعلا أى أنه نجم مرتفع فى السماء. وروى عن على بن أبى طالب أنه قال إنه نجم فى السماء السابعة. وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم (الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ص ٨٩٨) أنه النجم الذى ينفذ ضوءه فى الظلام. وفى الوقت الحالى يرى الفلكيون أن ذكر «النجم الثاقب» هو إعجاز علمى سبق إليه القرآن الكريم منذ ١٤ قرنا من الزمان ذلك أنهم وجدوا أن النجوم فى المرحلة الأخيرة من تطورها يخمد ضوءها ويصغر حجمها وتزداد جاذبيتها حتى إن النجم يجذب أى كتلة تمر به ويبتلعها ويجذب أيضا أشعة الضوء فيبدو وكأنه ثقب أسود فى السماء.

ثم يجئ جواب القسم مؤكدا على وجود ملائكة حفظة على الإنسان يراقبون ويحصون أعماله. وكان الكفار لا يصدِّقون بأن هناك حساب على أقوالهم وأفعالهم. وللتدليل على قدرة الله العظيمة فى هذا الشأن جاءت دعوة للإنسان للتفكر فى كيفية خلقه:

«فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب. إنه على رجعه لقادر. يوم تبلى السرائر. فما له من قوة ولا ناصر» (٥ – ١٠).

وصلب الرجل ظهره والترائب جمع تريبة وهى موضع القلادة من المرأة أو عظام صدرها

وقيل المعنى أن الرجل والمرأة حين يلتقيان يصيران كالشيئ الواحد كالتصاق الصلب بالترائب. ويرى العلماء المعاصرون أن فى هذه الآية إعجازا علميا. ذلك أن الإنسان يتخلق من التقاء الحيوان المنوى الذى يخرج من خصية الرجل ببويضة المرأة التى تتكون فى المبيض. وكما هو مبين فى شكل ١٣ فإن الخصية والمبيض فى الجنين يكونان فى المكان المبين بعلامة x وهو مكان يقع بين الصلب أى العمود الفقارى والترائب وهى الضلوع. ثم يهاجر المبيضان ليستقرا فى حوض المرأة. أما الخصيتان فى الرجل فيكملان رحلتهما لتستقرا خارج الجسم فى الكيس الصفنى. والله القادر على هذا الخلق قادر على إعادة خلقه وإرجاعه كما كان يوم القيامة وهو اليوم الذى تُختبر فيه النفوس ويُخرج منها ما كانت قد أخفته فى الدنيا. والإنسان فى ذلك اليوم ليس له قوة تمنعه ولا ناصر ينصره ويحميه مما قد ينزل به.

ثم يجئ قسمان ، واحد بالسماء والثانى بالأرض:

«والسماء ذات الرجع» (١١) :

ويقول أهل اللغة الرجع المطر. فالسماء تُرجع كل سنة بمطر بعد مطر. ويرى علماء الجغرافيا أن فى هذه إشارة إلى الدورة التى تقوم بها المياه إذ يتبخر الماء من البحار والمحيطات مكونا السحاب وتسوقه الرياح ويرتفع فى طبقات الجو فيبرد ويتكثف إلى قطرات ماء تنزل مطرا إلى الأرض (أ - شكل ١٤). ويرى علماء الفلك فى وصف السماء بذات الرجع إعجازا علميا يحتوى على معان كثيرة إذ ثبت أن السماء ترجع وترد عن الأرض - بواسطة السحب والغلاف الجوى - كميات هائلة من حرارة الشمس أثناء النهار وفى الليل ترجع إلى الأرض ما امتصته من حرارة أثناء النهار وبذلك يمتنع حدوث تفاوت كبير بين درجة الحرارة فى الليل والنهار مما قد يضر بالأحياء. كما أن طبقة الأوزون (جـ شكل ١٤) تعكس معظم الأشعة فوق البنفسجية الواردة من الشمس والتى ثبت أنها تسبب سرطان الجلد. كذلك وُجد أنه على ارتفاع ١٠٠ - ٢٠٠ كم فوق سطح البحر توجد طبقة متأينة تسمى «حزام ڤان ألن» يعكس الإشارات الراديوية ويرجعها إلى الأرض فتنعكس مرة ثانية إلى الحزام المتأين وهكذا فتصل إلى أجزاء بعيدة من الأرض فيمكننا أن نسمع إذاعات النصف الآخر من الكرة الأرضية ولولا ذلك لضاعت الموجات فى الفضاء (د شكل ١٤) ولم تصل إلا إلى الأماكن المحيطة بمحطة البث الإذاعى.

«والأرض ذات الصدع» (١٢) :

والصدع فى اللغة هو الشق وقالوا هو انشقاق الأرض عند بروز النبات من سطحها وقالوا هو ما تتشقق عنه الأرض من عيون الماء. ويرى علماء الجغرافيا المعاصرون أن هذا الوصف فيه إعجاز علمى فقد ثبت أن هناك ما يسمى بالصدوع العملاقة فى القشرة الصلبة للأرض (شكل ١٥) تمتد بعمق يتراوح بين ٦٥ - ٧٠كم تحت قيعان المحيطات فتقسم الطبقة الصخرية

شكل ١٣ – «من بين الصلب والترائب»

جـ - رجع معظم الأشعة الكونية الضارة

طبقة الأوزون

ب - الرجع الحرارى

فى النهار ترجع
السحب كثيرا من الحرارة

وفى الليل تحفظ حرارة الأرض من التسرب

المطر يرجع الماء إلى الأرض .

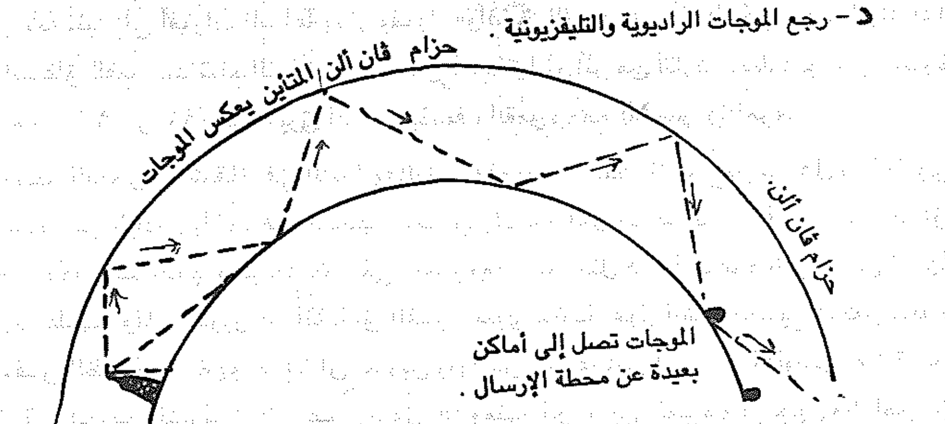
بخار الماء يصعد من البحار والأنهار

أ - رجع الماء.

الموجات لا تصل إلى
أبعد من هذه النقطة

موجات الراديو تتشتت فى الفضاء .

د - رجع الموجات الراديوية والتليفزيونية .



شكل ١٤ - والسماء ذات الرجع» .

إلى «ألواح» تطفو فوق الطبقة شبه المنصهرة من باطن الأرض ودليلهم على ذلك حدوث إزاحة تدريجية فى القارات بعضها عن بعض. وقبل مئات الملايين من السنين كانت أمريكا الجنوبية ملاصقة للساحل الغربى لأفريقيا ولكن صدعا هائلا حدث بينهما وبدأت القارات تنزلق متباعدة فنتج المحيط الأطلنطى. وقس على ذلك جميع المحيطات. وكانت أستراليا ملتصقة بغرب أمريكا الجنوبية ولكن صدعا فصلهما. والبحر الأحمر نشأ عن صدع فصل الجزيرة العربية عن الجزء الشمالى من أفريقيا. ويرى العلماء أنه بعد مئات الآلاف من السنين سيمتد هذا الصدع من خليج العقبة حتى البحر الميت ثم إلى البحر المتوسط ليفصل قارة آسيا كليًّة عن أفريقيا.

بعد هذا القَسم بالسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع يجئ جواب القسم:

«إنه لقول فصل. وما هو بالهزل. إنهم يكيدون كيدا. وأكيد كيدا. فمهِّل الكافرين أمهلهم رويدا» (١٧).

أى أن هذا القرآن يفصل بين الحق والباطل وليس فيه شائبة هزل ولا باطل. وقد وصف رسول الله القرآن بقوله: كتاب فيه خبر ما قبلكم، وحكم ما بعدكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهُدى فى غيره أضله الله. وتستمر الآيات تثبت كيد الكافرين بالنبى وأصحابه وأن الله يرد كيدهم بكيد هو قطعا أشد من كيدهم. وتنتهى السورة بأمر للنبى بأن يمهلهم والمعنى أن لا يسأل الله التعجيل بهلاكهم. وأن يوكل أمرهم إلى الله.

ثم نزلت **سورة القمر** :

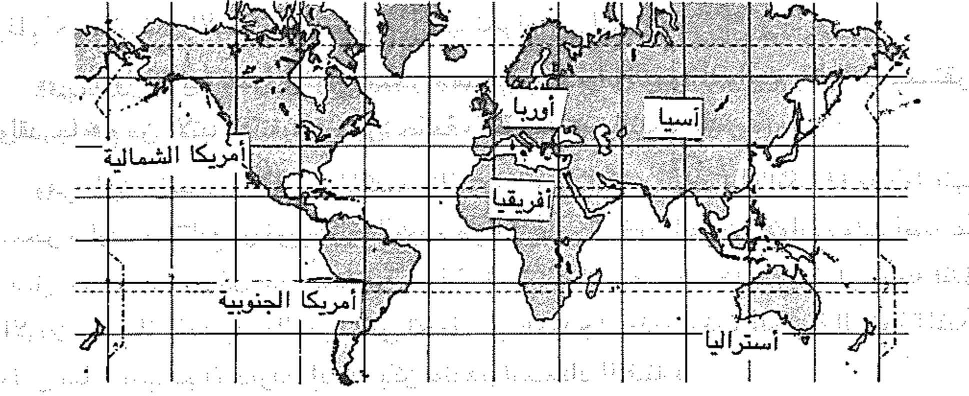
وهى تبدأ بقوله تعالى : **«اقتربت الساعة وانشق القمر»** (١).

والآية تنبه إلى اقتراب الساعة ودنو وقتها. **«وانشق القمر»** وفيه أقوال كثيرة أولها وأقواها أنه انشقاقٌ للقمر عند قيام الساعة كعلامة من علاماتها أو أثر من آثارها. مثلما جاء فى سورة القيامة (آية ٩ ص ٩٢) **«فإذا برق البصر وخسف القمر وجُمع الشمس والقمر»**.

وأنكر البعض الانشقاق فى الدنيا وقالوا لو وقع هذا الحدث لما اختُصَّ به أهل مكة ولرؤى فى عديد من البلدان ولخُلِّد هذا المشهد الغريب ولذكره أهل الأرصاد فى بلدان مثل العراق ومصر وكان علم التنجيم فيهما غاية فى التقدم وما كانت مثل هذه الظاهرة الفريدة من نوعها لتفوت عليهم. وقال آخرون إن انشقاق القمر معنوى مثلما نقول انشق الصبح فيكون معناه انشقاق الظلمة عند ظهوره. إلا أن آخرين رووا عن ابن عباس (تفسير الألوسى ج ٢٧ ص ٧٤) قال اجتمع المشركون على عهد رسول الله ومنهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاص بن وائل وغيرهم من سادات قريش المكذبين فقالوا للنبى: إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين نصفا على أبى قبيس ونصفا على قينقاع. فقال لهم النبى إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا نعم وكانت

أمريكا الشمالية
أوربا
آسيا
أفريقيا
أستراليا
اليابسة كانت كتلة واحدة .
الصدوع الأرضية العملاقة .

الإزاحة البطيئة على ملايين السنين باعدت بين القارات



شكل ١٥ – «والأرض ذات الصدع» .

ليلة بدر فسأل رسول الله ربه عز وجل أن يعطيه ما سألوه فأمسى القمر نصفا على أبى قبيس ونصفا على قينقاع. وجاء فى رواية البخارى عن ابن مسعود: كنا مع رسول الله بمنى فانشق القمر وما صح عن أنس أن ذلك كان والرسول بمكة والأحاديث المروية كثيرة ومختلف فى صحتها. والمؤيدون لوقوع انشقاق فعلى للقمر يستندون إلى الآية التى تلت ذلك «**وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر**» أى أن الآية وقعت وأعرضوا وقالوا سحر مستمر. ولكن من سنن الله فى كونه – وما حدث مع جميع الأمم السابقة – أن القوم إذا طلبوا من رسولهم آية وحققها لهم ولم يؤمنوا جاءهم عذاب يهلكهم. والمؤكد أن أهل مكة لم يومنوا وقتئذ. ولم يهلكوا دلالة على أن الآية إن كانوا قد طلبوها لم تتحقق. وقد جاء فى القرآن بعد ذلك «**وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذَّب بها الأولون**» ،ويمكننا أن نخلص إلى أن الأحاديث المروية فى هذا الشأن قد وضعت لاعتقاد واضعيها بانشقاق فعلى للقمر.

وقد احتج بعض العلماء المعاصرين بأن انشقاق القمر – لو حدث – سيغير من جاذبيته وأن هذا سيؤثر على مداره وحركته وقد يؤدى إلى ضَعف القوة الطاردة المركزية الناتجة عن دورانه مقابل جاذبية الأرض وقد يؤدى إلى سقوطه. إلا أن ذلك مردود عليه أن انشقاق القمر – لو شاء الله له أن يحدث – لحدث ولالتأم ثانية ولم يسقط. وذكر أحد علماء الفلك المعاصرين (دكتور زغلول النجار. الأهرام ٢٣/١٢/٢٠٠٢) أن تصوير القمر عن قرب أظهر شقوقا هائلة طولها أكثر من مئات الكيلومترات وعرضها بين ١/٢ و٥ كم ويرى أنها دليل على انشقاق القمر وإعادة التحامه. ويَرُدُّ هذا الرأى أن مثل هذه الأخاديد موجود مثلها فى القشرة الأرضية ولم يقل أحد بانشقاق الأرض. نعود بعد هذا الاستطراد إلى السورة:

«**وإن يروا آية يُعرِضوا ويقولوا سحر مستمر. وكذَّبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر. ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر. حكمة بالغة فما تغن النذر**» (٢ – ٥).

وفى الآيات تنديد بالكافرين المكذبين الذين إذا رأوا آية من آيات الله أنكروها وقالوا إنها سحر مألوف ومتتابع. وتقرير لواقع أمرهم من تكذيبهم للرسول اتباعًا لأهوائهم وإعراضا عن الحق. ثم إنذار بأن لكل أمر مُستقَر ونهاية. ثم توبيخ لهم على أن جاءهم القرآن وفيه أنباء الأولين ومصائر المكذبين والعبرة التى تحمل على الازدجار وفيه أيضا الحكمة البالغة المقنعة ولكن بماذا تفيدهم الإنذارات إذا لم يكن عندهم استعداد للاقتناع.

«**فتولَّ عنهم يوم يدع الداع إلى شيئ نكر. خُشَّعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر. مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر**» (٦ – ٨).

والآيات تأمر النبى ألا يأبه بتكذيب المكذبين وأن ينتظر ليرى ما سوف يلقونه يوم القيامة حين يدعوهم داعى الله فيخرجون من قبورهم كأنهم – فى الكثرة والسرعة – جراد منتشر وأبصارهم خاشعة من الخوف والفزع وشدة الهول ويتيقنون أنه يوم شديد الصعوبة.

العبرة من الأقوام السابقين :

ثم يأتى ذكر بعض الأقوام السابقين وهم: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون. وكان العرب على علم بقصص هؤلاء الأقوام ويتداولونها بينهم. فضلا عن أن قصص نوح ولوط وفرعون جاءت فى التوراة وسمعها العرب من اليهود والنصارى المقيمين بينهم أو الذين كانوا يلتقون بهم فى رحلاتهم التجارية أما عاد وثمود فلم يرد أى ذكر عنها فى التوراة ولكن قصتهما كانت معروفة للعرب كما ذكرنا سابقا (ص ٣).

١ – «كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجِر. فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قُدِر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كُفِر. ولقد تركناها آية فهل من مُدَّكر. فكيف كان عذابى ونذر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر». (٩ – ١٧).

٢ – «كذبت عاد فكيف كان عذابى ونُذُر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر. تنزِع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر. فكيف كان عذابى ونذر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر» (١٨ – ٢٢).

٣ – «كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحدا نتَّبعه إنَّا إذا لفى ضلال وسعر. أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشِر. سيعلمون غدا من الكذاب الأشر. إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب مُحتَضَر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابى ونذر. إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظِر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر» (٢٣ – ٣٢)

٤ – «كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسَحَر. نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُذُر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونُذُر. ولقد صبَّحهم بكرة عذاب مستقر. فذوقوا عذابى ونذر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر» (٣٣ – ٤٠).

٥ – «ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر» (٤١ – ٤٢).

ويلاحظ فى هذه الآيات :

١ – البدء بذكر تكذيب القوم تأكيدا عليه. مع ذكر ما قالوه أو فعلوه تعبيرا عن تكذيبهم.

٢ – الاختصار الشديد فى ذكر هؤلاء الأقوام السابقين .

٣ – تكرار آية **«فكيف كان عذابى ونذر»** وهو تساؤل فيه توبيخ للمكذبين لأنهم لم يصدقوا أن ينزل بهم العذاب.

٤ – تكرار آيتى: **«فذوقوا عذابى ونذر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»** فى نهاية قصة كل قوم. وفيه إمعان بإذلال المكذبين إذ يُؤمروا بأن يذوقوا العذاب وما أنذروا به وهو ما كانوا ينكرونه، ثم التأكيد على أن القرآن ميسَّر لمن يريد أن يتعظ بما جاء فيه.

واستكمالا لهذا المعنى تأتى الآيات بسؤال استنكارى عما إذا كان كفار قريش يظنون أنفسهم خيرا من السابقين الذين قصَّت الآيات كيف كان النكال بهم. أم أنهم حصلوا من الكتب المنزلة على براءة تقيهم هذا النكال؟ أم يظنون أن كثرتهم ستنصرهم، ثم تقرر الآيات أن جموعهم ستنهزم ويفرون. وموعدهم يوم القيامة وهى أعظم داهية وأقسى مرارة وسيكونون فى جحيم مستعرة ويسحبون فى النار على وجوههم ليقاسوا شدة حرارة النار. ثم تقرر الآيات أن الله قد خلق كل شيئ بحساب وتقدير دقيقين، وإذا أراد شيئا فإنه ينفذ فى الحال كطرفة عين. وتعود الآيات للتذكير بأن الله أهلك أشباههم من الأمم السابقة فهل اتعظوا؟ والجواب طبعا سيكون بالنفى. وكل ما فعلوه - صغيرا أم كبيرًا - مسطور ومُسَجَّل عليهم. ثم تنتهى السورة ببشرى بما ينتظر المتقين من جنات كثيرة الأنهار - أى كثيرة الثمار والفاكهة ويكفى أنهم سيكونون فى حضرة الله سبحانه وتعالى:

«أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر. أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولُّون الدبر. بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر. إن المجرمين فى ضلال وسعر. يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر. إنا كل شيئ خلقناه بقَدَر. وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر. ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مُدَّكر. وكل شيئ فعلوه فى الزبر. وكل صغير وكبير مُستطَر. إن المتقين فى جنات ونَهَر. فى مقعد صدق عند مليك مُقتدِر» (٤٣ - ٥٥).

وقد تكرر نعت الكفار بالمجرمين. لأنهم لم يكتفوا بالكفر والتكذيب بل أضافوا إلى ذلك جريمة اضطهاد المسلمين وتعذيبهم ومحاولة صدِّهم عن الدين.

ثم نزلت **سورة ص** :

والسورة تنذر الكفار وتندد بهم وتتحداهم فى قوة وحزم مثل سابقاتها من السور. وكانت هذه أول سورة تخاطب اليهود والنصارى المقيمين بمكة وما حولها. وتصحِّح برفق بعض ما حُرِّف فى التوراة:

«ص. والقرآن ذى الذكر. بل الذين كفروا فى عزة وشقاق» (١ - ٢).

وحرف «ص» من الحروف المقطعة بدأت به السورة كما بدأت قبلها سورة النجم بحرف «ن» وسورة «ق». يلى ذلك قَسَم بالقرآن الكريم. وجواب القَسَم محذوف وتقديره: إن هذا القرآن هو الصدق والحق. ولكن الكافرين يُكذِّبون فى عناد وشقاق واعتزاز بمكانتهم.

ثم تقرر الآيات أن الله قد أهلك قبلهم من الأقوام من كانوا أمنع منهم وأقوى ولما نزل بهم الهلاك رفعوا أصواتهم بالنداء والاستغاثة ولكن لا مهرب حينئذ ولا خلاص:

«كم أهلكنا مِن قبلهم مِن قرن. فنادوا ولات حين مناص» (٣).

وكان عدد من سادات قريش قد مشوا إلى أبى طالب فى مرضه وقالوا له: أنت سيدنا

وأنصَفنا من أنفسنا فاكفنا أمر ابن أخيك وسفهاء معه فقد تركوا آلهتنا وطعنوا فى ديننا فأُمره أن يكف عنا. فبعث إليه. فلما جاء النبى أخبره أبو طالب بما طلبت قريش. فقال النبى: يا عم إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها العجم الجزية. فقالوا: نعم وأبيك وعشرا. وما هى؟ قال: لا إله إلا الله. فقاموا وقالوا أجعل الآلهة إلها واحدا. وانطلق أشرافهم وقالوا لعامتهم استمروا واصبروا على آلهتكم:

«**وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب. أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيئ عُجاب. وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيئ يراد** (أى يراد به زوال النعمة التى هم فيها) **ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة** (ملة عيسى لأنها آخر الأديان قبل الإسلام) **إن هذا إلا اختلاق. أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لَمَّا يذوقوا عذاب** (ولو ذاقوا العذاب لما بقوا على الشرك). **أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب. أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما** (فإن ادَّعوا ذلك فليصعدوا إلى السماء) **فليرتقوا فى الأسباب. جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب** (أى هم لا محالة فريق مهزوم مثل من تحزَّبوا على أنبيائهم)» (٤ – ١١).

ثم تأتى إشارات خاطفة إلى هؤلاء الأحزاب الذين كذَّبوا أنبياءهم وحق على كل منهم العذاب. وكيف أن قريشا استخفُّوا بالرسول وطلبوا منه – فى تحدٍّ وسخرية – أن يعجِّل لهم نصيبهم وقسطهم من العذاب فى الدنيا ولا يُنظِرهم إلى الآخرة:

«**كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد** (أى صاحب المسلات. انظر جـ ٤ ص ٧٧٧ – ٧٨٧) **وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب. إن كلٌ إلا كذَّب الرسل فحق عقاب. وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق** (لا تحتاج لتكرار). **وقالوا ربنا عَجِّل لنا قِطَّنا قبل يوم الحساب**» (١٢ – ١٦).

ويلاحظ أنه عند ذكر الأقوام السابقين لم يلتزم القرآن بالترتيب الزمنى بينهم فهو ليس كتاب تاريخ يلتزم بالتسلسل التاريخى بل هو كتاب هداية وموعظة وما ذِكر بعض هؤلاء الأقوام إلا للعبرة والتذكرة بمواقفهم من أنبيائهم.

أمر بالصبر وتصحيح لقصة داود :

ثم يأتى أمر للنبى بالصبر ويأتى ذكر داود بشيئ من التفصيل كمثال للصبر ولتصحيح ما روى عنه محرفا فى التوراة. والمعنى أن يصبر النبى على ما يقوله الكفار عنه فقد قيل عن داود أكثر منه فصبر. وقد ذكرنا فى الجزء الخامس (ص ١٢٨ – ١٣٣) ما اتُّهم به داود فى التوراة من أنه ارتكب الفاحشة مع امرأة أوريا الحثى وأنه دبَّر مقتله ليتزوج امرأته. وقد نفينا ذلك وبيَّنا أن خطأه كان أنه تمنى لنفسه امرأة أحد جنوده فلما قتل فى الحرب أسرع وخطبها فقطع الطريق على أوليائها الذين هم أحق بالزواج منها. والآيات تقرر أنه كان من عباد الله

الصالحين. ومن دلائل صلاحه وتقواه أن الجبال والطير كن يسبِّحن معه ويُرجعن صدى تسبيحاته:

«اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوَّاب (يرجع إلى الله فى جميع أحواله)**. إنا سخرنا الجبال معه يسبِّحن بالعشى والإشراق. والطير محشورة كل له أواب. وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب»** (١٧ – ٢٠).

ثم تذكر الآيات ٢١ إلى ٢٤ قصة الملكين اللذين تمثلا فى صورة خصمين ليبِّينا لداود خطأه وتنتهى بقول: **«وظن داود أنما فتنَّاه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب. فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مئاب. ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتَّبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب»** (٢٤ – ٢٦).

ثم تختم هذه الفقرة عن داود بأن ما جاء به القرآن هو الحق وعليهم أن يتدبَّروا آياته ويتعظ به ذوو العقول الحصيفة، ولن يتساوى الذين كفروا مع المتقين ثم يُذكر أن الله قد خلق السموات والأرض بالحق وغير ذلك مما يقوله الكفار باطل وويل لهم من النار:

«وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار. كتاب أنزلناه إليك مبارك ليِّدبَّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب» (٢٧ – ٢٩).

تصحيح لقصة سليمان :

ثم تذكر الآيات جانبا من قصة سليمان موضحة حبه للخيل وقد فصَّلنا ذلك فى الجزء الخامس (ص١٦٠ – ١٦٨) ثم تصحح بعض ما حُرِّف عنه فى التوراة مثل اتهامه بالزيغ عن التوحيد وأن نساءه أملن قلبه فبنى المعابد للأوثان. وقد نفينا ذلك فى الجزء الخامس من خلال «فتنة سليمان» (ص ١٨٦ – ١٩٠). ثم تذكر الآيات تَسخير الريح والشياطين وهو أمر لم تذكر التوراة عنه شيئا. وقد ذكرناه بتفصيل من قبل (جـ ٥ ص ١٦٩):

«ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أوَّاب. إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد. فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب. ردُّوها علىَّ فطفِق مَسحًا بالسوق والأعناق. ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا ثم أناب. قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهَّاب. فسخَّرنا له الريح تجرى بأمره رُخاء حيث أصاب. والشياطين كل بَناء وغوَّاص. وآخرين مقرنين فى الأصفاد. هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب. وإن له عندنا لزلفى وحُسنَ مآب» (٣٠ – ٤٠).

وقد ادَّعى بعض المستشرقين أن تسخير الجن والشياطين هو اختراع من القرآن الكريم إستنادا إلى عدم ذكره فى التوراة المتداولة اليوم. والرد على هذا الاتهام هو ما جاء فى

التوراة: (٩ - أخبار أيام ثانى : ٢٩) ونصه: «وبقية أمور سليمان الأولى والأخيرة أما هى مكتوبة فى أخبار ناثان النبى وفى نبوَّة أخيا الشيلونى وفى رؤى يعدو الرائى على يربعام بن ناباط». وهذه الأسفار ليست من الأسفار المتداولة اليوم. ولاشك أن تسخير الجان كان مذكورا فيها إذ لم يُذكر اعتراض اليهود فى عصر النبى على ما جاء فى هذه الآيات. وقد ذكرنا فى الجزء الخامس (ص ١٧٠) احتمالا لعدم ذكر ذلك التسخير فى التوراة وهو أن الجان كانوا يتشكلون فى صورة رجال من الشعوب المقهورة وكان بنو إسرائيل يتخذونهم عبيدا لهم. وقد جاء فى التوراة (ملوك أول ٩ : ٢٠) «جميع الشعوب الباقين من الأموريين والحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين الذين ليسوا من بنى إسرائيل. أبناؤهم الذين من بعدهم فى الأرض الذين لم يقدر بنو إسرائيل أن يحرِّموهم (أى يقتلوهم أو يطردوهم) جعل عليهم سليمان تسخير عبيد. وأما بنو إسرائيل فلم يجعل سليمان منهم عبيداً».

ذكر سريع لقصة أيوب :

ويركز هذا الجزء على كيفية شفاء أيوب بعد طول مرضه مكافأة له على صبره. وقد فصلنا ذلك من قبل (الجزء الثالث ص ٥٩٤ - ٦٣٣):

«واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنِىَ الشيطان بنُصْب وعذاب. اركض برجلك هذا مُغتسل بارد وشراب. ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب. وخذ بيدك ضِغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب» (٤١ - ٤٤).

وقد أيد القرآن فى هذه الفقرة ما ذكرته التوراة (إصحاح ٤٢ أيوب): «ورد الله كل ما كان لأيوب. وزاد الرب على ما كان ضعفا». وهو نفس معنى قوله تعالى: «ووهبنا له أهله ومثلهم معهم».

ذكر خاطف لعدد من الأنبياء :

«واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار. إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار. وإنهم عندنا لمن المصطَفَينَ الأخيار. واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار» (٤٥ - ٤٨).

ما أُعِد للمتقين من ثواب :

«هذا ذكرٌ وإن للمتقين لحُسنَ مآب. جناتِ عدن مفتحة لهم الأبواب. متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب. وعندهم قاصرات الطرف (غاضَّات البصر حياء وخفراً) **أتراب** (ملازمات لهم ومثلهم فى السن لكون ذلك أدعى للوفاق). **هذا ما توعدون ليوم الحساب. إن هذا لرزقنا ماله من نفاد»** (٤٩ - ٥٤).

ما ينتظر الكافرين من عذاب :

فى مقابل ما ذكر من ثواب المتقين ذكر ما ينتظر الكافرين من أنواع العذاب كما ذكر تخاصمهم ومحاولة بعضهم إلقاء اللوم على البعض الآخر:

«هذا وإن للطاغين لشر مآب. جهنم يصلونها فبئس المهاد. هذا فليذوقوه حميم وغسَّاق (ماء شديد الحرارة وصديد). **وآخر من شكله أزواج** (وأنواع أخرى من العذاب أزواجا أزواجا). **هذا فوج مقتحِم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار. قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار. قالوا ربنا من قدَّم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار. وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار. أتخذناهم سِخريا أم زاغت عنهم الأبصار. إن ذلك لحق تخاصم أهل النار»** (٥٥ – ٦٤).

مهمة الرسول :

بعد هذا الوصف لما ينتظر الكافرين من عذاب يأتى أمر للنبى بأن يبلغ الناس أنه منذر بعذاب مثل هذا لمن يعبدون الأصنام لأنه ليس هناك إله إلا الله الواحد الأحد وينبههم إلى أنه ليس له من علمٍ بما دار فى السموات من حديث وقت اختصام الملائكة فى شأن آدم وأنه لا يعلم إلا ما يُوحَى إليه لينذر الناس:

«قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار. رب السموات والأرض وما بينهما العزيزُ الغفار. قل هو نبأ عظيم.أنتم عنه معرضون. ما كان لِىَ من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون. إن يوحى إلىَّ إلاَّ أنَّما أنا نذير مبين» (٦٥ – ٧٠).

مسألة خلق آدم :

وإذ ذكرت الآيات أن النبى ليس له علم بما دار فى السموات من حديث بين الملائكة حول خلق آدم جاءت الآيات التالية لتذكر كنه ما دار من خلاف. ولاشك أن العرب كانوا يعرفون أن الإنسان خلق من تراب لأنه بعد الموت يتحول إلى تراب. كذلك كان اليهود والنصارى يعرفون هذه الحقيقة إذ جاء فى العهد القديم (تكوين ٢ : ٧): «وجَبَلَ الرب آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية. وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها».

«إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فَقَعُوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين. قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيدىَّ استكبرت أم كنت من العالين. قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين. قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون. قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم. قال فبعزتك لأغوينَّهم

أجمعين. إلا عبادك منهم المخلَصين. قال فالحقُّ والحقَّ أقول. لأملأنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين» (٧١ – ٨٥).

وفى الآيات تصحيح لمفهوم القصة التى وردت فى التوراة والتى ذكرت عداوة بين الحيَّة وبين حواء. إذ جاء فى سفر التكوين (٣ : ١٣): «فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذى فعلت. فقالت المرأة: الحية غرّتنى فأكلتُ. فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلتِ هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تَسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلها ونسلك هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه». وجاء القرآن الكريم ليبين أن العداوة كانت بين إبليس وآدم وستظل أبدا بين بنى آدم وذرية إبليس. وسيجئ فى سور لاحقه بيان أن إبليس – لا الحية – هو الذى وسوس لآدم وحواء ليأكلا من الشجرة التى أمرهما ربهما ألاّ يأكلا منها.

ثم تُختم السورة بأمر للنبى لتوجيه الكلام للكفار وتنبيههم إلى أنه لم يطلب منهم أجرا لقاء هدايته لهم كما أنه ليس بمتصنِّع يدَّعى النبوة.وأن القرآن تذكرة لجميع الناس وأن المكذبين سيتأكد لهم – ولو بعد حين – أن ما جاء فيه من الوعد والوعيد هو الحق المبين:

«قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين. إن هو إلا ذكر للعالَمين. ولتعلمُنَّ نبأه بعد حين» (٨٦ – ٨٨).

سورة الأعراف :

كان التعذيب الذى ينزله سادات قريش بالعبيد الذين أسلموا – بل وببعض الأحرار الذين أعلنوا إسلامهم – حائلا دون انتشار الدعوة الإسلامية بالسرعة المأمولة. بل وكان هناك تخوُّف من أن يرتد بعض من أسلموا ولمَّا يتمكن الإيمان من قلوبهم.

فنزلت **«سورة الأعراف»** تُقوى من عزائمهم وتشد أزرهم إذ فيها حملات على المشركين وتصوير لمصائرهم فى الآخرة تصويرا فيه إرهاب ووعيد.

وقد جاء ذكر الأمم السابقة وأنبيائهم مفصَّلا. ولعل القصد كان أن يستغنى المسلمون بما جاء فى القرآن عما كان اليهود والنصارى يقصونه من قصص مدوَّنة فى كتبهم محتوية على كثير من الأحداث التاريخية دون التطرق إلى الموعظة الكامنة فيها. ولعل الهدف أيضا كان تصحيح بعض ما ورد فى هذه القصص من تحريف.

ويدور المحور الرئيسى للسورة حول التوحيد الخالص لله وحده بغير شريك والعبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى.

وسورة الأعراف هى أولى السور التى تبدأ بأكثر من حرف منفرد من حروف الهجاء فقد سبق أن جاءت أحرف **«ن»** و **«ق»** و **«ص»** كبدايات لبعض السور أما سورة الأعراف فقد بدأت

بأربعة أحرف. ولا ندرى كيف استقبل كفار قريش هذه الحروف الأربعة كبداية للسورة. ولكنها ولاشك شدَّت انتباههم وجعلتهم يصغون لما بعدها.

كذلك فإن سورة الأعراف هى أطول السور المكية. وهى رابعة السور القرآنية طولا بعد سور البقرة وآل عمران والنساء.

«**المَّص. كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين. اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكّرون. وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون. فما كان دعواهم (قولهم واعتذارهم) إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين. فلنسألنَّ الذين أرسل إليهم ولنسألنَّ المرسلين. فلنقصَّنَّ عليهم بعلم وما كنا غائبين. والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون. ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون**» (١ - ١٠).

والآيات فيها تطمين للنبى حتى لا يضيق صدره بتكذيب الكفار. وفيها تثبيت للمؤمنين حتى لا يتأثروا بذلك التكذيب. ثم تهيب بالنبى أن يدعو الكفار إلى الإيمان بما أنزل إليه وألا يتخذوا من دون الله أولياء وشركاء. ثم يأتى تذكير بما حدث للأمم السابقة الذين نزل بهم عذاب فى الدنيا ليلا «**بياتا**» أو وقت القيلولة وهو النوم وقت الظهيرة «**أو هم قائلون**» ولما نزل بهم العذاب اعترفوا بخطئهم وأنهم كانوا ظالمين. ثم تؤكد الآيات أن الله سيسأل الأقوام وسيسأل الرسل وسيخبرهم بما أجيب به المرسلون فما ذلك بغائب عن علمه. وفى يوم القيامة ستوزن الأعمال فمن ثقلت موازينه لكثرة حسناته كان من المفلحين ومن خفت موازينه لقلة أعماله الصالحة فأولئك هم الخاسرون. ثم يتوجَّه الخطاب إلى كفار مكة ويذكرهم بأن الله قد هيأ لهم وسائل العيش فلم يشكروا الله على هذه النعم.

قصة خلق آدم :

ثم تأتى فى الآيات ١١ - ٢٧ قصة خلق آدم ووسوسة الشيطان له حتى أخرجه من الجنة وهذه هى المرة الثانية التى تذكر فيها قصة خلق آدم. فقد ذكرت فى السورة السابقة سورة ص (الآيات ٧١ - ٨٥ ص ١١٤) وهنا جاءت تفاصيل جديدة عن الكيفية التى سيتبعها إبليس فى غواية بنى آدم. فذُكر أنه سيأتيهم من كل جهة: من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم. وكذلك ذكرت تفاصيل عن إسكان الله لآدم وزوجه الجنة. ثم ذُكرت وسوسة إبليس وما حدث من استجابة آدم وزوجه لها فنُزع عنهما ما كان يدارى عورتهما. ثم تحذير لكافة بنى آدم حتى لا يستجيبوا لفتنة الشيطان التى نتج عنها خروج آدم من الجنة. ثم تنبيه بأن الشيطان وذريته يرون بنى آدم فى حين أن بنى آدم ليس فى استطاعتهم رؤية الشياطين. ومن يتبع وسوسة الشيطان ويتخذه وليا أصبح من الكافرين:

«ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال ما منعك ألاَّ تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين. قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبَّر فيها فاخرج إنك من الصاغرين. قال أنظرنى إلى يوم يبعثون. قال إنك من المنظرين. قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين. قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين. ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فوسوس لهما الشيطان ليبدىَ لهما ما وُورِىَ عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين. فدلاهما بغُرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتُهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين. قال فيها تحيَون وفيها تموتون ومنها تُخرجون. يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذَّكرون. يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون» (١١ – ٢٧).

مغالطات الكافرين :

ثم تأتى آيات تندد بالكافرين الذين كانوا يعلِّلُون إشراكهم بالله وفعلهم الفواحش بأنهم وجدوا آباءهم يفعلونها أو يقولون إن الله أمرهم بها. وتأمر الآيات النبى بأن يرد عليهم بأن الله لا يأمر بالفحشاء وأنهم يفترون على الله الكذب. فالله يأمر بالعدل كما أمر أن يخصوه بالعبادة ويخلصوا فيها لأنه كما خلقهم سيعودون إليه بعد الموت والبعث وسيكون الناس حينئذ فريقين: فريق وفَّقه الله فاختار طريق الهدى والإيمان وفريق اختار طريق الضلال والكفر والعصيان واتبعوا الشيطان ومن غفلتهم يظنون أنهم على الهدى:

«وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون. قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون. فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة. إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون» (٢٨ – ٣٠).

الزينة المباحة :

توحى آيات الفقرة التالية أن نفرًا من المسلمين كانوا يذهبون للصلاة فى المسجد فى ثياب

رثة ظانين أن ذلك من دواعى الزهد. فنزلت الآيات تحث على لبس أحسن الثياب وأطهرها عند الذهاب للمساجد. وبيَّنت المباح فى المأكل والمشرب والزينة. فقد أباحت الطيبات دون إسراف. ثم تساؤل استنكارى عمَّن حرَّم ما يسَّر الله فى الدنيا من أسباب التجمل والتزيُّن وطيبات الرزق ثم تقرر أن الله إنما حرَّم الأعمال الفاحشة فى السر والعلن والعدوان على الناس والشرك بالله والافتراء على الله:

«يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين. قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق. قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة. كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون. قل إنما حرَّم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون» (٣١ - ٣٣).

الناس يوم القيامة :

تذكر الآيات أن الناس يوم القيامة سيكونون ثلاث فرق:

أ - المكذبون : فى جهنم . ب - المؤمنون : فى الجنة. ج - فريق بين الجنة والنار.

أ - فريق المكذبين : تبين الآيات أن لكل أمة أجل وقبل هذا الأجل يرسل الله إليهم رسلا منهم يتلون عليهم آياته ويبينون لهم طريق الهدى. فالذين يستجيبون ويتقون ينجون من العذاب. أما الذين يكذبون الرسل ويستكبرون عن عبادة الله فجزاؤهم النار خالدين فيها. ثم تندد الآيات بهؤلاء المكذبين إذ ليس هناك أظلم ممن يفترى على الله الكذب ويكذِّب بآياته. ثم يأتى وصف لهؤلاء المكذبين لحظة الموت وما ينتظرهم بعد البعث من عذاب فى النار. وكيف تلعن كل أمة أختها التى سبقتها إلى النار وتتهمها بأنها هى التى أضلَّتها. ويأتى تيئيس للمكذبين من دخول الجنة بتشبيه غاية فى الاستحالة وهو دخول الجمل فى ثقب الإبرة. ثم تصف أن لهم فى جهنم فراش من نار. وغطاء من النار أيضا جزاءا على ظلمهم وكفرهم:

«ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. يا بنى آدم إمَّا يأتينَّكم رسل منكم يقصُّون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفَّونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلُّوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا إدَّاركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلُّونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون. وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من

فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون. إن الذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتَّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سَمِّ الخِياط وكذلك نجزى المجرمين. لهم من جهنم مِهاد ومن فوقهم غَوَاش وكذلك نجزى الظالمين» (٣٤ – ٤١).

ب – **فريق المؤمنين** : وفى مقابل النار التى يلقى فيها المكذبون هناك جنات الخلد للمؤمنين. وتوضح الآيات أن المؤمنين يومئذ سينادُون على الكفار فى النار ويسألونهم عما إذا كانوا قد وجدوا ما وعدهم ربهم حقا فيقرون بذلك.

«والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍّ تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله. لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وَعَدَنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذَّن مؤذِّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين. الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عِوَجًا وهم بالآخرة كافرون» (٤٢– ٤٥).

ج – **فريق بين الجنة والنار** : وبين الجنة والنار جدار. والأعراف جمع عُرف وهو كل مرتفَع ومنه عرف الديك وعرف الفرس. وهنا بمعنى جدار مرتفع بين الجنة والنار يجلس عليه رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم ولم يدخلوا الجنة أو النار. وهم يعرفون أهل الجنة وأهل النار بعلامتهم وهى بياض وجوه المؤمنين وسواد وجوه الكافرين. وألقوا السلام على أهل الجنة وطمعوا أن يدخلوا الجنة معهم. ولما نظروا إلى الكافرين فى النار تعوَّذوا بالله أن يكون مصيرهم معهم. ثم نادوا على من يعرفونهم من أصحابها وسألوهم سؤال تشفٍّ عما أغنى عنهم استكبارهم وكثرتهم. ثم يتوجَّه خطاب من الله سبحانه وتعالى إلى أهل النار يسألهم عن أصحاب الأعراف وتأكيدهم أن رحمة الله لا يمكن أن تنزل عليهم. ويخيب الله ظنونهم فيعلن شمولهم برحمته ويأمر بدخولهم الجنة. ثم تذكر الآيات كيف ينادى أصحاب النار على أصحاب الجنة أن يعطوهم شربة ماء أو شيئا ولو قليلا من رزق الله ويجيبهم أهل الجنة بأن هذه النعم محرَّمة على الكافرين. ثم تمضى الآيات تندِّد بعصيانهم وأن الحياة الدنيا غرتهم حتى نسوا يوم الحساب فكان عدلا أن ينساهم الله أيضا ولأنهم كذَّبوا بآياته. ثم تعيب عليهم الآيات أن الله قد أرسل إليهم على يد نبيه كتابا هو القرآن، فيه الهدى والطريق المستقيم بتفصيل ولو آمنوا لكان لهم رحمة ولكنهم لم يؤمنوا بالغيب وانتظروا أن يأتيهم شيئ ملموس ليتبين لهم صدق ما جاء فى القرآن من وعد ووعيد ولن يحدث ذلك إلا في يوم القيامة ويومئذ يعترفون بأن الرسول قد جاءهم بالحق ويعلنون ندمهم ويتمنَّون لو عادوا إلى الحياة الدنيا ليعملوا عملا صالحا:

«وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يَعرِفون كُلاًّ بسيماهم. ونادوا أصحاب الجنة أن

سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون. وإذا صُرِفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون. أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون. ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين. الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون. ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون. هل ينظرون إلا تأويلَه يوم يأتى تأويلُه يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نُردُّ فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون» (٤٦ – ٥٣).

مظاهر من قدرة الله فى الكون :

وتشرح الفقرة التالية بعضًا من مظاهر قدرة الله فى الكون فتقرر أنه هو الذى خلق السموات والأرض. ثم لأول مرة يأتى ذكر **«ثم استوى على العرش»** والاستواء على العرش هو قيُّومية الله على ثبات هذا الكون وما روى عن الإمام مالك حين سئل عن كيفيته فقال: الاستواء غير مجهول (أى مؤكد) والكيف غير معقول (أى لا تستطيع عقولنا أن تدركه) والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

ثم توضح الآيات استمرارية تعاقب الليل والنهار وثبات أفلاك الشمس والقمر والنجوم. ومن رحمة الله بعباده أن يرسل الرياح بالمطر إلى الأرض الميتة فتنبت الثمار المختلفة وما ذلك إلا مثال على قدرة الله فى بعث وإخراج حياة بعد الموت:

«إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخَّرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. ادعوا ربكم تضرُّعا وخفية إنه لا يحب المعتدين. ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين. وهو الذى يرسل الرياح بُشراً بين يدى رحمته حتى إذا أقلَّت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات. كذلك نُخرج الموتى لعلكم تذكرون. والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكِدًا كذلك نصرِّف الآيات لقوم يشكرون» (٥٤ – ٥٨).

وفى الآيات إهابة بالناس أن يدعوا ربهم **«تضرُّعًا»**. أى جهرا **«وخفية»** أى سرا. وقيل الإخفاء أفضل عند خوف الرياء أو إذا كان الجهر فيه تشويش على مصلٍّ أو قارئ أو نائم لأن ذلك اعتداء على الآخرين. ومن الاعتداء أيضا طلب ما لايليق كالدعاء على شخص بشرٍّ أو بنزع نعمة أو بما شابهه .

سلسلة من قصص بعض الأنبياء السابقين :

وتحتوى هذه السلسلة جوانب من قصص ستة من الأنبياء هم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وأخيرا موسى. وقد ركّز السرد القرآنى على بيان أن الأسس التى يدعو إليها الأنبياء جميعا واحدة وأن جميع الأقوام قد استغربوا أن يرسل الله أحد البشر لإبلاغ دعوته وكذلك بيان أن من آمنوا بالرسل كانوا من المستضعفين. أما الأغنياء والسادة فقد استكبروا واتهموا الرسل بالسحر أو السفه أو الجنون. وأخيرا بيان أن المكذبين نالهم عذاب فى الدنيا وينتظرهم فى الآخرة عذاب أقسى. وأن النصر كان للأنبياء والذين آمنوا.

١ – وما جاء عن **نوح** هو :

«لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين. قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين. أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون. أوَ عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم تُرحمون. فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذَّبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين» (٥٩ – ٦٤).

فقد دعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده وحذّرهم من عذاب عظيم فاتهمه قومه بالضلال. واستنكر تعجبهم من أن يكون النذير لهم رجلا منهم. ولكنهم كذبوه وفى اختصار شديد يُذكر أن الله أنجاه والذين آمنوا معه فى الفلك وأغرق المكذبين.

٢ – قصة عاد قوم هود :

وكان هذا أول ذكر لهم فى القرآن الكريم. ولم يَرِد ما يدل على أن العرب قد أظهروا استغرابا أو استنكارا عند ذكرها مما يدل على أن قصتهم كانت معروفة لدى العرب وكانوا يتداولونها بالرغم من أنها لم تذكر فى كتب أهل الكتاب:

«وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون. قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين. قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين. أبلِّغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين. أوَ عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون. قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأْتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزَّل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين. فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذَّبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين» (٦٥ – ٧٢).

٣ – قصة ثمود وصالح :

وكان أول ذكر لهم فى سورة الشمس (الآيات ١١ – ١٥ . ص ٨٨) وقد ذكرت مختصرة جدا فقد اكتفى بذكر تكذيبهم ثم عقر الناقة. ثم أشير إليهم فى سورة القمر (الآيات ٢٣ – ٣٢ ص ١٠٩) وفيها استنكروا أن يبلِّغ بشر رسالة رب العالمين واتهموه بالكذب ثم ذُكر عقر الناقة وإهلاكهم بالصيحة. وجاء ذكر القصة هنا – فى سورة الأعراف – مختصرا أيضا ولكن زيد على ما سبق ذكرُ ما كانوا فيه من نعمة وما كانوا يبنون من قصور فى السهول وما كانوا ينحتون فى الجبال من بيوت :

«وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم. هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسُّوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم. واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين. قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون. قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون. فعقروا الناقة وعتَوْا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين. فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين» (٧٣ – ٧٩).

٤ – قصة لوط مع قومه :

وقد سبق ذكر جانب منها فى سورة القمر (آية ٣٣ – ٤٠ ص ١٠٩) وكان فيها ذكر تكذيبهم والعذاب الذى نزل بهم. وفى السورة الحالية ذُكر ما كانوا يفعلونه من الفاحشة:

«ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين. إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون. وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهَّرون. فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين. وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين» (٨٠ – ٨٤).

٥ – قصة شعيب وأهل مدين :

وهذه أول مرة يذكر فيها القرآن اسم «شعيب» النبى وإن كان قد أشير إلى قومه فى السورة السابقة (سورة ص آية ١٣ ص ١١١) بـ **«أصحاب الأيكة»** ضمن أقوام كذبوا رسلهم. وجاء ذكره فى سورة الأعراف الحالية بإسهاب. ولم يستغرب العرب – كفارا ومسلمين – ذكر قصته ولم ينكروه دلالة على أنهم كانوا يتناقلون قصته ويعرفونها . فأرض مدين تقع شرق

خليج العقبة فى طريق قوافل قريش المارة إلى فلسطين ومصر. ومن الضرورى أنهم سمعوا من أهلها قصته. والعجب أن لا تذكر التوراة شيئا عن النبى شعيب مع أن موسى قد أمضى فى أرض مدين ١٠ سنوات (انظر الجزء الثالث ص ٦٤٢) وتزوج من ابنة كاهنها «يثرون» وهو فى المراجع الإسلامية «شعيب» ومن المرجح أنه تسمى بهذا الاسم تَيَمُّنًا بجده الأكبر «النبى شعيب» والذى كان يسبقه بثلاثة أجيال وهى مدة ليست بالطويلة ولابد أن التوراة الأصلية كان بها ذكره ولكن هذا الجزء أُسقط عند إعادة كتابة التوراة. ومن المرجح أن تكذيب قوم شعيب وما حلَّ بهم من نقمة الله وعذابه اعتبره اليهود سُبَّة فى قوم هم أصهار نبيهم فتجاهلوا الأمر كله. فجاء القرآن ليعيد لهذا النبى مكانه بين سلسلة الأنبياء:

«وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين. ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عِوَجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثَّركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين. وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودُنَّ فى ملَّتنا قال أوَلَو كنا كارهين. قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلاَّ أن يشاء الله ربنا وسع ربُّنا كل شيئ علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين. وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين. الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين. فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين» (٨٥ - ٩٣).

وقد ذكرت الآيات أن شعيبا دعا قومه إلى عبادة الله وحده. وجاءهم ببيِّنة تثبت رسالته عن ربه ولم توضح ماهية هذه البينة وإن كان بعض المفسرين (تفسير الألوسى جـ ٨ ص ١٧٦) ذكروا أشياء لاشك أنها تصورات ليس عليها دليل فلم نجد محلا لذكرها. ثم راح شعيب يعدِّد عليهم الشرور التى يرتكبونها من نقصان الميكال وبخس الناس أشياءهم وصدهم عن سبيل الله وحذَّرهم من مصير مثل مصير المفسدين من الأمم السابقة فكان أن هدَّدوه بالإخراج من بلدتهم وأخيرا لجأ شعيب إلى الله ليحكم بينه وبين هؤلاء المكذبين المعاندين فنزل بهم العذاب على هيئة زلزلة شديدة أهلكتهم.

فقرة اعتراضية عن مسلك الجاحدين من كل الأمم :

فى هذه الفقرة تُوضِّح الآيات تشابه مسلك الجاحدين فى كل الأمم إذ جاءتهم رسلهم فجحدوا. وامتحنهم الله بالشدة فغفلوا عن مغزى هذا الامتحان وظنوا أن ما نزل بهم هو من

تصاريف الدهر التى تتراوح بين الشدة والرخاء وأن آباءهم قد أصابهم مثل ذلك. فأنزل الله بهم عذابه فجأة. وتذكر الآيات أنهم لو وعوا وتنبهوا للإختبار وآمنوا بالله واتقوه بصالح العمل لفتح الله عليهم أبواب الرزق والبركة من السماء والأرض ولكنهم كذبوا فحلَّ بهم العذاب جزاء على أعمالهم. ثم تأتى أربعة تساؤلات هى فى حقيقتها استنكار لمسلكهم عمًا إذا كانوا يظنون أنهم فى مأمن من نزول عذاب الله بهم ليلا وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون وهل جهلوا تدبير الله فى عقاب المكذبين وأخيرا عما إذا كان قد غاب عنهم ما حاق بالأمم السابقة. ثم تُختم الفقرة بتقرير أن هذه القرى السابقة جاءتهم رسلهم بالبينات ولكنهم كذبوا فطبع الله على قلوبهم ليظلوا كافرين:

«وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضَّرَّعون. ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عَفَوْا وقالوا قد مس آباءَنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون. ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون. أفأمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسُنا بياتا وهم نائمون. أوَ أمن أهل القري أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون. تلك القرى نقصُّ عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين. وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين» (٩٤ – ١٠٢).

قصة موسى وبنى إسرائيل :

بعد هذه الفقرة الاعتراضية تأتى قصة موسى كآخر القصص فى سلسلة الأنبياء السابقين. وقد ذكرت قصة موسى بإسهاب فى ٧١ آية (الآيات من ١٠٣ – ١٧٤) ولعل إطالة السرد كانت تهدف إلى أن يستغنى المسلمون بما جاء فى القرآن عمًّا جاء فى كتب أهل الكتاب وعما كان يتلوه أحبارهم ورهبانهم من قصص. كما هدفت أيضا إلى تصحيح بعض المعلومات التى حُرِّفت أو سقطت سهوا عند إعادة كتابة التوراة. وفى هذا نفى لما كان يتقوَّله كفار قريش من أن النبى ينقل عن أهل الكتاب إذ لو كان الأمر كذلك لتطابقت القصتان فى حين أن هناك اختلافات كثيرة فصَّلناها فى الجزء الرابع (ص ٨٥٤) ونوجز بعضها فيما يلى:

١ – كاتبو التوراة جعلوا العصا هى عصا هارون إذ جاء فى سفر الخروج (٧:١٠) «طرح هارون عصاه أمام الفرعون وأمام عبيده فصارت ثعبانا».فى حين أن من فعل ذلك هو موسى والعصا عصا موسى.

٢ – معجزة اليد – حسب رواية التوراة – لم تُجرَ أمام فرعون فى حين أن القرآن قرر حدوثها: **«فألقى** (موسى) **عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا بيضاء للناظرين».**

٣ - أدمجت التوراة المقابلة الأولى مع فرعون مع تحدى السحرة يوم الزينة فقالوا بعد الفقرة التى ذكرناها سابقا من سفر الخروج «فدعا فرعون أيضا الحكماء والسحرة ففعل عرّافو مصر أيضا بسحرهم كذلك. طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصى ثعابين ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم». والمعروف أن جمع السحرة والماهرين منهم من أقاصى البلاد يستغرق عدة أسابيع وهذا ما قرره القرآن الكريم فى قولهم لفرعون: **«أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين. يأتوك بكل ساحر عليم»** (١١١ - ١١٢).

٤ - أغفلت التوراة أو أن كاتبيها أسقطوا مسألة إيمان السحرة بموسى وما هددهم به فرعون من تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم فى جذوع النخل وهو ما ذكره القرآن فى الآيات ١٢٠ - ١٢٦.

٥ - وبالمقابل أوجز القرآن البلاءات التى أنزلها الله بفرعون وأهل مصر فى قوله تعالى: **«فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمل والضفادع والدم آيات مفصلات»**. (الآية ١٣٣) فى حين أنه فى سورة الإسراء (الآية ١٠١ وسيجىء فيما بعد) جاء قوله تعالى: **«ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات»**. وذكرت التسع آيات بإسهاب فى التوراة. ولعل القرآن لم يشأ الإطالة فيها ولا حتى أن يذكر أسماء التسع آيات واكتفى بذكر أسماء خمس منها إذ هى متشابهة فى تحذير موسى لفرعون وقومه بوقوع الآية فإذا وقعت وعد فرعون بإطلاق سراح بنى إسرائيل ثم بعد رفع الآية ينكث وعده ويعود إلى سابق عناده. وتكرر ذلك فى كل آية فاكتفى القرآن بإجمال تصرفهم **«ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون. فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين»** (١٣٤ - ١٣٦). وهكذا فى اختصار تذكر حادثة غرق الفرعون.

وفى الآيات التالية يُذكر مرور بنى إسرائيل على قوم يعبدون أصناما وطلبهم من موسى أن يجعل لهم إلها مثلهم واستنكار موسى لهذا الطلب بعد أن أنجاهم الله من تسخير الفرعون وتعذيبه لهم. ثم تذكر موعد موسى مع ربه أربعين ليلة وطلب موسى رؤية ربه وما حدث عندما تجلى ربه للجبل. وفى هذه الأثناء كان بنو إسرائيل قد اتخذوا العجل وعبدوه. وتستمر الآيات تذكر تأنيبه لأخيه هارون وتعنيفه للسامرى واختيار ٧٠ رجلا لميقات ربه ليعتذروا عن عبادة العجل. وهو ما ذكرناه بالتفصيل فى الجزء الرابع (ص ١٠٠٤) وحتى هؤلاء طلبوا رؤية الله جهرة فأخذتهم صاعقة أهلكتهم فدعا موسى ربه أن يغفر لهم ويرد لهم الحياة فاستجاب الله له **«ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون»** (٥٦ - البقرة).

رحمة الله :

بعد توبة الله على من ارتكبوا معصية عبادة العجل راح موسى يدعو ربه أن يكتب له

ولقومه حسنة فى الدنيا وفى الآخرة فأخبره الله أن رحمته وسعت كل شيئ وسينالها المتقون الذين يؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله. وذكرت الآيات أن من صفات المؤمنين أنهم يتبعون النبى محمدا إذ أن التوراة والإنجيل بهما بشارات عن قرب ظهوره ومكتوب أيضا أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحل لهم بعض ما حرَّمته عليهم شرائعهم ويضع عنهم بعض التشريعات التى كانت تمثل قيدا ثقيلا وكمثال على ذلك ما توجبه التوراة من الامتناع عن أى عمل فى يوم السبت سوى العبادة. فجاء الإسلام فأباح العمل فى يوم العبادة - وهو يوم الجمعة - بعد أداء صلاة الجمعة. وتنتهى هذه الفقرة بدعوة الناس جميعا لاتباع النبى لأنه خاتم الأنبياء:

«واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك. قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم. فالذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون. قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون» (١٥٦-١٥٨).

وفى الآيات دعوة لليهود باتباع النبى والإيمان برسالته. وقد كان يهود المدينة ينذرون العرب بأن نبيا قد جاء زمانه يتبعونه ويذيقون العرب عذابا مثل عذاب عاد وثمود ظنا منهم أن ذلك النبى سيظهر فى بنى إسرائيل. فلما ظهر فى العرب كذَّبوه وكفروا به.

ويجمع المفسرون على أن الآيات ١٦٣ - ١٧١ مدنية إذ فيها توجيه للنبى بسؤال يهود المدينة عما حدث لأهل أيلة التى تقع على الطرف الشمالى لخليج العقبة والذين مُسِخوا قردة لاعتدائهم على حرمة يوم السبت. وكان الأحبار قد حذفوا كل ما يتعلق بهم من التوراة. وقد فصلنا ذلك فى الجزء الرابع ص ١٠٨٢.

الإيمان فطرة :

ثم تأتى ثلاث آيات (١٧٢ - ١٧٤) يقول الزمخشرى فى تفسيرها إن عبارتها من باب التمثيل وأن معناها أن الله نصب لبنى آدم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم فكأنه أشهدهم بذلك على أنفسهم واستشهد بحديث رسول الله: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه. والمعنى أن الله خلق الناس على فطرة التوحيد فلا يقبل من أحد أى حجة لانحرافه أو الاحتجاج بأنه وجد آباءه وأجداده على الضلال فاتَّبعهم:

«وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون. وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون» (١٧٢- ١٧٤).

ورويت أحاديث أخرى فى تفسير هذه الآيات منها ما روى عن ابن عباس أن النبى قال: إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرها بين يديه ثم كلمهم قائلا ألست بربكم قالوا بلى شهدنا .. الخ الآية. وحديث آخر عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله أخذ من ظهر آدم كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم.. الخ الآية. وقد توصل أحد علماء الوراثة إلى أن هناك - على أحد الكروموسومات فى الخلايا البشرية - أحد الچينات له علاقة بالإيمان. ولو صحَّ هذا يمكننا أن نضع تصوُّرا لما حدث وهو أن آدم بعد خلقه تعرَّضت خلاياه للحضرة الإلهية فوُجِد هذا الچين الخاص بالإيمان والشاهد على وحدانية الله. وطبقا لعلم الوراثة فإن هذا الچين يتسلسل فى كل ذرية آدم فكان كل فرد منذ عهد آدم حتى اليوم قد حضر ذلك المشهد وأُخِذ عليه نفس العهد الذى أُخِذ على آدم.

حكم إساءة استخدام المواهب الإلهية :

ثم تقص الآيات قصة رجل من بنى إسرائيل آتاه الله آيات من عنده فلم يقم بحقها بل انحط واتبع هواه واستغرق فى الحياة الدنيا وشهواتها وتسلط عليه الشيطان وجعله يتبعه فصار كالكلب دائما يلهث.

«واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. ذلك مثل القوم الذين كذَّبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون. ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسَهم كانوا يظلمون. من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون» (١٧٥- ١٧٨).

وقد روى المفسِّرون روايات كثيرة فى اسم الشخص الذى عنته هذه الآيات فقالوا إنه أمية بن الصلت الشاعر وروى أنه أبو عامر الراهب وكلاهما كان عنده موهبه الشعر فاستغلاَّها فى محاربة الإسلام. وقيل هو بلعام بن باعور (انظر جـ ٤ ص ١٠٩٦). وقد رجَّحنا (جـ٥ ص ٥٩) أنه شمشون الذى أعطاه الله قوة جسمانية خارقة وكان المفروض أن يستغلها لتخليص بنى إسرائيل من تسلط أعدائهم عليهم ولكنه استغل موهبته فى إحداث الشغب واستعراض القوة والجرى وراء شهواته فكانت حياته كلها لهثا مثل الكلب. وقد تجاهل القرآن ذكر اسمه حتى يعتبر كل صاحب موهبة. قد تكون الموهبة شعرا أو رسما أو أدبا قصصيا أو غير ذلك من

المواهب. فالشاعر الموهوب قد يوسوس له الشيطان فيقول الشعر الفاضح المكشوف وقد تكون الموهبة فى الرسم فيرسم الصور العارية. وقد يكون أديبا قصصيا فيكتب القصص المملوءة بالتعبيرات والتشبيهات المثيرة للغرائز. فعلى كل صاحب موهبة أن يستغل الموهبة التى وهبها الله له فى تعميق الإيمان بالله ونشر الخير والأخلاق الحميدة. ومن اهتدى يزده الله هدى ومن يَضِل فهو الخاسر. وتختم هذه الفقرة بإيضاح أن الله قد خلق كثيرا من الجن والإنس مآلهم إلى النار يوم القيامة لأنهم لم يُحسنوا استغلال مَلَكاتهم: فمع أن لهم قلوب فهم لا يفقهون وعميت أبصارهم وصُمَّت آذانهم عن الحق:

«ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ أولئك هم الغافلون» (١٧٩).

أسماء الله الحسنى :

«ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يُلحدون فى أسمائه سيُجزون ما كانوا يعملون» (١٨٠).

وهو توجيه للمؤمنين لكيفية ذكر الله تعالى. والأسماء هي الألفاظ الدالة على المعانى والصفات المختلفة. وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله: إن لله تسعا وتسعين اسما مائة إلا واحدا وهو وتر يحب الوتر. غير أن هذا لا يعنى أنه ليس هناك أسماء أخرى لله تعالى بدليل حديث عن ابن مسعود قال: قال رسول الله: ما أصاب أحدا قط همٌّ ولا حَزَن فقال اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك. ناصيتى بيدك. ماضٍ فيَّ حكمك. عدلٌ فيَّ قضاؤك. اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علَّمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همِّى. إلا أذهب الله حزنه وهمَّه وأبدله مكانه فرحا. أما الأمر بترك الذين يلحدون فى أسمائه فهو ترك ماكان الكفار يقولونه من أن اسم «الله» مشتق من «اللات» و«العزيز» من «العزى» أو ما كان أهل البدو يقولونه من أسماء مثل «يا أبا المكارم» أو «يا أبيض الوجه» أو نحو ذلك مما لا يليق بذاته العليَّة. وأنهم سيجازون على ما اختلقوه من أسماء.

تنديد بالمكذبين :

«وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (أى يعملون). **والذين كذَّبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأُملى لهم إن كيدى متين. أوَ لَم يتفكروا ما بصاحبهم** (أى النبى) **من جنة إن هو إلا نذير مبين. أوَ لَم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيئ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون. من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون** (العمه هو عمى القلب)» (١٨١- ١٨٦).

وتقرر هذه الفقرة أن هناك فئة من الناس يدعون إلى الحق وبه يعملون، ثم تحذير للمكذبين بألا يغترُّوا بما هم فيه فإن ذلك استدراج لهم وسيُسَهِّل الله لهم من أسباب الغنى والنعمة حتى يصلوا إلى أقصى غاياتهم ولكن تدبير الله محكم «**إن كيدى متين**» أى سينالون جزاءهم فبأس الله ونقمته شديدان. ثم يأتى تساؤل فيه تعجب من عدم إعمالهم عقولهم ليقتنعوا بأن النبى ليس بمجنون وأنه منذر لهم من عاقبة شركهم، ثم تساؤل ثان عما يمنعهم من النظر فى ملكوت السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات ليتأكدوا من كمال قدرة الله ويدركوا أنهم لا يدرون فى أى ساعة يموتون، وقد يكون هذا أقرب مما يتصوَّرون فماذا ينتظرون من آية - بعد أن جاءهم القرآن - ليؤمنوا! ثم تقرر الآيات أن من يطلب الضلال يكتبه الله له ولا هادى له ويتركهم فى ضلالهم يتخبَّطون.

الكفار يسألون عن موعد الساعة :

«يسألونك عن الساعة أيان مُرساها. قل إنما علمها عند ربي لا يجلِّيها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حَفِيٌّ عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون، قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرًا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسَّنِيَ السوءُ إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون»

(١٨٧ - ١٨٨).

وسؤال الكفار عن الساعة هو سؤال إنكار، إذ فى مفهومهم أنه مادام نبيا فلاشك أنه يعلم موعدها. فجاء الجواب ينفى ما قام فى أذهان السائلين من أن النبى يعلم الغيب وتقرر أنه لا أحد يعلم موعد الساعة إلا الله وحده وأن النبى ما هو إلا بشر لا يملك جلب منفعة لنفسه ولا دفع ضرر عنها وما هو إلا نذير بالعذاب للمكذبين وبشير بالثواب للمؤمنين.

تنديد بالشرك بالله :

«هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها. فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين. فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون. أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يُخلقون. ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون. وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتَّبعوكم. سواء عليكم أدَعوتموهم أم أنتم صامتون. إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها. قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنظِرون. إنَّ وليِّيَ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون. وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون» (١٨٩ - ١٩٨).

وتبدأ الآيات بالتذكير بأن الله هو الذى خلق الناس جميعا من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها. فلما حملت وثقل حملها وعدا الله أن يكونا من الشاكرين فلما وضعت حملها أشركا بالله. وتستنكر الآيات عبادتهم لأصنام لا تخلق ولا تنصر عُبَّادها ولا تستجيب للدعاء. وتلفت النظر إلى أن هذه الأصنام أقل من البشر فى التكوين فهى لا تستطيع المشى ولا البطش إذ ليس لها أيدى تتحرك لتبطش. كما أنها لا تبصر ولا تسمع. ثم تطلب منهم الآيات أن يدعوها لتنزل الضُرَّ بالنبى إن كان ذلك فى إمكانها - وكان الكفار يحذِّرون النبى من ضرر تنزله به آلهتهم لكثرة تسفيهه لها - وليس ذلك فى استطاعتها فهى عاجزة ولأن الله هو وليُّه وهو الذى أنزل القرآن وهو يحمى عباده الصالحين. أما الشركاء فلا يستطيعون نصر الكفار ولا حتى نصر أنفسهم. وإذا دعوهم لهدايتهم لا يسمعوا. وهم لا يبصرون.

وفى الآيات تبكيت لاذع وتسفيه لعبادة الأصنام والأوثان. وكان العرب يظنون أنها قادرة على جلب المنفعة ودفع الضرر.

وصايا :

ثم تأتى الآيات فى ختام السورة بوصايا هى فى ظاهرها أوامر للنبى ولكنها توجيهات تشمل كافة السلمين:

١ - **«خذ العفو»** حثٌ على الأخذ بظواهر الناس وأعذارهم.

٢ - **«وأْمر بالعرف»** : والعرف هو كل ما تعورف الناس على أنه خير.

٣ - **«وأعرض عن الجاهلين».**

٤ - **«وإما ينزغنَّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم. إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مبصرون. وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يُقصِرون. وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلىَّ من ربى هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»** (٢٠٠ - ٢٠٣).

وهو توجيه للاستعاذة بالله من وساوس الشيطان ليبعده الله عنهم. أما الشياطين فهم لا يُقصِّرون فى إضلال إخوانهم الكفار. ويطلب الكفار من النبى أن يأتى بمعجزة وليس على النبى إلا أن يتبع ما يوحى إليه من ربه.

٥ - **«وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون»** (٢٠٤).

٦ - **«واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين. إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون»** (٢٠٥ - ٢٠٦).

الجــنّ :

فى اللغة الجِن والجِنة تعنى الاستتار والخفاء. فالجن مخلوقات غير مرئية للبشر. وهى مخلوقة من النار والإنسان مخلوق من طين والملائكة مخلوقون من نور. والملائكة كلهم مؤمنون

ولا يعصون الله ما أمرهم وهم مصدر خير وطمأنينة للبشر. والجن فيهم المؤمن وفيهم الكافر، ومنهم طبقة إبليس وذريته الذين يوسوسون للناس ويُزيِّنون لهم طريق الشر والإثم وعصيان أوامر الله. ومن الجن من كان يصعد إلى السماء ويحاول استراق السمع لما تتحدث به الملائكة من أقدار البشر وأحداث الدنيا وكانوا يلقون بما يسمعونه إلى الكهان من البشر فيخبرون به فترسخ مكانتهم عند الناس لمعرفتهم بأحداث مستقبلية. كما أن بعض البشر كانوا يستعينون بأفراد من الجن لتنفيذ بعض أغراضهم التى غالبا ما يكون فيها إيذاء لبعض الناس ولكن الجن فى هذه الحالات كانوا كثيرا ما ينالون بالأذى البشر الذين يستعينون بهم. وكان الكهان بما يتلونه من كلمات وما يأخذون به أنفسهم من تمرينات جسدية وروحية قاسية يمكنهم الاتصال بالجن. وكان بعض الناس – اتقاء لشر الجن – يعبدونهم أو يشركونهم مع الله فى العبادة وبعضهم جعلوا بينهم وبين الله نسباً. وعليه فإن غالبية الجن من غير المؤمنين. إلا أن بعضهم لما سمع القرآن أسلم.

سورة الجن :

نزلت هذه السورة لتذكر إيمان فريق من الجن عند استماعهم للقرآن الكريم :

«قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً. وأنه تعالى جَدُّ ربنا (أى تعاظم ربنا) **ما اتخذ صاحبة ولا ولدا. وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا** (قولا بعيدا عن الحق). **وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا. وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا. وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا. وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا** (مترصِّدا له). **وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا. وأنَّا منا الصالحون ومنَّا دون ذلك كنا طرائق قِددا** (أى مذاهب متفرقة). **وأنا ظننَّا** (بمعنى تيقَّنَّا) **أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا. وأنَّا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رَهَقا. وأنَّا منا المسلمون ومنا القاسطون** (الجائرون) **فمن أسلم فأولئك تحرَّوْا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وألَّوِ استقاموا على الطريقة** (طريق الحق) **لأسقيناهم ماء غَدَقا** (أى كثيرا – من أغدق) **لنفتنهم فيه** (أى لنختبرهم) **ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صَعَدا. وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا. وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدًا** (متزاحمين). **قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا. قل إنى لا أملك لكم ضَراً ولا رَشَدًا. قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا** (ملجأ). **إلا بلاغا من الله ورسالاته** (أى لا أجد ملجأ من الله إلا بإبلاغ وحيه ورسالاته) **ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا. حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا. قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمداً. عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً. إلا من**

ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رَصَداً. ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيئ عددا» (١ - ٢٨).

والآيات توضح أن الجن الذين كان بعض الكفار يعبدونهم - هؤلاء حين استمعوا إلى القرآن اعترفوا بما فيه من الهداية فآمنوا به. وفى هذا حث للكفار أن يحذوا حذوهم ويؤمنوا. كما أن فيه شد لأزر المسلمين إذ يعلمون أن هناك من الجن من يقفون فى صفِّهم. ثم أوامر ربانية للنبى بإبلاغ الناس أنه يدعو إلى الله ولا يشرك به. وأنه لا يملك لهم ضرا ولا نفعا وأنه - حتى النبى نفسه - لا يجيره من الله إلا إبلاغ رسالته ووحيه. وأن النبى نفسه لا يعلم ما قد ينزل بهم من وعيد ولا متى لأن ذلك متروك لله وحده فهو عالم الغيب ولا أحد يطلِّع على غيبه. وحتى الرسل فإن الله يجعل عليهم رقباء ليعلم - وهو أعلم - أنهم قد أبلغوا رسالته على أكمل وجه. ومن باب أولى أن يكون على كل إنسان رقيب يحصى عليه حركاته وأفعاله. حسنات أو سيئات. وعليها يُثاب أو يجازَى.

سورة يس :

كان قد مضى على الدعوة ما يزيد عن أربعة أعوام ولاتزال قريش على موقفها المعاند للإسلام وتصدٌ عنه فكان لابد من إنذار قوى لهم لعلَّهم يفيقوا من غفوتهم فنزلت **«سورة يس»** وفيها:

١ - توكيد لرسالة النبى وتنويه بالقرآن.

٢ - تقريع للكفار وتنديد بعقائدهم وشدة غفلتهم وعنادهم.

٣ - تنوية ببعض نِعم الله على العباد.

٤ - إنذار بيوم القيامة وذكر بعض مشاهده.

٥ - ذكر مصائر المؤمنين والكافرين فى يوم القيامة .

٦ - قصة موجزة عن قرية جاءتها رسلهم فكذبوهم وتذكر ما حاق بهم من عذاب.

٧ - إشارة إلى الكون وانسجامه مما يدل على عظمة خالقه.

وعن عائشة أن النبى قال: إن فى القرآن لسورة تدعى **«العظيمة»** عند الله تعالى ويدعى صاحبها (أى من يحفظها) «الشريف» عند الله تعالى يشفع صاحبها يوم القيامة فى أكثر من ربيعة ومضر وهى سورة **«يس»**. وقال بعض المفسرين إن من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسَّره الله تعالى. ولذلك تقرأ عند الموتى والمحتضرين لتنزل الرحمة والبركة ويسهل خروج الروح.

وتبدأ السورة بحرفى الياء والسين **«يس»** كما جرى العرف ببدء بعض السور بحروف

مقطعة، ونفى البعض أن تكون من أسماء النبى وإن كان قد جرى العرف فى العصور المتأخرة التسمية باسم «ياسين»:

« يس. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم. تنزيلَ العزيز الرحيم. لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون. لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون. إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون. وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. إنما تنذر من اتَّبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم. إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدَّموا وآثارهم وكل شيئ أحصيناه فى إمام مبين» (١ - ١٢).

بعد الياء والسين» يأتى قسم بالقرآن الكريم «**يس. والقرآن الحكيم**» مثلما جاء فى سور سابقة: «**ص. والقرآن ذى الذكر**» و«**ق. والقرآن المجيد**». ثم يأتى جواب القسم توكيد بأن النبى مرسلٌ من رب العالمين على صراط مستقيم وأن القرآن مُنزَّل من الله سبحانه وتعالى. ثم يذكر أن قريشا لم يأتهم نبى من قبل فبعد أن أوتى إسماعيل النبوة قبل ٢٤,٥ قرنا من الزمان لم يأتهم نبى آخر مع أن أولاد عمومتهم - بنى إسرائيل - جاءهم ما يزيد عن ٣٠ نبيا ورسولا (انظر الجزء الخامس) آخرهم عيسى (الجزء السادس) ولذلك قيل عن قريش «**ما أنذر آباؤهم فهم غافلون**» وهذه الغفلة كانت سببا فى أنهم شبوا على الوثنية التى تغلغلت طقوسها فى نفوسهم بحيث أصبحت كأنها أغلال فى أعناقهم واستمرأوا الظلم وعبادة الأصنام. ولما جاءهم الرسول بالهداية كذَّبوه كأنَّ بينهم وبين الهداية سدا منيعا. ثم تقرر الآيات أنه مهما أنذرهم الرسول لن يؤمنوا. وأن من يستجيب لإنذار الرسول هو من يخشى الله وإن كان لا يراه أى يخشاه بالغيب. وتُبشِّره بمغفرة من الله وثواب عظيم. ثم تقرير بأن الله هو الذى يحيى الموتى وكل شيئ فعلوه مكتوب عنده فى كتاب شامل والمعنى أنهم سيجازون بما عملوا.

أصحاب القرية :

والقرية هى أنطاكية عاصمة السلوقيين فى الشام. وقد ورد فى سفر أعمال الرسل الملحقة بالأناجيل وصف لنشاط تلاميذ المسيح من بعده فى أنطاكيه وغيرها من المدن. وقد ذكرنا فى الجزء السادس (ص ١١١) أن بطرس ويوحنا كانا يعلِّمان معا وبشَّرا بالمسيحية فى أنطاكية. ولكن أهلها لم يصدِّقوهما فكان الثالث هو بولس ولما اشتد تكذيب القرية للرسل واشتد إيذاؤهم لهم جاءهم رجل من أقصى المدينة يقول ابن كثير إن اسمه حبيب وكان يعمل نجارا وراح يحث قومه على الإيمان بالرسل. وقال ابن اسحق إن القوم رجموه بالحجارة حتى مات. وقد حدث زلزال شديد دمَّر أنطاكية وأهلك أهلها المكذِّبين وعُبِّر عنه بالصيحة. ولعل ما يؤيد أن أنطاكية هى القرية المقصودة أن القرآن لم يصف هؤلاء المرسلين بأنهم «أنبياء» والحديث الشريف يقول عن عيسى «ليس بينى وبينه نبى».

«واضرب لهم مثَلا أصحابَ القرية إذ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذّبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون. قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيئ إن أنتم إلا تكذبون. قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون. وما علينا إلا البلاغ المبين. قالوا إنا تطيَّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنَّكم وليمسَّنكم منا عذاب أليم. قالوا طائركم معكم أئن ذُكِّرتم بل أنتم قوم مسرفون. وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون. ومالِىَ لا أعبد الذى فطرنى وإليه تُرجَعون. أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بِضُر لا تُغنِ عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون. إنى إذا لفى ضلال مبين. إنى آمنت بربكم فاسمعون. قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون. بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين. وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون. ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون. ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون. وإن كلٌّ لمَّا جميع لدينا محضرون» (١٣ – ٣٢).

وأسلوب القصة يوحى بأن المقصود من سردها هو التذكير والعبرة إذ أن الحوار بين الرسل وأهل القرية يتشابه مع حال كفار قريش وموقفهم من النبى والمسلمين سواء فى تكذيبهم أو تهديدهم بالعذاب والأذى إذا لم يكفوا عن دعوتهم. وفى هذا تحذير لكفار مكة من عذاب مماثل لِماَ نزل بأهل هذه القرية إذا استمروا على عداوتهم وإيذائهم للمسلمين.

مظاهر من قدرة الله فى الكون :

ثم تستمر الآيات فى معرض البرهنة على قدرة الله بإنزال العذاب بالكافرين فتذكِّرهم وتنبِّههم إلى نعم الله عليهم فى هذا الكون:

١ – **«وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون. وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون. سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون»** (٣٣– ٣٦).

وتتجلى قدرة الله سبحانه وتعالى فى خلق النبات والحيوان من ذكر وأنثى فعن طريق التزاوج يحصل التكاثر واستمرارية الخلق وتنتقل الصفات بنسب متفاوته فيحدث التنوّع الذى يعطى للحياة متعة وبهجة.

٢ – **«وآية لهم الليلُ نسلَخ منه النهار فإذا هم مظلمون»** (٣٧).

٣ – **«والشمسُ تجرى لمستقر لها ذلك تقير العزيز العليم»** (٣٨).

٤ – **«والقمرَ قدَّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابقُ النهار وكل فى فلك يسبحون»** (٣٩ – ٤٠).

والعرجون هو عرق النخلة عندما يجف ويتقوّس ويصغر حجمه. والقمر في آخر الشهر يشبهه. فالقمر في أول الشهر يبدو ضئيلا ثم يزداد ليلة بعد ليلة إلى أن يكتمل بدراً ثم يأخذ في النقصان حتى يعود لما كان عليه من ضآلة. والدورة الواحدة هي الشهر القمري. والقمر والشمس كلٌ له مدار وفلك يسبح فيه ولا يلتقيان. إلا أنه في يوم القيامة عندما تتغير نواميس الكون يجتمعان كما جاء في سورة القيامة (آية ٩ ص ٩٢) **«وجمع الشمس والقمر»**. وقد اتخذ بعض المفسرين المعاصرين من قوله تعالى: **«ولا الليل سابق النهار»** دليلا على كروية الأرض لأن الشكل الكروي هو الشكل الوحيد الذي يجعل الليل والنهار موجودين في آن واحد.

٥ - **«وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون. وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون. إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين»** (٤١ - ٤٤).

وحمل الذرية في الفلك المشحون إشارة إلى سفينة نوح. وقد وفّق الله الإنسان لصنع السفن التي يركبها ليعبر البحار. ولو شاء الله لأغرقهم بأعمالهم السيئة وليس لهم حينئذ من مغيث ولا ناصر. ولكن الله لا يغرقهم رحمة منه وإمهالا منه لهم إلى أجل مقدَّر وفي ذلك حث لهم على اغتنام الفرصة والإيمان.

مكابرة الكافرين :

وقد ذكرت الآيات مثلين لهذه المكابرة :

١ - **«وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون. وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين»** (٤٥ - ٤٦).

فإذا دعاهم النبي إلى أن يتقوا مصيرا مثل مصير الأمم السابقة **«ما بين أيديكم»** وليتقوا عذاب الآخرة **«وما خلفكم»** أجابوا بالإعراض. بل إنهم يعرضون كذلك عن أي آية تأتيهم من الله.

٢ - **«وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين»** (٤٧).

قيل إن الكفار امتنعوا عن مساعدة أقاربهم الفقراء لما أسلموا فلما طولبوا بالإنفاق عليهم - مما رزقهم الله - للتذكرة بأن الغنى الذي يتنعَّمون فيه هو منحة من الله - رفضوا قائلين: أيفقرهم الله ونطعمهم نحن!

إنكار الكفار للبعث :

كان الكفار ينكرون البعث والحقيقة أنهم كانوا يخشونه أيضا خوفا من أن يكون هناك حساب على ما ارتكبوا من طغيان في الحياة الدنيا. ولذلك تساءلوا منكرين ومستهزئين.

«ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» (٤٨).

ويرد الوحى بأن الساعة ستأتيهم بغتة فتأخذهم وهم يختصمون فلا يجدون حتى وقتا ليرجعوا إلى أهلهم لكتابة وصيتهم:

«ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يَخِصِّمُون. فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون» (٤٩ - ٥٠).

وفى الحديث الشريف: لتقومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان بينهما ثوبا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومن الساعة ولقد انصرف الرجل بلبن لقحته (الناقة الحلوب غزيرة اللبن) فلا يطعمه. ولتقومنَّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها.

ثم تنتقل الآيات لتصف مشهد البعث :

«ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون. قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا. هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا مُحضرون. فاليوم لا تُظلم نفس شيئا ولا تُجزون إلا ما كنتم تعملون» (٥١ - ٥٤).

الجزاءات فى الآخرة :

وتذكر الآيات جزاء المتقين فى جنات النعيم وجزاء الكفار فى نار جهنم :

١ - **«إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون** (فرحون وفى سرور) **هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون. لهم فيها فاكهة ولهم ما يدَّعون. سلام قولا من رب رحيم»** (٥٥ - ٥٨).

٢ - أما الكفار فيُميَّزون عن غيرهم ويلقون فى نار جهنم. أو يكون من باب السخرية بمعنى أن هذا امتياز لهم كما امتازوا فى الدنيا بالجاه والغنى. ثم تبكيت لهم على ضلالهم وقد وضع فى صيغة تساؤل إلى جميع بنى آدم أى وكان الواجب ألا يشذوا عن باقى بنى آدم الذين عبدوا الله:

«وامتازوا اليوم أيها المجرمون. ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين. وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم. ولقد أضلَّ منكم جِبِلاًّ كثيرا (خَلقا وأجيالا) **أفلم تكونوا تعقلون. هذه جهنم التى كنتم توعدون. اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون. اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون. ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستَبَقُوا الصراط فأنَّى يُبصِرون. ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مُضِيًا ولا يرجعون. ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون»** (٥٩ - ٦٨).

ولا تعارض بين قوله تعالي **«اليوم نختم على أفواههم»** وبين آيات أخرى تحكى ما يجادلون به عن أنفسهم يوم القيامة. إذ المقصود أن الختم على أفواههم حتى لا ينكروا أنهم فعلوا كذا وكذا لأن أيديهم وأرجلهم هى التى ستتكلم وتقر بالحقيقة. كذلك أشارت الآيات إلى الصراط الممدود فوق جهنم ولا يكاد المبصرون يجتازونه فكيف إذا طمست الأعين ! فهو توكيد

بسقوطهم فى نار جهنم. وإن كان ابن كثير قد فسَّر الصراط بطريق الحق فى الحياة الدنيا. ثم تلفت الآيات نظر الكفار إلى واقع ماثل أمامهم وهو أن من يطول عمره يزداد ضعفًا فعليهم أن يعتبروا بما يحدث للمرء ليتأكدوا أن الدنيا دار فناء وأن الآخرة هى دار البقاء.

القرآن ليس شعرا :

عندما رأى الكفار أن عديدًا من الآيات المتتابعة تلتزم بقافية واحدة كما فى سورة النجم والأعلى والليل والشمس وغيرها قالوا إن النبى شاعر وأن ما يتلوه نوع من الشعر. ونزل الوحى ينفى أن يكون ذلك شعرا ويؤكد أنه قرآن كريم فيه إنذار للناس جميعا «**من كان حيًّا**» وهو حجة على الكافرين.

«**وما علَّمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين. لينذر من كان حيا ويَحِقَّ القول على الكافرين**» (٦٩ - ٧٠).

بعض نِعَم الله :

١ - ثم تستمر الآيات تندِّد بالكافرين وتعدِّد بعضا من نعم الله عليهم وكان الواجب أن يشكروا الله عليها ولكنهم بدلا من ذلك عبدوا آلهة ليس فى قدرتها نصرهم. بل إنها فى الآخرة ستكون جندا من جنود الله تحضر لتشهد على عُبَّادها بالكفر والضلال. ثم تأتى تسرية عن النبى حتى لا يحزن لما يقوله الكافرون أو يُسِرُّونه فى أنفسهم عنه. وبالطبع فإن علم الله بذلك يعنى مجازاتهم به:

«**أوَ لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون. وذللناها لهم فمنها رَكوبهم ومنها يأكلون. ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون. واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون. لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند مُحضَرون. فلا يحزنك قولهم. إنا نعلم ما يُسِرُّون وما يعلنون**» (٧١ - ٧٦).

٢ - ثم تنبه الآيات إلى ما فى خلق الإنسان نفسه من معجزة ومن ثم فإن البعث شيئ يسير بالنسبة إلى قدرة الله :

«**أوَ لَم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم** (شديد الخصومة) **مبين. وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم. قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم**» (٧٧ - ٧٩)

وروى المفسرون أن أحد الكفار - قالوا هو أبى بن خلف أو العاصى بن وائل - فى موقف جدل بينه وبين النبى - أخذ عظمة بالية وفتَّتها ثم قال للنبى: كيف تزعم أن ربك يبعث الناس وقد صارت عظامهم رميما. فقال النبى: نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار. وعلى العموم فالآيات تعنى كل من أنكر البعث وليس شخصا بعينه.

٣ - ثم تذكر الآيات نعمة الله فى خلق الشجر الذى حين يجف يمكن استخدامه وقودا لطهى الطعام أو الإنارة ليلا أو غير ذلك من المنافع :

«الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون» (٨٠) .

ويرى بعض العلماء المعاصرين أن تعبير **«الشجر الأخضر»** فيه إعجاز علمى إذ أن فيه إشارة إلى ما كشف عنه العلم الحديث من أن الكلوروفيل - وهو المادة الخضراء فى النبات - تمتص أشعة الشمس والطاقة الكامنة فيها ويحولُها مع ثانى أكسيد الكربون المأخوذ من الجو والعناصر التى يمتصها من التربة ويكوِّن المركبات العضوية التى تتكون منها خلايا النبات وأليافه الخشبية. وعندما يجف النبات ويوقد خشبه تنطلق منه الطاقة التى اختزنها من أشعة الشمس على هيئة نار نستعملها فى مختلف الأغراض.

ختام السورة :

ثم تجئ الفقرة الخاتمة بسؤال يستنكر تجاهلهم للحقيقة الواضحة من أن الله الذى خلق السموات والأرض - وهى أعظم من خلق الإنسان - قادر على أن يعيد خلقهم يوم القيامة وما شأنه فى الخلق إلا أن يقول للشيئ كن فيكون:

«أوَ ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم. بلى وهو الخلاَّق العليم. إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيئ وإليه تُرجعون» (٨١ - ٨٣) .

إعجاز القرآن :

استمر نزول القرآن وقريش تعجب من أسلوبه ولفظه الذى يعطى الصورة المتخيلة صدقا كأنها قد وقعت فعلا وإذا بالصورة كأنها منحت حياة فدبَّت فيها الحركة وأصبحت المعانى مجسمَّة. ويضفى جرس الكلمات عليها رونقا خاصا يزيد المعنى جمالا. وعجبوا كيف تأتَّى لـ «محمد» هذه البلاغة والفصاحة فجأة. وما عهدوه من قبل يقول الشعر ولا حتى قام خطيبا فى أيٍّ من أسواق اللغة فى عكاظ أو ذى المجاز ولم يبق أمامهم إلا أن يذعنوا بأن هذا وحى من عند الله. ولكنهم ظلوا على عنادهم وتكذيبهم.

ونزلت سورة الفرقان :

وفى السورة مواضيع عديدة :

١ - تأكيد أن القرآن وحى من عند الله.

٢ - بعض أقوال الكفار وتعنتهم فى طلب الآيات وحملة توبيخية لهم.

٣ - براهين على قدرة الله وعظمته وربوبيته.

٤ – تذكير ببعض الأمم السابقة وما حاق بهم.
٥ – حُسن ثواب المؤمنين يوم القيامة.

«تبارك الذى نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالَمين نذيرا. الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيئ فقدَّره تقديرا. واتخذوا من دونه آلهة لا يَخلقون شيئا وهم يُخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا» (١ – ٣).

وتبدأ السورة بلفظ **«تبارك»** أى تزايدت بركته وتكاثر خيره وفيه تنزيه لله تعالى عن مشابهة أحد له فى ذلك. ثم تقرير بأنه هو الذى نَزَّل القرآن على نبيه محمد لينذر الناس جميعهم ثم تقرير ثان بأن الله هو مَلِك السموات والأرض ونفيٌ لأن يكون له ولد أو شريك فى مُلكه. ثم تقرير ثالث بأنه خلق كل شيئ بحساب وحكمة وقدر ولكن الكافرين عبدوا آلهة ليس لها حول ولا قوة.

ثم راحت الآيات تعدد **أقوال الكفار والمشركين** وتدحض ما جاء بها:

١ – **«وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا. وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا. قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما»** (٤ – ٦).

وكان الكفار قد طعنوا فى القرآن وقالوا إنه من اختراع «محمد» وساعده على ذلك جماعة من أهل الكتاب كان يختلف إليهم فيطلعونه على سير الأولين ويملونها عليه وهو يعيد كتابتها. وترد الآيات هذه الشبهة فتقرر أن القرآن مُنزَّل من عند الله الذى يعلم أسرار السموات والأرض. وهو واسع المغفرة والرحمة. وهاتان الصفتان تفتحان باب التوبة أمام من قالوا هذه الافتراءات علَّهم يتوبوا. ومن العجب أن كثيرين فى الغرب لايزالون يوجهون هذا الاتهام إلى القرآن ناسين أن القرآن والإنجيل والتوراة كتب سماوية لابد أن تتشابه فى الكثير إلا أن القرآن ركَّز على النواحى الإيمانية ولم يلق بالا إلى الأحداث التاريخية التى أطالت التوراة فيها.

٢ – كان الجدل الثانى الذى أثاره الكافرون هو **استنكارهم لبشرية الرسول** وأنه يأكل الطعام مثلهم وأنه يعمل بيديه ويتاجر وأنه لو كان نبيا حقيقة لأُرسلَ معه مَلَك أو يُلقى إليه مال حتى لا يضطر للعمل بيديه أو على الأقل تكون له حديقة ذات أشجار يأكل منها فلا يضطر إلى المشى فى الأسواق وزادوا بأن اتهموه بأنه مسحور يتخيَّل ما لا حقيقة له:

«وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق لولا أنزل إليه مَلَك فيكون معه نذيرا. أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلا. تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا» (٧ – ١٠).

ويرد عليهم القرآن بأن ضربهم هذه الأمثلة المتعددة يدل على أنهم قد ضلوا طريق الحق والمحاجّة الصحيحة. والحقيقة أن بشرية الرسل لازمة إذ لو كان الرسل ملائكة وصاموا لاحتج الناس بأن طبيعتهم المختلفة تمكنهم من الصيام فى حين أن البشر بطبيعتهم يحتاجون إلى الطعام. وقس على ذلك فى جميع العبادات والتكاليف. ثم تقول لهم الآيات إن الله لو شاء لجعل لرسوله خيرا مما طلبوا. جنات تجرى من تحتها الأنهار ويكون له فيها قصور كثيرة. والمعنى أن الله قد ادّخر له ذلك فى الآخرة التى كذبوا بها.

٣ - وكان الجدل الثالث هو أنهم **كذبوا بالساعة وأنكروا وقوعها** وردت عليهم الآيات بأنها حقيقة وأعد الله لمن يكذّب بها نارا:

«بل كذّبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيرا. إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيُّظا وزفيرا. وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مُقرَّنين دعوا هنالك ثبورا. لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا. قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وُعِد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا. لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا» (١١ - ١٦).

وفى الآيات تصوير حى لجهنم. فكأن لها عينين ترى بهما الكفار وتغلى من الغيظ ويزداد صفيرها لاضطرام نارها استعدادا لاستقبال الكفار. ولا يملك من يسمع هذا الوصف إلا أن يتعوذ بالله من نارها. ويزيد من تجسيد الموقف وصف إلقاء الكافرين فى النار فى مكان ضيق مُقيدين ومقرون بعضهم إلى بعض. فلا يملكون إلا أن يتمنوا الهلاك للخلاص من العذاب. ويزيدهم ألما أن يعرفوا أنهم حتى لو أكثروا من تمنّى الهلاك فلن يجابوا إليه وسيخلدون فى النار وستزيد حسرتهم حين يُسألون عما إذا كان ما هم فيه خير أم جنة الخلد التى يتنعم فيها المؤمنون خالدين فيها كما وعدهم ربهم.

٤ - **المعبودات تتبرّأ من عابديها**: واستكمالا لتجسيد ما يحدث يوم القيامة تذكر الآيات ما فيه من إفحام للمكذبين المشركين وتسفيه عباداتهم. فالله تعالى سيحشرهم يوم القيامة مع معبوداتهم ويسأل المعبودات عما إذا كانوا هم الذين أضلوا العباد وزينوا لهم الشرك أم هم الذين زاغوا باختيارهم فيجيبونه بأنهم لا يمكنهم أن يجرأوا على فرض عبادتهم على الناس ولكن الضالين استغرقوا فى متع الحياة الدنيا هم وآباؤهم فنسوا ذكر الله وضلوا. حينئذ يتوجه الخطاب إلى الكفار بأسلوب فيه تبكيت يخبرهم أن معبوداتهم قد تبرأوا منهم وكذّبوهم فليس فى إمكانهم دفع العذاب عنهم أو نصرتهم. وتنتهى الفقرة بإنذار عام للناس بأن من يظلم نفسه أو غيره له عذاب كبير. ثم تعود الآيات إلى تفنيد اعتراضهم على بشرية الرسول فتقرر أن تلك هى سنة الله فى المرسلين من قبله إذ كانوا كلهم بشرا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق. ثم توضّح أن الله جعل بعض الناس فتنة للبعض الآخر: فالأغنياء فتنة للفقراء. والزعماء فتنة للعامة والأقوياء فتنة للضعفاء وهكذا لينظر الله هل

يمتثل الناس ويصبروا على قَدَره ومشيئته وحكمته فالله بصير بما يُصلح العباد وبصير بصالحهم، فمنهم من يطغيه الغنى ومنهم من يزداد به حسنات لكثرة تصدقه على الفقراء.
ومنهم من يستعمل قوته فى البطش بالناس ومنهم من يستخدمها لنصرة المظلوم وهكذا:

«ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلُّوا السبيلَ. قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا (مستحقين الهلاك). **فقد كذَّبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا. وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجلعنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً»** (١٧ - ٢٠).

٥ - ثم تذكر الآيات **صورة من تعنت المشركين فى مطالبهم :**

«وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا. لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا (طغوا وتكبَّروا) **عُتُوًا كبيرا. يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا. وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا. أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا»** (٢١ - ٢٤).

وقال الذين لا يعتقدون فى البعث لماذا لا تُنزَّل عليهم الملائكة لتخبرهم بصدق «محمد» أو يروا الله فيخبرهم بذلك. والحقيقة أنهم بلغوا فى التكذيب مبلغا لا ينفع فيه أى آية ليؤمنوا. وتمكَّن الكبر من نفوسهم حتى ظنوا أنهم قادرون على رؤية الله سبحانه وتعالى. والعتوّ تجاوز الحد فى الظلم. وترد عليهم الآيات بأنهم حين يرون الملائكة - وذلك لا يكون إلا فى يوم القيامة - سيكون ذلك مصدر تعاسة لهم **«لا بشرى» «ويقولون حجرا محجوراً»** وهى كلمة كانت تقولها العرب إذا لقوا عدوا أو نزلت بهم نزلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة كما نقول فى أيامنا هذه «ياساتر استر». أى أنهم يومئذ سيطلبون من الله أن يجعل بينهم وبين العذاب سدا وحاجزا. ولكن الله سيُحبط أعمالهم ويجعلها كالهباء المنثور لأنها لم تكن خالصة لوجه الله تعالى، ثم تختم الفقرة بذكر أن أصحاب الجنة يومئذ يكونون مستقرين فى أحسن منزل **«أحسن مقيلا».**

٦ - ثم تأتى الآيات **بوصفٍ لمشهد من مشاهد يوم القيامة** حين تتشقق السماء وينزل الملائكة.
ويعض الظالم على يديه ندما على أنه لم يؤمن:

«ويوم تشقق السماء بالغمام ونُزِّل الملائكة تنزيلا. الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا. ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا. يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا. لقد أضلَّنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا. وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا. وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا» (٢٥ - ٣١).

والآيات الأخيرة تقرر أن الرسول يشكو إلى ربه ما يلاقيه من تعنت قومه وأنهم هجروا القرآن وتمادوا في عدائهم. وتسرِّى عنه الآيات بذكر أن كل الأنبياء السابقين كان لهم أعداء من المكذبين المجرمين ويكفيه أن يكون الله له هاديا ونصيرا.

٧ – ثم تذكر الآيات **صورة أخرى من تعنت المشركين في طلباتهم :**

«وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنُثبِّت به فؤادك ورتلناه ترتيلا. ولا يأتونك بمَثَل إلا جئناك بالحق وأحسنَ تفسيرًا. الذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شرٌّ مكانا وأضلُّ سبيلاً» (٣٢ – ٣٤).

وكان الكافرون قد قالوا – على سبيل الإنكار والتحدِّى – هلاَّ أنزل القرآن على النبى جملة واحدة. وكان الرد عليهم أنه نُزِّل هكذا رتلا بعد رتل وجزءا بعد جزء ليسهل على الناس استيعابه وحفظه وأكثر من ذلك أنه نزل بنطقه الذى يُقرأ به بما فيه من مَدٍّ ووقف وإدغام وطريقة تلاوته وترتيله. وأنهم لا يأتون. بجدل يظنون فيه تعجيزا إلا رُدَّ عليهم بحجة أقوى وأكثر إفحاما. وسيُحشر الكافرون إلى جهنم على وجوههم لأنهم مشوا مُكبين على وجوههم في طريق الضلال.

والحقيقة أنه ليس هناك دليل تاريخى أو دينى يُوثَق به يؤكد أن الكتب السماوية السابقة كالزبور والإنجيل نزلت مكتوبة جملة واحدة. وحتى التوراة فإن ما نزل مكتوبا هى الألواح التى بها الوصايا العشر. أما باقى التوراة وهى تزيد عن الألف صفحة فلا يمكن أن تكون قد نزلت مكتوبة. ومن المؤكد أنها نزلت وحيا إلى موسى كما أنزل القرآن.

٨ – ثم تأتى بعد ذلك فقرة فيها **إشارات مختصرة عن الأقوام السابقين** وأنهم كذَّبوا رسلهم فوجب هلاكهم :

«ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا. فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذَّبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا. وقومَ نوح لمَّا كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما. وعادا وثمودا وأصحاب الرّس وقرونا بين ذلك كثيرا. وكلاً ضربنا له الأمثال وكلاً تبَّرنا (أى أهلكنا) **تتبيرا. ولقد أتوا على القرية التى أُمطرت مطر السوء** (قوم لوط) **أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجُون نشورا»** (٣٥ – ٤٠).

ويقال إن أصحاب الرس قوم كانوا يعبدون الأصنام وكانوا يعيشون فى وادى الرس شرقى خليج العقبة وهم ممن بعث إليهم النبى شعيب بالإضافة إلى مدين أصحاب الأيكة (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ص ٥٣٦). وقوم لوط كانوا يسكنون خمس قرى فى السهل جنوبى الطرف الجنوبى للبحر الميت (الجزء الثانى ص ٣١٠ – ٣٣٢) وكانت فى طريق تجارة قريش إلى فلسطين فكانوا يرون آثار ما حاق بأهلها من دمار. وجاء

التساؤل «**أفلم يكونوا يرونها**» للتوبيخ على عدم الاتعاظ بمصيرهم ولكنهم كانوا لا يؤمنون ببعث ولا بيوم يُنشرون فيه إلى الحساب.

استخفاف الكفار بالنبى :

كان الكفار يتخذون من النبى – حين يرونه – موضوع هزء واستخفاف ويتساءلون تساؤل الهازئ المستخف: هل هذا هو الذى بعثه الله رسولا؟!. ثم يأخذون يتفاخرون بما أبدوه من صبر وثبات على معبوداتهم ويقولون إنه كاد أن يُضِلَّهم عن عقيدتهم لولا صبرهم وتمسُّكهم بها. وترد الآيات عليهم بأنهم – يوم القيامة حين يأتيهم العذاب – سيعلمون من هو الضال. ثم يتوجه الخطاب إلى النبى فى تساؤل يحثه أن لا يعتبر نفسه وكيلا عمَّن سار وراء أهوائه وجعلها مقصده ومعبوده. وتساؤل ثان ينفى عنهم السمع والعقل ويقرر أنهم فى درجة أدنى من الأنعام لأن الأنعام تعرف بالغريزة ما يضرها فتحذره.

«**وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا. إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا. أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون. إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا**» (٤١ – ٤٤).

آية الله فى الظل والليل والنهار :

«**ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا. ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا. وهو الذى جعل لكم الليل لباسا** (ساترا كاللباس) **والنوم سباتا** (راحة بقطع الأعمال) **وجعل النهار نشوراً**» (٤٥ – ٤٧).

ولاشك أن هذه الآية هى من الآيات التى أمسك الرسول عن تفسيرها لذلك كثرت فيها التفاسير. يروى أن ابن عباس وابن عمر ومجاهد وغيرهم من الصحابة كانوا يعتبرون أن «الظل» هو الوقت من أوقات النهار الذى لا ظل فيه! أى من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. ولو شاء الله لجعله ساكنا دائما ولكن حينما تشرق الشمس يزول ذلك الوقت أى يزول الظل وبهذا كانت الشمس دالة عليه ثم تغيب فيعود الظل ثانية (تفسير ابن كثير. جـ ٣ ص ٣٢٠). وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم (ص ٥٣٧) أن الله قد بسط الظل وجعله ساكنا أول النهار ثم سلط عليه الشمس فتحل أشعتها محله فكانت الشمس دالة عليه ولو شاء الله لجعل الظل ساكنا مطبقا على الناس فتفوت مصالحهم ومرافقهم. وفى الحاشية كتب أن الظل يدل على دوران الأرض. ولو أن الأرض سكنت دون دوران ليسكن الظل لظلت الشمس مسلَّطة على نصف الأرض المواجه لها ولاحترقت الأشياء ولظل نصف الأرض الآخر فى ظل دائم وساكن ولتجمدت الأحياء من البرودة. ولو أن الله خلق الأشياء كلها شفافة لما وجد الظل ولانعدمت

فرص الحياة أمام الكائنات التى لا تعيش إلا فى الظل. أما صفوة التفاسير (جـ ٢ ص ٣٣٤) فقد جاء فيه: أى ألم تنظر إلى بديع صنع الله كيف بسط الظل ومدَّه وقت النهار حتى يستروح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس. ولو أراد الله لجعله دائما ثابتا فى مكان لا يزول ولا يتحول عنه ولكنه ينقله من مكان إلى مكان ومن جهة إلى جهة فوجود الظل دليل على وجود الشمس. ثم أزاله شيئا فشيئا وقليلا قليلا لا دفعة واحدة لئلا تختل المصالح. وهذا التفسير هو ما نميل إليه. ونزيده إيضاحا بأن معظم الناس قديما كانت مهنتهم رعى الأغنام. وقد يسير أحدهم بغنمه عدة كيلو مترات بعيدا عن قريته وراء الكلأ. ولم تكن هناك ساعات يتمكن بها من تحديد كم بقى من الوقت قبل غروب الشمس ليستطيع العودة إلى بيته قبل أن يدهمه الليل وما فيه من وحوش ضارية. لذلك كان الناس يعتمدون على ظل الأشياء لمعرفة الوقت وحينما تكون الشمس فى كبد السماء يكون الظل أقصر ما يكون ويطول فى أول النهار وفى الأصيل قبل مغرب الشمس. لذلك كانت الدعوة للتدبُّر فى **«كيف مدَّ الظل»** لا التدبر فى الظل نفسه. **«ولو شاء لجعله ساكنا»** أى تكون الشمس ثابتة فى مكان ما من السماء تضىء ليكون نهار ثم تنطفئ كأن يحجب ضوءها نجم ما فيكون ليل ولكن فى هذه الحالة - حيث أن الظل ساكن وطوله ثابت لثبات الشمس فى مكانها - لا يعرف الراعى كم بقى من الوقت على قدوم الليل الذى قد يدهمه فى الطريق. لذلك كان من رحمة الله بالبشر أن جعل الشمس تسير سيرها المعتاد أو بالأصح أن الأرض تدور دورتها المعتادة فيكون الظل طويلا أول النهار ثم هو يتحرك بحركة الشمس الظاهرية فهو ليس ساكنا. ثم يطول ثانية فى آخر النهار. ويبهت بخفوت ضوء الشمس كأنما قد قُبض **«ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا»**. ثم يأتى الليل للراحة. ولذلك قيل **«وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا»**. وتتكرر دورة الليل والنهار إلى ما شاء الله.

بعض مظاهر الكون الدالة على قدرة الله :

وقد ذكرت هذه الفقرة ثلاثة مظاهر: ١ - الرياح ودورها فى نزول المطر. ٢ - مجارى المياه العذبة وعدم طغيان ماء البحر المالح عليها. ٣ - خلق البشر من التزاوج.

١ - **«وهو الذى أرسل الرياح بُشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طَهوراً. لنحيىَ به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا. ولقد صرَّفناه بينهم ليذكَّروا فأبى أكثر الناس إلا كُفورا. ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا. فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا»** (٤٨ - ٥٢).

وفى هذه الآية تذكير بآية الله فى سوْقِ الرياح المحملة بالمياه لتنزل المطر فتحيا به الأرض ويشرب منه الأنعام والناس. ثم تقرر الآيات أن الله يصرف المطر حسب مشيئته. فقد يصيب بعض الناس بالقحط ليذكَّروا. ومع هذا فقد غفل أكثر الناس عن ذلك وظلوا على كفرهم. وروى

عن ابن مسعود قول النبى: ما من سنة بأمطر من أخرى ولكن إذا عمل القوم بالمعاصى صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعا صرف الله ذلك إلى الفيافى والبحار. ويقول دكتور زغلول النجار (الأهرام ٢٠٠٢/٦/٣) إن ما يتبخر من سطح البحار والمحيطات يقدر بـ ٣٨٠,٠٠٠ كم مكعب من الماء فى العام. وماء البحار مالح لا يصلح للشرب ولا للزراعة ولكن ماء المطر عذب صافٍ طهور وليس به رواسب. ثم تأتى آية لتسرِّى عن النبى حزنه لعدم تصديق كثير من الناس برسالته فتخبره بأن الله لو شاء لأرسل فى كل قرية نذيرا فيخفف عنه أعباء الرسالة ولكن الله شاء أن يكون هو النذير للعالمين جميعا. ثم يأمره بعدم إطاعة الكافرين فيما كانوا يدعونه إليه من حلول وسط وأُمِر بأن يجاهدهم بالقرآن إذ فى الآيات موعظة وعبرة وهذا كفيل بمن أراد الله له الهداية أن يؤمن.

ثم تنتقل الآيات إلى مظهر آخر من مظاهر الكون:

٢ – **«وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا»** (٥٣).

والماء العذب الفرات هو الذى يجرى فى الأنهار. ومجارى الأنهار فى مجملها أعلى من سطح البحر ومن ثم فالنهر العذب يصب فى البحر الملح الأجاج ولما كان الماء العذب أقل كثافة من ماء البحر فعند مصبات الأنهار يطفو الماء العذب فوق ماء البحر ولا يختلط به – وكأن بينهما حاجزا – ولكن فى النهاية يختلطان ويصبح الكل مالحا. ومن رحمة الله أن لا يطغى ماء البحر على مياه الأنهار فتجعلها مالحة لأن الماء المالح لا يروى العطش ولا يصلح للزراعة.

٣ – **«وهو الذى خلق من الماء بَشرا فجعله نسبا وصِهرا وكان ربك قديرا»** (٥٤).

فمن قدرة الله أن خلق الإنسان من نطفة صغيرة وجعلهم ذكورا وإناثا لتكون بينهم قرابات بالنسب والمصاهرة والله قدير فى خلقه.

بعد سرد بعض مظاهر الكون الدالة على قدرة الله: إرسال الرياح. ومرج البحرين وخلق الإنسان. كان الواجب على الإنسان أن يعبد الله وحده. ولكن الكفار راحوا يعبدون من دونه أصناما لا تضر ولا تنفع وبهذا يكون الكافر قد ظاهر ربه وجاهره بالعداوة:

«ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا» (٥٥).

ثم يتوجه الخطاب إلى النبى للتسرية عنه لإعراضهم عن دعوته بإخباره أن مهمته هى تبشير المؤمنين (بالجنة) وإنذار المشركين (من النار) وإخبارهم أنه لا يطلب على دعوته أجراً ويكفيه أن يهتدوا ويسلكوا سبيل الحق. كما تأمر النبى بأن يتوكل على الله ويسبحه فهو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وعليه ألا يهتم برفض المشركين عبادة الله. ثم يأتى تنزيهُ لله الذى جعل فى السماء الشمس والقمر وبروج الكواكب وجعل الليل والنهار يتعاقبان وهى آيات تدعو من يتدبرها إلى شكر الله على نعمائه:

«وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا. قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا. وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبِّح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا. الذى خلق السموات الأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا. وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا. تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا. وهو الذى جعل الليل والنهار خِلفة لمن أراد أن يذَّكر أو أراد شُكُورا» (٥٦ - ٦٢).

ومن دقة التعبير القرآنى وصف الشمس بأنها «سراج» والسراج يحترق ويضيئ بذاته ووُصِف القمر بأنه «منير» لأنه لا يضيئ بذاته بل يعكس أشعة الشمس فينير. وهى حقائق لم تعرف إلا فى العصر الحديث.

عباد الرحمن :

ثم تأتى الفقرة الخاتمة للسورة لتسرد ١٢ صفة من صفات عباد الرحمن:

١ - **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما»**(٦٣). فمن صفات عباد الرحمن التواضع. إذا مشوا على الأرض مشوا فى سكينة ووقار وإذا سابَّهم السفهاء لم يردوا عليهم بالمثل.

٢ - **«والذين يبيتون لربِّهم سُجَّدا وقياما»** (٦٤) متعبدين ذاكرين الله.

٣ - **«والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما. إنها ساءت مُستقرا ومُقاما»** (٦٥ - ٦٦). فشأن الأتقياء أن يُغلِّبوا الخوف على الرجاء فيخافون عذاب الآخرة ويدعون الله أن ينجيهم من عذاب جهنم لأن عذابها شديد ومستمر وهى أسوأ مكان لمن يستقر ويقيم فيه.

٤ - **«والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما»** (٦٧). فدأبهم الاعتدال فى الإنفاق على أنفسهم وأسرهم فلا تبذير ولا تضييق.

٥ - **«والذين لا يدعون مع الله إلها آخر**

٦ - **«ولا يقتلون النفس التى حرَّم الله إلا بالحق.**

٧ - **«ولا يزنون. ومن يفعل ذلك يلق أثَاما. يُضاعَف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا. إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدِّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما. ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا»** (٦٩ - ٧١).

٨ - **«والذين لا يشهدون الزور».**

٩ - **«وإذا مرُّوا باللغو مرُّوا كراما»** (٧٢).

١٠ - **«والذين إذا ذُكرِّوا بآيات ربهم لم يخرُّوا عليها صمًّا وعُميانا»** (٧٣).

١١ - **«والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين».**

١٢ - «واجعلنا للمتقين إماما» (٧٤). أى يجعلهم من أئمة الخير يقتدى بهم.

فهؤلاء هم عباد الرحمن حقا وجزاؤهم غرف الجنة العالية وتلقَّاهم الملائكة بالتحية والسلام. ولهم خير مقام ومستقر فى الجنة خالدين فيها:

«**أولئك** (أى عباد الرحمن) **يُجزون الغرفة بما صبروا ويُلقَّون فيها تحية وسلاما. خالدين فيها حسنت مستقرا ومُقاما**» (٧٥ - ٧٦).

وتختم السورة بإعلان الكفار بأن الله تعالى لا يبالى إذا لم يعبدوه وأنه لولا دعاؤهم لأهلكهم فى الدنيا ولكن عذابهم سيكون واقعا ولزاما فى الآخرة:

«**قل ما يعبؤا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما**» (٧٧).

ثم نزلت **سورة فاطر** :

« **الحمد لله فاطِر السموات والأرض جاعِلِ الملائكة رسلا أُولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير. ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم. يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنَّى تؤفكون**» (١ - ٣).

وهذه السورة هى ثانى سورة - بعد الفاتحة - تبدأ بحمد الله.ثم تقرر أن الله خلق السموات والأرض وخلق الملائكة وجعل لهم أجنحة متعددة ويستطيع أن يخلق ما يزيد عن ذلك فهو قدير على كل شيئ وهو وحده الرزاق فلا مانع لما أعطى ولا مُعطى لما منع. وتستمر الآيات تهيب بالناس أن يذكروا نعمة الله فليس هناك من يرزقهم غير الله وتتعجَّب من إشراكهم بالله.

ثم تأتى آية للتسرية عن النبى بإخباره أن الأنبياء السابقين قد كُذِّبوا مثله:

«**وإن يكذبوك فقد كُذِّبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور**» (٤).

ثم تأتى آيات تؤكد للناس أن وعد الله بالآخرة حق وعليهم ألا يغتروا بالحياة الدنيا وأن الشيطان عدو لبنى آدم ويحاول جاهدا أن يستميل الناس إلى حزبه فيكونوا فى النار مثله. ثم تخبر أن من اتبعوه وكفروا لهم عذاب عظيم فى حين أن الذين آمنوا سيغفر الله ذنوبهم ولهم ثواب كبير. ثم تتعجب من هؤلاء الذين خدعهم الشيطان وزيَّن لهم سوء العمل فظنوه حسنا وفعلوه وتهيب بالنبى ألا يحزن عليهم لأنهم ارتضوا سبيل الضلال فزادَهم الله ضلالا والله يعلم ما يصنعون:

«**يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنَّكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغَرور. إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير. أفمن زُين له سوء عمله**

فرآه حسنا فإن الله يُضِل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون» (٥ – ٨).

بعض مظاهر الكون الدالة على قدرة الله :

وقد سبق أن ذكرت السورة السابقة – سورة الفرقان – فى الآيات ٤٨ – ٥٤ (ص ١٤٤– ١٤٥) ثلاثة من هذه المظاهر. وجاءت الفقرة الحالية من سورة فاطر لتذكر أربعة من هذه المظاهر تأكيدا على أن من يتأمل فى مظاهر الكون لابد أن يهديه عقله إلى الإيمان بأن لهذا الكون خالقا مبدعا خلقه على هذا القدر البالغ من الإحكام والدقة. ومظاهر الكون التى ذكرت حاليا هى: ١ – الرياح ودورها فى إنزال المطر. ٢ – خلق البشر من تراب ٣ – التمايز بين مجارى المياه العذبة والبحار المالحة وما فى كل من ثروات وإمكان طفو السفن وسيرها فى كل منها. ٤ – تعاقب الليل والنهار.

١ – **«والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور** (أى البعث). **من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكَلِمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه** (أى يقبله) **والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور** (يحبط)» (٩ – ١٠)

ويلاحظ أنه قد تكرر فى أكثر من سورة نعمة الله فى سوق السحاب يحمل الأمطار التى تحيى الأرض الميتة. ففى السورة السابقة (الفرقان. آية ٤٨ ص ١٤٤) جاء **«وهو الذى أرسل الرياح بُشرًا بين يدى رحمته»**، وفى سورة الأعراف (آية ٥٧ ص ١٢٠) جاءت نفس الجملة ولكن بصيغة المضارع **«وهو الذى يرسل الرياح بُشرًا بين يدى رحمته»**. وليس ذلك بمستغرب إذ أن وادى مكة ليس به أنهار ويعتمد أهله على المطر لزراعة ما يحتاجونه لغذائهم ولإنبات المرعى لإبلهم وأغنامهم فكان المناسب تكرار لفت نظرهم إلى قدرة الله فى إنزال المطر ولو شاء لأمسكه عنهم فهلكوا. ثم تخبر الآيات الناس أن من يريد الشرف والقوة فليستمدها من الله بالطاعة فالله يقبل الدعاء الصالح ويُرفع العمل الصالح إليه والمفهوم أنه سيثيب عليه.

وهذا الإحياء للأرض بعد موتها يلفت النظر إلى قدرة الله فى إحياء البشر بعد موتهم لذلك كان ذكر قدرة الله فى خلق البشر:

٢ – **«والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا. وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يُعمَّر من مُعمَّر ولا يُنقص من عُمُره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير»** (١١).

فإن من مظاهر قدرة الله خلق البشر من تراب ثم تكاثرهم من نطفة بعد أن جعلهم ذكرا وأنثى. والكل متعلق بمشيئة الله وإرادته فى الحمل والولادة أو طول العمر وقصره وكل ذلك مسجَّل فى كتاب هو اللوح المحفوظ.

٣ - **«وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كلٍّ تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»**. (١٢).

وقد سبق - فى سورة الفرقان (الآية ٥٣ ص ١٤٥) بيان قدرة الله فى فصل المياه العذبة عن المياه المالحة. أما السورة الحالية فقد لفتت النظر إلى ما يصاد منهما من سمك وما يستخرج من البحار من اللؤلؤ والمرجان ومن مصاب بعض الأنهار يستخرج الذهب. والسفن تجرى فى كل منهما حاملة البضائع للتجارة. فمن الواجب شكر الله على هذه النعم.

٤ - **«يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجرى لأجل مُسمًّى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير. إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا يُنبئك مثل خبير»** (١٣ - ١٤).

وقد جاء التذكير بآية تعاقب الليل والنهار وآية الشمس والقمر فى سور كثيرة سابقة وكان الواجب شكر الله على ذلك ولكن الكفار راحوا يدعون من دونه شركاء ما يملكون من قطمير وهو قشرة النواة وهو أتفه شيئ لدى العرب. ولا يسمع الشركاء دعاء من يعبدونهم ولو سمعوهم ليس فى استطاعتهم الاستجابة لدعائهم. وفى يوم القيامة يتنصلون منهم ويتبرأون من عبادتهم. ويكفى أن الله هو الذى يخبر بهذه الأمور لنتأكد من صدقها.

الله هو الغنى :

ثم تأتى فقرة توضِّح للناس أن الله ليس فى حاجة إليهم وإنما هم الذين فى حاجة إلى الله. وهو غنى عن المنصرفين عنه حميد للمستجيبين إليه. ثم تنذرهم بقدرة الله على إبادة البشر جميعا والإتيان بقوم آخرين وليس ذلك بأمر صعب لأن الله هو الذى خلق الأوَل. وهو على الخلق الثانى قدير:

«يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد. إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وما ذلك على الله بعزيز» (١٥ - ١٧).

الأعمال أساس الجزاء :

ثم تأتى آيات تقرر أن كل فرد مؤاخذ بعمله وليس لأحد أن يحمل عن شخص آخر ذنبه. وللتدليل على هذا المعنى يؤتى بصورة امرأة حامل فمن غير المستطاع أن يقدر أحد التخفيف من ثقل حملها حتى ولو كان يمت لها بصلة قرابة. وعلى ذلك فالمكذبين سيتحملون وزر تكذيبهم. ومن طهّر نفسه وزكَّاها بالتقوى والعمل الصالح فثواب ذلك عائد عليه. ثم تهيب الآيات بالناس أن يتفكروا فالأعمى والبصير لا يستويان. وكذلك لا يستوى الظلام والنور ولا

الظل يستوى مع الحر الشديد ولا الأحياء مع الأموات فكل هذه أشياء واضحة ويستحيل الخلط بينها وكذلك الفرق واضح بين الذين يستجيبون لدعوة الحق والذين لا يستجيبون لها. فالله يعين الذين يسمعون الدعوة ويتقبلّونها أما الذين كفروا فهم كالأموات ولن يسمعوا دعوة الحق. ثم تأتى آيات تخفف عن النبى حزنه لتكذيبهم له فتُذكِّره بأنه ما هو إلا نذير مثل غيره من الرسل السابقين وكُذِّب كما كُذب المرسلون قبله. وقد أخذ الله الكافرين السابقين بعذاب. ثم يسأل الله بما معناه : ألم تكن هذه عقوبة رادعة ؟ وفي هذا تحذير لمن كذبوا النبى من عذاب مماثل:

«ولا تزر وازرة وزر أخرى. وإن تدعُ مثقلة إلى حملها لا يُحمل منه شيئ ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير. وما يستوى الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور. إن أنت إلا نذير. إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير. وإن يكذبوك فقد كذَّب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير. ثم أخذتُ الذين كفروا فكيف كان نكير» (١٥ – ٢٦).

التنوية بفضل العلماء :

«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ. إن الله عزيز غفور. (٢٧ – ٢٨).

جُدَد تعنى طرائق أو خطوط وهو إشارة إلى الطبقات الرسوبية فى قطاعات الجبال ومنها يستدل الجيولوجيون على الحقب التى مرت بها ويعرفون مابها من معادن. والعلماء هم أكثر الناس خشية لله لأنهم بتعمُّقهم فى دراسة الكائنات يتوصلّون إلى حقائق تتوه فيها العقول فيوقنون أن لا بد وراءها خالق حكيم عليم. فالعالم الذى يدرس علم الأحياء يذهل إذ يرى الخلية التى لا ترى إلا بالميكرسكوب فيها مولدات للطاقة ومركبات لتبادل المعلومات وإصدار الأوامر وتنفيذها لتكوين المركبات الكيميائية التى تحتاجها الخلية أو مركبات تحتاجها خلايا بعيدة فى الجسم. وكمثال ثان فإنه عند انقسام الخلية تكون الخلايا الجديدة بها نفس عدد كروموسومات الخلية الأصلية إلا أنه عند انقسام خلايا الخصية أو المبيض تنتج خلايا بها نصف العدد الأصلى للكروموسومات. وعند تكون الجنين تكون نصف خلاياه من الأب والنصف الثانى من الأم فيرث خصائص الأبوين. ناهيك عن الطاقة الكامنة فى الذرة على صغرها فإذا انشطرت انطلقت منها طاقة هائلة. فمن الذى حبس هذه الطاقة داخل الذّرة! وكم من عالم فى الغرب هتف بقلبه وعقله قائلا: سبحان الله!

ويرى بعض العلماء المعاصرين أن النص على إختلاف الألوان بالنسبة إلى الثمار والناس والدواب فيه إعجاز علمى. إذ فيه إشارة إلى قوانين الوراثة التى اكتشفها «مندل» عام ١٩٠٠ وتنبأ بوجود الجينات والكروموسومات وأن التزاوج بين الذكر والأنثى ينتج عنه فى السلالة صفات تختلف حسب نسبة ما يرثه الفرد من كل من الأبوين. والتباين فى السلالة الذى ينتج عن اختلاف ٩ جينات يساوى ٢^٩ أى ٥١٢ فردا مختلفا. ولنا أن نتصورَّكم يكون الاختلاف عند احتساب مافى الخلية من آلاف أو مئات الآلاف من الجينات. فكلمة «ألوانه» – بمفهومها الأوسع – تشمل جميع صفات الكائن الحى والتى هى مجال لكثير من «ألوان» الاختلافات.

جزاء المؤمنين :

«إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور. ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور. والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير. ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير. جنات عدن يدخلونها يُحلُّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير. وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحَزَن إن ربنا لغفور شكور. الذى أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسُّنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب (تعب أو إعياء) (٢٩ – ٣٥).

جزاء الكافرين :

«والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضَى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كَفُور. وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أوَلَم نعمِّركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير» (٣٦ – ٣٧).

أى أن الذين كفروا سيكونون فى عذاب شديد دائم لا يموتون فيستريحون من العذاب ولا يُخفف منه شيئ وحينئذ يندمون على ما فاتهم ويستغيثون بالله ليعيدهم ثانية إلى الدنيا ليؤمنوا بما رفضوه سابقا وليعملوا عملا صالحا فيقال لهم لقد مُنحتم الفرصة الكافية بطول العمر ودعوة الرسل فأضعتموها فليس للظالمين يومئذ من نصير.

ثم تستمر الآيات توضح للكافرين أن الله يعلم غيب السموات والأرض ويعلم سرائر النفوس وعليهم أن يتحملوا تبعة كفرهم. ثم تعود الآيات لتذكِّر بمظهر من مظاهر قدرة الله فى الكون فى إمساكه السموات والأرض حتى لا تزولا. ولو حدث ذلك لن يستطيع أحد غيره أن يمسكهما. والسموات هى كل ما علانا وعلا أرضنا وهى مكونه من ملايين المجرات وكل مجرة

بها ملايين الشموس مثل شمسنا وتدور حولها كواكب مثل كوكبنا. وكلها تسير بسرعات هائلة في مدارات محددة حتى لا يصطدم بعضها ببعض:

«إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور. هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرُهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرُهم إلا خساراً. قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات. أم آتيناهم كتابا فهم على بيِّنة منه بل إن يَعِدُ الظالمون بعضُهم بعضًا إلا غرورا. إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا» (٣٨ - ٤١).

ثم تمضى الآيات :

«وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونُنّ أهدى من إحدى الأمم. فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا. استكبارا فى الأرض ومكرَ السيئ ولا يحيق المكرُ السيئ إلا بأهله. فهل ينظرون إلا سنة الأولين ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا» (٤٢ - ٤٣).

قيل إن قريشا - قبل بعثة النبى - بلغهم أن طائفة من أهل الكتاب كذَّبوا رسلهم فقالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم رسلهم فكذبوهم. فوالله لئن جاءنا رسول لنكونن أهدى من هذه الأمم. فلما جاءهم النبى كذبوه وازدادوا كفرا ونفورا واستكبارا عن اتباع النذير وراحوا يمكرون به وتأتى جملة **«ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله»** لتدل على أن مكرهم سيرتد إليهم. وليضرب بها المثل بعد ذلك فى كل موقف مشابه. ثم يأتى تحذير من أن ينالهم مثل ما نال الأمم السابقة من عذاب لأن سنة الله لن تتبدَّل ولن تتحوَّل.

ثم يأتى تساؤل يستنكر غفلتهم وعدم اعتبارهم. فلو ساروا فى الأرض لرأوا آثار الأمم السابقة وما حاق بها جزاء تكذيبهم لرسلهم مع أنهم كانوا أشد قوة من كفار قريش وما استعصوا على الله. ثم تقرر الآية الأخيرة فى السورة أن الله لو عجَّل للناس حسابهم على كل شيئ يفعلونه لما بقى أحد من البشر لكثرة أخطائهم ولأنهم مُقصِّرون دائما عن القيام بواجباتهم ولكن الله يمهلهم فقد يتوب بعضهم. فإذا جاء وقت الحساب فإن الله بصير بالعباد ولا يخفى عليه شيئ منهم والمعنى أنه لو شاء عذب وإن شاء غفر:

«أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيئ فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا. ولو يؤاخذ الله الناسَ بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمًى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا» (٤٤ - ٤٥).

ثم نزلت **سورة مريم :**

وقد سميت بهذا الإسم لورود قصة مريم ابنة عمران والدة المسيح بها. وقد تعرضت

السورة لقصة عدد من الأنبياء، بدأت بقصة زكريا ويحيى، ثم قصة مريم وولادة المسيح ثم قصة إبراهيم. بعد ذلك تأتى إشارات قصيرة إلى موسى وإسماعيل وإدريس.

«كهيعص. ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيًا ..»

وتبدأ السورة بخمسة حروف مقطعة . وبعدها تأتى قصة زكريا ويحيى فى الآيات ٢ - ١٥ . وقد فصلناها فى الجزء السادس (ص ١٥ - ٢١ ، ٤٣ - ٤٧). ثم ذكرت قصة مريم وولادة المسيح فى الآيات ١٦ - ٣٦ وقد فصلناها فى الجزء السادس ص ٢٢ - ٢٩ .

إلى قوله تعالى : **ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون. وإن الله ربى وربكم فاعبدوه. هذا صراط مستقيم»** (٣٤ - ٣٦).

ولاشك أن هذه الآيات جاءت ردا على مجادلة بين النبى وعدد من النصارى جاءوا إلى مكة فى تجارة أو جاءوا ليستطلعوا ما سمعوه عن ظهور نبى بمكة . فلما قابلوه كان من الطبيعى أن يسألوه رأيه فى مريم والمسيح.

ونلاحظ هنا الرفق الشديد فى تناول معتقد النصارى فى بنوة عيسى لله فتقرر الآيات أن جلال الله وعظمته لا يتفق مع اتخاذه من البشر ولدا وينزهه عن ذلك بقول **«سبحانه»** ثم تقرير مطلق قدرة الله وطلاقة مشيئته فإذا أراد خلق شيئ قال له كن فيكون ولعل المقصود بإيراد هذا المعنى فى هذا الموضع هو لفت النظر إلى أن الله سبحانه وتعالى لو أراد أن يتخذ ولدا لخَلَقَه من لدنه ولا ينتظر حتى تلد مريم ثم يتخذ ابنها ولدا له. ثم يأتى تسجيل لقول عيسى **«وإن الله ربى وربكم فاعبدوه»** متفقا مع نفى الألوهية عن نفسه بل هو يدعو إلى عبادة الله وحده.

وتختم هذه الفقرة عن مريم والمسيح بتسجيل ما حدث من اختلاف فرق النصارى حول طبيعة المسيح. وهو ما ذكرناه بالتفصيل فى الجزء السادس ص ١٣٦ - ١٤١. ثم آيات فيها تحذير للمنحرفين عن الحق مما سوف ينالهم يوم القيامة حين يرجع كل شيئ إلى الله «نرث الأرض» فيتحسرون على غفلتهم.

«فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم. أسمِع بهم وأبصِر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين. وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون. إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون» (٣٧ - ٤٠).

قصة إبراهيم عليه السلام :

ذكرت هذه القصة فى الآيات ٤١ - ٥٠ وكانت تلك هى أول إشارة لقصته فى القرآن الكريم:

«واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صِدِّيقا نبيا. إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا. يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا. يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عَصِيًا. يا أبت إنى أخاف أن يمسَّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا. قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مَلِيًّا. قال سلام عليك سأستغفرلك ربى إنه كان بى حفيا. وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا. فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا. ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عَلِيا» (٤١ - ٥٠).

وقد ذكرنا قصة إبراهيم بالتفصيل فى الجزء الثانى (ص ٢١٦ - ٣٠٦).

ومما يلاحظ أن الآيات الحالية قد ركَّزت على تسفيه عبادة الأصنام وبيان أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع. ويكون تخوُّف إبراهيم على والده أن يمسَّه عذاب من الله بسبب عبادة الأصنام يعنى أيضا تخوُّف من أن يمسَّ قريشا عذاب لعبادتهم الأصنام. وتنتهى الفقرة بتوضيح أن إبراهيم لما فارق أباه وقومه وآلهتهم أكرمه الله بالذرية الصالحة: إسحق ويعقوب وكلاً كان نبيا.

ثم تأتى قصة **موسى**. ولما كانت قد وردت مفصلة فى سورة الأعراف (الآيات ١٠٣ - ١٧٤ ص ١٢٤). فقد اكتُفِىَ هنا بإشارة خاطفة:

«واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مُخلَصًا وكان رسولا نبيا. وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا. ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا» (٥١ - ٥٣).

ثم إشارة سريعة إلى **إسماعيل** وقد سبق ذكر اسمه فى سورة ص (آية ٤٨ ص ١١٣) فى سياق عدد من الأنبياء وصفوا بأنهم أخيار وزيد هنا وصفه بالصدق وأنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة. وقد ذكرنا قصته بالتفصيل فى الجزء الثانى (ص ٣٦٩):

«واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا. وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا» (٥٤ - ٥٥).

وكذلك جاءت إشارة قصيرة إلى **إدريس**. وهذه أول مرة يجئ ذكره فى القرآن. ولاشك أن العرب حدَّسوا أنه هو النبى الذى يسميه أهل الكتاب «أخنوخ» إذ جاء فى التوراة (٦ تكوين ٢٤): وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه وهى نفس النهاية التى ذكرها القرآن:

«واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صِدِّيقا نبيا. ورفعناه مكانا عَليا» (٥٦ - ٥٧).

وقد ذكرناه بالتفصيل فى الجزء الأول (ص ٤٥).

تنويه بالأنبياء وبيان مسلك أتباعهم :

«أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجَّدًا وبُكِيا. فخلف من بعدهم خَلْف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غَيا. إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا. جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا. لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا. تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا» (٥٨ - ٦٣).

وقد قررت الآيات أن هؤلاء الأنبياء كانوا إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم خشعوا وخروا ساجدين لله متضرعين إليه باكين من خشيته. وأن فريقا من أتباعهم ضلوا الطريق وفريقا آخر عمل الصالحات وسيدخلون الجنة.

نـــزول الملائكـــة :

قيل أبطأ الوحى على النبى عدة أيام مما جعل النبى يقلق ويحزن. وراح المشركون يشمتون ويسخرون من سبب إبطائه كما سبق أن فعلوا عندما أبطأ الوحى مدة ٤٠ يوما والتى نزلت بعدها سورة الضحى (ص ٦٢). ويروى أن النبى سأل جبريل عن سبب إبطائه وعما إذا كان فى إمكانه أن يزوره أكثر مما يفعل فأجابه:

«وما نتنزَّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نَسِيًّا. ربُّ السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سَمِيًّا» (٦٤ - ٦٥).

وفى هذا الرد يوضح جبريل حدود الملائكة إزاء العزة الإلهية وأنهم - وجبريل منهم - لا ينزلون إلا بأمر الله وأن تأخره عليه لم يكن نسيانا من الله سبحانه وتعالى فهو رب السموات والأرض. ثم يأمر النبى بمداومة العبادة فليس له نظير يستحق العبادة.

قضيــة البعــث :

كانت قضية البعث بعد الممات من القضايا الكبرى التى تصدى الإسلام لاقناع الناس بها فجميع بلدان الشرق الأدنى كانت وثنية وتنكره - إلا من كانوا على النصرانية - فلم يملّ الإسلام من تكرار التذكير بها وإيراد مشاهد مما سيحدث فى يوم القيامة ولا تكاد سورة من سور القرآن تخلو من هذا الموضوع:

«ويقول الإنسان أإذا ما مِت لسوف أُخرج حيا. أوَلاَ يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئا. فوربك لنحشرنَّهم والشياطينَ ثم لنُحضِرنهم حول جهنم جِثِيا. ثم لننزِعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عِتِيا. ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صِليا. وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا. ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثِيا» (٦٦ - ٧٢).

وفى هذه الآيات يتساءل الإنسان المنكر للبعث عما إذا كان حقا سيبعث بعد موته، ويُرَدُّ عليه بتساؤل عما إذا كان يجهل أن الله تعالى خلقه من العدم فيشك فى قدرته على إحيائه بعد موته. ثم يأتى قَسَم بالله فيه تكريم للنبى «فوربك» وجوابه وعيد للمكذبين بأن الله سيحشرهم ومعهم شياطينهم جاثين حول جهنم أذلاء صاغرين وسيختص بالعذاب الأشد أكثرهم عصيانا وتمردا على الله فالله أعلم بمن يستحق أن يصلى النار أكثر من غيره. وكل الناس يَرِدون عليها حين يمرون على الصراط ولكن الله ينجى المتقين فى حين يسقط الظالمون فى النار.

تعالِى الكفار على المؤمنين :

أ – جاءت الآيات التالية تندد بتعالِى الكفار على المؤمنين واعتزازهم بمالِهم وجاهِهم ثم تُذكِّر بهلاك الكفار من الأقوام السابقين مع أنهم كانوا أكثر ثراء وأبهى منظرا وترد عليهم بأن الله يمهل من كان فى الضلال وجزاؤه عذاب فى الدنيا أما إذا أدركه الموت – ومن مات قامت قيامته – فسيدرك حينئذ أن له شر مقام ولن ينصره أحد. أما المؤمنون فيزيدهم الله هدى ويوفقهم للعمل الصالح ولهم خير ثواب عند الله :

«وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نَدِيًا (مجلسًا فى ناديهم)**. وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورِئياً** (منظرا)**. قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مَدًا حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا. ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مَرَدًا»** (عاقبة) (٧٣ – ٧٦).

ب – ويروى أنه كان لأحد المسلمين دين على أحد زعماء الكفار فطالبه به فقال له لا أؤديه لك حتى تكفر بمحمد. فقال له لن أكفر حتى تموت ثم تبعث فقال له على سبيل التهكم: إذن سيكون لى حينئذ مالٌ وولد فأوفيك دينك فنزلت الآيات:

«أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا. أطَّلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا. كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً. ونرثه ما يقول ويأتينا فردا» (٧٧ – ٨٠).

جـ – ثم تستمر الآيات تسجل جانبا من أقوال المشركين وأفعالهم :

«واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضِدا. ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزًا. فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً. يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا. ونسوق المجرمين إلى جهنم وِردا. لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا» (٨١ – ٨٧).

والآيات تندد بالكافرين الذين عبدوا من دون الله آلهة وتخبر بأنهم يوم القيامة سيكفرون بعبادتهم ويتبرأون منها. وقد جاء هذا المعنى نفسه فى سورة فاطر (الآية ١٤ ص ١٤٩) فى

قوله تعالى: «**ويوم القيامة يكفرون بشرككم**». ولا شك أن المشركين قد بدأوا يراجعون موقفهم ويسألون أنفسهم إن كانت هذه الأصنام ستنصرهم ولكنهم لإنكارهم البعث لم يصلوا إلى الإجابة الصحيحة. والأزُّ هو الهز بشدة والمعنى تجرُّهم إلى الإغواء جرا يصاحبه ضجيج. وتأمر الآيات النبى بعدم تعجُّل العذاب لهم لأن الله يمهلهم ويحصى عليهم أعمالهم ويعدها عملا عملا ليجازيهم بها يوم القيامة حين يحشر المتقون إلى الجنة ويساق المجرمون إلى جهنَّم وفدا ونصيبيا لها منهم.

نفى أن يكون لله ولد :

«وقالوا اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدًّا. تكاد السموات يتفطَّرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا. أن دعوا للرحمن ولدا. وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا. إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدَّهم عدًّا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدًّا» (٨٨ - ٩٦).

وقد نعت الآيات فى أول السورة على النصارى قولهم إن عيسى ابن الله وردَّت عليهم بقوله تعالى (الآية ٣٥ ص ١٥٣) «**ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه**». وجاءت الآيات الحالية تنعى علي المشركين - أيًّا كانوا - نسبتهم الولد إلى الله فاليهود قالوا عزير ابن الله والنصارى قالوا المسيح ابن الله والكفار قالوا الملائكة بنات الله. وهذا شيئ فظيع ومنكر «**شيئا إدًّا**». ولا يستقيم مع العقل أن يكون لله ولد إذ أن كل من فى السموات والأرض هم عبيد الله وسيحشرهم إليه يوم القيامة منفردين عن النصراء والولد والمال وسيضفى الله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات حبا من عنده «**ودًّا**».

ويجئ ختام السورة :

«فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لُدًّا، وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا» (٩٧ - ٩٨).

والآيات تقرر أن القرآن إنما أنزل بلسان النبى أى باللسان العربى ليسهل على العرب فهمه. ليبشر به النبى الذين آمنوا وينذر به الكافرين الذين لدُّوا فى الخصومة «قوما لُدا» ليرتدعوا. وها هى الأمم السابقة الذين كذبوا رسلهم قد نزل بهم هلاك جارف حتى لم يبق منهم أحد ولا تسمع لهم صوتا ولو خفيفا. والركز فى اللغة هو الصوت الخفى.

ثم نزلت **سورة طـه :**

وسورة طه تلت سورة مريم فى النزول وهى أيضا التالية لها فى ترتيب المصحف وقد بدأت السورة بحرفين من حروف الأبجدية هما الطاء والهاء «طه» وهما ولاشك - مثل الحروف المقطعة التى بدأت بها سور كثيرة سابقة - جاءا للتنبيه واسترعاء الانتباه. ورأى البعض أن

«طه» اسم من أسماء النبى وعليه فقد تسمى به كثير من الناس كما تسموا باسم «ياسين». ويرى بعض المفسرين أن معناها «يارجل» فى لهجة قبيلة عك. وقيل معناها طأها أى الأرض إذ كان النبى يطيل الوقوف على مقدم قدميه وهو يصلى حتى ورمت قدماه مستدلين على هذا المعنى بما جاء بعدها من أمر للنبى بأن القرآن لم ينزل عليه ليشقى أو ليرهق نفسه وإنما ليكون تذكرة لمن يخاف الله. أنزله الله خالق السموات والأرض له ما فيهما وما بينهما وما هو مختف تحت سطح الأرض. ومن قدرته أنه يعلم الجهر ويعلم ما يُسِرُّه بعض الناس لبعض وحتى ماهو أخفى من ذلك وهو حديث النفس. هو الله لا إله إلا هو له الأسماء والصفات الحسنى:

«طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلاَّ تذكرة لمن يخشى. تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى. الرحمن على العرش استوى. له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى. الله لا إله إلاَّ هو له الأسماء الحسنى» (١-٨).

وقد سبق ذكر معنى الاستواء على العرش فى سورة الأعراف (الآية ٥٤ ص ١٢٠).

قصة موسى وفرعون :

وقد ذكرت القصة باستفاضة فى ٨٩ آية من الآية ٩ إلى ٩٨ وفيها تكملة لبعض النقاط التى لم تذكر في سورة الأعراف (ص ١٢٤ - ١٢٥):

ففى الآيات ٩ - ٢٣ يُذكر خروجه من مدين ورؤيته للنار المقدسة فى جانب الطور واصطفاؤه نبيا ثم عرض لآيتى العصا واليد.

وفى الآيات ٢٤ - ٣٦ طلب موسى العون من الله لإتمام مهمته على خير وجه وكذلك طلب إشراك أخيه هارون فى الرسالة معه واستجابة الله لطلبه.

وفى الآيات ٣٨ - ٤١ يُذكر مولده وإلقاؤه فى النهر.

وفى الآيات ٤٢ - ٤٥ الأمر بالذهاب إلى فرعون .

وفى الآيات ٤٦ - ٥٨ المقابلة الأولى مع فرعون .

وفى الآيات ٥٩ - ٧٦ لقاء يوم الزينة وإيمان السحرة بموسى وتهديد فرعون لهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم فى جذوع النخل.

وفى الآيات ٧٧ - ٧٩ خروج بنى إسرائيل من مصر ومطاردة فرعون لهم وغرقه.

وفى الآيات ٨٠ - ٩١ يذكر ميقات موسى مع ربه واتخاذ بنى إسرائيل العجل.

وفى الآيات ٩٢ - ٩٨ التحقيق فى حادثة العجل وسؤال هارون وسؤال السامرى.

ثم تأتى ٣ آيات توضح سبب إدراج هذه القصة. وهو التذكير والعظة وأن من يعرض عن ذكر الله - كما فعل فرعون وقومه - فله عذاب شديد يوم القيامة:

«كذلك نقصُّ عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا. من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا. خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حِملا» (٩٩ - ١٠١).

بعض مشاهد يوم القيامة :

ثم تأتى الآيات ١٠٢ - ١١٤ تصف بعض مشاهد من يوم القيامة ومسلك الخلق فى ذلك يوم اليوم الرهيب وحوار بين الكفار عن مقدار مالبثوا فى قبورهم قُصِد به تصوير قوة المباغتة التى سيباغتون بها وقِصر موعد الوعد الربانى الذى كانوا يرونه مستحيلا، مما يثير الخوف فى نفوسهم من ذلك اليوم فيؤمنوا:

«يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا (عُميا أو عطاشا)**. يتخافتون بينهم** (يتحاورون محاورة خافتة) **إن لبثتم إلا عشرا. نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة** (أوفرهم عقلاً) **إن لبثتم إلا يوما. ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا** (تتفتت وتطير ذراتها)**. فيذرها قاعا صفصفا** (سهلا مستويا) **لاترى فيها عوجا ولا أمتا** (انحناء ولانتوءا)**. يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له** (اتباعا تاما لا تلكؤ فيه) **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا. يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما. وعنت** (ذلت وخضعت) **الوجوه للحىِّ القيوم وقد خاب من حمل ظلما** (اقترف خطيئة وظلما)**. ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما** (تضييعا لحقه)**. وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرَّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا. فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما»** (١٠٢ - ١١٤).

ونلمح فى الآيات قوة الوصف والتعبير وقوة الوعيد والإنذار والترغيب والترهيب.. وهو ما يثير الخوف لدي الكفار. ثم تقرر الآيات أن القرآن نزل بلسان عربى مبين حتى لا تكون للعرب حجة بأنه نزل بلغة لا يفهمونها أو لا يجيدونها فكان نزوله بالعربية توكيدا لحسن استيعابهم لما جاء فيه من الوعيد فيتقوا الله. وفى الآية الأخيرة أمر للنبى بألا يعجل بتلاوة القرآن قبل أن يتم وحيه. وقد سبق ذكر هذا المعنى فى سورة القيامة (آية ١٦ ص ٩٣) فى قوله تعالى: **«لا تُحرِّك به لسانك لتعجل به»**.

قصة خلق آدم :

ثم تذكر الآيات قصة خلق آدم ورفض إبليس السجود له. وقد سبق ذكر هذه القصة فى سورة ص (الآيات ٧١ - ٨٥ ص ١١٤) مع التركيز على عداوة إبليس لبنى آدم وتوعُّدهم بالغواية والإضلال. كذلك جاءت فى سورة الأعراف (آية ١١ - ٢٦ ص ١١٧) مع ذكر تفاصيل أكثر عن وسوسة الشيطان لآدم وزوجه فى الجنة حتى أخرجهما منها. وهنا - فى سورة طه - أعيد ذكر وسوسة الشيطان لآدم حتى أخرجه من الجنة تأكيدا على عداوة الشيطان لبنى آدم.

«ولقد عـهدنا إلى آدم من قـبلُ فنسِىَ ولم نجد له عـزمًـا، وإذ قلنا للمـلائكة اسـجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمؤ فيـها ولا تضحى، فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدمُ ربه فغوى، ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى، قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتَّبع هداى فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى» (١١٥ – ١٢٧).

والجديد هنا هو ما ذكر عن توبة آدم بعد عصيانه أمر ربه . وما ينتظر بنى آدم العاصين المعرضين عن ذكر الله من معيشة لا سعادة فيها لضيق الرزق ثم يأتى يوم القيامة أعمى كما كان فى دنياه أعمى البصيرة وعَمِىَ عن النظر فى آيات الله، وعذاب الآخرة أشد مما قد ينزل به من عذاب فى الحياة الدنيا.

تبكيت للكفـار :

وتأتى الآيات بهذا التبكيت بسؤال الكفار كيف يتعامون عن آيات الله وقد تبين لهم إهلاك الله لكثير من الأمم السابقة بسبب كفرهم، وكيف أنهم لم يتعظوا مع أنهم يمشون فى ديارهم ومساكنهم مع ما فى ذلك من عظة لمن كان له عقل راجح، والعقل ينهى عن المعاصى وسُمِّى العقلاء «أولوا النهى»، ولولا أن الله قد حكم مسبقا بتأخير العذاب عن قريش لكان العذاب لازما لهم كما لزم السابقين:

«أفلم يهدِ لهم كما أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى، ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزامًا وأجلٌ مُسمًّى» (١٢٨ – ١٢٩).

حث على الصبر والاجتهاد فى العبادة :

ثم يجئ أمر للنبى بأن يصبر وأن يتحمل ما قد يؤذيه من أقوال الكافرين، ثم دعوة بالاجتهاد فى العبادة والصلاة وذكر الله فى كل الأوقات: فى الفجر قبل طلوع الشمس وفى الآصال قبل غروبها وفى ساعات الليل وآنائه وفى أطراف النهار لتقر عينه وترضى نفسه بما أعده الله له من ثواب، وألا يتعدى بنظره إلى ما متَّع الله به بعض فئات الكفار من متع الحياة الدنيا لأن هذه ما هى إلا ابتلاء واختبار من الله لهم وقد ادَّخر الله له ما هو خير وأكثر دواما من هذا المتاع، ثم أمر بحث الأهل على الاجتهاد فى العبادة:

«فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . ومن آناء الليل فسبِّح وأطراف النهار لعلك ترضى. ولا تمدَّنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى. وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى» (١٣٠ - ١٣٢).

المشركون يطلبون معجزة :

تذكر الآيات أن المشركين طلبوا أن يأتيهم النبى. بآية معجزة دليلا على نبوته ويجئ الرد فى صيغة سؤال استنكارى مضمونه أنهم قد جاءتهم الكتب السماوية السابقة ولم يؤمنوا . ولو أن الله أهلكهم قبل إرسال النبى لاعتذروا يوم القيامة بأن الله لم يرسل لهم نبيا حتى يتبعوه ويؤمنوا . ثم أمر للنبى بأن يقول لهؤلاء المعاندين أن ينتظروا ويتربصوا وسيتبين لهم يوم القيامة من كان على الصراط المستقيم:

«وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أوَ لم تأتهم بينةُ مافى الصحف الأولى. ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتَّبع آياتك من قبلِ أن نَذِلَّ ونخزى. قل كلٌّ متربصٌ فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوِىِّ ومن اهتدى» (١٣٣ - ١٣٥).

الهجرة إلى الحبشة :

نحن الآن فى رجب من السنة الخامسة لبدء دعوة النبى للإسلام وكان ما نزل من القرآن كافيا لإقناع قريش بصدق رسالته وكان عليهم أن يُسلموا ولكنهم استمروا على كفرهم وبدأوا فى إيذاء من أسلم فى محاولة منهم لردِّهم إلى دين الآباء ولإرهاب من يفكر فى أن يسلم. كان النبى فى منعة بما أضفاه عليه بنو هاشم من حماية كما كان المسلمون ذوو المكانة فى حمى عشائرهم إلا من بعضهم الذين جاءهم الأذى من عشائرهم أنفسهم. أما المستضعفون من المسلمين فقد كانت قريش تنزل بهم من صنوف العذاب مالا يتحمله بشر كما سبق أن ذكرنا (ص ٨٠).

وبدأ النبى يفكر فى بلد يرسل إليه أصحابه لإنقاذهم من تعذيب قريش. كان الجزء الأكبر من اليمن خاضعا للفرس الذين يدينون بالمجوسية ولا يحترمون الأديان السماوية وكانوا يطمعون فى فرض نفوذهم على الحجاز حتى يتصل نفوذهم من العراق إلى اليمن. وكذلك كان الشام مكانا غير آمن للمسلمين لما لقريش من نفوذ هناك بسبب الصلات التجارية التي تربطهم بسكانها . هذا بجانب نفوذ الروم الذين كانوا يطمعون فى فرض النصرانية على الحجاز ليتصل نصارى الشام بنصارى نجران. وكانت الحبشة يحكمها النجاشى وكان مشهورا بالعدل وليس لقريش نفوذ هناك فقال النبى لأصحابه: لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه.

الفوج الأول من المهاجرين :

لاشك أن المسلمين تخوَّفوا من تغرُّبهم فى أرض جديدة لا يعلمون ما قد يلاقونه فيها من شظف العيش ولا كيف تكون إقامتهم. فرأى النبى أن يكون أحد أهل بيته ضمن هؤلاء المهاجرين الأُوَل وتشجَّع عدد قليل من المسلمين وعزموا على الهجرة فكان الفوج الأول يتكون من:

١ – عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبى ومعهما أم أيمن.

٢ – الزبير بن العوام .

٣ – مصعب بن عمير .

٤ – عبد الرحمن بن عوف .

٥ – عثمان بن مظعون .

٦ – أبو سلمة المخزومى بن عبد الأسد وزوجته أم سلمة.

٧ – عامر بن ربيعة ومعه امرأته .

٨ – سهيل بن وهب من بنى الحارث .

٩ – أبو حاطب بن عمرو من بنى عامر .

١٠ – أبو سيرة من بنى عامر .

فكان هؤلاء أول من هاجر إلى الحبشة وأمَّر عليهم النبى عثمان بن مظعون.

وسرى الخبر فى مكة أن فريقا من المسلمين يزمعون الخروج إلى الحبشة وبلغ الهمس مسامع عمر بن الخطاب فانطلق مسرعا إلى دار صديقه عامر بن ربيعة فرأى امرأته وقد تجهَّزت للرحيل فيمن سيرحلون تنتظر عودة زوجها ليلحقوا بالجماعة المهاجرة. وحزَّ فى نفس عمر أن علم أن صديقه عامر سيهاجر فسأل زوجته: إلى أين يا أم عبد الله؟ قالت: آذيتمونا فى ديننا. نذهب إلى أرض الله حيث لا نؤذى. فأطرق عمر برأسه وقال صحبكم الله ثم ذهب. ولما رجع زوجها عامر أخبرته بما رأت من عمر وأسفه لرحيلهما ورقته فى كلامه فقال: ترجين أن يسلم عمر. والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب!

وودَّع كل بيت أبناءه المهاجرين. وفى سكون الليل انطلقوا. منهم الراكب ومنهم الماشى إلى شاطئ البحر عند الشعيبة وهى ميناء مكة فألفوا سفينتين متجهزتين للسفر فحملهم أصحابها وكان القمر بدرا فقد كان خروجهم فى نصف رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية. وكان الهمس قد بلغ مسامع قريش فخرجوا فى أثرهم ليعيدوهم ولكنهم وصلوا بعد أن أقلعت السفينتان.

ومرت الأيام والشهور. وكان أبو بكر يلاقى من عنت المشركين ما ينال باقى المسلمين حتى ضاقت عليه مكة فاستأذن رسول الله فى الهجرة إلى الحبشة فأذن له. فخرج أبو بكر قاصدا

ميناء الشعيبة حتى إذا كان فى منتصف الطريق لقيه ابن الدغنة بن عبد مناة من كنانة وسأله إلى أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجنى قومى وآذونى وضيّقوا علىَّ. قال ولِمَ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف. ارجع فأنت فى جوارى. فرجع معه حتى إذا دخل مكة قال ابن الدغنة: يا معشر قريش إنى قد أجرت ابن أبى قحافة فلا يعرضنَّ له أحد إلا بخير. فكفُّوا عنه. وكان لأبى بكر مكان يصلى فيه عند باب داره وكان رجلا رقيقا إذا قرأ القرآن استبكى فيقف عليه المارون يستمعون إليه. فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة وقالوا له: يا ابن الدغنة إنك لم تُجِر هذا ليؤذينا. إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى فنحن نتخوَّف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم. فمُره أن يدخل فى بيته فليصنع فيه ما شاء. فمشى ابن الدغنة إلى أبى بكر وأخبره ما قال له رجال قريش. فقال له أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله. وردَّ عليه جواره. فقال ابن الدغنة: يا معشر قريش إن ابن أبى قحافة قد ردَّ علىَّ جوارى فشأنكم بصاحبكم. وحدث أن سفيها من سفهاء قريش لقى أبا بكر وهو يصلى عند الكعبة فحثا على رأسه ترابا. فمر به الوليد بن المغيرة وقال له: أنت فعلت هذا بنفسك (لرده جوار ابن أبى الدغنة) ولكن أبا بكر لم يزد إلا عن قول: أى رب ما أحلمك ردَّدها ثلاثا وانصرف.

الفوج الثانى من المهاجرين إلى الحبشة :

لما بلغ المسلمين فى مكة ممن وفدوا فى موسم الحج. أن إخوانهم الذين هاجروا إلى الحبشة قد استقروا بها ولم يلاقوا صعوبات وتخلَّصوا من عذابات قريش تشجعوا على الهجرة وبعد عدة أشهر من الهجرة الأولى – أى فى حوالى ربيع الأول من السنة السادسة للبعثة النبوية – كانت الهجرة الثانية وكان فى هذا الفوج أيضا أحد أفراد بيت النبى : جعفر بن أبى طالب ابن عم النبى وبلغ عدد أفراد الفوج الثانى من المهاجرين ٨٣ رجلا عدا النسوة نذكر منهم :

١ ، ٢ – جعفر بن أبى طالب وزوجته أسماء بنت عميس.

٣ ، ٤ ، ٥ – عمرو بن سعيد بن العاص ومعه أمه وامرأته فاطمة بنت صفوان.

٦ ، ٧ – خالد بن سعيد بن العاص وامرأته أمينة بنت خلف.

٨ ، ٩ ، ١٠ – عبد الله بن جحش وأخوه عبيد الله بن جحش وامرأته حبيبة بنت أبى سفيان.

١١ ، ١٢ – قيس بن عبد الله من بنى أسد وامرأته بركة بنت يسار مولاة أبى سفيان.

١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ – عبد الله بن سهيل بن عمرو وسليط بن عمرو وأخوه السكران ومعه زوجته سودة بنت زمعة.

١٧ ، ١٨ ، ١٩ – قدامة وعبد الله أخوا عثمان بن مظعون رئيس الفوج الأول ومعهما السائب بن عثمان بن مظعون.

٢٠ ، ٢١ – عبد الله بن مسعود وأخوه عتبة .

٢٢ – معيقيب بن أبى فاطمة من موالى سعيد بن العاص .

٢٣ – جهم بن قيس العبدوى ومعه أم حرملة بنت عبد الأسود بن خزيمة.

٢٤ – عامر بن أبى وقاص أخو سعد .

٢٥ – المقداد بن الأسود .

٢٦ ، ٢٧ – ويشك فى هجرة عمار بن ياسر وأبى موسى الأشعرى فقد اختلف الرواة فيهما.

وهاجر غيرهم الكثير ممن يضيق المكان عن ذكر أسمائهم فقد بلغ المهاجرون – كلما قلنا سابقا – ٨٣ رجلا عدا أبنائهم ونسائهم. وفى تلك اللحظات الأخيرة قبل الفراق لم ينس رسول الله توجيههم فقال: إذا خرج ثلاثة فليؤمَّروا أحدهم. وأمَّر النبى عليهم جعفر بن أبى طالب يرجعون إليه فى شئونهم ويكون قوله الفصل إذا تحرجت الأمور.

إسلام عمر بن الخطاب :

كان خروج المهاجرين ليلا – وقد حملوا معهم ما قد يحتاجونه من متاع فى الغربة وتركوا وراءهم أهلهم وديارهم وأموالهم – قد أثر فى نفوس كثير من أهل قريش ومن بينهم عمر بن الخطاب. وحزن لهذه الفُرقة التى أصابت أهل مكة. فجلس وفكَّر فى أن يقتل «محمدا» إذ لولاه ما رحل هؤلاء عن ديارهم ولولاه ما وقعت هذه الفُرقة. فتوشح سيفه وذهب يريد رسول الله. وفيما هو فى طريقه لقيه نعيم بن عبد الله – أحد أصدقائه – وسأله وجهته فقال أريد محمدا هذا الصابئ الذى فرَّق أمر قريش وسفَّه أحلامها وعاب دينها وسبَّ آلهتنا فأقتله. فرد عليه نعيم: والله لقد غرَّتك نفسك من نفسك يا عمر: أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا؟ ألا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ فقال عمر: وأى أهل بيتى؟ قال ختنك (كل قرابة من جهة المرأة) وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما.

فرجع عمر واتجه إلى بيت أخته وزوجها وكان عندهما خباب بن الأرت ومعه صحيفة يقرئهما ما فيها من القرآن. فلما دنا عمر من البيت سمع قراءة خباب. فدق الباب ولما سمعوا صوت عمر اختبأ خباب فى ركن من أركان البيت ودخل عمر وقال: ما هذه الهينمة التى سمعت؟ فقالت فاطمة: ما سمعتَ شيئا. فقال بلى والله. لقد أُخبرتُ أنكما بايعتما محمدا على دينه. ولطم سعيد ابن زيد فقامت فاطمة لتدافع عن زوجها فضربها عمر فشجَّها فلما رأت الدم قالت: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمنا.

ولما رأى عمر دم أخته على وجهها رق قلبه لها ودخل وجلس على السرير ونظر فإذا بالصحيفة فى ناحية من البيت فقال ما هذه الصحيفة. أعطنيها. فقالت فاطمة: لا أعطيكها فلست من أهلها فنظر إليها فى دهش مستفسرا فقالت يا أخى إن الشرك نجس وهذه

الصحيفة لا يمسُّها إلا المطهَّرون. فقام عمر واغتسل ثم قال اعطيني الصحيفة فقالت: إنا نخشاك عليها. فأقسم لها باللات والعزى أنه سيردُّها فدفعتها إليه فراح يقرأ ما بها من صدر سورة طه :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى. تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى. الرحمن على العرش استوى. له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى. الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى».

فاغرورقت عينا عمر بالدموع وقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه. فخرج خباب من مخبئه وقال: يا ابن الخطاب أبشر. والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيه فإنى سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيِّد الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: الحكم عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب. فالله الله ياعمر! فقال عمر! فَدُلَّنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال له خباب وقد لمس الصدق فى قول عمر: هو فى بيت بأسفل الصفا معه فيه نفر من أصحابه. فأخذ عمر سيفه وتوشحه ثم سار إلى حيث رسول الله وأصحابه فضرب عليهم الباب. فلما سمعوا صوته قام رجل فنظر من ثقب فى الباب فرجع إلى رسول الله وهو فزع وقال: يارسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف. فقال حمزة بن عبد المطلب. إإذن له فإن كان يريد خيرا بذلناه له وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه فقال رسول الله إإذن له. فأذن له الرجل فدخل عمر ونهض إليه رسول الله حتى لقيه فى صحن الدار وأخذ بحجزته وجذبه جذبة شديدة وقال ما جاء بك يا ابن الخطاب فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة. فقال عمر: يارسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله. فكبَّر رسول الله تكبيرة عرف منها أصحابه أن عمر قد أسلم.

ويقول ابن اسحق: لما أسلم عمر سأل أىُّ قريش أنقل للحديث. فقيل له جميل بن معمر الجمحى. فراح إليه عمر وقال له: أعلمت ياجميل أنى قد أسلمت ودخلت فى دين محمد؟ فقام جميل على باب المسجد وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش. ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ. فرد عمر كذبت ولكن قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فتكاثر عليه شبان قريش ورجالها يريدون ضربه فتصدى لهم العاص بن وائل السهمى وسأل ما شأنكم؟ قالوا صبأ عمر قال: فمه. رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون. أترى بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبكم هذا؟ خلُّوا عن الرجل. فخلوا عنه.

وراح عمر يفكر فى أى أهل مكة أشد عداوة لرسول الله فتذكر أبا جهل فانطلق إليه ودق عليه الباب. فخرج أبو جهل وقال: مرحبا وأهلا بابن أختى. ماجاء بك؟ قال جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد وصدَّقت بما جاء به. فضرب أبو جهل الباب فى وجهه وقال: قبَّحك الله وقبَّح ما جئت به.

كان المسلمون لا يستطيعون أن يُصلُّوا بالكعبة آمنين. فلما أسلم عمر قال لرسول الله: ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ فقال النبى بلى. والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم أو حييتم. فقال عمر: ففيم الاختفاء. والذى بعثك بالحق ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام. والذى بعثك بالحق لنخرجُنَّ ولن يعبد الله سرا بعد اليوم. وخرج المسلمون فى صفين حمزة فى أحدهما وعمر فى الآخر حتى دخلوا المسجد وطاف رسول الله والمسلمون معه وصلُّوا مطمئنين ثم رجعوا إلى دار الأرقم وقد علت قريش كآبة لم يصبهم مثلها. ونظر النبى إلى عمر الذى فرق الله به بين الحق والباطل وقال له فى رضا واستبشار: الفاروق. فأصبح يُلقب بالفاروق عمر.

وفد قريش إلى النجاشي :

لما رأت قريش أن المهاجرين قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ائتمروا بينهم أن يبعثوا رجلين إلى النجاشى ليخرجهم من أرضه ويردَّهم. فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته ثم بعثوهما إليه. فخرجا حتى قدما إلى الحبشة. ودفعا أولا إلى كل بطريق هدية وقالا لهم إنه قد لجأ إلى بلد الملك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بَعَثنا إلى الملك أشراف قومهم ليردَّهم إليه وطلبا منهم أن يشيروا على الملك بتسليمهم إليهما ولا يكلمهم. فقالوا لهما: نعم. نحن نفعل. ثم إنهما قدَّما هدايا قريش إلى النجاشى وقالوا له: أيها الملك إنه قد لجأ إلى بلدك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بَعَثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم فهم أعلم بهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. وأمَّن البطارقة على كلامهما وأشاروا بتسليمهم إليهما. فغضب النجاشى وقال: لا أسلمهم إليهما. ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى حتى أسمع منهم. فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم. ثم أرسل إليهم فحضروا وسألهم: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من الملل؟ فكلَّمه. جعفر بن أبى طالب وقال: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيئ الجوار ويأكل القوى الضعيف فبعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصوم. فصدَّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله. فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا

عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان. فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك. فقال النجاشى: هل معك مما جاء به عن الله من شيئ؟ فقال له جعفر. نعم. وقرأ عليه صدر سورة مريم: «**كهيعص. ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفيا. قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا. ولم أكن بدعائك رب شقيا. وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليًا. يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيًا. يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًا. قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا. قال كذلك قال ربك هو علىَّ هيِّن وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا. قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً. فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا. يايحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا. وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيًا. وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيًا. وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا**» (١ - ١٥ مريم).

ونلاحظ أن جعفر بن أبى طالب قد اختار قصة زكريا ويحيى وهما النبيان اللذان عاصرا المسيح ولا اختلاف بين ما قصته التوراة عنهما وما جاء فى القرآن الكريم من قصتهما. قيل فبكى النجاشى حتى اخضلَّت لحيته وقال إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. ثم وجَّه الخطاب إلى المبعوثين وقال لهما. انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما.

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص والله لآتينه غدا عنهم بما يستأصل به جماعتهم. ثم غدا على الملك فى الغد وقال: أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه. فأرسل النجاشى إليهم. فلما جاءوا قال لهم: ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم. فقال جعفر بن أبى طالب: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. ثم قرأ «**واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا. فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا. قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا. قالت أنَّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا. قال كذلك قال ربكِ هو علىَّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيًا**» (١٦ - ٢١ مريم).

فقال النجاشى: والله ماعدا عيسى ابن مريم ما قلت. قيل فتناخرت بطارقته حوله فقال: وإن نخرتم والله. ثم وجه كلامه إلى جماعة المسلمين قائلا: اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى. من سبَّكم غرم وما أحب أن لى جبلا من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم. ثم قال لحجَّابه: ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها. فخرجا من عنده عائدين إلى مكة وأقام المسلمون عنده بخير دار مع خير جار.

عودة بعض المسلمين من الحبشة :

جاء إلى الحبشة أحد المسلمين وراح يقص على المهاجرين نبأ إسلام عمر وكيف أن الله أعزَّ به الإسلام وكيف أصبح المسلمون يُصلون بالكعبة ويجهرون بقراءة القرآن. فخرج بعضهم راجعين إلى مكة ظنا منهم أن الأمر قد استتبَّ للإسلام. فلما وصلوا ميناء الشعيبة أسرعوا السير إلى مكة حتى إذا اقتربوا منها لقوا ركبا فسألوهم عن قريش فأجابوهم أنها ازدادت عداوة للمسلمين. فلم يدخل أحد من العائدين مكة إلا مستخفيا أو فى جوار أحد من المشركين ذوى المكانة يمنعه من السفه عليه. وكان من تقاليد العرب ألا يردُّوا أحدا استجار بهم. وكان جملة من عادوا من الحبشة ٣٣ فردا نذكر منهم:

١ ، ٢ – عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله .

٣ ، ٤ – أبو حنيفة ابن عتبة بن ربيعة وامرأته سهلة بنت سهيل .

٥ – الزبير بن العوام .

٦ – سودة بنت زمعة وقد توفى زوجها السكران بن عمرو بن عبد شمس .

٧ ، ٨ – أم سلمة بنت زاد الركب بن المغيرة هى وزوجها أبو سلمة .

٩ – عبد الله بن جحش بن رئاب .

١٠ – مصعب بن عمير .

١١ – عبد الرحمن بن عوف .

١٢ إلى ١٥ – عثمان بن مظعون وأبناؤه الثلاثة : السائب وقدامة وعبد الله.

وقد دخل عثمان بن مظعون بجوار من الوليد بن المغيرة. ويروى عثمان بن مظعون أنه لما رأى ما فيه أصحاب رسول الله من البلاء وهو يغدو ويروح فى أمان بجوار الوليد بن المغيرة قال: والله إن غدوى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله مالا يصيبنى لنقص كبير فى نفسى. فرد جوار الوليد. ثم حدثت مشاحنة بينه وبين لبيد بن ربيعة – أحد المشركين – الذى قام بلطم عثمان بن مظعون على عينه فاحمرت. فقال له الوليد بن المغيرة: أما والله يا ابن أخى كانت عينك عما أصابها لغنيَّة لقد كنت فى ذمة منيعة . فقال عثمان. بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة لمثل ما أصاب أختها فى الله. وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر (يقصد جوار الله عز وجل) فقال له الوليد هلم إن شئت فعد إلى جوارك فرفض.

وكان أبو سلمة قد دخل مكة فى جوار أبى طالب. فمشى إليه رجال من قريش وقالوا له: يا أبا طالب. لقد منعت منا ابن أخيك محمداً فما بالك ولصاحبنا تمنعه منَّا؟ قال إنه استجار بى وهو ابن أختى. فقام أبو لهب فقال:: يا معشر قريش. والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ماتزالون تتواثبون عليه فى جواره من بنى قومه. والله لتنتهُنَّ عنه أو لنقومَنَّ معه فى كل مقام

فيه حتى يبلغ ما أراد. فقالوا ننصرف عما تكره يا أبا عتبة. إذ خشوا أن تبلغ الحمية بأبى لهب لأبعد من هذا.

المقاطعة والصحيفة :

اجتمع كفار قريش فى دار الندوة وقلوبهم تنزف حقدا وغضباً فأمرُ «محمد» يشتد وأتباعه يزيدون ولا ينقصون. ويتحملون ما ينزلونه بهم من تعذيب فى صبر عجيب. وينالونهم بالأذى والمضايقات فلا يزيدهم ذلك إلا تمسكًا بالدين الجديد. وراح رؤوس الكفر يتشاورون. وفكروا فى قتل «محمد» ولكنهم خشوا انتقام بنى هاشم وبنى المطلب - من آمن منهم بمحمد. ومن لم يؤمن - أخذا بالثأر مما يشعلها نارا توسع شقة الخلاف فى مكة. واقترح النضر بن الحارث أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى المطلب فلا يناكحوهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم وهذا ما يسمى فى عصرنا «الحصار الاقتصادى» أو «العقوبات الاقتصادية» التى تفرضها الدول الكبار على من لا ترضى عنهم من الدول الصغيرة . واتفقوا على أن يكتبوا بذلك صحيفة ويعلقوها فى الكعبة توكيدا على أنفسهم وأن تستمر هذه المقاطعه حتى يرضخ بنو هاشم وبنو المطلب ويسموا إليهم «محمداً» ليقتلوه. وقيل كان مضمونها: يتعهد ويتحالف الموقعون على هذا أنهم هم وأبناؤهم وأهلوهم يقاطعون بنى هاشم وبنى المطلب فلا يُزوجوهم ولا يتزوجون منهم ولا يكلمونهم ولا يبيعونهم شيئا أو يبتاعون منهم. ولا يزورون مرضاهم أو يشيعون موتاهم.

ورأى أبو طالب أن الحرب قد أعلنت على عشيرته فجمع بنى هاشم وبنى المطلب وأمرهم بأن يدخلوا برسول الله إلى الشعب ويمنعوه. والشعب يمكن تشبيهه بشارع ضيق عليه مساكن العشيرة وليس له إلا مدخل واحد إذا تم تأمينه أصبح سكانه فى مَنَعة. وكان دخول بنى هاشم فى شِعب أبى طالب فى محرم من السنة السابعة للنبوّة (عبد الحميد جودة السحار - جـ ١٠ - ص ١٤٣) وضرب كفار قريش حول شعب أبى طالب نطاقا من الحراس يمنعون من فيه من الخروج كما يمنعون الناس من الدخول أو الاتصال بمن قَبِلوا مصاحبة رسول الله. وكان عديد من المسلمين قد قبلوا طواعية أن يدخلوا الشِعب مع رسول الله - للاشتراك فى حمايته مع أنهم لم يكونوا من بنى هاشم أو بنى عبد المطلب.

ومر عام وبنو هاشم وبنو المطلب فى ضيق فقد نفذ ما كان عندهم من قوت مخزون وقريش ترفض أن تبيعهم شيئا. وجاءت الأشهر الحرم وقامت الأسواق واستطاع بعض المسلمين مغافلة الحراس وورود الأسواق. وعرفهم أبو لهب فكان إذا ذهب أحدهم ليشترى شيئا من الطعام حرَّض أبو لهب التجار على أن يُغالوا فى الثمن حتى لا يقدروا على شراء إلا الشيئ القليل. وراح الجوع يطارد بنى هاشم وبنى المطلب ولكن لم يَفُلّ ذلك منهم بل ازدادوا إصرارا على نصرة «محمد» وعدم تسليمه لأعدائهم وعمدوا إلى الحجارة يشدونها على بطونهم تخفيفا لألم الجوع. وانقضت سنة ثانية أكلوا فيها أوراق الشجر عندما استبد بهم الجوع.

وكان هشام بن ربيعة ذا شرف فى قومه وذا مروءة وكرم فأتى ببعير وحمَّله طعاما وساقه حتى أول الشعب ثم ضربه على جنبه فدخل الشعب يعدو. فأمسك به المسلمون وساقوه إلى رسول الله مستبشرين فأعطى منه أصحابه حتى شبعوا. وكرر هشام بن ربيعة فعله هذا عدة مرات أخرى وذات مرة لقى أبو جهل حكيما بن حزام وهو يحمل قمحا يريد به عمته خديجة أم المؤمنين فحاول منعه وقامت مشادة بينهما وانتصر بعض رجال قريش لحكيم فساق القمح إلى الشعب. وكان ذلك بداية تصدع الحلف المعادى للرسول.

وفى الشعب – أثناء الحصار – وضعت زوجة العباس وليدها وسمَّاه الرسول عبد الله. وذاع فى قريش أن عبد اله بن العباس قد وُلِد فى شِعب عمه أبى طالب. ففرح أناس لذلك الهوان الذى نزل بالعباس صاحب السقاية والرفادة والصيت العريض . وشق ذلك على من كان هواهم مع بنى هاشم وبنى المطلب وأطرقوا يفكرون فى الظلم الذى نزل بأحفاد هاشم العظيم وعبد المطلب الذى بذل نفسه لخير قريش وخدمة حجيج البيت.

وامتدت فترة الحصار فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات كانت وسائل الاتصال بين النبى وبين كفار قريش تكاد تكون معدومة ،وقريش فى قمة عداوتها للنبى ودعوته. وفتر الوحى ولم تنزل إلا أربع سور هى: الواقعة والشعراء والنمل والقصص. وكان فيها ما يناسب حالهم فقد احتوت على:

١ – حث المسلمين – المحاصرين – على الثبات على دين الله والاجتهاد فى العبادة.

٢ – التسرية عنهم بسرد قصص عن الأمم السابقة ورسلهم وكيف نصر الله المؤمنين وخذل الكافرين. وفى هذا إيحاء بأن الخذلان سيكون أيضا من نصيب كفار قريش رغم سطوتهم الحالية.

٣ – وفى المقابل كان الكفار أيضا يتوقون لمعرفة ما ينزل من آيات القرآن. ولعلهم كانوا يتوقعون أن الحصار والمقاطعة ستكون دافعا للنبى على مهادنتهم أو على الأقل اللين معهم ولكن جاءت السور والآيات على حالتها من القوة فى مهاجمة الشرك والمشركين وتُذكِّر بالبعث وتَعِدُ الكافرين بنار جهنم فى مقابل الجنة ثوابا للمؤمنين ثم تُحذِّر كفار قريش من مصير مماثل للمكذبين من الأمم السابقة.

سورة الواقعة

ويدور المحور الرئيسى لهذه السورة حول موضوع البعث. والواقعة اسم من أسماء يوم القيامة. وبدأت السورة بذكر بعض مشاهد من ذلك اليوم ثم تضمنَّت تصنيف الناس فى ذلك اليوم إلى ثلاث فرق :

١ – أصحاب اليمين وهم المؤمنون.

٢ - أصحاب الشمال وهم الكفار أصحاب المشئمة.

٣ - السابقون إلى الإسلام أصحاب الدرجات العالية وهم المقربون.

«**إذا وقعت الواقعة. ليس لوقعتها كاذبة** (لا كذب فى وقوعها). **خافضة** (للكفار) **رافعة** (للمؤمنين). **إذا رُجَّت الأرض رجا. وبُسَّت** (فُتِّتت) **الجبال بسا. فكانت هباء منبثا. وكنتم أزواجا ثلاثة. فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة. والسابقون السابقون. أولئك المقربون**» (١ -١١).

والسابقون هم الذين سبقوا إلى الإيمان بالنبيين من كل الأمم. ولعل تأخير ذكرهم مع كونهم أسبق الأصناف الثلاثة وأقدمهم فى الفضل يرجع إلى بيان ثوابهم ومحاسن أحوالهم قبل حال الصنفين الآخرين:

١ - «**والسابقون السابقون. أولئك المقربون. فى جنات النعيم. ثلة من الأولين. وقليل من الآخرين. على سرور موضونة** (محبوكة حسنة الصنع). **متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدَّعون** (لا تسبب لهم صداعا) **عنها ولا ينزفون** (لا تذهب عقولهم ولا تنزف أنوفهم). **وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلاً سلاما سلاماً**» (١٠ - ٢٦).

و «**ثلة من الأولين**» أى جماعة لأن مجموع مؤمنى الأمم السابقة كان كبيرا. فى حين أن المسلمين فى ذلك الوقت كانوا قليلين «**قليل من الآخرين**».

٢ - ثم جاء تفصيل ثواب أصحاب اليمين ووصفوا بأنهم «**ثلة من الأولين وثلة من الآخرين**». ولعل فى ذلك بشارة بأن المسلمين سيزدادون عدداً بحيث يصبحون «**ثلة**»:

«**وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر** (السدر شجر فاكهة) **مخضود** (منزوع الشوك). **وطلح** (نوع من الثمر) **منضود** (مصفوف). **وظل ممدود. وماء مسكوب. وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفرش مرفوعة. إنا أنشأناهن إنشاء. فجعلناهن أبكارا. عربا أترابا. لأصحاب اليمين. ثلة من الأولين وثلة من الآخرين**» (٢٧ - ٤٠).

٣ - ثم جاء وصفت منازل الكافرين وهم أهل الشمال أصحاب المشئمة:

«**وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال. فى سموم** (الريح الشديدة الحرارة) **وحميم** (الماء شديد الحرارة). **وظل من يحموم** (الدخان الشديد السواد). **لا بارد ولا كريم** (لا يحمى من الحرارة). **إنهم كانوا قبل ذلك مترفين. وكانوا يُصِرُّون على الحنث العظيم** (الإثم والنكث بالعهد). **وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون. أوَآباؤنا الأولون. قل إن الأولين والآخرين. لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم. ثم إنكم أيها الضالون المكذبون. لآكلون من**

شجر من زقوم (شجرة معروفة بكثرة شوكها ومرارة ثمرها). فمالئون منها البطون. فشاربون عليه من الحميم. فشاربون شرب الهيم (الإبل العطاش). هذا نزلهم يوم الدين» (٤١ - ٥٦).

تبكيت للكفار بتعداد نعم الله عليهم :

بعد ذلك تأتى الآيات بتبكيت وتقريع للكافرين وتعداد لبعض نعم الله عليهم ومع ذلك يكفرون بالله. وذُكر من هذه النعم خمس :

١ - نعمة الخلق : «**نحن خلقناكم فلولا تُصدِّقون**» (٥٧) .

٢ - نعمة الذرية : «**أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون**» (٥٨ - ٥٩) .

وكان من المناسب بعد نعمة الخلق أن يذكر الموت والبعث :

«**نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين** (بعاجزين أو مغلوبين). **على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فى ما لا تعلمون** (ننشئكم فى البعث فى صورة غير صوركم). **ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكَّرون**» (٦٠ - ٦٢) .

٣ - نعمة الزرع : «**أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون** (تعجبون وتتحسَّرون). **إنا لمغرمون** (تقولون إنا لخاسرون) . **بل نحن محرومون**» (٦٣ - ٦٧) .

٤ - نعمة الماء : «**أفرأيتم الماء الذى تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن** (السحاب) **أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجا** (شديد الملوحة) **فلولا تشكرون**» (٦٨ - ٧٠) .

ويرى بعض العلماء المعاصرين أن فى هذه الآية إعجازا علميا يبين قدرة الله فى إنزال المطر وهو ماء عذب سائغ للشرب. ولو شاء الله لجعل الأملاح تتصاعد مع بخار الماء من سطح البحر فيسقط المطر مالحا لا يصلح للشرب. كما يحدث أحيانا من سقوط أمطار حمضية فى مناطق بها نشاط بركانى وتتصاعد منها الأبخرة الحامضية مثل بخار حامض الكبريتيك والنيتريك وغيرها.

٥ - نعمة النار : «**أفرأيتم النار التى تورون** (توقدون). **أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين** (منفعة للسائرين فى القفار). **فسبح باسم ربك العظيم**» (٧١ - ٧٤)

وقد سبق ذكر هذا المعنى فى الآية ٨٠ سورة يس (ص ١٣٨) عند قوله تعالى: «**الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون**».

ثم يقسم الله تعالى :

«**فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم. فى كتاب مكنون. لا يمسُّه إلا المُطهَّرون. تنزيل من رب العالمين**» (٧٥ - ٨٠) .

وقال مجاهد (تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٨) مواقع النجوم فى السماء هى مطالعها ومشارقها وقال الضحاك أى الأنواء التى كان أهل الجاهلية إذا أمطروا قالوا مطرنا بنوء كذا.

ويرى علماء الفلك المعاصرون (د. زغلول النجار - الأهرام ٢٠٠١/٧/١٦) أنه نظر للأبعاد الشاسعة التى تفصل نجوم السماء عنا فإننا لا نرى النجوم ذاتها من على سطح الأرض. وكل الذى نراه هو مواقعها التى مرت بها ثم غادرتها إما بالجرى فى الفضاء الكونى بسرعات مذهلة أو بالانفجار أو بالانكدار والطمس.

فالشمس وهى أقرب النجوم إلينا تبعد عنا بمسافة ١٥٠ مليون كيلو متر يقطعها الضوء الذى يسير بسرعة ٣٠٠,٠٠٠كم/ ثانية فى ٨ دقائق تقريبا وحينما يصل إلينا شعاع الشمس الذى انطلق منها تكون الشمس نفسها التى تجرى فى الفضاء بسرعة ١٩كم / ثانية. قد تحركت لمسافة ١٠,٠٠٠كم عن الموقع الذى انبثق منه الضوء. وأقرب النجوم إلينا بعد الشمس هو نجم «القنطورى» ويبعد عنا ٤,٣ سنه ضوئية. وحينما يصل إلينا شعاع الضوء الذى انطلق منه يكون النجم نفسه قد تحرك عدة ملايين الكيلومترات عن مكانه الذى انطلق منه شعاع الضوء. وعلى ذلك فإننا نرى موقع النجم قبل ٤,٣ سنة. كذلك فبما أن ضوء النجوم ينحنى عند مروره فى نطاق جاذبية نجم آخر (النظرية النسبية تسمى ذلك انحناءات الفضاء) فإننا نرى النجوم فى أماكن غير مواقعها الفعلية (شكل ١٦).

وجواب القسم هو أن القرآن الكريم مصون فى اللوح المحفوظ لا يمسه من البشر إلا المطهَّرون أى من الجنابة. وهو منزَّل من عند الله رب الخلق أجمعين ثم تمضى الآيات.

«أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. وتجعلون رزقكم أنكم تُكذِّبون» (٨١ - ٨٢).

فبعد القسم بعِظَمِ قدر القرآن الكريم جاء تساؤل يتعجب من استهانة الكفار به وبدلا من شكر الله على أنه رزقهم القرآن راحوا يكذِّبونه. وتحذِّرهم الآيات من أن يأتيهم الأجل ويصبحوا بين يدى الله سبحانه وتعالى ولا عودة للحياة الدنيا.

«فلولا إذا بلغت الحلقوم. وأنتم حينئذ تنظرون. ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون. فلولا إن كنتم غير مدينين. ترجعونها إن كنتم صادقين» (٨٣ - ٨٧).

والآيات تصور حالة شخص يحتضر وقد بلغ الغرغرة أى وصول الروح إلى الحلقوم أثناء خروجها من الجسد وهى مرحلة نهائية لا رجعة منها. والله أقرب إليه من ذويه الملتفين حوله. وقيل أقرب إليه بملائكته الذين يتولون أمر البشر حين الوفاة. ثم تحدى بأنهم ماداموا غير مصدقين ببعث أو حساب وإدانة فليردُّوا هذه النفس وقيل أيضا إنهم إن كانوا غير خاضعين لربوبية الله تعالى فليردُّوا روح المحتضر.

وبعد الوفاة يُجَازَى الناس حسب وقوعهم فى إحدى الفئات الثلاث التى ذكرت فى أول السورة :

الشمس

الأرض

٨ دقائق

موقع الشمس لحظة وصول
شعاعها إلى الأرض

الشمس تحركت فى مدارها حول مركز المجرة مسافة ١٠,٠٠٠كم

موقع الشمس لحظة خروج
شعاعها إلى الأرض

أ – تحرك الشمس لموقع آخر فى الفترة التى يستغرقها ضوؤها
للوصل إلى الأرض .

الموقع الظاهرى للنجم

الأرض

نجم

الموقع الحقيقى للنجم

انحناء شعاع الضوء عند مروره فى نطاق جاذبية نجم ثان

شكل ١٦ – اختلاف الموقع الظاهرى للنجوم عن مواقعها الفعلية .

«فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم. وأما إن كان من أصحاب اليمين. فسلام لك من أصحاب اليمين. وأما أن كان من المكذبين الضالين. فنزل من حميم. وتصلية جحيم. إن هذا لهو حق اليقين. فسبّح باسم ربك العظيم» (٨٨ – ٩٦).

ولما نزلت الآية الأخيرة قال النبى لأصحابه: اجعلوها فى صلاتكم. فوجب على من يصلى أن يقول فى ركوعه «سبحان ربى العظيم» ثلاثا.

ثم نزلت ثلاث سور وترتيب نزولها هو نفس ترتيبها فى المصحف: الشعراء والنمل والقصص.

سورة الشعراء :

« طسم. تلك آيات الكتاب المبين. لعلك باخع (مهلك) نفسك ألا يكونوا مؤمنين. إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين. وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث (جديد) إلا كانوا عنه معرضين. فقد كذّبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون. أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (١ – ٩) .

وبدأت السورة بثلاثة حروف مقطعة هى طاء. سين. ميم ثم تأكيد على أن آيات القرآن الكريم واضحة. ثم تسرية عن النبى بألا يحمل نفسه فوق طاقته حزنا أنهم لم يؤمنوا. ثم تقرر الآيات أن لو يشاء الله لأنزل على الكفار معجزة تجبرهم على الإيمان ولكن مشيئة الله هى أن يأتى الناس إليه باختيارهم مؤمنين. ولكن الكفار كلما جاءتهم آية جديدة من الله كذّبوا بها وسيأتيهم عاقبة ماكذبوا واستهزأوا به. ثم تساؤل فيه تعجب من غفلتهم عن رؤية المعجزة المتمثلة فى الأرض وما تنبته من مختلف أنواع النباتات أزواجا لتتكاثر وتنتج رزقا كريما وكثيرا يكفى العباد على كثرتهم. وفى هذا آية عظيمة ولكن معظمهم لم يلتفتوا إليها ويؤمنوا. وقد أصبحت الآيتان الأخيرتان لازمة تأتى فى نهاية قصة كل قوم من الأقوام الذين سيأتى ذكرهم.

قصة موسى :

تأتى قصة موسى فى الآيات ١٠ – ٦٨ وفيها بعض تفاصيل لم ترد فى سورة الأعراف وسورة طه عن المقابلة بين موسى وفرعون مصر :

«وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين. قوم فرعون ألا يتقون. قال رب إنى أخاف أن يكذبون. ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون. ولهم علىَّ ذنب فأخاف أن يقتلون. قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون. فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بنى إسرائيل. قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك

التى فعلت وأنت من الكافرين. قال فعلتها إذًا وأنا من الضالين. ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين. وتلك نعمة تمنُّها علىَّ أن عبَّدت بنى إسرائيل. قال فرعون وما رب العالمين. قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حوله ألا تستمعون. قال ربكم ورب آبائكم الأولين. قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون. قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون» (١٠ – ٢٨) .

ثم تستمر الآيات فتصف إتيان موسى لمعجزتى العصا واليد ثم تحدى فرعون بأن سحرته يمكنهم الاتيان بسحر مثله وتحديد يوم الزينة. وركزت الآيات على إيمان السحرة وثباتهم على الحق رغم ما هددهم به فرعون من عذاب:

«قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلَكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين. قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين» (٤٩ – ٥١).

ولاشك أن هذه الآيات قد شدَّت من عزائم المسلمين المحاصرن فى الشعب إذ كانوا هم أيضا أول المؤمنين وما نزل بهم من عذاب يقل كثيرا عما أنزله فرعون بالسحرة.

أما عن إنجاء بنى إسرائيل من يد فرعون وغرقه أثناء مطاردتهم فقد جاءت مختصرة فى سورة الأعراف (آية ١٣٦) واكتُفِىَ بالقول: **«فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين»**. وفى سورة طه قيل فى الآية ٧٨: **«فأتبعم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم»**.

أما هنا فى سورة الشعراء فقد جاءت تفصيلات أكثر :

«فأتبعوهم مشرقين. فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون. قال كلا إن مَعِىَ ربى سيهدين. فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرق كالطود العظيم. وأزلفنا ثم الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (٦٠ – ٦٨) .

فالآيات تذكر كيف كان بنو إسرائيل محاصرين وفى موقف أكثر يأسا فالبحر أمامهم والعدو خلفهم. ولكن رحمة الله تداركتهم ولم تكتف بإنجائهم بل وأهلكت عدوهم. وفى هذا تسرية للمحاصرين فى الشعب. وتؤكد لهم أن فرج الله قد يكون أقرب مما يتصورون.

قصة إبراهيم عليه السلام :

وقد سبق ذكر جانب من قصة إبراهيم فى سورة مريم (الآيات ٤١ – ٥٠ ص ١٥٣). وكان فيها تركيز على تسفيه عبادة الأصنام. وهنا أيضا – فى سورة الشعراء – ذُكر استنكار إبراهيم لعبادة الأصنام وزيد عنها إيضاحه لحقيقة الإله الذى يدعو إليه. ثم إشارة سريعة لاستغفار إبراهيم لأبيه وإشارة مقتضبة إلى يوم القيامة:

«واتل عليهم نبأ إبراهيم، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لى إلا رب العالمين. الذى خلقنى فهو يهدين. والذى هو يطعمنى ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين. والذى يميتنى ثم يحيين. والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين. رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين. واجعل لى لسان صدق (ثناء حسنا) **فى الآخرين** (الأجيال التى تجئ بعده). **واجعلنى من ورثة جنة النعيم. واغفر لأبى إنه كان من الضالين. ولا تخزنى يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم»** (٦٩ – ٨٩) .

ولاشك أن كفار قريش بهتوا . فرغم الحصار – الذى استمر للآن ما يزيد عن عامين. فإن «محمداً» لم يتزحزح قيد أنملة عن موقفه ولايزال يجئ بآيات فيها تسفيه لعبادة الأصنام. وهى – وإن كانت فى معرض محاجَّة بين إبراهيم وقومه وأبيه – إلا أنها تنطبق عليهم كذلك. بل وتكاد تكون تقصدهم فى المقام الأول. ثم ها هو يثبت عجز الأصنام فى حين يمجِّد إلهه ويوضِّح أنه القادر على كل شيئ. فهو الذى خلق ابتداء وفى يده الهداية وهو الذى يرزق الطعام والشراب وبيده الشفاء من المرض والإماتة والإحياء وغفران الذنوب. وقد رأى المفسرون واللغويون بلاغة فى ذكر الضمير «هو» فى الهداية والإطعام والسقاية والشفاء من المرض إذ أن هذه الأفعال قد يبدو فى ظاهرها أن للبشر دوراً فى وقوعها. وذكر «هو» تأكيد على أن الله هو الفاعل الحقيقى. أما ما لا شبهة لتدخل البشر فيه مثل الخلق والإماتة والإحياء فلم يكن هناك داع لذكر كلمة «هو» ونُسِبَ الفعل إلى الله مباشرة.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

واستكمالا لما دعا به إبراهيم ربه فى آخر الفقرة السابقة **«ولا تخزنى يوم يبعثون»** أى يوم القيامة جاءت الآيات تفصِّل ما يحدث فى ذلك اليوم من تقريب الجنة للمتقين ونَصبِ جهنم للضالين. ويُسأل الكافرون عما كانوا يعبدون من دون الله وعما إذا كان فى مقدور معبوداتهم نصرهم أو الدفاع عنهم. وتبين الآيات أن آلهتهم ستُكَبُّ فى النار على وجوهها ومعها من استطاع إبليس أن يغويهم. ويعترف الكافرون أنهم كانوا فى ضلال مبين لإشراكهم بالله ويتمنون أن لو عادوا إلى الدنيا مرة ثانية لكى يؤمنوا. ثم تختم الفقرة باللازمة الفاصلة:

«وأزلفت الجنة للمتقين. وبُرِّزت الجحيم للغاوين. وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون. من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون. فكبكبوا فيها هم والغاوون. وجنود إبليس أجمعون. قالوا وهم فيها يختصمون. تالله إن كنا لفى ضلال مبين. إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون. فما لنا من شافعين. ولا صديق حميم. فلو أن لنا كَرة فنكون من المؤمنين. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (٩٠ – ١٠٤) .

قصة نـوح :

ثم تأتى قصة نوح فى الآيات ١٠٥ - ١٢٢. وقد سبق ذكر جانب من قصته فى سورة الأعراف (الآيات ٥٩ - ٦٤ ص ١٢١). وهنا فى سورة الشعراء - ذُكِر نفس دعوته للإيمان وزيد عليها توضيح أنه لم يسأل قومه أجرا فيحتجُّون بأن ليس معهم مال يدفعونه. وكذلك ذُكر ما عابوه عليه من أن أتباعه كلهم من أراذل الناس والخاطئين والفقراء والمساكين وكذلك تهديد قومه له بالرجم ولجوؤه إلى الله ليحكم بينه وبينهم فكان مصيرهم الغرق. ثم تختم كالمعتاد باللازمة الفاصلة.

«كذبت قوم نوح المرسلين. إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجرِىَ إلا على رب العالمين. فاتقوا الله وأطيعون. قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون. قال وما علمى بما كانوا يعملون. إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون. وما أنا بطارد المؤمنين. إن أنا إلا نذير مبين. قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكوننَّ من المرجومين. قال رب إن قومى كذبون. فافتح بينى وبينهم فتحا ونجِّنى ومن معى من المؤمنين. فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون. ثم أغرقنا بعدُ الباقين. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (١٠٥ - ١٢٢).

قصة عـاد ونبيهم هـود :

وقد سبق ذكر جانب من قصة عاد فى سورة الأعراف (الآيات ٦٥ - ٧٢ ص ١٢١) وكان من تكذيب قومه له أن اتهموه بالسفه وتعجبوا من أن يرسل الله بشرا رسولا. ولما عاب عليهم عبادة الأصنام وحذَّرهم من عذاب الله أصروا على تكذيبه فأنجاه الله وأهلكهم. أما سورة الشعراء الحالية فقد أضافت أنه لم يطلب منهم أجرا لقاء هدايتهم ثم عاب عليهم ضخامة مبانيهم وذكَّرهم بنعمة الله عليهم فى كثرة المال والولد وانتقد قسوتهم فى البطش بأعدائهم. ثم كرر تذكيرهم بما يسَّره الله لهم من أسباب الثروة وما حباهم الله به من عيون الماء التى يزرعون حولها البساتين والجنات. فلما أصروا على تكذيبه وجب هلاكهم. ثم تختم الفقرة باللازمة الفاصلة:

«كذبت عاد المرسلين. إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجرىَ إلا على رب العالمين. أتبنون بكل ريع آية تعبثون. وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبارين. فاتقوا الله وأطيعون. واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون. أمدَّكم بأنعام وبنين. وجنات وعيون. إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قالوا سواء علينا أوَعَظْتَ أم لم تكن من الواعظين. إنْ هذا إلا خُلُقُ الأولين. وما نحن بمعذَّبين. فكذبوه فأهلكناهم. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (١٢٣ - ١٤٠).

قصة ثمود وصالح :

وقد جاء ذكر جانب من القصة مختصرا فى سورة الشمس (آية ١١ - ١٥ ص ٨٨) وفى سورة الأعراف (الآيات ٧٣ - ٧٩ ص ١٢٢). وأضافت سورة الشعراء النصُّ على أنه لم يطلب منهم أجرا. واتهامهم له بالسحر وأنه بشر مثلهم وتحدُّوه بأن يأتى بمعجزة فأرسل الله الناقة آية لهم وبيَّن أن لها يوم للشرب ولهم يوم مثله. فعقروها فنزل بهم العذاب:

«كذبت ثمود المرسلين. إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجرِىَ إلا على رب العالمين. أتُتركون فى ما هاهنا آمنين. فى جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين. فاتقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذي يفسدون فى الأرض ولا يصلحون. قالوا إنما أنت من المسحَّرين. ما أنت إلا بشر مثلنا فأْت بآية إن كنت من الصادقين. قال هذه ناقة لها شِرب ولكم شِرب يوم معلوم. ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم. فعقروها فأصبحوا نادمين. فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (١٤١ - ١٥٩).

قوم لوط :

وقد سبق ذكر جانب من قصتهم فى سورة القمر (الآيات ٣٣ - ٤٠ ص ١٠٩). وفى سورة الأعراف (الآيات ٨٠ - ٨٤ ص ١٢٢) وذكرت الفاحشة التى كانوا يرتكبونها وتهديدهم لوط بالإخراج من قريتهم. وفى السورة الحالية - الشعراء أعيد التذكير بهذه النقاط ثم ذُكِر نزول العذاب بهم وهلاكهم. ونجاة آل لوط إلا امرأته التى كانت تمالئ الفاسقين:

«كذبت قوم لوط المرسلين. إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجرِىَ إلا على رب العالمين. أتأتون الذكران من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون. قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين. قال إنى لعملكم من القالين. رب نجنى وأهلى مما يعملون. فنجيناه وأهلَه أجمعين. إلا عجوزا في الغابرين. ثم دمرنا الآخَرين. وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (١٦٠ - ١٧٥) .

قصة شعيب وأصحاب الأيكة :

وقد ذكرت هذه القصة من قبل مرتين: فى سورة الأعراف (الآيات ٨٥ - ٩٣ ص ١٢٢) وقد أشير إلى قومه بـ « **أصحاب الأيكة** » وبذلك أيضا جاءت تسميتهم فى سورة ص (الآية ١٣ ص ١١١). والأيكة هو الشجر الملتف. وقالوا كان أصحابها يقطنون غيضة على ساحل البحر بجوار مدين وكانوا ممن بعث إليهم شعيب وكان أجنبيا عنهم ولذلك لم يوصف بأنه «أخوهم»

(تفسير الألوسى. جـ ١٩ ص ١١٧). والجديد الذى جاءت به سورة الشعراء هو استنكارهم أن يكون الرسول بشرا ثم تحديهم له بأن يسقط عليهم كسفا أى قِطَعًا من السماء. ووصف عذابهم بيوم الظلة إذ نزل بهم حر شديد من الشمس. ثم جاءت سحابة فلما استظلوا بها نزل منها شرر من نار بالإضافة إلى زلزلة الأرض الشديدة التى ذكرت فى سورة الأعراف «الرجفة» – فزهقت أرواحهم:

«كذَّب أصحاب الأيكة المرسلين. إذ قال لهم شعيب ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجرِىَ إلاَّ على رب العالمين. أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين. وزنوا بالقسطاس المستقيم. ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين. واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين. قالوا إنما أنت من المسحَّرين. وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين. فأسقط علينا كِسَفا من السماء إن كنت من الصادقين. قال ربى أعلم بما تعملون. فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (١٧٦ – ١٩١) .

تنويه بالقرآن الكريم :

ثم تمضى الآيات لتنوِّه بالقرآن الكريم :

«وإنه لتنزيلُ رب العالمين. نزل به الروح الأمين (جبريل)**. على قلبك لتكون من المنذِرين. بلسان عربى مبين. وإنه لفى زبر الأولين** (كتب الرسل السابقين)**. أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل. ولو نزلناه على بعض الأعجمين. فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين. كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين. لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم. فيأتِيَهم بغتة وهم لا يشعرون. فيقولوا هل نحن مُنظَرون** (مؤخرون أو ممهلون)**. أفبعذابنا يستعجلون. أفرأيت إن متعناهم سنين. ثم جاءهم ما كانوا يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتَّعون. وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون. ذكرى وما كنا ظالمين. وما تنزلت به الشياطين. وما ينبغى لهم وما يستطيعون. إنهم عن السمع لمعزولون. فلا تدع من الله إلها آخر فتكون من المعذَّبين. وأنذر عشيرتك الأقربين. واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين. فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون. وتوكل على العزيز الرحيم. الذى يراك حين تقوم. وتقلبك فى الساجدين** (أى وهو يصلى مع الناس)**. إنه هو السميع العليم»** (١٩٢ – ٢٢٠) .

فقرة عن الشعراء :

«هل أنبئكم على من تنزَّل الشياطين. تنزل على كل أفاك (كذاب ومفترى) **أثيم. يلقون السمع وأكثرهم كاذبون. والشعراء يتبعهم الغاوون** (الضالون)**. ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون. وأنهم يقولون مالا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون»** (٢٢١ – ٢٢٧) .

وكثير من المفسرين يرون أن هذه الآيات مدنية وأنها نزلت فى الشعراء الذين كانوا يهجون النبى فى المدينة واستثنى منهم الشعراء المسلمون الذين كانوا يدافعون عن النبى وعن الإسلام مثل حسان بن ثابت.

ثم نزلت سورة النمل :

وهى تلى سورة الشعراء فى ترتيب المصحف كما تلتها فى النزول :

«طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين. هدًى وبشرى للمؤمنين. الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون (العمه شدة عمى القلب). **أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الأخسرون. وإنك لتلقَّى القرآن من لدن حكيم عليم»** (١ - ٦).

وقد بدأت السورة بحرفين من الحروف المقطعة هما الطاء والسين. تلاهما تأكيد على أن ما يتلوه النبى هو من آيات القرآن وهو كتاب مبين لما جاء به. وفيه بشرى للمؤمنين. ووُصِفُوا بأنهم «يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة» وتأتى هنا كلمة الزكاة للمرة الأولى. مما يدل على أن المسلمين ولو أنهم كانوا قلة إلا أنهم أُمروا أن يخرج الغنى زكاةً للفقراء. ثم وصف الكفار بأنهم لا يؤمنون بالآخرة. والحقيقة أن إنكار البعث - وبالتالى إنكار الجزاء على الأفعال - هو أساس كل مفسدة فى الحياة الدنيا ومنه ينبع طغيان الطاغين فيظنون أن أعمالهم حسنة ولا يرون قبحها لشدة عماهم. وإسناد التزيين إلى الله هو مجازى وكناية عن أن الله أرخى لهم العنان فازدادوا انغماسا فى مفاسدهم فاستحقوا سوء العذاب والخسران فى الآخرة. والأخسر صيغة المبالغة من الخاسر.

جانب من قصة موسى :

وقد سبق ذكر جوانب من قصة موسى بشيئ من التطويل فى سورة الأعراف (الآيات ١٠٣ - ١٦٠ ص ١٢٤) وفى سورة طه (الآيات ٩ - ٩٨ ص ١٥٨) وفى سورة الشعراء (الآيات ١٠ - ٦٨ ص ١٧٥) ولذلك جاء ذكرها هنا - فى سورة النمل - موجزا:

«إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون. فلما جاءها نودى أن بورك من النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم. وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولَّى مدبرا ولم يُعقِّب ياموسى لا تخف إنى لا يخاف لدىَّ المرسلون. إلا من ظَلَمَ ثم بدَّل حُسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم. وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين. فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوًا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين» (٧ - ١٤).

والآيات تقرر أن آل فرعون علموا صدق الآيات التى أتى بها موسى وأنها من عند الله ومع ذلك كفروا بها وقالوا إنها سحر. وفى هذا تعريض بكفار قريش الذين أيقن كثير منهم أن ما ينزل على «محمد» ليس من قول البشر ومع ذلك كفروا به واتهموه بالسحر أو بالجنون. واكتُفى بذكر أن البلاءات التى ابتلى الله بها المصريين كانت تسعا ولم يُذكر ماهيتها. كذلك اكتُفى بالحث على التفكرُّ فى عاقبة المفسدين. إذ كان فى الجوانب التى ذكرت فى السور الأخرى - الكفاية.

قصة سليمان :

وقد سبق ذكر جانب من هذه القصة فى سورة ص (الآيات ٣٠ - ٤٠ ص ١١٢) وفيها ذُكر حبه الشديد للخيل أما فى السورة الحالية (النمل الآيات ١٥ - ٤٤) فقد ذكرت قصته مع النملة والهدهد وملكة سبأ. وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل فى الجزء الخامس (ص ٢٣٣ - ٢٣٨). واختلفت رواية القرآن الكريم عما جاء فى التوراة فى عدة نقاط:

١ - لم تذكر التوراة شيئا عن النملة ولا الهدهد.

٢ - فى قصة ملكة سبأ لم يُذكر فى التوراة الخطاب الذى أرسله سليمان مع الهدهد إلى الملكة ولا ردها عليه ولا نقل عرشها ولا الصرح الزجاجى. وكل ما جاء فى التوراة (سفر ملوك أول ١٠ : ١) أن ملكة سبأ سمعت بخبر سليمان وحكمته فجاءت لتتأكد بنفسها. ولم تذكر التوراة صراحة أنها آمنت بسليمان كما نصَّ القرآن **«قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»** (آية : ٤٤).

قصة ثمود قوم صالح :

وقد ذكرت جوانب من هذه القصة فى سور كثيرة سابقة: الشمس - القمر - الأعراف - الشعراء. وما أضيف إلى القصة فى السورة الحالية هو الإشارة إلى التسعة رجال الذين ائتمروا لقتل صالح. وقد ذكرنا قصتهم فى الجزء الأول (ص ١٦٥ و ١٦٦):

«ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون. قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون. قالوا اطَّيَّرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تُفتنون. وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يُصلحون. قالوا تقاسموا بالله لنبيِّتنَّه وأهله ثم لنقولن لوليِّه ما شهدنا مهلك أهلِهِ وإنا لصادقون. ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنَّا دمرناهم وقومَهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون» (٤٥ - ٥٣).

قصة لوط :

وهى قد ذكرت قبلا فى سور القمر والأعراف والشعراء ولذلك جاءت هنا مختصرة:

«ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون. أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون. فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدَّرناها من الغابرين. وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين» (٥٤ – ٥٨).

تقريع للكفار :

ثم تأتى فقرة تبدأ بحمد الله يعقبها تقريع للكفار فى صيغة أسئلة عن بعض نعم الله على الناس ثم تساؤل عما إذا كان فى مقدور إله آخر أن يأتى بمثل هذه النعم ولا يكون الجواب إلا بالنفى:

«قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى».

١ – **«آلله خير أمَّا يشركون»** (٥٩).

٢ – **«أمَّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها. أإله مع الله. بل هم قوم يعدلون»** (٦٠). أى أن الكفار يعدلون عن الحق ويميلون للباطل والشرك.

٣ – **«أمَّن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا. أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون»** (٦١).

٤ – **«أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون»** (٦٢).

٥ – **«أمَّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته. أإله مع الله. تعالى الله عما يشركون»** (٦٣).

٦ – **«أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض. أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين»** (٦٤).

وفى هذه الأسئلة الستة الموجهة إلى الكفار تقريع وتحد واستنكار لكفرهم وجحودهم وشركهم مع وضوح الدلائل البيِّنة على وجود الله وشمول قدرته. وأنه وحده هو خالق ومالك هذا الكون وله مطلق التصرف فيه ونعمه ظاهرة فى الأرض والسماء. فهو منزل المطر من السحاب ومنبت النبات والزرع مختلف فى لونه وطعمه. وجعل الأرض مستقرا للإنسان وبها الأنهار والجبال. كما أنه هو الذى يغيث المستغيث به ويكشف الضر عنه. وهو الذى بدأ الخلق وهو على إعادته قدير. كل ذلك ينفى أى احتمال بأن يكون مع الله عز وجل إله آخر وهذا

ماتكرر بعد ذكر كل نعمة. وتنتهى الفقرة بتحدى الكفار وتقرير عدم قدرتهم على إقامة البرهان على صواب شركهم.

والأسلوب الذى اتبع فى هذه الفقرة من روائع الأسلوب القرآنى. ويجعل السامع يرسم صورة للكفار وهم يتلقون هذه الأسئلة القوية النافذة إلى الأعماق بالغة الإفحام. ولاشك أنهم لو تدبروا الآيات والنعم التى ذُكرت - حق التدبر - لن يملكوا أنفسهم من الإقرار بأن لا إله إلا الله.

عن الغيب والآخرة :

هذه الفقرة تؤكد أن الله وحده هو الذى يعلم الغيب. كما تؤكد على أن البعث حقيقة :

«قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيبَ إلا اللهُ وما يشعرون أيَّان يبعثون. بل إدَّارك علمهم فى الآخرة (عجز علمهم عن إدراك) **بل هم فى شك منها بل هم منها عمون** (شدة العمى)**. وقال الذين كفروا أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإنا لمخرجون. لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين. قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين. ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل عسى أن يكون رَدِفَ لكم بعضُ الذى تستعجلون. وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون. وإن ربك ليعلم ماتكن** (تخفى) **صدورهم وما يعلنون. وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين»** (٦٥ - ٧٥).

ثم تأتى آيتان موجَّهتان إلى اليهود ولعل القصد كان إبلاغهم بموقف الإسلام منهم وأن القرآن يصحح لهم بعض ما اختلفوا فيه .

«إن هذا القرآن يقصُّ على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون. وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين. إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم» (٧٦ - ٧٨).

ثم تلت ذلك آيات تدعو النبى إلى التوكل على الله وعدم الالتفات إلى اعتراضات الكفار وسفاهاتهم لأنهم - الكفار واليهود - كالموتى لن يسمعوا له ولن يهتدوا:

«فتوكل على الله إنك على الحق المبين. إنك لا تُسمِع الموتى ولا تُسمِع الصم الدعاء إذا ولَّوا مدبرين. وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون» (٧٩ - ٨١).

من علامات الساعة :

ثم تصف الآيات إحدى علامات الساعة وهو خروج دابة تكلمهم وتقول لهم إن الكفار لا يؤمنون بمعجزات الله:

«وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون. ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يُكذِّب بآياتنا فهم يوزعون (يُجمعون ثم يُساقون). **حتى إذا جاءوا قال أكذَّبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أمَّاذا كنتم تعملون. ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون. ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا. إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون»** (٨٢ – ٨٦).

وقد احتوت كتب التفسير بيانات كثيرة عن الدابة التى جاء ذكرها وهيئتها (تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٢٣٦) ولاشك أن الخيال لعب دوره عند كثير من الذين أفاضوا فى وصفها. وقيل إنها فصيل (ولد) ناقة صالح الذى هرب عند قتل أمه فانفتح له حجر فدخل فى جوفه ثم انطبق عليه فهو فيه حتى يخرج فى الوقت الذى يشاء الله. وعن حذيفة أن النبى قال: ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانُها: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض. وعليه يكون خروج الدابة من علامات الساعة وليس لنا أن نبحث فى كنهها لأنها معجزة لا تحيط بها العقول. المهم أن الكافرين وقتئذ سيتأكد لهم أن الآخرة التى كذَّبوا بها هى حق ويُحشر أفواج المكذِّبين ويُجمعون ويسألهم الرحمن عن سبب تكذيبهم فلا يجدون عذرا ولا حجة فلا ينطقون. ثم ذُكرت آية اختلاف الليل والنهار لكونهم كانوا يلمسونها كل يوم فى حياتهم الدنيا وكانت فى حد ذاتها كافية لإقناعهم بقدرة الله فيؤمنوا.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

ثم تأتى الآيات بوصف لمشهد من مشاهد هذا اليوم :

«ويوم ينفخ فى الصور ففزِع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين (صاغرين). **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيئ إنه خبير بما تفعلون. من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون. ومن جاء بالسيئة فكُبَّت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون»** (٨٧ – ٩٠).

وقد فهم الأقدمون – فى ذلك العصر الذى كان يُعتقد فيه أن الأرض ثابتة والشمس هى التى تتحرك مشرقة وغاربة – أن ذلك الوصف – مرُّ الجبال كمرِّ السحاب – هو ما يكون عليه الحال يوم القيامة وقالوا إنه عند النفخة الأولى ترجف الأرض ثم تنفصل الجبال عن الأرض وتسير فى الجو مثلما يسير السحاب ثم تسقط كثيبا مهيلا (تفسير الألوسى جـ ٢٠ ص ٣٥) ولكن العلماء المعاصرين يرون أن ذلك وصف لما عليه الحال فى الدنيا. وأن الجبال مادامت تتحرك فهذا دليل على أن الأرض هى التى تدور أمام الشمس. وإن كان هذا التفسير لم يوضع إلا بعد أن أثبت العلم هذه الحقيقة. والقرآن كتاب هداية ووعظ وإيمان ولم يوضع لاستنباط نظريات علمية من آياته وإن كان لا يتعارض ما يستجد من معارف علمية.

حث بالثبات على عبادة الله :

يبدو أن الكفار انتهزوا فرصة الحصار والجوع وما يحدثانه فى النفس من آلام ويجعلانها أقرب إلى قبول المهادنة لذلك راحوا يساومون النبى على الوصول إلى حل وسط فنزلت الآيات تأمر النبى أن يخبرهم أنه أُمِرَ بعبادة الله وحده وأن يتلو عليهم القرآن فمن اهتدى به وآمن، فلنفسه ومن ضلَّ فعليه وزر ضلاله وما الرسول إلاَّ منذر. ثم تختم السورة بحمد الله وتقرير أنه سيكشف لهم عن بعض مظاهر قدرته فيعرفون أن وعد الله حق.

«إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرَّمها وله كل شيئ وأمرت أن أكون من المسلمين. وأن أتلُوَ القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين. وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون» (٩١ - ٩٣).

ثم نزلت **سورة القصص** :

وهى أيضا التالية لسورة النمل فى ترتيب المصحف :

«طسم. تلك آيات الكتاب المبين» (١ - ٢).

وقد بدأت السورة بثلاثة حروف مقطعة هى طاء سين ميم. ثم تُقرر أن ما يوحى إلى النبى هو آيات من القرآن تبين الحق فيما يحدِّث به. ولم تحتو السورة على قصص أحد من الأنبياء السابقين إلا على قصة موسى.

قصة موسى :

وقد جاءت هذه القصة مطوَّلة فى سورة الأعراف (الآيات ١٠٣ - ١٦٠ ص ١٢٤) وفى سورة طه (الآيات ٩ - ٩٨ ص ١٥٨) وفى سورة الشعراء (الآيات ١٠ - ٦٨ ص ١٧٥) وفى سورة النمل (الآيات ٧ - ١٤ ص ١٨١). وفى السورة الحالية سورة القصص جاء قوله تعالى:

«نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يُذبِّح أبناءهم ويَستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين. ونريد أن نمن على الذين استُضعِفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض ونُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون» (٣ - ٦).

وهذه الآيات وإن كانت عن بنى إسرائيل إلا أنها تشد من أزر المسلمين المحاصرين فى الشِعب إذ هم مستضعفون. ومن المحتمل أن وعداً مماثلا قد يشملهم فيجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ويمكِّن لهم فى الأرض ويُرِىَ كفار قريش وسادتها منهم ما يخافون من سيطرة الدين الجديد.

ثم راحت الآيات تتلو قصة موسى – وهى مفصلة فى الجزء الرابع – وقد صحح السرد القرآنى بعض النقاط التى وردت محرفة فى التوراة كما أضاف نقاطا جديدة:

١ – نصت التوراة على أن من التقط موسى من النهر هى ابنة فرعون وقد صحّح القرآن ذلك بالنص على أن من التقطه هى امرأة فرعون **«وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون»** (٩).

٢ – كان تحريم المراضع هو التدبير الإلهى لإرجاع موسى إلى أمه: **«وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت** (أخته) **هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون»** (١٢ – ١٣).

٣ – حادثة قتل المصرى لم تذكر فى السور السابقة ولذلك ذكرت فى هذه السورة بالتفصيل وأوضحت أن اللذين كانا يقتتلان فى اليوم التالى كانا الإسرائيلى الذى كان يتشاجر فى اليوم السابق ومصرى ثانٍ **«فلما أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما»** فى حين ذكرت التوراة أنهما كانا اثنين من بنى إسرائيل.

٤ – تحذير موسى من انتقام فرعون لم يذكر فى السور السابقة: **«وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين»** (٢٠).

٥ – ذكرت الآيات من ٢١ – ٢٩ حياة موسى فى مدين وزواجه والآيات ٢٩ – ٣٥ خروجه من مدين واتجاهه إلى جبل الطور فى سيناء ورؤيته النار المقدسة وتكليم الله له واختياره نبيا ورسولا إلى فرعون. وطلَب موسى إشراك أخيه هارون معه فى الرسالة. كل ذلك بتفصيل إذ لم يذكر فى السور السابقة. وصحح القرآن ما ورد فى التوراة من عودة موسى – بعد أن كلّمه ربه – إلى أرض مدين ليستأذن حماه فى العودة إلى مصر. وقد ذكرنا ذلك فى الجزء الرابع (ص ٨٢٩).

٦ – ادعاء فرعون الألوهية وبناء الصرح وهو أمر لم تذكره التوراة :

«وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطَّلِعُ إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين» (٣٨).

٧ – وتأتى قصة **قارون** فى الآيات ٧٦ – ٨٣ وقد ذكرناها بالتفصيل فى الجزء الرابع (ص ٨٧٠ – ٨٧٧) وهى أيضا من النقاط التى لم تذكرها التوراة.

ثم تختم قصة موسى بملخص فيه تذكرة وعبرة :

«واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يُرجَعُون. فأخذناه وجنودَه فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين. وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يُنْصَرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين» (٣٩ – ٤٢).

ثم يأتى توكيد على أن هذا كله من وحى الله إذ تقول الآيات :

«وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين. ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العُمُرُ وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين. وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون» (٤٤ - ٤٦).

تحذير لقريش :

من رحمة الله بعباده أنه لا يعذب قوما قبل أن يرسل إليهم رسولا يُذكِّرهم ويدعوهم إلى عبادة الله ويحذرهم من عذابه. ولما كان العرب لم يظهر فيهم نبى منذ عهد إسماعيل أى ما يقرب من ٢٣٥٠ عاما فى حين أن أبناء عمومتهم - بنى إسرائيل - جاءهم مايزيد عن ثلاثين نبيا آخرهم عيسى عليه السلام - لذلك فقد أرسل الله إلى العرب «محمداً» رسولا. فلما جاءهم النبى احتجوا بأن القرآن لم ينزل عليه جملة واحدة كما نزلت التوراة على موسى. وردَّ عليهم الوحى بأنهم لم يؤمنوا بما جاء به موسى فكان رد قريش أن موسى ومحمد كلاهما ساحران وأنهم بكل منهما كافرون. وتستمر الآيات ترد عليهم تعنتهم وتقرر لهم أنهم إنما يجادلون لأنهم يريدون أن يسيروا على أهوائهم:

«ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين. فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى. أوَ لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل. قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون. قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتَّبعه إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين. ولقد وصَّلنا لهم القول لعلهم يتذكرون» (٤٧ - ٥١).

وفد من نصارى نجران :

كان نصارى نجران قد سمعوا عن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ولجأوا إلى النجاشى الذى لم يجد فيما تلوه عليه من القرآن ما يتعارض مع المسيحية فأجارهم وأسبغ عليهم حمايته ولم يسلمهم إلى وفد قريش. فأراد نصارى نجران أن يستوثقوا بأنفسهم من نبوَّة «محمد» والاطلاع على ما جاء به فقدم إلى مكة فى السنة التاسعة للنبوة وفد منهم مكون من ٢٠ رجلا وفى موسم الحج كان حصار قريش للمسلمين فى الشعب يخف قليلا فكان النبى يخرج ويلاقى الوفود عند الحرم. ولكن قريشا كانت تلاحقه وتحذر الوفود من الاستماع إليه بدعوى أنه ساحر أو أنه صابئ. وجاء وفد نجران ووجدوا «محمداً» عند الكعبة فجلسوا إليه وكلموه وسألوه عن عدة أمور فأجابهم وأقنعهم ثم دعاهم إلى الله عز وجل وتلا عليهم بعضاً

من القرآن، وأيقنوا أنه النبى الذى تحدثت به كتبهم فأسلموا. فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش وقالوا لهم: خيَّبكم الله من ركب. بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدَّقتموه بما قال. ما نعلم ركبا أحمق منكم. فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه. ونزلت الآيات تشير إلى إسلام هذا الوفد من نصارى نجران فتقول:

«الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين. أولئك يُؤتَون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون. وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين. إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين» (٥٢ - ٥٦) .

خوف قريش على أرزاقهم :

وقابل الحارث بن عثمان بن نوفل النبى وقال له: إنا لنعلم أن الذى تقول هو الحق ولكن إذا اتبعناك نخشى أن يخرجنا العرب من أرض مكة ولا طاقة لنا بهم. فردَّت عليهم الآيات:

«وقالوا إن نتبع الهدى معك نُتخطَّف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيئ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون» (٥٧).

دعوة للاعتبار بمصائر الأمم السابقة :

فهذه الأمم كفرت بالله وبنعمه فأهلكهم الله وها هى مساكنهم خاوية تدعو إلى الاعتبار بمصير أهلها. ولكن من حكمة الله أنه لم يكن ليهلكهم إلا بعد أن يرسل إلى أهلها رسولا يبلغهم آيات ربهم وشرائعه. ولما ظلموا واستمروا على كفرهم أهلكهم الله. وعلى الناس ألا يظنوا أن ما فيه بعض الظالمين من نعيم دليل على رضا الله لأن ذلك مجرد متاع زائل من متع الحياة الدنيا:

«وكم أهلكنا من قرية بَطِرت معيشَتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين. وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها (مدينتها الرئيسية) **رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون. وما أوتيتم من شيئ فمتاعُ الحياة الدنيا وزينتُها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون. أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمَن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة فى المحضَرين»** (٥٨ - ٦١).

وفى الآية الأخيرة توضيح أنه لا يستوى من آمن وعمل صالحا فاستحق وعد الله بالثواب الحسن فى الجنة - ومن كفر وعمل سيئا وفتنته الدنيا بمتاعها الزائف وفى يوم القيامة يجد نفسه من المحضرين للحساب على سوء أعماله.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

وتصف الآيات موقف الكفار حين يناديهم الله نداء توبيخ ويطلب منهم إحضار الآلهة الذين زعموهم شركاء لينصروهم ويدافعوا عنهم ويقول رؤساء الكفر إنهم لم يُكرِهوا أتباعهم على الكفر أو على عبادتهم بل هم الذين اختاروا الكفر وعبدوا أهواءهم وأطاعوا شهواتهم، ويتبرأون منهم ومن عبادتهم، وينادى الحق سبحانه وتعالى المشركين ويسألهم سؤال توبيخ عما أجابوا به الرسل الذين أرسلوا إليهم، فلا يدرون ماذا يقولون ولا يسأل بعضهم بعضا لتساويهم فى العجز عن الإجابة، أما من تاب وآمن إيمانا صادقا وعمل الصالحات فهو يرجو أن يكون عند الله من الفائزين.

«ويوم يناديهم فيقول أين شركائِىَ الذين كنتم تزعُمون، قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا، تبرأنا إليك ماكانوا إيانا يعبدون، وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون، ويوم يناديهم فيقولُ ماذا أجبتم المرسلين، فعَمِيت عليهم الأنباء (التبس عليهم الأمر) **يومئذ فهم لا يتساءلون، فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين»** (٦٢ – ٦٧).

تمجيد لله :

ثم تقرر الآيات الوحدانية المطلقة لله خَلْقا لما يشاء واختيارا لما تصلح به شئونهم وعلما بالسر والجهر وهو وحده الجدير بالحمد فى الحياة الدنيا والحياة الآخرة وإليه يرجع كل الخلائق فهو وحده صاحب الحكم والفصل بين العباد:

«وربك يخلق ما يشاء ويختار ماكان لهم الخِيَرة سبحان الله وتعالى عما يشركون، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون» (٦٨ – ٧٠).

تذكير الكفار ببعض نعم الله :

وجاء ذلك فى صيغة أسئلة إلى الكفار فيها تحدى وتوبيخ لهم وإثبات عجز ما أشركوا من دون الله عن نجدتهم:

«قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا (دائما) **إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه** (أى الليل) **ولتبتغوا من فضله** (وهو النهار) **ولعلكم تشكرون، ويوم يناديهم فيقول أين شركائِىَ الذين كنتم تزعمون، ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ماكانوا يفترون»** (٧١ – ٧٥).

قصة قارون :

تأتى قصة قارون فى الآيات ٧٦ - ٨٤ وقد سبق أن ذكرناها بالتفصيل فى الجزء الرابع (ص ٨٧٠ - ٨٧٧). وتُختم بالعظة والحكمة المستفادة:

«تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون عُلوا فى الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين. من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يُجزى الذين عملوا السيئات إلا ماكانوا يعملون» (٨٣ - ٨٤).

توجيهات للنبى :

وتأتى هذه التوجيهات كختام للسورة :

«إن الذى فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين. وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين. ولا يصدُّنَّك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونَنَّ من المشركين. ولا تدع مع الله إلها آخر. لا إله إلا هو كل شيئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه تُرجَعون» (٨٥ - ٨٨).

ولقد روى المفسرون أن الآية الأولى - أو بالأحرى نصفها الأول - نزلت فى طريق الهجرة إلى المدينة وفى مكان يقال له الجحفة حيث حزَّ فى نفس النبى أن يخرج من وطنه على النحو الذى خرج به فأُنزلت عليه الآية تسرية عنه وتوكيدا على أن الله رادُّه إلى بلده ثانية . وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ص ٥٨٩) أن الله راده إلى موعد وهو يوم القيامة ليفصل بينه وبين مكذبيه. ومن المحتمل أيضا أن النبى وقد أخرج من داره وألجأه الكفار وحاصروه فى الشِعب فيكون فى الآية وعد برده إلى داره أى بشرى بانتهاء الحصار. وأن يقول للكفار بأن الله أعلم بـ **«من جاء بالهدى»** أى به وبالمؤمنين **«ومن هو فى ضلال مبين»** وهم الكافرون. ثم يُخبَر النبى أنه لم يكن يتوقع أن ينزل عليه القرآن ولكنها رحمة الله شملته. وبعد ذلك تنهاه الآيات عن أن يكون عونا للكافرين ومجيبا لما يطلبون. ولاشك أن الكفار - وقد طال الحصار بالمسلمين وساءت حالهم - كانوا يأملون أن يلين موقف النبى بعض الشيئ فنهته الآيات عن مسايرتهم. وأن يثابر هو وأصحابه على عبادة الله فهو الحى الباقى وله القضاء النافذ فى الدنيا والآخرة وإليه يرجع الخلائق أجمعون.

نقض الصحيفة وإنهاء الحصار :

كان هوى هشام بن عمرو مع بنى هاشم والمطلب فمشى إلى زهير بن أبى أمية وأمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال له: يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح منهم؟ أما إنى أحلف

بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا. قال: ويحك ياهشام. فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقض الصحيفة حتى أنقضها. قال قد وجدت رجلا. قال فمن هو؟ قال أنا. قال له زهير: ابغنا ثالثا. ثم إنهم ضموا إليهم المطعم بن عدى بن نوفل وأبى البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود. وهكذا التقت إرادة هؤلاء الخمسة على نقض الصحيفة وإنهاء الحصار.

وفى الغد وقف زهير بن أبى أمية ونادى فى الناس حول الكعبة. يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة (أى القاطعة للرحم). فقال أبو جهل وكان فى ناحية من المسجد. كذبت والله لاتشق. قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت وقال البخترى: صدق زمعة. لا نرضى ما كتب فيها ولا نُقِرُّ به. وقال المطعم بن عدى: صدقتما وكذب من قال غير ذلك. نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل. تشوورَ فيه بغير هذا المكان. وظل القوم يتجاذبون الرأى.

وكان رسول الله قد قال لأبى طالب: ياعم إن الله قد سلَّط الأرضة على صحيفة قريش فلم تَدَعْ فيها اسما هو لله إلا أثبتته فيها ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان. فقال أربُّك أخبرك بهذا؟ قال نعم. فخرج إلى قريش وقال: يا معشر قريش. إن ابن أخى أخبرنى كذا وكذا فهلم إلى صحيفتكم. فإن كان كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها وإن كان كاذبا دفعته إليكم قتلتموه أو استحييتموه قالوا قد أنصفتنا. وامتدت العيون واشرأبت الأعناق وفتحت الصحيفة فى حرص فإذا بالأرضة قد لحست ماكان فيها من جور وظلم ولم يبق فيها إلا اسم الله. فسُقط فى أيديهم. وقال الكافرون: هذا سحر مبين. وقال أبو طالب: علام نُحبس ونُحاصر وقد بان الأمر. ثم دخل هو وبعض أصحابه بين أستار الكعبة وقال: اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا وانطلق أبو طالب إلى الشعب وصاح بأعلى صوته: مُزِّقت الصحيفة. وهرع المسلمون إلى رسول الله وهم يهتفون الله أكبر الله أكبر. وخرج بنو هاشم وبنو المطلب إلى مساكنهم وكان زهير والذين معه قد وقفوا شاهرين سيوفهم مستعدين لملاقاة من يتصدى لهم.

وفاة أبى طالب :

كان أبو طالب قد بلغ به السن مبلغه واشتد به الهزال من طول الحصار ورقد مسجًّى فى فراشه وقد أيقن الجميع أنه يمضى آخر أيامه والتف حوله أهل بيته.

وكان أمر «محمد» قد فشا فى قبائل العرب كلها. وخشى كفار قريش أن تُعَيِّرهم العرب إن قتلوا محمدا بعد موت عمه فيقولوا: تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه. فلما بلغ قريشا ثقل

المرض على أبى طالب مشوا إليه ليكلموه فى أمر ابن أخيه.قيل من مشوا كانوا عتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب وآخرين من أشراف قريش. فقالوا: يا أبا طالب، إنك منا حيث قد علمت وقد حضرك ماترى وتخوَّفنا عليك. وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ له منا ليكف عنَّا ونكف عنه وليدعنا وديننا وندعه ودينه. فبعث عبد المطلب إلى «محمد» فلما جاءه قال له: يا ابن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك. فقال رسول الله: نعم كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم العجم. فقال أبو جهل. نعم وأبيك وعشر كلمات. قال النبى: تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه. فصفقوا بأيديهم استياء ثم قالوا: أتريد يامحمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا أن أمرك لعجب. وقال بعضهم لبعض. إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون. فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم فانصرفوا من عند أبى طالب.

وقال أبو طالب لمحمد: والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا. فلما قالها طمع رسول الله فى إسلامه فقال: أى عم فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة. فقال أبو طالب: يا ابن أخى والله لولا مخافة السبَّة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى وأن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعًا من الموت لقلتها. لا أقولها إلا لأسُرَّك بها. وكان العباس حاضرا فنظر أبا طالب يحرك شفتيه وقيل أصغى إليه بأذنه وقال: يا ابن أخى. والله لقد قال الكلمة التى أمرته أن يقولها. وقيل إن رسول الله قال: لم أسمع (سيرة ابن هشام. جـ ٢ ص ٤٧).

وهكذا توفى أبو طالب – الرجل الذى كان يحوط النبى برعايته فكان يغدو ويروح وهو يدعو إلى دين الله مستظلا بحمايته.

وفــاة خديجــة :

كانت خديجة قد قاربت الخامسة والستين من عمرها ونال منها هى الأخرى الحصار فى الشعب وبدأ المرض يتسلل إليها والضعف يتمكن منها يوما بعد يوم. حتى حمَّ القضاء وانتقلت إلى جوار ربها فى ١٠ رمضان من السنة العاشرة لبدء الدعوة بعد شهر وخمسة أيام من موت أبى طالب. فكان ذلك العام – كما يسميه المؤرخون – عام الحزن. وكانت فرحة الكفار لا تعد لها فرحــة وشماتـة سفهائهـم لاتعدِلُها شماتة وأخذوا يتربَّصون برسول الله ويُسرفون فى الكيد له.

الرسول بعد وفاة أبى طالب وخديجة :

كان أبو لهب – عم النبى – من أشد المظهرين لعداوتهم للنبى. وكان – كما قلنا سابقا – يلاحقه فى الأسواق والمجتمعات يحذِّر الناس من الاستماع إليه. وكثيرا ما كانت زوجته «أم

جميل» تلقى بالقاذورات أمام بيت محمد. كان أبو لهب يحقد على أبى طالب المكانة التى كان فيها من قريش. فلما مات أبو طالب وأصبح أبو لهب أكبر من بقى على قيد الحياة من أولاد عبد المطلب طمع فى أن يلتف حوله بنو هاشم وبنو المطلب حتى ينال المركز المرموق الذى كان لأبى طالب. لذلك رأى ما كان يصنع أخوه وأن ينهض فى حماية ابن أخيه «محمد» فيكسب بذلك احترام بنى هاشم وبنى المطلب فجاء إلى محمد وعرض عليه حمايته. ومما يؤثر أنه قال للنبى: يا محمد امض لما أردت، وما كنت صانعا إذا كان أبو طالب حيا فاصنعه. لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت.

وحدث أن ابن الغيطلة – أحد سفهاء قريش – تصدى للنبى وسبَّه دون حياء أو خجل فغضب أبو لهب وانهال عليه يؤذيه حتى نال منه فولَّى ابن الغيطلة هاربا وهو يصيح: يا معشر قريش. صبأ أبو عتبة. فذعرت قريش لهذا الخبر وأقبلوا على أبى لهب مستفسرين فقال لهم: ما فارقت دين عبد المطلب ولكنى أمنع ابن أخى أن يُضام حتى يمضى لما يريد. وتنفَّس المشركون الصعداء وراحوا يستثيرون فيه نزعة الخيلاء والعظمة فقالوا له: قد أحسنت ووصلت الرحم. وكَفُّوا عن إيذاء رسول الله. فمكث عدة أيام يخرج من بيته ويذهب إلى الحرم ويقول ما يريد ولا يتعرض له أحد.

ورأى دهاة قريش أن يحتالوا حتى يُبعِدُوا أبا لهب عن حماية محمد. فذهب اثنان منهم – هما عقبة بن معيط وأبو جهل بن هشام – فقالا له إن محمدا يزعم أن هناك حياة أخرى يلقى الناس فيها جزاء ما قدَّموا فى هذه الدنيا. فمن آمن به يكون جزاؤه الجنة ومن لم يصدِّق برسالته سيق إلى جهنم. فهل أنبأك ابن أخيك أين مقام أبيك عبد المطلب أهو الآن فى الجنة أم فى النار؟ فذهب أبو لهب إلى النبى وسأله عن ذلك. ورأى النبى أن لا يجرح كبرياء عمه وأن يحتاط فى الرد عليه فقال له: هو مع قومه. فخرج أبو لهب راضيا مرضيًا وأخبر مُحرِّضيه بذلك. فقالا له إن معنى ما ذكره محمد هو أن قوم أبى طالب فى النار وأنه معهم فى النار. فغضب أبو لهب وعاد إلى النبى وقال له: يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟ فردَّ النبى: نعم ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار (ابن سعد الطبقات. جـ ١ ص ١٤١) فاشتد غضب أبو لهب وظهر ما كان يخفيه فى قرارة نفسه من كراهية قديمة وحقد دفين فقال للنبى: والله ما برحت لك عدوا أبداً وأنت تزعم أن عبد المطلب فى النار. وخرج مغيظا محنقا وعاد إلى سيرته الأولى من إيذاء النبى بل واشتد عليه هو وسائر قريش يتصدُّون له مستهزئين ويرمونه بالسباب وفحش القول ويؤذونه.

ثم جاء حدث زلزل أركان مكة كلها. وجعلها تتحدث ليل نهار عنه. وازداد الكفار عنادا وتكذيبا بل إن بعض ضعاف الإيمان ارتدوا عن إسلامهم. ذلك الحدث هو الإسراء والمعراج.

الإسراء والمعراج :

بعد وفاة خديجة خلا البيت على النبى فكان أحيانا يقصد بيت عمته أم هانئ يبيت عندها، وفى إحدى الليالى بينما هو نائم جاءه جبريل وأخذ بيده فأخرجه إلى البيت الحرام وهناك أركبه البراق وأسرى به إلى المسجد الأقصى بمدينة القدس بفلسطين ثم عرج به جبريل إلى السموات العلا. ثم استوى جبريل بالأفق على هيئته التى خلقه الله عليها – قيل وله ٦٠٠ جناح – لقد رآه النبى أول مرة على هيئته هذه عند غار حراء فخرَّ مغشيا عليه من الخوف. أما هذه المرَّة فكان مطمئنا. تملك فؤاده بهجة ونشوة وينسكب مزيد من الإيمان فى أعماق ذاته واستشعر أنه قد دنا من رب العزة. ليس دنو مكان. فالله فى كل مكان. ولكن رفعة منزلة وإشراق نور. حتى وصل إلى سدرة المنتهى وهناك فرض عليه الله عز وجل خمس صلوات فى اليوم والليلة (عبد الحميد جودة السحارج ١١ ص ١١) وانتهت الرحلة عند بيت المقدس ثانية. فدخل النبى فوجد الأنبياء السابقين مجتمعين فصلَّى بهم ركعتين لله ثم أعاده البراق إلى مكة.

وكانت أم هانئ قد قامت فى الليل تطمئن على النبى فلم تجده فى فراشه فخافت أن يكون عرض له عارض وعادت إلى فراشها. وبعد فترة عادت تتفقده فوجدته مسجًى فى فراشه فاطمأنت وعادت إلى فراشها ونامت. وفى الصباح سألته عن تغيبه عن فراشه بعض الوقت فقال لها إنه أُسرِىَ به إلى بيت المقدس فقالت فى دهشة: من ليلتك! ثم تأهب للخروج فسألته عن وجهته وهى تظن أنه محموم. فأخبرها أنه يريد أن يخرج إلى قريش فيخبرهم بمسراه إلى بيت المقدس. فقالت له: أنشدك الله ألا تُحَدِّث بهذا قريشا فيكذِّبك من صدَّقك. كانت أم هانئ لاتزال على دين قومها ولم تصدِّق كلمة مما حدَّثها به «محمد» فخافت أن يجر ذلك عليه المتاعب ولكن النبى لم يأبه بتخوفها وخرج.

ولما وصل إلى البيت الحرام قعد بجوار الكعبة وهو مهموم يفكرٌ فمر به أبو جهل وقال مستهزئا: هل كان من شيئ؟ كان النبى يعلم أن أبا جهل سيُكذِّب حديث الإسراء ويتخذ منه مادة للتشفِّى منه. ولكنه كان أيضا لا يستطيع أن يكتم ما شرَّفه به الله فقال لأبى جهل: نعم أُسرى بى الليلة إلى بيت المقدس. فرد أبو جهل. ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. فلم ير أن يكذِّبه مخافة أن ينكر الحديث إن أخبر قومه بما قال فقال للنبى: أرأيت إن دعوتُ قومَك أتحدثهم بما حدثتنى. قال نعم. فوقف أبو جهل فى الحرم ينادى يا معشر قريش. فجاء الناس إليه والتفُّوا حولهما. فقال أبو جهل للنبى: حدِّث قومك بما حدثتنى به. فقال النبى: أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس. وراح يقصُّ عليهم ما رأى من آيات. فضجَّ الناس وصاحوا مكذبين: أتزعم أنك أتيت بيت المقدس الليلة وعدت من ليلتك؟ فلما أجاب بالإيجاب أنكر بعض ضعاف الإيمان من المسلمين مقالته وعادوا فى إيمانهم. وسعوا إلى أبى بكر فى داره وقالوا له: هل لك فى صاحبك. يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس. فسأل: أَوَ قال ذلك؟ قالوا نعم. فقال

أبو بكر فى هدوء: لئن قال ذلك فقد صدق. فوالله إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك. أصدِّقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة. وانطلق أبو بكر إلى البيت العتيق فإذا برسول الله وقد التف حوله أبو جهل والمطعم بن عدى وكثير من المشركين وقال المطعم بن عدى للرسول: إن أمرك قبل اليوم كان يسيرا. نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مُصعدين شهرا ومُنحدرين شهرا وتزعم أنك أتيته فى ليلة واحدة. واللات والعزى لا أصدقك. وما كان هذا الذى تقوله قط.

كان بين المطعم بن عدى وأبى بكر صداقة وثيقة قبل الإسلام وقد خطب المطعم لابنه جبير عائشة بنت أبى بكر، وعلى الرغم من تلك الصداقة لم يستطع أبو بكر أن يسكت على تكذيب المطعم للنبى. فقال أبو بكر: يا مطعم، بئس ما قلت لمحمد. جبهته بالمكروه وكذَّبته. أنا أشهد أنه صادق. كانوا يعلمون أن «محمدا» لم يزر فلسطين فى أى من الرحلات التجارية التى قام بها قبل البعثة وبالتالى فهو لم ير بيت المقدس قط. وكان فى القوم كثيرون يعرفون بيت المقدس فقالوا له: صفه لنا. فَجُلِىَ له (أى رأى صورته أمامه) فطفق ينظر إليه ويصفه فقالوا أما الوصف فقد أصاب. فقالوا: أخبرنا عن عيرنا فهى أهم إلينا. هل لقيت منها شيئا؟ قال: نعم مررت بعير بنى فلان وهى بالروحاء وقد أضلوا بعيرا لهم وهم فى طلبه وفى رحالهم قدح ماء فعطشت فأخذته وشربته ووضعته كما كان فاسألوهم هل وجدوا الماء فى القدح حين رجعوا. وقال مررت بعير بنى فلان وفلان راكبان قعودا فنفر بعيرهما منى فانكسر فاسألوهما عن ذلك. ثم سألوه عن العدة والأحمال والهيئات فمُثِّلت له العير فأخبرهم عن كل ذلك. وقال تقدمُ يوم كذا وفيها فلان وفلان يقدمها جمل أورق (فى لونه بياض إلى سواد أى رمادى) عليه غرارتان مخيطتان. فخرجوا ذلك اليوم الذى حدده يشتدون نحو الثنية وجعلوا ينظرون فرأوا العير قد أقبلت يقدمها بعير أورق وعليه الغرارتان كما قال وتأكدوا من صدق العلامات الأخرى ولكنهم لم يؤمنوا وقالوا هذا سحر مبين!

لقد بنى المشركون تكذيبهم على المفهوم السائد فى عصرهم عن سرعة الانتقال عبر الصحراء. فلم تكن هناك وسيلة إلا الإبل وهى تأخذ شهرين أو ثلاثة ذهابا إلى بيت المقدس ومثلها إيابا. وعليه فيستحيل على أى شخص أن يذهب ويعود من ليلته. وما دروا أن أحفادهم – فى عصرنا الحالى – يستطيعون الانتقال بالطائرات النفاثة بسرعة ٩٠٠كم / ساعة والمسافة من مكة إلى بيت المقدس حوالى ١٢٥٠ كيلو مترا تقطعها الطائرة النفاثة فى ساعة ونصف ذهابا ومثلها إيابا. فإذا أخذنا طائرة حربية وسرعتها ٤ ماك أى أربعة أضعاف سرعة الصوت لأمكنها أن تقطع المسافة ذهابا وإيابا فى ٢/١ ساعة. وإذا أخذنا الصواريخ المعدة لإطلاق سفن الفضاء والأقمار الصناعية وسرعتها حوالى ٨ كم / ثانية لأمكنها قطع المسافة إلى بيت المقدس فى دقيقتين ونصف ومثلها إيابا. وعليه فإن ما استند إليه الكفار فى تكذيبهم

للحادثة ليس قائما لأننا بإمكانياتنا البشرية أمكننا أن نحقق هذه السرعات العالية. ولاشك أن البراق – وهى دابة من صنع الله عز وجل – قيل تضع حافرها عند مدى بصرها – لاشك كانت تطير – برسول الله بجسده وروحه – بسرعة هائلة. ولذلك قال الله تعالى : **«سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى»** وكلمة «بعبده» تلهم أنه كان إسراءً بالجسد لأنه لو كان فى المنام لما اعترض المشركون. فالإنسان فى الأحلام قد يرى نفسه وقد طار فى السماء وذهب شرقا وغربا وإلى أبعد من بيت المقدس ولا غرابة فى ذلك. فاعتراض المشركين يدل على أنهم فهموا أنه كان إسراء بالجسد وهذا ما عناه الرسول.

أما المعراج – وقد جاء بشأنه فى القرآن الكريم: **«وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس»** وفى اللغة تختص الرؤيا بالنوم إلا أن الرؤية قد تقع فى اليقظة أيضا وقد ذهب الجمهور إلى أن العروج إلى السماء كان فى اليقظة بالجسد والروح معًا. والحقيقة أن القائلين بأن العروج كان بالروح فقط دون الجسد تجابههم مشكلة وهى: أين كان جسد النبى فى ذلك الوقت! هل كان على البراق بدون روح؟ أم ترك ظهر البراق وجلس على الأرض وانطلقت روحه فى رحلة المعراج؟ ولما كان هذان الافتراضان غير مقبولين وجب التسليم بأنه كان معراجا بالروح والجسد معا. وهنا تلهمنا المعارف العلمية الحالية. بما يُقَرِّب هذا الحدث من أذهاننا. فنظرية النسبية تقضى بأن أى شيئ يتحرك بسرعة الضوء يتحول إلى موجات. ولاختراق السماء الدنيا والوصول إلى السموات العلا – وهى تبعد آلاف الملايين من السنوات الضوئية – فكان على جبريل أن ينطلق برسول الله بسرعة هائلة تفوق سرعة الضوء فتحول جسده الشريف إلى موجات ويسميه أخصائيو علماء ما وراء الطبيعة تحول الجسد المادى إلى جسد أثيرى وهو يقرب من الروح فى طبيعتها واتحد الاثنان معا وانطلق جبريل بهما – الروح والجسد – فى رحلة المعراج ولما انتهت الرحلة وعاد النبى إلى الغلاف الجو وانخفضت السرعة عاد الجسد الأثيرى إلى طبيعته البشرية. وكان الأنبياء السابقون قد سبقوه إلى ساحة بيت المقدس فأمَّهم فى صلاة جامعة ثم ركب البراق وعاد إلى مكة.

بعضهم قال إن الصلاة بالأنبياء كانت قبل العروج إلى السماء. ولو كان الأمر كذلك لتعرَّف النبى على الأنبياء ولما كان هناك مجال لسؤال جبريل عن النبى الذى كان يقابله فى كل سماء كما جاء فى حديث المعراج.

وقد اختلف العلماء فى تحديد يوم الإسراء فقالوا ١٧ أو ٢٧ ربيع الأول أو رجب إلا أن الجمهور فى وقتنا الحالى يحتفل بها ليلة ٢٧ رجب.

أما حديث المعراج نفسه وما رآه النبى من آيات فهو حديث طويل يضيق عنه المكان ولمن يريد الاستزادة يمكنه الرجوع إلى الكتيبات التى تتحدث عن الإسراء والمعراج وهى كثيرة. وما رواه النبى عن مشاهد كثيرة رآها فى السموات المختلفة – ولاشك أن رؤيتها استغرقت وقتا

طويلا فى حين أنها بزمن الأرض لم تستغرق إلا دقائق قليلة وهذا ما يسميه الصوفيه «نشر الزمان» أى إطالته.

وقد فُرِضت الصلاة بالكيفية التى نعرفها الآن وعدد ركعات كل صلاة فى هذه الليلة عند سدرة المنتهى إيحاء مباشرا من الله عز وجل إلى نبيه ولم ينزل بها جبريل بالوحى كسور القرآن الكريم. ومن ذلك استدلوا على عظم قدر الصلاة وأهميتها البالغة وكونها الركن الأساسى من أركان الإسلام بعد الشهادتين. وهى أول ما يُسأل عنه المرء يوم القيامة.

ولاشك أن الآية الأولى من سورة الإسراء نزلت وقتئذ مؤكدة الإسراء ومؤيدة لما قال رسول الله:

«سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير» (١ - الإسراء).

ثم نزلت سورة النجم لتؤكد المعراج:

سـورة النجـم :

تبدأ السورة بتوكيد ربانى عبارة عن قَسَم بالنجم إذا مال للغروب أو لاختفاء ضوئه مع طلوع الفجر. وقيل هو الثريا وصار «النجم» بالغلبة علَماً لها. وقيل هو قسم بالنجوم إذا تهاوت يوم القيامة. ثم يأتى جواب القسم مقررا أن «صاحبكم» أى «محمداً» ما حاد عن الحق وما تكلم بالباطل أو عن هوى فى نفسه وأن ما يتلوه من القرآن هو من وحى السماء نزل به جبريل الأمين وهو ملك شديد القوى ذو حصافة فى الرأى واعتلى الأفق ثم نزل من العلو واقترب من النبى حتى كان منه ما بين قوس الحاجبين من التقارب أو بمقدار قوسين من قِسِىِّ الحرب فقد كانت العرب تقيس بالقوس والرمح والذراع. وقاب القوس ما بين وترها ومقبضها وكان العرب إذا تحالفوا أخرجوا قوسين وألصقوا أحدهما بالآخر فيكون القاب ملاصقا للقاب الآخر حتى كأنهما قاب واحد لقوسين **«قاب قوسين»** كناية عن شدة تقاربهما وقوة تحالفهما. فأوحى جبريل إلى النبى - عبد الله ورسوله - ما أُوحى إليه من رب العزة:

«والنجم إذا هوى. ما ضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يوحى. علَّمه شديد القوى. ذو مِرَّة فاستوى. وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى» (١ - ١٠).

ثم تستمر الآيات لتؤكد أن النبى رأى جبريل على صورته التى خلقه الله عليها مرتين: المرة الأولى عند بدء نزول الوحى بغار حراء وهو ما ذكرناه سابقا (ص ٤٣) والمرة الثانية عند سدرة المنتهى فى رحلة المعراج:

«ما كذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على ما يرى. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى.

عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. مازاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى» (١١ - ١٨).

وعن **«سدرة المنتهى»** قالوا هى شجرة عن يمين العرش فى السماء السابعة. وسميت سدرة المنتهى إذ ينتهى عندها علم كل عالم. وما وراءها لا يعلمه إلا الله وعندها قال جبريل لرسول الله: تقدم يارسول الله فأنت إذا تقدمت اخترقت أما أنا إذا تقدمت احترقت. وفى حديث آخر قال والله لو تقدمت قيد أنمله لاحترقت. وعندها **«جنة المأوى»** التى يأوى إليها المتقون يوم القيامة وقالوا غير ذلك (تفسير الألوسى جـ ٢٧ ص ٥٠). وللتعظيم قيل **«إذ يغشى السدرة ما يغشى»** وأُبهم ما يغشاها لأن عقول البشر لا تستطيع الإحاطة به **«مازاغ البصر وما طغى»** فلم يزغ البصر ولا تجاوز حينما أخبر النبى بما رآه فلم تكن تخيُّلات بل كان ما رآه آيات كبرى أو أن ما رآه هو الآية الكبرى. أما قولهم إن النبى رأى ربه فهو تجاوز للحد إذا أن الله سبحانه وتعالى هو القائل **«لا تدركه الأبصار»** (١٠٣ - الأنعام). وحينما سُئل النبى عن هذه المسألة قال: نور. أنَّى أراه!

بعد هذا التوكيد بصدق ما أخبر به الرسول عن مشاهد رآها فى رحلة المعراج تمضى سورة النجم متضمنة الموضوعات التالية:

١ - تنديد بالكفار والمشركين وعبادتهم للأصنام.

٢ - إنذار باليوم الآخر والوقوف بين يدى الله ليثاب الذين أحسنوا العمل ويجازى الذين أساءوا.

٣ - تذكير بقدرة الله .

٣ - إشارة إلى بعض الأقوام السابقين وما كان من تنكيل الله بهم بسبب تكذيبهم لأنبيائهم.

٥ - إنذار أخير للمشركين بأن يوم الحساب قد اقترب.

٦ - ختام السورة بأمر بالسجود لله وعبادته.

تنديد بالأصنــام :

فى الآيات تنديد بالأصنام التى كانت قريش تعبدها:

«أفرأيتم اللاتَ والعُزى. ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذا قسمة ضِيزَى. إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى. أم للإنسان ما تمنَّى. فلله الآخرة والأولى. وكم من مَلَك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليُسَمُّون الملائكة تسمية الأنثى. وما لهم به من علم إن يتبعون إلا

الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا. فأعرض عن من تولَّى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا. ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى» (١٩ - ٣٠).

وهذه هى المرة الأولى التى يذكر فيها القرآن أسماء الآلهة التى كانت قريش تعبدها - ويندد بها بقوة وحزم. فيستنكر إدعاءهم أنها بنات الله باعتبار أن العرب كانوا يفضلون الذكر على الأنثى ومن غير المعقول أن ينسبوا لأنفسهم الأولاد الذكور وينسبوا لله البنات. فتلك قسمة جائرة. وقد سبق ذكر أماكن عبادة هذه الأصنام (ص ١١ - ١٤) ووصفت مناة بأنها «مناة الثالثة الأخرى» تحقيرا لها لكونها صخرة (تفسير الألوسى جـ ٢٧ ص ٥٦).

واستمرت الآيات تندد بآلهة قريش وتنفى أن فى إمكانها أن تشفع لأحد. ففى السماء ملائكة لا تفيد شفاعتهم شيئا إلا إذا أذن اله ورضى عن المشفوع له. ثم يأتى أمر للنبى بأن يُعرِض عمَّن أعرضوا عن ذكر الله واستغرقوا فى حب الدنيا فهذا هو أقصى ما يريدونه. والله على دراية بمن ساروا فى طريق الضلال ومن اهتدوا.

شمول علم الله

ثم تأتى آيات تقرر شمول علم الله وإحاطته. بكل شيئ فهو مالك السموات والأرض ويعلم أعمال العباد وسيجازى كل واحد حسب عمله: العذاب لمن أساءوا ومن أحسنوا العمل فلهم ثواب حسن. وهؤلاء هم الذين يجتنبون الذنوب الكبيرة أما الهفوات الصغيرة فإن الله يغفرها لأنه واسع المغفرة. والله أعلم بالعباد لأنه هو الذى خلقهم وهم لايزالون فى الأرحام أجنة فلا يدَّعين أحد الطهارة والبراءة **«فلا تزكُّوا أنفسكم»** فالله أعلم بالمتقين:

«ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى. الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم (صغائر الذنوب) **إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم. هو أعلم بمن اتقى»** (٣١ - ٣٢).

لا تزر وازرة أخرى :

قيل إن الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة النبى للقرآن وأعجب يه وهفت نفسه للإسلام وطمع رسول الله فى إسلامه. ثم لما عاد إلى قومه عاتبوه وقالوا له: أتترك ملة آبائك. ارجع إلى دينك واثبت عليه ونحن نحمل عنك كل شيئ تخافه من الآخرة. وقيل إن ابن أخيه هشام بن المغيرة - أبا جهل - هو الذى أثناه عن أن يؤمن. وذُكر سبب آخر لنزول الآيات فقيل إن النضر بن الحارث أعطى خمس إبل لفقير من المسلمين ليرتد عن دينه ووعده بمال يدفعه له كل شهر وأنه يحمل عنه وزر ارتداده. ففعل ولكنه بعد فترة أمسك عنه وشحَّ فنزلت الآيات تسجِّل ذلك:

«**أفرأيت الذى تولى. وأعطى قليلا وأكدى** (أى توقف). **أعنده علم الغيب فهو يرى. أم لم يُنبأ بما فى صحف موسى. وإبراهيم الذى وفَّى. ألاَّ تزر وازرة وزر أخرى. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى. وأن إلى ربك المنتهى**» (٣٣ – ٤٢) .

قـدرة اللـه :

ثم تستمر الآيات تبين جانبا من قدرة الله فى خلق الإنسان والكون :

«**وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا. وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى. من نطفة إذا تمنى. وأن عليه النشأة الأخرى. وأنه هو أغنى وأقنى. وأنه هو رب الشعرى. وأنه أهلك عادا الأولى. وثمودا فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشَّاها ما غشَّى. فبأى آلاء ربك تتمارى**» (٤٣ – ٥٥) .

فالله هو الفاعل لكل شيئ فهو خالق أسباب الضحك وأسباب البكاء. ويقضى بالموت ويسمح باستمرار الحياة وأنه خلق الذكر والأنثى لتستمر الحياة على الأرض وهو الذى يعيد الحياة فى الآخرة. وأنه هو الذى يرزق المال والرضا أو يُغنى من يشاء ويُفقر من يشاء. وكانت حمير وخزاعة يعبدون كوكب الشعرى فأراد الله أن يُذكرهم بأنه هو الذى خلق الشعرى ومن خطل الرأى عبادتها. وأنه هو الذى أهلك الأقوام السابقة التى كذبت رسلها: عاد وثمود وقوم نوح والمؤتفكة أى القرى التى قُلبت – وهم قوم لوط – فأحاط بهم العذاب. ثم يتوجه الخطاب إلى الإنسان المكذب بجميع هذه النعم وتسأله: بأى من هذه النعم يرتاب «**فبأى آلاء ربك تتمارى**».

ثم تختم السورة **بإنذار هو فى غاية القوة :**

«**هذا نذير من النذر الأولى. أزفت الآزفة** (أى قربت الساعة). **ليس لها من دون الله كاشفة. أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون** (مُعرِضون). **فاسجدوا لله واعبدوا**» (٥٦ – ٦٢) .

وفى الآيات توكيد على أن القرآن نذير مثل النذر التى أنذرت بها الأمم السابقة. وأن الساعة قد اقتربت ولا أحد يكشف عن وقتها إلا الله. ثم تساؤل ينكر على الكفار جحودهم للقرآن وأنهم يضحكون استهزاء به والمفهوم أن سيكون لهم عذاب شديد يوم القيامة. ثم تختم السورة بأمر بالسجود لله وعبادته. وهو موضع سجود لمن كان يقرأ القرآن فى الصلاة أو فى غيرها.

وأيقن رسول الله أن قريشا – بإصرارها على التكذيب والكفر – لم تعد تربة صالحة لتنمو فيها عبادة الله الواحد الأحد. وأن قريشا تحرص على أن تبقى القبائل على وثنيتها وتظل قريش هى راعية الوثنية وكل قبيلة تضع لها وثنا عند الكعبة وتأتى الجموع لتحج إلى البيت الحرام فتصيب قريش من وراء ذلك الخير والرزق الوفير. ويبقى لها الاحترام لما لها من ريادة دينية.

أيقن رسول الله هذا وراح يبحث عن بيئة أخرى تصلح لاستقبال هذا الدين وتؤمن به وتعمل على نشره بين الناس. لذلك رأى أن يخرج إلى بعض القبائل فى منازلهم حتى تتاح له الفرصة لدعوتهم بعيدا عن سفهاء قريش الذين كانوا يحرِّضون ضده. وكانت أول القبائل التى اتجه إليها النبى هم ثقيف الذين يسكنون الطائف.

دعوة أهل الطائف :

فى شوال سنة ١٠ من النبوَّة خرج النبى إلى الطائف ومعه مولاه زيد بن حارثة على أمل أن يجد فيها من يشرح الله صدره للإسلام. وكان فيها الحارث بن كلدة زوج خالته. فأمل أن يصدقه وينصره ولكنه لم يلق إليه سمعا. وكان بها أمية بن أبى الصلت الذى كان يؤمل أن يكون هو النبى الذى تنبأ به أهل الكتاب فلما جاءت النبوة محمداً بن عبد الله حسده وبالطبع لم يتبعه وراح يصدُّ عنه. وكان بها أولاد عمرو بن عمير الثقفى. وهم يومئذ سادات ثقيف وأشرافها. فكلمهم فيما جاء به وأخبرهم أنه رسول الله وعرض عليهم الإسلام ونصرته على من كذَّبه فلم يجيبوه واستهزأوا به قائلين: ما وَجَد الله أحدا يرسله غيرك! فخرج رسول الله من عندهم وقد يئس من ثقيف وخشى أن يبلغ قريشا مالقى من ثقيف من خذلان فيشمتوا فيه ويشتدوا عليه فالتفت إلى أولاد عمرو الثقفى وقال: اكتموا علىَّ. فقالوا اخرج من بلدنا والحق بمنجاتك من الأرض وأغروا به سفاءهم وعبيدهم وأطفالهم يرمونه بالحجارة وزيد بن حارثة يحاول الدفاع عنه بتلقى الحجارة بدلا منه حتى شجَّ رأسه وسالت الدماء من رجليه. وكذلك أصيبت رجلا رسول الله وسالت منهما الدماء.

ولما خرجا من المدينة كان التعب والجهد قد بلغ منهما مبلغا كبيرا فاستند النبى إلى حائط بستان وراح يناجى ربه: اللهم إليك أشكو ضعف قُوَّتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى. إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهَّمنى؟ أم إلى عدو ملَّكته أمرى؟ إن لم يكن بك علَّى غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحلَّ علىَّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك.

فلما رآه ابنا ربيعة – عتبة وشيبة – وما لقى من أذى تحركت فيهما الرحمة فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له عداس فقالا له: خذ قطفا من هذا العنب واذهب به إلى ذلك الرجل. ففعل عداس ووضع الطبق بين يدى رسول الله فلما وضع رسول الله يده قال «بسم الله» فنظر عداس فى وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فقال له النبى. ومن أهل أى بلاد أنت يا عداس وما دينك؟ قال نصرانى وأنا رجل من أهل نينوى. فقال النبى: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال عداس فى دهش: وما يدريك ما يونس بن متى. والله لقد

خرجت منها وما فيها عشرة يعرفون ما متّى. فمن أين عرفت أنت متّى وأنت أمّى وفى أُمّة أمّيّة؟ فقال رسول الله: ذاك أخى. كان نبيا وأنا نبى. ولاشك أن النبى قد تلى عليه الآيات الثلاثة من سورة القلم الخاصة بيونس والتى تحث النبى على الصبر: «**فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين**» (٤٨ - ٥٠ القلم) .

فأكبّ عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه وزيد ينظر وقد اغرورقت عيناه بالدمع تأثرا. ورأى عتبة وشيبة ابنا ربيعة ما يفعل عداس بمحمد فالتفت أحدهما إلى الآخر وقال: أما غلامك فقد أفسده عليك: ولما عاد عداس إليهما قالا له: ويلك. مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه ورجليه؟ فقال عداس: يا سيدى ما فى الأرض شيئ خير من هذا. لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى. فقالا له لا يفتننك عن نصرانيتك فإنه رجل خداع ودينك خير من دينه.

ويئس رسول الله من أن يسلم أحد من ثقيف فانصرف من الطائف راجعا إلى مكة ونزلا - هو وزيد - بوادى نخلة وأقاما أياما حتى يلتقط النبى أنفاسه بعد ما لقى من سفهاء ثقيف ثم سارا حتى وصلا غار حراء فنزل به رسول الله ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره ولكن الأخنس اعتذر بأنه حليف والحليف لا يجير. فبعث النبى إلى سهيل بن عمرو. فقال إن بنى عامر لا يجير على بنى كعب. ثم أرسل إلى مطعم بن عدى الذى وافق ودعا بنيه وأمرهم بحماية «محمد» لأنه قد أجاره ثم قام مطعم بن عدى ونادى: يا معشر قريش. إنى قد أَجَرتُ محمدا فلا يؤذه أحد منكم. ودخل رسول الله الحرم وصلّى ركعتين لله ثم انصرف إلى بيته.

النبى يعرض نفسه على القبائل :

كان موسم الحج قد بدأ فراح النبى يعرض نفسه على منازل القبائل من العرب يدعوهم إلى الإسلام. فأتى بنى حنيفة فى منازلهم فدعاهم إلى الله ويقول ابن اسحق فلم يكن من العرب أقبح عليه ردا منهم. ثم أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض نفسه عليهم فقال رجل منهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال النبى: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. فقال الرجل: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا. لا حاجة لنا بأمرك. وأَبَوْا عليه. وعاد بنو عامر إلى ديارهم وفيها شيخ لهم سألهم عما كان فى موسمهم فقالوا: جاءنا فتى من قريش. أحد بنى عبد المطلب. يزعم أنه نبى يدعونا أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا وأنهم لم يوافقوه. فقال الشيخ: يا بنى عامر هل لها من مستدرك؟ وإنها لحق. فأين رأيكم كان عنكم؟

وكان النبى ما إن يعلم بمنزل قبيلة إلا وذهب إليهم وعرض عليهم أمره ولكن قريشا كانت تسبقه إليهم وتحذرهم منه فكانت القبائل تعرض عنه .

قريش تسأل اليهود عن «محمد» :

لما اشتد الخلاف بين النبى وقومه استقر رأى قريش على أن يبعثوا رسلا إلى أحبار اليهود بيثرب يسألونهم عن «محمد». فبعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط. وكانا من أشد الرجال عداوة للإسلام وقالوا لهما: اسألاهم عن محمد وصفًا لهم صفته وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا. فانطلق الرجلان حتى وصلا يثرب وقابلا أحبار اليهود الذين سألوهما عن أوصاف محمد فوصفاه لهم وقرأ عليهم بعض ما أنزل عليه من القرآن. فراح الأحبار يتشاورون فيما بينهم ثم قالوا لهما: سلوه عن ثلاث. فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل مُتقوِّل: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماكان من أمرهم فإنه كان لهم حديث عجب. وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هى فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى.

ورجع النضر وعقبة إلى قريش وقالا لهم: لقد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد. ثم جاءوا إلى النبى وسألوه عن الثلاثة أشياء كما طلب أحبار يثرب فقال لهم الرسول: أخبركم بما سألتم غدا ولم يقل إن شاء الله. فانصرفوا عنه وراح النبى يترقب الوحى ليلتين والوحى لا ينزل عليه فراح الكفار يسخرون منه ويستهزئون به وراحت أم جميل زوجة عمه أبى لهب تدور على البيوت وتقول أبطأ عليه شيطانه! وفيما هو فى قمة أحزانه نزل عليه الوحى. قيل بعد ١٢ يومًا وقيل بعد ٤٠ يوما.

نزل الوحى بسورة الكهف فيها الاجابة على أسئلة اليهود الثلاثة. وفى الآية ٢٣ منها تنبيه للنبى بأن يعلِّق عزائمه دائما بمشيئة الله تعالى. وهو أيضا تنبيه لكل مسلم أن يتذكر دائما أنه لا يملك من أمر المستقبل شيئا إذ قد تجدُّ ظروف لم تكن فى الحسبان تحول دون تحقيق ما وعد به ولكن عليه أن يبذل أقصى جهده على أن يوقن أن مشيئة الله فوق كل تخطيط يعمله:

«ولا تقولَّن لشيئ إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله. واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا» (٢٣ - ٢٤الكهف).

سورة الكهف :

بدأت السورة بحمد الله الذى أنزل القرآن على عبده «محمد» مستقيما لا عوج فيه لينذر الناس بيأسه وقوته ويبشر المؤمنين بأن لهم عند الله ثوابا هو الجنة خالدين فيها أبدًا. وينذر على وجه الخصوص الذين نسبوا لله الولد. فليس عندهم بذلك علم ولا عند آبائهم وليس قولهم هذا إلا كذبا. ولعل هذا الإنذار كان موجها إلى اليهود الذين ادعوا أن عزيرا ابن الله. ثم أمر للنبى ألاَّ يهلك نفسه أسفا وحزنا لعدم إيمان الكفار به فقد خلق الله كل ما على الأرض من متاع ليختبر الناس ليظهر الأحسن عملا. وبعد انتهاء الدنيا ستعود أرضا مستوية لا نبات فيها:

«الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا. قيِّمًا لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا. ماكثين فيه أبدا. وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا. مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا. فلعلَّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا. إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا. وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا» (١ - ٨).

ثم يأتى الجواب على السؤال الأول من الأسئلة الثلاثة التى نصح بها اليهود وهو السؤال عن «فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماكان من أمرهم فإنه كان لهم حديث عجب». فقصت الآيات من ٩ - ٢٦ قصة أهل الكهف:

«أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا. إذ أوى الفتية إلى الكهف......» (٩ - ٢٦).

ثم كان السؤال الثانى هو عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها فجاء الجواب:

«ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا. إنا مكَّنَّا له فى الأرض وآتيناه من كل شيئ سببا فأتبع سببا...» (٨٣ - ٩٨).

وكان السؤال الثالث عن الروح فجاءت الإجابة عليه فى الآية ٨٥ من سورة الإسراء **«ويسألونك عن الروح. قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»**.

واقتنع الناس بأن فى هذه الآيات الإجابة الشافية عما سألوا فآمن كثيرون وقال آخرون إنه لم يخبرهم عن الروح وظلت قريش على كفرها.

ولم تكن سورة الكهف لتقتصر على الإجابة عن أسئلة اليهود بل احتوت على غيرها من المواضيع. فبعد سرد قصة أصحاب الكهف جاءت توجيهات للنبى:

«واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدِّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا (ملجأ). **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطا»** (٢٧ - ٢٨).

فالآيات تحث النبى على تلاوة ما أوحى إليه من القرآن الكريم فهو الحق الذى لا يتبدَّل والله وحده هو القادر على حمايته. ثم توجيه ثان بمداومة صحبة المؤمنين الذين يدعون ربهم فى الصباح وفى العشى يريدون رضوانه وأن لا ينصرف قلبه إلى من غفل قلبه عن ذكر الله وسار وراء أهوائه فكان مآله ضياعًا وهلاكا. والتوجيهات - ولو أنها للنبى - إلا أنها أوامر لعامة المسلمين عليهم أن يتقيدوا بها.

حريــة العقيــدة :

ثم تأتى آيات تقرر حرية العقيدة فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وقد أعدَّ الله لكل من الفريقين ما يناسب اختياره من شديد العقاب أو النعيم المقيم:

«وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا (منزلا أو منتفعا). إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا. أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يُحلَّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خُضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا» (٢٩ - ٣١).

مَثل لعاقبة الكفر بالنعمة :

ولبيان ذلك ضُرب مثل برجلين أحدهما كافر وله بستان على أحسن حال من الزرع والثمار فكان له المال والأولاد والأنصار فداخله الزهو وأخذ يتبجّح أمام صاحبه المؤمن ويدّعى أن ما هو فيه لن يزول وأنكر قيام الساعة فقال له صاحبه مؤنبا له على زهوه وكفره بالله أن عليه أن يحمد الله ويشكره حتى يضمن دوام النعمة ففى قدرة الله أن يرسل عليها بلاء أو صاعقة من السماء فتصبح أرضا يابسة تنزلق عليها القدم أو يغيض الماء فى آبارها فلا يستطيع ريّها. وحدث ما حذّر منه المؤمن وهلكت الثمار فراح الكافر يقلب كفيه حسرة على ما أنفق فى غرسها وندم على أنه أشرك بالله ولم يجد أحدا يناصره وما كان فى قدرته أن ينصر نفسه:

«واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا. كلتا الجنتين آتت أُكُلَها ولم تظلم منه شيئا وفجَّرنا خلالهما نهرا. وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رُدِدتُ إلى ربى لأجدن خيرا منها مُنقلبًا. قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا. لكنَّا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً. ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله إن تَرَنِ أنا أقل منك مالا وولدا. فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا. أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا. وأحيط بثمره (أحاطت به المهلكات فأهلكته) فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا. ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا. هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا» (٣٢ - ٤٦).

والآيات تصوِّر عاقبة الكفر بنعمة الله ونسيان فضل الله فيها. وسواء كانت القصة تقديرية أو كانت قصة حقيقيه - قيل كانا رجلين من بنى مخزوم - ففيها العبرة والعظة.

مثل لتفاهة الحياة الدنيا :

«واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما (جافا مُكسَّرًا) تذروه الرياح وكان الله على كل شيئ مقتدرا. المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملاً» (٤٥ - ٤٦).

والآيات تضرب مثلا للحياة الدنيا فى نضرتها وبهجتها ثم سرعة فنائها بأنها كماء نزل من السماء فارتوى به نبات الأرض فاخضرّ وأينع ثم لم يلبث طويلاً حتى جف وصار يابسا متكسرا تفرقه الرياح. والله قادر على كل شيئ إنشاءً وإفناءً. ثم تقرر أن المال والبنون متعة فى الحياة الدنيا ولكن لا دوام لها وحتى لو دامت فالحياة الدنيا نفسها قصيرة فانية أما الأعمال الصالحة فهى خير للمرء عند الله يجزل الثواب عليها وهو خير ما يأمله الإنسان.

وليس المقصود من الآيات تنفير المؤمنين من الحياة الدنيا وزينتها من مال وولد فقد سبق أن جاء فى سورة الأعراف (الآية ٣٢ ص ١١٨) **«قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق. قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة»**. والمقصود أن يكون الاستمتاع بهذه النعم باعتدال وعدم إسراف مع إتيان حق الله فيها.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

ثم تجئ الآيات التالية تصف مشهداً من مشاهد يوم القيامة توكيدا على حقيقة البعث وأن الناس سيحشرون إلى ربهم ويحاسبون على أعمالهم ويندم الكافرون لأنهم يجدون أعمالهم كلها حتى الصغيرة منها مدونة فى كتابهم :

«ويوم نُسيِّر الجبال وترى الأرض بارزة (مكشوفة) **وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا. وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا. ووضع الكتاب** (كتاب أعمالهم) **فترى المجرمين مشفقين** (خائفين) **مما فيه ويقولون ياويلتنا مالِ هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا»** (٤٧ – ٤٩).

تنديد بالشرك والمشركين

وتبدأ هذه الفقرة بإشارة سريعة عن بدء عداوة إبليس لبنى آدم منذ خلق آدم ورفض إبليس السجود له مخالفا بذلك أمر ربه فطُردَ من رحمة الله. ثم يأتى سؤال يستنكر اتخاذ المشركين لإبليس وذريته أولياء من دون الله. ثم تقرر أن الله لم يشهد إبليس وذريته خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم فلا يعقل أن يتخذ الله من هؤلاء المضلين أعوانا وأعضادا ومن ثم فلا يصح أن يُتَّخَذُوا شركاء لله. ثم تذكر الآيات ما سوف يخاطب الله به المشركين يوم القيامة إذ يتحداهم بأن يدعوا من جعلوهم لله شركاء لنصرتهم فيدعونهم فلا يستجيبون لهم إذ يكون الله قد جعل بينهم بغضا وعدواة ويرى الكافرون النار ويتيقنون أنهم واردوها وواقعون فيها ولا مصرف لهم عنها:

«وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا. ما أشهدتهم خلق السموات

والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا. ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا. ورأى المجرمون النار وظنوا (بمعنى تيقنوا) أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا (٥٠ - ٥٣).

ولقد اعتبر بعض المفسرين المعاصرين (الشيخ محمد متولى الشعراوى) الضمير فى «ما أشهدتهم» راجعا إلى الإنسان ومن ثم استنتجوا أن الآيات تنهى عن التفكير فى كيفية خلق السموات والأرض وكيفية خلق الإنسان. وينفى هذا الرأى أن الآية ٢٠ من سورة العنكبوت تحث صراحة على النظر والتفكير فى كيفية بدء الخلق «**قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**».

طبيعة الإنسان الجدالية :

«ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيئ جدلاً. وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا، وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا. ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذًا أبدًا. وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا. وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا» (٥٤ - ٥٩).

والآيات تقرر أنه بالرغم من أن الله قد ضمن القرآن من الأمثال ما يكفى لتذكير الناس وإنذارهم إلاَّ أن طبيعة الجدل الغالبة فى البشر تتحكم فيهم وخاصة فى الكافرين فتصرفهم عن تدبر آياته. وكما طلب السابقون من رسلهم أن يأتوهم بعذاب الله إن كانوا من الصادقين - وطلب كفار قريش من النبى مثل هذا الطلب - ولكن رحمة الله اقتضت أن يرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولكن الكفار راحوا يجادلون بالباطل فى محاولة منهم لدحض الحق وراحوا يستهزئون بآيات الله. وليس أظلم ممن وعظ بآيات الله فلم يتدبرها. فهؤلاء قد جعل الله على قلوبهم حجابا فلا يصل النور إليها وصمت آذانهم فلا تسمع كلمة الحق وبهذا لن يهتدوا البتة. ومع هذا فإن الله - المتصف بالغفران والرحمة - لا يعجل لهم العذاب بما اقترفوا من سيئات ولكنه يؤجلهم لموعد ليس لهم ملجأ منه. وفى ذكر هذا الإمهال دعوة للكافرين لينتهزوا الفرصة فيؤمنوا حتى لاينزل بهم العذاب وهاهى ذى القرى السابقة دمرها الله لما ظلموا أنفسهم بتكذيبهم رسلهم.

قصة موسى والخضر :

والقصة تأتى فى الآيات ٦٠ - ٨٢ وقد ذكرت بالتفصيل فى الجزء الرابع ص ١٠٦٨ - ١٠٨٠.

قصة ذى القرنين :

وقد ذكرت فى الآيات ٨٣ – ١٠١ وكان فيها الإجابة عن السؤال الثانى من الأسئلة الثلاثة التى اقترحها اليهودعلى كفار قريش. وكان عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها.

«ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلواعليكم منه ذكرا. إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيئ سببا. فأتبع سببا. حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين إما أن تعذِّب وإما أن تتخذ فيهم حسنا. قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يُرَدُّ إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا. وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا. ثم أتبع سببا. ثم حتى إذا بلغ مطلِع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا. كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا. ثم أتبع سببا. حتى إذا بلغ بين السدين... إلى الآية ١٠١».

مصير الكافرين فى الآخرة :

«أفحَسِبَ الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نُزُلا. قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعا. أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا. ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا» (١٠٢ – ١٠٦).

والآيات فيها تعجب من غفلة الكفار وتنديد بظنهم أنهم يستطيعون إضلال الناس باتخاذ آلهة من عباده كالملائكة وتقرر الآيات أن الله أعدَّ جهنم لتكون منزلا لهم فى الآخرة. وأشد خسرانا منهم هؤلاء الذين بطلت أعمالهم لفساد عقيدتهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا، فهم قد كفروا بربهم وأنكروا لقاءه يوم القيامة فكان جزاؤهم أن يلقوا فى جهنم لكفرهم وسخريتهم بآيات الله ورسله.

ختام السورة :

ثم يجئ ختام السورة يُقرِّر أنه فى مقابل مصير الكافرين فى جهنم فإن الله أعدَّ للمؤمنين جنات الفردوس لتكون لهم منزلا خالدين فيها لا يتحولون عنها. ثم تقرر أن آيات الله ومشاهد عظمته وواسع علمه لو أريد كتابتها وكان البحر مدادا لَمَا كان كافيا ولو جئ ببحر مثله. ثم يأتى تقرير بأن الرسول بشر يوحى إليه أن الله واحد أحد فمن أراد النجاة فليُسلم وليعمل الصالحات ولا يشرك مع الله أحدا فى العبادة:

«إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا. خالدين فيها لا يبغون عنها حِوَلا. قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا. قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحَى إلىَّ أنَّما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا» (١٠٧ – ١١٠).

سورة الإسراء :

كان حادث الإسراء والمعراج والأسئلة التى اقترحها اليهود امتحانا للنبى هما الموضوعان المستحوذان على أذهان أهل مكة وتدور حولهما المناقشات فى مجالسهم وأنديتهم. فجاءت سورة الإسراء وتسمى أيضا «سورة سبحان» مبتدئة بحادث الإسراء لتؤكد صدقه. ثم تذكر بعد ذلك فى آياتها الكثيرة طلب المشركين معجزات مادية وتذكر رد النبى على طلباتهم. كذلك فقد رؤى إخبار اليهود بأحداث مهمة مرَّت عليهم فى ماضى أيامهم وكانوا يتحاشون ذكرها لأنها كانت «نكسات» عظيمة فى تاريخهم ورغبوا فى تناسيها فجاء القرآن ليذكِّرهم بها. ولم يهتم القرآن - كعادته - بذكر أسماء الملوك الذين وقعت فى عهدهم هذه الأحداث ومن ثم كان اختلاف المفسرين فى تحديد زمنها. ولكثرة ما ذكر عن بنى إسرائيل فى هذه السورة سماها البعض «سورة بنى إسرائيل» (تفسير الألوسى جـ ٥ ص ٢).

وتبدأ السورة بتمجيد الله وتنزيهه وتعظيم قدرته «سبحان». ثم إشارة مقتضبة إلى حادث الإسراء يليها ذكر إرسال موسى بالتوراة إلى بنى إسرائيل ثم إلى ما قضاه الله على بنى إسرائيل من العلو فى الأرض مرتين يعقب كل واحدة منهما انتكاسة يهزمهم فيها أعداؤهم ويدمرون ما أعلوا من بنيان :

«سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير. وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا. ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا. وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتُفسدن فى الأرض مرتين ولتعلُنَّ عُلُوًّا كبيرا. فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا (ساروا منقِّبين) **خلال الديار وكان وعدا مفعولا. ثم رددنا لكم الكَرَّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا. إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها. فإذا جاء وعد الآخرة لِيَسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبِّروا ما علوا تتبيرا. عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا»** (١ - ٨).

ويتفق جمهور المفسرين على أن المرة الأولى كانت أيام الملك البابلى نبوخذنصر فى عام ٥٩٧ ق.م. فقد حاصر أورشليم مدة سنتين وأخيرا دخلها ودمَّرها ودمَّر المعبد الذى كان سليمان قد بناه واستولى على الذهب والنحاس الذى غشيت به الأبواب والأعمدة وأحرق الكل بالنار وسبى ٤٠,٠٠٠ أو ٥٠,٠٠٠ من اليهود ونقلهم إلى بابل (انظر الجزء الخامس ص ٣٧٢). ونرى أن المرة الثانية كانت عام ١٣٥م. حين قام اليهود بالثورة ضد الرومان فأرسل الامبراطور جيشا تمكن من إخماد الثورة بعنف دموى وقُدِّر عدد اليهود الذى لقوا حتفهم وقتئذ بما يقرب من ١/٢ مليون يهودى وأُسر ما يقرب من هذا العدد أيضا وإن كان بعض

المؤرخين يرون أن هذه الأرقام فيها مبالغة كبيرة. ودمر معبد أورشليم الذى كان هيرودس قد جدَّده (الجزء السادس ص ٨ ، ١٣٠).

إلا أن بعض المفسِّرين المعاصرين يرون أن **«وعد الآخرة»** لم يأت بعد وأنَّ تباشيره قد بدأت فهاهم اليهود قد عادوا إلى فلسطين **«رددنا لكم الكَرَّة عليهم»** وتتقاطر عليهم الأموال من يهود أمريكا وتعويضات الألمان وزاد عددهم بفضل المهاجرين من دول عديدة **«وأمددناكم بأموال وبنين»**. والدكتور مصطفى محمود من معتنقى هذه النظرية وهو يفسر **«وجعلناكم أكثر نفيرا»** بأنها تعنى أعلى صوتا. ولا يخفى على أحد عُلوّ صوت اليهود فى جميع البلدان الغربية بل وفى كثير من البلدان الأخرى وسيطرتهم على وسائل الإعلام فى هذه الدول غير خافٍ على أحد. ويرى أن اليهود ستقوى شوكتهم أكثر فأكثر ويبنون معبدهم. ويعقب ذلك صحوةٌ للمسلمين بحيث يهبوا لتحرير الأرض المحتلة والمسجد الأقصى **«وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة»** ويدمِّروا ما أعلى اليهود من بنيان **«وليتبروا ما علوا تتبيرا»**.

عـن القـرآن :

بعد أن ذُكِر فى الآيات السابقة أن الله تعالى قد جعل الكتاب الذى أنزل على موسى – وهو التوراة – هدى لبنى إسرائيل تقرر الآيات أن القرآن يهدى لما هو أقوم وأصلح ويبشر المؤمنين بالأجر العظيم وينذر الكفار بالعذاب الأليم:

«إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا. وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما» (٩ – ١٠).

ويبدو أن الكفار حينما استمعوا ما احتوته هاتان الآيتان من بشرى للمؤمنين وإنذار بعذاب للكافرين تحدوا النبى بتعجيل العذاب لهم فكان الرد عليهم تنديدا باستعجالهم بالشر وكأنه خير وبيان أن العجلة من طبائع البشر:

«ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا» (١١).

ثم ذُكرت آية تعاقب الليل والنهار:

«وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيئ فصلناه تفصيلا» (١٢).

الجزاء مساوٍ للعمل :

وهذا مبدأ عام وثابت وسنة من سنن الله فى الأرض. ينطبق على الإنسان كما ينطبق على الأمم.

أ – أما عن انطباقه على الإنسان فقد جاء فى قوله تعالى:

«وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا. اقرأ كتابك

كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا. من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولا» (١٣ – ١٥).

ب – أما على مستوى الأمم فقد قضت سنة الله أن يمهد الطريق لأثريائها ليتولوا أمرها فيغترون بما لهم من مال وجاه ويكفرون بنعمة الله ولا يردعهم أهل القرية فيحق العذاب على الجميع فيدمرهم الله تدميرا والله خبير بذنوب عباده:

«وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمَّرناها تدميرا. وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا» (١٦ – ١٧).

وقد تعددت القراءات لكلمة «أمرنا» ومن ثم تعددت التفسيرات. فقد قرئت «آمرنا» أى أكثرنا أو جعلناهم أمراء وسادة وفسَّرها بعضهم بمعنى أغدقنا عليهم نعمنا فبطروا وفسقوا. ومن قرأ «أمرنا» أى طلبنا منهم قال إن هناك حذف بمعنى أمرناهم بالطاعة ففسقوا بسبب ترفهم وانحرافهم لأن الله – كما جاء فى سورة الأعراف (الآية ٢٨ ص ١١٧) **«قل إن الله لا يأمر بالفحشاء»**.

واستكمالا لهذا المعنى جاءت الآيات بعد ذلك تقرر أن الله يحقق لكل إنسان ما يريده: فمن أراد متع الحياة الدنيا عجَّلها الله لمن يشاء ثم جعل له جهنم فى الآخرة. ومن أراد الآخرة وعمل ما يقربه منها فالله يثيبهم على سعيهم والله يعطى كل فريق حسب عمله. وعطاء الله لهؤلاء فى الدنيا ولهؤلاء فى الآخرة ليس له حدود. وقيل إن الله يرزق الناس فى الدنيا حسب ما اتخذوا من الأسباب وهو ما يسمِّيه البعض عطاء الربوبية. وفى هذا قد يفضل بعض الأفراد بعضا آخر وقد يفضل الكفار المسلمين. ولكن التفاضل فى الآخرة هو الأعظم والمفهوم أن الجنة هى من نصيب المؤمنين:

«من كان يريد العاجلة عجَّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا. كُلاً نُمِد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا» (١٨ – ٢١).

ثلاث عشرة وصية

بالرغم مما كان يواجه المسلمين الأوائل من إيذاءات المشركين فإن القرآن الكريم لم يهمل الحياة الاجتماعية فجاء بمجموعة رائعة من الوصايا فيها – بعد عقيدة التوحيد – توضيح لواجب الإنسان تجاه والديه وأقاربه والمساكين وأبناء السبيل. ثم واجب احترام أعراض الناس ودمائهم وعهودهم وأسرارهم واجتناب الإثم والفحش والبغى والكبر والخيلاء والحث على عدم تدخل المرء فيما لا يعنيه. كل ذلك بأسلوب الترغيب والتحذير والترهيب ومبينا فى بعض الحالات أسباب التحسين أو التقبيح بأسلوب مقنع ومؤثر مما يجعل الأمر محبَّبا إلى النفس

فتستجيب له. ورغم أنها جاءت فى صيغة أوامر للنبى إلا أن هذه الوصايا هى أوامر إلى جميع المسلمين وقد شبهها بعض المفسرين بالوصايا العشر التى أنزلت على موسى:

١ - «لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا. وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه. .

٢ - «وبالوالدين إحسانا. إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا. ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين (الراجعين إلى الله) غفورا» (٢٢ - ٢٥).

٣ - «وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا. إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا. وإما تُعرضنَّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا» (٢٦ - ٢٨).

والآيات تحث على التزكى والتصدق على هذه الفئات دون تبذير. وإذا ما أرغمته أحواله المادية على عدم إعطائهم لضيق ذات اليد مرجئا إعطاءهم لحين سعة من الرزق فعليه أن يطيب خاطرهم بالقول الحسن.

٤ - «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك...» وشُبِّه البخل هنا كأن اليد مربوطة بسلسلة من حديد إلى الرقبة فلا يقدر أن يمدَّها بصدقة. وفى الوصية التالية ينهى عن الإسراف الذى يبدد المال فيفتقر ولا يجد ما ينفق ويلوم نفسه على التبذير ويتحسر على الأيام الخالية:

٥ - «ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا. إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا» (٢٩ - ٣٠).

٦ - «ولا تقتلوا أولادكم خَشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم. إن قتلهم كان خِطئا كبيرا» (٣١). فقد كان العرب فى أوقات الأزمات الغذائية يقتلون أطفالهم تخلصا من كثرة النفقة. وهذا بالطبع غير عادة وأد البنات.

٧ - «ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا» (٣٢).

٨ - «ولا تقتلوا النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ومن قُتل مظلوما فقد جعلنا لوليِّه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا» (٣٣).

٩ - «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده . . .

١٠ - «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا» (٣٤).

١١ - «وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا» (٣٥).

١٢ - «ولا تقفُ ما ليس به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا» (٣٦). والقيافة هى تتبع الأثر. والمعنى لا تتدخل فيما ليس لك به شأن ولا تنظر أو تتسمَّع من

أمور أخيك إلى مالا شأن لك به أو تختلق شيئا فتقول سمعت ولم تسمع أو رأيت ولم تر. فالمرء يوم القيامة مسئول عن سمعه وبصره وجميع حواسه وهى شاهدة عليه.

١٣ - **«ولا تمش فى الأرض مرَحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا. كل ذلك كان سيِّئه عند ربك مكروها»** (٣٧ -٣٨). وفى هذا نهى عن الكبر والخيلاء بالزهو فى النفس ودب الأرض بالرجلين ورفع الذقن إلى الأمام.

وتختم الوصايا بتكرار الوصية الأولى الخاصة بتوحيد الله:

«ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتُلقى فى جهنم ملوما مدحورا» (٣٩).

تنزيه الله عن الولد والشريك:

ثم تمضى الآيات تستنكر ما يقوله الكفار من أن الملائكة بنات الله. إذ كان العرب ينظرون إلى الولد أنه أفضل من الأنثى ومن غير المعقول أن يفضِّل الله الكفار ويخصهم بالبنين ويتخذ هو من الملائكة بنات فهذه فرية عظيمة. وقد سبق أن ورد هذا المعنى فى سورة النجم (آية ٢٢ ص ١٩٩) فى قوله تعالى: **«ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضِيزى»** ثم تمضى الآيات لتوضِّح للكفار أنه لو كان مع الله آلهة أخرى لما قبلوا أن يكونوا فى مقام أدنى ولنافسوه ونازعوه الملك وتنزَّه الله عن ذلك فكل شيئ يسبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن:

«أفأصفاكم (أى فضَّلكم) **ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما. ولقد صرَّفنا** (بيَّنَّا) **فى هذا القرآن ليذكَّروا وما يزيدهم إلا نفورا. قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا. سبحانه وتعالى عمَّا يقولون عُلوًا كبيرا. تُسَبِّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا»** (٤٠ - ٤٤).

وهذه أول مرة يُذكر فيها أن السموات سبعٌ. وفى ضوء المعارف الفلكية الحالية فإن الكون يتكون من ملايين الملايين من المجرات تفصل بعضها عن بعض مسافات تقدر بآلاف الملايين من السنين الضوئية وكل مجرة فيها عشرات الملايين من النجوم مثل الشمس تدور حولها ملايين الملايين من الكواكب السيارة. وأن كل هذا ما هو إلا السماء الأولى. ويقول بعض علماء اللغة إن عدد ٧ ، ٧٠ ، ٧٠٠ يُورَد أحيانا للتعبير عن الكثرة وليس بقصد تقرير حقيقة عددية. وإن كان المقصود حقيقة عددية فهى غيب لا يعلمه إلا الله وعلينا أن نؤمن بأن السموات سبع دون الدخول فى كيفيتها. وعلى كلٍّ فالمقصود هو التنويه بأن جميع ما خلق الله فى الكون يُسَبح بكيفيات لا نفهمها نحن البشر. وقيل إن تسبيحها هو خضوعها لسنن الله وانقيادها لمشيئته. وفى آخر الفقرة يُفتح باب الأمل أمام الكفار المنكرين لقدرة الله بأن جاء وصف الله بالحلم والمغفرة. فهو لا يُعجل بالعقوبة وهذا هو الحلم و«غفور» يغفر لمن تاب وآمن.

إعراض الكفار عن القرآن :

«وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا. وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا. وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا. نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلا» (٤٥ - ٤٨).

ففى خطاب موجَّه إلى النبى تقرر الآيات أن الله عز وجل يحجب الكفار عن القرآن ويجعل على قلوبهم غشاوة وفى آذانهم صمم فلا يستوعبون معانيه وأن ذلك كان عقابا لهم لأنهم كانوا - لشدة غلظة قلوبهم - إذا ذكر الله وحده نفروا ويتسارُّون فيما بينهم حينما يرون شدة تأثر المؤمنين حين يسمعون القرآن فيقولون إن النبى مسحور ويقوم بسحر أتباعه والحقيقة أنهم بقولهم هذا قد عبَّروا عن ضلالهم فلا يستطيعون الوصول إلى الطريق المستقيم.

إنكـار البعث :

واستكمالا لموقف الكفار المنكر للنبوة فإنهم ينكرون البعث ويستنكرون أن يكون هناك خلق آخر بعد أن تبلى العظام وتصبح رفاتا وترد عليهم الآيات بأنهم لو كانوا حجارة - لا تقبل فى ظنهم الحياة - أو حتى حديدا - وهو أصلب من الحجارة. أو حتى ما هو فى مفهومهم أقسى من هذين فإن الله الذى خلقهم قادر على إعادتهم للحياة. ويتعجَّب الكفار ويهزُّون رؤوسهم استنكارا ويسألون استهزاء: متى يحدث هذا؟ ويأتى الجواب يخبرهم أن ذلك قد يكون فى وقت أقرب كثيرا مما يظنون وأنهم حين يُبعثون يظنون أنهم لم يلبثوا إلا وقتا قليلا وحينئذ يستجيبون لنداء البعث ويسبحون بحمد ربهم رغم أنوفهم:

«وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا. قل كونوا حجارة أو حديدا. أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا. يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا» (٥٠ - ٥٢).

والآيات تحكى صورة من صور الجدل الذى كان كثيرا ما يحتدم بين الكفار وبين النبى وخاصة حول البعث والحساب وفيها التأكيد على أن الذى خلق ابتداء قادر على إعادة الخلق. كل ذلك فى أسلوب رائع فيه تبادل بين قالوا ويقولون وقل بانسجام محبب وسهولة لفظية وجرس موسيقى يجذب الأسماع.

توجيه للمؤمنين عند جدال المشركين :

«وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان

عدوا مبينا. ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا. وربك أعلم بمن فى السموات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا» (٥٣ - ٥٥).

وفى الآيات أمر للمؤمنين - عند جدالهم مع المشركين - أن يقولوا العبارات التى هى أحسن للإقناع ويتركوا الكلام الخشن الذى يتسبب عنه النزاع والخصام لأن الشيطان يحاول أن يفسد بين المؤمنين والكافرين. والله أعلم بما فى نفوس العباد ومحاسبهم عليه إن شاء رحم وإن شاء عذّب والنبى ليس مسئولا عنهم. والله عليم بكل مافى السموات والأرض وبأحوال العباد الظاهرة والباطنة فيختار للنبوة من يشاء ومن هو أهل ويَفْضلُ بعضُ الأنبياء بعضًا وبعضهم أوتى كتبا سماوية وفُضِّل داود بنزول الزبور عليه وفى هذا إشارة إلى تفضيل النبى بنزول القرآن عليه.

تحدى للكفار :

«قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا. أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا» (٥٦ - ٥٧).

وفى الآيات تحدى للكفار إذ تطلب منهم أن يدعوا من أشركوهم فى العبادة - مثل الملائكة وغيرهم وزعموا أنهم شركاء لله - ليكشفوا عنهم ضُرًّا نزل بهم ولكن يثبت عجزهم ولا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويله. بل إنَّ هؤلاء من فرط خشيتهم لله يتحرون الطريقة المثلى التى تقربهم إلى الله ويطمعون فى رحمته ويخافون عذابه فعذابه ينبغى أن يُحذَر ويُخاف لشدته.

الموقف من طلب المعجزات المادية :

كان كفار قريش كثيرا ما يطلبون من النبى أن يأتى بمعجزة مادية حتى يقتنعوا ويؤمنوا. وتوضح الآيات أن سنة الله قد جرت - ومسطور فى كتاب علمه المحيط - أن القوم إذا طلبوا معجزة ولم يؤمنوا وجب هلاكهم. وهذا ما حدث للأقوام السابقين مثل قوم ثمود الذين أظهر لهم الله الناقة آية واضحة فكفروا بها. والآيات تُرسَل من الله لردع الناس وتخويفهم والمعنى أنه من رحمة الله بقريش أنه لم يستجب لهم فى طلبهم الإتيان بمعجزة مادية:

«وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا. وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مُبصِرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا» (٥٨ - ٥٩).

تذكرة بمعجزة الإسراء والمعراج :

واستكمالا لهذا المعنى تذكر الآيات أن الله قد آتاهم معجزة مادية وهى معجزة الإسراء والمعراج ولكنها لم تكن معجزة تحدى بحيث يجب إهلاكهم إذا لم يؤمنوا. فقد أحاط الله بما فى قلوبهم. وجعل من معجزة الإسراء والمعراج اختبارا للناس يزداد به إيمان المؤمن وكفر الكافر:

«وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرًا» (٦٠).

والرؤيا لا تعنى – كما سبق أن ذكرنا المنام فقط وإنما تشمل مشاهدات اليقظة أيضا وعلى ذلك وصفت معجزة الإسراء والمعراج بأنها رؤيا. أما الشجرة الملعونة فهى شجرة الزقوم السابق ذكرها فى سورة الواقعة (آية ٥٢ ص ١٧٢).

عداوة إبليس لآدم وذريته :

ثم تمضى الآيات توضح للكفار أن كفرهم وعنداهم هو من أفعال إبليس وإضلاله لبنى آدم فتذكر أن أصل هذه العداوة يرجع إلى وقت خلق آدم وأمر الله الملائكة بالسجود له فرفض إبليس تنفيذ أمر ربه فلعنه الله فأقسم إبليس أن يعمل على إضلال ذرية آدم فتوعده الله – هو ومن اتبعه – بنار جهنم:

«وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا. قال أرأيتك هذا الذى كرّمتَ علىَّ لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنِكن ذريته إلا قليلا. قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا. واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأَجلِب عليهم بخيلك ورَجِلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا» (٦١ – ٦٥).

والآيات تتحدى إبليس فتهيب به أن يستخف بمن يشاء من بنى آدم ويدعوهم إلى المعصية وأن يفرغ كل ما فى جعبته من أنواع الإغراء ويشاركهم فى كسب المال الحرام ويساعدهم على إنفاقه فى ارتكاب المعاصى. والمشاركة فى الأولاد هو الإغراء بالزنا أما ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن الشيطان يشارك بعض بنى آدم فى مأكلهم ومشربهم ومعاشراتهم الجنسية فهذا دخول فى ماهيات غيبية لا طائل من ورائها.

قدرة الله وفضله :

ثم تمضى الآيات فتذكّر الكفار بأن الرب الجدير بالعبادة هو الله الذى ييسّر لهم أسفار البحر ليتكسّبوا من ورائها. وإذا مسّهم أثناءها الخطر من الغرق استغاثوا بالله ثم يعودون لكفرهم بعد أن يتأكدوا من نجاتهم كأنما قد أمِنوا انتقام الله منهم فى البر خسفا بالأرض من

تحتهم أو ريحا شديدة تقذفهم بالحصى والحجارة أو فى البحر إغراقا حين يعودون إليه مرة أخرى:

«ربكم الذى يُزجِى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما. وإذا مسكم الضُر فى البحر ضلَّ من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا. أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا. أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا. ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضَّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » (٦٦ – ٧٠).

تذكير بالحساب يوم القيامة :

«يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يُظلمون فتيلا. ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلا» (٧١ – ٧٢).

محاولة الكافرين استمالة الرسول :

«وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا. إذًا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا» (٧٣ – ٧٥).

وفى الآيات تنبيه للنبى بأن الكفار كادوا أن يصرفوه عما أُوحِىَ إليه ويحملوه على مسايرتهم بوعد اتباعه وبأنه كاد أن يستجيب لهم لولا أن ثبته الله. وتحذير من أنه لو كان قد فعل لاستحق من الله عذابا مضاعفا فى الحياة الدنيا وبعد الممات. وقد تعددت الروايات التى وردت فى كتب التفسير بصدد هذا الموقف: قالوا إن فريقا من الكفار اقترح على النبى السكوت عن شتم آلهتهم نظير أن يكفوا عن إيذائه وإيذاء أتباعه. وقيل إنهم اقترحوا الإبقاء على بعض طقوسهم مدة من الزمن. وقيل إنهم اقترحوا أن يسمح لهم بتكريم آلهتهم. وقالوا إنهم أرادوا أن يمنعوه من الحجر الأسود والطواف بالكعبة مالم يُلِمَّ بآلهتهم التى كانت فى فناء الكعبة. وذكر تفسير الطبرى (جـ ١٠ ص ٢٩٩) رواية عن ابن عباس أن الآية نزلت فى وفد ثقيف قالوا للنبى: متِّعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لها فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا. وحَرِّم وادينا كما حُرِّمت مكة حتى تعرف العرب فضلنا عليهم. وقالوا إنهم اقترحوا إعفاءهم من الصلاة أو الزكاة أو إباحة الربا لهم. وتثبت الآيات أن الله تعالى ثبَّت النبى فى هذه المواقف لأنه لا يصح أن تكون هناك مساومة ولا حل وسط فى دين الله. لما فشل الكفار فى ذلك حاولوا أن يضيِّقوا على النبى ليخرجوه من مكة. ويأتى توكيد للنبى بأن الأمر لو كان قد وصل إلى هذا الحد لكان معناه التعجيل بالهلاك الذى كان سينزل بهم بعد إخراجه بقليل **«وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا»** لأن هذه سنة الله مع الرسل والأمم من قبل ولا تبديل ولا

تحويل لهذه السنة. ثم يأتى أمر للنبى بأن يزيد من عبادته لله بالصلاة فى الليل والنهار وفى كل وقت عسى الله أن يثيبه يوم القيامة مقاما يحمده فيه جميع الخلائق وأن يطلب من الله أن يدخله فى جميع أموره مدخلا مُرضيا كريما وأن يخرجه فى كل المواقف منصورا. كما أُمر النبى أن ينذر الكفار أن الحق سيعلو وأن الباطل سيزهق ويخزى فالباطل مضمحل وزائل:

«وإن كادوا ليستفزِّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذًا لا يلبثون خلافك إلا قليلا. سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا. أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً. ومن الليل فتهجَّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا. وقل رب أدخلنى مُدخل صدق وأخرجنى مُخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا. وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» (٧٦ - ٨١).

وقالوا إن المقام المحمود هو الشفاعة يوم القيامة وهناك بعض الأحاديث فى صدد ذلك. وقالوا هو إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة. وعلى كلٍ فمن المسلم به أنه سيكون للنبى أعظم مقام فى الآخرة.

وكيف لا يزهق الباطل والله ينزل من القرآن ما يشفى النفوس الصالحة من الحيرة خلافا للظالمين الذين يزدادون عنادا فيزدادون خسرانا.

«وننزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً» (٨٢).

ثم توضح الآيات ما فى طبع الإنسان من جحود فإذا أنعم الله عليه بالصحة والمال مثلا نسى الله وبَعُد عنه وإذا مسَّه الضر كالمرض والفقر كان شديد القنوط وكل إنسان يتصرف حسب اختياره. والله يعلم من يسير فى طريق الهدى ومن يسير فى طريق الضلال:

«وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسَّه الشر كان يؤوسا. قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا» (٨٣ - ٨٤).

سؤال عن الروح :

قلنا سابقا (ص ٢٠٤) إن أحبار اليهود اقترحوا على كفار قريش اختبار النبى بأسئلة ثلاثة. وكان السؤال الثالث عن الروح:

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» (٨٥).

وتقرر الآيات أن الروح سر من الأسرار التى استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمها ولا يستطيع البشر إدراكها لأن عقولهم قاصرة عن الإحاطة بماهيتها وعلمهم مهما كثر فهو قليل بالنسبة إلى علم الله المحيط الشامل.

عن القرآن :

«ولئن شئنا لنذهبنَّ بالذى أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا. إلا رحمة من ربك إن

فضله كان عليك كبيرا . قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرّفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كُفورا» (٨٦ - ٨٩).

وتقرر الآيات أن لو شاء الله أن يذهب بما أوحى إلى النبى من قرآن فلا يملك أحد أن يحول دون ذلك ولكن الله أبقاه رحمة بالعباد وفضلا منه على نبيه. ثم يأتى تحدى للإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن. ولن يستطيعوا حتى لو عاون بعضهم بعضا. ولقد أُدرج فى القرآن من الموضوعات والمناهج والعظات ما يحمل الناس على الإيمان ولكن أكثر الناس ظلوا على عنادهم وكفرهم

وقد كتب المفسرون الكثير فى وجوه إعجاز القرآن. فقد شهد العرب ببلاغة أسلوبه وروعة نظمه وسمو طبقته وما احتواه من المبادئ والأسس التى فيها للناس هدى. ناهيك عن إيجازه المعجز وهو ما يظهر فى ضخامة كتب التفسير. وكان القرآن هو المعجزة الكبرى للنبى وكان فيه غنًى عن إظهار معجزات مادية.

الكفار يطلبون معجزة مادية :

ولكن الكفار استمروا فى تعنتهم وطالبوا النبى بمعجزات مادية يدلل بها على صدق رسالته. ويأتى الرد بأنه بشر مثلهم أرسله الله لهدايتهم. وأن الرسل يجب أن يكونوا من جنس من أرسلوا إليهم. ولو كان فى الأرض ملائكة لأرسل الله إليهم ملكا رسولا:

«وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجُرَ لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفَجِّرَ الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا (نقابلهم ونعاينهم)**. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تُنَزل علينا كتابا نقرؤه. قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا. وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا. قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا. قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا»** (٩٠ - ٩٦).

الهداية والضلال :

«ومن يهد الله فهو المهتدِ ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا . ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا . أوَلَمْ يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا» (٩٧ - ٩٩).

والآيات وإن كانت تنسب الهداية والإضلال إلى الله تعالى إلا أن ما يليها يبين أن ذلك كان جزاء لهم على كفرهم وإنكارهم للبعث . ثم يأتى تخويف للكافرين من سوء المصير إذ يحشرون يوم القيامة عميا وبكما وصما. وهى صورة تبث الرعب فى سامعيها ولو كانوا يعقلون لأدركوا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يعيد خلقهم فى الآخرة.

كرم الله وحِلمه :

«**قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذًا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا** (أى **بخيلا**)» (١٠٠).

ولعل بعض الكفار احتج بأنهم يتمتعون بمتع الدنيا ونعيمها ولا يتفق هذا مع عدم رضا الله عنهم فكان أن أوضحت الآيات أن طبيعة البشر التقتير خشية الفقر وأنهم أكثر إمساكا لأيديهم عمَّن لا يرضون عنهم. ولكن خزائن الله واسعة وكرمه أوسع ومن رحمته أن يرزق الكافر ولا يعنى ذلك رضاه عنه فالله يرزق الكافر ويمهله عسى أن يهتدى..

وكمثال على ذلك ذكرت الآيات ما حدث بين موسى وفرعون فقد أمهل الله الفرعون – المرة بعد المرة – حتى تسع آيات ولكن فرعون لم يؤمن واتهم موسى بالسحر فكان جزاؤه الغرق وأسكن الله بنى إسرائيل الأرض المقدسة:

«**ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا. قال لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا. فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا. وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا**» (١٠١ – ١٠٤).

وفى معنى الآية الأخيرة الخاصة ببنى إسرائيل قال المنتخب فى تفسير القرآن الكريم الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (ص ٤٢٤): حتى إذا جاء وقت الحياة الآخرة جاء الله بهم جميعا من قبورهم ليحكم بينهم. وبذلك أيضا قال الألوسى (تفسيره جـ ١٥ ص ١٨٧) إلا أنه من المحتمل أن يكون المعنى هو: حتى إذا جاء وقت العلوّ الثانى الذى قررته الآية ٧ من السورة (ص ٢١٠) فى قوله تعالى: «**فإذا جاء وعد الآخرة**» فيكون المعنى حتى إذا اقترب وعد الآخرة جاء الله بهم جماعات جماعات إلى الأرض مصداقا لقوله «**وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا**» ليكون العلو الثانى الذى وُعدوا به وبعد ذلك يجئ المؤمنون «**ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبرُوا ما علوا تتبيرا**» (نفس الآية ٧ من سورة الإسراء). ونكرر ما سبق أن ذكرناه سابقا من أن بعض المفسرين المعاصرين يرون أن «وعد الآخرة» لم يتحقق بعد وأن بنى إسرائيل يتجمعون الآن فى فلسطين تمهيدا للمعركة الكبرى التى تبيدهم – والله أعلم.

موقف أهل الكتاب من القرآن :

«وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا. وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكث ونزلناه تنزيلا. قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سُجَّدًا. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا» (١٠٥ - ١٠٩).

وتقرر الآيات أن القرآن نزل بالحق. وأُكِّد المعنى بتكراره. ثم توضح أن الرسول ماهو إلا مبشر ومنذر. وأن القرآن نزل مُنجَّما حسب الأحداث ليقرأه النبى على الناس على مهل ليفهموه وليتدبروا آياته. ثم تأمر الآيات بعدم الاهتمام بموقف الكفار سواء آمنوا أو لم يؤمنوا - وتذكر ما حدث من إيمان بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى عند سماعهم للقرآن. وقد سبق أن ذكرنا تصديق النجاشى وجريان دموعه حينما تلى عليه جعفر بن أبى طالب الآيات من سورة مريم (ص ١٦٧) كذلك أسلم بعض أحبار اليهود وبعضهم كان يحث من يستشيرهم فى أمر محمد بالإيمان به لأنه هو النبى الموعود فى آخر الزمان. والآيات ٥٢ - ٥٥ من سورة القصص (ص ١٨٩) تذكر هذا المعنى أيضا: **«الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا»** إلا أن الغالبية العظمى من اليهود والنصارى كانوا يتمنون أن يكون النبى منهم لا من العرب فرفضوه واتخذوا منه موقف العداوة.

آداب الدعاء :

أ - «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى» (١١٠).

عن ابن عباس أن المشركين سمعوا النبى يدعو ويقول: يا الله، يارحمن. فقالوا كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين. وقيل إن القائل هو أبو جهل. وتوضح الآيات أن تعدد الأسماء هو لتعدد لصفات والله واحد له الأسماء الحسنى كما جاء فى سورة الأعراف (آية ١٨٠ ص ١٢٨): **«ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها»**.

ب - «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا» (١١٠).

وقد سبق إيراد هذا المعنى فى سورة الأعراف (آية ٢٠٥ ص ١٣٠) فى قوله تعالى: **«واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول»** وفى الآيتين توجيه لعامة المسلمين بخفض الصوت عند الدعاء منعا للاتهام بالمراءاة فى حالة الجهر بالصوت المرتفع. كما أن الإسرار التام يهيئ الفرصة لزيادة وساوس الشيطان. وقيل كان أبو بكر إذا صلَّى خفض صوته جدا قائلا: أناجى ربى وقد عرف حاجتى. أما عمر بن الخطاب فكان يرفع صوته كثيرا قائلا: أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان. وبلغ ذلك رسول الله فقال: يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئا. وقال لعمر: اخفض من صوتك شيئا.

ثم تأتى الآية الخاتمة للسورة :

«وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولّى من الذل وكبِّره تكبيرا» (١١١).

وهو أمر بحمد الله الذى لم يتخذ ولدا لعدم حاجته إليه ولم يكن له شريك لأنه وحده هو الذى خلق الكون كله ولم يكن له ناصر يعطيه عِزَّة مثل البشر الذين يتخذون وليا يمنع عنهم الذل ثم أمر أخير بتكبير الله تكبيرا يليق بجلاله.

الزواج بعد خديجة :

ذكرنا سابقا (ص ١٩٣) وفاة خديجة عن عمر يناهز الخامسة والستين. ومضت الأيام برسول الله ثقيلة مشحونة بالذكريات بعد رحيل خديجة أول من صدَّق وآمن به. وخلا البيت عليه وعلى ابنتيه أم كلثوم وفاطمه. فقد كانت زينب فى بيت زوجها أبى العاص بن الربيع. ورقية متزوجة من عثمان بن عفان وهما مهاجران في أرض الحبشة. أما أم كلثوم فبعد طلاقها من عتيبة بن أبى لهب فإنها ظلت فى بيت أبيها. أما فاطمة صغرى بنات النبى فكان عمرها ١٥ عاما ولم يتقدم أحد للزواج منها إذ كان المفهوم لدى شباب قريش أنها من نصيب على بن أبى طالب.

وكان النبى كلما أجهده أذى قريش وتكذيبهم خلا إلى وحدته فى بيته. ولم تكن البنتان لتخففا عنه كما تخفف المرأة عن زوجها. ويرى الصحابة آثار الحزن على نبيهم ولكن أحدا منهم لم يجرؤ على اقتراح الزواج من جديد. حتى كانت «خولة بنت حكيم السلمية» هى التى سعت ذات يوم إلى داره. وكما روت هى فيما بعد قالت: يارسول الله. كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة. قال: أجل. كانت أم العيال وربة البيت. فاقترحت عليه أن يتزوج وسألها النبى من؟ قالت بنت أحب الناس إليك - تقصد أبا بكر - فقال لها: إنها لاتزال صغيرة. فقالت تخطبها اليوم ثم تنتظر حتى تنضج وكان معنى ذلك أن الزواج لن يتم إلا بعد ٣ سنوات فقد كانت عائشه فى ذلك الوقت فى السادسة من عمرها. وسأل النبى عمَّن يرعاه ويرعى البيت خلال هذه المدة. فأخبرته عن سودة بنت زمعة العامرية.

وأطرق الرسول فترة تذكر فيها سودة بنت زمعة. فأمها من بنى عدى النجار وكانت متزوجة من ابن عمها السكران بن عمرو بن عبد شمس. وكانا من أوائل من أسلموا وتحملا أذى قريش ثم هاجرا فى الفوج الثانى من المهاجرين إلى الحبشة وهناك قاسيا ألم الغربة. ثم توفى زوجها فقاست ألم الترمل بالإضافة إلى ألم الغربة . ثم عادت إلى مكة فى الفوج المكون من ٣٣ فردا الذين عادوا فى السنة العاشرة للبعثة كما سبق أن ذكرنا (ص ١٦٨). وعاشت سودة

فى مكة وحيدة تجتر أحزانها . ولاشك أن ذلك كله قد أحزن النبى. فلما ذكرتها خولة رأى أن خير مواساة لهذه المرأة المسلمة التى كان نصيبها من الحياة قليلا هو أن يتزوجها فأذن لخولة فى خطبتها هى وعائشة بنت أبى بكر.

الزواج من عائشة :

دخلت خولة بنت حكيم بيت أبى بكر وقالت: يا أم رومان. ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة. قالت أم رومان: وماذاك؟ قالت أرسلنى رسول الله أخطب عائشة - ولما جاء أبو بكر وعلم بالأمر قال: وهل تصلح له؟ إنما هى ابنة أخيه. فرجعت خولة إلى رسول الله فذكرت له ما قال أبو بكر فقال: ارجعى إليه فقولى له أنا أخوك وأنت أخى فى الإسلام وابنتك تصلح لى. فرجعت وذكرت ذلك لأبى بكر. فقال انتظرى. فقد كان مطعم بن عدى - وكان لايزال على شركه - وهو صديق لأبى بكر - قد خطبها لابنه. وما وعد أبو بكر وعداً وأخلفه فسار أبو بكر إلى دار مطعم. فقالت زوجة مطعم أم الفتى: يا ابن أبى قحافة لعلنا إن زوجنا ابننا ابنتك أن تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه. ولم يرد عليها أبو بكر بل التفت إلى زوجها المطعم بن عدى وقال: ما تقول هذه؟ فأجاب المطعم: إنها تقول الذى سمعت وكان معنى ذلك رغبة المطعم وزوجته فى فسخ الخطبة فخرج أبو بكر وقد شعر بارتياح لما أحلَّه الله من وعده. وعاد إلى بيته وقال لخولة: ادعى لى رسول الله. فمضت خولة إلى بيت رسول الله ودعته إلى بيت أبى بكر الذى زوَّجه من عائشة وهى يومئذ - كما قلنا - بنت ٦ أو ٧ سنوات. وكان صداقها ٥٠٠ درهم. ولم يعد هناك من حرج فى استمرار زيارات النبى لأبى بكر فى بيته فى أى وقت من ليل أو نهار كما كان يفعل فقد أصبحت عائشة زوجا لرسول الله وإن لم يدخل بها.

الزواج من سودة :

بعد ذلك راحت خولة إلى بيت سودة فدخلت عليها وقالت: ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة يا سودة. فسألت سودة: وما ذاك ياخولة؟ قالت أرسلنى رسول الله أخطبك إليه. فقالت سودة فى حياء: ادخلى إلى أبى فاذكرى له ذلك. فدخلت سودة عليه وهو شيخ كبير وقالت له إن النبى أرسلها يخطب سودة. فقال الشيخ: كفء كريم. فماذا تقول صاحبتك - يعنى سودة - فقالت خولة: تحب ذاك. فطلب منها الشيخ أن تدعو «محمدا» فدعته وتم زواجه من سودة.

وشاع فى مكة أن «محمداً» قد خطب سودة بنت زمعة فكاد أناس لايصدقون الخبر. فكل عائلات مكة ترحب بالنبى صهرا لبناتها اللاتى يفقن سودة جمالا وشبابا وما فى مثل سودة من مأرب فهى أرملة مسنة غير ذات جمال. وأيقن الجميع أن النبى ما تزوجها إلا جبرا لخاطرها وتعويضا لها عما ذاقته من قسوة الحياة ومداً ليد الرحمة يسند بها شيخوختها.

يثرب = المدينة :

تقع يثرب كما هو معروف (شكل ٥ ص ١٦) على طريق القوافل من مكة إلى الشام والأرض المحيطة بها خصبة ولذلك كثرت فيها الزراعة وخاصة بساتين النخيل إلا أنها تقع فى مكان خفيض من السهل تتجمع فيه المياه فى الشتاء وتكون بركا راكدة تتكاثر فيها الحشرات الطائرة مثل الناموس وغيره ولذلك كانت تتفشّى فيها الحميات.

وكان أول من سكنها العماليق ثم جاء إليها العرب نزحوا إليها من اليمن بعد سيل العرم (انظر فيما بعد شكل ١٨ ص ٢٨٧) وهم قبيلتا الأوس والخزرج. أما اليهود فقد جاءوا إلى يثرب فى عدة مراحل. فبعد استيلاء نبوخذنصر على بيت المقدس وتدمير الهيكل عام ٥٨٦ ق.م. بدأت أعداد منهم تتجه إلى جنوب شبه الجزيرة العربية ليلحقوا باليهود المقيمين فى اليمن التى كانت الديانة اليهودية قد انتشرت فيها منذ أن اتبعت ملكة سبأ سليمان عليه السلام. إلا أن أعدادا منهم تخلفت فى الطريق فى خيبر ويثرب. وبعد تدمير أورشليم على يد القائد الرومانى تيتوس عام ٧٠ م (جـ ٦ ص ١٣٠) زادت أعدادهم فى خيبر ويثرب بوصفهما أقرب مدينتين بهما أعداد من اليهود فتكونت جالية يهودية كبيرة فى كل منهما. وإن نزلوا أيضا فى أماكن أخرى مثل وادى القرى وفدك وتيماء.

ولاشك أن اليهود قدَّموا أنفسهم للعرب كأبناء عمومة لهم فإسماعيل أبو العرب - هو أخو إسحق والد يعقوب أبو بنى إسرائيل. وإبراهيم والدهما هو الذى بنى الكعبة. فنالوا بذلك ترحيب العرب فضلا عن كونهم أهل كتاب سماوى وأهل علم بالأمم السابقة مما جعل العرب يُجِلُّونهم. وأحيانا كانوا يحتكمون إلى أحبارهم الذين اعتكفوا فى الصوامع وكانوا يعيشون عيشة الزهَّاد بعيدين عن مباهج الحياة وزخرفها. وعاش اليهود بين العرب كفئة مستقلة مترفِّعة عنهم. ولم يحاول اليهود محاربة الأصنام ولا دعوا العرب إلى الله ولكنهم نأوا بأنفسهم وظنوا أن الدين امتياز لهم لا ينبغى أن يشاركهم فيه أحد. واستراحوا إلى هذا المنطق فهم «شعب الله المختار»!

ولم يلبث اليهود الذين نزحوا إلى المدينة أن استغلوا ذكاءهم المعهود وبراعتهم فى التجارة فاقتنوا الضياع والأموال وأصبحت تجارة يثرب فى أيديهم وكانت أشهر قبائلهم: بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع. وصار لليهود اليد العليا فى يثرب وساموا العرب الإذلال والهوان. واستعان عرب يثرب بالتبابعة حتى عزُّوا وصاروا على قدم المساواة مع اليهود. وكانت أشهر قبيلتين عربيتين فى يثرب هما الأوس والخزرج. وأدرك اليهود ما يتهدد مركزهم إذا ما اتحد الأوس والخزرج لذلك فإنهم عملوا على الوقيعة بينهما وكانوا يؤجِّجون نار العداوة خصوصا أن كلا منهما كان يتطلع إلى مركز الزعامة فى المدينة. وانحاز بنو قريظة والنضير للأوس وانضم بنو قينقاع إلى الخزرج ولعل ذلك كان باتفاق بين طوائف اليهود حتى يتمكنوا من

الإيقاع بين القبيلتين وتأجيج نار الحرب بينهما. وكان الشعراء يلعبون دورا خطيرا فى تلك الحروب. فحسَّان بن ثابت شاعر الخزرج يفخر بعشيرته وما تأتى به من ضروب البطولات. وقيس بن الخطيم شاعر الأوس يجاريه ويرد عليه بقصائد أقسى من ضرب السيوف. فكانت الحروب بينهم تقوم لأتفه الأسباب. وأشهر معاركهم حرب داحس والغبراء وحرب بعاث.

حرب داحس والغبراء :

كان قد أقيم سباق بين خيول عبس حلفاء الأوس وخيول ذبيان حلفاء الخزرج. وداحس اسم فرس يملكه زعيم عبس والغبراء اسم لفرس يملكها شيخ ذبيان. وكادت الغبراء تسبق لولا أن كمن لها فتيان من عبس فى أحد الشعب فعطَّلوها ففازت داحس واختلف القوم وقامت الحرب بين القبيلتين وانضم إليهما حلفاؤهما من الأوس والخزرج.

حرب حاطب :

قَتل حاطب الأوسى يهوديا كان جارا وحليفا للخزرج فخرج إليه نفر من بنى الحارث بن الخزرج فقتلوه وقامت الحرب بين الأوس والخزرج واقتتلوا قتالا شديدا.

قوة العلاقة بين مكة والمدينة :

قلنا إن يثرب تقع على طريق القوافل بين مكة والشام ولذلك كانت هناك صلات تجارية بين البلدين. وفضلا عن ذلك كانت هناك أواصر نسب بين عشائر من قريش وعشائر من يثرب. فقد رأينا كيف أن هاشم بن عبد مناف القرشى تزوج من بنى عدى بن النجار من يثرب وأنجب شيبة الذى سُمِّىَ فيما بعد «عبد المطلب» (ص ٢١). وذكرنا كذلك كيف أعان بنو النجار ابن أختهم فى مقاومة أطماع عمه حينما أراد نوفل أن يتولى رئاسة قريش بعد أخيه المطلب. ولم تكن هذه صلة النسب الوحيدة بين المدينتين فقد كان مثلها كثير الحدوث. وكانت أخبار مكة سرعان ما تصل يثرب وأخبار يثرب سرعان ما تصل إلى مكة.

وظهر النبى فى مكة وبدأ يدعو قريشا. وسمع به الأوس والخزرج ورغبوا فى التعرُّف على مزيد من أخباره فقدم بعضهم إلى مكة.

قدوم سويد بن الصامت من الأوس :

وأمه من بنى النجار فهو ابن خالة عبد المطلب جد النبى. وكان قومه يسمونه «الكامل» لشرفه ونسبه. وكان كثير الأسفار واطلع على حكمة الأمم المجاورة: فارس والروم ومصر وحفظ كثيرا من أدبهم. فقدم إلى مكة حاجًا للبيت الحرام فتصدى له رسول الله حين سمع بقدومه ودعاه إلى الإسلام فقال له سويد فلعل الذى معك مثل الذى معى؟ فقال له النبى: وما الذى معك؟ قال حكمة لقمان. فقال النبى اعرضها علَّى فعرضها. فقال له النبى: إن هذا الكلام

حسن والذى معى أفضل منه. قرآن أنزله الله علَّى هو هدى ونور. وتلا عليه بعضا من القرآن. فقال سويد إن هذا القول حسنٌ وأسلم. فلما عاد إلى يثرب وعرف قومه بإسلامه قتلوه.

وفد بنى الأشهل من الأوس :

قدم إلى مكة جماعة من بنى الأشهل يلتمسون التحالف مع قريش على الخزرج. فلما سمع بهم رسول الله أتاهم فجلس إليهم وقال لهم: هل لكم فى خير مما جئتم له؟ قالوا وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا. وأنزل علىَّ الكتاب. ثم تلا عليهم بعضا من القرآن وذكر لهم الإسلام. وكان فى الوفد غلام حدث هو إياس بن معاذ. فقال لهم: ياقوم هذا والله خير مما جئتم له. فأخذ كبير الوفد حفنة من تراب وضرب بها وجه إياس وقال: دعنا منك فلعمرى لقد جئنا فى غير هذا. فصمت إياس وانصرف رسول الله. ولما قامت حرب بعاث بين الأوس والخزرج قتل فيها إياس بن معاذ.

حرب بُعاث :

أشعل الأوس مع حلفائهم يهود بنى النضر وبنى قريظة الحرب على الخزرج الذين انضم إليهم أشجع وجهينة وانضم إلى الأوس حلفاؤهم من مزينة. ودارت المعركة عند «بعاث» على طريق مكة غرب المدينة. فلما بدأ القتال دارت الدائرة على الأوس ولكن خضير بن سماك سيد الأوس جمع فلولهم وشجَّعهم فاستأنفوا القتال وهزموا الخزرج هزيمة منكرة. وقام اليهود بالاستيلاء على غنائم الخزرج.

المهادنة بين الأوس والخزرج :

تنبه الأوس والخزرج إلى أن تطاحنهم فى غير مصلحتهم وأن الفائز فى هذا الاقتتال هم اليهود وفطنوا إلى أن اليهود هم الذين يؤججون نار الفتنة لتبقى لهم مكانتهم فى يثرب وتظل لهم السيطرة على تجارتها. وفكَّر الأوس والخزرج فى اتحاد وإقامة ملك عليهم يجمع شملهم تشبُّها بدويلات الحيرة والشام وتعزيزا لمكانتهم بين العرب. وكان عبد الله بن أُبىّ بن سلول هو المرشح لهذا المنصب لما رؤى فيه من الحلم والكياسة وبدأوا يجهزون لهذا التتويج. وكانت وقعة بعاث آخر الحروب بين الأوس والخزرج. واستشعر اليهود الخطر على مكانتهم المتميزة فى يثرب.

ومن ناحية أخرى كان اليهود يفخرون على العرب بأنهم أهل كتاب ويعبدون الله فى حين أن الأوس والخزرج وثنيون يعبدون الأصنام وكان اليهود يقولون للعرب: لقد اقترب موعد نبى آخر الزمان يخرج فنتبعه ونسوقكم سوق الإبل. ونقاتلكم به فنقتلكم قتل عاد وإرم.

وفـد الخـزرج :

فى موسم الحج وبينا النبى عند العقبة لقى ستة نفر من أهل يثرب فقال لهم من أنتم؟ قالوا من الخزرج. قال: أمِن موالى اليهود؟ قالوا نعم. قال أفلا تجلسون أكلمكم قالوا بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وتلا عليهم بعضا من القرآن وعرض عليهم الإسلام. وتذكر الرجال ماكان اليهود يتوعدونهم به من ظهور نبى قد أطلَّ زمانه يتبعونه ويقاتلوهم به قتل عاد وإرم. فقال بعضهم لبعض. ياقوم تعلمون والله إنه النبى الذى توعَّدكم به يهود فلا يسبقُنَّكم إليه.وأجابوا رسول الله فيما دعاهم إليه وأسلموا وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين. فإن يجمعهم الله عليك فلا رجلُ أعز منك. ثم انصرفوا راجعين إلى يثرب وأسلم بإسلامهم عدد آخر من الخزرج وحذا حذوهم نفر من الأوس. وأرسلوا إلى رسول الله أن يبعث إليهم رجلا يفقههم فى الدين فبعث إليهم مصعب بن عمير فنزل على أسعد بن زرارة وراح يدعو إلى الإسلام ويصلى بهم حتى لم تبق دار فى يثرب إلا وفيها ذكر رسول الله.

عود إلى مكـة :

نترك يثرب والإسلام ينتشر فيها حثيثا ونعود إلى مكة حيث رسول الله. فقد نزلت عليه بعد ذلك **ثلاث سور** هى يونس وهود ويوسف وترتيب نزولها هو نفس ترتيبها فى المصحف. والثلاث تبدأ بنفس الحروف المقطعة الر والثلاث مسماة بأسماء ثلاثة من الأنبياء.

سورة يونس :

«آلر. تلك آيات الكتاب الحكيم. أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إنَّ هذا لساحر مبين. إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يُدبِّر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون. إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون» (١ - ٤).

وقد بدأت السورة بثلاثة حروف متقطعة هى الألف واللام والراء. وقد سبق الكلام عن هذه الأحرف المتقطعة فى سور سابقة. بعد ذلك تأتى إشادة بآيات القرآن الكريم. ثم سؤال استنكارى لاستغراب الناس - والمقصود الكفار - لاختيار الله لرجل مثلهم لينذرهم ويبشر المؤمنين أن لهم منزلة رفيعة عند ربهم ولكن الكافرين اتهموا النبى بأنه ساحر. ثم تأتى تذكرة بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض. وقد سبق ذكر كيفية الاستواء على العرش فى سورة

الأعراف (آية ٥٤ ص ١٢٠) وقلنا إن معناه هو قيوميته على الكون ليسير وفق سننه وقوانينه. ثم تقرر الآيات أن لا أحد من الخلق يستطيع أن يشفع عند الله إلا بإذنه. ثم تذكير بأن الناس جميعا يرجعون إلى الله يوم القيامة وهو قادر على ذلك فهو الذى خلقهم ابتداءً ويعيدهم ليكافئ الذين آمنوا بما يستحقونه من ثواب لعملهم الصالح أما الكافرون فلهم عذاب أليم لكفرهم بالله.

بعض آيات الله فى الكون :

«هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب. ما خلق الله ذلك إلا بالحق. يفصلُ الآيات لقوم يعلمون. إنَّ فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون» (٥ - ٦).

ولعل الأقدمين لم يلحظوا الفرق بين ما وصف الله به الشمس والقمر حيث أن الضياء والنور لا يختلفان كثيرا فى معنيهما. فتفسير الجلالين (ص ١٧٠) يقول جعل الشمس ضياء أى نوراً. أما تفسير ابن كثير (جـ ٢ ص ٤٠٧) فيقول جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وجعل شعاع القمر نورا وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل. أما تفسير الألوسى (جـ ١٠ ص ٦٧) فقال: الشمس ضياء أى ذات ضياء والقمر نورا أى نور. واقترب من الحقيقة فيقول: ولكون الشمس نيِّرة بنفسها نسب إليها الضياء ولكون نور القمر مستفادا منها نسب إليه النور. وذكر أن نور القمر على سبيل الانعكاس من غير أن يصير جوهر القمر مستنيرا. وفى ضوء المعارف الحالية فإن الشمس فيها عمليات احتراق نووى ينتج عنها إشعاع ضوء وحرارة أما نور القمر فهو انعكاس لأشعة الشمس على سطحه ولذلك يخلو ضوؤه من الحرارة. وبديهى أن الشمس هى التى تحدد الليل والنهار والقمر هو الذى يحدد الشهور. واختلاف مكان الأرض من الشمس يحدد فصول السنة وفى هذا التعاقب دليل على قدرة الخالق يعقلها من يتقون الله ويخافونه.

مقابلة بين جزاء الكافرين وثواب المؤمنين :

«إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون. أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم. دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين» (٧ - ١٠).

وقد وُصف الكافرون بأنهم لا يؤمنون بالبعث **«لا يرجون لقاءنا»** و **«رضوا بالحياة الدنيا»** وظنوا أنها هى كل شيئ واطمأنوا بها فلم يعملوا لما بعدها وغفلوا عن آيات الله الدالة على البعث والحساب. وهؤلاء لهم النار. ووُصِف المؤمنون بأنهم يعملون الصالحات فى دنياهم. ويثبتهم الله على الهداية بسبب إيمانهم ويدخلهم جنات النعيم دعاؤهم فيها تسبيح وتمجيد لله.

بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق. يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون» (٢١ - ٢٣).

فمن طبائع البشر أنهم يلجأون إلى الله فى الضيق والشدة ويدعونه لكشف الغُمَّة فإذا كشفها كفروا به. وتضرب لهم المثل بما يحدث منهم إذا كانوا فى سفينة فى البحر تدفعها ريح هادئة ثم هبَّت عاصفة وأشرفوا على الغرق دعوا الله مخلصين ونذروا لئن نجوا ليشكرنَّ الله. فلما أنجاهم الله نسوا وعدهم وبغوا فى الأرض. وتلفت الآيات نظرهم إلى أن بغيهم هذا - لينالوا من متع الحياة الدنيا - سيعود وبالا عليهم لأنهم سيرجعون إلى الله فى الآخرة فيخبرهم بما عملوا.

مثل الحياة الدنيا :

وتضرب لهم الآيات مثلا للحياة الدنيا التى اغتروا بها ونسوا وعودهم لله بسببها - والتى يتكالبون عليها - بماء نزل من السماء فازدهرت الأرض واخضرت ثم جاءها أمر الله فجفت وزالت. وعلى كل من عندهم تفكير ألا يغتروا بهذه الدنيا الفانية.

«إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغنَ بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون» (٢٤).

ولاشك أن هذا المثل الذى ضُرب للحياة الدنيا قُصد به كفار قريش الذين بغوا فى الأرض حتى ظنوا أنهم ملكوها. فانغمسوا فى ملذاتها ومتعها فكان المثل لتحذيرهم من زوالها. وهم يرون ذلك يحدث أمام أعينهم فى الصحراء إذ يسقط المطر على بقعة فتخضرُّ وتزدهر بالزرع ويفرح أهلها ثم يأتى أمر الله فتجف ويصبح ماكان بها هشيما تذروه الرياح.

الإيمان بالله فيه الأمن والسلام :

وتستمر الآيات تبين أن الله يدعو عباده إلى الأمن والسلام ويدعو مَن حَسُنَ استعدادهم للخير إلى الطريق المستقيم ولهم أحسن الأجر فى جنات الخلد أما الذين اقترفوا السيئات فلهم عذاب النار فى جهنم خالدين فيها وذلك جزاء مكافئ لسوء أعمالهم:

«والله يدعوا إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قَتَر ولا ذِلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذِلة مالهم من الله من عاصم كأنما أُغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» (٢٥ - ٢٧).

والآيات فيها إنذار بسوء مصير الكفار: لهم ذل وهوان ويغطى وجوههم قتر النار وتتلوث

بسخامها فتسوّد كأنما أسدل عليها سواد من ظلمة الليل. وهى صورة بشعة تبعث الخوف فى النفس وتدعو إلى الإرعواء والاتعاظ.

الشركاء يتنصلون من عبادة الكفار لهم :

«ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم (أى قفوا مكانكم) **أنتم وشركاؤكم فزيَّلنا بينهم وقال شركاؤهم ماكنتم إيانا تعبدون. فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين. هناك تبلوا كل نفس ما أسلفت وردُّوا إلى الله مولاهم الحق وضلَّ عنهم ماكانوا يفترون»** (٢٨ - ٣٠).

والآيات تصوِّر مشهدا لما سيحدث يوم القيامة إذ ستقع فرقة بين الكافرين وبين من كانوا يشركونهم فى العبادة مع الله ويتنصَّل الأخيرون من الكافرين ويستشهدون بالله على براءتهم من عبادتهم لهم ويعلنون أنهم لم يعلموا بهذه العبادة. وحينئذ ترى كل نفس نتيجة عملها وتتحمل تبعة ماعملت فى سالف الأيام. وسيرد الجميع إلى الله فهو الحق وهو وحده الجدير بالعبادة أما من كان الكفار يشركونهم فى عبادة الله فإنهم سيغيبون عنهم **«ضل عنهم»** فلا يستطيعون نصرهم.

واستمرارا لهذا المعنى تمضى الآيات **تستنكر الإشراك بالله** . ويأتى ذلك فى صورة عدة أسئلة تقريرية واستنكارية لايكون الجواب عليها إلا الإقرار بأن الله وحده هو القادر على ذلك.

١ - **«قل من يرزقكم من السماء والأرض....»** مطرا ينبت به الزرع.

٢ - **«أمَّن يملك السمع والأبصار ....»** وهما من أهم الحواس للإنسان.

٣ - **«ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى .....»** وهذا أمر ماثل ويتكرر أمام أعينهم إذ يرون الأرض الجافة وكأنها ميتة فإذا نزل عليها المطر يخرج منها الزرع. وكما أن بعد حياة الإنسان ممات ففى الآخرة حياة ثانية.

٤ - **«ومن يدبِّر الأمر ....»** أى يُصرِّف جميع أمور العالم كله.

ويأتى الجواب : **«فسيقولون الله فقل أفلا تتقون. فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنَّى تصرفون. كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون»** (٣١ - ٣٣).
وهذه الآيات تقرر أن الفاسقين الذين تعمدوا الانحراف وفسدت أخلاقهم هم الذين استحقوا بأفعالهم لعنة الله وغضبه فحال بينهم وبين الإيمان.

٥ - **«قل هو من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده. قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنَّى تؤفكون»** (٣٤). أى فلماذا تكذِّبون وتنصرفون عن الحق.

٦ - **«قل هو من شركائكم من يهدى إلى الحق. قل الله يهدى للحق. أفَمَنْ يهدى إلى الحق أحقُّ**

أن يُتبع أمَّن لا يَهِدِّى إلا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون. وما يَتَّبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون» (٣٥ - ٣٦).

ويَهِدِّى أصلها يهتدى وادغمت التاء فى الدال ونقلت حركة الدال إلى الهاء. وفى السؤال الأخير تنديد برؤساء الكفر والأحبار والرهبان الذين اتخذهم المشركون أربابا من دون الله. فهم أنفسهم لم يهتدوا وبالتالى فهم لا يستطيعون هداية غيرهم لأنهم فى حاجة إلى من يهديهم. فإذا كان الحال كذلك فكيف تأتى لهم أن يطيعوهم ويعصوا الله وهم لا يتبعون كتاب الله بل يتبعون ما يرونه فى ظنهم حقا. وهو فى الحقيقة غير ذلك ولن تفيدهم أعمالهم.

إعجاز القرآن :

وتتحدث الآيات عن إعجاز القرآن فتقول :

«وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه. قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله (قبل أن يتدبَّروه) **كذلك كذَّب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين. ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين. وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون. ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون. ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العُمْىَ ولو كانوا لا يُبصرون. إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسَهم يظلمون»** (٣٧ - ٤٤).

والآيات فى أسلوبها القوى النافذ تنفى أن يكون القرآن مفترى لأنه فى إعجازه وإحكامه لا يمكن أن يكون من عند غير الله. وقد جاء مصدِّقًا للكتب التى سبقته وفيه تفصيل مبدأ التوحيد مما يقطع بصدوره من الله عز وجل وتتحدى الكافرين أن يأتوا بسورة مثل سوره إن كانوا صادقين فى دعواهم أنه من صنع محمد وأن يستعينوا بكل من يستطيعون من أساطين اللغة. وقد ورد مثل هذا التحدى فى سورة الإسراء (الآية ٨٨ ص ٢٢٠) فى قوله تعالى: **«قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»** مما يدل على أن الكافرين ما فتئوا يخوضون فى القرآن وينسبون للنبى تأليفه أو اقتباسه من أساطير الأولين أو الاستعانة بأناس فى كتابته. وقد أشير إلى ذلك فى سورة الفرقان (آية ٥ ص ١٣٩): **«وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا»**.

ثم مضت الآيات تخبرهم أنهم سارعوا إلى تكذيبه دون أن يتدبَّروا محتوياته ويحيطوا بما جاء فيه. وهكذا كان شأن الذين كذبوا الرسل من قبلهم. ثم تلفت النظر إلى عاقبة هؤلاء المكذبين الظالمين الذين سبقوهم. ثم تقرر أن من الناس فريق آمن بالقرآن وفريق آخر لم يؤمن به ويعلن هؤلاء الأخيرين أن عليهم أن يتحملوا تبعة عملهم والنبى ليس مسئولا عما يعملون.

فهؤلاء المكذبين يسمعون القرآن حين يتلى عليهم كأنهم صم ولن يستطيع النبى إسماعهم. ومنهم من ينظر إليه ويرون دلائل نبوته ولكنهم كالعمى لا يبصرون. وسيجازى الله الناس بأعمالهم ولا يظلم أحداً منهم شيئا بل إنهم هم الذين يظلمون أنفسهم باختيارهم الكفر على الإيمان.

عن يوم القيامة :

«ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين. وإما نُرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيدٌ على ما يفعلون. ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قُضِىَ بينهم بالقسط وهم لا يُظلمون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون. أثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون. ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسِبون. ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين. ولو أن لكل نفس ظلمت مافى الأرض لافتدت به وأسرُّوا الندامة لما رأوا العذاب وقُضِىَ بينهم بالقسط وهم لا يظلمون. ألا إن لله مافى السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون. هو يحيى ويميت وإليه ترجعون». (٤٥ – ٥٦).

كان الكفار لا يؤمنون بالبعث فجاءت الآيات تؤكد لهم وقوعه وأنهم سيحشرون إلى الله ومهما مرَّ عليهم من قرون بعد موتهم فإنهم سيشعرون أنهم لم يغيبوا عن الدنيا إلا ساعة من الزمن ويتعارفون فيما بينهم. ذلك أن الزمن يتوقف بالنسبة لمن مات فلا يشعر بمرور الأيام والسنين أو حتى آلاف السنين. ويشعر الذين كذبوا بالآخرة أنهم قد خسروا. ثم يتوجه الخطاب إلى النبى ليخبره أنه سواء أراه الله تحقيق بعض ما وعدهم من عذاب الدنيا أو توفاه الله قبل ذلك فلا مناص من عودتهم إلى الله وهو شهيد على أفعالهم ومجازيهم عليها. ويحاسب الله كل أمة بحضور رسولهم ليشهد عليهم ويحكم الله بالعدل ولا يُظلمون. وتحكى الآيات سؤال الكفار عن موعد البعث سؤال المنكر له. والإجابة أن يقول الرسول لهم أنه لا يعرف موعده ولا حتى يملك لنفسه ضرا ولا نفعا. وأن لهم – كما لكل أمة غيرهم – أجل مُحدَّد ثم يُجازَى الظالمون بالخلود فى العذاب. ويعود الكفار لسؤال النبى مستهزئين عما إذا كان البعث والحساب حقيقة وتأمر النبى بتوكيد ذلك وأنهم لن يعجزوا الله ولن يخرجوا عن شمول قدرته. وفى هذا اليوم – يوم البعث – يتمنى الواحد منهم لو أن له جميع مافى الأرض ليقدمه فدية عن نفسه لينجو. ويعمهم الأسف والندم حين يرون العذاب الذى قُضِىَ به عليهم جزاء وفاقا لعملهم. ثم تهيب الآيات بالناس معلنة أن لله مافى السموات والأرض وأن وعد الله حق وهو الذى يحيى ويميت وجميع الناس إليه راجعون.

القرآن فيه الهدى وهو المرجع فى الحلال والحرام :

فى هذه الفقرة تهيب الآيات بالناس أنهم قد جاءهم كتاب – هو القرآن – فيه موعظة من الله وفيه هداية وجواب لما قد يعتمل فى بعض النفوس فى بعض الأوقات من أسئلة محيرة أو دواء لما قد يصيب بعض القلوب من شك إذ فيه هداية إلى الطريق المستقيم فيزداد إيمانهم ويفرحوا بفضل الله عليهم:

«يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين. قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون (من متاع الدنيا). **قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا. قل آلله أذِن لكم أم على الله تفترون. وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة. إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون»** (٥٧ – ٦٠).

وفى الآيات إشارة سريعة تندد بما كان العرب يفعلونه من تحريم ذبح بعض النوق وادعوا أن هذا من دين الله. وتنعى عليهم الآيات هذا التحريم لأن الله لم يشرعه وتخبرهم أنهم سيُسألون يوم القيامة عن هذا الافتئات على الله.

إحاطة علم الله بكل شيئ :

ثم تمضى الآيات لتثبت إحاطة علم الله بكل شيئ صغيرا أو كبيرا. ومن هذه الإحاطة الشاملة يكون الحساب عادلا : الثواب للمؤمنين والعقاب للمشركين:

«وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه. وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين. ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى فى الحياة الدينا وفى الآخرة. لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم. ولا يحزنك قولهم. إن العزة لله جميعا هو السميع العليم. ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض. وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون. هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون» (٦١ – ٦٧).

والآيات تقرر شمول علم الله تعالى وإحاطته بكل شيئ. فما من شأن يكون فيه النبى وما من مجلس يتلو فيه القرآن وما من عمل يعمله الناس ولا حديث يتحدثون به إلا أحاط الله به فكل شيئ فى السموات والأرض حتى لو كان مثقال ذرة أو أصغر أو أكبر إلا وهو مسجَّل فى اللوح المحفوظ. ثم يأتي تطمين لأولياء الله – وهم المتقون – بأنه لا خوف عليهم ولا حَزَن. ولهم بشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ولم تُوضّح نوع البشارة حتى تشمل كل شيئ يتمناه

المرء. ثم تعود الآيات للتسرية عن النبى وتطلب منه ألا يحزن لتكذيب المشركين له. فالعزة لله وله جميع الخلائق فى السموات والأرض وعُبِّر بضمير العاقل «من» ومن باب أولى أن ما هو أدنى ويعبر عنه بالضمير «ما» يدخل فيه. وأما الكفار فهم يتبعون الظن فى إشراكهم بالله واكتُفىَ بضرب مثال بسيط من نعم الله وهو الليل للسكون والراحة والنهار للعمل واكتساب الرزق.

وفى الآيات تعريف **لأولياء الله** بأنهم هم «الذين آمنوا وكانوا يتقون». ولكن الناس بعد عصر النبى جعلوا «أولياء الله» طبقة خاصة لهم «كرامات» وأوردوا أحاديث متنوعة الرتب منها المرسل ومنها الضعيف والموقوف والمنقطع تبين مقدرتهم على قضاء مصالح العباد أو معرفة بعض الأمور المستقبلية أو الإتيان بغرائب الأفعال التى تصل إلى حد المعجزات ويخرجها عن نطاق العقيدة الإسلامية الصحيحة.

تنزيه الله عن الولد :

كان العرب يعتقدون أن الملائكة بنات الله واليهود يقولون إن عزيرا ابن الله والنصارى يدَّعون أن المسيح ابن الله. فجاءت الآيات تنزه الله عن الولد فهو غنى عن الولد لأن له كل مافى السموات والأرض. وليس لهم دليل أو حجة على قولهم هذا بل هو افتراء على الله سبحانه وتعالى. وإذا كانوا يُمتَّعون فى الدنيا فإن لهم عذابا شديدا حين يرجعون إلى الله يوم القيامة:

«قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون. قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون» (٦٨ - ٧٠).

قصة نوح :

وقد ذكرت قصة نوح قبلا فى سورة الأعراف (الآيات ٥٩ - ٦٤ ص ١٢١) وذكر فيها دعوته لقومه لعبادة الله واتهامهم له بالضلالة ثم فى اختصار شديد ذكر هلاكهم. كذلك ذكرت القصة فى سورة الشعراء (الآيات ١٠٥ - ١٢٢ ص ١٧٨) وفيها اعتراضهم بأن من اتبعه هم من الفقراء والمساكين. وفى السورة الحالية - سورة يونس - ذُكرت دعوته لهم إلى التفكير بإمعان فيما يدعوهم إليه :

«واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلىَّ ولا تُنظِرون. فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرِىَ إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين. فكذبوه فنجَّيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين» (٧١ - ٧٣).

ثم تذكر الآيات أن الله قد أرسل رسلا بعد نوح إلى أقوام آخرين وأن هؤلاء الأقوام قد كذبوا رسلهم وتشابه اللاحقون بالسابقين:

«ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين» (٧٤).

قصة موسى :

وقد سبق ذكر قصة موسى بتفصيل كبير فى عدة سور سابقة مثل: سورة الأعراف (الآيات ١٠١ - ١٦٠ ص ١٢٤) وفى سورة طه (الآيات ٩ - ٩٧ ص ١٥٨) وفى سورة الشعراء (الآيات ١٠ - ٦٧ ص ١٧٥) ومختصرة فى سورة النمل (الآيات ٧ - ١٤ ص ١٨١).

وقد ركزت السورة الحالية - سورة يونس - على استكبار فرعون واتهامه لموسى بالسحر:

«ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملإه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين. فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنّ هذا لسحر مبين. قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحرٌ هذا ولا يفلح الساحرون. قالوا أجئتنا لتلفِتنا عمَّا وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين. وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم. فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوْا ما أنتم ملقون. فلما ألقَوْا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يُصلح عمل المفسدين. ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون»(٧٥ - ٨٢).

ولا يخفى تشابه موقف كفار قريش مع موقف فرعون فى استكبارهم واتهام النبى بالسحر. وفى ختام الفقرة تطمين للنبى والمسلمين بأن الحق سينتصر ويعلو ولو كره الكافرون. ثم تذكر الآيات موقف القلة التى آمنت بموسى:

«فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعالٍ فى الأرض وإنه لمن المسرفين. وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين. فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين. ونجنا برحمتك من القوم الكافرين. وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين» (٨٣ - ٨٧).

فى الآيات حث على التوكل على الله. والاجتهاد فى العبادة وإقام الصلاة وبشرى والمفهوم أنها بالنصر على الكافرين.

ولما استمر فرعون وقومه على عنادهم وكفرهم دعا موسى عليهم:

«وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك. ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتُكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » (٨٨ - ٨٩).

ولا شك أن كفار قريش قد خافوا من أن يدعو عليهم النبى كما دعا موسى على قوم فرعون.

وتستمر الآيات ٩٠ – ٩٣ تسرد عبور بنى إسرائيل البحر وغرق الفرعون.

نهى عن الشك فى صدق النبى :

تأتى الآيات بهذا النهى فى صورة خطاب موجه إلى النبى مع أن المقصود هم المسلمون:

«**فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكوننَّ من الممترين. ولا تكوننَّ من الذين كذَّبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين. إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم**» (٩٤ – ٩٧).

وتنصح الآيات المسلمين – إذا ساور بعضهم شك فى نزول الوحى بالقرآن على النبى – أن يسألوا أهل الكتب السماوية السابقة من اليهود والنصارى ليتأكدوا من صدق النبى فيما يخبر به عن ربه ثم تؤكد الآيات أن ما جاءه هو الحق من ربه. وقد تكرر فى القرآن الكريم توجيه الخطاب إلى النبى مع أن المقصود هم المسلمون. كما جاء فى سورة القصص (آية ٨٦ – ٨٨ ص ١٩١) «**ولا تكونن من المشركين. ولا تدع مع الله إلها آخر...**» وهل يعقل أن يكون النبى من المشركين؟ أو أن يدعو مع الله إلها آخر؟ فالمقصود هو حث المسلمين – فى شخص النبى – على تنفيذ الأمر الصادر له.

أمل فى النجاة مثل قوم يونس :

«**فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين. ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون**» (٩٨ – ١٠٠).

وفى الآيات ترغيب لكفار قريش بأن يومنوا حتى يرفع الله عنهم وعده بالعذاب الذى جاء قبل آيتين: «**إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم**». ثم تدعو الآيات هؤلاء المعاندين للنظر إلى ما فى السموات والأرض من دلائل تؤكد وحدانية الله. ولكن هذه الآيات على كثرتها لا تفيد الجاحدين. ثم يأتى تساؤل فيه تعجب من تصرُّفهم ومن غفلتهم: فهل هم ينتظرون أن يصيبهم عذاب مثل الأقوام السابقين حتى يؤمنوا. فإن كانوا يريدون ذلك فلينتظروا والنبى سينتظر أيضا. والله قد وعد – ووعده الحق – بأن ينجى رسله ومن آمنوا بهم:

«**قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون. فهل**

ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين. ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين» (١٠١ - ١٠٣).

دعوة للتمسك بالدين :

ويأتى ذلك فى صيغة توجيهات للنبى - والمقصود عامة المسلمين كما سبق أن ذكرنا - وفى الآيات أمر للنبى بأن يقول للمشركين أنهم إذا كانوا يشكون فى صحة الدين الذى بُعث به فليعلموا أنهم مهما تشككوا فيه فلن يعبد الأصنام التى يعبدونها من دون الله ولكنه يتمسك بعبادة الله الذى بيده مصيرهم وهو الذى يتوفاهم. ثم أمر للنبى - وللمسلمين - بالتمسك بالدين الحنيف وألا يلجأوا بالدعاء لغير الله مما لا يملك نفعا ولا ضررا وليعلموا أن ما يصيب المؤمن من أذى فلا كاشف له إلا الله وإن أراد له خيرا فلا أحد يستطيع منعه عنه.ثم إعلان أخير بأن ماجاء به النبى هو الحق فمن شاء أن يهتدى فلنفسه ومن ضل فضلاله عائد عليه والرسول ليس مسئولا عنهم. ثم دعوة للنبى بالثبات على دين الله حتى يقضى الله بينه وبين أعدائه:

«قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين. وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين. ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذًا من الظالمين. وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم. قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل. واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين» (١٠٤ - ١٠٩).

ثم نزلت **سورة هود :**

وكما سبق أن ذكرنا هى أيضا التالية لسورة يونس فى ترتيب المصحف. ويروى حديث عن أبى بكر قال: سألت رسول الله: ما شيَّبك؟ قال: شيبتى هود وأخواتها وعن أنس" شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت. ويرى الشيخ محمد الغزالى (تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم. ص ١٦٧) أن ما عناه الرسول بهذا الرد كثرة التوجيهات التى تمس شخص الرسول وتتناوله بضمير المخاطب المفرد بين الفينة والفينة كأنما تشعره بما هو مكلف به من بلاغ. إلا أن الألوسى (تفسيره جـ ١١ ص ٢٠٣) يرى أن السبب أعم من هذا مما عظم أمره على النبى بمقتضى مقامه الرفيع ولذلك لم يسأله أصحابه عن الأمر الذى شيبه منها بل اكتفوا بما قال.

وقد بدأت السورة بالثلاث حروف المقطّعة: ألف لام راء. ثم حديث عن إحكام القرآن الكريم ثم دعوة المشركين لعبادة الله واستغفاره والتوبة إليه وتحذير من عذاب يوم القيامة الذى يرجعون فيه إلى الله القادر على كل شيئ:

«آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير. ألا تعبدوا إلاَّ الله إننى لكم منه نذير وبشير. وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير. إلى الله مرجعكم وهو على كل شيئ قدير. ألا إنهم يَثْنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور» (١ – ٥).

وقد روى أن الآية الأخيرة نزلت فى بعض المشركين الذين كانوا يظهرون الود للنبى وصدورهم مشحونه بالبغضاء له. وبعضهم روى أنها نزلت فى بعض الكفار الذين كانوا يلوون ثيابهم على أنفسهم إذا رأوا النبى مقبلا حتى لا يراهم فيدعوهم إلى الإسلام. وبعضهم قال إن الضمير فى «ليستخفوا منه» عائد إلى الله بدليل ماجاء بعده من نصٍ على أن الله «يعلم ما يسرون وما يعلنون » فكأنهم يريدون أن يخفوا عن الله مافى صدورهم من بغض للنبى وتكذيب له.

عـن قدرة الله :

«وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين. وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلُوَكم أيكم أحسن عملا. ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولَنَّ الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين. ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه. ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون» (٦ – ٨).

وتبدأ الآيات بتنبيه إلى قدرة الله وتكفُّله برزق كلٍ ما يدب على الأرض وإحاطة علمه بكل شيئ. إذ أن كل ذلك مدون فى اللوح المحفوظ. ثم نصٌ على أن الله خلق السموات والأرض وأن عرشه كان على الماء. وقد ذكر ذلك أيضا فى التوراة (١ تكوين : ١) فى البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وعلى وجه الغمر (الماء) ظلام وروح الله يرف على وجه الماء. ولا محل ولا طائل من البحث فى الكيفية التى كان بها العرش على الماء فهذا غيب أخبر به القرآن الكريم وعلينا أن نؤمن بحقيقته ولا نبحث فى كيفيته. وقد خلق الله الناس ليختبرهم ليظهر من يُقبل على الله بالطاعة والعمل الحسن. وفى هذا تقرير لحرية الإنسان فى الاختيار بين الهدى والضلال وهو أساس الحساب. ولكن الكافرين عندما أخبرهم النبى أنهم مبعوثون بعد الموت للحساب قالوا إنَّ هذا سحر. ولمَّا اقتضت حكمة الله تأخير عذابهم تحدوا مستهزئين وتساءلوا: لماذا لم ينزل؟ وتجيب الآيات أنه حين ينزل بهم – ولن يُخلفهم أو يُصرَف عنهم – سيتأكدون من صدق ما وعدهم به النبى.

بعض طبائع البشر :

« ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسَّته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور. إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير» (٩ - ١٠).

والآيات تذكر نوعا من طبائع البشر وهو التأرجح بين اليأس الشديد إذا أصابته مصيبة والفرح الشديد والفخر إذا أصابته نعمة وينسى الله فى الحالتين فلا يصبر على قضائه ولا يشكر نعماءه ولكن الصابرين الذين يعملون الصالحات لهم ثواب كبير عند الله.

صور من تكذيب الكافرين وتعنتهم:

«فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيئ وكيل. أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون» (١٢ - ١٤).

ولعلَّ تفيد توقع حدوث شيئ ولكنها جاءت هنا لنفى ترك النبى لبعض ما أُنزل عليه. فقد كان النبى يستشعر بعض الضيق حين يطلب الكفار منه - تدليلا على صدق نبوته - أن يُلقى إليه مال يغنيه عن ارتياد الأسواق أو يأتى معه ملك من السماء يؤيده. والآيات تُسرِّى عن النبى بإخباره أنه ما هو إلا نذير والأمر بعد ذلك موكول إلى الله. وإن قالوا إن القرآن من تأليفه فليتحداهم بأن يؤلفوا عشر سور من مثله وليستعينوا بمن يريدون من أساطين اللغة. فإن لم يستجيبوا لهذا التحدى - وهم لن يستجيبوا - فليعلموا أنه أُنزل من عند الله وليُسلموا.

وقد جاء مثل هذا التحدى للكفار فى سور سابقة. ففي سورة الإسراء (آية ٨٨ ص ٢٢٠) كان التحدى للإنس والجن جميعا: **«قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»**. وفى سورة يونس كان التحدى لكفار قريش بأن يأتوا بسورة واحدة (الآية ٣٨ ص ٢٢٤): **«قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم»**.

مقارنة بين طالب الدنيا وطالب الآخرة :

وتمضى الآيات فى بيان الاختلاف بين الفريقين عملا وجزاء :

«من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون. أفمن كان على بيِّنة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة. أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا

يؤمنون. ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين. الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عِوَجا وهم بالآخرة هم كافرون. أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون. أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ماكانوا يفترون. لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكَّرون» (١٥ - ٢٤).

ثم تذكر الآيات جوانب من قصص عدد من الأنبياء هم: نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام جميعا.

قصة نوح :

وقد سبق ذكر جوانب من قصته فى سورة الأعراف (آية ٥٩ - ٦٤ ص ١٢١) وفى سورة الشعراء (آية ١٠٥ - ١٢٢ ص ١٧٨) وفى سورة يونس (الآيات ٧١ - ٧٣ ص ٢٣٧). وقد أضافت سورة هود إلى ما سبق ذكره استهزاء الكافرين لما رأوا نوحا يصنع سفينة بهذه الضخامة التى لا يتسع لها النهر. كما أضافت تفاصيل نداء نوح لابنه كى يركب معهم السفينة وكيف رفض الابن نداء أبيه واعتصم بأعالى الجبال فكان من المغرقين ثم تنتهى القصة بقوله تعالى: **«تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين»** (٤٩). وقد أثارت هذه الآية الأخيرة إشكالية لدى المفسرين إذ أن قصة نوح مذكورة فى التوراة التى كانت متداولة بأيدى يهود الجزيرة العربية وكان العرب على علم بها. لذلك رأوا أن ما عنته الآية هو هذه الإضافة الجديدة عن موقف ابن نوح والتى لم تذكر إطلاقا فى التوراة وغير ذلك من تفاصيل أخرى جاء ذكرها فى الجزء الأول (ص ١٠٦ - ١١٠).

قصة عاد قوم هود :

وقد ذكر جانب من هذه القصة فى سورة الأعراف وسورة الشعراء. وذكرت هنا بتفصيل أكثر فاستحقت السورة أن تسمى «سورة هود»:

«وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون. ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرِىَ إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون. وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا (مطرا كثيرا ومتتابعًا) **ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين. قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين. إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون من**

دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظِرون. إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم. فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شيئ حفيظ. ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ. وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتَّبعوا أمر كل جبار عنيد. وأُتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة. ألا إن عادا كفروا ربهم. ألا بُعدا لعاد قوم هود» (٥٠ - ٦٠).

وقد توسعت الآيات فى ذكر الحوار الذى دار بين هود وقومه وهو لا يختلف كثيرا عما كان كفار قريش يقولونه للنبى وفى هذا تحذير ضمنى من مصير مثل مصيرهم.

قصــة صـــالح وثمود :

وجاءت فى الآيات ٦١ - ٦٨. وقد سبق ذكرها مختصرة أو مفصلة فى سور القمر والشمس والأعراف والشعراء والنمل. وكان ذكرها فى سورة هود مختصراً. وقد أضيف فيها ذكر الإمهال ثلاثة أيام قبل نزول العذاب بعد قتل الناقة: **«فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب. فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز. وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها ألا إنَّ ثمودا كفروا ربهم ألا بُعداً لثمود»** (٦٥ - ٦٨).

قصــة لــوط :

ثم تمضى الآيات تذكر جانبا من قصة لوط وقد سبق ذكر جوانب منها فى سورة القمر (الآيات ٣٣ - ٤٠ ص ١٠٩) وكان هذا أول ذكر لها فى القرآن الكريم واكتفى بذكر نبذة عن تكذيب قوم لوط له وإنذاره لهم بالعقاب وتماديهم فى معاصيهم فنزل بهم العذاب. وذُكر جانب ثان فى سورة الأعراف (الآيات ٨٠ - ٨٤ ص ١٢٢) وفيها عاب عليهم ماكانوا يمارسونه من رذيلة. وفى سورة الشعراء (الآيات ١٦٠ - ١٧٥ ص ١٧٩) ذُكر تهديدهم له بالإخراج من قريتهم فنجاه الله إلا امرأته. وهو تقريبا ما جاء فى سورة النمل (الآيات ٥٤ - ٥٨ ص ١٨٣). ثم تأتى السورة الحالية - سورة هود - لتذكر تفاصيل عن الرسل الذين أُرسلوا لإنزال العقاب بقوم لوط ومرورهم على إبراهيم لتبشيره بالولد - إسحق ومن ورائه يعقوب - ومحاولة إبراهيم دفع العذاب عن قوم لوط وإبلاغه أن الأمر قد فُرغ منه وأن العذاب غير مردود. ثم تفاصيل عن محاولة قوم لوط الاعتداء على الرسل ظنا منهم أنهم بشر فكان إصرارهم على ذلك إثباتا على سوء طويتهم فاستحقوا نزول العذاب بهم:

«ولقد جاءت رسلُنا إبراهيمَ بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ.

فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط. وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب. قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيئ عجيب. قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد. فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط. إن إبراهيم لحليم أوَّاه منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود. ولما جاءت رسلنا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب. وجاءه قومه يُهرَعون إليه ومن قبلُ كانوا يعملون السيئات قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم (أى فتزوجوهن) فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد. قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد. قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد (عشيرة تنصره). قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقِطْع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسوَّمة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد» (٦٩ – ٨٣).

أما عن جدال إبراهيم عن قوم لوط فقد فصلناه فى الجزء الثانى ص ٣٢٤ وملخصه أن الله عز وجل قَبِلَ ضراعة إبراهيم لرد العذاب عن قوم لوط لو وُجد فيها خمسون باراً ثم إن إبراهيم نزل بالعدد خمسا خمسا حتى وصل إلى عدم هلاكهم لو وُجِد فيها عشرةٌ باروُن. ولم يكن فيهم حتى مثل هذا العدد فنزل بهم العذاب.

قصـة شعيب وأهل مدين :

وقد سبق ذكر جوانب منها فى سورة الأعراف وسورة الشعراء وجاءت هنا فى سورة هود فى الآيات ٨٤ – ٩٥. والإضافة التى جاءت بها سورة هود هى استنكارهم لترك ماكان يعبد آباؤهم مثلما فعل كفار قريش ورفضهم التزكى ببعض أموالهم وتهديدهم له بالرجم. ووُصف عذابهم بالصيحة فاكتملت صورة العذاب: سحابة استظلوا بها من شدة الحر فنزل منها شرر من نار مصحوبا بصيحة شديدة من السماء ورجفة شديدة فى الأرض فهلكوا من ساعتهم:

«.... وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها. ألا بُعداً لمدين كما بعدت ثمود» (٩٤ – ٩٥).

قصـة موسـى :

جاء ذكر سريع لقصة موسى فى الآيات ٩٦ – ٩٩ ،

«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعون وملإه فاتَّبعوا أمر فرعون وما أمر

فرعون برشيد. يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود. وأُتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود».

ختام لهذا الفصل عن قصص الأنبياء :

ويختم هذا الفصل بقوله تعالى :

«ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد. وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيئ لمَّا جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب (هلاك وخسران). وكذلك أَخْذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد. إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود. وما نؤخره إلا لأجل معدود. يوم تأت لا تَكَلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد. فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق. خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلاَّ ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد. وأما الذين سُعِدُوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ. فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنَّا لَموفُّوهم نصيبهم غير منقوص» (١٠٠ - ١٠٩).

والآيات تحمل تهديدا للكافرين وإنذاراً لهم بالعذاب فها هى الأمم السابقة منها باق «قائم» والآخر دُمِّر واندثر «**حصيد**» وتقرير بأن الله لم يظلمهم ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم ولم تُفِدهم آلهتهم التى عبدوها من دون الله شيئا «**وما زادوهم غير تتبيب**» أى إلا خسارا وضياعا. ولعل فى هذا عبرة لمن يخاف يوم القيامة الذى يؤخره الله لوقت لا يعلمه إلا هو وحده. ثم تشرح الآيات أن الناس فى ذلك اليوم فريقان: فريق شقى خالد فى النار وفريق سعيد فى الجنة خالد فيها أيضا ثوابا من عند الله. ثم تطمين للنبى بألا يكون عنده شك فى مصير هؤلاء المشركين من قريش لأنهم سينالون نصيبهم من العذاب لا يُنقص منه شيئ.

نهى عن الاختلاف كبنى إسرائيل :

وقد ضُرِب المثل ببنى إسرائيل إذ آتى الله نبيهم موسى التوراة فاختلفوا فيها من بعده حسب أهوائهم وشهواتهم فتفرقوا شيعا وسوف يجازيهم الله حسب أعمالهم فهو خبير بها. ثم يأتى أمر إلى النبى بالتزام الطريق المستقيم هو ومن آمن معه وألاَّ يطغوا ويتفرقوا كالأمم السابقة وألا يركنوا أى يميلوا بصداقة إلى أعداء الله فينزل بهم عذاب لا يستطيع أحد أن ينقذهم منه. ثم حث للنبى والمؤمنين بإقامة الصلاة فى أول النهار وآخره وجزء من الليل لأن الحسنات تمحو أثر السيئات وحث آخر على الصبر على تكذيب الكفار وإيذاءاتهم:

«ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلِف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب. وإن كُلاًّ لَمَّا ليوفِّينَّهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير. فاستقم كما أُمِرت ومن

تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنصرون. وأقم الصلاة طرفى النهار وزُلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين. واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» (١١٠ - ١١٥).

وكان ينبغى أن يكون فى هؤلاء الأقوام السابقين فئة ذات عقل ينهون الناس عن الفساد ولكنهم كانوا قلة فلم يستمع الناس لهم وأنجى الله المؤمنين أما الذين ظلموا فقد أجرموا وكان حقا على الله إهلاكهم:

«فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلاَّ قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين. وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون. ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» (١١٦ - ١١٩).

وقد يبدو أن هناك تعارض بين ماجاء فى هذه الآيات **«ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين»** وبين ما جاء فى سورة يونس (الآية ١٩ ص ٢٣١) **«وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا»** فآية سورة يونس تقرر فطرة الله التى فطر الناس عليها قبل تفرقهم، وآية سورة هود تقرير لواقع الناس بعدما اختلفوا وتفرقوا ولو شاء الله لظلوا أمة واحدة كما كانوا، ولكن اختلاف طبائع البشر جعلهم يختلفون. فريق منهم كفر وسيملأ الله جهنم من هؤلاء المخالفين سواء كانوا من البشر أو من الجن الذين تسببوا فى إغوائهم.

ثم تنتهى السورة ببيان أن ذكر قصص الأنبياء السابقين كان القصد منه تثبيت قلب النبى إذ يعلم أن ما حدث له من تكذيب حدث لمن سبقه من الأنبياء. ثم تأكيد له - وللمؤمنين - بأن ما جاءه هو الحق. يعقب ذلك تهديد للكافرين فى صورة أمر لهم بأن يظلُّوا على موقفهم الرافض والمكذِّب. والنبى والمؤمنون سينتظرون أيضا والمفهوم أن هذا الانتظار هو حتى يحكم الله بين الفريقين. ومن الطبيعى أن الحكم سيكون بإنزال العذاب بالمكذبين فهو المطلع على ما خفى فى السموات والأرض وليس بغافل عما يعملون:

«وكُلاًّ نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين. وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم (أى ابقوا على حالكم) **إنا عاملون. وانتظروا إنا منتظرون. ولله غيب السموات والأرض وإليه يُرجعُ الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون»** (١٢٠ - ١٢٣).

ثم نزلت **سورة يوسف** :

وهى ثالث السور التى ذكرنا سابقا (ص ٢٢٨) أنها سميت بأسماء ثلاثة من الأنبياء ونزلت بنفس ترتيبها فى المصحف وتبدأ بنفس الأحرف المتقطعة .

«آلر. تلك آيات الكتاب المبين. إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون. نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين» (١ – ٣).

ولعل بعض المسلمين سألوا النبى عن قصة يوسف فنزلت قصته مفصلة فى الآيات ٤ – ١٠٢ وجاء فى الآية ٧: **«لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين...»** ثم تمضى الآيات تسرد القصة بالتفصيل وتصحِّح بعض النقاط التى حُرِّفت فى التوراة أو سقطت أو أغفلت. وقد ذكرناها فى الجزء الثالث (ص ٤٣٤ – ٥٢٠) فلا داعى لتكراره .

وتختم السورة بآيات فيها تسرية عن النبى حتى لا يلوم نفسه لأن كثيرا من الكفار لم يؤمنوا بالرغم من أنهم يرون آيات الله فى السموات والأرض ولا يلتفتون إليها. يعقب ذلك تحذير لهم من عذاب الله. ثم تذكرة بالرسل السابقين ومسلك أقوامهم معهم. وهو نفس مسلك قريش مع النبى – ولكن فى النهاية يأتى نصر الله فينْجِى الذين آمنوا وينزل بالمكذبين عذاب أليم. ثم تختم السورة ببيان أن القصد من سرد قصص الأقوام السابقين هو العبرة والعظة وأن القرآن فيه تصديق لما جاء فى الكتب السماوية السابقة مع ذكر تفاصيل لم تذكر من قبل:

«وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين. وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين. وكأيِّن من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون. وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون. أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون. قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين. وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون. حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا فنُجِّىَ من نشاء ولا يرد بأسُنا عن القوم المجرمين. لقد كان فى قصَصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يُفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» (١٠٢ – ١١١).

بيعة العقبة الأولى :

كان موسم الحج فى السنة الحادية عشرة للمبعث النبوى قد حلَّ موعده وقدم وفد من يثرب به عشرة من الخزرج واثنان من الأوس وعزموا على الاجتماع برسول الله فلقوه عند العقبة وبايعوه وسميت هذه **«بيعة العقبة الأولى»** ويروى ابن اسحق عن عبادة بن الصامت قوله: بايعنا رسول الله على ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نعصيه فى معروف. وأن النبى قال لهم: فإن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله إن شاء عذّب وإن شاء غفر. ثم عاد الرجال إلى يثرب وكما سبق أن ذكرنا (ص ٢٢٨) كان مصعب بن عمير قد أقام فى المدينة يفقه المسلمين ويعلمهم أمور دينهم.

انتشار الاسلام فى يثرب :

كان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير من سادة بنى الأشهل وكلاهما مشرك وسمعا بما يفعل مصعب فأراد أسيد أن ينهاه عما يفعل فسار إليه وأمره أن يكف عن أقواله فقال مصعب لأسيد: أوَ تجلس فتسمع؟ قال أنصفت ثم ركز حربته وجلس فقرأ عليه مصعب بعضا من القرآن وعرض عليه الإسلام فأشرق وجهه وقال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله وأسلم ثم انصرف إلى قومه وهم جلوس فى ناديهم. فلما نظر إليه سعد مقبلا قال أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم. فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلَّمته فوالله ما رأيت بأسا. فأراد سعد بن معاذ أن يستوثق فانطلق ومعه أسيد إلى حيث يجلس مصعب وسمع منه القرآن فأسلم هو الآخر وعادا إلى قومهما وقال سعد: يابنى عبد الأشهل. كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا. قال فإن كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلاَّ أسلم. بل إن الاسلام فشا فى يثرب كلها إلا دار بنى واقف إذ ثبَّطهم شيخهم أبو قيس بن الأسلت بتحريض من عبد الله بن أُبىّ بن سلول مع أن أبا قيس كان شاعرا وقوَّالا بالحق ومعظِّما لله إلا أن عبد الله بن أُبىّ غلبه الرأى.

هجرة أبى سلمة إلى يثرب :

كانت بنو مخزوم قد زادوا من إيذاء أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد وكان قد عاد لتوه من الحبشة. ففكرَّ أن يعود إليها. ولكنه رأى يثرب – وقد أصبح فيها عدد غير قليل من المسلمين – أقرب وأنسب للهجرة من الحبشة. فجهَّز بعيره وأركب زوجته عليه وهى من بنى المغيرة ومعها ابنها سلمة. فلما رآه رجال بنى المغيرة قالوا له: هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد ثم نزعوا خطام البعير من يده وأخذوا زوجته إلى خيامهم فجاء بنو عبد الأسد وقالوا. والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا (زوجها) وتنازعوا الطفل بينهم حتى خلعوا يده ثم أخذوه معهم. فانطلق أبو سلمة وحده إلى يثرب. وكانت أم سلمة تخرج وتجلس فى العراء تبكى زوجها وابنها كل يوم من الصباح حتى المساء. فرقّ لها أهلها وخلُّوا عنها وقالوا لها الحقى بزوجك. وردّ بنو عبد الأسد عليها ابنها فارتحلت بعيرا وسارت إلى يثرب واستدلَّت على بيت زوجها فى قباء فقد كان نازلا فى بيت مبشر بن عبد المنذر.

وحذا حذو أبى سلمة ثلاثة آخرون هم: ابن أم مكتوم (الذى نزلت فيه سورة عبس) ثم عمَّار بن ياسر ثم بلال فكان هؤلاء هم أول المهاجرين إلى يثرب.

عـود إلى مكـة :

نترك الآن يثرب والإسلام ينتشر فيها حثيثا وأنصاره يزيدون يوما بعد يوم . ونعود إلى

مكة والنبى يُثبِّت الذين آمنوا ويحاول جهده مع كفار قريش لعلهم يؤمنوا. وفى خلال عام حتى بيعة العقبة الثانية فى موسم الحج التالى نزلت ١٦ سورة هى: الحجر، الأنعام، الصافات، لقمان، سبأ، الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، الذاريات، الغاشية، وباقى سورة الكهف.

سورة الحجر :

والسورة فيها ردع للكفار وحث على أخذ العبرة مما حلَّ بالأمم السابقة، وفيها إشارة إلى الأنبياء السابقين وتأييد الله ونصره لهم، ثم إشارة إلى آيات الله فى الكون يعقبها سرد لقصة خلق آدم وبدء عداوة إبليس له واستمرار المعركة بين الخير والشر إلى يوم القيامة.

وتبدأ السورة بثلاثة حروف مقطعة هى الألف واللام والراء ثم نصٌ على أن ما يأتى هو قرآن مبين مثلما جاء فى مطلع السور الثلاث السابقة، يتبع ذلك تقرير بأنه سيأتى على الكفار يوم يتمنون فيه لو كانوا قد أسلموا ويندمون على ما كان من تكذيبهم للنبى ثم أمر للنبى بأن يتركهم يأكلون ويشربون ويتمتعون وتُلهيهم الآمال وسوف يعلمون نتيجة أفعالهم فإن هلاك الأمم يأتى فى الأجل الذى يحدده الله لا قبل ولا بعد:

«آلر. تلك آيات الكتاب وقرآن مبين. ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين. ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون. وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم. ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون» (١ – ٥).

اتهام النبى بالجنون وطلب الكفار رؤية الملائكة :

«وقالوا يا أيها الذى نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون. لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين. ما ننزل الملائكة إلاَّ بالحق وما كانوا إذًا منظَرين. إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (٦ – ٩).

وقد تكرر نعت الكفار للنبى بأنه مجنون، كما تكرر تحديهم للنبى بطلب الإتيان بالملائكة كدليل على صلته بالله تعالى، كما جاء فى سورة الفرقان (آية ٨ ص ١٣٩) **«لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا»**، وفى سورة هود (آية ١٢ ص ٢٤٢) **«لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك»**. وتنفى الآيات إمكانية الاستجابه لطلبهم هذا لأن نزول الملائكة هو من اختصاص الله تعالى، كما أنه لو استُجيب لطلبهم وأُنزل الملائكة لوجب إهلاك المكذبين ولكن الله يمهلهم لعلهم يتوبون. ثم تأتى آية تنص على أن الله هو الذى أنزل القرآن وسيتولى حفظه، ونحن نعرف الآن كيف تم حفظ القرآن الكريم فى مصحف واحد ورسم واحد وترتيب واحد فى مشارق الأرض ومغاربها فحُفظت آياته من التبديد أو التغيير أو التحريف بزيادة أو نقص، وها نحن قد رأينا اجتراء أصحاب الأهواء فى عهود الفتن والخلافات التى تلت عهد النبى – فوضعوا الأحاديث التى تؤيد

موقفهم واجترأوا فوضعوا التفاسير والروايات لصرف آيات القرآن إلى ما فيه تأييد مذهبهم السياسى. ولو لم يكن القرآن قد جمع فى عهد أبى بكر - فلاشك فى إصابته ببعض التحريف كما حُرِّفت الأحاديث النبوية. ولكن ذلك كله لم يكن فى أذهان المسلمين الأوائل الذين فهموا أن المقصود هو حفظه فى صدورهم فاجتهدوا فى حفظ ما ينزل من سور القرآن الكريم فور نزول الوحى بها.

إصرار الكفار على كفرهم :

«ولقد أرسلنا من قبلك فى شِيَع الأولين. وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون. كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين. لا يؤمنون به وقد خَلَت سنة الأولين. ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون» (١٠- ١٥).

بعض مظاهر قدرة الله فى الكون :

«ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين. وحفظناها من كل شيطان رجيم. إلا من اسْتَرَق السمعَ فأتبعه شهاب مبين. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيئ موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين. وإن من شيئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقَدَر معلوم. وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين. وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون. ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين. وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم» (١٠ - ٢٥).

ووصف الرياح باللواقح فيه إعجاز علمى. فاللواقح جمع لاقح أى حامل والناقة اللاقح أى الحامل. والرياح اللواقح المحملة بالسحب والمطر وعكسها الريح العقيم أى الجافة وقال ابن كثير (تفسيره . جـ ٢ ص ٥٤٩) الرياح اللواقح أى تلقح السحاب فتدر المطر وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها. وقد توسع العلماء المعاصرون فى هذه المعانى فى ضوء ما عرف من أن الرياح تحمل حبوب اللقاح فيتم تلقيح النباتات وتتكون الثمار وكذلك فُهِم مؤخرا أن الرياح تلقح السحاب بنويَّات التكاثف أو الذرات التى تتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكوِّن نقطا دقيقة من الماء تنمو داخل السحب الركامية فتثقل وتنزل مطرا. وهذه النويات مكونة من أملاح متطايرة وما تذروه الرياح من سطح الأرض من أتربة.

كذلك تسجل الآيات أن الإنسان ليس له فضل ولا فى استطاعته تخزين الماء فى الأرض لأن ذلك من صنع الله بما عرف من أن الماء يتجمع فى طبقات الأرض المسامية ويكون تحتها طبقة من الحجارة الصلدة لا تسمح بنفاذ الماء فيتجمع مكونا خزانا مائيا نسترجعه بحفر الآبار.

قصة خلق آدم :

وكان أول ذكر لقصة آدم هو ما جاء فى سورة ص (الآيات ٧١ - ٨٥ ص ١١٤) وجاءت

مفصلة وتشمل خلق آدم من طين وأمر الملائكة بالسجود له ورفض إبليس لأمر ربه ومن ثَمَّ فقد طُرِدَ من رحمة الله فتوعد بنى آدم بالغواية وتوعَّده الله بعذاب جهنم. ثم جاءت سورة الأعراف (الآيات ١١ - ٢٥ ص ١١٦) فأضافت كيف أسكن الله آدم وزوجه فى الجنة وكيف وسوس لهما الشيطان حتى جعلهما يعصيان الله فأُهبطوا إلى الأرض. ثم جاءت سورة طه (الآيات ١١٥ - ١٢٦ ص ١٦٠) وذكرت تحذير الله لآدم من الشيطان لأنه عدو له ولزوجه. ثم ذكرت وسوسة الشيطان له حتى أخرجه من الجنة وأضافت توبة آدم وعفو الله عنه. أما فى سورة الكهف (الآية ٥٠ ص ٢٠٧) وسورة الإسراء (الآية ٦١ ، ٦٥ ص ٢١٧) فقد احتويتا على إشارة سريعة لتوعد إبليس لبنى آدم بالوسوسة والإضلال. وتأتى سورة الحجر الحالية - وفيها آخر ما نزل عن قصة آدم فتذكر القصة كاملة ومتضمنة لجميع النقاط وزادت بأن ذكرت أن الجان خلق من نار.

«ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون. والجان خلقناه من قبلُ من نار السَمُوم. وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صَلصال من حمأ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فَقَعُوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون. إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين. قال ياإبليس مالك ألاَّ تكون مع الساجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين. قال رَب فأنظرنى إلى يوم يبعثون. قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم. قال رَب بما أغويتنى لأزيِّنَنَّ لهم فى الأرض ولأُغوينَّهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلَصين. قال هذا صراط علىَّ مستقيم. إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين. وإن جهنم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم (٢٦ - ٤٤).

وقد اكتُفِىَ بما جاء فى سورة الأعراف من إسكان الله لآدم وزوجه فى الجنة فلم يذكر فى سورة الحجر. وقيل عن جهنم **«لها سبعة أبواب»** لكثرة المستحقين لها ولكل باب طائفة تتماثل فى شرورها وتتكافأ مع العذاب الذى يفضى إليه هذا الباب. وعلى العموم فهذا غيب يجب الإيمان به دون التفكير فى كنهه وماهيته. وعلى العموم فالقصد منه تخويف الكفار من أنهم فى صحبة إبليس وسيَلقونَ نفس مصيره وهو الإلقاء فى نار جهنم. وفى مقابل هذه الصورة يجىء تصوير للنعيم الذى يُمتَّع فيه المؤمنون فى الجنة :

«إن المتقين فى جنات وعيون. ادخلوها بسلام آمنين. ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين. لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمُخرَجين. نبِّئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم. وأن عذابى هو العذاب الأليم» (٤٥ - ٥٠).

وهو إعلان من الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه أنه كثير الغفران والعفو والرحمة لمن تاب وعمل صالحا وأن العذاب الذى ينزله بالعصاة الجاحدين هو عذاب أليم حقا.

جوانب من قصص الأنبياء السابقين :

١ - تسرد الآيات من ٥١ - ٧٧ **قصة ضيف إبراهيم** وهم رسل الله الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط وحملوا إليه البشرى بابنه إسحق:

«**ونبئهم عن ضيف إبراهيم. إذ دخلوا عليه...**» وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل فى الجزء الثانى (ص ٣١٨ - ٣٣٣).

٢ - إشارة خاطفة إلى **قصة شعيب مع أصحاب الأيكة:**

«**وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين. فانتقمنا منهم وإنهما لبإم مبين**» (٧٨ - ٧٩).

وقد سبق ذكر شعيب وقومه - أهل مدين - فى سورة الأعراف (الآيات ٨٥ - ٩٣ ص ١٢٢) وفى سورة هود (الآيات ٨٤ - ٩٥ ص ٢٤٥). وهنا فى سورة الحجر جاء ذكر سريع لقصته مع أصحاب الأيكة.

٣ - ثم يأتى ذكر سريع **لأصحاب الحِجر** ومنهم اكتسبت السورة اسمها ويُجمع المفسرون على أن أصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح وقد جاء ذكرهم فى سور القمر والشمس والأعراف والشعراء والنمل وهود وكلها تكمل بعضها بحيث تعطى صورة واضحة عن مسلكهم تجاه نبيهم وتكذيبهم له وما نزل بهم من عذاب.

«**ولقد كذَّب أصحاب الحجر المرسلين. وآتيناهم آياتنا** (متمثلة فى الناقة) **فكانوا عنها مُعرِضين. وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين. فأخذتهم الصيحة مصبحين. فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون**» (٨٠ - ٨٤).

السبع المثانى :

«**وما خلقنا السوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعةَ لآتية فاصفح الصفح الجميل. إن ربك هو الخلاق العليم. ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم**» (٨٥ - ٨٧).

والآيات تأمر النبى بالصفح عن المشركين وذلك بالنسبة للعقاب الدنيوى. واللهُ هو الخالق العظيم وله أمرهم فى الآخرة. ثم نصَّ على أن الله قد آتى النبى سبع آيات من القرآن الكريم هى الفاتحة التى تتكرر فى كل ركعة فى الصلاة وقد ذكرت فى صفحة ٥٣. وفى حديث عن أبى هريرة: أم القرآن هى السبع المثانى.

توجيهات للنبى :

أ - «**لا تمدنَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين. وقل إنى أنا النذير المبين. كما أنزلنا على المقتسمين. الذين جعلوا القرآن عِضين. فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون**» (٨٨ - ٩٣).

وفى الآيات أمر للنبى بألا ينظر نظرة تمنٍّ ورغبة إلى ما أعطى الله بعض الكفار من نعم الدنيا وألا يحزن لتكذيبهم وأن يكون رفيقا بالذين آمنوا معه وأن يقول للكافرين إنه نذير مبين. وهو نذير أيضا لأولئك الذين قسَّموا القرآن إلى شعر وكهانة وأساطير فجعلوا القرآن قطعا متفرقة وقيل أيضا قسَّموه إلى حق وباطل. والحق فى نظرهم هو ما وافق التوراة والإنجيل أما ما خالفهما فهو فى عرفهم باطل.. أو الذين وصفوا القرآن بالسحر إذ قالوا العِضة فى لغة قريش السحر. ويروى عن عكرمة أن بعض الكفار كان يقول سورة كذا لى ويقول الآخر سورة كذا لى استهزاء. ويقسم الله بذاته العليَّة ليسألنهم يوم القيامة عن فعلهم هذا.

ب – **«فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين. إنا كفيناك المستهزئين. الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون»** (٩٤ – ٩٦).

وهو أمر للنبى بأن يستمر فى الدعوة إلى الله ولا يلتفت إلى ما يقوله المشركون أو يفعلونه ولن يستطيع المستهزءون أن يحولوا دون إبلاغه دعوته. وهم قد جعلوا مع الله إلها آخر وسوف يدركون خطأهم.

جـ – **«ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»** (٩٧– ٩٩).

وفى الآيات تسرية عن النبى لما كان يصيبه من ألم نفسى بما كان الكفار يقولون عنه واتهامه بالسحر أو الجنون. ولتفريج هذا الضيق فعلى النبى أن يفزع إلى الله ويتجه إليه بالعبادة والسجود والمداومة على عبادة الله حتى يأتيه اليقين أى الموت (تفسير ابن كثير. جـ ٢ ص ٥٦٠).

ثم نزلت **سورة الأنعام** :

وهى إحدى السور السبع الطوال: البقرة. وآل عمران. والنساء. والمائدة. والأنعام. والأعراف. والتوبة. حسب ترتيبها فى المصحف. وهى مدنية ماعدا الأنعام والأعراف. وقد سبق ذكر سورة الأعراف (ص ١١٥ – ١٣١). وسورة الأنعام فيها مواضيع متنوعة:

١ – تنديد بالكفاروخاصة زعمائهم – على مواقف المكابرة والعناد.

٢ – استشهاد باليهود والنصارى على صحة رسالة النبى.

٣ – تقريرات عدة على عظمة الله وقدرته وبديع نواميسه فى الكون.

٤ – صور عن عقائد العرب وتقاليدهم فى الأنعام والحرث والذبائح.

٥ – مجموعة من الوصايا فى التوحيد ومكارم الأخلاق.

والسورة من أمهات السور الجامعة الرائعة وقد روى المفَسِّرون أنها نزلت دفعة واحدة وأرفقت بسبعين ألف ملك لخطورة شأنها. والحقيقة أن نزول هذه السورة دفعة واحدة هو فى

حد ذاته معجزة إذ هى تشغل ٣٠ صفحة وكان هذا كفيلا بإقناع قريش أن القرآن ليس من تأليف النبى، ولكنهم – استكباراً وعنادا – ظلُّوا على كفرهم وجحودهم.

ويظهر واضحا فى هذه السورة ما يسميه الفقهاء «أسلوب التلقين» أى تلقين النبى الحجج والبراهين التى يَرُد بها على الكفار إذ تردد لفظ «قل» فى السورة أكثر من ٤٠ مرة.

وتبدأ السورة بحمد الله وذكر بعض مظاهر قدرته:

«**الحمد لله الذى خلق السموات والأرضَ وجعل الظلماتِ والنورَ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** (أى يساوونه بما يشركون). **هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون** (تجادلون فى قدرة الله على البعث). **وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون. وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين. فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون. ألم يروا كم أهلكنا مِن قبلهم مِن قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين**» (١– ٦).

الكفار يطلبون كتابا مكتوبا :

«**ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين**» (٧).

وقد تكرر طلب المشركين أن ينزل عليهم القرآن فى كتاب يقرأونه حتى يؤمنوا وأشير إلى هذا فى سور عديدة. فقد جاء فى سورة المدثر (آية ٥٢ ص ٧٧) «**بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة**» وفى سورة الإسراء (آية ٩٣ ص ٢٢٠) «**أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه**».

الكفار يطلبون نزول مَلَك :

وقد رُفض هذا الطلب أيضا لأنهم لو أجيبوا إلى طلبهم ولم يؤمنوا لوجب هلاكهم والله – رحمة منه بهم – يريد أن يمهلهم ليؤمنوا. كما أن الملائكة أجسام نورانية لا يستطيع البشر رؤيتهم إلا أن يتشكلوا فى صورة ما. ومن البديهى أن يتشكلوا فى صورة رجال وفى هذه الحالة يجب إلباسهم لباسا كما يلبس الناس. وعندئذ يلتبس الأمر عليهم فلا يدرون إن كان ملكا أم بشرا.

«**وقالوا لولا أُنزِل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا يُنظَرون. ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون**» (٨ – ٩).

والحقيقة أن الكفار تكرر منهم طلب نزول الملائكة كما جاء فى سور سابقة: ففى سورة الفرقان (آية ٧ ص ١٣٩) قالوا: «**لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا**». وفى سورة الإسراء

(آية ٩٣ ص ٢٢٠) قالوا: **«أو تأتى بالله والملائكة قبيلا»** وفى سورة هود (آية ١٢ ص ٢٤٢) **«أو جاء معه ملك»**. وفى سورة الحجر (آية ٧ ص ٢٥٠) قالوا **«لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين»**.

إذ كلما كانت تنزل آيات القرآن الكريم تفحمهم كانت وسيلتهم للهروب من الموقف هى أن يطلبوا من النبى أن ينزل عليهم ملكا حتى يصدقوه ويؤمنوا به.

تأكيد على وحدانية الله وشمول قدرته :

«ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون. قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين. قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه. الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم. قل أغير الله أتخذ وليا فاطِرِ السموات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطعَم. قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين. قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم. من يُصرَف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين. وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيئ قدير. وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير. قل أى شيئ أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى. قل لا أشهد. قل إنما هو إله واحد وإننى برئ مما تشركون. الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون» (١٠ - ٢٠).

وتنص الآية الأخيرة على أن أهل الكتاب - من اليهود والنصارى - كانوا يعرفون النبى معرفة يقينية كما يعرفون أبناءهم إذ جاءت البشارات به فى كتبهم ومعنى هذا أنهم يعرفون صدق دعوته وصحة الوحى القرآنى وكان الواجب عليهم الإيمان به واتباعه ولكنهم لم يؤمنوا فقد خسروا أنفسهم. وقد جاء فى سورة الأعراف (الآية ١٥٧ ص ١٢٦) **«الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل»** ويروى المفسرون أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام اليهودى لما أسلم: إن الله قد أنزل على نبيه هذه الآية وتلاها عليه وسأله كيف هذه المعرفة فقال له: عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ولأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى وإنى أشهد أنه رسول الله حقا.

حال المشركين فى الآخرة وندمهم على مافات :

«ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بآياته إنه لا يفلح الظالمون. ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون. ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ماكنا مشركين. انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون. ومنهم

من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين. وهم ينهَوْنَ عنه وينئَوْنَ عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون. ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نُرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون. وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين. ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. قد خسر الذين كذَّبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرَّطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون. وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون» (٢١ - ٣٢).

والآيات تقرر أنه ليس أحد أظلم ممن كذب على الله فادَّعى أنَّ له شركاء ثم تحذر الآيات المشركين من أن الله سيحشرهم إليه يوم القيامة ويسألهم عن الشركاء الذين ادَّعوهم فيسقط فى أيديهم ويأخذون يحلفون الأيمان على أنهم لم يكونوا مشركين وهكذا فإنهم يُكذِّبون أنفسهم محاولين التنصل من جريمتهم كما أن الشركاء سيتهرَّبون منهم. ثم تذكر الآيات حال المشركين فى الدنيا وما كان منهم حينما يستمعون إلى النبى وهو يتلو القرآن فيعرضون عنه وكأنهم قد جعلوا غشاوة على قلوبهم أو صمما فى أذانهم فلا يسمعونه فلم يؤمنوا وحتى لو جاءتهم آيات ومعجزات فلن يؤمنوا وسيدَّعون أنها أساطير الأقدمين. وهم بهذا يهلكون أنفسهم دون أن يدروا. ثم تذكر الآيات حالهم حينما يوقفون على النار ويتيقنون من مصيرهم الرهيب فيتمنون العودة إلى الدنيا ليتداركوا أمرهم فلا يكذبون بآيات الله ويكونوا من المؤمنين ولو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى ارتكاب ما نهوا عنه من كفر ومعاص لأنهم إنما يتصرفون بنيَّة خبيثة وطوية فاسدة. ويسألهم المولى عز وجل عما أنكروه فى الدنيا من بعث وآخرة فيقرُّون بخطئهم فيأمرهم بأن يذوقوا العذاب جزاء لهم على كفرهم. وحينئذ يندمون على إضاعتهم فرصة الحياة الدنيا فلم يؤمنوا وغفلوا عن الآخرة مع أن الحياة الدنيا تشبه اللعب فأمدُها قصير ومتعتها فانية.

تسرية عن النبى :

وآيات الفقرة موجهة إلى النبى تسرى عنه حتى لا يحزن من تكذيب الكافرين واتهامهم له بأنه شاعر أو مجنون أو ساحر ويخبره الله أن الكفار فى قرارة أنفسهم لا يكذبونه ويعرفون أن آيات الله حق ولكنهم يجحدونها حسداً وعنادا ومكابرة. وهذا التكذيب حدث مع الرسل قبله. وأنه حتى لو فعل المستحيل بمعجزة مادية - فمثلا لو حفر نفقا فى الأرض أو وضع سلَّما إلى السماء وصعد ليأتيهم بآية - فلن يؤمنوا فالذين يستجيبون هم الذين يسمعون أما الكفار فهم كالموتى لا يسمعون ولن يؤمنوا وسيبعثهم الله يوم القيامة ويجازيهم بما يستحقون:

«قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون. فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون. ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا. ولا مُبدِّل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين. وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلَّما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين. إنما يستجيب الذين يسمعون. والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون. وقالوا لولا نزِّل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون» (٣٣ - ٣٧).

قدرة الله :

«وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرَّطنا فى الكتاب من شيئ ثم إلى ربهم يحشرون. والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات من يشإ الله يُضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم. قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغيرَ الله تدعون إن كنتم صادقين. بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون» (٣٨ - ٤١).

وفى الآيتين الأخيرتين سؤال موجَّه إلى الكافرين عمَّن يدعون فى الشدة. ثم يأتى الجواب أنهم ينسون ما يشركون ويدعون الله. وتستمر الآيات فتقول:

«ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون. فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيئ حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون (يائسون ومحبطون) فقُطع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين» (٤٢- ٤٥).

وفى الآيات تذكير بما كان من أمر الأمم السابقة. فقد أرسل الله إليهم رسله بالبينات فلم يؤمنوا فأخذهم الله بشيئ من الشدة فلم يتعظوا وظلوا سادرين فى غيهم منساقين إلى غواية الشيطان الذى زين لهم أعمالهم.وزاد الله من امتحانهم بأن يسَّر لهم كل أسباب التمتع الدنيوى ففرحوا ولم يشكروا الله وزادوا بعداً عنه وانصرافا عن رسله ففاجأهم الله بعذابه وأهلكهم.

إقامة الحجة على الكفار :

وتستمر الآيات ويتوجه الخطاب إلى الكفار ثانية :

«قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به. انظر كيف نُصرِّف الآيات ثم هم يصدفون. قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يُهلك إلا القوم الظالمون. وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذبوا بآياتنا يمسُّهم العذاب بما كانوا يفسقون. قل لا أقول لكم

عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى مَلَك إن أتبع إلا ما يوحى إلىَّ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون» (٤٦ – ٥٠).

ولاشك أن الكفار حينما سمعوا هذه الآيات أيقنوا صدقها. فلو أصابهم صمم أو عمى فلن تستطيع أصنامهم أن ترد عليهم سمعهم ولا أبصارهم. وتذكر الآيات أن الرسل ماهم إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن فهو آمِنٌ من العذاب ومن كذَّب سيصيبه العذاب. ثم أمر للنبى بأن يخبرهم بأنه بشر مثلهم وليس مَلَكا ولا يعلم الغيب ولكنه يتبع ما يوحى إليه من ربه. وقد سبق ورود هذا المعنى فى سورة الأعراف (الآية ١٨٨ – ص ١٢٩): **«قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون»**. وتكرر فى سورة يونس (الآية ١٥ ص ٢٣٠) **«إن أتبع إلا ما يوحى إلىَّ...»** مما يدل على أن الكفار ما فتئوا يتعنتون فى طلباتهم من النبى.

لمن الوعظ والإرشاد :

ثم تستمر الآيات تقول :

«وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون. ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه. ما عليك من حسابهم من شيئ وما من حسابك عليهم من شيئ فتطردهم فتكون من الظالمين. وكذلك فتنَّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين. وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم. وكذلك نفصِّل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين» (٥١ – ٥٥).

وقد روى المفسرون أن زعماء الكفار كانوا إذا مروا بالنبى وحوله فقراء المسلمين سخروا وقالوا أهؤلاء الذين مَنّ الله عليهم من بيننا فهداهم ويجعلون من ذلك حجة حتى لا يؤمنوا. وفى بعض الروايات أنهم طلبوا من النبى أن يطردهم إذا جلسوا إليه حتى لا يكونوا فى مستوى واحد مع هؤلاء الفقراء. ومضمون الآيات يوحى بأن هذا كان يحز فى نفس النبى بعض الشيئ وقد يجعله يتشاغل عن هذه الطبقة أملا فى اهتداء زعماء الكفر فكان التنبيه **«ولا تطرد..»**. كما سبق أن عوتب على مثل هذا الموقف فى سورة عبس. (آية ١ ص ٨٥) **«عبس وتولى أن جاءه الأعمى...»** وكذلك جاء فى سورة الكهف (آية ٢٨ ص ٢٠٥) **«واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم»** مما يدل على أن هذا الأمر كان مما يكثر زعماء الكفار طلبه من النبى.

ردود على بعض طلبات الكفار :

«قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا

من المهتدين. قل إنىّ على بيِّنة من ربى وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به إن الحكم إلا الله يقصُّ الحق وهو خير الفاصلين. قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين» (٥٦ - ٥٨).

لا يعلم الغيب إلا الله :

«وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين. وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم (اقترفتم) بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون. وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدَكم الموتُ توفته رسلنا وهم لا يُفرِّطون. ثم رُدوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين» (٥٩ - ٦٢).

والآيات تقرر أن جميع أمور الغيب لا يعلمها إلا الله وحده. وقد أحاط علمه بكل صغيرة وكبيرة فى السموات والأرض والبر والبحر. وهو الذى يملك الأنفس فى نومها ويعلم ما كسبت فى النهار ويمدهم بأسباب الحياة وعندما تنتهى آجالهم يُتَوفون ثم يُبعثون للحساب.

ويرى أحد العلماء المعاصرين (د. صبرى الدمرداش. الأخبار ٢٠٠١/١١/١٦) أن كلمتى البر والبحر جاء ذكرهما فى القرآن الكريم مرات عديدة: البر ١٣ مرة والبحر ٣٢ مرة والنسبة بينهما هى ١:٢,٤٦. ولما كان البر يشغل ٢٨,٩٪ من مساحة الكرة الأرضية البالغ مساحتها ٥١٠ مليون كم٢ والبحر ٧١,١٪ من مساحتها والنسبة بين المساحتين هى أيضا ١:٢,٤٦ أى نفس نسبة ذكرهما فى القرآن الكريم. ويراها مفارقة تستحق الإشادة والتسجيل.

من رحمة الله بالعباد :

وتستمر الآيات لتسرد جانبا من قدرة الله تعالى ورحمته بالعباد ومع ذلك فإن الكفار يجحدون نعمة الله:

قل من يُنَجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخُفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل الله يُنَجِّيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون. قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا (أى يلتبس عليهم الأمر فيصبحون شيعًا يعادى بعضهم بعضا) **ويذيق بعضكم بأس بعض. انظر كيف نصرِّف الآيات لعلهم يفقهون. وكذَّب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل. لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون»** (٦٣- ٦٧).

أمر بترك مجالس الطعن فى القرآن :

والأمر موجَّه للنبى والمقصود المسلمون كافة، إذ كثيرا ماكانوا يمرون على الكفار فى

مجالسهم فيشاركونهم فيها، بحكم الصداقة أو القرابة. وفى الآيات نهى عن مجالسة الكفار حينما يخوضون بالباطل فى آيات الله ويجادلون فيها لمجرد التكذيب والاستهزاء. وإذا فرض وكانوا فى مجلس من مجالسهم وبدأ الكفار يديرون الحديث على هذا النحو فعليهم ترك مجلسهم حتى لا يتحملوا وزر الكفار فى خوضهم. ثم أمر ثانٍ للنبى بألا يهتم بالذين غرتهم الحياة الدنيا وما تيسر لهم فيها من مال وقوة ورغد عيش وعليه أن يُذكِّرهم بآيات القرآن حتى يؤمنوا ولا يهلكوا ولن يكون لهم شفيع من دون الله ولا يؤخذ منهم فدية مهما عظمت ولهم عذاب عظيم:

«وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره. وإما يُنسينَّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين. وما على الذين يتقون من حسابهم من شيئ ولكن ذكرى لعلهم يتقون. وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرَّتهم الحياة الدنيا وذكِّرْ به أن تبسل (تهلك) **نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل** (أى تقدم أى فدية ولو عَظُمت) **لا يؤخذ منها. أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون»** (٦٨ - ٧٠).

وقد سبق التنبيه إلى أن هذه المجالس التى يخوض فيها المتكلمون بالباطل هى سبب من أسباب الإلقاء فى النار كما جاء فى سورة المدثر (آية ٤٥ ص ٧٧): **«وكنا نخوض مع الخائضين»**.

تسفيه عبادة غير الله :

ثم تمضى الآيات تطلب من النبى أن يستنكر عبادة غير الله:

«قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين. وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذى إليه تحشرون. وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير» (٧١ - ٧٣).

وفى الآيات أمر للنبى بسؤال الكفار بلهجة استنكارية عما إذا كان من العقل أو المنطق أن يدعو هو والمسلمون أحدا غير الله - مما لا يملك جلب نفع ولا رفع ضرر ويرتدُّوا ضالين بعد إذ هداهم الله فيكون مثلهم فى ذلك مثل ما كان العرب يعتقدونه من أن الجن إذا رأوا إنسانا يسير وحده فى القفر ينادونه فيتبعهم ويُضلِّونه الطريق وله رفاق مهتدون يحاولون تخليصه من الضلال قائلين له إرجع إلينا وإلى الطريق الصحيح. وأمر ثان للنبى بأن يخبرهم بأن هدى الله هو الهدى الحق. يتبع ذلك دعوة إلى عبادة الله فإليه يُحشر الناس جميعا فهو خالق السموات والأرض وله مطلق القدرة والمشيئة وهو مالك يوم القيامة وعلمه محيط بالغيب والحاضر المشاهد «الشهادة».

جانب من قصة إبراهيم مع قومه :

وقصة إبراهيم عليه السلام مع قومه من أكثر القصص ذكرا فى القرآن الكريم فقد ورد اسم إبراهيم فى القرآن ٦٩ مرة وذُكرت جوانب من قصته فى ٣ سور سابقة: سورة مريم (الآيات ٤١ - ٥٠ ص ١٥٣) وفيها مناشدة إبراهيم لأبيه ليؤمن وتهديد والده له بالرجم ووعد إبراهيم بالاستغفار له واعتزاله له ولقومه. ثم فى سورة الشعراء (الآيات ٦٩ - ٨٩ ص ١٧٦) وكان التركيز فيها على تسفيه عبادة الأصنام وتوضيح أنها لا تسمع ولا تضر ولا تنفع. أما سورة هود (الآيات ٦٩ - ٧٦ ص ٢٤٥) فقد ذَكَرت رسل هلاك قوم لوط ومرورهم بإبراهيم. وفى سورة الأنعام الحالية ذكر اسم آزر على أنه اسم والد إبراهيم. وكذلك ذُكرت مسايرته لقومه فى تصوُراتهم عن الإله والتدرُج بهم حتى وصل بهم إلى النتيجة التى كان يهدف إليها منذ البداية وهى بطلان ربوبية ما كانوا يعبدونه من كواكب ونجوم وقد شرحنا ذلك بالتفصيل فى الجزء الثانى ص ٢١٧ و ٢٢٦:

«وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين. وكذلك نُرِى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برئ مما تشركون. إنى وجَّهت وجهِىَ للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين. وحاجَّه قومه قال أتحاجُّونِّى فى الله وقد هدانِ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شيئ علما أفلا تتذكرون. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم يُنَزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون. الذين آمنوا ولم يَلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون. وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم» (٧١ - ٨٣).

ولاشك أن الآيات فيها كثير ينطبق على كفار قريش. فى اتخاذ الأصنام آلهة أو عبادة بعضهم للكواكب مثل الشعرى. وكان الكفار يخوِّفون النبى من أن آلهتهم قد تصيبه بسوء فردت عليهم الآيات بأنهم هم الأحق بالخوف من الله لإشراكهم به. وأن الأحق بالأمن هم الذين آمنوا ولم يخالطوا إيمانهم بشرك وهؤلاء لهم الدرجات الرفيعة عند ربهم.

أسماء ١٧ نبيا :

ثم فى آيتين يأتى ذكر ١٧ نبيا ويُذكر أن الله اختارهم وهداهم إلى صراطه المستقيم ليقوموا بهداية العباد :

«ووهبنا له إسحق ويعقوب كُلاً هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب

ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين. ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم. ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون. أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين. أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده. قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين. (٨٤ – ٩٠).

ولصلة العرب بإبراهيم وافتخارهم بأنهم من نسله فإنهم أكثر استماعًا لكل ما يتعلق به وأكثر تجاوبا لما يروى عنه. وتُبيِّن الآيات أن جميع الأنبياء التالين له هم من نسله وهذا مصداق لقوله تعالى: «**إنى جاعلك للناس إماما**» (من الآية ٢٧ – العنكبوت). ويلاحظ أن ذكر الأنبياء لم يتبع الترتيب الزمنى بينهم. إذ أن القرآن ليس كتاب تاريخ يلتزم بتتابع زمنى بل هو كتاب عظة وإيمان.

إنكار أهل الكتاب لرسالة النبى :

ثم تمض الآيات تروى الحجة التى كثيرا ما أثارها كفار قريش بإدعائهم أن القرآن من تأليف النبى وأن الله لم يُنزل عليه الوحى. وقد جاراهم فى موقفهم هذا بعض أحبار اليهود وترد عليهم الآيات بقوة مؤكدة نزول الوحى بالقرآن على النبى كما أنزلت التوراة على موسى:

«**وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيئ. قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلّمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون. وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدقُ الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صَلاَتهم يحافظون. ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلىَّ ولم يوح إليه شيئ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله. ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون. ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خوّلناكم** (أعطيناكم) **وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطّع بينكم وضل عنكم ماكنتم تزعمون**» (٩١– ٩٤).

وتروى الروايات أن النضر بن الحارث قال إنه يستطيع أن يأتى بمثل القرآن وأنه فى هذه الحالة يكون قد أوحى إليه فنزلت هذه الآيات. ثم تنذرهم الآيات جزاء افترائهم على الله بعذاب عند الموت وأرواحهم تنزع منهم فى قسوة وعنف ويقال لهم وقتئذ إن مجازاتهم بالعذاب المذل هى الجزاء على ماكانوا يقولونه على الله وجزاء استكبارهم عن النظر فى آياته والتدبر فيها. وفى الآخرة لن ينجدهم الشركاء الذين عبدوهم من دون الله.

مظاهر من قدرة الله :

وفى مقابل عجز الشركاء الذى وقفت عنده الآية السابقة يجئ تنويه بمظاهر قدرة الله فى السموات والأرض:

«**إن الله فالق الحب** (البذور تُخرِج النبات) **والنوى** (ليخرج النخيل) **يخرج الحىَّ من الميت ومخرج الميتِ من الحى ذلكم الله فأنَّى تؤفكون. فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيئ فأخرجنا منه خَضِراً نخرج منه حبا متراكبا** (مرتب فى سنابل صفا فوق صف). **ومن النخل من طلعها قنوان** (قطوف أو ما نسميه سباطة) **دانية** (مدلاَّة) **وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها** (فى الشكل) **وغير متشابه** (فى الطعم). **انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه** (نضجه) **إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون**» (٩٥- ٩٩).

وقد سبق أن جاء هذا المعنى – إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى – فى سورة يونس (الآية ٣١ ص ٢٣٣). ويقول العلماء المعاصرون إن بذور النبات تبدو لنا وكأنها ميته وقد تختزن لعدة سنوات أو آلاف السنين كالتى وجدت فى مقابر قدماء المصريين. ولما وضعت فى الأرض ورويت بالماء دبت فيها الحياة وأنبتت. أما إخراج الميت من الحي فهو موت كل شيئ: النبات والحيوان وتتحلل أجسامها إلى مركبات بسيطة ليس فيها حياة. ودورة الحياة والموت هذه من المعجزات الكبرى فى الكون (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٧٥ و ١٨٨).

التنديد بالشرك بالله :

ثم تأتى آيات موجَّهة إلى الكفار تندد باتخاذهم شركاء من دون الله بالرغم مما وضح لهم من مظاهر قدرته. فالله هو خالق السموات والأرض ولا ينبغى أن يكون له ولد أو زوجة. وهو خالق كل شيئ ولا يمكن رؤيته. ثم يأتى أمر للنبى باتباع مايوحى إليه من ربه وأن يعرض عن المشركين ولا يهتم بهم فهو ليس مسئولا عنهم آمنوا أم لم يؤمنوا:

«**وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له** (أى اختلقوا له) **بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون. بديع السموات والأرض أنَّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيئ وهو بكل شيئ عليم. ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيئ فاعبدوه وهو على كل شيئ وكيل. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير. قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِىَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ. وكذلك نصرِّف الآيات وليقولوا**

درست ولنبينه لقوم يعلمون. اتبع ما أُوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين. ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل» (١٠٠ - ١٠٧).

نهى المسلمين عن سب الكفار :

وذلك حتى لا يرد الكفار فيسبوا الله سبحانه وتعالى :

«ولا تسبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبُّوا الله عدوا بغير علم. كذلك زيَّنَّا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون» (١٠٨).

كثرة جدال الكافرين :

«وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننَّ بها. قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون. ونقلِّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون. ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيئ قُبُلا ماكانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون. وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون. ولتصغى (أى تميل) **إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضَوْه وليقترفوا ما هم مقترفون»** (١٠٩ - ١١٣).

والآيات تصف موقف جدل بين النبى والكفار إذ وعدوا بالإيمان لو جاءهم بآية أى معجزة مادية وجاء فى رواية أنهم طلبوا منه أن يجعل جبل الصفا ذهبا وجاء الرد يرفض الإتيان بآية حيث أن موقفهم كان موقف مكابرة وليس موقف رغبة صادقة فى الاقتناع ثم الإيمان ومن ثم فلو أنزل الله عليهم الملائكة أو أحيا لهم الموتى ليكلموهم ولبَّى لهم كل ما يطلبون فرأوه عيانا ماثلا أمامهم **«كل شيئ قبلا»** لما آمنوا لأنهم حينئذ سيتهمون أنفسهم بتوهم الخيالات فيمتلك الشك قلوبهم **«نقلب أفئدتهم وأبصارهم»** فلا يؤمنوا .كما أن الإيمان مرتبط بمشيئة الله. وبما أن أكثرهم مكذبون **«يجهلون»** فهم غير مستحقى الإيمان. وسنة الله أن أعداء الأنبياء هم عتاة الإنس وعتاة الجن الذين يشابهون الشياطين فى طغيانهم ويوسوس بعضهم لبعض بكلام مزخرف مُمَوه لا حقيقة فيه فيغتر به من هم على شاكلتهم ويتبعونهم. وكل ذلك بتقدير الله ومشيئته ولو شاء الله ما فعلوه. ولكنه اختبار من الله ليستمع إليه المنكرون للبعث وليرضوا به ويقترفوا آثامهم التى سيجازون عليها.

سبيل الله :

كان بعض كفار قريش يطلبون الاحتكام إلى أحبار اليهود ليفصلوا بينهم وبين النبى والآيات تندد بهذا التفكير وتستنكر أن يحتكم النبى لغير الله. ويكفى أن الله أنزل القرآن

مفصلا ليكون حجة عليهم. وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى يعلمون أنه منزل من الله وإن كانوا يخبرون كفار قريش بغير ذلك:

«أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مُفصلا. والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين. وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم. وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتّبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون (أى يكذبون)**. إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين»** (١١٤ - ١١٧).

استنكار بعض ما حرّم العرب من الذبائح :

وكان العرب فى الجاهلية يُحرّمون بعض الأنعام ويحرمون ذبح ولدها فنزلت هذه الآيات تستنكر هذه المعتقدات وتعلن أنه يكفى أن يذكر اسم الله عند الذبح لتكون لحومها حلالاً. وهذا التحريم الذى ابتدعوه هو من الفسق الذى أوحت به الشياطين إلى الكفار ليجادلوا المؤمنين والله أعلم بأنهم معتدون:

«فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين. وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصّل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه. وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين. وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون. ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق. وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون» (١١٨ - ١٢١).

مثال للهدى والضلال :

فى هذه الآية يضرب الله مثالا للهدى والضلال. فمن كان فى الضلال فهو كالميت وهداية الله له هى إحياء له ويصبح إيمانه كنور ينير له الطريق. وفى مقابله شخص آخر كفر فكأنه يسير فى الظلمات يتخبط فلا يخرج منها ويظن أنه يعمل الصالحات:

«أوَمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زُيّن للكافرين ماكانوا يعملون» (١٢٢).

من هم الضالون :

وسنة الله هى أن سادات القرى هم الذين يكذّبون رسله ويقول بعض المفسرين إن الآيات نزلت بمناسبة قول الوليد بن المغيرة للنبى: لو كانت نبوة حقا لكنتُ أولى بها منك لأنى أكبر منك سنا وأكثر مالا. وقد سبق أن ذكر فى سورة ص (الآية ٨ ص ١١١) **«أأنزل عليه الذكر من بيننا»** مما يدل على أن كفار قريش كانوا دائمى ترديد هذا القول كسبب من أسباب عدم

إيمانهم. وتقرر الآيات أن هؤلاء المعاندين سينالهم ذلة فى الدنيا وعذاب فى الآخرة. والهداية فضل من الله فمن يرد الله أن يهديه يتسع صدره للإيمان ومن يكتب عليه الضلال يجعله يضيق بما يسمع من آيات الله:

«وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها (يصدُون عن الإيمان) **وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون. وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتىَ رسل الله. الله أعلم حيث يجعل رسالته. سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون. فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصَّعَّد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون. وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذَّكرون. لهم دار السلام** (هى الجنة) **عند ربهم وهو وليُّهم بما كانوا يعملون»** (١٢٣ - ١٢٧).

ويرى بعض العلماء المعاصرين فى وصف شعور من يصعد فى السماء بضيق الصدر إعجازا علميا إذ لم يعرف إلا مؤخرا أن الأوكسجين اللازم للحياة يقل كلما ارتفع الإنسان فى الجو وينتابه شعور بضيق الصدر والاختناق لذلك فإن طاقم الطائرات الحربية التى تطير فى طبقات الجو العليا يستعملون أقنعة تزودهم بالأوكسجين اللازم.

الكفار يشهدون على أنفسهم يوم القيامة :

فى هذه الفقرة تصف الآيات موقفا من مشاهد يوم القيامة إذ يُوجِّه الله الخطاب إلى الجن منددا بهم لكثرة ما أضلوا من الإنس ويجيب الضالون من الإنس على سبيل الاعتذار بأن كلا من الطرفين قد انخدع بالآخر واستمتع به غافلا عن المصير. ثم يوجّه الخطاب إلى الإنس والجن معا منددا بتكذيبهم رسل الله وبإنكارهم ليوم الحشر ويشهدون على خطئهم:

«ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجّلت لنا. قال النار مثواكم خالدين فيها إلاَّ ماشاء الله إن ربك حكيم عليم. وكذلك نُوَلى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون. يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصُّون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا. قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون. ولكلٍّ درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون. وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين. إن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين. قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون» (١٢٨ - ١٣٥).

والآيتان الأخيرتان فيهما إنذار قوى بأسلوب نافذ وتهديد بعذابٍ ما للمكذبين مما من شأنه أن يبث الطمأنينة فى قلوب المؤمنين بأنهم على الحق وأنهم فى النهاية هم الفائزون.

بعض عادات العرب فى الأنعام :

«**وجعلوا لله مما ذرأ** (خلق) **من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون. وكذلك زيَّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤُهم ليُردوهم** (ليوقعوهم فى الإثم) **وليلبسوا عليهم دينهم** (ليشوِّشوا عقيدتهم) **ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون. وقالوا هذه أنعام وحرث حجر** (أى محجوزة) **لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حُرِّمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون. وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومُحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم. قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرَّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين**» (١٣٦ - ١٤٠).

والآيات تشرح بعض العادات والتقاليد التى كان العرب يمارسونها ويصبغونها بصبغة دينية. فقد كانوا يَنذُرُون شيئا من أنعامهم وزروعهم لله تعالى وشيئا للشركاء الذين كانوا يعبدونها. وكانوا يحابون بين قسم الله وقسم الشركاء فإذا ظهر أن الأول أكثر نتاجا أو غلَّة بدَّلوا فى التقسيم ليكون الكثير من نصيب الشركاء. وكان بعضهم يقتل أولاده - بوسوسة الشيطان - تقرُّبا للأصنام. وكانوا ينذرون تحريم أكل بعض الأنعام وغلات الزرع على أناس دون أناس ويَنذُرون تحريم ركوب بعض الأنعام وتحميلها أى حرَّموا ظهورها ولا يذكرون اسم الله على ما يذبحونه. وكانوا يَنذُرون بعض مافى بطون أنعامهم للذكور دون الإناث هذا إذا وُلِد حيا. فإن كان ميتا يشركون فيه الإناث. ويظنون أنهم - بهذه الممارسات - إنما يتقربون إلى الله. وقد نعت الآيات عليهم هذه الممارسات التى يفعلونها بجهلهم ويحرِّمون أشياء أحلها الله.

بعض ما أحل الله :

ثم تمضى الآيات تنوِّه بما خلق الله للناس ويسَّر منافعه لهم من الأنعام والزروع وحثهم على إفراز ما يُتصدَّق به لأنه حق الفقراء:

«**وهو الذى أنشأ جنات معروشات** (مثل أشجار العنب) **وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه. كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين. ومن الأنعام حَمولة** (لحمل المتاع) **وفَرشا** (للذبح واتخاذ الفرش من أوبارها وجلدها) **كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين**» (١٤١ - ١٤٢).

تنديد ببعض ما حرَّم المشركون :

ثم تمضى الآيات تندد بما كان المشركون يحرمونه أو يحلُّونه من الأنعام ويدَّعون أن ذلك من الدين:

«ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرَّم أم الأنثيين أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبِّئونى بعلم إن كنتم صادقين. ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين. أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين. قل لا أجد فى ما أوحى إلىَّ محرما على طاعم يَطعَمُه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس (أى حرام) **أو فسقا أهل لغير الله به** (ما ذبح قربانا لغير الله) **فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فإن ربك غفور رحيم»** (١٤٣ - ١٤٥).

وقبل الدخول فى معنى الآيات يجب توضيح معنى الأزواج فالفرد لحدته يكون واحدا وحينما يكون معه فرد آخر من الجنس المقابل يسمى كل منهما زوجًا. فرجل وامرأة: هو زوج وهى زوجة (أو زوج) وهما زوجان ويقال زوجان سعيدان مثلا وعلى ذلك فإن «ثمانية أزواج» الواردة فى الآية هى: زوجان من الضأن أى ذكر وأنثى من الضأن ومن المعز اثنان ومن الإبل اثنان ومن البقر اثنان فالثمانية أزواج عبارة عن أربعة ذكور وأربع إناث. ثم أوضحت الآيات أن الله أوحى إلى نبيه بتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما لم يذكر اسم الله عليه. ولكنه أباح للمضطر أكلها بمقدار ما يدفع الضرر وحفظا لحياته.

ما حُرِّم على اليهودِ من الأنعام :

«وعلى الذين هادوا حرَّمنا كل ذى ظُفُر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شُحومَهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم. ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون. فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين» (١٤٦ - ١٤٧).

فقد حرَّم الله على اليهود أكل اللحم والشحم من كل ماله ظفر من الحيوانات. والإبل لها ظفر فهى محرَّمة عليهم. وحرَّم عليهم من البقر والغنم شحومهما فقط إلا الشحوم التى توجد على ظهرها أو التى توجد على الأمعاء (الحوايا) أو ما اختلط بعظم مثل إلية الغنم. وكان هذا التحريم عقابا لهم على ظلمهم وكان هذا صدقا وعدلا فى معاملتهم. فإن كذبوا فالله ذو رحمة واسعة تسع من أطاعه ومن عصاه أيضا فلا يعجِّل لهم بالعقوبة ولكن لا ينبغى لهم أن يغتروا بسعة رحمته لأن عذابه لابد واقع بالمجرمين.

اعتذار المشركين بمشيئة الله :

«سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيئ كذلك كذَّب

الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلاَّ تخرصون. قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين. قل هلمَّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذَّبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون» (١٤٨ - ١٥٠).

والآيات تحكي ما يمكن أن يقوله المشركون إذ سيعمدون إلى المداورة فيقولون إن كل شيئ مرتهن بمشيئة الله وأن ما حرَّمه آباؤهم كان الله قد حرَّمه عليهم وتتحداهم الآيات بإظهار صحة دعواهم هذه وأنهم إنما يتبعون الظن وأنهم كاذبون. ثم يُدعون إلى الإتيان بشهداء يشهدون بصحة قولهم. وحتى لو جاءوا بشهداء زور شهدوا معهم فقد أُمر النبى بعدم اتباعهم فى أقوالهم الكاذبة وفى أهوائهم فهم لا يؤمنون بالآخرة ويساوون الله بغيره من المخلوقات **«بربهم يعدلون»**.

بعض ماحُرِّم على المسلمين :

ثم تمضى الآيات تبين بعض ما حُرِّم فى الإسلام. وقد شبهها البعض بالوصايا العشر فى التوراة:

«قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم :

١ - «ألا تشركوا به شيئا .

٢ - «وبالوالدين إحسانا .

٣ - «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم .

٤ - «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

٥ - «ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون .

٦ - «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده .

٧ - «وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نُكَلِّف نفسا إلا وسعها .

٨ - «وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى (نهى عن شهادة الزور) .

٩ - وبعهد الله أوفوا ذلك وصاكم به لعلكم تذكرون .

١٠ - «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» (١٥١ - ١٥٣).

وقد ورد فى سورة الإسراء (الآيات ٢٢ - ٣٨ ص ٢١٢) ثلاث عشرة وصية وقد ادعى بعض المستشرقين وجود تعارض بين ما جاء هنا **«ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم»** وبين ما جاء فى سورة الإسراء **«ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم»** إذ الأولى **«نحن نرزقكم وإياهم»** والثانية **«نحن نرزقهم وإياكم»** وقد أوضح الشيخ محمد متولى الشعراوى فى أحد أحاديثه سبب هذا الاختلاف اللفظى بين الآيتين فواحدة تنهى عن القتل

خشية الإملاق أى أن العائلة تجد رزقها ولكنها تخاف أن يكون المولود الجديد سببا فى إملاقها فكان التطمين بأن الله سيؤتى هذا المولود رزقه ويزيده ليعم الأبوين أيضا. **«نحن نرزقهم وإياكم»** أما الآية الثانية فتقرر أن الإملاق واقع فعلا ولا تجد العائلة ما يكفيها وجاءها المولود الجديد فكان المنطق أن يُطمأن الوالدان أن المولود سيكون سببا فى رزق سيأتى للعائلة كلها لإزالة الإملاق الواقع ثم يزيد ليشمل المولود **«نحن نرزقكم وإياهم»**.

ضرب المثل بالتوراة :

ثم تمضى الآيات تقرر بأن الله قد آتى موسى الكتاب أى التوراة فيها تفصيل كل شيئ ثم تقرر أن القرآن مبارك ثم دعوة للمشركين باتباعه حتى لا يحتجوا بأن الكتب السابقة – التوراة والإنجيل – أنزلت على طائفتين – اليهود والنصارى – ولم تنزل لهم، وأنها كانت بلسان غير لسانهم فلم يفهموها وأنهم لو أنزل عليهم كتاب لكانوا أكثر إيمانا به من اليهود والنصارى. ويُرَدُّ عليهم بأن القرآن قد أنزل عليهم وبلسانهم ولكنهم لم يؤمنوا به:

«ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شيئ وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون. وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون. أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنَّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم. فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذَّب بآيات الله وصدف عنها سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون» (١٥٤-١٥٧).

وهذا يشبه ما جاء فى سورة فاطر (الآية ٤٢ ص ١٥٢) عن قولهم: **«وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا»**.

ماذا ينتظر المشركون كى يؤمنوا ؟

«هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتِىَ ربك أو يأتِىَ بعض آيات ربك. يوم يأتِى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون. إن الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيئ (لست مسئولا عنهم) **إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون. من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون»** (١٥٨ – ١٦٠).

وفى الآيات سؤال استنكارى عما ينتظره الكفار بعدما جاءتهم بينة من الله: رسوله وكتابٌ فيه الهدى. هل ينتظرون أن تأتيهم الملائكة أو يأتيهم الله عز وجل بنفسه. أو تأتيهم معجزة مادية صارخة تجبرهم على الإيمان. وقد سبق أن جاء فى سورة الشعراء (الآية ٤ ص ١٧٥): **«إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين»**، ولكن الله يريد الناس أن يأتوا إليه مختارين ومؤمنين بالغيب الذى أخبرهم به على لسان أنبيائه، كذلك فإن تأخير

الإيمان إلى أن تبدأ مؤشرات الساعة لا يقبل. ومثله الإيمان عند الغرغرة. ثم تأمر الآيات النبى أن يقول للكفار - على سبيل التهديد - أن ينتظروا كما يشاءون. ثم إخبار للنبى أنه غير مسئول عن الذين اتبعوا الأهواء فى الدين وتفرقوا شيعا وأن أمرهم إلى الله وسيجازيهم بما يستحقون. ومن فضل كرم الله أن من فعل حسنة جوزى بعشر أمثالها ومن اقترف سيئة جوزى بمثلها وهذا منتهى الكرم .

ملة إبراهيم حنيفا :

ثم تأتى آيات يذكر فيها - لأول مرة - أن الملة التى بعث النبى عليها هى ملة إبراهيم ووصف بأنه كان حنيفا غير مشرك. وفى اللغة «الحنف» هو الميل. وحنّف الرجل اعوجّت قدماه (المعجم الوسيط جـ ١ ص ٢٠٢) والحنيف المائل عن الشر. والدين الحنيف المستقيم الذى لا عوج فيه. وكان فريق من العرب قبل البعثة يتحدثون عن ملة إبراهيم ويصفونها بالحنيفية ويتعبدون عليها. ولكنها كانت قد حُرِّفت وأدخلت فيها ممارسات وثنية فجاءت هذه الآيات لتقرر أن ملة إبراهيم هى التوحيد الخالى من الشرك ولترد على مزاعم المشركين الذين كانوا يمارسون الشرك ويزعمون أنهم على ملة إبراهيم. ثم أمر للنبى أن يخبر المسلمين أن الصلوات وجميع العبادات يجب أن تكون خالصة لوجه الله تعالى. وبذلك أُمِر النبى. وبما أنه سيكون أول المستجيبين لهذا التوجيه فهو أول المسلمين:

«قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قِيمًا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين. قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» (١٦١ - ١٦٣).

ثم تستمر الآيات تستنكر على المشركين دعوتهم إياه لموافقتهم على شركهم فى حين أن الله هو خالق كل شيئ ورب كل المخلوقات. ثم تقرر الآيات أن كل إنسان مسئول عن أعماله ولا تُؤَاخَذُ نفسٌ بذنب نفسٍ أخرى ثم بعد الموت يرجعون إلى الله فيخبرهم بما اختلفوا فيه فى الدنيا من العقائد ويجازيهم بأعمالهم:

«قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيئ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» (١٦٤).

ثم يأتى ختام السورة مُذكِّرا بأن الله جعل الناس يخلف بعضهم بعضا فى الأرض وجعلهم متفاوتين فى حظوظهم فى الدنيا: فى المال والصحة والقوة وغير ذلك ليختبرهم فيما أعطاهم ومن كفر بهذه النعم فإن الله قد يعجل له العذاب فى الدنيا وهو أيضا غفور يرحم من تاب وأناب:

«وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم» (١٦٥).

ثم نزلت **سورة الصافات** :

والسورة تركز على موضوعين أساسيين: التوحيد والبعث.

وقد بدأت السورة - كما يقول الشيخ محمد الغزالى - (نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم. ص ٣٤٥) بالقَسَم بوصف لموكب الوحى وهو نازل على قلب خاتم الرسل يقوده جبريل الأمين وتحفه الملائكة الكرام. مصطفة صفوفا صفوفا أو صافةً بأجنحتها فى الهواء. وهى إلى جانبٍ ذلك تزجر وتطرد الشياطين المتطفلة على أخبار الوحى. وهى إلى ذلك تسبح الله وتحمده وتمجده. وجواب القسم إقرار بوحدانية الله:

«والصافات صفا. فالزاجرات زجرا. فالتاليات ذكرا. إن إلهكم لواحد. رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق. إنا زينَّا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظا من كل شيطان مارد. لا يسَّمَّعون إلى الملإ الأعلى ويُقذفون من كل جانب. دحورا ولهم عذاب واصب (شديد ودائم) **إلا من خَطِف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب»** (١ - ١٠).

وقد سبق أن ذكر فى سورة الجن (آية ٨ ، ٩ ص ١٣١) تَسمُّع الشياطين إلى أخبار السماء وأنهم ابتداء من البعثة النبوية مُنعوا من ذلك رجما بالشهب.

إنكار المشركين لفكرة البعث :

ثم تمضى الآيات تذكر استنكار المشركين واستهزاءهم بفكرة البعث وحياة ثانية بعد الموت. واستبعادهم لكونهم بعد أن يموتوا ويصبحوا ترابا وعظاما يبعثون مرة أخرى هم وآباؤهم وأجدادهم الذين بادوا. وترد عليهم الآيات بأن البعث حق وستكون صيحة واحدة تزجرهم فإذا هم أحياء ينظرون ماكانوا يوعدون. والذى خلق السموات والأرض قادر من باب أولى على إعادة خلق البشر لأنهم أضعف فقد خلقوا من طين لازب أى لزج:

«فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب. بل عجبت ويسخرون. وإذا ذُكِّروا لا يَذكرون. وإذا رأوا آية يستسخرون. وقالوا إن هذا إلا سحر مبين. أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون. أوَآباؤنا الأولون. قل نعم وأنتم داخرون (أى صاغرون). **فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون»** (١١ - ١٩).

حال الكفار يوم القيامة :

ثم تمضى الآيات تصف ندم الكفار يوم القيامة حينما يدركون أن البعث قد أصبح حقيقة واقعة وتصف ما ينتظرهم من عذاب ومحاولتهم إلقاء تبعة كفرهم على غيرهم بدعوى أنهم هم الذين قادوهم إلى الضلال:

«وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين. هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذِّبون. احشروا الذين

ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم. وقفوهم إنهم مسئولون. ما لكم لا تناصرون. بل هم اليوم مستسلمون. وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين. قالوا بل لم تكونوا مؤمنين. وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قومًا طاغين. فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون. فأغويناكم إنا كنا غاوين. فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون. إنا كذلك نفعل بالمجرمين. إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون. ويقولون أإنَّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون. بل جاء بالحق وصدَّق المرسلين. إنكم لذائقوا العذاب الأليم. وما تجزون إلا ما كنتم تعملون» (٢٠ - ٣٩).

والآيات قوية نافذة من شأنها إثارة الخوف والرهبة فى السامع. فها هم الملائكة يمتثلون لأمر ربهم ويقومون بجمع الكافرين وأزواجهم الكافرات وآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ويسوقونهم إلى طريق الجحيم ليسلكوه ويصلوا إلى جهنم. كما تقوم الملائكة بإيقافهم لسؤالهم عن عقائدهم وأعمالهم ويسألونهم - سؤال استهزاء - لماذا لا ينصر بعضهم بعضا كما كانوا يفعلون فى الحياة الدنيا. فيعلنون استسلامهم ويبدأ بعضهم يلوم البعض الآخر متهمينهم بأنهم كانوا السبب فى ضلالهم. فينكرون ذلك ويعلنونهم أنهم باختيارهم أعرضوا عن الإيمان. ثم تعلنهم الآيات أن الأتباع والمتبوعين يوم القيامة فى العذاب مشتركون لأنهم كانوا من إجرامهم يستكبرون عن عبادة الله ويستنكرون ترك عبادة آلهتهم متهمين النبى بالجنون وقول الشعر. ثم تختم الفقرة بإعلانهم بأنهم سيذوقون العذاب الأليم جزاء وفاقا لما كانوا يفعلون فى الدنيا.

جزاء المؤمنين :

وتستثنى الآيات المؤمنين من العذاب الأليم الذى سينزل بالكفار. ثم تمضى تصف النعيم الذى ينتظرهم فى الجنة:

«**إلا عباد الله المخلصين. أولئك لهم رزق معلوم. فواكهُ وهم مُكرمون . فى جنات النعيم. على سرر متقابلين. يُطاف عليهم بكأس من معين. بيضاءَ لذة للشاربين. لا فيها غَوْل ولا هم عنها يُنزَفون. وعندهم قاصرات الطرف عِين** (غاضات البصر بعيون نجلاء). **كأنهن بَيْضٌ** (حبات اللؤلؤ الكبيرة) **مكنون»** (٤٠ - ٤٩).

وقد سبق أن ذُكِرَ فى سورة الواقعة (الآية ١٩ ص ١٧١) «**لا يصدَّعون عنها ولا ينزفون**». وهنا قيل «**لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون**» والغول هو ذهاب العقل الذى يحدث مع شرب خمر الدنيا وهذا لا يحدث من خمر الآخرة.

وتستمر الآيات فتصف ما سيحدث يوم القيامة من جدال بين الكافرين بعضهم مع بعض وبين المؤمنين والكافرين:

«فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قال قائل منهم إنى كان لى قرين، يقول أإنك لمن المصدقين، أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون (أى مبعوثون للقضاء والجزاء)**، قال هل أنتم مطلعون، فاطَّلع فرآه فى سواء** (فى وسط) **الجحيم، قال تالله إن كدت لتردين، ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين** (فى العذاب)**، أفما نحن بميِّتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذَّبين، إن هذا لهو الفوز العظيم، لمثل هذا فليعمل العاملون»** (٥٠ – ٦١).

والآيات تصف تساؤل أحد المؤمنين عن صاحب له فى الدنيا كان ينكر البعث ويهزأ به لتصديقه ببعث بعد أن تبلى الأجساد. فيأتى ملك يسألهم إن كانوا يودون أن يطلعوا على أهل الجحيم، ونلاحظ هنا إيراد أمر الاطلاع بصيغة الجمع مع أن الكلام كان قبل ذلك بصيغة المفرد، دلالة على أن كثيرا من المؤمنين كانوا أيضا يتساءلون عن أصحابهم المشركين الذين كانوا يجادلونهم فى الحياة الدنيا وينكرون البعث. ثم يعود النظم إلى صيغة المفرد لوصف ما يشعر به كل مؤمن عند نجاته من النار **«فاطلع فرآه فى سواء الجحيم»** أى نظر فرأى ذلك الصاحب المشرك فى وسط الجحيم. فيحمد المؤمنُ الله تعالى على أن هداه إلى الإيمان وإلا كان مصيره الإلقاء فى النار هو أيضا. وهذا النجاء من النار هو الفوز العظيم الذى يجب أن يُعمل له ويُهدف إليه.

وتستمر الآيات تصف صورة مفزعة لحال الكفار ومقامهم فى الجحيم:

«أذلك خير نُزُلا أم شجرة الزقوم، إنا جعلناها فتنة للظالمين، إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون، ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم، إنهم ألفَوْا آباءهم ضالين، فهم على آثارهم يُهرعون، ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين، ولقد أرسلنا فيهم منذرين، فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين، إلا عبادَ الله المخلصين» (٦٢ – ٧٤).

والآيات تصف حال الكفار وهم نازلون فى جهنم، يأكلون حتى تمتلئ بطونهم من شجرة الزقوم التى تنبت فى وسط الجحيم وثمرها قبيح المنظر تنفر منه العيون. وقد انتقد بعض المستشرقين التشبيه بمجهول **«كأنها رؤوس الشياطين»** إذ التشبيه يكون بما هو معروف. والحقيقة أن العرب استعملوا وجوه الشياطين وأنياب الأغوال وما شابهها للدلالة على تناهى قبح المنظر مثلما شبهوا حسن الصورة بغير مرئى أيضا وهم الملائكة. وتستمر الآيات فتذكر أن الكافرين بعد أن يأكلوا من شجرة الزقوم يشربون ماء حارا يشوى البطون، وتعيب عليهم أنهم تبعوا آباءهم فى الضلال وكان واجبا عليهم اتخاذ العبرة مما حدث للأولين إذ أرسل الله إليهم رسلا منذرين فكذبوهم، والأمر بالنظر كيف كانت عاقبتهم يفيد ما هو معلوم من نزول عذاب بهم وقد استثنى من هذا العذاب عباد الله المخلصين فى عبادته.

جوانب من قصص الأنبياء السابقين :

ثم تذكر الآيات بعض الجوانب من قصص ستة من الأنبياء السابقين هم: نوح وإبراهيم وموسى وإلياس ولوط ويونس :

١ – جانب من قصة نوح :

وقد ذكرت قصة نوح باختصار شديد إذ تذكر أن الله أنجاه. ثم لازمة تتكرر فى نهاية قصة كل نبى :

«ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجيناه وأهله من الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين. وتركنا عليه فى الآخِرين. سلام على نوح فى العالَمين. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. ثم أغرقنا الآخرين» (٧٥ – ٨٢).

٢ – جانب من قصة إبراهيم :

بالإضافة إلى ما سبق ذكره عن إبراهيم فى سورة الأنعام (الآيات ٧١ – ٨٣ ص ٢٦٢) جاءت سورة الصافات تضيف فى الآيات ٨٣ – ٩٩ قيامه بتكسير الأصنام التى كان قومه يعبدونها وردهم على ذلك بمحاولة حرقه فأنجاه الله من النار وهى معلومة لم يرد فى التوراة أى ذكر لها. وقد ذكرناها بالتفصيل فى الجزء الثانى (ص ٢٣٣ – ٢٣٨):

«وإن من شيعته لإبراهيم. إذ جاء ربه بقلب سليم. إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون. أئفكا آلهة دون الله تريدون. فما ظنكم برب العالمين. فنظر نظرة فى النجوم. فقال إنى سقيم. فتولوا عنه مدبرين. فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون. مالكم لا تنطقون. فراغ عليهم ضربا باليمين. فأقبلوا إليه يزفون (يسرعون المشى)**. قال أتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم وما تعملون. قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم. فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين. وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين»** (٨٣ – ٩٩).

ثم فى الآيات ١٠٠ – ١١٢ أمر ذبح ابنه والمعروف أنه اسماعيل خلاف ما يدعيه أهل الكتاب من أن الذبيح هو إسحق وقد فنّدنا ذلك بالتفصيل فى الجزء الثانى (ص ٣٥٢ – ٣٦٢):

«رب هب لى من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتلّه للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدَّقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين. وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين» (١٠٠ – ١١٣).

٣ – جانب من قصة موسى :

وتُذكر أيضا باختصار شديد مركزة على نجاته هو وهارون وبنى إسرائيل من فرعون وجنده:

«ولقد مننا على موسى وهارون. ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هم الغالبين. وآتيناهما الكتاب المستبين (بالغ البيان). **وهديناهما الصراط المستقيم. وتركنا عليهما فى الآخرين. سلام على موسى وهارون. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنهما من عبادنا المؤمنين»** (١١٤ – ١٢٢)

٤ – قصة إلياس :

وكان أول ذكر لاسم إلياس هو ما جاء فى سورة الأنعام ضمن أسماء الـ ١٧ نبيا الذين ذكروا فى الآية ٨٥ ص ٢٦٢. وكان ذكره هنا فى سورة الصافات مرتين: مرةً باسم إلياس ومرة باسم إل ياسين:

«وإن إلياس لمن المرسلين. إذ قال لقومه ألا تتقون. أتدعون بَعْلا وتذرون أحسنَ الخالقين. الله ربكم وربٌ آبائكم الأولين. فكذبوه فإنهم لمحضرون (للعذاب فى النار). **إلا عباد الله المخلصين. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إل ياسين. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين»** (١٢٣ – ١٣٢).

وقصة إلياس كانت معروفة لدى العرب إذ كان اليهود يتلون عليهم ما جاء فى التوراة بشأنه فهو «إيليا» وفى اليونانية تضاف سين علامة الرفع فأصبحت إلياس وبهذا الإسم عرف عند العرب. وقد ذكرنا قصته بالتفصيل فى الجزء الخامس (ص ٢٥٦ – ٢٦٥) وذكرنا قتله لكهنة «البعل» الإله الذى كان يعبده أخاب ملك إسرائيل.

٥ – جانب من قصة لوط :

وقد ذُكرت أيضا باختصار شديد:

«وإن لوطا لمن المرسلين. إذ نجيناه وأهله أجمعين. إلا عجوزا فى الغابرين. ثم دمَّرنا الآخرين. وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون» (١٣٣ – ١٣٨).

وقوافل العرب إلى فلسطين كانت تمر على أرض سعير التى كانت بها المدن الخمس مدن قوم لوط. ويرون آثار الدمار الذى حاق بهم. فكان الواجب على كفار قريش أن يأخذوا منها العبرة والعظة.

٦ – قصــة يونس :

وقـد سبق الإشـارة إلى يونس فى سورة القلم (الآيات ٤٨ – ٥٠ ص ٧٥) فى قـوله تعـالى **«فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت** (يونس) **إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين»** وفى سورة يونس (الآية ٩٨ ص ٢٣٩) ذكر أن أهل نينوى لما آمنوا رفع الله عنهم العذاب. وفى السورة الحالية جاء شيئ من التفصيل عن ابتلاع الحوت له :

«وإن يونس لمن المرسلين. إذ أبق إلى الفلك المشحون. فساهم فكان من المدحضين. فالتقمه الحوت وهو مُليم. فلولا أنه كان من المسبحين. للبث فى بطنه إلى يوم يُبعثون. فنبذناه بالعراء وهو سقيم. وأنبتنا عليه شجرة من يقطين. وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون. فآمنوا فمتعناهم إلى حين» (١٣٩ – ١٤٨).

وقد ذكرنا قصته بالتفصيل فى الجزء الخامس (ص ٢٨٩ – ٢٩٨) وذكرنا النقاط التى قام القرآن بتصحيح ما ورد محرفًا فى التوراة بشأنها.

استنكار نسبة الولد لله تعالى:

«فاستـفـتـهم ألربك البنات ولهم البنون. أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون. ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون. أصطفى البنات على البنين. مالكم كيف تحكمون. أفلا تذكَّرون. أم لكم سلطان مبين. فأْتوا بكتابكم إن كنتم صادقين. وجعلوا بينه وبين الجِنة نسبا ولقد علمت الجِنة إنهم لمحضرون. سبحان الله عما يصفون. إلا عباد الله المخلصين. فإنكم وما تعبدون. ما أنتم عليه بفاتنين (مضلين بإغرائهم). **إلا من هو صال الجحيم»** (١٤٩ – ١٦٣).

والآيات تستنكر نسبة البنات إلى الله تعالى. وكان العرب يكرهون البنات ولو كان لله ولد لكان من الجنس المفضَّل أى من البنين. وترد الآيات بقوة فتنفى نفيا قاطعا وحاسما فكرة أن يكون لله أولاد أو بنات. وتمادَى الكفار فى ادعاءاتهم فجعلوا بين الله وبين الجِنة نسبا وقرابة والجِنة يعلمون أن الكفار محضرون إلى الله لينالوا جزاءهم على هذا الادعاء (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم. ص ٦٧٢) أو أن الجِنة يعلمون أنهم محضرون للعذاب لو كانوا قد ادعوا استحقاقهم للعبادة (تفسير الألوسى. جـ ٢٣ ص ١٥٢). ثم تنزيه لله عن هذا الادعاء. ثم تقرير بأن الكفار وما يعبدون من دون الله لن يُضلوا أحدا بإغوائهم إلا وسيصلى نار جهنم معهم.

الملائكة يعرفون مكانهم من الله :

ثم تأتى آيات هى من قول الملائكة. وذلك ردا على ادعاء الكفار أن الملائكة بنات الله. إذ يقررون عبوديتهم لله وأن لكل منهم مقام فى المعرفة والعبادة وأنهم مصطفُّون صفوفا للصلاة ومسبحون الله ومنزهونه عن كل مالا يليق بجلاله:

«وما منا إلا له مقام معلوم. وإنا لنحن الصافُّون. وإنا لنحن المسبِّحون» (١٦٤ - ١٦٦).

وقد سبق أن جاء قول الملائكة فى سورة مريم (آية ٦٤ ص ١٥٥): **«وما نتنزَّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك».**

جاءهم الرسول الذى كانوا يتمنونه :

وكان كفار مكة قبل بعثة الرسول يقولون لو أن عندهم كتاباً مثل الكتب التى نزلت على غيرهم - كالتوراة والإنجيل - لأخلصوا فى العبادة ولكانوا أهدى منهم .فلما جاءهم ما تمنوه - وهو الرسول - كفروا به وسوف يعلمون عاقبة كفرهم وما سيحل بهم من عذاب:

«وإن كانوا ليقولون. لو أن عندنا ذكرا من الأولين. لكنا عباد الله المخلصين. فكفروا به فسوف يعلمون» (١٦٧ - ١٧٠).

وعد النبى بالنصر والهزيمة للكافرين :

«ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون. فتولَّ عنهم حتى حين. وأبصرهم فسوف يبصرون. أفبعذابنا يستعجلون. فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذَرين. وتول عنهم حتى حين. وأبصر فسوف يبصرون» (١٧١ - ١٧٩).

والآيات تقرر أن حكم الله الذى سبق قضاؤه - وهو نافذ - أن النصر هو لرسله وللمؤمنين. ثم أمر للنبى بأن يعرض عن الكافرين ليرى ما يفعل الله بهم. فإن كانوا يتحدون ويستعجلون عذاب الله إنكاراً له فإنه حين ينزل بهم فيا لسوء صباحهم. وفيه إشارة إلى عادات العرب فى الإغارة على أعدائهم فى الصباح الباكر وهم بعدُ غير مستعدين لقتال.

وتختم السورة بتسبيح الله وتمجيده وتنزيهه عما زعم المشركون له من بنات:

«سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين»

(١٨٠ - ١٨٢).

ثم نزلت سورة لقمان :

وفى السورة تنويه بالمؤمنين المحسنين وتقريع للكافرين المستكبرين. وحكاية لبعض أقوالهم وردود مفحمة عليها. ثم ذكرت قصة لقمان وحكمته وعددا من مواعظه لابنه على سبيل ضرب المثل بالأخلاق الحسنة والمبادئ الكريمة:

الٓمٓ. تلك آيات الكتاب الحكيم. هدى ورحمة للمحسنين. الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون. ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين. وإذا تتلى عليه آياتنا ولَّى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم. إن الذين آمنوا

وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم. خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم. خلق السموات بغير عمد ترونها. وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم. هذا خَلْقُ الله فأرونى ماذا خَلَقَ الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين» (١ - ١١).

ويقال إن جملة **«ومن الناس من يشترى لهو الحديث...»** عنت النضر بن الحارث الذى كان يرحل إلى بلاد فارس ويعود منها فيقول إن محمدا يحدثكم عن عاد وثمود وأنا أستطيع أن أحدثكم عن رستم واسفنديار. وإن حديثى لأشهى من حديثه.

أما قوله تعالى: **«خلق السموات بغير عمد ترونها»** فهو ينفى الرؤية عن العمد ولكنه يثبت وجود العمد ذاتها وإلا لاكتُفى بقول «خلق السموات بغير عمد». ويرى علماء الفلك المعاصرون (دكتور زغلول النجار. أهرام ٢٠٠١/٩/١٧) أن قوى الجاذبية هى العمد التى تربط أجزاء الكون بعضها ببعض. فالقمر مشدود إلى الأرض بجاذبيتها والأرض والكواكب السيارة الأخرى تدور حول الشمس ولا تفلت من جاذبيتها. والمجموعة الشمسية وآلاف الشموس فى مجرتنا - مجرة درب التبانة - كلها تسير فى أفلاك مُحدَّدة وبسرعات هائلة وقوى الجاذبية تمسكها فى نسج مترابط وآلاف الملايين من المجرات تسبح فى الفضاء اللانهائى دون أن تتصادم ودون أن ينفرط عقدها لأنها مشدودة بخيوط وعمد غير مرئية من الجاذبية.

مواعظ لقمان :

ثم تأتى هذه الفقرة عن لقمان ومواعظه لابنه محتوية على مكارم الأخلاق. وكان بعض العرب - مثل سويد بن الصامت - كثير الأسفار فاطلع على ثقافات الأمم المجاورة. وعند عودته كان يروى للناس بعضا من حكمة لقمان. ويروى أنه لقى النبى فدعاه إلى الإسلام فقال سويد: فلعل الذى معك مثل الذى معى. فقال له الرسول: وما الذى معك؟ قال مجلة لقمان. فقال الرسول: اعرضها علىَّ فعرضها عليه فقال: إن هذا الكلام حسن. والذى معى أفضل منه. قرآن أنزله الله علىَّ هو هدى ونور. وتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه إلى الإسلام فأسلم. ولما عاد إلى يثرب قتله قومه كما سبق أن ذكرنا (ص ٢٢٦) - أما عن شخصية لقمان فقد بحثناها فى الجزء الخامس (ص ٢٢٨ - ٢٣٠). وأيا كان موطنه فلاشك أن الكفار عجبوا أن يعلم النبى شيئا عنه مع أنه لم يسافر إلى فارس أو مصر. وكان هذا أدعى لهم أن يوقنوا أنه إنما يتكلم بوحى السماء فيؤمنوا ولكنهم ظلوا على عنادهم. ومواعظ لقمان يتخللها استطرادات هى تقرير قرآنى مباشر:

«ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكرْ فإنما يشكرُ لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد. وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم. ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىَّ

المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلىَّ ثم إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. يابُنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير. يابُنى أقم الصلاة وأْمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. ولا تُصعِّر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» (١٢ - ١٩).

بعض مظاهر قدرة الله فى الكون :

ثم تمضى الآيات تلفت نظر السامعين إلى بعض مظاهر قدرة الله فى الكون:

«ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة. ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير. ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور. ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور. نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ. ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون. لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد. ولو أنَّما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نَفِدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم. ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير. ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخَّر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمًّى وأن الله بما تعملون خبير. ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير. ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليرِيَكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور. وإذا غشيهم موج كالظلل دَعَوُا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد (قلَّل من جحوده) **وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار** (غدار) **كفور»** (٢٠ - ٣٢).

وقد سبق التنويه بإحاطه علم الله بكل شيئ فى الآية ١٠٩ سورة الكهف (ص ٢٠٩): **«قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا»** وفى سورة لقمان زيد المدد إلى سبعة أبحر.

مفاتح الغيب :

ثم تختم السورة بِحَثٍّ على تقوى الله وخشيته وتقرير أن الآخرة حق لامِراء فيه وتحذير للناس من أن تغُرهم الدنيا أو يخدعهم الشيطان فيصرفهم عن عبادة الله. وأخيرا تذكر المغيبات الخمس :

«يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت. إن الله عليم خبير» (٣٣ - ٣٤).

وقد جاء فى حديث شريف أن النبى قال: مفاتيح الغيب خمسة ثم تلا الآية السابقة. وقد جاء المعنى نفسه فى سورة الأنعام (الآية ٥٩ ص ٢٦٠): **«وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو»**. ويقول الألوسى (تفسيره جـ ٢١ ص ١٠٨) عن قوله تعالى: **«ويعلم مافى الأرحام»** أى ذكر أم أنثى. ولاشك أن هذا هو ما فهمه الناس عند نزول الآية. ولا تعارض بين ذلك وما أمكن معرفته الآن بالموجات الصوتية عن جنس المولود هل هو ذكر أم أنثى ابتداء من الشهر الرابع. فجنس المولود يتحدد منذ لحظة الإخصاب فعلم الله شامل لفترات مبكرة من الحمل لم يصل إليها العلم بعد. وحتى لو أمكن معرفة ذلك بتحليل الخلايا لمعرفة احتواء الجنين على XY أو XX وهو ما يحدد جنسه إلا أن علم الله أشمل من مجرد معرفة جنس الجنين. إذ يشمل رزق ذلك الكائن وهل سيكون سعيداً أم شقيا وغير ذلك مما يستحيل على العلم معرفته.

ثم نزلت **سورة سبأ** :

وفى السورة حكاية لأقوال وعقائد الكفار وإنكارهم للبعث. وفصول مناظرة بينهم وبين النبى وإشارة إلى اعتداد زعماء الكفر بالأموال والأولاد وتنويه بالمؤمنين المخلصين. ثم ذكر لجوانب من قصة داود وسليمان وما كان من إسباغ الله عليهما من نعمة وشكرهما له. ثم تأتى قصة سبأ - والتى سميت السورة باسمهم - وما كان من رغد عيشهم وعدم شكرهم لله تعالى على هذه النعم فحقت عليهم نقمة الله وعذابه. وفى آخر السورة صورة لما كان عليه الموقف بين النبى وزعماء الكفر.

والسورة تبدأ بحمد الله مالك السموات والأرض وتنويه بعلمه المحيط بكل ما فيهما.

«الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير. يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور» (١ - ٢).

إنكار الكافرين للساعة :

«وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالِمِ الغيب لا يعزب (لا يغيب) عنه مثقالُ ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلا فى كتاب مبين. ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم. والذين سَعَوْ فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم» (٣ - ٥).

والارتباط وثيق بين ماجاء فى هذه الآيات عن علم الله بالغيب وبين ما ذكر عن استئثار الله وحده بعلم الغيب الذى جاء ذكره فى آخر السورة السابقة وتستمر الآيات تقرر أن أهل الكتاب يعرفون أن ما ينزل على النبى حق ولكن الكفار مستمرون على إنكارهم للبعث ويسخرون من فكرته ويتهمون النبى بالكذب أو الجنون. وكان يكفيهم أن ينظروا فى السموات والأرض ليعلموا قدرة الله وأن فى إمكانه أن يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم قطعا من السماء تسحقهم:

«ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد. وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزِّقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد. أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد. أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب» (٦ - ٩).

جانب من قصة داود :

وقد سبق ذكر جوانب من قصته فى سورة ص (الآيات ١٧ - ٢٦ ص ١١٢) وفيها ذكر تسبيح الجبال والطير معه. ثم ذكر الملكان اللذان تسورا المحراب ليبيِّنا له خطأه. وفى سورة الإسراء (آية ٥٥ ص ٢١٦) ذُكر أن الله آتى داود الزبور. وفى الآيات من السورة الحالية زيد إلانة الحديد:

«ولقد آتينا داود منَّا فضلا ياجبال أوِّبى معه والطير وألنَّا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدِّر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير» (١١).

وقد فصلنا ذلك كله فى الجزء الخامس (ص ١٠٣ وما بعدها).

جانب من قصة سليمان :

وقد سبق ذكر حُبِّه للخيل وتسخير الريح والجن فى سورة ص (آية ٣٠ - ٤٠ ص ١١٢). وفى سورة النمل (آية ١٥ - ٤٤ ص ١٨٢) ذكرت قصة النملة والهدهد وملكة سبأ. وفى السورة الحالية - سورة سبأ - جاء ذكر تسخير الريح وإسالة عين القطر وتسخير الجن وموت سليمان. وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل فى الجزء الخامس (ص ١٩٤ - ٣٣٦)

«ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القِطر (النحاس المذاب) **ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور. فلما قضينا عليه الموت مادلَّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين»** (١٢ - ١٤).

سيل العَرِم :

تصف الآيات حادثة انهيار «سد مأرب» والذى تسبَّب فى حدوث «سيل العرم» الذى أهلك جنات سبأ ونتج عنه نزوح أهلها إلى أماكن متفرقة من شبه الجزيرة العربية وكان ذلك عقابا من الله لهم على كفرهم بنعمة الله:

«لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكَفور. وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدَّرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين. فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل مُمَزق إن فى ذلك لآيات لكل صبَّار شكور» (١٥ - ١٩).

من المعروف أن شبه الجزيرة العربية ليس بها أنهار دائمة الجريان ولكن تنزل أمطار غزيرة فى بعض الفصول فتُخلِّف الأمطار سيولا عظيمة تنساب فى الأودية بين الجبال فيجرى بعضها إلى البحر وينساب بعضها فى الصحارى وأحيانا تكون من الغزارة فتكوِّن سيولا تدمِّر الزراعات الموجودة وتجرف المساكن. فإذا ولَّى فصل المطر جفَّت الأرض وظمئ القوم وماتت المزروعات. ودفعا لخطر الغرق وخطر الجفاف أقاموا خزانات لتخزين المياه فتحميهم من مخاطر السيول ويأخذون منها فى فصل الجفاف فتظل بساتينهم مخضرَّة. وبنوا عدة سدود كان أعظمها سد مأرب. وتقع مدينة مأرب إلى الشرق من صنعاء وعلى بعد ١٥٠كم باتجاه شمال شرق. وقد وصف الهمدانى فى كتابه «الإكليل» ما كان باقيا قبل عشرة قرون ونصف من آثار السد وكانت لاتزال بحالة جيدة. وفى العصر الحديث تمكن المستشرق الفرنسى «أرنو» عام ١٨٤٣م من اكتشاف بقايا السد ورسم له خرائط. فعلى مسافة ١٤٥كم شمال شرق صنعاء (شكل ١٧) يوجد سهل تحيط به الجبال من الشمال والغرب والجنوب ويضيق السهل من ناحية الشرق لوجود جبل «بليق الأيسر» فى الشمال وجبل «بليق الأيمن» جهة الجنوب والمسافة بين الجبلين لاتزيد عن ٥٠٠ مترا وتتجمع السيول التى تسقط على الجبال فتكون خزانا مائيا كبيرا ينساب منه الماء بين جبلى بليق من مضيق لايزيد عرضه عن ١٥٠ مترا. وفى هذا المكان تم بناء السد الذى سُمِّى «سد مأرب» لوجود مدينة مأرب إلى الشمال الشرقى منه وعلى بعد حوالى ٥كم. وكان السد سدًّا ركاميا أى ردم من الحجارة فى عرض المجرى المائى بقاعدة اتساعها ٦٠ مترا. ويقل سمك السد كلما ارتفع وبذلك يكون له جانبان مائلان تم تثبيتها بطبقة من الحصى. وكان به منافذ ينصرف منها الماء إلى حيث يريدون ويتحكمون فى فتحها وغلقها بعوارض ضخمة من الخشب والحديد. ولما توافرت المياه قاموا بزراعة السهول بعد أن حفروا الترع والقنوات. وكانت الأرض خصبة. فكانت لهم جنات عن

شكل ١٧ – سد مأرب .

يمين السد وجنات عن شماله فضلا عن البساتين الكثيرة المنتشرة فى السهول والشعاب المجاورة فزادت محاصيلهم وصارت لهم تجارة واسعة إلى الشمال. **«القرى التى باركنا فيها»** قالوا هى الشام. وقالوا هى فلسطين لأنها وصفت بالبركة فى القرآن الكريم. وقد تكون مكة فهى أقرب وهي أيضا أرض مباركة. وقد تعنيها كلها.

وكان فى الطريق قرى كثيرة ظاهرة يستريحون فيها ويتزوَّدون منها للطريق فكان الكلُّ يتاجر أغنياء وفقراء. وأبطرتهم النعمة وظهرت الشرور والمفاسد وكفروا بنعمة الله وأراد الأثرياء والسادة الاستئثار بأرباح التجارة. فدعوا الله **«فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا»** بإزالة القرى الصغيرة حتى يشق الأمر على الفقراء ويحتكروا هم وحدهم التجارة بما لهم من إمكانيات تمكنهم من تجهيز القوافل الكبيرة. وكان هذا زيادة فى الظلم. فحق عليهم غضب الله فهيأ الأسباب لتدمير السد فاندفعت المياه المختزنة فى سيل جارف هو «سيل العرم» اكتسح كل ما أمامه من جنات فهلك كل شيئ ولم ينبت إلا قليل من أشجار الخمط والأثل والسدر وهى أشجار كثيرة الشوك وطعمها مر. **«فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم»** وسيل العرم من الحوادث التى أطنبت العرب فى وصفها فى أدبهم القديم وكانوا يتناولون روايته فى مجالسهم. فكان ضرب المثل به وهلاك السبئيين تحذيرا لكفار قريش من سيول تهلكهم لكفرهم وتكذيبهم للنبى. وقيل كان تصدُّع السد فى عام ١٢٠ ق.م. كما قال العالم «سيدبو» وكان فى تصدُّعه نهاية لمملكة سبإ وتفرقت القبائل إلى أماكن شتى طبقا لقوله تعالى: **«ومزقناهم كل ممزق»** (شكل ١٨).

١ – بنو ثعلبة بن عمرو بن عامر ومنهم الأوس والخزرج: رحلوا إلى يثرب وسكنوها.

٢ – بنو حارثة بن عمرو وهم خزاعة: ساروا إلى مكة وأجلوا عنها جرهم وسكنوا مكانهم.

٣ – بنو عمران بن عمرو ومنهم أزد بن عمان: ساروا إلى شرق البحر الميت.

٤ – بنو حنيفة بن عمرو: ساروا إلى الشام وهم الغساسنة وبقى بعضهم فى تهامة.

٥ – بنو لخم بن عدى: ساروا إلى العراق ومنهم الملوك المناذرة بالحيرة.

٦ – طيئ: توجهوا إلى جبلى أجاد وسلمى وسكنوا الخصب الذى حولهما.

٧ – كلب بن وبرة بن قضاعة رحلوا إلى شمال نجد.

٨ – لم يبق فى المنطقة إلا قبائل «حمير» وبمضى الوقت صارت لهم السيادة وكونوا «الدولة الحميرية».

ثم تستمر الآيات :

«ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين. وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شيئ حفيظ» (٢٠ – ٢١).

البحر المتوسط

الغساسنة

الحيرة

لخم = المناذرة

كلب بن وبرة قضاعة

شمال نجد

طيئ

(٤) بنو حنيفة بن عمرو

(٣) أزد بن عمان

الأوس والخزرج يثرب

(١) بنو ثعلبة بن عمرو

(٧) كلب بن وبرة

(٦) تميم

(٥) لخم بن على

خزاعة مكة

(٢) بنو حارثة بن عمرو

تهامة

بنو حنيفة بن عمرو

البحر الأحمر

(٨) حمير

خليج عدن

شكل ١٨ – تفرق قبائل سبأ بعد سيل العرم .

والمعنى أن إبليس توسم فيهم قابلية الانحراف فوسوس لهم فتحقق ظنه فاتبعوه باستثناء فريق قليل من المؤمنين لم يستطيعوا منعهم من الانحراف والحقيقة أن إبليس لم يكن له عليهم سلطان نافذ وإنما كانت وسوسته امتحانا ربانيا ليظهر من يؤمن بالآخرة ومن يشك فى وقوعها. ولتظهر نتيجة الامتحان للمرء عيانا حتى تسقط حجته لأن الله عليم بالنتيجة مسبقا فعلم الله شامل لكل ماكان وما هو كائن وما سيكون.

ولاشك أن إيراد قصة سيل العرم وهلاك السبئيين - وكان العرب يعرفون ويتناقلون قصتهم - قصد منه تحذير قريش من قدرة الله على إهلاكهم لو استمروا فى عنادهم وتكذيبهم للنبى.

تحدى المشركين وآلهتهم :

«قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا فى الأرض ومالهم فيها من شرك وما له (لله تعالى) **منهم من ظهير** (معين)**. ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذِن له حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحقَّ وهو العلى الكبير»** (٢٢ - ٢٣)

ولبيان مدى عجز آلهتهم طُلِبَ من المشركين أن يدعوهم لكى تنفعهم. ويأتى الرد أنهم لا يملكون شيئا على الإطلاق لا فى السموات ولا فى الأرض لأن مثقال الذرة هو أصغر شيئ، ولم يتخذ الله منهم مساعدا أو ظهيرا. ثم تنفى الآيات ماكان يدعيه المشركون من أن الأصنام ستكون شافعا لهم عند الله إذ تقرر الآيات أن الشفاعة عند الله لن تكون إلا لمن يأذن له الله بالشفاعة. وفُزِّع بالتضعيف تفيد السلب كما فى مَرِضَ أى أصابه المرض ومَرَّضَ أى عمل على إزالة المرض والمعنى أنه حين يكشف الله عن قلوبهم الفزع من أهوال يوم القيامة يتساءلون عما قال الله فى شأن الشفاعة لهم فيجابون بأن قول الله هو الحق. والمفهوم أنَّ شفاعة ما أشركوهم من دون الله مرفوضة.

إفحام المشركين :

فى هذه الفقرة تتكرر كلمة «قل» خمس مرات فى تتابع بليغ يجذب الأسماع:

«قل من يرزقكم من السموات والأرض. قل الله وإنا أو إيَّاكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين. قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نُسأل عما تعملون. قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم. قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم. وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون. وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه...» (٢٤ - ٣١).

١ - فالأمر الأول «قل من يرزقكم» فيه سؤال للكفار عمَّن يأتيهم برزقهم - مطرا من السماء

ونباتا من الأرض – ويلقّن النبى الجواب «قل الله» لأنه لا أحد سواه يفعل ذلك. ثم تقرير بديهية وهو أن أحد الطرفين: إما النبى أو الكفار – على هدى والآخر على الضلال. والمفهوم طبعا أن النبى هو الذى على الهدى فيكون الكفار على ضلال.

٢ – ثم أمر ثانٍ ليخبرهم أن كل فريق مسئول عن عمله فقط وليس عن عمل الفريق الآخر. ويرى المفسرون أن نسبة الإجرام إلى الفريق المهتدى هو من قبيل الملاينة فى الخطاب بغرض كسب الود – كما أن فيه نوعا من السخرية المستترة.

٣ – ثم إخبار بأن الكل مجموع إلى الله يوم القيامة وسيحكم بينهم.

٤ – ثم تحدى بدعوتهم للإتيان بهؤلاء الشركاء الذين أشركوهم مع الله. ثم تقرير بأنه ليس هناك من إله إلا الله العزيز الحكيم.

٥ – ويتساءل الكفار عن موعد يوم القيامة مستبعدين أو منكرين وقوعه. ويؤمر النبى بأن يقول لهم بأن لهم موعدا محددًا لا يتأخرون عنه ولا يتقدمون.

وينتهى الحوار بأن يقول المشركون صراحة أنهم لن يؤمنوا بالقرآن ولا بالكتب التى سبقته من توراة وإنجيل وبالتالى لن يؤمنوا بما جاء فى القرآن من أن هناك بعث وآخرة وحساب.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

إزاء هذا الإنكار الصريح من الكفار بيوم القيامة كان الرد هو التأكيد على حدوثه بإيراد وصف لمشهد من مشاهده. وفى هذا المشهد يحاول ضعفاء الكفار إلقاء مسئولية كفرهم على سادتهم وكبرائهم الذين يتنصّلون من تهمة إغوائهم وينتهى المشهد بوضع الأغلال فى أعناق الاثنين جزاء لهم على أعمالهم. ولن يكون بعد ذلك إلا الإلقاء فى النار:

«.. ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استُضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استُضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. وقال الذين استُضعفوا للذين استكبروا بل مكرُ الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفرَ بالله ونجعلَ له أندادا. وأسرُّوا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يُجزون إلا ماكانوا يعملون» (٣١ – ٣٣).

وفى الآيات تحذير للمستضعفين من كفار قريش الذين يرضخون لضغوط سادتهم ويظلون على الكفر وإخبارهم بأنه لن يقبل منهم الاعتذار بأن سادتهم هم الذين أجبروهم على الكفر وتخبرهم بأن سادتهم سيتبرءون منهم بل ويتهمونهم بالإجرام. وفى هذا تبصرة لهؤلاء المستضعفين بحقيقة موقفهم وأن عليهم أن يبادروا بالإيمان إنقاذا لأنفسهم من عذاب الآخرة.

تحذير لسادة قريش وأغنيائها :

ثم توضح الآيات أن الغنى والسلطان هما سبب تكذيب الكافرين لرسلهم فى كل وقت وأنهم يغترون بأموالهم وأولادهم ويظنون أن كثرة المال والولد دليل الكرامة وينسون الآخرة. وهذا ما فعله كفار قريش فأُمِر النبى بأن يوضح لهم أن الله هو الذى يوسِّع الرزق على من يشاء ويضيقه على من يشاء. فقد يوسِّع على العاصى ويضيق على المؤمن أو يوسع أو يضيق على كل منهما حسب ما تقتضيه مشيئته. وأن أموالهم وأولادهم التى يزهون بها فى الدنيا لن تقربهم من الله. وأن القربى من الله والثواب المضاعف هما من نصيب المؤمن الذى يعمل الصالحات. أما الذين يقفون موقف الإنكار والصد والمكابرة فلهم عذاب أليم. ثم تعود الآيات لتذكر أن بسط الرزق وتضييقه هو من شأن الله وحده وعلى المؤمنين ألا يخشوا الفقر وعليهم أن ينفقوا ويتصدقوا فالله سيرزقهم خيرا منه فهو خير الرازقين:

«وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذَّبين. قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لايعلمون. وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زُلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون. والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب مُحضرون. قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيئ فهو يُخلِفه وهو خير الرازقين» (٣٤ - ٣٩).

الملائكة يتبرأون من عُبَّادهم :

«ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون. فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون» (٤٠ - ٤٢).

وفى هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة يجمع الله بين المشركين والملائكة ثم يسأل الملائكة عما إذا كان المشركون قد عبدوهم من دون الله. فيجيبون منزهين الله عن الشركاء قائلين إنه هو وليهم وأن المشركين كانوا يعبدون الجن الذين زينوا لهم الشرك وأكثرهم صَدَّقوا إغواءاتهم وحينئذ يقول الله عز وجل للمشركين إن أحداً منهم - هم ومن عبدوهم - لا يملك للآخر ضرا ولا نفعا وعليهم أن يتحملوا تبعة ضلالهم عذابا فى النار التى كانوا يكذبون بها فى الحياة الدنيا.

إصرار الكفار على كفرهم :

«وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدَّكم عما كان يعبد آباؤكم

وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إنْ هذا إلا سحر مبين. وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير. وكذّب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير» (٤٣ - ٤٥).

والآيات تسجل أقوال الكفار: فمرة يتهمون النبي بأنه يريد أن يصرفهم عن دين آبائهم ومرة يقولون إن النبى يؤلف القرآن ويفتريه على الله وادّعوا أن ما جاءهم به النبى هو نوع من السحر مع أنه حق من عند الله. وهم فى ادِّعاءاتهم هذه لا يستندون إلى كتاب سماوى سبق أن أنزل إليهم. وتُذكِّرهم الآيات بالأمم السابقة التى كذبت رسلهم فنكّل الله بهم وكفار قريش لا يبلغون عُشر قوتهم.

دعوة للتفكُّر :

«قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكّروا ما بصاحبكم (أى النبى) **من جِنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد. قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرِيَ إلا على الله وهو على كل شيئ شهيد. قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب. قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد. قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلىَّ ربى إنه سميع قريب»** (٤٦ - ٥٠).

وفى هذه الفقرة تكرر لفظ «قل» خمس مرات أيضا. فهى خمسة أوامر للنبى تحمل فى طياتها دعوة للكافرين للتدبر والتفكر:

١ - أن يخبر الكفار أنه لا يطلب منهم إلا شيئا واحدا. وهو أن يخلصوا النية لله ويتجردوا عن الهوى ثم يتفكروا كل واحد فيما بينه وبين نفسه أو كل اثنين لحدتهما - معا فيما يدعو إليه النبى حتى يتأكدوا أنه ليس مجنونا وإنما هو نذير لهم من عذاب شديد. والحكمة فى أن يتفكروا فرادى أو مثنى هو أن الاجتماعات العامة تسود فيها الأهواء وتضعف فيها قوة المنطق ولا يؤدى الجدل فيها إلى نتيجة سليمة دائما. إذ يعمد المبطلون إلى التشويش على الرأى الصحيح المخالف لضلالهم وتسود العصبيات ويميل المرء إلى تأييد رأى العشيرة حتى لو كان باطلاً.

٢ - الأمر الثانى يخبرهم أنه لا يطلب منهم أجرا وإنما أجره على الله.

٣ - أن يخبرهم أن الله سيرمى بالحق فى وجه الباطل فيمحقه فالله هو علام الغيوب. والمعنى أن الباطل زاهق وعليهم اتباع الحق.

٤ - وعلى النبى أن يخبرهم أن الحق قد أصبح واضحا جليا وأن الباطل لا يخلق أصلا ولا أن يعيده أى لا دوام له.

٥ - وآخر الأوامر أن يخبرهم أنه لو كان ضالا فضلاله عائد عليه وإن كان على هدى فهذا فضل من الله بما يوحيه إليه.

ويجئ ختام السورة قويا كعادته :

«ولو ترى إذ فزعوا فلا فَوْتَ وأُخذوا من مكان قريب. وقالوا آمنا به وأنَّى لهم التناوش من مكان بعيد. وقد كفروا به من قبل ويَقذفون بالغيب من مكان بعيد. وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب» (٥١ - ٥٤).

والآيات تصف مشهد الكافرين حين ينزل بهم العذاب فيفزعون ولن يفلت منهم أحد **«لا فوت»**. وحينئذ يقولون آمنا ولكن كيف يكون لهم تناول الإيمان أو التمسك به **«التناوش»** من مكان بعيد عن الدنيا التى انقضى وقتها وهم قد كفروا به من قبل واندفعوا وراء الظنون بالباطل والرجم بالغيب والتكذيب مذهبا بعيدا وسيحال بينهم وبين ما يشتهون من إيمان ينفعهم كما حدث مع الكافرين أمثالهم من الأمم السابقة لأنهم جميعا كانوا فى شك شديد من البعث.

ثمان سور :

ثم نزلت ٨ سور ترتيب نزولها هو نفس ترتيبها فى المصحف وهى: الزمر - غافر - فصلت - الشورى - الزخرف - الدخان - الجاثية - الأحقاف.

سورة الزمر :

وتبدأ السورة بالنص على أن القرآن منزل من الله تعالى ثم أمر للنبى - وهو أمر لعامة المؤمنين - بعبادة الله والإخلاص فى العبادة :

«تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين. ألا لله الدين الخالص...» (١ - ٢).

تقريع الكفار لإشراكهم بالله ونسبتهم الولد إلى الله :

« .... والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون. إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار. لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء. سبحانه هو الله الواحد القهار». (٣ - ٤).

والآيات فيها توبيخ وتقريع للكفار لأنهم اتخذوا شركاء لله بزعم أنهم يتقربون بهم إلى الله. وإضافة إلى هذا فقد نسبوا لله الولد. ورداً على هذا الافتراء تأتى حجة جدلية وهى أن الله لو أراد أن يتخذ ولدا لاختاره بنفسه لا أن يختاروا هم له الولد ثم تنزيه له عن ذلك **«سبحانه»** فهو الواحد القهار الغنى عن الولد.

مشاهد من الكون تدل على عظمة الخالق :

ثم تأتى الآيات بمشاهد من الكون تدل على عظمة الخالق. وتتمثل فى :

١ – خلق السموات والأرض .

٢ – خلق البشر كلهم من نفس واحدة .

٣ – خلق الأنعام .

٤ – خلق الجنين .

١ – **«خَلَق السموات والأرض بالحق يُكوِّر الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مُسَمًّى. ألا هو العزيز الغفار»** (٥).

ويرى ابن كثير (تفسيره جـ ٤ ص ٤٥) أن تكوير الليل على النهار وعكسه أى يجريان متعاقبين ولا يفترقان. أما تفسير الجلالين (ص ٣٨٥) فيرى أن تكوير أحدهما على الآخر يعنى دخوله فيه فيزيد هذا وينقص هذا. وقال آخرون هو تداخل الليل والنهار فى الفجر قبل شروق الشمس وفى الأصيل قبل غروبها إذ يكون الضوء خافتا فلا هو نهار ساطع ولا هو ليل دامس. ويرى بعض الفلكيين المعاصرين أن الآية فيها إعجاز علمى إذ لا يحدث هذا التكوير إلا إذا كانت الأرض كروية وإن كان هذا التفسير لم يوجد إلا بعد أن أثبت العلم كروية الأرض.

٢ – ثم تأتى إشارة إلى أن الخلق كلهم هم من نسل آدم وحواء:

« ... خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ... »(٦).

٣ – ثم إشارة إلى خلق الأنعام :

« ... وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج...».

٤ – ثم إشارة إلى خلق الجنين يليه تمجيد لله تعالى :

«يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث. ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون» (٦).

وقد قرر بعض المفسرين (الألوسى . جـ ٢٣ ص ٢٤١) أن الظلمات الثلاث هى ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة. ورأى آخرون أنها ظلمة صلب الرجل حيث تكون النطفة أولا ثم ظلمة رحم المرأة ثم ظلمة المشيمة. ولكن المشيمة لا تحيط بالجنين فهى لا تعتبر ظلمة. ويرى أخصائيو أمراض النساء والولادة أن الظلمات الثلاث هى بطن المرأة والرحم والمحفظة الجنينية Amniotic Sac ويعتبرون ذلك إعجازا علميا من القرآن الكريم.

الله غنى عن العباد :

«إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور» (٧).

والمعنى أن الناس لو كلهم كفروا فلن ينقص ذلك من ملك الله شيئا فالله غنى عن العباد ولكنه لا يرضى لهم الكفر لما يؤدى إليه من عذاب لهم فى الآخرة. ومن يشكر نعمة الله فالله يرضى منه هذا الشكر ويثيبه عليه عند الرجوع إليه فى الآخرة. وفى حديث قدسى (الإتحافات السنية فى الأحادث القدسية. محمد المدنى. ص ٤٨): ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا. ياعبادى لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا.

جحود الإنسان :

ثم تمضى الآيات تندد بما طبع عليه البشر من جحود متمثلا فى اللجوء إلى الله فى الضيق حتى إذا زالت الضيقة نسوا الله. وينطبق هذا بالأخص على الكفار ويستثنى منه المؤمنون الذين يذكرون الله فى كل وقت وخاصة أثناء الليل.

«وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوّله (أى منحه) **نعمة منه نسى ماكان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله. قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار. أمّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب»** (٨ - ٩).

وقالوا المقصود بمن هو «**قانت آناء الليل..**» هو عثمان بن عفان (عبد الرحمن الشرقاوى. على إمام المتقين ص ١٥٦) والمقصود بـ «**الذين يعلمون والذين لا يعلمون**» هم المؤمنون والكافرون حيث علم الأولون حقائق الأمور فاتبعوا طريق الهدى وعميت أبصار الآخرين فاتبعوا الباطل.

إباحة الهجرة لمن ضُيِّق عليه فى دينه :

«قل ياعبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» (١٠).

والنص على أن أرض الله واسعة يحتوى إذنا لضعفاء المؤمنين بالهجرة من مكة إلى أرض يأمنون فيها على دينهم. وكانت الهجرة إلى الحبشة قد تمت قبل ذلك كما سبق أن ذكرنا (ص ١٦١) وكان نفر قليل قد هاجر إلى يثرب. ولعل المسلمين فى مكة تساءلوا عن موقف الدين من هؤلاء المهاجرين فجاءت الآيات تطمئنهم على سلامة موقفهم كما أن الصابرين على أذى قريش الذين لم يهاجروا لهم أيضا أجر عظيم.

حث على عبادة الله وتحذير المشركين :

«قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين (أى خالصا من الشرك) **وأمرت لأن أكون أول المسلمين. قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم. قل الله أعبد مخلصا له دينى. فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين»** (١١ - ١٥).

والآيات تحث المسلمين على إخلاص العبادة لله. يلى ذلك تهديد شديد للكافرين فى قوله تعالى: «فاعبدوا ماشئتم من دونه» وبيان أنهم هم الأخسرون يوم الحساب. ثم تُوَضح الآيات جزاءهم وفى مقابله الثواب الذى أعد للمؤمنين:

«لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النار ومن تحتهم ظلل. ذلك يُخوِّف الله به عباده ياعباد فاتقون. والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب. أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار. لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد» (١٦ - ٢٠).

قدرة الله فى إنزال المطر وإنبات الزرع :

«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مُصفراً ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب» (٢١).

والآيات تلفت النظر إلى قدرة الله فى إنزال المطر من السحاب فبعضه يروى النبات مباشرة والبعض الآخر يجرى أنهارا وبعض آخر يختزن فى طبقات الأرض ليكون خزانات جوفية ثم يخرج عيونا أو تحفر الآبار للوصول إليه ويستفاد منه فى رى الأنواع المختلفة من النباتات التى تيبس بعد نضارتها ثم تصبح حطاما. وهذا التنقل من حال إلى حال كفيل بتذكير أصحاب العقول المستنيرة ولفت نظرهم إلى أن بعد الحياة موت وبعد الموت حياة ثانية. ويرى بعض المفسرين فى الآيات تحذيرا مستترا للكفار بعدم الاغترار برغد العيش الذى هم فيه فكل مايبدو بهيجا قد يعقبه زوال. وكذلك الحياة الدنيا مآلها الانتهاء. كما يرى بعض العلماء المعاصرين فى الآيات إعجازا علميا لما فيه من إشارة إلى دوران الماء فى الطبيعة والذى لم يُفهم إلا مؤخرا. ويتكون من تبخر الماء من سطح البحار والمحيطات ليكون السحاب الذى يتكثف إلى مطر ينزل فيجرى أنهارا تصبُّ فى البحار والمحيطات ويستمر الماء فى دورته هذه إلى ما شاء الله.

أيهما أحسن الإيمان أم الكفر ؟

«أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله

أولئك فى ضلال مبين. الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد. أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون» (٢٢ – ٢٤).

وعن وصف القرآن بأنه متشابه قيل متساوقا فى النظم والمحتوى و«مثانى» قيل هو ذكر الشيئ وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين أو الجنة ثم النار والحياة والموت. وقيل جمع مثنى لما فيه من تكرار الدعوة إلى الله وتكرار تحذير المشركين من العذاب وتكرار التذكير بيوم القيامة وهكذا.

والآية الأخيرة فيها تساؤل عن الكافر الذى لا يجد شيئا يتقى به سوء العذاب – وهو النار – إلا وجهه لأنه لم يقدم عملا صالحا. وهناك حذف وتقديره: أم المؤمن الذى عنده من الأعمال الصالحة ما يقى وجهه يوم القيامة؟ ثم يقال للظالمين ذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون واختصرت إلى «ذوقوا ما كنتم تكسبون» وفيها تقريع لأنهم كانوا يظنون أنهم يكسبون خيرا.

وفى نفس هذا المعنى تستمر الآيات وتضرب المثل بأمم سابقة :

«كذَّب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون. فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون. قرآنا عربيا غير ذى عِوَج لعلهم يتقون. ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سَلَما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون» (٢٥ – ٢٩).

والمثل يُشبه المشركين فى تعدد آلهتهم وحيرتهم كعبد مملوك لشركاء عديدين متنازعين عليه كل واحد يجذبه إليه فلا يُنتفع به. أما المؤمن فهو كالعبد الذى له مالك واحد لا ينازعه فيه أحد لأن المؤمن عرف أن له ربا واحداً فأسلم نفسه إليه وجعل العبادة خالصة له وحده.

حتمية البعث بعد الموت :

قيل إن بعض الكفار كانوا يتحدثون فيما بينهم أن هذا الدين الجديد سيزول بعد أن يموت محمد وتزول الخصومة القائمة فى قريش فنزلت الآيات تؤكد على أن كل بنى آدم محكوم عليه بالموت حتى النبى نفسه وهم أيضا. وأنه فى يوم القيامة ستكون الخصومة قائمة أيضا وبالطبع سيقضى الله وينصر رسوله:

«إنك ميت وإنهم ميتون. ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون» (٣٠ – ٣١).

ثم تجئ الآيات بعد ذلك تحذر الظالمين الذين ظنوا ذلك الظن وكذَّبوا الرسول وكذبوا على الله بأنهم قد بالغوا فى ظلم أنفسهم:

«فمن أظلم من كَذَبَ على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين. والذى جاء بالصدق (أى النبى) **وصدَّق به** (الذين آمنوا) **أولئك هم المتقون. لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين. ليُكفِّر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسنِ الذى كانوا يعملون. أليس الله بكافٍ عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد. ومن يهد الله فما له من مُضِل. أليس الله بعزيز ذى انتقام»** (٣٢ - ٣٧).

وكان الكفار يُحذِّرون النبى من غضب آلهتهم وأنها قد تضره لكثرة ما يُسفِّه من أمرها. وذلك من ضلالهم. ومن يختار الضلالة يزده الله ضلالا وليس هناك من يهديه. أما من يهديه الله فليس من قوة تستطيع أن تضله. فالله عزيز الجانب وذو انتقام شديد يحفظ أولياءه.

واستمرارا لهذا المعنى تمضى الآيات تشرح مكابرة الكافرين وأن النبى لو سأل المشركين عمَّن خلق السموات والأرض لاعترفوا بأنه الله ومع ذلك يجعلون له شركاء لا يضرون ولا ينفعون. وتأمر الآيات المشركين - تحدِّيًا لهم - أن يظلوا على عنادهم وسوف يعلمون على من يقع العذاب:

«ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنِيَ الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون. قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم» (٣٨ - ٤٠).

وقد سبق أمر المشركين بالبقاء على تكذيبهم وكفرهم - فى الآية ١١ من نفس السورة (ص ٢٩٥) فى قوله تعالى: **«فاعبدوا ما شئتم من دونه»**. وأمر الكافر بالبقاء على حاله فيه تهديد خفى وتعبير عن نفاذ الصبر من كثرة النصح لمن لا يستجيب له.

ثم تمضى الآيات تشرح أن مهمة النبى تنحصر فى الدعوة أما الهداية أو الكفر فعائدها راجع إلى صاحبها. ثم تشرح حقيقة الموت الذى ظنوا أنه نهاية المطاف وأنه يماثل النوم. والبعث يشبه الاستيقاظ من النوم:

«إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل. الله يتوفى الأنفسَ حينِ موتها والتى لم تَمُت فى منامها فيمسكُ التى قضى عليها الموتَ ويرسلُ الأخرى إلى أجل مسمًّى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (٤١ - ٤٢).

وقد جاء نفس هذا المعنى فى سورة الأنعام (آية ٦٠ ص ٢٦٠): **«وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مُسمًّى»** فالله يقبض الأنفس عند النوم قبضا مؤقتا ثم يرسلها عند الاستيقاظ ليستكمل المرء عمره. وحين الوفاة يقبضها وتظل حتى تعود إلى الأجساد عند البعث.

تنديد بالإشراك بالله:

ثم تأتى آيات فيها توبيخ. للكفار الذين اتخذوا شركاء ليكونوا شفعاء لهم عند الله. وتجيب الآية على هذا التساؤل بتساؤل ثانٍ يفيد أن هؤلاء الشركاء لا يصح أن يكونوا شفعاء لأنهم أصنام لا تعقل ولا تملك أن تفعل شيئا فالشفاعة لله وحده :

«أم اتخذوا من دون الله شفعاء، قل أوَلَو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون. قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه تُرجَعون» (٤٣ - ٤٤).

تمادى الكافرين فى الكفر :

«وإذا ذُكر الله وحده اشمـأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكِر الذين من دونه إذا هم يستبشرون. قل اللهم فاطرَ السموات والأرض عالمَ الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون. ولو أن للذين ظلموا مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون. وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون» (٤٥ - ٤٨).

وتمضى الآيات تقرر واحدا من طباع البشر يظهر أكثر وضوحا فى مسلك الكفار:

«فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه (أى أعطيناه) **نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون. قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون. فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وماهم بمعجزين. أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون»** (٤٩ - ٥٢).

وقد جاء هذا المعنى نفسه فى الآية ٨ من نفس السورة (ص ٢٩٤) فى قوله تعالى: **«وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوَّله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل»**. كما جاء فى سورة يونس (الآية ١٢ ص ٢٣٠): **«وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه»**. وفى سورة الإسراء (آية ٦٧ ص ٢١٨) **وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم»**. كما جاء فى سورة الأنعام (الآية ٦٣ ص ٢٦٠) **«قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون»**.

والحقيقة أن الإنسان وقت الشدة يتخلى عن عناده وكبريائه ويعود إلى فطرته فيعترف بالإله الحق ويلجأ إليه طالبا النجاة ولكن الإنسان الكافر - بعد أن تزول الشدة - ينسى ذلك ويعود

إلى عناده وكفره. وتكرر الإشارة إلى هذا المعنى فى سور متعددة قصد به إطلاع الكفار إلى حقيقة ما يدور بأنفسهم لعلهم يفيقون من غفوتهم ويعودوا إلى الفطرة فيؤمنوا.

فتح بـاب التوبة :

وتأتى الآيات التالية تفتح باب التوبة للعاصين :

«قل ياعبادِىَ الذى أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم. وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتِيَكُم العذاب ثم لا تنصرون. واتبعوا أحسن ما أُنزِل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون. أن تقول نفس ياحسرتَى على ما فرَّطتُ فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين. أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين. أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كَرة فأكونَ من المحسنين. بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين» (٥٢ - ٥٩).

وقيل إن الآيات نزلت فى حق أناس أسلموا فأوذوا فارتدوا وكبر عليهم ذنبهم فأنزلها الله لتفتح باب التوبة. وقيل أيضا نزلت فى حق أناس من المشركين اقترفوا آثاما كثيرة وكانوا يتساءلون عن حالتهم إذا أسلموا. وقيل إنها نزلت فى وحشى قاتل حمزة فى معركة أحد (وسنذكر ذلك فيما بعد) والآيات ٥٢، ٥٣، ٥٤ يجمع المفسرون على أنها مدنية ووضعت فى مكانها الحالى بتوقيف من النبى. ويعتبر المفسرون هذه الآية أرجى آية فى القرآن الكريم إذ تفتح باب التوبة على مصراعيه لقوله تعالى «**إن الله يغفر الذنوب جميعًا**». والآيات بعد ذلك تقرر حرية الإنسان فى الاختيار بين الهدى والضلال وبمسئوليته عن اختياره إذ تندد الآيات بمن يدَّعى بأن الله لم يهده وترد عليه بأن الله قد أراه طريق الهدى بآياته التى أنزلها على رسوله ولكنه كذَّب واستكبر وكفر فحق عليه العذاب. وحينئذ يتمنى لو عاد إلى الدنيا ليعمل صالحا. وتخبره الآيات أن ذلك غير ممكن «**بلى**» فقد مضى وقت العمل وجاء وقت الحساب.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

ثم تمضى الآيات توضح مصير الكافرين الذين كذبوا على الله إذ تسودُّ وجوههم وتكون جهنم مثوى لهم. وبالمقابلة يُنجى الله المؤمنين لاختيارهم الهدى ففازوا برضائه وبالجنة لا يمسهم فيها أذى:

«ويوم القيامة ترى الذين كَذَبوا على الله وجوههم مسودَّة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين. ويُنجِّى الله الذين اتقوا بمفازتهم (بفوزهم) لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون. الله خالق كل شيئ وهو على كل شيئ وكيل. له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون» (٦٠ - ٦٣).

استنكار عبادة غير الله :

«قل أفغير الله تأمرونّى أعبد أيها الجاهلون. ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطَن عملك ولتكونن من الخاسرين. بل الله فاعبد وكن من الشاكرين» (٦٤ - ٦٦).

والآيات تأمر النبى بتوجيه سؤال استنكارى للكفار عما إذا كانوا يريدونه أن يعبد غير الله كما يفعلون بجهلهم فى حين أن الله قد أَوْحى إليه وإلى الأنبياء من قبله أن الشرك يحبط الأعمال. والآيات تحمل معنى توبيخ الكفار لعبادتهم غير الله. وتنتهى الفقرة بِحَث للنبى على الثبات على عبادة الله وحده وأن يشكره على هذه النعمة. ثم تمضى الآيات فيها تعنيف للمشركين لعدم إدراكهم حقيقة عظمة الله وقدرته واستحقاقه وحده للعبادة:

«وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويَّات بيمينه. سبحانه وتعالى عما يشركون» (٦٧).

مشهد ثان من مشاهد يوم القيامة :

وكما سبق أن ذكرنا أن كفار قريش - وغالبية شعوب المنطقة - كانوا لا يؤمنون ببعث أو حياة آخرة لذلك فإن كثيرا من الآيات نزلت تؤكد البعث ليرسخ مفهومه فى الأذهان. ومن وسائل التأكيد على حدوثه هو إبرازه كحقيقة واقعة ماثلة أمام الأعين وتكرار وصف مشاهد مختلفة مما سيحدث فى ذلك اليوم - ليس بصيغة المستقبل - بل بصيغة الماضى كما فى هذه الفقرة. أو بصيغة الحاضر - كما فى الفقرة السابقة - ليرسخ فى الأذهان تأكد حدوثه. فعند النفخة الأولى يموت كل من فى السموات والأرض ثم ينفخ فيه مرة أخرى فيُبعث الخلق جميعا ويقومون من قبورهم ينتظرون ما يُفعل بهم. **«وأشرقت الأرض»** أى أرض المحشر **«بنور ربها»** فلا شمس ولا قمر بل بتجلِّيه عز وجل للقضاء بين العباد. ويوضع الكتاب المسجلة فيه أعمال البشر ويُقضى بينهم بالحق. ويُساق الكفار إلى جهنم أما المؤمنون فيُساقون إلى الجنة:

«ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله. ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجِئ بالنبيين والشهداء وقضِىَ بينهم بالحق وهم لا يظلمون. ووُفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون. وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمَرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين. قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين. وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمَرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين. وقالوا الحمد لله الذى صَدَقَنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين. وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين» (٦٧ - ٧٥).

وقد أثار بعض المستشرقين شبهة فى اختلاف التركيب اللغوى فى وصف جزاء الكافرين **«حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها»** وفى وصف جزاء المتقين: **«حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها»** بزيادة حرف الواو قبل فتحت. ورد الشيخ متولى الشعراوى فى أحد أحاديثه بأن جهنم سرعان ما تفتح أبوابها لابتلاع الكافرين. أما المؤمنون فالجنة تجعلهم ينتظرون قليلا ليتمتعوا بطيب ريحها ثم تفتح الأبواب ببطء وسكينة ليدخلوها فى وقار وتستقبلهم الملائكة بالسلام. ويتمتمون هم بحمد الله على نعمه. ثم تختم السورة بوصف رائع لمجد الله وعظمته يصوِّر عرش الرحمن والملائكة محيطين به ليس لهم من عمل إلا التسبيح بحمد ربهم وتمجيده والكل يهتف بحمد الله.

الحواميم السبعة :

قلنا سابقا (ص ٢٩٢) إنه توجد ثمان سور نزلت بنفس ترتيبها فى المصحف. وسبع منها تبدأ بحرفى الحاء والميم ولذلك تسمى بالحواميم السبعة. هذه السور السبع هى: غافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف. وقال ابن مسعود عن الحواميم إنها ديباج القرآن. وقال إن لكل شيئ لبابا ولباب القرآن الـ «حم». وتشترك كلها فى أنها – بعد الـ «حم» تأتى بتنويه أن القرآن مُنزَّل من عند الله وبعد ذلك تأتى المواضيع الأخرى.

سورة غافر :

وتسمى أيضا سورة المؤمن اقتباسا من ذكر مؤمن آل فرعون فيها.

«حَمَ. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم. غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطَوْل لا إله إلا هو إليه المصير» (١ – ٣).

مقابلة بين جزاء الكافرين وثواب المؤمنين :

تبدأ الآيات ببيان جزاء الكافرين :

«ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلُّبهم فى البلاد (أى تنعمهم بالمال والسلطان). **كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب** (الأمم التى تحزبت ضد رسلهم) **من بعدهم وهمَّت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليُدحِضوا به الحق فأخذتُهم فكيف كان عقاب. وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار»** (٤ – ٦).

أما المؤمنون فإن الملائكة يطلبون من الله المغفرة لهم ويسألونه أن يدخلهم الجنة. ولاشك أن طلبهم مجاب لأنهم أقرب الملائكة إلى الله إذ هم حملة العرش ولا يكفون عن التسبيح بحمد الله وتمجيد عظمته:

«الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وَسِعْتَ كل شيئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم. ربنا

وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم. وَقِهِمُ السيئات ومن تَقِ السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم» (٧ - ٩).

ثم تعود الآيات إلى الكافرين فتذكر توبيخهم يوم القيامة واعترافهم بخطئهم محاولة منهم الخروج من النار:

«إن الذين كفروا ينادَون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون. قالوا ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروجٍ من سبيل. ذلك بأنه إذا دُعِيَ الله وحده كفرتم وإن يُشرَك به تؤمنوا فالحكم لله العليِّ الكبير» (١٠- ١٢).

بعض مظاهر قدرة الله فى الدنيا والآخرة :

ثم تصف الآيات بعضا من مظاهر قدرة الله وعظمته وإحاطة علمه ثم إنذار وتذكير بهول يوم القيامة:

«هو الذى يريكم آياته وينزِّل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب. فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق. يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيئ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب. وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع. يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور. والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيئ إن الله هو السميع البصير» (١٣ - ٢٠).

وفى الآيات إسمان من أسماء يوم القيامة: «**يوم التلاق**» أى يوم اجتماع الخلق وتلاقيهم عند الله. و«**يوم الأزفة**» من أزِف دنا واقترب وتآزف القوم تدانى بعضهم من بعض كما عند الحشر. وفى الآية الأخيرة بيان لقدرة الله فهو الذى يقضى. وإثبات لعجز آلهة الكفار إذ ليس فى إستطاعتهم أن يقضوا بشيئ.

ثم يأتى تساؤل ينددِّ بعدم اتعاظ الكفار بما يرونه من آثار هلاك الأمم السابقة نتيجة تكذيبهم لرسلهم مع أنهم كانوا أكثر قوة من قريش وفى هذا تحذير للكفار من مصير مماثل بسبب تكذيبهم للنبى:

«أوَ لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وماكان لهم من الله من واقٍ. ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب» (٢١ - ٢٢).

جانب من قصة موسى :

وتذكر الآيات من ٢٣ - ٤٦ جانبا من قصة موسى وفرعون مُركِّزة على رجل من آل فرعون

آمن سرا بموسى وراح ينهى قومه عن إيذاء موسى ويدعوهم إلى الإيمان بالله. وقد سبق أن ذكرنا ذلك بالتفصيل فى الجزء الرابع (ص ٨٨٠). ومن المرجح أن بعضا من رجال قريش قد حذوا حذو مؤمن آل فرعون فآمنوا وكتموا إيمانهم درءا لإيذاءات قومهم فتكوَّن فريق يخفف من غلواء المتشددين ويحاولون إثناءهم عن التمادى فى الكيد للمؤمنين. وقد رأينا بعضهم يُحمِّلون بعض الدواب بالغذاء ويسوقونها ناحية شعب أبى طالب أثناء الحصار (ص ١٧٠).

كذلك تصف الآيات مغالاة فرعون فى الكفر وطلبه من وزيره هامان أن يبنى له بناء عاليا يصعد عليه ليرى إله موسى:

«وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب. أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا. وكذلك زُيِّن لفرعون سوء عمله وصُدَّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب» (خسار عظيم) (٣٦ - ٣٧).

ثم تعود الآيات إلى مؤمن آل فرعون فى استجداء أخير منه لقومه كى يؤمنوا:

«وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد. ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار. من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب. وياقوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار. تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار. لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار. فستذكرون ما أقول لكم وأفوِّض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد. فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب. النار يعرضون عليها غدواً وعشيًا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» (٣٨ - ٤٦).

ولاشك أن مناشدة مؤمن آل فرعون لقومه كى يؤمنوا تنطبق أيضا على كفار قريش وكأنها مناشدة لهم وحث على نبذ عبادة الأصنام ودعوة للإيمان بالله. ثم هذا النداء الأخير: **«فستذكرون ما أقول لكم وأفوِّض أمرى إلى الله»** وكيف أن الله أنجاه وأنزل عذابه بآل فرعون فى الدنيا وفى حياة البرزخ وفى الحياة الآخرة.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

ثم تمضى الآيات تصف مشهداً مما سيحدث يم القيامة من مُحاجَّة ضعفاء القوم الكافرين محاولين إلقاء تبعة كفرهم على زعمائهم:

«وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار. قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد. وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب. قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم

بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال. إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار» (٤٧ - ٥٢).

وقد ورد فى سورة سبأ (آية ٣١ ص ٢٨٩) محاجة مماثلة وفيها يحاول الضعفاء إلقاء مسئولية كفرهم على سادتهم فى حين يحاول هؤلاء التنصل من ذلك وينتهى المشهد بأن توضع الأغلال فى أعناق الاثنين والمفهوم أنه ليس بعد ذلك إلا الإلقاء فى النار.

ثم تصف الآيات استجداء الكفار للملائكة خزنة جهنم أن يدعوا الله أن يخفف عنهم العذاب ولو قليلا فترد الملائكة عليهم موبخين بسؤال يستنكر تكذيبهم للرسل عندما جاءوهم بالآيات البينة. وعند إقرارهم بذلك يطلب منهم الملائكة بأن يدعوا فمهما أكثروا من الدعاء فلن يقبل منهم.

حث على الصبر :

ثم تأتى آيات فيها ذكر لموسى وما نزل عليه من التوراة فيها هدى لبنى إسرائيل ولكنهم سرعان ما ضلُّوا وتكرر ذلك منهم ولكن موسى صبر على ضلالهم ومن هنا جاء حث النبى على الصبر والاستغفار والتسبيح بحمد الله والاستعاذة به من كل ضيق:

«ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب. هدى وذكرى لأولى الألباب. فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى (ما بعدالزوال) **والإبكار** (فى أول النهار). **إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كِبْرٌ ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير»** (٥٢ - ٥٦).

تأكيد على قيام الساعة :

ثم تأتى هذه الآيات لتذكِّر بأن خلق السموات والأرض أكبر وأعظم من خلق الناس. ولا يستوى الذى يتعامى عن هذه الحقيقة مع من يبصرها. وعليه فإن قيام الساعة مؤكد لاشك فيه ولكن كثيرا من الناس لا يصدِّقون:

«لَخَلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيئ قليلا ما تتذكرون. إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون» (٥٧ - ٥٩).

حث على الإكثار من الدعاء :

«وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين (صاغرين). **الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس**

ولكن أكثر الناس لا يشكرون. ذلكم الله ربكم خالق كل شيئ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون. كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون» (٦٠ - ٦٣).

والآيات واضحة فى حث المؤمنين على الدعاء فيُستجاب لهم. ثم تهديد الكفار بدخول جهنم أذلاءِ صاغرين. ثم تذكير بنعمة الله على البشر بليل يسكنون فيه ونهار مضيئ يعملون فيه. ثم تعجُّب ممن تغيب عنهم هذه الحقائق أو ينكرونها.

قدرة الله فى خلق الإنسان :

ثم تأتى آيات فيها تذكير بجانب من نعم الله على العباد وتيسيره لمعاشهم فى الدنيا مما يوجب استحقاقه وحده للعبادة. ثم لفت نظر البشر إلى تغير حالهم من ضعف إلى قوة ثم من قوة إلى ضعف ومن حياة إلى ممات ولعل القصد هو لفت نظر الكفار إلى عدم الاغترار بما هم فيه حاليا من قوة وثروة وجاه وأن يتفكروا فى المستقبل حين تدب الشيخوخة ثم يعقبها الموت وما بعد الموت من بعث وحياة آخرة.

«الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوَّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين. هو الحى لا إله إلا هو فادعوه (بمعنى اعبدوه) **مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين. قل إنى نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنِىَ البينات من ربى وأُمرت أن أسلم لرب العالمين. هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتَوفى من قبلُ ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون. هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون»** (٦٤ - ٦٨).

جـزاء المكذبين :

«ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يُصرفون. الذين كذَّبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون. إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يُسحبون. فى الحميم ثم فى النار يُسجرون. ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله. قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبلُ شيئا كذلك يُضِل الله الكافرين. ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون. ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين» (٦٩ - ٧٦).

والصورة مرعبة حقا تصور الكفار والقيود فى أعناقهم ويسحبون بالسلاسل إلى ماء شديد الحرارة ثم يلقون فى النار. ثم يسألون توبيخا وتبكيتا - عن معبوداتهم التى أشركوها فى العبادة مع الله فيجيبون بأنهم غابوا عنهم ويعترفون أنهم لم يكونوا يدعون من قبلُ فى الدنيا إلا سرابا ووهما.

حث ثانٍ على الصبر :

ثم تمضى الآيات بعد ذلك تحث النبى على الصبر وأن يتمثّل بمن سبق من الرسل. ثم يأتى تذكير ببعض نعم الله على البشر :

«فاصبر إن وعد الله حق. فإما نُرينَّك بعض الذى نعدهم أو نتوفَّينك فإلينا يُرجعون. ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك. وما كان لرسولٍ أن يأتى بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قُضِىَ بالحق وخسر هنالك المبطلون. الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون. ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تُحملون. ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون» (٧٧ – ٨١).

ثم يأتى ختام السورة بتساؤل استنكارى عما إذا كان الكفار لم يسيروا فى الأرض فيروا آثار الأمم السابقة التى أهلكها الله وكانوا أكثر منهم قوة فاغتروا بما عندهم من قوة. حتى إذا بدأت نقمة الله تنزل بهم آمنوا ولكن هذا الإيمان لم يكن ليفيدهم شيئا بعد فوات الفرصة. وواضح أن هدف الآيات هو تحذير كفار قريش بألا يغتروا هم أيضا بما عندهم من قوة ومال وألا يؤخروا إيمانهم إلى حين لا ينفعهم ويكونوا من الخاسرين:

«أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم. كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون. فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون» (٨٢ – ٨٥).

ثم نزلت سورة فصلت :

وهى ثانى سور الحواميم .

«حمٓ. تنزيلٌ من الرحمن الرحيم. كتاب فُصِّلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون. بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين. الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون» (١ – ٨).

بعد الافتتاحية بـ «حم» تنص الآيات على أن القرآن أنزل بلسان عربى مبين حتى يلمس العرب ما احتواه من أنواع البلاغة المعجزة فيقتنعوا أنه غير كلام البشر ويتأكد لهم أنه من وحى السماء. ثم يأتى تنديد بمن أعرضوا عنه وأصروا على كفرهم بل وسدُّوا المنافذ التى يمكن أن يتسرب الإيمان من خلالها إليهم: وهى حواس السمع والبصر والفؤاد. ثم أعلنوا عن

إصرارهم على موقفهم بقولهم «**إننا عاملون**» ويلقن الرسول الرد عليهم فيخبرهم أنه بشر مثلهم والمعنى أنه لا يملك أن يجبرهم على الإيمان وحذَّرهم من مغبة إشراكهم «**ويل للمشركين**» وهو تهديد بعذاب قد ينزل بهم فى حين أن المؤمنين لهم أجر غير مقطوع.

آية خلق السموات والأرض :

ثم تمضى الآيات تستنكر كفرهم بالله الذى خلق السموات والأرض. فقد خلق الله الأرض فى يومين وجعل فيها الجبال رواسى وأودع فيها أرزاق الناس فى أربعة أيام ثم خلق السموات فى يومين:

«**قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم**» (٩ - ١٢).

وقد أثار بعض المستشرقين شبهة أن مجموع الأيام المذكورة هو ثمانية أيام فى حين أن المعروف أن خلق السموات والأرض تم فى ستة أيام. ولم يفطن هؤلاء المستشرقون أن الأربعة أيام المنصوص عليها لتقدير أرزاق الأرض يدخل فيها يوما الخلق فالمجموع ستة لا ثمانية كما فهموا.

ويرى علماء الچيولوچيا أن العصور التى مرت على الأرض والتقلبات والتغيرات التى حدثت فى القشرة الأرضية جعلت أجزاء من البحار تدفن فى الأرض. وعلى مدى ملايين السنين تحللت الأحياء المائية التى كانت بها وتحولت إلى بترول. كما أن غابات بأكملها دفنت أيضا تحت سطح الأرض فتحولت إلى مناجم الفحم. ثم إن اندفاع الصهارة البركانية الموجودة فى باطن الأرض فى شقوق القشرة الأرضية أنتج عروق المعادن المختلفة. ثم لما برد سطح الأرض إلى درجة الحرارة المناسبة ظهرت النباتات ثم الحيوانات البدائية ذات الخلية الواحدة ثم الأسماك والزواحف ثم الثدييات. كل ذلك كان لتهيئة الأرض لمقدم خليفة الله فيها وهو الإنسان. وكانت مقادير الثروات فى كل جزء بحيث تكفى أعداد من سيعيشون عليها من البشر «**ذلك تقدير العزيز العليم**».

كما يرى علماء الفلك المعاصرون أن النص على أن السماء كانت دخانا هو إعجاز علمى من القرآن الكريم سبق به المعارف العلمية بأربعة عشر قرنا من الزمان. إذ أن أحدث النظريات لبداية الكون هى نظرية الدخان أو السديم الأولى ومنه تشكَّلت المجرات والنجوم وما حولها من كواكب.

إنــذار لكافريــن :

ثم تمضى الآيات تندد بالكافرين وتنذرهم بأنهم إذا لم يؤمنوا فـقـد ينزل بهم عذاب مثل عذاب عاد وثمود:

«فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون. فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولَم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون. فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون. وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون. ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون» (١٣ - ١٨).

أحد مشاهد يوم القيامة :

ثم يأتى وصف لمشهد من مشاهد يوم القيامة حين تشهد الجوارح على الناس بما كانوا يفعلون:

«ويوم يُحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون. حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيئ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون. وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون. وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين. فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يَستعتِبوا فما هم من المعتبين. وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والأنس إنهم كانوا خاسرين» (١٩ - ٢٥).

ولاشك أن الآيات قد أثارت الخوف والفزع فى نفوس الكافرين إذ يعلمون أن كل أفعالهم تُحصى عليهم وأن جوارحهم في يوم القيامة ستشهد عليهم بما كانوا يفعلون ولن تنفعهم أى أعذار يقدمونها وليس لهم إلا أن يصبروا على النار. ذلك لأنهم استمعوا إلى وسوسة الشياطين من الجن والإنس فزيّنوا لهم طريق الكفر والضلال.

الكفار يصدون عن الدين :

تذكر الآيات كيف كان الكافرون يحضُّون على عدم الاستماع للقرآن الكريم ثم تذكر عذابهم يوم القيامة. وفى المقابل تذكر النعيم الذى سيُمتَّع فيه المؤمنون:

«وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلكم تَغلِبون. فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينَّهم أسوأ الذى كانوا يعملون. ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار

الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون. وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين. إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزَّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون. نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدَّعون. نزلا من غفور رحيم. ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعَمِل صالحا وقال إننى من المسلمين» (٢٦ – ٣٣).

الحسنات تذهب العداوات :

تقرر الآيات أفضلية فعل الحسنات وأثرها فى إزالة العداوات :

«ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم. وما يلقَّاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم. وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم» (٣٤ – ٣٦).

التنديد بعبادة الكواكب :

كانت عبادة الكواكب منتشرة فى كل بلاد الشرق الأدنى القديم وفى الجزيرة العربية. وكانت قبيلة تميم تعبد الشمس وقبيلة كنانة تعبد القمر وكان الناس يُسمُّون عبد شمس ومنهم جد بنى أمية. فنزلت الآيات توضِّح أن الكواكب خلق من مخلوقات الله وآية من آياته وتنهى عن عبادتها:

«ومن آياتة الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون. فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبِّحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون» (٣٧ – ٣٨).

دليل منطقى على البعث :

ثم تلفت الآيات النظر إلى قدرة الله وما أودعه فى البذور من حياة كامنة وما أودعه فى التربة من مقومات الحياة بحيث إذا سقطت عليها البذور وطالها الماء أنبتت ونبضت بالحياة بعد أن كانت ميته. وعلى الكفار ألا يستبعدوا إحياء الموتى فقدرة الله ليس لها حدود:

«ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شيئ قدير» (٣٩).

القرآن آية كبرى :

ثم تمضى الآيات تندد بالكافرين الذين يجحدون آيات الله – والقرآن آية كبرى – وما كان يجب على الكفار أن يكذبوه:

«إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يَخفَوْن علينا. أفمن يُلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم

القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير. إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم. ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فُصِّلت آياته. أأعجمىٌّ وعربىٌّ. قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد. ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب» (٤٠ – ٤٥).

وتفيد الآيات أن الذين يميلون عن الصراط السوى ولا يؤمنون بآيات الله ويجحدونها لا يغيب أمرهم على الله وسيجازيهم بما يستحقون ويلقون فى النار. ثم يأتى سؤال عن أيهما أحسن: هذا المصير أم المؤمن الذى سيكون يوم القيامة مطمئنا إلى حسن الثواب بما قدم من صالح العمل. ثم يأتى تهديد للكفار بأن يفعلوا ما يشاءون فالله بصير بأعمالهم. وحُذف ما ينتظر المكذبين وتقديره أن لهم عذابا أليما. ثم يأتى تأكيد على أن القرآن كتاب لا نظير له لا يأتيه الباطل. ثم تسرية عن النبى بإخباره أن ما قيل له من تكذيب هو مثل ما قيل للرسل الذين سبقوه. والحجة قائمة على الكفار فالقرآن نزل بلسان عربى مبين حتى لا يحتجُّوا بأنه نزل بلسان أعجمى فلم يفهموا آياته. وقد ازداد المؤمنون به هدى أما الكافرون فقد ازدادوا بتكذيبهم له ضلالا فكأنهم لم يستمعوا له كأن فى آذانهم صمما أو أنهم ينادون من مكان بعيد. ثم يُضرب المثل بموسى إذ آتاه الله التوراة فاختلف بنو إسرائيل عليها ولولا قضاء من الله سبق بأن يؤجل عذاب المكذبين لنزل بهم عذاب يهلكهم.

مسئولية كل فرد عن عمله :

ثم تقرر الآيات أن كل امرىء مسئول عن عمله صالحا كان أم سيئا وسيحاسب على ما عمل دون ظلم أو إجحاف. وفيه معنى مستتر وهو أن على الكفار أن يتحملوا تبعة تكذيبهم:

«من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلاَّم للعبيد» (٤٦).

ثم تمضى الآيات توضح أن يوم القيامة لا أحد يعلم موعده إلا الله. ثم تبين جانبا من قدرة الله وعلمه:

«إليه يُرَد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها (براعمها) **وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائِى قالوا آذنَّاك** (أى أعلمناك) **ما منا من شهيد. وضلَّ عنهم ماكانوا يدعون من قبلُ وظنوا ما لهم من محيص»** (٤٧ – ٤٨).

ويوم القيامة ينادى الله المشركين ويسألهم – توبيخًا لهم – عن الشركاء الذين كانوا يدعونهم من دونه فيقولون معتذرين إنه ليس منهم من يشهد أن لله شريكا وغاب عنهم ماكانوا يعبدون من شركاء وأيقنوا أنه لا مهرب لهم.

إعادة تذكير بجحود البشر :

إذ يلجأ الناس إلى الله فى الشدة ويعرضون عنه عند الرخاء :

«لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسَّه الشر فيئوس قنوط. ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رُجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئنَّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنَّهم من عذاب غليظ. وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسَّه الشر فذو دعاء عريض» (٤٩ - ٥١).

ختـام السـورة :

ثم يأتى سؤال استنكار إلى الكفار عما يكون حالهم إذا كان القرآن حقا من عند الله وكفروا به. ثم إنذار أن الله سيريهم آيات فى أنفسهم وفى الآفاق بحيث يتيقن لهم أن الله حق ومع ذلك سيظلون فى شك من البعث مع أن علمه سبحانه وتعالى محيط بكل شيئ:

«قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد. سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. أو لم يكف بربك أنه على كل شيئ شهيد. ألا إنهم فى مِرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيئ محيط» (٥٢ - ٥٤).

وفى معنى قوله تعالى : **«سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم»** يرى المفسرون المعاصرون أن الإنسان سيكشف فى الكون ونواميسه وفى تركيب جسم الإنسان من العجائب ما يؤكد وجود الخالق العظيم. ويكفى ما أثبته العلم من وجود ملايين الملايين من المجرات وبها بلايين النجوم وكلها تتحرك فى أفلاكها بسرعات هائلة ولا تتصادم ولا ينفرط عقدها. ناهيك عن إعجاز عمليات تكاثر الخلايات وانقسام الكروموسومات وما عليها من چينات فقد حشدت إمكانيات آلاف العلماء ومئات من الحاسبات الإليكترونية العملاقة لعدة سنوات لتتمكن من حل الشفرة الوراثية لخلية لاتزيد فى الحجم عن ٧ أو ٩ من ألف من المليمتر وهو ما سُمّى بمشروع الچينوم البشرى.

ثم نزلت سورة الشورى :

وتبدأ مثل باقى الحواميم بحرفى الحاء والميم وزيد عليها ثلاثة أحرف أخرى:

«حم. عسق. كذلك يوحِى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم. له مافى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم» (١ - ٤).

تعظيم جرم الإشراك بالله :

«تكاد السموات يتفطرن (يتشققن) من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم. والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل» (٥ - ٦).

والمعنى أن السموات - مع عظمهن وتماسكهن تكاد أن تتشقق من فظاعة ما يدعيه الكفار من شريك مع الله. لولا أن الملائكة يسبحون الله وينزهونه عما لا يليق به ويطلبون المغفرة لأهل الأرض ولولا أن الله تعالى قد اتصف بالغفران والرحمة. ثم تقرير بأن الله رقيب على أفعال المشركين وأن النبى ليس مسئولا عنهم وأن الله هو الذى سيتولى حسابهم.

ولاشك أن هذا التصوير لعظم جرم الإشراك بالله زلزل قلوب المشركين وجعلهم أو على الأقل جعل بعضهم يراجع موقفه المكذب للقرآن وخاصة بعد أن يعلم أن الله يحصى أعمالهم ورقيب عليهم «حفيظ عليهم» وهو الذى سيتولى حسابهم.

تحذير من يوم القيامة وتمجيد لله تعالى :

«وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى (مكة) **ومن حولها وتنذر يوم الجمع** (يوم القيامة) **لا ريب فيه. فريق فى الجنة وفريق فى السعير. ولو شاء الله لجعلهم أمة احدة ولكن يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير. أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شيئ قدير. وما اختلفتم فيه من شيئ فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب. فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيئ وهو السميع البصير. له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيئ عليم»** (٧ - ١٢).

الدين عند الله واحد :

«شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه. الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب. وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمًّى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب» (١٣ - ١٤).

والآيات تقرر أن الدين واحد. ما شرعه الله على نبيه محمد وما جاء به نوح وما أنزل على إبراهيم وموسى وعيسى كلها مِلَّة واحدة فى محتراها التوحيدى. ثم تأتى إشارة إلى استعظام المشركين لما يدعو إليه النبى من عبادة الله وحده وعدم الإشراك به. ثم تقرير بأن الله يختار ويقرب إليه من يشاء. ثم توضيح أن ما حدث من الاختلافات بين أهل الديانات السماوية المختلفة راجع إلى سوء التأويل والتفسير وإلى المآرب والأهواء. ولولا وعد سابق من الله بتأجيل الفصل بينهم إلى يوم القيامة لأهلكوا. وأن الذين ورثوا الكتاب من أسلافهم وأدركوا عهد النبى لفى شك من كتابهم الذى به بشارة بالنبى وفى شك من النبى فلم يتبعوه. وتمضى الآيات تأمر

النبى «فلذلك» أى لأجل وحدة الدين وعدم التفرق – أن يدعوهم إلى ما أمر به الله ولا يساير أهواء الذين اختلفوا على دينهم وانحرفوا عن شريعتهم وأن يخبرهم أنه أُمِرَ أن يؤمن بجميع الكتب التى أنزلها الله من قبل على رسله وأن يقيم العدل بينهم فالله خالقه وخالقهم. وهو مسئول عن عمله وهم مسئولون عن أعمالهم ولا حجة لهم عليه لوضوح الحق. والله سيجمع بينه وبينهم فى الآخرة وهو الذى سيفصل بينهم بالعدل. أمَّا الذين يجادلون فى دين الله بعدما استجاب الناس للدعوة فهؤلاء ليس لهم حجة عند الله وعليهم غضبه ولهم عذاب شديد:

«فلذلك فادع واستقم كما أُمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأُمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حُجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير. والذين يُحاجُّون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد» (١٥ – ١٦).

عـن الساعـة :

«الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان (أى العدل) **وما يدريك لعل الساعة قريب. يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق. ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد. الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز. من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب»** (١٧ – ٢٠).

وفى الآيات تأكيد على أن القرآن منزل من عند الله. أما من يتساءلون عن الساعة فالآيات تخبرهم أن النبى نفسه لا يعرف موعدها ولكنها قد تأتى فى موعد أقرب مما يتصوَّرون. ويستعجل وقوعها من ينكرونها استهزاء فى أنفسهم. أما الذين يُصدِّقون بها فهم على خوف من وقوعها ومتأكدون من حدوثها أما الذين يتشككون فى وقوعها فهم فى ضلال ووهم كبير. ثم يأتى تقرير بأن الله هو الرزاق وأن من يريد ثواب الآخرة فسيزيده الله من الثواب ومن كان يريد متع الدنيا أعطاه الله فيها ولكن ليس له نصيب فى الآخرة. والمعنى هو أن لا يظن الكفار أن ماهم فيه من قوة وغنى هو علامة على رضا الله عنهم.

تنديـد بالشـرك :

«أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقُضِىَ بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم. ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير. ذلك الذى يُبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات. قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حُسنا إن الله غفور شكور» (٢١ – ٢٣).

والآيات فيها تساؤل استنكارى عما إذا كان آلهة الكفار قد شرعوا لهم دينا قائما بذاته غير دين الله. وقد قضت حكمة الله أن يؤجل الفصل بين المؤمنين والكفار إلى يوم القيامة. ثم تتطرق الآيات إلى حال الظالمين يوم القيامة يوم ينزل بهم العذاب الأليم. وحال المؤمنين فى روضات الجنات. وفى تفسير قوله تعالى: **«قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى»** روى الطبرى عن ابن عباس قوله إن النبى لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيه قرابة فلما كذبوه استحلفهم باسم القرابة وقال: يا قوم إذا أبيتم أن تبايعونى فاحفظوا قرابتى فيكم. لا يكن غيركم من العرب أولى بحفظى ونصرتى منكم.

نفى الافتراء عن القرآن الكريم :

«أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور. وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون. ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد» (٢٤ - ٢٦).

وكان الكفار يقولون إن النبى هو الذى يؤلف القرآن وينسبه إلى الله. وجاء الرد على ذلك بأن الله قادر - لو كان قولهم صحيحا - أن يختم على قلب النبى ويمحو الباطل المفترى ويحق الحق فهو العليم بما فى الصدور . ثم تبين أن باب التوبة مفتوح لهم ليتوبوا عما يقولون. وأن الذين آمنوا يستجيبون للحق ويتبعونه ويعملون الصالحات ويزيدهم الله من فضله. أما الكافرون فلهم عذاب شديد.

جانب من حكمة الله وقدرته فى الكون :

«ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدَر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير. وهو الذى يُنَزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد. ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير. وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير. وما أنتم بمعجزين فى الأرض وما لكم من دون الله من ولىٍ ولا نصير. ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام. إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور. أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير. ويعلَمَ الذين يجادلون فى آياتنا مالهم من محيص. فما أوتيتم من شيئ فمتاعُ الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون» (٢٧ - ٣٦).

وفى الآيات تنبيه إلى خُلُق من أخلاق الناس بصفة عامة وهو ميلهم إلى الظلم والبغى إذا ما بسط الله لهم الرزق ووسَّع عليهم. ثم تنبيه إلى أن ما يصيب الناس من مصائب هو من كسب أيديهم ونتيجة لأعمالهم وجزاء عليها فليس لهم أن يلوموا غيرهم والله منزَّه عن الظلم

والكفار ليسوا بقادرين على منع نزول عذاب الله بهم فى الدنيا. ويُضرب مثل بالسفن فى البحر وقدرة الله فى سيرها أو توقيفها وهو ما يَعتبر به المؤمنون. ثم حث للكفار على عدم الاغترار بما آتاهم الله من متاع الدنيا لأن ما أعدَّه الله من نعيم الجنة للذين آمنوا خير وأكثر دواما.

عن المؤمنين وأوصافهم :

تذكر هذه الفقرة عددا من أوصاف المؤمنين وأفعالهم :

«والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ماغضبوا هم يغفرون. والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون. والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون. وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين. ولَمَن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل. إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم. ولَمَنْ صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور» (٣٧ - ٤٣).

فقرة عن الكافرين :

«ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مردٍّ (عودة إلى الدنيا) **من سبيل. وتراهم يعرضون عليها** (على النار) **خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى** (يسترقون النظر خوفا) **وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم. وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل»** (٤٤ - ٤٦).

دعـوة إلـى الإيمـان :

ثم تأتى دعوة إلى السامعين - والمقصود الكافرون - تدعوهم إلى الاستجابة إلى الرسول والإيمان بالله قبل فوات الأوان:

«استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مردٌّ له من الله مالكم من ملجإٍ يومئذ وما لكم من نكير (بمعنى نصير). **فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ. وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور. لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور. أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير»** (٤٧ - ٥٠).

طرق الوحى المختلفة :

«وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىٌّ حكيم. وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان

ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم. صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض. ألا إلى الله تصير الأمور» (٥١ - ٥٣).

وتوضح الآيات أن إبلاغ كلام الله إلى أنبيائه يكون إما وحيا بالإلقاء مباشرة فى القلب. يقظة أو مناما. أو بسماع الكلام الإلهى دون أن يرى السامع من يكلمه أو يرسل الله ملكا يُسمع صوته - وقد تُرى صورته - فيوحى بما يشاء الله. وقد أوضحت سورة الشعراء (الآية ١٩٢ ص ١٨٠) أن الوحى للنبى كان عن طريق جبريل الأمين **«وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين».**

وقد رُوِىَ أن الحارث بن هشام سأل النبى كيف يأتيه الوحى فقال: أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّه علىَّ فينفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال. وأحيانا يتمثل لى رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول. وتقول عائشه: ولقد رأيته (النبى) ينزل عليه الوحى فى اليوم شديد البرودة فينفصم عنه وإن جبينه يتفصَّد عرقا.

ثم نزلت **سورة الزخرف :**

«حم. والكتاب المبين. إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون. وإنه فى أم الكتاب لدينا (اللوح المحفوظ) **لعلىٌ حكيم. أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين. وكم أرسلنا من نبى فى الأولين. وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون. فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين»** (١ - ٨).

وقد بدأت السورة بحرفى حم فهى رابع السور الحواميم. ثم قَسَم بالقرآن الكريم. يليه تنويه بأنه نزل بلسان عربى حتى يستطيعوا فهمه وإدراك إعجازه وتدبر معانيه. وكان الكفار قد أسرفوا فى عنادهم وتكذيبهم للنبى ولعلهم تمنوا لو أن النبى ييأس ويتركهم لشأنهم فنزلت الآية بسؤال فيه تعجب من تفكيرهم هذا. فكثرة الإعراض تستدعى تكرار الدعوة وتكرار التذكير لا أن يتركهم لحالهم. ولقد ضرب النبى مثلا رائعا فى الإصرار على الدعوة رغم إعراض قريش إذ استمر لثلاثة عشر عاما فى مكة يعيد التذكير بقدرة الله ونعمه وإعادة التذكير بالبعث والحساب. وذكَّرهم بما حدث للأمم السابقة الذين كانوا يستهزئون بأنبيائهم فأهلكهم الله مع أنهم كانوا أشد قوة من قريش. وفى هذا تحذير لقريش من هلاك مثلهم.

اعتراف الكفار بقدرة الله :

«ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُن خلقهن العزيز العليم. الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون. والذى نزَّل من السماء ماء بقَدَر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تُخرجون. والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون.

لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وإنا إلى ربنا لمنقلبون» (٩ - ١٤).

تفنيد الإشراك بالله :

ثم تتطرق الآيات لتفنِّد - على أساس من المنطق - الإشراك بالله :

«وجعلوا له من عباده جزءًا إن الإنسان لكفور مبين. أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم (أى آثركم) بالبنين. وإذا بُشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مُسودًا وهو كظيم. أَوَ من يُنَشَّؤُ فى الحِلية وهو فى الخصام غير مبين. وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستُكتب شهادتهم ويُسألون. وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون. أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون. بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة (مِلَّة) وإنا على آثارهم مهتدون. وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. قال أوَلَوْ جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون. فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين» (١٥ - ٢٥).

وفى هذه الفقرة تنديد بعقيدة الإشراك بالله ويدَّعى الكفار أن الملائكة إناث وأنهن بنات الله فى حين أن العرب كانوا يُجِلُّون الذكور فكأنهم جعلوا لله الصنف الأضعف والذى يقضى جزءا كبيرا من حياته فى التزين ولا يقوى على القتال والخصام. وخصُّوا أنفسهم بالذكور. وكذلك نددت الآيات بادعاء الكفار أن كفرهم قد كتبه الله عليهم. يليه تساؤل على سبيل الاستنكار والنفى عما إذا كان قد أُنزل عليهم قبل القرآن كتاب فهم يتمسَّكون به. ثم راح الكفار مرة ثانية يتنصلُّون من ذنب الكفر بادعائهم أنهم وجدوا آباءهم على هذه العبادات وهم ماضون على طريقهم. وردَّ على هذه الحجة بأن هذا دأب الأمم السابقة التى كانت رسلهم ينذرونهم فكان «مترفوها» أى الزعماء وأصحاب الوجاهة والقوة هم المتمسِّكون بعبادات الآباء الفاسدة مع أن الرسل جاءوهم بما هو أهدى فكان الواجب اتباع الرسل ولكنهم كفروا فانتقم الله منهم. وتختم الفقرة بدعوة للسامع أن يتأمل فى عاقبة أمرهم كى يدرك كم كان عظيما انتقام الله منهم.

وفى الآيات تسرية للنبى بإخباره بأن ما يلقاه من قومه هو نفس ما كان يلقاه الرسل من قبله وإنذار للكفار بعاقبةٍ مثل ما حاق بالأولين ولاتزال آثارهم باقية - يمكن رؤيتها - شاهدة على ما حدث لهم.

رفض إبراهيم لشرك قومه :

لما تحجَّج الكفار بأنهم إنما يتابعون آباءهم فى عبادتهم ضُرِب لهم المثل بإبراهيم ورفضه للآلهة التى كان أبوه وقومه يعبدونها:

«وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون. إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين. وجعلها كلمة باقية فى عقبة (أى فى ذريته) **لعلهم يرجعون»** (٢٦ – ٢٨).

ولما كان العرب يفخرون بأنهم ذرية إبراهيم فكان ضرب المثل به فى رفضه لشرك قومه مناسبا لتفنيد حجة الكفار بوجوب اتباع الآباء.

ادعاء الزعماء بأنهم أحق بالنبوة :

ثم تذكر الآيات أن الله قد يسَّر لقريش الرزق علي مر القرون. ولما جاءهم النبى بالدين الحق قالوا إنه سحر وكفروا به وأنكروا أن يُنزَّل القرآن على «محمد» فى حين أن فى مكة والطائف من هو «أعظم» منه. ويُردُّ على ذلك بسؤال استنكارى عما إذا كانوا هم الذين يتحكمون فى قسمة رحمة الله وتوزيعها واختيار من هو الأحق برسالة الله. ثم تقرر بأن الله هو الذى يقسم المعيشة بين العباد ليخدم بعضهم بعضا.

«بل متعتُ هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين. ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون. وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سُخريا. ورحمة ربك خير مما يجمعون» (٢٩ – ٣٢).

وكان بعض زعماء الكفار يرون أنفسهم أحق بالنبوة لأنهم أصحاب الحول والقوة فى قومهم. ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة فى مكة وعروة بن مسعود الثقفى من الطائف فقد كانا يرون أنفسهم أحق بنزول الرسالة عليهم. كما أن بعض أفراد من قريش كانوا على شيئ من العلم وظنوا أنهم أحق بالنبوة. وقد رُوى أن النضر بن الحارث بن كلدة – أحد زعماء الكفر – كان يعرف كثيرا من تاريخ الفرس وكان واقفا على الأديان السابقة فكان يقول فى سبيل الصدِّ عن النبى : هو يحدثكم بأساطير الأولين فتعالوا إلىَّ وأنا أحدثكم عن رستم واسفنديار بحديث أطلى.

تهوين أمر الدنيا التى ينعم بها الكافرون :

«ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفًا من فضة ومعارج عليها يظهرون. ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون. وزخرفا وإن كل ذلك لمَّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين. ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون. أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين. فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون. فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط

مستقيم. وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون. واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون» (٣٣ – ٤٥).

والآيات توضحُ أن الله قادر على أن يعطى الكافرين بيوتا فاخرة وأثاثا محلى بالذهب والفضة ولكن كل هذا متاع الحياة الدنيا الزائلة والآخرة هى الأبقى. يلى ذلك تنبيه إلى أن الذى يتعامى عن ذكر الله وآياته يجعل الله له رفيقا من الشياطين يتسلط عليه ويصده عن طريق الهدى. ويوم القيامة يندم ويود لو كان قرين السوء هذا بعيدا عنه. ثم تقرر الآيات أنه لن يخفف عنهم من العذاب كونهم مشتركين فيه. ثم يتوجه الخطاب إلى النبى يخبره بأنه ليس من شأنه أن يجبرهم على الإيمان لأنهم مثل العمى والصم. ثم دعوة للنبى بأن يسأل أهل الكتاب – من يهود ونصارى – هل أمر الله بعبادة آلهة سواه سبحانه وتعالى. وفى هذا استنكار لما كانت قريش تعبده من آلهة.

جانب من قصة موسى :

وفى هذا الجانب من قصة موسى يُذكر كيف أن قوم فرعون كانوا يسخرون من آيات الله:

«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملإه فقال إنى رسول رب العالمين. فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون. وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون. وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عَهِدَ عندك إننا لمهتدون. فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون» (٤٦ – ٥٠).

وفى الآيات إشارة للأوبئة التى أنزلها الله بقوم فرعون لعلهم يرجعون إلى الله وكل آية من هذه الآيات هى أكبر وأعظم من الأخرى. ولكنهم كانوا إذا نزل بهم البلاء طلبوا من موسى أن يدعو ربه ليرفع عنهم مانزل بهم ويَعِدونه بأن يهتدوا ويطلقوا سراح بنى إسرائيل. فإذا رُفع البلاء عادوا إلى عنادهم وكفرهم.

ثم تمضى الآيات تذكر كيف كان فرعون – فى سبيل الصد عن موسى – يتيه بما هو فيه من غنى وتسلط على ملك مصر ويطلب من الناس أن يقارنوا بين هذا وما عليه قوم موسى من ذلة ومهانة الاستعباد. ويلمِّح إلى ماكان فى لسان موسى من ثقل عند الكلام. ثم يبلغ به السفه أن يدَّعى أن الله لو كان قد أرسل موسى حقيقة لألقى إليه أسورة من ذهب كعادة الملوك فى ذلك الوقت عند تقليد وزرائهم. أو أرسل معه ملائكة يخدمونه. وكان هذا منتهى الاستخفاف بعقول المصريين ولكنهم أطاعوه لأنهم كانوا فاسقين فجعلهم الله أمثولة لمن بعدهم:

«ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذى هو مَهين ولا يكاد يُبين. فلولا أُلقى عليه أسوِرَة من ذهب أو

جاء معه الملائكة مقترنين. فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين. فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين» (٥١ - ٥٦).

عن عيسى ابن مريم :

«ولما ضُرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يَصِدُّون. وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خَصِمون. إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل. ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون. وإنه لعلم للساعة فلا تمترُنَّ بها واتبعون هذا صراط مستقيم. ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين. ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون. إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم» (٥٧ - ٦٤).

وكان الكفار حينما يذكر عيسى ابن مريم يزدادون إعراضا ويتساءلون عما إذا كان هو أجدر بالعبادة - حيث أن النصارى يؤلهونه - أم آلهتهم التى يعبدونها. وكانوا يحتجون بأن النصارى وهم أهل كتاب يقولون إن المسيح ابن الله. أما قولهم إن الملائكة بنات الله فهو أكثر اتساقا لأن الملائكة مخلوقات نورانية. وقد ردت الآيات على هذا الجدل بأن عيسى ليس إلا عبدا من عباد الله وأراد الله أن يجعل من خلقه - بدون أب - آية ومعجزة لبنى إسرائيل. وللتدليل على طلاقة قدرته أخبرهم أن الله لو شاء لجعل من نسلهم ملائكة يخلفونهم فى الأرض وينتهى ادعاؤهم أن الملائكة بنات الله. وفى تفسير **«وإنه لعلم للساعة»** قالوا إنها تشير إلى نزول عيسى قبل نهاية الدنيا كعلامة من علاماتها. ولاشك أن مسألة نزول عيسى ثانية إلى الأرض كانت متداولة بين أهل الكتاب فى زمن النبى. ثم تقرر الآيات أن عيسى قال للناس إنه عبد من عباد الله وأن الله ربُّه وربُّهم وأمرهم بعبادة الله.

وتمضى الآيات تثبت اختلاف الفرق المسيحية من بعد عيسى :

«فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم. هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون. الأخِلاَّء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين» (٦٥ - ٦٧).

والمتبادر للذهن أن اختلاف الأحزاب هو اختلاف فرق النصارى حول طبيعة المسيح وهو ما ذكرناه بالتفصيل فى الجزء السادس ص ١٣٦. ثم يأتى إنذار للظالمين من عذاب أليم وأن الساعة قد تأتيهم فجأة ويصبح بعضهم لبعض عدو. وقد ذكرنا سابقا محاولة ضعفاء الكفار إلقاء تبعة كفرهم على سادتهم ومحاولة هؤلاء التنصل من تهمة إضلالهم فتدب العداوة بينهم والذين كانوا أخلاء وأصدقاء فى الدنيا يصبح بعضهم لبعض عدوا.

الجنة للمؤمنين وجهنم للكافرين :

والآيات توضح ثواب المؤمنين فى الجنة وفى مقابله تعذيب المجرمين فى النار :

«يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين. ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تُحبرون (من الحبور وهو السرور)**. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون. لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون. إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون. لا يُفتَّر** (لا يخفف) **عنهم وهم فيه مُبلسون** (يائسون من النجاة)**. وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين. ونادوا يا مَالِكُ ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون. لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون. أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون. أم يحسبون أنا لا نسمع سرَّهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون»** (٦٨ – ٨٠).

وهذه أول مرة يذكر فيها اسم أحد الملائكة وهو «مالك» خازن جهنم وحارسها. إذ يطلب الكفار منه أن يدعو ربه ليخفف عنهم من عذاب جهنم ولو شيئا قليلا فيرد عليهم بأنهم مقيمون فى العذاب ولم يوضح إلى متى – والمفهوم طبعا إلى ما شاء الله. ويُوضِّح سبب هذا العذاب المقيم أن الله قد أرسل لهم رسوله بالحق فكانوا له كارهين ولم يؤمنوا به. ثم يأتى تحدى لهم فإن كانوا قد بيتوا مناوأة النبى فإن الله قد أحكم تدبيره وبيت أمرا. وقد أبهم هذا الأمر ليشمل كل شيئ: حماية النبى من مكائدهم وظهور الدين برغم مناوأتهم وصدِّهم وغير ذلك. وإذا كانوا يظنون أن الله لا يسمع تدبيرهم وما يبيتون فهم مخطئون لأن لله رقباء يحصون عليهم حركاتهم وسكناتهم.

تمجيد الله ونفى الولد عنه سبحانه وتعالى :

«قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين. سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون. فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون. وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم. وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه تُرجعون. ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون. ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله فأنَّى يؤفكون. وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون. فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون» (٨١ – ٨٩).

«قل إن كان للرحمن ولد» – وهذا مستحيل – ولكن تمشيا مع هذا الفرض – فسيكون النبى أول من يعبده لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد. ثم جاءت **«سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون»** لتنفى هذا الولد وتنزه الله عن هذا الوصف. ثم أمر للنبى بأن يتركهم فى ضلالهم حتى يُفاجأوا بيوم القيامة ولن يملك الشركاء الذين أشركوهم فى العبادة أن يشفعوا لهم. ثم تخبر الآيات النبى أن المشركين – رغم تكذيبهم له – لو سألهم عمن خلقهم فسيعترفون بأن الله هو الذى خلقهم. ثم يأتى تعجب من انصرافهم عن عبادة الله إلى عبادة غيره **«فأنى يؤفكون»** وإذ يئس الرسول من إيمانهم فإنه يلتجئ إلى الله مستغيثا **«يارب»**

ومخبرا أنهم قوم لا يُنتظر منهم إيمان. فيؤمر النبى بالاستعلاء عليهم والصفح عنهم والدعوة لهم بالسلام بما يعنى أن ينفض يده منهم ويُفوِّض أمرهم إلى الله وأنهم سوف يعلمون. وأُبهم مضمون ماسوف يعلمون ليشمل كل شيئ: يعلمون أن النبى كان على حق وأن البعث حق وأن الحساب على الأعمال حقيقة وأن عاقبة أمرهم هو الخسران المبين.

ثم نزلت **سورة الدخان :**

«حم. والكتاب المبين. إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين. فيها يُفرق كل أمر حكيم. أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك إنه هو السميع العليم. رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين» (١ - ٨).

وتبدأ السورة بحرفى حم فهى خامسة سور الحواميم. ويعقب ذلك قسم بالقرآن الكريم. وجواب القسم أن الله أنزله فى ليلة مباركة هى ليلة القدر التى أوضحتها سورة القدر (ص ٨٦).

الدخان أحد علامات يوم القيامة :

«بل هم فى شك يلعبون. فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين. يغشى الناس هذا عذاب أليم. ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون. أنَّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين. ثم تولوا عنه وقالوا مُعلَّم مجنون. إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون. يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون» (٩ - ١٦).

والآيات تندد بالكفار لأنهم يتلقون ما يسمعون من الوحى بالشك ويتهمون النبى بالجنون ثم تتوعدهم الآيات بيوم هو من مقدمات يوم القيامة. يملأ الجو فيه دخان كثيف. ويروى حذيفة بن اليمان حديثا أن النبى قال: إن أول الآيات الدجال ونزول عيسى ونار تخرج من عدن تسوق الناس إلى المحشر والدخان. فسأله حذيفة. وما الدخان؟ فتلا رسول الله: **«فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم»** ثم قال: يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة وأما الكافر فتكون منه بمنزلة السكران ثم تكون البطشة الكبرى أى يوم القيامة.

جانب من قصة موسى وفرعون :

تركز الآيات فى هذا الجزء على حادث إغراق فرعون وإنجاء بنى إسرائيل وما فى ذلك من تلميح بعذاب قد ينزل بكفار قريش جزاء تكذيبهم:

«ولقد فتنَّا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم. أن أدُّوا إلىَّ عباد الله إنى لكم رسول أمين. وأن لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين. وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون. وإن

لم تؤمنوا لى فاعتزلون. فدعا ربه أنَّ هؤلاء قوم مجرمون. فأسرِ بعبادى ليلا إنكم مُتَّبعون. واترك البحر رهوا إنهم جند مُغرقون. كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونَعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظَرين. ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين. من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين. ولقد اخترناهم على علم على العالمين. وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين» (١٧ - ٣٣).

إنكار الكافرين للبعث :

«إن هؤلاء ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمُنشَرين. فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين. أهم خير أم قوم تُبَّع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين» (٣٤ - ٣٧).

والآيات تذكر إنكار الكافرين للبعث واعتقادهم أن الموت هو نهاية المطاف وكيف راحوا يتحدُّون النبى طالبين منه التعجيل بإحياء آبائهم إن كان صادقا فى دعواه عن البعث. وترد الآيات عليهم بسؤال عما إذا كانوا هم أقوى من قوم تُبَّع و الأمم التى سبقتهم وكانوا أكثر قوة من كفار قريش وقد أهلكهم الله بتكذيبهم. وتُبَّع المشار إليه هو أول الملوك الذين حكموا اليمن فى الدولة الحميرية الثانية والتى تعرف عند العرب بدولة التبابعة (٣٠٠ - ٥٢٥ م). وقد سبق أن ذكرنا ذلك من قبل (ص ٤) وكانت عاصمتها ريدان وهى حاليا ظفار. وقامت بضم القبائل المجاورة فأخضعت حضرموت وكل بلاد اليمن وتهامة. وفى عهده انتشرت اليهودية فى اليمن بعد أن كانت قاصرة على الجزء الشمالى منذ عهد بلقيس ملكة سبأ فى عهد سليمان. ودخلت النصرانية إلى نجران وبقيت الأجزاء الأخرى وثنية تعبد النجوم والكواكب. ويقال إن تُبع خرج بجيوشه حتى وصل إلى العراق وعاد مارا بالشام ثم سار فى طريق القوافل عائدا إلى اليمن ولما اقترب من مكة أشيع أنه ينوى هدم الكعبة فحذَّره الأحبار من ذلك لأن مكة هى مبعث نبى آخر الزمان وسيكون للكعبة شأن فى دينه فعظَّمها ويقال إنه اعتنق الحنيفية دين إبراهيم. ولما عاد إلى اليمن أنكر عليه قومه مفارقته لدين آبائهم وهادنوه حتى إذا مات عادوا إلى كفرهم. وعن ابن عباس أنه قال: لا تقولوا فى تبع إلا خيرا فإنه قد حجَّ البيت. وكانت عائشة تقول: لا تسبُّوا تُبَّعا فإنه كان رجلا صالحا. وقال كعب عن تبع: نعم الرجل الصالح. ذمَّ الله تعالى قومه ولم يذمَّه.

ثم تمضى الآيات تؤكد على البعث فتذكر أن الله لم يخلق السموات والأرض عبثا بل خلقهما بحكمة وهذه الحكمة تتمثل فى أن يكون هناك يوم للفصل والحكم بين الناس بحسب أعمالهم ولا يفيد أن يشفع قريب لقريبه أو أن يتحمل عنه شيئا من العذاب:

«وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين. ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون. إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين. يوم لا يغنى مولًى عن مولًى شيئا ولا هم ينصرون. إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم» (٣٨ - ٤٢).

ثم تصور الآيات العذاب الذى ينتظر الكافرين فى أبشع صورة: فطعامهم من شجرة الزقوم وهى شجرة طعمها مر وريحها خبيث. ويُسقى الكافر ماء حارا كمعدن صهرته الحرارة الشديدة فتغلى منه بطنه ويؤمر الملائكة بأن يصبوا فوق رأسه ماء يغلى زيادة فى التعذيب ويقال له – تهكما – ذق. فإنك أنت العزيز فى قومك الكريم فى حسبك. وفى المقابل يأتى وصف النعيم الذى يتقلب فيه المؤمنون فى الجنة خالدين فيه أبداً:

«**إن شجرة الزقوم. طعام الأثيم. كالمهل يغلى فى البطون. كغلى الحميم. خذوه فاعتلوه** (فقودوه بغلظة وعنف) **إلى سواء الجحيم** (وسطه)**. ثم صُبُّوا فوق رأسه من عذاب الحميم. ذق إنك أنت العزيز الكريم. إن هذا ماكنتم به تمترون. إن المتقين فى مقام أمين. فى جنات وعيون. يلبسون من سندس واستبرق متقابلين. كذلك وزوّجناهم بحور عين. يدعون فيها بكل فاكهة آمنين. لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم. فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم** (٤٣ – ٥٧).

ختام السورة :

«**فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون. فارتقب إنهم مرتقبون**» (٥٨ – ٥٩).

والآيات تنص على أن الله أنزل القرآن بلسان العرب حتى يمكن أن يفهموه ويتعظوا بما جاء فيه. فإن لم يتعظوا فلينتظروا – ولينتظر النبى أيضا – ما يحل بهم من عذاب. وقد تكرر مثل هذا التهديد للكفار بأن ينتظروا أمر الله وقضاءه وما يحل بهم من نقمة وعذاب – فى عدة سور سابقة ففى سورة الأعراف (آية ٧١ – ص ١٢١) «**فانتظروا إنى معكم من المنتظرين**». وفى سورة هود (آية ١٢٢ ص ٢٤٧) «**وانتظروا إنا منتظرون**».

ولاشك أن شدة عناد قريش هى التى استدعت تكرار مثل هذا التهديد.

ثم نزلت **سورة الجاثية :**

وتبدأ السورة بحرفى الحاء والميم فهى سادسة الحواميم. يلى ذلك تأكيد بأن القرآن مُنزَّل من عند الله :

«**حمٓ. تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. إن فى السموات والأرض لآياتٍ للمؤمنين. وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون. واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق** (كناية عن المطر) **فأحيا به الأرض بعد موتها. وتصريف الرياح** (أى تسييرها) **آيات لقوم يعقلون. تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون**» (١ – ٦).

وإذا كان علماء الأرصاد الجوية قد حددوا للرياح اتجاهات معينة حسب وقتها من السنة وحسب موقعها من خطوط العرض إلا أنها لا تفعل هذا بذاتيها بل بقدرة الله الذى يصرِّفها كيفما يشاء فتحمل المطر إلى هذه البلدة لا إلى تلك . وكم من إعصار توقع الخبراء مروره بمنطقة معينة وحذّروا أهلها من مخاطره ثم صرفه الله فى آخر لحظة إلى وجهة أخرى.

إنذار للمكذبين :

بعد ذلك يأتى إنذار شديد للمكذبين :

«ويل لكل أفَّاك أثيم. يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يُصِر مُستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم. وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مُهين. من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ماكسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم. هذا هُدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم» (٧ - ١١).

والرجز هو العذاب الشديد. ولاشك أن كفار قريش قد ملأ الخوف قلوبهم لدى سماع هذا الإنذار لما فيه من قوة ولما عدَّدته الآيات من مظاهر كفرهم كتجاهل آيات الله عند سماعها أو الهزء بها أو اتخاذهم شركاء من دون الله.

بعض مظاهر قدرة الله فى الكون :

وتمضى الآيات تلفت النظر - وخاصة نظر الكفار - إلى مظاهر قدرة الله فى الكون واستحقاقه وحده للعباده :

«الله الذى سخَّر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون. قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله (لا يتوقعون الحساب) **ليجزى قوما بما كانوا يكسبون. من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم تُرجعون»** (١٢ - ١٥).

وفى الآيتين الأخيرتين أمر للمؤمنين ليكظموا غيظهم ويصفحوا عن الإيذاء الذى يصيبهم من الكفار الذين لا يصدِّقون فى بلاءات الله التى ينزلها ببعض العباد جزاء لهم على ما اقترفوا من سيئات فالقاعدة هى أن من عمل صالحا فلنفسه الأجر ومن أساء فعليه وزر ما عمل من سوء.

ضرب المثل باختلاف بنى إسرائيل :

«ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين. وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين. هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون» (١٦ - ٢٠).

فمع أن الله قد آتى بنى إسرائيل الكتاب أى التوراة وآتاهم أيضا النبوة والرزق الوفير وفضلهم على جميع أهل زمانهم. إلا أن هذا لم يمنعهم من الاختلاف والتنازع فيما بينهم

ولسوف يقضى الله بينهم يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه. ثم جاء النبى محمد مبعوثا على منهج واضح أُمِر أن يتبعه هو والمؤمنون ولا يتبع أهواء الذين لا يعلمون طريق الحق فهؤلاء بعضهم أولياء بعض والله وليٌّ الذين يتقونه. وفى الآيات تنديد ببنى إسرائيل وإعلانهم أنهم فقدوا باختلافهم وتحريفهم لكتابهم - مزية التفضيل التى كانت لهم.

عدم تساوى الكافر مع المؤمن :

«أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون. وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتُجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون. أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون» (٢١ - ٢٣).

والآيات تنبه الكفار إلى خطإ ما ذهبوا إليه من المساواة بين الذين ارتكبوا السيئات واتبعوا الهوى وأنكروا البعث وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء فى الحياة الدنيا أم بعد الممات فهذا سوء حكم منهم على الأمور. والله هو الذى خلق الكون بالحق ومن الحق أن تجازى كل نفس بما عملت ولن يظلم الله أحدا. فمن جعل إلهه هواه واتبعه فى كل ما يأمر به زاده الله ضلالا على ضلاله وأغلق سمعه وقلبه وأعمى بصره عن الحق وليس هناك من يهديه.

إنكار الكفار للبعث :

«وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلاَّ يظنون. وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين. قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (٢٤ - ٢٦).

والآيات تنعى على الكفار إنكارهم للبعث واعتقادهم أنها ماهى إلا هذه الحياة الدنيا وأنهم يموتون بفعل الزمن. وما يقولون ذلك عن علم بل ظنا وتخمينا. وإذا قرأ النبى عليهم آيات تذكر البعث طلبوا منه - إنكاراً وتحدِّيا - أن يأتى بأبائهم وأجدادهم ليؤكد صدق ما يقول. ويؤمر النبى بالرد عليهم بتوضيح أن الله هو الذى خلقهم ابتداء ثم هو الذى يميتهم ثم يبعثهم ويجمعهم ليوم القيامة وهذا مالاشك فيه ولكن الناس ينكرون هذه الحقيقة.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

والآيات واضحة وفيها توبيخ للكفار على ماكانوا يفعلون من آثام. يلى ذلك وصف لثواب المؤمنين وفى مقابله ما ينتظر الكفار من عذاب:

«ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون. وترى كل أمة جاثية

(من هول الموقف) **كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ** (أى الملائكة يكتبون) **ما كنتم تعملون. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين. وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين. وإذا قيل لهم إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين. وبدا لهم سيئات ماعملوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون. وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين. ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرَّتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يُخرَجون منها ولا هم يُستعتبون»** (٢٧ - ٣٥).

ثم تختم السورة بحمد الله وتمجيده :

«فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين. وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» (٣٦ - ٣٧).

ثم نزلت **سورة الأحقاف** :

«حمٓ. تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى. والذين كفروا عما أنذروا معرضون» (١ - ٣).

والسورة تبدأ بحرفى الحاء والميم إذ هى آخر الحواميم السبعة. يلى ذلك تنويه بأن القرآن منزل من عند الله ولكن الكافرين يعرضون عما فيه من إنذارات:

تسفيه الإشراك بالله :

«قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة (شيئ ولو قليل) **من علم إن كنتم صادقين. ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حُشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين»** (٤ - ٦).

والآيات تسأل الكفار - فى تحدىّ - عما إذا كان شركاؤهم قد خلقوا شيئا فى الأرض أم اشتركوا فى خلق السموات حتى يستحقوا العبادة مع الله أو أن رفضهم للدين يستند إلى تمسكهم بكتاب إلهى سبق إنزاله إليهم أو حتى إلى علم ولو كان قليلا. ثم تقرر الآيات أنه ليس هناك من هو أكثر ضلالة ممن يعبد من دون الله معبودات لا تستجيب له حتى لو استمر يدعو إلى يوم القيامة لأنهم غافلون عن عبادتهم ولا يشعرون بها ويوم القيامة يكونون لهم أعداء بدل نصرتهم وينكرون بل ويستنكرون عبادتهم لهم.

جدال الكافرين ودحض حججهم :

«وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين. أم يقولون

افتراه. قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم. قل ما كنت بِدعا من الرسل وما أدرى ما يُفعل بى ولا بكم إن أتبع إلاَّ ما يوحى إلىَّ وما أنا إلا نذير مبين. قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين» (٧ - ١٠).

والآيات تفند الحجج التى أثارها الكفار ضد القرآن وضد النبى. فقد وصفوا الآيات بالسحر واتهموا النبى باختلاق القرآن ويُردُّ عليهم بأنه لو كان اختلقه لعاجله الله بعقوبة لا يستطيعون ردَّها. والله عليم بما يخوضون فيه من طعن فى آياته. ثم تخبرهم الآيات أن النبى ليس أول الرسل حتى ينكروا نبوَّته وأنه ماهو إلا نذير ولا يعلم ما سيفعله الله بهم أو به. ثم يُوجَّه سؤال إلى الكفار عما يكون حالهم إن كان القرآن من عند الله وكفروا به وشهد بعض اليهود على نزول مثله من عند الله وآمنوا به.

ثم راح الكافرون، يتحجَّجون بأن السابقين إلى الإسلام كانوا من الفقراء والعبيد ولو كان ما جاء به النبى خيرا لكانوا هم - أصحاب السيادة - أسبق الناس إلى اتباعه لما لهم من مكانة وعقول راجحة. ثم راحوا يطعنون فى الدين ويقولون إن هذا إلا أساطير الأولين. مع أنهم يؤمنون أن الله أنزل التوراة من قبله والقرآن مُصدِّق لما جاء بها وقد جاء بلسان عربى ليفهموه ولينذر الذين يكذبونه ويبشر الذين آمنوا به بالجنة ثوابا على حسن عملهم:

«وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم. ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدِّق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين. إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون» (١١ - ١٤).

بر الوالدين وطاعتهما :

«ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كُرها ووضعته كُرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدىَّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين. أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون. والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أُخرجَ وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقولُ ما هذا إلا أساطير الأولين. أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين. ولكلٍ درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون. ويوم يُعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون» (١٥ - ٢٠).

والآيات تحث على بر الوالدين والإحسان إليهما وخاصة الأم فقد تحملت مشقة كبيرة أثناء الحمل والولادة. ثم قررت الآية أن مدة الحمل والرضاعة حتى الفطام ثلاثون شهرا. وقد سبق أن ذكر فى سورة لقمان (آية ١٤ ص ٢٨٠) **«حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين»** ومن ثم فقد استنتج الفقهاء أن أقصر مدة للحمل هى ٦ أشهر (٣٠ - ٢٤). ثم تصف الآيات حال بعض شباب مكة المفتونين الذين ظلوا على كفرهم وأنكروا البعث فى حين أن آباءهم آمنوا وكانوا يدعونهم إلى الإيمان فيتضجَّر الابن من دعوتهما ويستنكر البعث ويستشهد بأن أحدا ممن مات قبلا لم يخرج من قبره ويصف البعث بأنه من أساطير الأولين. وتقرر الآيات أن القائلين بذلك هم الخاسرون ولكل واحد ما يستحقه دون ما ظلم. ويوم القيامة يوقف الكفار على النار ويجرى توبيخهم على أنهم اغتروا بالحياة الدنيا واستمتعوا بها ولم يعملوا شيئا طيبا ينفعهم فى الآخرة فكان نصيبهم عذابا مهينا فى النار.

جانب من قصة عاد قوم هود :

وقد سبق ذكر جوانب من هذه القصة فى سور سابقة: سورة الأعراف (آية ٦٥ - ٧٢ ص ١٢١) وسورة الشعراء (آيات ١٢٣ - ١٤٠ ص ١٧٨) وسورة هود (الآيات ٥٠ - ٦٠ ص ٢٤٤). وفى السورة الحالية - الأحقاف - وهو اسم المنطقة التى تقع شرق اليمن وشمال حضرموت (شكل ١ ص ٢) وهو المكان الذى كان يسكنه قوم هود - ومنه أخذت السورة اسمها - وركزت الآيات على ما حاق بهم من هلاك نتيجة تكذيبهم لنبيهم هود:

«واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. قال إنما العلم عند الله وأبلِّغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون. فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا. بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم. تدمِّر كل شيئ بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين» (٢١ - ٢٥).

وقد كان رد قوم هود على دعوته هو نفس ما كانت تقوله قريش للنبى وهو إنكارهم محاولته صرفهم عن آلهتهم وكذلك تحديهم له بإنزال ما يعدهم من عذاب. وكان جواب هود عليهم - وهو أيضا جواب النبى على قريش - أن العلم بوقت العذاب عند الله وحده وأن النبى ماهو إلا مُبلِّغ لما أرسل به من الله. فأتاهم العذاب فى صورة سحاب ظنوا أنه سحاب ممطر وفرحوا به ولكن اتضح لهم أنه هو ما استعجلوه من عذاب. ريح دمرت كل شيئ فأهلكتهم وبقيت مساكنهم المدمَّرة لتكون شاهدا عليهم.

ثم يتوجه الخطاب إلى كفار قريش مبينا لهم أن الله قد مكَّن لعاد من السعة والقوة مالم

يُمكِّن لهم وجعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ولكنها لم تغن عنهم شيئا إذ جحدوا آيات ربهم واستهزأوا بها فنزل بهم عذاب الله. ثم تخبرهم الآيات أن الله قد أهلك ما حول مكة من القرى – والمرجح أن المقصود قوم صالح – ولم تنصرهم الآلهة التى أشركوا بها بل خذلتهم ونالوا جزاء تكذيبهم وافترائهم:

«ولقد مكناهم (آتيناهم من أسباب القوة) **فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيئ إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرّفنا الآيات لعلهم يرجعون. فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون»** (٢٦ – ٢٨).

الجن يؤمنون بالقرآن :

ثم تذكر الآيات ماكان من استماع جماعة من الجن للقرآن فآمنوا وأسرعوا إلى قومهم يخبرونهم أن هناك كتابا سماويا أنزل بعد موسى – وهو القرآن – مصدِّقا لما سبقه من الكتب وراحوا يحثونهم على الإيمان ليغفر الله ذنوبهم ويمنع عنهم العذاب. أما من أعرض فلن يستطيع الهرب من الله وليس هناك من وليّ يحميه من العذاب :

«وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قُضِيَ ولَّوا إلى قومهم منذرين. قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم. يا قومنا أجيبوا داعِيَ الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم. ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين» (٢٩ – ٣٢).

تأكيد على أن البعث حق :

ثم تأتى الفقرة الخاتمة للسورة بتساؤل عما إذا كان الكفار لم يدركوا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى. ويوم القيامة سيقف الذين كفروا على النار ويُسألون – توبيخا لهم – هل لم يدركوا بعدُ أن البعث حق؟ فيعترفون بأنه كذلك فيؤمرون بأن يذوقوا العذاب جزاء لهم على كفرهم. وفى النهاية تحث الآيات النبى على الصبر كما صبر غيره من الرسل وألا يستعجل للكفار العذاب فهو واقع بهم لا محالة وحين يلاقونه – فى الآخرة – سيشعرون كأنهم لم يتركوا الدنيا إلا منذ فترة وجيزة قرابة الساعة:

«أوَلَمْ يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعىَ (ولم يتعب) **بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيئ قدير. ويوم يُعرَض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق**

قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يُهلَك إلا القومُ الفاسقون» (٣٣ - ٣٥).

ثم نزلت **سورة الذاريات :**

«والذاريات ذروا (الرياح التى تذرو التراب). **فالحاملات وِقرا** (السحاب الحامل للماء) **فالجاريات يسرا** (الريح التى تسيِّر السفن فى البحار بيسر) **فالمقسِّمات أمرا** (تقسم المطر على أجزاء مختلفة من الأرض). **إنَّما توعدون لصادق. وإن الدين لواقع»** (١ - ٦).

وقد بدأت السورة بقسم من الله بالرياح وأنواعها المختلفة على أن ما يوعد به الناس من البعث والحساب هو أمر صادق وواقع. والحقيقة أن موضوع البعث كان هو الشغل الشاغل للنبى لاقناع الكفار به إذ كما سبق أن ذكرنا كانت شعوب الشرق الأدنى فى معظمها لا تؤمن به. لذلك تكرر التأكيد عليه فى آيات كثيرة فى سور عديدة من سور القرآن. ثم يأتى قَسَم ثانٍ:

«والسماء ذات الحُبُك. إنكم لفى قول مختلف. يؤفك عنه من أُفِك. قُتل الخرَّاصون. الذين هم فى غمرة ساهون. يسألون أيَّان يوم الدين. يوم هم على النار يُفتنون. ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون. إن المتقين فى جنات وعيون. آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون. وفى أموالهم حق للسائل والمحروم. وفى الأرض آيات للموقنين. وفى أنفسكم أفلا تبصرون. وفى السماء رزقكم وما توعدون. فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون» (٧ - ٢٣).

والقسم الثانى كان **«والسماء ذات الحبك»** وحبك معناها شدَّ وأحكم. وحبك النسَّاج الثوب أى أجاد نسجه. والسماء ذات الحبك أى ذات الصنع المحكم والروابط الشديدة. ويرى العلماء المعاصرون فى هذا الوصف إعجازا علميا. إذ عُلِمَ مؤخرا أن الكون فيه بلايين المجرات وكل مجرة فيها ملايين النجوم مثل وأكبر من شمسنا وكل شمس تدور حولها كواكب سيارة وكل هذه النجوم والكواكب تسبح فى الفضاء بسرعات هائلة ومع ذلك لا يتصادم بعضها مع بعض لأن لكل كوكب مدار محدد يحكمه توازن مذهل بين قوى الجاذبية وقوى الطرد المركزية. فلا تتصادم الكواكب أو ينفرط عقدها. وجواب القسم أن الناس إزاء هذا الأمر - البعث - مختلفون. ففريق قد أُفِك وصُرِف عن الحق وجزاؤهم النار. أما المتقون فهم فى الجنات بما صدَّقوا وقاموا الليل واستغفروا وتصدَّقوا. ثم دعوة للتأمل فى الكون لنرى قدرة الله فى الأرض وفى الإنسان نفسه وفى السماء وما تنزله من رزق مقسوم للعباد. ثم يقسم الله بذاته العليَّة **«فوربِّ السماء والأرض»** على أن البعث حق لا يصح الارتياب فيه مثلما الناس متأكدون من قدرتهم على الكلام.

بعد ذلك يأتى ذكر **جوانب من قصص الأنبياء السابقين :**

أ – جانب من قصة إبراهيم :

وقد سبق ذكر جوانب من قصته فى سور عديدة سابقة: فى سورة الأنعام (الآيات ٧٤ – ٨٤ ص ٢٦٢) وسورة الصافات (الآيات ٨٣ – ٩٩ ص ٢٧٦). ثم جاءت السورة الحالية فى الآيات ٢٤ – ٣٧ تضيف ما حدث من مرور رسل هلاك قوم لوط بإبراهيم وتبشيرهم له بإسحق. ثم إشارة إلى مجادلة إبراهيم لربه فى محاولة لمنع نزول العذاب وهو ما سبق ذكره فى الجزء الثانى ص ٣٢٤، وتقرر الآيات «**فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين**» فنزل بهم العذاب المهلك.

ب – إشارة سريعة لقصة موسى :

«**وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين. فتولَّى بركنه وقال ساحر أو مجنون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم**» (٣٨ – ٤٠).

وقد لخصنا فى ص ٢٣٨ ما ذكر عن موسى فى سور الأعراف وطه والقصص والشعراء ويونس.

جـ – إشارة سريعة لقصة عـاد :

«**وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم** (التى لا خير فيها)**. ما تَذَر من شيئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم** (كالعظم البالى)» (٤١ – ٤٢).

وكان هذا آخر ما نزل عن عاد فى القرآن الكريم. وقد لخصنا فى ص ٣٢٩ ما سبق نزوله عنهم من آيات فى سور الأعراف والشعراء وهود والأحقاف.

د – إشارة سريعة لثمود :

«**وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين**» (٤٣ – ٤٥).

وثمود هم أصحاب الحجر الذين ذكروا فى سورة الحجر (آية ٨٠ ص ٢٥٣). وكان ذكرهم فى السورة الحالية – سورة الذاريات – هو آخر ما نزل عنهم فى القرآن الكريم.

هـ – إشارة خاطفة لقوم نوح :

«**وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين**» (٤٦).

وقد ذكرت جوانب من قصته فى سور الأعراف والشعراء ويونس وهود. وبه تنتهى هذه الفقرة عن الأنبياء السابقين.

مظاهر من قدرة الله :

١ – **«والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون»** (٤٧).

وكلمة «موسعون» تعنى أن الله قد خلق السماء بأبعاد واسعة أى مُوَسَّع فيها عند خلقها وهذا ما فهمه الأقدمون عندما لاحظوا بعد الشمس والقمر والنجوم. وفى العصر الحديث توصل علماء الفلك إلى أن المجرات تتباعد بعضها عن بعض بسرعات أكبر كثيرا من سرعة الضوء وخلصوا إلى نظرية «تمدد الكون» أى أن الكون فى تمدد دائم. واعتبروا لفظ «موسعون» إعجازا علميا لأنه لا يتعارض مع هذه النظرية.

٢ – **«والأرض فرشناها فنعم الماهدون»** (٤٨).

والتمهيد هو التهيئة. أى لتكون مكانا صالحا لسكنى البشر. ويتوسع الفلكيون المعاصرون فيقولون إن الأرض بعد انفصال كتلتها عن الشمس نزلت عليها أمطار فبرد سطحها وتصلب وبذلك تكونت القشرة الخارجية للأرض ثم انكمشت فتعرَّجت فنشأت الجبال وامتلأت المنخفضات بالماء فتكونت البحار والمحيطات. ثم تفتَّتت أجزاء من صخور الجبال بفعل عوامل التعرية على مدى ملايين السنين وحملت الأمطار الذرات المتفتتة فتكونت سهول الأنهار وتربتها الصالحة للزراعة وأصبحت الوديان طرقا للمواصلات. ثم نبتت النباتات من كل شكل ونوع.

٣ – **«ومن كل شيئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون»** (٤٩).

قالوا نوعين ذكرا وأنثى. وتوسع مجاهد فقال هى إشارة إلى المتقابلات المختلفة كالليل والنهار والهدى والضلال والصحة والمرض. ويتوسع العلماء المعاصرون فى بيان الزوجية فى كل شيئ: ففى الكيمياء يوجد حامض وقلوى. والزوجية موجودة فى كهربية الجزيئات - Anion Cation وازدواجية المغناطيس معروفة: شمال وجنوب. والكهرباء: موجب وسالب. وازدواجية شحنات الجسيمات المكونة للذرة إلكترون وبوزيترون. وهناك من يعتقدون بوجود نقيض المادة Antimatter فى مقابل المادة Matter. والجاذبية ونقيض الجاذبية وهكذا.

دعوة الكفار إلى الإيمان :

«ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين. ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إنى لكم منه نذير مبين» (٥٠ – ٥١).

والآيات تدعو الكفار إلى الإسراع بالإيمان بالله وعدم الإشراك به. ثم إنذار لمن يفعل ذلك وتكرر الإنذار للتأكيد على شدة العذاب المنذر به. وإزاء إصرار الكفار على كفرهم مضت الآيات :

«كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. أتواصوا به بل هم قوم طاغون. فتولَّ عنهم فما أنت بملوم» (٥٢ – ٥٤).

وتذكر الآيات أن التكذيب والاتهام بالسحر أو الجنون كان أيضا من نصيب الرسل السابقين كأن الأمم السابقة قد أوصت كفار قريش به. ثم يجئ أمر للنبى بالإعراض عن الكفار وإخباره أنه غير ملوم عن عدم إيمانهم. وتستمر الآيات تأمر النبى بدوام ذكر الله فذلك يزيد المؤمن بصيرة وقوة. ولم يخلق الله الجن والإنس لنفع يعود عليه منهم فهو غنى عن العالمين بل خلقهم ليعبدوه فيثيبهم على ذلك بأحسن مما صنعوا رحمة منه وفضلا:

«وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين. وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين» (٥٥ - ٥٨).

ختام السورة :

ثم يأتى ختام السورة بتهديد قوى للكفار فى صيغة تؤكد أن لهم «ذَنوبا» أى نصيبا والمفهوم أنه نصيب من العذاب مثل نصيب أقرانهم من الأمم السابقة. ولهذا العذاب أوان محدد وعليهم ألا يستعجلوا وقوعه قبل أوانه إذ سيكون فى ذلك هلاكهم وويل لهم من ذلك اليوم الذى يوعدون به ولا يصدقونه:

«فإن للذين ظلموا ذَنوبا مثل ذَنوب أصحابهم فلا يستعجلون. فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون» (٥٩ - ٦٠).

ثم نزلت سورة الغاشية :

«هل أتاك حديث الغاشية» (١).

والغاشية اسم من أسماء يوم القيامة لأنها تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها. وبدأت السورة بسؤال يشوّق السامع إلى متابعة ما يجئ بعد ذلك ليعرف الإجابة. والسؤال موجّه إلى النبى إلا أنه يقصد سؤال كفار قريش عما إذا كانوا قد علموا ما سيكون عليه الناس فى يوم القيامة. ثم تمضى الآيات توضح أنهم سيكونون فريقين:

١ - الكافرون :

«وجوه يومئذ خاشعة (ذليلة). **عاملة ناصبة** (مجهدة متعبة). **تصلى نارا حامية. تُسقى من عين آنية** (شديدة الحرارة). **ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغنى من جوع** (لا يُشبع ولا يزيد الجسم نمواً)» (٢ - ٧).

وقيل الضريع شجرة ذات شوك أمرُّ من الصبر. لا يقدر أحد على أكله. وقيل هو شجرة الزقوم المذكورة فى سورة الدخان (الآية ٤٣ ص ٣٢٤).

٢ - المؤمنون :

وفى مقابل عذاب الكافرين يُذكر النعيم الذى يرفل فيه المؤمنون فى الجنة:

«**وجوه يومئذ ناعمة** (متنعمة وذات نضارة)**. لسعيها راضية. فى جنة عالية. لا تسمع فيها لاغية** (لغوا)**. فيها عين جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق** (وسائد) **مصفوفة. وزرابى** (نوع من الأبسطة) **مبثوثة**» (٨ - ١٦).

دعوة للتأمل فى الكون ومخلوقات الله :

«أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت. وإلى السماء كيف رُفعت. وإلى الجبال كيف نُصبت. وإلى الأرض كيف سُطحت» (١٧ - ٢٠).

واختار الله من الحيوانات ألصقها بالبدوى وهى الإبل وطلب من الكافرين التدبر فى كيفية خلقها لتتحمل الجوع والعطش أثناء مسيرتها فى الصحراء وكيف خلقت أقدامها بحيث لا تغوص فى الرمال. ثم دعوة للنظر إلى السماء كيف رفعت بغير عمد وإلى الجبال الشامخات كم هى مرتفعة وقد أثبت الجيولوچيون أن الجبال لها مثل كتلتها ممتدة فى أعماق القشرة الأرضية لتكون ركيزة لها فلا تميل. كما أن توزيع الجبال محسوب بدقة بالغة بحيث يحفظ توازن الأرض أثناء دورانها فتدور بسلاسة دون ارتجاج. ثم اختير لوصف الأرض لفظ «سطحت» وهو ما يتفق مع ما كان يعتقده الأقدمون من أن الأرض مسطَّحه وفى نفس الوقت لا يتعارض مع معطيات العلم عندما ثبتت كروية الأرض ولكنها - لكبر حجمها - تبدو مسطحة.

ثم تأمر الآيات النبى بأن يُذكِّر الكفار. أنَّ مهمته هى التبليغ وليس مسيطرا عليهم بحيث يجبرهم على الإيمان. ومن كفر فإنهم راجعون إلى الله وهو الذى يتولى حسابهم.

«فذكِّر إنما أنت مُذكِّر. لست عليهم بمصيطر. إلا من تولى وكفر. فيعذبه الله العذاب الأكبر. إن إلينا إيابهم. ثم إن علينا حسابهم» (٢١ - ٢٦).

بيعة العقبة الثانية :

كان قد مرَّ عام على بيعة العقبة الأولى (ص ٢٤٨) وجاء موسم الحج التالى. وفى خلال هذا العام كانت ١٦ سورة قد نزلت على رسول الله فيها أكثر من دعوة لقريش للإيمان وتحذير للكفار من سوء عاقبة تكذيبهم وعشرات الآيات كان فيها من الوعيد ما تنخلع له القلوب. ولكن قريشا أصمَّت آذانها وعميت عيونها عن الذكر وبقيت على عبادة الأوثان إلا من النفر القليل الذى آمن وبدا كأن الدعوة بمكة قد وصلت إلى طريق مسدود.

وفى هذه الأثناء كان الإسلام ينتشر حثيثا فى يثرب. فإذا أسلم رجل ما لبث أهل بيته كلهم حتى يتابعوه فى الإسلام حتى لم تبق دار إلا وفيها عدد من المسلمين. ثم تشاوروا وقالوا: حتى متى يُترك رسول الله يطوف ويُطارد فى جبال مكة! فرحل إليه فى موسم الحج ٧٠ رجلا حتى قدموا مكة ليقابلوه وأرسلوا مندوبا عنهم فضرب لهم مكانا للقاء عند شعب العقبة فناموا حتى

إذا مضى ثلث الليل قاموا لميعاد رسول الله وراحوا يتسللون فرادى إلى حيث هو خفية عن عيون قريش حتى توافوا ٧٣ رجلا وامرأتان وقيل ٧٠ رجلا وامرأة واحدة.

وكان مع النبى عمه العباس وهو على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلسوا كان أول المتكلمين العباس بن عبد المطلب فقال: إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا فهو فى عزة ومنعة فى بلده وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه فى عزة ومنعة فى قومه وبلده. قالوا قد سمعنا ما قلت فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. قالوا فتكلم رسول الله فتلا شيئا من القرآن ورغَّب فى الإسلام ثم قال: تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل والنفقة والعسر واليسر. وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وأن تقولوا فى الله لا تخافون لومة لائم. وعلى أن تنصرونى وتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم. فقام أسعد بن زرارة وأخذ بيد رسول الله وقال: رويدا يا أهل يثرب. فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف. فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله. وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه. فبيِّنوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله. فقالوا له. أمط عنا يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نُسلبها أبداً. وأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله وقال: نعم فوالذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع عنه أزرنا (نساءنا) فبايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابرا عن كابر. فقاموا إلى رسول الله وبايعوا جميعا.

وأعاد العباس القول: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا نعم. قال إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن فذروه. فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا. قال الجنة. فلما انتهوا من البيعة قال النبى أخذت وأعطيت.

قال أبو الهيثم بن التيهان: يارسول الله إن بيننا وبين الرجال (يقصد اليهود) حبالا إنا نحن قاطعوها فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم. أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم. ثم قال رسول الله أخرجوا إلىَّ منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم فأخرجوا إليه ٩ من الخزرج و ٣ من الأوس :

أ – من الخزرج : ١ – أبو إمامة أسعد بن زرارة.

٢ – سعد بن الربيع .

٣ – عبد الله بن رواحة .

٤ – رافع بن مالك بن العجلان .

٥ – البراء بن معرور بن صخر بن خنساء .

٦ – عبد الله بن حرام بن ثعلبة .

٧ – عبادة بن الصامت .

٨ – سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن خزيمة .

٩ – المنذر بن عمرو بن خنيس .

ب – ومن الأوس : ١ – سعد بن الخيثمة بن الحارث .

٢ – رفاعة بن عبد المنذر .

٣ – أبو الهيثم بن التيهان .

وقيل إن رسول الله قال لهؤلاء الاثنى عشر : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل عن قومى.

ورجع الأوس والخزرج إلى خيامهم فناموا فلما أصبحوا غدت عليهم جماعة من قريش وقالوا لهم: يامعشر الخزرج. إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجوه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. فانبعث من مشركى يثرب قوم يحلفون ما كان هذا وما علموه. وكانوا صادقين فهم لم يشهدوا البيعة.

وانتهى موسم الحج ونَفر الناس من منى متأهبين للعودة إلى ديارهم وكانت قريش قد تتبعت الخبر فوجدته صحيحا. فخرجوا فى طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وهما من النقباء. وأفلح المنذر فى الإفلات منهم فأخذوا سعد بن عبادة وربطوا يديه إلى عنقه وأتوا به إلى مكة يضربونه ويجذبونه من شعر رأسه. فقال له رجل من قريش ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قال بلى لقد كنت أجير لجبير بن مطعم تُجَّاره وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى وكذلك للحارث بن أمية. فقال له: ويحك اهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما. ففعل فجاءا وخلصاه من أيديهم فانطلق إلى قومه.

فى يثرب :

لما رجع الأنصار الذين بايعوا رسول الله بيعة العقبة الثانية إلى يثرب وأظهروا إسلامهم

أسلم كثير من أهلهم وكانوا يُصلون خلف أسعد بن زرار وخافوا أن تعود نعرة الجاهلية فيكره الأوس أن يؤمه خزرجي أو العكس فرأوا أن يكون إمامهم من أصحاب رسول الله فأرسلوا إليه يقولون: إن الإسلام قد فشا فينا فابعث إلينا رجلا من أصحابك يقرئنا القرآن ويفقهنا فى الدين ويؤمنا فى صلاتنا. فبعث الرسول إليهم مصعب بن عمير فنزل فى بيت أسعد بن زرارة.

وأخذ مصعب وأسعد يدعوان الناس سرا إلى الإسلام. وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدين فى قومهما - بنى عبد الأشهل - ولما مصعب وأسعد يجلسان إلى جماعة من قومهما فسار إليهما أسيد وقال لهما. ما جاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءنا. اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة فقال أسعد بن زرارة. أوَ تجلس فتسمع. فجلس فكلَّمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه شيئا من القرآن فقال أسيد. ما أحسن هذا وأجملَهُ! وأسلم. وقال لهما إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلَّف عنه أحد من قومه. سأرسله إليكما الآن. فجاءهما سعد بن معاذ وقال لأسعد بن زرارة: يا ابن أمامة. والله لولا ما بينى وبينك من القرابة مارمت هذا منى. هذا (يقصد مصعب بن عمير) يغشانا فى دارنا بما نكره. فقال له أسعد بن زراره. أوَ تقعد فتسمع. فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهت عزلنا عنك ما تكره. فقال أنصفت. فراح مصعب يقرأ صدر سورة الزخرف: **«بسم الله الرحمن الرحيم. حم. والكتاب المبين. إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلىٌّ حكيم..»** إلى آخر الآية ١٤. فقام سعد وعاد إلى قومه وحثهم على الإسلام فأسلم بنو الأشهل كلهم. ثم أسلم بنو سلمة كلهم بإسلام سيدهم عمرو بن الجموح.

بدء هجرة المسلمين إلى يثرب :

نعود إلى مكة وقريش لاتزال على عداوتها لرسول الله وللمسلمين. وكان النبى قد قال للمسلمين: قد أُريت دار هجرتكم. أريت سبخة ذات نخل بين لابتين. وهذا الوصف لايكاد ينطبق إلا على يثرب. وقال لهم أيضا: إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون فيها. فبدأ المسلمون يتجهزون للهجرة إلى يثرب فخرجوا إليها أفرادا وجماعات ومنهم نفر ممن عادوا من الحبشة.

قلنا سابقا (ص ٢٤٩) إن أبا سلمة كان أول المهاجرين إلى يثرب بعد بيعة العقبة الأولى. ثم تتابع المهاجرون بعد ذلك :

- عامر بن ربيعة ومعه زوجته ليلى بنت أبى حتمة العدوية.
- عبد الله بن جحش بن أسد بن خزيمة حليف بنى أمية بن عبد شمس وزوجته.
- أخوه عبيد الله بن جحش وزوجته الفارعة بنت أبى سفيان بن حرب وقد ذكرت الدكتورة بنت الشاطئ أن سمها «رملة» (تراجم سيدات بيت النبوة ص ٣٨٠).

ولما هاجر عبد الله بن جحش وأخوه عبيد الله أغلقت دار بنى جحش فمرَّ بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل فقال عتبة:

وكل دار وإن طالت سلامتها ∴ يوما ستدركها النكباء والحوب

فقال أبو جهل للعباس: هذا من عمل ابن أخيك. فرّق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا.

وقال ابن اسحق. ونزل هؤلاء الثلاثة عامر وبنو جحش بقباء على مُبشّر بن عبد المنذر الذى كان أبو سلمه نازلا عنده.

وتتابع المهاجرون من مكة وكانوا عند وصولهم إلى يثرب ينزلون ضيوفا على أحد الأنصار (عبد الحميد جودة السحار. محمد رسول الله. جـ ١١ ص ٩٤) :

- فنزل طلحة بن عبيد الله على أسعد بن زرارة.
- وأنسة وأبو كبشة موليا رسول الله على كلثوم بن عمر بن عوف بقباء.
- ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب وأخواه الطفيل والحصين، ومسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب وخباب مولى عتبة بن غزوان هؤلاء نزلوا على عبد الله بن سلمة .
- عبد الرحمن بن عوف نزل على سعد بن الربيع.
- الزبير بن العوام وأبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى نزلوا على منذر بن محمد بن عقبة.
- ونزل أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعتبة بن غزوان على عباد بن بشر.
- ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت أخى حسان بن ثابت فى دار بنى النجار.
- ونزل العُزَّاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة وذلك أنه كان أعزبا.

عود إلى مكة :

كانت بيعة العقبة الثانية فى أواسط أيام التشريق فى موسم الحج أى فى يوم ١٢ ذى الحجة فى آخر السنة الثانية عشر للبعثة النبوية. وقد بقى الرسول بعد ذلك فى مكة عاما كاملا نزلت فيه باقى السور المكية وهى ٢١ سورة من السور متوسطة الطول.

سورة الكهف :

«الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجا. قَيِّما (مستقيما) **لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجر حسنا. ماكثين فيه أبدا. وينذرَ الذين قالوا اتخذ الله ولدا. مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا. فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا. إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوَهم أيهم أحسن عملا. وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا»**(لا حياة ولا نبات فيها) (١ - ٨).

والسورة – مثل عديد من السور – بدأت بحمد الله. ثم تمضى الآيات واضحة لتقرر أن الله أنزل الكتاب ـ أى القرآن – على النبى لينذر الذين ادعو أن لله ولداً فهذا افتراء كبير على الله سبحانه وتعالى وليس عندهم علم ولا سند لقولهم هذا. ولا عند آبائهم وهو محض كذب. ثم تمضى الآيات تواسى النبى بألا يحزن لأن قومه لم يؤمنوا. ثم تبين أن الله قد خلق الدنيا بما فيها من زينة وبهجة ليختبر الناس. فمن استهوته الدنيا وغفل عن الآخرة ضلَّ. ومن آمن بالآخرة وأحسن العمل فاز. وعند انقضاء الدنيا ستصبح أرضا مستوية لا نبات فيها. وفى هذا تحذير للكفار من الاغترار بالدنيا وإنكار الآخرة.

قصة أصحاب الكهف :

سبق أن ذكرنا (ص ٢٠٤) ما كان من سؤال كفار قريش للنبى – بتحريض من يهود المدينة – عن «فتية ذهبوا فى الدهر الأول وما كان من أمرهم» فنزلت الآيات من ٩ – ٢٦ تحكى قصة أصحاب الكهف وترد على سؤالهم. ثم نزل الآن باقى سورة الكهف. وكان النبى يقول لأصحابه ضعوا هذه الآيات فى الموضع كذا من سورة كذا لتكتمل السورة بوصفها وترتيبها التى هى عليه فى المصحف.

وتتخلَّل القصة مواقف تتطابق مع موقف قريش من النبى مثل قول الفتية:

«هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بَيِّن فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا» (الآية ١٥).

وكذلك يتخللها مواعظ مثل الآية ١٧ : **«من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا».**

وجاء فيها التأكيد على قيام الساعة: **«ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها** (من الآية ٢١).

ويرى بعض العلماء أن فى قوله تعالى: **«ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا»** إعجازا علميا لأن ٣٠٠ سنة ميلادية أى شمسية تساوى ٣٠٩ سنة قمرية أى هجرية.

وتنتهى هذه الفقرة عن أهل الكهف بأمر للنبى أن يتلو ما أوحى إليه فى هذا الشأن: **«واتل ما أُوحى إليك من كتاب ربك لا مبدِّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا** (أى ملجأ)**»** (٢٧). وأمر ثان وهو الالتزام بصحبة المؤمنين: **«واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تَعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تُطِع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا»** (٢٨).

حرية الإنسان فى الإيمان أو الكفر :

ثم تمضى الآيات تأمر النبى أن يخبر الكفار أن ما جاءه هو الحق من عند الله وأن لهم

حرية الإيمان أو الكفر مع تحذيرهم بأن الذين يظلمون أنفسهم ويظلون على الكفر أعد الله لهم عذابا شديدا فى حين أن الذين آمنوا لهم ثواب عظيم عند الله:

«وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا. أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يُحَلَّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا» (٢٩ - ٣١).

الكفر بنعمة الله قد يؤدى إلى زوالها :

وتضرب الآيات على ذلك بمثل :

«واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا. كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجَّرنا خلالهما نهرا. وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رُددت إلى ربى لأجدن خيرا منها مُنقلبا. قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوَّاك رجلا. لكنَّا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا. ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله إن ترنِ أنا أقل منك مالا وولدا. فعسى ربى أن يؤتينَ خيرا من جنتك ويرسل عليها حُسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا (ملساء لا نبت فيها)**. أو يصبح ماؤها غورا** (غائرا عميقا) **فلن تستطيع له طلبا. وأحيط بثمره فأصبح يقلِّب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا. ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا. هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا»** (٣٢ - ٤٤).

والآيات تضرب المثل برجلين أحدهما غنى وله جنتان من الفواكة والآخر فقير. الأول كان كافرا لم يشكر نعمة الله بل وأنكر البعث وزعم أن لو كان هناك آخرة فسيكون له فيها خير مما كان له فى الدنيا لأنه من أهل النعيم فى الحالين. أما الثانى فكان مؤمنا. وقيل إنهما رجلان من بنى مخزوم. وقيل رجلان من بنى إسرائيل وقيل إنها قصة تصويرية تقديرية.

وكتكملة لهذا جاء تشبيه يبين ضآلة شأن الحياة الدنيا :

«واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيئ مقتدرا. المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخيرا أملا» (٤٥ - ٤٦).

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

لما كان الكافر فى المثل الأول قد أنكر البعث وقال «**وما أظن الساعة قائمة**». جاءت الآيات تُعقِّب على هذا القول وتؤكد على قيام الساعة بإيراد مشهد من مشاهدها:

«**ويوم نُسَيِّر الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعُرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة. بل زعمتم ألَّن نجعل لكم موعدا . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مالِ هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربك أحدا**» (٤٧ – ٤٩).

عداوة إبليس لبنى آدم :

بعد ذلك تشير الآيات إشارة قصيرة جدا لقصة إبليس ورفضه السجود لآدم لتبين أصل العداوة بينهما. ثم سؤال استنكارى يتعجب من هؤلاء الذين يوالونه مع أنه عدو لهم:

«**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه. أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً**» (٥٠).

واستكمالا لهذا المعنى يوضح الحق سبحانه وتعالى أنه لم يُشهد إبليس ولا ذريته خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ولم يتخذ من هؤلاء المفسدين المضلين أعوانا حتى يتخذهم الكفار شركاء يعبدونهم من دون الله.

«**ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عَضُدا**» (٥١).

وقد أرجع بعض المفسرين (الشيخ متولى الشعرواى فى أحد أحاديثه) الضمير فى «**ما أشهدتهم**» إلى البشر. وبناء على عدم رؤيتهم لهذا الحدث فهو غيب واتخذ من ذلك ذريعة للنهى عن البحث فى خلق السموات والأرض. ويُضعف هذا التفسير أن الله عز وجل قد حث على البحث فى كيفية خلق الكون «**قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**» (٢٠ – العنكبوت). وأحدث النظريات التى توصل إليها العلماء فى هذا المجال هى نظرية الانفجار العظيم Big Bang الذى حدث منذ ١٥,٠٠٠ مليون سنة والتى انبعثت عنه كل مادة الكون من مجرات ونجوم وشموس وكواكب – من نقطة متناهية فى الصغر أى من «عدم» وهو مبحث لا يتعارض مع الإيمان.

مشهد ثانٍ من مشاهد يوم القيامة :

تذكر الآيات أن الله فى يوم القيامة سيأمر الكفار بأن ينادوا على من أشركوهم مع الله فى العبادة فيدعونهم فلا يستجيبون لهم. ويتأكد الكفار أنهم مُلقَون فى النار ثم تؤكد الآيات أن القرآن به الأمثلة الكثيرة التى تحض على الإيمان ولكن الإنسان – والمقصود الكافر – من

طبعه كثرة الجدل فطلبوا من الرسول – أن لو كان صادقا – أن ينزل بهم العذاب كما نزل بالأمم السابقة :

«ويوم يقول نادوا شركائِىَ الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا (حاجزا وعداوة).**ورأى المجرمون النار فظنوا** (بمعنى فتأكدوا) **أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرِفا. ولقد صرَّفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيئ جدلا. وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلاَّ أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قُبُلا** (عيانا أمامهم)» (٥٢ – ٥٥).

ثم توضِّح الآيات أن الله يرسل رسله للتبشير والإنذار ولكن الكفار يجادلون فى آيات الله واستهزاءً يتحدون الرسل بإنزال العذاب بهم. وليس هناك أشد ظلما وحمقا ممن تليت عليه آيات الله فأعرض عنها فزادهم الله غفلة فى قلوبهم وصمما فى آذانهم حتى لا يفقهوا دعوة الحق. ثم تقرر أنه من حكمة الله ورحمته أن لم يعجل لهم بالعذاب والهلاك عسى أن يتوبوا ويؤمنوا:

«وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليُدحِضُوا به الحق واتخذوا آياتى وما أُنذروا هزوا. ومن أظلم ممَّن ذُكِّر بآيات ربه فأعرض عنها ونَسِىَ ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا. وإن تدعُهُم إلى الهدى فلن يهتدوا إذًا أبدًا. وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجلً لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا. وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا» (٥٦ – ٥٩).

قصة موسى والعبد الصالح :

ثم تذكر الآيات من ٦٠ إلى ٨٢ قصة موسى والعبد الصالح وهو الخضر. وقد فصَّلنا القصة فى الجزء الرابع (ص ١٠٦٨ – ١٠٨١).

قصة ذى القرنين ويأجوج ومأجوج :

ثم فى الآيات ٨٣ – ١٠١ تأتى قصة ذى القرنين. وقد جاءت بناء على سؤال من الكفار إذ بدأت بقول: **«ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا»**. مما يدل على أن قصته كانت متداولة فى عصر النبى ولكن البعض أراد الاستيثاق من أن النبى يعرف «كل شيئ». ويرى الدكتور محمد مبروك نافع (تاريخ العرب – عصر ما قبل الإسلام – ص ٦٧) أن ذى القرنين هو ثانى ملوك حِمْيَرَ المسمون التبابعة وسمى كذلك لضفيرتين من شعره كان يرسلهما على قرنيه أى على جانبى رأسه (انظر أيضا ص ٤). أما عن يأجوج ومأجوج فإن كتب التفسير تروى عنهم حكايات هى أقرب إلى الخيال. وقصة يأجوج ومأجوج مذكورة أيضا فى

التوراة (سفر حزقيال ٣٨ : ١). ولاشك أن العرب سمعوا قصتهم من اليهود. وقد أورد المفسرون أحاديث نبوية مختلفة الرتب عن خروج الدجال فى آخر الزمان ونزول عيسى ثم خروج يأجوج ومأجوج وأن هذه كلها من علامات الساعة.

تنديد بالكافرين :

ثم تمضى الآيات تندد بالكفار الذين اتخذوا من عباد الله آلهة يعبدونهم وتخبرهم أن الله أعد لهم منزلا فى جهنم. وأن أكثر الناس خسرانا هم الذين كانوا يعملون الشر فى الحياة الدنيا ويظنون أنهم يعملون حسنًا. وهؤلاء هم الذين كفروا بدلائل قدرة الله وأنكروا البعث. فبطلت أعمالهم واستحقوا التحقير يوم القيامة. وهذا جزاء عادل لكفرهم واستهزائهم بآيات الله وبرسله. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فجزاؤهم جنات الفردوس ينزلون فيها وينعمون أبداً ولا يريدون التحوُّل عنها:

«**أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نُزُلا. قل هل ننبِّئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبِطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا. ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلا. خالدين فيها لا يبغون عنها حِولاً**» (١٠٢ - ١٠٨).

واسع علم الله :

ولتقرير مدى سعة علم الله ضُرب هذا المثل :

«**قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا**» (١٠٩).

ولا تعارض بين هذه الآية والآية الواردة فى سورة لقمان (آية ٢٧ ص ٢٨١) والتى تقول «... **والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر**» لأن القصد فى الحالين هو تعظيم مقدار علم الله وكلماته وتقرير كونها أعظم من أن يحدها حصر.

ثم تأتى الآية الأخيرة لتقرر أن الرسول بشر مثلهم :

«**قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا**» (١١٠).

ثم نزلت سورة النحل :

والسورة نزلت فى أخريات العهد المكى وتحديداً فى أوائل السنة ١٣ من بدء النبوة أى بعد

ما طال الصراع بين المشركين والنبى ونزلت سور كثيرة فيها تهديد للمشركين بعذاب جزاء كفرهم، وكأن المشركين – لما طال الوقت قالوا: أين ما تتوعدنا به من عذاب، فردت الآيات:

«أتى أمر الله فلا تستعجلوه، سبحانه وتعالى عما يشركون» (١).

وقد ادَّعى بعض المستشرقين تعارضا بين **«أتى»** فعل ماضى ثم **«لا تستعجلوه»** للمستقبل. ولعل بعض كفار قريش فى الماضى قد آثاروا مثل هذا الاعتراض كذلك، والحقيقة أن الحدث إذا كان وقوعه مؤكدا ١٠٠٪ يمكن الإشارة إليه بفعل الماضى، كما تقول لابنك: جاء الامتحان وسنرى هل تنجح أم لا. فالآية تؤكد أن أمر الله آت لا ريب فيه. وعلى السامعين أن يتأكدوا من مجيئه فلا يستعجلوه، ثم تنزيه لله عن أن يكون له شريك فى مُلكه.

بعض نعم الله ومظاهر قدرته فى الكون :

ثم تمضى الآيات تذكر بعضا من مظاهر قدرة الله عز وجل وتُعدِّد بعضا من نعمه على العباد :

١ – وأول النعم هو إرسال الرسل لهداية البشر وإنذارهم بعذاب حتى يؤمنوا فيتقوا عذاب الله:

«يُنَزل الملائكة بالروح (أى بالوحى) **من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون»** (٢).

٢ – **«خلق السموات والأرض بالحق، تعالى عما يشركون»** (٣).

٣ – **«خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين»** (٤). فخلق الإنسان معجزة ماثلة تبدأ من نطفة سائلة وتنتهى إلى بشر يقدر على الخصومة بل واللدد فيها.

٤ – **«والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين»** (٥ – ٩).

والمعنى أنه كما كان من رحمة الله تسهيل وسائل انتقالهم كذلك شاءت رحمته أن يبين للناس الطريق المستقيم الذى يوصل للحق، لأن من الطرق ما هو منحرف وجائر لا يوصل للحق، ولو شاء الله لهدى الناس جميعا قسرا ولكن شاءت إرادته أن يترك ذلك لاختياراتهم ليكون لهم ثواب عليها.

٥ – **«هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون** (أى ترعون أنعامكم)**. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون»** (١٠ – ١١).

٦ – **«وسخَّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجومُ مسخَّرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون»** (١٢).

٧ – **«وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكَّرون»** (١٣).

٨ – **«وهو الذى سخَّر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»** (١٤).

٩ – **«وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون»** (١٥).

ويرى الجغرافيون المعاصرون (دكتور زغلول النجار. الأهرام ٢٠٠٢/١٢/٩) أن فى هذه الآية عدة نقاط تعتبر من الإعجاز العلمى للقرآن. فوصف الجبال بأنه **«إلقاء»** فيه إشارة إلى طريقة تكوينها. فبعضها – الجبال البركانية – تتكون من الطفوح البركانية التى تحدث أثناء ثورات البراكين التى تلقى بملايين الأطنان من الحمم والصخور البركانية التى تتراكم حول فوهة البركان وترتفع لتكون جبلا. ومن هذا النوع جبال أرارات فى تركيا وبركان فيزوف فى إيطاليا. وطريقة أخرى لتكوين الجبال هى الثنيات التى تحدث فى القشرة الأرضية فتلقى بأجزاء منها إلى أعلى مكونة سلاسل من الجبال تسمى بالجبال المطويَّة. أما كلمة **«رواسى»** للتعبير عن الجبال ففيه أيضا إعجاز إذ علم مؤخرا أن الجزء من الجبال البارز فوق سطح الأرض ليس إلا القمة الظاهرة لكتلة هائلة من الصخر تمتد فى عمق القشرة الأرضية وتعمل على تثبيت الجبال فى أماكنها. كما أن توزيع الجبال فى أنحاء العالم قد تم بمنتهى الدقة حتى يحقق عدم اهتزاز الأرض أو ترنحها أثناء دورانها **«أن تميد بكم»**. أما الأنهار فتتكون من نزول ماء المطر وجريانه فى السهول والمنخفضات بين الجبال. وتوفر الماء الذى يشرب منه البشر والدواب ويروى به الزرع. كما أنها مع الأرض المنبسطة على جوانبها تُكوِّن طرقا وسبلا لمسير البشر وانتقالاتهم **«وأنهارا وسبلا»**.

١٠ – **«وعلامات وبالنجم هم يهتدون»** (١٦).

ولقد كانت الأجرام السماوية منذ فجر الحضارة – وما تزال – عاملا يهتدى بها الإنسان فى سفره برا وبحرا. ويستعان برصد الشمس والقمر والنجوم الثوابت على الأخص فى تعيين موقع المسافر وتحديد اتجاهه. ومع تقدم العلم أصبحت الملاحة البحرية والجويِّة فنا دقيقا يعتمد على أجهزة رصد وجداول معقدة ولكنها تعتمد فى المقام الأول على رصد الأجرام السماوية.

١١ – **«أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكَّرون»** (١٧).

ثم تختم هذه الفقرة بتقرير عجز الإنسان عن تعداد نعم الله وإحصائها فضلا عن شكرها ولكن الله غفور يغفر للإنسان تقصيره فى هذا المجال:

«وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم» (١٨).

ولقد جاء تعداد نعم الله على العباد فى سور كثيرة سابقة إلا أن حكمة التنزيل اقتضت تكراره لتكرر المواقف وتنوعها. وهى فى السورة الحالية من أطول الفقرات التى تلفت أنظار الناس إلى نعم الله عليهم والتفكر فى هذه النعم يؤدى إلى التيقن من أن وراء هذه المشاهد الكونية والنواميس العظيمة المتقنة الصنع إله قادر حكيم يجب الخضوع له والإيمان برسله وكتبه والتزام حدود شرائعه. وفى الفقرة مواءمة - يضيق المجال عن التوسع فيها ويكفى الإشارة إليها - بين النعمة التى ذكرت وبين ما ختمت به كل آية من الآيات ١١ - ١٥: يتفكرون - يذكّرون - تشكرون - يهتدون.

إثبات عجز آلهة الكفار :

بعد هذا التعداد لنعم الله الموجبة لعبادته وحده. يجئ تقرير لإحاطة علم الله بكل شيئ حتى بسرائر النفوس. ثم يجئ إثبات عجز الآلهة والأصنام التى يعبدها الكفار. فهى لا تخلق شيئا بل إنها هى نفسها مخلوقة وقد صنعها الناس بأيديهم من حجارة أو خشب فهى جماد ميت ولا تدرى متى تكون القيامة. أما وقد وضح بكل الدلائل أن الله واحد. ولايزال الكفار ينكرونه ويستكبرون. ولاشك أن الله يعلم ما تكنه نفوسهم وما يعلنونه من رفض للدين والله لا يحب هذا الاستكبار منهم والمفهوم أنه سيجازيهم عليه:

«والله يعلم ما تسرُّون وما تعلنون. والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون. أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون. إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون. لا جرم (لاشك) أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين» (١٩ - ٢٣).

موقف الكفار من آيات الله وموقف المؤمنين :

أ - **«وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين. ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يَزِرُون. قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرَّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون. ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائِىَ الذين كنتم تُشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم** (من الأنبياء والملائكة) **إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين. الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقَوا السَلَمَ ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون. فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين»** (٢٤ - ٢٩).

ب – وفى مقابل هذا يُذكر حال المؤمنين :

«وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين. جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزى الله المتقين. الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون» (٣٠ – ٣٢).

ماذا ينتظر الكافرون ليؤمنوا ؟

أما وقد وَضَح موقف الكفار يوم القيامة وفى مُقابله النعيم الذى ينتظر المؤمنين فيأتى سؤال للكفار يسألهم عما ينتظرون لكى يؤمنوا: هل ينتظرون مثلا أن تأتيهم الملائكة؟ أو ينزل عذاب الله وأمره كما نزل بالذين من قبلهم. ثم تذكر الآيات بعض جدالهم مع النبى ويلقِّن الردود عليهم:

«هل ينظرون إلا أن تأتِيَهُم الملائكة أو يأتِيَ أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. فأصابهم سيئاتُ ما عملوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون. وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيئ نحن ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من دونه من شيئ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين. ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يُضل وما لهم من ناصرين. وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ليُبيِّن لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين. إنما قولنا لشيئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون» (٣٣ – ٤٠).

تنويه بمن هاجروا إلى الحبشة :

وفى الفقرة التالية تنويه بمن هاجروا إلى الحبشة بسبب ما وقع عليهم من أذى وظلم. فآثروا الاغتراب تمسُّكا بدينهم. وتبشرهم الآيات بأن الله سييسر لهم المقام الحسن فى الدنيا ولهم فى الآخرة ثواب أكبر. ولاشك أن هؤلاء المهاجرين كانوا يشعرون بالحزن والأسى لبعدهم عن رسول الله ومفارقتهم لأهلهم ولبلادهم. ولعلهم كانوا يظنون أن أمنهم فى بلد المهجر وعدم تعرضهم لمضايقات قريش قد ينقص من أجرهم عند الله فنزلت الآيات تبث فى نفوسهم الطمأنينة من هذه الناحية.

«والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظُلِموا لنبوئنَّهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون» (٤١ – ٤٢).

قريش تعترض على بشرية الرسول :

ما فتئ كفار قريش يعترضون على بشرية الرسول ويدّعون أن لو كان الله مرسلا رسولا لكان من الملائكة. وترد الآيات بأن الرسل السابقين كلهم كانوا رجالا من البشر وليتأكدوا من ذلك فعليهم بسؤال أهل العلم بالكتب السماوية. وقد أيَّد الله رسله بالمعجزات والدلائل المبينة لصدقهم. وبالمثل أُنزل إلى النبى القرآن ليبين للناس ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام وتدعوهم الآيات إلى التدبر فيه:

«وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فَسْألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون. بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون» (٤٣ - ٤٤).

تساؤلات تندّد بالكفار :

ثم تجئ الآيات بعدة تساؤلات الهدف منها التنديد بتكذيب الكفار وإصرارهم على عدم الإيمان ومضيهم فى إيذاء النبى والمسلمين وكأنها تسأل: هل أغراهم حِلْمُ الله بهم أن يفعلوا ما يفعلون؟

١ - **«أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون»** (٤٥).

٢ - **«أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين»** (٤٦). أى يهلكهم أثناء تنقلهم فى الأرض للتجارة بعيدين عن مساكنهم ولا يستطيعون الإفلات من عذاب الله.

٣ - **«أو يأخذهم على تخوُّفٍ فإن ربكم لرؤوف رحيم»** (٤٧). أى أن فى قدرة الله إنزال العذاب بهم بالرغم من أنهم كانوا يتخوّفون من العذاب ويرجون عدم نزوله ولكن اقتضت رأفة الله ورحمته عدم التعجيل لهم به فى الدنيا ويترك لهم المجال لإعادة التفكير لعلهم يؤمنون.

٤ - **«أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيئ يتفيَّؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سُجَّدًا لله وهم داخرون»** (٤٨). والآيات تندد بغفلة الكفار عن أن يروا آية الله فى حركة الشمس الظاهرية ومما ينتج عنها من انتقال الظل فهو يمتد تارة يمينا وتارة شمالا وكل ذلك منقاد لإمر الله وتدبيره وهذا هو سجودهم أى لا يخرجون عن إرادته.

«ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون. يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون» (٤٩ - ٥٠).

فإذا كان الأمر كذلك فلا يجب أن يُعبد غير الله. وهذا ما نصت عليه الآية التالية:

«وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين. إنما هو إله واحد فإياى فارهبون. وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصبا (ثابتا) **أفغير الله تتقون»** (٥١ - ٥٢).

جحود الكافرين وافتراءاتهم على الله :

وبالرغم من أن كل ما يرفل فيه الكفار من نعم الدنيا هى من الله :

«وما بكم من نعمة فمن الله» إلا أن جحود الكافرين يظهر فى بعض تصرفاتهم:

١ - **«ثم إذا مسَّكم الضر فإليه تجأرون. ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون. ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون»** (٥٣ - ٥٥). والجحود فى هذا المسلك واضح وسبق ذكره فى سور سابقة.

٢ - **«ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون»** (٥٦). وكان المشركون يجعلون لأوثانهم نصيبا من الأنعام يتقربون بها إليها وسيسألهم الله عن هذا الافتراء.

٣ - **«ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون. وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مُسوداً وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيمسكه على هُون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون. للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السَوْء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم. ولو يؤاخذ الله الناسَ بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمًّى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مُفرَطُون»** (٥٧ - ٦٢).

لاشك أن النبى كان يتألم مما عليه الكفار من جحود فجاءت الآيات تُسرِّى عنه وتؤكد له أن الله أرسل رسله إلى أمم من قبله ولكن الشيطان زيَّن لهم أعمالهم وتولى أمرهم فى الدنيا فأضلهم. وفى الآخرة لهم عذاب أليم. ثم تذكر الآيات أن القرآن لم يُنزل عليه إلا ليبين للناس الحق الذى كان موضع خلافهم وليكون هداية للناس:

«تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزيَّن لهم الشيطان أعمالهم (السيئة فرأوها حسنة) **فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم. وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»** (٦٣ - ٦٤).

بعض نعم الله ومظاهر قدرته :

١ - **«والله أنزل من السماء ماء** (هو المطر) **فأحيا به الأرض بعد موتها. إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون»** (٦٥).

٢ - **«وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين»** (٦٦).

٣ - **«ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكَرًا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون»** (٦٧).

٤ - **«وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذُللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون»** (٦٨ - ٦٩).

والآيات تعدِّد الأماكن التى يتخذ منها النحل مكانا لخلاياه: كهوف الجبال وفجوات الشجر ومن عرائش المنازل والكروم ثم تذكر كيف أن النحل يطير ليمتص رحيق الأزهار المختلفة ثم تعود ثانية إلى مكان خلاياها مع أنها قد تكون بعدت عنها - حسب ما قدَّر علماء الحشرات - مسافة ٢كم أو أكثر ولكنها تعرف سبيلها بما ذلَّل الله لها من حواس تهتدى بها **«فاسلكى سبل ربك ذللا»**. قالوا تسترشد باتجاه الشمس أو بخطوط المجال المغناطيسى للأرض أو بأشياء أخرى لا نعرفها. ثم يخرج منها العسل مختلفا ألوانه حسب أنواع الزهور التى امتصتها. وقد أثبت العلماء المعاصرون لعسل النحل فوائد علاجية تشفى كثيرا من الأمراض.

٥ - **«والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يُرَد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير»** (٧٠).

٦ - **«والله فضَّل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فُضلوا برادِّى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون»** (٧١).

فالله قد جعل رزق السيد المالك أفضل من رزق مملوكه ولن يعطى السادة نصف رزقهم لعبيدهم ليصبح الكل سواء. والمعنى أنه إذا كان الكفار لا يرضون مشاركة العبيد لهم فى الرزق الذى جاءهم من عند الله مع أنهم بشر مثلهم فكيف يرضون أن يشركوا مع الله بعض مخلوقاته ويساوونهم به فى العبادة!

٧ - **«والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات. أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون»** (٧٢).

فالله جعل الأزواج سكنا للرجال ومن التزاوج يأتى البنون والحفدة وهم من متع الدنيا. وتتساءل الآيات عما يدعو الكافرين لنكران هاتين النعمتين والجرى وراء الباطل.

وتستنكر الآيات - بعد كل ما عددته من النعم السابقة - أن يعبد الكفار من دون الله أصناما لا تستطيع توفير الرزق لهم لأنها لا تملك شيئا فى السماء أو الأرض.

«ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون» (٧٣).

ولما كان الأمر كذلك فلا يجب أن يجعلوا لله أمثالا وأندادا يعبدونهم. وتضرب الآيات مثلا يوضِّح ما عليه المشركون من فساد رأى: عبد مملوك لا يقدر على فعل شيئ ورجل حر رزقه الله رزقا طيبا فهو ينفق منه فى السر والعلن فهذان لا يستويان:

«فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون. ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر

على شيئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا، هل يستوون، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون» (٧٤ - ٧٥).

ثم يضرب الله مثلا آخر: رجلان أحدهما أخرس أصم لا يفهم وكلما كُلِّف بعمل لا يقوم به فهو عبء على سيده والآخر فصيح يأمر بالعدل ويشير بالخير ويفعل ما يؤمر به لأنه يسلك الطريق المستقيم. ومن البديهى أنهما لا يستويان:

«وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيئ وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير. هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم» (٧٦).

ومادام الأمر كذلك فمن البديهى عدم تساوى أحد مع الله سبحانه وتعالى فى قدرته فعند الله علم ما خفى عن الناس من شئون السموات والأرض والساعة آتية وما شأنها فى سرعة الوقوع إلا كلمح البصر أو أقل لأن قدرة الله ليس لها حدود:

«ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيئ قدير» (٧٧).

ثم تعود الآيات لتستكمل بعضا من نعم الله على العباد وبعض مظاهر قدرته التى بدأتها فى الصفحة قبل السابقة.

٨ - **«والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون»** (٧٨).

٩ - **«ألم يروا إلى الطير مُسخَّرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون»** (٧٩).

١٠ - **«والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفُّونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين»** (٨٠).

١١ - **«والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تُسلِمون»** (٨١).

بعد هذا التعداد لنعم الله ومظاهر قدرته - وإذ لم يؤمنوا - تأتى تسرية للنبى بإخباره أنه غير مسئول عنهم وكل ما عليه هو البلاغ المبين. لأنهم يعرفون نعمة الله عليهم ومع ذلك ينكرونها وهم بها كافرون:

«فإن تولَّوا (ظلُّوا على إعراضهم) **فإنما عليك البلاغ المبين. يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون»** (٨٢ - ٨٣).

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

«ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يُستعتبون. وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم يُنظرون. وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون. وألقوا إلى الله يومئذ السلم (أى استسلموا لحكمه) **وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون. الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون. ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تِبيانا لكل شيئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»** (٨٤ – ٨٩).

والآيات تصف ما سيكون عليه حال الناس يوم القيامة. ففى ذلك اليوم تقف كل أمة للحساب ويؤتى بنبيِّها شهيدا عليها ولا يؤذن بالجدل أو تقبل الأعذار. وحينما يرى الكفار أن العذاب واقع بهم يهتفون قائلين إن الشركاء كانوا سبب ضلالهم ظانين أن ذلك يخفف عنهم بعضا من العذاب ولكن الشركاء يجحدونهم فتتولاهم الخيبة ولا يجدون مناصا من الاستسلام والاعتراف بذنبهم. أما الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله فلهم عذاب مضاعف أولا لضلالهم وثانيا لإفسادهم وحملهم غيرهم على الكفر. وفى ذلك اليوم سيأتى الله بشاهد من كل أمة يشهد عليها ويؤتى بالنبى شاهدا على قريش والعرب وقد آتاه الله القرآن مبينا لكل شيئ وهدى ورحمة وفيه بشرى للمسلمين.

من مكارم الأخلاق :

ثم تجيئ آيات فيها من مكارم الأخلاق ما يصلح به أمر العباد فى الدنيا. إذا اتبعها المؤمنون صاروا أكثر ترابطا وأكثر قوة. وإذا سمعها الكافرون فإنهم جديرون باتباعها لأنها من الأخلاق الحميدة والعرب يعظمون من يتحلَّى بها:

«إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تَذَكَّرون. وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى (أقوى) **من أمة. إنما يبلوكم الله به ولَيبيِّنَنَّ لكم يوم القيامة ماكنتم فيه تختلفون. ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألُن عما كنتم تعملون. ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزِل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم. ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون. ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزينَّ الذين صبروا أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون. من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسنِ ماكانوا يعملون»** (٩٠ – ٩٧).

والآيات تؤكد على ضرورة الوفاء بالعهود التى يقطعها الناس على أنفسهم وخاصة إذا أشهدوا الله على الوفاء بها. وتنهى عن الحنث بالأيمان حتى لا يكونوا مثل المرأة المجنونة التى تغزل الصوف غزلا محكما ثم تعود فتنقضه وتتركه محلولا. باتخاذهم من إيمانهم وسيلة لخداع الآخرين فإنه بسبب نقض الأيمان تزل الأقدام وتبعد عن الطريق القويم.

تعظيم القرآن الكريم :

«فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون. وإذا بدلنا آية مكان آية (لما فيه من مصلحة للعباد) **والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون. قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين. ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر. لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين. إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم. إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون»** (٩٨ - ١٠٥).

وتبدأ هذه الفقرة بأمر للنبى - ولكنه أمر عام لجملة المسلمين - بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن الكريم وتوكيد على أن الشيطان ليس له سلطان على المؤمنين. وفى هذا رد على الكفار إذا ما احتجوا بأن الشيطان هو الذى أضلهم لأنهم هم الذين اتخذوه وليا فأضلّهم. ثم ترد الآيات على ما كان الكفار يقولونه إذا ما سمعوا النبى يقدم آية على آية أو يقول ضعوا هذه الآية فى الموضع كذا من سورة كذا فيقولون إن القرآن من تأليفه وأنه يبدّل فيه كما يشاء ويفترى على الله بقوله إنه وحى. كذلك ترد الآيات على من تقوّلوا على النبى بأنه كان يستمع إلى غلام عند حويطب بن عبد العزى وكان صاحب كتب وعلم - وجبرا الرومى غلام عامر بن الحضرمى وكان يصنع السيوف ويقرأ التوراة والإنجيل. فادعى الكفار أن النبى أخذ منهما. والدليل على فساد هذه الافتراءات أن هؤلاء من الأعاجم الذين لا يحسنون العربية فى حين أن القرآن جاء بلغة عربية وبالغ الفصاحة حتى إن أساطين العرب عجزوا عن محاكاته.

متعمد الكفر والمكره عليه :

«من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم. ذلك بأنهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون. لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون. ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما

فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم. يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتُوفَّى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون» (١٠٦ – ١١١).

وفى الآيات إعلان لغضب الله على الذين كفروا عن عمد بعد إيمانهم وتعفو عمَّن أُكره على الكفر فإن الله غفور رحيم. وقالوا إن هذه الآية نزلت فى حق عمار بن ياسر الذى عذّبه المشركون حتى نطق بكلمة الكفر فخلوا عنه فجاء إلى النبى واعترف له فسأله النبى: كيف تجد قلبك؟ قال مطمئنا. فقال له: إن عادوا فعُد. ولاشك أنه بعد بدء هجرات المسلمين إلى يثرب بدأ الكفار حملة تعذيب للمسلمين الذين تحت أيديهم فبعضهم كفر مُكرها تخلُّصا من العذاب فطمأنتهم الآيات بأن الله غفور رحيم. وطمأنت أيضا الذين هاجروا وتعدهم بالخير فى يوم القيامة.

الكفر بالنعمة يهدد بسلبها :

«وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. ولقد جاءهم رسول منهم فكذّبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون» (١١٢ – ١١٣).

والآيات تضرب مثلا بقرية كان أهلها فى أمن من العدو وطمأنينة من ضيق العيش فجحدوا نعمة الله فعاقبهم الله بضيق العيش وتسليط العدو عليهم فلم يهنأ لهم العيش. وجاءهم رسول منهم وكان الواجب عليهم إطاعته واللجوء إلى الله كى يرفع عنهم البلاء ولكنهم كذّبوا الرسول فأخذهم العذاب بظلمهم. ويرى بعض المفسرين أن هذا المثل يقصد مكة وكفارها. فهى بلد أنعم الله عليه بالأمن والطمأنينة ورزقها يأتيها وافرا من قوافل الحجاج التى تأتى من كل مكان لحج بيت الله الحرام، ولما جاءهم الرسول كذبوه. وقد روى أن النبى دعا عليهم بعد هجرته بسنين كسنى يوسف فجاعوا حتى أكلوا الجيف. وهذا يقتضى أن تكون الآيات مدنية مع أنها مكية. وفريق آخر يرى أنه طرأ على مكة فى عهد النبى مجاعة فجاء بعض زعماء مكة إلى النبى وطلبوا منه أن يدعو الله يكشف عنهم القحط. وبعد كشفه عادوا إلى موقفهم المناوئ للرسول فالآيات تحذرهم من عذاب يأخذهم بظلمهم.

الحلال والحرام فى المأكل :

«فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون. إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم. ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب (ولا تقولوا كذبا من عند أنفسكم) **هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. متاع قليل ولهم عذاب أليم. وعلى الذين هادوا حرّمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا**

أنفسهم يظلمون. ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم» (١١٤ – ١١٩).

وقد جاء الأمر بذكر اسم الله عند ذبح الذبائح للأكل – وبالتالى تحريم مالم يذكر اسم الله عليه – فى سورة الأنعام (الآية ١١٨ ص ٢٦٦). وبخصوص تحريم الميتة والدم فقد روى عن ابن ماجة عن ابن عمر أن النبي قال: أُحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال. والحوت يعنى السمك مطلقا.

وكان العرب فى تقريرهم للحرام فى المأكل يزعمون أنهم يتبعون فى ذلك ما أُثِر عن ملة إبراهيم. فجاءت الآيات تقرر أن النبى يتبع ملة إبراهيم وأن ما يحله هو من سنة إبراهيم كذلك:

«إن إبراهيم كان أمة (إماما) **قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين. شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين. إنما جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون»** (١٢٠ – ١٢٤).

والآية الأخيرة تشير إلى اختلاف اليهود والنصارى حول يوم الراحة. فالأصل أن موسى عليه السلام جعل السبت هو يوم العبادة. وجاء النصارى فى زمن قسطنطين فتحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود. وقد ذكرنا ذلك فى الجزء الرابع ص ١٠٨١.

حث على جدال الكفار بالحسنى :

«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن. إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين. وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون. إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» (١٢٥ – ١٢٨).

ويرى المفسرون أن النبى – وقد مضى على بدئ الدعوة ما يزيد عن ١٢ عاما – لابد قد ضاق بتكذيب قريش وبدأ يشتد فى جدالهم فنزلت الآيات تأمر بالتزام الحكمة والموعظة الحسنة فى الدعوة إلى الله وجدالهم بالحسنى وإيكال الأمر بعد ذلك إلى الله فهو الذى يعلم من سيهتدى ومن سيبقى على ضلاله. ولعل بعض المسلمين فى مكة قالوا أن لو أذن لهم الرسول لانتقموا من الكفار باغتيال بعض زعمائهم انتقاما لما أنزلوه من عذاب ببعض إخوانهم فجاءت الآيات تنهى عن ذلك وتبين أنه فى حالة الانتقام يكون رد الفعل مساويا للفعل والأولى الصبر وترك الأمر لله يدبره كيف يشاء وسيؤيد الله الذين آمنوا. وفى ختام السورة يجئ حث للنبى على الصبر وألاَّ يحزن عليهم لتكذيبهم وألا يضيق بما يمكرون. ولعل مجئ سورة نوح بعد ذلك كانت لبيان مدى صبر نوح على قومه إذ بقى فيهم ٩٥٠ عاما يدعوهم إلى الله.

سورة نـوح :

وهى سورة قصيرة واقتصرت على قصة نوح مع قومه يدعوهم إلى الله وينذرهم بما قد يحل عليهم من انتقام من الله. ولعل أقوال نوح ونصحه لقومه تشبه أقوال النبى لقريش ونصحه لهم وتحذيرهم من عذاب قد ينزل بهم من جراء تكذيبهم. ثم تذكر الآيات فقدان نوح لصبره وتذمره من إعراض قومه ودعائه عليهم بالهلاك لأنهم بلغوا من العناد والكفر حدا لا أمل فى إصلاحهم ولا فى صلاح نسلهم. وفى هذا دعوة مستترة لكفار قريش أن يحمدوا الله أن «محمدا» لم ينفذ صبره رغم ما آذوه – قولا وعملا – وبقى عنده أمل أن يهتدوا فلم يدعُ عليهم ليهلكوا. ولو فعل لهلكوا مثل قوم نوح. وقد رُوى أنه لما اشتد الأذى بالرسول جاءه جبريل وقال له: لو أردتَ لأطبقتُ عليهم الأخشبين. وهما جبلا مكة فرفض النبى وقال إنه يرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله.

«إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم» (١).

ثم كانت دعوة نوح لقومه وتحذيره لهم من عذاب قد ينزل بهم:

«قال ياقوم إنى لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون» (٢ –٤).

ثم ضاق بهم نوح ذرعا وشكا إلى الله :

«قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا. فلم يزدهم دعائى إلا فرارا. وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا. ثم إنى دعوتهم جِهاراً. ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا» (٥ –٩).

ثم حاول نوح استمالتهم ببيان الخير الذى قد ينالهم إذا آمنوا :

«فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا» (١٠ –١٢).

وراح يذكرهم بقدرة الله :

«ما لكم لا ترجون لله وقاراً (لا تعظِّمون الله حق عظمته)**. وقد خلقكم أطواراً. ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا. وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا. والله أنبتكم من الأرض نباتا. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا. والله جعل لكم الأرض بساطا. لتسلكوا منها سبلا فجاجا** (واسعة)**»** (١٣ – ٢٠).

وفى الآيات تفرقة بين الشمس بوصفها سراجا والقمر نورا. كما جاء فى سورة الفرقان (آية ٦١ ص ١٤٦) **«وجعل فيها** (فى السماء) **سراجا** (الشمس) **وقمرا منيرا»** وكذلك فى سورة يونس (آية ٥ ص ٢٢٩) **«هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا»** وقلنا إن العلماء

المعاصرين يرون فيها إعجازا علميا إذ أن الشمس فيها احتراق كالسراج عبارة عن عمليات انشطار واندماج نووى ترفع حرارتها إلى ملايين الدرجات المئوية فتشع ضوءا وحرارة أما القمر فنوره انعكاس لضوء الشمس على سطحه وهذا لم يعرف إلاَّ مؤخرا.

ثم عاد نوح يشكو إلى ربه عصيان قومه وتمسكهم بآلهتهم وأصنامهم:

«قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا. ومكروا مكرا كُبَّارا. وقالوا لا تَذَرُن آلهتكم ولا تذرن وَدًّا ولا سُوَاعًا ولا يَغوث ويَعُوق ونَسْرا. وقد أضلُّوا كثيرا ولا تَزِدِ الظالمين إلا ضلالا» (٢١ - ٢٤).

وتبين الآيات ما حاق بهم بدعوة نوح عليهم:

«مما خطيئاتهم أغرقوا فأُدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا. وقال نوح رب لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين ديَّارا (أى نازل دار والمعنى أحدًا)**. إنك إن تذرهم يُضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا. رب اغفر لى ولوالدىَّ ولمن دخل بيتِىَ مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا** (أى هلاكا)» (٢٥ - ٢٨).

ثم نزلت **سورة إبراهيم :**

وتبدأ السورة بالأحرف المتقطعة الر بعدها تنويه بالقرآن بوصفه كتابا يُخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. ثم تمجيد لله سبحانه وتعالى ثم إنذار شديد للكافرين:

«الَر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد. الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد. الذين يستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك فى ضلال بعيد. وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم» (١ - ٤).

جانب من قصة موسى :

«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكِّرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور. وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم. وإذ تأذَّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد. وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد» (٥ - ٨).

وهكذا تطابقت رسالة النبى مع رسالة موسى فى إخراج قومهما «من الظلمات إلى النور» ثم راح موسى يُذكِّر بنى إسرائيل بنعمة الله إذ أنجاهم من تسخير المصريين لهم ومن ذبح

الفرعون وجنده لأبنائهم. ثم تقرير لما يمكن أن يكون قاعدة عامة وسنة من سنن الله تلك هي أن شكر النعمة يزيدها كما أن الناس كلهم لو كفروا فلن يضر ذلك الله شيئا لأنه غنى عن العباد محمود بذاته.

مسلك الأقوام السابقين مع رسلهم :

«ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله. جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب. قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى. قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدُّونا عما كان يعبد آباؤنا فأْتونا بسلطان مبين. قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمنُّ على من يشاء من عباده. وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون. وما لنا ألاَّ نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون. وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودُنَّ فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكنَّ الظالمين. ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد. واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد. من ورائه جهنم ويُسقى من ماء صديد. يتجرعه ولا يكاد يُسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ» (٩ - ١٧).

والخطاب فى «ألم يأتكم» موجه إلى كفار قريش وفيه توبيخ لأنهم كانوا يعرفون أخبار نوح وعاد وثمود وخاصة الأخيرة إذ كانت قوافلهم إلى الشام تمر على مدائن صالح. وتحكى الآيات ما كان بين الرسل وأقوامهم من أخذ ورد وجدال وتحد وتهديد ووعيد. **«فردُّوا** (أى الكفار) **أيديهم فى أفواههم»** قيل وضعوا أيديهم على أفواههم استغرابا واستنكارا. وقيل وضعوها ليعضوا عليها من شدة الغيظ وأرجع البعض الضمير فى أفواههم إلى الرسل فيكون المعنى أن الكفار حاولوا منع الرسل من الكلام. واحتجاج الكفار بأن الرسل ما هم إلا بشر جاء أيضا على لسان كفار قريش. وكان رد الرسل عليهم أن قرروا بشريتهم ولكن الله اختارهم لتبليغ رسالته. وعاد الكافرون يهددون الرسل بإخراجهم فكان أن أهلك الله الكافرين وخاب تدبيرهم وينتظرهم فى الآخرة عذاب أليم فى جهنم.

وتمضى الآيات تضرب المثل لأعمال الكفار بأنها لا وزن لها ولا جدوى من ورائها وتهددهم بالهلاك وبقدرة الله على الإتيان بقوم آخرين يؤمنون:

«مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيئ ذلك هو الضلال البعيد. ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وما ذلك على الله بعزيز» (١٨ - ٢٠).

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

وفى هذا المشهد يدور جدال بين ضعفاء الكافرين التابعين وبين الوجهاء الذين قادوهم إلى الكفر وكل فريق يحاول إلقاء التبعة على الفريق الآخر. كما أن الشيطان سيتنصَّل من تبعة إضلالهم وسيكون للجميع عذاب أليم فى حين يثاب المؤمنون بجنات النعيم:

«وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيئ قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجَزِعنا أم صبرنا مالنا من محيص (من مهرب). **وقال الشيطان لما قُضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لِىَ عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بِمُصْرِخِكُم** (أى بمغيثكم) **وما أنتم بمُصرخِىَّ إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم. وأُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام»** (٢١ – ٢٣).

مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة :

«ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء. تؤتى أُكُلَها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتُثت من فوق الأرض مالها من قرار. يُثَبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويُضل اللهُ الظالمين ويفعل الله ما يشاء» (٢٤ – ٢٧).

والكلمة الطيبة فى هذا المثل تعنى الإيمان والعمل الصالح. أما الكلمة الخبيثة فهى الكفر وكلمة الباطل. ثم تقرر الآيات أن الله يُثَبِّت الذين آمنوا على إيمانهم فى الحياة الدنيا ويلقنهم الحجة فى الآخرة. أما الظالمون المكذبون فيزيدهم الله ضلالا على ضلالهم.

تنديد بزعماء المشركين :

ثم تمضى الآيات تندد بسادة قريش وزعمائها الكفار لصدِّهم عن الدين :

«ألم تر إلى الذين بدَّلوا نعمة الله كُفرا وأحلُّوا قومهم دار البوار. جهنم يصلَوْنها وبئس القرار. وجعلوا لله أندادا لِيُضِلوا عن سبيله. قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار» (٢٨ – ٣٠).

والآيات – على قصرها – تندد بقوة بزعماء كفار قريش لإعراضهم عن النعمة الكبرى التى أرسلها الله إليهم وهى رسوله الكريم ليهديهم. وبدلا من الإيمان كفروا وقادوا قومهم إلى الكفر. وفى الآيات تقرير لمسئولية الزعماء وقدرتهم على توجيه قومهم فى الطريق الصحيح أو طريق الضلال وزعماء قريش قادوا قومهم فى طريق الشرك وسيكون مصيرهم إلى النار هم وقومهم.

حث على الصلاة والصدقة وتذكير ببعض نعم الله ومظاهر قدرته :

«قل لعبادِىَ الذين آمنوا يُقيموا الصلاة ويُنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خِلال. الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار. وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار» (٣١ – ٣٤).

وفى الآيات حث على إقام الصلاة والإنفاق على الفقراء والمحتاجين مما يدل على أن المسلمين فى مكة كان منهم ميسورو الحال ومنهم الفقراء. صحيح أن الزكاة كما نعرفها الآن لم تكن شرعت بعد ولكن كان حث على التصدق على المحتاجين من باب التكافل الاجتماعى. و**«يوم لا بيع فيه ولا خلال»** أى لا ينتفع فيه ببيع ولا تنفع فيه صداقة ولا خلة وذلك كناية عن يوم القيامة أى أن هذا الانفاق فى السر والعلن سيكون ذخرا لفاعله يوم القيامة. ثم يأتى تذكير بقدرة الله فى خلق السموات والأرض وإنزال المطر وإنبات الزرع. وعلَّم الإنسان صنع السفن التى تجرى فى البحار وسخر الأنهار وماءها العذب وسخَّر الشمس والقمر دائمين وسخَّر الليل والنهار يتعاقبان. « **وآتاكم من كل ما سألتموه** ». وسؤال الأشياء لا يقتصر على الطلب باللسان بل قد يكون سؤال احتياج كأن يفكر الإنسان فى أشياء تسهل له معاشه فيهديه الله لها. كما فكَّر الإنسان فى وسيلة للانتقال أسرع من الحيوان فهداه الله لاختراع السيارة. وفكَّر فى شيئ يطير فى الجو فهداه إلى قوانين الطيران فاخترع الطائرة وقس على ذلك فى جميع مناحى الحياة . هذا بالإضافة إلى السؤال المباشر كأن يطلب إنسان الصحة أو الولد أو المال فيحقق الله ما يشاء لمن يشاء. ونِعَمُ الله على العباد كثيرة ولن يستطيعوا شكرها.

دعاء إبراهيم لمكة ولذريته :

ثم تذكر الآيات جانبا من قصة إبراهيم عليه السلام مُركَّزة على دعوته لمكة بالأمن والأمان وتجنب الأصنام.ودعاءه لفتح أبواب الرزق لذريته التى أسكنها فى وادى مكة وهى لاتزال أرضا قاحلة قبل تفجر ماء زمزم. وهو ما ذكرناه فى الجزء الثانى (ص ٢٩٧ – ٣٠٣) ثم حمدٌ لله على نعمة الولد. ثم دعاء للتوفيق لحسن العبادة وأخيرا طلب للمغفرة:

«وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبَنِىَّ أن نعبد الأصنام. رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم. ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون. ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيئ فى الأرض ولا فى السماء. الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء. رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء. ربنا اغفر لى ولوالدىَّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب» (٣٥ – ٤١).

ولما كان العرب يفتخرون بالانتساب إلى إبراهيم وأنهم من ذريته فإن الآيات توضح لهم أن الرزق الذى ينعمون فيه هو ثمرة لدعائه **«وارزقهم من الثمرات»** وعليهم أن يحققوا الشطر الآخر من دعائه **«واجنبنى وبنىَّ أن نعبد الأصنام»**.

إنـذار الكفـار :

«ولا تحسبن الله غافلا عما يعملُ الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار. مهطعين (مسرعين) **مقنعى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم** (لا تطرف عيونهم من شدة الهلع) **وأفئدتهم هواء** (خواء من شدة الاضطراب)**. وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخِّرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل. أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال. وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال. وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال. فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام. يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار. وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد. سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار. ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب»** (٤٢ - ٥١).

والآيات فيها تطمين للنبى فلا يظن أن الله غافل عما يفعل الكفار بل هو يحصى عليهم أعمالهم ويؤخرهم إلى يوم القيامة وفيه سوف تزيغ أبصارهم ويأتون منكسين رؤوسهم من الذل ولا تطرف عيونهم من شدة الهلع وقلوبهم خواء مضطربة من الهول. وتحث الآيات الرسول على الاستمرار فى الدعوة وإنذار الناس قبل أن يأتيهم العذاب وحينئذ يطلب الكافرون إمهالهم مدة أخرى يتلافون فيها أمرهم ويؤمنوا. ويُرَدُّ عليهم بتأنيب وتذكرة بما كان منهم من سابق تكذيبهم فى الحياة الدنيا. وحذَّرهم الله بما قصَّ عليهم من قصص الأقوام السابقين فلم يعتبروا وراحوا يكيدون كيدا ويمكرون مكرا تتأثر منه الجبال وتكاد تزول من شدته. ولكن الله حمى رسوله وحمى المؤمنين من مكرهم. ثم يأتى تطمين للنبى بأن الله لن يخلف وعده بالنصر لرسله فهو ذو القوة المتين ولكنه يؤجل عذاب الكفار إلى يوم القيامة حين تتبدَّل الأرض والسموات. ثم يجئ وصف مفزع للكفار فى ذلك اليوم إذ يكونون مشدودين بالقيود مع أقرانهم من الشياطين مطلية جلودهم بالقطران كأنه لباس على أجسادهم وتعلو النار وجوههم. وهذا جزاء كفرهم وسوء أعمالهم.

ثم يجئ ختام السورة يخبر الناس بأن هذا بلاغ للناس ليعلموا أنه إله واحد لا شريك له وعلى ذوى العقول السليمة أن يتدبَّروا ويتذكروا ويتعظوا:

«هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكَّر أولوا الألباب» (٥٢).

ثم نزلت **سورة الأنبياء :**

وقد سميت كذلك لأنها تضمنت أسماء ١٥ نبيا مع إشارة قصيرة إلى تاريخهم وإن كان الكلام قد طال عن إبراهيم وحده.

«اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون. ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبهم وأسرُّوا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون. قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم. بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون» (١ – ٥).

وتبدأ السورة بتنديد وتعجب من غفلة الكفار فبينما يوم الحساب قد اقترب فلا يزالون على إعراضهم عن الإسلام ويعقدون الاجتماعات السرية **«أسرُّوا النجوى»** قائلين إن محمدا ليس إلا بشر ولن يخضعوا لسحره لأنهم ذوو بصيرة. ويَرُدُّ عليهم النبى بأن الله – الذى أرسله – يعلم كل ما يدور فى السماء والأرض. ويعود الكافرون فيقولون إن ما يراه النبى هى أحلام أو أنه هو الذى يؤلف القرآن ثم فى النهاية يتحدُّون النبى أن يأتيهم بمعجزة مادية مثل معجزات الرسل السابقين. وردًا عليهم تمضى الآيات فتقول :

«ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفَهُم يؤمنون. وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر (أصحاب الكتب السابقة) **إن كنتم لا تعلمون. وما جعلناهم جسدًا لا يأكلون الطعام وماكانوا خالدين. ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين. لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون. وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين. فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون. لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تُسألون. قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين. فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين** (٦ – ١٥).

والآيات تقرر أن الأمم السابقة لم تؤمن بعد أن جاءتهم المعجزات المادية التى طلبوها فأهلكهم الله. ثم يجئ تساؤل عما إذا كانوا سيؤمنون إذا أجيبوا إلى طلبهم. أما عن اعتراضهم على بشرية الرسول فترد عليهم الآيات بأن الرسل السابقين كانوا بشرا رجالا. وليتأكدوا من ذلك عليهم أن يسألوا أهل الكتب السماوية السابقة. وكانوا يأكلون الطعام وسرى عليهم قانون الموت. وعندما كذبتهم أقوامهم صدقهم الله وعده ونجّاهم وأهلك المكذبين. ثم يتوجّه الخطاب إلى كفار قريش مخبرا بأن القرآن الذى أنزل إليهم فيه تذكير لهم وموعظة ولو كانوا ذوى عقل لآمنوا. ثم تقرر الآيات أن الله أهلك كثيرا من القرى بسبب كفرهم وخَلَفهم قوم آخرون كافرون أيضا فلما بدأ عذاب الله ينزل بهم وأحسوا شدته حاولوا الفرار من قراهم أملا فى النجاة فحيل بينهم وأُمروا – على سبيل التبكيت – بأن يرجعوا إلى مساكنهم

وما كانوا فيه من ترف لينالهم العذاب ويُسألون عن سببه فيعترفون بخطئهم ويظلون يرددون ندمهم حتى جعلهم العذاب كالزرع المحصود «**حصيدا خامدين**».

تمجيد الله لذاته العلية :

ثم تمضي الآيات تنزه الله تعالى عن العبثية من خلق السموات والأرض. ولو أراد الله اللهو - وهو مستحيل فى حقه - لكان مجاله غير هذا الكون. فالذى يليق بجلاله سبحانه وتعالى أن يُعلِيَ الحق ويزهق الباطل. ثم يأتى تهديد للكفار بالهلاك لافترائهم على الله. ثم تقرير بأن كل من فى السموات والأرض من مخلوقات ومن عنده من ملائكة مِلك لله ولا يستكبرون عن عبادته ولا يملّون من طول عبادتهم له ليلا ونهارا:

«**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون. وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون** (لا يتعبون). **يسبحون الليل والنهار لا يفتُرُون**» (١٦ - ٢٠).

تنديد بالشرك واستحالة الشريك والولد لله :

وتمضى الآيات تستنكر اتخاذ الكفار آلهة شركاء مع الله ونسبتهم الولد إلى الله. وتنفى هذه الادعاءات وتسفّهها:

«**أم أتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرون. لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون. لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم. هذا ذكر من معى وذكر من قبلى** (القرآن والكتب السابقة) **بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم مُعرِضون. وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون. وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مُكرمون. لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون. ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين**» (٢١ - ٢٩).

آيات فى الكون دالة على عظمة الله :

هذه الآيات تبين عظمة الله وقدرته واستحقاقه وحده للعبادة:

١ - «**أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما**».

والرتق هو الاتصال والفتق هو الانفصال. ويرى علماء الفلك المعاصرون أن فى هذه الآية إعجازا علميا إذ أن أحدث النظريات العلمية عن نشأة الكون تقرر أن مادة السموات والأرض والمجرات والنجوم والكواكب كلها كانت فى الأصل كتلة واحدة متصلة «**كانتا رتقا**» لانهائية فى

الثقل ولا نهائية فى الصغر ثم حدث الانفجار الكبير Big Bang فتناثرت المادة إلى أجزاء وتكونت المجرات والنجوم والشموس والكواكب السيارة وهذا هو «الفتق».

٢ - **«وجعلنا من الماء كل شيئ حى أفلا يؤمنون»**. (٣٠).

وقد أثبت العلم الحديث أن الحياة أول ما بدأت على الأرض بدأت فى الماء. وأن الماء يشكل العنصر الأساسى فى بناء أجسام جميع الكائنات الحية. كما أن جميع الأنشطة الحياتية والتفاعلات الكيميائية اللازمة لإمداد الخلايا بالغذاء لا تتم إلا بوجود الماء. وبالنسبة للإنسان فإن الماء يكون ٨٠٪ من الدم و ٧١٪ من الوزن الكلى للجسم.

٣ - **«وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم»**.

ولما كانت الجبال تحيط مكة من كل جانب ويراها الكفار فى كل لحظة لذلك كثر ذكرها فى القرآن الكريم ووصفها بأنها رواسى. جاء ذلك فى سورة ق (الآية ٧ ص ٩٩) **«والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى»**. وفى سورة المرسلات (الآية ٢٧ ص ٩٧) **«وجعلنا فيها رواسى شامخات»** ثم سورة الحجر (الآية ١٩ ص ٢٥١) **«والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى»** ثم فى سورة لقمان (الآية ١٠ ص ٢٨٠) **«وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم»**. ثم فى سورة فصلت (الآية ١٠ ص ٣٠٧) **«وجعل فيها رواسى من فوقها»**. ثم فى سورة النحل (الآية ١٥ ص ٣٤٦) **«وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم»** وقد أفضننا وقتئذ فى شرح الإلقاء والرواسى. وأخيرا فى السور الحالية.

٤ - **«وجعلنا فيها فجاجا سبلا** (طرقا واسعة) **لعلهم يهتدون»** (٣١) فالوديان بين الجبال تشكل أرضا سهلة للانتقال فيها بدلا من عبور الجبال صعودا وهبوطا فضلا عن وعورة صخورها.

٥ - **«وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون»**. (٣٢).

٦ - **«وهو الذى خلق الليل والنهار»**.

٧ - **«والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون»**. (٣٣).

بشرية الرسول وحديث عن الساعة :

وكان بعض الكفار يقولون فيما بينهم إن الرسول لن يلبث أن يموت وتموت معه دعوته. كذلك كانوا يهزأون به كلما مر بهم ويتندرون بتهديده لهم بيوم القيامة فنزلت الآيات:

«وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مِت فهم الخالدون. كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا تُرجعون. وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون. خُلق الإنسان من عَجَل سأوريكم (سأريكم) **آياتى فلا تستعجلون. ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن**

وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم يُنصرون. بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردَّها ولا هم يُنظرون (يمهلون). **ولقد استُهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزئون** (٣٤ – ٤١).

عجز آلهة الكفار :

ثم تأتى آيات فيها تقريع للكفار بلفت نظرهم إلى أن آلهتهم التى يعبدونها لا تستطيع حمايتهم ولا حتى حماية نفسها. ثم تذكير بيوم القيامة:

«**قل من يكلؤكم** (يحفظكم) **بالليل والنهار من الرحمن** (أى من عذابه) **بل هم عن ذكر ربهم مُعرِضون. أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا. لا يستطيعون نصر أنفسِهم ولا هم منا يُصحَبون** (ليس لهم صاحب مجير لهم من الله). **بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العُمُرُ. أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أَفَهُم الغالبون. قل إنما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاءَ إذا ما يُنذَرون. ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولُنَّ يا ويلنا إنا كنا ظالمين. ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**» (٤٢ – ٤٧).

وفى معنى «**أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها**» قيل انتقاص أرض الكفر وأهلها بانتصار المسلمين وهى بشرى للمؤمنين باتساع رقعة الإسلام فيما بعد. ولا بأس برأى أحد العلماء المعاصرين من أن الآية فيها إعجاز علمى لأن فيها تنبُّؤا بما حدث فى القرون الأخيرة من ارتفاع المياه فى البحار والمحيطات نتيجة لذوبان طاقيتى الجليد القطبى بسبب ارتفاع درجة حرارة الأرض وهو ما تسبب فى غرق الأراضى الساحلية بما فيها من مدن بأكملها يكتشف الغواصون آثارها كما يحدث فى شواطئ الاسكندرية.

ثم تأتى تذكرة بيوم القيامة حين توضع الموازين العادلة حتى لا يُظلم الناس شيئا من أعمالهم ولو كان مثقال ذرة ويكفى أن الله هو الذى يحاسبهم.

يلى ذلك إشارة إلى التوراة التى أنزلت على موسى. وأن القرآن مُنزَّل أيضا من عند الله فلماذا ينكره الكافرون:

«**ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون. وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون**» (٤٨ – ٥٠).

جوانب من قصص الأنبياء السابقين :

وكما سبق أن ذكرنا – ص ٣٦٣ – أن السورة ذكرت أسماء ١٥ نبيا ولذلك سميت «سورة الأنبياء» كان ذكرهم كما يلى :

١ - ٤ : وفى هذه الفقرة - الآيات ٥١ - ٧٣ - ذكر اسم أربعة أنبياء هم إبراهيم ولوط وإسحق ويعقوب. وعند سرد قصة إبراهيم ركزت الآيات على تسفيه إبراهيم لعبادة الأصنام ثم تحطيمه ومحاوله قومه إحراقه وإنجاء الله له من النار.

وتنتهى هذه الفقرة «**ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين. ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة** (زيادة فضل) **وكلا جعلنا صالحين. وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين**» (٧١ - ٧٣).

ثم لمحة سريعة من قصة لوط: «**ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث** (الموبقات - وقد ذكرناها فى الجزء الثانى ص ٣١٣) **إنهم كانوا قوم سوْء فاسقين. وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين**» (٧٤ - ٧٥).

٥ - وكذلك ذكر سريع لقصة نوح: «**ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم، ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سَوْء فأغرقناهم أجمعين**» (٧٦ - ٧٧).

٦ ، ٧ - وذكر قصير لداود وسليمان: «**وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكما وعلما. وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين. وعلمناه صنعه لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون. ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شيئ عالمين. ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين** (فلا يتمردون على أمر سليمان)». (٧٨ - ٨٢).

٨ - جانب من قصة **أيوب** : وكان أول ذكر له هو ما جاء فى سورة ص (الآيات ٤١ - ٤٤ ص ١١٣) وذكر فيها كيف شفاه الله. وفى سورة الأنعام ذكر اسمه ضمن الأنبياء الذين وردت أسماؤهم فى الآية ٨٤ (ص ٢٦٢). وفى السورة الحالية ذكر دعاؤه إلى الله واستجابة الله له: «**وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنِىَ الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين**» (٨٣ - ٨٤).

٩ ، ١٠ ، ١١ - ثلاثة أنبياء : «**وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين. وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين**» (٨٥ - ٨٦).

١٢ - **يونس** : وقد سمى فى هذه السورة بذى النون أى صاحب الحوت. وذكر باختصار شديد سبب ابتلائه ودعوته وهو فى بطن الحوت ونجاته: «**وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين**» (٨٧ - ٨٨).

١٣ ، ١٤ - زكريا ويحيى : «**وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين.**

فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين» (٨٩ - ٩٠).

١٥ - مريم. وإن اخْتُلف فى كونها من الأنبياء: **«والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين»** (٩١). وقصة مريم ذكرت بإسهاب فى سورة مريم (الآيات ١٦ - ٣٦ ص ١٥٣) وذكر عن حملها: **«إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا»** . أما هنا فى سورة الأنبياء - فقد ذكر **«فنفخنا فيها من روحنا»** ولا تعارض بين الآيتين لأن جبريل - الروح الأمين هو الذى حمل «أمر الله» لها بأن تحمل وهو الذى نفخ فى درعها. وليس كما يقول النصارى إن جزءا من ذات الله قد حل فى مريم فاكتسب عيسى طبيعة إلهية بالإضافة إلى طبيعته البشرية.

وتختم هذه الفقرة عن الأنبياء بقوله تعالى : **«إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون»** (٩٢) أى أن الدين عند الله واحد. وهو الإسلام. أى التسليم لله فى كل الأمور وعبادته وحده لا شريك له.

ثم تشير الآيات إلى تفرُّق الناس واختلافهم فى أمور دينهم ودنياهم. فسار فريق على الطريق القويم وآمن وعمل صالحا . فهؤلاء لن يضيع الله عملهم وسعيهم لأن الملائكة - بأمر من الله - يكتبون كل شيئ والمفهوم أن الجنة ستكون من نصيبهم. ولكنها حرام على الفريق الذى انحرف ولم يرجع عن انحرافه فأهلكهم الله:

«وتقطعوا أمرهم بينهم كلٌّ إلينا راجعون. فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون. وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون» (٩٣ - ٩٥).

الساعة ومؤشراتها :

ثم تذكر الايات أنه حين تبدأ مؤشرات الساعة بخروج يأجوج ومأجوج يندم الكفار ويعترفون بخطئهم ويُردُّ عليهم بأنهم - وما كانوا يعبدون من دون الله - سيدخلون النار خالدين فيها:

«حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدب ينسلون. واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين. إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَب جهنم أنتم لها واردون. لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها وكل فيها خالدون. لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون» (٩٦ - ١٠٠).

والحصب هو الحجارة الصغيرة والمعنى أنهم وقود النار ولهم فيها نفس يخرج من الصدور بصوت مخنوق لما يلاقونه من ضيق وهم فيها لا يسمعون شيئا يسرهم. وفى مقابل هذا تذكر الآيات ثواب المؤمنين:

«إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مُبعدون. لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون. لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون. يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين. ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر (التوراة) **أن الأرض يرثها عبادِيَ الصالحون. إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين. وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»** (١٠١ - ١٠٧).

والكون محكوم عليه بالفناء عند قيام الساعة. وحتى الملحدون يؤمنون بلحظة يفنى فيها الكون فقد توصل علماء الفلك الحاليون إلى أن الكون بعد وصوله إلى أقصى تمدد له سيصل إلى لحظة تتفوق فيها قوى الجاذبية على قوى التمدد فتأخذ المجرات فى الاندفاع إلى مركز الكون بسرعات متزايدة ويبدأ الكون فى الانكماش وتتجمَّع كل صور المادة والطاقة المنتشرة فى أرجاء الكون حتى تتكدَّس فى نقطة متناهية فى الضآلة تكاد تصل إلى الصفر أو العدم فيُطوى الكون. وكما بدأ من الصفر يعود إلى الصفر **«كما بدأنا أول خلق نعيده»**. ولكن المؤمنين موقنون من حدوث النهاية بقول «كن فيكون» عندما تحين الساعة.

وتختم السورة بالتأكيد على وحدانية الله وعلى حدوث الساعة إن قريبا أم بعد وقت طويل.

«قل إنما يوحَى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون. فإن تولَّوْا فقل آذنتكم على سواء وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون. إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون. وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين. قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون» (١٠٨ - ١١٢).

والآيات فيها أمر للنبى بتبليغ الناس أن الله واحد ويدعوهم إلى التسليم بذلك فإن امتنعوا فيقول لهم إنه قد أعلمهم **«آذنتكم»** وصاروا مثله **«على سواء»** فى العلم بوقوع الساعة ولكنه لا يعلم **«وإن أدرى»** موعدها أقريبة هى أم بعيدة. والله يعلم ما يجهرون به وما يكنونه فى صدورهم. ولعل تأخير العذاب هو اختبار يمتحنهم الله به ويمتعهم بمتع الدنيا لفترة وبعدها يحكم بالحق وهو القادر على محق ما يفترون.

نحن الآن فى منتصف السنة الثالثة عشرة من بدء الدعوة النبوية ولايزال هناك ٦ أشهر على موعد هجرة النبى إلى يثرب نزلت فيها حوالى اثنتا عشرة سورة معظمها من قصار السور.

سورة المؤمنون :

وتبدأ السورة بالتنويه بصفات المؤمنين. ومن كلمة «المؤمنون» اشتق اسم السورة :

«قد أفلح المؤمنون» ويلى ذلك ذكر صفاتِهم وجزائِهم.

١ - **«الذين هم فى صلاتهم خاشعون»**.

٢ - **«والذين هم عن اللغو معرضون»**.

٣ – «والذين هم للزكاة فاعلون».
٤ – «والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون».
٥ – «والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون».
٦ – «والذين هم على صلواتهم يحافظون».
«أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون» (١ – ١١).

خلق الإنسان وأطواره الجنينية :

ثم تصف الآيات خلق الإنسان وأطواره الجنينية يليه ذكر للبعث يوم القيامة. والارتباط بين الموضوعين قائم. فمن له القدرة على هذا الإنشاء المعجز قادر على البعث أيضا :

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين. ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون» (١٢ – ١٦).

وقد علقنا سابقا فى شرح صدر سورة العلق (ص ٤٤ وشكل ١١) على كلمة العلق بما فيه الكفاية. ويرى بعض العلماء أن النص **«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين»** يعنى أن بين مرحلة الطين ومرحلة الإنسان توجد «سلالة» هى «البشر» بدليل قوله تعالى **«إنى خالق بشرا من طين»** (٧١ – ص). وكتب هذا الرأى بالتفصيل عالم الدين الدكتور عبد الصبور شاهين فى كتابه «أبى آدم قصة الخلق بين الأسطورة والدين» فى محاولة للتوفيق بين ما هو معروف من أن عمر «الإنسان العاقل» على الأرض لا يزيد عن ٣٥ ألف سنة فى حين أن علماء الحفريات وجدوا جماجم «بشرية» يزيد عمرها عن ٢٥٠,٠٠٠ سنة إلى نصف المليون سنة وهيكلها العظمى يؤكد أنها كانت تمشى منتصبة القامة وخلص من ذلك إلى أن ما خلق من الطين هو البشر **«إنى خالق بشرا من طين»** ثم كانت مرحلة التسوية **«فإذا سويته»** . ثم تحوَّل من بشر إلى إنسان بفضل نفخة الروح الإلهية فيه **«ونفخت فيه من روحى»**. فأضافت إليه حرية الإرادة فى الفعل وإطلاق حرية التفكير ليتعرف على خالقه ويعبده وأخيرا إمكانية التفرقة بين الخير والشر. وبعد إعلانه عن آرائه هذه فى كتابه المشار إليه هاجمه الجميع واتُّهم بمخالفة الثوابت الدينية فأعلن رجوعه عن آرائه.

ويرى علماء التشريح فى هذه الآيات نوعا من الإعجاز العلمى إذ اكتشف العلم الحديث أن البويضة الملقحة تتعلَّق بجدار الرحم مثل العلقة وهذا ما شرحناه سابقا فى سورة العلق ثم تبدأ فى الانقسام إلى خلايا مختلفة الشكل والوظيفة ولكنها مختلطة بعضها ببعض فهى كالمضغة. ثم تترتب الخلايا فى طبقات متمايزة وتبدأ العظام فى التشكل ويترسب فيها الكالسيوم ثم تظهر العضلات ويستمر التطور حتى يكتمل الجنين.

ويروى أن عبد الله بن أبى سرح كان يكتب الوحى فأملى عليه النبى قوله تعالى : «**ولقد خلقنا الإنسان... حتى إذا بلغ ثم أنشأناه خلقا آخر**» فقال عبد الله: فتبارك الله أحسن الخالقين قبل إملائها. فقال له النبى هكذا نزلت. فلما خرج عبد الله من عند النبى قال: إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبى يوحى إلىَّ وارتد كافرا. وقد أهدر النبى دمه يوم فتح مكة (كما سيجئ ذكره فيما بعد ص ٧٦٦) ولكن عثمان بن عفان استأمن له من رسول الله فعفا عنه.

بعض نعم الله على العباد :

والآيات تذكر بعض نعم الله مع التركيز على ماء المطر وهو ما يهم بالدرجة الأولى من يعيشون فى الصحارى:

«**ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق** (سبع سماوات) **وما كنا عن الخلق غافلين. وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون. فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون. وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين. وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون**» (١٧ – ٢٢).

وكان العرب يعرفون أن منطقة طور سيناء وما جاورها هى من أغنى المناطق بشجر الزيتون ومنها أتوا بالشتلات التى غرسوها فى بلادهم. ومن هنا وصفت شجرة الزيتون بأنها «**شجرة تخرج من طور سيناء**».

ويرى علماء الجغرافيا المعاصرون أن الآيات فيها إعجاز علمى إذ أن ماء المطر يشق لنفسه مسارات هى الأنهار. إلا أن جزءا كبيرا يتسرب فى التربة المسامية وطبقات الصخور النفاذية حتى يلاقى طبقة من الصخور الصلدة فلا يستطيع النفاذ منها فيتجمع ويكون خزانات مائية كبيرة ساكنة فى الأرض «**فأسكناه فى الأرض**» وتختزن المياه لعشرات الألوف من السنين حتى يقدر الله لها أن تتفجرٍ فى مكان ما عيونا أو يقوم الناس بحفر الآبار لاستخراجها والانتفاع بها فى الشرب ورى المزروعات. وقد يحدث شق فى الصخور الحاجزة للماء فيتسرب الخزان المائى إلى طبقات أعمق ويجف البئر «**وإنا على ذهاب به لقادرون**».

جانب من قصة نوح :

وقد سبق ذكر جوانب منها فى سور الأعراف والشعراء ويونس وهود والذاريات. وهنا فى سورة المؤمنون ركزت الآيات على دعوته لقومه إلى الإيمان وكيفية نصرة الله له عليهم وإنجائه له وغرقهم. وبالطبع فإنها قصدت أن يعتبر كفار قريش حتى لا يغالوا فى عداوتهم وإيذائهم للنبى والمسلمين:

«**ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون. فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل**

ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين. إن هو إلا رجل به جِنة فتربصوا به حتى حين. قال رب انصرنى بما كذبون. فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون. فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين. وقل رب أنزلنى مُنزلا مباركا وأنت خير المنزلين. إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين» (٢٣ - ٣٠).

قصة قوم آخرين وقرون آخرين :

ثم تمضى الآيات تذكر قصة قوم آخرين لم يذكر اسمهم وقصة قرون آخرين لم يرد أيضا ما يحدد مكانهم ولا اسمهم. وجاء فى «المنتخب فى تفسير القرآن الكريم» (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٥٠٦) إن الأولين هم عاد قوم هود وأن الآخرين هم صالح ولوط وشعيب:

«ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين. فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون. وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون. ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون. أيعدكم أنكم إذا مِتم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مُخرجون. هيهات هيهات لما توعدون. إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين. إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين. قال رب انصرنى بما كذبون. قال عما قليل ليصبحن نادمين. فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غُثاء فبعدا للقوم الظالمين» (٣١ - ٤١).

«ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين. ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون. ثم أرسلنا رسلنا تترا (تتَّابع واحدا بعد الآخر) **كل ما جاء أمةً رسولُها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديثَ فَبُعدا لقوم لا يؤمنون»** (٤٢ - ٤٤).

والآيات تبين أن لكل أمة زمنها المعين لها لا تتقدم عنه ولا تتأخر وأنه كلما جاء رسول إلى قومه كذبوه فأهلكهم الله متتابعين وجعل أخبارهم أحاديث يتناقلها الناس ويقولون بعد سماعها بُعدا لهم وهلاكا فقد كانوا كافرين.

ثم تأتى إشارة خاطفة **لموسى وهارون:**

«ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين.إلى فرعون وملإه فاستكبروا وكانوا قوما عالين. فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون. فكذبوهما فكانوا من المهلكين. ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون» (٤٥ - ٤٩).

ثم إشارة خاطفة **لعيسى ابن مريم :**

«وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين» (٥٠).

ثم يأتى ختام هذه الفقرة عن الرسل :

«يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم. وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون» (٥١ - ٥٢).

ثم يأتى تنديد باختلاف الناس بعد رسلهم :

«فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون. فذرهم فى غمرتهم حتى حين. أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون» (٥٣ - ٥٦).

وفى الآيات تنديد بما صار إليه الناس من تفرق واختلاف فى الملل والنحل وكل فريق يتمسك بما هو عليه ويظنه الحق. ويؤمر النبى بأن لا يبالى بذلك وأن يترك من لا يريد الارعواء سادرا فى جهالته. ثم سؤال تنديد واستنكار لظن المارقين أن إغداق الله عليهم من المال والولد هو تكريم لهم. واستدراك بأنهم مخطئون ولا يعرفون حقيقة الأمر. أى أن ما ينتظرهم هو أعظم من أن يدركوه **«بل لا يشعرون»**.

مسلك المؤمنين :

«إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون. والذين هم بآيات ربهم يؤمنون. والذين هم بربهم لا يشركون. والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون. ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق (هو اللوح المحفوظ) **وهم لا يظلمون»** (٥٨ - ٦٢).

وقد ذكرت هذه الفقرة أربعا من صفات المؤمنين: ١ - فهم الذين يخشون ربهم ويخافون عذابه. ٢ - وهم يؤمنون بآياته التى يرونها فى الكون. ٣ - ويعبدون الله وحده لا يشركون به أحدا. ٤ - والذين يعطون مما رزقهم الله وهم خائفون من التقصير لأنهم متأكدون أنهم راجعون إلى الله بالبعث ومحاسبون. وقد روى الترمذى عن عائشة حديثا أنها سألت رسول الله عن الآية: **«والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة»** أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال لا يا بنت الصديق. ولكنهم الذين يصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم. والمعنى أن المؤمن الحق يستصغر عباداته بجانب نِعَم الله عليه ويخشى أو هو متأكد أنه لن يستطيع أن يوفى الله حقه من الشكر مهما صلى وصام وتصدق ويخشى ألا يقبل ذلك منه. فيسارع إلى الإكثار من الخيرات **«أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون»** وقيل الخيرات هى الطاعات (تفسير الألوسى جـ ١٨ ص ٤٤) وسابقون أى مسارعون فى فعلها ويتسابقون فى الاستزادة منها. إلا أن الله لا يكلف أحدا إلا بما يستطيع أن يؤديه وما هو فى طاقته. ولا يجب أن يفهم ذلك على أنه ترخيص بالتقصير. بل على المرء أن يبذل أقصى طاقاته ويستفرغ

وسعه. وصحائف الأعمال تسجل كل شيئ بدقة وبحق. فلا يُظلمون بمطالبتهم بما لم يكن حقا فى استطاعتهم.

مسلك الكافرين :

«بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون. حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون. لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون. قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون. مستكبرين به سامرا تهجرون» (٦٣ – ٦٧).

وفى الآيات بيان لمسلك الكفار. فقلوبهم غافلة عن استشعار الخوف من الله. ولا يفعلون الخير. ولهم أعمال أخرى رديئة يرتكبونها. حتى إذا أنزل الله بهم العذاب – وغالبيتهم من المترفين – ضجُّوا وصرخوا مستغيثين. وسيؤمرون حينئذ ألا يضجوا ولا يصرخوا إذ لن يفيدهم ذلك شيئا ولا ناصر لهم من الله لأنهم كانوا إذا تليت عليهم آيات الله أعرضوا وأولوها ظهورهم **«فكنتم على أعقابكم تنكصون»** مستكبرين ويهجرونه إلى مجالس سمرهم.

ثم تأتى الآيات بعدة أسئلة تتضمن تنديدا وتوبيخا للكفار عن أسباب موقفهم الرافض للنبى والمنادئ لدعوته:

١ – **«أفلم يدبَّروا القول»** . ولو تدبَّروا القرآن لعلموا أنه حق .

٢ – **«أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين»** بمعنى هل ما جاءهم به النبى بدعٌ لم يسبق أن أتى مثله لأقوام سابقين!

٣ – **«أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون»** أى هل لم يعرفوا شخص «محمد» وأخلاقه العالية وأنهم لم يعهدوا عليه كذبا من قبل حتى ينكروا ما يدعوهم إليه.

٤ – **«أم يقولون به جنة»** أى يتهمونه بالجنون.

وترد الآيات على هذه التساؤلات بأن النبى قد جاءهم بالحق ولكنهم يكرهون الحق لأنه يخالف شهواتهم وأهواءهم. ولو جرت سنة الله على مسايرة الكافرين فيما يشتهونه لما استقام نظام الكون. ولكن الله أرسل النبى وأنزل القرآن بالحق الذى يجب أن يجتمع عليه الجميع ومع ذلك فهم عنه معرضون :

«بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون. ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون» (٧٠ – ٧١).

٥ – **«أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين»** أى وهل طلب النبى منهم أجرا. فهذا لم يحدث لأن أجره عند الله وهو خير مما عندهم.

ثم تقرر الآيات أن النبى يدعوهم إلى الصراط المستقيم وأن المنكرين للآخرة –أى الكافرين – ينحرفون عن هذا الصراط:

«**وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم**. (هو الإسلام) **وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون**» (٧٣ – ٧٤).

وكان الله قد أخذ قريشا بالشدة ونقص المطر فتقرر الآيات أن الله لو رحمهم وكشف عنهم الشدة لتمادوا فى طغيانهم. كما أن الشدة التى أنزلها الله بهم لم تجعلهم يرجعون إلى الله ويدعونه أو يتضرعون إليه. ولو استمروا فى تكذيبهم وطغيانهم لأنزل الله بهم عذابا شديدا يصيبهم باليأس والقنوط.

«**ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجُّوا فى طغيانهم يعمهون. ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرَّعون. حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون**» (٧٥ – ٧٧).

ثم تلفت الآيات نظر الكفار إلى بعض نعم الله عليهم وإلى بعض مظاهر قدرته:

١ – «**وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون**» (٧٨).

٢ – «**وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون**» (٧٩).

٣ – «**وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون**» (٨٠).

ولكنهم استمروا فى كفرهم وإنكارهم للبعث :

«**بل قالوا مثل ما قال الأولون. قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنَّا لمبعوثون. لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين**» (٨١ – ٨٣).

ثم تأتى الآيات بثلاثة أسئلة للكفار ليس من إجابة عليها إلا أن يُقرُّوا أن الله هو الذى فعل ما يُسألون عنه:

١ – «**قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل أفلا تذكَّرون**» (٨٤ – ٨٥).

٢ – «**قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله قل أفلا تتقون**» (أى أفلا تخافون عاقبة الشرك) (٨٦ – ٨٧).

٣ – «**قل من بيده ملكوت كل شيئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل فأنَّى تُسحَرون**» (٨٨ – ٨٧). أى فكيف تنخدعون وتنكرون ما هو حق كأنكم مسحورون.

وما دام الأمر كذلك فلا بد من الإقرار بوحدانية الله. ونفى ما يدعيه الكفار من ولد أو شركاء لله.

«**بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون. ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون. عالِمِ الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون**» (٩٠ – ٩٢).

تأييد للنبى :

«قل رب إما تُرِيَنىِّ ما يوعدون. رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين. وإنا على أن نُرِيَك ما نعدهم لقادرون. ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون. وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين. وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون» (٩٣ - ٩٨).

والآيات تأمر النبى أن يدعو الله أن يرزقه النجاة إذا ما أراه الله ما ينتظر الكافرين من عذاب أى إذا نزل بهم العذاب الذى يوعدون. وتبين الآيات أن الله قادر على أن يريه ما ينتظرهم من عذاب. ثم يأتى حث للنبى ليستمر فى دعوته وأن يقابل إساءتهم بإحسان وأن يستعيذ بالله من وسوسة الشيطان التى قد تملؤه غضبا لتكذيبهم أو يأسا لعدم إيمانهم.

حال الكفار عند الموت وعند الحساب :

«حتى إذا جاء أحدَهم الموتُ قال رب ارجعون. لعلِّى أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون. فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون. تلفح وجوهَهم النارُ وهم فيها كالحون» (٩٩ - ١٠٤).

وفى الآيات وصف لحال الكافرين عند الموت إذ يندمون ويلتمس كل منهم إعادته للدنيا ليعمل عملا صالحا ولن يحدث ذلك أبدا لأن حاجزا مانعا يحول دون ذلك وسيظل فى حياة البرزخ إلى يوم القيامة وحينئذ يخرج الناس ولا يسأل واحد آخر أن ينصره مهما كانت صلة النسب بينهما **«فلا أنساب بينهم»** والناس يومئذ صنفان: من كثرت أعمالهم الصالحة فثقلت موازينهم. هؤلاء أفلحوا ونجوا. أما من خفت موازينهم لقلة حسناتهم فقد خسروا وجزاؤهم نار جهنم تكلح وجوههم وتسود من شدة نارها. والإنذار للكفار فى هذه الآيات رهيب يُجسِّد تجسيدا مخيفا ما سيحدث فى الآخرة بحيث يرعوى من هو سادر فى غيه ويثوب إلى رشده فيؤمن قبل فوات الأوان.

ثم يأتى توبيخ للكافرين الذين يعتريهم الندم والحسرة:

«ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون. قالوا ربنا غلبت علينا شِقوتنا وكنا قوما ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال اخسأوا فيها ولا تكلمون. إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سِخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون. إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون. قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادِّين. قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون. أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا تُرجعون» (١٠٥ - ١١٥).

والآيات فيها سؤال توبيخ للكفار لأنهم كانوا يسمعون آيات الله فيكذبونها. وحينئذ يعترفون

بضلالهم ويلتمسون إخراجهم من النار. وتكون الإجابة بالنفى «**اخسأوا فيها**» من خسأت الكلب أى زجرته. ثم أمر بعدم العودة إلى التكلم. ثم يُبَيِّنُ لهم سبب رفض طلبهم بأنه كانوا يسخرون من المؤمنين الذين كان جزاء صبرهم أنهم هم الفائزون فى الآخرة. ثم يسأل الله الكفار عن مقدار ما لبثوا فى الحياة الدنيا فيقرون بأنهم لبثوا أمدا قصيرا. ويُرَدُّ عليهم بأنهم لو عقلوا لعرفوا أنهم لم يلبثوا إلا زمنا قليلا جداً فكان الواجب أن يعملوا صالحا ولكنهم ظنوا أنهم لن يرجعوا إلى الله.

ثم يأتى ختام السورة :

«**فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم. ومن يدعُ مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون. وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين**» (١١٦ – ١١٨).

والآيات فيها تنزيه لله فهو الملك الحق ولا إله غيره وهو رب العرش وله مطلق التصرف فى الكون. ثم يأتى إنذار أخير لكل من يدعو مع الله إلها آخر فحسابه عند ربه ولن يلقى فلاحا. ثم أمر للنبى بطلب الغفران والرحمة من الله مشفوعا بالإقرار بأن الله أرحم الراحمين ليكون هذا أدعى لقبول الدعاء ولاشك أن هذا الأمر موجه أيضا إلى المؤمنين كافة.

ثم نزلت **سورة السجدة :**

«**الم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون. الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون. يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون. ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذى أحسن كل شيئ خَلَقه وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون**» (١ – ٩).

ويرى المفسرون أن هذه الآيات التسع من سورة السجدة نزلت فى وقت متقدم كما سبق أن ذكرنا (ص ٧٥) وأن الوليد بن المغيرة سمع النبى وهو يقرأ بها فى الكعبة. ولما نزل باقى السورة أُلحق به أولُها.

إنكار الكفار للبعث والمؤمنون يُصدِّقون به :

ونزلت الآيات التالية من سورة السجدة تبين استبعاد الكفار لحدوث يوم القيامة وترد عليهم بتأكيد حدوثه وتصف حالهم يومئذ:

«وقالوا أإذا ضللنا فى الأرض أإنَّا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون. قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون. ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون. ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأنَّ جهنم من الجِنة والناس أجمعين. فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون» (١٠ – ١٤).

فالكفار – الذين ينكرون البعث يتساءلون مستبعدين أنه – بعد أن تبلى أجسادهم وتتوه ذراتها فى تراب الأرض – سيكون هناك خلق جديد. ثم تقرر الآيات أن مَلَك الموت هو الذى يتوفى الناس عند موتهم وقد سبق أن ذكر فى سورة الزمر (آية ٤٢ ص ٢٩٧) نسبة التوفى إلى الله **«الله يتوفى الأنفس حين موتها»** ولا تعارض بين الآيتين إذ أن ملك الموت وأعوانه يتوفون الأنفس بأمر من الله عز وجل.

ثم تمضى الآيات تخبر النبى أنه لو أتيح له رؤية الكافرين يوم القيامة لرآهم مطأطئى الرؤوس خجلا ومستشعرين الندم ويطلبون العودة إلى الدنيا ليعملوا عملا صالحا ويتلافوا ما فرط من أمرهم ويقال لهم يومئذ إنهم كذبوا بالبعث ونسوا يوم القيامة ولو شاء الله لهدى الناس جميعا ولكنه ترك لهم حرية الاختيار فكان أن كثيرين اختاروا طريق الضلال فامتلأت بهم جهنم جزاء لهم على نسيانهم وغفلتهم عن يوم القيامة وسيُتركون فى العذاب كأن الله قد نسيهم فيه. وفى مقابل هذا العذاب المعدّ للكافرين تأتى آيات تذكر صفات المؤمنين وما أُعِد لهم من ثواب:

«إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خروا سُجَّدا وسبَّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون. تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون. فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» (١٥ – ١٧).

والآية الأخيرة تتضمن بشرى عظيمة غير محدودة من شأنها أن تثير فى نفوس المؤمنين أشد الغبطة وتحملهم على مضاعفة الجهد فى العبادة. وقد روى المفسرون حديثا قدسيا جاء فيه «أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

ثم تأتى آيات تقابل بين ثواب المؤمنين وجزاء الكافرين.

«أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون. وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تُكذِّبون. ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون. ومن أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون» (١٨ – ٢٢).

والعدل يقضي ألا يستوى فى الجزاء المؤمن والفاسق: فالمؤمنون لهم الجنات ينزلون فيها جزاء أعمالهم الصالحة أما الكفار فالنار هى منزلهم. ولهم فى الدنيا عذاب أقل وهو عذاب الخزى والخذلان أما العذاب الأكبر فهو في الآخرة وهو الخلود فى النار. وهم قد ظلموا أنفسهم ظلما بالغا بإعراضهم عن آيات الله فانتقم الله منهم.

ضرب المثل بموسى :

ثم تمضى الآيات تضرب المثل بموسى والكتاب الذى أنزل عليه وهو التوراة:

«**ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل. وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون. إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم. إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون**» (٢٣ - ٢٦).

والضمير فى «لقائه» يرجع إلى الأقرب وهو كتاب موسى والمعنى تلقيه أى تلقى موسى للكتاب كما تلقى النبى القرآن «**وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم**» (٦ - النمل). وكان كتاب موسى هدى لبنى إسرائيل. وقد أوتى بنو إسرائيل كثيرا من الأنبياء سمُّوا فى هذه الآية «أئمة» إلا أن تفسير الجلالين (ص ٣٤٩) يرجع الضمير فى لقائه إلى موسى ويقول وقد لقيه النبى ليلة الإسراء. ويقول الألوسى (تفسيره جـ ٢١ ص ١٣٧): والمعنى أن الله آتى موسى من الكتاب والوحى مثل ما آتى النبى من القرآن والوحى فلاشك فى أنه لقى مثله ونظيره. وذكر الألوسى تفسيرات أخرى فمن أراد الاستزادة يرجع إليها.

ويأتى ختام السورة بِحَثٍّ للكافرين على النظر فى آيات الله فى الأرض. ثم إنذار أخير لهم:

«**أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُز** (اليابسة) **فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون. ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين. قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانُهم ولا هم يُنظرون. فأعرض عنهم وانتظر إنهم مُنتظِرون**» (٢٧ - ٣٠).

والآيات تلفت نظر الكفار إلى قدرة الله فى إنبات الزرع الذى عليه حياة الأنعام والبشر وهى آية لا يقدرها قدرها إلا ساكن الصحراء الذى يرى الأرض الميتة إذا نزل عليها ماء المطر اخضرت وأنبتت الزرع. فأولى بهم أن يؤمنوا بقدرة الله على إحياء النفوس بعد موتها ولكنهم راحوا يتساءلون مستنكرين «**متى هذا الفتح**» أى اليوم الذى يفصل الله فيه بين أهل الحق وأهل الباطل أي يوم القيامة. ويُرَدُّ عليهم أنه إذا حل يوم الفتح أى يوم القضاء لا ينفع الإيمان وقتئذ ولن يُمهلوا. ثم يُطلب من النبى أن يعرض عنهم ويتركهم فى ضلالهم والمعنى أن الله هو الذى سيتولى أمرهم.

ثم نزلت **سورة الطــور :**

وتبدأ السورة بخمسة أقسام :

١ – «**والطور**» وهو الجبل الذى كلَّم الله موسى عنده.

٢ – «**وكتاب مسطور. فى رق منشور**» أى التوراة لأنها هى الكتاب الذى نزل مكتوبا يمكن قراءته.

٣ – «**والبيت المعمور**» أى الكعبة وقيل هو بيت فى السماء بحيال الكعبة يزوره كل يوم سبعون ألف ملك بالطواف والصلاة لا يعودون إليه أبدا (تفسير الجلالين . ص ٤٤٢).

٤ – «**والسقف المرفوع**» أى السماء المرفوعة بغير عمد.

٥ – «**والبحر المسجور**» أى الممتلئ ماء والمتقد نارا. ويرى الچيولوچيون فى هذا الوصف للبحر إعجازا عليما إذ أثبت العلم الحديث أن تحت قيعان البحار والمحيطات توجد طبقات من المعادن والحجارة المنصهرة والمتوقدة نارا وهى التى تسبب عيون الماء الساخنة التى تتفجر فى بعض الأماكن فى قيعان البحار والمحيطات وفى حديث شريف رواه البيهقى: إن تحت البحر نارا وتحت النار بحرا. ويوم القيامة ستطغى النار فتتقد البحار نارا كما جاء فى سورة التكوير (آية ٦ ص ٥٥) «**وإذا البحار سُجِّرت**».

ثم يأتى جواب القسم:

«**إن عذاب ربك لواقع. ماله من دافع**» (٧ – ٨).

أى أن العذاب الذى توعَّد الله به الكافرين نازل بهم لا محالة وليس هناك من أحد يستطيع دفعه. ثم تأتى الآيات بمشاهد من هذا اليوم:

«**يوم تمور السماد مورا. وتسير الجبال سيرا**» (٩ – ١١).

أى يوم تضطرب السماء اضطرابا شديدا وتسير الجبال وتنتقل من أماكنها دلالة على تبدل نواميس الكون.

ثم تبين الآيات مصير الكافرين:

«**فويل يومئذ للمكذبين. الذين هم فى خَوْضٍ يلعبون. يوم يُدَعُّون** (أى يُدفعون بعنف) **إلى نار جهنم دعًا. هذه النار التى كنتم بها تُكَذبون. أفسحر هذا أم أنتم لا تُبصرون. اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون**» (١١ – ١٦).

وفى المقابل يُوضح مصير المؤمنين وثوابهم :

«**إن المتقين فى جنات ونعيم. فاكهين** (متلذذين ومتنعمين) **بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم** (نقصناهم)

من عملهم من شيئ كل امرئ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون (يتعاطون ويتجادلون فى ود) **فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون. وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون. قالوا إنا كنا قبلُ فى أهلنا مشفقين. فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السَموم. إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البَرّ الرحيم»** (١٧ - ٢٨).

اتهامات الكفار للنبي :

«فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون. أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون (الموت). **قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين. أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون. أم يقولون تقوَّله بل لا يؤمنون. فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين»** (٢٩ - ٣٤).

وكلمة كاهن ترد هنا لأول مرة فى مقام تكذيب اتهام الكفار للنبى بأنه كاهن. وقد كان يظهر بين العرب قبل الإسلام - بين الحين والآخر - رجال كان العرب يعتقدون أن لهم صلة بالجان الذين يأتونهم بالغيب وخبر السماء. فكان الناس يلجأون إليهم يستفتونهم فى أمورهم ويستشيرونهم فى حل مشاكلهم. وكانت إجابات الكهان غالبا ماتكون مسجوعة ومطبوعة بطابعٍ من الألغاز والتعمية. وأغلب الكهان كانوا من الرجال. وإن لم يخلُ الأمر من وجود نساء كاهنات. ولاشك أنه كان لبعض الكهان ما يمكن أن نسمية اليوم بالقدرة على قراءة الأفكار والشعور بالأحداث عن بعد والتأثير الروحى فضلا عن المقدرة على الاتصال بالجان. وقد جاء فى سورة الجن (آية ٦ ص ١٣١) **«وأنه كان رجال من الأنس يعونون برجال من الجن فزادوهم رهقا».**

وقد اتهم الكفار النبى بأنه كاهن ولا يتلقى وحيا من ربه. وتتحداهم الآيات بأن يحاولوا تأليف مثل هذا القرآن لو كان - كما يقولون - من تأليف «محمد» ففيهم من هو مشهود له بالبلاغة والضلوع فى اللغة فى حين أن النبى لم يكن مشهورا بها.

تسفيه لطريقة تفكير المشركين :

جاء هذا التسفيه فى صورة أحد عشر سؤالا استنكاريا فيها تنديد بطريقة تفكيرهم والتى لو كانت سليمة لقادتهم إلى الإيمان:

١ ، ٢ - **«أم خُلقوا من غير شيئ . أم هم الخالقون»** (٣٥).

٣ - **«أم خَلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون»** (٣٦).

٤ ، ٥ - **«أم عندهم خزائن ربك. أم هم المصيطرون»** (٣٧).

٦ - **«أم لهم سُلّم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين»** (٣٨).

٧- **«أم له البنات ولكم البنون»** (٣٩).

٨ – **«أم تسألهم أجرا فهم من مَغرم مثقلون»** (٤٠).

٩ – **«أم عندهم الغيب فهم يكتبون»** (٤١).

١٠ – **«أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون»** (٤٢).

١١ – **«أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون»** (٤٣).

ثم تصف الآيات استهانة الكفار بما يُنذرون به من عذاب حتى إنهم لو رأوا قطعة من السماء ساقطة عليهم لقالوا إنها ليست إلا سحابا كثيفا. ثم يؤمر النبى بأن يتركهم لشأنهم حتى يلاقوا العذاب يوم القيامة:

«وإن يروا كِسْفًا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم. فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يُصعقون. يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم يُنصرون. وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون» (٤٤ – ٤٧).

وقد تكرر فى سور كثيرة الأمر للنبى بترك الكفار فى عمايتهم تعبيرا عن أن الأمر قد وصل معهم إلى طريق مسدود وعليه أن يتركهم لحكم الله فيهم.

ثم يأتى ختام السورة بأمر للنبى بالصبر انتظارا لأمر الله وحكمه ثم تطمين للنبى بأنه موضع عناية الله وحمايته وعليه أن يستمر على عبادة الله وحمده فى كل وقت :

«واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم» (٤٨ – ٤٩).

ثم نزلت **سورة المُلك** :

«تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيئ قدير. الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور. الذى خلق سبع سموات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فُطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير. ولقد زيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير» (١ – ٥).

وقد بدأت السورة بالثناء على الله والتنويه بمطلق قدرته ثم بيان بأن الحياة وما يعقبها من موت قد جُعلت لاختبار الناس فى تفاوت أعمالهم. وقد قيل الكثير فى **«خَلَق الموت والحياة»** فقالوا هو العدم الذى سبق الحياة وقالوا أى خلق أسباب الموت أو أنها إشارة إلى أن الموت ليس نهاية المطاف فهو مرحلة مثل الشباب والهرم والموت والبعث كلها مراحل مخلوقة أو بمعنى «جعل» أى جعل الموت والحياة لاختبار الخلق. ثم تلفت الآيات النظر إلى خلق السموات وما فيها من ملايين النجوم ليس فيها من خلل أو صدوع مهما نظرت مرة أو أعدت النظر مرات. وأن نجوم السماء بضوئها تهدى ولو قليلا فى ظلمات الليل عند غياب القمر. كما أنها زينة فى

قبة السماء حتى لا تكون سوداء كالحة موحشة. وفضلا عن ذلك فإن الشهب ترجم الشياطين التى تسترق السمع كما جاء فى سورة الجن (الآية ٩ ص ١٣١). كما أن الله أعد للشياطين عذاب النار فى الآخرة. وللكافرين عذاب مثله :

«وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير. إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور. تكاد تميَّز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير. قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيئ إن أنتم إلا فى ضلال كبير. وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير. فاعترفوا بذنبهم فسُحقا لأصحاب السعير» (٦ - ١١).

ثم يجئ وصف موجز لأجر المؤمنين ليزداد الكفار حسرة وندما ثم تعود الآيات مُوَجَّهة إلى الكفار تهددهم وتنذرهم بأن الله يعلم ما يقولونه علنا أو سرا. ثم تذكر واحدة من نعم الله فى بسط الأرض وجعلها صالحة للمعيشة ثم تعود لتندد بأفعال الكفار وتحذرهم مما قد يحيق بهم من غضب الله إذا استمروا فى تكذيبهم:

«إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير. وأسرُّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور. ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير. هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور. أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور. أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا (رجوما من الحجارة) **فستعلمون كيف نذير. ولقد كذَّب الذين من قبلهم فكيف كان نكير** (نكيرى أى عذابى)**»** (١٢ - ١٨).

ثم تمضى الآيات تذكر قدرة الله فى خلق الطير التى تسبح فى جو السماء. ثم تساؤل استنكارى عمن يمكن أن ينصر الكافرين من دون الله إذا ما جاء عذابه. ثم تساؤل ثان عمَّن يمكن أن يرزقهم إن منع الله رزقه عنهم. ثم تساؤل منطقى عن أيهما أفضل: الذى يمشى منكفئا على وجهه لا يرى طريقه أم المعتدل فى مشيته. ثم تذكير للكفار بأن الله هو الذى خلقهم فى البدء وجعل لهم السمع والبصر وواجب عليهم شكر الله على هذه النعم:

«أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافَّات (باسطات أجنحتهن) **ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيئ بصير. أمَّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور. أمَّن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لَجُّوا فى عُتُوٍّ ونفور. أفمن يمشى مُكِبا على وجهه أهدى أمَّن يمشى سويا على صراط مستقيم. قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون. قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون»** (١٩ - ٢٤).

الكفار يسألون عن موعد الساعة :

«ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين. فلما رأوه زُلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تَدَّعون» (٢٥ - ٢٧).

والآيات تثبت تساؤل الكفار عن موعد يوم القيامة ويردُّ عليهم بأن علمه عند الله وأن النبى ما هو إلا نذير . وحين يتحقق وعد الله. وهو أقرب مما يظنون «**زلفة**» تتجهَّم وجوههم هلعا من العاقبة ويقال لهم هذا هو وعد الله الذى كنتم تنكرونه.

وفى ختام السورة تطلب الآيات من النبى أن يسأل الكفار عن موقفهم إذا أماته الله ومن معه من المؤمنين – كما كان الكفار يتمنون – أو أخَّرهم لآجالهم برحمته. فهل هناك أحد يمنع عذابه عن الكافرين؟ ثم تأمره الآيات أن يخبر الكافرين أن الله هو الرحمن آمن به هو ومن معه وعليه توكلوا وسيعلم الكفار يوم القيامة من كان على الهدى ومن كان فى ضلال. ثم يُطلب من النبى أن يسألهم عمَّن يمكن أن يأتيهم بماء إذا نضب الماء الذى يسقيهم. وبالطبع لن يكون جوابهم إلا الإقرار بأن الله هو القادر على ذلك:

«قل أرأيتم إن أهلكنِىَ الله ومن معِىَ أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم. قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين. قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غَوْرا فمن يأتيكم بماء معين» (٢٨ – ٣٠).

ثم نزلت **سورة الحاقة :**

والحاقة اسم من أسماء يوم القيامة .

«الحاقة . ما الحاقة. وما أدراك ما الحاقة» (١ – ٣).

وهو استهلال قوى جاذب للانتباه ويحمل إنذارا للسامعين وتذكرة بما فى ذلك اليوم من هول.

يعقب ذلك إشارات مقتضبة إلى ما حل بأمم سابقة من عذاب نتيجة تكذيبهم بيوم القيامة:

«كذبت ثمودُ وعادٌ بالقارعة. فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية (البلاء الطاغى)**. وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حُسُوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية»** (٤ – ٨).

والقارعة أيضا اسم من أسماء يوم القيامة. وبدأت سورة القارعة (ص ٩١) باستهلال يماثل استهلال السورة الحالية : **«القارعة.ما القارعة.وما أدراك ما القارعة».**

ثم تستكمل الآيات فتذكر قوم فرعون وقوم لوط وقوم نوح :

«وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات (قوم لوط) **بالخاطئة. فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية** (شديدة)**. إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية** (سفينة نوح)**. لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية»** (٩– ١٢).

وجميع هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم فأهلكهم الله. والآيات استهدفت تذكير كفار قريش بذلك على سبيل الاتعاظ والاعتبار. والإنذار بما يمكن أن يصيبهم هم أيضا من عذاب.

ثم تمضى الآيات تذكر بعض أمارات يوم القيامة :

«فإذا نُفخ فى الصور نفخة واحدة. وحُملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة. فيومئذ وقعت الواقعة. وانشقت السماء فهى يومئذ واهية. والملك (الملائكة) **على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية. يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية»** (١٣ - ١٨).

وقالوا فى حملة العرش وأوصافهم كلاما كثيرا لا يُعَوَّل عليه فتجاوزنا عنه وعلينا أن نؤمن بما جاء فى الآيات دون الدخول فى تفاصيله لأنه غيب لا يعلمه إلا الله.

الناس يوم القيامة فريقان :

أما وقد قيل فى الآية السابقة أنه لا يخفى على الله شيئ من أعمال العباد. والمفهوم أن الحساب عليها سيكون عادلا وينقسم الناس يومئذ إلى فريقين:

«فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه. إنى ظننت أنى ملاق حسابيه. فهو فى عيشة راضية. فى جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية (أى الدنيا)**»** (١٩ - ٢٤).

«وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أُوتَ كتابيه. ولم أدر ما حسابيه. ياليتها كانت القاضية. ما أغنى عنى ماليه. هلك عنى سلطانيه (أى ضاع سلطانى). **خذوه فَغُلوه. ثم الجحيم صلُّوه. ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحضُّ على طعام المسكين. فليس له اليوم هاهنا حميم** (أى صديق حميم)**. ولا طعام إلا من غسلين** (صديد)**. لا يأكله إلا الخاطئون»** (٢٥ - ٣٧).

وفى الآيات وصف مبهج لحال المؤمن وما يتنعم به فى الجنة. وفى مقابله وصف لما سيكون عليه الكافر من ندم ثم يطرح فى النار مقيدا بالسلاسل ولن يجد له يومئذ من صديق حميم ينقذه أو ينصره. ولن يكون له طعام إلا الصديد المُعَدُّ للآثمين.

توكيد على أن القرآن وحى :

ثم يأتى قَسَم بكل ما فى الكون - مانبصره وما خفى عن أبصارنا - أن القرآن وحى منزل من عند الله :

«فلا أقسم بما تُبصِرون. وما لا تُبصِرون. إنه لقول رسول كريم. وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون. ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون. تنزيل من رب العالمين. ولو تقول علينا بعض الأقاويل (ادَّعى قولا لم يوح إليه)**. لأخذنا منه باليمين** (كما يأخذ الآخذ بيمين من يجهز عليه)**. ثم لقطعنا منه الوتين** (وريد القلب كناية عن الإهلاك)**. فما منكم من أحد عنه حاجزين. وإنه لتذكرة للمتقين. وإنا لنعلم أن منكم مكذبين. وإنه لحسرة على الكافرين. وإنه لحق اليقين. فسبح باسم ربك العظيم»** (٣٨ - ٥٢).

ومن المعلوم أن الكلام موجه إلى الكفار ردا على ماكانوا يتقولونه على النبى من أنه شاعر أو كاهن ثم يأتى تأكيد على أن كل ما يقوله النبى هو من كلام الله عز وجل ويخبرهم أن النبى لو أدخل بعض الكلام من عنده لأخذه الله بقوة وأهلكه ولن يستطيع أحد أن يدافع عنه. ثم تمضى الآيات مؤكدة على أن القرآن تذكرة للمتقين وحسرة على الكافرين المكذبين وتنتهى السورة بأمر للنبى بالتسبيح باسم الله العظيم.

ثم نزلت **سورة المعارج :**

وهى تلى سورة الحاقة نزولا وفى ترتيب المصحف أيضا. وسميت كذلك لوصف الحق سبحانه وتعالى نفسه بـ **«من الله ذى المعارج»** أى ذى العلو والرفعة. والقرآن يسمى الحركة صعودا إلى السماء بالعروج ومنه آية الإسراء والمعراج.

وعن سبب نزولها يروى عن ابن عباس قوله بأن أحد كفار قريش هو النضر بن الحارث - حين سمع تحذير النبى لقريش من عذاب يقع بهم استبعده وأنكره وسأل متى يقع فنزلت السورة:

«سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذى المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. فاصبر صبرا جميلا. إنهم يرونه بعيدا. ونراه قريبا» (١ - ٧).

والآيات تؤكد على حتمية وقوع العذاب ولن تستطيع قوة ما دفعه. فهو من الله ذى الرفعة. فإن تأخر عنهم فذلك لأن يوما عند الله يساوى ٥٠,٠٠٠ سنة من سنى الأرض فهو عند الله قريب ولو أنهم يرونه بعيدا.

مشهد من مشاهد يوم القيامة :

أما وقد تأكد وقوع العذاب. إن لم يكن فى الدنيا فسيكون فى يوم القيامة. فإن الآيات تصف مشهداً من مشاهد ذلك اليوم:

«يوم تكون السماء كالمهل (الفضة المذابة أو الزيت العكر) **وتكون الجبال كالعِهن** (الصوف المنفوش). **ولا يَسأل حميم حميما. يُبَصَّرونهم** (أى يرونهم) **يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه. وصاحبته وأخيه. وفصيلته التى تؤويه. ومن فى الأرض جميعا ثم يُنجيه. كلا إنها لظى** (شديدة الإتقاد). **نزاعة للشوى** (الجلد). **تدعو من أدبر وتولى. وجمع فأوعى»** (٨ - ١٨).

والآيات تذكر بعض التغيرات التى ستصيب الكون فى يوم القيامة. إذ تكون السماء مغبرّة ومظلمة كالزيت العكر فى قتامته. والجبال الصلبة تصبح كالصوف المنفوش هشاشة وتناثرا.

وينشغل كل امرئ بنفسه فلا محل للإفتداء بأعز الناس عنده: أبناؤه أو زوجته أو أخيه أو عشيرته، ولن يجديه حتى لو افتدى بمن فى الأرض جميعا فلن ينجو. فنار جهنم تتقد بشدة تشوى الجلد بألم يلمسه كل من أصيب بحرق ولسبب ما نزعت القشرة التى تكونت فما بالنا والجلد كله أصبح قشرة تنزع بعنف. ونار جهنم تدعو كل من أعرض عن سماع آيات الله وجمع المال أثناء حياته واختزنه فى أوعية وخزائن ولم يؤد حق الله فيه.

ثم تذكر الآيات بعض طباع البشر السيئة وهى أكثر وضوحا لدى الكفار وهذه الطباع هى الهلع والجزع عند وقوع المصائب وإمساك اليد عن الصدقات فى حال الغنى ولكن المؤمنين مستثنون من هذه الطباع. ثم تستطرد الآيات فى وصف بعضٍ من صفات المؤمنين تحبيذا لها:

«**إنَّ الإنسان خلق هَلوعا. إذا مسّه الشر جَزوعا. وإذا مسّه الخير مَنوعا. إلا المصلين. الذين هم على صلاتهم دائمون. والذين فى أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين. والذين هم من عذاب ربهم مشفقون. إن عذاب ربهم غيرُ مأمون. والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم بشهاداتهم قائمون. والذين هم على صلاتهم يحافظون. أولئك فى جنات مكرمون**» (١٩ - ٣٥).

وفى هذه الفقرة تكررت كلمة «والذين» ٨ مرات ذاكرة ٧ صفات من صفات المؤمنين إذ تكررت صفة المحافظة على الصلاة: فى أول الفقرة «**والذين هم على صلاتهم دائمون**» وفى آخرها «**والذين هم على صلاتهم يحافظون**» تأكيدا على أهمية الصلاة كركن من أركان الإسلام.

ثم تأتى الفقرة التالية بسؤال للكافرين يسألهم عما جعلهم يسرعون إلى جهة النبى «**قِبَلك مهطعين**» ويلتفون حوله عن اليمين وعن الشمال جماعات. كأنهم قد طمعوا وقد سمعوا وعد الله للمؤمنين بالجنة فطمعوا أن يدخلوها بلا إيمان. كما قيل إن الكفار كانوا يلتفُّون جماعات حول النبى وهو يقرأ القرآن ويستهزئون بكلامه ويقولون عن المؤمنين إن دخل هؤلاء الجنه لندخلنَّها قبلهم. ثم يأتى نفى بزجر ينفى طمعهم فى دخول الجنة ثم تلفت نظرهم إلى أنهم لا امتياز لهم بشيئ لأنهم خلقوا كغيرهم من الناس - من نطفة - ثم يقسم الله بذاته العلية أنه قادر على أن يهلكهم ويأتى بمن هم أطوع منهم لله:

«**فمالِ الذين كفروا قِبَلَكَ مهطعين. عن اليمين وعن الشمال عِزين. أيطمع كل امرئ منهم أن يُدخل جنة نعيم. كلا إنا خلقناهم مما يعلمون. فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون. على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين**» (٣٧ - ٤١).

وقال المفسرون إن ذكر صيغة الجمع فى المشارق والمغارب تعنى مشارق ومغارب الشمس والكواكب والنجوم فلكل كوكب مشرق ومغرب. ويرى علماء الجغرافيا المعاصرون أن دوران الأرض حول محورها يجعل الشمس تشرق باستمرار على نقاط جديدة من سطح الأرض وفى نفس الوقت تغرب عن النقاط المقابلة فتتعدَّد المشارق والمغرب. كما أن ميل محور الأرض يجعل الشمس تشرق فى الصيف فى مكان غير مكان شروقها فى الشتاء فهذا أيضا تعدد للمشارق والمغارب. ولما كان الله هو ب المشارق والمغارب فهو قسم بذاته العلية على أنه قادر على أن يهلكهم ويأتى بغيرهم وإذا حدث ذلك فلن يستطيعوا الاستباق للهرب منه **«وما نحن بمسبوقين»**.

تهديد أخير :

«فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون. يوم يَخرجون من الأجداث سِراعا كأنهم إلى نُصُب يوفضون. خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون» (٤٢ - ٤٤).

وفى الآيات أمر للنبى بتركهم فى تكذيبهم ولهوهم حتى يفاجئهم الأجل أو يوم القيامة. وقد جاء مثل هذا الأمر للنبى وبنفس الألفاظ فى سورة الزخرف (آية ٨٣ ص ٣٢١). وفى سورة الأنعام (آية ٩٢ ص ٢٦٣) **«ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون»** ولاشك أن تكرر هذا الأمر للنبى جعل الكفار يشعرون بالخوف إذ يعنى اليأس من هدايتهم. وما قد يتبع ذلك فى احتمال نزول عذاب بهم. ثم تمضى الآيات تصف حال الكفار حين يخرجون من القبور مسرعين مثلما كانوا فى الدنيا يسرعون إلى أصنامهم التى عبدوها ولكنهم يوم القيامة ستكون أبصارهم ذليلة خاشعة وتغشاهم مهانة مُرهقه ويقال لهم تبكيتا وتوبيخا إن ذلك اليوم هو ماكانوا به يكذِّبون.

ثم نزلت **سورة النبأ :**

وتركز السورة على موضوع البعث. وفيها تذكرة ببعض مظاهر قدرة الله فى الكون كدليل على قدرته على البعث:

«عم يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذى هم فيه مختلفون. كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون» (١ - ٥).

وتبدأ السورة بسؤال تعجب: عم يتساءل الناس؟ عن ذلك الخبر العظيم! وهم فيه مختلفون بين مصدِّق ومكذِّب. وهو موضوع البعث بعد الموت. ثم تحذير **«كَلاًّ»** لأنهم سيعلمون أنه حق. ويتكرر التحذير للتأكيد عليه.

بعض مظاهر قدرة الله فى الكون :

وكردٍ على تساؤل الكفار عن البعث تسوق الآيات تسعة من مظاهر قدرة الله فى الكون، للتدليل على أن إله هذه قدراته لاشك قادر على إعادة الخلق فى الآخرة:

«ألم نجعل الأرض مهادا، والجبال أوتادا، وخلقناكم أزواجا، وجعلنا نومكم سُباتا، وجعلنا الليل لباسا، وجعلنا النهار معاشا، وبنينا فوقكم سبعًا شدادا، وجعلنا سراجا وهاجا، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا، لنخرج به حبا ونباتا، وجنات ألفافا، إن يوم الفصل كان ميقاتا، يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا» (٦ - ١٨).

١ - فالأرض جعلها الله وما فيها من خيرات ممهدة لسكنى البشر.

٢ - **«والجبال أوتادا»** فقد أثبت علماء الچيولوچيا أن لكل جبل امتداد داخل القشرة الأرضية بأضعاف ارتفاعه يعمل على تثبيته.

٣ - **«وخلقناكم أزواجا»** حتى يتم التكاثر وتعمر الأرض. وقد سبق ذكر هذا المعنى فى سورة الذاريات (آية ٤٩ ص ٣٢٣): **«ومن كل شيئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون».**

٤ - والنوم جُعِل للراحة من عناء العمل .

٥ - والليل ساتر بظلامه كما يستر اللباس الجسد .

٦ - والنهار للسعى فى الرزق للمعيشة .

٧ - وسبع سموات قوية الصنع محكمة .

٨ - والشمس فيها احتراق وتوهج فتضيئ وتبعث الحرارة والدفء .

٩ - والمعصرات هى السحب المشبعة ببخار الماء وقطيراته ويسميها علماء الأرصاد «السحب الركامية» وهى تتميز بغزارة أمطارها. وثج الماء سال وانصبٍّ والثجاج الشديد الانصباب. وإذا نزل المطر على الأرض أخرجت الحبوب والنبات لرعى الماشية، والبساتين ذات أشجار ملتفة متشابكة الأغصان. ولاشك أن الإله القادر على كل ذلك قادر على بعث الناس فى الآخرة للفصل بينهم. وليوم البعث موعد وميقات لا يعلمه إلا الله.

يوم القيامة وجزاء كل من الكافرين والمؤمنين :

ثم تمضى الآيات تصف ما سيحدث فى يوم القيامة. فعند نفخ الصور يهب الناس جميعا من قبورهم ويأتون إلى المحشر جماعات جماعات وتتشقق السماء من كل جانب كأن فيها أبوابا. وبعد أن ذكرت الجبال فى الآية ٧ بأنها أوتاد أى ثابتة فى الأرض تذكر الآيات أنها قد قلعت من مكانها وتحركت وتفتَّتت إلى غبار كثيف فأصبحت كالسراب تراها جبالا وهى لم تعد كذلك. وكما وصفت فى سورة المعارج (الآية ٩ ص ٣٨٦) بأنها تصبح «كالعهن» أى الصوف المنفوش. ثم تمضى الآيات وقد أثارت الخوف فى القلوب من أهوال ذلك اليوم فتشرح ما ينتظر الكافرين من عذاب. وفى مقابله ما ينتظر المتقين من نعيم فى الجنة.

«يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا. وفتحت السماء فكانت أبوابا. وسُيِّرت الجبال فكانت سرابا. إن جهنم كانت مرصادا. للطاغين مآبا. لابثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغسَّاقا (صديدا)**. جزاء وفاقا. إنهم كانوا لا يرجون حسابا. وكذَّبوا بآياتنا كِذَّابا. وكل شيئ أحصيناه كتابا. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا. إن للمتقين مفازا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دِهاقا** (ممتلئة وصافية)**. لا يسمعون فيها لغوا ولا كِذَّابا. جزاء من ربك عطاء حسابا»** (١٨ - ٣٦).

ولاشك أن هذا الوصف الذى جسَّد صورة جهنم وكأنها تترصَّد وتنتظر الكافرين لتكون مثوى لهم يلبثون فيها دهورا طويلة - وصف يثير الفزع فى قلوب الكافرين. ثم يأتى وصف الجنة ليزيدهم حسرة وندما على ما فاتهم فى حين أنه يزيد المؤمنين رغبة فيها ويزيدهم تمسكا بالإيمان وصبرا على إيذاءات المشركين.

تمجيد الله :

وفى هذه الآيات تمجيد لله وتقرير أن لا أحد يملك حق مخاطبته سبحانه وتعالى. ولا حتى أن يتكلم إلا بإذنه.

«ربِّ السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا. يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا» (٣٧ - ٣٨).

تحذير أخير للكافرين :

ثم يأتى تأكيد على أن يوم القيامة حق. فمن شاء اتخذ إلى ربه مرجعا كريما بالإيمان والعمل الصالح. أما الكافرون فقد حذَّرهم الله من عذاب ينزله بهم فى ذلك اليوم الذى سيرون فيه أعمالهم ويتمنى الكافر أن لو ظل ترابا ولم يُبعث ليحاسب :

«ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مئابا. إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدَّمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا» (٣٩ - ٤٠).

ثم نزلت **سورة النازعات :**

وهى تلى سورة النبأ نزولا وفى ترتيب المصحف كذلك :

«والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبِّرات أمرا. يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة» (١ - ٧).

فهذا قسم بخمسة أشياء :

١ - **النازعات** وهى الملائكة التى تنزع أرواح البشر. وتغرق فى نزع أرواح الكافرين أى تجد صعوبة فى نزعها.

٢ – **والناشطات** أى الخارجات بسهولة وهى أرواح المؤمنين.

٣ – **والسابحات** : الملائكة فى سبحها بين السماء والأرض تنفذ أوامر الله. وقيل إنها النجوم السابحة فى الفضاء.

٤ – **والسابقات** قيل بعض النفوس المؤمنة يسبق بعضها بعضا شوقا إلى عالم الملكوت وقيل الملائكة التى تسبق لأداء ما وكل إليها من أعمال.

٥ – **والمدبرات أمرا** هى الملائكة تدبر وتنفذ أوامر الله. وقيل النجوم تدبر أمرا من حياة البشر مرتبط بمواقعها وأبراجها.

ولاشك أن مدلولات هذه الأقسام كانت مفهومة فى عهد النبى وأنها كانت ذات خطورة فى الأذهان. أما جواب القسم فمحذوف وتقديره: إن البعث حقيقة. ثم تذكر الآيات أنه فى ذلك اليوم ترجف الأرض مرة ثم تردفها أى تتبعها رجفة ثانية.

«يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة». (٦ – ٧).

وصف لحال الناس يوم القيامة :

«قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أإنا لمردودون فى الحافرة. أإذا كنا عظاما نخرة. قالوا تلك إذا كَرة خاسرة. فإنما هى زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة» (٨ – ١٤).

وفى ذلك اليوم يستولى الرعب والاضطراب على قلوب الناس وتخشع أبصارهم من الخوف وسوف يتساءلون باستغراب إذا كانوا حقا قد عادوا إلى الحياة مرة أخرى بعد أن كانوا عظاما بالية. والعرب تقول رجع فلان فى حافرته أى عاد من الطريق الذى جاء فيه. ويوم القيامة يقول الكافرون أنه لو كان الأمر كذلك – أى بعث بعد الممات – فهم إذًا خاسرون. فيُردُّ عليهم بأن هذا أمر يسير على الله فما هى إلا صيحة واحدة. أى نفخة فى الصور حتى يجدوا أنفسهم على وجه الأرض بعد أن كانوا فى بطنها والعرب تسمى وجه الأرض والفلاة «ساهرة» بمعنى ذات سهر أى يسهر السالك فيها خوفا من أخطارها.

جانب من قصة موسى :

ثم تذكر الآيات جانبا من قصة موسى مع التركيز على أن موسى أرى فرعون الآية الكبرى وهى تحوُّل العصا وهى جماد إلى حيَّة حقيقية تسعى. ولعل فى هذا إشارة إلى قدرة الله فلا غرو أن يحيى العظام وهى رميم. ولكن فرعون كذَّب وزاد طغيانا بأن ادعى الألوهية. فأهلكه الله جزاء على هاتين الجريمتين: الأولى ادعاء الألوهية والآخرة تكذيب موسى **«فأخذه الله نكال الآخرة والأولى».** وقيل أخذه الله ونكل به فى الدنيا بإغراقه وله فى الآخرة أشد العذاب ليكون عبرة للناس:

«هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالوادِ المقدس طُوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذَّب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى» (١٥ - ٢٦).

بعض مظاهر قدرة الله فى الكون :

ثم توجه الآيات سؤالا إلى الكفار عن تعاميهم عن مظاهر قدرة الله فى الكون. وجواب السؤال أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق الإنسان وإله هذه قدرته لاشك قادر على البعث بعد الإماتة :

«أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها (سقفها) **فسوَّاها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم»** (٢٧ - ٣٣).

«وأغطش ليلها» أى جعله ظلاما دامسا. والناظر إلى السماء من فوق طبقة الغلاف الجوى للأرض يرى السماء سوداء تماما. وهذا ما قرره رواد الفضاء وما سجلته الكاميرات المثبتة فى المركبات الفضائية. وإنما تبدو السماء زرقاء لسكان الأرض بسبب تشتت ضوء الشمس على ذرات الغازات والهباءات المنتشرة فى الغلاف الجوى. وتطلع الشمس فيكون ضحى ونهار. **«والأرض بعد ذلك دحاها»** ومن معانى الدحو البسط وهذا ما نراه من بسط الأرض على امتداد البصر وما كان يعتقده الأقدمون من أن الأرض مسطحة. ولما اكتشفت كروية الأرض لم يتعارض ذلك مع ماجاء فى القرآن لأن الدحية هى البيضة فالأرض كروية مثل البيضة.

حال الكفار والمومنين يوم القيامة :

«فإذاجاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبُرِّزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هى المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هى المأوى» (٣٤ - ٤١).

ففى يوم القيامة - وسمى بالطامة الكبرى لما فيه من بلاء عام - يتذكر كل إنسان ما عمل فى دنياه وتعرض الجحيم حتى يراها الناس. فمن طغى وفضَّل الدنيا ولم يعمل حسابا للآخرة كان مأواه جهنم. أما الذى استشعر خوف الله وزجر نفسه عن اتباع الهوى فمأواه الجنة.

موعد الساعة :

«يسألونك عن الساعة أيَّان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها» (٤٢ - ٤٦).

وتذكر الآيات أن الكفار سألوا النبى عن موعد الساعة، ويُردُّ عليهم بأن النبى نفسه لا يعلم وقتها، وعلمها ينتهى إلى الله وحده، أما واجب النبى فهو إنذار الناس بها حتى يخشوها فيخشون الله، وهم عند البعث يشعرون كأنهم لم يلبثوا فى قبورهم إلا وقتا قصيرا لأن الزمن يتوقف بالنسبة للميت فلا يشعر بمروره.

ثم نزلت سورة الانفطار :

«إذا السماء انفطرت» (تشققت)، **وإذا الكواكب انتثرت، وإذا البحار فُجِّرت، وإذا القبور بُعثرت، علمت نفس ما قدّمت وأخّرت»** (١ – ٥).

وتصف الآيات صورة لما سيكون من أهوال فى يوم القيامة: فالسماء تنشق وتتشقق والكواكب تتبعثر، والبحار يفتح بعضها على بعض وتتفجر ماء فيغرق كل شيئ، وتفتح القبور ليخرج من فيها من الموتى، ويأتى جواب الشرط بأنه فى ذلك اليوم تعرف النفوس ما عملت فى الدنيا من عمل وما أخرته فلم تعمله.

يلى ذلك خطاب موجه إلى الإنسان عامة وإلى الكافر بصفة خاصة يسأله عن السبب الذى جعله يستهين بإنذارات الله على يد رسله، وتجاهل ما يلمسه من قدرة الله فى خلقه له فى أحسن صوره فهو يمشى سويا معتدل القامة، وكان عليه ألا يُكذِّب بالجزاء يوم القيامة، ثم تؤكد الآيات أن هناك ملائكة كراما يكتبون كل ما يفعله العباد:

«يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم، الذى خلقك فسوَّاك فعدلك، فى أى صورة ماشاء ركَّبك، كلا بل تكذبون بالدين، وإن عليكم لحافظين، كراما كاتبين، يعلمون ما تفعلون» (٦ – ١٢).

ثم تتطرق الآيات إلى وصف مصير المؤمنين ومصير الكافرين فى يوم القيامة وتكرر التساؤل عن يوم الدين تعظيما لخطورته، وفيه لا تستطيع نفس أن تنفع نفسا أخرى أو تدفع عنها عذابا لأن الأمر كله لله:

«إن الأبرار لفى نعيم، وإن الفجار لفى جحيم، يصلونها يوم الدين، وما هم عنها بغائبين، وما أدراك ما يوم الدين، ثم ما أدراك ما يوم الدين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله» (١٣ – ١٩).

ثم نزلت سورة الانشقاق :

وهى مثل سابقتها من قصار السور :

«إذا السماء انشقت، وأذنت (استجابت) **لربها وحُقَّت، وإذا الأرض مُدَّت، وألقت ما فيها وتخلَّت، وأذنت لربها وحقت»** (١ – ٥).

والآيات تصف مشهدا من مشاهد يوم القيامة حين تنشق السماء استجابة لأمر ربها، وحَقَّ

عليها أن تستجيب. وتنبسط الأرض وتلفظ ما بداخلها من أجساد الموتى. وحُقَّ لها أن تنقاد لأمر ربها. وجواب الشرط محذوف وتقديره «تكون القيامة قد قامت».

ثم يتوجه الخطاب إلى جنس بنى آدم يخبره أنه ساعٍ فى حياته الدنيا ولابد أن يلقى ربه فى النهاية. فهو ساعٍ إلى ربه فملاقيه للحساب. فمن أُعطى كتابه بيمينه - دلالة على أن حسناته أكثر من سيئاته - فسيكون حسابه يسيرا ويعود إلى أهله مسرورا برضاء ربه عنه وعن أعماله. وأما من أوتى كتابه من وراء ظهره كأن الله يمقت رؤية وجهه - كناية على أن سيئاته غلبت حسناته - فسوف يتمنى لنفسه الهلاك حتى لا يَصلى النار. فقد كان فى حياته الدنيا مسرورا بما أوتيه من مباهجها ولاهيا عن الآخرة وظن أنه لن يرجع إلى الله ليحاسبه. وظن أن لن تتبدل حاله بعد الموت «**ظن أن لن يحور**» فلا بعث ولا حساب فى حين أن عين الله كانت مراقبة له وتحصى عليه أعماله:

«**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه. فأما من أوتى كتابه بيمينه. فسوف يحاسب حسابا يسيرا. وينقلب إلى أهله مسرورا وأما من أوتى كتابه وراء ظهره. فسوف يدعو ثبورا. ويصلى سعيرا. إنه كان فى أهله مسرورا. إنه ظن أن لن يحور. بلى إن ربه كان به بصيرا**» (٦ - ١٥).

ثم يتوجه الكلام إلى الكفار مؤكدا بقسم من الله بالشفق والليل والقمر أنهم سينتقلون من حال إلى حال: من حياة إلى موت إلى بعث وحياة آخرة. ثم تتساءل الآيات عن سبب عدم إيمانهم وتساؤل ثان عن سبب عدم خشوعهم عند سماع آيات القرآن الكريم مع أن غيرهم يسجدون وهم - أى الكفار - يكذِّبون والله عليم بما يضمرون فى قلوبهم. ثم إنذار لهم بعذاب أليم وقد سُمِّى بشرى تهكما. أما المؤمنون فلهم أجر جزيل غير مقطوع:

«**فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق** (جَنَّ وستر). **والقمر إذا اتسق** (اكتمل). **لتركبن طبقا عن طبق. فما لهم لا يؤمنون. وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون. بل الذين كفروا يُكذبون. والله أعلم بما يُوعون. فبشرهم بعذاب أليم. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون**» (١٦ - ٢٥).

ثم نزلت **سورة الروم** :

مقدمة تاريخية : فى ذلك الوقت كانت هناك مملكتان تقتسمان العالم القديم فيما بينهما: الامبراطورية الفارسية فى الشرق والامبراطورية الرومانية فى الغرب وكان كسرى الأول الملقب بأنو شروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) معاصرا لجستنيان ومكافئا له فى القوة. ثم تولى كسرى الثانى أبرويز (٥٩٠ - ٦٢٨م) حفيد كسرى الأول عرش الإمبراطورية الفارسية وأحرز انتصارات باهرة على امبراطورية القسطنطينية وفى عام ٦١٥م وصلت جيوشه إلى خلقدون وهى المدينة المواجهة للقسطنطينية. وفى عام ٦١٨م استولى على أنطاكية ودمشق والقدس. ووجد فى مدينة

القدس صليبا قيل إنه الصليب الحقيقي الذى يؤمن المسيحيون أن يسوع صُلِب عليه فاستولى عليه وحمله معه إلى عاصمته المدائن. وفى عام ٦١٩م استولى على مصر.

وتولى الحكم فى الإمبراطورية الرومانية هرقل الذى ظل ردحا من الزمان يتجنب الدخول فى معركة كبيرة مع الفرس وراح يجمع قواته. ثم تقدم فى معارك أولية انتصر فيها ثم كان أن كلَّل انتصاراته بمعركة نينوى عام ٦٢٧م التى انهزم فيها الفرس وفى عام ٦٢٨م خلع ابن كسرى أباه وقتله وتم توقيع صلح غير حاسم بين الامبراطوريتين فى عام ٦٢٧م وبه رجعت لكل من الطرفين حدوده القديمة وأعيد الصليب إلى هرقل فأرجعه إلى أورشليم محوطا بجو من الحفاوة والتقديس.

وكان انتصار الفرس فى عام ٦١٨ مدعاة لفرح مشركي قريش الذين أظهروا شماتتهم بالمسلمين الذين كانوا يميلون إلى الروم لأنهم أهل كتاب وقد شق ذلك الموقف على المسلمين وأحزنهم. فنزلت سورة الروم. وفى الآيات الخمس الأولى بشرى بانتصار الروم فى بضع سنين. والبضع هو ما بين ٣ – ٩. وتم النصر النهائى للروم فى عام ٦٢٨م

«الم. غُلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سَيَغْلبون. فى بضع سنين. لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. وَعْدَ الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» (١ – ٧).

ويروى أنه لما نزلت الآيات خرج أبو بكر بها إلى المشركين وقال: أسرَّكم أن غُلبت الروم؟ فإن نبينا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون فى بضع سنين. فقال له أبى بن خلف وأمية أخوه فلنتراهن فى ذلك. فراهنهم أبو بكر على خمس إبل والأجل ثلاث سنين ثم أتى النبى فأخبره. فقال له: فهلا احتطت فإن البضع ما بين الثلاث والتسع والعشر. ارجع فزدهم فى الرهان واستزدهم فى الأجل. ففعل أبو بكر فجعلوا الإبل سبعة وقيل مائة والأجل تسعة أعوام. وظهرت الروم على الفرس عام الحديبية. وأخذ أبو بكر الإبل من ورثة أبى بن خلف فقال له النبي تصدَّق به. فتصدق به.

تنديد بالكفـار :

بعد الآيات التى بشرت بانتصار الروم جاءت آيات تندد بالكفار لغفلتهم عن الآخرة. ولو فكرُّوا بتدبر لهداهم المنطق إلى أن الله سبحانه وتعالى لابُد قد خلق السموات والأرض وما بينهما لغاية ولحكمة جليلة أساسها الحق ولن يدوم ذلك الخلق إلى ما لا نهاية بل لابد له من أجل معين فى علم الله وكان كثير من الناس فى ذلك الوقت – كما سبق أن قلنا – لا يؤمنون بالبعث مع أنهم لو ساروا فى الأرض وتفكَّروا فى مصائر الأمم السابقة الذين كذَّبوا رسلهم واستهزأوا بهم ورأوا كيف جازاهم الله على أفعالهم وأقوالهم لكان هذا خير واعظ لهم:

«أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمًّى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون. أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم. كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون» (٨ – ١٠).

ثم تأتى آيات تبرهن بالمنطق على حدوث البعث. فالله قد خلق الكون ابتداءً وهذا مالا ينكره المشركون وهو قادر على الإعادة. وليس من هدف للإعادة إلا الرجوع إلى الله للحساب. وحينئذ يصبح الكافرون يائسين إذ لن يجدوا من شركائهم من يشفع لهم بل إنهم يكفرون بشركهم. وينال الكافرين عذاب عظيم. أما المؤمنون فيدخلون الجنة مسرورين:

«الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه تُرجعون. ويوم تقوم الساعة يُبلس المجرمون. ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين. ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يُحبرون. وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب مُحضرون» (١١ – ١٦).

ثم يُضرب للكفار مثل حى على البعث بقدرة الله على إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى. قالوا إخراج الإنسان من النطفة التى فى ظاهرها لا حياة فيها. أو النبتة من البذرة. ويحيى الأرض بعد جفافها. إذا طالها المطر أنبتت الزرع والثمار:

«فسبحان الله حين تُمسون وحين تُصبحون. وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تُظهرون (وقت الظهيرة). **يُخرج الحى من الميت ويُخرج الميت من الحى ويُحيى الأرض بعد موتها وكذلك تُخرجون»** (١٧ – ١٩).

وقد سبق ذكر إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى فى سورة يونس (آية ٣١ ص ٢٣٣) **«ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى»** وفى سورة الأنعام (آية ٩٥ ص ٢٦٤) **«إن الله فالق الحب والنوى. يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى».**

مشاهد من قدرة الله ونواميسه فى الكون :

ثم تأتى سلسلة رائعة من مشاهد قدرة الله ونواميسه فى الكون بأسلوب جزل وسهل وتكرار محبب يجذب الأسماع ويفهمه الناس على اختلاف طبقاتهم ويتسق مع المشاهدات الماثلة أمام أعينهم. كما أن النهايات التى انتهت بها بعض الآيات: يتفكرون. يسمعون. يعقلون. تتسق مع ما ذكر قبلها. والآيات تهيب بالسامعين أن يرجعوا إلى أنفسهم ليتدبروا فى خلق الله وآياته فحتما سيقودهم ذلك إلى الإيمان:

١ – **«ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون»** (٢٠).

٢ - «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (٢١).

٣ - «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم (في اللغات واللهجات) وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين» (٢٢).

٤ - «ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله (من رزقه) إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون» (٢٣).

٥ - «ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا ويُنَزِّل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون» (٢٤).

٦ - «ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون» (٢٥).

وتختم هذه الفقرة بالتأكيد على قدرة الله في البعث :

«وله من في السموات والأرض كل له قانتون. وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» (٢٦ - ٢٧).

وجملة **«وله المثل الأعلى»** جاءت بمثابة استدراك بمعنى أن ما ذكر من أن الإعادة أهون من البدء إنما هو من قبيل ما اعتاد عليه البشر من أن إعادة الشيئ أهون من ابتداعه. وليس ذلك في حق الله لأن البدء والإعادة سيان بالنسبة لقدرته وعظمته.

مثال لفساد عقيدة الشرك :

«ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصِّل الآيات لقوم يعقلون. بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله ومالهم من ناصرين» (٢٨ - ٢٩).

وضُرِب المثل لتقريب الأمر للأذهان بسؤال عما إذا كان الكفار يرضون أن يكون عبيدهم شركاء لهم في أموالهم وفيما رزقهم الله يقاسمونهم على سواء والجواب طبعا بالنفي. فإذا لم يرضوا هذا لأنفسهم فكيف جعلوا لله شركاء، وكان كفار قريش يقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك. ثم يأتي توضيح أن الكفار يتبعون أهواء النفس غير مستندين إلى علم. فهم ضالون وزادهم الله ضلالا وليس لهم ناصر من عذاب الله.

حث على الثبات على الدين :

ثم تمضي الآيات تحث النبي على الثبات على دين الله وهو دين الفطرة وبالطبع فإن هذا الأمر ينسحب على المؤمنين كافة ويحذرهم من أن يسلكوا مسلك المشركين في تفرقهم أحزابا:

«فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها. لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين. من الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون» (٣٠ – ٣٢).

وقد روى حديث عن النبى جاء فيه: ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه.

جحود البشر وخاصة الكفار :

ثم تمضى الآيات تلفت النظر إلى واحدة من طبائع البشر هى أوضح ما تكون عند المشركين الذين إذا أصابهم ضرٌّ لجأوا إلى الله ثم إذا كشف عنهم الضر جنح فريق منهم إلى الشرك بالله. ويعقب ذلك تساؤل عما إذا كانوا فى شركهم هذا يستندون إلى كتاب أو وحى ربانى والجواب طبعا بالنفى. ثم تعود الآيات إلى ما سبق ذكره من طبيعة البشر: إذا أصابتهم نعمة فرحوا بها. وإذا أصابهم شر – جزاء على ما فعلوا من سيئات – أصبحوا قانطين وكان عليهم أن يدركوا أن الحالين – النعمة أو الضر – من الله وأنه يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء:

«وإذا مسَّ الناس ضُرٌّ دعوا ربهم منيبين إليه (أى راجعين إليه ولائذين به) **ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون. ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون. أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون. وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون. أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون»** (٣٣ – ٣٧).

حث على الزكاة وتزهيد فى الربا:

ولما كان الله هو الذى يبسط الرزق ويرزق المال فواجبٌ أن يُؤدَّى لله حقه. وإن كان إقراض فلا زيادة عند استيفاء الدين:

«فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون. وما آتيتم من ربا ليربُوَاْ فى أموال الناس فلا يربُواْ عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون» (٣٨ – ٣٩).

لم يكن تحريم الربا لينزل فى مكة إذ المسلمون قلة وليس لهم سلطان على غيرهم. ولكن بُدئ فى تزهيد المسلمين فى الربا وبيان أن الله لا يقبله. أما بعد أن انتقل المسلمون إلى المدينة وصارت لهم دولة وسلطان يستطيعون به تنفيذ شريعتهم فقد نزلت الآيات تُحرِّم الربا كما سيجئ فيما بعد (ص ٥٥٨).

تنبية الكفــار :

وفى هذه الفقرة يتوجه الخطاب إلى المشركين منبها إلى قدرة الله :

«الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم مَن يفعل من ذلكم من شيئ. سبحانه وتعالى عما يُشركون. ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يَرجعون. قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين» (٤٠ - ٤٢).

والآيات توضح للمشركين أن الله هو الخالق وهو الرازق وشركاؤهم لا يقدرون على شيئ من ذلك. والفساد الذى يظهر أحيانا فى الأرض هو نتيجة لآثام أهلها وعقاب من الله لعلهم يفيقوا ويرتدعوا. ولو نظروا فى الأرض لرأوا آثار الأقوام السابقة الذين أهلكهم الله لأنهم كانوا مشركين. ثم يتوجه الخطاب إلى النبى فيه حث للنبى - والمؤمنين أيضا - على العبادة من قبل أن يأتى يوم القيامة وفيه يُعاقَبُ الكافرون ويُثاب المؤمنون:

«فأقم وجهك للدين القيّم من قبل أن يأتى يوم لا مردٌ له من الله (أى يوم القيامة) **يومئذ يصدّعون. من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون. ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين»** (٤٣ - ٤٥).

نعمــة إرســال الريــاح :

ثم تذكر الآيات نعمة إرسال الرياح بالمطر ولتسيير السفن. ثم تأتى جملة اعتراضية فيها تذكير بأن الله تعالى قد أرسل رسلا إلى أمم قبلهم فكذّبهم أقوامهم فانتقم الله منهم ونصر المؤمنين. ثم تعود الآيات لتشرح دور الرياح فى إنزال المطر:

«ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين. الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كِسَفا فترى الوَدْق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون. وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين. فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شيئ قدير. ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون. فإنك لا تسمع الموتى ولا تُسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين. وما أنت بهادِ العُمْيِ عن ضلالتهم إن تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون» (٤٦ - ٥٣).

وفى الآيات مشهد من قدرة الله. فهو يسوق الرياح فتحرك السحاب ولا يلبث الودق أى المطر أن يتساقط منه ويستبشر الناس ويزول ما كان بهم من يأس وحزن. والله الذى أحيا

الأرض برحمته قادر على إحياء الموتى. وإذا هبت ريح جافة واصفر الزرع ويبس لم يتعظوا وظلوا على كفرهم. فهم كالموتى والعمى والصم لا يحسون بل يفرون إذا دعاهم الرسول إلى الإيمان. والنبى غير مكلف بإسماع الموتى ولا الصم ولا العمى وإنما عليه أن يخاطب من يؤمن بآيات الله وأسلم أمره لله.

تذكير بمراحل حياة البشر :

والآيات التالية تذكر الأطوار التى يمر بها الإنسان من ضعف ثم قوة ثم ضعف ثانية. وهذا التسلسل ينبئ ببعث بعد الموت:

«الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضَعفا وشَيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير. ويوم تقوم الساعة يُقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون. وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله (أى فى حكم الله وقضائه) **إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون. فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتُهم ولا هم يُستعتبون»** (٥٤ - ٥٧).

وحين تقوم الساعة يَذهل الكافرون ويُقسمون أنه لم يمر على مفارقتهم للدنيا إلا ساعة أى وقت قليل فيقول لهم أهل العلم إنهم لبثوا أمواتا طيلة الأمد الذى قدَّره الله وأن هذا يوم البعث الذى وُعِدوا به فى الدنيا. ولن ينفعهم يومئذ ما يقدمونه من أعذار.

القرآن هداية للناس :

«ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولَنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مُبطلون. كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون. فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفَّنَّك الذين لا يوقنون» (٥٨ - ٦٠).

وفى الآيات تنبيه إلى أن الله قد ضرب للناس فى القرآن من الأمثلة مايحث الناس على الإيمان. ثم تشرح الآيات كيف كان الكفار يكذبون ويتهمون المؤمنين بأنهم على باطل. وهذا شأن الجاهل الذى اختار الضلال فختم الله على قلبه حتى يظل على ضلاله.

ثم أمر للنبى بالصبر. يقول المنتخب فى تفسير القرآن الكريم (المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ص ٦١٠) معناه أن يصبر النبى على أذاهم وأن وعد الله بإظهار دينه حق ولا يحملونه على القلق فهم لا يؤمنون. ويقول تفسير الجلالين (ص ٣٤٣) فاصبر إن وعد الله بنصرك عليهم حق ولا يحملنك الذين لا يؤمنون بالبعث على الخفَّة بترك الصبر ونفس هذا التفسير قال به الألوسى (تفسيره جـ ٢١ ص ٦٢).

وما نراه هو أن بعض المسلمين - بعد بيعة العقبة الثانية - كانوا يتعجلون النبى الهجرة إلى يثرب فكان الأمر للنبى بالصبر وألاَّ يهاجر حتى يأذن الله له وألا يستجيب لقولهم لأنهم

لا يوقنون. واليقين هو العلم الذى لاشك معه (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ١٠٧٩) وهذا يستلزم إحاطة شاملة بكل دقائق الموقف وهذا غير متيسر لهم. ولا يتنافى مع كونهم مسلمين أن يأخذوا بعض الأمور بسطحية واستخفاف وأمر النبى بأن يصبر وأن لا يجاريهم فى استخفافهم **«ولا يستخفنك الذين لا يوقنون»** لأن موعد هجرته لم يحن بعد.

ثم نزلت سورة العنكبوت :

«الم. أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين. أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون. من كان يرجوا لِقَاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم. ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون» (١ – ٧).

وقد بدأت السورة بثلاثة حروف مقطعة الم. تلاها سؤال يحمل معنى الاستنكار والتعجب عما إذا كان الناس يظنون أنهم يكفيهم الإقرار بلسانهم أنهم آمنوا دون أن يتعرضوا للفتنة والاختبار اللذين يثبتان صدق إيمانهم وتلك هى سنة الله فقد امتحن الأمم السابقة ليتميَّز الصادقون عن الكاذبين. ثم سؤال ثانٍ عما إذا كان الذين يرتكبون السيئات يظنون أنهم قادرون على أن يسبقوا الله ويفلتوا منه والجواب أنهم إن ظنوا ذلك فهو من سوء حكمهم على الأمور **«ساء ما يحكمون»**. ثم يأتى تطمين للذين يؤمنون بلقاء الله ويرجون ثوابه بأن لقاء الله آت لاشك فيه – فى يوم القيامة – والذين يجاهدون فى الله فإن جهادهم عائدٌ ثوابه عليهم لأن الله غنى عن العالمين. والجهاد هنا ليس معناه القتال بل هو جهاد النفس ومقاومة إغراءات الكافرين وتحمل أذاهم. ثم إعلان من الله بأنه سيُكفِّر عن المؤمنين هفوات وصغار سيئاتهم ويجزيهم بأحسن مما عملوا.

حث على الثبات على الإيمان :

كان كثير من شباب قريش قد آمنوا رغم بقاء آبائهم على شركهم وكان بعض هؤلاء الكفار من الزعماء البارزين فكانوا يُضيِّقون على أبنائهم أو يحبسونهم فى البيوت لإجبارهم على الكفر ثانية. وقد سبق أن ذكرنا أن عددا من هؤلاء الشباب هاجر إلى الحبشة. إلا أن حوادث الضغط والإكراه على الأبناء تكررت. ولما كانت تعاليم الإسلام تحض على البر بالوالدين. وإطاعتهما فقد نزل الوحى يبين حدود هذه الطاعة. وهى فى كل شيئ ماعدا الشرك بالله. وعليهم أن يجاهدوهم ويقاوموهم إذا ألحُّوا عليهم فى العودة للشرك. وقد سبق أن نزل فى سورة لقمان (الآية ١٥ ص ٢٨١) **«وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما»** وعلى ما يبدو أن حوادث الضغط على الأبناء تكررت فاقتضى تكرر التنبيه إلى هذا الأمر وشد أزر الأبناء فى مواجهة ضغوط آبائهم.

«ووصينا الإنسان بوالديه حُسنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما. إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لَنُدخلنَّهم فى الصالحين. ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولُن إنا كنا معكم أوَ ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين. وليعلمَن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين» (٨ - ١١).

كذلك كان بعض الأفراد ضعاف الإيمان قالوا إنهم آمنوا، فلما أصابهم أذى من المشركين جزعوا وفُتنوا عن دينهم ولم يفكروا فى عذاب الله فكأنهم جعلوا إيذاء الناس لهم كعذاب الله فى الآخرة.

والآيتان الأخيرتان اختلف المفسرون حول وقت نزولهما. قال البعض إنهما مكيتان وفسَّر نصر الله على أنه توقف إيذاءات المشركين. والأرجح أنهما مدنيتان بدليل ذكر «المنافقين» إذ أن النفاق لم يظهر إلا فى المدينة. ويكون وضعهما فى سورة العنكبوت - المكية - تم بتوقيف من النبى. وفى الآيتين إشارة إلى مسلك بعض المنافقين الذين كانوا يتقاعسون عن القتال. فإذا نصر الله المسلمين فى معركة قالوا للمؤمنين إنهم كانوا معهم حتى يشركوهم معهم فى الغنائم.

واتساقا مع الآيات التى تحث الشباب على الثبات على الإيمان فى مواجهة ضغوط الآباء والأهل جاءت الآيات التالية تحث المؤمنين على الثبات على الإيمان فى مواجهة إغراءات الكفار الذين كانوا يطلبون منهم العودة إلى الكفر ويعدونهم أنهم سيحملون عنهم مايخافونه من عقاب وعذاب جزاء ارتدادهم. ويفضح الوحى كذبهم ويقر أنهم لن يحملوا شيئا من خطاياهم. وسيحملون وزر كفرهم ووزر إغراء الآخرين على الكفر:

«وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيئ إنهم لكاذبون. وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألُن يوم القيامة عما كانوا يفترون» (١٢ - ١٣).

جوانب مختصرة من قصص الأنبياء السابقين :

١ - **نوح** : وتذكر الآيات أنه لبث يدعو قومه ٩٥٠ عاما وأنهم كذبوه فأنجاه الله والمؤمنين فى السفينة وأغرق الكافرين:

«ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون. فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين» (١٤ - ١٥).

٢ - **إبراهيم** : يأتى ذكره مختصرا أيضا مع التركيز على تسفيه عبادة الأوثان :

«وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. إنما تعبدون من

دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون» (١٦ - ١٧).

بعد ذلك تأتى ٦ آيات اعتبرها بعض المفسرين من جملة ما قال إبراهيم لقومه ومنهم من قال إنها اعتراضية وأنها خطاب إلى قريش:

«وإن تَكذبوا فقد كَذَّب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين. أوَ لم يروا كيف يُبدئ الله الخلق ثم يُعيده إن ذلك على الله يسير. قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيئ قدير. يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تُقلبون. وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير. والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم» (١٨ - ٢٣).

ثم تعود الآيات إلى قصة إبراهيم .

«فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون. وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين. فآمن له لوط. وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم. ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين» (٢٤ - ٢٧).

ويرى بعض المفسرين أن النص على أن إبراهيم قال «إنى مهاجر إلى ربى» يحمل فى طياته استحسان هجرة المسلمين إلى يثرب كما يرون فيه إشارة إلى قرب هجرة الرسول أسوة بجده إبراهيم.

٣ - **لوط** : أما قصة لوط فقد ذكرت من قبل فى سور عديدة: القمر. الأعراف. الشعراء. النمل. هود. الحجر. الصافات. وماجاء عنه فى السورة الحالية هو آخر مانزل عنه فى القرآن الكريم لذلك جاء مفصلا بعض الشيئ فى الآيات من ٢٨ إلى ٣٥ منتهية بهلاكهم: **«إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون. ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون».**

٤ - ٧ - ذكر سريع **لمدين وعاد وثمود وفرعون وقارون:**

«وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين. فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين. وعاداً وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين. وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين» (٣٦ - ٣٩).

وتنتهى هذه الفقرة عن الأقوام السابقين بقوله تعالى:

«فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» (٤٠).

وهن الرابطة بين المشركين وآلهتهم :

وتضرب الآيات المثل لمدى وهن الرابطة بين المشركين وبين من يتخذونهم من دون الله شركاء - ببيت العنكبوت الذى هو أوهن البيوت. فعقيدة أولئك المشركين هى أيضا أوهى العقائد وكأنهم لا يعبدون شيئا:

«مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون. إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيئ وهو العزيز الحكيم. وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون. خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين» (٤١ - ٤٣).

أمر بالاجتهاد فى العبادة :

ثم تمضى الآيات تحث النبى على الاجتهاد فى العبادة بتلاوة القرآن الكريم وإقام الصلاة وبالطبع ينسحب الأمر على كافة المسلمين بدليل ختم الآية بصيغة الجمع.

«اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون» (٤٥).

أمر باللين فى جدال أهل الكتاب :

وكان بعض اليهود والنصارى يفدون إلى مكة للتجارة. وأحيانا كانت تحدوهم رغبة فى تعرُّف حقيقة هذا النبى الذى تناهى خبره إلى أسماعهم. ولاشك أنهم كانوا يجادلون النبى فى بعض ما يقول ويجادلون المسلمين أيضا. فنزل أمر باللين فى الجدل مع أهل الكتاب - باستثناء الذين يتجاوزون حدود الإنصاف - وإعلانهم أنهم متفقون معهم فى العبودية لله وحده. ثم تؤكد الآيات على أن القرآن وحى من عند الله :

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسنُ إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون. وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون. وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون. بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون» (٤٦ - ٤٩).

والآيات صريحة وقاطعة بأن النبى لم يكن يكتب أو يقرأ. وبالرغم من ذلك فإن بعض المستشرقين يدَّعون أن النبى كان يقرأ ويكتب ولو كان ذلك صحيحا لعرفته قريش ولعارضوا

هذه الآية بقول يؤثر. والحقيقة أن المستشرقين يقيسون الماضى على الحاضر حيث أن نسبة المتعلمين حاليا هى الغالبة فى حين كان المتعلمون فى الماضى قلة وقد لا يزيدون فى مجتمع ما على أصابع اليدين ويكونون معروفين بالإسم.

المشركون يطلبون معجزة :

ثم راح المشركون يطالبون النبى بالإتيان بمعجزات مادية، وأمَرَه الوحى بإخبارهم أن القرآن – فى حد ذاته – هو آية كبرى ورحمة لهم :

«وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه (وفى قراءة آيات) **قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين. أوَلم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا يعلم ما فى السموات والأرض. والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون»** (٥٠ – ٥٢).

المشركون يتحدُّون ويطلبون تعجيل العذاب :

ثم راح المشركون يتحدُّون النبى طالبين التعجيل لهم بالعذاب الذى ينذرهم به وغرضهم الاستخفاف بوعيده والاستهزاء به، ويَرُدُّ عليهم بأن العذاب له فى علم الله وقت محدد ولولا ذلك لجاءهم العذاب الآن وعلى كلٍّ فسوف يأتيهم فجأة وحينئذ – فى يوم القيامة – ستحيطهم نار جهنم من كل جانب ويُخبرون أن هذا جزاء لما كانوا يعملون من سيئات فى الدنيا:

«ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مُسمًّى لجاءهم العذاب وليأتينَّهم بغتة وهم لا يشعرون. يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين. يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون» (٥٣ – ٥٥).

تحبيذ الهجرة :

«ياعبادِىَ الذين آمنوا إن أرضِى واسعة فإياى فاعبدون. كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوِّئنهم من الجنة غرفا تجرِى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين. الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون. وكأيِّن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم» (٥٧ – ٦٠).

والنص على أن أرض الله واسعة يعنى أنه إذا ضُيِّق على المسلمين فى مكان فعليهم أن يذهبوا إلى أرض أخرى لا يُضيق عليهم فيها. فهو تحبيذ على الهجرة إلى أرض يستطيع المسلمون عبادة الله فيها بحرية، ولم تكن الآيات لتأمر بالهجرة صراحة حتى لا يندفع المسلمون فى هجرة جماعية تثير ثائرة المشركين فيقاومونها مقاومة جماعية بالسلاح مع ما فى ذلك من خطر على جماعة المسلمين. لذلك كان تحبيذا خفيا حتى يهاجر من يستطيع ويتسلل المسلمون سرا كما فعل الكثيرون أو جهارا كما فعل عمر بن الخطاب.

ولعل بعض المسلمين كان يتخوف من أن يموت فى الغربة فكان النص على أن كل نفس ذائقة الموت بمعنى أنه لا يهم فى أى أرض تموت فالكل راجع إلى الله. والذين آمنوا سيكافؤون بأن لهم الجنة. كذلك لعل بعضهم تخوف من الفاقة فى المهجر فكان تطمينهم بأن الله يرزق الدواب ومن باب أولى أن يرزق البشر.

الكفار يناقضون أنفسهم :

ثم يتوجه الخطاب إلى الكفار يندد بتناقضهم مع أنفسهم إذ يشركون بالله مع أنهم يعلمون أنه هو الذى خلق السموات والأرض والشمس والقمر. وهو الذى يرزق الناس وهو الذى ينزل المطر فتحيا الأرض وينبت الزرع. وإذا ركبوا السفن وهاج البحر دعوا الله فإذا أنجاهم أشركوا. وتنتهى بتهديد بتركهم يكفرون ويتمتعون كما يشاءون فسوف يعلمون فى النهاية عاقبة كفرهم:

«ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولُنَّ الله فأنى يؤفكون. الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيئ عليم. ولئن سألتهم من نزَّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولُن الله. قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون. وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون. فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون. ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون» (٦١ – ٦٦).

بركة البيت الحرام :

ثم يأتى سؤال استنكارى يندد بإنكار الكافرين نعمة الله عليهم إذ جعل بلادهم آمنة فى حين أن الدول المجاورة فى حروب ومهالك. ثم سؤال ثانٍ يقرر أنه ليس من أحد أشد بغيا ممن يفترى على الله الكذب أو يكذب بآيات الله. ثم تختم بتنويه بمن جاهد فى الله. والجهاد هنا معناه جهاد النفس والصبر على أذى قريش لأن آيات الجهاد قتالا لم تنزل إلا فى المدينة :

«أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويُتَخَطَّف الناس من حولهم. أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون. ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين. والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين» (٦٧ – ٦٩).

زيادة أعداد المهاجرين إلى يثرب :

بعد نزول هذه السورة وما فيها من آيات تحبِّذ الهجرة بدأت أعداد المهاجرين إلى يثرب تزداد فهاجر ٢٦ رجلا وامرأة:

١ – ٢ – ٣ – عكاشة بن محصن وعمرو بن محصن وأم قيس بنت محصن.

٤ - ٥ - شجاع وعقبة ابنا وهب .

٦ - أربد بن جميرة . ٧ - منقذ بن نباتة .

٨ - ٩ - ١٠ - سعيد بن رقيش وآمنة بنت رقيش وزيد بن رقيش .

١١ - قيس بن جابر . ١٢ - ربيعة بن أكثم .

١٣ - ١٤ - ١٥ - مالك بن عمرو وصفوان بن عمرو وثقف بن عمرو.

١٦ - ١٧ - ١٨ - الزبير بن عبيدة وتمام بن عبيده وشخيرة بن عبيدة .

١٩ - ٢٢ - محمد بن عبد الله بن جحش وزينب بنت جحش (بنت عم الرسول وزوجته فيما بعد) وحمنة بنت جحش وأم حبيبة بنت جحش.

٢٣ - سخيرة بنت تميم . ٢٤ - أم حبيب بنت ثمامة .

٢٥ - صهيب بن سنان الرومى . ٢٦ - عمر بن الخطاب .

هجرة صهيب بن سنان : كان صهيب قد أتى مكة فقيرا وتاجر حتى كثر ماله. فقال له كفار قريش. أتيتنا صعلوكا حقيرا فكثر مالك عندنا وبلغت الذى بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك. والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب. أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى؟ قالوا نعم. قال فإنى قد جعلت لكم مالى. فبلغ ذلك رسول الله فقال: ربح صهيب. ربح صهيب.

هجرة عمر بن الخطاب : لما نوى عمر بن الخطاب الهجرة تقلد سيفه ومضى إلى الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعا. ثم وقف وصاح بأعلى صوته متحديا: من أراد أن تثكله أمه أو يوتم ولده أو ترمل زوجته فليلقينِّى وراء هذا الوادى. وسار عمر فما تبعه أحد.

هجرة أقارب عمر : ولخوف قريش من شجاعة عمر فإن عددا من أقاربه تبعوه ولم يجرؤ أحد من قريش على التصدى لهم وهم:

١ - زيد بن الخطاب أخو عمر . ٢ - عبد الله بن عمر بن الخطاب .

٣ - سعيد بن زيد زوج فاطمة بنت الخطاب أخت عمر .

٤ - خنيس بن حذافة السهمى زوج حفصة ابنة عمر.

٥ - واقد عبد الله التميمى .

٦ - ٧ - عبد الله وعمرو ابنا سراقة بن المعتمر .

٨ - ٩ - خولى بن أبى خولى . حليف الخطاب وأخوه مالك .

١٠ - ١٣ - بنو البكير الأربعة: إياس وعاقل وخالد وعامر .

وبرغم هؤلاء الذين هاجروا فإن قريشا منعت الكثيرين من الهجرة. بل إنها لم تيأس من محاولة استمالة بعض من هاجروا فعلا واستعادتهم إلى مكة مستعملين الحيلة والخداع. مثال

ذلك أن أبا جهل ومعه أخوه الحارث خرجا إلى المدينة وقصدا عيَّاش وكان ابن عمهما وقالا له إن أمه نذرت ألا يمس رأسها مشط ولا تستظل من شمس حتى تراه. فحذّره زملاؤه من أنهما يريدان فتنته عن دينه فأبى إلا أن يعود معهما إلى مكة ليرى أمه. وفى الطريق عَدَوَا عليه وأوثقاه ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن. وظل بمكة كافرا. وبعد سنوات قليلة من هجرة الرسول تاب وأسلم ثانية وهاجر إلى المدينة ورسول الله بها.

كان كثير من المسلمين الذين يهاجرن خفية عن أعين قريش يغلقون دورهم وبها ما لم يستطيعوا حمله من متاعهم ويعطون تفويضا لأحد أقاربهم بتولى بيع الدار وما فيها وإرسال ثمنها إليهم فى يثرب ليستعينوا به فى المعيشة فى غربتهم. وكان آخرون يحتفظون بالدار وما فيها على أمل أنهم يوما ما سيرجعون إليها. وكان كثيرون يبيعون ما يستطيعون بيعه من أثاث بأنفسهم قبل هجرتهم ولذلك كثرت المعروضات وانتهز المشترون الفرصة وبخسوا ثمن الأشياء. فنزلت سورة المطففين تندد بهذا المسلك.

سورة المطففين :

«ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين» (١ – ٦).

وهى ثانى سورة تبدأ بكلمة «ويل» إذ سبقتها فى النزول سورة الهمزة (ص ٩٤) **«ويل لكل همزة لمزة»**. وسورة المطففين – ولو أنها نزلت فى مناسبة خاصة إلا أنها وُضعت فى صيغة تجعل منها قاعدة أخلاقية عامة تصلح لكل زمان ومكان ولكل مجتمع. ففضلا عن عمليات البيع والشراء المعهودة فإن كل معاملات البشر بعضهم مع بعض هى بيع وشراء. وحتى الأجير فإنه يبيع مجهوده لمن استأجره. والطبيب يبيع علمه بأنواع العقاقير وخواصها العلاجية لقاء أجر. والمحامى يبيع خبرته بالقوانين ولباقته وقوة الإقناع فى الدفاع عن المظلوم وهكذا. وعلى كل بائع ألا يغش فى بضاعته فلا يتكاسل الأجير فى عمله ولا يتخلف المحامى عن جلسات المحكمة فيعرض موكله للضياع. وعلى المشترى أن يعدل فى الثمن ولا يبخس الناس أشياءهم.

ثم يلى ذلك **تنديد بالكفار** الذين يُكذِّبون بيوم القيامة وتبين جزاءهم وعذابهم فى أعماق الجحيم:

«كلا إن كتاب الفُجار لفى سِجين. وما أدراك ما سِجين. كتاب مرقوم. ويل يومئذ للمكذبين. الذين يكذبون بيوم الدين. وما يكذب به إلا كل معتد أثيم. إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين. كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون. كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم. ثم يقال هذا الذى كنتم به تُكذبون» (٧ – ١٧).

وفى مقابل هذا يذكر النعيم الذى يتنعم به الأبرار فى الجنة :

«كلا إن كتاب الأبرار لفى عِليين. وما أدرك ما عليون. كتاب مرقوم. يشهده المقربون. إن الأبرار لفى نعيم. على الأرائك ينظرون. تعرف فى وجوههم نضرة النعيم. يُسقَوْن من رحيق مختوم. ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عيناً يشرب بها المقربون» (١٨ - ٢٨).

وتختم السورة بتنديد بما كان الكفار يفعلونه فى الدنيا من سخريتهم بالمؤمنين وتخبرهم بانقلاب الحال يوم القيامة :

«إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مَرُّوا بهم يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون. وما أُرسلوا عليهم حافظين. فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون. هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون» (٢٩ - ٣٦).

٤ سور :

توجد ٤ سور اختلف المفسرون حول مكيتها أو مدنيتها اختلافا كبيرا هى سور الرعد والرحمن والإنسان والزلزلة. قالوا هى مدنية ولكن فيها آيات مكية كثيرة. والبعض قال هى مكية فيها آيات مدنية. ولو احتكمنا إلى الأسلوب نجد أنها - فيما عدا سورة الرعد - فيها خصائص القرآن المكى. فالآيات قصيرة والكلمات تقرع الآذان وفيها تركيز على مشاهد من يوم القيامة ولفت نظر السامعين إلى آيات الله فى الكون. وفى السور مواقف جدل أثارها الكفار مع النبى وردَّت الآيات عليها وهو ما كان يحدث كثيرا فى العهد المكى. كذلك إنكار البعث وتجئ آيات تؤكد حدوثه ومشاهد لمحاسبة الخلائق على أعمالهم. فهذه مواضيع كانت تتردد كثيرا فى القرآن المكى. أما سورة الرعد فأسلوبها يقع وسطا بين الأسلوب المكى والأسلوب المدنى ويقول الألوسى عن مجاهد عن ابن عباس وعلى بن أبى طلحة إنها مكية. ويقول قتادة إنها مدنية. ولكن تكفى الآية ٣١ لتقطع بمكيتها إذ فيها - كما سيأتى فيما بعد ص ٤١٥ - طلب المشركين من النبى إزاحة الجبال حتى يتسع الوادى ليزرعوا. وهو ما ينطبق على مكة دون المدينة.

سورة الرعد :

«المر تلك آيات الكتاب (أى القرآن) والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون. وهو الذى مدَّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يُغشِى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل

صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأُكُل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» (١ - ٤).

والسورة تبدأ بأربعة حروف مقطعة المر يليها تنويه بالقرآن الكريم ثم قَسَم به وجواب القسم أنه حق ومع ذلك فإن أكثر الناس يعاندون ولا يؤمنون.يلى ذلك مظاهر من قدرة الله فى السماء والأرض:

١ - رفع السماء بغير عمد نراها: وقد سبق ذكر ذلك فى سورة لقمان (آية ١٠ ص ٢٨٠) **«خلق السموات بغير عمد ترونها»** وقد شرحنا المعنى سابقا فلا داعى للإعادة.

٢ - وكان أول ذكر للاستواء على العرش هو ما جاء فى سورة الأعراف (الآية ٥٤ ص ١٢٠ وشرحناه بما فيه الكفاية. ثم تكرر ذكره فى سورة الفرقان (آية ٥٩) وسورة يونس (آية ٣) وسورة السجدة (آية ٤) وسورة الحاقة (آية ١٧) وكان ذكره فى سورة الرعد الحالية هو المرة السادسة والأخيرة.

٤ - وتسخير الشمس والقمر ذُكر كثيرا من قبل ولكل منهما فلك يجرى فيه فلا يتصادمان.

٤ - آية مد الأرض والجبال فيها رواسى والأنهار لرى النبات ولشرب الإنسان والأنعام.

٥ - وفى الآيات إشارة إلى ما كان العرب يعرفونه من وجود أنواع مذكرة من النخيل وأنواع مؤنثة فكانوا يقومون بعملية تأبير النخل حتى يثمر. وقد أثبت العلم الحديث أن هناك أعضاء تذكير وأعضاء تأنيث فى زهور جميع النباتات وأن التزاوج لازم لإنتاج الثمرة **«ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين»**، و**«صنوان»** جمع وهى النخلات يجمعها أصل واحد تتشعَّب منه السيقان و **«غير صنوان»** أى منفردة. ومعروف أن النخل الصنوان - بالعامية يسمى «بنت جورة» - يتشابه فى الشكل والطعم فى حين يختلف ثمر «غير الصنوان».

٦ - آية الليل والنهار : النهار للسعى والليل للسكون والراحة.

٧ - ويرى علماء الچيولوچيا أن فى قوله تعالى: «وفى الأرض قطع متجاورات...» إعجازا علميا. فقد أثبت العلم الحديث أن التربة فيها أنواع مختلفة حسب أنواع الصخور التى تفتَّتت عنها وتختلف صفاتها الطبيعية والكيميائية وتركيز المعادن والأملاح المختلفة فيها مما يجعل هذه تجود فيه زراعة نوع معين من الفواكه وتلك تصلح لنوع آخر. وقد يزرع بالقطعة الواحدة أنواع مختلفة من النباتات مثل العنب والنخيل وغيرها وكلها تروى بماء واحد فتذوب الأملاح ويأخذ كل نبات ما يحتاجه منها وهو يختلف عما يأخذه النبات الآخر. وعند اكتمال النمو توجد الثمار التى قد نفضل بعضها على بعض عند الأكل (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم. ص ٣٥٣).

إنكار الكفار للبعث :

ثم تأتى فقرة فيها تنديد بالكفار الذين كانوا لا يفتأون يتساءلون تساؤل المنكر عما إذا كانوا حقيقة سيبعثون بعد الموت. وهؤلاء جزاؤهم أغلال فى أعناقهم ويلقون فى النار. ثم هم يستعجلون العذاب الذى هدَّدهم به النبى واستعجالهم يحمل معنى الإنكار والاستخفاف مع أنهم يعرفون ما حاق بالأمم السابقة التى كذبت رسلها. وقد سبق ذكر هذا التحدى من الكفار فى سورة ص (الآية ١٦ ص ١١١) **«وقالوا ربنا عجِّل لنا قِطَّنا قبل يوم الحساب»**. ثم عاد الكفار يتحدَّون النبى ويطلبون أن تنزَّل عليهم معجزة مادية:

«وإن تعجب فعجبٌ قولهم أإذا كنا ترابا أإنا لفى خلق جديد. أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت (أى مضت) **من قبلهم المثلات** (الأمم أمثالهم) **وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب. ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه. إنما أنت منذر ولكل قوم هاد»** (٥ - ٧).

سعة علم الله وبعض مظاهر قدرته :

وتمضى الآيات لتقرر إحاطة علم الله بكل شيئ. فهو يعلم ما تحمل كل أنثى وما يحدث فى الأرحام من زيادة بالحمل أو نقص عند ولادة الجنين وكل شيئ عنده سبحانه وتعالى بقدر معلوم. وهو عالِم الغيب والشهادة ويعلم ما يقوله الناس علنا أو ما يدور سرا فى نفوسهم. وهو الذى يسبب الظواهر التى نراها فى السماء من برق وسحاب مثقل بالمياه وصوت الرعد تسبيح والصواعق يرسلها حارقة على من يشاء من عباده الظالمين. فهو شديد القوة والتدبير:

«الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيئ عنده بمقدار. عالمُ الغيب والشهادة الكبير المتعال. سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار. له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله. إن الله لا يُغَير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردَّ له وما لهم من دونه من وال. هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال. ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المِحَال (القوة أو الأخذ)**»** (٨ - ١٣).

وقد احتوت الفقرة آية تعتبر ناموسا إجتماعيا وهى قوله تعالى: **«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»**. والمعنى أن فردا أو جماعة أصبحوا فى ضيق من الرزق فلابد أنهم كانوا يعملون السيئات ولن يغير الله حالهم حتى يبدأ التغيير من داخل أنفسهم بالإقلاع عن السيئات فيصبحوا مستحقين لنعمة الله وفضله. وكذلك إذا كان قوم فى سعة فلن يتغير حالهم إلى ضيق إلا أن يبغوا فى الأرض فينزع الله عنهم نعمته.

وأما عن تسبيح الرعد بحمده فهو من باب قوله تعالى: «**وإن من شيئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**» (آية ٤٤ سورة الإسراء). والمعنى انقياد جميع الأشياء لله وخضوعها لسننه وإرادته.

تنديد بالشرك وتمجيد لله :

«**له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال. ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال**» (١٤ - ١٥).

وتقرر الآيات أن الدعاء لا يكون إلا لله لأنه يملك الاستجابة أما الشركاء أو الأصنام التى يدعوها الكفار فهى لا تستجيب لدعائهم. وشُبِّه ذلك بشخص يريد أن يشرب من نهر فهو يجعل كفه كالمغرفة لتمسك بالماء أما إذا بسط كفه فلن تحمل شيئا . فدعاء الكافرين مثل ذلك وهم فى ضلال. ثم تقرر الآيات أن كل شيئ فى السموات والأرض يسجد لله وخاضع لسلطانه إن طوعا أو كرها وليس هؤلاء فقط بل وظلالهم الخافته فى أول النهار وآخره.

أسئلة إلى الكفار :

وكتكملة لهذا المعنى تأتى الآيات بأسئلة إلى الكفار :

«**قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً . قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم. قل الله خالق كل شيئ وهو الواحد القهار**» (١٦).

وفى الآيات أمر موجَّه إلى النبى بسؤال الكافرين عمَّن هو رب السموات والأرض ولن يكون الجواب إلا «الله». ويتبعه سؤال تنديدى عن سبب اتخاذهم شركاء من دون الله لا ينفعون ولا يضرون. والفرق شاسع بين إله يملك كل شيئ فى الكون وشركاء لا يملكون شيئا . ثم يجئ السؤال التالى محتكما إلى المنطق إذ لا يصح أن يستوى الأعمى والبصير. وكذلك لا تستوى الظلمات والنور. ثم تساؤل أخير عما إذا كان الشركاء الذين جعلوهم مع الله قد خلقوا شيئا مثل خلق الله فالتبس الأمر عليهم. ولا جواب على هذا الأسئلة إلا إقرار الكافرين بأن الله هو خالق كل شيئ وهو الإله المتفرد بالألوهية والقهار الذى يخضع لعظمته كل شيئ.

مقارنة بين الحق والباطل :

«**أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله. كذلك يضرب الله الحق والباطل. فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال**» (١٧).

وهذه الآيات تعقد مقارنة بين الحق والباطل وتضرب المثل. بشيئ ملموس. فحين ينزل المطر تسيل الوديان بالقدر المقدَّر لها من الماء وتتكون الأنهار. وأثناء جريان الماء يعلو سطحه زبد ورغوة ليس له قوة ولا نفع منه. وكذلك عند صهر المعادن كالذهب والفضة لصنع الحلى أو الحديد لصنع المتاع من فؤوس أو النحاس لصنع الأوانى يطفو على سطح المعدن المنصهر خبث لا نفع منه ويلقى جانبا. أما ما يُنتفع به فيبقى. وفى حالة الأنهار تترسب ما تحمله المياه من معادن حسب حجم حبيباتها وكثافة مادتها وتتجمع فى قيعان مصبات الأنهار. فتُستخلص وتُنقَّى ليُنتفع بها.

ثلاث مقارنات :

واستكمالا لهذه المقارنة بين الحق والباطل تعقد الآيات ثلاث مقارنات:

١ – بين من يستجيبون لربهم ومن لم يستجيبوا له .

٢ – بين من يعلم ومن لا يعلم .

٣ – بين من يوفى بعهده مع الله ومن ينقضه .

١ – «**للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد**» (١٨).

وقد ذُكر جزاء المكذبين واختُصِرَ ثواب الذين استجابوا لربهم فى كلمة واحدة هى الحسنى أى حسن الثواب وجنات النعيم.

٢ – «**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى. إنما يتذكر أولوا الألباب**» (١٩).

فالذى أدرك أن القرآن هو الحق من عند الله لا يصح تسويته بمن هو أعمى القلب والبصيرة وذوو العقول السليمة تعقل هذا وتتعظ به.

٣ – «**الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل** (من الإيمان والرحم) **ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب. والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار. جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار**» (٢٠ – ٢٥).

والآيات واضحة وتحتوى وصفا محببًا لمن يشع الإيمان فى قلوبهم فيظهر فى تصرفاتهم: وفاء بعهودهم وصلة بالرحم وإقام الصلاة والتصدق فى السر والعلن. فهؤلاء لهم الجنة. والآيات تلهم أن هذه الصفات هى ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون فى كل وقت وحين. وعكس ذلك الذين ينقضون عهد الله ويقطعون الرحم ويفسدون فى الأرض فعليهم لعنة الله وجهنم دارهم وهى أسوأ دار.

وتمضى الآيات تحذرهم من أن يظنوا أن ما أوتوا من مال وقوة هو دليل رضا من الله لأن الله يبسط الرزق لمن يأخذ بالأسباب مؤمنا كان أم كافرا وعليهم ألا يفرحوا بما عندهم لأن ذلك متاع زائل والآخرة خير وأبقى:

«الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع» (٢٦).

الكفار يطلبون معجزة مادية :

والحقيقة أن الكفار ما فتئوا بين الحين والآخر يتحدَّون النبى ويطلبون منه أن يأتى بآية أى معجزة مادية. فقد طلبوا ذلك من قبل فى سورة يونس (الآية ٢٠ ص ٢٣١) **«ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه»**. وفى سورة الأنعام (الآية ٨ ص ٢٥٥) **« وقالوا لولا أنزل عليه ملك»** وفى الآية ٣٧ (ص ٢٥٨) **«وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه»**. وفى سورة العنكبوت (الآية ٥٠ ص ٤٠٥) **«وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه»**. وفى السورة الحالية سورة الرعد جاء ذلك فى الآية ٧ (ص ٤١١) **«ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه»** وتكرر ذلك ثانية وبنفس اللفظ فى الآية الحالية ٢٧.

وكان الرد عليهم فى كثير من الأحيان أنهم إذا أجيبوا إلى طلبهم ونزلت آية ولم يؤمنوا وجب هلاكهم. فيكون رفض مطلبهم رحمة بهم. وفى هذه الآية أُمِرَ النبى أن يوضح لهم أن السبب فى عدم إيمانهم لا يعود لنقص المعجزة بل لضلال عملهم فزادهم الله ضلالا. أما الذين يتوبون فإن الله يهديهم فيؤمنوا وتطمئن قلوبهم أكثر بذكر الله:

«ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب. الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله. ألا بذكر الله تطمئن القلوب. الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مئاب» (٢٧ - ٢٩).

وقد أصبحت جملة **«ألا بذكر الله تطمئن القلوب»** دعوة إلى ذكر الله وخاصة فى الملمَّات، تجمع للمرء شتات نفسه وتزيل عنه همه وكربه. أما عن كلمة «طوبى» فهذه هى المرة الوحيدة التى تذكر فيها فى القرآن كله. ويقول علماء اللغة إنها مشتقة من طاب أو طيب واسم التفضيل أطيب ومؤنثه طوبى مثل حسن وأحسن وحسنى.

الرحمن من أسماء الله الحسنى :

«كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوَا عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن. قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب» (٣٠).

ويروى أن أبا جهل سمع النبى وهو فى الحجر يدعو: يا الله. يارحمن. فقال لقريش إن محمدا يدعو إلهين. يدعو الله ويدعو إلها آخر يسمى الرحمن. ولا نعرف الرحمن إلا رحمن

اليمامة. فنزلت الآية ترد عليه وتنبه إلى أنه إله واحد: «**قل هو ربى لا إله إلا هو**». وقد سبق أن ذكرت سورة الإسراء (الآية ١١٠ ص ٢٢٢) «**قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعو فله الأسماء الحسنى**» مما يدل على أن المشركين كانوا كثيرى الجدل بشأن هذا الاسم والظن أنه إله ثان فكان التأكيد على أنه اسم من أسماء الله الحسنى.

بعض المعجزات التى طلبها الكفار :

ذلك أن كفار قريش طلبوا من النبى ليؤمنوا أن يُسَيِر جبال مكة ويزيحها إلى الوراء – كمعجزة – ليتسع الوادى وتصبح لهم رقعة أكبر صالحة للزراعة. كذلك طلبوا أن يحيى الموتى. وكان بعض المسلمين يتمنون أن يجاب المشركون إلى طلبهم أملاً فى إيمانهم. فجاءت الآيات تعيب على المسلمين تمسكهم ببعض الأمل فى هداية المشركين وتخبرهم أن الأمر موكول إلى الله فلو شاء هدى الناس جميعا ولكن أفعال الكافرين تحتم أن يصيبهم عذاب أو ينزل قريبا منهم. ثم تسرية عن النبى وحث على تحمل استهزاء المشركين به إذ أن الرسل الذين سبقوه لاقوا نفس المعاملة فأمهل الله المشركين ثم أنزل بهم عذابا أليما:

«**ولو أن قرآنا سُيِّرت به الجبال أو قُطِّعت به الأرض أو كُلِم به الموتى. بل لله الأمر جميعا. أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا. ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتِيَ وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد. ولقد استُهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب**» (٣١ – ٣٢).

تسفيه فكرة الشرك بالله:

«**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت. وجعلوا لله شركاء قل سمُّوهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول. بل زُين للذين كفروا مكرُهم وصُدُّوا عن السبيل ومن يُضلل الله فما له من هاد. لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق. مثل الجنة التى وُعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها. تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار**» (٣٣ – ٣٥).

والآيات تبدأ بسؤال استنكارى عما إذا كان الأحق بالألوهية والأجدر بالعبادة الله الرقيب المهيمن على كل نفس والمحصى لما تكسب من خير أو شر. أم من جعلوهم شركاء لله؟ ثم يوجه إليهم أمر بتسميتهم كناية عن أنهم لا وجود لهم. ثم يأتى سؤال تنديدى عما إذا كانوا بسبيل إخبار الله بوجود شركاء له فى الأرض لا يعلمهم. أم أن ذلك قول غير محقق وغير ظاهر. والحقيقة أن الشيطان زين لهم هذا المكر فى الجدال وصدَّهم عن السبيل القويم فزادهم الله ضلالا ولهم عذاب فى الدنيا وعذاب آخر فى الآخرة أشد وأقسى ولن ينقذهم منه أحد. أما المتقون فلهم جنات فيها من كل الخيرات ثم يعاد التأكيد على أن للكافرين النار.

بعض أهل الكتاب يصدقون بالقرآن :

«والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك. ومن الأحزاب (الكفار المتحزبين ضد النبى) **من ينكر بعضه. قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب. وكذلك أنزلناه حكما** (آيات محكمة) **عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق»** (٣٦ - ٣٧).

وكما سبق أن ذكرنا أن بعضا من أهل الكتاب آمن بالقرآن وفرحوا به لأنهم أيقنوا أنه من عند الله بالرغم من أن الكفار المتحزبين ضد النبى وبعض الأحزاب من أهل الكتاب ينكرونه أو ينكرون بعضه. ثم تخبر الآيات أن النبى أُمر أن يعبد الله ولا يشرك به وفى هذا دعوة لهم ليقتدوا به فيعبدوا الله وحده ولا يشركوا به. ثم تقرير بأن الله أنزل القرآن آيات محكمة وبلسان عربى حتى يفهموه ويؤمنوا به. ثم نهى للنبى من أن يتبع أهواءهم وإن سايرهم فما له من ناصر ينصره من الله أو يقيه منه. والخطاب للنبى والتحذير للسامعين.

الكفار يريدون النبى راهبا ويطلبون معجزة :

قيل إن بعض أهل الكتاب وكذلك بعض المشركين عابوا على النبي زواجه. ولعل النصارى أرادوه أن لا يتزوج مثل عيسى أو أن يكون حصورا مثل يحيى. فردت الآيات تذكرّ بأن الرسل قبله كان لهم أزواج وذرية. وعادوا فطلبوا منه معجزة فكان الرد بأن الآيات لا تأتى إلا بإذن الله ولكل شيئ وقت معين وكل شيئ عند الله فى اللوح المحفوظ والله وحده هو الذى يملك تغيير ما فيه. ثم إخبار للنبى بأن الله قادر على أن يريه بعض العذاب المعد للكافرين أو قد يتوفاه الله قبل ذلك فلا يراه فقصارى مهمته هى تبليغ رسالة الله أما الحساب فلله وحده:

«ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية. وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب. يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. وإمَّا نرينَّك بعض الذى نعدهم أو نتوفَّينَّك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» (٣٦ - ٣٧).

ثم يأتى ختام السورة :

«أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا مُعَقِّب لحكمه وهو سريع الحساب. وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار. ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب» (٤١ - ٤٣).

والآيات تتساءل عما إذا كان الكفار لم يروا أن أرض الكفر تنقص يوما بعد يوم وعدد المسلمين يزداد - ولو ببطء - يوما بعد يوم وهذا حكم الله ولا راد لحكمه. وقد جاء هذا المعنى

قبل ذلك في سورة الأنبياء (الآية ٤٤ ص ٣٦٦) وقد علقنا عليه بما فيه الكفاية. ثم تذكر الآيات أن الأقوام السابقين قد مكروا وائتمروا بأنبيائهم ولكن تدبير الله فوق كل تدبير وسيعلم الكفار أن العاقبة ستكون للمؤمنين. وعاد الكفار يقولون إن النبي ليس مرسلاً من ربه ويُلقن النبي الرد وهو أن يقول لهم إن الله هو الحكم بينه وبينهم وفي هذا الكفاية. ولكن إضافةً إلى ذلك فإن بعض علماء أهل الكتاب يجدون صفات النبي مذكورة في كتبهم ويشهدون بنبوّته.

سورة الرحمن :

في هذه السورة يظهر الطابع المكي واضحا جليا ولذلك يرى معظم المفسرين أنها مكية وقلة هي التي تقول بمدنيتها. وقد سمّاها علي بن أبي طالب «عروس القرآن». والسورة فريدة في أسلوبها النظمي إذ تكررت فيها جملة «فبأي آلاء ربكما تكذبان» ٣١ مرة. فكلما ذكرت نعمة أنعم الله بها على الخلق، وبّخهم على التكذيب بها بقوله تعالى «فبأي آلاء ربكما تكذبان». وقيل إن هذا من باب قول الرجل لغيره: أتنكر أني فعلت لك كذا وكذا ويحسن التكرار لاختلاف ما يقرر به. وهذا يسمى «الترديد» وهو معروف في كلام العرب وأشعارهم كقول أحدهم يرثي كليبا (تفسير الألوسي جـ ٢٧ ص ٩٧):

على أن ليس عدلا من كليب ∴ إذا ما ضيم جيران المجيـر
على أن ليس عدلا من كليب ∴ إذا رجف العضاه من الدبـور
على أن ليس عدلا من كليب ∴ إذا خرجت مخبأة الخـدور
على أن ليس عدلا من كليب ∴ إذا ما أعلنت نجوى الأمـور
على أن ليس عدلا من كليب ∴ إذا خيف المخيف من الثغـور
على أن ليس عدلا من كليب ∴ غـداة تأثل الأمـر الكبيـر
على أن ليس عدلا من كليب ∴ إذا مـا خار جاش المستجير

ولكن القارئ يصيبه الملل بعد خمسة أو ستة أبيات. وجاء القرآن بهذه السورة يتحدى في هذا المجال. فأورد الجملة ٣١ مرة ولا يشعر القارئ بأي ملل من تكرارها لما في الأسلوب من سلاسة وعذوبة ولو رفعت الجملة من مكانها لافتُقدت.

«الرحمن. علّم القرآن. خلق الإنسان. علّمه البيان» (١ - ٤).

وتبدأ السورة بالرحمن، اسم من أسماء الله. وقد أشرنا في السورة السابقة (الرعد آية ٢٩ ص ٤١٤) إلى ما كان الكفار يثيرونه حول اسم الرحمن. ولعل بدء السورة بهذا الاسم بالذات فيه رد على الكفار وتنديد بما يقولونه. يلي ذلك إخبار بأن الله علّم الإنسان القرآن وأنه خلق الإنسان وعلّمه قدرة التعبير وقوة البيان والاستناد إلى المنطق ويرى فيها العلماء عاملا أساسيا من عوامل تقدم البشرية ونمو الحضارة:

«الشمس والقمر بحسبان. والنجم والشجر يسجدان. والسماء رفعها ووضع الميزان. ألا تطغوا فى الميزان. وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان. والأرض وضعها للأنام. فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام. والحب ذو العصف والريحان. فبأى آلاء ربكما تكذبان» (٥ - ١٣).

والآيات استمرار لتعداد نعم الله وعظمته. فالشمس والقمر كل منهما يجرى فى مدار محسوب بدقة بالغة. إذ لو كانت الأرض أكثر قربا من الشمس لاحترق كل شيئ. ولو كانت أبعد مما هى عليه الآن لتجمد كل شيئ. ولو كان القمر أبعد مما هو عليه الآن لكان ضوءه من الضعف بحيث لا يفيد فى ظلام الليل ولو اقترب أكثر من ذلك لجذبته الأرض فسقط عليها. كما أن مكانه من الشمس والأرض وسرعة دورانه حول الأرض محسوبة بدقة بحيث أن تأخره كل يوم يعطى الأشكال المختلفة للهلال ويمكّن من حساب الشهور القمرية. والنجم والشجر - التى كان بعض الكفار يعبدونها - تسجد لله. والله هو الذى رفع السماء ومدّ الأرض وأنبت فيها الفاكهة والنخل ذات البراعم التى يخرج منها التمر. والحب كالحنطة والشعير يكون من سيقانه التبن للأنعام وهناك نباتات طيبة الرائحة فيها بهجة للإنسان.

«خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار. فبأى آلاء ربكما تكذبان. رب المشرقين ورب المغربين. فبأى آلاء ربكما تكذبان» (١٤ - ١٨).

وتقرر الآيات أن الإنسان خُلق من طين والجان خُلق من نار. والإنس والجن هما المخاطبان فى هذه السورة. والسؤال المتكرر هو بأى نعم الله يكذبان. ثم تذكر نعمة تعاقب الفصول والشمس تشرق وتغرب فى الصيف فى أمكنة غير مشرقها ومغربها فى الشتاء فالله هو رب المشرقين ورب المغربين.

«مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان. فبأى آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام. فبأى آلاء ربكما تكذبان» (١٩ - ٢٥).

فمن نعم الله وجود شبه حاجز بين المياه العذبة فى الأنهار والمياه المالحة فى البحار متمثل فى ارتفاع منسوب مياه الأنهار فلا يطغى ماء البحر المالح على مياه الأنهار وإلا لأصبح الكل مالحا لكثرة مياه البحر والمحيطات ولما وجد الإنسان ماء عذبا ليشربه. وهذه نعمة كبرى فلزم أن يتبعها السؤال المتكرر عن التكذيب بها. ومن البحر يخرج اللؤلؤ والمرجان وسطح البحار لتجرى فيها البواخر المرتفعة كالجبال. وهاتان آيتان أُتبعت كل واحدة منهما بالسؤال: هل يجوز التكذيب بها؟

«كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. فبأى آلاء ربكما تكذبان. يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن. فبأى آلاء ربكما تكذبان» (٢٦ - ٣٠).

فكل كائن مصيره للفناء والله وحده هو الباقى. ويسأله الرزق كل من فى السموات والأرض. وعن ابن عمر عن النبى فى قوله تعالى: «كل يوم هو فى شأن» قال يغفر ذنبا ويكشف كربا ويجيب داعيا.

«سنفرغ لكم أيها الثقلان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران. فبأى آلاء ربكما تكذبان» (٣١ - ٣٦).

والثقلان هما الإنس والجن. والسؤال موجه إلى المكذبين منهما ويحمل معنى الوعيد لهما: فسوف يفرغ الله لحسابهم على أعمالهم. وهو أسلوب مجاز فالله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن حتى يصح فى حقه أن يقال إنه سيتفرغ لهذا العمل وإنما المقصود هو الإنذار والتهديد وأن الحساب سيكون دقيقا وعسيرا. ولن يستطيعوا أن ينفذوا من أنحاء السموات والأرض هربا منه ولن يتيسر لهم النجاة إلا بسلطان من العمل الصالح. وهذا ما فهمه الناس عند نزول القرآن. إلا أن بعض المفسرين فى العصر الحديث قالوا إن فيها إشارة إلى محاولات الإنسان غزو الفضاء وفهم أولا استحالتها. فلما توفرت قوة الدفع المطلوبة للصواريخ أمكن السفر فى الفضاء القريب من الأرض وإقامة محطات فضائية. أما النفاذ من أقطار السموات والأرض لأبعد من هذا فمستحيل استحالة مادية إذ أن أقرب نجم لنا يبعد بمقدار ٤ سنوات ضوئية ولما كانت سرعة الضوء هى ٣٠٠،٠٠٠كم فى الثانية فى حين أن سرعة الصواريخ المتاحة حاليا لا تزيد عن ٢٠كم فى الثانية فإن الوصول إلى أقرب نجم لنا يستغرق ١٥،٠٠٠ سنة فما بالنا بالنجوم الأبعد. كما أن الشهب بالمرصاد. صحيح أن سفن الفضاء الحالية قد صممت بحيث تتحمل صدمات الشهب الصغيرة ولكن هناك ملايين من الشهب والنيازك الكبيرة الكفيلة بتحطيم أى سفينة فضاء تخرج عن نطاق المجموعة الشمسية.

«فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام. فبأى آلاء ربكما تكذبان. هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن. فبأى آلاء ربكما تكذبان» (٣٧ - ٤٥).

وفى الآيات وصف لبعض أهوال يوم القيامة. إذ تنشق السماء وتكون مائلة للحمرة كالوردة ويتغير لونها كدهن الزيت حينما يغلى من الحرارة. ولا يسأل أحد من الإنس والجان عن ذنبه لأن كل شيئ مدون بدقة. ويعرف المجرمون بعلامات ظاهرة عليهم فيساقون إلى جهنم التى كانوا يكذبون بها حيث يتنقلون فيها بين نار حامية وماء شديد الحرارة.

«ولمن خاف مقام ربه جنتان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. ذواتا أفنان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهما عينان تجريان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهما من كل فاكهة زوجان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان. فبأى آلاء ربكما تكذبان.

فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن (أى لم يطأهن) **إنس قبلهم ولا جان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. كأنهن الياقوت والمرجان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. هل جزاء الإحسان إلا الإحسان. فبأى آلاء ربكما تكذبان»** (٤٧ - ٦١).

ففى مقابل ما ذكر فى الفقرة السابقة من عذاب للمجرمين المكذبين تذكر هذه الفقرة - فى صورة محببة إلى النفس - ثواب الذين يخافون الله ويتقونه. وتستكمله:

«ومن دونهما جنتان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. مُدهامَّتان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهما عينان نضاختان. فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما فاكهة ونخل ورمّان فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهن خيرات حسان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. حور مقصورات فى الخيام. فبأى آلاء ربكما تكذبان. لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام» (٦٢ - ٧٨).

وقالوا **«ومن دونهما جنتان»** فيها إشارة إلى تفاوت جنات الآخرة حسب تفاوت أعمال المؤمنين. و **«خيرات»** أصلها خيِّرات وخففت إلى خيرات **«حور»** والحور هو شدة بياض العين وشدة سواد إنسانها مما يعطى جمالا زائدا. وهُنّ لا يبارحن خيامهن ولم يطأهن إنس ولا جان من قبل متكئين على وسائد وطنافس خضراء اللون. وقد ثبت أن اللون الأخضر يبعث فى النفس الهدوء والسعادة. المهم أنه وصف رائع يملأ النفسه بهجة ويحث السامع على العمل بكل ما يقرب من هذا النعيم الدائم. وتختتم السورة بتنزيه لاسم الله فله الجلال والإكرام.

ثم نزلت **سورة الإنسان**:

وتسمى أيضا سورة الدهر والأبرار والأمشاج. وهى مكية عند الجمهور (تفسير الألوسى. جـ ٢٩ ص ١٥٠) والطابع المكى بارز فى لفظها ومعانيها:

«هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا» (١).

ولعل الناس قديما كانوا يظنون أن آدم خلق بعد فترة وجيزة من خلق الأرض فجاءت هذه الآية فى شكل سؤال تقريرى لتخبر أنه مضى على الأرض دهر لم يكن عليها إنسان. وفى ضوء المعارف الحالية وبالكشف عن أعمار الصخور بقياس الكربون المشع يرجح علماء الجيولوجيا أن الأرض انفصلت عن الشمس منذ ٢٠٠٠ مليون سنة وكانت فى مبدئها كتلة ملتهبة بدأت تبرد تدريجيا وتكونت لها قشرة صلبة ونزلت أمطار غزيرة لملايين السنين حتى برد سطح الأرض تماما وأمكن للحياة البدائية أن تظهر وذلك منذ ٣٠٠ مليون سنة ثم ظهرت النباتات التى أمدت الغلاف الجوى بالأوكسجين ثم ظهرت المملكة الحيوانية. ثم بعد أن أصبحت الأرض عامرة بالنبات والثمار والأنهار والبحار وصالحة للحياة البشرية خلق الله آدم من تراب الأرض وذلك منذ حوالى ٥٠٠٠٠٠ سنة تقريبا. وهكذا نرى أنه مر على الأرض حين من الدهر يبلغ آلاف الملايين من السنين لم يكن الإنسان شيئا مذكورا أى لم يكن قد خلق بعد.

«إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا» (٢ – ٣).

و «أمشاج» أى أخلاط. وقيل تكوّن الإنسان من اختلاط ماء الرجل بماء المرأة وقيل هى العروق التى فى النطفة ويرى موريس بوكاي (دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة. ص ٢٢٩) أن في هذا الوصف إعجازا علميا إذ أن المنى يتكون من مكونات أربعة: ١ – إفراز الخصيتين وهو يحتوى على الحيوانات المنوية. ٢ – إفراز الحويصلات المنوية التى يختزن فيها السائل المنوى – ٣ – إفرازات البروستاتا التى تعطى للسائل المنوى قوامه الغليظ ورائحته الخاصة. ٤ – إفرازات الغدد الملحقة بمجرى البول وهى غدة كوبر Cooper وتفرز سائلا جاريا وغدة ليترى Littre وتفرز المخاط.

ثم تذكر الآيات أن الله خلق الإنسان وأمده بنعمة السمع والبصر وجعله حر الإرادة وأودع فيه قابلية التمييز ليختبره وليظهر إما أن يسير فى طريق الاستقامة ويكون شاكرا لله أو يسير فى طريق الشر والكفر بالله.

ذكر عذاب الكافرين باختصار وثواب المؤمنين باستفاضة :

«إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا. إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا. فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسرورا. وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا. متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذُللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قواريرا من فضة قدروها تقديرا. ويُسقَون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا. وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيما وملكا كبيرا. عاليهم ثياب سندس (حرير رقيق) **خضرٌ وإستبرق** (الديباج الغليظ) **وحُلُّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا»** (٥ – ٢٢).

والوصف أخّاذ رائع من شأنه أن يشيع فى نفوس غير المؤمنين الرغبة فى كل هذا النعيم فيؤمنوا وهو ما استهدفته الآيات. ويثير فى نفوس المؤمنين الرغبة فى الاستزادة من هذا النعيم بالاجتهاد فى العبادة والإكثار من العمل الصالح.

وفى تفسير **«ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا»** قيل إن هذه الآيات نزلت فى على بن أبى طالب وزوجته فاطمة حيث جاءهم فى ثلاثة أيام متوالية مسكين ويتيم وأسير فكافأنا

يحرمان أنفسهما مما أعداه لغذائهما وهما في أشد الحاجة إليه فيعطيانه لهم ويبيتان على الطوى. ولكن الشك يكتنف هذه الرواية لأن عليا لم يتزوج فاطمة إلا في المدينة بعد معركة بدر. وسورة الإنسان مكية. وعلى كلٍّ فهي تعطي صورة رائعة لما كان يصدر من المؤمنين الأوائل من إيثار المعوزين على أنفسهم – تقربا إلى الله تعالى.

أوامر بالاجتهاد في العبادة :

ثم تمضي الآيات موجهة الخطاب للنبي :

«إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا. فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا. واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا» (٢٣ – ٢٦).

وفي الآيات تقرير بأن الله عز وجل هو الذي نَزَّل القرآن على النبي. يليه أمر للنبي بأن يصبر لحكم الله ويمتثل لأمره وأن لا يطيع الكافرين والآثمة، وأن يداوم على ذكر الله صباحا ومساء. وأن يسجد لله ليلا كناية عن التهجد بالليل. وأن يُسبِّح لله وخير التسبيح ما كان في جوف الليل.

ثم تمضي الآيات. بما معناه أن لا يُلقي النبي بالا إلى الكفار لأنهم يحبون الحياة الدنيا ويستغرقون في ملذاتها ويهملون اليوم الآخر ولن يعجزوا الله لأنه هو خالقهم ابتداء ومكَّنهم وأعطاهم قوة وهو قادر على محوهم وإبدالهم بغيرهم إذا شاء:

«إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا. نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدَّلنا أمثالهم تبديلا» (٢٧ – ٢٨).

ثم تأتي الفقرة الخاتمة :

والفقرة موجزة في لفظها كبيرة في معناها تحمل إنذارا للكفار وتحضُّهم على الإيمان:

«إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا. وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما. يُدخِل من يشاء في رحمته والظالمين أعدَّ لهم عذابا أليما» (٢٩ – ٣١).

ثم تأتي **سورة الزلزلة :**

والسورة مكية في قول ابن عباس ويروى عن مجاهد أنها مدنية وإن كان قصرها وأسلوبها يُرجِّح مكيتها. وفي السورة تذكير أخير لكفار قريش بيوم القيامة. وتحذير من دقة الحساب. ولعلها كانت إنذارا أخيرا لقريش فقد كانت السورة من أواخر سور العهد المكي:

«إذا زلزلت الأرض زلزالها. وأخرجت الأرض أثقالها (أجساد الموتى)**. وقال الإنسان ما لها. يومئذ تحدث أخبارها. بأن ربك أوحى لها. يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليُروا أعمالهم. فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره»** (١ – ٨).

الهجــــرة

كان معظم المسلمين قد هاجروا إلى المدينة. وأقام رسول الله وأهل بيته بمكة ينتظر الإذن من الله بالهجرة. ولم يتخلف من المسلمين بمكة إلا من حُبس أو فُتن. وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن فى الهجرة فيقول له النبى: لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبا. فيطمع أبوبكر أن يكون النبى هو ذلك الصاحب. فابتاع راحلتين وحبسهما فى داره يعلفهما إعدادا لذلك. وحتى لا يلفت الأنظار فإنه أودع الراحلتين عند عبد الله بن أرقط الذى استأجره ليكون دليلهما فى الهجرة.

ولما رأت قريش أن النبى قد صار له أصحاب من غير بلدهم، ورأوا أصحابه يتسللون واحدا بعد الآخر مهاجرين إلى المدينة تخوفوا من خروج رسول الله إليهم لئلا يلحق بهم ويجمع لحربهم. فاجتمعوا فى دار الندوة – وكانت قريش لا تقضى أمرا خطيرا إلا فيها – فتشاوروا فيما يصنعون فى أمر النبى. ويقال إن إبليس تجسَّد فى هيئة شيخ جليل ووقف على باب الدار. فلما رأوه واقفا قالوا: من الشيخ؟ قال شيخ من أهل نجد سمع بالذى عزمتم عليه فحضر ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم منه رأيا ونصحا. قالوا: أجل فادخل. فدخل وقد اجتمع أشراف وزعماء قريش الكافرون. فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل (يعنون محمداً) قد كان من أمره ما قد رأيتم وإنا والله لا نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا. فأجمعوا فيه رأيا. قال قائل منهم: احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به. فقال الشيخ النجدى: ما هذا لكم برأى. والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم.

ثم قال آخر: نخرجه من بين أظهرنا فإذا خرج فلا نبالى أين ذهب ولا حيث وقع ثم نصلح أمرنا وألفتنا كما كانت. فقال الشيخ النجدى: ما هذا لكم برأى. ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به. ولو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيتابعوه ثم يسير بهم إليكم فيأخذ أمركم من أيدكم. قيل فقال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جلدا ثم نعطى كلا منهم سيفا ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ويتفرق دمه فى القبائل جميعها. فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا فيقبلون الدية فنجمعها لهم. فقال الشيخ النجدى: القول ما قال الرجل. هذا الرأى ولا رأى غيره. وتفرق القوم وهم مجمعون عليه. قيل فأتى جبريل عليه السلام إلى النبى وأمره أن لا يبيت فى فراشه الليلة وهذا معناه أمر بالهجرة فبدأ النبى يتخذ التدابير لذلك.

كان النبى يأتى بيت أبى بكر طرفى النهار إما بكرة وإما عشيا حتى إذا كان ذلك اليوم الذى أُذن فيه له بالهجرة سار إلى بيت أبى بكر بالهاجرة فى ساعة كان لا يزوره فيها. فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله فى هذه الساعة إلا لأمر جلل. ودخل النبى وقال لأبى بكر:

أخرج عنى من عندك. قال يا رسول الله إنما هما ابنتاى. وما ذاك فداك أبى وأمى. فقال النبى: إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة. فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. قال: الصحبة. وعاد النبى إلى داره حتى يخرج فى عتمة الليل.

فلما كانت عتمة الليل اجتمع شبان قريش الموكلون بقتله على باب الدار يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه. فلما رآهم رسول الله قال لعلى بن أبى طالب: نم على فراشى وتسجَّ ببردى هذا الحضرمى الأخضر فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم. فلما انتصف الليل كان الله قد ألقى عليهم سباتا فناموا. فخرج رسول الله وأخذ حفنة من تراب فى يده فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يتلو **«يس. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم**... إلى قوله.. **وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون»**. ثم مشى إلى دار أبى بكر. وخوفا من أن تكون هناك عيون ترقب بيت أبى بكر فإنهما تسللا من فتحة كانت فى ظهر البيت وسارا حتى بلغا غار ثور فدخلاه.

وكان رسول الله قد أمر عليا أن يتخلَّف حتى يؤدى عن النبى الودائع التى كانت عنده للناس. ولم يكن بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عند النبى لما هو معروف من صدقه وأمانته.

أما أبو بكر فإنه كان قد أمر ابنه عبدالله أن يتسمَّع لهما ما يقول الناس فيهما ثم يأتيهما بعد العشاء فى الغار يخبرهما بما تقول قريش. وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بالطعام بعد العشاء خفية عن أعين الناس. وكان أبو بكر قد أمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره حيث شاء ثم يأتى بها مساء ناحية الغار ليقفى على أثر أقدام ابنه عبدالله وابنته أسماء.

نعود إلى المشركين وقد أحاطوا ببيت النبى ورأوا من فرجة فى الباب عليًا مسجيٍّ فى سريره فظنوه محمدا وظلوا ينتظرون خروجه ليقتلوه وكان ما كان من نومهم وخروج النبى دون أن يشعروا به. ثم أفاقوا وظلوا ينتظرون فلما أبطأ عليهم اقتحموا الباب فوجدوه عليًا فسألوه: أين صاحبك . فقال لا أدرى. وكان رجال قريش قد بكروا للحضور لدار محمد ليروا ما تم من تدبيرهم ورأوا الفتيان وعلى رؤوسهم التراب فلاموهم لغفلتهم وانطلقوا وعلى رأسهم أبو جهل إلى دار أبى بكر. فخرجت إليهم أسماء بنت أبى بكر فسألها عن أبيها فقالت لا أدرى. فرفع أبو جهل يده فلطمها ثم انصرفوا.

ويروى عن أسماء قولها إن أباها لما خرج مع رسول الله احتمل معه كل ماله خمسة أو ستة آلاف درهم ولم يترك لهم شيئا. فدخل عليها جدها أبوقحافة وقد ذهب بصره فقال والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قالت كلا يا أبت. إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا. وأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة فى البيت كان أبوها يضع ماله فيها ثم وضعت عليها ثوبا وأخذت بيد جدها ووضعتها عليه فقال: لا بأس إن كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن.

نعود إلى النبى وأبى بكر وقد انتهيا إلى الغار ليلا. فدخل أبو بكر قبل النبى وتحسس الغار لينظر أفيه حية أو عقرب فيقى رسول الله بنفسه. وروى أنه كان فى الغار جحر ولم يجد ما يسده به فوضع رجله عليه مخافة أن يخرج منه ما يؤذى رسول الله. أما المشركون فقد اقتفوا أثر أقدام النبى وأبى بكر فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم الأمر فصعدوا الجبل ومروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت. وقد ورد أن حمامتين عششتا على بابه أيضا. فقال الكفار: لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت. وقال أبو بكر للنبى: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال النبى: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

ومكثا فى الغار ثلاثة أيام حتى هدأت ثائرة قريش ويئسوا من العثور عليهما. فجاء عبد الله بن أبى بكر بعبد الله بن أرقط الذى استأجراه ليدلهم على الطريق ومعه الراحلتان اللتان أعدهما أبو بكر، فانطلق بهما فى طريق المدينة ومعهم عامر بن فهيرة مولى أبى بكر. ولما كانا عند قمة الجبل ألقى رسول الله على مكة نظرة وداع أخيرة وقال: والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلىّ ولولا أنى أُخرجت منك ما خرجت أو ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت. كذلك روى أن النبى لما بدأ مسيرته مهاجراً إلى المدينة قال (السيرة النبوية. ابن كثير جـ ص ٢٣٤): الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا اللهم أعنّى على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالى والأيام. اللهم اصحبنى فى سفرى واخلفنى فى أهلى وبارك لى فيما رزقتنى ولك فذللنى. وعلى صالح خلقى فقوّمنى وإليك رب فحببنى وإلى الناس فلا تكلنى. رب المستضعفين وأنت ربى أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض وكشفت به الظلمات وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن تُحلّ علىّ غضبك، أو تنزل بى سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك وفجأة نقمتك وتحوّل عافيتك وجميع سخطك. لك العتبى عندى خير ما استطعت. لا حول ولا قوة إلا بك.

ويقول سراقة بن مالك بن جعشم: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون دية كل واحد منهما عشرة من الإبل لمن قتله أو أسره. ويقول سراقة إنه بينما هو جالس فى قومه إذ أقبل رجل وأخبر سراقة أنه رأى بالساحل شبح رجال. فعرف سراقة أنهم هم. فقال للرجل إنهم ليسوا هم ليستأثر وحده بديتهما. ثم بعد ساعة خرج بفرسه يطلبهما. فلما دنا منهم عثرت به فرسه فنزل عنها وأنهضها. ثم ركبها وجدّ فى طلبهما ثانية فساخت رجلا فرسه الأماميتان فى الأرض حتى الركبتين. فناداهم وأعطاهم الأمان فوقفوا فركب فرسه حتى أتاهم وقد تأكد أنه لن ينال منهم. فقال للنبى إن القوم قد جعلوا فيه الدية فقال له النبى: أخف عنا. وسأل سراقة أن يكتب النبى له كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتبه له ثم مضى رسول الله ورجع سراقة وجعل لا يلقى أحدا من المطاردين إلا ضلله وردّه.

وقد حقق الدكتور حسين مؤنس (أطلس تاريخ الإسلام ص ٦٢ خريطة ٣٩) الطريق التى

سلكها رسول الله فى هجرته إلى المدينة. ومن الطبيعى أن لا يسير فى الطريق المعتاد خشية الوقوع فى أيدى مطارديه ولذلك كان خط السير يتبع طرقا جانبية وكان دائم التنقل من شرق طريق القوافل إلى غربه وبالعكس سالكا ممرات وأودية غير مطروقة (شكل ١٩). وقد روى أن أبا بكر كان أحيانا يسير أمام النبى ومرات خلفه. فسأله النبى عن ذلك فقال. إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك وإذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك.

وبعد حوالى يومين مرّوا على خيمة بها امرأة هى عاتكة أم معبد من بنى كعب بن خزاعة وطلبوا منها طعاما وشرابا. فقالت والله ما عندنا طعام وليس لنا إلا شاة حائل لا لبن فيها. فأمر النبي بإحضارها. ومسح ضرعها بيده ودعا الله ثم حلب في القدح وسقى أم معبد ثم حلب وسقى أبا بكر وعامرا والدليل ثم شرب هو. وباتوا ليلتهم ثم انطلقوا. فسمته «المبارك» وكثر غنمها. وقيل جاءت بعد سنوات إلى المدينة لبعض شأنها ومر إبنها بأبي بكر فعرفه فسألت عاتكة أبا بكر: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال هو نبى الله. قالت فأدخلني عليه فلما دخلت أسلمت وكساها الرسول وأعطاها مالاً.

والمشهور أن رسول الله خرج من مكة يوم الاثنين وأمضى ٣ أيام فى الغار ثم ١٢ يوما في الطريق فذلك أسبوعان فيكون دخل المدينة يوم الإثنين أيضا. وقلنا إن النبى كان يسلك طرقا جانبية حتى إذا اقترب من المدينة وعند قرية «ملل» سلك الطريق المعتاد المار بذى الحليفة حتى وصل إلى قباء.

فــى قبــاء:

لما وصل رسول الله إلى قباء نزل فى دار كلثوم بن الهدم من بني عمرو بن عوف. وكان بالنهار ينتقل إلى دار سعد بن الربيع يقابل فيه الناس. وأقام فى قباء - على ما ذكر ابن اسحق - خمس ليال من يوم الإثنين إلى يوم الجمعة. وفى الحقيقة هى خمسة أيام وأربع ليال. وأثناء إقامته في القرية أسس مسجد قباء. كما أن عليا بن أبى طالب لحق به فيها بعد أن تأخر ثلاثة أيام فى مكة ليؤدى الأمانات التى لقريش عند النبي كما سبق أن ذكرنا.

وجاءه في قباء **عبدالله بن سلام** أحد أحبار اليهود وقال: أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بالحق. وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم فادعهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أنى أسلمت فإنهم إن يعلموا أنى أسلمت قالو فيّ ما ليس فيّ. فأرسل النبى إلى اليهود فجاءوا. فقال لهم يا معشر اليهود. ويلكم اتقوا الله. فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا وأنى جئتكم بحق فأسلموا. قالوا ما نعلمه. قال فأى رجل فيكم عبدالله بن سلام قالوا ذلك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا. قال أفرأيتم إن أسلم، قالوا حاش لله. ما كان ليسلم. قال يا ابن سلام أخرج عليهم. فخرج فقال: يا معشر يهود. اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بالحق. فقالوا كذبت. أنت شرّنا وابن شرنا وتنقّصوه فقال يا رسول الله هذا الذى كنت أخاف.

الطريق المعتاد
طريق الساحل
طريق الهجرة

شكل ١٩ – طريق الهجرة . كما حققه الدكتور حسين مؤنس.

الخروج من قبـاء :

ثم خرج رسول الله من قباء يوم الجمعة فأدركته صلاة الجمعة فصلاها فى بطن الوادى المسَّى «وادى رانوناء» فكانت أول جمعة صلاها فى المدينة وفى المكان الذى صلى فيه النبى تلك الجمعة بنى المسلمون «مسجد ذى رانوناء».

وقال ابن جرير عن آخرين أن النبىَّ قال فى خطبة الجمعة هذه (البداية والنهاية. ابن كثير. جـ ٣ ص ٢١١):

الحمد لله. أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه. وأومن به ولا أكفره وأعادى من يكفره. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة على فترة من الرسل. وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنوٍّ من الساعة وقربٍ من الأجل. من يُطِع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصِهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا. وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذركم الله من نفسه. ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكرى. وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة. ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا فى عاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم. وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا. ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد. والذى صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك فإنه تعالى يقول **«ما يبدل القول لدى وما أنا بظلاَّم للعبيد»** (٢٩ – ق) واتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله فى السر والعلانية فإنه **«من يتق الله يكفِّر عنه سيئاته ويعظم له أجرا»** (٥ – الطلاق). **«ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما»** (٧١ – الأحزاب). وإن تقوى الله توقى مقته وتوقى عقوبته. وتوقِّى سخطه. وإن تقوى الله تبيض الوجه وترضى الرب وترفع الدرجة. خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله. قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم. وعادوا أعداءه. وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة ولا قوة إلا بالله. فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد الموت فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه ما بينه وبين الناس ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ويملك من الناس ولا يملكون منه. الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ورغم بلاغة اللفظ وسمو المعنى إلا أن القارئ يلحظ فارقا كبيرا بين هذه الخطبة وبين سور القرآن الكريم مما ينفى ادعاء الكفار قديما وادعاء المستشرقين حديثا أن القرآن من تأليف النبى وهو مارد عليه القرآن فى أكثر من موضع.

وقرية ذى رانوناء تقع قريبا من مساكن بنى النضير التى تقع شرقها بمسافة لا تزيد عن ٢كم (شكل ٢٠). ولما علم اليهود بوصول النبى سار أبو ياسر بن أخطب وأخوه حيى بن أخطب ولدا أحد كبار أحبار اليهود وجاءا إلى رسول الله فى ذى رانوناء واستمعا إليه ورجعا إلى قومها وقال أبو ياسر لقومه: يا قوم أطيعون. فإن الله قد جاءكم بالذى كنتم تنتظرون فاتبعوه ولا تخالفوه ولكن حيي بن أخطب وهو يومئذ سيد يهود بنى النضير عارض دعوة أخيه وتابعه قومه ورفضوا الإسلام وأظهروا عداوتهم لرسول الله. وسنرى فيما بعد أن حيى بن أخطب قتل فى معركة خيبر (ص ٧٣٦) وتزوج رسول الله من ابنته صفية.

ثم سار الركب من ذى رانوناء قاصدا يثرب نفسها التى تقع بعد ١٥ كم تقريبا. وكان المسلمون فيها قد سمعوا بخروج رسول الله من مكة فكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة بأطراف المدينة ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة. وذات يوم بعد أن طال انتظارهم آووا إلى بيوتهم. وأطل رجل من اليهود من أعلى حصن من حصونهم فرأى رسول الله وأصحابه قادمين عن بعد فصاح بأعلى صوته: يا معشر العرب. هذا جدكم الذى تنتظرونه. فخرج المسلمون والتقوا بالركب والتفوا حوله والنساء والصبيان يرددون ويتغنون:

طلع البدر علينا ∴ من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ∴ مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا ∴ جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ∴ مرحبا ياخير داع

ويجمع معظم المؤرخين على أن **وصول النبى إلى المدينة** كان فى يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول وبالرجوع القهقرى من هذا التاريخ نجد أن خروجه من مكة كان فى يوم الإثنين ٢١ صفر.

- الإثنين ٢١ صفر ليلا : الخروج من داره.
- ٣ أيام ٢٢، ٢٣، ٢٤ : فى غار ثور.
- ١٢ يوما فى الطريق : من الجمعة ٢٥ صفر إلى الأحد ٤ ربيع الأول.
- الإثنين ٥ ربيع الأول : الوصول إلى قباء.
- الجمعة ٩ ربيع الأول : الخروج من قباء وصلاة الجمعة فى ذى رانوناء.
- الإثنين ١٢ ربيع الأول : الوصول إلى يثرب.

وسار الركب. وكان كثيرون من مسلمى المدينة لم يروا رسول الله ولا يعرفونه فكان بعضهم يحيى أبا بكر على أنه النبى لكبر سنه. ولكن طريقة معاملة أبى بكر للنبى دلت الناس على النبى. وأمضى النبى الليلة الأولى فى دار أحد أبناء عمرو بن عوف. ثم أرسل النبى إلى بنى

شكل ٢٠ – المسيرة من قباء إلى المدينة ومنازل القبائل فى المدينة .

النجار - أخواله - فجاءوا متقلدي السيوف وطلبوا منه أن ينزل عندهم، ولكنه ركب راحلته وتركها تسير حتى إذا وازت دار بني بياضة تلقاه كبار رجالها وقالوا: يا رسول الله هلم إلينا وأخذوا بزمام ناقته فقال لهم خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة فخلوا سبيلها. وفعل كذلك بنو الحارث بن الخزرج لمَّا مر بديارهم. فانطلقت حتى إذا مرت بدار عدى بن النجار قالوا له يا رسول الله هلم إلى أخوالك فقال خلوا سبيلها فإنها مأمورة فانطلقت الناقة حتى أتت عند مربد للتمر (شونة أو جرن) لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار في حجر أسعد بن زرارة وكان يصلي فيه وقتئذ رجال من المسلمين فبركت الناقة عنده. فترجَّل النبي وقال هذا إن شاء الله المنزل. ثم دعا الغلامين ليشترى منهما المكان فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله فأبى وأصرَّ حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً.

ونزل النبى فى دار أبى أيوب إلى أن تم بناء المسجد ودور النبى فى أحد جوانبه. وكان النبى قد أقام بالسفل (الدور الأرضى) وأبو أيوب وزوجه فى العلو (الدور العلوى) فقال أبو أيوب: بأبى أنت وأمى يا رسول الله إنى أكره أن أكون فوقك وتسكن تحتى. فكن أنت فى العلو وننزل نحن فنكون فى السفل. فقال النبى: يا أبا أيوب إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون فى سفل البيت.

وكان أبو أيوب يصنع الأكل ثم يبعث به إلى النبى أولًا ثم يأكلون بعده. وفى يوم بعثوا إليه عشاء فيه بصل وثوم فردَّه رسول الله دون أن يأكل منه فجاءه أبو أيوب جزعا وقال: يا رسول الله بأبى أنت وأمى. رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك. فقال: إنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة (الثوم والبصل) وأنا رجل أناجى (أى يخاطب الناس وكره أن يكون لفمه رائحة) أما أنتم فكلوه. فأكله أبو أيوب وزوجه. ولم يصنعا له بعد ذلك طعاما فيه ثوم.

وروى عن زيد بن ثابت قوله إنه جاء بأول هدية أهديت لرسول الله حين نزل بدار أيوب وكانت قصعة فيها خبز مثرود بلبن وسمن وقال إن أمه أرسلت هذه القصعة. فقال بارك الله فيك. ثم جاءت قصعة سعد بن عبادة ثريد ولحم. وما كانت من ليلة إلا وعلى باب رسول الله الثلاثة أو الأربعة يحملون الطعام.

هجرة أهل البيت:

بعث رسول الله وهو فى دار أبى أيوب مولاه زيد بن حارثة وأبا رافع ومعهما بعيران وخمسمائة درهم ليجيئا بفاطمة وأم كلثوم ابنتي النبى. وسودة بنت زمعة زوجته وأسامة بن زيد. وجاءت معهم أم أيمن امرأة زيد بن حارثة. وأرسل أبو بكر رسالة إلى ابنه عبدالله يطلب فيها منه أن يلحق به مصطحبا والدته أم رومان - زوجة أبى بكر - وابنتيه - أسماء وعائشة ولم يكن النبى قد دخل بها. أما زينب بنت النبى فبقيت بمكة عند زوجها أبى العاص بن الربيع وكان على كفره. وأما رقية فكانت هى وزوجها عثمان بن عفان فى مكة منذ أن عادا من الحبشة. ولحقا بالنبى فى المدينة بعد عدة أشهر.

وما كاد ركب أهل البيت يبعد قليلا من مكة حتى طاردهم بعض اللئام من مشركى قريش ولحق الحويرث بن نقيذ بن عيد بن قصى بالبعير الذى يحمل فاطمة وأم كلثوم ونخس البعير فرمى بهما إلى الأرض. وكانت فاطمة ضعيفة نحيلة الجسم فأثرت هذه السقطة عليها وظلت بقية الطريق متعبة إلى أن وصلت إلى المدينة. وسنرى فى المستقبل كيف أن الحويرث كان من ضمن من أهدر النبى دمهم بعد فتح مكة وأمر بقتلهم حتى لو تعلقوا بأستار الكعبة. وقد قام على بن أبى طالب بقتله كما سيجيء فيما بعد (ص ٧٦٧).

وأغلقت دار النبى بمكة كما أغلقت دور كثير من المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة.

بناء مسجد المدينة :

كان أول ما فعل رسول الله بعد وصوله المدينة هو الشروع فى بناء مسجده بالمدينة واشترك المسلمون كلهم فى بنائه. وكان رسول ينقل التراب واللبن معهم وهو يقول:

لاهُمَّ إن الأجر أجر الآخرة ∴ فارحم الأنصار والمهاجرة

وكان الناس ينقلون لبنة لبنة وعمار بن ياسر ينقل لبنتين لبنة عنه ولبنة عن رسول الله. فمسح النبى ظهره وقال: ابن سمية. للناس أجر ولك أجران وآخر زادك شربة لبن وتقتلك الفئة الباغية. ويروى الحديث عن طريق آخر وأنه كان أثناء حفر الخندق. وقد قتل أهل الشام عمار بن ياسر فى وقعة صفين وكان عمار بن ياسر مع علىّ بن أبى طالب ضد معاوية وأصحابه.

ولم يكن فى المسجد منبر بل كان النبى يخطب الناس وهو مستند إلى جذع نخلة عند مُصَلاَّه.

الحُمَّى :

كانت المدينة معروفة - فى الجاهلية - بكثرة أوبئتها لكثرة برك المياة التى كانت محلا لتكاثر البعوض. فلما قدم رسول الله المدينة مرض أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة. فدخلت عائشة تمرِّضهم - ولم يكن النبى قد بنى بها بعد. كما لم يكن الحجاب قد فرض على نساء المؤمنين - فوجدتهم يهذون - ويذكرون الموت من شدة الحمى فأخبرت النبى: فقال: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها وبارك لنا فى صاعها ومدِّها وانقل وباءها إلى الجحفة وهي بلدة على طريق المدينة مكة ٢٠٠كم جنوب المدينة مقابل رابغ.قيل وأصاب كثير من المسلمين الحمى حتى جهدوا مرضا. وصرف الله المرض عند النبى. وكان المسلمون يصلون وهم قعود من التعب فقال النبى: إعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم. فكان المسلمون يتجشمون عناء القيام على مابهم من ضعف وسقم التماس الفضل.

المعاهدة بين المهاجرين والأنصار واليهود:

قال محمد بن اسحق إن رسول الله كتب فى دار أنس بن مالك كتابا هو عبارة عن معاهدة جامعة بينه وبين المهاجرين من ناحية وبين بطون الأوس والخزرج وقبائل اليهود الثلاثة - من آمن منهم ومن لم يؤمن. وكانت المعاهدة تتضمن عدم الاعتداء من أى منهم على الآخر وضمانا للأمن بين الجميع. وقد وضع هذا العهد أسس الحالة السياسية الجديدة التى حدثت فى المدينة بقدوم المهاجرين - فى صورة واضحة ومستقرة يصعب معها إحداث المؤامرات التى اعتاد اليهود أن يستغلوها فى أغراضهم. ولكن كما سنرى فيما بعد - فإن اليهود لم يحترموا المعاهدة وخرقوها أكثر من مرة فكانت النتيجة وبالا عليهم بإجلائهم عن أماكنهم مرة بعد مرة. ولأهمية هذه المعاهدة نوردها فيما يلى:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبى الأمى بين المسلمين والمؤمنين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس. المهاجرين من قريش على ربعتهم (الحال التى جاءوا عليها) يتعاقلون (أى يتضامنون) بينهم وهم يفدون عانيهم (الأسير الذى تركه أهله دون فداء) بالمعروف والقسط. وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار: بنى ساعدة وبني جشم وبنى النجار وبنى عمرو بن عوف وبني النبيت. إلى أن قال وإن المؤمنين لا يتركون مُفرحا (كثير العيال المثقل بالدين) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء وعقل. ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعهم ولو كان ولد أحدهم. ولا يَقتل مؤمن مؤمنا فى كافر. ولا يَنصُر كافرا على مؤمن. وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم. وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس. وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم. وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم. وإن كل غازية غزيت معنا يعقب بعضها بعضا. وإن المؤمنين يبيء (يتساوى) بعضهم بعضا بما نال دماءهم فى سبيل الله. وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه. وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن. وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بيِّنة فإنه قود به إلى أن يرضى ولى المقتول وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه. وإنه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه. وأنه من نصره أو آواه فإنه عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مردَّه إلى الله عز وجل وإلى محمد. وإن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين. وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (أى لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته. وإن ليهود بنى النجار وبنى الحارث

وبنى ساعدة وبنى جشم وبني الأوس وبنى ثعلبة وجفنة وبنى الشطنة مثل ما ليهود بنى عوف. وإن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يُخرج منهم أحدا إلا بإذن محمد ولا ينحجز (أى لا يجتمع) على ثأر جرح. وإنه من فتك فبنفسه إلا من ظلم. وإن الله على أثر هذا. وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه. وإن النصر للمظلوم. وإن يثرب حرام جرفها (أي حتى الجرف وهو مكان في شمال غرب المدينة - شكل ٢٠) لأهل هذه الصحيفة. وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها. وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإنَّ مردَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله. وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبرِّه. وأنه لا تُجار قريش ولا من نصرها وإنَّ بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه. وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين. إلا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم. وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم. وإن الله جار لمن بر واتقى.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

لم يشأ الرسول بحكمته أن يترك المهاجرين ليكونوا حزبا مترابطا ويظل الأنصار كحزب ثان. بل أراد دمج الاثنين فى كيان واحد فآخى بينهم فقال: تآخوا فى الله أخوين أخوين. ومع معرفته لحرج الموقف لو اتخذ لنفسه أخا من الأنصار إذ أنه شرف كبير قد يجعل من يختاره أخا أن يتيه على الآخرين ولعشيرته أن تفخر على عشائر الأنصار الأخرى. فلو كان من الأوس لفاخرت به الخزرج والعكس أيضا فتثور وتحيا الأحقاد القديمة بين القبيلتين. لذلك فإن النبى أخذ بيد على بن أبى طالب وقال: هذا أخى. فكانت المؤاخاة كما يلى:

- محمد رسول الله .... - على بن أبى طالب.
- حمزة عم الرسول. - زيد بن حارثة مولى رسول الله.
- جعفر بن أبى طالب (كان لا يزال بالحبشة). - معاذ بن جبل.
- أبو بكر الصديق. - خارجة بن زيد الخزرجى.
- عمر بن الخطاب. - عتبان بن مالك من الخزرج.
- أبو عبيدة بن الجراح. - سعد بن معاذ.
- عبد الرحمن بن عوف. - سعد بن الربيع من الخزرج.
- الزبير بن العوام. - سلمة بن سلامة بن وقش أو عبد الله بن مسعود من بنى عبد الأشهل.

– عثمان بن عفان. – أوس بن ثابت بن المنذر من بنى النجار.
– طلحة بن عبيد الله. – كعب بن مالك من بنى سلمة.
– سعيد بن زيد. – أبى بن كعب من بنى النجار.
– مصعب بن عمير. – أبو أيوب خالد بن زيد من بنى النجار.
– أبو حذيفة بن عتبة. – عياد بن بشر من بنى عبد الأشهل.
– عمار بن ياسر. – حذيفة بن اليمان العبسى حليف بنى الأشهل.
أو ثابت بن قيس من الخزرج.
– أبو ذر بن جنادة. – المنذر بن عمرو من بني ساعدة ابن كعب من الخزرج.
– حاطب بن أبى بلتعة. – عويم بن ساعدة أخو بنى عمرو بن عوف.
– سلمان الفارسى. – أبو الدرداء.
– بـلال. – أبو رويحة عبدالله بن عبد الرحمن الخثعمى.
– زيد بن حارثة. – أسيد بن حضير.

ويضق المكان عن ذكر باقى أطراف المؤاخاة.

ولا بأس من ذكر نبذة عن «القرابات المفتعلة» التي كانت سائدة بين العرب آنذاك:

١ – **التبني** : وقد شرحنا سابقا (ص ٣٩) تبنى النبى لزيد بن حارثة وأصبح اسمه زيد بن محمد. وكان للابن بالتبني أن يرث من تبناه. ولما أبطل التبنى عاد إلى زيد اسمه الأصلى: زيد بن حارثة.

٢ – **الموالاة** : وهو نوع من التعاقد والتحالف. فكان الرجل يعاقد الرجل فيقول له: «دمى دمك، وهدمى هدمك وثأرى ثأرك وحربى حربك وسلمى سلمك وترثنى وأرثك وتطلب بى وأطلب بك وتعقل عنى وأعقل عنك». فيكون للحليف السدس من جميع المال ثم يقسم بعد ذلك أهل الميراث ميراثهم. وكان الرجل الضعيف يحالف رجلا قويا ليقوى به. ولعل هذا ما ينطبق عليه حاليا المثل العامى «اللى مالوش ظهر يشترى له ظهر». وكانت العشيرة الضعيفة توالى قبيلة قوية. وقد أقر الإسلام ذلك أول الأمر فى قوله تعالى: **«والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شىء شهيداً»** (٣٣ – النساء).

٣ – **المؤاخاة**: وهى التى استحدثها النبى بين المهاجرين والأنصار ولم تكن معروفة من قبل.

وقد أبطلت جميع هذه «القرابات المفتعلة» فيما بعد بقوله تعالى **«وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله»** (٧٥ – الأنفال).

ولا شك أن المهاجرين كانوا قد حملوا معهم أموالهم: ما ادخروه وثمن ما تمكنوا من بيعه من متاعهم قبل هجرتهم فلم يكونوا عالة على الأنصار. وكان «للأخوة» مع الأنصار فضل تهيئة المسكن للمهاجرين إلى حين يمكنهم الاستقلال بمعيشتهم. فقد عمل بعض المهاجرين في التجارة وربحوا وأمكنهم أن يبنوا أو يشتروا دورا مستقلة لهم. أما فقراء المهاجرين فقد ساعدوا الأنصار فى أعمالهم التجارية أو فى زراعة بساتينهم أو العناية بأشجار النخيل لقاء أجر.

ويقال إنه لما آخى النبى بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع الأنصارى عرض هذا الأخير على عبد الرحمن بن عوف أن يناصفه ماله وأهله فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك. دلّنى على السوق. فدلّه. فتاجر وربح ورآه النبى بعد أيام وعليه ثوبا جديداً. فقال: مهيم يا عبد الرحمن؟ قال يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار. قال فما سقت فيها؟ قال وزن نواة من ذهب. قال النبى أَوْلِم ولو بشاة.

وعن أنس أن المهاجرين قالوا للنبي: يا رسول الله. ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلا من كثير. لقد كفونا المؤونة وأشركونا فى المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال النبى: لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم. وعن أبى هريرة قال: قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال لا. فقال الأنصار: أفتكفوننا المؤونة (أى يعملون ما يحتاجه الزرع من خدمة) ونشرككم فى الثمر. قالوا سمعنا وأطعنا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إن هذه المشاركة كانت بناء على اقتراح من النبى إذ قال للأنصار: إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم. فقالوا أموالنا بيننا قاقطع. فقال النبى: أوَ غير ذلك؟ قالوا وما ذاك يا رسول الله. قال يكفونكم المؤونة وتقاسمونهم الثمر. قالوا نعم.

الأذان :

كان رسول الله فى مكة يصلى فى مواقيت الصلاة بغير أذان. وحدث ذلك فى أول مهاجره إلى المدينة وكان الناس يعرفون مواقيت الصلاة فيحرصون على الصلاة مع رسول الله. ولكن أناسا من المسلمين كانت تفوتهم صلاة الجماعة لانشغالهم فى أعمالهم عن تحيّن مواقيت الصلاة. فراح النبى وأصحابه يتشاورون كيف يُجمع الناس للصلاة، فاقترح بعضهم أن تنصب راية عند حضور الصلاة فإذا رآها الناس علموا أنه وقت الصلاة ولكن هذا الاقتراح رُفض. وذكر له البوق كما يفعل اليهود فرفضه واقتُرح الناقوس كما يفعل النصارى ولكنه رفضه. فقال عمر. أوَلاَ تبعثون رجلا ينادى بالصلاة فقال النبى: لقد هممت أن أبثّ رجالا ينادون الناس بحين الصلاة. ثم أمر بلالا أى ينادى للصلاة فقام بلال فقال الصلاة جامعة. الصلاة جامعة. فجاء الناس من الدور والأسواق ليصلوا خلف رسول الله.

ودخل عبدالله بن زيد وهو رجل من الأنصار لينام. فطاف به - وهو بين النوم واليقظة - رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا فى يده فسأله ابن زيد أن يبيعه الناقوس ليدعو به إلى الصلاة. فقال له: أفلا أدلُّك على ما هو خير لك قال بلى: قال تقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدا رسول الله. أشهد أن محمدا رسول الله. حىَّ على الصلاة، حىَّ على الصلاة. حىَّ على الفلاح حىَّ على الفلاح. الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. وتقول إذا قامت الصلاة: الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدا رسول الله. حى على الصلاة حى على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله.

واستيقظ عبدالله ولم ينتظر إلى الصباح بل انطلق إلى رسول الله وقص عليه رؤياه. فقال له النبى. إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى. فقم مع بلال. فألق عليه ما رأيت فليؤذن به فإنه أندى صوتا منك. فلما حان وقت صلاة الفجر جعل عبدالله يلقى الكلمات وبلال يؤذن بها. وكان عمر بن الخطاب فى بيته فلما سمع الأذان أسرع يجر رداءه حتى إذا ما جاء رسول الله وعلم بما رأى عبدالله قال: والذى بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ما رأى عبدالله بن زيد. فقال النبى: فلله الحمد.

وانشرحت صدور المسلمين لما سمعوا الأذان فى الفجر وخرجوا إلى المسجد مستبشرين. أما اليهود فقد انقبضت أفئدتهم ونزل بهم همٌّ ثقيل.

التاريخ بالهجرة :

بدأ الناس فى المدينة يؤرخون الأحداث بالهجرة وبالذات بمقدم النبى إلى المدينة فيقولون بعد ستة أشهر مثلا من مقدم رسول الله إلى المدينة. أو بعد أحد عشر شهرا من مقدمه إلى المدينة. أما الأحداث المتأخرة فقد أصبح عبثا أن يقال بعد ثلاثين أو أربعين شهرا من الهجرة. فعدل عن الشهور إلى السنوات. فيقال بعد سنة أو سنتين من مقدم رسول الله إلى المدينة. وهنا حدث خلاف بين المؤرخين. فبعضهم اعتبر السنة الأولى لمقدم النبى تنتهى بعد اثنى عشر شهرا أى فى ربيع الأول من العام التالى. ولو اتُّبع هذا كان معناه أن تغير بداية السنة العربية إلى ربيع الأول بدلا من المحرم. وكان الأوفق - والأسهل أيضا - التجاوز عن الشهرين والنصف اللذين مضيا من السنة الأولى قبل وصول النبى إلى المدينة - وهما فى الحقيقة شهر وأربعة وعشرون يوما منذ ترك النبى لغار ثور فى ٢٤ صفر وهو تاريخ بدء الهجرة - حتى تبقى بداية السنة العربية فى الأول من محرم. ولكن بعض كتاب السيرة النبوية ظلُّوا على الحساب الأول. فلو وقع حدث ما بعد ١١ شهرا من مقدم النبى إلى المدينة اعتبروه فى السنة الأولى. ولكنه - وقد وقع فى صفر - فالأولى أن يحتسب فى بداية العام الثانى. وهذا ما سنتبعه فى كتابنا هذا.

أحداث السنه الأولى للهجرة

الشهر	اليوم	الحدث
محرم		
صفر	٢١	خروج النبى من داره إلى غار ثور.
	٢٤	ترك الغار والبدء فى المسير إلى المدينة.
ربيع الأول	٥	الوصول إلى قباء.
	٩	ترك قباء وصلاة الجمعة في ذي رانوناء.
	١٢	يوم الإثنين . الوصول إلى المدينة.
ربيـــع الثانـى		قدوم أهل بيت النبى إلى المدينة (ص ٤٣١).
جمادى الأول		إتمام زواج النبى من عائشة.
جمادى الثانى		بدء نزول سورة البقرة.
رجـب		الإذن بالقتال فى آيات من سورة الحج.
شعبان		استمرار نزول سورة البقرة.
رمضان		– سرية حمزة بن عبد المطلب.
شـــوال	٧	– سرية عبيدة بن الحارث.
	١٢	– سرية سعد بن أبى وقاص.
	١٥	وفاة الصحابى كلثوم بن الهدم.
	٢٠	وفاة أسعد بن زرارة.
	٢٥	مولد عبدالله بن الزبير – أول مولود للمهاجرين فى المدينة.
ذو القعدة		ــــــــ
ذو الحجة		ــــــــ

إتمام زواج النبى من عائشة :

بعد حوالى ثلاثة أشهر من وصول النبى إلى المدينة كانت حياته فيها قد استقرت تحدث أبو بكر إلى النبى فى إتمام الزواج الذي عقده بمكة منذ ٣ سنوات (ص ٢٢٤) فلبَّى النبى وذهب مع رجال ونساء من الأنصار إلى منزل أبي بكر الذى كان ينزل فيه مع أهله فى بنى الخزرج. وجاءت أم رومان إلى ابنتها عائشة وكان عمرها ٩ سنوات وزينتها وقادتها إلى حجرة فى بيتهم فيها سرير كان يجلس عليه النبى. فأدخلت عائشة إلى الحجرة وقالت للنبى: هؤلاء أهلك.

بارك الله لك فيهن. وبارك لهن فيك. وبعد أيام قليلة انتقل رسول الله بعائشة إلى حجرة من الحجرات المبنية بجانب المسجد بجوار الحجرة التى كانت فيها سودة بنت زمعة.

في شوال من السنة الأولى للهجرة أى بعد ٧ أشهر من مقدم النبى إلى المدينة **توفى كلثوم بن الهدم** وهو الصحابى الذى نزل النبى فى داره فى قباء (ص ٤٢٦) وبعده بأيام قليلة فى نفس الشهر **توفى أسعد بن زرارة** من بني مالك بن النجار وهو أحد النقباء الاثنى عشر (ص ٣٣٧) وأول من بايع رسول الله ليلة العقبة الثانية. كما أنه كان أول من صلى بالناس جماعة فى المدينة قبل أن يجيء مصعب بن عمير موفداً من قبل النبى ليؤم الناس فى الصلاة. وراح اليهود يقولون: لو كان نبيا لم يمت صاحبه. فقال النبى: يقولون لو كان نبيا لم يمت صاحبه ولا أملك لنفسى ولا لصاحبى شيئا من الله. وبعد موت أسعد بن زرارة جاء بنو النجار إلى النبى وسألوه أن يقيم لهم نقيبا بعد أسعد بن زرارة. فقال لهم: أنتم أخوالى وأنا نقيبكم وكره النبى أن يخصَّ بها بعضهم دون بعض فيثير الأحقاد بينهم. وكان بنو النجار يفتخرون أن رسول الله نقيبهم.

وكان **أول مولود في المهاجرين** فى المدينة هو عبدالله بن الزبير فى شوال من سنة الهجرة فأتوا به إلى النبى فأخذ تمرة ولاكها ثم وضعها فى فم المولود.

موقف اليهود من النبي:

بالرغم من عهد الموادعة الذي عقده النبى مع يهود المدينة والذي سالمهم فيه وأمَّنهم على أموالهم ودورهم. فإنهم بدأوا يتخوَّفون على مركزهم الاجتماعي والمالى في المدينة. فقد أفزعهم أن تتحالف الأوس والخزرج ويندمج الاثنان في كيان واحد هم الأنصار: وينضم إليهم – فى أخوة في الدين – المهاجرون. وزاد حقد اليهود فراحوا يكيدون للنبى يحاولون أن يصدوا عنه ويحاولون أن يوقعوا بين الأنصار بإثارة نعرة الجاهلية من أوس وخزرج.

كفار المدينة والمنافقون:

كان بعض رؤساء الأوس والخزرج لم يؤمنوا وأحسوا بأن الزعامة فى قومهم قد أخذت منهم فامتلأت قلوبهم بالحفيظة والضغينة على رسول الله. بعضهم أظهر عداوة صريحة للنبى: مثل أبو عامر بن عمرو من رؤساء الأوس. وبعضهم أسلم ظاهرا مع إبطان العداوة وهؤلاء هم المنافقون وعلى رأسهم عبدالله بن أبى بن سلول الخزرجي.

أما **أبو عامر** فكان قد ترهَّب وزعم أنه ينتظر النبى المبعوث وصار يذكر للناس كثيرا من صفاته ويقول لهم قد قرب خروجه. فلما هاجر النبى إلى المدينة واتضحت صفاته للأنصار واتبعوه حسده أبو عامر وأنكر نبوَّته لأنه كان يتمنى أن يكون هو نفسه النبى. فأتى رسول الله وقال له. ما هذا الذى جئت به؟ فقال النبى: جئت بالحنيفية دين إبراهيم. قال أبو عامر: فأنا

عليها. قال النبي: إنك لست عليها، فأنا جئتها بيضاء نقية. فقال أبو عامر: الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا. يُعرِّض برسول الله. فقال النبي: أجل. فمن كذب فعل الله تعالى ذلك به. ولما رأى أبو عامر إسلام جميع الأوس تقريبا خرج إلى مكة مباعدا لرسول الله مقسما ألا يقيم بالمدينة وهو بها وراح يُحرِّض عليه. وسنرى فيما بعد أنه بعد فتح مكة خرج إلى الطائف. فلما أسلم أهل الطائف خرج إلى الشام ومات هناك غريبا وحيدا كما تنبأ رسول الله.

أما عبدالله بن أبيّ بن سلول فكان دائم التوفيق بين الأوس والخزرج وهو يأمل أن يختاره الطرفان ملكا للمدينة بل أن بعض أعوانه بدأوا في إعداد التاج الذي سيضعه على رأسه. ولكن قدوم رسول الله إلى المدينة صرف الناس عنه فامتلأ حقدا على النبي وعلى المسلمين واضطر إزاء إسلام الغالبية من عشيرته إلى أن يتظاهر بالود والمناصرة بيد أن أعماق قلبه كانت ممتلئة حقدا على النبي. فالتاج الذي كانت تتلألأ خرزاته أمام عينيه طار منه والسلطان الذي كان يُمنِّي نفسه به ليصل إلى مصاف ملوك غسان والمناذرة ذهب فطاش عقله. وبدأ يجمع شتات الذين لم يدخلوا في الإسلام من الأوس والخزرج وضمَّ إليهم يهود المدينة من بني قينقاع وقريظة والنضير. ونجح إلى حدٍّ ما في ايجاد فرقة للتجسس بين المسلمين. وراح يحاول إثارة النعرة القبلية ليوقد الفتنة بين الأوس والخزرج. وعمل هو والمنافقون على إثارة الشائعات بغية تفتيت وحدة المسلمين من مهاجرين وأنصار وبين الأنصار أنفسهم من أوس وخزرج. واستطاعت فرقة المنافقين هذه صدَّ كثير من أهل القبائل المجاورة عن الدخول في الإسلام.

وحدث يوما أن كان النبي يركب حماراً مُردِفًا خلفه أسامه بن زيد بن حارثة يعود سعد بن عبادة فمرَّ بعبد الله بن أبيِّ وفي مجلسه أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود. فنزل النبي ودعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن. حتى إذا فرغ قال ابن أبي: أيها المرء. إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا. فلا تؤذنا به في مجلسنا. ارجع إلى رحلك فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدِّثه إياه ومن لم يأتك فلا تَغُتَّه به ولا تأته في مجلسه بما يكره. فقال عبدالله بن رواحة: بلى يا رسول الله. فاغشنا به في مجالسنا ودورنا وبيوتنا فهو والله ما نحب ومما أكرمنا الله به وهدانا له. وتبادل المسلمون والمشركون واليهود السباب حتى كادوا يتضاربون بالنعال. فلم يزل النبي يهدئهم حتى سكتوا. ثم ركب النبي دابته وسار حتى دخل على سعد بن عباده وفي وجهه بعض الغضب. فسأله سعد عنه فأخبره بما قاله عبد الله بن أبي. فقال سعد: أرفق به يا رسول الله. اعف عنه واصفح عنه. فوالذي أنزل عليك الكتاب. لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك وقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبونه بالعصابة. فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك. فذلك فعل به ما رأيت.

وزاد الأمر سوءاً على عبدالله بن أبيّ أن ابنه عبدالله أسلم وراح يحاول أن يهدي أباه إلى الإسلام. وكانت تقوم بين الأب وابنه منازعات بين حين وآخر. وفي إحدى المرات سبَّ عبدالله

بن أبيّ النبى. فاستأذن عبدالله (الابن) النبى أن يأتيه برأس أبيه. فقال له النبى: لا ولكن برَّ أباك.

كان عبدالله بن أبيّ صريحا فى كفره وصريحا فى عداوته للنبى عند أول قدوم النبى إلى المدينة فلما أظهر الله الإسلام بعد موقعة بدر أسلم وأضمر الكفر فأصبح زعيم المنافقين. كما أن كثيرا من المشركين أسلموا نفاقا خوفا من الأغلبية التى أسلمت. وانضم اليهود إلى المنافقين وبدأوا يكيدون للإسلام والمسلمين.

وبدأت **السور المدنية** تنزل على رسول الله. وكان هدفها يختلف عن الهدف في مكة ولذلك اختلف أسلوب القرآن المدنى عن أسلوبه فى مكة فالهدف أصبح:

١ – تنظيم المجتمع المدنى المسلم فى المدينة.

٢ – دعوة كفار ومشركى المدينة والقبائل المجاورة إلى الاسلام.

٣ – فضح مؤامرات المنافقين والتحذير منهم.

٤ – إبقاء علاقة طيبة مع اليهود طالما التزموا بالعهود.

وكانت سورة البقرة هى أول السورة المدنية.

سورة البقرة :

احتوت سورة البقرة على موضاعات كثيرة ولكنها اختصت اليهود بجزء كبير من أياتها إذ كان الخطاب مُوجَّها إليهم فى ٩٨ آية من آيات السورة الـ ٢٨٦ أى أن ثلث السورة تقريبا يختص ببنى إسرائيل وفيه تذكير لهم بنعم الله عليهم وعلى آبائهم وتنديد بعدم إيمانهم بالرغم مما يعرفونه من أن «محمداً» هو النبى المنتظر ومن ثم كان الواجب عليهم الإيمان به. كذلك فإن ربع الآيات تقريبا كان تشريعات هدفها تنظيم المجتمع المسلم الذى تكوَّن فى المدينة وتنظيم علاقاته التجارية والأسرية. وكان نصيب المنافقين ٣٠ آية والكفار ٢٠ آية. إضافة إلى غير ذلك من المواضيع سنذكرها في حينها.

وقد بدأت السورة بالحروف المقطعة: ألف. لام. ميم. أعقبها تنبيه إلى أن القرآن هو حقا وحى من عند الله:

«الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون» (١ – ٥)

والآيات تذكر ستا من صفات المؤمنين:

١ – الإيمان بالغيب.

٢ – إقامة الصلاة.

٣ – التصدق بجزء من رزق الله الذى آتاهم.

٤ – الإيمان بأن القرآن وحى من عند الله.

٥ – الإيمان بالكتب السماوية السابقة.

٦ – الإيمان بالآخرة.

وقد سبق التنويه عن أن الإيمان بالكتب السماوية السابقة من شروط الإسلام فقد جاء فى سورة الشورى (آية ١٥ ص ٣١٣) **«وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب»** وفى سورة العنكبوت (آية ٤٦ ص ٤٠٤) **«وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون»** وجاءت الآيات الحالية من سورة البقرة لتعيد التأكيد على هذا الشرط من شروط الإيمان الصحيح. ولعل ذلك كان يهدف إلي منع المسلمين من الدخول مع اليهود فى جدال حول العقيدة ومناقشات قد تؤدى إلى خصام وقطيعة وكان الاسلام حريصا على حسن الجوار مع اليهود.

التنديد بكفر الكفار:

«إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم» (٦ – ٧).

والآيات تقرر أن الكفار – أيًا كانوا – من قريش أو كفار المدينة أو كفار القبائل المجاورة. قد تمكن الكفر من قلوبهم كأن قلوبهم قد ملئت كفرا وخُتم عليها. فلا يدخلها غير ما فيها. وكأن أسماعهم مختوم عليها كذلك فلا تسمع دعوة الإيمان. وكأن أبصارهم قد غشيتها غشاوة فهى لا تبصر آيات الله الدالة على قدرته واستحقاقه وحده للعبادة – فلن يؤمنوا مهما أكثر النبى من دعوتهم ولهم عذاب عظيم.

عن المنافقين:

ثم تطرقت الآيات للمنافقين – لأول مرة في القرآن الكريم – وإن لم يذكروا بهذا الإسم ولكنهم وُصفوا بأنهم آمنوا بألسنتهم وقلوبهم غير مؤمنة بقصد خداع المؤمنين وهذا هو النفاق. وتذكر الآيات أنهم يخدعون المؤمنين ويظنون أنهم أيضا يخدعون الله إذ يتوهمون أنه غير مطلع على ما فى قلوبهم وهم فى الحقيقة يخدعون أنفسهم وقلوبهم فيها حقد ومرض وزادهم الله ضلالا ولهم عذاب أليم لتكذيبهم وجحودهم.

« ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وماهم بمؤمنين. يُخادعون الله والذين آمنوا وما يَخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون» (٨ – ١٠).

واستمرارا لموضوع المنافقين تذكر الآيات بعض أقوال المنافقين وردودهم على من ينصحهم بانتهاج الطريق القويم:

١ – **«وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»** (١١ – ١٢).

وإفسادهم فى الأرض كان بصدّهم عن سبيل الله ونشر الفتنة وإيقاد الضغائن.

٢ – **«وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء. ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون»** (١٢).

٣ – **«وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون»** (١٤ – ١٥).

فهؤلاء الذين يظهرون الإيمان ويضمرون الكفر هم المنافقون. وقال معظم المفسرين إن كلمة «شياطينهم» مصروفة إلى اليهود. وآخرون قالوا هم رؤساء الكفر. والحقيقة أن الاثنين كانا دائما حليفين ضد الدعوة الإسلامية. وأن اليهود كانوا يوسوسون – كما تفعل الشياطين – للمنافقين ويوجهونهم إلى طرق الكيد والمكر والتشكيك. وهكذا وجد اليهود فى الطبقة المريضة القلب من منافقى المدينة مجالا لدسائسهم فحالفوهم.

ثم تستمر الآيات تضرب الأمثال للمنافقين:

١ – تُمثلهم أولا بتاجر اشترى بضاعة فاسدة وبالطبع لن يربح:

«أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين» (١٦).

٢ – وتضرب لهم مثالا ثانيا:

«مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يُبصرون. صم بكم عمى فهم لا يرجعون» (١٧ – ١٨).

والآيات تمثل المنافقين بحال من أوقد نارًا فى الظلمة. فلم تكد تضيء ما حوله حتى أطفأها الله فعاد إلى الظلمات لا يبصر شيئاً. والظلمات هى الكفر. وقد قدّم الله لهم أسباب الهداية فلم يهتدوا فكان عدلا أن يبقوا فى الضلال.

٣ – وتضرب مثالا ثالثا:

«أو كصيب (المطر الشديد) **من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا** (بمعنى توقفوا عن السير) **ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير»** (١٩ – ٢٠).

والآيات تمثلهم بمن يسير فى ليلة شديدة المطر والرعد والبرق. قد اكتنفته الظلمات وملأه الخوف من الصواعق. وآلمه صوت الرعد العالى فى أذنيه حتى إنه يسدها بأصابعه حتى لا يموت من شدة الصوت. ويتخطَّف البرق عيونه. فإذا لمع البرق وأضاء ما حوله سار قليلا غير أن البرق لا يلبث أن ينطفىء ويعمّ الظلام فيقف حائرا. ولو شاء الله لأخذ سمعهم وأبصاهم

فهو القادر على كل شئ. والآيات قوية ورائعة فى تمثيلها وتنديدها. كما تقرر أن ما أنزل على النبى هو نور يهتدى به الناس ولكن المنافقين عَمُوا عنه ونافقوا فكأن نورهم قد انطفأ. ويرى بعض العلماء المعاصرين فى الآيات إعجازا علميا إذ ثبت أن ذبذبات الصوت شديدة القوة قد تسبب الوفاة نتيجة توقف مفاجئ فى القلب أو نزيف فى المخ. أو على الأقل تدمر الأذن الداخلية فتذهب بالسمع وينتج الصمم.

بعض مظاهر قدرة الله فى الكون:

«يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون» (٢١ - ٢٢).

والخطاب موجه أساساً إلى كفار المدينة والمنافقين وإن كان لفت النظر إلى آيات الله في الكون يشمل أيضا المسلمين ولذلك عُمِّمَ الخطاب واستُعمل لفظ **«ياأيها الناس»** للدلالة على هذا التعميم. والآيات تهيب بالناس أن يعبدوا الله المستحق وحده للعبادة فهو الذى خلقهم وخلق من قبلهم. وهو الذى جعل لهم الأرض مبسوطة مُمهَّدة مُيسَّرة للإقامة. وبنى السماء فوقها وأنزل المطر فأخرج به الزرع رزقا للعباد. ثم تنهاهم عن اتخاذ شركاء مع الله.

استحالة محاكاة القرآن:

«وإن كنتم فى ريب مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم (أى شركاءكم) **من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أُعِدت للكافرين»** (٢٣ - ٢٤).

والآيات تتحدى الكفار والمنافقين إن كانوا يشكون فى أن القرآن وحي من عند الله ويعتقدون أنه من وضع «محمد» فليأتوا بسورة مثل سُوَرِه وليستعينوا بمن يريدون من الشركاء. وهم لن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك وعليهم أن يؤمنوا ليتقوا عذاب النار التى أعدها الله للكافرين. وهذه ثانى مرة يقرر فيها الوحي عجز الناس عن محاكاة القرآن الكريم. فقد سبق أن قررت الآية ٨٨ من سورة الإسراء (ص ٢٢٠) **«قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»**. وآية سورة الإسراء تقرر العجز عن الإتيان بمثل القرآن. أما الآية الحالية من سورة البقرة فهي تقرر العجز عن محاكاة سورة واحدة!

ثواب المؤمنين:

وفى مقابل ما ذكر فى الآية السابقة عن نار أعدت للكافرين تذكر الآيات ثواب المؤمنين:

«وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار. كلما رُزقوا

منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رُزقنا من قبل وأُتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون» (٢٥).

ووُصف ثمر الجنة بأنه فى الشكل يشبه ما كان من ثمر عهدوه فى الدنيا إلا أنه يفوقه كثيرا فى الطعم واللذة. ومن وسائل التنعيم فى الآخرة أن يكون لهم زوجات طاهرة مطهرة. وهم خالدون فى الجنة ونعيمها.

ضرب المثل بالبعوضة:

«إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا. يُضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون. كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجعون. هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم» (٢٦ – ٢٩).

قيل إن اليهود لما سمعوا قوله تعالى فى سورة العنكبوت (آية ٤١ ص ٤٠٤) **«مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت»** قالوا إن الله تعالى أعزّ وأعظم من أن يضرب المثل بهذه المُحقَّرات. فرد الله تعالى بهذه الآية وفيها تقرير بأن الله لا يَرِد فى حقه الحياء من ضرب الأمثال فى القرآن مهما بدا أنها تافهة كبعوضة أو ما أكبر. والمؤمنون يعلمون وجه التمثيل وأنه الحق من الله. أما الكافرون فيتمحَّلون ويتساءلون – تساؤل المستخف المستهين – عن مراد الله منها. وإن الله ليهدى بالأمثال كثيرين ويضل كثيرين أيضا غير أن الذين يضلون بها هم الفاسقون سيئو النية وخبثاء الطوية الذين من صفاتهم نقض عهد الله وقطع ما أمر الله به أن يوصل من رحم وغيره وينشرون الفساد فى الأرض. ثم تساؤل يندد بالكفار وجرأتهم على الكفر بالله وهو الذى خلقهم ابتداء من لا شيء فكأنهم كانوا أمواتا فأحياهم. ثم يميتهم ثم يحييهم ثانية يوم القيامة ليرجع الناس إلى الله للحساب. كما أن الله هو الذى خلق ما فى الأرض جميعا. وكذلك خلق السموات السبع وهو عليم بكل شيء.

ولعل المراد من ذكر نقض العهود فى هذه الآية هو تحذير اليهود من نقض العهد الذى قطعه النبى معهم. وتنبيههم إلى أن الفاسقين هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه.

قصة خلق آدم:

وقد جاءت قصة آدم فى سور كثيرة سابقة مثل سورة ص (الآيات ٧١ – ٧٦) والأعراف (الآيات ١١ – ٢٥). وطه (١١٥ – ١٢٤) والإسراء (٦١ – ٦٢) والحجر (٢٦ – ٣٦) وذكرت هنا فى سورة البقرة مطوَّلة بعض الشيى فى الآيات ٣٠ – ٣٩ فتذكر رفض إبليس السجود

لآدم ومن ثَم وضحت عداوته. وبالرغم من ذلك استجاب آدم لوسوسته وعصى أمر ربه بعدم الأكل من الشجرة فكان نزوله إلى الأرض ليعمل ويشقى . وتاب الله على آدم، واستمرت وسوسة إبليس لبنى آدم ليحيدوا عن طريق الله المستقيم. ومن رحمة الله ببنى آدم أنه أرسل لهم رسلا يهدونهم فمن اتبع رسله وهُداه فهؤلاء فى رحمة الله فلا خوف عليهم. أما من كفر فله عذاب النار خالدا فيها:

«قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تَبِعَ هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» (٣٨ – ٣٩).

وقد يكون إيراد قصة آدم هنا هو لبيان الضعف الذى جبل عليه بنو آدم – وقدرة الشيطان على الوسوسة لهم وإضلالهم – كتمهيد لما بعد ذلك من آيات تدعو بنى إسرائيل إلى الإسلام.

عن بني إسرائيل القدامي ويهود المدينة :

وهى سلسلة طويلة من الفقرات مكونة من ٨٤ آية احتوت على ١٨ نقطة.

١ – دعوة بنى إسرائيل إلى الإسلام:

لاشك أن النبى بعد مقدمه المدينة وتوقيع العهد مع اليهود دعاهم إلى الإسلام فأسلم بعض الأفراد ولكن غالبيتهم رفضوا وحاولوا تشكيك الناس في مصداقية النبي مع يقينهم بصدق نبوته وتطابق أسس رسالته مع ما عندهم من كتاب. ثم تحالفوا مع المنافقين واستغلوا حركة النفاق استغلالا كبيرا. من هنا وجهت السورة الكلام إلى بنى إسرائيل تُذكرهم بنعم الله عليهم وتدعوهم إلى الإسلام فتقول:

«يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتِيَ التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون. ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين. أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون. واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين. الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون. يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتِيَ التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين. واتقوا يوما لا تَجزى نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها شفاعة ولا يُؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون» (٤٠ – ٤٨).

والآيات فيها:

١ – تذكير بأفضال الله على آبائهم فهى نِعَم عمَّت آثارها عليهم وواجب عليهم شكرها.

٢ – إهابة باليهود للوفاء بالعهد الذي عاهدهم به النبى باسم الله. حتى يفى الله بوعده بحسن الثواب.

٣ – دعوة إلى الإيمان بما أنزل على النبى وهو يصدّق كثيرا مما فى التوراة وأن لا يكونوا أول من يكفر به وألا يصرفهم متاع الدنيا الزائل عن الإيمان بالنبى فكأنهم يشترون القليل بالكثير.

٤ – عدم خلط الحق بالباطل وكتمان ما يعرفونه من أن محمدا هو النبى المنتظر.

٥ – دعوة إلى الإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

٦ – تنديد بما يفعلون إذ يأمرون الناس بفعل الخيرات فى حين أنهم لا يفعلونها.

٧ – حث لهم على الاستعانة على أداء التكاليف بالصبر والصلاة التى يجدها غير المتقين ثقيلة فى حين أن الخاشعين لله والمؤمنين بالبعث لا يجدونها كذلك.

٢ – بعض نِعَم الله على بنى إسرائيل:

ثم تستمر الآيات فى سرد نعم الله على بنى إسرائيل القدماء واستعمل ضمير المخاطب فى الكلام مما يفيد قوة الربط بين اليهود القدماء واليهود الحاليين وتشابه المواقف وهو أسلوب مألوف وخاصة فى صدد التنديد بأفعال الأبناء المكروهة إذا كانت من نفس ما فعل الآباء والجدود:

١ – **«وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم»** (٤٩).

٢ – **«وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون»** (٥٠).

٣ – **«وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون»** (٥١ – ٥٢).

٤ – **«وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون»** (٥٣).

٥ – **«وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم»** (٥٤).

٦ – **«وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون»** (٥٥ – ٥٦).

٧ – **«وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى، كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»** (٥٧).

٨ – **«وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة** (أعلنوا التواضع والخضوع لله) **نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين. فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون»** (٥٨ – ٥٩).

٩ - **«وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم. كلوا** (من المن والسلوى) **واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين»** (٦٠).

١٠- **«وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد** (من المن والسلوى) **فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير. اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم وضُربت عليهم الذلة والمسكنة وباءو بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»** (٦١).

وصيغة الآيات تدل على أن ما جاء بها من أمور ووقائع كانت معروفة عند اليهود ومتداولة فيما بينهم. وورد ذكرها في التوراة. متطابقا أحيانا مع ما ذُكر فى القرآن الكريم ومختلفا حينا آخر فصححه القرآن. وبعض ما جاء فى هذه الآيات سبق ذكره فى القرآن المكى: فى سورة الأعراف (الآيات ١٠٣ - ١٧٤) وفى سورة طه (الآيات ٩ - ١٠١ص ١٥٨) وفى سورة القصص الآيات ٣ - ٢٨ ص ١٨٦). مع اختلاف الأسلوب. حيث وردت فى السور المكية بأسلوب قصصى قُصد به إغناء أهل مكة وما حولها من الأعراب عن قراءة قصص التوراة كما قصد به تصحيح بعض المعلومات التى وردت فى التوراة محرَّفة فأورد القرآن الكريم صحتها. أما هنا - فى سورة البقرة - فقد جاءت القصة بأسلوب تقريعى يندد بما فعله بنو إسرائيل فى الماضى من انحرافات وآثام ومكابرة وجحود وكفر وفى ذلك تعليل لما حلَّ بهم من عذاب وذلة وتشتت فى الأرض وفى ذلك تنبيه لليهود الحاليين بعدم تكرار أخطاء الماضى. كما فيه إهابة بالمسلمين بتجنب ما ارتكبه اليهود من أخطاء بتعنتهم فى الطلب من نبيهم ومخالفة أوامر ربهم.

ثم تمضى الآيات تقول:

«إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (٦٢).

والآية تنبه على أن مَن أحسَن مِن الأمم السابقة وأطاع فله جزاء الحسنى. وهو إعلان للجميع بأن باب التوبة مفتوح لكل من آمن بالله واليوم الآخر من أتباع الديانات السابقة.

ثم تعود الآيات مُخَاطِبَة يهود المدينة تُذكِّرهم وتندد بما فعله الأجداد من جحود لنعم الله عليهم وأن من رحمة الله بهم أنه لم يجازهم بما جازى به أمما سابقة أُهلكت. ولم يجازهم أيضا بما جازى به بعض أجدادهم الذين لم يراعوا حرمة يوم السبت فمسخهم الله قردة. وفى هذا تحذير ليهود المدينة من عقاب قد ينزل بهم وليس بالضرورة أن يكون من نفس ما ذكر ولكنه قد يكون فى شكل آخر.

ب - «وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون. ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين. ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين. فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين» (٦٣ - ٦٦).

٣ - قصة البقرة:

ثم تذكر الآيات من ٦٧ - ٧٤ قصة البقرة وقد شرحناها بالتفصيل فى الجزء الرابع (ص ١٦٤) وركز السرد القرآنى على ما دأب عليه اليهود منذ القدم من لجاج وجدال فى كل ما كانوا يؤمرون به وعدم اتعاظهم بما حباهم الله به من نعم وآيات. وتُصوِّر أروع تصوير ما طبعوا عليه من قسوة قلب. وفى ذلك ما فيه من تحذير لليهود المخاطبين لعدم تكرار أخطاء جدودهم وتنتهى القصة بتحذير أخير من قسوة قلوبهم وتجرئهم على أوامر ربهم:

«ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة. وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقّق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون» (٧٤).

٤ - ضعف الأمل فى إسلام اليهود:

تبدأ هذه الفقرة بسؤال موجّه إلى النبى والمسلمين يفيد أن طمعهم فى إسلام اليهود فى غير محله:

«أفتطمعون أن يؤمنوا لكم»

ثم راحت الآيات تُعدِّد أفعال وأقوال اليهود ومواقفهم للبرهنة على ضعف الأمل أو فقدانه فى إيمانهم:

أ - **«وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرِّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون»** (٧٥).

وهذا الفريق هم الأحبار الذين كانوا يقرأون كلام الله الوارد فى التوراة ويعلمون منه أن «محمدا» هو النبى المنتظر فحرفّوه حتى ينفوا عنه النبوة.

ب - **«وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. أوَلاَ يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون»** (٧٦ - ٧٧).

وهؤلاء هم المنافقون من اليهود يظهرون إيمانا ولكنهم فى مجالسهم الخاصة يُحذِّر بعضهم بعضا من ذكر أوصاف النبى التى فتح الله عليهم وأكرمهم بإنزالها فى التوراة - حتى لا يكون ذلك حجة عليهم عند الله لعدم إيمانهم. ثم تساؤل يتعجب من ظنهم أن الله فى حاجة إلى مثل هذه الحجة. لأنه يعلم ما يخفون وما يظهرون.

جـ - **«ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانىَّ وإن هم إلا يظنون. فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون»** (٧٨ - ٧٩).

فمن اليهود أميون جاهلون لا يعرفون عن التوراة إلا أكاذيب لفقها لهم أحبارهم لتتفق مع أمانيهم وأغراضهم وأخبروهم أنها حقائق من الكتاب. وتنذر الآيات هؤلاء الأحبار بالويل والهلاك لأنهم يكتبون كتبا بأيديهم ثم يدَّعون أن هذه هي التوراة التى جاءت من عند الله ليصلوا إلى عرض تافه من أعراض الدنيا وهم بهذا قد باعوا الحقيقة بثمن تافه فويل لهم لما تقوَّلوه على الله وويل لهم مما كسبوا.

د - **«وقالوا لن تمسَّنا النار إلا أياما معدودة. قل أتَّخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون. بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئة** (أى استولت عليه فمات مشركا) **فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون»** (٨٠ - ٨٢).

والآيات تشير إلى ما كان يروِّجه الأحبار من أن اليهود هم شعب الله المختار وأن النار لن تمسَّ يهوديا مهما ارتكب من المعاصى إلا أياما معدودة. وتنفى الآيات هذا الزعم بسؤال استنكاري عما إذا كانوا قد أخذوا من الله عهدا بذلك أم أن هذا افتراء على الله. ثم تقرر الآيات أن حكم الله نافذ فى جميع خلقه فمن ارتكب خطيئة وأحاطت به سيئاته حتى سدَّت عليه منافذ الخلاص فهؤلاء مآلهم إلى النار خالدين فيها. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهؤلاء مآلهم إلى الجنة خالدين فيها أبدا.

٥ - نقض اليهود لعهدهم مع الله:

«وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حُسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون» (٨٣).

والآيات تقرر أن الله أخذ العهد على بنى إسرائيل الأقدمين ألا يعبدوا إلا الله والالتزام بالأخلاق الحميدة من بر الوالدين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. ولكنهم - ما عدا فئة قليلة - نقضوا عهد الله ولم يلتزموا به. وفى هذا تحذير لليهود من نقض العهود التى التزموا بها. وتنبيه المسلمين إلى عادة بنى إسرائيل فى نقض العهد.

٦ - تحزُّب اليهود وظلم بعضهم لبعض:

ثم تمضى الآيات تبين تحزب اليهود ووقوف بعضهم مع بعض القوى الأجنبية ضد إخوانهم بالرغم من أن الله قد أخذ عليهم العهد بالتضامن فلا يقتل بعضهم بعضاً ولا يظاهر أحد منهم

الغرباء. فتفضلوا العهد فأصبح هناك حزب هيلينسى - وهم الصدوقيون - يقف مع الإغريق والرومان ضد الفريسيين (انظر جـ ٥ ص ٤٩). وسفك بعضهم دم بعض وأجلى بعضهم بعضا عن أرضه وساعد الرومان وغيرهم على أسر إخوانهم. ثم كانوا يدفعون فدية الأسرى ليحرروهم حسب الشريعة الموسوية فكأنهم يؤمنون ببعض تعاليم شريعتهم ويكفرون بالبعض الآخر مع أن من يفعل ذلك يستحق الخزى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة له عذاب شديد لأنهم قد اشتروا دنياهم بآخرتهم.

«وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض. فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون. أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون». (٨٤ - ٨٦).

ويرى بعض المفسرين أن التنديد قصد به يهود بنى النضير وبنى قينقاع الذين كانوا حلفاء للخزرج فى حين كان يهود بنى قريظة حلفاء للأوس وكانت الحروب بين الأوس والخزرج تجر إلى حروب بين اليهود حلفاء كل فريق فيقتل بعضهم بعضا أو يأسره. ثم كانوا عندما تعقد الهدنة يسارعون فى فداء الأسرى لتحريرهم حسب الشريعة الموسوية. إلا أن هذا التفسير مستبعد لأن اليهود كانوا حريصين على إثارة الحروب بين الأوس والخزرج فلا يعقل أن ينزلقوا فيكتووا هم بنارها. وكما سبق أن ذكرنا أنه تنديد بما فعل الأجداد صيغ فى صورة خطاب للأبناء.

٧- التنديد بمخالفة اليهود الرسل:

«ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس. أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون. وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون. ولما جاءهم كتاب من عند الله (هو القرآن) مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون (أى يستنصرون) على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءو بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين» (٨٧ - ٩٠).

والآيات تندد بما فعله بنو إسرائيل القدامى إذ أرسل الله إليهم رسلا كثيرين وكلما جاءهم رسول لا يجاريهم فى أهوائهم استكبروا وكذبوه وقتلوا بعضهم ثم تندد باليهود المعاصرين للنبى إذ لما تلى عليهم آيات القرآن قالوا قلوبنا مغلفة أى محصنة ضد الإيمان أو مملوءة عن

آخرها فلا محل لنفاذ دعوة أخرى لداخلها. والحقيقة أنهم كفروا بما أنزل الله. كذلك فإن اليهود كانوا يفخرون على العرب بما عندهم من كتاب سماوى وبما هم عليه من ديانه سماوية وكانوا يقولون للعرب حينما يشتد الخلاف بينهم إنه سوف يبعث قريبا نبى صفاته مذكورة عندهم وأنهم سيتبعونه ويقتلونهم به قتل عاد وإرم. ويروى عن عباس قوله: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فكلما التقوا هُزمت يهود فعادت بهذا الدعاء «اللهم إنا نسألك بحق محمد النبى الأمى الذى وعدت أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم» فانتصروا (تفسير الجلالين . ص ١٣). فلما جاءهم النبى الذى عرفوا صفاته كفروا به جريا وراء عرض كاذب من عرض الدنيا فاشتروا الكفر بالإيمان حسدا وسخطا لأن النبى لم يكن من اليهود بل كانت مشيئة الله أن يُبعث فى أمة العرب.

ثم تمضى الآيات تندد بمسلكهم وتذكّرهم بضلال آبائهم:

«وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقًا لما معهم. قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين. ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور. خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم. قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين. قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنّوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين. ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا، يودّ أحدهم لو يُعمَّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر. والله بصير بما يعملون» (٩١ - ٩٦).

وكان اليهود كلما دعاهم النبى إلى الإسلام قالوا نكتفى بما أنزل علينا ولسنا فى حاجة إلى غيره مع أن ما جاء به النبى مطابق ومصدّق لما معهم والمنطق يقضى بالإيمان به لأنه صادر من نفس المصدر. ثم تفسر الآيات سبب تصرفهم هذا: فالانحراف طبعهم فقد جاءهم أنبياء فقتلوهم. ومن قبلهم جاءهم موسى بالمعجزات ولكنهم ما لبثوا أن عبدوا العجل وأخذ الله عليهم العهد والميثاق على أن يتمسكوا بما أنزل الله إليهم بكل قوة ولكنهم قالوا بأفواههم سمعنا ولكن أفعالهم كانت كمن يقول عصينا. لأن عبادة العجل - وبمعنى أوسع الكفر - قد تمكن من قلوبهم. وتندد الآيات بموقفهم هذا. وإن كان هذا فى نظرهم هو الإيمان فبئس الإيمان هو. ثم يذكر القرآن الكريم ما كانوا يقولونه من أن الدار الآخرة ونعيمها وقف عليهم ويتحداهم إذا كان الأمر كذلك فليتمنوا الموت ليصيروا إلى هذا النعيم ولكنهم لن يفعلوا ذلك أبداً لأنهم يعرفون ما اقترفوه من ذنوب وسيكونون حريصين على الحياة بل يفوقون المشركين فى حرصهم على الحياة حتى إن الواحد منهم يتمنّى أن يعيش ألف سنة ولكن حتى لو عمّر مثل هذا العمر فلن ينجيه ذلك من العذاب.

٨ - عداوة اليهود لبعض الملائكة:

وقد روى المفسرون أن فريقا من اليهود سأل النبى عمن ينزل عليه بالوحى فقال جبريل.

فقالوا إنه عدوهم وأنه ينزل بالخسف والشدة وأنه حال دون قتل بختنصر (نبوخذنصر) فكان أن خرب هيكل أورشليم. ولو كان غيره الذى يأتى بالوحى لتابعوه. ويقال أيضا إن محاورة جرت بين بعض اليهود وبين عمر بن الخطاب قالوا فيها إن جبريل ينزل بالدمار والخسف ولذلك فهو عدوهم فى حين أن ميكال ينزل بالخصب والسلام. وأن الأول يقف على يمين العرش والثانى يقف عن يساره وأحدهما عدو للآخر. فنقل عمر كلامهم إلى النبى فنزلت الآيات تقرر أن من كان عدوا لجبريل ومن كان عدوا لله وملائكته ورسله فهو كافر والله عدو له:

«قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله (أى القرآن) **على قلبك بإذن الله مصدقًا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين. من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين»** (٩٧ – ٩٨).

ولعل عداوة اليهود لجبريل ترجع أيضا إلى ما ذكرناه فى الجزء الخامس (ص ٢٧٨) من تمكن النبى اليسع (إليشع) من الإيقاع بالجنود الأراميين حتى قادهم إلى السامرة عاصمة إسرائيل الشمالية وأصبحوا فريسه سهلة لجنود إسرائيل ولكن اليسع منع الملك من قتلهم وأشار بإطلاق سراحهم ففعل. وحدث في العام التالى أن بنهدد ملك أرام حاصر السامرة. وصب ملك إسرائيل جام غضبه على إليشع لأنه أشار بإطلاق سراح الجنود الأراميين الذين كانوا فى متناول يده فكانوا قوة للعدو فى حصارهم. ولما كان اليسع لا يتكلم إلا بوحى من جبريل فإن غضب اليهود على اليسع انسحب على جبريل واعتبروه عدوا لهم. مع أن الله – بمعجزة منه – قد جعل العدو يفك الحصار ويغنم بنو إسرائيل كل ما كان فى معسكره من زاد.

٩ – التنديد بنقض اليهود لعهودهم وتكذيبهم النبى:

«ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون. أوَ كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون. ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتابَ الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون» (٩٩ – ١٠١).

وفى الآيات تقرير بأن ما أنزل إلى النبى هى آيات واضحة لا يكفر بمثلها إلا المعاندون الفاسقون. ثم يأتى استنكار لما كانوا يفعلونه من نقضهم ما كانوا يبرمونه من عهود لأن معظمهم لا يؤمن بحرمة عهد مع غير اليهود. ولما جاءهم النبى الذى كانوا ينتظرون مبعثه أنكر فريق منهم ما ذكر فى التوراة عن النبى وأداروا له ظهورهم كأنهم لا يعلمون صفاته وحقيقته.

١٠ – اتهام اليهود لسليمان بالسحر:

وقد اتهم اليهودُ سليمانَ بالسحر كما اتهموه بالكفر وأنه اتبع ديانات بعض زوجاته الصيدونيات اللاتى كن يعبدن «البعل». وتنفى الآيات هذا الاتهام عن سليمان. وهذا ما

شرحناه بالتفصيل فى الجزء الخامس (ص ١٨٨) ثم تنص الآيات على أن نوعا من السحر قد أنزل على الملكين هاروت وماروت ببابل ولكنهما كانا يحذران الذين يريدون تعلم السحر أنهما أنزلا فتنة للناس قد تؤدى بهم إلى الكفر. وبالرغم من ذلك فإن الناس راحوا يتعلمون منهما من أعمال السحر ما يفرقون به بين الرجل وزوجته فكان هذا التعلم ضررا لهم لأنهم ظنوا أنهم به قد اكتسبوا قوة وسلطانا على غيرهم فازدادوا طغيانا وكفرا فكأنهم باعوا آخرتهم وباعوا أنفسهم بثمن زهيد:

«واتبعوا ما تتلوا الشياطين على مُلك سليمانَ وما كفر سليمانُ ولكن الشياطين كفروا يُعلمون الناس السحر وما أُنزلَ على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لَمَن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون.» (١٠٢ - ١٠٣).

١١ - اليهود يحرفون كلام المسلمين للنبى:

«يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم» (١٠٤).

وكان الأنصار - إذا أرادوا لفت نظر النبى إليهم يقولون: محمد: راعنا, من المراعاة كما نقول فى أيامنا هذه «راعيني» ولكن اليهود كانوا يقولونها مع حذف المد فتصبح: محمد رعن أي أرعن اشتقاق من الرعونة وهو نوع من السباب. فكانوا حينما يسمعون المسلمين يخاطبون النبى به يكررونه ويضحكون فيما بينهم. وروى أن سعد بن عبادة لما سمعه منهم وعرف مقصدهم قال لهم: يا أعداء الله عليكم لعنة الله والله لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبى لأضربنَّ عنقه. فقالوا: أولستم تقولونها. فنزلت الآية تنهى المسلمين عن قولها سدا للباب وقطعا للألسنة.

١٢ - تحذير المسلمين مما يُثيره اليهود من شكوك حول النبى:

كان اليهود يغمزون النبى ويثيرون الشك فى نفوس المسلمين بقولهم إنه يأمر بالشيء ثم ينهي عنه ويأتى بحكم ثم ينسخه وإن هذا ليس شأن الأنبياء. فنزلت الآية تنبه المسلمين إلى أن أهل الكتاب والمشركين يريدون ضررهم وترد على ما أثاروه من شبهة بتقرير أن الله أن ينسخ آية بآية أو يبدل حكما بحكم أو يُنسى النبى آية كتمهيد لنسخها ورفعها وله مطلق الحرية والمشيئة فله ملك السموات والأرض وهو على كل شيء قدير:

«ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم. ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها. ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير. ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير» (١٠٥ - ١٠٧).

١٣ - نهي المسلمين عن محاكاة مسلك اليهود مع نبيهم موسى:

«أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئل موسى من قبل، ومن يتبدَّل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل. ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله. إن الله بما تعملون بصير» (١٠٨ - ١١٠).

وفي سبب نزول هذه الآيات يُروى أن واحداً من المسلمين قال: يا رسول الله لو أن كفاراتنا ككفارات بني إسرائيل. فقال النبي: اللهم لا نبغيها، ما أعطاكم الله خير مما أعطاهم. كان إذا فعل أحدهم الخطيئة ولم يكفرها (بقربان على حسب عِظَم الخطيئة) كانت له خزيا في الآخرة وقد أعطاكم الله: **«من يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما»** وإن الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر. ومن المعروف أن بني إسرائيل كانوا كثيري الأسئلة والطلبات. فنُهي المسلمون عن التشبه بهم وخاصة أن كثيرا من هذه الأسئلة كان اليهود هم الذين يقترحونها بقصد التشكيك وهو أول الطريق إلى الكفر. ولذلك قيل: **«ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل. ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً»**.

١٤ - اليهود والنصارى يتنازعون الجنة!

كان في المدينة بعض العرب الذين اعتنقوا النصرانية فكانوا يقولون هم واليهود إن الجنة وقف عليهم - أي على اليهود والنصارى - وفي موقف آخر يعادي بعضهم بعضا ويقول أحدهم إن الآخر ليس على حق. وينساق المشركون من العرب «الذين لا يعلمون» وراء أقوالهم ولكن الله سيحكم بينهم يوم القيامة.

«وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» (١١١ - ١١٣).

حكم الصد عن المساجد:

«ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم

أن يدخلوها إلا خائفين لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم. ولله المشرق والمغرب فأينما تُولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم» (١١٤ – ١١٥).

وقد أورد المفسرون أقوالا كثيرة بصدد ما عنته هذه الآية. قالوا إنها تندد بملك بابل الذى هدم معبد أورشليم أو تندد بأهل قريش إذ منعوا النبى والمسلمين من المسجد الحرام يوم الحديبية. ولكن هدم معبد القدس كان منذ ١٢ قرنا من الزمان. ويوم الحديبية جاء بعد ٤ سنوات من نزول هذه الآية. لذلك نُرجِّح أنها آية عامة تنهى عن الصد عن المساجد أو تخريبها أو منع روادها من دخولها. وحتى لو حدث هذا فالأرض كلها مشرقها ومغربها لله والصلاة فى أى بقعة منها جائزة وكما جاء فى الحديث الشريف «وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا».

١٥ – نفى الولد عن الله:

وتمضى الآيات تندد بمن قالوا إن لله ولدا. فالنصارى قالوا إن المسيح ابن الله واليهود قالوا عزير ابن الله والمشركون قالوا الملائكة بنات الله. والآيات تنزه الله «سبحانه» عن ذلك. فله كل ما فى السموات والأرض. وهو الذى خلق السموات والأرض ولا يستعصى عليه شىء فإذا أراد شيئا قال له كن فيكون.

«وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون. بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون» (١١٦ – ١١٧).

١٦ – التعنت فى المطالب:

«وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون. إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم» (١١٨ – ١١٩).

والآيات تندد بطلب بعض كفار قريش فى تحدى أن يكلمهم الله أو ينزل عليهم معجزة وهم فى هذا يشابهون بعض من سبقوهم من الكافرين. وآيات الله – فى الكون – واضحة لمن يريد أن يهتدى. ثم تنبيه إلى أن مهمة الرسول هى تبشير المؤمنين وإنذار الكافرين وأنه غير مسئول عمَّن لم يؤمن وأصبح من أصحاب الجحيم.

١٧ – موقف اليهود من الدعوة الإسلامية:

يحق لنا أن نتصدى لهذا الموضوع بشىء من التفصيل حتى نتفهم السبب الذى من أجله أنزلت آيات كثيرة تخاطب بنى إسرائيل:

كان ظن اليهود أن النبى – وقد وصفه القرآن بأنه مصدِّق لما معهم – أن ينضم هو إليهم بوصفه نبيا من أنبيائهم. أو على الأقل يجعلهم النبى خارج نطاق دعوته معتبرين أنفسهم

أهدى من أن تشملهم دعوته أو أن دياناتهم مساوية وموازية لدعوته. وهم إذ يسمعوا قوله تعالى في سورة الأنعام (آية ٨٩ - ٩٠ ص ٢٦٣) = **«أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة. فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين. أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده»** فظنوا أنهم هم المقصودون بذلك، وأنهم على هدى وأن النبى أُمر باتباعهم. وكذلك قوله تعالى فى سورة السجدة (آية ٢٣ ص ٣٧٩): **«ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون»** فظنوا أنهم على الهدى. وكذلك قوله تعالى فى سورة الجاثية (آية ١٦ ص ٣٢٥) **«ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين. وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم».**

وهكذا ظنوا أنهم أوتوا العلم وأنهم على حق ونسوا أنهم قد اختلفوا فلم يعد الكتاب الذى بين أيديهم هو نفسه الكتاب الذى أنزل على موسى. بل أصابه تحريف كثير أفقده التوحيد الخالص والمحتوى الإيمانى. وخاب ظن اليهود كذلك إذ رأوا النبى يدعوهم من جملة من يدعو إلى الاسلام. وتختصُّهم الآيات أحيانا بالدعوة وتندد بهم لعدم إسراعهم إلى الاستجابة والإيمان فالآية ٤٠ - ٤١ من سورة البقرة (ص ٤٤٦) تدعوهم صراحة إلى الإيمان: **«يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون».** والعهد المذكور فى الآية والذى أقروه على أنفسهم هو الإيمان والتصديق، بمن يجئ بعد موسى من الأنبياء، ولما كان هذا لا يتفق مع أهوائهم تنكروا لدعوة النبى ووقفوا منه موقف العداء وتحالفوا مع أعدائه. ثم إنهم رأوا الناس تنصرف عنهم. فقد كان العرب - قبل الإسلام - كثيرا ما يحتكمون إلى اليهود بصفتهم أهل كتاب وأعلم منهم، ولكنهم بدأوا الآن يتخذون النبى مرجعهم ومرشدهم وقائدهم المطاع. فاستشعر اليهود بالخطر يحدق بمركزهم المتميز فى العرب فاندفعوا فى خطة التآمر على النبى والتحالف مع المنافقين ثم مع مشركى قريش والكفار من القبائل المحيطة.

أما من جهة النبى فقد كان ظنه أن يجد فى اليهود سندا وعضدا وأن يكونوا أول من يؤمن به ويصدقه ويلتف حوله لما بين دعوته وأسس دياناتهم من وحدة ولما نصَّ عليه القرآن من أنه مصدق لما معهم ولما رآه من حسن استجابة بعض أحبارهم مثل عبدالله بن سلام (ص ٤٢٦). ولكن الغالبية العظمى من اليهود ظلت منكرة له وتؤلب عليه. وكان تركيزهم على فريق المنافقين يغذُّونهم بالجدل المشكك فى الدين وهدفهم صرف الناس عنه.

١٨ - تحذير من مسايرة أهل الكتاب:

«ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن

اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولىّ ولا نصير. الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون. يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين. واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم يُنصرون» (١٢٠ – ١٢٣).

فالآيات تفضح موقف اليهود والنصارى وإن كان المقصود أساسا هم اليهود لأن النصارى كانوا قلة لا تكاد تذكر. والآيات تنبه إلى أن اليهود يريدون استمالة النبى إليهم حتى يتبع دينهم. وقد كانت القبلة فى الصلاة – حتى ذلك الوقت – إلى بيت المقدس فكانوا يقولون: هو يتبع قبلتنا وغدا يتبع ديننا. وتأمر الآيات النبىّ أن يخبرهم أن ما جاءه من الله هو الحق وفيه الهُدى. وتحذره من اتباعهم. ولا يجب أن يفهم من هذا أن النبى قد بدأ يميل إلى اتباع ملتهم وإنما هو الأسلوب القرآنى – ورد مثله فى مناسبات كثيرة – يستهدف تثبيت النبى وبث الثقة فى نفوس المؤمنين ليحذروا أقوال اليهود. ثم تخبره الآيات أن الذين يقرأون التوراة «الأصلية» ويفسرونها تفسيرا صحيحا حتما سيؤمنون بالقرآن ثم يتوجه الخطاب إلى بنى إسرائيل يُذكِّرهم بآيات الله ونعمه عليهم وأنه قد فضلهم على العالمين فكان الواجب أن يتقوا الله ويعملوا حسابا ليوم القيامة.

الإذن بالقتال:

قال المفسرون إن هذه الآيات من سورة الحج قد نزلت وقتئذ:

«إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور. أُذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدمت صوامع وبِيَع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور» (٣٨ – ٤١ الحج).

وكان هذا أول تصريح للمسلمين بالقتال. ذلك أن المسلمين قبل الهجرة كانوا قلة وسط أغلبية كافرة ولم يكن باستطاعتهم قتالهم فلم يكن أمامهم إلا الصبر على آذاهم. ولما جاء وفد أهل يثرب وكانت بيعة العقبة. وكان الوفد نيفا وثمانين رجلا قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادى – يعنون أهل منى ومعظمهم من قريش – فنقتلهم. قال إنى لم أؤمر بهذا. ولكن لما أصبح للمسلمين – بعد الهجرة إلى يثرب – دارا يأمنون فيها وقويت شوكتهم نزلت الآيات تقرر أنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير. وفى ذلك معنى مستتر لمشروعية القتال ردا على ظلم وقع بهم أو لرد حقوق سلبت منهم إذ أن الكفار – بإيذائهم لهم – قد اضطروهم إلى ترك ديارهم والهجرة منها وما كان لهم من ذنب إلا أنهم عبدوا الله. والله يُسخِّر للحق أعوانا

ينصرونه ويدفعون طغيان الظالمين لمنع تفوق الكفر الذى يعمل على إخماد صوت الحق ويقوم بهدم بيوت العبادة. وسينصر الله من يُعز كلمة الحق، وهؤلاء المؤمنون عند انتصارهم سيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وينشرون العدل.

السرايا القتالية الأولى:

أما وقد نزل الإذن بالقتال لأخذ مقابل ما استلبته قريش من حقوق المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة. فقد بدأ النبى يخطط للاستيلاء على قوافل قريش التجارية. فحين يصل خبر عن قافلة لقريش يأمر النبى عددا من الرجال - يتناسب مع حجم القافلة وعدد الرجال الذين يحرسونها - يخرجون فى سرية لتعترض القافلة. كذلك كانت السرايا تخرج إلى المناطق المحيطة بالمدينة - وفيها قبائل مشركة - إظهارا لقوة المسلمين. وهو ما يمكن تشبيهه بالمناورات الحربية التى تجريها الدول حاليا استعراضا لقوتها وما عندها من أسلحة إرهابا لأعدائها. وكان هدف النبى هو تحذير هذه القبائل حتى لا تفكر فى الانحياز إلى قريش فى أى معارك قادمة. وهدف آخر هو عرض الإسلام عليهم. فإن أسلموا كانوا قوة للإسلام وإلا فإنه يعقد معهم معاهدة عدم اعتداء. وفى هذه الحالة فإنهم يسمحون للسرايا - التى يرسلها النبى لاعتراض قوافل قريش - بعبور أراضيهم وعدم التعرض لها بالمنع أو الأذى. لذلك كان التركيز فى أول الأمر على القبائل المحيطة بالمدينة والتي تخترق قوافل قريش أراضيها وهى فى طريقها إلى الشام. فكسب إلى جانبه فى السنوات الأولى من الهجرة قبائل بني ضمرة وجهينة وخزاعة وغفار وأسلم (شكل ٢١). وروى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: لما قدم رسول الله إلى المدينه جاءه رجال من جهينة وقالوا: إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا حتى نأمنك وتأمنا. فأوثق لهم ولبطونهم المختلفة مثل: بنى زرعة وبنى الدبعة وبنى الحرقة وبني الجرمز - وبعضها كان يسلم. إلا أن المواثيق لم تكن تشترط الإسلام بل كانت ذات طابع سياسى تضمن عدم الاعتداء.

وقد نجحت هذه السرايا فى أهدافها فأمن القبائل المحيطة وهددت السرايا نشاط قريش التجارى. كما أنها باستيلائها على بعض القوافل الصغيرة والغنائم من بعض القبائل التى كانت تعترض مسيرتهم، نجحت فى الحصول على المال اللازم لشراء الأسلحة. كما كانت السرايا مجالا للتدريب العسكرى ومعرفة مسالك الصحراء وهى لازمة للجند قبل الخوض فى أى معركة كبيرة.

وحرص النبى على أن تكون السرايا - فى أول الأمر - قاصرة على المهاجرين وحدهم إذ كان العهد مع الأنصار هو أن يحموه من عدو يهاجمه في المدينة أما الهجمات والسرايا خارج المدينة فلم يكونوا ملزمين بها. إلا أنه بمضى الوقت بدأ بعض الأنصار فى الانضمام إلى

شكل ٢١ – أماكن بعض القبائل العربية على طريق مكة المدينة.

بعض السرايا. ثم بعد مدة لم تعد هناك تفرقة بين المهاجرين والأنصار فى الخروج فى هذه السرايا. وقبل البدء فى ذكر هذه السرايا يجب أن نشير إلى اختلاف المؤرخين الإسلاميين القدامى فى توقيتها فقد ينص مؤرخ على أن سرية ما - أو غزوة - حدثت فى السنة الثانية مثلا فى حين يذكر مؤرخ آخر أنها حدثت فى السنة الثالثة. وقد بينا سبب ذلك فى صفحة ٤٣٧.

١ - سرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر (شكل ٢٢):

قال الواقدى إن رسول الله عقد فى السنة الأولى - بعد سبعة أشهر من وصوله المدينة - أى في رمضان من السنة الأولى للهجرة - لحمزة بن عبد المطلب لواء أبيض فى ٣٠ رجلا من المهاجرين ليعترض عير لقريش كان يحرسها أبو جهل ولكن العير سبقت ولم يكن هناك قتال. بعض الكتب تذكر أن الفريقين اصطفا للقتال ولكن حجز بينهم سيد جهنية وكان حليفا للفريقين فلم يقتتلا. كما أن بعض المراجع تذكر أن عدد رجال القافلة كان ٣٠٠ رجلا فكان من الحكمة ألا يتصدى لهم حمزة وليس معه إلا ثلاثون رجلا..

٢ - سرية سعد بن أبى وقاص:

وفى الشهر التالى - أى فى شوال - أوفد النبى سعد بنى أبى وقاص فى سرية من ٢٠ رجلا إلى الخَّرار (شكل ٢٣) لاعتراض عير لقريش. فلما وصوا إلى الخرار كانت القافلة قد سبقتهم ولم يحدث قتال فعادوا إذ أن النبى لم يسمح لهم بتجاوز الخرار.

٣ - سرية عبيدة بن الحارث (شكل ٢٤):

وقال الواقدى أيضا إنه فى نفس الشهر - أى فى شوال - عقد النبى لعبيدة بن الحارث لواء أبيض وأمره بالسير إلى بطن رابغ فى ٦٠ من المهاجرين. وأنهم التقوا المشركين على ماء يقال له «أحياء» وكان بينهم رمى بالنبال عن بعد ولم تحدث إصابات وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمر وعتبة بن غزوان وكانا مسلمين وقد خرجا مع قريش ليصلا إلى المسلمين وكان هذا من مكاسب هذه السرية.

الإسلام امتداد لحنيفية إبراهيم:

سبق ذكر جوانب من قصة إبراهيم في كثير من سور العهد المكى مثل: مريم والشعراء. والزخرف. والأنبياء والعنكبوت. وكان التركيز فيها على نقطتين: الأولى تسفيه إبراهيم للأصنام التى كان قومه يعبدونها مما يعنى تسفيها وتعريضا بعبادة الأصنام التى كانت قريش عليها. أما النقطة الثانية فكانت إظهار العلاقة بين العرب وإبراهيم وتوضيح أن النبى هو الذى يسير على الملة الحنيفية التى جاء بها إبراهيم أما قريش فإنها قد جرفت فيها ومالت إلى الشرك. أما

شكل ٢٢ – سرية حمزة بن عبد المطلب.

شكل ٢٣ – سرية سعد بن أبي وقاص.

شكل ٢٤ – سَرية عُبَيدة بن الحارث.

فى القرآن المدنى فكان التوجُّه هو الرد على إدعاء اليهود أنهم وحدهم هم ورثة إبراهيم فركزت الآيات التالية من سورة البقرة على أن العرب من نسل إسماعيل ولد إبراهيم وأن إبراهيم هو الذى بنى الكعبة وأن النبى والمسلمين هم أولى الناس بإبراهيم:

«وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين. وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا. واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهِّرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود. وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدًا أمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم. ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه. ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين. ووصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابَنِىَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون. وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين»

(١٢٤ - ١٣٥).

والآيات تناولت عدة موضوعات تتعلق بإبراهيم عليه السلام:

١ - أن الله اختبر إبراهيم بأوامر ففعلها فاستحق رضا الله وكافأه بأن اختاره ليكون للناس إماما وقدوة. فسأل ربه أن يكون هذا الفضل شاملا لذريته أيضا فأجابه الله بأن الظالمين المنحرفين عن شريعته لا يصح أن ينالوا هذا الشرف.وبالطبع كلمة ذريتى تشمل ذرية ولديه إسماعيل وإسحق. وكان معروفا أن العرب من نسل إسماعيل واليهود من نسل إسحق وابنه يعقوب. إلاّ أن اليهود اعتقدوا أنهم وحدهم هم ورثة إبراهيم وأنهم شعب الله المختار وأن لهم وضعا متميزا عند الله. فجاءت الآيات تنفى أى أفضلية للظالمين.

٢ - تأكيد الصلة بين إبراهيم وبناء الكعبة. نفيا لما كان يقوله اليهود من أن هاجر وإسماعيل تاها وهلكا فى برية فاران قرب أرض مدين. وهذا ما شرحناه فى الجزء الثانى (ص ٢٩٨ - ٢٩٩). ونفى ادعاء اليهود بأنه لا صلة لإبراهيم ببناء الكعبة.

٣ - التأكيد على أن الحج ومناسكه من طواف بالبيت وسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفات وغيرها من المناسك قد أرساها إبراهيم وظل العرب فيما قبل الإسلام يفعلونه.

٤ – دعاء إبراهيم بأن يجعل مكة بلداً آمنا.

٥ – دعوة إبراهيم بأن يرسل للعرب رسولا منهم. وفى الحديث الشريف: «أنا دعوة أبى إبراهيم..»

٦ – أن رسالة الإسلام هى امتداد للحنيفية التى جاء بها إبراهيم.

٧ – أن يعقوب – أى إسرائيل أبو اليهود – قبل وفاته – وصّى بنيه وذريته بأن يظلوا على ملة إبراهيم الحنيفية وهى ملة إسماعيل عمه وإسحق أبيه. وفى كل هذا حث لليهود على اتباع النبى.

ثم تتوسع الآيات فى شرح أن الأديان كلها تنبع من ملة إبراهيم:

«قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم. صِبغة الله ومن أحسن من الله صِبغة ونحن له عابدون. قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون. أم تقولون إن ابراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممّن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون».(١٣٦ – ١٤١).

وفى الآيات:

١ – أمر للنبى والمؤمنين بأن يعلنوا أن عقيدتهم هى الإيمان بالله والتصديق بما أنزل إلى الأنبياء السابقين دون تفرقة بينهم.

٢ – فإن آمن المخاطبون – وهم اليهود – بذلك فقد اهتدوا وساروا على طريق الحق. وإن أعرضوا وتولوا فهم متعنتون وسيحفظ الله نبيه منهم.

٣ – إن ما يدعو إليه النبى هو دين الله وليس هناك ما هو أحسن منه.

٤ – أمر للنبى بتوجيه سؤال إلى اليهود عن سبب كثرة جدالهم ومحاجتهم. فإن أصروا على موقفهم فليخبرهم أن على كل واحد أن يتحمل نتيجة عمله.

٥ – أمر للنبى بتوجيه سؤال ثان – فيه تنديد بزعم اليهود أن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا يهوداً أو نصارى مع أن التوراة والإنجيل التى قامت عليها اليهودية والنصرانية لم تنزل إلا بعد هؤلاء فالمنطق يجزم بأنهم لايمكن أن يكونوا كذلك. ثم نفى فى هيئة تساؤل عما إذا كانوا يعلمون شيئا لا يعلمه الله. ثم يجيء تنديد بما فعلوه إذ جاءت صفات النبى فى كتبهم وأسفارهم فكتموها وكانوا ظالمين.

أحداث السنة الثانية للهجرة

محرم		ـــــ
صفر		غزوة الأبواء = غزوة ودان.
ربيع الأول		غزوة بواط.
ربيع الثانى		ـــــ
جمادى الأول	١٥	غزوة العشيرة وقضاء شهر فيها.
جمادى الثانى	١٥	العودة إلى المدينة.
	٢٢	غزوة بدر الأولى = غزوة سفوان.
	٢٩	إسلام جهينة.
رجب		ـــــ
شعبان	١٥	تحويل القبلة.
		نزول تشريعات تنظيم المجتمع المدنى.
	٢٢	سرية عبدالله بن جحش = سرية نخلة.
رمضان	١٧	موقعة بدر الكبرى.
	٢١	العودة إلى المدينة.
	٢٦	وفاة رقية.
شوال	١	التصرف فى الأسرى ونزول سورة الأنفال.
	٥	غزوة بنى سليم بالكدر.
	١٠	عمير بن وهب يدبّر لقتل رسول الله.
	١٥	قدوم زينب إلى المدينة.
	٢٠	زواج على بن أبى طالب من فاطمة.
ذو القعدة		ـــــ
ذو الحجة		غزوة السويق.

كان تأمين المدينة هو الشغل الشاغل للنبى منذ قدومه المدينة. لم يشغله عنه نزول الآيات الكثيرة التى تنظم المجتمع الإسلامى الوليد ولا الآيات الكثيرة التى تدعو اليهود إلى الإسلام أو على الأقل عدم الغلواء فى الصد عن الدين وإنكار نبوته. ولذلك فإن النبى استمر فى إرسال

السرايا تجوب المناطق المحيطة بالمدينة لتتسامع بها القبائل ويدركوا أن المسلمين قوة قادرة على الرد على من يفكر فى الاعتداء عليهم. وأطلق اسم «سريه» علي مالم يشترك فيه النبى. أما ما كان الرسول يقودها بنفسه فتسمى «غزوة». وقد سبق أن ذكرنا (ص ٤٦١) ثلاثا من هذه السرايا. وفي السنة الثانية للهجرة بدأت الغزوات.

١ - غزوة الأبواء (ودَّان):

وقعت فى صفر فى أوائل العام الثانى للهجرة. إذ خرج رسول الله فى ٦٠ رجلا يريد قافلة لقريش فسار فى طريق مكة (شكل ٢٥) حتى المنصرف والصفراء. ثم إتخذ طريق بدر. ثم سار حتى بلغ الأبواء فى ديار بنى ضمرة. وكانت القافلة قد علمت بخروج النبى فأسرعت السير واتخذت طريقا جانبيا فلم يدركها. وانتهزها النبي فرصة لمعاهدة بنى ضيمرة «على أن لا يغزونه ولا يكثرون عليه جمعا ولا يعينون عليه عدوا. وإذا دعاهم للحرب أجابوه على أن ينصرهم على من رامهم بسوء» ووقع المعاهدة عنهم سيدهم محشى بن عمرو الضمرى.

٢ - غزوة بواط (شكل ٢٦):

وقعت - كما قال ابن اسحق - فى شهر ربيع الأول من السنة الثانية. إذ قاد النبى بنفسه ٢٠٠ راكبا من المهاجرين وجعل لواءه مع سعد بن أبى وقاص. وكان مقصده أن يعترض قافلة لقريش بها ٢٥٠٠ بعير ويحرسها ١٠٠ رجل بقيادة أمية بن خلف. وسار النبى شمالا حتى بلغ بواط. وكانت القافلة قد سبقته ومرت سالمة فعاد النبى إلى المدينة.

٣ - غزوة العشيرة (شكل ٢٧).

وفى منتصف جمادى الأول خرج رسول الله يتعرض لقافلة لقريش وعقد لواءه لحمزة بن عبد المطلب. ولم يسر فى طريق مكة بل سار غربا فى طريق فرعى إلى نقب بنى دينار ثم إلى فيفاء الخيار ثم عاد ثانية إلى طريق مكة عند ملل ولما لم يقابل القافلة سار من ملل غربا إلى العشيرة وكانت القافلة قد سبقت ولم يدركها فأقام بالعشيرة شهرا - النصف الثانى من جمادي الأول والنصف الأول من جمادى الآخرة - وانتهزها فرصة ووادع بنى مدلج - وهم حلفاء بنى ضمرة الذين عاهدهم فى غزوة الأبواء - ثم عاد إلى المدينة.

٤ - غزوة بدر الأولى = غزوة سفوان (شكل ٢٨):

قال ابن اسحق: لم يقم رسول الله بالمدينة حين رجع من غزوة العشيرة إلا ليالى قلائل لا تبلغ العشر حتى أغار كرز بن جابر الفهرى على مراعى المدينة فخرج النبى فى ٢٠٠ من أصحابه في طلبه وكان لواؤه مع على بن أبى طالب وسار فى طريق مكة حتى المنصرف والصفراء ثم اتخذ طريق بدر حتي بلغ واديا اسمه «سفوان» قبل بدر بـ ٢٠كم وكان كرز بن جابر قد أفلت فلم يدركه. وعقد النبى معاهدة عدم اعتداد مع قبائل بنى ضمرة بن بكر بن كنانة.

شكل ٢٥ – غزوة الأبواء = ودَّان.

شكل ٢٦ – غزوة بواط.

خط سير القافلة - - - - - -
خط سير النبى.......................

شكل ٢٧ – غزوة العشيرة.

المدينة
ذو الحليفة
الحفير
الروحاء
الرويثة
ملل
المنصرف
الصفراء
الطريق المعتاد
وادي سفوان
سفوان
الطريق الموازي
طريق الساحل
بدر
الأبواء
بنو ضمرة
الجحفة
رابغ الرمل
رابغ البحر
كلية
الشلل
قديد

شكل ٢٨ – غزوة بدر الأولى = غزوة سفوان

إسلام جهينة :

ذكرنا سابقا (ص ٤٥٩) عهد الموادعة بين النبى وبين جهينة. وعقب عودة النبى من سفوان فى أواخر جمادى الثانية جاء زعماء جهينة إلى النبى فى المدينة وقالوا له. إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا حتى نأتيك بقومنا. فأوثق لهم فأسلموا جميعا.

تحويل القبلة:

كان النبى فى مكة قد أُمر باستقبال بيت المقدس فكان يصلي بين الركنين وبذلك يستقبل بيت المقدس وفى نفس الوقت يصلي إلى الكعبة. فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فكان يصلى إلى بيت المقدس. وفرح اليهود بذلك وقالوا هو يصلي الآن إلى بيت المقدس وغدا يتبع شريعتنا. وكان النبى يحب التوجه إلى الكعبة. لذلك كان النبى دائم النظر إلى السماء ويدعو الله أن يوجهه إلى البيت العتيق - قبلة إبراهيم - واستمر الحال كذلك حوالى ١٧ شهرا ثم أجيب إلى طلبه وأمر بالتوجه إلى الكعبة فخطب الناس وأعلمهم بذلك. وكانت أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة العصر. وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر وذلك فى مسجد بنى سلمة فسمى مسجد القبلتين. وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلا فى فجر اليوم التالى إذ بينما هم يصلون صلاة الصبح جاءهم آت وأخبرهم بنزول القرآن بتحويل القبلة فاستقبلوا الكعبة. ولما حدث هذا اغتم اليهود وراحوا يشككون وتساءلوا عن سبب تحول المسلمين عن بيت المقدس فكان الرد عليهم أن الأرض - مشرقها ومغربها - لله تعالى. ولله أن يوجه الناس - كما يشاء لعبادته:

«سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها. قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. وكذلك جعلناكم أمه وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا. وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله. وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم. قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره. وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون. ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض. ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين. الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون. الحق من ربك فلا تكونن من الممترين. ولكلٍ وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شىء قدير. ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام. وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون. ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام. وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا

يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون. كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون. فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» (١٤٢-١٥٢).

والآيات تذكر أن تحويل القبلة كان امتحانا من الله لإظهار الثابت إيمانه من المتشكك حيث قد ارتد بعض ضعيفي الإيمان. ومما رواه المفسرون في صدد ما أثير حول تحويل القبلة إلى الكعبة أن اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس. إن كانت على هدى فقد تحولتم عنه وإن كانت على ضلالة فقد دنتم الله بها مدة (أى أصبحت تلك الصلوات دينا عليكم) ومن مات عليها فقد مات على ضلالة. ولا نظن أن ذلك كان كل ما قاله اليهود فلا شك أنه ما من يهودى قابل مسلما إلا وكان الكلام منصبا على تحويل القبلة محاولين أن ينفثوا سمومهم بالانتقاد والتشكيك نتيجة لما شعروا به من شدة الضربة المعنوية التي وجهت إليهم بتحويل القبلة إلى الكعبة. كذلك أظهر بعض المنافقين نفاقهم وقالوا: ما بال محمد يحولنا مرة إلى هاهنا ومرة إلى ههنا. وقال المشركون: تحير محمدا وتساءل بعض المسلمين عن موقف إخوانهم الذين ماتوا وهم على القبلة الأولى وكذلك تساءل الأحبار عن مدى صحة صلاة المسلمين قبل التحول كما ذكرنا آنفا . فنزل قوله تعالى: **«وما كان الله ليضيع إيمانكم»** فالله رؤوف رحيم بعباده. ثم بينت الآيات حقيقة موقف أهل الكتاب – والمقصود أساسا اليهود – وأن انتقادهم صادر عن مكابرة وهوى وعناد. ومثل هؤلاء لن يتبعوا الحق. ولذلك مهما جاءهم النبى بآيات فلن يتبعوه. وهم حتى فى خلاف بعضهم مع بعض. ولكل فريق منهم قبلة وطريقة تختلف عن الفريق الآخر ولن يتبع أحدهم قبلة وطريق أى من الفرق الأخرى. ولا النصارى يتبعون قبلة اليهود ولا اليهود يتبعون قبلة النصارى وكل فريق يعتقد أن الآخر ليس على حق وبالتالى فلا يجوز للنبى أن يتبع قبلتهم. وإن أهل الكتاب يعرفون النبى ويعرفون أنه على حق كما يعرفون أبناءهم وقد سبق أن ورد هذا المعنى أيضا في سورة الأنعام (آية ٢٠ ص ٢٥٦) وبنفس اللفظ: **«الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم»**. ولكنهم يكتمون الحق بالرغم من معرفتهم به. ثم تأمر الآيات النبى والمؤمنين بالتوجه – عند الصلاة – ناحية المسجد الحرام وتكرر هذا الأمر فى الآية التالية للتأكيد عليه وحثا للمسلمين باتباعه وألا يخشوا نقدا ولا إعتراضا من أحد بل عليهم أن يخشوا الله. ثم تختتم الفقرة موجهة الخطاب إلى المسلمين تذكرهم بأن الله أرسل فيهم رسولا منهم يتلو عليهم القرآن ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون وعليهم واجب الشكر لله على هذا النعمة وألا يكفروا بها **«واشكروا لي ولا تكفرون»**.

والحقيقة أن تحويل القبلة كان حدثا هاما فى الدعوة الإسلامية فقد أكسب الدعوة شخصية مستقلة بعد أن كان استقبال بيت المقدس يحمل نوعا من اللقاء الوسط مع اليهود وكان

يدل على أن بعض المسلمين كانوا يذهبون للحج في موسمه أو يذهبون معتمرين في غير موسم الحج.

التنديد باليهود لكتمانهم الحق:

«إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم. إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يُنظرون» (١٥٩ - ١٦٢).

وفي الآيات تنديد بمن يكتمون ما أنزل الله من بينات ودلائل في الكتاب الذي أنزل عليهم. والمفهوم أن الآيات تقصد اليهود إذ أنزل الله في التوراة (والإنجيل) آيات تبشر بالنبي ولكنهم أخفوها أو فسَّروها على غير وجهها. فهؤلاء يلعنهم الله وملائكة كلفوا بذلك **«اللاعنون»**. وترك باب التوبة مفتوحا فاستثنى من يتوب ويعمل صالحا. أما الذين يصرون على الكفر حتى ماتوا عليه فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولهم عذاب - والمفهوم أنه نار جهنم - خالدين فيه.

وحدانية الله وبعض مظاهر قدرته:

«وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون» (١٦٣ - ١٦٤).

حال المشركين يوم القيامة:

«ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حُبًّا لله. ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب. إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب (الروابط والمودة التي كانت بينهم في الحياة الدنيا)**. وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار»** (١٦٥ - ١٦٧).

والآيات تندد بمن يتخذون مع الله شركاء وأندادا يحبونهم ويعبدونهم. ثم تنبيه إلى ما سوف يكون عليه الحال يوم القيامة إذ يتنصل المتبوعون من التابعين ويتمنى هؤلاء أن يعودوا إلى الدنيا ليتبرأوا ممن كانوا يشركونهم مع الله. وسيشعرون بالحسرة على سوء عملهم وسيخلدون في النار.

المسلمون يشعرون بشيء من الغضاضة أو عدم الارتياح بسبب زهو اليهود وافتخارهم عليهم بهذا.

واستمرت آيات سورة البقرة في النزول، فيها صلاح أمر المسلمين فنزل فيها:

حث المؤمنين على الصبر:

«يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين، ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون. ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون»(١٥٤ - ١٥٧).

والآيات تحث على الإستعانة بالصبر والصلاة على ما يمكن أن يصيب المسلمين من مصائب وتطمئنهم بأن الله مع الصابرين يؤيدهم بنصره. وتؤكد لهم أن من يموتون في سبيل الله هم أحياء عند ربهم. كما تنبه الآيات إلى أن الله قد يبتلي المسلمين ببعض المصائب من جوع وضياع أموال ونقص في الطعام وتبشر الذين يثبتون في الاختبار ويقابلون ما يصيبهم بالصبر، فلهم مغفرة من الله ورحمة وهم على طريق الهدى والفلاح.

وقال بعض المفسرين إن الآيات نزلت لتسكين روع المؤمنين وتثبيتهم في فاجعتهم في شهداء بدر وآخرون قالوا في شهداء أحد. ولكن موقعة بدر كانت انتصارا ونزل التعليق عليها في سورة الأنفال وأخبار غزوة أحد نزلت في سورة آل عمران. ولم تكن الغزوتان قد وقعتا بعد. لذلك فالمرجح أن الآيات نزلت تحضُّ المؤمنين على الثبات والصبر في السرايا التي قد يرسلهم فيها النبي وما قد يحدث في بعضها من قتال فعليهم ألا يهابوا الموت لأن من مات في سبيل الله حيٌّ عند الله. كذلك قد تكون الآيات تهيِّئ المسلمين لموقعة بدر التي كان موعدها قد اقترب.

إقرار بعض مناسك الحج كما كانت قبل الإسلام:

كان ذو الحجة قد اقترب وأهلَّ فريق من أهل المدينة بالحج. وكان الحج في الجاهلية به سعي بين الصفا والمروة إذ كان على أحدهما صنم «إساف» وعلى الآخر صنم «نائلة» وكان الحجاج المشركون يقدمون عندهما القرابين. وتحرَّج المسلمون من السعي بسبب وجود هذين الصنمين. فنزلت الآيات تقرر أن السعي من شعائر الحج ولا يجوز إسقاطه لوجود الصنمين:

«إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطَّوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم»(١٥٨)

وكانت هذه أول الآيات الواردة في صدد مناسك الحج وقد تلتها - كما سنرى فيما بعد - آيات أخرى في سورة البقرة وسورة المائدة وسورة آل عمران وكلها نزلت قبل فتح مكة مما

الحلال والحرام فى المأكل:

«يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين. إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون. وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون. ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون. يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون. إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم» (١٦٨ - ١٧٣).

والخطاب موجه للناس عامة مبينًا أن الله قد أحل لهم كل طيب فى الأرض ليأكلوه ويأمرهم ألا يستمعوا إلى وساوس الشيطان الذي يزين لهم أكل الحرام لأنه عدو لهم ويوسوس لهم بقول السوء وفعل الفحشاء والافتراء على الله بما لا يعلمون حقيقته. ثم تندد بالكفار لأنهم إذا أُمروا باتباع حدود الله أجابوا بأنهم يسيرون على ما سار عليه آباؤهم حتى لو كان آباؤهم لا يعقلون ولا يهتدون. وشبهت حالتهم بحال البهائم التى يصرخ فيها راعيها فتسمع صوته ولا تفهم كلامه فهم صم بكم عمى. ثم يتوجه الخطاب إلى المؤمنين يحثهم على أن يأكلوا مما رزقهم الله من الطيب والحلال. ثم يأتى تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذكر عند ذبحه اسم غير اسم الله. إلا من اضطر إلى أكل شيئ من هذه المحرمات غير متجاوز القدر الذي يقيم أوده ويقيه من الهلاك.

تنديد ثان باليهود لكتمانهم الحق:

ثم تعود الآيات لتندد بما فعله بعض أحبار اليهود من كتمانهم لصفات النبى التى وردت فى كتبهم حتى لا يتعرف الناس عليه ويتبعوه - يفعلون ذلك جريا وراء مراكزهم الدنيوية وما يكسبونه من مال - بالرغم من قلته - وما يأكلونه من مال ينزل إلى بطونهم كأنه نار وفى الآخرة هم محجوبون عن الله فلا يكلمهم ولهم عذاب أليم:

«إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار. ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفي شقاق بعيد»(١٧٤ - ١٧٦).

تشريعات لتنظيم المجتمع الإسلامي بالمدينة:

كوّن المسلمون فى المدينة - أنصارا ومهاجرين - مجتمعا واحدا يختلف عن المجتمع فى مكة - وبالطبع فإن هذه المجتمع الجديد لابد له من تشريعات تحكم حركته وتحل خلافاته.

فنزل الوحي بهذه التشريعات الجديدة لينشر السلام الإجتماعي بين أفراده. وبلغ عدد هذه التشريعات التي نزلت في سورة البقرة حوالي ٣٣ تشريعا تتخللها بعض الفقرات المتعلقة بالقتال. ويمكننا أن نشبه هذه التشريعات بالمواد التي تتألف منها القوانين الحالية:

١ - ما هو البر:

ليس البر بالعبادة الشكلية وتوجيه الوجوه ناحية المشرق أو المغرب أثناء العبادة. وتشرح الآيات البر الحقيقي:

«ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون» (١٧٧).

٢ - القصاص:

«يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم. ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون» (١٧٨ - ١٧٩).

وفي أي مجتمع لا يخلو الأمر من خلافات بين الأفراد وقد يتطور الأمر إلى قتل. وكثيرا ما كان يحدث بين القبائل العربية اقتتال. وكانت القبيلة أو الحى الأقوى يقتل من عدوه الحر بالعبد والرجل بالأنثى بل وبالغت بعض القبائل فكانت تقتل الحرين بالحر. وكان قوم من العرب إذا قتل عبد قوم آخرين رجلا منهم لم يرضوا بقتل العبد حتى يقتلوا سيده أيضا. وإذا قتلت امرأة من غيرهم رجلا منهم لم يرضوا بقتل القاتلة حتى يقتلوا رجلا من عشيرتها. فنزل ذلك التشريع ليوقف هذا البغى وحتى لا يستمر الأخذ بالثأر إلى ما لا نهاية فقررت قتل الحر القاتل بالحر المقتول والعبد القاتل بالعبد المقتول والأنثى القاتلة بالأنثى المقتولة. وأوردت احتمال العفو عن القاتل من قبل ولى المقتول مع دفع الدية لأهل القتيل وفق العرف المعمول به. ونص على أن هذا تخفيف من الله ورحمة بالمسلمين. وقيل إن الكلام موجه أيضا إلى أهل الكتاب. فاليهود كانوا يقاصون بدون عفو. وكان النصارى لا يقاصون إلا فيما ندر.

٣ - الوصية عند الوفاة:

«كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً (مالاً كثيرا) الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين. فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه. إن الله سميع

عليم. فمن خاف من موصٍ جَنَفا (انحرافا عن الحق) **أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم»** (١٨٠ – ١٨٢).

وفي الآيات وجوب الوصية على كل مسلم إذا أحسَّ بدنو أجله وكان عنده مال كثير فعليه أن يوصى بجزء لوالديه ولأقربائه. ثم بعد ذلك حددت الأحاديث النبوية أن ما يوصى به لا ينفذ إلا في ثلث الميراث فقط وحددت آيات تالية كيفية توزيع التركة بين الورثة.

٤ – الصيام :

«يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون. أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون. شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر. يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدَّة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون. وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون. أُحِل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهن. علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد. تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يُبين الله آياته للناس لعلهم يتقون» (١٨٣ – ١٨٧).

قال الإمام أحمد (السيرة النبوية لابن كثير جـ ص ٣٧٨) إن الصيام مر بعدة مراحل: عندما قدم النبى المدينة كان يصوم ثلاثة أيام كل شهر. ثم وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم عنه فقالوا هذا يوم نجى الله فيه موسى من فرعون. فقال نحن أحق بموسى منكم وصامه. فصام المسلمون. ثم نزل قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم... إلى قوله تعالى وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكينا فأجزأ ذلك عنه. ثم نزل قوله تعالى: «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن.... إلى قوله تعالى.. فمن شهد منكم الشهر فليصمه» فأوجب صيامه على المقيم الصحيح ورخّص فيه للمريض والمسافر وأثبت الفدية للكبير الذى لا يستطيع الصيام. ثم إنهم كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء مالم يناموا فإذا ناموا امتنعوا. ثم إن رجلا من الأنصار كان يعمل وهو صائم حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى طلع الفجر فأصبح صائما فرآه النبى وقد جهد جهدا شديدا فسأله عن سببه فأخبره.

وكان عمر بن الخطاب قد أصاب النساء بعدما نام فأتى النبى وأخبره. فأنزل الله تعالى: **«أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم..»** إلى قوله تعالى: **«ثم أتموا الصيام إلى الليل»** تيسيرا على الناس.

ثم فرضت صلاة الفطر، لم ينزل بها قرآن ولكن النبى خطب الناس قبل الفطر بيوم أو يومين وأمرهم بها.

٥ – التخفيف فى قيام الليل:

من المرجح أنه مع التيسير على المسلمين فى الصيام والسماح بالفدية لمن له عذر جاء أيضا تخفيف عن المسلمين فى قيام الليل. نزلت به الآية الأخيرة من سورة المزمل والتى تجمع كتب التفسير على أنها مدنية لأن فيها ذكر للقتال الذى لم يشرع إلا بعد الهجرة.:

«إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى (أى أقل) **من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك. والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن. علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم»** (٢٠ – المزمل).

فالنبى ظل – فى حدود ما أمرت به الآيات الأولى من سورة المزمل – **«يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا. نصفه أو انقص منه قليلا. أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا»** (١ – ٤ سورة الزمل ص ٤٧) يقوم معظم ساعات الليل يصلى ويقرأ القرآن والتزم المسلمون الأوائل بهذا الأمر اقتداء بالنبى. فلما انتقل المسلمون إلى المدينة وتكون المجتمع الإسلامى. كثرت واجبات المسلمين ومشاغلهم. فاقتضت رحمة الله التخفيف تمشيا مع الظروف الجديدة والمجهود المنوط بالمسلمين فى النهار من سعى فى طلب الرزق فى أرض غريبة وهو ما يستلزم مجهودا أكبر وآخرون مرضى. وآخرون يخرجون فى سرايا قتالية. والناس مهما حرصوا واشتدوا فى العبادة فلن يوفوا الله حقه ولن يبلغوا الغاية.

٦ – الزكـــاة :

وقد وردت ضمنا فى الآية السابق ذكرها **«وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»** والزكاة هى تلك الفريضة التى تجعل للفقراء والمحتاجين حقا فى أموال الأغنياء قررت السنة مقدارها وأوضحت نصابها. وقُرنت الزكاة دائما بالصلاة وجُعلت دليلا على صدق الإيمان. هذا طبعا بالإضافة إلى الصدقة التطوعية الزائدة عن الفريضة والتى حث عليها القرآن الكريم فى آيات كثيرة.

٧ – النهى عن أكل مال الغير:

«ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون» (١٨٨).

وقيل إن هذه الآية نزلت بمناسبة شكاية أحد المسلمين للنبى على آخر اغتصب أرضه فكلفه النبى بإقامة البينة فعجز فكلف المدعى عليه باليمين فهم بأن يحلف فقال النبى: أما إنه إن حلف على ما ليس له ليأكله ظلما لَيلقيَنّ الله وهو عنه معرض. ثم قال: إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم ألحن (أى أحذق فى الكلام) بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه. فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فلا يأخذن منه شيئا فإنما أقضى له قطعة من نار فليتحملّها أوليذرها. فارتدع المدّعى عليه عن اليمين وسلّم الأرض لصاحبها. وعلى العموم فإن هذه الآيات تنهى عن شهادة الزور والتزوير والرشوة واغتصاب أرض أو بيوت الغير وكل ما من شأنه أكل أموال الناس بالباطل.

٨ – سؤال عن الأهلة:

«يسألونك عن الأهلة. قل هى مواقيت للناس والحج».

٩ – عود إلى موضوع البر:

– وهو الموضوع السابق ذكره برقم «١» لبيان وجه جديد فيه:

«وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون» (١٨٩).

وكان العرب فى الجاهلية إذا أحرموا بالحج يحرِّمون على أنفسهم الاستظلال بسقف ما (مثلما يفعل بعض فرق الشيعة الآن ولذلك يحرصون على ركوب أوتوبيسات ليس لها سقف). فإذا ما احتاجوا إلى شيئ من بيوتهم أو أرادوا أن يدخلوا بيوتهم لا يدخلونها من الأبواب لئلا تظللهم السُقُف وإنما يصعدون إلى سطح الدار أى ظهرها ثم ينزلون إلى الفناء أو يخرقون خرقا فى جدار الفناء ويدخلون منه. فنزلت الآيات تبين أن البر الحقيقى هو التقوى وليست هذه الشكليات.

١٠ – تشريعُ للقتال :

سبق أن ذكرنا أنه أثناء الإقامة بمكة كان بعض المسلمين يسألون النبى الإذن بمقاتلة الكفار رداً على إيذاءاتهم فكان النبى يحثهم على الصبر ويقول لهم إنه لم يؤمر بالقتال. ولكن بعد الهجرة واحتمال تعرض المسلمين لهجوم من قريش فقد وجب رد العدوان ونزلت الآيات من سورة الحج (٣٨ – ٤١ – ص ٤٥٨) فيها إذن مستتر بالقتال **«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير»** ثم نزلت الآيات الحالية فيها الإذن الصريح بالقتال:

«وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم (وجدتموهم) وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين. الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين. وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين» (١٩٠ - ١٩٥).

١١ - الحج والعمرة:

وتحتوى التشريعات الخاصة بالحج والعمرة على فقرتين:

أ - الفقرة الأولى: وتنص على ضرورة إتمام الحج والعمرة ثم حكم التمتع والقران. فإذا خرج مسلم من منزله قاصدا هذا الواجب الديني ثم منع من الوصول إلى المسجد الحرام فيكتفي بتقريب ما تيسر به من الذبائح وليس له أن يحلق رأسه إلا بعد أن تصل القرابين إلى المكان المقرر شرعا للذبح. ولمن كان به أذى من رأسه أن يتحلل من الإحرام ويفعل ما فيه وقاية له من المرض على أن يقدم فدية صياما أو صدقة أو ذبيحة. أما الحاج الذى يبلغ المسجد الحرام فعليه ذبيحة إن كان قد تمتع فإن لم يستطع فعليه صوم عشرة أيام: ثلاثة منها فى موسم الحج وسبعة بعد الرجوع إلى داره.

«وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى مَحِله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة. ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب» (١٩٦).

ب - الفقرة الثانية: وفيها تفصيل مناسك الحج:

«الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج. وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب. ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين. ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم. فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا. فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. أولئك لهم

نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب. واذكروا الله فى أيام معدودات. فمن تعجّل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لِمَن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تُحشرون» (١٩٧ - ٢٠٣).

والآيات تقرر أن للحج أشهرا معينة وأوجبت على من ينوى الحج فيها ألاّ يرفث ولا يفسق ولا يجادل ونبهت على أن الله يعلم كل شيء. ثم أمرت بتقوى الله فهي خير زاد. ثم نبهت إلى أن التكسب أثناء موسم الحج مسموح. ثم أوضحت الآيات ترتيب مناسك الحج فبعد الإفاضة من عرفات يقوم الحاج بذكر الله عند المشعر الحرام وهو المزدلفة وذلك بصلاة المغرب والعشاء جمعا والبقاء فى المزدلفة حتى الفجر وإن كان كثيرون حاليا يكتفون بالبقاء إلى ما بعد منتصف الليل. وكانت قريش تقف في المزدلفة بدلا من عرفات لامتياز يرونه لأنفسهم بينما باقي الحجيج يقف في عرفات فهدفت الآيات إلى إزالة التفاوت بين الحُجَّاج فالجميع يقفون بعرفة ومنه تكون الإفاضة للحجيج كله. ثم تبين الآيات أن من يدعو في هذا الموقف بخير الدنيا فقط لن يكون له نصيب في الآخرة. ومن يدعو بخير الدنيا والآخرة فسيحقق الله لهم دعاءهم. وأخيرا تأمر بذكر الله في أيام معدودة هى أيام العيد وأيام التشريق. وذكر الله المأمور به هو التكبير عند رمى الجمرات. ورفعت الحرج عمَّن يستعجل فيترك منى بعد يومين اثنين ومن يتأنى فيبقى فيها أكثر من يومين فلا حرج عليه. ثم أمرت بتقوى الله الذى يحشر الناس إليه يوم القيامة.

١٢ - فضح ظاهرة النفاق:

والآيات تركز الضوء على ظاهرة النفاق فتوضح بعض أفعال المنافقين:

«ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد. وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد. ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله. والله رؤوف بالعباد» (٢٠٤ - ٢٠٧).

وقد روى المفسرون أن المنافق الذي عنته الآيات هو الأخنس بن شريق أحد زعماء المشركين الذى قدم إلى المدينة وجلس إلى النبى وراح يقسم له أنه يريد أن يسلم. ثم حنث فى يمينه. أما من شرى نفسه فهو صهيب الرومى الذى فدى نفسه بماله ونجا بدينه وهاجر إلى المدينة كما ذكرنا سابقاً (ص ٤٠٧).

١٣ - تشريع لضمان وحدة المسلمين:

كان من المهم أن يصبح المسلمون كتلة واحدة مسالمة فلا تثور العصبيات الجاهلية وغيرها

من أسباب النزاع. وتنهى عن احتفاظ المسلمين من أهل الكتاب ببعض شرائعهم فتختلف تطبيقاتهم عن باقي المسلمين فتنشأ الأحزاب والفرق المختلفة. فنزلت الآيات:

«يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين، فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم. هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور. سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب»

(٢٠٨ - ٢١١).

وعن ابن عباس أنها نزلت في عبدالله بن سلام وأصحابه من اليهود الذين أسلموا إذ ظلوا متمسكين ببعض شرائع موسى فعظموا السبت وكرهوا لحم الإبل وألبانها فأنكر المسلمون عليهم ذلك فقالوا إنا نقوى على هذا وهذا وطلبوا من النبى أن يعملوا بالتوراة إلى جانب القرآن - فنزل الخطاب يقصدهم ويدعوهم إلى الدخول فى الإسلام بكافة مشاعرهم بحيث لا يبقى مكان لغيره فإن أصروا على موقفهم فإن الله غالب على أمره لا يعجزه الانتقام منهم. ثم يأتى استفهام فيه معنى الاستنكار والنفى - عما إذا كانوا ليؤمنوا إيمانا خالصا يتوقعون أن يأتيهم الله بذاته. وفى هذا إشارة إلى ما سبق أن طالب به بنو إسرائيل موسى من أن يروا الله جهرة. ثم يأتى أمر للنبى بسؤال اليهود سؤال توبيخ عن الآيات العديدة التى أنزلها الله عليهم ومع ذلك حرفوها وتحذير من عذاب شديد، وفى هذا تحذير لهم من التمسك بما هو ليس من تعاليم الإسلام **«يبدل نعمة الله»**.

ثم تمضى الآيات تلفت النظر إلى استغراق الكفار - والمنافقين - في متع الحياة الدنيا واغترارهم بما تيسر لهم من أسباب اليسر والنعيم ويسخرون من المؤمنين لضعف حالهم ثم تقرر أن الحال سينعكس يوم القيامة ويصبح المتقون هم الأعلون:

«زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا. والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب» (٢١٢).

ثم تعود الآيات إلى موضوع وحدة المسلمين فتشرح أن دين الله واحد وأن الناس خلقوا جميعا أمة واحدة على الفطرة فاختلفوا فبعث الله الأنبياء ومعهم الكتب السماوية واختلف الأتباع مع أن الآيات واضحة والصراط واحد وواضح والله يهدى إليه من يشاء:

«كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» (٢١٣).

١٤ – تنبيه المؤمنين بأنهم مُعرضون للاختبار:

ويأتى ذلك بصيغة سؤال موجه إلى المؤمنين عما إذا كانوا يظنون أنهم سيدخلون الجنة دون أن يُختبروا كما اختبر الذين من قبلهم فقد أصابتهم الشدائد والنوازل وبلغ من تزلزل قلوبهم أن تساءلوا وتساءل معهم أنبياؤهم متى نصر الله؟ فيُجابون بأن نصر الله قريب:

«أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله. ألا إن نصر الله قريب» (٢١٤).

١٥ – الفئات المستحقة للصدقة:

«يسألونك ماذا ينفقون. قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل. وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم» (٢١٥).

١٦ – حث على تحمل آلام القتال:

ثم تعود الآيات لاستكمال موضوع مشروعية القتال الذى ذكر فى الآية ١٩٠ (ص ٤٧٨) فتقرر أن القتال آت لا مفر منه وتدعو المسلمين إلى تحمُّل القتال وعدم النكوص عنه مع كرههم له. فقد يكون فيه خير كثير والعكس أيضا إذ قد يكون فيما يحبون شر كبير والله هو العليم والناس لا يعلمون أين يكمن الخير:

«كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» (٢١٦).

ومع أن القتال قد شُرع وسُمح به إلا أن الرسول كان حريصا على ألا يشتبك المسلمون فى قتال لا داعي له لذلك كان يرسل السرايا تجول في المناطق المحيطة بالمدينة إرهابا للقبائل القاطنة فيها ولكنه كان يحث رجال السرايا على تجنب القتال ما أمكن وخاصة أن عدد أفراد السرايا كان قليلا ولا يعلم عدد القوة التي سيقابلونها. وقد ذكرنا سابقا (ص ٤٦١ و ٤٦٧) السرايا والغزوات التى وقعت وكلها لم يكن بها قتال، إذ أن أنباء السرايا كانت تصل إلى القافلة فتأخذ حذرها وتسلك طريقا فرعيا وتسرع السير فتفلت من أيدى المسلمين . وغالبا ما كان النبى – فى الغزوات التى قادها بنفسه – يعمد إلى عقد معاهدة عدم اعتداء مع القبائل التى يمر بأرضها فكان ذلك مكسبا كبيرا إذ يؤمِّن المدينة من ناحية هذه القبائل ويضمن ولاءهم أو على الأقل حيادهم.

سرية عبد الله بن جحش = سرية نخلة:

اتخذ النبى في هذه السرية أسلوبا جديدا يضمن سريتها. ذلك بأن تمضى السرية ولا يعلم أحد بوجهتها. ولا حتى قائدها. حتى يصل إلى مكان معين فيفض كتابا كتبه له النبى فيجد فيه

خط السير ومقصده فيمضى إلى الجهة التى عُيِّنت له فى الكتاب وبذلك تكون السرِّية مضمونة. وهو أسلوب تتبعه أجهزة المخابرات حاليا للتعمية على تحركات عملائها. ومعظم كتب السيرة تذكر أن هذه السرية كانت في شهر رجب. إلا أن ما نزل بشأنها من قرآن يقطع بأنها كانت بعد تحويل القبلة وعليه تكون قد وقعت فى أواخر شهر شعبان.

وقالوا كانت سرية عبدالله بن جحش الأسدى مكونة من ٨ من المهاجرين هم:

١ - أبو حذيفة بن عتبة.

٢ - عكاشة بن محصن حليف بنى أسد.

٣ - عتبة بن غزوان حليف بنى نوفل.

٤ - سعد بن أبى وقاص.

٥ - عامر بن ربيعة حليف بني عدى.

٦ - واقد بن عبدالله بن عبد مناف حليف بني عدي أيضا.

٧ - خالد بن البكير بن سعيد بن ليث.

٨ - سهل بن بيضا الفهرى.

ويقول ابن اسحق: وكان النبى قد كتب له كتابا وأمره أن لا يفتحه حتي يسير يومين ثم يمضى لما أمره به ولا يستكره أحدا من أصحابه. فلما سار بهم يومين فتح الكتاب فإذا فيه أمر من النبى بالسير إلى نخلة على أول طريق مكة الكوفة (انظر شكل ١٩ ص ٤٢٧) - وبينها وبين مكة حوالي ٢٠كم - ليرصد أخبار قريش. فأخبر عبدالله بن جحش أصحابه بما فى كتاب النبى وأن من كره المهمة لخطورتها فليرجع. فمضوا كلهم معه، إلا أن سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان ضل لهما بعير فراحا يبحثان عنه فافترقا عن الجماعة ولم يشتركا فيما وقع من أحداث بعد ذلك وأصبحت السرية ٦ أفراد فقط إضافة إلى قائدها.

وقابلت السرية عيرا لقريش - عدد الإبل فيها أقل من أن يسمى قافلة - يحرسها عمرو بن الحضرمى وعثمان بن عبدالله بن المغيرة المخزومي وأخوه نوفل والحكم بن كيسان مولي هشام بن المغيرة. وقرر أفراد السرية قتالهم وكان ذلك - كما كان اعتقادهم - فى أول شعبان. فقتلوا عمرو بن الحضرمى وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان وأفلت نوفل. وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالأسيرين والعير إلى المدينة وأعطوا الغنائم للنبى فقال لهم: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام. وأبى أن يأخذ العير أو الأسيرين. وأسقط فى يد رجال السرية وعنَّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صعنوا وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال والرجال. فردَّ عليهم من كان بمكة من المسلمين: إن ذلك كان في شعبان. وعلى ما يبدو كان ذلك اليوم من الأيام التي يختلف الناس حولها هل هي تكملة للشهر السابق أم بداية شهر جديد كما يحدث أحيانا في أيامنا هذه.

ولكن المشركين إمعانا فى التشنيع على المسلمين ادعوا وأكدوا أنه كان فى شهر رجب وهو من الأشهر الحرم. واشترك معهم يهود المدينة وقالوا: عمرو عمرت الحرب. الحضرمى حضرت الحرب. وواقد وُقِدت الحرب. فلما أكثر الناس فى ذلك نزل قوله تعالى:

«يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه. قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل. ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم» (٢١٧ - ٢١٨).

أى أن مشركى مكة قد استعظموا قتالا حدث فى الشهر الحرام - وصحيح أن القتال فى الأشهر الحرم أمر عظيم ولكن أعظم منه ما حدث من المشركين من صدٍّ عن سبيل الله والمسجد الحرام وإيذاء المسلمين حتى اضطروهم للخروج من مكة - وهذا كله أكبر إثما من القتل. كما أن فتنة المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه إثم آخر. وحذرت الآيات المؤمنين من الاستجابة لإغراءات الكفار فيرتدوا إلى الكفر. فلما نزلت هذه الآيات فرَّج الله عن أعضاء السرية ما كانوا فيه من غم. وبعثت قريش فى فداء الأسيرين: عثمان والحكم. فقال النبى: لا نفديكموهما حتي يقدم صاحبانا (يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبه بن مروان) فإنا نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم. وبعد يومين قدم سعد وعتبة فقبل النبى الفدية عن الأسيرين وأطلقهما. وقد أسلم الحكم بن كيسان وحسن إسلامه وأقام بالمدينة (حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا) وأما عثمان بن عبدالله فعاد إلى مكة ومات بها كافرا.

ثم تعود الآيات **لاستكمال التشريعات المنظمة للمجتمع الإسلامى** بالمدينة والتى كان آخرها رقم ١٦ ص ٤٨٢: فتستأنف بتشريع عن الخمر والميسر:

١٧ - «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما.....».

١٨ - تشريع عن مقدار الصدقة:

«ويسألونك ماذا ينفقون. قل العفو (مازاد عن الحاجة) **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون. فى الدنيا والآخرة».**

١٩ - تشريع عن رعاية اليتامى:

«ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم (أرهقكم) **إن الله عزيز حكيم»** (٢٢٠).

والآيات تحث كافل اليتيم على تنمية أموالهم «إصلاح لهم» وإذا خلطوا مال اليتم بمالهم فلا بأس لأنهم إخوانهم فى الدين ومن شأن الأخ أن يخالط أخاه. وإن اضطر لفقره لأن يأكل من مال اليتم فعليه أن يأكل بالحسنى وليس بإسراف أو إفساد ولو شاء الله لضيَّق على المسلمين بتحريم المخالطة.

٢٠ – تشريع بشأن تزوج المؤمنين من المشركات:

«ولا تنكحوا المشركات حتي يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتي يؤمنوا. ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم. أولئك يدعون إلي النار والله يدعو إلي الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون» (٢٢١).

٢١ – تشريع عن المحيض:

«ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين» (٢٢٢ – ٢٢٣).

٢٢ – تشريع عن الأيمان:

«ولا تجعلوا الله عرضه لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم. لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم (الحلف بغير قصد أو عقد نيَّة) **ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم»** (٢٢٤ – ٢٢٥).

٢٣ – تشريع عن الإيلاء:

وإيلاء الزوج على زوجته كان عادة من عادات العرب قبل الإسلام. فقد كان الزوج – إما فى ثورة غضب أو بسبب الكراهية أو لابتزاز أموالها – يقسم بعدم الاتصال الزوجي بها فتصبح محرَّمة عليه لا هى زوجة ولا هى مطلقة والرجل بهذا يضمن بقاءها فى بيته تخدمه وتخدم أولاده. فنزلت الآية لتمنع هذا الظلم. فأعطت للزوج فرصة أربعة أشهر له أن يقرر خلالها وفى نهايتها إما أن يفئ إلى زوجته وتعود العلاقة بينهما إلى طبيعتها وإلا فليطلقها.

«للذين يؤلون من نسائهم تربُّص أربعة أشهر فإن فاءوا (رجعوا عن القسم) **فإن الله غفور رحيم. وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم»** (٢٢٦ – ٢٢٧).

٢٤ – فى الطلاق والمطلقات:

«والمطلقات يتربَّصن بأنفسهن ثلاثة قروء (ثلاث حيضات) **ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق**

الله فى أرحامهن إن كن يؤمنَّ بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردِّهنَّ فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم. الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به. تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون. فإن طلقها فلا تحل له من بعدُ حتى تنكح زوجا غيره فإن طلَّقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون. وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرِّحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم. وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن (تمنعوهن بالإكراه) **أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون»** (٢٢٨ - ٢٣٢)

ويستفاد من هذه الفقرة أن على المطلقات أن ينتظرن ثلاث حيضات لاستبراء الرحم وفسحة لاحتمال المراجعة ولا يحق لهن أن يخفين ما فى أرحامهن من أجنة. والزوج فى هذه الفترة أحق بمراجعتهن وردِّهن على أن يكون القصد الإصلاح وليس بقصد الضرر. وللزوجات من الحقوق مثل ما عليهن من واجبات وللرجال عليهن درجة لما عليهم من القيام بنفقات الأسرة من زوجة وأولاد. والطلاق مرتان يكون للزوج بعد كل طلقة الحق فى أن يمسك زوجته بمراجعتها أو بعقد جديد إن كان الطلاق بائنا بينونة صغرى. ويكون أيضا القصد الإصلاح أو يكون الطلاق بإحسان. وكما يقول المثل العامى: كما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف. ولا يحق للزوج أن يأخذ من مهر الزوجة أو مؤخر صداقها أو الهدايا التى أهداها إياها شيئا إن كان هو الراغب فى الطلاق. أما إذا كانت الزوجة هى الطالبة للطلاق فلا عليها إن ردت له المهر والهدايا تفتدى به نفسها لتحصل على الطلاق. وهذا هو أساس قانون الخُلع الذى أخذ به المشرِّعون فى السنوات الأخيرة والذى كان معمولا به أيام النبى والحادثة المشهورة المرأة التى أرادت الانفصال عن زوجها فأمر الرسول بأن ترد لزوجها الصداق الذى دفعه وكان بستانا وأمر زوجها بتطليقها. أما إمساك الزوج للزوجة وعدم طلاقها فتصبح معلَّقة لا هى زوجة ولا هى مطلقة تستطيع الزواج بآخر يحقق لها الراحة النفسية والجسدية فهذا ظلم لها وظلم من فاعله لنفسه لمخالفته لأوامر الله. وإذا طُلقت امرأة من زوجها وبانت منه بينونة صغرى وأرادا استئناف الحياة الزوجية فلا يحق لولى أمرها إن يمنعها من ذلك. وقياسا عليه لا يحق للزوج المطلِّق أن يمنع مطلقته من الزواج بغيره.

٢٥ - تشريع للرضاعة:

«والوالدات يرضعهن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له

رزقهن وكسوتهن بالمعروف. لا تكلَّف نفس إلا وسعها. لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما. وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعلمون بصير» (٢٢٣).

والآية تضمنت تشريعات وتعليمات بشأن رضاعة الأطفال وتنهى عن تعمد المضارة بسبب الولد من قبل الأب للأم بأن يهضم حقها في نفقتها أو حضانة ولدها كما لا ينبغى إلحاق الضرر بالأب بمطالبته بنفقة فوق طاقته أو يُحرم رؤية ولده.

٢٦ – فى الأرامل:

«والذين يتوفَّون منكم ويذرون أزواجا يتربَّصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير. ولا جناح عليكم فيما عرَّضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم. علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا. ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم» (٢٣٤ – ٢٣٥).

وللمرأة التى يموت عنها زوجها أن تنتظر أربعة أشهر هلالية وعشر ليال استبراء للرحم وحدادا على الزوج. فإذا انتهت هذه المدة فعلى الوليّ ألا يقف ضد محاولتهن التى يرضاها الشرع ليتزوجن مرة ثانية. ثم يتوجه الخطاب إلى الرجال فيبيح لهم التلويح للأرملة بالرغبة في خطبتها بإشارة لا نُكر فيها ولا فحش. كأن يقول لها: رب راغب فيك، أو ومن يجد مثلك وهكذا ولكن لا يتم الزواج حتى تنقضي العدة. ثم تحذير من مخالفة أوامر الله فالله مُطَّلع على ما فى قلوب العباد.

٢٧ – حكم الطلاق قبل الدخول بالزوجة:

«لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن (أى قبل الدخول بهن) **أو تفرضوا لهن فريضة. ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين. وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى. ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعلمون بصير»** (٢٣٦ – ٢٣٧).

ولا إثم على الأزواج إذا طلقوا زوجاتهم قبل أن يمسوهن وقبل أن يُتفق على المهر. فلا مهر ولكن الواجب إعطاؤهن عطية يتمتعن بها لتخفيف آلام الطلاق. ويدفعها الغنى بقدر وسعه والفقير بقدر حاله. أما إذا كان قد قدَّر للزوجة مهراً فقد وجب لها نصف المهر المقدَّر إلا إذا تنازلت عنه الزوجة. كما أنها لا تُعطَى أكثر من النصف أو المهر كله إلا إذا سمحت نفس

الزوج. وسماحة كل من الزوجين أكرم وأرضى عند الله وأليق بأهل التقوى إبقاء على المودة بين الطرفين.

٢٨ - فى الصلاة:

«حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين. فإن خفتم فرجالا أو ركبانا. فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون» (٢٣٨ - ٢٣٩).

وفى الحديث الشريف الصلاة الوسطى صلاة العصر كذلك يروى قول النبي يوم الأحزاب: شغلونا عن الصلاة الوسطى - صلاة العصر - ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا. ثم صلاها بعد العشاء. وأداء الصلاة واجب لا ينبغى تركه حتى فى حالة الخوف والخطر. وعلى المسلمين أداؤها حتي إذا كانوا راكبين أو ماشين.

٢٩ - فى محل إقامة الأرملة:

«والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فى ما فعلن فى أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم» (٢٤٠).

وهذه وصية من الله بأن تقيم الأرملة (التى لا ولد لها) فى بيت الزوجية عاما كاملا مواساة لها ولا يحق لأحد أن يخرجها، فإن فضلت الخروج قبل إنقضاء العام فلا إثم على الولى أن يتركها تتصرف فى نفسها بما لا ينكره الشرع.

٣٠ - نفقة المتعة:

«وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين. كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون» (٢٤١ - ٢٤٢).

والآية تقرر أن للنساء اللواتى يُطلقن بعد الدخول الحق في أن يعطين ما يتمتعن به من المال جبراً لخاطرهن. وقد تقررت مؤخرا نفقة المتعة فى القوانين المعمول بها فى المحاكم.

عود إلي موضوع القتال:

وكأنما هو تمهيد لقتال قادم. عادت الآيات تذكر القتال من نقاط خمس:

١ - النكوص عن القتال خوفا من الموت لن يُنجى من الموت. يأتى ذلك من خلال قصة قوم خرجوا من ديارهم - وهم ألوف كثيرة - فرارا من الجهاد خشية الموت. فلم يفدهم الفرار شيئا إذ أماتهم الله ثم أحياهم ليعلموا أن الموت حاصل بقتال أو بغير قتال:

«ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون. وقاتلوا فى سبيل واعلموا أن الله سميع عليم» (٢٤٣ - ٢٤٤).

٢ – ثم يأتى حث على الانفاق فى سبيل الله واعتبار ذلك قرضا عند الله يرده أضعافا مضاعفة. وأسباب الرزق كلها بيد الله:

«من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون» (٢٤٥).

٣ – عبرة من قصة قتال طالوت وداود لجالوت:

وتأتى فى الآيات ٢٤٦ – ٢٥١ قصة القتال الذى دار بين طالوت ملك بنى إسرائيل وجالوت قائد جيش الفلسطينيين واشترك فيه داود وقام بقتل جالوت وقد ذكرنا ذلك كله بتفصيل فى الجزء الخامس (ص ٩٦ – ٩٨). وتتمثل العبرة من القصة فى:

أ – تشابه موقف هؤلاء النفر من بنى إسرائيل مع موقف المسلمين المهاجرين: **«وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا»**.

ب – تنديد بهؤلاء الذين نكصوا عن الخروج للقتال: **«فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين»** (٢٤٦).

جـ – وجوب إطاعة الجنود لأمر قائدهم إذ نهاهم طالوت عن شرب الماء بكثرة **«فشربوا منه إلا قليلا منهم»**.

د – أن النصر ليس بعدد الجنود: **«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. والله مع الصابرين»** (٢٤٩).

هـ – أن القتال فيه دفع لظالم المفسدين وهذا فضل من الله على العباد: **«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين. تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** (٢٥١ – ٢٥٢).

٤ – قتال أهل الكتاب بعضهم لبعض:

«تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد» (٢٥٣).

والآيات تذكر أن الله قد فضل بعض الرسل على بعض بما أنعم الله عليهم من آياته. فقد كلّم الله موسى وأيد عيسى بروح القدس فأتى بالمعجزات المادية. وكان الواجب على أتباعهم ألا يقتتلوا لأن الدين واحد لكنهم اختلفوا – بعضهم آمن وبعضهم كفر فاقتتلوا.

٥ – حث ثان على الإنفاق فى سبيل الله:

«يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون» (٢٥٤).

وفى الآية أمر بالإنفاق فى صيغة عامة لتشمل وجوه الخير كلها. ولكن ورود هذا الأمر بعد آيات القتال تفيد أن المقصود هو الإنفاق فى تجهيز الجيوش المقاتلة إضافة إلى الزكاة والصدقات التطوعية. والآية تحث على انتهاز فرصة الحياة الدنيا لفعل الخير وإنفاق المال. قبل أن يأتى يوم لا يُستطاع فيه تدارك ما فات من عمل الدنيا **«لا بيع»** وليس من صداقة يرجى نفعها **«ولاخلة»** ولاتقبل شفاعة من أحد لأحد **«ولاشفاعة»**.

آيـة الكرسى:

«الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سِنة (غفوة) **ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده** (يشق عليه) **حفظهما وهو العلى العظيم»** (٢٥٥).

وتُروى أحاديث كثيرة فى فضل آية الكرسى هذه. فعن أبى هريرة أن النبى قال: لكل شىء سنام وإن سنام القرآن البقرة وفيها آية هى سيدة آى القرآن. آية الكرسى. وعن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله: يا أبا المنذر. أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم . فقال: الله لا إله إلا هو الحى القيوم. فضرب على صدره وقال: ليهنك العلم يا أبا المنذر. وحديث رواه أبو ذر جاء فيه: قلت يا رسول الله أى ما أنزل عليك أعظم؟ قال: آية الكرسى. الله لا إله إلا هو الحى القيوم.

لا إكراه فى الدين:

«لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله واسع عليم. الله ولىُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» (٢٥٦ – ٢٥٧).

ويروى المفسرون فى صدد نزول هاتين الآيتين رجالا أرادوا إكراه أبنائهم على الإسلام. ولكن قوة أسلوب الآيتين تلهم أنهما أعم معنى وقصداً من مناسبة فردية وأنهما تقرران مبدأ قرآنيا عاما.

ثلاث قصص :

وقد وردت هذه القصص الثلاث للعبرة:

١ - قصة الملك الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه وقد ذكرناها بالتفصيل فى الجزء الثانى ص ٢٥٢.

«ألم تر إلى الذى حاجَّ إبراهيمَ فى ربه أن آتاه الله الملك. إذ قال إبراهيم ربىَ الذى يحيى ويميت. قال أنا أحييِ وأميت. قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبُهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين» (٢٥٨).

٢ - قصة شخص شك في قدرة الله على بعث البشر وإحيائهم ثانية:

«أو كالذى مر على قرية وهي خاوية علي عروشها قال أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثتَ قال لبثتُ يوما أو بعض يوم. قال بل لبثتَ مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه (لم يفسد أو يتغير طعمه) **وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها** (نجمع بعضها إلى بعض) **ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير»** (٢٥٩).

٣ - والقصة الثالثة عن إبراهيم إذ سأل ربه كيف يحيى الموتي. وقد ذكرنا هذه القصة فى الجزء الثانى (ص ٢٥٩).

«وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى. قال فخذ أربعة من الطير فصُرهن إليك (ضمها إليك لتعرفها ثم أذبحها وقطعها) **ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم»** (٢٦٠).

ثم استؤنف نزول التشريعات المنظمة للمجتمع المدنى وقد توقفنا عند رقم ٣٠ صفحة ٤٨٨:

٣١ - فى الصدقات :

وهذه الفقرة واحدة من أطول الفقرات عن الصدقات وهى تحث المسلمين على إنفاق المال فى سبيل الله عموما والتصدق علي الفقراء خِصِّيصا. وأن تكون الصدقة خالصة لوجه الله لا يخالطها رياء أو مَنٌّ وإلا كانت كالأرض الخصبة التى ينزل عليها مطر غزير فيزيل التراب وتنكشف طبقة صخرية لا تصلح للزراعة. أما الذين يتصدقون لا يبتغون إلا وجه الله ورضاه فمثلهم كبستان «بربوة» أى على مرتفع من الأرض - وقد أثبت العلم أن ذلك يبعده عن المياه الجوفية ويزيد أرضه خصوبة - فإن أصابه مطر غزير أثمر مثلين وإن لم يصبه إلا «الطل» وهو القليل من المطر - أثمر أيضا. ثم تمضي الآيات تضرب المثل بشخص له بستان فيه من كل الثمرات ثم طاف به إعصار فيه نار أى حار جداً وجاف - كناية عن المن والأذى - فاحترق البستان والرجل ضعيف لكبر سنه وأبناؤه صغار فهو فى أقصى حالات البؤس. وكذلك حال من يتصدق ويتبع الصدقة بالمن والأذى فيبطل ثوابها:

«مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم. الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون

ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم. يا أيها الذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان (صخرة ملساء) عليه تراب فأصابه وابل (مطر غزير) فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين. ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلٌ والله بما تعملون بصير. أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت. كذلك يبين الله لكم الآيات لعلم تتفكرون. يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث (تقصدوا الردىء) منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه (تأخذوه على كره) واعلموا أن الله غنى حميد. الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم. يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب. وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار. إن تبدوا الصدقات فنعمَّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفِّر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير. ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله. وما تنفقوا من خير يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون. للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا. وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم. الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (٢٦١ - ٢٧٤).

٣٢ - تحريم الربا:

كان الربا نظاما تجاريا معمولاً به فى الجاهلية. إن اقترض رجل مبلغا من المال لبعض شئونه ردَّه ومعه زيادة يُتفق عليها. وإن كان للرجل على الرجل دين فإذا حل الأجل ولم يقضِ طلب المدين من الدائن تأخير الأجل مقابل زيادة فى الدين. وقد روى المفسرون أن الآيات نزلت فى مناسبة مطالبة العباس بن عبد المطلب وخالد الوليد وغيرهما بديون لهم بالربا عند بعض الثقفيين. وهي وإن كانت قد نزلت فى مناسبة خاصة إلا أنها تقرر تشريعا يقضى بتحريم الربا. وقيل إن هذه الآيات كانت آخر ما نزل من القرآن. وروى ابن كثير أن عمرا قال: إن آخر ما نزل آية الربا وأن النبي مات ولم يفسِّرها وقال: دعوا ما يريبكم إلى مالا يريبكم أو دعوا الربا والريبة. كما يروى أن النبى قال فى حجة الوداع: إن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أمواكم لا تَظلِمون ولا تُظلمَون. قضى الله أنه لا ربا وإن ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله. وهذا يؤكد أن آيات الربا كانت فعلا آخر ما نزل من القرآن أو على الأقل من آخر ما نزل منه:

«الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا. وأحل الله البيع وحرم الربا. فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. يمحق الله الربا ويُربِى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأْذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تُبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون. وإن كان ذو عُسرة فنظِرة إلى مَيسَرة وأن تَصَدَّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون. واتقوا يوما تُرجعون فيه إلى الله ثم تُوفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلَمون» (٢٧٥ – ٢٨١).

والأسلوب قوى وقاطع نافذ **«وذروا ما بقي من الربا»** والتهديد شديد ومخيف **«فأْذنوا بحرب من الله ورسوله»** ومن يقوى على ذلك! فلا مناص. ولا بد من ترك الربا وإسقاط ما بقي منه. وسارع المسلمون إلى التنفيذ وأعطوا المدين المعسر أجلا بدون زيادة. بل إن كثيرين منهم تنازلوا عن جزء كبير من الدين امتثالا لقوله تعالى **«وأن تصدقوا خير لكم»**.

٣٣ – تشريع فى توثيق المعاملات التجارية = آية الدين (٢٨٢):

وهى أطول آية في القرآن كله إذ تستغرق صفحة كاملة من المصحف. وهى تعلِّم الناس توثيق معلاماتهم التجارية لتوطيد الحق والعدل فيما بينهم وعدم تركها فوضى وما قد ينتج عن ذلك من مشاكل وخلافات وشحناء. إما للنسيان أو رغبة فى اغتصاب حق. ورُفع الحرج عن عدم كتابة التجارة الحاضرة أى المعاملات الفورية من بيع وشراء للسلع. وكذلك أوردت واجبات الكاتب والشاهد وولى السفيه والعاجز والمريض حيث أن أقوال هؤلاء وتوقيعاتهم غير نافذة. وبالطبع فإن القُصَّر داخلون فى شمول هذه العبارة.

وبهذا تنتهى هذه السلسلة الطويلة من التشريعات التى قُصد بها تنظيم المجتمع الإسلامى الذى تكوَّن فى المدينة والتى بلغت ٣٣ تشريعا بدأت فى ص ٤٧٤. ثم تأتى آية تقرر مطلق ملكية الله تعالى لكل ما فى السموات والأرض وتنبه السامعين إلى إحاطته بكل ما يفعلونه أو يقولونه أو يخفونه فى أنفسهم. وأنهم محاسبون عليها إن شاء غفر وان شاء عذَّب:

«لله ما فى السموات وما فى الأرض. وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن شاء ويعذِّب من يشاء والله على كل شيء قدير» (٢٨٤).

ولعل الآية قصد بها تحذير من يرتكب مخالفة لأي من هذه التشريعات. ولو سرا فإن الله بكل شيى عليم ومحاسبه على أفعاله.

ثم تأتى الفقرة الخاتمة للسورة بإعلات قوى عن أن المسلمين يؤمنون بالله وملائكته والكتب

والرسل السابقين لا فرق بين رسول ورسول. ثم تقرر أن الله قد رحم أمة محمد فلم يكلفها مالا تطيق ورفع عنها النسيان والخطأ كما جاء فى حديث رواه ابن عباس قال: قال رسول الله: وُضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. وآخر جملة فى الفقرة فيها وعد بالنصر فى صيغة دعاء من المسلمين:

«آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون. كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطانا. ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته علي الذين من قبلنا. ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا علي القوم الكافرين» (٢٨٥ – ٢٨٦).

وفى فضل هاتين الآيتين أحاديث نبوية كثيرة منها حديث عن ابن عباس جاء فيه: بينا رسول الله وعنده جبريل إذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح فى السماء ما فتح قط. قال فنزل ملك فأتى النبى فقال له: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة. لن تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته. ومنها حديث رواه ابن مسعود عن النبى جاء فيه: من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه. ومنها حديث رواه أبو ذر جاء فيه: قال رسول الله: أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش.

والإصر الذى علَّم الله المسلمين الدعاء بعدم حمله هو ما احتوته الشريعة الموسوية من تشديد فى المأكولات والمحظورات وما اشترط من لباس معين لرجال الدين باختلاف درجاتهم. والحدود والعقوبات والنجاسات المادية والمعنوية وكفارات الأخطاء والخطايا وغير ذلك مما ذكرناه في الجزء الرابع (ص ١٠٢٠ – ١٠٣٥). وقد خفف القرآن عن أمة محمد كثيرا من هذه القيود ودعا أهل الكتاب للإيمان بالنبي واتباعه ليخفف عنهم **«ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم».**

وبهذا تكون قد انتهت سورة البقرة. وهى أطول سور القرآن الكريم وأولى السور التي نزلت بالمدينة وقد احتوت – علي طولها أربعة – موضوعات رئيسية:

١ – دعوة بنى إسرائيل – أى يهود المدينة – إلى الإسلام.

٢ – تحويل القبلة.

٣ – تشريعات منظمة للمجتمع الإسلامى احتوت ٣٣ بندا.

٤ – موضوع القتال. وقد تدرج القرآن فيه بلطف بدءًا من الإذن به وتقديم المبرر له **«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله»** (الآية ٣٨ من سورة الحج ص ٤٥٨). فأرسل النبى السرايا الأولى

(ص ٤٥٩). ثم اشترك بنفسه فى أربع غزوات (ص ٤٦٧). ولم يكن في هذه السرايا والغزوات إلا مناوشات لم تصل إلى حد قتال حقيقى. ثم نزلت الآيات تحث على الصبر وإعلان أن من يُقتلون فى سبيل الله هم فى الحقيقة أحياء عند ربهم (الآية ١٥٤ ص ٤٧٢). ثم إعلان فى الآية ٢١٦ (ص ٤٨٢): **«كتب عليكم القتال وهو كره لكم»** أى أن القتال أمر مكتوب أى حتما سيقع وعلى المؤمنين أن يخوضوا غماره. ثم بيان أن النكوص عن الخروج للقتال لا يمنع الموت. وذلك من خلال قصة القوم الذين لم يخرجوا خوفا من الموت فأماتهم الله (الآية ٢٤٣ ص ٤٨٨) ثم تأتى قصة طالوت وداود وجالوت والعبر التي احتوتها (ص ٤٨٩) من وجوب طاعة القائد وأن النصر ليس بالكثرة العددية **«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين»** (آية ٢٤٩). ثم الحث على الإنفاق فى سبيل الله **«مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة...»** (الآية ٢٦١ ص ٤٩١).

وبهذا تم شحذ الهمم وأصبح المسلمون مهيئين لخوض معركة كبيرة مع قريش.

موقعة بـدر الكبـرى

نحن الآن فى أواخر شعبان من السنة الثانية للهجرة. وقد أدركت قريش أن تجارتها فى خطر. صحيح أنه للآن قد نجحت قوافلها العائدة من الشام – فى الإفلات من أيدى المسلمين ولكن من يدرى ما قد يحدث فى المستقبل. وبدأت قريش تتحيَّن فرصة للانقضاض على المسلمين فى المدينة للقضاء عليهم وإعادة الأمان لقوافلهم. وفى نفس الوقت كان المسلمون يريدون الإيقاع بقافلة كبيرة لقريش تعوِّضهم عن دورهم وأموالهم التى تركوها وراءهم فى مكة حين اضطرتهم قريش للهجرة.

سعد بن معاذ هو أحد الأنصار. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٤٣٤) أن النبى آخى بينه وبين أبى عبيدة بن الجراح. وخرج سعد معتمرا فنزل على أمية بن خلف لصداقة حميمة بينهما. وخرجا ليطوفا بالبيت فلقيهما أبو جهل. فقال أبوجهل لسعد: أراك تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصبأة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم. أما والله لولا أنك مع أمية ما رجعت إلى أهلك سالما. فقال له سعد بصوت عالٍ. أما والله لئن منعتنى لأمنعنك طريقك إلى الشام والله لقد سمعت رسول الله يقول إنهم (أى المسلمون) قاتلوك.

وفى المدينة كان رسول الله قد سمع بأن سفيان بن حرب مقبل من الشام فى قافلة عظيمة لقريش فيها ألف بعير تحمل أموالا طائلة وتجارة كبيرة يحرسها أربعون رجلا فقط. وكانت العير لكل رجالات قريش إلا حويطب بن عبدالعزى (ولهذا تخلف عن معركة بدر). فقال النبى للمسلمين. هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها.

وبدأ الناس يتجهزون. وخفَّ بعضهم وثقل آخرون وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله يلقى

حربا قياسا على ما سبق من سرايا وغزوات. وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسأل من لقي من الركبان عن تحركات المسلمين تخوُّفاً على القافلة وما فيها من أموال الناس. وعلم من بعض الركبان أن «محمدا» قد استنفر أصحابه له ولعيره فأخذ حذره واستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى مكة وأمره أن يسرع إلى قريش ليخبرهم أن «محمدا» قد عرض له فى أصحابه ويستنفرهم لحماية أموالهم.

ننتقل إلى مكة - وقبل قدوم ضمضم إلى مكة بثلاث ليال - رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعتها. ويقول ابن اسحق إنها بعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له: والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتنى وتخوَّفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة فاكتم علىَّ ما أحدِّثك به. فسألها عما رأت فقالت: رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح (مكان فى شمال مكة) ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غُدَر لمصارعكم فى ثلاث. فأرى الناس اجتمعوا إليه. ثم دخل المسجد والناس يتبعونه. فبينما هم حوله اعتلي به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث. ثم اعتلى به بعيره على رأس أبى قبيس (جبل أبى قبيس يقع في شمال شرق مكة) فصرخ بمثلها ثم أخذ بصخرة وقذفها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل تفتتت فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها قطعة. قال العباس والله إن هذه لرؤيا فاكتميها ولا تذكريها لأحد. وخرج العباس فلقى الوليد بن عتبة. وكان صديقا له فلم يتمالك نفسه حتى ذكرها له وطلب منه أن يكتمها. ولكن الوليد ذكرها لابنه عتبة وفشا الحديث حتى تحدثت به قريش. وغدا العباس ليطوف بالبيت. وأبو جهل ابن هشام فى رهط من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة. فلما رآه أبو جهل ذهب إليه وقال له: يا بنى عبد المطلب. متى حدثت فيكم هذه النبيَّة. فسأله وماذاك؟ قال: تلك الرؤيا التى رأت عاتكة. قال وما رأت؟ قال أبو جهل. يا بنى عبد المطلب. أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى يتنبأ نساؤكم؟ قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال انفروا فى ثلاث فسنتربَّص بكم هذه الثلاث. فإن يك حقا ما تقول فسيكون. وإن تمضى الثلاث ولم يكن من ذلك شىء نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت فى العرب .

وفى اليوم الثالث وصل ضمضم بن عمرو الغفارى وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة. أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها. الغوث الغوث.

فتجهز الناس سراعا وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى - يقصدون سرية عبدالله بن جحش والتي قتل فيها عمرو بن الحضرمى (ص ٤٨٢) - كلا والله ليعلمن غير ذلك. ولكن الناس خافوا مما تعنيه بقية الرؤيا. فكان الناس بين رجلين: إما خارج بنفسه للقتال وإما باعث مكانه رجلا لحماية أموالهم ولم يتخلف أحد من أشراف قريش. إلا أن

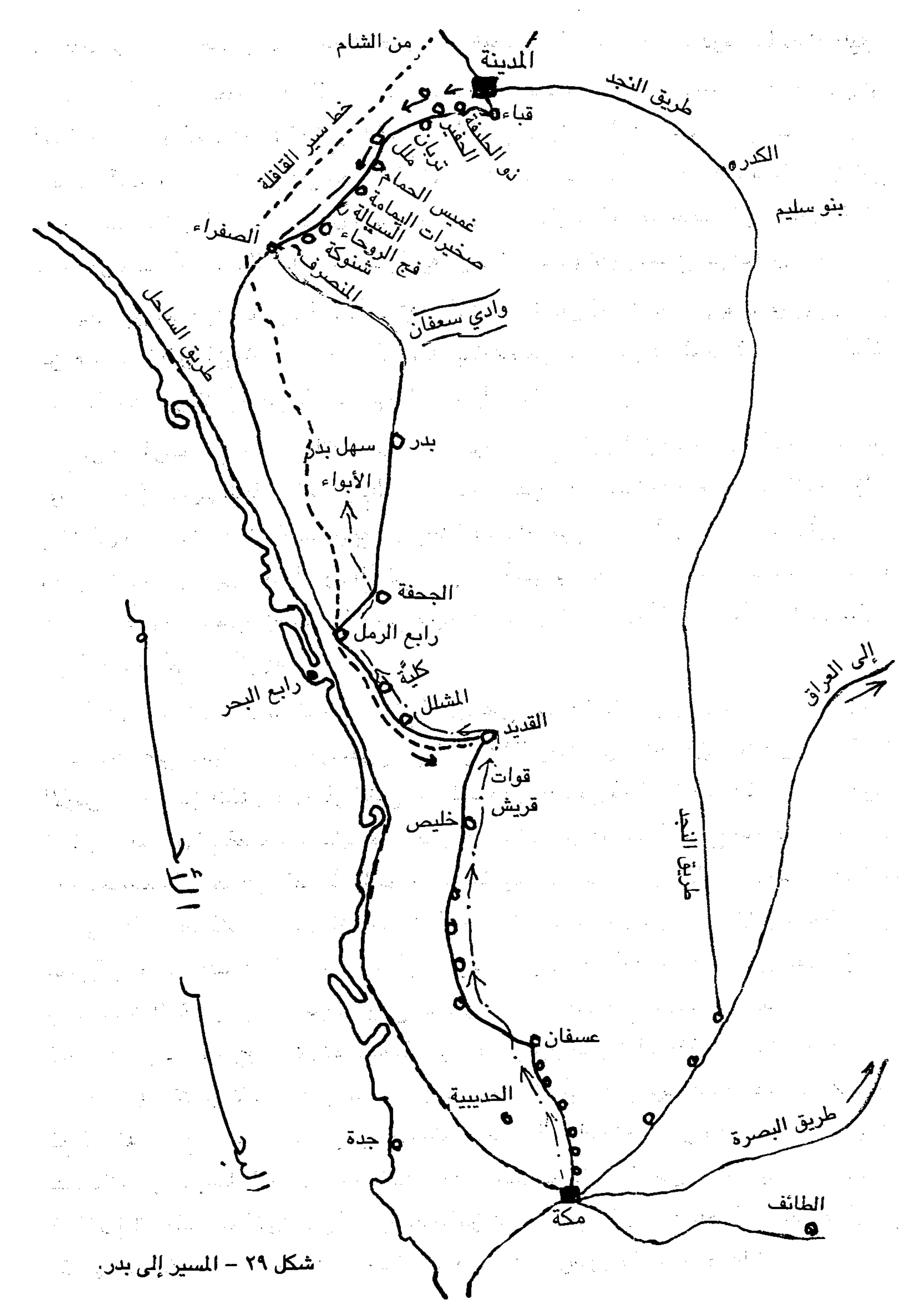
أبا لهب بن عبد المطلب بعث مكانه العاصى بن هشام بن المغيرة بـ ٤٠٠٠ درهم كانت له عليه.

وتذكر أميه بن خلف ما قاله سعد بن معاذ منذ شهر عندما كان يطوف بالبيت من أن المسلمين قاتلوه (ص ٤٩٥) فانتوى القعود. فأتاه أبو جهل وقال له: إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادى تخلفوا معك. ولكن أمية بقى على موقفه. فأتاه عقبة بن أبى معيط وهو جالس فى المسجد بين قومه بمجمرة فيها نار وبخور ووضعها بين يديه وقال له: استجمر فإنما أنت من النساء. فتحمَّس أمية بن خلف وقام وتجهز وخرج مع الناس.

وقال ابن اسحق: ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا المسير ذكروا ما كان بينهم وبين بنى بكر من عداوة وخافوا أن ينتهز بنو بكر الفرصة ويأتوهم من خلفهم. ولكن أحد أشراف بنى كنانة جاء وطمأنهم من ناحية بنى بكر فتشجعوا وساروا لحماية قافلتهم.

خرجتُ قريش فى ٩٥٠ مقاتلا معهم ٢٠٠ فرس حسب قول ابن اسحق (٦٠ فرسا حسب قول آخرين) ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين وأخذوا معهم الإبل والزاد. وكان كل زعيم من زعماء قريش يذبح من إبله ليطعم الجميع يوما. وأول من نحر لهم أبو جهل. نحر عشرا من الإبل. وفى اليوم الثانى نحر لهم أمية بن خلف تسعا. ثم سهيل بن عمرو عشرا. ومالوا من قديد (شكل ٢٩) إلى طريق الساحل إلى رابغ وأقاموا بها يوما ثم ساروا إلى الجحفة. ثم إلى الأبواء.

أما رسول الله فقد استعمل ابن أم كلثوم على الصلاة بالناس وردَّ أبا لبانة من الروحاء واستعمله على المدينة. وكان من خرج مع النبى ٣١٥ رجلا منهم ٨٤ من المهاجرين و٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج. وسار النبى من المدينة إلى العقيق ثم ذى الحليفة ثم أولات الجيش ثم تربان ثم ملل ثم غميس الحمام ثم صخيرات اليمامة ثم السيالة ثم فجج الروحاء ثم شنوكة ثم سجسج كل ذلك على الطريق المعروف من المدينة الى مكة. حتى إذا وصل المنصرف ترك طريق مكة وسلك ذات اليمين (شكل ٣٠) إلى النازية ثم قطع وادى رُحقان بالعرض بين النازية ومضيق الصفراء. ومن هناك أرسل بسبس بن عمر الجهنى وعدى بن أبى الزغباء يتجَّسسان الأخبار عن عير قريش وأبى سفيان وسار النبى حتي نزل بوادي ذفران ليستريح. فأتاه الخبر عن خروج قريش لحماية قافلتهم. وكان أبو سفيان قد اتخذ طريقا جانبيا ونجا بالقافلة. واستشار النبى الناس. فقام أبو بكر الصديق وأيَّد النبى وكذلك فعل عمر بن الخطاب ثم قام المقداد بن عمرو وقال: يا رسول الله، امضِ لما أراك الله. فنحن معك. والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون. ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (قالوا مكان فى أقصى اليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله خيرا ودعا له.



شكل ٢٩ – المسير إلى بدر.

ثم قال رسول الله موليًا وجهه نحو الأنصار: أشيروا عليَّ أيها الناس. وذلك أنهم عندما بايعوه بالعقبة بايعوه على حمايته فتخوَّف النبى ألاَّ ترى الأنصار نصره إلا ممن دهمه بالمدينة وأن ليس عليهم السير معه إلى حرب خارج المدينة. فقال له سعد بن معاذ. والله كأنك تريدنا يا رسول الله. قال أجل. قال سعد: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك. فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك. فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا. إنا لصُبُر فى الحرب. صُدُق عند اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك. فسر على بركة الله. فسُرَّ النبى بقول سعد ثم قال للجميع سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين. والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم.

كان خوض المعركة على درجة كبيرة من الأهمية إذ لو تراجع المسلمون ليحتموا بالمدينة لكان ذلك كسبا معنويا لقريش يشجعهم على التقدم ومحاصرة المدينة ثم اقتحامها ولا يستبعد أن يتحالف اليهود مع قريش فيعمدون إلى ضرب المسلمين من الخلف. فكان لابد من خوض المعركة خارج المدينة.

يقول ابن اسحق. ثم ارتحل رسول الله من رحقان فسلك على ثنايا الأصافر ثم إلى قرية الدابة ثم الحنان ثم عند العدوة الدنيا شمال كثيب يحجبها عن سهل بدر. فلقوا شيخا من العرب فسألوه عن قريش. فقال: لقد بلغنى أنهم خرجوا يوم كذا فإذا كان الذى أخبرنى صادقا فهم الآن عند خليص.

كانت قافلة أبى سفيان قادمة من الشام ولتجنب المرور على المدينة فإنه سلك طريقا جانبيا يقرب من الساحل. ولم يكن به آبار. فكان لابد أن يستقوا من ماء بدر. وعند المنصرف أخذ أبو سفيان طريقا غير مطروق (شكل ٣٠) وقاد القافلة وأناخها خلف كثيب من الرمل جنوب ماء بدر. وكان النبى قد أرسل بسبس بن عمرو وعدى بن أبى الزغباء ليستطلعا أخبار القافلة. فأناخا قريبا من ماء بدر وأخذا دلوا يستقيان فيه. وسمع بسبس وعمرو جاريتين تتحادثان وفهما من حدثيهما أن العير قد تصل بدرا بعد يوم أو يومين. ولعل الجاريتين كانتا مدسوستين إذ أن القافلة كانت جنوب ماء بدر كما ذكرنا آنفا. وعاد بسبس وعمرو إلى رسول الله وأخبراه بما سمعا من الجاريتين.. وكان أبو سفيان – بعد انصرافهما – قد تقدم نحو البئر وكان عليه وقتئذ مجدى بن عمرو الجهنى فسأله أبوسفيان: هل أحسست أحدا؟ قال ما رأيت أحدا أنكره إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل واستقيا ثم انطلقا. فأتى أبوسفيان إلى حيث أناخا وأخذ من أبعار بعيريهما ففتَّه فإذا فيه النوى فقال هذه والله علائف يثرب. فرجع إلى أصحابه وحثهم على الإسراع بترك البئر والمضى بالقافلة.

كانت قريش فى سيرها من مكة قد وصلت الجحفة ونزلوا بها للراحة. ورأى جهيم بن

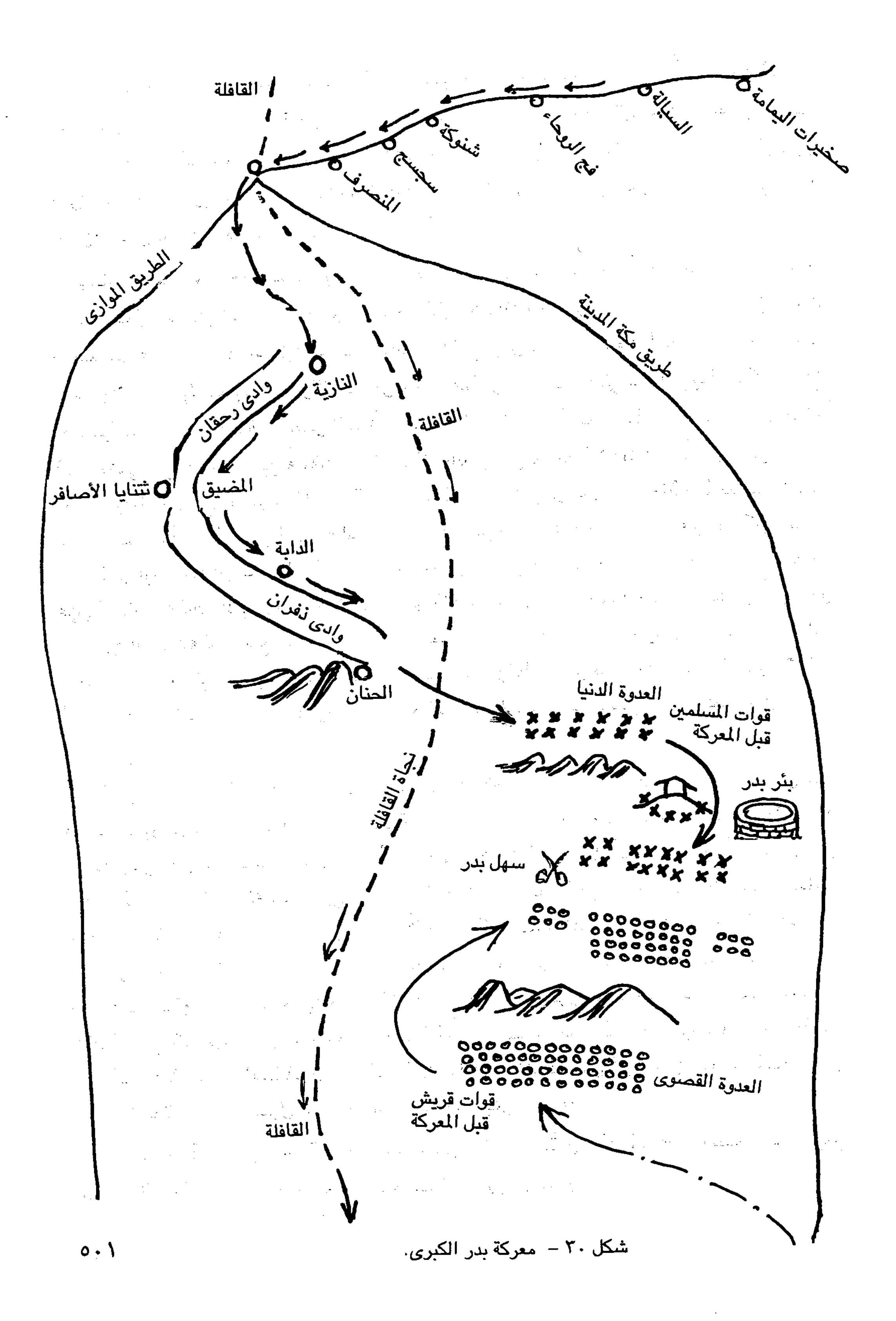
الصلت بن عبدالمطلب فى رؤيا أن رجلا قد أقبل على فرس ومعه بعير له ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف وفلان وفلان ثم ضرب بالسيف عنق بعيره ثم أرسله فى المعسكر فما بقى خباء إلا أصابه رذاذ من دمه. فبلغت أبا جهل فقال: هذا أيضا نبى آخر من بنى المطلب. سيعلم غدا من المقتول إن نحن التقينا.

ولما رأى أبو سيفان أنه قد نجا بالبعير أرسل إلى قريش يقول: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا. فقال أبو جهل بن هشام. والله لا نرجع حتى نردَ بدراً – وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام – فنقيم عليه ثلاثا ننحر الإبل ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً فامضوا.

وكان في القافلة أموال لبنى زهرة فلما رأى رجال بنى زهرة أن تجارتهم قد نجت رجعوا، وكان مع رجال قريش طالب بن أبى طالب ومعه نفر من عشيرته فقال لهم باقي الرجال: والله لقد عرفنا يابنى هاشم. – وإن خرجتم معنا – أن هواكم مع محمد. أى أنهم لن يخلصوا فى القتال. فرجع طالب بن أبى طالب وصحبه إلى مكة مع من رجع. واستمر رجال قريش فى السير من الجحفة حتى نزلوا بالعدوة القصوى جنوب بدر خلف كثيب يحجبه عن سهل بدر. وكان النبى ومن معه قد نزلوا بالعدوة الدنيا شمال بدر.

وفى المساء بعث النبى عليًّ بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص إلى ماء بدر يلتمسون الخبر فأمسكوا غلاما لبنى الحجاج اسمه أسلم. وغلاما لبنى العاص بن سعيد اسمه عريض فأتوا بهما إلى المعسكر وسألوها عن أبى سفيان والقافلة فقالا نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء. فضربوها وأعادوا سؤالهما فقالا نحن لأبى سفيان فكفوا عن ضربهما. وكان النبى يصلي فلما فرغ من صلاته قال: إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما! صدقا والله إنهما لقريش. ثم سألهما عن قريش. قالا وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى. وسألهم كم ينحرون كل يوم؟ قالا يوما تسعا ويوما عشرا. ولما كان البعير يطعم مائة من الرجال قال رسول الله . القوم بين التسعمائة والألف. ثم سألهما: فمن فيهم من أشراف مكة؟ قالا عتبه بن أبى ربيعة وأبو البحترى بن هشام وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وسمَّى عشرة آخرين من أشراف قريش فقال النبى: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

وسار النبى حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به فقام إليه الحباب بن منذر بن الجموح وقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل منزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال النبى: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال الحباب: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل. فامض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه ثم نبنى عليه حوضا. ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال النبى. لقد أشرت بالرأى وفعل. كما أشار الحباب.



شكل ٣٠ - معركة بدر الكبرى.

ثم إن سعد بن معاذ قال: يا نبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ونعدُّ عنده ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزَّنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا. وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءك من قومنا فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبا لك منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ماتخلَّفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه رسول الله ودعا له بخير. فبنوا العريش.

وكانت قريش قد بعثت عمير بن وهب الجمحى وقالوا له احزر لنا أصحاب محمد. فجال بفرسه حول معسكر المسلمين ثم رجع إليهم فقال ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون. ولكن يا معشر قريش رأيت البلايا تحمل المنايا. نواضح يثرب تحمل الموت الناقع. قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم. والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم. فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فانظروا رأيكم. فلما سمع حكيم بن حزام ذلك. مشى إلى عتبة بن ربيعة وقال له: إنكم لا تطلبون من محمد إلا دية الحضرمىّ وهو حليفك فتحمَّل بديته ويرجع الناس. فقام عتبة خطيبا وقال يا معشر قريش. إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا. والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه: قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته. فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابوه فذلك الذى أردتم. وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرِّضوا منه ما تريدون. فرد أبو جهل وقال. والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وإن عتبة رأى ابنه بين أصحاب محمد فخافكم عليه. ثم بعث إلى عامر بن الحضرمى وقال: قد رأيت ثأرك بعينك فقم وخذ بثأر أخيك. فقام عامر وصرخ: واعمراه. واعمراه فتحمَّس القوم للقتال ولم يرجعوا كما أشار حكيم بن حزام.

وكان النبى فى اليوم السابق للمعركة قد قال لأصحابه: إنى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لاحاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله. ومن لقى أبا البحترى بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله. ومن لقى العباس بن عبدالمطلب فلا يقتله فإنه إنما خرج مستكرها. فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وإخواننا ونترك العباس. والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف. فبلغت رسول الله. ولا يخفى ما فى هذا الرد من تطاول على مقام النبوة فقال عمر. يا رسول الله دعنى أضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق. وبلغ أبا حذيفة استنكار النبى لما قال. ويقول عن نفسه: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ولا أزال منها خائفا إلاَّ أن تكفِّرها عنى الشهادة. وقد قتل أبو حذيفة يوم اليمامة شهيدا. والحقيقة أن العباس كان بقلبه مع المسلمين وكان لوجوده بمكة فائدة كبرى فقد كان بمثابة عين لرسول الله يخبره بما تنوى قريش فعله وبما تدبِّره.

كما يروى أن رسول الله قد تفقد سهل بدر - الذى ستدور المعركة على أرضه - فى اليوم السابق للمعركة وحدد لأصحابه مواضع مصارع رؤوس المشركين.

وجاء يوم المعركة، يوم الجمعة ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة، وراح رسول الله يَصُف أصحابه صفوفا كما فى الصلاة وفي يده عصا يعدِّل بها القوم، فمر بسواد بن غزية حليف بنى عدى بن النجار وهو متقدم عن الصف فضربه على بطنه بالعصا وقال: استَوِ ياسواد، فقال: يارسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى (أى آخذ حقى منك) . فكشف رسول الله عن بطنه وقال: استقد، فقبَّل سواد بطن رسول الله فقال له: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدى جلدك، فدعا له الرسول بخير، وبعد أن عدَّل النبى الصفوف رجع إلى العريش، يكثر الابتهال والتضرع ويقول فيما يدعو به ربه: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد بعدها فى الأرض، اللهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها تُحادك وتكذب رسولك، اللهم أحنهم (أى أهلكهم) الغداة، وجعل يهتف ويقول: اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم نصرك، ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه وأبو بكر يقول له: يا رسول الله، بعض مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك.

المعركـــة :

فى صبيحة يوم المعركة تواجه الفريقان، وكانت قوات الجانبيين كما فى شكل ٣٠ ص ٥٠١:

أ – **تشكيل فريق المسلمين:** كان صفوفا متراصة أشبه بالصفوف وقت الصلاة وقسم الرسول الرجال إلى ثلاث كتائب، ولم يكن لدى المسلمين أى احتياطيات سوى الفصيلة التى تحرس مركز القيادة وهو عريش رسول الله والذى كان مقاما على ربوة تشرف على ميدان المعركة.

ب – **تشكيل قوات قريش:** قسم المشركون قواتهم إلى قلب من المشاة وجناحين: ميمنة وميسرة قوام كل منهما حوالى ١٠٠ فارس.

وكانت الخطة التى وضعها النبى وأمر رجاله بتنفيذها هى عدم البدء بالهجوم إنما الثبات وعدم رمى السهام إلا بعد أن تدنو قوات العدو وتصبح على مسافة قريبة فتنهال عليهم السهام بكثافة عالية فتصيب منهم أكبر عدد ممكن قبل الالتحام الفعلى، كما أن بقاء المسلمين فى المكان الذى اختاروه كان لا يسمح بتطويقهم من الأجناب وبذلك تنعدم ميزة فرسان المشركين.

وكانت العادة تلك الأيام – قبل أن تبدأ المعركة الفعلية بين أى جيشين – أن يتبارز قائد أو أكثر من كل جانب مع مناظر له من الجانب الآخر، وكانت الروح المعنوية للفريق الفائز فى هذه المبارزات ترتفع كثيرا مما يكون له أثر إيجابى على أدائه فى المعركة ذاتها، وكان المتبارزون يحرصون على أن يكون خصومهم من نفس طبقتهم الاجتماعية وعلى نفس كفاءتهم العسكرية إذ يرونه حطا من كرامتهم أن يبارز شريف واحدا من العامة.

وبرز من جانب المشركين عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد. فقالوا من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار. وأراد الرسول أن يكون المتبارزون من المهاجرين فقال: قم يا حمزة وقم ياعليّ وقم ياعبيدة بن الحارث بن المطلب. وانتهت المبارزة بقتل فرسان المشركين الثلاثة فكانت بداية سيئة لقريش إذ فقدت ثلاثة من خيرة رجالها. وأصيب عبيدة بن الحارث. وقد مات بعد عدة أيام متأثرا بجراحه.

ثم بدأ المشركون بالهجوم فقابلهم المسلمون برشقات كثيفة من السهام وهم ثابتون فى مواقعهم. فألحقوا بالمشركين خسائر فادحة فكانوا يرتدُّون للخلف ثم يعيدون الهجوم دون أن يتزحزح المسلمون عن مواقعهم. وأخذ رسول الله كفا من الحصى بيده ثم خرج فاستقبل القوم وقال. شاهت الوجوه ثم نفخ المشركين بها ثم قال لأصحابه احملوا. والتحم الجمعان. وبعد قتال مرير اشترك فيه الرسول وأبو بكر والجماعة التى حول العريش بدأت علامات الفوضى تظهر فى صفوف المشركين. وقال النبى: أبشر يا أبا بكر. هذا جبريل معتجز بعمامته آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع. أتاك نصر الله الذى وعدته. واقتربت المعركة من نهايتها وعمد بعض القرشيين إلى الفرار. وحاول أبو جهل أن يصمد هو ونفر من رجاله أمام المسلمين ولكنه قتل وقتل معه عدد كبير من المشركين. وتفرق الباقون وولوا الأدبار. وما جاء المساء حتى كانت المعركة قد انتهت بنصر مبين للمسلمين. فلم يقتل منهم غير ١٤ شهيدا: ٦ من المهاجرين و ٨ من الأنصار في حين خسرت قريش ٧٠ قتيلا وأسر ٧٠ آخرين.

وبقى المسلمون - كعادة المنتصر - في بدر بعد المعركة ثلاثة أيام فى حين انسحب القرشيون عائدين إلى مكة يجرُّون أذيال الهزيمة. وكانت معركة بدر نقطة تحول هامة فى تاريخ الدعوة الإسلامية فقد ثبتت أقدام المسلمين وانكسرت شوكة قريش.

مقتل أبى البخترى بن هشام: قلنا فى الصفحة السابقة إن رسول الله نهى عن قتل أبى البخترى لأنه كان أكفَّ القوم عن رسول الله وهو بمكة. كان لا يؤذيه ولا يقول فيه قولا يكرهه. وكان ممن قاموا فى نقض الصحيفة (ص ١٩١). وفى المعركة لقيه المجذَّر بن زياد حليف الأنصار وحاول جاهداً أن يأسره ولكنه كان يقاتله فقتله ثم أتى رسول الله وقال: والذى بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به فأبى إلا أن يقاتلنى فقاتلته فقتلته.

مقتل أمية بن خلف: كان أمية بن خلف من أشد الكفار علي المسلمين وكان هو الذى يعذِّب بلالا فى مكة ونجا من الموت فى المعركة. وفى اليوم التالى للمعركة - وقبل أن تبدأ قريش مسيرة العودة - أبصره بلال وهو يمشى فى الجبل منفردا فصاح: رأس الكفر أمية بن خلف! لا نجوت إن نجا وهجم عليه وقتله.

مقتل أبى جهل: وهو عمرو أبو الحكم بن هشام المخزومى. كان رجال من قريش يلتفون حول أبى جهل وهم يقولون: أبو الحَكم لا يُخلص إليه..ويقول معاذ بن عمرو بن الجموح. فلما

سمعتها جعلته من شأنى وقصدت نحوه وتحينت فرصة فضربته ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه. فرد ابنه عكرمة وضرب معاذ على عاتقه فطرح يده. ثم إن أبا جهل استمر فى القتال حتى قتله شابان من الأنصار.

أما قتادة بن النعمان الأنصارى فكانت عينه قد أصيب يوم بدر حتى خرجت على وجنته وأشاروا بقطعها. فسألوا رسول الله فمنعهم. ثم وضع كفَّه على العين وأعادها مكانها والتأمت بإذن الله. وقالوا فكانت أحسن عينيه.

وفى اليوم التالى للمعركة تفقد رسول الله أرض المعركة وتعرَّف على من قتلوا من المشركين ثم أمر بطرحهم في قليب عبارة عن بئر جافة مهجورة وأهيل التراب عليهم. إلا أمية بن خلف إذ كان قد انتفخ فى درعه فلم يستطيعوا تخليصها منه للانتفاع بها كما أن لحمه كان قد بدأ يتقطع فتركوه مكانه وغيبوه بالتراب والحجارة.

وفى اليوم الثالث. قبل عودته إلى المدينة وقف النبى على ناقته على حافة القليب وقال: يا أهل القليب. وبعض كتب السيرة تزيد فتذكر أنه نادى على بعض الرجال بأسمائهم فقال: يا أمية بمن خلف. يا أبا جهل بن هشام. ياعتبة بن ربيعة. يا شيبة بن ربيعة. هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا. فإني قد وجدت ما وعدنى ربى حقا. فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتنادى قوما بعد ثلاث وقد جُيِّفوا؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى.

وقيل إن النبى نظر إلى وجه أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعه فلحظ فيه نظرة حزن وأسى على مقتل أبيه. فقال له يا حذيفة. لعلك قد دخلك من شأن أبيك شىء؟ فقال: لا والله يا رسول الله ما دخلنى شيئ فى أبى ولا فى مصرعه ولكنى كنت أعرف عنه رأيا وحلما وفضلا فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام. فلما رأيت أنه قد مات على الكفر أحزننى ذلك. فدعا له الرسول بخير.

الموقف من الأسرى.

كان الأسرى ٧٠ رجلا فقال الرسول لأصحابه: ما تقولون فى هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يا رسول الله. كذبوك وأخرجوك فمر بهم فاضرب أعناقهم. فقال النبى: إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن. وإن الله ليشد رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة. وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: «**فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم**» وتضيف بعض كتب السيرة أنه قال أيضا. ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: «**إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**» ولكن هذه الآية جاءت فى سورة المائدة (الآية ١١٨) ولم

تكن سورة المائدة قد نزلت بعد والمرجَّح أنها زيادة من بعض كتاب السيرة. وقال النبى وإن مثلك يا عمر مثل نوح: قال **«رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّارا»** (٢٦ - نوح). وإن مثلك يا عمر مثل موسى. قال **«ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم»** (٨٨ - يونس).

وأخذ النبى برأى أبى بكر وقَبِل الفداء فى الأسرى. وقال أبو داود إن النبى جعل فداء الأسير ٤٠٠ درهم. وكان العباس قد أسره رجل من الأنصار فأرسل رسول الله عمر بن الخطاب إلى آسره ليحضره. وفى الطريق قال له عمر: يا عباس أسلم (فيطلق سراحه دون فداء). فوالله لئن تسلم أحب إلىَّ من أن يسلم الخطاب (أبو عمر). وما ذلك إلا لأنى رأيت رسول الله يعجبه إسلامك. ولكن العباس رفض. وسنرى فيما بعد (ص ٥١٧) أنه دفع فداء نفسه وفداء ابن أخيه وفداء حليفه.

العودة إلى المدينة:

قلنا إن العادة كانت فى تلك الأيام أن يبقى المنتصر ثلاثة أيام فى أرض المعركة بينما ينسحب المنهزم إلى دياره. ولما كانت معركة بدر قد وقعت يوم الجمعة ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة فيكون اليوم الثالث هو الإثنين ٢٠ رمضان وفيه غادر النبى بدراً عائدا إلى المدينة ومعه الأسرى والغنائم الكثيرة. وقد بعث رجلين إلى المدينة ليبشرا بالفتح والنصر والظفر هما عبدالله بن رواحة وزيد بن حارثة. ولما كان النبى عند مضيق الصفراء أمر بضرب عنق أسيرين هما: النضر بن الحارث الذى ضرب على بن أبى طالب عنقه وعقبة بن معيط لشدة عداوتهما لرسول الله وإيذائهما له إيذاء فيها خسة ونذالة. ويقال لما أمر النبى بقتل عقبة قال له عقبة: أتقتلنى يا محمد من بين قريش؟ قال نعم. ثم التفت إلى أصحابه وقال أتدرون ما صنع هذا بى؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام ووضع رجله على عنقى وغمزها (أى ضغطها بشدة) فما رفعها حتى ظننت أن عينىَّ ستندران. وجاء مرة أخرى بسلا شاة (أحشائها) فألقاه على رأسى وأنا ساجد فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى. ويقال إن عليا بن أبى طالب هو الذى قتل عقبة أيضا وقال ابن هشام: كان هذان الرجلان من شر عباد الله وأكثرهم كفرا وعنادا وبغيا وحسداً وهجاءً للإسلام وأهله.

وفاة رقية:

كانت رقية بنت النبى قد مرضت قبل خروج النبى لوقعة بدر بعدة أيام فأمر النبى زوجها عثمان بن عفان أن يتخلف ليرعاها وضرب له بسهمه فى غنائم بدر وأبقى معه أسامة بن زيد. ولكن القدر لم يمهلها فتوفيت ودفنت بالبقيع.

فرح المدينة بالنصر:

ووصل البشيران ساعات قليلة بعد أن ماتت رقية. وراح كل واحد منهما ينادى. ذلك فى أعلى المدينة والآخر فى أسفلها: أبشروا بسلامة رسول الله وقتل المشركين وأسرهم. وراحا يذكران أسماء من قتل من أئمة الكفر والناس لا يصدِّقون ويقولون إنهما مارجعا إلا هاربين ويهذيان بالنصر من شدة الخوف. وخرج الأنصار إلى مشارف المدينة ينظرون فإذا برسول الله والمسلمين قادمين ومعهم الأسرى والغنائم. فقابله أسيد بن الحضير. وقال له يا رسول الله. الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينك. والله يا رسول الله ما كان تخلفى عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوا ولكن ظننت أنها عير. ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت. فقال له النبى: صدقت.

ثم علم النبى بوفاة ابنته رقية ودفنها بالبقيع فذهب إلى قبرها ومعه فاطمة ابنته وعدد من المسلمين وارتمت فاطمة على قبر أختها تبكيها وارتفع نحيب النساء فزجرهن عمر بن الخطاب ولكن الرسول كفَّه قائلا: مهما يكن من العين والقلب فمن الله والرحمن. ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان. ودعا الرسول لابنته المتوفاة ثم انصرف. والمعنى نهي عن لطم الخدود وشق الجيوب والنواح والعويل. أما البكاء بدمع وحزن القلب فلا بأس به.

فى المغانم:

كان أصحاب رسول الله يوم بدر وبعد أن لاحت تباشير النصر كالآتى:-

١ – فرقة سارت وراء المشركين يقتلون منهم ويأسرون.

٢ – فرقة راحت تجمع الغنائم من ساحة القتال.

٣ – فرقة أحاطت بالعريش وفيه رسول الله مخافة أن يرجع أحد من المشركين إليه. وتنازع الرجال حول تقسيم الغنائم التى جمعت. فالذين جمعوها ادعوا أنها من نصيبهم قائلين نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد نصيب فيها. وقال الذين خرجوا فى طلب العدو ومطاردته لستم بأحق بها منا. نحن نفينا عنها العدو فأمكنكم أن تجمعوها. وقال الذين أحاطوا برسول الله: لستم بأحق بها. نحن أحطنا برسول الله وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به. واختلفوا اختلافا كبيرا هدَّد بحدوث صدع فى صفوف المسلمين وكادت تحدث فتنة فبلغ الرسول اختلافهم. ولعل بعضهم سأله حلا لهذا الخلاف فكان أن نزلت سورة الأنفال.

سورة الأنفال:

«يسألونك عن الأنفال. قل الأنفال لله والرسول. فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين» (١).

وهكذا أرجع الله تقسيم الغنائم إلى رسول الله وهو يعمل بأمر ربه فيها. وكما قال عبادة بن الصامت: لما اشتد الخلاف حول توزيع الغنائم نزلت سورة الأنفال فنزع الله النفل من بين أيدينا فجعله إلى رسول الله فقسمه بين المسلمين على السواء.

ولا شك أن نزع الغنائم من المحاربين كان أمرا شديدا عليهم فعهدهم فى كل ما مرُّوا به من حروب فى الجاهلية أن للمحارب ما غنم. وكان يُخشى أن يترك هذا الأمر فى نفوس مَن نزعت منهم الغنائم شيئا من عدم الرضا فجاء حث على تقوى الله وأمر بطاعة الله والرسول. ثم ركزت بقية السورة على النقاط التالية:

١ - وصف المؤمنين بأنهم هم الذين تخشع قلوبهم لذكر الله فيطيعونه.

٢ - بيان أن الله هو الذى دبَّر لوقوع المعركة.

٣ - بيان تأييد الله لهم بالملائكة.

٤ - إعلان أن النصر كان من عند الله.

٥ - دعوة ثانية بأن يطيعوا الله ورسوله وأن يتقوا الفتنة والخلاف.

٦ - نهى عن خيانة الله ورسوله بإخفاء جزء من الغنائم.

٧ - رسالة إلى كفار قريش بعد المعركة.

٨ - تشريع الخمس فى الغنائم.

١ - وصف المؤمنين:

«إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقا. لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» (٢ - ٤).

والآيات تصف المؤمنين بالخشوع والوجل إذا ذكر الله وجاءتهم أوامر من عنده. ويزدادون إيمانا بطاعته ويتوكلون عليه. ولعل ذكر **«ومما رزقناهم ينفقون»** قصد به أن الأثوب هو الإنفاق والتصدق وليس التكالب على الغنائم.

٢ - ذكر تدبير الله لوقوع المعركة:

«كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يُحِق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» (٥ - ٨).

فى هذه الآيات يبين الله للمسلمين أنه هو الذى دبَّر ظروف المعركة. إذ ألهم نبيَّه الخروج لاعتراض قافلة قريش. وكان المسلمون يودُّون أن تكون القافلة من نصيبهم لأن الانتصار على حراسها القلائل أمر سهل والغنيمة كبيرة. فلما عرف المسلمون أن القافلة قد نجت وأن جيشا كبيرا قد خرج من مكة قاصدا حربهم كان رأى البعض هو الاشتباك مع العدو. ولكن البعض

الآخر اقترح العودة وعدم الاشتباك وأخذوا يجادلون ويظهرون كراهيتهم للحرب وتهيبهم من نتائجها. ولاشك أن هذا كان رأيا خاطئا كما ذكرنا من قبل إذ لو رجعوا فما هم بمأمن من أن يقتحم جيش المشركين المدينة ويقاتلهم ولا يستبعد أن ينضم اليهود إلى قريش لكراهيتهم للمسلمين. كانت نظرة المشيرين بالرجوع نظرة ضيقة إذ أرادوا أولا القافلة ثم لما أفلتت نشدوا السلامة. إلا أن الله كان يريد إعلاء الحق بإلحاق هزيمة بقريش لذلك كان النصُّ على أن هدف الحرب كان هو إحقاق وإبطال الباطل..

٣ – بيان أن الملائكة حاربت إلى جانب المسلمين:

«إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى مُمِدُّكم بألف من الملائكة مردفين (متتابعين)**. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. إذ يُغشيكم النعاس أَمَنَةً منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثَبِّتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. ذلك بأنهم شاقُّوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب. ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار»** (٩ – ١٤).

ذلك أن المسلمين لما علموا أن الكفار يبلغون ثلاثة أمثالهم عددا ومنهم ٢٠٠ فارس فى حين أن المسلمين ليس لديهم إلا فارس واحد – داخلهم الخوف وراحوا يستغيثون الله قبل المعركة. وبدأت وساوس الشيطان تدخل إلى قلوب فريق منهم. فألقى الله عليهم النعاس حتى لا يستمروا فى قلقهم ووساوسهم. فكان فى النعاس راحة لهم وتطمينا لهم. كما أنزل عليهم مطرا خفيفا ليستقوا ويثبت الأرض تحت أقدامهم. ثم أخبرهم الله أنه – زيادة على ذلك – أمدَّهم بألف من الملائكة لإلقاء الرعب فى قلوب الكفار حتى يتمكن المسلمون من ضرب أعناقهم. وأمر الملائكة من المسائل الغيبية والواجب الإيمان بكل ما يخبر به القرآن الكريم عنهم. وليس صحيحا أن المسلمين رأوا الملائكة تحارب عنهم أو معهم. بل إنهم لما اشتدت المعركة وحمى وطيسها وقطع المسلمون صلتهم بالدنيا واستغرقوا فى الجهاد فى سبيل الله ولم يكن فى ذهنهم إلا الله ورسوله وإعلان دينه. شملتهم العناية الربانية وأيَّدهم بملائكته. فالنصر كان أولا وأخيرا من عند الله ولو تُركوا لقوتهم وحدها ما انتصروا.

٤ – حث المسلمين على الثبات فى أى لقاء قادم:

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا (أى زاحفون عليكم بكثرتهم) **فلا تولُّوهم الأدبار. ومن يولِّهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير»** (١٥ – ١٦).

والآيات تحث المسلمين على الثبات فى المعارك وعدم الفرار من أمام العدو حينما يتزاحفون للقتال. أمّا من يستدير ويعطى العدو ظهره - بدون قصد حربى مشروع كتقهقر محسوب لاستدراجح العدو إلى كمين مثلا - فقد باء بغضب الله واستحق النار. ولما كانت الآيات قد نزلت بعد الموقعة فهى تشير إلى أن بعض المسلمين وقت اشتداء المعركة أصابهم شيء من الاضطراب وكاد بعضهم أن يهم بالفرار ولكن الله أنزل الملائكة فثبّتتهم. وجاءت هذه الآيات لتحذر من مثل هذا الجزع فى المستقبل فإن فرار واحد من الصف قد يوهن الصف كله ويعرض النصر للضياع.

٥ - بيان أن النصر من عند الله :

«فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى. وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنًا إن الله سميع عليم. ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين» (١٧ - ١٨).

والآيتان توضحان للمسلمين أنهم فى الحقيقة لم يقتلوا المشركين ولكن الله هو الذى قتلهم. وتكرر هذا المعنى فى إخبار النبى بأن الله هو الذى رمى الشركين ونصر المؤمنين ليكون في ذلك اختبار لهم. ولعل جزءا من هذا الاختبار هو تنازلهم طواعية عن الغنائم التى بأيديهم وخاصة بعد أن أوضح الله لهم أن النصر كان من عنده هو وليس من عندهم.

٦ - تحذير لقريش:

«إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم. وإن تعودوا نعد ولن تغنِيَ عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين» (١٩).

ويُروى أن أبا جهل وقف عند الكعبة قبل خروجه إلى بدر ودعا الله أن ينصر الأهدى والأفضل من الفريقين وأن يفتح عليه وأن يخذل أقطعهما للرحم. فجاءت الآيات تشير إلى ذلك وقيل تهكما إن الفتح قد جاءهم وهو فى الحقيقة خذلان وخزى. ثم تدعوهم الآيات إلى إنهاء عداوتهم لأن ذلك خير لهم. وإن عادوا لقتال المسلمين عاد الله إلى تأييدهم ولن تكون أعدادهم - مهما ضمُّوا إليهم من أحلاف وكثرت أعدادهم - ذات جدوى لأن الله مع المؤمنين.

٧ - دعوة لطاعة الله ورسوله:

«يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تَوَلَّوْا عنه وأنتم تسمعون. ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون. إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون. ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولَّوا وهم مُعرضون. يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون. واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب. واذكروا إذ أنتم قليل

مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون» (٢١ - ٢٦).

وفى الآيات نداء موجه إلى المؤمنين بإطاعة الله ورسوله وينهاهم عن إهمال أوامره وعدم الاستماع إليها أو الاستماع إليها وعدم العمل بها فيكونوا كغير السامعين ويصبحوا أدنى درجة من الدواب لأنهم صم بكم ولا يعقلون. ثم نداء ثان لهم بالاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم لما فيه مصلحتهم وحياتهم، ثم يخبرهم أن الله قد يحول بين المرء وقلبه وهو تحذير من أن يتحولوا من الإيمان إلى الكفر. وقد جاء فى الحديث الشريف: إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء. ولا شك أن المقصود بهذين النداءين هو إطاعة الله فيما أمر به من النزول عن الغنائم وإيكال أمر قسمتها إلى الرسول والاستجابة لهذا الأمر حتى يتجنبوا الفتنة التى بدأت بوادرها تبدو فى الأفق من خلاف حول هذا الموضوع. والآيات - وإن كانت قد نزلت فى مناسبة خاصة - إلا أنها وُضعت فى صيغة عامة لتصلح لكل الأزمنة ولكل المناسبات. ثم تعود الآيات لتذكرهم بأن هذه الغنائم هى من فضل الله ورزقه فقد كانوا فى مكة ضعفاء يكاد المشركون أن يتخطفونهم. فآواهم إلى يثرب وأيدهم بنصره والواجب شكره بإطاعة أوامره.

٨ - النهى عن اختلاس بعض الغنائم:

«يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون. واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم. يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا (بمعنى هداية) **ويكفِّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم»** (٢٧ - ٢٩).

وهذه الآيات أيضا قد صيغت بحيث تكون أمرا لجميع المسلمين فى كل وقت وفى كل زمان - بعدم خيانه الله والرسول أو خيانة الأمانة. إلا أنها تقصد ماقد يراود نفوس بعض المحاربين من إخفاء جزء من الغنائم ليأخذوه لأنفسهم خلافا لما أمر به الله من رد الغنائم كلها إلى الرسول ليقسمها بين المسلمين بما يريه الله. وقد وصفت الغنائم هنا بـ «أماناتكم». أى أنها أمانة عندهم. ثم كان التنبية بأن الأموال والأولاد فتنة قد تجعل قلب المرء يزيغ عن الحق ولكن الأجر العظيم هو عند الله. ثم حث على تقوى الله حتى يجعل لهم هداية ويكفر عنهم سيئاتهم ويغفر لهم ذنوبهم.

٩ - رسالة إلى كفار قريش بعد المعركة:

وقد يثور تساؤل عن جدوى إنزال آيات بالمدينة موجهة إلى كفار قريش. والرد هو أن قريشا كانت تحرص على العلم بكل ما ينزل على «محمد» فهى تعلم أنه والمسلمين يمتثلون لما يمليه عليه الوحى عليه أو أن «محمداً» - حسب معتقدهم - يضع الآيات التى تعبِّر عن سياسته

سياسته تجاهم فكانوا يحرصون على معرفتها. وفى المقابل كان هناك أمل - ولو ضئيل - فى أن تفيء قريش إلى رشدها وتؤمن.

«وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين. وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين. وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون. وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه. إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون. وما كان صلاتُهم عند البيت إلا مُكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون والذين كفروا إلى جهنم يُحشرون. ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون. قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير. وإن تولَّوْا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير» (٣٠ - ٤٠).

والآيات تُذَكِّر كفار قريش بما فعلوه مع الرسول فى مكة وما فكروا فيه من أن يحبسوه أو يقتلوه وأخيرا ضيقوا عليه وعلى أصحابه حتي اضطروهم إلى الخروج من مكة. وأنكروا الوحى وقالوا إن القرآن ما هو إلا أساطير الأولين. ثم تحدُّوا النبى بأن يأتيهم بعذاب أليم. ولم يكن الله لينزل عليهم العذاب لأن النبى كان بينهم ولكنهم كانوا مستحقين العذاب لأنهم كانوا يصدون عن البيت الحرام بدعوى أنهم أولياؤه وأصحابه فى حين أنهم ليسوا كذلك. وحتى صلاتهم التى كانوا يصلونها عند البيت وادعوا الولاية عليه بسببها لم تكن إلا صفيرا وتصفيقًا وليس فيها خشوع. ثم تشير الآيات من طرف خفى إلى أن هزيمتهم فى بدر هى نوع من العذاب الذى طلبوا أن ينزل بهم. فقد أنفقوا أموالهم لمحاربة الله ورسوله فكانت عليهم حسرة وهزموا وسيحشرون إلى الله ليستكملوا العذاب. وأخيرا دعوة إلى الكفار بالانتهاء عن موقف العناد والعداء فيغفر الله لهم ماقد سلف. أما إذا استمروا على موقفهم فليس للمؤمنين مناص من قتالهم - إذ أن هذه هى سنة الله - حتى تختفى الفتنة ويظهر دين الله. ثم يأتى تشجيع للمسلمين إذ يعلمون أن الله يتولاهم وهو خير مولى وأقوى نصير.

١٠ - تشريع الخمس وشرح ظروف المعركة:

«واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن الله خُمُسَه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابنِ السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير. إذا أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا. ليهلك من هلك عن بينة ويحيى

من حيٍّ عن بينة وإن الله لسميع عليم. إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلَّم إنه عليم بذات الصدور. وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا. ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور» (٤١ – ٤٤).

وفى هذه الآيات تعديل لقاعدة تقسيم الغنائم بأن يكون الخمس لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. وقيل إن هذه الآية نسخت الآية الأولى من السورة والتى قررت أن الغنائم بأكملها لله وللرسول. فبعد استبعاد الخمس تكون الأربعة أخماس للمقاتلين. وكانت القاعدة التى وضعها الرسول أن للفارس سهمان وللراجل سهم واحد. ولا يخفى أن المقاتلين فى ذلك الوقت كانوا يشترون السلاح من مالهم الخاص وعليهم أن يتركوا لأهلهم نفقتهم أثناء غيابهم. كما أن عليهم أخذ الزاد الكافى للوقت المتوقع للغزوة إذ لم يكن هناك «سلاح إمداد وتموين» كما فى أيامنا هذه. فكان عدلا أن يُعوَّض المقاتلون عن كل هذه النفقات بنصيب من الغنائم. أما الخمس فكان يقسم إلى خمسة أسهم: سهم للنبى وسهم لذوى القربى. بنو هاشم وبنو المطلب المسلمون وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل. أما السهم الذى كان للنبى (خمس الخمس أى ١/٢٥ أى ٤٪) فكان ينفق منه على نفسه وعياله ويصرف الباقى فى المصالح. وقد روى حديث عن النبى قال: لا يحل لى من غنائمكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم.

وبعد تقرير حكم الخمس فى الغنائم استطردت الآيات لتذكر تدبير الله لوقوع المعركة بالكيفية التى حدثت. إذ كان المسلمون عند طرف السهل الشمالى «العدوة الدنيا» والكفار فى الطرف الجنوبى البعيد عن المدينة «العدوة القصوى». ثم أوضحت الآيات أن الرسول رأى فى منامه المشركين قليلين . ومع أن الرسول كان قد قدَّر عدد المشركين بما بين الـ ٩٠٠ والألف كما سبق أن ذكرنا (ص ٥٠٠). ولكن الله أراهم له فى منامه أقل من ذلك بكثير لكون ذلك أدعى إلى توقع النصر. وكذلك فعل الله مع المسلمين إذ قلَّل المشركين فى أعينهم لترتفع روحهم المعنوية إذ يقاتلون عدوا قليل العدد. وقلل الله المسلمين فى أعين المشركين ليتهاون المشركون ولا يبذلوا أقصى جهدهم فى القتال. وهكذا تم أمر الله وكتب النصر للمسلمين.

ولرب قارئ يسأل: وهل كان الخلاف حول الغنائم بهذه الدرجة من الخطورة بحيث ينزل فيه ما يوازى نصف السورة؟ والجواب أنه كان كذلك. ويكفى أن الغنائم كانت السبب فيما أصاب المسلمين من هزيمة فى المعركة التالية وهى معركة أحد.

١١ – حث على الثبات فى المعارك القادمة:

«يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين. ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط. وإذ زيَّن

لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب. إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرَّ هؤلاء دينُهم. ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم» (٤٥ - ٤٩).

وفى هذه الآيات أمر إلى المسلمين بالثبات فى القتال فى أى معركة قادمة مع أعدائهم كما أُمروا أن يطيعوا الله ورسوله وتحذير لهم من التنازع والاختلاف لأن فيه إضعاف لهم وفشلهم. ولاشك أن هذه الآيات كانت تنتبأ بما سيحدث فى معركة أحد من عصيان المسلمين لأمر الرسول وتنازعهم ومن ثَمَّ كانت هزيمتهم وشيكة لولا أن الله أنقذهم. وعلى العموم فهو تنبيه ينطبق على أى معركة مع المشركين فى أى مكان وفى أى زمان. ثم تحذير من محاكاة مسلك كفار قريش حينما خرجوا من مكة متباهين بقوتهم وحتى حينما أخبرهم أبو سفيان بنجاة القافلة وطلب منهم الرجوع أبوا إلا أن يَرِدُوا بدراً ويُقيموا بها ثلاثة أيام يشربون الخمر وتعزف القيان وتتغنى بقوتهم فكان ذلك من أسباب الاشتباك الفعلى. وقد أخبر القرآن أن الشيطان زيَّن لهم قرارهم ومنَّاهم بأنه سيكون إلى جوارهم ولن يُغلبوا. وقال المفسرون إن قريشا كانت تخشى عند خروجها للحرب أن يهاجمهم بنو كنانة من ظهورهم لما بينهم من عداوة وأن الشيطان تجسَّد فى صورة «سراقة بن مالك» سيد بنى كنانة وطمأنهم من ناحية قومه. كذلك يروى أن الشيطان كان معهم فى المعركة يشحذ هِمَمَهم. فلما بدت بوادر انتصار المسلمين تخلى عن المشركين وقال ما روته الآيات عنه. وبما أن الشياطين لا يمكن للبشر رؤيتهم. فكل ما فى استطاعة الشيطان هو الوسوسة فى نفوس البشر فكان أن وسوس فى نفوس زعماء قريش يحثهم على الخروج للحرب مُضَخِّماً لهم قوتَهم ويمنِّيهم بنصر سهل فلما اشتبك الفريقان تخلَّى عنهم.

أما المنافقون فى المدينة فقد أخذهم العجب وتولتهم الدهشة من جرأة المسلمين وخروجهم للقتال مع تفوق قريش فى العدد والعتاد وراحوا يقولون إن المسلمين قد اغتروا بدينهم وظنوا أن الله سيؤيدهم. ولم يعلموا أن الله فعلا قد أيَّدهم ونصرهم. ثم تنتهى الفقرة بِحَثٍّ على التوكل على الله فهو العزيز المرهوب الجانب الذى ينصر من يتوكل عليه.

جزاء الكافرين:

ثم تمضى الآيات تصف ما سيكون عليه حال الكافرين عند وفاتهم وفى الآخرة. فأثناء الوفاة تقوم الملائكة بضرب وجوههم وأدبارهم. وفى الآخرة لهم عذاب أليم ثم يسوقونهم إلى جهنم ويخبرونهم أن ذلك جزاء ما فعلوا فى دنياهم. ومثلهم فى ذلك مثل آل فرعون. ثم تخبر الآيات عن سُنَّة من سنن الله فى كونه من عدم تغييره سبحانه وتعالى لنعمة أنعمها على فرد أو قوم إلا ويكون أو يكونوا قد غيَّروا أنفسهم وساروا فى طريق الفساد. وضُرب المثل مرة ثانية بمسلك آل فرعون ومن قبلهم:

«ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق. ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلاّم للعبيد. كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب. ذلك بأن الله لم يك مُغَيِّرا نعمة أنعمها علي قوم حتي يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم. كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذَّبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين» (٥٠ - ٥٤).

نقض الكفار واليهود لعهودهم:

«إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون. الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون. فإما تَثْقفنَّهم فى الحرب فشرِّد بهم مَن خلفهم لعلهم يذَّكَّرون. وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبِذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين. ولا يحسبنَّ الذين كفروا سبقوا إنهم لا يُعجزون» (٥٥ - ٥٩).

والآيات تصف الكفار الذين يُصِروُّن على الكفر بأنهم شر خلق الله. ثم تبين أن من صفاتهم أنهم يعاهدون النبي ثم ينقضون عهدهم. ويتكرر ذلك منهم مرة بعد مرة ولا يخافون العاقبة. وتأمر الآيات النبى بالتنكيل بهم إذا لقيهم فى حرب وأن يشرد مَن خلفهم مِن حلفائهم حتى يتذكروا أن الله هو الحق. ثم تأمر النبى إذا ما شعر خيانة من قوم ونقضوا عهدهم معه فعليه أن يفسخ عهدهم فيكونون سواء. وعليه أن يعلنهم بذلك ويحاربهم فالله لايحب الخائنين. ولا يظن الذين كفروا أنهم سبقوا ونجوا من عاقبة خيانتهم وغدرهم ولن يعجزوا الله وسيطولهم عذابه. وكثير من المفسرين يرون أن يهود بنى قينقاع هم المقصودون بهذه الآيات لأنهم كانوا أول اليهود الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله. وأن النبى لمَّا رأى أمارات الخيانة والغدر فيهم جمعهم عقب وقعة بدر وأنذرهم. فقالوا: لا يغرنَّك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. وإنا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنا نحن الناس. وكان معنى هذا الرد أنهم يُضمرون عداوته وأنهم فقط يتحينون الفرصة للانقضاض على المسلمين. فكان النبي على حذر منهم.

السلام المرهوب الجانب:

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم. وما تنفقوا من شيئ فى سبيل الله يُوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون. وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم. وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيَّدك بنصره وبالمؤمنين. وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم إنه عزيز حكيم» (٦٠ - ٦٣).

والآيات تأمر المسلمين بأن يكونوا على أقصى درجة من الاستعداد لمقابلة العدو عددا وعدة.

يرهبون به الأعداء الذين يعرفونهم وهم كفار قريش والخائنين لعهدهم من اليهود وآخرين لا يٌعلم ما يضمرون ولكن الله يعلم عداوتهم للمسلمين. وإن مال الأعداء إلى جانب السلم فليستجب لهم. أما إذا كان الأعداء يبيتون الخداع بتظاهرهم بالسلام فإن الله سيكفيه أمرهم وينجيه منهم وليتذكر كيف أن الله أيده بالأنصار الذين كانت العداوة بين أوسهم وخزرجهم على أشدها ولكن الله ألّف بين قلوبهم فأصبحوا قوة تناصره.

كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة:

«يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين. يا أيها النبى حرِّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون. الآن خفَّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله. والله مع الصابرين» (٦٤ - ٦٦).

والآيات فيها وعد بنصر الله وتأييده حتي لو كان أعداؤهم عشرة أمثالهم. ثم خفف الله عنهم لضَعفهم فأخبرهم أنهم إن صبروا ينتصرون على أعدائهم حتى لو كانوا ضِعفهم فى العدد.

غزوة بنى سليم بالكدر:

قال ابن اسحق: فلما قدم رسول الله المدينة بعد غزوة بدر لم يُقِم بها إلا بضع ليالٍ ثم قاد بنفسه غزوة يريد بها بنى سليم بالكدر على بعد ٦٠كم جنوب شرق المدينة (انظر شكل ٢٩ ص ٤٩٨) على طريق النجد.فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً. ولعل الرسول بلغه أن قريشا أرسلت تحالف بنى سليم عليه فأراد أن يرهبهم ليرفضوا هذا التحالف ويظلوا على الحياد.

فداء الأسرى:

بعد عودته من هذه الغزوة أقام النبى شوال وذو القعدة. وفى هذه الفترة تم التصرف فى الأسرى. وقد سبق أن ذكرنا أن النبى أخذ برأى أبى بكر وقبل فيهم الفداء ماعدا الاثنين اللذين أمر بقتلهم أثناء العودة من بدر (ص ٥٠٦). ففرّق الأسرى بين أصحابه وقال لهم: استوصوا بهم خيرا. فأسكنوهم معهم وأطعَموهم لحين فدائهم من ذويهم بمكة.

وكان من ضمن الأسرى **أبوالعاص بن الربيع** زوج زينب ابنة رسول الله فأبقاه النبى فى بيته.. وبعد أيام قدم عمرو بن الربيع إلى المدينة بفداء أخيه أبى العاص وقدَّم إلى النبى صُرَّة وقال: بعثتنى زينب فى فداء زوجها أخى. أبى العاص. ولما فتح النبى الصرة وجد فيها مالا ووجد أيضا قلادة خديجة التى كانت أهدتها إلى ابنتها زينب يوم زفافها إلى أبى العاص. فرقَّ لها رقَّة شديدة وخفق قلبه لذكرى الزوجة الراحلة خديجة وأطرق أصحاب رسول الله وقد

أُخِذوا بجلال الموقف. وبعد فترة صمت قال النبي: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها وقلادتها فافعلوا. فهتفوا جميعا. نعم يا رسول الله.

وأدنى النبى إليه صهره وأخذ عليه العهد أن يُخلِّى عن زينب لتهاجر إلى المدينة. ولعل النبى خشى من أن يعمد بعض سفهاء قريش إلى الانتقام لهزيمتهم وقتلاهم فى بدر فيعمدوا إلى إيذاء ابنته. كذلك لعل أبا العاص بن الربيع زوجها خشى مثل ذلك فتكون سبة فى وجهه أبد الدهر أن لم يستطع أن يحمى زوجته. فلم يمانع فى هجرتها إلى المدينة لتكون تحت رعاية والدها. كثير ممن كتبوا عن السيرة النبوية وأهل البيت يذكرون أن ذلك كان تفريقا بين الزوجين ويستشهدون بآيات التفريق فى سورة الممتحنه. مع أن تحريم المسلمات على المشركين نزل بعد صلح الحديبية عام ٦هـ أى بعد ٤ سنوات من معركة بدر. وعلى هذا تكون هجرة زينب إلى المدينة حفظا لها من أى عدوان لقريش عليها.

وكان بين الأسرى **العباس** عم النبى. فقال رجل من الأنصار ائذن لنا لنترك للعباس أيضا فداءه. فقال: لا والله لا تذرون منه درهما. فقال له العباس: قد كنتُ مسلما. فقال له النبى: الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فالله يجزيك وأما ظاهرك فقد كان علينا. فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبى طالب وحليفك عتبة بن عمرو أخا بنى الحارث بن فهر. فقال ما ذاك عندى يارسول الله. فقال النبى: فأين الذى دفنته أنت وأم الفضل. قلتَ لها أن أُصبت فى سفرى فهذا المال لبنىّ: الفضل وعبدالله وقثم. فقال العباس والله إنى لأعلم أنك رسول الله. إن هذا شىء ما علمه إلا أنا وأم الفضل. وقد كان مع العباس حين خرج من مكة عشرون أوقية من الذهب أُخذت منه بعد أسره. فقال يا رسول الله احتسبها من فدائى. فقال لا. هذا شىء خرجت تستعين به علينا فأعطاناه الله. واضطر العباس لدفع مائة أوقية ذهب فداء لنفسه وابنى أخيه وحليفه.

وكان بين الأسرى **عمرو بن أبى سفيان**. وقد قتل فى المعركة ابنه الثانى حنظلة فقالوا له افتد ابنك فقال: أيجمع علىَّ دمى ومالى؟ قتلوا حنظلة وأفدى عمرا. دعوه فى أيديكم مابدا لكم. وتركه فى المدينة وعاد إلى مكة. وفى هذه الأثناء خرج من المدينة سعد بن النعمان من بنى عوف إلى مكة معتمرا وكان مسلما. فأمسك به أبو سفيان وحبسه مقابل ابنه عمرو. فمشى أقاربه إلى الرسول وسألوه أن يعطيهم ابن أبى سفيان ليفكُّوا به صاحبهم ففعل واستخلصوا صاحبهم به.

وتروى كتب السيرة أن الرسول مَّن على بعض الأسوى الذين لم يكن لهم مال يفتدون به أنفسهم مقابل تعليم بعض أبناء المسلمين القراءة والكتابة. كذلك منَّ على بعض الأسرى الذين لم يرسل ذووهم مالا فداء لهم مقابل تعهدهم بأن لا يظاهروا عليه أحداً.

التنديد بعدم قتل الأسرى:

بعد أن تم فداء الأسرى نزل قوله تعالى:

«ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض. تريدون عرض الدنيا (بأخذ الفداء) **والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم. فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم. يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم»** (٦٧ - ٧٠).

والآيات تبين أنه لا ينبغى لنبى أن يستبقى الأسرى من أعدائه أحياء إلا بعد أن يشتد أمره ويقوى سلطانه **«حتى يثخن فى الأرض»** لأن قتلهم يوطد الرهبة والهيبة من المسلمين وهو ضرورى لمصلحة الدعوة فى هذه المرحلة الحرجة لأن هؤلاء الأسرى إن عادوا لقتال المسلمين سيكونون أشرس ما يكونون رداً لكرامتهم الجريحة بالأسر والفداء. أما بعد أن تشتد الدعوة وتقوى فالمسلمون مخيرون بين فداء الأسرى أو حتى إطلاق سراحهم بدون فداد مناً منهم كما سيجيء فيما بعد فى سورة محمد (آية ٤، ٥ ص ٦٣٧): **«فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** (أثناء المعركة) **حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق** (اتخذوا أسرى) **فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها».**

وقيل إن عمر بن الخطاب بعد أن نزلت هذه الآيات من سورة الأنفال دخل على النبى وأبى بكر عنده ووجدهما يبكيان فسأل رسول الله عن سبب بكائهما فقال النبى: أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء ولقد عُرِضَ علىَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة كانت قريبة من النبى).

ثم استمرت الآيات توضح أن حكمة اله ورحمته اقتضت التسامح معهم فى هذا الأمر وإلا لكان أصابهم بما أخذوه من فداء الأسرى عذاب عظيم. ثم كان تمام العفو أن أجاز الله لهم الاستمتاع بما أخذوه **«فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا»**. ثم طلبت الآيات من النبى أن يبشر الأسرى وينذرهم فإن يكن في قلوبهم خير فسيعوِّضهم الله بأكثر منه. وقد روى المفسرون أن العباس بن عبدالمطلب كان يقول إن هذه الاية نزلت فيه حين أُخِذ منه العشرون أوقية من الذهب التى وجدت معه بعد المعركة فقال إن الله أبدله عشرين عبداً كلهم تاجر فى ماله وربحوا. وقيل إنه بعد ما أسلم وانتشر الإسلام قدم على النبى مال من البحرين فقال له العباس إنى فاديت نفسي وفاديت عقيلا فقال له رسول الله خذ وبسط ثوبا فيه مال فأخذ العباس ما استطاع أن يحمله. (تفسير الطبرى جـ ٨ ص ٥٣).

جزاء الخيانة:

«وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم» (٧١).

١ - وقيل إن هذه الآية نزلت فى أحد أسرى بدر وهو أبو عزة بن عمرو بن عبدالله بن جمح: قال يا رسول الله لقد عرفت ما لى من مال وإنى لذو حاجة وذو عيال. فامنن علىَّ. فمن عليه

رسول الله وأطلق سراحه دون فداء وأخذ عليه عهدا ألا يظاهر عليه أحدا. ثم إن أبا عزة هذا نقض عهده وحارب مع المشركين فى معركة أحد وأُسر. فسأل النبى أن يمن عليه أيضا فقال له النبى: لا أدعك تمسح عارضيك (صفحتى الخدين) وتقول خدعت محمداً مرتين ثم أمر به فضُرِبت عنقه. وقيل: قال رسول الله بعدها: لايلدغ المؤمن من جحر مرتين.

٢ - ومن الذين أضمروا الخيانة أيضا **عمير بن وهب الجمحى**. أحد من كانوا يؤذون النبى وأصحابه وهم بمكة وكان ابنه «وهب» فى أسارى بدر. وقعد عمير بن وهب مع صفوان بن أمية فى الحجر وهو يتلمَّظ حقدا على النبى وقال لصفوان. والله لولا دَيْن علىَّ ليس عندى قضاؤه وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله فإن لى فيهم علة. ابنى أسير فى أيديهم. فاغتنمها صفوان فرصة وقال له علىَّ دينك أنا أقضيه عنك وعيالك عيالي. فقال له: فاكتم عنى شأنى وشأنك. ثم إن عميرا شحذ سيفه ثم انطلق إلى المدينة ورآه عمر بن الخطاب فدخل على النبى وحذَّره منه فقال له النبى أرسله. وسأل النبى عميرا عما جاء به فقال جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه فسأله النبى عن السيف الذى فى عنقه. فقال قبَّحها الله من سيوف. وهل أغنت شيئًا! فقال له النبى: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر وقلتم كذا وكذا. وأخبره بما قاله وبما تعهَّد به صفوان على أن تقتلنى والله حائل بينى وبين ذلك. فقال عمير. أشهد أنك رسول الله. فهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان وما أتاك به إلا الله. وأسلم. فقال النبى لأصحابه: فقِّهوا أخاكم فى دينه وعلِّموه القرآن وأطلقوا أسيره. ففعلوا ثم تعهد لرسول الله أن يدعو للإسلام فأذن له بالعودة إلى مكة.

المسلمون الذين لم يهاجروا وبقوا فى مكة:

«إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله (المهاجرون) **والذين آووا ونصروا** (الأنصار) **أولئك بعضهم أولياء بعض** (يتناصرون فيما بينهم) **والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا. وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير. والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم. والذين آمنوا من بعدُ وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله. إن الله بكل شيء عليم»** (٧٢ - ٧٥).

فهذه الفقرة الخاتمة للسورة تبين صلات المهاجرين والأنصار والمؤمنين الذين لم يهاجروا والكفار بعضهم ببعض - فالمهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض. والذين آمنوا ولم يهاجروا فلا يترتب على المسلمين فى المدينة واجب تجاههم إلا إذا هاجروا ولحقوا بهم. إلا

أنهم إذا استغاثوا بهم من اعتداء وقع عليهم بسبب دينهم فعليهم أن ينصروهم إذا لم يكن بينهم وبين أعدائهم عهد وميثاق. وتقرر الآيات أن الكفار بعضهم أولياء بعض ولا يجب على المؤمنين موالاتهم . وتكرر الآيات أن المهاجرين والأنصار هم المؤمنون حقا. والذين يؤمنون بعد ذلك ويهاجرون ويجاهدون معهم يصبحون منهم. لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. والذين تجمع بينهم صلة رحم وقرابة من المهاجرين والأنصار هم أولى ببعض وأن هذا حكم الله والله عليم بكل شيء وبكل ما يُصلح المجتمع الإسلامى. وقالوا إن هذه الآية نسخت التوارث بين المتآخين من المهاجرين والأنصار وقصرته على صلة الرحم. كما منعت التوارث بين المسلم والكافر. وروى البخارى حديثا عن النبى جاء فيه. لا يرث المسلم الكافر ولايرث الكافر المسلم.

وبهذا تنتهى سورة الأنفال التى اختصت فى الجزء الأكبر منها بموقعة بدر.

قدوم زينب بنت النبى إلى المدينة:

لما رجع أبو العاص بن الربيع زوج زينب إلى مكة بعد تخلية سبيله بعث رسول الله زيد بن حارثه ورجلان من الأنصار وقال لهما كونا ببطن يأجج (على بعد ثمانية أميال شمال مكة على طريق المدينة انظر الخريطة شكل ١٩. ص ٤٢٧) حتى تمرَّ بكما زينب فتصحبانها وتأتيانى بها. كان ذلك بعد بدر بشهر تقريبا. ولما عاد أبو العاص إلى بيته طلب من زينب أن تتجهَّز للحاق بأبيها فى المدينة. وجاء كنانة بن الربيع أخو زوجها ببعير فركبته وأخذ قوسه وكنانته وخرج بها نهارا وهى فى هودج لها. وغاظ ذلك رجالا من قريش فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها بذى طوى. وكان أسبقهم إليها هبار بن الأسود الأسدى الذى كان جنونه قد جن لمصرع إخوته الثلاثة فى بدر. فروَّعها برمحه ثم نخس البعير فألقى براكبته على صخرة وكانت زينب حاملا فأجهضت ووقف كنانة بينها وبين المهاجمين وهو يزأر: والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما. فتراجعوا. وكان أبو سفيان يقف بعيدا فقال لكنانة :كُفَّ عنا نبلك حتى نكلمك. ثم دنا منه وقال: إنك لم تصب يا ابن الربيع. خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا وأن ذلك منا ضعف ووهن. ولعمرى مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة. ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدَّث الناس أن رددناها فسُلها سرا. وألحقها بأبيها. فعاد بها كنانة إلى دارها بمكة وبقى أبو العاص إلى جانبها أياما يرعاها حتى تمالكت بعض قواها فخرج بها كنانة حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ولم يتبعها فى هذه المرة طالب. بل أعمض الذين رأوها أعينهم وقد ركبهم الخزى والعار من قول هند بنت عتبة تعيرهم وتسخر بهم: أمعركة مع أنثى عزلاء؟ فهلا كانت هذه الشجاعة يوم بدر. وقالت شعرا:

أفى السلم أعياراً جفاء وغلظة ∴ وفى الحرب أشباه النساء العوارك!

وأعيار جمع عير وهو الحمار. ويقول العرب عركت المرأة أى حاضت. وهى فى حالتها هذه أضعف ما تكون. فكان ذلك أقبح تشبيه وأقذع هجاء لمن هاجموا زينب.

وسار الركب حتى وصلوا يثرب. واستقبلت المدينة بنت رسول الله باحتفال مهيب شابت فيه فرحة اللقاء سورة غضب لما أصابها أول خروجها من مكة. وكان رسول الله يقول: هى أفضل بناتى أصيبت فىَّ. وأرسل سرية وقال لهم إن ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الآخر الذى سبق معه إلى زينب فاقتلوهما.

زواج على بن أبى طالب من فاطمة:

هناك بعض اللبس فى موعد هذا الزواج. فكثير من المؤرخين يذكر أنه تم فى رجب من السنة الأولى للهجرة. والدكتورة بنت الشاطىء (تراجم سيدات بيت النبوة ص ٥٩٢) تقول إنه لم يمضى على دخول عائشة بيت النبى أربعة أشهر حتى كانت الزهراء فى طريقها إلى بيت على بن أبى طالب. والمعروف أن النبى دخل بعائشة بعد شهرين من هجرته إلى المدينة أى فى جمادى الأول للسنه الأولى (ص ٤٣٨). ومعنى هذا أن زواج على من فاطمة كان فى شعبان أو رمضان من السنة الأولى للهجرة. ولكن الثابت أن عليا دفع نفقات زواجه من فاطمة من بيعه لدرع غنمها فى معركة بدر التى وقعت فى رمضان من السنة الثانية للهجرة وعلى ذلك فلابد أن زواجه من فاطمة كان بعد موقعة بدر. فيكون ذلك فى ذى الحجة من نفس السنة وكانت فاطمة قد بلغت العشرين من عمرها لأنها عند الهجرة إلى المدينة كانت فى الثامنة عشرة. وهنا يثور التساؤل: ولماذا تأخر زواجها إلى هذه السن المتقدمة فى مجتمع مشهور بالزواج المبكر. فأختها زينب تزوجت من ابن خالتها وهى فى العاشرة من عمرها (ص ٤٠). وأختها رقية كانت بنت ٧ سنوات وأم كلثوم بنت ٦ سنوات عندما عقد قرانهما على عتبة وعتيبة ابنى أبى سفيان (ص ٤١).

والحقيقة أن عدة عوامل تضافرت على تأخير زواج فاطمة إلى هذه السن فهى قد ولدت قبل النبوَّة بخمس سنوات. ولما كانت فى السادسة من عمرها تم طلاق أختيها رقية وأم كلثوم من عتبة وعتيبة وعادتا إلى بيتِ أبيهما. فكان هذا أحد أسباب عزوفها عن الزواج. كما أن قريشا كانت بالمرصاد لفتيان قريش إغراء وإرهابا حتى لا يتقدم أحد إلى بنات النبى أملا منهم أن ينشغل بمشاكل بناته عن دعوته للدين الجديد. ولكن السبب الأهم هو أن عليا بن أبى طالب - وقد تربى فى بيت النبى ويكبر فاطمة بأربع سنوات فهو أحق الناس بها - فكان هذا فى حد ذاته حاجزا حال دون أن يتقدم أحد شباب قريش لخطبتها. وهذا يحدث كثيرا فى أيامنا هذه حينما يوجد فى عائلة شاب وفتاة تربطهما بنوة عمومة أو خؤولة ويفهم أن الشاب هو أصلح من يتزوج الفتاة وتشيع شبه خطبة غير معلنة فلا يتقدم أحد من شباب العائلة أو من خارجها لخطبة الفتاة. ثم جاء الحصار الذى فرضته قريش على المسلمين فى السنة السادسة للبعثة وتعاهدوا على ألا يُزوِّجون ولا يتزوجون من بنى هاشم. ولما انتهى الحصار بعد ٣ سنوات كانت فاطمة قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها. وكانت السنوات التالية حافلة بالأحداث: وفاة أبى

طالب ثم وفاة خديجة. ثم سير النبى إلى الطائف ثم بيعة العقبة الأولى ثم الثانية ثم الهجرة إلى المدينة ثم غزوة بدر. وهكذا انساب الوقت حتى بلغت فاطمة الثامنة عشرة من عمرها وكان على بن أبى طالب فقيرا معدما. فقد ذكرنا سابقا (ص ٤٠) ما أصاب أبا طالب من شظف العيش وما كان من ضم النبى لعلى بن أبى طالب إلى بيته تخفيفا للنفقة عن أبى طالب. ومات أبو طالب ولم يترك لأبنائه ميراثا. وعاش على فى كنف ابن عمه «محمد» يرعاه كابنه. ولعل عليا كان يشعر بالامتنان للنبي لإعالته له فاستكثر على نفسه أن يتقدم أيضا للزواج من ابنته. ويمر الوقت ويتقدم السن بفاطمة. ولعل أبا بكر وعمر بن الخطاب قد أدركا حرج السن التى بلغتها فاطمة فخطبها كل منهما على حدة. ولكن النبى ردَّهما ردًّا جميلا. ولم يكن بد من أن يلفت أصدقاء علىّ نظره إلى ما سبَّبه من تأخير زواج فاطمة فاقترح عليه أصدقاوه خطبتها: فقال يائسا: بعد أبي بكر وعمر! وهو قول يدل على استصغاره شأن نفسه. فقالوا له يشجعونه: ولم لا. والله ما بين المسلمين بما فيهم أبو بكر وعمر من له مثل قرابتك من رسول الله. وقد كفله أبوك ورعته أمك ثم نشأت فى كنفه وربُيت فى بيته. وكنت أسبق رجل إلى الإسلام. فتشجعَ على وأخذ طريقه إلى حيث يجلس النبى وجلس قريبا منه على استحياء ولم يتكلم. فأدرك النبى أنه جاء فى أمر ما. فقال: ما حاجة ابن أبى طالب؟ فرد عليه بصوت خفيض وهو مطرق برأسه إلى الأرض: جئت أطلب فاطمة. فقال الرسول: مرحباً وأهلا ولم يزد. فانصرف على. فسأله أصحابه عما فعل فأخبرهم بما ردَّ عليه النبى قائلاً مرحبا وأهلا. فقالوا جميعا. يكفيك من رسول الله إحداهما.

وفى اليوم التالى تحدث على إلى رسول الله فى الموضوع فسأله رسول الله. وهل عندك شيء. فأجاب. لا يا رسول الله. ولكن الرسول ذكرَّه بالدرع التى غنمها من غزوة بدر. وقال له أين درعك؟ فقال هى عندى. فقال النبى فأعطها إياها. فأحضر على الدرع فأمره رسول الله ببيعها ليجهز عروسه بثمنها. فاشتراها عثمان بن عفان بـ ٤٧٠ درهما. وتم تجهيز العروس. وكان كل جهازها عبارة عن خميلة ووسادة حشوها ليف وإناء يغسل فيه ومنشفة وقدح وسقاءين أى جرَّتين ورحوين لطحن الحبوب.

ودعا النبى أصحابه فأشهدهم أنه زوَّج فاطمة من على وبارك العروسين ودعا لهما بالذرية الصالحة ثم قدم إلى الضيوف وعاء تمر. واحتفل بنو طالب بهذا الزواج كما لم يحتفلوا بزواج مثله من قبل. وجاء حمزة عم النبى بشارفين (الشارف الإبل المسن) فنحرهما وأطعم الناس. وبعد الحفل دعا النبى أم سلمة وطلب منها أن تمضى بالعروس إلى بيت على ولينتظراه هناك. وأذَّن بلال لصلاة العشاء فصلى الرسول بالمسلمين فى المسجد ثم مشى إلى دار على وبارك العروسين قائلا: اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما فى نسلهما وانصرف واستجاب الله لدعاء نبيه فكانت ذرية المصطفى مقصورة على أبناء فاطمة وعلى. وكان دخول العروسين فى إحدى حجرات بيت أبيها إلى أن وُفق علىّ – بعد خمسة أشهر – من الحصول على بيت خاص استقل فيه بزوجته.

وكان علىّ من الفقر بحيث لم يستطع أن يستأجر لها خادما تعينها أو تقوم عنها بالعمل الشاق مثل طحن الحبوب وعجنها مما استنفذ كثيرا من قواها وخاصة أنها تحملت فى طفولتها شظف الحصار فى شعب أبى طالب. ثم مشقة الهجرة حتى ناءت بحمل متاعب الحياة وكان علىّ تعوزه النفقة ولكنهما كانا يستحيان أن يطلبا من رسول الله جزءا من الغنائم. ولعل رسول الله من جانبه لم يشأ إيثارهما بشىء أكثر مما يعطيه لعامة المسلمين. فكانت حياتهما قاسية مما أثر على نفسية كل منهما وسبب توتر العلاقة بينهما. وتحدَّث الرواة بخلافات كانت تقع أحيانا بينهما وقد تبلغ سمع النبى فيسير إليهما ويحاول جهده الإصلاح بحثِّهما على مزيد من الاحتمال. وقد حدثوا أن النبى رؤى ذات مساء وهو يسعى إلى دار فاطمة بادى الهم والقلق وأمضى وقتا ثم خرج ووجهه يفيض بشرا فلما سُئل عن ذلك قال: وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين إلىّ.

غزوة السويق:

كان أبو سفيان بعد عوته إلى مكة مع فلول قريش المنهزمين قد أقسم أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج فى ذى الحجة - أى بعد معركة بدر بأربعة أشهر - فى مائتى راكب من قريش ليبر بيمينه فسلك **النجدية أى طريق النجد** (شكل ٣١) حتى وصل إلى **جبل ثيب**. ثم خرج فى الليل إلى سلام بن شكيم سيد بنى النضير ثم عاد إلى أصحابه وساروا إلى ناحية من المدينة يقال لها **العريض**. فحرقوا ما بها من نخيل ووجدوا رجلا من الأنصار وحليفا له فقتلوهما ثم انصرفوا. فخرج رسول الله فى طلبهم وطاردهم حتى قرقرة الكدر. وكان أبو سفيان ورجاله قد تركوا الزاد الذى حملوه معهم ليتخففوا طلبا للنجاة وكان زادهم من السويق وهو عبارة عن حنطة وشعير محمص مطحون ممزوج بعسل وسمن. واستطاع أبو سفيان أن يفر ولم يلحق به رسول الله. وفى أثناء العودة جمع المسلمون السويق الذى تركه المشركون فسميت «غزوة السويق»

أحداث السنة الثالثة للهجرة

محرم	١٥	غزوة ذى أمــر.
صفر		إقامة النبى بنجد.
ربيـــع الأول		غزوة الفرع فى بحران.
		زواج النبى من حفصة وزواج عثمان بن عفان من أم كلثوم.
ربيــع الثانى		غزوة بنى قينقاع.

جمادى الأول	سرية زيد بن حارثة إلى القردة.
جمادى الثانى	مقتل كعب بن الأشرف.
رجـــب	زواج النبى من زينب بنت خزيمة (أم المساكين).
	مولد الحسن بن على.
شعبان	وفد نصارى نجران.
رمضان	بدء نزول سورة آل عمران
شـــوال	معركة أحد.
ذو القعدة	ـــــ
ذو الحجة	ـــــ

غزوة ذى أمر (ب شكل ٣١):

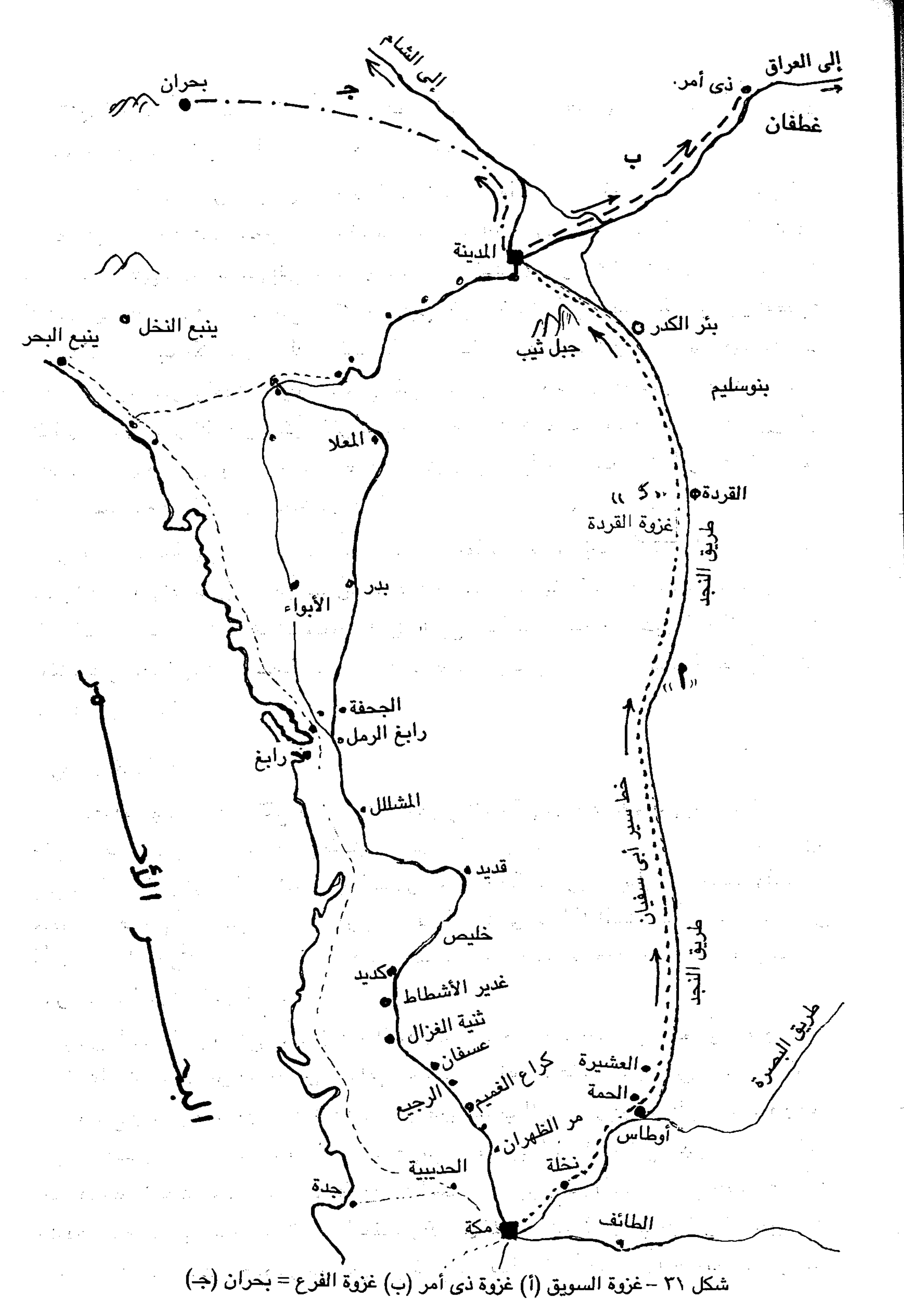
بعد عودته من غزوة السويق أقام النبى بالمدينة بقية ذى الحجة. ثم غزا نجدا يريد غطفان وتسمى غزوة ذى أمر. وقال ابن اسحق إنه أقام بنجد طوال شهر صفر. ولم يلق كيدا فعاد إلى المدينة.

غزوة الفرع من بحران (جـ شكل ٣١):

فى هذه الغزوة سار النبى شمال غرب حتى بلغ بحران من ناحية الفرع. ولم يلق كيدا ثم رجع إلى المدينة.

زواج النبى من حفصة ابنة عمر وزواج عثمان من أم كلثوم:

نحن الآن فى أوائل العام الثالث للهجرة وتحديدا فى ربيع الأول. وقد خف الحزن على موت رقية بعض الشيئ إذ قد مضى الآن خمسة أو ستة أشهر على وفاتها. وفى يوم من الأيام وقد آوى الرسول إلى بيته يستريح فإذا عمر بن الخطاب يدخل إليه مغضبا ليشكو إليه صاحبيه أبا بكر وعثمان. لقد عرض على أحدهما بعد الآخر أن يتزوج ابنته حفصة بعد أن مات عنها زوجها فسكت أبو بكر وقال عثمان: ما أريد أن أتزوج اليوم. ثم سأل عمر النبى: أمثل حفصة فى شبابها وتقواها وشرفها تُرفض؟ فقال النبى: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان. ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة. وكانت أم كلثوم تسمع حديثهما. وفهمت أم كلثوم ما يعنى أباها. فما من امرأة خير من حفصة إلا بنت النبى. وكما تقول الدكتورة بنت الشاطىء (تراجم سيدات بيت النبوة. ص ٥٦٩) تساءلت: هل تشغل مكان أختها رقية فى بيت عثمان. وإن هى إلا لحظات حتى استدعاها أبوها وأخبرها بما انتواه من عقد زواجها على عثمان. فأبدت



شكل ٣١ – غزوة السويق (أ) غزوة ذى أمر (ب) غزوة الفرع = بحران (جـ)

موافقتها لأم عباس – خادم النبى – وتم عقد زواجها على مثل صداق رقية وخرجت إلى بيت زوجها وسُمِّىَ عثمان بذى النورين لزواجه من ابنتى رسول الله.

وأما ما كان من أمر عمر بن الخطاب فإنه لما سمع قول النبى: «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان» أشرقت فى خاطره لمحة مضيئة: أيتزوج النبى من ابنته حفصة؟ ذالك والله شرف لم يخطر له على بال. ونهض إلى الرسول يصافحه متهلّلا وقد زال عنه ماكان يجد من مهانة الرفض وخرج مسرعا ليزف إلى ابنته وإلى أبى بكر وعثمان وإلى المدينة كلها بشرى الخطبة المباركة. وكان أبو بكر أول من لقيه. فما نظر إليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحه فمد يده مهنئا ومعتذرا يقول: لا تجد (تحقد) علىّ يا عمر. فإن رسول الله ذكر حفصة. فلم أكن لأفشى سر رسول الله ولو تركها لتزوجتها. ومضى كلاهما إلى ابنته. أبو بكر ليهوِّن على عائشة من وقع الخبر وعمر ليبشر حفصة بأكرم زوج. وباركت المدينة كلها زواج النبى كما باركت منذ أيام قلائل زواج عثمان من أم كلثوم.

وجاءت حفصة وفى بيت النبوة سودة وعائشة. أما سودة فرحبت راضية. وأما عائشة فقد غاظها أن تأتى لها ضرة شابة تقية وتضارعها فى عزة نسبها. كانت عائشة تزهو على سودة بشبابها الغض. وأن أباها الصاحب الأول للنبى وحظ حفصة من هذين لا يُنكر. وسكتت عائشة على مضض. أما حفصة فقد أدركت أنه ليس من حقها أن تعامل عائشة كضرّة إذ هى سبقتها إلى بيت النبوة.

غزوة بنى قينقاع:

كانت دور بني قنيقاع تقع فى الطرف الجنوبى الشرقى من المدينة وعلى بعد حوالى ٨٠٠ متر من مسجد رسول الله (انظر شكل ٢٠ ص ٤٣٠). وكان أن جمعهم رسول الله فى سوق بنى قينقاع وقال لهم: يا معشر يهود احذروا من الله مثل مانزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم. قالوا: يامحمد أترى أنَّا قومك؟ لا يغرنَّك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس.

وكان العهد الذى أعطى الرسول لهم الأمان به يشترط «ألا يعينوا عليه عدوا ولا يؤذوا أحدا من المسلمين». وكان أن امرأة من المسلمين قدمت ببضاعة فباعتها بسوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ يهودى تشترى منه. فجعل بعض من شباب اليهود يريدونها على كشف وجهها فأبت. فعمدوا – على مرأى من الصائغ – إلى طرف ثوبها فعقدوه إلى ظهرها. فلما قامت انكشفت عورتها فضجوا بالضحك عليها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله. وشدت اليهود على المسلم فقتلوه. فاستصرخ أهل المسلم بالمسلمين ويقول ابن اسحق: وعلم رسول الله بما حدث فحاصر دور بنى قينقاع ١٥ ليلة حتى أجهدهم الحصار فنزلوا على

حكمه. وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج. فقام إليه عبد الله بن أبيّ بن سلول وقال: يامحمد، أحسن في مواليَّ. وأمسك بثيابه فقال له النبي: ويحك أرسلني. فقال لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ أربعمائة حاسر (بدون درع) وثلاثمائة دارع.. قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة. إني والله امرؤ أخشى الدوائر. فقال رسول الله: هم لك وتركهم النبي يرحلون بكل أمتعتهم.

سرية زيد بن حارثة إلى القردة:

خافت قريش على قوافلها إلى الشام أن تمر في طريق المدينة فكانوا يسلكون طريق النجد ثم طريق العراق حتى إذا تجاوزوا المدينة وبعدوا عن الخطر عادوا إلى طريق الشام. وفي جمادى الأول من السنة الثالثة خرجت قافلة فيها سفيان بن حرب وغيره من التجار ورجال قريش واستأجروا رجلا من بني بكر بن وائل ليدلهم على الطريق ووصلت أخبار هذه القافلة إلى النبي فأرسل زيد بن حارثة في ١٠٠ من الرجال فلقيهم عند مياه تسمى «القردة» على طريق النجد (انظر شكل ٣١ ص ٥٢٥) فأعجزه الرجال ولكنه غنم بعض العير وعاد بها إلى النبي في المدينة.

مقتل كعب بن الأشرف:

كان كعب بن الأشرف من طيئ وأمه من بني النضير ولهذا كان قلبه مع اليهود وكان له حصن يحتمي به اتقاء للخطر (انظر شكل ٢٠ ص ٤٣٠) ولما بلغه خبر انتصار المسلمين في بدر قال: أحق هذا؟ أترون محمدا قتل أشراف العرب. والله لئن كان محمداً أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها. ثم خرج حتى قدم مكة وراح يحرِّض على رسول الله ويهجوه ثم رجع إلى المدينة وراح يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فقال النبي: من لي بابن الأشرف؟ فتعاهد خمسة نفر من بني عبد الأشهل ومن بني وقش - وهما بطنان من الأوس - على قتله. فاستدرجوه حتى خرج من الحصن ولاطفوه في الكلام حتى اطمأن إليهم ولما بعدوا عن الحصن وعن رجاله انقضوا عليه فقتلوه.

ثراء عثمان في خدمة المسلمين:

كان هناك بئر بالمدينة اسمها «بئر دومة» يملكها يهودي يبيع ماءها للمسلمين فقال رسول الله من يشتري دومة فيجعلها للمسلمين يضرب دلوه في دلائهم وله بها شرب في الجنة؟ فأتى عثمان اليهودي وساومه فأبى بيعه إلا نصفها باِثنى عشر ألف درهم واتفقا على أن يكون لليهودي يوم ولعثمان يوم. فجعل عثمان يومه للمسلمين الذين كانوا يستقون ما يكفيهم يومين. فلما رأى اليهودي ذلك قال لعثمان: أفسدت عليَّ ركيَّتي (الرِكوة البئر) فاشتر النصف الآخر فاشتراه عثمان بثمانية آلاف درهم.

زواج النبى من أم المساكين زينب بنت خزيمة:

يبدو أن قصر مقام هذه الزوجة فى بيت النبوة قد صرف عنها كُتاب السيرة فكانت الروايات عنها متضاربة. هى زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبدالله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال ولذلك تسمى زينب بنت خزيمة الهلالية. وسمِّيت أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم. واختلفوا فيمن كانت عنده قبل زواجها بالنبي نختار منها قول ابن الكلبى إنها كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها فخلفه عليها أخوه الذى قتل فى معركة بدر.

وأدرك النبى سوء حظها وسوء حالها فخطبها ولم يمضى على زواجه من حفصة بنت عمر بن الخطاب إلا أشهر قليلة. وقالوا إنها لم تمكث فى بيت النبوة إلا شهرين أو ثلاثة وماتت. والمرجح أنها ماتت وهي فى الثلاثين من عمرها كما ذكر الواقدي ويقول: ولعلها ماتت قريرة العين بما نالت من شرف الزواج بالنبى وأمومة المؤمنين. قانعة بما كانت تقوم به من أمر المساكين. ورقدت فى سلام ودفنها النبى فى البقيع. فكانت أول من دفن فيه من أمهات المؤمنين. ولم يمت من أزواجه بعدها أحد فى حياته وكانت خديجة قد ماتت بمكة ودفنت بالحجون كما هو معروف.

مولد الحسن بن على:

ولد الحسن بن على وفاطمة بنت النبي فى رجب من السنة الثالثة للهجرة.

فرح النجاش بانتصار المسلمين فى بدر:

وصلت أخبار وقعة بدر وانتصار المسلمين إلى الحبشة ويروى أن النجاشى ذات يوم أرسل إلى جعفر بن أبى طالب وأصحابه من مهاجرى الحبشة وقال لهم: إنى أبشركم بما يسركم. إنه قد جاءنى من نحو أرضكم من أخبرنى أن الله قد نصر نبيكم وأخزى عدوه وأسر فلان وفلان وقتل فلان وفلان. وقد التقوا بوادٍ يقال له بدر.

وفد نصارى نجران

لاشك أن خبر انتصار النبى قد علم به أهل اليمن ونجران قبل وصوله إلى الحبشة. ونجران على دين النصرانية مثل الحبشة. ولاشك أن نصارى نجران قد اهتموا بالحدث. وأرادوا الاستيثاق منه والتعرف على شخصية «محمد» والتأكد من نبوته. فقدم منهم وفد مكون من ٦٠ راكبا: منهم حبرهم وإمامهم والباقون من أشرافهم. وقد أنزلهم النبى فى مسجده بالمدينة وسمح لهم بالصلاة فيه وناقشوه وجادلوه فى أمر عيسى وألوهيته وبنوته لله. ولاشك أن النبى تلا عليهم ما كان قد نزل من قرآن بخصوصه:

ففى سورة مريم (الآيات ١٦ - ٣٥. ص ١٥٣) جاء ذكر ظروف حمل مريم بالنفخ فيها من

الروح القدس وتكلم عيسى فى المهد إلى أن ينتهى إلى قول: **«ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحق الذى فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون»** (٣٤ - ٣٥ - مريم) ويلاحظ الرفق الشديد فى تناول معتقد النصارى فى بنوة عيسى لله فيقرر أن جلال الله وعظمته لا يتفق مع اتخاذه من البشر ولداً وتنزهه عن ذلك بقول **«سبحانه»**.

وفى سورة الزخرف (الآية ٥٩ ص ٣٢٠) جاء قوله تعالى: **«إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه. مثلا لبنى إسرائيل»**.

ونزل فى سورة الأنبياء (الآية ٩١ ص ٣٦٨) قوله تعالى: **«والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين»**.

ولكن وفد نصارى نجران أرادوا الاستزادة من نظرة هذا الدين الجديد إلى المسيح فبقوا فى المدينة عدة أيام.. وانضم إليهم يهود المدينة فى مجادلاتهم. وقد أشارت سورة آل عمران إلى هذا الجدل الذى دار مع وفد نصارى نجران. ويجدر الإشارة إلى أن وفداً آخر من نصارى نجران قدم إلى المدينة فى عام الوفود ولكن ما نحن بصدده هو هذا الوفد الذى قدم قبل وقعة أحد. أما الوفد الذى جاء فى عام الوفود فقد جاء بعد فتح مكة وبعد أن قوى ساعد المسلمين وانتشر الإسلام فى كثير من أنحاء الجزيرة وامتد جنوبا وأصبح على مشارف نجران فجاء وفد منهم وعقدوا معاهدة مع النبى أمَّنهم فيها على أنفسهم وأموالهم وتعهَّدوا له فيها بإمداده بالسلاح إذا ما حاربه أهل اليمن وكانت المجوسية منتشرة هناك لولائهم للفرس. وقلة كانوا على اليهودية. ولا يخفى أن موقف المسلمين بعد وقعة بدر لم يكن من القوة ورهبة الجانب ما يجعل وفد نصارى نجران يطلب المسالمة بمثل هذه المعاهدة. وقد حدث لبس عند كثير من كتاب السيرة فجعلوهما وفدا واحدا. فقد ذكر ابن هشام (السيرة النبوية. جـ٢ ص ١٦٦) أن الوفد جاء بعد وقعة بدر وهذا هو الوفد الأول الذى ذكرناه. أما ابن كثير فقد وضع وفد نصارى نجران (السيرة النبوية ابن كثير جـ ٤ ص ١٠٠) بعد غزوة تبوك في سنة تسع من الهجرة ضمن الوفود التى جاءت إلى المدينة فى عام الوفود وهو بهذا يشير إلى الوفد الثانى الذى سنذكره فيما بعد (ص ٨١٩).

سورة آل عمران:

وهى من طوال السور. وفى السورة ثلاثة مواضيع رئيسية:

١- جدال وفد نصارى نجران مع النبى.

٢ - موقف اليهود والتنديد ببعض تصرفاتهم ومكائدهم. والحقيقة أن اليهود كانوا طرفا ثالثا فيما جرى من جدال بين النبى ووفد نصارى نجران ولذلك كان الخطاب - فى كثير من الآيات - موجها إلى اليهود والنصارى معا.

٣ - آيات متعلقة بموقعة أحد.

وإضافة إلى ذلك جاءت موضوعات أخرى سنذكرها فى حينها.

«الم. الله لا إله إلا هو الحى القيوم. نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان. إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام. إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء. هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء. لا إله إلا هو العزيز الحكيم» (١ - ٦).

بدأت السورة بالحروف المتقطعة: ألف. لام. ميم. ثم أعقبت ذلك بذكر بعض صفات الله فهو الإله الواحد الحى القائم بأمر الكون وما فيه. ثم تنويه بأن القرآن منزل من عندالله كما التوراة والإنجيل. وعلم الله واسع ولا يخفى عليه أى شىء فى الأرض ولا فى السماء.. وهو الذى يصوِّر الناس فى أرحام أمهاتهم. والذين يكفرون بآيات الله ويجحدونها أعد لهم عذابا شديدا فهو العزيز المرهوب الجانب المنتقم ممن يجحد ألوهيته.

المحكم والمتشابة من القرآن الكريم:

«هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأُخَر متشابهات. فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله. والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب. ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب. ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد» (٧ - ٩).

والآيات تقرر أن القرآن فيه آيات محكمة هى أم الكتاب وجوهره. فيها أساس الدين وأهدافه وهى لا تحتمل تأويلات متعددة. وفى القرآن أيضا آيات متشابهات تحتمل تأويلات عدة. يحاول الذى فى قلوبهم مرض التمسك بها والتمحل فى تأويلها تبريرا لأهدافهم وبقصد فتنة الناس فى حين أن التأويل الصحيح لهذه المتشابهات لا يعلمه إلا الله. والراسخون فى العلم يعرفون حدود علمهم ويؤمنون بأن هذه الآيات هى من عند الله ويدعون الله أن يثبت قلوبهم على الإيمان فلا تزيغ عنه. وذلك هو مسلك ذوى العقول السليمة.

ويرى المفسرون أن وفد النصارى هم المعنيون بهذه الآيات. فإذا كان القرآن قد قرر أن عيسى من روح الله وكلمته فلا يصح أن يستنبط من ذلك أنه ابن الله أو جزء منه أو صورة منه. فهذا تمحُّل فى تأويل الآية التى جاءت لتقرر معجزة الله فى خلق عيسى بدون أب. وخاصة أن تأويلاتهم تخالف الآيات المحكمة والتى لا تحتمل التأويل وتقرر بأن الله واحد وليس له ولد ولذلك فمن التعسف فى التأويل نسبة جزئية إلهية إلى عيسى. أما من كان راسخا فى العلم فهو يكل الأمر إلى الله ويقف عند الأصل المحكم الذى قررته آيات أخرى من عدم جواز بنوة

وإنما هو عبدالله ورسول من رسله وإن كان له خصوصية فى مولده.

ومن الآيات المتشابهات أيضا ما جاء فى القرآن من صفات الله وكرسيه وعرشه. وما ذكر من صفات الجنة وما فيها من نعيم. والنار وما فيها من عذاب. كذلك مشاهد الآخرة والملائكة والجان والشياطين. فكل ذلك غيب يجب على العقل ألا يخوض فيه. وعلى المرء أن يكتفى بقول **«آمنا به كل من عند ربنا»**.. وهكذا فمع أن الآيات نزلت فى مناسبة خاصة إلا أنها تقرر قاعدة عامة تَنطبق على عديد من الآيات فى القرآن وردت بغرض التشبيه والترهيب أو الترغيب أو العظة. والآيات فيها تنديد بمن يتلاعب بالألفاظ عن سوء نية وهوى. وقد روى حديث شريف جاء فيه أن رسول الله سمع قوما يتدارءون أى يتمارون فى القرآن فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا. ضربوا كتاب الله بعضه ببعض. وإنما أنزل كتابه ليصدِّق بعضه بعضا فما علمتم به فقولوا وما جهلتم فكِلوه إلى عالمه. وحديث ثان: المراء فى القرآن كفر. قالها ثلاثا. ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم فردوه إلى عالمه جل جلاله.

وعد للكافرين بالهزيمة:

«إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار. كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب. قل للذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد. قد كانت لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين. والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار» (١٠ - ١٣).

والآيات واضحة المعنى تؤكد للكفار أن أموالهم وأولادهم لن تمنعهم من عذاب الله. مثلهم فى ذلك مثل آل فرعون ومن قبله. ثم أمر للنبى بأن يقول لهم إنهم سيُغلبون فى الدنيا ويحشرون إلى الآخرة فيجازيهم الله بنار جهنم. ثم يذكرهم بما كان من نصر الله فى معركة بدر للفئة القليلة وهم المسلمون وكانوا ٣١٥ رجلا فى حين كان المشركون بين التسعمائة والألف أى ٩٥٠ تقريبا أى ثلاثة أضعاف المسلمين ولكن الله أراهم للمسلمين ضعفا فقط **«يرونهم مثليهم رأى العين»** كما جاء فى سورة الأنفال **«وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا»** (٤٤ - الأنفال ص ٥١٣). وفى ذلك تشجيع للمسلمين إذ يرون أنهم يقاتلون عدوًا قليل العدد.

تزهيد فى متاع الدنيا:

قيل إن وفد نصارى نجران لما جاءوا النبى فى المدينة جاءوا بثيابهم المزركشة والمطرزة بالذهب والمرصعة بالأحجار الكريمة. وقد سبق أن شرحنا (الجزء الرابع ص ١٠٢٠) أن هذه الثياب وزينتها كانت عندهم من مستلزمات الكهنوت فالكاهن الأعظم له ثياب صفتها كذا وكذا

وتختلف عن ثياب الكاهن العادى وهكذا فلكل درجة فى سلك الكهنوت ثياب خاصة يلتزم بها ولا يتعداها. ولا شك أن منظرهم أثار إعجاب بعض المسلمين ورغبوا أن يكون لهم ثياب مثلها. فنزلت الآيات تعدهم بخير من ذلك. وهو ثواب الله فى الآخرة للمؤمنين الصابرين الصادقين. وكما هو معهود فى لفظ القرآن الكريم صيغ ذلك فى أسلوب يجعل منه توجيها عاما صالحا لكل زمان:

«زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب. قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد. الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار. الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار» (١٤ – ١٧).

دعوة وفد نصارى نجران إلى الإسلام:

بدأت الآيات بإثبات جوهر الدعوة الإسلامية بأن لا إله إلا الله العزيز الحكيم وأن الدين عند الله هو الإسلام. شهد الله بذلك لنفسه وشهد بذلك الملائكة وأولوا العلم ولم يختلف أهل الكتاب على هذا المبدأ إلا بسبب البغى وطلب الدنيا. ثم يوجه الخطاب إلى النبى يأمره – إذا ناقشه وفد نجران وجادلوه فى ذلك – أن يقول لهم إنه أسلم وجهه لله كناية عن إسلام كل نفسه. ثم عليه أن يدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن أعرضوا فعليه أن يعلنهم أن كل ما عليه هو البلاغ والله هو الذى يرى أفعال العباد. والمفهوم أنه يجازيهم بها:

«شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط. لا إله إلا هو العزيز الحكيم. إن الدين عند الله الإسلام. وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم. ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب. فإن حاجُّوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن. وقل للذين أوتوا الكتاب والأُمِّيِّين أأسلمتم. فإن أسلموا فقد اهتدوا. وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد» (١٨ – ٢٠).

تحذير لليهود:

«إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط (أى بالعدل) **من الناس فبشرهم بعذاب أليم. أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين»** (٢١ – ٢٢).

والمفهوم أن قاتلى الأنبياء هم اليهود. فقد سبق أن ذكرنا (جـ ٥ ص ٢٥٧) أن إيزابل زوجة أخاب بن عمرى ملك إسرائيل الشمالية قتلت عديدا من أنبياء الرب كما أن هيرودس قتل

يوحنا بن زكريا (جـ ٦ ص ٤٦). وأضيف إلى ذلك وصفهم بالكفر وقتلهم من يدعون الناس إلى القسط والعدل. فلهم عذاب أليم وأى أعمال حسنة لهم لن تقبل فى الدنيا ولن يثابوا عليها فى الآخرة. ولعل ذكر قتل اليهود السابقين للأنبياء فيه تحذير لليهود الحاليين من تكرار أخطاء أجدادهم بمحاولة قتل النبى أو التآمر عليه بأى صورة من الصور.

اليهود يحتكمون إلى النبى ثم يعرضون عن حكمه:

«ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون. ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون. فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووُفِّيت كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون. قل اللهم مالك الملك تُؤتى الملك من تشاء وتَنزِع الملك ممن تشاء وتُعز من تشاء وتُذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير. تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب» (٢٣ - ٢٧).

وروى عن ابن عباس (تفسير الألوسى جـ ٣ ص ١١١) قوله إن الآية الأولى نزلت فى رجل من اليهود زنا بامرأة ولم تكن آيات الرجم فى القرآن قد نزلت فاحتكم اليهود إلى النبى تخفيفا على الزانيين لشرفهما فقال النبى أحكم بكتابكم فأنكروا الرجم فجىء بالتوراة ووُجد فيها حكم الرجم ورُجما فغضب اليهود. وذكر المفسرون مناسبات أخرى لنزول الآية. وعلى كلٍّ فمضمون الآيات صريح بأنها نزلت لتندد بفريق من أهل الكتاب أعرضوا عن قبول تحكيم كتاب الله فى خلاف قام بينهم واعتمدوا على أنهم لن يُعذَّبوا فى الآخرة. وإن عُذِّبوا فلأيام قلائل وذلك نفس ما قالوه من قبل فى سورة البقرة (الآية ٨٠ ص ٤٥٠): **«وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة»**. ويقال إن اليهود يعتقدون أنهم مهما فعلوا فلن يُعذَّبوا إلا مدة ٤٠ يوما هى مدة عبادة آبائهم للعجل. ثم تمضى الآيات تُذكِّر بقدرة الله فى تتابع الليل والنهار والإحياء والإماتة وفى توزيع الرزق.

نهى المؤمنين عن موالاة الكافرين:

«لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة. ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير. قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم مافى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير. يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد. قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين» (٢٨ - ٣٢).

ويقول المفسرون (الألوسي جـ ٣ ص ١١٩) إن نفراً من الأنصار كانوا على صداقة حميمة مع نفر من اليهود فنصحهم إخوانهم باجتنابهم لئلا يفتنوهم عن دينهم. وقالوا أيضا نزلت في المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول وأصحابه كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار راجين أن يكون لهم يد عندهم فيما لو ظفروا على المسلمين. فأنزل الله الآية تنهى المؤمنين عن موالاة الكافرين واتخاذهم بطانة وإطلاعهم على أسرار المسلمين. ومع ذلك فمسموح للمسلمين أن يتخذوا من غير المسلمين بعض الأفراد وتوظيفهم فى الأعمال والمهام التى لا يتوافر في المسلمين من يقوم بها. ثم يتبع ذلك تحذير لمن يتولى الكافرين سرا موالاة تضر بالمسلمين وتذكير هؤلاء أن الله يعلم مافى الصدور ويعلم كل مافى السماء والأرض ويوم القيامة يجد الناس كل أعمالهم موجودة فيُسر من عمل خيرا. أما من عمل السوء فيتمني لو كان بينه وبين عمله بعداً شاسعا حتى لا يحاسب عليه. ثم تنتهى الفقرة بالحث على طاعة الرسول لأنها من طاعة الله.

جدال وفد نصاري نجران مع النبي:

لاشك أن وفد نصارى نجران أرادوا أن يستوثقوا من النبى عن موقف الاسلام من معتقداتهم. ولاشك أيضا أن الإسلام الوليد فى المدينة لم يكن فى موقف يسمح له بفتح جبهة عداوة مع نصارى نجران إذ أنهم لو تحالفوا مع قريش لأصبح الموقف خطيرا. لذلك فإن الآيات التى نزلت من سورة آل عمران ذكرت النقاط التى لاخلاف عليها وأرجأت المواضيع الخلافية – مثل مسألة الصلب أو التثليث – إلى مرحلة أخرى. فجاءت الآيات متضمنة النقاط التالية وقد ورد شرحها فى الجزء السادس (ص ١٥ وما بعدها):

١ – ولادة مريم:

«إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم. إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا (أى خالصا لخدمة بيته) **فتقبل منى إنك أنت السميع العليم. فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثي وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفّلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»** (٣٤ – ٣٧).

٢ – ولادة يحيى:

«هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء. فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشركَ بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورا

ونبيا من الصالحين. قال رب أنّى يكون لى غلام وقد بلغنِيَ الكبر وامرأتى عاقر قال كذلكَ الله يفعل ما يشاء. قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار» (٣٨ - ٤١).

٣ - اصطفاء مريم وولادة المسيح:

«وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين. يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين. ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون. إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين. قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلكِ الله يخلق ما يشاء. إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون» (٤٢ - ٤٧).

وبالنسبة لولادة المسيح تقول الآيات إنه «كلمة من الله» وهو مالا يعترض عليه النصارى. ولذلك لا نوافق على ما تقوله بعض التفاسير (صفوة التفاسير جـ١ ص ١٦٨) من أن وفد النصارى قالوا للنبى: ما لك تشتم صاحبنا وتقول إنه عبد؟. فذلك جاء فى سورة النساء (الآية ١٧٢ ص ٦٣٦) التى تقول: **«لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله»** ولم تكن سورة النساء قد نزلت بعد إذ هى لم تنزل إلا بعد غزوة الخندق.

٤ - عن المسيح ومعجزاته:

واستمرت الآيات فى ذكر مالا خلاف عليه من النقاط:

«ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الأكمه (المولود أعمى) **والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبِّئكم بما تأكلون وما تدَّخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومُصدِّقا لما بين يدىَّ من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حُرِّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم»** (٤٨ - ٥١).

والآيات تذكر أن عيسى جاء رسولا إلى بنى إسرائيل أرسله الله مصدِّقا بالتوراة ويدعو بنى إسرائيل إلى الإيمان بالكتاب الذى أنزل عليه وهو الإنجيل وفيه تخفيف من الله لبعض المحرمات. وللتدليل على صدق رسالته أيده الله بمعجزات ذكرتها الآيات وهى لا تختلف عما جاء فى التوراة وإن كان القرآن قد زاد معجزة خلق الطير من الطين. وقد ذكرنا ذلك فى الجزء السادس (ص ٦٥ - ٧٢).

٥ – رفع المسيح:

«فلما أحسَّ عيسى منهم (من بنى إسرائيل) **الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنَّا بالله واشهد بأنا مسلمون. ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين. ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين. إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىَّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلىَّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون. فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديداً فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين. وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين. ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم.إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. الحق من ربك فلا تكن من الممترين»** (أى من الشاكِّين) (٥٢ – ٦٠).

ونلاحظ هنا الدبلرماسية الفائقة فى تجاوز مسألة الصلب التى لا يعترف بها الإسلام فى حين أنها حجر الزاوية فى العقيدة المسيحية فقد ذكرت الآيات رفع المسيح مباشرة وهى نقطة لا خلاف عليها. ثم ذكر أن الذين اتبعوا المسيح – أى النصارى – هم المؤمنون. ومن أنكروه – وهم اليهود – فقد كفروا. وأن النصارى سيظلون ظاهرين بالقوة والسلطان على اليهود إلى يوم القيامة. ثم توضح الآيات أن المعجزة الربانية فى ولادة المسيح كالمعجزة الربانية فى خلق آدم. والنقاط كلها لا يستطيع وفد نصارى نجران الاعتراض على أى منها وعليه يكون القرآن مصدِّقا لما معهم ويتأكد لهم أنَّ «محمدا» نبى من عند الله والواجب أن يؤمنوا به.

٦ – الملاعنة:

وإذ لم يقتنع رجالات الوفد بما سبق ذكره عرض عليهم النبي المباهلة أى يبتهل هو وإياهم – مع من يحبه ويحبونهم من الأبناء والنساء – إلى الله بأن يجعل لعنته على الكاذب من الفريقين المبتهلين. ويقال (تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٠٤) إن النبى جاء بفاطمة وعلى والحسن وقال لهم إن أنا دعوت فأمِّنوا. واستمهله وفد النصارى ليتدبروا فى الأمر. وفى مشاوراتهم فيما بينهم أخبرهم رئيس الوفد أن النبى قد جاءهم بالقول الفصل فى عيسى وأنه النبى الذى كانوا ينتظرونه وخشى عليهم من المباهلة. وفى الغد جاءوا وقالوا: يا أبا القاسم. رأينا أن لا نلاعنك. وانصرفوا إلى بلادهم:

«فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالَوْا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين. إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم. فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين»(٦١ –٦٣).

بعض المفسرين (صفوة التفاسير ج١ ص ١٨١ – نقلا عن القرطبى جـ ٤ ص ١٠٣

وأسباب النزول للواحدى ص ٥٨) يقول إن وفد نصارى نجران - بعد أن دعاهم النبى إلى المباهلة - قال بعضهم لبعض إن فعلتم اضطرم الوادى عليكم نارا. فقالوا أما تعرض علينا سوى هذا؟ فقال الإسلام أو الجزية أو الحرب فأقروا بالجزية. وهذا غريب إذ كان الوفد يعلم أن ليس للإسلام فى ذلك الوقت قوة تمكِّنه من هذا التشدد. ولو اختاروا الحرب فإن النبى لا يمكن أن يحاربهم إذ تجدها قريش فرصة لمهاجمته من الخلف. كما أن النجاشى - وهو على النصرانية - لابد ناصرهم. ويصبح المسلمون فى الحبشة - وهم نيف وثمانون رجلا - رهائن أو أسرى. ولا يمكن للنبى أن يفعل ما يؤدى إلى ذلك - ولا شك أن ما قاله المفسرون راجع إلى خلط بين وفد النصارى هذا الذى قدم بعد موقعة بدر وقدوم وفدهم في عام الوفود بعد فتح مكة كما سبق أن أوضحنا ص ٥٢٩.

وقبل انصراف وفد نصارى نجران عائدين إلى بلادهم وجَّه إليهم القرآن دعوتين أخيرتين:

٧ - دعوة أخيرة للإيمان:

«قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» (٦٤).

والآية فيها أمر للنبى بأن يدعو أهل الكتاب - يهودا ونصارى - إلى أمر واضح لا مجال للخلاف فيه وهو أن لا يعبد أى منهم أحداً إلا الله وأن لا يشركوا به شيئا. فإن أعرضوا بعد هذه الدعوة الصريحة البسيطة فليشهدهم ويشهد الناس جميعا على أنه هو ومن معه هم المسلمون حقا.

وكدليل علي إعراضهم وجدالهم فيما هو واضح ذكرت الآيات خلاف اليهود والنصارى حول إبراهيم عليه السلام.

٨ - دعوة اليهود والنصارى لنبذ الخلاف حول إبراهيم:

«يا أهل الكتاب (اليهود والنصارى) **لِمَ تُحاجُّون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون. ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين»** (٦٥ - ٦٨).

وقد جاء ذكر إبراهيم عليه السلام فى سور كثيرة من سور العهد المكى فعلى سبيل المثال جاء ذكره فى سورة الأنعام (الآية ٧٤) وسورة الأنبياء (الآية ٥١ وما بعدها). وكان تناول القصة فى هذه السور من زاوية تسفيه عبادة الأصنام ودعوته لقومه لنبذها وعبادة الله وحده. وهذا ما كان مناسبا فكأنه كان دعوة إلى كفار قريش إلى الاقتداء به إذ أنهم يفخرون

بالانتساب إليه. أما في المدينة فقد كان النزاع يثور بين النبى واليهود والنصارى كل يقول إنه على ملة ابراهيم فنزلت الآيات تقرر أن رسول الله وحده هو الذى يسير على الحنيفية التى كان عليها إبراهيم. أما ادعاء اليهود والنصارى أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا فهو ادعاء باطل لأن إبراهيم كان سابقا بعدة قرون لكل من التوراة والإنجيل. ثم تنبههم الآيات إلى أنهم يُحاجُّون فى أمر واضح ومعلوم لهم كهذا الأمر وتسألهم عن سبب جدالهم فيما يجهلون. وتخبرهم أن النبى هو الذى يسير على ملة إبراهيم ومن ثَم فهو أولى به. وقد سبق لليهود أول قدوم النبى إلى المدينة أن أثاروا هذا الجدل وادعوا أنهم هم وحدهم ورثة إبراهيم وجاء الرد عليهم فى سورة البقرة (الآية ١٤١ ص ٤٦٥): «**أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى. قل أأنتم أعلم أم الله**».

وإلى هنا ينتهى الجدل الذى أقامه وفد نصارى نجران مع النبى وعادوا إلى بلادهم إلا أن اليهود استمروا فى مجادلاتهم ومحاولتهم الصد عن دين الله.

محاولة اليهود إضلال المسلمين:

«**ودَّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون. يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون. يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون. وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون. ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم. قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم. قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم. يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم**» (٦٩ - ٧٤).

والآيات تشير إلى ما كان يفعله بعض يهود المدينة من العمل على إضلال بعض المسلمين وتشكيكهم فى دينهم أملا فى تحويلهم عنه. وتنبه اليهود المضلين إلى أنهم فى الحقيقة ما يضلون إلا أنفسهم دون أن يشعروا. ثم يأتى سؤال موجّه إليهم على سبيل التنديد يستنكر كفرهم بآيات الله مع أنهم يشهدون فيما بينهم وبين أنفسهم بصحة نبوة «محمد» وصحة إنزال القرآن من عند الله ولكنهم يكتمون هذه الحقائق ويعمدون إلى الباطل ويلبسونه ثوب الحق. ثم تأتى إشارة إلى ما كان يفعله بعض اليهود من إظهار الإيمان أمام الناس فى وضح النهار. وفى الليل حينما يخلو بعضهم إلى بعض يعودن إلى كفرهم ويتآمرون لبث بذور التشكيك فى نفوس بعض المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم. كما كانوا يتواصون ألا يأمن بعضهم إلا لبعض وألا يطلعوا غير اليهود على ما جاء فى التوراة من صفات النبى حتي لا يُحتج به عليهم يوم القيامة. ثم تقرير بأن الهدى هو من الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وينزل رحمته على من يشاء.

التنديد ببعض تصرفات اليهود المالية:

«ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دُمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون علي الله الكذب وهم يعلمون. بلي من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين. إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» (٧٥ – ٧٧).

ويقول المفسرون إن النصارى هم المتصفون برد الأمانات أما اليهود فهم الموصوفون بعدم ردها. وقال آخرون إن الفئتين من اليهود ورووا أن عبدالله بن سلام – قبل إسلامه – أودعه رجل ١٢٠٠ أوقية من ذهب فردَّها إليه. أما يهودى آخر فقد أودعه رجل دينارا فخانه فيه. كما أن جماعة من الأنصار – قبل إسلامهم. – كان بينهم وبين اليهود معاملات مالية. فلما أسلموا أنكر اليهود مافى ذمتهم لهم. وكانوا يقولون إن شريعتهم لا تُجَرِّم سلب غير اليهود أموالهم وهذا طبعا كذب وافتراء على الله. والآيات تندد بالذين يبيعون عهد الله ويحلفون الأيمان الكاذبة لترويج بضاعة رديئة. فما اكتسبوه من مال قليل بالنسبة لما اكتسبوه من غضب الله فلا يشملهم برحمته ولهم عذاب أليم.

التنديد بتحريف أهل الكتاب لكتبهم:

«وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون. ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تُعلِّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون». (٧٨ – ٨٠).

والآيات تندد بفريق من أهل الكتاب – وعلى الأرجح هم النصارى وإن كان التنديد يشمل اليهود أيضا – إذ كانوا يلوون ألسنتهم أثناء تلاوة بعض الفقرات التى دسوها على التوراة والإنجيل ليظن الناس أنها من أصل الكتاب وأنها من عند الله وفى الحقيقة أنها ليست كذلك. ومما دسوه على الإنجيل هو ادعاؤهم أن عيسى أخبر الناس أنه ابن الله وأمرهم بعبادته. وتقرر الآيات أنه يستحيل على شخص آتاه الله النبوة والحكمة أن يدّعى ذلك. ومثله لابد أن يأمر بعبادة الرب طبقا لما كانوا يدرسونه فى كتبهم. كما لا يمكن أن يأمر الناس أن يتخذوا الملائكة أو الأنبياء شركاء له. واليهود داخلون أيضا فى هذا التنديد لقولهم إن عزيرا ابن الله.

أتباع النبى السابق يُؤمرون باتباع النبى اللاحق:

«وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدِّق لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصرنَّه. قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين. فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» (٨١ – ٨٢).

والآيات تبين أن الله قد أخذ على الأنبياء عهدا بأن يأمر السابق منهم أمته بتصديق ونصر من يأتى بعده من الأنبياء ما داموا مصدِّقين لما جاءوا به ومتطابقين معهم فى الأسس والأهداف. وهذا ينطوى على حجة تلزم أهل الكتاب بالإيمان برسالة «محمد» خاتم النبيين. فضلا عن أن أوصافه مذكورة فى كتبهم فلا يصعب عليهم التعرف عليه. كما سبق أن ذكر فى سورة الأعراف (آية ١٥٧ ص ١٢٦): **«الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل».**

الدين واحد وهو الإسلام:

«أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يُرجعون. قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين» (٨٣ - ٨٥).

التنديد بالارتداد عن الإسلام:

كان بعض الأعراب حول المدينة قد أسلموا ثم استمالتهم قريش فارتدوا كفارًا فجاءت الآيات تندد بهم وتخبرهم أن عليهم لعنة الله ولعنات الملائكة والناس جميعا. لا تفارقهم اللعنة ولا يخفف عنهم عذاب نار جهنم ولا هم يُمهلون. أما من تاب وعاد إلى الإيمان وعمل الصالحات فإن الله يغفر لهم ويرحمهم فهو غفور رحيم. ولكن الذين أصروا على الكفر فلن يقبل منهم أى فدية ليفتدوا بها من عذاب النار حتى لو قدموا ملء الأرض ذهبا ولهم عذاب أليم ولن ينصرهم أحد من دون الله:

«كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين. أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون. إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم. إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون. إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به. أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين» (٨٦ - ٩١).

حث على الصدقات:

وتمضى الآيات تبين أن البر ورضا الله يُنال بالإنفاق وخاصة بالطيب الذى تحبه النفس ثم تخبر بأن كل ما ينفقونه - قليلا أو كثيرا - يعلمه الله. والمفهوم طبعا أنه سيثيبهم عليه.

«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم» (٩٢).

اليهود ينكرون علي المسلمين أكل لحوم الإبل:

ثم حدث أن عاب اليهود على النبى والمسلمين أكلهم لحم الإبل وادعوا أن ذلك كان محرَّما فى ملة إبراهيم وهم يسيرون على ملته ولا يأكلونه. فرد عليهم النبى موضحا أن ملة إبراهيم لم يكن فيها محرمات فى المأكل وبالتالى كان لحم الإبل مباحا. وأن إسرائيل - الذى هو يعقوب - كان يحبه فمرض بألم فى رجله فنذر لله إن شفاه الله منه أن يُحرِّم أحب الطعام إلى نفسه - وهو لحم الإبل - حرَّمه قبل أن تنزل التوراة. واقتدى به اليهود فحرَّموا لحم الإبل. وتحداهم النبى أن يأتوا بنص فى التوراة يحرم لحم الإبل فأفحموا:

«كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرَّم إسرائيل (الذى هو يعقوب) **على نفسه من قبل أن تنزل التوراة. قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون. قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين»** (٩٣ - ٩٥).

فضل بيت الله الحرام:

قيل إن بعض اليهود ادعوا أفضلية معبدهم على الكعبة فردَّت الآيات تقرر بأن البيت الحرام بمكة هو أول بيت وضع للناس وأن الذى بناه هو إبراهيم والدليل على ذلك مقامه أى الحجر الذى كان يقف عليه أثناء البناء وأثر قدمه ظاهر فيه. والبيت أمنٌ لكل من دخله. ثم جاءت الآية التى شرعت الحج كفريضة من فرائض الإسلام. وكانت الآية ١٢٥ من سورة البقرة (ص ٤٦٤) قد ذكرت أن الطواف بالكعبة والصلاة بالبيت الحرام هي من سنة إبراهيم: **«وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهراً بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود»**. وجاءت الآية الحالية من سورة آل عمران تؤكد على فريضة الحج وتجعله أحد أركان الإسلام:

«إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا. ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين» (٩٦ - ٩٧).

وبكة اسم آخر لمكة. وقيل إن البك بمعنى الازدحام والناس يزدحمون فيها أثناء الطواف. كما أن البكة هى المكان المنخفض. والكعبة تقع فى أخفض بقعة من الوادى الذى تحيط به الجبال من كل ناحية فهى فى بكة من الأرض.

التنديد بصد اليهود عن الإسلام:

«قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون. قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عِوَجا (أى مَيْلا عن الحق) **وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون** (٩٨ - ٩٩).

والمقصود بأهل الكتاب هم يهود المدينة وكانوا يحاولون بجدالهم تشكيك بعض المسلمين فى دينهم ليرتدوا عنه والآيات تندِّد بهذا المسلك فى صيغة تساؤل عن فعلهم هذا مع أنهم يشهدون فى قرارة أنفسهم بصحة رسالة النبى ونبوته، وتحذرهم من أن الله ليس بغافل عما يعملون. والمفهوم أنهم سيُجازون على ذلك.

اليهود يدسون للوقعية بين المسلمين:

روى أن بعض يهود المدينة كبر عليهم أن يروا النبى يزداد قوة ودعوته تزداد اتساعا. ورأوا أن هذا إنما كان بفضل تآخى قبيلتى الأوس والخزرج فى ظل الإسلام ووقوفهما صفا واحدا وراءه وتناسيهما ما كان بينهما من عداوات وحروب. فتآمر اليهود على إثارة الفتنة بينهما. وأخرج ابن اسحق أن اليهودى شاس بن قيس مرَّ على نفر من الأوس والخزرج فغاظه ما رأى من تآلفهم فأمر شابا معه أن يجلس بينهم ويذكرهم بما كان بينهم من حروب ويروى الأشعار التى قيلت في الوقعات المختلفة فلم تلبث نخوة الجاهلية أن تحركت فى بعضهم وعادت الأحقاد القديمة وتداعوا إلى السلاح ليحكموه فيمن هو الأولى بالأمجاد. وأتى الخبر إلى النبى فسارع هو وكبار المهاجرين إليهم يذكرونهم بالإسلام والأخوة فى الدين وراحوا يهدئون النعرة القبلية الجاهلية حتى هدأت نفوسهم وأدركوا أنها دسيسة من دسائس اليهود ثم تعانقوا وحمدوا الله ورسوله على نجاتهم من هذه الفتنة. ونزلت الآيات تحثهم على التكاتف والاعتصام بحبل الله وعدم التفرق:

«يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله. ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرَّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» (١٠٠ - ١٠٣).

ومع أن الآيات نزلت فى هذه المناسبة إلا أنها قاعدة عامة صالحة لكل زمان ومكان توجب على المسلمين التمسك بما يجعلهم كتلة واحدة قوية وتحذرهم من الاستماع لدسائس الأعداء الذين يدعون إلى الفُرقة مما يؤدى إلى الضعف أمام العدو وشبَّهت الفتن بأنها حفرة من النار يوشك المسلمون بالخلاف والتفرق أن يقعوا فيها ولكن الله أنقذهم منها.

قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

واستكمالا للمعنى السابق وما فيه من تحذير من التفرق والضياع جاءت آيتان توجِّهان المسلمين إلى أمر آخر فيه قوتهم وصلاح مجتمعهم. وهو أن يدعوا فيما بينهم بالمعروف

ويتناهوا عن المنكر. ثم تنهاهم عن مشابهة أهل الكتاب الذين تحّولوا إلى فرق وأحزاب، فاليهود كان منهم الصدوقيون والفريسيون (جـ ٥ ص ٤٩٠) والمسيحيون بدورهم تحزبوا إلى نسطوريين ويعاقبة وملكانيين ومارونيين (جـ ٦ ص ١٤٠) وسيعذبهم الله على هذا التحزب يوم القيامة:

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم. يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه. فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون. تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين. ولله ما في السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور» (١٠٤ - ١٠٩).

وقد قرر العلماء أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على كل مجتمع إسلامى إذا لم يقم به جماعة من المسلمين فى وقت ما أثم جميع أفراده لتقصيرهم فى واجب من واجبات الشريعة الإسلامية. وقد وردت فى هذا الشأن أحاديث نبوية كثيرة نذكر منها: «والذى نفسى بيده لتأمُرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعُنَّه فلا يستجيب لكم. وحديث آخر: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع بقلبه وهذا أضعف الإيمان. ولكن التغيير باليد لا يعني الفوضى. كلٌ يفعل ما بدا له. بل أمر ذلك التغيير متروك لأولى الأمر وبالطرق المتعارف عليها فى زمانهم.

المسلمون خير أمة:

وبناء على قيام المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالإضافة إلى إيمانهم بالله - أصبحوا خير أمة:

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهوّن عن المنكر وتؤمنون بالله. ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون. لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون. ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» (١١٠ - ١١٢).

وكان اليهود يفخرون دائما بأنهم «شعب الله المختار» وأن الله فضَّلهم على العالمين. فجاء الخطاب مُوجَّها إلى المسلمين فيه البشرى بأنهم قد قُدِّر لهم أن يكونوا خير أمة ظهرت على وجه الأرض لإيمانهم بالله وقيامهم بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ثم تنديد بأهل الكتاب - والمقصود يهود المدينة - لأنهم لم يؤمنوا. إذ لو آمنوا لكان خيرا لهم ولأصبحوا فى زمرة هذه الأمة الخيِّرة. ولكن القليل منهم هو الذى آمن أما معظمهم فلم يؤمنوا وكانوا

فاسقين. ثم تُطمئن الآياتُ المسلمين بأن هؤلاء لن يضروهم ضررا بالغا فكل ضررهم محصور في الأذى بالدس والوقيعة. ولو تجرأوا على قتال المسلمين لفروا فى الميدان ذلك لأنهم أذلاء ولزمتهم المسكنة فى كل ظرف باستثناء بعض الأوقات التى كانوا يتمسكون فيها بشريعة الله **«بحبل من الله»** أو يدخلون فى عهد مع قوم أقوياء **«وحبل من الناس»**... وذلك لأنهم كانوا يكفرون بالله ويقتلون أنبياءه. ومن يطالع تاريخ بنى إسرائيل (فى الجزء الخامس) يرى خير تطبيق لذلك فى مسلك ملوك بنى إسرائيل سواء فى المملكة الشمالية أو المملكة الجنوبية. فقد كانوا فى فترات قليلة تنتابهم صحوة دينية فيطبقون الشريعة الموسوية ويزيلون عبادة البعل فينصرهم الله على أعدائهم. ولكنهم فى فترات الضلال – وما أكثرها – يعودون لعبادة البعل ويقيمون له التماثيل داخل الهيكل. وكانوا دائمى التخبط بين الأمم: فمرة يحالفون مصر ضد الأشوريين ومرة يحالفون بابل ضد مصر. وهكذا. وفى كل مرة ينهزم حليفهم ويدخل المنتصر أورشليم ويقتل منهم الكثير ويخرب الهيكل ويحمل كنوزه المقدسة إلى بلاده.

الخير فى بعض أهل الكتاب:

إلا أن أهل الكتاب لم يكونوا كلهم بهذا السوء. فقد أسلم عبدالله بن سلام اليهودى وأسلم بإسلامه عدد كبير من اليهود. كما قيل إن ٤٠ من أهل نجران و٣٠ من الحبشه – وهؤلاء من النصارى – أسلموا. فجاءت الآيات تبين أن فريقا من أهل الكتاب آمن وعددت صفاتهم وأفعالهم وأنهم سيُثابون على أعمالهم. أما الذين بقوا على الكفر فلن تجديهم كثرة أموالهم وأولادهم وفى الآخرة لهم عذاب النار. وقررت الآيات أن أموالهم التى ينفقونها فى شراء السلاح واستمالة القبائل لحرب المسلمين مثلها مثل ريح باردة جدا أو ريح السَموم الحارة جدا التى تهب على الزرع فتتلفه أى أنهم لن ينالوا ثمرا من وراء هذا الإنفاق:

«ليسوا سواء. من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يُكفروه والله عليم بالمتقين. إن الذين كفروا لن تغنِىَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صِرٌ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون» (١١٣ – ١١٧).

عدم إخلاص أهل الكتاب فى صداقاتهم للمسلمين:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودُّوا ما عنِتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم

الأنامل من الغيظ. قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور. إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعلمون محيط» (١١٨ - ١٢٠).

والآيات تنهى المؤمنين عن اتخاذ أخلاء وأولياء من غيرهم يطلعونهم على أسرارهم حيث أن هؤلاء يتمنون لهم العنت والمشقة وقد ظهرت علامات البغض والكراهية فى كلامهم وما تخفى صدورهم أشد فى حين أن المسلمين يحبونهم ويؤمنون بما أنزل من كتب سابقة إلا أن اليهود لا يحبونهم وإذا قابلوهم تظاهروا بالإيمان كذبا وإذا خلوا إلى أنفسهم عضوا أناملهم من شدة غيظهم وحقدهم على المسلمين وإذا نال المسلمين خير استاءوا. وإذا أصابتهم مصيبة فرحوا وشمتوا. وتُطمئن الآيات المسلمين بأنهم إذا صبروا فلن يضرهم كيدهم وأذاهم شيئا.

معركـة أحـد

كان مصاب قريش فى معركة بدر شديدا. إذ بلغ قتلاهم ٧٠ رجلا ومثلهم من الأسرى. وكان من القتلى ١٧ من قبيلة بنى مخزوم وكان معظمهم من أبناء عمومة خالد بن الوليد أو أبناء إخوته وأسر الوليد أخو خالد.. وعُرِفَ أن على بن أبى طالب قتل ١٨ رجلا وشارك فى قتل أربعة آخرين وأن حمزة قتل أربعة واشترك مع على فى قتل أربعة أخرين ومن هنا كان حقد قريش البالغ على علىّ وحمزة. وعرفت هند زوجة أبى سفيان بموت أبيها عتبة على يدى علىّ وحمزة وموت أخيها الوليد على يدى علىّ وبموت ابنها حنظلة على يدى علىّ أيضا فراحت تلعن حمزة وعليا وأقسمت أن تنتقم منهما.

وعقد أبو سفيان اجتماعا حضره سادة قريش وكلهم قد فقد عزيزا ببدر. كان منهم من فقد أباه ومن فقد ابنه أو أخاه. وكان أكثر الناس صخبا فى هذا الاجتماع صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل. كانت ثورة عكرمة بسبب فقده أبيه. صحيح أنه قتل أحد المسلمين وقطع ساعد قاتل أبيه ولكن هذا لم يكن ليشفى غليله وألحّ على قريش ألا تتقاعس عن الانتقام. وكان أول من أجابه إلى ذلك أبو سفيان. وتعاهد الجميع على الانتقام وصمموا على ألا يتخلَّف واحد منهم عن الاشتراك فى المعركة القادمة وقرروا إعداد حملة لم تر مكة مثلها. ودعوا غيرهم من القبائل المحيطة للانضمام إليها للقضاء على المسلمين. كما قرروا أيضا تخصيص الـ ٥٠٠٠٠ دينار التى ربحوها من التجارة التى جاءت بها القافلة لتمويل الحملة واختير أبو سفيان بالإجماع قائدا لجيش قريش. وامتنع الناس عن البكاء والنحيب على قتلاهم إلى أن يتم الانتقام. ومما حفز قريش على قرار الحرب هو ما رأوه من خطر على تجارتهم. ويرى بعض المفسرين أن ما جاء فى الآية ١١٧ فى الصفحة السابقة **«مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح.....»** تقصد إنفاق قريش فى الإعداد لمعركة أحد.

وقد سبق أن ذكرنا (ص ٤٣٩) خروج أبى عامر الفاسق من المدينة وقدومه إلى مكة يحرِّض

قريشا يقول لهم إنهم على حق وأن ما جاء به «محمد» باطل ومنّاهم بأنه سيحرض قومه - الأوس - على التخاذل عن نصرة «محمد». ثم بدأت قريش المفاوضات مع القبائل المجاورة فبعثت كنانة وتثقيف بفرق من رجالها.

وفى نصف رمضان من السنة الثالثة للهجرة تجمعت الحملة بمكة. وكان العباس - عم النبى - قد كتب إلى «محمد» ابن أخيه - ينبئه بأمرها. وفى ٣٠ رمضان خرج جيش قريش من مكة مكونا من ٣٠٠٠ رجل منهم ٢٠٠ فارس و ٣٠٠٠ بعير وصحب الجيش ١٥ سيدة من سيدات قريش حُملن على محفات وهوادج لبثٍّ الحماسة فى نفوس الرجال بالندب وتذكيرهم بقتلي بدر. وكان من هؤلاء النسوة هند زوجة أبى سفيان وقد تزعمتهن، وكان فيهن أيضا زوجة عكرمة بن أبى جهل وزوجة عمرو بن العاص وأخت خالد بن الوليد وأخريات منشدات كن يحملن الدفوف والطبول.

ولما سارت الحملة قال جبير بن مطعم - أحد أشراف قريش - لعبد حبشى له: اخرج مع الناس فإن قتلت حمزة عم النبى بعمى طعيمة بن عدى فأنت عتيق واغتبط حبشى لما سمع. وكان ضخم الجثة ماهرا فى رمى الحربة. وفيما هو يتقدم فى مسيره رآته هند وهى تطل من فرجة فى هودجها فقالت له: ويها أبا وسمة (كنيته) اشف واستشف! ووعدته إن هو قتل حمزة انتقاما لقتله أبيها فستعطيه كل الحلى التى كانت تتحلي بها. وكان هذا كفيلا بمضاعفة حماس حبشى لقتل حمزة.

ولم يشأ جيش قريش أن يقتحم المدينة لعلمه بصعوبة القتال فى شوارع ضيقة مما يشل حركة الفرسان. كما أن الحجارة تلقى على الجند من أسطح المنازل. كذلك خططت قريش ألا يحارب المسلمون وظهورهم إلى المدينة إذ أن ذلك يعطيهم فرصة الفرار والاحتماء بالمدينة إذا ما لاحت بوادر هزيمتهم. لذلك عسكر جيش قريش فى السهل المنبسط بين بطن السبخة وجبل الشيخين (شكل ٣٢) في انتظار مكان أفضل من الناحية العسكرية بعد أن يخرج جيش المسلمين من المدينة ويتخذ مكانه للقتال.

تجهيز المسلمين للمعركة:

ننتقل الآن إلى المدينة. وكما قلنا كان العباس قد أخبر النبى بخروج قريش لحربه فبعث النبى عيونا تخبره بتحركات قريش وقوة جيشها وأمر المسلمين بأن يتجهزوا للحرب. ورأى الرسول رؤيا قصها على أصحابه المقربين فقال: قد رأيت والله خيرا. رأيت بقرا تذبح ورأيت فى ذباب سيفى ثلما ورأيت أنى أدخلت يدي فى درع حصينة فأولتها المدينة. فأما البقر فهم ناس من أصحابى يقتلون وأما الثلم الذى رأيته فى ذباب سيفى فهو رجل من أهل بيتى يقتل.

وكان رأى رسول الله أن يقيم فى المدينة فيقاتل المشركين بها. ولكن أناسا لم يكونوا شهدوا بدراً وندموا على تخلُّفهم عنها وكانوا يتوقون لمعركة أخرى يشهدونها فحبذوا الخروج

لقتال قريش عند جبل أحد. وكان رأى عبدالله بن أبى بن سلول مع رأى النبى فى البقاء بالمدينة. ولكن المحبذين للخروج قالوا: يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا. لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم وضعفنا. وعاد عبدالله بن أبىّ بن سلول يقول: يا رسول الله أقم بالمدينة. لا تخرج إليهم. فوالله ما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه. فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا. ولكن الذين اقترحوا الخروج لم يزالوا برسول الله حتى دخل بيته ولبس عدة الحرب.

وندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله. فلما خرج عليهم قالوا: يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد. فقال: ما ينبغى لنبى لبس لأمته (أى عدة الحرب) أن يضعها حتى يقاتل.

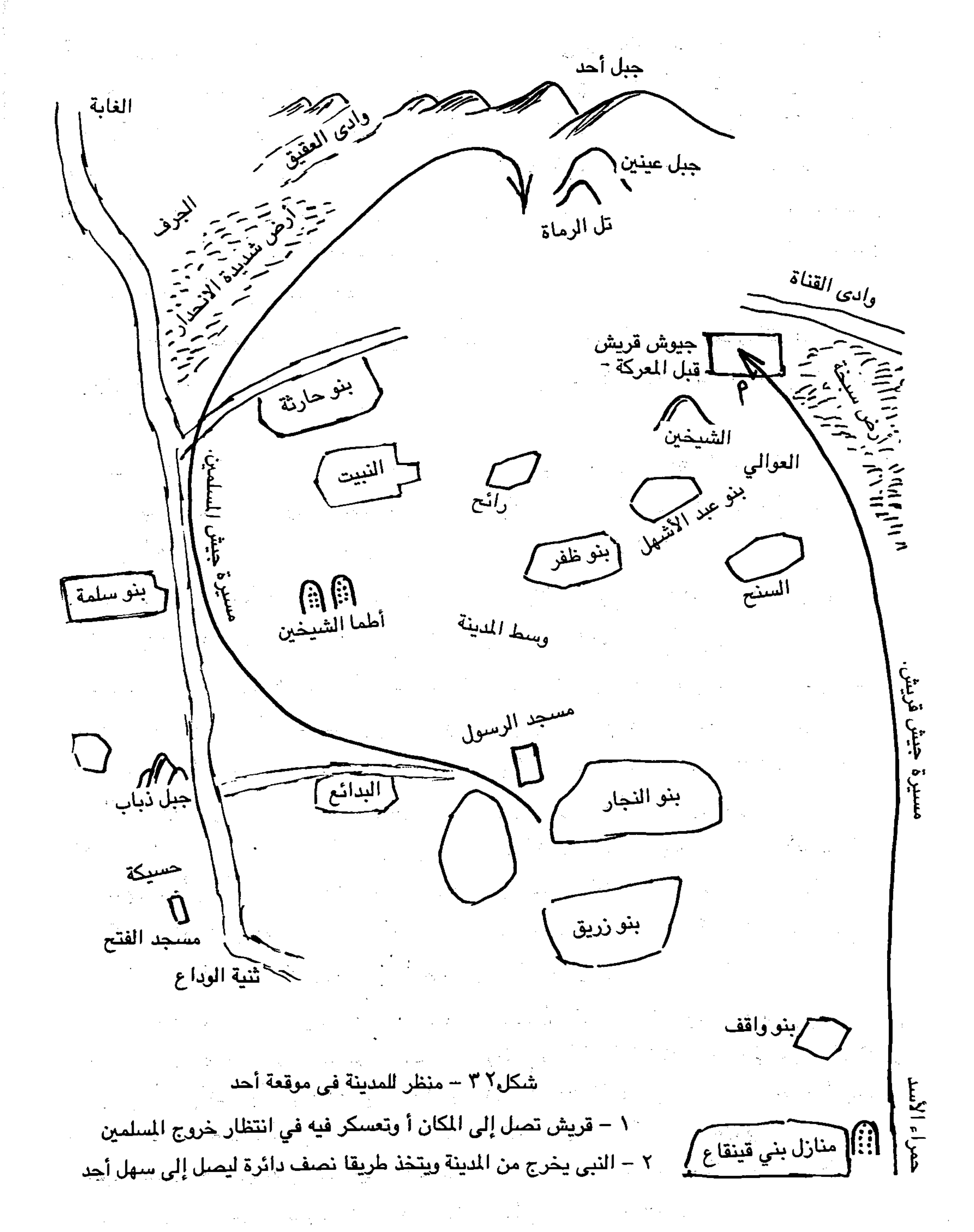
وخرج النبى فى ١٠٠٠ من أصحابه متجها إلى جبل أحد (شكل ٣٢) إذ أن السهل المنبسط بجواره هو المكان الوحيد الصالح للمعركة. وقد أشار القرآن الكريم إلى استعداد المسلمين للقتال وخروجه من أهله أى خروجه من المدينة. فى قوله تعالى:

«وإذ غدوت من أهلك تُبَوِّئُ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم» (١٢١ - آل عمران).

فلما كانوا فى منتصف الطريق إلى أُحُد تخاذل عبدالله بن أبىّ بن سلول وقال: أطاعهم وعصانى. ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس ورجع ورجع معه ٣٠٠ من أعوانه المنافقين. وناداهم عبدالله بن عِمرو بن حِرام السلمى وناشدهم بالله ألا يخذلوا نبيهم فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال. وسار رسول الله بالـ ٧٠٠ رجل شمالا ومروا على ديار بنى سلمة وبنى حارثه. وقيل راودت الأفكار بنى حارثة وبنى سلمة أن ينكصوا أيضا أسوة بعبد الله بن أبى بن سلول إلا أن الله ثبَّتهما. ونزلت الآيات تشجع المسلمين وتذكرهم بنصر الله لهم فى معركة بدر وكانوا قِلة. وتخبرهم أن الله قد أمدَّهم بـ ٣٠٠٠ من الملائكة (وهو عدد جيش قريش) ووعدهم إن صبروا فى المعركة بأن يمدهم بـ ٥٠٠٠ من الملائكة ليستأصل الكافرين أو يجعلهم ينقلبوا على وجوهم ويرجعوا خائبين.

«إذ همت طائفتان (بنو حارثة وبنو سلمة) **منكم أن تفشلا** (تتراجعا) **والله وليُّهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون. ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنزَلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يُمدِدكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسومين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم** (يذلهم بالهزيمة) **فينقلبوا خائبين»** (١٢٢ - ١٢٧).

ثم سار النبى وسلك دربا غير مطروق فى نصف دائرة حتى وصل إلى جبل أحد وجعل



شكل ٣٢ – منظر للمدينة فى موقعة أحد

١ – قريش تصل إلى المكان أ وتعسكر فيه في انتظار خروج المسلمين

٢ – النبى يخرج من المدينة ويتخذ طريقا نصف دائرة ليصل إلى سهل أحد

ظهره إلى الجبل وقال للجند: لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال. ثم دفع لواء الجيش إلى مصعب بن عمير. ولمَّا رأت قريش أن النبى سار إلى جبل أحد تحركت قواتها غربا لتقطع عليه طريق المدينة. ولم يكن من السهل الالتفاف حول ميمنة جيش المسلمين (إلى الغرب) إذ كانت الأرض هناك شديدة الانحدار إلا إن الميسرة (إلى الشرق) كان يمكن أن تنكشف. ولتأمين هذه الجهة أمرالنبى عددا من الرماة بإرتقاء جبل عينين الذى كان يقع شرقى أرض المعركة وهم ٥٠ رجلا وأمَّر عليهم عبدالله بن جبير وقال له: انضح عنا الخيل بالنبل. لا يأتوننا من خلف. إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك. لا نؤتين من قبلك. إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم. والخيل لا يخيفها سوى النبل الذى ينهال عليها فى وجوهها وصدورها فتفزع وتتراجع. وبهذا التخطيط أمن النبى من مهاجمة ميمنته وميسرته وكان يمكن للجيش أن يتقدم للالتحام مع العدو فى ساحة ضيقة نوعا ما مما يُمكِّن من الاستفادة من قوة وبسالة رجاله.

وفى صبيحة ٧ شوال (السبت ٢٢ مارس عام ٦٢٥م) وقف الجيشان الواحد قبالة الآخر فى نظام. وقام أبو عامر الراهب - الذى كان قد خرج من المدينة وانضم إلى قريش كما سبق أن ذكرنا (ص ٤٤٠) وتقدم فى نفر من رجاله يحمونه واقترب من جيش المسلمين ونادى على الأوس - عشيرته - يُخذِّلهم فقال: يا معشر الأوس. أنا أبو عامر. وأجابته الأوس بصوت واحد: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق وحصبوه بالحجارة فتراجع هو ومن معه إلى صفوف قريش وقال: لقد أصاب قومى بعدى شر. ولكن نظرات قريش المستهزئة كانت تحيطه من كل جانب.

١ - بعد ذلك بدأ الرماة من كلا الجانبين يسددون سهامهم إلى الجانب الآخر. وكانت مبارزة بين الرماة المائة من قريش والرماة الخمسين من المسلمين. وكان وقوف الرماة المسلمين على التل بمكان مرتفع قد أكسبهم ميزة في الرماية. وفى حماية رماة قريش تقدم خالد بن الوليد بفصيلته - ميمنة جيش قريش - يهاجم ميسرة المسلمين ولكنه عاد أدراجه تحت وقع السهام.

٢ - بعد ذلك بدأت المرحلة الثانية وهى المبارزة بين أبطال الجيشين. فخرج طلحة حامل لواء قريش وصاح: هل من مبارز؟ فخرج إليه على بن أبى طالب والتقيا فضرب علىٌّ طلحة على رأسه فشق هامته حتى انتهى إلى لحيته فوقع طلحة إلى الأرض صريعا. وتقدم أحد المشركين لحمل لواء قريش فقتله حمزة وراح الواحد بعد الآخر يحملون لواء قريش فكان المسلمون يقتلونهم. وخرج أبو سفيان ليقاتل وهو على فرسه. وواجهه حنظلة وكان راجلا وضرب قائمى الفرس فسقط أبو سفيان على الأرض وصاح طالبا النجدة فهرع إليه بعض رجاله وقتلوا حنظلة ونجا أبو سفيان.

٣ – وبعد أن انتهت مرحلة المبارزة اتسعت رقعة القتال واشتبك الطرفان فى معركة ضارية تفوق فيها المسلمون فى استخدام السيف وأبدوا ألوانا من البسالة ولكن دون تقدم كبير لتفوق قريش من ناحية العدد.

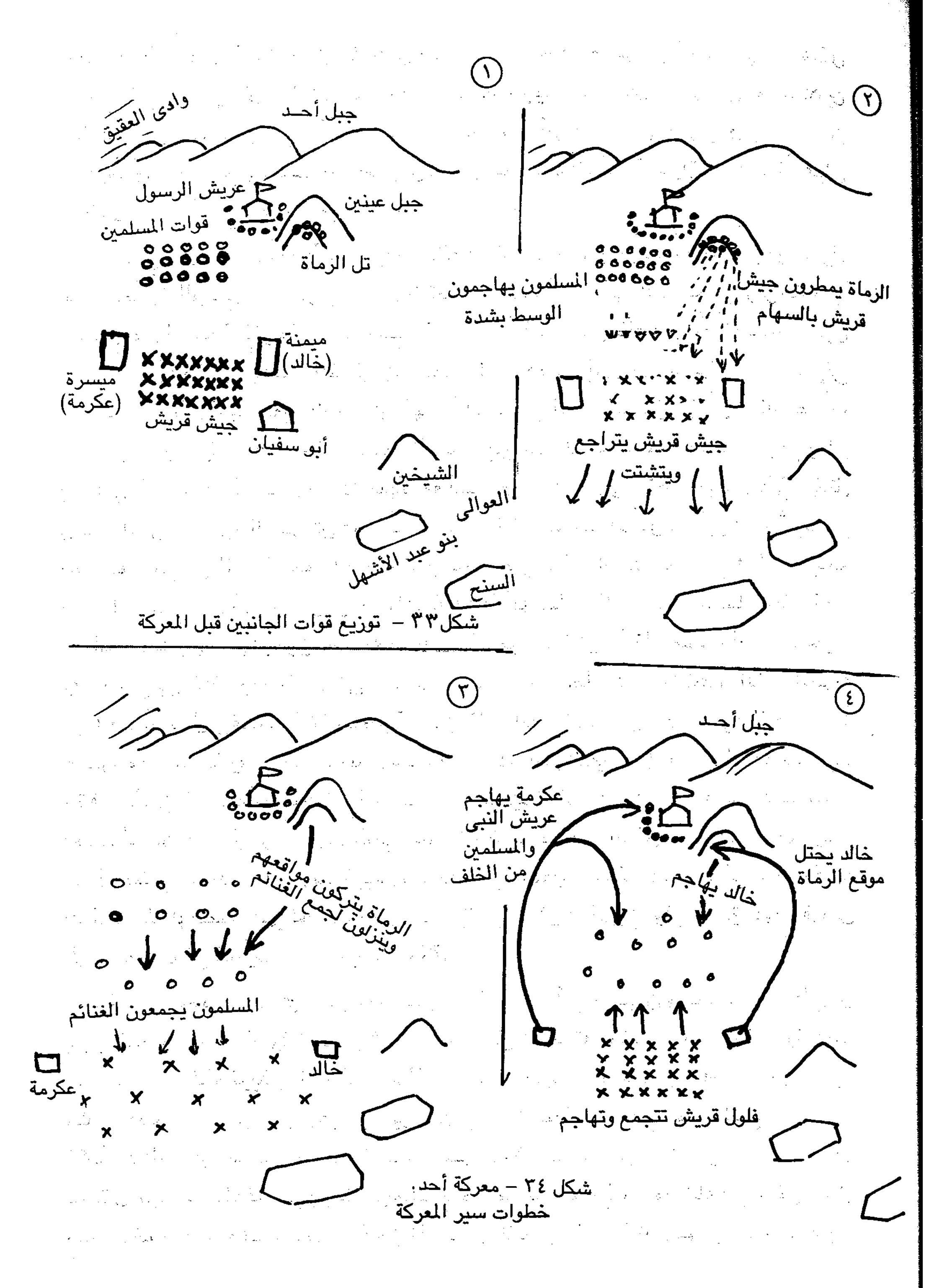
٤ – **مقتل حمزة:** كان حمزة يحارب عند أقصى ميسرة المسلمين وقد قتل أربعة من المشركين. وزحف وحشى من وراء الصخر واقترب من حمزة حتى أصبح على مرمى رمحه ثم وقف وسدد رمحه ورمى فاخترق الرمح بطن حمزه. وتمالك حمزة نفسه وتقدم من وحشى يريده ولكن قوته خارت ووقع على الأرض قتيلا. وانسحب وحشي من المعركة فلم يكن له هدف إلا قتل حمزة.

٥ – وزاد استبسال المسلمين فى القتال وبدأ جيش قريش يضعف أمام شدة هجمات المسلمين وتفككت صفوفه واستداروا يطلبون الفرار فى غير نظام وتعقبهم المسلمون. واندفعوا إلى معسكر قريش ينهبونه. (٣ – شكل ٣٤). وحدث هرج ومرج بسبب النسوة والأرقاء الذين كانوا فى المعسكر وكانوا يجرون طلبا للنجاة من القتل. وظن المسلمون أنهم كسبوا المعركة. ولكن جناحى جيش قريش ظلا صامدين. الميمنة بقيادة خالد بن الوليد والميسرة بقيادة عكرمة بن أبى جهل.

٦ – **الرماة يخالفون أمر رسول الله:** ظن الرماة المسلمون أن قريشا انهزمت وخشوا أن تفوتهم الفرصة فى الحصول على نصيبهم من الغنائم من معسكر قريش. فطلبوا من قائدهم عبدالله بن جبير السماح لهم بالنزول لأخذ نصيب من الغنائم ولكنه رفض طلبهم وذكرّهم بما قاله النبى لهم قبل المعركة. ولكنهم قالوا له: لم يُرِد رسول الله هذا. وقد أذل الله المشركين وهزمهم. واندفع معظمهم إلى معسكر قريش. ولم يبق مع عبدالله بن جبير إلا عشرة رجال.

٧ – ولم تفت هذه الحركة عين خالد المبصرة وانتظر حتى نزل الرماة من على التل وهجم بفرسانه على من بقى من الرماة وأجلاهم واستولى على التل. ولما رأى عكرمة ما فعل خالد والتفافه حول جيش المسلمين من ناحية الشرق. جمع رجاله وهاجم هو من الجانب الغربى وهجمت السريتان على المسلمين من الخلف (٤ – شكل ٣٤). وهجم عكرمة مع جماعة من سريته علي الجماعة التى كانت تحيط بالنبى بينما هجم خالد على المسلمين الذين كانوا فى معسكر قريش.

٨ – واستعاد أبوسفيان سلطانه على معظم المشاة. وكان لواء قريش قد سقط فرفعته امرأه اسمها عمرة واستأنف الرجال القتال. ووقع المسلمون بين نارين فقد تعرضت مؤخرتهم إلى هجوم الفرسان وتعرضت مقدمتهم لهجوم المشاة وأصبح الوضع بالنسبة للمسلمين خطيرا وانقسموا إلى جماعات صغيرة راحت كل واحدة منها تحارب على غير هدى لا يهمها إلا أن تصد الهجوم الذى يقع عليها إلا أنهم لم يفقدوا رباطة جأشهم وصمموا على المضى فى القتال حتى آخر نفس فيهم.



شكل ٣٣ - توزيع قوات الجانبين قبل المعركة

شكل ٣٤ - معركة أحد:
خطوات سير المعركة

٩ - كانت هناك مجموعة من جيش المسلمين قوامها ٣٠ رجلا يحيطون بمكان النبى (٥ شكل ٣٥) وكانت تقف بين تل عينين وجبل أحد فى مؤخرة جيش المسلمين. وكان من بين الثلاثين رجلا. أبوبكر وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبدالله وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وأبو دجانه ومصعب بن عمير. وكان من بين هذه الجماعة امرأتان كانتا تسقيان المقاتلين.

ولما استولى خالد على موقع الرماة وبدأ خيالة قريش فى تطويق المسلمين من المؤخرة أدرك النبى خطورة الوضع. ولم يكن يستطيع الإتصال بقلب جيشه. ثم مالبث عكرمة وفرسانه أن هاجموا من الناحية الغربية وأحيط بجماعة النبى من أمام ومن خلف وتحلّق المسلمون حول النبى يحمونه وحمي وطيس القتال واستخدم النبى قوسه إلى أن انكسرت. ثم عمد إلى سهامه ونبله يعين بها سعدا الذى كان لمهارته أثرها فى المهاجمين من قريش. وكان عكرمة قد اقترب من موقع النبى. ولفت النبى نظر علىّ إلى هذه الجماعة فحمل علىّ عليهم ودفع بهم إلى الوراء بعد أن قتل واحدا منهم. وقدمت جماعة أخرى فتصدى لهم علىّ وقتل واحدا آخر. وبدأ رجال قريش فى رمى جماعة النبى بالسهام. ووقف أبو دجانة يحمى بجسده النبى من السهام موليا وجهه نحو النبى حتى بدا كالقنفذ ولكنه مع هذا ظل يقدم النبل لسعد يرمى بها العدو. وكان طلحة هو الآخر يتلقي النبل بيده فأطاح نبل بأحد أصابعه. ولما رأى المهاجمون صلابة الدفاع تراجعوا ليلتقطوا أنفاسهم ويعاودوا الهجوم. وهجم أبىّ بن خلف وهو يقول: أى محمد. لا نجوت إن نجا. فلما دنا تناول النبى الحربة من أحد الرجال ووقف ساكنا ينتظر أبى بن خلف الذى أذهله أن يرى النبى واقفا وكأنه ينتظره وفى سرعة رفع النبى حربته وسدد إلى صدر أبىّ الذى حاول أن يتفاداها فأصابت كتفه الأيمن قرب العنق. وكانت إصابته غير خطيرة إلا أنه سقط عن فرسه وانكسرت إحدى أضلاعه. وقبل أن يضرب النبى ضربته الثانية استدار أُبىّ وجرى هاربا وهو يرتعد ويقول: قتلنى محمد! ولما حاولت قريش تهدئته صاح مذعورا: سأموت. إنه قال لى بمكة أنا أقتلك فوالله لو بصق علىَّ لقتلنى. وظل على حاله من الفزع والروع. وفى طريق عودة قريش إلى مكة مات فى «سرف» غير بعيد من مكة.

١٠ - ووقف المسلمون يدافعون عن مواقعهم. وعيل صبر أبى سفيان وخالد وعزما على أن ينهيا المعرمة بسرعة. وقررت قريش أن تشدد من هجماتها وتقتل النبى نفسه. وتقدمت مجموعة من مشاة قريش واستطاع ثلاثة منهم أن يخترقوا الحصار وأن يقتربوا من النبى. وكانوا عتبة بن أبى وقاص. وعبد الله بن شهاب وابن قمئة وراحوا يقذفون النبى بالحجارة. فكسرت الحجارة سنتين فى فكه الأسفل وجرحت شفته وحجر ثالث جرح وجنته وأدخل حلقتين من حلق المغفر فى وجنته. وأمام هذه الضربات سقط رسول الله فى حفرة ولكن طلحة رفعه منها. وهنا قامت القلة من المسلمين الذين بقوا مع النبى بهجوم مضاد عنيف

دفعوا به قريشا إلى الوراء. واستل سعد سيفه واندفع نحو أخيه عتبه يريد قتله ولكن عتبة فر والمشركون من أمامه. وساد الهدوء الموقف مرة أخرى. وأخذ النبى يمسح الدماء من على وجهه وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم. وحاول أبو عبيدة أن ينتزع الحلقتين من وجه النبى واستخدم أسنانه فى ذلك فانتزعهما ولكن سقطت سنتان من أسنانه.

وكانت أم أيمن – التى كانت تعنى بالنبى فى طفولته – تقف إلى جواره. فخرج من بين صفوف المشركين رجل سدّد سهمه نحوها فأصابها فعاجله سعد بسهم ناوله النبى له أصاب الرجل فى عنقه فمات.

١١ – ثم بدأت قريش هجوما ثالثا على النبى وضرب ابن قمئة بسيفه ضربة أصابت حلقات المغفر الذى على رأس النبى ثم مالت وسقطت على كتفه وكانت الضربة من الشدة بحيث سقط النبى بعدها. وكانت سقطته فى حفرة غير عميقة. وظن ابن قمئة أنه قد قتل النبى فركض ناحية قريش وهو يصيح إنى قد قتلت محمدا. إنى قد قتلت محمدا. وتردد صوته عبر ميدان القتال وسمعه كل من قريش والمسلمين. وكان لهذا النبأ أثره فى إضعاف الروح المعنوية لدى المسلمين. وهرب معظمهم فى اتجاه جبل أحد. إلا أن قلة من المسلمين رأوا أنه مادام النبى قد قتل فلا معنى للحياة بعده. وهجموا على خيالة قريش مصممين على التضحية بأرواحهم فى سبيل الدفاع عن عقيدتهم. وإزاء هذه الجرأة فى القتال تراجع رجال قريش. ورأى النبى الطريق خاليا أمامه فقام من الحفرة. ولجأ هو ومن حوله من الرجال – وكانوا ١٤ فقط – إلى أحد شعاب الجبل. وصاح أحدهم وهو كعب بن مالك: أبشروا. هذا رسول الله. وما إن سمع المسلمون هذه الصيحة حتى هرع عدد كبير منهم إلى أعلى التل وانضموا إلى جماعة النبى (٦ شكل ٣٥).

١٢ – **توقف القتال:** لما سمعت قريش صياح ابن قمئة بأنه قد قتل النبى توقفوا عن القتال إذ اعتبروا المعركة قد انتهت بعد أن حققت هدفها الأكبر وهو التخلص من «محمد» وبالتالى توقف دعوته. ويرتد أتباعه إلى دين الآباء والأجداد وتعود الأحوال إلى ما كانت عليه قبل ظهوره! وراح أبو سفيان يتفقد ميدان المعركة ويبحث بين القتلى عن جثة النبى. غير أنه أُخبر أن النبى حيّ ولم يقتل. وحاول خالد محاولة أخيرة للوصول إلى مكان النبى ولكن كان بعض المسلمين قد اعتلوا مرتفعا من الأرض فرأى خالد أن هجومه لن يجدى فتراجع وتراجع جنود قريش كلهم والتف باقى المسلمين حول مكان النبى وخلت ساحة القتال من الجنود.

١٣ – واندفعت هند إلى حيث سقط شهداء المسلمين وراحت تبحث بينهم عن جثة حمزة. فلما وجدتها أعملت فيها سكينها وأخذت كبده تلوكها. ولما لم تستسغها لفظتها ثم جدعت أنفه

وأذنيه وطلبت إلى النسوة الأخريات التمثيل بباقي القتلي. وجاء وحشى إلى هند فأعطته كل ما كان عليها من حلى ووعدته بعشرة دنانير تعطيها إياه ساعة أن تعود إلى مكة. ولما نَزَعت حُلِيَّها وضعت مكانها آذان الشهداء وأنوفهم بعد أن عملت منها قلائد وأقراطا.

وبعد أن انتهت هذه المأساة البشعة من التمثيل بجثث القتلي المسلمين أراد أبو سفيان أن يستوثق مما قاله ابن قمئة عن قتل النبى فوقف على صخرة عالية وصاح بأعلى صوته على المسلمين: هل محمد معكم؟ وأشار النبى إلى أصحابه بأن يصمتوا. وأعاد أبو سفيان سؤاله مرتين دون أن يتلقى جوابا ثم سأل عن أبى بكر وعمر ولم يتلق جوابا والتفت ناحية قريش وأخبرهم أن الثلاثة الذين ذكرهم قد قتلوا. واستراحت قريش لهذه المقولة إذ كان التعب قد أخذ منهم كل مأخذ ولم تعد لديهم رغبة ولا قوة على مواصلة القتال. وهنا تقدم عمر وصاح فى أبى سفيان: إنك لتكذب يا عدو الله فإن الثلاثة الذين عددت أحياء وإن منا من سينزل بك العقاب. وأيقن أبو سيفان أن النبى لم يقتل ولكنه أيضا كان موقنا أن المسلمين - بعدما أصابهم - لم يعودوا فى حال يستطيعون فيها أن يواصلوا - هم الآخرين - القتال وأنهم يتوعدونه بمعركة أخرى. فصرخ بأعلى صوته: إن الحرب سجال - يوم بيوم. يشير إلى بدر - ثم قال اعل هبل! فقال رسول الله، قم يا عمر فأجبه. فقال: الله أعلى وأجل. لا سواء: قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار. إلى هنا وأبو سفيان لا يزال يخامره أمل فى أن يكون ابن قمئة مصيبا وأن ما قاله عمر ما هو إلا نوع من الخداع. فاقترب أكثر من جماعة المسلمين وصاح: أنشدك الله يا عمر. أقتلنا محمداً؟. قال عمر: اللهم لا. وإنه ليسمع كلامك الآن. قال أبو سفيان: أنت أصدق عندى من ابن قمئة. ثم نادى أبو سفيان: إنه قد كان فى قتلاكم مُثل. والله مارضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت. وقال قبل أن ينصرف: إن موعدكم ببدر العام القادم. فقال النبى لأحد أصحابه أن يرد عليه: قل نعم. هو بيننا وبينكم موعد.

١٤ - وغادرت قريش ميدان المعركة وتجمعت فى المعسكر القديم الذى عسكرت فيه فى اليوم السابق للمعركة. وبعث النبى أحد الرجال ليستطلع ما إذا كانت قريش قد جنبت الخيل وامتطت الإبل. فذهب وعاد وأخبر النبى أنهم قد فعلوا كذلك فقال النبى: إن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة. وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم.

وسارت قريش وقضت ليلتها فى **حمراء الأسد** وكانت تبعد عن المدينة ١٥ كم أما المسلمون فعادوا إلى المدينة (شكل ٣٥).

١٥ - وفي صباح اليوم التالى - بعد أن صحا النبى من نومه - برغم ما كان به من آثار المعركة إذ تورمت وجنته وشفته وفقد سنتين من فمه وجُرح كتفه - فقد لبس لأمته (عدة

الحرب) وأمر بلالا بأن يدعو المؤمنين إلى القتال. وقرر ألا يخرج معه أحد إلا الذى عاد معه بالأمس. فخرجوا جميعا برغم ما كان بهم من جراحات وبعضها بالغ وكانوا نحوا من ٥٠٠ رجلا.

فى نفس الوقت كانت قريش تتحاور فى معسكرها .فقد طلب عكرمة - الذى لم تخمد روحه العدوانية - اغتنام الفرصة والزحف إلى المدينة للقضاء على المسلمين واستئصال شأفتهم قبل أن يستردوا أنفاسهم. ولكن صفوان بن أمية عارضه قائلا: لا تفعلوا، فإن القوم قد حَرَبوا (حرب قال واحرباه كناية عن اشتداد الغضب) وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذى كان فارجعوا ورأى أبو سفيان معبد بن أبى معبد الخزاعى - وكان هوى خزاعة مع النبى - فسأله عما وراءه فقال قد خرج محمد فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على تخلفهم. فأخبره أبو سفيان أنهم ينوون الكرة عليهم فنهاه معبد عن ذلك وحذره من مغبة ذلك.

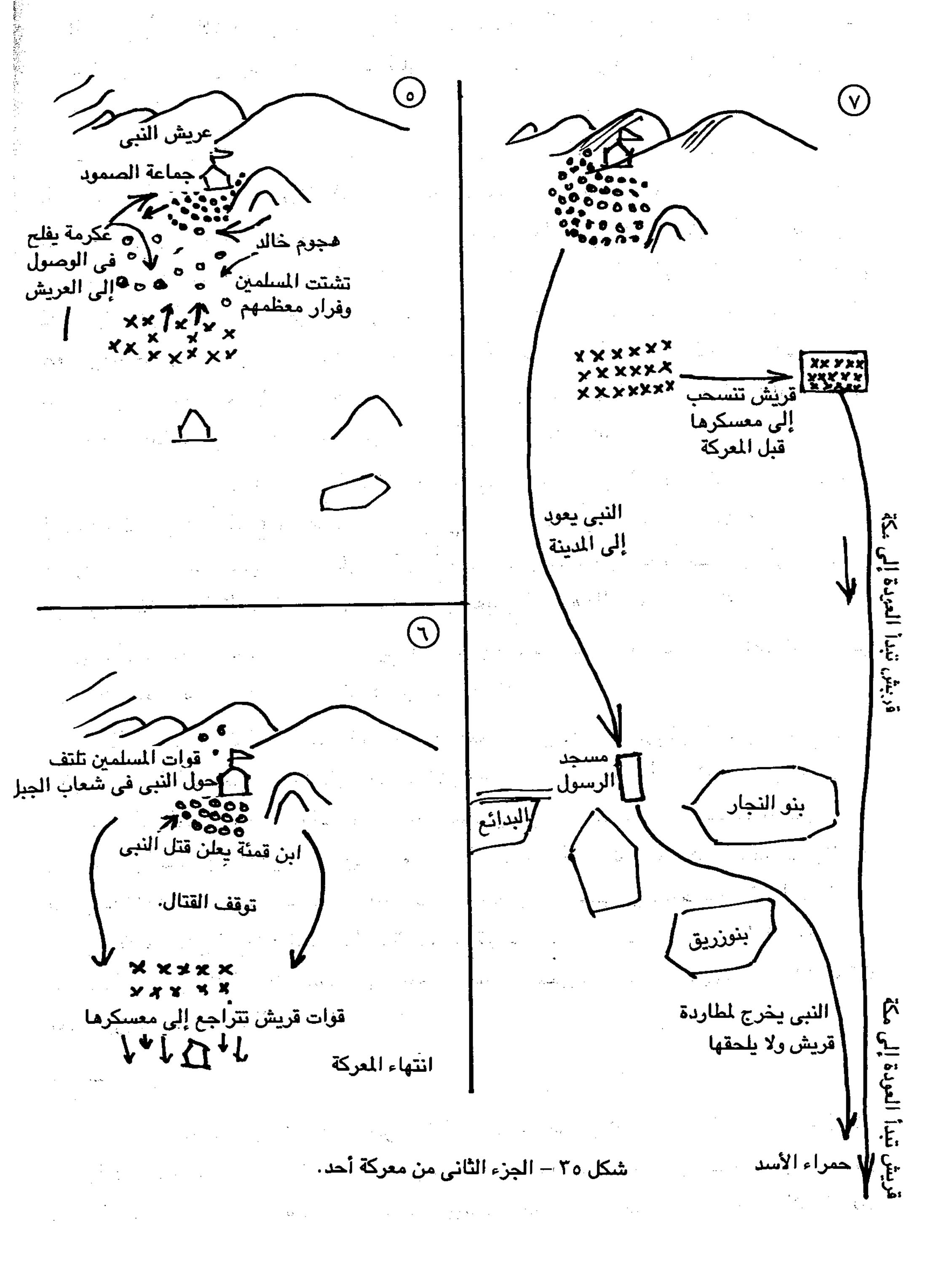
وبينما كان هذا الجدل دائرا أمسك جنود قريش برجلين من المسلمين كان النبى قد طلب إليهما الخروج لاستطلاع ما عزمت عليه قريش. ومع أن هذين الرجلين قد قتلا فى الحال فإن مجرد بعثهما للتجسس أكَّد المخاوف التى كانت تساور صفوان وأبا سفيان من أن المسلمين يريدون استئناف القتال. وفى الحال أصدر أبو سفيان أوامره بالاتجاه إلى مكة.

ووصل المسلمون بعد ظهر ذلك اليوم إلى حمراء الأسد فوجدوها خالية من أى أثر لقريش . وهناك أقاموا معسكرهم ٤ ليال ثم عادوا إلى المدينة.

وبهذا انتهت غزوة أحد وفيها قتل من المسلمين ٧٠ رجلا ومن قريش ٢٢. ومع أن المعركة انتهت بهزيمة المسلمين إلا أن الهزيمة لم تكن فاصلة وكانت غزوة أحد ثانى معركة كبيرة يخوضها المسلمون. وأول معركة يقودها أبو سفيان وأول معركة يشترك فيها خالد بن الوليد. وقد خسر المسلمون المعركة بسبب الرماة الذين عصوا أمر النبى وتركوا موقعهم. وأثبتت المعركة المقدرة الحربية لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل ونجاحهما فى الاحتفاظ بسيطرتهما على القوات التى كانت تحت إمرتهما لحين الإفادة منها فى الوقت المناسب. فاستغل خالد بن الوليد الفرصة التى سنحت أمامه أحسن استغلال فحوَّل ما كاد أن يحققه المسلمون من نصر تام إلى ما يشبه الهزيمة.

فى قتلى أحد:

قالوا إن النبى قال مَن رجل ينظر لى ما فعل **سعد بن الربيع**. فى الأحياء هو أم فى الأموات. فسار رجل من الأنصار إلى ميدان المعركة فوجد سعداً جريحا وعلى وشك الموت وقال له سعد: أبلغ عنى رسول الله السلام وأبلغ قومك عنى السلام. وقل لهم إنه لا عذر لكم



شكل ٣٥ – الجزء الثانى من معركة أحد.

عند الله إن خَلُصَ إلى نبيكم ومنكم عين تطرف ثم مات. وعاد الرجل وأخبر الرسول بما حدث. ورعى أبو بكر أسرة سعد بن الربيع من بعده وكان يقول: هو خير مني: كان من النقباء يوم العقبة. شهد بدرا واستشهد يوم أحد!

ثم خرج النبى بنفسه يلتمس **حمزة** بين القتلى فوجده ببطن الوادى وقد بُقر بطنه عن كبده ومثل به فجدع أنفه وأذناه. وحزن النبى وقال: لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثِّلنَّ بثلاثين رجلا منهم. وقال: لن أصاب بمثلك أبدا . ما وقفت موقفا قط أغيظ إلىَّ من هذا . ثم قال: جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبدالمطلب أسد الله وأسد رسوله. وكان حمزة عم رسول الله وأخوه من الرضاعة.

أما عن توعُّد رسول الله بالتمثيل بثلاثين من قريش فى أى معركة قادمة انتقاما لمثلتهم بحمزة فقد نزل قوله تعالى **«وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله. ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون»** (١٢٦ – ١٢٧ النحل). فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المثلة.

وجاءت صفية – عمة رسول الله وأخت حمزة – لترى أخاها فأتته ونظرت إليه فصلَّت عليه واسترجعت واستغفرت له ثم أمر به رسول الله فدفن بعد أن سُجِّىَ ببردة. وحمل ناس قتلاهم لدفنهم بالمدينة ولكن رسول الله نهى عن ذلك وقال: ادفنوهم حيث صُرعوا. وقال النبى: أنا شهيد على هؤلاء. إنه ما من جريح يجرح فى سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه. اللون لون الدم والريح ريح المسك. انظروا أكثر هؤلاء جمعا للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه فى القبر (البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٤١). وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة فى قبر واحد.

وأثناء عودته إلى المدينة لقيته ابنة عمته حمنة بنت جحش (أخت زينب التى تزوجها النبي فيما بعد) وهى تبكي فقد نعى إليها الناس أخاها عبداله بن جحش وخالها حمزة بن عبد المطلب وزوجها مصعب بن عمير. ومر رسول الله بدار من دور الأنصار فسمع البكاء والنواح على قتلاهم فذرفت عينا رسول الله وبكى. وجاء نسوة على باب المسجد يُعزِّين رسول الله فى عمه حمزة ويبكينه فقال لهن: ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتن بأنفسكن . ثم لما زاد نواحهن نهاهن عنه.

قيل وجاء على بن أبى طالب بسيفه يوم أحد وقد انحنى فقال لفاطمة: هاك السيف حميدا فإنها قد شفتنى ويروى أن رسول الله قال لعلى: لا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا.

والمشهور أن عدد قتلى المسلمين يوم أحد بلغ ٧٠ رجلا وأشارت الآيات إلى هذا بقوله تعالى: **«أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا»** (١٦٥ – آل عمران). فقد قتل المسلمون يوم بدر ٧٠ رجلا من قريش وأسروا ٧٠ آخرين أى مثلى ما أصيبوا به يوم أحد.

قيل ونزلت بعد المعركة آية تعلق على ما قاله النبى أثناء المعركة حين شُجتّ رباعيته وسال الدم على وجهه إذ قال: كيف يفلح قوما خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم. وهو ما ذكرناه سابقا (ص ٥٥٣). كما قيل إن النبى كان يخص بعض زعماء قريش - مثل أبى سفيان وصفوان بن أمية والحرث بن هشام - باللعنة. ومن أقوالهم أيضا أنه كان يدعو على قريش ويقول: اللهم اشدد وطأتك عليهم. اللهم سنين كسنى يوسف. اللهم انج المستضعفين من المسلمين منهم. كما أنه كان يدعو على قبائل لحيان ورعل وذكوان بسبب عدوانهم على جماعة من المسلمين واغتيالهم غدرا. فنزل قوله تعالى:

«ليس لك من الأمر شىء. أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون. ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. والله غفور رحيم» (١٢٨ - ١٢٩).

وفى الآيات تنبيه للنبى بعدم قطع الأمل فى الناس إذا وقفوا أحيانا بعض المواقف المتشددة منه فيلعنهم. وقد صدَّق المستقبل ذلك إذ أسلم الزعماء الثلاثة الذين ذكرت أسماؤهم آنفا كما أسلمت القبائل الثلاث أيضا.

تحريم الربـا:

ثم نزلت بعد ذلك آيات فى تحريم الربا لم ير المفسرون سببا لنزولها فى هذا الوقت بالذات. ومن المُرجَّح أن بعض المسلمين - وقد أنفقوا كل ما يملكون للتجهيز للحرب ونفقتها - ولم تكن هناك غنائم تعوض ما أنفقوا - راحوا يستدينون ليستطيعوا العيش. ولعل الدائنين استغلوا الموقف وكانوا يطلبون ربا علي أموالهم فنزلت الآيات. ومن ناحية أخرى فإن استكمال الوحى للتشريعات المنظمة للمجتمع الإسلامى ما كانت لتتوقف حتى فى خضم معركة كبيرة مثل معركة أحد. وكان قد سبق الإشارة إلى كراهية الربا فى القرآن المكى (سورة الروم. آية ٣٩ ص ٣٩٨) فى قوله تعالى: **«وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله»** وقلنا إن تحريم الربا لم يكن مناسبا لمجتمع مكة الذى كانت غالبيته من المشركين الذين يتعاملون بالربا. ولكن فى المجتمع المدنى - وجلُّه من المسلمين - فقد حان الوقت لتحريم الربا تحريما صريحاً فنزلت الآيات:

«يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون. واتقوا النار التى أعدت للكافرين. وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون. وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. الذين ينفقون فى السراء والضراء (فى اليسر والعسر) **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين. والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين»** (١٣٠ - ١٣٦).

والآيات فضلا عن أنها تُحرِّم الربا فإنها تحبذ الصدقات.

تعزية وتسرية:

ثم نزلت آيات متعلقة بمعركة أحد ونتائجها فيها تعزية للنبى فى قتل أصحابه وتسرية عن المسلمين لكثرة قتلاهم وحتي لا تكسر الهزيمة همتهم فوجّهت الخطاب إلى المؤمنين مقررة سنة من سنن الله فى خذلانه للكافرين والمكذبين وأنهم يمكن أن يروا مصداق ذلك لو ساروا فى الأرض. ثم تنهى الآيات عن الشعور بالمهانة وعن الحزن لأنه بالرغم من نتيجة المعركة فهم الأعلون علي أعدائهم. ثم تلفت نظرهم إلى أنه إذا كان قد أصابهم أذى وسوء فقد أصاب أعداءهم مثله وأن الأيام دول وأن ما أصابهم اقتضته حكمة الله ليختبر الناس ويميز المؤمنين الصادقين الذين ينفذون أوامر الرسول بحذافيرها. وقد ثبت أن الرماة – بعصيانهم أمر النبى – كانوا السبب فى ضياع النصر الذى كانت تباشيره قد بدت كما أن الذين قُتلوا فقد أراد الله أن يكرمهم بالشهادة:

«قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين. ولا تَهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القومَ قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلمَ اللهُ الذين آمنوا ويتخذَ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين. وليُمَحِّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين» (١٣٧ – ١٤٢).

والآيات ولو أنها نزلت بصدد وقعة أحد إلا أنها قواعد عامة من شأنها أن تكون منبع قوة روحية مستمرة تشد من أزر المسلمين فى كل زمان ومكان يقع عليهم جور وتصيبيهم نكسة أثناء حروبهم.

فى الشهداء:

ثم يتوجه الخطاب إلى المؤمنين وتذكرهم الآيات أنهم كانوا يتوقون إلى الاستشهاد فى سبيل الله. وكان فريق منهم ممن لم يشتركوا فى معركة بدر يتمنون لو تتاح لهم معركة ثانية يثبتون فيها جدارتهم. وقد تحققت أمنيات هؤلاء وهؤلاء ونشب القتال ولاقى بعضهم الموت فليس فى الأمر مفاجأة لهم. ثم نبهت الآيات إلى أن «محمداً» رسول جاء قبله رسل كثيرون وهو محكوم عليه بالموت كسائر البشر كما أنه معرَّض للقتل فى معركة فلا يصح أن يتخاذلوا إذا حدث ذلك. ثم تذكر الآيات ما كان من أمر الأنبياء قبله. فكثير منهم قاتل وقاتل معهم أتباعهم المخلصون وأصيبوا بالأذى والسوء فصبروا ولم يهتموا ولم يضعفوا لما أصابهم فى سبيل الله. بل لجأوا إلى ربهم يطلبون الغفران ، إن كانت الهزيمة عقابا على ذنوب وقعت منهم. ويطلبون التجاوز عما يكون قد بَدَر منهم من تقصير فى حق الله. وطلبوا من الله أن

يثبت أقدامهم وينصرهم على الكفار. فكان أن أجاب الله دعاءهم وآتاهم ثواب الدنيا نصرا على الكافرين وثواب الآخرة بأحسن ما يكون والمفهوم أنها جنات النعيم:

«ولقد كنتم تمنَّون الموت من قبلِ أن تلقَوْه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين. وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا. ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين. وكأيِّن من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وَهَنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضَعُفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين. وما كان قولَهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين» (١٤٣ - ١٤٨).

تحذير من أراجيف المشركين والمنافقين:

«يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين. بل الله مولاكم وهو خير الناصرين» (١٤٩ - ١٥٠).

والآيات تحذِّر من الاستماع إلى أقوال الكفار والمنافقين لأنهم يريدون أن يردُّوهم كفارا خاسرين مثلهم. وتطمئنهم الآيات أنهم بإيمانهم يكون الله مولاهم وهو الذى سينصرهم على الكفار.

ظروف الهزيمة فى أُحُد وأسبابها:

ثم تتطرق الآيات لشرح بعض الظروف التى أحاطت بالموقعة. وتبدأ بالتذكير بأن الله هو الذى صرف المشركين عن متابعة القتال.

«سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم يُنَزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين» (١٥١).

ولعل فى هذا إشارة إلى ما أشار به عكرمة من اغتنام الفرصة والزحف إلى المدينة لاستئصال شأفة المسلمين قبل أن يستردوا أنفاسهم ولكن الله ألقى فى قلوب قريش الرعب فنهاهم صفوان بن أمية عن ذلك خشية أن يكون المسلمون أشد ضراوة في القتال فرجعوا.

ثم تستمر الآيات فى وصف تطورات المعركة إذ صدقهم الله وعده بالنصر فمكنَّهم من عدوهم وجعلهم يُمعِنون فيه تقتيلا وأراهم ما أحبوا من بوادر النصر. ثم إنهم تنازعوا على جمع الغنائم وعصى الرماة أمر النبى وتركوا أماكنهم وانقسموا إلى فئتين: فئة كان كل همها الدنيا والغنائم بينما الأخرى أرادت ثواب الآخرة فالتفت حول الرسول تدافع عنه وتحميه:

«ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فَشِلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين» (١٥٢).

فكان سعيهم وراء الغنائم سببا فى ضياع النصر الذى لاحت بوادره وكان ذلك اختبارا من الله وقد عفا الله عن المخالفين لفضله ورحمته وعلمه بمواطن الضعف البشرى. وكان من نتيجة عصيان الفئة الأولى أن انهزموا وفروا مذعورين لا يلوون على شىء ولكن الرسول وقف يهتف بهم من ورائهم ويدعوهم إلى الرجوع إليه. فجازاهم الله حزنا غامرا كالغمة - حتى لا يحزنوا على مافاتهم من الغنيمة ولا ما أصابهم من هزيمة.

«إذ تُصعِدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون» (١٥٣).

ثم لما هدأ روعهم أنزل الله عليهم نعاسا بحيث تسكن نفوسهم إلا أن فريقا منهم اندفعوا وراء الظنون والخواطر الجاهلية وراحوا يقولون لو كان لهم رأى فى الموقف والتدبير لما قتل الذين قتلوا ولما حلت: الهزيمة فلفتت الآيات نظرهم إلى أن الأمر كله بيد الله والأجل موقوت عنده فى كتاب وأن من قتلوا لو ظلوا فى بيوتهم لما كان هذا حائلا بينهم وبين الموت وأن الأمر كان اختبارا من الله ليُظهِر ما فى صدورهم وليعرف الناسُ ما فى قلوبهم إذ الله بسابق علمه يعرف ذلك كله.

«ثم أنزل عليكم من بعد الغم أَمَنَةً نُعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمَّتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله يُخفون فى أنفسهم مالا يُبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا. قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحِّص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور» (١٥٤).

ثم تبين الآيات أن الذين فروا من المعركة إنما أوقعهم الشيطان في هذه الزلة بسبب ما كانوا قد اقترفوه من خطايا. ولقد علم الله ندمهم. وكفاهم ما أصابهم فعفا عنهم لأن الله غفور حليم:

«إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم» (١٥٥).

ثم تُحذِّر الآيات المؤمنين بألا يكونوا كالكفار الذين ينسون قضاء الله وحكمته فيقولون لمن يخرج متاجرا أو غازيا فيموت أو يقتل أنه لو لم يخرج لما مات أو قتل فليس من وراء هذه الأقوال إلا الحسرة والله هو الذى يهيىء أسباب الحياة ولكل نفس أجل معين وعلى المؤمن أن يعلم أن الموت فى سبيل الله ليس مصيبة تستوجب الجزع والحزن لأن الله يثيب عليه مغفرة

ورحمة تفوق كل ما يمكن لهم جمعه من حطام الدنيا. ومصير الناس جميعا مَن ماتوا ومَن قُتلوا هو الحشر إلى الله فى الآخرة:

«يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعلمون بصير. ولئن قُتلتم فى سبيل الله أو مُتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون. ولئن مُتُّم أو قُتِلتم لإلى الله تحشرون» (١٥٦ - ١٥٨).

ترفق النبى بالمسلمين فى هذه المحنة:

ثم تصف الآيات موقف النبى مما بدا من بعض المؤمنين من أقوال فيها تذمر ومرارة وحسرة فقد وسعهم بحلمه، الذى جبله الله عليه فلم يؤنب الرماة على ترك مواقعهم. ولا الفارين لتقديره للضعف البشرى لدى البعض فعامل الجميع باللين والرأفة. وذكرت الآيات أنه لو عاملهم بغلظة لانصرفوا من حوله. ومازاد المسلمين سكينة أن الله أمر النبى أن يعفو عنهم ويستغفر لهم الله. ثم تشير الآيات إلى مشاورته لهم قبل المعركة فى البقاء فى المدينة أو الخروج منها. وعند اكتمال المشورة عليه أن يتخذ القرار متوكلا على الله. وفى هذا تخفيف من شعورهم بالذنب لإصرارهم على الخروج من المدينة:

«فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين» (١٥٩).

وقد استنتج الفقهاء من هذه الآية أنه على الحاكم المشاورة فى الرأى ولم تحدد كيفية ذلك وتركته لظروف كل مجتمع وتغيرها بتغير الزمان. فقديما كان هناك جمع من ذى الرأى والحكمة والدين يسمون «المستشارون» أو «مجلس المشورة». ثم حديثا تم التوسع فى تطبيق المشورة فانتخبت المجالس النيابية ومجالس الشيوخ بحيث تمثل طبقات الأمة تمثيلا صحيحا. ويرى البعض أن هذه الآية تحبذ النظام الرئاسى الذى يكون فيه رئيس الدولة رئيسا للسلطة التنفيذية وهو الذى يتخذ القرار الأخير فى الأمور المصيرية والمشورة غير ملزمة. ولكن معظم الدساتير تجعل المشورة ملزمة مادامت لا تخالف الشريعة. وهناك مباحث فقهية عديدة فى نظم الحكم ليس هذا مجالها.

النصر من عند الله:

ثم تأتى آية موجهة إلى المسلمين تنبه إلى أن الله إذا كان قد قدَّر لهم النصر فلا أحد يستطيع أن يغلبهم. وإذا قدَّر خذلانهم فما من أحد يستطيع نصرهم. وفى هذا تسرية عنهم فلا ينساقوا وراء لوم أنفسهم على نتيجة المعركة وما يولده هذا من شعور بالإحباط قد يؤثر على أدائهم فى المعارك القادمة وعليهم أن يتوكلوا على الله ويتركوا أمر النصر له:

«إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (١٦٠).

نهى عن إخفاء شىء من الغنائم:

وقيل إن بعض المنافقين كانوا قد أشاعوا أن النبى أخذ بعض الغنائم لنفسه. فنزلت الآيات تنفى عن أى نبى – وبالتالى عن رسول الله – إخفاءه لشيئ من الغنائم لأن ذلك لا يتفق مع مقام النبوة. ولا شك أن الآيات قصدت نهى المحاربين عن إخفاء غنائم أخذوها فى المعركة وتبين أن الغلول – وهو ما أخذ خفية – يؤتى به يوم القيامة على رؤوس الأشهاد فتكون فضيحة وخزى لصاحبه. ثم يجازيهم الله سخطا منه ومصيرا بائسا فى نار جهنم:

«وما كان لنبى أن يغل. ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون. أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسَخَط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير. هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون» (١٦١ – ١٦٣).

وفى حديث أخرجه الإمام أحمد قال النبى: إياكم والغلول. فإن الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة. وليس الغلول مقصورا على اختلاس بعض غنائم الحرب إذ هو يشمل كل ما أُخذ بغير حق من مال المسلمين. وسنرى فيما بعد أن رسول الله حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن لإحضار الصدقة قال له: لا تصيبنَّ شيئا بغير إذنى فهو غلول ثم قرأ «ومن يغلل يأت بما غلَّ يوم القيامة».

الرسول أعظم نِعم الله على المؤمنين:

«لقد َمنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» (١٦٤).

وفى هذه الآية تقرير لنعمة الله وفضله على المؤمنين ببعثه رسولا منهم – وهو محمد – يبلغهم آياته وكانوا قبله فى جاهلية وفى ضلال شديد. ولعل المقصود هو أنه تكفيهم هذه النعمة وأن الرسول سالمٌ بينهم ولا يجب أن يحزنوا لما أصابهم فى معركة أحد. إذ الآيات التالية تقول:

«أوَلَّما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنَّى هذا. قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير. وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا (أى دافعوا عن أنفسكم) **قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم. هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان. يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون. الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين»**.(١٦٥ – ١٦٨).

والآيات تقص ما حدث من تساؤل بعض المسلمين يستنكرون ما وقع بهم من مصيبة إذ قتل منهم فى يوم أحد ٧٠ رجلا. وتذكرهم الآيات أنهم قد أصابوا من الكفار فى بدر ضعف هذا العدد إذ قَتَلوا ٧٠ وأَسَروا ٧٠ - وراحوا بعد أُحُد يتساءلون من أين أصابهم هذا الانهزام. وترد الآيات بأن الانهزام نبع من أنفسهم إذ عصى الرماة أمر الرسول وتركوا مواقعهم ولم تكن الهزيمة إخلافا من الله بوعده بالنصر ولا تأخرا منه عن نصرهم لأن الله على كل شيء قدير ولكنها سنة الله الخالدة في أن من يعصِ الله ورسوله لابد أن ينال جزاءه فكان ذلك لابد منه ليعلم الله - وهو أعلم - بالمؤمنين ويميزهم عن المنافقين وهم عبدالله بن أبى بن سلول الذى انصرف ومعه ٣٠٠ من أتباعه ونكصوا ولما نهاهم عبدالله بن عمرو بن حرام السلمى الأنصارى عن ذلك قال ابن أبيّ: ما أرى أن يكون قتال. ولو علمنا أن يكون قتال لكُنَّا معكم. كما سبق ذكره فى ص ٥٤٧. والله أعلم بما كان فى نفوسهم من رغبة فى هزيمة المسلمين فكانوا حينئذ أقرب إلى الكفر. ولم يكتفوا بذلك بل إنهم بعد المعركة راحوا يثيرون المرارة فى نفوس المسلمين ويظهرون الشماتة ويقولون لهم لو أطعتمونا ولم تخرجوا من المدينة لما أصابكم من القتل ما أصابكم. ثم تأمر الآيات النبى بتحديهم بدفع الموت عن أنفسهم لو كانوا صادقين فيما يقولون فالموت حق على كل العباد.

الشهداء أحياء عند ربهم:

ثم تأتى آيات فيها تعزية للمسلمين حتى لا يظنوا أن الذين قتلوا منهم يوم أحد راحوا سُدى وانتهوا فأخبرتهم الآيات أنهم عند ربهم ولهم التكريم والرزق الحسن. وهم فرحون ومستبشرون بما نالوه من نعمة الله وفضله ويبشرون الذين لم يُقتلوا ألاَّ يخافوا من القتال ولا يحزنوا إن تركوا الدنيا لأن ما سيلقونه عند ربهم من نعمة وفضل هو خير من الدنيا وما فيها وثوابهم لن يضيع:

«ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين» (١٦٩ - ١٧١).

وقد روى عن ابن عباس أن رسول الله قال لأصحابه: إن الله لما أصيب إخوانكم بأُحُد جعل أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش. فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء فى الجنة لئلا يزهدوا فى الجنة ولا يتكلوا (يتقاعسوا) عن الحرب؟ فقال الله أنا أبلغهم فأنزل الآية: ولا تحسبن الذين قتلوا .....». وحديث آخر أخرجه الإمام أحمد جاء فيه أن النبى قال: ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى بما يرى من فضل الشهادة. وهناك فى كتب

التفسير أحاديث أخرى كثيرة فى فضل القتال والاستشهاد فى سبيل الله. والآيات - وإن كانت نزلت بصدد معركة أحد - إلا أنها تنطبق على الشهداء فى كل وقت وفى أى مكان. وفيها حث على الثبات على دين الله والجهاد فى سبيله ومادام للشهيد هذه الحياة الكريمة عند الله فلا موجب للخوف من القتال ولا للجزع من الموت.

تنويه باستعداد المسلمين لاستئناف القتال:

ثم تأتى آيات تنوة باستجابة المحاربين فى صبيحة اليوم التالى للمعركة لدعوة الرسول للخروج لمقابلة المشركين عند حمراء الأسد وهو ما ذكرناه ص ٥٥٤. وكان النبى قد طلب ألا يخرج معه إلا من شهد أحد فخرجوا معه رغم ما بهم من قرح وجراح. ثم تقصُّ الآيات ما قيل من أن جماعة من الأعراب مرُّوا بأبى سفيان فدسَّهم إلى المسلمين ليثبطوهم عن الخروج لملاحقه قريش وهم راجعون وراحوا يخوفونهم من قوة قريش ولكن ذلك لم يزد المسلمين إلا إيمانا وإصرارا على الخروج لملاحقة العدو وقتالهم إن لحقوهم. وكما ذكرنا أنه لم يلحقوهم ولم يمسسهم سوء وعادوا بنعمة الله وفضله سالمين لأنهم استجابوا لدعوة الرسول وفى ذلك رضوان الله:

«الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم» (١٧٢ - ١٧٤).

فضح المنافقين:

ويبين الله سبحانه وتعالى للمؤمنين أن المنافقين يخوفونهم من أعدائهم ليجبنوا عن لقائهم. والمنافقون ليسوا إلا أعوانا للشيطان الذى يخوِّف أتباعه ويجعلهم يجبنون عن القتال. وتحث الآيات المؤمنين على عدم الاستماع إلى كلام المنافقين ووسوسة الشيطان وأن لا يخافوا إلا الله إن كانوا مؤمنين حقا. ثم يُوجَّه الخطاب إلى النبى بأن لا يحزن من هؤلاء المنافقين الذين يسارعون إلى الكفر لأنهم لن يضروا الله شيئاً وقصارى الأمر أن الله يريد ألا يكون لهم نصيب فى الآخرة وأعد لهم عذابا عظيما. ثم إعادة تأكيد على أن الذين يفضلون الكفر على الإيمان ويبيعون هذا بذاك لن يضروا الله شيئا وأن الله أعد لهم عذابا أليما. ثم يتبع ذلك تحذير وتنبيه للكفار والمنافقين بأن لا يحسبوا أن ما تيسر لهم فى الدنيا من أسباب القوة والثروة هو خير بل إن الله يُرخى لهم ليزدادوا انغماسا فى آثامهم فيستحقوا العذاب المهين. ثم توضيح بأن ما حدث فى موقعة أحد كان هدفه هو ألا يدع الله الطالح مختلطا بالصالح والمنافق ملتبسا أمره فكانت إرادة الله أن يميز الخبيث من الطيب ولم يكن الله ليطلعهم على

الغيب ويخبرهم بأمر المنافقين إلا أن يكون ذلك باختبار عملى بالمحنة التى حدثت. ثم تدعوا الآيات المؤمنين إلى التيقن من حكمة الله فى كل ما يقضى به ليكون لهم الأجر العظيم:

«إنما ذلكم الشيطان يُخوِّف أولياءه فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين. ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا. يريد الله ألاَّ يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم. إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم. ولا يحسبن الذين كفروا أنَّما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين، ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يَمِيز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم» (١٧٥ - ١٧٩).

نهى عن البخل ومنع الزكاة:

«ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة. ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعلمون خبير» (١٨٠).

وقال المفسرون إن الآية نزلت فى مانعى الزكاة. ولعل المسلمين بعد وقعة أحد - كما ذكرنا سابقا - وقد أنفقوا الكثير من مالهم للتجهيز لها ولم يصيبوا شيئا من الغنائم تعوض ما أنفقوه فقصرت أيديهم فبدأوا يمنعون الزكاة فنزلت الآية تحذر من البخل وتخبر بأن ما يبخلون به سيكون نقمة عليهم يوم القيامة إذ سيكون طوقا من نار فى أعناقهم. وأن المال هو مال الله فهو مالك السموات والأرض وكل ما بها من ميراث وثروات.

اليهود يبخلون عن إقراض المسلمين:

والآيات التالية تقصد اليهود وإن لم يذكروا بالإسم لأن الصفات التى جاءت بها لا تنطبق إلا عليهم:

«لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء.سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق. ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد. الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتِيَنَا بقربان تأكله النار. قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم، فلمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين. فإن كذبوك فقد كُذِّب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير» (١٨١ - ١٨٤).

وقد روى أن النبى أرسل أبا بكر إلى جماعة من اليهود يدعوهم إلى الإسلام ويبين لهم أركانه ومن جملتها الزكاة وأورد لهم آية فيها حث على إقراض الله قرضا حسنا فجادلوه وقالوا ما قالوا (تفسير الطبرى). وفى رواية أخرى أن النبى أرسله ليطلب منهم مالاً يستعين به على بعض حروبه فقالوا قولهم هذا.

والآيات تنذر من قالوا إن الله فقير وهم أغنياء بأن الله قد سجّل عليهم قولهم هذا كما سجّل على أجدادهم من قبل قتلهم الأنبياء وسوف يدخلهم عذاب النار جزاء على أفعالهم وأقوالهم والله عادل لا يظلم أحداً. وقد ذُكر قتل الأجداد للأنبياء كأنه صادر من اليهود المخاطبين زمن النبى والهدف مشابهة موقف الحاضرين بموقف السابقين وذلك على سبيل التنديد وبيان عدم غرابة ما يفعله الحاضرون لأنهم سائرون على درب آبائهم السابقين. وقد احتوت التوراة على خبر تحدى جرى بين النبى إيليا - وهو إلياس - وبين أنبياء وكهنة البعل بتقريب كل منهم قربانا فمن هبطت من السماء نار فأكلت قربانه كان هو الذى على حق - وقد نزلت نار من السماء فأكلت قربان إلياس وقد ذكرنا ذلك فى الجزء الخامس ص ٢٥٨. وتنتهى الفقرة بمواساة النبى بأنه إذا كان اليهود يكذبونه فله أسوة بالرسل السابقين الذين جاءوا بالحق والكتب السماوية العديدة ومع ذلك كذبتهم أقوامهم.

وكما نقول فى عصرنا الحالى لمن يتكالب على الدنيا ويكنز الأموال أن الكفن ليس له جيوب أى نذكره بالموت وأنه لن يأخذ معه شيئا مما اكتنزه. كذلك جاءت الآية التاليه لتذكر اليهود الذين بخلوا بأموالهم - وتذكِّر الناس جميعا - بحتمية الموت وأن الفوز الحقيقى يوم القيامة هو لمن أُدخل الجنة وأن الحياة الدنيا ما هى إلا متاع زائل:

«كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» (١٨٥).

حث على الصبر على المصائب:

ثم تأتى آيات تنبه المسلمين إلى أنهم معرضون للابتلاء فى أموالهم وأنفسهم خسارة وتقتيلا وأنهم سوف يسمعون من اليهود والمشركين ما يؤذيهم وأن عليهم أن يصبروا ويثبتوا ويتقوا الله:

«لتُبلَوُنّ فى أموالكم وأنفسكم ولتسمَعُنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا. وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور» (١٨٦).

وقد روى المفسرون أن الآية نزلت بسبب جدال بين أبى بكر واليهود وغضبه لقولهم إن الله فقير وهم أغنياء. كما رووا أيضا أنها نزلت فى مناسبة هجاء كعب بن الأشرف اليهودى للنبى والمسلمين وقد ذكرنا مقتله (ص ٥٢٧). وعلى العموم فالآيات تدعو إلى الصبر وتحمُّل ما قد يصدر من أقوام ملأ الغيظ والحقد قلوبهم ففاضت بها ألسنتهم.

أهل الكتاب يخفون بعض ما فى كتبهم:

«وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لَتُبينُنَّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون» (١٨٧).

والآيات تقرر أن الله قد أخذ عهدا على أهل الكتاب - والمقصود يهود المدينة - بأن يبينوا للناس ما فى كتبهم من صفات النبى الخاتم فكتموا ذلك وكتموا من الأحكام ما لا يتفق مع أهوائهم فألقوا ذلك كله وراء ظهورهم واستبدلوا به متاع الدنيا وهو ثمن بخس فى مقابل الهداية والإرشاد.

التنديد بمن يحب أن يُحمد بما لم يفعل:

روى أن أناسا من المنافقين كانوا يتخلفون عن رسول الله حتى إذا عاد من الغزو راحوا يتكلمون عن المعركة ليوهموا أنهم كانوا ممن شاركوا فيها:

«لا تحسبن الذين يَفرحون بما أتوا ويُحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنَّهم بمفازة (بمنجاة) **من العذاب ولهم عذاب أليم** (فى الآخرة). **ولله ملك السموات والأرض والله على كل شىء قدير»** (١٨٨ - ١٨٩).

بعض صفات المتقين:

ثم تأتى آيات تلفت النظر إلى أن فى خلق السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار آية لأصحاب العقول الراجحة. ثم تصف هؤلاء بأنهم يذكرون الله فى جميع حالاتهم: قياما وقعودا وعلى جنوبهم وكأنهم يقضون كل وقتهم فى عبادة الله. بعد ذلك تأتى آيات فيها مناجاة رائعة بأسلوب سهل بديع تتكرر فيها كلمة «ربنا» خمس مرات.

«إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهارلآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار. ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا. ربنا فاغفر لى ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا وتوفَّنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك (من نصر وتأييد فى الدنيا) **ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض. فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأونوا فى سبيلى وقاتلوا وقُتِلوا لأكفرنَّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عندالله والله عنده حسن الثواب»** (١٩٠ - ١٩٥).

والآيات من روائع الفصول القرآنية وأقواها تأثيرا فى النفس وبعثا على الخشوع والهيبة من الله. وقد روى أن النبى كثيرا ما كان يتلوها فى جوف الليل وبالأسحار ويبكى كلما تلاها. ومع أن الآيات قصدت الفئة المخلصة التى أخلصت فى إيمانها ولم تتردد وقاتلت فى سبيل الله وتحملت التضحيات إلا أن الأسلوب فيه معنى الشمول والتعميم ويحمل فى طياته دعوة إلى التأسى بتلك الفئة والدعاء بما كانت تدعو به لنيل الدرجة العليا التى نالتها.

نهى عن الاغترار بنعيم الدنيا الزائل:

«لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد. متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد. لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار» (١٩٦ - ١٩٨).

والخطاب فى هذه الآيات للنبى والمقصود عامة المسلمين وتنبيههم إلى عدم الاغترار بما يتمتع به الكفار من أسباب الغنى فليس ذلك إلا متاع قصير الأمد. ثم مآلهم إلى النار. وفى المقابل فإن للمتقين جنات النعيم.

بعض أهل الكتاب مؤمنون:

«وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا. أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب» (١٩٩).

وفي الآية تنويه بفريق من أهل الكتاب يؤمنون بالله وبالقرآن وبالكتاب الذى أنزل إليهم إيمانا مخلصا لا يحرفون ولا يبيعون آيات الله بأى ثمن فلهؤلاء عند الله الأجر الذى يستحقونه والمفهوم طبعا أنها جنات النعيم.

وقد روى المفسرون أن الآيات نزلت فى النجاشى ملك الحبشة ومن آمن من قومه بالرسالة النبوية. فإن النبى لما بلغه موت النجاشى دعا إلى الصلاة عليه فقال المنافقون إنه يصلى على رجل من غير دينه فنزلت الآية. ومنها أنها نزلت فى عبدالله بن سلام. أحد أحبار اليهود وغيره من اليهود الذين آمنوا. ومنها أنها نزلت فيمن آمن بالنبى من أهل الكتاب عامة وبعضهم كتم إيمانه خوفا من بطش قومهم.

ثم تأتى الآية الخاتمة للسورة:

«يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» (٢٠٠).

وفى الآية أمر للمسلمين بالصبر ومغالبة أعدائهم بالصبر والاستعداد الدائم للحرب والمرابطة الدائمة للعدو والالتزام بتقوى الله ضمانا للفوز والفلاح. ولا شك أن الآية تهيىء المسلمين للمعارك القادمة وتحثهم على الاستعداد لها.

أحداث السنة الرابعة للهجرة

محرم		ــــــــــ
صفر	٧	تآمر أبى سفيان لقتل النبى.
	١٠	سرية بئر معونة وغدر بنى سليم.

١٥	يوم الرجيع وغدر بنى لحيان.
ربيـــع الأول	غزوة بنى لحيان.
ربيـع الثانـى	ـــــــ
جمـادى الأول	غزوة ذات الرقاع.
جمادى الثانى	وفاة أبى سلمة.
رجب	ـــــــ
شعبان	غزوة بدر الآخرة.
	زواج النبى من أم حبيبة بالوكالة فى الحبشة.
رمضان	مولد الحسين بن على.
	وفاة عبدالله بن عثمان بن عفان.
شوال	زواج النبى من أم سلمة.
	إجلاء بنى النضير.
ذو القعدة	نزول «سورة الحشر«».
ذو الحجة	ـــــــ

تآمر أبى سفيان لقتل الرسول:

روى ابن كثير (السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٣٥) خبر هذه الواقعة وسماها **سرية عمرو بن أمية الضمرى** ومفادها أن أبا سفيان استأجر رجلا من مكة ليأتى المدينة ويقتل «محمدا» غدرا. فلما جاء الرجل إلى المدينة وجد النبى فى المسجد يحدث أصحابه فهابه ولم يتمالك إلا أن أسلم وأخبر النبى بتحريض أبى سفيان له عليه. وردا على ذلك أرسل النبى عمرو بن أمية الضمرى وسلمة بن أسلم إلى مكة حتى إذا أصابا من أبى سفيان غرة قتلاه. ولـمَّا أتيا مكة وطافا بالبيت سبعا وصلَّيا ركعتين التف الناس حولهما واشتما أنهما لم يأتيا فى خير وحاولوا إيذاءهما ولكنهما هربا منهم وعادا إلى المدينة.

قريش ترصد المكافآت:

كانت قريش قد رصدت مكافآت لمن يأتى لهم بمن قتلوا أشرافهم فى أُحد ليقتصوا منهم. فكانت القبائل تتسمَّع أخبار من يخرجون من المسلمين من المدينة فى تجارة أو لأى غرض آخر فإن كان فيهم أحد ممن رصدت له قريش مكافأة تبعوه بغية الإيقاع به ليبيعوه فى مكة ويقبضوا المكافأة. وهو ما يمكن تشبيهه بقنَّاصى الغرب الأمريكى الذين كانوا يتبعون

ويتصيَّدون من رصدت الحكومة جائزة للقبض عليهم. كذلك لجأت قريش إلى تحريض من استطاعت استمالتهم من القبائل على خداع بعض المسلمين ليثقوا بهم ثم يعمدوا إلى قتلهم غدرا. مع مخالفة ذلك للأخلاق العربية الأصيلة.

غدر أبى براء بن مالك وبنى سليم وتسمى سرية بئر معونة:

بئر معونة أرض فى نجد شرقى المدينة بين بنى عامر وبنى سليم (شكل ٣٦) وقد وقعت أحداث هذه السرية فى صفر سنة ٤ من الهجرة بعد أُحُد بأربعة أشهر. وروى ابن هشام (السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٠٦) أن أبا براء عامر بن مالك قدم المدينة فعرض عليه رسول الله الإسلام فلم يسلم ولم يرفض واقترح على النبى إرسال رجال من أصحابه إلى نجد يدعون الناس إلى الإسلام لعلهم يستجيبون له فأبدى النبى تخوُّفه عليهم من أهل نجد فقال أبو براء: أنا جار لهم فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك. فبعث النبى كما يقول ابن كثير (السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٣٩) ٧٠ رجلا ساروا حتى أتوا إلى بئر معونة ومن هناك بعثوا رجلا بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل فقتله عامر ثم استصرخ قبائل بن سليم فأجابوه وأحاطوا بالرجال وقتلوهم عن آخرهم إلا كعب بن زيد. وكان عمرو بن أمية الضمرى ورجل من الأنصار يرعيان بالقرب من مكان المذبحة فلما علما بها قاتلا حتى قتل الأنصارى ونجا عمرو بن أمية. وفى طريق عودته لقى رجلين من بنى عامر فتحين فرصة نومهما وقتلهما ظنا منه أنهما من القوم الذين قتلوا السرية عند بئر معونة مع أنهما كانا يحملان عهدا من رسول الله. وعاد عمرو كما عاد كعب بن زيد إلى المدينة وأخبرا رسول الله بما حدث فحزن على رجاله حزنا شديدا وقال هذا عمل أبى براء. وقالوا ظل النبى يدعو على القتلة شهرا كاملا فى صلاته. وكان على النبى أن يدفع دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية. وما نراه أن ما ذكر عن عدد الرجال الذين بعثهم الرسول – فيه مبالغة ولعلهم كانوا سبعة أو سبعة عشر فما كان رسول الله ليبعث ٧٠ من رجاله لمجرد دعوة قبيلة إلى الإسلام. وإن كانوا سرية ومعهم أسلحتهم فهم قادرون على حماية أنفسهم فلا يؤخذون على غرة فيُقتلون عن آخرهم إلا واحدا!

يوم الرجيع وغدر بنى الحيان:

والرجيع على بعد ثمانية أميال من عسفان بين مكة وعسفان (٢ شكل ٣٦): وكانت الوقعة فى صفر سنة ٤ للهجرة. وذلك أن النبى أرسل سريه ليأتوا له بأخبار أهل مكة إذ كان النبى حريصا على معرفة نوايا قريش تجاهه وعما إذا كانوا يستعدون لمعركة أخرى فيستعد لها فأرسل ٦ رجال هم:

١ – مرثد بن أبى مرشد الغنوى.
٢ – خالد بن البكير الليثى.
٣ – عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح.
٤ – خبيب بن عدى.
٥ – زيد بن الدثنة بن معاوية.
٦ – عبدالله بن طارق.

وأمرَّ عليهم عاصم بن ثابت. ووصل خبرهم لبنى لحيان وديارهم شرقى الجحفة. فخرج منهم حوالى مائة رام واقتصوا أثرهم حتى لحقوهم عند الرجيع وأحاطوا بهم وطلبو منهم أن يستسلموا ليأسروهم ليبيعوهم فى مكة. فأما الثلاثة الأول: مرثد وخالد وعاصم فقد أبوا وقاتلوا حتى قتلوا وأما الثلاثة الآخرون فقد رضخوا للأسر فساروا بهم فى طريق مكة حتي إذا كانوا بمرِّ الظهران قبل مكة بـ ٢٠كم (انظر نفس الخريطة) انتزع عبدالله يده من القيد وأخذ سيفه ليحارب فتكاثروا عليه ورجموه بالحجارة حتى مات.

وفى مكة ابتاع **خبيبا** حجير بن أبى إهاب التميمي فقتله بأبيه الذى قتله خبيب فى معركة أحد. وقيل لما أخرجوه إلى التنعيم ليقتلوه قال لهم إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا. فتركوه فصلىَّ ركعتين. ثم قال لهم: أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طوَّلت جزعا من القتل لا ستكثرت من الصلاة. فكان أول من استنَّ صلاة ركعتين قبل الإعدام. ولم يقتلوه مباشرة بل احتشد حوله رهط كبير من العبيد والنسوة والأطفال وأمروا صبيانا يحملون رماحا بدفعها فى جسمه حتى تخضَّب جسده بالدماء التى انبثقت من عشرات الجروح فى كل مكان ولكن دون أن تنفرج شفتاه عن صرخة تنم عن ألم. ثم تقدم عبد ودفع رمحه إلى مكان القلب واضعا النهاية لحياته.

وأما **زيد بن الدثنة** فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أميه بن خلف فأخرجوه من حرم البيت إلى التنعيم ليقتلوه. واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان فقال له أبو سفيان أنشدك الله يا زيد. أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه وأنت فى أهلك؟ فقال والله ما أحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى. فقال أبو سفيان. ما رأيت فى الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمداً. ثم قتلوه.

لما بلغ نبأ غدر بني لحيان إلى النبى غضب وحزن حزنا شديدا لمقتل أصحابه وعزم على الانتقام من بنى لحيان ولكنه قدَّر أنهم لابد آخذون حذرهم فأرجأ غزوهم إلى وقت أخر حتى يأخذهم على غرة. وتتابعت الأحداث فلم تحن فرصة إلا بعد غزوة الخندق وإجلاء بني قريظة فكانت غزوة بنى لحيان – كما أجمع كتاب السيرة – فى السنة السادسة للهجرة (ص ٦٠٤).

غزوة ذات الرقاع (٣ – شكل ٣٦):

حدثت فى جمادى الأول من السنة الرابعة للهجرة. وقيل سميت كذلك لما كانوا يلفون به أقدامهم من الخرق والرقاع من شدة الحر وسخونة الأرض.

وسار النبى فى أربعمائة رجلا من أصحابه (وقيل سبعمائة) فى اتجاه شمال شرق إلى نجد يريد بطنين من عطفان هما بنو محارب وبنو ثعلبة. قالوا وتقارب الناس ولم يكن هناك قتال.

غزوة بدر الآخرة (٤ شكل ٣٦) :

قلنا سابقا (ص ٥٥٤) إن أبا سفيان قبل انصرافه من معركة أُحُد نادى على المسلمين وقال: إن موعدكم بدرا العام المقبل. فأمر رسول الله رجلا أن يجيبه: نعم هو بيننا وبينك موعد. فلما رجع النبى من غزوة ذات الرقاع أقام بالمدينة جمادى الأول وجمادى الآخرة ورجبا ثم خرج فى شعبان سنة ٤ هجرة فى ١٥٠٠ رجلا منهم ٥٠ فارسا ووصل الجيش إلى بدر ولكنهم لم يجدوا أثرا لقريش. وكان أبو سفيان لما سمع بخروج المسلمين من المدينة فإنه جمع قريشا وخرج من مكة فى ٢٠٠٠ رجل و١٠٠ فارس وكان في الجيش رجال شجعان مثل خالد وعكرمة وصفوان. ولما وصل مجنة قبل عسفان بقليل يبدو أن أبا سفيان وصلته أخبار عن قوة المسلمين وأنهم ١٥٠٠ رجلا وهى أقل قليلا من جيشه إلا أنه يعرف شجاعة المسلمين فى القتال لذلك قرر الرجوع فقال لرجاله: يا معشر قريش. إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن فإن عامكم هذا عام جدب وإنى راجع فارجعوا واحتج صفوان وعكرمة ولكن دون جدوى إذ عاد الجيش كما أشار أبو سفيان. وسمَّاهم أهل مكة «جيش السويق» وقالوا لهم: إنما خرجتم تشربون السويق.

وعلم النبى من البدو ما كان من رجوع قريش فرجع هو الآخر إلى المدينة. وكان هذا مكسبا أدبيا كبيرا إذ عُرِف أن قريشا نكصت عن لقاء المسلمين.

فى رمضان وقع حدثان:

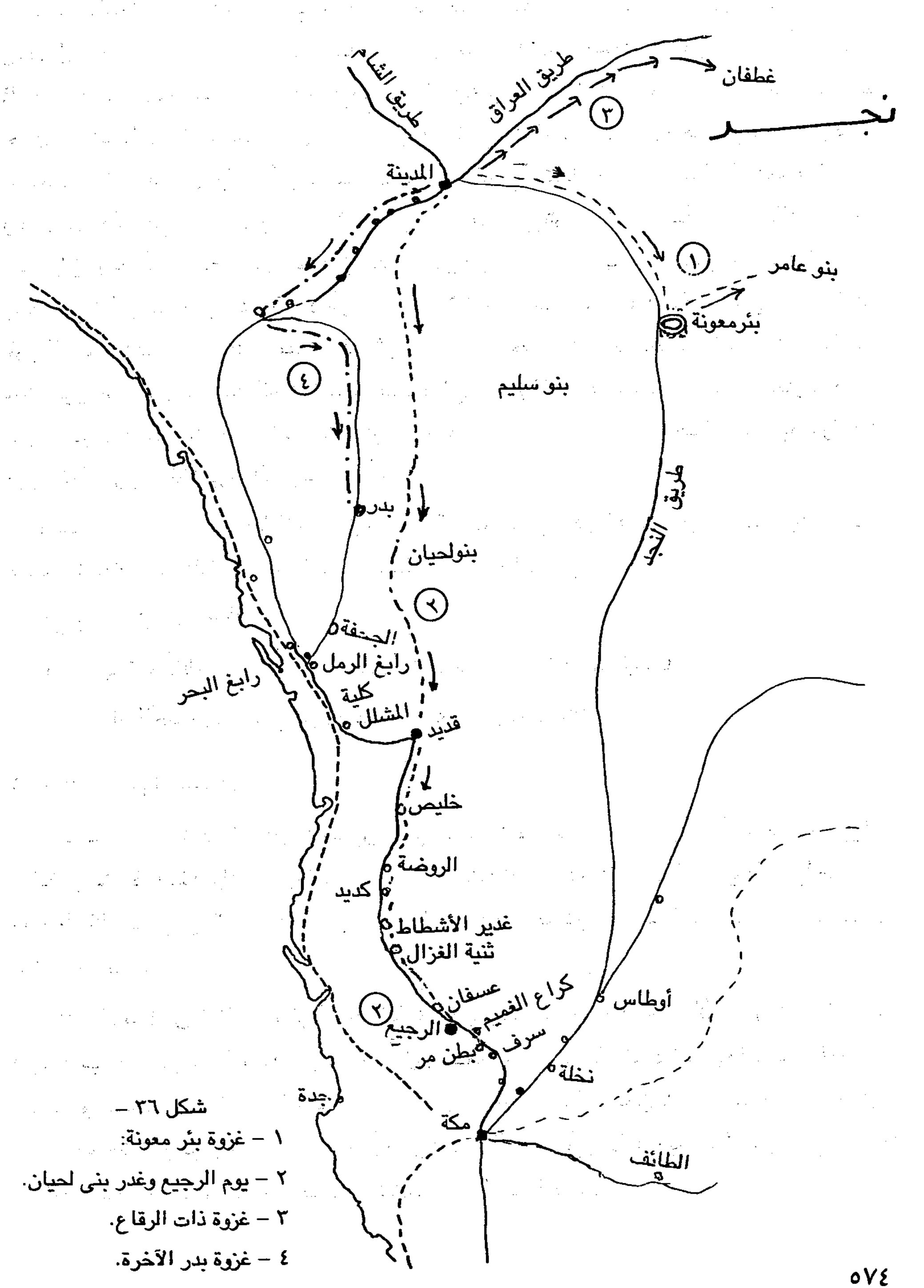
١ – وفاة عبدالله بن عثمان بن عفان من زوجته رقية بنت رسول الله.

٢ – مولد الحسين بن على من زوجته فاطمة بنت رسول الله.

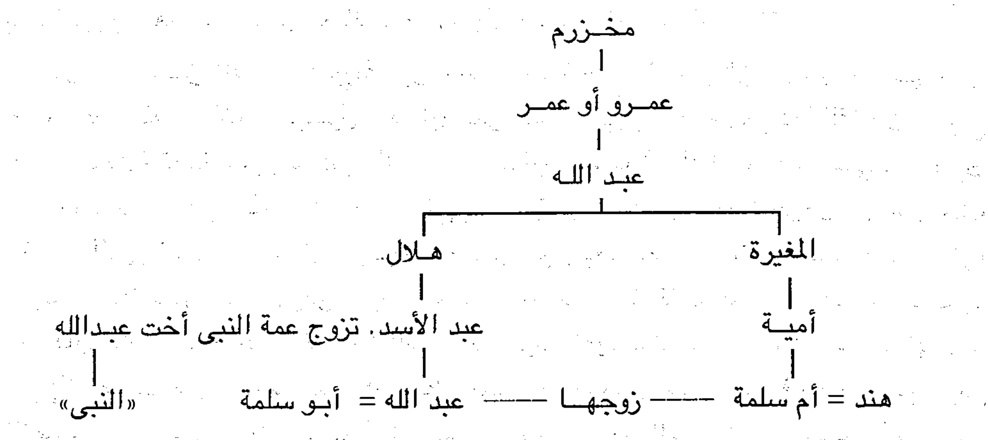
زواج النبى من أم سلمة:

وأم سلمه هى هند بنت أبى أمية بن المغيرة القرشية المخزومية. وأبوها أحد سادة قريش واشتهر بشدة الجود والكرم. ولُقِّب «زاد الركب» لأنه إذا سافر لا يترك أحدا يرافقه يأخذ معه زادا بل كان يكفى رفقته من الزاد. وزوجها الذى مات عنها هو أبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد ابن عمة النبى.

وقد ذكرنا (ص ٢٤٩) محاولة هجرتها هى وزوجها بعد بيعة العقبة الأولى. وقد احتجزها قومها فهاجر أبو سلمة وحده. وانتزع أهل زوجها وليدها منها فظلت تبكيهما حتى رقُّوا لها وسمحوا لها بالهجرة هى وابنها. وكان زوجها – أبو سلمة – ممن شهدوا غزوة أحد وأبلى فيها بلاء حسنا وجرح جرحا عميقا ظل يداويه عدة أشهر حتى بدا أنه برئ. ثم خرج فى سرية فانتقض عليه جرحه فمات فى جمادى الثانية سنة ٤ من الهجرة.



شكل ٣٦ –
١ – غزوة بئر معونة.
٢ – يوم الرجيع وغدر بنى لحيان.
٣ – غزوة ذات الرقاع.
٤ – غزوة بدر الآخرة.



وعلم النبى بما آل إليه حالها بعد وفاة زوجها وليس لها معين. فلما انقضت عدتها أرسل إليها عمر بن الخطاب يخطبها له فذكرت له أنها امرأة غيرى وأن لها صبية من زواجها. فكان رد النبى: أما الصبية فإلى الله وإلى رسوله. وأما الغيرة فأدعو الله أن يذهبها. فقالت لعمر: قد رضيتُ وأذنتُ . فتزوجها النبى فى شوال وأدخلها فى بيت خزيمة أم المساكين التى كانت قد توفيت وقد أحدث زواجها غيرة فى قلب عائشة وحفصة لما كانت تتمتع به من جمال. ولكنها كانت تحفظ قدرهما ومنزلتهما من النبى فلم تنافسهما فى ذلك. وأما ابنها سلمة فكان كبيرا فتركته مع أعمامه وبعثت بطفلتها الصغيرة إلى حاضنة لتتفرغ لواجباتها الزوجية.

ومما يروى أنها كانت صريحة مع عمر بن الخطاب. وفى موقف كان عمر يعاتب حفصة فى مراجعتها للنبى فى بعض الأمور فقالت لعمر منكرة: عجبا لك يا ابن الخطاب. قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه ويُروى أن عمر قال: فأخذتنى أخذا كسرتنى به.

ويروى أيضا أنه بينما كان النبى فى بيت أم سلمة جاءت الزهراء ومعها الحسن فضمه إليه وقال: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه مجيد. فبكت أم سلمة فسألها النبى عما يبكيها فقالت: خصصتهم وتركتنى وابنتى. فقال: إنك وابنتك من أهل البيت. وكان النبى يهتم بأبناء أم سلمة كلهم: سلمة وعمر والبنتين: درة وزينب. فشبوا فى كفالة النبى ورعايته. وقام بتزويج سلمة من أمامة ابنة عمه الشهيد حمزة بن عبد المطلب. ويروى أن زينب (ابنة أم سلمة) دخلت على النبى وهو يتوضأ فنضح من الماء على وجهها. قالوا فكانت أفقه نساء زمانها ولم يزل وجهها شابا حتى كبرت وعجزت (بنت الشاطىء. تراجم سيدات بيت النبوة. ص ٣٢٧).

إجلاء بني النضير

كان عهد النبى مع اليهود والذى وقعه معهم فور وصوله إلى المدينة. وقد سبق ذكره (ص ٤٣٣) يتضمن «.. وأن بينهم (المسلمين واليهود) النصر والنصيحة والبر دون الإثم. وأنه لم

يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم. وإن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم...»

قال ابن اسحق (السيرة النبوية. ابن هشام. جـ ٣ ص ١١٠). وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف. فأتاهم الرسول ومعه أبو بكر وعمر وعلى يستعينهم فى دية القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى. فقالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم إلى بعض وقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - والنبى قاعد جنب جدار من بيوتهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال أحدهم وهو عمرو بن جحاش بن كعب: أنا لذلك. فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال. فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم فقام هو وأصحابه من مكانهم وإن هى إلا لحظات حتى سقط حجر كبير على المكان الذى كان يجلس فيه. فخرج من ديار بني النضير ورجع إلى المدينة. وأخبر الناس بما أرادت يهود من الغدر به وأمر رسول الله الناس بالتهيؤ لحربهم.

وكان رهط من بنى عوف بن الخزرج منهم عبداله بن أبىّ بن سلول وغيرهم من رؤساء النفاق قد بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنَّعوا. إنا لن نسلمكم وإن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم. وأرسل النبى إلى اليهود فى اليوم التالى إنذارا بالجلاء فى ظرف عشرة أيام على أن يأخذوا أموالهم المنقولة ويقيموا وكلاء على أرضهم وبساتينهم. ولكن عبدالله بن أبىّ حرَّضهم على الرفض. فاغتروا ورفضوا فحاصرهم النبى وضيق عليهم. وأمر بقطع بعض نخيلهم إرغاما وإرهابا. ولم يف حلفاؤهم المنافقون بما وعدوهم من النصرة. فرضوا بالجلاء بشروط أشد من الأولى بسبب تمردهم وعنادهم وهى تسليم سلاحهم وتنازلهم عن أرضهم وبساتينهم وحمل منقولاتهم فقط.

ومما يروى أن بنى النضير أرادوا إظهار اللامبالاة وهم يخرجون فكانت قيانهم يعزفن ويضربن الدفوف. وأنهم هدموا بيوتهم وحملوا خشبها: الأبواب والنوافذ وما كان فى السقف. وخرج اليهود كلهم بما فيهم سيدهم حيى بن أخطب وابنته صفية ولجأوا إلى إخوانهم فى خيبر وبعضهم لجأ إلى الشام. وأسلم اثنان فرد عليهم النبى داريهما وبساتينهما. ويروى أن المسلمين غنموا ٣٤٠ سيفا و٥٠ درعا و٥٠ بيضه وهى غطاء الرأس فى الحرب.

ونزلت سورة الحشر تروى حادثة خروجهم:

«سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم. هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر (إجلاؤهم إلى خيبر والحشر الثانى كان إلى الشام) **ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يُخرِبُون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار. ذلك بأنهم شاقُّوا الله ورسوله ومن يشاقِّ الله فإن الله شديد العقاب»** (١ - ٤).

«يخربون بيوتهم بأيديهم» إشارة إلى ما كان اليهود يفعلونه من هدم بيوتهم لأخذ عوارضها الخشبية وأبوابها وشبابيكها. وتعبير **«شاقوا الله ورسوله»** واسع المعنى فهو يشمل كل ما من شأنه عداوة الله ورسوله من الصد عن الدعوة والاستخفاف بالنبى والجدل للتشكيك فيما جاء به أو ما كان يفعله كعب بن الأشرف – أحد شعرائهم – من هجاء النبى والمسلمين إلى آخر ما فعلوه من محاولة قتل الرسول.

وكان اليهود – وقت الحصار – وقد قلنا إن النبى أمر بقطع بعض النخيل حتى لا يتسلل إليه بعض اليهود فى محاولة لفك الحصار عن إخوانهم – فنادوا أن يا محمد. قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبُ مَن صنعه. فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ فنزلت الآية التالية تبيح ما فعلوه بأنه بإذن الله ولضرورة حربية ولإجبارهم على الخروج:

«ما قطعتم من لينة (نخلة) **أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله** (فلا حرج عليهم) **وليخزى الفاسقين»** (٥).

ويروى أن بعض المسلمين طلبوا من النبى قسمة أملاك وبساتين بنى النضير أسوة بغنائم بدر أى بعد إفراز الخمس لبيت المال والمعوزين من المسلمين فنزلت الآيات تقرر أن تكون جميعها لبيت المال ذلك أن المسلمين لم يحاربوا ولم يتكلفوا مشقة أو مؤونة ولم يسيروا مسيرة تحتاج إلى خيل أو ركاب **«فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب»**. ولم يقاسوا ضربا بالسيوف أو رميا بالنبال. بل كان فيئا ساقه الله إلى رسوله. فهو كله لله وللرسول أن يوزعه حسب ما أراه الله سابقا: على ذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. وليس للأغنياء نصيب فيه حتى لا يزدادوا غنى وتصبح الثروة محصورة التداول بينهم. ثم تحث الآيات المؤمنين على أن ينُفِّذوا ما يأمرهم به النبى وأن ينتهوا عما نهاهم عنه وعليهم بتقوى الله لأنه شديد العقاب على من يخالف أمره:

«وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شئ قدير. ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دُولَة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. واتقوا الله إن الله شديد العقاب» (٦ – ٧).

وأسلوب الآية يجعل التشريع عاما شاملا لكل ما يدخل فى حوزة رسول الله وخلفائه من بعده من أموال العدو بدون مشقة أو حرب. فجعلت الفيء كله لبيت المال لينفق منه الرسول على فقراء المسلمين ومحتاجيهم ومصالح الإسلام والمسلمين. والجهات التى يصرف فيها الفيء هى التى خصص لها خمس الغنائم فى سورة الأنفال (الآية ٤١ ص ٥١٢). كما أن قوله تعالى **«وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»** هو تشريع حاسم وعام وهو جزء من العقيدة الإسلامية. ويعنى طاعة الرسول وتنفيذ أوامره حال حياته والسير على سنته بعد وفاته

وهو شامل لكل زمان ولكن يجب التأكد من صدور الأحاديث فعلا عن الرسول وفقا لما أقره علماء المسلمين من ضوابط لذلك.

ثم تأتى آية تخصٌ بالذكر فئتين من المسلمين هم أحق بالإنفاق عليهم: ١ - فقراء المهاجرين الذين اضطروا للخروج من ديارهم والتخلى عن أموالهم ابتغاء فضل الله ورضوانه ونصرة دينه ورسوله. ٢ - فقراء الأنصار الذين كانوا فى المدينة من قبل وآمنوا ورحَّبوا بالمهاجرين وأحبُّوهم وآثروهم على أنفسهم كما سبق أن ذكرنا (ص ٤٣٦) بالرغم مما كان ببعضهم من فاقة وحاجة. وهؤلاء قد وقاهم الله من الشح وهم المفلحون:

«للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون. والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غِلا للذين آمنوا. ربنا إنك رؤوف رحيم» (٨ - ١٠).

المنافقون يؤازرون اليهود:

ثم تأتى آيات تشير إلى محاولة المنافقين تشديد عزيمة اليهود وقد ذكرنا سابقا (ص ٥٧٦) نُصحَ عبدالله بن أبىّ بن سلول - زعيم المنافقين - لهم بالتمنع بحصونهم ووَعْده لهم بأنهم إذا قوتلوا سيقاتلون معهم. وأن تأييدهم لهم سيبلغ أقصى الحدود لدرجة أنهم إذا أخرجوا من ديارهم سيخرجون معهم. ثم تقرر الآيات أنهم فى هذا كاذبون فلن ينصروهم ولن يخرجوا معهم. وحتى لو قاتلوا معهم لفروا من المعركة. وأنهم سيذوقون عاقبة تعنتهم مثل الذين مِن قبلهم. وهى إشارة إلى إجلاء بنى قينقاع (ص ٥٢٦). و مَثَلُ المنافقين فى هذا كالشيطان الذى يزين للإنسان الكفر ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه وسيُلقى الاثنان فى النار جزاء لهم على أفعالهم:

«ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنٌ معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً. وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا يُنصرون. لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون. لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون. كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم. كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين» (١١ - ١٧).

وفى الآيات إشارة إلى طبيعة اليهود فى القتال. فهم دائما يحتمون فى حصونهم ووراء أسوار مدنهم ولم يخرجوا أبدا للقتال فى ساحة معركة. كما أنهم لا ينصرون إخوانهم. فلم يساند يهود بنى النضير أو بني قريظة يهود بنى قينقاع. وكذلك لم يناصر يهود بنى قريظة يهود بنى النضير لأن قلوبهم متفرقة.

حث المؤمنين على التقوى

بعد التنديد بالمنافقين فى الآيات السابقة جاءت آيات توصي المؤمنين بتقوي الله والتدبر فيما قدموا من عمل للغد أى ليوم القيامة وتحذرهم من أن يكونوا مثل أولئك الذين نسوا الله فأهملهم ولم يوجههم إلى ما ينجيهم. ثم تقرر عدم مساواة أصحاب النار بأصحاب الجنة. فأصحاب الجنة هم الفائزون:

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون. ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون. لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون» (١٨ - ٢٠).

ثم تأتى **الفقرة الخاتمة للسورة** شديدة القوة وبعبارة نافذة تقرر أن هذا القرآن لو نزل على جبل لتصدع خشوعا لله وخوفا منه. وهو مثل لتقريب المسألة إلى الأذهان وتنطوى على تنديد بالذين لا يتأثرون عند سماع القرآن. ثم تأتى مجموعة رائعة من أكثر من ٢٠ اسما من أسماء الله الحسنى لم تجتمع فى آيات قليلة مثل هذه مع أنها وردت متفرقة فى آيات كثيرة.

«لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله. وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون. هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق البارئ المصوِّر له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» (٢١ - ٢٤).

وقد أورد ابن كثير (تفسيره جـ ٤ ص ٣٤٤) حديثا أخرجه الإمام أحمد أن النبى قال: من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قرأ الآيات الثلاث من آخر سورة الحشر وكَّل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى وإن مات فى ذلك اليوم مات شهيدا ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة.

ومر ذو القعدة وذو الحجة من ذلك العام (الرابع للهجرة) بسلام لم تقع فيهما أحداث تذكر.

أحداث السنة الخامسة للهجرة

محرم ـــــــ

صفر ـــــــ

ربيع الأول	غزوة دومة الجندل.
ربيع الثانى	سورة الجمعة.
جمادى الأول	———
جمادى الثانى	———
رجب	———
شعبان	———
رمضان	———
شوال	غزوة الخندق و «سورة الأحزاب».
	إجلاء بنى قريظة.
ذو القعدة	وفاة سعد بن معاذ.
	إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد.
ذو الحجة	زواج النبى من أم حبيبة بنت أبى سفيان.

غزوة دومة الجندل (شكل ٣٧) :

كانت قبائل كلب وجذام وقضاعة النصرانية تعتدى على قوافل المسلمين المتجهة إلى الشام والعراق. كما أنها كانت تتجمع من حين إلى آخر لغزو المدينة. فخرج الرسول - قيل فى ألف من المسلمين - من المدينة قاصدا «دومة الجندل» على بعد حوالى ٥٥٠كم شمال شرق المدينة - وكان ذلك فى شهر ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة - قاصدا بث الرعب فى هذه القبائل وفى نفوس الروم. ويقول ابن كثير (السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٧٧) إنه لقى مرعى لبني تميم فاستولى على ما فيه من ماشية. وجاء الخبر إلى هذه القبائل فتفرقوا فى دروب الصحراء وشعاب الجبال. فأقام النبى فى دومة الجندل عدة أيام دعى فيها إلى الإسلام فأسلم الكثيرون. ثم عاد إلى المدينة ولم يكن هناك قتال.

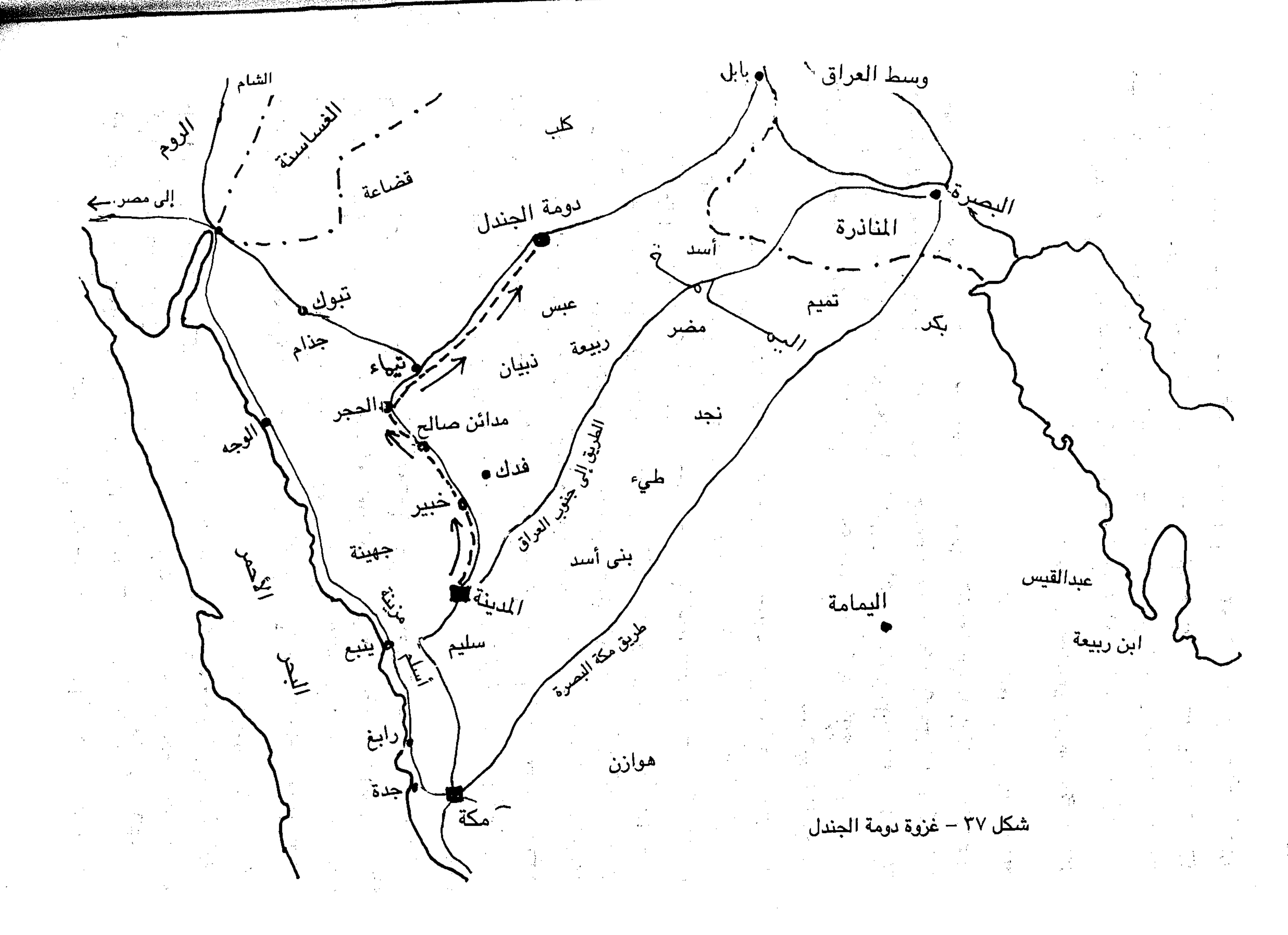
سورة الجمعة :

وفى السورة ثلاثة موضوعات رئيسية:

١ - بيان فضل الله على العرب بإرساله نبى عربى منهم لهدايتهم.

٢ - تنديد باليهود وبتفاخرهم بأنهم شعب الله المختار. ولم يكن قد بقى فى المدينة منهم سوى يهود بنى قريظة.

٣ - تقنين يوم الجمعة باعتباره يوم العبادة الأسبوعى للمسلمين.



شكل ٣٧ – غزوة دومة الجندل

وتبدأ السورة بتقرير أن كل ما فى السموات والأرض يسبح لله:

«يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم. هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين. وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (١ – ٤).

بعد المطلع التمهيدى الذى يقرر خضوع كل ما فى السموات والأرض لله وتقديسهم له تُبين الآيات فضل الله على العرب بإرساله رسولاً منهم يتلو عليهم القرآن الكريم ويطهر نفوسهم ويعلمهم الكتاب وما فيه من حكمة بعد أن كانوا فى ضلال شديد وأن رسالته ليست قاصرة على الحاضرين بل تشمل الأجيال التالية **«وآخرين منهم لما يلحقوا بهم»** فضلا من الله ورحمة بالعباد.

ثم يأتى تنديد لاذع باليهود لعدم تمسكهم بكتاب الله. فقد آتاهم الله التوراة وأمرهم بإتباعها وتنفيذ ما بها من أحكام. فلم يقوموا بحقها ولم يطيقوا تحمُّل ما بها من أوامر ونواهى فكأنهم مثل الحمار الذى يحمل كتبا ولا ينتفع بما فيها. ثم تتحداهم الآيات بأنهم إذا كانوا صادقين فى زعمهم أنهم أولياء الله وأصحاب الحظوة لديه دون سائر الناس فليتمنوا الموت الذى يقربهم من الجنة التى يمنون أنفسهم بدخولها. وتؤكد الآيات أنهم لن يتمنوه أبدا لخوفهم من المصير الرهيب الذي ينتظرهم بسبب ما اقترفوه من آثام وآخرها تكذيبهم بالنبى ثم إنذار لهم بأن الموت الذى يخافونه ويهربونَ منه لا محالة نازل بهم فيرجعون إلى الله عالِم المستقبل المغيَّب وعالِم الحاضر المشاهَد. وحينئذ يخبرهم الله بما عملوا والمفهوم أنه سيحاسبهم على أفعالهم:

«مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا. بئس مثل القوم الذين كذَّبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين. قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولا يتمنونه أبدا بما قدَّمت أيديهم والله عليم بالظالمين. قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالِم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» (٥ – ٨).

الجمعة يوم العبادة الأسبوعى للمسلمين:

سبق أن ذكرنا (ص ٤٢٨) أن النبى بعد أن خرج من قباء فى آخر مراحل الهجرة أدركته صلاة الجمعة فصلاّها فى «ذى رانوناء». وهذا يدل على أن صلاة الجمعة كانت قد شُرِّعت قبل ذلك شفاهة. ثم جاءت الآيات الحالية لتعيد التأكيد على أهمية يوم الجمعة كيوم العبادة الأسبوعى لدى المسلمين وضرورة ترك المسلمين ما في أيديهم من أعمال عند سماع الأذان

لصلاة الجمعة ليتسنى لهم سماع الموعظة ثم الصلاة. وقد أباح الله للمسلمين - بعد انقضاء الصلاة - القيام بأعمالهم المعتادة تخفيفا من الله لأمة محمد إذ يحرم على اليهود مباشرة أى عمل آخر في يوم السبت سوى العبادة أو تناول ما يلزم من مأكل ومشرب. ثم تختم السورة بتنديد بالمسلمين الذين كانوا يتركون المسجد والنبى يخطب حينما يسمعون الطبل يعلن بقدوم قافلة للتجارة وتبين لهم أن ما عند الله من الفضل والثواب أنفع لهم من اللهو ومن التجارة وليطلبوا رزق الله بطاعته:

«يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون. وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما. قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين» (٩ - ١١).

غزوة الخندق

دور اليهود فى الحشد للمعركة:

سبق أن ذكرنا أن اليهود كانوا يُشكلون عنصرا هاما بالمدينة. ولما قدم النبى المدينة لم يُبد اليهود أى تحفظات على مقامه فيها بجوارهم لأنهم استبعدوا وجود أى تهديد قد يأتيهم من ناحيته ولعلهم ظنوا أنه فى يوم من الأيام سيتبع دينهم ويصبح مجرد نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقوون به علي الأوس والخزرج. لذلك عقدت قبائلهم الثلاث: بنوقينقاع وبنوالنضير وبنو قريظة. عهدا مع النبى (ص ٤٣٣) يقضى بعدم تقديم أى طرف من الطرفين أى معونة أو مساعدة لأى عدو للطرف الآخر فى حالة اشتباكه في حرب.

ولكن لما فشا الإسلام فى الأوس والخزرج وآخى النبى بينهما فأصبحوا قوة واحدة تساند النبى بدأ اليهود يخاصمون الدين الجديد. وزادت مخاصمتهم له بعد انتصار المسلمين في موقعة بدر وعندئذ نقض بنو قينقاع عهدهم وآذوا المسلمين كما سبق أن ذكرنا (ص ٥٢٦). فكان حصارهم ثم إجلاؤهم عن المدينة فهاجروا إلى الشام.

أما بنو النضير فإنهم حاولوا اغتيال النبى (ص ٥٧٥) فكان إجلاؤهم هم أيضا عن المدينة فلجأوا إلى يهود خيبر شمال المدينة وأقاموا معهم. أما القبيلة الثالثة - بنو قريظة - فقد ظلت تعيش بسلام في المدينة وكانت علاقتها بالمسلمين علاقات طبيعية وسليمة. وكان كل من الجانبين يحترم العهد المبرم بينهما ويتقيد بشروطه. ولكن يهود بنى النضير - الذين أبعدوا عن المدينة واستوطنوا خيبر كانوا يحملون في قلوبهم حقدا علي المسلمين وراحوا يتحينون الفرصة للكيد للمسلمين. ولما انتهى موعد بدر الآخرة بدون قتال (ص ٥٧٣) قدم وفد من يهود خيبر إلى مكة وكان على رأسه حيى بن أخطب الذى كان سيد بنى النضير بالمدينة ومعهم نفر من بنى

وائل والتقي الوفد برجال قريش وراحوا يزينون لهم مهاجمة المدينة وشرح لهم أخطب خطورة المسلمين على تجارتهم مع الشام. وكانت قريش فعلا قد حولت معظم تجارتها إلى العراق بعيداً عن المدينة حتى لاتقع فى أيدى المسلمين. فراح اليهود يخوفونهم من أنه إذا وصل الإسلام والمسلمون إلى اليمامة فسيقطعون على قريش طريق التجارة مع العراق والبحرين (شكل ٣٧) فلا يبقى لهم إلا التجارة مع اليمن. ورأى أبو سفيان أنه لو حدث هذا لاهتز اقتصادهم وفقدوا صدارتهم للعرب. وسأل أبو سفيان حييّ بن أخطب: إنكم أهل الكتاب الأول وتعلمون ما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد. أفديننا خير أم دينه؟ ورد عليه حييّ بن أخطب: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه. وقد أنزل الله فى ذلك الآيات:

«ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا. أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا. أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما. فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه وكفى بجهنم سعيرا» (٥١ - ٥٥ النساء).

وقد أعجب قول حييّ بن أخطب قريشا واستجابوا لطلبه وراحوا يتأهبون للحرب. ثم ذهب الوفد إلى **غطفان وبنى أسد** ودعوهم إلى حرب محمد فاستجابوا ووافق الجميع على الاشتراك فى حملة كبيرة تخرج لمقاتلة المسلمين واستئصال شأفتهم. وبدأت قريش حشد الرجال فجهزت ٤٠٠٠ رجلاً و٣٠٠ فارسا و ١٥٠٠ بعيرا وجهزت غطفان ٢٠٠٠ رجلا ومن بنى فزارة وبنى أسد وبنى أشجع وبنى مرة وبنى سليم ٧٠٠ مقاتلا. ولما كملت استعداداتهم خرجوا من مكة ومن مناطقهم فى أول شوال سنة ٥ هجرية قاصدين المدينة.

وجاء العيون بأخبار تجمعات الأحزاب إلى المسلمين بالمدينة. وفزع الناس لما سمعوا عن حشد كل هذه الكتائب من مختلف القبائل. صحيح أن عدد المسلمين قد زاد بما يمكنهم من حشد ٣٠٠٠ من الرجال. ألا أنه كان بينهم مئات من المنافقين الذين لا يمكن الاعتماد عليهم. واستقر الرأى على عدم الخروج من المدينة والبقاء فيها للدفاع عنها.

لم يكن من السهل مهاجمة المدينة من جهة الشرق لوجود صخور بركانية فى **«حرة واقم»** - وهى الحرة الشرقية - فلا تتيح للجنود أو الفرسان القتال وهى بذلك تعتبر خط دفاع طبيعى. كذلك توجد فى الغرب **«حرة الوبرة»** مكونة أيضا من صخور بركانية وعرة وهذا ما أشار النبى فى حديثه وهو يومئذ بمكة قبيل الهجرة (ص ٣٣٨): قد أريت دار هجرتكم. أريت سبخة ذات نخل بين حرتين.

واقترح سلمان الفارسى خطة. قدّم لها بأن شرح أنه حين تورط جيش الفرس فى حرب دفاعية فى ظروف قاسية ضد عدو مهاجم حفر الفرس خندقا واسعا وعميقا حال دون تقدم العدو. وكان هذا الإجراء غير معروف لدى العرب ولم يسبق أن استخدموه فى حروبهم ولكنه

كان الحل الأمثل فى مثل حالهم وقبل النبى الاقتراح وأمر بحفر الخندق. وراح المنافقون – كعادتهم – يثبطون الهمم ويقللون من جدواه. ولكن النبى شجَّع المسلمين واشترك بنفسه فى حفر الخندق ونشط الناس للعمل. وقُسِّم العمل بين المسلمين لكل عشرة منهم أربعون ذراعا أى حوالى ١٨ مترا. وكان حسان بن ثابت يطوف بالعاملين ينشدهم شعره ويبث فيهم الحماس. وامتد الخندق من «جبل شيخين» فى الشرق إلى «تل ذباب» ومنه إلى «جبل بنى عبيد» فى اللامة الغربية (شكل ٣٨). وكان طوله حوالى ٢كم وعرضه ٦ أمتار وعمقه ٥ أمتار.

وتحكى كتب السيرة روايات عن أنه كثيرا ما كان الحفر يقابل صخرة كبيرة – فى القطع المخصص لجماعة – تستعصى على فؤوسهم فكانوا يلجأون إلى النبى الذى كان يأخذ معوله ويضرب ضربة شديدة يتطاير منها الشرور وهو يقول الله أكبر فتتفتت الصخرة. كما يروى أن الرجال كانوا يغنون وهم يحفرون.

نحن الذين بايعنا محمدا ∴ على الإسلام ما بقينا أبدا

ويجيبهم النبى. اللهم لا خير إلا خير الآخرة. فبارك فى الأنصار والمهاجرة. وكان النبى ينقل معهم التراب حتى يغبر وجهه وجسمه.

ويروى أنه أثناء الحفر عرضت لهم صخرة عظيمة شديدة لا تأخذ فيها المعاول فشكوا ذلك إلى رسول الله. فأخذ المعول وقال بسم الله وضرب ضربة فكسر ثلثها وقال: الله أكبر. أعطيت مفاتيح الشام والله إنى لأبصر قصورها الحمر. ثم ضرب ضربة ثانية فقطع ثلثا آخر وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض. ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر وقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة (السيرة النبوية. ابن كثير. جـ ٣ ص ١٩٤). وقال المنافقون: نحن نخندق على أنفسنا وهو يعدنا قصور فارس والروم.

وأثناء حفر الخندق شعر أحد الصحابة وهو جابر بن عبدالله أن النبى قد جاع فذهب إلى بيته وكان عنده صاع من شعير وماعز صغيرة فأمر امرأته بتجهيزها ليدعو النبى للغداء عنده. ثم جاء إلى النبى وأسرَّ له أنه أعد له غداء ولنفر قليل من أصحابه. ولكن النبى صاح فيمن حوله من الرجال: أن يا أهل الخندق إنَّ جابرا قد صنع وليمة فهيا إليها وعمد النبى إلى البرمة وبارك ثم أكل وأكل جميع أصحابه. قيل وقد قاربوا الألف – وقاموا والبرمة ملآنة لآخرها لم تنقص.

وكان المنافقون يقومون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهليهم بغير علم النبى فى حين كان الرجل من المسلمين إذا أراد قضاء الحاجة استأذن من رسول الله قبل انصرافه ثم يعود مسرعا إلى العمل رغبة فى الجزاء من الله. ونزل فى هؤلاء:

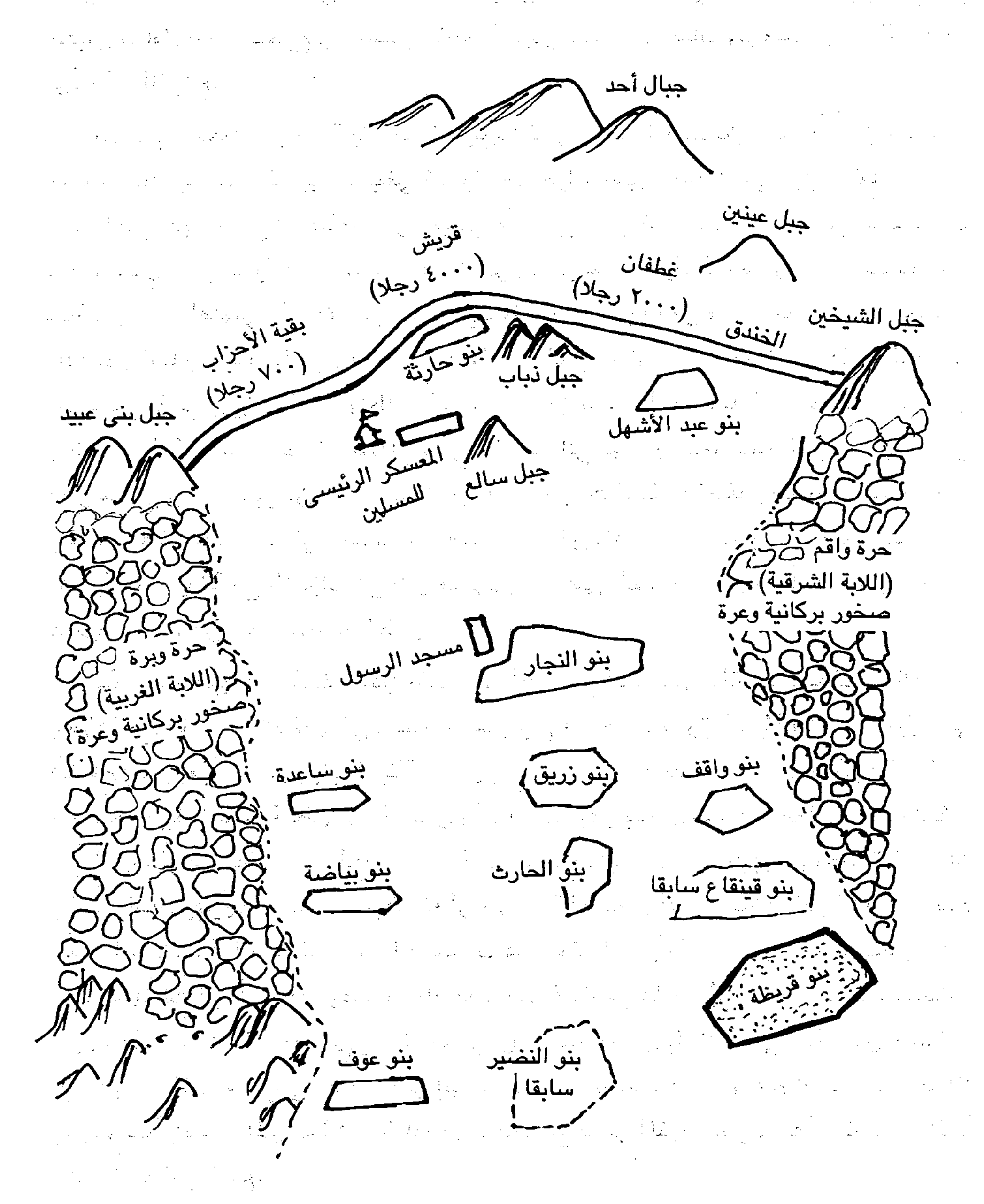
«إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتي يستأذنوه. إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله. فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأْذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم. لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا. قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لِوَاذا (خفية) **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم»** (٦٢ - ٦٣ - النور).

ولما انتهى المسلمون من حفر الخندق نصبوا معسكرهم أمام «تل سالع». وكانت الخطة التى وضعها النبى تقضى بأن يقوم أغلب الجيش بالضرب فى أى موقع يمكن للعدو أن يطأه عبر الخندق ووضع النبى على طول الخندق مائتى رجل لتحذير الجيش من أى هجوم مفاجىء وكان عليهم مراقبة التلال التى تشرف على الخندق. وكُلِّفت قوة تتألف من ٥٠٠ رجلا بحراسة مختلف مناطق المدينة لمنع أى شخص قد يتسلل إليها خفية ولحراسة المناطق التى لا يحيط بها الخندق. أما النساء والأطفال فقد وضعوا فى الحصون والدور البعيدة عن جبهة القتال. وكان الاعتماد على أن يمنع يهود بني قريظة - بمقتضى العهد بينهم وبين النبى - أى اختراق من ناحية دورهم الموجوده فى الطرف الجنوبى الشرقى من المدينة.

وكان الوقت شتاء. وكان الشتاء قارس البرد في ذلك العام. ولما رأت قريش الخندق فزعت وعجبت. وقالوا إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها. وأدرك أبو سفيان أن الخندق سيعوق تقدم قواته وكان يمنىّ نفسه بإحراز نصر سريع لكثرة عددهم وأسلحتهم. وضرب الأحزاب معسكرهم على طول الخندق من الناحية الشمالية والشمالية الغربية. وحاصروا الخندق. كانوا يأتون إليه فى النهار مقابل الناحية التى يقف عندها المسلمون ويتبادلون الرماية بالسهام. كما كان بعض رجالهم يحاولون أن يجدوا ثغرة يستطيعون أن ينفذوا منها إلى المسلمين ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد لمنع أى اختراق. أما أثناء الليل فكان المشركون يعودون إلى معسكرهم تاركين حراسا حول الخندق خوفا من تسلل بعض المسلمين إلى معسكرهم ليخربوه.

ومضت ١٠ أيام منذ بدء الحصار دون أن يقوم أى جانب خلالها بعمل جدى. وبلغ الجهد من الجانبين مبلغه. ولم يكن بالمدينة فائض من الغذاء ولذلك فقد أنقصت مخصصات الفرد من الغذاء إلى النصف. وكانت فرصة اغتنمها المنافقون ليشددوا من نقدهم الصريح للنبي وراحوا يقولون: كان محمدا يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. أما المؤمنون فقد ثبتوا وزاد إيمانهم بالله وبنبيهم.

وعلى الجانب الآخر سادت حالة من التذمر بين صفوف الأحزاب لأن الحصار طال وعهد العرب دائما بحروب قصيرة. إذ يحملون زادا للطريق ذهابا وإيابا ثم يومين أو ثلاثة للتجهيز للمعركة ويوما أو يومين للمعركة ذاتها ومثلها بعدها. فلما طال الحصار بدون طائل بدأوا



شكل ٣٨ – غزوة الخندق.

يتخوفون من نقص الطعام. وزادت رداءة الجو من كرب الأحزاب وبدا أنهم فى مأزق وراح أبو سفيان يحاول إيجاد مخرج واستشار حليفة اليهودى حيى بن أخطب وتوصلا إلى خطة جديدة تَوقّعا لها النجاح.

ذهب حييّ خفية إلى محلة بني قريظة وتوجه لدار زعيمها كعب بن أسد. وحدّس كعب أن حييا قد جاء إليه بوصفه يهوديا يبغى تحريضه وإخوانه اليهود ضد النبى فرفض لقاءه إلا أنه أمام إلحاح حيى سمح له بدخول داره. وطلب منه حيى أن ينضم إلى الأحزاب فى حربهم ضد محمد وقال له ويحك يا كعب. جئتك بعز الدهر وببحر طام والمراد كثرة الرجال جئتك بقريش وغطفان وقد عاهدونى على ألا يبرحوا حتي نستأصل محمدا ومن معه، فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر. ويحك ياحيى فدعنى وما أنا عليه فإنى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء. فلم يزل حُيى بكعب يزين له الأمر ولعله منّاه بأنه سيكون سيد المدينة بعد القضاء على المسلمين ويكون فى إمكانه أن يعيد بنى قينقاع وبني النضير إلى دورهم فيكون سيد اليهود كلهم. وكان آخر ما فى جعبة حُيى أن أعطى كعبا عهدا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا يدخل معه فى حصنه حتى يصيبه ما يصيبه. فنقض كعب عهده مع رسول الله ورضي بأن يشترك بنو قريظة مع الأحزاب فى شن هجوم واحد على المسلمين ولكن كعباً طلب مهلة قدرها عشرة أيام يُعِدون فيها أنفسهم للقتال.

وتأكد غدر اليهود بحادث صفية بنت عبد المطلب مع اليهودى. كانت صفية قد انتقلت هى وغيرها من النساء والأطفال إلى حصن صغير يقع فى جنوب شرق المدينة (كان من قبل لبنى قينقاع) غير بعيد من دور بنى قريظة. وكان بالحصن رجل واحد هو حسان بن ثابت الشاعر. وذات يوم وبينما صفية تطل من الحصن رأت يهوديا وهو بكامل سلاحه يطوف بالحصن كما لو كان يبحث عن منفذ إليه. وأخبرت صفية حسانا بما رابها من أمر اليهودى وخشيتها من أن يقتحم اليهود عليهم الحصن وطلبت منه أن ينزل ليقتله. فقال لها حسان: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. فتركته وأخذت عمودا من حديد وشدّت وسطها ونزلت إلى اليهودى وضربته بالعمود حتى قتلته ثم عادت إلى الحصن وقالت لحسان: انزل وخذ سلبه فإنه لم يمنعنى إلا أنه رجل. ورد عليها حسان بقوله: مالى بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب. ولما نمي هذا الخبر إلى علم المسلمين لم يعد يساورهم أى شك فى خيانة بنى قريظة وأصبح الموقف أكثر خطورة وخاصة مع نقص المئونة بحيث أُنقص نصيب الفرد من الطعام إلى الربع.

ورأى النبى حرج الموقف العسكرى فرأى أن يلجأ إلى السياسة وأن لا بأس من تقديم بعض التنازلات حفاظا على المسلمين وعلى الإسلام ذاته. فبعث إلى عيينة بن حصين وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان وتفاوض معهما على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن

يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه. وكان الهدف هو التخفيف من وطأة الحصار بانسلاخ غطفان من الحلف وما قد يتبعه من حذو قبائل أخرى حذوها فتضعف قوة الأحزاب بعض الشيئ بما يمكن بعده للمسلمين زحزحة قوات قريش عن المدينة بإحدى العمليات الحربية. وجرت المفاوضات وكتب الكتاب ولم يبق إلا التوقيع عليه ليصبح نافذا. ورأى النبى أن يستشير أصحابه فأرسل إلى سعد بن معاذ وهو من الأوس وعبادة بن الصامت من الخزرج فسألا: يارسول الله أمراً تحبه فنصنعه أم شيئا أمرك الله به لا بُدَّ لنا من العمل به أم شيئا تصنعه لنا؟ قال: بل شيئ أصعنه لكم. والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان. لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا. أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك نعطيهم أموالنا. والله ما لنا بهذا من حاجة. والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال له النبى فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا.

وزاد موقف المسلمين حَرَجاً. وكان الأمل هو في فك الحصار. وهيأ الله رجلا من غطفان هو نعيم بن مسعود كان قد أسلم وأبقى إسلامه سراً وكان للرجل نفوذ ومكانة لدى الأحزاب الثلاثة المتحالفة: قريش وغطفان ويهود بنى قريظة. وذات ليلة تسلل نعيم إلى المدينة وجاء إلى النبى وأخبره بإسلامه وأن قومه لم يعلموا وطلب أن يأمره بما شاء. فقال له النبى إنما أنت فينا رجل واحد. فخذِّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة.

فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة واجتمع مع كعب وأوضح له خطورة الموقف الذى يواجهه اليهود. وقال له إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم. البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم. لاتقدرون أن تحولوا منه إلى غيره. وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم. فإن رأوا نهزة أصابوها. وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم. فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه (السيرة النبوية ابن هشام. جـ ٣ ص ٢٤٠).

ثم خرج نعيم حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه: أنَّا قد ندمنا على ما فعلنا. فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم فأرسل إليهم أن نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا. ثم خرج إلى غطفان وقال لهم مثل ما قاله لقريش. وما إن انتهى نعيم من جولته حتى كانت بذور الشك والفرقة قد انغرست فى نفوس الأحزاب وبدأ القلق يساور أبا سفيان الذى كان يعتمد اعتمادا كبيرا على اليهود وقرر أن

يعجل بالمعركة وأن يختبر نواياهم فبعث بوفد على رأسه عكرمة بن أبى جهل إلى يهود بنى قريظة وقال لهم إنا لسنا بدار مقام. وقد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه. فأجاب اليهود: إن اليوم يوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا. ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا. فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه. فعاد عكرمة وأخبر أبا سفيان بما قاله اليهود. فقالت قريش وغطفان. والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحقٌ. وأرسلوا إلى بنى قريظة يقولون: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا. فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا. وهكذا خرجت بنو قريظة من الحلف.

وفى اليوم التالى كان قد مضى زهاء ٢٠ يوما على قريش أمام الخندق وبدأ حماس المقاتلين يفتر. فقرر خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل أن يتوليا الأمر بنفسيهما بعد أن عيل صبرهما وأيقنا بألا أمل في عمل موحَّد تقوم به الأحزاب مجتمعه. وتوجَّها مع فرقتي فرسانهما إلى موضع قريب من «تل ذباب» عند موضع يضيق عنده الخندق بما يسمح لخيلهم أن تقتحمه ولرجالهم أن يعبروه. وكان هذا الموضع قبالة معسكر المسلمين عند سفح جبل «سالع». وتحركت سرية عكرمة أولا: وقفزت جماعة صغيرة عبر الخندق. وكانت الجماعة مؤلفة من سبعة رجال منهم عكرمة بن أبى جهل. ورجل آخر ضخم الجثة اسمه عمرو بن عبد ود وكان قد جرح في بدر وعاقته جراحه عن شهود معركة أحد فأراد أن يعوض ما فاته بالاستبسال فى المعركة الحالية وتخير مكانا من الخندق ضيقا إلى حد ما وضرب فرسه فقفزت به عبر الخندق وبهت السلمون لرؤيته وتبعه آخرون. أما هو فراح يتفرس في صفوف المسلمين ودعاهم إلى النزال. فتخوف الجميع منه. فراح يتهكم بالمسلمين والإسلام ويتطاول على مقام النبي فاستأذن علىٌّ النبى لنزاله فأذن له وأعطاه سيفه المسمى «ذو الفقار» وقال اللهم أعنه عليه (ابن مسعد جـ ٢ ص ٤٩). فقال عمرو بن عبد ود: لم يا ابن أخى؟ فوالله ما أحب أن أقتلك. فقال له على: ولكنى والله أحب أن أقتلك. وراح عمرو يسدد سيفه إلى صدر علىّ ولكن عليًا كان يتفاداه بحركاته الرشيقة واستمر العملاق يهوى بسيفه في كل اتجاه بلا طائل حتى أخذ منه التعب وانتهزها علىّ فرصة فقفز بسرعة وأمسك بيديه برقبة عمرو الذى فقد توازنه وسقط على الأرض فجثم علىٌّ على صدره وهو لا يزال يمسك برقبته ويخنقه بكل قوة. ثم إن عليا دعا عمرو إلى الإسلام فبصق عمرو فى وجهه. وكان فى إمكان علىٍّ أن يجهز على عمرو ولكنه قام من فوقه وقال له: لتعلم يا عمرو أنى لا أقتل إلا فى سبيل الله وقد يُظن أنى قتلتك لأنك بصقت فى وجهى ولكنى سأبقى على حياتك. فقم وعد إلى قومك. ونهض عمرو وتظاهر بأنه عائد ثم بحركة مباغتة أخذ سيفه وهجم على علىٍّ ليأخذه على غرة. وتلقى علىٌّ الضربة بدرعه ثم عاجل الخصم بضربة من سيفه أصابته فى حلقة فتفجرَّ الدم منه غزيرا ثم سقط على الأرض واهتزت جنبات الوادى بتكبيرات المسلمين. وهجم المسلمون فى حماسة على

الستة رجال الباقين فقتلوا واحدا بينما نجح الباقون فى الفرار عبر الخندق إلا أن المسلمين راحوا يرمون بالحجارة أحدهم لم يفلح فى تسلق الخندق من الناحية الأخرى واستمروا فى رجمه حتى مات.

وفى اليوم التالى أعاد خالد بن الوليد المحاولة فقفز عبر الخندق بفريق من رجاله ولكن المسلمين تجمعوا عليهم وتمكن خالد من قتل أحد المسلمين. وكذلك تمكن وحشى قاتل حمزة من قتل مسلم ثانٍ ولكن جموع المسلمين تكاثرت عليهم فأيقنوا أن لا أمل فى الانتصار وعادوا إلى معسكر قريش بعد أن فقدوا رجلين وكان ذلك آخر عمل حربى تم فى غزوة الخندق.

ولم يحدث خلال اليومين التاليين أى نشاط اللهم إلا بعض الترامى بالنبال فى أوقات متفرقة بدون إحداث إصابات فى أى جانب. ومع أن المسلمين عانوا من نقص الطعام إلا أنهم استمروا فى صمودهم. أما معسكر الأحزاب فقد هبطت روحهم المعنوية إلي الحضيض. إذ أيقنوا أن الغزوة التى خططوا لها كل هذا التخطيط وحشدوا لها كل هذه الحشود وتوقعوا لها النصر انتهت إلى لا شيء وساد بينهم التذمر. كان الحصار الآن قد دام ٢٣ يوما وليس هناك من بادرة ولو بسيطة فى استسلام المسلمين. وفى تلك الليلة هبت عاصفة هوجاء واجتاحت معسكر الأحزاب رياح باردة جدا أطفأت نيرانهم وكفأت قدورهم وقلعت خيامهم وبدا كأن الطبيعة غاضبة عليهم وراحوا يحتمون من الريح تحت الأغطية. فقام أبو سيفان وقال بصوت عالٍ: يا معشر قريش والله ما أصبحتم بدار مقام. لقد هلك الكراع والخف (الكراع من الغنم والبقر مستدق الساق العارى من اللحم. والخف كناية عن الإبل المسنة التى تذبح للأكل) وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون. ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإنى مرتحل (السيرة النبوية. ابن هشام. جـ ٣ ص ١٣٨). وما أن أنهى حديثه حتى قام إلى بعيره وسار مع رجاله فتبعته كل قريش. وعلمت غطفان بما فعلت قريش فحذوا حذوهم. وكذلك فعل جميع القبائل الصغرى المتحالفة. وسار خالد بن الوليد وعمرو بن العاص فى فرسانهما فى مؤخرة جيش قريش يحرسونهم خشية أن يخرج المسلمون من المدينة فى طلبهم.

وعاد أبو سفيان إلى مكة والمرارة تعتمل فى صدره على هذه الحملة الفاشلة التى هزت من هيبته وهيبة قريش بين العرب الذين أيقنوا أن محمدا والمسلمين صاروا ندا قويا لقريش ومن احتمي بهم لن يضام.

ولما أيقن المسلمون أن الأحزاب قد انفضوا وكل رجع إلى دياره تنفسوا الصعداء وحمدوا الله على نجاتهم مما كانوا فيه من كرب. وقد خسر كل فريق فى هذه المعركة أربعة رجال فقط. ولكن الحملة كانت نصرا للمسلمين إذ استطاعوا أن ينقذوا المدينة من هجوم ساحق كان كفيلا - لولا الخندق - بالقضاء عليهم. ولما انصرف الأحزاب قال رسول الله: لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم (تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٧٧).

إجلاء بنى قريظة:

وفى اليوم التالى كان المسلمون قد اطمأنوا ووضعوا السلاح. قيل فأتى جبريل إلى رسول الله وقال: أوَقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال نعم قال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعدُ. وما رجعتُ الآن إلا من طلب القوم. إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة فإنى عائد إليهم فمزلزل بهم. فأمر رسول الله فأُذِّن فى الناس: من كان سامعا مطيعا فلا يصلِّين العصر إلاَّ ببنى قريظة!

وسار النبى والمسلمون معه إلى دور بنى قريظة وحصونهم وحاصرهم ٢٥ ليلة حتى أجهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب. وكان حييّ بن أخطب قد دخل الحصن مع بنى قريظة حين رجعت قريش وغطفان وفاء لما تعهد به لكعب بن أسد فلما أيقنوا بأن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يقاتلهم بعثوا إلى رسول الله أن يرسل إليهم أبا لبانة بن عبد المنذر - وكان قومه حلفاء الأوس الذين كانوا قبل الأسلام حلفاء بنى قريظة - ليستشيروه فى أمرهم فأرسله رسول الله إليهم. فلما رأوه قالوا: يا أبا لبانة. أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال نعم وأشار بيده إلى حلقه. إنه الذبح.

وفطن أبو لبانه أنه قد خان الله ورسوله وأفشى ما انتوى رسول الله عمله فيهم مما قد يمنعهم من الاستسلام ويجعلهم يستأسدون فى المقاومة. ويقول أبو لبانة. فوالله مازالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله ثم توجَّه إلى المسجد وربط نفسه فى عمود من أعمدته وقال: لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله علىَّ مما صنعت. ولما تأخر أبو لبانة فى العودة إلى النبى سأل عنه وعلم ما فعل بنفسه فقال: أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له. فأما إذا فعل ما فعل. فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه. قال ابن هشام: وظل مرتبطا ست ليال تأتيه امرأته فتحله للصلاة ثم يعود فتربطة ثم لما كان السَحَر والنبى فى بيت أم سلمه نزلت آية فيها التوبة على أبى لبانه: «**وآخرون اعترفوا بذنوبهم. خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم. إن الله غفور رحيم**» (١٠٢ - التوبة). فضحك النبى. فسألته أم سلمة عن سبب ضحكه قال: تيب على أبى لبانة. قالت: أفلا أبشره يا رسول الله. قال بلى إن شئت فقامت على باب حجرتها وقالت: يا أبا لبانة أبشر فقد تاب الله عليك. وأسرع الناس ليطلقوه فأبي وقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذى يطلقنى بيده. فلما مر رسول الله خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه.

نعود إلى يهود بني قريظة وقد تعبوا من الحصار وأرادوا الاستسلام. ورغبوا أن يعاملهم النبى كما عامل بنى قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج وكان عبد الله بن أبى بن سلول سيد الخزرج قبل الإسلام - فرضى النبى بحكمه فى بنى قينقاع كما سبق أن ذكرنا (ص ٥٢٧) وتركهم

النبى يرحلون بأمتعتهم وطمع بنو قريظة فى مثل ذلك فطلبوا أن يوكل أمرهم إلى سعد بن معاذ وهو من الأوس. حلفاؤهم فى الماضى ظانين أنه سيحكم فيهم بأن يجلوا عن ديارهم. ولكن سعد بن معاذ حكم أن يقتل الرجال وتسبى الذرارى والنساء وتقسَّم الأموال. فقال النبى لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات. وتم تنفيذ الحكم. وقتل منهم فى ذلك اليوم ما بين ٦٠٠ - ٩٠٠ رجل وكان من بينهم حييّ بن أخطب وكعب بن أسد رؤساء الخيانة. ولم يقتل من النساء إلا واحدة كانت قد ألقت بحجر الرحى من سطح منزلها على أحد المسلمين فقتلته. وأسلم نفر قليل فعصموا دماءهم وأموالهم. ومما يروي أن ما غنمة المسلمون كان: ١٥٠٠ سيف و ٣٠٠ درع و ٢٠٠٠ رمح و١٥٠٠ ترس وكثير من الجمال والمواشى. ثم إن رسول الله قسم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد إخراج الخمس. وبعث رسول الله أحد أصحابه بجزء من الخمس فباعه فى نجد واشترى بثمنه خيلا وسلاحا (السيرة النبوية. ابن هشام جـ٣ ص ٢٥٠). وكانت ريحانة بنت عمرو - إحدى السبايا - من نصيب رسول الله فعرض عليها الإسلام ويتزوجها فأبت إلا البقاء على يهوديتها فاعتزلها. وبعد مدة أسلمت. ويقول ابن اسحق: فسرَّه ذلك من أمرها.

وقد انتقد بعض المستشرقين ما اعتبروه «قسوة فى الحكم» على بنى قريظة. ولكن الموقف الذى وقفوه وغدرهم وخيانتهم وانضمامهم إلى الأحزاب كان تآمرا بالغ البغى وهو ما يسمى فى عصرنا الحالى «خيانة عظمى» وكان هدفهم مشاركة الكفار فى استئصال شأفة المسلمين وإبادتهم. فلا عجب أن يكون عقابهم متناسبا مع عظم جرمهم. وجميع الدول فى عصرنا الحالى تقرر الإعدام كعقوبة لجريمة الخيانة العظمى ولا يُعفِى منه أن يكون مرتكبها فردا أو سرية بكاملها.

شهداء معركة الخندق: قال ابن اسحق: استشهد من المسلمين ٥ :

من الأوس : ١ - أنس بن أوس بن عتيك.
٢ - عبد الله بن سهل.

من الخزرج: ٣ - الطفيل بن نعمان.
٤ - ثعلبة بن غيمة.

من بنى النجار: ٥ - كعب بن زيد.

كان الوحى يسير بالحياة المدنية جنبا إلى جنب مع الأحداث العسكرية. فكانت التشريعات التى تنظم الحياة المدنية تنزل في السور مختلطة بالإشارات إلى ما حدث في المعارك الحربية. وقد نزلت سورة الأحزاب بعد معركة الخندق.

سورة الأحزاب :

وفى السورة عدة مواضيع :

١ – تشريعات لإلغاء جميع القرابات المفتعلة كالظهار والتبنى والأخوة بين المهاجرين والأنصار. واعتبار النبى أبا لجميع المسلمين وبالتالى فإن زوجاته أمهات للمؤمنين.

٢ – آيات متعلقة بوقعة الخندق.

٣ – تشريعات خاصة بالزواج والطلاق والعدة.

٤ – تشريع لآداب دخول بيوت النبى.

٥ – تشريع يضمن عدم إيذاء نساء المؤمنين.

وتبدأ السورة بأربعة أوامر للنبى:

«يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما. واتبع ما يوحي إليه من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا. وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا» (١ – ٣).

ومن المحتمل أن قريشا – وقد أيقنت أن القضاء على الإسلام أمر مستحيل – رأوا المراوغة وقيل قدم وفد منهم إلى المدينة يعرض حلا وسطا: وهو أن يكف النبى عن تسفيه آلهتهم ويكفوا هم عن حربه. فنزلت الآيات تأمر النبى بالإستمرار على تقوى الله وألا يطيع الكافرين كما أُمر أيضا أن لا يقبل رأيا من المنافقين. ولعل ذلك كان أيضا تمهيد لما سيأتى فى الآيات التالية من إبطال بعض عادات الجاهلية وما سيثيره ذلك من انتقادات فكان الحث على ألاَّ يبالى باعتراضاتهم وتأمره باتباع الوحى وأن يكون توكله على الله وحده.

إبطال الظهار والتبنى:

كانت هاتان أكثر عادات الجاهلية انتشارا وأراد الوحى إبطالهما.

كان **ظهار الزوجات** عادة جاهلية لتحريم الزوج على نفسه المعاشرة الزوجية لزوجته مع إبقائها فى عصمته. بقوله لها «أنت علىَّ كظهر أمى». وكان الأزواج يعمدون إلى ذلك إذا كرهوا زوجاتهم كأن يلدن بنات فقط أو لأى سبب آخر أو أرادوا ابتزاز أموالهن وحملهن على التنازل عن حقوقهن أو لاستبقائهن حاضنات لأولادهن وليخدمن فى بيوتهم. وكذلك لتفادى تطليقهن أنفة من أن يتزوجن غيرهم. وهذا التقليد يشبه من ناحية تقليد الإيلاء الذى ورد ذكره فى سورة البقرة (الآية ٢٢٦ – ص ٤٨٥) وفيه أُعطى الزوج مهلة أربعة أشهر للعودة لمعاشرة زوجته أو يصبح الطلاق نافذا. وكذلك فإن الآيات الحالية من سورة الأحزاب بينت أن الظهار باطل. وضربت مثلا لبطلانه: فكما أنه لا يعقل أن يكون لرجل قلبان فإن زوجة المظاهر لا تكون أمه لأنه لا يكون للرجل أُمَّان:

«ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم.» (٤).

كذلك كان **التبنى** تقليدا شائعا بين العرب. والتبنى هو اتخاذ رجل ما طفلا أو صبيا غريبا عنه ابنا له. وكان المتبنِّى يعلن فى ملإ من الناس تبنى الطفل أو الصبى فيصبح فى مقام ابنه من صلبه فى كل الواجبات والحقوق ويرث أحدهما الآخر ويحرم زواج أحدهما من زوجات الآخر. وكذلك يحرم على المتبنِّى أن يتزوج إحدى بنات متبنية ولا أخواته ولا عماته ولا خالاته ولا يصح الزواج من أرملة متبنِّيه ولا مطلقته. وكان العرب يلجأون إلى التبنى إذا كان فى الأسرة عقم أو كانت الزوجة تلد بنات فقط والزوج يرغب فى ابن يحمل اسمه من بعده.

وقد سبق أن ذكرنا (ص ٣٩) أن زيد – غلام رسول الله الذى أهدته إليه خديجة زوجته – لما استدل عليه أبوه ورغب فى استعادته – خيَّر رسول الله زيدا فى العودة إلى أبيه أو البقاء معه فاختار زيد البقاء مع «محمد». ومكافأة له على ذلك أعلن تبنيه لزيد وصار يدعى زيد بن محمد. وكان فى ذلك ترضية لأبى زيد. وأراد الإسلام رد الأمور إلى طبيعتها وإبطال التبنى. فنزلت الآيات من سورة الإحزاب:

«.. وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمَّدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما» (٤ – ٥).

والمثل الذى ضرب للظهار من أن الرجل لا يكون له قلبان. ولا تكون له أُمَّان . ينطبق أيضا على التبنى فلا يصبح أن يكون للمتبنِّى أبوان. وما يقولونه فى هذه القرابات المفتعلة ليس بحق بل هو مجرد لفظ يقولونه بأفواههم والله يقرر الحق. ثم تأمر الآيات بتسمية الأبناء بالتبني باسم آبائهم الحقيقيين فإذا لم يُعرف آباؤهم فهم إخوان فى الدين لمتبنِّيهم أو موالى له. ثم تنبيه بأن الله غفور رحيم لا يحاسب الناس فيما أخطأوا به وما سبق فعله قبل صدور التشريع وإنما يؤاخذ بما يصدر عنهم عن عمد بعد صدور التشريع. وبعد نزول هذه الآية استعاد زيد اسمه الأصلى «زيد بن حارثة». ولكن هناك حالات لا يعرف فيها أبو الغلام وفى هذه الحالة يصبح «أخا فى الدين» أو «مولى» لمن كان يتبناه.

وكانت **«الموالاة»** شائعة بين العرب قبل الإسلام. وذلك أن يطلب شخص أو عشيرة أن يلتحق بشخص أو بعشيرة أخرى بقصد الحماية أو الاستنصار – أو كما نقول فى العامية «اللى ما لوش ظهر يشترى له ظهر» فإذا قبل الملحَقُ به ذلك أعلنه على الملأ حتى يعرف الناس وحينئذ يدعى الشخص «مولى فلان» ويكون للملحق به سدس مال المولى عند وفاته ثم بعد ذلك تقسم التركة بين الورثة الأصليين. وعند موالاة عشيرة لعشيرة أخرى يصبحون كأنهم من نفس العشيرة لهم مالهم وعليهم ما عليهم. وكلمة «مولى» تطلق أيضا على الملوك. ثم توسَّع معنى اللفظ فأصبح – بعد الإسلام – يطلق على المسلمين من غير العرب فكأنهم بدخولهم فى

الإسلام قد التحقوا بالعرب واندمجوا فى عصبياتهم. إلا أن المعنى الأول هو المقصود بما ورد فى الآية السابقة من سورة الأحزاب. وهو يخص الأبناء بالتبنى الذين لا يعرف آباؤهم فهم يصبحون موالى لمن كان يتبناهم.

أمهات المؤمنين:

تذكر الآيات بعد ذلك أن النبى هو بمثابة أب للمسلمين جميعا ومن هذا المنطلق تصبح زوجاته أمهات للمؤمنين لهن واجب الاحترام والتوقير ويحرم التزوج بهن من بعده. أما فيما عدا ذلك فإن صلة الرحم هى القرابة الوحيدة المعترف بها. وحتى الأخوّة بين المهاجرين والأنصار غير قائمة والتوارث بينهم على أساسها غير جائز لكن يجوز أن يقدم البعض إلى مواليهم فى الدين من غير الأقارب معروفا أى أن يوصى لهم بجزء من ماله:

«النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلي أوليائكم معروفا كان ذلك فى الكتاب مسطورا» (٦).

وكان فى هذه التشريعات إلغاء لبعض التقاليد العربية التي رسخت فى الوجدان على طول الأزمنة. وحتى لايجد النبى حرجا من إبلاغها ذكرت الآيات أن كل الأنبياء السابقين قد أخذ عليهم العهد بتبليغ ما أرسلوا به:

«وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسي وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا. ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعدَّ للكافرين عذابا أليما» (٧ – ٨).

تعليق على معركة الأحزاب:

بعد هذه الآيات التى تنظم الحياة المدنية جاءت آيات تذكر مشاهد من معركة الخندق وتعلق عليها. ولم تقصد الآيات سرد وقائع المعركة سردا قصصيا وإنما أشير إلى بعض المواقف بقصد الموعظة والتنويه بفضل الله والتنديد بموقف بعض المسلمين وفضح المنافقين واستهجان أقوالهم.

وتبدأ الآيات بذكر نعمة الله فى صرف الأحزاب وإنجاء المسلمين من خطرهم:

«يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا. إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا» (٩ – ١١).

وكانت الريح الشديدة التى هبت على معسكر الأحزاب وقلعت خيامهم وكفأت قدورهم من

أهم العوامل المؤثرة فى رحيل قريش وحلفائها. فكانت بذلك أولى الأحداث بالذكر فى أول السرد القرآنى. ولعل الجنود التى لم ترى هم الملائكة الذين ألقوا الرعب فى قلوب الأحزاب وأوحوا إليهم بالرحيل دون أن يتحقق الهدف الذى جاءوا من أجله وحشدوا له حشودهم وحتى دون معركة حقيقية أو اشتباك فِعلىّ. ثم وصفت الآيات حالة المسلمين أثناء الحصار: فقريش وحلفاؤها من الشمال وبنو قريظة من الجنوب وفى أسلوب بلاغى معبِّر تصور شدة الموقف. فالعيون من شدة الخوف تتحرك زائغة يمينا ويسارا تبحث عن مخرج والقلوب يشتد خفقانها حتى كأنها ترتفع من مكأنها إلى موضع الحناجر. ويذهب البعض مذاهب شتى فى إساءة الظن بالله وكأن الله قد تخلى عنهم وتركهم لمصيرهم – وفي مثل موقفهم فليس من مصير إلاّ الهلاك. واستشعر المؤمنون عِظم البلاء واضطربت نفوسهم اضطرابا عظيما هو أشبه بالزلزال الشديد.

فضح موقف المنافقين:

وكان ذلك مُهما حتى يمكن تجنب خطرهم فى المعارك القادمة:

«وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وَعَدنا الله ورسوله إلا غُرورا. وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا. ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا. ولو دُخلت عليهم من أقطارها ثم سُئِلوا الفتنة لأتوها وما تلبَّثوا بها إلا يسيرا. ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا. قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لاتُمَتعون إلا قليلا. قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمةً ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا. قد يعلم الله المعوِّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلُمَّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا. أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنه حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا. يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا» (١٢ – ٢٠).

والآيات تذكر أن المنافقين ومرضى القلوب لم يتورَّعوا عن إساءة الظن بالله ورسوله وادعائهم أن وعد الرسول كان تغريرا بهم إشارة إلى ما قاله النبى أثناء حفر الخندق وتكسير الصخرة التى عرضت لهم وقال إنهم سيفتحون الشام وفارس واليمن (ص ٥٨٥). كما كان بعضهم يثبط همم المدافعين بدعوتهم إلى الرجوع إلى بيوتهم. كما أن فريقا منهم كان يستأذن النبى فى الرجوع بحجة حماية بيوتهم لأنها غير محصنَّة **«عورة»** ولم تكن بيوتهم كذلك وكل ما كانوا يريدونه هو الفرار وتقرر الآيات أن الأحزاب لو دخلوا المدينة من كل جوانبها **«أقطارها»** وطلوب منهم أن يرجعوا عن إسلامهم **«سئلوا الفتنة»** لاستجابوا لهم ولم يلبثوا إلا وقتا قليلا حتى ينضموا إلى الكفار فى قتال المسلمين مع أنهم كانوا قد عاهدوا الله من قبل أن يثبتوا فى

القتال. وتخبرهم الآيات أن الفرار لن ينجيهم من الموت. وحتى لو نجوا فلن يكون ذلك إلا لفترة قصيرة يتمتعون بها فى الدنيا ثم يأتيهم الموت لا محالة. ثم تقرر الآيات أن الله يعلم **«المعوِّقين»** أى المثبطين عن القتال وهم يظهرون حرصهم عليكم **«أشحة عليكم»** فإذا جاء القتال فزعوا وراحت أعينهم تدور حائرة كالذى يعانى من سكرات الموت. فإذا ذهب العدو وأمنوا راحوا يذمُّون المؤمنين ويشتمونهم بألفاظ حادة ولا يقدِّمون لهم أى معروف **«أشحة على الخير»** وهم يظنون أن الأحزاب لا يزالون يحاصرون المدينة. وإذا أعاد الأحزاب الكرَّة تمنوا لو كانوا يعيشون مع الأعراب فى البوادى بعيدين عن القتال **«بادون فى الأعراب»** ويتسقطون أخبار المسلمين. ولو كانوا معهم لم يكونوا ليشتركوا فى القتال إلا تظاهرا ورياءًا.

حال المؤمنين فى المعركة: وفى مقابل هذا الوصف الرائع والدقيق لحال المنافقين يأتى وصف لحال النبى: كان رابط الجأش لم يتزلزل ولم يضطرب بل كان إيمانه بالله قويا وثقته بنصر الله لا حدود لها. فراحت الآيات تحث المومنين على أنه كان من الواجب أن يتخذوا من موقفه مثالا حسنا وقدوة وصيغ ذلك فى أسلوب ليكون دعوة لجميع المسلمين فى كل مكان وفى كل وقت لكى يقتدوا برسول الله فى أفعاله ويمتثلوا لأقواله. وتمضى الآيات توضح أن المسلمين لما رأوا محاصرة الأحزاب لهم عرفوا أنها إحدى الشدائد التى وُعدوا بها ويعقبها النصر فزادهم ذلك إيمانا بالله. ومن هؤلاء المؤمنين من عاهدوا الله على الثبات فى المعركة ووفوا بعهدهم واستشهدوا ومنهم من عاش ينتظر أن ينال هذا الشرف وسينال الصادقون أجرا عظيما. أما المنافقون فإن شاء الله عذبهم ومع ذلك فإنه من رحمته ترك لهم باب التوبة مفتوحا ليتوبوا. ولقد حدث ذلك فعلا. وتاب - بعد نزول هذه الآيات - عدد كبير من المنافقين وأخلصوا النية فى إيمانهم وفى مسلكهم فى الغزوات التالية:

«لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا. ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلاً. ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما» (٢١ - ٢٤).

نتيجة المعركة:

ثم تتطرق الآيات إلى بيان نتيجة المعركة:

«وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم (حصونهم. جمع صيصة) **وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شىء قديرا»** (٢٥ - ٢٧).

وفى هذه الآيات تلخيص لنتيجة المعركة كالآتي:

١ - قريش وحلفاؤها: ردَّهم الله ولم يحققوا ما كانوا يطعمون فيه فعادوا بغيظهم.

٢ - المؤمنون: كفاهم الله القتال بما سلطه الله على الكفار من ريح شديدة والملائكة الذين ألقوا فى قلوبهم الرعب.

٣ - يهود بني قريظة الذين ساندوا الكفار نالوا جزاء خيانتهم إذ راح المسلمون يقتلون الرجال ويأسرون النساء والأولاد واستولوا على دورهم وأموالهم وأرضهم وأراضى كانت ملكا لليهود ولكنها كانت بعيدة عن مساكنهم لم يطأها المسلمون من قبل فاستولوا عليها أيضا.

نساء النبى وتطلعهن لمتع الدنيا:

قال ابن اسحق: ثم إن رسول الله قسَّم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد ما أخرج الخمس. وقسم للفارس ٣ أسهم: سهمين للفرس وسهما لراكبه. وسهما للراجل وكان النبى يصرف الخمس فى الأوجه التى بينتها الآية ٤١ من سورة الأنفال (ص ٥١٢): **«واعلموا أن ما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامي والمساكين وابن السبيل»**. ومع أن الآية لم تبين نصيب كل فئة من هذه الفئات وكان النبى يستطيع أن يحتفظ لنفسه بما يشاء من الخمس إلا أن النبى كان ينفق معظمها وظل يعيش فى بيته عيشه غاية فى الزهد والشظف. ولكن نساء النبى - وهن يؤمئذ: عائشه وحفصة وسودة بنت زمعة وأم سلمة - ظننَّ أنه آن لهن أن ينعمن بالحياة وطالبن الرسول بالتوسعة عليهن فى النفقة. وأزعجت هذه المطالبة النبى وحلف أن يهجرهن واعتزلهن فعلا وفكر فى تطليقهن. ومما رواه المفسرون أن أبا بكر وعمر استأذنا على النبى ودخلا فوجداه ساكتا واجما ونساؤه حوله. ويَروِى عمر: فقلتُ لأكلمنَّه لعله يضحك فقال: لو رأيت يا رسول الله ابنة زيد - يعنى امرأة عمر - سألتنى النفقة فوجأت عنقها وجأة (أى ضربه بجمع كفه) فضحك النبى حتى بدت نواجذه ثم قال: هن حولى يسألننى النفقة. فقام أبو بكر إلى عائشة وقام عمر إلى حفصة ليضرباهما فنهاهما النبى. وقال نساء النبي: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس شيئا. ونزلت الآيات:

«يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن (أى يعطيهن نفقة المتعة ويُطلقهن) **سراحا جميلا. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجرا عظيما. يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا. ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما. يانساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا. وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى. وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله**

ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا. واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا» (٢٨ - ٣٤).

وتوضح الآيات لنساء النبى أن عليهن التأسى بالرسول فى زهده فى الحياة الدنيا وزينتها. أما إذا كنّ يردن متع الحياة الدنيا فالنبى على استعداد أن يفارقهن ليتمتعن بالحياة الدنيا كما يشأن. ثم توضح الآيات أنهن لسن كباقى النساء. فإن أتين بذنب أو معصية فعليهن ضعف ما على النساء الآخريات وكذلك إذا اتقين الله وأطعن الله ورسوله فثوابهن مضاعف أيضا. كما يذكرهن بأنه لا يليق بهن كثرة الخروج والتبرج واللين فى القول فيطمع فيهن من الرجال من فى قلبه مرض. وعليهن أن يذكرن ما يتلى فى بيوتهن من القرآن الكريم ففيه فضل يغنيهن عن أي شيء آخر وعليهن إتمام الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله وليعلمن أن الله بهذه التوجيهات والأوامر إنما يريد أن يطهرهن ويجعلهن فوق الشبهات. وتجمع الروايات على أن نساء النبى امتثلن لأمر الله ورضين بالعيش فى كنف النبى بالرغم مما يلاقين من شطف. أما الأمر **«وقرن فى بيوتكن»** فليس معناه عدم خروجهن بالمرة وإنما يعني عدم الإكثار من الخروج علي غير ضرورة. والروايات متواترة عن أن نساء النبى كن يخرجن فى الحاجات والضرورات فى حياة النبى وبعده. ومع أن الآيات متعلقة بنساء النبى وما لهن من خصوصية ومركز حساس إلا أنها تصح أن تكون توجيها لعامة نساء المسلمين لاتباعه بقدر الإمكان وبحسب متطلباتهن فى العصر الذى يعشن فيه.

المساواة بين الجنسين فى العبادات والأجر:

وتروى كتب التفسير مراجعة بعض المسلمات للنبى بشأن اختصاص القرآن الرجال بالذكر والتنويه دون النساء. فنزلت الآيات تبين أن المؤمن والمؤمنة على السواء من أمر الله وأن المرأة مخاطبة كالرجل سواء بسواء بكل التكاليف. وقد اتفق العلماء والمفسرون على أن كل خطاب قرآنى موجه للمؤمنين والمسلمين هو شامل للمؤمنات والمسلمات وأن الأجر والثواب متساو أيضا:

«إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعدَّ الله لهم مغفرة وأجرا عظيما» (٣٥).

أحداث السنة السادسة للهجرة

محرم	زواج زيد من زينب بنت جحش. ونزول بقية سورة الأحزاب.
صفر	«سورة محمد وسورة الطلاق وسورة البينة».

ربيع الأول		الفتنة بين المهاجرين والأنصار.
ربيع الثانى		زواج النبى من زينب بنت جحش.
جمادى الأول		غزوة بنى لحيان.
جمادى الثانى		غزوة ذى قرد.
رجب		«سورة المنافقون».
شعبان	٢٥	غزوة بنى المصطلق وحديث الإفك.
		الزواج من جويرية بنت الحارث.
رمضان		ــــــ
شوال	٥	نزول براءة عائشة وسورة النور.
ذو القعدة		خروج النبى معتمرا.
ذو الحجة	١	صلح الحديبية.
	٥ - ٢٠	٦ سرايا.
	٢٢	قريش تتنازل عن بعض شروطها.
		«سورة المتحنة».
	٢٥	رسائل إلى ملوك الروم وفارس ومصر.

زواج زيد من زينب بنت جحش:

سبق أن ذكرنا (ص ٣٩) تبنى النبى لزيد بن حارثة فتغير اسمه إلى «زيد بن محمد». وكان أول من أسلم بعد على بن أبى طالب. وعندما آخى النبى بين المهاجرين والأنصار كان زيد وحمزة بن عبد المطلب أخوين.

ولما بلغ زيد سن الزواج اختار له النبى بنت عمته زينب بنت جحش. من شريفات البيت الهاشمى فهى حفيدة عبد المطلب بن هاشم وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى. وكانت زينب شابة حسناء. وكرهت زينب وكره أخوها عبدالله بن جحش أن تزف الشريفة إلى مولى من الموالى وإن أُعتِق وصار بالتبنى واحدا من أهل البيت. وفزعا إلى ابن خالهما «محمد» يسألانه ألا يلحق بهم مثل هذا الضيم. وقالت زينب فيما قالت يومئذ: لا أتزوجه أبداً! (تراجم سيدات بيت النبوة. بنت الشاطىء ص ٣٣٨). فنزل قوله تعالى:

«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخِيَرَة من أمرهم. ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا» (٣٦ - الأحزاب).

وتزوجت زينب زيدا طاعة لله ولرسوله. ولكن الحياة الزوجية بينهما لم تكن لتصفُ لهما. فما نست زينب قط أن تكون زوجة لمن دخل بيت قومها رقيقا. وقاسى زيد من صَدِّها وإبائها وترفُّعها الكثير. ونفذ صبره فشكا إلى النبى أكثر من مرة من سوء معاملة زينب له فكان النبى يوصيه بمزيد من الصبر.

تطبيق عملى لإبطال التبني بزواج النبى من زينب:

ثم نزل إبطال التبنى فى الآيتين ٤ ، ٥ من سورة الأحزاب (ص ٥٩٥) وعاد زيد بن محمد إلى اسمه الأصلى زيد بن حارثة فزاد ذلك من الهوة بينه وبين زينب. وتحدَّث الناس بالخلافات بينهما وتوقعوا الطلاق. وكان زواج الأب من زوجة ابنه ممنوعا فى الجاهلية – وفى الإسلام أيضا – وبناء عليه فقد اعتقد الناس أن زينب بنت جحش لو طلقت من زيد لا تحل للنبى اعتمادا علي أنها كانت زوجة «ابنه» بالتبني. وكان التقليد راسخا لا يجرؤ أحد على مخالفته فكان لابد من تطبيق عملى لإلغاء هذا العرف وكل ما يترتب عليه من حرمة النكاح وبمثال لا يندثر بمضى الوقت ولا يكون ذلك إلا بأن يتزوج النبى من زينب بنت جحش. وأُوحى إلى النبى أن زينب ستكون زوجته بعد أن يطلقها زيد. وخشى النبى من إظهار هذا الأمر لما فيه من خرق للتقاليد وحرج له. فكان زيد كلما شكا إلى النبى من سوء معاملة زينب له يطلب منه الصبر والتمسك بزوجته ويذعن زيد ويعود ليجرب الاحتمال. ويشير القرآن إلى هذا:

«**وإذ تقول للذى أنعم الله عليه** (بالإسلام) **وأنعمت عليه** (بالعتق والتبنى قبل إبطاله) **أمسك عليك زوجك واتق الله وتُخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه......**»

ولكن زينب استمرت فى تعاليها على زيد وتؤذيه بأقوالها وأخيرا هجرته فطلقها. ولما انقضت عدتها وبينما رسول الله فى بيت عائشة أنزلت عليه بقية الآية السابقة:

«**... فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا. ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدروا. الذين يبلِّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا. ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما**» (٣٧ – ٤٠).

فقال النبى: من يذهب إلى زينب ويبشرها. قبل فحملت البشرى إلى زينب سلمى خادم الرسول. وكانت وليمة عرس حافلة مشهودة ذبح الرسول فيها شاة وكانت زينب بنت ٣٥ سنة وكان اسمها برَّة فسماها النبى زينب (صحيح مسلم جـ٣ ص ١٦٨٧). ودخل النبى ببنت عمه التى زوجه إياها الله. وكانت تتيه بذلك على باقى نسائه وكانت تقول لهن: أنا أكرمكن وليا وأكرمكن سفيرا. زوَّجكن أهلكن. وزوَّجنى الله من فوق سبع سموات.

وكانت الغريمتان اللتان تتنافسان هما عائشة وزينب بنت جحش وكانت المنافسة أحيانا تحتدم فى حضرة الرسول فيدعهما وشأنهما. وقد استطاعت عائشة مرة أن تغلب زينب فتبسم النبى وقال لزينب: إنها ابنة أبى بكر! وكانت زينب خاشعة لله تكثر من الصلاة والتضرع إلى الله. كما كانت كريمة خيِّرة كثيرة التصدق. وكانت أسرع نساء النبى لحاقا بالنبى بعد وفاته. وكان النبى قد سئل فقال: أسرعكن لحاقا بى أطولكن يدا ويقال إن زوجات النبى رحن يقسن أذرعهن ليعرفن أيهن أطول يدا. ثم فطِنَّ إلى أن المعنى هو كثرة التصدق وكانت زينب بنت جحش تفوقهن فى هذا المضمار.

تلك هي قصة زينب بنت جحش وظروف زواجها من النبى. وقد ردَّت الدكتورة بنت الشاطىء (تراجم سيدات بيت النبوة. ص ٣٤١ ،وما بعدها) على ما تقوَّل به بعض المستشرقين ويكفي أن نذكر أن الروايات التى استند إليها المستشرقون فى افتراءاتهم لم ترد فى كتب ابن هشام وابن سعد والطبرى وهى أقدم كتب السيرة. وإنما وردت فى كتب متأخرة لاشك فى أن كاتبيها قد انساقوا وراء مدسوسات بعض الشعوبيين فى القرنين الثالث والرابع الهجرى بقصد محاولة تشويه صورة الإسلام ونبيه.

حثٌّ على كثرة العبادة:

«يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا. وسبحوه بكرة وأصيلا. هو الذى يصلىً عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما. تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما. يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا. وبشِّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا. ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا» (٤١ – ٤٨).

والآيات تحث المؤمنين على كثرة ذكر الله. وتنبههم إلى ما لهم من كرامة عند الله وما أحاطهم به من عناية **«يصلى عليكم وملائكته»** فأخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان وتشير إلى ما أعدَّ الله لهم من ثواب عظيم. ثم يتوجه الخطاب إلى النبى فتقرر أنه شاهد على أمته ومبشر ونذير وداع إلى الله وتأمره بأن يبشر المؤمنين بأن الله قد أعد لهم مزيدا كبيرا من الخير فى الدنيا والآخرة. وأمر ثانٍ بعدم الالتفات إلى أقوال الكافرين والمنافقين ونقدهم لزواجه ممن كانوا يعتبرونها زوجة ابنه مع أن هذا التبنى قد أبطل كما سبق أن أوضحنا.

مقتل سلام بن أبى الحقيق:

وسلام بن أبى الحقيق من يهود خيبر وكان له دور هام في تجميع الأحزاب فى معركة الخندق والتحريض على حرب رسول الله. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٥٢٧) أن نفرا من الأوس قاموا بقتل كعب بن الأشرف لعداوته للمسلمين. فاستأذن نفر من الخزرج رسول الله فى قتل

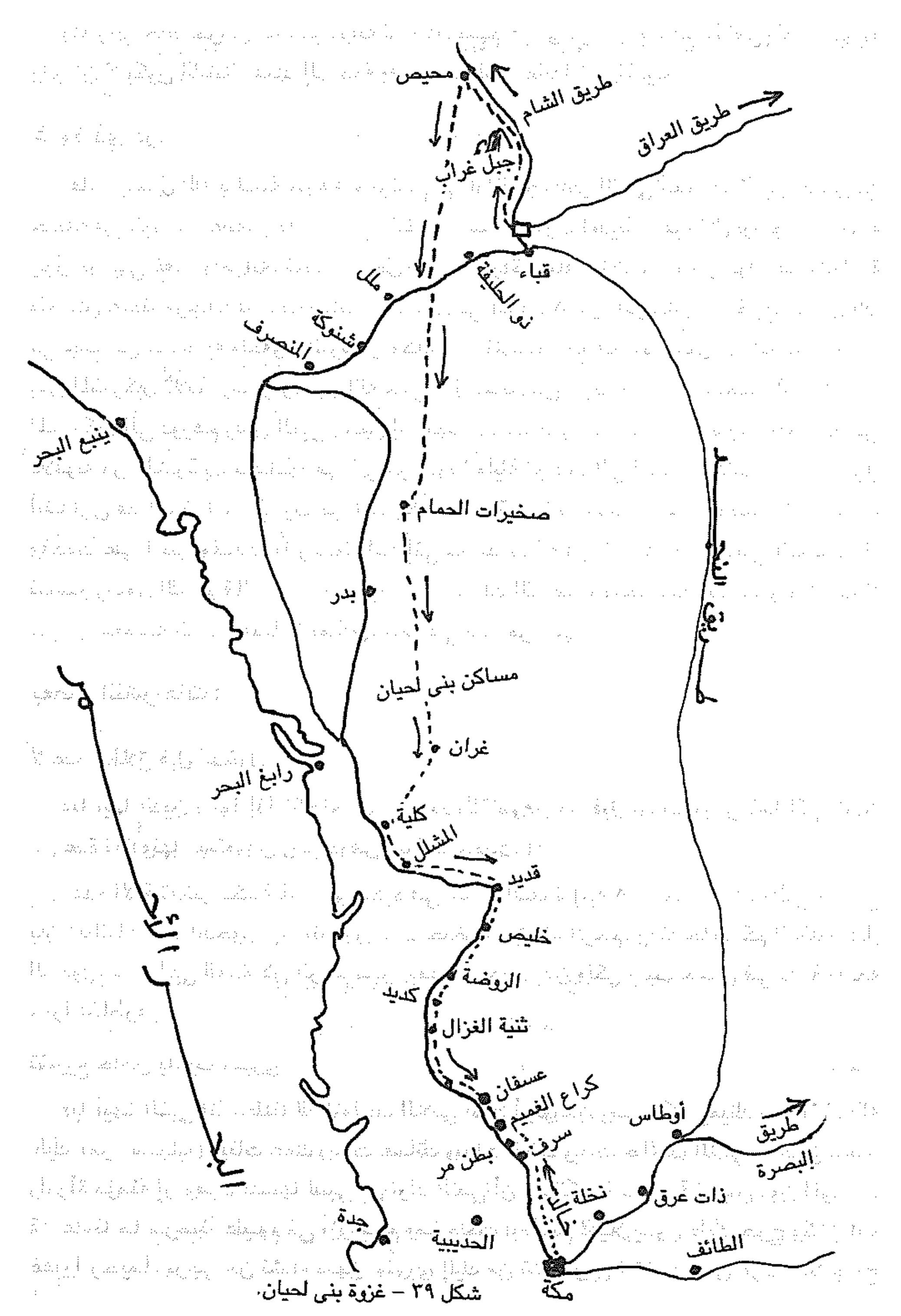
سلام بن أبى الحقيق فأذن لهم وأمرهم ألا يقتلوا وليدا ولا امرأة. فساروا حتى أتوا خيبر واستدلوا على داره وقرعوا الباب ففتحت امرأته وادعوا أنهم غرباء يلتمسون الطعام. وما أن دخلوا حتي أغلقوا الباب ثم هجموا على سلام بن أبى الحقيق بسيوفهم فقتلوه وخرجوا مسرعين ولفهم الظلام فلم يعثر عليهم النفر الذين اجتذبهم صياح امرأته. وعادوا إلى المدينة.

غزوة بني لحيان:

سبق أن ذكرنا (ص ٥٧١) يوم الرجيع وغدر بنى لحيان وأن النبى كان يتحين فرصة للانتقام منهم لمقتل أصحابه. فخرج فى جمادى الأول سنة ٦هـ (ابن هشام. السيرة النبوية جـ٣ ص ١٧٠) وأظهر أنه يريد الشام حتى يأخذ القوم على غرة. قال ابن إسحق. فسلك شمالا إلى **جبل غراب** إلى **محيص** ثم انحدر جنوبا إلى **صخيرات الحمام** قرب بدر ثم أخذ طريق مكة وأسرع بالمشى حتى نزل على **غران** وهى منازل بنى لحيان (شكل ٣٩) ولكن أخبار مسيرته كانت قد وصلتهم فأخذوا حذرهم وهجروا دورهم واحتموا فى رؤس الجبال. وإذ لم يتحقق الهدف من الغزوة رأى النبى أن يستثمر قربه من مكة فى إرهاب قريش. فسار بأصحابه حتي نزل عسفان ثم سار إلى كراع الغميم فظنت قريش أنه يريدها. فأخرجت إليه سرية عليها خالد بن الوليد لحربهم. وحانت صلاة الظهر والمسلمون لا يتخلفون عن الصلاة مهما كانت الظروف. وظن المشركون أنهم يمكن أن ينالوا المسلمين عند سجودهم. فنزلت الآيات ١٠١، ١٠٢ من سورة النساء تشرع صلاة الخوف:

«وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا. وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم. ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم. ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة. ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم. إن الله أعدّ للكافرين عذابا مهينا. فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم. فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت علي المؤمنين كتابا موقوتا».

قال ابن كثير (جـ ٣ ص ١٥٧) فأمرهم رسول الله فأخذوا السلاح واصطفوا خلفه صفين ثم ركع فركعوا جميعا ثم رفع فرفعوا جميعا. ثم سجد بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم. فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا وهكذا فى باقى الركعات وهى ما تسمى بصلاة الخوف. وقد صلاها النبى مرتين: هذه المرة بأرض سعفان ومرة ثانية بأرض بنى سليم.



شكل ٣٩ – غزوة بنى لحيان.

ولما رأى خالد حرص المسلمين وأنه لن ينال منهم غرة ورأى أن عددهم مكافىء لعدد سريته رأى أن لا يكون اشتباك فعاد إلى مكة وانصرف النبى عائدا إلى المدينة.

غزوة ذي قرد:

أقام رسول الله بالمدينة فترة قصيرة ثم فى أوائل جمادى الثانى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة فى خيل من غطفان على مرعى بالغابة - شمال غرب المدينة - فيه إبل لرسول الله وفيه رجل من بنى غفار وامرأته. فقتلوا الرجل وسبوا المرأة وساقوا الإبل. وعلم رسول الله بالواقعة ولم يكن عيينة ورجاله قد بعدوا كثيرا فأرسل فى أثرهم ٨ من الفرسان. ثم خرج رسول الله فى جمع من أصحابه ولحقوا بالفرسان وكانوا قد تلاحموا مع الغزاة وقُتل من المسلمين واحد ومن المشركين ثلاثة. وسار رسول الله حتى نزل بجبل ذى قرد. وأشار أصحابه أن يلاحقوا المشركين إلى دورهم ولكن النبى رفض إذ أنهم لم يستعدوا لمعركة كبيرة ولا يعلم عدد من يلاقونه من المشركين. فأقاموا فى ذى قرد يوما وليلة ثم عاد إلى المدينة. وكانت امرأة الرجل الغفارى قد استطاعت الهرب من المشركين واستقلت ناقة وسارت حتى وصلت إلى المدينة وقدمت على النبى وقالت: يا رسول الله إنى قد نذرت لله أن أنحرها إن نجانى الله عليها. فتبسم رسول الله ثم قال: بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها. إنه لا نذر فى معصية الله ولا فيما لا تملكين. إنما هى ناقة من إبلى.

بعض التشريعات:

لا عدة للطلاق قبل الدخول:

«يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدُّونها فمتعوهن وسرِّحوهن سراحا جميلا» (٤٩).

وهذه الآية تعتبر تكملة لما سبق ذكره فى سورة البقرة (آية ٢٢٨ ص ٤٨٥) والتى تقضى بأن المطلقات بعد الدخول بهن ينتظرن ثلاث حيضات لإبراء الرحم. وهنا جاء حكم التطليق قبل الدخول. فلا داعى للعدة لأن الرحم مبرأ بعدم الدخول بهن ولكن يثبت حقهن فى نفقة المتعة جبرا لخاطرهن.

تشريع خاص بالبيت النبوى:

«يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك (من السبايا) وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك. وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين. قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرجٌ وكان الله غفورا رحيما. ترجى من تشاء منهن وتُؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح

عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنَّ ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حليما. لا يحل لك النساء من بعدُ ولا أن تبدَّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيىء رقيبا» (٥٠ - ٥٢).

وفى الآيات خطاب للنبى بشأن ما يباح له الزواج بهن، وهن:

١ - زوجاته اللاتى تزوج بهن وأدَّى مهورهن من قريباته المهاجرات معه.

٢ - التى تهب نفسها للنبى خالصة له من دون المؤمنين بلا مهر ويريد النبيّ زواجها.

٣ - نصيبه من السبايا.

كما توضح أن له حرية التصرف بما يتراءى له فى المعاشرة فبعض الزيجات كانت لأسباب سياسية أو لأسباب اجتماعية أو غيرها وبعضهن كن مسنات - مثل سودة بنت زمعة، فلم يؤمر النبى أن يعدل بينهن فى الليالى، ثم قررت الآيات أنه ليس للنبى بعد الآن أن يتزوج بامرأة زواجا بعقد ولا يترك إحدى زوجاته لتحل مكانها غيرها ولو أعجبه حسنها، فى حين أن المسلمين يستطيعون أن يُغيِّروا مع مراعاة الحد الأقصى وهو أربعة. أما ملك اليمين فهو مباح للنبى كما هو مباح لسائر المسلمين.

تشريع لآداب دخول بيوت النبى:

روى المفسرون أن النبى صنع طعاما فى مناسبة ما وأمر بدعوة الناس فصاروا يأتون فيأكلون ويخرجون ويجيء غيرهم فيأكلون وهكذا حتى لم يبق أحد لم يأكل فرفع الطعام وبقى ثلاثة رجال فى البيت بقصد السمر والحديث مما ثقل على النبى وآذاه ولكنه كان يستحى منهم فلا يصارحهم، فنزلت الآيات تبين للمسلمين آداب الدخول إلى بيوت النبى، وتنهاهم عن دخول بيوت النبي إلا إذا دُعوا إلى طعام، وحتى فى هذه الحالة لايجب أن يأتوا مبكرين وينتظروا نضجه «**غير ناظرين إناه**» لأن ذلك يشغل أهل البيت عن إعداد الطعام، فإذا أكلوا فليبادروا بالانصراف دون إطالة مكث مستأنسين بالحديث بعضهم مع بعض:

«يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه، ولكن إذا دعيتم فادخلوا، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق...»

وكان بعض الناس يأتون إلى بيوت النبى يسألون زوجاته إعارة زوجاتهم آنية وماعين وأشياء أخرى، فقال عمر للنبى: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فنزل قوله تعالى تكملة للآية السابقة:

«وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب، ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن...»

والحجاب المذكور لايعنى نقاب الوجه وإنما يعنى ستار الباب أو حجابه، وكانت بيوت النبى

عبارة عن حجرات فى طرف الساحة المسوَّرة التى اتخذها النبى مسجدا ولكل حجرة ستار من قماش أو ليف. ولكن بعضًا ممن لم يرسخ الإيمان فى قلوبهم كبر عليهم أن يُخاطبوا أو يعطوا ما طلبوا من وراء حجاب فقالوا على سبيل التحدى: لئن عشنا بعد النبى لنتزوجن نساءه فنزل تمام الآية:

«وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما. إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شىء عليما» (٥٣ – ٥٤).

وكان ذلك منطقيا فما دام القرآن قد سمَّى زوجات النبى أمهات المؤمنين فى الآية ٦ ص ٥٩٦. فلا يجوز لهم أن يتزوجوا من هن فى حكم أمهاتهم.

ثم استثنى من سؤال زوجات النبى من وراء حجاب بعض الفئات:

«لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن. واتقين الله إن الله كان على كل شيئ شهيدا» (٥٥).

عظم قدر النبى:

«إن الله وملائكته يصلون على النبى. يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلِّموا تسليما. إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعدَّ لهم عذابا مهينا» (٥٦ – ٥٧).

والآيات تبين علو قدر النبى عند الله: فالله تعالى يصلى عليه ويشمله برحمته والملائكة يُصلُّون عليه بدعائهم له. وأُمر المسلمون بالدعاء إلى الله أن يصلى على النبى ويسلم عليه. والآية عامة لكل مسلم ومسلمة في كل وقت ومكان موجبة عليهم توقير النبي وتعظيمه والصلاة والسلام عليه عند ذكر اسمه. وفى حديث رواه البخارى: قيل لرسول الله حينما نزلت الآية: أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف نصلى عليك؟ فقال: قولوا. اللهم صل علي محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك علي محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل ابراهيم إنك حميد مجيد.. وفى حديث آخر أخرجه الإمام أحمد أن النبى قال: أتانى آت من ربى عز وجل فقال. من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات ورُدَّ عليه بمثلها. واتساقا مع هذا التعظيم جاء النهى عن إيذاء النبى بتحديه والتحريض عليه والكفر به وتُوُعِّد من يفعل ذلك بالطرد من رحمة الله وعذابا أليما فى الآخرة.

تشريع لعدم إيذاء المؤمنين والمؤمنات:

ثم جاءت آيات تنهى عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بقول أو فعل من غير ذنب فعلوه وتخبرهم أنهم لو فعلوا ذلك فعليهم أن يتحملوا وزر كذبهم وافترائهم عليهم. كذلك روى المفسرون أن الفُسَّاق كانوا يتعرضون للنساء فى الليل حين يذهبن لقضاء حاجاتهن بدون تفريق بين الحرائر

والإماء والعفيفات وغير العفيفات. فنهت الآيات عن ذلك وأمرت بجعل زى خاص لحرائر المؤمنات يميزهن عن غيرهن حتى يَسلمن من التعرض للأذى. وليس المقصود بالجلباب ما يسمى حاليا بالنقاب. بل الجلباب هو الملاءة التى تشتمل بها المرأة. وقيل هو الخمار الذى تغطى به جبهتها ورأسها:

«والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا. يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما» (٥٨ – ٥٩).

إنـذار للمنافقين:

«لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا. ملعونين أينما ثُقِفُوا أُخِذوا وقُتِّلوا تقتيلا. سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً» (٦٠ – ٦٢).

وهذا إنذار حاسم وصريح لفئات المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين بسبب ما كانوا يبدونه من سوء أدب وبذاءة ودس وولوغ فى الأعراض وإثارة الريب والفتنة سواء أكان فى حق رسول الله أم فى حق المؤمنين والمؤمنات. فإذا لم ينتهوا عن أذاهم فإن الله سيسلِّط عليهم نبيه ويعينه على طردهم من المدينة ملعونين مهدرى الدم أينما وجدوا دون تساهل. وتذكر الروايات أن هذه الفئات قد وعت الإنذار وخففوا من غلوائهم.

سؤال عن الساعة ومشهد من مشاهدها:

«يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا. إن الله لعن الكافرين وأعدَّ لهم سعيرا. خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا. يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا. وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا» (٦٣ – ٦٨).

ومما لا شك فيه أن الكفار والمنافقين كانوا يسألون عن موعد الساعة شاكِّين فى حدوثها. وقد سبق الكلام كثيرا عن الساعة فى القرآن المكى وكانت آيات كثيرة وسور بأكملها تؤكد على حدوث البعث وما أعد الله للكافرين من أنواع العذاب. وتذكر الآيات الحالية وصفا لحال الكافرين في يوم القيامة وتشبههم بالذبيحة التي تقلب فى النار لتستوى جميع أجزائها كناية عن أن كل جزء من أجساد الكفار سيناله العذاب. ووقتها يندمون على أنهم عصوا الله ورسوله وأطاعوا سادتهم فأضلُّوهم ويدعون الله أن يضاعف عذاب سادتهم ويطردهم من رحمته.

إعادة النهى عن قول ما يؤذى الرسول:

«يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرَّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها. يا أيها الذين امنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا. يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما» (٦٩ - ٧١).

وفى سبب نزول هذه الآيات قالوا إن النبى قسَّم ذات يوم فيئا فقال رجل من الأنصار إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله. فلما أخبر رسول الله بذلك احمرَّ وجهه ثم قال: رحمة الله على موسى فقد أوذى بأكثر من هذا فصبر.

قبول الإنسان للتكليف وتبعاته:

ثم تختم السورة بآيتين عن سبب خلق الإنسان مُخَيَّرا فى أفعاله:

«إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا. ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما» (٧٢ - ٧٣).

والأمانة هى حرية الاختيار فى الفعل والأهلية للتكليف والخلافة فى الأرض وعبادة الله والتزام أوامره ونواهيه. ومن خطورة التكليف وواجباته أن السموات والأرض والجبال - وهى ما هى من العظمة والسعة - خافت من التقصير فأبت حملها وبذلك ظلّت على حالها مسخَّرة لا حرية لها فى الحركة فالكواكب والنجوم والشمس والقمر تجري فى أفلاكها خاضعة لسنن الله وقوانينه التى أودعها فى الكون. أما الإنسان فقد قبل بحرية الإرادة. غير أنه لم يرعها حق رعايتها وجَهِل خطورتها فظلم نفسه بتقصيره فى القيام بواجبات هذه الأمانة. وكان اختصاص الله الإنسان بالأمانة وسيلة لاختبار الناس حتى يميز خبيثهم من الطيب. فيعذب الله المشركين والمنافقين. وقالوا وقد نُصَّ فى الآية على المشركات والمنافقات والمؤمنات للإشارة إلى مساواة المرأة للرجل فى أهلية التكليف وفى النتائج المترتبة على حرية الاختيار. وفى ختام السورة يُعْلَن فتح باب التوبة لمن أخطأ فالله غفور للذنوب رحيم بالعباد.

سورة النساء:

وهى ثاني سور القرآن طولا بعد سورة البقرة. وقد تضمنت - على طولها - ثلاثة مواضيع رئيسية.

أ - تشريعات خاصة بالأسرة.

ب - جدال مع اليهود ودعوتهم للإيمان.

جـ - تشريعات خاصة بالمجتمع الإسلامى.

وتحت هذه العناوين الرئيسة تندرج نقاط تفصيلية كثيرة ستُذكر فى حينها.

وتبدأ السورة:

«يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء. واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا» (١).

والآية تأمر الناس بتقوى الله وتذكرهم بأنهم جميعا من نسل آدم. ثم تكرر الدعوة لتقوى الله. وكان العرب يناشدون ويستحلف بعضهم بعضا بقولهم: نشدتك الله أو أسألك بالله وبالرحم طالبين إجابة مطلبهم. فأمرتهم الآية بتقوى الله الذى يتساءلون به والأرحام.

أ - تشريعات خاصة بالأسرة:

ومعروف أن الأسرة هى لبنة بناء المجتمع وإذا قامت الأسرة على أسس سليمة كان المجتمع قويا. لذلك اهتم الوحى بالأسرة. ونزلت سلسلة من التشريعات بشأنها بلغت ٢٠ تشريعا مبتدئة بأضعف الحلقات وهو اليتيم.

١ - تشريع خاص بأموال اليتامى:

وهو يوجب أداء أموال اليتامى وحقوقهم وعدم أكلها وعدم إساءة استعمالها ونهى عن التحايل عند رد أموال اليتامى باستبدال الخبيث بالطيب كأن يدفعوا إليهم الهزيل من الأغنام. وكان العرب فى الجاهلية يفعلون ذلك ويقولون رأس برأس فكان النهى عن ذلك. كذلك نُهى عن الخلط بين نفقة الولى ونفقة اليتيم إذ كان الولى فى الجاهلية ينفق من مال اليتيم على نفسه. واعتبرت الآيات ذلك إثما عظيما:

«وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا (أى ذنبا) كبيراً» (٢).

٢ - تشريع لحماية حقوق البنات اليتيمات:

«وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألاّ تعولوا» (أى تجوروا) (٣).

وقد سئلت السيدة عائشة عن هذه الآية فقالت: هى اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى مالها ويعجبه جمالها ومالها فيريد أن يتزوجها بغير أن يعدل فى صداقها فنهوا عن ذلك إلا أن يدفعوا لهن ما يُدفع لمثلهن من الصداق. وأُمر الرجال أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. وفى حديث آخر عن عائشة أيضا قالت: إن اليتيمة تكون عند الرجل وهى ذات مال فلعله ينكحها لمالها وهى لا تعجبه فيسىء معاملتها. أو يزوجها لابنه ضنًّا بمالها أن يأخذه الغريب. ثم كانت الإباحة فى الزواج بأكثر من واحدة إلى أربع. ثم استدراك فى حالة الخوف من عدم العدل بينهن بالاقتصار على زوجة واحدة أو ملك اليمين من الإماء. وكان للرجل فى الجاهلية أن يجمع فى عصمته أى عدد من النساء قد يصل إلى عشر. وبعض من أسلموا كان

عندهم أكثر من أربع فأمرهم النبى باختيار أربع زوجات ومفارقة الباقيات. أما النبى فقد أحل الله له الاحتفاظ بزوجاته التسع لأسباب خاصة بكل زواج أوردناها فى كل حالة إلا أن بعض فرق الشيعة يرون جواز جمع تسع نساء لعامة المسلمين استنادا منهم إلى مجموع مثنى وثلاث ورباع ٢ + ٣ + ٤ = ٩. مع ما فى هذا من مغالطة!

٣ – تشريع خاص بالمهر:

«وآتوا النساء صدُقاتهن نِحْلَة (عطاء واجبا) **فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا»** (٤).

والتشريع يقضى بضرورة دفع مهر عند الزواج ولا ينقصوا منه شيئا إلا بموافقتهن ورضائهن. فإن تنازلن عن شىء منه فهو سائغ وحلال.

٤ – تشريع خاص بأموال السفهاء:

«ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا» (٥).

والعبارة واضحة وتنهى عن ترك الأموال – التي هى قوام الحياة – فى أيدى ضعاف العقل ممن لا يحسنون التصرف، مع وجوب الإنفاق منها عليهم قدر حاجتهم من طعام وكساء ووجوب معاملتهم بالحسنى.

٥ – فى إدارة أموال اليتامى:

«وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح (سن البلوغ) **فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا. ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف. فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا»** (٦).

وكان ولى اليتيم يرى لنفسه حقا فى أخذ شىء من مال اليتيم القاصر مقابل إدارة ماله وتدبيره فأباحت الآية هذا الأخذ للفقير مع شرط الأكل بالمعروف وعدم تجاوز الحد المتعارف على أنه حق معقول. وأمرت الغنى بالتعفف لأنه ليس فى حاجة. ويروى حديث أن رجلا قال لرسول الله: ليس لى مال ولى يتيم. فقال: كل من مال يتيمك غير مسرف ولا متأثل (أى من غير مساس بأصل المال) ولا أن تفدى مالك بماله. كذلك تنهى الآيات عن السرف فى الصرف من مال اليتيم استعجالاً لأكله قبل أن يبلغ ويسترد ماله **«إسرافا وبدارا أن يكبروا»**. ثم توضح الآية شروط دفع مال اليتيم إليه وهو أن يبلغ سن الحلم. وشرط ثانٍ وهو ثبوت رشده فى التصرف. فإذا لم يثبت رشده مع بلوغه سن الحلم اعتبر سفيها ودخل فى حكم الآية السابقة. وعند دفع أموال اليتامى إليهم يجب أن يتم ذلك بحضور بعض الشهود منعا للخلاف. والله محاسب كل واحد بأفعاله. وقد اتفق الفقهاء على أن سن الرشد هى الثامنة عشرة.

٦ – بعض أحكام المواريث:

«للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا. وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا. وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا. إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا» (٧ – ١٠).

والآيات واضحة وتقرر حق كل من الرجال والنساء فى تركة الأبوين والأقارب كنصيب مفروض من الله. وتوصى بمنح ذوى القربى الذين لا تخولهم درجة القرابة الإرث والمساكين واليتامى عطايا تطييبا لخاطرهم. ثم دعوة قوية إلى تقوى الله فى تنفيذ أوامره وتذكير بأن كل امرىء يخاف على ذريته إذا مات عنها وهى قاصرة ضعيفة أن يصيبها ظلم فالأولى به أن لا يتسبب هو فى هضم حق ذرية ضعيفة قاصرة. ثم عود إلى التنبيه على حرمة مال اليتيم وإنذار شديد لآكلى أموالهم ظلما وبغيا أنهم إنما يأكلون نارا محرقة فى الدنيا ولهم فى الآخرة نار السعير.

وكان من عادة العرب عدم توريث الإناث إذا لم يخلف الميت ذكرا. فيستولى الذكور من عصبة الميت على تركته سواء كانوا إخوته أو أعمامه أو بنى أعمامه وقد أعطت الآية النساء حقا فى تركة الميت تُرِك تحديده لمرحلة قادمة بعد أن يكون قد تم استيعاب التشريع.

٧ – تحديد نصيب كل وارث:

وفى الآيات ١١ – ١٤ تم تحديد نصيب البنين والبنات في تركة أبيهم. وكما هو معروف: للذكر مثل حظ الأنثيين. وكذلك تم تحديد نصيب الزوجة والأم. وما يرث الزوج من زوجته وما ترث الزوجة من زوجها فى حاله وجود أولاد أو عدم وجود أولاد. وكذلك نصيب الإخوة إن لم يكن للزوجين أبناء. وتنتهى الآيات بالحث على الامتثال لأوامر الله:

«تلك حدود الله. ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم. ومن يعصِ الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مُهين» (١٣ – ١٤).

٨ – تشريع فى إثبات الزنا وعقوبته:

«واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم. فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا. واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما. إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما. وليست التوبة للذين يعلمون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما» (١٥ – ١٨).

وقد جاء تقبيح للزنا وزجر عنه فى سورة الفرقان (الآية ٦٨ ص ١٤٦) **«ولا يزنون. ومن يفعل ذلك يلق أثاما. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا»**. وفى سورة الإسراء (آية ٣٢ ص ٢١٣) **«ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا»**. وكان هذا متسقا مع ظروف العهد المكى الذى يخاطب مجتمعا غالبيته من الكفار ولم يكن من المقبول تشريع عقوبة لمرتكب هذا الإثم مادامت لن تنفَّذ. فاكتُفِيَ بتقبيحه وفى ذلك نهي للمسلمين عن ارتكابه. أما فى المجتمع المدنى - ومعظم أفراده من المسلمين - فقد أصبح من الممكن تطبيق عقوبة على هذا الفعل فنزل التشريع بها. وأول شيء أن يشهد أربعة من المسلمين على وقوع الفعل. وبالنسبة للنساء كانت العقوبة أن يحبسن فى البيوت إلى أن يمتن أو يجعل الله لهن سبيلا للحياة المستقيمة والعمل الشريف. أما الرجل الزانى - وهو مضطر للخروج سعيا للرزق - فاكتُفِي بعقوبة الضرب والتعزير. وإن تاب فمن الواجب الإعراض عن هذه الغلطة ولا يُعيَّر بها. وقد استُكمِلَ تشريع عقوبة الزنا فيما بعد فى سورة النور (ص ٦٥١).

٩ - تشريع لمنع اعتبار النساء جزءا من تركة المتوفى:

كان العرب قديما إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا لم يزوِّجوها ويتم كل ذلك دون موافقتها أو حتى استشارتها. فنزلت الآيات تنهى عن ذلك وتنهى أيضا عن إمساك الزوجات مع بغضهن بقصد الكيد وابتزاز أموالهن من مهور وغيرها وأمر للرجال بمعاشرتهن بالمعروف وتحملهن حتى فى حالة الشعور بكرههن فقد يجعل الله فيما نكره خيرا كثيرا. وتحذير للرجال فى حال اعتزامهم تطليقهن للتزوج بغيرهن أن يأخذوا شيئا من مهورهن مهما كان المهر كثيرا ففى ذلك إثم وظلم بعد ما كان بينهما من صلة زوجية وميثاق وعهد واستثنى من ذلك صدور فاحشة مبينة من الزوجة فهذه حالة تسوغ للزوج الكره والفراق ومحاولة استرداد ما أعطى من مهر وهدايا أو بعضه:

«يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كَرها ولا تعضُلوهن (تمنعوهن من الزواج) **لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة. وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعلَ الله فيه خيرا كثيرا. وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا. وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا»** (١٩ - ٢١).

١٠ - تحريم الزواج من زوجة الأب:

«ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا» (٢٢).

وكان من عادة العرب قبل الإسلام - إذا مات الرجل عن زوجة وله ابن بالغ من غيرها.

وألقى عليها ثوبا كان ذلك بمثابة رغبته فيها فإن شاء تزوجها وإن شاء أمسكها فى بيته وإن شاء زوَّجها لغيره وإن شاء سرَّحها مقابل مال تفدى به نفسها. ورووا أن الآية نزلت فى زوجة أبى قيس بن الأسلت الأنصارى، لما مات خطبها ابنه فأتت رسول الله وقالت إنى أعده ابنا لى فنزلت الآية.

١١ - مَن يحرم الزواج منهن:

«حُرِّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم (بنت الزوجة) **اللاتى فى حجوركم** (فى كفالتكم مع أمهاتهن) **من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم، وحلائل** (زوجات) **أبنائكم الذين من أصلابكم، وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما. والمحصنات من النساء** (أى المتزوجات) **إلا ما ملكت أيمانكم** (السبى فى حروب) **كتابَ الله عليكم وأُحِل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين** (زواجا وليس زنا) **فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن** (مهورهن) **فريضة** (متفق عليها) **ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما»** (٢٣ - ٢٤).

١٢ - تسهيل الزواج للفقراء من الرجال:

والتشريع يبيح للذين لا قدرة مالية لهم على الزواج من امرأة حرة أن يتزوجوا بإماء مؤمنات. وعلى من أراد ذلك أن يحصل على إذن أهل الفتاة ويؤدى لها مهرها حسب العرف السائد فى المجتمع. وعلى الرجل ألاَّ يتزوج من أمة عُرِف عنها أنها زانية معلنة أو معشوقة لفلان من الناس. والأمة حين تتزوج من حر تكون قد تحصنت ومن واجبها التعفف عن السفاح (الزنا جهرا) والتخادن (الزنا سرا) لأنها أصبحت زوجة شرعية لزوجها فإذا اقترفت فاحشة عوقبت بنصف ما تعاقب به الحرة المتزوجة:

«ومَن لم يستطع منكم طَوْلا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض. فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان. فإذا أُحصِنَّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم. يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم. والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما. يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا» (٢٥ - ٢٨).

١٣ – تشريعات متنوعة:

أ – يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم...

ب – «ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما. ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا» (٢٩ – ٣٠).

جـ – «إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مُدخلا كريما» (٣١).

وهو حث وأمر على اجتناب عظائم الذنوب فيغفر الله ما دونها من السيئات والصغائر.

د – «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض. للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيئ عليما» (٣٢).

وهو نهى عن أن يتطلع الرجال إلى ما ميز الله به النساء. ولا النساء إلى ما ميز الله به الرجال. فإن لكل فريق تكوينا ملائما لوظيفته فى الدنيا ومهيؤ لما خلق له فليتجه كلٌ إلى رجاء الاستزادة من فضل الله بتنمية مواهبه والاستعانة على ما نيط به. والله عليم بكل شيء وقد أعطى كل نوع ما يصلح له. (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم. ص ١١٣). ويقول الألوسى (تفسيره. جـ ٥ ص ١٩) إن التمنى المذكور كناية عن الحسد. فلا يتمنى امرؤ ما فى يد الغير من نعمة من المال والجاه وكل ما يجرى فيه التنافس. ثم وضّحت الآيات أن للرجال نصيب في المواريث يختلف عن نصيب النساء. أو أن لكل منهم حظا من الثواب حسب ما كُلف به وما هو مهيؤ له.

هـ – «ولكلٍّ جعلنا موالى (وارثين) **مما ترك الوالدان والأقربون. والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً»** (٣٣).

فقد جعل الله لكل من الرجال والنساء ورثة مستحقين لتركتهم وهم الوالدان والأقربون والذين عقد لهم المتوفى عهدا وأعطاهم يمينا على النصرة والإرث وهو عقد الموالاة الذي كان شائعا بين العرب قبل الإسلام (ص ٥٩٥). وأوجبت الآيات إعطاءهم نصيبهم المتفق عليه وهو السدس على ما سبق أن شرحنا.

١٤ – قوامة الرجال فى الأسرة:

«الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم. فالصالحات قانتات (مطيعات) **حافظات للغيب بما حفظ الله. واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا»** (٣٤).

وعلى الرجال القيام بإعالة النساء بما أعطاهم الله من صفات تهيؤهم للكدح لكسب المال. والزوجات الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن حافظات لأنفسهن فى غياب أزواجهن وكما جاء

فى الحديث الشريف «وإن غاب عنها حفظته» أما الزوجات اللاتي تظهر منهن بوادر العصيان فعلى الرجال نصحهن بالقول المؤثّر. ثم الاعتزال فى الفراش فإن لم ينصلح حالهن فيعاقبن بالضرب الخفيف غير المبرح ولا المهين فإذا عُدن إلى الصواب وجب معاملتهن بالحسنى.

١٥ – فى حل الخلافات الأسرية:

«وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفّق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا» (٣٥).

١٦ – البر بالوالدين ووصايا أخرى:

وقد أُلحق بر الوالدين وقُرِن بعبادة الله لما للوالدين من فضل:

«واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا» (٣٦).

١٧ – حث على التصدق وعدم البخل:

«الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا. والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا. وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما» (٣٧ – ٣٨).

وتكملة لهذا المعنى تبين الآيات عدل الله وكرمه فهو سبحانه لا يظلم أحداً شيئا ولا يقلل من ثوابه ولو شيئا قليلا مثل الذرَّة ويضاعف للمحسن ثواب حسناته. ثم يأتى تعجب من هؤلاء الباخلين والمعرضين عما أمر الله به إذا جاء الله يوم القيامة بكل نبى شهيدا على قومه وجاء الله بالنبى شهيدا على قومه وفيهم المانعون والمعرضون:

«إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤتِ من لدنه أجرا عظيما. فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك علي هؤلاء شهيدا. يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تُسوَّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا» (٤١ – ٤٢).

وفى يوم القيامة يتمني الباخلون والجاحدون والمعرضون لو يُغيبوا فى الأرض كما يُغيَّب الأموات في القبور وتسوَّى التربة فوقهم وهم لا يستطيعون أن يخفوا عن الله أى شأن من شئونهم.

١٨ – بداية تحريم الخمر:

«يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون...»

وقد سبق أن جاء تقبيح للخمر فى سورة البقرة (الآية ٢١٩ ص ٤٨٤) وذكر فيها أن إثم الخمر أكبر من نفعها. ثم جاءت الخطوة الحالية تنهى عن الصلاة فى حالة السكر لأن السكران لا يعى ما يقول. ولو لاحظنا أن السكران قد لا يفيق من شرب الخمر إلا بعد ٣ أو ٤ ساعات أو أكثر حسب كمية الخمر التي شربها ولاحظنا توزيع الصلوات على مدار اليوم لوجدنا أن هذا النهى لم يترك لشارب الخمر إلا ساعات قليلة بعد صلاة العشاء. وفى وقت لاحق نزلت سورة المائدة (الآية ٩٠ ص ٧١٢) وفيها التشريع الأخير والحاسم فى تحريم الخمر وجُمِعَ فى الإثم بينها وبين الميسر والأنصاب والأزلام.

١٩ – تحريم وجود الجُنُب فى المسجد:

والجنب يحرم عليه دخول المسجد إلا إذا كان لمجرد عبوره – دون استقرار فيه – ليصل إلى الماء ليغتسل:

«ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا...»

٢٠ – تشريع التيمُّم:

وفى حالة المرض الذى يزيد باستعمال الماء أو فى حالة السفر فيشق وجود الماء أو يخشى نفاده فلا يبقى ما يكفى للشرب وفى حالة الحدث الأصغر أو الجنابة، أبيح التيمم بأن يقصد المرء ترابا طيبا فيضربه ويمسح على وجهه ويديه فتحدث الطهارة المطلوبة.

«وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عَفُوًّا غفورا» (٤٣).

ب – جدال أهل الكتاب ودعوتهم للإسلام:

هذا هو الموضوع الثانى الرئيسى التى اهتمت به سورة النساء. وأهل الكتاب المخاطبين فى هذه الآيات هم يهود فدك وخيبر وتبوك ومن انضم إليهم من يهود المدينة بعد إجلائهم عنها – والموضوع يحتوى على عدة نقاط:

١ – فضح مسلك من بقى من يهود المدينة:

«ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيلَ. والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليًّا وكفى بالله نصيرا. من الذين هادوا يُحَرفون الكَلِمَ عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسْمَع وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنا فى الدين. ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا» (٤٤ – ٤٦).

بقى فى المدينة من اليهود بعد إجلاء تجمعاتهم بعض شراذم متفرقة ارتبطت مصالحهم

بمصالح المنافقين فاحتموا بهم وظلوا فى المدينة يُظهرون أنهم على الحياد ولكنهم فى حقيقتهم اختاروا الضلال ويريدون أن يُضلوا المسلمين. فنزلت الآيات تفضح عداوتهم للمسلمين. وأشارت إلى أنهم كانوا يقولون للنبى كلاما فى ظاهره لا غبار عليه ولكنهم يقصدون به الهزء برسول الله. فقولهم «اسمع غير مسمع» وكان العرب يقولون اسمع غير مسمع مكروها ولكن اليهود كانوا يقصدون الدعاء على النبى بمعنى «اسمع لا سمعت». وكذلك قولهم «راعنا» بمعنى طلب الرعاية ولكنهم كانوا يلوون ألسنتهم لتعطى معنى من الرعونة. وكان الأولى أن يقولوا انظرنا حتى يبعدوا عن هذا الاشتباه. وقد سبق الإشارة إلى هذه الكلمة ونُهِىَ المسلمون عن استعمالها فى خطابهم للنبى – فى سورة البقرة (الآية ١٠٤ ص ٤٥٤) عند شرح قوله تعالى: **«يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا».**

٢ – دعوة اليهود إلى الإسلام:

«يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمِنوا بما نزلنا مصدِّقًا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردَّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا. إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما. ألم تر إلى الذين يُزكون أنفسهم بل الله يُزكى من يشاء ولا يُظلمون فتيلا. انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا. ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا. أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا. أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما. فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه وكفى بجهنم سعيراً» (٤٧ – ٥٥).

والآيات واضحة وفيها دعوة ليهود المدينة للإسلام الذى جاء مصدِّقا لكثير مما فى التوراة. ثم تبين لهم أن الله – إن شاء – سيغفر لهم ذنوبهم ماعدا الشرك بالله. وحذرتهم الآيات مما حدث لأهل المدينة حاضرة البحر الذين دنَّسوا حرمة يوم السبت فلعنهم الله وهو ما سبق ذكره في الجزء الرابع (ص ١٠٨١). وقال المفسرون إن رجالا من اليهود أتوا بأطفالهم إلى النبى وسألوه هل على هؤلاء من ذنب؟ فقال لا. فقالوا: ما نحن إلا كهيئتهم. ما عملناه بالنهار يُكفَّر عنا بالليل. وما عملناه بالليل يُكفَّر عنا بالنهار لأننا أحباء الله وهم بذلك يزكون أنفسهم. فلفتت الآيات نظرهم إلى أن الله هو الذى يزكى من يشاء. كذلك أشارت الآيات إلى ما فعله اليهود حين سألتهم قريش بصفتهم أهل علم وكتاب عمَّن هو الأهدى: هم أم محمد؟ فقالوا لهم إنهم هم الأهدى. وما قالوا ذلك إلا لأنهم حسدوا العرب على ما تفضَّل الله به عليهم من نعمة الإسلام. وتندد الآيات بهذا الحسد لأن الله قد آتى إبراهيم – وهو جدهم الأكبر – النبوة وجعل من ذريته ملوكا عظاما مثل داود وسليمان.

٣ - جزاء الكافرين ومقابلته بثواب المؤمنين:

بعد هذه الدعوة لليهود للإسلام جاء تحذير مما أعده الله للكافرين من عذاب أليم وترغيب فيما أعده الله من جنات للمؤمنين:

«إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما. والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا (هو ظلال الجنة)» (٥٦ - ٥٧).

ويرى العلماء المعاصرون فى الآية الأولى إعجازا علميا فقد ثبت أن الجلد به من أعصاب الإحساس بالألم أكثر بكثير مما فى العضلات، وما يشعر به المريض من ألم عند أخذ حقنة دواء يكون عند اختراق الإبرة للجلد أما بعد ذلك فلا يكاد يكون هناك ألم. وفى الآخرة حينما يحترق الجلد من نار جهنم تحترق معه الأعصاب ويزول الألم. فمن شأن تبديل الجلد المحترق بجلد جديد استمرار الشعور بالألم زيادة في التعذيب.

جـ - تشريعات لصلاح أمر المجتمع والأمة:

وهذا هو الموضوع الرئيسى الثالث الذى احتوته سورة النساء ويتضمن عدة نقاط:

١ - حث على تأدية الأمانات والعدل فى الحكم:

«إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعِمَّا يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا» (٥٨).

والآية واضحة وتأمر الناس بأداء ما ائتُمنوا عليه إلى أصحابه كما تأمرهم بعدم الجور فى الحكم. ونعمت تلك الموعظة التى يعظهم بها الله.

٢ - وجوب طاعة الرسول وقبول حكمه:

«يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم. فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا» (٥٩).

والآية تأمر بطاعة الله ورسوله والولاة الذين يتولون الحكم. فإذا حدث نزاع حول أمر من الأمور فالمرجع والحَكَم هو كتاب الله وسنة رسوله. ويليهما اجتهاد الفقهاء وأولى العلم الذى تقرره الآية ٨٣ (ص ٦٢٣).

٣ - فى المنافقين:

«ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا

إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا. وإذا قيل لهم تعالَوْا ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدُّون عنك صدودا. فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا. أولئك الذين يعلمُ الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا. وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله. ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما. فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما» (٦٠ - ٦٥).

وقالوا في سبب نزول هذه الايات إن بعض اليهود الذين أسلموا نفاقا اختلفوا مع جماعة من المسلمين فطلب المسلمون الاحتكام إلى النبى ولكن اليهود طلبوا الاحتكام إلى كاهن منهم كان شديد العداوة للمسلمين. ثم تساؤُل عما يكون حالهم إذا حلَّت بهم مصيبة من جراء انحرافهم عن الحق فيتراجعون ويأتون إلى الرسول ويحلفون أنهم لم يريدوا إلا الإحسان وطلب التوفيق فى الخصومات. وتقرر الآيات أن الله يعلم حقيقة ما فى قلوبهم من سوء نية وعلى النبى أن لا يلتفت إلى كلامهم وأن يعظهم ويؤنبهم. ثم يقسم الله بذاته العلية بِقَسَم فيه تشريف للنبى **«فلا وربك»** أن إيمانهم لن يكون كاملاً حتى يرجعوا إلى النبى ليحكم فى خلافاتهم ويقبلوا حكمه فى خصوماتهم بدون غضاضة. وفى الآيات صورة مما كان النبى يلقاه من مصاعب ومشاكل وخاصة من المنافقين. وقد انطوى أسلوب المعالجة على مزج التهديد بالعظة والإنذار بالرفق ثم استمالة بوعد الاستغفار لذنوبهم ووعد بقبول توبتهم.

ثم يجيء تنديد آخر بمسلك المنافقين من اليهود:

«ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم. ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا. وإذًا لأتيناهم من لدنا أجرا عظيما. ولهديناهم صراطا مستقيما. ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما» (٦٦ - ٧٠).

وقد أورد الإلوسى فى تفسيره (جـ ٥ ص ٧٢، ٧٣) كثيرا مما قيل في سبب نزول هذه الآيات واستحسن رأى البلخى من أن الضمير فى «عليهم» عائد إلى المنافقين من اليهود الذين أسلموا فى الظاهر وعلم الله ما فى قلوبهم فأنزل يذكرهم بأن أجدادهم لما ضلوا فى عبادة العجل كتب الله عليهم أن يقتلوا أنفسهم (انظر جـ ٤ ص ١٠٠٢) ففعلوا وبلغ قتلاهم سبعة آلاف (يقول الألوسى سبعين ألفا!). وأن الله لو أمر اليهود المعاصرين للنبى أن يقتلوا أنفسهم. كناية عن الجهاد فى سبيل الله أو الخروج من ديارهم للقتال (المنتخب فى تفسير القرآن. ص ١٢٠) ما امتثل للأمر إلا عدد قليل. ولو أنهم استجابوا للأمر لكان ذلك خيرا لهم ودليلا على

إيمان ثابت ولكان أجرهم عندالله عظيما. وكانوا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في درجتهم العالية فى الجنة فضلا من الله. وما أحسن هؤلاء من رفقاء.

٤ – حث على الاستعداد للعدو وتجاهل المعوّقين ومناصرة المسلمين فى مكة:

«يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثُبات (جماعات متفرقة) **أو انفروا جميعا. وإن منكم لمن ليبطئن** (يتأخر عن القتال) **فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا. ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنتُ معهم فأفوزَ فوزا عظيما. فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة. ومن يقاتل فى سبيل الله فيُقتل أو يَغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما. وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا. الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت. فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا»** (٧١ – ٧٦).

قيل إن قريشا اشتدت فى إيذاء المسلمين المستضعفين فى مكة والذين تسلط عليهم أقاربهم ومنعوهم من الهجرة. وكذلك بدأت قريش تدعو القبائل للانضمام إليها فى محاربة المسلمين فنزلت الايات تستثير حماس المسلمين إلى الجهاد فى سبيل الله وراح المنافقون يعارضون ويثبطون. والآيات تأمر المؤمنين أن يكونوا على حذر دائم من أعدائهم وأن يأخذوا الأهبة لرد كيد المعتدين ويخرجوا للقتال جماعات متفرقة (السرايا) أو يخرجوا جميعا (الغزوات) وعليهم أن يحذروا الذين يُثبطون ويتخلفون عن القتال فإذا انهزم المسلمون قالوا شامتين إن الله أنعم عليهم إذ لم يشتركوا في القتال. وإذا انتصر المسلمون فإنهم يتحسرون ويتمنون أن لو كانوا معهم – كأنه لم تكن هناك رابطة مودة تربطهم بهم – ويقولون ليتنا كنا معهم فنفوز ببعض الغنائم. ثم يأتى حث للمؤمنين الصادقين على القتال وإعلانهم أن من يقاتل فى سبيل الله حتى يُقتل أو يتحقق النصر فله أجر عظيم عند الله. ثم سؤال يستنكر عدم القتال في سبيل الله ودفاعا عن الشيوخ المسنين والنساء والأولاد والذين يتمنون الخروج من مكة لظلم أهلها لهم وأن يجعل لهم من يدافع عنهم وينصرهم على ظالميهم، وقطعا سينتصر المؤمنون الذين يقاتلون فى سبيل الله على الكفار الذين يقاتلون ظلما وطغيانا ووليهم الشيطان.

٥ – مسلك المنافقين عند الدعوة للقتال:

وتمضى الآيات تندد بموقف المنافقين ومسلكهم. إذ عندما لم يكن هناك قتال كانوا يتمنونه فلما فرض عليهم القتال تخاذلوا خوفا من القتل وتخبرهم الآيات أن عمرهم فى الدنيا – مهما طال – قصير . وأن الموت لابد آت حتى لو كانوا فى حصون منيعة. ثم راح المنافقون إذا أصابهم خير قالوا هذا من عند الله وإن أصابهم شر قالوا هذا من سوء تصرف النبى.

وتنبههم الآية إلى أن كلاً من الخير والشر من عند الله: الخير فضل من الله ومنة والشر يكون بسبب ذنب ارتُكب:

«ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب. قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تُظلمون فتيلا. أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة. وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك. قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا. ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً» (٧٧ - ٧٩).

ثم تمضى الآيات توضح أن طاعة الرسول هى طاعة لله. أما المنافقون فيُظهرون الطاعة لما يأمر به النبى فإذا خرجوا من عنده راحوا يبيتون أفعالا غير التى أمرهم بها. والله عليم بما يبيتون وما يدبرون. والمفهوم أنه سيجازيهم عليها. ولو تدبروا القرآن لتأكدوا أنه وحى من عند الله:

«من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا. ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيَّت طائفة منهم غير الذى تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا. أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» (٨٠ - ٨٢).

كذلك كان المنافقون إذا اطلعوا على أمر يتعلق بقوة المسلمين أو موطن ضعف فيهم أو أمر عن قوة العدو يثير الخوف أذاعوه بين الناس لإلقاء الرعب فى قلوب المسلمين والواجب إبلاغ المعلومات أولا إلى رسول الله وإلى أولى الأمر من القادة وكبار الصحابة لأنهم أقدر على تحليل المعلومات وتقدير الموقف والتصرف فيه. ولولا فضل الله على المسلمين لأغواهم الشيطان وأشاع الذعر بين صفوفهم. ثم يأتى أمر للنبى بالقتال ليكف بأس الكافرين والله أشد قوة وسينصره وتنكيله بالكافرين سيكون شديدا:

«وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم. ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا. فقاتل فى سبيل الله لا تُكلَّفُ إلا نفسك وحرِّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا» (٨٣ - ٨٤).

وإذا كان هؤلاء المنافقون يناصرون الفساد وأهل الإيمان يناصرون الحق. فمن يناصر فى أمر حسن يكن له نصيب من ثوابه ومن يناصر أهل السوء يكن عليه وزر من عقابه. وقد وضع المعنى فى صيغة تجعل منه قاعدة عامة فالذى يدعو إلى الخير عموما ويشجع عليه له نصيب

من عواقبه الحسنة ومن يدعو إلى الشر ويعضده له نصيب من عواقبه السيئة والله قادر على أن يجازى كُلاًّ بما يستحق:

«من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مُقيتا» (٨٥).

٦ – فى رد التحيـة :

«وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسَنَ منها أو رُدُّوها إن الله كان على كل شيء حسيبا» (٨٦).

والأحاديث النبوية التى تحض على إفشاء السلام كثيرة نكتفى بذكر واحد منها وهو مروى عن أبى هريرة أن النبى قال: والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا. أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم. وجمهور العلماء متفقون على أن البدء بالسلام سنة مستحبة والرد عليه واجب والممتنع عن الرد آثم. وعلى المسلم أيضا رد تحية غير المسلم بخير منها أو مثلها.

ثم تقرر الآيات وحدانية الله وهو الذى سيبعث الخلق ويجمعهم إلى يوم القيامة:

«الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا» (٨٧).

عود إلى المنافقين:

قيل إن بعض الأعراب أتوا إلى المدينة مسلمين ثم لما أصابهم مرض تركوا المدينة وأقاموا مع القبائل المشركة المجاورة فقابلهم نفر من أصحاب رسول الله وسألوهم عن سبب رجوعهم فقالوا أصابنا وباء المدينة فكرهنا الإقامة بها. فانقسم المسلمون إزاءهم فرقتين: فرقة تريد قتالهم وفرقة ترى عدم قتلهم أملا فى أن يهتدوا يوما ما. والفريق الآخر يرى أن من يضله الله لن يكون له سبيل للخلاص والهداية. بل إن هؤلاء الأعراب كانوا يتمنون أن يكفر المسلمون فيكونوا مثلهم. ثم نهت الآيات عن اتخاذهم أصدقاء وأولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله وينضموا لإخوانهم فى المدينة. فإن رفضوا قتلوهم إلا إذا كانوا من قوم بينهم وبين المسلمين عهد أو أعلنوا وقوفهم على الحياد أى أنهم لا يريدون قتال المسلمين ولا قتال قومهم ففى هذه الحالة لا يحق قتلهم.

وروى أن جماعة من قبيلتى أسد وغطفان كانوا إذا أتوا إلى المدينة يتظاهرون بالإسلام ليأمنوا المسلمين فإذا رجعوا إلى قومهم أظهروا الشرك والعداء للإسلام ليأمنوا قومهم. فكان حكم الله فيهم أن من يطمئنون إلى صدق حيادهم وموقفهم المسالم من المسلمين لا يبادئونهم بالقتال فإذا لم يعلنوا الحياد والمسالمة حق للمسلمين قتالهم:

«فما لكم فى المنافقين فئتين. والله أركسهم (أخزاهم) **بما كسبوا. أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا. ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم**

ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا. إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم. ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم. فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا. ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما رُدوا إلى الفتنة أركسوا فيها. فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا» (٨٨ – ٩١).

كان الوحي حريصا على الإكثار من عدد المسلمين بالمدينة فراحت الآيات تحث الذين يتظاهرون بالإسلام من أهل البادية علي الهجرة إلى المدينة ويجاهدوا مع المسلمين حتى يُثبتوا صدق إيمانهم أما قبل ذلك فهم منافقون ونهت الآيات المسلمين عن اتخاذهم نصراء أو أولياء. فإن رفضوا الهجرة وانضموا إلى الأعداء فالواجب على المسلمين قتلهم أنىً وجدوهم. واستثنى من ذلك أولئك الذين ينتمون إلى قوم بينهم وبين المسلمين معاهدة عدم اعتداء. وهناك فريق من المنافقين إذا انتصر المشركون كانوا معهم وإن انتصر المسلمون أظهروا إسلاما. فهؤلاء في ضلال وإن لم يعلنوا صراحة المسالمة التامة للمسلمين فإنه يحق لهم أن يقاتلوهم.

٧ – حد القتل الخطأ والقتل العمد:

«وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدَّقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلَّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة. فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما. ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما. يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام (نطق بالشهادة دلالة على الإسلام) **لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة. كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا»** (٩٢ – ٩٤).

وحاصل هذا ما يلى :

١ – إذا قتل مؤمن مؤمنا خطأ. فعلى القاتل أن يعتق رقبة مؤمنة وأن يدفع لأهل القتيل دية إلا إذا عفوا وتنازلوا عنها.

٢ – إذا قتل مؤمن مؤمنا خطأ وكان أهل القتيل أعداء للمسلمين. فعلى القاتل أن يعتق رقبة كفارة عن عمله ويتوب إلى الله.

٣ – إذا قتل مؤمن مؤمنا خطأ وكان بين أهل القتيل والمسلمين معاهدة. فعلى القاتل عتق رقبة ودفع دية إلى أهل القتيل.

٤ – إذا لم يجد أو لم يتمكن القاتل من تحرير رقبة مؤمنة فالكفارة صيام شهرين متتابعين.

٥ - إذا قتل مؤمن مؤمنا عمدا فجزاؤه جهنم وغضب الله عليه ولعنه، إلا أن هذا لا يعفى من القصاص الوارد فى سورة البقرة (آية ١٧٨ ص ٤٧٥): **«كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى»** إلا إذا تنازل أهل القتيل عن حقهم.

٦ - أمر للمسلمين بالتثبت من حقائق الناس الذين يلقونهم إذا خرجوا للجهاد فى سبيل الله فلا يقتلون إلا العدو الكافر ولا يقولوا لمن أعلن الإسلام أنه ليس بمسلم اجتهادا منهم أنه غير صادق وطمعا فى المغانم التى ينالونها منه.

٨ - حث على الجهاد:

من المحتمل أن بعض المسلمين سألوا النبى عن حكم الذي يقعد عن الجهاد وليس به عذر يمنعه، وهو أيضا مخلص فى إيمانه فبينت الآيات فضل المجاهدين على القاعدين:

«لا يستوى القاعدون من المؤمنون غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكُلاً وعد الله الحسنى وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما. درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما» (٩٥ - ٩٦).

وواضح أن الآيات قصدت عدم تجريح القاعدين الذين ليس فيهم ضرر من مرض أو عاهة تمنعهم من القتال وتقصد قبول أعذار الناس حتى لو لم تكن قوية ظاهرة ما داموا لم يتهرَّبوا ولم يُثبِّطوا. فليس كل الناس فى كل ظرف مستعدين للقتال. وفى قوله تعالى **«وكلا وعد الله الحسنى»** لفتة ربانية كريمة تُطمئن القاعدين مخلصى الإيمان. أما أولوا الضرر وذووا العاهات فقد نزلت فيهم الآية ١٧ من سورة الفتح (ستأتى فيما بعد ص ٦٩٢). وقول **«فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة»** وفى المرة الثانية **«وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة»** فيه تحبيذ للجهاد لكونه أفضل بدرجات كثيرة ولهم زيادة على ذلك مغفرة من الله ورحمة واسعة.

٩ - حكم المسلمين الذين بقوا فى مكة:

كان بعض المسلمين قد آثروا البقاء فى دورهم فى مكة وسط المشركين. ولعلهم خشوا المجهول وضيق الرزق فى البلدة الجديدة مع أنهم كان يكفيهم أن يكونوا فى جوار رسول الله. ولعلهم أيضا خشوا قتالا قد تشنه قريش على المسلمين فى المدينة فآثروا البعد عنه. وكانوا يعتذرون - كذبا - أنهم كانوا مستضعفين ومغلوبين على أمرهم. فهؤلاء قد ظلموا أنفسهم. وستسألهم الملائكة يوم القيامة سؤال تأنيب لأنه كان بإمكانهم - بوسيلة أو بأخرى - الهجرة وإذ لم يفعلوا فهم كالمنافقين ولهم عذاب جهنم. واستثنى النساء والولدان والضعفاء من الرجال لكبر السن وغيره فهؤلاء حقيقة مغلوبون على أمرهم ولهم عذر واضح فطمأنتهم الآيات بأن الله

سيشملهم بعفوه وغفرانه .

ونوّهت الآيات بما يلاقيه المهاجرون فى سبيل الله من أبواب واسعة للرزق وأن من يهاجر سيجد مساندة من إخوانه المسلمين بحيث يقدر على مراغمة أعدائه ويكون فى منعة منهم. وحتى من يخرج مهاجرا فى سبيل الله فيموت فى الطريق فقد جعل الله أجره حقا عليه وغفر له ورحمه فالله غفور رحيم:

«إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض. قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا. ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مُراغَما كثيرا وسَعَة. ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما» (٩٧ - ١٠٠).

ويروى أن المهاجرين فى المدينة - حينما نزلت هذه الآيات - كتبوا إلى من يعرفون إسلامهم فى مكة أنه يبق لهم عذر. فخرجوا. ولحق المشركون ببعضهم وقتلوا من قدروا عليه ونجا الباقون. ولعل قريشا رأت أن هؤلاء المهاجرين الجدد سيزيدون مسلمى المدينة قوة فحاولوا منعهم. ويقال إن جندب بن ضمرة - وكان طاعنا في السن - لما بلغته الآية خرج وهو مريض فمات فى الطريق - وإذا طبقنا هذه الآيات على عصرنا الحالى كان على المسلم - الذى يُضطهد فى بلد أغلبيته غير مسلمة ويخشى الفتنة فى دينه - أن يهاجر إلى بلد مسلم لا يُستذل فيه ويأمن فيه على دينه.

١٠ - صلاة الخوف والثبات فى مواجهة العدو:

وقد نزلت هذه الآيات تشرع صلاة الخوف - فى ظروف غزوة بنى لحيان ووقوف سرية قريش بقيادة خالد بن الوليد للمسلمين بالمرصاد عند عسفان (ص ٦٠٤) فى محاولة للنيل منهم عند سجودهم للصلاة فنزلت الآيات. وكانت هذه أول صلاة خوف صلاها النبى بالمسلمين. وقد وضعت الآيات بتوقيف من النبى فى سورة النساء:

«وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جُناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا. وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم. ودَّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حِذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مُهينا. فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على

المؤمنين كتابا موقوتا. ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما» (١٠١ - ١٠٤).

قيل إنه فى غزوة ثانية خشى المسلمون أن ينال العدو منهم أثناء السجود فى الصلاة فأتى جبريل النبى فأمره أن يقسم أصحابه شطرين فيصلى بفريق فى حين يقوم الفريق الثانى بكامل أسلحتهم يحرسهم ثم يتبادل الفريقان مواقعهم ويصلى بهم النبى الركعة الثانية فيكون لكل فريق ركعة واحدة وللنبى ركعتان وللفقهاء آراء كثيرة فى عدد الركعات التى يصليها المحارب وهل يتمها أم يكتفى بما صلى خلف الرسول - ويمكن الرجوع إليها فى كتب التفسير (ابن كثير - جـ ١ ص ٥٤٧ - تفسير الألوسى جـ ٥ ص ١٣٥ - المنتخب في تفسير القرآن الكريم. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ١٢٨).

والآيات تبين عدم التهاون فى أداء الصلاة فى أوقاتها حتى فى ظروف الحرب والخوف والخطر مع إباحة قصرها فى هذه الظروف. فإذا ذهب الخوف تؤدى الصلاة كاملة. ثم تحث الآيات على طلب الأعداء وملاحقتهم وتبث فى المسلمين روح الشجاعة ببيان أنهم إن كانوا يصابون بجراح فى المعارك فأعداؤهم ينالهم نصيب أيضا من الجراح والألم مع الفارق وهو أن الله يؤيد بنصره المسلمين ويثيبهم على ثباتهم وليس لأعدائهم مثل ذلك.

١١ - مبادىء فى القضاء بين الناس:

روى أن أحد المسلمين (واسمه طعمة) سرق درعا لمسلم وأودعها عند يهودى وأن صاحب الدرع تعقب الأثر إلى بيت طعمة فسأله فأنكر وأخبره أن الدرع عند اليهودى وهو الذى سرقه فرُفع الأمر إلى النبى وكاد إن يحكم على اليهودى فنزلت الآيات وظهرت براءة اليهودى وخيانة طعمة وقيل لما أراد النبى قطع يده فر من المدينة وارتد كافرا:

«إنَّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما (مخاصما عنهم أى مدافعا عنهم) **واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما. ولا تجادل عن الذين يختانون** (يخفون خيانتهم) **أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما. يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يُبَيّتون ما لا يرضي من القول وكان الله بما يعملون محيطا. ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا. ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما. ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما. ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا. ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمَّت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء. وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما»** (١٠٥ - ١١٣).

والآيات تخبر النبى أن الله أنزل عليه الكتاب ليحكم بين الناس بما علَّمه الله وينهاه عن الدفاع عن الخائنين وعليه أن يستغفر الله مما كاد أن يقع فيه. وبعد ذلك يأتى نعى على الخائنين الذين يرتكبون الإثم ويستترون من الناس خشية منهم والأولى أن يخشوا الله لأنهم لا يستطيعون أن يستتروا منه فهو معهم ويعلم ما يتآمرون به. ثم يأتى تأنيب لمن دافع عنهم ويخبرهم أنهم إن نجحوا فى الإفلات من عقوبة الدنيا فمن الذى يجرؤ أن يجادل الله عنهم يوم القيامة وينقذهم من عقوبة الآخرة. ثم تخلص الآيات إلى مبادىء ثلاثة.

١ – من يعمل سوءا أو يظلم نفسه باقتراف الإثم ثم يستشعر خطيئته ويندم ويستغفر الله فإن الله يشمله بغفرانه ورحمته.

٢ – من يرتكب إثما فإنه فى الحقيقة لا يضر إلا نفسه لأن الله عليم بكل شىء وعادل فى حكمه.

٣ – من يرتكب إثما – صغيرا أم كبيرا – ثم يلقى بالتهمة على شخص برىء فإنه يكون قد ارتكب إثما مضاعفا: جريمة الذنب وجريمة إلصاقه ببرىء.

ثم تُختم الفقرة بتعقيب إلى النبى بأن الله قد شمله بفضله ورحمته وبصَّره بالأمور إذ كاد بعضهم أن يُضلوه بأقوالهم وأراه الله الحقيقة وعلَّمه مالم يكن يعلم فكان فضل الله عليه عظيما.

وفى حديث عن أم سلمة قالت: سمع رسول الله جلبة بباب حجرته فخرج إلى المتخاصمين وقال: إنما أنا بشر وإنما أقضى بنحو مما أسمع ولعل أحدكم يكون ألحن بحجته (أى أبلغ فى عرضها) من بعض فأقضى له. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من نار فليحملها أو يذرها.

١٢ – عن النجوى:

كان بعض الأفراد يجتمعون فيما بينهم بعيدا عن أعين الرقباء وهذه هي النجوى. فنزلت الآيات تنبه إلى أن كثيرا مما يدور في هذه الاجتماعات لا خير فيه إلا إذا كان الهدف الاتفاق علي إعطاء صدقة أو بذل معونة أو إصلاح بين متخاصمين أو نحو ذلك. فإذا كان الأمر كذلك فلهم عند الله أجر عظيم. أما إذا كان الهدف مخاصمة رسول الله والتحزب عليه فلهم فى الآخرة نار جهنم:

«لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما. ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيَّن له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُولِّه ما تولى ونُصلِه جهنم وساءت مصيرا» (١١٤ – ١١٥).

١٣ - **عدم غفران الشرك بالله:**

«إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا. إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا. لعنه الله. وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا. ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا. يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا. أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا (بديلا أو خلاصا). **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا»** (١١٦ - ١٢٢).

والآيات واضحة وصريحة فى تقرير عدم غفران الله ذنب الشرك به مع إبقاء الأمل لغفران غيره من الذنوب لأن ضلال الشرك قد ذهب إلى آخر المدى ولا رجاء فيه لأنه يدعو من دون الله «إناثا» أى أصناما ذات أسماء مؤنثة مثل اللات والعزى ومناة ونائلة أو كناية عن الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهن بنات الله. وعلى كل حال فإنهم يتبعون الشيطان الذى تمرّد على الله والذى توعد بنى آدم بأن يُضلهم ويزين لهم بعض عادات الجاهلية مثل شق آذان الأنعام أو خرقها وادعاء أن هذه أوامر ربانية. وسيأتى النهى عن ذلك بتفصيل أكثر فى سورة المائدة (الآية ١٠٣ ص ٧١٥) . كما أن الشيطان يزين لهم الإتيان بأشياء من شأنها تغيير في الهيئة مثل الوشم والتفلّج وغير ذلك من وسائل التجميل غير اللازمة للتدليس علي الناس. وفى حديث مروى عن النبى قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله. وزاد بعضهم والواصلة والمستوصلة. ومع أن تزين المرأة لزوجها مستحب وممدوح إلا أن بعض النساء كن يبالغن فيه حتى إنهن كن يُقشرن وجوههن بوضع مواد كاوية عليها لتبدو بيضاء. وهذا ومثله هو المنهى عنه. ثم يأتي بيان عِظم ثواب الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات إذ يعدهم الله وعد الصدق بأن يُدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا.

١٤ - **درجات الناس عند الله:**

روى أن جدالا قام بين فريق من المسلمين وفريق من أهل الكتاب فى أيهم أقرب إلى الله. فقال أهل الكتاب: نحن الأسبق وقال المسلمون: إننا نؤمن بكتبكم وأنبيائكم وأنتم غير مؤمنين بكتابنا ونبينا فنحن الأولى. وقد وردت سابقا آيات تحكي عن تفاخر أهل الكتاب مثل قولهم فى سورة البقرة (آية ١١١ - ص ٤٥٥) **«وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم. قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين»** وقولهم فى الآية ١٣٥ من سورة البقرة أيضا (ص ٤٦٤) **«وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا. قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين»** فنزلت الآيات لتحسم هذا الموقف الجدلى والتفاخرى:

«ليس بأمانيِّكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب. من يعمل سوءا يُجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيرا. ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا. واتخذ الله إبراهيم خليلا، ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا»(١٢٣ - ١٢٦).

١٥ - تشريع في بعض أمور النساء:

«ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كُتِب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما. وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأُحضِرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا. ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما. وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما» (١٢٧ - ١٣٠).

قال ابن جبير (تفسير الألوس جـ ٥ ص ١٥٩): وكان العرب لا يورثون إلا الرجل البالغ فلما نزلت آية المواريث (الآية ١١ ص ٦١٣) وبينت نصيب كل وارث وأعطت النساء والأولاد نصيبا من التركة. شق ذلك على الناس وقالوا أيرث الصغير الذي لا يقوم في المال والمرأة التي هي كذلك فيرثان كما يرث الرجل! وأحيل السائلون إلى ما سبق نزوله من آيات في هذا الشأن. ثم عرض لحالة النساء اللاتي يريد من يكفلونهن أن يتزوجوهن ولا يريدون في نفس الوقت أن يدفعوا لهن مهرا. وحالة الأولاد واليتامى: كل هؤلاء يعاملون بالعدل والرحمة وبينت الآيات أن الله عليم بكل ما يفعلون من خير. ثم عرض لحالة ما إذا خافت إحدى النساء أن يعرض عنها زوجها ويهملها فلا مانع من عقد ما يسمى «مجلس صلح» والصلح خير من التمادي في القطيعة والهجر. ثم يأتي لفت نظر الأزواج إلى أن العدل بين الزوجات - في حالة تعددهن - أمر صعب للغاية وتنهاهم عن أن يميلوا كل الميل بقلوبهم نحو زوجة والإعراض عن أخرى فتكون كالمعلقة فلا هي زوجة ولا هي مطلقة. وفي حالة اليأس من الإصلاح بين الزوجين فلا بأس من أن يفترقا وسييسِّر الله لكل منهما الحياة المستقبلية في غنى عن الآخر.

لله ملك السموات والأرض:

«ولله ما في السموات وما في الأرض. ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا. ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا. إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا. من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعا بصيرا» (١٣١ - ١٣٤).

ويلاحظ تكرر النص على أن لله ما فى السموات وما فى الأرض ثلاث مرات للتأكيد على أنه هو مالك هذا الكون. وهو غنى عن العالمين وهو الوكيل الذي يتولاهم ويتكفل برزقهم وهو قادر على إفنائهم ويأت بقوم آخرين وهو - ذو الجلال - قدير على ذلك. وأن الناس إذا طلبوا نعيم الدنيا بالعمل الصالح وطاعة الله فإن الله يعطيهم نعيم الدنيا والآخرة.

أمر بالعدل:

«يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا. وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا» (١٣٥).

ولما كان العدل هو نظام الوجود وبه تنصلح أمور العباد فإن الآية تحث المؤمنين على اتباع العدل ولو كان فيه مساس بأنفسهم أو بوالديهم أو أقربائهم وسواء كان المشهود عليه غنيا أو فقيرا فلا يُراعى الغنى لغناه ولا يُظلم الفقير لرقة حاله فالله أعلم بما فيه صلاحهما وتنهى عن أن يمنعهم الهوى عن العدل وتحذِّر من أن يلووا ألسنتهم عن شهادة الحق أو يتخلفوا أو يرفضوا أداءها لأن الله عالم بما يعملون والمعنى أنه سيجازيهم على أعمالهم.

فى المنافقين:

تنص الآيات على أن من تمام الإيمان أن يؤمن المرء بالله وبمحمد نبيا وبالقرآن الذى أنزل عليه وأن يؤمن كذلك بالرسل السابقين وما أنزل عليهم من كتب وبالملائكة وبيوم القيامة:

«يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله وسوله والكتاب الذى نزَّل على رسوله (أى القرآن) **والكتاب الذى أنزل من قبل. ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا. إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرًا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا»** (١٣٦ - ١٣٧).

وكان بعض الناس - مشركين أو يهود - قد آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا فهؤلاء لن يغفر الله لهم ولن يهديهم إلى الطريق المستقيم.

ثم تمضى الآيات تقرر بأن هؤلاء المذبذبين منافقون. وعلى النبى أن يبشرهم بأن لهم عذابا أليما. ولاشك أن العذاب الأليم سيكون فى الآخرة وإن كان هذا لا يمنع من عذاب دنيوى أيضا. والبُشرى تكون بما يَسُر. وهنا جاءت للتهكم حيث أنهم كانوا يتوقعون خيرا لظنهم أنهم على حق:

«بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما. الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا. وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم. إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا. الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله

قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين علي المؤمنين سبيلا. إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا. مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا. يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا. إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا. إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما. ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما» (١٣٨ - ١٤٧).

وكان بعض المنافقين يتخذون من الكافرين أصدقاء حميمين ظانين أنهم سند لهم وتخبرهم الآيات أن العزة لله وحده. وكانوا يجلسون معهم فى مجالسهم التى يستهزئون فيها بآيات القرآن. وقد سبق أن أمر المسلمون بترك مجالس الطعن فى القرآن فى الآية ٦٨ من سورة الأنعام (ص ٢٦١) فى صيغة أمر للنبى: «**وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره**». وحتى لو جلس المرء فى مجلس ودار الحديث بريئا فى أول الأمر ثم تطرق إلى هُزء بالقرآن فعلى المرء أن يقوم فورا من هذا المجلس وإلا كان مثل المتقوِّلين فيه «**إنكم إذا مثلهم**» أى منافقون مثلهم وسيجمع الله المنافقين والكافرين فى جهنم يوم القيامة.

كذلك كان من صفات هؤلاء المنافقين أنهم - عند وقوع معركة - ينتظرون انتظار الحاقد الذي يتمنّى السوء. فإن انتصر المسلمون ادعوا أنهم كانوا معهم وإن كان النصر للكافرين قالوا إنهم كانوا معهم يدافعون عنهم ضد المسلمين. وسيحكم الله فيهم يوم القيامة. وفى الدنيا لن يجعل الكلمة العليا للكافرين. وهؤلاء المنافقون يظنون أنهم يخدعون الله بنفاقهم مع أن الله سبحانه وتعالى خادعهم بإمهالهم يترعون فى شرورهم. ومن علامة هؤلاء المنافقين أنهم يقومون إلى الصلاة كسالى وليس عبادة حقيقية بل مراءاة للناس فهم متأرجحون فلا هم من المؤمنين ولا هم من الكافرين. ضلوا فزادهم الله ضلالا. وأنّى لهم أن يجدوا سبيل الهدى. ثم فى أمر واضح وصريح تنهى الآيات المؤمنين عن موالاة الكافرين حتى لا يكون لله عليهم حجة بيِّنة. والمنافق أخطر من الكافر لأن الكافر كفره صريح ويمكن تجنبه أو توقيه أما المنافق فكيده خفى غير ظاهر وعليه يكون خطره أعظم لذلك فإن المنافقين يكونون فى النار فى أسفل درجة. وبعد هذا الإنذار القوى تفتح الآيات باب التوبة لمن يتوب منهم ويعمل صالحا فهؤلاء يصبحون من جماعة المؤمنين ولهم أجرهم العظيم. ولن يضير الله شيئا إن كفروا وعذبهم ولا يفيده شيئا إن آمنوا وشكروا بل الله هو الشكور الذى يشكر لعباده عمل الخير ويثيبهم عليه.

نهى عن السباب:

روى المفسرون أن رجلا تهجَّم على أبى بكر بحضور النبى فسكت أبو بكر طويلا ثم رد

عليه فبدت على النبى أمارات تدل على عدم رضائه فقال أبو بكر: يا رسول الله شتمنى ولم تقل شيئا حتى إذا رددتُ عليه قمت! فقال النبى: إن مَلَكا كان يجيب عنك فلما رددت عليه ذهب الملك وجاء الشيطان. ثم نزلت الآية:

«لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلِم وكان الله سميعا عليما. إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عَفُوا قديرا» (١٤٨ - ١٤٩).

فالسباب - مهما كان سببه - شىء قبيح لايحبه الله تعالى ويستثنى من ذلك المظلوم الذى يرد على المعتدى. ومع ذلك فالعفو أفضل.

الإيمان الحق يكون بالله وجميع رسله:

«إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مُهينا. والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما» (١٥٠ - ١٥٢).

وقد سبق أن جاء فى الآيات ١٣٦، ١٣٧ (ص ٦٣٢) أمر للذين آمنوا بالإيمان بالله ورسله والكتب التى أنزلت من قبل فذلك من تمام الإيمان.

مجادلة اليهود للنبى:

أ - قيل إن وفدا من اليهود جاء إلى النبى فى المدينة يجادلونه وطلبوا منه على سبيل التحدى والتعجيز أن ينزل عليهم كتابا من السماء وكان الرد عليهم حملة ربطت بين سؤالهم وما كان من تعنت آبائهم فى الماضى إذ طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة. ثم ذكرتهم بكثرة خطاياهم فى اتخاذهم العجل وعبادته واعتدائهم على حرمة يوم السبت وقتلهم بعض أنبيائهم والافتراء على مريم ورميها بالفاحشة وأخيرا ادعائهم أنهم قتلوا المسيح ثم بينت الآيات أن من صُلب كان شبيها له وأن المسيح رفع إلى السماء. وزادوا على ذلك انتشار الظلم بينهم وصدهم عن سبيل الله وأكلهم الربا وأكل أموال الناس بالباطل. من أجل كل ذلك حرَّم الله عليهم فى الدنيا طيبات من الطعام أُحِلَّت لغيرهم من الأمم وأعد لهم فى الآخرة عذابا أليما:

«يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء. فقد سألوا موسى أكبرَ من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم. ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا. ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا. فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا

يؤمنون إلا قليلا. وبكفرهم وقولهم علي مريم بهتانا عظيما. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما. وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً. فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا. وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما. لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. والمقيمين الصلاةَ والمؤتون الزكاةَ والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما» (١٥٣ - ١٦٢).

وقد فصَّلنا فى الجزء السادس (ص ١٠٠ - ١٠٤) رأينا فى مسألة القبض على المسيح ومحاكمته ورفعه إلى السماء وصلب الشبيه.

ب - ثم راح اليهود فى مجادلتهم للنبى ينكرون أن الوحي ينزل عليه فردَّت عليهم الآيات أن الله يوحى إليه كما أوحى إلى النبيين من قبله:

«إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا. ورسلا قد قصصناهم عليك من قبلُ ورسلا لم نقصصهم عليك وكلَّم الله موسى تكليما. رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما. لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا. إن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا. إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا. إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا. يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليما حكيما» (١٦٣ - ١٧٠).

ويلاحظ أن أسماء الأنبياء الذين ذكروا لم يذكروا بترتيبهم الزمنى.. وهذا دأب القرآن فهو ليس كتاب تاريخ يُستنبط منه ترتيب الأنبياء. ولما كان اليهود هم المجادلون فقد أُفرد موسى بالذكر وذُكر ما اختُصَّ به من تكليم الله له - من وراء حجاب وبلا واسطة.

جـ - **رأى القرآن فى المسيح:** لابد أن اليهود فى جدالهم مع النبى تطرقوا إلى مسألة المسيح. ومن المحتمل أن بعض النصارى قد انضموا إليهم فى هذا الجدل فاليهود ينكرون نبوة عيسى فى حين أن النصارى يبالغون في تقديره فيجعلون منه إلها أو ابنا للإله وأضافوا الروح القدس. فنزلت الآيات لتضع الأمور فى نصابها الصحيح:

«يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق. إنما المسيح عيسى ابن مريم رسولُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروح منه. فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة. انتهوا

خيرا لكم. إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا. لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا» (١٧١ - ١٧٣).

د - **تنويه بالنبي والقرآن:** وكان لابد أن يُختم هذا الجدل بالتنوية بالنبى وبرسالته ويدعو كلا من اليهود والنصارى إلى الإيمان فجاء الخطاب عاما مُوجًّها إلى الناس جميعا:

«يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا. فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما» (١٧٤ - ١٧٥).

ثم تُختم السورة بآية عن حكم التوريث فى الكلالة أى الذى يموت وليس له ولد ولا والد. فبينت الآيات نصيب الإخوة والأخوات:

«يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد. فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين. يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم» (١٧٦).

والمجمع عليه أن آية الكلالة هى آخر ما نزل من القرآن الكريم وإنما أمر النبى بوضعها فى سورة النساء لتكون ملحقة بالسورة التى وردت فيها أحكام المواريث.

سورة محمد

كان كفار قريش ومن والاهم من القبائل يزدادون عداوة للمسلمين يوما بعد يوم ويستميلون إليهم المنافقين ومرضى القلوب من أهل المدينة. كما أن اليهود بعد إجلائهم عن المدينة وتمركزهم فى خيبر راحوا يحرضون على الإسلام والمسلمين فنزلت سورة «محمد» وتسمى أيضا «سورة القتال» لما فيها من حض على قتال الكفار. وأسلوب السورة النظمى فريد إذ فيها مقابلة متكررة بين «الذين آمنوا» و «الذين كفروا».

«الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله أضل أعمالهم (أى أحبطها) **والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّل على محمد وهو الحق من ربهم كفَّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** (أى حالهم). **ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم. كذلك يضرب الله للناس أمثالهم»** (١ - ٣).

ومعنى الآيات واضح وفيه تنديد بالكفار وبصدِّهم عن سبيل الله واتباعهم للباطل فأضل الله أعمالهم. في حين أن الذين آمنوا اتبعوا طريق الحق الذى أنزل إليهم من ربهم. والفرق واضح ومثلهم بيِّنٌ ليعتبر الناس به ويتعظوا.

حثٌ على قتال الكفار:

«فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشُدوا الوثاق فإما مَنًّا بعدُ وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها. ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم، ولكن ليبلُوَا بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يُضل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم» (٤ – ٦).

والآيات تتضمَّن أمرا للمسلمين بأن يشتدوا في قتال الكافرين عند ملاقاتهم فى الحرب حتى إذا أكثروا فيهم القتل وضمنوا لأنفسهم النصر فعليهم الكف عن القتل وأسر من بقوا. والمسلمون بعد ذلك مُخيَّرون فلهم أن يمنُّوا ويتفضلوا على بعضهم ويطلقوهم بدون فداء أو يطلبوا الفداء من أقاربهم. ثم تنويه بأن الله قادر أن ينكل بالكافرين بدون حاجة إلى قتالهم ولكن حكمته شاءت أن يختبر المؤمنين بالقتال. ثم تأتى بشارة للذين قُتلوا فى سبيل الله بأن الله سيدخلهم الجنة التى وصف نعيمها فى آيات سابقة فعرفوها.

وعدٌ للمسلمين بنصر الله:

«يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصرْكم ويثبتْ أقدامكم. والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم. ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم. أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالها. ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم. إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم. وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم» (٨ – ١٣).

والآيات واضحة وتتضمن وعداً من الله للمسلمين بالنصر والتثبيت إذا هم نصروا الله وأحسنوا عبادته لأن الله يكون مولاهم. أما الكفار فهم تعساء لأنهم كرهوا ما أنزل الله فكان أن أحبط أعمالهم ولن يُثابوا على ما كانوا يعملونه من مكرمات مثل قِرى الضيف وإغاثة الملهوف وسقاية الحجيج وغير ذلك. ثم يأتى إنذار بتدمير الله لهم كما دمَّر الذين من قبلهم. ثم بيان لثواب المؤمنين فى جنات النعيم. أما الكافرون فقد شُبِّهوا بالأنعام لأن كل همهم كان التمتع بملذات الدنيا من طعام وغيره ولهم فى الآخرة النار مستقرا لهم. ثم تأتى تسرية عن النبى لإخراج قريش له من مكة بإخباره أن أهل القرى السابقين كانوا أشد قوة من قريش وانتصر الله منهم.

مقابلة بين ثواب المتقين وجزاء الكافرين:

«أفمن كان على بيِّنة من ربه كمن زُيِّن له سوء عمله واتبعوا أهواءهم. مثل الجنة التى وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم» (١٤ – ١٥).

وفى الآيات تساؤل استنكارى عما إذا كان الذين يعرفون ربهم ويتقونه يتساوون مع الذين اتبعوا أهواءهم. ثم يأتى وصف للجنة التي وعدها الله للمتقين يشربون فيها ما يلذ لهم من ماء ولبن وخمر وعسل ويأكلون من كل الثمرات أما الكافرون فيشربون ماء غاية فى الحرارة يقطع الأمعاء.

استخفاف الكفار بالقرآن.

«ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم (كناية عن علماء الصحابة) **ماذا قال آنفا. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتَّبعوا أهواءهم. والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم»** (١٦ – ١٧).

وكان بعض الكفار والمنافقين يحضرون مجالس النبى ويستمعون إلى ما يقوله لاهية قلوبهم مُستخفين بما يسمعون. وحينما يخرجون يسألون مستهزئين عما كان يتكلم، كأنه يقول كلاما غير مفهوم. وفي الحقيقة هم الذين فقدوا الفهم والإدراك وانساقوا وراء أهوائهم بعكس المؤمنين الذين كانوا يستمعون إلى النبى بفهم فزادهم الله هداية وازدادوا تقوى.

متى يؤمنون:

«فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطُها فأنَّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم» (١٨).

وهو تساؤل استنكارى عما إذا كانوا ينتظرون قيام الساعة حتى يؤمنوا؟ وقد جاءت علاماتها. إذ علم اليهود من كتبهم أن «محمداً» هو آخر الأنبياء وبعثه من أشراطها. عن أنس قال: قال رسول الله: بعثت أنا والساعة كهاتين. وضم السبابة والوسطى. كما أن الساعة لن تأتى إلا بغتة وفى هذه الحالة لن ينفعهم التذكر والإيمان.

«فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم» (١٩).

وفىِ الآية تسرية عن النبى لما يشعر به من غم وأسف من جراء تكذيب الكفار والمنافقين فالله الواحد الأحد كافٍ وعلى النبى والمؤمنين الاستغفار والتقرب إليه بالعبادة فهو الذى يعرف سعيهم بالنهار **«متقلبكم»** ومأواهم إلى مضاجعهم بالليل **«ومثواكم»**.

المنافقون وآيات الجهاد:

أ – **«ويقول الذين آمنوا لولا نُزِّلت سورة. فإذا أنزلت سورة مُحكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم. طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم. فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى**

الأرض وتُقَطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصَمَّهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» (٢٠ - ٢٤).

وكان المؤمنون يتمنون نزول سورة قرآنية حاسمة تأمر بالجهاد فى سبيل الله. فلما أنزلت سورة بذلك استولى الرعب على المنافقين وذوى القلوب المريضة وراحوا ينظرون إلى النبى نظرات مملوءة بالرعب وتدور أعينهم فى محاجرها كما يفعل من يحتضر رفضا لفكرة القتال. وكان الأولى بهم أن يطيعوا ثم يَصْدُقوا الله إذا دُعوا إلى القتال. ثم تساؤل تنديدى مُوجَّه إلى هذا الفريق المتردد عما يُتوقَّع منهم إذا تولوا الأمر والحكم فإنهم سيفسدون فى الأرض ويقطعون الأرحام. وقطع الأرحام من أكبر الذنوب ولذلك قرن بالإفساد فى الأرض، ورد فى ذلك أحاديث نبوية كثيرة منها: «لا يدخل الجنة قاطع رحم». وهذا الفريق أنزل الله بهم لعنته فصاروا كالصم الذين لا يَسمعون وكالعمى الذين لا يُبصرون. ثم يأتى تساؤل استنكارى عن سبب عدم تدبرهم لآيات القرآن كأن على قلوبهم أقفالا تحول دون نفاذ الإيمان إلى داخلها.

ب - ثم تأتى فقرة تندد بالذين ارتدوا عن الإسلام بعد أن وضح لهم الهدى. وتذكر أن الشيطان قد غرَّر بهم. ثم إنهم راحوا يتآمرون مع الكفار ويعِدُونهم بإطاعتهم فى عداوة النبى والقعود عن القتال. فأَخبر الله نبيه بأسرارهم. وسيحبط الله مكائدهم فى الدنيا وعند موتهم ستتلقاهم الملائكة أسوأ استقبال إذ يضربونهم على وجوهم وظهورهم. ثم يأتى تساؤل استنكارى عما إذا كان هؤلاء المنافقون يظنون أن الله لن يكشف ما يضمرونه فى قلوبهم من حقد. ثم تنبيه للنبى إلى أن الله لو شاء لدلَّه عليهم بشكلهم وأسمائهم. ومع ذلك فإنه يستطيع أن يميزهم من أسلوبهم فى الحديث وما فيه من مواربة وأمارات كيد.

«إن الذين ارتدُّوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوَّل لهم وأملى لهم. ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم. فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوهم وأدبارهم. ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم. أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم. ولو نشاء لأريناكهم فلعَرَفتهم بسيماهم ولتعرفنَّهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم» (٢٥ - ٣٠).

حكمة الجهاد وحث على الإنفاق فى سبيل الله:

أ - يتوجه الخطاب إلى المؤمنين يبين لهم أن الله يختبرهم بأمرهم بالجهاد حتى يمتاز المجاهدون والصابرون من غيرهم ثم يُخبرهم أن الله سيحبط أعمال الذين كفروا فلن يضروهم شيئا. ثم تدعوهم الآيات إلى طاعة الله وإطاعة الرسول ولا يبطلوا أعمالهم بالاستماع إلى ما يقوله الكافرون الذين يصدون عن سبيل الله والذين إذا ماتوا قبل أن يتوبوا فلن يغفر الله ذنوبهم. ثم تأتى دعوة للمؤمنين إلى عدم التراخى وقت الجهاد وعدم الجنوح إلى السلم لأن الله معهم ولن ينقصهم من ثمرة أعمالهم وسينتصرون ويصبحون هم الأعلون:

«ولنبلونكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم. إن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله وشاقُّوا الرسول من بعد ما تبيَّن لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيُحبط أعمالهم. يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تُبطلوا أعمالكم. إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم. فلا تَهِنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلَون والله معكم ولن يَترَكم أعمالكم» (٣١ – ٣٥).

ب – ثم تأتى الفقرة الخاتمة للسورة توضح للمسلمين أن الحياة الدنيا لعب ولهو فمتاعها زائل وأمدها قصير. وأنهم إن اتقوا الله حقا سيؤتيهم أجرهم. والله لا يطلب منهم إنفاق كل أموالهم – وهو إن سألهم ذلك على لسان نبيه وألح النبى فى ذلك يبخلوا ويحقدوا وتلك هى طبيعة البشر. وها هو النبى يدعوهم إلى الإنفاق فى سبيل الله فمنهم من يستجيب بدون تردد فينال رضا الله. أما من يبخل فكأنما يريد أن يحرم نفسه ويبخل بها عن رضا الله. والله هو الغنى والناس هم الفقراء. فإن أعرضوا عن الإنفاق فى سبيل الله فإن الله لا يعز عليه أن يستبدل بهم قوما أخرين لا يكونون مثلهم فى البخل:

«إنما الحياة الدنيا لعب ولهو. وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم. إن يسألكموها فيُحفِكم تبخلوا ويخرج أضغانكم. ها أنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخلُ ومن يبخلْ فإنما يبخلُ عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» (٣٦ – ٣٨).

سورة الطلاق:

لقد رأينا أن سورة النساء (ص ٦١٠) قد نزل بها كثير من التشريعات المتعلقة بالأسرة من ناحية رعاية اليتامى وضرورة دفع مهر عند الزواج. وأوردت بعض أحكام المواريث وحددت نصيب كل وارث كما نهت عن اعتبار النساء جزءا من التركة كما كان هو العرف السائد عند العرب وقتئذ. ثم جاء تفصيل لمن يحرم الزواج منهن. ثم النص على قوامة الرجل فى الأسرة. ثم أشير إشارة سريعة إلى التحكيم لحل الخلافات الأسرية. ثم جاءت السورة الحالية لتستكمل هذه التشريعات المتعلقة بالأسرة – ولذلك تسمى أيضا **«سورة النساء الصغرى»**. وفيها ما يرسى قواعد الأسرة المسلمة ويؤمنها ضد نزعات النفس البشرية وحتى لا تكون قطيعة أو عداوة بين المسلمين إذا استحالت العشرة بين الزوجين ووقع طلاق. إذ أن الطلاق لايقف أثره عند حد انفصال الزوجين بل يمتد أثره إلى أسرتى الزوج والزوجة فكان لابد من وضع ضوابط حتى لا يكون وقوعه مجالا للتظالم وسببا للقطيعة ومنشأ للعداوات.

وتبدأ السورة بتوجيه الخطاب إلى النبى – والمقصود جميع أمته – دلالة على أهمية التوجيه الذى يحتويه. وقد سبقتها في ذلك أيضا سورة الأحزاب التى بدأت بقوله تعالى: **«يا أيها النبى اتق الله....»** (ص ٥٩٤).

«يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم. لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه. لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا. فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب. ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا» (١ – ٣).

والآيات تضع القواعد التالية وتشدد على ضرورة الالتزام بها لأنها «حدود الله» وتنذر من يتعداها بأنه سيتسبب فى ظلم نفسه:

١ – حدد الشارع للطلاق وقتا معينا. فلا يجوز الطلاق فى أثناء الحيض والنفاس ولا يجوز إيقاعه بعد طهر حصل فيه معاشرة بين الزوجين. وإنما يكون في وقت يصلح كبداية للعدة لإبراء الرحم.

٢ – فى فترة العدة لا تخرج المرأة من بيتها إلا إذا كان الطلاق بسبب ارتكاب الزوجة لفاحشة مبينة. أما ما عدا ذلك فإن المطلقة تقضى العدة فى بيت الزوجية والحكمة فى ذلك هو احتمال انبعاث المراجعة عند الزوجين والعدول عن الطلاق. وهذا يبين خطأ ما جرى عليه العرف – وما نراه على شاشة التليفزيون – من خروج الزوجة من البيت بمجرد النطق بكلمة الطلاق.

٣ – إذا انقضت العدة فعلى الأزواج إما مراجعة زوجاتهم وعودة الحياة الزوجية كما كانت أو إنفاذ الطلاق بتسريح الزوجة وإشهاد شاهدين على ذلك الطلاق.

٤ – من يتوكل على الله ييسر الله له المخارج من الضيق – المادى والنفسى – ويرزقه من حيث لم يكن يتوقع.

مدة العدة:

«واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن. وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا. ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا» (٤ – ٥).

ومفاد ذلك أن:

١ – عدة المطلقات اللاتى انقطع حيضهن لكبر سنهن: ثلاثة أشهر.

٢ – عدة المطلقات اللاتى لم يحضن لصغر سنهن: أيضا ثلاثة أشهر.

٣ – المرأة الحامل تنتهى عدتها بوضع الحمل سواء كانت مطلقة أو متوفى عنها زوجها. ومن يتق الله وينفذ أحكامه يمح عنه ذنوبه ويضاعف له الأجر والثواب.

واجبات الزوج أثناء العدة:

«أسكنوهن من حيث سكنتم من وُجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن. فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأْتَمِروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى. لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله. لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا» (٦ – ٧).

وقد وضعت الآيات القواعد التالية:

١ – يجب علي الزوج إسكان مطلقته فى زمن العدة إما فى بيت الزوجية أو سكن مماثل.

٢ – النهى عن مضايقتهن أو التضييق عليهن فى السكنى أو النفقة فيلجئوهن إلى الخروج من البيت.

٣ – الإنفاق عليهن إن كن حاملات إلى أن يلدن.

٤ – إذا أرضعت الزوجة تُعطى أجر الرضاعة وإن اختلفا فيجب على الزوج إحضار مرضعة خارجية.

٥ – تنبيه إلى أن تكون النفقة متناسبة مع حالة الزوج المادية يسرا أو عسرا. فالغنى ينفق بقدر غناه والفقير بقدر استطاعته. فالله لا يكلف البشر فوق طاقاتهم. وسيجعل الله بعد ضيق فرجا.

تحذير من مخالفة أمر الله:

وتأتى الفقرة الخاتمة للسورة تستهدف التوكيد على وجوب تقوى الله والتزام حدوده التى أنزلها فى مسائل الطلاق والعدة والرضاع ببيان أن كثيرا من القرى التى تجبَّر أهلها وأعرضوا عن أمر ربهم ورسله حاسبها الله حسابا شديدا وعذَّبها عذابا منكرا فعلى أصحاب العقول الراجحة أن يحذروا غضب الله فقد أنزل الله إليهم رسوله يتلو عليهم آياته ليخرجهم من الظلمات إلى النور ووعد لمن يلتزم بأوامر الله جنات النعيم فهو القادر الذى خلق سبع سموات وسبع أراضى وعلمه محيط بكل شىء

«وكأيِّن من قرية عتت (تمردت) **عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا. فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا. أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا. رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا. الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما»** (٨ – ١٢).

سورة البينة :

تشرح هذه السورة موقف أهل الكتاب من الإسلام فقد علموا من كتبهم – وعلم منهم مشركو مكة صفات نبى آخر الزمان وكان مقتضى ذلك أن يؤمنوا به إذا بُعث. وكان أهل الكتاب يتوقعونه من ذرية يعقوب فلما جاء من ذرية إسماعيل – وجاءهم ببينة وآية واضحة هى القرآن الكريم – اختلفوا وأخلفوا وعدهم مع أنه دعاهم إلى ما كان الأنبياء يدعون إليه من عبادة الله وحده وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتلك هى حنيفية إبراهيم وديانته القيمة:

«لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البيِّنة. رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة. فيها كتب قيمة. وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة. وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة» (١ – ٥).

ثم تمضى الآيات توضح جزاء الذين كفروا وفى مقابله ثواب الذين آمنوا:

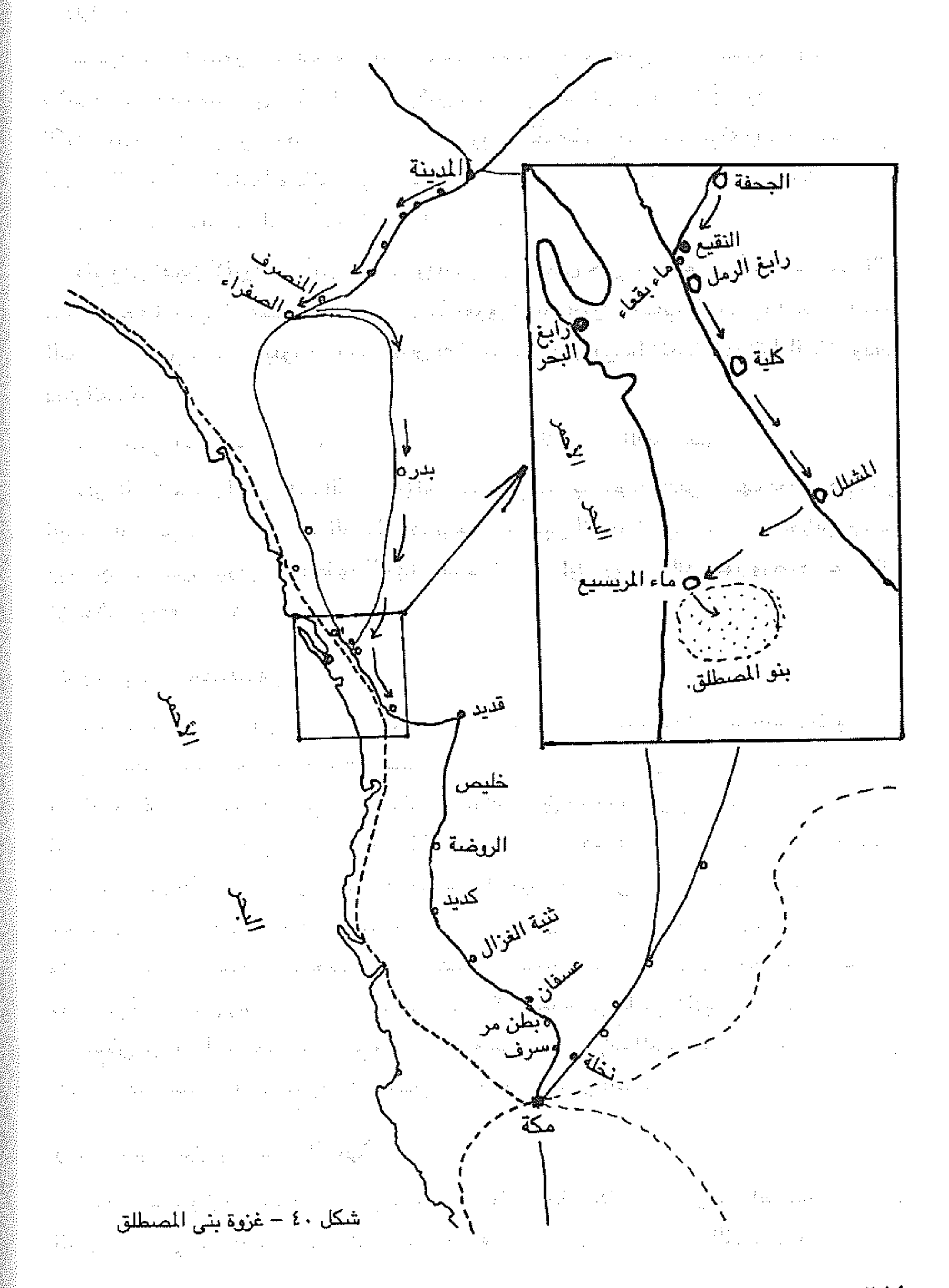
«إنَّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية. إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية (خير الخليقة)**.جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه»** (٦ – ٨).

غزوة بنى المصطلق :

بلغ رسول الله أن بنى المصطلق يجمعون لحربه وكان سيدهم وقائدهم الحارث بن أبى ضرار. فعزم النبى على أن يخرج إليهم فيغزوهم فى ديارهم. فخرج يوم ٢٥ شعبان سنة ٦ من الهجرة وسار جنوبا حتى بلغ المشلل. ثم ترك طريق مكة قبل أن يبلغ قديد وسار متجها ناحية الساحل إلى ديار بنى المصطلق (شكل ٤٠). وفاجاهم على ماء يسمى المريسيع فقتل منهم عشرة رجال وسبى من النساء والصبيان الكثير واستولى على إبلهم وماشيتهم وغنمهم ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل واحد من المهاجرين. قال ابن اسحق. أصابه رجل من الأنصار وهو يظن أنه من العدو فقتله خطأ. وجاء «مقيس بن حبابة» أخو القتيل من مكة مظهرا الإسلام فطلب دية أخيه من رسول الله فأعطاه ديته. ثم مكث مقيس أياما فى المدينة يتحين فرصة حتى إذا تمكن من قاتل أخيه فقتله ثم فر إلى مكة مرتدا عن الإسلام لذلك كان مقيس هذا من الذين أهدر رسول الله دمهم يوم فتح مكة وإن تعلقوا بأستار الكعبة (ص ٧٦٧).

زواج النبي من برة بنت الحارث:

كان المسلمون قد غنموا من غزوة بنى المصطلق غنائم كثيرة وكان فى السبايا برة بنت الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق. ولما قسم رسول الله السبايا بالقرعة وقعت برة بنت



شكل ٤٠ – غزوة بنى المصطلق

الحارث فى السهم لثابت بن قيس. فكاتبته على نفسها أى تعاهدت كتابة أن تدفع فدية وتصبح حرة. ولم يكن بيدها مال أو ذهب فراحت إلى النبى تستعين به على أمرها . ويروى ابن اسحق عن عائشة قولها: بينما النبى جالس فى خيمته سمعت امرأة تستأذن فى لقائه فقامت عائشة لترى من تلك وكما تقول عائشة: فإذا شابة فى نحو العشرين من عمرها مفرطة الملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه. ودخلت الشابه إلى النبى فقالت فى ضراعة تمازجها عزة: يا رسول الله أنا بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه وقد أصابنى من البلاء مالم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسى فجئتك أستعينك على أمرى. فتأثر النبى من مقالتها ورغب فى مساعدتها وإنجائها من مهانة السبى وعار الرق فقال لها: فهل لك فى خير من ذلك؟ فسألت وما هو يا رسول الله؟ قال: أقضى عنك وأتزوجك. وكما تقول الدكتورة بنت الشاطىء (تراجم سيدات بيت النبوة. ص ٣٥٨): تألق وجهها بفرحة غامرة وقالت وهى لا تصدق أنها قد نجت من الضياع والهوان: نعم يا رسول الله. فقال النبى: قد فعلت.

قالوا وكان أبوها قد سمع بسبى ابنته فجاء إلى النبى فى فدائها فقال له النبى: أرأيت إن خيَّرتُها أليس قد أحسنت؟ قال بلى. ثم إن برة قالت: اخترت الله ورسوله. وسمّاها النبى جويرية بدلاً من برة. قيل حتى لا يقال خرج من عند برة. وانتشر الخبر بين الناس أن رسول الله قد تزوج من جويرية بنت الحارث. وإكراما لها أطلق الناس ما بأيديهم من أسرى قومها وهم يقولون أصهار رسول الله. وبلغ عدد من أعتق من قومها حوالى مائة فما علم الناس امرأة أعظم بركة على قومها منها.

المنافقون ومحاولة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

خرج المنافقون في هذه الغزوة فى كثرة لم يخرجوا قط مثلها وعلى رأسهم عبد الله بن أبّى بن سلول وزيد بن الصلت. لا رغبة في الجهاد ولا طمعاً فى إدخال الفشل على جيش المسلمين – إذ كانوا يوقنون بانتصار المسلمين – ولكن ليصيبوا من الغنائم فخرجوا فى مظهر المؤمنين الصادقين. وقد صدق ظنهم وأنعم الله على المسلمين بالنصر ووفرة الغنائم.

وبينما الناس على ماء المريسيع تزاحم رجلان علي الماء للسقاء: سنان بن وبر من جهينة حلفاء بنى عوف بن الخزرج. والآخر جهجاه بن مسعود أجير عمر بن الخطاب واشتبك دلو سنان بدلو جهجاه فتنازعا . فضرب جهجاه سنانا فسال دمه فنادى سنان: ياللخزرج وصاح جهجاه: يالكنانة، يا لقريش. فأقبل جمع من قريش وجمع من الأنصار وشهروا السلاح حتى كادت أن تكون فتنة عظيمة. ولما سمع بها رسول الله خرج إليهم وقال: دعوها فإنها منتنة. أى دعوى الجاهلية وهى قولهم: يالفلان. فترك المضروب حقه وهدأت الفتنة.

وهنا ظهرت الحفيظة الكامنة فى قلب عبدالله بن أبى بن سلول والنفاق الكامن فى نفسه وانفلتت روابط الرياء ورآها فرصة ليؤلب الأنصار على المهاجرين فما إن علم بذلك الخلاف وكان جالسا فى رهط من قومه على شاكلته فقال: أوَقد فعلوها! والله ما رأيت كاليوم مذلة: والله إنى كنت كارها لهذا ولكن قومى غلبونى. نافرونا وكاثرونا فى بلادنا وأنكروا مِنَّتنا. وكما قال الأُول سمِّن كلبك يأكلك. والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفا يهتف بما هتف به جهجاه وأنا حاضر. والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل. يقصد بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله والمهاجرين. ثم أقبل على من معه من قومه وقال لهم مؤنبا: هذا ما فعلتم بأنفسكم. أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

وكان من بين القوم الذين أطلق ابن أبىّ لسانه أمامهم غلام صغير لم يبلغ أو قد بلغ هو زيد بن أرقم. لم يحسب القوم له حسابا لصغر سنه. وكان الغلام صادق الإيمان فلم يعجبه قول ابن أبىّ فذهب إلى مجلس رسول الله وعنده بعض المهاجرين والأنصار وفيهم عمر بن الخطاب. فذكر زيد المقالة لعمر الذى نقلها للنبى. فتغيَّر وجهه. فقال عمر للنبى: مر به أحدا فيقتله فقال النبى: ترعد له أنوف كثيرة بيثرب. ثم كيف إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه! ولكن أذِّن بالرحيل. وذلك في ساعة لم يكن النبى برتحل فيها ولكنه أراد أن يشغل الناس حتي لا يكثروا القيل والقال وينخرطوا في فتنة.

ومشى عبدالله بن أبىّ بن سلول إلى رسول الله وحلف له أنه ما قال شيئا. وقال من حضر مجلس النبى من الأنصار: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام (زيد بن أرقم) قد أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل - يدافعون عن ابن أبّى بن سلول. فقبل النبى عذر ابن سلول. وراح الأنصار يلومون زيدا بن أرقم وكذَّبوه. وقال له عمه ما أردت إلا أن كذَّبك رسول الله. وكان معظم الأنصار يقولون إن عبدالله بن أبىّ شيخنا وكبيرنا ولا يصدق عليه كلام غلام مفتون. فاستحيا زيد وصار يبتعد عن رسول الله إلى أن نزلت الآية ٨ من «سورة المنافقون» وفيها تصديقه.

ثم إن أسيد بن حضير - أحد اشراف الأنصار - لقى النبى وسأله عن سبب أمره بالرحيل فى ساعة لم يعتدها الناس فقال له النبى: أوَمَا بلغك ما قال صاحبكم؟ زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل. قال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت. هو والله الذليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله أرفق به. فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه. فإنه يرى أنك قد استلبته ملكا!

لقد لمسنا مدى الخطورة التى كادت تحيق بالمجتمع الاسلامى من جراء إثارة المنافقين الفتنة بين المهاجرين والأنصار فنزلت سورة تفضح المنافقين وتحذر منهم هى:

سورة المنافقون:

«بسم الله الرحمن الرحيم. إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون. اتخذوا أيمانهم جُنَّة فصدُّوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون. ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون. وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مُسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون. وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوَّوْا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون، سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين» (١ – ٦).

والعبارات واضحة وتخبر أن المنافقين إذا جاءوا للنبى شهدوا أنه رسول الله وجاءت جملة اعتراضية تخبر أن الله يشهد إنه رسوله. ويشهد أن المنافقين كاذبون لأنهم فى باطنهم ينكرون نبّوة «محمد» وإنما شهدوا «جُنّة» أى وقاية لأنفسهم مما قد يؤاخذوا به من جراء تكذيبهم. وكان كثير من المنافقين على وسامة وجسامة تروقان للنظر وما يقولون من أقوال تعجب السامع لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم ولكنهم يجلسون فى مجلس رسول الله بقلوب خالية من الإيمان كأنهم قطع من الخشب تحتاج لما يسندها. ومن وجل قلوبهم وإحساسهم بخطئهم يحسبون كل صيحة – حتى لو كان رجل ينشد ضالته – ظنوا أن فيها إيقاعا بهم. روى عن أبى هريرة أن النبى قال: إن للمنافقين علامات يُعرفون بها: تحيتهم لعنة وطعامهم نهبة، وغنيمتهم غلول. ولا يقربون المساجد إلا هجرا. ولا يأتون الصلاة إلا دبرا. مستكبرين لا يألفون. خشب بالليل صخب بالنهار (تفسير ابن كثير. جـ ٤ ص ٣٦٨). وإذا طلب منهم أن يأتوا إلى رسول الله ويطلبوا منه أن يستغفر لهم الله يلوون رؤوسهم استكبارا ويرفضون. ثم تخبر الآيات أن الله لن يغفر لهم حتى لو استغفر لهم الرسول. وقيل إن الآيات تشير إلى عبدالله بن أبىّ بن سلول إذ أنكر ما قاله فى حق النبى والمسلمين فلما فضحه القرآن طُلبَ منه أن يأتى رسول الله ليستغفر له فرفض. وأخبرت الآيات أن الله لن يغفر له.

«هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا. ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون. يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل. ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون» (٧ – ٨).

وفى الآيات تصديق لزيد بن أرقم وما قاله عن عبدالله بن أبىّ بن سلول. وكان ابنه – واسمه عبدالله أيضا – مخلصا فى إسلامه. فلما تأكد من مقالة أبيه أتى رسول الله وقال: يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل أبى فيما بلغك عنه. فإن كنت فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرُّ بوالده منى. إنى أخشى أن تأمر غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأكون قتلت مؤمنا

بكافر فأدخل النار. فقال النبى: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا. وقيل إن عبد الله الابن – عند عودة الجيش من تلك الغزوة وقف علي باب المدينة مستلا سيفه. فلما همَّ أبوه بدخول المدينة منعه وقال له. لا تدخل حتى يأذن رسول الله فهو الأعز وأنت الأذل فلما جاء النبى أذن له.

ثم تأتى الفقرة الخاتمة للسورة:

«يا أيها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون. وأنفقوا من مَّا رزقناكم من قبل أن يأتِيَ أحدكم الموتُ فيقولَ رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدقَ وأكن من الصالحين. ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون» (٩ – ١١).

وفى الآيات تحذير للمؤمنين من أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن الصلاة وذكر الله ثم حث لهم علي الإنفاق فى سبيل الله قبل أن يداهمهم الموت فيندموا ويتمنوا على الله أن يؤخر أجلهم حتى يتصدقوا ويكونوا من الصالحين. ثم تقرير بأن الله لن يؤخر نفسا عن أجلها المحدد لها.

ولعل هذه الآية جاءت ردا على الآية السابقة لها والتى حكت أن المنافقين كانوا ينهون عن الإنفاق علي أنصار النبى حتى ينفضوا من حوله. فجاءت هذه الآيات تحث المؤمنين على الإنفاق. وجدير بالذكر أن التجهيز لأى معركة مع العدو – لم يكن كما فى أيامنا هذه – ينفق عليه من «ميزانية الدولة» بل كان كل محارب يشترى لنفسه السلاح ويأخذ معه الزاد ويترك لأهله ولأولاده النفقة مدة غيابه ومن هنا كان الحث على الإنفاق فى هذا السبيل.

العودة من غزوة بنى المصطلق وحديث الإفك:

لقد ذكرنا الفتنة التى كادت أن تقع بين المهاجرين والأنصار والتى استغلها رأس النفاق – عبدالله بن أبىّ بن سلول – لمحاولة بث الفرقة بين المسلمين. فرأى الرسول بحكمته أن يشغل الناس عن الخوض فى الأمر. فأمر أن يؤذَّن للرحيل وكان وقت الظهيرة. وسار بالناس حتى جاء الليل وسار أيضا طوال الليل حتى أصبح وشطرا من اليوم التالى حتى أصاب الناس التعب الشديد فلم يلبثوا أن أناخوا حتى وقعوا نياما. فلم تكن هناك فرصة للقيل والقال وإثارة الخلافات.

وكان من عادة رسول الله عند خروجه لغزوة يُتوقَّع طول مدتها أن يجرى قرعة بين نسائه وأيُّهن يخرج سهمها تصحبه. وعندما تأهب لغزو بنى المصطلق خرج سهم عائشة وكان أن جلست فى الهودج. وكانت نحيفة ضئيلة الجسم. ثم يأتى الرجال فيحملون الهودج ويضعونه على ظهر البعير ويشدونه بالحبال. ثم يأخذون برأس البعير وينطلقون به. ويفعلون ذلك كل مرة حين يُنيخون للراحة.

ثم تابع النبى مسيرة العودة إلى المدينة فسلك الحجاز حتى نزل على ماء يسمى «بقعاء» قرب «النقيع» واستراح القوم يوما ثم تابعوا السير فى اليوم التالى حتى أصبح قريبا من المدينة فنزل منزلا بات فيه بعض الليل ثم استأنفوا الرحلة ولما يطلع النهار بعد.

ونترك السيدة عائشة تروى بنفسها ما حدث فى تلك الليلة إذ تقول إنها خرجت لبعض حاجتها وفى عنقها عقد ثمين فلما فرغت تحسَّست العقد فلم تجده فرجعت إلى الرحل وبحثت عنه فلم تجده فحدَّست أنه سقط منها أثناء قضاء حاجتها فرجعت إلى المكان وبحثت طويلا حتى وجدته. وفى هذه الأثناء كان الرجال الموكلون بهودجها قد حملوه ظانين أنها به. ولم يلمسوا فرقا فى ثقل الهودج لنحافتها وخفة وزنها ولم يتنبَّه الرجال إلى غيابها فوضعوا الهودج على ظهر البعير وأخذوا برأس البعير وانطلقوا به. ولما رجعت السيدة عائشة إلى مكان القافلة وجدتها قد رحلت فتلففت بجلبابها ثم اضطجعت فى مكانها وهى لاتشك فى أنهم سيفتقدونها ويرجعون لأخذها. ثم تكمل السيدة عائشة: فبينما هى مضطجعة إذ مرَّ بها المعطَّل السلمى وكان قد تخلف عن الركب. فلما رآها قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ظعينة – أى زوجة – رسول الله! وسألها ما خلَّفك يرحمك الله؟ فلم ترد عليه حياء. فقرب إليها البعير الذى كان معه قال: اركبى واستأخر عنها. فركبت وأخذ برأس البعير وانطلق سريعا ليلحق بالقافلة فلم يدركها بالطريق. وكان النبى ومن معه قد وصلوا المدينة وافتقدوا عائشة. وإن هى إلا ساعات حتى طلع المعطَّل يقود الناقة وعليها عائشة فقال أهل الإفك ما قالوا وهى لا تعلم.

ثم إن عائشة مرضت فلم تكن تخرج من بيتها ولم يبلغها شىء مما أثير حولها وحول المعطل السلمى. وكان أكثر من خاضوا فى الحديث عبدالله بن أبىٍّ بن سلول. ومسطح. وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش زوجة النبى أما زينب نفسها فلم تتكلم عن عائشة إلا خيرا.

وانتهى الحديث إلى رسول الله وأبى بكر وزوجته فلم يذكروا منه شيئا لعائشة إلا أن عائشة لمست جفوة من رسول الله إذ لم يعد يتلطف معها كما كان يفعل سابقا إذا مرضت. فإذا دخل ووجد عندها أمها تمرِّضها يقول: كيف تيكم؟ ولا يزيد عن ذلك. فلما لمست عائشة هذا الجفاء قالت له: لو أذنت لى فانتقلتُ إلى بيت أمى فتُمرِّضنى فقال: لا عليك. فانتقلت إلى بيت أبيها وهى لا تدرى شيئا عما يثار حولها حتى نقهت بعد بضع وعشرين ليلة. وذات ليلة خرجت لقضاء حاجتها فى الصحراء حول المدينة وكان معها أم مسطح خالة أبى بكر الصديق والدها. وبينما هى تمشى بجوارها عثرت أم مسطح فى ثوبها فقالت: تَعِسَ مسطح. فقالت عائشة: بئس لعمرو الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً. فردّت أم مسطح: أوَ ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر؟ قالت: وما الخبر؟ فأخبرتها بالذى كان من قول أهل الإفك. فرجعت عائشة وهى تبكى وقالت لأمها: يغفر الله لك. تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا! فقالت أمها: أى بنية. خفِّفى عليك الشأن. فوالله لقلَّما كانت امرأة حسناء عند رجل

يحبها لها ضرائر إلا وكثّر الناس عليها.

ولما أكثر الناس من القيل والقال فى هذا الموضوع قام رسول الله فى الناس يخطبهم. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس. ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق. والله ما علمت منهم إلا خيرا. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا. وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى. فلما قال رسول الله ذلك قال أسيد بن حضير – وهو من الأوس – يا رسول الله. إن يكونوا من الأوس نكفهم وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن نضرب أعناقهم. فقام سعد بن عبادة – وهو من الخزرج – فقال: كذبت لعمرو الله لا تضرب أعناقهم. أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا. فقال أسيد : كذبت لعمرو الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين. وتشاجر الناس حتى كادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج.

ودخل رسول الله على عائشة فى بيت أبيها. ودعا عليا بن أبى طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما. فأما أسامة فأثنى على عائشة خيرا. وأما على فإنه قال: يا رسول الله إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف وسل الجارية فإنها ستصدقك. فدعا رسول الله بريرة الجارية ليسألها وقام إليها على بن أبى طالب وضربها ضربا شديدا وهو يقول اصدقى رسول الله. فقالت والله ما أعلم إلا خيرا. وما كنت أعيب على عائشة إلا أنى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله. فانصرف رسول الله.

ثم إن رسول الله دخل علي عائشة وعندها أبواها وهى تبكى. فجلس وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا عائشة. إن كان قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقى الله وإن كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده. وانتظرت عائشة أن يجيبه أبواها فلم يتكلما. فقالت لهما: ألا تجيبان رسول الله. فقالا والله لا ندرى بماذا نجيبه. فبكت عائشة بكاء حارا ثم قالت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدا والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس – والله يعلم أنى منه بريئة – لأقولنَّ مالم يكن. ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى. ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون، وتقول عائشة: فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسُجِّىَ بثوبه ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه. فلما سرى عنه جلس وإن العرق ليتحدر منه فجلس يمسحه عن جبينه وقال: أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك. فقالت أمها: قومى إليه. فقالت عائشة: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل.

ثم خرج رسول الله إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل عليه من القرآن وهو «**سورة النور**» وفيها حد قذف المحصنات. ولما كان قد نزل فى سورة النساء (الآية ١٥ ص ٦١٣) تشريع إثبات جريمة الزنا فى قوله تعالى: «**واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا**

عليهن أربعة منكم» ولما كان المتحدثون بالإفك لم يأتوا بالشهداء الأربعة فلم يكن لهم أن يتكلموا به بل كان واجبهم استنكاره أو عدم ترديده. ولكن مسطح وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش كانوا ممن أفصح بالفاحشة وبالغ فى ترديدها وإذاعتها بين الناس فأمر رسول الله بتطبيق الحد على هؤلاء الثلاثة.

سورة النور:

وتتضمن السورة تشريعات لصون الأمة من الآثام وتحصينها من الرذائل:

١ – حد الزنا:

«بسم الله الرحمن الرحيم. سورة أنزلناها وفرضناها (أوجبنا أحكامها) **وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون. الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين»** (٢١)

وكان الحكم – حسب ما نزل فى سورة النساء (ص ٦١٣) – هو **«فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا»** فلما نزلت سورة النور قال النبى: خذوا عنى، خذوا عنى. قد جعل الله لهن سبيلا. البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم.

٢ – تحريم زواج المؤمنين من الزانيات:

«الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحُرِّم ذلك على المؤمنين» (٣).

٣ – حد قذف المحصنات:

«والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون. إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم» (٤ – ٥).

٤ – اتهام الزوج لزوجته بالزنا واللعان بين الزوجين

«والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. والخامسةُ أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين. والخامسةَ أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم» (٦ – ١٠).

وروى البخارى عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى بشريك بن سمراء

فقال النبى: البينة أو حدٌ فى ظهرك (أى الجلد). فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبى يقول: البينة وإلا حد فى ظهرك. فقال هلال: والذى بعثك بالحق إنى لصادق ولينزلن الله ما يبرىء ظهرى من الحد. فنزل جبريل بالآيات فأرسل النبى إليهما فشهد هلال فرفع عنه حد القذف. وشهدت هى أيضا فرفع عنها حد الزنا والنبى يقول: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما من تائب؟ واللعان إنما يكون فى حالة تعذر إقامة البينة على الزوجة. أما فى حالة إمكان ذلك فليس له محل ويقام الحد.

٥ – حادث الإفك:

«إن الذين جاءوا بالإفك عصبه منكم. لا تحسبوه شرا لكم. بل هو خير لكم. لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم (تزعَّم إذاعته) له عذاب عظيم. لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين. لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون. ولولا فضل الله علكيم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسَّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم. إذ تلقُّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم. ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم» (١١ – ١٨).

٦ – نهى عن إذاعة أخبار الفواحش بين المسلمين:

«إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم. يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان (بإشاعة الفاحشة) **ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زَكَى منكم من أحد أبدا ولكن الله يُزكِّى** (أى يُطهِّر) **من يشاء والله سميع عليم»** (١٩ – ٢١).

وكان أبو بكر ينفق على مسطح لفقره ولقرابته فهو ابن خالته، فأقسم أبو بكر ألاَّ ينفق عليه بعد ما قال فى ابنته عائشة ما قال. فنزل قوله تعالى:

«ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا. ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» (٢٢).

فقال أبو بكر: والله إنى أحب أن يغفر الله لى وأعاد إلى مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً. والآية وإن نزلت فى حادثة معينة إلا أنها تضع قاعدة عامة فى تغليب الرأفة والجنوح إلى كظم الغيظ والعفو وعدم منع المعرنة عمَّن رتَّب نفسه عليها.

٧ – تحذير لمروّجى الشائعات المسيئة للمؤمنات:

«إن الذين يرمون المحصنات الغافلات (لا يُظن فيهن الإثم) المؤمنات لُعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم. يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين. الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مُبَرَّءُون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم» (٢٣ – ٢٦).

وفى الآيات تحذير للمرجفين ومذيعى الشائعات المسيئة للمؤمنات وخاصة الطاهرات اللاتى لا يُظَن أن يصدر منهن إثم. تحذرهم الآيات من عذاب عظيم يوم القيامة ولن يستطيعوا الإنكار لأن ألسنتهم وباقى أعضائهم ستشهد عليهم بما فعلوا ويومئذ يجازيهم الله بما يستحقونه ويعلمون أن الله يحكم بالحق والعدل. ثم تضع الآيات قاعدة عامة وهى أن الطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين. فلا يُتَصوَّر صدور الفاحشة من امرأة طيبة تعيش فى كنف زوج طيب طاهر.

٨ – آداب دخول المنازل:

«يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتي تستأنسوا وتُسلِّموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكَّرون. فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم. وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم. ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون» (٢٧ – ٢٩).

وروى الزمخشرى أن أبا بكر قال : يا رسول الله إنه قد أنزل عليك آية الاستئذان وإنا نختلف فى تجارتنا فننزل هذه الحانات. أفلا ندخلها إلا بإذن؟ فنزلت الآية الثانية تستثنى منازل السابلة التى يأوى إليها الرجال حينما ينزلون منزلا فى رحلاتهم الطويلة.

٩ – سد ذرائع الفاحشة فى المجتمع الإسلامى:

وذلك يكون بأمرين : ١ – غض البصر من الرجل والمرأة.

٢ – عدم إظهار الزينة وعدم التبرج من النساء.

«قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غيرِ أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء. ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن. وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون» (٣٠ – ٣١).

وفى الآيات نهى للرجال عن النظر إلى عورات النساء ومواطن الزينة منهن وأن يصونوا فروجهم بعدم الاتصال غير المشروع. وأمرت المؤمنات أيضا بغض البصر وأن يصُنَّ فروجهن بعدم الاتصال غير المشروع وألا يُظهرن للرجال ما يغريهم مثل الصدر والعضد وموضع القلادة. إلا ما يظهر من غير إظهار مثل الوجه والكفين. وعليهن ألا يسمحن بظهور محاسنهن إلا لأزواجهن والأقارب الذين يحرم التزويج منهن تحريما مؤبدا كالأباء أو الأبناء أو أبناء أزواجهن من غيرهن أو الإخوة أو أبناء الإخوة أو أبناء الأخوات. أو الرجال الذين لا يوجد عندهم حاجة أو ميل إلى النساء كالطاعنين فى السن وكذلك الأطفال الذين لم يبلغوا سن الشهوة. كما أن على النساء أن لا يفعلن شيئا يلفت نظر الرجال إلى ماخفى من الزينة مثل الضرب فى الأرض بأرجلهن ليسمع صوت خلاخيلهن المستترة بالثياب.

١٠ – ترغيب فى التزويج حتى لو كانوا فقراء:

«وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم. إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم» (٣٢).

والأيامى هم غير المتزوجين رجالا ونساء. وفى الآية أمر ترغيب فى تزويج من لم يتزوج من الرجال والنساء مادامو علي دين وخلق وألا يكون الفقر سببا للعزوف عن الزواج منهم أو منهن. والأحاديث النبوية فى ذلك عديدة أشهرها: تنكح المرأة لجمالها أو لمالها أو لدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك.

«وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتي يغنيهم الله من فضله...»

وفى هذا حث لمن لا يجدون القدرة علي التكاليف المادية للزواج باتباع وسيلة تحد من شهواتهم كالصوم والرياضة يعفُّون بها أنفسهم حتي يهيء الله لهم من فضله ما يستطيعون به الزواج. والحديث الشريف معروف: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء.

١١ – العبد يفتدى نفسه ليصبح حُرا:

«والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم....»

والمكاتبة كانت عادة من عادات العرب وكانت وسيلة لتحرير الرقيق بأن يعقد العبد كتابا مع سيده بأن يدفع مبلغا من المال نقدا أو على أقساط فى مدة تحدد فى الكتاب يصبح العبد بعدها حُرا ولا يجوز لمالكه أن يعود فى مكاتبته أو يتصرَّف فيه ببيع أو هبة فى خلال هذه المدة. وحينما يؤدى العبد ما عليه يتحرر هو وأولاده. أما إذا نكث العبد ولم يف بما تعهد به سقطت المكاتبة. وقد روى حديث عن النبى أنه قال: أيما عبد كاتَبَ على مائة دينار فأداها إلا عشرة دنانير فهو عبد. وبعض الفقهاء يرون أن السيد مخير في قبول المكاتبة من عبده أو

رفضها. وبعض آخر يرون وجوبها لقوله تعالى: **«فكاتبوهم»**. إلا أن الفريق الأول يرى أن جملة **«إن علمتم فيهم خيرا»** جعلت الأمر منوطا بتقدير المالك. أى فإن علِمَ أن العبد سيصدق فى الوفاء ويستطيع الأداء. وجبت المكاتبة وعن أبى هريرة أن النبى قال: ثلاث حق على الله عونهم: المكاتب الذى يريد الأداء. والناكح الذى يريد العفاف والمجاهد فى سبيل الله. ويستحب للمالك أن يعين العبد علي الوفاء بالمكاتبة بتخفيف ما اتفق عليه. وقيل يُعطَى من مال الزكاة. واشترط بعض الفقهاء أن يكون للعبد حرفة يتكسب منها حتى لا يُطلق حراً يتسول الناس.

١٢ - عدم إكراه الإماء على البغاء:

«ولا تكرهوا فتياتكم على البِغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم» (٣٣).

وكان بعض أثرياء العرب يشترون الجوارى وخاصة الجميلات منهن للتكسب من أجر زناهن وبيع أولادهن أو الاستيلاء على مهرهن إن تزوجن. فكانوا يقيمون لهن خياما يعلقون عليها رايات حمر دلالة على أنها مباحة للرجال بعد دفع أجر. وهى بهذا تشبه بيوت البغايا المنتشرة حاليا في كثير من المدن الأوروبية والأسيوية. والآية تنهى عن إجبار الجوارى على هذه الممارسة إن رفضنها. وتروى كتب التفسير (ابن كثير جـ ٣ ص ٢٨٨) أن الآية نزلت فى أمَة لعبد الله بن أبىّ بن سلول كان يكرهها على الفجور فنزلت الآية تقرر حق الأمة فى الرفض وتخبرهن أن الله غفر لهن ما أكرهن عليه.

وبعد نزول هذه السلسلة من التشريعات التي بها يصلح أمر المجتمع المسلم جاء أمر يوجوب اتباعها وتذكير بما حلّ بالأمم السابقة الذين عصوا أمر ربهم ليكون في ذلك عظة لهم:

«ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين» (٣٤).

نـور على نـور:

وهى الآية التى أعطت للسورة اسمها **«سورة النور»** وقد احتوت الآية تمثيلا لنوره سبحانه وتعالى بما يمكن أنه يفهمه الناس. فنوره مثل مصباح وضع فى المشكاة وهى كوة البيت المخصصة له لتمنع عنه تيارات الهواء ولتزيد من نوره. والمصباح موضوع فى زجاجة من زجاج غاية فى الصفاء بحيث يلمع المصباح لمعانا شديدا وكان العرب يسمون النجم الشديد اللمعان والسطوع «كوكبا دريا» ووضع فى المصباح زيت من شجرة زيتون مباركة تنبت فى أحسن البقاع وأكثرها اعتدالا فلا هى فى أقصى الشرق عند الهند مثلا المعروفة بشدة حرارة شمسها مما يؤثر بالسلب على ثمارها وزيتها ولا هى فى أقصى الغرب مثل أوربا حيث تشتد البرودة. بل تنمو فى منطقة معتدلة الحرارة فجاء زيتها غاية فى الصفاء. فالزيت الصافى الموضوع فى مصباح مصنوع من زجاج فى غاية الصفاء يكاد أن يضىء من غير نار.. وهذا مَثَل لنور الله. نور على نور يضىء السموات والأرض:

«الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح. المصباح فى زجاجة. الزجاجة كأنها كوكب درِّى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار. نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيىء عليم» (٣٥).

وكانت مشاكى بيوت العبادة أكبر المشاكى ونورها أقوى الأنوار فجاءت الآية التالية لتبين أن المشكاة المشار إليها هى كإحدى المشاكى فى المساجد التى تقام فيها الصلوات. وذكرت بعض صفات المؤمنين الذين يعمرونها:

«فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والأصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار (يوم القيامة وفيه القلق على المصير). **ليجزِيَهم الله أحسنَ ما عملوا ويزيدَهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب»** (٣٦ – ٣٨).

وقد أورد المفسرون أحاديث عديدة فى فضل بناء المساجد والعناية بطهارتها وتنزيهها عما لا يليق بها وفيما يلى بعضها:

- من بنى لله مسجدا يتقى به وجه الله بني الله له مثله فى الجنة.
- إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد قولوا له لا أربح الله تجارتك وإذا رأيتم من ينشد ضالة فى المسجد فقولوا لا ردها الله عليك.
- لا تتخذوا المساجد طريقا ولا يشهر فيها سلاح ولا ينبض.
- ويُكره تزيين المساجد لقول النبى: ما أمرت بتشييد المساجد أزخرفها كما زخرفت اليهود والنصارى.

وفى مقابل عُمَّار المساجد الذين لا تلهيهم تجارة أو بيع عن ذكر الله جاء ذكر الكافرين:

«والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريع الحساب. أو كظلمات في بحر لُجِّىٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب. ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور» (٣٩ – ٤٠).

ففى مقابل التنويه بعباد الله الصالحين جاء تنديد بالكفار الذين لم يهتدوا بنور الله. فأعمالهم خاسرة كمثل السراب الذى يراه الظمآن بأرض منخفضة «بقيعة» وقت الظهيرة فيظنه ماء فإذا جاءه أصابته خيبة أمل مريرة أو كمثل الذى هو فى بحر عميق «لُجّىّ» تتلاطم فيه الأمواج بعضها فوق بعض وادلهمَّ وجه السماء بالسحب الداكنة فكانت ظلمات فوق ظلمات بحيث لو بسط يده لا يكاد يراها. والتمثيل بالغٌ فى تصوير الموقف ومن شأنه إثارة الخوف فى نفوس السامعين من الكفار وهو ما استهدفته الآيات.

مظاهر من قدرة الله:

«ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافَّات (باسطات أجنحتهن) **كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون. ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير. ألم تر أن الله يُزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الوَدْقَ يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار. يُقلِّب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار. والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير. لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»** (٤١ – ٤٦).

والآيات واضحة تلفت النظر إلى مظاهر من قدرة الله ونواميسه الكونية وكل ما في السموات والأرض يسبح لله ويخضع لإرادته. والطير باسطة أجنحتها وكل شيء قد علم بالفطرة عبوديته لله فراح يصلى ويعبده ويسبح بحمده. ثم تلفت الآيات النظر إلى قدرة الله فى تكوين السحاب ويرى علماء الأرصاد الجوية فيها إعجاز علميا فالمعروف أن السحب الركامية الممطرة تبدأ قطعا متناثرة ثم تتجمع **«يؤلف بينه»** فتتكون السحب الداكنة اللون المحملة بقطرات الماء **«الودق»** وتنمو السحابة فى الاتجاه الرأسى فترتفع أحيانا إلى علو ١٥ أو ٢٠ كم فتبدو كالجبال وتتجمد قطرات الماء فتصبح بَرَدا **«من جبال فيها من برد»** ثم تبدأ مرحلة الهطول إذ ينزل المطر عندما تقابل السحابة سحابة أخرى مختلفة الشحنة فيحدث تفريغ كهربائى هو البرق الذى يخطف الأبصار **«يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار»** أما تقليب الليل والنهار فهو تتابعهما واختلاف أحوالهما طولا وقصرا حسب فصول السنة. ثم لفت نظر إلى بديع خلق الله وتنوعه فالحيوانات – رغم أنها كلها لها أصل مشترك وهو الماء – فهى جدُّ متنوعة فالزواحف تمشى على بطنها والإنسان والطير يمشى على رجلين والأنعام والبهائم تمشى على أربع. وهكذا يخلق الله ما يشاء فهو القادر على كل شيء. وهذه آيات واضحة بيِّنة يؤمن ويهتدى بها من شاء الله له الهداية.

المنافقون لا يرضون بالنبى حكَمًا:

«ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين. وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف (يحيد عن العدل فيظلمهم) **الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون. إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون. ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون»** (٤٧ – ٥٤).

وفى الآيات تنديد بفريق من المنافقين كانوا يرفضون التحاكم إلى النبى إذا كان الحق فى جانب خصومهم. أما إذا كان الحق فى جانبهم رضوا بالتحاكم إليه. وتتساءل الآيات عما إذا كانت نفوسهم المريضة قد أصابها العمى أم أنهم يشكون فى عدالة النبى. لاشىء من ذلك طبعا ولكنهم ظالمون فالمؤمنون الصادقون هم الذين يرضون بالتحاكم إلى الله ورسوله ويذعنون لحكمه.

المنافقون يتظاهرون بطاعة الرسول:

«وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرُجُن. قل لا تقسموا طاعة معروفة. إن الله خبير بما تعملون. قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولَّوْا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُملتم. وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين» (٥٣ - ٥٤).

وكان المنافقون يحلفون للنبي أنهم سيطيعونه لو أمرهم بالخروج للقتال، وأُمر النبى بأن يقول لهم ألا يحلفوا. فالمطلوب منهم معروف، وهو طاعة الله وطاعة الرسول فإن رفضوا فهم مسئولون عن أفعالهم والرسول مسئول عما أوجبه الله عليه من تبليغٍ ودعوةٍ للحق.

بشرى للمسلمين:

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكِّننَّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدِّلنهم من بعد خوفهم أمنا. يعبدوننى لا يشركون بى شيئا. ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم تُرحمون. لا تحسبنَّ الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير» (٥٥ - ٥٧).

وفى الآيات وعد من الله للمؤمنين باستخلافهم فى الأرض وجعلهم أصحاب السلطان وبتوطيد دينهم الذي ارتضاه الله لهم فيصبحون آمنين في أوطانهم. ثم يأتى حث على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الرسول وعلى النبى - والمسلمين - ألا يظنوا أن الكافرين سيعجزون الله هربا في الأرض فهو محيط بهم قادر على البطش بهم وفى الآخرة لهم عذاب النار.

وجوب الاستئذان عند الدخول على الغير فى أوقات الراحة:

«يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات. من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء. ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض. كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم. وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم. كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم» (٥٨ - ٥٩).

«ثلاث عورات» أى ثلاث حالات لا تحبون أن يراكم الناس فيها. وروى أن بعض المسلمين

اشتكوا إلى النبى من دخول غلمانهم عليهم فى أوقات خلوة وحرية شخصية وتحلل من لباس الحشمة أو عند تغيير الملابس أو غير ذلك. فهذه الأوقات كأنها عورة يجب المرء سترها. فنزلت الآيات تأمر العبيد ذكورا وإناثا بضرورة الاستئذان. أما فى غير هذه الأوقاف فلا حرج عليهم فى الدخول بغير استئذان. أما الأطفال الصغار فلا حرج عليهم فى الدخول فى هذه الأوقات أما إذا بلغوا الحلم فعليهم أن يستأذنوا.

التخفيف عن كبار السن من النساء:

«والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم» (٦٠).

وفى الآيات تخفيف عن النساء اللاتى قعدن فى بيوتهن - وليس لهن رجاء فى زواج - فلا مانع من طرحهن ثيابهن الزائدة وعدم التشدد فى التستر على شرط أن لا يكون ذلك بقصد إبراز الزينة والمفاتن من الجسم. وتقرير بأن الاحتشام فى الملبس هو الأفضل. وكانت الآية ٣١ من السورة (ص ٦٥٣) قد أمرت المرأة بتغطية أجزاء البدن وكشف الوجه واليدين فقط وعدم إظهار الزينة وأماكنها لغير المحارم. فجاءت الآية الحالية تستثنى النساء كبيرات السن اللاتى لا يُخاف من الافتتان بهن.

آداب المؤاكلة:

قيل إن الناس كانوا يتقززون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يبصر فيجول بيده فى الطعام ومع الأعرج لانبساط جلسته ومع المريض. وكانت هذه الفئات يمتنعون عن الأكل مع غيرهم تفاديا للحرج .فنزلت الآيات ترفع الحرج عن المسلمين فى مؤاكلتهم وترفع الحرج عن الجميع فى الأكل فى بيوت أقربائهم أو أصدقائهم وتنبه إلى تبادل السلام والتحية عند دخول بيوت الغير:

«ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم. ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا. فإذا دخلتم بيوتا فسلِّموا على أنفسكم (أى يسلم بعضكم على بعض) **تحية من عند الله مباركة طيبة. كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون»** (٦١).

وقيل (تفسير الألوسى جـ ١٨ ص ٢١٩) لم تذكر بيوت الأبناء لأنها داخله فى بيوت المخاطبين. والحديث الشريف يقول «أنت ومالك لأبيك». وقالوا إن الخطاب فى الآية مطلق بحيث يشمل الرجال والنساء. ومن المفسرين من يرى أنه ليس من حرج أن يتشارك الرجال والنساء معا فى الأكل من مائدة واحدة فى حدود الآية ٣١ من السورة .

آداب مجلس النبى:

وهذه هى الفقرة الخاتمة للسورة:

«إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع (اجتماع لأمر هام) **لم يذهبوا حتى يستأذنوه. إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله. فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم. لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا. قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لِواذا** (متخفين) **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم. ألا إن لله ما فى السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يُرجعون إليه فينبئهم بما عملوا. والله بكل شىء عليم»** (٦٢ - ٦٤).

وقد سبق أى ذكرنا (ص ٥٨٥) أن المفسرين قد أجمعوا على أن هذه الآيات نزلت أثناء حفر الخندق إذ كان بعض المنافقين يتسللون خفية حتى لا يشتركوا فى العمل فى حين أن المؤمنين الصادقين كانوا - إذا أرادوا الذهاب لبعض شأنهم - يستأذنون من النبى. ووضعت هذه التعليمات في صيغة قاعدة لآداب السلوك فى مجالس النبى عموما. كما نهت الآيات عن مناداة الرسول باسمه العادى كما يخاطب بعضهم بعضا وتنبههم إلى وجوب التبجيل والتوقير فى مخاطبة النبى.

وفاة بعض المهاجرين:

لما توفى بالمدينة عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس إن من قتل فى سبيل الله أفضل ممن مات في غير معركة. فنزلت الآية التالية من سورة الحج لتسوى بينهما وتقرر أن الله سيرزقهم جميعا رزقا حسنا.

«والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قُتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين. ليدخلنهم مُدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم (٥٨ - ٥٩ الحج). وهذا يتسق مع ما جاء فى سورة النساء (الآية ١٠٠ ص ٦٢٧): **«ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله»**. فمن خرج مهاجرا ومات فى الطريق كان أجره على الله. ومن باب أولى أن من هاجر وعاش بالمدينة زمنا ثم مات - فى غير معركة - فله أجر حسن عند الله.

ثم استمرت السور تنزل تُشرِّع للمجتمع المسلم فى المدينه ما يلزم ليكون مجتمعا مثاليا.

سورة المجادلة:

كانت عادة الظهار منتشرة بين العرب. وبالرغم من أن سورة الأحزاب (الآية ٤ ص ٥٩٥) جاء فيها استنكار لهذه العادة **«وما جعل أزواجكم اللاتى تظاهرون منهن أمهاتكم»** إلا أن الظهار لم يختف كلية فجاءت الآيات الأولى من سورة المجادلة لتكون حاسمة فى تشريع

إبطالها وبيان كفَّارة مرتكبها. وكانت مناسبه نزول هذه الآيات أن خولة بنت ثعلبة وزوجها - ابن عمها - أوس بن الصامت - أخو عبادة بن الصامت - كانت تصلى. فلما فرغت من صلاتها أرادها زوجها فأبت عليه فغضب وقال لها: أنت عليَّ كظهر أمي. ثم ندم على ما قال وأرادها فرفضت ألا أن تأتى النبى تستشيره. فاستأذنت على النبى وهو فى بيت عائشة وقالت يا رسول الله إن زوجي ظاهر مني وقد ندم فهل من شيء يجمعنى وإياه؟ فقال: ما أراك إلا حرمت عليه. فقالت يا رسول الله والله الذى أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقا وإنه أبو ولدى وأحب الناس إليّ. فقال: ما أراك إلا حرِّمت عليه ولم أُومر فى شأنك بشيء. فجعلت تراجع رسول الله فلما أخبرها مرة أخرى أنها قد حرمت عليه. قالت: اللهم إني أشكو إلى الله فاقتى وحاجتى وشدة حالى. وإن هى إلا لحظات وقد نزل الوحى على رسول الله. فلما قضى الوحى قال للمرأة: ادعى زوجك. فلما دعته تلا عليه الآيات ثم قال له: هل تستطيع أن تعتق رقبة؟ فقرر أنه فقير لا يقدر. فسأله إن كان يستطيع صيام شهرين متتابعين فقال إنه مريض ويخشى الهلاك إن صام فسأله إن كان يستطيع أن يطعم ستين مسكينا فقال: لا والله إلا أن تعيننى على ذلك يا رسول الله. فأعانه بخمسة عشر صاعا ودعا له بالبركة ورجعت المرأة إلى زوجها. وكانت الآيات التى نزلت فى هذا الشأن هى الآيات الأربع الأولى من سورة المجادلة:

«قد سمع الله قول التى تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير. الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهنَّ أمهاتهم إن أمهاتُهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور. والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسَّا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير. فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم» (١ - ٤).

بعد ذلك تناولت السورة موضوعات عدة:

نهى عن معاداة الله ورسوله:

«إن الذين يحادُّون الله ورسوله كُبِتوا كما كُبِت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين. يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد» (٥ - ٦).

وفى الآيات تهديد وإنذار لمن يعادون الله ورسوله بأن لهم ذل وخزى «**كبتوا**» كما كان مصير أمثالهم من قبل. والذين يتمادون فى المعاداة كافرون ولهم عذاب عظيم فى الآخرة إذ يجدون أعمالهم محصاة عليهم فى حين أنهم قد نسوا كثيرا منها.

وكان المعادون للنبى من داخل المدينة هم بعض اليهود الذين أسلموا فى الظاهر. وانضم إليهم من والاهم من المنافقين. وكان هؤلاء يعقدون اجتماعات سرية يتحدثون فيها بإثم ويحثون على معصية الرسول. والحديث بين اثنين هو إسرار أما أكثر من اثنين فهو نجوى وغالبا ما يكون فى إثم. ومن علامات هؤلاء المتناجين أنهم حين يأتون إلى النبى يلوون ألسنتهم بالتحية

فكانوا يقولون: السام عليكم بدلا من السلام عليكم. والسام هو الموت. وكان نفر من اليهود – بعد إجلائهم عن المدينة – يترددون عليها لمبادلات تجارية وللإلتقاء بالمنافقين ومناجاتهم وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم عليهم. ويقابلون النبى ويتحدُّونه فيما يقول حسب ما رتَّبوا فى نجواهم. وفى حديث عن عائشة قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله فقالوا السام عليك ففهمتها وقالت عليكم السام واللعنة فقال رسول الله:مهلا يا عائشة فإن الله يحب الرفق فى الأمر كله. فقالت يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال فقد قلت وعليكم.

«ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض. ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم. ألم تر إلى الذين نُهُوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول. وإذا جاءوك حيُّوك بما لم يُحيِّك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول. حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير. يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون. إنما النجوى من الشيطان لِيَحزُن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (٧ – ١٠).

آداب مجلس الرسول:

روى المفسرون أن المسلمين كانوا يتحلَّقون حول النبى ويتزاحمون على القرب منه فكان يأتى آخرون فلا يجدون مكانا فيظلون وقوفا. كما كان النبى يرغب فى تكريم بعض كبار الصحابة أو رجال بدر فى مجلسه فيطلب من أحد الجالسين التفسُّح ليجلس هؤلاء أو ترك مجلسه لغيره فيستثقل ذلك ويكرهه فنزلت الآيات:

«يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشُزوا (انهضوا) فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير» (١١).

عند استفتاء الرسول:

روى المفسرون أن الناس كانوا يسألون النبى اجتماعا خاصا لبعض شئونهم التى لا يريدون إطلاع الغير عليها. فأكثروا حتى شق عليه وأراد الله أن يخفف عنه فأمرهم بتقديم صدقة قبل القدوم لاستفتاءاتهم ليكون ذلك وسيلة للإكثار من الصدقات للفقراء وللحد من الاستفتاءات. وقد شبهه بعض المفسرين برسوم التقاضى فى العصر الحديث. وقد روى أن النبى سأل عليا بن أبى طالب فى مقدار الصدقة وقال ما ترى؟ دينارا؟ قال لا يطيقونه. قال فنصف دينار؟ قال علىّ لا يطيقونه. قال فكم؟ قال على: شعرة. فقال النبى: إنك لزهيد. وقد كان فرض الصدقة على المسلمين شديد الوقع والأثر فتحدثوا فيما بينهم بشأنه فخفف الله

عنهم وأعفاهم منها وعليهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله. وقيل إن حكم الصدقة استمر عشر ليال ثم نسخ. وقيل لم يستمر إلا جزءا من نهار:

«يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة. ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم. أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون» (١٢ - ١٣).

تنديد بمن يوالون اليهود موالاة حميمة:

وفى هذه الفقرة الخاتمة للسورة تنديد ببعض من كانوا يصادقون اليهود **«قوما غضب الله عليهم»** صداقة حميمة تؤدى إلى أن يطلعوهم على الأسرار التى لا يجب أن يطّلع عليها غير المسلمين وفى ذلك ضرر بالمسلمين فكأن ذلك النفر قد أصبحوامن المنافقين وتوعدتهم الآيات بعذاب عظيم:

«أم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون. أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون. اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين. لن تغنىَ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً. أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون. استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. أولئك حزب الشيطان. ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون. إن الذين يحادُّون الله ورسوله أولئك فى الأذلين. كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز» (١٤ - ٢١).

والآيات تستنكر هؤلاء الذين كانوا يوالون ويصادقون قوما لا هم مسلمون ولا هم حتى من عشيرتهم. وإذا عوتبوا حلفوا كذبا لينفوا موالاتهم فجعلوا من إيمانهم ستارا يخفيهم فهم منافقون وقد أعد الله لهم عذابا شديدا. ولن تنجيهم أموالهم ولا أولادهم وسيصلون النار خالدين فيها. وحتى فى الآخرة سيحلفون لله كما كانوا يحلفون للمؤمنين فى الدنيا ولكنهم كاذبون وسمتهم الآيات «حزب الشيطان» لأن الشيطان تسلّط عليهم وضمّهم إلى حزبه فأصبحوا خاسرين ولكن الغلبة ستكون لله ولرسله.

ثم تستمر الآيات فى هذا المعنى:

«لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه. أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون» (٢٢).

وفى الآيات تنويه بصادقى الإيمان الذين لا يوالون من عادى الله ورسوله ولو جمعت بينهم أشد روابط القربى أو العصبية الحميمة وتبشرهم بأن الله سيدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار مخلدين فيها وسمَّتهم الآيات «حزب الله» فى مقابلة مع حزب الشيطان السابق ذكره. كذلك كان كثير من المهاجرين لهم أقارب مشركون فى مكة. وكان عداء قريش للمسلمين قد بلغ حدا لا يَحتَمِل ملاينة ولا مهاودة ولا أى اتصال يضر بمصلحة الإسلام والمسلمين. ويرى بعض المفسرين أن الآيات تقصد أيضا الأنصار فى صدد علاقتهم ببعض أقاربهم المنافقين.

سورة الحجرات :

وفى السورة جملة من الآداب التى تزين الأمة وتصون كيانها: أولها أدب المسلمين فى حضرة رسولهم ثم تشريعات لحماية المجتمع من الفتن.

أ - التأدب فى حضرة النبي :

وهذه تحتوى ثلاثة أمور:

١ - نهى عن أن يسبقوا النبى بأمر ما قولا أو عملا أو يبدوا رأيا فى أمر ما قبله. بل عليهم انتظار ما يقوله أولا فذلك من تقوى الله:

«يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم» (١).

٢ - نهى عن رفع أصواتهم فى حضور النبى كما تنهاهم الآيات عن مخاطبته كما يخاطبون أقرانهم وتنبههم إلى أن هذه التصرفات من شأنها أن تضيع حسناتهم بدون أن يشعروا. ثم تنويه بالذين يخفضون أصواتهم فى حضرة النبى فهؤلاء أتقياء مخلصون ولهم مغفرة وأجر عظيم:

«يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض. أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون. إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم» (٢ - ٣).

٣ - نهى عن مناداة الرسول وهو فى حجرات بيوته حينما لا يجدونه فى المسجد فهذا جهل وعدم تعقل منهم والأفضل لهم أن ينتظروا حتى يخرج هو إليهم:

«إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم» (٤).

ب - تشريعات لحماية المجتمع من الفتن:

وفيها خمس مسائل:

١ - التثبت من صدق الأخبار:

«يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين. واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتُّم ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه فى قلوبكم وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان. أولئك هم الراشدون. فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم» (٦ - ٨).

والآيات تحث على التثبت من صدق الأخبار التى تأتيهم وخاصة عن طريق المتهمين في صدقهم وإخلاصهم فلا يستعجلوا فى تصديقها والتصرف بمقتضاها فقد يتهموا أناسا أبرياء ويصيبوهم بالأذى ويندموا حين تظهر براءتهم. وعليهم أن يتخذوا من رسول الله أسوة حسنة فلو أنه يصدِّق كل ما يقال له عنهم لنالهم من ذلك مشقة كبيرة وعنت. وليعلموا أن الله قد أنعم عليهم بأن حبَّب إليهم الإيمان وكرَّه إليهم الكفر.

٢ - فى اقتتال طائفتين من المسلمين:

«وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون» (٩ - ١٠).

ويروى أن مسلما فى المدينة بغى على زوجته وانتصر أهل الزوجة لها وانتصر أهل الرجل له وتضارب الفريقان. وحتى لو لم تكن هذه الحادثة قد وقعت فإن حدوث خلاف يؤدى إلى قتال بين فريقين من المسلمين أمر وارد فلزم تشريع لمثل هذه الحالة.

٣ - نهى عن السخرية من الآخرين:

«يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن. ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون» (١١).

والآيات تنهى عن سخرية رجال من رجال آخرين أو نساء مؤمنات من نساء أخريات. والسخرية قد تكون بالنعت بأسماء مكروهة أو المناداة بصفات غير مستحبة مثل القصر أو سواد الوجه أو غير ذلك فقد يكونوا عند الله أفضل منهم ولا يجوز للمؤمن أن يرتكب فسقا من ذلك وعليه أن يتوب منه ومن لم يتب فقد ظلم نفسه.

٤ - نهى عن سوء الظن والتجسس والغيبة:

«يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا. أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه. واتقوا الله إن الله تواب رحيم» (١٢).

والآيات تنهى عن إساءة الظن بمن لا تُعرف دخائلهم فهذا إثم. كما تنهى عن التجسس وتتبع المسائل الخصوصية للأفراد وتنهى أيضا عن ذكرهم في غيبتهم بما يكرهون وشبه ذلك بأكل لحمه ميتا وهو من أشد ما تكره النفس. وتفتح الآيات باب التوبة لمن ارتكب إحدى هذه المعاصي فالله تواب رحيم.

وفي حديث رواه البخاري قال النبي: إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا. وحديث آخر رواه أبو داود جاء فيه: يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه. لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإن من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته. ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته.

٥ – المفاضلة بين الناس بالتقوى:

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم. إن الله عليم خبير» (١٣).

والآية واضحة تقرر للناس أن الله قد خلقهم جميعا من ذكر وأنثى هما آدم وحواء. وتكاثر الخلق وتفرقوا إلى شعوب وقبائل مختلفة للتعارف والكل متساوون ومقياس التفاضل هو تقوى الله.

الفرق بين الإيمان والإسلام:

«قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم. وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم (لا ينقصكم) من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم. إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون. قل أتعلّمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم. يمنُّون عليك أن أسلموا قل لا تمنُّوا عليَّ إسلامكم بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين. إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون» (١٤ – ١٨).

وكانت جماعة من أعراب بني أسد قد قدمت المدينة في سنة جدب وأظهروا إسلامهم وطلبوا من النبي أن يعطيهم من الصدقات ومنُّوا عليه بدخولهم الإسلام ومتابعتهم له طواعية في حين أن القبائل الأخرى لم تؤمن إلا بعد قتال كبّده المال وبعض الأرواح. وقد دلَّ هذا علي سوء فهم منهم إذ ظنوا أنهم بإظهار الإسلام قد فعلوا ما عليهم وأنهم قد صار لهم «حق» و«غُنم». وردّت عليهم الآيات لتوضح لهم حقيقة مكانتهم. فهم لم يعلنوا إسلامهم إلا حقنا لدمائهم. وأن الله يعلم سرائرهم ويعلم أن الإيمان لم يتغلغل بعدُ في قلوبهم. ولكن الله رحمة بهم يطمئنهم أنهم لو أطاعوا الله ورسوله فلن ينقص من أعمالهم وسيقبل الظاهر منهم. وتنوِّه الآيات

بالمؤمنين الصادقين فى إيمانهم إذ هم الذين يؤمنون بالله ورسوله ويتحملون التضحيات والمشاق برضا نفس وطمأنينة قلب. فعليهم أن يعوا الحقيقة وهى أن الله هو الذى يمن عليهم بأن هداهم للإيمان.

الغيرة بين زوجات الرسول:

كان فى عصمة النبى فى ذلك الوقت سبع زوجات: سودة بنت زمعة وعائشة وحفصة بنت عمر بن الخطاب وأم سلمة وأم حبيبة بنت أبى سفيان وزينب بنت جحش وجويرية بنت الحارث من بنى المصطلق. ومن طبيعة النساء الغيرة على أزواجهن. لكن الغيرة كانت أشدها بين الثلاث زوجات الشابات: عائشة وحفصة وزينب بنت جحش. وكان النبى يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ويطيل المكوث عندها. فغارت عائشة وحفصة وتواطأتا أن تجعلاه يكره زينب. وكما رُوى عن عائشة: فواطيت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير. إنى أجد منك ريح مغافير - والمغافير نبات برى ينبت فى البادية له طعم العسل ولكن له رائحة غير مستحبة - فلما دخل على حفصة قالت له ذلك فأخبرها أنه شرب عسلا عند زينب بنت جحش. فقالت له: لعل نحلُه وقع على نبات سيىء. فتعهد بألا يعود له وحلف على ذلك وأمرها ألا تخبر أحدا بذلك ولكنها لم تطق صبرا وأخبرت عائشة وفشا الخبر بين نساء النبى أنه قد حرَّم على نفسه شرب العسل فى بيت زينب. ثم ظهر أن القصة أساسها الغيرة وأنها مؤامرة لتزهيده فى زينب بنت جحش. فغضب النبى على حفصة لإفشائها هذا السر ويقال إنه طلق حفصة تطليقة واحدة. ولما علم عمر بن الخطاب بذلك اغتم غما شديدا وحثا التراب على رأسه وقال: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها. فنزل جبريل يأمر النبى بمراجعة حفصة فراجعها ولكنه رأى أن يعتزل نساءه جميعا وأوى إلى حجرة له فشاع بين المسلمين أن النبى قد طلَّق نساءه جميعا فاستأذن عمر على رسول الله فدخل عليه ورأى أثر الحصير فى جنبه فبكى ثم قال للنبى: يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. فابتسم له النبى وأخبره أنه لم يطلق نساءه ولكنه هجرهن شهرا. فاطمأن عمر واستأذن ونزل إلى المسجد وبشر المسلمين أن النبى لم يطلق نساءه.

سورة التحريم:

نزلت سورة التحريم تشير إلى هذه الحادثة مع التركيز على أمرين:

١ - **النهى عن تحريم ما أحل الله:** جاء ذلك فى صورة عتاب للنبى إذ حرَّم على نفسه طعاما حلالا مرضاة لأزواجه. وتحثه على قضاء الكفارة للرجوع فى يمينه. وفى حديث للنبى قال: من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأتها وليكفِّر عنها:

«يا أيها النبى لِمَ تُحرِّم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم. قد فرض الله لكم تِحِلَّة (وسيلة للتحلل) **أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم»** (١ - ٢).

ولرب قائل يسأل: وهل يستدعى تحريم النبى على نفسه شرب العسل أن ينزل فيه قرآن؟ والرد هو نعم. لأن المسلمين لابد وأن يقتدوا بالنبي فيحرموا العسل على أنفسهم فترى الأجيال التالية ذلك جزءا من الشريعة. وحسبنا فى هذا ما فعل يعقوب عندما حرَّم على نفسه أكل لحوم الإبل فحرَّم بنو إسرائيل لحوم الإبل على أنفسهم وادَّعوا أن ذلك من شريعة إبراهيم: **«كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل علي نفسه من قبل أن تنزل التوراة»** (٩٣ – آل عمران) وإذا حدث هذا مع العسل لحُرم الناس من خير كثير إذ هو كما وصفه القرآن: **«فيه شفاء للناس»** (٦٩ – النحل).

٢ – نهى نساء النبى عن إفشاء أسراره:

«وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبَّأت به وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبَّأها به قالت من أنبأك هذا قال نبَّأنى العليم الخبير. إن تتوبا إلى الله فقد صغت (زاغت) **قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير. عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيِّبات وأبكارا»** (٣ – ٥).

وقد يظن البعض أيضا أن ما أفشته إحدى نسائه كان أمر تافها لا يستدعى نزول قرآن. ولكن صون السر الصغير يُعوِّد على صون السر الكبير فكانت هذه الوقفة ليتعوَّد نساء النبى حفظ أسراره صغيرة كانت أم كبيرة.

تذكير بيوم القيامة:

«يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون. يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يُكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى اللهُ النبىَّ والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير» (٦ – ٨).

ووقاية النفس من النار تكون بترك المعاصي وفعل الطاعات ووقاية الأهل أى الأزواج والأولاد بصونهم وتربيتهم على تقوى الله. وقال العلماء التوبة النصوح هى التي جمعت ثلاثة شروط: الإقلاع عن الذنب. والندم علي ما حدث. والعزم على عدم العودة إليه. وإن كان هناك حق لآدمى زيد شرط رابع وهو رد المظالم لأهلها.

حث على قتال الكافرين والمنافقين:

«يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير» (٩).

قيل جهاد الكافرين بالسيف والمنافقين بالحجة والبرهان.

ضرب المثل ببعض نساء الأنبياء السابقين:

والآيات تُذكِّر بحالة ثلاث فئات من النساء ومصائرهن:

١ - زوجات كافرات فى عصمة أنبياء. والمثال على ذلك امرأة نوح وقد ذكرنا سابقا (الجزء الأول ص ٩٤) أنها كانت تدل قومها على من يؤمنوا بنوح حتى ينكلوا بهم. أما أمراة لوط فقد كانت خيانتها أنها أخبرت قومه بضيوفه وقد ذكرنا ذلك فى الجزء الثانى (ص ٣٢٥).

«ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شئيا وقيل ادخلا النار مع الداخلين» (١٠).

٢ - زوجة مؤمنة فى عصمة كافر والمثال على ذلك امرأة فرعون فقد آمنت بالله على شريعة موسى كما سبق أن ذكرنا (الجزء الرابع ص ٨٩٨).

«وضرب الله للذين مثلا آمنوا امرأة فرعون إذا قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين» (١١).

٣ - وامرأة ثالثة مؤمنة لم ترتبط بعصمة رجل واعتصمت بالله وأحصنت فرجها فكرّمها الله بأن جعلها الله أُم نبيه عيسى:

«ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين» (١٢).

سورة التغابن:

تبدأ السورة بتمجيد الله عز وجل وبيان قدرته وخلقه للسموات والأرض وما فيهما وخلق الإنسان فى أحسن صورة:

«يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير. خلق السموات والأرض بالحق وصوّركم فأحسن صوركم وإليه المصير. يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تُسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور» (١ - ٤).

ثم يأتى تذكير بالكافرين من الأمم السابقة وما نالهم من عذاب أليم نتيجة تكذيبهم لرسلهم واستنكارهم أن يكون رسل الله بشرا وأعرضوا وكان الله فى غنى عنهم وعن أن يؤمنوا.

«ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبلُ فذاقوا وبال أمرهم (عقوبة كفرهم) **ولهم** (فى الآخرة)**عذاب أليم. ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أَبَشرٌ يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد»** (٥ - ٦).

إنكار الكفار للبعث:

كان فى البادية حول المدينة كثير من القبائل التى كانت لا تزال على كفرها. وكثيرا ما كانوا يفدون على المدينة للتجارة ويقابلون النبى ويجادلونه فى الدين فكان يدعوهم إلى الإسلام ويبين لهم أسسه ومنها الإيمان بالغيب وبالبعث فى الآخرة. وتحكى الآيات كيف كان هؤلاء الكفار ينكرون البعث:

«زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا. قل بلى وربى لتبعثن ثم لتُنبَّؤن بما عملتم وذلك على الله يسير. فآمِنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير. يوم يجمعكم ليوم الجمع. ذلك يوم التغابن. ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفِّر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير» (٧ - ١٠).

والآيات واضحة. فيها إنكار الكافرين للبعث وأمر للنبى بأن يؤكد لهم أن البعث حق وأنه أمر يسير بالنسبة لقدرة الله ثم دعوة لهم للإيمان بالله ورسوله والاهتداء بالقرآن وآياته فهي كالنور الذى يهدى إلى الطريق المستقيم. وسُمِّى يوم القيامة **«يوم الجمع»** إذ فيه يُجمع الناس جميعا. وسُمِّى أيضا **«يوم التغابن»** والغبن هو حط قيمة الشيء وفوْت الحظ. فالكافر مغبون لأنه ترك الإيمان فدخل النار. وغبن المؤمن تقصيره فى العبادة فيتمنى لو اجتهد أكثر لينال منزلة أعلى فى الجنة. ثم يأتى بيان لمصير المؤمن إذ يتجاوز الله عن سيئاته ويكون له الخلود فى الجنة. أما الذين كفروا فلهم الخلود فى النار وبئس المصير.

التصرف عند نزول المصائب:

ولا شك أن مجتمع المدينة كان يجرى عليه من صروف الحياة ما يجرى على غيره من المجتمعات فيصاب بعض المسلمين بمصائب بفقد مال أو أهل. فكان التهوين عليهم بالتذكير بأنها قَدَر من الله:

«ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله. ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم. وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين. الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (١١ - ١٣).

وفى حديث عن النبي قال: عجبا للمؤمن. لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له. إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.

عدم تفضيل الأهل عن الجهاد فى سبيل الله:

روى السيوطى (لباب النقول فى أسباب النزول. ص ٢١٥) أن آيات هذه الفقرة نزلت فى

عوف بن مالك الأشجعى كان ذا أهل وولد. فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ووقفوه قائلين: إلى من تدعنا؟ فيرق ويقيم:

«يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم. إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم. فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. إن تُقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم. عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم» (١٤ – ١٨).

وروى أيضا أنها نزلت فى رجال من أهل مكة أسلموا فأرادوا أن يهاجروا إلى النبى فى المدينة فأبى أزواجهم وأولادهم فقعدوا عن الهجرة أعواما ثم لما هاجروا وأتوا رسول الله لمسوا ما فاتهم من خير بتأخرهم عنه فرغبوا فى معاقبة أهليهم الذين أخروهم فأمرتهم الآيات بالعفو عنهم. ثم تذكِّرهم الآيات بأن الأموال والأولاد قد تكون فتنة وابتلاء من الله ويجب عدم التكالب عليهما أو التمسك بهما لأن الله عنده أجر أعظم منهما وعلى المؤمن أن يبذل فى طاعة الله قدر استطاعته. وأى إنفاق فى هذا السبيل سيردُّه الله مضاعفا ويغفر لصاحبه فهو وحده عالم ما غاب وما كان حاضرا مشهودا **«عالم الغيب والشهادة»**.

ثم نزلت سورة الصف:

وتسمى أيضا «سورة الحواريين» أو «سورة عيسى» (تفسير الألوسى. جـ ٢٨ ص ٨٣) لذكرهما فى السورة. وهى فى مجملها تتكلم عن المنافقين وأقوالهم. وتبدأ السورة بتمجيد الله وتقدير عظمته وأن كل ما فى السموات وما فى الأرض خاضع لمشيئته ويسبح بحمده:

«سبَّح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم» (١).

توبيخ لادعاء مواقف بطولية لم تحدث:

روى أن نفرا من شباب المسلمين راحوا يقولون فعلنا كذا فى الغزو ولم يفعلوا فنزلت الآيات:

«يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون. إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص» (٢ – ٤).

وروى عن ابن زيد أنها قيلت فى بعض ضعاف الإيمان الذين يكونون عند القتال في آخر الصفوف ومع ذلك يدَّعون أنهم قتلوا من العدو كذا وكذا فنزلت الآيات توبِّخهم. إذ لو كانوا مؤمنين حقا لاتفقت أفعالهم مع أقوالهم ولحاربوا متماسكين كأنهم بنيان محكم ولم يتناثروا فى آخر الصفوف بعيدين عن القتال أو يفروا من المعركة. وَوُضِع المعنى فى صورة توجيه عام

ينهى عن ادعاء مواقف لم تحدث بالفعل فذلك مكروه عند الله. ولاشك أن ذلك كان يؤذى النبى فكانت تسرية عنه أن يُذكر ما لاقاه موسى وعيسى من قومهما.

«وإذ قال موسى لقومه يا قومِ لِمَ تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم. فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين. وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدىَّ من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد. فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين» (٥ – ٦).

تنديد بمن يصدُّون عن سبيل الله:

ثم راحت الآيات تندد بالمنافقين الذين يكذبون علي الله ويصدون عن سبيله فكأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله ولكن الإسلام سينتشر غصبا عنهم فالله قد أرسل رسوله بالهدى والدين الواضح لتكون له من الغلبة والانتشار ما ليس للأديان الأخرى. وقد تحقق ذلك فعلا في عصور الامبراطوريه الإسلامية الزاهرة وإن كان قد أصاب المسلمين بعد ذلك النكسات وتقطعت أوصال امبراطوريتهم:

«ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يُدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين. يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» (٧ – ٩).

حث على الإيمان بالله والجهاد في سبيله:

وجاء ذلك فى صورة ترغيبية شُبِّهت بالتجارة إذ يُقدِّمون الإيمان بالله ورسوله ويجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وفى المقابل لهم بشارتان: إحداهما فى الآخرة وهى غفران الله لذنوبهم وإدخالهم جنات عدن. وبشارة دنيوية وهى النصر فى الجهاد وفتح يقع قريبا:

«يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم. ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين» (١٠ – ١٣).

ثم جاءت الآية الخاتمة للسورة تضرب للمسلمين مثالا ملموسا وهو انتشار الديانة المسيحية وقلة اليهود وهوانهم لأنهم كفروا بعيسى:

«يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين» (١٤).

وفى هذا بشارة ضمنية للمسلمين بأنهم بالمثل سيظهرون على أعدائهم وينتصرون عليهم.

البيت الحرام:

قبل الهجرة. لم تكن هناك مشكلة. فالمسلمون يعيشون فى مكة. صحيح أنهم قلة مستضعفة ولكنهم يستطيعون الطواف بالكعبة كما يطوف الناس وإن كانوا يقولون في طوافهم غير ما يقول الآخرون. وإذا أهلّ موسم الحج يمكنهم الحج كما يحج الناس وكما تحج الوفود القادمة من أقاصى الجزيرة العربية وما كانت قريش لتمنعهم عن ذلك. أما بعد الهجرة فقد تغير الوضع. صحيح أن المسلمين أصبحوا فى المدينة قوة يحسب لها حساب ولكن عداء قريش للإسلام والمسلمين ازداد حدة. ووقعت ثلاث معارك كبرى: بدر وأحد والخندق. وزاد حقد قريش «لمحمد» وللمسلمين. وما كان أحد من المسلمين ليأمن علي نفسه لو دخل مكة حتى لو كان حاجا أو معتمرا. ومن كانت تضطره ظروف تجاريه لدخول مكة لم يكن ليدخلها إلا فى جوار صديق أو قريب من أهلها ذى مكانة – ليمنع عنه أذى قريش. ومرت الآن ٦ سنوات. ولم يكن هذا الوضع مقبولا. إذ أن الحج ركن من أركان الإسلام. صحيح أن الأولوية كانت لتأمين المجتمع الإسلامى بالمدينة من أى عدوان خارجي وها قد أصبح الإسلام فى المدينة مرهوب الجانب. كما أن التشريعات التى نزلت أرست قواعد العدل الاجتماعى بين أفراده وجعلتهم نسيجا واحدا يحاربون فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص. وظلت الكعبة تراود عقولهم وخاصة بعد أن تحولت القبلة إليها. فنزلت سورة الحج تطمئن المسلمين إلى مكانة البيت الحرام. فكانت الحافز للتفكير فى عمرة الحديبية.

سورة الحج:

وقد اختلف المفسرون حول كون هذه السورة مكية أم مدنية. عن ابن مردويه عن ابن عباس أنها كلها مدنية. وآخرون قالوا كلها مكية. وعن مجاهد عن ابن عباس أنها مكية إلا ثلاث أو أربع آيات. وعن قتادة أنها مدنية غير أربع آيات. والجمهور يرى أنها مختلطة فيها مدنى وفيها مكى وإن اختُلف فى التعيين (تفسير الألوسى جـ ١٧ – ص ١١٠).

والمرجح أن الآيات التى تتحدث عن الساعة مكية إذ أنها موجهة إلى أناس لا يؤمنون بها وهم كفار مكة أما مجتمع المدينة المسلم فهو يؤمن بالغيب ويؤمن بالآخرة وليس فى حاجة للتذكير بهما. وفى المقابل فإن آيات القتال لا شك فى مدنيّتها إذ أن القلة المؤمنة فى مكة لم تكن لتسطيع قتالا. بل لم يكن أمامها إلا الصبر على أذى قريش. أما الآيات التى تذكر الحج ومناسكة فالمرجح أنها مدنية وهدفت إلى تذكير المسلمين بهذه الفريضة.

بدأت السورة بفقرة عن الساعة والبعث ونهى عن الجدال فى الله سواء فى صفاته أو ذاته فهذه أمور لا يحيط بها عقل ولا علم. ولاشك أن هذه الآيات مكية:

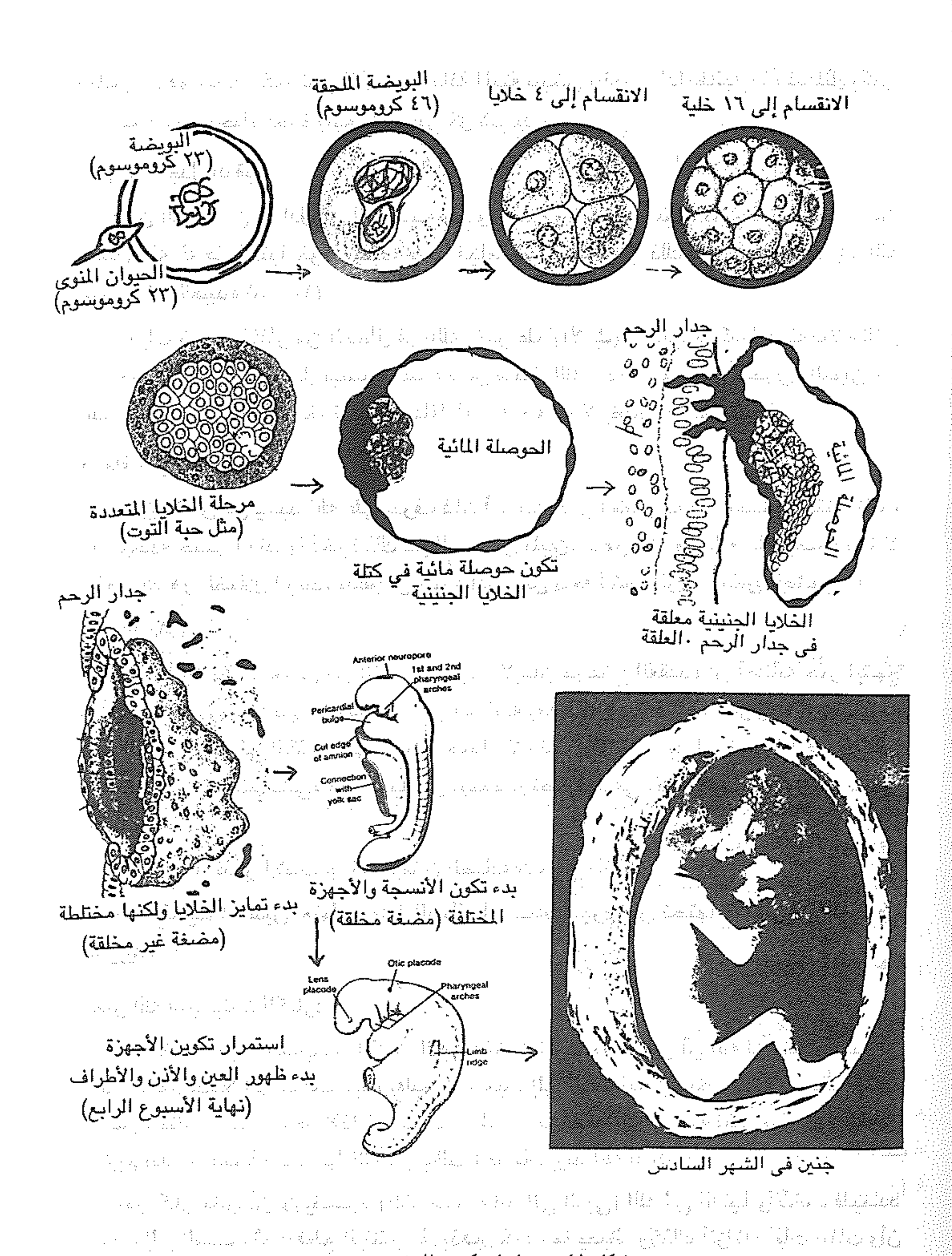
«يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضِعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد. كُتِب عليه أنه من تولاَّه فأنَّه يُضلُّه ويهديه إلى عذاب السعير» (١ -٤).

والآيات تعطى صورة حية لشدة أهوال يوم القيامة من زلزلة الأرض وغيرها من المشاهد الكونية التي وردت في سور أخرى بحيث أن الأم تذهل عن وليدها وتجهض الحامل ويُرى الناس يتطوحون من شدة الهلع كأنهم سكارى. ثم يأتى نهى عن الجدال فى الله. وقيل إنه نزل في النضر بن الحارث وكان يكثر من الجدال ويقول إن الملائكة بنات الله وأن القرآن أساطير الأولين وينكر البعث (تفسير الألوسى جـ ١٧ ص ١١٤).

ثم تستمر الآيات متحدثة عن البعث وتضرب له المثل:

«يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم. ومنكم من يتوفى ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا. وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من وكل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيىء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور» (٥ - ٧).

ويرى أخصائيو علم الأجنة أن هذه الفقرة فيها إعجاز علمى لم يُتوصل إليه إلا فى القرن العشرين أى بعد ١٣ قرنا من نزول هذه الآيات. فالنطفة هي ماء الرجل الذى يحوى الحيوانات المنوية وبعد الجماع يتم إخصاب بويضة الأم بأحد الحيوانات المنوية. وبمجرد اختراق رأس الحيوان المنوى لجدار البويضة يتم اتحاد الكروموسومات الـ ٢٣ من الأب مع الكروموسات الـ ٢٣ الموجودة فى البويضة ليصبح بالبويضة المُلَقَّحة ٤٦ كروموسوما وهو العدد الخاص بالإنسان. وحينئذ تبدأ فى الانقسام. وحينما تصل البويضة إلى الرحم تعلق بجداره كما سبق أن شرحنا فى سورة العلق وهذا هو طور «العلقة» (شكل ١١ ص ٤٥) ثم تتكاثر الخلايا وتبدأ ملامح الأنسجة المختلفة تتكون ولكنها تكون مختلطة مثل لقمة الأكل بعد مضغها وتسمى «مضغة غير مخلَّقة» ثم تبدأ الأنسجة المختلفة فى التمايز فتصبح «مضغة مخلقة». وأول ما يتمايز هو جهاز الدورة الدموية الذى يظهر فى اليوم الواحد والعشرين ثم يظهر فيه النبض فى اليوم الثامن والعشرين ليدفع الدم فى الأوعية الدموية لتغذية الخلايا ثم تبدأ باقى الأجهزة فى الظهور حتى يأخذ الجنين شكله الآدمى فى الأسبوع الثامن أى بعد شهرين ونصف من الحمل (شكل ٤١). ثم يخرج الإنسان طفلا ينمو فشابا قويا شديدا وإن مُدَّ فى عمره أصبح كهلا هرما ويتوقف علمه وإدراكه للأشياء بل وينسى ما تعلمَّه. ثم يأتى الطور الأخير – الملموس لكل



شكل ٤١ – مراحل تكوين الجنين.

الناس – وهو الموت وكما نرى الأرض الجافة الميتة تنبض بالحياة إذا طالها ماء فبالمثل يكون بعد الموت بعث وحياة آخرة والله قادر على كل شيء.

نهى عن الجدل العقيم:

«ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هُدى ولا كتاب منير. ثانِيَ عِطفِه ليُضل عن سبيل الله له في الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق. ذلك بما قدمت يَداك وأن الله ليس بظلام للعبيد» (٨ – ١٠).

والآيات تحذر الكفار من الجدال فى الله بغير علم وألا يلووا جانبهم تكبرا واختيالا «ثانى عطفه». مشتدين في الجدل ليصدوا غيرهم عن سبيل الله. فهؤلاء جزاؤهم الخزى والهوان فى الدنيا وعذاب جهنم فى الآخرة جزاء وفاقا لما عملوه فالله لا يظلم أحدا من عبيده.

ضعاف الإيمان:

«ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. يدعو من دون الله مالا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد. يدعو لمن ضرُّه أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير» (١١–١٣).

وفى الآيات تنديد بفريق من الناس ضعيف الإيمان مزعزع العقيدة إن أصابه خير ابتهج ورأى أن الإيمان فيه خير واطمئنان. فإن أصابته بعد ذلك شدة فى ماله أو ولده أو اشتد به أذى الكفار ارتد إلى الكفر وإلى عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع. بل إن ضررها هو الأكثر تأكيدا إذ لن تنفعهم بشيء فى الدنيا ولن تستطيع نصرتهم فى الآخرة وبذلك يكون قد خسر الدنيا والآخرة.

وفى المقابل تذكر الآيات جزاء المؤمنين الصادقين في إيمانهم:

«إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد» (١٤).

نصر الله لنبيه يغيظ الكفار:

ثم تمضى الآيات تطلب من الكفار الذين اغتاظوا وكانوا يظنون أن الله لن ينصر نبيه أن يمد أحدهم حبلا إلى سقف بيته **«فليمدد بسبب إلى السماء»** ويشنق نفسه به حتي يقطع النفس وينظر إن كان بفعله هذا قد أذهب غيظه. وكما نصر الله رسوله فقد أنزل عليه القرآن الكريم آيات واضحة يهدى بها الله من يطلب الهداية ويريد الله له الهداية:

«من كان يظن أن لن ينصره (الضمير عائد إلى النبى) **الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يُذهبن كيدُه ما يغيظ. وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدى من يريد»** (١٥ – ١٦).

الله يحكم بين أتباع الديانات المختلفة:

«إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة. إن الله على كل شىء شهيد» (١٧).

وفى هذه الآية يأتى - لأول مرة - ذكر كلمة المجوس وهم عُباد النار. وكانت بعض القبائل العربية فى البحرين والأنحاء الشمالية المجاورة لفارس يعتنقون المجوسية. كذلك كان احتلال الفرس لليمن سببا فى اعتناق بعض أهل اليمن لعبادة النار. كذلك ذكرت كلمة «الصابئين» لأول مرة. وقد سبق أن ذكرنا هذه الملَّة بالتفصيل فى الجزء الثانى ص ٢٧١ وقد وضع ترتيبهم فى الآية بين اليهود والنصارى دلالةً على أنهم كانوا من الموحِّدين إلا أن عقيدتهم شابتها بعض الممارسات الوثنية باعتقادهم أن الكواكب السيارة السبع تعمل كوسائط بين الناس والله. أما المجوس والمشركين فقد كانوا على وثنية صريحة.

ثم تمضى الآياتت تمجِّد الله وتبين أن كل ما فى الكون يسجد له فهو وحده الجدير بالعبادة:

«ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب. ومن يُهن الله فما له من مُكرم إن الله يفعل ما يشاء» (١٨).

ثم تمضى الآيات توضح أن الناس إزاء قضية وجود الله وعبادته ينقسمون إلى فريقين متضادين: فريق كفر وهؤلاء جزاؤهم يوم القيامة عذاب أليم وفريق آمن ولهم جنات النعيم:

«هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قُطِّعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم. يُصهر به ما فى بطونهم والجلود. ولهم مقامع من حديد. كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أُعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق. إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يُحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير. وهُدُوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد» (١٩ - ٢٤).

عن البيت الحرام والحج:

كان قد مضى علي المسلمين فى المدينة ٦ سنوات لم يتيسر لهم فيها حج أو عمرة فكان لابد من تذكير بهذا الركن من أركان الإسلام والذى أرسى إبراهيم عليه السلام مناسكه. بدءاً ببناء البيت الحرام ثم أذانه فى الناس بالحج. فراحت الآيات تذكر شرائع الحج وكأنها تنبه إلى أن صد الكفار عن المسجد الحرام لا يجب أن ينسيهم هذه الفريضة:

«إن الذين كفروا ويصدُّون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم. وإذ بوَّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا

تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود. وأذِّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير. ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطَّوَّفوا بالبيت العتيق» (٢٥ - ٢٩).

والأيام المعلومات هى العشر الأولى من ذى الحجة ويوم النحر وأيام التشريق التى اختُلف في عددها بين يومين وأربعة أيام. ويُسَنُّ فيها التلبية لمن أحرم بالحج. أما النحر فهو لا يكون إلا فى يوم العيد وأيام التشريق. كما أن العرب فى الجاهلية كانوا لا يبيحون لصاحب الذبيحة أن يأكل منها فجاءت الآيات تُحِلُّ له الأكل منها فى حدود قدَّرها الفقهاء بالثلث والتصدُّق بالباقى. ثم حثت الآيات على الاغتسال لإزالة ما علق بالأجسام من غبار وعرق أثناء السفر. وإن كانوا قد نذروا شيئا فليوفوا به ويطوفوا بالبيت. ثم تمضى الآيات:

«ذلك ومن يُعَظم حرمات الله فهو خير له عند ربه. وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور. حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق. ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب. لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محِلها إلى البيت العتيق» (٣٠ - ٣٣).

وتنص الآيات على أن الأنعام كلها حلال إلا ما ذكره القرآن كالميتة وغيرها. وعليهم اجتناب الأصنام وقول الزور. وتصور الآيات من يشرك بالله كيف يكون هلاكه فى صورة بشعة تدفع السامع إلى تجنب هذا المصير. إذ تصوِّره كأنه يهوى من السماء فتتخاطفه الطير وتمزق لحمه قطعا وتأكلها. أو عصفت به ريح شديدة فحملته من قمة جبل إلى قاع وادٍ شديد العمق فهوى وتحطم جسده. أما التقى فهو الذى يعظِّم شعائر الله ومن دلائل تقواه أن يختار من البدن للذبح أسمنها وأحسنها وما ليس بها عيوب أو مرض «**يعظم شعائر الله**». وأباحت الآيات الانتفاع بلبنها وصوفها ويجوز ركوبها «**لكم فيها منافع**» إلى أن تنتهى إلى البيت العتيق حيث تذبح.

«ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام. فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين (الخاشعين). **الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون»** (٣٤ - ٣٥).

والآيات تذكر أن الله جعل لكل أتباع ديانة شعائر وقرابين يقربونها شكرا لله. فالله واحد وإن اختلفت المناسك بين الأديان المختلفة والخاشعون هم الذين تضطرب قلوبهم خضوعا وخشية عند ذكر الله ويصبرون على قضائه وقَدَره ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة.

«والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صوافَّ. فإذا

وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون. لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين» (٣٦ - ٣٧).

والبُدن هي الإبل والبقر التى تقدم قربانا يتقرب بها الناس إلى الله لهم فيها خير قبل ذبحها كما جاء فى الآية ٣٣ **«لكم فيها منافع»** ويجب ذكر اسم الله عليها وهى **«صواف»** أى واقفات على أرجلهن مصفوفة ومُعدَّة للذبح. ويباح لمقدمها الأكل منها كما سبق أن ذكر فى الآية ٢٨ **«فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير»** وهنا جاء **«فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر»** لزيادة الأمر توضيحا **«فالقانع»** هو المحتاج المتعفف عن السؤال **«والمعتر»** الذى دفعته الحاجة إلى ذل السؤال. وقد سخرها الله لنا كما سخّر بعض البشر لإطعام البعض كالفقير أو الضعيف. وكان العرب فى الجاهلية إذا ذبحوا لأصنامهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دمائها فجاءت الآيات توضح أن الله لن يناله شىء من لحومها ولا دمائها بل يتقبل التقوى من مقدم الذبيحة وإخلاصه نيته. ولهذا السبب سخَّر الله هذه البدن وشرع هذا المنسك ليعظم الناسُ الله على أن هداهم للإيمان وبشرى لهم بثواب عظيم.

ولا شك أن النبى قد فهم مغزى نزول هذه الآيات من سورة الحج وما فيها من تذكير بتعظيم البيت الحرام وزيارته وتقديم البدن. ولعله رأى بحكمته أن لا يبدأ بحج فقد تمنعه قريش بالقوة وقد يقع قتال فى وقت تقدم فيه الوفود من جميع أنحاء الجزيرة العربية للحج وهو ما لا يريده. لذلك فقد ارتأى أن تكون عمرة. وفعلا أوحى إليه فى رؤيا أن يبدأ بعمرة كما سيجىء فيما بعد (ص ٦٨٤).

الإذن بالقتال:

وقد ذكرنا سابقا (ص ٤٥٨) أن الآيات ٣٨ - ٤١ من سورة الحج قد نزلت فى رجب من السنه الأولى للهجرة أى بعد خمسة أشهر من مقدم النبى للمدينة - وفيها الإذن بالقتال - ليدفع المسلمون عن أنفسهم أى اعتداء يقع عليهم. وفى ظل هذا التصريح بعث النبى السرايا الأولى لبث المهابة فى نفوس القبائل المجاورة.

أخذ العبرة من الأقوام السابقة:

«وإن يُكذبوك فقد كَذَّبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود. وقوم إبراهيم وقوم لوط. وأصحاب مدين وكُذِّب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير. فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد. أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور. ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون. وكأيِّن من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتُها وإلىَّ المصير» (٤٢ - ٤٨).

والآيات فيها تسرية عن النبى إذ تذكر أن تكذيب قريش له هو مثل تكذيب الأمم السابقة لرسلهم وأن الأقوام السابقين قد أخذهم الله بأفعالهم فأهلكهم فصارت قصورهم خاوية وآبارهم مهملة لا يَرِدُها أحد. وفى تسأول استنكارى تنعى على المشركين عدم اعتبارهم بمن سبقوهم إذ لو ساروا فى الأرض لرأوا بأعينهم آثارهم وأدركوا بعقولهم السبب الذى أدى بهم إلى هذا المصير ولكن قلوبهم تتعامى عن هذه الحقائق. ثم هم زيادة فى إنكار البعث والحساب يطلبون من النبى استعجال العذاب الذى يعدهم به ولكن الله يمهلهم. كما أن اليوم عند الله كألف سنة من سنى الأرض. ويرى مؤلفو المنتخب فى تفسير القرآن الكريم (ص ٤٩٥) أن هذه الآية فيها إعجاز علمى إذ هى تقرر أن الزمن نسبى حسب ما تقرره نظرية النسبية الشهيرة. ثم يأتى بيان أن كثيرا من أهل القرى كانوا - مثل كفار قريش - ظالمين فأمهلهم الله ولم يعاجلهم بالعذاب. ثم لما لم يعتبروا - أنزل بهم نوعا من العذاب لم يُبيِّن واكتُفى بقول **«فأخذتهم»**. وفى الآخرة يصيرون إلى الله **«وإلىَّ المصير»** والمعنى أن لهم عذابا ثانٍ فى الآخرة. وفى كل هذا دعوة للكفار ألاّ يغترُّوا بتأخير العذاب عنهم ويظنوا أن لا عذاب إطلاقا. بل هو حتما آت. إن لم يكن فى الدنيا ففى الآخرة.

واستعجال الكفار لنزول العذاب - تحديا وإنكارا لوقوعه - سبق ذكره فى العهد المكى فى سورة ص (الآية ١٦ ص ١١١): **«وقالوا ربنا عجِّل لنا قِطَّنا قبل يوم الحساب»** وفى سورة الرعد (الآية ٦ ص ٤١١): **«ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة»** مما يدل على أن المشركين فى مكة ومشركى القبائل حول المدينة كانوا كلما حدثهم النبى عن عذاب ينزل بهم راحوا يستعجلونه تحديا وإنكارا.

وردًّا عليهم يؤمر النبى بأن يُذكِّر الناس بجوهر دعوته وأنه نذير لهم من العقاب وليس من مهمته إنزال العذاب بهم كما يطلبون ومهمته أيضا أن يبشر المؤمنين بالمغفرة والثواب الجزيل ويخبر الذين يقفون من الدعوة موقف التعجيز والتعطيل والصد بأن لهم عذاب الجحيم:

«قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم. والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم» (٤٩ - ٥١).

طرق الشيطان للصد عن سبيل الله:

«وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم. ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد. وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت (تطمئن) **له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم. ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتي تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم. الملك**

يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم. والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين» (٥٢ - ٥٧).

والخطاب فى الآيات مُوجة إلى النبى يخبره أن الله لم يرسل قبله من رسول ولا نبى إلا تمنى هداية قومه. ويتصدى الشيطان فيوسوس للكفار حتي يتصدُّوا لدعوة الحق فينسخ الله ويزيل ما يدبرون وتكون الغلبة فى النهاية للحق. وما يمكر به الشيطان وأعوانه الكفار هو فتنة يفتتن بها ضعاف الإيمان ومرضى القلوب. ولكن الذين أوتوا العلم صادقى الإيمان يعلمون أن ما ينزل على النبى هو الحق فتخشع قلوبهم فيهديهم الله إلى الصراط المستقيم. أما الكافرون فيظلُّون على شكهم وريبهم حتى تأتيهم الساعة أو يأتى أجلهم بغتة فلا ينفعهم حينئذ إيمانهم. أو ينزل بهم عذاب عظيم فى يوم القيامة وسمى «يوما عقيما» لأنه يوم لا مثيل له فهو وحيد وفريد فى نوعه. وفيه يقضى الله بين العباد. فالمؤمنون لهم جنات النعيم والكافرون لهم عذاب مهين.

أما قصة الغرانيق فقد فنَّدها معظم المفسرين. فهى واهية سنداً وموضوعاً فلم نشأ أن نذكرها.

جزاء من قتل أو مات فى الهجرة:

كان بعض مسلمى مكة الذين لم يهاجروا - يتسللون فى جنح الليل فرادى مهاجرين إلى المدينة فكان يتبعهم أحيانا نفر من كفار قريش يقاتلونهم ويقتلونهم قبل أن يبلغوا المدينة. كذلك كان بعض المهاجرين يوافيهم الأجل فى المدينة فتساءل الناس عن جزاء هؤلاء وهؤلاء فنزلت الآيات:

«والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قُتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين. ليدخلنَّهم مُدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم» (٥٨ - ٥٩).

وقد سبق أن ذكرنا وفاة بعض المهاجرين فى المدينة (ص ٦٦٠).

ولعل أقارب بعض من قتلوا أو اعتُدى عليهم قرروا الأخذ بالثأر فنزلت الآية التالية تحث المؤمن الذى يقتص ممن جنى عليه أن يجازيه بمثل اعتدائه عليه دون زيادة. فإذا تمادى الجانى واعتدى عليه ثانية فإن الآية تؤكد أن الله سينصره على المعتدى.

«ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغى عليه لينصرنَّه الله إن الله لعفوٌ غفور» (٦٠).

بعض نعم الله وآياته فى الكون:

وذلك النصر الذى وعد الله به المُعتدَى عليهم فى الآية السابقة هين على الله لأن الله قادر على كل شيىء ومن آيات قدرته:

١ - **«ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير»** (٦١).

٢ - «**ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير**» (٦٢).

٣ - «**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير**» (٦٣).

٤ - «**له ما في السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد**» (٦٤).

فالله له كل ما فى السموات والأرض ولكنه غنى عن كل هذا وجدير بأن يحمده جميع خلقه.

٥ - «**ألم تر أن الله سخَّر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه أن الله بالناس لرؤوف رحيم**» (٦٥).

فتسخير الأرض وكل ما أودع فيها من خيرات في خدمة الإنسان. وتسخير البحار لتحمل الفلك وإمساك الكواكب فى مدارتها حتى لا تصطدم بالأرض وتفنيها كل ذلك من رحمة الله ورأفته بالعباد.

٦ - «**وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم. إن الإنسان لكفور**» (٦٦).

وخلق الإنسان في هذه الحياة الدنيا نعمة كبرى. وإن كان يعقبه إماته إلا أن هناك حياة آخرة. ولكن الإنسان يجحد جميع هذه النعم.

اعتراض بعض أهل الكتاب على بعض شعائر الإسلام:

يقول المنتخب في تفسير القرآن الكريم (ص ٤٩٩) إن الله قد جعل لكل أمة من أصحاب الشرائع السابقة شريعة خاصة بهم تناسب عصرهم يعبدون الله عليها إلى أن ينسخها ما بعدها. ومن هذا المنطلق كان لأمة «محمد» شريعتهم الخاصة. فلا يجوز لأهل الكتاب أن يجادلوا أو يعترضواعلى بعض شرائع الإسلام. وإن أصروا على الاستمرار فى المجادلة فيما رسمه الله لنبيِّه فعليه أن يخبرهم أن الله يعلم ما يفعلون وأنه سيحكم بينه وبينهم يوم القيامة والمفهوم أن الله سيؤيد نبيه ويخذلهم. ثم تقرير بأن الله يعلم كل ما يحدث في السماء والأرض لأن كل شيىء مدون فى كتاب هو اللوح المحفوظ وذلك أمر يسير بالنسبة لله تعالى:

«**لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعُنَّك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلي هدى مستقيم. وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون. الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون. ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب. إن ذلك على الله يسير**» (٦٨ - ٧٠).

ضيق المشركين عند سماعهم القرآن:

«**ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير. وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر (الحنق والغيظ) يكادون يسطون (يفتكون) بالذين يتلون عليهم آياتنا. قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير**» (٧١ - ٧٢).

والآيات تندد بعبادة المشركين أشياء لم ينزل بعبادتها حجة فى كتاب سماوى وليس لديهم دليل عقلى على استحقاقها للعبادة. ثم إذا تليت عليهم آيات القرآن تتجهَّم وجوههم ويتملكهم الغيظ ويكادون يبطشون بمن يتلونها. ثم يأتى أمر للنبى بأن يزيدهم غيظا وحسرة بإخبارهم بما وعدهم الله من عذاب النار فى الآخرة.

لفت نظر الكفار إلى عجز الأصنام:

والآيات تندد وتسفِّه عبادة الأصنام. وفى تحد وسخرية لاذعة تؤكد للكفار أن آلهتهم لن تخلق شيئا ولو تافها مثل الذبابة التي هى من أضعف مخلوقات الله. ولو امتص الذباب شيئا فلن يستطيعوا - هم ولا آلهتهم - استرجاعه منها مع تفاهة ما أُخذ وضعف آخذه. وما كان ذلك من الكفار إلا لأنهم لم يُقدِّروا الله حق قدره وغفلوا عن أن الله قادر على كل شىء، عزيز لا يضيره كفرهم:

«يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له. إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب. ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز» (٧٣ - ٧٤).

ثم تذكر الآيات أن الله يختار رسلا من الملائكة يبلِّغون كلامه إلى رسله من الناس. والله يعلم جميع أحوالهم: ماضيهم ومستقبلهم ويعلم أنهم سيبلغون رسالته خير تبليغ ولذلك إصطفاهم وإليه وحده ترجع الأمور. ثم أمر للمؤمنين بالركوع والسجود لله وحده وهذا هو طريق الفلاح.

«الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور. يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون» (٧٥ - ٧٧).

ثم تأتى الآية الخاتمة للسورة تأمر المسلمين بالجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله والله فضلهم واختار لهم ملة جدهم إبراهيم وهو الذى سماهم المسلمين. وقد جعلهم الله أمة وسطا. وسيشهد النبى عليهم بأنه بلَّغهم رسالته وهم بدورهم سيكونون شهداء على الأمم السابقة بأن دعوة الإسلام قد بلغتهم. أما وقد بلغ المسلمون هذه المكانة فيجب عليهم أن يقابلوها بالشكر وبإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والتوكل على الله فى كل أمورهم.

«وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم (اختاركم) **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** (أى مشقة فى التكليف) **مِلةَ أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير»** (٧٨).

وبهذا تنتهى سورة الحج التى هدفت - من بين أهدافها - إلى أن يظل البيت الحرام فى مكة ماثلا فى أذهان المسلمين بوصفه قبلتهم - وقد بناه جدهم الأكبر إبراهيم عليه السلام - ولتظل شعائر الحج التى أرسى قواعدها - حية فى نفوسهم كجزء من الحنيفية التى يسيرون عليها - وألا تشغلهم الأحداث أو يثنيهم صد كفار قريش لهم عن الحج أو على الأقل أداء عمرة.

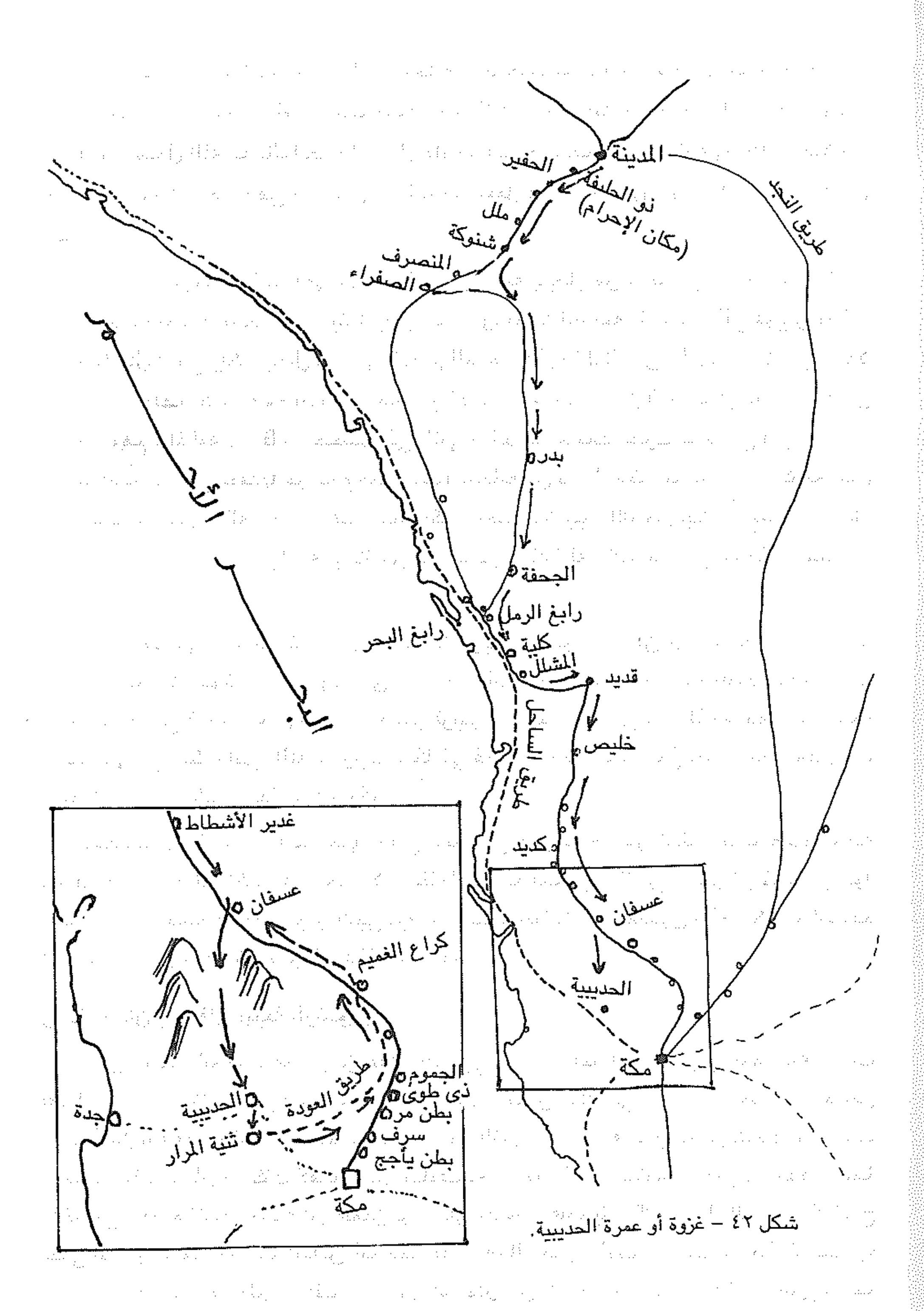
غزوة وصلح الحديبية :

أخبر النبى أصحابه أنه رأى فى منامه أنهم يدخلون مكة معتمرين فاعتزم القيام بعمرة. وقال ابن اسحق (السيرة النبوية. ابن كثير. جـ ٣ ص ٣١٢) إن النبى خرج فى ذى القعدة سنة ٦ من الهجرة واستنفر مَن حوله من الأعراب من أهل البوادى وهو يخشى أن تعرض له قريش بحرب أو يصدُّوه عن البيت فاستجاب له بعض القبائل وأبطأ عليه كثير من الأعراب لما توقعوه من متاعب أو قتال. وكان من تخلفوا هم قبائل بنى غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم وكان بعضهم على الشرك وبعضهم حديث عهد بالإسلام.

وخرج رسول الله بمن معه من المهاجرين والأنصار - وقد بلغوا ٧٠٠ رجل وإن كان بعض الرواة قد زادهم إلى ١٤٠٠ بمن لحق بهم من الأعراب. وساق الهدى ٧٠ بدنة فكانت كل بدنة عن عشرة نفر. وأحرم بالعمرة وأعلن أنه لا يريد حربا وإنما خرج زائرا للبيت الحرام ومعظما له. وساروا فى طريق مكة حتى إذا كان عند ذى الحليفة - ٢٠ كم جنوب المدينة - أحرم وأمر المسلمين بالإحرام وأشعر الهدى أى جرحه ليسيل دمه علامة على أنه هدى لله ووضع فى أعناقها القلائد وهى علامة ثانية على أنه هدى لله.

ولما وصلوا عسفان - حوالى ٦٠ كم شمال مكة (شكل ٤٢) - لقيه بشر بن سفيان الكعبى وأخبره أن قريشا قد علمت بمسيرته وخرجوا بأسلحتهم ونزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا يدخلها عليهم أبدا وأرسلوا خالد بن الوليد فى كتيبة من الفرسان إلى كراع الغميم. فقال رسول الله. ياويح قريش. لقد أكلتهم الحرب. ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب. فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا. وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام ذافرين (الذَّفَر ريح زكية من طيب أو مسك). فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة - مشيرا إلى عنقه كناية عن الهلاك. ثم قال لمن حوله: مَن رجل يخرج عن طريق غير طريقهم التي هم به؟ رغبة منه فى تجنب أى احتكاك معهم. فقام رجل من قبيلة أسلم وسلك بهم طريقا وعرا بين التلال والوديان حتى وصلوا إلى أرض سهلة عند الحديبية حوالى ٢٠ كم شمال غرب مكة.

ورأت خيل قريش بقيادة خالد بن الوليد أن المسلمين قد نجحوا فى الإفلات منهم واقتربوا من مكة. فعادوا إلى مكة ليخبروا قريشا بالموقف. وسار النبى على رأس من معه حتى إذا



شكل ٤٢ – غزوة أو عمرة الحديبية.

كانوا فى ثنية المرار بركت ناقته فقال لأصحابه: لقد حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها. ثم أمر الناس أن ينزلوا. قيل له يا رسول الله ما بالوادى ماء ننزل عليه فأخرج سهما من كنانته وأعطاه رجلا من أصحابه وأمره أن يغرزه فى منخفض من الأرض ففعل ففاض الماء وشرب الناس وسقوا إبلهم والهدى.

وجاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى رجال من خزاعة بإيعاز من قريش وسألوه عما جاء به فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا وإنما زائرا للبيت ومعظماً لحرمته. فرجعوا إلى قريش ونقلوا إليهم ما قال النبى ولكن رجال قريش أخذتهم العزة بالإثم وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تُحدِّث بذلك عنا العرب. ثم أن قريشا أرسلت رجلا من كنانة – وهم حلفاؤهم – فلما حضر إلى النبى وعلم أنه لم يأت لحرب عاد إلى قريش ولكن قريشا أصرَّت على موقفها من منع «محمد» وأصحابه من دخول مكة. فغضب سيد كنانة وقال يا معشر قريش: والله ما على هذا حالفناكم. أيُصَدُّ عن بيت الله من جاء مُعظما له. والله لتُخلُّنَّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بمن معى. فقالوا له: كُفَّ عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

وجاء عروة بن مسعود الثقفى فى وفادة من قريش وأخبر النبى أن قريشا مصممة علي ألا يدخل عليهم مكة عنوة. ولمس عروة مدى حب أصحاب النبى له واستعدادهم للذود عنه ضد أى مكروه فعاد إلى قريش وقال لهم: يا معشر قريش قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه. ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا فروا رأيكم.

وبعث رسول الله وسيطا من خزاعة إلى قريش ليبلغهم ما جاء من أجله ولكنهم عقروا جمله وأراد بعضهم قتله ولكنهم فى آخر الأمر خلوا سبيله فعاد إلى النبى. وقيل إن قرشا بعثوا أربعين رجلا ليستطلعوا أخبار النبى ويعرفوا قوته وبينما هم يطيفون بالمعسكر أحاط بهم أصحاب رسول الله وأتوا بهم إليه فخلَّى سبيلهم.

وفادة عثمان بن عفان وبيعة الرضوان:

ثم إن رسول الله بعث عثمان بن عفان إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا للبيت ومعظماً له. ولما دخل عثمان مكة لقى أبان بن سعيد بن العاص الذى أعلن أنه قد أجاره. وبلَّغهم عثمان بقدوم النبى للعمرة. فقالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله. واحتبسته قريش عندها. فلما تأخر فى العودة ثارت شائعة أن عثمان بن عفان قد قتل. فلما بلغ ذلك رسول الله قال: لا نبرح حتى نناجز القوم. ثم دعا الناس لمبايعته على القتال حتى الموت وسُمِّيت «بيعة الرضوان» وكانت تحت شجرة. ولم يتخلف أحد من المسلمين عن البيعة. ثم أتى من أخبر النبى أن ما

ذكر عن قتل عثمان باطل.

والحقيقة أن قريشا كانت فى مأزق كبير وفى حيرة من أمرها. فهى لا تريد أن يشيع بين العرب أنها تحول بين فئة من العرب - مهما كانت عقيدتها - وبين زيارة بيت الله الحرام وتقديم القرابين عنده. كما أنها لا تريد أن يقال إن «محمداً» وأصحابه قد «اقتحموا» عليهم مكة. لذلك كثر إرسالها للرسل إلى النبى كسباً للوقت وحتى لا يقع صدام فى الأشهر الحرم.

الصلــح:

قال ابن اسحق: ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله وقالوا له: ائت محمدا فصالحه ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تُحدِّث العرب أنه دخل علينا عنوة أبداً. وواضح من هذا التوجيه أن كل ما كانت تريده قريش هو حفظ ماء الوجه. ولما رأى رسول الله سهيل بن عمرو قادما قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل. وأتى سهيل إلى رسول الله وتكلم وأطال الكلام وتراجعا حتى اتفقا على أسس الصلح ولم يبق إلا كتابته. ويبدو أن بعض شروط الاتفاق لم تعجب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر وقال له: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال بلى.: أوَلسنا بالمسلمين؟ قال بلى. قال أو ليسوا بالمشركين؟ قال بلى. قال: أو ليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ قال بلى. قال: فلم نُعطَ الدنيَّة (الذل والصغار) فى ديننا؟ قال يا عمر الزم غرزه فإنى أشهد أنه رسول الله. قال عمر وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم إن عمرا أتى رسول الله وقال له: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال بلى. قال أوَلسنا بالمسلمين؟ قال بلى. قال أوَليسوا بالمشركين؟ قال بلى. قال: فعلام نعطى الدنية فِي ديننا ونرجع قبل أن يحكم الله بيننا؟. فقال النبى: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى. وكان عمر بعد ذلك يقول: مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به. وواضح أن عمر لما اتضح له فيما بعد أن صلح الحديبية كان نصراً وفتحا على المسلمين خاف من مغبة كلامه الذى كان فيه تمرُّد ورفض لما قبل به رسول الله والذى لم يكن ليقبله إلا أن يكون برضاء من الله سبحانه وتعالى.

علىٌّ يكتب شروط الصلح:

ثم إن رسول الله دعا على بن أبى طالب ليكتب شروط الصلح فقل: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم: فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم. فقال رسول الله: اكتب باسمك اللهم. فكتبها. ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال رسول الله: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله. ولكن علياً لم تطاوعه نفسه فى محو اسم رسول الله فأخذ النبى الصحيفة ومحا بنفسه ثم أعطى الصحيفة لعلى ليكمل الكتابة فكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو. اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن

فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض. وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجًا أو معتمرا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على نفسه وماله. ومن قدم المدينة من قريش مجتازا إلى مصر أو الشام يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله – والحقيقة أن قريشا كانت تريد هذا الشرط حتى تضمن عودة الأمان لطريقها التجارى إلى الشام بعد حصار خانق كاد أن يقضى عليها. وتمضى الصحيفة فنصّت على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه – وهذا الشرط أغضب كثيرا من المسلمين وعدُّوه تنازلا كبيرا أو تهاونا فيه مساس بكبريائهم فالواجب أن تكون المعاملة بالمثل ولكن النبى رأى أن من يرتدّ من المسلمين فلا خير فيه فلم يحرص على أن ترده قريش. ولكن من أسلم وفر إليه ثم ردّه إلى قريش فإنه سيتمسَّك بإسلامه ويكون شوكة فى جانب قريش وحافزا لأن يظل الإسلام حاضرا فى أذهان القرشيين وقد يسلم غيره – ولعل هذا الشرط – ولم يفهم عمر بن الخطاب الحكمة من قبوله – هو الذى أحنقه وجعله يقول ما قال حسب ما ذكرنا أنفا – ونستكمل الشروط: وإن بيننا عيبة مكفوفة (أى يتوقف ويكف كل فريق عن عيب الفريق الآخر) وأنه لا إسلال (السرقة الخفية) ولا إغلال (خيانة) وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه. ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه. وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا مع سلاح الراكب. السيوف فى القِرب لا تدخلها بغيرها. وشهد على الصلح أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب كاتب الصلح وبعض كبار الصحابة الحاضرين.

وأسرعت خزاعة بإعلان انضمامها إلى عهد محمد كما أسرع بنو بكر إلى إعلان انضمامهم إلى عقد قريش.

وفور التوقيع على الصلح ولما يجف مداد الكتابة إذ جاء أبو جندل ابن سهيل بن عمرو – ممثل قريش فى الصلح – يرسف فى الحديد وكان قد أسلم فقيده أبوه وحبسه ولكنه استطاع الهرب وأتى لاجئا إلى رسول الله فقام إليه سهيل – والده – وضرب وجهه. وطلب من النبى عدم قبول أبى جندل لاجئا وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين. أأُردُّ إلى المشركين يفتنوننى فى دينى. وكان هذا أول امتحان للصلح. وقام النبى – حسب شروط الصلح – برد أبى جندل إلى قريش وقال له: يا أبا جندل. اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا. وأنّا عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وأنَّا لا نغدر بهم.

ودخل الناس أمر عظيم إذ كانوا لا يشكوُّن فى أداء العمرة للرؤيا التى رآها رسول الله وأخبرهم عنها وهاهم قد مُنعوا من أدائها. وكذلك للشرط الذى يلزم المسلمين برد من جاءهم من قريش مسلما. وبدأ بعض المسلمين يعلن تذمُّره واستفحل الأمر إلى حد خطير إذ أن النبى

أمر الناس أن ينحروا ما معهم من الهدي ثم يحلقوا فما قام منهم رجل. فعل ذلك ثلاث مرات ولم يستجب أحد. فدخل على زوجه أم سلمة – وكانت هى التى رافقته فى هذه الغزوة – فذكر لها ما لقى من الناس. فقالت يا نبى الله. اخرج ثم لا تُكلِّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك. وعمل النبى بمشورتها فخرج ولم يكلم أحدا حتى نحر وحلق فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وحلقوا ، وقال ابن اسحق إن النبى قال: يرحم الله المحلقين. قالوا والمقصرين يا رسول الله قال يرحم الله المحلقين قالوا والمقصرين يا رسول الله قال يرحم الله المحلقين قالوا والمقصرين يا رسول الله قال والمقصرين. فقالوا يا رسول الله فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال لم يشكُّوا.

ثم انصرف رسول الله قافلا حتى إذا كان عند كراع الغميم نزلت سورة الفتح.

سورة الفتح:

«إنا فتحنا لك فتحا مبينا. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيا. وينصرك الله نصرا عزيزا» (١ – ٣).

ونزلت السورة بأكملها فقرأها النبى على المسلمين فقال رجل: أى رسول الله أوَ فتح هو؟ قال إى والذى نفس محمد بيده إنه لفتح. وأخرج البيهقى أن رجلا آخر قال: ما هو بفتح. لقد صُددنا عن البيت وصُدَّ هدينا. وبلغ النبى هذا الكلام فقال بئس الكلام هذا. بل هو أعظم الفتوح. وقد رضى المشركون أن يدفعوكم من بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا.

والحقيقة أن صلح الحديبية كان من أعظم الفتوح فى تاريخ الإسلام. فقد اعترفت قريش بالنبى نداً لهم على قدم المساواة. وكثير من حركات التحرر فى وقتنا الحالى تحاور وتناور لتجعل أحد أجهزة الدولة الرسمية تجلس معها على مائدة مفاوضات إذ أن ذلك فى حد ذاته اعتراف من الدولة بهذه الحركة ويعتبره خبراء القانون الدولى إضفاء للشرعية على الحركة بعد أن كانت من قبله تعتبر «تمرُّداً» يجب قمعه.

وكان توقيع صلح الحديبية بدء انطلاق الدعوة على نطاق واسع وزوال العوائق من أمامها. فقد اتسعت دائرة البلاغ وزاد الداخلون فى الإسلام. وحتى الشرط الذى لم يرض عنه كثير من المسلمين واعتبروا قبوله «مهانة» أثبتت الأيام أنه لم يكن كذلك حتى إن قريشا نفسها أرسلت بعد عام واحد تعلن للنبى تنازلها عنه وتطلب منه عدم العمل به. ومن فرَّ من قريش مسلما ولجأ إليه فلا يردَّه. وقد أتاح الصلح الفرصة لتوسيع نطاق دعوة الإسلام فأرسل النبى الرسل إلى مناطق وتجمعات فى أطراف الجزيرة العربية بل وإلى ملوك فارس والروم ومصر وجاء رد إيجابى من أمراء الدويلات العربية مثل الغساسنة وملوك عمان والبحرين وزعماء اليمن. وأخذت وفود العرب ورجالاتهم يفِدُون إلى المدينة من مختلف الأنحاء ليدخلوا فى دين

الله. ودخل فى الإسلام رجلان من أهم رجال قريش: هما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وسنذكر قصة إسلامهما فيما بعد (ص ٧٤٥) فكان صلح الحديبية بحق كما وصفته الآية **«فتحا مبينا»** ثم جاءت جملة **«ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر»** كي يجتمع له مع الفتح تمام النعمة بالمغفرة الكاملة وحتى لو لم يكن هناك ما يستدعى الغفران. وفى حديث شريف يحث النبى المسلمين على كثرة الاستغفار لأنه - وهو المعصوم - يتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة.

وبعد البلبلة التى اعترت بعض المسلمين من صلح الحديبية نزلت الآيات تشرح ما حدث بعد ذلك:

«هو الذى أنزل السكينة (الطمأنينة) **فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما. ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما. ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء** (بأن الله لن ينصر نبيه) **عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيرا. ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما»** (٤ - ٧).

وهكذا فإن الله أنزل السكينة علي قلوب المؤمنين وانقادوا لحكم الله ورسوله واطمأنت قلوبهم فازدادوا إيمانا. **«ولله جنود السموات والأرض»** إشارة إلى أنه كان فى قدرة الله عز وجل أن ينزل بعض جنوده ليهلك الكفار ويدخلوا مكة معتمرين ولكن الله أراد اختبار المؤمنين لتكون لهم جنات النعيم. أما المنافقون الذين انتهزوها فرصة لاتهام النبى بالتهاون وراحوا يشككون فى نبوته ويظنون أن الله أراد بهم سوءاً فإن الله غضب عليهم وستدور عليهم الدوائر ولهم نار جهنم وبئس المصير. ويتكرر قوله تعالى: **«ولله جنود السموات والأرض»** بما معناه أن الله قادر على التنكيل بهؤلاء المنافقين.

ثم تذكر الآيات أن الله أرسل رسوله - محمدا - **«شاهدا»** على تصديق المؤمنين لأوامره **«ومبشرا»** لهم بجنات النعيم **«ونذيرا»** للمنافقين من مغبة مسلكهم. وواجب على المسلمين الإيمان بالله ورسوله ونصرته وتوقيره وتسبيح الله صباحا ومساء:

«إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا» (٨ - ٩).

إشادة بالذين بايعوا تحت الشجرة:

«إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله. يد الله فوق أيديهم. فمن نكث فإنما ينكث على نفسه. ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجرا عظيما» (١٠).

والآيات تشيد بالمسليمن الذين بايعوا الرسول على القتال حتى الموت لما نمى إليهم خبر مقتل عثمان بن عفان وتعلن لهم أنهم وقتئذ قد بايعوا الله وهى بيعة على نصرة دين الله وأن من ينكث هذه البيعة ويفعل ما يناقضها فإنه يكون قد أضرَّ بنفسه أما من أوفى بعهد الله فسينال عظيم الأجر.

التنديد بالمتخلفين:

سبق أن ذكرنا (ص ٦٨٤) أن النبى لما خرج قاصدا العمرة استنفر من حوله من الأعراب فمنهم من أجاب وخرج ومنهم من تخلفوا ظنا منهم أن قريشا لابد ستحارب وأن المسلمين – وهم قلة – لن ينجو من سيوف أعدائهم ولن يعودوا إلى المدينة وإلى أهليهم أبدا. فنزلت الآيات تخبر النبى عما سيقوله له هؤلاء الذين تخلفوا وأنهم سيقدمون له الأعذار الكاذبة لمداراة سوء الظن الذى ظنوا فيدَّعون أن أموالهم وأهلهم هى التى شغلتهم عن الخروج معه وسيطلبون منه الاستغفار لهم. وبعد أن فضحتهم الآيات راحت تنذرهم بعذاب السعير ولكن فى نفس الوقت تفتح لهم باب الأمل ليتوبوا فالله له ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وهو الغفور الرحيم.

«سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا. يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا أن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا. بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزُيِّن ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا (فاسدين ومستحقين لسخط الله). **ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا. ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما»** (١١ – ١٤).

ثم تخبر الآيات عن طمع الأعراب المنافقين إذ يتخلفون عن رسول الله حين يكون الخطر متوقعا – كما فعلوا عند المسيرة للعمرة – أما فى الغزوات التى تكون الغنائم والسلامة مضمونتين فإنهم يطلبون السماح لهم بالخروج معهم. فإذا مُنعوا سخطوا واتهموا مانعيهم بالحسد. ثم تخبرهم الآيات بإتاحة فرصة لاختبارهم إذ سيدعون إلى قتال قوم أشداء البأس من أعداء المسلمين فإن خرجوا وأبلوا بلاء حسنا جزاهم الله جزاء حسناء وإن نكصوا كما نكصوا من قبل وتخلفوا حقَّ عليهم عذاب أليم:

«سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يُبدلوا كلام الله. قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا. قل للمخلفين من الأعراب ستُدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما» (١٥ – ١٦).

ويقول المفسرون إن المغانم المشار إليها هى مغانم خيبر وأن الله قد وعد بها الذين شهدوا الحديبية تطييبا لخاطرهم إذ مُنعوا من زيارة بيت الله الحرام. وقد أمر النبى أن لا يسير معه إلى خيبر غيرهم.

ولما كانت الآيات قد أنذرت المتخلفين بعذاب أليم جاءت الآيات تستثنى ذوى العذر من عاهة أو مرض من الاشتراك فى القتال وتعيد إنذار المعرضين بعذاب أليم:

«ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما» (١٧).

ثم تعيد الآيات التنوية بالمؤمنين الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة عند الحديبية وكانوا مخلصين فى بيعتهم. ولما لم يتمكنوا من دخول مكة اهتزت مشاعرهم بعض الشيىء فأنزل الله السكينة عليهم وأعاد الإطمئنان إلى قلوبهم ثم تعدهم الآيات بالنصر فى معركة قريبة وينالهم منها مغانم كثيرة ويُجمع المفسرون على أن المغانم الكثيرة هى مغانم خيبر.

«لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا. ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما» (١٨ – ١٩).

وهناك أحاديث كثيرة فى فضل الذين بايعوا تحت الشجرة. منها حديث عن جابر: قال النبى حينما بايعه الناس تحت الشجرة: أنتم خير أهل الأرض اليوم. وحديث آخر. قال رسول الله لحفصة زوجته: لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة التى بايعوا تحتها أحد.

ثم راحت الآيات تنوه بالمغانم الكثيرة التى سيغنمها المسلمون مثل فتح خيبر وغيرها من قرى اليهود. وأن الله أعطاهم مغنما عاجلاً وهو صلح الحديبية وكفاهم القتال. وكان عقد الهدنة متضمنا أن تكف قريش يدها عن المسلمين. فكانت تلك آية ومنة من الله على المؤمنين. كما نبهت الآيات إلى نعم أخرى لم يُخبروا بها ولكن الله يعلمها:

«وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما. وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيئ قديرا» (٢٠ – ٢١).

ما كان ينتظر قريشا لو حاربوا المسلمين عند الحديبية:

«ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا. سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا. وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا. هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم

فتصيبكم منهم معرَّة بغير علم ليُدخِل الله فى رحمته من يشاء لو تزيَّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما. إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيىء عليما» (٢٢ - ٢٦).

والآيات تخبر أن قريشا كانت ستنهزم لو حاربت المسلمين. فسنة الله أن ينصر جنده. وكان من فضل الله علي المسلمين أن صرف قريشا عن قتالهم وصرفهم عن قتال قريش بالرغم من أنها قد صدَّتهم عن دخول المسجد الحرام وحبسوا الهدى ومنعوه أن يصل إلى المكان المحدد لذبحه **«محله»** وألهم الله المؤمنين قبول الصلح وعدم القتال لأنه كان في مكة عدد من المؤمنين والمؤمنات أخفوا إسلامهم خوفا من بطش قريش وكان من المحتمل لو حدث قتال أن يقتلوهم خطأ ظنا منهم أنهم من الكفار فيكون فى ذلك عار **«معرَّة»** عليهم أن قتلوا إخوة لهم فى الدين. ولو أن هؤلاء النفر المؤمنون تميزوا وكانوا فى مكان واحد **«لو تزيلوا»** لأنزل الله عذابه على الكافرين بأن سلطكم عليهم. ثم راحت الآيات تندد بتعنت قريش فى المفاوضات وإصرارهم على شروط جائرة حفزهم عليها أَنَفه الجاهلية وحَمِيتها ولكن الله أنزل الهدوء والسكينة على النبى وعلى المسلمين فقبلوا هذه الشروط المجحفة حقنا للدماء وعلما من الله بأن الصلح فى حد ذاته فتح عظيم وكسب للمسلمين.

ويروى أن عمر بن الخطاب قال للنبى: أوَلست تُحدِّثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟ قال النبى: بلى أفأخبرتك أنا نأتيه هذا العام؟ قال لا. قال فإنك آتيه ومطوِّفٌ به. وكان الصلح يتضمن أن يأتى النبى والمسلمون للعمرة فى العام التالى وتترك قريش لهم مكة لمدة ثلاثة أيام حتى يُتِمُّوا عمرتهم ونزل تصديق ذلك فى الآيات التالية:

«لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون. فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا. هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا» (٢٧ - ٢٨).

وهذه هي المرة الثانية التي يرد فيها وعد الله بإظهار دينه - الإسلام - على سائر الأديان - وكانت المرة الأولى فى سورة الصف (آية ٩ ص ٦٧٢). **«هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»**.

ضرب مثل للنبى وأصحابه:

«محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكَّعا سُجَّدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا. سيماهم فى وجوهم من أثر السجود. ذلك مثلهم فى التوراة. ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار. وَعَد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما» (٢٩).

فالآيات تقرر أن محمدا هو رسول الله حقا وأنه هو أصحابه أشداء على الكفار يقاتلونهم ببأس شديد ولكنهم – أى المسلمين – رحماء فيما بينهم وعلاماتهم واضحة فى وجوهم من كثرة السجود: سماحة فى الوجة وصفاء فى النفس وليس المقصود ذلك الأثر فى الجبهة المعروف بـ «زبيبة الصلاة». وتلك هى صفاتهم فى التوراة. أما فى الإنجيل فمثلهم كالزرع الذى أخرج أول نبته لينا ثم نما وقوى فغلظت ساقه وارتفع، ولابد أنه قد أثمر أحسن الثمار مما يعجب الزراع أى المؤمنين ويغتاظ الكافرون من قوة المؤمنين. وقد وعد الله الذين آمنوا أن يغفر لهم ويجزيهم أحسن الجزاء.

والآيات تعطي صورة رائعة لما كان عليه أصحاب رسول الله من ورع وتقوى واجتهاد فى العبادة وأخلاق سمحة وتراحم فيما بينهم مع الشدة بالنسبة لأعدائهم أما جملة «والذين معه» فهى تعنى تلك الفئة الراسخة فى إيمانها والمؤيدة لرسول الله قلبا وقالبا لا يترددون ولا يتأخرون عن أمرٍ أَمَر به. وقد وردت أحاديث عديدة فى فضل هذه الفئة المخلصة منها حديث عن أبى هريرة: لا تسبُّوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه. وحديث آخر: الله الله فى أصحابى. الله الله فى أصحابى. لا تتخذوهم غرضا من بعدى. فمن أحبَّهم فبحبى أحبَّهم ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم. ومن آذاهم فقد آذانى. ومن آذانى فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه.

إسلام قبيلة جذام:

قال ابن هشام (السيرة النبوية جـ ٤ ص ١٥٤): وفد على رسول الله بالمدينة رفاعة بن زيد الجذامى فأهدى لرسول الله غلاما وأسلم وكتب له رسول الله كتابا إلى قومه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد أني بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم يدعوهم إلى الله وإلى رسوله فمن أقبل منهم ففى حزب الله ورسوله ومن أدبر فله أمان شهرين» وعاد رفاعة بن زيد إلى قومه فأسلموا جميعا.

بعد صلح الحديبية وما تهيأ بعده من أمان من ناحية قريش أصبح الأعداء متمثلين في القبائل المشركة فى المناطق حول المدينة وفى اليهود المتمركزين في خيبر وبعض القرى على طريق الشام لجأوا إليها بعد إجلائهم عن المدينة.

ولقد رأينا كيف كانت الآيات تنزل على النبي مؤيدة لسياسة اتبعها مع عدو ما أو توجهه لاتخاذ موقف ما، أو تعلق على معركة وقعت، ونزلت سورة المائدة محتوية على موضوعات عدة.

سورة المائدة:

وهى من طوال السور. كما أنها من أواخر السور نزولا إذ لم يبق بعدها إلا ثلاث سور ويكتمل القرآن الكريم. هذه السور هي الممتحنة والتوبة والنصر. وقد بدأت سورة المائدة بِحَثٍّ على الوفاء بالعقود.

«يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود.....»

وكان أقرب العقود التى أبرمت هو صلح الحديبية. والعقد هو ما يتم بين طرفين متكافئين وفيه معنى الاستيثاق. أما العهد فينفرد به واحد. كأن يتعهد طرف أن لا يعتدى على الطرف الآخر وغالبا ما يكون الطرف الضعيف هو الذى يطلب العهد من الطرف الأقوى. وكان المسلمون قد أصبحوا قوة لايستهان بها وعلى الند من قريش. ولعل قريشا لما علمت أن الله يأمر المسلمين على الوفاء بالعقد الذى وُقِّع معهم عملوا هم أيضا على التمسك به وتجنب ما يتنافى معه.

يلى ذلك عدة موضوعات رئيسية أهمها:

أ – تشريعات خاصة بالمسلمين.

ب – عن اليهود وأهل الكتاب.

جـ – حث للجميع على الحكم بما أنزل الله.

د – علاقة المسلمين بأهل الكتاب.

هـ – دعوة أهل الكتاب للإسلام.

و – تشريعات دينية.

وغير ذلك من المواضيع. ويلاحظ أنه لا يمكن فصل المواضيع بعضها عن بعض فصلا تاما فالقرآن ليس كتابا مدرسيا يفصل النقاط إلى ١، ٢، ٣،. بل هو كتاب إيمان وعظة. وتحتوى كل فقرة بل وكل آية على أكثر من موضوع ولها أكثر من هدف.

أ – تشريعات خاصة بالمسلمين:

ويمكن إدراجها فى النقاط التالية:

١ – «... **أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم...**» والآية تُحِلُّ أكل لحوم الأنعام من الإبل والبقر والغنم. وهو نفس المعنى الذى ورد من قبل فى سورة الحج (الآية ٣٠ ص ٦٧٨) «**وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم**».

ثم تُستثنى حالة الإحرام «**غيرَ مُحِلِّى الصيد وأنتم حرم. إن الله يحكم ما يريد**» (١) والآية تُحرِّم صيد البر فى حالة الإحرام بحج أو بعمرة.

٢ - ثم تنهى الآيات المسلمين عن استباحة حرمة شعائر الله كالإخلال بمناسك الحج أو انتهاك حرمة الأشهر الحرم بإثارة الحرب فيها أو اعتراض ما يُهدى من الأنعام إلى بيت الله الحرام باغتصابه أو منع بلوغه محله. وألا ينزعوا القلائد وهى العلامات التى توضع فى أعناق الأنعام لتدل على أنها ستكون ذبيحة في الحج. وألا يعترضوا من يقصد بيت الله الحرام يبتغون فضل الله ورضاه. ولكن إذا تحللوا من الإحرام وخرجوا من أرض مكة فلهم أن يصطادوا. ثم تحث الآيات على عدم بغض قريش لأنهم صدُّوهم عن دخول المسجد الحرام عند الحديبية وتنهي عن أن يكون ذلك سببا للاعتداء عليهم. ثم تأمر الآيات المسلمين بالتعاون بعضهم مع بعض على فعل الخير وتقوى الله:

«يا أيها الذين آمنوا لا تُحِلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمِّين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا. وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا. وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب» (٢).

ولا شك أن قريشا أكبرت عدل الإسلام فها هو القرآن ينهى المسلمين عن الاعتداء عليهم بالرغم من أنهم منعوهم من الطواف بالبيت الحرام.

٣ - ثم يأتى تفصيل **ما حُرِّم من الأنعام:**

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق. اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة (مجاعة) **غير متجانف** (غير متعمد) **لإثم فإن الله غفور رحيم»** (٣).

والآيات واضحة وتفصِّل ما حُرِم على المسلمين من الأنعام وهى: ١ - **«الميتة»** ولعل الحكمة فى تحريم أكل الميتة هو أن موتها قد يكون نتيجة مرض أو تسمم فيضر أو يهلك من يأكله. ٢ - **«الدم»** ولا يُتصور أن يقوم إنسان بشرب الدم ولكن الحيوان الذى يموت دون ذبح ينحبس دمه فيه. وقد ثبت مؤخرا أن أول ما يفسد هو الدم لكونه صالحا لنمو الميكروبات فيكون الضرر مضاعفا. ٣ - **أما لحم الخنزير** فقد كثر الكلام حول حكمة تحريمه فالخنزير معرض للإصابة بعدد كبير من الطفيليات التى تصيب الإنسان وتضره. وإن قيل إن الخنازير الآن فى أوربا تربى فى مزارع هى غاية فى النظافة وتتبع فيها قواعد صحِّيه صارمة فى المأكل أو التخلص من الفضلات تضمن خلو الخنزير من هذه الأمراض إلا أنه قد ثبت مؤخرا أن لحم الخنزير من أصعب اللحوم هضما فضلا عن أنه يسبب أمراض القلب والمرارة وبعض أنواع السرطانات. ٤ - **«المنخنقة»** منع عنها الهواء حتى ماتت وأصبح دمها المحتبس داخلها أزرقا لقلة الأوكسجين وهو أصلح ما يكون لنمو الميكروبات. ٥ - **«والموقوذة»** الميتة من الطعن والضرب. ٦ - **«المتردية»** الميتة بسبب سقوطها من مرتفع. ٧ - **«والنطيحة»** الميتة

بسبب نطح حيوان آخر لها. ٨ - **«وما أكل السبع»**. أى التى نهشها وحش ضار. واستثنى من كل ذلك ما يلحقه الناس ولا تزال فيه حياة وذكر اسم الله عليه قبل أن يموت من الأسباب المذكورة ويتم ذبحه. كما نهى عن أكل ما يذبح عند الأوثان وعن الاقتراع عند الأصنام بسهام للاستخارة. واستثنى من محرمات الأكل الاضطرار فى حالة الجوع التى تنذر بالهلاك بشرط أن يقتصر الأكل على مايدفع الهلاك.

وفى الآية جملتان عليهما إجماع بأنهما نزلتا بعرفة يوم الجمعة فى حجة الوداع وهما: **«اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا»** بل إن الإجماع أيضا على أنهما آخر ما نزل من القرآن الكريم. ومما يروى أن كعب الأحبار قال: لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيدا. يجتمعون فيه. فقال عمر بن الخطاب قد علمت اليوم الذى نزلت فيه. يوم جمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيد. وقد لاتبدو الحكمة فى إيراد هذه الكلمات كجملة اعتراضية فى وسط آية تنص على هذه المحرمات. ولعل الوحى أراد بوضعها فى هذا المكان التأكيد على أن هذه المحرمات المنصوص عليها هى من تمام الدين وأن من خالفها فقد انتقص من دينه وانتقص من نعمة الله عليه.

ثم تعود الآيات لتستكمل بيان الحلال فى المأكل فى حالة **الحيوانات المدرَّبة على الصيد** مثل الكلاب والصقور:

«يسألونك ماذا أُحِل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علَّمتم من الجوارح مكلِّبين تعلمونهن مما علَّمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه. واتقوا الله إن الله سريع الحساب» (٤).

وقد تعددت الأقوال فى تفسير **«واذكروا اسم الله عليه»** فقيل يُذكر اسم الله حين إرسال الجوارح المعلَّمة حتى إذا أتت بها ميتة جاز أكلها وقيل يُذكر اسم الله حين أكلها وقيل إن كانت لا تزال بها حياة يذكر اسم الله عليها وتذبح.

وأخيرا أُحِلَّ طعام أهل الكتاب فذبائحهم حل للمسلمين إلاّ ما ورد نص بتحريمه مثل الميتة ولحم الخنزير:

«اليوم أحل لكم الطيبات. وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم...»

٤ - إباحة الزواج من الكتابيات:

«.... والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين» (٥).

ويرى بعض المفسرين أن حكمه هذا التشريع هى أن القرآن وقد قرر أنه مصدِّقٌ لما بين يديه من

الكتاب ومهيمن عليه فهناك وحدة تجمع بين المسلمين وأهل الكتاب ومن ثم أباح طعامهم وذبائحهم وأباح الزواج منهم بعكس المشركين والوثنيين.

٥ – فى الوضوء والتيمم:

«يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين. وإن كنتم جنبا فاطَّهَّروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمَّموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه. ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون. واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور» (٦ – ٧).

وقد كان الوضوء يمارس في وقت مبكر من العهد المكي لما رآه النبى من جبريل عليه السلام كما سبق أن ذكرنا ص ٤٦ وظلَّ الأمر كذلك طوال هذه المدة ثم نزل الوحي بآية الوضوء ليكون تسجيلا لهذه الفريضة وليضيف التيسير بالتيمم فى حالات الضرورة أو عند عدم وجود الماء.

٦ – حث على العدل فى الحكم:

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله (قائمين بحقوقه) **شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم** (أى يحملكم بغضهم) **على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون. وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم. والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم»** (٨ – ١٠).

ولعل كفار قريش شعروا بالامتنان «لدين محمد» فهذه هى المرة الثانية التى يأمر أتباعه ألا يجعلوا كره قوم حائلا بينهم وبين إقامة العدل. إذ جاء نفس المعنى فى الآية ٢ من نفس السورة (ص ٦٩٦).

حماية الله المدينة أثناء عمرة الحديبية:

روى أن قبائل غطفان وأسد بتحريض من يهود خيبر أزمعوا غزو المدينة أثناء خروج المسلمين للعمرة إذ لم يبق فى المدينة إلا النساء والأطفال وذوو العذر من الرجال وهؤلاء لم يكونوا بالكثرة ولا القوة التى تُمكن من حماية المدينة من أى اعتداء، أما المخلفون والمنافقون فما كانوا ليهتموا بالدفاع عن المدينة ضد أى غزو إن لم يكونوا عونا للعدوان. وكان الموقف خطيرا. ولكن الله صرف نظر الأعداء وثبَّطهم. ولعلهم خشوا ما قد ينزله بهم المسلمون بعد عودتهم من الحديبية. ونزلت الآيات تَمُنُّ على المسلمين بهذا الفضل:

«يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله إذ هَمَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (١١).

ب - عن اليهود وأهل الكتاب:

احتوت سورة المائدة على عدة فقرات عن أهل الكتاب، ومعظمهم في ذلك الوقت من اليهود الذين تم إجلاؤهم عن المدينة فلجأوا إلى خيبر وفدك وغيرها من القرى على طريق الشام وراحوا يعادون المسلمين ويستَعْدون عليهم. أما النصارى فكان معظمهم في دولة الغساسنة على الحدود الشمالية الغربية للجزيرة العربية. ولم يكونوا يكيدون للمسلمين. كانت المسيحية تسيطر على الشام وفلسطين فكانت الدويلات العربية المسيحية تشعر أنها في أمان من الدين الجديد فلم تعاده. كما أن الصراع بين الروم والفرس جعل الجزيرة العربية القاحلة خارج دائرة اهتمام كل من الإمبرطوريتين ولعلهم كانوا يرون أن الصراع الدائر بين المشركين والمسلمين في صالحهم إذ يشغلهم عن الدويلات العربية الموالية لهما. ولكن الإسلام لم يكن ليسكت عن الممارسات الخاطئة لأهل الكتاب فنزلت الآيات فيها ما يتعلق بهم:

١ - تنديد بنقض اليهود لعهودهم:

وبيان أن هذا طبع متأصل فيهم بدءا بمخالفتهم لأمر نبيهم موسى بدخول الأرض:

«ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزَّرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل. فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يُحرِّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذُكِّروا ولا تزال تطَّلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين» (١٢ - ١٣).

وقد سبق أن ذكرنا بالتفصيل بعثة الاستطلاع التي أرسلها موسى للإتيان بخبر الأرض التي سيدخلونها (الجزء الرابع ص ١٠٤٢ - ١٠٤٧) ونكوص بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة وكان ذلك نقضا لميثاقهم مع الله. ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد لنقض المواثيق إذ أن نقض المواثيق طبيعة متأصلة في نفسية الشعب اليهودي فلا غرابة أن يمارسوا نفس الشيء مع النبي والمسلمين. ويخبر الله نبيه أنه سيكشف له عن خياناتهم فلا يضرونه شيئا. وأُمر النبي أن يعفو عنهم.

٢ - نقض النصارى لعهودهم:

«ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذُكِّروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون» (١٤).

وقد أُرجع نقض العهد بالنسبة للنصارى إلى نسيانهم تعاليم دينهم فكان عقابهم أن تفرقوا

إلى طوائف وفرق كما سبق أن ذكرنا فى الجزء السادس (ص ١٤٠). وهو ما أدى إلى حروب ستظل قائمة إلى يوم القيامة. ومثال بسيط منها ما يجرى حاليا بين الكاثوليك والبروتستانت فى أيرلندا الشمالية. وسوف يُذكرهم الله يوم القيامة بخلافاتهم هذه والمفهوم بالطبع أنه سيجازيهم عليها.

٣ – دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان:

«**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم**» (١٥ – ١٦).

والآيتان موجهتان إلى أهل الكتاب – اليهود والنصارى معا – وعباراتها واضحة وتدعوهم إلى اتباع النبى والكتاب الذي أنزل عليه لأنه نور ينير لهم طريقهم ويجنبهم العداوة والحروب التى أشارت إليها الآية السابقة. وهم كانوا ينتظرون النبى الخاتم ولكنهم أنكروه لما ظهر فى غيرهم.

٤ – نفى ألوهية المسيح:

وهنا تتبدى لنا الكياسة التى تناول بها الإسلام العلاقات مع اليهود والنصارى إذ لم يكن من حسن السياسة استعداء جميع القوى فى وقت واحد: المشركين من كفار مكة واليهود والنصارى إذ لو تكاتفوا جميعا لأمكنهم القضاء على الإسلام فى مهده. وفى مبدأ الأمر حينما أعلن الإسلام معارضته لعبادة الأصنام وقف اليهود والنصارى على الحياد باعتبار أن تحريم عبادة الأصنام ركن من أركان دياناتهم ورجاء منهم أن العرب إذا تخلوا عن عبادة الأصنام فإنهم قد يستحسنوا الدخول فى اليهودية أو النصرانية. إلا أن تخوف اليهود من قوة الإسلام دفع أحبارهم إلى التحريض على الإسلام والمسلمين. ولما انتقل المسلمون إلى المدينة بعد الهجرة بدت عداوة اليهود وأصبح كيدهم للإسلام سافرا فكان الرد على مؤامراتهم هو إخراجهم من المدينة. وكان النصارى فى أثناء هذه المعارك على الحياد وقد ذكرنا سياسة المهادنة التى اتبعها الإسلام مع وفد نصارى نجران (ص ٥٢٨ و ٥٣٤) فكانت الآيات التى نزلت تركز على معجزة مولد المسيح وأنه روح الله وكلمته. وتذكر الرفع دون التعرض لمسألة الصلب. وكانت حماية النجاشى المسيحى للمسلمين المهاجرين إلى الحبشة شبه رسالة موجهة إلى باقى النصارى بالوقوف على الحياد.

إلا أنه – الآن – وقد قوى الإسلام وكثر مؤيدوه فقد حان الوقت لمواجهة النصارى بخطأ معتقدهم فى ألوهية المسيح وبنوّته لله فنزلت الآيات الحالية تعلن بصراحة وبوضوح لا لبس فيه أن القول بألوهية المسيح كفر:

«**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن**

يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير» (١٧).

٥ – نفى ادعاء اليهود والنصارى أنهم «شعب الله المختار» :

«وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم. بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير»(١٨).

والمفهوم أن النبى حين كان يدعو اليهود والنصارى إلى الإسلام كانوا يردون عليه بأنهم شعب الله المختار وأنهم أحباء الله وفى منزلة أبنائه وأنهم بمأمن من عذابه فردت الآيات عليهم بقوة تبين لهم أنهم ليسوا إلا أناسا كسائر الخلق يغفر لهم إن شاء ويعذبهم إذا شاء. وقد سبق أن نعت عليهم سورة الجمعة (آية ٦ ص ٥٨٢) ادعاؤهم أنهم أولياء لله من دون الناس: **«قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين»**. وقولهم في سورة البقرة (الآية ٨٠ ص ٤٥٠) **«لن تمسنا النار إلا أياما معدودات»** وفى الآية ١١١ (ص ٤٥٥) **«وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى»**.

٦ – النبى مرسل لأهل الكتاب أيضا:

«يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير. فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيئ قدير» (١٩).

فقد جاء رسول الله بعد حوالى ستة قرون من ميلاد عيسى ابن مريم أى بعد فترة وانقطاع من مجيء الرسل ليجدد عهد الله مع البشر ويبين لهم حدوده ويدعوهم إلى الصراط المستقيم حتي لا يحتجوا بأنه قد طال عليهم الأمد ولم يأتهم رسول فأسقط الله حجتهم وأرسل النبى الخاتم بشيرا ونذيرا.

٧ – نكوص بنى إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة:

وفى هذه الفقرة تفصيل ما ذكر فى الآية ١٣ (ص ٦٩٩) عن نقضهم الميثاق مع الله:

«وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين. ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين. قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. وعلي الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين. قالوا يا موسي إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون. قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين. قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض. فلا تأس على القوم الفاسقين» (٢٠ – ٢٦).

وقد سبق أن ذكرنا شرح هذا الموقف فى الجزء الرابع (ص ١٠٤٧ – ١٠٥١) وقد جاءت

هنا للتدليل على ما درج عليه بنو اسرائيل من عصيانهم لنبيهم موسى، وتزخر كتب التاريخ بشواهد على عصيانهم أنبيائهم العديدين الذين جاءوا بعد موسى انتهاء بعيسى فليس غريبا أن يعصوا رسول الله حين يدعوهم إلى الإسلام.

٨ – قصة ابنى آدم كمثال للاعتداء:

«واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قرَّبا قربانا فتُقبل من أحدهما ولم يتقبَّل من الآخر، قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين. لئن بسطت إلىَّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يَدِىَ إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين. إنى أريد أن تبوء (تحمل) **بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين. فطوعت** (زيَّنت) **له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين. فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة** (جثة) **أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين. من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون»** (٢٧ – ٣٢).

وكثير من المفسرين يرون أن الضمير فى **«واتل عليهم»** عائد على اليهود لتذكرهم بما فعله الحسد فى ابنى آدم فجعل الأخ يقتل أخاه ثم يندم على ما فعل. وكأن الآيات تحذرهم من أن يجعلهم حسدهم للعرب – لظهور النبى فيهم – دافعا لاتخاذ موقف معاد منه وعدم الإيمان به. وفى الآيات حث على احترام النفس البشرية لأن الاعتداء على نفس واحدة كأنه اعتداء على نفوس جميع البشر. ومن حماها وحافظ عليها فكأنما حفظ الناس جميعا. وفى حديث رواه ابن كثير عن ابن مسعود: لا تُقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كِفل من دمها لأنه كان أول من سنَّ القتل.

٩ – جزاء الإفساد فى الأرض:

«إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يُقتَّلوا أو يُصلَّبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم. إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم (من قبل تنفيذ العقوبة) **فاعلموا أن الله غفور رحيم»** (٣٣ – ٣٤).

ويرجح المفسرون أنها نزلت فى حادثة نكث فيها اليهود ومظاهريهم من المشركين لعهد سلام مع النبى وعَدَوْا على بعض المسلمين وقتلوهم، فخيَّرت الآيات النبى فى طريقة الاقتصاص منهم، حسب جرمهم وجاءت الخيارات فى صيغة تشريع يصلح لكل زمان ومكان ولكل ما يوصف بأنه محاربة لله ورسوله أو إفساد فى الأرض. وقالوا إن القتل لمن قتل، والصلب لمن غصب المال وقتل، وقطع الأيدى والأرجل من خلاف لمن قطع الطريق وغصب المال ولم يقتل، والنفى إذا أخافوا فقط (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم، ص ١٥١).

حث المؤمنين على فعل ما فيه رضا الله:

« **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله** (باجتناب نواهيه وإطاعة أوامره) **وابتغوا إليه الوسيلة** (بفعل الطاعات والخيرات) **وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون**» (٣٥).

والآية تحث المؤمنين على خشية الله وإطاعة أوامره وفعل ما يقرب من ثوابه والجهاد في سبيله فهذا طريق الفلاح.

جزاء الكافرين:

«**إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبِّل منهم ولهم عذاب أليم. يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم**» (٣٦ - ٣٧).

والآية فيها تصوير لمصير الكافرين في الآخرة فهم مخلَّدون في النار ويتمنون الخروج منها بأى ثمن. وحتى لو كان لهم ضعف ما فى الأرض جميعا ليقدموه فدية عن أنفسهم فلن يقبل منهم.

حد السرقة:

«**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله. والله عزيز حكيم. فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم. ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير**» (٣٨ - ٤٠).

وفى الوصايا العشر التى أنزلت على موسى وصية تنهى عن السرقة عموما. وكانت سرقة المواشى هى الشائعة. وكان حد السرقة في الشريعة الموسوية أن يَرُدَّ السارق خمسة أضعاف ما سرق من بقر أو أربعة أضعافه إن كان غنما (قاموس الكتاب المقدس. ص ٤٦٥). أو ثمن ذلك ويتحتم تنفيذ الحكم ولو أدى إلى بيع ما فى دار السارق من متاع فإن لم يكن كافيا بيع السارق نفسه. وإن لم يكن له مال مفرز تم استرقاق السارق لمن سُرِق أى ألحق به عبدا كما حدث فى قصة يوسف حينما اتهم أخاه الأصغر - بنيامين - بسرقة صواع الملك ليأخذه فى كنفه وإن بدا عبدا «قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين» (٧٥ - يوسف). ثم جاءت الشريعة الإسلامية فجعلت حد السرقة هو قطع اليد اليمنى. والمشهور أن يكون القطع عند الرسغ. أما الشيعة فيقطعون عند أصول الأصابع ويتركون الكف والإبهام.

جـ - حث للجميع علي الحكم بما أنزل الله:

تركز الآيات من ٤١ - ٥٠ على الحكم بما أنزل الله وتدعوا أهل الكتاب إلى ذلك. والدعوة تشمل اليهود والنصارى إذ كانوا قد عطلوا كثيرا من أحكام شرائعهم كما أن أحبار اليهود

القدامى كانوا قد أخفوا بعض أحكام التوراة ووضعوا أحكاما من عندهم بدلا منها لهوى فى نفوسهم أو إرضاء لبعض ملوكهم أو تحت إغراءٍ من المال والسلطة. وكانوا يسارعون إلى الكفر بما فى كتبهم ويحكمون بغيره. فنزلت الآيات تحث على العودة إلى ما أنزل الله والحكم به سواء بالنسبة لليهود أو النصارى أو المسلمين.

١ - حث اليهود على الحكم بما أنزل الله:

«يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا. سمَّاعون للكذب سمَّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يُحَرفون الكَلِمَ (الأحكام التى جاءت فى التوراة) **من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهِّر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم. سمَّاعون للكذب أكَّالون للسُحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين. وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين»** (٤١ - ٤٣).

والآيات فيها تسرية عن النبى إذ لا موجب لحزنه من المنافقين الذين يزعمون أنهم مؤمنون فى حين أن قلوبهم غير مؤمنة ويسارعون فى إظهار الكفر والشك. ولا موجب للحزن من اليهود الذين يسمعون ويصدقون الأكاذيب التى ينقلها إليهم أقوام آخرون ويحرفون الكلام عن معانيه الصحيحة ويشيرون على الناس بأن يقبلوا حكم النبي إذا قضى بكذا وعدم قبوله إذا قضى بكذا تنفيذا لأهوائهم. وتخبر النبى أن الله قضى عليهم بالضلالة ولهم عذاب عظيم لأنهم يسمعون الكذب ويتناقلونه ويأكلون المال الحرام «السحت». ثم تخبر الآيات النبى أن له الخيار إذا احتكموا إليه فى أمر ما فله أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم. وإذا حكم بينهم فليحكم بالعدل. ثم يأتى سؤال استنكارى على سبيل التقريع لهم عن سبب احتكامهم إلى النبى وعندهم التوراة فيها حكم الله فيما يريدون أن يتقاضوا فيه ولكنهم لا يقبلون به بل يريدون حكما يتفق مع هوى نفوسهم. ويقول الألوسى (تفسيره جـ ٦ ص ١٣٢) إن الآية نزلت بصدد احتكام اليهود إلى النبى فى رجل منهم زنا بعد إحصانه وجعلوا من هذا الاحتكام اختبارا للنبى وقالوا إن حكم بالجلد فهو سيد فى قومه وليس بنبى أما إن حكم بالرجم فهو نبى. فلما عرضت القضية على النبى ناشد كبير أحبارهم أن يخبره بما فى التوراة الأصلية من حكم. وبعد مناشدات عديدة أقر الحبر بأن حكم التوراة هو الرجم فقال لهم إن ذلك أيضا هو حكم الإسلام وتم تنفيذ الحكم.

وتستمر الآيات توضح لليهود أن التوراة فيها حكم ما بينهم:

«إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بمااستحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون. وكتبنا عليهم فيها أن النفسَ بالنفسِ والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروحَ قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» (٤٤ - ٤٥).

والآيات تقرر أن الله قد أنزل التوراة فيها هدى ونور وأوجب على أنبياء بنى إسرائيل ورجال الدين وفقهائهم الحكم بما جاء فيها إذ أنهم بما نالوا من علم ووصلوا إليه من مرتبة قد أصبحوا من حفظتها وعليهم أن لا يخافوا أحدا غير الله ولا يبيعوا آياته وينحرفوا عن شرائعه فمهما عرض عليهم من مال فهو ثمن بخس. ثم تقرير بأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر. ثم يذكر أن الله قد كتب علي اليهود فى التوراة قصاص المثل. وأن العفو جائز. ثم تكرار أن من لم يحكم بما أنزل الله فهو ظالم. وقد ورد فى التوراة (خروج - ٢١ : ٢٤): نفس بنفس وعين بعين وسن بسن ويد بيد ورجل برجل وكىٌ بكٍّ وجراحة بجراحة ورضٌ برضٍ. وكذلك ورد (لاويين ٢٤ : ٢١): من قتل إنسانا يُقتل قتلا. وأى إنسان أحد ث عيبا فى قريبه فليصنع به كما صنع. الكسر بالكسر والعين بالعين والسن بالسن. كالعيب الذى يُحدثه فيه الإنسان يحدثه معه.

٢ - حث النصارى على حكم بالإنجيل:

«وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين. وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» (٤٦ - ٤٧).

والآيات تفيد أن الله قد أرسل عددا من الأنبياء إلى بنى اسرائيل وجاء بعدهم أى فى أثرهم عيسى ابن مريم مصدِّقا ومؤيدا للتوراة. والإنجيل الذى أتى به فيه أيضا هدى ونور. وتحث النصارى على أن يحكموا بما أنزل الله فيه ويطبقوا شرائعه وأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو فاسق خارج عن أمر الله.

٣ - حث النبى علي الحكم بما أنزل الله:

وبالمثل أُمر النبى أن يحكم بين الناس - مسلمين وغير مسلمين - بما أنزل الله فالقرآن يصدِّق ما قبله من الكتب ومهيمن عليها:

«وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدِّقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا

فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون. وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (أى يؤمنون بالشرع ويذعنون للحق)» (٤٨ – ٥٠).

والآيات تخبر أن الله أنزل إلى النبى القرآن وهو الكتاب الكامل ملازما الحق فى كل أحكامه وأنبائه. مصدقا لما سبقه من الكتب السماوية وتأمر الآيات النبى إذا تحاكم إليه أهل الكتاب أن يحكم بينهم بما جاء فى القرآن ولا يتبع أهواءهم. كما أن الله قادر على أن يجعل الناس كلهم أمة واحدة ولكن شاءت إرادته أن يجعل لكل أمة شرائع ومنهاجا حسب ظروفهم وزمانهم. ثم يأتى حث للنبى أن يحكم بينهم بما أنزل الله وتحذره من أن يجعلوه ينحرف عن بعض ما أنزل الله ويتساهل معهم. فإن أعرضوا عن حكمه فذلك لأن الله يريد أن يعذبهم. ثم سؤال إلى المتحاكمين إلي النبى فيه توبيخ عما إذا كانوا يريدون منه الحكم بأحكام الجاهلية. ثم سؤال ثان لتقرير أن شريعة الله هى أحسن ما يُحكم به.

د – عن علاقة المسلمين بأهل الكتاب:

والآيات تفصِّل ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب – وهم اليهود والنصارى – من خلال النقاط التالية:

١ – نهى عن موالاة اليهود والنصارى:

«**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء. بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم. إن الله لا يهدى القوم الظالمين. فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم** (يشتدون فى موالاتهم) **يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة. فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسرُّوا فى أنفسهم نادمين. ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم. حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين**» (٥١ – ٥٣).

والآيات تنهى المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء لأن بعضهم أولياء بعض وأن من يتولاهم من المسلمين يصبح كأنه واحد منهم ويصبح فى عداد الظالمين. ثم يأتى تنديد ببعض ضعاف الإيمان الذين يشتدون فى موالاتهم ويقولون إنهم يفعلون ذلك حماية لأنفسهم فى حالة قيام حرب معهم. وترد عليهم الآيات بأنه فى حالة انتصار المسلمين سيندمون على ما أسرُّوا فى أنفسهم. ويومئذ يوبِّخهم المؤمنون ويسألونهم عن جدوى الأيمان المغلظة التى أقسمها لهم هؤلاء أنهم معهم. وتجيب الآيات على هذا التساؤل بأن أعمالهم قد ذهبت سدى وأصبحوا خاسرين.

٢ – تحذير من الارتداد عن الإسلام:

وتحذر الآيات من أن شدة الموالاة لليهود والنصارى قد تؤدى إلى الافتتان بدينهم والارتداد عن الإسلام:

«يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم» (٥٤).

٣ – إعادة النهى عن موالاة اليهود والنصارى والكفار:

ورداً على من قالوا «نخشى أن تصيبنا دائرة» تذكر الآيات أن على المؤمنين أن يعلموا أن وليهم هو الله ورسوله وإخوانهم المؤمنون الذين يؤدون ما عليهم من صلاة وزكاة وهؤلاء هم حزب الله وهم الغالبون. ثم تكرر الآيات النهى عن موالاة أهل الكتاب والكفار وخاصة الذين يهزأون من الإسلام وتعاليمه ويتغامزون إذا قام المسلمون إلى الصلاة:

«إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون. يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين. وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون» (٥٥ – ٥٨).

٤ – سبب عداوة اليهود للمسلمين:

وكان اليهود هم الأكثر عداوة للمسلمين وأكثر تأليبا للأعداء عليهم فراحت الآيات تستنكر موقفهم هذا بسؤال عما إذا كان حقدهم يرجع إلى أن المسلمين قد آمنوا بالله وبما أنزل من كتب سابقة ويعقب ذلك سؤال يخبرهم بأن أجدادهم هم الأولى بنقمتهم لأنهم فعلوا ما أغضب الله فجعل منهم القردة والخنازير وفى هذه إفادة أن المقصود بـ «أهل الكتاب» هم اليهود دون النصارى.

«قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون. قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت. أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل» (٥٩ – ٦٠).

٥ – فضح نفاق بعض اليهود:

«وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون. وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون. لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون» (٦١ – ٦٣).

والآيات تندد بما كان اليهود يفعلونه من حضورهم إلى مجلس النبى وادعائهم أنهم قد آمنوا فى حين أنهم قد دخلوا كفارا وخرجوا كفارا أيضا والله يعلم ما تكنه صدورهم، ثم إن هذا ليس بمستغرب منهم فالشر متأصل فيهم فهم يسارعون فى ارتكاب الإثم والعدوان وأكلهم المال الحرام دون وازع من ضمير وبالسوء ما يعملون، وحتى أحبارهم وعلماؤهم لا ينهونهم عن هذه الأفعال فبئس ما صنع هؤلاء أيضا . ومن فضائل أمة محمد أنهم **«يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»**. وفى حديث أخرجه الإمام أحمد أن النبى قال: ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصى هم أعز منه وأمنع ولم يغيِّروا إلا أصابهم الله منه بعذاب. وحديث رواه الترمذي: قال رسول الله: والذى نفسى بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعُنَّهُ فلا يستجيب لكم.

٦ – اتهام اليهود لله بالتقتير عليهم:

كان اليهود قد رأوا أن المهاجرين قدموا إلى المدينة فقراء لا يملكون شيئا فقاسمهم الأنصار معيشتهم وكان اليهود وقتئذ هم مالكو اقتصاد المدينة وأموالها وتجارتها . ورأوا ما صار إليه المهاجرون لمهارتهم فى التجارة فأغناهم الله من فضله. كما أصابوا كثيرا من الغنائم فى غزواتهم فى حين أن اليهود – بعداوتهم للمسلمين – أُجبروا على الجلاء عن المدينة فساءت أحوالهم الاقتصادية وزاد حقدهم على المسلمين بل وامتد غضبهم إلى ربهم ونسبوا إليه التقتير عليهم فسقطوا فى هوة الكفر:

«وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا . وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين» (٦٤).

ولا يخفى ما فى قولهم هذا من سوء أدب مع الله سبحانه وتعالى. وزاد غضبهم لما رأوا الإسلام ينتشر حثيثا . وقادهم حقدهم إلى محالفة قريش وتأليب القبائل المشركة على المسلمين كما فعلوا فى غزوة الخندق وحاولوا إشعالها حروبا على النبى وعلى المسلمين ولكن الله أفشل كيدهم وسيظلون يؤلبون بعض الأمم على بعض ويثيرون الحروب فى كل مكان وينشرون الفساد فى الأرض، وهناك من المؤرخين من يرى أن أصابع اليهود كانت وراء الحروب الكثيرة التى عمت أوربا فى القرنين الأخيرين وأنهم هم مدبِّرو الثورة الفرنسية ودورهم فى وضع أسس الشيوعية العالمية وقيام الثورة البلشفية فى روسيا ونشر الإلحاد والفساد فى الأرض غير خاف على أحد. بل إن الأصابع تشير إلى دور لهم فى إشعال الحرب العالمية الأولى والثانية. وسيظل هذا دأبهم إلى يوم القيامة.

هـ - دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام:

وقد ركزت الآيات لبلوغ هذا الهدف على عدة نقاط:

١ - ما ينتظر أهل الكتاب من خيرا لو آمنوا:

«ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم. ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم. منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون» (٦٥ - ٦٦).

وهذا تقرير بأن أهل الكتاب لو آمنوا برسالة النبى واتقوا الله لنالوا رضا الله ولأدخلهم جنات النعيم. ولو أنهم - على أقل تقدير - طبقوا التوراة والإنجيل تطبيقا صحيحا واتبعوا الشرائع التى أنزلت على أنبيائهم لآتاهم الرزق وافرا من كل جهة ومن كل سعى يسعونه ولكن القليلين منهم هم الذين يسيرون بقصد واعتدال وتعقل وأكثرهم أعمالهم سيئة ومنحرفة عما أنزل الله.

٢ - دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان:

وتمضى الآيات وفيها نداء للنبى وأمر بأن يستمر فى تبليغ ما أنزله الله إليه وإخباره بأن أى تقصير فى ذلك يجعله غير مبلغ لرسالة الله. وعليه ألا يخشى فى إبلاغ الدعوة أحدا لأن الله سيعصمه ويحميه من أى أذى ولن يوفق الكافرين فيما يكيدون. ثم تعيد الآيات دعوة أهل الكتاب إلي تطبيق التوراة والإنجيل تطبيقا سليما. ثم تكرر أن ما أنزله الله علي نبيه محمد سيزيد أهل الكتاب إعراضا وبعدا عن الله فلا ينبغى أن يحزن أو يعبأ بموقفهم هذا:

« يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين. قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم. وليزيدنَّ كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين» (٦٧ - ٦٨).

ثم تقرر الآيات أن رضا الله لا يُنَال إلا بالإيمان بالله وباليوم الآخر وبالعمل الصالح سواء كان الفاعل مسلما أو معتنقا لليهودية أو النصرانية أو كان من الصائبة:

«إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (٦٩).

٣ - نقض بنى إسرائيل لميثاقهم مع الله:

«لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون. وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصمُّوا ثم تاب الله عليهم ثم

عموا وصمُّوا كثير منهم والله بصير بما يعملون» (٧٠ - ٧١).

والآيات توضح أن الله أخذ على بنى إسرائيل الميثاق والعهد بأن يسمعوا ويطيعوا رسله ولكنهم نقضوا عهد الله فكانوا كلما جاءهم رسول بما لا يحبون وبما لا يتفق مع هوى نفوسهم كذبوه أو قتلوه. وظنوا أنهم لم يرتكبوا إثما ولن يتعرضوا لبلاء الله وفتنته فظلوا فى غيِّهم سادرين عُميا عن رؤية الحق وصُماً عن سماعه حتى عاقبهم الله فثابوا إلى رشدهم وتابوا فتاب الله عليهم ولكن كثيرا منهم عاد إلى سابق فعلهم من التعامى عن رؤية الحق والتصامم عن سماعه. والله بصير بما يعملون ومُحصيه ومُجازيهم به.

٤ - تكفير من قالوا بألوهية المسيح:

«لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار. لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة. وما من إله إلا إله واحد.وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّن الذين كفروا منهم عذاب أليم. أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم. ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صِدِّيقة كانا يأكلان الطعام. انظر كيف نبيِّن لهم الآيات ثم انظر أنَّى يؤفكون. قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم. قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلُّوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل» (٧٢ - ٧٧).

والآيات واضحة وصريحة في تكفير من ادعوا ألوهية المسيح مع أن المسيح قال لهم اعبدوا الله - ربه وربهم - وقد ذكرنا في الجزء السادس (ص ٥١) تفسير قول عيسى «أبى الذى فى السموات» وذكرنا أيضا (١٣٦ - ١٤٨) خلافات الفرق المسيحية حول طبيعة المسيح. كما ذكرنا أن بولس هو الذى أدخل التثليث إلى المسيحية (ص ١١٨ - ١١٩). وقد جاء أول تكفير لمن قالوا بألوهية المسيح فى الآية ١٧ من السورة الحالية (ص ٧٠٠) في قوله تعالى: **«لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا»**. ثم تعود الآيات فتنهى النصارى عن الغلو في دينهم والغلو فى حبهم للمسيح فيخرجوه عن طبيعته البشرية وتنهاهم عن سلوك قوم قبلهم اتبعوا أهواءهم فضلُّوا عن الطريق القويم وأضلوا من غيرهم الكثير وازدادوا ضلالا وبعدا عن السبيل المستقيم.

٥ - تنديد بموالاة بنى إسرائيل للكفار:

«لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود (أى فى الزبور) **وعيسى ابن مريم** (أى فى الإنجيل) **ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا**

يفعلون. ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون» (٧٨ – ٨١).

والآيات تشير إلى ضلال بعض الأجيال القدامى من بنى إسرائيل فاستحقوا اللعنة على لسان داود وعيسى ابن مريم بسبب عصيانهم واعتدائهم على شريعة الله وبسبب أن بعضهم كان يسكت عما يرتكبه البعض من آثام ومنكرات مثل الإشراك بالله أو عبادة البعل أو مخالفة الشريعة. كما أن كثيرا من اليهود المعاصرين للنبى كانوا يوالون الكفار ويؤلبونهم على المسلمين وهو يتنافى مع ادعائهم الإيمان فاستحقوا سخط الله عليهم وكان جزاؤهم الخلود فى النار. ولو كانوا مؤمنين حقا ما اتخذوا من الكفار أولياء ولكنهم فى حقيقتهم فاسقون.

٦ – عداوة اليهود والمشركين للمسلمين ومودة النصارى:

«لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين. فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم» (٨٢ – ٨٦).

والآيات تقرر أن أشد الناس عداوة للمسلمين هم اليهود والمشركون. أما النصارى فهم أقرب مودة لأنهم متواضعون لا يستكبرون عن الحق ولأن فيهم قسيسين ورهبانا وعند سماعهم آيات القرآن التى تنزل علي الرسول تخشع قلوبهم وتدمع أعينهم تأثرا مما يسمعونه ويعلمون أنه حق. وهم – وإن لم يعلنوا إسلامهم – يدعون الله أن يكتبهم مع المؤمنين ويطمعون أن يجعلهم الله من زمرة عباده الصالحين. وقد أثابهم الله جنات الخلد جزاء إحسانهم. أما الذين كفروا وكذَّبوا فهؤلاء من أصحاب الجحيم.

وبهذه الآيات تنتهي هذه المجموعة من الفقرات التى ركزت على أهل الكتاب عامة وعلى اليهود بصفة خاصة ثم تأتى.

و – تشريعات في الدين:

وهى استكمال لما ورد سابقا من تشريعات كثيرة ترسى قواعد الدين:

١ – نهى عن تحريم الطيبات:

« يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون» (٨٧ – ٨٨).

وقيل إن بعض المسلمين - بعد نزول الآية السابقة التى تمدح النصارى بأن منهم قسيسين ورهبانا - حاولوا تقليدهم فحرموا على أنفسهم النساء والطيِّب من الطعام وتفرغوا للعبادة من صلاة وذكر وصوم فبلغ ذلك النبى وكرهه وقال لهم: إنما هلك من كان قبلكم بالتشدد. شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم. وإنى لأقوم وأنام وأصوم وأفطر وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى. وقال الذين حرَّموا على أنفسهم الطيبات: ما نصنع يا رسول الله بأيماننا التى حلفناها على ذلك فنزلت الآية:

٢ - كفارة الإيمان:

«**لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عَقَّدتم الأيمان** (حلفتم لتأكيد النية) **فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون**» (٨٩).

وفى الآيات بيان أن الله لا يؤاخذ على ما يمتزج بالكلام العادى من لغو الأيمان وإنما يؤاخذ بالأيمان التى يُعزم بها على فعل أمر أو الامتناع عن عمل ثم بدا له أن يرجع عنها فعليه أن يقدّم كفارة. على أنه الأولى أن يحفظ المرء أيمانه. وقد سبق في سورة البقرة (آية ٢٢٤ ص ٤٨٥) ورود مثل هذا المعنى فى قوله تعالى «**ولا تجعلوا الله عرضه لأيمانكم أن تبروا وتتقوا ....**» وأبيح التحلل من اليمين بالكفارة كما جاء فى سورة التحريم (الآية ١ ص ٦٦٧) «**قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم**». وفى حديث عن أبى موسى. قال النبى: والله إن شاء الله أن أحلف على يمين فأرى خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها . وحديث آخر: من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل. وبالطبع لا يجوز لامرىء أن يحلف للامتناع عن خير أو لعمل فيه شر. وما يحلفه المرء كذبا على أمر مضى يسمى يمين الغموس وهو من الكبائر لحديث النبى «الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس». وحديث آخر «من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال أخيه لقى الله وهو عليه غضبان».

٣ - تحريم الخمر الميسر:

«**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون. وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين**» (٩٠ - ٩٢).

ويلاحظ التدرج فى تحريم الخمر. وكان عمر بن الخطاب قد قال: اللهم بيّن لنا في الخمر شافيا. فنزلت الآية ٢١٩ من سورة البقرة (ص ٤٨٤) «**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما**

إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما». ثم نزلت الآية ٤٣ من سورة النساء (ص ٦١٧): **«يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون»** فضيقت من الوقت المتاح لشرب الخمر ولكنها تركت الباب مفتوحا أمام شاربها. وقيل قال عمر بن الخطاب مرة ثالثة: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية الحالية من سورة المائدة. فلما قرأها النبى على المسلمين حتى قوله تعالى: «فهل أنتم منتهون؟» قالوا: انتهينا. انتهينا. وهناك أحاديث كثيرة في الخمر. منها: ما أسكر كثيره فقليله حرام. وحديث آخر: كل مسكر خمر وكل مسكر حرام. وحديث ثالث: ليشربن ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها.

وقد قرنت الخمر بالميسر والأنصاب التى كان الشركون يقيمون عندها طقوسهم الدينية ويقربون قرابينهم عندها دلالة على شدة تحريمها. ويرى علماء اللغة أن التجنب «فاجتنبوه» أبلغ فى الدلالة على التحريم لأنها تعنى تجنب كل ما له صلة بالخمر مثل صنعه وبيعه وشربه وخدمة شاربه.

وقيل إن بعض أصحاب النبى سألوه عن حكم الذين شربوا الخمر قبل تحريمها فنزلت الآية:

«ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين» (٩٣).

وتكررت كلمة «اتقوا» ثلاث مرات قال الطبرى إن الأولى تعنى تلقى أمر الله بالقبول والتصديق. والثانية تعنى الثبات عليه وعدم تبديله. والثالثة تعنى التقرب إلى الله بالنوافل. وجاء فى المنتخب في تفسير القرآن الكريم (ص ١٦٤) أن الأولى تقصد ما طعموه من المحرمات قبل علمهم بتحريمها والثانية تقصد تجنبهم لها بعد علمهم بتحريمها والثالثة تعنى دوامهم على خوفهم من الله بإحسان العمل.

٤ – الصيد بالنسبة للمُحرِم:

«يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم. يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حُرُم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثلُ ما قتل من النَعَم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغَ الكعبة أو كفارة طعامُ مسكينَ أو عدلُ ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام. أُحِل لكم صيدُ البحرِ وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحُرِّم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذى إليه تحشرون» (٩٤ – ٩٦).

والآيات تنبه المؤمنين إلى أن الله سيختبرهم فيجعل فى متناول يدهم ورماحهم بعض الصيد حتى يعلم الله من يطيع أوامره ومن عصى فله عذاب أليم. ثم يأتى نهى عن قتل الصيد فى حالة الإحرام وتشريع الكفارة لمن يفعل ذلك متعمدا وهو تقريب هدى من الأنعام معادل لما قتل

يذبح عند الكعبة أو يهدى للفقراء عند الكعبة أو إطعام بعض المساكين أو صيام بعض الأيام عقابا له وليشعر أنه قد اقترف محظورا. أما صيد البحر فهو حلال للمحرم. والنهي هو في صدد صَيْدٍ ما يؤكل من الحيوان وأباحوا قتل الحيوان المؤذى استنادا إلى حديث رواه البغوى قال النبى: خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور. على أنه لا بأس من أكل صيد البر إذا لم يَصِده بنفسه أو يُصَدْ له استنادا إلى حديث عن جابر بن عبدالله قال: سمعت رسول الله يقول: صيد البر لكم حلال وأنتم حرم مالم تصيدوه أو يُصَد لكم. أما صيد البحر فهو حلال للمحرم سواء خرج من الماء حيا أو ميتا أو قذفه البحر إلى الساحل. والأنهار فى حكم البحار.

٥ – موقف الإسلام من بعض تقاليد الحج:

كان العرب قبل الإسلام يمارسون فى الحج مناسك وتقاليد قالوا إنها مأثورة عن إبراهيم عليه السلام وبعضها أضافوه لما رأوا فيه من مصلحة إذ كان الحج وسيلة لاجتماعهم في مناسك واحدة ومكان واحد على اختلاف قبائلهم ومعبوداتهم. وجعلوا منها هدنة تتوقف فيها الحروب ويسود فيها الأمن والسلام في تلك الربوع الشاسعة التي تخلو من حكومة مركزية أو سلطة نافذة. فيتاح فيها تبادل التجارة مما يعود على الجميع بالخير. وجاء الإسلام وأقر كثيرا من هذه المناسك وعدَّل بعضها:

«**جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس** (قوام حياة الناس) **والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم. اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم. ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون. قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تُفلحون**» (٩٧ – ١٠٠).

وكان الحج اختياريا. فلما نزلت الآية ٩٧ من سورة آل عمران (ص ٥٤١) «**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا**» صار الحج ركنا من أركان الإسلام. وسأل بعضهم رسول الله قالوا: يا رسول الله فى كل عام؟ فسكت. فأعادوا السؤال. فقال لا. ولو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه. ثم نزلت الآية تنهى المسلمين عن سؤال النبى عن أمور لا ضرورة لها لأن الإجابة قد تأتى بتشريع جديد لايطيقونه ولو لم يسألوا لتجاوز الله عنه. وتخبرهم الآيات أن أقواما قبلهم سألوا أنبياءهم عن أشياء فلما نزل تشريع فيها لم يمتثلوا له ولم يطبقوه:

«يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تُبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم. قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين» (١٠١ – ١٠٢).

٦ – تحريم بعض عادات الجاهلية:

«ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون. وإذا قيل لهم تعالَوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون» (١٠٣ – ١٠٤).

من المعروف أن الراعي يفضل الإناث من الحيوان لأنها هي التي تلد وعن طريقها يكثر القطيع وتزداد ثروة صاحبه والذكور للأكل ولا يترك منها إلا ما يكفي لإخصاب الإناث. إلا أنه إذا كبرت الإناث في السن ذُبحت وأُكلت واستثنى العرب من ذلك الناقة أو الشاة التي تكثر من ولادة الإناث تكريما لها فتعفى من الذبح وتوهب لآلهتهم فلا يشرب لبنها إلا ضيف ولا تُمنع عن ماء ولا كلأ ولا تحمل أثقالا ولا تُركب وادَّعوا أن ذلك من شعائر الدين الحنيف. في حديث أخرجه عبد الرزاق عن زيد بن أسلم أن النبي قال: إني لأعرف أول من سيَّب السوائب ونصب النصب وأول من غيَّر دين إبراهيم. قالوا ومن هو يا رسول الله؟ قال: عمرو بن لحي أخو بني كعب. لقد رأيته يجر قصبه في النار يوذي أهل النار ريح قصبه. وإني لأعرف أول من بحر البحائر. قالوا من هو يا رسول الله؟ قال رجل من بني مدلج كانت له ناقتان فجدع آذانهما وحرَّم ألبانهما وظهورهما وقال هاتان لله. وقد نزلت الآيات السابقة تُسفِّه هذه العادات لما فيها من تحريم الانتفاع بما أحل الله وادعاؤهم أنها من شريعة دين إبراهيم.

وكان أهل الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن كلها إناث شقُّوا أذنها أي بحروها وسميت **«بحيرة»** وتركوها ترعى ولا يستعملها أحد في ركوب أو نحو ذلك. وكانوا لا يُحلون لحمها ولبنها للنساء. فإن ماتت – من كبر السن – اشترك الرجال والنساء في أكلها. أما **«السائبة»** – من فعل ساب أي ترك وأهمل – فهي الناقة تلد عشرة أبطن إناث فتهمل ولا تُركب ولا يُجَزّ وبرها ولا يَشرب لبنها إلا ضيف ولا تُمنع عن ماء ولا كلأ. **والوصيلة** الشاة تنتج سبعة أبطن عناقين عناقين (العناق الأنثى من ولد المعيز والغنم) وكانت الذكور تذبح. فإذا ولدت بعد ذلك عناقا وجديا قيل وصلت أخاها فلا يذبح ولا يشرب لبن الأم إلا الرجال ويحرم على النساء. **و«حام»** من الفعل «حمى» أي منع وهو الفحل إذا لقح ولد ولده فيقولون قد حمى ظهره فيُهمل ولا يطرد عن ماء ولا مرعى. وقال آخرون إنه الفحل يعيش عشر سنين عند صاحبه.

وقد ألغى القرآن عادات الجاهلية هذه لأنه ليس من ورائها فائدة يقوم بها أمر الناس بل فيها تعطيل لبعض ما يُنتفع به. ثم تنعى الآيات على الكفار إعراضَهم عما أنزل الله واكتفاءَهم بما وجدوا آباءهم يفعلونه من عادات حتى لو كان آباؤهم على ضلال.

وبعد ذلك تحث الآيات المؤمنين على إلزام أنفسهم بطاعة الله وأنه لا يضيرهم ضلال غيرهم ما داموا هم على الهدى فالمرجع إلى الله وحده فيخبر الناس بأعمالهم والمفهوم أنه يجازى بها:

«يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم. إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون» (١٠٥).

٧ - تشريع بشأن وصية المتوفى:

«يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموتُ حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين. فإن عثر على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين. ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدى القوم الفاسقين» (١٠٦ - ١٠٨).

وفى الآيات أمر للمسلمين إن كانوا في سفر بعيد وشعر أحدهم بقرب أجله فعليه أن يشهد على وصيته وتركته شاهدين عدلين من المسلمين أو من غير المسلمين. فإذا توفى الموصى جاء الشاهدان ليسلِّما لأهله تركته أو يُبلِّغا وصيته. وإن ارتاب الأهل في صحة أقوالهما فلهم أن يطلبوا منهما يمينا علي صدقهما وعدم كتمانهما شيئا لمنفعة خاصة أو لصالح قريب لهما ويحجز الشاهدان ليؤديا اليمين والشهادة بعد صلاة لتكون أمام جمع من المصلين. فإذا ظهر أنهما كاذبان بأن وجد عندهما مثلا شيئا من تركة الميت وادعيا أنهما ابتاعاه منه أو أوصى لهما به فيصح أن يتقدم اثنان من أولياء الميت ويقسمان بالله أن شهادتهما أصدق من شهادة الشاهدين الأولين وأنهما لم يتعدَّيا الحقيقة وحينئذ تقبل شهادتهما وترد الشهادة الأولى. وفى هذا حث للشهود على الالتزام بالصدق خشية التكذيب والفضيحة من جراء رد شهادتهم. ثم تأتي دعوة للمسلمين على التزام تقوى الله في حقوق بعضهم وأن يسمعوا ويطيعوا أوامره فإن الله لا يوفق الفاسقين.

ثم يأتى تذكير بيوم القيامة وإخبار بسعة علم الله:

«يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم. قالوا لا علم لنا إنك أنت علاّم الغيوب» (١٠٩).

فمع علم الرسل بما أجابهم به قومهم إلا أنهم - تواضعا وخشوعا لله ويقينا منهم أن الله يعلم الإجابة قبل أن يسألهم - فإنهم يرجعون العلم كله لله سبحانه وتعالى. ولعل هذه الآية قصد بها حث الشهود فى الآية السابقة على التزام الصدق فى الشهادة. كما أنها قد تكون تمهيدا للانتقال إلى الموضوع التالى الخاص بعيسى ابن مريم.

معجزات عيسى عليه السلام:

«إذ قال الله يا عيسى ابنَ مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا. وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتُبرئ الاكمه والأبرص بإذنى وإذ تُخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين. وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون. إذ قال الحواريون يا عيسى ابنَ مريم هل يستطيع ربك أن يُنَزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن ناكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابنُ مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إنى مُنَزلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين» (١١٠ - ١١٥).

وجمهور المفسرين يعتقدون أن الله أجاب طلب الحواريين وأنزل عليهم المائدة وأفاض بعضهم فى وصف ما نزل بها من طعام من فاكهة ولحم طير.. ويرى آخرون أن المائدة لم تنزل لأن الحواريين خافوا من إنذار الله بالعذاب إذا لم يؤمنوا بعد إنزالها فسحبوا طلبهم.

تنديد باعتقاد النصارى بألوهية المسيح:

«وإذ قال الله يا عيسى ابنَ مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكونُ لى أن أقولَ ما ليس لى بحق. إن كنت قلتُه فقد علمتَه تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علاَّم الغيوب ما قلتُ لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمتُ فيهم فلما توفيتنى كنتَ أنتَ الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم. قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقُهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم. لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير» (١١٦ - ١٢٠).

وفى هذه الفقرة الخاتمة للسورة تنديد بعقيدة النصارى بألوهية عيسى وأمه وتبرئته من هذا الإدعاء وتحميل مسئوليته على المعتقدين به وتقرر أن عيسى لم يقل إلا ما أمره به الله تعالى من أنه رسول الله وأنه دعا الناس إلى عبادة الله وحده ربه وربهم وكان رقيبا عليهم فى هذا الأمر طوال إقامته بينهم. ولكن بعد أن توفى كان الله هو المطلع عليهم. ثم يكل أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم. فيرد الله عز وجل عليه يخبره بأنه صادق فيما يقول وأن الصادقين لهم جنات الخلد فضلا من الله ومنة فهو مالك السموات والأرض وقدير على إنفاذ ما يريد.

بعض السرايا فى أواخر سنة ٦ هـ:

كانت بعض القبائل والعشائر التى تعيش فى المناطق القريبة من المدينة لا تزال على شركها. وكانت أحيانا تغير على أطراف المدينة ومراعيها. ولا شك أن ذلك كان فى كثير من الأحيان بتحريض من اليهود الذين حزَّ فى نفوسهم إجلاؤهم عن المدينة. كما كان أفراد من هذه العشائر يأتون إلى النبى ويدَّعون الإسلام ويطلبون منه أن يبعث معهم نفرا من المسلمين إلى قومهم ليسلموا على أيديهم ويفقهونهم فى الدين. ولكنهم كانوا يغدرون بهم فى الطريق أو يجرونهم إلى مكين من قومهم ويقتلونهم. وكان الرد على ذلك كله هو سرايا صغيرة يرسلها النبى لتعقب المغيرين واسترداد ما غنموه أو لمعاقبة الغادرين والانتقام لمقتل أصحابه. كما كان هدف السرايا هو إرهاب كل من تسوِّل له نفسه أن يفعل مثل ذلك فى المستقبل (السيرة النبوية. ابن كثير. جـ ٣ ص ٣٢٨). وقد أرسل النبى سرايا كثيرة فى هذه السنة نكتفى بذكر سبع منها (شكل ٤٣):

١ – **سرية عكاشة بن محصن إلى «غرو مرزوق»:** وكانت السرية مكونه من ٤٠ رجلا. ولما سمع القوم بقدومه هربوا فنزل إلى خيامهم واستولى على ٢٠٠ بعيرا ساقها إلى المدينة.

٢ – **سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى «ذى القصة»:** وكانت السرية مكونة من ٤٠ رجلا ساروا مشاة متخفين حتى أتوا «ذى القصة» – شمال شرق المدينة – فى عماية الصبح فهرب الناس إلى رؤوس الجبال. فأسر منهم رجلا وأتى به إلى المدينة.

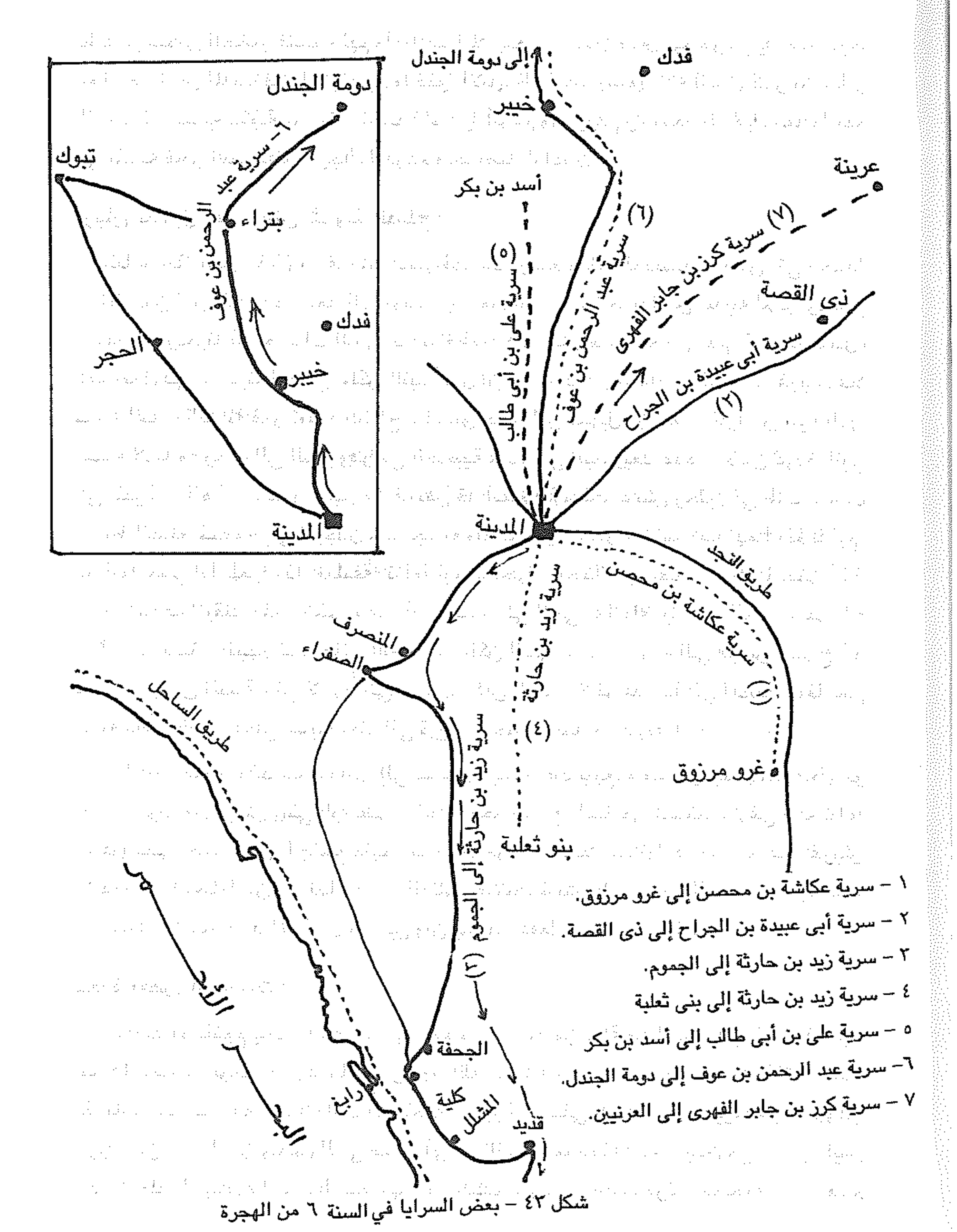
٣ – **سرية زيد بن حارثه إلى «الجموم»:** وأصابت السرية امرأة من مزينة دلتهم على محال «بنى سليم» فأغاروا عليها وغنموا غنما كثيرا وأسروا جماعة من المشركين وكان فيهم زوج هذه المرأة. فلما قدموا بهم إلى المدينة أطلق النبى سراح المرأة وزوجها كما أطلق سراح من أسلم من الأسرى.

٤ – **سرية زيد بن حارثة إلى «بنى ثعلبة»:** وكانت السرية مكونة من ١٥ رجلا وهرب القوم وغنمت السرية ٢٠ بعيرا.

٥ – **سرية على بن أبى طالب إلى «بنى أسد بن بكر»:** فقد بلغ رسول الله أن حيا من بنى أسد بن بكر يزمعون التحالف مع يهود خيبر لغزو المدينة فأرسل إليهم ١٠٠ رجلا يقودهم على بن أبى طالب. فسار إليهم وكان يكمن بالنهار ويسير ليلا حتى بلغ ديار بنى أسد وشتت جموعهم وقيل إن يهود خيبر عرضوا عليه بعض تمر خيبر حتى لا يهاجمهم.

٦ – **سرية عبد الرحمن بن عوف إلى «دومة الجندل»:** فلما سار إليهم أسلموا فلم يقاتلهم وتزوج عبد الرحمن بن عوف من تماضر بنت ملكهم وهى أم أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

٧ – **سرية كرز بن جابر الفهري إلى «العرنيين»** : ذلك أن نفرا من «عرينة» أتوا رسول الله فأسلموا وبايعوه. وبعد عدة أيام أعربوا عن رغبتهم فى ترك المدينة لأنهم أهل بادية ولا



شكل ٤٣ – بعض السرايا في السنة ٦ من الهجرة

يطيقون سكنى الحضر فسمح لهم وأعطاهم إبلا ومعها راعيين وعين لهم مرعى يقيمون فيه. فلما بعدوا عن المدينة قتلوا الراعيين وأخذوا الإبل. فلما علم رسول الله أرسل كرز بن جابر الفهرى في سرية مكونة من ٢٠ فارسا فاقتفوا أثرهم وأسروهم واستعادوا الإبل وعادوا بهم إلى المدينة فأمر النبى بقتل الرجال لغدرهم وقصاصا للراعيين.

قريش تتنازل عن بعض شروط الصلح:

قلنا سابقا (ص ٦٨٨) إن قريشا اشترطت عند توقيع صلح الحديبية «أنه من أتى محمدا مسلما دون إذن وليه ردّه محمد إلى قريش وأنه من أتى قريشا مرتدا من المدينة لم يردُّوه على المسلمين» وذكرنا أن أصحاب النبى قد استعظموا هذا الشرط لما فيه من عدم «المعاملة بالمثل» كما نقول في عصرنا الحالى. ولكن النبى قال إن من ارتد من المسلمين ولجأ إلى قريش فلا حاجة إليه. وقلنا إنه فور توقيع الصلح جاء أبو جندل ابن سهيل بن عمرو فارا من أبيه الذى حبسه لإسلامه وجاء إلى النبى وهو فى الحديبية فردَّه إلى أبيه. وبعد عدة أيام من عودة النبى إلى المدينة جاءه أبو بصير. رجل من قريش قد أسلم فأرسلت قريش رجلين فى طلبه حسب شروط الصلح فدفعه إلى الرجلين فخرجا به وأظهر أبو بصير استسلامه لهما ولم يقاوم. فساروا حتى إذا بلغوا «ذا الحليفة» نزلوا ليستريحوا. واحتال أبو بصير عليهما حتى أخذ سيف أحدهما وقتله وفرَّ الآخر. وعاد أبو بصير إلى النبى وقال له: يا نبى الله قد أوفى الله ذمتك قد رددتنى إليهم ثم أنجانى الله منهم. ولكن النبى عزم على ردِّه إلى قريش فخرج أبو بصير فارا من المدينة حتى لا يُردَّ إلى قريش. وكان الرجل الآخر قد لجأ إلى المدينة خوفا على حياته فأمَّنه النبى وأخلى سبيله فعاد إلى قريش وأخبرهم بما حدث وبفرار أبى بصير.

أما أبو بصير فقد خرج وأتى إلى ساحل البحر عند ينبع. وعلم أبو جندل بما فعل أبو بصير فهرب من قريش وأتى إليه على ساحل البحر وخرج المسلمون المحتجزون فى مكة تباعا ولحقوا بأبى بصير حتى اجتمع منهم ما يقرب من ٧٠ رجلا. وكانوا لا تمر بهم عير لقريش إلا هاجموها وقتلوا من رجالها وغنموا الغنائم. فكتبت قريش إلى رسول الله تسأله بأرحامها أن يتنازل عن شرط رد المسلمين الفارين وأن يؤويهم. ففعل وعادوا إلى المدينة.

هجرة بعض المسلمات:

أسلمت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وخرجت من مكة مهاجرة إلي المدينة فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما إلى رسول الله يسألانه أن يردَّها. وحذا حذو أم كلثوم نساء أخريات منهن سبيعة بنت الحارث الأسلمية – زوجة «صيفى الراهب» – وغيرها وجاء ذووهن وأزواجهن فى طلبهن وتمهَّل النبى فقد رأى أن النساء ضعيفات وقد يُفتنَّ فى دينهن وليس عندهن جَلَد الرجال فاحتمال عودتهن إلى الكفر وارد. فنزلت سورة الممتحنة تأمر بعدم

إرجاعهن وأنهن لا يحلون لأزواجهن الكفار. وعاد الرجال إلى قريش وأخبروهم بالآيات التى نزلت تمنع رجوعهن. وأدركت قريش أنه مادام ذلك أمر من الله فلا سبيل للمسلمين بمخالفته. ولما كان المسلمون قد صاروا فى موقف أقوى مما كانوا عليه وقت صلح الحديبية فقد رأت قريش أنه ليس من الحكمة الادعاء أن «محمداً» قد نقض العهد ويعلنوا الحرب. وتلمَّسوا فى شروط الصلح ما يحفظ ماء وجههم. وكان نص الشرط: «لا يأتيك أحد منا بدون إذن أهله إلا رددته» فقالوا إن «أحَد» تعنى الرجال دون النساء!

سورة الممتحنة:

بدأت السورة بالآيات من ١ – ٩ تشير إلى حادثة حاطب بن أبى بلتعه ومحاولته إخبار قريش بمسيرة رسول الله لفتح مكة وسنرجىء هذه الفقرة إلى حين الكلام عن فتح مكة (ص ٧٥٩). بعد ذلك تطرقت الآيات إلى وضع المسلمات اللاتى هاجرن إلى المدينة بدون إذن وليّهن:

«يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هنَّ حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن. ولا تمسكوا بِعِصَم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا. ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم. وإن فاتكم شيىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون» (١٠ – ١١).

والخطاب فى الآيات مُوجَّه إلى المسلمين ويتضمن النقاط التالية:

١ – امتحان من يأتين من المهاجرات للتأكد من صدق إيمانهن.

٢ – نهى عن إعادتهن إلى الكفار وهو ما حدث من رفض إعادة أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وأميمة بنت بشر زوجة أبى حسان الدحداحه وسبيعة بنت الحارث الأسلمية.

٣ – المؤمنات لا يحللن للمشركين والمشركات لا يحللن للمؤمنين. مثال ذلك أن أم الحكم بنت أبى سفيان ارتدت عن الإسلام وعادت إلى مكة فطلقها زوجها المسلم وتزوجت مشركا من ثقيف.

٤ – تعويض الأزواج الكفار عمَّا أنفقوا على زوجاتهم اللائى أسلمن بردٍّ ما دفعوه من مهر.

٥ – يحل للمسلمين أن يتزوجوا المؤمنات اللاتى جئن مهاجرات حتى ولو لم يقم أزواجهن بتطليقهن لأن الله هو الذى طلقهن منهم.

٦- أمر للمسلمين بطلاق زوجاتهم المشركات ويقال إن إحدى نساء عمر بن الخطاب كانت قد ظلت على شركها فى مكة فقام بتطليقها.

٧ - يحق للأزواج المسلمين أن يطلبوا من مطلقاتهم المشركات رد ما أنفقوا عليهن من مهور وخلافه وإن تعذر ذلك فيحق استيفائها من الغنائم التى قد تقع فى أيدى المسلمين من أموال الكفار وهذا معنى **«فعاقبتم»**.

٨ - يحق للأزواج الكفار أن يطلبوا من مطلقاتهم المسلمات ردَّ ما أنفقوا عليهن من نفقة أى مهر.

٩ - النص على أن هذه الأحكام هى حكم الله الذي يجب أن يسير عليه المسلمون.

ويلفت النظر في هذه الفقرة تبادل الحقوق وتساويها بين المسلمين والكفار فى مطالبة الأزواج المسلمين تعويضا عن نسائهم الكافرات أو المرتدات ومطالبة الأزواج الكفار بتعويض نسائهم اللائى أسلمن وهاجرن إلى المدينة. وفى ذلك إرضاء لغرور قريش حتى لا تكون هذه النقاط مثارا لعدوات وإشعارا لقريش بعدالة الإسلام.

وقد اختلفت المفسرون فى كيفية الامتحان الذى أمرت به الآيات فقالوا إن النبى كان يُحلِّف المرأة بالله أنها ما خرجت من بغض زوج ولا لالتماس دنيا وإنما خرجت حبا لله ولرسوله وفى سبيل الدين. وروى عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بما جاء فى الآية التالية فتقسم أن لا تشرك بالله شيئا ولا تسرق ولا تزنى ولا تقتل أولادها ولا تأتى ببهتان تفتريه بين يديها وأرجلها ولا تعصيه في معروف:

«يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك علي أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم» (١٢).

ثم يأتى ختام السورة ينهي عن موالاة الكفار ثم توضح أن هؤلاء الكفار قد غضب الله عليهم لأنهم ينكرون البعث أى يئسوا من حدوث بعث فى الآخرة وأن إحياء الناس بعد موتهم مستحيل كاستحالة لقائهم لمن مات منهم والمفهوم أنه سيتحقق لهم فى الآخرة خطؤهم فى ظنهم هذا:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور» (١٣).

عودة مهاجرى الحبشة:

بعد صلح الحديبية أصبح المسلمون فى أمان ومنعة ولم يعد هناك مُسوِّغ لبقاء المهاجرين الأول بعيدين فى أرض الحبشة. ويقول ابن هشام (السيرة النبوية جـ ٣ ص ٤١٤) إن النبى أرسل عمرو بن أمية الضمرى ليأتى بهم. فركبوا فى سفينتين عائدين إلى المدينة مباشرة عن طريق ميناء ينبع فوصلوا بعد شهرين وقت أن كان النبى قد فرغ من غزو خيبر كما سيجىء فيما بعد (ص ٧٣٤).

رسائل النبى إلي ملوك الدول:

بفضل الأمن النسبى الذى حققه صلح الحديبية واستقرار الأمر للمسلمين فى المدينة وما حولها. بل أصبح الإسلام قوة تسعى القبائل لعقد العهود معها. بدأ النبى يتطلع إلى تحقيق الجزء من رسالته الذى ورد فى سورة سبأ (الآية ٢٨ ص ٢٨٨) **«وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا»** مما يعنى عدم اقتصار الدعوة علي العرب بل يجب العمل علي نشر الإسلام فى الدول المجاورة. فأرسل إلى ملوكها. واتخذ النبي خاتما من فضة كان مكونا فى ثلاثة أسطر: محمد سطر. رسول سطر الله سطر كان يختم به كتبه. وأهم الرسائل التى أرسلت هى:

١ - كتاب إلى قيصر ملك الروم:

وقد حمل الكتاب دحية الكلبى وكان نصه: «بسم اله الرحمن الرحيم. من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام علي من اتبع الهدى. أما بعد. فإنى أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الفريسيين (فلاحى القرى) **«يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»** (وهى الآية ٦٤ من سورة آل عمران).

وأحسن هرقل استقبال الوفد وسألهم عن صفات النبى وعن دعوته. ولما اقتنع بأنه النبى المنتظر قال: قد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه فيكم. وإن كان ما حدثتمونى به حقا فيوشك أن يملك موضع قدمىّ. ولو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت مع المشقة لقيه. وعلت أصوات رجال البلاط وهمهماتهم اعتراضا علي ما قال. وشرد ذهن هرقل فترة وراح يفكر: لقد كانت هناك نبوءة قائلة بأن شعبا مختونا سيسلبه ملكه وكان الظن أن اليهود هم ذلك الشعب ولكن هاهم العرب شعب مختون وظهر فيهم النبى فلماذا لا يكون نبى الإسلام هو النبى الذى بشرت به الأنبياء. وزادت اعتراضات رجال البلاط وخاف من تآمرهم ضده وقتله لما أظهره من لين فى الرد على دعوة الإسلام. واتهمه البعض صراحة بأنه آمن بمحمد. ولكنه رد عليهم قائلا إنه أراد أن يختبر صلابتهم على دينهم. فهدأت نفوسهم إلى ثباته على نصرانيته.

وعاد دحية إلى رسول الله ومعه كتاب هرقل. وقد كتبه بنفسه بعيدا عن أعين رجال البلاط - وفيه يقول «إنى مسلم ولكنى مغلوب» فقال النبى: كذب عدو الله. ليس بمسلم. وقدم دحية هدية هرقل فقسمها النبى بين المسلمين.

٢ - رسالة النبى إلى كسرى ملك الفرس:

وقد حملها عبدالله بن حذافة السهمى وفيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. أدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى

الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. إسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

ولما قرأ كسرى الكتاب غضب ومزَّق الكتاب وأمر بإخراج عبد الله بن حذافة من قاعة العرش. فعاد عبدالله بن حذافة إلى النبى وأخبره بما فعل كسرى فقال النبى: اللهم مزِّق ملكه.

وكتب كسرى إلى «باذان» عامله على اليمن يقول له: إنه بلغنى أن رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى. فسر إليه فاستتبه فإن تاب وإلا فابعث إلىَّ برأسه.

٣ - رسالة النبى إلى المقوقس حاكم مصر:

وقد حملها حاطب بن أبى بلتعة، وكان المقوقس يحكم مصر باسم هرقل قيصر الروم وكانت الاسكندرية مقر حكمة فقد كانت أكبر مدن مصر. وكان نص الرسالة:

«بسم اله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبدالله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى. أما بعد. فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . إسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم القبط. **«يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»**.

والتفت المقوقس إلى حاطب وقال له: ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها؟ فقال له حاطب، ألست تشهد أن عيسى ابن مريم رسول الله؟ فما باله حين أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالي حتى رفعه إليه؟ فقال المقوقس: أحسنت. أنت حكيم جاء من عند حكيم. واستمر حاطب: إن النبى دعا الناس فكان أشدُّهم عليه قريش وأعداهم له يهود وأقربهم النصارى. ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. وكل نبى أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه. فأنت ممن أدرك هذا النبى ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام ولكنا نأمرك به.

وأكرم المقوقس حاطب بن أبى بلتعة وأعطاه مائة دينار وخمسة أثواب وأنزله فى ضيافته ودعا من كتب له بالعربية كتابا إلى النبى يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط. سلام عليك. أما بعد. فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت به وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبيا قد بقى وقد كنت أظنه يخرج بالشام. وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبثياب وأهديت لك بغلة لتركبها والسلام عليك.

كان حاطب قد أقام فى ضيافة المقوقس خمسة أيام. وعندما انتوى الخروج أخذه المقوقس علي انفراد وقال له: القبط لا تطاوعنى على اتباعه ولا أحب أن تعلم بمحادثتى إياك وأنا أضن بملكى أن أفارقة فارجع إلى صاحبك وارحل من عندى ولا تسمع منك القبط حرفا واحدا.

فخرج حاطب عائدا إلى المدينة ومعه «مارية» القبطية وأختها «سيرين» وطِيب وبغلة وهدايا المقوقس.

٤ – كتاب النبى إلى النجاشى فى الحبشة:

وقد صحَّ أن النبى كتب إلى النجاشى كتابا أرسله مع عمرو بن أمية الضمرى يقول الواقدى كان نصه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة. فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن. وأشهد أن عيسى ابن مريم وروح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت به فنفخ فيه من روحه وخلقه كما خلق آدم بيده وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له. وقد بلغت ونصحت والسلام على من اتبع الهدى.

وقيل إن النجاشى أسلم. وقد ثبت أن رسول الله صَلَّى على النجاشى صلاة الغائب لما أبلغه جبريل بوفاته فى سنة ٩ من الهجرة.

٥ – كتاب النبى إلى ملك الغساسنة فى دمشق:

قال ابن اسحق (السيرة النبوية لابن كثير. جـ ٣ ص ٥٠٦) إن النبى بعث شجاع بن وهب من بنى أسد خزيمة إلى المنذر بن الحارث بن أبى شمر الغسانى حاكم دمشق. جاء فيه: سلام على من اتبع الهدى وآمن به. وأدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك. فلما وصل شجاع وقرأ الكتاب عليه قال: ومن ينزع ملكى! إنى سأسير إليه. وحشد قواته للزحف إلى المدينة ولكن هرقل دعاه إلى بيت المقدس ونصحه بعدم استعداء النبى.

٦ – كتاب إلى حاكم بصرى:

وكان لواء بُصرى جزءا من دويلة الغساسنة فأرسل إلى حاكم بصرى مبعوثا بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام وبينما المبعوث يمر بأرض مؤتة اعترضه شرحبيل بن عمر أحد كبار الغساسنة وقتله. ولما بلغ النبى الأمر أرسل سرية موتة كما سيأتى فيما بعد (ص ٧٥١).

٧ – كتاب النبى إلى أمير البحرين:

وحمل أبو العلاء الحضرمى كتاب رسوله الله إلى المنذر بن ساومى أمير البحرين:

٨ – كتاب النبى إلى مسيلمة باليمامة:

وحمل عمرو بن أمية الضمرى كتابا من رسول الله إلى مسيلمة زعيم اليمامة يدعوه إلى الإسلام. فردَّ مسيلمة بكتاب يقول فيه: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. سلام عليك. أما بعد فإنى أُشركت معك فى الأمر وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشا قوم يعتدون. فرد النبى عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى أما بعد. إن الأرض لله يورثها من يشاء من

عباده والعاقبة للمتقين».

وأرسل النبى رسلا إلى غير هؤلاء (شكل ٤٤):

٩ – رسالة إلى حاكم أزد عمان الذى أسلم.

١٠ – رسالة إلى أساقفة نجران.

١١ – كتاب إلى يوحنا بن روية صاحب أيلة.

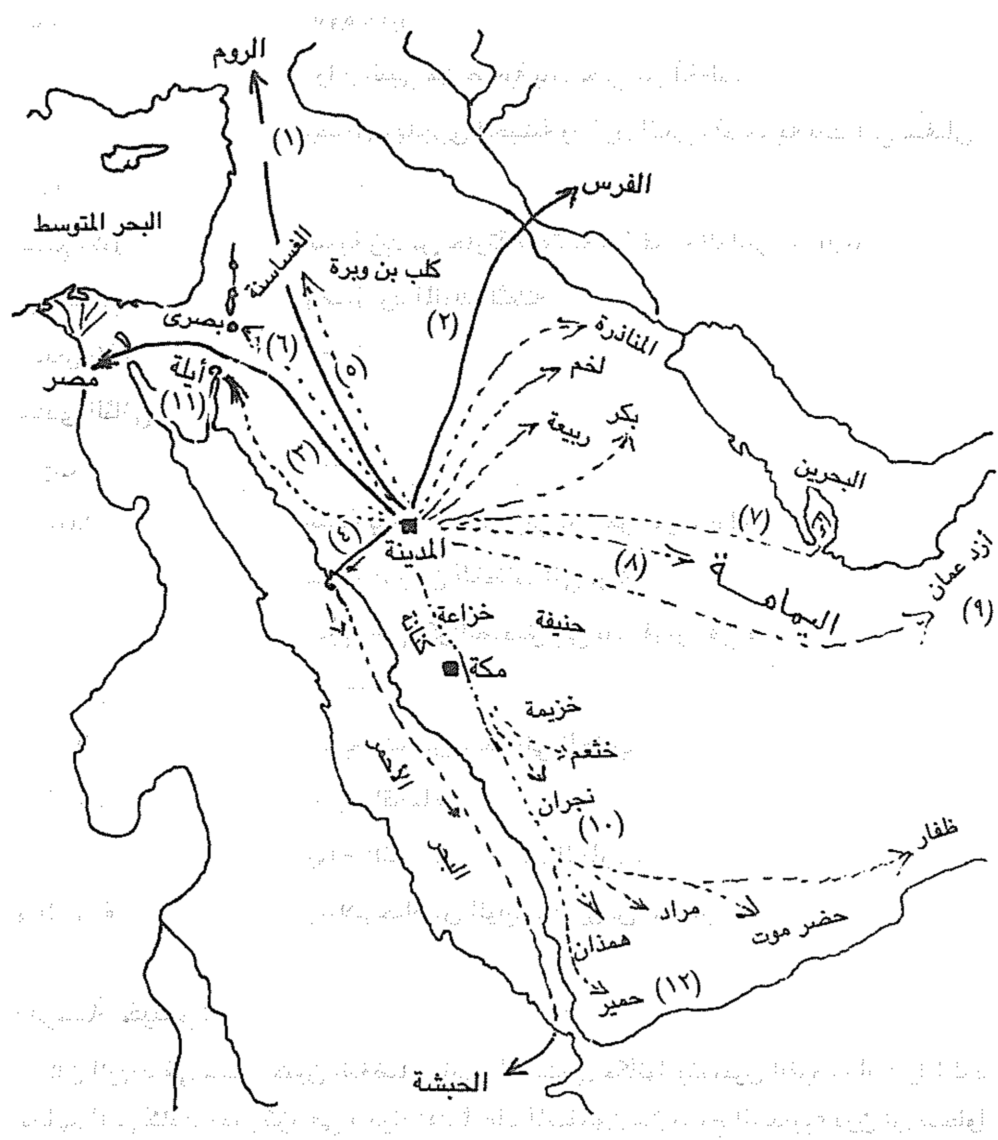
١٢ – رسالة إلى حمير في اليمن.

كما أرسل النبى رسائل إلى غير هؤلاء من روساء الدويلات المحيطة بالجزيرة العربية، ومن آمن أقره على ملكه كتابع للنبى وعليه جمع الزكاة وإرسالها إلى المدينة.

حجاج بن علاط يستخلص ماله فى مكة:

كان حجاج بن علاط قد أسلم وله مال كثير بمكة فقال للنبى، يا رسول الله، إن مالى متفرق فى تجارة بمكة فأذن لى أن أذهب لآخذ مالى قبل أن يعلموا إسلامى فلا أقدر على أخذ شىء منه، فأذن له، فقال يا رسول الله، لابد أن أقول، أى يقول ويذكر غير الحقيقة ليحتال لأخذ ماله فقال له النبى: قل.

فسار حجاج حتى جاء مكة وكان أهلها قد علموا بسير النبى إلى خيبر فسألوه عن الخبر فقال: هُزم محمد هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط وأسر محمد أسرا وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن أصاب من رجالهم. ففرحوا وأعانوا حجاجاً على جمع ماله وأظهر المشركون الابتهاج والسرور، وانكسر من كان بمكة من المسلمين، وسمع العباس بن عبد المطلب فاغتمَّ لهذه الأنباء فبعث إلى حجاج غلاما ليستوثق منه الخبر، فقال له اقرأ علي أبى الفضل السلام وقل له ليخل لى بعض بيوته لآتيه بالخبر على ما يسره واكتم عنى، فرجع الغلام بهذه البشرى إلى العباس فسر وأعتقه ونذر أن يعتق عشر رقاب، ولما فرغ حجاج من جمع ماله جاء إلى العباس، وقال له إنى قد أسلمت وإن لى مالا عند الناس ولو علموا بإسلامى لم يدفعوه إلىَّ، إنى تركت رسول الله قد فتح خيبر وجرت سهام الله وسهام رسوله فيها وتركته عروسا بابنة ملكهم حيى بن أخطب وقتل ابن أبى الحقيق، وخرج حجاج من مكة بماله وبعد ثلاثة أيام وبعد أن اطمأن العباس إلى أن حجاج قد أصبح بعيدا عن الطلب، خرج وقد لبس أبهى حلة عنده وأتى مجلس قريش، فقالوا يا أبا الفضل، هذا هو والله التجلد بِحَرِّ المصيبة، فأخبرهم بصحة الخبر وأن حجاج ما قال ذلك إلا ليستخلص ماله منهم بعد أن أسلم، ففرح المسلمون بمكة وعلت الكآبة المشركين وقالوا، انفلت عدو الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن.



شكل ٤٤ – رسائل النبى إلى الملوك

أحداث السنة السابعة للهجرة

محرم	غزوة خيبر.
	زواج النبى من صفية بنت حيى بن أخطب،
	وصول مهاجرى الحبشة ودخول النبى بأم حبيبة بنت أبى سفيان
صفر	ـــــــ
ربيـــع الأول	سرية زيد بن حارثة واعتراضها قافلة العاص بن الربيع.
ربيع الثانى	وصول رد الملوك الثلاثة.
جمادى الأول	ـــــــ
جمادى الثانى	ـــــــ
رجب	ـــــــ
شعبان	سرية بشر بن سعد إلى بنى مرة قرب فدك.
	سرية عمر بن الخطاب إلى تربة.
	سرية أبى بكر الصديق إلى بنى فزارة فى نجد.
رمضان	ـــــــ
شـوال	سرية بشر بن سعد إلى الجناب.
ذو القعدة	عمرة القضاء.
	زواج النبى من برة بنت الحارث.
ذو الحجـة	إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

معركـة خيبـر:

كان اليهود فى خيبر يكنون البغضاء للنبى وللمسلمين فكانوا يتحينون الفرصة ليثأروا لطرد قبائلهم التى كانت متمركزة فى المدينة. فلما عاد المسلمون من صلح الحديبية دون أن يدخلوا مكة أو يطوفوا بالبيت وقبلوا شروط الصلح وكان فيها بعض الإجحاف بالمسلمين – ظن اليهود أن ذلك لم يكن إلا عن ضعف فأرادوا أن يستغلوا الظروف فبعثوا إلى غطفان ليعاونوهم على حرب المسلمين وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين.

وكانت خيبر – كما فى شكل ٤٥ – عبارة حصون متعددة فى مجموعات يحمى بعضها بعضا:

أ - **مجموعة حصون النطاة:** وتتكون من حصن النطاة وحصن الصعب بن معاذ وحصن ناعم وقلعة الزبير.

ب - **حصون الشق:** نسبة إلى جبل الشق المجاور وتشمل: حصن أبى الحقيق وحصن النزار.

جـ **مجموعة حصون الكتيبة:** وتقع فى النصف الشرقى من خيبر وتشمل حصن القموص وحصن الوطيح وحصن سلالم وحصن سموان بجوار عين الحمة.

وجاء الخبر إلى رسول الله عما يدبره اليهود وغطفان من غزو المدينة. فلم ينتظر حتى يفاجئوه وقرر أن يغزو خيبر. فاستنفر من الرجال من شهد الحديبية وجاء الذين تخلفوا عن الحديبية ليخرجوا معه إلى خيبر رجاء الغنيمة فقال لهم النبى: لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد. فأما الغنيمة فلا. فخرج من خرج وتخلف من تخلف. ويرى كتاب السيرة أن غنائم خيبر كانت ترضية لمن شهدوا الحديبية تعويضا عن خيبة أملهم فى عدم التمكن من الطواف بالبيت الحرام. ويرى المفسرون أن الآية ٢٠ من سورة الفتح (ص ٦٩٢) تتنبؤ بالغنائم الكثيرة التى سينالونها من غزو خيبر **«وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجَّل لكم هذه»** والمعجَّل هو صلح الحديبية وإن لم ير المسلمون فيه وقتها أنه مغنم - وما دام هناك جزء معجَّل فهناك جزء مؤجل. وهو غنائم خيبر وعليه فالآية تتنبأ بالغزوة والنصر المؤزر فيها.

وخرج رسول الله فى محرم من أول السنة السابعة للهجرة وخرج معه من نسائه أم سلمة. ومرَّ على **الغابة العليا** - ثم **الغابة السفلى** ثم **نقب بردح** ثم **جبل عصر** ثم **الصهباء** ثم **الخرصة** ثم إلى **وادى الرجيع** الذى يقع بين ديار غطفان وخيبر ليمنع التقاء الحليفين. ولما سمعت غطفان بنزول رسول الله فى وادي الرجيع جمعوا الرجال وخرجوا ليظاهروا يهود خيبر. حتى إذا ساروا مسافة سمعوا خلفهم جلبة فخافوا أن تكون إحدى القبائل قد انتهزت فرصة خروج الرجال وأغارت على أهليهم وأموالهم فرجعوا من منتصف الطريق.

ولما أشرف النبى على خيبر أمر جنوده بالوقوف ودعا الله طالبا النصر. وكان الليل قد أقبل فباتوا ليلتهم وفى الصباح فتحت الحصون أبوابها وخرج الزراع إلى حقولهم والرعاة إلي مراعيهم فلما رأوا جيش المسلمين عن بعد رجعوا إلى حصونهم. وقال النبى: الله أكبر. خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

كان اليهود فى حصونهم يرتجفون مع أنهم كانوا حوالى ١٠٠٠٠ مقاتل. وكان عبدالله بن أبىّ بن سلول - كبير المنافقين - قد أرسل إليهم يخبرهم بسير النبى إليهم ليأخذوا حذرهم. ونزل النبى قريبا من **«حصن النطاة»** فجاءه الحباب بن المنذر - أحد المسلمين - وأخبره أن أهل النطاة قوم ليس أبعد مرمى سهم منهم ولا أعدل رمية منهم وهم مرتفعون مما يعطيهم ميزة أخرى. فعدل رسول الله عن ذلك الحصن إلى **«حصن ناعم»** وراحوا يمطرون اليهود المدافعين عنه بوابل من السهام. وخرج فريق من اليهود من الحصن فقابلهم فريق من جيش

غطفـــان
جبل الشق
حصون الشق
تل النطاة
الرجيع
الصخرة
الخرصة
وادى الرجيع
حصن القموص
حصن أبى الحقيق
حصن النزار
حصن النطاة
حصون النطاة
حصن سلالم
حصن ناعم
قلعة الزبير
حصن الوطيح
حصن الصعب
حصن مرحب ونصرة
حصن سموان
الدومة
عين الحمة
حصون الكتيبة
الصهباء
العودة فى ربيع الأول
جبل نمار
نقمى
دور بنى نقمة
حرة الشقة
جبل أشمد
وادى الدومة
جبل عصر
نقب بردح
الغابة السفلى
الغابة العليا
السير فى محرم
الزغابة
المدينة

شكل ٤٥ – معركة خيبر.

المسلمين وفيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب ومحمود بن مسلمة (من الأنصار) وغيرهم ودار قتال شديد حتى إذا اقترب محمود بن مسلمة من باب الحصن ألقى عليه اثنان من اليهود من أعلى الحصن حجر الرحى فسقط على رأسه وشجَّه فسحبه أصحابه إلى حيث رسول الله الذي عصبه بخرقة ولكن محمود بن مسلمة مات من شدة النزيف. وجاء محمد أخو محمود بن مسلمة يريد الانتقام لأخيه وأراد أن يندفع إلى حصون اليهود. فهدأ النبى من اندفاعه وقال: لا تمنَّوْا لقاء العدو واسألوا الله العافية. فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم. فاذا لقيتموهم فقولوا اللهم أنت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك. وإنما تقتلهم أنت. ثم الزموا الأرض جلوسا فإذا غشوكم فانهضوا وكبِّروا:

وكانت كتائب اليهود تخرج من الحصون وتقاتل المسلمين حتى إذا اشتد المسلمون عليهم رجعوا إلى حصونهم فدخلوها وأغلقوا بابها. وفى اليوم التالى أفلح المسلمون فى اقتحام «حصن ناعم» واستولوا على ما فيه. ثم رجعوا إلى «حصن النطاة» وهو – كما ذكرنا – من أمنع الحصون فحاصروه ستة أيام كان يتم تبادل الرمى بالسهام والمبارزة بين الجنود. وفى اليوم السادس جاء يهودى إلى معسكر المسلمين وطلب مقابلة النبى ودلَّه على موضع ضعف فى الحصن وطلب الأمان لنفسه ولزوجته حتى لا يقتل عند فتح الحصن فأعطاه رسول الله الأمان. وقال رسول الله لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله لا يولى الدبر ويفتح على يديه. وبات المسلمون ليلتهم كل واحد يتمنى أن يكون هو من يُعطى الراية. فلما أصبحوا غدوا إلى رسول الله فقال: أين على بن أبى طالب. فأخبروه أنه يشتكى عينيه ولزم خيمته فأرسل إليه فأتى وقد أصاب عينيه رمد. فوضع رسول الله يديه الكريمتين على عينيه ودلكهما فبرأ فألبسه الرسول الدرع وشد سيفه في وسطه وأعطاه الراية. وسار علىّ برجاله حتى إذا اقترب من الحصن خرج إليه جماعة من اليهود وتقاتلوا واشتد اليهود فى قتالهم وتقهقر المسلمون بعض الشيء ولكنهم لما رأوا ثبات علي بن أبى طالب تشجعوا وكروا علي اليهود: وأراد عامر بن سلمة بن الأكوع أن يضرب يهوديا فرجع إليه سيفه وجاءت ذبابته فى ركبته فسقط يتلوى من الألم فحمله المسلمون إلى المعسكر. واشتد القتال. وضرب علىّ «مرحبا» أحد قاتلى محمود بن مسلمة وشدَّ عليه حتى قتله. وبرز «ياسر» أخو «مرحب» للقتال فخرج إليه الزبير بن العوام – ابن صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول – وكانت قد خرجت فى الجيش لتمرِّض الجرحى فأشفقت على ابنها لما تعرفه من مهارة ياسر فى القتال ولكن الرسول طمأنها بأن الزبير هو الذى سيقتل ياسر. وراح الزبير وياسر يتبادلان الضربات حتى تمكن الزبير من ضرب ياسر ضربة قاتلة ألقته على الأرض صريعا. وقال رسول الله: فداك عم وخال. لكل نبى حوارى وحواريىَّ الزبير.

وجاء إلى رسول الله عبدٌ حبشى مملوك لرجل من اليهود ويرعى غنمه وأسلم وسأل النبى عما يصنع بالغنم فأمره رسول الله بأن يردَّها إلى صاحبها. فأخذها العبد ووجَّهها ناحية

الحصن ورماها بحفنة من حصباء فأسرعت حتى دخلت الحصن وراح العبد يقاتل مع المسلمين حتى قُتل ولم يسجد لله سجدة واحدة. وسئل رسول الله عنه فقال: لقد كرَّم الله هذا العبد وساقه إلى خير وقد كان الإسلام من نفسه حقا.

أما عامر بن سلمة بن الأكوع الذى جرح بذبابة سيفه فقد اشتد عليه مرضه حتى مات. واختلف الناس فيه فمن قائل قتله سلاحه فكأنه قتل نفسه فليس بشهيد فانطلق والده سلمة بن الأكوع إلى رسول الله الذى طمأنه وقال له. إنه لشهيد وصلّى عليه.

وعلم اليهود أنهم إذا لزموا الحصن فسيستمر النبى فى حصارهم حتى ينفذ ماؤهم وزادهم فيضطروا إلى التسليم. لذلك فإنهم خرجوا يقاتلون. واشتد القتال وقُتِلَ «الحارث» قائد اليهود وأشجعهم فزلزل ذلك قلوبهم وتراجعوا حتى دخلوا الحصن وأغلقوا بابه. واقترب المسلمون من الحائط وأعملوا فيه المعاول والفؤوس حتى نقبوه ونفذوا إلى داخله واستولوا على الحصن وهم يكبرون الله وقد غمرهم السرور واستولوا على ما فيه من سيوف ودروع. وكان المسلمون – لطول الحصار – قد نقص زادهم وأصابهم الجوع فلجأوا إلى الحُمُر الوحشية فذبحوها ووضعوها فى القدور على النار. وبينا القدور تفور جاء داعى رسول الله ينهي عن أكل لحوم الحمر الوحشية فكفوا القدور على وجوهها. ثم دعا النبى قائلا: اللهم افتح أكثر الحصون طعاما وودكا (الودك الدسم).

بعد أن استولى المسلمون على حصن النطاة المنيع توجهوا إلى «**حصن الصعب**» وحاصروه وخرج منه نفر تبارزوا مع عدد من المسلمين. وقتل بعض اليهود وفر الباقون ودخلوا الحصن ولكن المسلمين أفلحوا فى تسلق جدران الحصن وفتحوا بابه وتدفق منه المسلمون وقاتلوا حتي وقع الحصن في أيديهم ووجدوا فيه من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت شيئا كثيرا. وبذلك تمت السيطرة على مجموعة حصون النطاة التي كان فيها أشد اليهود.

بعد ذلك توجه المسلمون إلى حصون الشق وبدأوا بأمنعها وهو «**حصن أبى الحقيق**» فاقتحموه واستولوا عليه وأفلت بعض مقاتليه ولجأوا إلى «**حصن نزار**» فتوجه المسلمون إليه فحاصروه واقتحموه وفر كثير من اليهود ولجأوا إلى **حصن القموص** المنيع **وحصن الوطيح وحصن سلالم**. فحاصر المسلمون هذه الحصون الثلاثة مدة ١٤ يوما حتى طلب أهلها الصلح من شدة العطش إذ كانت العين التي يستقون منها خارج الحصن. ثم راحوا إلى الحصون الباقية فاستولوا عليها تباعا.

وفى اليوم التالي رأى المسلمون غبارا فى الجو من ناحية المدينة فاتجهت الأنظار إلى الركب القادم فإذا هم سبعون بيتا من دوس وعلى رأسهم الطفيل بن عمرو الدوسى يرافقهم أبو هريرة. وكان الطفيل – كما سبق أن ذكرنا – قد أسلم على يدى رسول الله فى مكة وقال للنبى إن دوسا قد عصت وأبت فادع الله عليهم فقال رسول الله: اللهم اهد دوسا وأت بهم.

فرجع الطفيل إليهم وراح يكرر الدعوة لهم ولكنهم أبطأوا حتى كانت غزوات بدر وأحد والخندق. ثم كان أن أسلموا جميعا وقرروا اللحاق برسول الله فأتوا إليه وهو يحارب فى خيبر فجعلهم النبى فى ميمنة الجيش.

وكان **حصن القموص** من أمنع الحصون وفيه وضعت كرائم نساء اليهود وأولهم صفية بنت حييّ بن أخطب ملك النضير. وحاصر المسلمون الحصن عشرين ليلة وقاد عل بن طالب هجوم المسلمين على الحصن وانطلقوا لا يبالون بالنبل التى تتساقط عليهم كالمطر. ولما اقترب المسلمون من الحصن راح اليهود يقذفونهم بالحجارة ولكن شجاعة المهاجمين مكنتهم من اقتحام الحصن والاستيلاء عليه وأُسرت صفية بنت حييّ بن أخطب وبنت عم لها وجاء بلال بهما. فمر على قتلى اليهود. فلما رأتهم بنت عم صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها. فلما جاءوا النبى قال لبلال: أنُزِعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما! وذهب بلال بهما إلى حيث السبى. فجاء دحية الكلبى وطلب من النبى جارية فصرَّح له بأخذ واحدة من السبى فذهب دحية وأخذ صفية بنت حييّ. فجاء رجل إلى النبى وقال له: يا رسول الله أعطيت دحية صفية سيدة قريظة والنضير ولا تصلح إلا لك. فأرسل النبى فى طلب دحية فلما جاء أمره بأخذ جارية أخرى غير صفية ففعل. كانت صفية في السابعة عشرة من عمرها ولكنها كانت قد تزوجت مرتين. تزوجت أولا من «سلام بن مشكم» فارس قومها وشاعرهم. ثم طلقت منه فتزوجها «كنانه بن الربيع بن أبى الحقيق» وقد قتل عند اقتحام الحصن. وجيء بصفية إلى النبى فجاءت فى حزنها الصامت على ما حل بقومها وجزعها المكبوت مما ما قد يحل بها. تحاول أن تتماسك فى ترفع وكبرياء. ثم أمر النبى بصفية وحيِّزت خلفه وألقى عليها رداءه فكان ذلك إعلاما بأنه قد اصطفاها لنفسه.

ثم حاصر المسلمون حصون سلالم والوطيح وسموان وهي آخر حصون خيبر ومكثوا على حصارها ١٤ يوما. وأيقن اليهود أن لا فائدة من المقاومة فسألوا رسول الله الصلح على حقن دماء المقاتلة وترك الذرية يخرجون من خيبر. فصالحهم على أن لا يكتموه شيئا من متاعهم. فجلوا عن الحصن ووُجد به ١٠٠ درع و ٤٠٠ سيف و ١٠٠٠ رمح و ٥٠٠ ترس. ووجدت صحائف كثيرة من التوراة وجاءت يهود تطلبها فدفعها النبى إليهم. والمعروف أن بنى النضير من أغنى قبائل اليهود وعندهم من الذهب والجواهر النفيسة الكثير، ومن شهرته كانت نساء أعيان المدينة تستعير من نسائهم الحلى للتزين بها في الأعياد. وكان حييّ بن أخطب – قبل بدء المعركة – قد وضع جواهر قومه وذهبها فى جلد وطمره فى الأرض. ولما أُسر حييّ سأله النبى عن مال بنى النضير فقال نفذ فى النفقة والحرب فقال له النبى: كان أكثر من ذلك. وجاء رجل من اليهود إلى النبى وأخبره أنه رأى حييّ يُطيف بخربة من الأرض عيَّنها له فقال النبى لحييّ: أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك؟ قال حيي: نعم. فأمر النبى بالخربة فحفرت واستخرج

منها بعض الأموال والحلى ولكنها أقل مما هو مشهور عن كنزهم. وراح الزبير بن العوام ينخسه بحربة في صدره حتى أقر بمكان باقى الكنز وفيه أساور وخلاخيل وأقراط وخواتم من ذهب وعقود من الزمرد وغيره من الأحجار الكريمة. ثم نُفِّذ حكم الإعدام فى حيىّ بن أخطب.

وصول مهاجرى الحبشة:

كان مهاجرو الحبشة يتابعون ما يحدث في مكة باهتمام. ثم بلغهم هجرة النبى والمسلمين إلى المدينة. وسُرَّ المهاجرون لانتصار المسلمين فى بدر. ثم وصلتهم أنباء الغزوات الأخرى. وأخيرا علموا بصلح الحديبية وما أضفاه من صفة الندِّيَّة بين قريش والمسلمين ووضع الحرب بينهما عشر سنوات. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٧٢٢) أن النبى رأى أنه لا داعى لبقاء مهاجرى الحبشة فى الغربة أكثر من ذلك فأرسل عمرو بن أمية الضمرى بكتاب إلي النجاشى ليسمح لمن بقي منهم في العودة. وحملهم عمرو فى سفينتين سارتا في بحر القلزم (البحر الأحمر) ونزلوا فى ميناء ينبع ثم ساروا إلى المدينة وعلموا بسير النبى إلى خيبر. فلحقوه هناك بعد أن كان قد انتهى من فتح جميع حصونها.

أم حبيبة بنت أبى سفيان:

كانت «رملة» بنت أبى سفيان متزوجة من ابن عمة الرسول، عبيد الله بن جحش أخى زينب بنت جحش أم المؤمنين. وقد أسلم عبيد الله فأسلمت معه رملة وأبوها أبو سفيان على كفره وخشيت أذى أبيها فهاجرت مع زوجها فى الهجرة الثانية إلي الحبشة (ص ١٦٣). وجُنَّ جنون أبى سفيان أن أسلمت ابنته وليس من سبيل لردها إلى دينه. وكانت رملة عند هجرتها حاملا. وهناك – فى الحبشة – وضعت طفلة سمَّتها حبيبة وصارت رملة تدعى «أم حبيبة». ومرت عدة شهور وإذا بعبد الله يدخل النصرانية دين الأحباش وحاول أن يجعل زوجته تعتنق النصرانية ولكنها تمسكت بإسلامها واعتزلت رملة الناس شاعرة بالخزى لما فعله زوجها. وزاد من ألمها أنها لم تكن تستطيع العودة إلى مكة خوفا من أبيها الذى كان يعلنها حربا شعواء على المسلمين ويتفنَّنُ فى إيذائهم. ولا شك أنها لو عادت إلى مكة لقام بتعذيبها حتى يردها إلى الشرك حفاظا على كرامته بين المشركين. وكان النبى يتابع بدقة أخبار المهاجرين في الحبشة وعرف حرج موقف رملة – أم حبيبة – بنت أبى سفيان وخاف إن ظلت هكذا وحيدة في الغربة أن ينتهى بها الأمر إلى أن تتبع زوجها فى نصرانيته أو تعود إلى مكة ويجبرها أبوها على العودة إلى الشرك. فقرر أن يشد من أزرها فى هذا الموقف الحرج فأرسل إلى النجاشى ليتزوجها بالوكالة. فأرسل النجاشى إلى رملة لتحضر للقصر ودعا أيضا كبار المسلمين المهاجرين وقال لهم: إن محمدا بن عبدالله كتب إلىَّ أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان. فمن أولاكم بها؟ فأجابوه بأنها قد وكّلت عن نفسها خالد بن سعيد. وتم الزواج أمام النجاشى الذى دفع صداقها نيابة عن النبى ٤٠٠ دينار وقيل ٤٠٠٠. وأولم النجاشى وليمة الزواج. وأتى

المسلمون إلى أم حبيبة مهنئين وأمر النجاشى نساءه أن يبعثن إليها مما عندهن من طيب فتقبلت هداياهم شاكرة واحتفظت بها حتى حملتها معها إلى بيت النبى.

وعادت أم حبيبة إلى المدينة مع عودة مهاجرى الحبشة ودخلت أحد بيوت النبى. ولما علم الرجال أن الرسول فى غزوة خيبر انطلقوا بأسلحتهم للِّحاق به. فلما اقتربوا وثار غبارهم قال النبى لأصحابه: يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوبا. وراح المسلمون يتطلعون صوب طريق المدينة. وجاء الركب وهم ٦٢ رجلا من المهاجرين الذين كانوا فى الحبشة وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب. وقام النبى إلى جعفر وقبله بين عينيه وقال: جعفر أشد الناس بى خُلُقا وخَلْقًا. وكانت خيبر قد تم فتحها فقال النبى: لا أدرى بأيهما أنا أسر. بفتح خيبر أم بقدوم جعفر.

غنائم خيبر:

أفرز النبى خمس الغنائم ليتصرف فيها حسب الشرع ثم قسَّم الأربعة أخماس الباقية بين المحاربين. وكان من قُتل من اليهود فى معارك خيبر ٩٣ رجلا وسبيت النساء والذرارى بالمئات واستشهد من المسلمين ٢٠ رجلا.

يهود فدك:

كان رسول الله لما سار إلى خيبر قد بعث أحد رجاله إلى يهود فدك يدعوهم إلى الإسلام فتمهلوا فى الرد ظنا منهم أن النبى لن يقدر علي خيبر. ولكن لما جاءهم خبر سقوط حصون خيبر واحدا وراء الآخر أرسلوا أحد سادتهم فى نفر إلى النبى ليأخذوا لهم الصلح على أن يحقن دماءهم فيخلوا ديارهم ويأخذوا نساءهم وأطفالهم وأموالهم. وتم الاستسلام صلحا. ولما كانت فدك قد أخذت بدون قتال فإن حقولها وبساتينها «فىء» وكلها لرسول الله ينفق منها حسب الشرع. كما حدث مع أموال بنى النضير (ص ٥٧٧).

«وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير. ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل...» (٦ - ٧ - الحشر).

غطفان:

قلنا (ص ٧٢٩) إن غطفان أرادوا السير لمساندة يهود خيبر حسب الاتفاق الذي تم بينهما ولكنهم لما بدأوا السير سمعوا صوتا وراءهم فخافوا أن تهاجم إحدى القبائل ديارهم فعادوا وخلُّوا بين النبى وبين اليهود. فلما انتصر رسول الله وغنم من خيبر الكثير جاء عيينه بن حصن سيد غطفان وقال للنبى: أعطنى مما غنمت من حلفائى فإنى امتنعت عنك وعن قتالك.. فقال له رسول الله: كذبت ولكن الصياح الذى سمعت أنفذك إلى أهلك. ولم يعطه شيئا.

وادى القرى:

ولما فرغ رسول الله من خيبر انصرف إلى وادى القرى. وكان يهود وادى القرى قد آووا ناسا من مشركى العرب فلما جاء المسلمون استقبلوهم بالرمي بالسهام. وخرج من حصونهم ثلاثة من أحسن فرسانهم فبرز لهم الزبير بن العوام وعلى بن أبى طالب وأبو دجانة الأنصارى وقتلوهم وخرج غيرهم فقُتلوا أيضا حتى بلغ قتلاهم ١٢ رجلا. وفى اليوم التالى هجم المسلمون على الحصن وفتحوه عنوة وغنموا أموالهم. وقسم النبى الأموال والسبايا على أصحابه وترك الأرض والنخيل بأيدى اليهود على أن يدفعوا من غلتها.

تيمــاء:

ولما بلغ يهود تيماء ما كان من أمر خيبر وفدك ووادى القرى صالحوا النبى على الجزية.

السـبايا:

لما وزعت السبايا على المسلمين قام رسول الله فيهم خطيبا فقال: لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره (وهو نهى عن إيتاء الحبالى من السبايا) ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة حتى يستبرئها (أى يتأكد من براءة رحمها بالحيض) ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما حتى يقسم. ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها (أضعفها وهزلت) ردّها فيه. ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه ردّه.

الدخول بصفية بنت حييّ بن أخطب:

وانتظر النبى بخيبر حتى هدأت مناحة السبايا على قتلاهم ثم استأنف السير حتى إذا كان بالصهباء بعيدا عن خيبر وقبل المدينة بـ ٥٠ كليو مترا نزل بخبائه. وكانت أم سليم الماشطة قد جاءت إلى صفية فمشطتها وجمَّلتها وعطرتها واستبرأتها. فتزوجها رسول الله بعد أن أسلمت وكان صداقها عتقها. وأقيمت وليمة عرس حافلة وأكل الناس من طيبات خيبر حتى شبعوا ودخل رسول الله بعروسه ورأى عليه السلام بأعلى عينها زرقة فسألها عنها فقالت إنها رأت فى المنام أن قمرا وقع فى حجرها فلما صحت من نومها أخبرت كنانة بن الربيع زوجها فقال غاضبا: ماهذا إلا أنك تمنِّين إلى ملك العرب ولطمها على وجهها. وبات أبو أيوب الأنصارى تلك الليلة متوشحا سيفه يحرس النبى ويطوف بخيمته حتى أصبح رسول الله فسأله مالك يا أبا أيوب؟ فقال يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة. قتلت أباها وزوجها وقومها وهى حديث عهد بكفر فبت أحفظك. فقال النبى: اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى. وحجب النبى

دومة الجندل
تبوك
تيماء
بنو فزارة
بنومرة
فدك
وادى القرى
غطفان
خيبر
الجناب
الصهباء
المدينة
ينبع
هوازن
تربة
مكة

شكل ٤٦ – خيبر وفدك ووادى القرى.

صفية بنت حييّ بن أخطب وأصبحت من أمّهات المؤمنين. وأقام النبى فى الصهباء ثلاثة أيام ثم استأنف المسير إلي المدينة وكانت الأخبار قد سبقت إلى المدينة بالنصر المؤزر الذى أحرزه النبى على يهود خيبر وانتظر المسلمون عودة النبى ومن معه وكان السرور بالغا بنصر الله وبالغنائم التى غنموها.

أم حبيبة:

واحتفلت المدينة بدخول أم حبيبة بنت أبى سفيان إلى بيت النبى وأولم خالها «عثمان بن عفان» وليمة حافلة نحر فيها الذبائح وأطعم الناس اللحم. ولم يكن قد مضى على زواج النبى من عقيلة بنى النضير «صفية» غير أيام معدودات. واستقبلت نساء النبى أم حبيبة بشىء من المجاملة. ولم تر عائشة فيها ما يشعل غيرتها إذ كانت أم حبيبة تقرب الأربعين من العمر وليس لها سحر أو شباب صفية ولا ملاحة جويرية ولا حُسن أم سلمة ولا جمال زينب (بنت الشاطىء. تراجم سيدات بيت النبوة. ص ٣٨٥). وعلى العموم فقد ساد الهدوء بيت النبى وساد الوئام بين أزواجه.

قصة الشاة المسمومة:

لما اطمأن رسول الله بالمدينة بعد عودته من خيبر أهدت له زينب بنت الحارث - امرأة يهودية - زوجة سلام بن مشكم - شاة بحجة أنها تجامل صفية بنت سيد النضير وكانت قد سألت عن أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله فقيل لها الذراع فوضعت السم في الشاة وأكثرت من السم فى الذراع. ثم جاءت بها ووضعتها بين يدى رسول الله. فتناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يُسغها. ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها فأساغها وأكل منها. أما رسول الله فقد لفظ ما مضغه وقال: إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ثم دعا بزينب بنت الحارث فاعترفت فسألها عما حملها على ذلك فقالت: بلغتَ من قومى مالم يخف عليك فقلت إن كان ملكا استرحت منه. وإن كان نبيا سيُخبَر وينجو. قيل وعفا رسول الله عنها. وكان المفروض على بشر أن يحذو حذو النبى فيلفظ ما مضغ ولكنه لم يفعل فمات من السم الذى كان بها. بعض المراجع تذكر أن النبى أمر بقتل المرأة قصاصا لمقتل بشر.

سرية زيد بن حارثة وإسلام العاص بن الربيع:

ذكرنا سابقا (ص ٥١٦) كيف أسر العاص بن الربيع - زوج زينب بنت النبى - فى معركة بدر وأن زينب أرسلت فداءه مع أخيه عمرو بن الربيع وكيف فك النبى أسر العاص بدون فداء وأخذ عليه العهد أن يترك زينب تهاجر. وذكرنا (ص ٥٢٠) هجرة زينب إلي المدينة فوصلتها وعاشت فى بيت أبيها فى حجرة مجاورة لحجرات زوجاته ولم تفقد الأمل قط فى أن يشرح الله صدر العاص بن الربيع - زوجها - للإسلام فيلحق بها فى المدينة. أما العاص بن الربيع فقد

تابع حياته فى مكة بعد هجرة زينب – متاجرا فى أموال قريش وكانت أكثر رحلاته إلى الشام. ولم يشارك فى أى من الحروب التالية التى وقعت بين قريش وبين المسلمين.

وبعد شهرين من صلح الحديبية أى فى المحرم من سنة ٧ للهجرة خرج فى رحلة إلى الشام يقود قافلة فيها أموال لرجال من قريش. وفرغ من تجارته وبينما هو عائد فى آخر شهر ربيع الأول من السنة السابعة (بعض المؤرخين يعتبر ربيع الأول هذا هو آخر السنة السادسة للهجرة كما سبق أن أوضحنا ص ٤٣٧) لقيته سرية من ١٧٠ رجلا يقودها زيد بن حارثة بعثها رسول الله – فور عودته من غزوة خيبر – إلى ساحل البحر. فأصابوا كل ما معه من مال وهرب هو فارا بحياته حتى إذا وصل المدينة وفى ظلمة الليل لجأ إلى بيت زينب. وأول مارأته زينب خفق قلبها وانشرح ظنا منها أنه إنما جاء مسلما فيجتمع شملهما من جديد ولكن خاب ظنها لما حكى لها حكايته. ولكنها قالت له فى رقة: مرحبا بابن الخالة مرحبا أبا على وأمامة (أولادهما).

وسمعت صوت بلال يؤذن لصلاة الصبح وسمعت خطوات أبيها يخرج ليصلى بالناس فتشجعت وقامت إلى الباب وصاحت بأعلى صوتها: «أيها الناس إنى أجرت العاص بن الربيع!» وسمع النبى صوتها. فلما أكمل صلاته أقبل على من معه وقال: أيها الناس. هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا نعم يا رسول الله. قال: أى والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم. ثم أضاف بعد صمت قصير: إنه يجير على المسلمين أدناهم وقد أجرنا من أجارت.

ثم انصرف رسول الله فدخل علي ابنته وعندها العاص بن الربيع فما إن رأته حتى هتفت ضارعة: يا أبى إن أبا العاص إن قَرُبَ فابن عم وإن بَعُدَ فأبو ولد وإنى قد أجرته. فقال لها: أى بنية أكرمى مثواه. ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له. وفى الضحى بعث النبى من يصحب العاص بن الربيع إلى المسجد حيث كان النبى يجلس فى جمع من صحابته بينهم رجال السرية الذين أصابوا القافلة وقال لهم النبى: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم. وقد أصبتم له مالا فإن تحسنوا وتردُّوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك. وإن أبيتم فهو فيئ الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به. فأجابوا بصوت واحد: يا رسول الله بل نرده عليه وأسرعوا وأعادوا له ماله كله لم يُفقد منه شىء. وحان موعد رحيله فودَّعه رسول الله قائلا لأصحابه: حدثنى فصدقنى ووعدنى فوفى لى. مشيرا إلى تعهده بالسماح بهجرة زينب بعد فك أسره فى موقعة بدر.

ومضى العاص حتى بلغ مكة وفرحت قريش بعودته بتجارته رابحة وراح يؤدى إلى كل ذى مال ماله ثم وقف بحيث يسمع صوته وصاح: يا معشر قريش: هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه؟ أجابوا لا فجزاك الله خيرا فقد وجدناك وفيا كريما فقال فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله: والله ما منعنى من الإسلام قبل الآن إلا تخوف من أن تظنوا أنى

إنما أردت أن آكل أموالكم. فلما أدَّاها الله إليكم وفرغت منها أسلمت وترك القوم واجمين، وانطلق فى طريق المدينة.

وفور وصوله توجه إلى المسجد وبايع النبى فهلَّل المسلمون وكبَّروا ثم حفُّوا به مهنِّئين ولكنه كان فى شغل عن هذا كله بالتفكير فى زينب وهل يقبل النبى ردَّها إليه. واستجمع شجاعته وتقدم إلى النبى بحاجته فى استرجاع زينب. فأثنى الرسول عليه خيرا وسار به إلى بيته ودعا ابنته وردها على العاص بن الربيع قيل بعقد جديد وقيل بعقد الزواج الأول. واجتمع الشمل.

وصول رد الملوك الثلاثة:

قلنا سابقا (ص ٧٢٣) إن النبى أرسل رسائل إلى ملوك الدول والدويلات المجاورة أهمها ثلاث رسائل: واحدة إلى قيصر الروم والثانية إلى كسرى ملك الفرس والثالثة إلى المقوقس ملك مصر. ولعل رحلة الرسل ذهابا وإيابا استغرقت نحو شهرين أو أكثر عاد الرسل بعدها إلى المدينة ومع كل واحد منهم الرد:

١ – رد قيصر ملك الروم:

عاد دحية الكلبى إلى رسول الله ومعه كتاب هرقل وفيه «إنى مسلم ولكنى مغلوب» فقال النبى كذب عدو الله ليس بمسلم. وقدَّم دحية هدية هرقل فقسَّمها النبى بين المسلمين.

٢ – رد كسرى ملك الفرس:

قلنا سابقا (ص ٧٢٣) إن كسرى غضب ومزَّق كتاب النبى ولما عاد عبدالله بن حذافة أخبر النبى بما فعل كسرى فقال النبى: اللهم مزِّق ملكه.

وقلنا أيضا إن كسرى كتب إلى «باذان» عامله على اليمن يستعديه على النبى وبعث باذان بكتاب كسرى إلى النبى مع وزير كسرى ووزيرين من عنده فذهبوا إلى مكة وسألوا عن النبى فقيل لهم هو فى المدينة فذهبوا إلى المدينة وقابلوا النبى وقالوا له إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى بعث إلى باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتى بك إليه فإن أبيت هلكت وأهلكت قومك وخربت بلادك. بما معناه أن يعلن الفرس الحرب على النبى. فقال لهم النبى. ارجعوا حتى تأتونى غداً. وكان فى تلك الليلة أن شيرويه ابن كسرى ثار على أبيه وقتله وجلس مكانه.وفى صباح اليوم التالى جاء وزير كسرى ووزيرا باذان: فقال النبى لوزير كسرى أبلغ صاحبك أن ربى قتل ربه كسرى فى هذه الليلة لسبع ساعات مضت وأن الله تعالى سلَّط عليه ابنه شيرويه فقتله. فعاد وزير كسرى إلى بلده وعاد وزيرا باذان إلى اليمين وأخبراه بما قال النبى فقال إن كان نبيا فسيكون ما قال: وبعد أيام جاء الخبر إلى المدينة بأن كسرى قُتِل فى الليلة التي حددها رسول الله فكبَّر المسلمون وقال النبى لتفتحَّن عصابة من المسلمين كنوز كسرى التى فى القصر الأبيض. ووصل الخبر أيضا إلى باذان فى اليمن فأيقن أن «محمدا» رسول الله ولم

يحاول أن يتعرض له بسوء. ولعله مال بقلبه إلى الإسلام، ولكنه ظل على ولائه لفارس. ولكن حينما قاد على بن أبى طالب سرية إلى اليمن ـ كما سنرى فيما بعد (ص ٨٢٧) – سارع اليمن كله إلى الإسلام.

٣ – رد المقوقس ملك مصر:

ذكرنا سابقا (ص ٧٢٤) مسيرة حاطب بن بلتعة برسالة النبى إلى المقوقس حاكم مصر. وأن المقوقس رد رداً لينا وحمَّل حاطب رسالة مكتوبة وأخرى شفوية تفيد إيمانه ولكنه يكتمه خوفا من القساوسة. ولما بلغ حاطب المدينة أعطى النبى كتاب المقوقس وبلَّغ الرسالة الشفوية فقال النبى: ضَنَّ بملكه ولا بقاء لملكه. وأخذ النبى «مارية» لنفسه وأهدى «سيرين» لحسان بن ثابت وقال النبى لأصحابه: إنكم ستفتحون مصرَ فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لكم ذمة ورحما. مشيرا إلى زواج إبراهيم عليه السلام من هاجر المصرية وكذلك إلى صلة الرحم التى نشأت من اتخاذه مارية سُرِّيَّة له كإحدى زوجاته.

مارية القبطية:

هى مارية بنت شمعون. أبوها قبطى مصرى وأمها مسيحية رومية ولدت في قرية «حفن» قريبة من بلدة «أنصنا» الواقعة على الضفة الشرقية للنيل مقابل الأشمونين فى الصعيد. وكان وصول حاطب بها وبأختها إلى المدينة فى ربيع الثاني من السنة السابعة للهجرة بعد عودة النبى من غزوة خيبر. وطار إلى دور النبى أن شابة مصرية حلوة جعدة الشعر جذابة الملامح قد جاءت من أرض النيل هدية إلى النبى الذى أنزلها بمنزل لحارثة بن النعمان قرب المسجد. ولم تهتم زوجات النبى بها فى أول الأمر باعتبار أنها جارية. ولكنهن راقبن فى كثير من القلق اهتمام الرسول بها وكثرة تردده عليها ومكثه لديها وقتا طويلا في ساعات فراغه. وبدأت الغيرة تنهش أكبادهن فحوَّل مارية إلى بيت فى «العالية» فى أطراف المدينة (بنت الشاطىء. تراجم سيدات بيت النبوة ص ٣٩٩).

بعض السريا في السنة السابعة للهجرة

(١) سرية بشير بن سعد إلى بنى مُرَّة بناحية فدك:

فى شعبان أرسل رسول الله بشير بن سعد فى ٣٠ رجلا إلى بنى مرة بناحية فدك (شكل ٤٦ ص ٧٣٧) فتمكن من الاستيلاء على إبلهم فى غفلة منهم. فلما علموا بالخبر تتبعوا السرية وأدركوها وقاتلوهم وقتلوا عددا من أفراد السرية وفر الباقون واستردوا إبلهم وكان بشير قد جرح جرحا بليغا حتي ظُنَّ أنه مات. وفى المساء جر رجليه ولجأ إلى فدك وأقام فيها أياما حتى برىء ثم عاد إلى المدينة.

(٢) سرية عمر بن الخطاب إلى تُربة:

وفى شعبان أيضا أرسل رسول الله عمر بن الخطاب فى ٣٠ راكبا إلى بنى نضر وبني جشم بن بكر بن هوازن الذين كانوا فى تُربة وهو موضع قريب من مكة ولكن القوم علموا بمسيرهم فهربوا فى الأودية ولم يكن قتال.

(٣) سرية أبى بكر الصديق إلى نجد:

وفى شعبان أيضا أرسل رسول الله أبا بكر الصديق فى سرية إلى بنى فزارة فى أرض نجد. فأغار عليهم فى صباحٍ باكر وقتل منهم الكثير وأسروا الرجال ومن ضمنهم امرأة حسنة المنظر فلما عادوا إلى المدينة أخذ النبى الأسيرة وأرسلها إلى أهل مكة وافتدى بها بعضا من أسرى المسلمين.

(٤) سرية بشير بن سعد إلى الجناب:

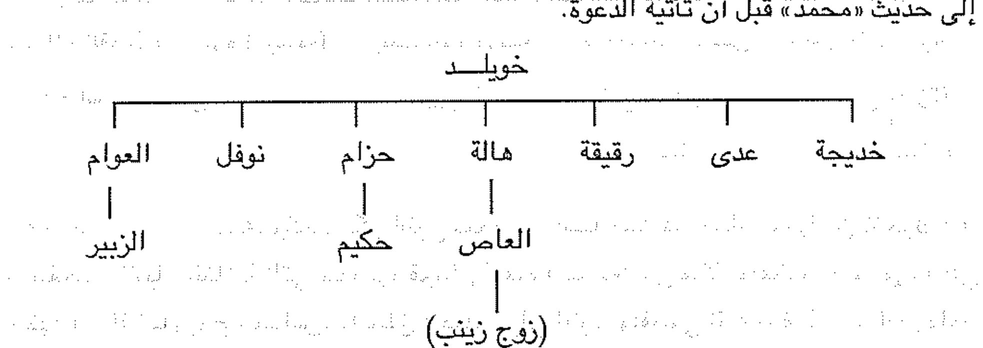
فى شوال بلغ رسول الله أن جمعا من غطفان بالجناب قد واعدهم عيينة بن حصن ليغيروا على المدينة. فعقد النبى اللواء لبشير بن سعد في سرية من ٣٠٠ رجل. والجناب تقع شرقى خيبر. فأصابوا كثيرا من الإبل ولكن الرعاء أسرعوا وأخبروا القوم فتفرقوا فى رؤوس الجبال ولم تدرك السرية إلا رجلين أسروهما فلما عادا بهما إلى رسول الله أسلما فأطلق سراحهما. وقد كانت هذه السرية سببا فى أن يفكر عيينه بعمق فى الإسلام. ثم حضر هو وحليفه الحارث بن عوف وفروة بن هبيرة القشيرى إلى النبى وأسلموا وحضروا معه موقعة حنين وكانوا هم وقومهم من المؤلفة قلوبهم (السيرة النبوية، مهدى رزق الله أحمد، ص ٥٣٠).

عمرة القضاء:

كان شهر ذو القعدة قد اقترب ويكون قد مر عام على صلح الحديبية وتجب عمرة القضاء بدلا من العمرة التى صدَّت عنها قريش فى العام السابق. ولاشك أن رسول الله قد أرسل يخبر قريشا باعتزامه العمرة وأمر أصحابه أن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف إلا من مات أو قتل في خيبر. وخرج آخرون ممن لم يشهدوا الحديبية حتى بلغ من خرجوا ٢٠٠٠ سوى النساء والصبيان. وساق البدن. وحمل المسلمون السلاح والدروع والرماح. فقيل يا رسول الله حملت السلاح وقد شرطوا أن لا ندخلها عليهم بسلاح إلا سلاح المسافر السيوف فى القرب. فقال النبى: لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ولكن يكون قريبا منه. فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريبا منا. وبالطبع كان هذا بعد نظر من النبى. فلو خرج بسلاح المسافر فقط فلا يأمن أن تعمد قريش إلى تحريض قبائل من حلفائها لمهاجمته فى الطريق أو يلجأوا هم إلى الخيانة وينقضُّوا عليه قبل منطقة الحرم ويكون المسلمون حينئذ لقمة سائغة.

وسار المسلمون حتى إذا كانوا بمر الظهران – قبل مكة بحوالى ٢٥ كم – قابلهم نفر من قريش فلما رأوا الخيل وسلاحا كثيرا أسرعوا إلى قريش بالخبر ففزعت قريش وقالوا: ما أحدثنا حدثا وإنا على كتابنا ومدتنا ففيم يغزونا محمد فى أصحابه؟ وجاءه نفر من قريش وقالوا له: والله يا محمد ما عُرِفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر. تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطوا عليك ألا تدخل إلا بسلاح المسافر السيوف فى القرب! فقال الرسول: إنى لا أدخل عليهم بالسلاح. فقالوا: هو الذى تُعرف به. البرُّ والوفاء. وعمد النبى إلى مكان يسمى «بطن يأجج» قبل مكة بـ ١٨كم (شكل ٤٢ ص ٦٨٥) ووضع فيه السلاح وخلف عليه أوس بن خولى الأنصارى فى مائتى رجل يحرسونه.

وخرج كبراء قريش من مكة حتى لا يروا النبى والمسلمين يطوفون بالبيت آمنين فقد كان الحقد ينهش قلوبهم وخاصة أبو سفيان وعكرمة بن أبى جهل وخرج خالد بن الوليد فقد خشى أن لو التقت عيناه بعينى أخيه الوليد بن الوليد – الذى كان قد أسلم – لأسلم مثله . وخرج أيضا صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو. وخرج الكثير غيرهم من سادات قريش ومن العامة. وبقى فى مكة حكيم بن حزام وقد أشرف على الستين فهو يحب أن يرى «محمدا» زوج عمته «خديجة» سيدة نساء قريش وراح يتذكر الأوقات التى كان يقضيها فى بيت عمته – يستمع إلى حديث «محمد» قبل أن تأتيه الدعوة.



وقدَّم رسول الله الهَدْىَ أمامه وأبقاه بذى طوى وخرج على راحلته القصواء والمسلمون حوله يلبون ويكبرون وما إن رأى المهاجرين البيت الحرام حتى كادت تخنقهم العبرات أن عادوا – وإن عودة قصيرة – إلى البلد الحبيب مكة. إلى أرض صباهم وشبابهم. وكان عبد الله بن رواحه وهو آخذ بزمام راحلة النبى يرتجز شعرا فقال له النبى: يا ابن رواحة قل: لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده. وأطرق رسول الله تواضعا لله وهو يُلَبِّى حتى استلم الحجر الأسود وتبعه أصحابه يستلمون الحجر الأسود ويطوفون بالبيت ويلبون ويكبرون، وقريش على جبل أبى قبيس تنظر وقال قائل منهم. إن المهاجرين قد أوهنتهم حمى يثرب. وأَطْلَعَ الله نبيَّه على ما قالوا، فقال النبى: رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة. وكان المسلمون قد بدأوا السعى بين الصفا والمروة فأمرهم النبى أن يرملوا (يُسرعوا) فى الجزء

القريب من الصفا ليرى المشركون أن لهم قوة. وبعد انتهاء السعى سبعة أشواط نحر الهدى عند المروة. ثم أمر ناسا ليذهبوا إلى بطن يأجج لحراسه السلاح ويأتى الآخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا.

وعاد رسول الله وصحبه إلى الكعبة ودخلها ولم يزل بها حتى اعتلى بلال ظهرها وراح يؤذن لصلاة الظهر. وخرج النبى من الكعبة وصفّ المسلمين صفوفا ثم أمَّهم وصلى بهم الظهر ثم ذهب إلى قبته التى نصبت له بالأبطح ليستريح.

الزواج من برة بنت الحارث:

هى برة بنت الحارث أخت أم الفضل زوج العباس عم النبى وأول من آمنت من النساء بعد خديجة وقد مات عنها زوجها فترملّت وهى لم تتعد السادسة والعشرين من عمرها. وظلت فى

الحارث

أخوات غير شقيقات

لبابة (أم الفضل) زوج العباس عم النبى	برة (ميمونة)	زينب بنت خزيمة (زوج النبى)	أسماء بنت عميس (زوج جعفر بن أبى طالب)	سلمى بنت عميس (زوج حمزة) ابنتها عمارة

مكة لم تهاجر إلى المدينة. وكانت تكن للنبى شعورا خاصا وجارفا. وكان عليها أن تتحرك قبل أن تنقضى الأيام الثلاثة التى حددتها قريش لبقاء المسلمين فى مكة. وأفضت بشعورها إلى أختها أم الفضل زوج العباس. فانطلق العباس إلى النبى وأفضى إليه برغبة برة الذى وافق وأرسل جعفر بن أبى طالب – زوج أختها لأمها أسماء بنت عميس – ليخطبها. فما إن خرج جعفر من عندها حتى استخف بها الفرح فركبت بعيرها وانطلقت إلى حيث النبى حتى لقيته وقالت: البعير وما عليه لله ورسوله فجاءت تهب نفسها للنبى عملا بقوله تعالى: «**يا أيها النبى إنَّا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما**» (٥٠ – الأحزاب).

ويقول البعض إن هذه الآية نزلت بمناسبة ما فعلته برَّة ولكن الوحى أمر بوضعها فى سورة الأحزاب لوحدة الموضوع وهو زوجات النبى وضُرِبت لها قبة فى سرف وبنى بها النبى فى

طريق عودته إلى المدينة بعد انتهاء العمرة وسمّاها «ميمونة» قيل للمناسبة الميمونة وهى دخوله مكة لأول مرة بعد ٨ سنوات منذ أن خرج منها مهاجرا. وجاء العباس إلى قبة النبى ليهنئه على الزواج وليرى جعفرا وعليا أولاد أخيه ويطفىء نار الشوق إليهم بعد الغيبة الطويلة.

والتفت النبى إلى الوليد بن الوليد وسأله: أين خالد؟ فقال الوليد: يأت الله به. فقال النبى: ما مثله يجهل الإسلام.

وانساب المهاجرون فى طرقات مكة يسترجعون الذكريات فى مراتع الصبا والشباب وانقضت الأيام الثلاثة التى حددتها قريش للعمرة وجاء إلى النبى سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى فى نفر من قريش وقال حويطب للنبى: ناشدتك الله والعقد إلا ما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث. وأراد النبى أن يطيل مكثه فى مكة عسى أن يقتنع رجالها ويسلموا فقال: إنى قد نكحت فيكم امرأة فما يضركم إن مكثت حتى أدخل بها وأصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا؟ وخشيت قريش من أن يزداد عدد من يتبعون النبى فردُّوا بغلظة: لا حاجة لنا فى طعامك. اخرج عنا من أرضنا فالثلاثة قد مضت. فأمر النبى أن ينادى بالرحيل فلا يمسى بمكة أحد من المسلمين وأمر أبا رافع ليأتى بميمونة إلى معسكره خارج مكة. وطاف المسلمون طواف الوداع وانسلُّوا خارجين من مكة. ولما خرج رسول الله من مكة جاءه على بن أبى طالب وكلَّمه فى عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب – الذى قتل فى معركة أحد – وقد أسلمت وكانت تعيش مع أمها سلمى بنت عميس – أخت غير شقيقة لميمونة (انظر شجرة النسب فى الصفحة السابقة) وقال للنبى: علام نترك بنت عمنا يتيمة بين أظهر المشركين. فبعث النبى إلى أبى رافع أن يأتى بميمونة وعمارة. وفى سرف أقام النبى عدة أيام ودخل بميمونة بعد أن صنع طعاما لأصحابه.

بعد ذلك أخذ المسلمون سلاحهم وساروا راجعين إلى المدينة.

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص:

كتب الوليد إلى أخيه خالد كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام ويخبره فيه أن النبى سأل عنه وقال: ما مثله يجهل الإسلام. وفكر خالد مليًّا فيما قاله النبى عنه وشعر ببعض الزهو. وراح يفكر فى موقفه وفى المواقع الحربية التى دارت بين قريش وبين المسلمين. ففى معركة بدر كانت كل التوقعات الحربية تشير إلى ضرورة انتصار قريش فقد كانوا ٩٥٠ ضد ٣١٣ ومعهم من الفرسان ٢٠٠ أو ١٠٠ فى حين أن «محمدا» لم يكن لديه إلا فارسان ومع ذلك انتصر المسلمون انتصارا ساحقا إذ قُتل من قريش ٧٠ وأُسر ٧٠ آخرون فى حين لم يقتل من المسلمين سوى ١٤ فقط. وإذا كان رب محمد قد أعانه بألف من الملائكة حسب ما أخبرهم به الوحى **«إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين»** (٩ – الأنفال – ص ٥٩٠) فلماذا لم تهب آلهة قريش لنجدتها! ثم انتقل بتفكيره إلى وقعة أحد. وكيف أنه

أهدى إلى قريش ميزة عسكرية قلما يجود الزمان بمثلها حينما احتل التل الذى أخلاه رماة المسلمين ومع ذلك لم تنتصر قريش. بل إن «محمدا» والفئة القليلة التى ثبتت حوله بعثوا الحماس فى المسلمين الفارين فعادوا إلى ميدان المعركة وأبلوا قدر استطاعتهم فى حين تخاذل جنود قريش فلم يحرزوا النصر المرجو. وفى معركة الأحزاب. كان الخندق عملا رائعا لم يشهدوا مثله من قبل ولكنه كان خطا دفاعيا وكان من الممكن ردم جزء منه أو اقتحامه ولو ببعض التضحيات وكان من الممكن أيضا - لو أطالوا الحصار أن يوهن الجوع والعطش من عزيمة المسلمين ولكن هذه الريح الباردة الشديدة جعلت إطالة الحصار أمرا مستحيلا. لقد كانت «الطبيعة» تحارب مع المسلمين. وإن كان الوحى قد أخبرهم أن «ربهم» هو الذى أرسل هذه الريح بل وأرسل جنودا خفية تؤيدهم **«فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها»** (٩ - الأحزاب. ص ٥٩٦). لقد كان «ربهم» يتدخل دائما لنصرتهم فى حين أن آلهة قريش ثبت أنها عاجزة عن تقديم أى معاونة. وسرح بفكره: كيف كانت هذه الأصنام ستساعدهم! لاشك فى صحة ما يقوله «محمد» عن أنها لا تضر ولا تنفع! ثم راح يستعرض كيف جاء مسالما فى الحديبية لا يريد إلا الطواف بالبيت وتعظيمه فمنعته قريش ووضعت شروطا مجحفة فى الصلح قبلها النبى حفظا لأواصر الرحم. وها هو جاء للعمرة وخرج من مكة فى موعده حفظا لعهده. ووضحت الحقيقة جلية فى ذهنه وسأل نفسه: فيم التأخر عن الحق؟

وخرج خالد من داره وقد عزم على الانطلاق إلى المدينة ليلقى محمدا ويُسلِم على يديه فقابل عثمان بن طلحة الحجبى. فقال له: أما ترى محمدا قد ظهر على العرب فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا. فقال عثمان. هذا هو الرأى وتواعدا على اللقاء فى فجر اليوم التالى للسير إلى المدينة. فما سارا إلا قليلا حتى لقيا عمرو بن العاص الذى سأل خالدا عن وجهتهما فقال له: لقد استقام الطريق وظهر الأمر وإن هذا الرجل لنبى فأذهب وأسلم فحتى متى! فقال عمرو إنه ما سار هو الآخر إلا ليُسلم.

ووصل ثلاثتهم إلى المدينة ليعلنوا إسلامهم. وتقدم خالد إلى النبى وقال: السلام عليك يا رسول الله. فرد النبى: وعليك السلام يا أبا سليمان ورحمة الله. فقال خالد: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فقال النبى: الحمد لله الذى هداك. قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يُسلمك إلا إلى خير. فقال خالد: يا رسول الله ادع الله لى أن يغفر لى تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك. فقال: الإسلام يجُبُّ ما قبله. ونطق عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بالشهادتين وعم المسلمون سرور عظيم لإسلام هؤلاء الثلاثة من صناديد قريش لا يماثله إلا فرحتهم بإسلام عمر بن الخطاب فى مكة من قبل خمسة عشر عاما (عمر بن الخطاب أسلم فى السنة الخامسة للدعوة أى قبل الهجرة بثمانية أعوام ونحن الآن فى آخر السنة السابعة للهجرة).

عود إلى مارية القبطية:

قلنا (ص ٧٤١) إن النبى حوَّل «مارية» إلى مسكن فى «العالية» فى أطراف المدينة. وفى أحد الأيام فرغ بيتها من الزاد فنزلت إلى المدينة وانتظرت بجوار المسجد حتى فرغ النبى من صلاة الظهر فقابلته وكان اليوم شديد الحرارة ورأى النبى أن يأخذها إلى بيت إحدى زوجاته حتى تخف شدة الحد. وكانت حفصة فى زيارة لبعض أقاربها فأخذ النبى مارية إلى بيت حفصة. وبعد الغذاء كان بينهما ما يكون بين المرء وأهله وعادت حفصة مبكرة عن موعد عودتها إذ كان المتوقع إن لا تعود قبل أن تخف شدة الحر بعد صلاة العصر. ولما انصرفت مارية قالت حفصة تعاتب النبى: أفى بيتى يا رسول الله. والله لقد سببتنى وما كنت لتصنعها لولا هوانى عليك وانخرطت فى البكاء. وتأثر النبى لبكائها وما كان ليهين بنت عمر ثانى أصدق أصدقائه. وأقبل عليها يترضَّاها وأسرَّ إليها بأن مارية حرام عليه ثم أوصاها أن لا تحدِّث أحداً بما كان وتعتبره كأن لم يكن. ورضيت حفصة ولكنها لم تستطع أن تكتم ما حدث عن عائشة فنبأتها به وذاع الخبر وغضب النبى على حفصة لإفشائها السر الذى أوصاها بكتمانه ويقال إنه طلقها تطليقة واحدة. ويرى المفسرون أن الآيات الخمس الأولى من **سورة التحريم** قد نزلت فى ذلك:

«يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم. قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم. وإذ أسرَّ النبى إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبَّأت به وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعض. فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير. إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير. عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا»

(١ - ٥ التحريم).

والضمير فى «**إن تتوبا**» عائد إلى عائشة وحفصة. «**صغت قلوبكما**» أى مالت عن الواجب. وجواب الشرط محذوف وتقديره: يَعْفُ عنكما. «**وإن تظاهرا عليه**» - وأصلها تتظاهرا وحذفت إحدى التاءين - أى تتعاونا عليه بما يسوءه. فالله مولاه ومؤيده وجبريل والمؤمنون والملائكة يناصرون النبى وذلك لتوهين أمر هذا التظاهر ودفع ما عسى أن يتوهمه المنافقون من شغل النبى بهذه الأمور.

وتروى الروايات أن عمر بن الخطاب راح يحثو التراب على رأسه لما طلق النبى حفصة وراح يقول: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها. فنزل جبريل فى اليوم التالى يأمر النبى بإرجاع حفصة لعصمته. فأرجعها ولكن عائشة استمرت في ثورتها وحرَّضت نساء النبى الأخريات فاعتزل النبي نساءه جميعا وقعد في مشربة له ليس فيها إلا حصير وقليل من الزاد. وخرج عمر إلى المسجد فألفى المسلمين مطرقين مهمومين ويقولون: طلَّق رسول الله نساءه: فذهب عمر إلى النبى واستأذن. فأخبره النبى أنه لم يطلق نساءه وإنما هجرهن شهرا. فانطلق عمر إلى

المسلمين فبشرهم وإلى ابنته فطمأنها.

ولقد ذكرت كتب التفسير - كسبب لنزول هذه الآيات - حكاية مغافير التى ذكرناها فى ص ٦٦٧ والتي تتضمن تحريم النبى شرب العسل على نفسه. ولما كان لكل من الروايتين مؤيدوها فليس ما يمنع من صحتهما معا. فبدأت مكايد الزوجات بحكاية شرب العسل ومغافير ثم جاءت بعدها حكاية مارية القبطية وتحريمها على نفسه فكان أن قرر النبى هجر نسائه جميعا شهرا حتى يثُبن إلى رشدهن ويقلعن عن غيرتهن ومكائدهن.

أحداث السنة الثامنة للهجرة

محرم		وفاة زينب بنت النبى.
		١ - سرية ابن أبى العوجاء إلى بنى سليم.
صفر		٢ - سرية عبدالله بن رواحة.
		٣ - سرية أسامة بن زيد إلي جهينة.
ربيــع الأول		٤ - سرية غالب بن عبدالله الكلبي إلى بنى الملوح.
		٥ - سرية محلم بن جثامة إلى إضم.
ربيع الثانى		٦ - سرية كعب بن عمير إلى بنى قضاعة.
		٧ - سرية شجاع بن وهب إلى هوازن.
جمادى الأول		٨ - غزوة مؤتة.
جمادى الثانى		٩ - غزوة ذات السلاسل.
رجب		١٠ - سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى جهينة بسيف البحر.
شعبان		١١ - سرية أبى حدرد إلى الغابة.
		١٢ - سرية أبى قتادة إلى غطفان.
رمضان	١٠	بدء السير لفتح مكة.
	٢٠	فتــح مكــة.
شــوال	٦	غزوة حنين والطائف.
ذو القعدة		عمرة الجعرانــة. ثم العودة إلى المدينة.
		«سورة الحديد».
ذو الحجــة		الحج وأميره عقاب بن أسيد.
		مولد إبراهيم ابن النبى من مارية القبطية.

وفاة زينب بنت النبي:

كانت زينب ضعيفة البنية. وزاد من ضعفها سقطتها على الحجر حين طرحتها دابتها بفعل المشركين عند هجرتها وفقدت جنينها كما ذكرنا سابقا (ص ٥٢٠). ثم كان إسلام العاص بن الربيع كما ذكرنا (ص ٧٤٠) واجتمع الشمل بعودته إلى زوجته زينب. ومضت عشرة أشهر كانت زينب خلالها معتلة تعانى من ضعف عام ونزيف يعاودها بين الحين والآخر حتى توفيت فى مستهل السنة الثامنه للهجرة.

سرايا السنة الثامنة للهجرة:

كان رسول الله إذا سمع أن قبيلة ما تجمع له تريد حربا يسارع إلى غزوهم فى عقر دارهم قبل أن يغزوه وقبل أن يستعدوا فيشتت جموعهم. ويدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا صالحهم وإن أبوا استولى على ديارهم وأموالهم وسبى ذريتهم. وقد كانت السرايا تختلف من حيث عدد أفرادها حسب قوة القبيلة المرسلة إليها. وقد تميزت السنة الثامنة للهجرة بكثرة السرايا التى خرجت فيها (شكل ٤٧ ص ٧٥٤):

(١) سرية ابن أبى العوجاء إلى بنى سليم:

فور عودة النبى من عمرة القضاء. وفى محرم من أول السنة الثامنة بعث النبى ابن أبى العوجاء السلمى فى ٥٠ فارسا إلى بنى سليم. وعلم بنو سليم بسير السرية فجمعوا جمعا كثيرا فلما وصلت السرية ودعوهم إلى الإسلام رفضوا وقالوا لا حاجة لنا إلى ما دعوتم إليه ورشقوهم بالنبل وأحاطوا بهم من كل جانب وقاتلوهم قتالا شديدا حتى قتلوا السرية كلها إلا ابن أبى العوجاء الذى فرَّ بجراحه وتحامل ورجع إلى المدينة فوصلها فى أول صفر وأخبر النبى بما حدث.

(٢) سرية عبدالله بن رواحة إلى يسير بن رزام اليهودى بخيبر:

بلغ النبى أن يسير بن رزام اليهودى بخيبر يؤلب غطفان ويجمعهم لغزو المدينة فبعث النبى عبدالله بن رواحة فى ٣٠ راكبا إلى خيبر. وأرادوا أن يبعدوا يسير بن رزام عن أهل خيبر حتى لا تكون معركة كبيرة واحتالوا ليخرجوه بعيدا فقالوا له إن رسول الله أرسل إليه ليستعمله على خيبر فخرج معهم فى عدد من رجاله. فلما بلغوا «قرقرة» – على بعد ٦ أميال من خيبر – حاول يسير الغدر بعبد الله بن رواحة ومدَّ يده إلى سيفه ففطن عبدالله إلى حركته وعاجله بضربة من سيفه فقتله وقتلوا أصحابه وعادوا إلى المدينة.

(٣) سرية أسامة بن زيد إلى جهينة:

بعث رسول الله أسامة بن زيد فى سرية إلى «الحرقة» بأرض جهينة وكان معهم رجل من

حلفائهم اسمه مرداس كان شديدا فى القتال فأحاط به عدد من رجال السرية فلما تكاثروا عليه وشهروا سيوفهم قال أشهد أن لا إله إلا الله. إلا أن أسامة ضربه بسيفه وقتله. فلما رجعوا إلى المدينة وعلم رسول الله بما حدث قال: يا أسامة، أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله! قال: يا رسول الله إنما قالها تعوذا من القتل. قال النبى: فمن لك يا أسامة بلا إله إلا الله. وظل يكررها فتمنى أسامة أن لو انشقت الأرض وابتلعته.

(٤) سرية غالب بن عبد الله الكلبى إلى بنى الملوح بالكديد:

وكان بنو الملوح يؤلبون القبائل على رسول الله. فبعث بسرية من ١٣٠ راكبا بقيادة غالب بن عبد الله الكلبى حتى إذا كانوا عند «قديد» لقوا الحارث بن مالك بن البرصاء أحد أشرافهم فأسروه فقال إنه إنما جاء ليسلم فأوثقوه حتى يتأكدوا من صدقه ثم كمنوا وأخذوا قومه على غرة فأصابوا منهم وغنموا أبلهم وأغنامهم. فاستنجد بنو الملوح بباقى عشائرهم الذين هبوا لنجدتهم وتكاثروا على السرية ولكن حدث أن نزل مطر غزير جعل الأرض بين الفريقين بركا تنزلق فيها الخيل فتمكن المسلمون من العودة إلى المدينة.

(٥) سرية محلم بن جثامة إلى إضَم:

نمى إلى رسول الله أن قوما من إضم يجمعون ليغيروا على مراعى المدينة فبعث النبى بسرية برئاسة محلم بن جثامة فلما قابلوهم حيوهم بتحية الإسلام فأمسكوا عنهم إلا أن محلم بن جثامة قتل عامر بن الأضبط لثأر قديم بينهما فلما قدموا المدينة وعلم النبي بما حدث غضب. وقيل نزل قوله تعالى: **«يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم** (السلام) **لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة. كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا»** وهى الآية ٩٤ من سورة النساء وقد سبق ذكرها فى صفحة ٦٢٥. وقدم أهل عامر يطلبون القصاص فعرض عليهم النبى دية ١٠٠ بعير ومازال بهم حتى رضوا وانصرفوا وظل رسول الله غاضبا على ابن جثامة ويقول «لا غفر الله لك» قالها ثلاثا. ومامكث محلم بعد ذلك إلا سبعة أيام حتى مات (السيرة النبوية لابن كثير. جـ ٣ ص ٤٢٣).

(٦) سرية كعب بن عمير إلى بنى قضاعة بأرض الشام:

بعث النبى بكعب بن عمير الغفارى فى ١٥ رجلا إلى بنى قضاعة فساروا حتى انتهوا إلى حدود الشام ووجدوا جمعا كثيرا فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم وقاتلوهم وتكاثروا عليهم حتى قتلوهم جميعا إلا واحدا نجا وعاد إلى المدينة وأخبر النبى بما حدث فهمّ أن يبعث سرية أخرى لتأخذ بثأرهم ولكنه أُبلغ أنهم ساروا إلى موضع بالشام تحت سلطان روما فلم يشأ أن يستعدى قوات الإمبراطورية الرومانية فترك مطاردتهم.

(٧) سرية شجاع بن وهب إلى هوازن:

بعث رسول الله شجاع بن وهب الأسدى فى ٢٤ نفرا إلى جمع من هوازن فخرج وكان يسير ليلا ويكمن نهارا حتى فاجأوهم وأغاروا عليهم وأصابوا إبلا وغنما كثيرة وساقوها إلى المدينة وقسم النبى الغنائم.

(٨) غزوة مؤتــة:

ذكرنا سابقا (ص ٧٢٥) أن النبى أرسل كتابا إلى حاكم بُصرى يدعوه إلى الإسلام وبينما كان المبعوث يمر بأرض مؤتة اعترضه شرحبيل بن عمر، أحد كبار الغساسنة وقتله. وكان العرف أن المبعوثين الدبلوماسيين يتمتعون بحصانة تحميهم من القتل وثارت المدينة لهذا التصرف. وفى جمادى الأول من السنة الثامنة للهجرة جهّز النبى جيشا يتألف من ٣٠٠٠ مقاتل بقيادة زيد بن حارثة وكان خالد بن الوليد جنديا عاديا فيه وطلب النبى من زيد أن يقتل الرجل الذى قتل مبعوثه وأن يعرض الإسلام على أهل مؤتة فإن أسلموا لا يقاتلهم. وقال رسول الله: زيد بن حارثة أمير الناس فإن قتل زيد فجعفر بن أبى طالب فإن قتل جعفر بن أبى طالب فعبد الله بن رواحة فإن قتل عبدالله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم. وكان ظن المسلمين أنهم سيقاتلون الغساسنة. وكانت الروح المعنوية بين المسلمين مرتفعة عند بدء مسيرتهم من المدينة وشيّعهم الناس قائلين: صحبكم الله ودفع عنكم وردّكم إلينا سالمين. وتخلف عبدالله بن رواحة حتى يصلى الجمعه مع رسول الله فلما قضيت الصلاة رآه النبى وسأله عن سبب تخلفه قال: أردت أن أصلى الجمعة معك ثم ألحقهم. فقال له النبى: لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما أدركت غدوتهم. فأسرع عبدالله بن رواحة فى السير حتى لحقهم

وما إن وصل المسلمون حتى تناهى إلى سمعهم أن هرقل امبراطور الروم قد خف لنجدة حلفائه الغساسنة ووصل إلى الأردن ومعه ١٠٠,٠٠٠ جندى. ولاشك أن هناك بعض المبالغة فى هذا الرقم لأن جيوش الروم فى حربهم مع الفرس كانت تبلغ ١٠٠,٠٠٠ وما كان قيصر ليحشد كل قواته لنجدة الغساسنة ولو انضم إليهم – كما قيل – من الغساسنة ٥٠,٠٠٠ لكان جيش من ١٥٠,٠٠٠ كفيلا باجتياح كل شبه الجزيرة العربية. لذلك يرى المؤرخون أن جيش الغساسنة كان حوالى ١٥,٠٠٠ وأنجدهم هرقل بمثلهم فتكون جيش من ٣٠,٠٠٠ مقابل ٣٠٠٠ من المسلمين أى عشرة أمثالهم. وبقى المسلمون فى معان يومين يتشاورون فى أمرهم. وكان طبيعيا أن يغشاهم التردد إزاء أعداد عدوهم التى لم يحسبوا لها حسابا واقترح بعضهم أن يرسلوا إلى النبى يستشيرونه أو يرسل إليهم مددا. ولكن عبدالله بن رواحة عارض هذا الرأى على اعتبار أن تأخير الالتحام سيعطى العدو انطباعا بأن المسلمين قد ساورهم الخوف فتزداد روحه المعنوية كما تتدنى الروح المعنوية لدى المسلمين. وقام عبدالله بن رواحه فى جموع المسلمين وحثهم على الاستبسال فى قتال العدو وختم قائلا: يا قوم والله إن التى تكرهون للتى

خرجتم تطلبون. الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة. ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلِقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة. وأثَّر هذا الكلام في نفوس المسلمين وزال عنهم التردد فاستأنفوا السير فى اتجاه بصرى العاصمة. فلما رأى زيد بن حارثة – قائد السرية – أن التلال لا تصلح للقتال استدار إلى مؤتة وهناك وقعت المعركة فى الأسبوع الثالث من جمادى الأول من العام ٨ للهجرة.

ونظم زيد قواته حسب الأسلوب المعتاد بأن وضع بعضا منها فى القلب وجناحين. ورَأَسَ زيد القلب ومعه خالد بن الوليد كجندى عادى. وبدأت المعركة واشتبك الجيشان وكان كل قائد يحارب بنفسه على رأس قواته وقتل زيد بعد قليل من بداية المعركة ولما سقط اللواء من يده التقطة جعفر وواصل القتال إلى أن سقط بدوره في الميدان. بعد أن أثخنته الجراح وبعد أن كان قد قتل عددا كبيرا من الروم والغساسنة فقد وجدوا به بضعا وتسعين طعنة ما بين ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم.. وقيل لما طُعنت يده اليمنى أمسك اللواء بيده اليسرى فلما طُعنت هى الأخرى احتضنه حتى قتل. والتقط اللواء بعده عبدالله بن رواحة وواصل القتال إلى أن سقط بدوره فى الميدان وهنا حدث ارتباك في صفوف المسلمين كان من أثره أن هربت قلة منهم من ساحة المعركة أما الباقون فاستمروا فى مقاومتهم للعدو وإن كانوا يحاربون بغير نظام فقد كانوا بغير قائد وكان باستطاعة العدو انتهاز هذه الفرصة وتحقيق نصر مؤزر على المسلمين ولكن لسبب ما لم يفعلوا وظلوا يقاتلون أفرادا والمسلمون مستبسلون. ثم التقط اللواء ثابت بن أقرم وصاح قائلا: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم وتطلَّع إلى خالد وقدَّم إليه اللواء ولكن خالدا رفض إذ كان يدرك أنه حديث عهد بالإسلام وثابت بن أقرم أحق بالقيادة منه ولكن الأنظار كلها تركزت على خالد لما كانوا يعرفونه عنه من شجاعة ومهارة حربية. فأخذ خالد اللواء وتولى قيادة المسلمين.

وكان رسول الله بالمدينة قد صعد المنبر وأمر فنودى فاجتمع الناس فقال: أخبركم عن جيشكم هذا. إنهم انطلقوا فلقوا العدو. فقتل زيد شهيدا. واستغفر له. ثم أخذ اللواء جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا. واستغر له. ثم أخذ اللواء عبدالله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قتل شهيدا. واستغفر له. ثم أخذ اللواء سيف من سيوف الله. خالد بن الوليد ففتح الله عليه. ومن يومئذ سُمِّى خالد «سيف الله».

واستعاد خالد سيطرته على جيشه الصغير وصمد حتى المساء وتوقف القتال. وكان على خالد أن ينقذ جيشه. فعمد بالليل إلى ميمنة الجيش فجعلها ميسرته وجعل الميسرة مكان الميمنة ومقدم القلب جعله فى المؤخرة وغيَّر من راياتهم وهيئتهم فلما أصبح الصبح رأى العدو وكأن أمامه جيشا جديدا فقالوا جاءهم مدد وتخاذلوا فهجم خالد بشراسة على طول الجبهة مما أحدث ارتباكا فى جيش العدو وكثيرا من الفوضى فتقهقروا. وظل خالد يحارب وقد تحطم فى يده تسعة سيوف وراح يقاتل بسيف عاشر. ثم أوقف خالد القتال وسحب قواته إلى الخلف

قليلا. وكان كل جانب يبغى وقتا يستعيد فيه أنفاسه. وكانت كفة المسلمين إلى الآن هى الراجحة. فهم لم يفقدوا إلا ١٢ رجلا فى حين كان قتلى العدو يقرب من المائة. ثم ارتأى كل فريق أن ينسحب إلى معركة قادمة. فعاد الروم والغساسنة إلى بصرى. والواقع أن خالدا لم يكن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك. ويكفى أنه قد أنقذ جيشه من هزيمة متوقعة. فغادر مؤتة عائدا إلى المدينة ولم يكن معه غنائم ولا أسرى وحدّس الناس أنهم فروا من العدو فراحوا يحثون التراب ويقولون يا فُرَّار. فررتم فى سبيل الله. فمنعهم النبى من ذلك قائلا: ليسوا بالفُرار ولكنهم الكُرار إن شاء الله تعالى. ولما علم باستشهاد ١٢ رجلا من رجاله أخبر أن لهم مكانة عظيمة عند ربهم وقال: ما يسرنى أو قال ما يسرهم أنهم عندنا! وبعد قليل من الزمن هدأت حدة غضب المسلمين على الجيش وأدرك المسلمون حكمة خالد وحسن تقديره للأمور والشجاعة التى أبداها فى مؤتة وإنقاذه للجيش من فناء محقق، وبقى اسم «سيف الله» عالقا فى ذهنه مما كفل له النصر فى كل معركة تالية.

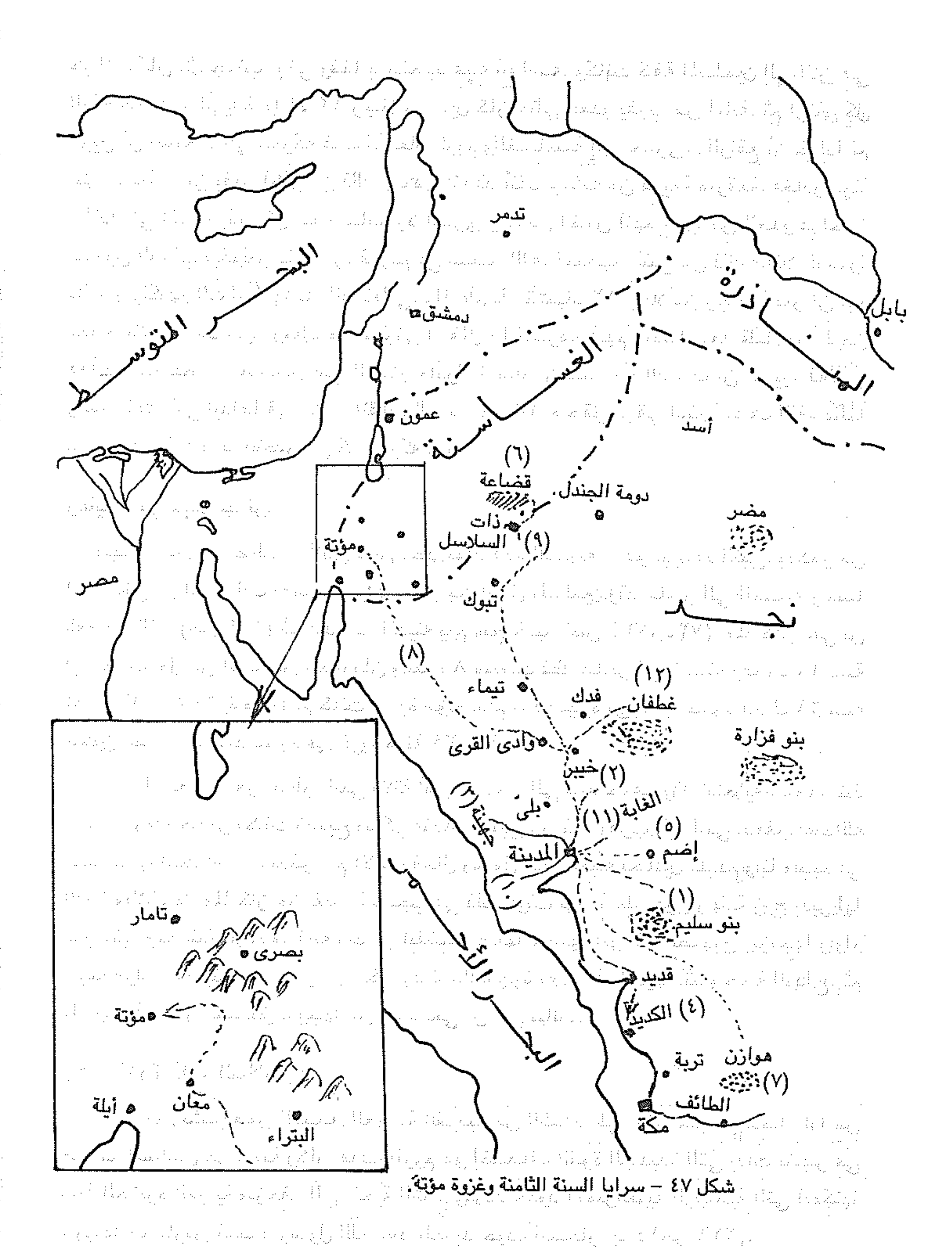
رعاية النبى لابنى جعفر:

وجعفر بن أبى طالب – الذى كان أحد قواد هذه السرية – هو ابن عم النبى. وأكبر من أخيه على بن أبى طالب بعشر سنوات وكان من أوائل المسلمين وقد هاجر إلى الحبشه رئيسا للفوج الثانى (ص ١٦٣) ثم عاد إلى المدينة يوم فتح خيبر (ص ٧٣٤، ٧٣٥). ولما كان على بن أبى طالب أول من أسلم من الصبيان وعمره ٨ سنوات فقد هاجر إلى المدينة وعمره ٢١ سنة (٨ + ١٣ سنة فترة مكة) ثم كانت غزوة مؤتة عام ٨ للهجرة أى كان عمره آنذاك ٢٩ سنة فيكون عمر جعفر عند سيره فى غزوة مؤتة ٣٩ سنة.

ولما جاء نعى جعفر انتظر النبى ثلاثة أيام ثم ذهب إلى بيت جعفر وقام بتعزية أسماء بنت عميس أرملة جعفر وكانت تصيح وتبكى فنهاها النبى عن ذلك وقرَّب إليه ابنى جعفر: عبدالله ومحمد. وراحت أسماء تذكر يتم الأبناء فقال رسول الله: آلعيلة تخافين عليهم وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة!. ولما كان من غير المستحب فى ذلك الوقت ترك أرملة بدون رعاية زوج يدبر لها معيشتها ومعيشة أولادها فإنه بعد أن انقضت عدتها خطبها أبو بكر الصديق وتزوجها وأولم وليمة فولدت له ابنه محمد بن أبى بكر. ولدته بالشجرة بين مكة والمدينة أثناء حجة الوداع. ثم لما توفى أبو بكر الصديق تزوجها من بعده على بن أبى طالب.

(٩) غزوة ذات السلاسل:

راح الروم يشجعون القبائل العربية القريبة من الشام على غزو المدينة بعدما رأوا من صلابة المسلمين في مؤتة وكان هدف الروم هو إضعاف القوة الجديدة التى بدأت تظهر فى شبة الجزيرة العربية وتزحف إلى ناحية الشام وتهدد حدود الإمبراطوية الرومانية التى أنهكتها حروبها مع فارس (محمد رسول الله. عبد الحميد جودة السحار جـ ١٥ص ٢٢٦).



شكل ٤٧ – سرايا السنة الثامنة وغزوة مؤتة.

وأخذ الروم يغرون قضاعة (شكل ٤٧) على غزو المدينة مستهدفين توهين العرب جميعا مشركين ومسلمين حتى ينعموا براحة تمكنهم من التقاط أنفاسهم والخروج من الأزمة المالية التى حاقت بهم نتيجة حروبهم المستمرة مع فارس.

وبلغ رسول الله أن قضاعة قد تجمعوا يريدون غزو المدينة. فدعا النبى عمرو بن العاص وقد مضى على إسلامه عام واحد وعقد له لواء حملة مكونة من ٣٠٠ مقاتل من المهاجرين والأنصار ومعهم ٣٠ فارسا. فسار بهم عمرو فلمّا وصل **بلىّ** قوبل بالترحاب. فجدته لأمه من بلىّ وسرَّهم أن النبى أمَّر ابن أختهم فأمدُّوه بالرجال وانطلق عمرو حتى خلَّف **وادى القرى** وراءه واقترب من **ذات السلاسل** وبينها وبين المدينة حوالى ٢٠٠كم. فلما قرب من مكان قضاعة بلغه أن عددهم أكبر كثيرا مما كانوا يتوقعونه ولم يشأ أن يغامر بدخول معركة يخسرها فبعث رسولا إلى النبى يطلب مددا. فبعث النبى إليه أبا عبيدة بن الجراح في ٢٠٠ من الرجال وفيهم سراة المهاجرين والأنصار مثل أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب. فلما وصلوا أصرَّ عمرو بن العاص على أن يكون هو القائد. وكان أبو عبيدة حسن الخلق لين العريكة فرضخ لإصرار عمرو.

وكان البرد شديدا وزاد الليل من شدته وأراد الرجال إيقاد النيران ليستدفئوا فمنعهم عمرو من ذلك وشق ذلك عليهم. وفى عماية الصبح أمر عمرو بالهجوم على تجمعات قضاعة وهم غير مستعدين فقتل منهم الكثير وفر الباقون. وأراد المسلمون أن يتبعوهم فمنعهم عمرو. وضايق ذلك كثيرا من الجند لرغبتهم في زيادة غنائمهم وانتهت المعركة وقد رد المسلمون هيبتهم فى تلك المناطق. وكان في الليلة التالية أن عمرو بن العاص قد احتلم فتيمَّم وصلى بالناس. فلما عاد إلى المدينة اشتكى الناس إلى رسول الله من تصرفات عمرو وإصراره على قيادة الجند فقال النبى يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح. ولما سأله عن أمره بعدم إيقاد النيران للتدفئة أجاب بأن النيران تدل العدو على مكانه وعدد رجاله وأنه كان يريد مباغتة القوم. ولما سئل عن نهيه عن اتباع الفارين من العدو أجاب بأنه خاف من كمين أو مدد يكون مستخفيا فى مكان ما فيوقع بجنده. فأثنى النبى على حسن تفكيره وأخيرا سأله رسول الله: يا عمر أوَصليت بأصحابك وأنت جُنب؟ فقال: والذى بعثك بالحق لو أنى اغتسلت لمت. لم أجد بردا قط مثله. وقد قال الله تعالى **«ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»**(١٩٥ - البقرة) فتبسَّم النبى ولم يرد.

(١٠) سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى جهينة بسيف البحر:

نمى إلى رسول الله أن جهينة تجمع للإغارة على المدينة فبعث أبا عبيدة بن الجراح فى ٣٠٠ من المهاجرين والأنصار - وفيهم عمر بن الخطاب - إلى ذلك الحى على ساحل البحر الأحمر شمالى ينبع وبينها وبين المدينة حوالى ١٥٠كم. ومرت أيام وليالى وهم يبحثون عن القوم الذين فروا لما سمعوا بسيرهم - دون جدوى حتى كاد التمر - وهو زادهم - أن ينفذ.

ووصلوا إلى ساحل البحر وهم يعللون النفس بأنهم سيقابلون عدوهم ويغنمون منه زادا ولكن قبيلة جهينة كانت قد بعدت عن متناول يدهم. وزاد الجوع بأفراد السرية. ثم ساروا على ساحل البحر فإذا حوت ضخم قد لفظة البحر فهرعـوا إليه وأيقنوا أنه رزق ساقة الله إليهم فأكلوا منه ثم لما نفد عاد الجوع إليهم وتراءى لهم شبح الموت. وكان فى السرية قيس بن سعد بن عبادة، فقابلوا واحدا من سكان الساحل فراح قيس يقايضه على خمس إبل يأخذها منهم ويدفع لهم ثمنها تمرا فى المدينة وأشهد نفرا من أفراد السرية على هذه البيعة. ثم علم صاحب الإبل أن البساتين التى فى المدينة هى لأبى قيس وليست لقيس نفسه وأراد أن يلغى البيع ولكن قيسا طمأنه أن أباه يقضى عن الأباعد ويحمل الكَلّ ويَطعم فى المجاعة وحرىٌّ به أن يقضى بيع ابنه وتم البيع وبدأت العودة. وكان قيس يذبح كل يوم جزورا ويطعم السرية حتى وصلوا إلى المدينة بعد خمسة أيام ووفىً صاحب الإبل ثمن إبله وكساه وأعطاه ما يركبه (ابن كثير. السيرة النبوية جـ ٣ ص ٥٢١) .

(١١) سرية أبى حدرد إلى الغابة:

جاء رجل من جثم إلى الغابة شمال المدينة (انظر شكل ٤٥ – ص ٣١١) ليحرِّض قيسا – شيخها – والناس على حرب رسول الله. ولما علم رسول الله بذلك دعا أبا حدرد ورجلين من المسلمين وأمرهم بالخروج حتى يأتوا بخبر هذا الجمع. فخرجوا ومعهم سلاحهم. وكانوا يتخفون بالنهار ويسيرون بالليل حتى وصلوا موضع القوم وكمنوا حتى ظلمة الليل. وخرج قيس يبحث عن أحد الرعاة تأخر فى العودة فرماه أبو حدرد بسهم أصابه فى مقتل. وظن القوم أن المهاجمين كثيرون ففروا واستولي أبو حدرد وصاحبيه على غنمهم وما تركوه من أموال وساقوها إلى المدينة. وكانت السرية فى شعبان من سنة ٨ للهجرة.

(١٢) سرية أبى قتادة إلى غطفان:

كانت غطفان مستمرة في عداوتها للمسلمين وبلغ رسول الله أن أحد بطونها يقودهم رفاعة بن قيس قد جمعوا له ويزمعون الإغارة على المدينة. فأمر رسول الله أبا قتادة بتجهيز سرية من ١٥ رجلا ليفاجىء الجمع ويفرق شملهم فلا يسيروا إلى المدينة. وخرج أبو قتادة – فى شعبان أيضا – حتى أتوا إلى منزل القوم متخفين ينتظرون غرة ليباغتوهم. وتحينوا فرصة إبتعاد زعيمهم رفاعة بن قيس عن باقى الرجال فأردوه قتيلا بسهم. ثم أحاطوا بالمقاتلين الذين كانوا قد تجمعوا – وقاتلوهم ففروا وتشتتوا. وغنم المسلمون ١٠٠ بعير و ٢٠٠٠ شاة وعددا من السبايا عادوا بها إلى رسول الله فقسمها بينهم بعد استبعاد الخمس.

فتح مكة

كان بين بنى بكر وخزاعة عداوة قديمة. فلما كان صلح الحديبية بين النبى وقريش – وكان

من ضمن شروطه «أنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده فليدخل ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه» - فدخلت بنو بكر في عقد قريش ودخلت خزاعة فى عقد النبى. والحقيقة أن الود بين خزاعة وبنى هاشم كان موجودا من قبل إذ أظهر أبى بن كعب كتاب جده عبد المطلب لخزاعة والذى جاء فيه: «باسمك اللهم. هذا عهد عبد المطلب ابن هاشم لخزاعة إذا قدم عليه شاهدهم أن بيننا وبينكم عهد الله وميثاقه وما لا ينسى أبدا. اليد واحدة والنصر واحد».

وحدث أن شخصا من بني بكر راح يهجو رسول الله وسمعه غلام من خزاعة فضربه على رأسه فشجَّه. وأثار هذا الحادث العداء القديم بين القبيلتين وطلب بنو بكر من قريش أن يمدوهم بالرجال والسلاح فأمدُّوهم. وكان أكثر القرشيين تلبية هم صفوان بن أمية وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو لعداوتهم لرسول الله. فجاءوا خزاعة ليلا فقتلوا منهم عشرين رجلا. ولما كان ذلك يعتبر نقضا لبنود صلح الحديبية خشوا مغبة الأمر. وتمنوا أن تمر هذه الحادثة دون أن يعلم بها النبى. ولجأوا إلى أبى سفيان يستشيرونه فقال: هذا أمر لم أشهده ولم أرغب فيه وإنه لشر. والله ليغزونا محمد. ولقد حدثتنى هند بنت عتبة - زوجته - أنها رأت رؤيا كرهتها. رأت دما أقبل على الحجون (غربى مكة) يسيل حتى وقف بالخندمة (جبل شرقى مكة). وكرهت قريش ما حدث وندموا على مناصرتهم لبنى بكر. وكان عمرو بن سالم الخزاعى - سيد خزاعة - قد خرج فى أربعين راكبا قاصدا المدينة ليشكو إلي النبى ما فعل بنو بكر وقريش ويستنصره عليهم بمقتضى الحلف.

وكان النبى صبيحة الواقعة قد دخل على عائشة وقال لها: حدث فى خزاعة حدث. فقالت. يا رسول الله أترى قريشا يجترئون على نقض العهد الذى بينك وبينهم. قال: ينقضون العهد لأمر يريده الله.

كانت قريش - لما ندمت على فعلتها - رجوا ألا يهب النبى لنصرة خزاعة فجاءوا إلى أبى سفيان وقالوا له: مالها إلا سواك اخرج إلى محمد فكلِّمه فى تجديد العهد وزيادة المدة. فخرج أبو سفيان ومولى له على راحلتين وسار أبو سفيان مسرعا لإنجاز المهمة. وتنبأ النبى بما ستفعل قريش فقال لوفد خزاعة: كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد فى المدة وهو راجع بسخطه. ارجعوا وتفرقوا فى الأودية. وسُرَّ الوفد بما سمع من النبى وفهموا أنه يضمر أمرا ويريد أن يتكتموه. فعادوا إلى ديارهم. فريق عن طريق الساحل وفريق عن الطريق المعتاد. فلما كانوا بسعفان قابلهم أبو سفيان وسألهم عن أحوال المدينة فأنكروا أنهم كانوا بها وقالوا إنهم كانوا فى مهمة صلح بإحدى قرى الساحل. وانتظر أبو سفيان حتى انصرفوا وفتَّ فى أبعار إبلهم فوجد فيها النوى فعرف أنهم قد جاءوا المدينة وعلفوا بها النوى وقال: أحلف بالله لقد جاء القوم محمداً. وانطلق مسرعا إلى المدينة راجيا أن ينجح في سفارته. فلما وصل المدينة دخل على ابنته أم حبيبة - زوجة رسول الله - فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله

طوته عنه فقال يا بنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى؟ قالت بل هو فراش رسول الله وأنت مشرك ولم أحب أن تجلس عليه. فقال: والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله وقال له: يا محمد. اشدد العقد وزدنا فى المدة. فقال النبى: ولذلك قدمت؟ هل كان من حدث قِبَلَكم؟ فقال أبو سفيان: معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نُغيِّر ولا نبدل. فلم يرد عليه رسول الله. فخرج من عنده حتى أتى أبابكر فطلب منه أن يكلم رسول الله فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب وكلمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله. فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على علىّ بن أبى طالب وعنده فاطمة وابنهما الحسن. فقال: يا علىّ إنك أمسُّ القوم بى رحما. وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا. فاشفع لى إلى رسول الله. فقال علىّ: ويحك يا أباسفيان. والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة وقال يا ابنة محمد هل لك أن تأمرى بُنيَّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر. فقالت. ما بلغ بُنيَّ ذلك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله. فتوجَّه إلى على وقال: يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت علىَّ فانصحنى. قال: والله لا أعلم لك شيئا. ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم إلحق بأرضك. قال أوَ ترى ذلك مغنيا عنى شيئاً؟ قال لا والله ما أظنه ولكنى لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان فى المسجد وقال: أيها الناس. إنى أجرت بين الناس (وذلك مثلما نقول فى عصرنا: أنا مستجير بكم. وهو أخذ عهد على الناس ألا يقتله أحد أو يتعرَّض له). ثم ركب بعيره وانطلق إلى مكة. فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال جئت محمدا فكلمته فوالله ماردّ علىّ شيئا ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو. ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم. وأخبرهم بما فعل وما طلب من النبى فقالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال لا: قالوا ويلك فما يغنى عنك ماقلت قال لا والله ما وجدت غير ذلك.

نحن نعرف الآن أن النبى قرر فتح مكة ولكن ذلك لم يَدُر وقتئذ بأذهان قريش فقد كان ظنهم أن النبى سيعمد إلى الانتقام لمصرع العشرين رجلا من خزاعة. ثم يعود لمهاجمة قوافلهم ويشتد فى حصار تجارتهم إلى الشام فيصيبهم أبلغ الضرر وخاصة أن جميع القبائل حول المدينة قد أصبحت تدين بالإسلام. فكان كل هَمِّ قريش أن يستمر العقد كما كان. ولكن الرسول كان يفكر فى أمر آخر. كان يريد القضاء على الشرك والذى ترأسه قريش حتى يتفرَّغ المسلمون لنشر دين الله فى باقى أنحاء الجزيرة العربية ثم بعد ذلك فيما وراءها.

الاستعداد لفتح مكة:

أمر النبى الناس التجهيز للحرب وأعلمهم أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالتكتم. وقال: اللهم

خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها. لم يكن النبى يريد قتالا فى مكة بل كان يريد أن يستسلم أهلها بدون حرب وذلك لا يكون إلا إذا فاجأتهم قوة لا قِبل لهم بمقاومتها. ولذلك جهَّز جيشا خرج فيه كل المهاجرين والأنصار ومن أسلم من القبائل حول المدينة مثل قبائل سليم وأشجع ومزينة وأسلم وغفار. فمنهم من جاءه وهو بالمدينة ومنهم من لحقه وهو فى الطريق إلى مكة فبلغ الجيش عشرة آلاف مقاتل ولم يعلن وجهته لتكون المباغتة.

حاطب يُحذِّر أهل مكة:

أثناء الاستعداد والتجهيز للمسير إلى مكة والرسول يكتم وجهته كتب حاطب بن أبى بلتعة كتابا إلى قريش يخبرهم بِنيَّة النبى فى غزوهم وأعطاه لامرأة وجعل لها أجرا أن تبلغه لقريش فجعلته فى رأسها ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت. وأخبر الله رسوله بما صنع حاطب. فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام وقال: أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبى بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له فى أمرهم. فخرجا حتى أدركا المرأة بذى الحليفة (على بعد ٢٠كم من المدينة) فاستوقفاها وأنزلاها وبحثا عن الخطاب فى رحلها فلم يجدا شيئا. فقال لها على بن طالب: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ولا كذبنا ولتخرجن هذا الكتاب أو لنكشفنك أو كما نقول فى عصرنا «القيام بتفتيش ذاتى» وهذا يستدعى كشف ثيابها فلما رأت الجد منه قالت أعرِض فأعرض. فحلَّت قرون شعرها واستخرجت الكتاب ودفعته إليه فأتى به رسول الله. فدعا رسول الله حاطبا وقال له: يا حاطب ما حملك على هذا؟ فقال يا رسول الله. أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت وما بدَّلت ولكنى كنت امرءاً ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم. والمعنى أنه توقع أن تقع معركة عنيفة عند فتح مكة وعند انهزام المشركين قد يعمدون إلى قتل أقارب المسلمين فأراد أن تكون له يد عندهم حتى يحفظوا أهله وولده مع تأكده أن إخبارهم لن يضر المسلمين شيئا. وقد ورد هذا المعنى فى رواية أخرى أن حاطب قال: لا تعجل علىَّ يا رسول الله. إنى كنت امرءًا من قريش ولم أكن من أنفسهم وكان المهاجرون لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتنى النسب أن أصطنع إليهم يدا يحمون قرابتى وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى. فقال النبى إنه قد صدقكم. وقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق. فقال رسول الله: وما يدريك يا عمر فلعل الله قد اطَّلع إلى أصحاب بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وزاد الطبرى أن النبى قال: لا تقولوا له إلا خيرا.

ونزلت الآيات الأولى من سورة **الممتحنة** فى هذه المناسبة:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يُخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادًا فى

سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل. إن يثقفوكم (يظفروا بكم) **يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم** (بالقتل) **وألسنتهم بالسوء** (بالسباب) **وودُّوا لو تكفرون. لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير. قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله. كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك وما أملك لك من الله من شيئ. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم. لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتولَّ فإن الله هو الغنى الحميد. عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم. لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولَّوْهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون»** (١ - ٩).

والآيات، وإن نزلت بصدد حادثة حاطب بن أبى بلتعة - إلا أن أسلوبها مُوجَّه إلى عامة المسلمين ويتفق مع ما سبق نزوله فى سورة المجادلة (آية ٢٢ ص ٦٦٣):

«لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم». فإذا كان قد نُهى عن موادة المشركين ولو كانوا ذوى قربى فالنهى أشد إذا لم تكن هناك قرابة. والنهى أشد وأشد لأناس بدأوا المسلمين بالعداوة والأذى ويضمرون لهم الشر فلا يجوز إطلاعهم على أسرار المسلمين ويجب الوقوف منهم موقف الحذر.

أما عن التصرف الذى تصرفه رسول الله حيال حاطب بن أبى بلتعة ففيه حث على الإغضاء عن موقف عارض قد يصدر من بعض الأفراد نتيجة ضعف نفسى إذا ما كان هناك يقين بأن صاحبه غير خائن ولا غادر وله مواقف سابقة تشهد بإخلاصه. ثم راحت الآيات تحث المسلمين على اتخاذ إبراهيم - أبو العرب - أسوة فى كيفية إعلان عدائه للكفار إذ اتبع أسلوبا بالغ القوة شديد الحسم إذ هو ومن آمن معه تبرأوا كلية من المشركين ومن الآلهة التى يعبدونها من دون الله وأعلنوا أن عداءهم لهم مستمر إلى أن يؤمنوا بالله وحده. وإذا كان إبراهيم قد طلب المغفرة لأبيه فذلك كان قبل أن يعلم أنه مُصِرٌّ على عداوته له وكان بناء على وَعْدٍ وَعَدَ به إبراهيم أباه حين قال: **«سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا»** (٤٧ سورة مريم) وذلك ما لايُقتدى به لأنه كان حالة خاصة بإبراهيم.

قيل إنه لما نزل فى أول الآيات نهى المؤمنين عن اتخاذ أعداء الله أولياء امتثل المهاجرون

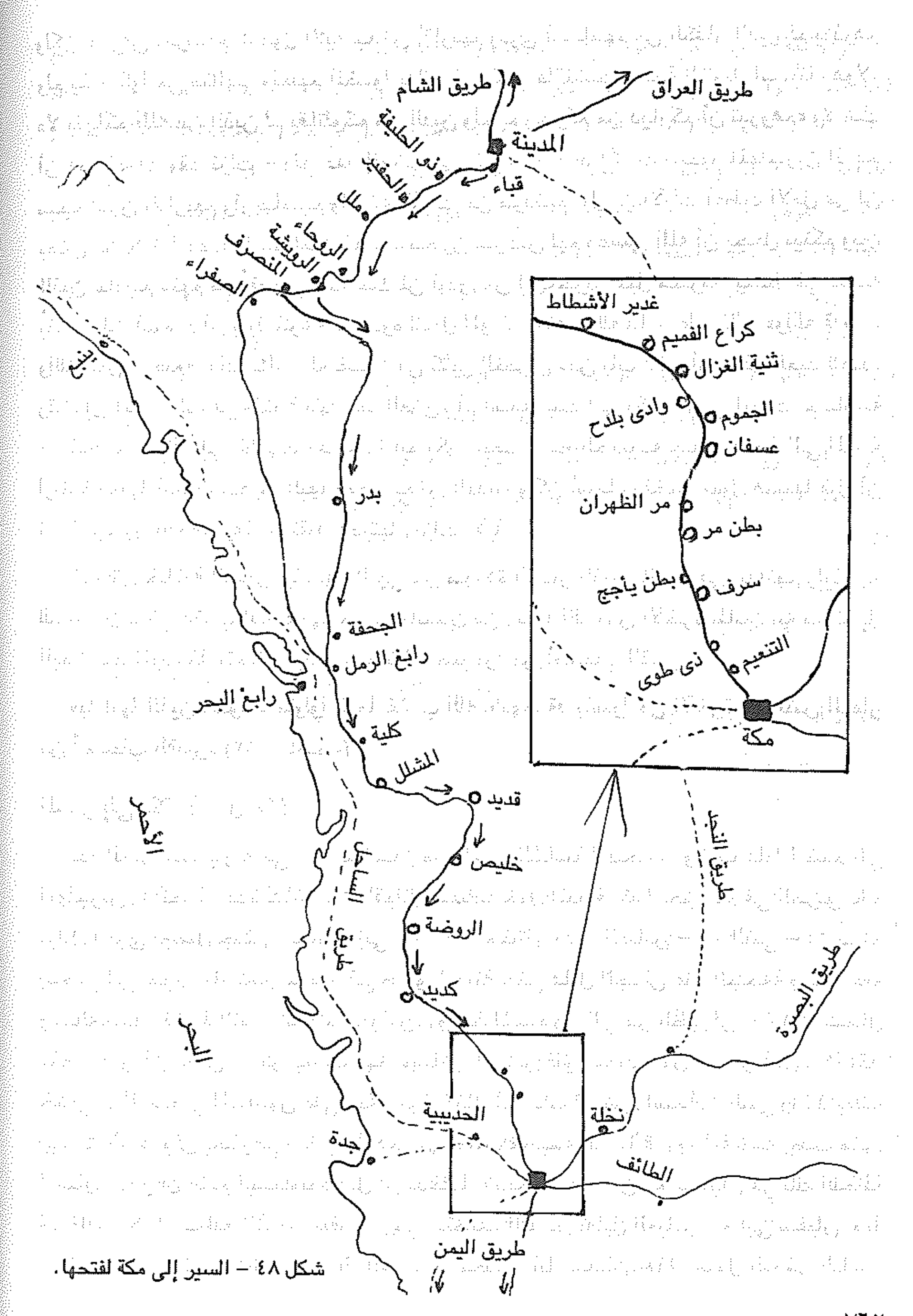
ولكن حزٌ فى نفوسهم شمول الآية لبعض أقاربهم وذوى أرحامهم من الكفار الذين لم يؤذوهم ولم يشتركوا فى قتالهم. ولعلهم أفضوا بذلك إلى النبى فاقتضت حكمة التنزيل إستثناء هؤلاء **«لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم»** ولا شك أن هذه الآيات وقد نزلت – وقد عُقِد العزم على فتح مكة – قد أثلجت صدور المهاجرين إذ هم سيقابلون أقاربهم وأرحامهم ولم تنه الآيات عن مودَّتهم. بل إن الآيات أعطت الأمل فى أن بعض من كانوا أعداء للمسلمين قد يصبحون موادّين لهم **«عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودَّة»** وفى هذا حث لمن أوذى من المهاجرين قبل هجرته ويحمل في نفسه بُغضا لمن آذوه – أن ينبذ كرهه لمن آذوه لتحل المودة محله. والله قادر على ذلك: **«والله قدير . والله غفور رحيم»**. فإذا كان الله غفورا أى كثير الغفران فمن باب أولى أن يغفر العبد للعبد. وقيل إن الآية نزلت فى «قتيلة بنت عبد العزى» أم أسماء بنت أبى بكر – وهى ليست أم عائشة – بقيت فى مكة على الشرك ففارقها أبو بكر. وبعد صلح الحديبية جاءت قتيلة إلى المدينة لزيارة ابنتها أسماء وذهبت إليها ومعها بعض الهدايا ولكن أسماء رفضت قبول هديتها قبل أن تسأل رسول الله فأمرها أن تقبل هديتها ونزلت الآية.

ثم تأتى خاتمة السورة بإعادة النهى عن موالاة الكفار الذين بالغوا فى عدائهم وإيذائهم للمسلمين حتى غضب الله عليهم فغدوا يائسين من رضا الله ومن الآخرة ظانِّين أنه يستحيل البعث بعد الموت كاستحالة عودة من ماتوا وأصبحوا من أصحاب القبور:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم. قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور» (١٣ – الممتحنة).

المسير إلى مكة: (شكل ٤٨).

بدأ النبى مسيرته فى ١٠ رمضان من السنة الثامنة للهجرة. وكما قلنا انضم إلى المهاجرين والأنصار عدة كتائب من القبائل المسلمة حول المدينة. كما لحق بهم فى الطريق عدة قبائل أخرى فوصل جيش المسلمين إلى ١٠,٠٠٠ مقاتل. وقرر العباس – عم النبى – أن يُسلم وينضم إلى جيش المسلمين فسار فى طريق المدينة حتى قابل الجيش عند الجحفة ومعه أهله وعياله. وقد اغتبط النبى لإسلام العباس. ووصل المسلمون إلى مر الظهران – ١٠كم شمال مكة – دون أن تحس قريش بمسيرتهم. وساور العباس قلق شديد حول مصير أهل مكة فقد خشى إن استولى المسلمون على مكة عنوة بقتال أن تهلك قريش واستأذن النبى وأخذ بغلته ويمم شطر قريش يحذرهم مما ينتظرهم من عواقب وخيمة إذا ما قرروا المقاومة وطلب منهم إرسال مبعوثين عنهم ليستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. وكان أبو سفيان في تلك اللحظة قد غادر مكة ليستطلع الأخبار بنفسه. وفى منتصف الطريق تقابل العباس مع أبى سفيان. ولما سأله هذا عما ينتويه المسلمون قال العباس: ويحك يا أبا سفيان. هذا رسول الله فى الناس.



شكل ٤٨ – السير إلى مكة لفتحها.

واصباح قريش والله. فقال أبو سفيان فما الحيلة فداك أبي وأمي. قال العباس: لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله فأستأمنه لك. فركب أبو سفيان على البغلة وراء العباس ويمما شطر معسكر المسلمين ووصلاه بعد هبوط الليل وكان عمر بن الخطاب فى هذه الليلة على رأس الحراسة وكان يطوف بالمعسكر فلما رأى أبا سفيان قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم أسرع إلى خيمة النبى. وأدرك العباس ما يهدف إليه عمر فحث بغلته على السير ووصل الثلاثة إلى خيمة النبى فى وقت واحد. وثار جدل كبير بين عمر والعباس إذ طلب العباس حماية أبى سفيان لأنه أجاره ولا يجب إلحاق أى ضرر به قبل الاستماع إليه. وصرف النبى الرجال الثلاثة وطلب إليهم العودة فى الصباح. فأخذ العباس أبا سفيان إلى خيمته حيث قضى ليلة ليلاء يفكر أثناءها فيما سيحل به فى الغد. ولما أصبح الصباح غدا العباس بأبى سفيان إلى النبى. فلما رآه النبى قال: ويحك يا أبا سفيان. ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ فقال أبو سفيان: بأبى أنت وأمى. ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله آخر غيره لقد أغنى عنى شيئا بعدُ. قال النبى: ويحك يا أبا سفيان. ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟ فقال أبو سفيان. بأبى أنت وأمى. ما أحلمك وأكرمك وأوصلك. أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئا. وهنا هاج العباس وقال لأبى سفيان: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تُضرب عنقك. فقال أبو سيفان على عجل: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

وقال العباس للنبى: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا. فقال النبى نعم: من دخل دار أبى سفيان فهو آمن. وفرح أبو سفيان لأن ذلك كان تكريما له. فلما ذهب لينصرف قال رسول الله: يا عباس احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها. ففعل العباس كما قال النبى ومرت القبائل على راياتها. وكلما مرت قبيلة قال أبو سفيان: يا عباس من هذه؟ فيقول: سليم. ثم تمر قبيلة أخرى فيقول يا عباس من هؤلاء! فيقول: مزينة. وهكذا. فقال أبو سفيان ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما. فقال العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة. فقال أبو سفيان: فنِعْمَ إذن.

وكانت راية إحدى الكتائب مع سعد بن عبادة فلما مرَّ بأبى سفيان وحاذاه قال يا أبا سفيان. اليوم يوم الملحمة. واليوم تستحل الحرمة اليوم أذل الله قريشا. فلما مر رسول الله بأبى سفيان قال له أبو سفيان: يا رسول الله. أمرت بقتل قومك؟ فإن سعدا يزعم أنك قاتلنا وردَّد ما قال سعد. واستمر أبو سفيان قائلا: أنشدك الله فى قومك فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم فقال النبى: يا أبا سفيان لقد كذب سعد. اليوم يوم المرحمة اليوم أعز الله قريشا. ونزع الراية من سعد وأعطاها لابنه قيس. وساد السكون لحظة وقال العباس لأبى سفيان: النجاء إلى قومك.

وعاد أبو سفيان مسرعا إلى مكة وتجمع الناس حوله يستطلعون الخبر فصرخ فيهم قائلا: يا معشر قريش. هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن. وحدث هرج كبير بين القوم وتساءلوا ساخرين: وما تغنى عنا دارك؟ فقال أبو سفيان. ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن. واستراح القوم لهذا القول فيما عدا هند بنت عتبة زوجته فقد كانت تعيش على أمل أن تثأر من محمد وصحبه لمقتل أبيها عتبة وعمها شيبة وأخيها الوليد. فوثبت وأخذت بلحيته وقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس. قُبِّح من طليعة قوم. وبهت أبو سفيان من عنف زوجته وأبعدها عنه ودخل داره (الحميت = السمين. الدسم = الأغبر. الأحمس = الغضوب أو الكثير اللحم).

دخول مكة:

كان النبى حريصا على ألاّ تراق نقطة دم فى مكة ولكن وجود رجال ذوى عداوة شديدة للمسلمين من أمثال عكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية قد يُعقِّد الأمور ويجعل ذلك عسيرا. ومن هنا كان قرار النبى بدخول مكة بقوات من جميع نواحيها. وصام النبى والمسلمون حتى إذا بلغوا كراع الغميم أفطر وأفطر معظم المسلمين ولكن النبى أُخبر أن بعض المسلمين تابعوا الصوم فقال: أولئك العصاة.

وكما هو معروف تقع مكة بوادى وتحيط بها الجبال من كل ناحية وهناك أربع طرق توصل إلى مكة كل منها يمرُّ بشعبة من شعاب التلال. وقَسَّم النبى جيشه إلى أربع فرق ورسم لكل فرقة طريقها الذي تتبعه لدخول مكة (شكل ٤٩):

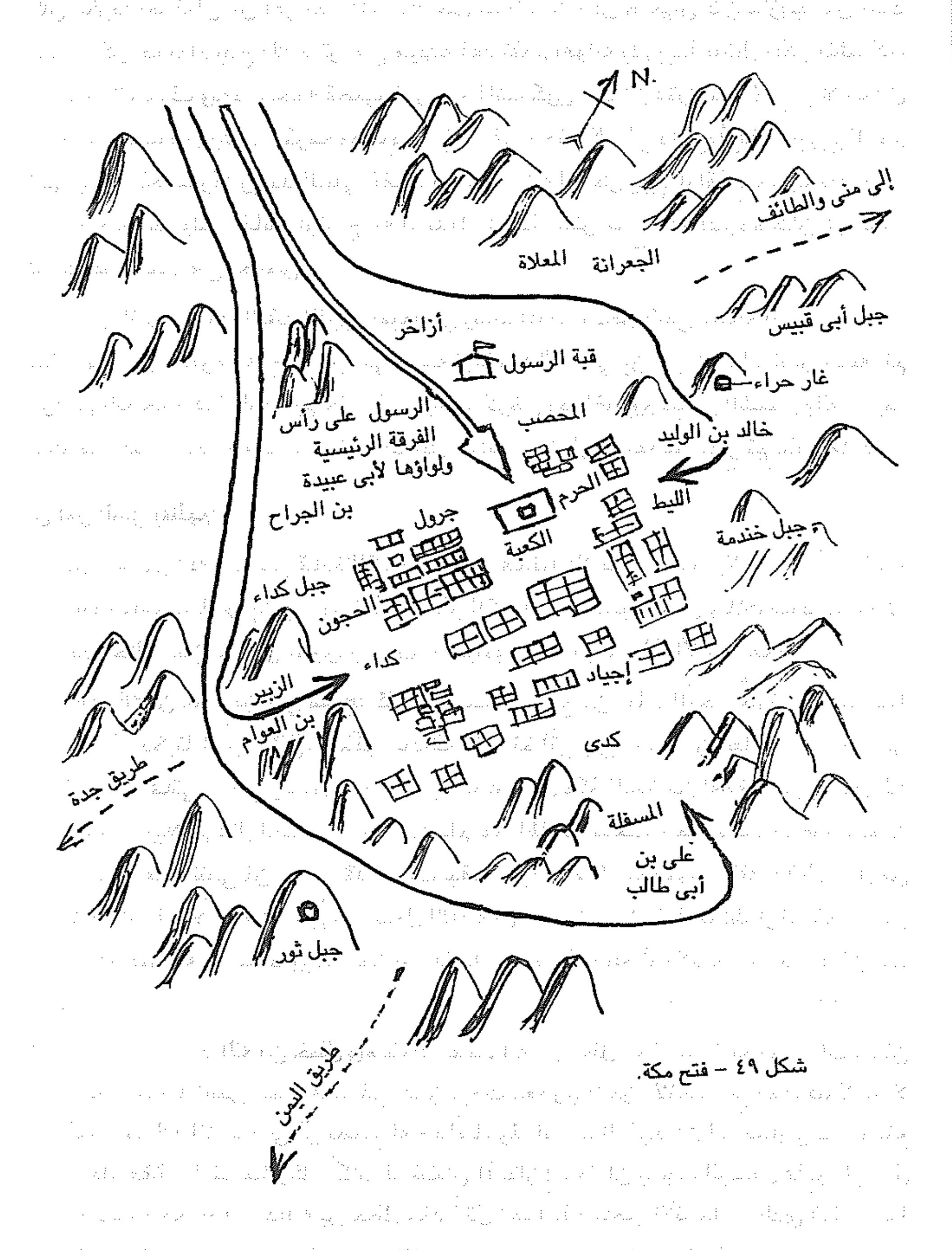
١ – **الفرقة الرئيسة** وعلى رأسها النبى نفسه ولواء الكتيبة معقود لأبى عبيدة بن الجراح ويدخل من الطريق الرئيسى عند مدخل أزاخر من الشمال الغربى.

٢ – **الفرقة الثانية** ويقودها الزبير بن العوام وتدخل من الجنوب الغربى عبر شعبة تقع غربى جبل «كداء».

٣ – **الفرقة الثالثة** ويقودها على بن أبى طالب وتدخل من «كدى» فى الجنوب الشرقى.

٤ – **والفرقة الرابعة** ويقودها خالد بن الوليد فتدخل مكة من ناحية الشمال الشرقى عند الليط عند جبل خندمة ومعظم رجال هذه الفرقة من أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة.

وتقدمت الفرق الأربع فى وقت واحد بهدف تشتيت جهود قريش فلا يستطيعون المقاومة ولا يجدون لهم من سبيل إلا الاستسلام. وقد أكَّد النبى على عدم البدء بالقتال مالم تبد قريش مقاومة مسلَّحة. ودخل المسلمون مكة فى ٢٠ رمضان أى بعد ١٠ أيام من خروجهم من المدينة وكانت هذه أسرع مسيرة لجيش. وقد عمل معظم رجال قريش بنصيحة أبى سفيان فدخل كل واحد داره ودخل بعضهم إلى المسجد ولم ترق دماء إلا فى القطاع الذى أشرف عليه خالد بن الوليد فقد حشد عكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية جماعة للقتال وواجه الاثنان كتيبة خالد.



شكل ٤٩ – فتح مكة.

وكان عكرمة وصفوان من أعز أصدقاء خالد قبل إسلامه كما أن صفوان كان متزوجا من أخت خالد. ولكن خالد لم يدع ذلك يؤثر على موقفه فقد تقدم بقواته ولم يبدأ بقتال ولكن المشركين بادروهم بالسيوف وبعد ملحمة قصيرة تراجع المشركون بعد أن قتل منهم ١٢ رجلا مقابل رجلين من المسلمين وهرب عكرمة وصفوان وفر باقى الجند كل إلى داره وأغلقه عليه. ولما علم النبى بأمر هذه المعركة وبعدد القتلى غضب من خالد لأنه لم يكن يريد إراقة دماء ولما يعلمه من حدة طبع خالد. ولكن خالدا أوضح أنه لم يفعل شيئا أكثر من صدِّه لهجوم كان هو هدفه فسكت عنه النبى على مضض.

وتقدم النبى بقواته والتقت الفرق جميعا فى وسط المدينة ودخل النبي ساحة الحرم وهو على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح. وهو يحنى رأسه تواضعا لله حتى إن لحيته لتكاد تمس رحله. ثم قال: إن الله حرَّم هذا البلد يوم خلق السموات والأرض وصاغه يوم صاغ الشمس والقمر وما حياله من السماء حرام وإنه لم يحل لأحد قبلى. وإنما أُحِلَّ لى ساعة من نهار ثم عاد كما كان.

من أمر النبى بقتلهم:

كان رسول الله قد أمر قادة الكتائب أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم. إلا أنه سمَّى أناسا بأسمائهم وأمر بقتلهم وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة وهم ثمانية رجال وثلاث سيدات ويمكن تشبيههم حاليا بمن يسمَّون «مجرمو حرب» وعقوبتهم الإعدام. وهؤلاء الأفراد هم:

١ - **عبد الله بن سعد بن أبى سرح:** كان قد أسلم وأصبح من كُتاب الوحى فارتد مشركا كما سبق أن ذكرنا (ص ٣٧١). وتخفَّى عبدالله فترة ثم أتى إلى عثمان بن عفان وكان أخاه فى الرضاعة فأتى به إلى رسول الله بعد أن اطمأن أهل مكة فاستأمن له وقيل إن رسول الله صمت طويلا ثم قال لعثمان: «نعم» وأسلم عبدالله بن سعد. فلما انصرف عنه عثمان وعبدالله قال النبى لمن حوله: لقد صمتُ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه. فقال رجل من الأنصار: فهلاَّ أومأت إلىَّ يا رسول الله؟ قال: إن النبى لا يقتل بالإشارة. وقد حَسُنَ إسلام عبدالله بن سعد وولاه عمر بن الخطاب بعض أعماله ثم ولاه عثمان بن عفان بعد عمر.

٢ - ٣ - ٤ - **عبد الله بن خطل وأمتاه:** وعبدالله بن خطل رجل من تميم بن غالب وكان مسلما. فبعثه النبى ليفقه قوما فى الدين وبعث معه رجلا من الأنصار يخدمه. فنزلا منزلا وأمر عبدالله الأنصارىَّ أن يصنع له طعاما. ولما استيقظ وجد أن الأنصارى لم يصنع الطعام فقتله وارتد مشركا. وكات له قينتان (أمتان) تتغنيان بهجاء الرسول فأمر الرسول بقتلهما معه. أما عبدالله بن خطل فقد قُتِل أخذا بقصاص الأنصارى الذى قتله. وأما القينتان فقد قُتلت إحداهما وهربت الأخرى حتى استؤمن لها رسول الله فأمَّنها. وفى عهد عمر بن الخطاب زنت فرجمت حتى ماتت.

٥ – **الحويرث بن نقيذ بن وهب:** وكان ممّن اشتد فى أذى رسول الله بمكة. كما أنه لما سارت فاطمة وأم كلثوم ابنتى رسول الله مهاجرتين إلى المدينة قام الحويرث بنخس بعيرهما فرمى بهما إلى الأرض كما سبق أن ذكرنا ص ٤٣٢. وقد قام على بن أبى طالب بقتله.

٦ – **مقيس بن حبابة:** وكان أنصارى قد قَتل أخاه خطأً ودفع النبى الدية. ولكن مقيس عمد إلى الأنصارى وقتله وارتد مشركا وفر إلى مكة ولاذ بقريش. وقد قام رجل من قومه بقتله.

٧ – ٨ – **الحارث بن هشام وزهير بن أمية بن المغيرة** وكانا من أشد الناس إيذاء للمسلمين بمكة. وقد لاحقهما على بن أبى طالب سخلا إلى بيت أم هانى بنت أبى طالب أخت على فأغلقت عليهما الباب وجاءت إلى رسول الله فوجدته يصلى فلما فرغ من صلاته قال: مرحبا وأهلاً يا أم هانى ما جاء بك؟ فأخبرته خبر الرجلين وتوعُّدَ علىٍّ بقتلهما. فقال: قد أجرنا من أجرتِ وأمَّنَّا من أمَّنتِ فلا يقتلهما.

٩ – **عكرمة بن أبى جهل:** وقد اختفى عكرمة بعدما انسحب من القتال ضد خالد ثم انسل هاربا إلى اليمن وكان ينوي الإبحار إلى الحبشة . وكانت زوجته قد اعتنقت الإسلام ولجأت إلى النبى تستأمنه لزوجها. فأمَّنه فلحقت به فى اليمن وعادت به إلى مكة. ولما قدم مكة ذهب لتوه إلى النبى وقال له: فإنى أسألك أن تستغفر لى كل عداوة عاديتكها أو سير وضعت فيه أو مقام لعنتك منه أو كلام قلته فى وجهك أو وأنت غائب عنه. فقال رسول الله: اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها وكل مسير فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك. واغفر له ما نال منى من عرض فى وجهى أو وأنا غائب عنه. وقبل النبى إسلامه وانضوى تحت راية الإسلام.

١٠ – **صفوان بن أمية:** وقد خشى على حياته وفر هاربا إلى جدة مزمعا اللجوء إلى الحبشة وجاء أحد أصحابه إلى النبى يستأمنه له فعفا عنه النبى فذهب الرجل إلى جدة وعاد به. وقيل قابل النبى وطلب مهلة شهرين قبل أن يسلم فأعطاه النبى مهلة أربعة أشهر. أعلن صفوان بعدها إسلامه وإن كان المؤرخون يرون أنه لم يكن مخلصا فى إسلامه.

١١ – **هند زوجة أبى سفيان:** وقد أسلمت وعفا عنها الرسول.

الرسول فى مكة:

نزل رسول الله بقبة ضربت له بالحجون (شكل ٤٩) فى المكان االذى تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بنى هاشم والمسلمين وهو خيف بنى كنانة ويعرف بالمحصَّب لأن دار النبى قد أخذها عقيل بن أبى طالب وهو لايرثه لأنه كافر. ولم يرث علىٌ وجعفر شيئا من الدور لأنهما مسلمان وقد مات أبوهما كافرا كما أن عقيل وطالب كانا قد باعا كثيرا من دورهما.

ثم لما اطمأن الناس خرج رسول الله حتى جاء البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم

الركن بمحجن فى يده (عصا غليظة وقصيرة) فلما أتم طوافه دعا عثمان بن طلحة وأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له ثم وقف على باب الكعبة وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزام وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعي فهو تحت قدميٍّ هاتين إلاّ سدانة البيت وسقاية الحاج. ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها فى بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا الآية: **«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعاوفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم»** (١٣ – الحجرات). ثم قال: يا معشر قريش. ما ترون أنى فاعل فيكم؟ قالوا خيرا. أخ كريم وابن أخ كريم. قال اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ثم عمد النبى إلى الأصنام التى كانت فى ساحة الحرم والمصطفة أمام حوائط الكعبة من كل شكل ومن كل حجم فما من قبيلة إلا وكانت تجد شرفا لها أن تضع تمثالا لمعبودها عند البيت العتيق. وكان حول الكعبة وداخلها حوالى ٣٦٠ صنما صغيرا منحوتة من خشب أو حجر. وكان بيد النبى المحجن فراح يحطم الأصنام وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. ثم دخل النبى الكعبة وحطم الأصنام التى كانت بداخلها. وأخليت الكعبة من حطام الأصنام. وكان مرسوما على حوائطها صور للملائكة وصورة لإبراهيم عليه السلام وفى يده الأزلام يستقسم بها فقال: قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام. ما شأن إبراهيم بالأزلام. ثم تلا قوله تعالى: **«ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين»** (٦٧ – آل عمران). ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست. وبعد أن طُهِّرت الكعبة دخلها وصلى بها ركعتين ثم استلم الحجر الأسود وطاف بالبيت من غير إحرام وقد لبس عمامته السوداء. وكان يستلم الركن بمحجنه كراهة أن يزاحم الناس فى طوافهم. ثم أمر بلالاً بأن يؤذن. فعلا بلال على ظهر الكعبة وأذَّن. فقال بعض أولاد سعيد بن العاص الذى مات كافرا: لقد أكرم الله سعيدا إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة. وقال بعض زعماء قريش مثل هذا القول.

ثم جلس رسول الله فى المسجد ومفتاح الكعبة فى يده فقام إليه عمه العباس وقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية. فقال رسول الله: أين عثمان بن طلحة؟ فدُعى له فقال له: هاك مفتاحك يا عثمان. اليوم يوم بر ووفاء وقيل إنه تلا **«إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها»** وهى الأية ٥٨ من سورة النساء.

وأحل رسول الله لخزاعة أن تثأر من بني بكر في اليوم الأول من الفتح حتى العصر وذلك قصاصا لما فعله بنو بكر من قتل خزاعة قبل الفتح. وعندما دخل العصر أمر بكف السلاح عن بنى بكر. وعندما قتلت خزاعة رجلا من بنى بكر فى اليوم التالى بمزدلفة غضب النبى غضبا شديداً ودفع دية القتيل وقال إن من يقتل بعد ذلك فأهل القتيل بالخيار بين القصاص والدية.

سرايا لتحطيم الأصنام في القبائل المجاورة (شكل ٥٠):

بعد أن أنتهى النبى من أصنام الكعبة أرسل سرايا صغيرة إلى مواضع حول مكة كان معروفا أن بها أصناما، وكان على السرايا أن تدعو أهل هذه القرى إلى الإسلام وتحطيم الأصنام التى بها - وأمر القادة ألا يقاتوا من يستجيب إلى الدعوة. وفيما يلى بعض هذه السرايا:

١ - أرسل النبى **عمرو بن العاص** إلى **هذيل** فهدم معبودها **«سواع»**.

٢ - وأرسل **سعد بن زيد الأشهلى** فى ٢٠ فارسا لهدم **«مناة»** ب**المشلل** من ناحية قديد. وهو صنم كان العرب يعظمونه وخاصة الأوس والخزرج قبل إسلامهم. وكان ذلك فى ٢٤ رمضان أى بعد أربعة أيام من فتح مكة.

٣ - سرية **خالد بن الوليد** لتحطيم **«العزى»**: بعث النبى خالدا فى اليوم التالى (٢٥ رمضان) إلى **نخلة** فى سرية من ٣٠ فارسا، وكان بنخلة صنمان للعزى واحد حقيقى والآخر غير حقيقى وقد عثر خالد أول أمره على الصنم غير الحقيقى وهدمه وعاد إلى النبى الذى أمره بالرجوع ليهدم الصنم الحقيقى. وبحث خالد حتى وجده وكان سادنها قد فر طلبا للنجاة بعد أن علَّق سيفا بعنق الصنم ليدافع به عن نفسه. ولما دخل خالد المعبد وُجِه بامرأة حبشية شبه عارية تعترض طريقه وتُولول حتى لا يهدم الصنم فقتلها بسيفه ثم حطَّم الصنم ورجع إلى النبى وأخبره بما رآه وبما فعل فقال له: تلك العزى ولن تعبد العزى أبداً (الطبرى - جـ٣ - ص٦٥).

٤ - **سرية خالد بن الوليد إلى يلملم وقتله لبنى جذيمة:** وبعث النبى خالد بن الوليد أيضا فى ٣٥٠ فارسا إلى يلملم فى تهامة جنوب مكة وكانت قبيلة بنى جذيمة تقطن أرضها قبل يلملم وقرب ساحل البحر. وكان هناك ثأر قديم بين خالد وبين بنى جذيمة. ففى أيام الجاهلية كانت إحدى القوافل الصغيرة لقريش فى طريق عودتها من اليمن فانقض عليها بنو جذيمة ونهبوها وقتلوا شخصين مرموقين هما عوف بن عبد عوف أبو عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة عم خالد بن الوليد وحدث فيما بعد أن قتل عبد الرحمن بن عوف قاتل أبيه. أما قاتل الفاكه بن المغيرة فقد ظل حيا. وكان المفروض أن خالد - بعد إسلامه - قد قام بوضع أحقاد الجاهلية جانبا ولكنه لم يفعل ولما وصلت السرية إلى «الغميصاء» قبل يلملم - وطىء خالد قبيلة بنى جذيمة. ولما رأوا سريته شهروا سيوفهم وقالوا لخالد إنهم أسلموا وأنهم يقيمون الصلاة وقد بنوا مسجداً. وسألهم خالد عن سبب لجوئهم إلى السلاح فقالوا إن بينهم وبين بعض العرب عداوات وثارات قديمة والواجب أن يحتاطوا لأنفسهم. فطلب منهم خالد أن يضعوا السلاح لأن القبائل المحيطة كلها قد أسلمت ولا خوف منها. وهنا صاح أحد رجال بنى جذيمة قائلا: ويلكم يا بنى جذيمة. إنه خالد والله ما بعد وضع

شكل ٥٠ – سرايا لتحطيم الأصنام.

السلاح إلا الإسار. وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق والله لا أضع سلاحى أبدا (السيرة النبوية لابن هشام. جـ ٤ ص ٧١) وهاجت قبيلة بنى جذيمة على الرجل الذى حذَّرهم من خالد وقالوا له: أتريد أن تسفك دماءنا. إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمِن الناس. وبعد نقاش وضعوا أسلحتهم. وما إن فعلوا ذلك حتى أمر خالد بأن توثق أيديهم خلف ظهورهم وأن يقتل الرجال. وكان بنو سليم وحدهم هم الذين أطاعوه وقتلوا عددامن الأسرى. أمَّا أفراد السرية من المهاجرين والأنصار. فلم يمتثلوا للأمر. واحتج أبو قتادة وعبدالله بن عمر على خالد وركب أبو قتادة فرسه لساعته وعاد أدراجه إلى المدينة ليخبر النبى بما فعل خالد. وما إن سمع النبى بما فعل خالد حتى جزع ورفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد. قالها ثلاثا. ثم أرسل عليًّا بمال كثير ليدفع دية من قتلوا من بنى جذيمة ليرضيهم ويهدىء من ثائرتهم. وأدَّى علىٌّ مهمته وكان كريما فى العطاء ولم يرجع إلى النبى إلا بعد أن أرضى القبيلة كلها. وبعث النبى فى طلب خالد ليستفسر منه عما دعاه إلى عدوانه على القوم وكان رد خالد أنه لم يقتنع بصدق إسلامهم وأنه ما قتلهم إلا فى سبيل الله. وكان عبد الرحمن بن عوف حاضرا فقال لخالد: عملت بأمر الجاهلية فى الإسلام! ورأى خالد فى هذا مخرجا له لتبرير فعلته فقال: إنما ثأرت بأبيك. فرد عبد الرحمن بن عوف قائلا: كذبتَ. قد قُتل قاتل أبى. ولكنك ثأرت بأبيك الفاكه بن المغيرة. وأدى هذا الحوار إلى مشادة بين الرجلين وكانت هذه غلطة أخرى من خالد لأن عبد الرحمن بن عوف كان واحدا من العشرة المبشرين بالجنة وله مكانة في الإسلام قلَّ أن يدانيها أحد فى حين أن خالد لم يمضى على إسلامه إلا بضعة أشهر. وتدخل النبى فى الجدل بين الرجلين وقال بصرامة: مهلا يا خالد. دع عنك أصحابى فوالله لو كان أُحُد ذهبا ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته. وعرف خالد قدره فصمت ولكنه وعى هذا الدرس ورغبة منه فى التكفير عما فعل وأغضب النبى فإنه تفانى بعد ذلك فى الجهاد مما جعله سيفا من سيوف الإسلام وبطلا عسكريا يشار إليه بالبنان.

البعض أسلم نفاقا:

حدث أن رسول الله دخل الحرم ومعه بلال فأمره أن يؤذن للصلاة. وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة. فلما أذَّن بلال وقال الله أكبر الله أكبر قال عتاب بن أسد: لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته. فقال أبو سيفان لا لا أقول شيئا. لو تكلمت لأخبر عنى هذا الحصى. فخرج عليهم النبى وقال: قد علمت الذى قلتم ثم ذكره لهم. فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله. والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك. وهذه الحادثة تدل على أن بعض من أسلموا يوم الفتح – من الطلقاء – أسلموا لمجرد حقن دمائهم ولكن قلوبهم ظلت مشركة ومنكرة للإسلام وكافرة به.

هذيل وخزاعة:

كان رجل من خزاعة – اسمه أحمر – شديد البأس. وكان إذا حزب قومه أمر صاحوا «يا أحمر» فيهب لنجدتهم وينصرهم على أعدائهم. ولكنه كان إذا نام غطَّ غطيطا شديدا فكان ينام خارج البيوت حتى لا يزعج أهلها. وكان بين خزاعة وهذيل ثارات قديمة. فأقبل جماعة من هذيل وتتبعوا صوت غطيط أحمر حتى وصلوا إلى مكانه وهو نائم فقتله ابن الأكوع الهذلى ثم أغاروا على القوم وسلبوهم. فلما كان الفتح دخل ابن الأكوع الهذلى مكة فرآه نفر من خزاعة وعرفوا أنه قاتل «أحمر» فتكاثروا عليه وقتلوه. وعلم رسول الله بما حدث وقال: يا معشر خزاعة. ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل إن نفع، ولقد قتلتم قتيلا. ودفع دية القتيل.

فضالــة:

وقيل إن فضالة بن عمير بن الملوح أراد قتل النبى وهو يطوف بالبيت. فلما دنا منه قال النبى: أفضالة؟ قال: نعم فضالة يا رسول الله. قال النبي: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال لا شيء. كنت أذكر الله. قال فضحك النبى ثم قال: استغفر الله. ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه. ويقول فضالة: والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما مِن خلق الله شيء أحبُّ إلىَّ منه. (السيرة النبوية لابن كثير. جـ ٣ ص ٥٨٤).

إسلام هند بنت عتبة:

واجتمع الناس لمبايعة رسول الله على السمع والطاعة لله ولرسوله. فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء فاجتمع نساء قريش وفيهن هند بنت عتبة زوج أبى سفيان متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة يوم أحد. فلما دنون من النبى لمبايعته قال النبى: تبايعننى على ألا تشركن بالله شيئا. فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمرا ما أخذته على الرجال سنؤتيكه. قال ولا تسرقن. فقالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة والهنة ولا أدرى أكان حلالا لى أم لا. فقال أبو سفيان وكان شاهدا لما تقول: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حلٍّ. فقال عليه السلام: وإنك لهند بنت عتبة؟ فقالت: أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف عفا الله عنك. واستمر النبى فى مبايعته للنساء. قال ولا تزنين. قالت هند: وهلى تزنى الحرة؟. قال ولا تقتلن أولادكن. قالت: قد ربيناهم صغارا وقتلتَهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم. وضحك عمر من قولها. ثم قال النبى: ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن. فقالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح ولبعض التجاوز أمثل. قال ولا تعصيننى فى معروف. واستغفَر لهن رسول الله ثم قال لعمر بايعهن وكان رسول الله لا يصافح النساء ولا يمسُّ امرأة إلا امرأة أحلَّها الله له (السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية. مهدى رزق الله أحمد. ص ٥٧٢).

خطب الرسول فى مكة:

أقام النبى فى مكة ١٩ يوما يقصر الصلاة الرباعية وفى أثناء هذه المدة خطب عدة خطب بيَّن فيها أمورا وأحكاما مختلفة (المرجع السابق ص ٥٧٣):

١ - **الخطبة الأولى:** وكانت على باب الكعبة وفيها بيَّن دية القتل الخطأ شبه العمد وألغى مآثر الجاهلية وثأراتها وأقر من أمور الجاهلية سقاية الحاج وسدانة البيت.

٢ - **وفى الخطبة الثانية:** أعلن أن ما كان من حلف فى الجاهلية فإن الإسلام يزيده شدة. والمؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم ويرد عليهم أقصاهم. يرد سراياهم على قعيدتهم. لا يُقتل مؤمن بكافر. دية الكافر نصف دية المسلم. لا جلب ولا خبب. ولا تؤخذ صدقاتهم إلا فى دورهم.

٣ - **الخطبة الثالثة:** وأعلن فيها تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها وشجرها ولقطتها وتحريم القتال فيها. وقال إن الله تعالى أحلها له ساعة من نهار وهو وقت الفتح. وقال لا هجرة بعد الفتح ويبقى الجهاد والنية.

٤ - **الخطبة الرابعة:** وبين فيها أنه من قُتِل له قتيل فله الخيار: إما أن يقبل الدية أو يقتص من القاتل.

إسلام أبى قحافة والد أبى بكر:

أتى أبو بكر بأبيه. يقوده - إذ كان كفيفا - حتى جاء به إلى رسول الله فقال النبى: هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟ فقال أبو بكر. يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت. ثم أجلسه النبى ومسح صدره ثم قال له أسلم فأسلم.

إسلام صفوان وعكرمة:

كانت زوجتا صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل قد أسلمتا فصارتا طالقتين من زوجيهما المشركين. إلا أن الزوجين أسلما قبل انقضاء عدتهما فاعتبر عقد الزواج قائما.

غزوة حنين:

بعد أن بايع أهل مكة النبى وأسلموا وعادت الحياة فى مكة إلى مجراها الطبيعى بدأت قبيلتا هوازن وثقيف تبديان التخوف من تنامى قوة الإسلام وراحتا تحاولان الوقوف ضده وأعدتا العدة للحرب. كانت هوازن تقطن شمال شرقى مكة فى حين كانت ثقيف تقطن الطائف إلى الجنوب الشرقى من مكة (شكل ٥١) وتخوفتا من هجوم المسلمين عليهما بعد أن فرغوا من قريش فقررت القبيلتان البدء بالهجوم ليستفيدا من عنصر المفاجأة. فاجتمعا فى أوطاس قرب حنين حيث انضمت إليهما كتائب من عدة بطون من قبائل أخرى مثل بنو سعد من بنى بكر

وبعض بطون من غطفان وقليل من بنى هلال فاحتشد منهم ۱۲.۰۰۰ مقاتل على رأسهم مالك بن عوف النصرى الذى عرف ببسالته وشجاعته رغم صغر سنه التى لم تتجاوز الثلاثين. وقرر أن تُخرج كل قبيلة أموالها ونساءها وأبناءها معها ليكون ذلك أدعى لتفانيهم فى الحرب دفاعا عنهم. وكان دريد بن الصمة قائدا آخر من قواد هذا الحلف - وكان متقدما فى السن حليما ذا رأى راجح حنكته التجارب وعركته الأحداث - وسمع دريد عند التقاء الحلف بأوطاس الجلبة والصخب اللذين يصاحبان عادة أى تجمع للرجال وركائبهم فقال لمالك: مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وثغاء النساء؟ فقال مالك: سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم. فقال دريد: ولم ذلك؟ قال مالك: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم. فقال دريد: راعى ضأن والله! وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه. وإن كانت عليك فُضِحت فى أهلك ومالك! أرجعهم إلى مُتمنَّع بلادهم. وعدَّ مالك ذلك امتهانا لمقدرته الحربية فقال لدريد: أنت قد كبرت وكبر عقلك.

وكان النبى قد بعث عبدالله بن أبى حدرد السلمى وأمره أن ينخرط وسط تجمعات هوازن وثقيف ليعلم ما يدبرون. ففعل ثم أقبل علي النبى وأخبره وكان عمر حاضرا فقال: كذب ابن أبى حدرد. فرد ابن أبى حدرد: إن كذَّبتنى فربما كذبت بالحق يا عمر فقد كذَّبت من هو خير منى - يعرِّض بعمر لتأخره في الإسلام - فقال عمر فى غضب: يا رسول الله ألا تسمع ما يقول ابن أبى حدرد. فقال النبى قد كنت ضالا فهداك الله يا عمر.

ولم يكن مستساغا أن يترك النبى هذا التجمع المعادى يهدد مكة ويُضعف من الأثر الذى أحدثه فتح مكة فى القبائل وجعلها تسلم واحدة بعد الأخرى لذلك رأى أنه لابد من مواجهة هذا التحدى بالسير إليهم وسحقهم. فخرج النبى من مكة. فى السادس من شوال سنة ٨ للهجرة - فى جيش تشكل أصلا من العشرة آلاف رجل الذين اشتركوا فى فتح مكة فضلا عن ألفى رجل ممن اعتنق الإسلام من أهل مكة وكان من هؤلاء أبو سفيان وصفوان ابن أمية. وعلم النبى أن عند صفوان بن أمية - وهو لا يزال على الشرك فقد طلب مهلة شهرين قبل أن يسلم فأعطاه النبى أربعة أشهر كما سبق أن ذكرنا ص ٧٦٧ - سلاحا فأرسل إليه النبى وقال له: يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا. فقال صفوان: أغصبا يا محمد؟ قال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك. قال صفوان: ليس بهذا بأس. وأعطى المسلمين مائة درع وما يكفيهم من السلاح. وكان الجيش - وقد بلغ ۱۲,۰۰۰ رجل - هو أكبر جيش إسلامى يخرج في حياة الرسول ولهذا ساد شعور عند بعض الناس أنهم لن يغلبوا. وينسب إلى أبى بكر قوله: لن نغلب اليوم من قلة. وقال أناس آخرون مثل هذا القول وبلغ القول رسول الله فشق ذلك عليه. وقد عاتبهم القرآن فيما بعد فى قوله تعالى: **«ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين»** (٢٥ - التوبة). إذ أن على المسلمين التوكل على الله وحده فليس النصر بالعدد أو بالعدة فقد كانوا فى بدر قلة و**«كم من**

من غطفان
من بنى سعد
هوازن
قوات هوازن
ثنية الغزال
وادى بلدح
الجموم
عسفان
مر الظهران
بطن مر
بطن يأجج
سرف
ذى طوى
التنعيم
مكة
منى
عرفات
الجعرانة
مكان المعركة
حنين
نخلة
ذات عرق
أوطاس
قوات ثقيف
وادى يلم
بحرة الرغاء
وادى ذى المجاز
ثقيف
الطائف
نخب

شكل ٥١ – معركة حنين.

خط سير المشركين.

خط سير المسلمين.

فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله».

ذات أنواط: وكان لكفار قريش وما سواهم من العرب شجرة عظيمة يأتونها كل عام فيعلقون عليها أسلحتهم تبرُّكا ،جلبا للنصر ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما ويسمونها **«ذات أنواط»**. فلما مر المسلمون بشجرة عظيمة خضراء – وكان كثيرون حديثى عهد بالإسلام – قالوا للنبى: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله: الله أكبر. قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى **«اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون»**. إنها السنن. لتركبن سنن من كان قبلكم.

وعندما اقترب الرسول من حنين أرسل أحد الصحابة لاستطلاع عدد العدو من فوق أحد الجبال المطلة على وادى حنين. فلما عاد أخبر النبى أنهم قد خرجوا بأولادهم ونسائهم وإبلهم وشائهم. فتبسم الرسول وقال: تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله تعالى. وحانت ساعة النوم فتطوع أنس بن أبى مرثد الغنوى بحراستهم إلى الفجر فأثنى عليه الرسول.

وفى عماية الصبح سار المسلمون قاصدين مباغتة العدو قبل أن يأخذ أهبته للقتال فانحدروا إلى وادى حنين وكان العدو قد سبقهم إليه وكمنوا فى شعابه ومضايقه وفوجئ جيش المسلمين بالسهام تنهال عليهم من كل جانب والرجال يقفزون عليهم شاهرى السيوف فتشتت المسلمون وفرَّ كثير منهم فى كل اتجاه.

كان أهل مكة بعد الفتح أحد ثلاثة: رجل كان يخفى إسلامه خوفا من سطوة قريش فأعلن إسلامه. ورجل أسلم عن اقتناع وكان صادقا فى إيمانه. وفريق ثالث استسلم حقنا لدمه ولم يؤمن قلبه فكان منافقا. وفى المعركة ظهر ما كان يضمره هؤلاء المنافقون من حقد قلوبهم فقد كانوا أول من فرَّ بل وراحوا يثيرون الرعب بين صفوف المحاربين وراح بعضهم يقول لبعض: اخذلوه. هذا وقته. ولكن رسول الله ثبت وحوله بعض المسلمين. وراح النبى يصيح يا أنصار الله وأنصار رسول الله. أنا عبد الله ورسوله. أين أيها الناس. هلمُّوا إلىّ. أنا رسول الله. أنا محمد بن عبدالله. وكان العباس بن عبد المطلب يأخذ بزمام بغلة رسول الله فلما رأى الناس لا تستجيب صاح فى صوت تردد فى جنبات الوادى: يا معشر الأنصار. يا معشر أصحاب الشجرة. يذكرهم بالشجرة التى كانت عندها بيعة الرضوان. ووصل صوت العباس إلى أذنى أبى سيفان فقال فى شماتة: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر. وصاح كلدة بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية: ألا بطل السحر اليوم. وثبت مع رسول الله أبو بكر وعمر وعلى بن أبى طالب وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفضل ابن العباس وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن ابن أم أيمن. وبلغ صوت العباس مسامع الأنصار فأجابوا لبيك لبيك. وراح الرجال يهرعون إلى حيث كان رسول الله وراحوا يقاتلون فى شراسة وقال النبى: الآن حمى الوطيس. أنا النبى لا كذب. أنا ابن عبد المطلب.

وكان شيبة بن عثمان بن أبى طلحة يحقد على النبى لمقتل أبيه يوم بدر فانتهزها فرصة ليأخذ ثأره فراح يقترب من النبى من خلفه. فالتفت النبى نحوه وقال له: أعيذك بالله يا شيبة. ويقول شيبة إن فرائصه ارتعدت وشعر أن شيئا يمنعه من تنفيذ ما انتواه. بل ونزل عليه الإيمان فجأة فقال: أشهد أنك رسول الله وأن الله أطلعك على ما فى نفسى وراح يقاتل بحماسة عن رسول الله.

وكان فى هوازن رجل طوال شجاع يحمل الراية ويقاتل ويحمِّس الناس للقتال فمال عليه على بن طالب ورجل من الأنصار فقتلاه. وكانت أم سليم ابنة ملحان زوجة أبى طلحة تدافع عن رسول الله بخنجر فى يدها بينما زوجها يقاتل ببسالة حتى قتل وحده أكثر من عشرين رجلا. ولما رأى الذين فروا فى أول الهجوم ثبات النبى ومن حوله عادوا ثانية إلى مسرح المعركة واشتد القتال وراح مالك بن عوف سيد ثقيف يستميت فى القتال. ولكن القتل استحرَّ فى هوازن وتصدَّعت صفوف المشركين فجعل المسلمون يقتلون من أعدائهم ويأسرون الكثيرين وانهزمت هوازن واشتدت الوطأة على ثقيف ففروا لائذين بحصون الطائف وأغلقوا أبوابها فامتنعوا من المسلمين. وطلبت أم سليم بنت ملحان من رسول الله أن يقتل الطلقاء الذين فروا عنه فقال لها: يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن. وعلم النبى أن خالد بن الوليد قد جرح فذهب إليه فى رحله وضمَّد جرحه.

وراح المسلمون يجمعون الغنائم والسلب والسبى. وكان في السبى الشيماء أخت النبى من الرضاعة فعرَّفت نفسها فعرفها رسول الله وخيَّرها قائلا: إن أحببت فعندى محببة مكرمة وإن أحببت أن ترجعى إلى قومك فعلتُ. ففضلت أن تعود إلى قومها فأعطاها غلاما وجارية وردَّها إلى بنى سعد معززة مكرمة. وبلغت غنائم المسلمين: الإبل ٢٤٠٠٠ - الغنم ٤٠٠٠٠ ومن الفضة ٤٠٠٠ أوقية والسبى ٦٠٠٠، وقد وضع النبى الغنائم كلها فى الجعرانة تحت حراسة حتى يفرغ من ثقيف.

غزوة الطائف :

وسار رسول الله من حنين إلي الطائف (شكل ٥٢) وعلى رأس الجند خالد بن الواليد. ومرَّ جيش المسلمين بقبر أبى رغال الذى قاد جيش أبرهة إلى مكة لهدم الكعبة كما سبق أن ذكرنا (ص ٢٧). وتعبيرا عن سخطهم عليه قام بعض المتحمسين بنبش قبره. ثم انطلق الجيش إلى **نخلة اليمانية** ثم **قرن** فى وادى قرن ثم علي **المليح** ثم **بحرة الرغاء** وبنى الرسول بها مسجداً. وكان لمالك بن عوف سيد ثقيف حصن هناك تركه لما لجأ إلى الطائف فقام المسلمون بهدم الحصن. ثم مضى النبى إلى **نخب** شرقى الطائف ثم تقدم لحصار الطائف. وانهالت السهام على المسلمين من أعلى حصن الطائف ونالتهم. ودام الحصار قيل سبعة عشر ليلة وقيل بضعا وعشرين ليلة ولم يستسلم المدافعون عن الحصن. ثم اقترب بعض المسلمين من جدار الحصن

شكل ٥٢– المسير لحصار الطائف ثم عمرة الجعرانة.

تحت ساتر عبارة عن عربة من الخشب مغطاة بالجلد السميك وتسميها كتب السيرة «دبابة» تحميهم من السهام قاصدين نقب الحائط للنفاذ إلى داخل الحصن. فأرسلت عليهم ثقيف قطع الحديد المحماة بالنار أحرقت الساتر ورموهم بالنبل فقتلوا منهم الكثير. واستمر حصار الطائف ولم تستسلم ثقيف. ويروى أن رسول الله قال لأبى بكر (السيرة النبوية لابن هشام جـ ٤ ص ٧٨): إنى رأيت أنى أهديت لى قعبة (قصعة) مملوءة زبدا فنقرها ديك فهراق ما فيها. فقال أبو بكر. ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد. فأيَّد النبي رأيه وأخبره أنه لم يؤذن له فى ثقيف. واستشار النبى نوفل بن معاوية الديلمى فى الاستمرار فى الحصار أو الذهاب فقال: يا رسول الله. ثعلب فى جحر. إن أقمت أخذته. وإن تركته لم يضرك. وحضر عمر بن الخطاب وعلم ما استقر عليه الرأى فقال للنبى: أفلا أؤذن بالرحيل؟ قال النبي: بلى. فأذَّن عمر بالرحيل. وقال رجل من المسلمين للنبى. يا رسول الله ادع عليهم. فقال النبى: اللهم اهد ثقيفا وات بهم. وفعلا هداهم الله وقدموا على النبى فى العام التالى مسلمين.

رد سبايا هوازن

بعد أن انصرف رسول الله عن الطائف عاد إلي الجعرانة التى بها الغنائم التى غنمها من هوازن وثقيف فى معركة حنين ثم أتاه وفد هوازن وأعلنوا إسلامهم . وقالوا يا رسول الله إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك. فامنن علينا مَنَّ الله عليك. وقام رجل من بني سعد بن بكر (ومنهم حليمة السعدية مرضعة النبى) وقال: يا رسول الله إن فى السبى عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كُنَّ يكفلنك. ولو أنا أرضعنا للنعمان بن المنذر ثم نزل منا مثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا. فقال النبى: أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم. فقال المهاجرون وما كان لنا فهو لرسول الله وقالت الأنصار مثل ذلك. وقال بنو سليم مثلهم. فتنازل الجميع عن حقهم فى السبايا وردوا إلى هوازن أبناءهم ونساءهم ولم يرد أموالهم.

إسلام مالك بن عوف سيد ثقيف:

ثم سأل رسول الله عن مالك بن عوف سيد ثقيف فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف فقال رسول الله: أخبروا مالكا أنه إن أتانى مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل. فلما بلغ ذلك مالكا خرج متخفيا عن قومه خشية أن يمنعوه. ولحق برسول الله وأسلم فردَّ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل واستعمله علي من أسلم من قومه وهم قبائل سلمة وفهم وثمالة. ولكن غالبية ثقيف ظلوا على كفرهم إلى أن أسلموا بعد حوالى ٦ أشهر كما سيأتى ذكره (ص ٨١٣، ٨١٤).

عطايا المؤلفة قلوبهم:

بدأ رسول الله بالأموال يقسِّمها وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس. فأعطى - أبا سفيان بن حرب ٤٠ أوقية من الفضة و ١٠٠ من الإبل. فقال أبو سفيان: وابنى يزيد فقال أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل فقال وابنى معاوية فأعطاه ٤٠ إوقية و١٠٠ من الإبل فقال أبو سفيان. بأبى أنت وأمى يا رسول الله لأنت كريم فى الحرب وفى السلم. لقد حاربتك فنعم المحارب كنت. وقد سالمتك فنعم المسالم أنت.. هذا غاية الكرم. جزاك الله خيرا. - وأعطى حكيم بن خزام ١٠٠ من الإبل فسأله ١٠٠ أخرى فأعطاه أياها ثم سأله ١٠٠ ثالثة فأعطاه إياها وقال له النبى: يا حكيم. هذا المال خضر حلو من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه طمعا لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع. فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها. وقال: يا رسول الله والذى بعثك بالحق لا أسأل أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر يدعو حكيما ليعطيه فيأبى وكذلك فعل مع عمر.

وكذلك أعطى ١٠٠ من الإبل لكل من صفوان بن أمية وقيس بن عدى وحويطب بن عبد العزى وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وأسيد بن جارية الثقفى والأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن. وأعطى أناسا آخرين ٥٠ من الإبل. وأعطى العباس بن مرداس ٤٠ فعاتب الرسول بشعر لقلة ما أعطى فقال الرسول اذهبوا به واقطعوا عنى لسانه فأعطوه حتى رضى. وأعطى آخرين من قريش ومن أبناء قبائل بنى بكر وبنى قيس وبنى عامر بن ربيعة. وقيل للنبى: لقد تركت جعيل بن سراقة. فقال: إن من الناس ناسا نكلهم إلى إيمانهم منهم جعيل بن سراقة وفرات بن حيان. واجتمع عليه أناس كثيرون من المؤلفة قلوبهم فأعطاهم وقال: أيها الناس. والله مالى من فيئكم إلا الخمس. والخمس مردود عليكم. وشدد على عدم اختلاس شىء من الغنائم قائلا: فأدوا الخياط والمخيط فإن الغلول يكون على أهله عارا وشنارا يوم القيامة. من أخت شيئا فليرده حتى الخياط. فراح من أخذ شيئا خلسة يرده إلى كومة الغنائم.

ثم بعد ذلك بدأ يقسم الغنائم علي المحاربين فكان لكل رجل أربع من الإبل و٤٠ شاة فإن كان فارسا أخذ ١٤ من الإبل و١٠٠ شاة وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم للفرس الزائد. فلم يعط الزبير إلا لفرس واحد وكان معه أفراس. وقال بعض المنافقين هذه القسمة ما عدل فيها ولا أريد بها وجه الله. فأخبر النبى بما قالوا فغضب غضبا شديدا واحمر وجهه وقال: من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحمة الله على أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر.

ولما أعطى رسول الله ما أعطى من العطايا لقريش ولبعض أفراد القبائل ولم يعط للأنصار شيئا إلا نصيب المحاربين وَجَدَ الأنصار فى أنفسهم شيئا حتى كثرت منهم القالة حتى قال قائلهم: لقد لقى والله رسول الله قومه! وقال آخرون إن هذا لهو العجب يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم! وقال آخرون: إن كانت شدة ندعى إليها ويُعطِى الغنيمة غيرنا. إن

كان من أمر الله صبرنا وإن كان من أمر رسول الله استعتبناه. فدخل سعد بن عبادة على النبى وأخبره بما فى نفوس الأنصار من غضب لعدم إعطائهم من الغنائم فأمر أن يجمع له الأنصار. فلما اجتمعوا قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال: يا معشر الأنصار ما قالة بلغتنى عنكم (أى ما هذه المقالة التى بلغتني عنكم) وجِدَة وجدتموها علىَّ فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألَّف بين قلوبكم. قالوا بلى الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال: ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار؟ قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله. لله ورسوله أمن وأفضل. قال النبى: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم: أتينا مُكذَّبا فصدَّقناك ومخذولا فنصرناك وطريدا فآويناك وعائلا فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعلعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رِحالكم؟ فو الذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار. ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى تبللت لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا. ثم انصرف رسول الله وتفرقوا.

عمرة الجعرانة:

بعد أن أمضى رسول الله فى الجعرانة ١٣ يوما خرج قاصدا مكة معتمرا فلما مر بناحية «مر الظهران» حبس هناك بقايا الغنائم وانطلق بالمسلمين إلى مكة فطاف بالبيت سبعا ثم صلَّى ركعتين خلف مقام إبراهيم. ثم سعى بين الصفا والمروة سبعا. وتأهب للرجوع إلى المدينة. فجاء أبو سفيان وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وسادات بنى المغيرة ليودعوه واستخلف على مكة عتَّاب بن أسيد وكان عمره ٢٠ سنه وترك معه معاذ بن جبل يفقه الناس فى أمور دينهم. ورَزَق أسيدا كل يوم درهما. وقام أسيد خطيبا في الناس فقال: أيها الناس. أجاع الله من جاع على درهم. فقد رزقنى رسول الله درهما كل يوم فليست بى حاجة إلى أحد.

العودة إلى المدينة:

وخرج رسول الله من مكة وخرج أهلها كلهم يودعونه وخرج معه إلى المدينة عمه العباس فلم يعد هناك ما يفعله في مكة بعد أن أسلم أهلها. وكانت أم سلمة فى هودج وميمونة أم المؤمنين فى هودج آخر. ولما مرَّ بناحية «مر الظهران» ساق الغنائم التى كانت فيها ليوزعها على فقراء المدينة. ولما وصل المدينة ارتفعت صيحات الترحيب بعودته وبما فتح الله عليه. وكانت عودته فى ٢٥ ذى القعدة سنة ٨ من الهجرة واقترب موسم الحج. وخرج الناس للحج ورأس الحجاج فى ذلك العام عتاب بن أسيد الذى كان قد أبى إلا أن يرافق النبى حتى يصل إلى المدينة فعاد إلى مكة على رأس الحجيج.

سورة الحديد:

وفى السورة آية تفيد صراحة أنها نزلت بعد الفتح: **«لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل. أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا»** (١٠) والمفسرون متفقون على أن الفتح المذكور فى الآية هو فتح مكة.

وكانت الفترة التى أعقبت الفتح فترة اختلط فيها الكثير من المشاعر سواء في مكة أو فى المدينة. وكما ذكرنا من قبل - كان في مكة فريق مسلم من قبل الفتح ويكتم إسلامه وفريق ثان اقتنع بعد الفتح بأن «محمداً» رسول الله حقا فأسلم وحسن إسلامه. وفريق ثالث أسلم من باب الخضوع للقوة أى كان استسلاما وشاء الرسول بالإغداق عليهم من غنائم حنين أن يستميل قلوبهم فيدركوا أن الخير كله فى الإسلام بدءا من خير الدنيا فينتهى بهم الأمر إلى الطمع فى خير الآخرة فيحسن إسلامهم. وكان من الواجب التنبيه إلى أن متاع الدنيا تافه وزائل بجانب ثواب الآخرة وأن الإيمان الصحيح يوجب الإنفاق فى سبيل الله لا توقع المغانم.

أما فى المدينة فقد كان البعض قد آلمه أن يروا ما نال «الطلقاء» من المغانم فى حين أنهم - وهم الذين قاسوا شظف العيش وكانوا ينفقون في سبيل الله - مع ما كان بهم من خصاصة - لم يعطوا إلا القليل فكان التنبيه بأن ما ناله غيرهم هو عرض زائل أمّا هم فلهم الأجر العظيم عند الله وأن من أسلم بعد الفتح وأنفق لن يطاولهم فى ثوابهم عند الله.

وتبدأ السورة بقوله تعالى:

«سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» (١).

والتسبيح هو تنزيه الله تعالي عما لا يليق بجلاله. بعد ذلك يأتى تمجيد لله وبيان لبعض مظاهر قدرته:

«له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو علي كل شيء قدير. هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيئ عليم. هو الذي خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير. له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور. يولج الليل في النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور» (٢ - ٦).

فالله مالك السموات والأرض وهو الأول أى الموجود قبل كل شيء والآخر أى الباقى بعد فناء كل شيء والظاهر قدرته فى كل شيء والباطن فلا تدركه الأبصار. وروى أن النبى كان يدعو فيقول: اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شيئ فالق الحب والنوى. منزل التوراة والإنجيل والقرآن. أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته. أنت الأول فلا شيء قبلك. وأنت الآخر فلا شيء بعدك. وأنت الظاهر فلا شيء فوقك وأنت الباطن فلا دونك شيء. اقض عنى الدين وأغننى من الفقر.

والله هو الذي خلق السموات والأرض ويعلم كل ما يغيب فى الأرض من بذور وجذور النباتات وما يخرج منها من نبات. وما ينزل من السماء من مطر وما يعرج فيها من دعوات البشر وهو معهم محيط بكل شأن من شئونهم فى أى مكان يكونون فيه. ومن مظاهر قدرته أنه يدخل من ساعات النهار فى الليل ومن ساعات الليل فى النهار فتختلف أطوالها صيفا وشتاء.

دعوة للإنفاق فى سبيل الله:

ولعل هذه الدعوة موجهة إلى المسلمين الجدد في مكة والمولفة قلوبهم – حتى لا يظنوا أنهم قد بلغوا درجة غيرهم من المسلمين الأولين بل يجب عليهم تأييد إيمانهم هذا بالانفاق في سبيل الله ويكفى أن الله كان بهم رؤوفا رحيما إذ أخرجهم من الظلمات إلى النور. ثم توضح لهم أنهم مهما أنفقوا فلن يتساووا بالمهاجرين الذين أنفقوا من قبل الفتح. الذين أنفقوا وهم في حاجة وفى ظروف بالغة الصعوبة. وإن كان لكل من الفريقين أجر عند الله إلا أن المفهوم أن للمسلمين الأوائل أجر أكبر. ثم تلفت الآيات النظر إلى أن الإنفاق فى سبيل الله هو «قرض» وسيوفَّون ما أنفقوا مضاعفا يوم القيامة. ثم تذكر الآيات بعضا مما سيدور في ذلك اليوم من مناقشات بين الكفار والمسلمين.

«آمِنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه. فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير. وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين. هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم. وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض. لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل. أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير. من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم. يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم. يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم. قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلي ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغرَّكم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير» (٧ – ١٥).

وتعطى الآيات صورة رائعة لما سيكون عليه حال المؤمنين يوم القيامة ولهم نور بين أيديهم ينير لهم الطريق ويقودهم إلى الجنة. وقد روى عن قتادة أن النبى قال: إن من المؤمنين من يضىء نوره من المدينة إلى عدن وصنعاء ومن المؤمنين من لا يضىء نوره إلا موضع قدميه. وفى حديث آخر يُذكر أن النور على قدرِ العمل. وفى يوم القيامة يطلب المنافقون من المؤمنين أن يفيضوا عليهم بعضا من نورهم فيردون عليهم موبخين يأمرونهم بأن يرجعوا إلى ما وراءهم

من ظلمات علّهم يجدون نورا. والمعنى أن أعمالهم السيئة هى الظلمات التى تحيط بهم. وحيل بين المؤمنين والمنافقين بباب فى جانبه المواجه للمؤمنين ثواب ونعيم. أما الجانب المواجه للمنافقين ففيه عذاب الجحيم. وبالرغم من وجود الباب ينادى المنافقون المؤمنين ويسألونهم ألم يكونوا فى الدنيا معهم أى مؤمنين مثلهم فيُرَدّ عليهم أنهم كانوا مسلمين نفاقا وكانوا يتمنون الهلاك للمؤمنين ويشككون فى أمور الدين وخَدعهم طول الأمان حتى جاء الموت وغرَّر بهم الشيطان بأن الله لن يعذِّبهم. وفى ذلك اليوم لن يُقبل من المنافقين ولا من الكفار فدية لينجوا من العذاب وستكون النار هى مثواهم وبئس المصير.

حث للمؤمنين على التفانى فى الخشوع لله:

«ألم يأن (يحن الوقت) للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلُ فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون. اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بيَّنّا لكم الآيات لعلكم تعقلون. إن المصَّدِّقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم. والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصِّديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم» (١٦ - ١٩).

والآيات تضمنت سؤالا فيه حث للمؤمنين على الخشوع لذكر الله وأن يحذروا أن يكونوا مثل من سبقهم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين عملوا بكتبهم مدة وبمرور الزمن قست قلوبهم فانحرفوا عن الطريق القويم. ومن يجد فى نفسه بعض القسوة فعليه ألا يقنط من رحمة الله وعليه أن ينظر آية الله فى الأرض الجافة الميتة إذ ينزل عليها المطر فينبت الزرع وبالمثل فإن الله يُحيى القلوب القاسية برحمته ومغفرته. فمن صدَّقوا بالله وأنفقوا فى سبيل الله لهم ثواب كبير. أما الكفار والمكذبين بآيات الله فلهم نار جهنم.

مثل لتفاهة الدنيا:

«اعلموا أنَّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفارَ نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (٢٠ - ٢١).

ولعل فى الآيات توجيه لمن لم يعطوا من غنائم حنين أن لا يحزنوا على ما فاتهم من متاع الدنيا وحث لهم على طلب المغفرة من الله لما بدر منهم من عدم رضا وحسبهم جزاء الآخرة - جنات النعيم.

حث على التسليم بالقضاء:

«ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور. الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتولَّ فإن الله هو الغنى الحميد» (٢٢ - ٢٤).

ومعظم المفسرين يرون أن الكتاب المذكور فى الآية هو اللوح المحفوظ الذى كتب فيه كل ما كان ويكون قبل أن يكون وسُمِّىَ فى سورة الرعد «أم الكتاب»: **«يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»** (٣٩ - الرعد). والله سبحانه وتعالى فى غنى عن تثبيت علمه الشامل فى لوح مادى والتعبير مستمد من مألوفات الناس فى تدوين أعمالهم ومعارفهم فى ألواح. والمعنى سَبْقُ علم الله تعالي بكل ما يقع فى السماء والأرض من أحداث قبل وقوعها. **«لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»** وليس القصد مصادرة الطبع الإنسانى فى الإحساس بالألم عند المصيبة أو الفرح عند نزول الخير إنما القصد النهى عن الاستغراق المذهل فى كلا الحالين. فإن للفرحة الطاغية نشوة تخرج عن الصواب. وللحزن الجاثم وطأة تسحق الإرادة. والمؤمن هو الذى يُرجع كل ما يصيبه إلى مشيئة الله فلا يتخبط بين هذه الانفعالات فيرفعه الفرح إلى القمة ويخفضه الأسى إلى الحضيض. بل يلوذ بالاعتدال ويسيطر على أعصابه وهذا ثمرة من ثمار الإيمان بالقَدَر. ثم توضح الآيات أن الله يكره من عباده الخيلاء وكذلك ضنهم بأموالهم عن الإنفاق فى سبيل الله بل ويأمرون الآخرين بالبخل ويحسِّنونه لهم. ومن بَخِل وأعرض عن الإنفاق فى سبيل فإن الله فى غِنىً عن ماله فهو غنى بذاته ومستحق للحمد والثناء **«فإن الله هو الغنى الحميد»**.

إنزال الكتاب وإنزال الحديد:

«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب (بمعنى الكتب) **والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز»** (٢٥).

وفى الآية تقرير بأن الله قد أرسل رسله للناس بالحجج والبينات وأنزل عليهم الكتب التي احتوت على شرائع الدين وهى كالميزان تحقق الإنصاف ليتعامل الناس فيما بينهم بالعدل. وخلق الله الحديد تصنع منه أسحلة الحرب لما فيه من شدة وصلابة كما تصنع منه سائر الأدوات التى تنفع الناس في وقت السلم مثل الفؤوس وعجلات العربات وغيرها. إلا أن بعض علماء الفلك المعاصرين (دكتور زغلول النجار. فى حديث تلفزيونى) يرى أن **«وأنزلنا الحديد»** هو إنزال حقيقى ويقول إن الأرض فى مرحلتها الغازية أُمطِرت بوابل من ذرات الحديد الآتية من خارج المجموعة الشمسية فاستقر بعضها فى المركز مكونا اللب الحديدى المنصهر للكرة الأرضية. وبقى البعض قرب السطح وهو ما يستخرج من مناجم الحديد. إلا أن جمهور

المفسرين يرون أن الإنزال هنا بمعنى الخلق كقوله تعالى: **«وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج»** (٦ الزمر). والحقيقة أن الحديد يقع في منتصف الجدول الدورى للفلزات ولا يعقل أن تتكون جميع العناصر - ومنها ما هو أثقل من الحديد وذراته أكثر تعقيدا - بالتخليق أثناء تكوين الأرض ويشذ الحديد بالمجيء من خارج المجموعة الشمسية. ولكن الإعجاز العلمى يأتى من وجه آخر إذ هو إشارة إلى النيازك التى تتساقط وتنزل على الأرض فهى مكوَّنة من حديد نقى. ولما التفت الإنسان إلى صلابتها ثم توصل إلى صهرها بالتسخين أمكنه تشكيلها فى أداوت مثل رؤوس الفؤوس والحراب وإلى خناجر ودروع. ولما أصبحت النيازك لا تفى بكل متطلباته من هذا المعدن بدأ يبحث عنه فى باطن الأرض فوجده مختلطا بكثير من الشوائب فعمل على تنقيته وبزغ على الإنسان «العصر الحديدى».

تذكير بأقوام الرسل السابقين:

«ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون» (٢٦ - ٢٧).

والآيات تقرر ما اقتضته حكمة الله من إرسال الرسل لهداية الناس فقد أرسل نوحا وإبراهيم ومن ذريتهما جاء أنبياء أنزلت عليهم كتب سماوية فاهتدى بها من اهتدى وانحرف عن أمر الله كثيرون. ثم أرسل الله عيسى ابن مريم وقد فرض أتباعه على أنفسهم الرهبانية وهى شىء لم يفرضه الله عليهم. فتفرغوا للعبادة واعتزلوا الناس وتعففوا عن النساء ابتغاء مرضاة الله ولكن كثيرا منهم لم يستطع التمسك بالتزاماتها وغلبتهم طبيعة الجسد فكانت تتم بعض اللقاءات بين الرهبان والراهبات فى أماكن قصية من الأديرة. أما الذى آمن وأخلص فيسؤتيه الله أجره. وقد ذكرنا سابقا أنه لما أثنى الله على النصارى فى سورة المائدة (الآية ٨٢ ص ٧١١) **«ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون»**. أراد بعض الأفراد تقليد الرهبان فاقتضت الحكمة عدم تشجيعهم على ذلك لئلا يقعوا فيما وقع فيه النصارى من قبلهم. ومن الأحاديث النبوية: لا تشدِّدوا على أنفسكم فيُشدد الله عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع والديارات ثم تلا الآية «ورهبانية ابتدعوها..».

دعوة لتقوى الله:

ثم تأتى الآية الخاتمة للسورة تحث على تقوى الله والثبات على الإيمان وتبين الثواب الذى سينالونه حينئذ:

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين (أى نصيبين) **من رحمته ويجعل**

لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم. لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (٢٨ - ٢٩).

مولد إبراهيم ابن النبي:

فى أوائل العام الثاني لوجودها فى بيت النبى أحست مارية القبطية ببوادر الحمل وأفضت إلى النبى الذى سُرَّ أيما سرور. ورجا - وهو قد أشرف على الستين - أن يرزق ابنا - وفى شهر ذى الحجة من سنة ٨ للهجرة وضعت مارية مولودا ذكرا وتصدق الرسول بوزن شعره فضة وسماه إبراهيم تيمنا بالجد الأكبر إبراهيم عليه السلام. وتنافست الأنصار فيمن يرضعه. فاختار النبى مرضعة لولده وجعل فى حيازتها سبعا من الماعز كى ترضعه بلبنها إذا شح ثدياها.

وحمله النبى يوما بين ذراعيه إلى بيت عائشة لترى الصغير فأحسّت عائشة كأن سهما نفذ إلى قلبها وكادت تبكى من الغيظ ولكنها أمسكت عبرتها وقالت: ما أرى بينك وبينه شبها! وأدرك الرسول مدى ما تكابد من الغيرة فانصرف بولده.

أحداث السنة التاسعة للهجرة

محرم	———
صفر	———
ربيع الأول	———
ربيع الثانى	———
جمادى الأول	إسلام كعب بن زهير.
جمادى الثانى	———
رجب	غزوة تبوك.
شعبان	وفاة أم كلثوم.
	الوفود.
رمضان	إسلام ثقيف وهدم اللات.
	موت عبد الله بن أبىّ بن سلول.
	توالى الوفود.
	سورة النصر.

شوال		بعثة خالد بن الوليد إلى اليمن.
		فضح أقوال المنافقين.
		تآمر المنافقين لقتل النبى.
ذو القعدة	٢٠	حج أبى بكر بالناس.
		سورة براءة.
ذو الحجة		مسجد الضرار.
		الثلاثة.
		إبراهيم عمره سنة.

إسلام كعب بن زهير:

كان كعب بن زهير بن أبى السلمى شاعرا يهجو رسوله الله فأخبره أخوه «بجير» أن رسول الله قد أهدر دمه ونصحه إما بالتوجه إلى رسول الله ليتوب فيحقن دمه أو يهرب إلى مكان آخر فى الأرض. وانتوى كعب بن زهير التوبة. فقدم المدينة ودخل المسجد وكان رسول الله قد انتهى من صلاة الصبح واعتذر كعب وتاب عما قال ثم أعلن إسلامه فقبل النبى إسلامه وأمَّنه فقال قصيدة من ٥٨ بيتا مطلعها:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ∴ متيم عندها لم يُفدَ مكبول

وفيها يقول:

نبِّئت أن رسول الله أوعدنى ∴ والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ∴ ـقرآن فيه مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنِّى بأقوال الوشاة ولم ∴ أذنب ولو كثرت فىَّ الأقاويل

وختمها بقوله:

إن الرسول لنور يستضاء به ∴ مهند من سيوف الله مسلول

فقال له الرسول: لولا ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل. فقال كعب ١٣ بيتا يمدح الأنصار جاء فيها:

من سرَّه كرم الحياة فلا يزل ∴ فى مِقْنَب من صالحى الأنصار

ورثوا المكارم كابرا عن كابر ∴ إن الخيار هم بنو الأخيار

غزوة تبوك

كان العرافون قد أخبروا هرقل امبراطور الروم أن ملكه سيزول على يد شعب مختون. وأول

ما يتبادر للأذهان أن الشعب المختون هم اليهود وهم الذين كانوا دائما يقومون بثورات ضد الحكم الرومانى لذلك فقد صبّ الإمبراطور جام غضبه على يهود فلسطين مما اضطر كثيرين منهم إلى الفرار إلى بلدان أخرى.

ولما بدأ الإسلام ينتشر فى الجزيرة العربية وبعد وصول دحية الكلبى يحمل كتاب رسول الله إلى هرقل كما سبق أن ذكرنا (ص ٧٢٣) عادت النبوءة تؤرقه. فالعرب شعب مختون وها هو قد بدأ يتوحّد تحت راية الإسلام فبيَّت النية على الهجوم على هذه الدولة الوليدة قبل أن يشتد أمرها. ووصلت الأنباء بأن الروم قد حشدوا قوات كبيرة فى الشام وأنهم بعثوا بطليعة قواتهم إلى شرق الأردن وأن الجيش سار جنوبا حتى أصبح على بعد حوالى ١٥كم شمال تبوك وعسكر هناك.

سـورة التوبـة :

نزلت الآيات الأولى (من ١ – ٢٨) من **سورة التوبة** أو كما تُسمى **سورة براءة** – وأبو بكر الصديق فى طريقه للحج بالناس فى أواخر السنة التاسعة للهجرة وقام على بن أبى طالب بتبليغها إلى أبى بكر لما بها من تعليمات بخصوص عهود المسلمين مع المشركين وأمر بمنع المشركين من ارتياد المسجد الحرام وسيأتى تفصيل ذلك فيما بعد (ص ٨٢٠ – ٨٢٤).

بعد ذلك تأتى آيات تحث على قتال أهل الكتاب والمفهوم أنهم الروم الذين جمعوا لحرب المسلمين.

«قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرّمون ما حرم الله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله. ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل. قاتلهم الله أنى يؤفكون. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون» (٢٩ – ٣١ – براءة).

وتشرح هذه الآيات أن أسباب قتال أهل الكتاب هى:

١ – **عدم الإيمان بالله**. فقد أهمل هرقل كتاب النبى بالرغم مما هو مكتوب فى الإنجيل من أوصاف النبى الخاتم.

٢ – **«ولا يُحرِّمون ما حرم الله ورسوله»** وفى هذا إشارة إلى ما أعطاه الأحبار والرهبان لأنفسهم من سلطان ادعوا أنهم استمدوه من الله أو من المسيح فراحوا يحرمون أشياء ويحلون أشياء لم ينزل بها شرع الله والناس تطيعهم فكأن الناس قد اتخذوهم أربابا من دون الله.

٣ – **الإشراك بالله**: فاليهود قالوا عزير ابن الله والنصارى قالوا المسيح ابن الله وهم بذلك يشابهون قول الذين كفروا والذين يقولون إن الملائكة بنات الله.

٤ – **الكيد للإسلام:** ذلك أن أهل الكتاب كثيرا ما كانوا يكيدون للمسلمين ويتآمرون مع الكفار للقضاء على الإسلام. فقد رأينا كيف تحالف اليهود مع كفار قريش فى غزوة الخندق. وها هو هرقل يجمع جيشا من الرومان النصارى وضم إليه المشركين من العرب القاطنين فى شمال الجزيرة العربية وانضم إليهم عرب الغساسنة وهم على دين النصرانية – وكان هدف هذا الجمع هو إخماد الدعوة الإسلامية. فكأنهم **«يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم»** أى بأقوالهم ودسائسهم. كما أن فيها تشبيه بمن يريد أن يطفىء نارا عظيمة بالنفخ فيها بفمه. وطبعا لن يفلح. وسيتم للإسلام ما أراده الله له من رفعة وعلو وانتشار:

«يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق (أى بالإسلام) **ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله. والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»** (٣٢ – ٣٥).

وكان الأحبار والرهبان يحصلون من الناس على أموال كثيرة إما نقدا أو عينا كفارات لذنوبهم وكانوا يستحلون لأنفسهم ما يقدمه الناس من النذور فى هيئة أموال أو ذبائح ويكنزون لأنفسهم من وراء ذلك الذهب والفضة والآية تنطبق على البخلاء من كل دين وتشمل المسلمين أيضا. ويقول الشيخ متولى الشعراوى إن أول ما يفعله البخيل عندما يسأله فقير أو مسكين هو أن يعرض عنه بوجهه. ثم يوليه جنبه ثم يعطيه ظهره فكان ترتيب ما يُكوى منه هو الجبهة ثم الجنب ثم الظهر. وهذا العقاب ينتظر البخلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا يؤدون عنها زكاة مالهم. وفى حديث روى عن أم سلمة أن النبى قال ما أُدِّىَ زكاته فليس بكنز. وحديث آخر عن أبى هريرة: إذا أديتَ زكاة مالك فقد قضيت ما عليك. كما أن هذه الآية فى هذا الموقف بالذات – موقف التجهيز لجيش لحرب الروم – فيها حث للمسلمين على البذل فى سبيل الله وتحذير من البخل بأموالهم لأنها ستكون وبالا عليهم يوم القيامة.

ذكرنا أن النبى رأى أن لا ينتظر حتى يغزوه الروم بل استنفر المسلمين ليخرج بهم للقاء العدو. وجمع أكبر عدد ممكن من المسلمين من البدو والحضر. وبعث إلى أهل مكة يستنفرهم ويحض أهل الغنى على النفقة والإنفاق فى سبيل الله كما بعث رسلا إلى القبائل. فبعث بريدة بن الحصيب إلى الفرع وأبا رهم الغفارى إلى قومه وأبا واقد الليثى إلى قومه وأبا جعدة الضمرى إلى قومه بالساحل ورافع بن مكيث إلى جهينة ونعيم بن مسعود إلى أشجع وبديل بن ورقاء وعمرو بن سالم ويسر بن شعبان إلى بنى كعب. والعباس بن مرداس إلى بنى سليم. واستجابت كثير من القبائل فبلغ ما تجمع من جند ٣٠,٠٠٠ منهم ١٠,٠٠٠ فارس. وقد سمى «جيش العسرة» بسبب كون الوقت كان صيفا قائظا وحالة المسلمين الاقتصادية سيئة والشقة

بعيدة. وقد اعتاد النبى أن يُكنِّى ولا يفصح عن المكان الذى يقصده إلا أنه فى هذه الغزوة صرَّح لهم بقصده ليكونوا على أهبة الاستعداد. فبدأ الناس يتجهزون ويعدون الرواحل والزاد. إلا أن المنافقين راحوا يثبطون الناس ويقولون لا تنفروا فى الحر فنزلت الآية ترد عليهم:

«وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون».

وبلغ رسول الله أن ناسا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس عن الجهاد فبعث إليهم طلحة بن عبدالله فى نفر من أصحابه وأمره أن يُحرِّق عليهم مكان اجتماعهم. ففعل طلحة كما أمر النبى. وراح النبى يحضُّ أهل الغنى على الإنفاق في سبيل الله فأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة. قيل إنه جهَّز عشرة آلاف رجل رجل وأمدَّهم بـ ٩٠٠ بعير و١٠٠ فرس والزاد. وفيه قال رسول الله: اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راضٍ. ثم جاء عثمان بألف دينار ووضعها فى حجر النبى فقال النبى: ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم. وجاء أبو بكر بجميع ماله ٤٠٠٠ درهم وسأله النبى: هل أبقيت لأهلك شيئا فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية. وتبرع غيرهم من الصحابة بكثير من المال. كما تبرع المسلمون ومتوسطو الحال كل بما قدر عليه وكان من الفقراء رجل اسمه أبو عقيل جاء إلى النبى وقال: أجرت نفسى حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت بأحدهما وأتيتك بالآخر. فأخذ المنافقون يلمزون الأغنياء ويتهمونهم أنهم ما تبرعوا إلا رياء ويسخرون من أبى عقيل ويقولون إن الله ورسوله لغنيَّان عنه وأنه لم يأت بصاعه إلا ليُذكر بين الناس!

وبدأ بعض المنافقين يتحجون بأن سيرهم فى هذا الوقت سيدخلهم فى قتال فى الأشهر الحرم ذلك أن الكفار كانوا في العام السابق قد اعتمدوا على قاعدة النسىء وأخَّروا شهر رجب مكان شعبان فأصبح ترتيب الأشهر هكذا: شعبان. رجب. رمضان. ذو القعدة. ذو الحجة محرَّم. فنزلت الآيات تعيد ترتيب الأشهر إلى أصلها فإن كانت معركة فستقع فى شهر شعبان وهو ليس من الأشهر الحرم:

«إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم. ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم. وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين. إنما النسىء زيادة فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحلُّونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرَّم الله فيُحلوا ما حرَّم الله. زُيِّن لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين» (٣٦ - ٣٧).

والآيات تُقرُّ ما كان العرب قد فعلوه من تحريم القتال فى أربعة أشهر فَحُرِّم شهر ذو القعدة قبل شهر الحج لأنهم يقعدون فيه عن القتال. ثم شهر ذو الحجة لأنه شهر الحج ثم محرَّم ليرجعوا فيه إلى بلادهم آمنين. وحُرِّم رجب فى وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به والعودة فى أمان.

وبعد أن أزالت الآيات الاعتراض الذى أبداه المنافقون بالنسبة لوقوع القتال فى شهر من الأشهر الحرم. جاء حث للمسلمين للتحمس للجهاد فقد كان بعضهم يعد العدة فى شىء من التثاقل والتباطؤ. فوبَّختهم الآيات على ذلك:

«يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثَّاقلتم إلى الأرض. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الأخرة إلا قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير» (٣٨ - ٣٩).

ولإزالة أى تخوُّف من قوة العدو التى بلغت أضعاف جيش المسلمين ذكرتهم الآيات بتأييد الله لرسوله عند خروجه من مكة مهاجرا إلى يثرب وليس معه إلا أبو بكر ولجأ إلى الغار فأيده الله بجنود غير مرئية والمعنى أن تأييد الله قائم وسيكون فى جانبهم وأنهم إذا لم ينفروا يعرِّضون أنفسهم لغضب الله وعذابه:

«إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا. فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم. انفروا خفافا وثقالا (أى حاملى سلاح خفيف أو سلاح كامل ثقيل) **وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله. ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون»** (٤٠ - ٤١).

فضح المنافقين :

كان فتح مكة ضربة قاصمة للكفر والكافرين تداعت بعده قلعة الشرك والأوثان وتم هدم جميع الأصنام التى كانت مقامة حول الكعبة وداخلها وأرسل النبى السرارى لهدم الأصنام المشهورة فى القرى المجاورة. وعلى العموم فقد كان الكفار عدوا ظاهرا يسهل تحديده والتوقِّى منه ومحاربته. أما الخطر الحقيقى الذى أصبح يتهدد الإسلام - بعد تداعى الكفر - فكان النفاق والمنافقين إذ هم يُظهرون الإسلام ويبطنون عداوته. وبدأ اليهود - قبل إجلائهم عن المدينة فى استمالة فريق من ضعاف النفوس فتكونت فرقة المنافقين. وقد مرَّ بنا ما قالوه وفعلوه ومواقفهم من المعارك التى خاضها النبى ضد أعدائه: بدر وأحد والخندق. ولما تم إجلاء اليهود عن المدينة أصبح المنافقون طابورا خامسا خفيا يتهدد الدولة الإسلامية الوليدة ويحاول الفتَّ فى عضد المحاربين. ولقد علم الله عز وجلَّ أن غزوة تبوك هى آخر غزوات الرسول فكانت مناسبة لكشف هؤلاء المنافقين وفضح أعمالهم وأكاذيبهم وكشف أسرارهم. فجاءت سورة براءة وفيها تصوير دقيق لصنوف النفاق وأساليبه ولذلك سمَّاها بعض الصحابة «الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين وسميت أيضا «المقشقشة و المنقرة والمخزية والحافرة» وكلها أسماء تدور حول معنى كشف النفاق وأيضا سميت «سورة العذاب» لما توعَّدت به المنافقين من عذاب (تفسير الألوسى جـ١٠ ص ٤٠). وفى السورة كشف واسع لطباع اللؤم والخداع والحقد

والحسد عند المنافقين وفيها تحدٍّ ووعيد لهم وشد لأزر المسلمين وعتاب وتوبة لقليل من المؤمنين الذين حادوا عن السلوك القويم.

ولعل وقوع الغزوة فى الصيف – وكان صيفا شديد الحرارة – كان امتحانا لقوة الإيمان. إذ هو عسير على النفس أن تترك مقامها وراحتها وطيب الظل للسير فى الصحراء القاحلة والحر القائظ إلى سفر بعيد للقاء عدو كثير العدد ولكن من كان إيمانه قويا يتحمل هذه المشاق فى سبيل الله ويلبى أمر النبى دون تردد. أما المنافقون فقد راحوا يقدمون الأعذار حتى لا يخرجوا للقتال فنزلت الآيات تفضحهم وتُسجِّل عليهم أنه لو كان ما دعوا إليه غنيمة قريبة المنال أو رحلة قصيرة قليلة العناء لاتبعوه حرصا منهم على المنفعة المادية ولكنهم رأوا المسافة بعيدة والرحلة شاقة والغنم غير مؤكد ورجحان الخطر كبير. وكان كل ذلك امتحانا لقوة الإيمان فراح المنافقون يتثاقلون عن الخروج ويحلفون للنبى أنهم لا يستطيعون الخروج معه فى حين أن الله يعلم كذبهم. وكان قبول النبى أعذارهم وسماحه لهم بالتخلف خطأ عوتب عليه النبى عتابا رقيقا بقوله تعالى: **«عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم»** وكان الأحرى أن لا يأذن لهم حتى تظهر حقيقة أمرهم. ولو كان فى نيتهم الخروج معه ثم منعهم عذر طارئ لكانوا قد أعدُّوا عدة الخروج ولكنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك فدلَّ على نيتهم من البدء فى التخلف وعدم الخروج فحق عليهم أن يقال لهم – تحقيرا لشأنهم – اقعدوا مع القاعدين العاجزين كالصبيان والنساء والطاعنين فى السن والمرضى:

«لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا» (رحلة قصيرة) **لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون. عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين. لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون. ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عُدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين. لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا** (اضطرابا) **ولأوضعوا خلالكم** (مشوا بينكم بالنميمة والإفساد) **يبغونكم الفتنة وفيكم سمَّاعون لهم والله عليم بالظالمين. لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلَّبوا لك الأمور** (بذلوا جهدهم فى الكيد) **حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون»** (٤٢ – ٤٨).

ومن الأعذار التى راح بعض المنافقين يتحجَّجُون بها ماروى من أن الجد بن قيس من بنى سلمة الأنصارى حضر إلى النبى فقال له النبي: يا جد. هل لك فى جلاد بنى الأصفر (يعنى الروم) فقال يا رسول الله أوَ تأذن لى ولا تفتنى فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء منى وإن لأخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألاّ أصبر. ولكن أعينك بمالى. فأعرض عنه النبى ثم قال: قد أذنت لك. ولما علم ابنه عبدالله – وكان ممن شهدوا بدرا وكان

صادق الإيمان – لام أباه. فقال له أبوه: مالى وللخروج فى الريح والحر الشديد والعسرة إلى بنى الأصفر وأنا أخالفهم فى منزلى وإنى عالم بالدوائر أى يتوقع هزيمة المسلمين. ونزل قوله تعالى:

«ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى. ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» (٤٩).

ثم راحت الآيات تفضح حقيقة شعور المنافقين ودخائل أنفسهم وأنهم إذا أصاب المسلمين خير استاءوا واغتاظوا ولو أصابتهم مصيبة وهزيمة حمدوا ما اعتبروه من الحذر والاحتياط بعدم الخروج. وتأمر الآيات النبى أن يخبرهم بأنه لن يصيب أحداً إلا ما كتب الله عليه. وعلى كلٍّ فلا ينتظر المسلمين إلا إحدى العاقبتين الحميدتين: إما النصر والغنيمة فى الدنيا وإما الاستشهاد فى سبيل الله والفوز بالجنة فى الآخرة وفى المقابل فإن المنافقين ينتظرهم إما عذاب من الله أو ذلة على أيدى المسلمين.

«إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون. قل هل تربَّصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون» (٥٠ – ٥٢).

وكان بعض المنافقين – كما سبق أن ذكرنا – قد طلبوا من النبى أن يأذن لهم بالقعود على أن يعينوه بالمال دون النفس فنزلت الآيات تبين لهم أن ما يودُّون إنفاقه – إما طوعا أو رغما عنهم بضغط الظروف والموقف – لن يقبل منهم لأنهم كفروا بالله ورسوله ومن علاماتهم أنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا كرها عنهم مع كثرة أموالهم والتى ستكون سببا فى عذابهم فى الدنيا لأنهم بخلوا بها ولم ينفقوها فى سبيل الله وسيموتون كفارا والمفهوم أن لهم نار جهنم فى الآخرة.

«قل أنفقوا طَوعا أو كَرها لن يُتقبَّلَ منكم إنكم كنتم قوما فاسقين. وما منعهم أن تُقبل منهم نفقاتُهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون. فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون» (٥٣ – ٥٥).

وكان فريق من المنافقين يحلفون للمسلمين أنهم معهم وفى الحقيقة أنهم ليسوا كذلك بل دفعهم إلى ذلك خوفهم وأنهم لو وجدوا مكانا يعتصمون به لأسرعوا إليه يختفون فيه:

«ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يَفْرَقون (يخافون)**. لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدَّخلا لولَّوا إليه وهم يجمحون** (مسرعون)**»** (٥٦ – ٥٧).

وراح بعض المنافقين ينسبون إلى النبى محاباة القرشيين فى العطايا وقد سبق أن ذكرنا (ص ٧٨٠) توزيع غنائم هوازن وإغداق النبى على المؤلفة قلوبهم وراح المنافقون يوغرون صدور بعض الأنصار ويلمحون إلى أن المحاباة قد تكون أيضا فى المستقبل فى الصدقات التى تؤتى إلى النبى ليتصرف فيها بما يرى من أوجه الإنفاق. وكان الأولى بالمؤمنين حقا أن يرضوا بقسمة الرسول لأنها بأمر من الله ويكفى ما فضَّلهم الله به من عودة رسول الله معهم إلى يثرب. ثم بينت الآيات مصارف الصدقات كما فرضها الله سبحانه وتعالى وهى ثمانية:

«ومنهم من يلمزك (يطعن فيك) **فى الصدقات** (فى طريقة توزيعها) **فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون. ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون. إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب** (فداء الأسير وعتق الأرقاء) **والغارمين** (قضاء دين العاجز عن الأداء) **وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم»** (٥٨ – ٦٠).

والنص على أن ذلك «فريضة من الله» يعنى أن إعطاء المؤلفة قلوبهم لم يكن عن محاباة لقريش أو لقومه بل كان بأمر من الله.

كذلك كان بعض المنافقين فى مجالسهم الخاصة يقدحون فى النبى وحذر بعضهم بعضا من أن يصل خبر هذه المجالس إليه متهمينه بأنه «أذن» أى كما نقول بالعامية «ودَنى» أى سريع التصديق لكل ما يقال له. فردَّت الآيات على قولهم هذا بأنه أذن خير وليس ظنَّان سوء بالمؤمنين المخلصين بل هو رحمة لهم ويصدِّق ما قد يقدمونه من تفسيرات لأفعالهم أما الذين يتعمدون إيذاء الرسول فلهم عذاب أليم:

«ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن. قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم. والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم» (٦١).

ثم تذكر الآيات مواقف بعض المنافقين الذين كانوا يقدحون ويعيبون في حق النبى فى مجالسهم فإذا أطلع اللهُ رسولَه على ما قالوا راحوا يحلفون منكرين ماقالوا ويتنصلون مما عوتبوا عليه إرضاء للنبى والمؤمنين وكان الأولى بهم أن يرضوا الله ورسوله بالكف عن أقاويلهم وافتراءاتهم التى يقولونها فى مجالسهم:

«يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين. ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم» (٦٢ – ٦٣).

وكان بعض المنافقين يخشون أن يُطلع الله رسوله – بسورة ينزلها – على ما يقولون في مجالسهم الخاصة. وكان بعضهم إذا جوبهوا بما قالوا يعتذرون بأنهم قالوه على سبيل المزاح وتستنكر الآيات موقفهم هذا الذى ينطوى على استهزاء بالله وبرسوله ثم تخبرهم أن اعتذارهم مرفوض فهم قد كفروا. وتقرر أن الأمر موكول إلى الله فبيده العفو عن التائبين المخلصين فى توبتهم أما المجرمون المصرُّون على موقفهم فلهم عذاب أليم:

«يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم. قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون. ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب. قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم. إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين» (٦٤ – ٦٦).

وتعقيبا على ما جاء فى الآيات السابقة من مواقف المنافقين ومكائدهم وسوء أدبهم وسوء نواياهم جاءت آيات تصف أخلاقهم بصورة عامة وكونهم عصبة واحدة تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف ويبخلون بما فى أيديهم فلا ينفقون فى سبيل الله لأنهم نسوا الله فنسيهم وأعرضوا عنه فأعرض عنهم. ثم يأتى تحذير مما أعدّ الله لهم من عذاب خالد فى نار جهنم ثم تقريع لهم وتقرير بأنهم ليسوا بدعا من الأمم لا فى كثرة المال أو الولد ولا فى متاع الدنيا ولا حتى فيما لهم من كيد وخوض فى الباطل. فحبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة. والمعنى أن نفس المصير سيكون من نصيب المنافقين ويكفيهم عبرة ما حدث من أقوام الأنبياء السابقين الذين كذّبوا رسلهم فنزل بهم العذاب جزاء وفاقا ولم يكن الله ليظلمهم ولكنهم بتكذيبهم ظلموا أنفسهم.

«المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم. نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون. وَعَد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم. كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم (فى الباطل والطعن فى النبى) **كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون. ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقومِ إبراهيم وأصحابِ مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»** (٦٧ – ٧٠).

وفى مقابل تكاتف المنافقين على الشر جاءت آيات تبين تضامن المؤمنين وتَناصُرهم على كل ما فيه خير ونهيهم عن كل ما هو منكر، وأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله. ولهذا سيكونون موضع رحمة اله ووَعدَهم بالخلود فى مساكن طيبة فى جنات عدن بالإضافة إلى ما يفوق ذلك فى مداه ومعناه وهو رضوان الله عليهم وهو حقيقةً أعظم النعم.

«والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله. أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم. وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر. ذلك هو الفوز العظيم» (٧١ – ٧٢).

فى حديث رواه الشيخان والترمذى أن النبى قال: إن الله تعالى يقول لأهل الجنة. يا أهل الجنة. فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك. فيقول هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا

نرضى يارب وقد أعطيتنا مالم تُعْطِ أحدا من خلقك. فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأى شىء أفضل من ذلك فيقول: أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً.

ثم يأتى أمر بجهاد الكفار والمنافقين:

«**يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير**» (٧٣).

وقالوا مجاهدة الكفار بالقتال والسيف والمنافقين بالإغلاظ لهم بالكلام حتى يرتدعوا.

أبو عامر الراهب ومسجد الضرار:

وهكذا مضى النبى يُجَهز للغزوة مجاهدا أراجيف المنافقين ومنددا بتخاذلهم وتثبيطهم لبعض ضعاف الإيمان. وكان بالمدينة – قبل هجرة النبي إليها رجل من الخزرج يقال له «أبو عامر الراهب» كان قد ترك الشرك وتنصَّر وكان له شرف كبير فى الخزرج. وقد ذكرنا سابقا (ص ٤٣٩) أنه لما قدم النبى إلى المدينة قال له أبو عامر: ما الذى جئت به؟ قال جئت بالحنيفية دين ابراهيم. فقال أبو عامر. أنا عليها فقال له النبى إنك لست عليها. قال بلى ولكنك أنت أدخلت عليها ما ليس فيها. فقال له النبى: ما فعلتُ وقد جئت بها بيضاء نقية. فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريدا شريدا وحيدا. فقال النبى آمين. فقال أبو عامر: لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم. فلما استقر النبى فى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر لم يطق أبو عامر صبرا فخرج فارا إلى قريش يمالئهم على حرب النبى فقال عنه النبى: هو أبو عامر الفاسق.

وفى وقعة أحد كان أبوعامر هو الذى أشار بحفر الحفائر فيما بين الصفين فوقع رسول الله فى إحداها وأصيب فى وجهه وشُجَّ رأسه. ولما انتهت معركة أحد ورأى أبوعامر أن أمر النبى فى ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى فوعدة ومنَّاه فأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من أهل يثرب – من المنافقين – يعدهم بأنه سيقدم بجيش يقاتل به المسلمين ويخرجهم من المدينة وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه ويجمعون فيه المنافقين أمثالهم. وحتى لا تثير اجتماعاتهم الشك رأوا أن يكون هذا المعقل مسجدا. وبعد بنائه أتوا إلى النبى وقالوا له: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة وإنَّا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه. فقال لهم إنى على جناح سفر ولو قدمنا إن شاء اله لأتيناكم فصلَّينا لكم فيه.

قلنا إن جيش المسلمين بلغ ٣٠,٠٠٠ والخيل ١٠,٠٠٠ فارسا وتجمع الكل فى معسكر عند ثنية الوداع بعد أن استعمل النبى على المدينة محمد بن سلمة الأنصارى وخلَّف على بن طالب على أهل بيته.

ولم يتوقف المنافقون عن بث سمومهم والتثبيط عن الحرب. من ذلك أنَّ عبدالله بن أبيّ بن سلول – رأس المنافقين – وكما هو متوقع – لم يشترك في الاستعداد للقتال بل قال في شماتة. يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد. يحسب محمدٌ أن قتال بني الأصفر لعب. والله كأنما أنظر إلى أصحابه مقرنين في الجبال. واجتمع نفر من المنافقين يرددّون قول عبدالله بن أبيّ: أيحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا. والله لكأنهم غدا مقرنون فى الحبال. وبلغ رسول الله مقالتهم فأمر عمار بن ياسر أن يسير إلى المنافقين ويسألهم عما قالوا فإن أنكروا فيقول لهم بل قلتم كذا وكذا. ففعل عمار كما أمره الرسول فاعتذروا إليه وقالوا إنما كنا نخوض ونلعب.

وجاء نفر من الأعراب يستأذنون النبى فى القعود وكانوا ٨٢ رجلا قيل إنهم جماعة من بنى غفار وقيل من أسد وغطفان. وقيل إنهم رهط عامر بن الطفيل. وهؤلاء الأعراب ادعوا أن لهم عذرا. والحقيقة أن معظمهم لم يكن له عذر فكانوا من المنافقين.

وتخلف بعض المسلمين أيضا بغير عذر وكانوا ممن لا يُتَّهمون فى إسلامهم، ولعلهم رأوا أن الجيش وقد بلغ ٣٠٠٠٠ فيه الكفاية وكان من هؤلاء **ثلاثة** أشار إليهم القرآن فيما بعد (ص ٨١٠) وهم: كعب بن مالك ومرارة بن ربيع العامري وهلال بن أمية الواقفى. وقد ورد في كتب السيرة مارواه كعب بن مالك عن نفسه إذ أقرَّ بأنه لم يكن قط أقوى ولا أيسر منه فى هذه الغزوة وكان عنده راحلتان واحدة لركوبه والثانية لزاده. ولكنه تكاسل ولم يخرج مع الجيش بنية أن يلحق به فيما بعد ولكنه راح يؤجل خروجه يوما بعد يوم.

وتأهب رسول الله للسير فعقد اللواء الأعظم لأبى بكر الصديق ورايته العظمى للزبير بن العوام وراية الأوس لأسيد بن حضير وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر. ودفع لكل بطن من بطون الأنصار ومن قبائل العرب لواء وقطع الجيش ثلاثة أميال ثم نزل **بالجرف**. ولما كانوا بمنزل فى الطريق ضلَّت ناقة رسول الله فخرج أصحابه فى طلبها وكان هناك رجل منافق فقال: أليس محمد يزعم أنه نبى ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته! وعلم رسول الله بما قال المنافق فقال لأصحابه. إن رجلا قال كذا وإنى والله لا أعلم إلا ما علَّمنى الله وقد دلَّنى عليها وهى فى الوادى فى شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتونى لها فذهبوا وجاءوا بها. وقيل إن هذا المنافق تاب بعد ذلك.

المنافقون يُرجفون بعليّ: قلنا إن رسول الله خلَّف على بن أبى طالب فى أهل بيته فقال المنافقون ما خلَّفه إلا استثقالا له وتخففا منه. فأخذ عليّ سلاحه وفرسه وسار حتى لحق بالنبى وهو نازل بالجرف وأخبر النبى بما قال المنافقون. فقال النبى كذبوا. ولكنى خلفتك لما تركت ورائى فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك. أفلا ترضى يا عليّ أن تكون منى بمنزله هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى؟ فهدأت ثائرة عليّ ورجع إلى المدينة.

وتابع رسول الله سيره حتى بلغوا **الحجر** ديار ثمود. فقال النبى: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفا أن يصيبكم ما أصابهم. ونهى الناس أن يشربوا من مائها شيئا ولا يتوضؤوا به للصلاة. ثم ارتحل حتى نزل علي البئر التى كانت تشرب منها ناقة صالح وسمح لهم باستعمالها. ثم قلَّب وجهه في السماء وأخبرهم أنه تهب عليهم الليلة ريح شديدة وأمرهم بإحكام شد عقال بعيرهم ونهاهم عن الخروج فى تلك الليلة وإذا دعت امرأً حاجة للخروج فيخرج ومعه صاحبه. وخرج واحد منفردا فاحتملته الريح حتى ألقته بجبلى طيئ فبقى هناك حتى أعادته طيئ إلى المدينة - وخرج آخر منفردا فضلَّ الطريق من كثافة الغبار واختنق ومات.

وكان **أبو ذر الغفارى** قد تخلف عن الجيش عند بدء مسيره ولكنه بعد يومين قرر اللحاق برسول الله فركب ناقته وأسرع يقتفى أثر الجيش ولكن الناقة ضعفت عن السير فأخذ أبو ذر متاعه وحمله على ظهره وسار حتى لحق برسول الله. ولما رآه رسول الله يسير وحده قال: رحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده. وتروى كتب التاريخ أن عثمان بن عفان - فى خلافته - نفى أبا ذر إلى الربلة فى جنوب العراق لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه. فلما توفي وضعاه على قارعة الطريق وطلبا من المارة إعانتهم على دفنه. وعلم بعض أهل العراق بذلك فقالوا: صدق رسول الله إذ قال له تمشى وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك!

أبو خيثمة وعمير بن وهب يلحقان برسول الله:

قال ابن هشام (السيرة النبوية جـ٤ ص ١٠٠) إن أبا خيثمة رجع من سفر بعد أن كان رسول الله قد سار أياما فوجد امرأتيه قد تهيأتا له. فقال: رسول الله فى الضح والريح والحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء! ما هذا بالنَّصَف (العدل) والله لا أدخل عريشى حتى ألحق برسول الله. فهيئتا له زادا وارتحل ليلحق برسول الله. وفى الطريق قابل عمير بن وهب الجمى يريد هو الآخر اللحاق برسول الله حتى إذا دنوا من تبوك وقبل أن يمكن رؤيتهما أخبر رسول الله أصحابه بأنهما أبوخيثمة وعمير بن وهب فلما وصلا دعا الرسول لهما بخير.

ذو البجادين: قال عبد الله بن مسعود إنه قام في جوف الليل فى غزوة تبوك فرأى شعلة من نار فى ناحية من المعسكر فلما ذهب إليها وجد أن عبدالله ذو البجادين المزنى قد مات والرسول وأبو بكر وعمر قد حفروا له حفرة ودلَّياه فيها. وقال الرسول: اللهم إنى أمسيت راضيا عنه - وقد سمى ذا البجادين لأنه لما أسلم ضيَّق عليه قومه حتى تركوه فى بجاد أى كساء خشن ليس عليه غيره. وفى المعركة شق بجاده وائتزر بنصف واشتمل بالنصف الآخر فسمى «ذو البجادين».

وكان فى الطريق وادى يسمى **«وادى المشقق»** وكان به وَشَل وهو الماء القليل يتقطر من

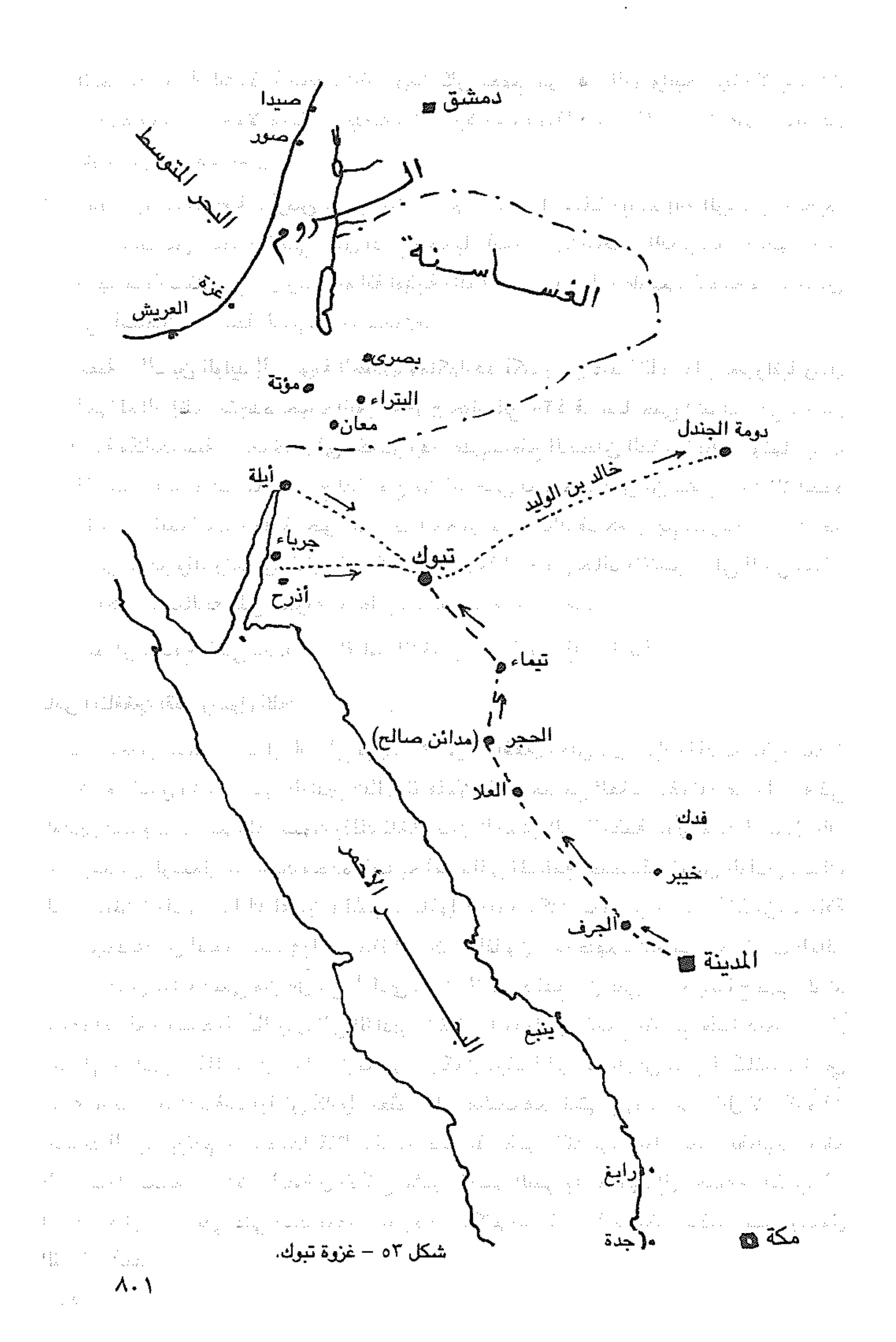
جبل أو صخرة مرتفعة فلا يتجمع منه إلا ما يروى شخصين أو ثلاثة فقال رسول الله: من سبقنا إلى ذلك الوادى فلا يستقين منه شيئا حتى نأتيه . ولعل رسول الله أراد أن يبارك هذا الوشل فيزيد ماؤه أو يدعو الله فيتحول إلى عين جارية يستقى منها الجميع. ولكن نفرا من المنافقين سبقوا رسول الله إلى الوشل وشربوا ما كان فيه من ماء فلما وصل رسول الله لم يجد به ماء وأُخبِر أن فلانا وفلانا قد سبقوا إليه فلعنهم ودعا عليهم. ثم نزل ووضع يده تحت الوشل فبدأ الماء ينسال منه ودعا رسول الله ربه وازداد انسياب الماء حتى استقى القوم كلهم وقال النبى: لئن بقيتم أو من بقى منكم لتسمعن بهذا الوادى وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه.

وسار الجيش حتى بلغ مشارف **تبوك** بعد سبعة أيام من خروجه من يثرب وبعث رسول الله بدحية الكلبى بكتاب إلى هرقل يدعوه إلى اختيارات ثلاثة: أن يسلم أو يدفع الجزية أو الحرب. واستشار هرقل رجال البلاط الذين رفضوا الإسلام فلم يبق إلا الحرب.

تسكت كتب السيرة عما حدث بعد ذلك ولا تذكر إلا أن الروم قد انصرفوا من تبوك عائدين إلى الشام وأن النبي أقام بتبوك بضع عشرة ليلة ثم انصرف قافلا إلى المدينة. وما نراه هو أن الروم لما اختاروا الحرب رأى قواد الجيش أن الروم على غير دراية بحرب الصحراء. ولما كانت تبوك تقع قرب الحدود الجنوبية لدولة الغساسنة وهم من العرب. صحيح أنهم نصارى على ديانة الروم إلا أنه لا يستبعد أن تثور فيهم نخوة القبلية العرقية فينتقضوا عليه وينضموا إلى إخوانهم العرب ويهاجموا مؤخرة جيشه لذلك أشار القواد بأن يقوموا باستدراج المسلمين شمالا حتى يصبحوا داخل أراضى تدين بالولاء الكامل للروم ويمكن إجهاد جيش المسلمين بهجمات سريعة على جوانبه وبعد ذلك يصبح غنيمة سهلة. واستراح هرقل لهذه الخطة وانسحب جيش الروم إلى دمشق. وكان فى ذهن هرقل احتمال آخر وهو أن لا يستجيب المسلمون لهذا الاستدراج فلا تقع حرب. ولعل هرقل – كما تذكر كتب السيرة – قد أيقن أن «محمدا» هو النبى الذى تنبأت كتبهم وكتب اليهود بظهوره ولا شك أنه تمنى أن لا يحاربه. وعلى الجانب الآخر فإن رسول الله اكتفى بمسيره إلى تبوك وانسحاب جيش الروم منها إذ كان ذلك فى حد ذاته نصرا معنويا كبيرا أعلا من مركز الإسلام فى شمال شبه الجزيرة العربية وجعل قبائلها تسلم أو تصالح النبى على الجزية.

مصالحة ملوك شمال شبه الجزيرة العربية:

١ – **أيلة**: تقع أيلة على الطرف الشمالى لخليج العقبة. ولما رأى ملكها يوحنا بن رُؤْبة ما انتهى إليه الموقف بين النبى والروم وإحجام الروم عن محاربة النبى – فإنه أتى النبى فى تبوك وصالحه علي دفع الجزية وكتب النبى له كتابا جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أَمَنَة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة. سفنهم وسيارتهم فى البر



شكل ٥٣ – غزوة تبوك.

والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم ومن أهل البر والبحر وأنه لا يحل أن يمنعوه ماء يَرِدُونه ولا طريقا يريدونه من بر ولا بحر» وبذلك أمن المسلمون على تجارتهم المارة إلى الشام ومصر.

٢ – **أهل جرباء وأذرح فى أرض مدين:** وكتب لهم رسول الله كتابا «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبى لأهل أذرح وجرباء أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب ومائة أوقية وافية طيبة وأن الله عليهم بالنصح والإحسان إلى المسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين».

٣ – **بعثة خالد بن الوليد إلى دومة الجندل:** وملكها هو أكيدر بن عبد الملك وكان نصرانيا وقال النبي لخالد إنك ستجده يصيد البقر. فخرج خالد في ٤٢٠ فارسا حتى أشرف علي حصن دومة وكانت ليلة مقمرة. ورأى أكيدر وهو على سطح الحصن البقر تحك قرونها بباب القصر فأغراه هذا بالإسراع للخروج من الحصن لصيدها دون أن يكون معه إلا أخوه وقليل من الحراس. فلما خرجوا من باب الحصن كان خالد قد كمن لهم خارجه فأحاط بهم وأسر أكيدر والحراس وحاول أخو أكيدر القتال فقُتل. وأتى خالد بالأسرى إلى النبى فحقن دم أكيدر وصالحه على الجزية ثم خلَّى سبيله فرجع إلى قومه.

ويعد أن صالح النبى عددا من القبائل الأخرى قرر العودة إلى المدينة.

تآمر المنافقين لقتل رسول الله:

كان فيمن صحب رسول الله إلى تبوك ١٢ من المنافقين وكان بين تبوك والمدينة عَقَبة عبارة عن طريق ضيق يشرف على الوادى فقال المنافقون: إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى فيموت. وأعلم الله رسوله بذلك فلما وصل الجيش إلى العقبة نادى مناد لرسول الله يخبرهم أن الرسول سيسلك وحده العقبة أما باقى المسلمين فيسلكون بطن الوادى فسلك الناس بطن الوادى. أما المنافقون فتلثموا وسلكوا العقبة. وكان عمار بن ياسر يأخذ بزمام ناقة النبى وحذيفة بن اليمان يسوقها. وفجأة أحدث المنافقون ورواحلهم جلبة شديدة فنفرت الناقة وسقط بعض متاع النبى من علٍ فى الوادى ولكن النبى لم يقع من على ناقته وصاح بهم: إليكم يا أعداء الله فأسرعوا بالنزول إلى الوادى واختلطوا بالناس وضاع أثرهم. فلما هبط رسول الله إلى الوادى سالما سأل عمار بن ياسر إن كان عرف القوم فقال إن الرجال كانوا ملثمين ولكنه عرف رواحلهم.فسألوا إن كانوا يبعثون إلى عشائرهم فتأتى برؤوسهم. فقال لا. أكره أن تتحدث العرب بينهم أن محمدا قاتل بقومه حتى إذ أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم. وأعلم الله رسوله بأسماء هؤلاء المنافقين الإثنى عشر. فأسرَّ النبى بأسمائهم إلى حذيفة وأخبره أن الله أمره أن لا يصلى على أحد منهم. وأمره أن يتكتم أسماءهم فلم يفض حذيفة بسر رسول الله إلى أحد.

وقيل إن أحد المنافقين قال: إن كان مايقول محمد حقا فنحن شر من الحمير وواضح ما في هذا القول من تشكيك في النبوة. فنقلت مقالة المنافق إلى النبي فعاتبه فحلف أنه ما قال فنزلت الآيات تكذبه كما ألمحت إلى محاولة المنافقين قتل النبي ولكنهم لم ينالوا ما هموا به. ثم توبخهم على نقمتهم على رسول الله مع أن وجوده بالمدينة أعلى مكانتها وجعلها مركز الدعوة الإسلامية تجبى إليها أموال الزكاة وتجيء إليها غنائم الغزوات فكان ذلك سببا من أسباب الغنى والثروة لأهلها بالإضافة إلى بركة النبي الروحية التي أشاعت الأمن والأمان والسلام بين المؤمنين. ثم تخبرهم الآيات أنهم إذا تابوا فهو خير لهم وإن استمروا على ما هم عليه فلهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة:

«يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله. فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير» (٧٤).

العودة إلى المدينة:

وأخيرا عاد النبي إلى المدينة وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المخلفون وجعلوا يحلفون له ويعتذرون. فقبل علانيتهم وأيمانهم وأوكل سرائرهم إلى الله تعالى.

ثعلبة بن حاطب:

كان ثعلبه بن حاطب قد طلب من رسول الله أن يدعو الله ليرزقه مالا فقال له: ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه. فقال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه. فقال رسول الله: اللهم ارزق ثعلبة مالا. فاتخذ ثعلبة غنما فنمت وتكاثرت كما ينمو الدود حتى ضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا وصار يُقصر في واجبات الصلاة. وظل ماله ينمو. ولما عاد النبي من غزوة تبوك أرسل رجلين ليأخذا زكاة المال من ثعلبة فأبى وقال: ما هذا إلا جزية أو أختها فانطلقا حتى أرى رأيي. فعادا إلى المدينة فلما رآهما النبي قال قبل أن يكلماه: ويح ثعلبة بن حاطب ونزلت فيه الآيات:

«ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه (حتى وفاتهم ولقاء الله) **بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون. ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب»** (٧٥ – ٧٨).

وسمع بعض أقارب ثعلبة هذه الآيات فأتاه وقال له: ويحك يا ثعلبه أُنزل فيك كذا كذا. فقدم على رسول الله وقال: يا رسول الله هذه صدقة مالي فقال النبي: إن الله منعني أن أقبل منك. فجعل ثعلبة يبكي ويحثو التراب على رأسه. ولما ولي أبو بكر لم يقبل منه وكذلك فعل عمر بن الخطاب وعثمان.

سبق أن ذكرنا - عند التجهيز للغزوة (ص ٧٩١) - أن عثمان بن عفان وأبا بكر وعمر بن الخطاب تبرعوا بمبالغ كبيرة وكذلك فعل غيرهم من الأغنياء وحتى الفقراء تبرعوا بما قدروا عليه مثل أبى عقيل. وذكرنا لمز المنافقين لهم يقدحون فى المتطوعين تغطية على بخلهم .فنزلت الآيات تُقَبِّح قولهم وتخبر بأن الله لن يغفر لهم:

«**الذين يلمزون** (يعيبون) **المطَّوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم** (الفقراء الذين تبرعوا بالقليل) **فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم. استغفِر لهم أو لا تستغفر لهم. إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين**» (٧٩ - ٨٠).

وقد سبق أن نددت سورة النساء بالمنافقين (آية ١٤٦ ص ٦٣٣) وذكرت أنهم فى قاع الجحيم ومع ذلك فتحت أمامهم باب التوبة: «**إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا. إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما**» أما الآيات الحالية فقد أغلقت أمامهم باب التوبة وقررت أنهم حتى لو جاءوا واعتذروا للنبى وطلبوا منه أن يستغفر لهم ولو استغفر لهم النبى سبعين مرة فإن الله يعلم طوية نفوسهم وإصرارهم على النفاق ولن يغفر لهم لأنهم فى حقيقتهم كافرين.

وقد ذكرنا سابقا فى معرض فضح المنافقين (ص ٧٩٤) كيف تخلفوا عن الخروج للجهاد وزادوا على ذلك أنهم راحوا يُثبِّطون الآخرين فكانوا يقولون لهم ألا ينفروا فى الحر وردَّت عليهم الآيات بأن نار جهنم أشد حرا ولو كان عندهم عقل وفهم لعملوا على اتقاء نار جهنم بإطاعة الله ورسوله. وإن كانوا قد سُرُّوا وضحكوا واستمتعوا بالقعود فى الظل الظليل فهذا سرور قصير يعقبه ندم وبكاء على أنهم لم يرافقوا رسول الله فى غزوته. وعلى النبى - إذا ما أعاده الله إلى المدينة سالما - واستأذنه المتخلفون ليخرجوا معه فى غزوة قادمة أن يرفض اشتراكهم ويعلنهم أنهم لن يخرجوا معه أبداً لقتال عدو لأنهم رضوا بالقعود فى المرة الأولى - وهى غزوة تبوك - ونُهِىَ النبى أن يُصَلِّ على أحد منهم مات ولا يقف على قبره مستغفرا أو داعيا له لأنهم كفروا بالله وماتوا على كفرهم. وعلى المسلمين ألا يغتروا بما لهؤلاء المنافقين من مال وولد ويظنوا أنها نعمة من الله بل إن ذلك ابتلاء واختبار وستكون سببا لعذابهم فى الدنيا ويموتون على الكفر وسيكون لهم عذاب أليم فى الآخرة.

«**فرح المخلفون بمقعدهم خِلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حَرًا لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون. فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا مَعِىَ أبدا ولن تقاتلوا مَعِىَ عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين.**

ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره. إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون. ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون» (٨١ – ٨٥).

ثم نزلت الآيات تُذكِّر بما فعله المنافقون إذ استأذنه ذوو القدرة والاستطالة وطلبوا منه أن يبقوا فى المدينة مع المتخلفين من النساء والأولاد والشيوخ والمرضى فى حين أن الرسول والمؤمنين سارعوا إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم فكانوا من المفلحين وبشرتهم الآيات بأن الله أعد لهم جنات الخلد وذلك هو الفوز العظيم:

«وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطَّوْلِ منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين. رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطُبِع على قلوبهم فهم لا يفقهون. لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون. أعدَّ الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم» (٨٦ – ٨٩).

ولا يخفى ما فى استعمال كلمة «الخوالف» من تحقير للمنافقين لأنها جمع خالفة وهي المرأة تتخلف لطبيعتها التي لا تتفق مع الحرب فكأنهم ساووا أنفسهم بالنساء.

وقد ذكرنا سابقا (ص ٧٩٨) أن بعض الأعراب ممن حول المدينة – عددهم ٨٢ رجلا – جاءوا إلى النبى وأبدوا أعذارا لعدم خروجهم معه فأذن لهم حسب ما قدَّموا من أعذار. والحقيقة أن معظمهم كانوا كاذبين وقعدوا بدون عذر فاعتبروا من المنافقين. ومنهم من اشتد فى استنكار الخروج للحرب حتي دخل فى زمرة الكفار فتوعدهم الله بعذاب أليم:

«وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم» (٩٠).

واستثنى من العذاب فئات أربع من المتخلفين:

١ – الضعفاء.

٢ – المرضى.

٣ – الذين لا يجدون المال الكافى ليجهِّزوا أنفسهم بالسلاح والدابة التى تحملهم والزاد اللازم.

٤ – هؤلاء الذين أتوا بالسلاح والزاد ولكن لم تكن عندهم رواحل تحملهم فأتوا إلى النبى وسألوه أن يُجهِّز لهم الرواحل لتحملهم فاعتذر لهم النبى فعادوا وقد تملكهم الحزن وصاروا يبكون لعدم إمكانهم الغزو مع رسول الله وسُمُّوا بالبكَّائين:

«ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله (بعدم تثبيط الآخرين) **ما على المحسنين من سبيل** (ليس عليهم مؤاخذة) **والله غفور**

رحيم. ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون» (٩١ - ٩٢).

ثم بينت الآيات أن العذاب سيشمل الذين استأذنوا النبى للقعود بالرغم من أنهم أغنياء ويقدرون على نفقة الحرب من سلاح وزاد وراحلة ورضوا بأن يقعدوا مع الخوالف. وحكت الآيات ما كان من الأعراب المعتذرين والقاعدين حينما عاد النبى والمسلمون من الغزوة سالمين إذ سارعوا إلى تقديم الأعذار وأقسموا بالله لتوكيد اعتذارهم طالبين الإغضاء عن تخلفهم وعدم توبيخهم بسببه والرضا عنهم وأُمِر النبى أن يقول لهم أنه لا داعى للاعتذار لأنهم لن يصدقوهم بعد الآن وأن الله قد كشف حقيقة أمرهم. وأن الله سيحاسبهم حينما يقفون بين يديه فهو الذى يعلم ما يكتمون وما يعلنون. ثم أُمِرَ النبى والمسلمون أن يعرضوا عنهم ويقاطعوهم لأنهم رجس ومأواهم النار. وحتى لو قبل المسلمون أعذارهم ورضوا عنهم فإن الله لن يرضى عنهم:

«إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله علي قلوبهم فهم لا يعلمون. يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم. قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون. سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون .يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين» (٩٣ - ٩٦).

ثم تبين الآيات طبيعة **الأعراب** وهم البدو الرحل الذين يسكنون الصحراء فهم أقسى طبعا وأجفى خلقا وأقل تقيدا بالواجبات من الحضرى وكلما تقدم الإنسان فى سلم التمدن لطف طبعه ودمث خلقه ولان قلبه واتسع أفقه وأقام صلاته مع الناس على أسس الواجبات والحقوق المتبادلة:

«الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله (من شرائع وأحكام) **والله عليم حكيم»** (٩٧).

وقد اتخذ بعض المستشرقين من هذه الآية - وقد فهموا كلمة الأعراب على أنها تعنى العرب - أساسا لذم العرب. فى حين أن كلمة الأعراب تعنى البدو الرحّل Nomads ويدخل فيها جميع أعراب الدنيا مثل الغجر في أوربا والهنود الحمر فى أمريكا والتتار فى آسيا الوسطى وغيرهم. وعن ابن عباس أن النبى قال: من سكن البادية فقد جفا.

ثم راحت الآيات تبين حقيقة الأعراب. فهم فريقان: فريق يعتبر ما ينفق فى سبيل الله أو يؤديه إلى النبى ضريبة يتحملها خوفا أو رياء ثم هو يتربص أن تدور الدائرة على المسلمين

ينفق فى سبيل الله أو يؤديه إلى النبى وسيلة للتقرب إلى الله ونيل رضا رسوله ودعائه وهؤلاء سيشملهم الله برحمته:

«ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السَوْء والله سميع عليم. ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قُرُبات عند الله وصلوات الرسول. ألا إنها قُربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم» (٩٨ - ٩٩).

ثم نوهت الآيات بفئات أربع:

١ - المسلمون الأوائل من أهل مكة الذين تحملوا أذى قريش ثم هاجروا إلى المدينة قبل أو بُعيد هجرة الرسول.

٢ - السابقون الأولون من الأنصار الذين بايعوا بيعة العقبة (ص ٣٣٥).

٣ - الذين أسلموا من أهل مكة وهاجروا متأخرين.

٤ - الذين اتبعوا الأوائل من أهل المدينة فأسلموا وناصروا الباقين.

فهؤلاء جميعا رضى الله عنهم وأعد لهم جنات الخلد وذلك هو الفوز العظيم:

«والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم» (١٠٠).

ثم تعود الآيات لتُذكِّر بأنه إلى جانب من كانوا يُعرف نفاقهم هناك أناس آخرون من أهل المدينة ومن الأعراب القاطنين حولها منافقون لا يعلمهم النبي لأنهم برعوا فى إخفاء نفاقهم ولكن الله يعلمهم وتوعَّدهم بعذاب مرتين فى الدنيا وعذاب أعظم يوم القيامة:

«وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم. سنعذبهم مرتين ثم يُرَدُّون إلى عذاب عظيم» (١٠١).

وفى الآيات تحذير وتهديد لهؤلاء المنافقين حتى يقلعوا عن نفاقهم ويتوبوا إلى الله. وقالوا إن العذاب الأول هو فضحهم بين الناس إذ قالوا إن رسول الله قام يوم جمعة خطيبا فقال: قم يا فلان فاخرج فإنك منافق. وعدَّد فى ذلك اليوم وهو على المنبر ٣٦ رجلا (تفسير الألوسى جـ ١١ ص ١١). وقالوا العذاب الثانى هو الجوع والفقر وقالوا هو عذاب القبر. ثم العذاب العظيم المؤجل إلى يوم القيامة.

ولا شك أن هذا التحذير والتهديد قد أتى بنتيجة إذ بدأ بعضهم يراجع نفسه ونزلت الآيات تفتح أمامهم باب الأمل فى التوبة. فهم ليسوا ممن أصرُّوا علي النفاق بل كانت لهم أعمال صالحة بجانب أعمالهم السيئة. فجاءتهم البشارة بأنه من الممكن أن يتوب الله عليهم إذا تابوا وأَمر النبى أن يأخذ من أموالهم صدقة للفقراء لتكون كفارة عما اقترفوه من ذنوب تطهيرا لهم

وأن يدعو لهم ففى دعائه لهم تطمين لقلوبهم وعليهم أن يعلموا أن الله يقبل التوبة من عباده ويتقبل صدقاتهم إذا كانت عن إخلاص وصدق نية كما أَمِرَ النبى أن يشجعهم على العمل الصالح ليثبتوا إخلاصهم وصدق توبتهم فالله مطلع على أفعالهم وكذلك سيحكم عليهم النبى والمسلمون بأعمالهم. ثم يوم القيامة يقفون بين يدى الله عالم الغيب والشهادة وسيخبرهم بما كان من حقيقة أمرهم:

«وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم. خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وَصَلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم. ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم. وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردُّون إلى عالِم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» (١٠٢ - ١٠٥).

وهناك فريق آخر من المسلمين كانوا قد تخلفوا عن الجهاد ولم يسارعوا إلى الاعتراف بالذنب ولم يبالغوا فى الندم والتوبة كما فعل الفريق الأول. فهؤلاء موكولون لأمر الله فإما أن يراهم مستحقين العذاب فيعذبهم أو يراهم مستحقين للرحمة والمغفرة فيرحمهم ويتوب عليهم:

«وآخرون مُرجَوْن لأمر الله إما يعذبُهم وإما يتوبُ عليهم والله عليم حكيم» (١٠٦).

مسجد الضرار:

قلنا سابقا (ص ٧٩٧) إن بعض المنافقين بنوا مسجدا قريبا من مسجد قباء وطلبوا من النبي أن يصلى فيه فوعدهم بذلك عند عودته من الغزو. ونزل قوله تعالى يخبره أن الدافع الحقيقى لبنائهم المسجد هو إيجاد مكان يدبرون فيه الضرر للمؤمنين ومكانا لترصّد وتجمّع من يحاربون الله ورسوله بالرغم من توكيد من بنوه بأنهم حسنو النية وأرادوا الخير. وتأمر الآيات النبى بعدم الصلاة فيه وتُنبِّه إلى أن المسجد الذى يؤسس على التقوى هو الأحق بالصلاة فيه لأن أصحابه مخلصون وأرادوا ببنائه أن يتطهروا من الذنوب كما كانوا يطهرون أجسادهم. ثم يجى تنويه بمسجد قباء الذى أقيم من أول يوم بقصد التقرب إلى الله - وتنديد بمسجد الضرار الذى أقيم على أساس فاسد ومقصد باطل. وضُرب مثل لمسجد الضرار هذا ببنيان أقيم على حافة جرف متداع للسقوط فلا يلبث أن ينهار. وقد انهار مسجد الضرار بأصحابه المنافقين فى نار جهنم وستظل أطلال مسجدهم هذا شاهدا على النفاق الذى تمكن من قلوبهم ولن يزول إلا بالموت:

«والذين اتخذوا مسجدا ضِرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون. لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه. فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهرين.

أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جُرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين. لا يزال بنيانهم الذى بنوا رِيبة فى قلوبهم إلا أن تقطَّع قلوبهم والله عليم حكيم» (١٠٧ - ١١٠).

ولما نزلت هذه الآيات بعث رسول الله رجالا وأمرهم بهدم المسجد وحرقة ففعلوا ثم أتى النبى مسجد قباء فصلّى فيه وقال: صلاة فى مسجدقباء كعمرة. ثم سأل النبى أهل المسجد: ما هذا الطهور الذى أثنى الله عليكم؟ قالوا نغسل أثر الغائط والبول. فقال النبى: هو هذا. واقتدى الناس بهم فى الاستنجاء بالماء.

تنويه بالشهداء:

«إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتُلون ويُقتلون. وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين»

(١١١ - ١١٢).

والآيات تؤكد صدق وعد الله للمؤمنين الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم فى سبيله بأنه اشترى منهم تلك الأنفس والأموال بالجنة ثمنا لما بذلوا فإنهم يجاهدون فى سبيل الله فيقتلون أعداء الله أو يستشهدون فى سبيله. وقد أثبت الله هذا الوعد فى التوراة والإنجيل كما أثبته فى القرآن وليس أحدٌ أبر ولا أوفى بعهده من الله. ثم جاءت بشرى لهم. وأبهمت البشرى لتشمل الجنة وما هو أكثر: رضوان من الله أو النظر إلى وجهه الكريم. ثم تأتى الآيات ببعض صفات المؤمنين المخلصين وتَعِدُهم مرة ثانية بالبشرى. وكان رجال الدين فى الأمم السابقة يسيحون فى الأرض «السائحون» فى مسوح خشن ليكونوا قدوة للناس فى زهدهم وبعدهم عن زخارف الدنيا. ومن فضل الله على أمة «محمد» أن جعل الصيام مكافئا لثواب هذه السياحة. فى حديث عن أبى هريرة أن النبى قال: السائحون هم الصائمون.

استغفار المؤمنين للمشركين:

مما لاشك فيه أن المنافقين كان لهم أقارب مسلمون مخلصون فى إسلامهم وهؤلاء كانوا يتمنون أن يتوب المنافقون عن نفاقهم وكانوا يستغفرون لهم متمثلين بذلك فى إبراهيم عليه السلام واستغفاره لأبيه الذى كان مشركا. فنزلت الآيات تعاتب برفق النبى والمؤمنين وتنهاهم عن الاستغفار لأقاربهم المشركين وتبين أن استغفار إبراهيم لأبيه كان تنفيذا لوعد قطعه على نفسه بذلك ولكن لما تبين له أن أباه كافر ويعادى الله تبرأ منه وتوقف عن الاستغفار له. ولما ظن بعض المؤمنين أنهم باستغفارهم لأقاربهم المشركين قد ارتكبوا إثما بينت الآيات أن الله

عز وجل لا يؤاخذ مسلما على عمل لم ينه عنه وإنما يواخذ بعد بيان حكم الله فيه. وحتى لايظن المؤمنون أنهم قد فاتتهم منفعة من قطع الصلة بذوى قرباهم المشركين أكدت الآيات على أن الله هو وليهم وناصرهم فهو مالك السموات والأرض وهو الذى يحيى ويميت:

«ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم. وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبَين لهم ما يتقون إن الله بكل شىء عليم. إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير» (١١٣ - ١١٦).

الثلاثة:

ذكرنا سابقا (ص ٧٩٨) قصة هؤلاء الثلاثة: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع العامرى وهلال بن أمية الواقفى: تخلفوا عن جيش المسلمين ولم يكن لهم عذر. وأثناء وجوده فى تبوك سأل رسول الله وهو جالس فى أصحابه: ما فعل كعب بن مالك؟ فأُخبر بتخلفه. فسكت. فلما عاد رسول الله من الغزوة وانتهى من الركعتين بالمسجد وجلس للناس مشى إليه كعب بن مالك فقال له النبى: ما خلَّفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك (أى راحلته التى تحمله على ظهرها) فأقر كعب بأنه لم يكن له عذر فقال له النبى قم حتى يقضى الله فيك. وكذلك فعل مع مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ونهى الناس عن كلام هؤلاء الثلاثة فاجتنبهم الناس وتغيَّروا لهم حتى ضاقت أنفسهم فأينما كانوا يتوجهون كانوا يُواجَهون بوجوه عابسة ولا أحد يكلمهم فقعدوا فى بيوتهم. وكان كعب بن مالك أشجعهم فكان يخرج للصلاة مع المسلمين وإذا حدث والتقى برسول الله أعرض الرسول عنه حتى إذا مضت أربعون ليلة أرسل لهم رسول الله يأمرهم أن يعتزلوا نساءهم ومرت عشر ليال أخرى حتى كانت صلاة الفجر من الليلة الخمسين ونزل قوله تعالى:

«لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة (غزوة تبوك) **من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»** (١١٧ - ١١٩).

وقد خصَّت الآية الأولى المهاجرين والأنصار بالذكر لأنهم كانوا هم العمود الحقيقى الذى قامت عليه الدعوة وكانوا يسارعون إلى تأييد النبى والاستجابة له فى كل ظرف وخاصة فى الملمات فكان أن تفضل الله عليهم بالمغفرة وثبَّتهم فى وقت الشدة وصانهم عن التخلف من بعد ما اشتد الضيق بفريق منهم حتى كادت قلوبهم تميل إلى التخلف عن الجهاد وقد غفر الله لهم

هذا الهم الذى خطر بنفوسهم فهو الرؤوف بعباده والرحيم بهم. ثم أعلنت الآيات توبة الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو وهم كعب ومرارة وهلال. وراح رجل يبشر كعب بتوبة الله عليه وصاح بأعلى صوته. يا كعب بن مالك أبشر! فخر كعب ساجدا لله وجاء الناس يبشرونه ويهنئونه وراح كعب إلى النبى وهو جالس فى المسجد وقال له: يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله ورسوله. فقال له: أمسك بعض مالك فهو خير لك. فقال إنى أمسك سهمى الذى بخيبر.

وقد اعترض بعض المستشرقين على قوله تعالى «**ثم تاب عليهم ليتوبوا**» ورد الشيخ محمد متولى الشعراوى على اعتراضهم فقال إنه قبل أن يتوبوا كان عليهم أن يعرفوا أولا إن كان الله سيقبل توبتهم أم لا. فلما شاءت إرادة الله أن تُقبل توبتهم - أى تاب عليهم - أعلمهم بذلك ليتوبوا.

والعبرة المستفادة من قصة هؤلاء الثلاثة هو أن التقصير فى الواجب - ولاسيما إذا صدر من المخلص - شديد الأثر من حيث تذرع غير المخلص به واحتمال انتقال عدواه إلى مخلصين آخرين فيبدأون فى التقصير وهكذا. ومن هنا كان موقف الحزم الذى وقفه النبى من هؤلاء الثلاثة الذين لم يكن لهم عذر وقصَّروا فى واجب الجهاد وتنتهى الفقرة بحث المؤمنين على تقوى الله والاقتداء بالصادقين فى إيمانهم.

ثم تمضى الآيات تحفز أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب على الجهاد فى سبيل الله وتحذرهم من التخلف عن رسول الله أو أن يضنوا بأنفسهم عن نفسه وتُرغِّبهم فى تحمل المشاق وتحمل العطش والتعب والجوع فى سبيل الله. وأنهم حتى لو وقفوا موقفا متميزا فتسبَّب فى إغاظة الكفار - وحتى لو لم يكن هناك قتال أو وقع قتال ونالوا من عدوهم - وأن كل مال ينفقونه فى الحرب - قليلا كان أم كثيرا - ولا يسيرون مسيرة أو يقطعون واديا... كل ذلك ستُكتب لهم به حسنات وسيثيبهم الله عليها بأحسن ما عملوا:

«**ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلَّفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون**» (١٢٠ - ١٢١).

قيل إنه بعد نزول هذه الآيات أخذت قبائل البدو التى أسلمت تنتقل إلى المدينة لتقيم فيها أو حولها بحجة الرغبة فى الجهاد والاستعداد له فور سماع الدعوة إليه وأصبحت المدينة تعج بقبائل العرب فضاقت بهم وهدد الازدحام بوقوع مشكلات اجتماعية تهدد استقرار المجتمع. كما أن بعض المسلمين من خارج المدينة رغبوا فى مصاحبة النبى والاستماع له للتفقه فى

الدين، فنزلت الآيات لتحد من هذا التكالب على الإقامة فى المدينة وتوضيح أن المطلوب ليس اشتراك جميع المسلمين فى الجهاد بل يكون الاستنفار على حسب مقتضيات الأمور وكذلك ليس المطلوب أن يكون كل المسلمين فقهاء فى الدين بل يكفى أن تأتى طائفة إلى الرسول ليتفقَّهوا فى الدين ويرجعوا إلى أهلهم يفقهونهم وينذرونهم ويحذرونهم من عذاب الله إن هم خالفوا شرعه:

«وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون» (١٢٢).

وبهذا أصبح الجهاد والتفقه فى الدين «فرض كفاية» إذا قام به فريق سقط عن الباقين. وفى الجهاد بالذات يلزم أن يكون الفريق الذى يقوم به كافيا الحاجة وساداً لها حسب ما يقرره أولوا الأمر فإذا لم يتقدم عدد كاف أثم المتخلفون.

الحث على قتال الكفار:

ثم راحت الآيات تحث على قتال الكفار بدءا من الأقرب مكانا إلى الأبعد كما حثت على الاشتداد فى قتالهم:

«يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين» (١٢٣).

ولاشك أن القبائل العربية التى كانت لا تزال على كفرها – لما سمعت هذه الآية أدركت أن النبى والمسلمين لابد مقاتلوها ولا قِبَلَ لهم على قتاله. لذلك فإن القبائل بدأت ترسل وفودها إلى المدينة لتعلن لرسول الله إسلامها وامتثالها لما يأمر به. حدث ذلك فى أواخر عام ٩ للهجرة والذى سُمِّىَ «عام الوفود» حتى دان معظم أهل الجزيرة العربية للإسلام.

آية أخيرة فى المنافقين:

وإذ اقتربت السورة من نهايتها، عادت لتذكِّر ببعض مواقف المنافقين وأفعالهم، حيث كان بعضهم إذ ما أوحى الله لرسوله بسورة سألوا سؤال المستهزئ عما إذا كان هناك أحد زادته هذه الآيات إيمانا، وترد عليهم الآيات بأن الذين آمنوا يزيدهم ما ينزل من القرآن هدى ويقينا وإيمانا ويجيئهم بالبشرى والمفهوم أنها بشرى من الله بحسن الثواب. وأما المنافقون ذوو القلوب المريضة فيزدادون رجسا وإثما بتكذيبهم حتى يموتوا على كفرهم، ثم سؤال توبيخ لهم عما إذا كانوا لا يدركون أنهم يُختبرون ويُبتلون فى كل عام مرة أو مرتين فتظهر أمارات نفاقهم ويفتضح أمرهم ثم هم لا يتعظون ولا يتوبون. وإذا أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض نظرة المستهزئ ويتغامزون على الانصراف من مجلس الرسول خلسة دون أن يراهم أحد ثم ينصرفون. ثم تختم هذه الفقرة بالدعاء عليهم بأن يزيد الله قلوبهم انصرافا حتى يزدادوا عمى وضلالا لأنهم قوم لا يفقهون:

«وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا. فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون. أَوَ لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون. وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا. صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون» (١٢٤ – ١٢٧).

ثم يأتى ختام السورة بآيتين يصح أن تكونا مُوجهتين إلى المنافقين كإنذار أخير وهى موجهة كذلك إلى عموم المسلمين ويعتبرها المفسرون من روائع آيات القرآن الكريم فى الثناء على رسول الله وتقرير ما اتصف به من كريم الصفات وعظيم الأخلاق فهو مثلهم من قريش بل من أعرق بيوتاتها «بنى هاشم» يشق عليه ما يراه من تعنت البعض ويحزنه ماقد يصيبهم من ضرر وحريص على هدايتهم فلم يضق صدرا بتكذيبهم له وامتلأ قلبه عطفا ورحمة بالمؤمنين. فإن أعرض الكافرون بعد كل هذا فما على الرسول إلا أن يوكل أمره إلى الله فهو مالك الملك ورب الكون وصاحب السلطان العظيم:

«لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم» (١٢٨ – ١٢٩).

وبهذا تختتم سورة التوبة ونعود لنذكر باقى الأحداث التى وقعت فى العام التاسع للهجرة.

وفاة أم كلثوم:

فى شعبان سنه ٩ للهجرة توفيت أم كلثوم فى بيت زوجها عثمان بن عفان عن غير ولد.

الشائعات تنال من مارية القبطية:

ثم نالت الشائعات من مارية وأرجف المرجفون واتهموها إفكا وبهتانا بالعبد «مابور» الذى جاء معها من مصر في هدية المتوقس وكان يتردد على بيتها ليخدمها. وغضب النبى وقال لعلي اذهب فاضرب عنقه. فذهب على فإذا هو فى بئر يغتسل فقال له على اخرج فلما خرج عاريا فإذا هو مجبوب أى خصى وقد قطع أيضا ذكره. فكف عنه وأتى وأخبر النبى.

إسلام ثقيف فى رمضان:

ذكرنا سابقا (ص ٧٧٧) حصار الطائف وفى ص ٧٧٩ ذكرنا إسلام مالك بن عوف سيد ثقيف وانضمامه إلى النبى بالمدينة مع نفر قليل من قومه أسلموا معه. وسبق أن ذكرنا أن رسول الله لما ارتحل عن ثقيف سُئِل أن يدعو عليهم فدعا لهم بالهداية. ولما انصرف رسول الله عائدا إلى المدينة اتبع أثره عُروة بن مسعود الثقفى فأدركه قبل أن يصل المدينة وأسلم وطلب من النبى أن يسمح له بالعودة إلى قومه لكى يدعوهم إلى الإسلام فحذره النبى من أن فيهم

نخوة الامتناع وأنهم سيقتلونه ولكن عروة كان متفائلا وعاد إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام فرموه بالنبل وقتلوه.

وبعد عدة أشهد كانت كل القبائل المحيطة بالطائف قد أسلمت ورأت ثقيف أنه لا قبل لها بمحاربة الإسلام فاستقرر رأيهم على إرسال وفد من ستة من كبار رجالهم إلى النبى لمفاوضته فى شروط إسلامهم. فذهبوا إلى المدينة ودخلوا المسجد وجلسوا فى ركن منه وكان خالد بن سعيد بن العاص يمشى فى التفاوض بينهم وبين رسول الله. وكان مما اشترطوا على رسول الله أن يدع لهم «اللات» ثلاث سنين فرفض فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوه شهرا واحدا فرفض فسألوه ألا يكسروا أصنامهم بأيديهم فأجابهم إلى هذا المطلب وبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة ليهدماها. ثم سألوا أن يعفيهم من الصلاة. فقال: وأما الصلاة فلا خير فى دين لا صلاة فيه فقبلوا على كره منهم. ثم إنهم سألوه مطالب أخرى أجابهم إليها بقوله. لكم ألا تُحشروا (تنتدبوا للجهاد) ولا تُعشَّروا (تؤخذ منهم صدقة العشر) ولا يُستعمل عليكم غيركم. وسُمع رسول الله يقول بعد ذلك: سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا. فلما أسلموا وكتب لهم النبى كتابا بذلك أمَّر عليهم عثمان بن أبى العاص وكان من أحدثهم سنا إذ زكَّاه أبو بكر الصديق لما رأى من حرصه على التفقه فى الدين. وقال له الرسول: يا عثمان تجوَّز فى الصلاة واقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة.

موت عبدالله بن أبيّ بن سلول:

فى شوال سنة ٩ مرض عبدالله بن أبيّ واشتد مرضه ٢٠ ليلة كان رسول الله يزوره فيها. فلما كان يوم وفاته – فى ذى القعدة – دخل عليه رسول الله وقال له: قد نهيتك عن حب يهود. فقال عبدالله: يا رسول الله ليس هذا بوقت عتاب هو الموت فاحضر غسلى وأعطنى قميصك فكفِّنى فيه وصلِّ علىَّ واستغفر لى. فأعطى قميصه لابنه ليكفنه فيه حسب رغبته. وقيل لما قام ليصلى عليه قام عمر بن الخطاب وقال له: إنه منافق. أتُصلى عليه وقد قال الله: «ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبرة إنهم كفروا بالله ورسوله» وقيل إن رسول الله إنما ألبسه قميصه ردا ما فعل بن أبيّ حين ألبس العباس قميصه لما جاء إلى المدينة.

عـــام الوفـــود

كان العرب ينتظرون ما تفعل قريش ليحددوا موقفهم من الإسلام فقد كانت قريش – أهل البيت الحرام – إمام الناس وقدوتهم. ولما تصدت قريش لحرب رسول الله كان الناس يقولون: اتركوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبى صادق. فلما افتُتحت مكة وأسلمت قريش بدأت القبائل من جميع أنحاء الجزيرة العربية تبعث بوفودها إلى النبى بالمدينة لتعلن إسلامها. فسمى عام ٩ للهجرة «عام الوفود». ونذكر فيما يلى بعضا من هذه الوفود:

١ – وفد بنى تميم:

وتكوَّن الوفد من عدة رجال من أشرافهم. وتقول كتب السيرة إنهم نادوا على رسول الله ليخُرج لهم من يفاخرهم فأذِن لهم. فقالوا نثرا وشعرا. وردَّ عليهم حسان بشعر. فقال رئيسهم: لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أعلى من أصواتنا وأسلموا فقبل النبى إسلامهم وأعطاهم هدايا وقال: إن من البيان لسحرا!

٢ – وفد بنى عبد القيس:

قدم وفد بنى عبد القيس على رسول الله فقال: مرحبا بالقوم غير خزايا ولا الندامى فقالوا: يا رسول الله. إنَّا حيٌّ من ربيعة وإنا نأتيك من شقة بعيدة وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر. وإنا لا نصل إليك إلا فى الشهر الحرام. فمرنا بأمر فَصْل ندعو إليه مَن وراءنا وندخل به الجنة. فقال رسول الله: آمركم بأربع: آمركم بالإيمان بالله وحده وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا من المغانم الخمس.

٣ – وفد بنى حنيفة من اليمامة وفيهم مسيلمة:

جاء وفد بنى حنيفة إلى النبى وكان فيهم مسيلمة الذى قال: إن جعل لى محمد الأمر من بعده اتبعته. فأقبل إليه النبى وفى يده قطعة جريد وقال له: لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ولن تعدو أمر الله فيك ولئن أدبرت ليعقرنَّك الله وإنى لأراك الذى رأيت ما رأيت وهذا ثابت يجيبك عنى ثم انصرف عنه. فسأل مسيلمة عما رأى رسول الله فقال أبو هريرة إن رسول الله قال: بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب فأهمَّنى شأنهما فأوحى إلىَّ فى المنام أن انفخهما فنفختهما فطارا. فأوَّلتهما كذابين يخرجان بعدى أحدهما الأسود العنسى (فى صنعاء) والآخر مسيلمة (فى اليمامة).

كان مسيلمة مستحقا أن يضرب عنقه لادِّعائه النبوة فى رده على دعوة النبى له للإسلام والتى ذكرناها ص ٧٢٥ ولكنه عند قدومه على رأس وفد بنى حنيفة أظهر إسلامه فحقن دمه. فلما عاد الوفد إلى اليمامة عاد مسيلمة إلى ادعاء النبوة وقال لقومه: إنى قد أشركت فى الأمر معه ثم جعل يسجع السجعات ويقول أقوالا يحاول مضاهات القرآن فقال: لقد أنعم الله على الحبلى وأخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق (جلد البطن) وحشا. وغير ذلك من أقوال ركيكة. وأحل لهم الخمر والزنا ووضع عنهم الصلاة وهو مع هذا يشهد لرسول الله بأنه نبى. واتبع مسيلمة كثيرون من بنى حنيفة. وكتب مسيلمة إلى رسول الله كتابا قال فيه: من مسيلمة إلى محمد رسول الله. سلام عليك. أما بعد. فإنى قد أُشركت فى الأمر فإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر ولكن قريشا قوم يعتدون. فكتب إليه رسول الله: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد. فإن

الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. ثم سأل مبعوثا مسيلمة: وأنتما تقولان مثل ما يقول؟ قالا نعم. فقال: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما..

٤ – وفد همدان:

قدم وفد همدان على رسول الله بالمدينة وأعلنوا إسلام قومهم فأعطاهم النبى كتاب موادعة.

٥ – وفد طيئ:

قدم وفد طيىء إلى المدينة وسيد طيىء هو زيد بن مهلهل بن زيد الطائى ويلقب بزيد الخيل لخمس أفراس كن له. فلما انتهوا إلى رسول الله كلموه وعرض عليهم الإسلام فأسلموا. أما عدى بن حاتم الطيىء فكان قد تنصّر. فلما بدأ الإسلام ينتشر بين القبائل قرر أن يلحق بأهل دينه نصارى الشام فسافر إلى الشام تاركا زوجته وابنة له. وكانت سرية لرسول الله قد أغارت على ديار طيء وأصابتهم وأسرت فيمن أسرت ابنة حاتم الطيء. فلما عُرِضت علي النبى قالت له: يا محمد إن رأيتَ أن تخلى عنا ولا تشمت بنا أحياء العرب فإنى ابنة حاتم الطيء سيد قومي وإن أبى كان يحمى الذمام (العهد والحرمة) ويفك العانى ويشبع الجائع ويكسو العارى ويَقرى الضيف ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط. أنا ابنة حاتم الطيء. فقال النبى: يا جارية. هذه صفة المؤمنين حقا. لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه. خلُّوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق. وسمّاه «زيد الخير» بدلا من زيد الخيل. فلما أطلق النبى سراحها أسلمت. ولما قدم قوم من طيء متجهين إلى الشام خرجت معهم بعد أن أعطاها رسول الله كسوة ونفقة. فلما وصلت الشام لامت أباها علي تركها وراءه. وسألها عما فعله النبى معها فروت له وقالت له: أرى أن تلحق به. فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله وإن يكن ملكا فلن تزل فى حماه. فخرج عدى حتى قدم على رسول الله بالمدينة ولقيه بالمسجد وسأله النبى: يا عدى بن حاتم الطيء ما أفرّك (أى ما دعاك إلى الفرار)؟ أفرّك أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ ما أفرّك؟ أفرّك أن يقال الله أكبر؟ فهل شيئ هو أكبر من الله عز جل؟ لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم. فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه. ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم. فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف. ولعلّك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم. وإيم الله ليوشكى أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم. يقول عدى: فأسلمتُ (السيرة النبوية. ابن كثير جـ ٤ ص ١٢٦).

٦ – وفد مراد وزبيد:

وقدم فروة بن مسيك المرادى رئيس قومه «مراد» وكانت «همدان» قد أصابت منهم

وأثخنوهم بالرغم من أن فروة كان يدين بالولاء لملوك كندة إلا أنهم لم ينصروه فأتى فروة إلى رسول الله يعلنه بإسلام قومه فقبل النبى إسلامهم واستعمله على مراد وزبيد. وكان عمرو بن معديكرب - من زبيد - قد سمع عن رسول الله فخرج قاصدا المدينة وقابل النبى وأسلم على يديه وعاد إلى قومه. وكان النبى قد جعل فروة واليا من قبله على مراد وزبيد فسكت عمرو على مضض. فلما توفى الرسول ارتد عمرو بن معديكرب فيمن ارتد وهجا فروة. ثم بعد مدة عاد فأسلم وحَسُن إسلامه.

٧ - وفد كندة:

قدم الأشعث بن قيس رئيسا على وفد كندة وكان الوفد مكونا من ٨٠ راكبا فدخلوا علي رسول الله فى مسجده وعليهم ثياب الحرير. فلما رآهم النبى قال لهم ألم تُسلموا؟ قالوا بلى. قال فما بال الحرير فى أعناقكم! فألقوها عنهم.

٨ - قدوم وفد أزد وإسلام جرش:

قدم صرد بن عبدالله الأزدى على رسول الله فى وفد من قومه فأسلموا وأمَّر رسول الله عليهم صرد بن عبدالله وأمره أن يجاهد بمن أسلم من يليه من قبائل اليمن المشركة فذهب وحاصر جرش شهرا فلما امتنعوا عليه انصرف عنهم فظنوا أنه قد ولَّى عنهم منهزما فخرجوا في طلبه فعاد إليهم وقاتلهم قتالاً شديدا فأسلموا. ثم جاءوا إلى رسول الله بالمدينة فبايعوه.

٩ - إسلام ملوك حمير ومُرَّة:

فى رمضان سنة ٩ للهجرة قدم علي رسول الله رسل من ملوك حمير ومعهم كتاب بإسلامهم. وكذلك جاء من ملك مُرَّة كتاب بإسلام قومه. فكتب إليهم رسول الله كتابا بيَّن لهم فيه أسس الإسلام وحثهم على تطبيقها ثم أوضح لهم مقدار الزكاة وختم بقوله: ومن أدَّى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له مالهم وعليه ما عليهم وله ذمة الله وذمة ورسوله وإنه من أسلم من يهودى أو نصرانى فإنه من المؤمنين له مالهم وعليه ما عليهم ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُرَدُّ عنها وعليه الجزية على كل حالم (من بلغ الحلم) ذكر أنثى حر أو عبد دينار. فمن أدَّى ذلك إلى رسول الله فإنه له ذمة الله وذمة رسوله ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله.

١٠ - هدم ذى الخلصة وإسلام خثعم وبجيلة:

كانت خثعم وبجيله قد بنوا كعبة يضاهئون بها الكعبة التى فى مكة التي سمُّوها «الكعبة الشامية» وسموا كعبتهم «الكعبة اليمانية» ووضعوا فيها تمثالا يعبدونه هو «ذو الخلصة».

وكان جرير بن عبدالله البجلى من خثعم قد فتح الله قلبه للإسلام. فركب راحلته قاصدا

المدينة حتي اقترب منها، وكان رسول الله يخطب فى مسجده، فقال للناس: يدخل عليكم من هذا الباب رجل على وجهه مسحة مُلك، وإن هى إلا دقائق ودخل جرير بن عبد اله فجلس حتى انتهى رسول الله من صلاته ثم أقبل عليه وأسلم فقال رسول الله: يا جرير، أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن تؤمن بالله واليوم الآخر والقَدَر خيره وشره وتصلى الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة. ثم قال له رسول الله: ألا تريحنى من ذى الخلصة؟ فركب جرير فى ١٥٠ راكبا إلى ذى الخلصة وخرَّب بيتها وأحرقه وحطم تمثال ذى الخلصة.

١١ – وفد حضرموت:

كان وائل بن حجر بن ربيعة بن يعمر الحضرمى أحد أقيال حضرموت وكان أبوه من ملوكهم ويقال إن رسول الله أخبر أصحابه به قبل قدومه فقال: يأتيكم بقية أبناء الملوك. فلما دخل رحَّب به وقرَّب مجلسه وبسط له رداء وقال اللهم بارك فى وائل وولده وولد ولده، وأعلن وائل إسلامه وإسلام من خلفه من قبائل حضرموت واستعمله النبى على الأقيال من حضرموت وكتب معه ثلاثة كتب إلى قبائلهم.

١٢ – وفد صُداء:

قدم زياد بن الحارث الصدائى حتى أتى رسول الله فى مسجده بالمدينة فأعلن إسلامه وإسلام قومه فأُخبر أن رسول الله قد بعث جيشا إلى قومه فقال: يا رسول الله اردد الجيش وأنا لك بإسلام قومى وطاعتهم. فبعث النبى رجلا فردَّ الجيش. وكتب الصدائى كتابا إلى قومه فقدم وفدهم يعلن إسلامهم وأمّر رسول الله عليهم زياد بن الحارث.

١٣ – وفد معان:

كان فروة بن عمرو الجذامى عاملا للروم على معان ومن يليهم من العرب. فبعث بكتاب إلى رسول الله يعلنه فيه بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء. فلما بلغ الروم ذلك قبضوا عليه وحبسوه ثم قتلوه.

١٤ – وفد بنى أسد من حضرموت:

وَفَد على رسول الله وفد بنى أسد وكانوا عشرة منهم طليحة بن خويلد الذى ادّعى النبوة بعد ذلك ثم أسلم وحسن إسلامه. وقال رئيسهم للنبى يمن عليه أن أتوا من أنفسهم مسلمين: يا رسول الله أتيناك بتدرُّع الليل البهيم فى سنة شهباء ولم تبعث إلينا بعثا. فتلى عليهم قوله تعالى:

«يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علىَّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين» (١٧ – الحجرات).

١٥ – وفد نصارى نجران:

جاء هذا الوفد فى عام الوفود (٩ هـ) وبعد أن كانت الدعوة الإسلامية قد استتب أمرها وفُتحت مكة وأسلمت معظم القبائل العربية. وكان وفد منهم قد جاء قبل ذلك (ص ٥٢٨) يستطلعون خبر النبى ويتأكدون من نبوته. أما هذه المرة فقد جاءوا لموادعته ومهادنته ويكفيهم منه قوله إن عيسى ابن مريم كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه. فكتب لهم النبى عهدا شهد عليه أبو سفيان أعطاهم فيه ذمته وضمن لهم حريتهم الدينية وبقاء كل صاحب منصب فى منصبه. وفرض عليهم إمداده بالسلاح إن حاربه أهل اليمن ويتضمن ذلك تقديم ٣٠ درعا و٣٠ رمحا و٣٠ بعيرا و٣٠ فرسا كما فرض عليهم تقديم ٢٠٠٠ حلة فى السنة.

١٦ – وفد بنى عبس:

وكانوا تسعة نفر قدموا على النبى وأعلنوا إسلامهم وإسلام قومهم.

١٧ – وفد بنى فزارة:

وكانوا بضعة عشر رجلا جاءوا يعلنون إسلامهم وإسلام قومهم. وشكوا إلى النبى من جدب أصابهم فدعا لهم النبى فنزل الغيث عليهم واخضرت أرضهم.

١٨ – وفد بنى مرة.

١٩ – وفد بنى ثعلبة.

٢٠ – وفد بنى محارب.

٢١ – وفد بنى كلاب.

٢٢ – وفد بنى عقيل بن كعب وبنى قشير بن كعب.

٢٣ – وفد كنانة.

٢٤ – وفد أشجع.

٢٥ – وفد بنى سليم.

٢٦ – وفد بنى هلال بن عامر.

٢٧ – وفد تغلب.

٢٨ – وفادات اليمن وتضمنت وفود تجيب وخولان وجعفى.

٢٩ – وفد السباع.

وهناك وفود أخرى يضيق المكان عن ذكرها جميعا إذ كانت الوفود تأتى من جميع أنحاء الجزيرة العربية تعلن إسلامها حتى عم الإسلام جميع أنحاء الجزيرة العربية ونزلت سورة النصر تشير إلى هذا:

سورة النصر:

«إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا» (١ - ٣).

وسئل ابن عباس عن هذه السورة فقال: هو أجل رسول الله أعلمه له. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه لما نزلت هذه السورة قال رسول الله نُعِيَت إلىَّ نفسى.

حج أبى بكر بالناس:

أهلَّ ذو القعدة من السنة التاسعة للهجرة. وقيل إن النبى همَّ بالحج ثم ذكر أن كثيرا من الأعراب المشركين يحضرون للحج كعادتهم فى كل موسم وكثير منهم يطوفون بالبيت عرايا وكان يكره ذلك ولكن لم يكن له أن يمنعه من تلقاء نفسه. فبعث أبا بكر أميرا على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم وأجَّل حجته حتى يقضى الله أمرًا فى حج المشركين.

كان معظم من خرجوا للحج مع أبى بكر هم من المهاجرين الذين اشتاقوا إلى مراتع صباهم ورؤية أقاربهم من أهل مكة ولم تمكنهم عمرة القضاء من ذلك لأن أهل مكة تركوها قبل دخول المسلمين معتمرين. كما أن معركة فتح مكة وما تلاها من حرب هوازن وثقيف لم تتح لهم الوقت الكافى للقعود مع أقاربهم وأصدقائهم واجترار ذكرياتهم عن البلد الحبيب.

وبينما كان أبو بكر فى الطريق وبعد أن سار عدة أيام نزلت سورة التوبة - وتسمى أيضا سورة براءة - وفيها حملة على الكافرين والمشركين والمنافقين متمثله فى تبرؤ المسلمين من عهودهم مع المشركين والحث على قتالهم والنص على أن المشركين نجس فلا يجوز لهم أن يدخلوا منطقة البيت الحرام بعد هذا العام. فبعث النبى عليا بن أبى طالب بالآيات الـ ٢٨ الأولى ليبلِّغها إلى أبى بكر ليعمل بمقتضاها ويبلِّغ محتواها إلى المشركين. وقيل إن أبا بكر لما خطب الناس يوم عرفه التفت إلى علىّ وقال له: قم فأدِّ رسالة رسول الله. فقام على وقرأ صدر سورة التوبة.

سورة التوبة:

لم تبدأ سورة التوبة - أو سورة براءة - بالبسملة مثل باقى سور القرآن الكريم إذ قيل إن البسملة أمان وسكينة والسورة تعلن براءة الله ورسوله من عهود المشركين وإعطائهم مهلة ثم بعد ذلك يكون إعمال السيف فيهم:

«براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين. فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غيرُ معجزى الله وأن الله مُخزى الكافرين. وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسولُه فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غيرُ معجزى الله وبشِّر الذين كفروا بعذاب أليم. إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم

ينقصوكم شيئا ولم يُظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين. فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة فخلُّوا سبيلهم إن الله غفور رحيم. وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون. كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين. كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقُبُوا فيكم إلاً ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون. اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون. لا يرقُبُون فى مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون. فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفَصل الآيات لقوم يعلمون. وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون» (١ - ١٢).

وأرست الآيات القواعد التالية:

١ - براءة الله ورسوله من العهود التى تمت بين المسلمين والمشركين وكانت عهودا مطلقة أى غير محددة المدة - وقام المشركون بنقضها. فهذه تنهى فورا.

٢ - إذا كانت مدة العهد أقل من أربعة أشهر فتمتد إلى أربعة أشهر يسيرون خلالها آمنين ثم بعدها يحل قتالهم.

٣ - تنهى فورا عهود المشركين الذين ينقضون العهد ويحل قتالهم. أما إن رجعوا عن شركهم فهذا خير لهم وإن أصروا على كفرهم فلهم عندالله عذاب أليم.

٤ - من كان لهم عهد مؤقت بمدة ولم يعادوا المسلمين ولم يتحالفوا مع أعدائهم فأجله إلى مدته مهما كانت لقوله تعالى: «فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم» يسيرون فى الأرض آمنين.

٥ - من ليس له عهد فمدته هو انتهاء الأشهر الحرم من يوم عرفة - يوم الحج الأكبر - إلى آخر شهر المحرم وبعدها يحل قتالهم حتى يدخلوا إلى الإسلام . فإن أعلنوا إسلامهم فلا يجب التعرض لهم.

٦ - إن أحد من أحد المشركين استجار بالمسلمين فيجب إعطاؤه الأمان. ويُتلى عليه شيئ من القرآن. ثم يُترك ليبلغ دار قومه. والحكمة فى ذلك أن كثيرا منهم لم يكونوا قد سمعوا القرآن من قبل وحين يتدبروه بحرية فكر فقد يؤمنوا.

٧ - بطون قريش الذين عاهدوا المسلمين عند المسجد الحرام - فى صلح الحديبية - ولم ينقضوا العهد فواجب على المسلمين الوفاء بعهدهم. مثل بنى خزيمة الذين استقاموا على عهدهم ولم ينقضوه كما فعلت بنو بكر.

٨ – توضح الآيات أن المشركين المعاهدين الذين نقضوا العهد وظهر منهم الغدر كانوا على درجة شديدة من الحقد علي المسلمين والكيد لهم فوجب الحث على مطاردتهم وقتالهم وقتلهم إلا إذا تابوا وأسلموا وفى هذه الحالة يصبحون إخوانا فى الدين – وفى ذلك حث للمسلمين على التسامح وفتح الباب للمشركين لكى يندمجوا فى الكيان الإسلامى وعفا الله عما سلف.

٩ – ثم تعود الآيات لتستدرك ما قد يحدث من البعض من خيانة للعهد ونقضه ويفعلوا ما يُعتبر طعنا فى الدين وعدوانا عليه فهؤلاء يجب قتالهم وخاصة سادتهم أئمة الكفر لأنهم الأشد عداوة والأكثر كيدا فى الدين.

ثم تستمر الآيات تحث المسلمين على قتال هذه الفئات من المشركين:

«ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة. أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يُعذبهم الله بأيديكم ويُخزِهم وينصركم عليهم ويَشفِ صدور قوم مؤمنين ويُذهبْ غيظ قلوبهم ويتوبُ الله على من يشاء والله عليم حكيم. أم حسبتم أن تُتركوا ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة (بطانة) **والله خبير بما تعملون»** (١٣ – ١٦).

والآيات تتساءل عما إذا كان يصح للمسلمين أن يترددوا ويَحجموا عن قتال قوم نقضوا عهودهم وراحوا يكيدون للرسول ويتآمرون على إخراجه. ثم تنبيه بأنهم لايجب أن يخشوهم لأن الله وحده هو الأحق أن يخشوه. ثم حضٌّ صريح على قتالهم وتطمئن المسلمين بأن الله ناصرهم ومعذِّب الكافرين. وفى ذلك ما يذهب غيظ قلوب المؤمنين ويشف صدورهم. ثم تختم هذه الفقرة بتوبيخ لمن شق عليه القتال من المؤمنين بتوضيح أن هذا الأمر بالقتال هو اختبار من الله لهم لإظهار أهل العزم الصادق من ضعيفى الإيمان. فالمخلص فى إيمانه يسارع إلى الجهاد فى سبيل الله ولا يتلمَّس حجَّة أو ذريعة حتى يقعد عن الاشتراك فى القتال. وقيل «ولمَّا يعلم الله» لبيان خطورة هذا الامتحان. والحقيقة أن الهدف منه هو ليعرف كل مسلم موقعه من الإيمان وإلا فإن الله خبير بما نعمل حتى من قبل أن نعمل به.

ويتبادر إلى الذهن – لأول وهلة – عند قراءة «وهمُّوا بإخراج الرسول» أن المقصود قريشا. ولكن الثابت أن قريشا كانت حريصة ألا يخرج المسلمون إلى أرض أخرى. وكان المهاجرون يتسللون فى خفية عن أعين قريش. وكذلك كانت قريش حريصة على أن لا يخرج النبى إلى يثرب ولذلك دبروا المؤامرة لقتله مخافة خروجه وإلا لكانوا قد تركوه يخرج. أما المنافقون من أهل المدينة فقد ضايقهم ازدياد أعداد المسلمين وراحوا يتحالفون مع المشركين من قريش ومن القبائل الأخرى لمحاربة النبى والمهاجرين وإخراجهم من المدينة وخير دليل على ذلك قول عبدالله بن أبّى **«لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»** (٨ – المنافقون – ص ٦٤٧).

منع المشركين من تولى أمور المساجد:

بعد ذلك جاءت الآيات بمنع المشركين من الاشتراك فى أمور المساجد وألا يتولوا أى أمر من أمورها لأنهم لا يتورعون عن مناوأة المسلمين والكيد للإسلام. وهم مهما عملوا من أعمال يظنون أنهم يتقربون بها إلى الله - مثل السقاية والحجابة - فأعمالهم مرفوضة ومصيرهم الخلود فى النار. ثم تعقيب يقرر أن الذين يحق لهم أن يكونوا من عُمار المساجد هم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ولا يخافون أحدا غير الله فهؤلاء على هدى من ربهم. وقيل إن بعض رجال قريش قالوا إنهم كانوا يقومون بخدمة بيت الله وصيانته وسقاية الحجيج وهى أعمال تعادل ثواب من سبقوهم إلى الإسلام وهاجروا مع رسول الله إلى المدينة فكان الرد بسؤال إستنكارى ينفى مقالتهم ويبين أن الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أعظم درجة ومنزلة عند الله. وهم الفائزون ولهم جنات الخلد جزاء ولهم فيها نعيم مقيم:

«ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون. إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله. فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين. أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله. لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين. الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون. يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم. خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم» (١٧ - ٢٢).

عدم الركون إلى الدعة:

قلنا إن معظم المسلمين الذين رافقوا أبا بكر فى حجّه كانوا من المهاجرين وبالطبع كان لهم أقارب فى مكة. بعضهم أسلم وبعضهم ظلّ قلبه مشركا وإن أظهر الإسلام نفاقا .وكان هناك احتمال أن يتواصل المهاجرون مع أقاربهم ويعتبرونهم عصبيتهم فيعودوا إلى مكة بعد أن فُتحت ليعيشوا فى أموالهم ودورهم التى تركوها عند الهجرة والأنس بأقاربهم والمتاجرة معهم. ولعل بعض المهاجرين فكّر فى ذلك نأيا بأنفسهم عن أى معارك قادمة أو ظنًّا منهم أن الأمر قد انتهى بفتح مكة. فجاءت الآيات تحذر من ذلك وتنهى عنه وتحث على العودة إلى المدينة ثانية لاستئناف الجهاد مع رسول الله وتحذّرهم «فتربّصوا» من عذاب الله لأنهم لو تخلفوا لكانوا من الفاسقين. بل إن الآيات راحت تدعوا الذين أسلموا من قريش بعد الفتح أن يهاجروا إلى المدينة ليشدُّوا من أزر النبى ومن أزر المسلمين بالاشتراك معهم فى الجهاد:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن

يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون. قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين» (٢٣ - ٢٤).

وتستمر الآيات تطمئن هؤلاء الذين تخوفوا من معارك قادمة تخبرهم أن الله قد نصر المسلمين فى المعارك السابقة وهى كثيرة: معركة بدر، معركة الخندق وآخرها معركة حنين وذكرتهم الآيات بأن كثرتهم لم تفدهم فى معركة حنين وكادت الهزيمة أن تحيق بهم كما سبق أن ذكرنا (ص ٧٧٦) لولا أن أنزل الله سكينته على رسوله وثبت القلة المؤمنة التى التفت حوله وأيدهم بجند من عنده حتى تم النصر:

«لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين. ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم» (٢٥ - ٢٧).

منع المشركين من دخول المسجد الحرام:

«يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم. قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون» (٢٨ - ٣٠).

والآية حاسمة فى منع المشركين من دخول المسجد الحرام. وهكذا تطهر البيت الحرام من آخر مظاهر الشرك. فقد كسرت الأصنام يوم فتح مكة والآن منع طواف المشركين - عرايا أو غير عرايا - حول الكعبة بعد هذا الموسم. وكان هذا تمهيدا لحج رسول الله ﷺ فى العام القادم.

وكان أهل مكة يعتمدون علي الحجيج فى تجارتهم ورزقهم وخشوا من ضيق العيش بعد هذا المنع فأوردت الآيات تطمينا لهم بأن الله عز وجل قادر على إغنائهم من فضله فهو العليم بمقتضيات الأمور وحكيم فلا يأمر إلا بما فيه خير العباد. وقالوا إن الله أرسل على أهل مكة المطر مدرارا فى ذلك العام ووفق أهل نجد وجرش فأسلموا وحملوا إلى أهل مكة الطعام وما يحتاجون إليه فى معايشهم.

كثير من المفسرين يرون أن الآية التى تلتها والتى تحض على قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية هى الإغناء المقصود والمعنى أن الله عز وجل جعل الجزية التى قد تأتى من حرب الروم هى التعويض لما يخسره أهل مكة من منع المشركين من ارتياد البيت الحرام. يقول ابن كثير

(السيرة النبوية جـ ٤ ص ٣): أنه لما أمر الله تعالى أن يُمنع المشركون من قربان المسجد الحرام قالت قريش لتنقطعن عنا المتاجر والأسواق وليذهبن ما كنا نصيبه منها فعوَّضهم الله عن ذلك الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية. وهذا التفسير يبخس قيمة الجهاد وينزل به إلى مجرد حرب للحصول على الجزية فى حين أن آيات كثيرة سابقة قررت أن الغنائم ليست - ولا يجب أن تكون - هى هدف القتال. ثم إن غزوة تبوك مع الروم لم يكن فيها قتال ولم تؤخذ جزية ولا غنائم. والعهود التى عقدها النبى مع بعض المدن الواقعة شرقى خليج العقبة كانت عهود مسالمة وموادعة وما تعهدوا بأدائه من مال كان يؤول إلى بيت المال فى المدينة وينفق منه على مصالح المسلمين عامة فى حين أن التخوف المذكور فى الآية هو تعبير عن لسان حال أهل مكة الذين كانت مواسم الحج من أهم موارد رزقهم. لذلك فإننا نرى أن الأمر بقتال أهل الكتاب هو فصل جديد يهدف إلى تشجيع المسلمين فى مجابهة الروم كما سبق أن ذكرنا (ص ٧٨٩) وبيان مبررات هذا القتال وهو ادعاء اليهود أن عزيرا ابن الله وادعاء النصارى أن المسيح ابن الله محاكاة لقول المشركين إن الملائكة بنات الله. كما أنه أمر بقتالهم فى المستقبل وهو ما فعله أبو بكر أثناء ولايته.

أحداث السنة العاشرة للهجرة

الشهر	اليوم	الحدث
محرم		ـــــــ
صفر		ـــــــ
ربيع الأول		وفاة إبراهيم ابن النبى.
ربيع الثانى		بعثة خالد بن الوليد إلى نجران وإسلام بنى الحارث.
جمادى الأول		بعثة معاذ بن جبل إلى اليمن
جمادى الثانى		على يخطب ابنة أبى جهل
رجب		سرية على بن أبى طالب إلى اليمن.
شعبان		ـــــــ
رمضان		ـــــــ
شوال		ـــــــ
ذو القعدة	٢٥	خروج النبى للحج.
ذو الحجة		حجة الوداع وعودة على بن أبى طالب من اليمن، سرية أسامة بن زيد إلى البلقاء بتخوم فلسطين.

وفاة إبراهيم ابن النبى:

قلنا سابقا (ص ٧٨٧) إنه فى ذى الحجة من السنة الثامنة للهجرة وُلد إبراهيم ابن النبى من مارية القبطية وسُرَّ به النبى أيّما سرور. ولكن لم تطل سعادة النبى بابنه إبراهيم سوى عام وبضع عام. ففى أوائل عام ١٠ للهجرة مرض إبراهيم وكان عمره سنة وثلاثة أشهر. وجزعت أمه ودعت إليها أختها سيرين وقامتا ساهرتين حول فراشه تمرضانه ولكن بلا فائدة. وجاء النبى وحمل صغيره من حجر أمه وهو يجود بآخر أنفاسه وقال: إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا. ثم ذرفت عيناه وهو يرى ولده الوحيد يعالج سكرات الموت ويسمع حشرجة احتضاره واستمر يقول: يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنًا عليك حزنا هو أشد من هذا وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب. وأقبل الفضل بن العباس – ابن عم النبى – فغسَّل الصغير ثم ساروا به إلى البقيع وأضجعه النبى بيده فى قبره ثم سوًى عليه التراب ونداه بالماء وعاد المشيعون وقد غام الأفق وانكسفت الشمس فقال الناس إنها انكسفت لموت إبراهيم. فقال النبى: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته.

سرية خالد بن الوليد إلى بنى الحارث فى شمال نجران:

بعث رسول الله خالد بن الوليد فى ربيع الثانى أو جمادى الأول من سنة ١٠ للهجرة – إلى بنى الحارث بن كعب فى شمال نجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا قبل أن يقاتلهم فإن استجابوا يقبل منهم وإن لم يفعلوا يقاتلهم. فخرج خالد ومعه حوالى ٢٠٠ محارب. وأسلم أناس كثيرون فى الطريق إلى نجران ثم وصل إلى بنى الحارث بن كعب ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا. وأرسل كتابا إلى النبى يخبره بذلك وأنه مقيم بينهم يفقههم فى أمور الدين. فرد عليه النبى فمدح فعله. ثم ارتأى النبى أن يحل على بن أبى طالب محل خالد بن الوليد فى اليمن فبعث عليا وأرسل معه كتابا بأنه من أراد العودة مع خالد فليرجع ومن أراد البقاء مع علىّ فليفعل. وعاد خالد ومعه وفد من بنى الحارث فشهدوا بالإسلام أمام الرسول وأقاموا بالمدينة يتعلمون من النبى حتى شوال ثم رجعوا إلى قومهم.

بعثة معاذ بن جبل إلى اليمن.

بعث رسول الله معاذ بن جبل إلى اليمن ليفقههم فى أمور الدين وخرج النبى يودعه وقال له يا معاذ إنك عسى ألا تلقانى بعد عامى هذا ولعلَّك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى. فبكى معاذ من فكرة فراق رسول الله فقال له: لا تبك يا معاذ للبكاء أوان. والبكاء من الشيطان. وفعلا فإن معاذ لم يلق النبى بعدها إذ توفى رسول الله ومعاذ فى اليمن وعاد معاذ فى عهد أبى بكر الصديق.

وقيل إن النبى سأل معاذ: كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال أقضى بما فى كتاب الله. قال فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال فبسنة رسول الله. قال فإن لم يكن؟ قال أجتهد ولا آلو. فضرب رسول الله صدره ثم قال: الحمد الله الذى وفق رسول رسول الله لما يُرضى رسول الله.

على يخطب ابنة أبى جهل:

خطب على بن أبى طالب ابنة أبى جهل وعنده فاطمة بنت النبى. فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبى وقالت له: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك. وهذا علىٌ ناكحا ابنة أبى جهل. فقام النبى فى الناس بعد صلاة فقال: أما بعد فإن أنكحتُ أبا العاص بن الربيع فحدثنى وصدقنى. وإن فاطمة بنت محمد مضغة منى. وإنما أكره أن يفتنوها. وإنها والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدا. فترك على الخطبة (مختصر صحيح البخارى. ص ٤٣٨).

بعثة على بن أبى طالب إلى اليمن:

ارتأى النبى أن يحل على بن أبى طالب محل خالد بن الوليد فى اليمن وكانت مهمته أن يفقه الناس فى أمور دينهم وفى آخر العام يعود ومعه الزكاة. كذلك كان عليه أن ينشر الإسلام فى القبائل المحيطة. فكان يخرج فى سرايا تعرض الإسلام عليهم فإن أبوا قاتلهم. وفى إحدى المرات أغار على قبيلة مشركة فغنم غُنما وسبى سبيا وكان فى السبى جارية حسناء اسمها وصيفة اختصها لنفسه وبنى بها فاستنكر بعض الرجال منه ذلك. وقالوا يا أبا الحسن ما هذا؟ فقال: إنى قسمت وخمّست – أى أفرز الخمس المخصص لرسول الله – فلما صارت فى نصيب آل البيت صارت إليه. ولم يقتنع الرجال بهذا الرد وأرسلوا كتابا إلى النبى مع رجل اسمه «أبو بريدة» يخبرونه بما حدث. واشتم الرسول كراهية هؤلاء الرجال لعلى فسأل أبا بريدة: أتبغض عليا؟ قال: نعم فقال له النبى: فلا تبغضه وإن كنت تحبه فازدد له حبا. فوالذى نفس محمد بيده لنصيب آل محمد فى الخمس أفضل من وصيفة (الجارية) – (السيرة النبوية – ابن كثير. جـ ٤ ص ٢٠٢).

ولما أخذ علىّ الصدقة وفى أثناء عودته من اليمن طلب منه بعض الرجال أن يركبوا بعضها ويريحوا إبلهم فأبى عليهم ذلك. وقال إن لكم فيها مثل ما للمسلمين. وأمّر عليهم أحدهم وأسرع هو ليلحق الحج مع رسول الله.

حجـة الـوداع

اعتمر رسول الله أربع عمرات ثلاث منهن فى ذى القعدة: عمرة الحديبية والتى لم تتم ثم

عمرة القضاء (ص ٧٤٢) والثالثة عمرة الجعرانه بعد فتح مكة عند عودته من الطائف (ص ٧٨١) والرابعة التى مع حجته فى ذى الحجة سنة ١٠هـ.

لما دخل ذو القعدة من السنة العاشرة تجهز النبى للحج وأمر الناس بالجهاز له وخرج معه جميع نسائه حاجّات. وارتحل يوم السبت ٢٥ ذى القعدة بعد أن صلى الظهر أربع ركعات فى مسجد المدينة ثم صلى العصر بذى الحليفة ركعتين وذو الحليفة على بعد ٧كم من المدينة وهناك اغتسل وتطيب وأحرم من مسجد ذى الحليفة بحج وعمرة وقضى ليلته بذى الحليفة فلما أصبح أشعر البُدن وقلَّدها أى وضع فى رقبتها ما تعرف به أنها هدى. وكان النبى فى تلبيته يقول: لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لك. لا شريك لك. وقيل إن جبريل جاءه وقال له: مر أصحابك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية فإنها شعار الحج.

التمتع والقرآن فى الحج:

كان رسول الله قارنا أى أهل بحج وعمرة معا. فلما جاء البيت طاف سبعا واستلم الركن فى كل مرة .رَمَل ثلاثا ومشى أربعا. حتى إذا فرغ من طوافه أتى إلى مقام إبراهيم وصلى ركعتين قرأ فيهما «قل هو الله أحد» وفى الثانية «قل يا أيها الكافرون» ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قال: **«إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم»** (١٥٨ - البقرة) أبدأ بما بدأ به الله فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت واستقبله فوحَّد الله وكبرَّه وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ثم نزل إلى بطن الوادى وسعى حتى أتى إلى المروة فصعدها وفعل عليها كما على الصفا حتى إذا كان آخر طوافه على المروة قال: لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة. فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة. وهذا هو فعل المتمتع أما المقرن فقد دخلت العمرة فى الحج.

وقَدِمَ علىّ على رسول الله فوجد فاطمة ممن حلّ وعرف من النبى أنها متمتعة وسأله النبى عما قال حين نوى الحج فقال علىّ. قلت اللهم إنى أهلّ بما أهلَّ به رسولك. قال النبى فإن معى الهدى فلا تحل.

فلما كان يوم التروية ٨ ذى الحجة توجهوا إلى منى ولبُّوا بالحج وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس. ثم سار وقريش تظن أنه سيقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية ولكن رسول الله تجاوزه حتى أتى عرفة فوجد قبة كانت قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا حانت الصلاة خطب الناس (السيرة النبوية. ابن هشام. جـ ٤ ص ١٦١).

خطبة الوداع:

حمد رسول الله اللهَ وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلَّغت. فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل ربا موضوع ولكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربا وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله. وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع وإن أولَ دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل). فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد أيها الناس. فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه إن يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى بما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم أيها الناس «**إنما النسيء زيادة فى الكفر يُضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرّم الله**» وإن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متوالية: ذو القعدة - ذو الحجة - محرم - ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان. أما بعد أيها الناس. فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا. لكم عليهن أن لا يوطئن فروشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح. فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا. وأنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلّغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بيِّنًا كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس اسمعوا قولى هذا واعقلوه. تعلمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمُنَّ أنفسكم. اللهم هل بلَّغت قالوا نعم. قال اللهم اشهد.

وبعثت أم الفضل زوجة العباس لبنا في قدح شربه أمام الناس فعلموا أنه لم يكن صائما ذلك اليوم. ثم أمر بلالا فأذن الظهر والعصر جمعا للسفر بأذان واحد وإقامتين.

ثم ركب رسول الله راحلته إلى أن أتى ووقف على جبل النور ولكنه خشى أن يتزاحم الناس فى الحج للوقوف عليه فقال: كل عرفة موقف. واستقبل القبلة وراح يدعو الله ما شاء من الدعاء من الزوال إلى الغروب. ومما يؤثر عنه أنه قال: أفضل الدعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيين من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك والحمد وهو على كل شىء قدير. وعن بعض الصحابة أنهم سمعوه يقرأ هذه الآية: «**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم**

قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم» (١٨ - آل عمران) ثم قال: وأنا على ذلك من الشاهدين.

وسأله جماعة من نجد: كيف الحج؟ قال الحج عرفة.

ونزل عليه صلى الله عليه وسلم قوله تعالى **«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا»** وأمر النبى بوضعها فى سورة المائدة. الآية ٣ (ص ٦٩٦). قيل ولما سمع عمر هذه الآية بكى فسأله النبى عما يبكيه فقال: أبكانى أنا كنا فى زيادة أما إذا كمل فإنه لا يكمل شيئ إلا نقص فقال له النبى: صدقت. ويروى أن رجلا من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب أثناء ولايته وقال: يا أمير المؤمنين: إنكم تقرؤون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال عمر: وأى آية هى؟ قال قوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا» فقال عمر: والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه على رسول الله والساعة التى نزلت فيها عليه: عشية عرفة فى يوم الجمعة وهو عيد لنا.

وبعد غروب الشمس ركب النبى راحلته وسار إلى المزدلفة حيث صلى المغرب والعشاء جمعا بأذان واحد وإقامتين. ثم أذن للنساء والصبيان أن يرموا ليلا فذهبوا إلى منى بعد منتصف الليل بساعة ليرموا جمرة العقبة ولم يأذن للرجال. ثم طلع الفجر من اليوم العاشر من ذى الحجة وهو يوم النحر فصلى الصبح ثم أتى المشعر الحرام فوقف فيه وهو راكب ناقته واستقبل القبلة ودعا الله وكَبَّرُ وهلَّل ثم سار قبل أن تطلع الشمس. وطلب من الناس جمع الحصى. وسار حتى أتى جمرة العقبة فرماها بسبع حصيات ثم انصرف إلى المنحر فنحر ٦٣ بدنة بيده ثم أعطى على بن أبى طالب فنحر حتى المائة. ثم أمر من كل بدنة بقطعة فجعلت فى قدر فطبخت وأكل من لحمها وشرب من مرقها ثم وقف الناس بمنى وأنزل الناس منازلهم فقال: لينزل المهاجرون هاهنا وأشار إلى ميمنة القبلة والأنصار هاهنا وأشار إلى ميسرة القبلة ثم لينزل الناس حولهم. وقال للناس: خذوا عنى مناسككم فلعلِّى لا أحج بعد عامى هذا. ثم قال: أيها الناس، أى يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام. قال فأى بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام. قال: فأى شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا. وأعادها مرارا ثم رفع رأسه وقال: اللهم هل بلغت. اللهم قد بلغت. فليبلِّغ الشاهد الغائب فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع. ثم حلق. ودعا للمحلقين مرتين فلما قالوا يا رسول الله والمقصِّرين قال: والمقصرين.

ثم تطيب وركب إلى مكة ليطوف طواف الإفاضة فصلى بمكة الظهر وأتى بنى عبد المطلب وهم يسقون على زمزم فناولوه دلوا فشرب منه. ثم رجع إلى منى فمكث بها أيام التشريق الثلاثة يرمى الجمرات إذا زالت الشمس كل جمرة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة.

وسأله رجل نسى أن يرمى الجمار فقال ارم ولا حرج. ثم أتاه رجل آخر فقال: يا رسول الله نسيت الطواف فقال طف ولا حرج. ثم أتاه رجل حلق قبل أن يذبح فقال: اذبح ولا حرج. فما سألوه يومئذ عن شيئ إلا قال: لا حرج لا حرج. ثم قال: قد أذهب الله الحرج إلا رجلا اقترض امرءاً مسلما (أخذ قرضا ولم يرده أو اقترض عرضه أى اغتابه) فذلك الذى حَرِج وهلك.

وفى ثالث يوم من أيام التشريق ركب ناقته وسار إلى البيت فطاف طواف الوداع ثم خرج من أسفل مكة من الثنية السفلى وكان قد دخل من الثنية العليا. وقالوا دخل من كداء وخرج من كدى. قاصدا المدينة.

وكان على بن أبى طالب قد عاد إلى رجاله فوجد بعضهم قد أخذ حللا من الصدقة ولبسها فأمرهم بنزعها فغضبوا وتذمَّروا وأسرع علىّ ورجاله حتى لحقوا بركب النبى عند «غدير خم» فى يوم ١٨ من ذى الحجة ووصل إلى سمع النبى ما كان الناس يتهامسون به من شدة علي بن أبى طالب ومنعه رجاله من ركوب إبل الصدقة ولبس الحلل وما فعله من استئثاره بالجارية «وصيفة». فوقف رسول الله وخطب الناس وبيّن فضل على بن أبى طالب وبراءته مما تكلَّم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن وأخذ بيد على وقال: ألستُ بأولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى. قال: ألستُ بأولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا بلى. قال فهذا ولىٌّ من أنا مولاه. اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه.

وسار ركب النبى حتى وصل إلى ذى الحليفة فبات فيها لأنه كره أن يدخل المدينة ليلا. ثم لما أصبح الصبح وفى نهاية اليوم دخل المدينة. وكان قد أصاب الناس عند خروجه للحج وباء جدرى منع كثيرين من الحج معه فطيَّب خاطرهم قائلا: عمرة فى رمضان تعدل حجة معى.

ويروى عن أبى هريرة أنه قال لنسائه: إنما هى هذه الحجة ثم الزمن ظهور الحصر. وقال النبى لفاطمة ابنته: إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة وإنه عارضنى به العام مرتين وما أرى ذلك إلا اقتراب أجلى. وأقام النبى بالمدينة ما بقى من ذى الحجة ومحرم وصفر.

جيش أسامة بن زيد:

أمر النبى بتجهيز جيش ليسير إلى تخوم فلسطين والتحق به المهاجرون والأنصار وأمَّر عليهم أسامة بن زيد مع صغر سنه. وتجهز الناس. ولكن مرض رسول الله جعل أسامة يتأخر فى المسيرة للاطمئنان على رسول الله.

مرض رسول الله:

فى صفر خرج رسول الله إلى بقيع الغرقد فى جوف الليل واصطحب معه أبا مويهبة مولاه.

ولما وقف على البقيع قال: السلام عليكم يا أهل المقابر ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها. والآخرة شر من الأولى. ثم استغفر لأهل البقيع ثم انصرف.

تقول عائشة. رجع رسول الله من البقيع فوجدنى وأنا أجد صداعا فى رأسى وأنا أقول وارأساه. فقال بل أنا والله يا عائشة وارأساه. ثم قال: وما ضرك لو مت قبلى فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك. قالت والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك. فتبسم رسول الله. وزاد وجعه. وكان يدور على نسائه كأنه يودِّعهن. فلما زاد به الوجع كان في بيت مأمونة فدعا نساءه واستأذنهن فى أى يُمرَّض فى بيت عائشة. فخرج رسول الله من بيت مأمونة يسنده الفضل بن العباس وعلى بن أبى طالب عاصبا رأسه تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة. ثم اشتد به وجعه. فقال أريقوا على سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم. ففعلوا ثم خرج عاصبا رأسه فجلس على المنبر ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم فأكثر الصلاة عليهم ثم قال: إن عبداً من عباد الله خيرَّه الله بين الدنيا وبين ماعنده فاختار ما عندالله. وفهم أبو بكر ما يعنى الرسول فبكى وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا. فقال: على رسلك يا أبا بكر. ثم قال انظروا فى هذه الأبواب اللافظة فى المسجد فسدُّوها إلا أبى بكر (أى باب أبى بكر) فإنى لا أعلم أحداً كان أفضل الصحبة يدا منه. إنى لو كُنت متخذا من العباد خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده. ثم قال: يا معشر المهاجرين. استوصوا خيرا فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد وأنهم كانوا عيبتى التى آويت إليها فأحسِنوا إلى مُحسنهم وتجاوزوا عن سيئهم.

وكان الناس قد تأخروا فى تجهيز الجيش الذى أمر به وقالوا: أمَّر غلاما حدثا على جلة المهاجرين والأنصار. فخرج رسول الله عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر وقال: أيها الناس. أنفذوا بعث أسامة. فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليق بها. ثم نزل وزاد وجع رسول الله. وخرج أسامة وجيشه معه حتى نزلوا الجرف على بعد ١٠كم من المدينة. وتنامى إليه اشتداد المرض برسول الله فأقام أسامة والجيش بالجرف لينظروا ما الله قاض فى رسوله.

وفاة رسول الله:

ولمّا اشتد المرض برسول الله قال: مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس. فقالت عائشة يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن. قال مروه فليصل بالناس. فلما كان يوم الاثنين الذى قبض فيه رسول الله خرج إلى الناس وهم يصلُّون الصبح

خلف أبى بكر فلما رفع الستر وفتح الباب كاد الناس يفتنون فى صلاتهم برسول الله حين رأوه فَرَحا به ووسَّعوا له فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم وصلى رسول الله قاعداً إلى جانب أبى بكر. فلما فرغ من الصلاة أقبل الناس وقد سرَّهم أن رأوا رسول الله وقد أبَلَّ من مرضه فكلمهم: أيها الناس. سُعِّرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم. وإنى والله ما تمسكون علىَّ بشىء. إنى لم أحل إلا ما أحل القرآن ولم أحرِّم إلا ما حرَّم القرآن. فلما فرغ قال له أبو بكر: يا نبى الله إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب. وانصرف أبو بكر إلى أهله وعاد رسول الله إلى بيت عائشة. ثم تقول عائشة: وأخذ رسول الله سواكا فاستنَّ به ثم أسند رأسه فى حجرها. وبعد فترة وجيزة وجدت رسول الله يثقل فى حجرها ونظرت فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة. فقالت خُيِّرت فاخترت والذى بعثك بالحق وقبض رسول الله وهو فى حجرها. فوضعت رأسه على وسادة وقامت تندب مع النساء وتضرب وجهها. وسمع عمر بن الخطاب بكاء نساء النبى فقال عمر: إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفى. وإن رسول الله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات. والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله مات.

وأقبل أبو بكر حين بلغه الخبر ودخل على رسول الله فى بيت عائشة ورسول الله مسجًى فى ناحية البيت وعليه بردة فكشف عن وجهه ثم أقبل عليه وقبَّله وقال: بأبى أنت وأمى. أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا. ثم رد البردة على رسول الله. ثم خرج وعمر يكلم الناس. فقال: على رسلك يا عمر. ثم كلَّم الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس. من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت. ثم تلا الآية: **«وما محمد إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين»** (١٤٤ – آل عمران). فعرف الناس أن رسول الله قد مات.

وقام على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس والقثم بن العباس وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله. هؤلاء تولوا غسل رسول الله وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه من فوق القميص. ثم كُفِّنَ فى ثلاثة أثواب. ثم قال أبو بكر إنى سمعت رسول الله يقول: ما قبض نبى إلا دُفن حيث قبض. فرفع فراش رسول الله الذى توفى عليه فحفر له تحته ثم دخل الناس على رسول الله يصلُّون عليه أرسالا. دخل الرجال حتى إذا فرغوا أدخل النساء ثم الصبيان ولم يؤم الناس على رسول الله أحد ثم دفن رسول الله من وسط الليل ليلة الأربعاء. وكان الذين نزلوا فى قبر رسول الله على بن أبى طالب والفضل بن

العباس والقثم بن العباس. وكانت وفاته صلى الله عليه وسلم يوم ١٢ أو ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ الموافق ٧ أو ٨ يونيو عام ٦٣٢م بعد أن بلغ ٦٣ عاما قمريا كاملا أى أكثر من ٦١ عاما شمسيا بحوالى شهر وأكثر من نصف شهر (محمود الفلكى. التقويم العربى قبل الإسلام. ص ٥٢).

وهكذا شاءت إرادة الله أن تُطوى صفحة هى أعظم صفحات الجهاد فى سبيل الله. ولم تُطو إلا وراية التوحيد – الذي كان قد اندثر – ترفرف على كل أجزاء الجزيرة العربية.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد. كما صليت وسلمت وباركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد.

طبت حيا وميتا يا رسول الله. ونشهد أنك قد بلَّغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت للأمة. فابعثه اللهم مقاما محمودا الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد.

مراجع

- القرآن الكريم .
- السيرة النبويـة. ابن هشام . ٤ أجزاء .
- السيرة النبوية. ابن كثيـر . ٤ أجزاء .
- البداية والنهاية. ابن كثيـر . ١٤ جزءا .
- السيرة النبوية. محمد رسول الله والذين معه. عبد الحميد جودة السحار ٢٠ جزءا.
- السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية. دكتور مهدى رزق الله أحمد. مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.
- تراجم سيدات بيت النبوة. الدكتورة عائشة عبد الرحمن. دار الكتاب العربى. بيروت.
- مسلمات خالدات. سنية قراعة. مكتب الصحافة الدولى للصحافة والنشر.
- النفاق والمنافقون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. إبراهيم على سالم. مطبعة الشعب.
- أطلس تاريخ الإسلام. حسين مؤنس.
- المنتخب فى تفسير القرآن الكريم. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- تفسير الألوسى. ٣٠ جزءا.
- تفسير ابن كثير ٤ أجزاء.
- صفوة التفاسير. محمد على الصابونى. ٤ أجزاء.
- تفسير القرطبى.
- تفسير الإمامين الجلالين.
- نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم. الشيخ محمد الغزالى. دار الشروق.
- لباب النقول فى أسباب النزول. جلال الدين السيوطى.
- الانتصارات العربية العظمى فى صدر الإسلام. محمد عبد الحليم أبو غزالة. مطبوعات الشعب.
- التاريخ العربى القديم. تأليف نيلسن وفرتزهومل وآخرين. ترجمة فؤاد حسين على.
- كتاب الأصنام. تأليف هشام بن محمد بن السائب الكلبى (٢٠٤هـ) تحقيق دكتور محمد عبد القادر أحمد ودكتور أحمد محمد عبيد.
- مؤلفات چورچى زيدان الكاملة. جـ ١٠ - طبقات الأمم. دار الجيل . بيروت.
- دراسات تاريخية من القرآن الكريم. دكتور محمد بيومى مهران. الجزء الأول فى بلاد العرب. دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية.
- دراسه الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة. موريس بوكاى. دار المعارف.
- مختصر صحيح البخارى. الحافظ المنذرى.
- العرب قبل الإسلام. دكتور حسين الشيخ. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية.

تطلب أجزاء هذه السلسلة من:

- دار المجلد العربى – ١١٦ ش جوهر القائد.
أمام جامعة الأزهر – الحسين. آخر شارع الأزهر– ت : ٥٩١٢٥٢٤
- المكتبة الأكاديمية – ١٢١ ش التحرير. أمام سينما التحرير
الدقى – تليفون: ٧٤٨٥٢٨٢ – ٣٣٦٨٢٨٨
- مكتبات الأهرام بجميع فروعها.
- دار حراء – ٣٣ ش شريف ت: ٣٩٢٨٩٦٣
- مكتبة جامع الحامدية الشاذلية ٥٤ ش الحجاز – مدينة المهندسين
٣٤٧٤٧٧٣ يوميا من ٧ – ١٠ مساء ويوم الجمعة من ١٠ – ٢ ظهراً.
- مكتبة بوك سنتر – ٨ ش إبراهيم اللقانى مصر الجديدة. ت: ٠١٢/٣٤٩٧١٩٥.
- المكتبة القومية – ٦٣٨١٢٣٤
١٦٥ ش الحجاز – قبل ميدان الحجاز – مصر الجديدة

للاستفسار عن أى نقاط وردت فى الكتب يمكن الاتصال بالمؤلف :
أيام الأحد والثلاثاء من ٩ – ١٠ مساء ت : ٣٤٦٠٨٥٥